حولية التاريخ الإسلامي والوسيط

المجلد الأول
٢٠٠٠ - ٢٠٠١

دورية سنوية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية الإسلامية والبيزنطية وأوربا العصر الوسيط
يصدرها سمنار التاريخ الإسلامي والوسيط - قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة عين شمس





حولية التاريخ الإسلامى والوسيط

دورية سنوية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية الإسلامية والبيزنطية وأوروبا العصور الوسطى

المجلد الأول

الجزء الأول: القسم العربى

٢٠٠٠-٢٠٠١

يصدرها: سمنار التاريخ الإسلامي والوسيط، قسم التاريخ، كلية الآداب،
جامعة عين شمس، القاهرة، مصر.ص.ب.١١٥٦٦

الناشر
مصر العربية للنشر والتوزيع
١٣أ ش إسلام، حمامات القبة، القاهرة

حولية التاريخ الإسلامي والوسيط

دورية علمية سنوية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية الإسلامية والبيزنطية وأوربا العصور الوسطى

يصدرها

سمنار التاريخ الإسلامي والوسيط ، قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس

القاهرة ، مصر. ص.ب.١١٥٦٦ ، فاكس: (٢٠٢٠٠) ٢٨٥٤٠٧٩، بريد الكتروني:

amrtar_eg@yahoo.co.uk

- ترسل البحوث على العنوان السابق ذكره شريطة ألا تكون قد سبق نشرها في مكان آخر من قبل، وأن تكون مكتوبة على الحاسب الآلي IBM، Word 7.0، حسب المواصفات التالية:

١- البحوث المكتوبة باللغة العربية:

العنوان الرئيسي فونت ١٨ أسود، العنوان الفرعي فونت ١٦ أسود

الخط Traditional Arabic، فونت ١٤

الهوامش فونت ١٠

المسافة بين السطور متعدد ٠,٩ للنص ، تام للهوامش

مواصفات الصفحة ١٢,٥ X ٢٠,٥؛ هامش علوي ٤,٦، سفلي ٤,٦، يسار ٤,٢٥، يمين ٤,٢٥ سم

٢- البحوث المكتوبة بلغة أجنبية:

العنوان الرئيسي فونت ١٤ أسود، العنوان الفرعي فونت ١٢ أسود

الخط New Times Roman، فونت ١٢

المسافة بين السطور متعدد ٩، للنص، تام للهوامش

مواصـــفات الصفحة ١٢,٥ X ٢٠,٥؛ هامش علوي ٤,٦، سفلي ٤,٦، يسار ٤,٢٥، يمين ٤,٢٥ سم

- يرسل البحث من نسختين بالإضافة إلى القرص المرن الخاص به مقاس ٣,٥.
- تقبل البحوث باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية.
- آخر موعد لتلقى البحوث شهر أكتوبر من كل عام.
-يكتب اسم الباحث ووظيفته أسفل العنوان الرئيسي للبحث مباشرة.

المحتويات

الجزء الأول: القسم العربي

أولاً: البحوث العربية

ثانياً: عرض الكتب العربية

ثانياً: القسم الأجنبي

أولاً: البحوث الأجنبية

ثانياً: عرض الكتب الأجنبية

المشاركون فى العدد

أحمد الطاهرى............... أستاذ التاريخ الإسلامى-كلية الآداب والعلوم الإنسانية-جامعة المحمدية-المغرب

بوبة مجانى................أستاذ التاريخ الإسلامى-كلية الآداب-جامعة منتورى-قسنطينة-الجزائر

جوناثان شبرد..................أستاذ التاريخ الروسى الوسيط/البيزنطى-كلية التاريخ-جامعة كامبردج-إنجلترا

حسين عطية...............أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد-كلية الآداب-جامعة طنطا-مصر

رأفت عبد الحميد..............أستاذ تاريخ العصور الوسطى-كلية الآداب-جامعة عين شمس-مصر

سند أحمد عبد الفتاح............. معيد التاريخ الإسلامى-كلية الآداب-جامعة عين شمس-مصر

شيرين صادق................. مدرس مساعد الحضارة الإسلامية-كلية الآداب -جامعة عين شمس-مصر

طارق منصور محمد...............مدرس التاريخ البيزنطى-كلية الآداب-جامعة عين شمس-مصر

فاليرى جونزاليه...................مدرس تاريخ الفن الإسلامى-مارسيليا-فرنسا

فايز نجيب اسكندر.............. أستاذ تاريخ العصور الوسطى-كلية الآداب-جامعة بنها-مصر

محمود اسماعيل................. أستاذ التاريخ الإسلامى-كلية الآداب-جامعة عين شمس- مصر

نريمان عبد الكريم............... مدرس التاريخ الإسلامى-كلية الآداب-جامعة المنوفية -مصر

تقديم

ليس أسعد إلى قلب باحث مدقق من أن يرى نتاج فكره وثمار غرسه، قطوفاً دانية بين أيدي الباحثين والسائرين في دروب المعرفة الإنسانية، وليس أعز إلى نفس مؤلف من أن يقلب صفحات خطها بيمينه بعد عمل شاق وجهد كبير.

والكتاب الذي بين أيدينا الآن نقلب صفحاته واحد من هذه الثمار التي طال انتظار نضجها، دون ملل أو كلل فى متابعة رعايتها وسقياها، حتى تخرج على هذا النحو الذي نراه الآن، ونطمع أن يلقى بين الدارسين والمفكرين قبولاً حسناً، ونصحاً هادفاً، بغية الوصول والارتقاء به إلى مصاف الدوريات العالمية.

فهذا هو العدد الأول من "حولية التاريخ الإسلامى والوسيط" التى يصدرها "سمنار" كلية الآداب – جامعة عين شمس فى هذا الحقل من البحث التاريخي، ورغم أن قصة الـ "سمنار" تعود إلى عام ١٩٨٢، ورغم صدور أعداد ثلاثة ضمت البحوث التى ألقيت من خلاله، ونشرت على التوإلى فى أعوام ١٩٨٣، ١٩٨٤، ١٩٨٥، إلا أن هذا العمل توقف لتفرق القائمين على أمره اغتراباً خارج الديار، وظل الحال على هذا النحو حتى قدر للطيور المهاجرة أن تعود ثانية إلى أعشاشها، وأن يظهر من أفراخها من ينضم إلى مسيرة البحث والبعث من جديد لفكرة هذا اللقاء العلمي المتجدد، وسمنار التاريخ الإسلامى والوسيط".

ولما كانت أمانة الـ "سمنار" تدرك يقينا أن الانغلاق والعزلة العلمية هي آفة أي مجتمع تودي به إلى الشيخوخة المبكرة والوهن العقلي، فقد حرصت على أن تفتح قنوات علمية عديدة مع الباحثين والمؤرخين من ذوى الاختصاص فى عدد من البلدان العربية والأجنبية، وقد استجاب لهذه الدعوة أساتذة فضلاء لهم وزنهم العلمي فى التاريخ الإسلامي أو تاريخ العصور الوسطى، وبعثوا ببحوثهم أو مقالاتهم لتضاف إلى الرصيد العلمي لهذه الحولية، بينما اعتذر نفر ثان عن عدم الاشتراك هذه المرة، على وعد صادق بأن يسهموا ببحوثهم الجديدة فى الأعداد القادمة للحولية بمشيئة الله.

وكان طبيعيا وأمانة الـ "سمنار" تسعى بالحولية إلى مرتقى علمياً سامياً، أن تعرض البحوث التى تنشر على الأساتذة الفضلاء العاملين فى حقل التاريخ الإسلامي والعصور الوسطى والتاريخ البيزنطى ، وذلك لتقييمها وتقديم الملاحظات السديدة من خلال النقد العلمي الرصين، حتى يتحقق الهدف المنشود من إصدار هذه الإسهامات العلمية فى ميدان البحوث التاريخية.

ويضم العدد أربعة بحوث فى التاريخ الإسلامي ، تدور كلها حول موضوعات تتناول جوانب معينة من الحضارة الإسلامية ، فبينما عالج الدكتور/ محمود إسماعيل "سياسة الدولة البويهية إزاء وضعية الأرض الزراعية ، خلال قرن ونيف من الزمان (٣٣٤ - ٤٤٨هـ) سيطر فيه البويهيون على مقاليد الأمور فى الدولة العباسية ، وأمسى خلفاء بنى العباس إلى جوار وزرائهم هؤلاء نسياً منسياً ، عرض الدكتور/ أحمد الطاهرى للنظام العقارى فى الغرب الإسلامى فى بواكير نشأته ، وتوقف فى دراسته هذه بصورة رئيسية عند وضعية الأرض أيضاً فى بلاد نكور ، والبحثان على هذا النحو يعرضان لـ "وضعية الأرض الزراعية" فى المشرق الإسلامى وغربه فى فترة زمنية معينة.

والواضح أن هذا الجزء الغربى من العالم الإسلامى قد حظى بنصيب كبير فى هذا العدد، فإلى جانب بحث الدكتور/ أحمد الطاهرى ، نجد دراستين أخريتين عن هذه المنطقة ، فقد قدمت الدكتورة/ نريمان عبد الكريم موضوعاً عن "دور مصر فى أفريقيا من الفتح العربى حتى نهاية عصر الولاة" (٢٧ - ١٨٤هـ / ٦٤٧ - ٨٠٠م) ، وهى الفترة التى قامت فيها مصر بدور فاعل فى الفتوح الإسلامية فى المغرب ، باعتبارها القاعدة المتقدمة للدولة الإسلامية باتجاه أفريقية ، و لم يكن دور مصر قاصراً على هذا الجانب العسكرى فقط ، بل امتد ليشمل التأثيرات الحضارية أيضا . هذا بينما تعرضت الدراسة الأخرى التى قدمتها الدكتورة/ بوبه مجانى للاتجاهات الفكرية للمدرسة الإسماعيلية فى مرحلتها المغربية (٢٦٠ - ٣٦٢هـ / ٩٠٩ - ٩٧٣م) ، وهى الفترة التى شهدت وجود الخلافة الفاطمية فى المغرب الإسلامى قبل قدوم المعز لدين الله الفاطمى ، الخليفة الرابع إلى مصر ، ليتخذ منها قاعدة لدولته ولتصبح القاهرة حاضرة هذه الخلافة من بعد . ولاشك أن الدعوة الإسماعيلية كان لها دور لا يمكن إنكاره فى مسيرة تاريخ المغرب الإسلامى.

اما الحروب الصليبية فقد حظيت بدورها بثلاثة بحوث تناولت صفحات مطوية من هذه الحروب ، فقد عالج الدكتور/ حسين عطية أحوال مملكة بيت المقدس الصليبية خلال ربع القرن الذى تلا قيامها مباشرة ، وخاصة على عهد ملكها بلدوين الأول وبدايات عهد بلدوين الثانى ، وهى الفترة التى شهدت وضع الأسس والقواعد الرئيسية لتأسيس هذه المملكة ، وألقى الضوء واضحا على مجلس نابلس الذى عقد فى الثالث والعشرين من يناير سنة ١١٢٠م ، وهو جوهر هذه الدراسة ويشكل أهمية خاصة فى تاريخ المملكة . فإذا جاز لنا أن نقفز قفزة علمية واسعة من بداية الحروب الصليبية إلى نهايتها لوجدنا الدراسة التى يقدمها لنا الدكتور/ فايز اسكندر عن "الأشرف خليل بن قلاوون وفتح قلعة الروم ١١

رجب ٦٩١هـ / ١٦ يونية ١٢٩٢م" ، ومن المعروف أن سلاطين مصر من أسرة قلاوون جرت على أيديهم كتابة الصفحات الأخيرة من تاريخ الحروب الصليبية ، أو بمعنى أدق الوجود الصليبي فى بلاد الشام ، فقد استرد المنصور قلاوون مؤسس الأسرة إمارة طرابلس من أيدى الصليبيين عام ١٢٨٩ ، و لم تمض على ذلك ثلاثة سنوات حتى كان ابنه الأشرف خليل يسترد مدينة عكا (١٢٩١) المعقل العسكرى الكبير للصليبيين ، ثم يوالى القضاء على الجيوب الصليبية الباقية ، وهذا ما يقدمة الدكتور/ فايز اسكندر فى دراسته عن استرداد الأشرف لقلعة الروم ١٢٩٢.

أما البحث الثالث الذى يتعلق بالحروب الصليبية فهو الذى قدمه الدكتور/ رأفت عبد الحميد تحت عنوان "الأمير فخر الدين بن الشيخ فى محكمة التاريخ" وفخر الدين هو أتابك العسكر أو قائد الجيش المصرى على عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وقد تعرض الرجل للظلم مرتين ، أولهما عندما شن عليه المؤرخ ابن واصل والتابعون حملة ضارية متهمين إياه بالفرار من أمام القوات الصليبية التى يقودها ملك فرنسا لويس التاسع فيما عرف بالحملة الصليبية السابقة وذلك عند مدينة دمياط ، والمرة الثانية عندما لم ينتبه أحد من المؤرخين على امتداد هذه القرون منذ الثالث عشر حتى الآن لدراسة هذه القضية والنظر فى صحة هذا الاتهام من عدمه . والدراسة التى قدمها الدكتور/ رأفت عبد الحميد تناولت بالتحليل والنقد التاريخى كل هذه القضية من جميع جوانبها من خلال دراسة النصوص التاريخية والمصادر المعاصرة بصورة نقدية ، وتوصلت إلى آراء لعلها غير مسبوقة فى هذا المجال .

وقد شارك الدكتور "جوناثان شبرد" بدراسة شيقة تحت عنوان Silks, skills opportunities in Byzntium: some reflexions ولعنا ندرك جيدا أن الحرير بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية كان يمثل أهمية بالغة من الناحيتين السياسية والاجتماعية ، وقد حرصت الإدارة البيزنطية على أن يظل طريق الحرير البرى عبر وسط آسيا آمنا ، بل وسعت إلى تأمين طريق جديد بحرى عن طريق بحر العرب والبحر الأحمر أو القلزم ، وسياسات الإمبراطور جوستنيان وغيره واضحة فى هذه الناحية ، والدكتور "شبرد" يلقى الضوء فى دراسة علمية رصينة عن صناعة الحرير فى بيزنطة وما لعبته الثياب الحريرية من دور فى التعامل مع الشعوب المجاورة وفى الحملات العسكرية. كذلك تحدث عن البلاد الإسلامية وتزويدها لبيزنطة بالحرير، مثل فرغانة ؛ وعن التجار البيزنطيين الذين جابوا بلاد الشام ، لاسيما حلب ، طلباً للحرير .

وإلى جانب هذه البحوث فقد حرصت أمانة الـ "سمنار" على أن تتضمن الحولية باباً كاملاً لعرض عدد من البحوث أو المؤلفات التى صدرت مؤخراً فى ميدان التاريخ الإسلامى والعصور الوسطى ، أو بعض رسائل الماجستير والدكتوراه ومنها ما لم يتم نشره بعد ، وهى محاولة للوقوف على أحدث الدراسات التاريخية فى هذا الحقل ليفيد منها الباحثون والدارسون ، وقام بهذا الجهد مجموعة من شباب الباحثين فى كلية الآداب - جامعة عين شمس من قسمى التاريخ والإرشاد السياحى ، وشاركهم فى ذلك الدكتور/ فاليرى جونزاليه مدرس تاريخ الفن الإسلامى بمرسيليا .

ولايسعنى فى نهاية هذه الكلمة إلا أن أنوه بالجهد الكبير الذى قام به تلميذى وصديقى الدكتور/ طارق منصور فى متابعة أعمال الـ "سمنار" ودأبه وصدق عمله وتفانيه فى جمع هذه المادة العلمية التى ضمها هذا العدد من الحولية ، ومباشرة أمور الطباعة بدقة بالغة ، فله منى وأمانة الـ "سمنار" كل الشكر والتقدير ودوام التوفيق .

وأمانة الـ "سمنار" وهيئة تحرير الحولية يسعدها تماماً أن تتلقى كل الملاحظات والمقترحات التى تتناول هذه الحولية بالنقد العلمى الهادف وصولا بها إلى مكانة علمية مرموقة نرتجيها وإليها نسعى .

دكتور

رأفت عبد الحميد محمد

الجزء الأول : القسم العربي

أولاً:البحوث العربية

من بواكير النظام العقاري بالغرب الإسلامي
وضعية الأرض ببلاد نكور

د. / أحمد الطاهري
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية -المغرب

لقد بات مسلما لدى المهتمين بالتاريخ الوسيط أننا نكاد نجهل كل شيء عن المراحل الأولى لنشأة الغرب الإسلامي، وعن الحيثيات التي رافقت -على مدى ما ينيف عن نصف قرن من الزمن- تحول المغرب من الانتماء في الفضاء الحضاري القديم المسيحي-اللاتيني للاندماج كجناح متكامل فى دار الإسلام. وما زالت العبارة الشهيرة التى ترددت فى أوساط الاستشراق ناعتة فترة التأسيس "بالقرون المظلمة" إلى اليوم سيدة الموقف. ولا غرو، فحتى القدامى من مصنفى أمهات المصادر المعتمدة فى التأريخ لهذه العصور يقرون بأن كبريات أحداث الفتح "لم تنضبط بتاريخ محقق"[1] فبالأحرى ما يتعلق بالجزئيات والتفاصيل. بلغت الشكوى من ندرة المعلومات وفقر المادة التاريخية بالبعض[2] إلى حد التأكيد على استحالة تناول تاريخ المغرب الأقصى طوال فترة الفتوحات الإسلامية إلى نهايات القرن الثانى الهجرى فى بحث مستقل.

إلا أن فى استقراء مضامين المصادر المتاحة، ما يقدم بعض عناصر المراجعة ويشجع على الانتقال بالبحث التاريخى من مستوى معاينة الحدث السياسى لمعالجة جوانب من التاريخ الحضارى. وهو ما سنتدرج على تناوله بالدرس فى حدود ما تسمح به الشذرات المتناثرة من المادة التاريخية المعتمدة .

تشكل وضعية الأرض فى نظر عدد من الباحثين إحدى ألغز معضلات التاريخ الإسلامي[3]. وبخصوص المرحلة التأسيسية من تاريخ المغرب الأقصى المرتبطة بعصر

---

[1] - ابن عذارى ، البيان المغرب فى تاريخ الاندلس والمغرب ، تحقيق ليفى بروفنسال / كولان ، بيروت ١٩٨٠ ، جـ١ ، ص ٣٩ .

[2] - انظر : ليفى بروفنسال ، نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية ، المجلد الثانى ، السفر ١ ، ٢، مدريد ١٩٥٤ ؛ Jean BRIGNON et AUTRES, *Histoire du Maroc*, Casablanca 1967, p. 45 .

[3] - محمود اسماعيل ، سوسيولوجيا الفكر الإسلامى ، الدار البيضاء ، ١٩٨٠ ، جـ٢ ، ص٢٥ ؛ الحبيب الجنحانى ، دراسات مغربية فى التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للمغرب الإسلامى ، بيروت ١٩٨٠ ص ٩ ؛ Pierre GUICHRD," Les etats musulmans du Maghreb in Maghreb *Medieval* : l apogee de la civilisation Islamique dans l Occident Arabe, Aix en provence, 1991, p. 88 .

الفتوحات، يحتفظ الونشريسي[٤] بآراء ثلة من أقطاب المالكية ممن تصدر الفتوى أو تقلد الأحكام وتقلب في جلائل الخطط بالمغرب والأندلس منذ البدايات الأولى خلال القرن الثاني وطوال القرنين الثالث والرابع إلى أواسط القرن الخامس الهجرى[٥].

والجدير بالذكر أنهم لم يتوقفوا عن الاستفتاء جيلا بعد جيل "عن أرض المغرب"[٦] والتنقيب عما خفى من أخبارها وإمعان النظر في مظاهر العصر، مع الإصرار على سؤال أهل العلم والفقه والورع للكشف عن حقائقها. ولعل في قول قاضى إفريقية وصاحب المدونة الفقيه المالكي الشهير سحنون: أنى "لم اقف منها على حقيقة"[٧]، وإقرار على بن زياد الإسكندرى - على إجهاده بالبحث عن أصول الروايات بمصر - إنه "لم يصح عندى فيها شيء"[٨]، ما يؤكد درجات ما تعرض له الموضوع من طمس وإتلاف.

من الطبيعي أن يسفر ذلك عن اختلاف الآراء وتضارب الروايات حول الوضعية القانونية لأرض المغرب "فقيل عنوية وقيل صلحية وقيل التفصيل بين السهل والجبل وقيل بالوقف"[٩]. وبينما ينبه أحدهم على "أن البلاد المغربية لم تجر في الافتتاح على قانون واحد، بل منها ما افتتح عنوة ومنها ما افتتح صلحا"[١٠]، يكشف غيره في نص هام عن إجماع أهل العلم على أن ثمة مناطق من المغرب الأقصى "أسلم عليها أربابها وليس فيها صلح ولا عنوة"[١١]. وهو ما ينطبق تماما على وضعية بلاد نكور التي لم تخضع حسبما يتضح من خلال جملة من القرائن لأية فتوحات عسكرية[١٢].

---

[٤] - المعيار المغرب والجامع المعرب عن فتاوى أهل افريقية والاندلس والمغرب ، منشورات وزارة الاوقاف والشوون الاسلامية ، الرباط ، جـ٦ ، صص ٣٤ - ١٣٢ .

[٥] - فمن تلامذة إمام المدينة مالك بن انس والرواة عنه ، نذكر : على بن زياد الإسكندرى وأبا محمد عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن ليث المصرى الذى انتهت إليه الرياسة بديار مصر بعد اشهب . ومن إفريقية نخص بالذكر قاضيها ومفتي ديارها صاحب المدونة الشهير سحنون بن سعيد المتوفى سنة ٢٤٠ هـ وكذا ابن أبي زيد القيرواني الملقب بمالك الصغير المتوفى سنة ٣٨٦ هـ . ومن الأندلس ، نستقرى آراء عبد الملك بن حبيب المتوفى سنة ٢٣٨ هـ هجرية وكذا إشارات قاضي الجماعة بقرطبة ابن واقد اللحمي المتوفى سنة ٤٠٤هـ هجرية وعبد الملك بن اصبغ القرشي المتوفى سنة ٤٣٦هـ . لمزيد من التفاصيل عن متصدرى المذهب المالكي أثناء تألقه بالأندلس راجع اللائحة الهامة التي ذيل بها ابن سهل كتابه في النوازل الفقهية المشهور : الأحكام الكبرى ، مخطوط المكتبة العامة ، الرباط ، رقم ٨٣٨ق ، ص ٤٢٢ - ٤٢٦ .

[٦] - الونشريسى ، المصدر السابق جـ٦ ، ص ١٣٣ .

[٧] - نفس المصدر والصفحة . انظر كذلك : الداودى : كتاب الأموال ، تحقيق رضا محمد سالم شحادة ، الرباط ، ١٩٨٨ ، ص

[٨] - الونشريسى ، نفس المصدر والصفحة .

[٩] - نفس المصدر والصفحة .

[١٠] - نفسه ، جـ٦ ، ١٣٤ . للمقارنة مع وضعية الأرض بالأندلس إبان عصر الفتوحات انظر : ابن حزم ، التلخيص لوجوه التخليص ، ضمن الرسائل ، تحقيق/ إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٨١ ، جـ٣ ، ص ١٧٥ .

[١١] - انظر : الونشريسى ، نفس المصدر ، جـ٦ ، ص ١٣٣ .

[١٢] - وهو ما تناولناه بتفصيل ضمن دراسة ستصدر قريبا في حوالى ٢٥٠ صفحة بعنوان "إمارة بنى صالح في بلاد نكور ، الأصول التاريخية ومواكير النمو الحضارى والعمراني بالغرب الإسلامي . وتشغل بلاد نكور ، على طول الشاطئ المتوسطي للمغرب الاقصى ، المنطقة الممتدة من أحواز نهر ملوية إلى سفوح جبال غمارة . وتتعمق إلى الداخل شاملة الحوض الأعلى لنهر ورغة ومنطقة تازة وتسول في

وبصرف النظر عما أخذ غصباً و "وقعت فيه غلبة بعد غلبة"[١٣]، فمن المعلوم أن أرض العنوة منها ما عومل معاملة الغنيمة فخمست وقسمت، ومنها ما اعتبر فيئا يخمس ولا يقسم، ومنها ما يوقف على المسلمين عامة[١٤]. بينما ترتبط أراضي الصلح بسجلات وعقود والتزامات وشروط مضبوطة الحيثيات موثقة البنود بين المتعاقدين: الجند الفاتح وأهل البلد[١٥].

وبخلاف وضعية الأرض ببقية مناطق الغرب الإسلامي أبان عصر الفتوحات التي تأرجحت بين مقتضيات الصلح والعنوة، يذكر ابن خلدون[١٦] في نص فريد أن صالح بن منصور قد "استخلص نكور لنفسه ، أقطعه إياها الوليد بن عبد الملك في عام إحدى وتسعين من الهجرة".

وبرغم شيوع الاستخلاص كشكل من أشكال التعامل العقارى على مدار قرون من تاريخ الغرب الإسلامي، لم يحظ هذا المفهوم – في حدود علمنا – سواء على مستوى حدود اللفظ أو دلالاته التاريخية بأدنى اهتمام من طرف الدارسين. ويمكن من خلال قراءة أولية في عدد من الحوليات التاريخية وفحص متون جملة من المصنفات الفقهية الوقوف على بعض الحقائق المتعلقة بالضياع المستخلصة وعلى طبيعة الوضعية القانونية المترتبة عن هذه العملية.

فمن الأراضي المستخلصة من طرف الخلفاء والأمراء ما كان بمثابة ملك عام توضع عليه جبايات لصالح بيت مال المسلمين[١٧]، بينما اندرجت غيرها من المستخلصات ضمن

اتجاه المجرى الأوسط لنهر ملوية حيث مضارب قبائل مطماطة امكسور المكناسية . ولقد شهدت نشوء أول إمارة غير مفارقة ببلاد المغرب خلال التسعينات من القرن الأول الهجرى عرفت بإمارة بنى صالح من تأسيس مصور بن صالح النفزى ، الذى أسلمت على يده مجموع قبائل المنطقة .

[١٣] – ابن حزم ، المصدر السابق ، ص ١٧٥ .

[١٤] – المقرى ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، تحقيق/ إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٨ ، جـ١ ، ص ٦٠ – ٢٥٩ ، لمزيد من التفاصيل عن أحكام أرض العنوة راجع : ابن سلام ، كتاب الأموال ، تحقيق/ عبد الأمير على بن مهنا ، بيروت ١٩٨٨ ، ص ٦٤ ؛ ابن آدم القرشي ، كتاب الخراج ، تحقيق جويبول ، ليدن ، ١٨٩٥ ، ٥ ؛ ابن المناصف ، كتاب الانجاد فى أحكام الجهاد ، مخطوط المكتبة العامة ، الرباط ، رقم ٧٤٨ق ، ص ٤٣ – ٢٤١ .

[١٥] – وللمقارنة ، نتوفر بهذا الخصوص على النص الكامل لكتاب الصلح حول منطقة تدمير بشرق الاندلس الموقع بين ملكها تدمير بين غندرش والأمير عبد العزيز بن موسى بن نصير . انظر : الضبى ، بغية الملتمس ، القاهرة ١٩٦٧ ، ٢٧٤ . لمزيد من التفاصيل عن مضامين عقود الصلح والاتفاق بين الفاتحين والنصارى على مشاطرة كنائسهم ، انظر : المقرى ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص٥٦٠.

[١٦] – كتاب العبر ، تحقيق خليل شحادة ، بيروت ، ١٩٨١ ، جـ٦ ، ص ٢٨٣ .

[١٧] – مثل " مستخلص " قرطبة انظر : ابن عذارى ، المصدر السابق ، جـ٢ ص ٢٣٢ المعروف خلال عصر الخلافة باسم : " مستغل جوف المدينة " انظر : ابن بسام ، الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق/ إحسان عباس ، تونس / ليبيا ١٩٨١ ، ق١ ، م١ ، ٥٢ ونذكر ايضا على سبيل المقارنة الملك الذى ألحقه والى ابن عباد خلال عصر الطوائف بمدينة باغة " واستخلصه لبيت مال المسلمين " انظر : ابن رشد ، الفتاوى ، تحقيق المختار بن الطاهر التليلي ، بيروت ١٩٨٧ ، جـ١ ، ص ٣٠٦ . ولا تعوز الدلائل عن غير ذلك من المستخلصات الملحقة بعدد من الحواضر الأندلسية ، نخص منها بالذكر مستخلص غرناطة الشهير ، انظر : ابن الخطيب ، الإحاطة فى أخبار غرناطة ، تحقيق/ محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٧٣ ، جـ١ ص ٤٢٩ .

الممتلكات الخاصة للملوك والمتنفذين وأهل الجاه والسلطان. ولا تعوز القرائن الكاشفة عمن دأب على اتخاذ قرى بأكملها "ضياعا مستخلصة"[١٨]. بل ومن أرباب الخطط والنفوذ من طاوعته نفسه فتجرأ على ملك "الأحباس واستخلصه لنفسه"[١٩].

هكذا، فبالنظر إلى المعاني المعجمية للمصطلح[٢٠] ولمختلف دلالاته التاريخية، يتجلى من خلال السياق العام لنشأة إمارة بني صالح أن المقصود باستخلاص صالح بن منصور نكور لنفسه: تمكنه من حقوق التصرف فيها فصارت بذلك خالصة له خاصة، لا يحق لغيره من الولاة والأمراء استغلالها ولا وضع الجبايات وأصناف الواجبات على أهلها ولا التحكم في رقبة ضياعها.

نتيجة لهذه الوضعية القانونية المتميزة، سلمت نكور من تبعات الاندماج في النظام العقاري والجبائي المعتمد من طرف الخلافة الأموية بالأمصار المفتوحة عبر سلسلة التراتب الهرمي التي يتحكم فيها ولاة إفريقية، وغدت على عكس مجموع بلاد المغرب في علاقة مباشرة بواسطة عقد الإقطاع السالف الذكر مع مركز الخلافة بدمشق. ومن المعلوم أن التشريعات المتعارفة خلال هذه الفترة المبكرة من تاريخ الإسلام، قبل التحولات الطارئة خلال القرون اللاحقة "لا تجوز إقطاع الأمراء والقضاة والقواد وإنما ذلك للخليفة خاصة"[٢١].

والراجح أن الخلفاء الأمويين قد التزموا بمقتضيات عقد الإقطاع الممنوح لصاحب نكور إلى حدود العقد الثاني من القرن الثاني الهجري على الأقل. يتجلى ذلك من خلال موقف الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك الذي لم يغفل - عند إصداره صك تعيين واليه

[١٨] - ابن بسام، المصدر السابق، ق٣، م١، ص ١٩.

[١٩] - ابن الحاج، كتاب النوازل، مخطوط المكتبة العامة الرباط، رقم ٥٥ جـ ، ص ١٢٢.

[٢٠] - راجع ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عبد الله على الكبير وآخرون، القاهرة، حرف الصاد، جـ٧، ص ٢٦ — ٢٩.

[٢١] - الجزيري، المقصد المحمود في تلخيص العقود، مخطوط المكتبة العامة، الرباط، رقم ٥٩٢ق، ورقة ٧٩ب. لمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع راجع: ابن سلام، المصدر السابق، ٢٧٦. وفي دراسة سابقة لا مجال هنا لتفصيل نتائجها، تناولنا التحول الملحوظ الذي مس مفهوم الإقطاع وممارسته في ظل الرخص الواسعة التي أقرها ثلة من الفقهاء للجند وأهل الخطط والمتامرين من كل نوع بالغرب الإسلامي. أسفر ذلك عن ابتعاد الإقطاع في أكثر من مظهر، ان لم يكن في الجوهر، عما كان عليه خلال عصر النبوة وخلافة الراشدين. عن بعض هذه الرخص انظر: ابن المناصف، كتاب الانجاد في أحكام الجهاد، مخطوط المكتبة العامة، الرباط، رقم ٧٤٨ق، ص ٤٣ — ٢٤١. ومن أبرز الأمثلة على التزام العمل بالشرط المثبت أعلاه خلال هذه الفترة المبكرة من تاريخ الغرب الإسلامي، اضطرار ابناء الملك القوطي غيطشة الذين أمضى لهم طارق بن زياد العهد، إلى اللحاق بموسى بن نصير المقيم بافريقية الذي وجههم بدوره إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك بدمشق باعتباره صاحب الحق الشرعي الوحيد في امضاء السجلات وعقد الإقطاعات. وبالفعل، فبعدما " وصلوا إليه أنفذ لهم عهد طارق بن زياد وعقد لكل واحد منهم بذلك سجلا " ابن القوطية، تاريخ افتتاح الاندلس، تحقيق/ إبراهيم الابياري، بيروت، ١٩٨٢، ص ٣٠.

على إفريقية والمغرب النص على استثناء بلاد نكور من سلطة الوالى الجديد، مذكرا إياه بعدم التدخل فى شؤون نكور، مراعاة لخصوصيتها القانونية.

حقيقة أننا لا نتوفر على أدنى ما يفصح عن محتويات ومضامين صك الإقطاع الـذى منحه الخليفة الأموى لصاحب نكور. مع ذلك فالراجح أن ثمة واجبات مالية من المفـروض على هذا الأخير استخلاصها من الرعية وتوجيهها رأسا إلى بلاد الخليفة بدمشق. مصـداق ذلك، ما ورد لدى صاحب أخبار مجموعة[٢٢] فى سياق حديثه عن بلاد المغـرب فى خلافـة عمر بن عبد العزيز وكذا عمن قبله من " الخلفاء كانوا إذا جاءهم جبايات الأمصار والآفاق يأتيهم من كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس وأجناءها فلا يدخل بيت المـال مـتى الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد بالله الذى لا اله إلا هو ما فيه دينار ولا درهـم إلا أخذ بحقه".

إلا أن الوضع سرعان ما تغير ابتداء من خلافة يزيد بن عبد الملك، وبعدئـذ طـوال العقود اللاحقة، إذ اندرج خلفاء بنى أمية على الرفع من المطالبات والتكاليف الموضوعة على مجموع بلاد المغرب "أكثر مما كان"[٢٣]، بما فى ذلك بلاد نكور التى "ثقلت ... التكـاليف"[٢٤] على أهلها ولم يعد بوسعهم الالتزام بأدائها. لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل سرعان مـا اندرجت التوجيهات الأموية فى اتجاه مراجعة الأسس المنظمة للوضعية العقاريـة، تمـهيدا لتخميس الأرض بعموم بلاد المغرب وإخضاعها لمقتضيات الفيء[٢٥].

ومن جهة أخرى، فالغالب على الظن أن صالح بن منصور قد آثر الالتزام بالشـرائع المنظمة لوضعية الأرض حسبما كان متعارفا عليه لدى فقهاء العصر. ومن المعلوم أن البلـد إذا استسلم عليه مالكه "من غير قتال وفى يده الأرض فهو عشر"[٢٦]. ولا يستبعد أن يكـون صاحب نكور قد عمد إلى تقوية مداخيل بيت المال الذى يعود بالنفع على العامة وذلـك بتوسيع القطاع الخراجى، علما بأن "من أسلم على شيء فهو لـه ويؤخـذ منـه خـراج

---

[٢٢] - مجهول، أخبار مجموعة فى فتح الأندلس، مخطوط المكتبة الوطنية، مدريد، رقم ٤٩٩٥، ص ١١ - ١٢.
[٢٣] - ابن عذارى، المصدر السابق، جـ٢، ص ٥٢.
[٢٤] - ابن خلدون، العبر، جـ٦، ص ٢٨٣.
[٢٥] - ابن عذارى، المصدر السابق، جـ١، ص ٥١ - ٥٢. لمزيد من التفاصيل عن مضامين الفئ راجع: ابو الفرج الحنبلى، كتـاب الاستخراج لأحكام الخراج، تحقيق / عبد الله الصديق، بيروت، ١٩٨٢، ص ١٦ - ١٧.
[٢٦] - ابو الفرج الحنبلى، نفسه، ص ١٥.

الأرض"[٢٧]. لذلك اشتهر صاحب نكور لدى معاصريه بمن فيهم خلفاء بنى أمية ذاتهم بـ "عدله"[٢٨] فى الرعية.

وترجمة لحقوق التصرف الشرعية التى أصبحت فى يد صالح بن منصور بمقتضى عقد الإقطاع على الأراضى الواقعة فى دائرة نفوذه، لم يتردد عن "إنزال نفر من البربر موضعا يحاذى مدينة نكور فى الضفة الثانية من النهر وكانوا يقيمون هناك سوقا"[٢٩]. وعلى عكس ما طبق فى عدد من أبرز الكور الأندلسية – خلال نفس الفترة تقريبا أو لربما بعد بضع سنوات من هذا التاريخ إذ اقدم والى قرطبة على إنزال الناس بعضهم على بعض وجعل أموال أهل الذمة من العجم طعمة للجند الشامى"[٣٠]، آثر صاحب نكور الالتزام بالشروط الفقهية المنظمة للإقطاع. يتجلى ذلك فى حصره الإنزال المذكور فيما يبدو أنه من عادى الأرض أو مما لم يحيه أحد من الموات[٣١].

ولعل فى إقدام المستفيدين من الإنزال المذكور على إقامة سوق بالموضع سرعان ما أصبح نواة لإحدى أكبر الحواضر المغربية الوسيطة، ما يفصح عن تحقيق الهدف التنموى والعمرانى حسبما تواخاه ثلة من الفقهاء المتشددين فى ضبط شروط جواز الإقطاع. ومن المعلوم أن رابع أمراء نكور سعيد بن إدريس قد تجرد لاحقا لنقلهم عن هذا الموضع للاستقرار بمدينة نكور، مما يدل على إن الإنزال الممنوح لهم اقتصر على تمكينهم من استغلال فائدة المال و لم يكن إنزال تمليك على رقبة الأرض[٣٢].

وبانتهاء العمل بعقد الإقطاع الذى يتم بمقتضاه تحويل جزء من ثروات بلاد نكور نحو دمشق، ومع اتساع نفوذ البلد ليشمل رقعة تمتد عرضا "مسيرة عشرة أيام"[٣٣] وتتعمق طولا نحو التخوم الشبه الجافة للمجرى الأوسط لنهر ملوية، تصاعدت إمكانات تحقيق التراكم المالى بواسطة الجبايات والمغارم الموضوعة على أهل الطاعة من القبائل الموالية، وفق نظم إدارية ومالية لم يصلنا عنها أدنى إشارة فى المصادر المعتمدة.

---

[٢٧] – نفسه ، ١٤ . لمزيد من التفاصيل عن أحكام أراضى الخراج راجع : البلاذرى ، فتوح البلدان ، تحقيق / رضوان محمد رضوان ، بيروت ، ١٩٨٣ ، ٣٥ – ٤٣٣ .

[٢٨] – الزيانى ، الترجمانة الكبرى فى أخبار المعمور برا وبحرا ، تحقيق / عبد الكريم الفيلالى ، المحمدية ٨١ ، ١٩٦٧ .

[٢٩] – البكرى ، المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، نشر / دى سلان ، باريس ١٩٦٥ ، ص ٩٢ .

[٣٠] – ابن القوطية ، المصدر السابق ، ص ٤٤ ؛ ابن عذارى ، المصدر السابق جـ٢ ، ص ٣٣ ؛ ابن الخطيب ، الإحاطة ، م١ ، ص ١٠٣.

[٣١] – المقصود بعادى الأرض " كل ارض لها ساكن فى آباد الدهر فانقرضوا فلم يبق منهم أنيس فصار حكمها إلى الإمام " انظر : ابن سلام، المصدر السابق ، ٢٨١ . عن الوجه الثانى المشرق للإقطاع باعتبار دوره فى تنشيط العمران وتحريك النمو راجع نصا هاما لابن حزم ورد لدى ابن رضوان : الشهب اللامعة فى السياسة النافعة ، تحقيق / على سامى النشار ، الدار البيضاء ١٩٨٤ ، ٢٣٢ .

[٣٢] – عن أصناف الإنزال ، راجع : ابن رشد ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٤٤ ، ٢٩٤ .

[٣٣] – اليعقوبى ، كتاب البلدان ، نشر / دى خويه ، ليدن ، ١٩٦٧ ، ص ٣٥٧ .

ولعل فيما ذكره البكري[٣٤] عن امتناع "مكناسة عن صالح وحبسوا مغارمهم"، ما يفصح عن ركون صاحب نكور إلى النظام القبلي في تحديد الوحدات الخاضعة للمغارم، على الأقل فيما يتعلق بالمناطق الجافة والشبه الجافة النائية عن مركز الحاضرة. أما قلب الإمارة بنكور وتمسامان، فلا يستبعد أن يكون قد انتظم منذ هذا العهد المبكر في كور ورساتيق، على غرار النظام المعتمد لاحقا بالأندلس في إدارة وتدبير المجال[٣٥]. مصداق ذلك ما ذكره ابن حوقل[٣٦] في سياق حديثه عن أعمال بلاد طنجة التي انتظمت في شكل "مدن متصلة الرساتيق". وضمن الكتاب الذي بعثه محمد بن خزر الزناتي إلى الخليفة الأموي بالأندلس عبد الرحمن الناصر سنة ٣١٩ هجرية، ما يدل على أن الانتظام الإداري وأعداد المجال القروي في كور وأقاليم ورساتي، له أصول سابقة في تاريخ العدوة المغربية، إذ قال: "هذه أطراف أعمالنا وحواشي كورنا من نحو المراسي المنتظمة بجزيرة الأندلس"[٣٧].

والغالب على الظن أن ثمة تغيير قد مس في العمق مجمل النظام العقاري المرتبط بوضعية الأرض وأشكال الملكية ببلاد نكور ابتداء من نهايات القرن الثالث الهجري. فعلى غرار النظام الثغري بالأندلس، لم يتردد عبد الرحمن الناصر عن إطلاق يد المتنفذين من أتباعه بالعدوة المغربية بواسطة إمضاء سجلات وعقود الإقطاع، مقابل الولاء والطاعة والاندماج في نظام الجماعة. يتجلى ذلك من خلال إنفاذ العهد لموسى بن أبي العافية إقرارا على لسان الخليفة بأن" كل ما توسعت فيه وفتح الله عليك به كان لك ولولدك ولعقبك إقطاعا من أمير المؤمنين لك وتوسعا عليك ومكافأة لمحبتك لا تتبدل لك ولا لأحد من ولدك وعقبك عند أمير المؤمنين حال إلا بأحسن منها"[٣٨]. ومن المعلوم أن حملات موسى بن أبي العافية التوسعية قد بلغت قلب الإمارة نكور فخربها ليعود نفوذه إلى الانحسار بعدئذ نحو التخوم الشرقية الشبه الجافة ببلاد مكناسة واحواز مليلة.

وليس أدل على رسوخ إقطاع التمليك في عدد من المناطق التي كانت إلى عهد قريب من ممتلكات إمارة بني صالح، من فحوى الخطاب الذي بعثه الخليفة الأموي عبد الرحمن

---

[٣٤] - المصدر السابق، ٩٣. والمقصود في سياق هذا النص، صالح بن سعيد خامس امراء آل صالح بنكور.

[٣٥] - المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، ١٩٦٧، ٢٢٢. والرستاق مصطلح جغرافي مشرقي يقابله في المغرب والأندلس مصطلح الإقليم الذي يعتبر بمثابة اصغر وحدة في تنظيم المجال. وتنتظم الأقاليم ضمن وحدة اكبر تدعى الكورة. وتختلف دلالات مصطلح الأقاليم اختلافا بينا بين جناحي دار الإسلام. راجع، ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت، ١٩٧٩، جـ١، ص ٢٢.

[٣٦] - صورة الأرض، ليدن، ١٩٦٧، ص ٨٣.

[٣٧] - ابن حيان، كتاب المقتبس، نشر / م. صبح / ف. كوريبطي / ب شالميتا، مدريد، ١٩٧٩، جـ ٥، ص ٣٠٢.

[٣٨] - نفسه، ص ٣١٢.

الناصر سنة ٣٢٦ هجرية لمدين بن موسى بن أبي العافية مرفوقا "بسجل من قبله ولاه بـه أعمال أبيه من مليلة وغيرها من مدن العدوة حسب ما كان سجل لأبيه قبله"[٣٩].

والراجح أن بلاد نكور لم تخرج عن القاعدة العامة التى عادة ما تمس وضعية الأرض والعلاقات المتمحورة بين أطراف الإنتاج الفلاحى حول العائدات الزراعية عند انتقال أزمة القرار السياسى والمبادرة التنظيمية والتشريعية من الحواضر والمدن والقرى الجامعة نحو القلاع والحصون[٤٠]. ففى هذه الحالة ، لا يقتصر دور مراكز القرار الجديدة المحصنة علـى اتخاذ أحمية[٤١] متحيفة، بل وتتحكم أيضا بفضل الجند والحاميات العسكرية فى مجمـل الأراضـى والأنشطة الفلاحية المرتبطة بها.

ينطبق نفس الشئ على الامتدادات الغربية للإمارة، ويتعلق الأمر ببلاد غمارة الـتى لم تعد منتظمة كما كانت فى إطار الجماعة وأصبحت لكثرة المتآمرين من القواد "بتلك الناحية ملكا توزعوه قطعا"[٤٢]. انعكس ذلك على المستوى العمرانى بخراب الحواضر والمدن واختلال البنيان. من ثم تصاعد الاهتمام باتخاذ الحصون ورفع الأسوار وبناء القلاع، بما يكشف عـن التوجهات الجديدة التى مست فى العمق مجمل النظام الإقتصادى القائم.

لعل فى هذه العناصر، ما يدعو إلى إعادة النظر فيما تكرس لحد الآن من تصـورات بخصوص المرحلة التاريخية المعروفة بالقرون المظلمة فى تاريخ المغرب، وما يستحث الهمم ليس لبناء حوليات الحدث السياسى ببلاد نكور، بل وكذلك للانغماس فى معالجـة جملة من قضايا التاريخ الحضارى بالغرب الإسلامى.

---

٣٩ - نفسه ، ص ٤٢٧ .

٤٠ - للمقارنة يمكن تتبع تفاصيل هذه المسألة ضمن عملنا : عامة أشبلية فى عصر بنى عباد ، أطروحة دكتوراه دولة نوقشت بكليـة الآداب بمكناس ، ابريل ١٩٩٤ (غير منشورة) .

٤١ - من المفيد بهذا الخصوص الإشارة إلى أهمية صنف خاص من المصادر العربية التى طواها النسيان ، ويتعلق الأمر بـ " كتـب أحميـة الحصون " . نخص منها بالذكر كتاب ابى الحسن على بن محمد بن خلف المعافرى المعروف بابن القابسى من أهل إفريقيـة المتـوفى ٤٠٣هـ الذى وضعه فى الموضوع ، راجع : ابن فرحون ، الديباج المذهب فى معرفة اعيان المذهب ، تحقيق / محمد الأحمـدى أبـو النور، القاهرة ، ١٩٧٢ ، جـ٢ ، ص ١٠٢ . ومن الأندلسيين نذكر يحيى بن عمر بن يوسف بن عامر الكنانى من موالى بنى أميـة جيانى الأصل قرطبى المنشأ قيروانى الإقامة وتوفى بسوسة سنة ٢٨٩هـ الذى وضع هو الآخر مصنفا فى " أحمية الحصون " راجـع نفسه ، جـ٢ ، ص ٤٥٥ ، وله كتاب مماثل بعنوان " فى فضائل المتستير والرباط " .

٤٢ - ابن خلدون ، العبر ، جـ٦ ، ص ٢٨٩ .

المدرسة الفكرية الإسماعيلية فى المرحلة المغربية

(٢٩٦ - ٣٦٢هـ / ٩٠٩ ٩٧٣م)

د. / بوبة مجانى

كلية الآداب - جامعة منتورى

ظروف تأسيس المدرسة الفكرية الإسماعيلية ببلاد المغرب:

إن الحديث عن المدرسة الفكرية الإسماعيلية فى مرحلتها المغربية يتطلب من الدارس العودة إلى فترة الدعوة المبكرة فى هذه المنطقة ، والأفكار التى روج لها الدعاة الأوائل الذين استطاعوا أن يتحصلوا على موطئ قدم منذ سنة ١٤٥هـ / ٧٦٢م حسب الرواية الشيعية[١] ، أى عندما كان الفكر الإسماعيلي يؤسس في المدينة أيام الإمام جعفر الصادق. كما أن هذه الدراسة تسعى إلى كشف أسباب اختيار بلاد المغرب مجالا لنشر المذهب الشيعي.

غير أن الغموض الذي اكتنف بدايات الدعوة والأفكار التى روج لها الدعاة كانت بسبب قلة الكتابات التاريخية من جهة وضياع ما دون مبكرا من جهة أخرى مثل كتابات المؤرخ والداعية أحمد بن الأسود بن الهيثم[٢] المعاصر للداعى أبى عبد الله الشيعى والإمام عبيد الله المهدى. وكذلك كتابات كبير الدعاة الكتاميين والمعاصر هو الآخر للإمام الأول المهدى، أفلح بن هارون الملوسى[٣]. كما أن بعض كتابات فقيه الدولة القاضى النعمان بن محمد بن حيون التميمى المبكرة والعائدة إلى فترة الإمام الأول مفقودة هي الأخرى . اضف إلى ذلك سرية الدعوة وطبيعة المذهب ذاته القائم على تأويل الخبر وليس روايته[٤] . كل هذه الأسباب زادت من استعجام الموضوع وعسرت مهمة المتصدى له للكشف عن ملامح هذه المدرسة فى الفترة المغربية . ولاستجلاء ملامح هذا الدور وقضاياه تبقى غير واضحة إذ أن اهتمام المصادر اقتصر على الجوانب السياسية والعسكرية دون غيرها .. لهذا تبقى الأخبار المتعلقة بالفكر الذى احتوى هذه الحركة شحيحة لا تسعف الدارس على سبر أغواره ، بل

---

١ - القاضى النعمان : رسالة إفتتاح الدعوة ، تحقيق وداد القاضى ، دار الثقافة بيروت ١٩٧٠ ، ص٥٤ .

٢ - الداعى إدريس عماد الدين القريشي : عيون الأخبار وفنون الآثار ، نشر محمد البعلاوى القسم الخاص بالمغرب بعنوان تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ، دار الغرب الإسلامي بيروت ١٩٨٥ ، ص ١٥٦ ، ٢١١ ، ٢١٢ ونقل عنه إدريس عماد الدين فى كتابه السالف الذكر من أخبار الدعوة والدولة ورجالاتهما .

٣ - نفسه / ٢١١ - ٢١٢ .

٤ - يعد كتاب القاضى النعمان المجالس والمسايرات الذى ألفه فى عهد الخليفة الرابع المعز لدين الله أحسن مثال على ذلك نشره محمد البعلاوى والحبيب الفقى وإبراهيم شبوح منشورات الجامعات التونسية تونس ١٩٧٨ .

تكتفى الأخبار بالإشارة إلى أن الدعاة روجوا لفكرة الإمام المستور المهدى المنتظر . وتنطوى هذه الفكرة فى حد ذاتها على منظومة فكرية كاملة تسعى إلى إصلاح المجتمع فكريا وعقائديا واقتصاديا واجتماعيا .

والسؤال الذى يطرح بإلحاح : إلى أى مدى ساهمت كتامة القبيلة فى صياغة الفكر الإسماعيلى فى دوره المغربى ؟

وللإجابة على هذا السؤال يجب على الباحث أن يضع يده على مؤلفات كتامية بالدرجة الأولى مثل كتابات قاضى القضاة وداعى الدعاة أفلح بن هارون الملوسى السالف الذكر ، وحيدرة بن محمد بن إبراهيم صاحب " السيرة الكتامية " والذى نقل عنه إدريس القرشى قائمة مؤلفات القاضى النعمان[٥] . وغيرهما من علماء هذه القبيلة[٦] . أو بالإعتماد على المؤلفات المبكرة التى أرخت للدعوة أو حملت أفكار هذه الدعوة ، لأن كتابات القاضى النعمان وحدها لا تكفى لرسم صورة كاملة وواضحة لهذه المدرسة فى دورها المغربى .

لامراء فى أن منطقة كتامة قد اختارها التنظيم الدعوى لتكون قاعدته لنشر المذهب فى بلاد المغرب وكذلك قاعدته العسكرية لإقامة الدولة ، لأنها تتميز بطبيعة جبلية وعرة وببعدها عن مركز السلطة بمدينة القيروان ، وهذه الطبيعة الجغرافية والبعد فرضا عليها عزلة فكرية وعلمية فما كان يدور من صراع فكرى ومذهبى ومناقشات كلامية فى القيروان وبعض الأمصار المغربية مثل فاس وتهرت وغيرهما لم تعرفه هذه المنطقة . لهذا كانت معرفة الكتاميين بالإسلام بسيطة لا تتعدى مستوى المعاملات اليومية التى يعودون فيها إلى من عرف منهم ببعض العلم ليحتكموا إليهم فى أمور دينهم .

لقد عمل التنظيم الدعوى على نشر أفكاره فى كل الأوساط ، وعندما تطلب الأمر انشاء دولة توجه إلى البيئات الأقل تحضرا والبعيدة عن المراكز الحيوية مثل منطقة كتامة ليتخذ من الوضع الاجتماعى سببا للإحتجاج على السلطة العباسية[٧] . قدم التنظيم الدعوى

---

[٥] - عيون الأخبار / ٥٦٨ Ponawala Ismail (K) : *Bibliography of Ismaili Literature*, California, 1977, pp. 48 68;Lvanow , *A guide to Ismaili Literature*, London, 1933, pp.32-37.

[٦] - هناك شاعر كتامى دون أحداث فتح مصر والشام نظما مشيدا بدور القائد الكتامى جعفر بن فلاح أنظر : إدريس القرشى : المصدر السابق / ٦٩٦ .

[٧] - فرهارد دفترى : الإسماعيليون تاريخهم وعقائدهم ، " الإسماعلية حتى العهد الفاطمى " دار الينابيع للنشر والتوزيع ، دمشق ، ١٩٩٤ / ١٧٩ .

البرنامج البديل المتمثل فى فكرة المهدى المنتظر . وكانت كتامة الأرض والقبيلة هى التى حقق بها التنظيم الدعوى برنامجه الإصلاحي .

ولقد إستفاد التنظيم من طبيعة المجتمع القبلية المعتمدة على العصبية وما تملكه القبائل من سلاح وخيل[٨] لأن الهدف لم يكن إلا الحصول على النصرة السياسية . ولأن نشر الفكر المذهبى التأويلى الفلسفى يحتاج إلى استعداد ذهنى وموروث فكرى ، بالإضافة إلى ما يتطلبة من وقت لنشره . اى أن التنظيم كان يريد منطقة صالحة للعمل العسكرى بعد الحصول على النصرة السياسية أكثر مما يسعى إلى الحصول على مرتكز فكرى لتطوير المذهب ، لأن الفكر قد تمت صياغته وحددت أبعاده وأهدافه ووضعت أسسه وبرامجه فى المشرق أيام الأئمة الأوائل منذ نهاية القرن الأول الهجرى / السابع الميلادى .

وعليه كانت الدعوى تريد عصبية قبلية قادرة على العمل المسلح ، ومنطقة صالحة إستراتجيا لهذا العمل ، وهذا التطبيق ما تم الترويج له من أفكار لا تتعدى التذكير بفضائل آل البيت وحقهم فى الإمامة وهو ما وجدته فى كتامة القبيلة والأرض . وكان يكفيها من الناحية الفكرية أو المذهبية ما يكنه الكتاميون من حب لآل البيت وكرة للسلطة الأغلبية . يؤكد ذلك أن السلطة الفاطمية لم تفكر فى فرض ضرائب على الكتاميين ، وهذا مقابل خدماتهم للدعوة إلا بعد أن بدات استعدادات العودة إلى المشرق فى خلافة المعز لدين الله[٩] .

إن الذى حدد مسار الحركة الفكرية الإسماعيلية فى مرحلتها المغربية يتمثل فى نشأة الخلافة فى وسط مشبع بالعداء للمذهب الإسماعيلى فى القيروان قاعدة وحصن المالكية ، فلم يكن بإمكان الإمام الفاطمى أن يتوقع حكم بلاد المغرب بسهولة من هذه المدينة أو من مدينة أخرى من مدن المغرب التى إنتشر فيها المذهب المالكى وسيط كلية بحيث لم يترك مجالا لمذهب آخر . والخلاف مع المالكية إنصب كلية حول قضية الإمامة التى شيد عليها الفكر الشيعى . كما أن معاداة المالكية للإسماعيلية لم يكن سببها الإختلاف فى نظرية الإمامة فقط ، بل يمكن ردها كذلك إلى السياسة الإقتصادية التى سلكتها الخلافة الفاطمية تجاه المعارضين لها فى المذهب[١٠] .

---

[٨] - القاضى النعمان : إفتتاح الدعوة / ٦٥ - ٦٦ .

[٩] - المقريزى اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، تحقيق جمال الدين الشيال ، لجنة إحياء التراث الإسلامى ، القاهرة ١٩٦٧، ٩٨.

[١٠] - أنظر تفاصيل ذلك فى دراسة د. محمود إسماعيل : محنة المالكية فى إفريقية المغربية ، دراسة إجتماعية ، مغربيات دراسات حديدة ، فاس ١٩٧٧ ، ص ٦٨ وما بعدها .

لقد أسندت مهمة الرد على طعونات السنة واعتراضاتهم إلى الفقيه القاضى النعمان بالتأليف فى الموضوع منذ عهد الخليفة الثالث المنصور الذى أمر النعمان بالرد على السنة فيما رفضوه من إمامة آل البيت[11] لأن القاضى النعمان يعد من أكثر علماء الإسماعيلية إطلاعا على مذاهب أهل السنة وفقههم مما مكنه من الرد عليهم من داخل مرجعيتهم[12] ويتجلى ذلك فى كتابه اختلاف أصول المذاهب .

أما قبل هذه الفترة فلقد كانت الردود على السنة فى شكل مناظرات جمعت الخليفة الأول عبيد الله المهدى مع كبار فقهاء السنة مثل سعيد بن الحداد[13] . كما جمعت كذلك كبير دعاته أبا عبد الله الداعي وأخاه أبا العباس المخطوم مع علماء السنة[14] . ودارت المناظرات كلها حول قضية الإمامة ، لتنقطع بعد ذلك أخبار هذه المناظرات والمواجهات الفكرية فى عهد الخليفة الثانى القائم بأمر الله بسبب انشغاله بالمعارضة المسلحة التى قام بها الخوارج النكار بزعامة أبي يزيد مخلد بن كيداد صاحب الحمار . وتعود المناظرات فى عهد الخليفة المعز لدين الله الذى ناظر فى ذات الموضوع فقيها سنيا[15] .

أما باقى مناطق المغرب فقد ظاهرت المذهب ودولته العداء وحاربته بكل قوتها . ففى تاهرت عاصمة الدولة الرستمية الأباضية ، وفى فاس دولة الأدارسة العلويين الذين أقصاهم الشيعة الإسماعيلية والإمامية من الحكم بحصرهم الإمامة فى أبناء الحسين فقط . وفى سجلماسة كانت تحكم أسرة بربرية تدين بالمذهب الخارجى الصفرى . فكلهم إذن يخالفون المذهب الإسماعيلى فكراً وسياسة . إلى جانب عدو الإسماعيلية التقليدى الأمويين فى الأندلس والعباسيين فى بغداد .

إن القضية الأساسية التى استغرقت زمن التنظيم الدعوى الإسماعيلى هى قضية الإمامة . هذا الاستغراق لم تتسبب فيه المعارضة المذهبية فقط ، بل كذلك الانشقاقات داخل المذهب ذاته بسبب الاختلاف حول سوق الإمامة ، فكانت هى الموضوع الفكرى المتداول بين أتباع المذهب . وعلى الرغم من المجهودات التى بذلها الخليفة المعز من أجل لم شتات الفكر وتوحيده حول قضية الإمامة وصياغته صياغة رسمية ، إلا أن موضوع الإمامة ظل يطرح بإلحاح مع دعاته فى المشرق ويتجلى فى المراسلات التى كانت تدور بينه وبين دعاته

---

[11] – القاضى النعمان : المجالس ، ص ١٣١ – ١٣٢ .
[12] – نفسه ، ص ٤٣٠ .
[13] – أبو بكر عبد الله المالكى : رياض النفوس ، تحقيق بشير البكوش ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ١٩٨٣ ، ص ٥٩/٢ .
[14] – نفسه ٢/ ٨٤ – ٨٦ .
[15] – القاضى النعمان : المجالس ٣٦٥ .

مثل الرسالة التى بعث بها داعيته حليم بن شيبان داعى السند الذى يعلمه فيها بإلتزامه بخط الخلافة فى الإمامة[١٦] .

ويبدو أن الذى زاد من حدة الصراع والاختلاف بقاء الكتب التى تتناول الموضوع وفلسفته سرية لا تتداول إلا فى نطاق ضيق ، وحتى أبناء البيت الحاكم كانوا يخفونها عن بعضهم البعض .

فالخليفة عبيد الله المهدى يطلع المنصور ولى عهد القائم على كتب فى الباطن خفية عن ولى عهده القائم بأمر الله ذاته[١٧] .

هذا الانقسام والانشقاق بسبب الاختلاف حول بيت الإمامة . وهو ما تمثله الحركة القرمطية التى رفضت إمامة عبيد الله المهدى ، والتى بسبب سيطرتها على بلاد الشام ترك المهدى "سلمية " إلى بلاد المغرب[١٨] .

هذا الرفض لإمامة المهدى لم يكن من طرف دعاة المشرق فقط ، بل حتى داعيته المقيم لسلطانه فى المغرب " أبى عبيد الله الداعى " وأخيه " أبى العباس المخطوم " رفضا مهدويته . غير أن رفض المشرق صحبه إنتاج فكرى متنوع وعميق[١٩] . بينما رفض المغرب لم يتعد الحركة العسكرية لأن نشر المذهب فى صيغته التأويلية والفلسفية فى بيئة المغرب أمر مستحيل لأن هذه البيئة ليست هى بيئة المشرق التى كانت تغص بالأفكار الفلسفية .

هكذا كان الجو الذى ظهرت فيه الخلافة الفاطمية فكان لزاما عليها أن تواجه هذا العداء المذهبى والسياسى والفكرى . لهذا عندما أسس المهدى الخليفة الأول عاصمة الدولة باشر فى تطبيق الفكر على أرض الواقع فسمى هذه العاصمة " المهدية " وهو اسم ذو مدلول عقائدى. واهتم فيها بالتحصينات العسكرية دون الإهتمام بالمنشآت الدعوية . أى أنه لم يؤسس بها دار دعوة لأن حاجة الدولة إلى البقاء فى هذا الوسط العدائى يحتاج إلى القوة العسكرية قبل كل شئ. أما الدعوة فيكفيها أن تعقد مجالسها فى القصر والمسجد . كما أن

---

١٦ - إدريس القرشى : عيون الأخبار / ٢٤٩ .

١٧ - القاضى النعمان : المجالس / ٥٠٢ .

١٨ - أحمد بن إبراهيم النيسابورى : استتار الإمام عليه السلام وتفرق الدعاة فى الجزائر لطلبه ، نشر سهيل زكار ضمن الجامع فى اخبار القرامطة ، دار حسان ، دمشق ، ١٩٨٧ ، جـ١ ، ص ٢٧٣ - ٢٨٢ ، محمد بن محمد اليمانى : سيرة الحاجب جعفر ، نشر إيفانوف ، مجلة كلية الآداب ، الجامعة المصرية ، مجـ٤ ، جـ٢ ، القاهرة ١٩٣٦ ، ص ١١٠ - ١٩٠ .

١٩ - من المؤلفات القرمطية التى وصلتنا كتاب " عبدان " : شجرة اليقين ، تحقيق عارف تامر ، ط١ ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٨٢ . ويتفق كثير من الدارسين على أن الإسماعيلية سطوا على التراث الفكرى القرمطى . انظر فاهار الدفترى : الإسماعليون تاريخهم وعقائدهم ، ترجمة سيف الدين القصير ، دار الينابيع ، دمشق ١٩٩٤ ، جـ١ ص ١٨٧ ، محى الدين اللاذقانى : ثلاثية الحلم القرمطى ، ط١ ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ١٩٩٣ ، ص ٢٥٠ .

المشروع السياسى الفاطمى يهدف بالأساس إلى العمل من أجل العودة إلى المشرق ، وحصل المغرب مرحلة وقاعدة انطلاق فقط لهذا العمل العسكرى لكن دون التخلى عن العمل الدعوى. الانشقاق تطلب من السطلة لم شتات المذهب الفكرى الذى انتج فى المشرق والذى أخذ لبوس هذا الانشقاق وتوحيده وصياغته صياغة رسمية تخدم أهداف الإمامة فى المغرب .

واستغرقت عملية التوحيد هذه فترة زمنية طويلة لانشغال الإمامة بالفتن والثورات التى ظهرت منذ عهد الخليفة الأول ، فبالإضافة إلى فتنة الداعى التى تطلبت من المهدى تصفيته جسديا مع أخيه ومن تبعهما من رجالات كتامة ، هناك ثورة صاحب الحمار أبى يزيد مخلد بن كيداد الخارجى .

وعلى الرغم من أن هذه الثورة لم تكن ذات أبعاد فكرية بل كانت ثورة على السياسة المالية المجحفة . هذا ما يفهم من قول أبى يزيد عند خروجه للحج مع رفقاء له من نفس المذهب حيث قال لهم عندما ودعهم بالقرب من جبل نفوسة : " ليس لله علينا أن نشترى حجة "[٢٠] مما يعبر صراحة عن رفضه للضرائب الكثيرة التى فرضتها الخلافة على التجار والفلاحين بل حتى الحجاج أجبروا على المرور بالمهدية لدفع ضريبة قبل الخروج إلى المشرق[٢١] وكادت هذه الثورة أن تقوض أركان الدولة خصوصا بعد أن تحالف المالكية مع النكار مما أخذ من الدولة وقتا طويلا ومجهودا كبيرا من أجل إعادة الاستقرار فى البلاد . أى أن الدولة اهتمت وركزت على الجانب العسكرى كما فى مرحلة الدعوة . وهذا من اجل البقاء فى وسط هذا الجو العدائى ، ولم يظهر الاهتمام بالناحية الفكرية إلا فى عهد الخليفة الرابع " المعز لدين الله " .

فى خضم هذه الأجواء العسكرية تكونت المدرسة الفكرية الإسماعيلية فى بلاد المغرب . وهذه الأجواء هى التى طبعت مسارها ، كما أن الأهداف التى رسمتها لنفسها منذ ظهور المذهب فى المشرق حدد كذلك هذا المسار .

---

[٢٠] - يحيى بن أبى بكر أبو زكريا : سير الأئمة وأخبارهم تحقيق إسماعيل العربى ، المكتبة الوطنية ، الجزائر ١٩٧٦ ، ص ١١٦ حول هذه الثورة راجع إحسان عباس : مصادر ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد ، أشغال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب العربى وحضارته ، الجامعة التونسية ، تونس ١٩٧٩ ، ص ١١١ وما بعدها ، محمود إسماعيل : الخوارج فى المغرب الإسلامى ، دار العودة بيروت ، مكتبة مدبولى القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ١٧٧ وما بعدها .

[٢١] - ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، ط٣ ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٣ ، جـ١، ص ١٨٦.

خصائص المدرسة الفكرية الإسماعيلية :

ينطلق هذا الفكر من نظرته إلى السلطة التي يقيمها على تصوره للإمامة التي تكون بالنص والوصية والتوقيف وليس الاختيار او الشورى . لأن الإمامة مكملة للنبوة التي مهمتها تبليغ الرسالة أو التنزيل ، أما الإمامة فمهمتها تأويل هذا التنزيل وحفظه من أجل استمراره . أي أن المؤول والحافظ للشريعة يجب أن يكونا عالمين بأسرارها ، لهذا زاوجوا بينهما بل جعلوا الفصل بينهما مبطلا للإمامة .

فالتأويل والحفظ يتطلبان العلم الوهبي الفطري الذي حبا الله به وفضل به آل البيت دون غيرهم من البشر واستحفظهم سره هذا الاصطفاء يعطى للإمام حق المفاضلة بين الناس فيصطفي بدوره من يراه أهلا لعلمه وحكمته[٢٢] . وعلم الإمام يورثه للإمام الذى يأتي من بعده . اى لا يكون عن طريق التلقين والاكتساب . فصادر الإسماعيلية بذلك من باقي المسلمين اختيار الإمام كما صادروا منهم العلم كذلك ، العلم الذى يعني القدرة على الغوص فى أعماق النص القرآني أو السني عن طريق التعلم .

وبناء عليه يعتبر الإسماعيلية سبب الاختلاف بين الأحزاب والمذاهب والفرق هو عدم رجوع المخالفين لمذهبهم إلى علم الأئمة وعدم أخذهم عنهم ويقول فى ذلك القاضي "النعمان"[٢٣] استنادا على حديث مأثور عن الإمام على عند اختلاف الناس بعد موت الرسول (لو ثنيت لى وسادة وجلست للناس لقضيت بين أهل القرآن بالقرآن ، وبين أهل التوراة بالتوراة وبين أهل الإنجيل بالإنجيل ولما اختلف اثنان فى حكم من أحكام الدين) .

هذا النص يبين للناظر فيه أن علم الإمام على اللامحدود لم يقتصر على القرآن بل شمل كل الكتب السماوية . وطبيعى أن يرفض الإسماعيلية العقل فى التمييز بين الخير والشر والعدل والجور دون الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله الذى لا يعلم مكنونهما ومعانيهما الباطنية إلا الأئمة ، فبذلك لا علم إلا علم الأئمة[٢٤] يتجلى لنا ذلك من خلال رد المعز على أحد الكتاميين فى مجلس من مجالسه ، قائلاً له : كل الناس يدعون العقل ، حتى المجانين وهم مختلفون فى المذاهب ، وحجة كل واحد عقله ، ومع ذلك لا يعدم مخالفا له ، والعاقل فى نظره هو المطيع لله والآخذ عن أوليائه، والجاهل هو العادل عن ذلك[٢٥] .

---

[٢٢] - القاضي النعمان : المجالس / ١٠٤ ، إدريس القرشي : عيون الأخبار ص ٢٥٨ .
[٢٣] - إختلاف أصول المذاهب ، تحقيق مصطفى غالب ، ط٣ ، دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٨٣ ، ص ٣١ .
[٢٤] - القاضي النعمان : المجالس ص ٤٢٤ .
[٢٥] - نفسه / ص ٤٢٣ - ٤٢٤ .

إن الأئمة وحدهم هم القادرون على التأويل الذى هو البحث فى أسرار الدين ؛ فهما يقرب من جوهر العالم الروحانى . أى استخدام أو الاستعانة بالفلسفة فى فهم القرآن فهما تأويليا أو فلسفيا[٢٦] .

وتأسيسا على ما سبق فإن التأويل يتحدد بالمنظومة الفكرية للمؤول . فالإسماعيلية مثلا تأولوا القرآن من أجل إيجاد مسوغ شرعى لمطالبتهم بالإمامة ، والإمامة هى الركن الأساسى الذى بنى عليه فكرهم .

كما أن التأويل يتحدد بمدى عمق فكر المؤول وطبيعة فكره . فرجل الدين يختلف تأويله عن الفيلسوف . فإذا كان المؤول رجل دين فتأويله يكون من أجل استخراج الأحكام الشرعية وتطبيقها . أما إذا كان فيلسوفا فإن تأويله ينصب على الكشف عن أسرار الكون وعالم الغيب . غير أن المؤول الإسماعيلى سواء كان رجل دين أم فيلسوفا فإن هدفه هو تثبيت حقهم فى الإمامة . لهذا ربطوا بين الأئمة والأنبياء وجعلوا الحركة التاريخية أدوارا يكون آخرها دور القائم ، الذى يرقى إلى مرتبة النبوة . ولهذا شرعية الإمامة عندهم مرتبطة بشرعية التأويل أى التأويل لا يستطيع أن يقوم به إلا الإمام من هنا تأتى نظرة الإسماعيلية للتاريخ الذى قسموه إلى أدوار كما سبق الحديث وكل دور يشابه الآخر وهو تكرار له من آدم إلى القائم[٢٧] . كما أن الحدث التاريخى ذاته ذو وجهين ، هناك الحادثة أو الواقعة وهناك تأويلها[٢٨] . وصحة الأحداث التاريخية العائدة لهذه الأدوار مصدرها الأئمة[٢٩] لأنهم وحدهم مصدر كل علم . وهذا تسخيرا لإثبات شرعية الإمامة بامتدادها فى أعماق التاريخ ومنذ بدايته أى من دور آدم .

لقد دون الدعاة الفكر الإسماعيلى باعتمادهم وحسب الرواية الرسمية الإسماعيلية على الأئمة. وعلى الرغم من أن المصدر واحد إلا أن الاختلاف كان كثيرا حول القضية الواحدة . هذا الاختلاف هو الذى يؤكد لنا أن رد العلم إلى الأئمة وحدهم دون غيرهم هو للدعاية المذهبية فقط التى تطالب بشرعية آل البيت فى الإمامة استنادا على العلم الموروث عن

---

[٢٦] – الحبيب الفقى : التأويل أسسه ومعانيه فى المذهب الإسماعيلى (القاضى النعمان) ، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية ، تونس / أ .

[٢٧] – الحبيب الفقى : المرجع السابق / أ .

[٢٨] – عادل عوا : معنى التاريخ فى الفكر الإسماعيلى ، المؤتمر الأول لتاريخ بلاد الشام ، ط١ ، الدار المتحدة للنشر ، بيروت ، ١٩٧٤ ، ص ١٩٢ .

[٢٩] – نفسه ، ص ٢٠١ .

الرسول عليه الصلاة والسلام . ويذهب بعض الدارسين[٣٠] إلى أن هذا الادعاء تبطله حقيقة أن الأئمة لم يكونوا ذوى علم ما عدا " جعفر الصادق " و " المعز لدين الله " .

غير أن الواقع من خلال ما وصلنا من أخبار يثبت أن الأئمة كانوا من ذوى العلم فالإمام "محمد الباقر" له أجوبة رد فيها على أسئلة الأتباع وجمعت هذه الأسئلة فى كتاب لإسماعيلية آسيا الوسطى هو "أم الكتاب"[٣١] .

كما يروى "جعفر بن منصور اليمن" عمن أخذ عن الباقر[٣٢] وكل ذلك يؤكد أن الباقر كان من علماء آل البيت العلماء وكتاب "المجالس والمسايرات" للقاضى النعمان[٣٣] حافل بالأخبار عن علم الأئمة وحكمتهم مثل "المنصور" الذى كان يشرف على مجالس الحكمة فى المهدية والمنصورية . بل له تآليف منها كتاب فى الإمامة[٣٤] .

وإذا نظرنا إلى الموضوع من داخل المذهب الإسماعيلى ذاته فإن المعز لا يمكن أن يكون عالما إذا لم يكن الإمام "المنصور" هو الذى أودعه هذا العلم . فكما ورث عنه الحكم ورث عنه العلم كذلك .

وتعود أسباب كثرة الأخبار عن المعز إلى طبيعة الفترة التى حكم فيها . فالمعز جاء حكمه بعد فترة اضطرابات وحروب شغلت حياة الأئمة الثلاثة من قبله . كما أن المسلك الذى اتبعه فى نشر الدعوة كان مغايرا لمسلك سابقيه ، المهدى والقائم وهذا بسبب رد فعل المغاربة على هذا الأسلوب ، واحسن مثال على رد الفعل هو ثورة صاحب الحمار .

ومن خلال الأخبار التى وردت عند القاضي النعمان عن علم المعز نرى أنه كان عالما بالنحو ويناظر فى ذلك علماءه البارعين[٣٥] فطلب من أحد أئمته أن يؤلف كتابا فيه وحدد له فى نفس الوقت موضوع هذا الكتاب . وتعود براعة المعز النحوية إلى ارتباط هذا العلم بعلم البيان. والبيان إحدى معجزات القرآن الكريم . ونظرا لكون الأئمة هم وحدهم القادرين على الغوص فى أسرار الكتاب فهم بذلك الأعلم بالنحو[٣٦] .

---

[٣٠] - الحبيب الفقى : المرجع السابق / ٣ .

[٣١] - جاء فى هذا الكتاب أن الباقر هو الذى أعطى هذا العنوان للكتاب الذى شملت أجوبته موضوعات فى العقائد والتفسير وقصص الأنبياء وغيرها من الموضوعات مثل الروح والجسد والعرش والملائكة Lvanow, *Kitab der Islam*, 1936, tome 23, p. 16.

[٣٢] - جعفر بن منصور اليمن : كتاب الكشف ، نشر مصطفى غالب ، ط١، دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٨٤ ، ص ٢٨ .

[٣٣] - أنظر على سبيل المثال المجالس / ٢٦٥ - ٢٦٧ والداعى إدريس القرشي : عيون الأخبار ص ٢٥٨ .

[٣٤] - القاضى النعمان : المصدر السابق ص ٣١٥ .

[٣٥] - نفسه ص ٣٠٩ .

[٣٦] - نفسه ص ١٣٤ .

إلى جانب علم النحو يذكر النعمان كذلك أن المعز كان مؤرخا مؤولا للأحداث التاريخية وليس راويا لها فقط[٣٧] . وكان عالما بكل اصناف العلوم الدينية والدنيوية[٣٨] ، من علم الكلام والفقه والطب والهندسة وعلم النجوم والفلسفة واللغة[٣٩] .

هكذا كان المعز العالم يمثل المدرسة الفكرية بكل معارفها بل كان الموجه لمنهجها ومفاهيمها[٤٠] .

فبعد أن اجتازت الدولة مرحلة التأسيس وتوطيد دعائمها التفتت إلى البناء الحضارى والفكرى استعدادا لتشييد إمامة تحكم كل العالم الإسلامى من بغداد بعد إسقاط الخلافة العباسية. لهذا قام المعز بتوحيد الفكر الإسماعيلى فعمل على كسب إسماعيلية المشرق إلى صفه بعزله الدعاة الثائرين عليه أو المبالغين فى موالاته ، بتحليلهم المحارم أو الخلط بين الدين والفلسفة ونسب ذلك إلى الأئمة[٤١] . هذا التقول و التحريف فى المذهب ونسبه إلى الأئمة يرجع إلى المرجعية العلمية عند الأتباع التى حصرت فى الأئمة فأصبح كل تقول أو تحريف ينسب إليهم فكثرت الكتابات وتنوعت واختلفت مما دفع بالمعز إلى الجمع والتوحيد وسيظل بيت الإمامة هو الذى يشرف ويوجه ما ينشر من علم سواء أكان فقها أم علم حقائق حتى بعد العودة إلى المشرق[٤٢] .

وبناءا على ما سبق فإن الحركة الفكرية المتمثلة فى جمع شتات الفكر وإلغاء اختلافاته هو تأكيد للفكرة القائلة أن لا علم إلا علم الإمام . أى أن الإمام المعز كما جمع كل السلطات فى يده هو الذى يتولى تحديد طبيعة الفكر ووجهته التى تخدم دولته . لهذا عندما كان يسأل إن كان هو المهدى يرد على سائليه قائلا : فضل الله تعالى كثير وواسع ولنا منه قسم جزيل ولمن يأتى من بعدنا فضله ، ولو كان الفضل لواحد لما وصل إلينا منه شئ . فقد كان المهدى مفتاح قفل الفضل والرحمة والبركات والنعمة فبه فتح الله تعالى ذلك للعباد وذلك يتصل عنه فى ذريته حتى يتم وعد الله الذى وعدهم إياه بفضله وقوته وحوله[٤٣] ولكى يتغير المجتمع سياسيا واقتصاديا واجتماعيا يجب أن يتغير علميا وثقافيا على أساس من الفكر الفلسفى . لأن التغيير بالثورة أو العنف دون مسوح فكرى لا يحقق الأهداف المرجوة.

---

٣٧ - أنظر تفاصيل ذلك فى المصدر نفسه ص ١٣٨ - ١٣٩ .
٣٨ - القاضى النعمان : المجالس ، ص ١٤٢ .
٣٩ - نفسه ص ١٤٩ .
٤٠ - نفسه ص ١٤٢ .
٤١ - نفسه ص ١٩٨ ، ٢١٦ ، ٢٣٧ ، ٤٠٨ ، ٤١٩ ، ويذكر هذه الأخبار بجملة دون تفصيل أو تحديد لهذا التبديل والتقول .
٤٢ - القاضى النعمان : إختلاف أصول المذاهب ، ص ٣٨ .
٤٣ - القاضى النعمان : شرح الأخبار فى فضائل الأئمة الأطهار ، مؤسسة النشر الإسلامى ، قم ، ايران ، ١٤٠٩ ، جـ١٥ ، ص ٣٩٠ .

والناظر فى هذا النص يتبين له أن فكرة المهدى عبارة عن مشروع إصلاحى اجتماعى واقتصادى وسياسى ، وهذا الإصلاح مرتبط بإصلاح أمر النـاس الفكـرى . أى عندمـا يأخذون العلم عن الأئمة[٤٤] وعليه المهدى ليس آخر الفضل بل هو بدايته ، وهو الأسـاس الذى بنى عليه المذهب الإسماعيلى وهو الإمام وعلمه سواء أكان هذا الإمام ظاهرا أم مستترا لأنه هو الهادى للبشرية[٤٥].

ووقف العلم على الأئمة دون غيرهم من البشر جعل الدعاة يروجون لفكـرة علـم الأئمة للغيب . وساهم فى بث هذا الاعتقاد فى نفوس الأتباع تحقيـق بعـض التوقعـات المستقبلية مثل ظهور المهدى هذه التوقعات هى التى تعرف بعلم الحدثان الذى كان منتشـرا فى إفريقية أيام الأغالبة . حيث كان الناس يأملون فى الخلاص من جور أمرائهم على يد إمام من آل البيت وهو المهدى . وهو ما تحقق فى السنة التى حددوها[٤٦].

وبالعودة إلى المصادر التي أرخت للدعوة الإسماعيلية نرى أن التنبؤات المستقبلية بدأت أيام مؤسس المذهب الإمام جعفر الصادق الذى تنبأ بفشل كل الثورات التى يقوم بهـا آل البيت بل وحتى العباسيين وهذا الفشل حسب النص سببه التشبه بالمهدى أو إدعاء المهدويـة . والثورة حسب هذا التنبؤ التى ستحرز النجاح هى التى يقودها أبناء الحسين بن على[٤٧].

وتتردد مقولة علم الغيب كثيرا فى كتابات القاضى النعمان مثل علم المهدى المسـبق بثورة صاحب الحمار وحصاره للمهدية . وهو الأمر الذى جعله عند تأسيسها يقيم حولهـا أشد التحصينات انطلاقا من اختيار الموقع[٤٨] . كما أن المهدى تنبأ كذلك بعدم فتح مصـر على يديه ومع ذلك قام بمحاولة الفتح[٤٩].

والسؤال الذى يطرح : هل كان ذلك علما بالغيب أم هو حسن التقدير والقـدرة على الاستشراف ؟ أم هو تأويل للأحداث لصالح الدعوة ؟ أم هو فى الأخير غلو الدعاة ؟

---

[٤٤] - إدريس القريشى : عيون الأخبار ، ص ٢٥٠ .

[٤٥] - القاضى النعمان : المجالس ص ١١٨ -

[٤٦] - القاضى النعمان : كتاب افتتاح الدعوة ص ٨٤ - ٨٧ - ٨٨ - ٨٩ - ٩٩ .

[٤٧] - القاضى النعمان : شرح الأخبار ١٤ / ٢٠٨ .

[٤٨] - القاضى بن النعمان : كتاب إفتتاح الدعوة ص ٢٧٥ ، وحول حقيقة علم الغيب الذى يعلمه الأئمة ، أنظر لنفس المؤلف : الرسـالة المذهبة ، تحقيق عارف تامر (خمس رسائل إسماعيلية) ، دار الإنصاف للتأليف والطباعة والنشر ، سلمية ١٩٥٦ ، ص ٨٢ .

[٤٩] - إدريس القريشى : عيون الأخبار ص ٢٠٨ .

لقد نفى الإمام القائم بأمر الله أن يكون الأئمة يعلمون الغيب ، والدعاة الذين روجوا لذلك هم صادون عن الأئمة وليسوا دعاة لهم[٥٠] ويذهب المعز فى نفس السياق لتوضيح اللبس فيرى أن علم الغيب الذى يعلمه الأئمة ليس الغيب الذى قال فيه الله سبحانه وتعالى " قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله ".

والغيب الذى يعلمه الأئمة هو العلم الذى غاب عن الناس ووهبه الله إلى الأئمة واستحفظهم سره[٥١] . فهو بذلك يؤكد على الأساس الذى بنى عليه الإسماعيليون مشروعيتهم فى السلطة وهو العلم الوهبى الموروث والمنقول من إمام إلى آخر بفضل العناية الإلهية وعليه هذا العلم هو الذى يمنح الإمام القدرة على الاستشراف.

وتحقيق التنبؤات المستقبلية هو الذى أدى ببعض الدعاة إلى الغلو فرفضوا علم الظاهر أى ترك المعنى الظاهرى للنص الشرعى ، وعملوا فقط بالمعنى الباطنى . وهو ما سمح لهم بتأول الأحكام حسب أهوائهم ، فشاع هذا الغلو واستشرى بين الدعاة مما دفع بالمهدى وحفاظا على مصالح الدولة إلى معاقبتهم بالنفى أو السجن . ثم أقدم بعد ذلك على الامتناع عن عقد مجالس لعدة سنوات ، وكان قبل ذلك يجلس إليها بنفسه[٥٢].

ويرجع المعز أسباب عدم أخذ أغلب الدعاة بعلم الظاهر جهلهم بالأحكام ، فعندما كانوا يسألون عن الصلاة مثلا أو الصوم يمتنعون عن الإجابة بحجة أن السائل لم يبلغ الحد الذى يسأل عنه[٥٣].

ولهذا حرص المعز حرصا شديدا على أن لا ينشر الدعاة إلا ما يأمر به أو يصدر عنه وليس ما يضيفه الدعاة على هذا العلم أو تأويلهم له[٥٤].

وهكذا التأويل حتى وإن تعدد فيكون من الإمام ذاته وليس من الدعاة وهذا ما يؤكده قول الإمام جعفر الصادق " إنا لنجيب فى المسألة الواحدة بسبعة أوجه لكل وجه حد فاستكثر ذلك من سمعه وقال بسبعة أوجه يابن رسول الله -صلع- ؟ فتبسم وقال : نعم وسبعون ولو زادوا لزدنا"[٥٥].

---

٥٠ - القاضى النعمان : المجالس ص ٨٤ .
٥١ - نفسه ص ٨٤ - ٨٥ .
٥٢ - القاضى النعمان : إفتاح الدعوة ص ٢٦٧ .
٥٣ - القاضى النعمان : المجالس ص ٥١٤ .
٥٤ - نفسه ص ٤٥٢ .
٥٥ - نفسه ص ٤١٤ .

هكذا يتبين لنا أن العلم مستويات كما أن الدعاة رتب ومستويات ولهذا لا يستطيع الداعية أن يتجاوز حده فى الدعوة[٥٠] .

لقد كان الدعاة فى هذه الفترة فى بلاد المغرب أغلبهم من كتامة ، ولقد صرح الأئمة فى أكثر من مناسبة بعدم قدرة كتامة على استيعاب أفكار المذهب الشيعى لهذا كان إقبالهم على مجالس الدعوة والحكمة بسيطا[٥١] .

إن الفراغ الفكرى الذى عاشته كتامة هو الذى يسر مهمة الداعى بها . فعندما نزل بها عند قدومه مع حجاجها سنة ٢٨٠هـ / ٨٨٣م ، وجد الأرض الخصبة المهيئة التى يبذر فيها بذور مذهبه ، لهذا باشر بعقد مجالس دعوته فى إكجان[٥٢] ، مظهرا فى هذا المرحلة فضائل الإمام على والأئمة من ذريته ، ومن يلمس فيه الاستعداد لتقبل علمه يأخذ عليه العهد وينتقل به إلى علم الباطن[٥٣] ، أى يطلعه على بعض أسرار المذهب .

والتشيع العام عرفته قبيلة كتامة قبل دخول الداعى إليها ، على يدى الداعيتين أبى سفيان الحسن بن القاسم ، وعبد الله بن على بن أحمد الحلوانى[٥٤] . وبذلك يكون الداعى قد نقل الكتاميين من التشيع العام إلى الخاص دون أن يبلغ بهم أعلى المراتب أى ظل يعمل من أجل نشر الفكر السياسى دون الفلسفى.

ولقد ترجم هذا الفكر السياسى على أرض الواقع عندما أحرزت دعوته على بعض الانتصارات العسكرية فقام بتقسيم القبيلة والأرض إلى سبعة أسباع جاعلا على كل سبع داعية وقائد[٥٥] .

ويواصل الداعى الارتقاء بكتامة فى مراتب التشيع عندما يشتد الصراع مع الأغالبة الذين حاصروه فى تازروت ، فيظهر الحكمة لأتباعه[٥٦] بهدف شحن النفوس .

هكذا استطاع الداعى أن يكون جيلاً من الدعاة الكتاميين الذين يتولون مهمة نشر الدعوة فى بلاد المغرب . ومن أشهر هؤلاء الدعاة أفلح بن هارون الملوسى الذى تولى قضاء

٥٦- نفسه.

٥١ -القاضى النعمان: إفتتاح الدعوة، ص٧٩.

٥٢ -القاضى النعمان: إفتتاح الدعوة، ص٦٧.

٥٣ - إدريس القرشى : عيون الأخبار ص ٨٨ .

٥٤ - نفسه ص ٥٤ .

٥٥ - القاضى النعمان : المصدر السابق ص ١٢٧ .

٥٦ - القاضى النعمان : المصدر السابق ص ١١١ .

القضاء ورئاسة الدعوة أيام الخليفة عبيد الله المهدى . وكانت مجالس دعوته شاملة لكل فئات المجتمع . فالنساء كان لهم مجلس ، وكذلك الصناع والحرفيون ، والفلاحون والرعاة[٥٧] .

وعلى الرغم من هذه المكانة التي بلغها هذا الداعية الكتامي إلا أن المصادر الشيعية عندما تتحدث عن إنتاجه الفكرى الذى أسهم به فى بناء المدرسة الشيعية فى بلاد المغرب تذكر أنه كان نساخا للكتب فقط سواء كانت فقهية أم فى الآثار وفضائل آل البيت[٥٨] وبذلك يكون قد ساهم فى عملية جمع التراث الإسماعيلى دون الإبداع والتأليف .

وإذا قارنا ذلك بما كان يجرى فى المشرق فإن المشرق كان يعج بالأفكار الفلسفية والعقائدية فغالى دعاته كذلك فى علم الأئمة وتخلوا عن ظاهر الدين وأخذوا بباطنه لكن ذلك كان بسبب استخدامهم الفلسفة فى الدين والخلط بين الدين والفلسفة . فلم تكن آراؤهم فلسفية محظة ولا دينية صرفة[٥٩] فالمشرق غالى فاستطاع أن يتأول النصوص كما استطاع أن يمزج الموروث بالدين مما أعطى للدعاة حرية استقراء النص واستخراج الأحكام منه حسب هوى كل مؤول فكثرت بذلك الخلافات وكثر معها التأليف مما دفع بالإمام المعز إلى جمع هذا التأليف وتوحيده وتوجيهه الوجهة الرسمية وأوكلت هذه المهمة إلى القاضى النعمان .

أما فى المغرب فإن نكران المهدوية توقف عند حد العمل العسكرى واكتفت كتامة بتنصيب مهدى من إحدى قبائلها على صورة المهدى الفاطمى .

والكتابات الفاطمية الرسمية فرضت التعتيم على هذه الحركة واكتفت بتكفير مهدى كتامة واتهامه بادعاء النبوة والوحى وتنصيب دعاة على نفس التنظيم الدعوى الذى كان الداعى ينشر من خلاله ويروج لفكره المهدى الفاطمى[٦٠] .

---

٥٧ - إدريس القرشي : عيون الأخبار ص ٢١٢ . ظل هذا النظام فى نشر الدعوة متبعا حتى بعد العودة إلى المشرق ففى العهد الخليفة الحاكم بأمر الله كان مكلف بالدعوة الحسين بن على بن نعمان (ت ٣٩٥هـ / ١٠٠٣م يفرد للأولياء مجلسا وللقضاة وشيوخ الدولة مجلسا آخر فى القصر ، وعوام الناس والطارئين على البلد مجلسا أما نساء القصر كان لهن مجلسا خاصا بهن فى القصر ولعامة النساء مجلسا فى الجامع الأزهر ، تقى الدين المقريزى : المقفى الكبير ، نشر محمد البعلاوى ، ط١ ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ١٩٨٧ ، ص٣٩٦ .

٥٨ - نفسه ص ٢١١ .

٥٩ - القاضى النعمان : المجالس ص ٤٠٨ .

٦٠ - ابن عذارى : البيان ١/١٦٦ - ١٦٧ . عبد الرحمن ابن خلدون : العبروديوان المبتدأ والخبر ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ١٩٨١ ، مجـ ٧٨/٧/٤. المقريزى : المقفى ص ٩٠ . إدريس القرشي : عيون الأخبار ص ١٩٠ .

هكذا يتضح لنا أن كتامة المحدودة الفكر عندما انشقت لم تستطع أن تنتج فكرا يضاد الفكر الرسمي بل كل ما عملته أنها استنسخت صورة المهدى الفاطمي دون إعطاء فكرى أو مذهبي ، بل يمكن القول أنها استنسخت فكر المهدى .

ولاغرو أن تأسيس المدرسة الفكرية فى المرحلة المغربية هو نتاج الجهود التى بذلت أيام الخلفاء الأوائل كالمهدى والقائم من أجل توطيد أركان الدولة بسيادة الفكر الذى قامت عليه وهذا استعداد للعودة إلى المشرق بعد أن تشمله سيادة فكرها بعد توحيده .

فعندما جاء المعز إلى السلطة وحرصا منه على تحقيق هدف العودة اتخذ موقفا مخالفا للأئمة السابقين من المعارضة سواء كانت مالكية أم أباضية[٦١] .

والسياسة التى اتبعها المعز تجاه الخصم هى التى وفرت له جو توحيد المذهب الإسماعيلى وأسند هذه المهمة وكما سلف القول إلى القاضى النعمان قاضى القضاة وداعى الدعاة ، وأحد أبناء كبار الدعاة فى اليمن وهو جعفر بن منصور اليمن ، لأن المعز لم يجد من أهل المغرب من يستطيع القيام بهذه المسؤولية . فلقد كان كثير الشكوى بجهل أهل إفريقية[٦٢] وتمكن من توحيد هذا الفكر بعد أن كسب ولاء بعض المنشقين عنه فى المشرق ، فأصبح الدعاة يبعثون إليه بأسئلتهم المتعلقة بالمذهب فيجيب عنها[٦٣] .

واستمرت هذه الاتصالات مع الدعاة فكانوا يخبرونه بكل ما يجرى فى جزرهم ، وهو بدوره يخبرهم بما يجرى فى دولته .

حركة التأليف وتأسيس المكتبات :

إن الأسس التى قام عليها المذهب الإسماعيلى وهى العلم الألوهى الربانى الذى يعطى للإمام شرعية تأويل النصوص الدينية – وهى نفس الأسس التى بنيت عليها الإمامة – أعطت ثراءا فى التدوين .

لهذا يتساءل الدارس إذا كان الفكر الإسماعيلى منطلقة العلم الربانى الذى يعتمد على التأويل الباطنى للنصوص ، فهل اعتمد دعاته عند نشرهم للدعوة على الرواية الشفهية أم على كتب مدونة ؟ خصوصا وأن الدعوة سرية والخلافة العباسية تبث عيونها فى كل مكان لمنع هذه الدعوة من الانتشار .

---

[٦١] – أبو زكريا : السير ص ١٣٨ – ١٤٠ .
[٦٢] – القاضى النعمان : المجالس ص ٣٩٦ .
[٦٣] – القاضى النعمان : المجالس ص ٢٣٦ . فرهارد دفترى : الإسماعيليون تاريخهم وعقائدهم ٥٢/٢ .

ففى بلاد اليمن مركز الدعوة ومدرسة إعداد الدعاة كان الداعية ابن حوشب وابن الفضل الجيشانى عندما دخلاها وجدا بها من يمتلك كتبا تنبئ وتبشر بظهور المهدى وتتحدث عن أخباره وكذلك أخبار الدعاة الذين يأتون إلى بلاد اليمن يدعو له بها قبل ظهوره وهما ابن حوشب ورفيقه[٦٤] .

أما بلاد المغرب فيذكر المؤرخون أن أبا عبد الله الداعى عندما كلف بنشر المذهب وأثناء وجوده فى سجلماسة لإخراج المهدى من سجنه كانت معه كتب ينظر فيها[٦٥] .

ويفترض أن تكون هذه الكتب قد حملها معه إلى بلاد كتامة عند دخوله إليها كما أن كبير دعاة كتامة أفلح بن هارون الملوسى استنسخ كتبا كثيرة فى الفقه وفضائل أهل البيت .

وخطب الإمام على وأبنائه أيام الخليفة المهدى[٦٦] يرجح كذلك أن يكون النسخ قد تم أيام الدعوة السرية وعند تأسيس الدولة وأثناء قدوم الإمام عبيد الله المهدى من الشرق كانت معه كتب ملاحم أخذت منه فى برقة[٦٧] .

ومن الدعاة الذين كانت لهم تآليف فى بداية الدولة فى عهد خليفتها الأول المهدى الداعى الطالبى أبو على باب الأبواب (ت ٣٢١) ومن مؤلفاته كتابه الموسوم " أمهات الإسلام" رد فيه على الفلاسفة والأمم المخالفين للإسلام كما عرض فيه كذلك إلى التأويل وحقيقة وجوده وظل الداعى الطالبى يؤلف إلى أن توفى[٦٨] .

ومن الدعاة الذين كانت لهم مؤلفات وعاصروا الخليفة المهدى ، أحمد بن الأسود بن الهيثم الذى نقل عنه أخبار الدعوة والدولة الداعى إدريس القرشى الذى توفى فى القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادى[٦٩] .

وظلت حركة التأليف فى عهد المهدى نشطة فالداعى أبو اليسر الرياضى الذى تولى خطة الكتابة بعد تأسيس الدولة صنف كتبا فى علوم شتى منها علوم الحديث والقرآن والأدب[٧٠] .

---

[٦٤] - القاضى النعمان : شرح الأخبار ١٥ / ٤٠٧ .
[٦٥] - أبو زكريا : السير / ١١٠ .
[٦٦] - إدريس القرشى : عيون الأخبار ص ٢١١ .
[٦٧] - القاضى النعمان : إفتتاح الدعوة / ١٥١ ، إبن عذارى : البيان ١/١١٠ . المقريزى : إتعاظ الحنفا / ٦١ . والمقفى / ٨٤ . إبن حلدون : العبر / ٧١/٧ .
[٦٨] - إدريس القرشى : المصدر السابق ٢٣٦/ .
[٦٩] - نفسه / ٢١١ .

والقاضى النعمان الذى نال شهرة واسعة فى عهد الخليفة الرابع المعز لدين الله بدأ هو الآخر تصنيف الكتب أيام الخليفة المهدى فكتابه " مختصر الإيضاح " وهو عبارة عن أحاديث وأخبار تروى عن الأئمة من آل البيت[71] ألفه فى هذه الفترة كما أن كتابه الذى وضعه فى آداب التعامل مع الأئمة وهو " كتاب الهمة فى آداب إتباع الأئمة " يرجح أنه صنفه فى آخر عهد المهدى أو بداية عهد القائم[72] .

هذه الكتب إلى جانب ما حمله معهم الدعاة الذين قاموا بنشر مذهب فى بلاد المغرب هى التى كونت النواة الأولى للمكتبة الإمامية بإفريقية فبعد تأسيس الدولة اهتم الخليفة المهدى باقتناء الكتب وجمعها بل صادر من المخالفين لمذهبه كتبهم فالفقيه المالكى سعدون بن أحمد الخولانى (ت ٣٢٧) كان يمتلك كتب الحدثان فصادرها منه المهدى[73] .

ومن علماء المالكية الذين صودرت كتبهم ووضعت فى خزانة القصر كتب الفقيه أبى محمد عبد الله بن أبى هاشم (ت ٣٤٦) وكانت هذه الكتب فى علوم شتى[74] .

وعندما كان الداعى يقوم بإسقاط الدولة الحاكمة فى بلاد المغرب وهو فى طريقه إلى سجلماسة استولى على تاهرت عاصمة الرستميين سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٩م ، وجد بها مكتبة عامرة بالكتب فأخرجها كلها واقتنى منها ما يصلح للملك والحساب وأحرق الباقى[75] .

أما المصدر الآخر الذى مد المكتبة الإمامية بالكتب هو ما كان يؤلف فى بلاد المشرق فى بغداد حتى ولو كان فى أخبار بنى العباسى[76] .

وظلت الكتب التى تؤلف فى المشرق من طرف الداعة ترسل إلى بلاد المغرب فكتاب "الزينة" الذى ألفه أبو حاتم الرازى فى فضل اللغة العربية ومنافع الشعر واشتقاقات أسماء الله الحسنى أرسل إلى الخليفة القائم بأمر الله لم يسمح لولى عهده المنصور بالإطلاع على بعض

---

[70] – إبن عذارى : البيان ١٦٣/١ .
[71] – إدريس القرشى : المصدر السابق / ٥٦٠ .
[72] – فرحات الدشراوى : كيف صار القاضى النعمان فقيه الدولة الفاطمية فى المغرب ، أعمال الملتقى القاضى النعمان الثانى ، المهدية ، من ٤ – ٧ أوت ١٩٧٧ ، وزارة الشوون الثقافية ، تونس ١٩٨١ ، / ٢١٣ .
[73] – المالكى : رياض النفوس ٢٥٩/٢ .
[74] – نفسه ٤٢٢/٢ . القاضى عياض اليحصبى : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، تحقيق أحمد بكير محمود ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، دار الفكر طرابلس الغرب ، ٣٤٠/٣ .
[75] – أبو زكريا : السير / ١١٣ ، أبو العباس الدرجينى : طبقات المشايخ بالمغرب ، تحقيق إبراهيم الطلاى ، مطبعة البعث ، قسنطينة ١٩٧٤ ، ٩٤/١ – ٩٥ .
[76] – القاضى النعمان : المجالس / ٣٢٠ .

أجزائه[٧٧] ، وهذا لكون الكتاب فى علم الباطن على الرغم من أن مادته تبدو فى علم الظاهر. وإهتمام الأئمة بالعلم واقتناء الكتب واستنساخها وتصنيفها فى خزانة القصر جعلهم يعينـون موظفا مهمته هى جمع الكتب واستنساخها وحفظها . وأسندت هذه الوظيفة فى عهد كـل من المهدى والقائم إلى القاضى النعمان وكان المسؤول عن المكتبة أحد أبناء البيت الحـاكم وهو المنصور ولى عهد القائم[٧٨] .

وفى عهد الخليفة المنصور تولى هذه الخطة الأستاذ " جوذر الصقلى " الـذى كـان يدخر عنده نفيس ما تحتوى عليه هذه المكتبة[٧٩] .

ويمدنا صاحب سيرة جوذر[٨٠] ببعض عناوين هذه الكتب عندما يتحدث عـن أمـر المنصور جوذر باستنساخ كتب منها كتاب الإيضاح للقاضى النعمان وخطبة للقائم وأخرى للمنصور ذاته[٨١] .

وفى خزانة الكتب تلك كان الخليفة المعز يقضى ليلة يطلع على محتوياتها خصوصا مـا كان منها فى علم الباطن الذى لا يطلع عليه إلا الأئمة . وفى نفس الوقت كان يؤلـف فى لياليه تلك[٨٢] .

ويمكن القول بعد هذا العرض السريع لمواضيع الكتب نرى أن معظم المؤلفات كـانت دينية وعقائدية وفلسفية وهو ما يرجح أن يكون قد شكل الرصيد الأكبر فى مقتنيات هـذه المكتبة .

ومن القرائن على ذلك أن الأئمة عندما كانوا يصادرون كتب المخـالفين لهـم فى المذهب كانت إما فى علم الحدثان أو الحساب والرياضيات ولعلم الرياضيات علاقة وطيـدة بعلم الفلسفة الذى أستخدم فى التأويل .

ومن العلوم كذلك علم النجامة الذى اهتم به الأئمة اهتماما كبيرا . فالخليفة المنصور برع فيه وكان غرضه من ذلك هو التوحيد وليس معرفة الغيب[٨٣] وكان الخليفة المعز يرى أن

---

[٧٧] - إدريس القرشى : عيون الأخبار / ٦٢٦ ، حول شخصية هذا العالم ومولفاته ، انظر : Lvanow, op.cit, pp. 24 - 26 ؛ نشر كتاب الزينة فى القاهرة سنة ١٩٥٦ من طرف حسين بن فيض الله الهمدانى .

[٧٨] - القاضى النعمان : المجالس ٨٠ / .

[٧٩] - العزيزى الجوذرى : سيرة الأستاذ جوذر / تحقيق محمد كامل حسين ، ومحمد عبد الهادى شعيرة ، القاهرة ، / ٥٣ .

[٨٠] - نفسه / ٥٣ .

[٨١] - نفسه .

[٨٢] - القاضى النعمان : المصدر السابق / ٥٠ .

[٨٣] - القاضى النعمان : المجالس / ١٢١ - ١٣٢ .

النظر فى النجامة هو لمعرفة حساب السنين ومواقيت الليل والنهار وهى دلائل على التوحيد[٨٤] لذلك طلب من النعمان أن يضع له أسطرلاب ، فاختار النعمان ذلك ابنه محمد ليشرف على الصانع الذى كلف بوضعه[٨٥] وتبدو استفادة الإسماعيلية من هذا العلم جلية ، فعلى نظام الكون نظموا دعوتهم ، كما جعلوا العلم والحكمة تنتقل من إمام إلى آخر تدريجيا وليس دفعة واحدة كنمو الخلق وتحول الفصول[٨٦] .

ومن خلال ما سبق نرى أن العلوم التى حازت على اهتمام الأئمة هى العلوم التى تستخدم فى عملية استشراف المستقبل كعلم الحدثان والرياضيات والنجامة وكلها ترتبط بالفلسفة التى عالج بها الأئمة قضية الإمامة ما عدا علم الحدثان .

وإذا نظرنا إلى الكتب التى كانت تدرس فى مجالس الدعوة نرى أن القاضى النعمان داعى الدعاة كان يجلس للفقه فى المسجد وفى القصر يجلس لعلم الباطن تتلى فيه الكتب بعد صلاة العصر فى كل يوم جمعة ، وكان أغلبية المتلقنين فى هذا المجلس الذى يعقد بالقصر من كتامة[٨٧] .

وكان الإمام المعز هو الذى يحدد الكتب التى تتلى فى مجلس القصر ومن بينها كتابى القاضى النعمان " دعائم الإسلام "[٨٨] و " اختلاف أصول المذاهب "[٨٩] المتمم والمكمل للدعائم فالدعائم يؤسس ويؤصل الفقه الإسماعيلى كما يروى عن الأئمة والثانى فى المنهج الذى أصل به هذا الفقه .

لقد كان القاضى النعمان - كما سلف القول - هو الذى يجلس للعلم سواء فى المسجد أو القصر[٩٠] كما كان هو المؤلف للكتب التى تتلى فى هذه المجالس والتى مازال بعضها يتداول بين الأتباع لحد الآن مثل كتاب الدعائم الذى ضمنه القواعد الفقهية للمذهب وهى الأسس السبعة التى يقوم عليها الإسلام حسب رأى الإسماعيلية .

---

[٨٤] - نفسه / ٣٤٩ .
[٨٥] - المقريزى : المقفى / ٣٦١ .
[٨٦] - القاضى النعمان : المجالس / ٢٦٧ .
[٨٧] - إدريس القرشى : عيون الأخبار / ٦١٨ .
[٨٨] - نفسه / ٣٠٦ .
[٨٩] - فرحات الدشراوى : المرجع السابق / ٢١٣ .
[٩٠] - القاضى النعمان : المصدر السابق / ٣٨٦ .

هكذا تولى النعمان مهمة تأليف الكتب أو جمعها واستنساخها وتولى معه هذه المهمة إبن كبير الدعاة جعفر بن منصور اليمن[٩١] ، الذى لعب دورا كبيرا فى صياغة الفكر الإسماعيلى صياغة تأويلية باطنية . أما القاضى النعمان فلقد جمعت كتاباته ما بين الظاهر والباطن وكان باطن علمه باطن فقيه وليس باطن فيلسوف غاص فى أعماق الفكر الفلسفى مثل جعفر بن منصور اليمن وهذا التبحر فى فكر جعفر جعله يتقدم على النعمان ويحظى بالمركز الأسمى فى التنظيم الدعوى .

إن أخذ المذهب الإسماعيلى بالفلسفة جعله يتمتع بالقدرة على التلاؤم مع كل تراث وهو ما أعطى فى نفس الوقت حرية للدعاة فى تأويل النصوص فكثرت الخلافات والاختلافات فى هذا الفكر . وهذه الكثرة فى التنوع وفى الإنتاج هى التى دفعت بالمعز إلى جمع التراث وصياغته بما يتلاءم وأهداف الخلافة خصوصا إذا كان بعض هذا الإنتاج يشكل خطرا على الخلافة ويهددها بالانقسام.

والسؤال الذى يطرح : هل هؤلاء الدعاة كانوا مبدعين أم ناسخين فقط وجامعين لهذا الفكر ؟ إن الناظر فى المصادر الشيعية يرى أن كل الأخبار التى وردت عن التدوين فى المرحلة الإفريقية تبين أن واضعى هذا الفكر هم الأئمة من آل البيت فالقاضى النعمان ينسب كل ما ألفه إلى الخليفة المعز[٩٢] .

وإذا سلمنا بذلك وفى غياب رواية أخرى مخالفة فإن مكانة المرحلة المغربية بين المراحل التى مر بها هذا الفكر هو الجمع والصياغة الرسمية . وهو ما تحتاجه الخلافة فى هذه الفترة لكى يسهل عليها العودة إلى المشرق وحكمه مع المغرب بالمذهب الإسماعيلى .

أما الدور الآخر فهو نشر المعارف العقلية التى لم تكن منتشرة من قبل فى بلاد المغرب منها الفلسفة التى انتشرت كتبها فكانت مؤلفات أرسطوطاليس فى الفكر السياسى معروفة فى بلاد المغرب بل حتى فى أقصى أطرافه مثل سجلماسة[٩٣] . والفلسفة إن تكن قد دخلت المغرب قبل الفاطميين فإن الفضل يرجع لهم فى نشرها وإعطائها مكانة خاصة .

والميزة الأخرى للمرحلة المغربية أنها أدخلت منهجا علميا ومعرفيا جديدا إلى بلاد المغرب لم يكن معمولا به من قبل . وهذا المنهج مرتبط بالمذهب وملازم له فالعلم الألوهى

---

[٩١] - توفى بالمغرب سنة ٣٤٧هـ / ٩٥٨م . ما تزال بعض مؤلفاته مخطوطة مثل كتاب الشواهد والبيان ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ميكروفيلم رقم ٣٠٤٤٤ عقائد تيمور .

[٩٢] - نفسه / ٤٠١ ، إدريس القرشى : عيون الأخبار / ٥٦٠ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ .

[٩٣] - إدريس القرشى : عيون الأخبار / ٦٢٦ .

الذى مصدره الإمام يلقن للأتباع حسب قدراتهم العقلية وينتقل من إمام إلى آخر انتقالا وراثيا أى تواصل المدد الإلهى . وبذلك رفضوا العمل بالرأى والقياس اللذين عملا بهما السنة لهذا عاب جعفر بن منصور اليمن على بعض الشيعة إتباعهم منهج القياس كالسنة[٩٤] وعليه الصراع هو صراع فكر ومنهج فى ذات الوقت .

ويمكن القول أنه إذا كان الفضل يرجع للخليفة المعز فى جمع الفكر الإسماعيلى وتوحيده فإن للخلفاء الذين سبقوه دورا فى ذلك ، فهم الذين وطدوا له الحكم ووفروا له الاستقرار حتى يستطيع أن يقوم بهذا الدور الفكرى لكى يعود إلى المشرق .

ويبدو أن المعز أدرك جيدا أن السياسة التى انتهجها الأئمة الذين سبقوه فى الحكم المهدى ، القائم ، هى التى زادت من عداوة المخالفين لهم فى المذهب من سنة وخوارج ، لذلك تفطن المنصور إلى هذا السلوك السياسى فتعامل مع الخوارج الذين ثاروا عليه بزعامة أبى يزيد صاحب الحمار بالقوة وداهن السنة المالكية حتى يكسر الحلف الخارجى السنى فأرضاهم بقتل بعض الدعاة ونفى البعض الآخر إلى الأندلس وغيرها من المناطق ، كما سمح للفقهاء أن يفتوا ويعملوا بالمذهب المالكى[٩٥] .

فعندما جاء المعز إلى الخلافة عول على أسلوب التعايش الفكرى مظهزا تقديره للعلماء بما فيهم علماء الخوارج[٩٦] .

والذى ساعد كذلك على ازدهار الحياة الفكرية أيام المعز ، إباحته مجالس الدعوة لكل الراغبين فى علم الأئمة هذه المجالس التى ظلت سرية إلى غاية عهد الخليفة المنصور وربما يعود السبب فى ذلك أن عهد هذا الخليفة عرف اضطرابات كثيرة بسبب ثورة صاحب الحمار ، والتى تسببت فيها سياسة الخليفة المهدى الدعوية فلقد كان يحمل الناس بالقوة على التشيع ويمنعهم من الإفتاء بغير المذهب الإسماعيلى[٩٧] .

ولأن المغرب كان الفكر المالكى والإباضى فيه لا يشكلان خطرا على الفكر الإسماعيلى بل الذى كان يهم الأئمة هو توفير الاستقرار السياسى فى المنطقة لتسهل العودة إلى المشرق وهذا يفرض على المعز وقبل الرحيل أن يوحد المذهب حتى لا يواجه بخصم من داخل المذهب ذاته ليتفرغ للعدو العباسى ، فيسقط دولته ببغداد ويحكم هو منها العالم

---

٩٤ - جعفر بن منصور اليمن : سرائر وأسرار النطقاء ، تحقيق وتقديم مصطفى غالب ، ط١ دار الأندلس بيروت ١٩٨٤ / ٢٤٤ ، ٢٥٠ .

٩٥ - القاضى عبد الجبار الهمدانى : إثبات دلائل النبوة ، نشر د/ سهيل زكار فى الجامع فى أخبار القرامطة ، جـ١ ، ص ٣١٠ .

٩٦ - أنظر تفاصيل ذلك عند أبى زكريا : السير / ١٤٨ .

٩٧ - المالكى : رياض النفوس جـ٢ ، ص ٢٦٥ .

الإسلامى لأن المهدية لم تكن هى المستقر فعندما أسسها المهدى إتخذها دار هجـــرة فقـــط للإمام القائم بأمر الله[٩٨] وعلى الأئمة الذين يأتون من بعده تقع فريضـــة الجـــهاد الفكـــرى والعسكرى حتى تتحقق العودة إلى المستقر وهو بغداد .

وأخيرا للكشف عن طبيعة الفكر ذاته ومدى صلته بالفكر القرمطى يتطلب دراســـة قائمة بذاتها بمقارنة المؤلفات القرمطية المتوفرة مع ما ألف فى مرحلة جمع وتوحيـــد الفكـــر الإسماعيلى ، أى المرحلة المغربية ، مثل كتابات الداعى منصـــور اليمن[٩٩] المعـــروف بـــابن حوشب ، وابنه جعفر والقاضى النعمان وغيرهم من الدعاة الذين وصلتنا مؤلفاتهم .

---

[٩٨] – إدريس القرشى : زهر المعانى / ٢٢٠ .

[٩٩] – من مؤلفاته المشورة البيان فى مباحث الإخوان ، تحقيق مصطفى غالب ، ط١ ، سلمية ١٩٥٦ ، وينسب إليه كما ينسب إلى ولـــده جعفر كذلك كتاب " العالم والعلام " ، نشر مصطفى غالب ضمن أربعة كتب حقانية ، ط١ ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٣ .

المصادر والمراجع

أولاً المصادر

- جعفر بن منصور اليمن (ت ٣٤٧هـ / ٩٥٨م) : كتاب الكشف ، تحقيق/ د. مصطفى غالب الطبعة الأولى ، دار الأندلس ، بيروت ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

............، سرائر وأسرار النطقاء ، تحقيق/ د. مصطفى غالب ، الطبعة الأولى ، دار الأندلس ، بيروت ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

............، العالم والغلام ، أربع كتب حقانية ، نشر/ مصطفى غالب ، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت، ١٩٨٣ .

- الجوذرى،منصور العزيزى (ت أواخر القرن ٤هـ / ١٠م) : سيرة الأستاذ جوذر ، تحقيق/ محمد كامل حسين وعبد الهادى شعيرة ، القاهرة .

- ابن حوشب منصور اليمن : البيان فى مباحث الإخوان ، تحقيق/ مصطفى غالب ، سلمية ١٩٥٦ .

- ابن خلدون، أبو زبد عبد الرحمان بن محمد (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥ - ١٤٠٦م) : المقدمة وكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، ١٩٨١م .

- الدرجينى، الشيخ أبو العباس أحمد ابن سعيد (ت ٦٧٠هـ / ١٢٧١م) : كتاب طبقات المشائخ بالمغرب ، تحقيق/ إبراهيم الطلاى ، مطبعة البعث ، قسنطينة ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.

- ابو زكريا يحى بن أبى بكر (ت ٤٧١هـ / ١٠٧٨م) : كتاب سير الأئمة وأخبارهم ، تحقيق وتعليق /إسماعيل العربى ، المكتبة الوطنية ، الجزائر ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .

- عبدان الداعى القرمطى (ت : القرن ٣هـ / ٩م) : شجرة اليقين ، تحقيق/ عارف تامر ، ط١، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٨٢ .

- ابن عذارى المراكشى، ابو عبد الله محمد (ت نهاية القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى): البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق/ ومراجعة ج.س. كولان وأ.ليفى بروفنسال ، الطبعة الثالثة ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٣ .

- القاضى عياض، أبو الفضل بن موسى بن عياض اليحصـى السـبتى (ت ٥٤٤هـ / ١٠٤٩م) : **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، تحقيق/ د. أحمد بكير محمود ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، دار الفكر ، طرابلس الغرب .**

- القرشي، الداعي المطلق إدريس عماد الدين (ت ٨٢٧هـ / ١٤٨٨م) : زهر المعاني ، تحقيق/ د. مصطفى غالب ، الطبعة الأولى ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ١٤١١هـ / ١٩٩١م .

..............، عيون الأخبار وفنون الآثار السبع الخامس وقسم من السبع السادس ، نشر/ محمد اليعلاوى تحت عنوان تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ١٩٨٥م .

- المالكى، أبو بكر عبد الله بن محمد (ت : أواخر القرن ٥هـ / ١١م) : رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وإفريقية ، تحقيق/ بشير البكوش ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ١٩٨٥م .

- المقريزى، تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) : كتاب المقفى الكبير) تراجم مغربية ومشرقية من الفترة العبيدية) ، اختيار/ د. محمد اليعلاوى ، الطبعة الأولى ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

..............، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، تحقيق/ د. جمال الدين الشيال ، لجنة إحياء التراث الإسلامى ، القاهرة ، ١٩٦٧م .

- النعمان، القاضى ابو حنيفة محمد بن محمد بن حيون التميمى المغربى (ت ٣٦٣هـ / ٩٧٣م) : اختلاف أصول المذاهب ، تقديم وتحقيق/ د. مصطفى غالب ، الطبعة الثالثة ، دار الأندلس بيروت ١٩٨٣م .

..............، تأويل الدعائم ، تحقيق/ محمد حسين الأعظمى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف القاهرة .

..............، دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله عليه أفضل السلام ، تحقيق/ آصف بن على أصغر فيضى ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م .

......، رسالة افتتاح الدعوة ، تحقيق/ وداد القاضى ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٠م .

......، الرسالة المذهبة ، نشر/ عارف تامر ، ضمن خمس رسائل إسماعيلية ، دار الإنصاف للتأليف والطباعة والنشر ، سلمية ١٩٥٦ .

..............، شرح الأخبار فى فضائل الأئمة الأطهار ، مؤسسة النشر الإسلامى ، قم، إيران ١٤٠٩ .

..............، المجالس والمسايرات ، تحقيق/ الحبيب الفقى ، إبراهيم شبوح ، محمد اليعلاوى الجامعة التونسية ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، تونس ١٩٧٨م .

..............، الهمة فى آداب اتباع الأئمة ، تحقيق/ د. مصطفى غالب ، دار مكتبة الهلال بيروت ١٩٨٥م .

- النيسابورى، احمد بن إبراهيم : كتاب استتار الإمام عليه السلام وتفرق الدعاة فى الجزائر لطلبه، نشر/ سهيل زكار فى الجامع فى أخبار القرامطة ، دار حسان ، دمشق ، ١٩٨٧.

- اليمانى، محمد بن محمد (مان حيا أواخر القرن ٤هـ / ١٠م) سيرة الحاجب جعفر ، نشر/إيفانوف ، بمجلة كلية الآداب ، الجامعة المصرية ، ١٩٣٦م .

ثانياً المراجع

- إسماعيل، محمود : الخوارج فى المغرب الإسلامى ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، دار العودة ، بيروت ١٩٧٦ .

- الدشراوى، فرحات : الخلافة الفاطمية بالمغرب ٢٩٦ - ٣٦٥هـ / ٩٠٩ - ٩٧٥م التاريخ السياسى والمؤسسات ، نقله الى العربية حمادى الساحلى ، الطبعة الأولى ، دار الغرب الإسلامى بيروت ١٩٩٤م .

...........، كيف صار القاضى النعمان فقيه الدولة الفاطمية بالمغرب ، ملتقى القاضى النعمان للدراسات الفاطمية الدورة الثانية المهدية ٧ - ٤ أوت ١٩٧٧م ، وزارة الشؤون الثاقفية ، تونس ١٩٨١م .

- دفترى، فرهارد : الإسماعليون تاريخهم وعقائدهم ، الجزء الأول ، تطور الإسماعيلية حتى العصر الفاطمى ، ترجمة سيف الدين القصير ، دار الينابيع ، دمشق ١٩٩٤م .

.........، الإسماعيليون تاريخهم وعقائدهم ، الجزء الثانى ، تطور الإسماعيليـــة حـــتى العصر الفاطمى ، ترجمة سيف الدين القصير ، دار الينابيع ، دمشق ١٩٩٥م .

- عباس، إحسان : مصادر ثروة أبى يزيد مخلد بن كيلاد ، أشغال المؤتمـــر الأول لتـــاريخ المغرب العربى وحضارته ، الجامعة التونسية ، تونس ١٩٧٩ .

- عوا، عادل : معنى التاريخ فى الفكر الإسماعيلى ، أشغال المؤتمر الدولى لتاريخ بلاد الشام ، الطبعة الأولى ، الدار المتحدة للنشر ، بيروت .

- ال--- الحبيب : التأويل أسسه ومعانيه فى المذهب الإسماعيلى (القـــاضى النعمـــان) ، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية ، تونس .

Lvanow, W: *Ummu t - Kitab der Islam*, tome 23, 1936 .

: *A Guide to Ismaili Literature*, London, 1933 .

.... : *The Rise of the Fatimide*, Calcuta 1942 .

Ponawala Ismail: *Bibliography of Ismaili literature*, California, 1977.

مجلس نابلس
(٢٣ يناير ١١٢٠ م)
وأحوال مملكة بيت المقدس الصليبية

د. / حسين محمد عطية
كلية الآداب – جامعة طنطا

في ٢٣ يناير ١١٢٠ م عقد فرنج مملكة بيت المقدس الصليبيـــة اجتماعـــا في مدينة نابلس برئاسة الملك بولدوين الثاني (١١١٨-١١٣٠م) وجـــيرموند بطريـــرك كنيسة بيت المقدس (١١١٨-١١٢٨م). وضم المجلس كل كبار رجال الدين والسـادة العلمانيين بالمملكة. وعرف هذا الاجتماع بمجلس نابلس Council of Nablus (1) وبصفة عامة، فأن اجتماع هذا المجلس لم يشد-بدرجة كبيرة-حتى الآن، انتباه مؤرخي الحروب الصليبية الحديثين. ومن عرض له منهم، عالجة بشكل سريع وبالمصادفة خـلال معالجته لمؤسسات مملكة بيت المقدس الصليبية (٢)، الأمر الذي جعله يتـــواري، مـــن حيث الأهمية، دون أن يشعر به قارئ تاريخ هذه المملكة الناشئة. وهذا البحث، هـــو محاولة لإلقاء الضوء على طبيعة هذا المجلس، وأسباب انعقـــاده، وأهدافــه، وطبيعـة القرارات التي تضمنها المرسوم الذي أصدره المجتمعون فيه، ومدى توافقها مع ضـرورة انعقاده، ومدى ارتباطها بأحوال مملكة بيت المقدس الصليبية آنذاك، وأخيراً، موقـــف المؤرخين اللاتين تجاه هذا الحدث.

أما عن طبيعة هذا الاجتماع، فقد اعتبره وليم الصوري-الذى افـــرض لهـــذا المجلس فصلاً كاملاً من حوليته-"اجتماعاً شاملاً ومجلســـاً عامـــاً"-Co n ventum publicam et cu riam generalem (٣). أما فى عنوان هذا الفصل، فقـــد جعلـــه وليم "مجلساً كنسياً" synodus (٤). كما اعتبره كذلك الكاتب البندقى جربـــانوس Cerbanus، حيث أشار في رسالة له إلى أسقف كاستللر يونفاس فالييه Bonifazio Falier، ألي مجلس كنسى Synodo Celebrata عقده بطريرك بيت المقدس وملـــك بيت المقدس (٥). وكان عنوان الوثيقة الرسمية التي تضمنت قرارات المجلس، هو "مجلـــس نابلس" Concilum Neapolitanum الذي دعـــا ألي انعقاده كـــل مـــن الملـــك والبطريرك(٦). واعتبره المؤرخ هانز ماير "برلماناً "p arlement لمشاركة العلمــــانيين من ســـادة المـــلكة الصليبية فيه(٧). ولما كان المجلس الكنسي يعقـــد دائمـــا برئاسة البطريرك، وفى مقره الكنسي في بيت المقدس ولا يشارك فيه العلمانيون، ولمـــا كـــان بطـــارقة بيت المقدس يشاركون دائما في مجالس المملكة التي تنـــاقش أمـــوراً تخـــص المملكة بصفة عامة، فإنه مـــن الممكن اعتبار هذا الاجتماع مجلساً صليبيا عاديا مثـــل

كـل المجـالـس الصليبيـة التـي كـان الملـك يـدعـو لاجتمـاعهـا، ونقـطـة الاختـلاف الـوحيـدة بـين مـجلـس نـابلـس وهـذه المـجالس الأخرى هو أن الذي دعا إلية الملك والبطريرك معاً. وسنعرف بعد ذلك أن هذه الدعوة المشتركة ترتبط ارتباطا وثيقا بالهدف الحقيقـي لانعقـاد هـذا المجلس.

وفى الحقيقـة، فأن السباب التي دعـت إلى انعقـاد هـذه المجلـس كـانت عديدة، والتعرض لها سيلقى الضوء على أحوال مملكة بيت المقدس الصليبيـة بخاصة، وأحوال الصليبيين في بلاد الشام بعامة. وقد ذكر وليم الصوري سببين لانعقاد هذا المجلس، وهما المحن الطبيعية التي أحاطت بالصليبيين لهجمات أسراب مـن الجـراد والفئران لمدة أربع سنوات متتالية "أهلكت فيها المحاصيل بالكامل، حتى بـدا وكـأن العالم بأسره سيفتقر إلى الخبز... هذا بالإضافة ألي الهجمات التي شنها العدو كل يـوم كل يوم تقريبا"[٨]. وكغيره من الفرنج، فقد أرجع وليم الصـوري كل ما تمـر بـه المملكة من محن ومشاكل إلى آثار الصليبيين، الذين وقع عليـهم غضـب الـرب. وبذلك يكون الهدف من وراء عقد هذا المجلس-بالنسبة لوليم الصوري-هـو إجـراء الإصلاح المناسب لأعمال الفرنج الشريرة، ورفع مستوى الأخلاق بينهم، والمحافظـة على النظـام[٩]. إلا أن ما أورده رئيس أساقفة صور من أسباب وأهداف لم تكن هي كل الحقيقة. خاصـة وأن ما لم يورده-ومن المؤكد أنه يعلمه-أو ربما ما لم يرغـب في تسجيله، من أسباب وأهـداف؛ قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً، أكثر ممـا أورده، بطبيعـة القرارات التي اتخذها مجلي نابلس. لذلك يجـدر بنا أن نلقى الضـوء علـى أحـوال المملكة الصليبية والفرنج معاً لنحدد السباب والأهداف الحقيقيـة مـن وراء انعقـاد مجلس نابلس.

فقـد اعتـلى بولدوين الثـاني عـرش مـملكة بيـت المقـدس الصليبيـة، وبـدأ يمارس سلـطاته الملـكية في ١٤ أبريـل ١١١٨م، أي قبـل انعقـاد مجـلس نابلس بحوالي عامين[١٠]. وبمجـرد أن بدأ عهد الملـك بولدويـن، بدأت المشاكل تحيط به، وتزيد من أعبـائه كحاكم للملكـة الصليبيـة، كمـا أضـافت إلينا أعباء جـديدة، وهـى حمـاية وتدبـير أمـور الإمـارات الصليبية فى شمـال الشـام، وبالتحـديد في إمارة إنطـاكية الصليبيـة. فقـد كـانت الأحـوال الاقتصادية لمملكة بيت المقدس الصليبية في تدن واضـح، نظـراً لمـا تعرضـت له البلاد طيـلة أربع سنـوات من القحط الذي سببتـه هجمات الجـراد والفئـران التي أشـار إليهـا بالتفصيل وبانزعاج شديد القـس الخاص بالملـك

بولدوين، المؤرخ فولشر الشارترى[١١]. هذا الي جانب ما سببته الزلازل التي ضربت أملاك الصليبيين في نواحي إنطاكية، وطرابلس، والمملكة الصليبية نفسها، من خسائر، في أعوام ١١١٤م و ١١١٥م و ١١١٧م، وخاصة في العام الخير الذي اجتمعت على الفرنج خلاله أهوال الزلازل وهجمات الجراد والفئران [١٢]. وبدأ النشاط الزراعي في المملكة في التدهور على عكس ما كان في السابق، من وفرة المحاصيل الزراعية والفاكهة، وانتعاش للحياة الزراعية فيها، الأمر الذي اندهش له كل من الرحالة الروسي دانيال الراهب في عام ١١٠٦-١١٠٧م، والمؤرخ إيكهارد في علم ١١١٥م[١٣].

هذا الى جانب ما تعرض له الصليبيون بصفة عامة من ضغط إسلامي عرضهم لخطر بالغ. ففي الجنوب، علم بولدوين بأنباء قيام تحالف وشيك بين دمشق والقاهرة، ولما كان الصليبيون قد اعتمدوا منذ بداية دخولهم ألي ديار الإسلام، على انشقاق الصف الإسلامي الذي مكنهم من إقامة ركائزهم في المنطقة بسهولة [١٤]، فأن تركيز للجهد الإسلامي كان يشكل خطراً كبيراً عليهم. وهذا ما دفع جوسلين كورتيناى أمير الجليل السابق الى البقاء في فلسطين لمعاونة الملك بولدوين الثاني دون التوجه الى إمارته الجديدة الرها، التي تقرر أن يحل فيها محل الملك بولدوين أميرها السابق[١٥]، واضطرا معا إلى مواجهة طغتكين أتابك دمشق الذي طالبهم برد كل ما يقع وراء نهر الأردن من الأراضي، بعد أن وثق من نيل المساعدة من مصر[١٦]. وحشد بولدوين القوات من المملكة ومن إنطاكية وطرابلس، بالإضافة إلى قوات جوسلين، واستعد بالقرب من أسدود لمواجهة قوات دمشق، فى الوقت الذي احتشد جيش مصري على الحدود الجنوبية للمملكة الصليبية[١٧]. وإذا كان الأمر قد انتهى دون قتال بين الطرفين، بعد ثلاثة أشهر من المواجهة السلبية، فقد قام بولدوين وجوسلين معاً، بعد فترة قصيرة، بالتصدى لقوات دمشق، وأغارا على إقليم حوران، وأوقعا الهزيمة ببورى إبن طغتكين [١٨]. وكان على بولدوين أن يسارع بعد ذلك إلى إقليم شرق الأردن لنجدة جوسلين الذي حوصر في كمين أعده له البدو بالقرب من نهر اليوموك[١٩]. ولم يسترح بولدوين في إقليم طبرية بعد نجدته لجوسلين إلا وجاءته الرسل من إنطاكية يطلبون منه الإسراع لنجدتها من براثن غيلغازى الأرتقى وحلفائه [٢٠]. وكان على الملك الصليبي أن ينهض بمهام كثيرة، فقد انهزم روجر الأنطاكى أمير إنطاكية، وقتل مع كل فرسانه، وأبيد جيشه في موقعة ساحة الدم Ager Sanguinis في ٢٨ يونيو ١١١٩م / ١٦ ربيع الأول ٥١٣ هـ بعد أن تخلى عن حذره ولم ينتظر قدوم بولدوين لمساعدته ضد خطر الاراتقة، وينظم أمورها، ثم يدخل في معركة ضد

إيلغازي وحليفة طغتكين أتابك دمشق عند قرية هـــاب في ١٤ أغســطس ١١١٩م، واضطر الى البقاء في شمال الشام حتى ديسمبر ١١١٩م (٤٢٢).

وإذا كانت كارثة إنطاكية ق وحدت بين إمارات الفرنج، وأملت عليــهم أن يركزو جهودهم ويوحدوا صفوفهم أمام خطر المسلمين؛ فأنها قد ألقت على كـــاهل ملك بيت المقدس عبء الدفاع عن كل الركائز الصليبية في بـــلاد الشـــام، وأعـــالي الفرات. هذا الى جانب عبء إصلاح أحوال مملكته والدفاع عنها. ضد نفس الخطـــر أيضاً(٢٣).

وكان على بولدوين أن يستعد لمواجهة خطـــر المســلمي بعـــدة إجـــراءات ضرورية. فبعد أن منح طائفتي الفرسان الرهبان الناشئتين من الإستبارية والداوية كثــيرا من الامتيازات، ليمدا الكيان الصليبي بجيش منظم وثابت يتألف من مقاتلين مدربــين لتعويض النقص الدائم في الموارد البشرية التي يحتاجها(٢٤)، بعد ذلـــك، كـــان علـــى بولدوين أن يعالج مشكلة أخرى لا تقل خطرا على الفرنـــج مـــن خطـــر المســـلمين والكوارث الطبيعية، التدين الأخلاقي لفرنج المملكة الصليبية. فبالرغم مـــن أن حيـــاة الفرنج في الشرق كانت محفوفة بالخطر الإسلامي في كل وقت؛ إلا أن الخوف والقلـــق في حياقم لم ينفصلا كثيرا عن حياة المرح والبذخ والخيانة، كما أن القلـــق شـــجعهم على الانغماس في اللهم والمباذل (٢٥). وقد لاحظ المؤرخ اللاتيـــني المعـــاصر فولشـــر الشارترى مدى حرص الفرنج على الحياة اكثر من الموت في سبيل الدفاع عن الكيـــان الصليبي. وكان هذا من العوامل التي دفعت بولدوين إلى عدم مبادئه طغتكين بالقتـــال عند أسدود، لينتهي الأمر بانسحاب كل من الطرفين دون مواجهة الآخر (٢٦). وربمـــا لاحظ بولدوين تراخي قواته في القتال، الأمر الذي لاحظه أيضاً المسلمون وجزع منـــه المؤرخ فولشر الذي أيقن الروح العسكرية لدى الفرنج وعـــدم التزامـــهم ســـيمكن المسلمين من قهرهم حين أورد لنا على لسان أحد المقاتلين المسلمين فحوى كل ذلـــك حين وجه المسلم كلامه إلى جندي صليبي كان في مواجهته في موقعة هاب قائلا لـــه "أقول لك أيها الفرنجي، أأحمق أنت فتجهد نفسك عبثا؟ فليس لكم بالفوز علينا قـــط، إذ أنكم قله ونحن كثرة. والحق أن إلهكم قد تخلى عنكم لعلمـــه بـــأنكم لا تقيمـــون شرائعه كما حق عليكم، ولا تحفظون الأيمان والصدق فيما بينكـــم ولاريـــب أننـــا سنقهركم في الغد ونهزمكم". ويرى فولشر بأن علاج ذلـــك لا يتـــأتى إلا إذا أقـــوم الفرنج أخطاءهم (٢٧). ونفذ بولدوين ذلك . فلكي يضمن إخلاص أتباعه من نبـــلاء الفرنج وجنودهم، والتزامهم بالعلاقة الإقطاعية بينهم وبينه كملك لهم، بما يكون قـــد اصدر أول مجموعة قوانينه tablissement التي تسمح له بمصادرة إقطاع تابعة إذا ما

ارتكب أى من المخالفات التي وردت في مجموعة القوانين هذه دون محاكمة[٢٨]. وإذا كان هذا التشريع يضمن للملك ولاء أتباعه من الفرنج والتزامهم بتلبية داعي الحرب بصفة خاصة، فـإن أهم إجراءات بـولدوين قد جاء في صورة غالبية القرارات التي أصدرها مجلس نابلس، والتي تعالج التدني الأخلاقي لفرنج المملكة بصفة عامة، وليس النبلاء منهم فقط.

وقد بدأت فعاليات اجتماع الفرنج في مجلس نابلس بعظة دينية ألقاها البطريرك جيرموند لإعلان الجميع الندم والتوبة عن ارتكاب المعاصي والذنوب، وطب الصفح من الرب الذي صب عليهم جام غضبه[٢٩]. وكان الجو العام الذي طغى على اجتماع مجلس نابلس قد اتسم بمسحة من الندم. ويتضح ذلك من الثلاثة قرارات الأولى من مجموع الخمسة وعشرين قرارا التي تضمنها المرسوم الذي أصدره المجلس. وحقيقة الأمر أن هذه القرارات الثلاثة الأولى لم تكن لمجرد التكفير عن الخطايا بل إنها تشارك بقية القرارات من حيث إلقاء الضوء على أحوال المملكة الصليبية فى بداية عهد بولدوين الثاني، وتنفرد عن بقية القرارات في أنها تحدد طبيعة العلاقات بين الدولة والكنيسة، وبتعبير أدق بين الملك بولدوين الثاني وبطريرك كنيسة بيت المقدس، وتوضح بجلاء الظروف التي دفعت الملك الصليبي الى إصدار هذه القرارات الثلاثة.

ففي القرار الأول "يرد" بولدوين إلى البطريرك عشر دخل الملك من كل مدن بيت المقدس، و نابلس، وعكا، حيث لم يكن قد تم تنصيب أساقفة في المدينتين الأخيرتين. وإذا تم انشاء أسقفيات في هاتين المدينتين، فعلى البطريرك أن يقرر لها العشور الكنسية المقررة على دخل كل منهم، والتى تقرر ردها الى الكنيسة، حسب احتياجات البرشيات الواقعة في إقطاعاتهم[٣١]. وفى القرار الثالث، قرر البطريرك جيرموند أن يتسلم هذه العشور المستحقة له ولأساقفته، الحاضرين أو الغائبين عن الاجتماع، حسب احتياجات أبرشية كل منهم[٣٢]. وبالرجوع الى تفاصيل هذه القرارات الثلاثة، نجد أن الملك-في القرار الأول-"يرد" العشور الى الكنيسة ونجده في القرار الثاني-يعترف وباروناته بأنهم يسعون الى التفكير عن خطيئة الغطرسة superbia التى ارتكبوها فى حق رجال الدين عندما حبسوا تلك العشور عن الكنيسة. ولذلك فالملك واتباعه يطلبون الصفح. وفى القرار الثالث نجد البطريرك وقد غفر لهم ذلك التصرف، وأحلهم من الالتزام بتأدية هذه العشور عن الفترة السابقة لانعقاد مجلس نابلس.

وفى الحقيقة لم يكن الندم أعلنه الملك بولدوين أو الاعتراف بالذنب في حق الكنيسة ورجال الدين لمجرد دافع من التقوى والورع،

أو التوبة والتكفير عن الذنوب، وإنما بدافع مختلف تمام، وهو التنازل عن سلطات لطالما مارسها سابقوه ولاحقوه من ملوك بيت المقدس في أمور تخص الكنيسة. فمن المعروف أن المنك بولدوين الأول كانت له السيطرة على الدخل الكنسي، و لم يتنازل عن ذلك أبدا[٣٣]. وبمقارنه فحوى القرارات الثلاثة الأولى فيما يخص العشور التي ردها الملك إلى الكنيسة بما كان يحدث قبل انعقاد مؤتمر نابلس يمكن التثبت من محاولة بولدوين الثاني شراء رضى الكنيسة في شخص البطريرك. فلم يكن هناك فرق بين الشعور التي ردها الملك، في القرار الأول، وبين تلك التى تقرر أن يردها باروناته، إلى الأبرشيات التي تقع في نطاق إقطاعاقم-في القرار الثاني-،لأن القرار الثالث يوضح أن البطريرك والأساقفة هم الذين يتسلمون العشور لأنفسهم على أن تصرف حسب احتياجات أبرشياهم. ولما لم يكن هناك-حتى عام ١١٢٠م-نظام محدد للأبرشيات التي تقع في المناطق الريفية، حيث ندر التنظيم الكنسي اللاتيني في الريف بسبب عادة استيطان اللاتين الذين تركزوا في المدن، حتى أن السيد الإقطاعي اللاتيني لم يكن يقطن الريف، وإذا ما استقر الفرنجة في الريف، فأهم كانوا يعيشون في قرى مغلقة لا يخالطون فيها نصارى الشام ولا مسلمة . وبذلك لم تتوفر الحاجة الى كنيسة الا في مواضع قليلة من الريف[٣٤]. وكانت الأسقفية تطابق الأبرشية؛ لذلك فأن العشر كان يخص الأسقف، على أن يضمن دخلا لكل أبرشيه تنشأ في أي مكان يتبع الأسقفية.

ولكن اختلف الأمر بين العشور التى ردها الملك والعشور التى ردها البارونات من حيث النطاق الحدودي الذى يتصرف فيه البطريرك في أموال العشور التي يدفعها الملك، والنطاق الذي يتصرف فيه السقف في تلك الأموال. فبناء على ما جاء في القرار الأول فإن الملك قد رد العشور عن دخله من مدن بيت المقدس و نابلس وعكا الى البطريرك حسب ما تقتضيه احتياجات اسقفيته sicut ratio diocesis exigit[٣٥]. ومعنى ذلك أن البطريرك لم يكن ليستطع أن ينفق هذا الدخل ارج نطاق المنطقة التى تقع تحت نفوذه فعليا أى مقر كرسيه الكنسي. ولما كانت مدن بيت المقدس و نابلس وعكا هي مراكز الدومين الملكي، ولما كان الدومين الملكي يتطابق في حدوده مع أسقفيه البطريرك فإن البطريرك ليس له الحق في التصرف في أموال العشور خارج نطاق هذه الحدود. وهى الحدود التابعة لكنيسة بيت المقدس فقط. ولكن القرار نص على أنه أذا نصب أساقفة في نابلس أو عكا فكان البطريرك-كما نص القرار بوضوح-مجبرا على أن يدع الأساقفة الجدد يحصلون على ذلك الجزء من العشر المفروض على دخل الملك عن نابلس وعكا. أى أن البطريرك حق التصرف في مال

العشور خارج نطاق كنيسته في بيت المقدس. أما البارونات، فإذا كانوا قد تنازلوا عن حق التحكم في العشور الكنيسة، فأنهم قد حافظوا على واحدة من مصالحهم الرئيسية. فحدود الأسقفيات لم تكن في الغالب تتطابق مع حدود إقطاعات البارونات. كما أن أملاكهم انتشرت خارج مقار باروناتهم لذلك رد البارونات أموال العشور إلى رجال الدين ليتصرفوا فيها حسب احتياجات أبرشية كل منهم Prout parochiarum suarum ratio exigit[٣٦]. أي أن رجل الدين لا يستطيع أن يصرف هذه الأموال خارج نطاق مقر أبرشيته حتى ولو كان سينفقها في موقع يتبع أبرشيته كنسيا، لكنه لا يدخل في نطاق المدينة التي تقع فيها أبرشيته. وبذلك يكون الملك قد تغاضى عن حق لم يتغاض عنه باروناته. وكذلك أقر مجلس نابلس مبدءا جديدا لم يكن معمولا به من قبل، ويدل على حجم التنازلات التي وافق عليها بولدوين الثاني إرضاءا للبطريرك. ففي القرار الثاني للمجلس جاء أن ملاك الأراضي من البارونات-وليس مستأجريها أو المنتفعين بها أو الذين يعملون فيها كأتباع للبارون-هم الذين يؤدون ضريبة العشر للكنيسة. ولكن الكنيسة بفرض العشر على السادة من الفرنج، تكون قد وصلت الى جمع المسيحيين من غير اللاتين والمسلمين، بجم عشر ما يدفعونه لصاحب الإقطاع من اللاتين. وكان فرض العشر على اللاتين فقط من شأنه أن يمنح الكنيسة حصيلة أقل. لأن غالبية سكان الريف كانوا من المسيحيين الشرقيين والمسلمين. وبعد أن كانت الكنيسة-قبل عهد بولدوين الثاني-تجبى العشر من فلاحى الأرض التي تملكها فقط، أصبحت تجبيه بطريق غير مباشر من أقرانهم الخاضعين للسادة من اللاتين[٣٧].

وإذا قارنا بذلك ما كان يحدث في عهد بولدوين الأول ندرك حجم التنازل الذي اقر به بولدوين الثاني للكنيسة في حقوق لم تنازل عنها سلفه أبدا. ففي الحقيقة لم يكن ملك بيت المقدس ليتدخل في تصرفات البطريرك في أية أمور كنسية، إلا إذا تعلق الأمر فقط بالدخل الكنسي، فهنا كان يتوجب على البطريرك أن يحصل على موافقة الملك حين التصرف فى هذا الدخل. فعندما اراد البطريرك إبريمار Ebremar (١١٠٢-١١٠٨م) أن يحدد رواتب لكهنة القبر المقدس في عام ١١٠٢م، فقد حصل أولا على موافقة الملك بولدوين الأول، بل انه وثق المرسوم الذى أصدره بشأن ذلك بخاتم الملك[٣٨]. وعندما أراد البطريرك أرنولف (١١١٢-١١١٨م) أن

يخص في عام ١١١٢م جزءا من العشور التي يؤديها له بعض ملاك الأرض من اللاتين لإعادة بناء كنيسة جوسفات Josphat التى تقع خارج نطاق مدينة بيت المقدس من جهة الشرق ، وعندما منح نفس البطريرك فى عام ١١١٤م عشور بيت المقدس الى كهنة القبر المقدس، في الحالتين، كان ذلك بمشاورة الملك consilio regis، وبعد أن قدم الى الملك التماسا بذلك، وأمره الملك بتنفيذ ذلك. وحتى عهد بولدوين لم يكن من حق رجل الدين أن يتصرف في أموال العشر إلا في حدود إقليم كنيسته فقط، فقد فرض أسقف بيت لحم ضريبة العشر على كونت عسقلان في عام ١١٦٠م في عهد الملك بولدوين الثالث (١١٤٣-١١٦٣م) ولكن لم يسمح للأسقف أن ينفق عائد هذه الضريبة في مدينة الخليل التي كانت أيضا تتبع أسقفية بيت لحم لكنها تقع خارج حدود كونتية عسقلان [٤٠].

ومن المعروف أن الكنيسة في البداية قد واجهت متاعب كثيرة لتحمل البارونات اللاتين على الاعتراف بمبدأ العشر الكنسي [٤١]. فقد قام تنكريد أمير الجليل (١٠٩٩-١١٠١م) باستغلال كل أملاك دير جبل طابور [٤٢] لأغراض خاصة. ولم يرد تنكريد هذه الأملاك للدير إلا برحيله إلى إنطاكية في عام ١١٠١م [٤٣]. وتم الاتفاق على أن يتسلم الدير إحدى عشرة قرة في إقليم الجليل، وأربعة أخرى تقع شرقي نهر الأردن ولم يكن -بالطبع- من السهل أن يترك تنكريد هذه القرى للكنيسة إلا لأن قرى الجليل كانت خربة تماما، بينما كانت قرى شرقي الأردن لا تزال بأيدى المسلمين. واحتفظ تنكريد بأربعة قرى أخرى لم يسلمها للدير، وبقيت في ايدى فرسانه، لندرة الاراضى ولحاجة فرسانه إليها. ولم يحصل الدير من هذه القرى الأربعة إلا على العشر من دخلها فقط، وكان ذلك قد تم بموافقة الملك بولدوين الأول الذى لم يؤكد هذه الاتفاقية إلا فى عام ١١٠٦م [٤٤].

وهكذا، إذا كان الملك بولدوين الأول وغيره من ملوك بيت المقدس قد فرضوا سيطرتهم على دخل الكنيسة، وكذلك فعل أتباعهم من السادة اللاتين، فلم إذن تنازل الملك بولدوين الثاني عن ذلك؟. والإجابة على هذا التساؤل تقتضي تفحص الظروف التي أحاطت باعتلاء بولدوين الثاني عرش المملكة الصليبية.

فقد مات الملك بولدوين الأول دون أن يحدد من يخلفه في حكم المملكة وانعقد مجلس المملكة، وتقرر أن يبعث الفرنج الى يوستاش الثالث Eustace كونت بولونيا، وهو الأخ الثالث لكل من جودفرى وبولدوين الأول، ليحضر الى الشرق ويتولى أمر المملكة الصليبية. إلا أن يوستاش قد علم وهو في ابوليا بإيطاليا، باعتلاء بولدوين دى بورج عرش المملكة، فعاد

يوستاش الى بولونيا، و لم يشأ أن يواصل رحلته الى بلاد الشام ليقاتل في سبيل إرث بعيد. وفى الحقيقة، فقد تم اختيار الملك بولدوين الثاني ملكا بعد مناورة قام بها جولسين كورتيناى أمير الجليل، أقوى أعضاء المجلس نفوذا، وأيده في ذلك البطريرك أرنولف، واستطاع الاثنان إقناع المجلس باختيار بولدوين الذي حضر جنازة الملك الميت في يوم الأحد ٧ أبريل من عام ١١١٨م(٤٥). وفى يوم الأحد التالي ٧ أبريل ١١١٨م، قام البطريرك أرنولف بإعلانه ملكا على مملكة بيت المقدس الصليبية(٤٦). وإن كان البطريرك جيرموند قد توجه رسميا في ٢٥ ديسمبر من عام ١١١٩م(٤٧).

وبالنسبة لوليم الصوري، الذى روى تفاصيل غالبية هذه الاحداث، فأن الطريقة التي اعتلى بها بولدوين العرش تعتبر غير شرعية، ويرى أن جولسين قد ابرم مع بولدوين صفقة ناجحة، فقد أيده في الحصول على تاج المملكة، في نظير أن يترك له بولدوين كونتية الرها(٤٨). وإذا كان جولسين قد حصل على المقابل، فلماذا لا يكون البطريرك أرنولف قد سعى ألي المقابل يخصه هو، أى أن يمنح بولدوين الكنيسة مطلق الحرية في التصرف في دخلها، أو على الاقل في الجزء الاكبر منه، وهو أموال العشور الكنيسة، وبذلك تنتهي سيطرة ملوك بيت المقدس على هذه الأموال. وقد واتت الفرصة البطريرك، وكان علية أن يستغلها. ففي عهد بولدوين الأول كان ارنولف اضعف الاثنين. و لم يشأ أن يختلف مع الملك الذي طالما تدخل في كل ما يخص دخل الكنيسة، والذي كثيرا ما اخضع لسطوته كل بطارقة بيت المقدس السابقين. وقد واجهت أرنولف في عهد بولدوين متاعب كثيرة استمرت حتى عام ١١١٦م حتى يثبت نفسه في كرسي البطريركية (٤٩). وكانت هناك أسباب كثيرة للهجوم علية. وكانت أهم الاتهامات التي وجهت إليه هي الوقيعة التي حاكها بين بولدوين الأول والبطريرك دايمبرت البيزى، كما تصرف أملاك الكنيسة على هواه، فقد زوج إبنة أخته إما Emma من يوستاش جارنييه Garnier Eustace ومنح الأخير مدينة أريحا مهرا، على الرغم من أن المدينة كانت من أملاك كنيسة بيت المقدس؛ إلي جانب دخل المدينة الذي قدره وليم الصوري بخمسة آلاف قطعة ذهبية. كما أتهم أرنولف بإقناع الملك بولدوين الأول بالزواج من امرأة أخرى بينما كانت زوجته على قيد الحياة. كما كان سجله الوظيفي في بطريركية بيت المقدس غير مشرف، فقد عين بطريركا لأول مرة في عام ١٠٩٩م وعزل من منصبة بعد عدة أشهر، ثم عين مرة أخرى في عام ١١١٢م، وتم عزله في عام ١١١٥م، ولكنه عاد ألي منصبه بتوصية من البابوية، وبقى بطريركا حتى مات في عام ١١١٨م. وكان

توليه المنصب غما بمؤامرة يحيكها ضد البطريرك المعين، أو بتملقة للبابوية. هذا الى جانب سلوكه الشائن مع النساء[٥٠]. ولما كان تحكم السلطة العلمانية في العشور الكنيسة أمرا بغيضا بالنسبة لأرنولف، وهو الذي يريد أن يطمس سجله الحافل بالنقائص، الذي يضعف من موقفة أمام ملك بيت المقدس، فقد أراد يظهر بمظهر مصلح كنيسة قوية، بان ينهى تحكم الملوك في أموال الكنيسة، وقد واتته الفرصة في عهد بولدوين الثاني الذي رأى، وموقف أرنولف أقوى من موقفة، أن تحكم الملكية في دخل الكنيسة أمر لا يتفق والظروف الراهنة. من هنا، ومن موقف كل من الرجلين، الملك بزلدوين الثانى، والبطريرك ارنولف، كان الجو مهيئا لعقد صفقة مفيدة لكيهما، وتم عقدها بالفعل. وقد مات أرنولف في ٢٨ أبريل ١١١٨م[٥١] أي بعد أسبوعين من اعتلاء بولدوين الثانى عرش المملكة، واعتلى البطريرك جيرموند كرسي البطريركية، وربما تمت مناقشة أتمام الصفقة وتنفيذها معه. إلا أن الملك أضطر للذهاب الى شمال الشام لنجدة إمارة إنطاكية بعد موقعة ساحة الدم، وعاد الى بيت المقدس في ديسمبر ١١١٩م، حيث تم تتويجه رسميا كملك على يد البطريرك جيرموند وذلك في ٢٥ ديسمبر ١١١٩م. وفى الشهر التالى وبالتحديد في ٢٣ يناير ١١٢٠م قام الملك بدفع المقابل الخاص به فى هذه الصفقة عندما دعا بمشاركة البطريرك الاجتماع بجلس نابلس. وبعد أن ألقى البطريرك بعظته، رد الملك بخشوع تام، وفى إعلان صريح عن توبته، العشور للكنيسة معترفا بخطيئة التحكم في هذه العشور. لذلك كله لم يكن تدين بولدوين الثاني، ولا كثرة صلواته التي أدت إلي تصلب ركبتيه-كما يصفه وليم الصوري-هما اللذان دفعاه الى التنازل عن سلطات مارسها بولدوين الأول، وإنما للحصول على رضى الكنيسة والتصالح معها في وقت كان نفس الأمر على وشك أن يتم بين البابوية والإمبراطورية، الأمر ما الذي أبهج المؤرخ المعاصر فولشر الشارترى [٥٢].

وإذا انتقلنا إلى بقية القرارات التي تضمنها مرسوم مجلس نابلس نجد الها في مجملها تعالج التدنى الأخلاقي الذي تفشى بين الصليبيين في المملكة، الأمر الذي لا يتناسب وحجم المخاطر التي تحيط بها وبسائر الإمارات الصليبية في بلاد الشام. وكانت هذه القرارات لإصلاح أحوال المملكة التي كان عليها أن تنهض بمهمة حماية الكيان الصليبي ككل إلى جانب مهمة التوسع على حساب المسلمين في بلاد الشام. ولينجح الصليبيون في كل ذلك كان لابد من الارتقاء بالمستوى الأخلاقي-وبشكل ثابت-للفرنج. ولم يكن هذا يتأبى إلا بإصدار قانون يتخذ صفة رسمية ليلتزم به الجميع. وليس كما كان يحدث من قبل من مجرد دعوة يوجهها رجال الدين والقادة الى

أتباعهم من الفرنج بالتحلي بالأخلاق السوية فيما بينهم ليؤيدهم الرب فى قضيتهم، وسرعان ما ينسون فحواها بعد انتهاء كل أزمة تحيط بهم.

فمن المعروف أن الحملة الصليبية الأولى-منذ البداية-وعلى الأقل بالنسبة لمفهوم من شاركوا فيها- أنها رحلة حج إلى الأراضي المقدسة، وعمل تكفيري تغفر في مقابلة كل الذنوب(٥٣)، وأن الحرب ضد المسلمين هي حرب مقدسة(٥٤). واعتقد الصليبيون أن بجرد المشاركة في الجهد الصليبي من شأنه أن يغفر لهم كل شئ. فانغمسوا في كثير من الانحرافات(٥٥).وكان الجزء الأساسي من هذه الانحرافات، التي جبلوا عليها، يتضمن الخطايا الجنسية كارتكاب فاحشة الزنا أو اللواط، الى جانب السرقة (٥٦). واعتاد المؤرخون اللاتين ورجال الدين المشاركون في الحملة على إرجاع كل كارثة حربية أو طبيعية تحيط بهم إلى غلو الفرنج في ارتكاب المعاصي. فيرجع فولشر الشارترى سبب وقوع الفرنج في كمين السلاجقة عند دوريليوم الى خلاعة الفرنج(٥٧). وعند وصول الفرنج الى إنطاكية عربدوا في شهوة عارمة، ونسوا معنى العفة وارتكبوا خطيئة الزنا، وانتشرت الدعارة بينهم(٥٨). فيخبرنا جيبرنا دى نوجنت بقصة الراهب الذى ضبط يضاجع راهبة في المعسكر الصليبي(٥٩). كما يخبرنا ألبيرت دكس بقصة رئيس الشمامسة الذى وقع في أيدي السلاجقة خارج إنطاكية وهو يمارس الزنا مع عشيقته الفرنجية (٦٠). ولما غضب الرب على الفرنج، اشتدت بهم المجاعة، ولما اصلحوا من سلوكهم كافأهم الرب بالاستيلاء على إنطاكية. ولما دخلوا المدينة نسوا الرب وعادوا إلى فواحشهم، فحاصرهم كربوغا (٦١). وبعودتهم مرة أخرى إلى السلوك القويم كافأهم الرب مرة أخرى بالأنتصار على كربوغا(٦٢). واستمر هذا التناقض الأخلاقي بين الفرنج حتى استقرارهم في الشرق، وأصبح في مفهومهم أنهم يحرزون النصر في المعارك ضد المسلمين في الحياة الدنيا، ويضمنون الخلاص في الآخرة طالما تجنبوا الزلات الجنسية(٦٣) .

من هنا تضمن مرسوم مجلس نابلس بعض القرارات التي تحد من انغماس الفرنج في الرذيلة واعتداء بعضهم على شرف بعض. فالقرار الرابع يقضي بأنه إذا تخوف شخص من سوء سلوك زوجته فعليه أن يواجهه الشخص المشكوك في أنه على علاقة بها، ويحرم دخول منزله والحديث مع زوجته، وأن يكون ذلك بحضور شهود. وإذا ما اكتشف الزوج أو أحد أصدقائه أن الزوجة وعشيقها يلتقيان في منزل الزوج أو في منزل أخر، يساق الرجل الى الكنيسة التى تقوم بالتفريق بين الطرفين. فاذا ما طهر الرجل الآثم نفسه بالحديد المحمى يطلق سراحة بلا جناح عليه. وإذا ما عزز الزوج

موقفة واكتشف-رغم ذلك-أمرا مشينا في الحديث مع زوجته، يكون لـــه الحـــق في الانفصال عنها مقابل انتهاكا للمحاذير[٦٤].

ويقضـــي القـــرار الخـــامس بأنه إذا ضاجـــع فرنجـــي زوجـــــة فرنجـــي آخـــر، واعتـــرف بـــذلك، فانه ينفى خـــارج البلاد بأمـــر قضـــائي، وتقتــــل الزانيـــة، إلا إذا صفـــح عنهـــا زوجهـــا، فيكـــون لـــزاما عليهمـــا (الـــزوج والـــزوجـــة) مغـــادرة البـــلاد إلـــى غـــــرب أوروبـــا [٦٥]. ونلاحـــظ أن مســـألة صفـــح الـــزوج عـــن زوجتـــه أو حـــق التغاضي عن المر كله كانت أمرا معتادا يحدث بين الفرنج حتى بعد صدور قرارات مجلس نابلس. فقد فسرنا أسامة ابـــن منقذ، أكثر المؤرخين المسلمين اقترابا من طبائع الفرنج، هذه الظاهرة حين يرجع سبب تكرار حدوثها إلى افتقار الفرنج إلى الغيرة على العرض، المر الذي جبلوا عليه، ويعطينـــا مثلا لذلك براويته عن الفرنجى الذي عاد إلى مترله ليجد زوجته في فراشة مع فرنجـــي آخر يمارسان الفاحشة، فلم يتعد رد فعل الزوج من هذا كله سوى ا،ه استفسر مـــن الرجل عن سبب دخوله إلى مترله حتى وصوله إلى فراشة، ولامه على مضاجعة الأخـــير لزوجته، وأنذره بأنه لو كرر ذلك الأمر فسيخاصمه "فكـــان هـــذا نكـــيره ومبلـــغ غيرته"[٦٦].

أما القرار السادس فيقضي بأنه إذا راودت الشكوك فرنجيا حـــول ارتكـــاب رجل دين من الفرنج الفاحشة مع زوجته، فعلى الزوج أن يمنع رجل الدين من الـــتردد على مترله أو الحديث مع زوجته. وإذا ما اكتشف الزوج أنهما لا يـــزالان يلتقيـــان، وضبطهما بعد ذلك يرتكبان الفاحشة أو متحاورين، فليعرض الآمر في الناهية علـــى عدالة الكنيسة، وإذا لم تنصفه، يعرض الأمر لاحقا على محكمة علمانية [٦٧]. ونلاحظ هنا أيضا أن رجال الدين اللاتين لم يكونوا بمنأى عن ارتكاب المعاصي. فإلى جـــانب الدين حكى لنا عنهم مؤرخو الحملة الصليبية الأولى، فان من التهم التى التصقت بكـــل من البطريك أرنولف والبطريك هرقل (١١٨٠-١١٩١م) كانت علاقتـــهما غـــير شرعية بالنساء [٦٨].

ومن القرار السابع نعرف أن المجتمع الفرنجى لم يخل من القوادين من الرجـــال والنساء الذين يسهلون أمر قيام علاقات غير شرعية بين الرجال والنساء من اللاتـــين. وكانوا يديرون بيوت الدعارة التى انتشرت في المدن الصليبيـــة وخاصـــة في مدينـــة عكا[٦٩]. فيقضى القرار السابع بأن يخضع للمحاكمة كل قواد (أو قوادة) يقوم بـإغواء زوجة أحد الأشخاص وجعلها تمارس خطيئة الزنا. وتحاكم كذلك الزانية[٧٠]. وبالطبع تكون العقوبة هي نفس العقوبة التى أقرها القرار الخامس[٧١].

والى جانب ارتكاب الفاحشة مع زوجات الآخرين، والاعتداء على حرمة بيت رجل آخر، واجه مجلس نابلس مشكلة الشذوذ الجنسي بين الصليبيين. فقد جاء الصليبيون الى الشرق وقد جبلوا على ارتكاب خطيئة اللواط. فيخبرنا جيبرت دى نوجنت بأن بعض صليبى الحملة الأولى فضل ممارسة اللواط مع الصبية البيزنطيين الذين وجدوهم فى المواخير البيزنطية، على ممارسة الزنا مع النساء البيزنطيات[٧٢]. و لم يتخل الفرنج عن هذه العادة بعد استقرارهم في بلاد الشام. فنجد القرارات من الثامن إلى الحادي عشر تعالج هذه المشكلة. فقد قضى القرار الثامن أنه إذا ما اعترف فرنجى بالغ بأنه مارس رذيلة اللواط بكامل إرادته يحرق مع نفذ فيه فعل اللواط(٧٣). ونلاحظ هنا من نص القرار أن الشخصين كانا-معا- مريضين بالشذوذ الجنسي، لذلك كان الإتيان بفعل اللواط بإرادة كل منهما. فكان العقاب صارما.

وكذلك يكون العقاب صارما بالحرق لمن يمارس هذه الخطيئة عنوة مع شخص آخر غير مريض جنسيا. فيقضى القرار التاسع بأن يحرق اللوطي الذي يمارس اللواط عنوة مع طفل قاصر أو أي شخص متقدم في السن خاصة إذا ما أطلق المعتدى عليه صيحات الاستغاثة. أما إذا ارتكب اللوطي هذه الرذيلة بغير إرادته فإنه يخضع للمحاكمة دون أن يفقد حقوقه القانونية [٧٤]. أي أنه ينظر في أمره لبحث الدوافع الخارجة عن إرادته والتي جعلته يأتي بذلك الفعل التماسا لأي عذري له حتى تخفف عقوبة الحرق. وإذا تقتنع المحكمة بهذه الدوافع فيحاكم كغيرة من اللوطيين.

أما القرار العاشر فأنه يقضى بأن يحاكم محاكمة اللوطي من يقترف خطيئة اللواط عنوة ويخفى الأمر ثم يعود إلى ممارسته ويعترف به [٧٥].وهنا لم يشفع اعتراف المذنب لأنه ارتكب جرمة عنوة.

بينما يقضى القرار الحادي عشر بأنه إذا تم إعلان اللوطي بالخضوع أمام المحكمة لارتكاب خطيئة اللواط، يؤتى به إلى الكنيسة ليحاكم حسب الأحكام الكنيسة. وإذا ما عاود هذا الشخص ارتكاب هذا الجرم فإنه يحاكم للمرة الثانية، ولكنه يبعد عن مملكة بيت المقدس[٧٦]. وطالما كان الحرق هو عقوبة اللوطي الذي يرتكب جريمته بإرادة من يمارس معه الرذيلة أو عنوة، فإن تكرار القيام بهذه الجريمة وتكرار محاكمته كما يقضى القرار الحادي عشر يدل على عقوبة الحرق لم تكن تعنى الحرق حتى الموت. وربما كانت تقتصر على وصمة بالحديد المحمى كما كان يحدث من قبل. هذا عن الجرائم الزنا واللواط التي انتشرت في المجتمع الصليبي في مملكة بيت المقدس.

ولما كان الصليبيون مضطرين إلى تغير سياستهم تجاه المسلمين من سكان المدن الشامية التي استولوا عليها أثناء فترة غزوهم لبلاد الشام، والتي بدأت بسفك دماء مسلمي هذه المدن كما حدث عن استيلائهم على مدن إنطاكية والبارة ومعرة النعمان (١٠٩٨م/٤٩٢هـ) وجبيل (١١٠٤م/٤٩٩هـ) وبيروت (١١١٠م/٥٠٢هـ)(٧٧)، وبدءوا يحافظون على العنصر البشرى الإسلامي لمواصلة الحياة الاقتصادية. فقد بدأ في عهد بولدوين الأول، حيث خير المسلمون بين الهجرة من مدنهم التي احتلها الصليبيون، وبين البقاء تحت الحكم الصليبي لمزاولة الزراعة والصناعة لخدمة الكيان الصليبي اقتصاديا. بدأ ذلك عند استيلاء الصليبيين على مدن صيدا (١١٠١م/٤٩٥هـ) وجبلة وعرقه (١١٠٨م/٥٠١هـ) وطرابلس (١١٠٩م/٥٠٢هـ) والأثارب (١١١٠م/٤٩٩هـ) وصور (١١٢٤م/٥١٨هـ)(٧٨). وبذلك اضطر الصليبيون الى التعايش مع المسلمين في مدن وأقاليم الشام التي خضعت للحكم الصليبي. وأيضا مع من كان يقيم فيها من المسيحيين الشرقيين من لأرمن والسوريان البيزنطيين (٧٩).

وقد كان من الطبيعي أن يقيم الفرنج ما اعتادوا عليه من علاقات بنساء ورجال من الشرقيين، شرعية كانت أم غير شرعية. وقد بدأ ذلك أيضا منذ دخول صليبي الحملة الأولى إلى الأراضي البيزنطية، كما حدد المؤرخ جيبرت دى نوجنت، حين روى لنا كيف أن رجال الفرنج قد سقطوا فريسة لسحر نساء بيزنطة وفضلوهم على نساء اللاتينيات، واجتمعوا بهم في المواخير البيزنطية (٨٠). كما يخبرنا ألبرت دكس بقصة راهبة من تريف كانت ضمن أفراد حملة بطرس الناسك وصادفها الفرنج في مدينة نيقية بعد أن سلمها السلاجقة إليهم، واقمت بأنها كانت على علاقة بأحد الأتراك، وبعد أن أعفى عنها هربت من المعسكر الصليبي لتلحق بالتركي الذي هامت به حبا(٨١). وبذلك يكون الرجال والنساء من الفرنج على استعداد لإقامة علاقات مع الشرقيين والشرقيات سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين. وبعد استقرار الفرنج في الشرق كان من الطبيعي أن يرتكبوا الفواحش مع نساء غير لاتينيات، بل أنهم تعدوا ذلك الى الزواج بمسيحيات شرقيات وعربيات ارتددن عن الإسلام كما توضح لنا عبارة المؤرخ المعاصر فولشر الشارترى الشهيرة التي تعالج استقرار الفرنج فى الشرق. فقد اتخذ بعض الفرنج زوجات لهم من السوريان والأرمن وحتى من العربيات اللاتى ارتددن عن الإسلام (٨٢). وقد أقدم الفرنج من كل الطبقات على الزواج من الشرقيات. فقد تزوج قادة اللاتين من الشرقيات وشجعوا أتباعهم

علـى القيام بذلك. فقد تزوج كل من الملـك بولـدوين الأول، والملك بولدويـن الثـاني، وجـوسلين الأول كـونت الرها مـن أمـيرات أرمينيـات. كمـا تـزوج كـل مـن الملـك بـولدوين الثـالث (١١٤٣-١١٦٣م) والملـك عمـورى الأول مـن أمـيرات بيزنطيـات [٨٣].

وكان لدى الفرنج تناقض وجداني بخصوص زواج الفرنج بالمسلمين الذين بقوا على دينهم. فنجد مجلس نابلس وقد حرص على عدم ارتباط الفرنجـي أو الفرنجيـة بمسلمة أو بمسلم بأي شكل من الأشكال، سواء كان ذلك عن طريق علاقة شـوعية أم غير شرعية بين الطرفين. وقد عالجت قرارات مجلس نابلس من الثاني عشـر وحـتى السادس عشر هذه المسألة بصرامة بالغة. فإذا ثبت أن أي شخص قد نام مـع امـرأة مسلمة بإرادتها يعاقب الاثنان معا بأن يخصى الرجل ويجدع أنف المرأة [٨٤]. وإذا قـام فرنجي باغتصاب إمرأة مسلمة تنتسب الى فرنجى آخر بالقوة يعاقب نفـس العقـاب السابق [٨٦]. كما حدد المجلس أيضا عقوبة صارمة للفرنجية التي تقيم علاقة جنسية مـع رجل مسلم. فإذا جامعت إمرأة فرنجية رجلا مسلما بإرادتها، فيقع عليهما معا جـزاء الزناة. أما إذا أخذ المسلم المرأة الفرنجية عنوة، فلا تعد هي مذنبة، ويخصى المسـلم [٨٧]. وهكذا نجد أن القرارات الخمسة الأخيرة تحرم على الفرنج، رجالا ونساءا ، إقامـة أي علاقات جنسية مع المسلمين من الرجال والنساء. وهنا لابد أن نضع في اعتبارنـا أن المسلمين الذين تعايشوا مع التفرنج كانوا فئتين. الأولى وتضم المسلمين الذين لم يرغبوا في ترك مدنهم عند استيلاء الصليبيين عليها. وهؤلاء عاشوا في الإمـارات الصليبيـة أحرارا، وتركزت غالبيتهم فى المناطق الريفية وعملوا بالزراعة، ومنهم مـن عـاش فى المدن وامتهن حرفة من الحرف. ومنهم من أتى من المدن الشامية الداخلية للاتجـار في المدن التى احتلها الصليبيون. أما الفئة الثانية فتضم أسرى الحرب من المسلمين الذيـن اتخذهم الفرنج عبيدا للقيـام بـالعمل الشـاق أو للعمـل فى منـازلهم كمربيـات وطباخين [٨٨].

وإذا كـان الفرنـج قد أقبلـوا على الـزواج من مسيحيـات شرقيـات من الأرمـن والسوريـان والبيزنطيـين، ونتـج عن ذلك ظهـور شريحة جـديدة في المجتمع الصليـبي أطلـق على أفرادهـا اسم المولـدون Poulain وانتمـت إلى الفرنـج بحكـم المولـد، فأن القـادة الصليبيـن قد حرصـوا علـى عـدم ارتبـاط رعاياهم من الفرنج بالمسلمين لما قد ينتـج عن هذا الارتباط من مشاكـل لم تنتج عن الارتباط بالمسيحيـات الشرقيات. فلـم يكـن مـن السهـل مثـلا الاعتمـاد على هؤلاء الذين يولـدون نتيجـة للزواج بين المسلميـن والفرنـج في

قتال المسلمين. كما أن مشكلة العقيدة وانتماء الابن لعقيدة أبيه عند المسلمين كانت تشكل مشكلة اكبر. ومهما يكن من أمر، فلم ترد أية إشارة في المصادر التاريخية المتعلقة بتاريخ الحروب الصليبية عن زواج مسلم أو مسلمة بفرنجي أو فرنجية. وإذا كان المؤرخ فولشر الشارترى قد اخبرنا بأن الفرنج قد اتخذوا زوجات من العربيات اللائى ارتددن عن الإسلام، فمعنى ذلك أن الفرنج لم يقترنوا أبدا بمن تمسك بدينه من المسلمين والمسلمات. واذا كان قانون مملكة بيت المقدس قد منح العبد غير الميسحى حريته إذا ما ارتد عن دينه (٨٩)، فإن الزواج من عربيات مرتدات عن دينهن لم يلق القبول من القادة الفرنج على طول الخط. لأنهم فى الأصل لم يتقبلوا فكرة تعميد العبيد ير المسحيين. وكان دافع الفرنج من وراء ذلك هو حاجتهم إليهم كعبيد. حتى أن بعض السادة من اللاتين كانوا يمنعون العبد المرتد عن دينه من حضور الطقوس الكنسية (٩٠). وقد حاول البابا جريجورى التاسع فى عام ١٢٣٧م أن يوفق بين مصالح السادة اللاتين وبين مصلحة العقيدة المسيحية وانتشلوها، بأن أصدر مرسوما ألغى به قانون المملكة الصليبية المألوف، بأن سمح للعبد غير السيحى باعتناق المسيحية دون ان تتغير صفة كعبد(٩١). إلا ان السادة اللاتين لم يضعوا قرار البابا حيز التنفيذ. واستمرت معارضتهم لقبول العبد المرتد عن دينه-حتى بعد اعتناقه للمسيحية-كعضو فى المجتمع الصليبى حتى عام ١٢٥٣، حين هددهم المندوب البابوى الذي جاء الى الشرق لحل المشكلة بالحرمان من الكنيسة إذا لم يمتثلوا لقرار البابا (٩٢).

ومهما يكن من امر، فأن قرارات مجلس نابلس، إذا كانت قد حرمت وقوع أي لقاء جنسي بين اللاتين والمسلمين، فإن الهدف من ذلك لم يكن بسبب الاتصال بجنس آخر غير الفرنج، وغنما لتحريم الارتباط بأهل عقيدة مخالفة. فلم يكن العنصر هو المانع وإنما العقيدة. لذلك كان قانون المملكة الصليبية يعطى الحرية للفرنج في الاقتران بمسيحيين شرقيين أو حتى عرب مرتدين عن دينهم، أما الزواج بالمسلمين فكان عقابه صارما (٩٣).

وحتى لا يدفع أحد من المتهمين بمعاشرة الآخر جنسيا، بأنه أتى بهذا الفعل عن جهل بهوية شريكة، فقد أصدر المجلس قرارا لمواجهة هذا الإدعاء بأن حرم على المسلمين من الرجال والنساء أن يرتدى أي منهما زيا فرنجيا، وإلا تحول إلى القنية (٩٤). وتكمن المشكلة هنا في أن القرار تعلق بالمسلمين فقط. وترك الحرية للفرنج ليرتدوا ما يشاءون من ملابس. وبذلك تكون الفرصة متوفرة للفرنجى-رجل كان او امرأة-أن

يتعلل، إذا ما قام علاقة جنسية بمسلم أو مسلمة، بأنه لم يتعرف على هوية شريكة لارتداء الأخير ملابس فرنجية. وبذلك اتسم هذا القرار بالقصور، وبقيت مخالفته قائمة، خاصة أنه كان من السهل للفرنج أن يتخفوا في زي المسلمين. وكانت الظروف الجديدة، ومناخ الشرق المختلف تماما عن مناخ الغرب، خاصة فصل الصيف الحار (٩٥).فاضطروا الى اتخاذ ما يخالف ما كان مألوفا لهم من الملابس. فارتدى الرجال منهم العباءات والكوفيات العربية. أما النساء فقد اتبعن الزي الشرقي التقليدي لنساء الشرق وخاصة عند الخروج من منازلهن حيث ارتدين الحجاب شأن النساء المسلمات، وتعطرن بنفس عطورهن، وهذا ما دفع جاك دى فترى الى توجيه لومه الشديد إلى الفرنج لتشبههم بالمسلمين واختلاط بهم واتباع عاداتهم، دون أن يضع فى اعتباره عد استطاعة الفرنج تجنب ذلك(٩٦).أما القرارات الثامن عشر والتاسع عشر، فقد عالجا العلاقة بين الزوجين من اللاتين. فإذا تزوج شخص من زوجة شخ آخر ودخل بها دون أن يعلم بأمر زوجها، لابد أن ينفصل عنها، ويصرح له بالزواج من أخرى(٩٧). وإذا رغب شخص فى الانفصال عن زوجته ليتزوج بأخرى رغم بقاء زوجته على قيد الحياة، فعليه أن يثبت-بشهود-خيانتها له، ويعرض الأمر على رئاسة الكنيسة(٩٨). وبذلك يكون المجلس قد حرص على استقامة العلاقة الزوجية بين الفرنجى وزوجته، وشرعية هذه العلاقة، وعدم اتجاه أنى منهما إلى ارتكاب الفاحشة.وكان القراران العشرون والحادي والعشرون يخصان مخالفات رجل الدين. فإذا ما أشهر أحد رجال الدين السلاح دفاعا عن نفسه فلا يعتبر مخطئا، ولكنه إذا ما استخدم جماعة مسلحة يقومون بالاعتداء على غيرة، فعليه أن يسحب جماعته ويعترف بالأمر ثم يمثل أمام البطريرك، وإذا أخفى الأمر اكثر منذ ذلك فعليه أن يمثل أمام المجلس الاستشاري للملك والبطريرك (٩٩). وإذا ما ارتد كاهن أو رجل دين نظامي، فغما أن يعود عن ذلك أو يعود ألي وطنه (١٠٠).

أما القرارات الثلاثة الأخيرة فإنها تتصدى لجرائم السرقة. وتزخر المصادر اللاتينية التي عالجت تاريخ الصليبيين فى الشرق بروايات عن قيام الفرنج بارتكاب هذه الجريمة. فيخبرنا ريموندا جيل عن قيام كثير من الفرنج بسرقة الأطعمة الخاصة بغيرهم من الفرنج أثناء حصارهم لإنطاكية، ومعرة النعمان، وبيت المقدس عندما كانت تقل الأقوات لديهم(١٠١). كما يخبرنا فولشر الشارترى أن الصليبيين بعد استقرارهم في الشرق قد اعتادوا على سرقة المحاصيل من حقول جيرانهم من بنى جلدتهم من الفرنج ، إلى جانب سرقة أدوات الزراعة(١٠٢). وحتى يحد مجلس نابلس من انتشار هذه الجريمة

فقد تقرر أنه أدين شخص بتهمة بالسرقة أو قطع الطريق وكان ضحية فعلته ثلاثة أشخاص، يحرق بوصمة في وجهه ويضرب بالسياط، وتعاد المسروقات الى أصحابها. وإذا عاد السارق أو قاطع الطريق ألي فعلته ثانية فتبتر كل أعضاء جسده أو يقتل[١٠٣]. أما إذا كان السارق قاصرا، فيلقى القبض عليه ويعرض أمره على الملك ليقرر ما يمكن اتخاذه بشأنه من إجراءات[١٠٤]. وكذلك إذا كان السارق من البارونات، وقبض عليه متلبسا بجريمة السرقة، يرسل الى الملك ليصدر حكما بشأنه[١٠٥].

وهكذا، كانت كل القرارات مجلس نابلس من الرابع وحتى الخامس والعشرين، بمثابة قوانين أصبحت جزءا من قوانين مملكة بيت المقدس الصليبية. ولما كانت كل المخالفات التي عالجتها هذه القوانين، مخالفات أخلاقية، فقد كانت تنظر أمام الحاكم الكنسية. ونلاحظ أن بعض المخالفات قد أحيلت الى محكمة الملك، وهي المخالفات التي عالجتها القرارات السادس، والعشرون، والرابع والعشرون، والخامس والعشرون. وبعد هذا الإجراء توسيعا لنطاق صلاحيات محكمة الملك[١٠٦].

أما القرار الثاني والعشرون فيؤكد على ضرورة إثبات أي تهمة يوجهها شخص الى شخص آخر، وإلا تعرض للعقاب على اتهامه الجزافي لغيره دون تقديم دليل[١٠٧].

وهكذا، إذا كان الفرنج ق اعتادوا على ارتكاب الفواحش والجرائم، وإذا كان رجال الدين والقادة اللاتين قد حاولوا الحد من هذا السلوك، فأن جموع الفرنج لم تكن تلتزم بالمحاذير التي يصدرها هؤلاء إلا حين صدورها، أي قبل القيام بحرب ضد المسلمين أو حين تحيط بهم مجاعة أو كارثة طبيعية كحدوث زلزال مدمر، أو بهجوم القوارض على أراضيهم فتأتي على الأخضر واليابس في الأقاليم التي احتلوا في بلاد الشام. وكانت هذه الإجراءات عادة تتضمن أعمال التوبة والتكفير مثل أداء الصلوات والصوم أو توزيع الصدقات[١٠٨]. وسرعان ما كان الصليبيون يعودون ما جلبوا عليه من التدني الأخلاقي. لذا تعتبر قرارات مجلس نابلس بمثابة أول تشريع صليبي ثابت يعالج هذه المشكلة. وإذا كانت عقوبات مجلس نابلس قاسية، فأن المقصود بها كان بالدرجة الأولى الزجر. إلا أنه كما رأينا فأن بعض القرارات كان يستعاض عنها بأحكام عقوبات أخرى في حالة التوبة. ولا تظهر القرارات الدرك السفل الذي وصلت إليه أخلاق الفرنج فحسب، بل تشير أيضا إلى اضطراب القانون وانعدام وحدته في المملكة الصليبية حتى انعقاد مجلس نابلس. وإذا كان هناك بعض القصور قد شاب بعض قرارات المجلس، إلى جانب ما جبل عليه الفرنج من تناقض أخلاقي لم

يقض على مخالفاتهم الدينية. وبقيت طبائع الفرنج وبقى التدني الأخلاقي يسود تصرفاتهم. فقد أباح المندوب البابوي أودو Odo of Chateauroux الذى وصل الى الشرق لمعالجة مشكلة العبيد غير المسيحيين المرتدين عن دينهم، في عام ١٢٥٣م، أباح لجوانفيل مؤرخ حملة ريتشارد عما انتابه من غضب لما لمسه من تدن في أخلاق الفرنج وأخبره بأن "لا أحد يعرف مثلي الخطايا الشائنة التي ترتكب فى عكا، ولابد سيحدث أن ينتقم الرب بغسل مدينة عكا بدماء سكانها، وحينئذ سيأتي أناس آخرون للعيش فيها"(١٠٩).

وبينما كانت القرارات الثلاثة الأولى التي اتخذها المجتمعون في مجلس نابلس والتي أنهى بها الملك بمقتضاها تحكم السلطة الزمنية في عشور الكنيسة التي دعمت موقفة الضعيف في مسالة اعتلاء العرش، فأن القرارات الباقية كلها جاءت مرتبطة أيضا بظروف الصليبيين بصفة عامة، وبظروف مملكة بيت المقدس بصفة خاصة، أي بما كان الملك بولدوين الثاني ينوى القيام به من أعمال، وما يتخذه من إجراءات. فقد كان بولدوين يسعى إلى تحسين أحوال المملكة لتتمكن من حماية الكيان الصليبي بصفة عامة، وخاصة الإمارات الصليبية في شمال الشام، بعد ازدياد خطر المسلمين بعد دحرهم لجيش إنطاكية بعد ان انفض اجتماع مجلس نابلس تلبية لاستغاثة البطريرك الأنطاكي لنيل مساعدة الملك ضد هجمات إيلغازى الأرتقي عليها فى مايو ١١٢٠م/صفر ٥١٤هـ .. وكان بولدوين يتوقع ذلك ومستعدا له كما يخبرنا وليم الصوري (١١٢). وفى صيف ١١٢١م/٥١٥هـ اضطر الملك الى مواجهة طغتكين أتابك دمشق الذى أغار على إقليم الجليل (١١٣). ثم قام فى اوائل عام ١١٢٢م/٥١٦هـ بالتوجه الى إنطاكية مرة اخرى للتصدي لإغارات بلك ابن شقيق ايلغازى الأرتقى (١١٤). وأخيرا توجه عام ١١٢٣م/٥١٧هـ (١١٥). الى جانب ذلك فهناك ما خطط بولدوين الثانى للقيام به، ويعد اهم أعماله السابقة، وهو التوسع على حساب المسلمين بعد النهوض بمهمة حماية الأمارات الصليبية الشمالية ومملكته من الخطر الإسلامي. وكان ذلك هو محاولة الاستيلاء على مدينة صور. وتم بالفعل وإن كان دون مشاركة الملك فيه لوقوعه أسيرا لدى المسلمين(١١٦). فمن نص الاتفاقية التى وقعها البطريرك جيرموند مع البنادقة الذين ساعدوا على احتلال صور، نعرف أن بولدوين كان يعد نفسه بالفعل للقيام بذلك. فنجد البطريرك يعلن للبنادقة عن

تأكيده "وعود الملك المذكور بولدوين وفقا للاقتراحات المقدمة في رسائله وكتبه التي كان نفسه قد أرسلها من قبل بواسطة رسله ألي البندقية"(١١٧). ومهما يكن من أمر، فأن ك هذه الأعمال كانت تحتاج لترتيب أمور المملكة فكانت قرارات مجلس الخطوة الأساسية لتنفيذ ذلك.

أما عن الإجراءات التي كان بولدوين ينوى اتخاذها بعد أن ينتهي من مجلس نابلس كانت قرارات هذا المجلس تعد تحسبا لتداعيات ربما تنشأ عن اتخاذ هذه الإجراءات. فقد لاحظ بولدوين الثاني قلة عدد سكان مدينة بيت المقدس التي تقل فيها المؤن، فعمل بناء على طلب البطريرك على أن تزود المدينة بالمؤن بشكل أوفر، وعلى زيادة عدد سكانها ، ثم على إرضاء البطريرك فى ذات الوقت. فأصدر في أوائل عام ١١٢١م قرارا بإعفاء سكان المدينة من اللاتين من الضرائب المفروضة على السلع التي كانوا يتاجرون فيها. كما سمح للتجار من الأرمن والسوريان والبيزنطيين وحتى المسلمين بالتروح إلى المدينة وجلب الحبوب دون فرض أية ضرائب عليهم. كما ألغى بولدوين الضرائب المفروضة على المكاييل والموازيين(١١٨). كل ذلك لينعش الحياة الاقتصادية في المدينة، ويكون في نفس الوقت قد حرص على إرضاء البطريرك الذي لعبت مصلحته المالية، فضمن له بولدوين انتعاش خزانته(١١٩). وبذلك تكون قرارات مجلس نابلس قد ارتبطت تماما بأحوال مملكة بيت المقدس الصليبية والصليبيين بصفة عامة، وبظروف الملك بولدوين الثاني الذي عمل في المقام الأول على شراء رضى الكنيسة.

أما عن موقف المؤرخين من مجلس نابلس وقراراته، فإن فولشر الشارترى كان من المفروض أن يرحب-مرجل دين-بهذا الحدث الذي يعتبر صلحا بين السلطتين الزمنية والدينية في المملكة الصليبية. إلا أنه لم يذكر عنه شيئا بالمرة. وربما بدا له-كقس خاص للملك-الأمر على أنه هزيمة للملك أمام البطريرك (١٢٠).

أما عن وليم الصوري الذي كرس حوليته لسرد تاريخ الصليبيين بصفة عامة ومملكة بيت المقدس بصفة خاصة، فقد أخبرنا بقصة مجلس نابلس، وكرس لها فصلا كاملا من كتابه، كما أخبرنا كيف اجتمع المشاركون في الاجتماع، وكيف ألقى البطريرك فى بداية الاجتماع عظته التحذيرية، وكيف شعر المجتمعون بأن عليهم أن يتوبوا عن آثامهم، وكيف أصدروا خمسة وعشرين قرارا. إلا أن وليم لم يأت بإشارة واحدة عن تفاصيل هذه القرارات. وكتب أنه "يمكن لأي شخص يرغب في قراءة هذه القرارات

أن يجده بسهولة في سجلات كنائس كثيرة"[١٢١]. وإذا كانت هذه العبارة تفيد بأن وليم نفسه كانت لديه نسخة، على الأقل النسخة التي كانت تخص سجلات كنيسة صور التي كان هو رئيسا لها؛ إذا كان الأمر كذلك، فلماذا لم يورد وليم نصوص هذه القرارات، مع أنه أورد لنا تفاصيل قرارات اتخذها مجالس ملوك بيت المقدس الآخرين؟ أورد نص القرارات التي أصدرها التي أصدرها مجلس الملك عموري الأول في نهاية عام ١١٦٦م حين فرض ضريبة العشر على دخل رعاياه استعدادا لحملته المرتقبة على مصر في عام ١١٦٧م[١٢٢]. كما أورد وليم تفاصيل فعاليات مجلس المملكة برئاسة الملك بولدوين الرابع (١١٧٤-١١٨٥م) المنعقد في فبراير ١١٨٣م لدراسة الموقف الصليبي بعد تمكن صلاح الدين الأيوبي من تحقيق نجاحات كبيرة تهدد الكيان الصليبي [١٢٣]. ورأى المجلس أن تكاليف الدفاع المتزايدة عن المملكة تستنفذ كل مواردها، لذلك تقرر فرض ضريبة عامة يخضع لها كل سكان المملكة من رجال دين وعلمانيين. كما أورد وليم النص الكامل لقرارات ذلك المجلس [١٢٤]. وإذا كان مؤرخنا معاصرا لمجلسي عموري وبولدوين الرابع، و لم يكن معاصرا لمجلس نابلس، فإنه لم يكن معاصرا أيضا لحدث وقع اجتماع مجلس نابلس بأربعة أعوام، ويقع في عهد بولدوين الثاني نفسه، وهو توقيع اتفاقية التعاون بين مملكة بيت المقدس والبنادقة التي وقعها البطريرك جيرموند نيابة عن الملك. وقد أورد وليم النص الكامل لهذه الاتفاقية، حتى أنه سجل أسماء من وقع عليها من رجال المملكة [١٢٥].

وللوقوف على حقيقة رد فعل وليم الصوري تجاه مجلس نابلس وقراراته، يجدر بنا الانتباه ألي تأثير كون وليم رجل دين، وفى نفس الوقت كونه رجل الملكية الصليبية، على كتابته التاريخية. فإذا كنا قد ذهبنا من قبل الى أن قرارات مجلس نابلس تعد تنازلا من قبل الملك بولدوين الثاني عن سلطات مارسها سابقوه ملوك بيت المقدس للكنيسة، فإن وليم الصوري كرجل دين مناصر للحرية الكنيسة libertas ecclesiae، فإنه أيضا كان مؤرخا ملكيا، ومثل فولشر الشارترى، وربما اعتقد أنه من الفطنة أن يحذف من روايته عن مجلس نابلس نص القرارات التي اتخذها المجلس حتى لا يظهر الملكية فى روايته وقد ضعفت أمام الكنيسة، وبذلك يكون وليم قد تجاذبه تأثير ارتباطه بالكنيسة، وتأثير ارتباطه بالملكية في آن واحد؛ وهذا ما دفعة إلى أن يعدل بينهما على مدى كتابه[١٢٦]. ألي جانب ذلك، إذا كانت محاولة الملك بولدوين الثاني استرضاء الكنيسة نظرا لضعف موقفه من مسألة اعتلائه العرش عند اختياره ملكا بمساندة جوسلين والبطريرك أرنولف-التي اعتبرها وليم نفسه وسيلة غير شرعية-قد بدأت في عهد

أرنولف، وأن تفاوضا بين الملك والبطريرك قد تم بشأن هذه القرارات ثمنا لتأييد البطريرك لعملية اختيار بولدوين ملكا، وأن تنفيذها-لموت أرنولف- قد بدأ في عهد خلفة البطريرك جيرموند، فإن طلب إنهاء التحكم العلماني في العشور الكنسية يعد من إنجازات أرنولف. ولما كان وليم يتخذ موقف الرفض من اعتلاء أرنولف نفسه كرسي البطريركية [١٢٧]. فإنه من السهل أن نفسهم لماذا تحدث وليم عن مجلس نابلس بصفة عامة دون ذكر القضية الأساسية، وهي العلاقة بين الملك والبطريرك، ومحاولة بولدوين تحسين العلاقة بين السلطتين الزمنية والدينية في المملكة، لضعف موقفة أمام البطريرك. وربما كان إحجام وليم عن ذكر نصوص القرارات قد أوحي لكثير من المؤرخين الحديثين بعدم أهميتها الأمر الذي أدي إلى عدم شد انتباهم ألي مجلس نابلس.

وهكذا جاء مجلس نابلس اجتماعا شاملا ضم كل رجالات مملكة بيت المقدس الصليبية وعقد بسبب المحن التي أحاطت بها-وبالكيان الصليبي ككل. من قبل الطبيعة من جهة والمسلمين من جهة أخرى، لتحقيق أهداف معلنة، وهي إصلاح أحوال المملكة المتردية، ورفع المستوى الأخلاقي للفرنج والمحافظة على النظام استعدادا لمواجهة الخطر الإسلامي المحدق بهم. إلى جانب أهداف لم تعلن وهى إصلاح ذات البين الكنيسة والدولة. وشكلت قرارات المجلس-وإن شاب بعضها القصور-قانونا وضع ليفى باحتياجات المجتمع الفرنجى بالمملكة الصليبية. وارتبط ارتباطا وثيقا بظروفها وبظروف الملك بولدوين الثاني نفسه، وبظروف الكيان الصليبي ككل. وأهم ما تحقق من الأهداف التي سعي المجلس ألي تحقيقها هو التصالح بين الكنيسة والدولة، ونتج عن ذلك قيام التعاون بين الطرفين. وكانت درجة هذا التعاون، التي أدي ألي وضع هذه التشريعات، فألا حسنا لوحدة الفرنج في مواجهة المشاكل التي أحاطت بهم، تلك الوحدة التى لم يكن هناك أى دليل على قيامها منذ عام ١٠٩٩م. وظهرت قيمة هذا التعاون بين الدولة والكنيسة فى عام ١١٢٤م. فقد تفاوض البطريرك جيرموند مع البنادقة باسم الملك. ومنحهم مقابل مساعدتهم للفرنج فى الاستيلاء على صور، امتيازات أكدها الملك بعد فك أسره. وتم الاستيلاء على صور. وحفظ البطريرك المملكة من الخطر حتى يطلق سراح عاهلها. وفى كل ذلك تصرف البطريرك

كرئيس للدولة [١٢٨]. وكان ثمن كل ذلك قد دفعة الملك مقدما حين تنازل عن حقوق وسلطات لم يتنازل عنها سلفه من قبل. وهذا ما دفـــع وليـــم الصـــوري، مـــؤرخ المملكة،ورجل المملكة الصليبية، ورجل الكنيسة في آن واحد، إلي أن يتغـــاضى عـــن تسجيل قرارات المجلس التي وقف على نصوصها حتى يحفظ للملكية وقارها دون يمـــس وقار الكنيسة.

بيان بالمختصرات

BED	-Bulletin des Etudes Orientale.
Chron Anon Syr	-Anonymous Syriac Chronicle, ed. A.S. Triton, in Journal Royal Asiatic Society (London, 1933).
CHR	-The Catholic Historical Review.
CS	-Crusade and Settlement papers read at the First Cofirence of the Society for the study of the Crusade and the Latin East and presented to R.C. Smail, ed. P.W. Edbury (Cardiff, 1985).
JA	-Journal Asiatic.
JEH	-Journal of Ecclesiastical History.
Outermer	-Outermer. Studies in the History of the Crusading Kingdom of Jerusalem presented to Joshua Prawer eds. B.Z. Kedar, H.E. Mayer, and R.C. Smail (Jerusalem, 1982).
PPTS	- Palestine Pilgrims Text Society (london, 1896- 1907).
RHC Oc.	-Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Occidentaux. 5 vols. Paris, 1844-95.
RHC Lois	-RHC Lois. Les Assises de Jerusalem. 2 vols. Paris, 1841-3.
RHC Doc Arm	-RHC Documents armeniens. 2 vole. Paris, 1869-1906.
RRH	-Regesta Regni Hierosolymitani (1097-1291), Compiled by R. Rohricht, Insruck, 1893, Additamentum,1904.
RS	-Rolls Series: Rerum Britannicarum Medi Aevi Scriptores.(London, 1858-96).
WT	-Wiliam of Tyre. Chronicon, ed.R.B.C.Huygens, Corpus Christianorum, Continuatio Mediavalis, 63163 A, 2 vols. (Turnhout, 1986)

الـــهـــوامش

(١) William of Tyre, *A History of Deeds Done beyond the sea*, 2 Vols., trans. E. Babcock and A.C. Krey (New York, 1943),vol.1, pp. 535-536.

(٢) وجاء ذلك في عدة أسطر قليلة، وهناك من مر على هذا الحدث في صمت تـــام. ولم يتناوله بشكل أوسع إلا المؤرخ الألماني هانز ماير من خلال معالجته للقـــرارات الثلاثة الأولى التي تضمنها المرسوم الذي أصدره المجلس، ليوضـــح مـــدى تأثـــير الصراع بين السلطتين الزمنية والدينية في غرب أوروبا حول مشـــكلة التنصيـــب على مملكة بيت المقدس الصليبية دون التعرض لأحوال المملكة الصليبية.

وانظر :

H.E. Mayer, The Concordat of Nablus, in *JEH* 33 (1982), pp. 531-43.

(٣) WT, 563-4.

(٤) Ibid., p. 563.

(٥) Cerbanus Cerbani, Translatio mirifici martyris Isidori a chio insula in civitatem venteam in *RHC Oc*. 5, pp. 322-3.

(٦) J.C. Mansi, ed., Sacrorum Consiliorum nova et amplissima Collectio (Paris 1901-1927) xxi, p 261.

(٧) وكذلك اعتبره كل من براور وجان ريشار "برلمانا" بينما اعتبره لامونـــت اجتماعا للمحكمة العليا يرأسها الملك، ومجلسا كنسيا الـــذى كـــان يرأســـة البطريرك. أنظر

Mayer, op. Cit., p. 53; J. Prawer, Crusader Institutions (Oxford, 1980), p. 15; J. Richard, The Latin kingdom of Jerusalem , Trans. J. Shirlet, 2 vols. Europe in the Middle Ages: Selected Studies, 2 (Amsterdam, 1979), p. 68; J.L. La Monte, Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem (1100 To 1291) (Cambridge, 1932), p.9.

(٨) William of Tyre, vol. 1,pp. 535-536.

(٩) Ibid., vol. 1, p. 536.

(١٠) Fulcher of Charters, *Gesta Francorum Iherusalemt* . Frances Rita Rayan as A History of the Expedition to Jerusalem, Tennesse, 1969, p. 225; Albert d Aix, Historia Hierosolymitana, in *RHC Oc* 5, p. 706.

(١١) Fulcher of Chartres, pp. 210-218-219; William of Tyre, vol. I, p. 535.

(١٢) Fulcher of Chartres, pp. 218-219.

(١٣) Daniel, Russian abbot, «The Pilgrimage of the Russian abbot Daniel in the Holy land», trans. C.W. Willson, in PPTS., 4. (London, 1888).

وقد رجعنا للترجمة العربية لهذا الكتاب. أنظر :

-دانيال الراهب: رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب في الديـــار المقدســة، ترجمة سعيد البشاوى وداود إسماعيل أبو هديـــة، عمــان ١٩٩٢م. ص٦٨، ١٠٨. راجع أيضا :

J. Prawer, «Agricultural Conditions in the Crusader states», in *A History of the Crusades*, ed. Kenneth M. Setton, 6 vols. (Madison, 1989), 5, p. 262.

(١٤) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجـــهاد العربي في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٧٥م، ص ؛ محمد محمـــد مرســي الشيخ: الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى ســـقوط الرهـــا، الإســكندرية ١٩٧٤م، ص٩،٥٥.

(١٥) Chron. Anon. Syr., p.86.

(١٦) William of Tyre, vol. 1, pp. 523-4.

(١٧) Fulcher of Chartres, pp. 225-6

(١٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، ١٢جــ، القاهرة ١٣٠١هــ ، جــ ١٠، ص ٢٩-٢٣٠

(١٩) ابن الأثير : المصدر السابق، جــ ١٠، ص ٢٣٥.

(٢٠) William of Tyre, Vol. I,p. 528.

(٢١) ابن القلاسى: ذيل تاريخ دمشق، بيروت (مطبعة الآباء اليسوعيين) ١٩٠٨م، ص١٩٩-٢٠٠؛ ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، ٣جــ، تحقيـــق سامى الدهان، دمشق ١٩٥١م، ج٢،ص١٨٧-١٨٩. راجع ايضا:

Walter the Chancellor, «Bella Antiochena, in *RHC Oc.*, Vol. 5, pp.101ff; William of Trye, vol. 1, pp. 530-1.

(٢٢) ابن العديم : المصدر السابق ، ج٢،ص١٩٢-١٩٦. راجع أيضا

Walter the Chancellor, op. cit., p. 120-122.

(٢٣) بعد موقعة ساحة الدم. اجتمع بولدوين مع نبلاء إنطاكية اللاتين وبطريـــرك كنيستها برنارد وتقرر أن يتولى الملك الوصاية على إنطاكية حـــتى وصـــول

بوهيمند الثاني من العرب . وفى هذا الاجتماع تقرر أيضا أن يبعث الفرنـــج بطلب المساعدة من الغرب. التى نتج عنها وصول الأسطول البندقى فى عـــام ١١٢٣م ومساعدته للفرنج في الاستيلاء على صور فلا عام ١١٢٤م. أنظر :
Fulcher of Chartres, p. 231; CF. also J. Riley-Smith, «The Venetian Crusade of 1122-4», in *the Italian communes in the Crusading kingdom of Jerusalem* eds. G Airaldi and B.Z kedar (Genoa, 1986), p. 340; J. Phillips, «*Defenders of the Holy land*» (Oxford, 1998), p. 14.

(٢٤) William of Tyre, vol. 1, pp. 424-7. CF. also, Steven Runciman,«A History of the Crusade», 2 vols. (Cambridge, 1968), vol. 2, pp. 156-8.

(٢٥) Ibid., vol. 2, pp. 519-21.

(٢٦) Fulcher of Chartres, 226 .

(٢٧) Ibid., pp. 228-9.

(٢٨) "Le liver au roi" in *RHC Lois*, Vol. I, pp. 616-617. CF. also, kingdom P.W. Edbury, «The baronial coinage of the Latin of Jerusalem«, in Coinage in the Latin East, ed. P.W. D.M. Metcalf. (Oxford, 1980), pp. 66-9; J. Edbury and Riley-Smith, «Further Thoughts on Baldwin II's établissement on the Confisication of Fiefs», in *CS*, pp.176-180.

(٢٩) William of Tyre, Vol. I,p. 536.

(٣٠) Mansi, xxi, C. 2, 263

(٣١) Mansi, xxi, C. 1, 263

(٣٢) Mansi, xxi, C. 2, 263.

(٣٣) Mayer, op. cit., p. 539.

(٣٤) H. Mayer, «*The Crusades*» (Oxford, 1972).
وقد رجعنا للنسخة العربية لهذا الكتاب ، أنظر
هانز ماير: تاريخ الصليبية، ترجمة وتعليق، عماد الدين غانم، منشورات بجمع الفاتح للجامعات، ليبيا ١٩٩٠م، ص ٢٥١

(٣٥) Mansi, xxi, C. 1, 263

(٣٦) Mansi, xxi, CC. 2,3,263.

(٣٧) Mayer, The Concordat, op. cit., p. 534; J. Parwer, «*The Latin Kindom of Jerusalem*» (London, 1972), p. 337; B. Hamilton, *«The Latin church in the crusalder satated; the secular church»,* (London, 1980), p. 145

(٣٨) RRH, no. 40, p. 7.

(٣٩) RRH, nos. 67,74-75 pp.15,17.

(٤٠) RRH, no. 67, pp. 14-15, no. 74-75, pp.16-17, CF. Also, Mayer, op. cit., p. 541.

(٤١) J. Richard, op. cit., p. 107.

(٤٢) يقع على مسافة ٥٢,٥ كيلو متر غربي بحيرة طبرية. أنظر: دانيال الراهب، المصدر السابق، ص ١٢٠.

(٤٣) RRH. no. 36, pp. 5-6.

(٤٤) RRH, no. 51, p. 10.

تحمل الوثيقة التي تتضمن نص الاتفاقية بين بوهيمند ودير القديس سلفادور بجبل طابور تاريخ ٢٥ مارس /٣١ أغسطس ١١٠٠م. ولما كان الملك بولدوين لم يكن قد وصل من الرها بعد ليتسلم مقاليد حكم مملكة بيت المقدس الصليبية إلا في ٩ نوفمبر من نفس العام وتوج ملكاً في ١١ نوفمبر. فمن المؤكد أن تنكرد قد عقد الاتفاقية مع الدير قبل وصول بولدوين. وأكد بولدوين الوثيقة بعد ذلك. فى ٣١ أغسطس من عام ١١٠٦م.

راجع أيضاً: سعيد البيشاوى: الممتلكات الكنيسة في مملكة بيت المقدس الصليبية، الإسكندرية، ١٩٩٠م، ص١٨٩-١٩٠.

(٤٥) Fulcher of Chartres, pp. 222-3; William of Tyre, vol. 1, pp. 518-9; Albert d'Aix, op . cit., pp. 606-609.

(٤٦) Fulcher of Charters, pp. 225; William of Tyre, vol. 1, pp.520.

(٤٧) Fulcher of Charters, p. 232.

(٤٨) William of Tyre, vol. 1, p. 520.

(٤٩) ما من بطريرك تولى منصبه في كنيسة بيت المقدس إلا وانتهى أمره بالعزل بعد وقوع خلافات بينه وبين الملك بولدوين الأول. وكثيراً ما انتصر بولدوين. وعن علاقة الملك بالبطارقة أنظر:

Hamilton, «*The Latin Church*», pp. 55-58, 61-63, 67-68.

راجع أيضا: سعيد البيشاوى: الممتلكات الكنيسة، ص ١٠٧-١٢٩.

(٥٠) كل النقائص التى التصقت بالبطريرك أرنولف أوردها وليم الصورى وحده. وقد اتخذ موقف الرفض والعداء من البطريرك على طول الخط. أنظر .

William of Tyre, vol. 1, pp. 489, 505-6. CF. Also; J. Richard, «*The political and Ecclesiastical Organization of the Crusader States*», in Setton, vol. 5, pp. 61, 237; P.W. Edbury and J. Row, «*William of Tyre: Historian of the Latin East*» (Cambridge, 1988), p. 112.

(٥١) William of Tyre, vol. 1, p. 520.

(٥٢) Fulcher of Charters, pp.237-8;William of Tyre, vol. 1, p. 522.

راجع أيضاً : هايتر ماير: تاريخ الحروب الصليبية ، ص ١٢١.

(٥٣) هذا ما أعلنه كل من البابا أوربان الثاني، والبابا إيوجنيوس الثالث، وسار على نهجهم كل دعاة الحروب الصليبية في الغرب واصبح تعبير reissio peccatorum «غفران الذنوب» شائعا في خطابات هؤلاء. أنظر الترجمة الإنجليزي لهذه الخطابات في :

Louise and J. Rilcy-Smith, (eds.) «*The Crusades: Idea and Reality*» (London, 1981), pp. 37-53,57-59.

(٥٤) Marshal, W. Baldwin,«*Western Attitude towards Islam*», in *CHR*, vol. xxvll, n.y, p. 405.

وعن تطور فكرة الحرب المقدسة في غرب أوروبا وارتباطها بالحروب الصليبية، راجع: قاسم عبده قاسم : الخليفة الأيديولوجية للحروب الصليبية، القاهرة، ١٩٨٣م، ص ١١ وما بعدها.

(٥٥) J. Riley, Smith, «*What were the Crusades*» (New Jersey, , 1977), pp. 54-62.

وعن تتطور مفهوم الغفران عند الصليبيين راجع البحث الشامل الذي أجراه الدكتور قاسم عبده قاسم في هذا الصدد. أنظر: قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، سلسلة عالم المعرفة، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت، العدد ١٤٩، الكويت ١٩٩٠م، ص ٢٨-٣٤.

(٥٦) James A. Brundage, «Prostitution, Miscegenation and sexual Purity in the First Crusade», in *CS*, p. 57-62.

(٥٧) Fulcher of Charters, p. 85.

(٥٨) «Historia et gesta ducis Godfrid», in *RHC Oc.*, Vol. 5, p. 466.

(٥٩) Guibert de Nogent, «Historia que dictur Gesta Dei per Franc-cos», *in RHC. Oc.*, vol. 1,p. 181.

(٦٠) Albert d'Aix, op. cit., pp. 370-371.

(٦١) ريموندا جيل: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة وتعليق، حسن عطية، الاسكندرية ١٩٩٠م، ص ١٢٠؛ مجهول: أعمال الرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة حسن حبشي، القاهرة، ١٩٨٥م، ص٨١. راجع أيضاً:

Robert Monachus, «*Historia Ecclesiastica*», ed. M. Chibnall, 6 vols. (Oxford, 1969), vol. 5, p. 98.

(٦٢) ريموناجيل: تاريخ الفرنجة، ص ١٤٣.

(٦٣) Albert d'Aix, op. cit.,p. 416.

(٦٤) Mansi, xxi, C.4,263.

(٦٥) Mansi, xxi, C. 5, 263.

(٦٦) راجع ايضاً: أسامة ابن منقذ: كتاب الاعتبار، تحقيق فيليب حتى، الولايــات المتحدة الأمريكية، برنستون ١٩٣٠، ص ١٧٤.

(٦٧) Mansi, xxi, C.6, 264-264.

(٦٨) كانت للبطريرك هرقل علاقات غرامية مثيرة للدهشة. وخاصة مع باشـيا دى ريفيرى Pasque de Riveri زوجة فرنجــي صــاحب حــانوت فى نابلس، التي هام بها البطريرك حبا، وجعلها تأتيه الى بيت المقدس أكثر مــن مرة وبقيت عنده أكثر من خمسة عشر يوماً في إحدى زياراتها لــه. وبعـد موت زوجها استقدمها البطريرك إلى بيت المقدس واشترى لها بيتاً وجعلــها تقيم بالقرب منه. أنظر:

«Estoire d'Eracles», in *RHC Oc*., vol. P. 60. CF. Also, B. Z. Kedar, «The Patriarch Eraclius», in *Outermer*, pp. 180-183.

(٦٩) وشاهد هذه البيوت مؤرخو الحملة الصليبية الثالثة.

«Itinerarium Peregrinorum et gesta regis Ricardi», ed. W. Stubbs, in *RS* (London, 1865) pp. 248,283-6; Ambroise, *«The Crusade of Richard Lion-Heart»*, trans. H. J. Hubert (New Yourk, 1928), pp. 233,277-278.

(٧٠) Mansi, xxi, C.7,264.

(٧١) أنظر ما سبق ، ص١٣.

(٧٢) Guibert Nogent, op. Cit., p. 133.

(٧٣) Mansi, xxi, C. 8, 264.

(٧٤) Mansi, xxi, C. 9, 264.

(٧٥) Mansi, xxi, C. 10, 264.

(٧٦) Mansi, xxi, C. 11, 264.

(٧٧) ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٢٠، ٢٢٤-٢٢٥، ٢٣٢-٢٢٣؛ ابـن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص ١٤١، ١٤٢؛ ابن الأثير: الكامل، جــــ١٠، ص١١٥-١٣٥، مجهول: أعمال الفرنجة، ص١٢٠؛ ريموندا جيل: تاريخ الفرنجـة، ص ١٦٩،٢٤٧.

(٧٨) ابن القلانسى: المصدر السـابق، ص ٢٣٦-٢٣٧، ٢٧٣، ٢٤٣، ٢٦١-٢٦٢؛ ابن الأثير: المصدر الســابق، جـــ١٠، ص١٠١، ١٩٧-١٩٨، ٢٠٢، ٢٦٣-

٢٦٥؛ العظيمـــي: تاريخـــه، نشرة كلود كاهن (بالعربية) فى الجريدة الآســـيوية. أنظر:

Al-Azimi, «Chronique», ed., C. Cahen, in *JA*, tom. ccxxx, 1938, p. 380.

راجع أيضاً: جوزيف نسيم يوسف: معـــركة حطـــين، خلفياتها ودلالاتهـــا، مجلة عالم الفكر، المجلد العشرون، العدد الأول، الكويت ١٩٨٩م، ص٢٤٥.

(٧٩) H. Mayer, *«Latins, Muslims and Greeks in the Latin Kingdom of Jerusalem»*, in History, vol. 63 (1978), pp. 175-92P J. Prawer, *«Social classes in the Latin Kingdom of Jerusalem: the Minorities»*, in Setton, vol. 5, pp. 61-66.

(٨٠) Guibert de Nogent, op. cit.,p.133.

(٨١) Albert d'Aix, op. cit.,pp.327-328.

(٨٢) Fulcher of Charters, p. 271.

(٨٣) Albert d'Aix, op. cit., p. 361.
William of Tyre, vol. 1, pp. 415-16, 522; vol. 2, pp. 344-5. CF. also,Runciman, op. cit., vol. 1, pp. 208-9; vol. 2, pp. 36,292, 377.

(٨٤) Mansi, xxi, C. 12,264. CF. also, J. Brundage, op. cit., p. 60.

(٨٥) Mansi, xxi, C. 13, 264. CF. also, J. Brundage, op. cit., p. 61.

(٨٦) Mansi, xxi, C. 14, 264.

(٨٧) Mansi, xxi, C. 15, 264. CF. also, J. Brundage, op. cit., p. 60.

(٨٨) أسامة ابن منقذ: كتاب الاعتبار، ص١٨٠، ابن جبـــير: الرحلـــة، بـــيروت ١٩٨١م، ص٢٤٧-٢٤٨، ٢٥١-٢٥٣، راجع أيضاً:

J. Parwer, *«Social Classes»*, pp. 61 FF.

(٨٩) B.Z. Kedar, *«Ecclesiastical Legislation in the Kingdom of Jerusalem» in CS.*, p. 226.

(٩٠) B.Z. Kedar, op. cit., p. 226.

(٩١) B.Z. Kedar, *«Crusade and Mission, European Approaches toward the Muslims»* (Princeton, 1984), pp. 76-8, 146-51, 212-15.

(٩٢) B.Z. Kedar, *«Ecclesiastical legislation»*, p. 226.

(٩٣) J. Brundage, *«prostitution»*, p. 61.

(٩٤) Mansi, xxi, C.16,264.

(٩٥) Runciman, op. cit., vol.2,317-18

(٩٦) Jaques de Vitry, «*History of Jerusalem*», ed. A. Stewart, in PPTS, vol. Xi, pp. 64-65.

(٩٧) Mansi, xxi, C.18,264.

(٩٨) Mansi, xxi, C. 19,264-265.

(٩٩) Mansi, xxi, C. 20,21,265.

(١٠٠) ريموندا جيل : تاريخ الفرنجة ، ص ٩٠-٩١، ١٦٦،٢٣٧-٢٣٨.

(١٠١) Fulcher of Charters, p. 219

(١٠٢) Mansi, xxi, C. 23, 266.

(١٠٣) Mansi, xxim C. 24,266.

(١٠٤) Mansi, xxi, C. 25, 266.

(١٠٥) ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص١٢١.

(١٠٦) Mansi, xxi, C. 22, 265.

(١٠٧) مجهول: أعمال الفرنجة، ص ٩٢؛ ريموانداجيل: تـاريخ الفرنجـة، ص ١٠٦، ١٤٣؛ راجع أيضاً:
Orderic Vitalis, «*Historia*», vol. 5, pp. 105,164-8,178. Guibert of Nogent, «*Gesta Dei*», p. 205.

(١٠٨) جوانفيل: القديس لويـس، حياتـه وحمـلاته على مصر والشام، ترجمـة حسـن حبشي، القاهرة ١٩٦٨م، ص ٢٦٦.

(١٠٩) Fulcher of Charters, pp. 232-3, William of Tyre, vol.1, pp. 536-7;
ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ١٩٥-١٩٦؛ ابن القلانسي: ذيل تـاريخ دمشق، ٢٠٢.

(١١٠) Fulcher of Chartres, pp. 234-5, William of Tyre,vol. 1, pp. 538-9.

(١١١) Walter the Chancellor, «*Bella Antiochina*»,pp.131-2;Fulcher of Chartres, pp. 235-7.

(١١٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٠٩. راجع أيضاً :
Fulcher of Chartres, p. 240; Mathew of Edessa, «*Chronicle*», in *RHC Doc Arm*, vo. 1, pp. 132-133.

(١١٣) وقع بولدوين أسيراً لدى بلك ابن شقيق إيلغـازى الأرتقـى فى ١٨ أبريـل ١١٢٣م/١٩صفر ٥١٩ هـ. أنظر: ابن القلانسي : ذيل تـاريخ دمشـق، ص٢٠٩ . راجع أيضاً

Fulcher of Chartres, p. 240; William of Tyre, vol. 1, pp. 540-1; Mathew of Edessa, p. 132- 133.

(١١٤) William of Tyre, vol. 1, pp. 553,556

(١١٥) Fulcher of Charters, p. 232, William of Tyre, vol. 1, pp. 537-8.

(١١٦) بعد استيلاء الصليبين على مدينة بيت المقدس بفترة وجيزة، منـــح جودفـــرى حاكم مملكة بيت المقدس الصليبية، منح كنيسة القيامة إحدى وعشرين قريـــة في حدود المدينة إلى جانب جميع مخابز بيت المقدس عدا ثلاثة مخابز، اثنان منـــها للضيافة، والثالث للدير البندكتى المعروف باسم القديسة مـــريم St. Maria Latina . وقد قدمت هذه المنحة للكنيسة أثناء تولى أرنولـــف مـــالكورون بطريركية بيت المقدس عام ١٠٩٩م/١٩٢ هـــ، قبل عزلة من منصبة بعد عـدة أشهر. أنظر: سعيد البيشاوى الممتلكات الكنسية، ص ١٤٢.

(١١٧) Mayer, op. cit., 541.

(١١٨) William of Tyre, vol. 1, p. 536.

(١١٩) Ibid., vol. 2, pp. 313 ff.

وكانت هذه الحملة الثالثة التي يحاول بها عمورى الاستيلاء على مصر قبـــل أن تسقط فى ايدى نور الدين محمود. وكانت فى يناير ١١٦٧م/ربيع ثـــان ٥٦٢ هــــ. عن أحداث هذه الحملة وظروفها. أنظر : ابـــن الأثـــير : الكـــامل فى التاريخ، جـــ١١، ص١٤٥-١٤٧؛ ابو شامة: كتاب الروضتـــين فى اخبـــار الدولتين النورية والصلاحية، جزءان فى مجلد واحد، القـــاهرة ١٢٨٧-١٢٨٨ هـــ، جـــ١، ص ١٤٢-١٤٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب فى أخبـــار بـــنى أيوب، ٣جـــ، تحقيق جمال الدين الشـــيال، القـــاهرة، ١٩٦٠م، ص ١٤٨-١٥٢.

(١٢٠) كان صلاح الدين قد حقق نجاحات كبيرة في إقليم الجزيرة، حيـــث أخضـــع لسلطته مدن الرها ولرقة وسروج ونصيبين وسنجار تمهيدا لإخضاع الزنكيـــين في حلب والموصل حتى يتفرغ للصليبيين تمام بعد أن يحيط بأملاكهم من كـــل

جانب، وفتح صلاح الدين حلب ليكمل حصاره لهم وذلك في ١١٨٢م/٥٧٩ هـ. أنظر ، ابن العديم زبدة الحلب ، جـ٢، ص ٦٢-٦٣؛ مؤرخ مجهول: البستان الجامع تواريخ الزمان نشره كلود كاهن: C. Cahen,"Un chronique Syrien de VI[e] siecle" in *BEO*, vol. 8, p. 144.

(١٢١) William of Tyre, vol. 2, pp. 486-489.

راجع أيضا: حسين عطية: عشر صلاح الدين وأصوله التاريخية فى غرب أوروبا ومملكة بيت المقدس الصليبية، مجلة المؤرخ المصري، يصدرها قسم التاريخ-جامعة القاهرة-العدد السادس ١٩٨٩، ص١٢٣ وما بعدها.

(١٢٢) William of Tyre, vol. 1, pp. 525-6.

(١٢٣) Edbury and J. Row, "*William of Tyre*", pp. 105-6.

(١٢٤) Mayer, op. cit., p. 542.

(١٢٥) Hamilton, "The Latin Church", p. 65.

الأشرف خليل بن قلاوون وفتح قلعة الروم
(١٦ يونيو سنة ١٢٩٢م/١١ رجب سنة ٦٩١هـ)

د. / فايز نجيب اسكندر
كليـــة الآداب–جامعـــة بنـــها

كانت مملكة أرمينية الكبرى بمثابة دولة حـــاجزة ETAT TAMPON، أي دولة واقعة بين دولتين متصارعتين تحول دون تصادمهما، وقد أدى الجبليون الأرمـــن هذا الدور أحسن أداء. وكان لمصلحة الإمبراطورية البيزنطية الحفاظ على كيان تلـــك الدولة الحاجزة، خاصة بعد نجاحها في صد هجمات الأتراك الســـلاجقة في مراحلـــها المبكرة وكبح جماح تلك القبائل الطموحة إلا أن سياسة الإمبراطورية البيزنطية العقيمـة واستراتيجيتها الخاطئة حطمت ذلك الحاجز الواقي وذلـــك بغزوهـــا أرمينيـــة ســـنة ١٠٤٥م/٤٣٧هـ[١]، فكان هذا التحطيم باهظ الثمن، إذ تمكن الســـلاجقة في ١٦ أغسطس سنة ١٠٦٤م/٢٩ شعبان سنة ٤٥٦هـ[٢] من الاستيلاء علـــى "آني" Ani عاصمة مملكة أرمينية الكبرى، ثم تقويض بنيان الإمبراطوريـــة البيزنطيـــة فى معركـــة ملاذكرد سنة ١٠٧١م/٤٦٣هـ ونجاح السلاجقة فى ابتلاع آسيا الصغرى وتأســـيس سلطنة سلاجقة الروم بعاصمتها قونية[٣].

ولقد ترتب على الأحداث السالفة الذكـــر هجرة الأرمن نحو الجنـــوب الى "الرها" الواقعة في إقليم الجزيرة الغربي، بالقرب من الطريق التجاري الكبير الذي يمتـــد علـــى الفرات. كما اتجه الأرمن من قبل إلى قبادوقيا وذلك أوائل القـــرن العاشـــر الميلادي/أوائل القرن الرابع الهجري؛ وكذا الى إقليم قيليقيا والذي كـــان البـــيزنطيون قـــد هجـــروا إليـــة من قبل كثير من الأرمن وذلك عقب غزوهـــم أرمينيـــة ســـنة ١٠٤٥م/٤٣٧هـ؛ وكان من بين هؤلاء بطريرك الأرمن الذي كان قد ترك العاصمـــة "آني" Ani منذ سنة ١٠٥٤م/٤٤٦ هـ وأخـــذ مقـــره يتنقـــل حـــتى استقـــر ١١٥٠م/٥٤٥ هـ بقلعـــة الروم على نهر الفرات[٤].

---

(١) للتفاصيل أنظر : فايز نجيب اسكندر : غزو الإمبراطورية البيزنطية الأرمينية سنة ١٠٤٥م/٤٣٧هـــــ الإســـكندرية ١٩٨٨م.

(٢) للتفاصيل أنظر: فايز نجيب إسكندر: استيلاء السلاجقة على عاصمة أرمينية "آني" سنة ١٠٦٤م/٤٥٦هـ–الإســـكندرية ١٩٨٧.

(٣) للتفاصيل أنظر: فايز نجيب إسكندر: البيزنطيون والأتراك السلاجقة في معركة ملاذكرد–الإسكندرية، ١٩٨٤.

(٤) للتفاصيل أنظر: فايز نجيب إسكندر : مملكة أرمينية الصغرى بين الصليبيين ودولة الممـــاليك الأولى (١٢٥٠–١٣٧٥م/ ٦٤٨–٧٧٦ هـ) الإسكندرية ١٩٨٠.

ولقد قامت «مملكة أرمينية الصغرى» LE ROYAUME DE LA PETITE ARMENIE فى المنطقة التى عرفت قديما باسم «قيليقيا» [1] . CILICIE، وتقع تلك المملكة فى الجنوب الشرقى من آسيا الصغرى. وتكاد تكون حدودها طبيعية [2] . فمن لشرق يحدها جبال الأمانوس [3]. ومن الشمال والشرق جبـال طـوروس؛ أمـا في الجنـوب ، فالبحـر المتوسط تمتد سواحله من مدينـة طرسـوس [4] إلي جنـوب

---

(١) كان من بين نتائج فتوحات الأتراك السلاجقة للأقاليم الواقعة شرقي آسيا الصغرى هجرة جموع غفيرة مـن الأرمن من بلادهم الأصلية في أرمينية الكبرى إلى الأقاليم الواقعة غرب وشمال نهر الفرات، ليستقروا جنبـا إلى جنب مع إخوانهم الأرمن المستقرين مـن قبـل في تلـك المواضـع. وعقـب معركـة ملاذكـرد سـنة ١٠٧١م/٤٦٤هـ إلتجأ الكثير من الأرمن إلى جبال طوروس وإقليم قيليقيا وشمال بلاد الشام. علماً بأن جميع المواضع السابقة تواجد بها زعماء من الأرمن كانوا قد سبقوا إليها واستقروا فيها. وهكذا غدا الأرمن في قيليقيا قوة عظيمة وكبيرة حتى أطلق المؤرخ الفرنسي المحدث رينية جروسية RENE GROUSSET علـى «قيليقيا» آنذاك اسم «أرمينية الجديـدة» LA NOUVELLE ARMENIE للتفـاصيل أنظـر CH. 65, P.78, Dans R.H.C., Doc.. ARM., 1; Matthieu D'EDESSE, EXTRAITS,: NERSES DE Lambron, DANS R.H.C., Doc.. ARM., 1, P. 576. CF. Grousset, HISTOIRE DE L'ARMENIE, PARIS, 1947, P. 522; IDEM, L'EMPIRE DU LEVANT, PARIS, 1946, PP. 175, 385; IORGA, BREVE HISTOIRE DE LA PETITE ARMENIE, PP. 87-88; CAM. MED HIST., VOL. IV, P. 638; PASDERMADJIAN, HISTOIRE DE L'ARMENIE, P. 198.

(٢) RECUEIL DES HISTORIENS DES CROISADES, Doc. UMENTS ARMENIENS, PARIS, 1869-1806, T.I,P. XIX.

× وسنشير إلى « مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية» اختصاراً بـ: R.H.C., Doc. ARM.,

(٣) «جبال الأمانوس» هي شعبة من جبال طوروس، تتصل بقيليقيا من جهة الشرق وتفصلها عن بلاد الشام. وما اشتهرت به جبال الأمانوس من الدروب إنما يرجع إلى أن جميع الغزاة اجتازوها، فمنها فتح المسلمون قيليقيا وما يليها من جـهات آسيا الصغرى، وكان لابد للإمبراطور البيزنطي نقفور فوقاس NICEPHORE PHOCAS أن يجتازها ليهاجم سـيف الدولة الحمداني في صميم دولته. (انظر: R.H.C., Doc. ARM., T. 1, PP. XXVI-XXVIII. CF. SCHLUMBERGER, UN EMPEREUR BYZANTIN AU DIXIEME SIECLE, NICEPHORE PHOCAS, PARIS, 1870, P. 207.) والجدير بالذكر أن ممرات الأمانوس كانت دائما الممر البرى الجنوبي لكل الحملات المصرية نحو قيليقيا-أي أرمينية الصغرى-وبذلك تشابهت أهميتها الاستراتيجية بشـبة جزيرة سيناء بالنسبة لمصر، فقد كانت شبة سينا المعبر البرى الشرقي لغزو مصر طوال العصور.

(٤) «طرسوس» من المدن القديمة، وبها قبر المأمون عبد الله بن هارون الرشيد، لأنه كان قد وفد عليها غازيا مـرة بعد أخرى، فمات بموضع يعرف بالبذندون، وقريب من طرسوس في سنة ثمان عشرة ومائتين هجرية . (أنظر: ابـن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر-تحقيق عبد العزيز الخويطر-الريـاض ١٩٧٦-ص ٤٣٨-٤٤٣٩ النويرى: نهاية الأرب من نهاية الأدب-مخطوط بدار الكتب المصرية- رقم ٥٤٩ معارف عامة - جـ ٢٨، ورقـة

الإسكندرية [1]. وتبلغ مساحتها حوالي أربعين ألف كيلو متر مربع بطول ٤٠٠ كيلو متر من الشرق الى الغرب، وعرض مائة كيلو متر من الشمال الى الجنوب. كان ذلك في اوائل القرن الثالث عشر الميلادي/أوائل القرن السابع الهجري [2].

وقد أطلقت المصادر الإسلامية على هذا الأقليم اسم "الدرب" [3]، أي الطريق الذي يسلك ما بين طوروس والإمبراطورية البيزنطية؛ لذا لقب "ابن الأثير" (ت ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٣م) في مصدرية "التاريخ الباهر" و "الكامل في التاريخ" أمير أرمينية باسم "صاحب بلاد الدروب [4]".

---

١٠٧ أ؛ ابن ابى الفضائل: النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد-تحقيق بلوشيه – BLOCHET باريس ١٩١١-١٩٣٢-ص ٣٩٢) وتقع تلك المدينة الأرمينية على الساحل الشمالي للبحر المتوسط، بالقرب من حلب غربا . وهى مدينة مسورة وفى غاية الخصب، بناها الرشيد في سنة ١٧٠هـ/٧٨٦م وأكملها فى سنة ١٧٢هـ/ ٧٨٨م. ولها خمسة أبواب: باب الجهاد، وباب الصفصاف، وباب الشام ، وباب البحر والباب المسدود. والنهر يشق فى وسطها وعليه قنطرتان داخل البلد. وبينها وبين حد الروم جبال هي الحاجز بين الروم والمسلمين. أنظر: القلقشندى: صبح الأعشى في صناعة الانشا- القاهرة ١٩١٣-١٩٢٠- جـ ٤، ص ١٣٣؛ البغدادي: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع – تحقيق على محمد البحاوى – القاهرة ١٩٥٤م جـ٣، ص٨٨٣. أنظر أيضا: R.H.D., Doc. ARM., T.I., P. XL. وكذلك: فايز نجيب إسكندر: موقعة ملاذكرد وصداها فى القسطنطينية – القاهرة ١٩٨٨-ص ١٩، حاشية رقم ٥٩.

(١) "الإسكندرية" مدينة في شرقي إنطاكية، عل ساحل بحر الشام، بينها وبين بغراس أربعة فراسخ، وبينها وبين إنطاكية على ساحل بحر الشام ثمانية فراسخ. (أنظر: البغدادى: مراصد الاصلاع، جـ١، ص٧٦) وتعد الاسكندرية "أول حدود بلاد سيس" (أنظر: الشجاعى: تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده- تحقيق بربارة شيفر-القاهرة ١٩٧٨-ص٨؛ المقريزى: السلوك، ج٢، ص٤٢٨.) وهو الممر الوحيد الذى يصل بين قيليقيا وإنطاكية. أنظر: أبو الفدا: تقويم البلدان، ص٣٩.

(٢) R.H.C., DOC. RAM., T.I, PP. II-III, XVIII-XIX. CF. TOURNEBIZE, HISTOIRE POLITIQUE ET RELIGIEUSE DE L'ARMENIE, PARIS, 1910, P.6; IORGA, BREVE HISTOIRE DE LA PETITE ARMENIE PARIS 1930, PP. 9-10: BASMADJIAN QUELLES ETAIENT LES FRONTIERES DE L'ARMENIE? PP. 21-25 DANS LA VOIE DE L'ARMENIE, PARIS, 1919; KHERUMIAN, INTRODUCTION A L'ANTHROPOLOGIE DU CAUCASE-LES ARMENIENS, PARIS, 1943, PP. 11-12; ERMONI, L'ARMENIE, DANS R.O.C., PARIS, 1896, T.I, P. 318; VEOU, LA PASSION DE LA CILICIE, PARIS, 1954, P.47.

(٣) هناك أكثر من مكان عرف باسم " الدرب" ذكر بعضها "ياقوت الحموى" فى "معجم البلدان". ولكنه قال إذا ذكر الدرب وحده دون أن يضاف إليه اسم موضع يحدده، يكون المقصود به ما بين

(٤) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ-القاهرة ١٢٩٠هـ – جـ١١، ص ١٤٥؛ التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل- تحقيق عبد القادر احمد طليمات – القاهرة ١٩٦٣-ص ٣٠٧.

لقد ناصبت مملكة أرمينية الصغرى [1] سلطنة المماليك العداء، إذ ساعدت بفاعلية المستعمرات الصليبية في بلاد الشام، وتحالفت مع تتار فارس لغزو بلاد الشام ومصر، هذا إلى جانب مساهمتها بفاعلية في فرض الحصار الاقتصادي على سلطنة المماليك بمنعها تصدير الأخشاب والحديد وكافة أنواع السلع الاستراتيجية من آسيا الصغرى الى مصر والشام. فقد سار الصراع العسكري بين مملكة أرمينية الصغرى وسلطنة المماليك جنبا من الصراع التجارى، إذ وقف ثغر الاسكندرية شامخا في وجه ثغر اياس، كما كانت حلب واقفة بالمرصاد في وجه العاصمة الأرمينية سيس SIS.

وكان من الطبيعى -نتيجة تلك السياسة العدائية - أن يتبع سلاطين المماليك مع مملكة أرمينية الصغرى سياسة قائمة على العنف والقسوة ومحاولة الإبادة، كحال السياسة التى اتبعوها مع المستعمرات الصليبية فى بلاد الشام ومع التتار. لذا توالت إغارات جيوش المماليك على مملكة أرمينية الصغرى طوال عهد السلطان الظاهر بيبرس البندقارى [2] (٦٥٧-٦٧٦ هـ / ١٢٦٠-١٢٧٧م)، وقلاوون الألفى [3] (٦٧٨-

---

(١) سميت باسم "أرمينية الصغرى" للتمييز بينها وبين "أرمينية القديمة" المعروفة باسم "أرمينية الكبرى" و "أرمينية القديمة" هى أواسط أجزاء آسيا الصغرى وأكثرها ارتفاعا. وهى محصورة بين سلسلتين من الجبال هما: سلسلة جبال بنطس شمالا وسلسلة طوروس جنوبا؛ وتمتد ما بين آسيا الصغرى الى الغرب من نهر الفرات، وبين أذربيجان والإقليم الجنوبي الغربي من بحر الخزر، في اتجاه ملتقى نهر الكر ونهر الرس شرقا، وبين إقليم بنطس إلى الشمال الغربي والقوقاز، ومن ثم يفصلها خط نهري ريونة والكر شمالا، وبين سهل الجزيرة أى ما بين النهرين جنوبا، وهى منطقة دجلة الأعلى. أنظر : فايز نجيب أسكندر. مملكة أرمينية الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى-الإسكندرية ١٩٨٠-ص ب.

(٢) للتفاصيل أنظر : فايز نجيب إسكندر: المشرق الإسلامي فى مواجهة تحالف المغول والارمن-مجلة الثقافة اليمنية-العدد ١٩-سبتمبر ١٩٩٥.

(٣) بعد الهزائم المتلاحقة التى منى بها الجيش الارمنى ووصول المنصور قلاوون ألي ابواب الاسكندرية "أول حدود بلادسيس"، واعتناق تتار فارس الاسلام، أدرك الملك الارمنى ليون الثالث (١٢٧-١٢٨٩م/٦٦٩-٦٨٨ هـ) ضرورة عقد صلح مع مماليك مصر. فعقدت هدنة لمدة عشر سنوات اشهر وعشرة أيام وعشر ساعات أولها يوم الخميس ثاني شهر ربيع الاخر سنة ٦٨٤هـ/٧ يونيو ١٢٨٥م (راجع نص الهدنة في ابن عبد الظاهر : شريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور-تحقيق مراد كامل-القاهرة ١٩٦١-ص٩٣ وما بعدها ؛ المقريزى : السلوك، جـ١، ق٣ ، ص ٩٨٥ وما بعدها ؛ ابن الفرات، جـ٧، ص ٢٧٠ وما بعدها . أنظر أيضا LANGLOIS, LE TRESOR DES CHARTES D'ARMENIE, VENISE, 1863, PP. 217 SQQ;IDEM, ESSAI HISTORIQUE ET CRITIQUE SUR LA CONSTITUTION SOCIALE ET POLITIQUE DE L'ARMENIE, ST PETERSBOURG, 1860, P. 15; REINAUD, EXTRAITS DES HISTORIENS ARABES, PARIS, 1829, PP. 552-558; TOUR NEBIZE, PP. 217-218)

وكانت شروط الهدنة قاسية بالنسبة للأرمن، إذ كان عليهم أن يدفعوا جزية سنوية قدرها ألف ألف درهم من الفضة. وأن يخلى الملك الأرمني سبيل جميع التجار والمواطنين المسلمين المعتقلين في قيليقيا ويعيد إليهم أملاكهم.

٦٨٩هـ/١٢٧٩-١٢٩٠م) وابنه الأشرف خليل (٦٨٩-٦٩٢هـ / ١٢٩٠-١٢٩٢م) واستمر حال الإغارات تهدأ حينا لتزداد أحيانا إلى أن تمكن السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين (٧٦٤-٧٧٨هـ /١٣٦٣-١٣٧٦م) من فتح مملكة ارمينية الصغرى، وضمها نهائيا لسلطنة المماليك وذلك سنة ١٣٧٥م/٧٧٦هـ[1].

والذى يهمنا في هذا الموضوع هو تتبع كيفية تمكن السلطان الأشرف خليل بن قلاوون من الاستيلاء على "قلعة الروم" [2]. HOROMKLAY . ومما يذكر أن الأشرف خليل[3] سار على نفس سياسة والدة العدائية تجاه الصليبيين والأرمن والتتار. ففي مملكة عكا الصليبية، والتي تمثل البقية من المستعمرات الصليبية في بلاد الشام آنذاك. فنزل عليها يوم الخميس الخامس من أبريل سنة ١٢٩١ م/الثالث من ربيع الآخر سنة ٦٩٠هـ، فنصب عليها أثنين وتسعين منجنيقا، محكما بذلك حصارها. وقد بذلت حامية عكا جهودا مضنية فى سبيل الدفاع عن المدينة؛ إلا أن مماليك الأشرف خليل نجحوا في اقتحام أسوارها وذلك يوم الجمعة الثامن من عشر من مايو سنة ١٢٩١م/السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٦٩٠هـ بعد حصار دام أربعة وأربعين يوما؛ كما نجح الأشرف خليل في فتح صور، وحيفا، وصيدا، بيروت، وعثليث وأنطرطوس.

ومقابل ذلك يطلق السلطان قلاوون سراح جميع الأسرى الأرمن، ولكن لا تعاد إليهم أملاكهم. وعلى الملكين المتعاهدين أن يسلما الهاربين من الطرفين كل إلى الآخر، على أن يبقى في مصر الأرمن الذين اعتنقوا الإسلام. وللمماليك حق شراء الرقيق من مملكة أرمينية الصغرى. ووقع ليون الثالث على هذه المعاهدة مرغما، ولكنه منع بيع الرقيق للمماليك، حتى لا تقوى بهم عليه . أنظر : TOURNEBIZE, P. 218.

(١) للتفاصيل أنظر: فايز نجيب اسكندر: مملكة أرمينية الصغرى ، ص٩٩-٢٥٠.

(٢) تحدث العالم الجليل الأستاذ الدكتور / سعيد عبد الفتاح عاشور- أستاذ أساتذة تاريخ العصور الوسطى-عند هذا الموضوع في سبعة أسطر. أنظر : سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى. محاضرة منشورة فى بحوث ودراسات العصور الوسطى-بيروت ١٩٧٧ ص ٢٦٠.

(٣) ولى "الأشرف خليل بن قلاوون" أمر الملك بالديار المصرية والبلاد الشامية وما مع ذلك من النواحي الإسلامية، وجلس على التخت، وركب بشعار السلطنة في ذي القعدة سنة ٦٨٩هـ/ نوفمبر ١٢٩٠م بعد وفاة والدة قلاوون الألفي. أنظر: ابن حبيب: تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه-تحقيق محمد محمد أمين-القاهرة ١٩٧٦- جـ١، ص ١٣٦؛ الكتبى : فوات الوفيات-تحقيق إحسان عباس-جـ١، ص ٤٠٦-٤١٥. أنظر أيضا GROUSSET, HISTOIRE DES CROISADES, PARIS, 1936, III, p. 750.

وبسقوط عكا في قبضة الأشرف خليل، انتهى الفصل الختـــامي في تـــاريخ الحروب الصليبية في بلاد الشام؛ ويرجع الفضل في ذلك إلى مصر التي قامت-طـــوال عهد الحروب الصليبية-بدور إيجابي فعال، كحالها الى مر العصور، إذ كـــانت محـــور المقاومة الإسلامية حتى تم على يديها أخيراً "سقوط عكا" وطرد المستعمر الصليبى مـــن بلاد الشام [١]، بعد أن زجت به مياه البحر المتوسط على حد قول المؤرخ الفرنســـي المحدث "رينيه جروسيه"[٢] RENE GROUSSET.

وكان من أهم نتائج سقوط عكا أن استعد المماليك لتوجيه سلاحهم صـــوب مملكة أرمينية الصغرى، بعد أن أضحت تلك المملكة المعقل الصليبي الأخـــير في قـــارة آسيا، وقاعدة مرتقبه لكل حملة صليبية جديدة. ومما لا شك فيه ان هذا الفتح العظيـــم قد أكتسب الأشرف خليل ومماليكه مجداً وعطفاً من ربوع العالم الإسلامي آنذاك، لـــذا رغب الأشرف في توجيه هذا الحماس المتدفق صوب مملكة أرمينية الصغرى من ناحيـــة وأسيادهم التتار من ناحية ثانية.

وبالفعل بدأ السلطان المملوكى بـــالخطر الأول المتمثـــل فى مملكـــة أرمينيـــة الصغرى. بدأ المعركة بنوع من "الحرب النفسية"، إذ أرسل كتاباً الى ملـــــك مملكـــة أرمينيـــة الصغـــرى [٣] "هيثـــوم الثـــاني (١٢٨٩-١٣٠١م/٦٨٨-٧٠١ هـــــ)

---

(١) للتفاصيل أنظر : GORUSSET, OP. CIT., T.III, pp. 750-776 .

(٢) GROUSSET, L'EMPIRE DU LEVANT, PARIS, 1946, P. 400.

(٣) رفض المسلمون عامة الإشارة الى حاكم "أرمينية الصغـــرى" بلفظ "ملك" وإنما أطلقوا عليه فى أغلب الأحيان لقب "متملك" بمعنى أن الأرمـــن امتلكوا تلك البـــلاد قهراً مـــن المسلمـــين أصحـــاب السيـــادة الشـــرعية عليهـــا وعليهـــم. وقد عبر "شهـــاب الـــدين بن العمـــرى" عن ذلك بقـــوله:"... وكـــــانت طاعتـــــهم آخـــراً لبقيـــة الملـــوك السلاجقة الـــروم، وعليهـــم جزيـــة مقـــررة وطـــاعـــــة معروفـــــة، والعمـــــال والشحـــاق علـــى الـــبلاد من جهـــة الملك السلجـــوقي، حـــتى ضعـــفت تـــلك الـــدولة {صـــاحب أرمينيـــة الصغـــرى} .. واستـــولى علـــى هـــذه البـــلاد وتملكـــها، وتحـــيف مـــواريث بـــنى سلجـــوف واستهلكـــها" . (أنظر: التعـــريف بالمصلـــح الشـــريف-مصر،١٣١هــــ- ص٥٥-٥٦). أمـــــا القلقشـــندى فقـــد ذكـــر عـــن أرمينيـــة الصغرى ما نصـــه : "... وإنما يقـــال له متمـــلك سيس دون مـــلك سيـــــس لمـــا تقـــدم مـــن أنـــها كـــانت أولا بيـــد المسلمـــين، ثـــم وثـــب عليهـــا رئيـــس الأرمـــن المقـــــدم اللعين {صاحب أرمينية الصغرى} ... واستولى على هذه البلاد وتملكها، وتحيـــف مواريـــث بـــنى ســـلجوف واستهلكها". (أنظر : التعريف بالمصطلح الشريف-مصر، ١٣١٢هــــ-ص٥٥-٥٦). أما القلقشندى فقد ذكـــر عن أرمينية الصغرى ما نصه: "... وإنما يقال له متملك سيس دون ملك سيس لما تقدم من أنها كـــانت أولا بيـــد المسلمين، ثم وثب عليها رئيس الأرمن المقدم ذكره فتملكها من أيدي المسلمين ". (أنظر: صبح الأعشى، جـــ ٨ ،

HETUM[1] اخبره فيه بفتح عكا، وذكره بقوة سلطنة المماليك وعظمة جيوشها التي احكمت الأطباق على ذلك المعقل الصليبي الأخير وفتحة؛ كما دعاه ألي سرعة أرسـال القطعية المقررة، والحضور لمقابلته. وأخيراً طلب منها أن يعتبر بما حل بعكا، وإلا "تنـدم ندامة أهل عكا حيث لا ينفع الندم" [٢].

ونستشـف مـن هـذا الكتـاب أن الشـرف خليـل أراد أن يؤكـد مـا للسلطنـة المملوكيـة مـن السيطـرة علـى مملكـة أرمينيـة الصغـرى.

أمـام هـذا التهـديد والوعيـد، طلـب الـملك الأرمـني هيثـوم الثـاني مساعـدة البـابا نيقـولا الـرابع[1] (١٢٨٨-١٢٩٢م/ ٦٨٧-٦٩١هـ)

ص ٣٢.) ولقد تعددت الألقاب التي أطلقها المسلمون علة ملك مملكة أرمينية الصغرى، منها ابن لاون أو ليفـون. ولاون هنا تحريف للفظ ليون LEON أول ملوك أرمينية الصغرى، فصار كل ملك من ملوكها يعرف ب "ابـن لاون". ومن هذه الألقاب أيضاً "متملك سيس"-كما سبق أن أشرنا-أو "صاحب سس". كذلك أطلق عليه اسـم "تكفور"، وهو لقب عام قصد به كل من جلس على عرش تلك المملكة، مثلما لقـب إمـبراطور الإمبراطوريـة البيزنطية ب"الاشكرى"، وملك الحبشة ب "الحطى" أو "النحاشى". أنظر: ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، ص ٢٦٩، ٣٢٩،٣٣٩ وما بعدها؛ العمرى: التعريف، ص ٥٥؛ القلقشـندى: صبـح الأعشـى، جـ٨، ص ٣١.

(١) اعتلى "هيثوم الثانى" (١٢٨٩-١٣٠١م/٦٨٨-٧٠١هـ) HETUM II عرش مملكة أرمينية الصغرى بعـد أبيه ليون الثالث LEON III سنة ١٢٨٩ سنة ١٢٨٩م/٦٨٨هـ، ولكنه تنازل عنه سـنة ١٢٩٢م/٦٩١هـ لأخيه طوروس THOROS ودخل أحد أديرة الفرنشسكان. ولكن طوروس والبارونات كانوا يذهبون إليـه فى الدير ويستشرونه فى مهام الأمور، وأضطره أخيراً بإلحاحهم عليه أن يعود إلى الحكم سنة ١٢٩٥م/ ٦٩٤ هـ. وفى سنة ١٢٩٧م/٦٩٦هـ ذهب هيثوم الثاني إلى القسطنطينية واصطحب معه طوروس وترك أخاه الأصغـر سمبـاد SEMBAD لإدارة شئون المملكة، فاغتصب سمباد العرش. لكن البارونات الأرمن اضطروا هيثوم الثاني إلى اعتلاء عرش مملكة أرمينية الصغرى وذلك للمرة الثالثة. وبذلك تشبه هيثوم الثاني بالناصر محمد بن قلاوون في ولاياتـه الثلاث . للتفاصيل أنظر : LE ORI HETHOUM II, PP. 541-545; SEMPAD, PP.655-657; MARDIROS DE CRIMEE, LISTE RIMEE DES ORIS DE LA PETITE ARMENIE, P. 685; TABLE CHRONOLGIQUE DE HETOUM DE HETOUM, P. 490. CF. TOURNEBIZE, PP. 220-228; GROUSSET, L'EMPIRE DU LEVANT, P. 400.

(٢) أنظر : "ذكر مكاتبة السلطان الأشرف صلاح الدين الى صاحب سيس عند فتح عكا" فى : مرلف مجـهول: تـاريخ سلاطين المماليك-نشر.ف. زترستين-لندن ١٩١٩ م-ص٨. وكذلك: سعيد عبد الفتاح عاشور: سلطنة المماليك والأرمـن، ص ٢٦٠؛ الحركة الصليبية، جـ ٢، ص ١٢١٦. وعن تفاصيل سقوط عكا أنظر: ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، جـ١، ص ١٢٣، ابن تغرى بردى: مورد اللطافة-تحقيق كـارليل CARLYLE ١٧٩٢م-ص١٤٥؛ ابـن حبيـب: درة الأسلاك فى دولة الأتراك-مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٦١٧٠ج-جـ١، ورقة ١٦٣أ-١٦٦أ. أنظر أيضا SCHILUMBERGER, PRISE DE SAINT JEAN D'ACRE EN L'AN 1291 PAR L'ARMEE DU SOUDAN D'EGYPTE, PARIS, 1914; STUBBS.

NICOLAS IV، الــذي استــاء إستيــاءاً بالغـــــا لسقـــوط "طرابلـــس" ثم "عكــا" فــي قبضـــة المـــاليك، لــذا حرص-كعادة البابوات عقب كل كارثـــة صليبيـــة-على إثـــارة الرأي العـــام الأوروبي ضد سلطنـــة المماليك. إلا أن جهـــود البابا في استثـــارة الغرب لإرســـــال حمـــــلة صليبيـــة الى الشــــرق الأدنــــى الإسلامــي باءت بالفشـــل الــذريع. وكـــان قـــد خـــطط لـــدعوة ملـــوك أوروبا الى التحـــالف والتعـــاون مـــع التتـــار والأرمـــن[٢] والكـــرج[٣] للقضـــاء علـــى سلطنـــة المـــاليك، لكنه مـــات فـــي إبريـــل سنـــة ١٢٩٢م/ ربيـــع الثـــاني سنة ٦٩١هــ أثنـــاء الإعـــداد للحمـــلة. وعقـــب وفاتـــه، توقـــف مشـــروع التحـــالف ضـــد سلطنـــة المـــاليـــك، لخلـــو الســـدة الرســـولية لمـــدة عامـــين[٤] ، وقعـــت فيهما أحداث جسام أثرت تأثيراً مباشراً على العلاقـــات المملوكية الأرمينية.

---

(١) أعتلي "نيقولا الرابع" NICOLAS IV السدة الرسولية في ٢٠ فبراير سنة ١٢٨٨م. وكان سلفة هونوريوس الرابع HONORIUS IV قد توفى في ٣ إبريل سنة ١٢٨٧م، فظل الكرسي البابوي شاغراً طوال الفترة مـــن ٣ إبريل سنة ١٢٨٧م إلى ٢٠ فبراير سنة ١٢٨٨م. أنظر: GROUSSET, HISTOIRE DES CROISADES, T. III, P. 716

(٢) اشتهر الأرمن بنشاطهم البناء في المجتمع الإسلامي، ويؤكد ذلك أن أسامة بن منقذ ذكر أخبار كثـــيرين مـــن الأرمن اشتهروا بالمهارة والرماية، واستعان بهم آل منقذ في الصيد والحرب على السواء. أنظـــر الاعتبـــار-ليـــدن ١٨٨٤-١٠٦.

(٣) "الكرج" هم جيل من الناس نصارى، كانوا يسكنون في جبال القبق وقويت شوكتهم حتى ملكـــوا مدينـــة "تفليس" (أنظر: ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ٣٥٠ حاشية رقم ٢). وتقع بلاد "الكرج" على الســـفوح الجنوبية الغربية لجبال القوقاز. فحدودها الشمالية تسير بمحاذاة سلسلة جبال القوقاز؛ أما حدودها الشرقية، فـــهي تتاخم بلاد داغستان الجبلية وسهول اذربيجان؛ وتحدها جنوبا أرمينية ومقاطعة قرص KARS؛ أمـــا حدودهـــا الغربية، فتطل على البحر الأسود. للتفاصيل أنظر : فايز نجيب اسكندر: الفتوحات الإسلامية لبلاد الكرج-القـاهرة ١٩٨٨م-ص٧-١٨؛ أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة في عهد داود الثاني- العدد الأول من مجلة المـــورخ العربي-مارس ١٩٩٣-ص٢٥٢-٢٥٣؛ استيلاء السلاجقة على عاصمة أرمينية "آني" الإسكندرية ١٩٨٧-ص٣٤، حاشية رقم ٤٧؛ مملكة أرمينية الصغرى، ص١٣٧، حاشية رقم ٢.

(٤) للتفاصيـــل أنظـــر: LE ROIHETHOUM II, P. 542, CF. GROUSSET, HISTOIRE DES CROISADES, T. III, PP. 716-747; DEDEYAN ET THIERRY, LE TEMPS DE LA CROISADE, DANS HISTOIRE DES ARMENIENS, TOULOUSE, 1982 P. 311; LODGE, THE CLOSE OF THE MIDDLE AGES, PP. 29, 51-54; KING, THE KNIGHTS HOSPITALLERS, PP. 75-79; MOWAT, THE LATER MIDDLE AGES, PP. 75-79; ATIYA, THE CRUSADES IN THE LATER MIDDLE AGES, P.45.

وكان من الطبيعي أن ينعكس فشل مشروع التحالف ضد سلطنة المماليك على مصير مملكة أرمينية الصغرى خاصة وان السلطان الأشرف خليل كان قد علم باستنجادات الملك الأرمني هيثوم الثاني.

ومما زاد الطين بلة أن وصل كتاب إلى القاهرة أرسله نائب حلب يفيد أن ملك مملكة أرمينية الصغرى تعرض لبعض تجار المسلمين، وألقى القبض عليهم بعد أن استولى على أموالهم، ونهب ما يحملونه من بضائع؛ وان نائب حلب أرسل يطلب منه إطلاق سراح الأسرى وإعادة أموالهم وبضائعهم المستولى عليها، وإلا فليستعد لمواجهة جيوش المماليك. فجاء رد الملك الأرمني[١] بأن أحداً لم يتعرض لأحد من التجار المسلمين، وأنه ليس هناك أسرى وأموال[٢] . ولما وقف السلطان الأشرف خليل على ما جاء في كتاب نائب حلب، غضب غضباً شديداً، وأمر بعقد مجلس استشاري عسكري ضم كبار الأمراء لاستشارتهم في الأمر. فأشاروا على سلطانهم بغزو سيس[٣] SIS، عاصمة

---

(١) "الأرمني " وليس الأرميني، ويؤكد ذلك قول الشاعر :

ولو شهِدَتْ أمّ القديْد طِعانَنا   بمرعش خَيْل الأرمني أرَنَّت

أنظر: ياقوت: معجم البلدان-بيروت ١٩٥٥-١٩٥٧-جـ١، ص ١٦٠؛البغدادي: مراصد الاطلاع، جـ١، ص٦٠، حاشية رقم ٤؛ ابن حوقل: صورة الأرض-بيروت ١٩٧٩-ص٢٩٤-٢٩٥؛ القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد-دار صادر بيروت-ص٥٢٤، أنظر أيضاً : فايز نجيب اسكندر : السلمون والبيزنطيون والأرمن في ضوء كتابات المؤرخ المعاصر سبيوس-بيرت ١٩٩٤-ص٦٨، حاشية رقم ١٦٢؛ الحياة الاقتصادية في أرمينية إبان الفتح الإسلامي- القاهرة ١٩٨٨-ص٨، حاشية رقم ٤؛ الفتوحات الإسلامية لأرمينية في ضوء كتابات المؤرخ الأرمني جيفوند، جـ١، ص١٠١، حاشية رقم ١٦٦؛ غزو الإمبراطورية البيزنطية لأرمينية سنة ١٠٤٥م/٤٣٧هـ-الإسكندرية ١٩٨٨- ص٢٨، حاشية رقم ١.

(٢) العيني : عقد الجمان، ق١، جـ٢١، ورقة ٥٥-٥٦.

(٣) "سيس" SIS وصحة هذا الاسم "سيسية" SISIYYA ، غير ان عامة الناس يسقطون الهاء، ويقولون "سيس"، وهي عاصمة مملكة أرمينية الصغرى-أي قيليقيا ، وتقع بين إنطاكية وطرسوس. ولها قلعة حصينة عليها ثلاثة أسوار على جبل مستطيل، ولها بساتين ونهر صغير؛ - البلدان، ص٢٥٦-٢٥٧؛ ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص١٠٦، حاشية رقم ٢؛ المقريزي: السلوك، جـ١، ق٢، ص ٥٤٩، حاشية رقم ٢؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص ١٣٩، حاشية رقم ١؛ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ١٣٤-١٣٥؛ ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٤٣٤. وقد ذكر الشجاعي أن "باب إسكندرونة هو أول حدود بلاد سيس". أنظر : تاريخ الملك الناصر محمد ، ص٨.

مملكة أرمينية الصغرى، وتأديب ملكها هيثوم الثاني[1] .

تحقيقا لتلك الغاية، رحل السلطان المملوكي من مصر قاصداً بلاد الشام في يوم السبت ٢٨ مارس سنة ١٢٩٢م/ثامن من ربيع الآخر سنة ٦٩١هـ[2] على رأس جيش كبير، وبصحبته وزيره الصاحب "شمس الدين بن السلعوس" [3]، الذي كان قد سبق أن كلفه بأن يكتب إلى نواب الشام بالاستعداد للغزو وجمع المجانيق[4] وآلات الحصار المتنوعة والمؤن، ونادى بالنفير للجهاد، ودخل دمشق وعرض العساكر [5]. وبعد يومين، وصل نائب حلب الى دمشق، وأخبر أن رسل الملك الأرمني في طريقهم لمقابلة السلطان المملوكي. وبالفعل دهش الرسل الأرمن عند وصولهم دمشق لضخامة

---

(١) العيني : عقد الجمان، ق١، جـ١٢ ، ورقة ٥٦.

(٢) ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٨، ورقة ٢٨٤؛ زترستين: تاريخ سلاطين المماليك، ص١٠ الكتبي: عيون التواريخ، جـ١، ق١٢، ورقة ٦٤؛ ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، جـ٨، ص١٣٦؛ مؤلف مجهول: كتاب نزهة الإنسان في ذكر الملوك والأعيان -مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس-رقم FONDS ARABE 1769-ورقة ٢١ب.

(٣) اشتغل "شمس الدين بن السلعوس" فى أول أمره بالتجارة في دمشق، ثم تنقل في عديد من الوظائف إلى أن ولى الحسبة والنظر فى ديوان الملك الأشرف في بلاد الشام. وتمكن من جمع الأموال الطائلة لقيامة باستحجار ضياع لحسابه الخاص. ثم قدم ألي مصر في عهد السلطان قلاوون الألفي، فعين ناظرا للديوان، لكنه عزل لابتزازه أموال بعض المقطعين، وعين قلاوون بدلاً منه فخر الدين بن الخليلي. عقب ذلك توجه ابن السلعوس الى الحجاز وعاد الى مصر بعد أن تولى الملك الأشرف خليل سلطنة المماليك وكان قد كتب إليه بخطه "ياشقير يا وجه الخير، تعجل بحضورك لتتسلم وزارة الديار المصرية والشامية". أنظر: النويرى: نهاية الأرب، جـ٢٩، ورقة ٢٩٤أ-٢٩٤ب؛ الدوادار: زبدة الفكرة، جـ٩، ورقة ١٦٧ب-١٦٨ أ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٣، ص٣٣٢؛ ابن ايبك الصفدى: الوافي بالوفيات، جـ٤، ص٨٦، ترجمة رقم ١٥٥٥؛ ابن حبيب: درة الأسلاك، ورقة ١٩٠ ب؛ القيسراني. النور اللائح والدر الصادح فى اصطفا مولانا السلطان الملك الصالح – مخطوط بالمكتبة الوطنية بتاريخ رقم FONDS ARABE 1708 ورقة ٥٣ أ، ٥٤ ب، الصقاعى: تالى كتاب وفيات الأعيان، ورقة ٧١ أ-٧٢ أ.

(٤) "المجانيق": جمع "منجنيق"، وهو آله من خشب، لها دفتان قائمتان، بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف وفيه كفة المنجنيق الذي يجعل فيها الحجر، يجذب حتى أسافله على أعاليه، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذي فيه الكفة فيخرج الحجر منه فما أصاب شيئا إلا أهلكه.

(٥) العيني : جـ٢١، ورقة ٥٦؛ الكتبي : عيون التواريخ، جـ١، ق١٢، ورقة ٦٤؛ مؤلف مجهول: كتاب نزهة الإنسان، ورقة ٢١ب؛ ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٢٧٢.

استعدادات الأشرف خليل؛ ودخلوا ألي حضرته، وقبلوا الأرض بين يديه، واخرجوا كتاب ملكهم، فإذا فيه: إن ما نُقِلَ عنه ألي السلطان غير صحيح، وأنه ما تعرض لأحد من التجار؛ وإذا ثبت خلاف ذلك، فأنه مستعد لدفع أضعاف ما نسب إليه من اخذ أموال التجار وبضائعهم. وأكد الملك الأرمني في كتابه أيضا أنه سيطلق سراح جميع الأسرى المسلمين المتواجدين في مملكته، وأنه على استعداد لمضاعفة الجزية المقررة عليه كسباً لود السلطان، وأن مملكة أرمينية الصغرى تعد بلاد ملاه الأشرف خليل، وهو نائب عنه فيها. وقد تقدم الرسل الأرمن بالهدايا الثيمنة من الأواني الذهبية والفضية والأواني المرصعة بالفصوص والبللور الفاخر، وغير ذلك من التحف النادرة[1].

ورغم الموافقة على مضاعفة القطعية[2]، والهدايا الثمينه، وفروض الولاء والطاعة، والاعتراف بالتبعية الكاملة لسلطنة المماليك؛ إلا أن الأشرف خليل صمم على المضي قدما فى حملته، وكان قد سبق له أن رحل من مصر قاصداً بلاد الشام فى يوم السبت ٢٨ مارس ١٢٩٢م/ثامن ربيع الآخر سنة ٦٩١هـ[3]، ودخل دمشق وعرض العساكر ومضى منها في يوم الاثنين ٥ مايو ١٢٩٢م/١٦ جمادى الأولى ٦٩١هـ[4]، فسار منها ألي حلب فدخلها في ١٧ مايو ١٢٩٢م/الثامن والعشرين من جمادى الأولى، ثم غادرها في ٢٣ مايو ١٢٩٢م/ السرابع من جمادى الآخر سنة ٦٩١[5] لمحاصرة "قلعة الروم" فترل عليها يوم الثلاثاء ٢٧ مايو سنة ١٢٩٢م/ ٨ جمادى الآخر سنة ٦٩١هـ[1].

---

(١) العيني: جـ٢١، ورقة ٥٥-٥٦؛ ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص ٥٥٩.

(٢) "القطعية" هي إتاوة سنوية، تعهد ملك مملكة أرمينية الصغرى بدفعها لسلطنة المماليك. وقد ذكر القلقشندى نقلا عن العمرى أن القطعية المقررة على مملكة أرمينية الصغرى بلغت "ألف ألف ومائتي درهم، مع أصناف". أنظر : صبح الأعشى، جـ٨، ص٣٠؛ العمرى: التعريف بالمصطلح الشريف، ص٥٦.

(٣) ابن أيبك: كتر الدرر، جـ٨ ، ورقة ٢٨٤؛ زترستين: تاريخ سلاطين المماليك، ص١٠؛ الكتبي: عيون التواريخ، جـ١، ق١٢، ورقة ٦٤؛ ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، جـ٨، ص١٣٦؛ مؤلف مجهول: كتاب نزهة الإنسان، ورقة ٢١ب؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، جـ٤، ص٢٦.

(٤) العيني: عقد الجمان، جـ٢١ ، ورقة ٥٦؛ الكتبي: عيون التواريخ، جـ١، ق١٢، ورقة ٦٤؛ مؤلف مجهول: نزهة الإنسان، ورقة ٢١ب؛ ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٢٧٢.

(٥) ابن الجوزي: جواهر السلوك، ورقة ١٠٩؛ محمد بن أبي بكر الصديق: نزهة الأبصار، ورقة ١٠٦ ب؛ الكتبي: عيون التواريخ، جـ١، ق١٢، ورقة ٦٤؛ ابن ايبك: كتر الدرر، جـ٨، ورقة ٢٨٤؛ المقريزى: السلوك،

لقد عول السلطان الأشرف خليل على ضم "قلعة الروم" الى حوزته حين علم أن أهلها يوادعون التتار، ويمدونهم بالهدايا، ويمالئونهم على المماليك، ويكثرون من الإغارة على الأطراف الشامية. ولا أدل على المصاعب التي كان يثيرها أهالي هذه القلعة ضد سلطنة المماليك أكثر مما ورد في الكتاب الذي أرسله "علم الدين سنجر الشجاعى"[٢] نائب السلطنة[٣] بدمشق الى شهاب الدين[٤] بن الخويّي"

جـ١، ق٣، ص٧٧٨. أنظر أيضاً : LE ROI HETHOUM II, DANS. R.H..G., ARM., T.I, P. 542.

(١) الكتبى : جـ١، ق١٢، ورقة ٦٤؛ ابن أيبك: جـ٨، ورقة ٢٨٤؛ المقريزى: جـ١، ق٣، ص٧٧٨؛ تاريخ الفرات، جـ٨، ص١٣٦-١٣٩؛ الدوادار: زبدة الفكرة، جـ٩، روقه ٢٩٦-٢٩٧؛ ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص ٢٧٢؛ ابن الجوزى: جواهر السلوك، روقه ١٠٩؛ محمد بن ابى بكر الصديق : نزهة الأبصار، ورقة ١٠٦ ب. أنظر أيضاً LE ROI HETHOUM II, PP. 542-543; MAKRIZI, HISTORIE DES SULTANS MAMLOUKS DE L'EGYPTE, TRAD. M. QUATREMERE, PARIS, 1845, T. II, 1 RE PARIS., P. 141.

(٢) هو "سنجر بن عبد الله الشجاعى المنصورى" ينسب الى "عز الدين الشجاعى" مشد الديوان. قتل سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٢م وكان من مماليك المنصور قلاوون. ترقى حتى ولى شد الدواوين، ثم الوزارة بالديار المصرية فى أوائل دولة الناصر محمد، وساءت سيرته وكثر ظلمه. ثم ولى نيابة دمشق فتلطف بأهلها وقل شره، ودام بها سنين ألي أن عزل بالأمير عز الدين أيبك الحموى، وقدم ألي القاهرة. وكان موكبه يضاهي السلطان من التحميل. أنظر : أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٨، ص٥١-٥٢؛ ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٨، ورقه ٣٥٣ وما بعدها؛ ابن حبيب: درة الأسلاك، ورقة ١٢٠؛ تذكرة النبيه، جـ١، ص١٧٢؛ الصقاعى: تالي كتاب وفيات الأعيان، ورقة ٤٣ب- ٤٤ أ. أنظر أيضا: فايز نجيب اسكندر: مملكة أرمينية الصغرى، الملحق الثاني، ص٢٦١، حاشية رقم ١.

(٣) "نائب السلطة" وظيفة ابتدعها الأيوبيون وأحياها السلطان "الظاهر بيبرس" مع ما أحياه من الوظائف الأيوبية. كان نائب السلطنة في ذلك العهد-كما يقول القلقشندى-"سلطانا مختصرا بل هو السلطان الثاني" ويعد نائب السلطنة أكبر أمراء المئين، ويضعه "الخالدى" على رأس أرباب الوظائف بالعاصمة للتفاصيل بالعاصمة أنظر: القلقشندى: جـ٤، ص١٦-١٧.

(٤) هو" شهاب الدين" ابن قاضى القضاء " شمس الدين الخوى الشافعي" قاضى قضاة دمشق وابن قاضيها. ولد في سنة ست وعشرين وستمائة (١٢٢٨م) وتوفى سنة ثلاث وتسعين وستمائة (١٢٩٣م). أنظر: الكتبى: فوات الوفيات-تحقيق إحسان عباس-جـ٣، ص٣١٣-٣١٤، ترجمة رقم ٤٣٤؛ الصفدى: الوافي بالوفيات، جـ٢، ص ١٣٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٣، ص٣٢٧؛ ابن العماد: شذرات الذهب، جـ٥، ص٤٣٣؛ ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص ٣٧٩؛ السيوطى: حسن المحاضرة، جـ١، ص٥٤٣؛ المقدسى: الأنس الجليل، جـ٢، ص ٤٦٦.

(١) قاضي القضاه لهذه المدينة على أثر نجاح الأشرف خليل في الاستيلاء عليـــها. إذ جاء في هذا الكتاب(٢):

"...... وكانت هذه القلعة المذكـــورة
للثغور الاسلامية بمنزلة الشجّا
فى الحلـــق والغلـــة فى الصـــــدر،
والخسوف الطارئ على طلعة البدر،
لا تخلو من غِلّ تُضمـــره، فى لـــين
تظهره، وغدر تستره،
فى غدر تورده وتصدره. وقد سكن أهلها
الى مخادعة الجـــار، وموادعـــة التتـــار،
وممالأتهم على الاسلام بالنفس والمـــال،
ومساواتهم لهم حتى فى الـــزى والحـــال،
ويمدونهم بالهدايا والألطاف، ويدلونهـــم
على عورات الأطراف وهم يقفون بمسالمة
الأيام، ويدعـــون أن قلعتـــهم لم تـــزل
الحوادث فى ذمام ......"(٣)

---

(١) نسبة إلى "خوى"، وهى مدينة بأذربيجان. (أنظر: القلقشندى: جـ٤، ص ٣٥٩). وفى ياقوت "خوى، بلد مشهور من أذربيجان، حصين كثير الخير". أنظر: معجم البلدان، جـ٢، ص ٤٠٨؛ البغدادي: جـ١، ص ٤٩٣. أنظر أيضاً: فـليز نجيب اسكندر: الحياة الاقتصادية فى أرمينية إبان الفتح الإسلامي، ص٧٩. وكذلك : خريطة رقم ١، ص٧٧، وخريطة رقم ٢، ص٨١..

(٢) يوجد نص الخطاب فى كل من ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٨، ورقة ٣٢٧-٣٣٣؛ ابن الفرات: جـ٨، ص ١٣٩،١٤١؛ النويرى: نهاية الأرب، جـ٢٦، ورقة ١٠٣ ب-١٠٧ أ؛ وملاحق السلوك. ص ١٢-١٦؛ ابن حبيب: تذكره النبيه، جـ١، ص١٥١-١٥٢؛ زترستين: تاريخ سلاطين المماليك، ص١٤؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، جـ٣، ورقة ١١ب -١٣ب. انظر ايضا:

DANIEL DE THAURISIO FRATIS DANIELIS ADERRORES IMPOSITOS HERMENIS, P. 648, NOTE A; GESTES DES CHIPROIS, P. 839, NOTE C; R.H.C., DOC. ARM, T. I, P. LII; SEMPAD, P. 654. CF. REY, LES COLONIES FRANQUES, P. 318. وقد ذكر ابن الفرات أن هذا الكتاب من إنشاء الفاضل شرف الدين القدسي. أنظر : تاريخ ابن الفرات، جـ٨، ص١٣٩.

(٣) زترستين : ص١٤؛ النويرى : جـ٢٩، ورقة ١٠١؛ اليافعي: مرآة الجنان، جـ٤، ص ٢١٩؛ تـاريخ ابـن الفرات، جـ٨، ص١٣٩-١٤٠.

وعقب ذلك، تحدث "علم الدين سنجر الشجاعي" عن حصانة قلعة الـــروم مما جعل سكانها يعيشون فى أمن وأمان، إذ يصعب على أي عدو الوصول إليها تنعـــم بحماية طبيعية، فيحيط بها الجبال الشاهقة، بل أن نهر الفرات ساهم بفاعلية فى حمايتـــها من أي عدوان آت من الشرق وزاد من مناعتها أن استدار نهر حولها الغرب "فـلنعطف معها كالسور"؛ إضافة إلى أن الخنادق تحيط بأوديتها. وقد أدرك السلطان الأشـــرف خليل مدى حصانتها [1]، ففي كتابة إلى قاضي القضاة "شهـــاب الـــدين الخـــويي" قـــارون بين قلعـــة الـــروم ومدينـــة عكـــا فقـــال: "كـــانت أحصـــن مـــن عكـــا"[2]. أمـــا بيبرس الـــدوادار[3] المنصـــــورى[4] (ت ٧٢٥هـــ/١٣٢٥م)- الـــذي شـــارك بشخصـــه في حملـــة الأشـــرف خليـــل علـــى قلعـــة الـــروم - فقـــد ذكـــر أنـــها :

"... مـــن أحصـــــن[5] القـــلاع
وأعظمهـــــا في الارتفـــــاع
والامتنـــاع ولا تتوصل إليها إلا مـــن
طـــريق صعبـــه المرتقـــى[6] كثيرة

---

(١) نزل السلطان الأشرف خليل بجيشه على قلعة الروم في يوم الثلاثاء ٨ من جمادى الآخر سنة ٦٩١هـــــ/٢٧ مايو ١٢٩٢. أنظر : تاريخ ابن الفرات، جـــ ٨، ص ١٣٦؛ المقريزى: السلوك، جـــ١ ق٣، ص٧٧٨؛ ابـــن أيبك: كنز الدرر، جـــ٨، ورقة ٣٢٣.

(٢) زترستين : ص١١.

(٣) "الدوادار" أي ممسك الداوة، والوظيفة اسمها "الداوادرية" وصاحبها يحمل دواة السلطان أو الأمـــير ، ويقـــوم بإبلاغ الرسائل عنه وتقديم القصص والشكاوى إليه. أنظر: القلقشندى: صبح الأعشى، جـــ٥، ص ٢٦٢.

(٤) عن ترجمته أنظر: بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة في تاريخ الهجر-تحقيق زبيدة محمد عطا-ص٢١-٢٩؛ التحفـــة المملوكية في الدولة التركية-نشر عبد الحميد صالح حمدان-لبنان ١٩٨٧-ص٥-١٣؛ فايز نجيب اســـــكندر: مملكة أرمينية الصغرى، ص٢٣-٢٥.

(٥) في الكتبى "من أحسن"، والصحيح ما أثبتناه. أنظر: عيون التواريخ، ق١،جـــــ١٢، ورقـــة ٦٤. والجديـــر بالملاحظة أن الكتبى نقل نقلا يكاد يكون حرفيا عن بيبرس الدوادار، مع حذف القليل من الجمل القصيرة الـــتي لا تخل من المعنى؛ حتى أن مخطوط "عيون التواريخ" قد ساعدنا على فك بعض طلاسم مخطوط "زبدة الفكـــرة"، إذ كان بمثابة نسخة ثانية له.

(٦)في الكتبى "المرتقا". عيون التواريخ، ق١،جـــ١٢، ورقة ٦٤..

العقاب والصوى[1] ، لا يستطيع الفارس سلوكها إلا راجلا
لوعورة[2] مسالكها
وصعوبتها على سالكها، وبحر الفرات
يجرى من تحتها ولا منزلة لمن ينازلها
إلا في لحفها...[3]"

في حين كان "أبو الفدا" في مصدره "المختصر في أخبار البشر" شديد الإيجاز في وصف حصانة قلعة الروم، إذ أورد

:"... وهى حصن على جانب الفرات
في غاية الحصانة ... [4] "

وكان حريصا أيضا على إظهار دوره[5] ودور عسكر حماة على وجه الخصوص في فتح قلعة الروم فقد ذكر في مصدرة أن

:"... هذا الحصار أيضا من جملة
الحصارات التى شاهدتها،
وكانت منزله الحمويين على
رأس الجبل المطل على القلعة من
شرقها[6] ، فكنا نشاهد
أحوال أهلها في مشيهم وسعيهم

---

(١) هكذا في بيبرس الدوادار، وجملة "كثيرة العقاب والصوى" ساقطة من الكتبى.

(٢) "لغور مسالكها" في عيون التواريخ، ق١، جـ١٢، ورقة ٦٤.

(٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، جـ٩ ورقة ٢٩٧؛ الكتبى: عيون التواريخ، ق١، جـ١٢، ورقة ٦٤؛ بيبرس الدوادار: تحقيق زبيدة عطا، ص٢٦٧؛ التحفة المملوكية، ص ١٣٠-١٣١. ويلاحظ اختلاف أسلوب بيبرس الدوادار في مصدره الثاني عن مصدره الأول، إذ أورد: "... وهى أحصن القلاع وأشهرها بالامتناع لأنها مرتفعة غاية الارتفاع، موضوعة في جبال صعبة المسالك ممتنعة عن السالك، لا يتخلص إليها الراجل إلا بعد التعب الشديد والجهد الأكيد، وليس حولها فسحة لنزول العساكر وبحر الفرات يمر من تحتها ملاحفا ولمن يحاولها مزاحفا". قارن: زبدة الفكرة جـ٩، ورقة ٢٩٧ مع النص السابق ذكره والوارد في: التحفة المملوكية ، ص١٣٠-١٣١.

(٤) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، جـ٤، ص ٢٧.

(٥) أبو الفدا : جـ٤، ص٢٦. وقد أشار إلى ذلك اليونينى: ذيل مرآة الزمان، جـ٣، ورقة ١٠ب؛ المقريزى: السلوك، جـ١، ق٣، ص ٧٧٨.

(٦) في المقريزى: "كان منجنيق صاحب حماة على رأس الجبل". أنظر : السلوك: جـ١، ق٣، ص ٧٧٨.

في القتال وغير ذلك ... وكان منجنيق الحمويين على رأس الجبل المطل على القلعة. فتقدم مرسوم السلطان إلى صاحب حماة أن يرمي عليهم المنجنيق. فلما وترناه لنرمي عليهم طلبوا الأمان من السلطان.."[١]

ولقلعة الروم أهمية خاصة من الناحيتين الحربية والاستراتيجية، لتحكمها في الطريق البرى ألي بلاد الشام من جهة الشرق؛ ولذلك كانت تسمى "مفتاح بلاد الشام"[٢] ، وهى ذات موضع حصين، وتقع في البر الغربي الجنوبي للفرات، شمال غربي حلب، على خمس مراحل منها، على مرحلة غربي البيرة[٣]، ويمر بها نهر المرزبان[٤] الذي يصب في الفرات. وتقع بين البيرة وبين سميساط[٥].

وكان يسكن قلعة الروم أخلاط من الأرمن والتتار [٦]. وكانت الكونتيسة "بياتريس" BEATRICE قد أنعمت على بطريرك الأرمن[٧] – أى الكاثوليكوس

---

(١) أبو الفداء: ج-٤، ص ٢٧؛ اليونيني : ج-٣، ورقة ١٠ب.

(٢) LE ROIHETHOUM II, DANS R.H.C., DOC. ARM., T. I, P. 543.

(٣) "البيرة" بلد قرب سميساط، بين حلب ومنطقة الثغور الرومية، وهى قلعة حصينة ولها رستاق واسع. (أنظر: ياقوت: حـ٢، ص٣٣؛ البغدادي: حـ١، ص٢٤). وفى الكامل أنها قلعة منيعة على الفرات من الجانب الجزرى. أنظر: ابن الأثير: حـ٩، ص ١٥٦. أنظر أيضاً :
DUSSAUD, TOPOGRAPHIE HISTORQUE DE LA SYRIE ANTIQUE ET MEDIEVALE, PARIS, 1924, P. 461.

(٤) "مرزبان" عرف هذا اللفظ "أبو الفدا" في "تقويم البلدان" في الكلام عن قلعة الروم، فقال بأنه نهر يجيئ من ناحية الجبل ويصب في الفرات تحت قلعة الروم. أنظر: أبو الفدا: تقويم البلدان، ص ٢٦٩.

(٥) "سميساط" بضم أوله، وفتح ثانية، وياء مثناه ساكنه وسين أخرى، ثم بعد الألف طاء مهملة: مدينة على شاطئ الفرات في طرف الروم، على غربي الفرات؛ ولها قلعة في شق منها يسكنها الأرمن. أنظر: فايز إسكندر: أرمينيا بين البيزنطيين والأتراك والسلاجقة، ص٢١٥، حاشية رقم ٤٦٣؛ وص ٢٣؛ حاشية رقم ٥٤٨.

(٦) WIET, HISTORIE DE LA NATION EGYPTIENNE, PARIS, 1937, T. IV, P. 461

(٧) يسمى بطريرك الرمن "كاثوليكوس" CATHOLOCOS ، وهو الرئيس الأعلى لطائفة الأرمن. ويطلق الأرمن عليه "الكاتا غيكوس" . أما المصادر الإسلامية فتارة تلقبه "بترك الأرمن (أنظر: السلوك، حـ١، ق٣، ص٧٧٨؛ ابن الفرات : حـ٨، ص١٣٧)؛ وتارة ثانية "بطرك الأرمن" أنظر: النويرى: حـ٢٩، ورقة ١٠١ أ؛ عيون التواريخ، ق١، حـ١٢، ورقة ٦٥؛ ابن أيبك : زبدة ، زبدة عطا، ص ٢٦٨)؛ وتارة ثالثة "كيتا غيكوس" أخذا من الأرمن (أنظر: زترمستين، ص١٥، ١٧)، وتارة رابعة "الكاغيكوس" (أنظر: ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٢٤-١٢٥؛

CATHOLICOS–هذا الموضع الحصين ليتخذه مقـــراً لـــه، كـــان ذلـــك ســـنة ١١٥٠م/٥٤٥هـ[1]. ومن هنا كان اهتمام الأشرف خليل بقلعة الروم ليجعل منـــها حصناً لصد غارات التتار على سلطنته وأن دل ذلك على شئ فإنما يدل علـــى عمـــق الخبرة لذلك العاهل المملوكي.

على أية حال، عندما علو الملك الأرمني "هيثوم الثاني" بمغادرة جيوش الســـلطان المملوكي حلب في طريقها لمحاصرة "قلعة الروم" أســـرع بـــاحتلال ممـــرات جبـــال الأمانوس، وهى مفتاح الدخول ألي مملكة أرمينية الصغرى[2]، كذلـــك أردف ذلـــك التصرف الإستراتيجي بالإلحاح في طلب النجدات من خلفائه التتار، ولكنهم تـــأخروا عن إسعافه في الوقت المناسب. ففي هـــذا الصـــدد يذكـــر "رشـــيد الديـــن" (ت ٧١٨هـ/١٣١٨م) في مصدرة "جامع التواريخ" أنه

" ..وصلت الأنباء من الروم تفيد
إن جيش العداء قد وصل من الشام،
وأن الملك الأشرف قد حاصر قلعة
الروم. وفى شهر رجب توجه
"تايجو أغول بن منكوتيمور" و "طعارجار"
و"يوقدانى الاقتاجى" و "تماجى ايناق"
مع جيش مجهز للقضاء على هؤلاء الأعداء.
وفى نفس شهر شعبان توجه المير
"سوكاى" والأمير "تيمور بوقا"
و "قراجة" الى قلعة الروم عن طريق

ابـــن واصـــل: مفـــرج الكـــروب، جـــ٢، ص ٣٢٠)؛ وتـــارة خامســـة "كينا غيلـــوس" (أنظـــر: أبـــو الفـــدا: جـــ٤، ص٢٧)؛ وتـــارة سادســـة "خليفـــة الأرمـــن" أنظـــر : زترستيـــن، ص١٧.

(١) SMBAT, LA CHRONIQUE ATTRIBUEE AU CONNETABLE SMBAT, TRAD. GERARD DEDEYAN, PARIS, 1980, P. 55, N 34. VAHRAM DEDESSE, CHRONIQUE RIMEE DES ROIS DE LA PETITE ARMENIE, DANS R.H.C., DOC. ARM., I, P. 518; VARTAN LE GRAND, DANS R.H.C., DOS. RAM., I, P. 435.

(٢) LE ROIHETHOUM II, P 542.

أخلاط[1] وأرجيش[2]. ولكن الملك الأشرف استولى على قلعة الروم فى أواخر رجب، وقتل بعض سكانها، واسر البعض، وسلم القلعة ألي حراس من قبله، ثم عاد[3]..."

هذا بينما تحدث المؤرخ بيبرس الدوادار في مصدرية "زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة" و "التحفة المملوكية في الدولة التركية"[4] عن تلك النجدة التترية، إذ قال إن هدفها مفاجئة جيوش المماليك، وإكراههم على فك حصارهم لقلعة الروم؛ وارجع سبب انسحاب التتار الى ضخامة جيوش المماليك، إذ جرد السلطان الأشرف خليل أربعة من مقدمي الألوف، وانخرط

---

(١) " أخلاط" أو "خلاط" هى قصبة أرمينية الوسطى، وتقع الشاطئ الشمالى لبحيرة وان VAN، جنوب غرب ملاذكرد.

للتفاصيل أنظر : BRYENNIOS TR. GAUTIER, I, CH. XIV P. 108, N.2; CONSTANTINE PORPHORIGENITUS, VOL. II, COMMENTARY, PP. 167-168. CF. CANARD, HISTOIRE DE LA DYNASTIE DES HAMDANIDES, PARIS, 1953, 184

أنظر ا ايضاً : فايز نجيب اسكندر: الفتوحات العربية الأرمينية – دراسة تاريخية مع عرض وتحليل ودراسة مقترنة للمصادر والمراجع–مجلة سيرتا–العدد ٩/٨–الجزائر ١٩٨٣–ص٣٨؛ البيزنطيين والأتراك السلاجقة فى معركة ملازكرد–الإسكندرية ١٩٨٤–ص٧١–٧٤، حاشية رقم ٧٢؛ الحياو الاقتصادية فى أرمينية إبان أرمينية إبان الفتح الإسلامي، ص ٤٠–٤١.

(٢) "أرجيش" مدينة من نواحى أرمينية الكبرى، قرب خلاط، وتقع على الشواطئ الشمالية لبحيرة وان VAN ، وأكثر سكانها من الأرمن. للتفاصيل أنظر: فايز نجيب اسكندر: أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة، ص٢١١، حاشية رقم ٤٤٦.

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ، تاريخ المغول، المجلد الثانى–نقلة عن الفارسية فؤاد عبد المعطى الصياد–القاهرة ١٩٦٠–جـ٢، م٢، ص ١٧٨–١٧٩.

(٤) "التحفة المملوكية" ما هو إلا موجز المخطوط زبدة الفكرة، إلا أن بيبرس الدوادار توقف فيه عن أحداث سنة ٧١١هـ/١٣١١م. وبمقارنة المصدرين نلاحظ أن "التحفة المملوكية" فيه تفسير وتوضيح لبعض موضوعات "زبدة الفكرة" الموجزة؛ وخير مثال على ذلك، تناول المصدرين لثورة المماليك السلطانية الأشرفية سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٤م؛ إذ جنح الدوادار الى سرد أحداثها بإيجاز فى "زبدة الفكرة" في حين زودنا بتفاصيلها في "التحفة المملوكية" .

المؤرخ بيبرس الدوادار المنصورى في تلك التجريدة[١]، وكان من مضاف الأمير بدر الدين بكتاش[٢] أمير سلاح[٣].

هكذا حاصرت جيوش الشرف خليل قلعة الروم، واستمر حصارها حوالي ثلاثة وثلاثين يوما، وضربت أسوارها بعشرين منجنيقا. وقد عين "النويرى" (ت ٧٣٢هـ ١٣٣٢م) في مخطوطة "نهاية الأرب في فنون الأدب" أنواع هذه المجانيق فقال أن

"... خمسة منها فرنجية وخمسة عشر قرابغا{صحتها "قرابغرى". أنظر: أرنبغا الزردكاش: الأنيق فى المنجنيق، ص٣،٧،٨} وشيطانية..."[٤]

---

(١) "التجريدة" جمعها "تجاريد" بمعنى الحملة الحربية. أنظر: خليل بن شاهين الظاهرى: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك-باريس ١٨٩٤- ص ١٣٦.

(٢) هو "بكتاش بن عبد الله الفخري"، الأمير بدر الدين، المتوفى سنة ٧٠٦هـ/١٣٠٦م. وقد اتصف بالشجاعة والعقل والخير وكان مقدما على الجيوش. أصله من مماليك الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ، ثم نقل الى ملك الملك الصالح نجم الدين، فترقى فى الخدمة حتى صار من أكابر الأمراء، وغزا غير مرة. ولما قتل الملك المنصور لاجين أجمعوا على سلطنته فامتنع وأشار بعود السلطان الناصر محمد ابن قلاوون. للتفاصيل أنظر: المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافي-تحقيق نبيل عبد العزيز-القاهرة ١٩٨٥-جـ٣، ص٣٨٥، ترجمة رقم ٦٧٥؛ ابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنة، جـ٢، ص١٤، ترجمة رقم ١٣٠١؛ ابن حبيب: درة الأسلاك، ورقة ١٧٢؛ الصقاعى: تالى كتاب وفيات الأعيان-مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس رقم FONDS ARABE 2061 – ورقة ٥٦، ترجمة رقم ٨٦؛ المقريزى: المقفى الكبير-مخطوط بالمركز القومي للأبحاث العلمية بباريس CNRS رقم 2832 – ورقة ٢٥٤ أ -٢٥٥ ب؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٨، ص ٢٢٤؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، جـ١، ص٢٧٧.

(٣) يلي الأتابكية فى المكانة وظيفة "أمير سلاح"، وصاحبها هو رئيس السلاحدارية من المماليك السلطانية، ووظيفته حمل سلاح السلطان فى المواكب العامة والأشراف على السلاح خاناه. ويأتي بعده "أمير مجلس" ثم "الدوادار الكبير" الذي يتولى تبليغ الرسائل للسلطان، ورفع القصص، وتقديم البريد إليه؛ كما يحصل على تصديق السلطان على المناشير والتواقيع. أنظر: القلقشندى: جـ٤، ص١٨-١٩.

(٤) النويرى : جـ ٢٩، ورقة ١٠٠ ب. أنظر أيضا: ابن الفرات: جـ ٨، ص٣٦ أ؛ ابن الجوزى: جواهر السلوك، ورقة ١١٩؛ ابن أبى الفضائل: ص ٢٨٩؛ الباعونى: أرجوزة لطيفة فى التاريخ-مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس رقم FONDS ARABE 1615 – ورقة ٢٣؛ الذهبى: العبر فى أخبار من عبر مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس رقم FONDS ARABE 1680 – جـ٢، ورقة ٢٢٤ب، الصديقى: نزهة الأبصار وجهينة الأخبار-مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس رقم FONDS ARABE 1561 ورقة ١٠٦ب-١٠٧ب؛ محمد بن

هذا وقد زودنا "المفضل بن أبي الفضائل"[1] (توفي في منتصف القرن الثامن الهجري/منتصف القرن الرابع عشر الميلادي) في مصدره "النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العمد" بتفاصيل عن مواضع تلك المجانيق، إذ جاء في مصدره :"... وحكى الأمير سيف الدين بن المحفدار، قال إن مدة المقام على حصار قلعة الروم ثلاثة وثلاثون يوما، وعدة ما نصب عليها من المجانيق تسعة عشر، فرنجية خمسة، وقا بغايية {هكذا فى الصل وصحتها كما وردت فى معظم المصادر: قرابغرى} وشيطانية أربعة عشر، خارجا عن منجنيق صاحب حماة على رأس الجبل[2] ، ومن الجهة البحرية الفراتية الأفرام إثنان، والسلطان واحد فرنجى، ومن الجهة الشرقية وعلى جانب الفوات بيبسرى واحد، ومن الجهة الغربية

أبي السعادات: تاج المعارف وتاريخ الخلايق، ورقة ٦٤ ب، اليافعي: غربال الزمان، ورقة ١٦٧ب؛ المقدسي: نزهة الناظرين، ورقة ٤١ أ. والفرنجية، والقرابغا، والشيطانية ضرب من السلاح وهو نوع من المجانيق. (أنظر: ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص ٧٨، حاشية رقم ٢). وقد تحدث "أرنبغا الزردكاش" فى مصدره "الأنيق في المناجيق"-الذي يعد أهم المصادر الإسلامية على الإطلاق عن تلك الآلة المنجنيق المختلفة فقال: "... ومنه الكبير والصغير: فمنه المنجنيق الحربى "القرابغرى" ، وهو عبارة عن آله من خشب جيد لها دقتان قائمتان، تقع فوق كل واحد منهما حتريرة من خشب وثيق، وبينهما سهم-عريض، فثقيل من جهة الذنب، نحيف، فخفيف من ناحية الرأس-قد زود بأصبع (ص٣)... والمنجنيق الحربى "القرابغرى" على شاكله المنجنيق الفارسى أو التركى، إلا أن هذا الأخير بدفة وجتريرة واحدة (ص٧-٨) ... ومنه أيضا "الفرنجى"، وهو على ثلاثة أنواع: الأول بصندوقين وسهم يدور من أى جهة يريد الإنسان (ص٣) ... والمنجنيق الفرنجى مماثل للمنجنيق السلطانى (ص٧) للتفاصيل أنظر : الأنيق فى المناجيق-تحقيق نبيل محمد عبد العزيز-ص٣ وما بعدها .

(١) عن ترجمة "مفضل بن أبي الفضائل" وتحليل مصدره أنظر : فايز نجيب إسكندر : مملكة أرمينية الصغرى، ص٣٦-٤٠.

(٢) فى أبي الفداء :"... وكان منجنيق الحمويين على راس الجبل المطل على القلعة..." أنظر: المختصر فى أخبار البشر، جـ٤، ص٢٧.

خمس قوا بغاييـه {صحتهـا: قرابغـرى} وشـيطانية فى الـوادى خمسة عشر.[1]"

وقد سلط "ابن الجوى"فى مخطوطة "جواهر السلوك فى الخلفاء والملوك" الأضواء علـى الصعوبات التي لاقاها جيش المماليك أثناء حصارة لقلعة الروم إذ أورد

:"...حكى لى الأمير سيف الدين بن المحفدار أمير جاندار[2] قال : ومما جرى لنا من العجايب علـى قلعة الروم فى شهر أبيب وهو تموز والعسكر نازل عليها قال: فبينما نحن عليها وإذ لقد هبت ريـاح مزعجة قوية جدا وشرار وشـعب الى أن رمـت ساير الخيام وباتت الناس على وجل، وأصبـح فى الغد رعدت السماء رعدا قويـا الى أن ظنـوا أن السماء تقع على الأرض، وزلت صاعقة أحرقـت ثلاثة أنفس أحدهم مات والآخر احترق نصفـه والآخر من الخوف انخلع قلبه ومات[3]"

على أية حال، ضرب الأشرف خليل الحصار حول "قلعة الروم" ، وأخـذت المنجنيقات ترميها بالأحجار. وقام الأمير "علم الدين سنجر الشجاعى" نائب دمشـق بعمل برج خشبى تعلوه قبة، وغطـاه باللبود، وحصنـه من كل جانـب، وأدخـل فيـه جنـودا يقاتلـون وهـم بداخلـه. واسـتمرت الجيـوش المملـوكية عشـرين يومـا فـي حصـارها للقلعـة، ولكنهـا لم تنـل منهـا منـالا. فأجمـع الأمـراء علـى توصيل النقـابين [4] ألـي سـور الحصن، وأدخلوا مـن

---

(١) ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص٣٨٩، أنظر أيضا: المقريزى: السلوك، جـ١، ق٣، ص ٧٧٨؛ زنرستين: ص١٦.

(٢) "أمير جاندار" هو الأمير الذى يستأذن على دخول الأمراء للخدمة السلطانية ويدخل أمامهم فى الديوان، ويقدم البريد مع الدوادار وكاتب السر. أنظر: القلقشندى: جـ٤، ص٢٠؛ جـ٥، ص ٤٥٩.

(٣) ابن الجوزى: جواهر السلوك فى الخلفاء والملوك-مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس رقم FONDS ARABE 7639 - ورقة ١١٩-١٢٠ . أنظر أيضا: اليونينى : ذيل مرآة الزمان، ورقة ١٣ ب - ١٤ أ.

(٤) طريقة "نقب الأسوار" من الطرق المعتادة التي أستخدمها الجيش الأيوبي والمملوكي. وكانت قائمة على نقب أسوار الحصـن نقبـا حيث تصبح محمولا على قوائم من الخشب المدهون بالنفط يتم دقها بواسطة النقابين عقب ذلك، تملأ المسافة بين القوائم بمواد سـريعة الاشتعال كالقش والحطب ونشارة الخشب، ثم تشعل فيها النيران التي بدورها تلتهم القوائم الخشبية، فيسقط السور، ويجد المـهاجرون طريقهم إلى الحصن. وحفاظا على أرواح النقابين وخوفا من وقوع السور عليهم، وحماية لهم من التعرض لسهام المدافعـين عن الحصن ونيرانهم فى محاولة منهم لوضع حد لعملية النقب، كان يتقدم النقابون سـتار واق أطلـق عليـه

الزحافات[1] نحواً من ثمانين حجاراً بمعاولهم، وتقدم الجنود نحو الأسوار. كما قام فريق آخر من الجند برمي السهام ألي القلعة حتى يشغلوا الأرمن عن النقابين. وأخذ النقابون يعملون بمعاولهم في الأسوار، ولكنهم لم يستطيعوا نقبها لصلابة أحجارها [2].

وأتفق في ذلك الوقت أن وصل المعسكر السلطاني نفر من "آل مهنا"[3] وأخبروا السلطان أنهم رأوا جيشا تتريا ثان في طريقة إلى قلعة الروم. فجمع خليل الأمراء للتشاور في الأمر. وفى نفس الوقت أسّرت ألي بيدارا[4] أن يشير على الأمراء بالرحيل وترك القلعة على أن يرجعوا إليها في العام القادم وذلك لشدة البرد وغزارة الأمطار والثلوج هذا العام، بالإضافة ألي خطر التتار الذي يهدد الجيش السلطاني المحاصر للقلعة. فلما سمع الأمراء كلام بيدار سكتوا؛ فقال لهم خليل:

- ماذا تقولون في كلام بيدار ؟

الصليبيون اسم "تستودو" TESTUDO ؛ بينما عرف فى المصادر الإسلامية بعديد من الأسماء منها: المتراسة والجنوية، والطورق والدبابة، والأبراج الخشبية المجلدة الخ.. راجع فى ذلك: فايز نجيب اسكندر: فن الحرب والقتال، ص ١٠١، حاشية رقم ٤. وأيضا: OMAN, ART OF WAR, II, P. 50; ARCHER & KINGSFORD, THE CRUSADES, P. 352.

(١) "الزحافات" مفردها "زحافة" وهى آلة من آلات الحرب والحصار. أنظر : سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكى في مصر والشام، ص٤٢٢.

(٢) العيني: جـ٢١، ق١، ورقة ٤١-٤٢؛ السلوك، جـ١، ق٣، ص٧٧٨.

(٣) "آل مهنا" من عشائر البدو المنتشرة في بادية الشام. (للتفاصيل أنظر: القلقشندى: جـ٤، ص ٢٠٣-٢٠٨). وكان عرب آل مهنا وعرب آل فضل من أبرز من جلبوا للسلطان الناصر محمد الخيول من بلاد الشام، فأصبحوا أصحاب خطوة لديه، وأقطعهم عدة ضياع بأرض حماه وحلب. أنظر: المقريزى : الخطط، جـ٢، ص ٢٢٤؛ السلوك، جـ٢، ق٢، ص ٥٢٦-٥٢٧. وأيضا: حلمي محمد سالم: اقتصاد مصر الداخلي وأنظمة في العصر المماليكى، ص ٢٢٣؛ سعيد عاشور: العصر المماليكى في مصر والشام، ص٢٠٦.

(٤) هو "بيدار بن عبد الله المنصورى" نائب السلطنة فى الدولة الأشرفية، وهو الذي خرج على الأشرف خليل وقتله سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٢م وتسلطن بعده وتسمى بالملك الأوحد لمدة يوم واحد تقريبا حتى قتله خاصكية خليل وعلى رأسهم زين الدين كتبغا الذي تسلطن بعد سلطنة الناصر الأولى. للتفاصيل أنظر: ابن الفرات: جـ٨، ص١٧٧-١٨٨؛ المقريزى: السلوك جـ١، ق٣، ص٧٨٢-٧٩٢؛ ابن حبيب: درة الأسلاك، ورقة ٩٨؛ الإسحاقى: لطائف أخبار الأول، ورقة ١٥٨أ؛ مؤلف مجهول: كتاب في تاريخ العالم من آدم ألي الغزو العثماني، ورقة ٨٩ب؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٨، ص١٩؛ المقريزى، المقفى، ورقة ٢٧٦أ-٢٧٧أ؛ التلمسانى: سكردان السلطان، ورقة ٩٥ب؛ الطولونى: النزهة السنية في ذكر الخلفاء والملوك المصرية، ورقة ٩٨أ.

- فقال الأمراء إنهم مصممون على البقاء حتى تسقط قلعة الروم، لأن رجوعه بدون أخذها بعد ذلك الجهد والحصار الطويل فيه خدش ومهانة لكرامة السلطان وجيشه. ثم قال خليل :

- وما العمل مع التتار الذين عبروا الفرات ؟

- فقال الأمير سنقر الأشقر[1]، السلطان يأمرنا وأنا مستعد أن اركب مع بعض الأمراء لنقابل التتار، على أن يستمر السلطان في حصار القلعة حتى لا يشمت فينا الأعداء[2] .

(١) كان "سنقر الأشقر" مقيما بصهيون منذ سنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م، وقد انتهى ما بينه وبين السلطان قلاوون من الجفاء والصلح منذ شهر صفر سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م؛ واعتقد السلطان وهو بالمرقب أن سنقر الأشقر سيسير إليه وهو بها، أداء لواجب التابع نحو المتبوع، لكنه لم يفعل شيئا منذ ذلك. وعاد السلطان ألي مصر حانقا على سنقر، لما ظهر منه من قلة الوفاء وكثرة الجفاء. وجدير بالذكر أن السلطان قلاوون كان قد ولاه نيابة السلطنة في دمشق في سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م. وتوفى سنقر مقتولا في سنة ٦٩١هـ/١٢٩١م. للتفاصيل عن خروج سنقر الأشقر على الملك المنصور قلاوون، راجع: ابن حبيب: تذكرة النبيه ، جـ١، ص١٥٧؛ نهاية الأرب، جـ٢٩، ورقة ٦٩-٧٠، ابن حبيب: درة الأسلاك، ورقة ١١٢؛ كنز الدرر، جـ٨، ورقة ٣٤٠؛ السلوك، جـ١، ق٣ ص ٧٨١-٧٨٢؛ تاريخ ابن الفرات، جـ٨، ص ١٥١؛ الدوادار: زبدة الفكرة، جـ٩، ورقة ١٤٩-١٥٠؛ الصقاعي: تالي كتاب وفيات الأعيان، ورقة ٨٥، ترجمة رقم ١٢٧؛ ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ٤، ص١٣؛ ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص٣٩٦؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص٢٩٨-٢٩٩؛ أبو المحاسن: المنهل الصافي، جـ٣، ورقة ١١٠-١١٣. أنظر أيضاً : DARDEL, CHRONIQUE D'ARMENIE, DANS R.H.C., DOC. ARM., T.H. PP. 14-15, NOTE 2.

(٢) العيني: عقد الجمان، جـ٢١، ق١، ورقة ٤١-٤٢. ونستخلص مما أورده العيني أ، بيبرس الدوادار لم يكن شاهد عيان إلا في التجريدة التي أرسلها الأشرف خليل لمواجهة النجدة التترية، وكان من مضافي الأمير بدر الدين بكتاس-كما أوردنا في المتن-أما أوائل عمليات الحصار لقلعة الروم، فلم يكن شاهد عيان لها. أضف الى ذلك أنه لم يكن على علم بكتابات البشرى بفتح تلك القلعة، ومنها كتاب أرسله الأمير علم الدين الشجاعي (جاء في ابن الفرات والنويرى أن هذا الكتاب كان من انشاء الفاضل "شرف الدين القدسي". أنظر: تواريخ ابن الفرات، جـ٨، ص١٣٩؛ نهاية الرب، جـ٢٩، ورقة ١٠١ أ) الى قاضي قضاة دمشق (ورد ذكر هذا الكتاب في تاريخ سلاطين المماليك-تحقيق زترستين-ص١٢-١٦، اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، جـ٣، ورقة ١١ب-١٣ب؛ النويرى: جـ٢٩، ورقة ١٠١ أ-١٠١ب؛ ابن أيبك كنز الدرر، ورقة ٢٨٧-٢٩٢؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه ، جـ١، ص١٥٠-١٥١؛ درة الأسلاك، ورقة ١١٠-١١١؛ ابن الجوزي: جواهر السلوك في الخلفاء والملوك، ورقة ١١٣-١١٩؛ ابن الفرات: جـ٨، ص١٣٧-١٣٨) وكذلك الخطاب الذي أرسله السلطان الأشرف خليل الى نفس القاضي؛ (عنه أنظر: زترستين، ص١٠-١٢؛ ابن أيبك: كنز الدرر، ورقة ٢٨٤-

وبالفعل، رسم السلطان لسنقر الأشقر وبدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح للزحف لملاقاة التتار. وكان عدد ذلك الجيش ألفى فارس، انضم إليهم جنود من البدو من آل مهنا، وآل فضل(١)، وآل مرا (٢)، وبنى كلاب(٣)، وأمراء التركمان(٤). وجد الجيش في المسير نحو الفرات وغيره، وسار إلى البر الشرقي نحو يوم وليلة فلم يجد أثراً للتتار الذين ولوا مدبرين بعد تلك المجابهة الثانية(٥).

١٨٧؛ النويرى: جـ٢٩، ورقة ١٠٠ب-١٠١أ) وأخيرا الكتاب الذي كتبه الأمام شهاب الدين عبد العزيز بن كمال الدين أحمد بن العجمي. (أنظر: ابن حبيب: تذكره النبيه، جـ١، ص١٥٢-١٥٣؛ درة الأسلاك، ورقة ١١١). = ففي الكتب الثلاثة إشارات مختصرة عن المجهودات الأولية التي قام بها الجيش المملوكي في سبيل الاستيلاء على قلعة الروم ، والتي أغفل المؤرخ بيبرس الدوادار ذكر تفاصيلها رغم كونه شاهد عيان لها .

(١) "آل فضل" هم بنو "فضل بن ربيعه"، ومنازلهم من حمص ألي قلعة جعبر ألي الرحبة آخذين على شقى الفرات وأطراف العراق حتى ينتهي حدهم قبله بشرق ألي الوشم آخذين يساراً إلى البصرة. أنر: القلقشندى: قلائد الجمان في قبائل الزمان ، ص٧٦؛ صبح الأعشى، جـ٤ ، ص٢٠٤-٢٠٨. بمعنى أنهم انتشروا بين العراق والشام على جانبى الفرات.

(٢) "آل مرا" نسبة إلى "مرا بن ربيعه"، وهو أخو "فضل بن ربيعه" ومنازلهم فى حوران. للتفاصيل أنظر: القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٤، ٢٠٨-٢١٠؛ ابن طولون: مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان-تحقيق محمد مصطفى-القاهرة ١٩٦٢-١٩٦٤- جـ١، ص٩٨، ١٠٤، ١٩٦. ويدعى آل فضل وآل مرا وآل مهنا وآل على أنهم من ولد جعفر بن يحيى البرمكى من العباسة بنت المهدى، واتباعهم من أشتات العرب، ودونهم عربان بنى مهدى بالبقاء وزيد بحوران وبنو خالد بحمص. أنظر: العمرى: التعريف بالمصطلح الشريف، ص٧٩؛ ابن شاهين الظاهرى: زبدة كشف الممالك، ص١٠٥؛ العمرى: مسالك الأبصار، جـ٣، ورقة ٢٣، ٣٤.

(٣) "بنو كلاب" من أعراب حلب، وكانوا بشمال الشام. للتفاصيل أنظر: ابن ميسر: أخبار مصر-نشر هنرى ماسيه-القاهرة ١٩١٩-جـ٢، ص٤٠؛ القلقشندى ك جـ٤، ص ٢٣١-٢٣٢.

(٤) كان "التركمان" ينتشرون فى معظم أنحاء بلاد الشام، وبخاصة مناطق الفرات. "وكانوا طوائف كثيرة وجماعة كبيرة". ويعدد القلقشندى عشر طوائف من تركمان الشام . (للتفاصيل أنظر: القلقشندى: جـ٧، ص١٩٠، ٢٨٢؛ ابن شاهين الظاهرى: ص١٠٤-١٠٥)، وقد استعانت سلطنة المماليك ببعض قبائل التركمان، ووفرت لهم الإقطاعيات نظير قيامهم على حماية أطرافها من الأعداء التاخمين وهو. الصليبيون والتتار والأرمن، هذا فضلا عن مهمة إخضاع القبائل التركمانية الأخرى التي كانت كثيرة الإغارة على بلاد سلطنة المماليك. واستقرت الأمرة على التركمان في الأطراف الشمالية في بيت "دلغادر" تارة وبيت "ابن رمضان" تارة أخرى. وهؤلاء اشهر طوائف التركمان. (للتفاصيل أنظر: القرمانى : أخبار الدول، ص٣٢٩-٣٤٠. أنظر: حلمي محمد سالم: علاقات مصر الخارجية في عهد السلطان الظاهر برقوق، ص٥-١٩). و لم تكن أملاك الإمارات التركمانية مستقرة بصفة مستديمة بسبب النزاع المستمر بينهما، والذي كان ينتج عنه زيادة ونقصانا في بعض هذه الأملاك . أنظر: حلمي محمد سالم : المرجع السابق ، ص٩-١٩.

(٥) الدوادار : جـ٩، ورقة ٢٩٨-٢٩٩؛ العيني: جـ٢١، ق١، ورقة ٤٢.

ولما بلغ السلطان المملوكي خبر فرار التتار ، زاد في عزمه وفي عزم جيشه على مواصلة حصار القلعة. ومما ساعد جيوش خليل على النصر أن الأمير "علم الدين سنجر الشجاعي" -الذي كان له النصيب الأوفى في فتح قلعة الروم- تحيل في عمل سلسلة عظيمة علقها بأسوار بواسطة هذه السلسلة حتى تمكنوا من دخول القلعة، وبذلك نجحوا في تخريبها، ورفعوا أعلام السلطان عليها [١].

"... ثم تتابعت العساكر فملكوا
القلعة ولعت السناجق[٢] بسرعة وقتل
من وجد فيها من المقاتلة [٣]..."

وكانوا من الأرمن والتتار، وأسروا مائتي رجل وطف وامرأة، وأحرقوا قصر البطريرك الأرمني وكنيسة، كما أسروا بطريرك الأرمن ستيفانوس الرابع[٤] (١٢٩٠-١٢٩٣م) STEPHANOS IV وأرسل الى المقدس حيث صلب. أما القساوسة وباقي الأسرى فد أرسلوا إلى القاهرة[٥].

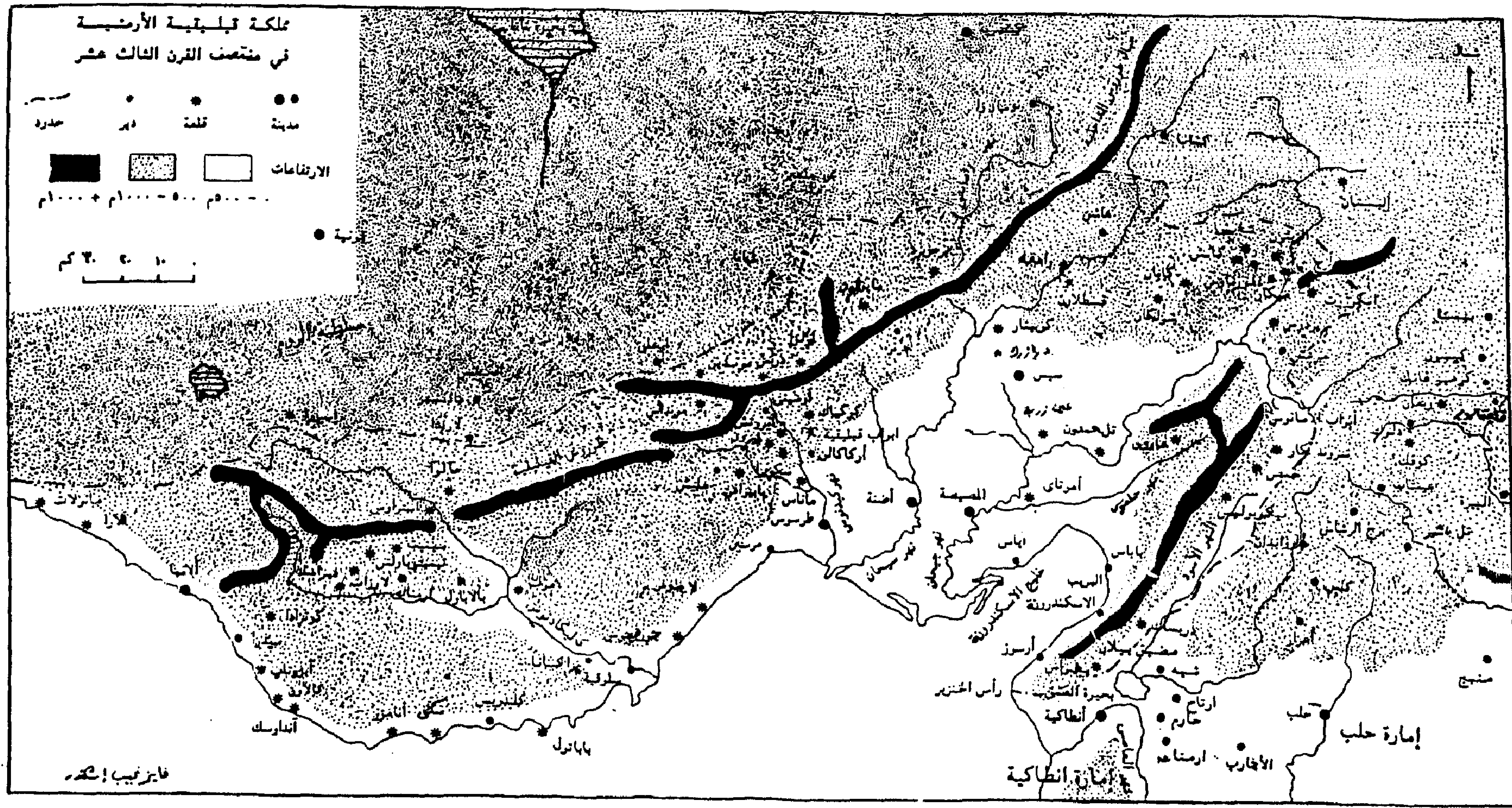
(١) ابن الفرات: جـ٨، ص١٣٦؛ الكتبي: عيون التواريخ، جـ١، ق١٢، ورقة ٦٤؛ المقريزي: السلوك، جـ١، ق٣، ص٧٧٨؛ الدوادار: زبدة الفكرة، جـ٩، ورقة ٢٩٨-٢٩٩.

(٢) "السناجق" مفردها "سنجق"، وهو لفظ تركي كان يطلق أصلا على الرمح، ثم أطلق على الرايات الصفر الصغار التي تربط بطرف الرمح ويحملها السنجقدار. وكانت السناجق تحمل بين يدي السلطان في مواكبه. أنظر: القلقشندى: جـ٤، ص ٨؛ جـ٥، ص ٤٥٦-٤٥٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١، ص١٩٠، حاشية رقم ٢.

(٣) الكتبي : جـ١، ق١٢، ورقة ٦٥.

(٤) يدعى "ستيفانوس الرابع كلايتسى" KLAIETSI أي من "قلعة الروم" تولى كرسي بطريركية الأرمن خلال الفترة من ١٢٩٠م إلى أن توفى سنة ١٢٩٣م. للتفاصيل أنظر : BAR HEBRAUS , CHRONICON SYRIACUM, PARIS, 1789, P. 579, TOURNEBIZE, P. 221; HONIGMANN, RUMQAL'A ENC. ISLAM, P. 1258.

(٥) الصديقي : نزهة الأبصار ، ورقة ١٠٧ أ؛ أبن الحوزى: جواهر السلوك ، ورقة ١٢١؛ المقريزى: السلوك، جـ١، ق٣، ص٧٧٩؛ ابن الفرات: جـ٨، ص١٣٧؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، جـ١، ص١٤٩؛ زترستين؛ تاريخ سلاطين المماليك، ص١٧. والجدير بالذكر أن المؤرخ الفرنسي المحدث رينيه جروسيه ذكر أن البطريرك الأرمني ستيفانوس الرابع اقتيد أسيرا الى دمشق حيث توفى في العام التالي. أنظر L'EMPIRE DU LEVANT, P. 412. وبسقوط قلعة الروم ، انتقل مقر بطريرك الأرمن الجديد ألا هو جريجور السابع (١٢٩٣-١٣٠٧م) GRIGOR VII إلي "سيس" عاصمة مملكة أرمينية الصغرى. وظلت سيس عاصمة لبطاركة الأرمن حتى سنة ١٤٤١م. أنظر: TOURNEBIZE, P.221; GROUSSET, P. 412.


مملكة قيليقية الأرمنية
في منتصف القرن الثالث عشر
مدينة
قلعة
دير
حدود
الارتفاعات
شمال
أضنة
المصيصة
طرسوس
أنطاكية
حلب
إمارة حلب
إمارة أنطاكية
منبج
الأثارب
ارمناز
حارم
ارتاح
رأس الخنزير
بحيرة العمق
أرسوز
الاسكندرونة
خليج الاسكندرونة
اياس
تل حمدون
أمرتاي
سيس
كوبتار
نهر سيحان
نهر جيحان
أنداوسك
باباترل
فايز نجيب إسكندر

واتفق بعد ذلك وصول الأمير "سيف الدين جنكلي[1]" الى القاهرة، فذكر أنه كان فى تلك السرية، وكان عدد التتار حوالى عشرة آلا ف فارس بقيادة أحد الأمـراء ويدعى "بيتمش" وكان هدف التتار مباغتة الجيش المملوكي وأخذه على غـرة أثنـاء حصاره لقلعة الروم. ولكن لما رأى الجيش التترى كثرة عدد جيش المماليك قفل راجعا. وفى غضون ذلك، أصاب الجمال مرض مميت فأباد أكثرهـا، فاضطر الجيش المملوكى الى حمل الأثقال على البغال[2].

وعقب سقوط قلعة الروم يوم السبت ١٦ يونيو سنة ١٢٩٢م/١١ رجب سنة ٦٩١[3]هـ أمر السلطان بأن يمحها عنها سمة الرومية وأن تسمى "قلعـة المسـلمين"، ورتب الأمير " علم الدين سنجر الشجاعى" نائب الشام لعمارتها. فعمر مـا هدمتـه المجانيق والثقوب وخرب ربضها[4] . كما عين الأمير " جمال الدين أتشي" نائبا علـى "قلعة المسلمين[5]".

---

(١) هـو الأمير "سيف الدين جنكلـى بن محمـد بن البابا بن جنكلـى بن خليـل بن عبـد الله" المعـروف بـ"أبن الباب العجلى" أتابك العساكر. وكان أصله من بلاد الروم. طلبه الملك الأشرف خليل وكتب له منشـورا بالإقطاع الذي عينه عليه فلم يتفق حضوره إلا فى أيام الملك الناصر محمد فى سنة أربع وسبعمائة. فأمره وأكرمة ولا يزال يرقيه حتى صار نائب الكرك. وتوفى سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٥م. للتفاصيل ـنظر: أبو المحاسن: النجوم الزاهـرة، جـ١٠، ص١٤٣-١٤٤.

(٢) الدوادار: زبدة الفكرة ، ص٢٦٨؛ التحفة المملوكية، ص١٣١. أنظر أيضا HOWORTH, HISTORY OF THE MONGOLS, LONDON, 1876, T.III, P. 336 .

(٣) أدرج رينيه جروسيه سقوط قلعة الروم ع ٢٩ يونيو ١٢٩٢م، أنظـر L'EMPIRE DU LEVANT, P.412 وصحة ذلك ما أثبتناه فى المتن استنادا إلى إجماع كافة المصادر الإسلامية على ذلك. أنظر: الدوادار : زبدة الفكرة، ص٢٦٧؛ التحفة المملوكية، ص١٣١؛ ابو الفداء: جـ٤، ص٢٧؛ النويرى: جـ٢٩، ورقـة ١٠٠ب؛ السلوك، جـ١، ق٣، ص٧٧٨؛ اليونينى : ذيل مرآة الزمان، جـ٣، ورقة ١٠ب؛ النجـوم الزاهـرة، جـ٨، ص١٢؛ ابن الفرات: جـ٢، ص٢٨؛ العينى : جـ٢١، ورقة ٥٦ أنظر أيضاً : SEMPAD P. 654; LE ROI HETHOUM II, P. 543; SAMUEL D'ANI, P. 463

(٤) "الربض" سوق القلعة أو المدينة وما حولها من بيوت ومساكن. أنظر : ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٤، ص١٩٠ حاشية رقم ٢.

(٥) أبو الفداء : جـ٤، ص٢٧؛ الدوادار : زبدة الكرة ، ص٢٦٨؛ التحفة المملوكية، ص١٣١؛ الذهـبى : كتـاب دول الإسلام ـتحقيق فهيم محمد شلتوت ـالقاهرة، ١٩٧٤ ـجـ١، ص١٣٩؛ اليونينى : ذيل مرآة الزمان، جـ٣، ورقـة ١٤أ؛ تاريخ ابن الفرات، جـ٨، ص١٣٧؛ كتاب تاج المعارف وتاريخ الخلايف، ورقة ٦٤ب؛ قلماز: العـبر، ورقـة ٢٢٤ب؛ اليافعى: غربال الزمان، ورقة ١٦٧ب؛ نزهة الأبصار، ورقة ١٠٧أ؛ الكتبى : عيون التواريخ، ورقة ٦٥.

هكذا سقطت قلعة الروم في قبضة المماليك بفضل الحيلة الحربية الماكرة التي ابتدعها "علم الدين سنجر الشجاعى" نائب دمشق. وكان السلطان قد رحل ألي حلب فأقام بها بقية رجب وشعبان. ومالبث أن عاد ألي دمشق فرحب به أهلها، وبسطوا شقق الحرير التى لم تجر العادة بأعدادها إلا عند قدومة من مصر. ولكن وزيرة "شمس الدين بن السلعوس" اشار بوضعها فى طريقة احتفاء بفتحة قلعة الروم. وأمضى الأشرف خليل فى دمشق شهر رمضان المبارك وعيد الفطر، ثم عاد الى مصر فدخل "قلعة الجبل" فى يوم الأربعاء ١٥ أكتوبر سنة ١٢٩٢م/ ثانى ذى القعدة سنة ٦٩١هـ[١] . وتحدث "النويرى" فى مخطوطة "نهاية الأرب فى فنون الأدب" عن أعداد الأسرى الأرمن بعد استيلاء المماليك على قلعة الروم قائلا:

"... ووصل الى الزردخاناه {أى بيت السلاح} السلطانية من الأسرى ألف أسير ومائتا أسير ..."[٢]

كان هذا درسا لمملكة أرمينية الصغرى وعقابا على مواقفها المعادية لمماليك مصر؛ كما كان فى ذات الوقت أنذارا لها بالمصير الذي ينتظرها وكان وشيك الوقوع بعد أن فرغ المماليك فى تصفيه الوجود الصليبى فى بلاد الشام، وإضعاف شوكة التتار بعد الهزائم المتلاحقة التي لحقت بهم على يد المماليك.

وبعد أن تم للسلطان الأشرف خليل الاستيلاء على قلعة الروم ، بعث الى "شهاب الدين بن الخويي" قاضى القضاة بدمشق كتابا جاء فيه.

"... فإنه بفتح هذه القلعة وحيازة ثغرها ومعلقها تحقق من بسيحون وجيحون[٣] أنهم بعد فتح باب

---

(١) ابن أبى الفضائل : النهج السديد، ص٣٨٩-٣٩٠؛ السلوك، جـ١، ق٣، ص٧٧٨؛ ابن الفرات : جـ٨، ص١٣٧.

(٢) النويرى: نهاية الأرب ، جـ ٢٩، ورقة ١٠١أ-١٠١ب.

(٣) أطلق المسلمون على نهرى سارس SAROS وبيرامس PYRAMUS اسم سيحون وجيحون. وكانا فى صدر الإسلام حدا مائيا بين الخلافة الإسلامية والدولة البيزنطية. للتفاصيل أنظر: البغدادى جـ٣، ص ١٢٢٣؛ ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص١٧٦-١٧٧؛ ابن رسته: الأعلاق النفسية، المجلد السابع ، ص٩١، " فنهر جيحون يمر ببلاد الأرمن حتى يتجاوز الدروب، ثم يمر بطرطوس فالمصيصة ، ثم ينعطف هابطا الى الشمال ومغربا حتى يصب فى البحر المتوسط جنوب سلوقية. (أنظر: ابن خلدون : المقدمة، ص٦٣؛ القلقشندى، جـ٤، ص٨٢؛ أبو الفداء: ص٥٠؛ العبر فى أنباء من غبر ، حاشية رقم ٤٦؛ سهراب: كتاب عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية المعمورة ، ص

الفــرات بكسر أقفال هذه القلعة لا يرجون انهم ينجون، وما يكــون
بعد هذا الفتح إن شاء الله إلا فتح المشرق
والروم والعراق[1] وملك البــلاد مــن
مغرب الشمس الى مطلع الإشراق...[2]"

يتضح لنا من الخطاب السابق الذي أرسله السلطان الشرف خليل الى قــاضى قضاة دمشق بعد سقوط سنة ١٢٩١م/٦٩٠هــ وبعد استيلائه على قلعة الــروم[3] فى السنة التالية والذى يبشره فيه بالنصر، أن سلطنة المماليك-وقد خلالها الجو بعد الهزائم المتلاحقة التى أنزلتها بالتتار وبعد تخلصها من الصليبيين-بدأت فى التوسع شرقا علــى الحساب ايلخانات فارس. وهى لم تنس بعد مواقفهم السابقة ضدها، وتعاونهم الواضح مع مملكة أرمينية الصغرى فى سبيل أضعــاف شــوكتهم. ويؤيــد هــذا القــول أن "كيخايتو"[4] (١٢٩١-١٢٩٤م/ ٦٩٠-٦٩٣هــ).

١٤٣-١٤٤). وهو نهر بيراس القديم. (أنظر: ابن عبد الظاهر : الروضى الزاهر، ص١٥٠). وقد أطلــق الأرمــن عليه نهر الفرات، لأنه نهر كبير. (أنظر: ابن عبد الظاهر: الروضى الزاهر، ص٢٧٠) ونهــر "ســيحون" دون "نهــر جيحون" فى الكبر ، وعليه قنطرة حجارة عجيبة البناء طويلة جدا. أنظر: الاصطخــرى: المســالك والممــاليك ، ص٤٤٧ ابن حوقل : صورة الأرض، ص١٨٣.

(١) أوضح مؤلف مجهول فى مخطوطة أطماع السلطان الأشرف خليل فى التوسع على حساب تتار فارس إذ يقــول: "... ولو طالت أيامة لافتتح غالب بلاد العراق". أنظر : كتاب الجوهر الثمين فى اخبار الخلفاء والســلاطين، ورقة ٧٢أ . كذلك لم يخف الكتبى الاتجاه التوسعي للأشرف خليل وذلك عند ترجمته له إذ يقول: " ... ولــو طالت مدته ملك العراق وغيرها" أنظر : الكتبى : فوات الوفيات -تحقيق إحسان عباس، جــ١، ص٤٠٦.

(٢) زترستين : تاريخ سلاطين المماليك ، ص١١-١٢؛ النويرى : نهاية الأرب، جــ٢٩، ورقة ١٠٠ ب -١٠١أ؛ ابن الفرات: جــ٨، ص١٣٨.

(٣) امتدح الشهاب محمود السلطان الشرف خليل على فتحة قلعة الروم بقصيدة طويلة أوردها البرزلى في تاريخــه. أنظر المقفى لتاريخ أبى شامة، ورقة ٤٥٨أ-٤٥٩أ. أنظر أيضا: ابن حبيب : درة الأســلاك، ورقــة ١٧٤أ-١٧٥ب؛ زترستين : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ١٧-٢٠.

(٤) لم تكن حالة دولة تتار فارس فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى / اواخر القرن السابع الهجرى تسمح لهــا بمتابعــة سياسة الغزو والإغارة على بلاد الإسلام، ذلك لأسباب منها الصراع الداخلى بين ملوك فارس حول الاســتيلاء علــى العرش. وكان "كيخايتو" خان التتار الذى خلف أخاه "أرغون" سنة ١٢٩١م/٦٩٠هــ وقد أنفق الأموال الكثيرة على ملذاته، مما أدى الى ضعف دولته. فخرج عليه "بيدو" والتقى معه فى قتال شــديد انتــهى بمقتــل "كيخــاتو" ســنة ١٢٩٤م/٦٩٣هــ واستقل "بيدو" بالملك ، فخرج عليه نائب خراسان المسمى "غازان بن أرغــون" وجمــع الجيوش وقاتل "بيدو" حتى أخذ الملك منه. وقتل "بيدو" سنة ١٢٩٥م/٦٩٤هــ بعد معركة حامية قرب همذان للتفاصيل انظر: ابن حبيب: درة الأسلاك ، ورقة ١٢٢-١٢٤؛ المقريزى: السلوك ، جــ١، ق٣، ص٨١٠؛ ابن الوردى: تتمــة

خان[1] التتار بعث برسول الى السلطان الأشرف خليل يحمل كتبا يتضمن المطالبة بحلب لأن أباه هولاكو كان قد قام بغزوها من قبل ، ويهدد-إن لم يسمح له بذلك-بغزو بلاد الشام. فأجابه السلطان ألأشرف بأنه قد

"وافق ألقان ما كان فى نفسى ، فأنى كنت على عزم من اخذ بغداد وقتل رجاله، فإنى ارجو أن اردها الى "دار الأسلام" كما كانت وسينظر اينا يسبق الى بلاد صاحبه[2]"

وواضح من هذه الرسالة عزم الأشرف خليل على التوسع شرقا على حساب التتار، ومدى القوة التى كان يشعر بها تجاه خصمه، حيث يظهر فيها روح التحدي والمبادرة نتيجة للانتصارات الباهرة التى أحرزها حتى أنه - كما يتضح من ردة السابق-طالب التتار بتسليم بغداد للإقامة بها ونقل الخلافة العباسية إليها .

ولقد أدرك الملك الأرمني هيثوم الثانى جسامة الخطر الذي يحيق ببلاده من قبل المماليك عندما بسقوط قلعة الروم فى قبضة السلطان الأشرف خليل. ولا شك أن الضربات الناجحة التى وجهها المماليك الى بقايا المستعمرات الصليبية فى بلاد الشام وحلفائهم التقليديين قد هزته هزا عنيفا؛ وزاد الطين بلة أن أمر

المختصر فى أخبار البشر، جـ٢، ص٢٣٩-٢٤٠. أنظر أيضا D 'OHSON, HISTOIRE DES MONGOLS, AMSTERDAM , 1852, T.IV, PP. 101-106, 132, 141; CHABOT RELATION DU ROI AGROUN AVEC L'OCCIDENT, DANS R.O.L., 1894, PP. 127-128; BARTHOLD, GAIKHATU, DANS ENC.ISL., T. II, P. 135; HOWORTH, T. III, PP. 387-388.

(١) "خاقان" لقب أطلقه التتار على الرئيس الأعلى لدولتهم، ومعناه "الخان العظم" و "خاقان" يختلف عن "خان" الذى أطلقوه على رؤسائهم الذين يتولون جزءا من إمبراطورية التتار. وقد استعمل التتار لقب "خان" أيضا بمعنى "خاقان" وربما كان ذلك من بابا الرغبة في الاختصار . انظر ابن ابى الفضائل : النهج السديد ، ص ٧٣، حاشية رقم٤؛ المقريزى: السلوك ، جـ١، ص ٣٠٧، حاشية رقم ٤. أنظر أيضا: فايز نجيب إسكندر: المشرق الإسلامي في مواجهة تحالف المغول والأرمن-مجلة الثقافة اليمنية-العدد ١٩/سبتمبر -ص١٠٧، حاشية رقم ١٢. وكذلك GESTES DES CHIPROIS, DANS R.H.C., DOC. ARM, T. II, P. 841, N.D. D'OHSON, T. IV, PP. 88-90

(٢) المقريزى: السلوك، جـ١، ق٣، ص٨٧٦. انظر أيضا : D'OHSON, T. IV, PP. 88-90

السلطان المملوكي سنة ١٢٩٣م/٦٩٢هـ بأنقاذ حملة لاستعادة بهسنا[1] من الأرمن[2]. فلما وصلت الى "سيس"[3]، بعث الملك الأرمني برسله الى السلطان-وللمرة الثانية - طالبا العفو والأمان. فاستشار السلطان المملوكي الأمراء في ذلك، فشفعوا في صاحب سيس ، فاشترط الأشرف: "إن كان صاحب سيس يسلم هذه الثلاث قلاع - وهي قلعة البهسنا وقلعة مرعش[4] وتل

---

(١) "قلعة بهنسا" تقع شمالي حلب، على نحو أربع مراحل منها، وهي حصينة مرتفعة، بها بساتين ونهر صغير وأسواق ورستاق متسع، وبها مسجد جامع. وهي بلدة واسعة كثيرة الخير والخصب، وهي في الغرب والشمال الغرب من عينتاب، وبينهما نحو مسيرة يومين، وبينها وبين سيس نحو ستة أيام. وكان لنائبها مكانة جليلة. (أنظر : القلقشندي: جـ٤، ص١٢٠-١٢١؛ ياقوت: جـ١، ص٧٧٠؛ البغدادي، جـ١، ص٢٣٤). وقلعة "بهنسا" من اعظم قلاع "سيس" ، وهي في فم الدربندات وباب حلب. وكانت في زمن الناصر صاحب حلب في ديوانه . فلما ملك هولاكو حلب، كان في بهسنا نائب يقال له "سيف الدين العقرب" فأباعها لصاحب سيس بمائة ألف درهم ، فأعطاه ستين ألف درهم وتسلم القلعة منه ومنعه الباقي . واستمرت في أيدي الأرمن الى هذا التاريخ، وكان على المسلمين منها ضرر عظيم". أنظر: كنز الدرر، جـ٨، ورقة ٢٩٨؛ النهج السديد، ص ٣٩٣؛ زترستين: تاريخ سلاطين المماليك، المقدمة الألمانية، ص٤٥؛ الجعفري : النزهة السنية، ورقة ١٩٧أ؛ النويري : نهاية الأرب، جـ٢٨، ورقة ٨٨أ؛ أبو المحاسن: المنهل الصافي، جـ٣، ص١٠٤ ، حاشية رقم٣.

(٢) المقريزي : جـ١، ق٣، ص ٧٨٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٣، ص٣٣٢؛ ابن أبي الفضائل: ص٣٩٣؛ ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور؛ زترستين: ص٢٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، جـ١، ص١٠٥؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٨، ص١٤. وقد أخطأ "أبو المحاسن بن تغرى بردى" وصنفها تحت أحداث سنة ٦٩٠ هـ بدلا من سنة ٦٩٢هـ. أنظر أيضا: LE ROI HETHOUM II, P. 543; TABLE CHRONOLOGIQUE DE HETHOUM, P. 489. CF. KURKJIAN, A HISTORY OF ARMENIA, NEW YORK, 1958, PP. 250-251.

(٣) الكتبي: جـ١، ق١٢؛ ورقة ٨٢؛ اليونيني : جـ٣، ورقة ٢٧ب؛ أبو المحاسن، جـ٨، ص١٤؛ ابن إياس: جـ١، ص١٠٥؛ ابن الجوزي: جواهر السلوك ، ورقة ١٦٩؛ النويري: جـ٢٩، ورقة ١١٢ ب.

(٤) تقع "مرعش" شمال بلاد الشام، على أطراف آسيا الصغرى. يحدها غربا جبل اللكام، وتطل المدينة على الطريق المؤدى الى مدينة حلب، والثاني المتجه ناحية الجنوب الشرقي الى مدينة الرها، والآخر المتجه شمالا الى الحدث. مما تقدم، يتضح أن مرعش تقع في المنطقة التي تفصل بين بلاد الشام وآسيا الصغرى من جهة؛ وبين بلاد الشام وقيليقية من جهة أخرى. (للتفاصيل أنظر: القرماني: أخبار الدول وآثار الأول-بيروت ١٩١٩-ص٤٨٨؛ البلاذري: فتوح البلدان : ص ٢٢٤-٢٢٥؛ ابن الشحنة : الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب-بيروت ١٩٠٩-ص١٩١؛ الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار-تحقيق إحسان عباس-بيروت ١٩٧٥-ص ٥١٠؛ البكري: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع-تحقيق مصطفى السقا-بيروت ب.د.- جـ٢، ص١٢١٥؛ البغدادي : جـ٣، ص١٢٥٩؛ ياقوت: جـ٥، ص١٠٧؛ قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة - بغداد ١٩٨١ -ص ١٣٩. أنظر أيضا: عبد الرحمن محمد عبد الغني: الحدود البيزنطية الإسلامية وتنظيماتها الثغرية - الكويت ١٩٩٠-ص ٣٧ وحاشية رقم ٦٣). ويذكر العيني أن الملك الأرمني هيثوم الثاني طلب من السلطان الأشرف خليل أن يكون نائبا عنه في بهسنا ، فلم يلق هذا الطلب قبولا. أنظر: عقد الجمان، جـ٢١، ق، ورقة ٥٦.

حمـــدون[1]-فأعطوه الأمان، وأن لم يسلم فحاصروه[2]".

فتم الاتفاق على أن يترل الأرمن للمماليك عن بهسنا ومرعش وتل حمـــدون. ورجع العسكر المملوكي من سيس؛ فضلا من ملك مملكة أرمينية الصغرى أعلـن ولاءة للسلطان، ليضع حداً لهجمات الجيوش المملوكية، وليحمى بلاده من الدمار والخـراب. لذلك "ضاعف الحمل والجزية"؛ ففرح الناس بتسلم خاصة "لأنه كان على المســلمين من بهسنا أذى عظيم[3]"

وقد سلط "اليونيني" الأضواء على الأهمية الاستراتيجية البالغة للقلاع الثلاث وثروالهـــا الزراعية حين قال

:"... وهذا مرعش وباهسنا {هكـــذا فى الصل ، وصحتها: بهسنا} من أحصـــن قلاعهم وأعظمـــها، لاســيما باهســنا {صحتها: بهسنا} فإلها حصينـــة وبهـــا ضياع كثيرة تزرع، وهو فـــم الدرنبـــد وباب حلب...[4]"

عقب ذلك الاتفاق ، سير الشرف خليل المير "ســـــف الـــــدين طوغـــان" ورلى دمشـــق مع رسل صـــاحب سيس حـــتى يسلـــم الملـــك الأرمـــــني القـــلاع

(١) "تل حمدون" قلعة حصينة ببلاد الأرمن لها سور جيد حسنة البناء، وهى على تل عال ولها ربض وبين وبـــاتين ولهر يجرى عليها ، وهى على القرب من جيحان على بعد مرحلة من جهة الجنوب عنه، تل حمدون وبين سيس نحو مرحلتين، وبينها وبين أياس نحو مرحلة . أنظر أبو الفداء : تقويم البلـــدان ، ص ٢٥٠؛ القلقشـــندى: جـــ٤، ص١٣٦. انظر أيضا: SMBAT , P. 58 M. 48 CF, CA- HEN, LA SYRIE DU NORD A L'EPOQUE DES CROISADES, P. 147.

(٢) الكتبى: جـــ١، ق١٢، ورقة ١٢، ٨٢؛ ابن أبي الفضائل : ص٣٩؛ زترستين : ص٢٢؛ السلوك جـــ١، ق٣، ص٧٨٤؛ ابن إياس: جـــ١، ص١٠٥؛ تاريخ ابن الفرات ، جـــ٨، ص١٥٦؛ النويرى: جـــــــ٢٩، ورقـــة ١١٢ب؛ ابن الجوزى : جواهر السلوك، ورقة ١٧٠.

(٣) ابن كثير : جـــ١٣، ص٣٣٢؛ النجوم الزاهرة ، جـــ٨، ص١٤-١٥؛ الكتبى : جـــ١، ق١٢، ورقـــة ٨٢-٨٣؛ البرزلى: المقفى، ورقة ٤٥٨؛ اليونينى : جـــ٣، ورقة ٢٧ب؛ ابن اياس: جـــ١، ص ١٠٥؛ تاريخ ابـــن الفرات، جـــ٨، ص ١٥٦؛ ابن حبيب: تذكره النبيه، جـــ١، ص ١٦٠. ولقد أوضح المؤلف المجهول صاحب كتاب "تاريخ سلاطين المماليك" أسباب خضوع الملك الأرمنى لمطالب المماليك بقوله ..." أنظر: زترســـتين: تاريخ سلاطين المماليك ، ص٢٢.

(٤) ذيل مرآة الزمان ، جـــ٨، ص١٥٦؛ ابن أيبك: كتر الدرر، جـــ٢٨ ورقة ٢٩٨؛ المقريزى : جـــــ١، ق٣ ، ٧٨٤؛ زترستين: تاريخ سلاطين المماليك، ص٢٢؛ الكتبى: جـــ١، ق١٢، ورقة ٨٣.

المذكـــور . وفى ٢٦ مايـــو سنة ١٢٩٣م/أول رجب سنة ٦٩٢هـــ[1]، قدم الـــبريد الى دمشق بتسلم بهسنا مع القلاع المتقدم ذكرها[2]، وأن نواب السلطان قد تســـلموها وحكموا فيها. فدقت البشائر بذلك "وكان فتح عظيم للمسلمين"[3]. واستقر "بـــدر الدين بكتاش الزردكاش المنصورى" فى نيابة بهسنا، وعين لها قاضيا وخطيبا، واستخدم لها رجالا وحفظة كما جرت عادة القلاع[4] .

وفى يوم الاثنين ١٢ يونيو ١٢٩٣م/١٨ رجب ٦٩٢هـــ، وصل دمشق الأمير " سيف الدين طوغان" وصحبته رسل صاحب سيس[5]

:"... وكان من جملة القطيعة مائة ألـــف
درهم جددا، ومن الخيل والبغال ثمانيـــة
وخمسون رأسا بما فى ذلك من التقدمـــة
وهو عشرة رؤوس..."[6]

هكذا كان سقوط قلعة الروم بمثابة زلزال هز كبار مملكة أرمينية الصغـــرى. وقد احسن الأشرف خليل استغلال هذا الانتصار العظيم خير استغلال حـــين أكـــره هيثوم الثاني على التنازل عن ثـــلاث قلاع بالغة الأهمية ألا وهى بهسنا ومرعش وتـــل حمدون. وبذلك تقلصت حـــدود تلـــك المملكـــة، فكـــان فتـــح المسلميـــن لمواضـــع الأربعـــة بمثـــابة مسمـــار دق في نعش مملكة أرمينية الصغـــرى وبدايـــة النهاية لتلك المملكة التى تمخضت عنها الحروب الصليبية.

---

(١) المقريزى: السلوك، جـــ١، ق٣، ص ٧٨٤؛ تاريخ ابن الفرات، جـــ٨، ص١٥٦. انظر أيضا:
LE ROI HETHOUM II, 54.

(٢) ابن أبى الفضائل : ٣٩٦؛ المقريزى : جـــ١، ق٣، ص٧٨٤؛ الكتبى : جـــ١، ق١٢ ، ورقة ٨٣؛ زترســـتين: ص٢٣؛ ابن اياس: جـــ١، ص ١٠٥؛ النويرى: جـــ٢٩، ورقة ١١٢ب؛ ابن حبيب: درة الأسلاك، ورقة ١٨٠ ب.

(٣) زترستين : تاريخ سلاطين المماليك، ص٢٣؛ الكتبى: جـــ١، ق١٢، ورقة ٨٣.

(٤) زترستين : ص ٢٣؛ الكتبى : جـــ١، ق١٢، ورقة ٨٣؛ المقريزى : جـــ١، ق٣، ص ٧٨٤؛ ابـــن أبى الفضـــائل: ص ٣٩٦. الفضائل:

(٥) زترستين : ص٢٣؛ الكتبى : جـــ١، ق١٢، ورقة ٨٣؛ المقريزى: جـــ١، ق٣، ص ٧٨٤؛ النويرى: جـــ٢٩، ورقـــة ١١٢ب-١١٣أ. أنظر أيضا :
LE ROI HETHOUM II, P. 543

(٦) ابن عبد الظاهر: الألطاف الخفية فى السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية-تحقيق أكسل موبرج-ليـــدن ١٩٠٢-جـــ٣، ص٤٤٨؛ العينى: جـــ٢١، ورقة ٥٦. وجـــدير بالذكـــر ان المصادر الأرمنية جنحت إلى الاختصـــار الشـــديد عنـــد ذكـــرها أحـــداث سقوط قلعـــة الروم فى قبضـــة الممـــاليك والعـــلاقات العـــدائية

لمواضع الأربعة بمثابة مسمار دق في نعش مملكة أرمينية الصغرى وبداية النهاية لتلك المملكة التي تمخضت عنها الحروب الصليبية.

وينبغي علينا قبل طي صفحات هذا البحث تقصي أسباب تلك الانتصارات التي حققتها سلطنة المماليك، وأسباب ما لحق الأرمن من هزائم متلاحقة. فحقيقة الأمر، كان ميزان القوى يميل بشدة لصالح المماليك خاصة بعد تمكنهم من كبح جماح التتار في معركة عين جالوت، وما أحرزه بيبرس من انتصارات على الأعداء عامة من تتار وأرمن وصليبيين واستعادته إمارة إنطاكية الصليبية؛ ثم مواصلة قلاوون الألفي انتصاراته على العداء الثلاثة، وتمكنه من استعادة طرابلس من الصليبيين، وأعداده العدة لفتح عكا. وأعقب ذلك سير الأشرف خليل على درب والده ونجاحه في فتح عكا واستغلاله حماس المماليك المتدفق نتيجة ارتفاع روحهم المعنوية لفتح قلعة الروم التي أسماها "قلعة المسلمين" وتنازل هيثوم الثاني عن الثلاث قلاع السالفة الذكر مقابل سحب الجيش المملوكي. فكان الأشرف خليل يتعامل مع الأرمن بمنطق القوى الذي يملي شروطه على الضعيف .

وإذا انتقلنا الى مملكة أرمينية الصغرى، فقد كانت تمر بمرحلة ضعف واضطراب منذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادي / أواخر القرن السابع الهجرى. علما بأن علاقة ملوك الأرمن مع المماليك لم تكن على ما يرام، فالأرمن "... اخبث عدو للإسلام" على حد قول العمرى[1]؛ إضافة الى تعلق ملوكهم بأهداب التحالف مع التتار ألد أعداء المماليك. وقد عبر كل من العمرى والقلقشندى عن ذلك بقولهما " ولملوك البيت الهولاكوهي عليهم حكم قاهر، وفيهم أمر نافذ[2]". ولم ينس المماليك أن هيثوم الأول (١٢٢٦-١٢٧٠م) HETHOUMI لعب دورا رئيسيا في إقناع خان التتار بإرسال الحملة التي قضت على الخلافة العباسية فى بغداد بقيادة هولاكو سنة ١٢٥٨م، فسطر الأرمن بذلك صفحة داكنة السواد فى علاقتهم مع

- وبين السلطان المملوكى الشرف خليل والملك الأرمنى هيثوم الثانى، وذلك عكس المصادر الإسلامية التى أفردت لهذا الانتصار الصفحات العديدة المتعددة والتى تظهر جليا فى ثنايا هذا البحث . ولعله قد ساء الأرمن أن يسجلوا تلك الهزائم التى لحقت بهم، بينما هللت المصادر الإسلامية بأخبار النصر. وكان هذا أمرا طبيعيا. عن المصادر الأرمنية أنظر :

SAMUEL D ANI, P.463; LE ROI HETHOUM II, P. 542-543 ; TABLE CHRONOLOGIQUE DE HETHOUM, P. 489; SEMPAD, PP. 653-65 .

(١) العمرى: التعريف بالمصطلح الشريف، ص٥٦.

(٢) العمرى: ص٥٦؛ القلقشندى : صبح الأعشى، جـ٨، ص٣٠.

المسلمين عامة. وكان الهم الأوحد للأرمن التحالف مع التتار ضد المماليك في كافة المعارك الدائرة بين الطرفين؛ في حين كان التتار يمرون آنذاك بمرحلة ضعف وانحلال وانقسام، فانعكس ذلك بالتالي على مملكة أرمينية الصغرى .

أما الغرب الأوروبي الذي كان من المفروض أن يناصر الأرمن في حربهم ضد المماليك، فقد كان آنذاك في فترة تغيير وانتقال وكان يعاني من الضعف والتدهور، وأخذ ينصرف تدريجيا عن فكرة الحروب الصليبية. وبدأ الفرد الأوربي يتجه إلى مصالحة الخاصة، والدول إلى مشاكلها الداخلية.

ولقد حرصت البابوية على إصدار النداء تلو النداء طالبة مساعدة مملكة أرمينية الصغرى. إلا أن مساعيها انتهت بالفشل في تعبئة الغرب ضد سلطنة المماليك.

أما الإمبراطورية البيزنطية، فقد كانت المنازعات المذهبية الضارية مع الأرمن عائقا حال دون تقديم المساعدة لهم.

ولا ينبغي أن يغرب عن بالنا أحوال أرمينية الداخلية السيئة ومن أهمها: النزاع الديني بين الأرمن أنفسهم عقب محاولة بعض ملوكهم الاتحاد بالكنيسة الكاثوليكية وما نتج عنه من انقسام الأرمن إلى حربين متقاتلين. إضافة إلى إفلاس الخزانة العامة بسبب الأموال السنوية الطائلة المحمولة من قيليقيا إلى سلطنة المماليك في مصر. علما بأن تلك الأموال كانت تشكل موردا هاما لخزانة الأرمن، الأمر الذي عبر عنه محيي الدين بن عبد الظاهر بقوله "... وانتعشت خزانة الأموال بهذه الجملة العظيمة التي تحمل كل سنة (من مملكة أرمينية الصغرى "(١) . كذلك كان من نتيجة اضمحلال نشاط مملكة أرمينية الصغرى التجاري سوء أحوالها الاقتصادية بعد انصراف التجار عن مينائها اياس(٢) .

هكذا كان من الاستحالة على ملوك الأرمن الصمود طويلا في مواجهة التيارات المتلاطمة التي أحاطت بمملكتهم. وقد أدرك ذلك بعينه الثاقبة الرحالة البندقي ماركو بولو (١٢٥٤-١٣٢٤م/٦٥٢-٧٢٤هـ) MARCO POLO فتنبأ لها قبل نصف قرن من الزمان بالسقوط إذ ذكر أنها "كانت فريسة سهلة بين أسد التتار، ونمر المماليك، وذئب الأتراك، وثعبان قراصنة البحر"(٣).

---

(١) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ، ٩٣.

(٢) للتفاصيل انظر: فايز نجيب اسكندر : مملكة أرمينية الصغرى ، ص٢١٤-٢٥٠.

(٣) MARCO POLO. THE VELS OF MARCO POLO THE VENITIAN. TR. BY WILLIAM MARSDON. LONDON, 1903, T.II. P. 42

الأمير فخر الدين بن الشيخ
فى محكمة التاريخ

د ./ رأفت عبد الحميد

كلية الآداب – جامعة عين شمس

فى منتصف القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ، أقام المؤرخ جمال الدين بن واصل دعوى فى محكمة التاريخ ، يتهم فيها الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ قائد الجيش المصرى ، أتابك أو مقدم العسكر ، بتعبير ذلك الزمان ، بالانسحاب مع قواته العسكرية ، أو الفرار بهذه القوات من ميدان المعركة وعدم التصدى للجيش الصليبى الذى يقوده القديس لويس التاسع ملك فرنسا ، فيما عرف بالحملة الصليبية السابعة ، مما أدى إلى استيلاء الصليبيين على مدينة دمياط دون عناء ، وامتلاكهم لها "صفواً عفواً" ، وما تبع ذلك من النكبات التى حلت بمصر قبل أن ينتهى الحال بالحملة وقائدها إلى الفشل والإذلال ، واتسعت قائمة الاتهام لتشمل التصريح بـ "همة الأمير التى ترقى إلى الملك" ، والتلميح بذلك إلى الرغبة الكامنة لديه فى القفز على عرش السلطنة الأيوبية والملك الصالح نجم الدين أيوب يلملم ليالى العمر المعدودة الباقية له ليرحل عن دنيا الناس" والسعى إلى تحقيق هذا الطموح قبل أن يصل الوريث الشرعى ، المعظم تورانشاه ، إلى مصر ليتسلم مقاليد الأمور ويتصدر دست السلطنة .

وعلى درب ابن واصل سار المؤرخون المعاصرون واللاحقون ، وجلهم ينقل عن سلفهم هذا ، ويكاد بعضهم يردد عبارات ابن واصل بنصها ، من هؤلاء المؤرخين القدامى "ابن أيبك الدوادارى ، وأبو المحاسن بن تغرى بردى ، والمقريزى الذى كان أشد هؤلاء جميعا قسوة على ابن الشيخ إلى درجة تعيد إلى الأذهان صحيفة اتهامات ابن واصل ، كما لو أن المقريزى كان يقرأ منها ويخط بيمينه ! ولم يسلم الأمير فخر الدين كذلك من ملاحقة المؤرخين المحدثين له بهذه الاتهامات خلال تناولهم لأحداث الحملة الصليبية السابعة ، جريا على ما قالت به سطور المصادر التاريخية المعاصرة ، دون التوقف طويلا أو حتى قليلا عند هذه الأقوال ومناقشتها وإخضاعها لأصول النقد التاريخى ومنهج البحث العلمى ، حتى تتضح الحقائق ، أو على الأقل يتبين مدى صدق ما قالت به تلك المصادر ، او بتعبير أدق ، ما أذاعه ابن واصل وتابعه فيه دون مناقشة من جاءوا بعده ، خاصة وأن هذه الاتهامات

تندرج كلها تحت "الخيانة العظمى" والإخلال بواجبات "الشرف العسكرى" ، وهو ما يستوجب فى أى ناحية من نواحيه عقوبة الإعدام .

ومع الإقرار الكامل والاعتراف بالأهمية الكبيرة للكتاب جليل القدر عظيم النفع الذى خلفه لنا المؤرخ ابن واصل تحت عنوان "مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب" لما احتواه من مادة علمية ضافية وتفاصيل دقيقة وآراء سديدة فى كثير من الأحيان ، ساعده فى الوصول إليها قربه من الأحداث ووقوفه على مجريات الأمور ومعايشته إياها ، إلا أن حديثه عن الأمير فخر الدين وعلاقته بالسلطان الصالح نجم الدين أيوب وابنه المعظم تورانشاه ، استوقفنى أمامه عدد سنين أحاوره على أجد بين ثنايا أقواله شيئا يميط اللثام عن حقيقة القضية ، خاصة وأن ابن واصل كان لصيقا ببعض صناع القرار فى هذه الأحداث بالذات ، مشاركا لهم حتى فى خواطرهم ، مشيرا عليهم بما يفعلون أحيانا ، كما يخبرنا بنفسه عن ذلك فى هذا الكتاب .

والبحث فى مثل هذه القضايا يعد أمرا شائكا تعتوره الصعاب من كل ناحية ، فى ضوء تطابق المصادر التاريخية فى رواياتها ، ونقلها عن بعضها البعض ، مع الإشارة إلى ذلك حينا ، والسكوت عن ذلك أيضا أحايين كثيرة ، وتلك مشكلة قائمة تواجه الباحثين فى تاريخ العصور الوسطى فى الشرق الإسلامى أو الغرب المسيحى أو العالم البيزنطى على السواء . ومع إدراكى الكامل لمثل هذه الصعوبة منذ البداية ، إلا أننى آثرت تحريك الدعوى فى هذه القضية من جديد أمام محكمة التاريخ ، معتمدا فى ذلك على نفس صحيفة الاتهام الأساسية التى قدمها ابن واصل ، وأقوال الشهود من التابعين وتابعيهم ، مناقشا لما جاء فى تلك الدعوى وهذه الأقوال ، محللا وناقدا ، مستعينا بمجريات الأحداث وتتابعها ، وطبائع الأشخاص المشاركين فيها ، وسيرهم الذاتية ، ثم قدمت فى النهاية لمحكمة التاريخ وثيقة الشاهد العدل الرئيسى فى هذه القضية كما خطها هو نفسه بقلمه !

ومن الجدير بالذكر أن عائلة شيخ الشيوخ قد عملت كلها فى خدمة سلاطين الدولة الأيوبية منذ عهد الناصر صلاح الدين الذى عهد إلى صدر الدين محمد بتولى مشيخة الصوفية فى مصر ، بعد توليه إياها بدمشق فترة من الزمن خلفا لأبيه عماد الدين عمر بن حمويه[1] ، وكلفه أيضا بالإشراف على المدرسة الصلاحية لما لمسه فيه من سعة العلم وعمق

---

[1] - يعد عماد الدين عمر بن حمويه المؤسس الحقيقى لهذه الأسرة ، وكان نور الدين محمود قد ولاه مشيخة "خانقاه" دمشق ، فاكتسب بذلك لقب "شيخ الشيوخ" ، وهو اللقب الذى ذاعت به شهرة هذه الأسرة حيث تولى أفرادها جميعا هذه الوظيفة باستثناء فخر

المعرفة وشدة الصلاح والتقوى، وهذه أمور اجتمعت كلها فى أسرة "الشيخ" دون استثناء ، وهذا هو الأمر الذى حدا بالأيوبيين إلى تقريبهم إليهم والاعتماد عليهم فى معظم شئون دولتهم السياسية والعسكرية والدينية، خاصة وأن ملوك بنى أيوب كانوا هم الآخرون يتمتعون أيضا بحب شديد للمعرفة والتعمق فيها وتقدير كبير للعلم والعلماء ، ولم تحل الجهود الضخمة التى بذلوها للتصدى للصليبيين دون الاهتمام الكبير أيضا بالنواحى العلمية ، بل كان من بين هؤلاء الملوك من تعمق فى الأمور الفقهية والمسائل الكلامية وقرض الشعر والتأريخ .

وقد ترك صدر الدين محمد عند وفاته أربعة أبناء هم عماد الدين عمر ، وكمال الدين أحمد، ومعين الدين حسن ، وفخر الدين يوسف ، وقد ذاع صيتهم جميعا أيام الملك الكامل وابنه الصالح[٢]، ويقول ابن واصل إن هؤلاء الأربعة كانوا أخص الناس بخدمة الكامل ، ونالوا فى زمانه مكانة مرموقة حيث كان يعد أخا لهم من الرضاعة عن طريق أمهم ابنة القاضى شهاب الدين ابن أبى عصرون[٣] .

ولما كان الملك الكامل "فاضلا عالما شهما مهيباً عاقلا محبا للعلماء ، وللحديث وأهله ، حريصا على حفظه ونقله ، وللعلم عنده شرف[٤] فقد اصطفى لنفسه عماد الدين عمر بن صدر الدين لسعة علمه وتنوع ثقافته حتى جمع له ، على حد قول المقريزى[٥] بين رياسة العلم والقلم سنة ٦٣٣هـ / ١٢٣٥م ولم يجتمع ذلك لأحد فى زمانه . لقد كان الرجل ، كما يحدث عنه ابن واصل[٦] تام العقل والكرم والبأس والرئاسة ، مقصدا لمن إليه ... وكان معدم المثل فى وقته ، وإلى جانب هذا كله كان فارسا ماهرا ، فحاز بذلك "فضيلتى السيف والقلم"[٧] . وقد أهلته مواهبه هذه للمشاركة بفعالية فى ترتيب أوراق البيت الأيوبى بعد وفاة الملك الكامل ، فسعى جاهدا للحفاظ على أن تظل مصر من نصيب ولده العادل الثانى ، وتصدى بكل القوة لأطماع الناصر داود فى مصر ، وحاول من بعد الحد من نفوذ الجواد

الدين يوسف . أنظر أبو شامة ، الذيل على الروضتين، ص ١٢٥ ؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٣٣ - ٣٤ ، راجع حامد زيان ، العلماء بين الحرب والسياسة فى العصر الأيوبى ، أسرة شيخ الشيوخ ، القاهرة ١٩٧٨ .

[٢] - أبو شامة ، الذيل ص ١٢٥ .

[٣] - ابن واصل ، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب جـ ٥ ص ١٧٠ ؛ المقريزى الخطط جـ ٢ ص ٣٤ .

[٤] - أبو المحاسن النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة جـ٦ ص ٢٢٨ - ٢٣٦ .

[٥] - الخطط جـ٢ ص ٣٤ .

[٦] - مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

[٧] - أبو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ ص ١٦١ .

مظفر الدين يونس حفيد العادل الكبير أبي بكر فى دمشق ، مما دفع هذا الجواد إلى كراهيته حتى شاع أنه استأجر جماعة من الباطنية فقتلوه[8] .

وتولى كمال الدين أحمد شأن أبيه صدر الدين وأخيه عماد الدين مشيخة الصوفية لعلمه وصلاحه وتقواه ، وعهد إليه بنيابة حران والجزيرة سنة ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م بعد أن أخذها الملك الكامل من أخيه الأشرف موسى بمقتضى اتفاقية "تل العجول" التى تمت بينهما فى العام السابق ، ولم يلبث أن جعله وزيرا فى مصر فى أخريات العام نفسه (٦٢٧هـ) / (١٢٢٩م)[9] . وازدادت مكانة كمال الدين بن شيخ الشيوخ فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل ، حيث ولاه قيادة القوات المصرية المتجهة لمحاربة الناصر داود عام ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م ، وعهد إليه بقيادة الجيش المصرى المقيم بغزة بين عامى ٦٣٩ - ٦٤٠هـ / ١٢٤١ - ١٢٤٢م[10] .

وعلى الدرب نفسه سار الأخ الثالث معين الدين حسن بن شيخ الشيوخ ، فتولى مشيخة الصوفية ، وإن كان قد تميز عن اخوته بفصاحة اللسان ومقدرة بلاغية ، فأوفده الملك الكامل إلى بغداد لتقديم العزاء فى وفاة الخليفة العباسى الظاهر بأمر الله ، والتهنئة بخلافة المستنصر بالله سنة ٦٣٢هـ / ١٢٢٦م ، فألقى خطبة رائعة بين يدى الوزير مؤيد الدين ابن محمد القمى ، أورد لنا المقريزى[11] جزءا منها ، وفى عام ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م عهد إليه الكامل بتدبير أمور السلطنة وسماه نائب الوزارة ، فلما تسلطن الملك الصالح نجم الدين على مصر استوزر معين الدين ، ثم عقد له إمارة الجيش المتجه إلى دمشق لإخراج الصالح إسماعيل منها ، بعد أن استبد بالأمر هناك وعانى أهلوها من عسفه وقساواته[12] ، وأمر قواته من الخوارزمية أن تعمل تحت إمرته ، ورسم له أن يكون نائبه بدمشق ، وحكمه فيها ، وأقامه مقام نفسه[13] . وتروى لنا المصادر[14] رواية طريفة تدل على ذكاء معين الدين

---

[8] - لمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث كلها ودور عماد الدين عمر فيها ، راجع ابن واصل ، مفرج الكروب جـ٥ ص٢٠٠ ؛ سبط بن الجوزى ، مرآة الزمن فى تاريخ الأعيان جـ٨ ص ٧٢١ - ٧٢٣ ؛ أبو الفدا ، المختصر جـ٣ ص ١٦٣ ؛ المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك جـ١ ص ٢٧٦ - ٢٧٧ ، الخطط جـ٢ ص ٣٣ - ٣٤ .

[9] - المقريزى ، السلوك جـ١ ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

[10] - ابن واصل ، مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٠١ ؛ المقريزى ، السلوك جـ١ ص٣٠٩ ؛ ابن أيبك ، الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب ، وهو الجزء السابع من كتاب كنز الدرر وجامع الغرر لابن أيبك الدوادارى .

[11] - السلوك جـ١ ص ٢٢١ ، وكان من بين ما جاء فيها : "ويوالى شكر الله تعالى على إماطة ليل العزاء ، الذى عم مصابه ، بصبح الهناء الذى تم نصابه ، حتى تزحزح شمس الهدى شفق الاشفاق ، فجعل كلمتها العليا ، وكلمة معاديها السفلى ، وزادها شرفا فى الآخر والأول" .

[12] - أبو شامة ، الذيل ص ١٧٦ .

[13] - ابن أيبك ، الدر المطلوب ص٣٥٤ .

بن شيخ الشيوخ وفراسته وسرعة بديهته ، فتخبرنا أنه لما اشتد الحصار على دمشق ، وضيق معين الدين بقواته على الصالح إسماعيل ، أرسل هذا إلى معين الدين سجادة وعكازا وإبريقا ، وهى من الأدوات الخاصة بالزهد والانقطاع للعبادة ، وهذا الأمر يحمل فى ذاته سخرية من معين الدين وإشارة إلى أنه باعتباره شيخا للصوفية فلا يصلح لقيادة الجيوش ، وتمثل ذلك فى قول الصالح إسماعيل له "اشتغالك بهذا أولى من اشتغالك بحرب الملوك وأبناء الملوك" ! ، فلما تلقى عماد الدين هذه الأدوات والرسالة ، بعث من فوره إلى الصالح "جنْكا" وزمرا وهما من أدوات الغناء والرقص ، كما بعث له "غلالة" حرير أحمر وأصفر ، وهى قميص يرتديه النساء ، وقال له : "السجادة وما معها تصلح لى ، وأنت أولى بهذا من الملك" ! وكانت هذه سخرية لاذعة تشير إلى أن الصالح إسماعيل لا يصلح للسياسة والملك بقدر ما يصلح للهو والطرب . وقد شدد معين الدين بن شيخ الشيوخ الحصار على دمشق حتى أضطر الصالح إسماعيل إلى الهروب منها ، لتصبح بذلك خاضعة لسلطان مصر الصالح نجم الدين أيوب .

وإذا كان الاخوة الثلاثة هؤلاء من أبناء شيخ الشيوخ قد تولوا مشيخة الصوفية ورثة لأبيهم صدر الدين ، ولما اشتهروا به من الورع والتقوى والتفقه فى الدين والعلم بالأصول ، إلى جانب الاشتغال بأمور السياسة والحرب للثقة المطلقة التى أولاها إياهم سلاطين بنى أيوب ، فإن الأخ الرابع فخر الدين يوسف ، رغم ما اجتمع لديه من كل ما توافر لاخوته ، إلا أن الملك الكامل رأى فيه بصيرة نافذة ورجاحة عقل ومضاء عزيمة وعلو همة ، أو كما وصفه العماد الحنبلى[١٥] "محتشما سيدا معظما ذا عقل ورأى ودهاء وشجاعة وكرم" ، هذا إلى أن فخر الدين يوسف كان متضلعا فى كثير من فروع المعرفة الإنسانية إلى جانب العلوم الدينية ، ولم يكن ابن واصل مبالغا عندما خصه دون اخوته بقوله "كان فاضلا متأدبا يشارك فى كل فن[١٦]" ، وكان من نتيجة هذا كله أن الكامل أراد أن يفيد من ذكاء هذا الرجل ، فلم يدعه يحذو حذو اخوته وأبيه فى تولى مشيخة الصوفية ، وإنما "جعله أحد الأمراء وألبسه الشربوش والقباء[١٧]" ، وأصبح من أخص ندمائه ، وهذا يدل على المكانة

---

[١٤] – سبط بن الجوزى مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٥٢ ؛ ابن أيبك ، الدر المطلوب ص٣٥٤ – ٣٥٥ وحاشية ١ ص ٣٥٥ .

[١٥] – شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ،جـ٥ ،ص ٢٣٩ .

[١٦] – ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٥ ،ص ١٦٩ .

[١٧] – المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها ؛ المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٤ . والشربوش قلنسوة طويلة أعجمية ، وتلبس بدل العمامة ، وكانت شارة للأمراء فلا يلبسها رجال العلم كالقضاة والكتاب وغيرهم . راجع المقريزى ، السلوك ، جـ١ ص ٢٥١ ، حاشية ١ ، أما القباء فهو عبارة عن قباءين أحدهما تترى ويلبس أولا والآخر إسلامى ويلبس فوقه ، والقباء زى أرباب السيوف . راجع القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا جـ٤ ص ٣٩ – ٤٠ .

المرموقة التى احتلها الأمير فخر الدين لدى الملك الكامل ، وتمثل ذلك فى الكثير من المهام السياسية والعسكرية والدبلوماسية التى كلفه القيام بها على امتداد عهده فى السلطنة .

ففى عام ٦٢٥هـ / ١٢٢٧م وقعت الوحشة بين الكامل وابن أخيه الناصر داود بن المعظم عيسى صاحب دمشق ، وكان ذلك بسبب رفض الناصر التنازل لعمه عن حصن "الشوبك" الذى كان الكامل يعتبره قلعة متقدمة لمقاومة الصليبيين فى الشام وحماية مصر من هجماتهم ، هذا إضافة إلى ما بلغ الكامل عن ظلم الناصر لأهالى دمشق ، وانصرافه عن الاهتمام بأمور الدولة إلى اللهو[١٨] ، ومن ثم عزم الكامل على الخروج بنفسه لتأديب الناصر ، فعهد إلى ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب بالسلطنة من بعده ، وأركبه بشعار السلطنة ، وأقام معه الأمير فخر الدين يوسف ليحصل الأموال ويدير أمور المملكة[١٩] . ولا شك أن هذا يفصح عن الثقة التى كان يضعها الكامل فى فخر الدين ابن شيخ الشيوخ . ولم تكد تمضى على ذلك سنوات قلائل حتى كان فخر الدين فى مكة سنة ٦٢٩هـ / ١٢٣١م لإقرار الأمور فيها بعد وفاة الملك المسعود صاحب اليمن ، وهو ابن الملك الكامل ، وذلك فى عام ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م ، واستبداد راجح بن قتادة بالأمور هناك[٢٠] .

غير أن الدور الأساسى الذى اضطلع به الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ فى عهد الملك الكامل ، يتمثل فى المهمة الدبلوماسية التى قام بها مفاوضا مع الإمبراطور فردريك الثانى Fredrick II ملك ألمانيا وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، بعد أن أدت الظروف السياسية التى تسبب فيها المعظم عيسى صاحب دمشق ، والأشرف موسى صاحب خلاط ، بطمعهما فى مُلك مصر ، ولجوء ملوك البيت الأيوبى فى الشام إلى الاستعانة بقوى خارجية ضد بعضهم بعضا ، مثل الخوارزمية والصليبيين ، أو قوى داخلية مثل الباطنية الأشد فتكا ، ولتحقيق طموحاتهم الشخصية ، أدت إلى أن يوفد سلطان مصر الملك الكامل ، الأمير فخر الدين إلى صقلية سنة ٦٢٤هـ / ١٢٢٦ - ١٢٢٧م لمقابلة فردريك الثانى ودعوته للقدوم إلى الشرق ، ليشغل بمقدمه أخويه ويصرفهما عن أطماعهما[٢١]

---

[١٨] - ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٤ ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ١، ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

[١٩] - المقريزى ، السلوك، جـ١، ص ٢٢٥ ؛ ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ، نشر مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة بدون تاريخ ، ص ١٥ .

[٢٠] - ابن أيبك ، الدر المطلوب ص ٣٠٦ ؛ القلقشندى ، صبح الأعشى، جـ٤ ،ص٢٧٣ ؛ المقريزى ، الخطط،جـ٢، ص ٣٤ .

[٢١] - ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٤، ص ٢٠٦ ، وقد ناقشنا هذه المسألة وما ترتب عليها تفصيلا فى الفصل السابق من هذا الكتاب.

وقد جمعت بين الرجلين ، الإمبراطور والأمير ، محبتهما للمعرفة وشغفهما بمختلف العلوم ، ودارت بينهما مناقشات طويلة فى كثير من المسائل العلمية بعيدا عن المفاوضات السياسية ، ولعل هذا يوضحه وصف المؤرخ ابن واصل للرجلين ، إذ يكاد يستخدم الكلمات نفسها فى حديثه عن كل منهما ، فيقول عن فردريك الثانى : "وكان الإمبراطور - من بين ملوك الفرنج - فاضلا محبا للحكمة والمنطق والطب" ، ويقول عن الأمير :"وكان فخر الدين فاضلا متأدبا يشارك فى كل فن"[٢٢] ، ولا شك أن هذه الصفات المشتركة والمتشابهة إلى حد بعيد جدا قد قربت بين الرجلين تماما ، وازدادت هذه العلاقات توطدا بعد قدوم فردريك الثانى إلى الشام فى عام ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م ، وتولى الأمير فخر الدين مسألة التفاوض معه نيابة عن الملك الكامل ، حتى تم التوصل فى النهاية إلى عقد صلح يافا بين الطرفين فى الثامن عشر من فبراير ١٢٢٩م / ٦٢٦هـ[٢٣] .

وقد أنعم الإمبراطور على الأمير فخر الدين بمرتبة "فارس" ومنحه امتياز وضع الرنك الإمبراطورى على رايته ودرعه بعد موافقة السلطان الكامل على ذلك[٢٤] ، واستمرت هذه العلاقات الودية والاحترام المتبادل قائما بين الإمبراطور والأمير بعد عودة فردريك الثانى إلى أوروبا، فقد كتب الأخير رسائل إلى الملك الكامل وهو بـ "حران" سنة ٦٢٧هـ / ١٢٣٠م ، ومثلها إلى الأمير فخر الدين ، يطلعه فيها على الأحوال السياسية التى يمر بها ، وكذلك المؤامرات التى حاكتها البابوية ضده ، والانتصارات التى تحققت له على الأسقف الرومانى وأعوانه ، وهذا كله يشير إلى مدى الثقة التى يوليها فردريك الثانى لفخر الدين ، وعلو المكانة التى احتلها الأمير الدى الإمبراطور، وكذا المرتبة التى يضع فيها الإمبراطور الملك الكامل . ومن الرسالتين اللتين احتفظت لنا المصادر[٢٥] بنصيهما ، ندرك كل هذه الأمور ، حيث يتضح من خلالهما كما لو كان الإمبراطور يخاطب شخصا معنيا بالأمور السياسية

---

[٢٢] - يقول ابن واصل "وكان الامبراطور من بين ملوك الفرنج ، فاضلا ، محبا للحكمة والمنطق والطب جـ٤ ص ٢٣٤ ، جـ٥ ص١٦٩، وقارن Kantrowicz., Fredrick the Second, p. 185 وفى القصة الرائعة التى نسجها المؤلف الأمريكى جوزيف جاى ديس Joseph Jay Deiss تحت عنوان The Great Infidel معتبرا إياها مذكرات للامبراطور فردريك الثانى كتبها بالعربية ، يقول الامبراطور محدثا عن الأمير فخر الدين وكان هذا الرجل لطيفا ... على علم واسع بالفلسفة والشعر ، وعلى دراية بالأسلحة والخيل والتصقر (أى الصيد بالصقور) ، لقد كان فى الواقع خير ممثل لمليكه" . راجع الترجمة العربية التى قام بها الأستاذ أحمد نجيب هاشم لهذه القصة تحت عنوان "الزنديق الأعظم" ص ٣٥٠ - ٣٥١ .

[٢٣] - راجع الفصل السابق .

[٢٤] - جوانفيل ، القديس لويس ، ترجمة حسن حبشى، ص ١٠٨ ؛ راجع أيضا :

Runciman, *A history of the Crusades*, vol. III, p. 185 .

Setton, *A history of the Crusades*, vol. II p. 449 .

[٢٥] - الحموى ، التاريخ المنصورى ، تحقيق أبو العيد دودو ص ١٨٩ - ١٩٤ .

الداخلية للإمبراطورية ، أو بتعبير آخر ، واحدا من الذين يناط بهم المسئولية فى تلك البلاد ، وتفصح عن ذلك – على سبيل المثال – عبارة وردت فى صدر الرسالة الأولى تقول : "... وبعد ، فعلمنا أنه محب لسماع السار من أنبائنا وأخبارنا ، والحميد من آثارنا ، نشعره حسبما شرحنا بله ..." ، هذا بالطبع بعد الديباجة التى تملئ بكل العبارات المفعمة بالمودة والصداقة ، بينما يختتم الرسالة الأولى بالتأكيد على مواصلة ودوام المراسلات بينهما ، يقول : "... وبعد ، فمما نؤثر من المجلس مواصلة كتبه متضمنة شرح سعيد أحواله ومهماته وحاجاته" . أما الرسالة الثانية فهى تتناول فى جملتها جهود الإمبراطور فى التصدى لمحاولات البابوية المستمرة للنيل من الإمبراطورية . وقد فصلنا ذلك كله فى الفصل السابق .

وليس هنا معنى للقول فى حذلقة – كما قد يذهب البعض – إلى أن الإمبراطور كان يشير من طرف خفى فى رسائله إلى قوته المتزايدة وانتصاراته العديدة على البابوية ، حتى يدخل فى روع المسلمين المهابة والحذر من الإقدام على نقض شروط صلح يافا ، فهذا التأويل مردود عليه بأن المسلمين لم يقدموا مطلقا على نقض عهد قطعوه على أنفسهم ، أو التنكر لصلح أو اتفاقية وقعوا عليها مع الصليبيين منذ أيام السلطان الناصر صلاح الدين حتى دالت دولة اللاتين بالشام ، هذا بالإضافة إلى أن فردريك منذ عودته إلى أوروبا حتى وفاته عام ١٢٥٠م ، كان همه كله موجها لتدعيم سلطان دولته وإقرار حقوقه الإمبراطورية فى إيطاليا وصقلية ضد السياسة البابوية العدائية السافرة ضده ، والتى تحولت إلى عداء شخصى فى تلك المرحلة[٢٦] ، كما أن فردريك كان حريصا على ابقاء هذه الصداقة مع الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل ، والأمير فخر الدين ، ولذلك لم يتوان مطلقا عن إخبار سلطان مصر بأنباء الاستعدادات التى كانت تجرى فى أوروبا لخروج حملة صليبية جديدة هدفها مصر ، يقودها لويس التاسع ملك فرنسا ، وهى التى عرفت بالحملة الصليبية السابعة

وإذا كان فخر الدين بن شيخ قد حاز ثقة الإمبراطور فردريك الثانى وإعجابه ، فإنه قد نال قبلها وأكثر منها لدى الملك الكامل الذى توسم فيه من البداية مظاهر الذكاء والفراسة وسعة الأفق، ومن ثم حرص على أن يظل قريبا منه عونا له فى تصريف أمور دولته السياسية والعسكرية على السواء ، إضافة إلى تقديره لعلمه وسعة ثقافته ، خاصة وأن الكامل كان يجل العلماء ويترلهم مُترلا كريما ، وقد لخص المقريزى[٢٧] ذلك كله فى عبارة

---

[٢٦] – رأفت عبد الحميد ، السمر البابوى بين النظرية والتطبيق (فى مجلة ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ، المجلد الثالث ص ٢١٣ – ٢١٧.

[٢٧] – الخطط جـ٢ ص ٣٤ .

مختصرة وإن كانت فى غاية البلاغة ، قال فيها : "ومازال (فخر الدين بن شيخ الشيوخ) مكرما محترما حتى مات الملك الكامل" .

ويبدو أن القلاقل والاضطرابات التى حاقت بالدولة الأيوبية بعد وفاة الملك الكامل بسبب التراع الذى نشب بين أفراد البيت الأيوبى ، قد شملت أيضا بتقلباتها الأمير فخر الدين ، فتقلبت به الأحوال خلال السنوات التالية مباشرة لرحيل الكامل ، فقد أقدم ابنه وخليفته فى مصر ، العادل الصغير ، على سجن فخر الدين نتيجة وشايات ساقها الناصر داود صاحب الكرك وابن عم العادل، وتشير المصادر إلى أن هذه الوساوس التى همس بها الناصر فى أذن العادل لم تكن قاصرة على فخر الدين فقط ن بل شملت أخاه عماد الدين أيضا[28] ، ولعل ذلك يعود فى المقام الأول إلى ما أدركه الناصر من أن عائلة شيخ الشيوخ بأبنائها الأربعة هى التى قامت عليها دولة الكامل ، وأنهم يمثلون خاصة مستشاريه السياسيين وقواده العسكريين ، كما أنه لم يغفر لأولاد الشيخ حرمانه من دمشق التى كانت لأبيه المعظم عيسى ، واعطائها للجواد مظفر الدين يونس بن مودود بن العادل الكبير ، الذى كان الكامل قد جاء به إلى مصر وتعهده بالرعاية ، وعَدَّ الناصر قرار العادل الثانى بالإبقاء عليه فى الكرك ، وعدم تمكينه من دمشق والإنعام بها على الجواد أمرا زينه أولاد شيخ الشيوخ لسلطان مصر الجديد ، خاصة وأنهم كانوا - كما يصفهم ابن واصل[29] آنذاك، "أرباب الدولة المشار إليهم" وأنهم يمثلون "شوكة قوية" .

ولم يطل مُكث العادل الصغير على عرش السلطنة ، إذ سرعان ما نحاه أخوه الصالح نجم الدين أيوب وسجنه ، وأصبحت بيده مقاليد الأمور فى مصر سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩ ، وما أن تم له ذلك حتى ولى وجهه شطر أولاد الشيخ ؛ فاستوزر معين الدين الحسن بن شيخ الشيوخ ، ومكنه وفوض إليه تدبير المملكة - على حد تعبير ابن واصل[30] وحفظ لكمال الدين أحمد مترلته ومكانته التى كانت له أيام الملك الكامل ، ثم لم يلبث السلطان أن أفرج عن الأمير فخر الدين وأخرجه من سجن القلعة فى سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م .

---

[28] - سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٠٧ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب جـ٥ ص ١٧١ - ١٧٣ ؛ ابن أيبك ، الدر المطلوب ص ٣٢٨ ؛ أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٠٣ - ٣٠٥ ؛ ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ص ٢٣ ؛ الحنبلى ، شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ص ٣٤٧ .

[29] - ابن واصل ، مفرج الكروب جـ٥ ص ١٧١ - ١٧٣ .

[30] - مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

وقد أسلفنا من قبل ما قام به أولاد الشيخ فى عهد الصالح نجم الدين وما أدوه للدولة من خدمات ، وما لقيوه من تكريم أيضا وثقة من جانب السلطان ، وقد اتضح ذلك تماما مما يرويه المؤرخون مثلا عند خروج معين الدين حسن مقدما للعسكر المصرى المتجه إلى دمشق فى عام ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م ، فيقول المقريزى[٣١] "وخرج الصاحب معين الدين الحسن بن شيخ الشيوخ على العساكر من القاهرة ومعه الدهليز السلطانى والخزائن ، وأقامه السلطان مقام نفسه ، وأذن له أن يجلس على رأس السماط ، ويركب كما هى عادة الملوك ، وأن يقف الطواشى شهاب الدين رشيد أستادار السلطان فى خدمته على السماط ، ويقف أمير جاندار والحجاب بين يديه كعادتهم فى خدمة السلطان ، وكتب إلى الخوارزمية أن يسيروا فى خدمته" . وهذه العبارات لا تحتاج إلى تعليق إلا أن نورد منها ما جاء فيها دالا غاية الدلالة وهى عبارة "وأقامه السلطان مقام نفسه" .

أما ما كان من أمر فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، فإن السلطان سرعان ما أصدر قراراً بتحديد إقامته فى بيته ، ويعلل ابن واصل ذلك بقوله إن الأمير فخر الدين بعد أن أطلق الصالح نجم الدين سراحه "ركب ركبة عظيمة ، واجتمع له خلق من الرعية ودعوا له لأنه كان محببا إلى الناس لكرمه وحسن سيرته ، فبلغ الملك الصالح نجم الدين ، فاستشعر منه ولم يعجبه ذلك وأمره أن يلزم بيته"[٣٢] ، وكانت هذه المسألة من الأمور التى أودعها ابن واصل فيما بعد صحيفة اتهاماته وجعلها من بين الأسباب التى أوغرت صدر الصالح ضده وأدت إلى وقوع الوحشة بينهما ، وذلك أمر سوف نعود إلى مناقشته تفصيلا عند ذهابنا إلى محكمة التاريخ فى صحبة الأمير فخر الدين .

وقد امتدت مدة الإقامة الجبرية هذه التى حكم على ابن شيخ الشيوخ بقضائها فى داره إلى ما يقرب من أربع سنوات ، حتى عفا عنه السلطان فى عام ٦٤٣هـ / ١٢٤٦م ، والذى يدعو للانتباه أن فخر الدين خرج من معتقله إلى حيث المكانة التى تليق به كواحد من أبناء أسرة الشيوخ، ليس هذا فحسب بل لكفاءته وتعدد مواهبه ، وهو ما أدركه فيه الكامل وقدره ، وما تنبه إليه الصالح وأفاد منه ، فما أن أفرج عنه حتى "خلع عليه وأمره

---

[٣١] - السلوك جـ١ ص ٣١٨ - ٣١٩ وقارن ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٥ ،ص ٣٤١ ؛ ابن أيبك ، الدر المطلوب، ص ٣٥٤ . والأستادار هو أحد أرباب السيوف ويتولى الاشراف على البيوت السلطانية ، وله التصرف التام فى احضار ما يحتاجه كل من بيت السلطان من النفقات والكساوى . أما أمير جاندار فهو أيضا أحد أرباب السيوف ، ويتولى الاستئذان لدخول الأمراء لخدمة السلطان ويدخل أمامهم إلى الديوان ، وإذا أراد السلطان تعزيز أحد أو قتله كان ذلك على يد صاحب هذه الوظيفة ... وهو الذى يطوف بالزفة حول السلطان فى سفره . راجع القلقشندى ، صبح الأعشى، جـ٤ ، ص ٢٠ .

[٣٢] - ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٥ ،ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

وقدمه وأحسن إليه إحسانا كثيرا[٣٣]، و لم يلبث أن عهد إليه بقيادة العساكر المصرية لمواجهة الملك الناصر داود صاحب الكرك الذى وطد علاقته مع الخوارزمية وسعى كلاهما لمضايقة الصالح نجم الدين ، فاستولى فخر الدين على ما كان بيد الملك الناصر داود من البلاد وهى القدس ونابلس وبيت جبريل والصلت والبلقاء، ثم اتجه بعد ذلك إلى الكرك وألقى حصاره عليها بعد أن التجأ إليها الناصر ومن معه من الخوارزمية ، وكان ذلك فى عام ٦٤٤هـ / ١٢٤٦م ، فخرب ما كان حولها ، وضيق على الناصر ومن معه حتى قل ما عند الناصر من المال والذخائر[٣٤] ، فلما اشتد عليه الأمر بعث إلى فخر الدين يستعطفه ، فتم الاتفاق بينهما على أن يسلم الناصر كل من عنده من الخوارزمية إلى ابن الشيخ ، فتسلمهم منه ورحل عنه[٣٥] .

و لم يكد فخر الدين بن شيخ الشيوخ ينجز هذه المهمة بنجاح حتى أمره السلطان الصالح بالخروج على رأس جيش كثيف للإغارة على عدد من المناطق التى يحتلها الصليبيون، فاتجه إلى عسقلان سنة ٦٤٥هـ / ١٢٤٧م وحاصرها وفتحها وهدم تحصيناتها ، ثم رحل عنها إلى طبرية فأنزل بها ما حل من قبل بعسقلان[٣٦] حتى إذا حققت هجماته أغراضها كتب إليه الصالح يأمره بالتوجه إلى دمشق بمن معه من العساكر بعد أن حملت إليه الأنباء عزم الناصر صلاح الدين صاحب حلب القفز على المدينة وضمها إلى أملاكه ، فقدم ابن الشيخ إلى دمشق وبقى مقيما بها حتى قدم الصالح نجم الدين أيوب إليها فى السنة التالية ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م ، وأقام بها جمال الدين بن يغمور نائبا للسلطنة[٣٧] ، وعهد فى الوقت نفسه إلى الأمير فخر الدين بالخروج على رأس جيشه إلى حمص لاستخلاصها من يد الحلبيين ، وقد ألقى ابن الشيخ حصاره عليها حتى إذا أمست قاب قوسين أو أدنى من الوقوع فى يديه ، وصل رسول الخليفة العباسى وعقد الصلح بين الطرفين ، وعاد الجيش المصرى إلى دمشق فأقام بها حتى نهاية هذا العام[٣٨] .

---

[٣٣] – المصدر السابق، نفسه، ص ٣٥٢ ؛ المقريزى ، السلوك، جـ١ ، ص ٣٢٢ ؛ ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ص ٣٣ – ٣٤ .

[٣٤] – ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٥ ، ص ٣٦٣ – ٣٦٤ ؛ ابن أيبك، الدر المطلوب ، ص ٣٥٩ .

[٣٥] – ابن العميد ، أخبار الأيوبيين، ص ٣٥ .

[٣٦] – ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٥ ،ص ٣٧٨ ؛ ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ، ص٣٦ ، العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ،جـ٥، ص ٢٣٠ .

[٣٧] – ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ص ٣٦ .

[٣٨] – المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها .

على هذا النحو كان الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ مقدم العساكر المصرية هـو رجل المهام الصعبة وموضع ثقة السلطان الصالح ، كما كان موضع ثقة أبيه الكامل من قبل ، واستمرت هذه الثقة قائمة حيث عهد إليه بقيادة الجيش المصرى لمواجهة الحملة الصليبية السابعة التى يقودها لويس التاسع ملك فرنسا ، والتى ألقت مراسيها على الشواطئ المصرية عند دمياط سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م لتبدأ بذلك محنة الأمير فخر الدين التى تمثلت فى هذه الاتهامات التى عرضناها فى صدر هذا الفصل ، والتى دفعتنا - كما ذكرنا - إلى تحريك هذه الدعوى من جديد أمام محكمة التاريخ .

ولن نخوض فى التفصيلات الخاصة بالإعداد للحملة ، وما جرى فى أوروبا ، وما فعله لويس التاسع قبل مقدمه من الاستعدادات وتوفير كل الإمكانيات التى تساعد أو تحقق لحملته النجاح ، وليعوض من خلالها ما لحق بالحملات التى سبقتها - باستثناء السادسة - من الفشل الذريع ، وهذه الأمور كلها يمكن الاطلاع عليها فى الكتب العديدة التى تناولت أحداث هذه الحملة ، ومن ثم فإننا نقول هنا مباشرة إن لويس التاسع رحل من ميناء ليماسول فى مايو ١٢٤٩م، بعد أن مكث فى قبرص ثمانية أشهر (سبتمبر ١٢٤٨ - مايو ١٢٤٩م) ، ليصل أمام دمياط فى المنطقة المعروفة بـ "جيزة دمياط" ، وليبدأ بذلك الخطوات نفسها التى سبقه إليها جان دى برين قائد الحملة الصليبية الخامسة[٣٩] .

وكان الصالح نجم الدين أيوب عندما وصلته أنباء إعداد الحملة الصليبية عن طريق فردريك الثانى ، قد أعتقد أن الصليبيين ، بمنطق الإفادة من العمليات العسكرية السابقة والأخطاء التكتيكية القاتلة التى أدت إلى فشل الحملة الخامسة ، لن يسلكوا الطريق نفسه الذى سلكته تلك الحملة حتى لا يدخلوا ثانية فى شبكات مياه النيل ، تجنبا للغوص كأسلافهم فى أوحال الدلتا ، إذا ما قطع المصريون الجسور المقامة على الفروع المختلفة للنهر ، وتوقع بالخبرة العسكرية أن يذهب لويس التاسع إلى اتباع الطريق الذى جاءت منه حملات عمورى الأول ملك بيت المقدس فى ستينيات

---

[٣٩] - محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع على مصر ، القاهرة ١٩٦١ ؛ جوزيف نسيم يوسف ، العدوان الصليبى على مصر ، الاسكندرية ١٩٦٩ ؛ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ٢ ص ١٠٥٢ - ١٠٧٥ ؛ Setton, *A history of the Crusades*, II pp. 487 - 521; Runciman, *A history of the Crusades*, III pp. 255 - 292

القرن الثانى عشر ، ولذا قام بزيارة للمنصورة وتفقد حصونها ، ثم اتجه إلى أطراف محافظة الشرقية الحالية ليقيم منطقة عسكرية – جديدة لتقف فى وجه هؤلاء القادمين عن طريق الصحراء كما توقع ، وعرفت هذه المنطقة باسم الصالحية . وكان هذا الإجراء من جانب الصالح دليلا على فطنة عسكرية ، وإدراك لما كان من المفروض أن تقدم عليه الحملة الصليبية . غير أن نزول الصليبيين عند دمياط يوحى دون شك بأن تأثير التجار الإيطاليين على لويس التاسع لم يكن أقل منه على سلفه جان دى برين .

ومع كل هذه التوقعات التى تحتمها الخبرة العسكرية ، إلا أن السلطان أخذ فى الوقت نفسه يستعد حربيا لمواجهة هذا الغزو الصليبى ، فأنتقل من دمشق إلى مصر محمولا على محفة لاشتداد المرض به ، واستقر أول الأمر فى أشموم طناح التى اتخذ منها معسكرا له ومركزا لعملياته ، وأصدر أوامره بعودة القوات المصرية التى كانت على حصار حمص إلى مصر فورا، كما أنه عمل بكل ما وسعه الجهد على تحصين مدينة دمياط وتزويدها بالمؤن والذخيرة وآلات الحرب ، وليس أبلغ فى التغبير عن ذلك مما ذكره السلطان نفسه عن دمياط حيث يقول ما نصه[٤٠] : "وأنا قويّت دمياط ، وملأتها ذخائر من كل شئ ، يكفيها عشرين سنة مع ما كان عند أهلها من الذخائر ... وقويتها بجميع عسكر الديار المصرية ، من فارس وراجل ، وما خليت (هكذا) لها عذرا ، حتى بقيت وحدى فى أشموم بسبب المرض" .

وفى إطار هذه الاستعدادات العسكرية ، عهد السلطان إلى جماعة من الكنانية ، وهم الجند العرب الذين استوطنوا مصر فى المنطقة بين البرلس ومياط ، واشتهروا بالشجاعة والمثابرة فى القتال، ولعبوا دورا كبيرا فى الدفاع عن دمياط أثناء حصار الحملة الصليبية الخامسة ، عهد إليهم الملك الصالح بحماية المدينة من الداخل ، فشحنت أبراج المدينة وأسوارها بأعداد ضخمة منهم ، بينما أمر الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، القائد العام للجيش المصرى ، أن يتقدم على رأس جيشه إلى البر الغربى للنيل قبالة دمياط ، أو المنطقة التى تعرف – كما قدمنا – بـ "جيزة دمياط" ، والتى نزلت فيها الحملة الخامسة، والتى وردت التقارير إلى معسكر الصالح بأنها قصد الصليبيين الآن ، وأعطى الأوامر أيضا إلى الأمير حسام الدين ابن أبى على ، نائب السلطنة فى القاهرة ؛ بأعداد قطع الأسطول المصرى وتجهيزها بالرجال والعتاد ، وإرسالها وحدة بعد أخرى رفقة السفن التموينية إلى دمياط، لتكون مانعا ضد أية حركة صليبية تجرى فى نهر النيل[٤١] .

[٤٠] – النويرى ، نهاية الأرب، جـ٢٩، ص ٣٤٣ .

[٤١] – زيادة ، جملة لويس التاسع، ص ١٠٣ ؛ جوزيف نسيم ، العدوان الصليبى، ص ٨٢ – ٨٣ .

ويبدو أن أخبار مرض الملك الصالح نجم الدين قد نقلت إلى الملك لويس التاسع عن طريق أعوانه من الصليبيين فى الشام ، ولابد أن يكون ملك فرنسا قد استبشر خيرا بهذه الأنباء ، ولعله أراد أن يستغل هذه الفرصة فيضرب ضربته والحديدة محماة ، أى ينتهز هذه النهزة للضغط على أعصاب السلطان المريض ، الواهن القوى ، عن طريق ما نعرفه فى زماننا هذا بـ "الحرب النفسية" ، مع أننا رأينا كيف أن الصالح وإن كان قد هدّه المرض فعلا كما تخبرنا المصادر المعاصرة، إلا أنه لم يكن أبدا خائر العزيمة ، بدليل كل ما أقدم عليه من استعدادات عسكرية فى الصالحية وأشموم طناح والمنصورة ودمياط وجيزة دمياط على المستويين البرى والبحرى على السواء . لكن لويس أراد أن يهتبل كل سانحة لإضعاف خصمه والنيل من عزيمته قبل أن تبدأ المعركة ، أو هكذا ذهب به الظنون ، ومن ثم فإنه بعث إلى سلطان مصر برسالة[42] تفيض بالتهديد والوعيد ، نقتطف منها هنا لأهميتها بعضا مما جاء فيها ، قال :

" ... (ونحن) نقتل العباد وندوس البلاد ، ونطهر الأرض من الفساد ، فإن قابلتنا بالقتال فقد أوجبت على نفسك ورعيتك النكال ، ورميتهم فى أسر الوبال ، فيكثر فيهم العويل ، ولا يرحم عزيز ولا ذليل ، ولا تجد إلى نصرتهم من سبيل ، ونحن شرحنا لك ما فيه الكفاية ، وبذلنا لك غاية النصح والهداية ... فلا تكون فيك فترة ولا توان ، لتكون قلوبنا راضية عليك ، ولا تسوق حتفك إليك ، وتكون على نفسك وجيشك قد جنيت ، وتعود وتقول يا ليت .. فسيوفنا حداد ، ورماحنا مداد ، وقلوبنا شداد ، ويحكم بيننا وبينكم رب العباد" !!

والى جانب هذا التهديد الصريح والوعيد ، تضمنت الرسالة عبارات تفيض بالتبلهى والتفاخر بما تم ارتكابه من الفظائع والوحشية ضد مسلمى الأندلس خلال حرب الاسترداد الدائرة هناك ، وما تعرضت له الإسكندرية من هجمات سابقة على يد الصليبيين وملكى صقلية وبيت المقدس ، إشارة إلى ما ينتظر الصالح ومصر من سوء العاقبة إذا لم يبادر السلطان بإعلان الاستسلام واعتبار نفسه نائبا عن ملك فرنسا فى حكم مصر ، كما أفصحت سطور الرسالة !!

---

[42] - ابن أيبك ، الدر المطلوب ص ٣٦٦ - ٣٦٧ . وقد ناقش كل من الدكتور حسن حبشى فى كتابه ، الشرق العربى بين شقى الرحى ، ص ٣٦ - ٤١ ؛ والدكتور محمد مصطفى زيادة فى كتابه ، حملة لويس التاسع على مصر ص ١٠٨ ؛ والدكتور جوزيف نسيم يوسف ، العدوان الصليبى على مصر ، ص ٢٩١ - ٢٩٣ ، موضوع رسالة الملك لويس التاسع ورد السلطان الصالح نجم الدين أيوب عليها ، وموقف المصادر منها ، لمزيد من الدراسة راجع هذه المؤلفات .

ولم يحقق هذا الإنذار الفرنسى الآمال التى كان يعقدها عليه لويس ، بل على العكس زاد الملك الصالح عزيمة وإصرار على التصدى لهذه الغطرسة الصليبية ، فكتب إليه يقول :

" ... أما بعد ، فقد وصل كتابك ، وفهمنا لفظك وخطابك ، وهاأنذا قد أتيتك بالخيل والرجال ، والخزائن والأموال ، والعساكر والأثقال ، والقيود والأغلال ؛ فإن كانت لك فأنت الساعى وقد أمنت الناعى ، وإن كانت عليك فأنت الباغى لحتفك والجادع أنفك بظلفك .. وفى كتابك تهددنا بجيوشك وأبطالك وخيلك ورجلك ، أو ما تعلم أننا نحن أرباب السيوف وأبطال الحتوف ، ما نزلنا على حصن إلا هدمناه ، ولا عدم منا فارس ، إلا جددناه ، ولا طغى علينا طاغ إلا دمرناه ، فلو نظرت أيها المغرور حد قلوبنا ، وجد حروبنا، لرأيت فرسانا أسنتهم لا تمل وسيوفهم لا تكل وقلوبهم لا تذل ، ولعضيت على يدك بسن الندم ، ولأخرت تحريك قدم عن قدم ، فلا تعجبك العساكر التى بين يديك، فهو يوم أوله لنا وآخره عليك . فإذا قرأت كتابى هذا فلتكن منه على أول سورة النحل "أتى أمر الله فلا تستعجلوه" ، ولتكن منه على آخر سورة ص "ولتعلمن نبأه بعد حين"، هنالك تتطاول نحوك الأعناق وتشخص صوبك العيون ، ويشوبك الويل ، وتسوء بك الظنون، "وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون" . ونعود إلى قول الله تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين : "كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين" ، وإلى قول الحكماء "إن الباغى له مصرع" ، وبغيك يصرعك وإلى البلاء يقلبك والسلام"[٤٣] .

وكان لابد أن تأتى رسالة الصالح أيوب على هذا النحو ردا ايجابيا على ما حوته تهديدات لويس التاسع ، مبينا أن الصليبيين هم المعتدون ، وأنهم هم الذين سعوا إلى إشعال نيران هذه الحرب ، ومن ثم فرض الجهاد على المسلمين ، وكان حتما مقضيا ، ولا تخلو الرسالة أيضا من نغمة التخويف بالقوة التى يتمتع بها الجيش المصرى متمثلة فى فرسانه ومشاته بأسلحتهم وصبرهم على القتال وشدة بأسهم فى الحروب .

ووسط هذه الأجواء من الحرب النفسية ، ظهرت السفن الصليبية أمام الشواطئ المصرية فى يوم الجمعة الرابع من يونية ١٢٤٩ / العشرين من صفر ٦٤٧هـ ، وتعرضت عند ظهورها لمناوشات من جانب بعض قطع البحرية المصرية التى أرسلت بغرض الاستكشاف ، وإن كان الأسطول الصليبى قد طوق ثلاثا من هذه القطع الأربع واستولى على من وما فيها . وفى اليوم التالى مباشرة ، السبت بدأت القوات الصليبية فى النزول إلى

[٤٣] - ابن أيبك ، الدر المطلوب ص ٣٦٧ - ٣٦٩ ؛ المقريزى ، السلوك جـ١ ص ٣٣٤ - ٣٣٥ .

الشاطئ الغربى للنيل قبالة دمياط ، فى المنطقة المعروفة بجيزة دمياط ، حيث كان يعسكر الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ مقدم العسكر والقوات المرابطة معه . ولم يكن نزول فرق الجيش الصليبى يسيرا ، إذ أخذت القوات المصرية فى التعامل معها فى محاولة لمنعها من الانتشار أو إقامة معسكر لها . وفقد الجيش المصرى فى هذه المعركة الأولية واحدا من أبرز قواده هو الأمير نجم الدين بن شيخ الإسلام ، وكان من أشد المقربين إلى السلطان الصالح أيوب ، وكذلك الأمير صارم الدين أزبك الوزيرى ، واستطاع الصليبيون فى نهاية الأمر أن يكملوا عملية إنزال القوات إلى الشاطئ ، وأن ينصب الملك خيمته ، ويضرب أمراؤه خيامهم حولها .

وفجأة ودون سابق إنذار ، انتهز الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، القائد العام للجيش، دخول الليل فانسحب بكل من معه من العساكر فى هدوء ودون جلبة إلى الشاطئ الشرقى للنيل عند دمياط ، حتى أن أحدا من المعسكر الصليبى لم يعرف برحيلهم إلا فى صبيحة اليوم التالى ، ولم يتوقف فخر الدين وقواته فى دمياط ، بل ولى وجهه وجيشه معه مباشرة إلى أشموم طناح حيث يعسكر السلطان . وكان لابد أن يثير هذا التصرف الفزع والهلع فى نفوس أهل دمياط وهم يرون مقدم العسكر وعسكره يخرجون بكامل قواهم وعددهم باتجاه المعسكر السلطانى ، وزاد الأمر سوءا أن جماعات الكنانية التى وكل إليها الدفاع عن المدينة وتحصنوا بأبراجها وأسوارها ، ما أن رأوا ذلك حتى أطلقوا هم الآخرون سيقانهم للريح ، بعد أن أشعلوا النيران فى سوق المدينة ، "وخرجوا ومعهم أهل دمياط على وجوههم طول الليل ، ولم يبق بدمياط أحد ، بل تركوها صفرا من الرجال والنساء والصبيان ، ورحلوا مع العسكر هاربين إلى أشموم طناح" .

وسوف أترك المجال هنا للمؤرخ المعاصر ابن واصل ليعلق على هذه الأحداث المتلاحقة التى لم تستغرق من الليل إلا ساعات معدودات ، وترتب عليها أمور جسام كادت تقلب كفة التوازن الدولى فى المنطقة لو تم للصليبيين تحقيق حلمهم بالسيطرة على مصر، وليس هناك أقدر على وصف ما حدث من مؤرخنا هذا ابن واصل، يقول: "... كان هذا فعلا قبيحا منهم ومن فخر الدين والعساكر، فإن فخر الدين لو منع العسكر من الهرب، وأقام ، لامتنعت دمياط ، فإن دمياط فى الكرة الأولى لما نازلها الفرنج أيام الملك الكامل (الحملة الصليبية الخامسة) كانت أقل ذخائر وعددا، ولم يقدر الفرنج عليها إلا بعد سنة، فلما نوزلت سنة خمس عشرة وستمائة ، وأخذت سنة ست عشرة وستمائة، لم يتمكن العدو منها إلا بعد أن فنى أهلها بالوباء والجوع ... والكنانية وأهل دمياط لو غلقوا أبوابها

وتحصنوا بها بعد رجوع العسكر إلى أشموم طناح ، لما قدر الفرنج عليهم ، وكانت العساكر ردت إليهم ، ومنعت الفرنج عنهم ، والأقوات والآلات والعدد كانت عندهم فى غاية الكثرة ، فكانوا قدروا على حفظها سنتين أو أكثر من ذلك ، ولكن إذا أراد الله أمرا فلا مرد له"[٤٤] .

ولو قارنا هنا بين ما يذكره ابن واصل عن حصانة دمياط وشجاعة من بها الكنانية والمصريين أهل البلد ، وما فيها من الأسلحة والعتاد ، وبين ما قاله الملك الصالح عن تحصين المدينة وشحنها بالرجال والعتاد ، على النحو الذى أشرنا إليه من قبل ، وأضفنا إلى ذلك كله الاستعدادات العسكرية الضخمة التى قام بها السلطان ، سواء فيما يتعلق بالقوات البرية أو البحرية، لو جمعنا هذا كله لأدركنا أن الأمير فخر الدين - كما يبدو من ظاهر القول - لم يصدر أوامره بالانسحاب من جيزة دمياط والعودة إلى أشموم طناح ، عن ضعف فى هذه القوات أو نقص فى عتادها ، حتى أن جوانفيل ، كاتب سيرة لويس التاسع ، يقول "وصل الملك أمام دمياط، وأبصرنا أمامنا على الشاطئ كتائب السلطان ، وهى كتائب يستحب النظر إليها ، فقد كانت أسلحتها من الذهب (هكذا) إذا وقعت عليها الشمس كان لها بريق يخطف الأبصار ، وكان صوت طبولهم وأبواقهم يبعث الرهبة فى نفوس سامعيها "[٤٥] ، ومن ثم فإن هذا الانسحاب المفاجئ فى جنح الليل يمثل علامة استفهام كبيرة ، خاصة وأن كل عوامل النصر على الصليبيين الآن كانت قائمة .

ونجد علامة الاستفهام هذه إجابة لها عند مصدرين معاصرين ، أحدهما المؤرخ الصليبى جوانفيل ، شاهد العيان فى هذه الحملة ، والمؤرخ الإسلامى ابن واصل المعاصر لهذه الأحداث ، ونلتقط أول خيط فى الإجابة من قول جوانفيل "استغاث المسلمون بالسلطان ثلاث مرات عن طريق الحمام الزاجل يخبرونه بنبأ رسو المالك ، لكنهم لم يتلقوا جوابا ما عن رسائلهم لاشتداد العلة عليه فتبادر إلى أذهانهم أنه مات ، ومن ثم غادروا دمياط"[٤٦] ويعلل البغدادى[٤٧] عدم رد السلطان على الرسائل إلى أنه كان واقعا تحت تأثير المخدر الذى

---

[٤٤] - ابن واصل ، مفرج الكروب ، نقلا عن الملحق رقم ١ فى كتاب دكتور محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع على مصر ، ص ٢٦٥ - ٣١٤ ، وهذا الملحق يتناول أخبار حملة الملك لويس التاسع على مصر منذ قدومها إلى الشواطئ المصرية إلى جلائها نهائيا عن دمياط ، منقول من الجزء الذى لايزال مخطوطا من كتاب ابن واصل ، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، ولذا فإننا سوف نشير ابتداء من الآن فى الحواشى إلى ذلك بعبارة "الملحق المذكور" ونورد رقم الصفحة كما جاء ترقيمها فى كتاب الدكتور محمد مصطفى زيادة . راجع أيضا ، النويرى ، نهاية الأرب جـ٢٩ ص ٣٣٤ .

[٤٥] - جوانفيل ، القديس لويس ص ٩١ .

[٤٦] - جوانفيل ، القديس لويس ص ٩٦ .

[٤٧] - الحوادث الجامعة ص ٢٤٠ (نقلا عن محمد محمد أمين ، السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، رسالة ماجستير بجامعة القاهرة غير منشورة ، ص ١٢٥ .

أعطاه إياه الطبيب ليخفف عنه آلامه ، ونصح فى الوقت نفسه بعدم إزعاجه . وأيا كانت الأسباب فإن الجيش المصرى المعسكر فى جيزة دمياط لم يتلق ردا على رسائله إلى الصالح أيوب . أما الخيط الثانى فنجده عند ابن واصل الذى يقول : "ولما عدى فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ والعسكر إلى البر الشرقى ، رحل العسكر طالبا أشموم طناح ، وحصل عند العسكر طمع بسبب مرض السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فلم يكن لهم ما يردهم ولا يردعهم ، فرحل فخر الدين يوسف بن الشيخ إلى جهة أشموم طناح"[48] .

والمصدران يتفقان على أن السبب الرئيسى فى انسحاب العسكر من الضفة الغربية للنيل وتركها خالية أمام الصليبيين ، كان اشتداد العلة على السلطان وتوقع وفاته بين لحظة وأخرى ، وهو أمر يقتضى حسب مفهوم العسكر آنذاك الوجود بالقرب من موقع الأحداث للمشاركة فيها أو التحكم فى مجرياتها وتسيير دفتها بما يتفق وطبيعة الأمور ، هذا ما يوحى به حديث المصادر . ويفهم للوهلة الأولى من رواية ابن واصل أنه يلقى بالتبعة كاملة على فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ حين يقول صراحة : "وكان هذا فعلا قبيحا منهم (يعنى الكنانية) ومن فخر الدين والعساكر ، فإن فخر الدين لو منع العسكر من الهرب وأقام لامتنعت دمياط" ، وكان اتهاما صريحا للأمير فخر الدين بالتفريط والتهاون فى المهام الملقاة على عاتقه من الناحية العسكرية ، وإخلالا بالواجب العسكرى المنوط به باعتباره القائد العام للجيش ، بل يصل الأمر إلى حد الاتهام بالخيانة العظمى حين ينسب إليه طمعه فى القفز على العرش ، وأنه ترك الجبهة وارتد إلى أشموم طناح لينتهز أول بارقة أمل فى موت السلطان ليحقق مأربه الذى يدفعه إليه طموحه الذى احتوت عليه نفسه منذ زمن بعيد يعود إلى بداية تملك الصالح نجم الدين أيوب سلطنة الديار المصرية ، على حد قول ابن واصل عنه صراحة ، "إنه كان عالى الهمة جدا ... وكانت همته تترقى إلى الملك ... وكانت نفسه تطمع إلى هذا الأمر"![49] .

ولم يكن غريبا أن تحذو المصادر الأخرى حذو ابن واصل ، فهذا ابن أيبك[50] يعتبر أن ما أقدم عليه الأمير فخر الدين يعد "رأيا ذميما وسوء تدبير" ، بينما يقول أبو المحاسن بن تغرى بردى[51] "إن هذا (يعنى الانسحاب) كان من قبيح رأى فخر الدين" ، فإذا ما جئنا إلى المقريزى وجدناه شديد اللوم لفخر الدين يكاد يردد عبارات ابن واصل ويقول "فعدت هذه

---

[48] - ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٦٦ .
[49] - المصدر السابق ، ص ٢٨٥ - ٢٩٤ .
[50] - الدر المطلوب، ص ٣٦٩ .
[51] - النجوم الزاهرة، جـ٦ ، ص ٣٣٠ .

الفعلة من الأمير فخر الدين من أقبح ما يشنع به ... وقامت الشناعة من كل أحد على الأمير فخر الدين"[٥٢] وعلى نفس المنوال نهج المؤرخون المحدثون وكالوا الاتهامات للأمير فخر الدين واعتبروه مسئولا عن كل ما وقع من الأحداث الجسام التي صاحبت هذه الحملة السابعة على أرض مصر منذ سقوط دمياط حتى معركة المنصورة[٥٣] ولم يأخذ موقفا مغايرا

---

[٥٢] - المقريزى ، السلوك ،جـ١ ، ص ٣٣٥ - ٣٣٦ .

[٥٣] - يقول أستاذنا الدكتور سعيد عاشور "وربما كان السبب فى تعجل فخر الدين فى الفرار ، هو اعتقاده بأن السلطان المريض -الملك الصالح أيوب - قد توفى فعلا ، فى الوقت الذى كان فخر الدين ذا أطماع "تترقى إلى الملك" (وهذه عبارة ابن واصل) ، مما جعله يسرع لتحقيق أطماعه تاركا دمياط لقمة سائغة للصليبيين" ، الحركة الصليبية جـ٢ ص ١٠٦١ ، وافتتاح الحديث بكلمة "ربما" يفيد الشك أو الاحتمال والتحفظ فى الوقت ذاته . بينما يعلنها الدكتور جوزيف نسيم يوسف حربا لا هوادة فيها ضد فخر الدين متهما إياه صراحة بالخيانة بعبارات تفوق أحيانا ما أدانته به عبارات المصادر ، ولأهمية ذلك فى عرض القضية التى نحن بصددها ، فإننى آثرت أن انقل هنا نص ما كتبه أستاذنا الدكتور جوزيف نسيم يوسف رغم طول فقرات هذا النص : "... ويعلل بعض المؤرخين والكتاب المحدثين تراجع فخر الدين والعسكر بعجزهم عن ملاقاة الفرنج عندما أصبحوا أمامهم وجها لوجه ، بسبب تفوقهم عليهم فى العدة والعدد ، حتى أن الرعب تملك القوات المصرية نتيجة هذا الهجوم المباغت فارتدت إلى دمياط وتركتها دون أية مقاومة إلى أشموم طناح .

"ويبدو أن هذا التعليل غير معقول (نجد بعد ذلك حديثا عن حصانة دمياط ومقاومتها إبان الحملة الخامسة وعبارات ابن واصل التى تلقى باللوم على فخر الدين لانسحابه) ... ومن الجائز أن يكون الرعب قد تسلل إلى نفوس العساكر الإسلامية عند مرآى الفرنج وأساطيلهم لكن هذا لا يمنعنا من القول بأن خوفهم من الصليبيين ليس هو السبب الحقيقى الذى دفع فخر الدين إلى الفرار بالعسكر وترك دمياط فريسة سهلة فى أيدى العدو ، ويمكننا تفهم حقيقة هذا الموضوع الخطير من تحليل حياة فخر الدين نفسه وبحث المشاكل العامة المتعلقة بالدولة وقتئذ .

"لقد كان فخر الدين - كما وصفه المؤرخون - كبير المطامع عريض الآمال ، ويظهر أن هذا الأمير أيضا كان قد حدثته نفسه بالسلطنة فى ذلك الوقت ، فإنه جاء فى المصدر السابق (يعنى ابن واصل ، مفرج الكروب) "كان قد انتهى إلى قريب رتبة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وكانت همته تترقى إلى الملك" .

"أخذ فخر الدين يتحين الفرص لبلوغ أهدافه وتحقيق مآربه ، ولقد وجد جميع الظروف مهيأة له تستدعيه لتحقيق حلمه المنشود الذى طالما كان يسعى إليه ، فعندما لم يتلق ردا على رسائله التى بعث بها إلى السلطان ، اعتقد أن السلطان المريض قد مات ، فانتهز هذه الفرصة المواتية ورحل هو والعسكر عن دمياط علّه يستولى على الملك . وقد جاء فى مخطوط ابن واصل نص صريح يكشف عن حقيقة نوايا هذا الأمير المصرى (!!) وعسكره يقول فيه (وحصل عند العسكر طمع بسبب مرض السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فلم يكن لهم من يردعهم أو يردهم ، فرحل فخر الدين يوسف بن الشيخ إلى جهة أشموم طناح ، كما ذكر فى موضع آخر ، ولم يبق للسلطان (!!) قدرة على ضبط جنده وقد اشتد طمعهم فيه) ، يتضح لنا مما سبق أن فرار فخر الدين والعسكر لم يكن فى الواقع خوفا من كثرة عدد الفرنج أو عددهم ، لكنهم أرادوا استغلال هذه الفرصة الذهبية لتحقيق مطامعهم ، ظنا منهم أن سلطانهم قد وافته منية فتركوا المدينة مسرعين نحو العاصمة (من المعروف أنهم لم يتجهوا إلى العاصمة ، القاهرة ، بل اتجهوا إلى المعسكر السلطانى فى أشموم طناح) ، علهم يحصلون على ما كانوا يأملون من الملك والسلطان ، غير ملتفتين إلى الدفاع عن دمياط ، بينما لو ثبتوا فيها لأمكن صد عدوان الصليبيين وردهم على أعقابهم" .

ويواصل الدكتور جوزيف هجومه على فخر الدين فيقول "وبالرغم من الخيانة التى اتهم بها فخر الدين عند ارتداده عن دمياط دون قتال ، فإنه كان محبوبا من الناس (!!) ولهذا فقد عهد إليه بقيادة الجيوش وتدبير شئون المملكة قبل أن يصل المعظم (تورانشاه بن الصالح) من الحصن (حصن كيفا) . وللمتسائل أن يقول : إذا كان فخر الدين طامعا فى الملك حتى أنه أخلى دمياط مدفوعا بهذا السبب ، فما هو موقفه من موت الصالح ؟ وهل ظل مكتوف اليدين أم جدد محاولاته للوصول إلى كرسى السلطنة ؟ لقد عمل هذا القائد المصرى على استغلال هذه الفرصة ، فأصبح فعلا صاحب الأمر والنهى بعد موت سيده ، وتصرف فى الأمور تصرفا مطلقا ، وشرع فى إطلاق المساجين ، وأحسن إلى الرعية ، وأبطل بعض المكوس ، وأنفق فى المعسكر ، وخلع على خواص الأمراء ، وقرب إليه أولئك الذين كان قد أبعدهم الصالح أيوب مثل ابن مطروح والبهاء زهير ، كما صار له موكب عظيم بالمنصورة ، والأمراء كلهم فى خدمته ، ويترجلون له كلهم عند النزول ، ويحضرون سماطه ، حتى لقد خشى حسام الدين نائب السلطنة بالقاهرة أن يستأثر فخر الدين بالملك ويستبد به لنفسه ، فسير قاصدا من قبله إلى المعظم يحثه على سرعة القدوم إلى مصر قبل أن تخرج البلاد من يده ، كذلك بعثت شجر الدر وباقى الأمراء القصاد لإحضار المعظم ، وما أمكن فخر الدين إلا الموافقة على ذلك

لذلك إلا الدكتور محمد مصطفى زيادة ، الذى تحفظ على هذه الاتهامات التى سيقت ضد الأمير فخر الدين ، بقوله : "... اعتقد الأمير فخر الدين أن باستطاعته أن ينسحب بجيشه مؤقتا من الميدان ، وأن يذهب إلى حيث يضطجع السلطان المريض حيا أو ميتا ، ليشارك أولا فى تقرير ما ينبغى تقريره من الشئون العليا فى سياسة الدولة والوراثة السلطانية "[٥٤] .

ويمضى الدكتور زيادة قائلا : "والحق ، إنه بالإضافة إلى اختلاف معايير العصور الوسطى فى الشرق والغرب عن معاييرنا فى العصر الحاضر ، لم يكن من السهل ، ولا من المنطق الشخصى فى تلك العصور الوسطى ، أن يرضى القائد فخر الدين بالبقاء بعيدا عن المعترك السياسى البلاطى، أى حول سرير المريض ، أو أن يظل مشغولا بعمل حربى يمكن الانصراف إليه فيما بعد ، أى بعد تقرير مصير السلطنة ، ثم إنه كان القائد فخر الدين شعر بأنه مبعد عمدا عن الميدان السياسى الداخلى ، بناء على إشارة من بعض المحيطين بشخص السلطان المريض ، وأنه ربما يخدم مصالح السلطان والدولة الأيوبية ، ومصالحه الشخصية الخاصة به كذلك ، بذهابه فى سرعة إلى أشموم طناح "[٥٥] .

وبعد أن يوضح الدكتور زيادة عبارة "المصالح الشخصية" هذه لدى الأمير فخر الدين وذلك من وجهة نظر المؤرخين المعاصرين أو المحدثين كما بيناها آنفا ، يختتم حديثه بقوله : "غير أن حوادث حملة الملك لويس التاسع بعد كارثة دمياط ، سوف تفند هذه الشكوك (التى سيطرت على متهمى فخر الدين) ، وسوف تبرهن على أن الأمير فخر الدين كان من المفترى عليهم فى التاريخ حسب معايير العصور الوسطى "[٥٦] .

حتى لا تحوم حوله الشبهات ، خاصة وأنه كان يستبعد وصول تورانشاه من الحصن لعلمه أن الأعداء كانوا متربصين له فى الطريق، وقد تنكر بعض الأمراء الصالحية عقب موت الصالح لفخر الدين وعزموا على قتله . ولكن يخمد هذه الفتنة استدعاهم إليه وأعلمهم أنه لا طمع له فى الملك ، وأنه إنما يحفظه للمعظم إلى أن يصل ، وواضح أن فى ذلك إشارة من طرف خفى إلى طمعه فى الملك ، وإلا لما كان هناك أى مبرر لثورة بعض الأمراء عليه ، وأن يستدعيهم ليطمئنهم بأنه لا يعمل للوصول إلى العرش ، وإنما لحفظه إلى أن يحضر ابن سيده" .

ويختتم الدكتور جوزيف دعوى الاتهام العنيف بقوله "وهكذا نرى أن سلوك فخر الدين وتصرفاته بعد موت الصالح أيوب ، كانت تدل على أنه كان يسعى سعيا حثيثا إلى الملك ، لكن القضاء لم يمهله طويلا إذ استشهد قبل وصول المعظم بقليل ، بينما لو واتته الظروف وقدر له أن يعيش لكان ربما تسلطن ولصار إليه ملك البلاد . راجع ، العدوان الصليبى على مصر ، ص ١٠٣ - ١٠٦ ، ١٤١ - ١٤٣ .

[٥٤] - محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع ، ص ١١٤ .

[٥٥] - محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع ص ١١٤ .

[٥٦] - المرجع السابق نفسه ص ١١٤ - ١١٥ ، ومن الجدير بالذكر أن الدكتور زيادة عند تحقيقه كتاب "السلوك لمعرفة دول الملوك" للمقريزى فى عام ١٩٥٦ ، ذكر تعليقا يفيد الموافقة نسبيا على رأى ابن واصل والمقريزى فى اتهام فخر الدين ، فقد جاء فى حاشية رقم ٥ ص ٣٤٥ من الجزء الأول من كتاب السلوك للمقريزى ، قوله : " يظهر أن الأمير فخر الدين كان قد حدث نفسه بالسلطنة فى ذلك الوقت ، فإنه حسبما جاء فى ابن واصل " كان قد انتهى إلى قريب رتبة الملك الصالح ، وكانت همته تترقى إلى الملك " ، وفى عام ١٩٦١ أصدر الدكتور زيادة كتابه " حملة لويس التاسع على مصر " وذكر الآراء التى عرضنا لها فى المتن ويبدو فيها التحفظ واضحا على اتهامات المؤرخين لفخر الدين .

وبعد تلاوة صحيفة الدعوى المرفوعة ضد فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، والمفعمة بقائمة الاتهامات والشكوك ، و "الشناعات" على هذا النحو الذى رأينا ، فإنه لا مدنوحة ، سواء بشأن هذه الصحيفة ووجودها أو عدم تحريكها ، عن التسليم المطلق بداهة وبداية إن إقدام أى قائد عسكرى ، ناهيك عن القائد العام ، على الانسحاب بقواته من ميدان المعركة ، دون أن يكون هذا ضمن الخطة التكتيكية الحربية للمعركة ، بعد إخلالا بالواجبات العسكرية ، وإنما كبيرا يجب أن يواجه بأقصى عقوبة ينص عليها القانون العسكرى ، كان هذا فى العصور الوسطى أو العصر الحديث ، وهذا هو ما فعله السلطان الصالح أيوب مع الكنانية الذين تركوا مواقعهم فى أبراج مدينة دمياط وأسوارها وهربوا ، حيث أصدر أوامره بإعدام خمسين أو يزيد من زعمائهم ، وتم فعلا إعدامهم ، هذا فى الوقت الذى اكتفى فيه بتوجيه اللوم والتأنيب فقط إلى قائد جيشه ، وأبقاه فى منصبه كما هو ، قائدا عاما للجيش المصرى !! وهذه مسألة لاشك تثير الحيرة والدهشة أمام أى باحث إذ كيف يتم شنق خمسين من زعماء الكنانية لفرارهم من دمياط ، مع أن هذا جاء نتيجة لما رأوه من تخلى الأمير فخر الدين عن مواقعه فى الضفة الغربية للنيل ، ومروره بدمياط فى طريقه إلى أشموم طناح ، ومن ثم تبعوه حسبما جرت به رواية المصادر ؟! .

وقبل أن نصدر حكما فى هذه القضية الشائكة ، فإنه يتحتم علينا إعادة قراءة النصوص المعاصرة بدقة وروية ، بل والتوقف طويلا أمام كل اتهام تضمنته صحيفة الدعوى ومناقشة أصحابها ، حتى يجئ الحكم متفقا مع حيثياته .

علمنا من جوانفيل أن الانسحاب جاء نتيجة لعدم تلقى القوات المعسكرة فى جيزة دمياط ردا على الرسائل الثلاث التى بعث بها القائد العام إلى المعسكر السلطانى فى أشموم طناح، وسريان شائعة احتمال موت الملك الصالح ، ولعل الذى يقفز إلى الذهن الآن مباشرة تساؤل ملح عن مضمون تلك الرسائل وما الذى كانت تحتويه . ولما كانت المصادر تخلو حتى من الإشارة إلى هذه الرسائل ، و لم يزد جوانفيل عن ذكر عددها فقط ، فليس أمامنا من سبيل إلا أن نستقرى سطورها من بين الأحداث والوقائع التى صحبتها أو تلتها . والذى لاشك فيه أن هذه الرسائل لابد أن تكون أشبه شئ بما نعرفه فى زماننا هذا بالبلاغات الحربية التى تصدرها القيادة العامة للجيش عن سير المعارك ، ومن ثم فمن المتوقع أن تكون الرسالة الأولى قد حملت إلى المعسكر السلطانى نبأ نزول القوات الصليبية إلى الشواطئ

المصرية عند جيزة دمياط ، قبالة القوات المصرية المرابطة هناك[٥٧] إضافة إلى تقرير القيادة العامة لعدد الجيش الصليبي والأسطول المصاحب له ومن المتوقع أيضا أن تكون الرسالة الثانية قد أبلغت السلطان بأخبار المناوشات التي وقعت بين طلائع القوات الغازية ومقدمة الجيش المصرى ، وهى المناوشات التي استشهد فيها الأمير نجم الدين بن شيخ الإسلام ، والأمير صارم الدين أزبك الوزيرى ، كما أسلفنا ، وكانت محاولة لوقف انتشار الجيش الصليبي ، ويبدو طبعا أنها لم تستمر طويلا ، إذ نقف على ذلك من قول الملك الصالح للعسكر بعد عودتهم إلى أشموم طناح "أما قدرتم تقفون ساعة بين يدى الفرنج"[٥٨] ، وليس من المستبعد أن تكون الرسالة الثانية هذه قد تضمنت إلى جانب ذلك الإشارة إلى خطورة الموقف من جراء التفوق العددى الواضح للجيش الصليبي ، خاصة وأن المنطقة التي تعسكر فيها فرق الجيش المصرى لم تكن على قدر من الحصانة العسكرية بحيث تهيئ فرصة دفاعية أفضل من مواجهة الصليبيين ، وعليه فليس من المستبعد أيضا أن يكون القائد العام ، الأمير فخر الدين ، قد طلب المشورة من السلطان فيما يتعلق بهذا الأمر .

ولما لم يتلق مقدم العسكر ردا على رسالتيه السابقتين وبخاصة الثانية ، بادر على الفور بإرسال الثالثة والتى نرجح أن يكون قد عرض فيها على السلطان مقترحات محددة بشأن الموقف العسكرى وكيفية مواجهته ، وإدخال بعض التعديلات على الخطط الحربية السابقة التي كان السلطان قد أقرها بشأن الدخول فى معركة حاسمة مع الصليبيين عند نزولهم إلى الشواطئ المصرية فى جيزة دمياط ، وهو ما ارتآه عقب عودته مباشرة من الشام إلى مصر ، لدى سماعه بأنباء قدوم الحملة الصليبية ، ولما كان فخر الدين قد وقف الآن عن قرب على حقيقة الموقف العسكرى ، وأيقن أن الدخول فى معركة فاصلة مع الصليبيين فى جيزة دمياط غير مضمونة العواقب أمام كثافة أعداد الجيش الصليبي ، لذا رأى أن يجرى تعديلا سريعا فى الخطة الحربية السابقة بما يضمن عدم نجاح الصليبيين فى تحقيق أهدافهم .

وتؤكد رجحان كفة هذا الرأى عندنا ما أخبرتنا به المصادر عن حجم قوات لويس التاسع وكثرة أعدادها ، فابن واصل يقول : "... وصلت مراكب الفرنج وفيها جموعهم العظيمة ، وقد انضمت إليهم إفرنج الساحل جميعها ، (يقصد الصليبيين بالشام) ، فأرسوا فى البحر بازاء المسلمين"[٥٩] ، وقد أسلفنا أن هذه السفن أسرت ثلاثا من سفن الأسطول

---

[٥٧] - يقول جوانفيل " استغاث المسلمون بالسلطان ثلاث مرات عن طريق الحمام الزاجل يخبرونه بنبأ رسو الملك ، راجع القديس لويس ص ٩٦ .

[٥٨] - المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٣٣٦ .

[٥٩] - ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٦٥ .

المصرى بمن وما فيها ؛ أما ابن أيبك الدوادارى[٦٠] فيخبرنا أن الإمبراطور فردريك الثـــانى ، الذى لم تنقطع صلته بالأيوبيين بعد وفاة السلطان الملك الكامل ، أرسل إلى السلطان الملــك الصالح يخبره بخروج هذه الحملة الصليبية قاصدة مصر ، وأنه (أى لويس التاسع) "قد وصـــل فى خلق كثير" ثم يقول ابن أيبك نفسه "وصل إلى دمياط مراكب سدت البحر كثرة" ؛ هـذا على حين يردد المقريزى[٦١] عبارات ابن واصل حيث يقول : "وصلـــت مراكـــب الفرنـــج البحرية وفيها جموعهم العظيمة ... وقد انضم إليهم فرنج الساحل كله ، فأرسوا فى البحـــر بإزاء المسلمين" ؛ بينما يخبرنا أبو المحاسن[٦٢] بأن ملك فرنسا "قد خرج من بلاده فى جمـــوع عظيمة" ، ومن الملاحظ هنا أن هذه المصادر كلها تتحدث عن ضخامة الجيـــش الصليـــبى وكثرة أفراده ، دون أن تحدد عددا معينا ، وقد أكمل الحنبلى[٦٣] الصورة بقوله : "جمع (ملك فرنسا) جمعه ، فكانوا نحو خمسين ألف مقاتل" ويذكر أبو الفدا[٦٤] العدد نفسه الذى ذكـــره الحنبلى . وحتى يصبح الموقف أكثر وضوحا فإننا نورد ما يذكره كاتب سيرة لويس ، نعـــنى جوانفيل ، الذى يخبرنا فى سطور متفرقات عن قوة الجيش الصليبى ، فيذكر أولا عند مغادرة لويس لقبرص ، "أن البحر على امتداد البصر كان مغطى بقلاع السفن التى بلغ عددها ألفـــا وثمانمائة سفينة ما بين كبيرة وصغيرة"[٦٥] ، وعند الوصول أمام شواطئ دمياط ، يقول "دعـــا الملك باروناته للتشاور فيما يفعلون ، فأشار عليه الكثيرون بوجوب الانتظار حتى يعود جميع رجاله (وكانت العواصف قد باعدت بين كثير من سفن الأسطول الصليبى) ، خاصة وأنه لم يبق منهم حوله سوى مالا يجاوز الثلث"[٦٦] ، ومع أن جوانفيل لا يضع رقما معـــين لعـــدد جنود الحملة ، إلا أننا نستطيع أن نقف على تقدير تقريبى لضخامة الجيش من أسماء الأمـــراء الذين شاركوا لويس فى حملته طبقا للنظام العسكرى ، فى الإقطـــاع الأوروبى فى العصـــور الوسطى[٦٧] ، وكان فى مقدمة هؤلاء الأمراء إخوته الثلاثة روبرت كونت أرتوا ، وألفونـــس كونت بواتييه ، وشارل كونت أنجو[٦٨] . والرقم الوحيد الذى ذكره جوانفيل كان عن عـــدد

---

[٦٠] - الدر المطلوب، ص ٣٦٦ .

[٦١] - السلوك، جـ١ ،ص ٣٣٣ — ٣٣٤ .

[٦٢] - النجوم الزاهرة ،جـ٦ ،ص ٣٣٠ .

[٦٣] - شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب، ص ٣٢٩ .

[٦٤] - المختصر فى أخبار البشر ،جـ٣ ،ص ١٨٧ .

[٦٥] - جوانفيل ، القديس لويس، ص ٩٠ .

[٦٦] - المصدر السابق ، نفسه ، ص ٩١ .

[٦٧] - يقول جوانفيل " ... كما أخذ الصليب هيو دوق برجنديا ، ووليم كونت فلاندرز والكونت الباسل هيو دى سانت بـــول ، وابـــن أخيه جوشيه ... وكوانت دى لامارش ، وابنه هيولى برون ، وكونت ساربوك وأخوه جوبرت دابرمونت " . هذا إضافة إلى أخـــوة لويس الثلاثة وكثيرين غيرهم . راجع القديس لويس ص ٧٥ - ٧٦ .

[٦٨] - جوانفيل ، القديس لويس ص ٧٥ .

الفرسان المحيطين بالملك وقدره بألفين وثمانمائة[٦٩] ، ومن هذه الأسماء وهذا الرقم وطبيعة نظام الفروسية فى العصر الإقطاعى ، اقترح أستاذنا الدكتور محمد مصطفى زيادة أن يكون المجموع الكلى لقوات لويس التاسع على أقصى تقدير ثمانية وعشرين ألف مقاتل[٧٠] ، وهو لم يبعد بذلك عن المراجع الأوروبية التى ذكر بعضها أن جيش الملك لويس كان خمسة وعشرين ألف مقاتل[٧١] ، بينما راوحها بعض آخر[٧٢] ما بين هذا الرقم الأخير وخمسة عشر ألف جندى فقط .

أما القوات التى كانت يقودها الأمير فخر الدين فى جيزة دمياط ، فقد وصلت منذ قليل مع قائدها من على حصار حمص فى أعالى الشام ، بعد أن أصدر الملك الصالح أوامره بسرعة عودتها حتى تتهيأ لمواجهة الغزو الصليبى ، و لم تكن أعداد هذه القوات تقترب بأى حال من الأحوال من أعداد جيش لويس ، وهذا أمر نقف عليه من الأعداد التى يذكرها لنا المقريزى[٧٣] عند حديثه عن التنظيمات العسكرية للجيش الأيوبى ، الذى كانت أعداد عسكره تتراوح فى أحسن الأحوال دائما بين أربعة عشر ألف مقاتل وعشرة آلاف .

على هذا النحو يمكن أن نقف فعلا على محتوى الرسالة الثالثة العاجلة التى بعث بها الأمير فخر الدين مقدم العسكر إلى الملك الصالح ، والتى رجحنا أن يكون قد أشار على السلطان فيها بضرورة تعديل الخطة الحربية ، والذى كان بالضرورة – كما أكدت الأحداث، يتضمن الانتقال من الضفة الغربية للنيل فى جيزة دمياط ، إلى الضفة الشرقية حيث مدينة دمياط نفسها بحيث يمكنها الصمود ومواجهة الصليبيين ، وتلك حقيقة يعرفها الأمير فخر الدين حق المعرفة ، ويدرك مدى قدرة دمياط على التصدى لحصار الصليبيين ، فقد كان معاصرا لأحداث الحملة الصليبية الخامسة ، قريبا جدا من الملك الكامل ، عارفا بكثير من الأمور العسكرية ، مدركا أن هذا يمثل أفضل الخيارات العسكرية التى يمكن الإقدام عليها ، بدلا من

---

٦٩ – المصدر السابق نفسه ص ٩١ .

٧٠ – حملة لويس التاسع ص ٩٩ وحاشية (من الصفحة نفسها .

٧١ – Runciman, *Crusades*, III p.   ; Grousset, *Croisades*, III, p. 438 n.I.

٧٢ – Strayer (J.R.), *The Crusades of Louis IX* (in Setton, Crusades, II ,pp. 493 - 494.
وراجع أيضا: ماير (هـ. إ.) تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة/ عماد الدين غانم ، ليبيا ، ١٩٩٠ ، ص ٣٧٦ – ٣٧٧ .

٧٣ – الخطط ، جـ١ ، ص٨٦ .

مواجهة القوات الصليبية فى معركة مكشوفة كان التفوق العددى فيها لجيوش لويس التاسع، كما أن المناوشات الأولى - كما بينا - كانت الغلبة فيها للملك الفرنسى . من هنا نرجح أن يكون الأمير فخر الدين قد عرض ذلك على السلطان ، مبينا عدم جدوى البقاء فى جيزة دمياط ، فلما لم يتلق ردا من المعسكر السلطانى على رسائله ، بادر بتنفيذ ذلك على مسئوليته الخاصة باعتباره القائد العام للجيش المصرى ، وليس هذا ضربا من التخمين ، ولكن هو ما تؤيده الأحداث من بعد ، والتى سوف نتناولها تفصيلا ، وإن كان يأتى فى مقدمتها أن السلطان الملك الصالح لم يقدم على اتخاذ أى عقوبة عسكرية ضد الأمير فخر الدين أو هيئة أركانه أو عساكره.

ويزيد من ترجيح ما نذهب إليه أن عملية الانسحاب من البر الغربى إلى البر الشرقى تمت بصورة منظمة وسريعة استغرقت فقط جزءا من الليل ، ولم يشعر بعملية الانسحاب هذه أحد من أفراد الجيش الصليبى المعسكر بالقرب جدا من هذه القوات المنسحبة ، ولو أن المسألة كانت فرارا كما يصوره المؤرخون ، لما تم بهذا الشكل الهادئ المنظم دون جلبة أو اضطراب ، حتى أن الصليبيين فوجئوا فى صبيحة اليوم التالى بعدم وجود قوات الصالح أيوب قبالتهم فى جيزة دمياط . ولم يحدثنا المؤرخون عن وقوع فرد واحد من هذه القوات المنسحبة غريقا فى النيل بسبب الفوضى والاضطراب التى تصاحب أى عملية للفرار والهروب من ميدان المعركة ، وهذا يعد دليلا واضحا أن الانسحاب تم فى سرية تامة وهدوء كامل وترتيب دقيق أشرف عليه القائد العام وهيئة قيادته ، ولو لم يجر الأمر على هذا النحو ، وتنبه الصليبيون لما يسميه المؤرخون "فرارا" لما تركوا هذه القوات تفلت من أيديهم ولأبادوا أفرادها عن أخرهم . ومن ثم يمكن القول بكل الاطمئنان أن هذا الانسحاب الذى قام به الأمير فخر الدين كان انسحابا تكتيكيا كى يتخذ من مدينة دمياط ، وبها من الرجال والذخائر والأقوات ما بها قاعدة عسكرية لعملياته ضد الصليبيين .

ومن وجهة النظر العسكرية البحتة ، يعد هذا الانسحاب عملية عسكرية ناجحة بكل المقاييس : إذ تم عبور القوات من الضفة الغربية للنهر إلى الضفة الشرقية خلال جزء يسير من الليل، والعدو على مقربة من هذه التحركات ، دون أية خسارة فى الأرواح أو العتاد ، وليس من المنطقى ولا من المقبول أن يقدم الأمير فخر الدين على إنجاز هذه المهمة ، التى عدها الصليبيون مكيدة دبرت لهم على حد قول المصادر ، ليكون هدفه الأساسى من ورائها الهروب من ميدان المعركة ، أو الإسراع إلى أشموم طناح لهوى فى نفسه بالوثوب على العرش ، لأن "همته كانت تترقى إلى الملك" كما يقول ابن واصل ! ولكن الذى نميل إليه

ونرجحه أن هذا العبور كان تكتيكيا لاتخاذ دمياط مركزا متقدما حصينا للمقاومة ، حيث يعسكر الكنانية "الشجعان" المنوط بهم أصلا الدفاع عن المدينة .

والذى لاشك فيه أن فكر القائد العام للجيش ، الأمير فخر الدين ، كان مشغولا آنذاك، إلى جانب النواحي العسكرية ، بما يمكن أن تكون الأمور قد جرت عليه فى أشموم طناح، وزاد من هذا القلق أنه لم يتلق ردا على رسائله من السلطان ، وهو يعلم جيدا أن الملك الصالح قد نقل من دمشق إلى أشموم طناح فى محفة لما ألم به من مرض شديد ، وأن وفاته أو أى مكروه يضاعف من عجزه فى مثل هذه الظروف الحرجة من الناحية العسكرية، قد يقود البلاد بالتالى إلى متاهات لايعلم إلا الله مداها ، ومن ثم كان لزاما عليه أن يكون فى قلب الساحة السياسية لضبط الأمور وحسن إدارة البلاد فى ذلك الوقت ، وهذا ما سوف تؤكده الأحداث التالية كما سنوردها تفصيلا فيما بعد .

وهكذا كانت الأمور تقتضى أن يترك فخر الدين جزءا من قواته فى دمياط لتعزيز دفاعاها، والإسراع ببقية العسكر إلى أشموم طناح حيث يرقد السلطان ، وهنا فقط انقلبت المسألة إلى الفوضى الكاملة التى عجز القائد العام نفسه عن السيطرة عليها ؛ ذلك أن العسكر الذين كان من المفروض أن يبقوا فى دمياط ، لم يقبلوا ذلك واستحثوا خطاهم فى إثر فخر الدين ومن معه باتجاه أشموم طناح ، وزاد الأمر سوءا أن جماعات الكنانية أطلقوا هم الآخرون سيقانهم للريح ، وتركوا مواقعهم التى وكل إليهم الدفاع عنها فى أبراج المدينة وأسوارها ، وكان طبيعيا وقد رأى أهل دمياط هذا "الفرار" الذى قام به الكنانية ، أن يغادروا بدورهم المدينة "حفاة عراة" لا يلوون على شئ ، فى محاولة للنجاة بنفسهم بعد أن رأوا مدينتهم وقد خلت تماما من القوة المكلفة بالدفاع عنها، وهذه الوقائع كلها نستقيها من المصادر المعاصرة وخاصة مؤرخنا ابن واصل .

ولنتابع معا ما جرى به قلمه حيث كتب : "ولما عدى فخر الدين والعسكر إلى البر الشرقى، رحل المعسكر طالبا أشموم طناح ، وحصل عند العسكر طمع بسبب مرض السلطان"، وهذا يعنى نصا أن العسكر هم الذين حصل عندهم طمع وليس فخر الدين ، وأنهم هم الذين غذوا السير إلى حيث العسكر السلطانى ، وهذا تؤكده عبارة ابن واصل التالية مباشرة إذ يقول "فلم يكن لهم ما يردهم ولا يردعهم"[٧٤] ، ومعنى ذلك أن الأمير فخر الدين قد فقد السيطرة عليهم، وأدرك لساعته أن الأمور على هذا النحو سوف تفلت من

---

[٧٤] - مفرج الكروب ، الملحق المذكور ، ص ٢٦٦ .

بين يديه ، أو هى هكذا بالفعل حيث يضيف ابن واصل : "فإن فخر الدين يوسف لو منع العسكر من الهرب ، وأقام ، لامتنعت دمياط"، أى لتمكنت دمياط من الصمود أمام جند لويس ، ومع أن العبارة تلمز فخر الدين من طرف خفي لمن يدقق فى كلماتها ، إلا أنها فى معناها الظاهرى تعد دليل صدق على ما نذهب إليه من أن العسكر هم الذين أحدثوا هذه الفوضى ، ولم يرتدعوا للأوامر العسكرية "بسبب ما حصل عندهم من طمع نتيجة مرض السلطان" . ولم يكن هذا أمرا جديدا على المعسكر ، بل إنهم مارسوه مع الصالح نفسه من قبل عندما كان فى الشام قبل اعتلائه عرش السلطنة فى مصر ، ومارسوه من بعد مع أميرهم فخر الدين نفسه عند وفاته على نحو ما سنبينه من بعد .

والآن .. نقدم شهادة شاهد عدل تثبت ما لا يدع مجالا للشك مطلقا صحة كل ما ذهبنا إليه عن فحوى رسائل الأمير فخر الدين وهو بعد فى جيزة دمياط ، والتعديل الذى أدخله على الخطة العسكرية السابقة وأطلع عليه السلطان قبل تنفيذه ، وعزمه على تقوية دفاعات دمياط كى تصبح قاعدة الدفاع عن الديار المصرية ، وأن الرجل لم يكن له يد مطلقا فى هذه الفوضى التى حدثت وحدثنا عنها نحن الآن ، هذه الشهادة جرت على قلم الملك الصالح نفسه فى وصيته لابنه تورانشاه ، يقول : " ... فلما أن أقبل العدو وشاهدوه وطلبوا البر بالحراريق[٧٥] انهزموا وسلموا لهم البر ، واشتغلوا بالنساء ونقلهم من دمياط ، وهربت العوام وتبعهم الأجناد ، وكان المقدم عليهم الأخ فخر الدين ، الذى ساق خلفهم وردهم ، وجعل على أبواب دمياط كل باب أمير ، فلما أصبح ما وجد فى المدينة أحدا، هربوا الكنانية فى الليل ، وكسروا الخوخ (الطاقات والنوافذ فى الحصون) ونزلوا من السور ، وتركوا أموالهم وذخائرهم ، نهبوها المسلمين (هكذا) بعضهم بعض (هكذا) وأخلوا دمياط حتى أخذها الفرنج ثانى يوم"[٧٦] . ولا تحتاج هذه الشهادة إلى تعليق ، ومن ثم فلسنا مبالغين حين قلنا إن ابن واصل كان يلمز الأمير فخر الدين فى قوله " لو منع العسكر ، وأقام ، لامتنعت دمياط " ، فقد فعل ابن شيخ الشيوخ أكثر من ذلك حين رتب الدفاعات على الأبواب ، " وساق وراء العسكر وردهم " ، ولكن فوضى جبلوا عليها ، و " طمعا " داعب هوى فى نفوسهم جعلهم يتخلون عن واجباتهم العسكرية .

---

[٧٥] - مفردها " حراقة " وهى نوع من السفن الحربية التى ترمى بالنيران ، انظر درويش النخيلى ، السفن الإسلامية على حروف المعجم ، ص ٣٢ .

[٧٦] - النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص ٣٤٤ .

ولم يكن ما فعله العسكر بالأمر المستغرب وبصفة خاصة فى السنوات الأخيرة للدولة الأيوبية ، وكانوا فى معظمهم من الأكراد والأتراك والتركمان وعناصر أخرى ، ولعل هذا هو الذى دفع الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى الاعتماد على جماعة الخوارزمية فى حروبه مع الصليبيين فى الشام أو ضد أقاربه من البيت الأيوبى هناك ، فلما تبين له عدم التزام هؤلاء الأخيرين أيضا بالانضباط العسكرى ، عمد إلى شراء هذه الأعداد الكبيرة من المماليك الذين أصبحوا خاصة عسكره ، وغدا لهم أستاذا ، وأخلصوا له وظلوا على ولائهم التام له حتى موته ، وكونوا من بعده دولة قوية حملت اسمهم . ولم تكن حقيقة أولئك العسكر غائبة عن الملك الصالح ، ويعبر ابن أيبك[٧٧] عن ذلك فى عبارات واضحة لا لبس فيها حين يقول : " اشترى (الملك الصالح) من المماليك الترك ما لم يشتر أحد من الملوك مثله من قبله ، حتى عاد أكبر جيشه مماليكه ، وذلك لكثرة ما جرب من عدد الأكراد والخوارزمية وغيرهم من الجيوش" . وما لنا نذهب بعيدا والملك الصالح نفسه كتب ذلك بقلمه فى وصيته لابنه تورانشاه حين قال : " يا ولدى ، أكثر الأجناد اليوم عامة ، وباعة وقزازين ، كل من لبس قباء وركب فرسا ، وجاء إلى أمير من هؤلاء الترك ، وقدم له فرس (هكذا) ويبرطل نقيبه وأستاذ داره[٧٨] على خبز جندى معروف بالشجاعة والحرب ، طرده أميره ، وأعطى خبزه لذلك العامى الذى لا ينفع ، وأكثرهم على هذه الحالة ، فإذا عاينوا العدو وقت الحاجة هربوا ، وينكسروا العسكر ، لأنهم ما يعرفون قتال (هكذا) ولا هو شغلهم ، فينبغى أن لايستخدم إلا من يعرف يلعب بالرمح على الفرس ، ويرمى بالنشاب والأكرة ، وتظهر فروسيته، حينئذ يستخدم "[٧٩] .

على هذه الحال وصلت العساكر والأجناد والكنانية والعوام وأهل دمياط إلى أشموم طناح حيث المعسكر السلطانى ، ومن هؤلاء الأخيرين من تفرق فى الديار المصرية ، ويصف ابن واصل الحالة من حول الملك الصالح بقوله فى إيجاز شديد : " ولما وصلت العساكر وأهل دمياط إلى السلطان ، حنق على الكنانيين حنقا شديدا ، وأمر بشنقهم ، فشنقوا جميعا ،

---

٧٧ - الدر المطلوب ص ٣٧٠ ، ويقول ابن واصل : " لما رأى الملك الصالح من غدر الأمراء به يوم أخذت دمشق ، وثبات مماليكه معه لما فر الناس عنه بقصر معين لدين بـ " الغور " ، مال إلى مماليكه ورجحهم " ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٧٤ ، وراجع تفاصيل ما كان من هؤلاء العساكر مع الملك الصالح أيوب فى ، ابن واصل ، مفرج الكروب حـ٥ ص ٢٣٣ - ٢٣٤ ، ٢٣٨ - ٢٣٩ ؛ المقريزى ، السلوك حـ١ ، ص ٢٣٩ .

٧٨ - أى المتولى شئون قصر الأمير أو وكيله .

٧٩ - النويرى ، نهاية الأرب حـ٢٩ ص ٣٤٩ . ومن الجدير بالاهتمام أن نفرق بين تعبيرى " عسكر " و " جند " . فالمقصود بالعسكر الجيش النظامى أو عسكر السلطان ، ويخدم أفراده بصفة دائمة ويتلقون إقطاعا ، ويحيطون بالسلطان لا يفارقونه أبدا . أما الجند أو الأجناد فهم جند الأمراء وغالبهم من الأكراد والأتراك ، وهم يشكلون القوات الاحتياطية أو الإقليمية ، ويخرجون إلى الحرب مقابل اقطاعاتهم . لمزيد من التفاصيل عن ذلك ، راجع للمؤلف ، الجيش المصرى فى عصر الأيوبيين ، تحت الطبع .

وتألم السلطان مما فعله فخر الدين والعسكر ، لكن الوقت كان لا يحتمل إلا الصبر والإغفاء عما فعلوه " ، أو " الصبر والتغاضى " على حد تعبير المقريزى[٨٠] .

وإذا كان الوقت لا يحتمل إلا الصبر والتغاضى عما فعله العسكر وقائدهم فخر الدين فلماذا خص السلطان قائد جيشه وعساكره فقط بصبره وتغاضيه ، ولم يتسع الصدر ليشمل هذا " الصبر والتغاضى " أيضا زعماء الكنانية ، الذين يخبرنا ابن العبرى[٨١] أن السخط عليهم بلغ بالسلطان مبلغه وأمر بشنقهم كما هم بثيابهم ومناطقهم وخفافهم " ؟! وتأتينا الإجابة عن هذا التساؤل فى عدد من المصادر[٨٢] تقول ، إن السلطان " شنق أمراء الكنانية – وكانوا نيفا وخمسين أميرا – بعد أن استفتى فى شنقهم ، لخروجهم عن الثغر بغير أمره " .

والعبارة الأخيرة توضح أمرا يختص بتكوين الجيش المصرى فى العصر الأيوبى ؛ ذلك ان الكنانية وغيرهم من العرب والعربان أو البدو والمتطوعة ، لم يكونوا ضمن الجيش الرئيسى ، أو بتعبير آخر لم يكونوا جزءا من العساكر النظامية التى تخضع للقائد العام للجيش ، مقدم العسكر ، ومن ثم كانوا يتلقون أوامرهم من السلطان مباشرة ، ورغم شجاعتهم التى عرفوا بها وتحمسهم للقتال ، بل وتهورهم أحيانا واندفاعهم فى القتال ، إلا أنهم بسبب هذا كله كانوا يسببون كثيرا من الحرج للجيش النظامى ، وخسائر جسيمة لأنفسهم فى كثير من الأحيان . ولدينا على ذلك أمثلة كثيرة وبصفة خاصة على عهد السلطان الناصر صلاح الدين ، ولذلك كان الاتهام الرئيسى الذى وجه إلى الكنانية أن انسحابهم من دمياط وترك حصونها وأسوارها دون حماية وتخليهم عن مواقعهم بغير أوامر صريحة من السلطان ، مما كان سببا أساسيا ومباشرا فى سقوط دمياط غنيمة باردة فى أيدى الصليبيين ، فى اليوم التالى مباشرة لفرارهم منها ، وكانت تلك هى الطامة الكبرى.

لم يتوان الصالح أيوب إذن عن إنزال أقصى عقوبة تفرضها القوانين العسكرية على هؤلاء الكنانية ، رغم إقرار المصادر المعاصرة واللاحقة كلها بشجاعتهم ومواقفهم السابقة تجاه الصليبيين، بينما كان نصيب فخر الدين من هذه العقوبات مجرد "تغير" السلطان و "الألم" الذى حل به وليس بالأمير فخر الدين !! ترى .. لو خامر الشك السلطان لحظة واحدة فى نية الهروب من ميدان المعركة لدى مقدم عسكره ، أو التآمر الكامن فى نفس

[٨٠] – ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٦٨ ؛ المقريزى ، السلوك جـ١ ص ٣٣٦ .

[٨١] – تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٥٩ . ولابن العبرى أيضا تاريخ الزمان ، ص ٢٩٣ – ٢٩٤ ، وإن ذكر فى كل كتاب عددا يختلف عن الآخر ، إذ جعلهم فى الأول أربعة وخمسين أميرا ، وفى الثانى اثنين وستين أميرا .

[٨٢] – المقريزى ، السلوك ،جـ١ ،ص ٣٣٦ ؛ ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ، ص ٣٦ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ،جـ٢٩ ، ص ٣٣٥ .

القائد العام تجاهه ، هل كان يتركه هكذا دون عقاب ، ويترك الألم يعتصره هو نفسه متذرعا بالصبر ، فى ظل ظروف سياسية وعسكرية بالغة السوء ؟! والأغرب من ذلك أن يتركه فى منصبه قائدا عاما لجيشه ، بل ويوحى صراحة على لسان المصادر ، أن السلطان أكد على أن يظل فخر الدين أتابكا للعسكر ، كما أخبرت عن ذلك زوجه شجر الدر ، وأخذت العهود والمواثيق على الأمراء باحترام ذلك حتى يحضر المعظم تورانشاه ، ابن الصالح، من حصن كيفا بعد أن مات السلطان ، وأخفت زوجه خبر موته إلا عن الأمير فخر الدين نفسه ، والطواشي جمال الدين محسن ، أقرب الناس إلى السلطان ، على حد قول ابن واصل[٨٣]. هذا كله بينما لم يتورع الصالح عن الإيعاز بقتل أخيه العادل خوفا من أن تحدثه نفسه بالقفز على عرش السلطنة أثناء توجه السلطان إلى الشام سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م وكانت أوامره فى ذلك صريحة واضحة عندما وجهها إلى حسام الدين ابن أبي على نائب السلطنة فى القاهرة حيث قال : " إنى مسافر إلى الشام ، وأخاف أن يعرض لى موت، وأخى الملك العادل بقلعة مصر ، فيأخذ البلاد وما يجرى عليكم منه خير ، فإن عرض لى فى سفرى هذا مرض ولو أنه وجع إصبع أو حمى يوم (تأمل !!) فاعدمه ، فإنه لاخير فيه لكم "[٨٤] . ولم يلبث الملك العادل أن وجد ميتا بالقلعة فى اليوم التالى مباشرة لرفضه الانصياع لأوامر أخيه الصالح بالخروج إلى الشوبك ، ليكون بها معتقلا بعيدا عن القاهرة حالة وجود السلطان فى الشام ، وتشير أصابع الاتهام إلى قيام الطواشى جمال الدين محسن بقتله خنقا[٨٥] . بل إن السلطان – على حد قول ابن واصل [٨٦] لم يأذن لابنه المعظم تورانشاه فى القدوم عليه إلى مصر ، لكراهيته له !! مع حاجته إلى من يقوم مقامه بها .

والآن .. وقد أسقطنا بالأدلة الثابتة وشهادة الشهود العدول ، الشق الأول من الاتهامات الموجهة إلى الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ ، والقائلة بـ "هروبه" أو "فراره" من جيزة دمياط إلى المعسكر السلطانى ، وتخليه بذلك عن واجباته العسكرية ، وتفريطه وتهاونه فى الدفاع عن الديار المصرية ضد الحملة الصليبية السابعة ، نقول الآن .. بقى أن ننظر فى الشق الثانى من هذه الاتهامات ، وهو مكمل للأول ، باعث له مترتب عليه!! نعنى بذلك اتهامه بالخيانة والتآمر سعيا للقفز على العرش فى ظل هذه الظروف السياسية والعسكرية البالغة الصعوبة والحرج، بمرض السلطان مرض الموت ، واحتلال جزء

---

[٨٣] – مفرج الكروب ، الملحق المذكور ٢٨١ .

[٨٤] – ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٥ ،ص ٣٧٥ – ٣٧٦ .

[٨٥] – المصدر السابق، نفسه ،جـ٥ ص ٣٧٥ – ٣٧٦ ؛ المقريزى ، السلوك ،جـ١ ،ص ٣٢٧ ؛ ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ص ٣٥ .

[٨٦] – مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٧٩ .

من الديار المصرية على يد الصليبيين ، وسعيهم للتوغل داخل البلاد لتملكها ، وذلك اتهام جد خطير لن تقل عقوبته - إذا صح - عما لقيته بنو كنانة منذ قليل . وإذا كان الدليل العملى الوحيد الذى يساق هنا من جانب من يتهمون فخر الدين بالخيانة ، هو انسحابه من جيزة دمياط وعودته مباشرة - على حد قولهم - إلى أشموم طناح، فإن سؤالا لابد أن يقفز إلى الذهن دون توان ، ما الذى فعله الأمير فخر الدين حالة وصوله إلى المعسكر السلطانى؟ لماذا لم يقبض على السلطان الذى لا يستطيع حراكا ؟! لماذا لم يعزله أو يجهز عليه إذا كان قد جاء أصلا لهذا الغرض ؟! لماذا لم يفعل ذلك ويعلن نفسه سلطانا بدلا منه ، خاصة وأن الملك الصالح " لم يحزن لموته إلا القليل " ، كما تقول المصادر[٨٧] ، بينما كان الأمير فخر الدين محبوبا رغم خيانته ، على حد قول المؤرخين الذين يقيمون ضده هذه الدعوى ؟![٨٨] أتراه ترك للزمن وحده أن يتكفل بذلك والنهاية قريبة محتومة ، كما يسوق متهموه ذلك أيضا ؟ وإن كنا لا ندرى كيف يجتمع الناس ، وفى مقدمتهم السلطان وزوجه والعامة ، على حب رجل اتصف بالخيانة ، وسلم جزءا من البلاد للأعداء ، مهما بلغت منحه وعطاياه .

ومن ثم، أليست هذه كلها، علامات استفهام تحتاج إلى إجابة محددة وصريحة، حتى يمكن فعلا إقامة دعوى الاتهام ضد الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ أو إسقاطها بالكلية؟

ونتساءل أولا - هل يمكن أن يكون فخر الدين قد قطع هذه المسافة -هربا- من جيزة دمياط إلى أشموم طناح ليمثل فى حضرة السلطان المسجى فى فراش المرض ، ليدخل الألم فقط على نفس السلطان علّه يموت كمدا ؟! أو ليسمع بعض عبارات اللوم من جانبه ، والتى لم تزد عن قول السلطان، الذى يتسم بالشدة والحزم ، للعسكر" ما قدرتم تقفون ساعة بين يدى الفرنج"؟! هل يقبل كيل الاتهامات ضد الرجل على هذا النحو من البساطة، وليس هناك دليل واحد غير الانسحاب هذا ، والذى فصلنا فيه القول من قبل، لكن ابن واصل ومن سلك سبيله يتحدثون عما يظن انه كان طموحا فى نفس الأمير فخر الدين وتطلعا إلى السلطة وشوقا إلى العرش ! ويرتبون على ذلك حدوث الجفوة بين السلطان وابن شيخ الشيوخ ، ليس فقط بسبب ما عدوه فرارا وتخاذلا كما جاء على لسان ابن واصل: "لم يكن الملك الصالح نجم الدين أيوب يثق به كل الثقة، سيما وأنه كان متألما منه لرجوعه بالعسكر

---

[٨٧] - أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ،جـ٦ ص ٣٣٦ .

[٨٨] - جوزيف نسيم يوسف ، العدوان الصليبى على مصر ، ص ١٤١ .

من دمياط، وتهاونه بها حتى أخذها الفرنج"[٨٩]، ويردد هذه العبارة نفسها فى موضع آخر بقوله: "إن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ما كان يقف بالأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ، الثقة التى توجب أن يفوض إليه الأمور بعده "ومرة أخرى لا ندرى كيف يمكن أن يقدم سلطان على اختيار شخص لا يثق فيه قائدا عاما لجيشه والحرب قائمة!!

نقول ليس هذا فقط الذى جعل الصالح يزاور عن فخر الدين فى رأى متهمية ، بل راحوا يؤصلون هذه الجفوة ويردونها إلى الأيام الأولى التى اعتلى فيها الصالح عرش سلطنة الديار المصرية، فيقول ابن واصل مكملا عبارته السابقة ، وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب "يعرف همة فخر الدين وتعاليها ، وأنه يوم ملك السلطان مصر ، وأطلق فخر الدين (من سجن القلعة كما قدمنا) ، ركب فخر الدين ركبه عظيمة ، ودعا له المصريون ، واحتفوا به ، فأوجب ذلك أن استشعر منه وألزمه داره "[٩٠] ، يعنى أنه قد خشى جانبه فقرر تحديد إقامته فى داره كما نقول بتعبيرنا الحديث ، ويضيف ابن واصل فى موضع آخر : " إن الأمير فخر الدين رحمه الله كان عالى الهمة جدا ، فكانت نفسه تطمع إلى هذا الأمر "[٩١] .

ومن حقنا أن نتساءل ، إذا كان السلطان قد ارتاب فى أمر الرجل منذ اليوم الأول لتملكه الديار المصرية ، بعد أن أحسن به وأخرجه من السجن ، ألم يك قادرا على أن يعيده إليه ثانية دون أية مساءلة ؟ وهو لا شك أهون عليه من أخيه العادل ، ولماذا حدد إقامته فى داره و لم يذهب أبعد من ذلك ؟ بل لعله من الطريف أن نقول إنه ذهب فعلا أبعد من ذلك ولكن فى الاتجاه الآخر، إذ أن ابن واصل كان قد أخبرنا قبلا فى موضع سابق من كتابه[٩٢] بهذه الرواية مع اختلاف يسير وإضافات قليلة ، ولكنها تحمل دلالات بعيدة وتفسيرات لما أقدم عليه ، قال : "فلما دخل الملك الصالح قلعة الجبل أخرجه ، فركب ركبة عظيمة ، واجتمع له خلق من الرعية ودعوا له لأنه كان محببا من الناس ، لكرمه وحسن سيرته ، فبلغ الملك الصالح نجم الدين ذلك ، فاستشعر منه ، و لم يعجبه ذلك وأمره بلزوم بيته غير مضيق عليه " ، والعبارة الأخيرة هذه " غير مضيق عليه " تشير صراحة إلى أن الأمير أصبح مطلق السراح ، يمارس حياته بصورة عادية بعد خروجه من السجن ، دون أن تقيد حريته أو يتعرض للمضايقة من جانب السلطان ، ويمضى ابن واصل فيقدم ما يمكن أن يعد توضيحا

---

[٨٩] - مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٠ .

[٩٠] - المصدر السابق نفسه ص ٢٨٣ ، وقارن جوزيف نسيم ، العدوان الصليبى على مصر ص ١٠٥ ، ويقول المقريزى : " كثر تردد الناس إلى فخر الدين بن شيخ لشيوخ ، بعد ما أطلقه السلطان من السجن ، فكره السلطان ذلك وأمره أن يلازم داره " ، السلوك ، جـ١، ص ٣٠٩ .

[٩١] - ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٥ .

[٩٢] - ابن واصل ، مفرج الكروب ،جـ٥ ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

لمكانة أولاد ابن الشيخ عند الملك الجديد الصالح أيوب ، فيقول مواصلا حديثه بعد عبارته هذه " واستوزر الملك الصالح أخاه (أخا فخر الدين) معين الدين الحسن ابن شيخ الشيوخ، ومكنه وفوض إليه تدبير المملكة ، فقام بوزارة الملك الصالح أحسن قيام ، وأما أخوهم كمال الدين فبقى على مترلته ومكانته التى كانت له فى أيام الملك الكامل "[٩٣] .

إذن فالأخوان معين الدين وكمال الدين ابنا شيخ الشيوخ يقومان بتولى أمور السلطنة ، أولهما هو الوزير ومدبر المملكة يقوم بمهامه خير قيام إلى الحد الذى جعل الملك الصالح " يقيمه مقام نفسه "[٩٤] ، والثانى حفظت له مكانته التى كانت له أيام الكامل، وجعله الصالح على رأس جيوشه العاملة فى الشام ، وكان طبيعيا أن يقيم الأخ الثالث فخر الدين فى بيته غير مضيق عليه ، وأخواه الآخران يدبران شئون المملكة مدنيا وعسكريا، والصالح يحتاج فى السنوات الأولى من حكمه إلى تدعيم مركزه وسلطانه ضد أبناء البيت الأيوبى فى الشام ، وأنصار أخيه العادل الثانى المعزول فى القاهرة ، ولو كان الشك يخامر السلطان فى نيات وطموح فخر الدين لما أخرجه من السجن ، ولما أنزل أخويه مترلا كريما . ومن ثم فإنه ما أن مات الأخوان كمال الدين ومعين الدين على التوالى ، حتى استدعى السطان الأمير فخر الدين ، وأحله محلهما ، ويقول ابن واصل فى ذلك، " فخلع عليه وأمره وقدمه وأحسن إليه إحسانا كثيرا ، ولم يبق من أولاد شيخ الشيوخ غيره"[٩٥] ، وليس من المعقول أو المقبول أن ينعم السلطان بكل هذه النعم على رجل " استشعر منه" وخاف على نفسه من مكانته بين الناس . بل إن الصالح زاد على ذلك عندما أعطى الخلعة التى كان الخليفة العباسى المستعصم بالله قد بعث بها إلى معين الدين فوصلت بعد وفاته، إلى فخر الدين، " فلبسها الأمير فخر الدين بن الشيخ بمرسوم الملك الصالح"[٩٦] .

ولعله مما تجدر الإشارة إليه هنا أيضا ، أن علاقة السلطان بالأمير كانت تعود إلى ما قبل تولى الملك الصالح عرش مصر ، ليس هذا فحسب ، أعنى أنها لم تكن بمجرد علاقات عادية ، بل هى علاقة المودة والولاء من جانب فخر الدين للصالح ، فيخبرنا المقريزى[٩٧] أن السبب الذى دفع العادل الثانى إلى القبض على فخر الدين وسجنه بالقلعة ، أن ابن شيخ

---

[٩٣] - المصدر السابق نفسه والصفحات نفسها .
[٩٤] - ابن زيبك ، الدر المطلوب، ص ٣٥٤ .
[٩٥] - ابن واصل ، مفرج الكروب، حـ٥ ، ص ٣٥٢ ؛ المقريزى ، السلوك ،حـ١ ، ص ٣٢٢ .
[٩٦] - ابن واصل ، مفرج الكروب ، حـ٥ ، ص ٣٥٢ ؛ ابن العميد ، أخبار الأيوبيين، ص ٣٤ .
[٩٧] - السلوك ، حـ١، ص ٢٨ .

الشيوخ كان يراسل الملك الصالح وهو بدمشق ، فى الفترة التى اشتد فيها الخلاف بين العادل وأخيه الصالح فهل هذا الأمير هو الذى يمكن أن "يستشعر منه السلطان"؟!

ولنمض مع مؤرخنا ابن واصل فى رحلة الحديث عن فخر الدين ، فنجده يقول ، فيما نحن الآن بصدده ، " فلما مات الصاحب معين الدين بن شيخ الشيوخ (أخو فخر الدين) بدمشق ، احتاج السلطان إلى الاستعانة بفخر الدين يوسف ، لشهامته ونجابته ، فأخرجه وقدمه"[98] ، ونحن نسأل ابن واصل ومن سار على هديه ، هل يمكن أن يوصف بالشهامة والنجابة من يتهاون ويتخاذل أمام الأعداء ويضمر الغدر لسيده لهوى فى نفسه ؟! وهل يعقل أن يقدم حاكم مثل الصالح نجم الدين أيوب ، يصفه ابن واصل نفسه بأنه كان " ملكا مهيبا ، عزيز النفس ، حشما عفيفا ، لا يؤثر الهزل ولا العبث ، شديد الوقار ... بلغ من عظيم هيبته أنه كان إذا خرج وشاهد المماليك صورته ، يرعدون منه ، ولا يبقى أحد منهم يجسر يتحدث مع أحد"[99] . نقول هل يعقل أن يقدم الصالح أيوب ، وقد اجتمعت له كل هذه الصفات ، على أن يقرب إليه رجلا يشك فى ولائه له منذ الأيام الأولى لاعتلائه العرش ، حتى لو كان فى أشد الحاجة لذكائه ونجابته وحسن مشورته ؟!

والذى يلفت الانتباه هنا أن ابن واصل عندما كان يحدثنا عن هذه الأمور ، يجئ حديثه مرسلا وكأنه خبير الوقائع بنفسه ، فإذا ما تناول فخر الدين وما يساور السلطان تجاهه ، قدم لروايته بأنه أخبر بذلك أو نما إلى علمه أو قيل له ، وكأنه يلقى بالمسئولية على غيره أو يحترز فيما يرويه ، من ذلك مثلا قوله " وعلمت من جهة قريبة أخرى ، أقوى القرائن عندى ، وهو أن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ما كان يثق بالأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ[100] " ، وأيضا " بلغنى أنه كان فى نفس الملك الصالح من هذا (يعنى الانسحاب من جيزة دمياط) أمر عظيم وحنق عليه[101] .

ويبدو أن هذه الجهة القريبة التى أبلغت ابن واصل وأعلمته بما كان فى كثير من هذه المسائل المتصلة بفخر الدين لم تكن إلا الوزير حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى ، نائب السلطنة فى القاهرة[102] ، وكان هو الآخر مقربا من السلطان الصالح أيوب ، ومن ثم كان

---

[98] - ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٤ .
[99] - المصدر السابق ، نفسه ، ص ٢٧٥ ؛ وراجع أيضا: أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ٦، ص ٣٢١ - ٣٢٤ .
[100] - ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٣ .
[101] - المصدر السابق نفسه ، ص ٢٨٤ .
[102] - جرى ذلك بقلم ابن واصل فى بعض المواضع حين يقول صراحة : " أخبرنى بهذا كله الأمير حسام الدين بن أبى على الهذبانى " ، مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٥٥ ، بينما تتكرر كثيرا عبارة " فحكى لى حسام الدين بن أبى على " ، مفرج الكروب جـ٥ ص٣٦٢، ٣٦٩ ، ٣٧٥ وغير ذلك من الصفحات .

هو وفخر الدين رجلى الدولة المسئولين عن كل أمورها ، يعتمد عليهما السلطان فى تصريف أمور دولته ، وبينما كانت نفس ابن واصل تنطوى على شئ من عدم الارتياح تجاه القائد العام للجيش الأمير فخر الدين ، رغم ثنائه عليه فى أكثر من موضع ، إلا أنه هو الذى تزعم حملة الاتهامات ضده فى الوقت نفسه ، كان من ناحية أخرى يحمل كل المودة والتقدير للوزير حسام الدين ابن أبى على الهذبانى ، حيث كانت تربط بينهما صداقة وطيدة تعود إلى زمن بعيد منذ كان ابن واصل يطلب العلم فى دمشق عام ٦٣٥هـ / ١٢٣٩م[١٠٣] عندما ألقى الملك الصالح عماد الدين إسماعيل صاحب دمشق القبض على حسام الدين مع جماعة من أنصار الصالح نجم الدين أيوب ، كان الملك الناصر داود صاحب الكرك قد أطلق سراحهم ، وأمر الصالح إسماعيل أن يؤخذ جميع ما كان معه (مع حسام الدين) وجعل رجله قيدا وحبسه فى حبس الخيالة بقلعة دمشق ، قال ابن واصل معلقا على ذلك " فأقام حسام الدين فى حبس الخيالة ، وكنت أصعد إلى القلعة واجتمع به فى الحبس فى أكثر الأوقات "[١٠٤].

وعندما ظهر أمر الصالح نجم الدين أيوب ، تحسب عمه الصالح إسماعيل للأمر ، فقام بنقل حسام الدين إلى قلعة بعلبك ، واعتقله فى جب وضيق عليه غاية التضييق ، على حد قول مؤرخنا الذى بعث به حسام الدين إلى القاضى بدر الدين قاضى سنجار ، وإلى محيى الدين بن الجوزى ، رسول الخليفة المستنصر بالله ، للتوسط بينه وبين الملك الصالح عماد الدين إسماعيل صاحب دمشق ليطلقه من الحبس ، غير أن هذه الوساطة لم تؤت ثمارها المرجوة ، وظل الأمير حسام الدين فى محبسه هذا حتى أطلق الصالح إسماعيل سراحه بعد ذلك فى عام ٦٤١هـ / ١٢٤٣م[١٠٥] .

و لم تلبث أواصر الصداقة بين حسام الدين بن أبى على الهذبانى وجمال الدين بن واصل أن راحت تزداد رسوخا بعد مجئ مؤرخنا إلى مصر ، وما لقيه من الحفاوة والتكريم على يد نائب السلطنة حسام الدين ، وسوف أترك القلم هنا لابن واصل ليقص علينا بنفسه كيف كان ذلك ، يقول " وكان دخولى إلى القاهرة فى المحرم من هذه السنة (٦٤١هـ / ١٢٤٣م) ، واجتمعت بالأمير حسام الدين بن أبى على ، وكان السلطان الملك الصالح (نجم

[١٠٣] - ابن واصل ، مفرج الكروب جـ٥ ص ١٩٤ .
[١٠٤] - المصدر السابق ،جـ٥ ، ص ٢٤٣ .
[١٠٥] - المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٢٤٣ ، ٣٢٨ .

الدين أيوب) قد أنزله فى الدار المعروفة بدار الملك[١٠٦] على شاطئ نيل مصر فى مدينة مصر ، وهى دار عظيمة من آدر خلفاء مصر (الفواطم) ليكون قريبا منه ، فإن السلطان كان نازلا فى قصوره بقلعة الجزيرة ، وهى القلعة التى أنشأها بالجزيرة (الروضة) ، وكان عنده (يعنى حسان الدين) فى أعظم المنازل ، وأعطاه خبزا جليلا ، فأحسن إلى وأنزلنى فى داره التى بالقاهرة ، وهى دار جليلة بدرب الديلم[١٠٧] وأدرنى إنعامه وإحسانه "[١٠٨] . وعلى هذا النحو الذى فصله مؤرخنا ندرك إلى أى مدى كان حسام الدين يطوق عنق ابن واصل بجميل نعمائه وإحسانه ، ولا غرابة أن يحاول ابن واصل رد هذا الجميل .

وقد أفصح ابن واصل تماما عن مكنون نفسه تجاه قطبى الدولة فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ، نعنى الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ مقدم العسكر ، والأمير حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى نائب السلطنة . وجاءت عباراته عن الرجلين واضحة كل الوضوح فى الإقرار بفضل الحسام عليه ، والتحامل على فخر الدين مما أدى إلى وقوفه أمام محكمة التاريخ ! وسوف نورد هنا بعضا مما سجله قلم ابن واصل ، يبين بما لا يدع مجالا للشك أن هوى مؤرخنا كان مع الحسام ، يقول " ولم ينص (الملك الصالح نجم الدين أيوب) على من يقوم بالأمر بعده ، ولو أوصى لما خرج الأمر عن حسام الدين محمد بن أبى على ، إذ لم يكن يعتمد على أحد غيره . وأما فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ ، فلم يكن الملك الصالح نجم الدين أيوب يثق به كل الثقة "[١٠٩] . ولو أن الأمر اقتصر فى الحديث على حسام الدين فقط ، لكان من الممكن أن يمضى

---

١٠٦ - " وهى من إنشاء الأفضل بن أمير الجيوش ن بدأ فى بنائها وإنشائها سنة ٥٠١هـ / (١١٠٧ - ١١٠٨م) ، فلما كملت تحول إليها من دار القباب بالقاهرة وسكنها وحول إليها الدواوين من القصر ، فصارت بها وجعل فيها الأسمطة ، واتخذ بها مجلسا سماه مجلس العطايا كان يجلس فيه ، فلما قتل الأفضل صارت دار الملك هذه من جملة متنزهات الخلفاء ، وكان بها بستان عظيم ، وما زالت عظيمة إلى أن انقرضت الدولة (الفاطمية) ، فجعلها الملك الكامل دار متجر ، ثم عملت فى أيام الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى دار وكالة " . راجع المقريزى ، الخطط جـ١ ص ٤٨٣ .

١٠٧ - عرفت بهذا الاسم لنزول الديلم الواصلين مع هفتكين الشرابى حين قدم ومعه أولاد مولاه معز الدولة البويهى وجماعة من الديلم والأتراك فى سنة ٣٦٨هـ / ٩٧٨م . فسكنوا بها فعرفت بهم " راجع المقريزى الخطط جـ٢ ص ٨ - ٩ ، والديلم نسبة إلى المنطقة التى قدموا منها ، منطقة الديلم وهى جزء من بلاد فارس تقع جنوبى بحر قزوين .

١٠٨ - ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٥ ، ص ٣٣٤ .

١٠٩ - المصدر السابق ، الملحق المذكور ص ٢٨٠ .

قول ابن واصل دون إثارة أى تساؤل ، فقد كان حسام الدين فعلا من المخلصين المقربين إلى الصالح ، أما إقحام اسم فخر الدين هنا دون داع يستدعيه الحديث ، فلابد أن يبعث عند أى باحث عوامل القلق ، إذ أن المقارنة هنا بين الرجلين من جانب ابن واصل متعمدة ومقصودة لذاتها، وليس هناك ما يستوجب الإتيان بها على هذا النحو ، وإن كان ما يقوله هذا يدفعنا إلى الدهشة مرة أخرى ، إذ كيف لا يثق الصالح بفخر الدين كل الثقة ويعهد إليه بقيادة الجيش فى أحلك الظروف ؟!

ويعود ابن واصل ليؤكد هذا المعنى مرة ثانية فى موضع آخر حين يقول : " ثم جرى من فخر الدين يوسف ، من رجوعه عن ثغر دمياط ، حتى بلغنى أنه كان فى نفس الملك الصالح من هذا أمر عظيم ، وحنق عليه ... فتحقق عندى من هذا وما أشبهه ، أن الملك الصالح نجم الدين أيوب لو أوصى إلى أحد بتدبير الملك بعده ، ما عدل عن حسام الدين بن أبى على "[١٠٩] .

ولعل هذه العبارات وما شابهها تكشف جانبا هاما من تحامل ابن واصل على الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، وتوضح أن ابن واصل كان بكل قلبه وجوارحه ، مع الوزير حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى ، وكان يتمنى أن يعهد إليه السلطان بأمور البلاد من بعده أو يوصى بذلك ، بل ذهب مؤرخنا أبعد من ذلك عندما أشار صراحة إلى كراهية الملك الصالح نجم الدين أيوب لولده غياث الدين تورانشاه ، الذى عرف بالملك المعظم ، لما كان فيه على حد قول ابن واصل من "هوج واضطراب"[١١٠] ، ويمضى قائلا : " وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب، لكراهته لابنه المعظم ، لم يأذن له فى القدوم عليه إلى مصر ، مع حاجته إلى من يقوم مقامه بها ، ويكون ولى عهده إذا مات ، وبلغ من كراهته له ما أخبرنى به الأمير حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى "[١١١] .

وقد فات على ابن واصل ما ذكره فى كتابه فى موضعين[١١٢] من أن السلطان أوصى فعلا بما يجب أن يتم حالة وفاته، وأنه ترك هذه "الوصية الشفهية" مع وزيره حسام الدين حين قال له يوما: "إذا قُضى علىّ بالموت ، فلا تسلم البلاد إلا للخليفة المستعصم بالله (العباسى) ليرى فيها رأيه ". وفى الموضع الثانى يقول : "وكان السطان الملك الصالح لا

[١٠٩] – المصدر السابق نفسه ،ص ٢٨٤ .

[١١٠] – المصدر السابق نفسه، ص ٢٧٨ .

[١١١] – المصدر السابق نفسه ،ص ٢٧٩ .

[١١٢] – المصدر السابق نفسه، ص ٢٧٩ ، ٢٨٤ .

يعتمد فى حفظ الديار المصرية إلا على حسام الدين محمد بن أبى على ، حتى أنه فى السفرة الأولى (يعنى ذهابه إلى الشام) قال له (أى للحسام) إنى أسافر ، وأخاف أن يعرض لى موت، وأخى فى قلعة الجبل (يقصد العادل الثانى الذى قدمنا ما كان من أمره) ، فربما استولى على الأمر فيهلككم ، وذكر لى أشياء شتى مما لايمكننى أن أسطره " !! وقال له مرة أخرى : " إن حدث موت ، فسلم البلاد إلى الخليفة المستعصم بالله ، يرى فيها رأيه " !! هكذا - كما يخبرنا مؤرخنا - أفصح الملك الصالح لوزيره عن مكنون نفسه ، وأنه ليس فى نيته أن يعهد لأحد من بعده بالسلطنة وأنه ترك هذه المهمة الثقيلة للخليفة العباسى - هذا ما يقوله ابن واصل ، وسوف يكون لنا عود إليه ثانية لمناقشته فيما يرويه .

أما الآن فعلينا أن نشد الرحال إلى القصر السلطانى بالمنصورة بعد وفاة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، حيث كتمت زوجه شجر الدر خبر وفاته إلا عن الأمير فخر الدين مقدم العسكر ، والطواشى جمال الدين محسن ، والطيب فتح الدين . وكان أول إجراء أقدمت عليه شجر الدر ، بنص كلمات ابن واصل بالحرف الواحد : " ثم أحضرت (شجر الدر) الأمراء بالدهليز السلطانى ، وقيل لهم إن السطان قد رسم أن تحلفوا له ، ولابنه الملك المعظم (تورانشاه) بعده ، وللأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بالتقدم على العسكر ، والقيام بالأتابكية ، وتدبير المملكة . فأجابوا كلهم إلى ذلك ، وحلفوا الأمراء والأجناد ومماليك السلطان "[١١٣] . ولم يرد هنا ذكر مطلقا للوزير حسام الدين محمد ابن أبى على الهذبانى نائب السلطنة . ولم يكن من بين من تم اختيارهم ليؤتمن على كتمان خبر موت الملك الصالح ، رغم ترشيح مؤرخنا له ليكون الأحق بتدبير أمور الدولة بعد رحيل السلطان !!

والسؤال الذى ألحفنا فى طرحه سابقا ما زال قائما ، هل يمكن أن تقدم شجر الدر، زوج السلطان الراحل، على أن تخص الأمير فخر الدين بخبر وفاة زوجها . وائتمانه على هذا السر ، إلا لكونها تعلم عنه من زوجها أنه كان موضع سره ومستشار أمره ؟ بل كيف تقدم على اختياره أتابكا للعسكر ، أى تثبيته فى منصبه الذى كان قد وضعه فيه الصالح ، ثم تعهد إليه إضافة إلى ذلك بتدبير المملكة ، إذا لم تكن على يقين من أنه كان موضع ثقة زوجها، وأنه خليق بتحمل المسئولية والاضطلاع بها فى ظل هذه الظروف السيئة التى تحيق بالديار المصرية ؟ وشجر الدر مشهود لها من كل المؤرخين المعاصرين بالحكمة وحسن التدبير . ثم إذا كان الأمير فخر الدين يبتغى حقا القفز على عرش السلطنة ، ألم تكن هذه هى الفرصة

---

[١١٣] - المصدر السابق نفسه ص ٢٨٢ .

المناسبة التي جاءته تسعى ، وما كان عليه إلا أن يفترصها ليغدو بين يوم وليلة سلطانا للديار المصرية ، وأن الأمراء والعساكر والأجناد قد "حلفوا" على السمع والطاعة ، وأعلنوا رضاءهم على هذا الاختيار ؟ أم تراه كان يؤخر هذا الأمر حتى يقدم الملك المعظم تورانشاه إلى مصر ، فيدخل معه فى معركة حول العرش ؟ وهل يعقل هذا ؟ وابن واصل يخبرنا بما تم عليه الأمر فى هدوء تام يعود إلى حكمة شجر الدر وخاصة السلطان الراحل ، ودقة الموقف فى مصر ، يقول : " واتفقوا جميعهم على أن يقوم بتدبير المملكة الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، إلى أن يقدم الملك المعظم بن الملك الصالح نجم الدين أيوب من حصن كيفا ، وأن يحلف الناس للملك الصالح نجم الدين أيوب ، ولابنه الملك المعظم بعده بولاية العهد ، وللأمير فخر الدين بأتابكية العسكر ، والقيام بأمر الملك "[١١٤] . ولنتأمل معا أن ابن واصل أورد اسم فخر الدين هنا وما عهد إليه من الأمر مرتين فى أربعة سطور فقط ، وصدرها بقوله " واتفقوا جميعهم " ، بمعنى أن هذا كان يلقى استحسان الجميع .

هذا الرجل ، الأمير فخر الدين ، وضعت المقادير بين يديه كل مقاليد السلطة فى مصر! فالسلطان الصالح نجم الدين مات وفخر الدين هو مقدم الجيش ، وشجر الدر زوج السلطان الراحل أبقته فى منصبه ، وأخذت له العهود والمواثيق بالولاء من الأمراء والعساكر والأجناد ، وعهدت إليه فوق هذا بتدبير أمور المملكة ، ولم يبق -إن شاء- إلا أن يعلن نفسه سلطانا ، ولكنه لم يفعل ! ترى ... هل كان انسحابه من جيزة دمياط إذن لرغبته الجامحة -كما قيل- فى اعتلاء عرش السلطنة ، حيث كانت نفسه -كما قيل أيضا- تطمع فى هذا الأمر ؟! هذا قول يرفضه أى تفكير منطقى ، بل لعل الدليل العملى القاطع على تبرئة فخر الدين من التهم المنسوبة إليه ، يقدمه لنا ابن واصل نفسه فى قوله وهو يرثيه " كان أميرا فاضلا ، عالما متأدبا ، جودا سمحا ، عالى الهمة كبير النفس ، ما كان فى اخوته مثله ، بل ولا فى غير اخوته " !![١١٥] ، وهذا يعنى أن ابن واصل ، مع كل ما قاله عن طموحه للسلطة وطمعه فيها ، لم يملك إلا أن يجعله أفضل الناس فى زمانه ، بحيث لم يكن فى اخوته ولا غيرهم من الناس مثله ، ولابد أن يكون حسام الدين بن أبى على الهذبانى ضمن هؤلاء الغير . أما النويرى فيذكر أن جماعة من الأمراء المماليك الصالحية تنكروا للأمير فخر الدين بن الشيخ ، وعزموا على قتله لدسيسة وصلت إليهم ، فاستدعاهم " وأعلمهم أنه لا طمع له فى الملك ولا رغبة ، وأنه إنما يحفظه للملك المعظم إلى أن يصل "[١١٦] . ويكمل سبط بن الجوزى

---

[١١٤] - المصدر السابق نفسه ص ٢٨١ .

[١١٥] - المصدر السابق نفسه ص ٢٩٣ .

[١١٦] - النويرى ، نهاية الأرب جـ٢٩ ص ٣٣٨ .

هذه الصورة بقوله : " وحسد الجند فخر الدين وعزموا على قتله ونهب داره ... وكان المتهم بذلك الخادم محسن (يقصد الطواشى جمال الين محسن)"[117] وهكذا أضيف إلى قائمة المتربصين به واحد آخر من رجال الدولة . أما ابن كثير[118] فيقول : " وكان (الأمير فخر الدين) فاضلا دينا مهيبا، وقورا بالملك، كانت الأمراء تعظمه جدا، ولو دعاهم إلى مبايعته بعد الصالح لما اختلف عليه اثنان، ولكنه كان لا يرى ذلك، حماية لجانب بنى أيوب"، ويضع أبو المحاسن[119]، اللمسات الأخيرة فى هذه الصورة الدالة على الولاء والوفاء من جانب فخر الدين للصالح وبنى أيوب فيقول: "كان عاقلا جوادا ممدحا مدبرا خليقا بالملك محبوبا إلى الناس، ولما مات الملك الصالح نجم الدين أيوب... ندب إلى الملك فامتنع، ولو أجاب لما خالفوه". وهذه العبارة الأخيرة بنصها ذكرها من قبل المؤرخ المعاصر سبط بن الجوزى.

ولا يمكن مطلقا أن تجتمع كل هذه الأقوال فى رجل راودته نفسه يوما ما عن عرش السلطنة ، وحدثته بأن يترك واجبه فى ميدان المعركة وهو القائد العام ليستولى على السلطة من ملك يعالج سكرات الموت فى مرضه الأليم ! بل لقد ندب إلى الملك فأبى ولو شاء لكان له ما أراد، لكن نفسه المطمئنة ما كانت تنطوى إلا على الوفاء النادر لبنى أيوب ، بحيث لم يكن هناك فى زمانه من له بين الناس خصاله ، على حد قول مؤرخنا ابن واصل .

ومن الجدير بالذكر هنا استكمالا لهذا الجانب الذى نتحدث عنه الآن ، القول إن شجر الدر بعثت إلى القاهرة بما تم الاتفاق عليه فى المنصورة ، ليعلن على الجميع ما اتخذ من قرارات فى هذا الشأن . يقول ابن واصل : " ورد المرسوم إلى القاهرة إلى الأمير حسام الدين محمد بن أبى على، بأن يحلف أكابر الدولة وأجنادها بالقاهرة على ما وقع التحليف عليه بالمنصورة ووقع التحليف على النحو المذكور "[120] .

ولعل عبارة وردت عند ابن واصل[121] تجعل من كل ما قاله قبلا عن إيثار الصالح نجم الدين أيوب لوزيره حسام الدين ، يذهب مع الريح ، يقول : " وبولغ فى كتمان موت السلطان الملك الصالح عن كل أحد ، من كبير فى الدولة أو صغير ، حتى على الأمير حسام الدين محمد بن أبى على ، نائب السلطنة بالديار المصرية (!!) وكانت الكتب ترد من المعسكر (المنصورة) إليه ، ويكتب فيها علامة السلطان ... وكان حسام الدين محمد بن أبى

---

[117] - سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان حـ٨ ص ٧٧٦ .
[118] - البداية والنهاية حـ١٣ ص ١٧٨ .
[119] - النجوم الزاهرة ،حـ٦، ص ٣٣٦ .
[120] - ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٢ .
[121] - المصدر السابق نفسه، ص ٢٨٣ .

على يظن أن السلطان حى ، وأن الخط الوارد إليه فى الكتب خطه " (!!) ، ولو كان الأمر كما يقول ابن واصل متمنيا ، لعُهد إلى حسام الدين فى ذلك المرسوم بتدبير أمور الملك لكونه الأقرب إلى ذلك باعتباره نائب السلطنة . والغريب فى الأمر أن مؤرخنا يقول فى الفقرة التالية مباشرة " إن السلطان ما كان يثق فى الأمير فخر الدين بالثقة التى توجب أن يفوض إليه الأمور من بعده " !! فكيف يمكن قبول هذا التضارب فى أسطر متتاليات ؟! ومرة أخرى لو كان الأمر كما يقول ابن واصل ، لانتقلت عدوى عدم الثقة هذه من السلطان قبل موته إلى زوجه شجر الدر ، ولتم إقصاء فخر الدين عن موقعه ، هذا إذا افترضنا أصلا عجز السلطان عن القيام بذلك .

وقد ظلت المراسلات تدور بين الأمير فخر الدين أتابك العسكر ومدبر الأمور فى الدولة وبين حسام الدين نائب السلطنة فى القاهرة ، فى ظل وإطار المودة الظاهرة والمجاملة الرقيقة من كل منهما تجاه صاحبه ، مثل ، من " فخر الدين الخادم يوسف " ومن " حسام الدين المملوك أبو على بن أبى على ، وبينهما مجاملات فى الظاهر "[١٢٢] .

وملأ ابن واصل ، والمؤرخون من بعده نقلا عنه ، الدنيا ضجيجا بما فعله الأمير فخر الدين طيلة خمسة وسبعين يوما قام خلالها بتدبير الأمور فى السلطنة ، فيقول ابن واصل: "... وفخر الدين يعمل على الاستبداد والاستقلال بالأمر، إن تعذر وصول الملك المعظم، وصار لفخر الدين موكب عظيم بالمنصورة ، والأمراء كلهم فى خدمته ، ويترجلون له كلهم عند النزول ويحضرون لسماطه "[١٢٣] . ونتساءل ، ما الذى كان يتوقعه ابن واصل من رجل عهد اليه رسميا بـ "التقدمة على العساكر ، والقيام بالأتابكية ، وتدبير المملكة " ؟ أليس كل ما "يشنع" به ابن واصل هنا على الأمير فخر الدين هو ما تتطلبه هيبة هذه المناصب التى يتولاها وتقاليدها ؟ وهل كان من المفروض أن يقبع الرجل فى مقر قيادته بمعسكر المنصورة محتجبا عن الأمراء والعساكر والناس ؟!

وليت الأمر اقتصر على هذا الاتهام الذى لا يخلو من طرافة ، بل امتد ليشمل فى الإطار نفسه أن فخر الدين "شرع فى إطلاق المحبوسين ، ثم أفرج عن أكابر من الأعيان كان الملك الصالح نجم الدين أيوب اعتقلهم " ، وكان من بين هؤلاء جمال الدين بن مطروح ، الذى كان نائب السلطنة فى دمشق ، والشاعر بهاء الدين زهير الذى رده إلى منصبه ، يعنى ديوان الإنشاء ، ولسنا فى حاجة إلى القول أن الأمور بعد وفاة الصالح ، وإن كان خبر ذلك

---

[١٢٢] – المصدر السابق نفسه، ص ٢٨٧ .

[١٢٣] المصدر السابق نفسه ، ص ٢٨٧ وراجع حاشية ٥٣ .

ما زال سرا ، كانت تقتضى الاستعانة برجال يكنون لمدبر المملكة الاحترام ، ويمكن الاعتماد عليهم فى تصريف الأمور ، خاصة إذا علمنا أن الأسباب التى من أجلها استغنى الملك الصالح عن خدمات هذين الرجلين ، ابن مطروح والبهاء زهير ، لم تكن شكا فى ولائهما ، وإلا كان مصيرهما غير ما آل إليه[١٢٤] .

واحتوى هذا الجزء من الاتهام نقاطا أخرى مفادها أن الأمير فخر الدين " أخذ فى التصرف فى الأموال ، فأطلق منها جملة، وخلع على خواص الأمراء ، وأطلق السكر والكتان إلى الشام"[١٢٥] ، ولا نملك تعليقا على جملة ما احتواه هذا الاتهام الأخير إلا أن نسوق هنا نص ما قاله سبط بن الجوزى[١٢٦] فى ذلك : " ... ولما وصل تورانشاه (إلى مصر) أخذ مماليك فخر الدين الصغار وبعض قماشه بنصف القيمة ، ولم يعطهم درهما ولا عوض الورثة شيئا ، وكان الثمن خمسة عشر ألف دينار . وكان إذا جلس جعل حسنات فخر الدين سيئات ، يقول ، أطلق الكتان والسكر وأنفق الأموال ، فإيش ترك لى أنا (!!) " ، وهكذا لم يكن فعل فخر الدين هذا إلا حسنات حسده عليها تورانشاه ، وطفحت غيرته الشديدة على لسانه ! ويضيف ابن الجوزى معلقا فى سخرية لاذعة : " فكان حفظ فخر الدين للملك وسياسته للعسكر ومقاتلته للأعداء من أكبر ذنوبه !!

---

[١٢٤] - عن سبب غضب الملك الصالح على البهاء زهير راجع أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص ٣٣٤ — ٣٣٥ . ومن المعروف أن بهاء الدين زهير كان مولعا بحب مصر ونيلها ، لا يعدلهما عنده أى شئ آخر . حتى قيل فيه إنه " مصرى المنشأ ، مصرى الروح ، مصرى العاطفة " . وهو الذى أنشأ الرسالة التى بعث بها الملك الصالح نجم الدين أيوب الى الملك لويس التاسع عند قدومه فى أول الأمر الى الديار المصرية ، والتى أتينا على ذكر منها من قبل . أما الشاعر والسياسى جمال الدين يحى بن مطروح فقد قام بخدمات جليلة من الناحيتين السياسية والعسكرية للملك الصالح نجم الدين أيوب ، بجدها مبسوطة عند مقريزى فى السلوك ،جـ١، ص ٢٨٤ - ٢٩٦ ، ٣١٦ ، ٣٢٦ ، ٣٣٢ ، حتى أصبح من أرباب السيوف والقلم ، ولم يذكر مقريزى شيئا أكثر من قوله . وفى سنة ٦٤٦هـ "عزل الصاحب جمال الدين بن مطروح عن دمشق " دون أن يورد أسباب ذلك ، وكنا نعلم من قصيدة جميلة قالها ابن مطروح مستعطفا الصالح ، أن ما جرى له كان نتيجة لسعى الوشاة والحاقدين جاء فيها :

من مبلغ عنى المليك الأروعا — عن عبده يحى مقالا مقنعا
ولو ادعيت بأن مالك ناصح — مثلى شهدت بصدق ذاك المدعى
ولطالما جربتنى فوجدتنى — أجدى من الملأ الكثير وأنفعا
فعلام بعد الاصطفاء نبذتنى — نبذ النواة بقول واش قد سعى
وسمعت فى حقى كلام معاشر — أقصى مناهم أن أبيت مضيعا

وقد نظم ابن مطروح قصيدة طريفة عندما ترددت أنباء اعتزام لويس التاسع العودة الى مصر فى حملة جديدة . بعد هزيمته الساحقة فى الحملة الصليبية السابعة التى قاده ، وأسره فى دار ابن لقمان بالمنصورة ، وحذره فيها من سوء المصير الذى ينتظره إذا رام فى ذلك جاء فيها :

قل للفرنسيس (الملك) إذا جئته — مقال صدق عن قئول فصيح
آجرك الله على ما جرى — من قتل عباد يسوع المسيح
وقل لهم إن أضمروا عودة — لأخذ ثأر أو لقصد صحيح
دار ابن لقمان على حالها — والقيد باق والطواشى صبيح

عن حياة وأدب بهاء الدين وجمال الدين يحى بن مطروح ، راجع ، محمد زغلول سلام ، الأدب فى العصر الأيوبى ، ص ٥١٧ - ٥٤٠ .

[١٢٥] - ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٥ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٣٤٤ .

[١٢٦] - مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٧٧٧ .

ومن الأهمية بمكان أن نذكر هنا أيضا أن الأمير حسام الدين الهذبانى ظل على اعتقاده أن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ما زال حيا ، طالما كانت المكاتبات ترد إلى القاهرة من المنصورة ممهورة بتوقيع السلطان، ولم يفق من هذا "الوهم" إذا صح هذا التعبير إلا على يد مؤرخنا جمال الدين ابن واصل الذى اكتشف بفراسته فى التمييز بين الخطوط ومعرفتها، وأقسم بـ "الله العظيم" على صحة ما يقول من مضاهاة الرسائل الواردة من المنصورة إلى نائب السلطنة بالقاهرة ببعضها، "فتبين مخالفة الخط للخط"، ثم يقول ابن واصل، وهذا هو بيت القصيد، "فغلب على ذهن حسام الدين إذن ما قلته، وأخذ فى التبيين عنه، والكشف من خواص السلطان نجم الدين أيوب بالمعسكر، فتحقق موته. وحينئذ اشتد خوفه من الأمير فخر الدين يوسف أن يغلب على الملك، ويستبد به لنفسه، فإن الأمير فخر الدين رحمه الله كان عالى الهمة جدا ، فكانت نفسه تطمع إلى هذا الأمر"[١٢٧].

هكذا فى لحظة من لحظات الصدق مع النفس، كشف مؤرخنا عن حقيقة مكنون نفس صديقه الأثير الأمير حسام الدين، وما يعتمل فى صدره تجاه الأمير فخر الدين مما دفع نائب السلطنة إلى "الخوف الشديد" من أن "يستبد" ابن شيخ الشيوخ بالأمر دونه، فيصبح من بعد نسيا منسيا! ويعلق المقريزى[١٢٨] بذكاء على ما كان من حسام الدين بقوله "فاحتاط لنفسه".

وهذا ينقلنا تلقائيا إلى النقطة التالية حتى تكتمل الصورة وضوحا ، نعنى جماعة القصاد الذى تم إرسالهم من معسكر المنصورة لإحضار الملك المعظم تورانشاه ابن الصالح من حصن كيفا فى ديار بكر ، ويصر ابن واصل على أن يؤكد فى كل فقرة هنا مدى طمع الأمير فخر الدين فى القفز على عرش السلطنة ، والسعى نحو ذلك حثيثا ، فيظهره بمظهر الكاره لهذا الإجراء حين يقول " وما أمكن فخر الدين يوسف إلا الموافقة على ذلك "[١٢٩]، مع إنا نعلم من ابن الجوزى[١٣٠] وهو معاصر لتلك الأحداث ، شأن ابن واصل ، وكذلك يخبرنا ابن أيبك[١٣١] والمقريزى[١٣٢] أن فخر الدين بعث بالقصاد إلى تورانشاه يستحثه على الحضور لتولى زمام الأمور . وكان على رأس من بعث بهم القصر السلطانى فى المنصورة الأمير فارس الدين أقطاى ، ولم يكن حسام الدين بالذى ينتظر الغير يقررون له المصير، ومن

---

[١٢٧] - ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٤ - ٢٨٥ ، وقارن ما جاء بهذا الخصوص عند المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٣٣٩ .

[١٢٨] - المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٣٤٤ .

[١٢٩] - ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .

[١٣٠] - مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص ٧٧٦ .

[١٣١] - الدر المطلوب، ص ٣٧٣ .

[١٣٢] - السلوك ، جـ١ ، ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .

ثم فإنه عملا بمبدأ " الحيطة والحذر " كما أشار المقريزى ، بعث هو الآخر من لدنه رسولا من مماليكه الخواص يعرف بـ " زين الدين العاشق " ، إلى تورانشاه يرجوه سرعة الحضور خوفا من أن تخرج البلاد من يده[١٣٣] ، ولم يكن هذا الايحاء الأخير إلا لينسحب على الأمير فخر الدين ، وفى الوقت نفسه قام حسام الدين بالقبض على الملك المغيث ان الملك العادل الثانى ، وسجنه فى القلعة ، " وأمر والى القلعة بالاحتفاظ به والاحتياط عليه ، وألا يسلمه إلى من يطلبه منه ، مخافة أن فخر الدين ربما طمع فى السلطنة ، ليستولى على المملكة ويديرها باسمه (أى المغيث) الذى كان عمره آنذاك أربعة عشر عاما[١٣٤] ، ويضيف ابن واصل صراحة أن رسول حسام الدين وصل إلى حصن كيفا، واجتمع بالملك المعظم، وحثه على سرعة الوصول إلى الديار المصرية ، وقال له: "إن تأخرت فات الأمر، وتغلب الأمير فخر الدين على البلاد، وربما جعلها باسم ابن عمك الملك المغيث بن الملك العادل"[١٣٥]. ولعل هذا يعيد إلى الأذهان ما ذكره مؤرخنا سابقا عن الخوف الذى تملك حسام الدين خشية أن يقفز فخر الدين إلى عرش السلطنة بعد أن تيقن الحسام من موت الملك الصالح.

وحتى تكتمل هذه الصورة تماما، نواصل رحلتنا مع حديث ابن واصل حتى ندرك حقيقة الاتهامات التى كالها للأمير فخر الدين ، وموقف الأمير الوزير حسام الدين ، الذى كان مؤرخنا يرشحه ليكون خلفا للملك الصالح . يقول مؤرخنا : " لما تواترت الأخبار بقرب وصول الملك المعظم تورانشاه إلى الديار المصرية ، خرج الأمير حسام الدين نائب السلطنة إلى لقائه ، وخرجت أنا فى صحبته ، (وهذا يوضح مدى العلاقة التى كانت تربط بين حسام الدين وابن واصل ، والتى أشرنا إليها من قبل ، ومحاولة ابن واصل فى الوقت نفسه التعرف إلى تورانشاه) ، فالتقيناه بالصالحية ... وخلع الملك المعظم بالصالحية على الأمير حسام الدين خلعة سنية تامة ، ومنطقة وسيفا محلى بالذهب والجوهر ، وسير إليه فرسا من أجود الخيل بخلعة مذهبة ، وبعث إليه ثلاثة آلاف دينار ، فلبس الأمير (حسام الدين) الخلعة وقبل حافر الفرس ، وركبه"[١٣٦].

وهكذا " احتاط حسام الدين لنفسه " كما يقول المقريزى ، وأفلحت سعايته تماما فى إيغار صدر تورانشاه على فخر الدين قبل أن تطأ قدم المعظم أرض مصر ، ولم ينقذ فخر الدين من بطش تورانشاه وأعوانه وانتقامهم جميعا منه إلا استشهاد ابن شيخ الشيوخ قبل

---

[١٣٣] – ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٦ .
[١٣٤] – المصدر السابق نفسه ، ص ٢٨٦ – ٢٨٧ .
[١٣٥] – المصدر السابق نفسه ، ص ٢٨٧ .
[١٣٦] – المصدر السابق نفسه ، ص ٢٩٥ – ٢٩٦ .

مجئ المعظم. وكان الذى ساعد حسام الدين على أن ينال الحظوة لدى تورانشاه ، ويحصل على خلعه وهداياه كما رأينا ، إلى جانب اقناعه بسرعة الحضور إلى مصر قبل أن تفلت الأمور من بين يديه بزعمه ، أنه كانت تربط بين الرجلين ، تورانشاه وحسام الدين علاقات قديمة منذ أنعم الملك الصالح على ولده هذا بحصن كيفا ، وأمر حسام الدين أن يقيم معه أتابكا له[١٣٧] . ومن ثم لم يجد نائب السلطنة فى القاهرة صعوبة فى استغلال هذه العلاقة القديمة لمصلحته الخاصة و "الاحتياط لنفسه" ، ولو أن الأمير فخر الدين كان يضمر السوء حقا للمعظم تورانشاه ، لأوعز إلى أحد من ملوك بنى أيوب فى الشام ، أو لصاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ ، بصفة خاصة ، وكلهم كان يمتلئ بالكراهية الشديدة لتورانشاه لطيشه وسفه وتكبره ، ولتم القبض عليه أثناء قدومه من كيفا فى أعالى العراق إلى مصر ، ولكن فخر الدين لم تحدثه نفسه بمثل ذلك ، لأنه كما قال ، " كان يحفظ الملك لابن سيده " .

والآن .. ترى من الذى يسعى إلى السلطة حثيثا ، والى أن يظل دوما فى دائرة الضوء ؟ الأمير فخر الدين الذى ظل فى المعسكر السلطانى فى أشموم طناح ثم المنصورة ، يعد العدة مع الصالح أيوب أولا ، ثم متحملا المسئولية كاملة ، أتابكا للعسكر ومدبرا للملكة ، فى مواجهة الغزو الصليبى ، أم الأمير حسام الدين الذى كان يتملكه الخوف من أن ينفرد فخر الدين بالسلطنة – على حد تعبير صديقه ابن واصل ، حتى أنه بذل كل ما فى وسعه لحث المعظم ليسرع بالعودة إلى مصر ، موغرا صدره على فخر الدين ، ثم كان فى أول مستقبليه عند عودته ، فكان من أمر الهدايا والخلع التى خلع عليه ما كان على النحو الذى رأينا . ولعل هذه الصورة تظهر أكثر وضوحا إذا عدنا إلى معسكر المنصورة لنرى الأمير فخر الدين يؤدى واجبه العسكرى المنوط به حتى آخر لحظات عمره . وأى شئ أكبر شهادة مما يقوله مخاصمه ابن واصل نفسه : " وكان الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ يغتسل فى الحمام ، فأتاه الصريخ بأن الفرنج قد دهموا المعسكر ، فركب (الأمير فخر الدين) دهشا غير مستعد ولا متحفظ (دون أن يتدرع) ، فصادفه جماعة من الفرنج فقتلوه ... وختم الله له بالشهادة ، رحمه الله ورضى عنه "[١٣٨] ، ويضمن ابن واصل حديثه هذا كثيرا من الصفات النبيلة التى يخلعها على فخر الدين ، والتى جئنا على ذكرها من قبل وإن كان يغتسل فى الحمام " ، فيبدو مشغولا بنفسه عن جيشه ، وهذا أمر يفنيه مؤرخ معاصر آخر وهو سبط

---

[١٣٧] – ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٥ ، ص ١٨٩ – ٢٠٩ .

[١٣٨] – ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٩٣ ، ويورد ابن أيبك العبارات نفسها ، الدر المطلوب ، ص ٣٧٦ وكذا المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٣٤٩ .

بن الجوزى[١٣٩] حيث يقول : " ... فركب فخر الدين وقت السحر ليكشف الخبر ، وأنفذ إلى الحلقة (جند الحلقة) والأمراء ليركبوا ، وساق جريدة معه بعض مماليكه وأجناده ، فالتقى طلب (كتيبة) الداوية مصادفة فحملوا عليه ، فهرب من كان معه ، وثبت هو ، فطعنوه فى جنبيه ، فوقع عن فرسه ، فضربوه ضربتين فى وجهه طولا وعرضا بالسيف وقتلوه .. وكان له من العمر يوم مات ست وستون سنة ، رحمه الله تعالى " . وهكذا جاءت نهاية فخر الدين فوق جواده فى ميدان المعركة .

وحتى تتضح الصورة تماما ، ونقف على كل ما فعله الأمير فخر الدين ، باعتباره قائدا عاما للجيش ، قبل أن يلقى الشهادة فى جديلة ، علينا أن نعود إلى الوراء قليلا ، نعنى منذ تلك اللحظة التى قرر فيها الصليبيون الخروج من دمياط والزحف جنوبا ابتغاء القاهرة ، وقد بدأ هذا الزحف فعلا فى يوم ٢٠ نوفمبر ١٢٤٩م / ١٢ شعبان ٦٤٧هـ ، ولم يكد يمضى على ذلك يومان حتى توفى الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وغدا فخر الدين صاحب السلطنة الفعلية فى الديار المصرية ، ولكن الرجل - كما علمنا - آثر أن يجعل شغله الشاغل مدافعة هذه القوات الغازية ، وتعطيل حركتها ، فى محاولات مستميتة لإخراجها من مصر ، ومن هنا كانت إقامته وسط جنوده فى معسكر " جديلة " ، الموقع المتقدم لحماية المنصورة .

وفى الرابع والعشرين من شعبان ٦٤٧هـ / الثانى من ديسمبر ١٢٤٩م دخل الجيش الصليبى مدينة فارسكور ، الواقعة على بعد ثمانية وأربعين كيلو مترا جنوبى دمياط ، وهذا يعنى أنها قطعت هذه المسافة البسيطة فى ثلاثة عشر يوما ، ولعل المجارى المائية العديدة التى تمتلئ بها المنطقة كانت السبب فى بطء حركة الزحف الصليبى ، حيث يخبرنا " جوانفيل " أنه كان عليهم أن يتوقفوا كثيرا ليتم ردم بعض هذه المجارى المائية .

وهنا وحتى نهاية عمره ، يظهر جهد الأمير فخر الدين ، مقدم العسكر ، تخطيطا وتنفيذا فى الجانب العسكرى ؛ فقد تم إعداد كمين من قوة الفرسان جنوبى فارسكور ، ولما كانت القوات الصليبية الزاحفة تفوقها عددا ، فقد أبرق قائدها إلى الأمير فخر الدين يخبره بسقوط فارسكور ، وعلى الفور كتب القائد العام بذلك إلى الأمير حسام الدين نائب السلطنة فى القاهرة ، يوقفه على هذه الأحداث ، ويطلب إليه الدعوة إلى النفير العام ، أو إعلان التعبئة العامة .

---

[١٣٩] - مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص ٧٧٦ - ٧٧٧ ، ويورد عباراته نفسها النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص ٣٢٩ .

وفى خلال العشرين يوما التالية (٢٤ شعبان ٦٤٧هـ - ١٤ رمضان / ٢ ديسمبر إلى ٢١ ديسمبر ١٢٤٩) وصل الجيش الصليبى إلى رأس جزيرة دمياط ، ليصبح بذلك فى مقابلة معسكر جديلة ، لا يفصله عنه والمنصورة أيضا إلا بحر أشموم ، وذلك بعد أن احتل فى طريقه بعد فارسكور كلا من شرمساح والبرمون ، يظاهره فى ذلك سفن أسطوله المتنوعة والعديدة التى وقفت فى النيل بإزاء المعسكر الصليبى .

وشرع لويس التاسع على الفور بعد العدة لعبور بحر أشموم أو البحر الصغير لدخول المعركة الحاسمة، و لم يكن هذا بالأمر اليسير، فطبوغرافية بحر أشموم كانت تؤكد عمق مجراه، وشدة الانحدار فى جانبيه، وسرعة تياره، وهذه كلها عوامل كان لابد من وضعها فى الحسبان إذا أراد الملك الفرنسى تأمين عبور قواته إلى الضفة الأخرى، فأصدر أوامره ببناء الجسر على بحر أشموم هذا، وزيادة فى تأمين هؤلاء أمر ببناء ساترين أفقيين أو سقيفتين تظلان هؤلاء العمال أثناء عملهم من وابل السهام أو المنجنيق الذى لابد أن يستخدمه المسلمون لوقف إقامة هذا الجسر، وعهد إلى جوسلين أمير كورنو Cornaut بالأشراف على آلات رمى المنجنيق التى أعدوها والتى بلغ عددها ثمانية عشر منجنيقا، كما أحاط معسكره بسور وخندق لحمايته من الناحية البرية وجعل من أحد إخوته واحدا يتولى نوبة الحراسة نهارا، بينما قامت مجموعة من الفرسان ، من بينهم المؤرخ جوانفيل الذى نقف منه على كل هذه المعلومات، بنوبة الحراسة الليلية. وهذا كله يوضح مدى الإصرار الذى كان لدى الصليبيين من أجل سرعة إنجاز هذا العمل، وبالتالى اللهفة على دخول المعركة الفاصلة منتهزين فرصة وفاة الملك الصالح، وما دار بخلدهم عما يمكن أن يتركه ذلك فى نفوس المصريين .

غير أن الجيش المصرى بوحداته المختلفة لم يتوقف عن إزعاج الصليبيين بهجماتهم الخاطفة المتلاحقة ؛ ففى اليوم الذى وصل فيه الجيش الصليبى إلى رأس جزيرة دمياط ، هاجمت فرقة استطلاعية من الفرسان الجنود الصليبيين قبل أن ينفضوا عن أنفسهم غبار الرحلة التى قطعوها ، مع أنه لم يقع بهذه القوات الغازية أضرار مادية ، إلا أن هذا الهجوم ترك أثرا سيئا من الناحية النفسية ، حيث انطبع فى نفوسهم أن المسألة ليست بالسهولة التى يتصورونها و لم يكد يمضى على ذلك أربعة أيام حتى قامت خيالة من الجيش المصرى بهجوم آخر فى ٢٥ ديسمبر ١٢٤٩م (١٨ رمضان ٦٤٧هـ) ، أى يوم عيد الميلاد عند المسيحيين اللاتين ، الصليبيين ، وفتكوا بجماعة من " التعساء الذين كانوا قد خرجوا إلى الحقول مترجلين" ، على حد تعبير "جوانفيل". وتكررت مثل هذه الحوادث من أعمال "الإبرار" التى تقع خلف خطوط العدو، وتسبب له ارتباكا كبيرا، منها مثلا ما حدث فى أول أيام عيد

الفطر ، أول شوال ٦٤٧هـ / السابع من يناير ١٢٥٠م ، وبعد ذلك بأسبوعين فقط قامت القوات المصرية بمهاجمة المعسكر الصليبي ، ودارت بينهما معركة حامية، فقد فيها كل من الجانبين عددا من رجاله وشاركت البحرية المصرية أيضا فى هذه الهجمات ، ففى السابع من شوال ٦٤٧هـ / ١٢ يناير ١٢٥٠م استولى رجال الأسطول المصرى على سفينة ضخمة من نوع " الشينى " الكبيرة ، وعليها مائتا جندى صليبي وقائدهم ، وفى يوم الخميس لثمان بقين من شوال ٦٤٧هـ ، أحرقت للفرنج مرمة عظيمة فى البحر ، واستظهر عليها المسلمون استظهارا عظيما بيناً ، على حد قول ابن واصل .

أما فيما يتعلق ببناء الجسر الذى حاول الصليبيون مده على بحر أشموم ليعبروا إليه حيث معسكر جديلة ثم المنصورة ، فقد قامت الإدارة الهندسية فى الجيش المصرى بالتعاون مع رجال المدفعية ، المنجنيق ، بإفساد كل الجهود التى قام بها الصليبيون فى هذا السبيل، فقد عمد المهندسون إلى حفر عدد كبير من الحفر المتلاصقة والعميقة على الضفة التى يسيطر عليها المصريون ، بحيث تغمرها المياه فى المجرى ، فيزداد هذا المجرى اتساعا أمام الصليبيين، ومن ثم بدا الأمر كما لو كان بحر أشموم يتسع كلما زاده الصليبيون ردما !! وقد عبر جوانفيل عن ذلك بكل الحسرة قائلا : " ورأى المسلمون إفساد الجسر الذى أمر الملك ببنائه ، فعمدوا إلى حفر فتحات أمام معسكرهم ، لاتكاد تصلها المياه حتى تندفع فيها مكونة مساحة كبيرة منه ، وبذلك أفسدوا فى يوم واحد ما أجهدنا أنفسنا ثلاثة أسابيع فى عمله، وذلك أننا كلما ردمنا قسما من المجرى من ناحيتنا ، كلما زادوه من جانبهم بواسطة الفتحات التى يحدثونها " ، ويضيف جوانفيل قوله : " لقد أخطأ الملك وجميع باروناته فى أثناء بنائهم لهذا الجسر " .

هذا ما كان من أمر المهندسين والعمال المصريين فى الجيش ، أما ما كان من أمر رجال المدفعية فاهم اصلوا الصليبيين العاملين فى هذا الجسر وكذا القائمين على حراستهم، نارا حامية ، صبوها عليهم من منجنيقاتهم التى انتشرت على الضفة التى يسيطرون عليها، ورغم أن منجنيقات العدو الثمانية عشرة التى نصبوها فى ناحيتهم قامت بقذف المعسكر المصرى ، إلا أن تأثيرها لم يكن يدنو مطلقا مما أوقعته المنجنيقات المصرية بالصليبيين من خسائر، ولم تفلح السقيفة أو الأبراج التى أقاموها لحماية العاملين فى هذا الجسر ، ولعل أدق من يحدثنا عما فعلته المنجنيقات المصرية بالصليبيين هو جوانفيل نفسه ، لذا فإننا نترك له المجال هنا لنجده يقول : " ... وكانت النار الإغريقية تأتى من الأمام أشبه ما تكون برميل كبير من القار ، ذات ذنب يقارب الرمح طولا ، يصحبها صوت هائل كدوى الرعد،

وكأنها طائر فى الجو ، تشع بنور يكاد معه من بداخل المعسكر يرى كل شئ كأنه فى وضح النار. وقد أطلق المسلمون النيران علينا من مدافعهم ثلاث مرات فى تلك الليلة ، وأربع مرات بواسطة الأقواس المتحركة . وكان ملكنا القديس كلما سمع صوت قذائف النار الإغريقية جلس فى فراشه ورفع يديه وعينيه إلى مخلصنا وهتف باكيا .. " أيها الرب السيد الحنان احفظ لى شعبى " وفى ذات مرة سقطت القذائف التى رمونا بها على المكان القائم بحراسته رجال سيدى لورد كورتناى ، حيث الشاطئ ، فنظرت فإذا بفارس يدعى " أفليجوى " قادم نحوى ، وقال لى يا سيدى ، إن لم تهب لنجدتنا فإننا سنحترق جميعا، لأن المسلمين قد أطلقوا كثيرا من النبال حتى لكأن سياجا ضخما من اللهيب كان يستهدف برجنا".

ويمضى جوانفيل قائلا: "... وكانت نفوسنا مغتمة لنجاح المسلمين فى تحطيم الأبراج وأخرج المسلمون آلاتهم فى وضح النهار ، بينما كانوا لا يجرؤن من قبل على استعمالها إلا ليلا، وأخذوا يواصلون رمينا بالنار الإغريقية . واقتربوا بآلاتهم حتى أصبحوا على كثب من الجسر الذى يعمل الجيش فى تشييده ، فلم يعد أحد يجرؤ على الذهاب إلى البرجين من جراء ما تقذفه آلات حربهم على الجسر من الحجارة الضخمة ، مما أدى إلى احتراق البرجين . واشتد حزن ملك صقلية (يقصد أخر لويس التاسع ، شارل كونت أنجو ، الذى أصبح فيما بعد ملكا على صقلية من قبل البابوية) حتى كاد أن يجن ، وأراد أن يلقى بنفسه إلى حيث تشتعل النيران عسى أن يطفئها ، وكان فى أشد الغيظ ... إذ لو استمروا فى الرمى حتى الليل لاحترقنا جميعا أثناء قيامنا بالحراسة " .

أليس هذا بكاف على أن يقام دليلا على صدق الأمير فخر الدين ، وإخلاصه ، وجهده الكبير الذى بذله لتنظيم القوات المصرية حتى أضحت على هذا الوضع الذى وصفه مؤرخ صليبى كان شاهد عيان على تلك الأحداث ، ويزيد جوانفيل هذا الجهد الذى بذله فخر الدين وضوحا حين يقول إن لويس أمر بإنشاء برج جديد عوضا عن البرجين المحترقين، وقدر ثمن الخشب الذى استخدم فى تشييده بعشرة آلاف دينار أو يزيد ، فلما تم بناؤه عهد إلى أخيه شارل كونت أنجو بحسن استخدامه حتى يعوض خسارة البرجين السابقين ، فتقدم بالبرج إلى حيث كان البرجان المحترقان، " فلما رأى المسلمون ذلك رتبوا صفوفهم وصفوا آلاتهم الست عشرة لتستطيع رمى الجسر فتصيبه هو والبرج ، ولما رأوا إحجام رجالنا عن الذهاب إلى الجسر خشية الحجارة المتساقطة من الآلات عليه ، أحضروا مقاليعهم وقذفوا البرج منها بالنار الإغريقية فأتت عليه كله" .

هكذا نجد أن الأمير فخر الدين القائد العام للجيش المصرى ، مقدم العسكر ومدبر أمر المملكة الآن ، لم يدخر وسعا فى الإعداد للمعركة الحاسمة المتوقعة مع الصليبيين واتبع كل الوسائل الممكنة حتى لا يدع للصليبيين فرصة ينعمون بها أو فيها بالراحة داخل معسكرهم فى رأس جزيرة دمياط ، ففعلت القوات الخاصة التى دفع بها خلف خطوط العدو فعلها ، وقامت البحرية المصرية بدورها ، وأدى رجال الهندسة العسكرية واجبهم على خير وجه، ونصب ستة عشر منجنيقا فى مواجهة الثمانى عشرة التى أقامها الصليبيون ، فأصلت الآلات المصرية جنود لويس العاملين فى إقامة الجسر حمم نيرانها ، وأحرقت كل دفاعاتهم التى أعدوها لحماية أنفسهم وعبورهم بحر أشموم ، وتملكهم اليأس من إتمام هذا العمل . وكتب جوانفيل يقول : " لما رأى الملك ما جرى استدعى باروناتة للمشاورة ، فأجتمعوا على أنهم لا يستطيعون بناء جسر يعبرون عليه ، نظرا لعجز رجالنا عن أن يردموا من جهتهم قدرا يكافئ ما يستطيع المسلمون حفره من ناحيتهم " . ويكفى أيضا فى صف فخر الدين أن نسجل عبارات رئيس نوبة الحراسة الليلية للبرجين الصليبيين ، عندما عاين ما يفعله الجيش المصرى بقيادة الأمير فخر الدين من معسكره فى جديلة ، قال : " أيها السادة ، إننا فى أخطر وضع تعرضنا له حتى الآن، ذلك أنهم إذا أضرموا النيران فى أبراجنا (وكان ذلك فى أول الأمر قبل احتراق البرجين) ، وبقينا حيث نحن ، فلابد أننا هالكون بالحريق ، وإذا تركنا أماكن دفاعنا هذه ، التى وكل إلينا حراستها ، فقدنا شرفنا ، ولن يدفع عنا هذا البلاء سوى الرب ، لذا فإنى أنصحكم أن تجثوا على أيدينا وركبنا كلما قذفونا بالنيران ، وندعو "مخلصنا" أن يقينا شر هذا البلاء".

ومن الجدير بالذكر أن الصليبيين قطعوا المسافة من دمياط إلى رأس جزيرة دمياط فى ثلاثين يوما (٢٠ نوفمبر إلى ٢١ ديسمبر)، بينما أمضوا خمسين يوما فى مكان نزولهم (من ٢١ ديسمبر ١٢٤٩ - ٨ فبراير ١٢٥٠) لا يستطيعون عبور بحر أشموم، ولاشك أن الجهود التى بذلها فخر الدين على النحو الذى رأينا كان لها أكبر الأثر فى هذا السبيل، بل لقد أثر عنه -فيما رواه جوانفيل- القول بأنه أقسم على مهاجمة المعسكر الصليبى وتحقيق النصر وتناول طعامه فى فسطاط الملك الفرنسى، يوم عيد ميلاد القديس سباستيان St. Sebastian.

غير أن شيئا نكرا جرى حدوثه أضاع سدى كل الجهود التى بذلها الجيش المصرى وقائدها لأمير فخر الدين، وذلك أن واحدا احتوت نفسه على الخيانه، تطوع ليدل الصليبيين على مخاضة يعبرون من خلالها بحر أشمون ، ليأخذوا المسلمين على غرة مقابل خمسمائة دينار

يدفعونها له مقدما!! وتقع هذة المخاضة عند قرية سلمون التي تبعد عن مدينة المنصورة الحالية بحوالى ستة كيلو مترات. ولم يتردد الملك لويس التاسع لحظة واحدة فى قبول العرض، رغم أن المخاضة لم تصلح فقط إلا لعبور الفرسان على ظهور خيولهم، بينما يستحيل على المشاة اجتيازها، ولكنه اهتبل هذة الفرصة التي جاءت تسعى على غير موعد، ولا مانع من أن يتحقق عن طريق الخيانة ما فشل الصليبيون فى إنجازه خلال خمسين يوما من المناوشات اصطلوا فيها بنيران الجيش المصرى.

هكذا لم يكن هجوم الصليبيين الذى تم على هذا النحو المفاجئ، ولا خروج فخر الدين دهشا غير مستعد، إذا أخذنا برواية ابن واصل، عن تقصير من جانب مقدم العسكر، أو تراخ فى أداء واجباته العسكرية، بل كانت نتيجة لخيانة " بعض من لا دين لهم" على حد قول مؤرخنا المقريزى [١٤٠]، ومن ثم فإنه لما كان الأمير فخر الدين رجلا " عالى الهمة " فلم يكن يتوقع أن تأتيه الكارثة من الداخل، نعنى الخيانة التي تسببت فى عبور الصليبيين لبحر أشمون عند مخاضة سلمون، وهجومهم المباغت على المنصورة [١٤١]، ومهما يكن من أمر، فالذى يعنينا أن فخر الدين ظل حتى اللحظة الأخيرة، وقد بلغ العام السادس والستين من عمره، مقاتلا فى قلب ميدان المعركة، وظل ثابتا طلبا للشهادة، بينما فر عنه طلبا للنجاة كل من حوله وخاصة مماليكه الذين تركوه وانصرفوا إلى داره فنهبوا كل محتوياتها. ولا نملك إلا هذا التعليق الذى يجمع بين السخرية والأسى لعدم الوفاء، والذى جرى به قلم سبط بن الجوزى [١٤٢]، قال: "... وخربت داره كأنها لم تكن بالأمس، خربها الأمراء الذين كانوا يركبون كل يوم إلى خدمته ويقفون على بابه، وهم أكثر من سبعين أمير كانوا يتمنون أن ينظر إلى أحد منهم نظرة، وما نفعه تربية مماليكه وإحسانه إليهم "!!

والآن وبعد عرض القضية من جميع جوانبها على هذا النحو آن لنا أن نقدم شهادة الحق

---

[١٤٠] الخطط، ج١، ص ٢٢١.

[١٤١] لمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث راجع كتابنا " الجيش المصرى فى عصر الأيوبيين "، تحت الطبع.

[١٤٢] مرآة الزمان، ج ٨، ص ٧٧٢ .

على أن الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ كان بعيدا كل البعد عن كل ما تضمنته صحيفة الدعوى المقامة ضده من اتهامات ساقها المؤرخين القدامى والمحدثين، وهذه يدلى به السلطان نفسه. فابن واصل ملأ الدنيا فى كتابة ضجيجا مؤكدا أن الملك الصالح نجم الدين أيوب لو كان موليا أحدا من بعده ، فإنه لم يكن ليعدل أبدا عن وزيره حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى ، لأنه كان ساعده الأيمن فى كل أموره ، وموضع ثقته المطلقة ، ولأنه لم يكن يثق كل الثقة فى الأمير فخر الدين بحيث يجعله يقدم على اختياره خلفا له ، إضافة إلى كراهية الصالح لأبنه المعظم تورانشاه . ومع أن المقريزى يتفق مع ابن واصل فى كثير مما يقوله عن الأمير فخر الدين حتى يكاد يورد فى بعض المواضع عباراته نفسها ، إلا أنه هنا يخرج عن هذه القاعدة ويؤكد أن الملك الصالح أوصى قبل موته أن يخلفه ابنه تورانشاه ، يقول المقريزى[144] ما نصه : "فلما كان ليلة الاثنين نصف شعبان ، مات السلطان الملك الصالح بالمنصورة وهو فى مقابلة الفرنج ، عن أربع وأربعين سنة ، بعدما عهد لولده الملك المعظم تورانشاه ، وحلف له فخر الدين ابن الشيخ ومحسن الطواشى، ومن يثق به " وعبارات المقريزى تفيد أمرين أولهما أن الصالح أوصى لأبنه تورانشاه قبل موته ، وثانيهما أنه صدق على ذلك بأخبار مقدم عسكره فخر الدين ، وطواشيه محسن ، ومن يثق به ، ولم يكن من بينهم بالطبع حسام الدين، وإلا ذكره المقريزى ولم يكن ليغفل عنه من قبل صديقه ابن واصل . أما التعبير الأخير الذى ورد فى عبارة المقريزى ، ونعنى به قوله "ومن يثق به"، فإنه يضيف بعدا جديدا يؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن الأمير فخر الدين كان على رأس هؤلاء الذين يثق بهم الملك الصالح ، بحيث أخذ عليه موثقا وعهدا أن يحفظ عرش الديار المصرية حتى يؤوب تورانشاه . وهل فعل فخر الدين غير ذلك ؟

وبذكاء تميز به المقريزى المؤرخ ، أشار إلى حديث ابن واصل فى هذا الشأن ، ولم يأت به خبرا مؤكدا كما جرت عباراته السابقة عن وصية الصالح لأبنه ، بل أورده ضمن دائرة الأقوال التى لا دليل عليها ، ومن ثم فإنه جاء بحديث ابن واصل وقدمه بما يفيد عدم موافقته عليه ، وهذا نص المقريزى ، " وقيل إنه لم يعهد إلى أحد بالملك ، بل قال للأمير حسام الدين ابن أبى على : إذا مت لا تسلم البلاد إلا للخليفة المستعصم بالله ، ليرى فيها رأيه "[145] . وهذا بنصه قول ابن واصل.

---

[144] - السلوك ، جـ١ ، ص٣٣٩ ، ويقول ابن أيبك ، الدر المطلوب ص ٣٧٣ ، " قام الأمير فخر الدين بن الشيخ مدبر الدولة ، وجمع الأمراء ، وقال : " إن السلطان رسم أن تحلفوا لولده غياث الدين تورانشاه " ، وقارن الحنبلى ، شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب، ص ٣٤٠ .

[145] - المقريزى ، السلوك ،جـ١ ، ص ٣٤٢ .

أما الشهادة التى يدلى بها السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب وحجبناها إلى آخر جلسات المحاكمة لتكون الحجة الدامغة ضد كل من اتهم فخر الدين بن الشيخ فى شرفه العسكرى ووطنيته ، فهى عبارة عن الوصية التى كتبها الصالح لابنه تورانشاه ، والتى يعهد فيها إليه بالملك ، ويضمنها كل خبرته وخلاصة تجاربه وصادق نصحه ، ليكون هذا كله دستورا لـ "الولد" فى ممارسة مهام منصبه[١٤٦] . وفى الوقت نفسه جاءت بيانا ناصعا ودليلا صادقا على تبرئة الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ من كل ما نسب إليه . وما علينا إلا أن نقرأ معا أمام محكمة التاريخ بعضا مما جرى به قلم السلطان .

يقول الصالح : " ... والأخ فخر الدين بن الشيخ ما عندى من أُقدمّ سواه ، فأكرمه واحترمه كما تحترمنى ، واجعله عندك كالوالد ، واسمع قوله ورأيه ، ولا تخالفه ، واجعل له من العدة مائتى فارس " . وهذا فى حد ذاته اعتراف صريح من الملك الصالح نجم الدين أيوب بأنه ليس عنده فى دولته من يحتل المقام الأول بعده مباشرة إلا الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، وهذا ينفى تماما ما يردده ابن واصل من القول بأن " السلطان الملك الصالح لا يعتمد فى حفظ الديار المصرية إلا على حسام الدين محمد بن أبى على "[١٤٧] . وفى كلمات الصالح هذه أمر لولده بستة أمور واجبة التنفيذ ، تخص الأمير فخر الدين ، إعلاء قدره وتكريمه ، واحترامه بما يليق بمكانته ، وإنزاله مترلة الوالد ، والترول عند كل أقواله وآرائه ، وعدم مخالفة مشورته ونصحه ، وتخصيص مائتى فارس له لرفعة مترلته .

ويضيف الصالح قائلا لولده وهو يعظه " اتفق أنت والأخ فخر الدين ... واحفظ يا ولدى ما أقوله لك (وكان قد ذكر له جملة نصائح تخص مختلف أمور الدولة سياسية ودبلوماسيا وعسكريا) ، فهذا جميعه ما عرفنى به إلا الأخر فخر الدين " ، ويختتم وصيته بقوله " فهذه وصيتى إليك ، فأعمل بما فيها ولا تخالف وصيتى ، وكل يوم طالعها ، وقف[١٤٨] عليها ، ولا تعمل شيئا[١٤٩] دون أن تشاور الأخر فخر الدين ، والله يقدر بما فيه الخير إن شاء الله تعالى " .

والوصية تمتلئ فى مواضع متعددة بضرورة الأخذ برأى " الأخ فخر الدين " فى أمور كذا وكذا ، مثل ما يجب عمله تجاه بعض زعماء جماعة القَيْمُرِية ، (وهم طائفة من

---

[١٤٦] - النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ، ٢٩ ص ٣٤١ - ٣٥٢ .
[١٤٧] - ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٤ .
[١٤٨] - فى الأصل " واقف "
[١٤٩] - فى الأصل " شئ "

الأكراد)، وزعماء المماليك الصالحية الذين أوصاه بهـــم خـيرا ، والمشـكلات المتعلقـة بالأسطول، حيث أن "لأخ الدين عرفني بهذه الأحوال جميعها ، فاسمع ما يقوله لك " !!

والوصية إذن تقليد الملك للمعظم تورانشاه من قبل أبيه الصالح نجم الدين أيـــوب ، وتعيين لمستشاره وقائد جيشه، والرجل المقدم فى دولته ، ومن لا يقدم غيره، نعـــنى "الأخ" فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، الذى خصه بأسرار دولته ، إذ يقول لولده : " وقد عينت فى ورقة عند الأخ فخر الدين عشرين من المماليك تقدمهم ، تعطى لكل واحد منهم كـــوس (صنوج من نحاس يدق بها فى المواكب وهى من شعارات السلطنة والإمارة) ، وعلمـا[١٥٠] ، وتحسن إليهم".

ولو كان الأمر حقا كما ردد ابن واصل مرارا وتكرارا فى كتابه ، من ثقة الصـــالح التى لا حدود لها فى الأمير حسام الدين ، وفقدانه إياها فى الأمير فخر الدين لكان المنطـــق يحتم عليه أن يجعل من حسام الدين ، وليس فخر الدين ، مستشارا لابنه تورانشـــاه حالـة اعتلائه عرش السلطنة ، خاصة وأن حسام الدين كان أتابكا لتورانشاه عندما كان فى حصن كيفا كما علمنا . ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، ولم يختر الصالح أحدا سوى ابن الشـيخ ليكون عضد ولده كما كان عضده هو شخصيا فى سنى حكمه .

والسلطان الصالح ينزل فخر الدين منزله أخيه ، فلا يسميه فى وصيته إلا بـــ "الأخ"، ولم يستخدم هذا اللفظ مع أحد غيره ممن وردت أسماؤهم فى الوصية على كثرتهم ، ومنـــهم نفر من أهله وأقاربه ، ولم يستخدم مع هذا اللفظ لقب الأمير أو مقدم العسكر أو الأتابك ، دليلا على مدى قرب فخر الدين من الصالح ومودته له واحترامه إياه ، بل والثقة المطلقة التى أولاها إياه على العكس مما يقوله ابن واصل تماما .

وقد جاء ذكر حسام الدين محمد بن أبي على الهذبانى ، صديق ابن واصل ، فى هـذه الوصية ، فإذا ما قرأنا ما كتب عنه علمنا يقينا أن كل ما قاله مؤرخنا عن انفــراد حســام الدين بثقة الصالح ، وأنه لم يكن ليولى أحد من بعده غيره لو أوصى ، مجرد آمال داعبت ابن واصل من أجل صديق عمره ، وصاحب الفضل فى انزاله منزلا كريما عند قدومه إلى القاهرة من الشام . وها قد أوصى الصالح ، ولكنه أوصى بالشخصيتين الكريهتين لابن واصـــل !! تورانشاه وفخر الدين !! أما ما يخص الحسام فقد جاء ذكره فى عداد الأمراء غيره ؛ يقـــول الصالح : " الولد (يعنى تورانشاه) يتوصى بالخدام ، محسن (يقصد الطواشى جمـــال ديـــن

---

[١٥٠] – فى الأصل " علم "

محسن) ورشيد والخدام المقدمين ، لا تغيرهم ، فما قدمت أحدا[151] من الخدام ولا من المماليك إلا بعد ما تحققت نصحه وشفقته ، وأستاذ الدار وأمين جاندار تتوصى بهم . وكذلك الحسام . لا تغيرهم فأنى اعتمد عليهم فى جميع أمورى ... والحسام يكون بمفرده لا حل ولا ربط " !! وهكذا ذكر حسام الدين فى عداد أعوان السلطان الذين يعتمد عليهم ، بل آخرهم بعد الطواشى محسن ورشيد والخدام المقدمين ، والسلطان يعرف جيدا أن وزيره نائب السلطنة لا يعرف الحل والربط فى الأمور بمفرده ! فكيف يمكن أن يجعل منه الصالح - لو أوصى كما يقول ابن واصل - سيدا على مصر ؟!

وليس ببعيد أن يحاج أحد بالقول أن الوصية كتبت قبل أن ينسحب الأمير فخر الدين بجيشه من جيزة دمياط ، ومن ثم فإن الصالح لم يكن يعلم بعدم ولاء مقدم عسكره عندما كتب وصيته غير أن ذلك قول واه يسهل دحضه دون عناء من خلال أمرين ، أولهما يتفق مع المنطق وطبيعة الأمور ، وهو أنه كان بمقدور الصالح أن يمزق هذه الوصية تمزيقا ، أو أن ينسخ بيديه محوا كل ما كتبته يده عن فخر الدين ، أو أن يضيف فى أضعف الأحوال عبارة فى بداية وصيته أو نهايتها يخبر ولده فيها بخيانة فخر الدين وموقفه من الصليبيين عند جيزة دمياط ، أما ثانى الأمرين فهو الدليل العملى الدامغ من داخل هذه الوثيقة نفسها ، فالوصية تضمنت فى بدايتها كل الأحداث التى وقعت عند دمياط ، وما كان من أمر الصليبيين هناك ، أى احتلالها بعد أن فر من كان بها من الكنانية !! بل وتتضمن أيضا شهادة البراءة الكاملة للأمير فخر الدين على النحو الذى عرضنا له من قبل .

بقى أن نقول هنا ، حتى نغلق ملف قضية الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ، القائد العام للجيش المصرى ، أو بتعبير زمانه أتابك العسكر ، والذى اتضحت لنا بداءته -على الأقل من وجهة نظرنا- مما نسب إليه من تركه لجيزة دمياط وانسحابه إلى أشموم طناح لهوى فى نفسه، وعدم ولائه لسيده ، وطمعه فى السلطنة، إن الملك الصالح نجم الدين أيوب، الذى أدلى بشهادته أمام محكمة التاريخ مبرئا "الأخ" فخر الدين، بعد كل ما قدمناه لتنفيذ ما جاء بصحيفة الدعوى المرفوعة ضده، هو الذى كتب وصيته هذه بخط يده ، إذ يقول: "وكتبت هذه الوصية و لم يطلع عليها أحد، لئلا تضيق صدورهم ، وكتبتها فى مدة طويلة". والنويرى يؤكد ذلك عند تقديمه للوصية حين يقول : " وكان الملك الصالح فى مرض موته ،

---

[151] - فى الأصل " أحد " .

قد كتب إلى ولده الملك المعظم هذا كتابا أسند فيه المُلك إليه ، واشتمل كتابه على جملة من الوصايا ، وقد وقفت على الكتاب المذكور، وهو بخط السلطان الملك الصالح بجملته "[١٥٢] .

أما من يقصدهم السلطان الملك الصالح بقوله " لئلا تضيق صدورهم " فهم جملة من الأمراء سماهم ، وطلب من ولده إبعادهم عن مناصبهم وعدم الاعتماد عليهم ، لأنه لن يستطيع التعامل معهم ، بعد أن كشف عن خبيئة نفوسهم وخبثهم وما تكنه صدورهم من السوء ، ويتبع كل واحد من هؤلاء بالقول بأن الأمير فخر الدين ، مقدم العسكر ، يعرف كل هذه الأمور عن هؤلاء جميعا ، وعلى المعظم أن يأخذ برأيه حيالهم[١٥٣] .

أما قول الصالح " وكتبته (أى الوصية) فى مدة طويلة " فلابد أن تكون هذه المدة هى الواقعة بين احتلال الحملة الصليبية السابعة لدمياط فى السادس من يونيه ١٢٤٩م / صفر ٦٤٧هـ، وموته فى الثالث والعشرين من نوفمبر من العام نفسه (ليلة النصف من شعبان)، وهى فترة تمتد إلى خمسة شهور ونصف تقريبا ، وهى الفترة التى مرض فيها مرض الموت كما يخبرنا ابن واصل وابن العبرى والنويرى وغيرهم ، والنويرى يذكر ذلك صراحة فى عبارته التى سقناها منذ قليل حين قال: " وكان الملك الصالح فى مرض موته ، قد كتب إلى ولده الملك المعظم ... " . وهذا يفسر لنا من ناحية أخرى استبقاء السلطان الملك الصالح لقائد جيشه إلى جواره ، بعد أن شعر بدنو أجله ، للإشراف على تنظيم معسكر المنصورة التى انتقل إليها السلطان من أشموم طناح، وتقويتها وتحصينها ، ومباشرة إدارة السلطنة فى تلك الفترة العصيبة التى تمر بها البلاد ، من مرض السلطانه مرض الموت ، واحتلال الصليبيين لجزء من الديار المصرية ، ولسنا فى حاجة الآن إلى القول إن كل هذا يكشف عن مدى الثقة التى كان يتمتع بها "الأخ" فخر الدين عند السلطان، كما أكدت على ذلك كل كلمات وصيته . ولعل الملك الصالح كان يوقن تماما أن منافسى وحساد فخر الدين سوف يسلقونه

---

١٥٢ - النويرى ، نهاية الأرب، جـ٢٩ ، ص ٣٤٠ .

١٥٣ - جاء فى الوصية : " القيمرية " ، الولد (يعنى تورانشاه) لا يسمع كلام بعضهم فى بعض ، وناصر الدين عنده كذب وخبث ، وما باطنه جيد ، وقد عرفت الأخ فخر الدين (بن شيخ الشيوخ) الرسل الذين مسكوا من دمشق الى حلب من عنده ، والحسام (يعنى حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى) يكون بمفرده لا حل ولا ربط ... وناصر الدين أرحل لا يخرج مع عسكر ، وسيف الدين القيمرى تعمل معه ما يقرر مع الأخ فخر الدين (بن شيخ الشيوخ) يكون مقدم العسكر فى دمشق ، وابن يغمور (جمال الدين) مشد (الناظر فى حسابات الدواوين) ، وناصر الدين على المظالم ، فابن يغمور يصلح يكون مشد ووالى وجابى الأموال ، ولا يصلح يكون مقدم عسكر ، ولا يصلح لحدية ، ولا تؤمن له كل الأمر ، بل تمشى (هكذا) به الحال فى مكان مدة ، ثم ينقل الى غيره ، وهو بالكتاب أليق ، وكذلك قرائب فخر الدين عثمان كلهم لا يصلحوا لجندية ... ، فالأخ فخر الدين (بن شيخ الشيوخ) يعرف ما جرى منه ، فهو نحس مفسد محسحس ، وقد عرف الأخ فخر الدين حاله وما جرى منه فى دمياط وغير دمياط ، فما يصلح لصالحة متولى ديوان الأحباس (الأوقاف) اصرفه وولى (كذا) ابن النحوى ... وطرائق ابن الحباب غير صالحة ، والوكيل اصرفه " . إضافة الى عدد من أهل الذمة العاملين فى ديوان الجيش ، يرد إليهم الصالح الكثير من الفساد ؛ وأناس غير هؤلاء وأولئك ، راجع النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص ٣٥٠ - ٣٥١ .

بأقلام وألسنة حداد ، فقرن فى أول وصيته بين ما حدث فى دمياط ونزاهة قائد جيشه وبراءته من أى اتهام .

ولا بد أن يكون السلطان قد سلم هذه الوصية لواحد من أقرب المحيطين به وهم ثلاثة ؛ زوجه شجر الدر ، ومقدم عسكره الأمير فخر الدين والطواشي جمال الدين محسن ، تسليمها إلى ولده تورانشاه عند قدومه إلى مصر ، ويرجح أنه أعطاها لزوجه شجر الدر باعتبارها أقدر الثلاثة على حفظها وتسليمها لخليفته على العرش ، حيث كان الجميع من الأمراء ومماليك السلطان يجلونها ويعرفون لها قدرها ، وقد بدا ذلك واضحا فى الفترة التى أعقبت وفاة الملك الصالح ، و لم يكن أحد من هؤلاء جميعا يجرؤ على المساس بمقتنياتها[١٥٤] . وليس من المستبعد أيضا أن يكون الصالح قد أومأ إليها شفاهة باستدعاء ابنه تورانشاه من حصن كيفا ، بعد أن أوصى به ، كما أخبرنا المقريزى ، وبعد أن قلده رسميا فى الوصية التى لم يُطلع السلطان عليها أحدا منهم ، فقد جاء فيها بالحرف الواحد : " يا ولدى قلدت إليك أمور المسلمين إلى الطواشي جمال الدين محسن، وهو لم يعرض له كثيرا فى وصيته كما فعل مع الأمير فخر الدين ، ولا كانت منزلته تؤهله لثقة كبار الأمراء فيه . ولا كان من المعقول أيضا أن يودعها لدى "الأخ" فخر الدين ، لعلمه أنه مقدم عسكره ، وأن الحرب بينه وبين الصليبيين دائرة ، وأنه أقرب إلى الموت منه إلى الحياة ، وأنه لا يأمن عليها من العبث بأيدى مماليكه بعد وفاته ، وكأن الصالح كان يقرأ فى صحف الغيب عندما استشعر ذلك ، فقد رأينا ما حل بدار الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ من النهب والتخريب على أيدى مماليكه ، لقد جاء هؤلاء إلى داره " فكسروا صناديقه ونهبوا أكثر ما فيها ، ونهبت أمواله وخيله ، وأخذ الجولانى (نسبة إلى الجولان فى سوريا) قدور حمامه ، والدمياطى أبواب داره"[١٥٥] وهكذا لم يكن آمن على وصيته من زوجه أم خليل شجر الدر .

ومهما يكن من أمر ، فالذى يعنينا فى المقام الأول ، أن هذه الوصية جاءت شهادة حق على أن الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ مقدم العسكر المصرى ، فى عهد السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، والدبلوماسي الماهر فى أيام أبيه الملك الكامل محمد ، قد أدى واجبه كاملا فى خدمة بنى أيوب ، وظل على ولائه لهم ، وإخلاصه فى عمله

---

[١٥٤] - تضمنت الوصية ما يفيد هذا الرأى ، إذ يقول الملك الصالح : " يا ولدى الوصية بأم خليل (وهو اللقب الذى كانت تكنى به شجر الدر) فلها على من الحقوق والخدمة ما لا أقدر أصفه ، إرع (فى الأصل أرعى) جانبها واكرمها واحترمها وارفع منزلتها ، فهى عندى بمنزلة عظيمة ، وكنت طيب القلب بصحبتها ، آمنا على نفسى من جهتها ، فأجعلها لك مثل الوالدة ، واجتهد فى اتصال الراحة إليها ... ولا تخرج عن رأيها وتدبيرها " ، النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص٣٤١ – ٣٤٢ .

[١٥٥] - النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص ٣٣٩ .

العسكرى، حتى آخر أيام عمره ، وهى فى الوقت نفسه ، أعنى الوصية ، دليل بالغ الدلالة على أن الاتهامات التى سيقت ضده من ابن واصل ومن سار على نهجه من المؤرخين القدامى والمحدثين ليس لها من الصحة نصيب .

سياسة الدولة البويهية إزاء وضعية الأرض الزراعية

(٣٣٤ – ٤٤٨ هـ)

د./ محمود إسماعيل

كلية الآداب – جامعة عين شمس

يجمع الباحثون على أن فهم التاريخ الإسلامى واستيعابه وتفسيره وتنظيره لا يتم بمعزل عن فهم مفتاحين أساسين هما رصد حركة التجارة العالمية شرقاً وغرباً ، شمالاً وجنوباً ، والإحاطة بتطور وضعية الأرض الزراعية وأشكال ملكيتها وصيغ حيازتها وتطور هذه الأشكال والصيغ عبر حقب التاريخ الإسلامى .

وإذا كان "المفتاح" الأول قد قتل بحثاً ودرساً ؛ فإن "المفتاح" الثانى مازال غائباً عن تناول الباحثين ؛ فما أنجزوه فى هذا الصدد لا يتعدى الأحكام الإنطباعية والتأملات الشخصية؛ بحيث لا يتفق اثنان فى الحكم على وضعية الأرض فى إقليم ما أو زمن ما ، ناهيك عن المجازفات والتخبطات التى تشوب جهود الباحثين فى تقرير نمط الإنتاج الذى ساد العالم الإسلامى برمته طوال عصوره التاريخية . فمن قائل بأن الإقطاعية كانت هى النمط السائد ، ومن قائل بأن النمط الرأسمالى هو الذى استقر الحال عليه . بل ثمة من ذهب إلى أن النمط الرأسمالى كان مشوهاً ؛ فكان لذلك "رأسماليا" وآخرون ذهبوا إلى أن الإقطاع الذى عرفه العالم الإسلامى أبعد ما يكون عن "الفيودالية" التى عرفتها أوربا فى العصور الوسطى . ولا يزال الكثيرون من الدارسين يتشبثون بصيغة "نمط الإنتاج الأسيوى" التى قال بها ماركس والماركسيون ... إن هذا الاختلاف قمين بتضبيب رؤيتنا لمسيرة التاريخ الإسلامى تفسيراً وتنظيراً .

على أن الباحثين متفقون حول حقيقة مفادها أن وضعية الأرض فى التاريخ الإسلامى هى التى أفضت فى الغالب الأعم إلى وجود الإقطاع ، بينما أسفرت فترات سيطرة العالم الإسلامى على التجارة العالمية عن الفترات التى سادها النمط البورجوازى فى الإنتاج .

وتأسيساً على ذلك سوف نحاول رصد الوضعية القانونية للأرض الزراعية فى العراق فى ظل السلطنة البويهية (٣٣٤ – ٤٤٨هـ) كمثال دال على صدق ما نذهب إليه من الخلاف والاختلاف بين الباحثين والدارسين .

وقبل الاستغراق فى بحث الموضوع من المفيد أن ننوه بأن هذا الخلاف راجع إلى أمرين أساسين هما :

أولا: طبيعة المادة التاريخية المصدرية الملغومة التى تشكل مرجعية الدارسين المحدثين . إذ من المعلوم أن هذه المادة قليلة ومضببة وغير بريئة . لا لشئ إلا لاختلاف هوية الفقهاء والمؤرخين الإسلاميين الأوائل الذين عالجوا هذه القضية ، إذ غلبت المذهبية الطائفية على مخيال هؤلاء تأسيساً على تضارب رؤيتهم للشريعة الإسلامية ، وفى الغالب الأعم تلونت كتاباتهم بالتبرير لسياسة الأمر الواقع واعتبار ما أقره الحكام من سياسات فى هذا الصدد هو ما أقرته الشريعة الإسلامية ، أما الذين لم يتأثروا بأهواء الميول للسلطة ؛ فإن كتاباتهم استهدفت لا تفسير ما هو واقع وقائم من سياسات ؛ بل عبرت عما كان ينبغى أن يكون . ولذلك ظلت هذه الكتابات فى "الأحكام السلطانية" عديمة النفع والجدوى بصدد فهم السياسات العملية إزاء مسألة الأرض الزراعية إلى تهم الدارسين بالفعل .

من هنا ظلت كتابات النفر الأول المبررة لسياسات الحكام هى المصدر الأساسى للوقوف على الماجريات التاريخية للقضية موضوع البحث . وفى الغالب الأعم كانت تصورات أصحاب تلك الكتابات تعبر عن رؤية الحاكم والطبقة المسيطرة[١] . ونمثل فى هذا الصدد بكتاب "الخراج" الذى كتبه القاضى أبو يوسف بإيعاز من الخليفة هارون الرشيد ؛ والذى ذهب فيه إلى حكم خطير هو أن من حق الحاكم التصرف فى الأرض حسب رغبته ووفق إرادته[٢] .

لقد أصبح هذا الحكم الخطير متداولاً لدى فقهاء السلطة والمؤرخين الإسلاميين طوال العصور التالية خوفاً أو طمعاً ، أو هما معاً . يقول يحى بن آدم[٣] : "إن الأرض ملك للسلطان ؛ إن شاء قسمها ، وإن شاء صادرها ، وإن شاء أوقفها حسب ما تقتضيه المصلحة" وهذا يعنى أن فقهاء السلطان قد نحوا الشريعة جانباً وأضفوا على سياسات الحكام شرعية زائفة .

ثانيا : أن المؤرخين والدارسين المحدثين – فضلاً عن تأثرهم بهذه الكتابات الملغومة – أضافوا ألغاماً جديدة تتمثل فى الإديولوجيات المعاصرة التى تبنوها ونظروا من خلالها إلى مسألة الأرض ؛ فزادوها غموضا على غموض . ولا أدل على ذلك من أن معتنقى

---

[١] – انظر ، محمد تضغوت : الحياة الاقتصادية فى العراق فى العصر البويهى ، رسالة دكتوراه – مخطوطة ، ص ٢٥ ، ٢٦ .

[٢] – أحمد صادق سعد : دراسات فى المفاهيم الاقتصادية لدى المفكرين الإسلاميين – كتاب الخراج لأبى يوسف ، بيروت ، ١٩٨٨، ص ٣٠.

[٣] – يحى بن آدم : كتاب الخراج ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ١٨.

الإديولوجية الإشتراكية طوعوا الشريعة الإسلامية بما يخدم منظورهم فقالوا بأن الإسلام هو الاشتراكية وألحوا على الملكية العامة للأرض ، بينما ذهب خصومهم الرأسماليون إلى أن الرأسمالية تتفق مع الإسلام فى تقرير الملكية الفردية والإرث .. !!

أكثر من ذلك أن بعض المؤرخين العرب المعاصرين فى العراق حين بحثوا وضعية الأرض فى العصر البويهى تأثروا بنزعات إقليمية تتعصب للخلافة العباسية ؛ لذلك وجدوا فى البويهيين الشيعة الذين انتزعوا حكم العراق من الخلافة "غزاة أجانب" تخبطت سياساتهم الاقتصادية على الرغم مما عرفه العراق من ازدهار عام فى العصر البويهى ، من هنا جاءت أحكامهم الملونة إديولوجيا مجافية للحقيقة ، يقول الأستاذ عبد العزيز الدورى بأن العصر البويهى يعد "فاتحة عهود السيطرة الأجنبية فى البلاد العربية"[٤] ، وفى الوقت الذى ندد فيه بسياستهم الاقتصادية واعتبر عصرهم تجذير الإقطاع العسكرى ؛ ناقض نفسه حين قال : "شهد العصر أوجه نشاط المؤسسات التجارية والصيرفية وشهد ازدهار الزراعة ، وتقدم فنون الصناعة"[٥] . وهذا لا يتأتى إلا فى ظل وجود نمط انتاج بواجوازى . أمام تلك المادة المصدرية غير البريئة ، وأمام الأهواء الإيديولوجية المعاصرة ؛ لا يجد الباحث الموضوعى مناصاً من اختطاط منهج قوامه رصد الظاهرة الاقتصادية فى مجتمع إسلامى وسيطى بعينه فى إطار رؤية عامة وشاملة لدرجة تواجدها وتفاوقما نسبياً فى العالم الإسلامى بأسره؛ على اعتباره أن رؤية الجزء لا تتم إلا فى إطار الكل بعيدا عن المذهبيات والإديولوجيات . وهو ما حاولناه فى مشروعنا "سوسيولوجيا الفكر الإسلامى" وحاوله - فى ضوء ذلك - تلميذنا النابغة محمد تضغوت فى رسالتة الفذة عن "العصر البويهى" فتوصلنا - وتوصل معنا - إلى حكم عام مؤداه أن الإقطاع الذى ساد العراق فى عصر "تسلط الأتراك "٢٣٢ - ٣٣٤هـ تضعضع فى العصر التإلى وهو العصر البويهى[٦] .

ومع ذلك اختلفنا حول درجة أفول الظاهرة الإقطاعية ؛ إذ بينما ارتأينا أن العصر سادته البورجوازية ، مع وجود إقطاع مهمش ؛ ذهب هو إلى عكس ما ذهبنا ؛ فقال بأن التواجد البورجوازى كان هامشيا بالقياس إلى التواجد الإقطاعى الغلاب .

على كل حال سوف نوضح رؤيتنا - مع مناقشة نظرة تلميذنا الذى نكن له الاحترام - من خلال النصوص التى اعتمد عليها هو نفسه واختلف معنا فى تأويل بعضها .

---

[٤] - عبد العزيز الدورى : مقدمة فى التاريخ الإقتصادى العربى ، بيروت ١٩٧٨، ص ٨٦ .

[٥] - نفسه ، ص ٨٦ .

[٦] - محمود إسماعيل : سوسيولوجيا الفكر الإسلامى ، الدار البيضاء ، ١٩٨٠، جـ٢ ، ص ١٤٠ وما بعدها.

لقد فطن كلود كاهن إلى حقيقة تضعضع الإقطاعية فى العصر البويهى دون أن يتصدى لبرهنتها[٧] .

فما هى الدوافع السياسية لسياسة بنى بوية فى ضعضعة الإقطاع ؟مفهوم أن سيادة الإقطاع خلال القرن السابق على ظهور البويهين كانت مسئولة عن حالة الضعف والتشرذم السياسى للإمبراطورية العباسية ، فكانت الحركات الاستقلالية والتجزئة السياسية مرادفا لنمط الإقطاع المنغلق الاكتفائى الزراعى والرعوى أساسا ؛ ومن ثم ما كان هناك يد من أن يعول البويهيون على تحقيق الوحدة السياسية عن طريق استعادة هيبة السلطة المركزية وذلك بالقضاء على الإقطاع[٨] . تلك المقولة برهنها تلميذنا محمد تضغوت بمزيد من القرائن والأدلة والتفصيل والبسط[٩] والإقناع ؛ بما لا يدعونا إلى التكرار والإضافة ؛ اللهم إلا التنويه بأن البويهيين كانوا شيعة زيدية ، وكان التشيع الزيدى مقرونا بالانعزال بطابعه الإديولوجى التنويرى العقلانى المتفتح والحريص على تحقيق العدل الاجتماعى بما يكفل المواءمة بين مصالح الدولة ومصالح الرعية .

لذلك لم يدخر معز الدولة أول السلاطين البويهيين وسعا فى "مصادرة ضياع الخلافة ، وضياع المتسترين ، وضياع ابن شيرزاد وصار أكثر السواد مغلقا ، وزال أيدى العمال عنه ، وبقى الكثير منه من المحلول فضمنه"[١٠] .

يؤكد هذا النص المقتضب على حقائق جد هامة عن محاولة القضاء على الإقطاع بأشكاله التى كانت سائدة فى العصر السابق ، سواء ما كان منه تابعا للخلافة أو إلى أمراء الجند التركى أو إلى رجال الإدارة .

وفى نفس الوقت يشير بأن نظام الملكية الفردية قد حل محله ؛ بحيث ضمنت الدولة موارد مالية هائلة من ضريبة الخراج مما ساعدها على إقرار سيادتها وتوسيع حدودها ، فضلا عن الإنفاق على المشروعات الإصلاحية التى عمت سائر قوى الإنتاج ويكمن الخلاف – مع تلميذنا تضغوت– فى أنه رأى فى العبارة الواردة فى النص السابق " وبقى الكثير منه فضمنه" وجد فيها دليلا على بقاء الإقطاع الشامل لمعظم الأراضى الزراعية فى العراق ؛ على أساس أن "نظام الضمان" – فى نظره – كان من مظاهر الإقطاعية[١١] . بينما نرى من جانبنا أن هذا النظام كان يتعلق بجمع أموال الخراج المقرر على الملكيات الخاصة ؛ بما يدل على

---

٧ – كلود كاهن : تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ٢٠٧ ، الترجمة العربية.

٨ – فؤاد حليل : الإقطاع الشرقى بين علاقات الملكية ونظام التوزيع ، بيروت ١٩٩٦ ، ص ١٦٦.

٩ – محمد تضغوت : المرجع السابق ، ص ٣٤ وما بعدها .

١٠ – مسكويه : تجارب الأمم، القاهرة ، ١٩٢٠ ، ١٩٢١ ، جـ٢ ، ص ٢٣٥.

١١ – محمد تضغوت : المرجع لسابق ، ص ٣٦ وما بعدها .

سيادة النمط البورجوازى فى الإنتاج . فنظام التضمين أو الالتزام كما هو معروف لا يتعلق بالضياع والإقطاعات ، نظراً لكونها معفاة كلية من الضريبة . ولكنه نظام قصدت منه الدولة الحصول على ضريبة الخراج مقدما عن طريق ملاك كبار يدفعونه للدولة ، ثم يقومون بجمعه من صغار الملاك لأنفسهم بعد الحصاد[١٢] .

وإذ أسندت الدولة البويهية هذه المهمة لقواد العسكر الذين حرمتهم الدولة – كما هو معلوم من قبل – من الإقطاعات ووزعت عليهم الأرزاق والرواتب ، وإذ منحتهم الدولة بعض إقطاعات محدودة ؛ فكانت فقط " إقطاع منفعة" مجرد من كافة حقوق الملكية . وهذا النوع من الإقطاع مرتبط بتقديم خدمات للدولة منها ضمان جباية الخراج ، كذا دفع ضريبة سنوية عن هذه الحيازات التى كانت معفاة من الضرائب فى العصر السابق .

كانت سياسة معز الدولة البويهى تستهدف استئصال شأفة الإقطاعية ، بما فيها الإقطاع العسكرى بطبيعة الحال ، وعولت فى ذلك على المرحلية والتدريج . ولعل هذا يفسر ثورة قادة الجند ومحاولة عزله لما لحق بهم من أضرار[١٣] . لذلك حاول تعويضهم بمنحهم بعض الضياع فى إطار صيغة "إقطاع الاستغلال" أو "المنفعة" فضلا عن الأعطيات والرواتب .

وفى مرحلة تالية لم يتقاعس معز الدولة عن إلغاء هذا النوع من الإقطاع الهزيل خصوصا بعد إهمال قواد العسكر زراعة ضياعهم . هذا ما نقف عليه من نص جد هام لمسكويه حيث قال: "أحدث معز الدولة رسومات ومعاملات لم تعهد ، وأدخل يده فى جميع الأرجاء وجبى ارتفاعها وجعل لأهلها شيئا منه "[١٤] .

ويقطع هذا النص الهام بتحويل ضياع الجند إلى ملكيات خاصة للمزارعين فرضت عليها ضريبة الخراج . معنى هذا اتساع رقعة الملكية الخاصة على حساب الضياع الإقطاعية التى قضى عليها تماما فى عهد صمصام الدولة الذى اتخذ اجراءا هاما فى هذا الصدد هو "إطلاق الانتفاع للملاك"[١٥] ؛ بعد أيلولة الأرض إليهم نظير خراج يدفع للدولة قيمتة عشر المحصول الذى أوكل جبايتة لا إلى المتضمنين من قادة الجند ؛ بل إلى موظفين إداريين عينهم خصيصا للقيام بهذه المهمة. يفهم ذلك بداهة من قول مسكويه " .. كما أدخل يده فى وقوف السواد ورتب لها ناظرين متصرفين ... وخرجت الإقطاعات من بعد ذلك .. "[١٦] .

---

[١٢] – إبراهيم على طرخان : النظم الإقطاعية فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٤٧٥.
[١٣] – محمود اسماعيل : سوسيولوجيا ، جـ٢ ، ص ١٤٢ .
[١٤] – مسكويه : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٧١ .
[١٥] – نفس المصدر والصفحة .
[١٦] – نفس المصدر والصفحة

ومعلوم أن "وقوف السواد" كانت قد آلت إلى قادة العسكر خلال العصر السابق ، فانتزعت منهم وتحولت إلى ملكيات خاصة ، أى إلى أرض خراجية[17] .

ويمكن الجزم بأن البويهيين الأوائل نجحوا فى كبح جماح الإقطاعيين من قادة العسكر وإن أبقوا على بعض الإقطاعات فى إطار "إقطاع الاستغلال" خصوصا فى مناطق الأطراف النائية نظير القيام بمهمة الدفاع عن حدود الدولة أو المناطق التى تحتاج الأرض فيها إلى الاستصلاح . وحتى لا يتعاظم خطر هؤلاء القادة المقطعين فرضت الدولة عليهم رقابة صارمة وعينت بعضهم فى مناصب إدارية فى قلب الدولة من باب الترضية عوضا عن إقطاعاتهم[18] . وفى نفس الوقت اتبعت الدولة سياسة الإصلاح لتكسب جماهير الرعية إلى جانبها لتوازن بذلك بين سخط القادة العسكرين وبين ولاء المواطنين[19] .

وبفضل تعاظم ولاء الرعايا نجحت الدولة فى فل نفوذ هؤلاء القادة فلم تتقاعس عن ردعهم إذا ما فكروا فى التمرد والإنتزاء .

كما استعانت الدولة فى فرض سياستها إزاء الوضعية الجديدة للأرض بجيش من الإداريين المحنكين واعتمدت عليهم ليكونوا عونا لها فى مواجهة قادة الجند الحانقين .

ولنفس الغرض - وأمام تعاظم الجند الديلمى - لم تدخر الدولة وسعا فى تسريح جيش الديالمة واستعاضت عنه بجند جديد من العناصر التركية غير الطموحة ، فضلا عن تجنيد البدو فى الجيش الجديد الذى وفرت له الأموال فى صورة رواتب وأعطيات بدلا من الإقطاعات[20] .

وفى العصر البويهى الأخير الذى اتسم بالفوضى السياسية نتيجة الصراع بين العسكرين القديم الديلمى والجديد التركى ، واندلاع الصراع على السلطة بين أفراد الأسرة البويهية الحاكمة، وانتعاش الخلافة العباسية نسبيا ؛ لم يستطع السلاطين البويهيون الأواخر الحفاظ على سياسة الدولة إزاء وضعية الأرض التى أنجزها السلاطين الأوائل فانتكست تلك الإصلاحات[21] إلى حد ما .

ولمواجهة أخطار القوى الإقطاعية الإدارية والعسكرية ضربت الدولة بقوة على أيدى الإداريين وأرغمتهم على دفع ضريبة الخراج التى حاولوا التنصل من تبعاتها[22] . لكنها

---

[17] - محمود إسماعيل : سوسيولوجيا ، جـ٢ ، ص ١٤٤ .

[18] - نفسه ، ص ٤١ .

[19] - الماوردى : قوانين الوزارة وسياسة الملك، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ١٠٨.

[20] - Bosworth, C, *Military Organisations under the Bayids of Persia and Iraq*, London, 1977, p. 159.

[21] - محمود اسماعيل : دراسات فى الفكر والتاريخ الإسلامى ، القاهرة ، ١٩٩٤ ، ص ٢١.

[22] - محمد تضغوت : المرجع لسابق ، ص ١٥٠

عجزت عن مواجهة قوى العسكر الديلمي القديم ، وأمام عجزها عـن دفـع الرواتـب والأعطيات اضطرت اضطرارا مرة أخرى لإقطاعهم الأرض[٢٣] ؛ فانحرفت بذلك عن جـادة الطريق "انحرافا يسيرا ولا يظهر انحرافها فى المبدأ" على حد تعبير دقيق للمؤرخ مسـكوية[٢٤] . وهذا يعنى عجز البويهيين الأواخر عجزوا عن استئصال شأفة الإقطاعية تماما ، دون أن يفهم من ذلك بداهة تخلي الدولة عن سياسة البويهين الأوائل كما فهم بعض الدارسـين الذيـن حاولوا إثبات تحول السياسة البويهية إلى إحياء الإقطاعية . لقد عادت فلول الإقطاعيـة فى قطاع محدود من الأرض الزراعية ، أما معظمها فظل على صورة ملكيات خاصة تدخـل فى إطار وضعية الأرض الخراجية. أما عن الأراضى التى صارت إقطاعا ، فقد حـاز معظمـها أفراد أسرته حفاظا على ولائهم للسلطة[٢٥] . كما أن الصراع على السلطنة بين بهاء الدولـة وصمصام الدولة لم يهدأ إلا بعد تعهد كل منهما بأن يخصص لصاحبه إقطاعـا فى بعـض مناطق[٢٦] نفوذه . وأمام انتعاش الخلافة العباسية اضطرت السلطنة البويهيـة إلى تخصيـص إقطاعات للخلفاء بدلا من الرواتب[٢٧] . ولما نشب النزاع بين العسكرين التركى والديلمـى قسم بهاء الدولة بعض مناطق إقليم الأهواز بالتساوى بينهما[٢٨] . كما منح مشرف الدولـة بعض القادة الديالمة ضياعا فى واسط لمناصرتهم إياه فى صراعه مع أخيه سلطان الدولة[٢٩] .

يتضح مما سبق أن إحياء الإقطاعية لم يجر إلا فى نسبة محدودة من الأرض الزراعيـة ، وذلك لأسباب سياسية ، كذا بسبب خواء خزينة الدولة وعجزها عـن دفـع الرواتـب والأعطيات[٣٠] وهذا يعنى أن السواد الأعظم من الأراضى الزراعية ظلت ملكيـات خاصـة لصغار الملاك .

شاهدنا على دعوانا تلك عدة مؤشرات ، منها أن السواد الأعظم من الجند كـانوا يتقاضون رواتب وأعطيات[٣١] ، كما تنم سياسة البويهين الأواخـر فى مضاعفـة ضريبـة الخراج[٣٢] على بقاء الملكيات الخاصة على نطاق واسع .

---

[٢٣] – أحمد عبد الحليم يونس : أنظمة استثمار الأرض الزراعية فى العصر العباسى ، بيروت ، ١٩٨٦ ، ص ١٦١ وما بعدها.
[٢٤] – تجارب الأمم ، جـ٦ ، ص ٩٧ .
[٢٥] – إبن الأثير : الكامل فى التاريخ، بيروت ، ١٩٧٨ ، جـ٧ ، ص ١٥.
[٢٦] – نفسه ، ص ٤٥ .
[٢٧] – محمود تضعوت : المرجع السابق ، ص ٥٩ .
[٢٨] – ابن الأثير : المصدر السابق ، ص ١٩٨ .
[٢٩] – نفسه ، ص ٣٠٦ .
[٣٠] – فؤاد حليل : المرجع السابق ، ص ١٦٥ .
[٣١] – نفسه ، ص ١٥١ ، ١٥٢ .
[٣٢] – مسكويه : المصدر السابق ، جـ٦ ، ص ٩٨ .

لقد اعترف القائلون بعودة الإقطاعية كلية فى أواخر العصر البويهى بوجود ملكيات خاصة للفقهاء والأشراف والقضاة والكتاب نظير "مراقبة الجبايات"[٣٣] بما يعنى عدم رسوخ الإقطاعية على أنقاض الملكيات الخاصة . ومعلوم أن هؤلاء كانوا يحوزون إقطاعات واسعة فى العصر السابق .

وباستنطاق المصطلحات الخاصة بوضعية الأرض فى أواخر العصر البويهى سميوطيقيا نجدها ما بين "تمليك" و "تسويغ" و "إيغار" و "طعمه" ... الخ مما يبرهن قطعيا على وجود الصيغة الخراجية.

وبنفس الدرجة تشى ظاهرة بيع الملاك الصغار أراضيهم من جراء تعاظم الضرائب الخراجية على وجود الملكيات الخاصة ، كما تنهض ظاهرة كثرة شكاوى الفلاحين من الجبايات والمغارم دليلا على نفس الحقيقة[٣٤] . وفى نفس المنحى نفهم مغزى حبس بعض الملاكين نصابا من أراضيهم كأوقاف ينفق من ربعها على أعمال البر والخير[٣٥] . كذا تعاظم القضايا الخاصة بالتركات فى أواخر العصر البويهى[٣٦] .

تلك القرائن - وغيرها كثير - تدل دلالة واضحة على أن الإقطاع لم يسد تماما إبان العصر البويهى الأخير كما ذهب بعض الدارسين . وننوه أيضا بأن تواجده ظل هشا بعد أن جرد من عوامل قوته ؛ فقد كان كما قلنا من قبل "إقطاع استغلال" وليس "إقطاع رقبة" ، كما منح فى حالات خاصة تحت إلحاح الضرورة السياسية ، والتزم الإقطاعيون الجدد بتقديم خدمات للدولة[٣٧] أو تسليم جزء من المحصول لها عينا أو نقدا[٣٨] . ناهيك عن لجوء السلاطين الاواخر - تحت إلحاح العوز المالى - إلى مصادرة الكثير من الإقطاعات[٣٩] ؛ بما يفيد هشاشة الإقطاعية إذا - ما قيست بالملكيات الخاصة - فى العصر البويهى الأخير . خلاصة القول - أن البويهيين عموما أحدثوا تحولا ملحوظا فى سياستهم إزاء وضعية الأرض الزراعية مؤداه ضعضعة الاقطاعية لحساب تعاظم الملكيات الخاصة . وإذ نجح السلاطين الأوائل نجاحا شبه تام فى سياستهم تلك ، فقد اضطر السلاطين الآواخر - تحت ضغوط ظروف سياسية - إلى

---

٣٣ - أنظر : محمد تضعوت : المرجع السابق ، ص ٦٨ .
٣٤ - نفسه ، ص ٧١ .
٣٥ - حسن منيمنة : نشوء الإقطاع فى الإسلام ، ص ٣٠١ ، ٣٠٢ ، مجلة الاجتهاد ، عدد ١٤ ، بيروت ١٩٩٦ .
٣٦ - آدم ميتز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، بيروت ، ١٩٦٧ ، جـ١ ، ص ٣٤٠.
٣٧ - محمد تضعوت : المرجع لسابق ، ص ٦٢ .
٣٨ - نفسه ، ص ٦٣ .
٣٩ - التنوخى : الفرج بعد الشدة ، بيروت ، ١٩٧٨ ، جـ١ ، ص ٣٩.

السماح بتواجد النمط الإقطاعى تواجدا هشا ؛ بما يفيد أخيرا أن النمط البورجوازى – الرأسمإلى ظل سائدا وغلابا طوال العصر البويهى .

وليس أدل على صدق مقولتنا من تبنى الدولة سياسة إصلاح فى مجال الزراعة ؛ أفضت إلى تعاظم الإنتاج ورخص أسعاره وارتفاع مستوى المعيشة بوجه عام . لقد أقرت الدولة نظاما جبائيا عادلا يحقق مصالح الدولة والمزارعين فى آن ، كما تبنت مشروعات عمارة الأرض وسقياها وزيادة رقعتها وفق أساليب وتقنيات مستحدثة .

نعلم أن السلاطين البويهيين دأبوا على تنظيم المؤسسات الخاصة بالأرض فأعادوا النظر فى الدواوين واستحدثوا بعضها واختاروا لإدارتها موظفين أكفاء جرت مراقبتهم من قبل السلطة حرصا منها على حسن تنفيذ سياسة الإصلاح الزراعى[٤٠] . يقول أبو شجاع[٤١] "رفع شرف الدولة أمر المصادرات – بالنسبة للأرض الخراجية – وقطع أسبابها ، وذم طرق السعايات وسد أبوابها .. وانتظمت الأمور على يديه كل الانتظام ، وطالب العمال بعمل المصالح ، وأخذهم بإقامة العمارات" .

وقد لخص كلود كاهن[٤٢] هذه السياسة الإصلاحية بقوله : "شمل آل بويه بعنايتهم جميع البلدان ، وحققوا فى بلاد فارس أعمالا فى التنمية والاستثمار لم يسبق لها مثيل" .

وقد تعاظم الإصلاح فيما يتعلق بأمور السقاية والرى وفق أساليب علمية وتقنيات مبتكرة؛ فكان لديهم جهاز هندسى دقيق برع فى إقامة السدود وصيانتها ، وشق القنوات لإجراء الماء إلى المساحات المزروعة ، واستصلاح الأراضى البور . وقد تفانى معز الدولة البويهى فى الإشراف بنفسه على أمور السقاية ؛ حتى قيل بأنه باشر بنفسه سد أحد البثوق . وشيد عضد الدولة سدا عظيما على نهر الكربين شيراز وإصطخر وسقى منه ثلاثمائة قرية . وفى الأقاليم عديمة الأنهار ، أقيمت مشروعات لتجميع مياة الجداول والوديان المنحدرة بعد سقوط الأمطار لتسرى فى قنوات مغطاة أقيمت عليها الجسور وامتدت خلال نطاقات شاسعة على جانبيها وقد تطلب العمل فى تلك المشروعات وجود إدارة هندسية معقدة وآلات مائية متعددة جرت الإفادة من التقدم العلمى فى علوم الرياضيات فى هذا العصر فى

---

[٤٠] – محمود اسماعيل : سوسيولوجيا ، جـ٢ ، ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

[٤١] – ذيل كتاب تجارب الأمم ، اكسفورد ، ١٩٢١ ، جـ ٣ ، ص ١٣٧.

[٤٢] – تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ، ص ٢٠٨ .

صناعتها وإعدادها . كما أفردت الدولة دواوين خاصة لأمور الرى عرفت باسم "دواوين الماء" علمت على توفيره لرى رقعة زراعية فسيحة[٤٣] .

وليس أدل على شيوع شكل من أشكال النمط الرأسمإلى فى الإنتاج الزراعى ؛ من مشاركة المزارعين فى هذه الأعمال ، وفى مقابل هذه المشاركة كانت الدولة تعفيهم من بعض أقساط الخراج[٤٤] .

كما أسهمت النهضة العلمية التى ازدهرت فى هذا العصر فى زيادة الإنتاج الزراعى ، من حيث ابتكار وسائل جديدة فى تسميد الأرض ؛ نتيجة تقدم علم الكيمياء . كذا إبتكلو وسائل جديدة فى استنبات محاصيل عالية الإنتاجية ولاغرو فقد ظهرت فى هذا العصر مصنفات فى "علم الفلاحة" جرت الإفادة منها فى المجال الزراعى ، وأخرى فى "علم الحيوان" ساعدت على تعاظم الإنتاج وتجويده وتحسين سلالاته ، خاصة القول – أن ازدهار الزراعة فى العصر البويهى كان نتيجة للسياسة البويهية الرشيدة التى قوضت النمط الإقطاعى فى الإنتاج ليحل محله نمط آخر يتسم بالكثير من سمات نمط الإنتاج الرأسمإلى .

---

[٤٣] – محمود إسماعيل : المرجع السابق ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

[٤٤] – أدم ميتز : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٣٤٠ .

دور مصر فى إفريقية

من الفتح العربى حتى نهاية عصر الولاة

٢٧ - ١٨٤ هـ / ٦٤٧ - ٨٠٠ م

د./ نريمان عبد الكريم أحمد

كلية الآداب – جامعة المنوفية

لقد تهيأت مصر بما اختصت به من مزايا، أن تتبوأ دائماً مكانة متفردة بين جيرانها ، وأن تلعب دوراً إيجابياً قد تحتم عليها طوال تاريخها ولازالت ، فهى تمثل أخطر موقع إستراتيجي(١)، باعتبارها حجر الزاوية فى الثلاثية القارية ، التى يتألف منها العالم القديم ، فهى الوحيدة ، التى تلتقى فيها قارتان وتقترب منها ثالثة ، لذلك فهى تمتاز بالموقع المركزى فى قلب الدنيا القديمة (٢) ، فضلاً عن أن مصر بمثابة الشريان المحورى المطلق فى الملاحة العالمية (٣) ، وبذلك يكون موقع مصر رأسمالا طبيعيا وسياسيا ، ولولا هذا الموقع البرزخى الحيوى لكانت مصر أقل ثقلا وثراء (٤)، كما أن بيئة مصر الفيضية قد جمعت فى تناسب معقول بين حوافز النشاط وبين إمكانيات العمل ، بمعنى أن الجهد البشرى كان شرطا للتقدم (٥) ، لذلك إمتازت مصر بثرائها وغناها وكثرة خيراتها.

وقد ورد ذكر مصر فى القرآن الكريم، يؤكد ذلك قول تعالى: ((اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم)) (٦) ويقول سبحانه : ((ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون .)) (٧) كما قال تعالى على لسان يوسف علية السلام :((قال اجعلنى على خزائن الأرض أنى حفيظ عليم)) (٨) .

كما ذكرت بعض الأحاديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام عن مصر منها : ((إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا ، فذلك الجند خير أجناد الأرض ، لأنهم فى رباط إلى يوم القيامة)) (٩) وقال أيضاً : ((ستفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيراً ، فإن لكم فيهم صهراً وذمة)) (١٠) .

وقيل أيضا فى فضائل مصر : ((من أراد أن ينظر إلى الفردوس ، فلينظر إلى أرض مصر، حين تخضر زروعها و يزهر ربيعها ، وتكسى بالنوار أشجارها وتغنى أطيارها)) (١١) وقيل أيضا:((بلد مصر خزانة الله)) وكذلك ((نعم البلد مصرا يحج

منها بدينارين ، ويغزى منها بدرهمين)) (١٢) وعلى ذلك كان أثر ثراء مصر واضحا فيما قامت به على التوالى من إرسال القمح إلى روما ثم بيزنطة ثم المدينة (١٣) .

وهذه المزايا السابقة قد جعلت مصر مؤهلة للقيام بدور ملحوظ عبرالتاريخ ففى الحقبة الإسلامية ، بدأت مصر تتحول إلى قاعدة إسلامية كبرى ، فعلى الرغم من أن الدولة الأموية كانت فى الشام إلا أن مصر كانت قاعدتها ومركز ثقلها ، فمعاوية بن أبى سفيان لم يهتم بشىء أثناء صراعه مع على بن أبى طالب قدر أهتمامه بانتزاع مصر (١٤) . ونفس الشىء حدث أيام عبد الملك ابن مروان ، فقد تقرر مصير المعركة بينه وبين عبد الله بن الزبير عندما استخلص مصر وتولاها أخوه وولى عهده عبد العزيز بن مروان ، وظلت مصر كذلك طوال العصر الأموى قلب هذه الدولة ، لأن مصر كانت بلدا مستقرا غنيا يمد الخلافة بأسباب الغنى والقوة (١٥) .

ولما كانت مصر هى المدخل الطبيعى وخط الإقتراب الحتمى إلى شمال أفريقيا (١٦) ، ولأنها ولدت إفريقية تشعر بالتزاماتها حيال القارة بوجه عام على مدار التاريخ ، حيث فرضت عليها الظروف أن تكون صاحبة النصيب الأكبر فى النهوض بشركائها (١٧) .

لذلك لعبت مصر دورا ملحوظا فى إفريقية ، بداية من الفتوحات حتى نهاية عصر الولاة، تمثل هذا الدور فيما أسهمت به مصر على الصعيد العسكرى والسياسى ، فقد حتمت الوضعية الجغرافية لمصر وقربها من إفريقية إتخاذ مدينة الفسطاط قاعدة لإنطلاق الحملات ومركزا سياسيا هاما ، وفيما يخص الناحية الإقتصادية ، فقد اقتصرت على تقديم الأموال ، أما عن الناحية الثقافية فقد قامت مصر بدور الوسيط ، لان مدينة الفسطاط كانت تمثل معبرا ثقافيا وواسطة بين المشرق والمغرب الإسلامى .

ومن المعلوم أنه بعد إنتهاء عمرو بن العاص من فتح مصرعام٢١هـ/٦٤١-٦٤٢م، توجه إلى فتح برقة وطرابلس لتأمين حدود مصر الغربية (١٨) ، وكان طبيعيا أن يستمر الفتح فى إفريقية ، فكتب عمرو إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه فى هذا الأمر لكن الخليفة لم يرض لسابق معرفته بظروف إفريقية المضطربة(١٩) ، وفى خلافه عثمان بن عفان،قام عبد الله بن سعد بن أبى السرح والى مصر بأرسال خيوله إلى إفريقية فى شكل سرايا تغير على أطراف البلاد (٢٠) وتقوم باستطلاع أحوالها معتمدا على جند مصر ، حتى قام بأول الغزوات الرسمية عام ٢٧ هـ / ٦٤٧ م ، والتى عرفت بغزوة العبادلة (٢١) ، وحوت هذه الغزوة إلى جانب القبائل التى تسكن مكة والمدينة كثيرا من أبناء القبائل العربية المستقرة

فى مصر من مهرة وميدعان و الأزد (٢٢) ، فضلاً عن بعض الأقباط الذين صحبوا هذا الجيش (٢٣) .

كما ضمت غزوات معاوية بن حديج الكندى بعض عشائر من جند مصر (٢٤) ، ونفس الشيء يقال عن حملة عقبة بن نافع عام ٥٠ هـ / ٦٧٠م ، والتى أشترك فيها على ما يبدو عدد كبير منهم ، فعند قدوم عقبة إلى مصر قبل غزو إفريقية قال له عبد الله بن عمر ((إياك أن تكون لعنة أرامل مصر)) (٢٥)، هذا يبين أن المشتركين فى هذه الحملة كانوا من العرب والأقباط على السواء، إذ إنه كان يطلق على العرب المقيمين فى مصر آنذاك ((أهل مصر)) .

و لم يقف الأمر عند حد إشتراك جند مصر فى الحملات المتوجهة صوب إفريقية ، بل أن مصر أو بالأحرى مدينة الفسطاط كانت بمثابة قاعدة لانطلاق الحملات ومركزاً لتلقى القوات المنسحبة إليها ، لاسيما فى الحملات الأولى،فقد رجع عبد الله بن سعد إلى مصر بعد أن أقام فى إفريقية سنة وشهرين (٢٦) ، كما أن الحملات التى قام بها معاوية بن حديج كان يعود بعدها إلى مصر(٢٧) ، وكذلك زهير بن قيس الذى عاد بعد إنسحابه من إفريقية هو وجنده إلى مصر يلتمسون الراحة فيها (٢٨) .

كذلك كان يناط بوالى مصر قيادة الحملات ، فعلى الرغم من أن جيش العبادلة قد خرج من المدينة تحت قيادة الحارث بن الحكم،فإنه بعد وصول هذا الجيش إلى الفسطاط،أصبح عبد الله بن سعد قائدا له (٢٩) باعتبار أن مصر وواليها كانا يتحملان تبعة الفتح، صحيح أن عقبة لم يكن واليا على مصر ، لكن كان عليه بعد أن تم اختياره من قبل معاوية بن أبى سفيان ليقود هذه الحملة أن يتوجه إليها . وليس معنى مرور عقبة على مصر ، هو بمجرد تجاوز الحدود إلى إفريقية ، بل لأن والى مصر وقتئذ كان مسلمة بن مخلد الأنصارى الذى ولى مصر والمغرب منذ عام ٤٧ هـ / ٦٦٧م(٣٠) ، كما كان على عقبة أن يستقر بمصر بعض الوقت لإعداد هذا الجيش.

و لم يكن إشتراك جند مصر مقصورا على القتال ، بل كانوا يشاركون أحياناً فى وضع الخطط الحربية ، فتذكر المصادر (٣١) أن أحد الأقباط قد أشار على عبد الله بن سعد بأن يجعل للروم كمينا ويفرقهم حتى كان النصر للمسلمين ، وتم الإعتماد عليهم أحياناً فى تدعيم النفوذ العربى فى إفريقية فى حالة الإنسحاب ، فأغلب الظن أن معاوية بن حديج عاد إلى مصر بعد أن ترك فى طرابلس وإفريقية فرقة من جيش مصر(٣٢) ،كما كانت المراكب تخرج من مصر فى بعض الأحيان لتحمل أثقال الجيش وغنائمه (٣٣) .

وإذا كان هناك بعض الأسباب التى أثرت فى فتوحات إفريقية ومنها رفض الخليفة عمر بن الخطاب وظروف الخلافة نفسها فيما بعد ، وكذلك السياسة التى رسمتها الخلافة تجاه مناطق الأطراف والتى كانت تقوم على أن عملية الفتح تكون مسبوقة بفترة من الغارات الثغرية التى يتدرب فيها الجند على طبيعة البلاد والسكان (٣٤) فإن أحوال مصر السياسية أيضا قد شاركت فى تأخر هذه الفتوحات .

ويرى الدكتور سعد زغلول عبد الحميد (٣٥) أن هذا الأمر قد تزامن مع عمرو بن العاص معتمدا على رواية ابن عبد الحكم (٣٦) ، التى يفهم منها أن أحوال مصر الداخلية كانت تتطلب عودة عمرو سريعا ، حيث ذكر: ((فأتى عمرو كتاب المقوقس يذكر فيه أن الروم يريدون نكث العهد ، ونقض ما كان بينه وبينهم)) ويضيف مع إنه يمكن الشك فى هذه الرواية إذ أن المقوقس توفى عام٢١ هـ / ٦٤٢م ، إلا إنه لاغبار عليها من حيث الموضوع ،فقد أتت ثورة الإسكندرية وغدر الروم بالعرب بعد حوالى عامين ، لكن من المعتقد أن هذه الرواية مرتبطة بفتح برقة .

وليس هناك شك فى أن أحوال مصر المضطربة أثناء الفتنة الكبرى وما أعقبها من صراع بين على ومعاوية كان له أصداء فى فتوحات إفريقية ، لاسيما أن مصر كانت مسرحا للثورة ضد الخليفة عثمان بن عفان ، وكذلك إضطراب العثمانية فيها بزعامة معاوية بن حديج، حتى أن الفتوحات توقفت ما يقرب من ثلاثة عشر عاما (٣٧).

وإذا كان دور مصر العسكرى واضحا منذ البداية ، فهذا ليس معناه تلاشى دور الخلافة، باعتبارها المسئولة عن توجيه الحملات وتبنى سياسة الفتوحات ، فالحملات الأولى لم تخرج إلا بأمر الخلافة ، كما أنه قد تم تجهيزها بالمال والسلاح وإختيار القادة .

بيد أن أحد الدارسين (٣٨) يرى ((أنه منذ غزوة عبد الله بن سعد أصبحت الخلافة تهتم مباشرة بأمر هذه البلاد وأن سلطان والى مصر لم يعد مطلقا على الجيش الأفريقى ، ويعلل تلاشي هذا الدور بعد ذلك بأن عمرو بن العاص بعد رجوعه إلى ولايته الثانية على مصر لم يقم بأى نشاط فى بلاد المغرب)) ولمناقشة هذا الرأى لابد أن نقرر أن الفتوحات الفعلية لم تبدأ إلا مع غزوة العبادلة بمعنى أن ما قام به عمرو قبل ذلك فى برقة وطرابلس كان لتأمين حدود مصر الغربية أو بمجرد غارات استطلاعية على أطراف إفريقية قام بها عمرو ومن بعده عبد الله بن سعد ، أما فيما يخص ولاية عمرو الثانية والتى كانت عام ٣٨ - ٤٣ هـ / ٦٥٨ - ٦٦٣م ، فخلال هذه الفترة كان نشاط عمرو ملحوظا ، فأرسل فى عام ٤٠ هـ / ٦٦٠ م شريك بن سمى الغطيفى إلى لواتة (٣٩)، وتبع ذلك غزواته إلى مزاتة

وما تلاها من فتح غدامس عام ٤٢هـ / ٦٦٢ م ، وهوارة عام ٤٣ هـ / ٦٦٣ م (٤٠) . وانتهت هذه الغزوات فى العام الذى توفى فيه عمرو (٤١) .

صحيح أن هذه الغزوات كانت فى برقة و طرابلس ، لكنها تؤكد نشاط عمرو بن العاص خلال هذه الفترة ، كما أننا لا نستبعد إنه قد وجه معاوية بن حديج إلى إفريقية بأمر الخلافة خاصة أن غزوات ابن حديج فى عامى ٤٠ ، ٤١ هـ والتى يعتبرها البعض غزوة واحدة تقع فى ولاية عمرو الثانية لمصر (٤٢) .

و لم ينته هذا الدور العسكرى الذى قامت به مصر فى إفريقية حتى بعد إختطاط مدينة القيروان عام ٥٥ هـ / ٦٧٥ م ، تلك المدينة التى أصبحت قصبة بلاد المغرب والقاعدة الجديدة والدائمة للفتوحات من خلال ما قامت به من أعمال حربية داخل البلاد ، ومع ذلك فكان لابد من إستمرار دور مصر بسبب تفجر المقاومة البربرية فى إفريقية . ولأن والى مصر ظل مهيمناً على أحوال إفريقية ، فكان عليه أن يعتمد على القوة العسكرية الموجودة فى مصر .

ومع أن المصادر لم تشر إلى إشتراك جند مصر فى حملة حسان بن النعمان ، والتى أختلف المؤرخون فى تحديدها (٤٣) ، وهذا راجع إلى أن الخليفة عبد الملك بن مروان أصدر الأمر بتكليفه بالحملة ثم أمره بالبقاء فى مصر ، فمن الراجح أن حسانا اصطحب معه أعداداً منهم إلى جانب إعتماده على جند الشام (٤٤) ، كما إشترك جند مصر فى فتوحات موسى بن نصير حتى تم إنجاز الفتح (٤٥) .

وسرعان ما تفجرت ثورات الخوارج فى بلاد المغرب فى الثلث الأول من القرن الثانى الهجرى — الثامن الميلادى ، فأنضم إلى جيش كلثوم بن عياض القشيرى ثلاثون ألفا من أهل الشام ومصر(٤٦) ، لأن الخليفة هشام بن عبد الملك كتب إلى والى كل بلد ومنها مصر أن يخرج بمن معه (٤٧). وبعد الهزيمة أرتد جند مصر مع جند إفريقية إلى القيروان (٤٨) ، و لم نسمع عنهم بعد ذلك ، فلعلهم استبعدوا مثل العرب القدامى وسرحوا فيما بعد . ومع قيام الخلافة العباسية استعان الخليفة السفاح بجند مصر لتأكيد النمط المركزى للخلافة ضد عبد الرحمن بن حبيب الذى خرج على الخلافة منذ الأمويين ، فأرسل الجيوش من مصر من خلال حملة أبى عون عام ١٣٦ هـ / ٧٥٣ م ، والتى عززت بحملة بحرية وصلت إلى الإسكندرية فى نفس العام . ولكن لم يقدر لهذا العمل العسكرى أن يستكمل بسبب وفاة الخليفة (٤٩) .

أما عن الدور السياسى الذى لعبته مصر فى إفريقية ، فمن الملاحظ أنه كان مصاحبا للدور العسكرى ، ويتضح هذا الدور فى تبعية إفريقية لحكومة الفسطاط ويطالعنا

البلاذرى(٥٠) بنص يفيد هذه التبعية المبكرة ، فيذكر : ((أن الخليفة عثمان بن عفان جعل لأبن سعد ولاية مصر والمغرب)) كما يذكر النويرى (٥١) : ((أن معاوية بن أبي سفيان أقر معاوية بن حديج على إفريقية وأفردها عن مصر)) . ويضيف الدكتور حسين مؤنس (٥٢) : ((أن معاوية أراد بعد وفاة عمرو إسترداد الحق الذى كسبه فى ولاية إفريقية واعتبرها ولاية قائمة بذاتها يولى من عنده واليا تكون صلته به مباشرة)) .

وبالنسبة لرواية البلاذرى . فحتى خلافة عثمان بن عفان ، لم يكن هناك كيان إسلامى فى إفريقية ، لأنها كانت مرحلة فتوحات لم تستقر بها الجيوش العربية بعد ، لذلك من المقبول أن الخليفة قد عهد لأبن سعد بقيادة الحملات ، ومعنى ذلك أن التبعية كانت مجرد تبعية عسكرية ، لأن الفسطاط كانت حتى ذلك الوقت قاعدة عسكرية لانطلاق السرايا والغارات على أطراف إفريقية ، وحتى بعد خروج غزوة العبادلة ظلت الفسطاط تلعب نفس الدور .

وفيما يخص رواية النويرى ، فهل يعنى أفراد إفريقية عن مصر إنها كانت تابعة لمصر ثم رفعت تبعيتها ؟، لا نستطيع أن نؤكد ذلك ، لأن مسألة إنشاء ولاية فى إفريقية لم تكن قد طرحت بعد(٥٣) وإذا كان معاوية قد أراد أن يكافىء أحد أنصاره وهو ابن حديج ويوليه على إفريقية ، فعمرو أيضا كان له الفضل فى وصول معاوية إلى الخلافة كما أن معاوية لم يستطع أن يحافظ على مصر من أتباع على بن أبى طالب إلا بوجود عمرو فى مصر ، وكذلك كيف تكون إفريقية ولاية قائمة بذاتها مستقلة بعد تولية ابن حديج فمعنى ذلك أنها لم تكن تابعة لمصر إلا فى فترة قصيرة أنتهت بهذه التولية .

لكن إفريقية لم تكن ولاية بالمعنى المفهوم ، فعلى الرغم من أن معظم المؤرخين (٥٤) قد ذكروا فى أحايين كثيرة أشارات تؤكد بروز الولاية منذ عقبة وحتى قبله ، ومنها، ((أن مسلمة بن مخلد عزل عقبة ، وهو يؤمئذ والى البلد من قبل معاوية)) ، وكذلك عندما قدم عقبة على معاوية يشكو له ، فقال له معاوية : ((رددتك إلى عملك)) وكثيرا ما يصادفنا ولاية عقبة الأولى والثانية ، لكننا لا نستطيع أن نجزم بأن إفريقية أصبحت ولاية قائمة بذاتها ، لأن المؤرخين قد سجلوا هذه الأحداث فى فترة متأخرة ، و لم تعنيهم هذه القضية ، لأنها كانت قد استقرت ، فجاءت هذه التعابير على النحو الذى أسلفناه ، ومما يبين عدم بروز الولاية حتى عقبة ما ذكره ابن عبد الحكم (٥٥) : ((أن عقبة عندما قدم إلى مصر قال أن أمير المؤمنين يريد العقد لى على جيش إفريقية)) .

وفى الواقع برزت إفريقية كولاية منذ مسلمة بن مخلد الذى يعتبر أول من جمعت له مصر والمغرب عام ٤٧ هـ / ٦٦٧ م (٥٦) وإن كان هذا فى إطار تبعيتها للفسطاط

والتى استمرت على الرغم من اختطاط مدينة القيروان ، التى مثلت السيادة العربية فى إفريقية وكذلك بعد إنشاء دار الأمارة ، فإن هذه التبعية قد استمرت لأن إفريقية حتى هذا الحين كانت قد ولدت بكيانها الإدارى فقط .

وقد اتضحت علاقة مصر بأفريقية من خلال التبعية السياسية فى إقدام والى مصر مسلمة بن مخلد على عزل عقبة بن نافع بعد نجاحه فى التوغل فى إفريقية وإحراز إنتصارات على البيزنطيين وإختطاط مدينة القيروان . ومهما قيل فى أسباب عزل عقبة من حيث خطته العسكرية أثناء فتوحاته والمجازر التى قام بها وموقفة من زعماء البربر وعدم محاولته كسبهم ، كما فعل أبو المهاجر دينار من بعده ، والذى سار على سياسة مغايرة لسياسة عقبة (٥٧) ، وكذلك سياسة التشدد التى أتبعها فى سبيل نشر الإسلام والتي جعلت الإمبراطورية البيزنطية تصدر أوامرها بمنع الاضطهاد الديني بأفريقية حتى توجد جبهة مضادة للمسلمين (٥٨) ، فكان لابد من عزل عقبة لإحداث نوع من التوازن في البلاد ، فضلا عما قيل بشأن خوف معاوية بن أبي سفيان من محاولة عقبة الاستقلال بإفريقية ، وقد أدرك ذلك قبلا في مطامع عمرو بن العاص في مصر (٥٩) . أو لأسباب شخصية ترجع إلى مسلمة الذي أراد أن يكافئ أحد مواليه على إخلاصه (٦٠) .

ومع ذلك يظل هذا العزل أمرا يخص مسلمة وحده الذى طمع فى غنائم إفريقية وأراد أن تكون لولايته من خلال تعيين أحد مواليه ، كما يظل هذا العزل دليلا على هيمنة مصر وحكومة الفسطاط على مقدرات إفريقية السياسية ، وحسبنا دليلا على ذلك عدم اهتمام الخلافة بعزل عقبة عندما قدم على معاوية شاكيا ، وأن وعده برده إلى إفريقية ، وذلك بسبب ثقل وطأة والى مصر بإعتباره واحدا من الشخصيات البارزة فى الدولة الأموية ، فهو من كبار العثمانية ومن أنصار البيت الأموى ، الذين ساعدوا معاوية على الوصول إلى الخلافة (٦١) . لهذا لم يكن فى مقدور معاوية أن يرد عقبة ، كما أنه ليس معقولا أن يزيد قد رده إلى إفريقية وقطعها عن مصر، لكن رد عقبة تم بعد وفاة مسلمة بن مخلد عام ٦٢ هـ / ٦٨٢ م (٦٢) . ومما يدل أيضا على هذه التبعية أن أبا المهاجر بعد توليه على إفريقية وجه بالخمس مباشرة إلى مصر (٦٣) .

أما الحالة الثانية التى توضح علاقة إفريقية بحكومة الفسطاط فى إطار التبعية ، تتمثل فى عزل حسان بن النعمان ايضا عن إفريقية من قبل والى مصر عبد العزيز بن مروان عام ٨٣ هـ / ٧٠٢م(٦٤) ، على الرغم من قيام حسان بدور ملحوظ فى البلاد من حيث صد المقاومة البربرية التى تزعمتها الكاهنة وإشراك البربر بشكل فعلى فى الجيش (٦٥) ، والتسوية

بينهم فى تقسيم الأرض والفيء (٦٦) ، فضلا عن اهتمام حسان بعمران المدينة ،فقام بتحديد مسجدها الجامع(٦٧) ، ودون الدواوين وصالح البربر على الخراج (٦٨) .

ومع ذلك فقد تم عزله ، وتولية موسى بن نصير بسبب طمع والى مصر أيضا فى غنيمة إفريقية، كما يذكر المؤرخون (٦٩) ، فى حين أن السبب المباشر لهذا العزل يكمن فى مشكلة برقة ، لأن الخليفة عبد الملك بن مروان أعطاها لحسان مكافأة له ، فلما بلغ عبد العزيز ذلك حاول مع حسان أن يتركها لأنها كانت تابعة لمصر ، وأدى رفض حسان إلى قيام عبد العزيز بتمزيق العهد الذى كتبه الخليفة (٧٠) .

ومن الواضح أن هذا العزل قد إعتمد أساسا على قوة والى مصر،فهو كان أخا للخليفة عبد الملك ابن مروان وولى عهده (٧١) ، ومع أن الخليفة قد كره هذا الأمر منذ البداية وأنكره ، لكن سرعان ما وافق عليه ، ويتضح ذلك من خلال المراسلات التى تبودلت بينهما (٧٢) ، وذلك بسبب ما كان بين الأخوين فيما يخص موضوع الخلافة ، فحاول عبد الملك أن يجعل عبد العزيز يتنازل عن حقه فى الخلافة أراديا ، لذلك فقد جامله على الصعيد المغربى كنوع من التعويض (٧٣) ، والدليل على ذلك أنه أنكر ما فعله عبد العزيز وهم بعزل موسى لسوء رأيه فيه لكن رأى ألا يرد صنيع عبد العزيز.وتأكدت هذه التبعية أيضا فى إرسال موسى بن نصير بأخبار الفتح والغنائم إلى مصر (٧٤).وتبين مما سبق أن مصر قد أستطاعت أن تلعب دورا سياسيا هاما فى إفريقية من خلال الواليين لهما وزن فى الخلافة ، قد استطاعا أن يستصدرا اوامرهما بالعزل والتعيين بعيدا عن الخلافة وقد اطمئنا إلى أن الخلافة لم تستطع رد ما قاما به ، بسبب منزلتهما الكبيرة ، ومن اللافت للنظر أن الحادثتين قد تشابهتا إلى حد كبير من حيث أن كلا من عقبة وحسان قد قاما بدور هام فى الفتح ويأتى عزلهما فى فترة تألقهما وتركهما لعلامات بارزة فى البلاد وأن يحل محلهما فى كل مرة مولى تابع لوالى مصر ، وهذا ينبهنا إلى خوف والى مصر من إستحواذ عقبة ومن بعده حسان على إفريقية وهما من أسرتين عربيتين معروفتين خاصة أن إفريقية بعيدة عن أيدى الخلافة .

وإذا كان هذا الدور الذى لعبه كل من مسلمة وعبد العزيز يرجع إلى ثقل شخصية كل منهما بسبب ارتباطهما بالخلافة ، فهذا ربما لا يجعل دور مصر واضحا لكن إذا وضعنا فى الاعتبار أن هذين الواليين أو غيرهما مما تمتع بمكانة مميزة فى الخلافة ، فكان لابد أن يتولى ولاية مصر باعتبار أنها واحدة من أهم ولايات الخلافة حتى أن عمرو بن العاص قال : ((أن ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة(٧٥))) .

ويرى أحد الدارسين (٧٦) ((أن طمع عمال مصر فى ولاية المغرب أدى إلى وجــود نزاع بينهم وبين الخلفاء ، وهذا الصراع أدى إلى تأخر شخصية المغرب الكاملة وأخذ صفــة الولايــة المستقلــة ، فظلت تابعــة للخلافة رسميــا خاصــة بعمــال مصــر،وحرصــت الخلافة على استرداد حكم المغرب من يد عمال مصر))، ويضيف ((أنها كانت قائمة بذاتهــا من أول الأمر لكن ولاة الفسطاط نازعوا الخلافة فيها)) .

بداية لا نستطيع أن ننكر طمع ولاة مصر فى السيطرة على إفريقية وبــلاد المغــرب بشكل عام . وإن كان بذلك ينفى تبعيتها لحكومة الفسطاط ، كما أن ولاة مصر لم يكونــوا من وراء تأخر استقلال إفريقية بشئونها ، لأن ما حدث لها قد تأثر أساسا بأحوالها المضطربــة وساعد على إستمرار تبعيتها للفسطاط ، فقد تفجرت المقاومة البربرية مع عقبة ثم حســان ، حتى أن القيروان تم احتلالها فى المرتين ، فقــد استطاع كسيلة أن يدخل القيروان بعد مقتــل عقبة فى تهودة عام٦٩هـ/٦٨٨م واستقر بها لمدة خمس سنوات (٧٧) ، وهى نفس الفــترة التى احتلت فيها الكاهنة القيروان وكل إفريقية بعد هزيمتها لحسان بن النعمان (٧٨) ، معــنى ذلك إنه لا يمكن أن تظهر شخصية إفريقية المستقلة إلا بعد إنجاز الفتح ، الذى تم مع موســى بن نصير ليبدأ بعده عصرا جديدا اصطلح على تسميته بـ ((عصر الولاة)) .

أما فيما يذكره من صراع بين الخلافة وولاة مصر حول إفريقية، فلم يكــن صراعــا بالمعنى المفهوم ، إنما كان حرصا من الخلافة من أجل الحفاظ على إفريقية ، لذلــك كــانت تصدر أوامرها إلى قادة الفتح ، فقامت بتكليف عبد الله بن سعد ومعاوية بن حديــج كمــا إختارت عقبة بن نافع ليستأنف الفتح وزهير بن قيس البلوى لاستنقاذ إفريقية مــن أيــدى البربر وحسان من بعده ، وكان لا يمنع الخلافة من التدخل الفعلى فى شئون إفريقية فى بعــض الأحيان إلا ما كان بينها وبين والى مصر من قرب ومصالح ، لذلك أجهضت محاولات كــل من عقبة وحسان من بعده فى الإتصال بالخلافة .

وقد تزامن ظهور شخصية إفريقية المستقلة بعد وفاة والى مصر عبد العزيز بن مــروان عام ٨٥ هـــ / ٧٠٤ م ، حتى أن موسى بن نصير لم يعبأ بوالى مصر الجديد وهو عبد الله بن عبد الملك ، وبدأ يرسل الرسائل بأخــــبار الفتح والغنائم والخمس إلى دمشــق رأســا (٧٩)، ثم قام الخليفة الوليد بن عبد الملك بـــإفراد إفريقيــة عــن مصــر (٨٠) وبذلــك أصبحت إفريقية تأخذ وضع الولاية الراشدة تتمتــــع بكافــة الحقــوق مثــل الولايــات الأخرى ومنها مصر ، وتلحق بالخلافة مباشرة (٨١) . ويعتبر البعض(٨٢) أنه بدايــــة

من عام ٩٣ هـ / ٧١١ م أصبح المغرب بصفة عامة ونظريا ولاية فى الدولة العربية الإسلامية ، تقدم الجند والعبيد وتدفع الخراج و الجزية لخزانة الخلافة .

ولنا أن نقرر أن هذه التبعية السياسية لحكومة الفسطاط والتى استمرت فترة ليست بالقصيرة ، قد ارتبطت باعتماد الخلافة على مصر فى عملية الفتح إلى جانب شخصية ولاة مصر أنفسهم وظروف إفريقية المضطربة .

ومع أن إفريقية قد أخذت وضع الولاية الراشدة ، فكان جل اعتماد الخلافة الأموية ومن بعدها العباسية على ولاة سابقين لمصر لأخماد ثورات الخوارج ، أمثال حنظلة بن صفوان ومحمد بن الأشعث الخزاعى ويزيد بن حاتم ، تم توليتهم على ولاية إفريقية ، بسبب أن هؤلاء كانوا على معرفة تامة بأحوال إفريقية ،وأخيرا كان إعتماد الخلافة العباسية على هرثمة بن أعين ، الذى ترك مصر وتولى إفريقية عام ١٨٠ هـ / ٧٩٦ م ، ليقضى على فتن الجند التى استشرت فى البلاد حتى نهاية عصر الولاة (٨٣) .

وأرتبط دور مصر فى إفريقية أيضا بالمشاركة المالية التى قامت بها منذ بداية الفتوحات ، فمن المعلوم أن مصر كانت تقوم بتجهيز الجند الخارجين إلى إفريقية بالمؤن والعتاد إلى جانب ما كانت تقدمه الخلافة (٨٤) ، ومع تقدم الفتح بدأت مصر تتحمل العبء الأكبر فى إعداد هذه الحملات ، فيذكر المؤرخون ، أنه بعد مقتل عقبة بن نافع ، ووقوع القيروان فى أيدى البربر ، قامت مصر بتقديم الأموال إلى إفريقية ، وقد أوردوا بصدد ذلك تعابير مختلفة من خلال أوامر الخليفة عبد الملك بن مروان منها أمره إلى زهير بن قيس : ((أفرغ عليهم أموال مصر)) (٨٥) وأمره إلى حسان بن النعمان : ((أنى أطلقت يدك في أموال مصر ، فأعط من معك ومن ورد عليك واخرج إلى بلاد إفريقية)) (٨٦) ، ثم تكرر الأمر مع الخليفة الوليد بن عبد الملك ، الذى كتب إلى والى مصر قرة بن شريك ٩٠-٩٦ هـ / ٧٠٨-٧١٤ م : ((بأن يعطى موسى بن نصير من مال مصر ما أراد)) (٨٧) .

وهذه التعابير تدل أولا:على كثرة ما كان موجودا فى خزانة مصر من أموال آنذاك ، وثانيا: الاعتماد الكبير على هذه الأموال لإتمام الفتح فى إفريقية حتى أننا نتصور أن هذه الأموال لم تكن محددة القيمة فى البداية . وثالثا : أن هذه الحرية فى الحصول على الأموال من خزانة مصر ، تجعلنا نقف على حقيقة أخرى لابد من مناقشتها من خلال ما ذكره المؤرخون(٨٨) ، فيما يخص طمع ولاة مصر فى غنائم إفريقية ، خاصة عبد العزيز بن مروان ، الذى أرسل إلى حسان بن النعمان أربعين رجلا حملوا ما عنده وأمره بالقدوم عليه ، فعلم حسان ما أراده عبد العزيز ، فخبأ ما معه من الجواهر والذهب والفضة فى قرب الماء ،

ولما قدم عليه فى مصر ، قام عبد العزيز بسلب جميع ما معه من الخيل والأحمـــال والأمتعـة والوصائف . وعلى ما يبدو أن ولاة مصر كانوا مدفوعين لذلك ليس فقط بسبب الطمـــع ، لكن أيضا كان ذلك بمثابة تعويض عما أنفقته مصر وبدون حساب خاصة أن هذه الأوامـــر الصادرة من الخلافة بفـــتح خزانة مصر لصالح إفريقية تزامن بعضها مع ولاية عبد العزيــز بن مروان على وجه الخصوص .

ثم أخذت مصر فى تقديم هذه الأموال إلى إفريقية بشكل منتظم ، وتمثلت فى الإعانـــة السنوية التى بلغت مائة ألف دينار (٨٩) . ولا نستطيع أن نحدد بداية هذه الإعانة بـــالضبط ، فلعل مصر بدأت فى تقديمها خلال ثورات الخوارج ، لأن ولاة إفريقية كانوا قد حصلـــوا على مغانم الذهب والفضة بعد إنجاز الفتح ، لكن السياسة المالية الجائرة ، التى أتبعها الـــولاة أدت إلى تفجر هذه الثورات ، لذلك كان لابد من تقديم الأموال لولاية إفريقيـــة بشـــكل منتظم ، خاصة أن هذه الثورات إستمرت ما يقرب من نصف قرن ، وبعـــد فـــترة قصـــيرة اندلعت فتن الجند، فكان لابـــد مـــن إســـتمرار هـــذه الإعانـــة ، حـــتى نهايـــة عصـــر الولاة١٨٤هـــ/٨٠٠م .

لكننا لم نقف على حقيقة هذه الإعانة ومقدارها إلا بعد انتهاء عصر الولاة ، وقيـــام دولة الأغالبة ، ومن خلال قيام إبراهيم بن الأغلب ، بالتنازل عن تلك الإعانة التى تقدمـــها مصر(٩٠) ، ولعلها قد استمرت فترة من حكم الاغالبة ، فيبدو أن ابن الأغلب لم يستطع أن يفى بالتزاماته تجاه الخلافة بسبب قيام الجند بـــالثورات ومطالبتـــهم بأرزاقـــهم ، فيذكـــر البلاذرى(٩١): ((فلم يلبثوا أن أتاهم العراض والمعطون ومعهم خراج مصر)) ويفهم مـــن هذه الرواية أن هذا الجزء كان يقتطع من خراج مصر ، فهل كان يقتطع من خراجها الـــذى كان يوجه إلى الخلافة أو أن هذه الأموال كانت ترسل من خزانة مصر بعد الوفاء بالتزاماتهـــا تجاه الخلافة ؟ .

وعلى ما يبدو أن الأمرين محتملان على اعتبار أن تنازل إبراهيم بن الأغلب عن هـــذه الأعانة مقابل الحصول على الولاية يجعلنا نعتقد أن هذه الأموال كانت تقتطع مـــن حصـــة الخلافة من خراج مصر ، كما أن تحمل خزانة مصر لهذه الأموال يعد أيضا أمـــرا مقبـــولا ، بسبب ما قامت به مصر قبلا من تقديم المساعدات المتوالية إلى إفريقية .

وبذلك يظل إستمرار المشاركة المالية حتى بعد إنتهاء عصر الولاة ، وقيام دولة تابعـــة للخلافة دليلا على إثبات دور مصر وقدرتها المالية و ارتباط هذا الدور بطبيعـــة الأحـــداث المتلاحقة فى إفريقية من حروب فتح وثورات خوارج وفتن جند .

وأسهمت مصر أيضا فى إنشاء أول قاعدة بحرية فى إفريقية ، وذلك بسبب الظروف السياسية التى طرأت على البحر المتوسط بعد إنتقال الإمبراطور البيزنطى قنسطانز الثانى إلى صقلية و اتخاذ سرقوسة عاصمة له للحفاظ على ممتلكاته فى إفريقية (٩٢) ، خاصة وأن هذه القاعدة قد عرقلت الفتوحات ، كما أدى فقدان العرب لقوة بحرية فى البداية إلى ترك المدن والحصون للبيزنطيين على الساحل (٩٣) . وما كان من نكبة عقبة بن نافع فى تهودة إلا بسبب إغفاله القوة البحرية ، وكان انسحاب زهير بن قيس بعد نجاحه فى استعادة مدينة القيروان من كسيلة ، بسبب نزول حملة بحرية بيزنطية ، وكذلك كانت إستعانة حسان بن النعمان ببعض القطع البحرية الإسلامية أثر فى سقوط قرطاجنة .

لذلك كان اتخاذ قاعدة بحرية فى إفريقية أمرا محتوما ، و لم يأت مصادفة ، وعلى ذلك أمر الخليفة عبد الملك بن مروان أخاه عبد العزيز بإرسال ألف قبطى بأهله وولده إلى إفريقية لإنشاء دار صناعة بها(٩٦) ،وكان دور هؤلاء الأقباط واضحا فى إنشاء أسطول إفريقية لسابق معرفتهم وخبرتهم فى هذا المجال ، فكانت مصر مركزا هاما لبناء السفن فى العصر الأموى ، وسبق أن إستخدم معاوية الأقباط فى بناء الأسطول السورى فى عكا (٩٧) ، وكانت مهمة الأقباط فى إفريقية مزدوجة ، فكان عليهم حفر الميناء وبناء السفن ، فتم حفر ميناء تونس بحفر قناة إلى الداخل إثنى عشر ميلا (٩٨) ، لذلك يعد هذا الميناء ميناء داخليا، ويمثل قاعدة أمينة من خطر البيزنطيين(٩٩) ،كما كان يشارك بعض الملاحين المصريين فى أسطول إفريقية فى بعض الأحيان(١٠٠) .

وإذا كان ميناء تونس قد أنشىء بفضل الأقباط ، فمدينة القيروان منذ إختطاطها قد تأثرت بالعرب الوافدين عليها منذ بداية الفتح ، فعلى ما يبدو أن أهل القيروان قد بنوا دورهم على غرار منازل الفسطاط من حيث الموقع والطراز(١٠١) ؛ لأن القبائل التى أتت إلى إفريقية منذ البداية كانت معظمها من عرب مصر ، وربما إستمر هذا التأثير بسبب مجىء الأقباط ، الذين أتوا بأسرهم إلى إفريقية منذ حسان بن النعمان وإستقروا فى تونس وعمروها(١٠٢) ، إلى جانب التابعين الذين توالوا عليها طوال العصر الأموى من مصر واستوطنوا القيروان (١٠٣) ، وإن كان دور هؤلاء ليس واضحا بسبب غلبة أهل الشام وأهل خراسان الذين توافدوا على أفريقية بشكل كبير خلال العصر الأموى والعباسى (١٠٤) .

ومن الملاحظ أن العلاقة بين أهل إفريقية وأهل مصر من العرب ، الذين أتوا عليها لم تكن علاقة تعال ، فلم يأنف منهم أهل إفريقية ،كما أنفوا من أهل الشام،وسبب ذلك أن هؤلاء الجند الوافدين كانوا من العرب اليمنية مثل العرب المستقرين فى إفريقية (١٠٥) ،

بدليل إنه بعد هزيمة العرب فى بقدورة أمام الخوارج الصفرية عام ١٢٣ هـــــــ / ٧٤١ م ، سار أهل إفريقية ومعهم أهل مصر فى ناحية وأهل الشام فى ناحية (١٠٦) .

أما عن الدور الثقافى ، الذى لعبته مصر فى إفريقية ، فقد اتضح منذ البداية مع الجنـــد الوافدين مع الحملات ، ثم تلتها مرحلة أخرى أكثر وضوحاً بعد إختطاط مدينة القيروان ومـا أعقبها من إنجاز الفتح ودخول البربر فى الإسلام ، الذى كان يتطلب تعليمهم أمور الديـــن ، ولم يكن ذلك إلا من خلال معلمين عرب ، وهؤلاء كانوا من الشرق وبصفة خاصـــة مـــن مصر(١٠٧) ، فقد شملت بعثة العشرة التابعين التى أرسلها الخليفة عمر بن عبد العزيز لتفقيـــه أهل إفريقية فى الدين عدداً منهم أمثال بكر بن سوادة الجذامى وسعيد بـــن مســـعود التجيبى وحبان بن جبلة (١٠٨) ، وقد سكنوا مدينة القيروان ، وروى عنـــهم الكثيرون من أهلها (١٠٩) .

ولقد كان تأثير مدرسة الفسطاط الثقافى من خلال عدة محـــاور ،فلـــم يقتصر على الشكل الرسمى من قبل الخلافة ، بل تعداه إلى دور الأفراد باعتبـــار أن مدينة الفسطاط كانت تمثل فى العصر العباسى القاعدة القريبة التى يســـتطيع أهل إفريقية من خلالها الإطلاع على علوم المشرق ، وكذلك لأنها تعتبر أيضـــاً المجال الذى يجتازه أهل إفريقية فيما عرف وقتذاك بـــ ((الرحلة فى طلب العلم)) فكان لابد من الوقوف بالفسطاط أثناء رحلتهم إلى المشرق بعض الوقـــت ، يأخذون من رجالها الأحاديث وأساليب الرد على المشاكل التى تعرض لهـــم ، لاسيما أن مدرسة الفسطاط قد اشتهرت بكثير من فقهاء المالكية أمثال الليث بن سعد (١١٠) ، وعبد الله بن لهيعة (١١١) ، وعبد الله بن وهـــب (١١٢) حتى أن كثيرا من فقهاء إفريقية المشهورين أمثـــال عبـــد الرحمـــن بـــن أنعـــم و على بن زيـــاد التونسى والبهلول بن راشد كـــان لهـــم سمـــاع مـــن هـــؤلاء الفقهاء (١١٣) ، الذين كان لهم منـــزلة رفيعة عند أهل إفريقية (١١٤) .

كذلك أنتقل بعض المحدثين من أهل مصر وفقهائها إلى إفريقية واســـتقروا ببعض مدنها مثل القيروان وتونس وسمع منهم الكثيرون (١١٥) ، ومنهم زيـــد بن بشر الذى استوطن مدينة تونس ، وكان يفد إليه النـــاس مـــن القـــيروان ليسمعوا له(١١٦)، كما روى أهل إفريقية الحديث عن فقهاء مصر ، بالإضافة إلى إنتشار كتب الفقهاء المصريين فى إفريقية أمثال كتب عبد الله بـــن وهـــب

ومنها ((كتاب الأهوال)) (١١٧) ((وكتاب الزهد)) لعلى بن زياد الحمصى (١١٨).

لكن بالنسبه لعلوم اللغة ، فلم نستطع أن نقف على دور مدرسة الفسطاط وذلك لأن مدرستى الكوفة والبصرة قد لعبتا دورا واضحاً فى هذا المجال ، مع بقاء دور مدرسة الفسطاط كواسطة بين المشرق والمغرب الإسلامى .

ومع أن الدور الثقافي لمصر في إفريقية خلال هذه الفترة لم يتبلور بشكل واضح، لأن المجتمع الإفريقوى كان لايزال جنيناً؛ فإن القيروان كمركز من مراكز الحضارة الإسلامية فيما بعد قد ولدت فى الفسطاط كما أنها قامت على أصول مصرية(١١٩) .

صفوة القول ، أن الدور الذى لعبته مصر فى إفريقية بداية من الفتح إلى نهاية عصر الولاة ، رغم تعدده ، إلا أنه كان فى الغالب يمثل الجانب الرسمى من خلال الإعتماد على مصر وولاتها فأصدرت الخلافة الأوامر المتتالية ليخرج أهل مصر من عرب وأقباط لتنفيذ هذه الأوامر .

الهوامش

(١) جمال حمدان،شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان ، الجزء الثانى،القاهرة١٩٨١،ص ٧٨٧ .

(٢) نفسه ، ص ٧٨٤ .

(٣) نفسه ، ص ٧٨٥ وذلك بسبب ارتباطها بالمحيط الأطلسى - البحر المتوسط - البحر الأحمر والمحيط الهندى .

(٤) نفسه ، ص ٧٨٨ .

(٥) نفسه ، ص ٤٥١ .

(٦) سورة البقرة ، آيه ٦١ .

(٧) سورة الزخرف ، آيه ٥١ .

(٨) سورة يوسف ، آيه ٥٥ .

(٩) الكندى ، فضائل مصر ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ٢٧ .

(١٠) نفسه ، ص ٢٦ .

(١١) نفسه ، ص ٥٧ .

(١٢) نفسه ، ص ٤٦ .

(١٣) سيدة كاشف ، مصر فى فجر الإسلام ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ٥٨ .

(١٤) حسين مؤنس ، مصر ورسالتها ، الطبعة الرابعة، مزيدة و منقحة القاهرة ١٩٧٣،ص١١٣ .

أرسل معاوية عمرو بن العاص فى بداية عام ٣٨ هـ / ٦٥٨م ، ليخضع مصر التى كانت تمدد وجوده فى الشام ، لكثرة أتباع على بن أبى طالب فيها أنظر ، ابن الأثير ، الكامل ، القاهرة ١٩٨٣ ، جـ ٣ ، ص ١٣٨ . و مع فتنة عبد الله بن الزبير بعد خروج مصر عن طاعته ، لم تقف مصر على الحياد فى النزاع الذى كان بينه وبين الخلافة . بل أرسل عبد العزيز بن مروان فى عام ٧٢ هـ / ٦٩١ م حمله إلى مكة لقتال ابن الزبير . انظر . الكندى ، الولاة والقضاة ، بيروت ١٩٠٨ ، ٥١.

(١٥) المرجع السابق ، ص ١١٤ .

(١٦) جمال حمدان ، شخصية مصر ، جـ٢ ، ص ٧٨٤ .

(١٧) حسين مؤنس ، مصر ورسالتها ، ص ٣٩ ، ٤٠ .

(١٨) كانت مدينتا برقة وطرابلس تمثلان ولاية واحدة تابعة لمصر منذ أيام الإمبراطور البيزنطى موريس ثم تم انفصالها عن مصر وظلتا حتى الفتح العربي مستقلتين وقامتا بثورات متتالية ضد الحكم البيزنطى وظهر فيها دويلات مستقلة متمثلة فى القبائل الموجودة بها من لواتة وهوارة ونفوسة .

انظر، Fournel, *les Berbres*, Paris, 1895, I, pp, 217-218

(١٩) قال عمر بن الخطاب : " إنها ليست بإفريقية ولكنها المفرقة غادره مغدور بها لا يقربها أحد ما بقيت " انظر البلاذرى ، فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٣٢ ، ٢١٠
(٢٠) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، القاهرة ١٩٩٥ ، ص ٢١٠ .
(٢١) عرفت بذلك لاشتراك عدد من أبناء الصحابة تسموا بذلك ومنهم عبد الرحمن ابن أبي بكر وعبد الله بن عمرو وعبد اللة بن الزبير.انظر، ابن عذارى ، البيان المغرب فى أخبار المغرب ، ليدن ١٩٤٨ ، ١ ، ص ٩ .
(٢٢) المصدر السابق ، ٢١١ .
(٢٣) المالكى،رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وإفريقية،القاهرة١٩٥١،جـ ١، ص١١.
(٢٤) النويرى ، نهاية الأرب فى فنون الأدب ، القاهرة ١٩٨٣ ، جـ ٢٤ ، ص١٩.
(٢٥) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٢٧ .
(٢٦) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١٣ .
(٢٧) البلاذرى ، المصدر السابق ، ص ٢٣٠ .
(٢٨) ابن عبد الحكم ، المصدر السابق ، ص ٢٣٠ .
(٢٩) نفس المصدر ، ٢١٠ .
(٣٠) نفس المصدر ، ص ٢٢٤ .
(٣١) المالكى ، رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ١٥ .
(٣٢) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٣ ، ص ٣٣١ .
(٣٣) نفس المصدر .
(٣٤) حسن أحمد محمود ،الإسلام والحضارة العربية فى أسيا الوسطى بين الفتحين العربى والتركى ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ١٧٧ - ١٧٨ .
(٣٥) تاريخ المغرب العربى، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ١٦٥ .
(٣٦) فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٠٠ .
(٣٧) الحبيب الجنحانى ، القيروان عبر عصور إزدهار الحضارة الإسلامية فى المغرب العربى ، تونس ١٩٦٨ ، ص ٣٢ .
(٣٨) المرجع السابق ، ١٢١ .
(٣٩) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٣ ، ص ٤٢ .
(٤٠) الكندى ، الولاة و القضاة ، ص ٣٢ .
(٤١) المصدر السابق .
(٤٢) سعد زغلول عبد الحميد . تاريخ المغرب ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .
(٤٣) يذكر المؤرخون تواريخ مختلفة بالنسبة لحملة حسان بن النعمان ما بين تسع وستين وثمان وسبعين انظر، ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٨٨ ، ابن أبي دينار ، المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ، تونس ١٩٦٧ ، ص ٧٣ .
(٤٤) نفس المصدر .
(٤٥) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، القاهرة ١٩٦٠ ، جـ ٢ ، ص ٥٧ .
(٤٦) ابن القوطية ، تاريخ إفتتاح الأندلس ، بيروت ١٩٨٢ ، ص٤١ .

(٤٧) الرقيق ، تاريخ إفريقية والمغرب ، تونس ١٩٦٨ ، ص ١١٢ .

(٤٨) نفس المصدر ، ١١٣.

(٤٩) الكندى ، الولاة والقضاة ، ص ١٠٢ - ١٠٣ ؛ سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغـرب ، ص ٢٩٤ .

(٥٠) فتوح البلدان ، ص ٢٢٧ .

(٥١) نهاية الأرب ، جـ ٢٤ ، ص ٢١ .

(٥٢) فتح العرب للمغرب ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص ١١١ .

(٥٣)انظر، Hicham Djait, "La wilaya d Afiqiya au II[e] -VIII[e] siècles. etude institationnelle", *Studio Islamica*, tome .II ,1967 , p .70 .

(٥٤) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١٩ .

(٥٥) فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٢٥ .

(٥٦) ابن تغرى بردى ،النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة،القاهرة ١٩٦٣،جـ ١،ص١٣٣.

(٥٧) Julien ,*Histoire de l'Afrique du nord jusqu'à la conquête arabe* , Paris , 1951 . p . 16.

(٥٨) Marçais, G, *La Berberie Musulmane et orient au moyen âge*, Paris .1946 p . 38.

(٥٩) سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب ، ص ١٤٩ - ١٥٠ .

(٦٠) Terrasse, Henri, *Histoire du Moroc des origines à l'établissement du Protectorat Français*, Paris, 1975, p . 80.

(٦١) ابن عبد الحكم ، المصدر السابق ، ص ٢٥ " ثم قدم عقبة على معاويـة بـن أبى سـفيان فقال له " فتحت البلاد وبنيت المنازل ومسجد الجماعة ودانت لى ،ثم أرسلت عبد الأنصار فأساء عزلى ، فاعتذر إليه معاوية وقال :عرفت مكان مسلمة من الإمام المظلوم وتقديمه إياه وقيامـة بنفسه وبذل مهجته " .

(٦٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ١ ، ص ١٣٤ .

(٦٣) المالكى ، رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ٢٠ .

(٦٤) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٧١ .

(٦٥) النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٢٤ ،ص ٢١. قد بدأ إشتراك البربر مع عقبة بن نـافع وأبى المهاجر دينار ، لكنهم لم يدخلوا بشكل فعلى فى الجيش الإسلامى إلا مع حسان بـن النعمـان ، الذى جند من أبنائهم أثنى عشر ألفا وعقد لولدى الكاهنة كل واحد على ستة آلاف فارس .

(٦٦) المالكى ، رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ٣٦ .

(٦٧) البكرى ، المغرب فى ذكر بلاد إفريقيـة والمغـرب ، بـاريس ١٩١١،ص٢٢؛ مجـهول ، الاستبصار فى عجائب الأمصار ، بغداد ١٩٨٦ ، ص ١١٤.

(٦٨) الرقيق ، تاريخ إفريقية والمغرب ص ٦٤ .

(٦٩) نفس المصدر ، ص ٦٦ .

(٧٠) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، جـ ٢ ، ص ٤٩ - ٥٠ .

(٧١) عين عبد العزيز بن مروان واليا على مصر من قبل أبيه مروان بن الحكم وخلفا لأخيه عبد الملك فى الخلافة ، انظر الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، القاهرة ١٩٧٧ ،جـ ٩ ، ص ٦١٠ .

(٧٢) المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٥٢ ٥٣ .

(٧٣) انظر، H ic ham Djait , op . cit , p . 83

(٧٤) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، جـ ٢ ، ص ٧١ .

(٧٥) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٢٠ .

(٧٦) مؤنس ، فتوح العرب للمغرب ، ص ٢٧١ .

(٧٧) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٣١ .

(٧٨) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٤ ، ص ٣٢ .

(٧٩) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، جـ ٢ ، ص ٧١ .

(٨٠) الرقيق ، تاريخ إفريقية ، ص ٦٨ .ولكنه يذكر أن الخليفة الوليد كتب إلى عمه عبد العزيز على مصر يأمره بأن يوجه إلى إفريقية موسى بن نصير وهذا الأمر مقبول ، لأن عبد العزيز توفى قبل عبد الملك عام ٨٥ هـ / ٧٠٤ م

(٨١) Hicham Djait, *Histoire de la Tunisie , le moyen âge, la conquête arabe et l'Emirat*, Tunis, p. 47 .

(٨٢) عبد الله العروى ، تاريخ إفريقية والمغرب ، محاولة فى التركيب بيروت ١٩٧٧ ، ص ٨٧ .

(٨٣) الرقيق ، تاريخ إفريقية والمغرب ، ص ٢٠٣ .

(٨٤) فتح الخليفة عثمان بن عفان بيوت السلاح للمسلمين ، كما أعان المسلمين من ماله الخالص بألف بعير يحمل عليه ضعفاء الناس ، كذلك قام الخليفة معاوية بن أبى سفيان بإرسال معاوية بن حديج السكونى بجيش مكون من عشرة آلاف جندى من الصحابة والتابعين. انظر عذارى ، البيان المغرب ، جـ ،ص ٩، ١٦ .

(٨٥) المالكى ، رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ٢٩ - ٣٠ .

(٨٦) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣١ .

(٨٧) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة جـ ٢ ، ص ٦٨ .

(٨٨) الرقيق،تاريخ وإفريقية والمغرب،ص ٦٦؛ ابن عذارى،البيان المغرب،جـ ١،ص ٣٨ - ٣٩.

(٨٩) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٥ ، ص ١٠٤ .

(٩٠) المصدر السابق .

(٩١) فتوح البلدان ، ص ٢٣٥ .

(٩٢) انظر، Marçais, op. cit. , p. 36.

(٩٣) أرشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية فى البحر المتوسط . القاهرة ١٩٦٠،٩٧-٩٨ .

(٩٤) نفسه .

(٩٥) نفسه ، ص ١٠٠ .

(٩٦) الرقيق ، تاريخ إفريقية والمغرب ، ص ٦٦ يختلف المؤرخون حول تاريخ انشاء ميناء تونس ودار صناعتها فترجعه بعض المصادر إلى حسان بن النعمان أو موسى بن نصير ، وحتى عبيد الله بن الحبحاب انظر، ابن قتيبة، الإمامة والسياسة جـ٢ ،ص ٥٧ ؛ ابن حوقل صورة

(٩٦) الرقيق ، تاريخ إفريقية والمغرب ، ص ٦٦ يختلف المؤرخون حول تاريخ انشاء ميناء تونس ودار صناعتها فترجعه بعض المصادر إلى حسان بن النعمان أو موسى بن نصير ، وحتى عبيد الله بن الحبحاب انظر، ابن قتيبة، الإمامة والسياسة جـ٢ ،ص ٥٧ ؛ ابن حوقل صورة الأرض . بيروت ١٩٦٤ ، ص ١٢٠ ؛ البكرى ، المغرب ، ص ٣٨ - ٣٩ و من الراجح أن إنشاءها يرجع إلى حسان لأنه تزامن مع الاضطرابات التي شغلت الإمبراطورية البيزنطية بعد عزل الإمبراطور جستنيان الثاني انظر ، أرشيبالد لويس ، المرجع السابق ، ص ١٠٠ .

(٩٧) نفس المرجع ، ص ١١٦ .

(٩٨) ابن قتيبة الإمامة والسياسة ن جـ ٢ ، ص ٥٧ .

(٩٩) المرجع السابق ، ص ١٠١ .

(١٠٠) المصدر السابق. وقدم عطاء بن أبي رافع الهذلي في مراكب أهل مصر،وكان عبد العزيز قد بعثه يريد سر دينية .

(١٠١) حسن حسني عبد الوهاب ، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية ، جزءان ، تونس ١٩٦٦ جـ ١ ، ص ٤٨ .

(١٠٢) البكرى ، المغرب . ص ٣٨ - ٣٩ .

(١٠٣) أبو العرب، طبقات علماء إفريقية وتونس ، تونس ١٩٦٨ ، ص ٩٢ ، حاشية ٢ .

(١٠٤) الرقيق ، تاريخ إفريقية والمغرب ، ص ١٢٢ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ،جـ ٢٤،ص٧٤ ،٨٥.

(١٠٥) غلب على جيش الفتح المتوجه إلى إفريقية العرب اليمنية ، كما ساعدت أحوال المشرق بعد معركة الحرة ٦٣ هـ / ٦٨٢ م على انخراط عدد كبير من أهالي المدينة في جيش أفريقية . انظر، دوزى ، تاريخ مسلمي أسبانيا ، الجزء الأول ، ترجمة/ حسن حبشي ، ٧٥ .

(١٠٦) المصدر السابق ، ص ١١٣ ، ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٥٥.

(١٠٧) الفرد بل ، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم ،ترجمة/ عبد الرحمن بدوى ، بنغازى ١٩٦٩ ، ص٧٩ .

(١٠٨) أبو العرب ، طبقات علماء إفريقية ، ص ٨٧ ؛ المالكى ، رياض النفوس،جـ ١،ص٦٤ ،٧٥ .

(١٠٩) نفس المصدر ، ص ٨٦ - ٨٧ .

(١١٠) أبو الحارث الليث ين سعد بن عبد الرحمن إمام أهل مصر في الفقه والحديث قال عنه الشافعي:" كان الليث بن سعد أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به " توفى ١٧٥ هـ/٧٩١م . انظر، ابن خلكان ، وفيات الأعيان، بيروت ١٩٧٣ ، جـ ٤ ، ص ١٢٧ .

(١١١) هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة الحضرمي الغافقي المصرى ، كان مكثرا من الحديث والأخبار والرواية ولي القضاء ١٥٥ هـ / ٧٧٢ م وهو أول قاضي بمصر من قبل الخليفة المنصور وصرف عنه ١٦٤ هـ / ٨٧٠ م . انظر نفس المصدر ، جـ ٣ ، ص ٣٨ .

(١١٢) هو أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلمة القرشي بالولاء الفقيه المالكى المصرى ، صحب الإمام مالك ، توفى عام ١٩٧ م / ٨١٣ م .نفس المصدر ، جـ ٣ ، ص ٣٦-٣٧.

(١١٣) أبو العرب ، طبقات علماء إفريقية ، ص ١٢٦ ، ١٥٨ ، ٢٢٠ ؛ الدباغ ، معالم الإيمان لمعرفة أهل القيروان ،تونس ١٣٢٠ ، جـ ١ ، ص ١٩٦ ، ٢٦٤ .

(١١٤) نفس المصدر ، ص ١٨٢ .

(١١٥) نفسه ، ص ٩٢ .

(١١٦) نفسه ، ص ٢٢٦ .

(١١٧) نفسه ، ١٨٩ .

(١١٨) نفسه ، ص ١١٥ .

(١١٩) حسين مؤنس ، مصر ورسالتها ، ٤٤ .

ثانياً:

عرض الكتب العربية

Franklin, S., & Shepard, J., *The Emergence of Rus 750-1200*, (London, 1996), 450 pp., 11 maps.

عرض/ طارق منصور

يستند هذا الكتاب الهام إلى أن مؤلفيه اثنان من أشهر المتخصصين فى الدراسات التاريخية الروسية والسلافية فى العصور الوسطى ؛ ويعكس هذا الكتاب شخصية المؤلفين وقدراتهم البحثية العالية فالدكتور / سيمون فرانكلين من القلائل المتخصصين فى الدراسات السلافية فى العصور الوسطى ، كذلك الدكتور / جوناثان شبرد يمكن أن نعتبره نائبا للأستاذ الدكتور / ديمترى أوبولنسكى *O. bolensky* فى التاريخ الروسى الوسيط ، وكلاهما يجيد العديد من اللغات السلافية التى أهلتهما لقراءة المصادر الروسية والسلافية الأصلية ؛ الأمر الذى أهلهما لإخراج هذا الكتاب فى الشكل الذى سنعرض له .

والكتاب الذى بين أيدينا يعتبر أحدث إصدار عن التاريخ الروسى الوسيط ، ومحتويات هذا الكتاب تعكس وجهة نظر المؤلفين ورؤيتهما الخاصة لمجريات الأحداث فى روسيا الكيفية بدءاً من ظهور الروس فى المجتمع الدولى وحتى انهيار دولتهم وغزو المغول لها فى القرن الثالث عشر الميلادى وقد قسم المؤلفان الكتاب إلى ثلاثة أبواب رئيسية .

الباب الأول وهو بعنوان **"الجذور والمسالك"** ، ويحتوى على عدة فصول : الفصل الأول وهو بعنوان "الباحثون عن الفضة من الشمال ٧٥٠ - ٩٠٠م" وفى هذا الفصل يتعرض المؤلفان إلى الحديث عن الظهور الأول للروس وخروجهم من شبه جزيرة اسكنديناوة ، كما يتحدثان عن الإغارات التى قاموا بها على الأمم المجاورة لهم خلال تلك الفترة ، ويركزان الحديث عن الهجوم الروسى الأول على القسطنطينية فى عام ٨٦٠م وما نجم عنه من تحولات

فى المجتمع الروسى آنذاك، خاصة الاقتصادية ، وهذا الفصل مدخل طبيعى لتاريخ روسيا الوسيطة ويعكس العنوان الذى اتخذه المؤلفان لهذا الفصل منظورهما الاقتصادى لتاريخ الروس فى هذه الفترة. فقد كان الروس يفتقرون إلى عملة محلية ولا يمكنهم الحصول على الذهب البيزنطى ، فكانت الإغارة على القبائل السلافية ومسلمى القوقاز سبيلاً للحصول على الفضة، بل إن الجزية التى كانوا يفرضونها على القبائل السلافية كانت من قطع الفضة .

أما الفصل الثانى وهو بعنوان "التحول نحو الجنوب" فيتحدث فيه المؤلفان عن السلاف وما شابههم القاطنين فى منطقة السهوب فى القرن التاسع الميلادى ، وعن حصول الروس على موطأ قدم لهم فى حوض الدنيبر الأوسط فى الفترة من ٩٠٠ - ٩٣٠م ؛ وهى الفترة التى شنوا فيها هجومهم المزعوم فى عهد أميرهم أولج Oleg فى عام ٩٠٧م على

القسطنطينية وما نجم عنه من عقد اتفاق مبدئى بينه وبين البيزنطيين فى نفس العام، ثم تـــلاه عقد معاهدة بينهما فى
عام ٩١١م.

وفى الفصل الثالث وهو بعنوان "روس الدنيبر ٩٢٠ - ٩٦٠م - تنظـــم أم وفـــاة : تأمين الطريق إلى بيزنطة" ، لخص المؤلفان وجهة نظرهما تجاه الأحداث التى وقعت فى تلـــك الفترة ، والتى كانت بالفعل تهدف إلى تأمين الطريق إلى بيزنطة مـــن هجمـــات الأعـــداء المجاورين كالبشناق مثلاً. و لم يكن ليتسنى لهم ذلك إلا بعد استقرارهم فى حوض الدنيبر .

أما الفصل الرابع وهو بعنوان "التحولات والتعميـــد ٩٦٠ - ١٠١٥م" فينبغـــى أن نقف عنده قليلاً . فهذه الفترة التاريخية قد شهدت تحولاً خطيراً فى المجتمع الروســـى علـــى صعيديه السياسى والاجتماعى ، حيث تمكنت القسطنطينية من ترويـــض الـــروس وذلـــك بتحويلهم إلى المسيحية الأرثوذكسية . ففى عام ٩٨٨م غزا الأمير الروسى فلاديمير مدينـــة خرسون البيزنطية للرد على حنث الإمبراطور البيزنطى بازيل الثانى بعهده بـــتزويج أختـــه الأميرة أنا بورفيروجنيتا
منه الأمر الذى دفع بفلاديمير للقيام بهذا الغزو ، إلا أن البلاط البيزنطى اشترط تعميد أمـــير الروس حتى يستطيع الزواج من الأميرة البيزنطية ، وهو ما تم فى النهاية . وتكمن أهمية هـــذا الفصل فى إلقاء الضوء على آثار هذا التعميد على الروس .

ويأتى **الجزء الثانى** من هذا الكتاب ليحمل عنوان **"كييف والروس"** ولعل المؤلفـــان أرادا بهذا العنوان توضيح زعامة كييف للروس فى تلك المرحلة وأنها كانت محور الأحـــداث والنزاعات الداخلية التى نشبت بين الأمراء الروس على العرش وهذا ما جعل الفصل الخـامس يحمل عنوان "الشهداء والمرتزقة ١٠١٥ - ١٠٣٦م" ويمكن القول أن هذا الفصـــل صـــب اهتمامه على فترة الحروب الأهلية التى أعقبت موت الأمير الروسى فلاديمير عام ١٠١٥م .

أما الفصل السادس وهو بعنوان "المظـــاهر المتصدعـــة ١٠٣٦ - ١٠٥٤م" فيعـــنى بالدرجة الأولى بفترة حكم الأمير الروسى ياروسلاف Iaroslave ، التى شهدت بـــلاد الروس فى عهده طفرة حضارية كبرى ، وصار لبلاده شأنا كبيرا فى الغرب الأوربى ، حيـــث عقدت العديد من المصاهرات السياسية بين ياروسلاف والأسر الحاكمة فى كثير من الـــدول الأوربية أما على الصعيد الشرقى ، فقد هبط مؤشر العلاقـــات السياســـية بـــين كييـــف والقسطنطينية ، ومنيت الحملة الروسية على القسطنطينية فى عام ١٠٤٣م بالفشل الذريـــع ؛ وفى الشرق أيضا تمكن ياروسلاف من كسر شوكة البشناق فى عام ١٠٣٦م ، وبهذا تخلص

من خطرهم الذى ظل جاثماً على صدر الروس منذ بدايات القرن العاشر الميلادى . ويتميز هذا الفصل دون بقية الفصول السابقة بالحديث عن التأثيرات الحضارية البيزنطية على الروس ، كبناء الروس لكثير من الكنائس على الطراز البيزنطى مثل كنيسة آيا صوفيا الروسية ، وبناء القصور الملكية التى اتخذت لها أبواباً وحيوانات ورسومات ذات طابع بيزنطى خالص .

لقد كاد التأثير البيزنطى على الروس شاملاً متعدد الجوانب ، كالعمارة ، والفن ، والكتابات الأدبية والدينية ، والتجارة ... الخ وهو ما أبرزه المؤلفان تماماً فى هذا الفصل .

أما الفصل السابع فقد حمل عنوان "العالم الداخلى : تطور الفكر السياسى ١٠٥٤ - ١١١٣" ويعود المؤلفان ثانية فى هذا الفصل إلى التاريخ السياسى للروس والحروب الداخلية التى نشبت بين أبناء ياروسلاف ، الذى ترك لهم وصية يحضهم فيها على الحب والاحترام فيما بينهم والتماسك والطاعة الواجبة لأخيهم الأكبر ؛ وهذه الحرب لم يخمد لهيبها طوال ما يزيد على نصف القرن قليلاً ، حيث امتدت من أبناء ياروسلاف إلى أحفاده . وجاء مؤتمر لوبيتش سنة ١٠٩٣م ليبشر بالأمل وانتهاء الخلافات والتصدعات بين الأمراء الروس . ولم تستقم البلاد إلا بعد تولى الأمير الروسى فلاديمير مونوماخوس Vladimir Monomachus الحكم ، لتبدأ سلسلة أخرى من التصدعات فى المجتمع الروسى بعد وفاته عام ١١٢٥م .

ويتحدث الفصل الثامن الذى حمل عنوان "الأمير والمدينة ١٠٧٠م - ١١٢٠م" عن مجتمع المدينة فى روسيا وعن الرهبان ورجال المال وغيرهم . ويعتبر هذا الفصل دراسة حضارية تاريخية جادة عن تلك الفترة .

وأخيراً نصل إلى **الجزء الثالث** الذى حمل عنوان **"قيام الولايات"** ليعكس حالة التفتت التى أصابت المجتمع الروسى فى الفترة التى أعقبت موت فلاديمير مونوماخوس وحتى الغزو المغولى لبلاد الروس ، وذلك من خلال الفصلين التاسع والعاشر من الكتاب . ففى هذه الفترة صارت هناك العشرات من الولايات الروسية المستقلة ، التى كان لكل منها حاكماً مستقلاً . وكان العداء والتنافر هو السمة المميزة للعلاقات بين هذه الإمارات وبعضها البعض الأمر الذى فت
فى عضد المجتمع الروس فكان صيداً سهلاً للمغول فيما بعد .

أخيراً يمكن القول أن هذا الكتاب تميز باحتوائه على مجموعة كبيرة من الخرائط السياسية والاقتصادية لبلاد الروس فى العصر الوسيط والتى تميزت بالدقة التاريخية وجودة الإخراج ؛ فجاءت لتسد عجزاً كبيراً فى الأطالس التاريخية عن هذه المنطقة . كما تميز هذا

الكتاب باحتوائه على مجموعة مبسطة من جداول الأنساب، والتى رصد فيها المؤلفان أنساب الأمراء الروس بداية من عهد الأمير أيجور Igor وزوجته الأميرة أولجا Olga ويمكن القول أن هذه الجداول لم تصل فى تفاصيلها التاريخية إلى المستوى الذى قدمه المؤرخ بومجـــارتن Baumgarten فى دراسته الرائعة عن أنســـاب الأمـــراء الـــروس des Rurkides.

محاسن محمد الوقاد ، *اليهود فى مصر المملوكية فى ضؤ وثائق الجنيزة (٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م)* ، (القاهرة ١٩٩٩)

عرض / سند أحمد عبد الفتاح

تعتبر موضوعات التاريخ المملوكى من أكثر الموضوعات التى لدينا معرفة كبيرة بها ، نادرا ما تتوفر لمجالات أخرى ، لأن الحقبة المملوكية تملك بصددها مادة تاريخية عظيمة كما وكيفا ساعدت فى استجلاء غوامض بعض الدراسات التاريخية ابان ذلك العصر .

ومن الثابت أن المجتمع المصرى المملوكى كان يشتمل - إلى جانب المسلمين - على الطائفتين اليهودية والنصرانية ، وفى هذا العرض سنتناول بالدراسة والتحليل دور اليهود فحسب

فى هذا المجتمع حيث لم يكونوا كيانا منعزلاً عنه ، أو بمعزل عن النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية إبان ذلك العصر ، بل اندمجوا فى نسيجه فلعبوا دوراً مهماً ومؤثراً فى عصر سلاطين المماليك .

وليست ثمة دراسة تفصيلية كاملة ودقيقة عن تاريخ اليهود فى مصر المملوكية رغم أن كتب المستشرقين من أمثال أشتور ، وجواتين ، ومارك كوهين ، ويعقوب مان تحفل بأكثر من مسح لأحوال اليهود ، لكن هذه الدراسات فى الغالب - وهو أمر جد مفهوم - لا تتحرى النزاهة العلمية المطلقة ، ومن هنا تنبع الأهمية الحقيقية لهذه المحاولة العلمية التى ترمى إلى توضيح حقيقة دور اليهود فى مصر المملوكية بشكل موضوعى ودون تحيز .

والكتاب الذى بين أيدينا محاولة رائدة فى هذا المجال ، وهو فى الأصل الأطروحة التى تقدمت بها المؤلفة لنيل درجة الدكتوراه فى الآداب - جامعة عين شمس ، حيث تحاول فيه مقابلة ما أورده المؤرخون العرب ، وما جاء فى نصوص الجنيزة ، بصدد طائفة اليهود فى مصر إبان العصر المملوكى بهدف تصحيح العديد من المفاهيم المغلوطة بالنسبة للطوائف اليهودية .

وقد قسمت المؤلفة الكتاب إلى أربعة أبواب ، مسبوقة بتمهيد عن أحوال اليهود منذ الفتح الإسلامى وحتى قيام دولة المماليك ، واستعرضت فيه بصفة عامة أحوالهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية وموقف الطبقات الحاكمة منهم .

ثم استعرضت في الباب الأول مكانة اليهود فى الدولة المملوكية من خـــلال ثلاثـــة فصول تناولت فى الأول منها علاقة اليهود بالطبقة الحاكمة والجزيـــة الواجبـــة عليـــهم ، والشروط اللازمة لعقد الذمة معهم ، وموقف سلاطين المماليك الرسمى منهم ، وكشـــفت النقاب لنا عن أن اليهود عاشوا كجزء لا يتجزأ إبان ذلك العصر ، وبينت مـــدى حـــرص سلاطين المماليك أنفسهم على التزام العدالة تجاههم عملا بتعاليم الدين الإســـلامى حيـــث قاموا بمنحهم العديد من الألقاب التى رفعت من مكانتهم ، كما أبرزت دور رئيس اليـــهود فى الوساطة بين الدولة ورعاياها من اليهود ، ولجوء اليهود أنفسهم للشكوى منه فى حالـــة خروجه عن الطريق الصواب ، وأثبتت كذلك أن العلاقة بين اليهود وسلاطين المماليك قـــد سارت فى مسارها الطبيعى باستثناء بعض الحوادث العارضة والتى كـــان يعقبـــها إصـــدار المراسيم ضدهم ، والتى لم تلبث أن تخف حدتها تدريجيا إلى أن تقع تحت طائلة النسيان .

ثم تطرقت فى الفصل الثانى إلى الوظائف الهامة التى شغلها اليهود فى عصر ســـلاطين المماليك، لأنهم لم يكونوا مجرد أقلية منعزلة داخل هذا المجتمع ، بل ذابوا داخله وامـــتزجوا ببقية أعضائه من الطوائف ، فلعبوا دوراً كبيراً فى مجال الطب ، وتولوا العديد من الوظـــائف الإدارية والمالية ، لاسيما إدارة دار سك العملة .

وعالجت فى الفصل الثالث مدى التزام اليهود بالشروط العمرية ، وأماطت اللثام عـــن عدم التزام اليهود فى معظم الأحيان بالمراسيم التى كانت تصدرها الدولة المملوكية ضدهـــم ، ولكن هذا لم يمنع سلاطين المماليك من السماح لهم غالباً بترميم معابدهم ، وشراء الأراضى والمنازل فى سائر أنحاء البلاد .

ثم خصصت الباب الثانى لأحوال اليهود الاقتصادية ، من خلال فصلين ، تنـاولت فى الأول منهما حرف وصناعات اليهود ، وبينت أن نسبة كبيرة منهم قد عملـــت بـــالحرف والصناعات المختلفة ، كحرفة الصياغة ، وصياغة الذهب والفضة والنحاس ، وبينت مـــدى التدهور الذى أصاب الصناعات والحرف فى عصر المماليك الجراكسة ، ومـــدى انعكاســـه على المجتمع المصرى .

واستعرضت فى الفصل الثانى النشاط التجارى لليهود ، الذين مارسوا جميع أنـــواع التجارة من العطارة إلى الأدوية ، بالإضافة إلى مشاركتهم فى تجارة الكـــارم " التوابـــل " ، والدقيق وممارستهم لأعمال الربا والصرافة ، وهو ما أدى إلى اكتظاظ الأسواق بهم فى عصر المماليك الجراكسة .

ثم عالجت فى الباب الثالث البنية الداخلية لجماعات اليهود فى العصر المملوكية ، من خلال فصلين ، أثبتت فى الأول منهما وجود ثلاث طوائف من اليهود ابان ذلك العصر تمثلت فى الدبانيين والقرائيين والسامرة ، واستعرضت كذلك تنظيم شئون الطوائف الداخلية والموضوعات الإدارية التى كان يتم مناقشتها داخل كل تنظيم ، وكشفت أيضا عن مدى سماحة الدولة المملوكية لهم بممارسة شعائرهم الدينية بحرية كاملة .

وتناولت فى الفصل الثانى الحديث عن الزعامة الدينية والقضاء اليهودى فى عصر سلاطين المماليك وأبرزت دور رئيس الطوائف اليهودية وواجباته وحقوقه ومسئولياته نحو الطوائف الثلاث، واستعرضت مجالس القضاء اليهودى وكيفية تشكيلها ، وحق اليهود فى اللجوء إلى القضاء الإسلامى ، بالإضافة إلى موقف فقهاء الإسلام من بعض المسائل الخاصة بهم ، وموقف القضاء الإسلامى من النساء اليهوديات ، وأبرزت كذلك أن مصر كانت من أهم الدول التى لجأ فيها اليهود إلى القضاء الإسلامى ربما بسبب رغبة بعض هؤلاء اليهود فى الحصول من خلاله على مكاسب لم يكن بإمكانهم الحصول عليها من خلال القضاء اليهودى خاصة فى مجال المواريث .

وخصصت الباب الرابع والأخير للحديث عن الأوضاع الاجتماعية لليهود فى العصر المملوكى من خلال فصلين ، تناولت فى الأول منهما أحوال الأسرة اليهودية من زواج وشروطه واحتفالاته ، وظاهرة تعدد الزوجات وموقف الشريعة اليهودية منها ، ودور الأم اليهودية فى تربية الأطفال وتنشئتهم ، وتعرضت كذلك للمآتم والأحزان وما كان يتم خلالها داخل الأسرة اليهودي، واختتمت هذا الفصل بالحديث عن ملابس اليهود فى العصر المملوكية الخاصة بالرجال والنساء والأولاد والبنات .

واستعرضت فى الفصل الثانى الأعياد والمواسم والاحتفالات عند اليهود ومدى سماحة الدولة المملوكية لهم بالاحتفال بها فى حرية تامة ، بل ومشاركة المسلمين لهم فى بعض هذه الأعياد، وتبادلهما للهدايا فى شتى المناسبات ، واختتمت هذا الفصل بالحديث عن موسم الحج ومدى أهميته بالنسبة للحياة الدينية الخاصة بيهود مصر .

وقد أثرت المؤلفة هذه الدراسة بالاستعانة بالعديد من المصادر القيمة والمتنوعة من وثائق ومخطوطات ومصادر ومراجع ، حيث استعانت بوثائق دير سانت كاترين ، ووثائق الجنيزة المنشورة ، بالإضافة إلى الوثائق الموجودة بين ثنايا المصادر العربية التى ترجع إلى عصر المماليك ، كما استعانت بالعديد من المخطوطات التى تتناول الحديث عن أهل الذمة من

يهود ونصارى ، ويأتى على رأسها مخطوط " شروط النصارى " لابـــن زيـــن القـــاضى ، ومخطوط " المذمة فى استعمال أهل الذمة " لابن النقاش ، ومخطوط " المقصد الرفيع المنشـــا الحاوى إلى صناعة الإنشا " للخالدى ، كما استعانت بالكثير من المصادر التاريخية الهمة مثل : كتاب " نهاية الأرب فى فنون الأدب " للنويرى ، وكتابا " المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار " و " السلوك فى معرفة دول الملوك " للمقريزى ، وكتاب " صبـــح الأعشـــى فى صناعة الإنشا " للقلقشندى ، كما استعانت بالعديد من كتب الطبقات والتراجم ، منـــها على سبيل المثال كتاب " وفيات الأعيان وأنباء الزمان " لابن خلكان ، وكتـــاب " ســـير أعلام النبلاء " للذهبى ، وكتب الرحالة العرب واليهود ، مثل : كتاب " النجوم الزاهـــرة فى حلى حضرة القاهرة " لابن سعيد المغربى ، وكتاب " تحفة النظار فى غرائـــب الأمصـــار وعجائب الأسفار " لابن بطوطة ، وكتاب " رحلة طافور " للرحالة طـــافور ، وكتـــاب Travellers لأولد .

كما أثرت دراستها بالاستعانة بالكتب الفقهية مثل : كتاب " منهج الطالبين وعمدة المفتين " للنووى ، وكتاب " المدخل إلى الشرع الشريف " لابن الحاج ، كمـــا اســـتعانت بكتب الحسبة التى يأتى على رأسها كتاب " معالم القربة فى أحكام الحسبة " لابن الأخـــوة ، وكتاب " نهاية الرتبة فى طلب الحسبة " لابن بسام .

يضاف إلى هذه الوثائق والمصادر استعانتها بمجموعة كبيرة من المراجـــع والأبحـــاث الحديثة باللغات العربية والأجنبية ، التى عاونت فى استجلاء غوامض هذه الدراسة .

وفى الحقيقة نجد بعد هذا العرض أن المؤلفة قد أسدت بإنجاز هذا العمل أهمية لا تنكر للمهتمين بدراسة تاريخ اليهود فى مصر المملوكية ، اذ بدون هذه الدراسة يصعـــب علـــى الباحث التعرف على حقيقة الدور الذى قام به اليهود طوال العصـــر المملوكـــى بشـــكل موضوعى ، حيث امتازت هذه الدراسة بوضوح الرؤية وتحديد المنهجية ، ومدى وضـــوح الحاجة لهذا العمل والهدف من إعداده .

بيد أن تلك الميزات يقابلها على الطرف الآخر بعض الجوانب التى ربما تحتـــاج (فى رأيى المتواضع) على الأقل إلى إعادة نظر ، ومن هذه الجوانب طول الفترة المعنية بالدراســـة والتى نطمع من خلالها أن تخرج لنا دراسات عن أحوال اليهود فى مصر المملوكيـــة تكـــون أكثر تخصصاً ، كأن تكون فى عهد أحد سلاطين المماليك مثلا ، كمـــا نطمـــع أن تزيـــن

دراستها المستقبلية عنهم بالوثائق غير المنشورة كي تكشف لنا أضواءً جديدة تضفي من خلالها المزيد عن تاريخ اليهود فى مصر المملوكية.

وأخيرا فلعلنا بعد قراءة هذا الكتاب ، سنلمس مدى الجهد الكبير الذى بذلته المؤلفة لإنجاز هذا العمل العلمى الجاد الذى هو ثمرة سنوات طويلة متصلة قضتها فى هذا العمل الشاق ، لذا فهو بلا أدنى شك يسد ركنا مهماً فى المكتبة العربية كانت فى حاجة إليه، على اعتبار أنه وجبة علمية دسمة للمهتمين بدراسة تاريخ اليهود فى مصر المملوكية .

أسعار بيع النسخة

❖ داخل جمهورية مصر العربية.

- للطلاب الجامعيين: (١٠ جنيهات مصرية).
- للأفراد: (١٥ جنيهات مصرية)
- للهيئات الرسمية والكليات الجامعية: (٢٠ عشرون جنيـــها مصريـــا متضمنـــا مصاريف الشحن).

❖ خارج جمهورية مصر العربية

- للأفراد: (عشرة دولارات أمريكية).
- للهيئات العربية والأجنبية: (٢٠ عشرون دولارا أمريكيا متضمنا الشحن).

Prices Pcr issue Out Side Egypt.

- Individuals: U.S.$ 10.
- Arab & Foreign Organizations: U.S.$ 20 including Freight Charges.

الجزء الثاني:

القسم الأجنبي

fait systématiquement au cours du livre avec beaucoup d'à propos, il pose une question de fond. Pourquoi l'Islam at-il favorisé ces formes d'expression et de quelques significations sont-elles les vecteurs? Sans entrer dans le detail, il offre quelques éléments de péponse, en définissant en deux pages puissantes (pp. 185 - 187) le système qui, selon lui, sous-tend ces formes. Le mode ornemental est ce système, épiphénomène qui confère à l'art de l'Islam toute son originalité au regard des autres arts. Il transfigure les choses et sert d'intermédiaire visule entre l'homme et l'objet créé, un intermédiaire qui établit aussi une relation affective entre ces derniers.

L'ouvrage de O. Grabar apparaît au final comme une efficace et utile mise au point sur l'étude de l'art islamique, non seulement par des propositions d'approches nouvelles et d'explications concernant certains points obscurs, mais également par une mise en garde contre les travers qui affectent cette étude. Nous lui sommes reconnaîssants, de surcroît, de poser des questions et de souligner systématiquement les aspects lacunaires de la dite étude, ayant ainsi balisé le terrain de la recherche future.

La seconde rubrique est consacrée aux arts associés au pouvoir . Les interventions successives des princes sur les grands édifices, telles la Coupole du Rocher et la Grande Mosquée d'Isfahan, procèdnt de cette association et forment ce que O. Grabar appelle "la petite histoire" (p. 141), aussi riche de signification que la grande histoire. A travers celle-ci et celle-là, l'auteur cherche toujours une réponse à la question essentielle du facteur religieux comme constante dans la conception artistique en Islam. En effet, certains cas présentent une ambivalence dans le sens où des facteurs socio-culturels semblent avoir présidé leur conception artistique. Considérés sous cet angle, l'architecturale palatiale aulique et bourgeoise et les objets de luxe paraissent moins problématiques puisque clairement liés aux besoins des classes dirigeantes ou riches. O. Grabar, passant en revue les aspects fonctionnels, esthétiques et techniques de ces ouvrages, intime au lecteur de mettre l'accent sur deux niveaux d'analyse, comparatif et descriptif, lesquels font ressortir l'originalité de ces productions plus ou moins profanes. Par extension, il soulève un questionnement pertinent sur la signification du luxe en rapport avec le religieux en Islam, partant du phénomène particulier de l'adaption de nombre d'objets précieux par les chrétiens pour leur propres usages .

La dernière rubrique concerne l'ornement. Pour cerner les spécificités esthétiques de cet art en Islam, l'auteur propose une méthode d'interprétation originale, fondée sur les deux principales facultés de l'observateur, l'appréhension et la compréhension de l'objet. Cette méthode consiste à classer les différentes formes d'art étudiées en fonction de leurs propriétés, variables, à permettre à l'observateur d'exercer ces deux facultés. S'appuyant sur diverses oeuvres exemplaires, O. Grabar fait une démonstration très convaincante de son approche. On voit bien comment certaines de ces oeuvres présentent des signes visuels limpides autorisant une lecture immédiate, alors que d'autres possèdent des caractères plus ambigus, laissant l'observateur dans l'incertitude . L'auteur se penche, pour finir, sur l'écriture et la géométrie . Comme il l'a

monumentaux, telles les mosquées ottomanes à multiples coupoles . Le XIX^{eme} siècle, si négligé par les observateurs, s'avère pourtant très interessant remarque O. Grabar. Un environnement et un urbanisme se créent dans lesquels les musulmans d'aujourd'hui se reconnaissent. Enfin, le monde contemporain, est d'une grande richesse de documents, photographies, dessins, etc., dont l'exploitation reste à faire, peut-être sous l'angle particulier de la dialectique tradition et modernité .

A l'issue de ce panorama, O. Grabar réaffirme la necessite de constituer l'histoire spécifique de chacune de ces périodes pour valoriser les différentes séquences de l'art islamique, aussi complexe, de ce point de vue, que celui de l'Europe. Par là même, il se demande quels sont les facteurs de ces changements: sont-ils le fait des nouveaux peuples puissants ou de rythmes internes de la civilisasion islamique ? Enfin, une derniere reflexion doit etre retenue nous dit l'auteur: il est impératif de saisir l'équilibre entre les autorités civiles et religieuses et la masse des croyants, afin de déterminer les facteurs de formation du goût spécifique à chaque période .

Dans la seconde partie, les créations sont regroupées sous trois rubriques. O. Grabar aborde la première rubrique, "urbanisme et foi", en dénonçant le poncif - qui fait long feu- de la ville islamique type. Il n'en reconnaît pas moins un certain nombre de signes distinctifs dans lesquels la société musulmane se retrouve . Les grands sanctuaires de la Mecque, de Médine et de Jérusalem, commusns à tous les musulmans, comptent parmi ces signes, essentiellement exprimés dans l'architecture . En second lieu, il y a toutes les formes du bâti ayant servi de support à une piété diversifiée, liée aux cultures locales : les sanctuaires locaux, les grandes et les petites mosquées, les fondations sociales (*madrasa, ribât,* hopital, etc.) et les mausolées religieux. Ces édifices ont permis la conquête de nouvelles formules de construction, en particulier dans les coupoles. A propos de ce dernier thème, l'auteur s'interroge avec raison sur son caractère sacré intrinsèque ou seulement cironstanciel dans l'architecture de l'Islam .

hypothèse est que l'art de l'Islam émane inévitablement de ce qui l'a précédé car les conquérants ne connaissaient que ces oeuvres antéislamiques et la main d'oeuvre qu'ils employaient était formée à des pratiques également antéislamiques . Cependant, l'observation de la Coupole du Rocher, exemple type de monument ancré dans la tradition architecturale antique, O. Grabar met à jour un nouveau langage estétique et s'interroge sur sa nature. Loine d'être uniforme, ce langage s'est modulé d'une zone géographique musulmane à l'autre, en fonction des cultures locales plus ou moins riches et de l'empreinte plus ou moins forte qu'elles laissèrent dans la mémoire collective . A ce titre, l'auteur établit une hiérarchie de ce legs antique, dans laquelle l'Iran occupe le premier rang .

La dernière contrainte est la force de l'histoire. Là, l'auteur s'insurge d'emblée contre les préjugés ayant conduit à une vision uniformisante de l'art islamique . Et, brossant à grands traits les huit grandes étapes qui ont forgé cet art, il s'applique à en montrer les prinipales innovations apportées au cours du temps. Ainsi, sous les Omeyyades, se forment des pratiques artistiques répondant aux besoins de la nouvelle religion dans le cadre classisisant de la Syrie . L'époque des Abbassides voit la domination politique et culturelle de l'Iraq, mais aussi l'apparition de centres satellites comme Al-Andalus . Durant le "Moyen Age islamique " (1250 - 1500), l'arrivée en scène de nouveaux peuples, Berbères, Kurdes et Turcs, provoque une explosition artistique ; notamment, la réaction sunnite améne la création de l'institution de la *madrasa* . Entre 1250 et 1500, l'expansion mongole inaugure une séparation entre le monde arabe et le reste du monde musulman où une nouvelle culture artistique fleurit. C'est l'éclosion de la peinture persane, tandis qu' Al-Andalus disparaît et que le Maghreb se replie sur lui-même . L'Egypte des Mamelouks quant à elle, ne participe pas aux révolutions artistiques de l'Est affirme l'auteur. Nous ajouterons, pour notre part, que cela n'a pas empêché cette derniére de développer un style puissant et original. Avec les grands empires (1500 - 1800), s'érigent les célèbres programmes

O. Grabar rappelle ensuite que l'art islamique a été objectivé au XIX^{ème} siècle par les observateurs Occidentaux et non par les musulmans eux-mêmes; ce qui ne va pas sans conséquences qu'il met en évidence en vue d'élaborer une nouvelle manière de penser l'art islamique, inspirée des approches classiques historique et interprétative, et de l'appréhension idéologique, plus actuelle . Ses directions de réflexion ainsi tracées, l'auteur entrepend sa discussion autour de deux principaux pôles, les contraintes et les créations de l'art islamique .

Dans la première partie, O. Grabar pose la question fondamentale de l'existence d'une doctrine des arts en Islam. Pour y répondre, il recherche les fondements de cette doctrine dans les deux premiers siècles de l'Hégire et, bien sûr, dans le Coran . Si celui-ci ne fournit pas de développement doctrinal sur l'art, il n'en induit pas moins des valeurs qui ont été déterminantes pour la création artistique islamique. L'auteur illustre cette idée par l'analyse des exemples de la mosquée et surtout du prétendu iconoclasme de l'Islam . Ainsi, sans qu' un interdit de l'image ne soit explicitement formulé certaines formes plastiques liées à l'idolatrie sont dénonceés dans le texte saint et, par là, ont entraîné une méfiance généralisée envers la figuration . Cependant, O. Grabar démontre que ce phénomène a également des causes sociales . Dans un contexte où chrétiens et zoroastriens se trouvaient en proie à de complexes discussions sur l'image, le rejet de celle-ci par les musulmans s'inscrit en contre-poids; le thème discuté était jugé par eux d'une importance excessive . Par la suite, la vision islamique a évolué, mais on ne sait encore comment au juste. Pour mieux la saisir, l'auteur suggere une relecture des *hadith* et de divers textes susceptibles de contentir des indications sur l'esthétique islamique .

Autre contrainte examinée par l'auteur, l'héritage antique. Il dégage deux hypothèses concernant les modalités d'assimilation de cet héritage par les musulmans . Selon la premiére hypothèse, l'Antiquité classique méditerranéenne, dominante dans le premier art islamique, s'est imposée en raison de sa puissance d'expression du pouvoir . La seconde

Compte rendu de Oleg GRABAR, *Penser l'art islamique , Une esthétique de l'ornement*, Paris, Albin Michel, 1996, 211 pages.

Par V. Gonzalez

Après le brillant essai *The Mediation of Ornament*, publié en 1992, O. Grabar nous offre de nouveau la possibilité de prendre connaissance de ses exposés oraux en les consignant par écrit. Cet ouvrage reprend en effet un cycle de huit conférences données a L'Institut du Monde Arabe, à Paris. Par ce biais, l'auteur nous communique l'essence "brute" de sa pensée sur l'art islamique, dégagée des longues argumentations historiques qui permenttent une compréhension plus fine de celle-ci, mais rendent moins directement accessible son sens profond .

Dans une ample introduction, O. Grabar justifie son approche des formes visuelles islamiques en faisant une mise au point méthodologique. Il souligne la nécessité du recours a l'étude comparative avec les autres arts, afin de mettre en évidence les spécificités de la production en Islam, dans une perspective universelle . Puis il énonce les multiples autres possibilités d'appréhension de cette production, en exposant leurs avantages et leurs inconvénients. Un des problémes majeurs est de savoir si, pour définir tel ou tel type d'oeuvre, on doit retenir le critère national ou éthnique ou bien le critère dynastique. En l'absence de réponse consensuelle à cette question, O. Grabar constate à regret que l'art de l'Islam occupe toujours une place à part dans l'histoire générale des arts. Il se demande si cette spécificité n'est pas illusoire et simplement due à une connaissance encore embryonnaire du sujet. Isoler ainsi l'art islamique revient, aux yeux de l'auteur, à l'enfermer dans le cercle étanche d'une histoire interne réductrice, alors qu' à l'instar des autres arts, il a connu une évolution en plusieurs etapes distinctes. C'est pourquoi, il propose d'explorer la source sûre de l'historiographie des arts de l'Islam et, plus généralement, de mettre à profit la problématique contemporaine de l'histoire des arts.

domaine. Peut-être aurons nous plus de chance un jour pour les réaliser.

trois genres de chasse: la chasse au faucon , la chasse au chien et la chasse au guépard . Ce dernier n'était pas assez fréquent en Égypte, car, il nécéssitait beaucoup d'argent. Il était, alors , consacré à la classe règnante et aux riches .

Nous avons recherché , d'autre part , les jeux d'esprit qui était connus aux palais fâtimîdes soit pour les califes soit pour les femmes du harem royal .

Les gens du peuple se réunissaient, parfois , aux maisons pour prendre part à ces compétitions d'esprit , notamment , ceux d'échecs , des dés et des cartes .

On peut conclure, aussi , que malgré les disettes , les troubles intérieurs et l'apparition des croisades à la deuxième moitié de l'époque fâtimîde , le peuple égyptien avait , toujours, un esprit joyeux et cherchait , partout, le divertissemsnt et la distraction . Par ailleurs, le règne des califes fâtimîdes était assez mouvementé et prospère. Ils ont donné à l'Égypte une impulsion sociale, un nouveau aspect culturel, une vie de luxe et de magnificence . Les merveilles qui constituaient le trésor des califes, les tissus

somptueux, les remarquables planches en bois , les vases précieux , les inombrables plats de céramiques et les magnifiques aiguières en cristal de roche en sont la preuve . Ces objets nous ont gardé , en effet , les souvenirs de la vie princière à la cour fâtimîde .

Avant de terminer nos paroles à propos des moyens de divertissement , en Égypte , sous les Fâtimîdes , nous avons essayé de profiter de la marque d'élégance , du raffinement des objets fâtimîdes et des résultats de cette recherche pour encourager et aider à améliorer l'industrie de tourisme en Égypte . Nous avons enregistré quelques remarques et nous avons présenté de nouvelles suggestions qui peuvent aider à ce

s'agisserait d'éclairer que , parfois , les califes fâtimîdes se déplaçaient en compagnie de leur entourage, leur harem et leurs sujets pour se rendre aux belvédères édifiées aux banlieux et aux bords du Nil pour un but de promenade trés apprécié . On y assistait aux plaisirs de la vie. On y passait des soirées dansantes. Les gens du peuple sortaient , parfois , librement , aux parcs pour inspirer la simplicité de la nature . Lors du divertissement, la capitale était animée du soir au matin.

Il convient à mentionner que les séances musicales et les beuveries étaient , parfois , accompagnées de la représentation des clowns , des joueurs des ombres chinoises, de la danse acrobatique , les jeux des charmeurs de serpents et des sorciers . D'autres jeux d'animaux et d'oiseaux étaient représentés durant ces séances , et , aussi , durant le passage des cortèges des califes fâtimîdes . Les acrobates , les joueurs des ombres chinoises et les sorciers parcouraient les quartiers et les rues des villes pour que les plébeiens puissent en assister et s'amuser .

Les enfants , eux-aussi , éprouvaient un grand plaisir à participer avec les grands pour s'amuser et se divertir , surtout , lors de la célébration des fêtes . Ils avaient , en plus , leurs propres jeux qui prennaient , d'habitude , la forme des animaux et des oiseaux .

Il est évident , aussi , que les jeux sportifs avaient attiré l'attention des califes et des vizirs fâtimîdes pendant leurs loisirs . Ils ont pratiqué le jeu de polo , la course des chevaux et la natation . La danse aux triques et la lutte étaient , cependant , parmi les jeux les plus fréquents chez les plébeiens.

L'élévation d'animaux et d'oiseaux aussi bien que la chasse était un des moyens de distraction et de divertissement les plus en faveur , en Égypte , sous les Fâtimîdes . On s'amusait à ramasser les spécimens rares et bizarres des animaux, des remptils et du vol. Il y avait, aussi, autant que nous pouvons dire

Pour essayer d'être plus précis , nous avons vu qu'aux palais fâtimîdes se tenaient les séances de poésies et de littérature sous la supervision des califes , des vizirs et en présence des hauts fonctionnaires . Durant ces séances , on traitait divers sujets et les poètes récitaient leurs poésies . En se concourait à louer les califes et à exalter la gloire de leurs ascendants. Grâce à leurs habiletés et à leur ingéniosité , ils étaient comblés de faveur par les califes et leurs entourages . Il n'était pas, donc étonnant de voir arriver , en Égypte , un grand nombre de poètes de l'orient et de l'occident . Les califes , les princes et les vizirs étaient , eux - mêmes , parfois, des poètes et composaient des vers et des poèmes . Un grand nombre de princes , de hauts fonctionnaires et d'autres personnes choisies assistaient à ces séances littéraires .

Les gens du peuple avaient leurs propres séances de conversations et de poésies qui avaient lieu aux bords du Nil. On se rencontrait pour échanger les paroles , les idées et les dernières boutades . Il y avait une sorte de discussion ou de conversation durant laquelle on disait des anectodes , des plaisanteries et on parlait des nouveaux évènements . Les poétes et les narrateurs assistaient , parfois , à ces séances et récitaient aux gens des poèsies . Ces réunions éveillaient l'immagination et mettaient les gens en courant avec les évènements du pays .

Durant les séances musicales, les beuveries et les parties de plaisir tenues aux palais des califes fâtimîdes, une grande majorité des musiciens ,
des chanteurs , des danseuses , des buveuses et des buveurs étaient présents. Les califes y invitaient, parfois , leurs sujets . On se précipitait à assister à ces séances pour se libérer des charges quotidiennes , pour profiter de la bonté et de la générosité de la classe régnante . Ces séances augmentaient lors de la célération des fêtes, des mûlids et des festivals .Les califes ordonnaient de dresser les tables et de préparer les repas solennels . Il

Le cinquième chapitre a représenté l'importance de cette étude dans le domain de Guide Touristique .Quant à la conclusion , elle comprendra les résultats de cette recherche . Cette thèse est accompagnée, aussi, d'une liste des abbréviations et des périodiques. En addition, il s'agit d'une liste onomastique des califes Fâtimîdes , d'une bibliographie et d'un catalogue composé de quatre-vingt dix-sept photos .

Pour préparer cette étude , on a eu recours à plusieurs sources historiques qui étaient composées sous les Fâtimîdes et d 'autres qui furent composés sous les Mamlûks . Il fallait se servir de nombreuses références arabes et européennes ainsi que plusieurs périodes scientifiques .Il était naturel , aussi , de correspondre quelques musées mondials en Europes et aux États Unis pour se renseigner sur quelques objets fâtimîdes tels que la céramique à reflet métallique et les plaques d'ivoires qui y sont exposées .

Comme nous l'avons vu bien souvent , déjà , les principaux moyens de divertissement et de distraction chez les Fâtimîdes en Égypte étaient réparties en quatre catégories . On avait vu les différentes sortes de séances, les divers jeux sportifs , la chasse et les jeux de l'esprit ou les jeux calmes .

Il se peut que les Fâtimîdes avaient recours à d'autres moyens que les sources historiques ne nous avons pas mentionnés . Ces moyens étaient, probablement , fréquents qu'ils n'ont pas attiré l'attention des historiens qui étaient occupés , toujours , à enregistrer les détails de la vie politique du pays.

Grâce à l'activité économique qui avait pris un essor remarquable et dû à la prospérité et l'extansion de la civilisation, la ville du Caire est devenue le pôle d'attraction des poètes , des chanteurs , des musiciens et des savants . D'importants travaux d'urbanismes furent réalisés . D'immenses jardins et de superbes vergers furent ouverts au public pour satisfaire sa curiosité .

égyptien . Parmi ces jeux , on note le jeu de polo , la course des chevaux , le duel ou bien la danse aux triques , la lutte , la natation , le tir des flèches en plus des jeux des enfants.

On a traité , au troisième chapitre,l'idée de l'attention accordée par les califes et les hauts fonctionnaires à la chasse des cerfs , des gazelles , des lièvres , des lapins et des oiseaux à l'aide des chiens et des guépards aussi bien que les oiseaux sauvages tels que les aigles , les faucons et les vautours .

Ce chapitre s'attache, aussi, au grand soin prêté à l'élevage des oiseaux et des animaux qui étaient utilisés à la chasse ou bien qui représentaient quelques jeux pour rendre les califes et leurs sujets satisfaits durant leurs loisirs comme la lutte des coqs , les jeux des ours et des singes aussi bien que la représentation des girafes et des éléphants . Ce chapitre a comporté , également , plusieurs renseignements à propos des personnages qui étaient chargées d'entrainer , de dresser les animaux et les oiseaux de la chasse tels que les fauconniers , les guépardiers et les piqueurs de chiens ainsi que les sorciers et les charmeurs de serpents et de vipères .

Le quatrième chapitre a jetté la lumière sur les jeux de l'esprit pratiqués dans la sociètè égyptienne sous les Fâtimîdes , comme les dés qui paraissent être d 'origine persane et qui ressemblent beaucoup à ce qu'on appelle , en arabe , al- nard . Il fut inventé par Ardašîr ibn Bâbik d ' où il est connu sous le nom de nardašîr . Les gens du peuple négligeaient , parfois , leurs travaux pour aller jouer à d'autres jeux de pari tels que le jeu d'échecs et les jeux aux cartes qui étaient , aussi , parmi les moyens de divertissement les plus fréquents sous les Fâtimîdes. Nous ne devons pas omettre de citer que quelques - uns de ces jeux étaient destinés à la classe régnante telle que les vizirs , les émîrs et les notables de la sociètè . D'autres jeux étaient consacrés aux gens du peuple .

dans la sociètè égyptienne , sous les Fâtimîdes , c'est la raison pour laquelle , j'ai opté pour cette idée comme sujet de ma thèse .

Après avoir fondé leur califat à maìrib au cour de l'an 297 H. / 909 , et , après avoir assuré leur puissance en Afrique du Nord , les Fâtimîdes réussirent à conquérir l'Égypte , et ce fut le général en chef de l'armée du calife fatimide al-Mu'izz , Ğauhar al-Saqlabî , qui arriva à Ğîza le 17 Ša'bân 358 H. / 6 Juillet 969 .Ces Fâtimîdes régnèrent en Égypte , deux siècles environ (358 - 567 H. / 969 - 1171) . Durant cette longue période , ils ont réussi à vaincre leurs ennemis et à stabiliser leur pouvoir en Orient . Ce fut la plus grande puissance au monde islamique à ce moment . Ce fut , aussi , l'apogée du progrés politique , économique et culturel. Mais dés le début de l'époque des vizirs , il y a eu des troubles intérieurs et des crises économiques qui allaient mener à la chute de la dynastie en 567 H. / 1171 .

Bien qu'ils aient été occupé par les affaires du pays , les Fâtimîdes avaient entrepris des moyens de divertissement . Ils permirent à leurs sujets de se distraire et d'être fières pour compenser la dureté de leurs responsabilités quotidiennes .

Le sujet de cette thèse est , donc , traité à travers un avant-propos , cinq chapitres et une conclusion . Le premier chapitre a englobé l'étude de différents genres de séances qui avaient lieu aux palais Fâtimîdes comme les séances de littérature et de poésie , de chant , de danse et de musique en plus des beuveries .Ces séances étaient , d'habitude , accompagnées par les représentations des acrobates , des clowns et des ombres chinoises . Les hommes de lettres et les poètes étaient , habituellement , comblés de faveur par la classe régnante durant ces séances .

Le deuxième chapitre a compris l'étude des jeux sportifs qui jouissaient de l'attention des califes Fâtimîdes et du peuple

Al–Gindî, *S. S.*, *Les moyens de divertissement et d'amusement à l'époque fâtimîde en Égypte 358 -567 H./ 969 - 1171 ap.J.C.*,Thèse de Magistère dactilographiée, section Guide Touristique, Faculté de Tourisme et d'Hôtellerie, Université de Hilwân , (Le Caire, 1999).

Par Sîrîn Sâdiq al - Gindî

Le chercheur a essayé de jetter la lumière sur les moyens variés de divertissement et d'amusement qui étaient en vogue , à l'époque fâtimîde , en Égypte . Plusieurs sources historiques et quelques documents nous donnent des informations concernant ce sujet. Des objets fâtimîdes ornés de différentes scènes nous aident , aussi , à savoir quelques - uns de ces moyens d'agrèment .

Il est fort intéressant de savoir que ce sujet n'a pas attiré l'attention des chercheurs à l'exception de Ahmad 'Abd al-Râziq qui l'avait abordé, en général , dans son article " Wasâ'il al-taslîya 'ind al-muslimîn " , publié en 1985. On ajoute , aussi , l'ouvrage de 'Abd al-Mun'im Sultân " al-Muğtama' al-misrî fî al-'asr al-fâtimî " dans lequel il nous mentionne , brièvement , ce sujet .

Signalons, aussi , Mahmüd Ibrâhîm Husain qui avait étudié les scènes concernant les moyens d'amusement à la cour fâtimîde dans sa thèse de Doctorat intitulée " Die Vergnügungen des Hofes und Alltagsleben ". Citons, en plus , Suma 'Abd al-Mun'im Ibrâhîm qui avait traité les scènes de la chasse - dés l'époque fâtimîde jusqu'à la fin de la dynastie mamlûke - dans sa thèse de Magistère présentée , en 1992 , à la Faculté d'archéologie à l'Université du Caire .

À part ces quelques ouvrages ,il n'y a eu aucune recherche exhautive concernant les moyens de divertissement

II: Book Reviews

centres or the capital, they attest the dynamism of the Byzantine economy at that time and have a bearing on the separate but related question of State finances. Even if the imperial authorities were unable to gain much fiscal benefit from silks exported directly to the West from minor centres such as Euripos or Patras, textiles carried by sea via the Bosphoros to the Rus lands were likely at some stage to pass through their fiscal net. This ambivalence seems to exemplify the effect on central government finances of the growth of regional production centres no longer geared solely to the demand and commands of Constantinople. Ultimately the proliferation of these and the growing allure of foreign markets facilitated political fragmentation but in the shorter term it probably contributed substantially to an increase in the revenues readily at the imperial authorities' disposal. Further work in collating the extant silks in Western church treasuries with the silk materials from archaeological excavations and the written evidence should illuminate this often paradoxical process and shed light on the growth of the Byzantine economy between the tenth and the twelfth centuries.

'Shelkovye tkani v srednevekovoi vostochnoi Evrope' , *Sovetskaia Arkheologiia,* 1982, no. 2, 69. See also M. A. Saburova and M.V. Sedova, 'Nekropol' Suzdalia', in I.P. Rusanova (ed.), *Kul'turai isskustvo srednevekovogo goroda* (Moscow 1984) 121-7.

right direction. If, as seems to be the case, Thebes was second only to Constantinople in its ability to produce red samite and gold-interwoven silks, and if the attribution of Roger II's coronation mantle to its workshops can be confirmed,17 the task might prove feasible. Extant examples of medium-and lower-grade silks might also be submitted to investigation although, as Jacoby points out, their survival prospects are poorer than are those of the finest-quality silks18. Were it to prove possible to distinguish between Greekfinished and Constantinopolitan products, the quantitative data, however crude, would contribute to understanding of the relative roles of the provincial centres and the capital in exporting silks to the West. This would have a bearing on Jacoby's postulate of 'a progressive contraction in Constantinopolitan silk production since the late eleventh century or, at any rate ... [a reduction of] the capital's share in the overall supply of the Byzantine market in a period of rising demand'19 . This is a field where further collation of Muthesius' expertise with jacoby's analysis would be fruitful.

There is another corpus of extant material, which could be brought to bear on the debate, silks from the lands of the Rus. There, notably in the burial-grounds of the north-eastern settlements, excavations have revealed a considerable number of fragments of strips of gold braid and of monochrome silk; they served as the collars and yokes of garments of relatively well-to-do peasant women. These burials date from the twelfth to the beginning of the thirteenth century - roughly the period of expanding production in Greece highlighted by Jacoby - and the silks are reportedly for the most part of Byzantine origin20. Whether these silks were spun and woven in Greek

---

[17]- See Jacoby, 'Silk', 462 - 4, 483.

[18]- Jacoby, 'Silk' 473 - 4.

[19]- Jacoby, 'Silk' 498.

[20]- K.I. Komarov, 'Importnye tkani vo vladimirskikh kurganakh', *Kratkie Soobshcheniia Instituta Arkheologii* 210 (1993) 79, 81, 83 - 4 and map on 81. M.V. Fekhner estimated that 'over 70% of impotred silk [found in pre-Mongol Rus lands] is comnected with the production of Byzantium's silk-weaving workshops':

to the central administration. Jacoby points out that Thebes' high quality silks were denied to the Genoese and Pisans and 'judging by the evidence pertaining to Alexius III, imperial control over a portion of Theban silk production and trade remained surprisingly strong by 1195'[16]. This raises the questions of what proportion of Thebes' silks was reserved by the government for its own uses and of whether all the highest quality silks belonged to this category. One might suppose that a 'high-profile' production centre such as Thebes was relatively easy for the imperial authorities to regulate effectively, and thus that top quality Theban silks remained a governmental monopoly. This would imply that examples found in the West arrived there as diplomatic gifts rather than as traded commodities. In contrast, it may have been fairly straightforward and not unprofitable to put on the market medium- and lower-grade silks, especially those manufactured in other, poorer, production complexes. The latter may have escaped close government scrutiny, being at once less capable of really high-quality product, less fiscally remunerative and more dispersed. It was the easier to avoid taxation on such silks in that much of the carrying-trade was in the hands of the Venetians who, unlike the Genoese and Pisans, were allowed to buy costly textiles. And in Northern Italy the Greek silk-producers were assured of a robust market, accessible yet well beyond the reach of imperial fiscal officials and thus more lucrative than markets within the empire.

To hypothesise thus is, of course, to make large assumptions about the degrees of intrusiveness and venality of government officials in Thebes and the other western provincial centres. Even the highest-quality silks may have found their way from Thebes onto the market in Italy and one will never be able precisely to chart the volume of production in twelfth-century Thebes or the relative importance of government commissions and the internal Byzantine and foreign markets for it. But systematic identification of the extant products of Theban workshops would be a step in the

---

[16]- Jacoby, 'Silk' 492.

they might well exemplify economic expansion, with production of high-quality but not hugely expensive silks opening up in provincial centres.

Attention to economic growth and its periodisation is paid in one of the most recent papers incorporated in Muthesius' Studies14. But this aspect needs to be integrated more fully with the technical issues of which she shows such mastery. A wide-ranging investigation of the silk industry in Byzantium's western provinces is offered by Jacoby. He points to firm evidence of production on Andros as well as in Thebes and Corinth from the later eleventh century onwards, while noting much earlier hints of the Peloponnese's connections with the silk industry: already in the ninth century its north-western part was known as 'Morea' for its mulberry-trees, when the widow Danelis disposed of weavers and precious textiles of some sort in the neighbourhood of Patras15. Jacoby emphasises that Theban private manufacturers received commissions from the central administration to make very high-grade silks, dyed with murex purple. However, as Jacoby suggests, this was essentially a twelfth-century phenomenon. Moreover, Thebes seems to have been rather exceptional, benefiting from a particular combination of natural resources, easy communications and the capital and organisational skills of the *archontes*, members of the local landed *élite* . The latter seem to have been the driving force in the formation of a large-scale manufacturing industry, producing for the market. Thebes' elaborate nexus of production ranged from mulberry growing to dyeing with purple produced in Athens.

The quality of Theban fabrics was well-known to Western Europeans and Turks in the twelfth century as well as

---

[14]- Mention is also made there of developments in the provinces in the eleventh and twelfth centuries: 'Constantinople and its Hinterland: Issues of Raw Silk Supply' (27th Spring Symposium of ByzantineStudies, Oxford, March 1993), in *Studies* 315 - 35.

[15]- Jacoby reserves Judgements as to whether the *silken* sendes despatched by Danelis to Basil I had actually been made in workshops under her control: 'Silk' 458 - 60; *Vita Basilii*, in Theophanes Continuatus, V.74, ed. I. Bekker (Bonn 1838) 318.

course, this development is just one facet of the general upswing in population-size, economic exchanges and wealth-formation, which Alan Harvey has documented, and Jacoby himself draws attention to it[12]. But it is very probable that the silk industry, already possessing close ties with the Islamic world, was peculiarly sensitive to the greater security in eastern border areas and the Aegean which set in from the later tenth century onwards. Muthesius offers evidence of the identity - rather than just similarity - of the techniques of Byzantine and Moslem weavers in changing from single to paired main warp twills from the ninth century onwards and Cairo Genizah documents attest the sale of raw silk to Byzantine merchants in the 1060s and 1070s. A Byzantine presence in Syria, with Byzantine agents reportedly levying taxes on the silks traded in Aleppo, is likely to have further encouraged cross-border exchanges - including, perhaps, migration of craftsmen. One possible witness to burgeoning collaboration comes from the eleventh-century Griffin Silk from St. Trond, whose stylistic features are fairly distinctively Byzantine, but whose use of cotton selvedge points to a Moslem workshop. Muthesius considers Syria to be a possible location for it. A still more significant mark of contacts is what Muthesius calls 'a technical breakthrough', the development of the 'lampas' weave and the related incised twill silks, both types being monochrome[13] . This took place c. 1000 in both Byzantine and Islamic production centres, seemingly without an appreciable time lag between the two milieux . The monochrome silks required a high level of skills to produce, but they did not call for expensive dyes or the dyeing process and this, together with the relatively large number of examples found in the West, suggests that they may have been made in non-imperial workshops. In other words,

[12]- Jacoby, 'Silk' (as in n. 1 above), 452 - 500; A. Harvey, *Economic Expansion in the Byzantine Empire, 900 - 1200* (Cambridge 1989) 148 - 4, 213 - 20. I have not had access to Jacoby's study 'Silk crosses the Mediterranean' (in S. Origone (ed.) *Le vie del Mediterraneo, idee, uomini, oggetti)* reported as 'in press' in Lexikon des Mittelalters, VII (Munich 1995) S.V. *Seide . B. Byzantinisches Reich*, col. 1709.

[13]- Muthesius, Studies, 107, 112, 136, 290; Plate 83.

maintaining a massive over-capacity in its own, imperial workshops. Close collaboration involving a high degree of flexibility in arrangements and mobility of skilled labour is understandable against a background of shortages of raw materials and skills, military insecurity, uncertain communications and a concentration of wealth in constantinople. Such was, essentially, the empire's condition at the turn of the ninth and tenth centuries, when the *Book of the Eparch* was being drafted.

The collaboration between the imperial authorities and the private sector was wary, at least from the State's viewpoint. But the forementioned constraints weighed against private production rivalling imperial workshops in terms of sustainable quality or becoming very large-scale. There was, above all, the problem of finding a market for one's products and although the *Book of the Eparch's* injunctions against sales outside the City imply that such things were done, they could scarcely have been risk-free or very profitable. Constant, flagrant breaches of the restrictions would have attracted the attention of the Eparch's officials or other functionaries, venal as these may have been. So long as purchasing-power was concentrated in the capital and was more or less directly connected with the palace, an alternative nexus of sericulture and manufacturing far from Constantinople was unlikely to be a going concern. The fact that the main foreign source of raw silk was formally in a state of permanent warfare against Byzantium put a further constraint on illicit private enterprises. The number of authorised trading emporia was small and fairly easily supervisable by the authorities. Those traders attempting evasion risked interception by both Byzantine patrols and Moslem raiders.

One might expect an improvement in the empire's strategic situation and an easing of communications to have lifted some of the foresaid constraints on private silk production outside Constantinople. That this seems to have happened, albeit gradually, is suggested by David Jacoby's study of silk production and trade in what is now Greece. Of

leaves and close liaison was necessary between the providers of the leaves and the rearers of the worms. At the other end of the process, a top-quality piece such as the Aachen Elephant Silk 'required 1.440 manipulations of the pattern making device' for just one roundel (p. 290). Time, as well as skill and equipment was needed for this and sudden shortages of raw materials further increased the risks, while restrictions on prices curbed producers' ability to recoup their losses. To these constraints, noted by Muthesius, needs to be added the question of the strength and geographical location of the demand. The highest-quality silks were very costly indeed and presumably even the lower-grade fabrics came within purchasing range only of the well-to-do. To master difficult skills or to invest heavily in an industry where one did not enjoy fairly constant demand would have been quixotic. There are hints as to the vagaries of the market in the Book *of the Eparch's* stipulation that workmen should be hired by the *metaxopratai* on *monthly* contracts (*Eparchenbuch, 6.2; ed. Koder, pp. 96 - 7)*. Perhaps fluctuating supplies of materials made it imprudent to take on wage-earning workers for long, while the imperial workshops themselves may have needed to take on skilled hands at short notice. These circumstances not only make it overwhelmingly probable that (as Muthesius argues) the highest quality silks were produced exclusively in the imperial workshops; they also suggest that the state was the purchaser of many of the lesser quality textiles woven by the guilds. That such purchases were common is clear from the treatise on the imperial baggage-train's specifications11 .

The demands some assurance of sales to those engaged in production or trading. On the other hand the State officials could not entirely foresee sudden expenditure needs - gifts of *skaramangia* to buy off menacing Bulgarians or Hungarians, for example. To be able to resort to a market in privately produced or imported silks was therefore highly desirable and it gave the State a keen interest in quality control. It was thereby freed from the cost and organisational strain of

[11]- Constantion Porph, *Three Treatises*, ed. Haldon 108 - 9, 112 - 13, 126 - 7; 219, 230 (commentary).

for the produciton of silks: the number of Syrian merchants resident in Constantinople for ten or more years was substantial enough for provision to be made for them in the *Book of the Eparch*9. These were, presumably, distributors distinct from the visiting Syrian exporters who were only allowed three months in the city. Further, the government's ambivalence towards silk produced in workshops not under its direct supervision gains in perspective. As the *Book of the Eparch* attests, the authorities were apprehensive, issuing, for example, injunctions against private production of the 'forbidden' categories of textiles, unauthorised sales to foreigners and covert purchases by raw silk traders on behalf of a '*dynatos* or wealthy man' (*Eparchenbuch*, 6.10; ed. Koder, pp. 98 - 9). But, as Muthesius argues, it was in the state's interest to maintain standards of quality and general order among the silk-producers and to maintain levels of production. The government benefited from taxes on transactions so long as they took place in easily supervisable places. And it needed to draw on the silk supplies and the silk-making skills of the 'private sector'. Hence the *Book of the Eparch's* note that officials and private persons were permitted to manufacture purple garments of high quality if they were ordered to do so 'for supplies (*choregian*) for the *eidikon*10'. It may well have been fear of loss of skills rather than of transmission of them to foreigners that underlay the penalty for selling a slave from a silk workshop 'to outsiders or foreigners' (*Eparchenbuch*, 8.7; ed. Koder, pp. 104 - 5). The picture which emerges for the tenth century is one of, essentially, cooperation between the private and imperial sectors, the degree of collaboration being rather higher them the *Book of the Eparch* expressly acknowledges.

This leads to a further consideration. Muthesius rightly lays emphasis on the sheer complexity of silk manufacture: the delicate worms had to be fed on finely chopped mulberry

[9]- *Eparchenbuch*, 5,2,5; ed. Koder 94 - 7; Muthesius, *Studies* 307.

[10]- *Eparchenbuch*, 8.2; Koder 104 - 5; Lopez, Industry' 15; (Muthesius, *Studies* 259 - 60, 286.

slaves and also paid workers; these slaves could themselves open workshops7.

Some important themes emerge from 'Muthesius' investigations. Firstly, there seems to have been an endemic shortage of raw silk before the eleventh or twelfth centuries. As she points out, much of Asia Minor was unsuitable for growing mulberry trees. While accepting N. Oikonomides' interpretation of the seals of *kommerkiarioi* to the extent 'the seals most plausibly do have a relationship to sericulture', she justly doubts do whether they necessarily attest mulberry growing or silk-worm rearing in all the places mentioned on the seals8. In any case, the amount and quality of the silk yarn produced seems to have been unequal to demand. An underlying condition of shortage helps explain the government's interest in trade with Syria, an important region

[7]- *Eparchenbuch* 8.7, 10, 12, 13; ed. Koder, 140 - 70. Muthesius, *Studies* 285 .

[8]- Muthesius, *Studies* 323. That *kommerkiarioi* became 'mainly related to silk production' in the seventh century was suggested by N. Oikonomides ('Silk trade and production in Byzantium from the sixth to the ninth century: the seals of *Kommerkiarioi*' *DOP* 40 (1986) 43 - 4). It seems most probable that *kommerkiarioi* then possessed special links with the silk-trade, as they had done in previous centuries. But in an era of demonetarisation and slackening economic exchanges their role is likely to have broadened out into one of buying up, selling and stockpiling other valuable manufactures and commodities which became available in their districts, as well as performing a fiscal function. Their functions were probably multiple and variable and they could well have dealt in or accepted as revenue 'agricultural and other primary products', as A. Dunn proposed ('The *Kommerkiarios*, the *Apotheke*, the *Dromos*, the *Vardarios* and *The West,*' *BMGS* 17 (1993) 10). However, it seems likely that their 'depots' *(apothekai)* mostly contained higher-value commodities rather than run-of-the-mill, perishable, agrarian produce. The high insecurity and need for constant improvisation of the mid-seventh to mid-ninth-century provinces will have created an acute need for regional stores of valuables and related supply networks under the care of officials who had some competence as valuers of, and dealers in, them. The *kommerkiarioi* could well have performed the role of local 'fix-its', having powers to buy up valued manufactured goods as they came on the market, to commission production of them, to tax and also to sell or dispense them gratis, according to circumstances. Silks, being highly valued and highly portable, would have ranked prominently but by no means exclusively among these 'big ticket' commodities and instruments of manipulation. See the critique of Oikonomides and comparable suggestions made by J.F. Haldon, *Byzantium in the Seventh Century. The Transfomation of a Culture* (Cambridge 1990) 232 - 4.

reconstructed drawloom . Data on the raising of the worms has been adduced from Chinese sources, notabley the twelfth-century *Geng Zhi Tu.* Muthesius' scope extends beyond the finished products to the uses to which they were put. She underlines the similarities of usage in the Christian East and West, arguing from abundant evidence that the eighth - and ninth-century papacy seems to have played a key role in displaying, distributing, and arousing Western appetites for, eastern silks.

Muthesius' expertise gives weight to her reappraisal and redating of a number of other individual silks, for example the 'Krefeld-Berlinnumber of other individual silks, for example the 'Krefeld-Berlin Dusseldorf' Imperial Lion Silk, which should probably be re-assigned to the co-emperorship of Basil II and Constantine VIII from that of Basil I and his son Constantine . From a different perspective, she rebuts the estimate of raw silk yield in Calabria made by the editor of the sole text to specify the location of mulberry plantations in the Byzantine lands: it 'seems one hundred times too greal' and may exaggerate the importance of Southern Italy as a source of raw silk for Byzantium5. Muthesius also casts doubt on some general conclusions drawn about the organisation of silk production from the *Book of the Eparch*. It is highly unlikely that the *serikarioi* could personally have engaged in prepating the raw silk and dyeing it as well as weaving6. For the degumming process alone occupies one man and perhaps an assistant, while the boiling of the gum creates dirt incompatible with the high standards of cleanliness required in a weaver's workshop. Muthesius suggests that the *serikarioi* were 'factory owners with a series of workshops' rather them manual workers. This suggestion is compatible with the evidence of the *Book of the Eparch* that the *serikarioi* had

[5]- *Le brebion de la metropole byzantine de Region (vers 1050)*, ed. A. Guillou (Corpus des actes grecs d'Italie du Sud et de Sicile 4) (Vatican City 1974) e.g. 17 - 33, 63 – 70; cf. Idem, 'production and profits in the Byzantine province of Italy (tenth to eleventh centuries) : an expending society', *DOP* 28 (1974) 92 - 5, repr. in his *Culture et societe en Italie byzantine (VI-XI s.)* (London 1978), no. 13.

[6]- As proposed by D. Simon 'Die byzantinischen Seidenzunfte', *BZ* 68 (1975) 34.

starting with some heroic feats of cataloguing. A catalogue of 120 silks found in the West has been prepared, together with a handlist of many other examples, including some related Islamic ones. She had to prepare her own preliminary catalogues of the contents of major holdings such as Sens Cathedral Treasury, in default of detailed local catalogues, and this led to important acts of identification. Thus she tracked down the famous Siegburg Loin silk, falsely supposed to have been destroyed during the Second World War. Such feats highlight the fact that the lack of a corpus of surviving silks has been a serious weakness of Byzantine studies as a whole and the imminent publication of the forementioned full catalogue is to be warmly welcomed3.

Mutherius' technical expertise has enabled her to determine the likely origins of silks by the nature of their weaves. There are limits to this method: Byzantine and Islamic workshops favored some identical types of twill in the ninth to twelfth centuries, as we shall see below (p. 253f.). Even so, certain techniques were characteristic of particular regions, for example, grège - textiles with silk threads which had not had their coating of gum removed and which had not been twisted. Detecting these traits in the Lion Silk of St. Servatius, Maastricht, Muthesius proposes Central Asia as the likely place of manufacture: the manufacturers may have been imitating an authentic Lion Silk, made in imperial workshops. Her suggestion is very plausible, seeing that imperial interest stretched as far as Central Asia and guardsmen from Ferghana played a part in tenth-century palace ceremonial4. Muthesius' familiarity with all the technical aspects of silk production reaches back to the grub, which makes it possible. She has studied the organisation and methods of silk worshops in modern Indian villages and paid close attention to the looms, to the point of attempting to weave textiles from a

[3]- A. Muthesius, *Byzantine Silk Weaving A.D. 400 to A.D. 1200*, J, Koder and E. Kislinger (eds.) (Vienna, forthcoming).

[4]- Constantine Porphyrogenitus, *De cerimoniis aulae byzantine*, II. 15, ed. I.I. Reiske, I (Bonn 1829) 576 .

use as, for example, chasubles, wrappings of relics, cushions and bindings of Gospel-Books2. But it is worth noting that the numerous examples of Silks, Fragmentary or more less whole, found in Church treasuries probably represent only a small fraction of those originally sent to Western Europe. Many ended up in lay hands and those of top quality would often have been put on display, probably retaining something of their original form. To that extent they were likely to impress more foreign beholders, and to be more readily comprehensible as imperial Byzantine products, than were other items, including gold and silver coins. The value of silks to the emperor in terms both of domestic patronage and diplomatic gifts is indicated by Constantine VII'S treatise on imperial expeditions. It provides for various types of silken garments and cloths, specifying which sorts were brought 'for distinguished refugees and for sending to distinguished and powerful foregners'3. That all this effort made its mark was inferred by R.S. Lopez; the borrowing of Byzantine ceremonial by the Western rulers is the best acknowledgement of Byzantine "hierarchy through clothing"3.

Lopez's classic study might have been expected to prompt many publications on aspects of Byzantine silks. Yet this did not happen. As the late John Beckwith observed, 'the study of medieval woven textiles is highly complex and is, perhaps, the most difficult discipline in the entire field of art history', in that it calls for competence in the art of weaving, ability to read inscriptions in Coptic, Greek, Latin and Arabic and wide-ranging historical knowledge. For some time after Beckwith made this remark textiles continued to be appraised primarily in terms of iconography and style. But Anna Muthesius has taken a major step towards the kids of inter-disciplinary investigation for which Beckwith appealed,

[2]- A. Muthesius, *Studies in Byzantine and Islamic Silk Weaving* (London 1995) 21 - 4, 29 - 30, 36 - 42, 77 - 80. See also Jacoby, 'Silk' 473. The celebrated Gunthertuch, a huge silk originally measuring 210cm by 260cm and showing a triumphant emperor, was re-used intact as a bishop's shroud, most probably just after its arrival in the West: G. Prinzing, 'Das Bamberger Gunthertuch in neuer Sicht', *BS* 54 (1993) 219 - 20 and n.8.

Silks, skills and opportunities in Byzantium : some reflexions

Jonathan Shepard
Faculty of History,Cambridge University

Silks gave visible form to Byzantium's political culture and, being light to carry, could circulate widely. Many of the garments issued to recipients of offices and titles were made of silk and the *Book of the Eparch* takes for granted the close connection between imperial prerogatives, silken vestments of various shades of purple and restrictions, on foreigners access to them 1. Through whetting appetites for silks and maintaining a monopoly over the finest quality products, the emperor could hope to arouse in his own subjects and foreigners alike the desire to gain them through some form of 'Servia'. These 'class' when cut up into pieces. That products simultaneously expressed his wealth, superior knowledge and - by the symbols on them - the antiquity and unsurpassable legitimacy of his rule.

Gold and silver coins could likewise attest these qualities, but they were easily melted down and re-used as ornaments or for other purposes unrelated to the emperor. Large-scale sumptuous silks manufactured in imperial workshops and the silks bestowed as vestments on title-holders and others in favor might appear less likely to be re-used in a form which wholly effaced their origins. The former category of silks tended to bear characteristic marks of imperial authority such as eagles; the latter lost 'class' when cut up into pieces. That re-use and fragmentation did in fact often occur after the silks left Byzantine soil is shown in Anna Muthesius' collection of studies. She discusses their eventual

[1] - *Das Eparchenbuch Leons des Weisen*, 4.1, 3, 4; 8.1, 2; ed. J. Koder (Vienna 1991)" 90 - 3, 102 - 5. See also D. Jacoby, "Silk" in Western Byzantium before the Fourth Crusade' *BZ* 84/85 (1991 - 92) 456 - 7. Now repr. in Jacoby's *Trade. Commodities and Shipping in the Medieval* Mediterranean (Aldershot 1997), no. 7.

I : The Papers

The Contributors

- Abdul-Hamid, R., Prof. of Medieval History, Faculty of Arts, Ain Shams University, Egypt.
- Abdel-Fatah, S., Demonstrator of Islamic History, Faculty of Arts, Ain Shams University, Egypt.
- Abdel-Karim, N., Associate Prof. of Islamic History, Faculty of Arts, Al-Mnoufia University, Egypt.
- Al-Gindi, S., Assistant Lecturer of Islamic Civilization, Faculty of Arts, Ain Shams University, Egypt.
- Al-Tahry, A., Prof. of Islamic History, Faculty of Arts and Humanities, Al-Mohammadia University, Morocco.
- Atya, H., Assistant Prof. of Medieval History, Faculty of Arts, Tanta University, Egypt.
- Gonzalez, V., Lecturer in History and Aesthetics of Islamic Art, Marsille, France.
- Iskander, F., Prof. of Medieval History, Faculty of Arts, Benha University, Egypt.
- Ismaiel, M., Prof. of Islamic History, Faculty of Arts, Ain Shams University, Egypt.
- Magani, B., Prof. of Islamic History, Faculty of Arts, Mentory University, Constantina, Algeria.
- Mohammed, T., Associate Prof. of Byzantine History, Faculty of Arts, Ain Shams University, Egypt.
- Shepard, J., Prof. of Medieval Russian History, Faculty of History, Cambridge University, Britain.

II: Book Reviews

Part II: The Foreign Section

I: The papers

II: Book reviews

Contents

Part I : The Arabic Section

I : The Papers

Journal of Medieval and Islamic History
Issued by: Seminar of Medieval and Islamic History
Dept. of History, Faculty of Arts, Ain Shams University
Abbasiya, Cairo, Egypt. Postal code 11566

- An Annual Review Interested in Medieval History, specially
Byzantine and Islamic History.

- We accept all the papers and book reviews in Arabic, English, French, Italian and German.
- Books for review should be sent in one copy only.
- Orders may be addressed directly to the board of the Seminar on the above-mentioned address.
- All papers should be written by the computer as follow:
Text's size is 12,5 x 19,5 cm.;
Text's fonts are 12 New Times Roman and 14 Traditional Arabic for the Arabic papers.
Footnotes font is 10;
Main titles font is 16 Bold.
- Correspondences: Editor-in-chief: *Prof. Dr. Raafat Abdul-Hamid* or *Dr. Tarek Mansour Mohammed.*
on the following address: Department of History, Faculty of Arts, Ain Shams University, Abbasiya, Cairo, Egypt. Postal code 11566. Fax. 00202-2854079. E.mail: amrtar_eg@yahoo.co.uk

Journal of Medieval and Islamic History

An Annual Review of Medieval, Byzantine and Islamic Studies
(*JMIH*)

Volume I
Pt. II
The Foreign Section
2000-2001

Issued by: Seminar of Medieval and Islamic History, History Department, Faculty of Arts, Ain Shams University, Cairo, Egypt, Postal code 11566.

Publisher: Misr el-Arabia
13A *Islam St., Hammamat Al-Koubba,*
Cairo, Egypt.

Journal of Medieval and Islamic History

(JMIH)

Volume 1 / 2000 -2001

An Annual Review of Medieval, Byzantine and Islamic Studies. Issued by : Seminar of Medieval and Islamic History, History Department , Faculty of Arts, Ain Shams University, Cairo, Egypt



الغلاف: عماد حليم

حولية التاريخ الإسلامي والوسيط

المجلد الثاني
٢٠٠٢

دورية سنوية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية الإسلامية والبيزنطية وأوربا العصر الوسيط

يصدرها سمنار التاريخ الإسلامي والوسيط - جامعة عين شمس



حولية التاريخ الإسلامى والوسيط

دورية سنوية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية الإسلامية والبيزنطية

المجلد الثانى

٢٠٠٢م

يصدرها

سمنار التاريخ الإسلامى والوسيط

جامعة عين شمس

عدد خاص يصدر على شرف ا.د. رأفت عبد الحميد

الناشر

مصر العربية للنشر والتوزيع

١٣ أ شارع إسلام–حمامات القبة–القاهرة

شكر وتقدير

تتقدم هيئة تحرير حولية التاريخ الإسلامي والوسيط بوافر الشكر إلى دار مصر العربية للنشر والتوزيع على اهتمامها بإخراج هذا العدد فى أكمل صورة.

طبع هذا العدد فى التاسع عشر من شهر يونيو٢٠٠٢

حولية التاريخ الإسلامى والوسيط

دورية علمية سنوية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية الإسلامية والبيزنطية

يصدرها

سمنار التاريخ الإسلامى والوسيط ، جامعة عين شمس

– ترسـل المراسـلات والطلبات باسم هيئة تحرير الحولية أو باسم د. طارق منصور وكذلـك البحوث على العنوان التالى كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة ، مصر. ص.ب.١١٥٦٦ ، فـاكس: (٢٠٢٠٠) ٦٨٥١٤٣٢ بـريد اليكـتروني ntaseg@hotmail.com ، شـريطة ألا تكـون قد سبق نشرها فى مكان آخر من قبل، وأن تكـون مكتوبة على الحاسب الآلى IBM ، Word 2000، حسب المواصفات التالية:

١ – البحوث المكتوبة باللغة العربية:

العنوان الرئيسى فونت ١٤ أسود ، العنوان الفرعى فونت ١٣ أسود

الخط Simplified Arabic ، فونت ١٣

الهوامش فونت ١١

المسافة بين السطور مفرد للنص وكذلك للهوامش

مواصفات الصفحة ١٢,٥ X ١٩,٥ ؛ هامش علوى ٥,١، سفلى ٥,١، يسار ٤,٢، يمين ٤,٣ سم

٢- البحوث المكتوبة بلغة أجنبية:

العنوان الرئيسى فونت ١٣س أسود ، العنوان الفرعى فونت ١٢ أسود

الخط Times New Roman ، فونت ١٢

المسافة بين السطور متعدد single للنص ، exact للهوامش

مواصفات الصفحة ١٢,٥ X ١٩,٥ ؛ هامش علوى ٥,١، سفلى ٥,١، يسار ٤,٢، يمين ٤,٣ سم

- يرسل البحث من نسختين بالإضافة إلى القرص المرن الخاص به مقاس ٣,٥ .
- تقبل البحوث باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية.
- آخر موعد لتلقى البحوث شهر أكتوبر من كل عام .
- يكتب اسم الباحث ووظيفته أسفل العنوان الرئيسى للبحث مباشرة .

رأفت عبد الحميد

أستاذ تاريخ العصور الوسطي – كلية الآداب – جامعة عين شمس

حصــــل علــي ليســانس التــربية عام ١٩٦٣ بــتقدير عــام جــيد جــداً، وليسانس الآداب عــام ١٩٦٦ بتقدير جيد جداً مع مرتبة الشرف،عمل معيداً ثم مدرساً مساعداً ثم مدرساً بعد حصوله علي الدكتوراه عام ١٩٧٤.

تــدرج في ســلك الوظــائف الجامعـــية حتى أصــبح أســتاذاً لــتاريخ العـــصــــور الوسطـــى عام ١٩٨٦، وفي عام ١٩٩٧ عين عميداً لكلية الآداب جامعة عين شمس حتى عام ٢٠٠١، حيث وافته المنية في ذلك العام.

وفــي عام ١٩٩٩ عين مستشاراً لوزير التعليم العالي والدولة للبحث العلمي، كمــا عين في نفس العام مديراً لمركز الحضارات المعاصرة بجامعة عين شمس، وفي عام ٢٠٠٠ عين مديراً لمركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس.

مــثل مصر في العديد من المؤتمرات الدولية والمحلية وله العديد من البحوث والمؤلفات المتميزة في تاريخ العصور الوسطي من أهمها:

- موسوعة الدولة والكنيسة، صدر منها أربعة أجزاء.
- ملامح الشخصية المصرية في العصر المسيحي، القاهرة، ١٩٧٣.
- بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة، القاهرة، ١٩٩٧.
- قضايا في تاريخ الحركة الصليبية، القاهرة، ١٩٩٨.
- الفكر المصري في العصر المسيحي، القاهرة، ٢٠٠١.
- الفكر السياسي الأوروبي في العصور الوسطي، القاهرة، ٢٠٠٢.
- مصــر فى العصر البيزنطى (بالاشتراك مع د. طارق منصور)، القاهرة، ٢٠٠٢.

هذا بالإضافة إلى عشرات المقالات الأدبية والتاريخية المنشورة فى الدوريات والمجلات المحلية والعالمية. كما أشرف على عدد كبير من الرسائل العلمية فى جامعة عيــن شمس والجامعات المصرية الأخرى؛ بالإضافة إلى مناقشته عددا كبيرا آخر من رسائل الماجستير والدكتوراه.



الأستاذ الدكتور

رأفت عبد الحميد

٦/١١/١٩٤٢-٢٥/٦/٢٠٠١م

المشاركون في العدد*

إبراهيم القادري	أستاذ التاريخ الإسلامي- جامعة مولاى إسماعيل- المغرب
أحمد المحمودي	أستاذ التاريخ الإسلامي- جامعة مولاى إسماعيل- المغرب
اسحق عبيد	أستاذ تاريخ العصور الوسطي - جامعة عين شمس - مصر
ايرينا فدوفتشينكو	مدرس التاريخ والآثار البيزنطية- جامعة تاوريدا الوطنية - أوكرانيا
ديفيد نيقول	أستاذ التاريخ الإسلامي - جامعة نونتنجهام - إنجلترا
رأفت عبد الحميد	أستاذ تاريخ العصور الوسطي - جامعة عين شمس- مصر
زينب عبد المجيد	مدرس تاريخ العصور الوسطي- جامعة الزقازيق - مصر
طارق منصور	مدرس تاريخ العصور الوسطي- جامعة عين شمس- مصر
عبد العزيز رمضان	مدرس مساعد تاريخ العصور الوسطي- جامعة عين شمس مصر.
فلورا فافيا	محاضر تاريخ الرياضيات - اليونان
محاسن الوقاد	مدرس التاريخ الإسلامي - جامعة عين شمس - مصر
محمد تضغوت	أستاذ التاريخ الإسلامي- جامعة مولاى إسماعيل - المغرب
محمد مؤنس عوض	أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي- جامعة عين شمس- مصر
محمد نصر	مدرس مساعد التاريخ الإسلامي- جامعة عين شمس- مصر
محمود إسماعيل	أستاذ التاريخ الإسلامي - جامعة عين شمس - مصر
نجلاء حامد	مدرس تاريخ التربية - جامعة القاهرة - مصر
نريمان عبد الكريم	أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي - جامعة المنوفية - مصر
هانيء عبد الهادي	مدرس تاريخ العصور الوسطي - جامعة حلوان - مصر

*هذه الأسماء مرتبة ترتيباً هجائياً.

المحتويات

أولاً: القسم العربي

أ: الدراسات والبحوث

ب:عرض الكتب والرسائل

ثانياً: القسم الأجنبي

أ : البحوث والدراسات

ب :عرض الكتب والرسائل

تقـــديم

حولية التاريخ الإسلامي والوسيط

تقـبل علينـا حولـية التاريخ الإسلامي والوسيط في ثوبها الجديد، وقد كشفت الـنقاب عن وجهها، فإذا به يتلألأ كوجه القمر في ليل الفلا. المريدون والاتباع يقبلون فـي لهفـة نحوها، الكل يسعي عسي أن يجد ضالته بين راحتيها، وقد توشحت بوشاح العلـم المرصـع بلألـيء العقل من كل صوب وحدب ، ارتدت تاجاً مصري الصنع، مرصـع بـثمان عشرة حبة من لألىء المفكرين والعلماء، بل ثمان عشرة زهرة فواحة تدفع المارة والمريدين إلي قطفها، والاستزادة من عبيرها.

وكلمـا طابت النفس برحيق الأولي، تمتد الأنامل نحو الثنية فالثالثة، وما هي إلا لحظـات تمـر بالمرء منتشياً برحيقها، حتى يدرك أنه أمضي من العمر زمناً، في روضـة مـن رياض العصور الوسطي، دون أن يدري أنه اقبل علي نهاية رحلته في الروض المعطار، العدد الثاني من "حولية التاريخ الإسلامي والوسيط"؛ ذلك العدد الذي تفخـر أمانة سمنار العصور الوسطي، بأن تدفع به إلي أيدي قرائها الأعزاء بكل فخر وإعزاز.

يشـارك فـي تدشـين هذا العدد كوكبة متميزة من مؤرخي العصور الوسطي والـتاريخ الإسـلامي مـن مصر والمغرب وإنجلترا وأوكرانيا واليونان؛ قدموا جميعاً ثمانية عشر عملاً، شكلت سفراً جليلاً يربو علي الثلاثمائة وخمسين صفحة.

فمـن مصـر يقدم أ.د. اسحق عبيد كلمة وفاء في ذكري المرحوم أ.د. رأفت عـبد الحمـيد. أمـا أ.د. إبراهيم القادري، من المغرب، فقد قدم بحثاً رائداً، جديداً من نوعـه عـن الدور الذي لعبه الفقهاء في مواجهة الخطر الصليبي الذي كان يهدد بلاد الأندلـس. وتأتـي تحفة أ.د. رأفت عبد الحميد الأدبية، في كلمته التي ألقاها في افتتاح "ندوة حدود مصر الشرقية"، بالمجلس الأعلى للثقافة عام ٢٠٠١، والتي أثارت إعجاب الحضـور جميعاً، في تلك الندوة، مما دفع بإدارة الحولية إلي نشرها ضمن بحوث هذا العدد الصادر في ذكراه السنوية.

أما السيدة الدكتورة زينب عبد المجيد، فقد قدمت بحثاً شيقاً عن ماهية البرلمان الإنجليزي في القرن الثالث عشر وحتى نهاية عهد الملك إدوارد الأول؛ وهي فترة حرجة في تاريخ الحياة البرلمانية في إنجلترا، نجحت الباحثة في تناولها بالعرض والتحليل من خلال استخدامها لمجموعة كبيرة من المصادر الأصلية والمراجع.

أما السيد/ عبد العزيز رمضان، فقد قدم بحثاً طيباً، ينم عن مهارته الباكرة في العرض والتحليل التاريخي، من خلال بحثه فى "عروض زواج العرائس في البلاط البيزنطي ٧٨٨-٨٨٢م". فقد تعرض في بحثه هذا للطرق التي كانت تتبع في ترشيح العرائس للإمبراطور، عندما كان يشرع في الزواج، وكيف كانت الإمبراطورة في بعض الأحيان تتولى القيام بهذه المهمة بنفسها.

وفي هذا العدد يقدم أ.د. محمود إسماعيل تفسيرا ورؤية خاصة حول إشكالية تفسير التاريخ عند المؤرخين المسلمين الأوائل.

ومن البحوث الشيقة، الطريفة في موضوعها، البحث الذي قدمته الدكتورة محاسن الوقاد عن "الألقاب والكني الشعبية الساخرة في عصر سلاطين المماليك"، حيث تعرض فيه لمجموعة من الألقاب الساخرة التي استخدمتها العامة في مصر للسخرية من بعض الشخصيات أو الأمراء، والتي تعكس قدرة الشعب المصري علي استخدام النكتة أو الكني الساخرة لتجميل واقعه المرير أو لإدخال الضحكة إلي القلوب التي اشتاقت إليها في ظل وجود بعض الحكام من ذوي الشوكة القوية. وقد ختمت دراستها بجدول حصرت فيه كل الألقاب والكني الساخرة بكل أنواعها، طوال عصر سلطنة المماليك، سواء الأولي أو الثانية.

وتقدم الدكتورة نريمان عبد الكريم بحثاً قيماً عن "السياسة المالية للفاطميين بين النظرية والتطبيق"، وهو من البحوث الهامة في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لمصر الإسلامية، حيث ترصد فيه مؤشر الحياة الاقتصادية في مصر الإسلامية في ظل القرارات والمراسيم الصادرة عن الخلافة الفاطمية وموقعها من التنفيذ.

ويأتي آخر البحوث المقدمة بالعربية للدكتور/ هانئ عبد الهادي البشير بعنوان "المجريون في منطقة الدانوب الأوسط وحملاتهم علي مملكة الفرنجة ٨٩٦-٩٥٥م"،

حيث يرصد فيه جهود المجيار العسكرية في محاولاتهم فتح آفق جديدة لهم في الأراضي الألمانية، والتي يري أنها كانت فرنجية الطابع ، وقد انتهت هذه الجهود العسكرية بموقعة ليخفيلد عام ٩٥٥، التي تعد حداً فاصلاً في تاريخهم في منطقة الدانوب الأوسط. وقد رصد الباحث التحولات الجيوسياسية للمجيار منذ خروجهم من منطقة أتل كوزو إلي مورافيا العظمي، والتحديات التي واجهتهم هناك.

أما عن البحوث الأجنبية التي تضمنها هذا العدد، فتتسم جميعها بالثراء والقيمة التاريخية الرفيعة. فقد قدم أ.د. ديفيد نيقول، من إنجلترا، دراسة جادة عن "البحرية الإسلامية في المحيط الأطلنطي"، في العصور الوسطي؛ وقد دعم دراسته ببعض الصور والأشكال البحرية.

أما الأستاذة فلورا فافيا، من اليونان، المتخصصة في تاريخ الرياضيات، فقد قدمت بحثاً قيماً عن "فلسفة الرياضيات اليونانية وتأثيراتها علي تطور الحضارة العربية وعصر النهضة". وفي هذا البحث قدمت لنماذج عديدة من الرياضيين اليونانيين مقارنة بالرياضيين المسلمين والأوربيين من عصر النهضة الذين تأثروا بهم، مع بعض الأشكال واللوحات التاريخية.

وتقدم الدكتورة ايرينا فدوفتشنكو، من أوكرانيا، دراسة رائعة، كانت قد تقدمت بها إلي "المؤتمر الدولي الثاني لآثار وتاريخ البحر الأسود"، الذي عقد في تركيا في الفترة من ٥-٩/٩/٢٠٠١، وهو بعنوان "أشكال الرقصات المرسومة علي فازات البحر الأسود في القرن الرابع "، ودعمت دراستها بمجموعة كبيرة من أشكال الفازات التي تعكس أشكال الرقص وأنواعه وأوضاع الراقصين ، التى عثر عليها فى أحد المواقع الأثرية البيزنطية، في القرن الرابع.

ويقدم الدكتور/ طارق منصور، من مصر، بحثاً جاداً كان قد شارك به أيضاً في أعمال "المؤتمر الدولي الثاني لآثار وتاريخ البحر الأسود"، الذي عقد بتركيا في الفترة من ٥-٩/٩/٢٠٠١، بعنوان "الوجود التركي في القوقاز والسهوب: شهادة قسطنطين السابع"، ففي هذا البحث يتناول بالدراسة والتحليل رواية قسطنطين بورفيروجنيتوس عن أصول المجيار، ويرصد تحركاتهم من الشرق إلي المناطق

الغربـية للاستبس، في منطقة ليبيديا ثم منطقة اتل كوزو. ويستخدم الباحث في دراسته عـدداً كبـيراً من المصادر البيزنطية والفارسية والعربية واللاتينية لإلقاء الضوء علي رواية قسطنطين السابع لإثبات قيمتها التاريخية بالنسبة لتاريخ المجيار الباكر.

ولـم يفـت إدارة الحولـية أن تقدم عدداً من عروض الكتب والرسائل العلمية الجـادة فـي تـاريخ العصـور الوسطي والتاريخ الإسلامي، قدم لها خيرة من شباب الباحثيـن المصريين والعرب منهم الدكتور/ محمد مؤنس عوض، ، والدكتورة/ نجلاء حامد، والأستاذ/ محمد نصر، من مصر؛ والدكتور/ أحمد المحمودى، والدكتور/ محمد تضـغوت، من المغرب، وهي محاولة للوقوف علي أحدث الدارسات التاريخية في هذا الحقل، ليفيد منها الباحثون والدارسون.

ولا يسـع هيـئة تحريـر الحولية في نهاية هذه الكلمة إلا أن تشكر الدكتور/ طـارق منصور، نائب رئيس تحرير الحولية، على الجهد الكبير الذي قام به في متابعة أعمال "السمنار" ودأبه وصدق عمله وتفانيه في جمع هذه المادة العلمية التي ضمها هذا العـدد مـن الحولـية، ومباشرة أمور الطباعة بدقة بالغة، فله من إدارة السمنار وهيئة تحرير الحولية كل الشكر والتقدير ودوام التوفيق.

وانـه مما يسعد أمانة السمنار وهيئة تحرير الحولية بالغ السعادة أن تتلقي كل الملاحظـات والمقـترحات التـي تتناول الحولية بالنقد العلمي الهادف وصولاً بها إلي مكانة علمية مرموقة نرتجيها وإليها نسعي.

هيئة تحرير الحولية

أولاً: القسم العربى

أ. الدراسات والبحوث

رأفت عبد الحميد

مشكلة الآداب التي انطفأت

اسحق عبيد

مصر

في الخامس والعشرين من يونيو الماضي انتقل إلي جوار ربه الأستاذ الدكتور رأفت عبد الحميد محمد عميد كلية الآداب جامعة عين شمس وأستاذ تاريخ العصور الوسطي المرموق بها. وأصيب الأهل والخلان والمريدون في كل الأروقة العلمية بما يشبه الذهول من هول الصدمة، فلقد رحل هذا العالم النبيل دون وداع فجأة، إذ كان حتى ليلة رحيله يعمل في بيته الصغير وحبه الأول والأخير – كلية الآداب – حتى الرابعة بعد الظهر، دون كلل أو ملل، رغم أننا كنا نتوسل إليه دوماً أن يرفق بنفسه ويأخذ فسحة من التقاط الأنفاس، ولكنها همة ابن النيل الأصيل الذي يضع الواجب والصالح العام فوق كل اعتبار، ويغالب الإرهاق والعرق بضمير لا يعرف الكسل أو التراخي، وكنت كلما عاتبته علي ذلك يذكرني برؤية العلامة عبد الرحمن بن خلدون بأن للبشر أعمارا كأعمار الأمم والحضارات، وإن هي طالت أو قصرت "فلكل أجل كتاب".

كان رأفت عبد الحميد قدوة حسنة ليس فقط لتلاميذه ومريديه وإنما لكل زملائه والعاملين معه علي مختلف المستويات العلمية والإدارية، ولا نتحدث عن تواضعه الجم وعفة لسانه، ونظافة القلب واليد جميعاً، فهي أمثولة في كل دروب جامعة عين شمس.

لقد عرفته معيداً، فمدرساً مساعداً، فأستاذاً، فوكيلاً للكلية، ثم عميداً لها، وطوال هذه السلسلة التاريخية الطويلة بقي "صاحبي" ورفيق عمري هوهو، متسقاً مع ذاته، دائم الابتسامة، شديد الإيمان بالله عندما شرف كرسي العمادة به منذ سنوات أربع ازداد تواضعاً علي تواضعه، وتعففاً علي تعففه، كل هذا ولم يعرف قلمه السكون، فلقد ظل وسط هذا الزحام الإداري يبدع وينتج ليثري المكتبة العربية بفكره وأدبه وفلسفته وأسلوبه الفريد.

تخصص د. رأفت منذ وقت باكر في الشخصية المصرية وعبقرية مصر، التي حافظت علي هويتها وذاتيتها، رغم عوادي الزمن وتحرشات الطامعين، فلم تهتز أرض الكنانة من هجمة ذي القرنين أو حرائق قيصر، وإنما استأنست هذا وذاك، حتى صار في الإمكان أن نقول:" في مصر يصبح الفاعل مفعولاً به،". ولا غرابة في هذا، فأرض النهر الخالد هي فجر الضمير، وساحة الحضارة، وهي من قبل ومن بعد البوتقة التي تنصهر بداخلها كل التيارات الوافدة من شرق أو غرب أو من شمال أو جنوب!

موسوعة حضارية تاريخية

ومن يقلب في مؤلفات رأفت عبد الحميد يجد نفسه أمام موسوعة حضارية تاريخية، تضم بين دفتيها: عالم حوض البحر الأبيض المتوسط، أثينا وروما، مدرسة الإسكندرية، بيزنطة ومدينة مدائنها القسطنطينية، ومن خلال هذا وذاك نلتقي بشوامخ الفكر والفلسفة في العالم القديم ثم العصر الوسيط، وهم عمد الحضارة في تقديره الواعي، جنباً إلي جنب مع أهل السياسة والحكم، وفي هذا السجل الحافل نلتقي وجهاً لوجه مع عمالقة العالمين القديم والوسيط. ولرأفت عبد الحميد موهبة فذة في رسم صور شخصياته، فهو أقرب إلي الفنان التشكيلي في إبراز ملامح أبطال رواياته: فهنالك قيصر، وأوكتافيان، وكليوباترا، وقسطنطين الكبير، وجوليان المرتد، وجستنيان، وهرقل، جنباً إلي جنب مع الأسقف أثاناسيوس بطل مجمع نيقيا اللاهوتي (٣٢٥م). والأنبا أنطونيوس كوكب البرية، وأفلوطين ابن الصعيد معلم الأفلاطونية المحدثة، وأوريجانوس ومعلمه كلمنت السكندري اللذان صالحا بين الفلسفة واللاهوت، وجعلا من مدرسة الإسكندرية منارة للفكر والاستنارة في كل ربوع البحر الأبيض المتوسط، وقبل كل هذا وذاك هناك إيزيس أم الصابرين التي نهلت من منابعها أفروديت وعشتار والأم العظمي (Mater Magna) لحضارات الشرق والغرب جميعاً!

جائزة أحسن كتاب في الفكر

وفي معرض الكتاب الدولي لسنة ٢٠٠١م فاز كتاب الأستاذ الدكتور رأفت عبد الحميد بعنوان "الفكر المصري في العصر المسيحي" بجائزة أحسن كتاب في

الفكـــر، وكرمـــته الأمة المصرية في شخص رئيسها محمد حسنى مبارك في احتفالية معرض القاهرة للكتاب في حفل مهيب جمع صفوة مثقفي ومفكري هذه الأمة المباركة.

وقـــد كـــان لي مع صديقي د. فاروق القاضي، والأستاذة الدكتورة مني مكرم عبـــيد، والأســـتاذ الدكتور ميلاد حنا شرف مناقشة محتوي هذا الكتاب الفذ في سراي الســـادس من أكتوبر، ضمن فعاليات هذا المهرجان الثقافي العظيم، وكان يوماً تاريخياً بمعنـــي الكلمـــة، حيـــث المداخـــلات والتعقيبات، ولكأننا كنا في "مأدبة أفلاطونية" أو "ســـمبوزيوم" كما يقول أهل المعرفة، وكان نجم الجلسة المتألق صاحب الكتاب: رأفت عبد الحميد نفسه.

وكـــان رأفـــت عبد الحميد – عاشقاً للتراث العربي الإسلامي، ولا غرابة في ذلـــك فهو ابن لعالم جليل من علماء الأزهر الشريف هو المغفور له الشيخ عبد الحميد البسطويســـي، وكـــان الجمـــيع يرجعون إليه لأخذ رأيه في الثقات من المؤرخين، من الطـــبري إلـــي ابـــن الأثـــير، إلي ابن خلدون، إلي المقريزي، وصولاً إلي الشيخ عبد الرحمن الجبرتي في العصر الحديث.

ومع أنه كان متخصصاً في تاريخ العصور الوسطي، والعصر البيزنطي علي وجـــه التحديد (٣٣٠ – ١٤٥٣م)، إلا أن رؤيته للتاريخ كانت رؤية المؤرخ الفيلسوف الـــذي يـــنظر، إلي التاريخ العالمي نظرة شمولية (جشتالت Gestalt)، بحيث لا تفهم الإقليمـــية أو المحلـــية إلا مـــن خـــلال الإطلالـــة الأوسع علي خريطة العالم الكبرى، والـــتحول مـــن عصـــر إلـــي عصر عند المؤرخ رأفت عبد الحميد لا تحدده الأحداث السياســـية الكـــبرى بقـــدر ما ترسم معالمه الأفكار والفلسفات السائدة، وعلي هذا فإن تواريـــخ الفقيد الجليل تواريخ في الحضارة وليست أرشيفاً لمزمنات أو حوليات أو أسر حاكمة أو دويلات تسقط وأخري تقوم!

رؤية موسوعية

ومـــن واقـــع هـــذه الرؤية الموسوعية جاء اختيار د. رأفت عبد الحميد – إلي جانـــب عمـــادة كلية الآداب جامعة عين شمس – مديراً لمركز بحوث الشرق الأوسط بجامعـــة عين شمس، ومديراً لمركز الحضارات المعاصرة بجامعة عين شمس أيضاً،

وعضـــواً بلجـــنة الـــتاريخ بالمجلس الأعلى للثقافة، وعضواً باتحاد المؤرخين العرب، وعضـــواً بالجمعـــية المصرية للدراسات التاريخية، وأميناً عاماً لسمنار التاريخ الوسيط والإسلامي بجامعة عين شمس، ورغم كل هذه الأعباء التي لا يطيقها إلا الأبطال، فإنه مـــا كـــان يـــتأخر دقيقة واحدة عن مواعيده ومسئولياته، وإني أعلم عن قرب أنه كان يقضي معظم أيام الدراسة في جنبات كلية الآداب لا يهدأ.

ومـــريدوه ينتشـــرون فـــي كـــل ربع من ربوع الدلتا وفي كل نجع من نجوع الصـــعيد، فله العشرات بل المئات من التلاميذ الأوفياء، من خلال إشرافه العلمي علي رســـائلهم فـــي الماجســـتير والدكتوراه، وهم الآن أعضاء لهيئات التدريس في مختلف جامعات مصر من أسوان إلي الإسكندرية.

وللعـــالم الفقـــيد عشرات من المؤلفات والبحوث التي عالجت أهم القضايا في الـــتاريخ البيزنطـــي ومصادره، وفي تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، وفي ملامح الشخصية المصرية عبر العصور اليونانية والرومانية والبيزنطية.

ونذكر هنا بعض هذه المؤلفات علي سبيل المثال لا الحصر:

- الدولة والكنيسة، أربعة أجزاء، القاهرة ١٩٨٢ – ١٩٨٤.
- العالم البيزنطي (ج.هسي) ترجمة وتعليق، القاهرة ١٩٨٢.
- الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب، القاهرة ١٩٨٣.
- السمو البابوي بين النظرية والتطبيق، القاهرة ١٩٨٥.
- بيزنطة بين الفكر والدين والسياسية، القاهرة ١٩٩٧.
- الفكر المصري في العصر المسيحي، القاهرة ٢٠٠٠/٢٠٠١.

لقـــد كـــان علم رأفت عبد الحميد بريئاً من الجهل، وكان مسلكه عرياً من الرياء، وكان قوله موشحاً بالصواب، وكانت حاله دائرة مع الحق.

كانـــت غايـــة رفـــيق عمري في هذه الدار العاجلة معقودة بالأمثل فالأمثل، وكان طـــوال عمـــره مزدانا بثوب العفة والعصمة، ولم يكن صاحبي ممن سها عن باطن ما لـــربه علـــيه بظاهر ما له عنده، ولهذا فإن الله سبحانه وتعالي قد أخذ بيده، وآواه إلي كنف نعمته، ونقله حميداً إلي منازل رحمته.

دور الفقهاء في مواجهة الخطر الصليبي بالأندلس

إبراهيم القادري

المغرب

يجمع الدارسون علي أن الحروب الصليبية لم تقتصر علي المشرق العربي فحسب، بل امتدت لتشمل الغرب الإسلامي وخاصة بلاد الأندلس، فإذا كانت التحرشات الصليبية قد بلغت أوجها في المشرق العربي بعد احتلال بيت المقدس سنة ٤٩٢هـ (١٠٩٩م)[1]، فإنها لم تكن تقل خطورة عنها في تلك المنطقة النائية من العالم الإسلامي، وقد ترجم موقف البابوية ذلك عملياً قبل تاريخ هذا الاحتلال بسنوات حينما انبرت بكل ثقلها وسلطانها الديني لتحفيز النصارى الأسبان الذين تطوعوا للمشاركة في الحروب الصليبية بالمشرق علي تغيير وجهتهم نحو الجبهة الأسبانية، ولضمان نجاح هذا التوجه، شرع البابا في منح صكوك الغفران لكل من هب من المسيحيين لقتال المسلمين بالأندلس، وجند الرأي العام المسيحي الأسباني لقبول هذه السياسة[2].

من البديهي أن تخلق هذه الدعوة الصليبية المتعصبة ردود فعل قوية لدي الرأي العام الإسلامي بالأندلس، لذلك لم يكن من قبيل الصدفة أن تبرز قوات اجتماعية مختلفة لوقف هذا التحدي الصليبي ومن بينها العلماء الأندلسيون الذين اتخذوا مواقف متباينة، ولكنها تصب كلها في مقاومة الزحف الصليبي بالغرب الإسلامي، والأندلس علي الخصوص.

وقبل استعراض مختلف هذه المواقف، تستلزم المنهجية السليمة عرض أوضاع الأندلس خلال هذه الحقبة للكشف عن الحالة المتردية التي تمخض عنها تذؤب الخطر الصليبي وما نجم عن ذلك من ردود فعل العلماء الأندلسيين، فما هي الوضعية التي أفرزت هذا التحدي الصليبي ببلاد الأندلس؟

---

[1] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، نشر المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة، ج٥، ص١٤١ ؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر طبعة مصر، ط١، الطبعة الحسنية، ص٢١١.

[2] شارل اندري جوليان: تاريخ أفريقيا الشمالية، الترجمة العربية. طبعة ليبيا- تونس، ١٩٧٨، ج٢، ص١١١.

سياسياً، لم تكن الأنـــدلس خلال النصف الأول من القرن الخـــامس الهجري (١١م) فـــي وضعية تحسد عليها، فالخلافة الأموية في القرن الرابع جسدت آخر تجربة وحدويـــة، وكان سقوطها إنذارا بظهور عصر الطوائف أو ما تسميه بعض المصادر[٣]، ب (أيـــام الفـــرق) التي أصبحت فيها الأندلس نهباً لكل مغامر أنس من نفسه القوة، ولا غـــرو فقـــد تقاسمتها شرذمة من المتربصين بالسلطان، ممن آثروا الاستبداد بنواحيهم، فأسسوا كيانات مهترئة وصل عددها إلي ثلاثة وعشرين دويلة[٤].

ولدينا شهادة معاصرة تؤكد حالة التمزق الذي بلغ أوجه في هذه المرحلة، أنها شـــهادة الفقيه ابن عبد البر[٥] الذي عايش أحداث هذه الحقبة فكتب بهذا الخصوص قائلاً: (وانقطـــع ملك بني أمية بعد الأربعمائة بأعوام يسيرة، فصار كل من غلب علي موضع ملكـــه واستبعد أهله، وكثر فيها الأمراء، فضعفوا وصاروا خولاً للنصارى يؤدون إليهم أضعاف ما كان يأخذون منهم اليوم).

ويورد الأمام عبد الله بن بلكين[٦] أخر أمراء غر ناطة، في مذكراته التي تعتبر وثيقة هامة بحكم معاصرته للأحداث، نصاً يشير إلي هذا الانقسام وما تمخض عنه من أزمـــة سياسية وانهيار كامل للسلطة المركزية بقوله: (وبقي الناس لا أمام لهم، فتنافسوا علـــي الدنـــيا، وطمـــع كـــل واحد في الآخر، وكذلك لا يصح أمر بين نفسين، فكيف بســـلاطين كثـــيرة وأهـــواء مختلفة)، ولعل اتخاذ ألقاب خلافية متعددة من طرف أمراء الأندلس المتشرذمين يعكس عمق هذه الأزمة[٧].

---

[3] ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، تحقيق أحمد مختار عبادي. طبعة مدريد، ١٩٧١، ص٧٨.

[4] عـــن أمـــراء الطوائف والأسرات التي حكمت مختلف الإمارات الأندلسية، انظر: زامباور: معظم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، جامعة فؤاد الأولي سنة ١٩٥١، ج١، ص٨٦ وما بعدها.

[5] القصد والأمم في التعريف بأصول انساب العرب والعجم، طبعة القاهرة ١٣٥٠ هـــ ص٣٥.

[6] كتاب التبيان، نشره ليفي بروفنسال، طبعة القاهرة، ١٩٥٥، ص١٨.

[7] المراكشـــي: المعجب، طبعة البيضاء، ١٩٧٨، تحقيق سعيد العريان ومحمد العلمي، (الطبعة٨) ص١٠٥ وقد أورد شعر أبي الحسن بن رشيق مستهزئا بهذه الألقاب الخلافية:

مما يزهدني في أرض أندلس — سماع مقتدر فيها ومعتضد

ألقاب مملكة غير موضعها — كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

زد علـــي ذلك أن الدويلات الطائفية لم تكن تتوفر علي أبسط مقومات الدولة، إذ اتســمت بأسســها الهشة، وافتقرت إلي قاعدة تضمن لها كياناً سياسياً صلباً له وجود اجتماعي مستقل.

كمـــا أن صـــغر مساحتها وقلة عدد سكانها، وطبيعة حكومتها التي تفتقد إلي الشـــرعية، وعـــدم توفرها علي قوة عسكرية للدفاع عن حدودها[٨]، كل ذلك جعل منها كـــيانات رخـــوة شـــبيهة بالدولـــة الإقطاعية[٩]، لذلك ظلت عاجزة عن إنجاز أي دور وحـــدوي، كمـــا اتســـمت بالضـــعف والوهن حتى (ذل الرئيس والمرؤوس، وافتقرت الرعية، وفسدت أحوال الجميع بالكلية، وزالت من النفوس الأنفة الإسلامية[١٠]).

وممـــا زاد وضـــعية هذه الدويلات تأزماً، إغراق نفسها في صراعات دموية زادت من هشاشتها، وهو ما عبر عنه أحد المؤرخين[١١] تعبيراً رائعاً بقوله: (وجعل الله بيـــن أولـــئك الأمـــراء ملوك الطوائف من التحاسد والتنافس والغيرة ما لم يجعله بين الضرائر المترفات، والعشائر المتغايرات).

اســتمرت هـــذه الحالة المؤسفة ما يربو عن الثمانين سنة، كلها تفكك خطير، وانحـــلال سياســـي واجتماعـــي عميق، وظل التناحر لغة التخاطب السائدة بين ملوك الطوائـــف الذيـــن تناســـوا مســـؤولياتهم القومية، بل فضل معظمهم الاستعانة بالممالك النصـــرانية حفاظـــاً علـــي عروشهم الواهية، لذلك لم يتورعوا عن سفك الدماء ومقاتلة إخوانهـــم العرب، يقول ابن الكر دبوس[١٢] في هذا الصدد: (وكان أسر شيء عند ألفنش (ألفونســـو السادس) Alfonso XI فتنة تقع بين الولاة من المسلمين (إشارة إلي أمراء

---

8 بن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري، طبعة قطر، ١٩٨٧، ص ١٠٣-١٠٤.

9 عنان: دول الطوائف منذ قيامها حتي الفتح المرابطي، طبعة القاهرة، ١٩٦٩، ص٤١٨.

10 ابن الكردبوس: م.س.ص٧٧.

11 ابن الخطيب: أعمال الأعلام – القسم الخاص بالأندلس – تحقيق بروفنسال، طبعة بيروت، ١٩٥٦، ص٢٤٤ ولمزيد من التفاصيل حول صراعات أمراء الطوائف أنظر: عنان:م.س. ص٣٥ وما بعدها.

12 تاريخ الأندلس: ص٨٢.

الطوائــف) فيعيــن هــذا علي هذا، وهذا علي هذا فيتجلبب بذلك أموالهم طمعاً من أن يعجزوا فيظفر بملك الجزيرة كلها).

لــم يكن هذا الواقع السياسي المهترئ سوي انعكاس أمين للوضع الاقتصادي المــتدهور الــذي أفرزته اعتداءات ألفونسو السادس الذي شكل قوة ضغط علي ملوك الطوائــف، حــتى جعلهــم (فــي المعصــرة) علي حد تعبير دوزي Dozy[١٣] وذلك باستنزاف مواردهم المالية عن طريق سن ضرائب سنوية تدعي (بارياس) [١٤] Parias ازدادت مقاديرها بشكل مروع إلي درجة أن بعضهم عجز عن أدائها[١٥]، فكانت جولاته العســكرية تعــود كل مرة محملة بالضرائب[١٦]، وظل الأمر علي هذا النحو حتى قدوم المرابطين[١٧].

خلفــت هــذه السياسة الجبائية نتائج متناقضة علي المستوي الاقتصادي، ففي الوقــت الــذي امــتلأت خزائن ألفونسو السادس بموارد إضافية (حوالي ٤٠ كلغ من الذهب كل سنة) تفاقمت الوضعية الاقتصادية بالأندلس، وازدادت تدهوراً وانهيار[١٨].

وســاهمت الحــروب بين زعماء الإمارات الطائفية في أنهاك الزراعة ونهب المحاصــيل، وفــي هــذا الصدد يقول ابن بسام[١٩]: (فكانت نيران الفتنة بينهم مشتعلة، والرعــية مهملــة، لأن جملــة غلاتهم وجميع اعتمالاتهم تتلف بأيدي تلك الطواغيت)، وبالمــثل فــإن عملــيات الســلب والنهــب التي قامت بها القوي النصرانية بين الفينة والأخرى، أسفرت عن خسائر فادحة[٢٠]، يضاف إلي ذلك كثرة المغارم التي ثبطت همة

---

13 DOZY: *Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu' à la conquête de L' Andalousie par les Almoravides*, Leyde, 1932, Tome 3, p.11

14 FOSSIER: *Enfance d'Europe: aspects économiques et sociaux*, Paris, 1982,Tome 1, p. 254.

15 ابن بلكين م.س.ص ٧٦.

16 ابن خلدون: كتاب العبر، تحقيق خليل شحاتة، طبعة بيروت، ١٩٨١،ج٦،ص٢٤٨.

17 القلقشندي م.س. ج٥، ص ٢٤٩ ابن الكرديوس: م.س.ص ٧٧.

18 FOSSIER: op.cit, p. 127.

19 الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. تحقيق إحسان عباس، طبعة ليبيا – تونس، ١٩٨١ ق ٢مج١، ص٢٥٤.

20 FOSSIER: op. cit. , p. 254.

المزارعيـــن (فضـــعف الاعتمار وخلت الديار[٢١])، وفي ذلك إشارة واضحة إلي انهيار قـــوة الإنـــتاج الرئيسية في الأندلس وهي الزراعة، مما يعني تصدع البنية الاقتصادية برمتها.

وممـــا زاد الطين بلة أن أهل الذمة، وخاصة اليهود استبدوا بالسلطة والنفوذ، وهيمـــنوا علـــي المناصب العليا في الآمرات الطائفية، مما آثار حفيظة الرعية وجعل السخط يتأجج في صدورها ضد حكامها وسياساتهم المتخاذلة[٢٢].

حـــدث هـــذا فـــي الوقـــت الذي تعاظم شأن النصارى، وجنحت ممالكهم نحو الـــتوحد، مدعمين من قبل الكنيسة البابوية والرهبان الكولونية، لذلك وجهوا كل طاقاتهم نحـــو دويـــلات الطوائف، ولبلوغ هذه الغاية نهجوا خطة تعتمد علي حرب الاستنزاف وتشـــتيت الصفوف، وهو ما عبر عنه الفونسو السادس بقوله: (ولكن الرأي كل الرأي تهديـــد بعضـــهم ببعض، وأخذ أموالهم أبدا حتى ترق وتضعف، ثم هي تلقي بيدها إذا ضـــعفت)[٢٣]، وقـــد تمخـــض عن هذه الخطة سقوط مدينة طليطلة[٢٤]، الذي جاء ضربة قاصـــمة للدويـــلات الطائفـــية، ودليلاً واضحاً علي عجزها عن وقف الزحف الصليبي المتفاقم.

من البديهي أن تساعد هذه الأوضاع المتردية علي احتداد شوكة الصليبيين، إذ أصـــبح الفونســـو الســـادس إذا استعرنا تعبير أحد الباحثين[٢٥]، (من أكبر الوجوه) التي ستضـــاعف الـــزحف الصـــليبي، ولعل تلقيب نفسه بذي الملتين[٢٦]، يزكي هذا المعني، وتـــنهض تحدياتـــه العسكرية حجة علي عزمه استرجاع الأندلس برمتها، وحسبنا أنه دوخ الإمـــارات الطائفـــية التي شقتها جيوشه من الشمال إلي الجنوب حتي وصلت إلي

---

21 ابن الخطيب، م.س.ص ٢٤٤.

22 ابن الكرديوس: م.س.ص: ٧٨ – ابن بسام، م.س.ق١ ،مج٢، ص٧٦٦.

23 ابن بلكين، م.س.ص ٧٣.

24 ابن بسام، م.س.ق٤، مج١ ص ١٦٣.

25 CALMETTE: *Histoire d'Espagne* .,Paris, 1947, p. 80.

26 DOZY: op. cit , p. 121.

فرضـــة المجـــاز من جزيرة طريف تحت سمع أمراء الطوائف وبصرهم[٢٧]، بل هؤلاء فضلوا ملاطفته بالأموال والهدايا، والانغماس في ملذاتهم (بشرب الخمور واقتناء القيان وركـــوب المعاصـــي وسماع العيدان)[٢٨] دون أي محاولة لإقامة جبهة متحدة لمواجهة الخطـــر المشترك[٢٩]، وتشهد الرسالة التي بعثها الفونسو السادس إلي يوسف بن تاشفين أمـــير دولـــة المرابطيـــن بالمغرب الأقصى قبيل موقعة الزلاقة SACRAJAS (سنة ٤٧٩هـــ) علي هذه الوضعية المتخاذلة[٣٠].

وتبلور التحدي الصليبي في المواقف التي تبنتها البابوية في هذا الصراع، ففي ســـنة ٤٧٦هـــــ (١٠٦٣م)، قـــرر البابا الاسكندر الثاني Alexander II منح صك الغفران لكل من يشد الرحال لقتال المسلمين في الأندلس،[٣١] وفي نفس المنحي اتفق مع ملك قشتالة فرناندو الأول Fernand I أن يصدر بركته البابوية لكل من يستجيب لهذه الرغـــبة الصـــليبية، فهب كثير من فرسان غرب أوربا للمشاركة فيها طمعاً في النهب والحصول علي المغانم.

ولمـــا عقد البابا أو ربان الثاني مؤتمر (كليرمون) Clermont لإذكاء حماس الأمـــم النصرانية من أجل خوض غمار الحروب الصليبية، أراد (برنا رد) Bernard ومعـــه عدد من الأساقفة الأسبان التوجه إلي المشرق لإفراغ طاقتهم القتالية، لكن البابا حـــرم علـــيهم ذلك، ووجههم للقيام بهذه المهمة في الأندلس التي كانت لا تقل في نظره أهمية عن أراضي المشرق[٣٢]، وبذلك أصبحت (خط الصدام الأول)[٣٣] في هذه الحروب التي أصبحت تشرف عليها روما وتوجهها كما توجه حروبها في الأراضي المقدسة[٣٤].

---

[27] ابن أبي زرع: روض القرطاس، الرباط، ١٩٧٣، ص١٤٣.

[28] ابن الكردبوس: م.س.ص٧٧.

[29] عبر الأمير عبد الله بن بلكين عن ذلك في مذكراته بقوله: (فنحن لم يعن بعضنا بعضاً علي الرومي) انظر: التبيان، ص١٦٦.

[30] انظـــر نص الرسالة عند الحلبى: كتاب حسن التوسل فى صناعة الترسل، تحقيق أكرم عثمان، طبعة بغداد، ١٩٨٠، ص ٧٦.

[31] شارل اندري جوليان:م.س.، ج٢، ص١١١.

[32] أشباخ: تاريخ الاندلس علي عهد المرابطين والموحدين، الترجمة العربية. طبعة تونس – ليبيا، ١٩٧٨، ص ١٢٤.

وتجلت الروح الصليبية كذلك في دساتير بعض الدول المسيحية، ولا غرو فقد تضـــمنت القوانين التي صادق عليها المجلس الملكي في البرتغال قانوناً ينص علي أن الذيـــن يموتون في سبيل النصرانية يصبحون أعضاء في طبقة النبلاء، وأن صفة النبل ترفع عن كل شخص يفر إلي أراضي المسلمين[٣٥].

في هذا المناخ، ازداد تحدي الممالك النصرانية، فأبن الخطيب[٣٦]، يذكر أنه بعد احـــتلال الفونسو السادس مدينة طليطلة، عرض عليه أنصاره أن يلبس التاج، فأرجأهم إلي أن يستولي علي قرطبة، بل (طمع في الاستيلاء علي الجزيرة كلها[٣٧]).

إلـــي جانب شبح ألفونسو السادس، ظهرت شخصية عسكرية أخري زادت من متاعب مسلمي الأندلس، ألا وهي شخصية السيد الكنبيطور Campiodor الذي تحول من لص محترف[٣٨]، إلي قائد نجح في قيادة جماعة من الفرسان المسيحيين المغامرين، وأذاق الأندلســـيين الهـــزائم المـــرة، حتى أن ابن بسام[٣٩] وصفه بأنه كان (عقالا وداء عضالا له في الجزيرة وقائع)، وقد راودته أحلام استرجاع الأندلس برمتها[٤٠].

نســـتخلص ممـــا تقدم، أن الأندلس عرفت خلال القرن الخامس الهجري تحدياً صـــليبياً لا يقل خطورة عما شهده المشرق الإسلامي، فما هو موقف العلماء الأندلسيين من هذا التحدي؟

---

33 ســـعدون نصر الله: دولة المرابطين في المغرب والأندلس: عهد يوسف بن تاشفين، طبعة بيروت، ١٩٨٥، ص١٠٣.

34 DESCOLA: *Histoire de l' Espagnė chretienne*, ed. Robert Leffont., p. 107.

35 أشباخ:م.س.ص ٢٤٩.

36 أعمال الأعلام – القسم الأندلسي، ص٢٤٤.

37 مؤلف مجهول: الحلل الموشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، طبعة البيضاء، ١٩٧٩، دار الرشاد الحديثة، مطبعة النجاح الجديدة، ص٣٨.

38 عبد الجليل الرضا الراشد: علاقات دول الطوائف في الأندلس بالمرابطين (أطروحة جامعية مرقونة) نوقشت بجامعة عين شمس بالقاهرة،ص٧٧.

39 الذخيرة، ق٣، مج ١، ص٩٥.

40 نفسه، ص ٩٩، ويقول في هذه الرواية: (حدثني من سمعه يقول وقد قوي طمعه ولج به جشعه: علي رذيق فتحت هذه الجزيرة ورذريق يستنقذها).

بـــرزت مواقف هذه القوة الاجتماعية بوضوح تجاه التحديات الصليبية، وأن لم تكـــن منسجمة بكيفية تامة، فقد استغلوا فرصة إلقاء دروسهم ومحاضراتهم للحظ علي الجهـــاد، وأذكـــاء الحمية الدينية والأنفة الإسلامية، كما تجلت مواقفهم أيضاً من خلال السـفارات والوسـاطات بيـن أمـراء الطوائـف، ودعوتهم للتوحد والتصدي للخطر الصـليبي، أو من خلال مساهمتهم في إسقاط الحكام المتخاذلين أو المشاركة الفعلية في معارك الجهاد والاستشهاد فيها.

وعلي العموم يمكن رصد مواقف العلماء من خلال الأدوار التي اضطلعوا بها لمجابهة التحديات الصليبية علي الشكل التالي:

١- الوعظ والدعوة لتوحيد الجبهة الإسلامية من أجل الجهاد.

لا جـــدال فـــي أن النزاعات التي شجرت بين أمراء الطوائف، وما تلاها من مواقـــف متخاذلة، كان لها وقع سيئ علي نفسية بعض العلماء الذين بادروا غلي الدعوة لنـــبذ الخلافـــات بغية تشكيل جبهة إسلامية متراصة قادرة دابر الصليبيين، والتصدي لمشاريعهم التوسعية.

وقـــد بـــدأت هذه الدعوة التوحيدية منذ سقوط طليطلة سنة ٤٨٧هـــ، وتزعمها العلامـــة الفقـــيه أبـــو الوليد الباجي (٤٠٣ – ٤٧٤ هـــ) الذي جال بلاد الأندلس طولاً وعرضاً، داعياً إلي وحدة الصفوف، ومحذراً من عواقب الفرقة والنزاع[41].

وتتضارب المصادر حول ما إذا كان هذا العالم قد قام بمبادرته من تلقاء نفسه أم أن حـــاكم بطليوس المتوكل بن الأفطس قد ندبه إلي ذلك. فأبن الآبار[42] يؤكد الرواية الأخيرة بقوله: (ولما عظم عيث الطاغية أدفونش بن فردنلند، وتطاول إلي الثغور، ولم يقـــنع بضـــرائب المال، انتدب للتطوف علي أولئك الرؤساء القاضي أبو الوليد الباجي يـــندبهم إلي لم الشعث ومدافعة العدو، وكلهم يصغي إلي وعظه). بينما ذهب مؤرخون

---

41 السامرائي: الدعوة لتوحيد الأندلس في أيام الطوائف، مجلة زالكو السليمانية، نيسان، ١٩٧٧، ص٨٢ – ٨٣.

42 الحلة السيراء: تحقيق حسين مؤنس، طبعة القاهرة، ١٩٦٣، ج٢، ص٩٨.

أتخـــرون[43] إلي تبني الرواية الأولي، فأكدوا أن الباجي قام بدعوته التوحيدية الوعظية مـــن تلقاء نفسه، ونحن نرجح الرواية الأولي لاجماع المؤرخين عليها وتفرد ابن الآبار وحـــده بذكـــر الثانية، كما أن الرواية الأولي أقرب إلي سياق المنطق التاريخي، إذ لا يعقـــل أن يســـعي أمير تمت أدانته من قبل كافة المصادر لمساهمته في انقسام الأندلس إلي المطالبة بتوحيدها!.

وممـــا يســـترعي الانتباه، أن دعوة الفقيه الباجي بدأت مباشرة بعد عودته من المشـــرق العربي، مما يعكس وحدة الظاهرة في التاريخ العربي، والظروف المشتركة التي استلزمت التصدي للخطر الصليبي في المشرق والمغرب علي السواء.

ورغـــم أن جهـــوده لم تسفر عن نتيجة عملية، فقد نجح علي الأقل في وضع أمـــراء الطوائـــف أمـــام الأمر الواقع، وأشعرهم بمسؤولياتهم وضرورة نبذ خلافاتهم، وتوحـــيد كلمتهم لمجابهة الخطر النصراني، يقول المقري[44] بهذا الخصوص: (ولما قدم مـــن المشـــرق إلي الأندلس بعد ثلاثة عشر عاماً، وجد ملوك الطوائف أحزاباً متفرقة، فمشـــي بيـــنهم فـــي الصلح وهم يجلونه في الظاهر، ويستثقلونه في الباطن، ويستبدون نزعته، ولم يفد شيئاً فالله تعالي يجازيه عن نيته).

إلـــي جانب أبي الوليد الباجي، برز دور العلامة المحدث أبي حفص عمر بن الحســـن الهوزنـــي الـــذي جســـد بحق نموذج الشجاعة والجرأة والروح النقدية الحرة المســـتقلة التـــي أبـــان عـــنها بعض العلماء الأندلسيين تجاه حالة التمزق التي عرفتها الأندلـــس فـــي عصـــر الطوائف وما نجم عن ذلك من خطر صليبي، حتى أن موقفه الصلب كان وراء اغتياله[45].

---

43 أنظـــر النباهي: قضاة الأندلس (المراقبة العليا). طبعة بيروت ١٩٨٠. ص ٩٥ – ابن الشباط: صلبة السمط (المنشـــور مـــع تـــاريخ ابن الكردبوس) ص٤٦ – ابن بشكوال، الصلة، ق١، ص:٢٠٠ – ابن حلكان: وفيات الأعيان: تحقيق حسان عباس، بيروت (د.ت)، ج٢، ص٤٠٨.

44 نفح الطيب: ج٢، ص٧٧.

45 بن عبود: م.س.ص١٧٥.

ولا يساورنا شك في أن رحلته إلي المشرق العربي جعلته علي مفاسد المجتمع الإسلامي، وعلي الأزمات التي كانت تعصف به، والتمزق الذي صار ينخره، فعاد يحمل في نفسه هم الدعوة للوحدة ورصد صفوف الأمة العربية – الإسلامية.

وبمجرد عودته، التقي بالعلامة أبي الوليد الباجي[٤٦]، وهو لقاء لم تكشف المصادر عما دار فيه من حوار بين الفقيهين، بيد أن تأزم الأوضاع بالأندلس واحتدد شوكة المسيحيين يجعلنا نفترض أن بعض مواضيع الحوار دارت حول مسؤوليتيهما في القيام بدور الوعظ ونصح أمراء الطوائف بتوحيد شبه الجزيرة الأندلسية، وهزم التطلعات الصليبية.

ويخيل إلينا أن سقوط مدينة ببشتر كانت الحدث الأكثر تأثيراً في نفسه، فقد تألم للمذابح والمآسي التي أصابت مسلمي الأندلس، فبعث إلي المعتضد رسالة تفيض بالغيرة والحماس يحضه فيها علي جهاد الكفرة وتحرير المدينة المحتلة[٤٧].

والملاحظ أنه دعم رسالته باستشهادات قرآنية لإضفاء المشروعية الدينية علي جرآته وصراحته، لكن ذلك لم يحل دون دفع الثمن غالياً، فقد امتعض المعتضد لما جاء في الرسالة فقتله بيده[٤٨]، وهو مثال صارخ للتضحيات التي قدمها بعض العلماء خدمة للقضايا القومية ومجابهة التحدي الصليبي.

ومن العلماء الذين قاموا بنفس الدور كذلك عن طريق الدعوة للوحدة واستنهاض الهمم الفقيه ابن عبد البر، نجل الفقيه الكبير أبي عمر يوسف بن عبد البر النمري (ت٤٦٣هـ)، ورغم أسلوب التقية الذي نهجه، ومساندته لجرائم المعتضد[٤٩]، فأن بعض كتاباته جاءت زاخرة بالدعوة إلي الوحدة ورصد صفوف عرب الأندلس أمام الزحف الصليبي[٥٠]، ولا غرو فقد جاء في إحدى رسائله: (ورد كتابك يحض علي

---

46 عياض: ترتيب المدارك ج٣، ص٨٢٥.

47 انظر نص الرسالة في الذخيرة، ق٢، ج١، ص٨٤ – ٨٥.

48 نفسه: ص٨٣.

49 بن عبود: م.س.ص١٧٩.

50 إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين، طبعة بيروت، ١٩٦٢، ص١٧٧.

مـــا أمر الله تعالي من الألفة واتفاق الكلمة وإطفاء نار الفتنة، وجمع شمل الأمة في هذه الجزيرة)[٥١].

وتقـــوم رســـالة ثانية كتبها علي لسان أهل ببشتر قرينة أخري علي دوره في الدعـــوة لوحدة الأندلس لمجابهة الخطر النصراني إذ جاء فيها: (ولو كان شملنا منتظماً وشـــعبنا ملتئماً، وكنا كالجوارح في الجسد اشتبكاً، وكالأنامل في اليد اشتراكاً لما طاش لـــنا سهم ولا سقط لنا نجم... فتنبهوا وقاتلوهم في أطرافكم قبل أن يقاتلوكم في أكنافكم، وجاهدوهم في ثغوركم قبل أن يجاهدوكم في دوركم[٥٢]).

كل هذه القرائن تكشف بالملموس المحاولات الجادة التي قام بها بعض العلماء الأندلســـيين لتوحـــيد الجـــبهة الاسلامية في الأندلس وصد الأخطار الصليبية، فما هي الاختيارات الأخرى التي نهجها العلماء الآخرون؟

٢– فضح أمراء الطوائف ومعارضتهم لتقاعسهم عن رد الأطماع الصليبية:

لعـــل أهم عالم عكس هذا التوجه، الفقية أبو محمد علي ابن حزم أحد فطاحلة علمـــاء القـــرن الخـــامس الهجري، فعلي خلاف بعض العلماء الذين تبنوا مبدأ الواقعية وعـــدم الجرأة للتعبير عن معارضتهم للنظام الطائفي علي الأقل حتي ظهور يوسف بن تاشـــفين، كـــان ابـــن حـــزم أكثر إفصاحا في معارضته المطلقة واللامشروطة لدول الطوائـــف. بـــل طعـــن في شرعية النظام الطائفي معتبراً كل أمير (محارب لله تعالي وساع في الأرض بفساد[٥٣]) كما أدان عصر الطوائف ونعته بعصر الفتنة والغلب[٥٤]، بل عد جميع الأموال المتداولة في هذا العصر غير شرعية كذلك[٥٥].

---

[51] ابن بسام: م.س. نقلا عن السامرائي: م.س. ص٨٧.

[52] إحسان عباس: م.س.ص١٨١.

[53] ابن حزم: رسالة التلخيص، نشرت مع رسائل أخري ضمن كتاب: الرد علي ابن النغريلة اليهودي، تحقيق إحسان عباس، طبعة بيروت (د.ت)، ص:١٧.

[54] جمهرة أنساب العرب، طبعة القاهرة (د.ت)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ص١٠٢.

[55] ابن حزم: رسالة التلخيص، ص١٧٥ وفيها يقول: (وبرهان ذلك أنني لا أعلم لا أنا ولا غيري بالأندلس درهما حلالا ولا ديناراً طيباً).

وبمـــا أن اليهود كانوا قد استولوا علي المناصب العليا في الدويلات الطائفية، وصاروا أصحاب الأمر والنهي، فقد صب عليهم جام غضبه وهاجمهم بعنف، وحسبنا أنه أفرد كتاباً لمجادلة اليهودي ابن النغريلة[٥٦].

٣- إقناع ملوك الطوائف بالاستنجاد بالمرابطين لرد الخطر الصليبي:

كانـــت معارضـــة بعض العلماء لأمراء الطوائف ونظامهم القطري المهترئ العاجــز عن ردع الأطماع الصليبية معارضة خجولة اكتفت بالتلميح واللف والدوران أحـــياناً وبالصمت أحياناً أخري، وذلك بسبب انقسامهم علي أنفسهم، وعدم امتلاكهم قوة عســكرية لتغيير الأوضاع[٥٧]، غير أن عاملين ساهما في بروز معارضتهم بشكل قوي وصـــريح. يتمثل الأول في عجز أمراء الطوائف علي تشكيل جبهة موحدة قادرة علي ردع الخطر الصليبي، بينما يتجلي العامل الثاني في ظهور الأمير المرابطي يوسف بن تاشـــفين علـــي الساحة السياسية، فضلاً عن المساندة الشعبية التي أصبح يتمتع بها هذا الأمير.

انطلاقـــاً مـــن هذه الظرفية الجديدة، بدأ العلماء يبذلون قصاري جهدهم لاقناع حكـــام الأندلس بضرورة الاستنجاد بيوسف بن تاشفين لمواجهة سياسة ألفونسو السادس التوســـعية، خصوصاً بعد أن صار هذا الأخير يلوح باحتلال الأندلس كلها، فأكدوا لهم أن الأمير المرابطي أصبح يشكل الاختيار لإنقاذ الأندلس، وأن أي فشل في البحث عن مساندته سيؤدي حتماً إلي محو الوجود العربي بهذا البلد الإسلامي[٥٨].

فـــي هـــذا المنحـــي، أورد صاحب التكملة في ترجمة أبي عبيد الله محمد بن حســـين بـــن محمد بن عريب الأنصاري (ت بعد عام ٥٠٨ هــ) أنه (سكن سرقسطة، وتجـــول وتجـــول كثيراً في بلاد الأندلس والعدوة .... وكان وجيهاً عند الملوك مترددا

---

[56] نشر هذا الكتاب تحت عنوان (الرد علي ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخري)، انظر هامش ٥٢.

[57] ابن عبود: م.س.ص ١٨٦.

[58] نفسه، ص١٨٨.

عليهم[59]) وهو نص يكشف النقاب عن محاولاته الرامية إلي إقناع أمراء الأندلس بالدخول تحت طاعة المرابطين لمواجهة الأطماع الصليبية.

وبعد دخول يوسف بن تاشفين جزيرة الأندلس، أصبح دور العلماء في إقناع أمراء الطوائف بالتخلي عن إماراتهم لصالح الأمير المرابطي أكثر أهمية، خاصة أن القوي الصليبية كانت لا تزال تتربص الدوائر بالمسلمين في الأندلس، لذلك بدأ العلماء يقومون بدور الوساطة بين يوسف وأمراء الطوائف، وفي هذا الصدد تخبرنا المصادر أن الأمير عبد الله حاكم غرناطة بعث العالمين إن القليعي والقاضي ابن سهل ليبلغاه نجاحه في حكم تلك الإمارة[60]، وهي محاولة نميل إلي الظن أنها سعت للتقرب من الأمير المغربي للاستنجاد به في اللحظة الضرورية بعد أن بدأ يشعر بالخطر يحدق به، لوما سمع أنه وصل إلي سبتة في طريقه إلي قرطبة، بعث القاضي ابن سهل المذكور بمعية باديس بن واروي لاستقباله والترحيب به[61].

غير أن دور الوساطة الذي قام به العلماء لتحقيق وحدة الدولة الإسلامية بالأندلس لم يجد الأذان الصاغية، مما جعل هؤلاء يصعدون الموقف، ويتخذون إجراءات نجاعة وحزماً، وذلك بإصدار فتاوي فقهية تسمح ليوسف بن تاشفين بإسقاط الحكام المتخاذلين، وغزو الأندلس وتوحيدها كخطوة ضرورية وحاسمة لمجابهة التحديات النصرانية، وهو ما سنتناوله الآن.

٤- العمل علي إسقاط أمراء الطوائف العاجزين عن ردع الخطر الصليبي:

تبلور هذا الدور في اتجاهين: أولهما العمل في الخفاء لمساعدة يوسف بن تاشفين بغية الإطاحة بأمراء الطوائف، وثانيهما إصدار فتاوي فقهية بكيفية علنية تجيز غزوهم وإسقاط حكمهم تحت غطاء شرعي.

بخصوص الجانب الأول، تذكر إحدى الروايات أن العلامة القاضي بن سهل بعث رسولاً من طرف حاكم غرناطة إلي يوسف بن تاشفين، فأستغل هذه الفرصة

---

[59] ابن الابار: التكملة لكتاب الصلة. نشره القرد بل وابن أبي شنب. طبعة الجزائر، ج١، ص٤١١.

[60] ابن بلكين: م.س.ص١١٦.

[61] نفسه، ص١٤٦.

لأخــبار الأمــير المرابطي بالوهن الذي أصاب إمارة غرناطة، وانقسام جيشها وانهيار معــنوياته، وفــي نفــس الوقت أبلغه ترحيب سكانها به لتخليصهم من جبروت حاكمه واســتعدادهم للانضــواء تحت راية المرابطين[62]، كما أن الفقية أبو جعفر ابن القليعي عــبر إلــي المغرب ليحرض يوسف علي الإيقاع بملوك الطوائف، بيد أن أكثر العلماء ســعياً للإطاحــة بهذا الأمير، كان هو الفقية أبو بكر بن مسكن الذي يحدثنا عنه الأمير عــبد الله حاكم غرناطة في مذكراته فيذكر أنه اتصل بيوسف بن تاشفين وأغراه بغزو إمارته[63].

وفــي نفــس الســياق، لم يتوان عالم أخر هو الفقية ابن إحسان عن العمل في خفاء للأطاحة بأمير بطليوس ابن الأفطس الذي كان قد ولاه شؤون دولته.

وبالمــثل، لعب بعض العلماء دوراً هاماً في إسقاط المعتمد بن عباد، فبعد تردد يوســف بــن تاشفين عن خلعه بسبب العهد الذي كان قد قطعه عليه، ألح عليه الفقهاء بإزاحــته عن الحكم هو وغيره من ملوك الطوائف، إذ ورد علي لسانهم: (فبادر بخلعهم ونحــن بيــن يدي الله المحاسبون، فإن أذنبنا فنحن لا أنت المعاقبون، فأنك أن تركتهم وأنــت قادر عليهم أعادوا بقية بلاد المسلمين إلي الروم، وكنت أنت المحاسب بين يدي الله تعالي).

أمــا الجانــب الثانــي الخاص بإصدار فتاوي لتنحية أمراء الطوائف، فالفقيه العلامــة أبو بكر الطرطوشي يقدم نموذجاً رائعاً لهذا الإفتاء، وبما أن أمر الأندلس كان قضــية لا تخص مسلمي الأندلس فحسب بقدر ما كانت تهم المسلمين كافة، فإن فتاوي أخــري صــدرت مــن علماء مسلمين من المشرق كذلك، وفي طليعتهم الإمام الغزالي الــذي أفتــي بــأن (إعفــاء أمراء الطوائف والإبقاء عليهم لا يتوصل معه إلي واجب الجهاد).

---

[62] نفس المصدر والصفحة.

[63] إبراهيم خليل السامرائي: علاقات المرابطين بالممالك الأسبانية بالأندلس وبالدول الإسلامية، طبعة بغداد، ١٩٨٥، ص١٥٧.

ونظــراً لمــا تكتســبه الفتاوي من خطورة لكونها تعطي المبرر الشرعي لكل مــبادرة سياســية، فــإن أقدام العلماء علي إصدار مثل هذه الفتاوي لتمرير مخططات الأمــير المرابطــي تعكس مساهمتهم في إسقاط أمراء الطوائف، ودق أخر مسمار في نعوشـــهم، وتمهــيد الســبيل ليوسف ابن تاشفين لاجتياح الإمارات الطائفية المترهلة، وضــمها نهائياً كخطوة أولي لاستئصال شأفة الخطر النصراني دون إراقة دماء كثيرة، كمــا يــرجع إلــيهم الفضل في إضفاء الصبغة الشرعية الدينية علي دخول المرابطين الأندلس وتوحيدها لمواجهة جحافل الجيوش الصليبية، بعد أن برروا ذلك بتعامل أمراء الطوائــف مــع النصــاري، وإثقال كاهل الرعية بالضرائب وتقديمها بسخاء لألفونسو السادس.

٥- مشاركة العلماء في الجهاد والاستشهاد لرد الأطماع الصليبية.

فضــلاً عــن الأدوار الســابقة الذكر، اختار بعض العلماء طريق الاستشهاد والمــوت فــي ساحة المعارك لقطع دابر القوي الصليبية، وحسبنا أن بعضهم شــارك مشــاركة فعالة في معركة الزلاقة سنة ٤٧٩هـــ م ١٠٨٦م، فرزقوا الشـــهادة مــثل الفقية يعلي المصمودي الذي يذكر عنه ابن عبد الله الملك، أنه دخل الأندلس غازياً صحبة قاضي الجماعة أبو مروان المصمودي (فأكرمهما الله بشـــهادة فـــي وقعـــة الـــزلاقة علي النصاري). ومنهم من ساهم في هذه المعــركة وخرج ظافراً مزهواً بالنصر كما هو حال ابن القصيرة الذي تجشم عــناء الصمود في الصفوف الأمامية للجيش، ولم يصب إلا بجراحات خفيفة، وانفرد بذكر مشاهداته لأطوار هذه الحرب في رواية تعد من الروايات النادرة والطــريفة التي وصلت إلينا علي لسان شاهد عيان، ومن العلماء الذين كانت تحدوهـــم الرغــبة في خوض غمار هذه المعركة ولو أن الظروف لم تسعفهم لتحقــيق ذلك، نذكر علي ابن عبد الله بن حمود المكناسي، وأحمد بن محمد بن عبد الرحمن ابن حداد.

نفــس الشـــيء يقــال عن علماء آخرين شاركوا في معارك صليبية أخـــري مـــثل معــركة ألبورت سنة ٥٠٨هـــ واستشهدوا فيها، ونذكر في هذا

الصـــدد يحـــي بـــن محمد الأموي، وأحمد بن ثابت بن عبد الله العوفي، بينما تحـــتفظ المصــــادر بأسماء العديد من العلماء الذين استشهدوا في معركة قتندة ســـنة ٥١٤هـــ لمنع زحف القوي الصليبية، وفي طليعتهم أبو علي بن الحسن الصـــدفي السرقسطي الذي كان يشار إليه بالبنان لسمو منزلته في العلم، وعلو كعبه في المسائل الدينية، وكذلك عبد الرحمن بن فتح اللخمي، ومحمد بن يحي بـــن عـــبد الله بـــن زكـــريا، وبالمثل لم يتقاعس علماء آخرون عن الذب عن هويـــتهم الإسلامية حينما كانت حركة الاسترداد في أوجها إبان مرحلة ضعف المرابطيـــن، وفـــي هـــذا الصـــدد يخبرنا الذهبي أن الفقية العلامة الرشاطي (استشهد عند دخول العدو ألمرية) وذلك في جمادي الأخرة من سنة ٥٤٢هــــ. كمـــا يورد ابن الأبار في ترجمة الفقية جعفر بن محمد بن يوسف أنه استشهد بشنتمرية سنة ٥٤٦هـــ دفاعاً عن العروبة والإسلام ضد القوي الصليبية، وأذا كانـــت الاستشهادات الأخيرة تتعلق بالقرن السادس الهجري، فأنها تمثل رافداً واستمراراً لروح الجهاد لدي علماء القرن الخامس.

وثمة سيل من أسماء العلماء الذين حملوا رسالة الجهاد لكسر شوكة القـــوي الصليبية والتصدي لها بجرأة وحزم، وقد اقتصرنا علي النماذج الأنفة كأدلـــة علـــي الـــدور الطلائعـــي الذي اضطلعوا به للدفاع عن دولة الإسلام بالأندلس.

خلاصـــة القـــول أن العلمـــاء الأندلسيين لعبوا خلال القرن الخامس الهجـــري أدواراً متـــنوعة في التصدي للأطماع الصليبية التي حاقت بالأندلس انطلاقاً من الوعظ والحظ علي تحقيق الوحدة الإسلامية، مروراً بترشيد أمراء الطوائـــف ومعارضـــة سياســـتهم ســـراً أو علـــناً إلـــي المشاركة في الجهاد والاستشهاد، وقد أسفر هذا الدور عن قطع دابر القوي الصليبية ورفع التحدي عـــن المنطقة بمساعدة المرابطين، كما أسهم في رفع معنويات المسلمين قاطبة بعـــد معركة الزلاقة التي كانت أول نصر كسر شوكة الصليبين ومهد للمعارك المظفرة ضد الصليبيين في المشرق العربي خلال المراحل اللاحقة.

حدود مصر الشرقية*

رأفت عبد الحميد

مصر

لم تسعد مصر بحد من حدودها .. كما سعدت بحدها الشرقي!

ولم تشق مصر كذلك بحد من حدودها .. كما سعدت بحدها الشرقي!

حادثات الزمان تقول ذلك

ووقائع الدهور تحكيه

ولا يكـــذب التاريخ ولا يتجمل حين يدون أن بشائر السعادة، وإن كانت قليلة، إلا أنهـــا كانـــت قريـــنة العمـــر الطويل، والأثر الباقي.. والمعني والمغزى في الفكر والحضارة والشخصية.

ولا يكـــذب الـــتاريخ ولا يتجمل حين يسجل بكل الحسرات أن مسببات الشقاء كانـــت كثـــيرة، ولكنها لم تلبث إلا قليلاً.. مهما طالت.. وجارت مكثت غير بعيد.. ثم دالت.. وتلك عقبي التعدي.

هـــناك.. عند الحد الشرقي.. يفتر الثغر المصري عن ابتسامة.. فيحتزم القلب أوردته والشرايين.. ويتراقص من حب وحبور.. وهناك أيضاً.. تنكأ الجراح. فينقبض الصدر.. وتختفي الابتسامة.. وتتولى إلي الظل حياة.. لتولد من جديد.

سعدت يوم قدم إليها أبو الأنبياء إبراهيم.. موحياً بمقدمه أن مصر واحة الدين وإن تعددت أسماؤه..

ويـــوم أصهر إلي أهلها بزواجه من هاجر المصرية.. لتغدو هذه أم العرب من أسباط بني إسماعيل.

ســـعدت يـــوم فتحـــت بالحب أحضانها، وبالأمن والأمان ذراعيها.. لتستقبل العـــذراء ورضيعها المسيح، وتمسي الملجأ والملاذ للعائلة المقدسة، من مكر بني يهود، وبطش بني الأصفر!

---

*ألقيت هذه الكلمة فى ندوة أقامها المجلس الأعلى للثقافة فى شهر مايو ٢٠٠٢، وكان سيادته مقررا لها.

وســجل ربــنا ذلك في قرأنه الكريم بقوله سبحانه وتعالي: (وجعلنا ابن مريم وأمــه آيــة، وآويناهما إلي ربوة ذات قرار ومعين) وكانت مصر هي الربوة.. وكانت المعين.

ووجـدت المسـيحية فـي مصر أرضا خصبة، نمت فيها وأورقت، ومكنت الكنيســة السكندرية لنفسها فيها، حتى جاءتها كنائس الرسل الأخرى تسعي.. تقف علي بابها، وتخطب ودها.. وتسألها الرأي الفصل في شأن المسيح ومكانته، وأبعاد اللاهوت والنا سوت في طبيعته.

وإلـي صـحا رواتها علي ضفتي النهر الخالد، سري المريدون من كل أنحاء العــالم، ليجلســوا مجلس التلميذ أمام رهبانها، يحتذون بهم، وينقلون عنهم، حتى غدت الرهبانية المصرية لدنيا المسيحية، أسلوب عبادة، وأنموذج حياة.

وســعدت مصــر يوم أصهرت بمارية المصرية إلي محمد بن عبد الله، عليه أفضــل الصلاة والسلام.. فجمعت بذلك ليس بين الحسينين. بل الحسن كله.. وكيف لا وقد أصهرت من قبل إلي أبي الأنبياء إبراهيم.. والآن إلي خاتم الأنبياء محمد؟!

وســعدت يوم حمل جند الإسلام رسالة السلام إلي أهليها، وبين أيديهم سماحة، وفي قلوبهم من الرسول وصيتان.

- أن يستوصوا بأهلها خيراً.. فإن فيهم صهراً.. ولهم ذمة..
- وأن يــتخذوا من أهلها جنداً كثيفاً.. فإنهم خير أجناد الأرض.. ولأنهم في رباط إلي يوم الدين.

ســعدت مصــر يوم احتضنت الإسلام وتدثرت به.. واحتضنها الإسلام واحتمي بهــا.. وعــاش المسلمون والمسيحيون فيها يعزفون نغمة المحبة علي قيثارة السلام. يترنمون بالإنجيل.. ويرتلون القرآن. وتتعانق مآذن المساجد وأبراج الكنائس في لوحة رائعة للتسامح، بريشة راقية للحب.

ســعدت مصر يوم أضحت قبلة الدارسين، وكعبر حجيج المعرفة الإنسانية، الذين وفــدوا مــن كــل أنحــاء العــالم الإسلامي، لينهلوا من فيض علم أزهرها الشريف،

وليـــتفقهوا في الدين، علي يد علماء سمت نفوسهم، وترققت طباعهم، ورقت أخلاقهم، فكانوا بحق أنموذجاً يحتذي، وقدوة.. بها.. يقتدي.

وســعدت مصـــر بحدهـــا الشرقي يوم خرجت جيوشها، خير أجناد الأرض، ترد عاديـــة المعتدين الذين جاءوا يتسترون برداء الصليب.. والصليب والمسيح منهم براء، ورددت حطيـــن والمنصـــورة.. أنا نحن جند النصر، أبطال الدفاع، يوم يدعونا لداع الحرب داع.

وتدفـــع بغـــي جحـــافل المغول، الذين ساحوا في الأرض وعاشوا، وأكثروا فيها الفســـاد.. فصـــب علـــيهم ربك سوط عذاب، حين أجبرهم جيش مصر أن يضعوا في قاموسهم العسكري لأول مرة، لفظة الهزيمة، ولم يكونوا قبل "جالوت" قد عرفوها..

الآن لحقت بهم.. فعقلوها.. وحمت مصر الإسلام وحضارته من شر مستطير..

تلكمـــوا ســـادتي هي سعادة مصر بحدها الشرقي.. وفي الجعبة كثير، ولكنها به شقيت..

شـــقيت بـــه يوم انتهكته جحافل الهكسوس، وجيوش الفرس، فيالق الصليبيين، وقـــبائل المغـــول.. والكل في مصر طامع، ولخيرها ناظر.. لموقعها في حلقة غصة، ولجندها في جنبه شوكة.

هـــاكم هولاكـــو يقـــول فـــي رسالته إلي سلطان مصر المملوكي قطز "قلوبنا كالجـــبال.. وعددنـــا كالـــرمال.. نحـــن لا نرحم من شكا، ولا نرق لمن بكي، عليكم بالهرب.. وعلينا الطلب، فلم يبق لنا مقصد سواكم".

والجملة الأخيرة تغني عن أي تعليق.

وكـــم قـــبل قالها عموري ملك بيت المقدس.. وصدق عليه خلفه غير المباشر جان دي بريين.. حين قالا بنبرة واحدة.. وعبارات مختلفة، إن الطريق إلي القدس يبدأ مـــن القاهـــرة، وإن مصـــر هـــي رأس الأفعى.. من حطمها دان به الشرق.. وكأني بالصـــالح نجم الدين أيوب.. يقول لهم موتوا بغيظكم.. فلم تناولا منها رطباً ولا يابس.. وهو يعظ أبنه توران شاه في وصيته..

".. يـــا بني .. احرص علي ألا يكون للفرنج بالديار المصرية قعر قصبة، فإن كانـــت بـــيداك مصر.. كان بيدك الشرق كله، وإن هي.. لا قدر الله ضاعت.. ضاع الشرق كله!".

وكأني بشاعر النيل.. حافظ إبراهيم يصدق علي ذلك كله بقوله علي لسان مصر

أنا تاج العلاء في مفرق الشرق ودراته فرائد عقدي

أنا إن قدر الإله مماتي.. لا تري الشرق يرفع الرأس بعدي

وشـــقيت مصـــر بحدها الشرقي يوم دبر المؤتمرون بليل من بني يهود، ومن ورائهـــم قـــوي الاســـتعمار الغربي في النصف الأول من القرن العشرين، زرع جسم غريب علي حد مصر الشرقي، بغية عزلها عن أشقائها العرب، وبغية شغلها دوماً عن الـــتطلع إلـــي بلوغ آفاق التنمية البشرية والاقتصادية، وإهدار طاقاتها المبدعة والخلاقة في نزيف عسكري متقطع ودائم.

ولكن.. أعود إلي صدر حديثي..

كم هي بقصيدة وإن كثرت ساعات الشقاء وحادثاته.

وكم هي معمرة علامات السعادة ووقائعها..

ونحن هنا في ندوتنا هذه.. حول حد مصر الشرقي..

تروا.. ماذا نحن فاعلون؟"

ماهية البرلمان الإنجليزى فى القرن الثالث عشر وحتى نهاية حكم الملك إدوارد الأول عام ١٣٠٧ م

زينب عبد المجيد

مصـــر

يقــول مــؤرخ إنجليزى معاصر نقلاً عن حولية أنجلوسكسونية : " كان وليم الفـــاتح غداة الفتح النورمانى لإنجلترا عام ١٠٦٦ ، يحتفل بتتويجه وارتداء التاج ثلاث مـــرات فى العام ، الأولى فى عيد القيامة فى مدينة وينشيستر Winchester ، والثانية فـــي أســـبوع العنصرة فى ويستمنستر Werstminster، والثالثة فى عيد الميلاد فى مديـــنة جوسيســـتر Cloucester . وذلـــك فى حضور رؤساء الأساقفة ، والأساقفة، رؤســـاء الأديرة ، الأيرلات ، البارونات والفرسان "[1] وتعد احتفالات التتويج هذه من الأحـــداث الاجتماعية الكبرى ، عندما يأتى البارونات للمثول أمام الملك لتقديم فروض الطاعة والولاء باعتباره السيد الإقطاعى الأعلى . وفى هذا الاحتفال المهيب يتم وضع التاج على مفرق رأس الملك . وفى نهايته يجتمع الملك وكبار رجاله لمناقشة الأوضاع العامة للمملكة .[2]

وعـــرف هـــذا الاجـــتماع الذى يعقد فى نهاية الاحتفال من جانب المعاصرين آنـــذاك باســـم المجلـــس الكبير للملك Magnum Concilium or great council . والـــذى لـــم يختلف كثيراً فى تكوينه عن الواتان Witenagemot أى مجلس الرجال الحكمـــاء أثناء حقبة الملكية الأنجلو سكسونية (٤٥٠-١٠٦٦م) . بل أحياناً ما عرف

---

(1) Stubbs, *The Constitutional History of England* (Oxford, 1873) vol. I, ,p.145; Willson, *A Hist. of England* (2 nd. London, 1972), p.58; Iloyd, *The Norman Conquest* (London, 1967), p.110 ;

سعداوى ، تاريخ إنجلترا وحضارتها فى العصور القديمة والوسطى (دار النهضة العربية ، ١٩٦٨م)

(2) Willson, Op.Cit., p.58 .

المجلس الكبير باسم الواتان من جانب المعاصرين للملكية النورمانية . بيد أن هناك فروقاً جوهرية بين المجلسين ، إذ يعد الواتان مجرد اجتماع حر للرجال الحكماء من أرباب المشورة والرأى، وتتضح اختصاصات الواتان فى نواحى متعددة أبرزها منح الأراضى والعمل كساحة للقضاء. (١)- وفى هذا الصدد يقول المؤرخ الإنجليزى William Stubbs " إن كل من الملك الأنجلوسكسونى والواتان كانا يتمتعان بالصلاحية القضائية العليا على جميع الأفراد وفى جميع القضايا " .(٢) وفى مجال السياسة المالية لا سيما ما يتعلق منها بالضرائب . نجد أن فرض الضرائب الطارئة يتم بناءً على أمر الملك ومشورة الواتان . (٣) كما يشترك مع الملك فى التشريع ، فلا يصدر الملك القوانين إلا بموافقته ، علاوة على صلاحياته فى تعيين رؤساء المقاطعات والأساقفة ، ومنح الأراضى العامة ، وإعلان حالتى السلم والحرب . كما نرى مشاركة الواتان فى الأمور السياسية العامة مثل الجيش والأسطول ، ويكون الملك والمجلس

---

(1) Stubbs, Op.Cit., pp.154, 155; Green, *A short History of the English People*, vol. I (London, 1960) P.162 .

(2) Stubbs, Op.Cit., p.155 .

(٣) عن صلاحية الواتان فى فرض الضرائب يذكر المؤرخ الإنجليزى William Stubbs نقلاً عن حولية أنجلو سكسونية أن من أهم الضرائب غير العادية التى فرضت بناءاً على أمر الملك الأنجلو سكسونى ومشورة الواتان ، تلك التى فرضت سواء بهدف تمويل الحرب ضد الداينين أو لكسب ودهم وشراء مهادنتهم ، كما حدث عام ٩٩١م فى عهد الملك أيثلريد الثانى Ethelred II (٩٨٧ -١٠١٦م) وعرفت هذه الضريبة باسم الدانجلد Danegeld ، كوسيلة لتمويل الجزية التى ينبغى دفعها للغزاة الدانمركيين . وكانت قيمتها شلنين ، ولكنها أحيانا كانت تصل إلى أربع شلنات وأكثر. وعلى الرغم من أن هذه الجزية كانت تدفع منذ عام ٩٩١م . فإن مصطلح الدانجلد لم يعرف إلا بعد الغزو النورمانى . وتكررت هذه الضرائب على مدى سنى ١٠٠٢ ، ١٠٠٧ ، ١٠١١م وقد استمر الملوك الأنجلو نورمان فى فرض هذه الضريبة لاسيما وليم الفاتح وهنرى الثانى حتى سنة ١١٦٢م لأغراض حربية خاصة ، أو لمواجهة النفقات الإضافية . لمزيد من التفاصيل عن ذلك أنظر :

Stubbs, Op.Cit., pp.155, 156 ;

كانتور ، التاريخ الوسيط (ت قاسم عبده قاسم ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الطبعة الخامية ١٩٩٧) جـ٢ ، ص ٣٨٨ ، حاشية رقم (٢) .

محكمــة علــيا للقضـــايا الجنائـــية والمدنـــية . مما يعنى أن مجلس الحكماء كانت له اختصاصات تشريعية وتنفيذية وقضائية . (١)

بـــيد أن المهمـــة الرئيســـية للواتان انحصرت فى انتخاب الملك من بين أفراد العائلـــة الملكـــية وفقـــاً للنظام السياسى والنظرية السياسية للجرمان . (٢) ويتمتع أيضا بســـلطة عـــزل الملوك ، وإسداء النصح للملك فى المشاكل الرئيسية للمملكة . ويتألف الواتـــان مـــن رؤساء الأساقفة ، رؤساء الأديرة الكبرى ، حكام المقاطعات ، النبلاء ، والقساوســـة . وتعقـــد اجـــتماعاته فـــي حضور الملك الذى يكون أحيانا برفقة زوجته وأبناءه، وأصدقاءه ، ومستشارية ، وكبار رجال الحاشية الملكية . (٣)

فـــى حيـــن كان المجلس الكبير بمثابة اجتماع للأفصال الاقطاعيين ، بما يتفق والأيدلوجـــية السياسية التى أرسى دعائمها وليم الفاتح غداة الفتح النورمانى عام ١٠٦٦ ، باعتـــباره ملـــك وسيد إقطاعى أعلى ، أى الجمع بين الملكية المطلقة التى تتمتع بها أســـلافه من الملوك الأنجلوسكسون فى ضوء القانون الأنجلوسكسونى الذى يعتبر الملك راعـــياً للرب ويستمد سلطته من الرب ، وبين هيمنة السيد الإقطاعى الأعلى . وقد افلح ولـــيم فى ذلك بعد أن استطاع أن يتغلب على نقائض النظام الإقطاعى ، بأن جعل من نفســـه الســـيد الإقطـــاعى الأعلى والمباشر لكل فصل داخل المملكة . فقد أراد للنظام الإقطاعى فى المملكة أن يكون إقطاعيا ملكياً .(٤)

---

(1) Stubbs, Op.Cit., pp.156 , 157 ;

سعداوى ، المرجع السابق ، ص ٥٢ .

(2) Willson, Op.Cit., p.58 ; Green, Op.Cit., vol.I, P.162 ;

ولمزيد من التفاصيل عن النظام السياسى الجرمانى انظر :

كانتور ، المرجع السابق ، جـــ١ ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

(3) Stubbs, Op.Cit; p.146 ;

زينـــب عبد المجيد ، الإنجليز والحروب الصليبية (عين الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الطبعة الأولى ، ص ٢٨ ، حاشية رقم (١) .

(4)Stubbs, Op.Cit., p.404; Willson, Op.Cit., p.58; Iloyn, Op.Cit., p.127;

زينب عبد المجيد ، المرجع السابق ، ص ٤٣ .

وقــد جــاء المجلس الكبير انعكاساً لهذه السياسة الملكية ، إذ باعتباره المجلس الاستشارى الإقطاعى للملك ، حينئذ يكون من واجب السيد الإقطاعى الأعلى أى الملك دعــوة كبار مستأجرى أرض التاج أى هؤلاء الذين يحوزون ضياعاً إقطاعية من الملك مباشــرة لحضــور مجلســه . لــتكون الحيازة الإقطاعية شرط أساسى لحضور هذا المجلس. [١]

ومن الجدير بالذكر أن وليم الفاتح من منطلق خبرته السابقة كدوق لنورماندى وفصــل إقطــاعى للملك الفرنسى حاول استخدام النظام الإقطاعى بطريقة خاصة تزيد مــن سلطة الحكومة المركزية. فلم يسمح لطبقة كبار مستأجرى الأرض Tenants in Chief بالوصــول إلى وضع الاستقلال الذى تمتع به قبل عام ١٠٦٦ فى علاقته تجاه ملــك فرنســا. فقــد قســم جمــيع أراضى المملكة بالإضافة إلى الضياع الملكية على البارونات الخاضعين مباشرة للتاج . وهؤلاء بدورهم اقتسموا جانباً كبيراً من أراضيهم مــع فرسان وإفصال آخرين يؤدون نفس الحقوق والواجبات الإقطاعية التى يدينون بها للملــك ســواء فى السلم أو الحرب . وتضمنت المملكة بذلك ما يقرب من سبعمائة من طــبقة كــبار مســتأجرى الأرض ، وســتين ألفــاً ومائتين وخمسة عشر من الفرسان الإقطاعييــن . بــيد أنه فى ضوء هذا العدد الهائل اقتصر الحضور فى المجلس الكبير علــى نخــبة من هؤلاء الذين يحوزون فقط ضياعاً إقطاعية من الملك مباشرة .[٢] ولا

---

(١) يذكــر المؤرخ وليم سبتس فى حديثه عن المجلس الكبير باعتباره المجلس الاستشارى الإقطاعى للملــك فى بداية التاريخ الباكر للملكية الأنجلو نورمانية أنه فى العام الأخير من حكم الفاتح عام ١٠٨٧ دعى جميع ملاك الأراضى العظام لاجتماع عقد فى سالزبورى ، حيث أدى كل واحد منهم قسم الولاء والطاعة الإقطاعى ضد جميع الرجال الآخرين . لمزيد من التفاصيل عن ذلك أنظر :
Stubbs, Op.Cit., Vol.I, p.405 ; Hall and A Lbion, *A Hist. of England and the British Empire* (London, 1946), p.66 ; Stenton, *English Society in the Early Ages (1066-1307)* Penguin Books, 1959, p.61 ;
سعداوى ، المرجع السابق ، ص٦٦ .

(2) Stubbs, Io. Cit., Vol.I, pp.403 , 404 ; Adams, *The political History of England 1066-1266* (New York and Bombay, 1905) p.15 ; Hume, *The Hist. of England from the invasion of Julius Gaesar to the revolution of 1688* (London, 1836) p.49 .

مـــراء فى أن وليم الفاتح من منطلق سلطته السياسية احتفظ بحقه فى دعوة أى شخص كـــيفما شاء . ومن ثم فقد تضمن هذا المجلس رجال الحاشية الملكية ، وباروناته الذين يحـــوزون ضياعاً إقطاعية فى نورماندى ، وأيضا الضيوف والمبعوثون الأجانب وكبار رجال الكنيسة . (1)

وباعتـــبار المجلس الكبير المجلس الاستشارى الإقطاعى للملك ، تبدو الوظيفة الرئيسية لهذا المجلس جلية فى العمل كمحكمة إقطاعية ، على سبيل المثال أنه فى عام ١٠٧٥ لا أتهـــم أحد البارونات بإثارة التمرد ، وبمقتضى القانون الاقطاعى تم إدانته من قـــبل المجلس بالسجن مدى الحياة . أيضا حدث عام ١٠٩٦ أن أتهم أحد البارونات فى المجلـــس بارونـــاً آخـــر بالمشـــاركة فى تمرد . وأسفر ذلك عن محاكمة على الطريقة الجرمانـــية ، بـــأن يتقاتل المدعى والمدعى عليه فى نزال مميت أمام المجلس ، ويعلن المنتصـــر فـــى النهاية أنه قد حقق انتصاره بسبب عدالة دعواه ، وإدانة البارون المتهم والمهزوم بسمل عينيه وخصبية بناءً على أمر وحكم الملك . (٢)

وبعـــيداً عن العمل القضائى تبدو وظيفة ومهام المجلس الكبير فى هذه الحقبة من التاريخ الباكر للملكية الأنجلو نورمانية ، مبهمة وغير واضحة ، ونستقى معلوماتنا فـــى هـــذا الصـــدد من المؤرخ الإنجليزى المعاصر ويلسون Willson بقوله : " فقد اقتصـــرت مهـــام المجلـــس الكبـــير فـــى التصديق على القوانين التى يتخذها الملك ، والموافقـــة علـــى الكثـــير من أعماله ، وإسداء النصح للملك فى القضايا التى يختارها مقدمـــاً للعـــرض أمام المجلس ، وأحيانا ما يتجه الملك للمجلس طلبا للعون والتأييد فى علاقاتـــه مـــع القوى الخارجية ومشاكله الداخلية . وقلما تكون هناك معارضة من قبل المجلـــس لرغبات الملك ، إذ كان الملك يعمل دوماً بدون مشورة المجلس ، وفى ضوء الـــنظام السياســـى الذى أرسى دعائمه وليم الفاتح يجب إلا نتوقع ثمة قيود على سلطته الملكـــية ."(٣) وهى سلطة كانت تحول دون تحقيق أية سلطات أخر ى منافسة ، فقد كان السيد الإقطاعى ، والأسقف والفارس ، والمزارع مشدودين إلى الارتبـــاط بالسلطة

زينب عبد المجيد ، المرجع السابق ، ص٣٢

(1) Willson, Op.Cit.. p 58
(2) Loc. Cit
(3) Loc Cit

الملكية [1]

وعن صلاحيات المجلس الكبير باعتباره المجلس الاستشارى الإقطاعى للملك يعلـق المـؤرخ الإنجلـيزى ريتشارد جرين Richard Green بقوله "أن سلطة هذا المجلـس قـد قـيدت بالموافقـة بدون مناقشة أو حتى إمكانية الرفض على كل ما هو مطلـوب مـنه من قبل التاج ، لأن مبدأ التشاور و الموافقة يعد أمرا ضروريا لإضفاء الشرعية القانونية على كل إجراء مالى أو سياسى كبير ." [2]

وفـى رأى الباحث أن المؤرخ قد أصاب كبد الحقيقة لا سيما وأنه يتحدث عن صلاحية المجلس فى الفترة الباكرة من تاريخ الملكية الأنجلو نورمانية .

وتجـدر الإشـارة أن اجتماع المجلس الكبير لم يكن سوى جلسة طارئة فقط ، وكـان العمـل الـيومى للحكومة الملكية ينفذ من خلال الملك بمساعدة رجال الحاشية الملكـية وكبار البارونات وموظفى البلاط والذين يشكلون ما اصطلح على تسميته باسم المجلـس الملكـى Guria Regis أو المجلس الصغير للملك . وعندما يجتمع المجلس الكبـير يكـون مقـترنا بـالمجلس الصغير أى المجلس الملكى باعتباره قلب وجوهر المجلـس الكبير . وفى حين تترك القضايا ذات الأهمية الكبرى للعرض على المجلس الكبـير للتشـاور والموافقـة . كان أعضاء المجلس الصغير يتمتعون بأحقية التشاور المباشـر مع الملك ، والتصديق على القوانين وتنفيذها . والعمل كمحكمة ، حيث يعتبر المجلس الملكى المحكمة العليا فى المملكة التى تتمتع بسلطة التنفيذ . [3]

---

(١) كانتور ، التاريخ الوسيط ، جـ٢ ، ص ٤٥٣.

(2) Green, Op.Cit., p.158 .

(٣) ينفرد المؤرخ الإنجليزى William stubbs بالحديث عن المثال الدال على الصلاحية القضائية للمجلس الملكى من خلال قوله عن المحكمة التى عقدت للحكم على وليم أسقف درهام Durham غـداة اتهامـه بالتواطؤ فى التمرد البارونى عام ١٠٨٨م ، واتهامه بالخيانة والحنث بقسم الولاء والطاعـة الإقطـاعى . ونتـيجة لذلك قام موظفى الملك بانتزاع ضياعة الإقطاعية . وقد طالب بالـتعويض عـن هـذا الضرر مهدداً بالاستئناف بعرض قضيته أمام البابا فى روما . واسفرت المحاكمـة التى عقدت فى سالزبورى فى حضور جميع الأساقفة والبارونات والايرلات ومندوبى

فــى ضــوء مــا ســبق نقول أنه إذا كان مجلس الرجال الحكماء أى الواتان جــيموت بمثابة المجلس القومى للأمة The National Council أثناء الحقبة الأنجلو سكسونية ، فإن هذا المجلس القومى أصبح هو المجلس الاستشارى الإقطاعى للملك فى عهــد الملوك النورمان . ومن الجدير بالذكر أيضا أن الواتان جيموت لم يكن مجلساً أو اجتماعاً كبيراً ، إذ لا يتجاوز عدد الحضور من الأساقفة عن سبعة عشر أسقفاً ، وعدد غــير ثابــت من الايرلات لا يزيد أبداً عن عشرين وعدد من الأفصال يتزايد تدريجيا حسب قوة التاج . (١)

ولامــراء فى أن أصل البرلمان الإنجليزى قد وجد فى المجلس الكبير للملك ، والــذى يــتكون من طبقة كبار مستأجرى أرض التاج Tenants in chief ، رؤساء الأســاقفة ، الأساقفة ، رؤساء الأديرة ، البارونات . ويعتبر الحضور جزء من واجبهم الإقطاعى . وقد أسلفنا القول أن المملكة تضمنت غداة الفتح النورمانى عام ١٠٦٦م ما يقــرب من سبعمائة من طبقة كبار مستأجرى الأرض أى هؤلاء الذين يحوزون ضياعاً إقطاعــية مــن الملــك مباشرة . وحوالى ستين ألفاً ومائتين وخمسة عشر من الفرسان الإقطاعييــن . ممــا يعــنى أن المجلس لم يضم بالطبع كل تلك الجموع الهائلة لجميع المســتأجرين سواء الكبار أو الصغار ، ليقتصر الحضور فى هذا المجلس على هؤلاء الذيــن يتمــتعون بدرجة عالية من الثراء والقوة سواء من العلمانيين أو رجال الدين ، والذين تراوح عددهم فى المجلس بين خمسين إلى خمسة وسبعين فقط . (٢)

الملــك ، ولانفرانس رئيس أساقفة كانتر برى عن انتزاع إقطاعه باعتباره فصل إقطاعى للملك ، وقضاء ثلاث سنوات فى المنفى . ولعل هذا المحاكمة تمدنا ببرهان قاطع ومقنع حول حقيقة عمل هذا المجلس باعتباره محكمة إقطاعية . لمزيد من التفاصيل عن المجلس الملكى أنظر :
Stubbs, Op.Cit., Vol. I, pp.498 , 499 .

(1) William stubbs, *Select Charters and other illustrations of English* : *from the Earliest times to the Reign of Edward the first* (Oxford, Ninth edition, 1913) pp.11, 17 ; *The Constitutional History of England,* Vol.I, p.403 .

(2) Green, Op.Cit., p.158 ; Willson, Op.Cit., p.147 .

وبــدء من منتصف القرن الثالث عشر بدأت اجتماعات المجلس الكبير تعرف بأســم البرلمانات . سواء من جانب المصادر المعاصرة لهذه الحقبة الزمنية من تاريخ إنجلــترا فــى العصــور الوسطى أو من جانب المؤرخين المحدثين فى القرنين التاسع عشــر والعشــرين . ويمكن تبرير ذلك فى أن اجتماعات المجلس الكبير بدء من القرن الثالــث عشر شهدت بالفعل حضور عناصر جديدة لم يشهدها من قبل . حيث بدأ الملك فــى دعوة ممثلين عن الطبقة المتوسطة سواء فى الريف أو المدن لحضور اجتماع هذا المجلــس . بيد أن هذه الممارسة جاءت بطيئة وعلى فترات متقطعة ، ولم يكن متوقعاً حدوث ذلك سريعا ، لأن الملك لم يفعل أكثر من العمل الذى يراه ملائــماً.[١]

ويجدر بنا فى هذا السياق الإشارة إلى المعنى اللغوى لكلمة برلمان ، نجد أنها مشــتقة من الكلمة الفرنسية Parler ، والتى تعنى الكلام والمناقشة وتبادل الآراء. مما يعــنى أن كلمــة برلمان فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر لم تعنى أكثر من مجرد اجــتماع للمجلس الكبير بهدف التشاور والمناقشة بصدد القضايا العامة للمملكة ، والتى يخــتارها الملــك مقدمــاً للعرض أمام المجلس .[٢] وفى ضوء المفاهيم السياسية التى جاءت انعكاسا للفكر السياسى الملكى فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، ليس ثمة غرابة أن نجد مصطلح برلمان وقد شاع استخدامه ، فقد راح مؤرخى هذه الحقبة جنبا إلــى جنــب مــع المؤرخين المحدثين ينعتون كل اجتماع للمجلس الكبير شهد حضور ممثليــن عــن الطــبقة المتوسطة اسم البرلمان . حتى اجتماعات المعارضة البارونية وصــفت أيضا بالبرلمانات . بيد أن هناك نفر من المؤرخين المحدثين مثل Stubbs ، ولونــت Lunt ، وســميث Smith ، وتــوت Tout ، وغيرهم كانوا أكثر دقة ، فقد أطلقوا على اجتماعات المجلس الكبير التى شهدت حضور ممثلى الطبقة المتوسطة اسم

(1) Vickers, *England in the later Middle Ages* (London, 1926) p.145 ; Dietz, *A political and social History of England*, (Third Edition, New York, 1937) p.81 ; Willson, Op.Cit., p.148 .

(2) Stubbs, *The Constitutional Hist, of England*, Vol.II, pp.215, 216, lunt, *History of England* (London , 1928) pp.216 , 217 , Smith, *A History of England* (New York, 1966) p.138 .

الـبرلمانات النيابـية Representative Parliaments ، وأطلقوا على ممثلى الطبقة المتوسـطة فـى هذه الاجتماعات اسم Representative elements [1]. واتفق مع وجهة النظر هذه .

ويقـول المـؤرخ المعاصر جولدين سميث Goldwin Smith : " مما لاشك فـيه أن سـجلات وقوانيـن الـبرلمان والتى تعد من أهم مصادر التاريخ الدستورى الإنجلـيزى ، إنمـا تميط اللثام عن الكثير من التطورات المهمة ، ذلك أن البرلمان فى القـرن الثالـث عشر ما زال فى نواح كثيرة لم تتضح معالم تكوينه بعد . وظل كذلك حـتى النصـف الـثانى من القرن الرابع عشر الذى شهد بداية ملامح الشكل القانونى للـبرلمان بمعـناه الحديـث بظهور مجلسى العموم واللوردات . وبالرغم من حضور ممـثلى الطـبقة المتوسـطة من فرسان المقاطعة وبرجوازية المدن ، فقد ظل البرلمان طيلة هذه الفترة بمثابة اجتماع خاص للملك وهؤلاء الذين يتم دعوتهم من الملك مباشرة للتشـاور معـه مـن النبلاء العلمانيين والكنسيين ، وبعض مستشارى الملك الدائمين ، ورجـال الحاشية الملكية . ولم تكن التغيرات التى طرأت على تنظيم ووظائف البرلمان فـى القرن الرابع عشر تبدو فى أعين المعاصرين تغيرات كبرى أو مهمة ، إذ ما زال الـبرلمان مـن وجهـة نظـر هؤلاء مجرد اجتماع للمجلس الكبير للملك ، وما زالت العناصـر الرئيسية الممثلة فيه قاصرة فقط على كبار النبلاء من العلمانيين والكنسيين، وهـؤلاء فقـط هم الذين يحق لهم سماع الدعاوى القانونية وتقديم الحلول اللازمة لها . وأن جوهـر ومحور البرلمانات التى عقدت فى العصور الوسطى كان الملك وأعضاء مجلسـه الصغير أى المجلس الملكى ، وأن البرلمان الذى هو المجلس الكبير كان دائما بمثابة محكمة أعدت جيداً للعمل القضائى ، باعتباره المحكمة العليا فى المملكة . " [٢]

(1) Stubbs, *The constitutional Hist, of England*, Vol. II, pp.215, 216; Lunt, op.Cit, pp.216, 217 ; Smith, op.Cit, p.138.

(2) Smith, Op.Cit., P.139 ; *A Shley, Great Britain to 1688* (Michigan, 1961) p.118, Willson, Op.Cit., p.148 .

وفــي ضــوء هــذا الــنص فإن الباحث يتفق مع المؤرخ سميث وغيره من المؤرخيــن المحدثين بأن البرلمان الإنجليزى فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر لم يخرج عن كونه المجلس الكبير للملك ، كما سنرى فيما بعد

ويجــدر بنا قبل الحديث عن التمثيل النيابى للطبقة المتوسطة فى البرلمان أى المجلس الكبير أن نستعرض الجذور التاريخية لفكرة التمثيل النيابى لهذه الطبقة ، وأين وجدت ؟

للإجابــة علــى ذلــك ينــبغى أولاً التعرف على ماهية البناء الاجتماعى لهذه الطــبقة، نقــول فــى ضــوء الدراســات التاريخية أنها تنقسم إلى قسمين هما الطبقة المتوســطة في الريف ، والطبقة المتوسطة فى المدن ، فيما يتعلق بالأولى فقد وجد فى المــناطق الريفــية – كنتيجة طبيعية للنظام الإقطاعى الذى أرسى دعائمه وليم الفاتح – الكثــيرون مــن الرجال الأحرار الذين لا يتمتعون بأحقية حضور المجلس الكبير للملك لأنهــم ليســوا مــن طبقة كبار مستأجرى أرض التاج . وهناك أيضا ملاك الأراضى الأحــرار Freeholders الذين حازوا من خلال آخرين على حيازة إقطاعية ، علاوة علــى فــئة صــغار المســتأجرين mesne tenants . ولم يكن هؤلاء مرغمين على حضــور المجلــس الكبير باعتباره جزء من واجبهم الإقطاعى . ومن جهة أخرى فقد اعتبرت طبقة كبار المستأجرين tensnts – in – chief حضور المجلس الكبير عبء ثقــيل طالما حاولوا التمصل منه قدر استطاعتهم . بيد أنه فى القرن الثالث عشر انفرد هــؤلاء فقط بالدعوة من جانب الملك كل بمفرده لحضور المجلس الكبير [1]، فى حين بقيــت طــبقة صــغار المستأجرين عادة بمنأى عن ذلك . ولا مراء أن هذه العناصر الــثلاثة التى تتكون منها الطبقة المتوسطة فى الريف ألا وهى ملاك الأراضى الأحرار غــير الإقطاعييــن The non – Feudal Freeholders ، المســتأجرين الإقطاعيين The menses tenant ، صغار مستأجرى أرض التاج The lesser tenants – in – chief ، يمثلون جميعا درجات عالية من الثراء والمكانة الاجتماعية . وارتقوا السلم

(1) Lunt, Op.Cit., p.213 ; Stubbs, *The Constitutional History of England,* vol.II, p.249 ; Select Charters, p.41 ; Green, Op. Cit., p.164 .

الاجـتماعى مـن مجرد مالك متواضع لمبنى فى ضيعة إقطاعية إلى فارس المقاطعة. والـذى يجـب أن يقارن من حيث الثراء والمكانة الاجتماعية بأحد البارونات . وعندما أصـبح شـائعا فـى القـرن الثالث عشر تطبيق مبدأ حق الابن الأكبر فقط فى وراثة الحـيازة الإقـطاعية ، معنى ذلك أن الأبناء الصغار للبارونات أنفسهم أصبحوا ضمن أفـراد الطـبقة المتوسطة . وبالرغم من الفروق الاجتماعية الهائلة لأبناء هذه الطبقة . فقد كان للجميع مصالح مشتركة باعتبارهم ملاك أراضى . [(١)]

وفى ضوء هذا الحراك الاجتماعى الطبقة الفرسان بعناصرها الثلاثة المتباينة، أصـبح أبـناء هـذه الطبقة بدء من القرن الثالث عشر أقل ولعاً بالحرب والقتال وأكثر اهـتماماً بـإدارة ضياعهم ، وكانوا من الكثرة التى جعلت التاج يعول عليهم دائما فى عمـل الحكومـة المحلـية ، مـثل حكام المقاطعات والموظفين القضائيين ، وتجسدت مهمـتهم فـى تقديم المعلومات اللازمة للمندوبين الملكيين ممن يتم إرسالهم للاستقصاء والتحرى فى المقاطعات .[(٢)] وفى هذا الصدد يقول المؤرخ الأمريكى المعاصر نورمان كانـتور : أن الشـريف ، أى حاكم المقاطعة ، كان من حيث إمكانياته الخاصة مجرد واحـد من ملاك الأراضى المتوسطين ، ومع ذلك فقد تمتع بنفوذ هائل وسلطة ضخمة بسـبب وضـعه كممـثل لحكومـة ملكية على درجة كبيرة من القوة والفاعلية ، وهى حكومـة لم تكن تطيق أى تمرد من جانب أكبر السادة الإقطاعيين المحليين فى البلاد ، وكـان الشـريف يـرأس محكمـة المقاطعـة ، كما كان هو المندوب المحلى للخزانة الملكية."[(٣)]

بـيد أن الأهـم مـن ذلـك أن أبناء الطبقة المتوسطة فى الريف من فرسان المقاطعـة وكبار ملاك الأراضى أصبحوا جميعاً ممثلين فى إدارة الحكومة المحلية من

---

(1) Lunt, Op.Cit., p.213, Green, Op.Cit., p.164 ; Willson, Op.Cit., pp.148 , 149 .

(2) Lunt, Op.Cit., p.213, Green, Op.Cit., p.164 ; Willson, Op.Cit., pp.148, 149 .

[(٣)] كانتور ، المرجع السابق ، جـ٢ ، ص٦٥ ولمزيد من التفاصيل عن منصب حاكم المقاطعة انظر:
Stubbs, Op.Cit., vol.I, pp.225 – 235 .

خـــلال اجـــتماع محكمة المقاطعة Shire court ، حيث يعلن حاكم المقاطعة مراسيم الملـــك بصـــدد المســـاعدات والمنح المالية الخاصة بالتاج ، وتلقى أسماء المتهمين ، وتحـــريات المحلفيـــن المحليـــن [1] ، الذيـــن يكونـــوا عادة من الرجال البارزين فى المجـــتمع، والضـــرائب التى تم تقديرها على كل منطقة ، وسماع الالتماسات الخاصة بالعدالـــة فـــى القضـــايا المدنية والجنائية من هؤلاء الذين تعرضوا للظلم فى المحاكم الصغرى التى اصطلح على تسميتها باسم محاكم المائةHundred – Courts . ومن خـــلال اجتماع محكمة المقاطعة فقط يستطيع حاكم المقاطعة قانونا باعتباره نائباً للملك دعـــوة فرســـان المقاطعة لحضور اجتماع المجلس الكبير الذى أصبح يعرف فيما بعد باســـم الـــبرلمان ، ممـــا يعنى أن حضور ودعوة ممثلى هذه الطبقة لحضور المجلس الكبـــير إنمـــا يحـــدد مـــن خلال حاكم المقاطعة فقط بناء على أمر الملك [٢]. وتتكون محكمة المقاطعة التى يرأسها الشريف فى كل القضايا المدنية والجنائية من اثنى عشر

---

(١) يـــرجع نظام المحلفين المحليين local juries إلى عهد وليم الفاتح ، ففى محاولة فعالة من جانبه لتحســـين الإجراءات الجرمانية البالية ، أدخل نظام الاستجواب الفرنجى – النورمانى إلى إنجلترا ، وكلـــف القضاة بأن يستخدموه فى القضايا المدنية. ففى سبيل فض المنازعات بين كبار البارونات خولـــت محـــاكم المقاطعات حق استجواب بعض الرجال الذين يقسمون اليمين من سكان المناطق المجاورة . ويشكل هؤلاء الفئة المختارة من أعيان البلاد المقيمين فيها . وكانت شهادتهم من عوامل الحســـم فى القضايا القانونية المتعلقة بالشئون المدنية . وبعد ذلك وفى إطار الإصلاحات القضائية لهـــنرى الثانى دأب على تحسين الإجراءات القانونية الإنجليزية بالتوسع فى استخدام نظام المحلفين فى القضايا المدنية والجنائية . وبذلك أحل هنرى الثانى نظام المحلفين محل الوسائل البدائية الشائعة، حيث كانت وسائل التعذيب البدائية الجرمانية (المحنة) ما تزال تستخدم لإقامة الدليل فى القضايا الجنائـــية . وبـــدءً مـــن النصف الثانى من القرن الثانى عشر كان نظام التحرى بواسطة المحلفين يستخدم فى القضايا المدنية والجنائية على حد سواء ، ثم صار أساس العملية القانونية الإنجليزية . ولمزيد من التفاصيل عن نظام المحلفين انظر :

Stubbs, *The Constitutional Hist of England*, Vol. I, pp.681 , 682, Lunt, Op.Cit., p.213 ;

نورمان كانتور ، المرجع السابق ، جـــ٢ ، ص ٣٩٥ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، سعداوى ، المرجع السابق ، ص ٨١ ، ٨٢

(2) Green, Op.Cit., p.164, Stubbs, Op.Cit., Vol.I, p.119 .

من القضـاة المساعدين لحاكم المقاطعة Assessors of the Sherief ، ومن كل مائة ضــيعة يتم اختيار اثنى عشر من المحلفين jurors . ومن خلال هؤلاء الذين يمثلون المقاطعــة أمام مندوبى الملك يتم تقدير مشاركة المقاطعة فى الضرائب العامة، وتقدير الملكــية الشخصــية .(١) وفى ضوء ما سبق نستخلص نتيجة مؤداها أن فكرة أو مبدأ التمثيل النيابى قد وجدت أصلاً فى محكمة المقاطعة .(٢)

---

(1) Stubbs, Select charters, p.40 ; Green, Op.Cit., p.164, Lunt, Op.Cit., pp.213 , 214 .

(٢) يذكر المؤرخ Stubbs فى حديثه عن محكمة المقاطعة Shiremoot فى الحقبة الأنجلو سكسونية بأن الشريف كان يعقد محكمة المقاطعة بمقتضى قوانين إدجار Edgar (٩٥٩-٩٧٥م) مرتين فى العام . وكان الأسقف والأيرل يجلسان معاً للحكم فى الدعاوى الكنيسة والعلمانية على حد سواء دون تمييز بينها . ويرأسان معاً محكمة المقاطعة . فى حين كان حاكم المقاطعة بمثابة موظف معين من قــبل الملك . وفى عام ١٠٧٦ أصدر وليم الفاتح قانون إنشاء المحاكم الكنسية وفصلها عن المحاكم المدنية بهدف تحقيق الاستقلال القانونى للكنيسة الإنجليزية فى الأمور الكنسية البحتة .

وأصــبحت محكمــة المقاطعــة فى عهد وليم وخلفاؤه تعقد عند حضور القضاة الجوالين itinerant justices ، وتــتكون مــن رؤساء الأساقفة ، الأساقفة ، رؤساء الأديرة ، الأيرلات ، البارونات ، الفرســان ، وأربعــة من الرجال عن كل بلدة Township واثنى عشر رجلاً عن كل مدينة كبرى Borough وكانــت بمثابة اجتماع عام للشعب . وتضمنت بالتالى جميع العناصر التى تكون منها الــبرلمان فيما بعد . بيد أنه تم إعفاء من هم أدنى مكانة من الفارس ما لم يتم دعوتهم . ومن جهة أخرى فقد تضمنت العهود التى منحت للمدن فيما بعد أنه عند انعقاد محكمة المقاطعة فقط للاجتماع بالقضاة الجوالين يكون حضور ممثلى المدن أمراً ضرورياً .

وبمقتضــى الفقرة الثانية والأربعين من مرسوم هنرى الثالث بصدد إعادة إعلان الماجنا كارتا عام ١٢١٧م . أصــبحت محكمــة المقاطعــة تنعقد مرة واحدة فى الشهر . ويتضمن هذا المرسوم ستة وأربعــون فقــرة ويتفق فى جميع بنوده مع الماجناكارتا باستثناء الفقرات ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٧ . لمزيد من التفاصيل انظر النص الكامل لهذا المرسوم عند :

Stubbs (ed.) " Second charter of Henry III, 1217 " PP.341 – 344 ;

انظر أيضاً

" Ordinance of William I Separating the Spiritual and Temporal courts 1071," in Stubbs (ed.) Select charters, pp.99 , 100 ; Stubbs, *The Constitutional Hist. of England*, Vol.I, PP.223 , 224 .

وطـــبق هـــذا المبدأ بعدئذ على المجلس الكبير فى القرن الثالث عشر . ويعلق أحـــد المؤرخيـــن الإنجلـــيز فى القرن التاسع عشر بقوله : " أن محكمة المقاطعة هى الأصـــل الـــذى انحـــدرت منه البرلمانات الإنجليزية فى العصور الوسطى . وأن مبدأ التمثـــيل النـــيابى يعـــد واحدا من بين أعرق وأقدم نظمنا وتقاليدنا . "(١) وبالتالى تكون فكرة التمثيل النيابى أكثر قدما من البرلمان ذاته .(٢)

وكما ذكرنا آنفا لم يكن البناء الاجتماعى للطبقة المتوسطة قاصرا على فرسان المقاطعـــة وكـــبار المـــلاك فى الريف . هناك أيضا سكان المدن Bourgeois . وفى القـــرن الثالـــث عشـــر أحرزت هذه الطبقة درجة عالية من الثراء الناجم عن ممارسة النشـــاط الـــتجارى والصناعى ، وامتلاك الأراضى .(٣) بيد أنه يجب تفسير مكانة هذه الطـــبقة فـــى ضـــوء الحـــراك الاجتماعى للمجتمع الإنجليزى فى القرنين الثانى عشر والثالـــث عشـــر ، والـــذى جـــاء انعكاسا للتطورات التى شهدتها القارة الأوربية على الصـــعيدين الـــثقافى والاقتصادى . فقد شهد القرن الثانى عشر ظهور أولى الجامعات الأوربـــية فـــى بولونيا بإيطاليا ، وباريس بفرنسا . وانعكس ذلك على إنجلترا بتأسيس جامـــعة أكسفورد عام١٢٠٠ ، وجامعة كمبريدج عام ١٢٠٩م .(٤) وعلى الرغم من أن الـــزعامة الثقافـــية كانت لفرنسا فى القرن الثانى عشر ، فقد ساهمت إنجلترا بعض

---

(1) Green, Op. Cit., p.164 .

(2) Lunt, Op. Cit., p.214, Willson, Op. Cit., p.149 .

(3) Stubbs, *The Constitutional Hist. of England*, Vol. II, pp.459 – 416 ; Traill & Mann, *Social England, A Record of the progress of the people, from the Earliest times to the present Day* , London, 1979 , pp.659 – 661, Lunt, Op. Cit., p.213 .

(٤) لمـــزيد مـــن التفاصيل عن نشأة الجامعات ودورها ، انظر سعيد عبد الفتاح عاشور ، الجامعات الأوربـــية فـــى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٥٩ ، جوزيف نسيم يوسف ، نشأة الجامعات فى العصور الوسطى ، الإسكندرية ١٩٧١

الشئ مع إيطاليا وألمانيا فى الإنجازات الفكرية آنذاك ، فقد ولد جون السالزبوى John of Salisbury فـــى إنجلترا ، والذى كان يعد من أبرز شخصيات القرن الثانى عشر وتعلم فى فرنسا وعمل فى إيطاليا ثم عاد إلى إنجلترا ، واختتم حياته العملية فى فرنسا ، حيـــث شغل منصب أسقف شارتر chartres . فلم يكن هناك إحساس على الإطلاق بالتقسيمات التى تصنعها الحدود السياسية على القادة الثقافيين آنذاك .[1]

أمـــا على المستوى الاقتصادى فقد شهدت هذه الحقبة ظهور المدن الأوربية ، وكمـــا يذكـــر الأستاذ الدكتور سعيد عاشور فإن الفترة الواقعة بين سنة ١٠٧٥ وسنة ١١٨٣ تصور دور البطولة فى تاريخ نشأة المدن فى أوربا العصور الوسطى ، بدءً ب نشـــأة المدن الإيطالية ، ثم فى إقليم لمبارديا ، وفلاندرز، وأخذت تنتشر بسرعة فى بقية بـــلاد الغرب .[2] ومن الجدير بالذكر هنا أن المدن الأوربية في نشأتها قد خرجت من عباءة النظام الإقطاعى السائد في معظم الحكومات الملكية فى أوربا ، ولأن الملوك هم السادة الإقطاعيين فقد قاموا هم وكبار افصالهم بأعتبارهم مالكى الأرض بتأسيس المدن ، وتعلموا أن يشجعوا الفلاحين ، لأنهم اكتشفوا أن زراعة الأرض تجعلهم أكثر ثراء . ونظـــراً لوجود مساحات وافرة من الأرض ، كان عليهم أن يجعلوا شروطهم مغرية لم يعمـــرونها . وكانت أكثر الاغراءات التى يمكنهم تقديمها للمزارعين هى منحهم مزيداً مـــن الحـــرية . أى أن الـــريفى الـــذى يأتى للأقامة فى بلدة جديدة كان يتمتع بالحماية والامتـــيازات التـــي تقدمها وثيقة مؤسس هذه البلدة والتى نصت على " حرية الأرض الـــتى قامت عليها المدنية ، وأن كل من يعيش فى هذه المدينة سنة أو يوماً واحداً يعتبر حـــراً " وهنا لم يكن الريفى مضطرا لأن يعمل فى أرض السيد الإقطاعى ، وإنما كان يدفـــع إيجـــارا ، نقـــداً أو عيـــنا ، كما أنه لم يكن مربوطاً بالأرض ومن ثم فإن المبدأ الشـــهير القـــائل بأن " هواء المدن يصنع الحرية " عرف منذ ذلك الحين . واستطاعت بعـــض المـــدن أن تحصل على سلطة سياسية أكبر ، وهذه المدن هى التى تعرف باسم

---

(١) كانتور ، المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٢٦ .

(٢) سعيد عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، جـ٢ ، ص ٩٨ ، ٩٩.

القومونـــات Communes وبـــدأت هـــذه القومونات فى إقليمى تسكانيا ولمبارديا فى إيطالـــيا ، ثـــم أخـــذت تنتشـــر منذ أواخر القرن الحادى عشر فى العديد من الممالك الأوربية . [1]

وبالطـــبع لم تكن إنجلترا بمنأى عن هذه التطورات الاقتصادية التى تموج بها القـــارة الأوربـــية فقـــد حصـــلت المـــدن الإنجلـــيزية فى عهد وليم الفاتح على بعض الامتـــــيازات [2] ، ولعل العهد الذى منحه هنرى الأول لمواطنى مدينة لندن إنما يحيط اللـــثام عـــن طبـــيعة ومغزى الامتيازات التى حصلت عليها المدن الإنجليزية آنذاك . وبمقتضـــى هـــذا العهـــد فإن الامتيازات التى تمتعت بها مدينة لندن لا يمكن أن تعتبر نموذجـــا للحـــريات التى حصلت عليها المدن العادية ، وإنما علامة بارزة على مقدار الاســـتقلال والحق فى إدارة شئونها ، وهى الحقوق التى كانت المدن الأخرى تصبوا للحصـــول علـــيها. بـــيد أن أهم الامتيازات التى ظفرت بها مدينة لندن بمقتضى هذا العهـــد. أنهـــا وضعت فى مكانة مساوية للمقاطعة ، فأصبح لها الحق فى انتخاب حاكم المقاطعـــة والقاضـــى justiciar الخـــاص بها . وعدم مثول مواطنيها أمام أى محكمة

---

(1) Stubbs, *The Constitutional Hist. of England*, vol.I, P.459 ;
موريـــس كيـــن ، حضـــارة أوربا فى العصور الوسطى ، ترجمة قاسم عبده قاسم (عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الطبعة الأولى ١٩٩٤م) ص ٩٢ ، سعيد عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، جـ٢ ، ص ٩٨ ، ٩٩.

(٢) يعلق المؤرخ وليم سبتس على العهد الذى منحه وليم الفاتح لمدينة لندن باعتبارها المدينة الرئيسية للمملكـــة بأنـــه ينطوى على الحرص على الحقوق الملكية ، ومن ثم فقد جاء هزيلاً وتضمن هذا العهد : " تحيات وليم الفاتح إلى وليم أسقف المدنية ، وجوفريث Gosfrith حاكم المدنية ، وجميع المواطنيـــن داخـــل لـــندن من الفرنسيين والإنجليز لهم الود ، أننى أرى بديهيا أنكما أنتما الاثنين جديـــران بكل القوانين التى كانت قائمة فى عهد الملك إدوارد المعترف ، وأننى سوف أجعل كل طفـــل يكـــون وريثاً لأبيه بعد وفاته ، وأننى سوف لا احتمل أى رجل يقترف أى خطأ تجاهكم ، ويباركما الرب . " وهكذا لم يتضمن هذا العهد أية امتيازات عامة فيما عدا أن الابن يجب يخلف أبـــيه فى حق التصويت والانتخاب ، وضمان ما تم منحه فى عهد إدوارد المعترف . ولمزيد من التفاصيل انظر :
Stubbs, Op Cit., p.460 .

خـــارج أســـوار مدينتهم ، والتحرر من ضريبة الدانجلد ، ومن الالتزام بالموافقة على المحاكمـــة عـــن طـــريق النزال ، والإعفاء من المكوس الخاصة بالمرور وكل أنواع الضـــرائب فـــى جمـــيع أنحـــاء المملكة براً وبحراً ، وحقهم فى امتلاك أراضيهم .(١)

وبالـــرغم مـــن كل هذه الامتيازات فإن المدينة لم ترقى إلى درجة الكوميون mCom unio ، أى المدينة ذات السلطة السياسية المستقلة إلا فى عهد الملك ريتشاد الأول عام ١١٩١م .(٢)

ويـــتوالى مـــنح هذه " العهود الإعفائية " على [p تعبير أستاذنا الدكتور سعيد عاشـــور ، في عهد كل من هنرى الثانى (١١٥٤ – ١١٨٩م) ، ريتـــــــشارد الأول (١١٨٩ – ١١٩٩م) جون (١١٩٩ – ١٢١٦) وهنري الثالـــث (١٢١٦ – ١٢٧٢م) ، لتشـــمل العديـــد مـــن المـــدن الإنجليزية مثل كمبردج Cambridge ، وينشيستر Winchester ، لنكولن Lincolon ، نونتجهام Nottingham ، اكسفورد Oxford ، وساوثهامبتون Southampton وغيرها .(٣)

---

(1) *Charter of Henry I to the citizens of London*, Stubbs, Select charters, pp.128 – 130 ; *The Constitutional Hist, of England*, Vol. I, pp.460 , 461 ;

ولمـــزيد مـــن التفاصيل عن ماهية العهد الذى منحه هنرى الأول لمواطنى مدينة لندن انظر الدراسة القيمة التى قام بها

Richardson, " Henry Is charter to London " The English Historical review, vol. XLII, No 165, January, 1977, pp.80 87 .

(٢) يجب تفسير العهود التى منحت للمدن الإنجليزية فى عهد ريتشاد الأول فى إطار السياسة المالية الـــتى انـــتهجها لجمع المال اللازم لتمويل مشاركته فى الحملة الصليبية الثالثة ، ونظراً لحاجته الماســـة للمـــال عرض كل شئ فى المملكة للبيع المناصب ، المقاطعات ، الألقاب ، الأراضى ، والعهود التى منحت للمدن انظر : زينب عبد المجيد ، المرجع السابق ، ص ١١٩ .

(3) *Charters of Boroughs granted by Henry II*, pp.195 – 199 .
Charters of Towns granted by Richard I, pp.259 – 262 .
Charters of Towns granted by John pp.305 – 312 .
Charters of Towns granted by Henry III, pp.366-369 .

كل هذه الوثائق موجودة ضمن مجموعات الوثائق الوارد ذكرها عند .

Stubbs, Select charters, pp.195-369 .

لامـــراء أن هذه العهود التى حصلت عليها المدن الإنجليزية فى القرنين الثانى عشـــر والثالـــث عشر [1]، كان لها أكبر الأثر فى تأكيد رسوخ مكانة هذه المدن ، وأن تصبح مراكز مزدهرة للنشاط التجارى والصناعى ، وتعتبر السنوات الأولى من القرن الثالث عشر علامة لحقبة مهمة فى تاريخ التجارة والصناعة لهذه المدن ، فقد ازدهرت مديـــنة ســـاوثهامبتون باعتبارها سوقا تجاريا مهما فى تجارة البحر الأبيض المتوسط ، والـــتى كانـــت حكراً على الجمهوريات الإيطالية . وبالطبع جاء هذا النشاط مصحوبا بظهور العديد من الأسواق فى المدن الإنجليزية مثل سوق ستوربريدج Stourbridge Fair ، وســـوق وينسيســـتر ، ونوتـــنجهام ، ســـتامفورد Stamford ، اكســـفورد ، وابنـــيجدون Abingdon وأماكـــن أخـــرى . أيضا واكب هذا الرواج التجارى ظهور

---

[1] تجدر الإشارة هنا أن المدن الإنجليزية التى تمتعت بنفوذ سياسى بمقتضى هذه العهود الملكية ، لا يعنى ذلك أنها تحررت من التزاماتها نحو السلطة السياسية أو أنها ذات سلطة سياسية مستقلة تماما عن التاج ، يتضح ذلك من خلال العهد الذى منحه ريتشارد الأول لمواطنى مدينة لنكولن ، صحيح أن أصـبح لهـم الحق فى اختيار حاكم مقاطعتهم ، بيد أنه جاء مرهونا بأن يراعى فى اختياره أن يكون الشخص الملائم والمؤهل لخدمة المدينة والملك . أيضا تمتعت مدينة نوتنجهام Nattingham بهذا الحق بمقتضى العهد الذى منحها إياه الملك جون ، ولكن الملك احتفظ بسلطته فى إبعاد الشخص الذى لا يراه ملائما . بما يتفق والفكر السياسى للملكية الإنجليزية .

ومـــن جهـــة أخـــرى نلاحـــظ فـــى ضوء العهود التى منحها الملك هنرى الثانى لمدن كمبريدج ، وينشيســـتر، لنكولن ، نوتنجهام، لندن ، واكسفورد أنه تحاشى منح هذه المدن حريات دائمة ، وإنما آثر أخذ مبالغ مالية مقابل استمرار الامتيازات والإعفاءات التى تتمتع بها من عام لعام . ومن ثم لم تخرج العهود التى منحت فى عهده فى مضمونها عن تلك التى منحت فى عهد هنرى الأول . على ســـبيل المـــثال فقـــد اشترط على مواطنى لندن دفع مبلغ مائة مارك مقابل حقهم فى اختيار حاكم مقاطعـــتهم . ومدينة لنكولن دفع مائتى مارك فضة وأربعة ذهب والنساجين فى اكسفورد دفع مبلغ اثنين مارك ذهب عن نقابتهم . ومواطنى كمبريدج مبلغ ثلاثمائة مارك فضة ومارك واحد ذهب ، وتعهـــد مواطنى هورن كاسثل Horncastle بدفع مبلغ تسعة وعشرون جنيه إسترلينى وثلاثة عشر شلن لزواج أبنة الملك مقابل العهد الذى منحه الملك للمدينة . لمزيد من التفاصيل انظر :

Charters of Boroughs granted by Henry II, P.195, in Stubbs, Select charters, pp.195 – 198; *The constitutions Hist. of England*, Vol. I, pp.701 , 702 .

نقابـــات الـــتجار The Merchant guilds ، ونقابـــات المهن والحـــــرف Graft guilds . [١] ولا داعـــى هنا للخوض فى تفاصيل ذلك فتلك قصة أخرى . بيد أن أهم مـــا يعنينا هنا فى المقام الأول أن ظهور النقابات فى إنجلترا قد حقق نوعاً من التماسك بين رجال المدن ، الذين تكاثرت اجتماعاتهم بهدف إعداد الإجراءات اللازمة لممارسة النشـــاط الـــتجارى ، وكـــان ذلـــك كافياً لمنحه مسلطة اجتماعية طالما تركت فى أيدى موظفـــى الإدارة المحلـــية ، والمطالبة بالإعفاء من المكوس فى جميع أنحاء المملكة . لتصـــبح عضـــوية نقابات التجار والحرفيين أمر لا مندوحة عنه وتتويجاً لمكانة سكان المـــدن ، إذ بمجرد تسجيل اسمه فى عضوية النقابة يتم إعفاءة من كافة الالتزامات التى يطالب بها عادة مستأجرى الضياع الإقطاعية [٢]

كـــان ذلـــك بدون منازع يمثل خطوة قوية تجاه الحرية التى تمتع بها المجتمع الإنجلـــيزى فـــيما بعد ، ولأن التاريخ السياسى انعكاسا ومرآة للتاريخ الاجتماعى ، فقد أســـفر هـــذا الحراك الاجتماعى الذى شهده المجتمع الإنجليزى فى القرنين الثانى عشر والثالـــث عشـــر باعتبارهما علامة بارزة فى مسيرة ظهور وتطور المدن ، عن ظهور طـــبقة ثالـــثة هـــى الطـــبقة المتوسطة ممثلة فى فرسان المقاطعة فى الريف ، وأرباب التجارة والصناعة من سكان المدن ، وهى طبقة لابد وأن ينظر إليها بعين الاعتبار من جانـــب التاج لما تمتلكه من مقومات الإغراء المادى فى مواجهة المتاعب المالية الملحة للـــتاج الإنجلـــيزى ، ففى القرن الثالث عشر – كما سبق أن ذكرنا – بلغ سكان المدن درجـــة من الثراء الناجم عن ممارسة التجارة والصناعة ، وامتلاك بعض الأراضى ، ليصـــبح أفراد هذه الطبقة بمثابة العمود الفقرى فى تاريخ الدستور الإنجليزى ، ومن ثم لـــيس ثمـــة غـــرابة أن يشارك ممثلى المدن أقرانهم فى الريف مهام الإدارة المحلية ،

---

(1) Traill & Mann, Op.Cit., pp.654 – 660 ;

ولمزيد من التفاصيل عن النقابات انظر :

Stubbs, *The Constitutional Hist of England*, Vol. I, pp.469 – 479 ;

سعيد عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، جـ٢ ، ص ١٠٧-١١١ .

(2) Stubbs, *The Constitutional Hist, of England*, vol. I, pp.482 , 483 .

والإنجـاز والـتعامل مع مندوبى الملك . ومن ثم كان لهذه الطبقة سواء فى الريف أو المدن خبرتها فى أمور الإدارة والحكم والإلمام بفكرة التمثيل النيابى .(١)

ومنذ وقت طويل والملك يتعامل مع ممثلى هذه الطبقة ، إذ جرت العادة عندما يرغـب الملـك فـى استقصـاء الأوضاع المحلية أن يقوم بإيفاد القضاة الجوالين أو الموظفيـن الملكيين إلى محاكم المقاطعات للتعامل مع الفرسان وكبار الملاك المجتمعين فـى كـل مقاطعة . وعندما يرغب فى الحصول على موافقة المدن على مطالبة المالية يقوم بإيفاد مبعوثين للتفاوض مع سكان كل مدينة على حدة . بيد أن هذه الطريقة كانت تتسـم بالـبطء ، ومن ثم فقد وجد ملوك إنجلترا فى القرن الثالث عشر أنه من الأفضل دعـوة ممثليـن عـن مختلف المناطق المحلية سواء فى الريف أو المدن للاجتماع مع مندوبيهم فى مكان محدد بدلاً من إيفادهم لجميع المقاطعات والمدن . (٢)

فـى ضـوء ذلـك نؤكـد ثانية أن فكرة التمثيل النيابى للطبقة المتوسطة إنما تضـرب بجذورهـا فـى نظام المحلفين ، الذين يتحدثون بصوت المنطقة فى محكمة المقاطعـة ، لأن نظام المحلفين ذاته يرتكز على مبدأ التمثيل النيابى ، حيث تتكون هيئة المحلفيـن من اثنى عشر من الرجال البارزين فى كل ضيعة إقطاعية ، وأربعة عن كل مديـنة ، بهدف تقديم تقرير للقضاة الجوالين أثناء انعقاد محكمة المقاطعة التى لابد وأن تنعقد فى حضورهم ، وذلك بمقتضى قوانين كلارندون Assize of clarendon التى أصدرها هنرى الثانى عام ١١٦٠م .(٣)

---

(1) Traill & Mann (eds.), Op.Cit., P.568 Lunt , Op.Cit., p.212 ; Willson, Op. Cit., P.149 ;

راوس ، التاريخ الإنجليزى ، ترجمة محمد مصطفى زيادة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٦ ن ص ٤٧ .

(2) Green, Op.Cit., vol.I, p.165, Willson, Op.Cit., P.149 ; Lunt, Op. Cit., p.214 ; Traill & Mann, OP. Cit., . 568 .

(٣) تتضمن قوانين كلارندون اثنين وعشرين فقرة ، تعتبر ذا أهمية فائقة فى تاريخ القضاء الإنجليزى ، نظـراً لما تضمنته من تغيرات فى إدارة العدالة ، والتى مهدت الطريق أمام الحكم النيابى فيما بعد لمزيد من التفاصيل انظر النص اللاتينى لهذه القوانين كاملة فى

Incipit Aassisa de clarenduna facta a rege Henrico, Scilicet secund, in Stubbs (ed.) Select charter, pp.170 – 173 .

علـــى أيـــة حـــال فإن أول الأمثلة على اجتماع مندوبى الملك وممثلى الطبقة المتوســـطة حدثت عام ١٢٠٤ ، عندما أمر الملك جون بدعوة اثنى عشر رجلاً من كل الموانـــئ الـــبحرية للاجتماع ومندوبى الملك فى مكان محدد لمناقشة الأوضاع الخاصة بالـــتجارة . وتكـــرر ذلـــك ثانية عام ١٢١٣ عندما أمر الملك جون أيضا بدعوة حكام المقاطعـــات وأربعـــة عـــن كل مدينة للاجتماع فى دير القديس البانس St.Albans ، بهـــدف تقديـــم تقريـــر عن الضرر والخسائر التى لحقت بالكنائس المحلية أثناء نزاع الملـــك مـــع الـــبابوية . بيد أن هذين الاجتماعيين لم يكونا أكثر من مجرد اجتماع فقط لهيئة المحلفين . [١]

وكمـــا ســـبق الإشـــارة بأن فكرة التمثيل النيابى للطبقة المتوسطة لم تكن شيئا مســـتحدثا ، ولكـــن الجديد الذى حدث بعد ذلك يكمن فى تمثيل هذه الطبقة فى المجلس الكبـــير للملك فى أوائل القرن الثالث عشر ، عندما وجد الملك أنه من الأفضل والأكثر أهمـــية دعوة ممثلين عن المناطق المحلية للاجتماع وأعضاء مجلسه لتقديم المشورة ، مـــثال ذلـــك أن الملك جون أعلن مرسوما ملكيا لحكام المقاطعات يأمرهم بدعوة أربعة من الفرسان من كل مقاطعة لحضور اجتماع الملك والمجلس الكبير فى مدينة اكسفورد بهدف ما أسماه " التشاور معنا بشأن أوضاع مملكتنا " .[٢]

ويعلـــق المـــؤرخ William Stubbs على دعوة الملك جون لحضور ممثلين عن المدن والمقاطعات بقوله: " هذه المرة الأولى التى يتم فيها دعوة ممثلى المقاطعات للمجلـــس العـــام للملكة ، على أساس مبدأ التمثيل النيابى الذى طالما استخدم لأغراض قضائية . بمعنى أن هؤلاء الرجال الأربعة وحاكمَ المقاطعة منذ القدم وهم يمثلون البلدة فـــى محكمة المقاطعة Shiremoot . والآن وبناءً على دعوة الملك جون أصبح هؤلاء الـــرجال الأربعة ، وحاكم المقاطعة يمثلون محكمة المقاطعة فى المجلس القومى – أى

---

(1) Stubbs, *The Constitutional Hist, of England*, Vol.II, p.697 ; Green Op.Cit., p.165 ; Willson, Op.Cit., p.149 ; Traill, Mann, OP.Cit., p.568 .
(2) Stubbs, *Select charters*, p.282 ; Green, Op.Cit., p.165 ; Willson, Op.Cit., p.149 ; Lunt, Op.Cit., p.215 .

المجلس الكبير – " [1] وهذا يؤكد بجلاء ما ذهبنا إليه من قبل بأن فكرة التمثيل النيابى قد وجدت أصلاً فى محكمة المقاطعة .

وبناءاً على مرسوم الملك جون لحكام المقاطعات لم يكن اجتماع اكسفورد المقترح أكثر من مجرد اجتماع للمجلس الكبير مع حضور فرسان المقاطعة . وبالرغم من أنه ليس مؤكداً ما إذا كان اجتماع المجلس الكبير الذى دعى الملك رسمياً لانعقاده، أو أى اجتماع آخر قد عقد فى التاريخ المحدد فإنه من المؤكد أن فكرة دعوة ممثلين عن فرسان المقاطعة للتشاور مع الملك ومجلسه إنما تنسب إلى الملك جون عام ١٢١٣ .[2]

بالإضافة إلى ذلك ليس غريبا أن يحظى عهد الملك جون (١١٩٩-١٢١٦م) بأهمية خاصة فى التاريخ السياسى الإنجليزى، فقد شهدت السنوات الأخيرة من حكمه إخفاقه التام فى إمكانية امتصاص غضب البارونات وإصرار صارم من جانبهم على تأكيد حقوقهم التى أقرها القانون الإقطاعى، وأعلن البارونات الثائرين أنهم سوف يقاتلون من أجل الحريات التى يتضمنها مرسوم هنرى الأول ، المستمدة من القانون الإقطاعى كما طبقه وليم الفاتح .[3] وجاءت الرغبة العامة والعارمة لهؤلاء الثائرين باستعادة هذه الحريات بمثابة السبب الحقيقى للصراع بين الملك والبارونات ، وتفاقم النزاع بين الجانبين بعد هزيمة الملك وحلفائه فى بوفييه على أيدى الملك الفرنسى عام ١٢١٤. وكيفما كان الأمر ، فإن طبقات الشعب الإنجليزى من البارونات ورجال الدين وأهل المدن اتفقت كلمتهم فى خريف عام ١٢١٤ على ضرورة المطالبة بتنظيم ما لهم وما عليهم تجاه الملك ، وفى رينميد Runnmede على ضفاف نهر التايمز وقع الملك على ما اصطلح على تسميته الماجنا كارتا أو العهد الأعظم . والتى استهدف البارونات من صياغتها التأكيد على ضرورة حماية حقوقهم وامتيازاتهم الإقطاعية ضد

---

(1) Stubbs, Op.Cit., P.282 ; *The Constitutional Hist, of England*, vol.II, P.697
(2) Lunt, Op.Cit., P.215 ; Willson, Op.Cit., P.149 ; Green , Op.Cit., P.165.
(3) " A. D 1100. AuG.5. charter of liberties Issued by Henry I. " *in stubbs, select charters*, pp.116 – 119 ;
زينب عبد المجيد ، المرجع السابق ، ص ٧٧ ، ٧٨ .

انــتهاكات الملــك وأســلافه . وتتمثل أهمية العهد الأعظم باعتبارها أولى القيود على السـلطة الملكــية المطلقة ، وإقرار مبدأ ضرورة احترام الملك للقانون الإقطاعى الذى يعتــبر كــل من الملك والبارونات حزبين متعاقدين فى إطار حقوق وواجبات إقطاعية متبادلة . (١)

لامــراء أن الماجــناكارتا تمــثل خطوة مهمة وفعالة فى مسيرة التأكيد الملكى علــى أهمــية وضرورة التمثيل النيابى للطبقة المتوسطة فى المجلس الكبير من جهة ، والتاريخ الدستورى لإنجلترا من جهة أخرى .

فقد نصت الفقرة (١٢) منها على "*يتعهد الملك بعدم فرض ضريبة الاسكوتاج أو الإعانــات الإقطاعــية علــى المملكة إلا بمشاورة المجلس العام للمملكة ، فيما عدا الأمــوال الإقطاعية الخاصة بافتدائنا من الأسر ، وتنصيب ابننا الأكبر فارس ، وزواج ابنتنا الكبرى . وبنفس هذا النهج تتخذ الإعانات الإقطاعية من مدينة لندن* ."

وجــاء فــى الفقرة (١٣) "*سوف تكون لمدينة لندن جميع الحريات التى كانت لهــا فــى الماضــى ، والاعفاء من المكوس براً وبحراً ، علاوة على ذلك سوف نمنح جميع المدن والبلدان والموانئ الأخرى جميع حرياتها والإعفاء من المكوس* "

وتضــمن الفقــرة (١٤) "*للحصول على المشورة العامة للمملكة بصدد تقدير المســاعدات الإقطاعــية فــيما عدا الحالات الثلاث المشار إليها آنفا –أو الأسكوتاج ، سوف ندعو رؤساء الأساقفة ، الأساقفة ، رؤساء الأديرة ، الأيرلات ، كبار البارونات، كــل علــى حــدة بناء على خطابات منا ، إضافة إلى ذلك سوف ندعو بشكل عام من خــلال حكام مقاطعاتنا وجميع نوابنا هؤلاء الذين يحوزون ضياعاً إقطاعية من التاج – الفرســان – للــتاريخ والمكان المحدد للاجتماع ، والذى يعقد فى غضون أربعين يوماً*

---

(١) تقــع الماجناكارتا فى واحد وستين فقرة ، ولمزيد من التفاصيل انظر النص اللاتينى الكامل لهذا العهد عند :

Stubbs, *select charters*, pp.292 – 302 ;

وكذلك الترجمة الإنجليزية لهذا النص عند :

Warren, *King John* (London, Second edition, 1978) pp.266 – 277 .

على الأقل من توجيه الدعوة ، وسف نحدد في جميع الخطابات سبب الاجتماع ، وأثناء الاجـتماع سوف يتم العمل وفقا لمشورة هؤلاء الحاضرين ، بغض النظر عن حضور جميع الذين تم دعوتهم . "[١]

وقبل أن يجف المواد الذى كتبت به الماجناكارتا نقض الملك جون شروطها وتنكر لمبادئها.[٢] ولكن فى ضوء هذا الصراع السافر بين الطرفين فإن المعارضة البارونية فى صراعها من أجل الحريات أى حرية الامتيازات الإقطاعية والكنيسة ، تكون قد ساهمت فى إرساء أحد الأسس اللازمة لإقامة حكومة دستورية فيما بعد .

ونترك عهد الملك جون جانباً ، ونمضى قدماً مع مسيرة تطور التمثيل النيابى للطبقة المتوسطة فى المجلس الكبير . ففى أثناء حكم الملك هنرى الثالث (١٢١٦- ١٢٧٢) أعلن الملك عام ١٢٢٦ مرسوما ملكياً بدعوة أربعة من فرسان كل مقاطعة بهدف التشاور السياسى حول التفسير المتنازع عليه لبعض بنود الماجناكارتا.[٣] وفى عام ١٢٢٧ تولى حكام المقاطعات فى محاكم المقاطعات مهمة انتخاب أربعة من الفرسان عن كل مقاطعة للاجتماع مع الملك ومجلسه الكبير . وجاء هؤلاء الفرسان بهدف تقديم تقرير بالشكاوى ضد حكام المقاطعات التى يمثلونها . وفى عام ١٢٥٤ تم انتخاب اثنين من الفرسان عن كل مقاطعة لحضور اجتماع المجلس الكبير فى ويستمنيستر ، بهدف تحديد المساعدة التى يجب أن ترسل للملك فى جاسكونى [٤]- إحدى الممتلكات الإنجليزية المتنازع عليها فى فرنسا – ومن أبرز الأمثلة فى عهد هنرى الثالث على هذه الاجتماعات التى شهدت حضور ممثلين عن الطبقة المتوسطة

---

(1) *Great charter of liberites* . 1215 in stubbs (ed.) select charters , pp.294 , 295 ; Warren, Op.Cit., pp.268, 269 .

(٢) لمزيد من التفاصيل عن مراحل الصراع بين الملك جون والبارونات انظر :
Annales londonienses, vol.I, P.16 ; William of Newburgh, *Historia Rerum Angligarum*, Vol.2, pp.217 , 218, Warren, Op.Cit., p.236 ;
زينب عبد المجيد ، المرجع السابق ، ص ٧٧ – ٨٣ .

(3) *Writ for the summong of four knights of the shire A.D. 1226*, in Stubbs, Op.Cit., p.353 .

(4) *Writ of summons for two knights of the shire to Grantan Aid, A.D. 1254*, in stubbs, Op.Cit., pp.365 , 366 .

سواء فرسان المقاطعة ، أو البرجوازية ، وقد وصفت بالبرلمانات من جانب المؤرخين المعاصـــرين والمحدثين على حد سواء ، هذين الاجتماعيين اللذين دعى لعقدهما زعيم المعارضـــة البارونـــية ســيمون مونـــتفورت Simon de Montfort أيرل ليسستر Leicester . الأول بعـــد هزيمة القوات الملكية أمام الأيرل سيمون وقواته فى معركة لويـــس Lewes فـــى الثانى عشر من مايو ١٢٦٤م . والتى أسفرت عن وقوع الملك وولـــى عهـــده الأمـــير إدوارد فى الأسر . وفى محاولة من جانب الأيرل لكسب تأييد المملكـــة ، دعـــى لعقـــد اجتماع ضم بارونات المملكة ، وأربعة من الفرسان عن كل مقاطعـــة . أما الاجتماع الثانى والذى حدث بعد أن دب النزاع فى صفوف المعارضة البارونـــية الـــثائرة من خلال النزاع بين الأيرل سيمون ومونتفورت ، وريتشارد ايرل جوسســـيتر Cloucester وبهـــدف تدعيم مركزة وشرعيته قام سيمون بعقد اجتماعه الـــثانى فـــى أوائل عام ١٢٦٥ ، وهو الاجتماع الذى حاز شهرة واسعة من جانب عدد لـــيس بالقليل من المؤرخين المحدثين ، ففى هذا الاجتماع مثلت المدن لأول مرة بإيفاد اثنين عن كل مدينة .[1]

---

(١)جاء عقد هذين الاجتماعيين انعكاسا للأوضاع الداخلية فى عهد هنرى الثالث ، حيث تورط الملك فى نزاع مرير مع البارونات بزعامة الأيرل سيمون مونتفورت ، مما دفع الثائرين من البارونات والملـــك على الدعوة لعقد اجتماع للمجلس الكبير فى اكسفورد عام ١٢٥٨ ، حيث قدم البارونات مطالـــبهم التى تجسدت فى إبعاد جميع الأجانب ، وتعيين لجنة مكونة من أربعة وعشرين عضوا نصـــفهم مـــن الجانب الملكى والآخر من البارونات ، والمطالبة بخطة للحكم يتم بمقتضاها نقل السلطة الكاملة من التاج إلى ممثلين عن البارونات يتولون السيطرة التامة على الإدارة ، وانتخاب حكام المقاطعات سنوياً ، وتجديدهم سنوياً ، وتعهد الملك بدعوة البرلمان – أى المجلس الكبير – للانعقاد ثلاث مرات فى العام على غرار ما كان يحدث فى عهد الفاتح . لينتهى ذلك بما عرف فى الـــتاريخ الإنجلـــيزى بشـــروط اكسفورد provisions of Oxford ، مما جعل بعض المؤرخين يطلقون على اجتماع اكسفورد اسم البرلمان المجنون لشدة وجرأة المطالب البارونية . وينتهى هذا الـــنزاع بهـــزيمة الجيش البارونى بعد فرار الأمير إدوارد من الأسر ، وقتل الأيرل سيمون فى معـــركة ايفشهام Evesham ، والاستسلام النهائى للبارونات عام ١٢٦٧. ولمزيد من التفاصيل انظر :

وتعلـيقاً على هذا الاجتماع الثانى للأيرل سيمون الذى شهد أول حضور نيابى عـن المـدن فأنه لم يكن أكثر من مجرد اجتماع ثورى للمعارضة البارونية ، فقد جاء انعكاسـا للأوضـاع السياسـية المـتردية أثناء حكم هنرى الثالث سواء فى الداخل أو الخـارج ، نتـيجة عدم استقرار الأوضاع فى جاسكونى ، وإخفاق هنرى فى استعادة أراضـيه فى فرنسا . وفى ضوء هذه الأوضاع السياسية حيث المعارضة البارونية فى أوج ذروتهـا ، بعـد وقوع الملك وولى عهده فى الأسر غداة معركة لويس فى الثالث عشـر من مايو ١٢٦٤ ، وانتقال مقاليد الحكم إلى أيدى الأيرل سيمون ، إلى أن تمكن الأمـير إدوارد مـن فـك قيود أسره فى الثامن والعشرين من مايو ١٢٦٥ ، وتحقيق الانتصار الملكى فى معركة ايفشهام فى الرابع عشر من أغسطس عام ١٢٦٥ . معنى ذلـك أن الملك وولى عهده قد بقيا فى الأسر لمدة تزيد على تسعة أشهر . وأن اجتماع الأيـرل الذى عقد فى العشرين من يناير ١٢٦٥ ، أى أثناء أسر الملك وولى عهده . قد اقتصر فى معظمه على فريق من البارونات الثائرين من مؤيدى الأيرل سيمون .

وفى ضوء الفكر السياسى للملكية الإنجليزية التى تقف بالمرصاد لأى محاولة قد تمثل أدنى انتهاك للسلطة الملكية المطلقة ، حتى فى الأوقات التى شهدت تردى هذه السـلطة ، فـإن ما اصطلح المؤرخون على تسميته بالبرلمان فى القرنين الثالث عشر والـرابع عشر لم يكن الأمر أكثر من مجرد اجتماع للمجلس الكبير للملك ، والذى بدأ يشـهد حضـور ممثليـن عن الطبقة المتوسطة حسب مشيئة التاج ، وبما يتفق وخدمة

Stubbs, Op. Cit., pp.369 – 389 ; *The chronicle of Bury st. Edmund's 1212-13* (London, 1964) pp.26-38 ; Matthew Paris, *English History from the year 1235 to 1273* (London, 1852) vol. I, p.194, Vol. III, PP.347 – 349 ; John Capgrave, *The chronicle of England* (London, 1858) pp.158-160 ;

أما المعلومات التى وردت فى المتن انظر :

Dietz, Op. Cit., p.84 ; Lunt, Op. Cit., p.215, Willson, Op. Cit., p.149 ; Vickers, Op. Cit., p.146 ; Stubbs, Op. Cit., pp.397 – 399 .

الأهــداف السياسية والمالية للتاج . ولم ينطبق ذلك بالطبع على اجتماع الأيرل سيمون مما يؤكد وجهة نظرنا بأنه لم يزد عن كونه اجتماع ثورى للمعارضة البارونية .

علــى أيــة حــال ، يمكــن تفسير رغبة التاج أثناء حكم هنرى الثالث بصدد حضــور نــواب عــن فرسان المقاطعة ، للحضور أمام المجلس الكبير للملك ، بأنها جــاءت مــثلما حــدث فــى الماضى استجابة لتحقيق أهداف إدارية ، والموافقة وليس التشــاور علــى الضــرائب المفروضة عليهم من قبل التاج ، ففى عام ١٢٥٤ - على ســبيل المــثال - كــان هنرى الثالث فى حاجة ماسة للمال لتغطية نفقات حملته على جاســكونى . ومــن واقع تجاربه السيئة فى الحصول على أموال إضافية ، وبالأحرى مســاعدات غــير إقطاعية ، رأى من الأفضل ضمان موافقة المقاطعات على ضريبة جديدة من خلال حضور ممثليهم من الفرسان . [١]

وفــى نهايــة حكم الملك هنرى الثالث أصبح حضور ممثلى الطبقة المتوسطة بهــدف الاجتماع مع الملك ومجلسه أمراً مسلماً به . بيد أن إرساء مبدأ التمثيل النيابى باعتــباره جزء ثابتا من السياسة الملكية يتضح بجلاء أثناء حكم الملك إدوارد الأول (١٢٧٢-١٣٠٧) . فقــد اســتهل فــترة حكمه بعقد أول برلمان عام - أو بعبارة أدق اجــتماع نــيابى للمجلس الكبير - فى الثانى والعشرين من أبريل عام ١٢٧٥م ، بهدف فــرض ضــريبة على الجلود الخام والصوف ، والذى يمثل الإنتاج الرئيسى للمملكة ، ومــن ثــم فقــد أصبح هدفا شهيا للضريبة أسالت لعاب ملوك إنجلترا منذ أوائل القرن الثالث عشر ، ففى عام ١١٩٤ تم الاستيلاء على كميات كبيرة منه بهدف تمويل الفدية اللازمة لإطلاق سراح الملك ريتشارد الأول من الأسر الألمانى أثناء عودته من الحملة الصــليبية الثالــثة . ولــذا كــان طبيعياً دعوة ممثلى الطبقة المتوسطة وخاصة التجار والمــدن التجارية " towns merchants " لحضور الاجتماع . بيد أن هذا الاجتماع لم تمثل فيه طبقة صغار رجال الدين .[٢]

(1) Stubbs, Select charters, p.365 ; Dietz, Op.Cit., p.88 ; Vickers, Op.Cit., p.146 .

(2)Lunt, Op.Cit., p.216 ; Dietz, Op.Cit., Vickers, Op.Cit., p.63 ; Willson, Op.Cit., p.149 ; Stubbs, Op.Cit., pp.440 , 441 ;

أيضـــا شهد عهد إدوارد الأول عام ١٢٨٣ انعقاد ما اصطلح المؤرخون على تســميته باســم بـــرلمان شيرســـبورى Shrewsbury . والذى انقسم إلى اجتماعيين منفصـــلين ، وبيـــنما بقى البارونات كما هم لمناقشة الموضوع الرئيس للاجتماع ممثلاً فى الحكم على ديفيد David أمير ويلز وإدانته ، أثر رجال الدين الانسحاب ، مبررين ذلـــك بـــأن مهـــامهم المقدسة لا تحتم عليهم المشاركة فى إراقة الدماء . فى حين ذهب ممـــثلى المـــدن إلى مدينة أكتون بيرنيل Acton Burnell لمناقشة قضايا التجارة .[1]
ويعلـــق المـــؤرخ William Stubbs على ما يسمى برلمان شيرسبورى بقوله : " أن هـــذا الاجـــتماع يختلف عن البرلمان العادى فى ناحيتين هامتين ، أولاً أنه لم يتضمن ممثليـــن عـــن القساوسة أو حتى الأساقفة . وثانياً أن ممثلى المدن تم دعوتهم بمراسيم مســتقلة وليس من خلال حكام المقاطعات كما جرت العادة . وأن محاكمة ديفيد وأدانته كانـــت مـــن خـــلال البارونات فقط . وأن ما يعرف باسم قانون أكتون بيرنيل قد شرع وشـــن فى الواقع من خلال الملك ومجلسه . ومع ذلك فقد أطلقت كلمة برلمان على هذا الاجتماع "[٢].

وعلـــى مدى العشرين عاماً التالية لعام ١٢٥٧ لم يتخلى الملك إدوارد الأول عن دعوة ممثلى الطبقة المتوسطة لحضور الاجتماعات الكبرى للمجلس الكبير والتىعرفت بالـــبرلمان مـــن جانـــب المؤرخيـــن [٣]. مما يعنى أن تجربة الملك إدوارد الأول مع الاجتماعات النيابية للأمة الإنجليزية لم تكن وليدة الاجتماع الشهير عام ١٢٩٥ .

ولمزيد من التفاصيل انظر الوثيقتين التاليتين

Summons of knights and Burgesses, A. D. 1275 .
Grant of Custonn on wool, woolfells and leather A.D. 1275,

وهاتين الوثيقتين ورد ذكرها كاملتين بالنص اللاتينى عند :

Stubbs, Op.Cit., pp.441 – 444 .

(1) Stubbs, Op.Cit., pp.456, 461 , 462 ; Powicke, *The thirteenth century 1216-1307* (Oxford , 1962) p.341, Tout, *An Advanced History of Great Britian* (London, 1912) p.191 ; Smith, Op.Cit., p.115 .

(2) Stubbs, Op.Cit., p.456 .

(3) Smith, Op.Cit., p.115, Tout, Op.Cit., p.191, Dietz, Op.Cit., p.88; Powicke, Op.Cit., p.341

وفـــى عام ١٢٩٥ دعى إدوارد الأول لعقد واحد من أهم المجالس النيابية التى عقـدت حـتى الآن ، بصـورة لـم تشهدها إنجلترا من قبل ، والذى ذاع صيته باسم الـبرلمان الكبير أو البرلمان النموذجى Model Parliament . إذ بالإضافة لأعضاء المجلـس الكبير من رؤساء الأساقفة ، رؤساء الأديرة ، الأساقفة ، البارونات ، تضمن ممثليـن عن الطبقة المتوسطة من فرسان المقاطعة والمدن ، بمعدل اثنان من الفرسان عـن كـل مقاطعـة واثـنان عن كل مدينة ، علاوة على قساوسة الكنائس الكاتدرائية والأبروشـية ، بـيد أن هـؤلاء القساوسة سرعان ما توقفوا عن الحضور بعد ذلك ، واثروا منح الضرائب الخاصة بهم للتاج من خلال مجالسهم الكنسية ، وترك مصالحهم الكهنوتـية الأخـرى لكـبار رجال الدين من أعضاء المجلس الكبير . وبانسحابهم من حضـور الـبرلمانات التالية حرموا من أن يصبحوا عنصراً فعالا فى البرلمان والذى أصبح فيما بعد السلطة العليا فى المملكة .(1)

ويتضـح هـدف الملـك إدوارد الأول من عقد هذا الاجتماع فى ثنايا ديباجة المرسـوم الملكـى للأعضاء الذين تم دعوتهم للحضور جاء فيه " للنظر والتعامل مع القضـايا الملحة والجوهرية لنا ومملكتهم ، وتقديم مشورتكم لنا . لأن ما يخص الجميع يجـب أن يكـون بموافقـة الجمـيع ، وأن الأخطار العامة يجب أن تكبح بالجـهود المتحدة ."(٢)

فى ضوء ذلك يجب تفسير الأسباب الحقيقة لعقد هذا الاجتماع النيابى للمجلس الكبـير عـام ١٢٩٥م فـى ضوء ظروف عصر الملك إدوارد الأول على المستويين الداخلـى والخـارجى . فعلـى المستوى الداخلى شهد عهد إدوارد الأول اتساع نطاق النشـاط التجارى ، وحركة البيع والشراء فى كل ميناء ، وازدهار التبادل التجارى مع المـناطق المجـاورة ، فـى الوقـت الذى تزايدت فيه أعباء الإدارة الملكية ، وازدياد

---

(1) Annales londonienses, Vol. I, p.85; *The chronicle of Bury St. Edmunds*, p.129 ; Stubbs, *The constitutional Hist, of England*, Vol. II, p.140; Stubbs, select charter, pp.477, 478, Hume, op.Cit, p.146 ; Smith, op.Cit, p.117 ; Dietz, op.Cit, p.89 ,

(2) Smith, Op.Cit., p.117 ; Dietz, Op.Cit., p.89 ; Tout, op.Cit, p.191 ; Hume, op.Cit, p.116, Hall & Albion, op.Cit, p.152.

المطالـــبة بتوفـــير سبل العدل والأمن بين الناس ، اقتضى ذلك بطبيعة الحال ضرورة إيجــاد مــنافذ جديدة للتمويل . وبنظرة ثاقبة رأى الملك أن أفضل السبل للحصول على الإيــراد القومى اللازم لتغطية الأعباء العامة للإدارة الملكية تتمثل فى الدعوة لعقد هذا الاجــتماع . لا ســيما وأنـــه لا يستطيع أمام هذه المطالب المتزايدة أن يعتمد فقط على مــوارده الإقطاعية من الضرائب الإقطاعية المنتظمة وغير المنتظمة ، وأموال ضريبة الاســكوتاج Scutage ، أو موارده من الضياع الملكية ، والإيرادات الملكية الموروثة. ومن ثم فقد ساهمت الأموال الناجمة عن المكوس الجمركية فى تلبية بعض الاحتياجات الملكــية ، مثلما حدث عام ١٢٧٥ عند وافق البرلمان – على حد تعبير المعاصرين – علــى منح إدوارد الأول كجزء من إيراد ثابت ومنتظم الأموال الناجمة عن الضرائب التى تقرر فرضها على تصدير الصوف والجلود الخام ، تجمع من كل موانئ التصدير فـــى إنجلترا ، ويلز ، وايرلندا لصالح الملك [١]. أيضا فرضت ضرائب على الاستيراد بمعدل اثنين شلن عن كل برميل ضخم من النبيذ الأجنبى ، وجنيه واحد على كل سلعة يــتم استيرادها . وعرفت هذه الضرائب أو الرسوم الجمركية باسم " Tunnage and Poundage" أى الضريبة النسبية التى تحصل على كل جنيه أو سلعة .[٢]

عــلاوة علــى ذلك فقد تلقى إدوارد الأول من خلال هذا المجلس النيابى تسع مــنح مالــية ، على فترات متقطعة بلغت قيمتها الإجمالية ما يعادل أربعمائة وخمسون ألــف جنــيه إسترلينى ، وجاءت هذه المنح كما يقول المؤرخ المعاصر جولدين سميث Coldwin Smith على شكل ضرائب مباشرة مشابهة لعشور صلاح الدين .[٣]

معنى ذلك أن الإيراد الملكى من الدخل الإقطاعى لم يعد كافيا فى عصر جعل إيراد التاجر الإنجليزى من تجارة النبيذ والصوف أضعاف ما يدخل خزانة البارون من

---

(1) *The chronicle of Bury st Edumund*, p.129 ; Stubbs, *select charters*, pp.440-444 ; Smith, op.Cit, pp.114, 115 , Dietz, op.Cit, p.89 .
(2) Smith, Op.Cit., p.115, Hall & Albion, Op.Cit., p.151 .
(3) Smith, Op.Cit., pp.114 , 115 ; Hume, Op.Cit, p. 116.

الإيجـــارات الإقطاعـــية ، وبالتالى فإن الثراء الذى يتمتع به التجار والطبقة المتوسطة عامة أصبح يمثل إغراء شديد للتاج المثقل بالأعباء المالية .(١)

وعلـــى المســـتوى الخـــارجى كان إدوارد الأول منغمساً فى حرب طويلة مع فرنســـا ، العـــدو اللـــدود للملكية الإنجليزية منذ الفتح النورمانى عام ١٠٦٦ ، وأيضا الحـــرب مع اسكتلندا ، وويلز ، بهدف توحيد الجزر البريطانية كلها فى مملكة واحدة ، علاوة على سلسلة من الأزمات التى عرضت سلام واستقرار المملكة للخطر . (٢)

ولأمـــراء أن دعوة ممثلى الطبقة المتوسطة من الفرسان والبرجوازية لحضور هذا الاجتماع ، إنما جاءت بهدف تلبية الاحتياجات المالية الملحة للتاج ، لتغطية نفقات الحـــرب مع فرنسا ، والتهديد الإسكتلندى من الشمال ، والحرب مع ويلز ، أى لمجرد الموافقـــة على الضرائب المقترحة من جانب الملك . مثلما حدث فى جميع الاجتماعات الـــتى شـــهدت حضور ممثلى هذه الطبقة على مدى الفترة من ١٢٧٥ – ١٢٩٠ ، فقد

---

(1) Smith, Op.Cit., pp.114 , 115 ; Hume, Op.Cit., p.116 ; Lunt, Op.Cit., p.217 ; Feiling , *A Hist. of England : from the coming of the English to 1938* (London, 1948) p.181 ;

سعداوى ، المرجع السابق ، ص ١٠١ .

(٢) يعلق المؤرخ الإنجليزى William Stubbs على الأخطار التى جابهت الملكية عام ١٠٩٥ بقوله : " بأنـــه بـــات واضحاً أمام تفاقم هذه الأخطار أن الملك لم يكن قادراً حتى شهر يونيه من عام ١٠٩٥ علـــى أتخاذ الإجراءات اللازمة لعقد اجتماع نيابى أى البرلمان ، ولذا فقد أعلن مرسوماً ملكـــياً بدعـــوة أعضاء المجلس الكبير من رؤساء الأساقفة ، الأساقفة ، رؤساء الأديرة ، رؤساء المؤسســـات الدينـــية ، الأيرلات ، البارونات ، والقضاة لحضور اجتماع المجلس فى الأول من أغســـطس ١٢٩٥ فى ويستمينستر ، بهدف مناقشة المقترحات الخاصة بالوساطة مع فرنسا ، من خـــلال اثنيـــن من مبعوثى البابا ، مفوضان بسلطة عقد الهدنة . وبالرغم من أن هذا الاجتماع لم يشهد حضور ممثلين عن العموم أى الطبقة المتوسطة ، لم يخرج عن كونه اجتماع للمجلس الكبير ، فقد صنف فى سجلات البرلمان باعتباره برلمان " الأمر الذى يؤكد صحة استنتاجاتنا عن ماهية بـــرلمانات هـــذه الفترة . وتجدر الإشارة أن البرلمان النموذجى قد عقد فى شهر نوفمبر من عام ١٢٩٥ . ولمزيد من التفاصيل انظر :

Stubbs, *Select charters*, pp.477, 478 ; John Capgrave, Op.Cit., pp.170 – 172 ; Dietz, Op.Cit., p.88 ; Tout, Op.Cit., p.192 ; Smith, Op.Cit., p.117

أسفر ما اصطلح المؤرخون على تسميته بالبرلمان النموذجى بعد مناقشة الطبقات الثلاث كل على حدة من البارونات ، كبار رجال الدين ، الطبقة المتوسطة ، اشتراك كل من الفرسان والبارونات فى دفع ضريبة بنسبة ١/١١ من ممتلكاتهم ، والبرجوازية نسبة السبع ، ورجال الدين العشر ، ومن الجدير بالذكر أن فرسان المقاطعة منذ تمثيلهم فى المجلس الكبير – البرلمان فيما بعد – وهم يعملون بالاشتراك مع أقرانهم من ملاك الأراضى أى البارونات . لأن مجلس العموم الذى تكون فى القرن التالى من الفرسان والبرجوازية لم يكن قد ظهر بعد . وعن مغزى اندماج هاتين الطبقتين أى الفرسان والبرجوازية ، كانت الأخيرة تمثل طبقة اجتماعية جديدة على درجة عالية من الثراء ، ولكن ينقصها المكانة والهيبة اللازمة لتكوين مكانة سياسية مستقلة وفعالة ، فى حين كان فرسان المقاطعة من نفس النسيج الاجتماعى لبارونات المجلس الكبير . وانضمامهم النهائى مع ممثلى المدن أعطى لهاتين الطبقتين المكانة والتأثير السياسى الفعال ، الذى لم يكن من المستطاع تحقيقه بأية طريقة أخرى . وفى عهد إدوارد الأول لم تكن ملامح هذا الانضمام قد اتضحت بعد .[١]

لا مراء أنه باستثناء تلبية الاحتياجات المالية الملحة للتاج لم يسفر الاجتماع الكبير عام ١٢٩٥م عن اتخاذ أى أجراء حاسم ، لأن إدوارد الأول لم يعتزم بدعوته لهذا الإجتماع إرساء تقليد سياسى دائم ، أو منحه سلطة حقيقة فيما عدا توفير الاعتمادات المالية للتاج ، وأن يكون ذلك بموافقة جميع رعاياه . علاوة على ذلك لم يصبح حضور ممثلى الطبقة المتوسطة تقليداً دائما فى الاجتماعات النيابية التالية ؛ إذ نجد حوالى اثنا عشر اجتماعا من الاجتماعات النيابية العشرين والتى عقدت بعد عام

---

(١) فى ضوء المراسيم الخاصة بالبرلمان النموذجى ، تم توجيه خطابات مباشرة من الملك لدعوة كل من رؤساء أسقفيتى كانتر برى ويورك ، ومقدم الاسبتارية ، واثنان وأربعون من رؤساء الأديرة ، والأساقفة ، وأحد عشر أيرل ، وثلاثة وخمسون من البارونات ، كبير القضاة ، ثمانى وثلاثون قاضيا ، وآخرون من القضاة الجوالين ، وأعضاء وموظفى المجلس لمزيد من التفاصيل عن وثائق هذا الاجتماع انظر :

Stubbs, *Select charters*, pp.479 – 482 ; smith, Op.Cit., p.117 ; Lunt, Op.Cit., p.216, Hall and Albion, Op.Cit., pp.153, 154 .

١٢٩٥ لـم تشهد حضور ممثلين عن المقاطعات أو المدن . وثلاث فقط هى التى حذت نمـوذج اجـتماع ١٢٩٥ . وعلـى حـد تعبير المؤرخ سميث كان الاجتماع الكبير أو الـبرلمان الـنموذجى بمثابة خطوة على مسار طويل من الإجراءات والممارسات التى أرست تدريجيا مبدأ ضرورة وأهمية مشاورة الطبقة المتوسطة فى البرلمان . (١)

وتعلـيقا على نعت الاجتماع الكبير عام ١٢٩٥ باسم البرلمان النموذجى يقول المؤرخ الإنجليزى المعاصر لونت Lunt " أن اصطلاح البرلمان النموذجى يعد تعبيراً مضـللاً بعـض الشئ ، لأنه لم يصبح نموذجاً دائما تحتذى به جميع المجالس النيابية الكبرى التى عقدت فيما بعد . لأنه لم يتضمن حضور تلك الفئة من صغار رجال الدين مـن قساوسـة الكنائس الأبروشية أو الكاتدرائية ، الذين توقفوا عن الحضور بعد هذا الـبرلمان ، وآثـروا مـنح الضرائب الخاصة بهم من خلال مجامعهم الكنسية ، وترك الـتعامل بصـدد مصـالحهم الكنسية الأخرى لكبار رجال الدين من أعضاء المجـلس الكبير . "(٢)

ويضيف المؤرخ الإنجليزى المعاصر ويلسون Willson مؤكداً ذلك بقوله : " بأنـه لـيس ثمـة شـئ نموذجى فى هذا البرلمان باستثناء أنه ضم ممثلين عن جميع الطبقات التى ظهرت فى البرلمانات التالية فى العصور الوسطى . "(٣) وفى ضوء هذه الدراسة فإننا نتفق مع هذين المؤرخين .

وعـن طبيعة دور الطبقة المتوسطة فى البرلمانات التى عقدت فى عهد إدوارد الأول ، نـرى أن سـلطة ومجال عملى ممثلى هذه الطبقة جاءت محددة وهامشية وفى أضـيق الحدود . فمن خلال اجتماع الأعضاء جميعا فى قاعة واحدة ، يقف ممثلى هذه الطبقة فى مؤخرة القاعة مجرد مستمعين ، مغالاة فى إبداء الاحترام والتقدير . حيـث يتشاور الملك معهم بصدد الضرائب المقترحة فقط ، والوقف على حالة الرأى العام فى المـناطق المحلـية ، وأحـيانا بصدد القوانين التى ينبغى إعدادها . ثم انصرافهم بعد

---

(1) Smith, Op.Cit., p.118 ; Dietz, Op.Cit., p.89 .
(2) Lunt, Op.Cit., p.216 .
(3) Willson, Op.Cit., p.149 . حاشية رقم (٥)

تسـجيل موافقـتهم علـى الضـرائب المطلوبـة منهم ، باعتبار ذلك الهدف الرئيسى لحضورهم ، تاركين الملك ومجلسه لقبول نصيحتهم أو رفضها . بينما البرلمان مستمر فـى الانعقـاد بعد ذهابهم . وقد يبدأ المجلس فى العمل قبل حضورهم ، ولا سيما وأن حضـورهم لـم يكن مفروضاً عليهم من الناحية القانونية ، لأنهم خارج شريحة التبعية الإقطاعـية للملـك . بيد أن الشئ الوحيد الذى كان باستطاعة ممثلى الطبقة المتوسطة القـيام بـه يتمـثل فـى تقديـم الالتماسات أو الشكاوى للملك سواء كانت شخصية أو جماعية. ومن خلال هذا المنفذ استطاعوا تدريجيا المشاركة فى العمل التشريعى . (١)

وتقـدم الالتماسات للملك بدون مساندة كبار البارونات فى المجلس كما جرت العادة ، للبت فى شكاوى عامة أو فردية ، وإذا حظى الالتماس بموافقة الملك يتم إعداد وصياغة القانون الذى يستمد بنوده من مضمون الالتماس . (٢)

---

(1) Smith, Op.Cit., p.150 ; Powiche, Op.Cit., pp.344, 345 ; Green , Op.Cit., p.166 .

ولمزيد من التفاصيل عن ماهية الالتماسات المقدمة من جانب ممثلى الطبقة المتوسطة فى البرلمانات التى عقدت على مدى الفترة من ١٢٩٠ – ١٣٠٧ انظر الدراسة القيمة التى قام بها

Haskins, " The petitions of Representatives in the Parliaments of Edward I" in *E. H. R*, Vol. L III, No, CCIX – January 1938, pp.1 –20 .

(٢) يذكر المؤرخ Haskins أن الشكاوى المقدمة من النواب فى المجلس الكبير كانت تقدم باسم أى شـخص مـن السـبعة وثلاثين مقاطعة التى اعتادت إرسال ممثلين عنها إلى البرلمان فى الفترة من ١٢٩٠ – ١٣٠٧ ، وأيضـا باسم أى من المدن المائة وخمسة وستون المعروفة بإرسال ممثلين عنها أثناء هذه الحقبة . وأيضا باسم الأفراد ، ولا سيما وأن هناك مرسوما ملكيا أعلن فى الثالث عشر من أكتوبر عام ١٢٨٩ يحث كل من لديه شكوى ضد وزراء ونواب الملك يجب أن يتقدم بها . وبالفعل تم تشكيل لجنة لسماع هذه الشكاوى التى كانت فى معظمها موجهة ضد موظفى الملك . وقدمت الشكاوى من جميع الطبقات الممثلة فى المجلس الكبير ، البارونات ، الفرسان ، البرجوازية ، الأساقفة ، رؤساء الأديـرة ، المؤسسـات الدينية ، ويقدر المؤرخ عدد الشكاوى التى قدمت على مدى الفترة من القرن الثالـث عشر إلى الخامس عشر بحوالى عشرين ألف . وقد تراوحت بين الأذن بإقامة سوق أو منح أرض ، مناصب ، حق التصويت ، عدم دفع ديون أو أجور الخ ، لمزيد من التفاصيل انظر :

Haskins, Op.Cit., PP.7 , 8 ; Smith, Op.Cit., P.118, Willson, Op.Cit., P.150 .

وفـــى ضوء ذلك أصبح حضور ممثلى الطبقة المتوسطة فى المجلس الكبير – الـــبرلمان فيما بعد – أمراً لا مندوحة عنه ، ففى هذا العصر الذى شهد سوء الطرق ، وانعـــدام وسائل الاتصال السريع ، لا يستطيع الملك الوقوف على حالة الرأى العام فى المقاطعـــات بـــدون حضـــور ممثلى هذه الطبقة . ومن هنا تبدو أهمية المعلومات التى تســديها، علاوة على أن حضور ممثلين عن جميع مناطق المملكة فى اجتماع عام لابد وأن يكـــون فرصة سانحة تجعل الأمر برمته رهن إشارة الملك ، والذى يتعذر تحقيقه بأية وسيلة أخرى . (١)

وإذا كـــان الهـــدف الأساســـى للـــتاج من دعوة ممثلين عن الطبقة المتوسطة لحضور اجتماع المجلس الكبير للملك يتمثل فى الموافقة على الضرائب المقترحة ، إلا أن المطالـــب المالية للتاج لم تلق دوماً الاستجابة من رعاياه ، فقد حدث بعد عامين من الاجـــتماع الشـــهير عام ١٢٩٥ حادثة على جانب كبير من الأهمية فى مسيرة التطور الـــبرلمانى فيما بعد . ففى عام ١٢٩٧ كان الملك إدوارد الأول فى حاجة ماسة لتمويل حملاتـــه العسكرية المعتادة فى فرنسا واسكتلندا . وعندما طالب بفرض ضرائب باهظة ســـرعان مـــا اصـــطدم بصـــخرة المعارضة البارونية . وفى الاجتماع الذى عقد فى ســـالزبورى وكالعـــادة وصف بالبرلمان من جانب المؤرخين ، تراءت مشاهد رد فعل عنـــيف مـــن قـــبل مجموعة بارونية تحدت الأوامر الملكية بصدد المشاركة فى الحملة العســـكرية فـــى جاسكونى وفلاندرز ، وأبدى العديد من البارونات استياءهم للضرائب المتتالية التى فرضت عليهم ، ورفض رجال الدين بناءاً على أمر البابا بونيفاس الثامن Boniface VIII (١٢٩٤ – ١٣٠٣) دفـــع أيـــة ضرائب بدون إذن البابوية . أيضا شهد هذا الاجتماع استياء التجار للابتزازات الملكية المجحفة على تصديرهم للصوف ، حيـــث قدرت الضريبة المفروضة بحوالى أربعين شلن على كل جوال صوف ، والتى تعادل ثلث القيمة . (١)

---

(1) Lunt, Op.Cit., P.218 .

(1) *The chronicle of Bury St Edmunds*, p.138 ; Stubbs, *The constitution Hist, of England*, Vol. II, pp.160 , 161 ; Select charters, PP.482, 483 ; tout, Op.Cit., P.193 ; Smith, Op.Cit., p.119 ; Ashely, *Great Britain to 1688* (Michigan, 1961) P.124 .

وأثــناء غياب إدوارد الأول فى القارة قام – البرلمان – بإعادة إعلان الماجنا كارتــا ، والامتــيازات والحــريات التى سبق وتعهد بها أسلافه ، وضرورة مراعاتها بــدون أدنـــى انتهاك لأى من بنودها . واضطر الملك فى نوفمبر عام ١٢٩٨ للموافقة علـــى ما يعرف باسم إقرار العهد Confirmatio cartarum . والذى نص فى الفقرة السادســـة منه على " يتعهد الملك من الآن فصاعداً بعدم فرض أى إعانات أو ضرائب أو هـــبات إلا بالموافقة العامة لجميع المملكة ، وللصالح العام للمملكة فيما عدا الإعانات والضرائب الإقطاعية القديمة والمعتادة " (٢)

---

(٢)يتضمن المرسوم الملكى الخاص بإقرار العهد سبع بنود هى كالتالى :

أولاً : إدوارد ، بمباركة الرب ، ملك إنجلترا ، وسيد أيرلندا ، ودوق اكوتين ، إلى جميع الذين سوف يســمعون أو يــرون هذا المرسوم ، التحيات ، أنكم تعلمون أننا بمباركة الرب والكنيسة المقدسة ، ولصـــالح جميع مملكتنا ، منحنا من أجلنا وأجل ورثتنا هذا العهد الأعظم للحريات ، وقانون الغابة charter of the forest ، اللتيــن تــم منحهما بالموافقة العامة لجميع المملكة فى عهد أبانا الملك هنرى . هذه العهود يجب أن تراعى فى كل بنودها بدون انتهاك ، وسوف نرسل هذه العهود موقعة بختمنا إلى قضاتنا ، وجميع حكام مقاطعاتنا ، وسائر نوابنا ، وكافة مدننا فى جميع أنحاء المملكة مع مراسيمنا التى تتضمن ذلك ، لكى يقوموا بإعلانها ، وأن يعلنوا للشعب أنه سوف يتم مراعاتها من جميع النواحى . وأن قضاتنا وحكام المقاطعات والموظفون ، والذين يقع على عاتقهم إدارة القانون فـــى مملكتنا سوف يضعوا هذه القوانين المذكورة نصب أعينهم فى الدفاع وإصدار الأحكام . ومن البديهى أن يكون كل من العهد الأعظم باعتباره القانون العام ، وقانون الغابة لصالح شعبنا .

ثانياً : أننا نتعهد إذا صدر أى حكم من الآن فصاعداً ، مخالفا لبنود العهود المذكورة ، من قبل قضاتنا أو أى شخص آخر من وزرائنا ، سوف يتم محاكمتهم بمقتضى بنود العهود السالفة ، وحينئذ يفقد منصبه وحيازته .

ثالثاً : سوف نقوم بإرسال هذه العهود الموقعة بختمنا لإيداعها فى الكنائس الكاتدرائية فى جميع أنحاء مملكتنا ، على أن تقرأ أمام الشعب مرتين فى العام .

رابعــاً : يجــب أن يعلن رؤساء الأساقفة والأساقفة عقوبة الحرمان الكنسى ضد جميع الذين يتسببون بــالقول والفعل والمشورة ، فى انتهاك أو تجاوز أى من بنود العهود المشار إليها . وأن تعلن هذه العقوبـــات مرتيــن فى العام ، وتذاع من خلال الكهنة المشار إليهم . وإذا حدث أن تهاون أى من رجال الدين هؤلاء فى الإدانة بالعقوبات السالفة ، حينئذ يكون رؤساء أساقفة كانتر برى ويورك – كما جرت العادة – هما الملائمين لتوجيه اللوم لهؤلاء ، وإرغامهم على الإذعان للإدانة .

وبالــرغم من أن إدوارد الأول لم يراع تماما ما وعد به ، إلا أن أهمية أحداث عــام ١٢٩٧ – فــى ضوء المرسوم السابق – تؤكد بجلاء أنه تقرر من الآن فصاعدا عــدم الموافقــة علــى مــنح أيــة ضــرائب غير إقطاعية بدون موافقة ممثلى الطبقة المتوســطة. وبالتالى تأكيد دعوة ممثلى هذه الطبقة لحضور اجتماعات المجلس الكبير للملــك . وفــى ضــوء الــثراء المالى لهذه الطبقة أصبحت موافقة ممثليها على منح الضــرائب المفروضــة عليهم من قبل الملك ، سلاحا يستخدم مقابل انتزاع الامتيازات والســلطات المرغوبة من الملك . بيد أن دلائل ذلك لم تتضح فى عهد إدوارد الأول ،

خامســاً : نظــراً لخــوف الكثيرين من شعبنا من الضرائب والإعانات التى كانت تقدم من أجلنا فى الماضى بشأن حروبنا والقضايا الأخرى . ويؤدونها عن طيب خاطر ، قد أصبحت عبئاً عليهم وعلى ورثتهم ، كما هو موجود فى السجلات . وعلى نفس النمط فإن الضرائب التى تؤخذ فى جميع أنحاء المملكــة مــن خــلال وزرائنا ، ومنحت من أجلنا نحن وورثتنا ، ومن ثم فإننا سوف لا نجعل هذه الضــرائب والإعانات تتحول إلى تقليد يحاكى أى شئ أتخذ فى الماضى ، وربما وجد فى السجل أو بأى أسلوب آخر .

سادساً : إضافة إلى ذلك فإننا نوافق باسمنا واسم ورثتنا ، أيضا لرؤساء الأساقفة ، الأساقفة ، رؤساء الأديرة ،وسائر رجال الكنيسة المقدسة ، وأيضا الأيرلات ، البارونات ، وجميع طوائف المملكة ، بأنه مــن الآن فصاعدا سوف لا نتبع هذا الأسلوب فى الضرائب فى مملكتنا ، إلا بالموافقة العامة لجميع المملكة ، ومن أجل الصالح العام للمملكة ، فيما عدا الإعانات والضرائب الإقطاعية القديمة والمعتادة

سابعاً : حدث كثيراً أن معظم طوائف المملكة وجدوا أنفسهم يئنون من وطأة المكوس على الصوف ، لــذا يــبدو بديهيا فى ضوء ضريبة تقدر بحوالى أربعين شلن على كل جوال صوف أن يلتمسوا إلينا للتحرر من ذلك ، وإننا استجابة لالتماسهم سوف نحررهم من ذلك ، ونتعهد بعدم تكرار ذلك مستقبلاً ، أو أى شئ آخر بدون موافقتهم العامة ، وبإرادتهم ، فيما عدا ما كان يمنح لنا ورثتنا من مكوس على الصــوف والجلود من قبل . ونصدق على ذلك من خلال خطاباتنا . وتم منح وإقرار ذلك فى chent فــى الــيوم الخامس من نوفمبر فى العام الخامس والعشرين من ولايتنا . هذا وقد اعتمدنا هنا على الترجمة الإنجليزية للنص اللاتينى كما ورد ذكرهما عند المؤرخ :

Stubbs, Select charters, p.490 – 493 ; *The chronicle of Bury St Edmunds*, pp.138, 139.

لتشـــهد القـــرون التالية إصرار الملكية الإنجليزية على ما هو أكثر من الدخل العادى ، وتطلع البرلمان لما هو أكثر من صلاحياته العادية .(١)

بـــيد أن عـــدم مراعاة إدوارد الأول لمرسوم عام ١٢٩٧ (٢)، يجب تفسيره فى ضـــوء الوضع السياسى للملكية الإنجليزية من جهة ، والعلاقات بين الملكية الإنجليزية والـــبابوية فـــى العقد الأخير من حكم إدوارد الأول من جهة أخرى . فقد انغمس الملك فـــى رحـــى الحـــرب مع الملك الفرنسى فيليب الرابع بسبب الممتلكات الإنجليزية فى فرنســـا ، والمتاعـــب الـــناجمة عن العرش الاسكتلندى بعد عام ١٢٩٠ ، وحث البابا بونـــيفاس الثامـــن الملكيـــن المتنازعيـــن علـــى قبول وساطته ، من منطلق أيدلوجيته بضرورة سمو السلطة الروحية على السلطة الدنيوية ، فى صيغة مشددة لم تستخدم من قـــبل أى بابـــا آخر منذ بابوية انوسنت الثالث (١١٩٨ – ١٢١٦) . ورفض الملكين قـــبول وســـاطته . وفـــى الرابع والعشرين من نوفمبر عام ١٢٩٦ أعلن البابا بونيفاس الثامـــن مرســـومة الشهير clericis laicos ، الذى نص على منع رجال الدين فى أى مكـــان مـــن دفـــع أى ضرائب عن إيراداتهم الكنسية للحكام العلمانيين بدون موافـــقة البابوية (٣)

وصـــادف هـــذا التحريم البابوى ترحيباً من رجال الدين الإنجليز الذين يئنون آنذاك تحت وطأة الضرائب المتتالية على مدى السنوات الثلاث الماضية . وتحت قيادة رئـــيس أســـاقفة كانـــتر برى الذى أعلن للملك استحالة تجاهل الأمر البابوى ، رفضوا

---

(1) Smith, Op.Cit., pp.119, 120 ; Lunt, Op.Cit., p.219 .

(٢) من الجدير بالذكر أن إدوارد الأول قد حنث بهذا المرسوم أكثر من مرة . لذا فقد تم أقرار التأكيد النهائى على هذا المرسوم فى البرلمان الذى عقد فى لنكولن Lincoln فى الرابع عشر من فبراير عام ١٣٠١ . لمزيد من التفاصيل أنظر :

The chronicle of Bury St. Edmunds, pp.140, 141 ; Stubbs, Select charters, pp.490, 495; The Constitutional Hist of England, Vol. II, p.163

(3) John Capgrave, Op.Cit, pp.170, 171 ; Stubbs, Select, Charters, p.483 ; Smith, Op.Cit., p.121, Powicke, Op.Cit., p.320 .

ولمزيد من التفاصيل حول مشكلة العرش الاسكتلندى انظر :

Capgrave, Op.Cit., p. 171 ;

زينب عبد المجيد ، المرجع السابق ، ص ٢٣٠ ، حاشية رقم (٣)

الإذعــان للمطالب الملكية بدفع نسبة الخمس من إيراداتهم استنادا للمرسوم البابوى عام ١٢٩٦ . وأعلــنوا أنهــم يديــنون بالطاعة للسلطتين الملكية والبابوية ، ولكنهم يدينون بالطاعــة أكــثر للسلطة الروحية . وفى فرنسا منع الملك الفرنسى فيليب الرابع خروج الأموال من المملكة بدون الموافقة الملكية . وفى إنجلترا اعتبر إدوارد الأول معارضيه مــن رجال الدين مارقين عن القانون ، ووضعهم خارج حماية المحاكم الملكية والقانون العلمــانى . ممــا اضــطر معظم رجال الدين للإذعان للملك بدفع ضريبة الخمس التى ســبق أن طالب بها . فى حين تمت مصادرة أموال الذين رفضوا دفع هذه الضريبة . واضــطر الــبابا بونــيفاس الثامن بتأثير معارضة ملكى فرنسا وإنجلترا للتراجع عن مرسومه المتشدد ، بتعديل بنوده ، حين سمح لرجال الدين بتقديم الهبات للملك بدلاً من الضــرائب . بل وإلغاء مرسوم عام ١٢٩٦ تماما فى غضون عام تقريبا . وأسفر هذا الــنزاع بيــن رجــال الدين والملك بصدد الضرائب الملكية ، عن انضمام رجال الدين لجانــب المعارضـــة البارونية فى الصراع من أجل تأكيد القوانين ، لينتهى النزاع بين الملــك ومعارضــيه بالانتصار التام للملك والبابوية ، حين أعلن للبابا كليمنت الخامس Clement V (١٣٠٥-١٣١٣) فــور ارتقائه الكرسى الرسولى تبرئة إدوارد الأول مــن القســم الــذى اتخــذه بشــأن إقــرار القوانيــن عام ١٢٩٧ ، وإعفاء وينشيلسى Winchelsey رئيس أساقفة كانتر برى من منصبه باعتباره مسئولا بدرجة كبيرة عن إثــارة المعارضة الكهنوتية والبارونية ضد الملك عام ١٢٩٧ . وأمر البابا رجال الدين الإنجلــيز بــأن يدفعــوا للملــك ضريبة بنسبة العشر لمدة سبع سنوات . وتعبيراً عن الامتــنان سمح إدوارد الأول للبابا بفرض ضريبة جديدة على رجال الدين الإنجليز فى الجــزر البريطانــية لمــدة ثــلاث سنوات ، ليجد رجال الدين أنفسهم بين شقى رحى الاحتياجات المالية للبابوية والملكية .[١]

---

(1) *The Chronicle of Bury St. Edmunds*, pp.151-154 ; Stubbs, *The constitution Hist. of England*, Vol. II, pp.165-166 ; *Select charters*, p.489 ; Smith, Op.Cit.. p.122. Lunt, Op.Cit., p.221 ; Feiling, Op.Cit., pp.183, 184 .

ويـــأبى عهـــد إدوارد الأول أن يأذن بالمغيب قبل أن يشهد إزاحة الستار عن ارتفـــاع صـــيحة العـــداء الشعبى من جانب العلمانيين والكنسيين على السياسة المالية للبابوية . وفى الاجتماع الذى عقد عام ١٣٠٧، والذى اصطلح المؤرخون على تسميته باســم بـــرلمان كارســـيل Carsile . ناشـــد المجـــتمعون مـــن البارونات والفرسان والـــبرجوازية الملك لوضع نهاية للتجاوزات المالية للبابوية ، ومنع الجابى البابوى وليم تيســـتا William Testa ، الـــذى اســـتدعى للمثول أمام المجتمعين ، من جباية أى ضـــرائب أخرى يأمر بها البابا . وبعد انتهاء هذا البرلمان قام الملك من منطلق التزامه باتفاقـــه الســـابق مع البابا كليمنت الخامس بإلغاء قرار المجتمعين بصدد منع الضريبة الـــتى فرضت من قبل هذا البابا، وموافقة الملك على فرض ضريبة جديدة على رجال الديـــن فـــى الجـــزر البريطانـــية . والـــتى عرفـــت باسم Annates أى الملحقات أو الإضافات، وساند بشدة قرار المجتمعين من البارونات والايرلات ورجال الدين وسائر طوائـــف المملكـــة ، وبشأن عدم جباية أى أموال أخرى لم تكن تؤدى فى الماضى إلى روما . [١]

لا مراء أن هذا القرار كان له أكبر الأثر فى وقف الابتزازات المالية البابوية، الـــتى استمرت بدون انقطاع لمدة تربو عن نصف قرن ، لذا يعتبر علامة بارزة ونقطة تحـــول مهمـــة فى تطور المعارضة الشعبية الإنجليزية تجاه السياسة المالية للبابوية ، وبدايـــة لسلسلة من القوانين الهامة المضادة للبابوية ، التى شرعت بواسطة – البرلمان – أثـــناء القرن الرابع عشر ، هذا القرن الذى شهد نهاية الزعامة البابوية فى العصور الوســـطى ، حيـــث اتخـــذ البابا مأواه فى أفينون Avignon بفرنسا لفترة امتدت زهاء سبعون عاماً فيما اصطلح على تسميته الأسر البابوى . [٢]

---

(1) Stubbs, *The Constitutional His. of England,* Vol. II, p.170 ; Smith, Op.Cit., p.122 ; Lunt, Op.Cit., P.222 ;

ولمزيد من التفاصيل عن هذا البرلمان انظر الدراسة التحليلية التى قام بها كل من :

Richardson & Sayles " The parliament of Garlisle, 1307- some New Documents " in *E. H. R.*, Vol. LIII, 1938, PP.425-437 .

(2) Smith, Op.Cit., p.122, Lunt, Op.Cit., p.222 ; Green, Op.Cit., p.166 ; Asheley, Op.Cit., p.125 .

وفــى نهايــة هذا العرض للغوص فى أعماق جذور فكرة البرلمان الإنجليزى مــنذ الــتاريخ الــباكر للملكــية الأنجلونورمانــية حتى الاجتماع الكبير أو ما اصطلح المؤرخــون علــى تسميته باسم البرلمان النموذجى عام ١٢٩٥ . على مدى هذه الفترة الــتى شــهدت إرساء اللبنة الأولى فى تكوين البرلمان الإنجليزى ، نقول أنه فى ضوء الفكــر السياســى للملكــية الإنجلــيزية ، فإن فكرة دعوة ممثلين عن الطبقة المتوسطة لحضــور اجتماع المجلس الكبير للملك جاءت ملائمة لخدمة المصالح الملكية أكثر من الــرعايا . فقد وجد النواب أنفسهم يتكبدون رحلات مضنية وباهظة التكاليف لحضور اجــتماع الملــك فى قصر ويستمنيستر . فقد قدرت نفقات تمويل رحلة ممثلى الفرسان والــبرجوازية ، بما يعادل اثنين شلن يوميا للنائب عن المدينة ، وأربعة شلن للفارس . ومــن ثم ليس ثمة غرابة أن تبذل المدن محاولات يائسة للتخلص من عبء الحضور ، فــى عصــر شهد سوء وسائل المواصلات سواء كانت برية أو نهرية أو بحرية ، فقد أصــرت بعض المدن على عدم إبلاغ حاكم المقاطعة بأسماء مرشحيها ، وقام البعض الآخــر بشراء قوانين للإعفاء من هذا الامتياز المضنى . مما يعنى أن حضور ممثلى المــدن كــان يشكل عبئا ثقيلاً عليهم وعلى المدن التى أرسلتهم . علاوة على ذلك فإن مســألة اختــيار ممثلى هذه الطبقة والتى تتم فى محكمة المقاطعة ، إنما تقع على عاتق حكــام المقاطعــات ، الذيــن يحسمون الانتخاب عادة لصالح مرشحيهم . فى حين لم تشــارك جمــوع الســكان ســوى بدور ضئيل فى اختيار مرشحيها من خلال قلة من الشخصيات البارزة المفوضين لهذا الغرض .[1]

ويذكــر المــؤرخ ريتشــارد جرين Richard Green أن منح ممثلى المدن للضــرائب فــى المجلــس الكبير – البرلمان فيما بعد – أثبت دوماً أنه أكثر فائدة من الابــتزازات الســابقة لمندوبى الخزانة ، وإذا ما أنست المدن فى نفسها قوة وأظهرت تــردداً فــى مســاندتها العامــة للتاج ، كان الملك لهم بالمرصاد ، إذ كان من السهل الســيطرة عليهم ، لا سيما وأن اختيار المدن التى تمثل فى المجلس بقى كلية فى أيدى الملــك ، ومن ثم فإن إعداد ممثلى المدن من الممكن أن تزداد أو تتضاءل حسب مشيئة

---

(1) Green, Op.Cit., P.166 .

الملك . الذى يترك تحديد ذلك لحاكم المقاطعة . ولعل أبرز الأمثلة على ذلك أنه بإيعاز مـن المجلس الملكى قام حاكم مقاطعة Willts بتخفيض عدد ممثلى المدن الواقعة فى مقاطعـته من أحد عشر إلى ثلاثة فقط . بيد أن هذه الممارسة لم تستطع عرقلة امتياز التمثـيل النيابى للطبقة المتوسطة وتحديداً المدن فى المجلس الكبير ، فى ضوء حرص بعض المدن على الاحتفاظ بهذا الحق . (١)

ونظـراً للاحتـياجات المالـية الملحـة للتاج بدت الإجراءات القانونية أمراً ضـرورياً لضمان حضورهم فقد ورد فى أحد المراسيم " أن تقدم ثمانية ثيران وأربعة جياد مدربة أمام الملك فى يوم محدد ، ضمانا لحضورهم البرلمان . "(٢)

---

(1) Loc. Cit.
(2) Ibid., P.167 .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر الأوربية :

Annales Londoninses ;
Chronicles of Reigns of Edward I and Edward II, Vol. I (ed.) W. Stubbs in Rolles Series, London, 1881.

The chronicle of Bury St. Edmunds 1212-1301 (ed.) by Antonia Gransden. London. 1964 .

Edward I. , King of England .
Confirmatio chartarum . A. D. 1298.
Summons of Knights and Burgesses, A. D. 1275.
Grant of Custom on Wool, Wollfells and leather. A. D 1275 .

Henry I. King of England .
Charter of Henry I to the citizens of London .
Charter of Liberties Issued by Henry I.

Henry II., King of England .
Assisa de clarenduns facta a rege Henrico scilicet secound, A. D. 1166 .
Charters of Boroughs granted by Henry II .

Henry III., King of England .
Charters of Towns granted by Henry III.
Second charter of Henry III, A. D. 1217 .

Writ for Summong of four Knights of the shire . A. D. 1226 .

John ., King of England.
Charters of Towns granted by John.

Great charter of liberites 1215 .

كل هذه الوثائق موجودة ضمن مجموعات الوثائق الوارد ذكرها عند :

Stubbs, Select charters, Oxford, 1921 .

John Capgrave.,
The chronicle of England, London, 1858 .

Matthew Paris.,
English History From the year 1235 to 1273, London, 1858.

Richard I., King of England.
Charters of Towns, in Stubbs (ed.) Op. Cit.

William of Newburgh,
Historia Rerum Anglicarum, in chroniches of the Reigns of stephen, Henry II and Richard, ed. R. Howlett, 2 Vols, Rolles series, 1884, 1885 .

William I., King of England,
Ordinance of William Separating the Spirtual and Temporal courts 1070, in Stubbs (ed.) Op. Cit.

ثانياً : قائمة المراجع الأوربية :

Adams, G. B ;
The political History of England : from the Norman conquest to the Death of John 1066-1216, New York and Bombay, 1905.

Ashley, M. ;
Great Britain to 1688, Michigan, 1961 .

Dietz ; F. G. ;
Apolitical and Social History of England, New York, 1937.

Feiling, K. ;
A History of England : From the coming of the English to 1938, London, 1948 .

Green, J. R. ;
A short History of the English people, 2 Vols, London, 1960.

Hall, W. P. & Albion, R. G.;
A History of England and the British Empire, London, 1946.

Haskins, G. M.;
" The petitions of Representatives in the parliaments of Edward I. " E. H.R, Vol. L III, NO.CCIX – January 1938, PP. A. – 20 .

Hume, D. ;
The History of England : from the Invasion of Julius Gaesar to the Revolution of 1688, London, 1836.

Lloyd , H. R.;
The Norman conquest, London, 1967 .

Lunt, W. E.;
A History of England, London, 1928 .

Powicke, F. M.;
The Thirteenth century 1216-1307, Oxford, 1962.

Richardson, H. G. & Sayles, G. O.;
" The parliament of Garlisle, 1307- some New Documents " in E. H. R, Vol. L.III, 1938, PP. 425-437.

Richardson, H. G;
" Henry Is charter to London " E. H. R, Vol. XLII, Vo. 165, January, 1977, PP. 80-87 .

Smith, Goldwin ;
A History of England, New York, 1966 .

Stenton, D. M. ;
English society in the Early Middle Ages 1066-1307, Penguin, 1959.

Stubbs, W.;
The constitutional History of England, 3 Vol. Oxford, 1873 .

-Select charters and other Illustrations of English constitutional History from the Earliest times to the Reign of Edward the first, Oxford, 1921 .

Tout, T. F.;
An Advanced History of Great Britain, London, 1912,

Traill, H. D. & Mann, J. S; (eds.)
Social England : A Record of the progress of the people from the Earliest times to the present Day, London, 1979 .

Vickers, K. H. ;
- England in the later Middle Ages, London, 1926.

Warren, W. L.;
King John, London, 1878 .

Willson, D. H.;
A History of England, London, 1972 .

ثالثاً : المراجع العربية والمعربة :

جوزيف نسيم يوسف : (دكتور) :
نشـــأة الجامعـــات فى العصور الوسطى ، الإسكندرية ، ١٩٧١ .

زينب عبد المجيد : (دكتورة) :
الإنجليز والحروب الصليبية ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الطبقة الأولى ، ١٩٩٦ .

راوس: (ل.)
الـــتاريخ الإنجليزى ، ت محمد مصطفى زيادة ، مكتبة

النهضة المصرية ١٩٤٦ .
سعداوى : (دكتور) :
تـــاريخ إنجلـــترا وحضـــارتها فـــى العصـــور القديمة والوسطى ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٨.
سعيد عاشور : (دكتور) :
الجامعـــات الأوربـــية فى العصور الوسطى ، القاهرة ، ١٩٥٩ .
أوربـــا العصور الوسطى ، جـــ١ ، التاريخ السياسى ، الطبعة السادسة، ١٩٧٨ .
كانتور : (نورمان. ف.) :
الـــتاريخ الوسيط ، جزءان ، تـ قاسم عبده قاسم ، عين للدراســـات والـــبحوث الإنسانية والاجتماعية . الطبعة الخامسة ، ١٩٩٧ .
موريس كين :
حضـــارة أوربـــا فى العصور الوسطى ، ترجمة قاسم عـــبده قاســـم ، عيـــن للدراســـات والـــبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الطبقة الأولى ، ١٩٩٤ .

عروض زواج العرائس في البلاط البيزنطي

(٧٨٨ – ٨٨٢م)

الدلالات السياسية والدينية

عبد العزيز رمضان

مصـــر

شـــهد البلاط البيزنطي منذ أواخر القرن الثامن وطوال القرن التاسع الميلاديين تقلـيداً فـريداً من نوعه، كان نصيبه من التكرار خمس مرات فحسب، تمثل في إجراء عــروض شـــاركت فيها فتيات جميلات جلبن من شتي أنحاء الإمبراطورية، وحظيت الفائزة منهن بشرف الزواج من وريث العرش الإمبراطوري.

ولأن هــذا التقلــيد يتسم بالطرفة والتفرد في آن واحد، فقد استرعى انتباه عدد مـــن الباحثيـــن المحدثين الذين أقبلوا علي تناوله بالبحث والدراسة، واختلفوا فيما بينهم حـــول مدي مصداقيته من الناحية التاريخية، ففي حين اعتبره البعض[1] واقعاً تاريخياً لا يقــبل الشـــك مدلليـــن علي ذلك بأنه ورد في عدد من المصادر البيزنطية المعاصرة، تناولـــه البعض الآخر[2] علي أنه مجرد إبداع أدبي صرف لا يرقي إلي مستوي الحقيقة التاريخية معتمدين في رأيهم هذا علي أن أغلب المصادر التي أوردته سير قديسين.

وهذه الدراسة مجرد محاولة لتحديد تاريخية ذلك التقليد من خلال مصادر هذه الفـــترة لاســـتجلاء أســـبابه ودلالاته السياسية والدينية، وهو الأمر الذي لم يتطرق إليه الدارسون الذين تناولوا هذا الموضوع بالبحث[3].

---

١ Treadgold, W.T., "Bride-Shows of the Byzantine Emperors," *B*, 49 (1979) 395-413; Garland, L.,. *Byzantine Empresses:Women and power in Byzantium AD.527-1204*, New york, 1999, 73, 80-1, 90, 96.

٢ Rydén, L.," The Bride-Shows at the Byzantine Court: History or Fiction", ***Eranos***, 83 (1985), 175 – 91; Speck, P., *Kaiser Konstantin VI*, 2vols, Munich, 1978, I, 203 – 8.

٣ ركـــز تريدجولد في بحثه "عروض عرائس الأباطرة البيزنطيين" علي الآثار السياسية التي نتجت عن فشل الـــزيجات الـــناجمة عن هذه العروض،بينما عرضت جرلاند للموضوع في سياق كتابها "المرأة والسلطة في بيزنطة" دون الخوض في تفصيلاته.

وكـــان أول هـــذه العروض في عهد الإمبراطورة إيريني Irene، وتحديداً في منتصـــف عـــام ٧٨٨م، ويحدثنا عنه كل من الراهب ثيوفانيس Theophanes وكاتب ســيرة القديـــس فيلاريتوس المعطاء St. Philaretus the Almsgiver،[٤] حيث يشير ثيوفانـــيس إلـــي أن الإمـــبراطورة إيرينـــي أرســـلت وفـــداً مـــن القضـــاة برئاســـة البروتوســـباثاريوس ثيوفانيس protospatharios Theophanes للبحث عن عروس تلـــيق بأبنها قسطنطين السادس (٧٨٠ – ٧٩٧م) Constantine VI الذي كان قد بلغ الثامنة عشرة من عمره[٥].

ويستكمل كاتب سيرة القديس فيلاريتوس القصة، فيخبرنا بأن القضاة بحثوا في كافـــة أنحـــاء الإمـــبراطورية، جـــنوباً وشـــمالاً وغرباً، دون أن يجدوا فتيات يناسبن الإمـــبراطور الشـــاب، فواصلوا رحلتهم الى شرق الإمبراطورية حتي بلغوا بلدة أمنيا Amnia وفـــيها أســـتهل القضـــاة عملية البحث بقصر قديم وكبير لنبيل محلي يدعي فيلاريـــتوس، كان قد أنفق ثروته في التصدق علي الفقراء، ورغم أن أهل البلدة حاولوا لفـــت أنظار القضاة إلي فقره، إلا أنهم ظنوا أن تلك مجرد إشاعة روجت لإبعادهم عن الإقامـــة في قصره وعلي نفقته، وتلقاهم فيلاريتوس بترحاب بالغ، ولم يبخل عليهم بما اتيح له من كرم الضيافة، وساعده في ذلك كبار رجال البلدة.

ويواصل كاتب السيرة حديثه، فيخبرنا بأن القضاة سألوا فيلاريتوس عن بناته، فأخـــبرهم بأنه غير مسموح لهن بمغادرة حجراتهن، وتحت إلحاح شديد منهم سمح لهم فيلاريـــتوس برؤيتهن داخل حجراتهن الخاصة، وعندما وقعت أعين القضاة علي بناته وحفـــيداته لـــم يتمكنوا من تمييز حفيداته عن أمهاتهن لفرط جمالهن الذي بهر الجميع، ولمـــا كانـــت البـــنات قد تزوجن بالفعل، فقد تحول القضاة نحو حفيداته الثلاث ماريا

---

[٤] كاتـــب هـــذه الســـيرة هو نيقتاس الأمني، ابن شقيق القديس فيلاريتوس، وكتبها في حوالي عام ٨٢١ م أو ٨٢٢ م.انظر

La vie de S. Philarète, ed. et trad. Franc. M .H. Fourmy & M. Leroy, *B*, 9(1934), 85-107, esp 98; Rydén, L. , "The Revised Version of the Life of St. Philaretos the Merciful" and the "Life of St. Andreas Salos", ***Analecta Bollandiana***, 100 (1982), 485-95,esp.485.

[٥] Theophanes, *Chronographia*, trans. H. Turtledove, Philadelphia, 1982, 147.

Maria وميرانثـيا Myranthia ويؤنثيا Euanthia، وبعد أن أخضعوهن لاختبارات أعـدت سـلفا[٦]، وجـدوا أنهـن جميعاً مؤهلات للمشاركة في العرض النهائي بالقصر الإمبراطوري، فاصطحبوهن مع كافة أفراد أسرة فيلاريتوس إلي القسطنطينية.

ويسـتطرد كاتب السيرة حديثه مشيراً إلي أن القضاة صادفوا توفيقاً في العثور علـي فتـيات أخريات تنطبق عليهن الشروط والصفات المؤهلة للمشاركة في العرض الإمـبراطوري، وكانـت بينهـن فـتاة ثـرية وجميلة ذكرت بأسم "ابنة جيرونتيانوس Gerontianus"، التـي رفضـت بـازدراء اقتراح ماريا حفيدة فيلاريتوس بعقد اتفاق ودي بين المتنافسات، قائلة "طالما أنني الأكثر ثراءً والأسمي نسباً والأفضل هيئة، فمن المؤكد أنني الفائزة".

وفـي الـبلاط الإمـبراطوري، تقدمت ابنة جيرونتيانوس جميع المرشحات، وحيـنما رآها الإمبراطور ووالدته قالا لها: "إنك رائعة الحسن والجمال، غير أن تأنقك يـدل علي أنك لن تعني بأمر الإمبراطور"، ثم قدما لها الهدايا، ونحوها جانباً، وبعد أن فعلـوا ذلك مع الأخريات، الواحدة تلو الأخرى، جاءت حفيدات فيلاريتوس في النهاية، وعـندما وقعـت أعين الإمبراطور ووالدته عليهن، خلبوا بجمالهن ورشاقتهن، فخطب الإمبراطور الفتاة الكبري ماريا[٧].

علـي هـذا الـنحو يسرد كاتب سيره القديس فيلاريتوس قصة أول عروض العـرائس الإمبراطورية، ويتفق مع ثيوفانيس في أنه جاء نتيجة رغبة الإمبراطورة الأم

---

٦ يذكر كاتب السيرة أن هذه الاختبارات ركزت في المقام الأول علي المقاييس المثالية لدرجة الجمال وهي طول القامة ومقاس الخصر والقدمين، دون الإشارة إلي آية صفات أخري تتعلق بالأخلاق أو التدين.

٧ *S.Philarete*, 135 43; Garland, *Women and Power*, 81; Treadgold, *Bride- Shows*, 398-9; Kazhdan, A.,& Sherry, L. F., " The Tale of a Happy Fool : The Vita of St.Philaretos the Merciful (BHG 1511z- 1512b) ",*B*, 66/2 (1996), 351-62,esp.355-7.

ويري كجدان وشيري أن قصة ماريا في هذا العرض تشابه إلي حد بعيد قصة سندريلا الفلكلورية، حقيقة أن ماريا لم تتعرض لاضطهاد زوجة أب شريرة، غير أن حسن حظها وجمالها وانبهار الإمبراطور بها كان عاملاً حاسماً في اختيارها.

Kazhdan & Sherry, *Happy Fool*, 355.

إيرينـــي في تزويج ابنها قسطنطين السادس، وأن جمال العروس كان العامل الأساسي في اختيارها، ولكن هل تبدو المسألة بهذه البساطة حقاً؟.

تتجه جرلاند Garland إلي أن إيريني استحدثت هذا التقليد لاستخدامه كوسيلة دعايـــة لنظامها الحاكم، أو ربما لأن إيريني نفسها أختيرت من قبل عن طريق عرض مشابه عند زواجها من الإمبراطور ليو الرابع (٧٧٥ – ٧٨٠م) Leo IV[٨]، بينما يعتقد تـــريدجولد Treadgold أن إيرينـــي أقدمـــت علي ذلك لحفظ ماء وجه الهيبة والكرامة الإمـــبراطورية بعـــد أن سحب ملك الفرنجة شارلمان Charlemagne وعده بتزويج إبنـــته روتـــرود Rotrud مـــن قسطنطين السادس، ولتؤكد أن ابنها يمكنه الزواج من أجمل جميلات الإمبراطورية دون الحاجة إلي البرابرة الفرنجة[٩]، ويدلل تريدجولد علي صـــحة رأيـــه برواية إينهارد Einhard كاتب سيرة شارلمان، التي تشير إلي أن ملك الفـــرنجة قـــرر فـــي منتصـــف سنة ٨٨٧م سحب وعده بتزويج إبنته من الإمبراطور البيزنطي[١٠].

وربمـــا يكـــون من الأصوب أن ننظر إلي الأمر من زاوية أخري، فالمتصفح لسياسة الإمبراطورة إيريني وشخصيتها، يدرك من الوهلة الأولي أنه أمام امرأة بهرها بـــريق العـــرش الإمبراطوري وملك عليها كل حواسها، فأرادت منذ اللحظة الأولي أن

---

٨ Garland, *Women and Power*, 73, 81.

تعتمد جرلاند في إفتراضها الثاني علي أنه لا توجد أسباب واضحة لاختيار إيريني كعروس للإمبراطور ليو الرابع، حيث كانت فتاة يتيمة تنتمي إلي أسرة سارنتابيخوس الأثينية غير المشهورة، ولكنها في الوقت ذاته تؤكد علي عدم وجود دليل دامغ علي مشاركة إيريني في مثل هذا النوع من العروض

٩ Treadgold, *Bride- Shows*, 396-7.

١٠ اينهارد، سيرة شارلمان، ترجمة. عادل زيتون، دمشق، ١٩٨٨ م، ص١٢٠، ١٢٢-١٢٣.

ويذكر اينهارد أن سبب عدم إتمام شارلمان هذه الزيجة هو تعلقه الشديد ببناته إلي الدرجة التي جعلته لا يستطيع أن يؤدي عملاً من الأعمال إلا إذا كن في صحبته، ففرض عليهن التزام القصر وحرم عليهن مغادرته، كما أنه لم يجز لهن الزواج.انظر كذلك السيد الباز العريني، إينهارت، القاهرة، ١٩٥٧م، ص٢١-٢٢.

تفــرض علـــي ابـــنها نوع من الوصاية الدائمة، فيكون طوع أمرها، بحيث يخلص لها العـــرش وتغـــدو صاحبة الكلمة الأولي والأخيرة في شئون الحكم، امرأة لم تتردد في ســـمل عينـــي ولدها حينما استشعرت منه خطراً يهدد بقائها علي سدة الحكم[١١]، إمرأة بهـــذه الشاكلة هل كان من المتوقع أن تقبل بزواج ولدها من ابنة أقوي ملوك أوروبا في ذلك الحين؟

تشـــير أكـــثر الشواهد إلي أن إيريني لم تكن راغبة في إتمام مثل هذه الزيجة، وحتـــي إذا كـــان إيـــنهارد صـــادقاً في روايته، وأن شارلمان هو الذي تنصل من ذلك الأمـــر، فالـــراجح أن إيرينـــي كانت سعيدة بذلك، بل وربما تنفست الصعداء، فراحت تبحـــث عن عروس تناسب ولدها وطموحاتها السياسية في آن واحد، عروس لا تشكل أدنـــي خطـــر أو تهديـــد مـــن ذلـــك الـــنوع الذي كان من المحتمل أن تشكله الأميرة الفرنجـــية[١٢]، بـــل ربما كان ثيوفانيس الأكثر مصداقية من إينهارد حينما أشار إلي أن رفـــض إتمـــام هذه الزيجة جاء من جانب إيريني نفسها، خاصة وأنه يقرن ذلك بقرار الإمبراطورة تزويج ابنها من ماريا حفيدة فيلاريتوس، ويؤكد علي أن هذه الزيجة تمت بضـــغط مـــنها وضد رغبة الإمبراطور الشاب الذي كان مغرماً بابنة شارلمان[١٣]، وهو

---

١١ عن سياسة وشخصية الإمبراطورة إيريني. انظر علية الجنزوري، الإمبراطورة إيرين، القاهرة، ١٩٨١م
Barbe, D., *Irène de Byzance : la femme empereur*, Paris, 1990.

١٢ يـــري بعض الباحثين أنه كان للبابوية دوراً في فشل هذه الزيجة، وأنها إذا كانت قد باركت خطي إيريني في سياستها المتحمسة لعبادة الأيقونات، والتي تجلت في مجمع نيقية عام ٧٨٧م، فقد ساورتها المخاوف من النتائج التي تترتب علي التحالف بين بلاطي بيزنطة وآخن، انظر، عفاف صبرة، الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية زمن شارلمان، القاهرة، ١٩٨٢م، ص٩٥-٩٦. ويتفق الباحث مع وجهة نظر الأستاذتين علية الجنزوري وعفاف صبرة حول أسباب فشل هذه الزيجة، حيث تقول الدكتورة علية الجنزوري: "ثمة رأي نرجح كفته عن سبب فسخ إيرينـــي لخطـــبة أبنها من أبنة شارل ملك الفرنجة، وهو أنها خافت أن يصبح قسطنطين السادس ووالد زوجته شـــارل قوة تنتزع منها صولجان الحكم، وأن يتمكن قسطنطين بمساعدته من اعتلاء منصة الحكم بمفرده"، اما الدكـــتورة عفاف صبرة فتقول: "فكرت إيرين في إلغاء مشروع زواج أبنها من أبنة شارلمان وذلك لخوفها من اتحاد قوة شارلمان مع ابنها الذي بلغ سن الرشد وأصبح من حقه أن يحكم، ولم تكن عنده أي نوايا للتنازل عن الحكـــم، فـــإذا مـــا تـــم زواجه من أبنة شارلمان فسيؤدي ذلك إلي تقوية مركز أبنها علي حسابها." انظر علية الجنزوري، ايرين، ص٣٠؛ عفاف صبرة، الإمبراطوريتان، ص٩٥.

١٣ *Theophanes*, 147-48.

الأمــر الذي أكده كاتب سيرة الإمبراطورة إيريني حينما أشار إلي أنها بنفسها هي التي اختارت العروس من بين الفتيات الأخريات[14].

وهكــذا كان العرض الذي أقامته الإمبراطورة إيريني لتزويج ابنها سابقة سار علــي نهجهــا عــدد ممــن قدر لهم الجلوس علي العرش البيزنطي بعدها، إذ أنه بعد الإطاحة بها سنة ٨٠٢م علي يد وزير ماليتها نقفور الأول Nicphorus I، أقام الأخير ثانــي عــرض عرائس إمبراطوري معروف لتزويج ابنه ووريث عرشه ستوراقيوس Stauracius، ومصــدرنا الوحــيد عن هذا العرض هو ثيوفانيس، الذي يخبرنا بقصته قائلاً:

"بعــد أن قــام نقفــور ببحث واسع النطاق شمل كافة أراضي الإمبراطورية الواقعــة تحت سلطته لإختيار الفتيات اللاتي يصلحن للزواج من ابنه ستوراقيوس، وقع إختــياره علــي ثيوفانو الأثينية Theophano of Athens التي ترتبط بصلة القرابة بالإمــبراطورة القديســة إيريني، ورغم أنها كانت مخطوبة فعلاً لأخر غيره، وشاركته الفــراش مــرات عديدة، إلا أن نقفور لم يأبه بذلك، ففصلها عنه وزوجها لابنه محطماً بذلــك وبشــكل مخــز كل القوانين والأعراف، ولم يكتف بذلك، بل تخير لنفسه فتاتين أخريتين أكثر جمالاً، وأنغمس معهن في الفسق طوال أيام الزفاف، جالباً بتصرفاته تلك سخرية واشمئزاز الجميع[15]".

ورغم ما يبدو واضحاً في رواية ثيوفانيس من تحامل شديد علي نقفور، إلا أن مــا يعنينا منها هو البحث عن دافع نقفور الحقيقي من وراء إجراء هذا العرض، وهو بالطــبع لــم يكن الإعزاز لذكري إيريني أو الاعتزاز بتقليد استحدثته، وثيوفانيس نفسه يقــدم لــنا ذلــك الدافع عندما أشار – بصورة متعمدة – إلي أن العروس الفائزة ترتبط بصلة قرابة للإمبراطورة إيريني، وهو أمر ربما كان يمثل أهمية قصوى لنقفور، الذي أدرك أن فــي نظــر البيزنطييــن مجرد مغتصب للعرش الإمبراطوري، والأسوأ أنه

---

١٤ Halkin, F., "Le vie de l'impératrice sainte Irene", *Analecta Bollandiana*, 106 (1988), 5-27, esp. 16; Treadgold, W. T., "The Unpublished Saints' Life of the Empress Irene", *BF*, 7 (1982), 237-51.

١٥ *Theophanes*, 164.

اغتصبه من الإمبراطورة إيريني التي تمتعت بشعبية جارفة بسبب مواقفها المعادية للحركة اللأيقونية، والتي دفعت الكنيسة البيزنطية إلي تبجيلها ورفعها إلي مصاف القديسات[16]، ولاشك في أن نقفور كان يعلم مقدماً أن ثيوفانو تنتمي إلي أسرة الإمبراطورة إيريني، وأنه كان حريصاً أشد الحرص علي تدعيم وجود أسرته الحاكمة وإضفاء الشرعية عليها من خلال ربطها بصلة النسب مع أسرة الإمبراطورة السابقة[17].

أما عن ثالث هذه العروض فقد أقيم في عام ٨٣٠م بعد وفاة الإمبراطور ميخائيل الثاني (٨٢٠ – ٨٢٩م) Michael II حيث قررت زوجته يوفروسيني Euphrosyne – إبنة قسطنطين السادس من ماريا الأمنية التي فازت بأول عرض عرائس إمبراطوري – إجراء مسابقة لتزويج ابن زوجها ثيوفيلوس (٨٢٩ – ٨٤٢م) Theophilos الذي كان قد بلغ السابعة عشر من عمره، مواصلة بذلك التقليد الذي بواسطته إقترنت أمها بأبيها، ومصدرنا عن قصة هذا العرض هو الكاتب الحولي سيميون اللغثيت[18] Symeon the Logothete، الذي يخبرنا بها قائلاً:

"لقد أرسلت – يوفروسيني – مبعوثيها إلي شتي بقاع الإمبراطورية لاختيار الفتيات الجميلات من أجل تزويج ابنها ثيوفيلوس، ورافقت المرشحات بنفسها إلي القصر الإمبراطوري، ثم أعطت ثيوفيلوس تفاحة ذهبية قائلة له "امنحها لمن تروق لك"، وكان من بين الفتيات الجميلات واحدة رائعة الجمال تدعي كاسيا Kassia، فتن ثيوفيلوس بجمالها وهيئتها، فخاطبها قائلاً "من خلال المرأة جلبت الشرور علي

---

[16] عن سياسة الإمبراطورة إيريني من الحركة اللأيقونية. انظر،

Barbe, *Irene*, 313 ff ; Garland, *Women and Power*, 92-4

[17] Garland, *Women and power*, 90; Treadgold, *Bride- Shows*, 401.

[18] شغل سيمون وظيفة لغثيت الخزانة العسكرية(لغثيت الاستراتيوتيكون) وهو المشرف علي تقدير الضرائب المفروضة علي أسر الجنود وحالات الإعفاء منها. لمزيد من التفاصيل انظر،

Bury, *Adm. System*, 90ff ; Kazhden. A., "Logothetes Tou Stratiotikou", *ODB*, 2(Newyork, 1991), 1248.

الـرجل"، فأجابته قائلة "ومن المرأة أيضاً جاء الخير كل الخير")، فجرح قلب ثيوفيلوس بردها فتجاوزها مانحاً التفاحة لثيودورا، الفتاة البافلاجونية[١٩]".

ومـن الملاحظ أن رواية سيميون اللغيث لا تشير بصورة صريحة إلي تدخل مـن جانب يوفروسيني في اختيار العروس، مثلما حدث في حالتي الإمبراطورة إيريني والإمـبراطور نقفـور الأول، فثيوفيلوس – طبقاً لرواية سيميون – كان صاحب القرار الأول فـي عملية الاختيار، غير أن ذلك قد لا ينهض دليلاً قاطعاً علي عدم التدخل من جانـب يوفروسـيني، فهي التي أرسلت المبعوثين لإحضار الفتيات، ثم رافقتهن بنفسها إلـي القصـر الإمـبراطوري، حقيقة أن هدفها كان مواصلة تقليد كانت هي ذاتها أول ثمـراته، إلا إن ذلك لا يمنع أنها تدخلت بصورة أو بأخري في عملية الاختيار، وربما حـدث ذلـك دون دراية سيميون اللغثيت، خاصة وأن هناك دافعاً قوياً يجعلها حريصة أشـد الحـرص علـي اختـيار عروس ثيوفيلوس، فالعصر هو عصر مناهضة عبادة الأيقونـات التـي حمل لواءها أباطرة الأسرة الأيسورية منذ عهد ليو الثالث (٧١٧ – ٧٤١م) Leo وحتـي عهـد ميخائـيل الثانـي (٨٢٠ – ٨٢٩م) أول أباطرة الأسرة العموريـة وزوج يوفروسـيني الـراحـل، والـذي كـان من أشد المتحمـسين لمذهـب تحطـيم الأيقونـات، وكـان ثيوفـيلوس نفسـه عـلي

---

١٩ Leo Grammaticus, *Chronographia*, ed. I.Bekker, *CSHB*, Bonn, 1824, 213-14; Pseudo- Symeon, *Chronographia*, ed. I. Bekker, *CSHB*, Bonn, 1838, 624-25.
هناك رواية أخري مختلفة يقدمها لنا كاتب سيرة الإمبراطورة القديسة ثيودورا مفادها أن الإمبراطور ثيوفيلوس أرسل موظفي البلاط إلي شتي بقاع الإمبراطورية لاختيار الفتيات الجميلات المؤهلات للزواج منه، وأنه انتقي مـن بينهـن سـبعة، قدم لكل واحدة منهن تفاحة ثم أرسلهن إلي الحجرات المخصصة لهن، وفي اليوم التالي، أسـتدعى الفتيات وسألهن عن التفاحات غير أنهن اكتشفن ضياع التفاحات فيما عدا ثيودورا التي بسطت كفيها لتكشـف عن تفاحتين، فدهش الإمبراطور لما رأي وسألها عن تفسير لذلك، فأجابته بأنها قابلت في طريقها إلي القصر قديساً أعطاها التفاحة وتنبأ لها بأن الإمبراطور سيقدم لها تفاحة ثانية، وأن التفاحتين معاً ستكونان طريقها للفوز علي الفتيات الأخريات، وعندئذ أعلنها الإمبراطور ثيوفيلوس زوجة له. انظر،
"The Life of St. Theodora the Empress", trans. M.P. Vinson, in.. *Byzantimne Defenders of Images, Eight Saints' Lives in English Translation*, ed. A-M. Talbot, Washington D.C.,1998, 353-82, esp.363-65

شــاكلـــــة أبــيــــــه في سياســـــــته اللاأيـــقونية[٢٠]، ولما كانت يوفروسيني – شـــأنها في ذلك شأن أكثر نساء القصر[٢١] – من أشد المتحمسين لعبادة الأيقونات، فمن المحـــتمل أنهـــا كانـــت حريصـــة علي اختيار عروس تشاطرها هذه الحماسة، وكانت ثيوردورا البافلاجونية هي تلك العروس[٢٢].

وبعد وفـــاة ثـــيوفيلوس عام ٨٤٢ م، تولت ثـــيودورا الوصـــاية علي ابـــنها ميـــخائـــيل الثـــالـــث (٨٤٢ – ٨٦٧م) Michael III الذي لم يكن قد أتم العامين من عمره، بيد أن هذا الطفل سرعان ما أصبح مشكلة كبري بالنسبة لها عندما بلغ الخامسة عشـــر، حيـــث أقام علاقة غير شرعية مع إحدى فتيات القصر تدعي يودوكيا إنجيرينا Eudokia Ingerina، وكانـــت خطورة هذه العلاقة من وجهة نظر الإمبراطورة الأم أن يودوكـــيا هـــذه تنتمـــي إلـــي أســـرة مارتيناكيوس Martinakios المؤيدة للحركة اللاأيقونية[٢٣]، ولأن ثيودورا لم تكن لتسمح باستمرار مثل هذه العلاقة التي تتعارض مع مـــيولها الدينـــية، فقـــد قررت إقامة عرض عرائس لتزويج ابنها، متبعة في ذلك نهج سابقتها يوفروسيني عندما اختارتها هي نفسها بنفس الأسلوب ولذات السبب.

ويـــروي لـــنا كاتب سيرة القديسة إيريني الصغري St.Irene the younger قصـــة هـــذا العرض قائلاً أن الإمبراطورة ثيودورا قررت تزويج ابنها ووريث العرش

٢٠– – من احدث الدراسات التى تناولت الحركة اللايقونية ، انظر

Martin, E.G., *A History of the Iconoclastic Controversy*, London ,1978 ; Bryer , A., & Herrin , J.,(eds.), *Iconoclasm* , Birmingham , 1977 ; Gero ,S., *Byzantine Iconoclasm during the Reign of Leo III* ,Louvain ,1973 ; Idem , *Byzantine Iconoclasm during the Reign of Constantine V* , Louvain , 1977 .

٢١– عن موقف نساء القصر المؤيد لعبادة الايقونات ، انظر

Huxley ,G.,'Women and Byzantine Iconoclasm', in: J.Y.Perreault (ed.), *Les femmes et le monachisme byzatine*, Athens, Canadian Archeological Institute, 1991 , 11-24; Talbot,A.M.,& Kazhdan,A.,'Women and Iconoclasm', *BZ* , 84-85 (1991-92), 391-408; Hatile, P.,'Women of Disipline during the Second Iconoclast Age',*BZ* , 89 (1996), 37-44.

٢٢– عن موقف الإمبراطورة ثيودورا من الحركة اللايقونية ، انظر

Garland, *Women and Power*, 95-108; *Life of St. Theodora*, 353-382.

٢٣– ولدت يودوكيا بالقسطنطينية عام ٨٤٠ م ، وتوفيت عام ٨٨٢ م ، وكان والدها ينحدر من اصل اسكندنافي ، وعمل في وظيفة بالقصر الإمبراطوري ، انظر ،

Kazhdan, A.,'Eudokia Ingerina', *ODB*, 2 (NewYork,1991), 739.

مــن الأوساط الشهيرة الطيبة السمعة، ومن أسرة تقية مشهود لها بإيمانها الأرثوذكسي، فــتاة تتسم بالفضيلة وتفوق من هن في مثل عمرها في نقاء الروح وجمال الهيئة، لذلك أرســلت مبعوثيها إلي كافة أنحاء الإمبراطورية لاختيار الفتيات اللاتي تتوافر فيهن هذه الخصــال، ومــن ثــم فقــد تهافت المواطنون من شتي الأنحاء علي إرسال بناتهم إلي العاصــمة، وكــان مــن بينهن إيريني، الفتاة المشهود لها بصفاء الروح وفتنة الجسد، والتــي أرســلها والداهــا مــع شقيقتها من موطنهما في قبادوقيا Cappadocia إلي القسطنطينية[٢٤].

ويــبدو مــن رواية كاتب السيرة أن الإمبراطور ثيودورا كانت حريصة علي تمــيز عــروس ولدها بالفضيلة ونقاء الروح، وأن تكون من أسرة مشهود لها بإيمانها الأرثوذكســي، وهــي بذلك تعبر عن ميولها الدينية ورغبتها في إبعاد يودوكيا إنجرينا عــن المشاركة في هذا العرض، إذ أنها كانت تعي تماماً أن مثل هذه الشروط المتعمدة لا يمكــن بأي حال أن تنطبق علي يودوكيا وأسرتها، حقيقة أن الإمبراطور ليو السادس (٨٨٦ – ٩١٢م) Leo VI يشــير فــي مديحه لباسيل الأول (٨٦٧ – ٨٨٦م) Basil I، إلــي أن ميخائــيل الثالــث كان لديه قدر من التأثير علي مجريات الأمور بحيث أتاح ليودوكــيا فرصة المشاركة في هذا العرض[٢٥]، غير أن هذه المشاركة كانت غير ذات جــدوي لأن نتيجــتها كانــت معــروفة مقدمــاً، حيــث يشير سيميون اللغثي إلي أن الإمــبراطورة ثــيودورا لعبت دوراً رئيسياً في رفض يودوكيا إنجرينا، والضغط علي ولدهــا لقــبول المرشــحة الفائــزة يودوكــيا – أخري – والتي تنتمي إلي أسرة غير مشهورة[٢٦].

٢٤- *The Life of St. Irene Abess of Chrysobalanton* , ed. & trans.M.O.Rosenqvist . (Uppsala, 1986), 8-10.

انظر نص تلك السيرة على الموقع التالى، http//www.fordham.edu;

Treadgold, *Bride-Shows*,405; Kazhdan, A., Irene of Chrysobalanton ,*ODB*, 2 (New york .1991),1010.

٢٥- Vogt,A., & Hausherr, I.,'Oraison funebre de Basil I', *OCP*, 26 (1932), 54.

٢٦- *Leo Grammaticus*, 229-30; *Pseudo-Symeon*, 655.

وفي عام ٨٨٢م، اقامت يودوكيا إنجرينا أخر عروض العرائس الإمبراطورية المعـــروفة لـــتزويج ابـــنها لـــيو السادس، الذي كان قد بلغ السادسة عشر من عمره، ومصـــدرنا عنه هو كاتب سيرة القديسة نيوفانو[٢٧] St.Theophano، الذي يخبرنا بقصته قائلاً:

"لقـــد بـــدأت عملـــية البحـــث عن الفتيات الجميلات، المتألقات في فضائلهن، لاختـــيار عروس للإمبراطور ليو الحكيم، فأرسل الإمبراطور باسيل[٢٨] مبعوثيه إلي كل مديـــنة ومقاطعـــة للبحث عن فتاة تليق بالإمبراطور الأكثر وسامة، فجلبوا معهم فتيات كثـــيرات من شتي الأنحاء كذلك قررت الإمبراطورة يودوكيا زوجة الإمبراطور باسيل اختـــيار بعض الفتيات الجميلات من مسقط رأسها للمشاركة في هذا العرض، وكان من بينهـــن الـــرائعة ثـــيوفانو، وعلـــي ذلك تم إختيار إثنتي عشر فتاة حشدت في الجناح الإمـــبراطوري لقصـــر ماجـــناورا Magnaura الشـــهير، وبقيـــن هـــناك في انتظار الإمبراطور وزوجته"[٢٩].

ويستكمل كاتب السيرة روايته قائلاً:

٢٧- Kurtz, E., (ed.), *Zwei Griechische Texte uber die Heilige Theophano, die Gemahlin Kaisers Leo VI,* St. Petersbourg, 1898.

تعذر علي الباحث الرجوع الى هذا المصدر، ومن ثم فقد اعتمد على النصوص المقتبسة منه والتى ترجمها كل مـــن تـــريدجولد و جـــرلاند في بحثيهما ،وكاتب هذه السيرة كان صديقا لعم ثيوفانو، العروس الفائزة في هذا العرض.

٢٨- واصل ميخائيل الثالث علاقته مع يودوكيا انجرينا رغم زواجه، حيث حملت منه ابنهما ليو السادس، وحتي يضـــمن اعـــتلاء ابنه العرش كامبراطور شرعي ، زوج يودوكيا من باسيل المقدوني ورفعه الى جواره على العرش كإمبراطور شريك . انظر ،

Mango, C.,'Eudocia Ingerina, the Normans and the Macedonian Dynasty', ***Zbornik Radova Vizanto-Loskog Instituta***, 14-15 (1973), 17-24.

٢٩ Kurtz, *Zwei Texte*, 5 (tr. Treadgold, 407.)

عـــند هـــذه النقطة يسجل كاتب السيرة انه كان من بين المرشحات فتاة اثينية اشتهرت بالعرافة و التنجيم ، تنـــبأت بـــان الفتاة التى سترتدى حذاءها اولا وقت وصول الإمبراطور وزوجته هى التى ستفوز بهذا العرض، وبطبيعة الحل كانت ثيوفانو هى تلك الفتاة، Treadgold, *Brid-shows*, 407.

" وعـــندما رأتهـــا الإمبراطورة أسرت بجمالها وخفة روحها، فتركت الباقيات وتقدمـــت نحوهـــا، وعـــندما أصبحت علي مقربة منها شدهت لسحر طلعتها، وعندما ســـألتها عن أسرتها ومكان مولدها، علمت أن الدماء الإمبراطورية تجرى في عروقها، فأخذت يدها وتوجهت نحو زوجها الإمبراطور"[٣٠].

وعـــند هـــذا الحـــد يوحي كاتب السيرة بأن اختيار الإمبراطورة قد وقع علي ثيوفانو، لكنه سرعان ما يستطرد حديثه قائلاً:

"غير أن الإمبراطورة تفحصت الأخريات وأنتقت منهن فتاتين، وقدمت الهدايا للباقـــيات وأمرتهـــن بـــالعودة إلـــي ديارهـــن، ثـــم اقتادت الفتيات الثلاث إلي الحمام الإمـــبراطوري، وعـــندما كشـــفت عن أجسادهن لاحظت تفوق جمال ثيوفانو، فغطتها بثـــياب إمبراطورية وأخذتها من يدها اليمني إلي الإمبراطور الزوج، وأعلنتها عروس لابنها، وقد بهر الإمبراطور ليو نفسه بها فأخرج من عباءته خاتماً صغيراً مصنوع من اليشب ووضعه في إصبعها"[٣١].

عـــند هذا الحد يختتم كاتب السيرة قصة أخر عروض العرائس الإمبراطورية المعـــروفة بـــزواج ثيوفانو من الإمبراطور ليو السادس، ويتضح من خلالها – كما هو الحـــال فـــي العـــروض الســـابقة – أن ليو لم يكن له دوراً مؤثراً في اختيار عروسه، فالإمـــبراطورة الأم يودوكيا هي التي لعبت الدور الرئيسي في اختيار المرشحة الفائزة دون أن تضـــع اعتـــبارا لـــرأي ولدها، ويبدو أن هذا الاختيار قد صدق عليه من قبل الإمـــبراطور باســـيل المقدونـــي، وهـــو الأمـــر الـــذي يؤكده كاتب سيرة يوثيميوس Euthymios عـــندما ســـجل عن لسان الإمبراطور ليو السادس قوله: "إن كافة أعضاء السناتو يدركون جيداً أن هذه الزيجة تمت ضد رغبتي، وإنما خشية غضب والدي"[٣٢].

وعـــند هـــذه النقطة يتبادر إلي الذهن سؤال هام، أنه إذا كانت يودوكيا إنجرينا هي أول من أكتوي بنار عروض العرائس الإمبراطورية حينما استخدمته الإمبراطورة

٣٠- Kurtz, *Zwei Texte*, 6 (tr. Treadgold, 407) .

٣١- Kurtz, *Zwei Texte*, 6 (tr. Garland, 110) .

٣٢- '*Vita St.Euthymii*,' ed.& tr. P. Karlin-Hayter, *B*,25-27(1955-57), 1-72;747-78.

ثـيودورا كوسـيلة لفصلها عن معشوقها الإمبراطور ميخائيل الثالث، فما الذي يدعوها إلـي إقامـة هـذا العرض؟ وإذا عرفنا أن ليو السادس في هذا الحين كان متورطاً في علاقـة غير شرعية مع إحدى فتيات القصر تدعي زوي زاوتزينا[٣٣] Zoe Zautzaina، فمـا هـي الدوافـع الحقيقية وراء تدخلها الواضح في إختيار العروس الفائزة وفرضها علي ابنها ليو بنفس الأسلوب الذي اتبعته ثيودورا مع ابنها ميخائيل الثالث؟.

يـري تريدجولد أن يودوكيا لم يكن لديها سبباً وجيهاً للاعتزاز بمثل هذا التقليد سـوي أنـه قـد أتخذ صفة الثبات في ذلك الحين[٣٤]، بينما تري جرلاند أن العداء الذي نشـب بيـن ليو وأمه يودوكيا، خاصة بعد أن تورطت مع باسيل المقدوني في مؤامرة اغتـيال والـد ليو، الإمبراطور ميخائيل الثالث، هو السبب الذي دفعها إلي الانتقام منه بفرض الزواج عليه من فتاة لا يرغبها[٣٥]، أما شرينر Schreiner فقد ذهب إلي القول – منسـاقاً وراء روايـة كاتـب سيرة القديسة ثيوفانو – بأن جمال العروس كان العامل الأساسي في اختيارها[٣٦].

وربمـا يكون من الأفضل البحث عن الدافع الحقيقي من وراء اختيار يودوكيا للعـروس ثيوفانو في ضوء الأهمية السياسية لذلك الاختيار، ويعد مانجو Mango هو أول من ألقي الضوء علي أهمية أسرة ثيوفانو في اختيارها كعروس لليو[٣٧]، فهي تنتمي إلـي أسرة مارتيناكيوس Martinakios، التي كانت يودوكيا نفسها أحد أفرادها، ومن ثم رأت فـيما مؤيـداً أهلاً للثقة، كما أن هذه الأسرة ترتبط مباشرة بصلات وثيقة بالأسرة العموريـة، وكمـا يشـير كاتـب سـيرة ثـيوفانو إلي أنها تحمل في عروقها الدماء

٣٣- كـان لـيو السـادس على علاقة بزوى ابنة ستيليانوس زاوتزس Stylianus Zautzes مستشار باسيل المقدونـي ، واستمرت هذه العلاقة حتى بعد زواجه من ثيوفانو ، وقد تزوجها بعد وفاة زوجته مباشرة ، لمزيد من التفاصيل ، انظر،

Tougher, Sh., *The Reign of Leo VI, 886-912 :Politics and People*, Brill, 1997, 136-8.

وسام عبد العزيز فرج ، الزواج الرابع للإمبراطور ليو السادس ، الإسكندرية ، ١٩٩١، ٣٥-٣٦

٣٤- Treadgold, *Bride-Shows*, 406.

٣٥- Garland, *Women and Power*, 110-11.

٣٦- Schreiner, P., 'Reflexions sur la famille imperiale à Byzance (VIII^{e}- X^{e})', *B*,61(1991),181-93,esp.189.

٣٧- Mango, *Eudocia Ingerina* , 17-27.

الإمــبراطورية وأن ذلــك كان أحد العوامل التي دفعت يودوكيا إلي اختيارها من بين العذاري الصغيرات، ومن المؤكد أن يودوكيا كانت تعرف ثيوفانو مقدماً وأنها خططت مــنذ الــبداية لاختــيارها، ولاشك كذلك في أنه كان من الأهمية بمكان بالنسبة لباسيل المقدونـــي أن يوثق صلات أسرته المقدونية الناشئة بالأسرة العمورية السابقة من خلال أسرة مارتيناكيوس[٣٨].

وممــا ســبق يمكــن القول بأن عروض العرائس الإمبراطورية كانت وسيلة إتــبعها أباطــرة بــيزنطة منذ أواخر القرن الثامن وطوال القرن التاسع لتحقيق أهداف سياســية ودينــية معيــنة مــن خلال تزويج ورثة العرش القصر بعرائس يخدمن هذه الأهــداف، ولذلك فقد أقيمت تحت إشراف كامل من قبل الأوصياء سواء كانوا نساءاً أو رجــالاً، وظهــرت خلالها رغباتهم واضحة دون اكتراث برغبات الأبناء، وربما كان جينكينز Jenkins محقاً في قوله "إن عروض العرائس الإمبراطورية لم تكن إلا اجراء أو تقلــيداً شكلياً، إذ المعروف أن العروس تكون معروفة مسبقاً ومتفق عليها[٣٩]"، وعلي ذلك لــم يكــن الجمــال هــو العــامل الأساســي في اختيار العروس كما ذهب بعض الباحثين[٤٠]، بل كان أحد الشروط الأساسية التي ينبغي أن تتوافر في زوجة الإمبراطور المقــبل، خاصــة وأنــه لا يتناقض مع الاعتبارات السياسية والدينية التي سبق ذكرها، وبالإضــافة إلــي الجمــال وضــعت الصفات الأخلاقية أيضاً في الاعتبار عند اختيار العروس، وأخيراً كانت نبالة الأصل أحد الشروط الضرورية في اختيار العروس، ففي العــروض الخمسة تم اختيار العرائس من الأسرة الإمبراطورية وطبقة النبلاء المحليين فــي الأقاليم، ولكن إذا كانت نبالة الأصل أحد المؤهلات الرئيسية للعروس، فإن الثروة لــم تكــن كذلــك، ففي العرض الأول كانت أسرة ماريا الأمنية نبيلة وفقيرة في الوقت نفســه، ولم يكن من بين الفائزات في هذه العروض واحدة يبدو عليها الثراء الفاحش أو تنتمي إلي أسرة ذات سلطة ونفوذ، وربما كان ذلك أمراً حرص عليه الأوصياء أنفسهم لتحقيق أهدافهم السياسية والدينية السالفة الذكر.

٣٨- Tougher, *Leo VI*, 134-135.

٣٩- Jenkins,R., *Byzantium : the Imperial Centuries ,A.D. 610-1071*, Newyork,1966,98.

٤٠- Treadgold, *Bride-Shows*, 410 . Schreiner, *Famille imperiale*. 189.

إشكالية تفسير التاريخ عند المؤرخين المسلمين الأوائل

محمـــود إســـماعيل

مصـــر

معلــوم أن الخــلاف بين المؤرخين يكمن أساساً حول مسألة التفسير أو الــتأويل، أي معــرفة الأســباب والعلل الكامنة وراء أحداث التاريخ ووقائعه، ذلك أن المــؤرخ حيــن يؤرخ لموضوع ما عليه أن يجيب علي أسئلة ثلاثة أساسية هي: ماذا حــدث؟ وكيف حدث؟ ولماذا حدث؟ والإجابة عن السؤالين الأولين لا تثير أي خلاف، إنمــا يشــجر الخلاف أصلاً في الإجابة علي السؤال الثالث، لا لشيء إلا لأنها تعكس مــنظور أو "مخيال" المؤرخ الذي هو نتاج ثقافته وأيديولوجيته. ومعلوم أن الأيديولوجيا تفت في مصداقية المعرفة وتلونها بألوان قد تكون مجافية للحقيقة.

ولعــل هــذا يفســر دعوة بعض المدارس التاريخية إلي التغاضي عن تفسير الوقــائع التاريخية والاهتمام فقط بتحقيق مصداقية الأخبار. لكن هذه الدعوة تنقص من قــدر المــؤرخ. كــذا مــن نتاج عمله وتجعله "إخبارياً" ليس إلا، وتحكم علي جهوده بالقصور، لأن علماً بلا تعليل ناقص في التحليل الأخير.

فغايــة العلــم هي الوقوف علي الأسباب والعلل التي تحرك الظواهر الطبيعية والإنسانية على السواء. ومن ثم أصبح قانون "السببية" أهم قوانين العلم علي الإطلاق.

وفــي مجــال العلــوم الإنسانية – ومن ضمنها التاريخ بطبيعة الحال – جري الاهــتمام بالتعلــيل أو الــتأويل أو التفســير، إلي حد ظهور علم لهذا الغرض هو علم "الهرمينيطــيقا". وتعاظم دور هذا العلم إلي درجة الطموح إلي التنظير باعتباره أقصي درجات العلم وأسماها.

معلــوم أن نشأة علم التاريخ عند المسلمين كانت نشأة عملاقة، بشهادة جمهرة الدارســين والباحثيــن، لذلــك اهتم المؤرخون الرواد بالتعليل والتفسير باعتباره مطلباً أساســياً لاكــتمال عملــية كتابة التاريخ، وتطورت جهود الأجيال التالية من مؤرخي الإسلام لتصل مرموقة في هذا المجال بولوج باب "فلسفة التاريخ".

مـــن هنا تطمح هذه الدراسة إلي معالجة إشكالية التفسير – التي لطالما اختلف القدمـــاء والمحدثـــون بصـــددها – عند المؤرخين المسلمين الأوائل بهدف إثبات خطأ الأحكام المتواترة عن تبني هؤلاء المؤرخين جميعاً الرؤية الدينية للتاريخ، بما يعني أن العـــناية الإلهية هي التعليل الأول والأخير لوقائع التاريخ وأحداثه. كذا إثبات خطأ زعم القائلين بأن فلسفة التاريخ لم يطرقها مؤرخ قبل ابن خلدون.

ما سنحاول إثباته بالفعل هو أن المؤرخين المسلمين الرواد ولجوا باب التفسير إلـــي حـــد التنظير منذ نشأة علم التاريخ الإسلامي حول منتصف القرن الثاني الهجري وحـــتى منتصـــف القرن الخامس الهجري، حيث بلغ تطور الفكر التاريخي ذروته، لقد مـــر الفكـــر التاريخي الإسلامي خلال هذه الفترة بحقب ثلاث، تمثل الأولي منها طور النشأة، وتبدأ من منتصف القرن الثاني إلي منتصف القرن الثالث الهجريين، وهي فترة شـــهدت ســـيادة نمط الإنتاج البورجوازي علي الصعيد الاقتصادي والاجتماعي، ونشأة العلـــوم وتدويـــنها، كانعكاس للمد الثقافي المتعاظم والمعبر عن عطاء الطبقة الوسطي. وفـــي مجـــال علم التاريخ، وضعت مناهجه، وتحددت موضوعاته، وطرق المؤرخون باب التفسير علي استحياء.

أمـــا المـــرحلة الثانـــي: وتشمل الفترة ما بين منتصف القرنين الثالث والرابع الهجريـــن، فقـــد سادها نمط الإنتاج الإقطاعي الذي عكس تأثيره علي سائر الأصعدة ومـــنها الصـــعيد الثقافـــي بطبـــيعة الحال. إذ انتكست النهضة العلمية و الثقافية بغلبة الاتجاهـــات الغيبـــية والنصـــية علي حساب المد العقلاني الذي لازم مرحلة التأسيس. وبديهي أن ينتكس الكر التاريخي، موضوعاً ومنهجاً ورؤية، بغلبة الرؤية اللاهوتية.

أمـــا المرحلة الثالثة: وتشمل الفترة ما بين القرنين الرابع والخامس الهجريين، فقـــد ســـادها النمط البورجوازي في الإنتاج مرة أخري وأخيرة، الأمر الذي أسفر عن تأثـــيرات إيجابـــية سياســـياً واجتماعيا وثقافيا، وبديهي أن يتأثر الفكر التاريخي، بتلك الـــتحولات، ليصـــل إلي أوج ازدهاره ! حيث بلغ التفسير العلمي العقلاني للتاريخ مداه بحيث شهد العصر بواكير فلسفة التاريخ.

تلــك تقدمه عامة، تعرض لغاية الدراسة وتحدد معالمها، تعد توطئة لبسط هذه المعالم مفصلة موثقة.

فــي طــور نشــأة علم التاريخ الإسلامي، يتفق الدارسون علي أن هذه النشأة الإيجابــية كانت تعبيراً عن مد ثقافي مزدهر، باعتبار التاريخ من أهم مقومات الثقافية العربــية والإســلامية[1]. وقد أسهم في تلك النشأة جيل من المؤرخين الأفذاذ، كالطبري، والــبلاذري، وابــن طــيفور، واليعقوبــي، وابن قتيبة، وابن عبد الحكم وغيرهم ممن اعتبرهم ابن خلدون رواد علم التاريخ في الإسلام[2].

وبتتــبع منحــي ســير هؤلاء المؤرخين[3] نجد أن معظمهم ينتمون إلي الطبقة الوســطي التــي تبنــت النهضة العلمية والفكرية في الإسلام، فكانوا موسوعي الثقافة ليبرالي التفكير[4]، بما أهلهم لتأصيل ركائز علم التاريخ موضوعاً ومنهجاً ورؤية.

ومــا يعنينا في هذه الدراسة هو الوقوف علي طبيعة هذه الرؤى، أو بالأحرى موقفهــم مــن إشــكالية التعلــيل والتأويل، وفي هذا الصدد، يخطئ من أن تصور الحديــث عــن هذه الرؤى عند هذا الجيل من المؤرخين أمر سابق لأوانه[5]، صحيح أن جــل اهتمامهم انصب علي الأخبار وتحقيقها، لكنهم لم يغفلوا تعليلها وتحليلها، وفي هذا المعنــي ذكــر اليعقوبي: "وليعلم الناظر في كتابنا هذا إلي اعتمادي في كل ما أخطرت ذكــره فــيه ممــا شرطت أني راسمه فيه إنما هو علي ما رويت من الأخبار التي أناد ذاكرها فيه، والآثار التي أنا مسندها إلي روايتها، دون ما أدرك بحجج العقول وأستنبط بفكر النفوس إلا اليسير القليل".

---

[1] جب (هاملتون) دراسات في حضارة الإسلام، الترجمة العربية، ص١٥٣، بيروت ١٩٦٤.

[2] مقدمة ابن خلدون، ص٤، القاهرة، ب .ت.

[3] راجــع: محمــود إســماعيل: سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، جــ١، ص٢٨٦، ٢٨٧، الدار البضاء ١٩٨١.

[4] روزنتال: علم التاريخ عند المسلمين، الترجمة العربية ص٩٢، بغداد ١٩٦٤.

[5] أنظر: علي أدهم، بعض مؤرخي الإسلام، ص٣٣، القاهرة، ب . ت .

والـدارس لأخبار اليعقوبي[٦] لا يعدم وجود رؤية خاصة للتاريخ فحواها الربط بيـن حركة الأحداث وحركة الأفلاك، وعند غيره من معاصريه نقف علي رؤي أخري وضـعانيه وعلمـيه، فالـبلاذري – مـثلاً- عول علي تأثير الاقتصاد في الصيرورة التاريخـية في كثير من الأحيان. أما ابن قتيبة فهو يمحور وقائع العصر الراشدي حول مسـألة الصـراع علـي الخلافة، واتخذ بعض المؤرخين من ذكر عبارات بعينها في مواضـع بعيـنها أيضاً – مثل والله أعلم – ما يدل علي موقف مضمر للمؤرخ يفهمه القـارئ اللبيب، نظراً لوجود محاذير وإكراهات تحول دون الإفصاح ولا غرو، فمعلوم أن الحنابلة رجموا دار الطبري بالحجارة[٧].

ولعـل تلـك المحاذيـر والإكـراهات كانت من وراء تبني بعض المؤرخين تفسـيرات أسـطورية أو تيولوجية أوردوها من باب التقية[٨]. كذا تعويل البعض الآخر علـي التفسـيرات العنصـرية[٩] والطائفـية تحـت تأثير تواجد الشعوبية والصراعات المذهبية[١٠].

وقـد تعاظمت هذه الرؤى اللاعلمية خلال المرحلة التالية التي شهدت ظواهر التمزق والفرقة السياسية وتفاقم النعرات العصبية والعنصرية وانتكاسة الفكر العقلاني، كنتيجة لغلبة الإنتاج الإقطاعي، مع تواجد شاحب للبورجوازية.

بديهـي أن يتأثر الفكر التاريخي بتلك المعطيات السلبية، ولا أدل علي ذلك من تدهـور مكانـة علـم الـتاريخ في نظر مصنفي العلوم فأسقطوه بالكلية من مصنفاتهم باعتـباره يفـتقد إلي صفة العلمية[١١]. وهو أمر لفت نظر مؤرخ فذ كالمسعودى، حين اعتـبر مؤرخـي العصـر مسـئولين عـن تدهور علم التاريخ "وإبادة وآثاره وطمس

---

[6] كتاب البلدان: ص٣٥٨، ليدن ١٨٩١.

[7] ياقوت: معجم الأدباء، ج١٨، ص٩٥، طهران ١٩٦٥.

[8] عن مزيد من المعلومات في هذا الصدد، راجع: محمود إسماعيل سوسيولوجيا، جـ١، ص٢٩٣ – ٢٩٤.

[9] راجع علي سبيل المثال: أبو العرب تميم: طبقات علماء إفريقية، ص١٤ وما بعدها، تونس ١٩٦٨.

[10] عن المزيد من المعلومات: راجع: محمود إسماعيل: سوسيولوجيا، جـ١، ص٢٩٧، ٢٩٨.

[11] روزنتال: المرجع السابق، ص٤٨.

منارة[١٢]"، خصوصاً من أصبح منهم من "مؤرخين البلاط"، أو ممن أشتغل بالتاريخ خدمة لعلم الحديث بالأساس[١٣]، فكانوا لذلك محدثين أكثر منهم مؤرخي، بشهادة ابن النديم[١٤] لذلك لم يخطئ باحث ثقة حين اعتبرهم "أنصاف مؤرخين[١٥]"، فهموا غاية التاريخ فهما قاصراً مؤداه التبرير للسلاطين وإمتاعهم في مجالس السمر، حيث غدت "الأسمار مرغوباً فيها ومشتهاة .. فصنف فيها الوراقون وكذبوا[١٦]".

لقد أفسد "مؤرخو السلطة" علم التاريخ إلي حد تطويع الدين لخدمة السلطان، فها هو جعفر بن محمد المروزي (ت ٢٧٤ هـ) يصنف في هذا المعني كتاب "تاريخ القرآن لتأييد كتب السلطان[١٧]"، بينما أغفل تاريخ الشعوب ووصمها بأقبح النعوت، وفي هذا الصدد ألف الكثير عن "مساوئ العوام وأخبار السفلة والأغنام[١٨]".

وجري اعتبار ثوراتهم الاجتماعية من قبيل "المحن" و "الفتن[١٩]" التي يجب أن يقمعها السلطان دون هوادة.

بديهي والأمر كذلك، أن تنزلق رؤى المؤرخين إلي التفسيرات الأسطورية والإثنية والطائفية وتقديس الأبطال المؤيدين بالعناية الإلهية[٢٠]، كما فشت الرؤى التهويمية التي تربط حركة الأحداث بالطوالع والنجوم[٢١].

---

12 المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، جـ١، ص٥، بيروت، ب.ت.

13 بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، الترجمة العربية، جـ٣، ص٦٨، القاهرة ١٩٩١.

14 الفهرست، ص٢٣١، ٢٣٢، القاهرة، ١٣٤٨هـ.

15 أنظر: شاكر مصطفي: التاريخ والمؤرخون العرب، جـ١، ص٢٠٤، بيروت١٩٨٣.

16 ابن النديم: المرجع السابق، ص٣٠٨.

17 نفسه، ص١٥٠.

18 نفسه، ص١٥٢.

19 صنف الشيباني (ت ٢٧٣هـ) كتابين يحملان هذين العنوانين.

20 سالم أحمد محل: المنظور الحضاري في التدوين التاريخي، ص١٢١، قطر ١٩٩٧.

21 روزنتال: المرجع السابق، ص١٥٩.

أمـا عـن مؤرخي المعارضة فقد احتفظ بعضهم بالكثير من إيجابيات مرحلة التأسـيس، فكتبوا التاريخ علي أساس "الدراية" لا "الرواية" معولين في التعليل والتفسير علي العقلانية والمنطق، منددين بمفاسد السلطة ورجالاتها[٢٢].

ومـع ذلـك تأثر البعض الأخر سلباً بمعطيات العصر السياسية والثقافية، فلم تخـل مصنفاتهم من تهويم الرؤية والشطط في الرأي. لقد كتب هؤلاء في الغالب الأعم وفـق مـنطق "الدفـاع" عـن مذاهـبهم وأيديولوجـياتهم، فاتسمت كتاباتهم بالسجالية والتعصب، كما روجوا لأفكار تهويمية أسطورية كفكرة "المهدي" أو "المخلص" مما فت في قيمة ما صنفوا من تواريخ دارت معظمها حول عقائد مذاهبهم ورجالاتهم[٢٣].

فعلـي سبيل المثال أرخ شليمة محمد بن الحسن (ت ٢٨٠هـ) لبعض حركات المعارضـة، لكـن كتابه صودر وأحرق، كما دون سعد بن عبد الله القمي (ـت ٢٩٩ هـ) كتاباً عن الشيعة لاقي نفس المصير، وإذ أفلت كتاب "مقاتل الطالبين" للأصفهاني، مـن المصادرة فيعد أنموذجاً للكتابات ذات الطابع المأساوي "البكائي" التي تتعالى فيها التشنجات العاطفية علي التفسيرات العقلانية والواقعية.

وفـي نفـس المنحي صنف مؤرخو المعتزلة عن مذهبهم ورجالاته وأعلامه، كما هو حال البلخي (ت ٣١٩هـ) في كتاب "طبقات المعتزلة"، أما مصنفات المتصوفة فـاتخذت فـي الغالب الأعم طابعاً أخلاقياً، إذا استهدف مصنفوها تغيير الواقع بالنصح والوعـظ أو الدعـاء مـن أجل الخلاص، يفهم هذا من مصنفات صوفية مثل "مواعظ الخلفاء" و "ذم المنكر" و " الفرج بعد الشدة" .. الخ وكلها تتنكب طريق العقلانية وتعول علي الخرافات والكرامات والخوارق.

علـي أن الـرؤى العقلانـية لم تختف تماماً خصوصاً عند نفر من مؤرخي المعارضـة. بـل لا نعـدم وجـود ثلـة من المؤرخين الذين ارتقوا بالكتابة التاريخية موضـوعاً ومنهجاً، تعليلاً وتحليلاً وتأويلاً. ويرجع ذلك فيما نري إلي أن الصراع بين

---

[22] عن نماذج لهذا الصنف من المؤرخين: راجع: ابن النديم: المرجع السابق، ص١٤٦، ١٤٧، ١٥٠، ١٥١.

[23] نفسه،ص١٨٢،١٢٧.

الـبورجوازية والإقطـاع، ومـن ثم بين العقل والنقل لم يحسم حسماً قاطعاً، مما أتاح للقـوي البورجوازية وفكرها العقلاني النقدي التجريبي مكاناً في الساحة وإن كان ضيقاً ومحاصـراً. وفي هذا الصدد يعد المسعودى (ت٣٤٦ هـ) المؤرخ أنموذجاً معبراً عن هذا التيار الأمر الذي يجعلنا نتوقف عنده ملياً للوقوف علي رؤيته العلمية للتاريخ.

ولعـل فـي حياة المسعودى إبان أواخر عصراً "الإقطاعية المرتجعة" وأوائل عصـر "الصـحوة البورجوازية الثانية" ما يلقي الضوء علي عقلانيته وموسوعيته[٢٤]. يضاف إلي ذلك كذلك كونه تاجراً ينتمي إلي الطبقة الوسطي اجتماعياً، وإلي الاعتزال الـزيدي مذهبـيا[٢٥]، مما أهله ليتسم مكانة مرموقة بين مؤرخي عصره. ولعل اشتغاله بالجغرافـيا ومزجه إياها بالتاريخ وتعويله علي الرحلات طوال أربعين عاما[٢٦] كان من وراء اتساع منظوره ورحابة مخياله ومن ثم اتسام رؤيته التاريخية بالعقلانية والواقعية والشمول.

فـي كـتابه "مـروج الذهب" تأريخ عالمي متطور بالقياس للتواريخ العالمية السـابقة، ففـي عرضـه الأحـداث مـزج بين التاريخ وعمل الكلام فالعالم في نظره "مخلـوق"[٢٧] كمـا يذهـب المعتزلة وفي وصفه للأمم والشعوب مزج بين الإثنوغرفيا والـثقافة أو وقوفـه علـي مـا يمكـن تسميته بـ "الأنثروبولوجيا الثقافية" ومعلوماته الجغرافية حافلة بالتأويلات والتفسيرات التي تربط بين حركة التاريخ وحركة الكواكب، كـذا بيـنه وبين الجغرافيا الطبيعية، وفي هذا الصدد وقف علي تأثير التربة في الإنتاج الغذائي، وتأثير الأخير في طبائع وأمزجة البشر[٢٨].

---

[24] شاكر مصطفي: المرجع السابق، جـ٢، ص ٤٧، ٤٨.

[25] المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، جـ١، ص٤ من مقدمة المحقق، بيروت، ب. ت.

[26] المسعودي، التنبية والإشراف، ص٧، ليدن، ١٨٩٣.

[27] مروج الذهب، جـ١، ص٢٦.

[28] نفسه، ص٨٤، ٨٥

وحين عرض للعرب رصد أنماط حياتهم مميزاً بين مرحلتي البداوة "التوحش" والحضـــارة، مقدماً تصوراً متطوراً لطبيعة العمران البشري[٢٩] تأثر به ابن خلدون فيما بعد، وفي تأريخه للعالم الإسلامي اتسمت رؤيته بالشمول فجمعت بين التاريخ السياسي والحضـــاري في آن، كما أعمل ميزان النقد في الروايات قبل اعتمادها. بنفس الدرجة التي عول فيها علي الاستقراء والاستنباط في مجال التفسير[٣٠].

ولا نبالغ إذ نقرر أنه طرق باب "التنظير" حين عول علي شمول النظرة خلال الأزمـــنة الطويلة، فأتيح له "استخراج كل دقيق من معدنه، وإثارة كل نفيس من مكمنه" علي حد قوله[٣١].

وفـــي كتابه "التنبيه والإشراف" نجد بدايات مقاربة "فلسفة التاريخ" ذلك أن هذا الكـــتاب يعد أخر ما صنف المسعودى، كما وأنه بمثابة "بانوراما" عامة لتاريخ البشرية، أفـــاد فـــيه من مؤلفاته السابقة، فلم يحفل بالأخبار وتحقيقها بقدر استنطاقها لتتبلور في صـــورة أحكـــام ومقولات أفاد في صياغتها من سائر المعارف المتاحة فقد أبرز مثلاً تأثـــير الجغرافيا في التاريخ السياسي فعرض لمباحث أشبه ما تكون "بالجيوبوليطيقا[٣٢]" كمـــا عـــرض لتاريخ العقائد في مباحث ذات صلة بالانثروبوجيا الثقافية وعلم الأديان المقـــارن، حيـــث تـــابع ورصـــد المشترك الإنساني العام في مجال الدين مبرز اسمه "التواصـــل" و "الاستمرارية[٣٣]" في صورة أقرب ما تكون إلي "الإنسانيات" المعاصرة، ولا غـــرو فقـــد تـــابع تأثـــيرها في التاريخ والحضارة الإسلامية[٣٤]، بما ينم عن نزعة "هيومانية" بعيدة عن التعصب والتحجر.

---

[29] نفسه، ص١٣٧ – ١٧٠.

[30] شاكر مصطفي، المرجع السابق، جـــ١، ص٥٢.

[31] مروج الذهب، جـــ١، ص٦.

[32] التنبيه والإشراف، ص٦،٥.

[33] نفسه، ص١٣٧ وما بعدها.

[34] نفسه، ص٢١٤، وما بعدها.

وفـــي عرضـــه للـــتاريخ الإسلامي أبرز الأسباب والعلل المباشرة والعامة[35]، فطـــرق مجال الرأي والرؤية في آن، فإذا أضيف إلي ذلك إحكامه الصلة بين المعارف المخـــتلفة لـــتدخل ضـــمن موضـــوع التاريخ، نؤكد صدق حكم بعض الباحثين[36] بأن المسعودى قدم الرؤية الحضارية للتاريخ.

ونذهـــب نحن إلي أبعد من ذلك فنعتبر المسعودى من رواد فلسفة التاريخ ولا مبالغة في ذلك ألبته، إذ نجد في مصنفة ما يشي بالرؤية البيولوجية للتاريخ حين تحدث عـــن "نشـــأة الـــدول وشبابها وهرمها وعلل جميع ذلك[37]" ودعوته إلي ضرورة معرفة المـــؤرخ "كيف تدخل الآفات علي الملك وتزول الدول. وتبيد الشرائع والملل، والآفات الخارجـــية المفترضة لذلك[38]"، لقد وقف بحق علي ما أسماه فلاسفة التاريخ المحدثون "بالظـــروف الموضـــوعية" التي هي نتاج عوامل داخلية وأخري خارجية تتضافر معاً لإحـــداث "حركـــية" الـــتاريخ وصيرورته. هذا فضلاً عن شمول هذه الصيرورة لسائر الظواهـــر الماديـــة[39] والروحية التي توحدت في مخيال المسعودى وتأطرت في ذهنه تأطيراً عقلانياً.

كانت جهود المسعودى في مجال التفسير والتنظير مدخلاً أساسياً لازدهار الفكـــر التاريخـــي خـــلال القـــرن التالي من منتصف القرن الرابع إلي منتصف القرن الخـــامس الهجريـــن الـــذي شهد "صحوة بورجوازية" تركت أثراً إيجابياً في مجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة.

وبديهـــي أن يـــتطور علم التاريخ خلال قرن الازدهار هذا موضوعاً ومنهجاً ورؤية.

---

35 نفسه، ص٣١، وما بعدها.

36 أنظر: شاكر مصطفي: المرجع السابق، جـ٢، ص٤٧.

37 التنبيه والإشراف، ص٣.

38 نفسه، ص٤.

39 روزنتال: المرجع السابق، ص١٨٧.

ولعـل من أسباب ومظاهر هذا الازدهار اكتساء الكتابة التاريخية طابعاً دنيوياً بعد اختفاء المؤرخ المحدث وظهور الكاتب والتاجر والوراق والأديب وحتى الطبيب.

مـنها أيضاً الازدهار الذي عم سائر أصناف العلوم والفنون والآداب المختلفة سـواء علـي الصعيد المنهجي أو المستوي المعرفي، وكما كان معظم مؤرخي العصر ذوي ثقافة موسوعية، فقد أفادوا منها في مجال الكتابة التاريخية، ولعل من أهم جوانب تلـك الإفادة اقتباس المشتغلين بالتاريخ الكثير من قواعد "المنهج العلمي التجريبي" الذي ترسـخ فـي هـذا العصر بفضل ابن الهيثم وابن سينا والبيروني وغيرهم كبديل عن اقتـباس مـنهج أهل الحديث، كما كان الحال إبان القرن السابق، بفضل ذلك كله أحتل علـم الـتاريخ مكانة جلي في كتب تصنيف العلوم[٤٠]، فقد أفرد الخوارزمي بابا "لأخبار الـتاريخ" فـي مصـنفه "مفاتـيح العلـوم[٤١]" كما خصص ابن النديم فصلاً مطولاً عن "المؤرخين والتاريخ والنسابة[٤٢]" في كتابة "الفهرست" واعتبر إخوان الصفا علم التاريخ من العلوم الأساسية التي وظفوها لتثقيف الأتباع والأعوان.

ولـيس جـزافاً أن يعترف جل دارسي علم التاريخ الإسلامي بهذه النقلة التي أكتمل بفضلها العلم "فبلغ سن الرشد[٤٣]" واختلط المؤرخون طرائق وقواعد جديدة أثرت العلـم موضـوعاً ومـنهجاً ورؤية[٤٤]، فتحول من الرواية إلي الدراية[٤٥] ولا غرو، فقد تطـورت موضـوعات الـتاريخ المطـروقة من قبل واستحدثت موضوعات جديدة،

---

[40] جب: المرجع السابق، ص٧٧.

[41] ص٦٠ – ٨٠، القاهرة ١٩٣٠.

[42] الفهرست، ص٣٧ وما بعدها.

[43] شاكر مصطفي: المرجع السابق، جـ١، ص٢٠٣.

[44] ياسر نور، التأثير المنهجي لعلوم الحديث في مناهج المؤرخين المحدثين ص١٠١، ١٤٩، رسالة ماجستير، مخطوطة، المنصورة، ١٩٩٩.

[45] عفت الشرقاوي: أدب التاريخ عند العرب، ص٧٦، بيروت، ١٩٧٣.

كالاهـتمام بالـتاريخ الاقتصـادي ومفـرداته[46]، ومـزج التاريخ بالجغرافيا والسياسة والفلسفة[47] والعقائد والذهنيات وغيرها من مقومات التاريخ الحضاري.

وشـهدت المظـان التاريخـية تطـوراً مماثلاً، فجري الاعتماد علي الوثائق والمذكـرات الخاصـة والآثـار والـنقود وغيرها، كما جري الاهتمام بنقد المصادر المكتوبة[48]، فصنفت كتب خاصة في نقد الروايات والرواة، وغدت الأخبار المستقاة من المشاهد والعيان حجر الزاوية في المادة التاريخية المعول عليها.

وأفضـي مـناخ التسـامح والحـرية الذي ساد العصر إلي كسر الإكراهات والمحاذيـر التـي كانـت تغل يد المؤرخ في الكتابة، وتحول بينه وبين التزام الصدق والموضـوعية، كما تقلصت السخائم العصبية والصراعات المذهبية والنعرات الإقليمية أو كـادت لـنجد بعـض مؤرخي الفرس كحمزة الأصفهاني علي سبيل المثال ينصف العرب ويكتب بموضوعية عن أهل السنة رغم تشيعه[49]، وحين صنف ابن النديم كتاب "الفهرسـت" خصصـه لمـا وقـف علـيه من مصنفات "عن جميع الأمم من العرب والعجم[50]".

في ضوء تلك المعطيات الإيجابية وغيرها تطورت الكتابة التاريخية، وانصب الاهـتمام علـي التحليل والتعليل والتنظير خصوصاً بعد "استقرار الرواية"، واستهدف المؤرخون الوصول إلي الحقائق وتوظيفها في شحذ الوعي عن طريق التثقيف والتربية والتـنوير[51]، كمـا جمـع بعض المؤرخين بين التاريخ وفلسفة الأخلاق، كما هو حال مسـكوية علـي سـبيل المثال حرصاً علي توخي الصدق وتحاشي الكذب[52]. وفي هذا

---

46 روزنتال: المرجع السابق، ص١٦٣.

47 ابن النديم: المرجع السابق، ص١٢٠.

48 ميتز (آدم) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، جـ١، ص٢٤٠. القاهرة ١٩٥٧.

49 بروكلمان: المرجع السابق، ص٦٠.

50 الفهرست، ص٣.

51 محمود إسماعيل: إخوان الصفا، ص٦٧ وما بعدها، القاهرة ١٩٩٨.

52 شاكر مصطفي: المرجع السابق، جـ١، ص٤٥٤.

الـــباب كتب أحد مشاهير مؤرخي العصر يقول: "إن التاريخ تجارب..... والرأي لقاح العقل، والتجربة نتاجه، والخير مقصد الحجى، والاجتهاد منهاجه[٥٣]".

ويشـــي هـــذا النص المقتصب بالكثير من خصائص الكتابة التاريخية في هذا العصـــر، ومـــا يعنيـــنا هو الوقوف علي تطور الفكر التاريخي خلاله في مجال الرأي والرؤية والتأويل والتنظير.

وأول ما يلاحظ في هذا الصدد، التعويل علي العقل في مجال التفسير[٥٤] بحيث عــرف الـــبعض علم التاريخ بأنه "علم علل الأحوال[٥٥]" واشتهر البعض الآخر بإرداف ذكـــر الحـــدث "بذكر السبب[٥٦]" كما هو حال هلال الصابي ومسكويه علي سبيل المثال ولا غـــرو. فقـــد أخضـــع مؤرخـــو العصر الكثير من الموضوعات اللاهوتية والغيبية لســـلطان العقـــل[٥٧] فقد اتسعت رؤاهم لتجمع الكون برمته في وحدة كلية واحدة، يقول أحدهـــم "فالـــناظر في كتابنا هذا كالمشرف المطلع علي العالم مشاهداً حركاته وعجيب أفعالـــه[٥٨]" ولـــم يجـــد جلهم غضاضة في الجمع بين الدين والعلم[٥٩]، فتناولوا الكثير من القضـــايا الدينية دون خوف أو وجل. وحسبنا أن حمزة الأصفهاني[٦٠] علي سبيل المثال جمـــع بيـــن الـــتاريخ الدينـــي والتاريخ الدنيوي في مصنف واحد، كما جمع أيضاً بين التاريخ والفلسفة، وكان ذلك إيذانا بظهور التاريخ المفلسف، وفي هذا الصدد قام إخوان الصـــفا بـــدور بـــارز أفاد منه المعاصرون واللاحقون، وحسبنا الإشارة إلي بعض ما سطروا في رسائلهم عن قيام الدول وسقوطها.

---

53 أبو شجاع: ذيل كتاب تجارب الأمم، ص٤، القاهرة ب. ت.

54 عبد العزيز عزت، ابن مسكوية، ص٩٢، القاهرة ١٩٤٦.

55 أبو شجاع: المرجع السابق، ص٥.

56 هلال الصابي: تاريخه، ص٣٣٦، القاهرة، ب. ت.

57 سالم أحمد محل: المرجع السابق، ص١٢٢.

58 المطهر المقدسي، البدء والتاريخ، جـــ١، ص١٧.

59 روزنتال: المرجع السابق ص٢٠١.

60 أنظر: حمزة الأصفهاني، تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، ص٢٧، برلين ١٣٤٠هـــ.

يقـــول الإخوان[61] "أعلم يا أخي بأن أمور هذه الدنيا دول ونوب تدور بين أهلها قـــرناً بعد قرناً ومن أمة إلي أمة، ومن بلد إلي بلد... واعلم بأن كل دولة لها وقت منع تبـــتدئ وغاية إليها ترتقي، وحد إليه تنتهي، فإذا بلغت أقصي غاياتها، ومدي نهاياتها، تســـارع إلــــيها الانحطــــاط والنقصــــان، وبدأ في أهلها الشؤم والخذلان، واستأنف في الآخريـــن مـــن القوة والنشاط والظهور والانبساط، وجعل كي يوم يقوي هذا ويضعف إلي أن يضمحل الأول المقدم، ويستمكن الآتي المتأخر.

ونعـــتقد أن الكثيريـــن[62] من صفوة مؤرخي العصر كانوا ضمن هذه الجماعة ولعـــل مـــن أشـــهرهم مســـكويه (ت ٤٢١هـــ) الذي ترأس مدرسة ضمت أبا شجاع والصابي والبغدادي والبيروني وغيرهم. ونظراً لأهمية ما تضمنه كتابه "تجارب الأمم" من آراء ورؤى في تفسير التاريخ، نتوقف عنده لرصد بعض مقولاته وتنظيراته.

يجمـــع الدارسون علي أن مسكويه اختط للكتابة التاريخية مساراً جديداً قوامه تحويـــل الوقـــائع إلي أحكام ومقولات تبدأ بالتدبير الذي يسبق الحدث، ثم ذكر الحدث كتجربة إنسانية، ثم تعليل تلك التجربة، وأخيراً ما تمخضت عنه من دروس وعبر، لقد اعتـــبر مسكوية التاريخ مستودعاً للتجربة الإنسانية، وعنوان كتابة "تجارب الأمم" شاهد أمين علي ذلك.

ومـــا يعنيـــنا إثباته أن رؤية مسكوية للتاريخ من نتاج عوامل شتي، منها كونه زيدياً اعتزالياً جمع بين عدل واعتدال المذهب الزيدي وبين عقلانية المعتزلة.

مـــنها أيضـــاً حظـــه العريض من تحصيل علوم عصره الطبيعية والرياضية والفلســـفية والأدبية والاجتماعية، والإجتماعية، وإفادته منها جميعاً في صياغة منظوره التاريخي.

---

[61] رســـائل إخـــوان الصفا، جــ١، ص١٨٠، بيروت، ب. ت. وعن مزيد من النصوص في فلسفة التاريخ عند الإخوان، راجع: محمود إسماعيل: نهاية أسطورة، ص٥٩ وما بعدها، القاهرة ٢٠٠٠.

[62] أنظر: روزنتال: المرجع السابق، ص١٩٧، عبد الله العروي العرب والفكر التاريخي، ص٣٥٠، بيروت ١٩٧٣.

والجديــد الــذي قدمه هذا المنظور يكمن في اطراح كل ما لا يقبله العقل حتى ولــو كان مقدساً والإلحاح علي "ما كان تدبيراً بشرياً لا يقترن بالإعجاز[٦٣]" لقد أثبت أن الأحداث والوقائع التاريخية نتيجة فعاليات بشرية مسبوقة بالتفكير والتدبير[٦٤].

وقــد ساقته هذه النظرة إلي الاهتمام بالجوانب الاقتصادية بمفرادتها الدقيقة هو "ما لم يلفت إليه غيره، وقد يقف علي أمر صغير قد يكون فيه درس كبير[٦٥]"، ومن هنا عول علي النظرة النقدية للمرويات، واعتمد فيها ما يقبله العقل، كما اعتمد علي حصاد مشــاهداته وصــلاته واســتخلص منها جميعاً مادة كتابه الذي اعتبره البعض[٦٦] أهم ما كتــب فــي التاريخ الإسلامي، لقد نظر مسكوية إلي الروايات التي حوتها كتب التاريخ باعتبارها محض "أخبار تجري مجري الأسمار والخرافات لا فائدة منها غير استجلاب الــنوم بهــا[٦٧]"، ومــن هنا حرص اشد الحرص علي قياس الأخبار علي العقل المنوط بتمحيصها أولاً، ثم استكناه عللها بعد ذلك.

مــن الجديــد الــذي تفــرد بــه مسكويه أيضاً، إدماج الراي في التجربة[٦٨]، واســتخلاص العوامــل المؤثرة من هذا الدمج في صياغة الأحداث الكبري، وفي هذا الصــدد أولي مسكويه السياسات الاقتصادية اهتماماً كبيراً بأعتبارها العامل المؤثر في السياسة[٦٩] بل في العمران كله[٧٠].

وحــق لنا أن نسجل له سبقاً فريداً حين فطن إلي مسئولية الطبقة الوسطي عن خــراب العمــران فــي العالم الإسلامي الوسيط[٧١]، وتفسير حركات العيارين وثورات

---

63 مسكويه: تجارب الأمم، جـ١، ص٣، طهران ١٩٧٨.

64 نفسه ص١٥٠.

65 أحمد أمين: ظهر الإسلام، جـ١، ص٢٠٨، القاهرة ١٩٦٦.

66 روزنتال: المرجع السابق، ص١٩٦.

67 تجارب الأمم، جـ١، ص٢٢.

68 مرجويوث: المرجع السابق، ص١٢٣.

69 نفسه، ص١٤٣.

70 تجارب الأمم، جـ٢، ص٦٩، القاهرة، ب. ت.

71 نفسه، ص١٤٣.

العــوام بالسياسات والإجراءات الإقتصادية المشتطة[٧٢]. وفق نفس الرؤية فسر استقرار الأحـــوال السياســـية وازدهار العمران بالسياسات الإقتصادية الرشيدة[٧٣]، لقد كان بحق أول مؤرخ إسلامي يفطن إلي أهمية التفسير المادي للتاريخ.

فـــي نفس المكانة نضع أبا لريحان البيروني (ت٤٤٠هـــ) كمؤرخ طفر بالفكر التاريخي طفرة كبري، خصوصاً في مجال التفسير والتنظير.

كـــان البيروني كمسكويه والمسعودي شيعياً زيدياً إعتزالياً، إشتغل بالسياسة ثم لفظهـــا إلـــي العلـــم والمعـــرفة[٧٤]، فحـــاز قصب السبق في الإلهيات والمنطق والفلك والجغرافـــيا إلـــي جانب التاريخ بطبيعة الحال، وأسهم إسهامة كبري في تطوير المنهج العلمي التجريبي، وحسبه أن كان أول من تحدث عن "القانون" العلمي كمصطلح[٧٥].

كتب البيروني عدداً من المؤلفات في التاريخ، لم يبق منها سوي كتاب "تحقيق مـــا للهند من مقولة مقبولة أو مرذولة" وكتاب " الآثار الباقية عن القرون الخالية"، وما يعنيـــنا هـــو الوقـــوف علي رؤية البيروني للتاريخ أو بالأحري ما أضافه من جديد في مجال التفسير والتنظير.

يعد الكتاب الأول تاريخاً حضارياً للهند، مقارناً بحضارات الأمم الأخري، بما يشـــي بأتساع "المخيال" التاريخي لمؤلفه، فضلاً عن ثقافته العريضة والموسوعية التي تتمثل في احتواء الكتاب علي دراسات معمقة في العقائد والإتنولوجيا والأنثروبولوجيا، إلـــي جانب أبحاث أخري في الميتافيزيقا والطبيعة، مزج البيروني بينها جميعاً، وصاغ هذا المزيج صياغة فلسفية معمقة[٧٦].

---

[72] نفسه، ص٩١.

[73] نفسه، ص١٢٨،١٢٧.

[74] البيروني: تحقيق ما للهند من مقولة، مقبولة في العقل أو مرذولة، ص١٠، ١١ من مقدمة المحقق، بيروت ١٩٨٤.

[75] راجع: محمود إسماعيل: سوسيولوجيا، جـــ٢، مجلد٢، ص ٤٠، ٤١، القاهرة ٢٠٠٠.

[76] البيروني: تحقيق ما للهند من مقولة، ص٤ وما بعدها.

وبـــرغم وفرة وزخم تلك المعلومات إلا أن البيروني صنفها وبوبها في تسلسل واتســاق يــنم عن إدراك ووعي بالصلة الوثيقة بين المعارف المختلفة، وقدرة في فهم اصطلاحاتها.

والأهــم مــن ذلك ما قدمه من رؤية "أنطولوجية" تجمع كل ظاهرات الوجود المحســوس والمعقــول في وحدة واحدة، كذا النظر إلي الأمم والشعوب المختلفة نظرة مــتوحدة أيضــاً، تأسيســاً علـــي وجود "مشترك إنساني عام" في القيم والحضارة، فقد تساوت في هذا المعني جميع الأمم[٧٧]، لذلك يعد الكتاب شاهداً علي منهجية جديدة تعالج موضوعات جد مبتكرة في صياغة فلسفية منطقية.

ولا جــدال فـــي أنـــه قـــدم رؤيـــة فلسفية تجمع بين إنجازات العلوم المختلفة والتجارب البشرية التي أفرزتها في منظومة واحدة.

وفـــي هذا الصدد يقف الدارس علي مقولات هامة في فلسفة التاريخ، منها أن قـــيام الدول لا يتحقق "إلا بأجتماع الملك والدين[٧٨]"، منها أيضاً الوقوف علي تأثير البعد الطبقـــي بمعـــناه العلمـــي في صياغة الوقائع والأحداث، تأسيساً علي أن الطبقات نتاج "عمـــل أو صـــناعة أو حـــرفة[٧٩]"، مـــنها أيضـــاً وجود علاقة عضوية بين المحسوس والمعقول[٨٠] انطلاقاً من فلسفة "وحدة الوجود" فالعالم نتاج أفعال بشرية تصنع "العمران" وهو "معمور بالحرث والنسل[٨١]" والحضارة "مشترك إنساني عام[٨٢]".

نستخلص مما سبق استناد فلسفة التاريخ عند البيروني علي العقل النقدي أولاً، والوجـــود المـــادي ثانياً، والفعل البشري أخيرا[٨٣]، لذلك كان علي وعي تام بتفرده فيما توصـــل إليه، كما كان حريصاً علي تقديم دروس تعليمية للمؤرخين عن شروط الكتابة

---

[77] نفسه، ص١٣٨.

[78] نفسه، ص٥٥.

[79] نفسه، ص٧٠.

[80] نفسه، ص٧٨.

[81] نفسه، ص٣٥.

[82] نفسه، ص١١٩.

[83] نفسه، ص١٠٧.

وإشكالياتها ومرجعياتها ومناهجها، وهي دروس تفرد بها عن رؤية ووعي، يقول في ذلك "لقد أعيتني المداخل فيه (أي ما توصل إليه) مع حرصي الذي تفردت به في أيامي[٨٤]".

ومن أهم ما استحدث البيروني في مجال المنهج بخصوص "المرجعيات" حكمه بأن ما يحصله المرء عياناً أهم بكثير مما يعرفه سماعا "فليس الخبر كالعيان.. لأن العيان هو إدراك عين الناظر المنظور إليه في زمان وجوده ... أما الخبر فيكون عن الشيء الممكن الوجود[٨٥]" وفي حديثه عن الأسباب التي تحول دون الموضوعية في الكتابة التاريخية يقول: "وللخبر آفات.. وفيه الصدق والكذب"، ورد الكذب إلي "تفاوت الهمم وغلبه الهراش والنزاع علي الأمم" فمن مخبر عن أمر كذب يقصد فيه نفسه فيعظم به جنسه... ومن مخبر عن متقرب إلي خبر بدناءة الطبع أو متقياً لشر.. ومن مخبر عن جهل وهو المقلد للمخبرين[٨٦].

ونعتقد أنه وقف بذلك علي الأسباب الذاتية والموضوعية التي تحول دون المصداقية. والأهم من ذلك أن البيروني طبق القواعد المنهجية هذه حين صنف كتبه في التاريخ.

أما عن رؤيته التاريخية في كتاب "الآثار الباقية عن القرون الخالية" فكانت أكثر تفلسفاً وأعمق نظراً، لأن الكتاب مصنف في التاريخ العالمي، قدم فيه البيروني صورة للتاريخ البشري والحضارة الإنسانية وفق منهج يرصد النتائج الهامة والآثار العميقة التي وجهت التاريخ الإنساني كله، وغالبت الزمان والمكان لتقف شاهداً علي عظمة الإنسان، وفي هذا الصدد فطن المؤلف إلي ما يمكن أن نطلق عليه "الزمان التاريخي" إذ نقف عليه من خلال جدل الزمان مع الأحداث، حيث يفرق بين الغث منها والثمين، أما الغث فيذهب جفاء، وأما الثمين فيبقي لينفع الناس، وهذا الثمين هو الذي

---

84 نفسه، ص١٢.

85 نفسه، ١٣.

86 نفسه، ص٦٤.

عـــرض له البيرونـــي في كتابه بدلاً من "أعمال الملوك وأفاعليهم مما تمجه الأذان ولا تقبله العقول[٨٧]".

وبصـــدد التميـيز بين الغث والثمين في وقائع التاريخ، توسل البيروني بمنهج "الاســتدلال بـــالمعقولات، والقـياس بما يشاهد من المحسوسات" بعد "تنزيه النفس عن التعصب والتظافر وابتاع الهوي والتغالب بالرياسو[٨٨]".

لقــد عــول علي المحسوس في معرفة المنقول، ووقف علي الغائب من خلال معــرفة الشــاهد، تأسيســاً علــي وحــدة الوجود المعرفي، وقياساً علي وحدة الوجد الأنطولوجي. ومن خلال ذلك قدم البيروني تأريخاً مصفي بعيداً عن التحريف والزيف الذي "هو خداع للأمم[٨٩]".

هــذا المنهج القويم – فيما أري – جاء نتيجة ثقافة عريضة ودراسة في العلوم الطبيعــية والرياضة، فضلاً عن نتاج جهوده للأرتقاء بالمنهج العلمي التجريبي، ولعله تأثر كذلك بهذا المنهج، حين انفرد بين مؤرخي العصر الوسيط بالوقوف علي أهمية ما نســميه الآن "بالمــنهج الكمــي" "الكوانــتوم" المؤســس علــي الجداول والإحصاءات والمعــادلات الرياضــية وتوظيفها في دراسة العلوم الإنسانية[٩٠]، لذلك كله وغيره حق للأستاذ "سخاو" القول بأن البيروني يعد من أعظم العقول التي أنجبتها البشرية.

خلاصة القول، أن نشوء وتطور منهجية التفسير التاريخي كان مرتبطاً بتاريخ العلــم والــثقافة فــي الإســلام، وكلاهما كانا بالمثل نتيجة معطيات سوسيو تاريخية، اقتصادية واجتماعية وسياسية.

---

87 البيروني: الآثار الباقية، ص١٠٠.

88 نفسه، ص٤.

89 نفسه، ص٢٠٤ وما بعدها.

90 عن نماذج في هذا الصدد: راجع: الآثار الباقية، ص١٠٥ علي سبيل المثال.

الألقاب والكنى الشعبية الساخرة فى عصر سلاطين المماليك

٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م

محاسن محمد على الوقاد

مصر

يشكل تاريخ المماليك في مصر تراكماً للمصنفات والسجلات المليئة بالغموض والتناقض، الناجمين عن طبيعة تكوين طوائف المماليك، وطريقة تربيتهم وأسلوبهم في الحكم، وعن طبيعة تقاليدهم البدائية التي لم تكد تتهذب وتتأقلم بالبيئة المصرية المتحضرة، حتي تغذيها موجات مغولية جديدة بعقليتها البدائية، وأمزجتها وطبيعتها غير المصقولة ، وقد ترتب علي ذلك أن الموجات اللاحقة أخذت في إفساد ما اكتسبته الموجات السابقة عليها من ألوان الثقافة والتحضر والتأقلم بالبيئة المصرية[١]، ولا جدال في أن طبيعة المماليك الذين حكموا مصر زهاء قرنين ونصف من الزمان (٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م) لم تتح لهم أدراك المفهوم الصحيح للأسرة ، بل لم يكن لديهم حياة عائلية بالمعني المعروف، رغم أن غالبية أفرادها حرصوا على الزواج وعلى إنجاب الأطفال ، ذلك أن أسلوب المماليك في الحياة لم يقم على أساس وحدة الأسرة بأركانها المعروفة وهى : الأب والأم والأولاد ، بقدر ما قام على أساس الرقيق والمماليك[٢] .

أضف إلى ذلك أن الدولة المملوكية كان يسودها النظام الإقطاعي الذي يميزه وجود طبقتين إحداهما أرستقراطية تمثل الثراء والبذخ، والأخرى وهى طبقة العوام التي كانت متردية في الفقر والعوز ، نتيجة سوء الأحوال الاقتصادية والأوضاع الاجتماعية [٣] .

---

(١) نظير حسان سعداوي ، صور ومظالم من عصر المماليك ، القاهرة ١٩٦٦م ، ص ٤ .

(٢) أحمد عبد الرازق ، المماليك ومفهوم الأسرة لديهم ، مجلة كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، العدد الثاني ١٩٧٧ م ، ص ١٨٨ .

(٣) HOLT (P.M), Scenes of Daily life from Mamluk Miniatures, The Eastern Mediterranean Lands, in the Period of the Crusades, Worminster, England, 1977, P. 79; Poliak (A.N), Some Notes on the Feudal System of The Mamluk, Jras, 1937, pp. 97-107; Feudalism in Egypt, Syria Palestine and The Lebanon, 1250 – 1900,

وفـــي ظـــل هذا النظام استأثر المماليك بكل خيرات البلاد، ولم يتركوا لأهلها سوى الفتات[١] وحياة الفقر والفاقة[٢] .

ومـــن مظاهر القهر الاقتصادي الذى تعرض له العامة فى ذلك العصر احتكار الدولة لتجارة بعض السلع الأساسية وتحديد سعرها بما لا يتناسب مع القدرات الشرائية لهذه الطبقة[٣].

كانـــت العلاقـــة بيـــن السلطان والعامة ترتبط بالأحوال الاجتماعية والظروف السياســـية والاقتصـــادية التي تمر بها الدولة ، ذلك بالإضافة إلى طبيعة السلطان ذاته وميوله واتجاهاته فى الحكم ، وكانت الضرائب مؤشراً هاماً يعكس طبيعة هذه العلاقة، وغالـــباً ما كان فرض الضرائب سبباً من الأسباب الأساسية في إثارة العامة، حتى وإن كان فرضها مرتبطاً بتجهيز الجيش للدفاع عن البلاد [٤].

علـــى أن خضوع مصر لأرستقراطية حاكمة من المماليك تفننت في استغلال الـــبلاد وأهلها ، لم تفقد المصريين روح المرح التي عرفوا بها في كل زمان ومكان ، ولـــم تضعف هذه الروح حرمان الأهالي من المشاركة في حكم بلادهم أو قسوة الحكام فـــي عقـــاب من يخرج عن طاعتهم من أبناء البلاد أو حتى الأوبئة التي تعرضت لها مصر بين حين وأخر في عصر المماليك[٥].

The Royal Asiatic Society, London, 1939, pp. 1-17; Lane – Poole, History of Egypt, pp. 252-253.

(١) محمـــد رجب النجار، الشعر الشعبي الساخر فى عصور المماليك ، مجلة عالم الفكر ، م ١٤ ، العدد (١) ١٩٨٣م ، ص ٢٠٦ .

(٢) محاســـن محمـــد الوقـــاد ، الطبقات الشعبية فى القاهرة المملوكية (٦٤٨ – ٩٢٣ هـــ/١٢٥٠ – ١٥١٧م) القاهرة ١٩٩٩م ، ص ١٢٥ .

(٣) Sobernhetm (M), Encyclopedia of Islam, art. Mamluks, Leiden, 1987, Vol. 7, p. 217; محاسن الوقاد ، الطبقات الشعبية ، ص ١٢٥ .

(٤) عـــلاء طه رزق ، عامة القاهرة فى العصر المملوكي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة الزقازيق، كلية الآداب ، ١٩٨٩م ، ص ٨٦ .

(٥) ســـعيد عاشـــور ، المجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك ، ط (١) القاهرة ١٩٦٢ م ، ص ١٠٠ وما بعدها .

والشعب المصري من أكثر الشعوب الإسلامية مواجهة لظلم الحكام وطغيانهم، فهو يقاومه وإن خضع له على مضض ومقاومته له قد تصل إلى حد الثورة[1].

وبالرغم من سوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية للعامة في ظل حكم المماليك ، إلى جانب تفشى الأوبئة والمجاعات التي حدثت من وقت لأخر، والتي كانت تحصد أغلبهم ، رغم كل ذلك لم تفقد العامة روح المرح والتسلية بالاستمتاع ببعض وسائل الترفيه عن النفس ، وهذه السمة ظلت عزاء للعامة المصرية الكادحة ومتنفساً لها في الاحتفالات الكثيرة التي حظي بها العصر المملوكي[2] ، فقد أطلق الرحالة ابن بطوطة وصفه لأهل مصر على اختلاف طبقاتهم بأنهم " ذوو طرب وسرور ولهو "[3].

وقد تجلت روح المقاومة الشعبية في التراث الأدبي الشفاهي أو الشعبي ، ولا سيما في فترات حكم السلاطين المستبدين ، وإذا كان هؤلاء قد نجحوا في وأد روح المقاومة الإيجابية أو العسكرية التي كانت تشكلها هبات العامة، وانتفاضاتهم المستمرة، بزعامة الحرافيش والشطار والعيارين والزعار وأشباههم من البطالين أو العاطلين ، فإنهم لم ينجحوا أبداً في سلب هؤلاء العوام روح السخرية المريرة المشهورة التى توسلوا بها أدبياً وفنياً واجتماعياً ونفسياً، فى التنفيس عن معاناتهم وآلامهم وآمالهم وأحلامهم، في الخلاص من بطش هؤلاء المستبدين المغرورين الذين مسهم الرق يوماً ما[4].

---

(1) عبد المنعم ماجد ، موقف المصريين من حكم المماليك فى العصور الوسطى ، حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، م١٢ ، ١٩٦٩ م ، ص ٤٩ .

(2) محاسن الوقاد ، الطبقات الشعبية ، ص ٢٤٧ .

(3) ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، ص ١٩ ؛ نقولا زيادة ، الرحالة العرب ، القاهرة ، ١٩٥٦م ، ص ١٣١ .

(4) رجب النجار ، الشعر الشعبى ، ص ٧٧٩ .

إن الأدب الشـــعبي والأدب العامي كان يمس كل منهما الحياة الاجتماعية من جمـــيع جوانـــبها ، فهمـــا تعبـــير عـــن خلد القطاع الاجتماعي الغفير، بما يعتريه من مؤشـــرات اجتماعية أو هزات سياسية أو طبقية ، وما إلى ذلك مما ينتاب الشعوب من تغير في السلوك[١].

لقـــد اضـــطر المجـــتمع الشـــعبي إزاء المحن التي ألمت به، وفشله الدائم في مواجهـــتها مـــن ناحية، وعجزه عن تحقيق شخصيته ووجوده تحقيقاً إيجابيا، من ناحية أخري، بعد أن جرده ظالموه من إمكانيات الرد ، إلى أن يلوذ بالسلاح الوحيد الذي لا يمكـــن لأحـــد أن يجـــرده مـــنه - وهو لسانه - وإن قطعوه أحياناً ، ولكن عبثاً حاولوا القضـــاء على روح السخرية أو الفكاهة عنده، كما اضطر إلى الخروج النفسي من هذه المحـــن والكـــوارث بالفكاهـــة والتـــندر والسخرية متخذاً منها ملاذاً ومهرباً ومخرجاً ومتنفســـاً وعـــزاء واستنكاراً ، فقد أدركت العامة بفطرتها وفطنتها أن المأساة يمكن أن تتحول إلي ملهاة [٢].

ولا يعـــدم الباحـــث فـــي الـــتاريخ المصـــري المملوكـــي أن يعثر في زحمة المتناقضـــات وفـــى غلبة الأحداث اليومية الصاخبة على طرفة من الطرف الجميلة أو نـــادرة من النوادر الشيقة، أو أعجوبة من الأعاجيب المثيرة ، التي لا تخرج عن كونها مجموعـــة مـــن المرايا الصافية التي تصور حياة المجتمع المصري المملوكي سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وعسكرياً ، والتي تلقى ضوءاً كاشفاً على ما يجرى بداخله[٣].

إن العامـــة حيـــن اتخذت من الفكاهة سلاحاً تطعن به طبقة المماليك تفننت فى إبداعهـــا الشعبي في ابتكار ما يمكن أن نسميه أدب السخرية والفكاهة، باعتباره إحدى الوســـائل الفنية والنفسية البارعة، في محاربة السلطة الجائرة وكشف ألاعيبهم، وفضح جورهـــم وبطشهم وأنانيتهم وجشعهم واستغلالهم وصراعهم الدموي ، إن هذا اللون من

---

(١) صادق الجمال ، الأدب العامى ، ص ٧٥ .

(٢) رجب النجار ، الشعر الشعبى ، ص ٧٨١ .

(٣) نظير حسان ، صور ومظالم ، ص ٥ .

الأدب الشـعبي قد زود العامة بقدر من المناعة أو الحصانة النفسية ، وعمل على رفع روحهـم المعـنوية وتـزويدهم - ولـو إلى - حين بجرعة من الشجاعة والقدرة على المجابهـة والصمود والتحدى ، هذا الأدب الموجه ضد بعض القيود المفروضة عليهم فى ظل الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية السائدة[١].

بل إن هذا الأدب الشعبي - في كثير من نماذجه الأصلية - تجاوز فى وظيفته التعبـير عـن روح الشـماتة والتشفى من حكامه المماليك، إلى تحقيق الشعور بالتفوق والاستعلاء والأصالة والانتصار[٢].

وقد ظهرت هذه الروح بوضوح في بعض الألقاب والكنى التي أطلقها العامة، علـى بعض سلاطين المماليك والأمراء وكتاب الدواوين على سبيل التهكم والسخرية ، أو مـودة وحـباً فـى السلطان مثل السطان " ركين "[٣] أو السلطان يلباى "المجنون"[٤] والسـلطان "بخشـى"[٥] ، و "سـلطان لـيلة"[٦] و " سـلطان الجزيرة "[٧] و" السلطان أبـو عيشـة "[٨] ، وهـذه الألقاب والكنى إنما تشير إشارة ساخرة إلى سلوكهم أو إلى كونهـم العوبـة فـي أيدي الأمراء ، أو إلى أنهم لم يلبثوا في السلطة غير ليلة واحدة أو تسلطن بعضهم في الجزيرة - بالنيل - لا العاصمة أثر انقلاب دموي .

---

(١) رجب النجار ، الشعر الشعبى ، ص ٧٨٧ .

(٢) رجب النجار ، الشعر الشعبى ، ص ٧٨٧ وما بعدها .

(٣) المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشره محمد مصطفى زيادة ، جـ٢ ق١ ، لجنة التأليف والنشـر ، ١٩٤١م ص ٥٥ ، ابـن إيـاس ، بدائـع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، جـ١ ق ١ ، القاهرة ١٩٨٢ م ، ص ٤٢٥ .

(٤) ابن أياس ، بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ٤٦٦ .

(٥) ابن أياس ، بدائع الزهور ، جـ٣ ، ص ٤٣٦ وما بعدها .

(٦) ابن أياس ، بدائع الزهور ، جـ٣ ، ص ٧ .

(٧) ابـن تغـرى بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب ، بدون تاريخ ، جـ ١١ ، ص ٣٧ .

(٨) المقريـزى ، السـلوك ، جـ١ ق ٢ ، ص ٣٨٦ ، أنظر أيضاً رجب النجار ، الشعر الشعبى ، ص ٨١ وما بعدها ، ص ٧٩٣ وما بعدها .

وبــادئ ذي بــدء يتوجب علينا هنا تعريف الألقاب والكنى لغة واصطلاحاً :
يخــتلف المعــنى اللغــوي للقب عن المدلول الشائع، فاصل اللقب في النَّبزَ ، وهو ما يخاطب به الإنسان من ذكر عيوبه ، وما يحب ستره ، وقد ورد فى القرآن الكريم بهذا المعــنى في قوله تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّــنْهُمْ ولا نِسَــاء مِّــن نِّسَــاء عَسَــى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ ولا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَــابِ "[1] ثم أجيز استعمال اللقب في موضع النعت الحسن ، وكثرا استعماله بهذا المعنى حتى اصطلح على مدلوله: التشريف والمدح[2].

على أن الكتاب فى عصر المماليك قد اصطلحوا فيما بينهم على مدلول خاص للقــب ، وفــرقوا بيــنه وبين ما سموه بالنعت؛ فسموا صفات المدح التي ترد بصيغة الإفــراد، أي التــي تــتكون مــن لفظ واحد، مثل الفاضل والشيخ ونحو ذلك ، ألقاباً ؛ وصفات المدح التي ترد على صورة التركيب ، أي التي تتكون من أكثر من لفظ واحد مــثل مولــى أمير المؤمنين، ونصير الإسلام والمسلمين، وعضد الملوك والسلاطين، ونحــو ذلــك نعوتــاً ، والنعت في اللغة: الصفة ؛ وكان يطلق على ما يختاره الإنسان ويــزيد في إجلاله، وهو بهذا المعنى عكس اللقب بمعناه الأول ، غير أنه استعمل أيضاً فــي الــذم ، وعلى هذا اتفق مع اللقب في جواز استعماله للمدح أو للذم ، وأخيراً غلب العرف استعمال كلاً من النعت واللقب لصفات المدح والتكريم[3].

وفــيما يــتعلق بالكــنى : كــنى عن كذا كنايةً : تكلم بما يستدل به عليه ولم يصرح، كُني و – الرجل بأبي فلان وابا فلانة كُنيةَ أطلق عليه هذه الكنية[4].

---

[1] قرآن كريم سورة الحجرات آية رقم ١١ .

[2] حسن الباشا ، الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار ، القاهرة ١٩٥٧م ، ص ١ ؛ مجمع اللغــة العربــية ، المعجم الوجيز ط ١ القاهرة ١٩٨٠ م ، ص ٥٦١ ؛ الفيروزابادى ، القاموس المحيط ، جـ ١ ١٩٧٧ م ، ص ١٢٨ .

[3] حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص١.

[4] مجمع اللغة العربية ، المعجم الوجيز ، ص ٥٤٣ .

أمـــا بحثنا هذا فنعنى بالألقاب؛ ما يطلق من الصفات رسمياً على سبيل المدح والتشـــريف أو الـــذم، بحيث يخرج من نطاقه الألقاب الشعبية التي لم تمنح لأصحابها بطريق رسمي .

وقـــد وجـــدت بعـــض الألقاب والكنى لم تفسر لنا المصادر المملوكية المعاصرة سبب إطـــلاق هذه الألقاب فبقيت بلا معنى ، في حين وصلتنا تفسيرات لأغلب الألقاب التي أطلقت على السلاطين وبعض الأمراء إبان العصر المملوكي .

أمـــا عن الألقاب التي أطلقتها العامة على الأمراء مثل الأمير عز الدين ايغان المعـــروف بســـم المـــوت[١] والأمـــير طشتمر المعروف بحمص أخضر [٢] ، والأمير قطلوبغـــا الفخـــري المعروف بالفول المقشر[٣] ، والأمير سيف الدين ملكتمر الناصرى المعـــروف بـــالدم الأســـود[٤] والأمـــير ناصر الدين فأر السقوف[٥] ، والأمير طشتمر طلـــيلة[٦] ، والأمير شمس الدين محمد أبى رقيبة[٧] ، والأمير أزدمر العزى المعروف بـــأبو دقـــن[٨] ، والأمير الطنبغا العلاى المعروف بفرفور[٩] ، والأمير على بن أيدمر المعـــروف بالمـــزوق[١٠] والأمـــير اســـندمر الديـــاح[١١] ، والأمـــير يلـــبغا الأحمدى المجـــنون[١٢] ، والأمـــير أبـــو زلطة[١٣] ، وطشتمر المحمدى اللفاف[١٤] ، وعز الدين

---

(١) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ص ١٨٧ وما بعدها .
(٢) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، جـ٢ ، ص ٢١٩ .
(٣) الصفدى ، أعيان العصر ، جـ ٤ ، ص ١١٢ وما بعدها .
(٤) الصفدى ، أعيان العصر ، جـ ٥ ، ص ٤٤٨ .
(٥) الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ١ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ق٢ ، ص ٤٢٠ .
(٦) المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ق ٣ ، ص ٦٧٨ .
(٧) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ق ١ ، ص ٧٦٦ .
(٨) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ق ٢ ، ص ٥٨ ، ٧٨ .
(٩) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ق ١ ، ص ١٨٣ .
(١٠) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ق١ ، ص ٤٠٠ .
(١١) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ق ١ ، ص ١٨٣ .
(١٢) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٩ ، جـ ٢ ، ص ٣٣٥ .
(١٣) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ق ٢ ، ص ٥٧٤ .
(١٤) ابن تغرى بردى ، بردى ، المنهل الصافى ، جـ ٦ ، ٣٩٤ .

أيدمــر أبو درقة[١] ، والأمير ناصر الدين محمد بن الضانى[٢] ، والأمير سن إبرة[٣] ، والأمــير جمال الدين المعروف بأصفر عينه[٤] ، والأمير أقبغا الطولوتمرى المعروف باللكــاش[٥] ، والصاحب علم الدين يحيى المعروف بأبو كم[٦] ، ومحمد محنى ذقنه[٧] ، وشــمس الديــن محمــد بن عبد الخالق المناوى المعروف بالطويل وبالبدنة [٨] ، وتاج الديــن ابــن أحمد بن على المعروف بابن المكللة[٩] ، والأمير يشبك الساقى المعروف بالأعرج[١٠] ، وفخر الدين بن السكر والليمون[١١] ، والأمير خاير بك المعروف بخاين بــك[١٢] ، والأمــير أزدمــر تمســاح[١٣] ، والأمير قانصوه المعروف بهات لبن[١٤] ، والأمير المعروف بروح له باشا[١٥] ، والأمير المعروف بالفاجر[١٦] ، والأمير قانصوة الســيفى أبــو ســنة[١٧] ، والأمــير جان بلاط المحمدى المعروف بالموتر ، والأمير

---

(١) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ق ٢ ، ص ٦٠٨ ، ٨٦١ .

(٢) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ق ٢ ، ص ٧٧٠ ، ٨٠١ . من المحتمل أنه أطلق عليه هذا اللقب لأنه كان كثير الأكل خاصة لحم الضأن بالإضافة إلى أنه كان سم .

(٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ق ٢ ، ص ٢٩٨ .

(٤) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ق ٢ ، ص ٢٩٨ ، ٣٢٣ .

(٥) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ق ٢ ، ص ٨٩٤ . يرجح أنه أطلق عليه هذا اللقب لأنه كان يتخبط فى تصرفاته وسلوكه أمام الآخرين .

(٦) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٦٣٢ ، ٦٤٤ ، ٦٧٩.

(٧) المقريــزى ، السلوك ، جـ ٣ ، ق ٣ ، ص ١١٤٠ ، ١١٧٣ . ربما أطلق عليه هذا اللقب لأنه كان يميل إلى وضع الحناء على ذقنه .

(٨) المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ق ١ ، ص ١٤٩ ، ١٧٠ .

(٩) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ق ٢ ، ص ٧٦٦ .

(١٠) المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ق ٢ ، ص ٧٦٣

(١١) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ٣٢٥ .

(١٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٥ ، ص ٧٦ ، ١١٠.

(١٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ٢٠١ .

(١٤) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ٢٥ . من المحتمل أنه أطلق عليه هذا اللقب لوجود سنه فى فمه مختلفة عن باقى الأسنان .

(١٥) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

(١٦) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٥ ، ص ٤ .

(١٧) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٥ ، ص وما بعدها .

قانصـــوة كرت[1] ، والأمير مصرباى المعروف بالأقرع[2] ، والأمير ارزمك المعروف بالناشــف[3] ، والأمير برسباى حداية ، والأمير حاصل ماتم[4] ، والسنجق أو الصنجق أبــو نــبوت ، والصنجق سبع بنات ، والصنجق غليظ الرقبة ، ، وصنجق (سُتّة) ، لأنه حصل على الثراء من سيدته بعد أن تزوجها[5] ، وهى أسماء وألقاب وكنايات ونعوت، وجــه الهزء فيها مستمد من لوازم سلوكية أو حركية أو قولية ، كانوا يقومون بها على شــكل آلى جامد ، فارتبطت بهم ، فالتقطتها العامة ، ولصقوها واكتفوا باسم " الشهرة " الساخر الذى أطلقته العامة عليهم .

ويمكن تصنيف الألقاب والكنى الشعبية الساخرة فى العصر المملوكى إلى الآتى :-

- ألقـــاب وكنى تدل على المدح مثل لقب الأعرج الذى أطلق على السلطان الناصر محمــد، وعلي الرغم من أن هذا اللقب يعنى الذم، فإن العامة أطلقته على الناصر لأن بــه عــرجاً خفيفاً، إلى جانب أنها كانت تكن له حباً ومودة ، سم الموت الذى أطلــق علــى الأمير عز الدين ايغان ، وحمص أخضر (طشتمر) والفول المقشر (قطلوبغا).

ألقـــاب وكـــنى تدل على السخرية والاستهزاء مثل الأمير طللية ، الأمير أبو دقن، الأمير اللفاف ، الأمير أصفر عينه .

---

(1) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٥ ، ص ٤ ، ٥ .

(2) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٥ ، ص ١١٠ ربما اطلق عليه هذا اللقب لأن رأسه كانت خالية من الشعر .

(3) أنظـــر ابـــن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٥ ، ص ٤٥ وما بعدها ، أنظر أيضاً رجب النجار ، الشعر الشعبى الساخر ، ص ٨٠٨ ، ٨٠٩ من المرجع أنه أطلق عليه هذا اللقب لضئالة ونحافة جسمه الزائد عن العادة .

(4) أنظـــر ابـــن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٥ ، ص ٤٥ وما بعدها ، أنظر أيضاً رجب النجار ، الشعر الشعبى الساخر ، ص ٨٠٨ ، ٨٠٩ من المحتمل أنه لقب بهذا لكثرة كلامه دون أن يفعل شيئاً .

(5) أنظـــر ابـــن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٥ ، ص ٤٥ وما بعدها ، أنظر أيضاً رجب النجار ، الشعر الشعبى الساخر ، ص ٨٠٨ ، ٨٠٩ .

- ألقاب الذم والتقبيح مثل رِكَيْن ، دقين ، المجنون ، سلطان ليلة ، الدم الأسود ، فأر السقوف ، سن إبرة ، أبو زلطة ، أبو كم ، الطويل ، المؤذى ، ابن المكللة ، الدباح ، الفاجر .
- ألقـاب تدل على مدى ما وصل إليه بعض الأمراء من ضعف مثل هات لبن ، روح لو .
- ألقاب تدل على الخيانة مثل لقب خاين بك .
- ألقـاب وكـنى فكاهية ساخرة مثل سلطان الجزيرة ، فرفور ، المزوق ، الضانى، اللكاش ، محنى ذقنه ، السكر والليمون ، تمساح ، أبو سنة ، الموتر ، الأقرع ، حداية، سـلام عليكم ، الأمير حلاوة ، حاصل ما تم ، الأمير أبو نبوت ، الأمير الصنجق سبع بنات ، الأمير سنجق ستّه .

والآن ينـبغى الـتعرض بالتفصيل لكل لقب ودلالته التاريخية، على حده وفقاً للتصنيف التالى :-

أولاً : ألقاب المدح :

الأعرج :

أطلـق هـذا اللقـب على السلطان الناصر محمد بن قلاوون،[1] أثناء سلطنته الثانـية ٦٩٨ - ٧٠٨ هـــ / ١٢٩٨ - ١٣٠٨ م حيـن تحكم كل من الأميرين سلار وبيـبرس فـى تصرفاته ، فضاق بهما وبتصرفاتهما[2] ونفذ صبره وشكا من ضيق يده وحرمانه من أبسط الحقوق الشخصية دون أن يجد معيناً له ، فتظاهر برغبته فى الحج

---

(1) Amalia Levanoni, A Turning Point in Mamluk History: The Third Reign of al-Nasir Muhammad Ibn Qalawun (1310 - 1341), *Mamluk Studies Review*, Vol. I, The Univ. of Chicago, 1997, p. 179 Sato Tsugitaka , The Proposers and Supervisors of al-Rawk, al-Nasiri in Mamluk Egypt, *Mamluk Studies Review*, Vol II, Chicago, 1998, pp. 75, 85, 91.

(2) محمد جمال الدين سرور ، دولة بنى قلاوون فى مصر الحالة السياسية والاقتصادية فى عهدها بوجه خاص ، القاهرة ١٩٤٧ م ص ٤٣ وما بعدها ؛ جمال الدين الشيال ، تاريخ مصر الإسلامية ، العصران الأيوبى والمملوكى ، القاهرة ، ١٩٦٧ م ، ص ٦٥ ، ٢٢٦ .

حــتى يســمح له بمغادرة البلاد ، ولكنه لم يكد يصل إلى قلعة الكرك حتى أعلن عزمه على اتخاذ ذلك المكان محلاً لإقامته وكتب إلى الأميرين بيبرس وسلار باعتزاله الحكم فــي ســنة ٧٠٨ هـــ / ١٣٠٨ م(١) ، فــتم تنصيب بيبرس سلطاناً وعين سلار نائباً للسلطنة(٢) .

بــيد أن ســلطنة بيــبرس لم تدم غير سنة واحدة ، حيث لم تستقر له الأمور خلالهــا فقد نقص فيضان النيل وارتفعت الأسعار ، ونسبت العامة هذا كله إلى بيبرس وكــرهوه وكرهوا عهده ، خاصة أنه اتبع سياسة العنف في معاملته للناس والأمراء ، فقــد كان يخشى أن يتصل المماليك بالناصر أو أن يتآمروا على خلعه ، وأعلنت العامة ســخطها بالــتظاهر فــي شوارع القاهرة وهم يضحكون ويهزلون ، ويصنعون كلاماً ويلحنونه ، وصاروا يغنونه في أماكن التفرجات وفي الحدائق والطرقات بقولهم :

سلطاننا رُكَيْن

ونائبه دقين

يجينا الماء من أين

هاتو لنا الأعرج

يجي الماء يدحرج(٣)

---

(١) ابــن تغــرى بــردى الــنجوم الزاهرة ، جـــ ٨ ، ص ١٧٩ ، ١٨٠ ؛ سعيد عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، ط (٢) القاهرة ١٩٧٦ م ، ص ١١٧ ، ١١٨ ؛
Urbain Vermeulen. Some Remarks on A Prescript of An-nasir Muhammad B. Qala'un on the Abolition of Taxes and the Nusyris Mamlaka of Tripoli, 717/1317, *Orientalia Lovaniensia Periodica*, 1970,p. 198; David Ayalon, Discharges from service banishments and imprisonments in Mamluk Society, *Israel Oriental Studies*, Vol II, Tel Aviv, 1972, p. 40; idem, The Wafidiya in the Mamluk Kingdom, *Islamic Culture*, Vol. XXV, 1951, pp. 100, 101.

(٢) أحمد صادق الجمال ، الأدب العامى فى مصر فى العصر المملوكى ، القاهرة ، ١٩٦٦ م ، ص ٧٤ وما بعدها ، سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ١١٨ .
فــوزى محمــد أميــن ، المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكى الأول ٦٤٨ – ٧٨٤هــ/ القاهرة ١٩٨٢م ، ص٣٠ وما بعدها ؛
The Encyclopedia of Islam, art. Baybars II, New Edition, Leiden 1960, Vol. 1, p.1126.

(٣) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـــ ٣ ، ص ٤٦٧ وما بعدها ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـــ ١ ق (١) ، ص ٤٢٥ .

وكـــان لقب السلطان بيبرس الجاشنكير هو ركن الدين فسماه العوام " رُكين " احـــتقاراً ، وكان الأمير سلار - نائب السلطنة أجرد ، فى حنكه بعض الشعيرات لأنه كـــان مـــن التتار فسموه دُقَين ، أما الملك الناصر محمد فقد كان به عرج خفيف فأطلق عليه العوام الأعرج[١] .

خلاصـــة القـــول أن العامـــة تعللـــت بعدم وفاء النيل ، وأعلنت رفضها لحكم بيـــبرس وتأيـــيدها للملـــك الناصر ومطالبتها بعودته من منفاه الى عرشه ، الأمر الذى ثارت معه ثائرة بيبرس حين رأى العامة تنشد هذه الأغنية ، فأمر بالقبض على جماعة مـــنهم ، فضـــرب بعضـــهم بالمقارع وأشهرهم فى القاهرة، ورسم بقطع السنة البعض الآخـــر ، وازدادت معارضـــة العامة لحكم بيبرس ، وقد سارع بالهرب بعد أن وصل الناصـــر محمد إلى القاهرة قادماً من الكرك ، وعندما سمعت العامة خبر هروبه تبعوه وهم يصيحون وراءه بهتافات عدائية ورجموه بالحجارة[٢] .

سُم الموت :

أطلـــق هذا اللقب على الأمير عز الدين أيغان بن عبد الله الركنى ، واصلة من ممالـــيك ركـــن الديـــن بيبرس[٣] ، وقد أطلق عليه هذا اللقب لجسارته وفتوته وسرعة انقضاضـــه على العدو[٤] ، وكان من أعيان الأمراء وأكابرهم وشجعانهم ، كما كان من

---

(١) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ق ١ ، ص ٥٥ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ق ١ ، ص ٤٢٥ وما بعدها ، على ابراهيم حسن ، دراسات فى تاريخ المماليك البحرية وفى عصر الناصر محمد بوجه خاص ، القاهرة ١٩٤٤ م ، ص ٩٠ ، ٩١ .

Donald Little, An Introduction to Mamluk Historiography An Analysis of Arabic Annalistic and Biographical Sources for the Reign of al-Malik an-Nasir Muhummud Ibn Qalaun, Wiesbaden, 1970, pp. 11, 14, 94, 111; David Ayalon, Names, titles and "nisbas" of the Mamluks, *Israel Oriental Studies*, Vol. V, Tel. Aviv Univ. 1975, pp. 208. 209.

(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٨ ، ص ٢٤٤ ؛ المنهل الصافى ، جـ ٣ ، ص ٤٦ ؛ ابـــن إيـــاس ، بدائـــع الـــزهور ، جـ ١ ق ١ ص ٤٣٠ ؛ سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ١٢١ ، ١٢٢ .

(٣) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـ ٣ ، ص ١٨٧ وما بعدها .

(٤) نظير سعداوى ، صور ومظالم ، ص ١٢٣ .

أبطـــال المسلمين ومشاهيرهم، وله المكانة العظيمة والحرمة الوافرة والكلمة المسموعة فـــى عهـــد الظاهر بيبرس، الذى اعتمد عليه فى المهمات ، وقد تولى عز الدين وظيفة تقدمـــة العســـاكر ، ولكـــن ما لبث أن قبض عليه السلطان الظاهر بيبرس مع عدد من الأمراء وسجنوا بالقلعة(١) وتوفى فى سنة ٦٧٥ هـــ / ١٢٧٦ م وكان أحد الموصوفين بالشجاعة والكرم مع شدة البأس(٢) .

حمص أخضر :

هو الأمير سيف الدين الساقى الناصرى ، المعروف بطشتمر حمص أخضر ، وقـــد اختلفـــت المصـــادر فى أسباب تسميته بهذا اللقب فقيل لأنه كان يحب أكله فلقب بـــه(٣) ، على حين ذكر البعض الأخر أنه لقب به لكثرة صدقاته على الأيتام المعروفين بالحرافـــيش(٤) ، كمـــا زعمـــوا أيضـــاً أنه عرف بهذا لأنه كان يوزع الفول والحمص الأخضـــر علـــى الحرافيش وفقراء الصوفية فى محاولة منه لاجتذابهم إلى جانبه حتى تقـــوى بهم شوكته تمهيداً لتحقيق مطامعه(٥) ، وقيل كذلك إنه عندما كان فى الطباق كان لا يأكل سواه ، فسماه خشداشيته بذلك(٦) ، أما فيما يتعلق بلفظة طشتمر فقيل أن معناها الصخر أو الحديد(٧) .

---

(١) المقريزى ، السلوك ، جـــ ١ ق ١ ، ص ٥٢٣ وما بعدها ، ص ٦٣٣ ؛ ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، جـــ ٧ ، ص ٧٠ .

(٢) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـــ ٣ ، ص ١٨٨ .

(٣) ابـــن حجـــر ، الـــدرر الكامـــنة فى أعيان المائة الثامنة طـــ ١ حيدر أباد ١٣٤٩ م ، جـــ ٢ ، ص ٢١٩ .

(٤) نظير سعداوى ، صور ومظالم ، ص ١٢٣ .

(٥) رجب النجار ، الشعر الشعبى الساخر ، ص ٨٠٩ .

(٦) الصفدى ، أعيان العصر ، جـــ ٢ ، ص ٥٨٧ .

(٧) Sauvaget (J), Noms et Surnoms de Mamelouk, *Journal Asiatique* ,Tome CCXXXV III, Année 1950, p. 50.

وقــد اشتراه السلطان الناصر محمد صغيراً، فرباه وحظى بمكانة كبيرة لديه ، ثــم قــبض علــيه وعلى جماعة اتهموا بإثارة فتنة ، ثم أفرج عنه لما ظهرت براءته ، فاطلقه وذهب إلى الحج ثم اصبح من الأمراء الخاصكية(١) .

تــدرج فــى سلك الوظائف فتولى نيابة(٢) صفد (٣) ، ثم نقل إلى نيابة حلب(٤) ، وقــد كــان طشتمر شديد البأس ظالم الصورة ، مرّ اللسان صعب الخلق ، كثير الشر وفيه يقول جمال الدين إبراهيم الأديب المعمار(٥)

لما طغى طشتمر واعتدى

---

(١) ابن حجر ، الدرر الكامنة جـ ٢ ، ص ٢١٩ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٠ ، ص ١٠١ ؛

The Encyclopaedia of Islam, Art KHASSAKIYYA, New Edition, Leiden, 1978, Vol. IV, p. 1100.

(٢) تأتى النيابة فى مقدمة الوظائف على اعتبار أن نائب السلطنة كان بمثابة الرجل الثاني فى الدولة المملوكية بعد السلطان مباشرة ، ولذا فقد وصفته المصادر المعاصرة بأنه سلطان مختصر لقيامه مقامــة السلطان أثناء غيابه ، ولاشتراكه معه فى توزيع الإقطاعات، وفى تعيين الموظفين ، بل والحكــم فــى كــل ما يحكم فيه السلطان ، ومن ثم فقد كان النواب يشكلون خطراً على بعض السلاطين ، بل استطاع بعضهم بالفعل اغتصاب السلطنة لأنفسهم مثلما فعل كل من كتبغا فى عام ٦٩٤ هـ / ١٢٩٤ م ، ولاجين المنصورى عام ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م ؛ مما دفع ببعض السلاطين إلــى العمل على إضعاف هذا المنصب بل وتعطيله فى كثير من الأحيان ، أحمد عبد الرازق ، البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٧١ م ص ٤٣ .

(٣) اليوســفى ، نزهة النظار فى سيرة الملك الناصر ، تحقيق ودراسة أحمد حطيط ، بيروت ط ١ ١٩٨٦م ، ص ٣٢١ ، ٣٤٣ ؛ المقريــزى ، الســلوك ، جـ ٢ ق ٢ ، ص ٤٠٣ ؛ ابن تغرى بــردى ، الــنجوم الزاهرة ، جـ١٠ ، ص ١٠١ ، المنهل الصافى جـ ٦ ، ص ٣٩٢ ؛ حياة ناصــر الحجــى ، أنمــاط من الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى سلطنة المماليك فى القرنيــن الثامن والتاسع الهجرى الرابع عشر والخامس عشر الملاديين ، الكويت ١٩٩٥م، ص ١٥١ وما بعدها .

(٤) الشــجاعى ، تــاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده ، تحقيق بربارة شيفر ، فيســبادن ١٩٧٨م ، ص ٦٣ ، ١٦١ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٠ ، ١٠١ ؛ المنهل الصافى ، جـ ٦ ، ص ٣٩٢ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، القاهرة ، بدون تاريخ . جـ ١٤ ، ص ١٨٧ وما بعدها .

(٥) توفى عام ٧٤٩هـ/١٣٤٨م ، انظر ابن تغى برمى النجوم الزاهرة ، جـ١٠ ، ص ٤٨ .

تفاعل الناسلُ بأقوالها

دنا حصاد الحمص المعتدى

ولم تزل مصر بأفوالها[١]

وفى عام ٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م تقلد نيابة السلطنة فى مصر[٢] ، فاستغل صغر سن السلطان الناصر أحمد وتسلط وتحكم إلى درجة أنه عندما خلع السلطان أحمد على ناصر الدين المعروف بفأر السقوف وجعله إماماً للسلطان وناظراً للمشهد النفسى بدون علمه ، بعث إلى فأر السقوف بعدة نقباء ونزع عنه الخلعة وأمر بضربه وألزمه بحمل مائة ألف درهم وضربه عرياناً ، وأخذ منه المبلغ ، ثم أفرج عنه بعد أن تعهد بالا يطلع إلى القلعة[٣] .

ويدرك الحس الشعبى ، بعفويته وصدق فراسته أن المؤامرة لم تتم فصولاً فيقول شاعر شعبى مجهول ، لم تحفل ذاكرة التاريخ باسمه ، فى طشتمر عندما عاد من حلب لتولى نيابة مصر ، وبدأت مظالمه تترى :

لما رجعت إلينا ∴ من بعد ذا البعد والبين

خلناك تحنو علينا ∴ يا حمص أخضر بقلبين[٤]

وقد أمر السلطان الناصر أحمد بالقبض على حمص أخضر ، وأخذه معه إلى الكرك ، وهناك أمر بقتله[١] . عرف الناس بمقتله فرحوا جميعاً بذلك فقد كان كما

---

(١) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ق ١ ، ص ٤٥٨ ، حياة الحجى ؛ دراسات فى تاريخ سلطنة المماليك فى مصر والشام ، ط ١ ، الكويت ١٩٨٦ م ، ص ٢٦٦ وما بعدها .

(٢) الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ٢٠٥ ؛ المقريزى السلوك ، جـ ٢ ق ٣ ، ص ٦٠٤ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٠ ، ص ٦١ ؛ الصفدى ، أعيان العصر . جـ ٢ ، ص ٥٩٠ .

(٣) الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ٢١١ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ق ٣ ، ص ٣٠٦ وما بعدها ؛ محمد عبد الغنى الأشقر ، نائب السلطنة المملوكية فى مصر ، القاهرة ١٩٩٩م ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

(٤) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ق ١ ، ص ٤٩٨ .

ذكرنا سابقاً "ظلوماً عسوفاً سيء الخلق جائراً على أهل مصر فى أفعاله ، حتى قال فيه إبراهيم المعمار :-

أوردت نفسك ذلاً
ورد النفوس المهانة

وبالرشا حزت مالاً
ملأت منه الخزانة

وكم عليك قلوب
يا حمص أخضر ملانة

وقوله فيه أيضاً :

جننت بالملك لما
أتاك بالبسط ماجن

وقد أمنت الليالى
يا حمص أخضر وداجن

وقول فيه آخر من الشعراء :

طوى الردّى طشتمر بعدمّا
بالغ فى دفع الأذى واحترس

عهدى به كان شديد القوى
أشجَع من يركبُ الفرس

ألم تقولوا حُمصاً أخضرا

---

(١) ابن حبيب ، تذكرة التنبيه فى أيام المنصور وبنيه ، القاهرة ١٩٨٦م ، جـ ٣ ، ص ٦ : ؛ الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ص ٢١٢ ؛ العينى ، السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودى ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٢٠٦ ، ٢١٧ .

تعجـــبوا بـــالله كـــيف إنـــدرس[١]

وقد قام طشتمر بتشييد العديد من المنشات مثل الدار العظيمة التى ذكرها المقريزى فى خططـــه باسم دار البقر[٢] ، كما عمر جامعاً بالصحراء ، والمئذنة الحلزونية والجامعين بالزريـــبة والـــربع بالحريريين ، كما أنشأ قبة بشارع العفيفى بجبانة المجاورين شرقى القاهرة[٣] .

الفول المقشر :

لقـــب أطلق على الأمير سيف الدين الساقى الناصرى ، المعروف بقطلوبغا[٤] الفخـــرى، والملقـــب بـــالفول المقشر كناية عن لين عريكته وضعفه[٥] ، اشتراه الملك الناصـــر محمـــد وأصبح من الأمراء الخاصكية[٦] ، ولم يكن لأحد من الخاصكية سواه ولا من غيرهم حظوة لدى السلطان ، ولم يزل عند السلطان أثيراً عالى المكانة ، وكان يشـــتم السلطان فى اللعب ، ويقول له : " يا أعرج ! " وكان السلطان ينسبه إلى الجنون

---

(١) ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، جـ ٣ ، ص ٤٧ ؛ الصفدى ، أعيان العصر ، جـ ٢ ، ص ٥٩١ ؛ ابـــن أبـــى حجلة ، سكردان السلطان ، ص ٤٠٠ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ق ١ ، ص ٤٩٧ وما بعدها ؛ فوزى أمين المجتمع المصرى ، ص ٣٤ ، ٣٦

(٢) تقـــع هذه الدار خارج القاهرة بالنحاسين بجوار قلعة الجبل وبركة الفيل بخط حدرة البقر أنشأها الملك الناصر محمد داراً واصطبلاً للأبقار التى برسم السواقى السلطانية ، وعرفت بدار الأمير طقتمر الدمشقى ، ثم عرفت بدار الأمير طشتمر حمص أخضر ، أنظر المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٦٨ .

(٣) الصفدى ، أعيان العصر ، جـ٢ ، ص ٥٨٨ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ق٢ ، ص ٥٤٣ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ١٠ ، ص ١٠٢ ؛ المنهل الصافى ، جـ٦ ، ص ٣٩٤ ؛ ابن حجر ، الدرر الكامنة ، جـ٢ ، ص ٢٢٠ ؛ الأشقى ، نائب السلطنة ، ص ٢٩٩ .

(٤) قطلوبغا أى سعيد الحظ أنظر

Sauvaget. Noms et surnoms de Mamlouk, P. 53

(٥) ابـــن تغـــرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـــ ٩ ، ص ٣٤ ؛ نظير سعداوى ، صور ومظالم ، ص ١٢٣ .

(٦) الصفدى ، أعيان العصر ، جـ ٤ ، ص ١١٢ ، وما بعدها ؛ ابن حجر الدرر الكامنة ، جـ٣ ، ص ٢٢١ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـــ ١٠ ، ص ١٠٣ ؛ حياة الحجى ، دراسات فى تاريخ المماليك ، ص ٢٦٦

ويقول : " هذا مجنون " وكان فيه هرج ورهج، خفيف العقل كثير الشغف بالفسق ، لذا كرهه السلطان ونفاه إلى الشام ، ثم عاد وأفرج عنه[1] .

كـــان الفخـــرى وطشـــتمر أخوين، تربوا جميعاً وتأمروا جملة فى بداية دولة الناصـــر محمد عند عودته من الكرك[2] ، وقد أراد السلطان إمساكه هو وأخاه طشتمر حمص أخضر ، وكان يدعوه " أخى " فوقف الحرافيش تحت القلعة واستغاثوا ، ودخل خشداشيته على السلطان ، فأفرج عنهما ، وعرف أنه لا قبل له بهما[3] .

وقـــد عيـــن قطلوبغـــا فى نيابة دمشق فى سلطنة الناصر أحمد[4] ، ولما انفرد طشتمر بأمور الدولة دون السلطان فكر الناصر فى القبض عليه وهو وطشتمر ، وبعد خـــروجه إلـــى دمشـــق أرسل الناصر للقبض عليه ، ولما أحس بذلك فرق ما معه من الأموال وهرب ، ثم أمسك به وقيده ، ولما بلغ الناصر أحمد إمساكه خرج إلى الكرك، وأخذ معه طشتمر ، واعتقل الفخرى وطشتمر بالكرك مدة يسيرة ، ثم أمر بقتلهما[5] .

ولما تم القبض عليه وقتل، قال الأديب خليل بن أيبك الصفدى شعراً :-

سَـــمَت هَمَّـــةُ الفخـــرى حـــتى ترفعت

علـــى هَامَـــةَ الجوزاء والنسر بالنصر

وكـــــان للملـــــك فخـــــرٌ فخانـــــه

---

(1) الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ٢٤٩ ؛ ابن حجر ، الدرر الكامنة ، جـ ٣ ، ص ٢٢١ .
(2) الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ٢٤٩ وما بعدها .
(3) الصفدى ، أعيان العصر ، جـ ٢ ، ص ٥٨٧ .
(4) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ق ٣ ، ص ٦٠٦ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٠ ، ص ٦٢ .
(5) الشـــجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ٢٠٩ وما بعدها ؛ الصفدى ، أعيان العصر ، جـ ٤ ، ص ١١٨ ، ١١٩ ؛ ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، جـ ٣ ، ص ٤٦ ؛ المقريزي ؛ السلوك ، جـ ٣ ق ٣ ، ص ٦٠٧ وما بعدها ؛ ابن أبى حجلة ، سكردان السلطان ، ص ٤٠٠ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٠ ص ١٠٣ ؛ حياة الحجى ، أحوال العامة ، ص ٦٣ ، ٦٤ .

الــزمان فأضحى ملكُ مصر بلا فخر(١)

ثانياً ألقاب الذم والقدح :

المجنون :

أطلـــق هذا اللقب على يلبغا الأحمدى المجنون ، ففى عام ٧٧١ هــ/ ١٣٦٩م أنعـــم عليه السلطان الأشرف شعبان بتقدمة ألف ، وفى عام ٧٩٣ هــ/١٣٩٠ م استقر فـــى كشــف الوجـــه الـــبحرى(٢) ، وفى عام ٧٩٨ هــ/ ١٣٩٥ م نقل إلى نيابة الوجه القــبلى ، ثــم فى عام ٧٩٩ هــ / ١٣٩٦م عين أستاداراً للسلطان خلفاً للأمير قطلوبك العلائـــى ، ومـــارس العمل فى الاستادارية والكشف ، وأمر بالقبض على ناصر الدين محمد بن محمود الاستادار وألزم بسداد ثلاثة آلاف دينار بعد موت أبيه(٣) .

كما أطلق هذا اللقب أيضاً على سودون المحمدى المعروف بتلى أى المجنون، وكـــان من أعيان خاصكية مماليك السلطان الظاهر برقوق ، ومن ثم رقى فى أيام ابنه الناصـــر فرج إلى أمير مائة ومقدم ألف ، ثم قبض عليه وحبس بسجن الإسكندرية ، ثم أفرج عنه فى سنة ٨٠٧ هــ / ١٤٠٤ م ، واستقر فى الأخورية الكبرى(٤) ، وبعد ذلك اســـتقر فى دمشق على إقطاع ، ولما رجع إلى القاهرة تم القبض عليه بسبب عصيانه للناصـــر فرج وحبس بسجن الإسكندرية ، وبقى هناك إلى أن قتل فى عام ٨١٨ هــ /

---

(١) الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ٢٠٦ ؛ الصفدى ، أعيان العصر ، جـ ٤ ، ص ١٢٠ ؛ ابن تغرى بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٠ ص ١٠٣ .

(٢) المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ، ص ١٨٣ ، ١٩٦ ؛ ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات م ٩ جـ ٢ ، ص ٣٣٥ ابن حجر، أنباء الغمر، جـ٢، ص٤٩٣ .

(٣) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ، ق ١ ، ٢٠ ، ص ١٨٥ ن ٧٣٤ ، ٧٨٤ ، ٨٥٠ ، ٨٨٠ .

(٤) وظـيفة يقـوم صـاحبها بالإشـراف على اسطبل السلطان أو الأمير ورعاية ما فيها من خيل وحـيوانات ، انظـر المقريزى ، السلوك ، جـ١ ق٢ ، ص ٤٣٨ هامش ٣ ؛ سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ٤١٤ .

١٤١٥ م ، وقـد ذكـره العيـنى بقوله : " سودون المحمدى المجنون كان شاباً شجاعاً مفرطاً فى الجهل "[١] .

وأطلقـت المصـادر المملوكـية هذا اللقب على بعض السلاطين ، فقد ابتلى العصـر المملوكـى بسـلاطين ضعاف، لا يعرفون من أمور السلطنة أى شيء ، ولا يحسـنون تدبـير الأمور، فى وقت كانت فيه أحوال السلطنة متدهورة مفتتة ، فقد ولى السـلطنة بعد السلطان خشقدم يلباى المقلب بالمجنون وذلك فى عام ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م ، وكـان أرشل قليل المعرفة ، فاطلقت عليه العامة لقب المجنون ، وقضى وقته على حـد تعبـير ابن إياس " فى غلاسة هو ومماليكه ، وكان ملبسه غلس وسماطه غلس ، وشـكله سـمج وتدبـيره سـيء ... فجمع بين قبح الفعل والشكل وسوء الطباع ومقت اللسـان، وكـان عنده شح زائد ، وبخل كثير ، سيء التدبير فى سائر أفعاله ؛ كما قيل فى المعنى :

وفـظٌ غلـيظ الطـبع لا ودّ عـنده
ولـيس لديـه للأخِـلاّء تأنـيس
تواضـعه كـبر وتقريـبه جفـا
وترحيـبه مقـت وبشـراه تعبـيس[٢]

وكانت أيام سلطنته شر أيام مع قصرها ، وكان مع خايربك الدوادار فى غاية الضـنك ، لـيس له فـى السلطنة إلا مجرد الاسم فقط ولا يتصرف فى شئ من أمور المملكـة إلا بمشورة خايربك ، فكان إذا سئل فى شئ يقول : " إيش كنت أنا " قُل له ،

---

[١] السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ٢ ، ص ٢٨٥ ؛ ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـ ٦ ، ص ١١٨ وما بعدها ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٨٣١ .

[٢] ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ٤٦٦ ؛ صفحات لم تنشر من بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٥١ م ، ص ١٩٤ .

يعـــنى قُـــل لخـــيربك حـــتى ســـمته العـــوام " قُـــل له "[1] . وذلك من قبيل السخرية والاستهزاء ، ويعتبر قل له من الألقاب التى تتسم بالفكاهة والسخرية .

شيطان[2] :

أطلـــق هـــذا اللقـــب على الأمير علاء الدين أقبغا بن عبد الله الظاهر ، وفى ســـلطنة المؤيد شيخ جمع بين ولاية القاهرة وحسبتها وشد الدواوين في وقت واحد ، ثم قـــبض علـــيه وحـــبس ثم قتل وذلك فى عام ٨٢١ هـ/ ١٤١٨م[3] ، وكان عنده نباهة ومعـــرفة مع ظلم وعسف ، إلا أنه كان عفيفاً عن المنكرات حسب شهادة المؤرخ ابن تغرى بردى[4] .

الدم الأسود[5] :

أطلـــق هـــذا اللقـــب أيضاً على الأمير سيف الدين ملكتمر الجمالي الناصري المـــتوفى عـــام ٧١٤ هـــــ / ١٣١٤م ، وكان ظلوماً غاشماً في الظلم المسرفين على أنفســـهم ، وكـــان له إقطاع بدمشق ، فأخذ منه الخراج خمس مرات على مدار السنة ، ففعل ذلك شركاؤه ومن جاء بعده[6] .

فأر السقوف :

أطلـــق هذا اللقب على ناصر الدين، متولى حسبة مصر ، أثناء سلطنة الناصر أحمد لكونه فَتِني[7] .

---

(1) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ٤٦٦ وما بعدها ؛ صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ، ص ١٨٨ .

(2) ربما أطلق عليه هذا اللقب لتصرفاته التى تتسم بالشيطانية .

(3) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـ ٢ ، ص ٤٨٤ .

(4) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٤ ، ص ١٥١ .

(5) يرجح أنه أطلق عليه هذا اللقب لأنه كان يحقد على الناس .

(6) ابن أبى الفضائل ، تاريخ سلاطين المماليك ، باريس ١٩١٩ م ، جـ ٣ ، ص ٢٤٤ ؛ الصفدى ، أعـــيان العصـــر ، جـ ٥ ؛ ص ٤٤٨ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ق ١ ، ص ١٤١ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٩ ، ص ٢٢٨ ؛ المنهل الصافى ، جـ ٣ ، ص ١٨٨ .

(7) نظير سعداوى ، صور ومظالم ، ص ١٢٣ .

وتــروى المصادر أنه فى عام ٧٣٧ هـ / ١٣٣٦ م وقفت العامة للسلطان فى الفــأر ضـــامن[١] المعـــاملات ، وشكوا مما أحدثه على القصب والمقانى وصاحوا : " يكفيــنا النشـــو ، فلا تسلط علينا الفأر !! وتحسبه ، وتكتب على قيده مُخَلداً ، ويضمن غـــيره بـــناقص عشرة آلاف درهم ، فطلب السلطان النشو وأنكر عليه ، ورسم لسنجر الحمصـــى أن يضرب الفأر ويحبسه ، ويكتب على قيده مخلداً ، ويضمن غيره بناقص عشرة آلاف درهم ، ففعل ذلك ، ومشت أحوال الناس[٢] .

وفـــى عـــام ٧٤٤ هـــــ / ١٣٤٣ م رســـم السلطان أن يعاد إلى ناصر الدين المعـــروف بفأر السقوف ما أخذ له من نيابة الأمير طشتمر ، وخلع عليه بحسبة مصر عوضــاً عن ابن بنت الأعز ، بشفاعة الأمير ملكتمر الحجازى ، فأعيد له مبلغ أربعين ألف درهم من بيت المال[٣] .

---

(١) نظـــام الضـــمان الذى يمثل جانباً من مسئوليات الجهاز الضرائبى فى الدولة، حيث كانت مهمة الضامن تنحصر فى تعهد أحد الأشخاص للمسئولين فى هذا الجهاز بتحصيل الضرائب المقررة علـــى أى نشاط اقتصادي أو عمل حرفى ، ومن ثم توكل إليه مهمة القيام بهذه المسئولية بعد أن يدفع مبلغاً معيناً من المال وعلى ذلك يبدأ هذا الضامن ممارسة عمله فى جمع الضريبة المقررة من الناس المعنيين . ولكن فى سبيل استعادة ذلك المبلغ الذى دفعه مقدماً فإن الضامن يولى عناية خاصة بتحصيل أولاً – قدر مناسب من المال لجيبه الخاص ثم بعد ذلك تحصيل الضريبة المقررة رسمياً للحكومة ، فكأن المواطن مجبر على دفع مبلغين من المال ، أو بالأحرى ضريبة مضاعفة نصفها لديوان المكوس ، ونصفها الأخر للضامن . مما يعنى مضاعفة المعاناة النفسية والخسارة الماديـــة نتـــيجة لهاذ النظام الضرائبى السيئ ، وقد تطاول الضامن ظلماً على حقوق الرعية ، وتغاضى أصحاب السلطة أو الحكومة عن الصور المختلفة من الظلم والتعسف والاضطهاد الذى يمارســـه هـــؤلاء الضـــمان ضد الرعية وعلى حساب حقوقهم وحريتهم وأموالهم دون رقيب أو حسيب . أنظر حياة الحجى ، أحوال العامة ، ص ٢٦٧ .

(٢) اليوســـيفى ، نـــزهة النظار ، ص ٣٧١ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـــ ٢ ، ق ٢ ، ٤٢٠ ؛ حياة الحجى ، أحوال العامة ، ص ٢٤٠ .

(٣) Ahamd Abd ar-Ráziq, Les Muhtasibs de Fostat au temps des Mamlūks, pp. 127, 146 5-P. 130 fōr al–Suqūf, Nāsir ad-Din; La Hisba et le Muhtasib en Egypt au temps des Mamlūks, pp. 115-178 – 138;

المقريزى ، السلوك ، جـــ ٢ ، ق ٣ ، ص ٦٤٤ ؛ اليوسفى ، نزهة النظار ، ص ٣٩١ .

وفـــى عام ٧٥٠ هـــ / ١٣٤٩ م أعيد فأر السقوف إلى ضامن جهات القاهرة ومصـــر بأجمعها ، وكان قد سجن فى أيام الناصر محمد بن قلاوون ، وكتب على قيده مخلـــد ، بعد ما صودرت أمواله وضرب بالمقارع لقبح سيرته ، فلم يزل مسجوناً إلى أن أفـــرج عـــنه فـــى أيام الصالح إسماعيل ، وانقطعت أخباره إلى أن اتصل بالوزير مـــنجك فســـلمه الجهات بأسرها وخلع عليه ، وقد منع مقدمى الدولة من مشاركته فى الـــتحدث فـــى الجهات ، ونودى له فى القاهرة ومصر فزاد فى المعاملات [١] ثلاثمائة ألف درهم فى السنة[٢] .

وفـــى عام ٧٥١ هـــ / ١٣٥٠ م أصبح الناس فى بلاء عظيم من فأر السقوف ضـــامن المعـــاملات ، فقد أحدث حوادث قبيحة فى دار البطيخ ودار السمك ، وكثرت الشـــكوى مـــنه ، ووقفت العامة تشكوه للسلطان ، فلم يتغير الوزير عليه ، ولكنه قبض عليه بعد قليل وضرب بالمقارع وأخذت منه جملة من الأموال وسجن[٣] .

وفـــى نفـــس العـــام أفرج ابن زنبور عن الفأر الضامن بسفارة الأمير ملكتمر المحمـــدى ، وضـــمنه الجهـــات بـــزيادة خمســـين ألف درهم ، وضمن الفأر معاملة الكيزان[٤] من الأمير طيبغا المجدى بزيادة ثلاثين ألف درهم [٥] .

---

(١) أشـــار المقريـــزى فى كتابه المواعظ ، والاعتبار ط ١ ص ١٠٥ إلى المعاملات بأنها المكوس الســـلطانية الـــتى فرضـــتها دولـــة المماليك على الناس فى مصر منذ أيام السلطان المعز أيبك الـــتركمانى ، لكنه لم يدل على هذه المكوس بتعريف واضح أنظر المقريزى ، السلوك ، جـــ ١ ص ٣٨٤ ، ٥٤٤ .

(٢) المقريزى ، السلوك ، جـــ ١ ق ٢ ، ص ٥٤٤ .

(٣) المقريـــزى ، السلوك ، جـــ ٢ ق ٣ ، ص ٨٤ ، ٨٢٣ ، ٨٤٩ ؛ حياة الحجى ، أحوال العامة ، ص ٢٥٠ .

(٤) عـــرف Dozy, Supp. Dict هـــذا اللفـــظ ومفرده كوز بأنه قدح لحفظ اللبن ويبدو أن المقصود بمعاملـــة الكيزان هنا أن صناعة هذه الكيزان كانت مما يقوم به أحد العاملين – أى المتعهدين – علـــى قـــاعدة احـــتكار هذه الصناعة ، مقابل مبلغ ضمان يدفعه المعامل – أى المتعهد لصاحب الأرض التى تصلح طينتها لصنع هذه الأقداح ، أنظر المقريزى ، السلوك ، جـــ ٢ ، ق ٣ ، ص ٨٢٩ .

(٥) المقريزى ، السلوك ، جـــ٢ ، ق٣ ، ص ٨٢٩ وما بعدها .

ركين ودقين: [١]

أبو زلطة: [٢]

أطلــق هذا اللقب على أيدمر الشمسي نائب الوجه القبلى[٣] ثم الوجه البحري ، ومــا لبــث أن شغل نيابة البحيرة فى عام ٧٩٣ هــ / ١٣٩٠ م ، ويبدو أن أبو زلطة كــان شرهاً في جمع الأموال ، فقد أصدر السلطان برقوق أوامره بالقبض عليه ، ولما أحضـــر بين يد السلطان ضرب بالمقارع مع مجموعة من الأمراء ثم سلمهم إلى والى القاهرة ليدفعهم على حمل المال الذي اغتصبوه.[٤]

أبو كُم: [٥]

أطلق هذا اللقب على علم الدين يحيى بن أسعد الدين الأسلمى الذى كان يباشر نظــر الأسواق ثم استقر فى الوزارة ونظر الخاص ، عوضا عن الصاحب فخر الدين مــاجد بــن غــراب وذلــك فــى عام ٨٠٣ هــ / ١٤٠٠م ، وكان يريد الانتفاء من النصرانية ، فذهب إلى مكة للحج ، وأكثر من زيارة الصالحين . [٦]

وفى عام ٨٠٤ هــ / ١٤٠١م صرف من الوزارة وتم القبض عليه وسلم إلى شــاد الدواوين حيث صودرت أملاكه . [٧] وفى عام ٨٠٦ هــ/ ١٤٠٣م اختفى الوزير

---

(١) أنظر لقب الأعرج ص ١١ من هذا البحث .

(٢) من المرجح أنه أطلق عليه هذا اللقب لأنه كان يتكلم بقسوة وتجهم وكأنه يلقى بزلطة فى وجه محدثه .

(٣) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٩ ق ١ ، ص ٤ .

(٤) المقريزي، السلوك، جــ٣ ق٢، ص٥٧٤، ٧٥٢ ؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، م٩ ق١، ص ٢٩٦.

(٥) ربما أطلق عليه هذا اللقب لأنه كان يرتدي ملابس ذات أكمام واسعة .

(٦) المقريزى ، السلوك ، جــ ٤ ق ٢ ، ص ٨٧٧ ؛ العينى ، السيف المهند ، ص ٣٤٣ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، جــ ١ ق ٢ ، ص ٦٢١ ، ٦٤١ ، ٦٧٩ .

(٧) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جــ ١ ق ٢ ، ص ٦٣٢ ، ٦٤٤ .

أبـو كـم من داره ولم يعرف موضعه ، بسبب عجزه عن سد تكاليف الوزارة ، فأعيد إليها التاج بن البقرى [١] .

سن إبرة: [٢]

أطلـق هـذا اللقـب علـى علم الدين عبد الوهاب الطنساوى الذى استقر فى الوزارة عوضاً عن كريم الدين بن مكانس ثم سلم ابن مكانس وإخوته وأقاربه وحاشيته إلى شاد جهات الدواوين فقام بتعذيبهم [٣] .

وقـد تغـير خاطر السلطان على علم الدين ، وقام بضربه ضرباً مبرحاً ، ثم أخلع عليه وأعاده إلى الوزارة [٤] ، ويبدو أن سن إبرة كان يحب الأموال ويقوم بجمعها مـن الناس ، ففى عام ٧٨٥ هـ / ١٣٨٣ م أمر السلطان بالقبض عليه وسلمه إلى شاد الدواوين لمعاقبته على الأموال المغتصبة من الناس [٥] .

الطويل : [٦]

نعـت لشـمس الديـن محمد بن عبد الخالق المناوى ، الذى استقر فى حسبة القاهرة عام ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م وصرف الهُوَّى ، ثم أعيد الهُوَّى إلى الحسبة وعزل الطويل ، ثم أعيد وعزل ابن شعبان [٧] .

---

(١) السـخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ١٠ ، ص ٢٥٠ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٦٧٩ .

(٢) يـرجح أنه أطلق عليه هذا اللقب لأن جسمه كان رفيع مثل سن الإبرة نحيلاً ، أو ربما كان يتدخل فى كل شئ .

(٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٢٩٨ ؛
Ahamad Abd ar-Ráziq, Les vizirs Egypte au temp des Mamlūks, pp. 183 – 239.

(٤) المقريـزى ، السلوك ، جـ ٣ ، ق ٢ ، ص ٨٩٤ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٣٢٣ .

(٥) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٣٢٦ .

(٦) يحتمل أنه أطلق عليه ذلك بسبب طوله الفارع .

(٧) المقريزى ، السلوك ، جـ١ ق١ ، ص ٢٩ وما بعدها ؛
Ahmad Abd Ar-Razice, La hisba et le muhtasib en Egypt, p. 156.

وفي عام ٨١٣ هـ / ١٤١٠ م تولى الطويل حسبة القاهرة ووكالة بيت المال ونظر الكسوة ونظر الأوقاف وكان فى غاية الجهل وقد توفى فى عام ٨١٣ هـ / ١٤١٠ م [١].

إبن المكللة : [٢]

أطلق على تاج الدين بن أحمد بن على الذي استقر في حسبة القاهرة في سنة ٨٠٩ هـ/ ١٤٠٦ م[٣].

المؤذى :

كنية عرف بها سيف الدين تغرى بردى بن عبد الله البكلمشى[٤] الدوادار الكبير المعروف بالمؤذى ، وربما كان إطلاق هذا اللقب عليه بسبب إضراره بالناس لقيامه بمصادرة كثير من الأموال والأملاك ، وهو أحد مماليك بكلمشى العلائى الذى صار من جملة المماليك السلطانية ، إلى أن ترقى وصار من جملة أمراء العشرات فى دولة الناصر فرج ، وظل على ذلك نحو عشرين سنة الى أن أنعم عليه الملك الأشرف برسباى بإمرة طبلخاناة فى عام ٨٣٤ هـ / ١٤٣٠ م ، وكان قد جعله قبل ذلك بمدة يسيرة من جملة رؤس النوب ، ثم صار رأس نوبة ثانية ، فلما ولى هذه الوظيفة

---

(١) المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ق ١ ، ص ١٧٠ .

(٢) نوع من أنواع الأفاعى يطلق عليه الصل ، أو المكللة ، لأنها مكللة الرأس ، وهى شديدة الفساد ، تحرق كل ما مرت عليه ولا ينبت حول حجرها شئ من الزرع أصلاً . وإذا حاذى مسكنها طائر سقط ، ولا يمر بقربها حيوان إلا هلك ، وتقتل بصغيرها على غلوة سهم ، وضربها فارس برمحه فمات هو وفرسه ، انظر كمال الدين الدميرى ، حياة الحيوان الكبرى ، طبعة القاهرة بدون تاريخ ، جـ١ ، ص ٣٨٤ ؛ ثناء أنس الوجود ، رمز الأفعى فى التراث ، القاهرة ، ١٩٩٦ ، ص ١٩ وما بعدها .

(٣) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ق ١ ، ص ٤٣ ؛
Ahmad Abd Ar-Ráziq, La hisba Le muhtasib en Égypt, P. 157.

(٤) ابن حجر ، إنباء الغمر بأنباء العمر ، جـ٤ تحقيق حسن حبشى ، القاهرة ١٩٩٨م ، ص ٢٠٢ ؛ ابن تغرى برملى ، النجوم الزاهرة ، جـ١٥ ، ص ٤٩٦ ؛ الدليل الشافى ؛ جـ١ ص ٢١٧ ، ترجمة رقم ٧٢٣ ؛ السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ٣ ، ص ٢٧ ، ١٣٣ ؛ التبر المسبوك ، ص ٤٤ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ٢٣٥ .

ومسك العصا في يده ، صار يضرب هذا وينهر هذا ، ويدفع هذا ، وأظهر ما كان خفياً عن الناس من شهرته بالمؤذى[1] .

وفى عام ٨٣٩ هـ / ١٤٣٥ م أصبح أمير مائة ومقدم ألف إلى أن ولاه الملك الظاهر جقمق حجوبية الحجاب عوضاً عن يشبك المشد ، ولم تطل مدة تغرى بردى فى الحجوبية ، وتم نقله إلى الدوادرية الكبري ، وقد باشرها بحرمة وافرة وعظمة زائدة ، بحيث لم يدع لأرباب الدولة شيئاً من الأمر والنهي وكان محمود السيرة فى أحكامه إلا أنه كان فظاً غليظاً بذيء اللسان شرس الخلق ، يخاطب الرجل بما يكره غير بشوش ، متكبراً وعنده جبروت ، ولما عظم أظهر ما كان مخفياً من لقبه فانطبق الاسم على المسمى ، وقد توفى فى عام ٨٤٦ هـ / ١٤٤٢[2] ، بعد أن عمر مدرسته بالقرب من جامع أحمد بن طولون ، وجعل فيها خطبة ومدرساً وشيخاً وصوفية ، ووقف عليها أوقافاً كثيرة[3] .

السكر والليمون : [4]

فى عام ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م استقر شخص من الكتبة يعرف بابن السكر والليمون ناظراً فى ديوان المفرد ، وفى عام ٨٥٩ هـ / ١٤٥٤ م ضرب السلطان الملك الأشرف فخر الدين الملقب بابن السكر والليمون ناظر ديوان المفرد علقة كبيرة بسبب تعويق جامكية المماليك السلطانية[5] .

---

(١) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور ، جـ ١ تحقيق فهيم محمد شلتوت ، القاهرة ، ١٩٩٠ م ص ٥٤ وما بعدها ؛ السخاوى ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، القاهرة ، ١٣٥٤ ، جـ٣ ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـ ٤ ، ص ٥٤ وما بعدها .

(٣) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٩ ، ص ١٦٣ ؛ منتخبات من حوادث الدهور ، جـ١ ، ص ٥٥ ؛ على مبارك ، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٨٠ ، جـ ٢ ، ص ١١٥ .

(٤) من المحتمل أنه أطلق عليه هذا اللقب ، لأنه كان يحب شرب الماء بالسكر والليمون ، وربما كان كلامه مثل حلاوة السكر والليمون .

(٥) ابن تغرى بردى ، منتخبات من حوادث الدهور ، جـ ١ ، ص ٣٨٩ .

وفـــى عـــام ٨٦٠ هـــ / ١٤٥٥ م أخلع السلطان على فخر الدين واستقر فى وظيفة ناظر الدولة بعد عزله عن ديوان المفرد[١] .

الدباح[٢] ، الفاجر: [٣]

ضـــنت علينـــا المصادر المملوكية المعاصرة بالمعلومات عمن تلقب بكل من الدباح والفاجر ، ولم يذكر ابن إياس المناسبة التى ذكر فيها هذان اللقبان .

ثالثاً : ألقاب السخرية والاستهزاء :

طلليه :

لقـــب أطلـــق على الأمير سيف الدين طشتمر ، وقد أطلق عليه هذا اللقب لأنه كـــان إذا تكلـــم بشيء قال فى أخر كلامه طلليه كأنه يغنى بها ، وقد كان من المماليك الناصـــرية ، عظم شأنه فى أيام المظفر حاجى ، وجعله أمير سلاح ، ولم يزل فى هذه الرتبة إلى أن صار ربع الحياة من طلليه طللاً ، وحمل إلى قبره ، وقد نشرت الرحمة عليه ظللاً ، وقيل أنه توفي فى طاعون مصر سنة ٧٤٩ هـــ / ١٣٤٨ م[٤] .

أبو دقن : [٥]

لقـــب أطلـــق على الأمير عز الدين أزدمر العزى أمير سلاح الذى ولى إمرة السـلاح مرتيــن الأولى فى عهد السلطان حسن ، والثانية فى دولة السلطان الأشرف شعبان ، كما تولى أيضا نيابة حلب وطرابلس وصفد ، وغير ذلك من النيابات ، وكان

---

(١) ابن تغرى بردى ، منتخبات من حوادث الدهور ، جـــ ١ ، ص ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٤٥٣ ، ٤٩٦ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـــ ٢ ، ص ٣٢٥ .

(٢) المقريـــزى ، السـلوك ، جـ ٣ ق ١ ، ص ٢٨٨ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـــ ١ ق ١ ، ص ١٩٠ . ربما أطلق عليه هذا اللقب لما عرف عنه الفتك بالأعداء وكثرة سفك الدماء .

(٣) ابـــن إيـــاس ، بدائع الزهور ، جـــ ٥ ، ص ٤٠ ، ٤٧ . يرجح أنه أطلق عليه هذا اللقب نتيجة لتصرفاته التى تتسم بالفجور والمجون .

(٤) الصفدى ، أعيان العصر ، جـــ ٢ ، ص ٥٩١ ، المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ق ٣ ، ص ٦٧٨ .

(٥) من المحتمل أنه أطلق عليه هذا اللقب بسبب طول لحيته ولذلك عرف بها .

أمـيراً معظمـاً مـبجلاً وله بر ومعروف توفى فى سنة ٧٦٩ هـ / ١٣٦٧ م منفياً بالشام[١] .

اللفاف : [٢]

لقب أطلق على الأمير طشتمر المحمدى ، الذى كان يجلس رأس الميمنة فى أيـام السلطان نور الدين على بن الأشرف شعبان والذى أنعم عليه بجميع أملاك الأمير صيرغتمش بعد القبض عليه[٣] .

وطشـتمر اللفاف المحمدى أحد أمراء العشرات ، وقد خلع عليه واستقر أمير مائـة مقـدم ألف ، ثم قبض عليه وهموا بضرب عنقه لولا شفاعة الأمير قرطاى الذى ضمن لهم أن ينفق فيهم ما وعد به ، وما زال يتطلف بهم حتى أطلقوا سراحه ، وتوفى فى طاعون سنة ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧م[٤] .

أصفر عينه : [٥]

لقـب أطلـق علـى جمال الدين محمود بن على صاحب المدرسة المحمودية الواقعـة فى القربين[٦] ، وقد استقر شاد الدواوين[٧] ، ثم عمل فى وظيفة الأستادارية فى عـام ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م ، وبعـد ذلك غضب السلطان الظاهر برقوق عليه وأمر بمعاقبـته حـتى يموت ، وتوفى فى عام ٧٩٩ هـ / ١٣٩٦ م ودفن بمدرسته ، وكان

---

(١) المقريـزى ، السـلوك ، جـ ٣ ق ١ ، ص ١١٨ ، ١٦٤ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٥٨ ، ٧٨ .

(٢) ربما أطلق عليه هذا اللقب لأنه كان يلف ويدور فى الكلام .

(٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ق ١ ، ص ١٩٠ .

(٤) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ق ١ ، ص ٢٨٧ وما بعدها ؛ ابن تغرى بردى ،المنهل الصافى ، جـ٦ ، ص ٣٩٤ .

(٥) يرجح أنه لقب به لأنه كان كثير الحسد للآخرين .

(٦) انظر فهرس الآثار الإسلامية بمدينة القاهرة، أثر رقم ١١٧ مصلحة المساحة ١٩٥١م، ابن حجر ، إنباء الغمر ، جـ١ ، ص ٣٤٩ ، ٣٧٤ .

(٧) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ق٢ ، ص ٣٢٣ .

كثير الصلاة والعبادة إلا أنه كان شحيحاً شرهاً فى الأموال ، وأكثر من ضرب الفلوس بمصر حتى فسد بكثرتها حال مصر[١] .

سلطان ليلة :

بعد يلباى المجنون تولى السلطنة الظاهر تمربغا الرومى سنة ٨٧٢ هـ/ ١٤٦٧ م ولم يستطع تمربغا إرضاء المماليك الخشقدمية وزعيمهم خيربك فعزله بعد شهرين ، ومن الواضح أن خير بك عندما دبر عزل تمربغا ، إنما كان يبغى الاستئثار بالعرش لنفسه ، وفعلاً صعد خيربك إلى دست السلطنة أثناء الليلة ولقب نفسه بالظاهر تشبهاً بأستاذه الظاهر خشقدم ، ولكن الأتابك قايتباى أسرع إلى القلعة وسيطر علي الموقف ، وتولى السلطنة بعد عزل خير بك الذى أطلق عليه لقب " سلطان ليلة ، لأنه لم يبقى فى كرسى السلطنة سوى ليلة واحدة ، فكما قيل فى المعنى :

" كلام الليل يمحوه النهار " وقد سمته العامة سلطان ليلة ، وتم القبض عليه وسجن بالإسكندرية[٢] .

سلطان الجزيرة :

لم يختلف عصر أحفاد الناصر عن عصر أولاده فى صفاته العامة[٣] وسلطاننا الذى نتحدث عنه من عصر أحفاد الناصر ، فبعد خلع الملك الأشرف شعبان من السلطنة تولى أنوك (٧٦٥ - ٧٧٨ هـ / ١٣٦٣ - ١٣٧٦م) ، ولقب بالملك المنصور ، ونودى باسمه فى شوارع القاهرة ، فعند ذلك اضطربت أحوال الناس ، وأغلقت أسواق القاهرة ، وكانت سلطنته بجزيرة أروى فصارت العوام يرقصون

---

(١) المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٩٥ وما بعدها ؛ ابن تغرى بردى ،النجوم الزاهرة ، جـ١٢ ، ص ١٥٨ .

(٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ٧ .

(٣) سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ١٣٤ .

ويقولــون " ســلطان الجزيرة ، ما يساوى شعيرة " يعنى يهزأون بالسلطان أنوك الذى تمت سلطنته علي يد الأمير يلبغا بجزيرة أروى[1] .

من هذا العرض يتضح لنا أن هذه المجموعة من الألقاب السابق الإشارة اليها تشير إشارة ساخرة إلى سلوك السلاطين والى كونهم ألعوبة فى أيدى الأمراء .

رابعاً : ألقاب الضعف :

هات لبن : [2]

كنــية أطلقت على الأمير قانصوه بن سلطان جركسي ، أمره السلطان قانصوة الغوري بــأن يتوجه إلى الشرقية ، فلما وصل هناك امتنع عن مقابلته العربان وازدادوا عصياناً فــوق عصــيانهم ، ولقــبوه بهات لبن ، ومكث هناك نحو أربعين يوماً ثم رجع بدون طائل[3] .

روح لو : [4]

فــى عــام ٩١٦ هـ / ١٥١٠ م خُلع على الأمير قانصوه روح لو باشا أحد الأمــراء المقدميــن بنيابة قطية ، وكان قبل ذلك نائب غزة وحلب ، إلى أن تولى نيابة قطية وهذه درجة سفلى إلى الغاية ، فعد ذلك من النوادر الغريبة[5] .

---

(١) المقريــزى ، الســلوك ، جـ ٣ ق ١ ، ص ١٣٥ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٤٧ وما بعدها .

(٢) عن المرجع أنه كان يعشق شرب اللبن ، بالإضافة إلى أنه كان لا يرى أحداً إلا ويقول له : هات لبن .

(٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ٢٥ .

(٤) ربما أطلق عليه هذا اللفظ لضعف شخصيته واعتماده على الآخرين فى تصريف أموره .

(٥) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ١٩٢ وما بعدها .

وفـــى عـــام ٩٢٢ هـــ / ١٥١٦ م خلع السلطان الغورى على الأمير قانصوه روح لو وقرره كاشف الشرقية عوضاً عن قجماس الذى كان بها[١] .

وفـــى عـــام ٩٢٣ هـــ / ١٥١٧ م عثر على جثة الأمير روح لو أمام سبيل السلطان والكلاب تنهش فى مصارينه وشحم بطنه ، فقد كان رجلاً جسيماً[٢] .

خامساً : ألقاب الخيانة :

خاين بك :

هـــو خايـــر بك[٣] نائب حلب ، كان موالسا على السلطان فى الباطن ، ويعتبر أول من كســـر عسكر السلطان وهرب عن ميسرته حتي انهزم السلطان الغورى ، ثم هرب إلى حمـــاة ، فمـــا دخل ابن عثمان حلب خلع عليه وأصبح من جملة أمرائه ، وارتدى زى الـــتراكمة العمامـــة المدورة والدلامة ، وقام بقص ذقنه ، وأطلق عليه ابن عثمان لقب خاين بك لأنه خان السلطان الغورى[٤] .

---

(١) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـــ ٥ ، ص ٤ ، ٣٩ .

(٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـــ ٥ ، ص ١٥٦ .

(٣) Mohamed Mostafa, Háir Báj Sultán Laila, Studien Geschichte und Kultur des nahen und fernen ostens, pp. 125 – 132 Leiden 1935; Lindas Northrup, Letters de Hair Beg, dérnier vâid Mamlouk d'Alep, à al porte Ottomane, *Journal Asiatique*, 1993, pp. 235 – 315 vol 281 No. 3 – 4; David Ayalon, Egypt as a Dominant Factor in Syria and Palestine During the Islamic Period, 1984, pp. 38; 39. The Encyclopaedia of Islam, New Edition Vol. (4) Leiden 1978. Art Kánsawh al Ghawri, pp. 552 – 553.

(٤) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـــ ٥ ، ص ٧٦ ؛

Daivd Ayalon, The End of the Mamlúk Sultanate, *Studia Islamica*, Vol. 3, 1978, pp. 134, 138, 139; Names titles and "nisbas" pp. 224, 225-226.

P.M. Holt, The Last Mamlūk Sultan: Al-Malik Al Ashraf Tūmān Bāy, Jerusalem Studies in Arabic and Islam Vol. 25, 2001, pp. 234, 246.

جدول بالألقاب والكني الشعبية الساخرة فى العصر المملوكى

ألقاب المدح	ألقاب الذم والقدح	ألقــاب السخرية والاستهزاء	تــابع ألقــاب الســـخرية والاستهزاء	ألقــــ الضعف	ألقـــ الخيانة
- الأعرج	- ركين	- سلطان الجزيرة	- سلام عليكم	- هات لبن	- خا بك
- سم الموت	- دقين	- طللية	- حلاوة	- روح لو	
- حمــــ أخضر	- المجنون	- أبو دقن	- حاصل ما تم		
- الفـــــل المقشر	- ســـلطا ليلة	- اللفاف	- أبو نبوت		
	- الــــــد الأسود	- أصفر عينه	- الصنجق سبع		
	- فــــأ السقوف	- فرفور	- بنات		
	- سن إبرة	- المزوق	- صنجق سته		
	- أبو زلطة	- الضاني			
	- أبو كم	- اللكاش			
	- الطويل	- محنى دقنه			
	- المؤذى	- السكر والليمون			
	- ابن المكاللة	- تمساح			
	- الدباح	- أبو سنة			
	- الفاجر	- الموتر			
		- الأقرع حداية			

من هذا العرض يتبين لنا أن هذه الألقاب والكني إن دلت على شيء فإنما تدل علـــى تفـــاعل الشـــعب مع سلاطينه وأمرائه فى كل العصور ومراقبته لهم فى كل ما

يفعلونـــه فى فترة حكمهم من تصرفات شخصية أو عامة تمس الحكم وهذا أيضاً يعكس تمتع هذا الشعب بروح الفكاهة والدعابة التى صاحبته فى كل الأزمنة ، والتى قد تكون مخـــرجه مما يعتريه من أزمات ومشاكل ينفرد بها عن شعوب العالم ، كما أن إطلاق هذه الألقاب الشعبية الساخرة يعكس أدباً شعبياً نضالياً وثقافة فطرية تتمتع بها العامة .

وممـــا لا شك فيه فإن لهذه الألقاب والكنى دلالات سياسية وإدارية واجتماعية واقتصـــادية تتبين لنا على الوجه التالي : فلقب الأعرج مثلاً والذى أطلقته العامة على الســـلطان الناصـــر محمـــد له دلالة سياسية لدى شعب مصر في العصر المملوكى ، فالعامـــة ترفض حكم السلطان بيبرس الجاشنكير لأن الناصر مازال يتمتع بعطف كثير مـــن الناس داخل مصر وخارجها ، بالإضافة إلى أن أمراء حلب وطرابلس وحماة كان هدفهـــم القضـــاء علـــى المظفـــر بيبرس وإعادة الناصر محمد إلى عرشه مرة ثالثة ، وأخـــيراً يخرج الناصر محمد من دمشق قاصداً القاهرة ، ويستقبل فى جميع البلاد التى مر بها بالترحاب والسرور والحب والمودة حتى دخوله قلعة الجبل .

كمـــا أن هـــذا اللقـــب كشف عن ثقافة العوام باعتبارها دالة على أدب شعب فطرى ذى طابع نضالى كما سبق القول .

أمـــا لقـــب سم الموت كما نعلم فقد أطلقته العامة على الأمير عز الدين حيث يعرف العامة عنه تحليه بالشجاعة والجسارة والفتوة والقوة .

وبالنســـبة للقـــب حمص أخضر فله دلالة اجتماعية فكاهية ساخرة لدى عامة شـــعب مصر فالأمير طشتمر كان يحب الفقراء والأيتام والحرافيش ويكثر من صدقاته لهم ، ولذلك أطلق عليه هذا اللقب .

أمـــا لقـــب الفـــول المقشـــر فله دلالة اجتماعية فهو من الألقاب الفكاهية التى أطلقـــتها العامـــة علـــى الأمـــير قطلوبغا الفخرى ، لما كان يتميز به من لين عريكته وضعفه وتسامحه .

أمـــا لقب طللية فله دلالة اجتماعية فكاهية ساخرة ، فقد أطلقته العامة على هذا الأمـــير لأنـــه كمـــا سبق وأن ذكرنا إذا تكلم قال فى أخر كلامه طللية كأنه يغنى بها ، فالعامة بثقافتها المحدودة عبرت عن سلوك هذا الأمير بإطلاق هذا اللقب .

وركيـــن الدين يعتبر من الألقاب التى لها دلالة سياسية ساخرة ، فالعامة أطلقته علـــى الســـلطان بيـــبرس الجاشنكير لما فيه من تحقير واستهزاء به ، ولأنه اغتصب الســـلطنة مـــن الناصـــر محمد ونفاه إلى الكرك ، ولذلك تعللت العامة بعدم وفاء النيل وأطلقت هذا اللقب عليه .

أما دقين فقد أطلقته العامة على الأمير سلار احتقاراً له ولشخصه ولمناصرته لبيبرس الجاشنكير مغتصب عرش الناصر محمد .

ولقـــب المجنون ورد فى مصادر العصر المملوكى أكثر من مرة ، فقد اطلقت العامة هذا اللقب على يلباى بسبب سوء سلوكه وتصرفاته وسوء تدبيره وبخله الشديد ، وهـــذا اللقـــب له دلالـــة اجتماعية لدى العامة ، فقد عبرت عن سلوك هذا الأمير بلقب المجنون الذى أساء التصرف تجاه الآخرين .

وقـــد أطلقـــت العامة هذا اللقب أيضاً على الأمير سودون المحمدى المجنون ، وكانـــت له دلالـــة سياســـية وإدارية ، فالأمير يلبغا استقر فى عدة وظائف إدارية مما ســـاعده على ظلم الناس منهم ناصر الدين محمود الاستادرا وابن الطبلاوى إلى جانب اضـــطهاده للعامـــة مما أدى بهم إلى رجمه بالحجارة وإطلاق لقب المجنون عليه وذلك لتصرفاته السيئة تجاههم .

أمـــا لقب الدم الأسود فهو من الألقاب ذات الدلالة السياسية فالأمير سيف الدين أكلتمر الناصرى كان ظالماً فى تصرفاته وسلوكه .

أمـــا فأر السقوف فهو من الألقاب ذات الدلالة الاقتصادية والإدارية ، فقد كان ناصـــر الدين متولى حسبة مصر أثناء سلطنة الناصر أحمد ، وقد أدت تصرفاته وسوء ســـلوكه تجـــاه العامـــة ومعاملته السيئة المستمرة إلى أن وقفت العامة تشكوه للسلطان فقبض عليه وسجن بعد مصادرة أمواله .

أما عن لقب اللفاف فقد ضنت علينا المصادر المملوكية المعاصرة بالمعلومات التى تفيد سبب إطلاق هذا اللقب .

وسـن إيـرة مـن الألقــاب التى أطلقت على علم الدين ، ويعتبر من الألقاب الإداريــة الفكاهــية الســاخرة ، فعلم الدين كان يحب الأموال ويقوم بجمعها من الناس سواء عن طريق المصادرة أو الاغتصاب بالقوة .

ويـأتى لقــب إدارى فكاهي ساخر آخر وهو لقب أبو زلطة الذى أطلق على أيدمــر الشــمس الــذى تولى نيابة الوجه القبلى ثم البحرى وأخيراً البحيرة ، وفى مدة ولايته أظهر شراهة كبيرة فى جمع الأموال واغتصابها من الناس .

وهــناك ألقاب إدارية فكاهية ساخرة مثل لقب أبو كم والطويل والمؤذى وابن المكللــة ، هذا بالإضافة إلى الألقاب ذات الدلالة الاجتماعية الساخرة والتى أطلقت على بعض الأمراء نتيجة لضعفهم واستهزاء الناس بهم مثل لقب هات لبن وروح لو .

وهــناك ألقــاب لهــا دلالة سياسية فقط مثل لقب خاين بك الذى خان السلطان الغوري وتسبب فى هزيمته أمام الجيوش العثمانية.

وكمـا سـبق أن ذكـرنا، فقد كانت الألقاب والكنى سلاح الفكاهة فى محاولة للتغلــب علــى المتناقضــات ومقاومة الانحراف والتسلط وهذه واحدة ، أما الثانية فإن اللقــب قد عبر عن السخرية من العصر المملوكى وما كان يحدث فيه من ظلم وفرض للضــرائب على المجتمع المصرى ، بالإضافة إلى أن اللقب رسم صورة لحياة المجون واللهو التى كان يحياها سلاطين المماليك والأمراء إبان تلك الحقبة من الزمان .

والثالــثة توضح كيف رسم مفهومُ اللقب صورة لحياة الريف المهمل من قبيل سلاطين المماليك .

وتوضــح الــرابعة كـيف عَبر مفهوم اللقب عن كيفية تغيير سلطان بآخر ، وأخيراً فإن الخامسة بينت أن اللقب كان يعبرعن مدى تسلط الموظفين وظلمهم للشعب المصــرى إبــان العصر المملوكى ، والذى قد يمتد أثره حتى اليوم متمثلاً فى الروتين الوظيفى عند تقديم الخدمات للمواطنين .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية المطبوعة :

- **شهاب الدين بن أبى حجلة**

  – سكردان السلطان،القاهرة بدون تاريخ

- **ابن أبى الفضائل (مفضل ابن أبى الفضائل ت ٧٦٠ هـ/ ١٣٥٨ م) .**

  تاريخ سلاطين المماليك أو النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ، نشره وترجمه للفرنسية وعلق عليه :

  E. Blouchet, *Patrologia Orientalis*, XII, XIV, XXII, Paris, 1919.

- **ابن إياس (محمد بن أحمد ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤)**

  بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، خمسة أجزاء ، ط ٢ ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٨٢ – ١٩٨٤ .

  صفحات لم تنشر من بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٥١ م .

- **ابن بطوطة (محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) .**

  تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الاسفار ، بيروت ١٩٦٠ م .

- **ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩م)**

  النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية حتى جـ ١٢ ، جـ ١٣ تحقيق محمد فهيم شلتوت ، جـ ١٤ تحقيق جمال محرز ، فهيم شلتوت القاهرة ١٩٧١ ، جـ ١٥ تحقيق إبراهيم طرخان، القاهرة، ١٩٧١ م .

- المـنهل الصـافي والمستوفي بعد الوافي جـ ١ ، ٢ تحقيق محمـد محمد أمين ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٤ م جـ ٣ ، تحقيق نبيل محمدعـبد العزيـز ١٩٨٦ م ، جـ ٤ تحقيق محمد محمد أمين ١٩٨٦ م جـ ٥ تحقـيق نبيل محمد عبد العزيز ١٩٨٨ م ، جـ ٦ تحقيق محمد محمد أمين ١٩٩٠ م .
- الدلـيل الشافي على المنهل الصافي ، تحقيق فهيم شلتوت ، منشـورات مركـز البحـث العلمي وإحياء التراث الإسلامي ، السعودية ١٣٧٥هـ .
- حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، القاهرة ١٩٩٠ م .

- **ابن حبيب (الحسن بن عمر بن حبيب ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) .**

- تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه جـ ١ ، ٢ ، ٣ تحقيق محمـد محمد أمين ، مراجعة سعيد عبد الفتاح عاشور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٦ م ، ١٩٨٢ م ، ١٩٨٦ م .

- **ابن حجر (الحافظ بن حجر العسقلاني ت ٨٥٢ هـ/ ١٤٤٨ م)**

- الـدرر الكامـنة في أعيان المائة الثامنة ، ط ٢ ، حيدر أباد ١٩٥٤ م .
- أنـباء الغمر بأنباء العمر ، الأجزاء من ١ – ٣ تحقيق حسن حبشي القاهرة ١٩٦٩ م ١٩٧٢ .

- **ابـن الصـيرفي (علـي بن داود الصيرفي المعروف بالخطيب الجوهري ت ٩٠٠ هـ / ١٤٩٥ م)**

- نـزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان الأجزاء من ١ – ٣ تحقيق حسن حبشي دار الكتب المصرية ١٩٧٠ – ١٩٧١ ، ١٩٧٣ م

- **ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م)**

- تاريخ الدول والملوك جـ ٧ ، ٩ (أربع مجلدات) نشره قسطنطين زريق ، ونجلاء عز الدين ، بيروت ١٩٣٩ م .

- **ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقى ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م) .**

- البداية والنهاية ، ط ١ القاهرة ١٩٦٦ م .

- **الدميرى كمال الدين الدميرى .**

- حياة الحيوان الكبرى ، القاهرة بدون تاريخ .

- **السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن أبى بكر عثمان السخاوى ت ٩٠٣ هـ/ ١٤٩٧ م)**

- التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، المطبعة الأميرية ١٨٩٦ م

- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، ١٢ جزء القاهرة ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٤ م .

- **الشجاعى (شمس الدين الشجاعى)**

- تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده تحقيق بربارة شيفر فيسبادن ١٩٧٨ م .

- **الصفدى (صلاح الدين خليل بن أيبك ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م) .**

- أعيان العصر وأعوان النصر ، تحقيق على أبو زيد وآخرون ط ١ ١٩٩٨ م

- **العينى (بدر الدين محمود العينى مولده ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م)**

- السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودى ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٦٧ م .

- **الفيروز آبادى (مجد الدين محمد بن يعقوب ت ٨١٧ هـ / ١٤١٤ م) .**

- القاموس المحيط ٤ أجزاء جـ ١ ط ١٩٧٧ م جـ ٢ ط ١٩٧٨ م جـ ٣ ط ١٩٧٩ م جـ ٤ ط ١٩٨٠ م .

- **القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) .**

– صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ١٤ جزء – نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية) .

- **المقريزى (تقى الدين أحمد بن على المقريزى ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م).**

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، طبعة لبنان ١٩٥٩م .
- السلوك لمعرفة دول الملوك نشره محمد مصطفى جـ ١ جـ ٢ ستة اقسام ونشره سعيد عاشور جـ ٣ جـ ٤ فى ستة أقسام عن دار الكتب المصرية سنة ١٩٧٠ م ، ١٩٧٢ م ، ١٩٧٣ م .

- **اليوسفى :**

- نزهة النظار فى سيرة الملك الناصر ، تحقيق ودراسة أحمد حطيط ، ط ١ بيروت ١٩٨٦ م .

ثانياً : المراجع العربية :

- **أحمد عبد الرازق**

- دراسات فى المصادر المملوكية المبكرة ، القاهرة ١٩٧٤ .
- المماليك ومفهوم الأسرة لديهم ، مجلة كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، العدد الثانى ١٩٧٧ م .
- البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك القاهرة ١٩٧٩ م .

- **أحمد صادق الجمال**

- الأدب العـامي فـي مصـر فى العصر المملوكى ، القاهرة ١٩٦٦ م .

- ثناء أنس الوجود

- رمز الأفعى فى التراث العربى ، القاهرة ١٩٩٦ .

- جمال الدين الشيال .

- تـاريخ مصـر الإسلامية ، العصران الأيوبى والمملوكى ، القاهرة ١٩٦٧ م .

- حسن الباشا

- الألقـاب الإسـلامية فى التاريخ والوثائق والآثار ، القاهرة ١٩٥٧ م .

- حياة ناصر الحجى

- أحوال العامة فى حكم المماليك ٦٧٨ - ٧٨٤ هـ / ١٢٧٩ - ١٣٨٢م دراسـة فـي الجوانـب السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، الكويت ١٩٨٤ .

- دراسـات فى تاريخ سلطنة المماليك فى مصر والشام ط ١ الكويت ١٩٨٦م .

- أنمـاط مـن الحـياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى سلطنة المماليك فى القرنين الثامن والتاسع الهجرى الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين الكويت ١٩٩٥ م .

- سعيد عبد الفتاح عاشور

- المجـتمع المصـرى فى عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٦٥ م .

- العصر المماليكى فى مصر والشام ، القاهرة ١٩٦٥ م .

• **عبد المنعم ماجد**

- موقف المصريين من حكم المماليك فى العصور الوسطى ، حوليات كلية الآداب جامعة عين شمس م ١٢ ، ١٩٦٩ م .

• **على إبراهيم حسن**

- دراســات فــى تاريخ المماليك البحرية وفى عصر الناصر بوجه خاص ، القاهرة ١٩٤٤ م .

• **على مبارك**

- الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٨٠ .

• **علاء طه رزق**

- عامــة القاهرة فى العصر المملوكى ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة الزقازيق ، كلية الآداب ، ١٩٨٩ م .

• **فوزى محمد أمين**

- المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكى الأول ٦٤٨ – ٧٨٤ هـ / القاهرة ١٩٨٢ م .

• **محاسن محمد على حسين الوقاد**

- الطـبقات الشعبية فى القاهرة الملوكية ٦٤٨ – ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ – ١٥١٧م ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩ م .

• **محمد جمال الدين سرور**

- دولة بنى قلاوون فى مصر الحالة السياسية والاقتصادية فى عهدها بوجه خاص ، القاهرة ١٩٤٧ م .

• **محمد رجب النجار**

- الشــعر الشــعبى الساخر فى عصور المماليك ، مجلة عالم الفكر ، م ١٤ ، العدد الأول ١٩٨٣ م .

• **محمد عبد الغنى الأشقر**

نائب السلطنة المملوكية فى مصر ، القاهرة ١٩٩٩ م .

- **مجمع اللغة العربية**

المعجم الوجيز ط ١ القاهرة ١٩٨٠ م .

- **نظير حسان سعداوى**

صور ومظالم من عصر المماليك ، القاهرة ١٩٦٦ م .

- **نقولا زيادة**

الرحالة العرب ، القاهرة ١٩٥٦ م .

ثالثاً : المراجع الأجنبية :

- **Ahamd 'Abd Ar-Rāziq,**
  - Les Muhtasibs de Fostāt au temps des Mamlāks pp. 127 – 146 – 5 P. 130 fōr as Suqūf Nāsir ad-Din.
  - La Hisba et le Muhtasib en Egypte au temps des Mamlūks, pp. 115 – 178 – 138.
  - Les vizirs Égypte au temp des Mamlúks pp. 183 – 239.

- **Amalia Levanoni,**
  - A Turning Point in Mamluk History: The Third Reign of Al-Nāsir Muhammad Ibn Qalāwūn (1310 – 1341), *Mamlūk Studies Review*, Vol I, The Univ. of Chicago, 1997, p. 179.

- **Ayalon (D)**
  - The Wefidiya in the Mamluk Kingdom, Islamic Culture, Vol. XXV, 1951.
  - Discharges from Service' Banishments and Imprisonments in Mamluk Society, *Israel Oriental Studies*, Vol. II, Tel. Aviv, 1972.
  - Names, titles and "Misbas" of the Mamluks, *Israel Oriental Studies*, Vol. V, Tel Aviv Univ, 1975.
  - The End of The Mamluk Sultanate, *Studia Islamica*, Vol. 3, 1978.

- Egypt as a Dominant Factor in Syria and Palestine During The Islamic Period, 1984.

- **Donald Little,**
  - An Introduction to Mamlūk Historiography An Analysis of Arabic Annalistic and Biographical Sources for the Reign of Al Malik An-Nāsir Muhammad Ibn Qalā'un, Wiesbaden, 1970.
- **Holt (P.M)**
  - Scenes of Daily Life from Mamluk Miniatures, The Eastern Mediterranean Inds in The Period of the Crusades, Worminster, England, 1977.
  - The Last Mamlūk Sultan: Al-Malik Al Ashraf Tūmān Bāy, *Jerusalem Studies in Arabic and Islam*, Vol. 25, 2001.
- **Lane Poole,**
  - History of Egypt in the Middle Ages, London, 1901.
- **Lindas Northrup,**
  - Letters de Hair Beg, dérnier nâid mamlouk d'Alep, à al Porte Ottomane, *Journal Asiatique*, 1993.
- **Mohamed Mostafa,**
  - Hāir Bāj Sultān Laila, Studien Geschichte und Kultur des nahen und fernen ostens, Lieden 1935. pp. 125-132.
- **Poliak (A.N),**
  - Some Notes on the Feudal System of The Mamlūk Jras, 1937.
- **Sauvaget (J),**
  - Noms et surnoms de Mamelouk, *Journal Asiatique*, Tome CCXXXV III, Année 1950.
- **Sato Tsugitak,**
  - The Proposes and Supervisors of Al-Rawk Al-Nāsiri in Mamlūk Egypt, *Mamlūk Studies Review*, Vol. II, Chicago, 1998.
- **Sobernhetm (M),**

- Encyclopedia of Islam. Art. Mamlūks, Leiden, 1987.

- **Urbain Vermeulen,**
  - Some Remarks on A Prescript of An-Nasir Muhammad B. Qalā'ūn on the Abolition of Taxes and the Nusayris Mamlaka of Tripoli, 717/1317, *Orientalia Lovaniensia Periodica*, 1970.
- **The Encyclopaedia of Islam,** art Khassakiyya, New Edition, Leidem, 1978.
- **The Encyclopaedia of Islam**, Art Baybars II, New Edition, Leiden 1960.

السياسة المالية للفاطميين بين النظرية والتطبيق

نريمان عبد الكريم

مصـــر

نجح الفاطميون فى أن يحكموا مصر ما يزيد عن القرنين من عام ٣٥٨ - ٥٦٧هـ/٩٦٩-١١٧١م . فكان هدفهم بعد إقامة خلافتهم بالمغرب ، هو وراثة الخلافة العباسية وحكم العالم الإسلامى ، لذلك كان انتقالهم إلى مصر ، التى اتخذوها مركزاً لإمبراطورية كبرى ، شملت معظم ملك العباسيين ، كما دخلوا بغداد نفسها ، واستمروا فيها لمدة أربعين أسبوعاً ، ولم يكن من السهل تحقيق ذلك إلا من خلال تقوية مركزهم فى الداخل والخارج ، معتمدين على موقع مصر المتميز وثرائها وكسب المصريين إلى جانبهم ، ولذلك قدموا من البداية عرضاً شاملاً لسياستهم العامة ، من خلال الأمان الذى أعطاه جوهر لأهل مصر ، فضلاً عما حوته كتب الدعوة الفاطمية وما ألقى فى مجالسها من شرح لبعض الأمور الحيوية ، التى تخص المصريين .

فمع وصول جوهر إلى تروجه بالقرب من الإسكندرية[١] ، قام المصريون بندب الوزير جعفر بن الفرات للمفاوضة وطلب الأمان ، وتم اختيار أحد العلويين ليرأس الوفد ، الذى مثل جميع فئات وطبقات المصريين[٢] ، فكتب لهم جوهر أماناً وجدده عدة مرات[٣] ، وحوى كتابه بعض الأمور المتعلقة بالناحية المالية منها ما هو عام وما هو خاص أو حتى ذكر بشكل ضمنى ، محاولاً إظهار ما للفترة السابقة من سلبيات ، كما مهد لفترة جديدة استهدفت الإصلاح .

وجاء فى هذا الأمان : «هذا كتاب من جوهر عبد أمير المؤمنين لجماعة أهل مصر .. أنكم التمستم كتاب يشمل على أمانكم فى أنفسكم وأموالكم وبلادكم وجميع أحوالكم .. إذ تخطفتكم الأيدى واستطال عليكم المستذل ، وأطمعته نفسه بالاقتدار على بلدكم والتغلب على من فيه والاحتواء على نعمكم وأموالكم .. ولكم على أمان الله التام

---

[١] المقريزى ، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٧ ، جـ١ ، ص ١٠٣ .

[٢] المقريزى ، اتعاظ ، جـ١ ، ص ١٠٣ .

[٣] النويرى ، نهاية الأرب فى فنون الأدب ، حققه محمد محمد أمين - محمد حلمى محمد ، القاهرة ١٩٩٢ ، جـ٢٨ ، ص ١٢٨ .

العام الدائم على مر الأيام وكرور الأعوام فى أنفسكم ونعمكم وضياعكم ورباعكم ، وعلى أنه لا يعترض عليكم معترض ولا يتجنى عليكم متجن"[٤] .

وارتباطاً بذلك ذكر النعمان[٥] فيما ينبغي للوالى من أهل الخراج : "انظر كل ما يصلحهم ، فإن صلاحهم صلاح من سواهم ، فانظر فى عمارة أرضهم وصلاح معايشهم، أشد من نظرك فى زجاء خراجهم ، أجمع أهل الخراج من كل بلد ، ثم مرهم فليعلموك حال بلادهم ، والذى فيه صلاحهم وحال أرضهم ، فإن شكوا إليك ثقل خراجهم أو غلة دخلت عليهم من انقطاع شرب أو فساد أرض ... فأكفلهم مؤنة ما كان من ذلك ولا تثقلن شيئاً خففته عنهم ، فإن العدل يحتمل ما حملت عليهم وعمران البلاد أنفع من عمران الخزائن ، فإن خربت انقطعت مادة الخزائن ، فخربت بخراب الأرض" وفى موضع آخر[٦] : "ولا بأس بالمزارعة بالربع والنصف على ما أتفقا عليه ، ولا بأس باستئجار الأرض بالعين وقتاً معلوماً" .

وشمل أمان جوهر أيضا : "وما أمره به مولاه المعز من اسقاط الرسوم الجائرة، التى لا يرتضى بإثباتها عليكم ، وأن أجيركم فى المواريث على كتاب اللّه وسنة نبيه ، وأضع ما كان يؤخذ من تركات موتاكم لبيت المال من غير وصية من المتوفى فيها ، فلا استحقاق لمصيرها لبيت المال ... والزكاة على ما أمر اللّه فى كتابه ... وأجرى أهل الذمة على ما كانوا عليه ... ثم تجويد السكة وصرفها على العيار الذى عليه السكة الميمونة المباركة وقطع الغش منها ... ولكم على الوفاء بما التزمته وأعطيتكم أياه»[٧] .

وما ورد أيضا : "لا بأس باستئجار الدور والأرضين فيما يحل ، ولا يحل الفصل فى الدور والحوانيت ، وأشباه ذلك ، ومن أكترى مشاهرة على أنه سكن يوماً لزمه الشهر»[٨] .

---

[٤] المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ص ١٠٤ – ١٠٥ .

[٥] دعائم الإسلام ، حققه آصف بن على فيظى ، القاهرة ١٩٥١ ، جـ٧ ، ص ص ٤٢٤-٤٢٥ .

[٦] النعمان ، الاقتصار ، حققه ميزرا ، دمشق ١٩٥٧ ، ص ص ٨٩ – ٩٠ .

[٧] المقريزى ، اتعاظ ، جـ١ ، ص ١٠٣

[٨] النعمان ، الاقتصار ، ص ص ٩٠ – ٩١

إلى جانب ذلك ذكرت كتب الدعوة(٩) ، عدة أمور وثيقة الصلة بالنواحى المالية ، منها : "ونهوا عن الحكرة ، إذا عز الطعام وعن التسعير" .

فضلاً عن ذلك ، فقد عرض لكيفية اختيار العمال : "أنظر فى أمور عمالك ، الذين تستعملهم ، فليكن استعمالك إياهم اختياراً ، ولا يكن محاباه ، ولا إيثاراً ، فإن الأثرة بالأعمال والمحاباة بها شعب الجور وادخال الضرر على الناس ، وليست تصلح أمور الناس ولا أمور الولاة إلا بصلاح من يستعينون به على أمورهم"(١٠) .

وبذلك قدم الفاطميون ، صورة عامة لطبيعة السياسة المالية ، التى سوف ينتهجونها مع المصريين ، بينوا فيها مساوئ الحكم السابق ، مستفيدين من الأحوال السيئة ، التى وصلت إليها مصر فى أواخر حكم الإخشيديين ، ولما كانت السياسة المالية تشكل جزءاً لا يستهان به من السياسة العامة للدولة ، بل هى العمود الفقرى لها ، فلابد أن تتسق مع أهدافهم ، التى أتوا إلى مصر من أجل تحقيقها . فهل سيتعارض الأمران ؟ فى الوقت الذى كان على الفاطميين أن يؤكدوا فعالية مع ما أعلنوه وما صرحوا به وأن يسيروا على منهاج قد رسموه بأيديهم . لذلك فهى محاولة للوقوف على طبيعة السياسة المالية ، التى نفذها الفاطميون بالفعل ، وإلى أى حد قد توافقت أو اختلفت أو حتى حدث توازناً بين الإطار النظرى والإطار التطبيقى ؟ .

ولما كانت الأرض تمثل أحد المحاور التى شملها أمان جوهر ، فهذا الأمر يرتبط بعدة أمور : منها ضريبة الأرض ، سياسة الدولة تجاه تحسين وسائل الزراعة ، احترام الملكية الخاصة ، وعدم انتزاعها من أيدى أصحابها ، وهذا يقودنا إلى وضعية الأرض فى عصر الفاطميين ، ومدى هيمنة الدولة عليها ، وإلى أى حد شكل الإقطاع جزءاً من سياستهم ، فضلاً عن أشكاله التى وجدت آنذاك ، وهل كان هناك ملكية خاصة ومدى ارتباطها بمتغيرات السياسة الفاطمية ؟

أما الخراج ، فهو الضريبة المفروضة على الأرض ، وهى إما مقداراً من مال أو حصة معينة مما تخرجه الأرض . وقد فرض مع بداية الفتح الإسلامى على أراضى غير المسلمين ، وبمضى الزمن أصبح الخراج إيجاراً دائماً للأرض سواء ظل صاحبها

---

(٩) النعمان ، الاقتصار ، ص ٨٤ .

(١٠) النعمان ، دعائم الإسلام ، ص ص ٤٢٣ - ٤٢٤ .

على دينه أو كانت ملكاً لأحد المسلمين[١١] . وفى العصر الفاطمى كان الخراج المقدر على الأرض فى الوجه البحرى يجبى بالدنانير ، على كل فدان ثلاثة دنانير ونصف بينما كان خراج الوجه القبلى يجبى عيناً ، لا سيما الحبوب ، فكان يفرض على كل فدان ثلاثة أرادب ، تبعاً لما ذكره ابن مماتى[١٢] ، الذى خدم فى دواوين الفاطميين فى أواخر أيامهم ، بينما يذكر ابن حوقل[١٣] : "أنه عند مجئ الفاطميين ، قام جوهر بمضاعفة قيمة الخراج إلى سبعة دنانير للفدان" ، وكان هذا الإجراء ليس فقط بسبب احتياج جوهر للأموال بقدر ما كان تغطية لنفقاته المباشرة ، التى قام بها قبل صدور هذا القرار ، وبطبيعة الحال ، قد أدى ذلك إلى ارتفاع ما جباه جوهر عام ٣٥٩هـ/ ٩٧٠م إلى أكثر من ثلاثة ملايين من الدنانير[١٤] .

ومن اللافت للنظر أن ارتفاع هذه القيمة جاء فى وقت عانت فيه البلاد من أزمة اقتصادية طاحنة بسبب قصور مياه النيل وانتشار الوباء والغلاء ، وما نتج عن ذلك من قيام الجند بالسلب والنهب ، مما حدا بالبعض[١٥] أن يتساءل كيف يمكن للمصريين دفع هذا الخراج المضاعف ، فى الوقت الذى يستبعد فيه قيام جوهر بهذا الإجراء ، وهو يستهل عهداً جديداً ، ويسعى جاهداً لاستمالة المصريين[١٦] ، وعلى ذلك يبدو أن هذا كان إجراءاً مؤقتاً ، وكان لابد من التفكير فى نظام أكثر استمراراً[١٧] ، لكن هذا الأمر جاء تدريجياً خلال وقت قصير ، فأبقى جوهر القائم بالخراج من أيام الإخشيديين وهو يحيى بن العرمرم ، ثم سرعان ما أشرك معه أحد المغاربة[١٨] ، وعندما استقر الأمر للفاطميين مع مجئ المعز . تم إقرار نظام جديد لتقدير الأملاك ،

---

(١١) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، القاهرة ١٩٠٩ ، ص ص ١٥٢ ، ١٤٢ .

(١٢) قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال عطية ، القاهرة ١٩٤٣ ، ص ٢٥٩ .

(١٣) صورة الأرض ، ليدن ١٩٣٨ ، ص ١٥٢ .

(١٤) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٥٢ .

(١٥) أيمن فؤاد سيد ، الدولة الفاطمية فى مصر – تفسير جديد ، القاهرة ١٩٩٢ ، ص ٨١ .

(١٦) راشد البراوى ، حال مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ، القاهرة ١٩٨٤ ، ص ٣٠ .

(١٧) انظر : Shaban, Islamic History. A New Interpretation. A.D. 756-1055 A.H. 132-448, Cambridge 1976, p. 200.

(١٨) المقريزى ، اتعاظ ، جـ١ ، ص ١١٩ .

وتحديد الضرائب التى تفرض على كل منها وجمعت مصادر الضرائب على اختلافها[١٩] وكان الخراج يشكل جزءاً منها .

واعتمد الفاطميون على يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن اللذين قاما بهذا الأمر ، وقد تشددا أيضاً فى تحصيل البقايا من الأموال على المالكين والمتقبلين والعمال[٢٠] . وحسبنا أن نشير إلى كيفية جباية خراج الغلات ، وعلى رأسها القمح والشعير والفول ، لنرى كيف كانت الدولة الفاطمية تنفذ سياستها المالية ، فكان مقدار الخراج يتفق مع غلة الأرض من حيث الزيادة والنقصان ، كما كان يختلف باختلاف المحاصيل ، فكانت النسبة المئوية للضريبة تصل إلى ٣٠% من إنتاج الأرض المزروعة قمحاً[٢١] أو شعيراً ، وكان على عمال النواحى أو الجهات التابعة لديوان الخراج ، أن يقدموا ما عليهم من ضرائب إلى الديوان ، وكذا يطالب الفلاحين بالحضور فى بعض الأحيان ، خاصة فى أيام الأزمات الاقتصادية ، ويسجل ذلك فى سجل الجهبذ مع مبلغ أو قيمة الغلة المقررة عليهم[٢٢] .

وفى إطار جهود الدولة لتحسين الزراعة ، قام الفاطميون بدور ملحوظ ، باعتبار أن الأراضى الزراعية تشكل أهم قوى الإنتاج ثباتاً وعطاء[٢٣] . فبدت بعناية جوهر فى إصلاح وتجديد ما فسد من الجسور والقناطر[٢٤] ، أما المعز ٣٦٢ – ٣٦٥ هـ/ ٩٧٢ – ٩٧٥م ففضلاً عن قيامه بتنظيم الإدارة المالية وجباية الخراج ، فقد عنى بعمارة الجسور[٢٥] ، كما أوجد الفاطميون مع خلافة الحاكم بأمر الله ٣٦٨ – ٤١١هـ / ٩٩٦ – ١١٢٠م قصبة لقياس الأرض عرفت بـ "القصبة الحاكمية"[٢٦] وظلت إلى

---

[١٩] حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٢٩٨ .

[٢٠] المقريزى ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بيروت ، جـ١ ، ص ٨٢ .

[٢١] حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٥٤٨ .

[٢٢] المقريزى ، إغاثة الأمة بكشف الغمة ، تحقيق محمد مصطفى زيادة – جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٢١ .

[٢٣] محمود اسماعيل ، سوسيولوجيا الفكر الإسلامى ، الدار البيضاء ١٩٨٠ ، جـ١/٢ ، ص ١٤٠ .

[٢٤] ابن إياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، حققه محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٧٥ ، جـ١/١ ، ص ١٩٢ .

[٢٥] ابن ميسر ، المنتقى من أخبار مصر ، حققه أيمن فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٨١ ، ص ١٦٧ .

[٢٦] القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الأنشا ، القاهرة ، جـ٣ ، ص ٤٤٢ . القصبة الحاكمية ٤٠٠ قصبة طول فى عرض ٢٠ قصبة ، انظر . المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٣ .

آخر دولتهم ؛ فضلاً عن ذلك قام الفاطميون فى عصره بمشروع كان له أهمية كبيرة ، وهو تطهير خليج الإسكندرية عام ٤٠٤هـ / ١٠١٣م[٢٧] ، بعد أن طم تقريباً ، خاصة فى قسمه الأول عند خروجه من رشيد ، وأدى ذلك التطهير إلى استفادة كثير من الترع خاصة فى البحيرة[٢٨] .

وحتى يقضى الخليفة الحاكم على المجاعات ، التى كان قصور مياه النيل أحد أسبابها ، سارع إلى استدعاء الحسن بن الهيثم ، الذى قال : "لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملاً يحصل النفع" ومن المحتمل أنه كان يريد أن يقيم سداً ينظم مياه النيل ، وقامت الدولة بتوفير الإمكانات المالية وتسيير الصناع معه فى طول الإقليم ، لكنه اعتذر عن عجزه للقيام بهذا الأمر[٢٩] ، ويشير المؤرخون[٣٠] إلى قيام الخليفة الظاهر ٤١١ - ٤٨٧هـ / ١٠٢٠ - ١٠٣٥م بحفر ترعة كبيرة خارج القاهرة وعليها ثلاثمائة قرية ، تبدأ من فم الخليج فى الفسطاط حتى تصل إلى القاهرة .

ومع عصر المستنصر ٤٢٧ - ٤٨٧هـ / ١٠٣٥ - ١٠٩٤م شهدت البلاد فى الفترة الأولى من خلافته استقراراً ، كان استمراراً للفترة السابقة ، بحيث ما سجله ناصر خسرو[٣١] ، حتى عام ٤٣٩هـ/١٠٤٧م يدل على ذلك ، ومنها : "أن النيل يتفرع منه ترع صغيرة وعليها تقع الولايات والقرى ، كما أقيمت بمصر أسواق كثيرة يصعب حصرها" وقد تبدلت حالة الرخاء بصفة عامة بعد ذلك على أثر المجاعات وفتن الجند ، لكن الأحوال تحسنت مع استدعاء بدر الجمالى عام ٤٦٦هـ/١٠٧٤م الذى قام بإطلاق الخراج للمزارعين لمدة ثلاث سنوات[٣٢] ، وكذلك العناية بالترع والجسور[٣٣] ، ومع الأفضل بن بدر الجمالى تم تنفيذ مشروعاً يخدم الرى ، وهو حفر خليج يخرج من النيل إلى الشرقية ، بسبب أن هذه المنطقة كان لا يصل إليها الماء إلا من خليج السويس أو من بعض المجارى المائية البعيدة ، مما أدى إلى أن تشرق البلاد فى أغلب أراضى

---

[٢٧] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٧١ .
[٢٨] ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٢٢٢ .
[٢٩] ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، تحقيق صالحانى ، بيروت ١٨٩٠ ، ص ٣١٦ وما بعدها .
[٣٠] ناصر خسرو ، سفر نامه ، تحقيق يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٩٣ ، ص ١٠٧ .
[٣١] ناصر خسرو ، سفر نامه ، ص ٩٧ .
[٣٢] ابن ميسر ، أخبار ، ص ٥٣ .
[٣٣] ابن ميسر ، أخبار ، ص ٨٤ .

الشرقية فى معظم السنوات[٣٤] . وقام بهذا الأمر أبو المنجا بن شعيا فى عام ٥٠٦هـ/ ١١١٣م ، الذى كان على رأس الإدارة الزراعية فى هذه المنطقة ، وقد استغرق حفر هذا الخليج ، الذى أخذ اسم "أبى المنجا" عامين وإن كان قد تكلف أموالاً طائلة ، فقد قدم خدمة جليلة للزراعة بسبب امتداد الرى لهذه المناطق فى الدلتا"[٣٥] .

كذلك يبدو حرص الأفضل الشديد على النهوض بالزراعة بإصداره أمراً على ألا تكون هناك بئراً معطلة أو أرضاً بائرة أو خرابا[٣٦] . وبسبب هذا الاهتمام تم حفر الخلجان حتى أصبحت الأراضى المصرية تشقها شبكة من الخلجان والترع وصلت فى الوجهين البحرى والقبلى إلى أعداد كبيرة[٣٧] .

كما قام الوزير المأمون البطائحى[٣٨] الذى تولى للآمر الوزارة من ٥١٥-٥١٩ هـ/١١٢٢-١١٢٥م ، بدور آخر حاول من خلاله أن ينظر فى مصالح الرعية ، فعفى عن أراضى الديوان المغتصبة من قبل بعض الملاك فى الصعيد ، حيث وصله من الوالى والمشارف[٣٩] ، أن من بيده السواقى كثيرون وأن واضعى اليد عليها لم يستطيعوا أن يثبتوا ملكيتها ؛ لأنها انتقلت إليهم عبر الزمن وكان تحصيل ما عليهم كثير ، فكتب بذلك منشوراً قرئ بالصعيد بإقرار جميع الأملاك والأرضين والسواقى بأيدى أربابها من غير انتزاع وأن يقرر الخراج عليهم ، كما تضمن المنشور أيضاً دعوة كل من يريد عمارة أرض بائرة أو إدارة مهجورة معطلة فى أن يسلم إليه ذلك ولا يؤخذ منه خراج إلا فى السنة الرابعة ، وأن يكون خراجه مؤبداً[٤٠] .

---

(٣٤) ابن المأمون ، أخبار مصر ، حققه أيمن فؤاد السيد ، القاهرة ١٩٨٣ ، ص ١١ .

(٣٥) انظر ، Mann, J., The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimid Caliphs, Oxford 1967. 1, p 215.

(٣٦) المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، حققه محمد حلمى محمد أحمد ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٤٣ .

(٣٧) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ص ٢٠٥-٢٠٦ بلغت عدد الخلجان ثمانية وعدد الترع ١١٧

(٣٨) هو أبو عبد الله محمد بن الأمير نور الدين أبى شجاع فاتك ، اتصل بخدمة الأفضل بن أمير الجيوش عام ٥٠١هـ/١١٠٧م وسلم إليه خزائن أمواله وكسوته ، ونعته بالقائد ، فلما قتل الأفضل عام ٥١٠هـ/١١١٦م قام المأمون بخدمة الخليفة الآمر واطلعه على أموال الأفضل إلى أن عين وزيراً له . انظر الخطط ، جـ١ ، ص ٤٦٢ وما بعدها .

(٣٩) المشارف : وهو يزيد على الناظر بأن يكون الحاصل من المستخرج فى مودعه وتحت حوطته ، بعد أن يكون مختوماً عليه . انظر ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٠٢ .

(٤٠) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٤ .

ويبدو أن المأمون أقدم على هذا الإجراء ليقينه بأن أملاك الديوان جميعها لا تقدم ما يجب عليها[٤١] . لذلك استطاعت السياسة الجبائية للفاطميين فى الفترات التى شهدت اهتماماً من قبل الدولة أن تجمع بين مصلحة الدولة والعدل فى الرعية[٤٢] ، حقيقة أن هذه الإجراءات التى تمت منذ خلافة المستنصر مع بدر ثم استتبعت بعد ذلك مع الأفضل والمأمون ، تدل على جهود الدولة فى العناية بشئون البلاد ، خاصة من قبل الوزراء أصحاب السيادة العليا من دون الخلفاء والتى سوف لا نسمع عن مثلها حتى نهاية العصر الفاطمى .

كذلك يذكر المؤرخون[٤٣] ، أن الفاطميين رصدوا لعمارة الجسور ثلث الخراج لما فيه مصلحة الرى والرعية ، لكن ليس هناك شك فى أن هذا الرقم مبالغ فيه[٤٤] ، حتى المقريزى نفسه استهل هذه العبارة الواردة بهذا الشأن بكلمة "وقد حكى" كما ذكروا أيضاً ، أن الدولة كانت تصرف من خزينة السلطان عشرة آلاف دينار مغربى لتجديد عمارة الجسور فى الولاية[٤٥] ، حيث كان هناك نوعين من الجسور : السلطانية التى تقوم بإنشائها الدولة لتنظيم الانتفاع بمياه النيل والجسور البلدية ، والتى يقيمها الفلاحون فى القرية أو الناحية[٤٦] . وحرص الفاطميون على عدم اضطراب المزارعين بمنع النداء على زيادة النيل أو نقصانه ، حتى لا يؤدى هذا إلى الغلاء ، ولا يسمح به إلا إذا وصل النيل إلى ستة عشر ذراعاً[٤٧] . لكن يطالعنا ناصر خسرو[٤٨] بنص يستلفت النظر فيذكر : «ما لم يصل الارتفاع إلى ثمانية عشر ذراعاً ، لا يأخذ السلطان الخراج» صحيح أنه قد زار مصر فى وقت تألق خلافة المستنصر ، وضمن كتابه تلك المشاهدات التى بهرته ، لكن يتضح أنه قد بالغ فى الوصف لهذه المشاهدات فى بعض الأحيان .

---

[٤١] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٥ .

[٤٢] محمود اسماعيل ، سوسيولوجيا ، ٢/١ ، ص ١٥١ .

[٤٣] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٦١ .

[٤٤] البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ١٠٥ .

[٤٥] ناصر خسرو ، سفر نامه ، ص ٩٨ .

[٤٦] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠١ ، اتعاظ ، جـ١ ، ص ١٣٨ .

[٤٧] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٦١ ، وكان هذا المنع مع الخليفة المعز ، عام ٣٦١هـ/ ٩٧٢م.

[٤٨] ناصر خسرو ، سفر نامه ص ٩٧ .

كما عملوا على إدخال شجرة البلسان التى أتوا ببذرتها من بلاد المغرب وزرعوها فى إحدى حدائقهم بعين شمس ، وكانوا يستخرجون منها دهن البلسان(٤٩) ، فضلاً عما قاموا به من الاهتمام بقصب السكر والتوسع فى زراعته(٥٠) . واهتموا بالإشراف على الزراعة بشكل عام من خلال الدواوين التى أنشئت فى عهدهم ، فجعلوا على الخراج وسائر وجوه الأموال موظفاً باسم «متولى الخراج»(٥١) ويرى البعض(٥٢) «أن جباية الخراج قد تطورت فى عهد الفاطميين ، حتى اشتملت على عدة دواوين ، وأكبر الظن أنها استحدثت خلال هذا العصر» ومنها ديوانين يقومان بالإشراف على جباية الخراج ، أحدهما يعرف باسم "ديوان الصعيد" والثانى "ديوان أسفل الأرض"(٥٣) ؛ بالإضافة إلى «ديوان الخاص» الذى ظهر فى خلافة الآمر ٤٩٥ - ٥٢٤هـ / ١١٠١ - ١١٣٠م . وكان يشرف أيضاً على الخراج المستخرج من الأرض(٥٤) .

لكن كان يقابل اهتمام الدولة بالزراعة بعض الفترات ، التى ساءت فيها أحوال البلاد ، بسبب التعرض للمجاعات أو الإهمال لسوء تدبير الوزراء العظام فى أخريات عهد الدولة .

وحسبنا أن نشير إلى قيمة الخراج ، الذى جبته الدولة لنقف على حقيقة الأمر من خلال ما ذكره المؤرخون(٥٥) . والذى وصل أقصاه إلى أربعة ملايين ديناراً فى أيام يعقوب بن كلس ، الذى تشدد فى الجباية ، كما بلغ أدناه إلى ٦٠٠،٠٠٠ دينار أثناء المجاعات خلال خلافة المستنصر ، بينما كان فى وزارة بدر الجمالى أكثر من ثلاثة ملايين ديناراً ، وهذا أمر طبيعى ، بسبب الإصلاحات الاقتصادية التى قام بها ، لكن

---

(٤٩) ناصر خسرو ، سفر نامه ، نفس المصدر ، ص ص ١١٣ - ١١٤ .

(٥٠) المخزومى ، المنتقى من كتاب المنهاج فى علم خراج مصر ، تحقيق كلود كاهن ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ٥ .

(٥١) ابن ميسر ، أخبار ، ص ٤٥ ، ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، القاهرة ١٩٧٣ ، جـ١ ، ص ٢٢ .

(٥٢) ماجد ، نظم الفاطميين ، جـ١ ، ص ٢٢ .

(٥٣) القلقشندى ، صبح ، جـ٣ ، ص ٤٩١ .

(٥٤) ابن ميسر ، أخبار ، ص ٧٩ .

(٥٥) ابن ميسر ، أخبار ، ص ٥٩ : المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٠ ، وإذا وفى النيل ستة عشر ذراعاً ، فقد وجب الخراج ، وإذا زاد عن ذلك ذراعاً ، زاد فى الخراج ماية ألف دينار ، فإن نقص ذراعاً ، نقص الخراج ماية ألف دينار .

مع وزارة الأفضل ارتفع إلى خمسة ملايين ، وهذا المبلغ كان شاملاً المكوس ، مع الأخذ فى الاعتبار أن الأفضل كان أحد الوزراء الذين اهتموا بشئون البلاد ، وساعد حفر خليج أبى المنجا على زيادة الخراج ولم يكن المأمون البطائحى أيضاً أقل اهتماماً من الأفضل ، لا سيما أنه كان بمثابة ساعد الأفضل الأيمن(٥٦) . وجاء الخراج فى عهده أقل وهذا يرجع إلى أن المأمون سامح الناس فيما عليهم من بقايا(٥٧) ، لكن بعده إلى نهاية الدولة ، كان لابد أن يحدث انخفاضاً ملحوظاً فى الخراج بسبب الظروف التى ألمت بالبلاد من تصارع الوزراء وتقلص ممتلكات الخلافة .

أما فيما يخص الأرض ، فإن هذا الموضوع يعد من الأمور الملغزة فى تاريخ مصر الإسلامية ، لذلك فتناول أشكال ملكيتها أو حيازة الدولة لها وكذلك وجود الإقطاع لا يكون بالأمر السهل ، خاصة وأن هناك أشكالاً مختلفة للإقطاع من إقطاع تمليك وإقطاع استغلال فضلاً عن الارتفاع ، فكانت هناك قبالة الأراضى والمزارعة والملكية الخاصة ، مما لا تعطى صورة واضحة ومحددة ، كما أنها تطرح كثيراً من التساؤلات بشأن خصوصية كل فترة ، ومدى امتلاك الدولة للأرض ، وتواجد الملكية الخاصة .

ومعلوماً أن الدولة الفاطمية ظهرت على المسرح السياسى ، خلال فترة اتسمت بشكل عام بوجود تحولات على كافة الأصعدة فى العالم الإسلامى ومنها الاقتصادية ، فوقفنا معها على أعتاب فترة جديدة ، حملت فى طياتها بعض سمات الفترة السابقة فى ذات الوقت ، وبخصوص الإقطاع الذى قامت هذه الدولة فى ظله ، والذى كان منتشراً فى العصر الإخشيدي(٥٨) ، فحسبنا على ذلك المصادرات فى أواخر هذا العصر ، لذا لم يستأصل الإقطاع دفعة واحدة ، إنما راعت الدولة فيه المرحلية(٥٩) .

ولأن الفاطميين ورثوا أملاك الإخشيديين ، وصادروا الإقطاعات القديمة التى كانت فى الغالب إقطاعات تمليك ، ونظرياً كان الإمام يملك الأرض فى منطقة

---

(٥٦) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٣ .

(٥٧) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٣ .

(٥٨) ملك أبو بكر المارذانى الذى وزر للأخشيد عام ٣٢٨/٩٤٠م ، ضياعاً بلغ دخلها أربعمائة ألف دينار فى كل سنة ، وتعرض لمصادرة الأخشيد هو وغيره من أسرة الماذرائيين وكذلك كبار رجال الدولة . انظر: سيدة كاشف ، مصر فى عهد الأخشيديين، القاهرة ١٩٨٩ ، ص ص ١٦٠ ، ٢٤٤

(٥٩) محمود اسماعيل ، سوسيولوجيا ، ٢/١ ، ص ١٤٢ .

نفوذه[٦٠] . وعلى ذلك قام الفاطميون باقطاع المغاربة ، الذين أتوا معهم الاقطاعات[٦١] ، كما منح الخليفة العزيز ٣٦٥ - ٣٨٦هـ / ٩٧٥ - ٩٩٦م ، الوزير يعقوب بن كلس الاقطاعات فى الشام ومصر بلغت ثمانى آلاف ديناراً سنوياً[٦٢] ، كما قام برجوان أثناء وصايته على الخليفة الحاكم بإقطاع قاضى القضاة مالك بن سعيد الفارقى مبلغه خمسة عشر ألف ديناراً فى السنة[٦٣]، وغيره من رجال العلم[٦٤] .

وكانت الأسرة الحاكمة نفسها تملك كثيراً من الاقطاعات ، فاقطعت ست الملك ارتفاع لبعض ضياع الصعيد والوجه البحرى[٦٥] . وفى إطار سياسة الحاكم التى هدفت فى البداية إلى الإصلاح وهب وأقطع الضياع والأعمال والعقارات والأملاك السلطانية[٦٦] ، لكن بعد وفاته قبضت أخته على جميع هذه الأقطاعات[٦٧]. وعلى ذلك استمرت الدولة فى منح هذه الاقطاعات ، فمنح الخليفة الظاهر إقطاعات لشمس الملك مسعود بن طاهر الوزان رئيس ديوان الكتاميين عام ٤١٥هـ / ١٠٢٤م[٦٨] .

ومما سبق يتضح أنه كان هناك إقطاعاً خلال العصر الفاطمى الأول وكان يمنح لكبار رجال الدولة من الوزراء ورؤساء الدواوين بدلاً من الرواتب[٦٩] ، كما أن ما يمنحه الخليفة هو نعمة ، وله حق الملكية والمنح[٧٠] ، كما كان هذا الإقطاع ، إقطاع

---

(٦٠) انظر Shaban, Islamic History, p. 200.

(٦١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، حققه إحسان عباس ، بيروت ، جـ١ ، ص ص ٣٧٧-٣٧٨ ؛ نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص ١٧٣ .

(٦٢) ابن ظافر ، أخبار الدول المنتطعة ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ١٠٩ ، ويختلف معه المقريزى فى مبلغ هذا الاقطاع ويجعله ثلاثمائة ألف دينار ، انظر ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٦ .

(٦٣) المقريزى ، اتعاظ ، جـ٢ ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ١٠٧ .

(٦٤) ابن حجر ، رفع الأصد عن قضاة مصر .

(٦٥)المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ٣٣ . اقطعت سيدة الملك اقطاعاً مبلغه مائة ألف دينار منها ضياع فى الصعيد وأسفل الأرض ثمانية وستون ألفاً وأربعمائة وخمسون ديناراً منها بوتيج ستة آلاف وسبعمائة وخمسون ديناراً وصهرشت سبعة عشر ألف ديناراً .

(٦٦)المقريزى ، اتعاظ ، ص ص ٧٤ ، ٩٢ ، ١٠٢ .

(٦٧)يحيى بن سعيد ، تاريخ أو صلة تاريخ أوتيخا ، بيروت ١٩٠٨ ، ص ٢٢٧ .

(٦٨)المسبحى ، أخبار مصر فى سنتين ، تحقيق وليم ج ميلورد ، القاهرة ١٩٨٠ ، ص ٥٠ .

(٦٩)انظر : Hassanein Rabie, The Financial System of Egypt A.H. 564-741 A.D. 1169-1341, London 1972, p. 26.

(٧٠)وأنفذ شمس الملك إلى الحضرة يسأل فى تسليم إقطاعه ، فقيل له : هذه نعمة أمير المؤمنين عليك وعلى أمثالك ليس تنزع منهم ، انظر . المسبحى ، أخبار ، ص ٥٠

ارتفاع[٧١] ، وهو ما يستفيد به المقطع من خراج بعض النواحى مقابل دفع العشر إلى الخزانة ، وبذلك يعد الإقطاع خلال هذه الفترة إقطاعا مهمشاً .

ولابد أن وضع الاقطاعات خلال عصر المستنصر ووصول وزراء السيف إلى السلطة بداية من بدر الجمالى ، الذى يعد فاتحة للوزراء المستبدين قد تغير ، وذلك من حيث اتساع هذه الاقطاعات ونوعيتها أى انتقالها إلى شكل آخر من أشكال الإقطاع وهو "اقطاع التمليك"[٧٢] وهذا يتضح مما قام به بدر الجمالى من حبس بعض الأراضى على عقبه ، حيث كان هذا الحبس يشتمل على مناطق واسعة فى بهتين والأميرية والمنية ، وكان أيضاً ناحية الجيزة فى سفط ووسيم[٧٣] ، فهى إذ لم تكن إقطاعاً له ويملكه ، فكيف يكون له الحق فى توريثه لذريته ؟ كما أقطع أبو على بن الأفضل شاهنشاه الطائفة الحجرية إقطاعات بسبب وقوفها بجانبه للوصول إلى الوزارة عام ٥٢٤هـ-١١٣٠م[٧٤] . أما بهرام فقد اقطع أخيه المعروف بالباساك ولاية قوص وولاه عليها ، وكانت تعتبر من أعظم ولايات مصر أنئذ[٧٥] . ويبدو أنه أقطع الجند الأرمن بعض نواحى الصعيد ، حتى أنه بعد هزيمته أمام رضوان بن ولخشى عام ٥٣٣هـ/ ١١٣٩م ، خير هؤلاء الجند فى البقاء كفلاحين فى هذه الأراضى أو العودة إلى بلادهم[٧٦] . كما وردت كلمة الضياع فى المصادر[٧٧] خلال هذه الفترة لتدل على شيوعها . ففى العصر الفاطمى الثانى أصبح كبار رجال الدولة يحصلون على الاقطاعات إلى جانب الرواتب[٧٨] .

---

(٧١) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ١٩٤ .

(٧٢) واقطاع التمليك إما موات وأما عامر وأما معدن ، والموت ما كان كذلك على مر الزمان أو كان عامراً فخرب وصار مواتاً عاطلة ، وأما العامر ، فالذى لم يتعين مالكوه ، فإن كان الإمام اصطفاه لبيت المال من الفتوح بحق الخمس أو برضاء الفاتحين ، لم يجز اقطاع رقبته وصارحكم الوقف وللسلطان استغلاله لبيت المال أو اختيار من يقوم بعمارة رقبته . انظر . الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ١٩٠ وما بعدها .

(٧٣) المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ١٢٩ .

(٧٤) المقريزى ، المقفى الكبير ، القاهرة ١٩٩١ ، جـ١ ، ص ٣٩٦ .

(٧٥) المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ١٦٥ .

(٧٦) المقريزى ، المقفى ، جـ٢ ، ص ٥١٥ ؛ نفسه ، ص ص ١٦١-١٦٢ . وأفرد للجند الأرض جهات منها سملوط وأثلوسنا وإيوان والبرجين فى صعيد مصر وضيعة أخرى بالمحلة .

(٧٧) المسبحى ، أخبار ، ص ص ١٧٦ - ٢٢٥ .

(٧٨) القلقشندى ، صبح ، جـ٣ ، ص ٥٢١ .

وتطالعنا المصادر[٧٩] ، بأن الفاطميين اتبعوا نظام قبالة الأرض ، الذى كان سائداً فى مصر قبل مجيئهم ، باعتبار أن الأرض ملكاً للدولة ، فتقوم بتأجيرها إلى كبار المزراعين بوصفهم متقبلين يقومون بدفع ما عليها من ضرائب مقابل استغلالها ، من خلال المزايدة وحصول المتقبلين للنواحى على خراجها مقابل إصلاح جسورها وعمارتها وسد ترعها ، ثم دفع حصة الدولة من خراجها على أقساط بعد خصم تكاليف المرافق السابقة . وكانت مدة القبالة فى أول الأمر أربع سنوات مراعاة لظروف الأرض ومياه النيل ، أو ما عبر عنه بالظمأ والأستبحار[٨٠] ، حتى يعوض المتقبل النقص فى حالة المحصول السيئ ، معنى ذلك أن الفلاحين قاموا بزراعة الأرض مقابل ما يدفعون من خراج للدولة ، ويعتبر البعض[٨١] : "أنه بذلك لم يوجد فى مصر سوى مستأجرين من الدولة وليس فيها أرض خراج بالمعنى الصحيح ، لأن الخراج الذى يؤديه الفلاحون آنئذ ما هو إلا أجرة حكرية ، التزم بها المزارعون تجاه الحكومة" ونظام القبالة على ذلك يؤكد فى حد ذاته أيلولة غالبية أرض مصر للدولة ، التى أصبحت حرة فى توزيعها كيفما تشاء .

كذلك بخصوص القبالة ، التى حددت بأربع سنوات ، فهى فى الواقع لا تزيد عن نظام الالتزام ، كما يعبر عنه البعض[٨٢] بأنه إقطاع استغلال ، فالمقطع يدفع مبلغاً من المال يذكر فى الأمر الصادر بإقطاعه عن جهة ما ، وهذا المبلغ يقل بطبيعة الحال عما يجبيه المقطع من أهل الناحية والفارق بينهما هو الفائدة التى تعود على المتقبل .

بدأ نظام القبالة مع خلافة المعز استمراراً لما كان موجوداً فى مصر الإسلامية ، فقد عهد الخليفة به إلى يعقوب ابن كلس وعسلوج بن الحسن عام ٣٦٣هـ/ ٩٧٤م ، وجلسا فى جامع ابن طولون ، ولم يقوما فقط بالمزايدة على الضياع وتوزيعها على المتقبلين ، بل طالبا بالبقايا[٨٣] . ومن الواضح أن هذا الأمر كان متاحاً لجميع الناس فى القرى والمدن ممن يستطيعون القيام به ، ومع عصر المستنصر ، الذى اتسم

---

[٧٩] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٢ .

[٨٠] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٢ .

[٨١] كلود كاهن ، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ، نقله إلى العربية بدر الدين القاسم ، بيروت ١٩٨٣ ، ص ١٢٣ .

[٨٢] البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ٥٨ .

[٨٣] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٢ .

بوقوع الأزمات الاقتصادية وزيادة سطوة الجند ، كنتيجة للصراع بينهم ، الذى فسره البعض[٨٤] أنه بسبب احتياز الأرض ، والأمر لم يقف عند هذا الحد ، بل تعداه إلى مصادرة الخليفة نفسه ، ثم تقاسموا الأعمال ، وكانوا ينتقلون فيها بحكم من تغلب عليها على حد قول المقريزى[٨٥] . ولما طالب الأتراك الوزير ابن كدينه عام ٤٦٠هـ/١٠٦٧ م بالأموال ، قال : "وأى مال بقى الريف فى يد فلان والصعيد فى يد فلان"[٨٦] . وهذا يؤكد عجز الدولة عن دفع الرواتب والأعطيات ، فجاء اغتصاب الجند للأراضى أمراً واقعاً ، مما مهد الطريق لسطوة العسكر الأرمنى ، خاصة بعد تولى بدر الجمالى واستبداده بالسلطة[٨٧] .

وكان طبيعياً أن تستشرى هذه الظاهرة ، حتى إذا وصلنا إلى بداية القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى، وجدنا غالبية الأرض فى يد القادة والجند ، وبسبب تسلط قادة الجند ، بدأت شكوى الجند مع وزارة الأفضل من قلة ارتفاع اقطاعاتهم فى الوقت الذى تضاعفت فيه اقطاعات الأمراء وازدادت عن غيرها[٨٨] . ويبدو أن الأمراء وكبار المقطعين انتهزوا فرصة الاضطراب أيام المستنصر فزادوا اقطاعاتهم ، ثم أخذوا فيما بعد يجيرون على ما فى أيدى صغار المقطعين ، ويحتمل أنهم ارغموهم على التماس الحماية مقابل رسم مقرر ، ولهذا ازدادت اقطاعاتهم[٨٩] .

ولذلك أمر الأفضل بحل الاقطاعات جميعها وروكها أى مسحها ثم إعادة توزيعها من جديد ، وكان هذا الإجراء الفورى من قبل الدولة ، بقدر ما يحقق انصافاً للجند ، فكان لابد أن يعود بفائدة مالية على الدولة ، بسبب وجود بقايا لأموال الديوان لدى المقطعين ، الذين كانوا لا يدفعون للدولة كل ما عليهم . وأعيد توزيع الأرض من جديد بالمزايدة ويتضح أن المقطعين الجدد كانوا من الأقوياء ، الذين هم فى الغالب أما قادة الجند أو كبار رجال الدولة من العاملين بالدواوين ، فضلاً عن الأجناد ، فلم يكن

---

[٨٤] محمود اسماعيل ، سوسيولوجيا ، ١/٢ ، ص ٢٣٩

[٨٥] المقريزى ، اغاثة ، ص ص ٢٢ - ٢٣ .

[٨٦] المقريزى ، اتعاظ ، جـ٢ ، ص ٢٧٥ .

[٨٧] محمود اسماعيل ، سوسيولوجيا ، ١/٢ ، ص ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

[٨٨] النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢ ، ص ٢٧٦ ؛ المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٣ .

[٨٩] البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ٦٠ .

من السهل على عامة المصريين الاشتراك فى المزايدات ، التى كانت تعقد بشأنها[٩٠] ، وهذا لا يرجع فقط بسبب سوء الأحوال الاقتصادية ، لكن أيضاً بسبب تطاول العسكر وتصدرهم السلم الاجتماعى آنئذ .

كما زادت فترة القبالة إلى ثلاثين عاماً ، وهذا معناه أنها تحولت إلى الإقطاع ، لكنه مع ذلك لا يتشابه مع ما ستشهده البلاد فيما بعد ، فعلى الرغم من إطالة الفترة ووقوع الأرض فى أيدى الأجناد فإنه لا يشترط فى حيازة الأرض أى التزام بالخدمة العسكرية ، لكنه ملزم بأداء العشر الواجب على كل مسلم ، كما كان المالك يخضع لإشراف الدولة[٩١] ، وبعد هذه الفترة يحق للدولة نقله إلى غيره ، ويصبح المحصول من نصيب المقطع الجديد ، ويرد الأرض المقطعة ، فلا ينقل شيئاً من المنشآت المقامة فيها ، ولا يتصرف فى التبن المودع بمخازنها[٩٢] ، كما كان هناك جمعاً بين الرواتب والإقطاع ممثلاً فى الأسطول ، فكان من يعمل به يصل راتبه إلى عشرين أو خمسة عشرة ديناراً وكان له اقطاعا يعرف «بأبواب الغزاة»[٩٣] . ومع ذلك فهذا التحول قد مهد لنظام الاقطاعات الحربية الذى أدخله الأيوبيين[٩٤] ، أو بمعنى آخر كانت هذه الفترة السابقة إرهاصا لسيادة الإقطاع فى العصر الأيوبى[٩٥] .

ويتضح من العرض السابق أن الاقطاعات كانت قليلة فى بداية الدولة ، كما كانت بمثابة تعويضاً من الدولة عن الرواتب ، لكنها تزايدت فى أواخر حكمهم وأخذت أشكالاً أكثر ثباتاً أسلمت البلاد فيما بعد إلى الإقطاع العسكرى .

كما كانت الدولة تؤجر الأراضى التابعة لبيت المال للفلاحين ، ويدفعون عنها إيجارا محدوداً أو يزرعوها وفق نظام المزارعة أو المقاسمة فى المحصول[٩٦] ، فضلاً

---

(٩٠) البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ٦١ .
(٩١) كاهن ، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ، ص ١٢٤ .
(٩٢) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٦٧ .
(٩٣) المقريزى ، اتعاظ ، جـ٢ ، ص ١٩٣ .
(٩٤) البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ٦١ .
(٩٥) عبد العزيز الدورى ، تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى ، بيروت ١٩٧٤ ، ص ١٠٢ .
(٩٦) البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ٥٣ .

عن ذلك ، كان للخلفاء أملاكاً واسعة مثل الخليفة المستنصر ، الذى كان له ثلاثمائة قرية فى ساحل الخليج[٩٧] . وكان من ممتلكات الخليفة الآمر قرية من قرى قليوب تعد متنزهاً له ، عرفت باسم «قصر الورد»[٩٨] ، فضلاً عما حازه الوزراء من ممتلكات مثل ما حبسه أمير الجيوش أو ما تركه ابن رزيك من أملاك موقوفة[٩٩] .

وارتباطاً بما سبق لنا أن نتساءل ، هل كانت هناك ملكية خاصة للمصريين بعيداً عما ملكه القطاع الحاكم ؟ يذكر المقدسى[١٠٠] : "ليس فى مصر خراج ، ولكن يعمد الفلاح إلى الأرض يأخذها من السلطان ويزرعها ، فإذا حصدت .. يخرج الخازن وأمين السلطان فيقطعون كرى الأرض ويعطيا ما بقى للفلاح ، وفيهم من يأخذ من السلطان تقوية ، فيرد علته فى كرى الأرض بمقدار ما أقطعه ، فلا يكون لأحد ملك وضيعة ، قال : اللهم أن يكون رجل قد اشترى ممن أقطعه السلطان فى القديم ووهبها ، فاحتاج هو وذريته إلى ثمنها ، فباعها لعامة الناس» .

فهذا النص فضلاً عن أنه يجمل ما اسلفناه ، فهو يؤكد على أن الملكية الخاصة تكاد أن تنعدم من خلال احتياز الدولة للأرض ، وتوجد فى نطاق ضيق ، ولا تأتى إلا عن طريق إقطاع الأرض ولا سيما التمليك ، فتنتقل بالبيع لعامة الناس . ومن المعلوم أن المقدسى زار مصر خلال القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، وأن كانت هذه المعلومات لم يستقها من مصر نفسها ، بل سأل أحد المصريين ببخارى عن حال الأرض فى مصر ، فكان ما أوردناه . والبعض[١٠١] فند هذا الرأى وأكد على وجود الملكية الخاصة ، لكنه قد استند فى ذلك على نصوص ترجع إلى ما بعد زيارة المقدسى لمصر وحتى آخر عصر الفاطميين ، فالنص الذى أمامنا يبين حال الأرض فى بداية عصرهم وكانت الدولة لا تزال مالكة للأرض ، وهى التى تمارس توزيعها أما بالقبالة أو بالمزارعة مع وجود الملكية الخاصة فى نطاق ضيق .

---

[٩٧] ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ١٠٧ .

[٩٨] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٤٨٨ .

[٩٩] المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٩٤ .

[١٠٠] أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٩١ ، ص ٢١٢ .

[١٠١] البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ص ٥٣ – ٥٦ .

لكنها ازدادت بمضى الزمن ، حتى كان الوقف معبراً عنها ، لأنه لا يمكن أن يمنح شخص حق الاستفادة فى أرض ليس له فيها سوى حق الانتفاع ، ولا معنى إنه يوقف إيرادها ، لأنه بذلك يسلب المالك الأصلى حق الاستفادة من ملكه[١٠٢] . ومن خلال أحد عقود الوقف الذى يرجع إلى عام ٤٠٢هـ/١٠١٢م[١٠٣] نتبين ذلك ، كما أورد المقريزى[١٠٤] خلال وزارة الأفضل : «قد طالع المجلس الأفضلى بحال أرباب الأملاك هناك وأنهم قد استضافوا إلى أماكنهم من أملاك الدواوين أراضى اغتصبوها ومواضع مجاورة لأملاكهم تعدوا عليها وخلطوها وحازوها» ويبدو أن هؤلاء استفادوا من فترات الاضطرابات السابقة واغتصبوا أراضى الدولة مع بقاء الملكيات الخاصة .

كذلك عندما أراد الأفضل أن يحل الاقطاعات ، أخذ كل من الأقوياء والمميزين يتضررون ويذكرون أن لهم بساتيناً وأملاكاً ومعاصر فى نواحيهم ، فقال : "من كان له ملك فهو باق عليه لا يدخل فى الأقطاع وهو محكم إن شاء باعه وإن شاء أجره» فهذا النص تقرير صريح عن وجود الملكية الخاصة واعترافاً من الدولة بحق وحرية صاحبها فى التصرف فيها ، لكن هؤلاء أو أولئك قد ظهروا فى أخريات العصر الفاطمى ، حتى سمحت لهم الظروف بالظهور بهذه الكيفية ، كما وصف الآخرين بأنهم من الأقوياء أو المميزين ، فيبدو أنهم كانوا من قادة الجند أو أمراء النواحى ، الذين ظهروا فى أخريات عهد الدولة ، وكان لهم شأناً فيها ، وهذا معناه أن المالكين للأرض كانوا يرتبطون بشكل أو بآخر بالدولة ، أو من المحتمل أنهم كانوا بقايا فلول جند السودان ، الذين أجبروا على التقهقر إلى الصعيد أبان فتن الجند .

خلاصة القول ، أن الملكية الخاصة قد وجدت فى بداية عهد الفاطميين فى نطاق ضيق ، لكنها ازدادت بمضى الوقت ، ولم يقف الأمر عند حد الامتلاك ، بل تعداه إلى اغتصاب الأرض ، كما أن المالكين لم يكونوا من عامة المصريين ، وأن كان ذلك ربما يرجع إلى الافتقار إلى نصوص متعلقة بهذا الشأن .

---

(١٠٢) البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ٥٥

(١٠٣) انظر : Répertoire chronologique d'épigraphie arabe, Le Caire Tome VI. No. 2148.

(١٠٤) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٥

وقد تضمن الأمان ، الذى أعطاه جوهر للمصريين أيضاً : «اسقاط الرسوم الجائرة» وهذا يشير إلى وجود بعض التجاوزات لسياسة الإخشيديين المالية ، والتى عانى منها المصريون[١٠٥] ، فإلى أى حد استطاع الفاطميون أن يؤكدوا فعالية هذا التصريح خلال حكمهم لمصر ؟

تطالعنا المصادر[١٠٦] بأنه مع الفتح الإسلامى لمصر فرضت ضرائب على الصناع والأجراء ، لكنها كانت تقسم عليهم فى كل قرية بقدر احتمالهم ، وفى نهاية عصر الولاة ، فرض أحمد بن المدبر عامل الخراج ضرائباً عرفت باسم «الهلالى»[١٠٧] منها ما فرض على الكلأ وعرف بـ «المراعى» أو ما يخرج من البحر وعرف بـ «المصايد» وعلى الرغم من أن هذه الضريبة فرضت على نطاق ضيق ، فإنها أثقلت كاهل الرعية ، ولذلك عمل أحمد بن طولون عندما ولى مصر على إسقاطها[١٠٨] رغبة منه فى التقرب إلى المصريين .

وعلى الرغم من التجاوزات المالية ، التى أشار إليها المؤرخون خلال العصر الإخشيدي ، فإنها فى الغالب ارتبطت أولاً بشخص الإخشيد ، الذى قام بمصادرة كبار موظفى الدولة أو ممن كانت لهم معاملات معها وأصابوا منها مالاً كثيراً ؛ فضلاً عن استيلائه على جزء من تركة كبار التجار والموظفين وثانياً جعفر بن الفرات ، الذى تولى الوزارة فى نهاية عصر الإخشيديين وقام بمصادرة الكثيرين من وجوه القوم[١٠٩] ، منهم يعقوب بن كلس ، الذى هرب إلى المعز يحرضه على المجئ إلى مصر ، فضلاً عن البراطيل[١١٠] التى عرفت آنذاك .

---

[١٠٥] اشتد الغلاء فى مصر من عام ٣٥٢هـ/٩٦٣م واستمر تسع سنوات متتابعة ، وكان سببه الرئيسى يرجع إلى النقص فى فيضان النيل مما أدى إلى اختفاء القمح واضطراب الأحوال وكثرة الفتن ونهب الضياع ، ثم مات كافور ، فكثر الاضطراب وتعددت الفتن ، سيدة كاشف ، مصر فى عهد الأخشيديين ، ص ٣٤٦ .

[١٠٦] ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، القاهرة ١٩٩٥ ، ص ١٧٩ .

[١٠٧] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٣ .

[١٠٨] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٤ .

[١٠٩] سيدة كاشف ، مصر فى عهد الإخشيديين ، ص ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

[١١٠] المقريزى ، اتعاظ ، جـ١ ، ص ١١٧ .

ومع الفاطميين بعد أن استقر الأمر لجوهر ، طاف صاحب الشرطة السفلى[١١١] ، يصحبه رسول جوهر وأمنا الناس وأعلنا عدم مطالبتهم بأية كلفة أو مؤنة[١١٢] ، كما قام جوهر فى نفس العام ، الذى دخل فيه مصر بإسقاط البراطيل[١١٣] . وبعد مجئ المعز إلى مصر ، أمر يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن ، بوضع نظاماً جديداً للضرائب ، جمعت أقسامه فى مكان واحد . كما كان من بين الأعمال التى تقلدها الأثنان السواحل والأعشار[١١٤] ، وفى خلافة العزيز أقر الوزير عيسى بن نسطورس ضرائباً ومكوساً زائدة[١١٥] . وهذا يبين أن الضرائب التى فرضها الفاطميون كانت منذ بدء خلافتهم وأنها عرفت باسم "المكوس" مما حدا بالبعض[١١٦] أن يذكر أن الفاطميين وضعوا المكوس على الناس ، وأنهم أحدثوا شيئاً لم يكن على الأقل موجوداً فى العصر السابق عليهم .

وإن كانت هناك إشارات بأن العرب ، كانوا يفرضون ضرائب على التجارة ، وكانت تعرف هذه الضرائب بالمكوس ، استمراراً لما كان معروفاً أيام البيزنطيين[١١٧] ، وكذلك أن ربيعة بن شرحبيل كان والياً لعمرو على المكوس ، واستمرت هذه الوظيفة بحيث ورد اسم زريق بن حيان فى خلافة عمر بن عبد العزيز[١١٨] ، وليس هناك شك فى وجود هذه الضرائب وهذه الوظيفة ، لكن الخلاف حول المسمى ، فمن المعلوم أن المقس أنشأ فى القاهرة ، فعند مجئ المعز ، رأى أن المدينة الجديدة لا ساحل لها فلم يعجبه ، وقال يا جوهر : «فاتك عمارتها ههنا ، يريد

---

(١١١) لما أنشئت العسكر على يد أول الولاة العباسيين فى مصر أنشئت فيها شرطة جديدة سميت بـ "الشرطة العليا" تميزاً لها عنا الشرطة السفلى فى الفسطاط وترجع هذه التسمية إلى الموقع وحدود الاختصاص ، وكان صاحب الشرطة السفلى عظم شأناً من زمينه بوصفه صاحب القسم الرئيسى . انظر سيدة كاشف ، مصر فى عهد الإخشيديين ، ص ص ١٧٢ - ١٧٣.

(١١٢) المقريزى ، اتعاظ ، جـ١ ، ص ١١٠ .

(١١٣) المقريزى ، اتعاظ ، جـ١ ، ص ١١٧ .

(١١٤) ابن ميسر ، أخبار ، ص ١٦٣ .

(١١٥) يحيى بن سعيد ، تاريخ ، ص ١٨٠ .

(١١٦) أبو شامة ، الروضتين فى أخبار الدولتين ، تحقيق محمد حلمى محمد أحمد ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، جـ١ ، ص ٢١ .

(١١٧) سيدة كاشف ، مصر فى فجر الإسلام ، بيروت ١٩٨٦ ، ص ٦٢ .

(١١٨) المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ١٢٣

المقس»[١١٩] ثم حرفت بعد ذلك إلى كلمة المكس ، حيث كان الماكس يجلس ليستخرج المكس[١٢٠] . فمن المرجح أن هذه الكلمة «مكوس» قد عرفت مع الفاطميين ، ولأن ما كان يجبى من ضرائب منذ الفتح لم يكن سوى عشور التجارة التى حددت للمسلمين بربع العشر ومن أهل الذمة بنصف العشر ومن أهل الحرب بالعشر[١٢١] ، فضلاً عن ضرائب التجارة الداخلية التى كانت تفرض داخل البلاد[١٢٢] . وكذلك لأن الكلمة كانت تفيد الضرائب ، وبذلك انسحبت على الفترات السابقة على الفاطميين .

والمكوس[١٢٣] ، ضرائب تفرض على كل نشاط حرفى يمارس فى مصر الفاطمية ، فإذا كان الخراج ضريبة تفرض على الأرض ويدفعها القطاع الفلاحى ، فالمكوس تفرض على الصناعة والتجارة ويدفعها الصناع والتجار ، وتختلف المكوس عن الخراج أيضاً فى وقت جبايتها ، فبينما الخراج يجبى حسب السنة الشمسية[١٢٤] ، كانت المكوس تجبى حسب الشهور الهلالية[١٢٥] ، ولذلك عرفت أيضاً باسم الهلالى والمرافق والمعاون . وقد استمرت هذه الأسماء فى بعض الأحيان مع الفاطميين[١٢٦] . وقد أصبحت المكوس تفرض على نطاق واسع ولم تترك شاردة ولا واردة إلا وفرضت عليها الدولة رسوماً وضرائب . وقد ذهب البعض[١٢٧] ، إلى إنها ضريبة تفرض على الانتاج .

وفيما يخص الضرائب المقررة على الصناعة ، فكانت كثيرة ، منها ما يفرض على صناعة الفاخور والنبيذ ومعاصر الزيت والخل[١٢٨] ، فمثلاً كان يفرض على زق

---

(١١٩) المقريزى ، اتعاظ ، جـ١ ، ص ١١٢ .

(١٢٠) القلقشندى ، صبح ، جـ٣ ، ص ٣٥٧ ؛ المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ١٢١ .

(١٢١) أبو يوسف ، الخراج ، القاهرة ، ١٣٩٧هـ ، ١٢٣ .

(١٢٢) سيدة كاشف ، مصر فى فجر الإسلام ، ص ٦٣ .

(١٢٣) انظر : Dozy, Supplément aux dictionnaire arabe, 1927, 11, p. 606.

(١٢٤) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٢٧٥ .

(١٢٥) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٢٧٦ .

(١٢٦) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ص ١٠٤ ، ١٠٧ .

(١٢٧) ماجد ، نظم الفاطميين ، جـ١ ، ص ١١٧ .

(١٢٨) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ص ١٠٤ – ١٠٥ .

الزيت ديناراً[١٢٩] ، بالاضافة إلى ما يفرض على مطابخ السكر ودار الجبن وبيوت الغزل ، فكانت الضريبة المقررة على صناعة الحرير فى الفسطاط ٣٣٤ دينار[١٣٠] ، وبالمصادقة ، هناك وثيقة ترجع إلى عام ٥٤٢هـ/١١٤٧م[١٣١] من المحلة تعطى نفس القيمة ، ومن وثيقة أخرى[١٣٢] ، تتوافق الضرائب الخاصة بصناعة الحرير تبعاً لمراحلها المختلفة ، والتى يتم مباشرتها من قبل الصناع والحرفيين المشار إليهم عند المقدسى[١٣٣] ، حيث الرسوم ، التى كانت تحصل فى تنيس ودمياط ، مقابل حمل المنسوجات وشدها وحزمها ، بالإضافة إلى ما كان يفرض من ضرائب على صباغة الحرير[١٣٤] ، بل تعدت الضرائب إلى حضانات الفراريج[١٣٥] كسائر الحرف والصناعات ، وكذلك استمرت الضريبة المقررة على المصايد[١٣٦] وغيرها مما ذكره المؤرخون وكان يوجد فى كل سوق من الأسواق على أرباب كل صنعة من الصنائع عريف يتولى أمرهم[١٣٧] .

وفيما يخص النشاط التجارى ، فقد فرضت الدولة كثيراً من الضرائب سواء على التجارة الخارجية أو الداخلية ، لا سيما أن التجارة شهدت تقدماً ملحوظاً مع قيام الدولة الفاطمية ، كما لعبت مصر دور الوسيط التجارى بين الشرق والغرب ، وعلى الصعيد الداخلى ، تأثرت التجارة فى مدن مصر بهذا النشاط فضلاً عن التقاليد الاجتماعية التى أرستها طبيعة الحكم الفاطمى من ميل إلى الترف وحب المظاهر ، فشهدت الأسواق الداخلية لذلك حركة دائبة .

---

(١٢٩) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٢١٣ ، والزق ، كل وعاء أتخذ للشراب ونحوه ، انظر ، ابن منظور ، لسان العرب ، بيروت ١٩٨٨ ، جـ٦ ، ص ٦٠ .

(١٣٠) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٥ .

(١٣١) Goitein. S.D., A Mediterranean Society, Economic Foundations, Los Angeles, 1967, 1, p. 116.

(١٣٢) انظر : Goitein, Med Soc., 1, p. 116.

(١٣٣) أحسن التقاسيم ، ص ٢١٣ .

(١٣٤) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٥ .

(١٣٥) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٧ .

(١٣٦) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٣٢ .

(١٣٧) المقريزى ، إغاثة ، ص ١٨ .

أما التجارة الخارجية ، أو ما يقصد بها الصادر والوارد فى موانى ومدن مصر المختلفة مثل الإسكندرية وتنيس ودمياط ورشيد وعيذاب[١٣٨] وغيرها . فكانت الضرائب تستأدى من الروم فى الإسكندرية والفسطاط واخميم[١٣٩] ، أما أسوان فيدفع فيها الضرائب على السلع الواردة من الحبشة وزنجبار واليمن[١٤٠] . ولقد اختلفت قيمة الضرائب ، بسبب أن القائمين بالتجارة كانوا ينتمون إلى طوائف مختلفة من مسلمين وغير مسلمين ، لذلك نجد أن هذه الضرائب ارتبطت بالطائفة التى فرضت عليها مثل العشر ، الذى فرض على التجار المسلمين والخمس على التجار الغير مسلمين والأجانب ، خاصة الروم وعرف بهم[١٤١] . وإن اختلف الخمس أيضاً من فئة إلى أخرى حسب أنواع السلع وقيمتها وكذا جنسيات التجار . فكان يحصل من بعض تجار الروم الخمس ومن بعضهم العشر ، ومن هنا جاءت كلمتا العشر والخمس كمرادف لكلمة مكوس . كما كانت تخفض الضرائب على التجار الأوروبيين ، خاصة تجار المدن الإيطالية . فضلاً عن حصولهم على بعض الامتيازات بسبب ما يحملون من مواد خام يحتاجها الفاطميون مثل الخشب والحديد[١٤٢] .

ولقد وضع الفاطميون كثيراً من الضوابط لأحكام تحصيل هذه الضرائب ، فعندما تأتى السفينة ، يصعد إليها الأمناء ، وهم موظفون من قبل الدولة ومهمتهم تسجيل جميع ما جلب من بضائع ، ويتم نقل هذه البضائع إلى الفنادق حيث تقدر أثمانها بواسطة سماسرة تابعين للدولة أيضاً ، ثم يساق التجار بعد ذلك إلى مكان التفتيش[١٤٣] ،

---

(١٣٨) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ٤٦٤ .

(١٣٩) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٤٩ .

(١٤٠) ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ١٣٣ .

(١٤١) المخزومى ، المنهاج ، ص ٤٥ . والخمس عبارة عما يستأدى من تجار الروم الواردين على الثغر بمقتضى ما صولحوا عليه ، وربما يستخرج عما قيمته مائة دينار ما يناهز خمسة وثلاثين ديناراً وإنما انحط عن العشرين ديناراً وسمى كلاهما خمساً ، انظر . ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٢٦ .

(١٤٢) هايد ، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٩١، جـ٢ ، ص ٣٤ .

(١٤٣) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٢٧ .

فضلاً عن الأمناء المسئولين عن تحصيل الضرائب المستحقة على القوافل ، التى تأتى إلى حدود البلاد(١٤٤) .

أما السلع التى تصدر من مصر عبر الموانى المصرية ، فيدفع صاحب السلعة رسوماً معينة إذا حملت السلعة إلى المراكب ، كما تحمل سلعة كل تاجر علامة خاصة به ، ثم يتم التفتيش قبل التحرك ، وتوكل الدولة لتحصيل هذه الضريبة موظفاً يسمى «ضرائبياً» يكون مسئولاً فى كل ميناء من موانئ مصر عن جباية الأموال المختلفة(١٤٥) . وكان يؤخذ مثلاً فى القلزم على كل حمل درهم ، وكان يؤخذ فى الإسكندرية والفسطاط واخميم دون بقية البلاد ضرائب بتقرير الديوان(١٤٦) . ولكثرة ما كان يجبى من ضرائب ، أوجدت الدولة ديواناً سمى بـ «ديوان الثغور» ليقوم بالإشراف على الثغور الساحلية(١٤٧) .

كما كان لنشاط التجارة الكارمية ، أثر فى تحصيل هذه الضرائب ، خاصة أن الفاطميين قد دفعوا بهذه التجارة قدماً ، عندما زاد اهتمامهم بالبحر الأحمر وتجارة الشرق(١٤٨) . حتى أصبحت كلمة كارم مع القرن ٦هـ/١٢م ، شائعة فى بيوت الفسطاط(١٤٩) . وكانت رسوم هذه التجارة تحصل فى أربعة سواحل ، فى عيذاب والقصير والطور والسويس(١٥٠) ، وعلى ذلك قامت الدولة بحماية سفن التجارة الكارمية من خلال إقامة أسطول فى عيذاب(١٥١) ، مما يبين أنه كان هناك أسباباً مالية من وراء هذه الحماية ، فقد كان كبار التجار قادرين على الدفع ، أما صغار التجار فكانوا مضطرين إلى أن يتحملوا تقلبات القراصنة ، التى كانت تشكل خطراً فعلياً وقتذاك فى

---

(١٤٤) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٤ .

(١٤٥) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٢١٣ .

(١٤٦) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١١٠ .

(١٤٧) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ٣٩١ .

(١٤٨) بعد فقدان الفاطميين للمغرب وصقلية أفل نجمهم فى البحر المتوسط ، وكان عليهم أن يؤكدوا وجودهم فى مكان آخر ، فاتجهوا إلى البحر الأحمر ، لاسيما تجاه اليمن والهند ، وبذلك أصبح البحر الأحمر خلال ق٥هـ/١١م طريق التجارة الرئيسية إلى الهند والبحر المتوسط ، انظر : Shaban, Islamic Hiswtory, P. 203.

(١٤٩) انظر : Goitein, New lights on the beginning of the Karimi Merchants (JRAS), p.181.

(١٥٠) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ص ٤٦٤ - ٤٦٥ .

(١٥١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ص ٥٢٠ .

جنوب البحر الأحمر[١٥٢] ؛ فضلاً عن قيام الخلفاء أنفسهم وغيرهم من كبار رجال الدولة بالمشاركة فى هذه التجارة ، من خلال السفن التى أعدت لهذه التجارة ، مستفيدين من انتعاش هذه التجارة[١٥٣] ، مما يدل على ارتفاع الرسوم المقررة على تجارة الكارم . وكانت دار مانك الصغرى ، التى كانت تقع فى الفسطاط مكاناً لدفع المكوس[١٥٤] على السلع المصدرة ومنها تجارة الجملة مثل الكتان والتوابل[١٥٥] .

ولحاجة الفاطميين إلى تحصيل الأموال فى موانى مصر سواء التى تربطها بأوروبا أو بالشرق ، عمل الفاطميون على تشجيع التجارة ، فأنشأت الأساطيل التجارية ، كما أعيد حفر القناة الموصلة بين النيل والبحر الأحمر فيما عرف بـــ «الخليج الحاكمى»[١٥٦] ، كذلك أعيد حفر خليج الإسكندرية ٤٠٤هـــ/١٠١٣م[١٥٧] ، فضلاً عن تشجيع التجار الأجانب على المجئ إلى مصر من خلال تخفيض الرسوم وإقامة الفنادق فى الموانئ الهامة وفى غيرها من المدن ، حيث انتشرت من الإسكندرية حتى أسوان[١٥٨] ، إلى جانب تعهد الدولة فى بعض الأحيان ببسط حمايتها على التجار الموجودين فى أنحاء البلاد[١٥٩] . كما أمر الآمر ببناء دار الوكالة لمن يصل من العراق والشام من التجار ، ولم يسبقه إلى ذلك أحد[١٦٠] .

أما الضرائب المقررة على التجارة الداخلية ، فكانت كثيرة ، منها ما يفرض على عبور السلع من القناطر والمعديات . أو التوابل والقطن والصوف والأبقار والحنة والفحم وغيره[١٦١] . وقد أوردت وثائق الجنيزة[١٦٢] قيمة بعض هذه الضرائب ، منها

---

(١٥٢) انظر : Goitein, New Lights, p. 182.

(١٥٣) ماجد ، نظم الفاطميين ، جـــ١ ، ص ٣٠١ .

(١٥٤) المسبحى ، أخبار ، ص ١٨٩ ؛ ودار مانك تقع بشارع الزياتين ، انظر . ابن دقماق ، الانتصار ، جـــ٤ ، ص ٥-٦ .

(١٥٥) انظر : Goitein, Med. Sec. IV, p. 27.

(١٥٦) المقريزى ، الخطط ، جـــ١ ، ص ٧١ .

(١٥٧) المقريزى ، الخطط ، جـــ١ ، ص ١٧١ .

(١٥٨) ابن جبير ، الرحلة ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ٣٧ ؛ هايد ، تاريخ التجارة ، جـــ٢ ، ص ٤٣ .

(١٥٩) هايد ، تاريخ التجارة ، جـــ٢ ، ص ٤٠ .

(١٦٠) ابن ميسر ، أخبار ، ص ٩٢ .

(١٦١) المقريزى ، الخطط ، جـــ١ ، ص ١٠٤ .

(١٦٢) انظر : Goitein, Med. Soc. 1, pp. 194, 276.

درهمين على الحمار ، بينما كان ثمنه ما بين دينارين وخمسة دنانير وثلاثة دنانير للمتوسط ، والجمل يباع بخمسة دنانير وضريبته خمسة دراهم أى حوالى ٢،٥% من ثمنه . كما كانت الدولة تفرض الضرائب على الأسواق المتخصصة مثل سوق السكر والدقيق والجمال والدواب والسمك والذبائح وغيرها[١٦٣] ، بالإضافة إلى ما يدفعونه مقابل ما يباع وما يشترى[١٦٤] ، أما تجارة المنسوجات ، فقد فرضت عليها رسوماً باهظة كما راقبتها الدولة رقابة شديدة سوف نشير إليها فيما بعد .

وكانت هناك أيضاً بعض الضرائب التى تفرض على السلع ، منها مكس حقوق الساحل أو الغلة ، وهى ضريبة مقررة على القمح المجلوب إلى ساحل القاهرة والفسطاط[١٦٥] حيث كان يفرض عليه الضريبة قبل أن يباع ، ويبدو أن هذه الضريبة فاطمية الأصل أو حتى مبكرة[١٦٦] ، إلى جانب ما كان يفرض على الكتان والقطن وعما يحصل فى ساحل السنط بالفسطاط على الأخشاب ، التى تنقل إليه والمباعة للتجار بالوجه القبلى[١٦٧] ، كما كانت تؤخذ الرسوم بشكل عينى على بعض السلع وهذا يتضح مما سومح به فى وزارة المأمون البطائحى عام ٥١٥هـ/١١٢٢م[١٦٨] ، وكذلك ما كان يؤخذ من الجاموس للديوان على كل رأس من الراتب نظير ما يتحصل منه فى كل سنة من خمسة إلى ثلاثة دنانير ، فضلاً عن الضرائب المقررة عليه[١٦٩] ، وبذلك أمدت ضرائب السوق الفاطميين بأموال ضخمة[١٧٠] ، وفى الغالب كانت تجمع الضرائب من خلال الضمان بمقدار معين لكل جهة إن زادت فله وإن نقصت فعليه[١٧١].

---

(١٦٣) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٤ .

(١٦٤) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٧٥ .

(١٦٥) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٤ .

(١٦٦) انظر : Rabie, The Financial System, pp. 103 - 104.

(١٦٧) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١١١ .

(١٦٨) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ص ٨٣ - ٨٤ . ومقدار ما سومح به إلى آخر عام ٥١٠هـ/١١١٦م تسعمائة وثلاثة عشر قنطاراً من الشب ومن الحديد خمسمائة رطل ، ومن الملح القان وسبعمائة وثلاثة وتسعون أردباً وثلث ومن الشمع أربعمائة وأربعون لاطلاً .

(١٦٩) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ص ٨٣ - ٨٤ .

(١٧٠) انظر : Ashtor. E., Social and economic History of the Near cast in Middle Ages. London 1976, p. 200.

(١٧١) القلقشندى ، صبح ، جـ٣ ، ص ٤٦٦

ومن الملاحظ أيضاً ذكر مناطق متعددة لجباية ضرائب التجارة الداخلية فى ساحل الفسطاط والقاهرة ، كما خصصوا أماكن معينة يرد إلى كل منها نوع معين لتقرير الضريبة عليه ، وأن هذه الضرائب اختلفت من حيث ورود كلمات تعبر عنها مثل رسوم ، مكس ، حماية ، واجب ، سمسرة السلع ، سمسرة الدلالة[١٧٢] . وكان هناك ديواناً يشرف على التجارة الداخلية يسمى «ديوان الهلالى»[١٧٣] ويوجد أيضاً فى كل ناحية متولى المال ، حيث يوجد ديوان الحكومة فى الناحية ، أما الحسابات النهائية ، كانت توجد فى المركز الرئيسى بالقاهرة[١٧٤] ، ولعله الديوان السالف الذكر .

لذا نجد الفاطميين يهتمون بالأسواق لتشجيع التجارة الداخلية ، فكان أغلبها مغطى بالسقائف وتضاء ليلاً بالقناديل ، خاصة فى عهد الحاكم بأمر الله ، الذى أمر بإضاءة الشوارع والأسواق والحوانيت فى مصر والقاهرة ليلاً[١٧٥] . كما كانت معظم الأسواق مبلطة[١٧٦] . إلى جانب توفير الدواب للركوب للانتقال بين الأسواق[١٧٧] . وكان هناك موظفاً مسئولاً عن الإشراف على التجار[١٧٨] ، ربما يكون أحد العرفاء الذين استعان بهم المحتسب[١٧٩] ، أو أنه كان يهتم بشئون اليهود وحدهم .

ولحرص الفاطميين على تشجيع التجارة ، استطاع القاضى النعمان أن يجد حلاً لممارسة الربا بشكل شرعى ، فمع عدم شرعية الربا كما هو معلوم ، فقد تمت ممارسته ، لكن خلال تحديداً خاصاً بهم قام على التفاضل فى عملية الدين ، وهو : «لا بأس باقتضاء الفضة من الذهب والذهب من الفضة ، إذا اتفقا على ذلك ، ومن أسلف دراهم فأعطى أجود منها فلا بأس»[١٨٠] وهذا الأمر ينسحب على السلع أيضاً .

---

(١٧٢) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٤ .
(١٧٣) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ٤٩٢ .
(١٧٤) انظر : Goitein, Med Soc., p. 267.
(١٧٥) المقريزى ، اتعاظ ، جـ٢ ، ص ٣٩ .
(١٧٦) الشيزرى ، نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ١١ .
(١٧٧) ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ص ١٢٠ – ١٢١ .
(١٧٨) انظر : Mann, The Jews in Egypt. 1. p. 81.
(١٧٩) المقريزى ، إغاثة ، ص ١٨ .
(١٨٠) النعمان ، الاقتصار ، ص ٨٤ .

وإضافة إلى الضرائب التى فرضت على النشاط الصناعى والتجارى ، كان هناك نظام التصاريح أو التراخيص ، الذى كان من الأمور المعمول بها خلال العصر الفاطمى ، فكان على كل حانوت أن يستخرج رخصة شهرية مقابل واجبات مالية يجب أن تؤدى ، وهذا الأمر لم يكن مطبقاً فقط على المصانع ، لكن أيضاً على حوانيت بيع المواد الغذائية أو غيرها من السلع الأخرى ، وهذه الواجبات كانت تجمع تبعاً للشهور الهلالية ، وهى لم تكن إيجارات لما تؤجره الحكومة ، وهذا النظام ، بالإضافة إلى أنه يعد مصدراً للدخل ، فهو يجعل الحكومة قادرة على أن تشرف على أوجه النشاط الصناعى والتجارى لرعاياها(١٨١) .

ومع ذلك ، قد تجاوزت المكوس فى بعض الأحيان هذين المجالين ، ففرضت على الحجيج فى البحر الأحمر إلى مكة عن طريق عيذاب ، وهى سبعة دنانير ونصف عن كل إنسان(١٨٢) ، إلى جانب ما يدفعونه عن كل حمل طعام من ضريبة معلومة(١٨٣) . ومن لم يؤد هذه الضريبة منع من الحج وعذب(١٨٤) ، وهذا الأمر لا يخلو من المبالغة ، فإذا كان الفاطميون حريصين كل الحرص على فرض الضرائب وجبايتها ، فلا يمكن أن يشوهوا صورتهم بهذه الكيفية ، فى الوقت الذى كانوا يتطلعون فيه إلى حكم العالم الإسلامى ، وإذا كانت فرضت بالفعل ، فلعلها ارتبطت بالعصر الفاطمى الثانى ، حيث ضعفت موارد الدولة وبدأت تبحث عن موارد أخرى لتغطى نفقاتها ، كذلك كان المكس يؤدى على شرب مياه النيل(١٨٥) ، حتى من يغرق فى النيل كان على أهله أن يدفعوا واجب الصناعة للدولة مقابل اخراجه ، وبلغ هذا الواجب دينارين وقيراطين(١٨٦) . وبذلك لم تترك الدولة شيئاً إلا وفرضت عليه رسوماً وضرائب وأن الهواء وحده أخلى سبيله وبقى حراً(١٨٧) .

---

(١٨١) انظر : Goitein, Med Soc., pp. 269 - 270.

(١٨٢) المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، القاهرة ١٩٥٦ ، جـ١ ، ص ٦٤ .

(١٨٣) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٧٤ .

(١٨٤) المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٦٤ .

(١٨٥) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٥٥ .

(١٨٦) المسبحى ، أخبار ، ص ٦٠ "غرق فى دار النيل حدث يعرف بابن الاسكاف ، وطرحة النيل على الشط ، .وصار أهله إليه ليحملوه ، فمنعهم أصحاب الشريف متولى الصناعة من حمله وطالبوهم بدينارين وقيراطين واجب الصناعة من حق من غرق فى النيل ، فدفع ذلك إليهم" .

(١٨٧) ماجد ، نظم الفاطميين ، جـ١ ، ص ١١٧ .

واعتبر البعض[١٨٨] ، أن هذه الضرائب جائرة وغير قانونية ، حيث كانت قيمة المكس تتراوح بين ١٠ – ٢٥% من قيمة السلعة ، فكانت الضرائب ثقيلة خاصة في تنيس ودمياط على ساحل النيل[١٨٩] ، واستطاعت الخلافة الفاطمية أن تحصل من المكوس الشيئ الكثير ، منها ألف دينار يومياً بساحل تنيس ، ونفس القيمة من الفسطاط ، فضلاً عما كان يجبى في الموانى من التجارة الواردة ، وكانت أكثر الجهات وأشدها ما هو مقرر على التجار الآتين من الشام والعراق ، حيث كانت تتحصل منهم الضريبة فى الفرما[١٩٠] . كما تشير وثائق الجنيزة[١٩١] إلى ثقل هذه الضرائب بشكل عام ، عندما جاءت سفينة من بيزنطة وعليها أسرى كثيرين ، فطلب يهود الإسكندرية المساعدة من ابراهام ، الذى لم تحدد الوثيقة وضعه ولعله من أغنياء الإسكندرية ، أو أحد المسئولين عن الجالية اليهودية فيها ، لعجزهم عن توفير الأموال ، إذ الأوقات صعبة والضرائب ثقيلة ، كما أن ضريبة الختم على البضائع قد لوحظ أنها ثقيلة جداً ، فكان يدفع لكل خمسين ديناراً ، دينار أى بواقع ٢% ، وتشير الرسائل إلى احساس التجار بثقل هذه الضريبة ، وأنه لا يستطيع معها أن يحصل أى فائدة ، وربما كان ارتفاع هذه الضرائب من وراء استخدام التجار الرسائل الشفوية ، لأن الدولة كانت تفرض رقابة اقتصادية على الرسائل[١٩٢] .

بداية ، تعتبر المكوس ضرائب غير شرعية ، كما أنها فى الأصل غير مباشرة ، وهى بذلك تخضع لظروف الدولة وحاجتها للأموال أو رغبتها فى التخفيف لمراعاة ظروف خاصة بها لحاجتها مثلاً فى التعامل مع تجار إحدى الدول من أجل سلعة معينة ، وعلى الرغم من أنها فى الأصل تتفق وما عرف بالعشور كما أسلفنا ؛ لكنها مع الفاطميين شملت نواح أخرى كثيرة ، كما أنها كانت متجاوزة عن الحد فى بعض الأحيان كما بينا . ومع ذلك لم يكن الفاطميون أول من بالغ فى قيمة هذه

---

(١٨٨) ماجد ، نظم الفاطميين ، جـ١ ، ص ١١٨ .
(١٨٩) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٢١٣ .
(١٩٠) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ٩٢ .
(١٩١) انظر : Mann, The Jews in Egypt, 1, p. 91.
(١٩٢) انظر : Goitein, Med Soc., 1, p. 271.

الرسوم ، بدليل ما أورده أبو يوسف[١٩٣] من ضرورة إصلاح الجهاز الجمركى للعباسيين إبان خلافة الرشيد .

ولما كانت المكوس قد بدأت مع المعز وزادت مع ابن نسطورس . ومع استمرارها طوال العصر الفاطمى ، مع ذلك كانت هناك بعض الفترات التى شهدت فيها البلاد إسقاط لهذه الضرائب . فعندما وزر ابن عمار للخليفة الحاكم اسقط الرسوم الغير مقررة لابن نسطورس ورد الأمور إلى ما كانت عليه[١٩٤] ، كما قام الخليفة الحاكم بإسقاط المكوس والمؤن التى تؤخذ من المسافرين عن الغلال والأرز[١٩٥] ، وبدأ ذلك فى عام ٣٩٨هـ/١٠٠٧م ثم تلاه بإسقاط مكوس الساحل[١٩٦] ، فضلاً عن إصدار سجلاً بالمنع من تفتيش المسافرين وأن تخلل هذه السنوات إعادة المكوس التى ألغيت[١٩٧] ، وفى عام واحد يسقط الخمس ثم يعيده ، ولذلك ، فمهما قيل فى سياسة الحاكم وما قام به من إلغاء بعض الضرائب ، فقد ارتبطت بقتل برجوان والتخلص من وصايته ، أو أنه أراد من وراء ذلك تنفيذ سياسة إصلاحية ، بسبب نزعة التصوف أو رغبة فى التقرب من الناس بعد اتهامه بادعاء الألوهية[١٩٨] . ولذلك فسياسة الخليفة الحاكم كان يشوبها عدم الاستقرار .

ولما كانت سياسة الدولة المالية ترمي إلى فرض الضرائب ، فكان طبيعياً أن تقوم ست الملك ، التى أصبحت وصية على الخليفة الظاهر ، بإعادة المكوس إلى ما كانت عليه ، قبل إسقاطها[١٩٩] . لكن بعد وفاتها فى عام ٤١٥هـ / ١٠٢٤م أصدر الخليفة الظاهر أمراً بإسقاط جميع المكوس عن سائر أصناف الغلات الواردة إلى سواحل الفسطاط ، وهذا الإجراء ارتبط بالغلاء الذى وقع فى نفس العام[٢٠٠] . كما كان حرص الخليفة الآمر على الضرائب عند توليته للمأمون البطائحى ، فاشترط عليه بألا

---

(١٩٣) الخراج ، ص ص ١٤٢ - ١٤٣ .
(١٩٤) يحيى بن سعيد ، تاريخ ، ص ١٨٠ .
(١٩٥) المقريزى ، اتعاظ ، جـ٢ ، ص ٩٣ .
(١٩٦) المقريزى ، اتعاظ ، جـ٢ ، ص ٩٣ .
(١٩٧) المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٨٧ .
(١٩٨) يحيى بن سعيد ، تاريخ ، ص ٢٢٢ .
(١٩٩) المقريزى ، اتعاظ ، جـ٢ ، ص ٧٤ .
(٢٠٠) المسبحى ، أخبار ، ص ١٩٦ .

يجبى الأموال ، إلا بالقصر[٢٠١]، وهذا الأمر مرتبط بما عرف عن الآمر من إنه ظلم الناس وأخذ أموالهم[٢٠٢] . وما حدث فى وزارة رزيك بن الصالح طلائع من إسقاط رسوم الظلم على حد قول المقريزى[٢٠٣] ، على الرغم من أنه تولى الوزارة بعد أبيه الصالح ، الذى تولى الوزارة للخليفة الفائز ثم العاضد ٥٥٠-٥٥٦هـ/١١٥٤-١١٦١م، كان أشد الناس تطلعاً إلى ما فى أيدى الناس من أموال ، وباع الولايات[٢٠٤] ، وفرض على الولاة والقضاة والمحتسبين أموالاً مقررة ، وجعل مدة كل متول ستة أشهر وعرفت هذه الأموال باسم "البراطيل"[٢٠٥] ، مما أدى إلى ضرر الناس .

وهناك إشارات إلى أن المكوس ، قد ازدادت فى أخريات الدولة الفاطمية ، ولابد أن هذا الأمر ارتبط ببداية حالة الضعف التى ألمت بالبلاد خلال عصر المستنصر ، الذى اسلم البلاد لحالة سيئة ، فيذكر المقريزى : «ثم أعيدت الأموال الهلالية فى أثناء الدولة الفاطمية ، عندما ضعفت وصارت تعرف بالمكوس»[٢٠٦] وهذا ليس معناه أن المكوس فرضت مع نهاية الدولة ، فمن المحقق أنها عرفت معهم من البداية ، لكن الذى يفهم من هذا النص إنها زيدت فى العصر الفاطمى الثانى من حيث تنوعها ومقدارها وعددها[٢٠٧] ، لأن ضعف الدولة الفاطمية قد اقترن بهذه الفترة المتأخرة . ولهذا فإن كلمة "أعيدت" قد جاءت مرتبطة بما قام به أحمد بن طولون فى النص من إسقاط الأموال الهلالية .

وابن خلدون ، يلقى الضوء على هذا الأمر ويربط زيادة الجباية مع آخر الدولة بأسباب الترف ، وأن الدولة عندما يصيبها الهرم وتضعف عصبيتها عن جباية الأعمال ، فتثقل الجباية : «فيستحدث صاحب الدولة أنواعاً من الجباية يضربها على البياعات ويفرض لها قدراً معلوماً»[٢٠٨] وهو بالفعل يعطى أمثلة منها الدولة الفاطمية .

---

[٢٠١] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٤٤١ .

[٢٠٢] ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٣٣ ، جـ٥، ص ١٧٥ .

[٢٠٣] المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ٢٥٣ .

[٢٠٤] ابن ظافر ، أخبار ، ص ١١١ .

[٢٠٥] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٤ .

[٢٠٦] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٤ .

[٢٠٧] البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ٣٤٢ .

[٢٠٨] المقدمة ، بيروت ، صفحات ، ٢٨٠ – ٢٨١ .

وإذا حاولنا أن نطبق هذا النص ، نجد أن زيادة رغبة الدولة فى الانفاق على الحفلات والمواكب والأسمطة[٢٠٩] وغيرها ، خاصة مع خلافة الآمر ، والتى اكتملت فيها الرسوم الفاطمية ، فكانت الدولة فى حاجة دائمة إلى الأموال ، فضلاً عن انقطاع موارد التجارة ، فلم تجد الدولة ، مخرجاً من الضائقة المالية غير الإسراف فى فرض الضرائب والمكوس[٢١٠] . وعلى ذلك لا نستبعد أن القائمة ، التى أوردها المقريزى[٢١١] ، ربما ترجع إلى هذه الفترة أو بعدها بقليل ، لا سيما أن الضرائب قد انخفضت خاصة المفروضة على التجارة الخارجية خلال هذه الفترة مما أدى إلى هبوط المتحصل بشكل عام[٢١٢] ، ويعد ما كان يؤخذ من التاجر ٣٥ دينار عن كل مائة دينار انخفضت إلى عشرين ، حتى وصل ارتفاع ثغر الإسكندرية عام ٥١٧هـ/١١٢٣م فى الشهر إلى خمسمائة دينار[٢١٣] ، وكذا بسبب اضطراب أحوال البلاد من جراء الصراع الدائر بين الوزراء العظام فيما بعد ، حتى وصل المتحصل منها مائة ألف دينار فى السنة[٢١٤] ، ومقارنة بما كان يجبى فى السابق فى تنيس والاشمونين وحدهما ووصل إلى مائتى ألف دينار فى السنة ، نجد أن السبب ربما يرجع أيضاً إلى تشجيع التجار الأجانب على المجئ إلى مصر ، فقامت الدولة بتخفيض الضرائب المقررة عليهم . وعلى أية حالة قد وصلت قيمة الضرائب مع صلاح الدين قبل إلغائها إلى ما يقرب من مليون دينار فى السنة[٢١٥] .

ومن خلال ما أوردناه يتضح أن المكوس كانت تشكل عبئاً ثقيلاً على الرعية «حتى أنها خرجت فى التزيد عن الحد ودخلت الشبهة فى أموال الكثير من الناس بسببها»[٢١٦] . كما أنه بسبب زيادة الضرائب على الصناعة ، كانت أسعار الصناعات

---

(٢٠٩) والمواكب منها العظام فى أول العام – أول شهر رمضان – أيام الجمع من شهر رمضان – صلاة عيد الفطر والأضحى – تخليق المقياس – فتح الخليج . أما الأسمطة : سماط شهر رمضان – العيدين . انظر . القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ٤٩٩ وما بعدها ؛ المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٤٧٠ وما بعدها .

(٢١٠) محمود اسماعيل ، سوسيولوجيا ، ٢/١ ، ص ٢٤١ .

(٢١١) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٤ ، وما بعدها .

(٢١٢) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٢٦ .

(٢١٣) المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ٩٧ .

(٢١٤) المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ٩٧ .

(٢١٥) المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ٩٧ .

(٢١٦) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ٤٦٦ .

المنتجة مرتفعة أيضاً ، ومع ذلك كان دخل الصناع منخفضاً[٢١٧] ، حتى أن العامل الماهر كان يكسب خمسة دراهم يومياً[٢١٨] ، وبخصوص الوضع الاقتصادى لمجموع العاملين ، فإن وثائق الجنيزة[٢١٩] تخالف الكتاب القدامى والمحدثين ، الذين وصفوا العصر الفاطمى بالازدهار ، فإذا كان هذا العصر يعتبر بداية العصر الذهبى للبرجوازية ، لكن العاملين كانوا أسوأ حالاً ، بسبب ارتفاع الضرائب . وهذا ليس فيه إنكاراً كاملاً للازدهار الاقتصادى ، الذى اتسم به العصر الفاطمى ، لكن الفاطميين استطاعوا أن يستفيدوا من كل الأوضاع المتاحة من سياسية واقتصادية ؛ فضلاً عن فرض الضرائب الباهظة مما كان له انعكاساً واضحاً على حالة الصناع ، أى أن هذا الازدهار لم يمس إلا الدولة برجالها والطبقة العليا من المجتمع .

وكان التلويح بإسقاط بعض المكوس أو بإلغائها نهائياً هدفاً سياسياً ، مثلماً حدث مع أهل الإسكندرية ، الذين رفضوا تسليم مدينتهم لشاور ، وسلموها لشيركوه ، الذى تركها لابن أخيه صلاح الدين ، فحاول شاور أن يساوم أهلها بأن يسلموه صلاح الدين مقابل أن يرفع عنهم الضرائب ، لاسيما المكوس ، ضريبة الأسواق البغيضة ويعطيهم الأخماس[٢٢٠] ، كما كان إلغاؤها على يد صلاح الدين عام ٥٦٦هـ/١١٧٠م[٢٢١] ، يهدف أيضاً إلى التقرب من المصريين .

وبذلك لم يستطع الفاطميون أن ينجزوا ما جاء فى أمان جوهر ، لكنهم على العكس من ذلك تجاوزوه ، فيما فرضوه من ضرائب خرجت عن حدود العدل ، حتى ما قرره من إبطال المكوس فى فترات متباينة ، لم يكن وفق سياسة مرسومة ، أرادوا من ورائها التخفيف عن كاهل الرعية ، لكنها كانت تأتى بعد فترات اضطراب الحكم ، ومحاولة منهم لاحتواء وكسب الرعية ، بل وبسبب هذه المسامحات ضعفت الجباية ومن ثم زيدت فى أواخر عهد الدولة . ولم يكن ما أعلنه جوهر فى أمانة من إسقاط

---

(٢١٧) انظر : Ashtor. Social and Economic History, p. 200.

(٢١٨) انظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 97.

(٢١٩) انظر : Goitein, Med Soc, 1, p. 97.

(٢٢٠) النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص ٣٣٧ .

(٢٢١) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٤ ، وما بعدها .

الرسوم الجائرة سوى هدفاً دعائياً من أهداف الفاطميين ، خاصة أن فرض المكوس كان ضرورة للفاطميين واستمراراً لما فرضوه فى بلاد المغرب من ضرائب[٢٢٢] .

وارتباطاً بسياستهم المالية ، لم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أضافوا ضرائباً جديدة على الرعية مثل "النجوى" وهى ضريبة الدعوة ، التى يدفعها أتباع المذهب الاسماعيلى ، وهى ثلاثة دراهم وثلث ، وكان أغنياء الشيعة يدفعونها ثلاثة وثلاثين درهماً[٢٢٣] . وقد تبدو هذه الضريبة اختيارية ، لكنها حسب كتب الدعوة الاسماعيلية كانت إجبارية[٢٢٤] . كما كانت هناك «الفطرة» التى كانت تدفع فى عيد الفطر[٢٢٥] . ويرى البعض[٢٢٦] «إن هذه الضرائب المتعلقة بالمذهب لم تكن لها معنى ضرائب حقيقية ، إنما كانت أشبه بواجبات دينية أو مذهبية» وقد أصبحت هذه الضرائب بمضى الوقت كما تذكر المصادر[٢٢٧] : «صارت هذه الصدقات فرضاً واجباً على كل مؤمن العمل به ، ومن تركه كمن ترك فرضاً من فرائض الصلاة والصوم والحج والجهاد» وطالما كان هناك اهتمام بأمر الدعوة ونشر المذهب الاسماعيلى ، كان المتحصل منها الشيئ الكثير . وصحيح أن الحاكم أبطل أخذ هاتين الضريبتين عام ٤٠٠هـ/١٠١٠م لكنه سرعان ما أعادهما فى نفس العام أيضاً[٢٢٨] .

كما حوى أمان جوهر «وأن أجيركم فى المواريث على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأضع ما كان يؤخذ من تركات موتاكم لبيت المال من غير وصية فلا استحقاق لمصيرها لبيت المال» وهذا النص يطرح عدة أمور أولها ، الأخذ

---

[٢٢٢] النعمان ، المجالس والمسايرات ، بيروت ١٩٩٦ ، ص ص ٣٣٦ - ٣٣٧ . وعندما غادر الخليفة المعز حاضرة دولته فى المغرب متجهاً إلى مصر ، أخذ يوصى بلكين بن زيرى وقال له : "إياك أن ترفع الجباية عن أهل البادية" .

[٢٢٣] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٣٩١ .

[٢٢٤] النعمان ، الهمة فى آداب أتباع الأئمة ، تحقيق كامل حسين ، جـ١ ، ص ٧ .

[٢٢٥] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٣٩١ .

[٢٢٦] ماجد ، نظم الفاطميين ، جـ١ ، ص ١٢٠ .

[٢٢٧] السجلات المستنصرية ، تقديم وتحقيق عبد المنعم ماجد ، القاهرة ١٩٥٤ ، سجل رقم ٢٣ ، ص ٨٤ .

[٢٢٨] المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٨٧ .

بقانون الوراثة الذى وضعه الفاطميون وثانيها أن هذا النص يعد برهاناً غير مباشر على معارضة الفاطميين اعتباراً المواريث الحشرية كمصدر من دخل الدولة(٢٢٩) .

وقانون الوراثة لدى الفاطميين(٢٣٠) ، يقوم على أساس الرحم ولا يعول على التعصيب ، فهو يجيز للبنت إذا انفردت أن تأخذ الإرث جمعية بلا عصبة ولا بيت مال ، وكانوا يهدفون من وراء ذلك إلى إيجاد مبرراً لإثبات أحقية فاطمة الزهراء فى ميراث أبيها ، حتى يكون لهم الحق فى حكم العالم الإسلامى بدلاً من العباسيين . كما يوضح أيضاً ما كان سائداً قبل مجيئهم وهو أن من مات ولم يكن له من يرثه من عصبة أو ما يتبقى بعض إعطاء الأسهم يذهب إلى بيت المال ، وهذا الأمر لا غبار عليه ، إلا أنه من وجهة نظرهم غير مقبول . لكن ما كانت تأخذه الدولة الإخشيدية من التركات وكان معروفاً بـــ «ضريبة الإرث» كانت ضريبة غير شرعية(٢٣١) بيد أنه فى خلافة الظاهر حصلت الدولة على ثلث تركة إحدى المتوفيات ، اللاتى تمت بالقرابة لجوهر ، بسبب أن جوهراً كان عبداً للسلطان(٢٣٢) .

ولذلك تم الفصل فى القضايا الخاصة بالمواريث مع الفاطميين تبعاً لمذهبهم ، رغم امتعاض القاضى السنى والشهود على ذلك(٢٣٣) . وأصبح بعد ذلك من الأمور الملزمة ، الأخذ بمذهبهم فى الميراث لجميع الرعية(٢٣٤) ، ومع الوزير بدر الجمالى تغير هذا الوضع ، فأقر نظاماً جديداً يقوم على : «أن كل من مات يعمل فى ميراثه على حكم مذهبه»(٢٣٥) ومن المحتمل أن هذا التغيير يرجع إلى حاجة الدولة إلى الأموال ، لأن هذا النظام سوف يزيد من أموال الدولة مما يتحصل من أموال الأيتام

---

(٢٢٩) انظر : Rabie, The Financial System, p. 127.

(٢٣٠) يرى الشيعة أنه لا يرث مع البنت أخ ولا أخت ولا عم ولا جد ولا ابن أخ ولا ابن عم ، ولا يرث مع الذكر ، كان أو أنثى إلا الزوج والزوجة والأبوان والجدات ولا يرث مع الأم إلا من يرث مع الولد . وخاطب القاضى جوهراً فى بنت وأخ وأنه قد حكم قديماً للبنت بالنصف والأخ بالباقى فقال : "ما أفعل ، فلما ألح عليه قال : يا قاضى هذه عداوة لفاطمة عليها السلام ، انظر . النعمان ، دعائم الإسلام ، ص ص ٣٧٩-٣٨٠ ، المقريزى ، المقفى ، جـــ٣ ، ص ١٠٣ .

(٢٣١) آدم متز ، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، نقله إلى العربية محمد عبد الهادى أبو ريدة ، بيروت ، ١٩٦٧ ، جـــ١ ، ص ١٩٥ .

(٢٣٢) المسبحى ، أخبار ، ص ص ٥٤ - ٥٥ .

(٢٣٣) حسن ابراهيم ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ص ٣٣٠ - ٣٣١ .

(٢٣٤) المقريزى ، اتعاظ ، جـــ٣ ، ص ٨٩ .

(٢٣٥) المقريزى ، اتعاظ ، جـــ٣ ، ص ٨٩ .

وهو ربع العشر أو ضريبة التركات ، خاصة أنه كان يحاول أن يخرج الدولة من أزماتها الاقتصادية المتعاقبة ، على الرغم مما وصف به من كونه متشيعاً متعصباً ضد السنة[٢٣٦] . وربما تم إنشاء ديوان المواريث الحشرية فى عهده وأن كان الترجيح لإنشاء هذا الديوان لأبنه الأفضل ، فقد ذكر المؤرخون[٢٣٧] أنه أفرد مال المواريث .

كما اتبع الأفضل سياسة مغايرة لأبيه بخصوص المواريث ، فمنع من أخذ شيئاً من التركات وأمر بحفظها بمودع الحكم ، حتى إذا حضر من يطلبها وتأكد القاضى بأحقيته أطلقت لمستحقيها[٢٣٨] ، لكن مع الوزير المأمون البطائحى ، طرح هذا الموضوع للمناقشة من قبل الفقيه أبى بكر محمد الطرطوشى فيما يأخذه أمناء الحكم من أموال الأيتام ، وانتهى الأمر بإصدار عدة قرارات منها : أن يخلص لحرم ذوى التشبع الوارثات جميع موروثهن ، وأن الناس على اختلاف مذاهبهم يحمل ما يترك من موجوده على حكم مذهبه فى حياته والمشهور به اعتقاده إلى حين وفاته ، ويشترك معهم بيت مال المسلمين فى موجودهم ، فضلاً عن عدم أخذ ربع العشر من أموال الأيتام ، وعلى ذلك يعرض أمناء الحكم عنه من مال المواريث الحشرية لمن يموت وليس له وارثاً سواء حاضراً أو غائباً ، فموجوده إلى بيت المال ، وأن كان للمتوفى وارث غائب فلتحفظ تركته ، وإذا حضر وأثبت استحقاقه على الأوضاع الشرعية فليخرج الأمر بتسليمه ذلك[٢٣٩] .

وهذه القرارات عبارة عن صورة توفيقية بين ما كان موجوداً قبل الفاطميين وأثناء عصرهم ، كما أنه أتاح الحرية للمذاهب السنية ، وربما ذلك يرجع إلى أن القاضى الذى استعان به الوزير كان سنياً والمأمون البطائحى رغم تشيعه لدولة متمذهبة[٢٤٠] ، فكان ينشد الاستقرار والإصلاح ، أو أن المذهب الفاطمى مع العصر الثانى لم يعد يحفل به بالقدر الكافى .

---

[٢٣٦] ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٥ ، ص ١٢٠ .

[٢٣٧] ابن ميسر ، أخبار ، ص ص ٨٣ – ٨٤ .

[٢٣٨] المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ٧٢ .

[٢٣٩] القلقشندى ، صبح ، جـ١٠ ، ص١٦٦

[٢٤٠] المقريزى ، اتعاظ جـ٣ ، ص ٨٩ .

وأما بخصوص الزكاة ، التى تعد الحق الشرعى الوحيد فى مال المسلمين «وليس فى المال حق سواها ، سواء كانت ظاهرة كالزروع والثمار والمواشى أو الباطنة من ذهب وفضة وعروض تجارة»[٢٤١] فهى لا تأتى بأموال كثيرة ، لأنها ضريبة شرعية مقدرة ، كما أنها تصرف فى المصارف الشرعية ، وعلى ذلك لم نسمع عن وجود والى للصدقات ، ويذكر المقريزى[٢٤٢] ؛ بأنها تركت للناس يدفعونها إلى أربابها دونما تدخل من الدولة ، وأن صلاح الدين أول من جبى الزكاة بمصر ، لكن هناك إشارة تفيد بأن أموال الزكاة كانت تدفع إلى الأئمة أو إلى بيت مال الخليفة شأنها شأن النجاوى والفطرة[٢٤٣] . كما أنه مع الخليفة الآمر هناك إشارة إلى تعيين أحد رجال الدواوين على الزكاة إلى جانب ضرائب أخرى[٢٤٤] ، لكننا لا نستطيع أن نقف على كيفية توزيعها أو تولى بيت المال لهذا الأمر كما أن ورود جملة «بيت مال الخليفة» تعطى إيحاءاً بأنها أموال شخصية أو ربما ارتباط اسم الخليفة ببيت مال المسلمين يرجع إلى اعتبار شخص الأمام الفاطمى . صحيح أن المصادر غاصة بما كان يقوم به الخلفاء من توزيع الصدقات والأموال أثناء المواكب أو أثناء الخروج إلى المناظر المختلفة[٢٤٥] ، لكن ليس من المؤكد أنها كانت من أموال الزكاة لأنهم كانوا ينفقون فيها الكثير وكان الغرض منها هو كسب قلوب المصريين .

أما ما جاء فى شأن أهل الذمة فى أمان جوهر : «أجرى أهل الذمة على ما كانوا عليه» فمعلوماً أن سياسة الفاطميين تجاه الذميين اتسمت بالتسامح واطلاق الحريات الدينية والاقتصادية ، حتى وصل التسامح أقصاه مع الفاطميين ما لم نسمع عنه فى فترات أخرى سواء فى مصر أو غيرها من بلدان العالم الإسلامى ، لكن فى ذات الوقت بحيث لا يؤثر ذلك على سياسة الدولة المالية ، التى قامت بتحصيل الجزية المفروضة عل اليهود والنصارى والتى وعدوا أن تستمر كما هى فى العصر السابق مما يبين أنها لم تخرج عن الحد من وجهة نظر الفاطميين ، ومن خلال ما ذكرته

---

[٢٤١] الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ١١٣ ، وما بعدها .

[٢٤٢] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٨ .

[٢٤٣] النعمان ، تأويل الدعائم ، تحقيق محمد حسن الأعظمى ، القاهرة ١٩٦٩ ، جـ٢ ، ص ص ٨٧ – ٩٠ ؛ السجلات المستنصرية ، سجل رقم ٢٣ ، ص ٨٤ ، سجل رقم ٣٦ ، ص ١٢٢ ، سجل رقم ٥٧ ، ص ١٨٨ .

[٢٤٤] المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ص ١١٥ – ١١٦.

[٢٤٥] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٤٧٩ وما بعدها .

المصادر أثناء العصر الإخشيدي نستطيع أن نقف على قدر الجزية ، وهل سار الفاطميون على منوالها لنبرهن عن مدى وفاء الفاطميين بما أعلنوه ، أو أنهم قد خرجوا عند هذا الحد مع الذميين ، لتتسق بذلك سياستهم المالية التى التزموا بها ومارسوها ، فهناك إشارة من وثيقة بردية(٢٤٦) ، ترجع إلى عام ٣٣٠هـ/٩٤١م تتضمن إيصالاً ، باستلام جزية قدرها ثلث دينار وثلثا قيراط . كما سجل فى الديوان فى عام ٣٤٤هـ/ ٩٥٥-٩٥٦م أن أحد الأشخاص من الأشمونيين قد دفع أقل من دينار فى جزيته ، وفى وثيقة مؤرخة بعام ٤١٦هـ/١٠٢٥م أن أبو الياس بن مينا دفع ديناراً وثلثى قيراط ونصف قيراط فى الجزية عن عام ٤١٥هـ/١٠٢٤م(٢٤٧) . كما كان الرجل لا يستطيع أن يترك مدينته قبل أن يتم كل واجباته ، فتشير وثيقة إلى ما تعرض له أحد الذميين من الشرطة ، وكان عليه أن يدفع درهمين غرامة ، حتى اضطر إلى مغادرة المركب(٢٤٨) . كذلك يشير أبو صالح الأرمنى(٢٤٩) أن الجزية وصلت فى عهد الآمر عن كل نفس ديناراً وثلث وأحياناً دينارين . وفى وزارة رضوان بن ولخشى أقر فى عام ٥٣٢هـ/ ١١٣٧م الجزية . وهى تتفق مع ما ذكره المخزومى(٢٥٠) ، الذى عمل فى ديوان الفاطميين الأواخر فكان على الغنى أربعة دنانير وسدس والمتوسط ديناران وقيراطان ومن الفقير دينار واحد وثلث وربع وحبتان وابن مماتى(٢٥١) يذكر أيضاً نفس قيمة الجزية ، لكنه أضاف بأن كل جزية مضافاً إليها درهمان وربع عن رسم المشد والمستخدمين .

وهذه التقديرات تشير فى الغالب إلى نهاية العصر الفاطمى ، وما أشرنا إليه يخص الطبقة الدنيا من المجتمع . ويبدو أن غالبية أهل الذمة فى أواخر العصر الفاطمى كانوا من هذه الطبقة والغنى فيهم قليل(٢٥٢) ، ويبدو أنها كانت حالة المجتمع من مسلميه وذميه . ومع ذلك فحتى بالمقارنة بين ما أوردناه فيما يخص العصر الإخشيدي والفاطمي وإذا كان كلاهما يشير إلى الطبقات الدنيا ، لكن يظل هناك فارقاً بينهما وعلى

---

(٢٤٦) سيدة كاشف ، مصر فى عهد الأخشيديين ، ص ١٧٧ .

(٢٤٧) انظر : Rabie, The Financial System, pp. 108 - 109.

(٢٤٨) انظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 300.

(٢٤٩) كنائس وأديرة مصر ، تحقيق Evetts ، اكسفورد ١٨٦٤ ، ص ١٢ .

(٢٥٠) المنهاج ، ص ٣٥ .

(٢٥١) قوانين الدواوين ، ص ٣١٨ .

(٢٥٢) المخزومى ، المنهاج ، ص ٣٥

الرغم من أن الجزية حتى قبل الإخشيديين قد ريدت فى القرن الثالث الهجرى/التاسع الميلادى إلى نصف دينار ، فسبب ذلك الكثير من التذمر كما حدث فى تنيس عام ٢٠٠ هـ / ٨١٥م ، بينما مع بداية حكم الفاطميين بقليل زيدت إلى دينار أو نصف ومع ذلك، فلم يسبب هذا إلا تذمراً قليلاً[٢٥٣] . ويبدو أن الذميين قد نقص عددهم عن ذى قبل ، حتى كان يطلق على الجزية «الجوالى» وأنشأ لهم ديواناً خاصاً بهم[٢٥٤] .

ومما تقدم يتضح أن الفاطميين قد زادوا فى الجزية المقررة على الذميين . ومن المحتمل أن هذه الزيادة ارتبطت بقلة أعدادهم أو طبيعة الفترة التى حكم فيها الفاطميون ثم أن الزيادة التى حدثت فى أواخر أيامهم ترجع أيضاً إلى فقدان الدولة لبعض مواردها وبذلك تساير هذه الزيادة ما أسلفناه من زيادة المكوس فى أخريات عمر الدولة الفاطمية .

كما وعد جوهر أيضاً بتجويد السكة وصرفها على العيار المعمول به فى خلافتهم بالمغرب ومنع الغش فيها . ويبدو أن سوء الأحوال الاقتصادية فى أواخر العصر الإخشيدي قد أدت إلى تعطيل دار الضرب بها ، لذلك عندما جاء جوهر ، قام بضرب عملة جديدة وكانت العملة السارية عند مجيئهم ، الدينار الراضى والدينار الأبيض والدرهم الرباعى ، فقام جوهر بضرب الدينار المعزى عام ٣٥٨هـ/٩٦٩ م[٢٥٥] ، كما أدخل الفاطميون معهم الدينار المغربى ، الذى أصبح عملة سارية حتى عصر المستنصر[٢٥٦] أو حتى بعده .

ولم تقم الدولة الفاطمية بمنع العملة العباسية ، واكتفت بمنع العملة ذات الفئة القليلة مثل المثقال والقطع[٢٥٧]، لكن مع ذلك اتخذت بعض الإجراءات لمحاربتها ، فعمل جوهر عند ضربه للدينار المعزى على تثبيت قيمته إلى خمسة وعشرين درهماً ، بينما ثبت قيمة الدينار الراضى عند خمسة عشر درهماً والدينار الأبيض وصل إلى ستة

---

[٢٥٣] لويس ، القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط (٥٠٠هـ-١١٠٠م) ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، القاهرة ، ص ٣٢٨ .

[٢٥٤] القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ٤٩١ .

[٢٥٥] المقريزى ، المقفى ، جـ٣ ، ص ١٠٠ ؛ اتعاظ ، جـ١ ، ص ص ١١٥ - ١١٦ .

[٢٥٦] سفر نامه ، ص ١٢٥ .

[٢٥٧] المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٢٠٤ .

دراهم كما رفع المعاملة بالدنانير المتقية ، التى ترجع إلى عصر المتقى العباسى[٢٥٨] . وهذا التحديد لقيمة كل عملة تسبب فى ضرر الصيارفة ، لما لديهم من هذه الدنانير ، فقاموا بثورة ، إلا أن جوهراً هدد بحرق مكانهم[٢٥٩] . ومع الخليفة المعز قام يعقوب ابن كلس وعسلوج بن الحسن بجباية الخراج وامتنعا عن أخذ الخراج إلا بالدينار المعزى ، مما كان له أثر فى انحطاط قيمة الدينار الراضى بمقدار الربع[٢٦٠] ، وإن كان من الثابت أنه كان أكثر وزناً وأشد نقاوة[٢٦١] ، وهذا الإجراء قد أدى إلى سحب العملة الجيدة وشرائها بأقل من قيمتها الحقيقية ، مما عاد على الدولة بالربح وإلى سيادة العملة الفاطمية .

لكن من الملاحظ أن قيمة الدينار المعزى خلال العصر الفاطمى قد تراوحت بين ٤،٣٠٠ إلى ٤جرامات من عصر المعز حتى عصر المستنصر ، وارتفع خلال عصر المستنصر الطويل وسجل أعلى ارتفاع له عام ٤٨٢هـ/١٠٩٨م إلى ٤،٥٠٠ جرام ، والدنانير الفاطمية المضروبة فى مصر فيما بين عام ٣٥٨-٤٨٧هـ/ ٩٦٩-١٠٩٤م تتسم فى مجملها بارتفاع العيار[٢٦٢] . ومما يدل على حالة الاستقرار النسبى وصول وزن الدينار فى عام ٥٠٩هـ/١١١٥م إلى ٤،٥٠٠جرام ، كما أنه بسبب جهود الوزير المأمون البطائحى وإنشائه لأول دار ضرب بالقاهرة عام ٥١٦هـ/١١٢٢م بلغ الدينار نسبة عالية من النقاء[٢٦٣]، حتى صار الدينار المصرى يمثل أعلى عيار فى جميع ما يضرب لجميع الأمصار ، لكن من اللافت للنظر أن الدينار الفاطمى وصل مع

---

[٢٥٨] المقريزى ، المقفى ، جـ٣ ، ص ١٠٧ .

[٢٥٩] المقريزى ، اتعاظ ، جـ١ ، ص ١٣٢ .

[٢٦٠] المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٦ .

[٢٦١] الكرملى ، النقود العربية وعلم النميات ، القاهرة ١٩٣٩ ، ص ٨٥ .

[٢٦٢] مايسة محمد داود ، المسكوكات الفاطمية ، القاهرة ١٩٩١ ، ص ص ٣٧٧ ، ٤٢٥ - ٤٢٦ ؛ أحمد السيد الصاوى ، المجاعات وتأثيرها على النواحى المالية والحضارية زمن الفاطميين ، دراسة أثرية حضارية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآثار - جامعة القاهرة ١٩٨٥ ، ص ٣٢٣ . انظر :
La Voix, Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliothéque National, Paris 1896, p. 88, 89, 163.

[٢٦٣] ابن المأمون ، أخبار مصر ، حققها ايمن فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٨٣ ، ص ٣٨ ؛ المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٤٤٥ .

خلافة العاضد عام ٥٦٤هـ/١١٦٩م إلى ٤،٦٣٠ جرام[٢٦٤] ، على الرغم من سوء الأحوال السياسية للبلاد ، التي تأثرت بها الأحوال الاقتصادية بالتبعية .

كما تم صرف الدراهم في خلافة الحاكم بأمر الله ورفع من سعر الفضة في مواجهة الدينار وأصبحت مصر تعتمد في نقدها على قاعدة المعدنين ، حيث تقرر أمر الدراهم الجدد على ثمانية عشر درهماً للدينار ، وعرف منها الدراهم القطع والمزايدة ، ويشير المقريزي إلى أن طرح هذه الدراهم أحدث أثراً سيئاً ، تزامن مع قصور مياه النيل ، ثم ارتفعت الأسعار ووقفت الأحوال في الصرف في الدراهم المتداولة ، حتى وصل صرف الدينار إلى ستة وعشرين درهماً ، ثم تزايد حتى وصل في عام ٣٩٧ هـ/١٠٠٧م إلى كل أربعة وثلاثين درهماً بدينار مما أدى إلى ارتفاع السعر واضطربت أحوال الناس ، فقامت الدولة بإنزال عشرين صندوقاً من بيت المال مملوءة دراهم فرقت على الصيارفة ، كما نودي في الناس بالمنع من المعاملة بالدراهم القطع والمزايدة وأن يحملوا ما بأيديهم إلى دار الضرب ، وهذا الأمر أضر بالناس ، لأنهم كانوا يدفعون في الدرهم الواحد من الدراهم الجدد أربعة دراهم من القطع أو المزايدة[٢٦٥].

وبذلك ، كان وفاء الفاطميين فيما وعدوا به المصريين بشأن تجويد العملة مرتبطاً بعدة عوامل منها : رغبة الفاطميين في أن تكون لهم السيادة المالية من خلال إصدار عملة جديدة تحمل اسمهم وتشير إلى مذهبهم ، حتى تحقق لهم هدفاً سياسياً طالما سعوا إليه ، كذلك توفر الذهب ، فكان الفاطميون شأنهم شأن من حكم الشمال الافريقي مسيطرين على ذهب السودان ، حتى أن جوهرا عندما جاء إلى مصر كان محملاً بصناديق الذهب[٢٦٦] ، وفي مصر تم لهم استغلال الذهب الموجود في الجنوب ، لاسيما

---

[٢٦٤] انظر : La Voix, Catalogue, p. 169.

[٢٦٥] المقريزي ، إغاثة ، ص ٦٥ ، الدراهم القطع دراهم غير كاملة لذهاب جزء منها بسبب القطع ، وكانت تلك الدراهم تقل في معاملات الأفراد حسب الوزن ، غير أن الحكومات كانت ترفض التعامل بها وتسمى الدراهم الغلة ، أما الدراهم المزايدة ، فهي التي كانت تزيد عن الدراهم الجيدة في الحجم وليس في الوزن ، انظر : المقريزي ، إغاثة ، ص ٦٤ هامش ٣ ، ص ص ١٤ – ١٥ ؛ أحمد الصاوي ، المجاعات ، ص ٣٢٨ .

[٢٦٦] ابن تغري بردي ، النجوم ، جـ٤ ، ص ٢٨٨ .

في العلاقي[٢٦٧] ، فضلاً عن المكوس التي قاموا بتحصيلها ، والتي أثقلت كاهل الناس ، سواء من أهل البلاد أو من الوافدين عليها في طريق الحج والتجارة إلى جانب ما صاحب المجاعات من شيوع ظاهرة الاكتناز للاستفادة من قيمة الدنانير بعد انتهاء المجاعات ، حتى أن الشدة المستنصرية وغيرها من الأزمات لم تؤثر كثيراً في وزن الدينار الفاطمي[٢٦٨] ، فكل ذلك قد وفر لهم حصيلة من الذهب وقاعدة نقدية استطاعوا من خلالها أن يقوموا بإصلاح العملة وتجويدها وأن كان ما قاموا به أدى إلى اضطراب أحوال الناس الاقتصادية وأوقع الضرر بهم كما أسلفنا .

أما الرباع السلطانية ، فقد جاء بصددها : «لا بأس باستئجار الدور والارضين ، فيما يحل ، ولا يحل الفصل في الدور والحوانيت وأشباه ذلك ، ومن أكترى مشاهرة على أنه أن سكن يوماً لزمه الشهر» وكذلك ما شمله أمان جوهر بخصوص «الرباع» والفرق هنا يتضح فيما تقوم الدولة بتأجيره وحرصها على الحصول على الإيجار كاملاً ، أما كلمة الرباع الثانية فهي تتعلق بما يملكه المصريون من آدر وحمامات وحوانيت وغيرها ، ويطلق على ما يتحصل منها «المال الهلالي» لذلك فهناك من يربط بينها هي والزكاة والجوالي والمواريث وبين المكوس[٢٦٩] ، من حيث جبايتهم حسب الشهور الهلالية ، لكن هناك اختلاف بينهما ؛ لأن ما يؤخذ من الزكاة والجوالي يعتبر أموالاً شرعية ، أما المكوس على عكس ذلك بينما الرباع السلطانية ما يؤخذ منها يعتبر إيجاراً ويستخرج مشاهرة ، لكن ينظم حسابها بالحول .

وكانت الرباع السلطانية مما يملكه الخليفة من الآدر والحمامات والحوانيت والمعاصر والطواحين والقياسر وغيرها لا يمكن حصرها فكان للخليفة المستنصر يملك في القاهرة وحدها ثمانية آلاف بيت معدة للإيجار وعشرين ألف دكان يؤجر الواحد ما بين دينارين وعشرة دنانير في الشهر[٢٧٠] ، ولكثرة ما يملكه الخليفة كان هناك مسئولاً عن هذه الرباع يسمى «متولي الرباع» يقوم بالإشراف عليها وحمايتها واستخراج مالها من السكان مستخرجاً غاية الاستطاعة والإمكان[٢٧١] .

---

[٢٦٧] الأدريسي ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ١٩٨٩ ، ص ٣٢ .
[٢٦٨] أحمد الصاوي ، المجاعات ، ص ص ٣٢٠ ، ٣٢٣ .
[٢٦٩] المخزومي ، المنهاج ، ص ٣٤ .
[٢٧٠] سفرنامه ، ص ١٠٤ .
[٢٧١] القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ١٠ ، ص ص ٤٤٩ - ٤٥٠

ومع ذلك فقد أتاحت الدولة الملكية الخاصة ، لكن بضوابط أيضاً : «ليس لأحد أن يملك عقاراً أو بيتاً غير المنازل ، وما يكون قد بناه الفرد لنفسه»[٢٧٢] وعلى ذلك يقوم أصحاب المنازل بتأجيرها لمن يريد ، وناصر خسرو عندما أتى إلى مصر أجر منزلاً فى الفسطاط بخمسة عشر ديناراً فى الشهر[٢٧٣] ، كما قام أحد التجار فى عام ٤٩٦هـ/١١٠٢م بتأجير جزء من منزل فى القاهرة مقابل ثلاثمائة دينار فى الشهر لتقيم فيه أسرته[٢٧٤] ، كما كانت النساء فى هذا العصر مغرمات بالملكية العقارية ، خاصة المنازل ، كما تجاوزت ملكياتهن إلى الدكاكين ومطاحن الدقيق[٢٧٥] .

وهناك شكل آخر تتضح فيه الملكية الخاصة يتمثل فى الأحباس[٢٧٦] من رباع وقياسر أو غيرها ، والتى يقوم أصحابها بحبسها على جهة ما . ومع مجئ الفاطميين إلى مصر بطل تحبيس البلاد ، وصار قاضى القضاة يتولى أمر الأحباس من الرباع ، كما أصبح للأحباس ديواناً مفرداً ، وأمر المعز عام ٣٦٣هـ/٩٧٤م بحمل مال الأحباس إلى بيت المال ، كما طولب أصحاب الأحباس بالوثائق لإثبات أحقيتهم فيما يرتفع منها[٢٧٧] ، وكانت تلك خطوة من الفاطميين سيطروا من خلالها على مال الأحباس من ناحية ، كما تسنى لهم الحصول على مورد ثابت ينفقون منه على المساجد فى مصر ، ولذلك أمر الخليفة الحاكم بأمر اللّه بحصر المساجد سواء التى ليس لها وقفاً ، أو التى لا يكفيها ريع ما يخرج مما هو مقرر لها ، وخصص لكل مسجد أثنى عشر درهماً فى الشهر[٢٧٨] .

وعلى الرغم من شيوع ظاهرة الأحباس فى العصر الفاطمى ، لكن لم تصلنا وثائق كثيرة بشأنها ، اللّهم إلا ما حبسه الخليفة الحاكم بأمر اللّه عام ٤٠٤هـ/١٠١٣م من قياسر وأملاك على الجامع الحاكمى والحجة التى ترجع إلى أواخر العصر

---

[٢٧٢] ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ١٠٤ .

[٢٧٣] ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ١٠٤ .

[٢٧٤] انظر : Goitein, From the Mediterranean to India, Documents on the trade to India, South Arabia, and East Africa from the Eleventh and twelfth centuries, Speculum, xxxix, 1954, p. 191.

[٢٧٥] انظر : Ashtor, Histoire des prix et des salaries dans l'orient médiéval, Paris 1969, p. 184; Goitein, Med. Soc, 111, pp. 189, 327.

[٢٧٦] المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٩٥ ، اتعاظ ، جـ١ ، ١٤٨ .

[٢٧٧] المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٩٥ .

[٢٧٨] المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٩٥ .

الفاطمي ، وهى حجة وقف الصالح طلائع بن رزيك[٢٧٩] ، الذى أوقف فى بداية عام ٥٥٤هـ/١١٥٩م بعض الرباع وغيرهاعلى الأشراف المقيمين فى القاهرة والفسطاط وكذلك على اشراف المدينة ، وعلى ما يبدو أن الحبس الخيرى كان أكثر ثباتاً من الحبس الأهلى ، بحيث أن الدولة لم تستطع أن تتدخل أو تحل أو تبطل ما تم حبسه ، طالما كان يقوم على توفير الأموال لصيانة المساجد والمشاهد ، أما الوقف الأهلى ، فقد تأثر إلى حد كبير بالتغيرات السياسية ، إذ كان هذا الحبس يرتبط بكبار رجال الدولة[٢٨٠] ، لكن من المتوقع لو أنه كان هناك حبساً أهلياً للرعية ، ربما كان لا يتعرض لهذا الأمر ، ولا تكون السياسة عامل من عوامل حله .

ونظراً لما أسلفناه من ضرائب فرضتها الدولة على كافة أوجه النشاط الاقتصادى أو الإيجارات المقررة على أملاكها ، كان لابد أن تكون جباية هذه الأموال بشكل يضمن للدولة القدرة على تحصيلها ، مع بقاء الضوابط التى وضعتها ووجود العاشر أو الماكس فى الموانى والمدن فى كافة أنحاء مصر ، لكن كان هناك أيضاً نظام الضمان ، اذى يتعهد من خلاله الضامن أن يدفع مبلغاً من الماء سنوياً للدولة عن قيمة الضرائب المفروضة على جهة ما ، ولما كان المبلغ الذى يقوم بدفعه أقل من المتحصل ، كانت هناك الفائدة وكان العسف أيضاً .

وبدأ هذا النظام مع خلافة المعز ، إذ قام القاضى أبو طاهر الذهلى بضمان الأحباس بمبلغ ألف ألف وخمسمائة درهم[٢٨١] ، وفى عهد العزيز قام جماعة من كبار رجال الدولة بضمان أوجه الأموال المختلفة ، حيث ضمن على بن عمر بن العداس

---

(٢٧٩) المقريزى ، الخطط ، جـ٢، ص ص ٢٧٧ ، ٢٩٤ . أوقف الصالح طلائع بن رزيك ناحية بلقس ونصف بركة الحبش . سجلات المحكمة ، صندوق ١ ، وثيقة رقم ١ .

(٢٨٠) حبس أمير الجيوش على ذريته أثناء وزارته ، فكان فى البر الشرقى بهتين والاميرية والمنية وفى الغربى سفط ونهيا ووسيم ناحية الجيزة ، وظل بأيدى الورثة ، حتى وزارة المأمون البطائحى ، فلما توفى الخليفة الآمر واستولى أبو على الأفضل على الوزارة ٥٢٤هـ/١١٣٠م أعاد الجميع إلى الملاك لكون نصيبه في ذلك الأوفر ، وبعد قتله أعيدت الأملاك إلى قبضة الدولة فى خلافة الحافظ بعد أن حلت هذه الأحباس ، لولا تدخل أحد غلمان الأفضل بأبقائها ، ولما انقرض عقب أمير الجيوش ولم يبق سوى امرأة أفتى الفقهاء ببطلان الحبس ، فصار ماله يحمل إلى بيت المال . المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١١٠ .

(٢٨١) المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٩٥ .

مال الدولة والنفقات عام ٣٨١هـ/٩٩١م[٢٨٢] ، وتكرر الأمر فى خلافة الحاكم بأمر اللّه عندما عين الأخوين الحسن وعبد الرحمن عام ٤٠٥هـ/١٠١٤م فى الوساطة بعد أن ضمنا أموال الدولة وأجراءها على رسومها[٢٨٣] . كما كانت الرباع السلطانية تخضع أيضاً لهذا النظام سواء ضمناً لوجوه أموال الدولة أو منفردة[٢٨٤] ، وعلى ما يبدو أن هذا النظام الجامع للأموال ، كان فى البداية مع كبار رجال الدولة ، ثم أصبح بمضى الوقت منفرداً لكل باب من أبواب مالية مصر .التى اتسعت .

لكن هذا النظام كان يشوبه بعض الظلم والعسف كما أسلفنا سواء من قبل الديوان نفسه أو من القائمين عليه بين المدفوع للدولة والمتحصل من الرعية ، وقد ظهر هذا جلياً فى وزارة المأمون البطائحى ، من قيام الديوان بقبول الزيادات وفسخ عقود الضمان وأخذها ممن تعب فى تحصيلها ونقلها إلى من يتعهد ببذل زيادة فى قيمتها ، ولذلك أصدر المأمون منشوراً عام ٥١٦هـ/١١٢٢م[٢٨٥] يتضمن كافة الإجراءات ، التى من شأنها أن تبين مواضع الخلل ، وقرئ بالجامع الأزهر وجامع عمرو ، بإنكار ذلك ومنعه ، كما أعفى كافة الضمناء والمعاملين من قبول الزيادة فيما يتصرفون فيه ، ما داموا قائمين بأقساطهم ، واشترط على الضمناء الامتثال لما جاء فى هذا المنشور ، كما حذرهم بعد ثبوت قيمته فى ديوانى المجلس والخاص من تجاوزه ، وإذا أصر أحد على المغالطة فسخ عقده . كذلك ألزم أرباب الدواوين والمتصرفين والمستخدمين بالعمل بهذا المنشور .

وهذا يبين أن ما حدث فى وزارة المأمون البطائحى من اختلال فى نظام الضمان ، لم يكن وليد ساعته ، لكنه يعبر عن استمرار الخلل خلال فترة طويلة قد وصلت قمتها معه ، أو أنه بحكم رغبته فى الإصلاح ، استطاع أن يوقف استمرار الظلم والعسف ، وبالنسبة للضمناء ، الذين كان يرهقهم الديوان بطلب الزيادة ، ولا يستطيعون الوفاء بما عليهم ، فكثرت البقايا والمتأخرات ، لذلك أمر المأمون البطائحى

---

[٢٨٢] ابن الصيرفى ، الإشارة إلى من نال الوزارة ، القاهرة ، ١٩٢٤ ، ص ٢٤ .

[٢٨٣] ابن الصيرفى ، الإشارة ، ص ٣٠ .

[٢٨٤] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٤ ؛ كان الموفق الدمياطى بن قادوس ضامن الثغور كتنيس ودمياط وبعد وفاته عام ٥١٠هـ/١١١٦م تولى ابنه ضمانة الثغور بعده ، انظر : المقفى ، جـ ٢ ، ص ٩٦ .

[٢٨٥] ابن المأمون ، أخبار ، ص ص ٢٩ – ٣١ ؛ المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ٨١ .

فى عام ٥١٥هـ/١١٢١م بكتابة سجل يتضمن المسامحة مما عليهم . نظراً لوجود البقايا لدى الضمناء والمتصرفين وهدف من وراء ذلك إلى شئ مهم ليس فقط رفع الظلم الواقع على هؤلاء الضامنين من الديوان ، لكن أيضاً إلى منع التعسف الذى نال الرعية ، لكن بشكل ضمنى فجاء فى سجل المسامحة[٢٨٦] : «إنما بما تضمنه هذا السجل من المسامحة قصداً فى استخلاص من طالبت غفلته وخربت ذمته وإنقاذ عامل أجحف من الديوان» .

ومن الواضح أن هذه المسامحة ، كانت الأولى من نوعها ، فقد ذكر فى السجل أيضاً «كان ذلك من جميل الأحدوثة التى لم نسبق إليها ولا شاركنا ملك فيها»[٢٨٧] وشمل هذا السجل عدد ومبلغ ما سومح به من العين والغلة . كذلك أصدر الخليفة الآمر فى عام ٥١٧هـ/١١٢٣م منشوراً بمسامحة كافة سكان الرباع السلطانية بالقاهرة والفسطاط ، بأجرة شهر رمضان ، وكان طبيعياً أن يقابل ذلك بالدعاء للآمر ، ومن الأمور النادرة ، أن تكون المسامحة فى بعض الأحيان بسبب نقص العائد وعدم قدرة الضامن على التسديد[٢٨٨] ، وحدث ذلك فى وزارة رضوان بن ولخشى عام ٥٣٠هـ/ ١١٣٦م ، عندما سومح هبة الله بن عبد المحسن الشاعر ، الذى انكسر مال فى ضمانه[٢٨٩] .

وعن مدى التزام الفاطميين بما ورد فى كتب الدعوى عن النهى عن الحكرة ، إذا عز الطعام وعن التسعير ، فهذا يجرنا إلى الحديث عن احتكار الغلات وعن سياسة التسعير ومدى ممارسة الفاطميين لها ، فضلاً عن ذلك ، فهو يفرض علينا تجاوزه إلى دراسة مدى ممارسة الدولة للسياسة الاحتكارية بشكل عام . باعتبار أن منظومة الاحتكار إن وجدت ، فلابد أن تنسحب على السلع والموارد الأخرى .

ولمصر ظروف اقتصادية مرتبطة بقصور مياه النيل أو زيادته عن الحد المطلوب مما ينجم عنه الغلاء ، وهذا الحد يتراوح ما بين ستة عشر وثمانية عشر ذراعاً وتكون معه الزراعة مستقرة فإذا قصر النيل أو زاد ، أضر بأحوال البلاد

---

[٢٨٦] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٣ .
[٢٨٧] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٣ .
[٢٨٨] القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ٤٦٦ .
[٢٨٩] ابن ميسر ، أخبار ، ص ١٢٩ .

الاقتصادية ، حيث تنعدم الزراعة وتقل الأقوات ، وترتفع الأسعار ، ولذلك من يتحرى أسباب المجاعات فى مصر يجد النيل يكاد أن يكون القاسم المشترك فى هذه المجاعات ، بالإضافة إلى الحكام واختلال أحوال البلاد أو استيلاء الأمراء على الدولة وكذا وقوع الفتن ، وإجمالاً سوء تدبير الحكام[٢٩٠] .

وهذا الأمر قد واجه جوهراً عندما فتح مصر للفاطميين ، حيث كانت البلاد تعانى من المجاعات منذ أواخر أيام كافور الإخشيدي واستمرت حتى مجيئه[٢٩١] ، فاتخذ جوهر من الإجراءات التى استطاع بها أن يقضى علىهذه المجاعة ، وأن ظل خطرها فترة ، ومنها ، أنه جمع سماسرة الغلات وأنشأ مخزناً عاماً للحبوب لا يشترى إلا منه ويشرف عليه المحتسب ، وجلد بعض أصحاب المطاحن ممن لم يمتثل لأوامره[٢٩٢] . وبذلك منع من احتكار التجار للغلات ، خاصة أنه أتى ببعض السفن المحملة بالحبوب من المغرب[٢٩٣] .

وقد توالت المجاعات فى مصر الفاطمية وارتفعت الأسعار بشكل ملحوظ واتخذت الدولة خلالها من الإجراءات ما استطاعت معها فى الغالب أن تقضى عليها ، لكن من الملاحظ أن هناك أمراً قد تواتر خلال المجاعات من خلافة الحاكم إلى الفائز ، وهو لجوء الدولة إلى تحديد سعر الغلة ، ففى مجاعة عام ٣٨٧هـ/٩٩٧م أمر الحاكم بأن يكون كل أثنى عشر رطلاً من الخبز بدرهم ، كما أصدر أوامره أيضاً بالنظر فى الأسعار ، ثم تم جمع خزان الغلال والطحانين والخبازين وحدد سعر القمح ، كل تليس بدينار إلا قيراط ، والشعير عشر ويبات بدينار ، وسعر سائر الحبوب والمبيعات ، وكبست عدة حواصل للقمح وفرق ما فيها على الطحانين بالسعر المحدد[٢٩٤] . وكذلك فى مجاعة ٣٩٨هـ/١٠٠٨م حيث قصر مياه النيل ، وخير أرباب الغلات فى أن يبيعوا بالسعر الذى يقرره ، بما فيه الفائدة المحتملة لهم ، وبين أن يمتنعوا فيختم على غلاتهم ، ولا يمكنهم من بيع شيئ منها إلى حين دخول الغلة الجديدة ، فاضطروا إلى

---

(٢٩٠) المقريزى ، إغاثة ، ص ٢٤ .
(٢٩١) المقريزى ، إغاثة ، ص ١٢ .
(٢٩٢) المقريزى ، إغاثة ، ص ص ١٣ – ١٤ .
(٢٩٣) ماجد ، ظهور ، خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٣٦٢ .
(٢٩٤) المقريزى ، إغاثة ، ص ١٦ .

الاستجابة إلى ما حدده من سعر[٢٩٥] . كما أن السجل الذى أصدره الخليفة الظاهر عام ٤١٥هـ/١٠٢٤م ، تضمن أيضاً : «ان يبيع الناس كما يؤثرون بما أطعم اللّه بغير تسعير»[٢٩٦] .

وفى عصر المستنصر ، الذى حدثت فيه مجاعات متوالية ، واستمرت لعدة سنوات وبلغت ذروتها عام ٤٦٢هـ/١٠٦٩م وعرفت بـ «الشدة العظمى»[٢٩٧] ، فقام الوزير اليازورى خلال المجاعة التى وقعت عام ٤٤٧هـ/١٠٥٥م بمطالبة الفلاحين ببيع غلاتهم قبل حصادها ، كما قرر ثمن التليس ثلاثة دنانير ، بعد أن كان ثمانية دنانير[٢٩٨] ، وفى خلافة الآمر ارتفع سعر القمح حتى بيع مائة أردب بمائة وثلاثين ديناراً ، فقام الوزير المأمون البطائحى ، بالختم على مخازن الغلات ، وكرر ما فعله الخليفة الحاكم بين الختم على الغلات أو البيع بالسعر المحدد ، الذى تحدده الدولة ، وهو مائة أردب بثلاثين ديناراً[٢٩٩] . أى أنه قام بتسعير القمح للتجار أو السماسرة ، كما أمر ببيع جزء من غلات الديوان للطحانين بالسعر الذى حدده السوق .

وإذا كان ما قام به الفاطميون من التدخل فى تحديد أسعار الغلال ، لا سيما القمح ، الذى يعتبر واحداً من السلع الحيوية واليومية ، فهذا يتعارض مع ما عرضوه فى كتب الفقه الخاصة بهم والتى تبين رفضهم لسياسة التسعير ، لكن مثل هذه الإجراءات التى أسلفناها ، كانت الدولة مدفوعة إليها بغرض التقليل من حدة الغلاء ومحاربة احتكار التجار ، كما أنها حينما تدخلت لتحديد الأسعار كانت تقوم بتخفيضها إلى معدل أقل من السعر الجارى آنذاك ، محاولة منها فى تخطى الأزمة ، ومن المحتمل أن هذا الإجراء يتفق مع غالبية فقهاء السنة بخصوص التسعير ، فهم لا يعارضونه لما له من نفع للناس ، فيرى الأمام أبو حنيفة «لا ينبغى للسلطان أن يسعر

---

[٢٩٥] المقريزى ، إغاثة ، ص ١٨ .

[٢٩٦] المسبحى ، أخبار ، ص ١٩٦ .

[٢٩٧] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٣٣٥ ، حدثت المجاعات فى عام ٤٤٤هـ/١٠٥٢م و ٤٤٧هـ/١٠٥٥م ، ثم ٤٥٧ – ٤٦٤هـ/١٠٦٤ – ١٠٧١م .

[٢٩٨] المقريزى ، إغاثة ، ص ٢١ ، والتلبس ، والتليسة أيضاً وعاء يسوى من الخوص ، شبه قفة ، أنظر . أبن منظور ، لسان العرب ، بيروت ، جـ١ ، ص ٤٣٩ .

[٢٩٩] المقريزى ، إغاثة ، ص ٢١ .

على الناس ، إلا إذا تعلق به حق ضرر العامة» أما الأمام الشافعى فيرى «جواز التسعير للناس ، إذا كان بالناس حاجة»[٣٠٠] .

وبذلك يكون الفاطميون مضطرين للتسعير فى وقت الأزمات ، فهل هذا السعر الذى تحدده الدولة يظل بعد انفراج الأزمة ، ويكون هو المعمول به من قبل الدولة ، وحين تتوالى الأزمات ، ترتفع الأسعار ، فتتدخل الدولة لتثبيتها إلى ما كانت عليه ؟ هناك إشارة لناصر خسرو[٣٠١] ، الذى زار مصر أثناء خلافة المستنصر : «بأن تجار مصر يصدقون فى كل ما يبيعون ، وإذا كذب أحدهم على مشتر ، فإنه يوضع على على جمل ويعطى جرساً بيده ، ويطوف به فى المدينة ، وهو يدق الجرس وينادى قائلاً : قد كذبت وها أنا أعاقب» وهذا يبين أن التجار كانوا يبيعون بأسعار محددة ، من قبل الدولة وإذا خالفوها ، عوقبوا مما يدل على أن الفاطميين كانوا يتبعون سياسة التسعير بشكل عام ، بدليل وجود العرفاء ، وقيام المحتسب بمراقبة الأسواق ، كأحد اختصاصاته المنوط بها ، ومنها مراقبة الأسعار[٣٠٢]. صحيح أن هذا الإجراء يحمى الرعية من جشع التجار ، لكن يظل هذا الأمر متعارضاً مع ما ذكره الفاطميون عن التسعير ويبين أنه كان منفذاً ، فمثلاً كان هناك تحديداً لأسعار السوق عند ورود السلع الخاصة بتجارة العبور ، أو قبل رحيل القوافل وإرسال السفن[٣٠٣] .

وفيما يخص احتكار الغلات ، فهذا الأمر شائكاً ، إلى حد لا يمكن الدارس من الوقوف على حقيقته ، فقيام الفاطميين أثناء المجاعات بالضرب على أيدى التجار المحتكرين وتأديبهم ومحاربة الاحتكار بالختم على مخازنهم وإلزامهم بسعر محدد ، قد وضع حدا لاحتكار التجار ، أما فيما يتعلق بالفاطميين أنفسهم ، فهل احتكروا الغلات ؟ هناك إشارات غير مباشرة أثناء المجاعات منها : «وقبض على ما بالساحل من

---

[٣٠٠] ابن تيمية ، الحسبة ومسئولية الحكام ، تحقيق صلاح عزام ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٢٩ .

[٣٠١] سفرنامه ، ص ١٢٠ .

[٣٠٢] ودور المحتسب الاقتصادى يظهر فى ذهابه إلى الأسواق وتفتيشه على بضائع التجار من حيث الجودة والرداءة ومنعه لهم من الغش والتطفيف فى الكيل والميزان وإلزامهم البيع والشراء بالسعر المحدد والتفتيش على عيار الصنج والمكاييل والموازين للتأكد من سلامتها وصلاحيتها ، أنظر ، سهام مصطفى أبو زيد ، الحسبة فى مصر الإسلامية من الفتح العربى حتى نهاية العصر المملوكى ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ص ١٦٥ – ١٦٦ .

[٣٠٣] انظر : Goitein , Med. Soc., 1, p. 218.

الغلال»[٣٠٤] وأيضا : «وحمل الغلال من النواحى إلى المخازن السلطانية بمصر»[٣٠٥] .

وإذا كانت رغبة الدولة فى جمع الغلال ، ربما محاولة منها لوضع حداً لاحتكار التجار من ناحية ، وحل الأزمة من ناحية أخرى ، خاصة أن النهى عن الاحتكار يتفق وحديث الرسول صلى اللّه عليه وسلم قال : «لا يحتكر إلا خاطئ»[٣٠٦] ، لكن الفاطميين أقاموا المتجر[٣٠٧] ، الذى كان فى الأصل لخزن الغلال ، فضلاً عن الأهراء[٣٠٨] ، التى كان يأتى إليها المتحصل من خراج الوجه القبلى ؛ الذى كان يجبى عيناً ، خاصة الحبوب ، ثم تحول المتجر بعد ذلك كأحد منافذ استثمار أموال الخليفة ، فكان يباع للخليفة المستنصر فى كل سنة غلة بمائة ألف دينار[٣٠٩] ليواجه بها احتكار التجار وقت المجاعات ؛ أو لأنها كانت تجارة مربحة ، خاصة أن الخلفاء أسهموا بأموالهم فى التجارة . هذا الأمر حتى عصر المستنصر يعد احتمالاً ، لا سيما أن هذا المتجر سرعان ما تحول مع عام ٤٤٤هـ/١٠٥٢ ، إلى شراء وخزن سلع أخرى ليس منها ضرر ولا كلفة على الناس وأكثر فائدة . كما رأى اليازورى الذى حسن للخليفة المستنصر هذا الأمر وأخذ به[٣١٠] وهذا يوضح أثر آخر وأهم فى خزن الغلات وهو أنه يضر بأحوال الناس ، مما يبين أن المتجر ، كان يعد وسيلة مباشرة للاحتكار .

وبتوالى المجاعات بعد المستنصر ، نلمس محاربة الوزراء المسيطرين على البلاد ، لاحتكار التجار للغلات ، مع قيامهم باحتكارهم لها بالفعل ، فمع وزارة الأفضل ٤٨٧-٥١٥هـ / ١٠٩٤ - ١١٢١م ، وجد فى مخازنه بعد وفاته وتحت يد عماله

---

[٣٠٤] المقريزى ، إغاثة ، ص ١٦ .

[٣٠٥] المقريزى ، إغاثة ، ص ٢١ .

[٣٠٦] أبو داود ، صحيح سنن المصطفى ، بيروت ، جـ٢ ، ص ٩٨ .

[٣٠٧] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٩ ، والمتجر عبارة عما يبتاع للديوان من بضائع تدعو إليها الحاجة ويقتضيه طلب الفائدة .

[٣٠٨] والأهراء هى الأماكن التى تخزن بها الغلال والاتبان الخاصة بالخليفة أو السلطان احتياطاً لأمثال الطوارئ الاقتصادية ، وكانت لا تفتح إلا عند الضرورة ، المقريزى ، إغاثة ، ص ٢٨ .

[٣٠٩] المقريزى ، إغاثة ، ص ٢٠

[٣١٠] المقريزى ، إغاثة ، ص ٢٠

والجباة وضمن النواحى أصناف الغلال والحبوب[٣١١] . وربما كان ذلك من أسباب المجاعة ، التى كانت فى عصر الآمر ؛ لأن المقريزى لم يذكر أنها كانت بسبب قصور مياه النيل ، كذلك احتكر الصالح طلائع بين رزيك أثناء وزارته ٥٤٩-٥٥٦هـ/١١٥٤-١١٦١م ، الغلات ، مما كان سبباً بالفعل فى ارتفاع أسعارها فى أيام الخليفة الفائز ٥٤٩-٥٥٥هـ/ ١١٥٤ -١١٦٠م ، مع قصور مياه النيل ، فأخرج الوزير ما كان بالأهراء من الغلات ما لا يحصى وفرقها على الطحانين[٣١٢] .

وكان طبيعياً أن تتضح سياسة الدولة الاحتكارية فى مجالات أخرى بشكل أوسع ، لكنها مع ذلك ، مارست سياسة شبه احتكارية وأخرى احتكارية خالصة لبعض الصناعات والسلع والموارد ، التى تمثل أهمية اقتصادية ، سواء التى تميزت مصر بإنتاجها ، أو التى افتقرت إليها وكانت عليها أحرص ، ومن الصناعات التى لم تصل إلى حد الاحتكار الكامل ، صناعة النسيج وتجارته وكذا السكر وغيره ، ثم احتكار بعض الموارد مثل الشب والنطرون ، وبعض السلع مثل الخشب والحديد والرصاص وزيت الزيتون وغيرها ؛ فضلاً عن بعض الصناعات السيادية المرتبطة بقوة الدولة مثل صناعة السلاح والسفن والعملة .

ولما كان ازدهار مختلف فروع الصناعة فى العصر الفاطمى ، ظاهرة اقتصادية ارتبطت بالتطور الكبير فى تجارة مصر الدولية وفتح أسواق جديدة لها ؛ فضلاً عن رفاهية البلاط الفاطمى[٣١٣] . لذلك فصناعة النسيج ، التى اشتهرت بها مصر فى ربوع العالم الإسلامى ، ظلت مع الفاطميين تمثل أهمية كبرى ، لذا عمل الفاطميون على إنشاء المصانع الحكومية ، التى تسمى «طرازاً»[٣١٤] فى طول البلاد وعرضها[٣١٥] ، وهذه الدور لم تنشأ مع الفاطميين ، بل وجدت منذ الفتح العربى ،

---

(٣١١) ابن ميسر ، أخبار ، ص ٨٣ .

(٣١٢) المقريزى ، إغاثة ، ص ٢٨ .

(٣١٣) انظر : Ashtor, Social and Economic history, p. 198.

(٣١٤) كان لفظ الطراز يعنى فى أول الأمر الكتابة الزخرفية ، التى توجد على الأقمشة وهو لفظ أعجمى مأخوذ من كلمة "طرازيدن" ومعناها التطريز ، ثم اتسع مدلولها فأصبحت تستعمل للكتابة على الورق والنسيج ، انظر : سعاد ماهر ، النسيج الإسلامى ، القاهرة ١٩٧٧ ، ص ٢٥ .

(٣١٥) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٤١٣ .

وظلت حتى مجئ الفاطميين تأثراً بالبيزنطيين[٣١٦] ، أو أن هذه المصانع نشأت فى العصر الإسلامى فى عهد الدولة الأموية مع خلافة الوليد بن عبد الملك[٣١٧] ، ومع الفاطميين عمت هذه المصانع أنحاء مصر فى تنيس ودمياط والإسكندرية[٣١٨] وطحا بالصعيد[٣١٩] وغيرها ، ويبدو أنه كان بالمدينة الواحدة أكثر من دار واحدة للطراز[٣٢٠].

وكان حرص الفاطميين على النهوض بالصناعة واضحاً مما وألجأهم فى بداية دولتهم إلى اختيار الصناع المهرة والحاقهم بخدمة الدولة فى الصناعات ، التى كانت تهتم بها ، ولذلك جعل المعز كل ماهر فى صنعة صانعاً للخاص ، وأفرد لهم مكاناً برسمهم ، كما شرط على ولاة الأعمال عرض أولاد الناس بأعمالهم ، فسيروا إليه بعضهم ، فأفرد لهم دوراً وأطلق على هؤلاء صبيان الحجر[٣٢١] . وتؤكد وثائق الجنيزة[٣٢٢] هذا الاتجاه ، حيث كان يجبر العمال المهرة على العمل فى مصانع النسيج الحكومية من خلال المسئول عن الجند ، بانتقاء الحرفيين المهرة ، وكانوا بذلك لا يستطيعون الخروج مطلقاً من القاهرة لسنوات عديدة ، إلا من خلال أمر خلافى يؤمنهم ، ومن خلال حالة التماس[٣٢٣] رفعت للخلافة تؤكد هذه الحقيقة ، وتبين إلزام هؤلاء العمال بالخدمة فى المصانع الحكومية ضد رغبتهم ، حتى أن أحدهم كتب يشكو بمرارة أنه غير قادر على المشاركة فى الحياة الاجتماعية والدينية مع أخوته .

وهناك اختلاف بين المؤرخين المحدثين ، حول وضعية هذه المصانع ، فمنهم من يرى[٣٢٤] : «أن إنشاء هذه الدور يعد احتكاراً لصناعة النسيج» ومن يرى أنه[٣٢٥] : «ينبغى ألا نظن أن الحكومة الفاطمية كانت تحتكر صناعة النسيج وتجارتها» ، وكل ما فى الأمر أن الحكومة الفاطمية كانت تنظر إلى تأجير ما تملك من مبان كمصدر إيراد

---

[٣١٦] زكى حسن ، كنوز الفاطميين ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ١١ .

[٣١٧] سعاد ماهر ، النسيج الإسلامى ، ص ص ٢٥ ، ٢٨ .

[٣١٨] القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ٤٧٢ .

[٣١٩] المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٢٠٢ ، وكان يعمل بها ثياب الصوف الرفيعة .

[٣٢٠] ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٤٩ .

[٣٢١] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٤٤٣ .

[٣٢٢] انظر : Goitein. Med Soc, 1, p. 82.

[٣٢٣] انظر : Goitein. Med Soc, 1, p. 82.

[٣٢٤] زكى حسن ، كنوز الفاطميين ، ص ١١ .

[٣٢٥] لويس ، القوى البحرية ، ص ٢٦٢ .

لها وليس لهذا علاقة بحرية الصناعة[٣٢٦] وهذا الرأى مرتبط بما أورده ناصر خسرو[٣٢٧] من قيام الحكومة الفاطمية بتأجير المخازن والمتاجر لصناع وتجار المنسوجات .

بداية لا نستطيع أن نقرر بأن الفاطميين احتكروا صناعة النسيج فى مصر ، لأنهم أعطوا الفرصة للمصريين لمزاولة هذه الصناعة ، بدليل انتشارها فى جميع أنحاء مصر ، فتذكر المصادر[٣٢٨] أن كثيراً من مدن الوجه البحرى اشتهرت بهذه الصناعة منها تنيس ، التى كان معظم أهلها حاكة ، ودمياط ودبيق وشطا فى الوجه البحرى ؛ فضلاً عن الإسكندرية ، وفى الوجه القبلى اشتهرت الأشمونيين واسيوط وأهناس والفيوم ، التى كان يسكنها الصناع وأرباب الحرف والنساجون وغيرها[٣٢٩] . كما تطالعنا وثائق الجنيزة[٣٣٠] ، بوجود مصانع للغزل والصباغة فى الفسطاط والمحلة . كذلك كشفت أوراق البردى[٣٣١] فى مدينة البهنسا عن قائمة تتضمن أشخاص يملكون أنوالاً للنسيج ، فمنهم من كان يملك أربعة أنوال ، ومنهم من كان يملك خمسة مما يدل على اشتغال أهل هذه المدينة بهذه الصناعة .

لكننا لا يمكن فى ذات الوقت أن نقول بحرية هذه الصناعة الأهلية ، حيث أنها كانت تخضع لإشراف الدولة من خلال فرض الضرائب ، ووضع الضوابط لإنتاجها ، فكان غير مسموحاً ، بإنشاء مصانع للغزل فى بيوت خاصة أو تصنيعها بدون دفع الضريبة[٣٣٢] ، وفى تحريم الدولة على النساجين فى تنيس ودبيق أن ينسجوا شيئاً إلا تحت إشراف الدولة عن طريق ختم ما يتم نسجه بختم السلطان[٣٣٣] ، الذى عرف بـــ

---

[٣٢٦] البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ١٢٤ .

[٣٢٧] سفر نامه ، ص ١٢٢ .

[٣٢٨] مجهول ، الاستبصار فى عجائب الأمصار ، بغداد ١٩٨٦ ، ص ٨٧ .

[٣٢٩] الادريسى ، نزهة المشتاق ، ص ص ١٥٦ – ١٥٧ .

[٣٣٠] انظر : Goitein. Med Soc, 1, p. 362 - 366.

[٣٣١] جروهمان ، أوراق البردى العربية ، تحقيق عبد العزيز الدالى ، القاهرة ١٩٧٤ ، الجزء السادس ، بردية رقم ١٨٧ ، ترجع إلى القرن الرابع أو الخامس الهجريين – العاشر أو الحادى عشر الميلاديين ، ص ص ٧٠ – ٧٢ .

[٣٣٢] انظر : Goitein. Med Soc, 1, p. 116.

[٣٣٣] المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٢١٣ .

«خاتم الشرب والدبيقى»[٣٣٤] ، الذى يبين أن هذه المنتجات قد استوفت الضريبة المستحقة عليها ، ولذلك كان ممنوعاً على مصانع النسيج والصباغة فى البيوت الخاصة ، أو التى تصنع خلافاً لذلك بهدف التحايل فى دفع الضريبة المستحقة ؛ لأنه يمكن التعرف عليها على الفور مع غياب الختم[٣٣٥] ، كما لاتباع هذه المنسوجات إلا على أيدى السماسرة المكلفين بهذا العمل من قبل الدولة ويناط بأحد كتاب الديوان تسجيل ما يباع ، وبعدها تحمل المنسوجات لمن يقوم بشدها وحزمها ، ثم تفتش المراكب التى تحملها مثلما يحدث للثياب المنتجة فى شطا[٣٣٦] ، والتى تعد مثالاً لما يحدث للمدن الأخرى المنتجة لهذه المنسوجات .

ولما كانت صناعة النسيج تمثل الصناعة الرئيسية فى إقليم البحر المتوسط فى العصور الوسطى[٣٣٧] ، وكانت مصر إحدى هذه الدول التى كانت مصانعها تنتج أنواعاً مختلفة من المنسوجات الجيدة ، من هنا جاء اهتمام الفاطميين بالخامات المنتجة لهذه الصناعة ، لاسيما الكتان ، حيث تتوفر فى زراعته فى الدلتا ، فى بنها وبوصير وسمنود والفيوم[٣٣٨] ، لذلك كان الكتان يجلب للدولة من مناطق زراعته من خلال الوكلاء الحكوميين ، وقبل سفرهم إلى هذه المراكز ، كان على التجار أن يجهزوا الخطابات ليقدموها إلى العامل أو متولى الأموال[٣٣٩] ، ويرجع حرصهم على الحصول على الكتان لاستخدامه فى مصانعهم الخاصة ، وتصديره للشرق والغرب[٣٤٠] ، خاصة تونس وصقلية[٣٤١] ومن هنا كانت الدولة أكبر مستهلك للكتان[٣٤٢] . أما الحرير الذى لم تكن مصر من البلاد التى تعنى بإنتاجه[٣٤٣] ، فكانت لذلك حريصة على استيراده

---

[٣٣٤] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٤ .

[٣٣٥] انظر : Goitein. Med Soc, 1, p. 117.

[٣٣٦] المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٢١٣ .

[٣٣٧] انظر : Goitein Med Soc, 1, p. 101.

[٣٣٨] ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٤٩ ؛ المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ص ٢١ ، ٢٢ .

[٣٣٩] انظر : Goitein. Med Soc, 1, p. 267.

[٣٤٠] ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٤٩ .

[٣٤١] انظر : Goitein. Med Soc, 1, p. 154.

[٣٤٢] انظر : Goitein. Med Soc, 1, p. 267.

[٣٤٣] البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ١٧٦ .

خاصة من صقلية وأسبانيا(٣٤٤) ، ومن خلال أحد الخطابات فى وثائق الجنيزة(٣٤٥) ، الذى يرجع إلى القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى ، أن كل الحرير ، الذى وصل إلى الإسكندرية ، تسلمته الحكومة ، باستثناء كميات صغيرة ذات جودة أقل ، وعندما ينخفض سعر الحرير فى الفسطاط كان على التجار أن يبيعوا مخزونهم منه للحكومة ، ويتلقون المبلغ الذى يحدد علانية(٣٤٦) ، كما كان الحرير يصادر ويحتجز ومثال ذلك ما حدث فى الإسكندرية عام ٥٣٥هـ/١١٤٠م(٣٤٧) ، أما القطن ، فعلى الرغم من كونه أحد الخامات المنتجة لصناعة النسيج ، حيث يزرع فى مصر ، خاصة فى الفيوم(٣٤٨) وكانت الدولة تفرض عليه الضرائب(٣٤٩) ، وتصنع منه الثياب فى البهنسا(٣٥٠) ، فإنه لم يصل خلال العصر الفاطمى ، لما وصلت إليه الخامات السابقة .

ويرجع اهتمام الفاطميين بهذه الصناعة أيضاً إلى أن تجارة المنسوجات المصرية كانت رائجة وتمثل سلعة سوق فى العالم الإسلامى أو بيزنطة ، بسبب ما كانت تنتجه المصانع من أقمشة عالية الجودة ، ففى الوجه البحرى ، حيث صناعة الأقمشة الكتانية ، كانت تنيس تنتج القصب الملون والبوقلمون ، وكلاهما لا ينتج فى مكان آخر فى جميع العالم(٣٥١) ، أما دمياط فاشتهرت بإنتاج القصب الأبيض والشرب(٣٥٢) ، وليس أدل على شهرة دمياط من أن مدينة كازورون الفارسية قلدت المنتجات المصرية وعرفت بـ «دمياط الأعاجم»(٣٥٣) وتنتج دبيق وهى إحدى قرى دمياط قماش مزركش ؛ فضلاً عن مدينة شطا القريبة من تنيس ودمياط ، التى ينسب إليها الثياب الشطوية(٣٥٤) .

---

(٣٤٤) انظر : Goitein. Med Soc, 1, p. 154.

(٣٤٥) انظر : Goitein. Med Soc, 1, p. 268.

(٣٤٦) انظر : Goitein. Med Soc, 1, p. 267.

(٣٤٧) انظر : Goitein. Med Soc, 1, p. 268.

(٣٤٨) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ١٠٦ .

(٣٤٩) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٤ .

(٣٥٠) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٢٣٧ .

(٣٥١) سفرنامه ، ص ٩٢ .

(٣٥٢) ناصر خسرو ، سفر نامه ، ص ٩٢ .

(٣٥٣) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٤٣٣ .

(٣٥٤) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٢٦٦ .

ويبدو أن هذه الصناعة قد تقدمت مع الفاطميين بحيث وجدت مناطق جديدة فى دبقو ودميرة(٣٥٥) وتونة ، حيث يغزل فيها الغزل الرفيع(٣٥٦) ؛ فضلاً عن منية الخصيب ومنية غمر ومنية زفتى(٣٥٧) ، كما استحدثت مع الفاطميين أنواعاً أخرى من الأقمشة مثل العتابى(٣٥٨) ، الذى ينسب إلى بغداد ، والسقلاطون من بلاد الروم فى خلافة العزيز ، بسبب العلاقات السياسية الطيبة بين الخليفة الفاطمى وعضد الدولة البويهى من ناحية والصلح الذى تم مع الروم عام ٣٧٧هـ/٩٨٧م من ناحية أخرى وساعد بذلك الاتصال التجارى ، أيضاً على قيام الصناع المصريين بتقليد أنواع الأقمشة(٣٥٩) ، مثل الطبرستانى ، الذى تم تصنيعه فى تنيس ودمياط والأرمنى فى أسيوط[٣٦٠] أما الحرير فكان ينسج ويصنع ليس فقط فى الإسكندرية ، لكن أيضاً فى المدن الصغيرة فى ريف مصر ، ومنها المحلة ، حتى أن النساء كن مشغولات بحل ولف ونسج وصباغة الحرير فى كل مكان(٣٦١) .

لذلك لعبت صناعة النسيج دوراً ملحوظاً فى التجارة الخارجية ، خاصة المنسوجات الكتانية ، التى كانت تشكل للفاطميين الغاية الأساسية للتجارة الدولية(٣٦٢) ، فحملت منتجات تنيس إلى المشرق والمغرب وبيزنطة على وجه الخصوص ، أما العراق ، فكانت مصر تصدر إليها القماش الشرب ما بين عشرين إلى ثلاثين ألف ديناراً(٣٦٣) على الرغم من العداء السياسى ، الذى كان بين الخلافتين معظم الوقت ، وحظيت مدينة أسيوط بشهرة فائقة فى المشرق ، بسبب ما كانت تنتجه من منسوجات صوفية دقيقة ، حيث كانت تصدر إلى بلاد فارس منتجاتها ، التى عرفت هناك بـ «الصوف المصرى»(٣٦٤) .

---

(٣٥٥) الادريسى ، نزهة المشتاق ، ص ١٥٦ ، حيث كان بها طرازاً للخاصة وطرازاً للعامة .

(٣٥٦) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٧٧ .

(٣٥٧) انظر : Ashtor, Social and Economic History, p. 198.

(٣٥٨) انظر ، نوع الثياب الحريرية نسب إلى ابن حفيد عميرة المسمى عتاب Dozy. Supplément, 11, p. 93.

(٣٥٩) البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ١٣٣ .

(٣٦٠) انظر : Ashtor, Social and Economic History, p. 198.

(٣٦١) انظر : Goitein, Med Soc. 1, p. 102.

(٣٦٢) انظر : Goitein, Med Soc. 1, p. 105.

(٣٦٣) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٧٧ .

(٣٦٤) سفر نامه ، ص ١٣١ .

كما اهتم الفاطميون بصناعة النسيج من أجل الدعاية لدولتهم ، حيث حملت مصنوعاتهم عقائدهم الإسماعيلية ، وكذلك لتلبية حاجة البلاط الفاطمى الذى اتسم بالمبالغة والرفاهية ، ولحاجة الدولة أيضاً لما توزعه على العاملين بها من كسوة وخلع فى المناسبات المختلفة ، وحسبنا ما ذكره المؤرخون[٣٦٥] سواء عن القصر أو ما تركه الوزراء من الثياب . وبذلك حققت هذه الصناعة شهرة كبيرة ، لاسيما فى العصر الفاطمى الأول ، حيث كان الأمن مستتباً ، فأدى هذا الاستقرار السياسى إلى استغلال المقدرات المحلية والإقليمية فى إنتاج مصنوعات على درجة عالية من الجودة والدقة[٣٦٦].

وكل ما سبق يفسر حرص الفاطميين على صناعة النسيج وتجارتها ، بل واحتكارها لكل ما ينتج سواء فى دور الطراز الحكومية أو فى المصانع الأهلية ، فكان ما يصنع فى الدور الحكومية لا يباع ولا يعطى لأحد[٣٦٧] ، ويكفى أن نشير إلى أن هذه الدور ، كانت تنعت بـــ "مصانع السلطان[٣٦٨] صحيح ، أن هذه المصانع كانت مخصصة لإنتاج ملابس الخليفة وأهل القصر ، والخلافة كانت فى حاجة إليها لتسد مطالبها ، مما ألجأها مثلاً إلى أن تنشأ دار الديباج[٣٦٩] ، التى يصنع بها الحرير . أما المصانع الأهلية ، فكانت تخضع للحكومة أيضاً من خلال ما فرض عليها من ضرائب، إلى جانب الإشراف الدقيق عليها . ومن هنا كانت هيمنة الدولة الفاطمية على صناعة النسيج لم تصل إلى حد الاحتكار بل مارست الدولة عليها سياسة شبه احتكارية .

كذلك أشرفت الدولة الفاطمية على صناعة السكر بشكل يستلفت النظر ، حتى كادت أن تحتكرها أيضاً ، بدليل ما قامت به من إنشاء المعاصر ومراكز تصنيع السكر

---

[٣٦٥] احتوت خزائن الفرش والأمتعة على ألوان مختلفة من الأقمشة ، المقريزى ، الخطط ، جـــ١ ، ص ص ٤١٦ ، ٤١٧ ، وجد للأفضل بن بدر الجمالى من المقاطع والستور والمطارح والمساند الديباج والدبيقى الحرير والمذهب على اختلاف أجناسها ، ومن العتابى وغيره تسعون ألف ثوب ، وثلاث خزائن كبار مملوءة صناديق كلها دبيقى وشرب عمل تنيس ودمياط ، ابن ميسر ، أخبار ، ص ٨٢ ، المقريزى ، اتعاظ ، جـــ٣ ، ص ٧١ .

[٣٦٦] محمود إسماعيل ، سوسيولوجيا ، جـــ٢/١ ، ص ٢٦١ .

[٣٦٧] ناصر خسرو ، سفر نامه ، ص ٩٢ .

[٣٦٨] ناصر خسرو ، سفر نامه ، ص ٩٢ .

[٣٦٩] المقريزى ، الخطط ، جـــ١ ، ص ٤٦٤ .

فى مختلف أنحاء البلاد ، ومنها الفسطاط ، التى اشتملت على مصانع كثيرة[٣٧٠] ، كذلك فى الوجه القبلى فى ترنوط وغيرها[٣٧١] ، كما عمت مصانع العسل أنحاء البلاد أيضاً[٣٧٢] ، ولذا أجبرت الدولة الفلاحين على أن يحملوا القصب الخاص بهم إلى هذه المعاصر الحكومية[٣٧٣] ، ونفس الشيئ بالنسبة لأراضى الاقطاعات ، فكان على المقطع أن يعصر القصب الخاص به فى معصرة الدولة[٣٧٤] ، وكان اهتمام الدولة بهذه الصناعة ربما يرجع إلى أنها كانت تجبى مقادير طائلة من خراج الأرض المزروعة قصباً[٣٧٥] ، ولذلك اهتمت بزراعته ، حتى أنه مع أواخر العصر الفاطمى ، كانت زراعته منتشرة على جانبى النيل من الصعيد حتى مصب النهر ، وكانت أصلح الجهات لزراعته ، تلك التى تقع بين فرعى رشيد ودمياط[٣٧٦] ، كما يشير ابن حوقل[٣٧٧] إلى الصافية من أعمال الغربية ، بأنها ضيعة كثيرة القصب .

ويرى البعض[٣٧٨] ، أن الحكومة الفاطمية احتكرت صناعة السكر ، ويعتبر الخليفة الحاكم أول من أدخل الاحتكار لهذه الصناعة فى مصر ، معتمداً على ما قام به الخليفة من إتلاف مقادير كبيرة من الزبيب والعنب وإلقاء العسل فى النيل[٣٧٩] ، لكن ليس لدينا ما ينهض دليلاً على أن الفاطميين احتكروا صناعة السكر فى عصره ، لأن الغرض مما قام به الخليفة هو منع شرب الخمر ، كما أن الفاطميين أتاحوا الفرصة للمصريين لإنشاء المصانع الخاصة المنتجة للسكر والعسل ، بيد أن ما قامت به الدولة من وضع الضوابط على هذه الصناعة وإحكام قبضتها عليها كاد أن يكون نهائياً .

---

(٣٧٠) ابن دقماق ، الانتصار ، بيروت ، جـ٤ ، ص ص ٤١ - ٤٢ .

(٣٧١) البكرى ، المغرب ، ص ٢ .

(٣٧٢) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٢٧٢ .

(٣٧٣) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٦٧ .

(٣٧٤) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٦٧ .

(٣٧٥) حسن ابراهيم ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٥٩٤ .

(٣٧٦) الادريسى ، نزهة المشتاق ، ص ص ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٥ .

(٣٧٧) صورة الارض ، ص ١٣٤ .

(٣٧٨) انظر : Mazuel, Jean, Le sucre en Egypte, Le Caire 1937, p. 11.

(٣٧٩) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٤ ، ص ١٧٧ . اراق الخليفة الحاكم بأمر الله خمسة الاف جرة من العسل فى البحر خوفاً من أن تعمل نبيذاً .

وتطالعنا وثائق الجنيزة[٣٨٠] عن وجود هذه المصانع الخاصة فى الفسطاط ، حيث كانت تمثل أكبر صناعة فى هذه المدينة فى العصر الفاطمى ، حتى أن كثيراً من العاملين بهذه الصناعة قد ارتبطت أسماؤهم بها ، فكان اسم «السكرى» من أسماء العائلات الشائعة[٣٨١] ، ولم تكن هذه الصناعة وقفاً على مدينة الفسطاط ، فكان هناك أيضاً مطبخاً للسكر فى شرقى الدلتا فى منية زفتى[٣٨٢] ، ويظهر من هذه المصانع ما هو صغيراً ؛ بالإضافة إلى المصانع الكبيرة أو الفابريقات ، التى كان أصحابها من الأثرياء ، لأن هذه المصانع كانت تساوى فوق آلاف الدنانير ، ويعمل بها عدد كبير من العمال ، بينما كانت المعامل الصغيرة من الممكن أن يتم تشغيلها بعشرة دنانير[٣٨٣] ، وكانت هناك شريحة من المجتمع فى أواخر العصر الفاطمى وصفت بأنها من الأقوياء المميزين ، الذين كانوا يملكون المعاصر[٣٨٤] .

وهذا معناه أن هذه الصناعة قد مارسها المصريون على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية ، من خلال امتلاك المعاصر أو مطابخ السكر أو المسابك ومصانع العسل سواء أكانت صغيرة أم كبيرة ، كما أن الأخيرة قد توائمت وروح العصر من حيث ضخامتها وكثرة عدد الصناع بها[٣٨٥] ، مما يدل على أن هذه الصناعة قد تمتعت بحرية العمل[٣٨٦] ، لكن لما كانت الدولة تجبر الفلاحين والمقطعين على عصر القصب بمعاصرها الخاصة ، التى انتشرت فى أنحاء البلاد ، فربما كانت تعود وتبيع لهذه المصانع القصب ، الذى يرد إليها ، ثم تفرض عليها الضرائب والتى بلغت على مطابخ

---

(٣٨٠) انظر : Ashtor, Social and Economic History, p. 200.

(٣٨١) انظر : Goitein, Med. Soc, 1. pp. 266 - 267.

(٣٨٢) انظر : Goitein, Med. Soc, 1. pp. 126.

(٣٨٣) انظر : Goitein, Med. Soc, 1. pp. 81.

(٣٨٤) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٣ .

(٣٨٥) محمود إسماعيل ، سوسيولوجيا ، جـ١/٢ ، ص ١٦٣ .

(٣٨٦) انظر : Ashtor, Social and Economic History, p. 199.
وما يدل على حرية العمل فى هذه الصناعة إلى حد ما ، ما تشير إليه بردية من قيام تاجر بعمل حساب أسبوعى لسكر موزع ، انظر : جروهمان ، أوراق البردى العربية ، بردية رقم ٣٦٩ ، جـ٦ ، ص ١٢٦ .

السكر ١٣٥ دينار وعلى دار القند فى الفسطاط والقاهرة ٣٠١٨ دينار ، وعلى مرنعة العسل ٢٣٢ دينار[٣٨٧] ، فضلاً عما كان يدفعه أصحاب المعاصر لتكرير السكر[٣٨٨] .

ويرى البعض[٣٨٩] : «أن الضريبة على صناعة السكر فاطمية الأصل» وربما ذلك يرجع إلى أن زراعة القصب عرفت فى مصر فى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلاد[٣٩٠] ، وشهدت تطوراً ملحوظاً فى العصر الفاطمى ، حتى ذكر المخزومى[٣٩١]: «وقد استوفينا من ذكر القصب قدراً لا يؤثر عنه التجاوز ، إنما ذكرنا هذا القدر منه لكون زراعته خطرة ولكونه أعلى أصناف المزروعات» ولذلك توفرت لزراعته الأسباب من اختيار الخولى العارف بالأرض والكرامين ، الذين يقومون بخدمة الأرض والوقافون المشرفون على إدارة السواقى ، كما يرتب الحراس لحراسة القصب[٣٩٢] .

ولقد اهتمت الدولة الفاطمية بهذه الصناعة أيضاً بسبب أهميتها التجارية مثل صناعة النسيج من حيث ما ذكرناه من كونها سلعة سوق ولسد حاجة البلاط الفاطمى ، بالإضافة إلى ما تحتاجه الدولة من كميات وفيرة لتفى بالتزاماتها فيما تقوم بتصنيعه من حلوى وتوزيعه على الرعية ، وليتوائم إنتاجه مع حاجة المجتمع الذى تعود على الرفاهية ، وعلى ذلك استخدمت وسائل وأساليب جديدة لتكريره ، وتحسنت الطريقة القديمة[٣٩٣] ، كما أنتجت عدة أنواع من السكر تبعاً لدرجة تكريره .

وتبدو أهمية السكر فى أنه كان من أهم الصادرات الضئيلة ، التى تمثلت فى فائض الإنتاج الزراعى والصناعى آنذاك[٣٩٤] . حتى أصبح السكر يمثل أهم منتج

---

(٣٨٧) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(٣٨٨) هناك وثيقة ترجع إلى عام ٤٩٤هـ/١١٠٠م تبين أنه دفع ثلاثة عشر درهماً مقابل تكرير السكر ، انظر Goitein, Med. Soc., 1, p. 116.

(٣٨٩) انظر : Rabie, The Financial System, p. 82.

(٣٩٠) جروهمان ، أوراق البردى العربية ، جـ٦ ، بردية رقم ٢٣٢ ترجع إلى عام ٢٨٨هـ/٩٠٧م ، ص ٣٦ . ذكر فيها ما دفع إلى نواطير القصب ، وفى بردية أخرى رقم ٢١٦ ترجع إلى ق٣هـ - ٩م ، جـ٤ ، ص ٦ يذكر فيها ما زرع من قصب .

(٣٩١) المنهاج ، ص ٥ .

(٣٩٢) المنهاج ، ص ص ٤ - ٥ .

(٣٩٣) انظر : Ashtor, Social and Economic History, p. 199.

(٣٩٤) محمود إسماعيل ، سوسيولوجيا ، ٢/١ ، ص ١٨١ .

اقتصادى فى مصر خلال القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، وعرف فى الشرق الأقصى باسم "المصرى"[٣٩٥] وكانت له شهرة تفوق جنديسابور ، التى اشتهرت بالسكر[٣٩٦] . فقد راجت لذلك تجارته فى وقت كانت مصر تمثل أحد أقطاب التجارة الدولية ، ومعنى ذلك أن الإنتاج الزراعى قد كرس للسوق وليس لمجرد الاكتفاء الذاتى[٣٩٧] ، حيث أن هذه الصناعة كانت واسعة الانتشار لارتباطها بالمناطق التى تزرع قصباً[٣٩٨] ، ولذلك كانت مصر تنتج عسلاً وسكراً كثيراً[٣٩٩] ، كما كانت هذه الصناعة ذات طابع رأسمالى ، حيث أن الطرق المعقدة التى استخدمت فى إنتاجها ، لا يمكن استخدامها إلا فى المصانع الكبيرة ، التى كان يطلق عليها "مطابخ السكر"[٤٠٠] .

كذلك لسد حاجة البلاط الفاطمى ، حيث تذكر المصادر[٤٠١] الأسمطة التى كانت تعد ويستخدم فيها مقادير كبيرة من السكر ؛ بالإضافة إلى سياسة الدولة تجاه الرعية استلزمت إنشاء دار الفطرة[٤٠٢] ، لإنتاج حلوى عيد الفطر ، وما كان يستهلك فيها أيضاً ، وما حوته من أسماء الحلوى ، التى كانت توزع على العاملين فى الدولة فى مناسبات مختلفة ، ولابد أن الرعية تأثروا بهذه التقاليد ، حتى كان للحلوى سوقاً فى مدينة الفسطاط تشتمل على أنواع عديدة منها خاصة فى الأعياد[٤٠٣] .

---

(٣٩٥) انظر : Ashtor, Social and Economic History, p. 199.

(٣٩٦) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٤٠٨ .

(٣٩٧) محمود إسماعيل ، سوسيولوجيا ، ٢/١ ، ص ١٥٦ .

(٣٩٨) انظر : Ashtor, Social and Economic History, p. 199.

(٣٩٩) سفر نامه ، ص ١١٨ .

(٤٠٠) انظر : Ashtor, Social and Economic History, p. 199.

(٤٠١) ما كان يعمل فى سماط عيد الفطر ، قصران من حلوى فى كل واحد سبعة عشر قنطاراً من السكر ، الخطط ، جـ١ ، ص ٣٨٨ ، وكذلك ما تم عمله فى سماط عيد الأضحى فى خلافة الظاهر ، وصل السماط المعمول من السكر والقصور وعدد قطع تماثيله مائة وسبعة وخمسين قطعة ومن القصور السكر الكبار سبعة قصور ، انظر : المسبحى ، أخبار ، ص ٢٠١ . كذلك بلغ راتب السكر المستخدم فى سماط عيد الفطر خمسون ألف من ، وقد أعد على مائدة السلطان شجرة للزينة تشبه شجرة النارنج ، كل غصونها وأوراقها وثمارها مصنوعة من السكر ، انظر ، سفرنامه ، ص ١٢٣ .

(٤٠٢) قام الخليفة العزيز ببناء دار الفطرة وقرر ما يعمل فيها وما يحمل للناس ، وبلغ السكر المستخدم فى هذا اليوم سبعمائة قنطار ، انظر ، المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ص ٤٢٥ - ٤٢٦ .

(٤٠٣) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ص ٤٤٥ - ٤٤٦ ، جـ٢ ، ص ٦٩ ، ومن أصناف الحلوى الشائعة الخشكنانج والبسندود والفانيد .

ونظراً لما تقدم ، اهتمت الدولة بهذه الصناعة ، وعملت على تحسين وسائل تكرير عصير القصب فى مصانع السكر العديدة الموجودة فى مدن وقرى كثيرة في مصر ، حيث استخدم النطرون والشب في تنقية المواد المتخلفة ، عوضاً عن الغلى المتكرر[٤٠٤] ، وكان استخدام المادة القلوية فى التنقية يعد اختراعاً تم فى مصانع السكر المصرية[٤٠٥] ويرجع ذلك إلى تكريس النهضة العلمية لخدمة أغراض عملية[٤٠٦] .

وبناءاً على ما سبق ، فلا يمكن أن نؤكد أن الدولة احتكرت صناعة السكر وما قيل عن صناعة النسيج يصدق على صناعة السكر ، فعلى الرغم من سيطرة الدولة الكاملة عليها من حيث إنشاء المصانع السلطانية أو من خلال تشديد القبضة فى الإشراف عليهما وكذلك احتكار تسويقهما ؛ فإن إتاحة الفرصة لإنشاء المصانع الأهلية للصناعتين ، ترجح أنهما قد خضعتا لسياسة شبه احتكارية من قبل الدولة .

كما طبقت الدولة الفاطمية هذه السياسة على صناعات أخرى مثل الشمع والصابون ، فعلى الرغم من وجود مصانع الشمع المنتشرة فى الإسكندرية[٤٠٧] ، فإنه كان أيضاً يمثل أحد السلع الثابتة ، التى تأتى من تونس ، ولوجود مصانع أهلية لهذه الصناعة ، كان اسم الشماع أيضاً واحداً من أسماء العائلات اليهودية[٤٠٨] آنذاك ولأهمية هذه الصناعة ، كان يوجد لها سوقاً بالفسطاط عرف بـــ "سوق الشماعين"[٤٠٩] ، كما كانت الدولة تفرض ضريبة على السلع تسمى "خاتم الشمع" تدل على استيفاء الصناعة التى تم ختمها للضرائب[٤١٠] . وقد خصص الفاطميون خزائن للشمع عرفت بخزائن دار أفتكين بسبب حاجتها له[٤١١] . وكانت الدولة لذلك تحتكر كل ما يرد إليها من بلاد المغرب[٤١٢] .

---

(٤٠٤) انظر : Ashtor, Social and Economic History, p. 199.

(٤٠٥) انظر : Ashtor, Social and Economic History, p. 199.

(٤٠٦) محمود إسماعيل ، سوسيولوجيا ، ٢/١ ، ص ١٦١ .

(٤٠٧) ابن دقماق ، الانتصار ، جـــ٤ ، ص ١٠٨ .

(٤٠٨) انظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 125.

(٤٠٩) المقريزى ، الخطط ، جـــ٢ ، ص ٩٦

(٤١٠) المقريزى ، الخطط ، جـــ٢ ، ص ١٠٤

(٤١١) المقريزى ، الخطط ، جـــ٢ ، ص ٤٢٢

(٤١٢) انظر Goitein. Med. Soc 1, p. 60

أما الصابون ، فقد كثرت مطابخه فى الفسطاط ، وكانت الدولة تعتمد على ما يرد إليها من زيت الزيتون من منطقة الفيوم ، كما أشار ابن دقماق[٤١٣] إلى قيسارية الصبانة ، التى كانت موجودة بالفسطاط وتضم العديد من الحوانيت لبيع الصابون ، كما كانت الإسكندرية إحدى المراكز الهامة لصناعة الصابون نظراً لزراعة أشجار الزيتون فى نواحيها الغربية[٤١٤] ، وقد أشار ابن جبير[٤١٥] إلى موضع الصبانة بها ، ولاشك أنها كانت تضم مطابخ أخرى للصابون خلال العصر الفاطمى ، ولما كانوا يستخرجون الزيوت من نباتات أخرى مثل اللفت والخس ، فكانوا يصنعون منه أنواعاً من الصابون عالية الجودة فى أنحاء مصر[٤١٦] . ومع ذلك كانت الدولة تقوم باستيراده من تونس ، لكنها كانت تضع الضوابط على التجار المستوردين له ، فإذا ارتفع سعر قنطار الصابون الوارد من تونس إلى حد كبير ، تسمح الحكومة لنفسها فقط بأن تبيعه بمثل هذا السعر[٤١٧] .

لكن الدولة الفاطمية قامت بالفعل باحتكار بعض الموارد والسلع إما بسبب أهميتها الاقتصادية فى الصناعة أو لاستخدامها فى ضبط الميزان التجارى لاستيراد سلع أخرى أو لافتقار الدولة فى إنتاجها أو لحاجتها الملحة والشديدة لتأكيد وضعها السياسى .

وبسبب القيمة الاقتصادية للشب والنطرون ، لاسيما فى الصناعة ، حيث يدخل الشب فى صناعتى المنسوجات والسكر كما سبق ، فضلاً عن أن الشب والنطرون كانا من السلع المهمة ، التى تشارك فى التجارة خاصة مع بيزنطة ، لذلك قامت الدولة الفاطمية باحتكارهما . ولم يبتدع الفاطميون احتكار هذين المعدنين ، فقد احتكرهما من قبل أحمد بن المدبر[٤١٨] .

ولما كان الشب يوجد بالصعيد ، خاصة فى أخميم وأسيوط والبهنسا ، فكانت الدولة تحصل عليه من خلال اتفاق بينها وبين العربان ، ويتم تسليم المستخرج منه إلى

---

(٤١٣) ابن دقماق ، الانتصار ، جـ٤ ، ص ١٠٨ .
(٤١٤) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ١٩٧ .
(٤١٥) الرحلة ، ص ٩٥ .
(٤١٦) الادريسى ، نزهة المشتاق ، ص ١٢٩ .
(٤١٧) انظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 267.
(٤١٨) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٩ .

الديوان ، ولا يستطيع أحد منهم ابتياعه لغير الدولة ، بل ويحظر عليهم وعلى غيرهم ذلك ، ولو عثر على أحد أنه اشترى منه الشب أو ابتاعه سوى الديوان ، صودر ما وجد عنده ، ونفس الشئ يقال عن النطرون ، الذى كان يوجد فى البر الغربى من أرض مصر ، وكانت تحصل منه الدولة فى كل عام عشرة آلاف قنطاراً[٤١٩] . كما اتبعت الدولة نظام الضمان للنطرون ، وكان على الضامن أن يقدم حصة مقدرة للديوان سنوياً وصلت إلى ثلاثين قنطاراً[٤٢٠] . كذلك خضع الشب لهذا النظام ، حتى أنه بلغ ما سومح به من الشب فى وزارة المأمون البطائحى فى عام ٥١٠هـ/١١١٧م ، ٩١٣،٥٠٠ قنطاراً[٤٢١] . وهذا يبين أن نظام الضمان مع الشب والنطرون قد اختلف عنه فى الموارد الأخرى ، بسبب اتباع سياسة الاحتكار .

وكانت ما تحصل عليه الدولة من الشب تقوم ببيعه لتجار الروم ، حيث تخصص مما يأتى إليها من هذا المعدن اثنى عشر قنطاراً[٤٢٢] ، وكان احتكار الشب يمثل للدولة أيضاً سلعة تجارية هامة ليس فقط من خلال مشاركتها فى التجارة الخارجية ، لكن أيضاً ، بسبب ما تحصل عليه من ربح من خلال الفرق بين سعر الشراء والبيع ، فهى تشتريه من العربان بالقنطار الليثى ، الذى يزن مائتى درهم بثلاثين درهماً ، بينما تبيعه لتجار الروم بالقنطار الجروى الذى يزن ٣١٢ درهم بين أربعة وست دنانير[٤٢٣] . وإذا وضعنا فى الاعتبار الفارق فى الوزن بين القنطارين[٤٢٤] لوجدنا أن الليثى يساوى ثلثى الجروى تقريباً ، وأن السعر المقرر للدينار ثمانية عشر درهماً[٤٢٥] . ومتوسط سعر البيع خمسة دنانير ، فكانت تحصل عليه الدولة من فائدة تصل إلى حوالى مائة فى المائة .

---

(٤١٩) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٩ .
(٤٢٠) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٩ .
(٤٢١) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٣ .
(٤٢٢) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٩ .
(٤٢٣) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٩ .
(٤٢٤) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٢٨ .
(٤٢٥) المقريزى ، إغاثة ، ص ٦٥ ، اختلفت قيمة الدينار من وقت لآخر حتى وصل فى القرن ٦هـ/١٢م إلى ستة وثلاثين درهماً وأحياناً أربعين درهماً : انظر :
Goitein, Med. Soc., p. 97

وفى نفس الوقت كان المخصص للمصريين من الشب ثمانين قنطاراً فقط وتباع بواقع ستة دنانير ونصف للقنطار[٤٢٦] ، فهذا معناه أن الدولة تخصص نسبة ضئيلة للصناعة المحلية ، وهذا الأمر لا يمكن قبوله ، لأن الصناعات التى اهتمت بها الدولة كانت تحتاج إلى الشب ، لكن لما كانت الدولة قد أسهمت بنصيب فى هذه الصناعات ومنها النسيج والسكر ، فمن المحتمل أنه كان يخصص فى الديوان السلطانى ما يستخدم فيهما من الشب . وربما كان الغرض من تخفيض ما يخصص للتصنيع المحلى يرجع لأهمية الشب فى التجارة الدولية بسبب احتياج الفاطميين لاستيراد بعض السلع الأخرى وعلى رأسها الخشب ، حتى نجد أنه إذا زاد ثمن المبتاع من التاجر عما يجب عليه من الخمس ، أعطى شباً بحق الثلث[٤٢٧] ، كما يشير هذا الإجراء إلى استغلال المصريين فى حالة الشراء من العربان والبيع للصناع .

كما احتكرت الدولة الفاطمية بعض السلع الأخرى ، التى حواها المتجر مع اليازورى ، بداية من عام ٤٤٤هـ/١٠٥٢م ، عندما أشار على الخليفة المستنصر بشراء وخزن سلع أكثر فائدة[٤٢٨] ، حيث كان المتجر يستطيع أن يوفر ربحاً من خلال الفرق بين الشراء والبيع ، وكذلك ما وجد فى خزائن الأفضل بن بدر الجمالى بعد وفاته ومنها الخشب والحديد والرصاص والشمع والصابون وزيت الزيتون[٤٢٩] . أما الخشب الذى يعد أهمها على الإطلاق فقد تناولناه فى بحث سابق[٤٣٠] ، وانتهينا إلى أن الفاطميين قد احتكروه ، لكن سياستهم قد تلونت طوال العصر الفاطمى تبعاً لحالة القوة والضعف ، ففى العصر الفاطمى الأول كان احتكاره من أجل التوسع ، لذا فرضوا إرادتهم رغم الحظر البيزنطى ، بينما فى العصر الفاطمى الثانى حيث ضعفت الخلافة، مالوا إلى الدبلوماسية فى سبيل الحصول عليه من أجل التجارة ، كما أنهم قد احكموا قبضتهم على الخشب المحلى والمستورد بسبب الحاجة الشديد إليه .

---

[٤٢٦] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٩ .

[٤٢٧] المخزومى ، المنهاج ، ص ص ٤٨ ، ٥٧ .

[٤٢٨] المقريزى ، إغاثة ، ص ٢٠ .

[٤٢٩] ابن ميسر ، أخبار ، ص ٨٣ ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ٧١ .

[٤٣٠] انظر ، احتكار الخشب فى مصر الفاطمية ، فصلة من مجلة بحوث كلية الآداب جامعة المنوفية ١٩٩٧ ، العدد ٣٠ .

أما عن السلع الأخرى ، التى احتكرتها الدولة الفاطمية ، فإنها كانت تعتمد على استيرادها إما بسبب حاجتها الملحة لها فى الصناعة أو لنقص المنتج منها محلياً . ومنها الحديد ، الذى تبدو أهميته فى ارتباطه ببعض الصناعات الهامة مثل صناعة السفن والأسلحة وغيرها ، لذلك كان يرتبط استيراده دائماً بالخشب ، خاصة من المدن الإيطالية وغيرها ويخضع لما يتعرض له الخشب من قبل بيزنطة من فرض سياسة الحظر على تصديره إلى مصر[٤٣١] ، كما كان يحمل من صقلية وبلاد المغرب التى تعتبر الموطن الأصلى لإنتاجه[٤٣٢]. ومع ذلك قلما يرد ذكر الحديد فى وثائق الجنيزة[٤٣٣] «وعند الإشارة إليه نجد أن تجارته لم تكن حرة . ولم يخرج الرصاص عن نفس الاهتمام فى استيراده ، حتى ما كان يتم جلبه من الخارج كانت السلطات الحكومية تستحوذ عليه»[٤٣٤] .

أما الشمع ، فكان من السلع الثابتة ، التى تستورد من تونس[٤٣٥] ، وكان ما يأتى منه يستنفذ من قبل السلطات الحكومية فى الإسكندرية[٤٣٦] ، وكان التجار يبيعونه بأقل ما يشترونه[٤٣٧] ، كما كان يتعذر فى بعض الأحيان الحصول على الصابون بسبب القيود التى تضعها الدولة[٤٣٨] .

كذلك كان زيت الزيتون من السلع التى حرصت عليها الدولة الفاطمية ، على الرغم من قيامها باستخراج الزيوت من نباتات أخرى[٤٣٩] ، وكذلك برغم زراعته فى مصر ووجود معاصر له فى بعض المدن ، لاسيما فى صندقا بكورة البهنسا والفيوم

---

(٤٣١) لويس ، القوى البحرية والتجارية ، ص ص ٣٠٢ ، ٣٣٥ .

(٤٣٢) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٢٢٦ ؛ الإدريسى ، ص ١١٧ ، متز ، الحضارة الإسلامية ، جـ٢ ، ص ٣٢٤ .

(٤٣٣) انظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 60.

(٤٣٤) انظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 60.

(٤٣٥) انظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 125.

(٤٣٦) انظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 60.

(٤٣٧) عندما يكون سعر الشمع فى القيروان ٦ دينار لكل مائة رطل ، كان التاجر يبيعه بـ ٤ ، انظر : Goitein, Me. Soc. 1, p. 219.

(٤٣٨) انظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 184.

(٤٣٩) سفر نامه ، ص ١٢٠ .

والقسطاط[٤٤٠]، فكان يتم استيراده من تونس[٤٤١] خاصة سفاقس[٤٤٢] ، وربما لارتباطه على وجه الخصوص بصناعة الصابون . ويبدو احتكار الدولة له من خلال ممارسة الحظر عليه ، والتى تتضح من خلال خطابات الجنيزة[٤٤٣] ، ومنها خطاب يرجع إلى حوالى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ذكر فيه : «ان زيت الزيتون قد منع بواسطة الحكومة» كما نسمع عن منع تجار تونس من تصدير بضائعهم ، خاصة زيت الزيتون ، الذى يعد أهم صادراتها الزراعية ، وكذلك عن حرمان التجار من استيراده[٤٤٤] ، ولكثرة ما تحصل عليه الدولة سواء من المنتج محلياً ، أو الوارد من تونس بواسطتها كان سعره رخيصاً فى أسواق الفسطاط[٤٤٥] مقارنة بزيت السيرج المستخرج من السمسم ؛ لأن المعروض من زيت الزيتون كان كثيراً .

وفيما يخص اختيار العمال ، وما ورد بشأنهم فى كتب الدعوة : "على ألا تكون بمحاباه ، حتى لا تؤدى بالضرر على الناس ، والحرص على اختيار أهل الورع والفقه والعلم" وغيره من الصفات والواجبات التى تؤدى إلى صلاح الأحوال ، لكن يبدو أن الخلافة الفاطمية كانت حريصة ومنذ البداية على اختيار من ينفذ سياستها المالية بكل دقة . وما عرضناه سلفاً من تطبيق لهذه السياسة يتضح أن الدولة كانت تحتاج إلى رجال من طراز يختلف اختلافاً بيناً فى الغالب على ما تضمنه النص السالف الذكر .

فعلى الرغم من استياء جوهر من سياسة الإخشيديين الاقتصادية بشكل عام ، نراه يقر جعفر بن الفرات فى الإشراف على النواحى المالية . وربما يرجع هذا الإجراء لأنه كان لا يزال مشغولاً بإتمام الفتح ، حتى أنه أقر بقية المناصب بما فيهم القاضى السنى رغم الاختلاف المذهبى[٤٤٦] ، لكن بعد استقرار الأمور ومجئ المعز ، عرض على ابن الفرات أن يتولى الوزارة استمراراً لدوره أيام الإخشيديين ، لكن

---

(٤٤٠) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ١٩٧ .

(٤٤١) الادريسى ، نزهة المشتاق ، ص ١٠٩؛ أنظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 154.

(٤٤٢) البكرى ، المغرب ، ص ٢٠ .

(٤٤٣) انظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 268.

(٤٤٤) انظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 60.

(٤٤٥) سفر نامه ، ص ١٢٠ .

(٤٤٦) المقريزى ، اتعاظ ، جـ١ ، ص ١١٩ .

جعفراً اعتذر للخليفة[٤٤٧] . ثم قام المعز بتولية يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن ، كافة وجوه الأموال . صحيح أن اختيار ابن كلس على وجه الخصوص كان اختياراً موفقاً ، لأنه تمرس فى شئون مصر المالية والاقتصادية ، عندما كان يعمل فى خدمة كافور ، وتردد على الريف وعرض أخبار القرى ، حتى أنه أصبح خبيراً بالضياع وإذا سئل عن أمر غلالها ومبلغ ارتفاعها أجاب[٤٤٨] .

وقد استطاع يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن أن يستخرجا أكثر من مائتى ألف وعشرين ديناراً فى يوم واحد من مال تنيس ودمياط والاشمونيين ، وهذا لم يسمع بمثله قبلا[٤٤٩] . وكان ذلك لإرضاء المعز ، حتى يسترد ما أنفقه من أموال فى مصر[٤٥٠] ، لأن جوهراً عندما جاء إلى مصر ، كان محملاً بالأموال والخزائن[٤٥١] ، وظن المعز عند مجيئه أن الأموال مجتمعة لدى جوهر فوجدها قد أنفقت فى مؤن مصر وجندها[٤٥٢] . ومن هنا كان اختياره لهذين الرجلين اللذين استطاعا أن ينفذا مشيئته ويشتدا فى استخراج الأموال من المصريين .

ومع الخليفة العزيز ، حينما تولى على بن عمر بن العداس الأموال عام ٣٨١ هـ/٩٨٣م أمره : «بأن لا يرتفق ولا يرتزق ولا يضيع ديناراً ولا درهماً»[٤٥٣] . أى لا يقبل هدية ولا رشوة ، ومثل هذه الأوامر والوصايا ترتبط فى الغالب الأعم مع تولية المناصب ، ولا تعبر دائماً عن سياسة الحاكم بشكل عام . وكان ابن العداس أحد ضمان الأموال منذ أيام الخليفة المعز ، وأحد القائمين أيضاً على الخراج ، وضمن كورة بوصير ، لكن عندما نقص خراج البلاد ، قبض عليه واعتقل وذكر المؤرخون[٤٥٤] أن سبب ذلك أنه خانه الضمان والأسعار ، وعين بعده فى الوساطة عيسى بن نسطورس ، الذى استطاع أن يضبط الأمور ويجمع الأموال ويوفر كثيراً من الخراج[٤٥٥] ،

---

[٤٤٧] ياقوت ، ارشاد الأريب لمعرفة كل أديب ، القاهرة ، ١٩١١ ، جـ٣ ، ص ص ٤١٠ - ٤١٤ .
[٤٤٨] المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٥ .
[٤٤٩] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٧٧ .
[٤٥٠] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ١٤٦ .
[٤٥١] ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٤ ، ص ٢٨ .
[٤٥٢] المقريزى ، اتعاظ ، جـ١ ، ص ١٤٦ .
[٤٥٣] المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٣١ .
[٤٥٤] ابن الصيرفى ، الإشارة ، ص ٢٤ .
[٤٥٥] ابن ظافر ، أخبار ، ص ٤٠ .

واستطاع بذلك أن يحظى برضا الخليفة العزيز ، لأن الغرض من تعيينه هو ومن سبقه تدبير وتوفير الأموال للدولة .

ونفس الشيئ يقال عن الخليفة الحاكم ، الذى أثنى على أحد رجال دولته ، وهو الوزير ابن عبدون النصرانى ، لأنه جمع له من الأموال ما هو خارج عن أموال الدواوين ثلثمائة ألف دينار[٤٥٦] . كذلك أقام الحاكم اثنين هما الحسن وعبد الرحمن أبنى أبى السيد معاً فى الوساطة عام ٤٠٥هـ/١٠١٤م ، بعد أن ضمنا أموال الدولة وإجراءها على رسومها ووفرا ثلثمائة ألف دينار بعد ذلك سنوياً تحمل لبيت المال[٤٥٧] ، على الرغم من أن مدة وساطتهما لم تطل أكثر من اثنين وستين يوماً قتلا بعدها ، لكن يبدو أنهما قد وضعا من الإجراءات ما أدت إلى استمرار توفير هذه الأموال .

والوزراء الذين تولوا مع خلافة المستنصر ، لم يرتبطوا بالخليفة قدر ارتباطهم بأمة وسياستها العشوائية ، التى كانت تسعى فقط إلى الهيمنة على شئون البلاد من دون أبنها بدون سياسة مرسومة ، ومن هنا جاءت سياستها تجاه تعينهم حتى وصل الأمر إلى أن هناك عدد كبير منهم من تولى أشهراً أو أياماً أو من وصلت وزارته إلى يوم واحد[٤٥٨] .

ووصولاً مع العصر الفاطمى الثانى نجد أن الخليفة الآمر بعد تخلصه من وزيره المأمون البطائحى اعتمد على رجلين من رجال الدواوين ، أحدهما مسلم وهو جعفر بن عبد المنعم والآخر سامرى ، يقال له أبو يعقوب إبراهيم . وقد توليا استخراج ما يجب من زكاة ومكس وأقام معهما مستوف يعرف بأبى نجاح الراهب ، الذى تحكم فى الناس ، وطالب النصارى بالأموال[٤٥٩] . ولما كانت سياسته تسير وفق مشيئة الآمر لقبه بـ "الأب القديس الروحانى النفيس ، أبى الأباء ، سيد الرؤساء ، مقدم دين النصرانية وسيد البطريركية"[٤٦٠] مما ساعده على التمادى فى عسفه تجاه الناس .

---

[٤٥٦] المقريزى ، اتعاظ ، جـ٢ ، ص ٨٢ .
[٤٥٧] ابن الصيرفى ، الإشارة ، ص ٣٠ .
[٤٥٨] ابن الصيرفى ، الإشارة ، ص ص ٣٨ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٤ .
[٤٥٩] المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ١٢٥ .
[٤٦٠] المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ١١٧ .

أما بهرام الأرمنى ، الذى وزر للحافظ ٥٢٩-٥٣٣هـ/١١٣٥-١١٣٩م ، فلم يكتف فقط بتوزيع الولايات والوظائف على أهله وبنى جنسه ، لاسيما قوص أهم ولايات مصر ، بل جاء على الناس واستباح أموالهم وبالغ فى أذيتهم[٤٦١] ، هذا فضلاً عن طلائع بن رزيك الذى أشرنا إليه سلفاً ، والذى ظلم الناس وباع الولايات[٤٦٢] .

وإذا كان عصر الوزراء العظام قد تقلصت معه سلطات الخلفاء حتى أصبحت أفعال الوزراء لا تحسب على الخلافة ، إنما هى نتيجة لضعفهم ، لاسيما أن هؤلاء الوزراء لم يهمهم على الأقل مصلحة الخلافة بقدر ما كانت تشغلهم مصالحهم الشخصية ، لكن هذا ليس معناه أن نرفع عن الخلافة المسئولية ؛ فضلاً عن أن العصر الفاطمى الأول قد أوضح أن الخلفاء المؤسسين للخلافة كانوا حريصين على اختيار رجالاً يستطيعون تنفيذ مشيئتهم وسياستهم المالية على خير وجه ، وبقدر ما يحسب لهم حسن الاختيار ، إذ أن غالبية الوسطاء والوزراء كانت لهم خبرة سابقة بشئون المال ، كالعمل فى ديوان الخراج أو بيت المال ، كان هذا الأمر له وجه آخر فى قدرة هؤلاء الرجال فى التحرى عن الأموال والحصول عليها بشكل يرضى الخلفاء .

لكن هناك بعض الفترات تخرج عن هذا الإطار ، حتى فى العصر الفاطمى الثانى مع وزارة المأمون البطائحى على وجه الخصوص ، والذى كان كل همه رفع المعاناة عن الرعية واتخاذ الإجراءات التى من شأنها أن تؤدى إلى إصلاح الأحوال ، وقد عرضنا لهذا سلفاً فيما قام به من المسامحات ، وحتى قبل تعينه فى الوزارة كان الساعد الأيمن للأفضل بن بدر الجمالى وكان من وراء ما قام به الأفضل من حل الاقطاعات وإعادة توزيعها ، لكن بوجه عام كانت السياسة الغالبة للفاطميين واحدة ؛ وهى اختيار الرجال ، الذين استطاعوا أن يحققوا لهم ما أرادوه . وهذا يختلف عما ذكرناه من اختيار العمال وفق صفات معينة صحيح أن هناك فرقاً بين العامل والوزير ، لكننا حاولنا أن نطبق هذا النص فى ضوء النصوص المتاحة ، طالما أنه ما يطبق على

---

[٤٦١] المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ١٥٩ .

[٤٦٢] ابن ظافر ، أخبار ، ص ١١١ .

العمال لابد أن يكون بالتبعية متأثراً بأعلى سلطة فى الخلافة ، كما أن كثيراً من الوزراء فى العصر الفاطمى الثانى كانوا فى الأصل ولاة لبعض الأقاليم[٤٦٣] .

كما أن الخلفاء اتبعوا مع هؤلاء سياسة المصادرات ، التى تعد أحد أبواب الدخل المؤقتة لأنها تخضع للظروف السياسية ومدى قوة الدولة وقدرتها على تقليم أظافر كبار رجال الدولة . ولما كان أمان جوهر قد شمل بعض التلميحات عما كان يتم أيام الإخشيديين ومنها "الاحتواء على نعمكم وأموالكم" وأشار إلى أن الأمور سوف تتحسن بمجئ الفاطميين ، خاصة أن الإخشيديين طالما قاموا بمصادرة كبار رجال الدولة والتحوط على أموالهم[٤٦٤] ، بعد القبض عليهم أو بعد وفاتهم ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تعداه إلى التجار ، كما أنه بعد وفاة كافور وتفاقم الأحوال الاقتصادية بسبب نقصان مياه النيل وغلاء الأسعار ، قام الوزير جعفر ابن الفرات بالقبض على بعض الأقوياء ممن التحق بخدمة الدولة وصادرهم وكان منهم يعقوب بن كلس[٤٦٥] ، مما كان سبباً فى هروبه إلى المعز وتحريضه على المجئ إلى مصر[٤٦٦] . بيد أن الفاطميين قد مارسوا هذه المصادرات فى بلاد المغرب ، حيث أن القاضى النعمان برر مصادرة الأئمة لأموال الناس والاستيلاء عليها بقوله : "إن للأئمة الحق فى امتحان الناس فى أموالهم بأخذها منهم بدون سبب"[٤٦٧] .

وكان ابن كلس أول من صودر مع الفاطميين فى خلافة العزيز عام ٣٧٣هـ/ ٩٨٤م ، بعد أن عزله من منصبه ، وحمل من ماله خمسمائة ألف دينار ، لكنه سرعان ما أعاده إلى منصبه[٤٦٨] . كما صودرت أملاك عمر بن العداس ، عندما اتهمه الخليفة العزيز بتبديد أموال الدولة[٤٦٩] . وعندما قبض على عيسى بن نسطورس ، لم يعد إلى

---

(٤٦٣) ومنهم بهرام الأرمني كان والياً للغربية قبل أن يتولى الوزارة وكذلك رضوان بن ولخشى ، أما ابن رزيك فكان والياً على الأعمال الاسيوطية ، انظر ، ابن ميسر ، أخبار ، ص ص ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٤٩ .

(٤٦٤) المقريزى ، اتعاظ ، جـ١ ، ص ١٠٤ .

(٤٦٥) سيدة كاشف ، مصر فى عهد الاخشيديين ، ص ٣٤٥ .

(٤٦٦) النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص ٦٠ .

(٤٦٧) الهمة ، ص ٦٩ .

(٤٦٨) ابن ميسر ، أخبار ، ص ١٥٩ .

(٤٦٩) ابن الصيرفى ، الاشارة ، ص ٢٤ .

عمله ، إلا بعد أن حمل إلى الخزانة ثلثمائة ألف دينار[٤٧٠] . ومع الخليفة الحاكم بأمر اللّه ، كثرت المصادرات ، ولم تقف عند حد كبار رجال الدولة بل تعدتهم إلى الرعية ، فصادر الحسين بن جوهر والقاضى عبد العزيز بن النعمان عام ٤٠٠هـ/١٠١٠م[٤٧١]. كما قام بمصادرة الكتاب من مسلمين ونصارى وطالبهم بحساب ما كانوا يتولونه وصادر أموالهم[٤٧٢] . ومن كثرة ما تمت مصادرته ، أنشأ الخليفة ديواناً برسم من يقبض ماله من المقتولين من كبار رجال الدولة عرف بـ "ديوان المفرد"[٤٧٣] وهذا الديوان لم يكن أمراً مستحدثاً مع الفاطميين فقد سبقهم إليه العباسيون وصودر كثير من كبار رجال الدولة ، وأنشئ لهذا الغرض ديواناً عرف بـ «ديوان المصادرات» كان مسئولاً عن إدارة الأملاك التى يتم مصادرتها[٤٧٤] .

كما امتدت المصادرة إلى الرعية أيضاً ، فقام الخليفة الحاكم بمصادرة أملاك الكنائس[٤٧٥] ، وتزايد ضرره بأهل مصر ، من خلال الجند السودان ، الذين قاموا بنهب أموال الرعية وفتح دورهم ومخازنهم وأخذ أمتعتهم وفتح دكاكين البزازين ونهب ما فيها وتخللوا إلى الأسواق وأخذوا ما أرادوا منها وأفسدوا بقية ما فيها[٤٧٦] ، وإذا كان ما أورده المؤرخون بشأن سياسة الخليفة الحاكم ربما تعد حرباً شنها السنة ضد الشيعة للنيل منهم وعلى ذلك أوردوا روايات من المحتمل أن يكون مبالغ فيها . كما أننا لو اعتبرنا أن هدف الحاكم من هذه المصادرات هو القضاء على نفوذ رجال الدولة والاستئثار بالسلطة ، فإننا لا يمكن أن نعتبر سياسته بشكل عام مقياساً للعصر الفاطمى فى مصر ، لأن عصره قد اختلف فيه ، فما قام به من أعمال أكان يبغى من ورائها الإصلاح أم أنها كانت مرتبطة بشخصه ؟ ومهما كانت أهدافه من المصادرات ، فاستمرارها بعده ، توضح رغبة الفاطميين فى التحوط على الأغنياء سواء كبار رجال الدولة أو الرعية بشكل مستمر .

---

[٤٧٠] ابن ظافر ، أخبار ، ص ٤١ .

[٤١١] يحيى بن سعيد ، تاريخ ، ص ١٩٨ .

[٤١٢] المقريزى ، اتعاظ ، جـ٢ ، ص ص ٨١ – ٨٢ .

١٣) القلقشندى ، صبح الاعشى ، جـ٢ ، ص ٤٥٣ .

[٤١٤] متز ، الحضارة الإسلامية ، جـ١ ، ص ١٥٠ .

[٤٧٥] المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٤٩٥ .

[٤٧٦] ابن ظافر ، أخبار ، ص ص ٥٥ – ٥٦ .

ففى خلافة الظاهر ، قام كبار رجال الدولة بمصادرة التجار ، وارتبط ذلك بوقوع الغلاء عام ٤١٥هـ/١٠٢٣م[٤٧٧] ، وكان من المنتظر أن تكون هذه المصادرات لتجار الغلة حتى يمنع من احتكارها ، لكن النص جاء عاماً ، حتى نفهم منه أنه شمل جميع التجار الذين كانوا يمثلون أول القائمة فى المصادرين من الرعية لخصوصية ارتبطت بهم خلال هذا العصر أو غيره حيث أن ازدهار التجارة يؤدى إلى تراكم للأموال فتشيع المصادرات ، خاصة مع اضطراب أحوال الجند ؛ فيورد المسبحى نصاً غاية فى الأهمية[٤٧٨] ، إبان عصر الظاهر من خلال مطالبة صاحب بيت المال بما عنده وامتناعه عن إعطائهم الأموال ، فقيل له : «فتقترض من التجار وتصادر من تحب من مصادرته ، فقال له الشيخ النجيب أبو القاسم الجرجرائى : وأى مال مع التجار ؟ وتجار مصر هلكى تحت التحمل بلاء» . وذلك يبين أن تجار مصر طالما تعرضوا للمصادرات خاصة من قبل الجند ، حتى أنه انتقل طائفة من التجار البزازين ، وجماعة أخرى ممكن تسكن بساحل الصعيد والوجه البحرى إلى وسط البلد خوفاً من نهب البلد ، كما اضطر الناس لنقل رحالاتهم وأموالهم من القياسر والحوانيت بمصر إلى منازلهم وأخلوا دكاكينهم من أمتعتهم خوفاً من وقوع فتنة أو نهب[٤٧٩] ، وكذلك تعرض المصريون خلال فتن الجند أيام المستنصر للنهب والمصادرة .

وقد قام الوزراء أيضاً بالمصادرات وسوف يتضح هذا الدور خلال العصر الفاطمى الثانى ، فالوزير بدر الجمالى ، الذى استطاع أن ينقذ الخلافة من كوارثها الاقتصادية المتلاحقة خلال عصر المستنصر ، قامت سياسته أيضاً على المصادرات ، حتى أنه لم يبن جامع العطارين بالإسكندرية إلا من مال وأملاك المصادرات[٤٨٠] . وربما تكون هذه الأموال ، تلك التى قام بمصادرتها من الأمراء والقواد الأتراك بعد مجيئه إلى مصر أو من الأموال التى أخذها من أهل الإسكندرية[٤٨١] ، بينما ابنه

---

[٤٧٧] المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٣٥٤ .

[٤٧٨] المسبحى ، أخبار ، ص ١٦٩ .

[٤٧٩] المسبحى ، أخبار ، ص ٢٠٠ .

[٤٨٠] ابن ظافر ، أخبار ، ص ٧٧ .

[٤٨١] ابن ميسر ، أخبار ، ص ٤٦ ؛ المقريزى ، اتعاظ ، جـ٢ ، ص ٣٢١ .

الأفضل ذكر المؤرخون أنه لم يعرف أنه صودر أحد فى زمانه ، سواء من كبار رجال الدولة أو الرعية(٤٨٢) .

كما شهدت خلافة الآمر مصادرات عديدة ، بدأها بوزيره المأمون البطائحى وأخيه المؤتمن وهما بالقصر ، فصودرت دورهما(٤٨٣) . كما صادر قوم من النصارى وأخذ منهم مائة ألف دينار وتجاوز الأمر إلى العمال والقضاة والكتاب والشهود والضامنين والتجار أيضاً قد تعرضوا للمصادرة والاعتقال حتى أن من كثرة هذه المصادرات فى مصر والقاهرة اضطر التجار إلى الخروج من البلد(٤٨٤) . وعامة الناس والسوقة ، حتى وصل الأمر إلى مصادرة رجلاً حمالاً ، أخذ منه عشرين ديناراً ثمن جمل ، الذى لم يكن له سواه(٤٨٥) . وكان الآمر يعتمد فى إنجاز هذه المصادرات على أبى نجاح الراهب ، الذى كان يجلس بجامع عمرو ويستدعى الناس للمصادرة ، وقيل أن الذى احتاط عليه من أملاك المسلمين كان كثيراً(٤٨٦) . وكان هذا الخليفة مدفوعاً للقيام بالمصادرات بدافع القسوة والطمع ، فقد عرف أنه كان قبيح السيرة مبالغاً فى ظلم الناس وأخذ أموالهم واغتصاب أملاكهم(٤٨٧) ، أو أن تناقص الإيرادات بشكل عام كانت أحد الأسباب التى دفعته إلى ذلك ؛ فضلاً عن اهتمامه البالغ بالترف واللهو ، خاصة أن الرسوم الفاطمية اكتملت فى عهده ، ولما كان الأفضل من قبل قد حجر عليه ومنعه من الظلم ، فبعد التخلص منه ، ولى المأمون البطائحى ومما اشترط عليه أن تكون جباية الأموال بالقصر(٤٨٨) ، ولم نسمع أن المأمون قد مارس سياسة المصادرات ، لكن بعد التخلص منه أيضاً ، استطاع الخليفة الآمر أن يمارس سلطاته التعسفية على النحو الذى أسلفناه ، ولما كانت هذه الممارسات زائدة عن الحد ، فبعد مقتله عام ٥٢٤-٥٢٥هـ / ١١٣٠م استطاع أبو على أحمد بن الأفضل بعد توليه الوزارة أن يرد على المصادرين ما أخذ منهم وأعاد أملاكاً كثيرة إلى أربابها(٤٨٩) .

---

(٤٨٢) ابن ميسر ، أخبار ، ص ٨٣ .

(٤٨٣) المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ١١٤ .

(٤٨٤) المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(٤٨٥) ابن ظافر ، أخبار ، ص ص ٨٨ - ٨٩ .

(٤٨٦) ابن ميسر ، أخبار ، ص ٧١ .

(٤٨٧) ابن ظافر ، أخبار ، ص ٩١ ؛ المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٩١

(٤٨٨) المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ٧٧ .

(٤٨٩) ابن ظافر ، أخبار ، ص ٩٤ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص ٢٩٧

ومع عصر الوزراء العظام ، كان طبيعياً أن نسمع عن جور وعسف هؤلاء ، فابن السلار ، الذى وزر للظافر ٥٤٤هـ/١١٥٠م ، ذكرت عنه المصادر[٤٩٠] : «أنه كان ذا سيرة جائرة وسطوة قاطعة» دون أن تشير صراحة إلى قيامه بالمصادرات ، وإن كان يفهم ضمنياً ممارسته لهذه السياسة ، كما قام الوزير طلائع بن رزيك بمصادرة الكثيرين ، والأمر لم يشمل فقط كبار رجال الدولة ، حتى تصفو له الساحة السياسية ، لكنها تعدت إلى مصادرة الرعية ، حتى أنه أفنى ذوى الآراء والحزم ، وكان أشد الناس تطلعاً إلى ما فى أيدى الناس من أموالهم وصادر أقواماً لم يكن بينهم وبينه معاملة ولا سبب يوجب التعرض[٤٩١] .

وفى آخر وزارة للفاطميين ، قام صلاح الدين ، الذى وزر للعاضد عام ٥٦٦ هـ / ١١٦٩م بمصادرة جزء من الأرض المزروعة حوالى ثلاثين فداناً ، كانت ملكاً لدير ناهيا بالجيزة ، والتى منحت للرهبان من قبل الخليفة الآمر بشكل دائم[٤٩٢] .

وما قام به هؤلاء الوزراء ربما لا يعبر إلا عن نزعات فردية رغبة منهم فى الاستئثار بالحكم وتعضيد مكانتهم بالأموال ، لكن ما تم طوال العصر الفاطمى ومن البداية يدل على أن الخلفاء قد مارسوا سياسة المصادرات بشكل سافر وكان من المنتظر أن تستمر هذه السياسة حتى أواخر أيامهم .

صفوة القول ، أن الفاطميين انتهجوا سياسة مالية محددة ، كلفت لهم ما أرادوه ، وجوهر هذه السياسة كان قائماً على الاستفادة من خيرات مصر والسيطرة على اقتصادها ، وهذا لا يتأتى إلا من خلال اتباع سياسة ضريبية محكمة تستهدف الحصول على أكبر قدر ممكن من أموال المصريين مع القيام ببعض الإجراءات الإصلاحية ، التى من شأنها تحسين هذا الدخل .

فالسياسة المالية أو على الأقل النظام الضريبى ، بدأ مع الخليفة المعز ، الذى قام بإرساء دعائم هذه الدولة ، وتبعه الخلفاء ، الذين أتوا من بعده حتى عصر المستنصر ، الذى يعتبر الحد الفاصل بين عصرين متمايزين ، حيث اتسمت الفترة الأولى بسياسة اعتمدت على مراقبة الأسواق وتخفيف الضرائب نسبياً وتحسين أوضاع

---

[٤٩٠] ابن ظافر ، أخبار ، ص ١٠٣ .
[٤٩١] ابن ظافر ، أخبار ، ص ١١١ ؛ المقريزى ، اتعاظ ، جـ٣ ، ص ٢٢١ .
[٤٩٢] أبو صالح ، كنائس وأديرة مصر ، ص ص ٧٨ – ٧٩ .

العملة مع اتباع السياسة المالية التى تحقق لهم أهدافهم ، وهذه الإجراءات أدت إلى دفع عجلة الصناعة والتجارة قدماً مما أدى إلى عالمية الانتاج حتى بلغت شهرة بعض المنتجات المصرية الآفاق ، عندما عرفت بـــ "المصرى" أما الفترة الثانية ، اتسمت باتباع الدولة لأسلوب الاحتكار لبعض السلع وفرض المكوس الباهظة ، التى أدت إلى تضييق الخناق على الصناع والتجار فلم يرتفقوا بهم وكانت سياسة المصادرات سواء من قبل الخلفاء أو رجال الدولة الذين نفذوا مشيئتهم قد أضرت بالناس جميعاً .

ثم الهيمنة على بعض الصناعات والموارد . فبينما كان المكوس تشكل عبئاً على الرعية ، عملت الدولة على تنفيذ سياسة شبه احتكارية لبعض الصناعات واحتكارية لبعض الموارد ، كما كانت من خلال المتجر تستطيع أن تسيطر على عجلة الاقتصاد مستفيدة من حالة هبوط الأسعار ، مما يجعل التجار مضطرين إلى بيع بعض السلع للدولة ، خاصة أن دور المتجر مع اليازورى انتقل من الحماية إلى الاحتكار .

ومسألة الاحتكار هذه ، تعتبر من الأمور الشائكة التى لا يمكن أن نحكم عليها بشكل مطلق صحيح أن الفاطميين احتكروا بالفعل بعض الموارد والسلع ، لكن بالنسبة لبعض الصناعات ، كانت هيمنة الدولة قوية ، حتى كان من الصعب القطع فيها برأى . لكن مع وجود المصانع الخاصة قللت من هذه السياسة وأصبحت بذلك شبه احتكارية . وكذلك ارتباط الاحتكار بوضعية العصر الفاطمى ووقوعه خلال منظومة اتسمت بتغير فى الأوضاع أو كما عبر عنها بـــ «الصحوة البرجوازية» ثم ما شهدته فيما بعد من انتكاسة لهذه الصحوة ، فقد تأثر الفاطميون بهذه المعطيات إلى حد كبير ، بل واسهموا فى هذه التغيرات ، فلم يخرج عصرهم عن هذا الإطار من حيث القوة والضعف .

وإن كانت هناك بعض الفترات التى شهدت محاولات للإصلاح مع بدر الجمالى وابنه الأفضل ثم المأمون البطائحى ، لكنها لم تستطع أن تحدث تأثيرات ذات شأن ، بسبب سير الدولة الفاطمية إلى منتهاها ارتباطاً بطبيعة الفترة التى شهدها العالم الإسلامى خلال القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى .

ومقابل هذه السياسة المالية امتلأت قصورهم بالأموال ، وحسبنا على ذلك تلك الخزائن التى حواها قصر الخلافة ، كما أن المصادر لا تخلو من نصوص صريحة تؤكد هذا الثراء ، فضلاً عن مزاحمة الرعية فى كافة الشئون المتعلقة بالمال . وبذلك اختلفت الصيغة النظرية عن الواقع إلى حد كبير ، واختلف القالب النظرى الذى قدم

للمصريين مع الفتح ومن خلال كتب الدعوة عندما اصطدم بواقع التطبيق العملى ، فلم يتحقق ما وعد به الفاطميون أهل مصر ، لأنه يتعارض مع تحقيق آمالهم التوسعية ولم يكن سوى برنامجاً دعائياً لتحقيق ما هدفوا إليه ، وخالفت بذلك الدولة ما سطرته مع ما مارسته ، فجاءت الصورة فى أحسن الظروف مشوهة لمثالية لم تحدث !! .

المجريون فى منطقة الدانوب الأوسط وحملاتهم على مملكة الفرنجة *
(٨٩٦ ـ ٩٥٥م)

هانئ عبد الهادى البشير

مصر

يعتبر أصل المجريين من الألغاز التى حيرت المؤرخين أمدا طويلا وثار حولها كثير من الجدل ، وكل ما نعرفه عنهم أنهم بداة نشأوا فى جبال الأورال ، وكانت مفردات لغتهم ذات أصل فينو ـ أوجريان Finno-Ugrian . وهى لغة وثيقة الصلة باللغات الموجودة حاليا فى سيبريا Siberia ، ويتحدث بها عدد من الشعوب التى عاشت فى جبال الأورال الشمالية ، مما يدل على أن المجريين كانوا على صلة وثيقة بهذه الشعوب قرب جبال الأورال . ومع أن المجريين عندما وردوا لأول مرة بأحد المصادر البيزنطية فى القرن العاشر الميلادى ، كانوا متسمين بخصائص تركية مختلفة وكانت بعض أسمائهم الشخصية والقبلية وألقابهم الشرفية ترجع لأصل تركى ، فضلا عن كون لغتهم غنية بعناصر تركية ، فإنهم لم تربطهم أى صلة قرابة بالشعوب السلافية والتركية المقيمة فى السهوب ، مما يعنى أن أقاربهم الوحيدين من الترك هم الفنلنديون الذين أصبحوا بمرور الوقت بعيدين عنهم من الناحية الجغرافية . لذلك من الضروري عند تحرى التاريخ الباكر للمجريين أن نأخذ فى الاعتبار فقط من الشعوب التركية تلك التى اتصلت بها خلال فترة هجراتهم وكان لها دور فى تكوينهم (1) .

---

* أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى كل من أستاذى الدكتور / وسام عبد العزيز فرج ، والأستاذة الدكتورة / ليلى عبد الجواد إسماعيل ، على تجشمهما عناء قراءة هذا البحث ، وعلى ما أبدوه من ملاحظات قيمة أثرت هذا البحث ، وجزاهما الله خيرا . وتجدر الإشارة إلى أن هذا البحث ألقي فى "سمنار" التاريخ الإسلامى والوسيط ، بكلية الآداب ـ جامعة عين شمس عام ٢٠٠٢م .

(1) قسطنطين السابع : إدارة ،ص ١٤٠ ؛ كيستلر : القبيلة ، ص ٩٨ ، انظر أيضا :
The Russian Primary Chronicle,p.62 ;Macartney., Magyars,p.1 ; Moravcsik., Hungary,p.566 ; Fliche., Histoire,p.17.
تعتبر كلمة أونجر Ουγγροι " أى السهام العشرة أو القبائل العشرة " من أكثر الصيغ العرقية التى وردت فى المصادر البيزنطية عن المجريين ، واشتقت منها أسماء متنوعة موجودة حتى يومنا هذا بين شعوب أوربا ، منها فنجرى Vengri باللغة الروسية ، وأونجارن Ungarn بالألمانية ،ومجريون

كانـــت المـــنطقة الممتدة من حدود الأورال حتى القوقاز جنوبا ومنها غربا حتى جـبال الكربات هى المنطقة التى جرت فيها هذه الهجرات ؛ ذلك أنه فى تاريخ مجهول مــن القرون الأولى للتقويم المسيحى طردت هذه القبيلة البدوية من موطنها السابق فى جـبال الأورال وهاجــرت جــنوبا عبر السهوب وانتهى الأمر باستقرارها فى الإقليم الواقع بين نهرى الدون وكوبان وبالتالى جاورا الخزر (1) . ثم أصبحوا بمرور الوقت

Hungarians بالإنجلـــيزية ، ومجـــرى Hongrois بالفرنســـية وأونجـــرس Ungheresi بالإيطالية وهكـــذا... فـــى حين أن لفظ مجرىMagyar هو الاسم الذى أطلقوه على أنفسهم منذ زمن سحيق ، ولعلهـــا تكـــون مشتقة من اسم طائفة مجريزMegeris إحدى طوائف الكاباروى Kabaroi الثلاث . ولكن متى سماهم البيزنطيون بالترك؟ فى حدود معلوماتنا، أطلق البيزنطيون عليهم هذا الاسم بدلا من اسم أونجر ، بدءا من القرن العاشر الميلادى (مثلما ورد لدى قسطنطين السابع)؛ذلك أن البيزنطيين أطلقوا اسم الترك على خمسة أمم هم،الأتراك الخلص(مؤسسى إمبراطورية الترك العظمى فى القرن الخامس الميلادى) ، والتوكيو Tu-kiue ، والسلاجقة ، والأتراك العثمانيين ، إضافة إلى المجريين ، الذين حملوا هذا الاسم بعد التحالف الذى جرى بينهم وبين قبيلة الكابار Kabars أو الكافار Kavars (من سلالة الخزر) التركية . انظر :

قسطنطين السابع : إدارة ، ص١٤٣ ؛ كيستلر : القبيلة ، ص ٩٨، انظر أيضا :

Macartney ., Magyars , pp. 124-125 ; Lewiciki., Hongrois,p.49; Vernadsky.,Lebedia ,p.185 ;Bury., Eastern,p.492; Moravcsik,Hungary .,p.566.

أما عن الأسماء التى ورد بها المجريون فى المصادر العربية فمنها المجغرية ، والماجار ، والباشقرد ، والترك ، والهنكر ، وغيرها ، انظر :

الكرديزى : الأخبار، ص ٤٦٩-٤٧١ ؛ الأصطخرى : مسالك ، ص ١٣١ ؛ ليلى عبد الجواد : بلاد المجر ، ص ٣٩-٤٤ ، انظر أيضا :

Kaldy- Nagy., Madjar,pp.1010-1014: Bury., Eastern,p.492.

لمزيد من التفاصيل حول كلمة ترك ، انظر :

Macartney., Magyars,pp.124-134 .

(1) Moravcsik., Hungary,p.566.

انظر أيضا : كيستلر : القبيلة ، ص ٩٧ .

أخـــذ الخـــزر أسمهم من خزر بن يافث بن نوح عليه السلام ، وهم شعب تركى الأصل ينتمى إلى طـــراز قـــبلى أو شبه قبلى غير سامى نزح من أواسط آسيا إلى ما يسمى فيما بعد بخزريا أو أقلـــيم الخـــزر بيـــن المجرى الأدنى لنهر الفولجا والمنحدرات الشمالية للقوقاز حول بحر آزوف وغربـــا

مـــن رعايـــاهم . وتعتـــبر علاقـــة المجريين بالخزر من الأمور الصعبة التى زاد من تعقـــيدها أن المصادر لم تحدد تاريخاً معيناً لهجرة المجريين عبر الدون أو تحالفهم مع الخـــزر . لذلك بذل المحدثون جهودا مضنية لكشف الغموض ، أسفرت عن أن هجرة المجريـيـــن إلـــى المـــنطقة الأخيرة كانت بين عامى ٨٢٥ ــ ٨٣٠م . أما تحالفهم مع الخـــزر فكـــان فـــى وقـــت ما بين عامى ٨٤٠ ــ ٨٦٠م (١) . أيضا اعترض بعض الباحثيـــن على مدة السنوات الثلاث التى ذكر قسطنطين السابع أنها الفترة التى قضاها المجـــريون فى التبعية للخزر ، وخلص إلى أن النص ربما حرف من ثلاثمائة سنة إلى ثلاث سنوات ، ولو صح هذا الافتراض لوجب إعادة النظر فى الدور الذى لعبه هؤلاء المجريين فى الناحيتين السياسية والاجتماعية فى جنوب روسيا (٢) .

علـــى أى حـــال ، يـــبدو أن انهماك الخزر والمجريين فى الصراع مع جيرانهم حال دون نشوب خلافات بينهم (٣) . وبلغ الوفاق بين الجانبين أن قام المجريون بجمع

حـــتى أطـــراف أوربا الشرقية وسواحل البحر الأسود. وما يزال أمر الخزر صعبا بالنسبة للمؤرخين لصعوبة التعامل مع مصادر تاريخهم لكونها مكتوبة بلغات مختلفة يصعب الإلمام بها، انظر :
محمد مرسى الشيخ : الخزر ، ص ٣٤٩-٣٥٣ ؛ بطرس البستانى : دائرة ، ج ٧ ص ٣٧١ ؛ هانئ البشير : بيزنطة ، ص ٢٧ حاشية رقم ١ ، انظر أيضا :
ODB,2,p.1127.

(١) Macartney., Magyars,pp.108-112.
انظر أيضا :كيستلر : القبيلة ، ص ٩٧.
رغم الغموض والاقتضاب الذى يغلب على معلومات قسطنطين السابع – أحد أهم المصادر بالنسبة للمجريين فى تلك الفترة – بشأن المجريين، فإن أمة المجريين تعتبر من أكثر الأمم التى أولاها بكثير من التفاصيل إذا ما قارناها بغيرها من الأمم التى تناول تاريخها المبكر ، انظر :
DAI,II,p.146.

(٢) قسطنطين السابع : إدارة ، ص ١٤٠ ، انظر أيضا :
DAI,II,p.148 ; Vernadsky., Lebedia,p.180 ;Gregoire., Origine,636.

(٣) ينقسم البلغار إلى قسمين : الفولجا والدانوب ، عرف بلغار الفولجا أيضا بالبيض واعتنقوا الإسلام فى عام ٩٢٢م وأصبحت مملكتهم منذ القرن العاشر الميلادى مركزا هاما من المراكز الإسلامية فى المنطقة الشمالية ، أما بلغار الدانوب فهناك صعوبة كبيرة فى معرفة أصلهم ، والأرجح أنهم آسيويون ينـــتمون إلى أحد فروع الهون من السلالة التركية . ورغم ذلك لم يفطن المسعودى لهذا الانقسام بين

الإتاوة المفروضة على الشعوب السلافية القاطنة إلى الشمال من إقليم السهوب وغيرها نيابة عن الخزر وحققوا مكاسب كبيرة من وراء ذلك ([1]) .

غـير أنه فى حوالى عام ٨٣٠ م وبعد زحف الروس ([2]) نحو الجنوب والجنوب الشـرقى ، قام الخزر بتوطين المجريين فى المنطقة الواقعة بين نهرى الدون والدنيبر

الـبلغار وخلط وقائع هذه بوقائع تلك . وبالنسبة للبشناق فهناك أيضا اختلافات كثيرة حول أصلهم ، والأرجـح هو أنهم من الشعوب التركية المنتمية إلى قبائل الغز ، التى كانت تقطن التركستان (بلاد= =الـترك) ، وانتهى بهم المطاف فى هجرتهم إلى الاستقرار فى منطقة ليبيديا Lebedia عام٨٩٣ م ، وقد أوضح قسطنطين السابع لابنه رومانوس وهو يعظه مدى كثرة عددهم وقوة بأسهم . لمزيد من التفاصيل ، انظر :

قسطنطين السابع : إدارة ، ص٥٦-٥٧ ؛ المسعودى : مروج ، ج١ ص ١٥٤ ؛ الرمزى : الأخبار ، ج١ ص ٢٨٢-٢٨٣ ؛ ذكـى محمد حسن : الرحالة ، ص ٢٦؛ هانئ البشير: بيزنطة، ص ٢٠، ٢٧ حاشية رقم ١ ؛ المتولى تميم : البشناق ، ص ٤٤ ،انظر أيضا :

Hudud Al- Alam,p.443.

([1]) Toynbee., Constantine,pp.418,454.

كيستلر : القبيلة، ص ٩٨.

([2]) الروس شعب من الشعوب الشمالية التى نزحت من شبه جزيرة سكنديناوة متجهة نحو البلاد التى تعرف اليوم باسم روسيا وروسيا الاتحادية وروسيا البيضاء . وقد ظهروا بهذا الاسم للمرة الأولى فى الغرب الأوربى فى حوليات بريتنيانى Bertiniani إبان حديثها عن السفارة التى أرسلها الإمبراطور البيزنطى ثيوفيل Theophilus (٨٢٩ـ٨٤٢م) إلى الملك الفرنجى لويس التقى Louis the Pious (٨١٣-٨٤٠م) إبـان العقد الرابع من القرن التاسع الميلادى يطلب منه المساعدة ضد المسلمين . أما المصادر الإسلامية فجاءت أول إشارة عنهم لدى اليعقوبى أبان حديثه عن بلاد الأندلس ووصفه لمدنها ، انظر:

DAI ,II,p.22.

اليعقوبى : البلدان ، ص ٣٥٤ ؛ طارق منصور : الروس ، ص٢ ؛ ليلى عبد الجواد : الروس، ص٦ ؛ هانئ البشير : بيزنطة ، ص ١٧٢ حاشية رقم ٢ .

يذكـر ماركتنى نقلاً عن حوليات بريتنياتى أن هناك سفارة روسية وصلت إلى مدينة القسطنطينية فى عام ٨٣٩ م ، وعند عودتها طلبت السماح لها بالمرور عبر ألمانيا خشية من الوقوع فى أيدى البرابرة المتوحشين (المقصود المجريين) . أنظر :

Macartney,Magyars,p.67 .

وعرفـت باسم ليبيديا Λεβεδια لصد الخطر الروسى . ونجح المجريون فى مواجهة الزحف الروسى ، مما أدى إلى توطيد العلاقة بينهم وبين الخزر الذين انخرطت أعداد غفيرة منهم بين المجريين (1) .

لـم يستمر هذا الوفاق طويلا ؛ ذلك أن المصادر تخبرنا ــ دون ذكر أسباب ــ أن خاقان الخزر أرسل سفارة إلى القسطنطينية يطلب من الإمبراطور ثيوفيل (٨٢٩ – ٨٤٢م) بـناء قلعة ساركل (تعنى كلمة ساركل فى لغتهم البيت الأبيض) – بالقرب من مصـب نهر الدانوب – لمواجهة غارات أمة قريبة (2) . رأى البعض أن المقصود هم البشـناق ، لكن البشناق كانوا ما يزالون يعيشون بعيداً عن الدون (3) ، فى حين رأى الـبعض الآخـر أن المقصـود هم الروس . غير أن أغلب الآراء ترجح أن بناء قلعة سـاركل كـان بهدف مواجهة غارات المجريين (4) . وفى كل الأحوال لم تمض فترة

---

(1) DAI ,II,p148;Toynbee.,Constantine,p.454.

انظر أيضا : كيستلر : القبيلة ، ص ٩٨-٩٩.

رغـم أن اسم ليبيديا يبدو أنه يونانى الشكل شأنه شأن غيره من الأسماء ــ كآلانيا Αλανια وتركيا Τουρκια وخزريا Χαζαρια وغيرها ــ فالأرجح أن المجريين هم الذين أطلقوه على الإقليم الذى أقـاموا فيه بين نهرى الدون والدنيبر . وقد استقوا هذا الاسم من اسم زعيمهم ليبيداس تقديرا لمكانته ومنزلته الرفيعة بوصفه أول زعيم لهم . لمزيد من التفاصيل انظر :

قسطنطين السابع : إدارة ، ص ١٣٩ ؛ كيستلر : القبيلة ، ص٩٨-٩٩ ،انظر أيضا :

DAI,II,p.147.

لمزيد من التفاصيل حول أصل هذا الاسم ، انظر :

Macartney., Magyars,pp.90-94.

لمعرفة موقع ليبيديا ، انظر الخريطة فى نهاية البحث .

(2) قسطنطين السابع : إدارة ، ص ١٤٧ – ١٤٨ ،انظر أيضاً :

Theophanes Cont,p.122 ;Cedrenus,Historiarum.II ,p.528;Macartney, Magyars,p.74; Obolensky., Crimea ,p.128.

(3) DAI,IIp.155;Theophanes Cont,p.122. Cedrenus, Historiarum ,II,p.528 .

(4) DAI,IIp.155;Bury., Eastern,p.417 ;Macartney., Magyars,p.74;Obolensky., Crimea .,p.128.

ذكر كدرينوس قلعة ساركل باسم قلعة ماركل Markel . انظر:

Cedrenus., Historiarum,II,p.528.

طويلـــة حتى وجد المجريون أنفسهم ــ تحت ضغط البشناق ــ مضطرين إلى الرحيل عــن الســـهوب الأوراســـية ، وانقسموا إلى قسمين : الأول ذهب ليعيش فى القوقاز ، والـــثاني تحـــرك باتجاه الغرب وأقام عند مصب نهر الدون . غير أن البشناق أغاروا علـــى الأخيرين في عام ٨٨٨/٨٨٩م ودفعوا بهم غربا إلى المنطقة الواقعة بين نهرى الدنيـــبر وسرت التى أطلقوا عليها اسم أتل-كوز Etel-Koz " أرض ما بين النهرين " واستقروا بها ([١]) .

لا تـــزال ظـــروف هجرة المجريين على النحو السابق موضع جدل ، حـــاول بعـــض الباحثيـــن أن يثبـــت عن طريق التخمين أن اسم أتل-كوز وليبيديا كانا اسمين لمـــنطقة واحـــدة . لكـــن يصعب ــ من وجهة نظر الباحث ــ التسليم بذلك لأن جعل المنطقتيـــن مـــنطقة واحدة لا يتفق وسير الأحداث من ناحية ، إضافة إلى ما استنتجه بعـــض المحدثين من أن أتل-كوز ، كانت تقع إلى الغرب من ليبيديا ويفهم ذلك ضمنا مـــن عـــدد الأنهـــار الـــتى مـــروا بها داخل أتل-كوز وكذلك ترتيبها ؛ ذلك أن اتجاه المجريين خلال مرورهم كان من الشرق إلى الغرب ، من ناحية أخرى ([٢]).

كـــيفما كـــان الأمر ، لم تكن منطقة أتل-كوز هى المقر الأخير للمجريين ؛ ذلك أن الظـــروف السياسية المحيطة بهم دفعتهم لتركها بعد فترة قصيرة . ففى عام ٨٩٤-

---

([١]) قسطنطين السابع : أدارة ن ص ١٤٠ ؛ كيستلر : القبيلة ، ص ١٠١-١٠٢، انظر أيضا :
Macartney., Magyars,p.108.

([٢]) DAI,II,p.148 ; Macartney,Magyars,pp.90-96; Vernadsky., Lebedia,p.186.
انظر أيضا : كيستلر : القبيلة ، ص ١٠٢؛ المتولى تميم : البشناق ، ص٦٥.
ذكـــر قســـطنطين السابع الأنهار الموجودة داخل أتل-كوز وهى ــ من الشرق إلى الغرب ــ باروخ Βαρουχ (الدنيـــبر) ، كوفـــو Κουβου (بـــوج Βυγ) ، ترولوس Τρουλλοσ (الدنيستر) ، بـــروتوس Βρουτοσ (بـــرت Πρυτ) ، سيرتوس Σερετοσ (سرت Σερετ) . ورغم ذلك فسرها البعض على أنها تتطابق مع منطقة ليبيديا . انظر :
قسطنطين السابع : إدارة ، ص ١٤٢ ، انظر أيضا :
Macartney., Magyars,p.82; Vernadsky., Lebedia,p.186.
لمزيد من التفاصيل عن جغرافية ليبيديا وأتل -كوز ، انظر :
المتولى تميم : البشناق ، ص ٦٢-٦٥.

٨٩٥م ، وفــي غمــرة صراع بيزنطة مع جيرانها المسلمين في الشرق، والبلغار في الشــمال ، أرســل الإمــبراطور ليو السادس Leo VI (٨٨٦ ـ ٩١٢م) سفارة بقيادة المدعــو نيقــتاس ســكليروس Niketas Skleros ومعه العطايا الجزيلة كي يحرض المجرييــن علــى مهاجمة البلغار من ناحية الشمال . ولم يجد المبعوث الإمبراطورى صــعوبة فــى إقــناع المجرييــن بالقــيام بهذه المهمة . وبناء على ذلك قام الأسطول البــيزنطى بــنقل المجريين إلى شمال بلغاريا حيث أوقعوا بها خسائر فادحة وواصلوا الــزحف حــتى العاصــمة بريســلاف ، ولــم يــتركوا بلغاريا إلا بعد أن طلب منهم الإمبراطور ليو السادس ذلك إثر توصله إلى اتفاق مع العاهل البلغارى سيميون (٨٩٣ ــ٩٢٧م) . ولكــى ينــتقم الأخــير منهم ، تحالف مع البشناق ضدهم ، وانتهز فرصة خــروجهم فى عام ٨٩٦م فى إحدى الحملات وهاجم هو والبشناق بلادهم وطردوا من كــانوا يقومون بأعمال الحراسة وقضوا على الكثيرين من عائلاتهم . وبمجرد أن عاد المجــريون مــن حملتهم ورأوا ما حل ببلادهم من دمار هجروها واتجهوا نحو الغرب والشمال الغربى بقيادة زعيمهم أرباد Arpad ، فاجتاز بعضهم ممرات جبال الكربات ، والتف بعضهم الآخر حول هذه الجبال وعبر من خلال البوابة الحديدية Iron Gate وأقاموا فى سهل بانونيا [1]بين نهرى تيزا Tizza والدانوب الأوسط [2] (ضمن دولة

([1])بانونيا : منطقة على نهر الدانوب يقع معظمها اليوم فى هنغارية (المجر) ، انظر :

اينهارد : سيرة ، ص ٩٠ حاشية رقم ١ .

([2])ينبع نهر تيزا من جبال الكربات ويجرى من الشمال إلى الجنوب موازيا تقريبا للدانوب ، وهو يصرف مياه الجزء الشرقى للسهل الكبير . ويتميز مجراه بكثرة المنعطفات ، ويكتنفه الكثير من البحيرات المتقطعة . انظر :

جودة حسنين جودة وآخرون : الجغرافيا ، ص٤١٣ ، وانظر الخريطة أيضا .

أمــا نهــر الدانوب ، فهو ثانى أطول نهر فى أوربا ينبع من الغابة السوداء فى ألمانيا ويجرى عبر ثمانــية بــلاد (مــن بينها المجر وهو النهر الرئيس بها حيث يبلغ طوله بها زهاء ٤١٠كم ويجرى بأرضها باتجاه غربى شرقى) ويصب فى البحر الأسود . طول نهر الدانوب نحو ٢٨١٦كم ، وينقسم إلى ثلاثة أجزاء شبه متساوية : الأعلى (أسفل فيينا Viena) والأوسط (أسفل البوابة الحديدية، قرب أورسوفا Orsova رومانيا) والألسنة الجنوبية . وتصب بنهر الدانوب مجموعة من الأنهار مثل درافا=

المجر اليوم فى وسط أوربا) بين السكان هناك من السلوفينيين Slovenes والمورافـ (١) . وهـنا يتبادر إلى الذهن سؤال ، لماذا اتجه المجريون نحو بانونيا ؟ يؤيد الباحث مـا ذهـب إليه المؤرخ المجرى مورافسك Moravcsik ، من أن فتحهم هذه المنطقة جـاء نتيجة غير مباشرة للسياسة البيزنطية (٢) ؛ ذلك أن القيصر البلغارى سيميون كـان قد تعلم الدرس من بيزنطة وهو تحريض قوة ضد أخرى ، وطبقه مع المجريين ونجـح فـى ذلـك . ولكنه دفع هو الآخر ثمن تصرفه هذا ــ فيما بعد ــ فاستقرارهم

=Drava وسافا Sava وموارافا Morava ؛ ذلك أن الأنهار فى شمال البلقان تجرى إما تجاه الشرق أو الشـمال الشرقى أو تجرى مباشرة لتصب فى نهر الدانوب . ويعتبر نهر الدانوب أعظم الأنهار أهمـية فـى وسـط وشرق أوربا ، وكان أوسطه مسرحا للصراع بين بيزنطة ومملكة الفرنجة نحو منتصف القرن التاسع الميلادى بغية السيطرة على السلاف القاطنين هناك . انظر :

اينهارد : سيرة ، ص ٩٧، حاشية رقم ٣ ؛ وسام فرج : قراءة ، ص ١٥١ ؛ جودة حسنين جودة ، وآخرون : الجغرافيا ، ص ٤١٣، انظر أيضا :

ODB,I,p.586.

(١) قسطنطين السابع : إدارة ، ص ١٤٣ ؛ هانئ البشير : بيزنطة، ص ١٢٩-١٣١؛ المتولى تميم : البشناق ، ص ٦٠-٦١، انظر أيضا :

DAI.,II,p.146 ; Symeon Magister .,p.702; Theophanes Cont.,p.359; Georgius Mon Cont., pp.854-855; Stephenson., Hungary,p.106; Fliche., Histoire,p.17 ; Oman., Ages,p.471; Obolensky., Commonwealth,pp106,154; Vasiliev., Empire,p.316.

تجـدر الإشارة إلى أن مسألة التحالف بين البلغار والبشناق ضد المجريين انفرد بها قسطنين السابع وحده، انظر :

DAI.,II,p.151.

ذكـر المؤرخ المجرى سيمون الكيزى أن المجريين حينما عبروا ممرات جبال الكربات كان عددهم نحو سبعة قبائل ، استقرت كل قبيلة فى المنطقة التى تراءت لها بالسهل البانونى . وكانـت أول قبيلة مـنهم بـزعامة أرباد بن ألموس Almos ابن إلود Elod ابن وجيك Ugyek ، لذا استـولت على أفضل منطقة من حيث الموقع والثروة (التى أقيمت عليها فيما بعد مدينة Sz ekesfehervar. وتمتع أرباد شأن أفراد عائلته من قبل بأعلى مكانة بين القبائل المجرية وكانت له القوامة عليهم ، انظر:

Simonis of Keza., Hungarorum,p.81-83.

لمزيد من المعلومات حول باقى القبائل المجرية السبع وأماكن استقرارها ، انظر :

Simonis of Keza., Hungarorum,pp.83-85 .

(٢) Moravcsik.,Hungary,,p.569.

وتوســعهم ناحــية الشــرق ، أدى إلى تحكمهم فى مصادر إنتاج الملح فى ترانسلفانيا Transylvania فكانــت خســارة بلغاريــا فادحــة ، وجعلت سيميون يعيد النظر فى حســاباته ولكن بعد فوات الأوان (١) .أيضا ربما كانت معرفتهم السابقة لبانونيا ــ لأنهــا لــم تكن المرة الأولى التى يزورنها ، فقد مروا بها أكثر من مرة أبان حملاتهم ناحــية الغــرب (٢) ــ ، سببا رئيسا لاختيارها ؛ لما تتمتع به من تربة خصبة ومناخ يلائــم الإقامــة والاســتقرار (٣) . أيضــا لا نستبعد دورا لعبته الدبلوماسية البيزنطية لتوجــيه المجريين نحو بانونيا ، فبعد نجاح التحالف معهم ضد بلغاريا ــ العدو اللدود فــى تلــك الفــترة ــ رأت أنهم من الممكن أن يلعبوا نفس الدور مرة أخرى ليس ضد بلغاريــا فحسب ، بل ضد مملكة الفرنجة التى ــ أيضا ــ كانت تنافس بيزنطة السيادة على سلاف الدانوب الأوسط ، ولتحقيق ذلك لم يكن هناك ــ من الناحية الجغرافية ــ أفضل من بانونيا .

ســاعدت الأوضاع التى كانت تمر بها كل من مملكة مورافيا العظمى ومملكة الفرنجة ، على استقرار المجريين فى وطنهم الجديد ونجاحهم فى تأسيس دولتهم الفتية فــى العصــور الوسطى ؛ ذلك أن إمبراطورية مورافيا العظمى ، التى سبق أن بلغت شــأوا عظــيما علــى عهــد عاهلها راستيسلاف Rastislav (٨٤٦-٨٦٩م) وامتدت حدودهــا لتشمل ما يعرف اليوم بالنمسا والمجر وتشكوسلوفاكيا ، قد أخذت تعانى من بعض المشاكل الداخلية بعد وفاة حاكمها سفاتوبلك Svatoblk (٨٧٠-٨٩٤م) ، فبعد حوالــى عام من وفاته نشبت خلافات على العرش بين أبنائه ، ولم يتمكن الابن الأكبر موجمــير الثانى Mogmir II ــ الذى خلف والده على العرش ــ من تحقيق الوئام مع

---

(١) Stephenson., Hungary,pp.107-108.

(٢) لمعرفة بعض المرات التى اجتازوا فيها بانونيا من قبل على سبيل المثال ، راجع :
Simonis de Keza., Hungarorum,pp.75-77.

(٣) لمعرفة جغرافية بانونيا راجع :
جودة حسنين جودة : الجغرافيا ، ص ٤١١-٤٢٥.

إخوته ، مما دفع أخوه الأصغر سفاتوبلك الثانى إلى طلب مساعدة جيرانه الفرنجة عام ٨٩٨م ضده (١) .

فـــى غضـــون ذلك كانت مملكة الفرنجة الكارولنجيين تمر هى الأخرى بمرحلة حرجة من تاريخها ، منذ تقسيمها عام ٨٤٣م بين أحفاد شارلمان بموجب اتفاقية فردان الشـــهيرة ، الـــتى مزقـــت وحدة الإمبراطورية الكارولنجية وحملت فى طياتها ملامح بعـــض الـــدول الحديثة (٢). ثم جاءت وفاة شارل السمين عام ٨٨٨م لتقضى وبصورة نهائـــية على أى محاولة لإعادة الوحدة الكارولنجية ، لتنشأ على أنقاض الإمبراطورية الكارولنجـــية بعـــد ذلك الدول الثلاث ألمانيا (الشق الشرقى من مملكة الفرنجة)وفرنسا (الشق الغربى) وإيطاليا (٣) .

حيـــنما طلـــب ســـفاتوبلك الثانى مساعدة الفرنجة كان حاكمهم هو الإمبراطور أرنولـــف Arnulf (٨٨٧-٨٩٩م) ــ الملـــك السابق لبافاريا Bavaria ــ ، الذى كان يمقـــت المورافييـــن ، لمـــا ســـبق أن فعله إمبراطورهم سفاتوبلك ، حين استغل ما ألم بالســـلطة الملكـــية فى الجزء الشرقى من مملكة الفرنجة ــ ألمانيا ــ وضم إلى بلاده جـــزءا مـــن بانونـــيا الفرنجية ، فضلا عن انقلابه فى أخريات أيامه ضد رجال الدين

---

(١) قسطنطين السابع : إدارة ، ص ١٤٦، انظر أيضا :
Dvornik., Les Slaves, p.97; Fliche.,Histoire,pp.17-18.
عن أصل كلمة مورافيا ، ومتى سميت بمورافيا العظمى ، انظر :
هانئ البشير : مورافيا ، ص ٦٠٦، حاشية رقم ١ .

(٢)قســـمت مملكـــة الفرنجة بموجب اتفاقية فردان إلى ثلاثة أقسام : قسم شرقى يحكمه الألمـــانى لويس ويشمل الأراضى التى كونت ألمانيا فيما بعد ، وأهم مقاطعاته (بافاريا ــ سوابيا ــ سكسونيا) ، قســم غربى يحكمه شارل الأصلع ــ الابن الثانى للويس التقى ــ وشمل الأراضى التى كونت فرنسا فيما بعد وأهم مقاطعاته (نستريا،وأقطانيا) وقسم ثالث يقع بين القسمين الشـــــرقى والغربى ويشمل حوض الراين وإيطاليا ، وكان من نصيب لوثر الابن للويس التقى ، انظر :
محمد الشيخ : الفرنجة ، ص٢٦.

(٣) Mckitterick., Frankish,p.176.
انظر أيضا : محمد الشيخ : الفرنجة ، ص ٢٦-٢٧ ؛ هلستر : أوربا ، ص ١٢٦.

الفـــرنجة فى بلاده ، وقيامه بطرد كبيرهم وشنج Wiching ـــ أسقف نيترا ـــ متذرعا بأن مآربه أصبحت سياسية أكثر منها دينية . ولعل هذا ما جعل أرنولف يوجه حملتين ضـــد مورافيا فى عامى ٨٩٢، ٨٩٣م ، ثم جاء موجمير الثانى ليؤجج هذه العداوة ـــ رغـــم حرصـــه هـــو وأخـــوه سفاتوبلك الثانى منذ البداية على عقد صلح مع أرنولف وأوشـــكا علـــى تحقـــيقه ـــ حينما شرع هو الآخر فى إعادة تنظيم الكنيسة المورافية ، وطلـــب مـــن بابا روما ـــ كخطوة على طريق الاستقلال الدينى ـــ أن يعين له رئيس أســـاقفة ومجموعـــة من رجال الدين ليمارسوا مهمة التبشير بين أفراد شعبه ، وبالفعل وافـــق الـــبابا حـــنا التاســـع Jean IX (٨٩٨-٩٠٠م) ورسم لمورافيا رئيس أساقفة ومجموعـــة مـــن رجـــال الدين ، مما أدى إلى تراجع نشاط من تبقى من رجال الدين الفـــرنجة فـــى بلاده [1] . ولكل هذا رأى أرنولف أن الفرصة أصبحت سانحة لتفتيت مورافـــيا وإضـــعافها . وبـــناء علـــى أوامـــره قام اثنان من الـــMargraves (الحكام العســـكريين للأقالـــيم) وهمـــا ليتوبولد Luitpold وأريبون Aribon على رأس جيش بالتوغل فى مورافيا دون أن ينجحا فى إنقاذ سفاتوبلك الثانى من قبضة أخيه الذى ألقى بـــه فى السجن ، ولم يخرج سفاتوبلك الثانى من سجنه إلا فى عام ٨٩٩م حينما تمكن الـــبافاريون مـــن اقتحام القصر الذى سجن به وأخرجوه منه . وكان خطأ أرنولف أنه أســـاء التصـــرف تجـــاه مورافيا بسعيه باستغلال الحرب الأهلية لإضعافها ، وبتأجيره بعـــض المرتزقة المجريين ليحاربوا إلى جوار جيشه داخل مورافيا ؛ ذلك أنه بتصرفه هـــذا دل المجرييـــن على طبيعة الطرق المؤدية إلى بلاده وأوقفهم على الضعف الذى كانت تمر به مورافيا ، صحيح أنها لم تكن المرة الأولى التى يذهبون فيها إلى مورافيا

---

(1) Dvornik.,Les Slaves,pp.93,97; Vlasto.,Christendom,p.83; Fliche., Histoire, pp.16,note,no.7,17.

كانـــت دوقية بافاريا أشبه ما تكون بدولة مستقلة بأراضيها الواقعة فى وادى الدانوب، ما بين نهر إن Inn ونهر لخ Lech . وكان لها تنظيمها الكنسى المستقل وترانيمها الخاصة . وقد خضعت بافاريا لحكـــم الفـــرنجة منذ عهد بيبن القصير واعترف دوقها تاسيلو (٧٤٨-٧٨٨م) بيبن القصير سيدا له . وباءت كل محاولات تاسيلو للتخلص من هذه التبعية بالفشل . انظر :

إينهارد : سيرة ، ص ٨٣ حاشية رقم ١

، فسبق أن قاتلوا إلى جوار المورافيين ضد الفرنجة (الشرقيين) عامى ٨٦٢، ٨٨١ م [١] ، ولكـنها كانـت المـرة الأولـى التى يزور فيها هؤلاء مملكة الفرنجة . ويعد أرنولـف بذلك المسئول الأول عن توجيه المجريين نحو مورافيا وفتح الطريق أمامهم نحو بلاده فيما بعد ، وكانت عواقب ذلك وخيمة إذ دفع خلفائه من بعده الثمن غاليا[٢].

فهـؤلاء المجـريون الذين حلوا مؤخرا بسهل الدانوب الأوسط ، وكانوا مجبولين على التـنقل والـترحال ، كانـت حرفـتهم الأساسية صيد الأسماك والحيوانات . كما كان اعـتمادهم الأساسـى فـى كسب قوتهم على غنائم انتصاراتهم . لذلك ، رغم خصوبة الـتربة وملائمـة المناخ بمنطقة الدانوب الأوسط ، لم يعملوا بالزراعة وآثروا الاكتفاء بتربـية الخـيل اللازمة لممارسة هوايتهم المفضلة من السلب والنهب ، خاصة وأنهم كـانوا يتمـتعون بمهـارة منقطعة النظير فى الرماية والفروسية ، واشتهروا بأنهم لا يقهرون بفضل صرخاتهم المدوية [٣] وقسوتهم الشديدة . وبعد أن لفت العاهل الألمانى نظـرهم نحـو بـلاده ، وجـدوا فـى ألمانيا وإيطاليا وأحيانا فرنسا حقلا خصبا لشن الحملات المدمرة [٤].

كـان بقاء أرنولف على قيد الحياة وقيامه على مقربة منهم بتطهير بعض سهول الدانوب من السلاف ، سبباً فى تخليهم لبعض الوقت عن ألمانيا ، والاتجاه نحو إيطاليا الـتى عانت عقب وفاة إمبراطورها لامبرت الثالث Lambert (٨٩١-٨٩٨م) الأمرين

---

(١) Stephenson., Hungary,pp.105-106;Bakay., Hungary,p536.

(٢) Fliche.,Histoire,pp.17-18 ;Oman.,Ages,p.471.Bloch., Society,vol.1,p.9 ;Davis., Europe ,p.168.

مـا يزال تاريخ مجئ المجريين إلى مورافيا بعد وفاة سفاتوبلك ، موضع نقاش بين الدارسين ، ولا يوجد رأى قاطع بشأنه ، انظر :

DAI,II,p.153.

(٣) تذكـر سـيرة قسطنطين أنه مرـ وهو فى طريقه إلى بلاد الخزر على رأس بعثة تبشيريةـ عام ٨٦١م ببعض المجريين وسمع لهم عواء مثل الذئاب ، ولما رأوه أرادوا أن يقتلوه ، لولا أن سمعوه يرتل بعض الترانيم الدينية فتركوه . انظر :

Vita Constantini .,p.45 ; Nikolov., Magyar,p.86.

(٤) Fliche.,Histoire,pp.17-18;Thompson.,History,p.166;Bloch., Socity,vol.1,p.9;Lane Poole.,Germany,p.182.

مـــن جراء التهديد الألمانى من الخارج والاضطرابات الشديدة ـــ بسبب الصراع على الحكم ـــ فى الداخل ([1]) .

وظهـــر المجـــريون لأول مـــرة فى إيطاليا عام ٨٩٩ - ٩٠٠م ، وذلك عندما أغـــاروا مـــن مستوطناتهم على نهر الثيس - وربما بتحريض من أرنولف أيضاً نكاية فـــى عـــدوه العاهل الإيطالى الجديد برنجار Berengar - على فنيتو Veneto الحالية وأوقعـــوا بهـــا ضرراً بالغاً ثم انسحبوا إلى ديارهم . ثم استأنفوا الكرة مرة أخرى فى العـــام الـــتالى بعـــد أن حشدوا عددا ضخما شق طريقه من أكوليا Aquileia وفيرونا Verona حـــتى بافـــيا Pavia ، وقاموا بنهب سهول الشمال الإيطالى . وحينئذ حاول الإمبراطور الجديد برنجار ـــ الذى شجع هو الآخر المجريين فيما بعد على الاستيلاء علـــى مـــا تبقى من بانونيا رداً على تحريض أرنولف ـــ أن يكون على قدر المسئولية ويواجـــه هـــذا الخطـــر ([2]) فأرســـل الرسائل والرسل لسكان إيطاليا من التوسكانيين والفولبشـــيان Volscians و الســـبوليتو Spoleto يأمرهم أن يتحدوا معا فى مواجهة هـــؤلاء الأعداء . فتجمع جيشا قوامه نحو ١٥ ألف جندى . ولما رأى المجريون ذلك انـــتابهم الرعـــب وبعـــد تردد قصير بدا لهم أن الفرار أفضل من القتال ، وأخذوا فى عـــبور نهر آدا Adda ، فغرقت منهم أعداد كبيرة أثناء عبور النهر ، ولذلك أرسلوا يعرضون على برنجار تسليمه كل ما بحوزتهم من غنائم مقابل السماح لهم بالعودة إلى أوطـــانهم آمنيـــن . ولكـــن رفض برنجار عرضهم باستهزاء ، وبدأ أتباعه ـــ وكأنهم واثقيـــن مـــن النصـــر ـــ يبحـــثون عـــن السلاسل التى يقيدون بها من سيأسرونه من المجريين ([3]) .

ولمـــا لـــم يجد المجريون بدا من القتال بدأوا فى تنفيذ خطة ماكرة ؛ بأن أخذوا يـــتقهقرون حتى وصلوا السهول الواسعة المحيطة بفيرونا وهناك جرت مناوشات بين

([1]) Previte-Orton., Italy,p.148.

([2]) Stephenson.,Hungary,p.107;Previte-Orton., Italy,p.148; Oman ., Ages,p.465.
انظر أيضا : سعيد عاشور : أوربا ، ج ١ ص ٢٩٥ ؛ نعيم فرح : أوربا ، ص ١١٢-١١٣.

([3]) Liutprand of Cremona,pp. 75-76 ; Previte- Orton., Italy,p.148.

الجانبيــن كانــت الغلبة فيها للمجريين ، الذين أخذوا يستأنفون مسيرتهم التقهقرية مرة أخرى بمجرد أن علموا أن هناك تعزيزات عسكرية فى الطريق إلى أعدائهم ، وانتهى الأمــر بوصول الجانبين إلى نهر برنتا Brenta . غير أن المجريين أصبحوا منهكين مــن كثرة التنقل وأثر ذلك فى معنوياتهم ، وفكروا فى أن يتخلى كل منهم عما بحوزته مــن أســلاب وأسرى ويحتفظ فقط بحصان واحد ينجو به . وزيادة فى الأمان أرسلوا إلــى برنجار وأتباعه يتعهدون لهم بعدم مهاجمة أراضيهم مرة أخرى إذا سمحوا لهم بالرحــيل دون أذى ، ولتأكيد عهدهم سيسلمونهم أبناءهم رهائن لديهم ، ولكن كان ذلك دون جــدوى حيــث قوبلت كل عروضهم بالرفض مرة أخرى (١) . ولما انقطعت بهم كــل الســبل أقــبل بعضهم على بعض وبدأ الشجعان منهم يهدءون من روع الخائفين ويسدونهم النصائح الحماسية " لماذا نخاف من الاندفاع نحو سيوف أعدائنا ؟ أليس من الأفضــل أن نسلم أمرنا إلى قدرنا لا إلى جبننا ؟ لا تظنوا أن الرجال الذين يقتلون فى أرض المعركة أمواتا بل أحياء ! يجب أن نكون على ثقة بأنفسنا وبخبرتنا فكم من مرة انتصــرت فــئة قليلة منا على فئة أكثر عددا وعدة !". وأعدوا على إثر هذه النصائح كمينا للأعداء ؛ بأن عبروا النهر متجهين مباشرة صوب وسط صفوفهم وفى وقت كان جــنود برنجار قد نزلوا عن خيولهم ليتناولوا الطعام بعدما أضناهم طول انتظار دخول المعــركة . فــانقض المجريون عليهم يحصدون رقابهم بسيوفهم المستلة ، وتعقبوا من لاذ مــنهم بالفــرار دون أن تــأخذهم بهــم رأفة . نجم عن هذه المعركة أن ظل سهل اللمبارد مسرحا لتجوال المجريين ما يقرب من عام كامل ، ولم يوقف ذلك ويخفف ألم هــذه الهزيمة ، إلا هزيمة بحرية حاقت بالمجريين على أيدى دوق البندقية بترو تريبنو Pietro Tribuno حينما حاولوا الاعتداء على مدينته عام ٩٠٠م (٢).

---

(١) Liudprand of Cremona,pp.76-77;Guldencrone., L'Italie,p.319.

(٢) Liudprand of Cremona,pp.77-78 ; Previte.,Orton Italy,p.148.

بدلا من أن يرجع ليودبراند الكريمونى (٩٢٠-٩٧٢م)الهزيمة التى حاقت بجيش برنجار إلى أسباب منطقــية كالإهمــال وسوء التنظيم ..وغيره ، نراه ينكر كل ذلك ويذكر أن نصر المجريين عند نهر برنتا لا يرجع إلى بسالتهم بقدر ما كان عقابا آلهيا سبق أن توعد به الرب كل العصاه فى شخص بنى

فـــى نفس الوقت الذى كانت تعانى فيه إيطاليا من جراء الغزو المجرى ، توفى أرنولـــف ملك ألمانيا فى ٨ ديسمبر عام ٨٩٩م ، وخلفه على العرش ابنه لويس الثالث ، وكـــان صبيا فى السادسة من عمره ، وتم تتويجه فى شهر فبراير عام ٩٠٠م ملكا على ألمانيا . كان اعتلاء لويس الثالث العرش بمثابة كارثة ؛ إذ كانت البلاد فى حاجة إلـــى قـــائد عســـكرى مـــن الطـــراز الأول يســـتطيع مواجهة أعدائها من المجريين وغـــيرهم (١) . ففـــى فترة الأحد عشر عاما التى حكم فيها البلاد حكما اسميا ، قويت الـــنزعة الإقطاعية عند الأمراء الألمان وجاءت هذه النزعة مصحوبة بروح عنصرية قويـــة وعصـــبية قبلـــية واضحة ، مما ساعد على استمرار الحروب والمنازعات فيما بيـــنهم ، وغـــدا لكـــل قســـم مـــن الأقسام الأربعة الرئيسة التى تألفت منها ألمانيا ــ فرانكونـــيا وســـوابيا وبافاريـــا وسكســـونيا ــ دوقا يرثه ابنه فى منصبه. كان هؤلاء الدوقات المحليون ـــ من دينيين وعلمانيين ــ لا يجرءون من قبل على الثورة والتمرد مـــا دام هـــناك ملـــك قـــوى على رأس الدولة ، فلما تولى لويس الثالث الحكم أخذوا يـــتحركون ويشتبكون مع بعضهم البعض فى منازعات طويلة وحروب دامية أضرت بالـــبلاد ضررا جسيما ، وزاد الطين بلة اشتداد إغارات المجريين وعدم انقطاعها عن ألمانـــيا عقـــب وفـــاة أرنولف (٢) . فبعد فترة قصيرة من وفاته حشد المجريون جيشا ضـــخما وطالـــبوا بأحقيـــتهم فـــى إقلـــيم مارافانى Maravani ، كما اجتاحوا أرض

إســـرائيل وعلـــى لسان النبى جرمياه Jeremiah حينما قال " انظروا ، إننى سوف أرسل إليكم أمة بعـــيدة تسودكم ، إنها أمة قوية ، أمة عتيقة ، أمة لا تعرفون لغتها . إن جعبة سهامها ستكون كالقبر المفتوح ، فكلهم رجال أقوياء . وسوف يأكلون محاصيلكم وخبزكم ، الذى كان أولادكم وبناتكم أحق بأكلـــه : لســـوف يلتهمون جموع طيوركم وقطعان ماشيتكم ، سيأكلون أشجاركم من العنب والتين ، سوف يحطمون بسيوفهم مدنكم الحصينة التى كنتم تشعرون فيها بالأمان . إلا أننى لن أفنيكم تماما فى تلك الأيام " انظر:

Liudprand of Cremona, pp.78-79.

(١) Dummler.,Geschichte.T.III,pp.757,495-500;Fried.,Frankish,p.165;Fliche.Histoire ..pp.18-19.

(٢) سعيد عاشور : أوربا ، جـ١ ص ٢٩٥-٢٩٦.

البافاريين Bavarians ودمروا قلاعهم وحرقوا كنائسهم وأعملوا فيهم الذبح ([1]) . وما إن علم لويس الثالث بالوحشية والدمار الذى أشاعوه بين شعبه ، حتى أشعل الحماس بين أتباعه وحذر الجميع بألا يتخلف أحد منهم عن الاشتراك فى الحرب التى استعد لشنها ضدهم ، ثم خرج على رأس جيشه متجها إلى مدينة أوجسبرج Augsburg . ولكن فوجئ على نحو غير متوقع باقتراب هؤلاء الأعداء من جيشه وفى وضع يصعب فيه التراجع عن الدخول معهم فى معركة ، وكان ذلك فى سهول نهر لخ Lech ([2]). ولم يفطن العاهل الألمانى لمكر هؤلاء الأعداء ودهائهم فى نصب الكمائن حيث تظاهروا بالتقهقر واندفع الألمان خلفهم بجرأة ، وفجأة وعلى نحو غير متوقع انقضوا عليهم من كل حدب وأوقعوا بهم خسائر فادحة ، حتى أن الملك نفسه تملكه الرعب من هول المفاجأة . ولم يكتف المجريون بالمذبحة المروعة فى صفوف الألمان ، بل لكى يشفوا صدورهم من غل ، ساروا نحو ممالك بافاريا وسوابيا وسكسونى Saxony وأحرقوا فيها الأخضر واليابس ، ولم يستطع أحد أن يقف فى وجههم ما لم يجد الحصون والقلاع التى يحتمى بها ([3]) .

هكذا أثبتت الأحداث خطأ سياسة أرنولف الشرقية وتحملت ألمانيا تبعة ذلك ، وحينئذ أدرك الأوصياء على الإمبراطور الصبى مدى أهمية التعاون مع مورافيا لمواجهة عدوهم المشترك ، وبادروا بعقد سلام مع المورافيين فى عام ٩٠١م . ولكن بعد فوات الأوان ؛ ذلك أن الضعف كان قد تمكن من إمبراطورية سفاتوبلك ، التى

([1]) Liudprand of Cremona,p.69.

كانت متعة المجريين – على حد قول البعض – فى القتال وسفك الدماء ، فكانت الأم بمجرد أن تضع طفلها تقوم بشج وجهه بسكين حاد كى يتمرس على تحمل آلام الجروح قبيل أن يرضع من ثديها . ويمكن تصديق ذلك من مشاهدة الجروح التى يلحقونها بلحمهم كعلامة على الحزن عندما يحتضر أحد أقربائهم ، أى أن هذا الجنس الملحد كان يسفك الدماء بدلا من أن يذرف الدموع انظر :
Liudprand of Cremona ,p.70.

([2]) نهر لخ هو أحد روافد نهر الدانوب وطوله نحو ٢٨٥ كم . انظر : إينهارد : سيرة ، ص ٨٤ حاشية رقم ٣ .

([3]) Liudprand of Cremona,pp.70-71.

كانـــت قـــد عانت هى الأخرى من ويلات الهجمات المجرية. صحيح أن المورافيين أبـــدوا شـــجاعة قوية فى مواجهة هذه الهجمات وحققوا بعض النجاح ، لكن لم تتمكن إمبراطوريـــتهم مـــن الصمود طويلا فى مواجهة هؤلاء الأعداء ، ساعد على ذلك عدم ثبات الألمان فى سياستهم نحوهم ([1]) . وفى ظل هذه السياسة المتذبذبة تجاه مورافيا ، كرر الألمان خطأ أرنولف السابق ؛ بأن حرضوا المجريين ضدها فى عام ٩٠٥-٩٠٦ م للقضـــاء عليها ، ظنا منهم أن مورافيا عادت لتوطد دعائمها فى وسط أوربا . وكأنهم لـــم يقـــدروا الخطر المجرى حق قدره ، عندما رأوا أن المجريين ــ رغم ما فعلوه ــ أقـــل خطرا من المورافيين. فاتجه هؤلاء الغزاة نحو مورافـــيا واجتاحوها ، وانتهى الأمـــر بقتل موجمير الثانى وتدمير عاصمته إلى حد يصعب معه تحديد مكانها الآن ، وخضوع إمبراطوريته تماما للمجريين ([2]).

كان سقوط إمبراطورية مورافيا عظيم الأهمية بالنسبة للمجريين ولمستقبل وسط أوربـــا وغربها أيضا . فمنذ ذلك الوقت أخذ التاريخ المجرى دورا جديدا ، وصار من الصعب اعتبارهم مجرد بدو رحل بمعنى الكلمة ؛ حيث أخذوا فى الاستقرار الدائم فى الســـهول التى ظلت تحمل اسمهم حتى اليوم وبدءوا يطورون من نظمهم . أما بالنسبة لوســـط وغـــرب أوربا ، فيرى بعض المحدثين أنهما كانا فى أمس الحاجة خلال هذه المـــرحلة إلـــى الاتصـــال المباشر مع بيزنطة ، حارسة الحضارة اليونانية والهلينية. صـــحيح أن الاتصـــال كان مقطوعا عن طريق البحر بسبب العرب ، ولكنه كان قائما من خلال أودية الدانوب والبلقان التى كان يسيطر عليها كلا من الموراف والبيزنطيين ، ممـــا ســـاعد علـــى مـــزج الثقافات الرومانية والبيزنطية فى وسط أوربا . ولو قدر الاســـتمرار لهـــذا الاتصال ، لكان الغرب الأوربى قد جنى ثمارا طيبة بدت آثارها فى مخـــتلف الجوانـــب . ولكـــن ســـقوط مورافيا قطع ما تبقى من شرايين اتصاله بمدينة

([1]) Dummler., Geschichte,T.III,pp.530-534;Fliche., Histoire,p.20.

([2]) Bloch., Society,vol.1,p.9; Dvornik., Les Slaves,pp.97-98; Fliche., Histoire,p.20.

القسطنطينية ، وأجل استفادته من كنوز الحضارة البيزنطية لحين من الدهر (١) . ليس هـذا فحسـب بل كان سقوط مورافيا ـ من وجهة نظر الباحث ـ واستيلاء المجريين علـيها ، يعـنى إقامتهم وبصفة دائمة فى منطقة حوض الدانوب الأوسط ، وأن مملكة الفرنجة ستكون المسرح والمنفذ الطبيعى لحملاتهم المدمرة ولم لا ؟ والجاران الآخران لهمـا كانـا قـد صـارا علـى درجـة كبيرة من القوة ، على الأقل فى هذه الفترة . فالإمـبراطورية البيزنطية كانت قد أصبحت فى ذروة مجدها منذ تولى أباطرة الأسرة المقدونـية عرشها حتى عرف عصر هذه الأسرة بالعصر الذهبى . كذلك كانت بلغاريا ، الـتى أصـبحت تشاركها فى أحد حدودها على نهر الثيس ، قد بلغت أوج قوتها فى عصـر القيصر سيميون . أما ألمانيا وإيطاليا (٢) ففى ضوء جولاتهم السابقة داخلهما ، كـانوا على دراية بمدى تدهور أوضاعهما الداخلية ، ولذلك كان اتجاههم نحوهما أمرا حتميا .

لاشـك أن عواقـب حملات المجريين السابقة ، كانت وخيمة على ألمانيا وإيطاليا ولا يمكـن تجاهلهـا . فهـزيمة جـيش برنجار على أيديهم وقتلهم العديد من الأساقفة والنـبلاء جعـل أعـداء بـرنجار فـى الداخل بزعامة أمير توسكانيا أدالبرت الثانى

---

(١) Bloch., Society,vol.1,p.9; Dvornik., Les Slaves,p.98 .

(٢) فـى الوقـت الذى كان حكم لويس الثالث لألمانيا اسميا وكان عصره من أحلك عصور التاريخ الألمانى بسبب النزعة الإقطاعية عند الأمراء الألمان ، كانت إيطاليا هى الأخرى تمر بفترة حرجة من تاريخها ، ففى الوقت الذى كان شمالها يعانى من الصراع على العرش ، كان الجنوب الإيطالى يعانى هو الآخر من الشقاق والحروب الداخلية ، وكان ذلك سببا فى عجزها عن صد غارات المجريين من جهة الشمال والوقوف فى وجه المسلمين من جهة الجنوب . وكانت أعظم قوة بها فى تلك الفترة هى بـيزنطة ، مـنذ قام الإمبراطور باسيل الأول المقدونى (٨٦٧-٨٨٦م) وقائده نيقفور فوقاس بإحياء سـطوتها فى الغرب من خلال إنشاء ثغرين كبيرين هما ثغر لونجوبارديا Longobardia وعاصمته بارى Bari وكان يضم أبوليا Apulia ولوكانيا Lucania من نهر تريجنو Trigno على الأدرياتى إلى خليج تارانتو Taranto ، والآخر ثغر كالابريا Calabria وعاصمته رجيو Reggio وحل محله ثيم صقلية المختفى ، ومع ذلك يبدو أن بيزنطة لم تول إيطاليا القدر الكافى من الاهتمام ، انظر :
Previte-Orton., Italy,pp.149-150.

انظر أيضا : سعيد عاشور : أوربا ، ج ١ص ٢٩٥.

Adalbert II يفكـــرون فى حياكة مؤامرة ضده ، وهرب برنجار بالفعل وللمرة الثانية إلى بافاريا خشية على نفسه وليسعى من هناك لتأمين عرشه المتنازع عليه (١) . كذلك كانـــت لهذه الحملات أثارها السلبية على الحياة فى ألمانيا بعد سلب الأراضى الزراعية وذبح أعداد لا تحصى دون تمييز بين كبير وصغير ، وارتكاب فظائع وإهانات مخزية للنســـاء ــ اللاتـــى اقـــتدن إلـــى الأســـر عاريات وموثوقات مع بعضهن البعض من شـــعورهن ـــ ومعاملـــة الأطفال بقسوة شديدة ، فضلا عن الدمار الذى حل بالكنيسة . وأصـــبحت الأزمـــة محـــتومة وانفجرت فى سوابيا منذ بداية حكم لويس الثالث وكان مقدرا لها أن تنتشر فى كل مكان (٢).

لـــم يمهـــل المجريون ألمانيا طويلا عقب استيلائهم على مورافيا. ففى عام ٩٠٧م أغـــاروا علـــى بافاريـــا وكارنثـــيا ، ثـــم انتهزوا فرصة الحرب الأهلية فى فرانكونيا وتطـــرقوا إلـــى ســـوابيا حتى وصلوا سكسونيا وأنزلوا هزيمة كبرى بالقوات البافارية وقتلوا ليتوبولد دوق بافاريا وذبحوا رئيس أساقفة سالزبرج وأسقفى فريزنج Freising وســـبن Seben وواصـــلوا زحفهـــم باجتـــياح الحـــد الشرقى لألمانيا وهى أوستمارك Ostmark البافارية (النمسا Ustria حاليا) حتى نهرالأن Inn. ودخل المجريون فى العام التالى ثورنجيا Thuringia وذبحوا دوقها مع أسقف ورزبرج Wurzburg (٣)، الأمـــر الذى دفع لويس الثالث ــ وكان قد بلغ السادسة عشر من عمره ــ إلى النزول إلـــى المـــيدان بنفســـه لصـــد الخطـــر المجرى. وفعلا اتحد البافاريون والسوابيون والفرانكونـــيون تحـــت قيادة الملك الشاب لمحاربة هؤلاء الأعداء . ولكن كانت نتيجة هـــذه المعـــركة قاسية حيث وقع لويس الثالث وجيشه فريسة كمين محكم ونصب لهم المجـــريون مذبحة مروعة ، ولم ينج إلا القوات البافارية التى نجحت فى الفرار ، وأكد

---

(١) Previte-Orton., Italy.,p.149.

لمزيد من التفاصيل عن مؤامرة أدالبرت الثانى . انظر :

Previte-Orton.,Italy,p.149.

(٢) Fliche.,Histoire,pp.27-28.

(٣) لمعرفة موقع كل من بافاريا وكارنثيا وسالزبرج وورزبرج وغيرها من الأماكن التى أغار عليها المجريون بألمانيا ، انظر الخريطة .

المجـــريون بذلـــك انتصاراتهم السابقة ، ولم يحتمل لويس الثالث وطأة هذه الهزيمة ، وتوفى على أثرها عام ٩١١م بعد صراع قصير مع المرض (١) .

انتهت بوفاة لويس الثالث سلالة البيت الكارولنجي من الذكور فى ألمانيا ولم يعد هــذا البيـــت ممـــثلا إلا فـــى شخص شارل البسيط فى فرنسا . وبعد كثير من الجدل والـــتردد بيـــن النـــبلاء الألمـــان وقـــع الاختيار على كونراد الأول Conrad I دوق فرانكونـــيا لـــيخلف لويـــس الثالث على عرش ألمانيا . ونظرا لأنه لم يكن له مجـــــد مـــوروث فقـــد اعتـــبره كبار النبلاء الألمان مجرد واحد منهم ، وثاروا ضده فى العام الـــتالى ٩١٢م بقـــيادة هنرى Henry دوق السكسون والتورنجيين Turingians. ولكن كونـــراد الأول بفضـــل شـــجاعته ومثابرته نجح فى قمع هذه الثورة ، ومع ذلك استبد الخـــوف بـــأحد النـــبلاء الثائريـــن وهو أرنولد Arnold من بافاريا فاصطحب زوجته وأولاده وفـــر هاربـــا إلـــى المجريين وعقد العزم على البقاء عندهم طالما ظل كونراد الأول على قيد الحياة (٢) .

رغم نجاح كونراد الأول فى إخماد هذه الثورة ، كانت السنوات السبع التى قضاها فى الحكم مليئة بالمتاعب الداخلية والخارجية ؛ ذلك أنه فى الوقت الذى أخذ السوابيون والـــبافاريون يقـــاومون جهوده فى توحيد المملكة تحت سلطته الفعلية ، أخذ المجريون فـــى شـــن غارات مكثفة على ألمانيا . فتوغلوا فى عام ٩١٢م داخل سوابيا وفرانكونيا وأحدثـــوا بهمـــا أضرارا بالغة وشجعهم انشغال كونراد الأول بمشكلة منطقة اللوريين Lorraine (٣)عن اتخاذ أى إجراء لمقاومتهم على معاودة الكرة مرة أخرى عام ٩١٣ م حيث أغاروا على سوابيا وتوغلوا داخلها ، ولكن عند عودتـــهم واجـــــههم أرنولف

---

(١) Oman.,Dark,p.474.

انظر أيضا :سعيد عاشور : أوربا ، ج ١،ص٢٩٦.

(٢) Liudprand of Cremona, p.79; Thompson., History,p.167.

انظر أيضا :سعيد عاشور : أوربا ج١ ، ص ٢٩٧.

(٣)مـــنطقة لوثرنجيا ــ أى مملكة لوثر ــ حرف اسمها إلى اللوريين وهى نفس المنطقة التى مازالت حـــتى اليوم تمثل حلقة الانتقال بين الفرنسية والألمانية . وكانت قد أصبحت ــ بموجب اتفاقية فردان عام ٨٤٣م ــ من أملاك لوثر (حاكم الشق الغربى من مملكة الفرنجة) ، لكن لم يرض هذا حكام=

ـــ دوق بافاريـــا وزعـــيم المعارضـــة ضد كونراد الأول فيما بعد ـــ على رأس جيش قـــوى على مقربة من نهر الإن وأنزل بهم هزيمة ساحقة . كانت النتيجة المباشرة لهذا النصر هى أنه كفل لألمانيا نحو عام من الهدوء من جانب المجريين (١).

وما أن حل عام ٩١٥م حتى ظهر المجريون من جديد فى سوابيا وانطلقوا منها إلـــى ثورنجـــيا وســـاكس Saxe وكـــرروا هـــــذه الاعتداءات فى عام ٩١٧م على جـــنوب ألمانيا ، وتقدموا فى هذه المرة عبر الألزاس Alsace إلى اللوريين وواصلوا زحفهـــم حـــتى أبـــواب متز Metz ، كما توغلوا فى برجنديا Burgundy الفرنسية وهددوا قلب المملكة دون أن تستنفذ هذه الغارة البعيدة طاقاتهم المتجددة . ولسوء الحظ لا توجد معلومات عن هذه الحملات ، بيد أن الدمار والسلب والنهب كانا السمة الغالبة علـــيها . ولـــم يذكر المؤرخون إبان سردهم المحزن لهذه الجولات الدامية أى محاولة للمقاومـــة من جانب كونراد الأول ،والتفسير الأرجح لهذه السلبية هو أنه بعد أن أضاع نحـــو عاميـــن فى اللوريين ، وجد نفسه مشغولا فى مواجهة المعارضة الداخلية التى امتصت كل جهده حتى نهاية حياته فى عام ٩١٨م (٢) .

يحســـب لكونراد الأول أنه كان قد أوصى وهو على فراش الموت وتوسل إلى أخـــيه إيفـــيرارد Everard ، أن يخلفه هنرى الأول ـــ دوق سكسونيا لما يتمتع به من قـــوة وحـــنكة ـــ علـــى عـــرش ألمانيا لإنقاذها من وضعها المتردى . واجتمع كبراء الأمـــراء والأساقفة عقب وفاة كونراد الأول وأقروا اختيار هنرى الأول ـــ الذى عرف بهـــنرى الصـــياد نظرا لانشغاله برياضة الصيد أثناء اختيارهم له ـــ ملكا على ألمانيا

=الجـــزء الشرقى وسعوا دوما لضم هذه المنطقة لنفوذهم . ولم ينجحوا فى ذلك إلا عام ٩٢٥م على عهد هنرى الأول ، حينما استولى عليها بالقوة ، انظر :

Fliche., Histoire,p.37.

انظر أيضا :محمد الشيخ : الفرنجة ، ص ٢٧ ، ٥٨.

(١) Fliche., Histoire,p.29.

(٢) Halphen., France,p.87;Dummler., Geschichte,T.III,p.596 ; Fliche., Histoire,pp.29-30.

انظر أيضا : سعيد عاشور : أوربا ، ج١ ، ص ٢٩٧-٢٩٨.

عـــام ٩١٩م (١) . وبمجرد أن علم أرنولد الهارب لدى المجريين بوفاة كونراد الأول ، عـــاد إلى بلاده على الفور فرحب الباقاريون والفرنجة الشرقيون به وبأولاده وزوجته وحـــثوه بقـــوة على أن يتولى العرش بدلا من هنرى الأول . وما أن علم الأخير بذلك حـــتى جمـــع جيشا قويا وخرج متجها نحو بافاريا ، ومن جانبه جمع أرنولد هو الآخر قوات ضخمة وأسرع لملاقاته . وكادت الحرب تنشب بين الجانبين لولا أن لجأ هنرى الأول للوســـائل الدبلوماســـية ، حيـــث أرسل مبعوثا أستدعى أرنولد واجتمع به سرا ، فخاطبه باللين وعرض عليه وصية كونراد الأول(٢)، كما خلع عليه لقب القائم بأعمال الأسقف فى بافاريا ، فاقتنع أرنولد وتخلى عن ثورته (٣) .

لـــم تقتصر مثل هذه الاضطرابات على ألمانيا بل عانت إيطاليا هى الأخرى من بعـــض المشـــاكل التى شجعت المجريين على استئناف نشاطهم العدائى بها . ففى عام ٩٢٢م قـــام كـــبار النـــبلاء بقـــيادة أدالـــبرت من إيفريا Iverea بدعوة رودلف الثانى Rodolph II ملك Jurane Burgundy لخلع برنجار عن العرش بعدما ساءت الأحوال فـــى عهده ولم يعد يتمكن من وقف الغزو المجرى المتكرر . وبعد تضييق الخناق على بـــرنجار بعد أن احتجزه معارضوه فى فيرونا ، رأى أن المجريين أفضل من يساعده علـــى الخروج من هذا المأزق . لذلك استنجد بهم وطلب منهم أن يخلصوه من أعدائه لـــو كانوا يحبونه حقا . فلبوا على الفور وزودهم هو بمرشد يدلهم على طريق يسلكوه غير الطريق التقليدى كى يحققوا أهدافه فى حملتهم على إيطاليا . ولذلك اتسم هجومهم بالســـرعة والمباغتة مما أسفر عن قتل وأسر الكثيرين وسلب ديارهم ولم ينج أدالبرت نفســـه مـــن الأسر إلا عن طريق الحيلة . ولكن إذا كانوا قد أنقذوا برنجار من وضعه الصـــعب فإن العمر لم يمتد به طويلا حيث راح ضحية مؤامرة دبرها ضده أحد أتباعه

---

(١) Liudprand of Cremona,pp.79-80.

انظر أيضا :سعيد عاشور : أوربا ، ج١، ص ٢٩٨.

(٢)لمعرفة نص وصية كونراد الأول ، انظر :

Liudprand of Cremona,pp.79- 80.

(٣) Liudprand of Cremona,pp.80-82.

، فأودت بحياته فى ٧ أبريل عام ٩٢٤م . فقام المجريون على أثرها فى نفس العام ــ دون أن نعلــم إذا ما كان ذلك بدافع الانتقام لقتله أم استغلالا للظرف ــ بتدمير لمبارديا Lombardy وحــرق بافــيا وعجــز الســكان هناك عن كسب رضاهم بالهدايا ، ولم يتركوا إيطاليا عائدين إلى بلادهم إلا بعد جمعهم غنائم طائلة من مختلف أرجائها([1]).

أما على صعيد ألمانيا فبعد أن استتبت الأمور بعض الشئ لهنرى الأول ، رأى أن حمايــة ألمانيا من خطر المجريين ــ الذين لم تتوقف حملاتهم على بلاده منذ توليه العــرش ــ يجب أن يكون له الأولوية على ما عداه . كان ذلك فى الوقت الذى قام فيه المجــريون بعقــد اجــتماع كبير ليتشاوروا فيما بينهم حول الإجراء الذى سيتخذوه لو رفض العاهل الألمانى الجديد دفع إتاوة لهم . وأجمعوا أمرهم إن فعل ذلك أن يدمروا بــلاده من خلال سلسلة طويلة من الحملات المدمرة ، ويبدءوا بأرض السكسون ، التى كــان دوقــا لهــا من قبل خاصة وأنها تفتقر إلى الحصون أو القلاع التى تكفى للذود عنها ([2]) .

يــبدو أن هــنرى الأول غير رأيه بعدما وجد أن الوقت غير ملائم للدخول فى مواجهــة مــع المجريين وآثر دفع الإتاوة لهم ، لذلك شهدت السنوات الأولى من عهده هــدوءا تاما من جانبهم . ولكن عندما لمسوا فى عام ٩٢٤م أن هناك معارضة داخلية ضده من قبل البافاريين لم يترددوا فى توجيه ضربة قوية إلى سكسونيا . وكشفت هذه

([1]) Liudprand of Cremona,pp.97-98,110-112; Previte-Orton.,Italy,pp.152-153.

لمــا رأى أدالبرت أنه قد أحيط به من قبل المجريين لجأ إلى الحيلة بأن ألقى بحزامه البراق وأساوره الذهبية وارتدى زى جندي ولما وقع فى قبضتهم أخبرهم بأنه مجرد جندي مراسل وتوسل إليهم أن يــأخذوه إلى مدينة Calcinate المجاورة ليدفع له أقاربه الفدية المطلوبة ، وكان الذى دفعها هناك ــ دون أن يعلموا ذلك ــ أحد أتباعه وهو شخص يدعى ليو . مثل هذه الرواية وغيرها مما يعج بها مصــدر لــيودبراند الكريمونى يجب التعامل معها بحذر فبغضه الذى عبر عنه فى أكثر من موضع لهؤلاء الأعداء ومحاولته إظهارهم فى صورة الوثنيين الأجلاف ، يدفعنا لذلك ، انظر :

Liudprand of Cremona,pp.98-99.

([2]) Liudprand of Cremona,pp.83-84 ; Flishe., Histoire,p.37.

الضـــربة عن مدى ضعف التنظيم العسكرى والخلل الشديد فى نظام الدفاع الألمانى . فقـــد انســـاب المجريون كالسيل فى سكسونيا دون أن يعيقهم عائق ، وفر الناس أمامهم ليختبـــئوا فى الغابات المجاورة ، ولم يجد هنرى الأول أمام عجزه عن المقاومة سوى أن يحصـــن نفسه فى قلعة ورلا Werla (عند قاعدة جبال هارز Harz) . إلا أن الحظ ســـاعد هـــنرى الأول حيـــنما وقـــع زعيم مجرى كبير أسيرا فى يديه ورفض تسليمه للمجرييـــن قـــبل الدخول فى مفاوضات معهم ، وهى المفاوضات التى وافق بموجبها زيـــادة الإتـــاوة والاستمرار فى دفعها، مقابل انسحابهم وقبولهم بهدنة أمدها نحو تسع سنوات . بيد أن هجوم المجريين على سوابيا واللوريين فى عام ٩٢٦م ونهبهم الأديرة هـــناك يثبت أن هذه الهدنة كانت قاصرة على سكسونيا وثورنجيا فقط ، ولم يجد هنرى حيـــنها بـــداً من دفع إتاوة أخرى مقابل مد هذه الهدنة لسبع سنوات لتشمل باقى الأقاليم الأخرى (١) .

واســـتغل هـــنرى الأول هذه الهدنة فى بناء الحصون والقلاع وتجهيز الجيوش للقـــاء المجريين لقاءا حاسما ، خاصة بعد أن وقف إلى جواره حكام الدوقيات والأمراء المحلييـــن فى بافاريا وفرنكونيا واللوريين. وبدأ هنرى الأول مشروعه العسكرى ضد المجرييـــن ، وكانـــت ثمـــار هذا التحالف طيبة وانعكست بصورة مباشرة على موقف هـــنرى الأول تجـــاه الإتاوة السنوية المقررة للمجريين . حينما جاء سفراؤهم فى عام ٩٣٣م يطالـــبونه بالإتاوة المقررة ، فرفض بشدة وطردهم من بلاده ، مما أثار حفيظة المجرييـــن وجعلهـــم يوجهون على الفور حملة قوية لمعاقبة العاهل الألمانى على رده الســـافر (٢). وبمجـــرد أن علم هنرى الأول بقرب قدومهم أرسل الرسل فى الحال إلى سكســـونيا يطلـــب من كل رجل يستطيع حمل السلاح أن يأتى فى غضون خمسة أيام

---

(١) Stephenson,Hungary, p.108 ;Lane Poole., Germany, p.182, Note , no.1;Fliche.,Histo-ire ,pp.37-38.

انظر أيضا : سعيد عاشور : أوربا ،ج١ ، ص ٣٠٠ ؛ محمد الشيخ : الفرنجة ، ص ٥٨.

(٢) Lane Poole., Germany,pp.182,185; Flishe., Histoire,p.38.

لمزيد من التفاصيل حول جهود هنرى الأول وتنظيماته العسكرية ، انظر :

Lane Poole., Germany,pp.182-184 ; Fliche., Histoire,p.38 .

على الأكثر وإلا سيكون الموت مآله .ونجح قبل انقضاء هذه المدة فى جمع جيش قوى مـــن السكســـون . وبينما هو يخطب فيهم ــ رغم ما أصابه من مرض منذ علم بقدوم المجرييـــن ــ ليحـــثهم على الصمود والقتال ، إذ بالأنباء تأتى بوصول المجريين إلى قلعـــة مرســـبرج Merseburg على حدود السكسون وقتلهم وأسرهم أعداداً هائلة من الـــرجال والنساء والأطفال وإعلانهم عن عدم ترك أى شخص يتعد العشر سنوات كى يثـــيروا الرعب والفزع بين السكان (١) . فقاد هنرى الأول جيشا قويا متجها نحوهم ، والـــتقى الجانـــبان فى شهر مارس قرب مرسبرج فى معركة شرسة كان النصر فيها حليفا للألمان بعد أن مزقوا صفوف المجريين وأجبروا من نجا منهم على الفرار . وما أن ســـمعت باقى جيوش المجريين بهذه الكارثة حتى تخلت عن مقابلة جيوش الفرنجة عـــائدة إلـــى بلادهـــا (٢) . أرجـــع ليودبراند الكريمونى النصر فى هذه المعركة إلى شـــجاعة هنرى الأول والتزام جنوده بالنصيحة التى أسداها لهم قبيل دخول المعركة " عـــندما تـــندفعون مسرعين إلى المعركة ،لا يتقدم أحدكم على الآخر ــ لأن حصانه أقوى وأسرع ــ ليسبقه . أحموا أنفسكم بدروعكم الصغيرة من جهة تتلقون فيها أول دفعـــة من سهام الأعداء ، ثم اندفعوا نحوهم بكل ما أوتيتم من سرعة وما أكننتم من غضـــب قـــبل أن يطلقـــوا دفعة أخرى ، ليجدوا ضربات سيوفكم فوق رؤوسهم " . ثم أشـــار إلـــى صـــرخات الجـــنود مـــن الجانبين أثناء المعركة ، ففى الوقت الذى كان المسيحيون يقولون " لترحمنا أيها الرب " كان الوثنيون يصيحون صيحتهم المشهورة " Hui hui " (٣).

كان لهذا النصر صدى كبيرا ،حيث رفع من مكانة الأسرة السكسونية الحاكمـــة

---

(١) Liudprand of Cremona, pp.83-84 ; Lane Poole., Germany,p182.
لمعرفة نص الخطاب الذى ألقاه هنرى الأول على أتباعه ، انظر :
Liudprand of Cremona, pp.83-84 .

(٢) Liudprand of Cremona, pp.85-86 ; Lane Poole., Germany,p.185.

(٣) Liudprand of Cremona.p.85.

فـــى ألمانيا . وحاز هنرى الأول شهرة عظيمة واحتل مكانة هامة فى هذا الجانب من دولــة الفرنجة . ولكن كان هذا النصر آخر جهد قام به الإمبراطور هنرى الأول ضد المجرييـــن ، حيـــث توفى يوم ٢ يوليو عام ٩٣٦م عن عمر يناهز الستين عاما ، وبعد فـــترة حكم دامت نحو ثمانية عشرة عاما تمكن خلالها من وضع أسس الملكية الألمانية وتثبيـــت هذه الأسس تثبيتا ظهر أثره واضحا بعد ذلك فى عهد ابنه وخليفته أوتو الأول أو العظيم (٩٣٦ –٩٧٣م) (١) .

كـــان المجريون على دراية بما يواجه الإمبراطور أوتو الأول من مشاكل داخلية نتيجة لسعيه لبسط نفوذه على مختلف أرجاء ألمانيا ، ورغبته فى مد هذا النفوذ ليشمل إيطالـــيا أيضا ، بهدف الجمع بينهما فيما يعرف بالإمبراطورية المقدسة(٢). لذلك رأوا أن الفرصـــة أصـــبحت سانحة للانتقام للهزيمة السابقة وممارسة نشاطهم المفضل من السلب والنهب . وقاموا بشن حملة فى عامى ٩٣٧ ، ٩٣٨م على ثورنجيا وسكسونيا ، لكـــن واجهتهم مقاومة شديدة فعادوا إلى بلادهم دون طائل . وحينما كرروا حملتهم فى عـــامى ٩٤٨ ، ٩٤٩م حاقـــت بهم هزيمة ساحقة على يد هنرى دوق بافاريا . جعلتهم هـــذه الهـــزائم أشد إصرارا على قتال أوتو الأول ، فأغاروا فى عام ٩٥٤م وساعدهم هـــذه المـــرة اثنان من معارضيه ، هما لويدولف liudolf دوق سوابيا وكونراد دوق اللورييـــن ، اللذين زودوهما بمرشدين داخل ألمانيا نكاية فى أوتو الأول (٣) . فاجتاحوا بافاريا وفرانكونيا وتم الاحتفال بهم علنا فى ورمز Worms وقدمت لهم الهدايا الفضية والذهبية وقادهم كونراد عبر نهر الراين على أمل أن يساعدوه فى استرداد دوقيته التى ظـــل ســـكانها علـــى ولائهم لأوتو الأول ، ولكن دون جدوى . وتوغل المجريون فى

---

(١) Liudprand of Cremona, p.154; Fliche .,Histoire ,pp.38-39;LanePoole.,Germany,p. 186.

انظر أيضا : محمد الشيخ : الفرنجة ، ص ٥٦ ؛ سعيد عاشور : أوربا ، ج ١ ، ص ٢٩٩.

(٢)لمزيد من التفاصيل عن جهود أوتو الأول لتوحيد ألمانيا والجمع بينه وبين إيطاليا تحت سيادته، انظر :

Lane Poole., Germany,pp.186-203.

(٣) Lane Poole., Germany,pp.191,198.

آتريخــت Utrecht يدمـــرون كــل شئ فى طريقهم ثم تحركوا بعد ذلك جنوبا خلال فــيرماندوا Vermandois ولاون Laon وريمـــس Rheims حــتى دخلوا برجنديا ، ولكـــن ســـرعان ما تفشى فيهم المرض ، مما أدى إلى تناقص أعدادهم ودفعهم بالتالى إلى العودة إلى بلادهم عن طريق إيطاليا (1) .

لـــم تمــض فترة قصيرة حتى عاود المجريون الهجوم من جديد على ألمانيا فى بدايـــة عام ٩٥٥م ، نظرا لما حققوه من نجاح فى حملتهم السابقة . غير أن الحملة فى هــذه المرة باءت بالفشل ، ولم ييأس المجريون ، فقد أرسلوا سفارة إلى أوتو الأول فى سكســـونيا تطلـــب المودة في الظاهر ، ولكنها كانت تستهدف التجسس ومعرفة أحوال الــبلاد ومواطن الضعف فيها . وفى أغسطس من نفس العام (٩٥٥م) عاودوا الهجوم ثانــية علـــى الأراضـــى الألمانية حتى اقتربوا من مدينة أوجسبرج ، مما دفع أسقفها يولـــريك Ulric إلـــى مكاتبة أوتو الأول يصف له الحالة السيئة والقلق الذى انتابه من جراء وصول المجريين إلى ضفاف نهر لخ على مقربة من مدينته ، وأنه يصعب على أهلهـــا الصـــمود أمـــام تلـــك الجموع الغفيرة من المجريين ؛ لذلك يستنجد به ويطلب الحضور بنفسه لمساعدته في الدفاع عن مدينته (2) .

لـــم يـــتأخر أوتو طويلاً عن نجدة المدينة ، ففى العاشر من شهر أغسطس اتجه جـــنوبا نحوهـــا علـــى رأس قوة عسكرية من السكسون أضيفت إليها قوات أخرى من مخـــتلف أرجـــاء ألمانيا أثناء مسيرته عبرها حتى أصبح لديه جيش جرار يضم ثمانية فصـــائل ، ثلاثـــة مـــن بافاريا ، اثنان ، من سوابيا ، واحدة من ساكسونيا ، واحدة من اللورييـــن ، وأخيرة من بوهيميا Bohemia . ولم يدخل أوتو فى معركة مع المجريين إلا بعـــد أن راقـــب تحركاتهم وقدر من خلالها مدى أعدادهم . ثم انتهز فرصة هبوب ريـــح ودخـــل مع المجريين فى معركة شديدة على الضفة اليسرى لنهر لخ فى منطقة

---

(1) Lane Poole., Germany, p.198

(2) Simon of Keza., Hungarorum,pp.91-93; Lane Poole., Germany,p.199.

لخفلــد Lechfeld . فحاقت بالأخيرين هزيمة ساحقة وتعقبهم أوتو على مدى ثلاثة أيام ليقضى على فلولهم ([1]) .

كانــت نتائج هذه المعركة عظيمة الأهمية بالنسبة للجانبين . فقد لقب أوتو الأول بـأوتو العظـيم ، كما أخذ زمام المبادرة ومد نفوذه شرقا على حساب المجريين وأقام علــى أكتافهم ماركية أوستريا (النمسا) . أيضـا كان استخدام المسافرين لممر برنر ــ أســهل الممرات بين لمبارديا وألمانيا ــ ضيقا بسبب تهديد المجريين للمارة فيه ، ولم يخلــص ذلك الطريق للمسافرين إلا بعد انتصار أوتو الأول فى هذه المعركة . كذلك لم يفكر المجريون مرة أخرى فى شن حملات على مملكة الفرنجة ، بل اقتنعوا بضرورة التخلى عن فكرة الهجرة والترحال مرة أخرى ، بل يجب السعى للاستقرار الآمن([2]). ولاشــك أن اســتقرارهم فـــى أعقاب هذه المعركة ، أدى إلى تغييرات كبيرة فى حياة المجريــن ، حيث أخذوا يستغلون بيئتهم الطبيعية الخصبة ، ويستبدلون نظامهم القبلى بالســلطة المركزية القوية . كما استغلوا وقوع بلادهم عند نقطة تقاطع مجالين ثقافيين ــ همـــا الــثقافة الغربية أواللاتينية – الألمانية Latino-Germanic ،والثقافة الشرقية أواليونانــية–الســلافية Greco-Slav ــ ووازنوا بين الفوائد التى يمكن أن تعود عليهم مــن وراء اعتنــاقهم المســيحية مــن قبل أحد قطبيها ــ روما والقسطنطينية ــ ولما

([1]) Simon of Keza., Hungarorum,p.93 ; Lane Poole., Germany,p.199; Bloch.,Society, p.11.

انظر أيضا :محمد الشيخ : الفرنجة ، ص ٦٦.

هناك خلاف كبير بين المؤرخين حول الموقع الدقيق لهذه المعركة . عارض بعضهم وقوعها جنوب المديــنة على الضفة اليسرى للنهر فى لخفلد على أساس أنها وقعت على الضفة اليسرى للنهر ولكن شمال غرب أوجسبرج . فى حين اقترح بعضهم الأخر وقوعها على الضفة اليمنى للنهر جنوب شرق المدينة ، ورأى فريق ثالث أن الضفة اليمنى للنهر شمال شرق المدينة كانت المسرح لهذه المعركة ، انظر :

Lane Poole., Germany,pp. 199-200, Note, no,1.

([2]) Lane Poole., Germany, p.200; Previte-Orton., Italy,p.160.

انظر أيضا : أرشيبالد لويس : القوى ، ص ٢٧٣؛ سعيد عاشور : أوربا ، ج١ ص ٣٠٤.

اعتـــنقوها وصـــاروا ضـــمن مجـــتمع الشعوب المسيحية ، اكتمل هيكل دولتهم واتخذ حـــاكمهم لأول مـــرة وهـــو القديس ستيفن الأول Stephen I (١٠٠٠-١٠٣٨م) لقب ملك (١) .

أخيرا ، ما الذى يمكن أن نخرج به من هذه الدراسة ؟ يمكن استخلاص ما يلى:

أولا : يعتـــبر تـــاريخ المجريين الباكر من الأمور الغامضة لقلة المعلومات التى وردت عـــنهم فى المصادر ، بل تفتقر هذه المعلومات لعنصرى الضبط الزمنى وتحديد الموقع الجغـــرافى ؛ ممـــا أدى إلى وجود تباين شديد فى وجهات نظر المحدثين بشأن بعض القضايا التى ما تزال دون حسم وتحتاج للمزيد من البحث والدراسة .

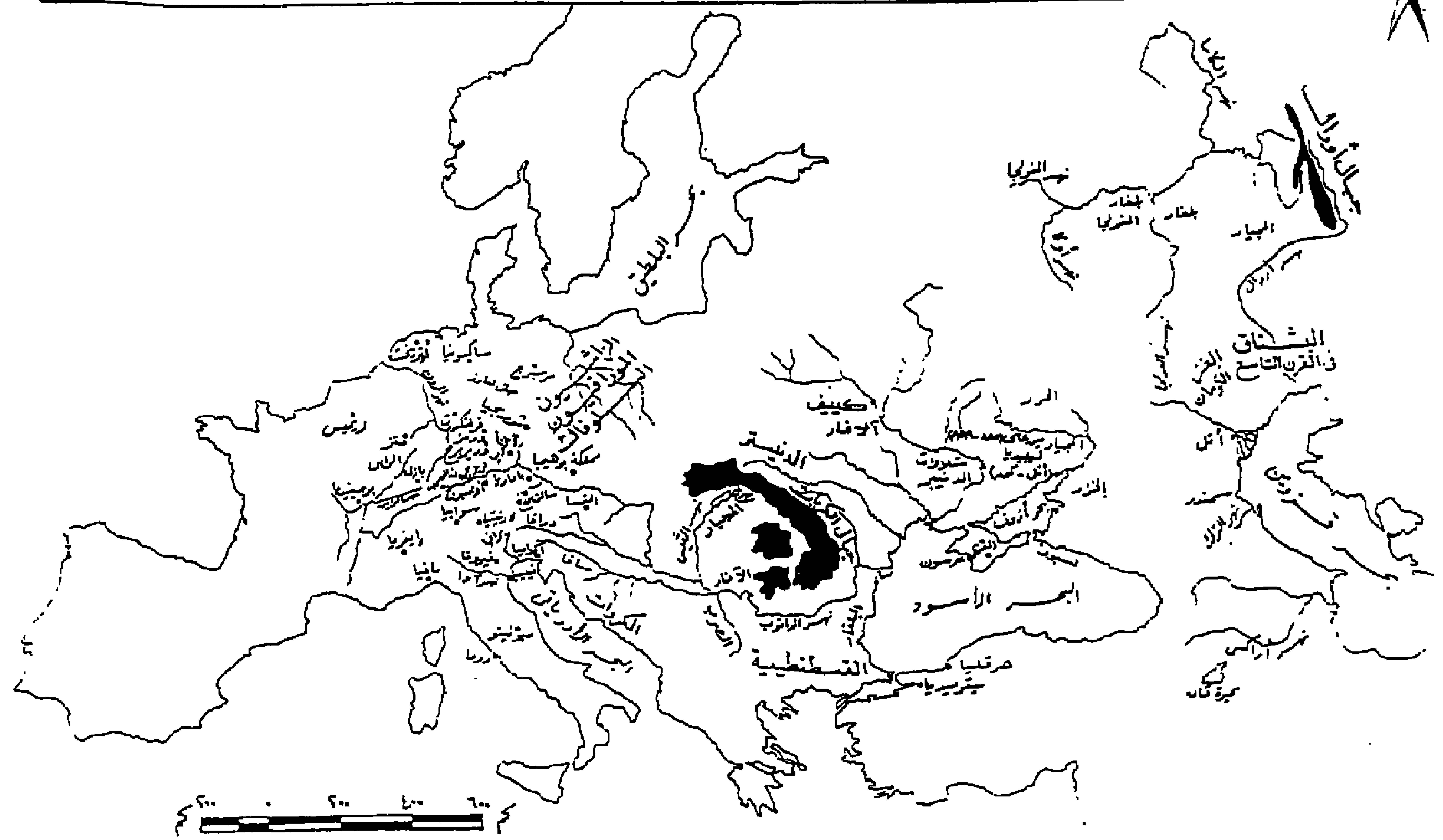
ثانـــيا : اخـــتلف اتجاه حملات المجريين باختلاف موقع قبائلهم ؛ ذلك أن كل قبيلة من قـــبائلهم الســـبع ، قامت بالحملات التى تحقق أطماعها الخاصة . لذلك فى الوقت الذى أغـــارت القبائل المقيمة فى غرب المجر على ألمانيا وإيطاليا ، فإن القبائل المقيمة فى الشـــرق والجـــنوب أغارت على الدولة البيزنطية ، عبر بلغاريا (٢). ولعل هذا يوضح لمـــاذا حارب المجريون على أكثر من جبهة فى وقت واحد ؟ ولا ترجع الانتصارات الـــتى حققوهـــا إلى ما كانوا يتمتعون به من قوة وشراسة فى ساحة القتال فحسب ، بل وإلـــى اســـتغلالهم الأوضـــاع السياسية التى كانت سائدة سواء فى منطقة الاستبس أو الـــبلقان ووسط أوربا ، فى التمكين لأنفسهم . فلا ريب أن صراع بيزنطة مع بلغاريا، ومملكـــة الفرنجة مع مورافيا، ووقوفهم على الأوضاع السياسية المضطربة فى بعض هـــذه الدول ، قد ساعدهم على ترسيخ أقدامهم فى منطقة الدانوب الأوسط ووضع حجر الأســـاس لبناء كيان سياسى مستقل شكل النواة الأولى لدولة المجر فيما بعد . ونجحوا رغـــم انقســـامهم الداخلى فى ظل النظام القبلى ، فى الحفاظ على أنفسهم وعلى هويتهم التركـــية ــ على الأقل طوال النصف الأول من القرن العاشر الميلادى ــ من الذوبان وسط غيرهم من المجموعات العرقية الأخرى .

---

(١) Moravcsik., Hungary.pp.572-573.

(٢) لمزيد من المعلومات حول الغارات المجرية على بيزنطة ، انظر :
Moravcsik., Hungary.pp.569-571; Vasiliev., Empire,p.319.

ثالثا : كانت حملات المجريين على مملكة الفرنجة بهدف السلب والنهب وليس بهدف الإقامة والاستقرار ، وكانت تفتقر إلى النظام والإعداد الجيد ، ولذلك لن نبالغ إذا قلنا أن أغلبها كان نوعا من الإغارات الشرسة ، ولكنها ذكرت من قبل المحدثين كحملات على أساس لم تكن خاطفة ، بل استغرق بعضها ما يزيد على العام فى داخل مملكة الفرنجة . وساعد على نجاحها تزامنها مع ما ألم بمملكة الفرنجة فى النصف الأول من القرن العاشر الميلادى من انقسام وضعف . ولذلك بمجرد أن تمكن أوتو الأول من توحيد ألمانيا وإيطاليا نجح فى مواجهتها وأنزل بالمجريين هزيمة ساحقة جعلتهم يعيدون النظر فى هجماتهم على بلاده ويتخلون عنها . ومن ثم ، إذا كان سقوط مورافيا عام ٩٠٥-٩٠٦م يمثل نقطة التحول الأولى بالنسبة للمجريين ، فإن هزيمتهم فى معركة لخفلد تمثل نقطة التحول الكبرى فى تاريخ دولة المجر فى العصور الوسطى .



الخريطة السياسية لمواطن هجرة المجريين وحملاتهم على مملكة الفرنجة بين عامي (٨٩٦-٩٥٥م)

قائمة المصادر والمراجع والمختصرات

أولا: المصادر والمراجع الأجنبية .

Bakay **Hungary**	Bakay , K.," Hungary "**NCMH**, III, (900 – 1204) , (Cambridge, 1999) pp.536 –552 .
Bloch., **Society**	Bloch,M,Feudal Society,trans byL.A Manyon,vol.l, America 1964.
Bury., **Eastern**	Bury,J.B.,A history of the Eastern Roman Empire , From the Fall of Irene to the accession of Basil 1 , (London, 1912) .
B	Byzantion,(Bruxelles,1939) .ff .
BMGS	Byzantine and Modern Greek Studies
Cedrenus.., **Historiarum**	Cedrenus,G., Historiarum Compendium **CSHB**,ed, Bekker I,II.(Bonn,1838) .

Costantine Perphorgenitus ., De Administrando Imperio .

وقـد رجـع الباحـث إلـى الـترجمـة الـعربية لكـتاب : إدارة الإمبراطورية البيزنطية،عرض وتحليل وتعليق د / محمود سعيد عمران،(بيروت ، ١٩٨٠م) .

DAI	De Administrando Imperio ed &Com by,Jenkins and Others ,2 (London, 1962) .
CMH	Cambridge Medieval History,(Cambridge,1981)ff .
CSHB	Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, (Bonn,1838)ff .
Davis ., **Europe**	A Davis ., R ., History of the Medieval Europe (London,1957) .
Dvornik., **Slaves**	Dvornik,F.,Les Slaves , Histoire et Civilisation de L'antiquité aux Debuts de l'époque Contemporaire, Traduit de L'anglais par Pavlevski, avec la

Collaboration de Maroussia Choplyansky, (Paris, 1970)

Dummler , **Geschichte** — Dummler ,E Geschichte des Östfronkischen reichs T.III,Die letzten Karolinge Conrad I(Leipzig1888).

EME — Early Medieval Europe .

El — Encyclopaedia of Islam .

Fliche., **Histoire** — Fliche,A., Histoire du Moyen age, T.II, L'Europe Occidentale de1125, A 888 (Paris, 1930) ff.

Fried, **Frankish** — J Fried.,"The Frankish Kingdoms, 817-911:The est and middle Kingdoms" **NCMH** ,II (Cambridge, 1995) pp. 142-168.

Georgius Monachus Continuatus.,Georgius Monachus Continuatus in Theophanes Continuatus **CSHB** ed Bekker.I, (Bonn,1838), pp.761-924 .

Grégoire., **Origine** — Grégoire.,H.,"Le nom et L 'Origine des Hongrois" dans Zeitschr d.deutsch .morgenlondischen Gesellschaft ,91(1939) pp.630-642.

Grégoire., **L'Habitat** — Grégoire.,H.," "L'Habitat " Primitif " des Magyars,et Les"Σαβαρτοιασφαλοι" **B**,13 (Bruexelles, 1938) , pp.267 – 278 .

Guldencrone., **L' Italie** — Guldencrone,D., L' Italie Byzantine , étude sur le haut moyen âge ,400-1030,(Paris 1914).

Halphen ., **France** — Halphen,L., " France , the last Carolingians and the accession of Hugh capet (88-987)" **CMH**,III. ed Hussey.J (Cambridge,1981)pp. 71-98.

Hudud Al Alam.,"The Regions of the World " A Persian Geography,372 A.D., trans,and explained by V.Minorsky,(Oxford,1937).

Kaldy –Nagy., **Madjar** — Kaldy-Nagy, Gy., Madjar, Madjaristan, **EI**,5(1986) pp.1010-1033.

Lane Poole., **Germany** — Lane Poole , A ., " Germany : Henry I and Otto the Great " **CMH**,III .ed Hussey.J (Cambridge, 1981) pp.175-203 .

Lewicki, **Hongrois** — Lewicki , A . , " Les noms des Hongrois et de L'Hongrie chez les medievaux geographes Arabes et Persans " dans Folia Orientalia,19 (1978) pp.35-55.

Liudprand of Cremona., The Works of Cremona.,ed,BGG,Coulton and Eileen Power Eng Trans,by. F.A.Wright (London,1930)

Macartney., **Magyars** — The Magyars in the Ninth century ,(Cambridge , 1930) .

Mckitterick., **Frankish** — Mckitterick , R ., The Frankish kingdoms under Carolingians, (London,1983).

Moravcsik, **Hungary** — Moravcsik , G ., " Hungary and Byzantium in the Middle Ages " **CMH** , ed Hussey .J, IV /1 (Cambridge, 1975), pp.566 – 592 .

NCMH — The New Cambridge Medieval History,1999,ff .

Nikolov ., **Magyar** — Nikolov,S., " The Magyars Connection or Consta-ntine and Methodius in the Steppes " **BMGS** , 21 (1997) pp.79-92.

Obolensky., **Commonwealth** — Obolensky , D ., - The Byzantine Commonwealth Eastern Europe 500 – 1453, (London, 1971) .

Obolensky., **Crimea** — Obolensky , D ., " The Crimea and the north before 1204" Αρχειον Ποντου 35 = Papers given at the 12 th Spring Symposium of Byzantine Studies, Birmingham,1978, Athens,1979,pp.123-133.

ODB — Oxford Dictionary of Byzantium .

Oman., **Dark** — Oman,Ch.,The Dark Ages,476-918.(London,1914).

Previte-Orton., **Italy** — Previte-Orton,C.,"Italy in the tenth century " **CMH** ,ed Hussey.J III(Cambridge,1981) pp.148-178.

Simonis de Keza., **Hungarorum** — Gesta Hungarorum , ed and trans by Veszpremy , L and Schaer,F, with study by Szucs, I(Budapest ,1999).

Stephenson., **Hungary** — Paul Stephenson ., " Early Medeival Hungary in English " **EME** ed by Julia Crick and Others ,10/1 (Oxford,2001) pp.95-112.

Symeon Magister ac Logothete., Symeon Magister ac Logothete , Symeon Continuatus , In :Theophanes Continuatus , **CSHB** ed Bekker.I, (Bonn,1838) ,pp.603-760.

Theophanes Continuatus.,Theophanes Continuatus , Ioannes Cameniata, Symeon, Magister ,Georgius Monchus Continuatus,**CSHB** ed Bekker.I,(Bonn,1838), pp. 3-481.

The Russian Primary Chronicle.,The Russian Primary Chronicle , English Translation by Cross And Wetzor (Cambridge-Mass,1953) .

Thompson., **History** — Thompson,J.W., History of the Middle Ages ,300-1500,(London,1931) .

Vasiliev., **Empire** — Vasiliev ,A., A history of the Byzantine Empire, 324 – 1453,(Madison ,1952).

Vernadsky., **Lebedia** — Vernadsky,G., " Lebedia Studies on the Magyar Background of Kievan Russia " **B**,15 (Bruexelles, 1939) pp.179-204.

Vita Constantini , Eng trans In Medieval Slavic Lives,ed By Ladislav Matejka , (Michigan, No date) pp.23-96.

Vlasto., **Christendom** Vlasto , A , P. , The Entry of the Slavs into Christendom ,(London ,1967) .

ثانيا : المصادر والمراجع العربية والمعربة .

أرشيبالد.ر. لويس **القـوى** : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط (٥٠٠-١١٠٠م) تـرجمة أحمد محمد عيسى ، مراجعة وتقديم محمد شفيق غربال (القاهرة ، ١٩٦٠م) .

الاصطخرى **مسالك** :أبو إسحاق إبراهـيم بن محمـد الفارسى ت ٣٤٠هـ/ ٩٥١م ، كـتاب مسالك الممالك ، تحقيق محمد جابر عبد الله الحسينى ، (القاهرة، ١٩٦١م) .

الكرديزى **الأخبار** :زين الأخبار ، ترجمة عفاف السيد زيدان ، (القاهرة ، ١٩٨٢م) .

المتولى السيد تميم **البشناق** :البشناق والبيزنطيـون ، دراسـة فى سياسة بيزنطـة الشمالية (٨٥٠هـ/١١٢٢م) رسالة ماجستير لم تنشر بعد ، كلية الآداب -جامعة المنصورة (١٩٩٦م).

المسعودى **مروج** : أبو الحسن على بن الحسين بن على (ت ٣٤٦هـ ـ٩٥٧م) ، مـروج الذهب ومعادن الجوهر، ٤ج ، (بغداد، ١٩٣٨م) .

الرمزى م.م **الأخبار** :تلفيق الأخبـار وتلقيح الآثار فى وقائـع قزان وبلغـار وملوك التتار ، ج١ ، (القاهرة ، ١٩٠٨م) .

اليعقوبى **البلدان** :أحمد بن أبى يعقوب بن جعفـر(ت ٢٨٤هـ/٨٩٧م) ، كتاب البلدان ، (ليدن - بريل ١٩٦٧م) .

بطرس البستانى :دائرة المعارف ، ج ٧ (بيروت ، د–ت) .
دائرة

جودة حسنين جودة ، فتحى أبو عيانة ، محمد خميس الزوكة : الجغرافيا الإقليمية ،
الجغرافيا (الإسكندرية د ــ ت).

دنلوب :تاريخ يهود الخزر ، نقله إلى العربيــة وقدم له د/سهيل
الخزر زكار ، (بيروت ، ١٩٨٧م) .

ذكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصــور الوسطى ، (القاهرة
الرحالة ، د–ت) .

ليلى عبد الجواد اسماعيل :تاريخ الروس من خلال المصادر العربية،(القاهــرة ،
الروس ١٩٩٠م) .

ليلى عبد الجواد اسماعيل :المسلمون فى بلاد المجر فى العصور الوسطى ، مجلة
المســلمون المــؤرخ المصــرى العدد السابع يوليو(١٩٩١)ص٣٩
–٨٠ .

سعيد عاشور :أوربا العصور الوسطــى ، التاريــخ السياسى ، الجزء
أوربا الأول ، الطبعة السابعة (القاهرة ،١٩٩٤م).

طارق منصور محمد :الروس والمجتمع الدولى٩٤٥-١٠٥٤م(القاهرة،٢٠٠١م)
الروس

كيستلر ، س :القبيلة الثالثة عشرة ويهود اليوم ، (القاهرة ،١٩٩١م) .
القبيلة

محمد مرسى الشيخ :دولة الفرنجـة وعلاقتها بالأمويين فى الأندلـس حتى
الفرنجة أواخـر القـرن العاشر الميلادى٧٥٥-٩٧٦م/ ١٣٨-٣٦٦ه
(الإسكندرية ،١٩٨٠م) .

محمد مرسى الشيخ :الخزر وعلاقتهم بالإمبراطورية البيزنطية، مجلة كلية
الخزر العلوم الاجتماعية ، العدد الرابع(١٩٨٠م)ص٣٤٨-٣٧٧.

نعيم فرح :تاريخ أوربا السياسى فى العصـور الوسطـى ، (دمشق ،
أوربا ١٩٩٥ م).

هانئ عبد الهادى البشير : بيزنطة وبلغاريا ٦٨١-١٠١٨م (القاهرة ، ٢٠٠١م)
بيزنطة

هانئ عبد الهادى البشير : بعثة قسطنطين ومثود فى مورافيا (٨٦٢-٨٨٥م) ،
مورافيا مجلـة كلـية الآداب – جامعة طنطا ، العدد الرابع عشر
(يناير ٢٠٠١م) ص ٦٠٣-٦٣٧.

هلستر ، س :أوربا فى العصور الوسطى ، ترجمـة د/ محمـد فتحى
أوربا الشاعر ، (القاهرة ، ١٩٨٨م).

وسام عبد العزيز فرج : قراءة فى التاريخ المبكر لكرواتيا ــ البوسنة ــ الصرب
قراءة فـى العصـور الوسـطى . "دراسـات أثرية وتاريخية "
مطـبوعات جمعية الآثار بالإسكندرية ، العدد ٨ (١٩٩٣م)
ص ١٤٧-١٩٩.

ب. عرض الكتب والرسائل

عامة المغرب الأقصى في العصر الموحدي، رسالة دكتوراة لم تنشر بعد، كلية الآداب، جامعة مولاي إسماعيل، مكناس.

عرض/ أحمد المحمودي

المغرب

يهتم موضوع هذه الأطروحة بدراسة أوضاع طبقة العامة في إحدى أبرز مناطق الغرب الإسلامي ويتعلق الأمر بالمغرب الأقصى خلال العصر الموحدي كما يستهدف إضافة حلقة أخري لمشروع لا يزال يخطو أولي خطواته في مجال البحث الأكاديمي، وحسبنا أن التاريخ للعوام – باعتبار موقعهم في قاعدة الهرم الاجتماعي ومكانتهم في الاقتصاد والسياسة – كفيلاً بالإفصاح عن حلقة مركزية طالما تم إغفالها في التصورات المعاصرة لتاريخ الإسلام – وتسليط الضوء علي الميكانيزمات والأسس المتحكمة في المسار التاريخي العام، والوقوف علي أدق تفاصيل الحياة اليومية والثقافية والدينية، وتعرية مختلف مكونات ومفاصل البنيان التاريخي وفق تصور أكثر شمولاً واكتمالا قصد إنصاف هذه الطبقة المهملة في الأبحاث العلمية ووضعها في مكانتها التاريخية اللائقة، وبالتالي تجاوز متاهات ونقائص التنظير والشروع عملياً في إنجاز تاريخ للعوام واستيعاب شمولي لكل الاستفهامات والقضايا التي ترتبط بهم.

ومما يبرر اختياري لهذا الموضوع اقتناعي بضرورة الكشف عن ذلك الإقصاء والإبهام الذي شمل العديد من الأنشطة الحيوية لطبقة عامة ودورها التاريخي والحضاري علي عهد الدولة الموحدية التي امتد عمرها من (٥٤١ – ٦٦٨هـ) وهو ما يمكن أن يساهم في تفسير وفهم المسار التاريخي للمجتمع المغربي وتطوره أكثر مما تفسره الأحداث العسكرية والتحولات السياسية.

وقد اعتمد هذا الاختيار أيضاً – في الأساس – علي المركز الذي شغلته العامة في إطار البنية الاقتصادية حيث شكلت قوام القوي المنتجة من حرفيين وفلاحين ممن وقع علي كاهلهم عبء الإنتاج الاقتصادي، كما ارتكز – أيضاً – علي فعاليتها السياسية التي تنامت بشكل واسع في ظل سيادة الإقطاع وما ترتب عنه من آثار سلبية

بالنســبة للطبقة الوسطي، مما أفسح المجال أمام العامة لتحل محلها في قيادة المعارضة السياسية، والمشاركة بقوة في صياغة الأحداث العامة خلال العصر الموحدي.

ورغم الأهمية العظيمة والبارزة لدور العامة، فإنها لم تنل من مؤرخي السلطة مـا يكشـف عـن هـذه الأهمـية وظلت خارج اهتماماتهم التي تمحورت حول حياة السـلاطين والأشـياخ واعتبروها المدخل الرئيسي لفهم حركة التاريخ في هذه الفترة، ومـن ثم تفننوا في صياغة عبارات القدح والتنقيص في حق العامة، فهم جماعات من الغوغائييـن والسـفلة والهمـج والـرعاع التي لم يكن بمقدورها القيام بأي دور علي الصـعيد التاريخـي والحضـاري، هـذا مع الأخذ بعين الاعتبار انعدام وجود كتابات تاريخـية تعـبر عن وجهة نظر العامة وتساعد في ذات الآن علي إثارة قضاياهم وما تفرزه من تساؤلات منهجية وموضوعية خاصة بهم في علاقاتهم مع السلطة والمجتمع معاً.

ومـن جانب أخر، وارتباطاً بدواعي اختيارنا لهذا الموضوع نعتقد أننا اقتحمنا موضـوعاً جديـداً وحقلاً بكراً وقطاعاً منسياً ومغيباً، ومن ثم حرصنا علي بذل ما في المسـتطاع والجهد قصد الإلمام بمختلف الجوانب الخاصة بموضوع العامة، والاستناد إلـي كل ما من شأنه أن يساعدنا منهجياً وموضوعياً علي تسليط ما يكفي من الأضواء حـول الأدوار التي نسبت للعوام في العصر الموحدي، وكان لزاماً علينا أن نوسع آفاق البحـث والمسـاءلة لتشـمل مجمـل القضايا والاستفهامات التي يطرحها الموضوع، والوقـوف عند أدق التفاصيل وذلك بالركون إلي توسيع دائرة المصادر لتشمل مختلف المصـنفات الوسـيطة وذلك بإجراء قراءات واسعة في متونها، والانفتاح علي المظان التـي ظلـت مهمشة، ولم شتات النصوص المبعثرة، والانتباه إلي قيمة المصادر غير المستعملة، ما يوفر المادة والأدوات الكفيلة باقتحام الموضوع، وهكذا فقد استفاد البحث مـن مضـامين كتب التراجم والطبقات والنوازل والأحكام الفقيهة، وما تزخر به كتب الفلاحـة والأطعمة والتصوف والمسالك والممالك والمعاجم الجغرافية والحكم والأمثال وكتب الحسبة.

واقتــناعاً بأهمية توسيع مجال القراءة لتشمل مختلف أصناف التأليف لم نذخر جهــداً في استغلال فيض من المصنفات الأدبية بما في ذلك كتب الشعر والمستظرفات والحكايــات الرمــزية، والاســتفادة مــن الرســائل واستقراء محتويات بعض الكتب الموضوعة في الطب والأوزان والمكاييل وفهارس الكتب والتسفير.

وللوقــوف عن كثب علي تطور الاهتمامات في أوساط المختصين في التاريخ الاجتماعــي والمشــتغلين بــتاريخ الغــرب الإسلامي عموماً ومتابعة القضايا المثارة وتحصــيل النتائج وفحص المناهج، تشعبت القراءة فيما لا يسع ذكره في هذا المقام من كــتاب العــرب والمستشــرقين فــي مجالات الفلاحة والثقافة والنظم السياسية، وفي المواصــلات والأغذيــة واللغة والفنون وغير ذلك مما يتصل بالموضوع من قريب أو بعيد، ولم نغفل الاستفادة من حصيلة عدد من الأبحاث الاركيولوجية مع توسيع القراءة لتشــمل عــدداً مــن الدراســات التي أنجزت عن المشرق الإسلامي وبعض الممالك المســيحية والمــدن الإيطالــية بمــا يفيد المقارنة وتدقيق ما انتهينا إليه من خلاصات واستنتاجات.

واســتفدنا أيضــاً من المنهج المقارن وذلك بتوسيع دائرة المقابلة لتشمل العدوة الأندلســية وبــلاد المشرق فضلاً عن بلاد الفرنجة في محاولة لاستخلاص خصائص العصر المميزة.

وبفضــل ما تراكم من مادة تاريخية أمكن تناول الموضوع وفق نظرة شمولية تــتوخى الإحاطــة بمخــتلف الجوانب ورصد كافة التجليات وارتباطها بعضها ببعض مســتهدفاً مــتابعة الظواهــر التاريخــية في نشأتها وتكوينها وتطورها مع وضعها في السياق ضمن المسار العام.

ووظفنا المادية التاريخية وأدواتها العلمية مدعمة بمنهجيات شتي مستوحاة من أحــدث ما كتب في مجال المناهج، ومن أوثق المصادر العربية في الهيكلة والتصنيف والوصــل بيــن البنيات والأنساق والمستويات، ولم نغفل الاستعانة بالمناهج الحديثة في علــم الاجــتماع اللغوي والسيميائيات من أجل ضبط المصطلحات والمفاهيم والإحاطة بمكامن التفاعل بين العامية والفصحي والأعجميات المتعايشة.

واســتناداً إلــي هــذا التناول المنهجي تمت دراسة الموضوع في ستة فصول بالإضـــافة إلي مقدمة وخاتمة وثبت بالمصادر والمراجع والدراسات، وتتضمن المقدمة دراسة نقدية للمظان المعتمدة مع إبراز قيمة كل صنف في تغطية مباحث الأطروحة.

خصــص الفصل الأول لرصد البنية الاقتصادية للمجتمع المغربي ودورها في صــياغة الهــرم الاجتماعي علي أساس "طبقي" وذلك بتتبع مسار تطور أشكال ملكية الأرض وتحديــد نمط الإنتاج السائد، فضلاً عن إبراز القسمات العامة للنشاط الزراعي – الرعوي، والنشاط الصناعي والتجاري، واهتم الفصل الثاني بتحديد الشرائح المكونة لطــبقة العامــة والتفصيل في وضعيتها الاجتماعية والاقتصادية تأسيساً علي أنه رغم تــنوع شــرائح هــذه الطــبقة إلا أنها تشترك جميعاً في ضآلة حيازتها للثروة، وعالج الفصــل الثالــث بعــض مظاهــر الحياة الاجتماعية لطبقة العامة رابطاً بين المظاهر والأسباب.

وتعــرض الفصل الرابع لذهنيات العامة باعتبارها تجليات للوقائع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية القائمة.

وتصــدي الفصل الخامس لمعالجة العلاقة بين المتصوف والعامة إن تأييداً أو إن انحــيازاً للسلطة، كما عرض تأثير المتصوفة في كثير من معتقدات العامة وصياغة نظرتها للوجود.

أمــا الفصل السادس والأخير فتناول الدور السياسي لطبقة العامة فعالج شطره الأول العلاقــة المصــلحية بيــن العامــة والخلفاء وتضمن شطره الثاني تحليلاً لأبرز ثــورات العامــة ذات الــبعد الاجتماعــي في مطالبها وموقف السلطة الموحدية منها، ورصــدنا فــي الخاتمــة أهــم مــا أســفرت عنه هذه الدراسة المتواضعة من نتائج واستخلاصــات نــأمل صــادقين أن تصــلح لتعزيز رصيد الأبحاث الخاصة بالتاريخ الاجتماعي المغربي في العصر الوسيط عامة وفي العصر الموحدي خاصة.

وتفاديــاً للإطــناب فــي عــرض نتائج هذا البحث الذي سيستفيد ولاشك من ملاحظــات الســادة الأســاتذة الأفاضــل أعضاء اللجنة الموقرة نود أن نشير إلي أن الأوضاع الاقتصادية المتردية ساعدت علي توضيح كثير من جوانب البنية الاجتماعية

حيث كان للتطورات الاقتصادية أثرها الفعال في صياغة البناء الطبقي للمجتمع المغربي فاحتلت ذراه الطبقة الأرستقراطية التي تصدرتها – من حيث الأهمية – الشريحة العسكرية التي شكلت دعامة النظام الأساسية وتليها الطبقة الوسطي وأخيرا طبقة العامة التي احتلت أسفل الهرم الطبقي.

وقد فصلت الدراسة الحديث عن طبقة العامة موضحة المتغيرات التي طرأت علي كيانها والوضعية الاجتماعية لشرائحها المختلفة.

وحتى يكتمل التصور العام عن الكيان الاجتماعي لطبقة العامة كان من اللازم معاينة طبيعة واقعها المعيشي ومظاهر حياتها اليومية وتجلياتها الذهنية والفنية والتلقائية وذلك عبر: دراسة التكوين العائلى عند العامة التى احتلت المرأة خلاله مكانة متميزة – عكس نساء الخاصة– الأمر الذي يشي بدور العامة الاجتماعي الفعال، وابراز سمات منازلهم وطابع ملابسهم ومأكولاتهم ، واستعراض مجالسهم واحتفالاتهم العامة ووسائل الترفيه التي يمضمون بها أوقات فراغهم ۰ وعلى جانب أخر لم يغب العامة عن الحياة الثقافية والاجتماعية بإبداعاتهم الأدبية والفنية ذات الطابع الشعبي "والفلكلوري" فقد تجاوز دورهم تذوق عيون الأدب التقليدي إلي أسهامهم من خلال لهجتهم العامية في الحفاظ علي حياة كثير من ألفاظ اللغة الفصحي التي هجرتها فنون الأدب الرسمي مما يفند كثيراً من المزاعم التي تلهج بخطورة لهجة العامة وآدابها علي اللغة العربية الفصحي، كما فرض العامة وجودهم علي ساحة الأدب الرسمي بالإنتاج الشعري، وعلاوة علي ذلك فقد خاض وجدانهم بأدب تلقائي يعبر عن واقع حياتهم ويعكس طموحاتهم وآمالهم خلال أشكال غاية في التنوع والثراء.

أما عن علاقة العامة بالمتصوفة فقد تجلت بالخصوص في الجانب الإنساني والإحصائي الذي يظهر خاصة في أوقات الأزمات والمجاعات، ولم يقتصر دور المتصوف علي النواحي الاجتماعية فقط بل تعداه إلي جوانب أخري كالتخفيف من جبروت السلطة وإقبالهم علي تعليم ووعظ العامة.

بالـرغم من محاولات المتصوفة لإصلاح وإنعاش أوضاع العامة المتأزمة إلا أنهم في الواقع لم يزيدوها إلا خمولاً وإحباطاً وهو ما عطل جزءا من قدراتهم الذهنية ووفر مزيدا من عناصر الانغلاق فاسحا المجال لتفشي الخرافات والشعوذة ،

والظاهرة أن العامة وجدت في الخطاب الكرامي ما يناسب أوضاعها ويوافق تطلعاتها فهو إفراز لواقعها المعيشي ،

وفي ما يتعلق بدور العامة على الساحة السياسية تقصى البحث صيغ وأشكال الـثورات التـي أقامـتها العامة وذلك بتحليل أبعادها الاجتماعية والفئات التي انضوت تحت لوائها،

والملاحـظ أنـه بالرغم من أن هذه الثروات أتاحت للعامة المشاركة بقوة في صياغة الأحداث السياسية في تلك الفترة، فإنها عجزت عن تحقيق أغراضها أو إحداث تغيـيرات جذريـة علي الصعيد السياسي والاجتماعي ويرجع ذلك بالأساس إلي انعدام التنظـيم وتخلـي الطـبقة الوسطي عن قيادة الحركة السياسية، فضلاً عن قمع السلطة المتواصل لنشاطات العامة.

وعلي جانب أخر يمكن الإشارة أن العامة بفضل هذه الثورات نجحت في لفت الأنظـار إلـي الواقع المأساوي الذي تعيشه وإجبار السلطات القائمة علي التخفيف من شطط استغلالها.

وتجـدر الإشارة إلي أن شح المادة التاريخية قد أفضي إلي عدم استيفاء بعض الموضـوعات حقهـا مـن الدراسة فظلت إشكالات مطروحة علي بساط البحث مثل: الإحصـاء العـددي للعامة، أشكال جباية الأرض العينية والنقدية في العصر الموحدي وعلاقـتها بمسـتوي تطور البنية الاقتصادية، فضلاً تنظيمات الأصناف التي ما يزال تركيـبها الداخلي والعلاقة القائمة بين أصحاب العمل والأجراء من الأمور التي يكتنفها الغموض.

وفـي الـنهاية يمكـن الإشارة إلي أن المعطيات التي ساقها البحث عن مدار صـفحاته قـد أكـدت الدور الحيوي والهام الذي قامت به العامة علي صعيد الحضارة الإسـلامية، الأمر الذي يحتم دمجها في نسيج تلك الحضارة بدلاً من نفيها خارج إطار تاريخها المسطور.

عبد المحسن طه رمضان، الحروب الصليبية في الأندلس ميلادها وتطورها مع دراسة نقدية لمصادرها العربية والأسبانية حتى القرن العاشر، القاهرة، ٢٠٠١.

عرض/ محمد مؤنس عوض

مصر

يقع الكتاب القيم المذكور في ٦٧٤ صفحة من القطع المتوسط، واحتوي علي التمهيد والذي انقسم بدوره إلي المقدمة ثم تعريف بأهم المصادر والمراجع، ثم أربعة أبواب احتوت تسعة فصول، وهي كالآتي: الباب الأول، وعنوانه: إقليم اشتوريس حتي الفتح الإسلامي في عام ٧١٤م/ ٩٥هـ، وانقسم إلي فصلين، الفصل الأول، اشتوريس قبل الفتح الإسلامي، الفصل الثاني، الفتح الإسلامي لإقليم اشتوريس أما الباب الثاني فعنوانه: المقاومة الأسبانية في طور التكوين ٧١٤ – ٧٣٩م/ ٩٥ – ١٢١هـ، واحتوي فصلين الأول بلاجيوس وميلاد المقاومة في إقليم اشتوريس، الفصل الثاني تطور المقاومة في اشتوريس حتي عام ٧٢٢هـ/ ١٠٣هـ، الفصل الثالث، رد الفعل الإسلامي للمقاومة في إقليم اشتوريس حتي ٧٣٩م/ ١٢١هـ، أما الباب الثالث، فعنوانه: فرض الوجود الأسباني ورد الفعل الأندلسي ٧٣٩ – ٧٨٨م/ ١٢١ – ١٧٢هـ، واحتوي فصلين، الأول عنوانه قيام مملكة اشتوريس وتجرؤها علي الأندلس ٧٣٩ – ٧٥٧م/ ١٢١ – ١٤٠هـ، أما الفصل الثاني فعنوانه، الانتكاسة الأسبانية ومهادنة الأندلس ٧٥٧ – ٧٨٨م/ ١٤٠ – ١٧٢هـ، وجاء عنوان الباب الرابع: الصحوة الأسبانية واشتداد الضغط علي الأندلس ٧٨٨ – ٩١٠م/ ١٧٢ – ٢٩٧هـ واشتمل علي فصلين هما: الفصل الأول، مرونة اشتوريس وصمودها للضغط الأندلسي ٧٨٨ – ٨٥٢م/ ١٧٢ – ٢٣٨هـ، أما الفصل الثاني فعنوانه تمزق وحدة الأندلس وتفوق أشتوريس ٨٥٢ – ٩١٠م/ ٢٣٨ – ٢٩٧هـ، وأخيراً احتوي الكتاب عللي الخاتمة، ثم عدة ملاحق، ومن بعدها الخرائط، ثم قائمة المصادر والمراجع.

وبدايـــة، أود أن أقدم للمؤلف أصدق التهاني القلبية الصادقة علي صدور كتابه الأول وهــو فـــي الأصل أطروحتيه للماجستير والدكتوراه، وبالفعل فقد احتوي الكتاب علـــي جهد علمي بارز خاصة من حيث ترجمة المؤلفات المصدرية، والمرجعية، وهي بعــدة لغـــات أوربية، ولا ريب في أنه يقدم إسهاماً علمياً جديراً بكل تقدير وجاء ليسد ثغرة واضحة المعالم في المكتبة العربية خاصة في مجال دراسات تاريخ المسلمين في الأندلــس في العصور الوسطي، ولا أغفل هنا ضمن الحديث عن إيجابيات الكتاب أن مؤلفه انفق في إعداده عدة أعوام طويلة فأستحق الإشادة الجديرة به.

ومـــع ذلـــك، فإن أي عمل علمي لابد من أن يحتوي علي بعض الزوايا التي يمكن الاختلاف بشأنها مع المؤلف، مثل طبيعة كافة العلوم الإنسانية ذات البعد الجدلي، ومن البداية أود التأكيد علي عدة حقائق:

أولاً: إن ملاحظاتـــي التالية لا ولن تقلل من القيمة العلمية للكتاب التي أشدت بها في السطور السابقة.

ثانـــياً: إن الملاحظـــات التالـــية ما هي إلا نماذج وليس كافة ما ألاحظه علي الكـــتاب، ولا أتشكك لحظة في أن المؤلف بما عرف عنه من خلق رفيع، وموضوعية سوف يتسع صدره من أجل قبولها حتى ينفذها في الطبعة الثانية بإذن الله تعالي.

ثالـــثاً: ما يتم إبرازه في هذا العرض من تصورات هي بالتأكيد مفيدة للمؤلف خاصــــة أن هذا هو العمل العلمي الأول في صورة كتاب ينشر له، والأمل معقود عليه وعلـــي غـــيره مـــن الباحثين الجادين من أجل إصدار العديد من المؤلفات عن تاريخ المسلمين في الأندلس في العصور الوسطي.

ويمكن إجمال أهم الملاحظات علي النحو التالي:

١. العـــنوان "الحـــروب الصليبية في الأندلس"، والواقع أن المرحلة التي يـــتحدث عنها المؤلف لا توصف بأنها حروب صليبية "حقيقية" بل هي مرحلة ما قبل الصليبات، Pre-Crusades، فما قبل عام ١٠٩٥م، يعد مقدمات لوجودها الحقيقي مع دعوة البابا أوربان الثاني Urbanus II (١٠٨٨ – ١٠٩٩م) لها في مجمع كليرمونت بفرنســـا، وإلقـــاء خطاب تاريخي في ذلك الشأن في ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥م، وإلا اعتبرنا

حـروب هرقل ضد الفرس في القرن السابع الميلادي حروباً صليبية، أو حروب القادة العسكريين الذين حكموا بيزنطة مثل نقفور فوكاس ويوحنا تزيمسكس العاشر الميلادي فى الرابع الهجري ضد المسلمين حروباً صليبية، وهو أمر عكس الواقع التاريخي.

لقـد جـاء الكـتاب خالـياً من الحديث عن الدور البابوي، فكيف تكون هناك حروب صليبية دون البابوية وهي التي تعرف أحياناً بأنها السياسة الخارجية للبابوية؟، ثم أن المؤلف لم يقدم لنا البراهين الدالة على أنها حروب صليبية في معرض دراسته، ممـا يعكس أن العنوان لم يكن موفقاً وكنت أفضل أن يكون هو نفس عنوان أطروحتيه العلميتين اشتوريس والمقاومة الأسبانية للفتح الإسلامي

١- كنـت أفضل ألا يضع المؤلف في العنوان كلمة "ميلادها"، بل نشأتها، أمـا عـبارة "دراسـة نقدية" فأختلف معه بشأنها لأن ما أورده في الكتاب لم يكن كله دراسـة نقديـة كما ذكر بل فيه جانب من التعريف بالمصادر سواء بالنسبة للمصادر العربية أو الأسبانية وغابت "الرؤية" النقدية عن عدد من المؤلفات.

٢- جـاءت خطـة الدراسـة لـتركز تماماً على الجانب السياسي، دون الإشـارة إلي أية زوايا حضارية، وهي نقطة بالغة الأهمية وكان الأجدر بالمؤلف ألا يغفـل ذلك الجانب وهو أساس للدراسة الأكاديمية الموضوعية بحكم التأثير والتأثر بين الزوايا السياسية والحضارية ضمن السياق التاريخي العام.

٣- اتسـمت الخطـة بالطابع الزمني، وكنت أفضل التقسيم الموضوعي الـذي يراعـي البعد الزمني وهو بالتأكيد أقدر وأوفي وأشمل من النمط الزمني الذي يتصف بالطابع التقليدي والنمطي ولا يعطي للمؤرخ مساحة أكبر من الابتكار.

٤- أورد المؤلـف الفاضل قائمة بأهم الاختصارات في ص٥ من الكتاب، وأتصـور أن موضـعها الحقيقـي قبل قائمة المصادر والمراجع والحالة الوحيدة التي توضـع فيها في الصفحات الأولي من الكتاب عندما يكون متخصصاً في الببليوغرافيا كما في حالة كتاب هانزماير. بيلوغرافيا تاريخ الحروب الصليبية، الصادر في هانوفر عام ١٩٦٥م.

Hans Mayer, Bibliographie Zur Geschichte der Kreuzzuge, Hannover 1965.

حيث أورد ماير قائمة بالغة الثراء بالاختصارات في مقدمة الكتاب.

٥- لـم يورد مؤرخنا في مقدمة الكتاب المنهج المتبع في الدراسة وبصفة عامـة، جاء جهده وفق المنهج السردي الوصفي باستثناء بعض المواقف الممتازة في معالجتها التي بذل فيها جهداً جديراً بكل تقدير حلل الأحداث وتوصل لنتائج طيبة غير أن ذلـك جاء بصورة جزئية دون أن تكون ضمن تصور شامل للمعالجة التاريخية من بداية الدراسة إلي أخرها كما هو مفترض علمياً.

٦- خلـت الدراسة من "الإشكاليات" إلا في النادر، أتصور أن إشكاليات الدراسـة علي جانب عظيم من الأهمية، بالإضافة إلي المنهج المتبع مع ملاحظة عدم الانفصال بينهما.

٧- مـن المؤسف حقاً أن المؤلف الفاضل لم يورد اسم أ.د. عبد المنعم ماجد علي أنه المشرف الفعلي علي الدراسة، فقد أورد اسمه دون أن يذكر أنه الأستاذ الدكـتور المشـرف بـل أورده ضمن الذين عاونوه في الدراسة، وأود التقرير هنا أن كاتـب هـذه السطور أشرف عليه مؤرخنا الراحل وأفدت من علمه بحكم تتلمذه علي المستشـرق الفرنسـي الـبارز ليفي بروفنسال Levi Provencal وقد أشرف علي أطروحتـي للماجسـتير فـي مرحلة من مراحلها، وحالياً يتم تخصيص جزء عنه في كـتاب "مؤرخون مصريون رواد لمرحلة العصور الوسطي" الذي سيصدر قريباً بإذن الله تعالي، وهذا حق المشرف الراحل علي كل من تتلمذ علي يديه، وأفاد من علمه.

٨- العمـل العلمـي الذي يمثله الكتاب تم أعداده منذ عقد ونصف تقريباً (حوالـي ١٥ عامـاً)، وخلالهـا صـدرت العديد من المؤلفات بالعربية والإنجليزية والأسـبانية وكان علي المؤلف متابعتها، غير أنه في قائمة المصادر والمراجع لم أجد مؤلفـات في حقبة التسعينيات إلا خمسة كتب فقط باللغة العربية، وأذكر المؤلف بندوة الـتاريخ الأندلسي في المملكة العربية السعودية الصادرة بمناسبة مرور ٥٠٠عام علي سـقوط غرناطة، والكتاب البيليوغرافي الصادر عنها، وكذلك ندوة أخري في مصر في جامعة الإسكندرية، وغيرها من الندوات والإصدارات.

٩- هناك مغالطة واضحة أوردها المؤلف، إذ بعد إيراده لمؤلفات الباحثين المصريين في مجال تاريخ الأندلس قال ما نصه:

"ولعله يتضح من عناوين المؤلفات العربية السابقة أنها اختصت في معظمها بتاريخ المسلمين في الأندلس، منذ الفتح الإسلامي لا يبيريا ولفترات متفاوتة تصل في بعضها إلي إخلاء المسلمين لها في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، علي أن بعضها قد اهتم أيضاً بالتاريخ للقوي المسيحية الأسبانية – ومنها اشتوريس إلا أن روايتها في هذا الصدد تتسم بالعمومية، والإيجاز، وأحياناً بالغموض، وتفتقد إلي التحليل والتمحيص بسبب اعتماد مؤلفيها علي المصادر الإسلامية وحدها من دون اللاتينية. باستثناء بعض المؤرخين المصريين الذين تقف كتاباتهم كدليل قاطع أيضاً علي السبق المصري في الانفراد حتى وقتنا الحاضر بالإطلاع عليها والاستفادة منها جنباً إلي جنب مثيلاتها الإسلامية".

وأود التقرير بأن العبارات السابقة تتسم بالتعميم وعدم الموضوعية خاصة أنه اغفل سبق وريادة الراحل أ.د. حسين مؤنس في مقالته بعنوان:

"بلاي وميلاد اشتوريس وقيام حركة المقاومة النصرانية في شمال أسبانيا"، وهي منشورة في مجلة كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول، م(١١)، جـ (١) مايو ١٩٤٩م.

ويلاحظ أنه اغفل ذكرها في القسم الخاص بتعريف المصادر والمراجع علي الرغم من استعانته بها وإيراداها في قائمة المصادر والمراجع، في ص٦٦٨.

أما القول بأن الدراسات السابقة علي دراسته "تتسم بالعمومية والإيجاز وأحياناً بالغموض وتفتقر إلي التحليل والتمحيص" فأود أن أنبه المؤلف إلي أن من كتب في موضوعه منهم أ.د. حسين مؤنس، أ. محمد عبد الله عنان وهما عملاقان من عمالقة المؤرخين الرواد.

من ناحية أخري، هاجم المؤلف أطروحة أ.د. رجب محمد عبد الحليم وهو الآن أستاذ التاريخ الأندلسي في معهد الدراسات الأفريقية – جامعة القاهرة:- وهي بعنوان: العلاقات بين الممالك الإسلامية والنصرانية في أسبانيا منذ الفتح وحتى نهاية

القـرن الخـامس الهجري .ط. القاهرة١٩٨٠ م (انظر عباراته ص١٥)، وأود التقرير بـأن الدراسـة المذكورة علي جانب كبير من الأهمية، لمؤرخ فاضل، وتحتوي علي جزء خاص بالصلات الحضارية بين الطرفين، وهو أمر خلت منه دراسة مؤلفنا.

كذلـك كان موقف المؤلف من دراسات أ.د. عبد الرحمن الحجي التي اتصلت بموضـوع الكـتاب علـي الرغم من أنه حصل عليها من خلال أطروحة علمية من جامعـة كامبردج عام ١٩٦٦م، وقد قرر ما نصه: "فلم تكشف أي من هاتين الدراستين عن جديد....".

وأكـرر قـيمة جهـد أ.د. عبد الرحمن الحجي الذي يجيد الإنجليزية والفرنسية والأسـبانية، وأدعـو المؤلف إلي التأني في إطلاق الأحكام علي الذين سبقوه بإصدار مؤلفـاتهم بعشـرين عامـاً، وبالتالـي كانت لهم الريادة في دراسة جوانب من نفس موضـوع دراسـته مـن ناحية أخري، أود التأكيد علي أن ما أورده بشأن الدراستين المذكورتين مكانه ليس في المقدمة بل في القسم الخاص بتعريف المصادر والمراجع.

١٠- فـيما يتصـل بالباب الأول، وهو بعنوان إقليم اشتوريس حتي الفتح الإسلامي في عام ٧١٤م/٩٥هـ، وشمل الصفحات من ١٢٣ إلي ١٩٦ أتصور أنه لا يعد باباً بل فصل تمهيدي للدراسة، لأنه لا يدخل في صلب العمل العلمي.

١١- خصـص مؤلفنا الباب الثاني الذي يحتوي علي ثلاثة فصول لأحداث ٢٦ عامـاً مـن ٧١٤ - ٧٣٩م/ ٩٥ - ١٢١هـ وذلك علي مدي الصفحات من ص ١٩٧ إلـي ٢٩٣، أي مـا يزيد علي المائة صفحة، بينما خصص فصلاً مستقلاً فيما بعـد، وهو بعنوان تمزق وحدة الأندلس وتفوق اشتوريس لتتناول ٥٩عاماً في المرحلة الواقعـة بيـن عامي ٨٥٢ - ٩١٠م/ ٢٣٨ - ٢٩٧هـ، وهنا يكمن الخطأ في التقسيم الزمنـي لا الموضـوعي للدراسـة مع تقديري الكامل لوضع الخطة بالصورة القائمة عليها إذ أن الاختلاف في وجهات النظر - كما يقال - لا يفسد للود قضية.

١٢- توجـد عناوين للفصول ليست ذات طابع علمي مثل الفصل المعنون بـ "مرونة اشتوريس وصمودها للضغط الأندلسي"، فكلمة مرونة لا تصلح في عنوان فصل في أطروحة علمية لأنها ليست ذات تحديد علمي دقيق.

١٣- استخدم المؤلف كلمة "جمود" علي موقف الدولة الأموية من اشتوريس في مرحلة من مراحل تاريخها (انظر ص٤٤٧)، وأورد التقرير أن الكلمة المذكورة لا تذكر في الدراسات الأكاديمية لأن التاريخ حركة مستمرة والثابت الوحيد هو التغير.

١٤- هناك صفحات في الكتاب بلا توثيق كما في الآتي: صفحة ٤٤٧و ٤٤٨ علي الرغم من احتوائهما علي "معلومات" تاريخية مستقاة من مصادر ومراجع ولا نجد بها أفكاراً تحليلية من عند المؤلف نفسه.

١٥- أورد مؤرخنا في ٤٧٩ نصاً لاتينياً شمل نصف الصفحة دون أن يترجمه، فما قيمة إيراده دون ترجمته، والواقع أن موضعه في الملاحق مع إيراد الترجمة العربية له.

١٦- شملت الملاحق قسماً من الكتاب من ٥١٩ إلي ٥٥٠ وهي باللاتينية دون أن تترجم، والسؤال ما قيمة إيرادها لتشمل نحو ٣٠ صفحة من الكتاب، والمفروض أيراد النص المصدري وترجمته العربية حتى يستفيد منه الباحثون الذين سيتناولون موضوعاً قريباً من الموضوع الحالي.

١٧- استعان مؤرخنا بكتاب الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي في العصور الوسطي لماجد والبنا، (وقد أورد أنه دون تاريخ للطباعة، انظر ص٦٥٦، والحقيقة أنه صدر بالقاهرة عام ١٩٦٨م) ويلاحظ أنه مع تقديري الكامل للكتاب المذكور إلا أنه مع صدور كتاب العلامة أ.د. حسين مؤنس أطلس تاريخ الإسلام المزود بالخرائط البالغة الدقة تم بمقاييس الرسم المحددة كان من الممكن الإفادة منه خاصة أنه الأحدث دون الإقلال من جهد الرائدين أ. ماجد، د. البنا الذي كان متميزاً وقت صدوره بطبيعة الحال.

١٨- أحياناً، يورد عنوان المصدر التاريخي دون اسم المحقق كما في حالة كتاب تقويم البلدان لأبي الفداء الذي يذكر صدوره في باريس عام ١٨٤٠م. والمفروض أن بذكر تحقيق رينو ودي سلان .

١٩- أحياناً يضع التاريخ الهجري والمقابل الميلادي لوفاة المؤرخ، وأحياناً أخري لا يفعل ذلك، والمفروض السير علي قاعدة واحدة، كما في ص٦٣٤.

٢٠- استعان المؤلف بدراسات قديمة وعامة مثل كتاب Burke بعنوان A History of spain، الصادر في لندن عام ١٩٠٠م وهناك مثل آخر أورده في صورة كتاب صدر عام ١٧٠٥م ، وهو بعنوان

Catalonia: A Geographical and Historical Account of the principality of Catalonia and Earldom of Barcelona, London 1705

ولا أتصور إمكانية وجود قيمة علمية بارزة لكتاب مر علي صدوره قرابة ٣٠٠عام، لقد تجاوزته كتب الجغرافية التاريخية الصادرة من بعد ذلك علي مدي ثلاثة قرون كاملة، وفي حالة كونه من المصادر التاريخية لكان من الممكن قبول الأمر، أما أن يكون من المراجع فالأمر يحتاج إلي مراجعة وأتصور أن المؤلف الفاضل يتفق معي في هذا الشأن، وأتمني أن يكون هناك خطأ مطبعي! ويقال أيضاً نفس الأمر علي كتب عامة من أمثلة ذلك كتاب

Dubois, L'Espagne Ancienne et Moderne, Rouen 1859

أي أسبانيا القديمة والحديثة، وقد صدر عام ١٨٥٩م ولا أتصور أهميته المباشرة لموضوع الدراسة.

ونفس الأمر يتكرر بشأن كتاب

Hannay, Spain, Great Britain 1917

فهو عام ناهيك عن صدوره في العام المذكور

وهناك مثال آخر في كتاب

Fayyaz, A Short History of Islam, Oxford 1960.

فهو كتاب عام ومختصر عن تاريخ الإسلام وصدر منذ أربعين عاماً علي الرغم من صدوره من جامعة أكسفورد العريقة، ومنطقي تصور أنه ليس كل ما يصدر في الدول الأوروبية يتسم بالأهمية لأطروحة أكاديمية متخصصة.

٢١- من الملاحظ أن مؤرخنا الفاضل علي مدي دراسته عمل علي أن يقدم دور اشتوريس للقارئ العربي علي أنه دور ريادي وكأنها كانت القوة المسيحية الوحيدة المعارضة للوجود الإسلامي في شبة القارة الأيبيرية، والأمر عكس ذلك. إذ

حيث كان للتطورات الاقتصادية أثرها الفعال في صياغة البناء الطبقي للمجتمع المغربي فاحتلت ذراه الطبقة الأرستقراطية التي تصدرتها – من حيث الأهميه – الشريحة العسكرية التي شكلت دعامة النظام الأساسية وتليها الطبقة الوسطي وأخيرا طبقة العامة التي احتلت أسفل الهرم الطبقي.

وقد فصلت الدراسة الحديث عن طبقة العامة موضحة المتغيرات التي طرأت علي كيانها والوضعية الاجتماعية لشرائحها المختلفة.

وحتى يكتمل التصور العام عن الكيان الاجتماعي لطبقة العامة كان من اللازم معاينة طبيعة واقعها المعيشي ومظاهر حياتها اليومية وتجلياتها الذهنية والفنية والتلقائية وذلك عبر: دراسة التكوين العائلى عند العامة التى احتلت المرأة خلاله مكانة متميزة – عكس نساء الخاصة– الآمر الذي يشي بدور العامة الاجتماعي الفعال، وابراز سمات منازلهم وطابع ملابسهم ومأكولاتهم ، واستعراض مجالسهم واحتفالاتهم العامة ووسائل الترفيه التي يمضمون بها أوقات فراغهم ، وعلى جانب أخر لم يغب العامة عن الحياة الثقافية والاجتماعية بإبداعاتهم الأدبية والفنية ذات الطابع الشعبي "والفلكلوري" فقد تجاوز دورهم تذوق عيون الأدب التقليدي إلي أسهامهم من خلال لهجتهم العامية في الحفاظ علي حياة كثير من ألفاظ اللغة الفصحي التي هجرتها فنون الأدب الرسمي مما يفند كثيراً من المزاعم التي تلهج بخطورة لهجة العامة وآدابها علي اللغة العربية الفصحي، كما فرض العامة وجودهم علي ساحة الأدب الرسمي بالإنتاج الشعري، وعلاوة علي ذلك فقد خاض وجدانهم بأدب تلقائي يعبر عن واقع حياتهم ويعكس طموحاتهم وآمالهم خلال أشكال غاية في التنوع والثراء.

أما عن علاقة العامة بالمتصوفة فقد تجلت بالخصوص في الجانب الإنساني والإحصائي الذي يظهر خاصة في أوقات الأزمات والمجاعات، ولم يقتصر دور المتصوف علي النواحي الاجتماعية فقط بل تعداه إلي جوانب أخري كالتخفيف من جبروت السلطة وإقبالهم علي تعليم ووعظ العامة.

٢٤- أشار إلي كتاب أرشيبالد لويس، القوي البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ت. أحمد عيسي وذكر أنه بدون عام للطبع، والواقع أن تاريخ طباعته معروف وهو عام ١٩٦٠م.

٢٥- أورد المؤلف اسم جمال الرمادي مؤلف كتاب فتوح العرب، والاسم الصحيح هو جمال الدين الرمادي.

٢٦- جاءت الخاتمة مجرد تلخيص لما ورد في الكتاب !!!، وبالتالي لم يركز المؤلف علي النتائج العلمية التي توصل إليها علي مدي فصول الدراسة، وفي تقديري أن تعليل ذلك يكمن في غياب إشكالية الدراسة ذاتها والهدف من إعدادها .

٢٧- أحياناً يضع المؤلف معلومات موضعها في الهامش كما في ص٤١٧ وص٤١٨ حيث تناول "صليب الملائكة" وأتصور أن أيراد ذلك الأمر في المتن يفسد السياق التاريخي للعرض.

٢٨- كنت أود أن يذكر مؤرخنا من عاونه في الترجمة عن الأسبانية واللاتينية لأن ذلك أمر له جانب كبير من الأهمية نظراً لتعدد المؤلفات، خاصة – الأسبانية – التي أفاد منها في إعداد دراسته القيمة.

وبعد؛ فإن كافة تلك الملاحظات لا ولن تقلل من قيمة الجهد العلمي البارز في الكتاب المذكور، والذي يعكس إنفاق مؤرخنا الأعوام الطوال من أجل إنجازه بصبر وجهد ومن المهم أن اذكر القارئ بأن مادة تلك الدراسة تم إعدادها بالسفر إلي إنجلترا، وأسبانيا، علي نحو يعكس ما لدي مؤرخنا من اهتمام كبير بتخصصه الذي أتمني أن يثري من خلاله المكتبة العربية بالعديد من المؤلفات في المستقبل القريب بإذن الله تعالي.

إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين) بيروت، ١٩٩٨، ٢٥٦ص.

عرض/ محمد تضغوت

المغرب

يدخـل هـذا العمـل الـذي نتشـرف بقـراءته ضمن مجموعة من الأبحاث والدراسـات التـي أنجـزها د. إبراهيم القادري بوتشيش، في حقل التاريخ الاقتصادي والاجتماعـي، وهو حقل لا تزال العديد من قضاياه لم تدخل بعد دائرة البحث التاريخي المنظم

هذا الكتاب يأتي ليضيف إنتاجا موسوماً بالجدة، ويزكي الصورة المشرقة التي يتمـتع بهـا الباحث المؤلف في واجهة الدرس الأكاديمي المقتدر، ولعل المهتمين بحقل الاقتصـاد والمجـتمع في تاريخ المغرب الوسيط ليسوا في حاجة إلي أن أقدم لهم هذا الكتاب وفوائده منهجاً وبحثاً وتحصيلاً.

وعلـي ما يبدو، فإن هذا المؤلف – الذي نحن بصدده – هو في الأصل جزء مـن أبـواب الأطـروحة التي أنجزها الباحث لنيل دكتوراه الدولة في تاريخ المغرب والأندلس، سنة ١٩٩١ – تحت إشراف الأستاذ د. محمود إسماعيل.

وقـد سبق للمؤلف أن نشر قسماً منها في طبعة دار الطابعة سنة ١٩٩٣ تحمل عنوان: (المغرب والأندلس في عصر المرابطين: المجتمع، الذهنيات، الأولياء).

ولا نـدري هـل هـذا العمل هو بالفعل جزء من المشروع، مثلما راهن عليه المؤلـف، أو أنـه عمل قائم في حيزه، ومستقل في ذاته، كما لا ندري إن كان تمفصل الأطروحة تحت حاجة النشر علي مراحل، مفيداً في تصحيح المعتل، وترميم التصدع، وإزالـة الغمـوض والإبهـام الـذي ظـل يكتنف تاريخ المغرب الإسلامي في الحقبة الوسطي.

مـع ذلك فهذه الدراسة – شأنها في ذلك شأن الدراسات المفيدة – تطمح إلي تأسـيس مشـروع معرفي يروم إلي رصد العناصر الفاعلة في حركة تاريخ المغرب المنسـي أو المعـتم، كـذا تأسيس تاريخ شمولي ومتكامل ينتقد الحصيلة الضحلة من

المعلومـــات التي تركها التاريخ التقريري المبتذل، والسعي إلي نسج تاريخ من منظور جديـــد يتوخي رصد الظواهر التاريخية رصداً أميناً بعيداً عن مسلك الأدلجة، والانشداد المســـلم للـــنص الرسمي الذي أمسي مهيمناً علي مساحات شاسعة من تاريخ المغرب المعروف بالعنعنة والتداول.

فهل أفلح المؤلف في الإيفاء بالوعد الذي قطعه علي نفسه في مقدمة التأليف، وهل حقق الطموح الذي ظل يراوده وما يزال، أم ظل المكتوب – الذي نحن بصدده – لم يخرج علي نسق ذلك الصنم المعروف للمتداول المألوف.

إن الكـــتاب الذي نروم في هذه الورقة الموجزة تقديمه وتوصيفه واستعراضه وانـــتقاده يقـــع فـــي ٢٥٦ صـــفحة من الحجم العادي، صدر عن دار الطليعة، بيروت ١٩٩٨.

ابـــرز الباحـــث في صدر التأليف، الدوافع التي كانت وراء تحفيزه علي كتابة تـــاريخ مـــن هـــذا النوع، فبين أن الحقبة المرابطية عرفت مخاضاً وتحولاً عميقاً في الاقتصاد والمجتمع الذي ازداد حجمه وتعددت عناصره، كما مثلت السياسة والثقافة في الحقـــبة ذاتهـــا، واجهـــة مـــن واجهات معالم التحول الجديد الذي ظهر جلياً في توحيد المجال السياسي المغاربي واتساعه، ووحدة المذهب وانتشاره.

أقـــر الباحث مبدئياً – في المقدمة – بصعوبة ولوج هذا الموضوع لأعتبارين أحدهمـــا: نـــدرة المـــادة التاريخية المتاحة، وثانيهما: تداخل الحقول المعرفية وتنوعها، وتراميها بين مجال الاقتصاد والمجتمع والسياسة والثقافة.

مـــع ذلـــك صـــرح بإمكان تجاوز الصعوبات بفضل توسيعه دائرة القراءة في المـــتون، والاهـــتداء إلي اكتشاف نصوص جديدة جري توظيفها لأول مرة، كذا تقويم الحصـــيلة بفضـــل تبني منهج علمي رصين، أثبت قدرته علي جمع الجزيئات، وفرز الظواهـــر المتشـــابكة، والعمـــل علي ربطها بالأبنية الفاعلة في النسق العام، ولم يفته استحضـــار الآراء الاستشـــراقية والـــتخريجات النظرية، والأطروحات الأجنبية التي لامست الموضوع من قريب، أو من بعيد ووضعها موضع اختبار وتأمل وانتقاد.

وبفضـــل مـــا تجمع لديه من مادة تاريخية متنوعة، عمل علي تفصيل الدراسة فـــي أربعـــة فصـــول: خصص الفصل الأول منه لدراسة عناصر السكان وهجراتهم وتطورهـــم الديموغرافي، وعالج في الفصل الثاني أوضاع أهل الذمة، وعلاقتهم بالدولة والأهالي، بينما تناول في الفصل الثالث شكل البناء الطبقي وتراتب الفئات الاجتماعية، فـــي حيـــن اهـــتم الفصـــل الأخير بدراسة التكوين القبلي بالبوادي المغربية في الحقبة موضـــوع الدراسة، وختم بسلسلة من الملاحق والخرائط، اعتنت بمسألة توطين القبائل الـــبربرية والعربية في بلاد الأندلس، واستخلاص ملحق تعريفي ببعض أثرياء الفقهاء الذيـــن عـــرفهم العصـــر المرابطـــي، وتدبيج العمل بخرائط متنوعة بشأن الاستيطان المســـيحي وأماكن التجمعات اليهودية في المغرب والأندلس، في حين يلاحظ أنه أسقط ســـهواً أو أغفـــل عمداً موافاة القاريء بقائمة من المصادر والمراجع التي اعتمد عليها فـــي مكتـــبة البحـــث، فمـــا محتويات ومضامين أهم ما ورد وطرح في هذه الفصول جميعها؟

مـــن خـــلال تتـــبع فحـــوي الفصـــل الأول الـــذي خصصه الباحث للسكان والديموغرافـــيا أوضـــح أن مكونات المجتمع المغربي اتسم في حركته ونظامه الداخلي بســـمات غلبة الظاهرة القبلية شكلاً ومحتوي، فالقبيلة انبنت من مجتمع الكثرة والتعدد، وقـــام اقتصـــادها علـــي مـــوارد الغـــزو والغنـــيمة (ص٩)، وهذا التعدد الاثني شمل بالخصوص العناصر البربرية والعربية والمولدين والأقليات.

فبالنســـبة للبربر قدم الباحث عرضاً مسهباً حول الأراء التي قيلت في أصول الـــبربر وتفـــرعاتهم القبلـــية، ومـــع إقراره بصعوبة الحسم في هذا الموضوع بسبب تضـــارب النصـــوص وتـــناقض التفسيرات المقدمة في هذا الشأن، فقد اكتفي بمسايرة الأراء التـــي ترجع أصول البربر إلي المنبع العربي في شقه الحميري، والتي تصنفهم تلقائياً علي أساس معيار نمط العيش مسايراً للرؤية الخلدونية.

ومـــن خـــلال الخـــريطة الجيو- أثنية التي استلهمها من النصوص، أبرز أن الوجـــود المكـــثف للـــبربر في بلاد المغرب يعزي إلي ظروف تاريخية، وذلك قبل أن

يهاجروا بشكل كثيف إلي بلاد الأندلس التي استقروا بها خصوصاً في المناطق الثغرية لمواجهة القوي النصرانية، بعد امتداد النفوذ الاسلامي هناك (ص٣٦).

أمـــا العـــرب فقـــد ظلـــوا – في رأيه – نسبة قليلة العدد من سكان المغرب الأقصــــي، عكـــس الأندلـــس التي لاحظ بأنها استقطبت هجرات عربية هامة بدءاً من تاريخ الفتح الاسلامي، وفسر هذا الاستقبال بتشابه البيئة الأندلسية مع البيئة العربية في الشرق، وهو ما انعكس في تشابه أسماء الاماكن أو تقاربها.

وفق الباحث في تقديم وصف وتعريف مسهب لمجموعة من الهجرات قصدت بـــلاد المغرب والأندلس، وتابعها تاريخياً من زمن الفتح الأول لشمال افريقيا إلي زمن المرابطيـــن، وجزم بحصول اندماج اثني واختلاط عنصري بين البربر والعرب لدرجة ســـمحت بـــالقول عن تبرير العرب وتعرب البربر، وهي ظاهرة اعتبرها الباحث ميزة طبعـــت تـــاريخ المغرب وخصوصيته (ص٤١)، وضرب أمثلة مستحضراً نماذج من بعـــض الأسر الفاسية، والعائلات الصنهاجية التي عرفت تمازجاً واختلاطاً في الأنساب (ص٤٧)، كمـــا برهـــن علـــيها في تناسي العرب لأصولهم المشرقية تحت تأثير نظام الخلافـــة، فضـــلاً عـــن تنشـــيط حركة الهجرة الداخلية ونمو أعداد المولدين، وذوبان الصـــقالبة فـــي الجســـم المغاربي خلال العهد المرابطي، واعتماد العنصر السوداني، وأتراك الغز في سلك الجيش وانتشارهم داخل المجتمع.

ولاحـــظ الكاتب بأن هذا التنوع السكاني المتعدد الأصول والمشارب لم يتطبع بالـــنعرة العنصرية والنزعة القبلية إلا في فترات الأزمات الاقتصادية والسياسية، وهو أمـــر طبيعي – في اعتقاده – نظراً لتعدد مجال الاستيطان، وتبعات الحروب، وتلاحق المجاعـــات، وتحرك السكان، وتباين التوزيع البشري بين الجهات، واعتماد الدولة علي اقتصاد الغزو.

ونظـــراً للمكانـــة السياســـية والاقتصـــادية التـــي لعبها أهل الذمة في الجسم المرابطـــي، فقـــد أفـــرد لها مبحثاً خاصاً تناول فيه أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية والدينـــية وعلاقـــاتهم بالدولة والأهالي سواء بسواء، ولاحظ بأن تلك الأوضاع وشكل العلاقـــات، كانـــت تتأرجح بين أساليب الشدة والتسامح تبعاً لتطورات الوضع الداخلي،

وطبيعة السلطة السياسية القائمة، وإن بدأ في رأيه بأن اقتصاد المغازي الذي تحكم في توجهات الدولة المرابطية، جعل تلك العلاقة – في الغالب الأعم – موسومة بالتعنت والاضطهاد والتغريم واستنزاف القوي المنتجة.

ويبرر الباحث ذلك في حاجة الدولة إلي المال، وليس إلي سبب ديني عقائدي، مثلما زعمت بعض المصادر والدراسات التي تناولت الموضوع، واستدل بظاهرة تقلد أهل الذمة المناصب السامية، وامتلاكهم العبيد من المسلمين، وتركهم بصمات واضحة في الحياة اليومية لمسلمي المغرب والأندلس، في مجال الأزياء والأطعمة والاحتفالات، والزخرفة والبناء والزراعة وتقنيات السقي واستنباط المياه (ص١١٥).

ويعتبر الفصل الثالث الذي خصصه الباحث لرصد البناء الطبقي في العصر المرابطي من أبرز فصول هذه الدراسة، وإن كنا نري – مبدئياً – بأن الفصل الرابع الذي دارت مباحث حول التكوين القبلي في البوادي المغربية يعتبر – منهجياً – مقدمة لفهم أسس البناء الطبقي ومكوناته، وليس نتيجة وخاتمة له مثلما جاء في المؤلف.

فالتنظيم القبلي والأعراف القبلية، وحياة القبيلة – هي جزأ لا يتجزأ – من مكونات المجتمع، فهي إذاً مقدمات أو بالأحري تجليات في المنظومة الطبقية المنضدة، والمنبلجة أساساً من إفرازات البنية التحتية المحددة في شكل الاقتصاد ونمط الانتاج المهيمن الذي وسمه الباحث – سلفاً – بأقتصاد الغزو.

وكيفما كانت الاعتبارات أو الخلفيات الكامنة وراء التقديم والتأخير، فإن ما ميز أدوات البحث في التراتب الطبقي في المجتمع المرابطي أن المؤلف لم يتبن مقياساً واحداً، ففي المدن استند إلي مقياس الثروة (أغنياء ، متوسطو الحال، مقلون) أو مقياس سوسيو- أخلاقي (أهل الوجاهة والكرم، فالسفلة واللئام، ثم طبقة ثالثة تتوسطهما)، في حين تم اعتماد معيار قرابة الدم، ومؤشر صلة الرحم في ترتيب مجتمع البادية.

وإذا كان من طبيعة البشر عموماً – وحسب رؤية المؤلف نفسه – (التطلع إلي الدنيا وأسبابها من جاه وثروة) (ص١٢٠)، فإن هذا المنحي ينطبق من دون أستثناء علي سكان البوادي، وسكان المدن إسوة بإسوة، بل أدهي من كل ذلك، كيف يمكن القول بوجود تقسيم العمل وعلاقات العمل وعقود الملكية، وتطور الرأسمال والاستثمار

والتبادل في اقتصاد مهترىء لا يتجاوز أنفه، أليس أسلوب النهب والوهب اللذين ميزا أسلوب الحكم والاقتصاد في العصور الوسطي دليلاً علي هشاشة البناء الطبقي، وميوعة في تراتب الأبنية الاجتماعية؟ بل كيف يمكن استخدام مقياس الثروة الظرفية في مجتمع قائم علي مزاج الحاكم، وعلاقات انتاج مبنية علي اقتصاد عرضي غير قار متسم بالعبور والظرفية؟. ثم هل بمقدور اقتصاد من هذا النوع أن يراكم الرأسمال، ويدفع واقعياً إلي أسلوب توظيف الأسهم والتعامل بالسلف والفوائد؟ ألا يوجد تناقض بين الزعم بالقول بوجود ثروة عقارية قائمة علي الإقطاع وثروة عابرة مجبولة علي الغزو والسلب والتلكيب (ص١٢٤).

وكيفما كان موقف الباحث من هذه المسائل التي لا أظن أنها قد غابت عنه، فإنه قد حاول وفق التصور الذي وضعه، رصد خصوصية الطبقة والتفاوت الطبقي في المجتمع المرابطي استناداً إلي استحضار ثلاثة معايير، حصرها في ملكية الأرض، ملكية الرأسمال، نوع الوظيفة، وإن رأي أن هذه المعايير التي اقترحها لم تتسم بالثبات في ظل اقتصاد ونمط انتاج هش مرتبط بالظرفية. فأقترح – من خلال النصوص التي وقف عليها ولا سيما ابن خلدون – اتخاذ معيار الجاه الذي يدفع بصاحبه إلي أعلي المراتب (ص١٢٥)، وضرب أمثلة بمجموعة من الناس ملكوا المال وسعة الحال، غير أنهم افتقدوا الجاه، فتعرضوا لأشرس النكبات، وقدم أمثلة من صنف أخر كانوا في غمار الخلق، فاستنهضوا في المكانة والقدر، بفعل نفع السلطان الذي فوت إليهم إدارة الأعمال (ص١٢٥).

وبما أن دولة المغازي هي أصلاً دولة السيف والتحلق حول الحاكم، فإن وضع ذوي الجاه لم يكن ليستقر علي حال، فبمجرد ما تعن الفتن تهتز الوضعية الطبقية والمكانة الاجتماعية لكثير ممن استظلوا سابقاً بالجاه، وقد استشهد بأبن خلدون الذي لمح إلي هذا الوضع، حين ذكر (بأنه قد يقع في الدول اضطراب في المراتب من أجل هذا الخلق، فيرتفع فيها كثير من السفلة وينزل كثير من العلية).(١٢٧)

ويبدو أن هذه الظاهرة كانت عامة في العالم الاسلامي مشرقاً ومغرباً خلال العصور الوسطي، وهو ما يفسر ميوعة التشكيلة الطبقية في المجتمع الاسلامي، مثلما أومأنا إليه سلفاً في هذه الدراسة ودراسات أخري سبق أن أنجزناها.

مع ذلك فقد تسمك الباحث بدور الجاه وألصقه بمسألة الشرف وأصلة النسب واعتبرهما مؤشرين مركزيين (لاستمرار أركان المجد وقوادم الحمد وخوافيه)، بل نجده يؤكد النسب الشريف في التمايز الطبقي والفرز بين مراتب الأفراد.

ولا ندري كيف أضاف مذهب الدولة ذا المنحي المالكي، كذا توظيفه لعنصر القرابة المرسوم بالعصبية، واحتراف العلم، في نسق المؤشرات التي رآها فاعلة في الارتقاء والتألق الطبقي.

أليس المذهب والثقافة والجاه والشرف والحسب والنسب والقرابة، كما تفيدها المادية التاريخية – التي هي التأطير النظري لهذا البحث – هي تجليات ومظاهره لتأثير الاقتصاد ونمط الانتاج المهيمن علي الأبنية الاجتماعية والسياسية والحقوقية.

ومن ثمة، فالعناصر التي امتحنها الباحث واعتبرها فاعلة وموضبة للبناء الطبقي، نخالها صوراً لهذا البناء ومكوناته، في حين تظل الثروة وتظافرها مع الجاه بمثابة الأسين الفاعلين في تحديد شكل الطبقة ونوعيتها.

أما التزلف والتملق والوساطة في قضاء الحاجات، والتي أدمجها الباحث بين أدوات تحسين الوضع الطبقي للأفراد، فهي في اعتقادنا لا تعدو أن تكون مظهراً من مظاهر شكل البنية الاجتماعية وذيلاً من ذيولها.

وتأسيساً علي ما تم إثباته من خصوصيات بشأن التكوين الطبقي للمجتمع المرابطي، أنكب المؤلف علي تدريج المنازل، أو بالأحري الطبقات وفق التصنيف الذي اقترحه كما يلي:

- في قمة الهرم وضع الكبراء والأعيان والأمراء وقادة الجيش والوزراء والكتاب والولاة والفقهاء، وبعض البيوتات الكبري المنحدرة من العائلات الوجيهة، فضلاً عن أطباء البلاط وشعراء السلطة، ضمن الفئات الاجتماعية المكونة لطبقة الخاصة.

وبصـــرف النظر عن الدعة والترف الذي طبع الحياة اليومية لهذه الفئات لأنها تحصـــيل حاصـــل، فإن ملاحظة الباحث النبيهة حول وسم هذه الطبقة بالهجينية، وعدم الانســـجام بفعل تضارب المصالح والتكالب علي المواقع والتهافت علي المال، فإننا لا نوافقـــه في الرأي حول طرح فكرة الفصل بينها وبين مؤسسة الدولة، وذلك حتي تقدر علي تطوير المجتمع وتتمكن من لعب دورها التاريخي.

وفـــي هذا الإطار تعن أمامنا مجموعة من التساؤلات، اختصرها في ما يلي، كـــيف يمكن الفصل بين المؤسسة السياسية ونظام الحكم القائم؟ بل كيف لنا أن نتصور قـــادة مـــن دون جـــيش، وجيش من دون سلطة، وسلطة من دون وزراء، ووزراء من دون دواويـــن . مـــا المقصـــود بالاستقلالية عن أجهزة الدولة، مع العلم أن الدولة هي أجهـــزتها – وفـــق مـــا طـــرحه المؤلف (١٥٩)– هل بالفعل معاقرة الخمرة، وإتيان الجـــواري، والاقبال علي المحرمات، واقتراف الفواحش والزنا، وهضم حقوق العامة، والسماع للألحان وأغاني القيان، يؤدي بالفعل إلي تفسخ هذه الطبقة وانحلالها، فما دور الحـــراك الاقتصـــادي فـــي تقوية الطبقة أو تفتتها – حسب ما يتداوله السوسيولوجيون أليس البذخ والترف والاستغلال وفساد الأخلاق، عناصر منفعلة ومنصهرة في منظومة الفعل الاقتصادي حسب منهج المؤلف نفسه؟.

هـــذه أسئلة ارتأينا طرحها لعلها تبيد الظلام وتراجع أحكام القيمة التي ما تزال تطغي وتخيم علي مساحات شاسعة من حيز الفكر التاريخي وآليات اشتغاله في المجال العربي الاسلامي. فما المنظور الذي قدمه الباحث للطبقة الوسطي؟

يـــري الأســـتاذ أن هـــذه الطـــبقة ضمنت شرائح اجتماعية متنوعة من تجار وصـــيارفة يهـــود وأربـــاب حـــرف وأصحاب مهن من مهندسين، وأطباء فضلاً عن أصحاب الوظائف المتوسطة وأهل العلم ص(١٦٠).

وقـــد اجـــتهد فـــي استحضـــار زخم هائل من النصوص تصف وضعية هذه الشـــرائح وتقلـــب أحوالهـــا، ولاحـــظ بـــأن هذه الطبقة بدورها اتسمت بعدم التجانس والانســـجام، كما أن افتقارها إلي النفوذ والسلطة – رغم حيازتها علي الثروة – لم تقو علـــي لعب دورها التاريخي علي غرار ما قامت به مثيلتها في أوروبا، وأرجع الباحث

سبب هذا القصور إلي طبيعة اقتصاد المغازي القائم علي الاحتكار والنهب والمصادرة.

وإذا كان المؤلف لم يسهب كثيراً في طرح مسألة دور الطبقة الوسطي في الفكر والتاريخ الاسلامي وحلحلة قسماتها الداخلية، وهو أمر كنا نعول عليه كثيراً لدعم أطروحة اقتصاد المغازي الذي أطر مباحث التاريخ الاجتماعي، فإنه بالمقابل خصص لطبقة العامة حيزاً وفيراً.

فهل تعزي هذه الوفرة إلي وجود مادة تاريخية بشكل كاف وفرتها مسألة نزول اعداد كبيرة من شرائح الطبقة الوسطي إلي صفوف العامة، وهو وضع قد يكون طبيعياً بحكم اقتصاد قائم علي النهب الداخلي والخارجي؟ أو يعزي إلي صعود جناح من أجنحة الطبقة الوسطي إلي معانقة البيوتات الكبري والاندماج في سلكها؟، أم أن الطبقة الوسطي – وهذا احتمال فرضي – لم يكن لها وجود أصلاً الغرب الاسلامي مثلما ذهب إلي ذلك (هنريش بيكر). (راجع: محمود اسماعيل: سوسيولوجيا الفكر الاسلامي، ج٣، ص١٣٢).

إن الهاجس الذي يكمن وراء هذه القراءات تدفع إلي ترتيب واقع المجتمع وتنميط حركته وفق تعيين مستويات اجتماعية قبلية لا توجد في الواقع، بقدر ما توجد في النظرية، وبعض الاجتهادات السوسيولوجية التي حاولت تقعيد المجتمعات وتقطيعها قطائع طبقية بشكل متعسف.

والملاحظ أن مفهوم الحركية الاجتماعية في البلدان التي تتسم بالركود الاقتصادي أو الدورة الحلزونية في الانتاج، يصعب فيها التسليم بوجود طبقة وسطي قادرة علي تفعيل الاقتصاد، وخلخلة المعطي الطبقي القائم علي أساس القناعة النفسية، تحت تأثير الإيديولوجية المهيمنة وضغط القوي السياسية الحاكمة.

وكيفما كانت نتائج هذه التساؤلات النظرية والمنهجية المطروحة للتفكير في نسق حركية المجتمع الاسلامي مشرقاً وغرباً، فإن طبقة العامة التي أصبحت في السنين الأخيرة موئل عناية البحث التاريخي المنظم، قد جعل منها الباحث قاعدة بشرية ضمت عناصر شتي من حرفيين وصغار التجار، وباعة متجولين، وأجراء

ومستخدمين، وأصحاب المهن الوضيعة والمزارعين والرعاة والمعلمين والطلبة وأئمة المساجد والشعراء واليتامى، فضلاً عن المهمشين من اللصوص والمهرجين والمشعوذين وأصحاب الحلقة، والعاهرات وأسري الحروب والعبيد.

وقد فصل الباحث وفق منهج سردي وصفي جوانب من حياة هذه الشرائح وما بعدها (من ص ١٦٩) وعرض في ختام هذا الفصل إلي ذكر المحن والمصائب التي ألمت بها، ولاحظ عجزها عن القيام بثورة لصالحها، بسبب ضعف الوعي الطبقي عند هؤلاء، بالرغم من أنها طبقة منتجة حسب رأيه وتساءل في ذيل هذا المبحث عن مدي أوجه التشابه والاختلاف بين وضع السكان الاجتماعي في المدن ونظرائهم في البوادي.

وفي هذا الإطار خصص الفصل الرابع والأخير لمعالجة التكوين القبلى فى البوادى المغربية فى العصر الوسيط عموما والمرابطي بوجه خاص، فقدم في البداية جرداً ملخصاً للظاهرة القبلية بين المصادر الوسيطية والدراسات الأنثروبولوجية المعاصرة، ولا ندري كيف عمد الباحث إلي الموافقة جمعاً بين مفارقتين تنتميان إلي موقعين تاريخيين متباينين؟ فهل يخول المنطوق العلمي والرصد العياني أن نزاوج بين استقراء حصاد الدراسات الحديثة التي اهتمت بمونوغرافية القبيلة المعاصرة، وبين توصيف الظاهرة نفسها في حقبة العصور الوسطي.

وإذا كان الباحث قد استشعر باستمرار أسس القبيلة كظاهرة اقتصادية واجتماعية وسياسية بسبب حفاظها علي أسلوب الحماية والمدافعة والمطالبة التي ظلت فاعلة في بنيان القبيلة، فإننا لا نوافقه الرأي حول اعتبار النظام القبلي في ذاته انعكاس أميناً لنمط اقتصاد المغازي (ص٢١٨).

فبالرجوع إلي الفقرة أو الفقرات التي سجل فيها الأستاذ الباحث بعض المتظهرات الديموغرافية والجبائية في نسق واقع القبيلة، وانضباطها لشيخ الرئيس الذي يجمع السلطة ويراقب الأجهزة، فإن مفهوم التمثيلية في الأعراف المحلية السائدة والموروثة لم تسمح ميكانيزماتها بتجدر الديموقراطية في ذاتها بسبب التماهي في المحلية والحركة اللولبية، وهي ظاهرة جعلت في قمة القرار السياسي هيمنة

الأوليكارتـــية القبلـــية المؤسســـاتية التي كانت تدفع دوماً في اتجاه التعنت والعنجهية والاستبداد.

وإذا اقتنعـــنا – ولو علي مضض – بمقولة اقتصاد الغزو كنمط سائد تحكم في واقـــع مؤسسة القبيلة، فهل معني ذلك أن تاريخ المغرب والأندلس في الحقبة والوسطي جـــبل علـــي عـــدم الاستقرار وترصص علي حروب الكر والفر، بل وإذا سلمنا بهذا الواقع، فمن هو الغازي، ومن هو المغزو في واقع جغرافي – سياسي كان موحداً علي الأقل في العصر المرابطي.

نظـــرياً وواقعـــياً تمدنا مصادر الحقبة بسيل من النصوص تكشف عن اعتماد علـــي موارد ثابتة للرزق، فيما يعرف بأقتصاد القلة، واقتصاد الكفاف، ونادراً ما تقوم الدولـــة بالغـــزو إلا إذا توفـــرت علي فائض من الانتاج يتم توظيفه للبحث عن موارد جديـــدة تجســـدها عملـــياً مشـــاريع الهيمنة وتوسيع المجال الذي يتبع حتماً مقدار قوة العصبية وشوكتها.

فمـــا رأي الباحـــث في أن أساس استقرار المرابطين وثبات نظامهم السياسي والاجتماعـــي يـــرجع إلي حرصهم علي إقامة كنفدرالية قبائلية ذات أصول بربرية في تشـــكيلها السوسيو – أثنية، واقتصاد قائم علي الوساطة في حركة التجارة البعيدة المدي واستخلاص الفوائض الريعية؟

وإذا كـــان ابـــن خلـــدون – الـــذي هو عماد هذا البحث – قد ربط بين جدلية العصـــبية وأصـــالة البداوة، فإنه لم يخف الهدف المادي من هذا المسعي الذي قد يصل فـــي منتهاه إلي إقامة السياسة وتأسيس الملك، وهو مسعي ما كان ليتم – في اعتقادنا – لـــولا حـــرص المرابطين علي تشكيل بنية تنظيمية ذكية ومتماسكة، رامت إلي تلطيف حساســـية البربر ودرء تمرادتهم علي السلطة المركزية، إن علي المستوي السياسي، أو علـــي المســـتوي الرمزي، والممارسة الدينية التي كانت في الغالب موسومة بصرامة المـــنطق الفقهـــي الأحـــادي الذي تبناه المرابطون لظروف تاريخية كانت مهيأة، ففي حلحلة الفقرة التي خصصها ابن خلدون لنشوء الدول وارتقائها، يتبين أن العصبية التي نوهنا بها سابقاً، كانت ركناً أساسياً وديناميكية فاعلة لتخليق الإرادة السياسية وتمكنها.

ومــن هــذا المــنطلق تــأخذ العصبية منحي جدلياً مكوناً من ثلاث محطات متواصــلة، ومتناقضـــة في الوقت نفسه، ففي المحطة الأولي التي تقترن بالبداوة تتميز الظاهــرة القبلــية أو ارهاصات السياسية الناشئة برفض كل نزوع إلي الانضباط مهما كان مصدره، وفي المحطة الثانية التي تقرن بالعمران الحضاري تكون العصبية بصدد تجــاوز نفســها وبتحطيم ذاتها، وآنذاك تتخلي الدولة الصاعدة عن مبدأ المساواة الذي طــبع مرحلة البداوة، وفي المحطة الثالثة والأخيرة تنبثق الأرستقراطية التي تركن إلي الداعـــة وتفنــن في الترف، فتميل إلي التخلي بالتدريج عن العصبية المؤسسة فتستبدلها بالعسكر المرتزق.

وتأسيســاً علــي هذا الطرح يبدو أن العلاقات الصدامية والتدافع والمغالبة بين أطــراف القــوي المحلــية في المغرب الوسيط، كانت مدخلاً طبيعياً لقيام سلطة الأسر الحاكمـــة وتأسيس مشاريعها السياسية الطموحة، وبدا أن النصر – في كل الأحوال – ارتهــن بمــدي القدرة علي تجييش الجيوش، وضمان أكبر قدر من الموارد والحرص علي عدم نضوبها.

وغنــي عن البيان أن الآلة الأدارية في أمثال هذه المجتمعات ظلت نشيطة في الاتجــاه الــذي يبحــث عن المال، والمال الذي يعزز السلطة ويفعل استبداد المؤسسة السياسية العسكرية المهيمنة.

ولاشــك أن حرص الأدبيات السلطانية في العصر الوسيط علي المزاوجة بين الجند والمال والعدل والسلطان ما يؤكد أهمية هذه الأدوات في تاريخ الدول الوسيطية.

يبين المرادي هذا المنحي بقوله المأثور عن أرسطو في السياسة:

العالم بستان – سياجة الدولة

الدولة سلطان – تحميه السنة

السنة سياسة – يسوسها الملك

الملك راع – يعضده الجيش

الجيش أعوان – يكفلهم المال

المال رزق – تجمعه الرعية

الرعية عبيد – يجمعهم العدل

العدل مألوف – وبه صلاح العالم

العالم سلطان .... كتاب السياسة ورقة ٦٨ – ٦٩

ونعتقد أن الخيال السياسي الخصب والتجربة المحنكة لشخص مثل عبد الله بن ياسين كانت وراء ادراك واستيعاب الميكانيزمات الفاعلة في جسم القبائل الصنهاجية، وقراءة واعية لذهنية قادتها، حيث تمكن من حسم الصراع علي زعامة الحلف الصنهاجي بين جدالة ولمتونة، وتوجيه المشاجرة والتنافس في اتجاه الشمال.

أما الخلفية الاقتصادية التي شكلت حوافز القيام واستراتيجية التأسيس وتوسيع دائرة المجال، فيجيب عنها مهد المرابطين والفضاء الذي استوطنوه في الخريطة الجيو – إدارية آنذاك. لذلك صدق محمود إسماعيل حين رأي بأن رايه الجهاد التي حملها المرابطون منذ تأسيس الحلف الصنهاجي، كانت غطاء للتوسع والهيمنة علي مصادر ومنافذ ومراكز وأسواق تجارة الشمال – الجنوب (أنظر: سوسيولوجيا الفكر الاسلامي، ج٣، ١٦٦).

وعلي أي، وكيفما كانت الانتقادات والتصويبات التي اقترحناها لهذا الفصل، فإن من باب الانصاف القول بأنه جاء حافلاً بمعلومات تاريخية لها غاية من الأهمية، تهم بالخصوص الظاهرة القبلية وتشعباتها، وإن كنا لا نوافقه في تجزئة هذا المبحث وبعثرته في وحدات صغري، لأسباب أخالها اجرائية، وليست موضوعية وعلمية، علماً بأن التفيء والتشظى التقطع قد يفقد الموضوع وحدته وتماسكه.

وهكذا وجدنا البحث ينتقل من معالجة مشكلة القبيلة بين المصادر والأنثروبولوجيا المعاصرة، إلي الحديث – في النقطة الثانية – عن عناصر الحياة القبلية في العصر المرابطي (ص٢٢١)، ليرجع في نقطة ثالثة إلي الإطار الاقتصادي للقبيلة، وقضية التمايز الاجتماعي (ص٢٥)، ليخلص رابعاً إلي التنظيم القبلي (ص ٢٨٠)، ثم يدرج الأعراف القبلية في النقطة الخامسة – بالرغم من تلازمها – منهجاً وموضوعاً مع التنظيم القبلي، وأنهى الفصل بنقطة سادسة حول علاقة القبائل بالسلطة المركزية.

ومـــا يمكن ملاحظته بوجه عام أن هذه النقط جميعها لا يمكن فهمها مجتزأة، برهانـــنا علـــي ذلـــك، أن التقســيم الذي اختاره الباحث قد أوقعه في التقليد وغيابات الأدلجـــة، واستنســاخ الأفكـــار، وتوظـــيف أحكـــام القيمة، ودفعه إلي منزلق التكرار والاسهاب، بل وأسقطه في سرد بديهيات معروفة تدخل في نسق تحصيل حاصل.

ولا أعـــتقد أن الباحـــث غير متفطن إلي ما للتجزئة من وقع سلبي علي وحدة المواضيع من طبيعة الاقتصاد والمجتمع، والأنثروبولوجية الدينية وتواريخ الأفكار.

ومهما كان وقع الانتقادات التي وجهت لهذا العمل فإن ذلك لا ينقص من قيمته العلمية وأهميته الريادية.

فالباحث قد وفق بأمتياز في اقتحام موضوع ملغز محاط بالكثير من المحاذير، والضـــغوط الإيديو- سياسية، ويحسب له الاعتراف - مثلما ورد في مقدمته - من أن أفكـــاره ليست نهائية، وله الحق فيما زعم، لأن كل خطاب أو تأليف مهما أدعي لنفسه الأكاديمـــية وامـــتلاك الموضوعية، فإنه لا ينفلت من الأدلجة، وثقل الظرفية والراهنية التـــي تلعـــب دوراً كبـــيراً فـــي حـــبك التصورات وتأطير الأفكار وصياغة المفاهيم والمصطلحات.

ولعل من بين الحسنات التي تحسب لهذا العمل أن صاحبه لم يحصر نفسه في دائرة الاهتمام بالنصوص التاريخية المتداولة فحسب، بل نقب في مصادر ومخطوطات تـــم تـــناولها لأول مـــرة، كما فرضت عليه طبيعة المباحث التي سبر غورها أن ينوع القراءة، ويغترف من معارف ومناهج لا تدخل بالضرورة في حقل تخصصه.

وإذا كانـــت معضـــلة البحـــث الجامعي الأكاديمي هو استكناه الأطروحة التي تجمع بين المباحث المبوبة من دون التشبع النظري والتصور الإبستيمي المؤسس علي فرضـــيات مقنعة، فإن المؤلف الذي بين أيدينا حاول فيه الباحث أن يبني أراءه ويصوغ تخـــريجاته بالســـند إلي اقتصاد المغازي، الذي قال به عابد الجابري كذلك من دون أن يفصله.

ومهما قيل في نجاعة أو عدم نجاعة الاقتناع بالأخذ بهذا النمط الأساس فإن ما يحمـــد لهـــذا البحث أنه كتب ولم يغفل صاحبه الإطار النظري المنفتح، وغير المحكوم

بهواجس الكلمة الفصل، والنهايات المعروفة. فالتحليل التاريخي الناجح للوقائع الاجتماعية لا يمكنه أن ينفلت من التصور النظري الإبستيمي المؤسس على قناعة العلم، لا على أقنعة الميتولوجيا وقبعات الإيديولوجية التبريرية، فالمعرفة – حسب قول ألتوسير – لا تصبح حقيقية إلا بعد اكتمال البناء النظري، وأن الوصول إلى مرحلة الاكتمال لا يحصل مبدئياً إلا من خلال إدراك العلاقة الجدلية بين النظرية والمعرفة، وهذا ما لمسناه في قسم كبير من هذا المؤلف.

Hassan S. Khalilieh, *Islamic Maritime law: An Introduction* , Brill, 1998.

عرض/ محمد نصر عبد الرحمن

مصـــر

قـــدر للمسلمين في انسيادهم في أرجاء العالم أن يبسطوا سيطرتهم علي العديد مـــن المسطحات المائية، البحرية والنهرية، وسواحل طويلة امتدت شرقاً لتشمل المحيط الهندي والخليج العربي والبحر الأحمر، والبحر المتوسط والمحيط الأطلسي غرباً.

وأدي ذلـــك لـــنمو علاقـــة وطـــيدة ربطت بين المسلمين والبحر، وجعلت من الأخـــير واحداً من أهم معالم الحضارة الإسلامية، وظهر ذلك في المؤلفات العديدة التي ســـطرها المؤرخون حول الرحلات البحرية وكذلك كتب الفقة التي تناولت أحكام السفر وقواعد النقل والتجارة البحرية.

وقـــد ظهـــرت العديد من الدراسات الحديثة حول هذا الموضوع الحيوي علي أيـــدي العديـــد مـــن الباحثين، الذين تناولوا تلك العلاقة بصورة جزئية في إحدى بقاع الدولـــة الإســـلامية كالمحيط الهندي أو البحر المتوسط، أو بصورة عامة تغطي الحياة البحرية الإسلامية بوجه عام[1].

وإلي النوع الأخير من الدراسات ينتمي هذا الكتاب الذي يحمل عنوان (مقدمة فـــي القـــانون البحري الإسلامي)، للباحث الفلسطيني حسن صالح خليلية، الذي تظهر اهـــتماماته الواســـعة بمجال الحضارة البحرية الإسلامية في العصور الوسطي، خاصة تـــاريخ التشـــريع الإسلامي البحري، بجانب الدراسات البحرية الأثرية من خلال هذه الدراسة الجادة.

والكـــتاب في أصله كان أطروحة حصل بها الباحث علي درجة الدكتوراه من جامعـــة برنســـتون Princeton عـــام ١٩٩٥، ثم نشر الكتاب في هولندا عام ١٩٩٨ كإصدار خامس ضمن سلسلة من الدراسات تتعلق بالقانون والمجتمع الإسلامي.

---

[1] انظر علي سبيل المثال:

جورج حوراني، العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل العصور الوسطي، ترجمة. السيد يعقوب بكر، القاهرة ١٩٥٨، علي محمود فهمي، التنظيم البحري الإسلامي في شرق المتوسط من القرن السابع حتي القرن العاشر الميلادي، ترجمة. قاسم عبده قاسم، بيروت ١٩٨١.

Nadvi,s. "Arab Navigation" Islamic Culture 15 (1941) pp. 435. 448; 16 (1942) pp. 72 - 86, 182 - 198, 404 - 422.

والكـــتاب في أصله كان أطروحة بها الباحث علي درجة الدكتوراه من جامعة برنســتون Princeton عـــام ١٩٩٥، ثم نشر الكتاب في هولندا عام ١٩٩٨ كأصدار خامس ضمن سلسلة من الدراسات تتعلق بالقانون والمجتمع الإسلامي.

وتحـــتوي الدراسة علي سبعة فصول، اختص الأول منها بالحديث عن وسائل الـــنقل الـــبحري وأهم المصطلحات الخاصة بها من حيث الحجم والاستعمال، كالقارب والمركـــب والســـفينة.... والأسماء الخاصة التي تطلق علي كل سفينة كأسماء مالكي السفن، أو الربانية، أو الأسماء التقليدية المعتادة التي توحي بالتفاؤل والجمال.

ثـــم يـــتطرق بعد ذلك للحديث عن سعة السفن ومدي حمولتها، ووسائل الأمان المتـــبعة لمنع وقوع الخسائر، مثل قوارب النجاة وغيرها، ويتحدث عن دور المحتسب في مراجعة تلك الوسائل للتأكد من صلاحية السفن للإبحار.

ثـــم ينتقل إلي الفصل الثاني ليتناول راكبي السفن من البحارة والركاب، حيث يتـــناول فـــي الـــبداية بحارة السفن من حيث تصنيفهم ومهامهم ومواضعهم علي متن الســـفن، ثم يناقش العلاقة بين أصحاب السفن والبحارة من ناحية والمسافرين من ناحية أخـــري، بجانب مسئوليتهم عن سلامة الركاب والبضائع، ويختتم الفصل بالحديث عن المسافرين من حيث حقوقهم وواجباتهم.

ومـــن خـــلال الفصل الثالث الذي يحمل عنوان القانون التجاري البحري، يلج الباحـــث إلـــي الموضوع الرئيسي للدارسة، لذلك قسم الفصل إلي خمسة أقسام: تناول الأول مـــنها ما يختص بعقود تأجير السفن، فيقدم لنا نماذج لهذه العقود، ويضع القواعد التـــي سار عليها المسلمون في أجراء هذه العقود من حيث الاتفاق علي أجرة الشحن، والإجراءات الواجبة عند تفض هذا الاتفاق.

ويتـــناول القسم الثاني الضرائب والمكوس التي تفرض علي البضائع المنقولة بحـــراً، ويتـــناول القســـم الثالـــث القوانين التي تتحكم في قيام البحارة بطرح جزء من البضائع في البحر في حالات الطوارئ التي تتعرض فيها السفن للغرق مثل العواصف العاتية، أو هجوم القراصنة، وغيرها مع توضيح كيفية توزيع هذه الخسارة بين حائزي البضـــائع وملاك السفن، والعوامل التي تؤثر في التخلص من البضائع خاصة لو كانت

نفيســـة، أمـــا القسم الرابع فيصف القوانين المتعلقة بغرق السفن في حوادث التصادم، ويختـــتم الفصل بالقسم الخامس الذي يتناول القواعد الخاصة بتعويض حائزي البضائع في حالة غرق السفن.

ويواصـــل الباحـــث هنا الاتجاه في الفصل الرابع الذي يحمل عنوان (القانون الـــبحري العســـكر) حيـــث يتناول القوانين التي تحكم الحياة البحرية في حالة الحرب، وآراء الفقهـــاء في الأصول التي علي المسلمين اتباعها أثناء الحرب البحرية مثل منح الأمـــان، وقواعد تقسيم الغنائم، ثم يختتم الفصل بالحديث عن القواعد التي تحكم التجار من أهل الذمة في تعاملهم داخل الأراضي الإسلامية.

وينـــتقل الباحث في الفصل الخامس الذي يحمل عنوان (المياه الإقليمية، البحار المفتوحة القانون البحري الدولي)، ينتقل الباحث هنا من الإطار المحلي للإطار العالمي ليفسر الدلالة الشرعية للمياه الإقليمية من وجهة نظر كل من الفقهاء والحكام والبحارة، والقواعـــد التـــي تنظم الملاحة في المياه المتداخمة والي البحار بجانب الأنهار الداخلية والموانيء.

وفـــي الفصـــل السادس الذي يحمل عنوان (قوانين الانضباط)، يناقش الباحث كـــيف كان القانون البحري يحكم البحر، من خلال تناول بعض الجرائم التي تحدث في البحر كالقتل والسرقة والزنا وغيرها من الجرائم، والقانون الذي يحكم هذه الحالات.

ويختـــتم الباحث دراسته بالفصل السابع الذي يحمل عنوان (التقاليد الدينية في الـــبحر) حيـــث يـــناقش مـــدي فاعلية تطبيق الواجبات الدينية الإسلامية خلال الرحلة الـــبحرية مـــثل الصلاة والصيام والحج والزكاة ونقل السلع المحظورة دينياً كالخمور، وكذلك قواعد دفن الموتى في البحر خلال الرحلة البحرية.

ومـــن خـــلال هذه الدراسة يري الباحث أن القوانين البحرية الإسلامية تأثرت بوضـــوح بالقوانيـــن الفارســـية والبيزنطية، واقتبست الكثير منها، وأن عملية الاسلمة والتعريب لهذه القوانين استغرقت مرحلة زمنية طويلة.

كمـــا أوضـــح الباحـــث آراء الفقهاء في العادات والقوانين البحرية الإسلامية، واســـتخدامهم للتقنـــيات التشـــريعية لبحث الحلول الممكنة لكل ما يحدث في البحر أو

الموانـــئ، اعتماداً علي القرآن والسنة، وكذلك القياس والرأي، والعادات المحلية التي لا تتعارض مع الشريعة الإسلامية.

ومـــن الناحية المنهجية تبدو بدايات الكتاب – خاصة الفصلين الأول والثاني – تقلـيدية، في الحديث عن السفن والركاب والعلاقات المتبادلة خلال العمليات البحرية، لكن هذه البداية تبدو ضرورية للدخول في الموضوع الذي تدور حوله الدراسة.

أمـــا الناحية الجديدة في الدراسة فهي التعرض لتفاصيل القانون البحري الذي كـــان يحكم البحار الإسلامية ومن يرتادها، وهي ناحية غير تقليدية لم يتصد لها الكثير مـــن الباحثين، نظراً لصعوبة البحث فيها، وقلة المادة المتاحة عنها، والمنهج المتبع في الدراسة تنظيري إلي حد كبير، يتناول القواعد البحرية الحديثة ويحاول أن يطبقها علي الواقـــع الـــبحري الإسلامي في العصور الوسطي، لكن هذا المنهج بقدر ما يحمل من تجديـــد، فإنـــه لـــم يخـــل من بعض السلبيات فرغم الموضوعات الجديدة التي طردها المؤلـــف، ومثلـــت بعداً جديداً في هذا المجال، إلا أنه مع ذلك لم يقدم تطبيقاً عملياً في كثير من الأحيان، إلا من خلال إقرار القواعد الخاصة بها من بعض كتب الفقه.

ويحســـب للمؤلـــف اعتماده الكبير علي كتب الفقه في توضيح قواعد وقوانين الـــبحرية الإســـلامية وهو اتجاه مميز باعتبار كتبه الفقه الإسلامي، كالفتاوى والنوازل والحســـبة وغـــيرها من أهم روافد الفكر الإسلامي، الذي لم ينهل منه دارسي التاريخ الإســـلامي بصـــورة كافـــية، كمـــا يحسب له أنه انتبه إلي اختلاف أحكام الفقهاء وفقاً لاختلاف المذاهب والأماكن والأزمنة.

ومـــع هـــذا يؤخـــذ علي الباحث اعتماده بصورة كبيرة علي أوراق الجنيزة[٢]، كدلائـــل تطبيقـــية علـــي بعـــض الموضوعات، برغم ما تثيره هذه الأوراق من جدل

---

[2] يقصد بها الأوراق التي وجدت مدفونة في اطلال المعبد اليهودي، الباقية اطالاله إلي اليوم بحي البساتين بالقرب من ضاحية المعادي، وهو معبد كان يخص الجالية اليهودية، التي عنت بمصر الإسلامية في مدينة الفسطاط، انظر Goitein.S., Letters of Medieval Jewish Traders, Princeton, 1973; Sadan, J. "Genizah and Genizah – like practices in Islamic and Jewish Traditions", Bibliotheca Orientalis 43 (1986). PP. 36 – 58.

باعتبارها خاصة بطائفة واحدة وهم اليهود، وبالتالي لا يمكن أن تأخذ أحكامها بصورة عامة علي التاريخ الإسلامي[٣].

كمـــا يؤخـــذ علي الباحث اتساع الفترة التي تناولها والتي تمتد من فتح كريت وصـــقلية علـــي أيدي الأندلسيين والأغالبة إلي سقوط في مصر (٢١٢ – ٦٥٠هـ – ٨٢٧ – ١٢٥٢م)، أي مـــا يـــزيد عـــن أربعـــة قرون، وهي فترة كبيرة زمنياً شهدت حوادث عديدة في مختلف البحار الإسلامية، كما شهدت تطورات في القواعد البحرية، بحيث من الصعب الإلمام بها بين دفتي دراسة واحدة.

ورغـــم ذلـــك، تظـــل هـــذه الدراسة إضافة مميزة لحقل الدراسات الإسلامية، وناحـــية جديدة تلقي الضوء علي جانب هام من جوانب الحضارة الإسلامية، مازال في حاجـــة للمـــزيد من الدراسات المتعمقة، التي تتيح أبعاداً جديدة من المعرفة لهذا المجال الحيوي من الحضارة الإسلامية.

---

[3] للمزيد من التفصيل عن هذه القضية انظر .. أحمد فؤاد سيد، أوراق جنيزة القاهرة، هل هي امتداد لعلم البرديات العربية ودراساته، ندوة الدراسات البردية في مصر، القاهرة ١٩٨٣، ص٢٣٣ – ٢٨٢.

ثانياً: القسم الأجنبى

Deals with the political , administrative economical social and religious circumstances in Byzantine Egypt

Chapter 3 :

Deals with the objectives of education . and the educational institutions of learning in Byzantine Egypt.

Chapter 4 :

Deals with the various courses and teaching methods applied in the system of education during Byzantine Egypt.

Chapter 5 :

Deals with the social status of teachers and students in Byzantine Egypt.

Epilogue :

Contains the conclusions of the study.

Education in Byzantine Egypt, **PhD dissertation by Naglaa Mohamed Hamed,** Cairo University , Institute of Educational Studies Department of Foundations of Education. 2001

Naglaa M. Hamed
Egypt

The Byzantine age in Egypt is considered one of the most impressive ages in the Egyptian history . this importance is due to the radical changes both in economic and the cultural life in Egypt

The present study endeavors to prove that this radical changes have some depth in the Egyptian civilization

The system of education in Byzantine Egypt was meanly based upon several factors · Hellenic culture dominant from the Ptolemaic age ; Christian culture as from the diffusion of Christianity of Egypt ; the reforms made by the Byzantine emperor.

Justification of the study :

There is no previous study concerning history of education in Byzantine Egypt. There is an urgent need for a manifold study to the system of education in Byzantine Egypt, in order to fill the gap of the history of education in Egypt.

Objectives of the study :

There is necessity for a special study concerning the system of education in Egypt in the Byzantine period in order to achieve the following objectives:

For explaining and analyzing the resources of information of this period with a view to proving the principal relation between education and cultural changes.

For discussing in full the educational factors in Byzantine age with a view to solving the recent educational problems

The methodology of study :

This study uses the historical together with the analytical methods in order to explain the educational system and its impact upon the cultural changes in the society.

This study consists of five chapters which are as follow.

Chapter 1 :

An introduction to the study containing a theoretical framework of the study.

Chapter 2 :

B. Book Reviews

enemies.[84] It is most probable that the Byzantine emperor aimed to benefit from the military advantages of the Magyars, who were threatening their neighbors and raided on some European cities,[85] or to destroy their military power in the war against the Bulgarians. These events proved that the Byzantine diplomacy was very active and had the ability to move the tribes of the Steppes one against the other.

Constantine VII mentioned also that: "Árpád, the graet prince of the Turks, had four sons: first, Taskatzous; second, Ielech; third, Ioutotzas; fourth, Zaltas.

The eldst son of Árpád, Tarkatzous, had a son Tebelis, and the second son Ielech had a son Ezelech, and the third son Ioutotzas had a son Phalitzis, the present prince, and the fourth son Zaltas had a son Taxis.

All the sons of Árpád are dead, but his grandsons Phalis and Tasis and their cousin Taxis are living.

Tebelis is dead, and it is his son Termatzous who came here recently as 'friend' with Boultzous, third prince and Karchas, of the Turks.

The Karchas Boultzous is the son of the Karchas Kalis, and Kalis is a proper name, but Karchas is a dignity, like Gylas, which is superior to Karchas".[86]

Therefore, Constantine VII presented good information on the genealogy of Árpáds and distinguished between Kalis, as a proper name, and the dignities of Karchas and Gylas.

Thus, although there is some confusion in some chapters of Constantine VII, which speak of the early history of the Turks, i.e. the Magyars, his account is very useful to examine the Byzantine policy towards the Byzantine-steppe frontier towards the end of the 9th century and the beginnings of the 10th century AD.

[84] Chapter 18 of the Tactica contains of valuable information on the Bulgarians, Turks, Scythians, Arabs and others. Leo in this chapter speaks of the strategy and the tactics of these nations, to present his experience with them to his successors.
[85] Shepard, *The Khazars*, 25-26.
[86] *DAI*, I.40. 51-68.

where they live, which is called after the above name of the rivers, as has been said".[78] The Byzantine historians confirm the account of Constantine VII.[79]

As we have already assumed that the Pechenegs attacked the Magyars and drove them from Atelkozou as a result to the lack of the pastures in Lebedia, especially after the arrival of their kinsmen from the east, or because of some skirmishes among them. But we can add that the co-operation between the Bulgarians and the Pechenegs was a common desire, since the Bulgarians wanted to destroy the power of the Magyars, who threatened their safety during their war against Byzantium. At the same time may be the Pechenegs wanted to extend their lands at the expense of the Magyars.

Here there is a question that poses itself: why did Leo VI especially send to the Magyars to support him in his war against Symeon the Bulgarian?

Leo VI speaks in his Tactica about the 'Turks' and mentions that " the Turks are an active nation, and they keep the secret. They are not sociable and they are dishonest. They don't respect their agreements...After their receiving the gifts, they begin to forget their agreements and arrange the plots".[80] "During the battle they fight by deceits, and sudden skirmishes more than fighting hand by hand. They surround the enemy and cut off his supplies.[81] They also are interested in the archers, especially shooting on the backs of the horses".[82]

From the texts of the Tactica of Leo VI, it may be concluded that the Magyars, as fighters, are strong, brave and have a special strategy in the war. They do not accept the defeat during the battle, and search for all the ways to get over their enemy and defeat him.[83] According to the Tactica, it is shown that the Byzantine palace was interested in recording the strategy and the tactics of Byzantium's

---

[78] *DAI*, I. 40. 13-22; P. Diaconu, *Les Pechénègues au bas-Danube* (Bucarest 1970) 11; (henceforth *Pechénègues*) Tamiem, *Pechenegs*, 60f.; Runciman, *Bulgarian Empire*, 149; Fine, *Balkans*, 139.

[79] Cf. *Theophanes Cont.*, 359; *George Monachus*, 854-855; *Leo Gram.*, 268; *Zonaras*, III. 444; *Pusedo-Symeon*, 702. For more details see Bashier, *Bulgarian State*, 111ff.; R. Browning, *Byzantium and Bulgaria, A Comparative Study across the Early Medieval Frontier* (London 1975) 59ff.; Diaconu, *Pechénègues*, 11; Tougher, *Leo VI*, 177.

[80] Leo VI, *Tactica*, col. 958. 47.

[81] Leo VI, *Tactica*, col. 958. 48.

[82] Leo VI, *Tactica*, col 958. 51. For more details see Tougher, *Leo VI*, 182-183

[83] Leo VI, *Tactica*, col 963 74

Byzantine leader Crinitus was killed. Symeon cut off the noses of the Byzantine captives and sent them back to Constantinople.[75]

This incident persuaded the emperor Leo VI to move the Byzantine armies of the Orient, which were under the leadership of Nicephor Phocas from Asia Minor to the Balkans; and at the same time used the Byzantine diplomacy. So he sent Nicetas Skleros to the Magyars to secure their help. He sailed up the Danube and met with them. He carried many of the traditional gifts of these occasions to the Magyars. The Magyars agreed to launch an attack on Symeon's rear, and Nicetas took hostages (presumably as a guarantee of their promised co-operation) and returned to Byzantium.[76]

When the Byzantine leader Nicephor Phocas arrived to Constantinople, the Byzantine emperor sent him with a Byzantine navy to the Balkans, to fight against the Bulgarians. The Byzantine navy of Admiral Eustathius carried the Magyars across the Danube to the north of Bulgaria. The Byzantine armies and the Magyars defeated Symeon who fled to Moundraga. Therefore, Symeon asked Leo VI to make peace with him.[77]

Yet, Symeon in the same year of 896 AD. turned to revenge from the Magyars, the new ally of Byzantium in the north of the Balkans. So, as Constantine VII said: " after Symeon was once more at peace with the emperor of the Romans and was free to act, he sent to the Pechenegs and made agreement with them to attack and destroy the Turks. And when the Turks had gone off on a military expedition, the Pechenegs with Symeon came against the Turks and completely destroyed their families and miserably expelled thence the Turks, who were guarding their country. When the Turks came back and found their country this desolate and utterly ruined, they settled in the land

[75] *Theophanes Cont.*, 358; *Leo Grammaticus Chronographia*, ed. F. Niebuhrii, *CSHB* (Bonn 1842) 267; (henceforth *Leo Gram.*) *Georgius Monachus Continuatus*, ed. I. Bekker, *CSHB* (Bonn 1838) 853; (henceforth *George Monachus*) *Zonaras*, III. 443; V. A. Fine, *The Early Medieval Balkans* (Michigan 1993) 138f; (henceforth *Balkans*) J. Shepard, 'Bulgaria: The Other Balkan 'Empire'', *NCMH*, Vol. III. ed. T. Reuther (Cambridge 1999) 570. (henceforth *Bulgaria*)

[76] Tougher, *Leo VI*, 176; Shepard, *The Khazars*, 28.

[77] *Theophanes Cont.*, 358; *George Monachus*, 854; *Leo Gram.*, 268; *Zonaras*, III. 443-444; *Pusedo-Symeon*, 701; Leo VI, *Tactica*, ed. J. B. Migne, *PG* (Turnholti 1987) col. 955.42; S. Runciman, *A History of the First Bulgarian Empire* (London 1930) 146; (henceforth *Bulgarian Empire*) H. Bashier, *The Relations between the Byzantine Empire and the First Bulgarian State* (Cairo 2001) 110-111: (henceforth *Bulgarian State*) Tougher, *Leo VI*. 176-177; Shepard. *Bulgaria*. 570

seem that the nations whose power was inferior to the Pechenegs, or afraid of the alliance between them and the Byzantine Emperor were the Rus' the Magyars and the Bulgarians At the same time there is no indication to the nature of the relations between the Khazars and the Pechenegs after the defeat of the latter by the Khazars in 889 AD This may refers to the Khazars' power which was still strong.

This demonstrates the importance of the Pechenegs' power for Byzantium in comparison with other powers of the Steppes. But, what about the Magyars in their last place?

When the Magyars moved from Atelkozou to the lands of Great Moravia they settled in the rear of Bulgaria. Thus, the neighbors of the Magyars were: on the eastern side of the Bulgarians, where the river Istros, also called the Danube, runs between them; on the northern, the Pechenegs; on the western the Franks; and on the southern, the Croats.[71]

On the other hand, there was a great hostility between the Byzantine emperor and the Bulgarian Symeon. So, when Symeon declared war against Byzantium in 894 AD., and the Byzantine armies were in the east under the leadership of Nicephor Phocas, the Byzantine emperor Leo VI asked the Magyars to launch an attack on the rear of the Bulgarians, to gain the time and move his armies from Aisa Minor to the west.[72]

Constantine VII says that the Magyars after their staying in the new site, " at the invitation of Leo, the Christ-loving and glorious emperor, they crossed over and fought Symeon and totally defeated him, and drove on and penetrated as far as Preslav, having shut him up in the city called Moundraga; and they went back to their own country. At that time they had Liountikas, son of Árpád, for their prince".[73]

This account is substantiated by many Byzantine historians. According to their writings, the Byzantine emperor sent a small force of his *hetaireia*[74] in 894 AD. under the leadership of Procopius Crinitus and Curticius the Armenian, to fight Symeon, Khan of the Bulgarians. But Symeon defeated them in Macedonia and the

[71] *DAI*, I. 40.41-44.
[72] *DAI*, I. 40.7ff.
[73] *DAI*, I. 40. 7-13; T. Lounghis, *Les ambassades byzantines en accident, depuis la formation des états barbares jusqu'aux croisades 407-1096* (Athens 1980) 196.
[74] S Tougher, *The Reign of Leo VI (886-912)* (Brill 1997) 175 (henceforth *Leo VI*)

that Byzantium was interested in enforcing its relations with the Khaqān of the Khazars, who had an army of 10.000[64] or 12 000 of soldiers.[65] We have to keep in mind that the Rus' and their princes had arrived to Kiev in 859 AD. and taken it by force from the sovereignty of the Khazars. So, Byzantium had to ally itself with the Khazars against the advancement of the Rus' towards the Pontic sea. But, by the end of the ninth century, the Pechenegs proved, through their new geographical places, Lebedia and Atelkozou, that they were more useful to Byzantium than the Khazars This fact persuaded Constantine VII to write these words to his son " I conceive, then, that it is always greatly to the advantage of the emperor of the Romans to be minded to keep the peace with the nation of the Pechenegs and to conclude conventions and treaties of friendship with them and to send every year to them from our side a diplomatic agent with presents befitting and suitable to that nation, and to take from their side sureties, that is, hostages and a diplomatic agent, who shall come. together with the competent minister, to this city protected of God, and shall enjoy all imperial benefits and gifts suitable for the emperor to bestow". [66]

The Pechenegs could attack the Rus', and ravage their lands; and the Rus' couldn't raid on the Byzantine lands without making peace with them.[67] Thus, so long as the Pechenegs were leagued in friendship with the emperor and won over by him through letters and gifts, they could easily come upon the country both of the Rus' and of the Magyars, and enslave their women and children and ravage their country.[68] Constantine VII adds that they may make excursions and plundering raids against Cherson, and may ravage Cherson itself and the so-called "Regions". [69]

The Pechenegs also threatened the Bulgarians of the Danube, enemies of Byzantium, and the Byzantine Emperor would appear more formidable, and could impose on them the need for tranquility, if he was at peace with the Pechenegs who could attack and defeat the Bulgarians.[70] According to the last words of Constantine VII, it would

[64] Al-Marwazī, *Kitāb Tabai' al-Haiawān*, ed. V. Minorsky (London 1940) 21.
[65] Istakhrī, *Al-Masālek wal-Mamālik*, ed. M. G. 'Abdel-'Aal (Cairo 1961) 129.
[66] *DAI*, I. 1.16-24.
[67] See *DAI*, I. 2.2-23.
[68] *DAI*, I. 4.8-13.
[69] *DAI*, I. 1.25-28.
[70] *DAI*, I. 5.2-12.

tribes, immigrated from the east to Lebedia to live there with the Pechenegs who were called Kangār [57]

It is probable that the pastures of Lebedia couldn't cope with these great numbers of the Pechenegs for a long time, or there were some skirmishes between the Pechenegs and the Magyars, especially that the author of Hudūd Al-'Ālam mentions that "the Magyars are at war with all infidels living around them...".[58] So, after three years of their coming,[59] in 896 AD., they marched towards Atelkozou to extend their lands at the expense of the Magyars. They attacked the Magyars and drove them with their prince Árpád out of Atelkozou. The Magyars, in flight and seeking a land to dwell in, came and in their turn expelled the inhabitants of great Moravia and settled in their land, until the time of Constantine VII. And since that, time the Magyars had not sustained any attack from the Pechenegs.[60] Constantine refers also to the relations which were still between the two parts of the Magyars, i.e. Magyars of Persia and the others of the Danube.[61]

Now, what is the importance of these changes which took place in the Steppes for Byzantium? The Pechenegs became neighbors of the Rus' and the Khazars, and the Magyars were neighbors of the Bulgarians and the other nations of the Balkans.

In 860 AD. a regrettable accident happened to Byzantium; the Rus' attacked Constantinople suddenly and ravaged its suburbs.[62] Since this event the Rus' became hostile to the Byzantines, especially when they began to threaten the Byzantine possessions in Crimea, i.e. Cherson. After this attack, Byzantium sent a diplomatic mission under the leadership of Constantine of Thessaloniki to Khazaria to strengthen its relations with the Khazars.[63] It was normal at that time

---

[57] Tamiem, *Pechenegs*, 59-60.

[58] *Hudūd Al-'Ālam*, 101.§ 22.

[59] Tamiem, *Pechenegs*, 60.

[60] *DAI*, I. 172. 53-61.

[61] *DAI*, I. 172. 61-65.

[62] *Symeon Magister ac Logothetae Chronographia*, ed. I. Bekker, *CSHB* (Bonn 1838) 674-675; (henceforth *Pusedo-Symeon*) *Cedrenus*, II, 173; I. Zonaras, *Epitomae Historiarum*, Vol. III, ed. T. Bütter-Wobst, *CSHB* (Bonn 1897) 404. (henceforth *Zonaras*) For a good analysis of all the sources of this event see A. Vasiliev, *The Russian Attack on Constantinople in 860 AD* (Cambridge, Mass. 1947) 150-239; A. Court, ' La russie à Constantinople', *RQH* 1(1876) 78-84.

[63] G. Ostrogorsky, *History of the Byzantine State* (Oxford 1956) 203

Kabaroi against the Khazars. The Magyars and the Kabaroi co-operated together and attacked Vienna and its suburbs in 881 AD. Therefore, one may suppose that the Khazars were upset by the alliance between the Magyars and the Kabaroi. And the relations between the Khazars and the Magyars at that time were not cordial.[53] So, they permitted the Pechenegs in 889 AD. to pass through their lands to Lebedia in which the Magyars and the Kabaroi were living, and drove them out of it.

When the Magyars stayed in Atelkozou , after a short time, the Khaqān of the Khazars sent a message to them, requiring that Lebedias, their first Voivode, should be sent to him. Lebedias, therefore, came to the Khazars' Khaqān and asked the reason why he had sent for him. The Khaqān told him that he would appoint him as a prince for his nation. But Lebedias refused to be a *client* prince to the Khazars on the Magyars and told the Khaqān that anther Voivode called Almoutzis and his son Árpád were more suitable for the post. Then the Khaqān sent a political Khazarian mission with Lebedias to Atelkozou, to discuss this matter with the Magyars, who had chosen Árpád their prince for them.[54] Thus, Árpád accepted to be a *client* prince to the Khazars, where he became a ruler according to the Khazarian traditions. These events show and confirm that the Magyars, after their defeat by the Pechenegs, accepted the conditions of the Khazars, who became their masters and submitted to the authority of the Khazarian Khaqān. Thus, in 890 AD. the Hungarian rulers became *clients* to the Khzarian Khaqān such as the Bulgars of the Volga, the Burtas and some other nations.[55]

In 893 AD., Isma'il ibn Ahmed al-Samanī directed an expedition against the Ouzes and defeated them. Therefore, great numbers of the Ouzes' tribes marched towards the Caspian sea and stayed there between the rivers of the Volga and the Oural, in the north of the Caspian sea.[56] So, the rest of the Pechenegs, the five

---

[53] Shepard, *The Khazars*, 26.
[54] *DAI*, I. 172. 38. 31-53.
[55] Zuckerman, *Les Hongrois*, 64. Ahmed ibn Fadlān refers to twenty five wives to the Khazarian Khaqān, which indicate to twenty five of his neighboring (*clients*) kings. See *Resālat Ahmed ibn Fadlān fi Wasf al-Rehla elā Bilād al-Turk wal-Khazar wal-Rus' wal-Saqālibah*. ed S. El-Dahān (Damascus 1978) 192.
[56] Zuckerman, *Les Hongrois*, 61

rivers are identified with the Dnieper, Bug, Dniester, Pruth and Sereth.[46]

These events, which had taken place in 889 AD, as Minorsky concluded,[47] may refer to the entrance of the Pechenegs to the lands of Khazaria. In that year the Pechenegs couldn't bear the bothering and pressure of the Ouzes (Ghuz) to push them towards the west into Khazaria.[48]

M. Tamiem supposes that the Pechenegs took their route to Lebedia across the Russian lands, and that they passed through Kiev, after their defeat by the Khazars.[49] Zuckerman thinks that the Khazars defeated the Pechenegs and there was a Khazarian-Pecheneg plot to attack the Magyars.[50] I think that the presumption of M. Tamiem is not acceptable, especially that the Russian Primary Chronicle afterward reflects the hostility between the Pechenegs and the Rus'. But the assumption of Zuckerman is notable, although it gives an impression that the Khazars, the victors, ordered, or asked, the defeated Pechenegs to attack the Magyars. It may be suitable to think that the Pechenegs, after their defeat by the Khazars, asked the latter to pass through their lands to Lebedia. At the same time it was a good chance to the Khazars to drive the Magyars out of Lebedia and to strike the Pechenegs with the Magyars to destroy their military power. So, they made an agreement with the Pechenegs to pass through Khazaria and to settle in Lebedia instead of the Magyars. On the other hand, the Pechenegs promised the Khazars to drive the Magyars out of Lebedia.

This incident reflects the tension in the relations between the Khazars and the Magyars in that time. In 870 AD.[51] the Kabaroi, which were Khazrian tribes, for political reasons, rebelled against the Khazarian sovereignty and fled to the Magyars, who accepted them on their lands.[52] It is possible that the Magyars were planning to use the

---

[46] *DAI*, II. 149. 38.68-71. Cf. Stephenson, *Medieval Hungary*, 104; Vernadsky, *Lebedia*, 186ff.

[47] *Hudūd al-'Ālam*, 320; Zuckerman, *Les Hongrois*, 55.

[48] M. Tamiem, *Pechenegs and Byzantines, a Study in the Northern Policy of Byzantium 850-1122 AD* (MA unpublished thesis, Mansoura University 1996) 58-59. (henceforth *Pechenegs*)

[49] Tamiem, *Pechenegs*, 59.

[50] Zuckerman, *Les Hongrois*, 61.

[51] Zuckerman, *Les Hongrois*, 63.

[52] *DAI*, I. 39. 1-14; Zuckerman, *Les Hongrois*, 62-63.

their lands to *Bilād al-Rūm*, i.e. Byzantium, to sell them there".[39] This information of al-Gardizī is very important to explain the importance of this alliance between the Khazars and the Magyars.

However, because they were in alliance with them and were brave, the Khaqān arranged the marriage of Lebedias, the Hungarian prince, to a Khazarian noble lady and subsequently proposed to appoint him as 'prince (archon).[40]

Thus, the Magyars became allies of the Khazars during their staying in Lebedia, as we have concluded before, and the relations with them were good. These facts were clear for Constantine VII, who recorded them carefully in his *DAI*.

For some reason the Pechenegs stirred up war against the Khazars, and being defeated, were forced to quit their own land and to settle in that of the Magyars. And, when battle was joined between the Magyars and the Pechenegs who were at that time called *Kangār*,[41] the army of the Magyars was defeated and split into two parts. One part moved eastwards and settled in the region of Persia, and they to this day are called by their ancient name of the Magyars *Sabartoi asphaloi*; but the other part, together with their Voivode and chief Lebedias, settled in the western region, in a place called ' Ατελκούζου.[42]

Al-Gardizī, confirms the account of Constantine Porphyrogenitus about this stage of the Magyars' history, whereas he refers to two parts of the Magyars, one in the east and the other in the west beside *al-Saklāb*.[43] They spent some years in that region, *Atelkozou*, in which there are five great rivers; emptying themselves into the north-western corner of the Black sea.[44]These five rivers are Βαρούχ, Κουβοῦ, Τροῦλλος, βροῦτος and Σέρετος.[45] These

[39] Al-Gardizī, *Zayn al-Akhbār*, 472. Ibn-Rosteh, *Al-A 'lāk al-Nafīsah*, 142-143 refers only to the Magyars' attacks on the Slavs but Al-Gardizī told us that they attacked also the Rus'.

[40] *DAI*, I. 170.38; Shepard, *The Khazars*, 25.

[41] Κάγγαρ, this is a Pecheneg name which is mentioned in the Syrian sources in the form *hangār*, and applied to a people who fought with the Persians in the middle of the 6th century. For more details see *DAI*, II. 145.37.68-71.

[42] *DAI*, I. 38.19-30. Atelkozou, this name means in Hungarian 'between the rivers' or 'Mesopotamia'. See *DAI*, II. 148.38.30.

[43] *Al-Gardizī*, 471-472.

[44] *Hudūd al-'Ālam*, 320; Zuckerman, *Les Hongrois*, 56.

[45] *DAI*, I. 172. 38. 68-71.

Khazars attack the Pechenegs every year, and Isha (their khaqān) raids and leads his soldiers by himself'.[32] Constantine VII supports the account of Ibn-Rosteh when he says that the Pechenegs extended their influence until the Khazarian Sarkel.[33] Thus, all evidences show that Sarkel was built to protect the Khazarian limit of the Don against the Magyars[34] and the Pechenegs also[35]. So, it may be concluded, according to the previous evidences, that the Magyars moved to Lebedia, which was Khazarian possession, in the fourth decade of the ninth century.[36] The relations between the Magyars and the Khazars were hostile for more than twenty years afterward, if one would suppose that the Khazars tried to restore Lebedia from the hands of the Magyars or that the latter raided on the Khazars, since they launched wars against their neighbors.[37] The new settlers of Lebedia conquered the Slavs and dealt with them as captives. On the other hand they brought many of them as slaves to sell them to the Byzantine merchants.[38] Therefore, the Magyars became inimical to the Khazars, who lost their sovereignty on these Slavic tribes which used to pay the tribute to them.

Probably, after the fall of Kiev, which was under the Khazarian sovereignty, at the hands of the Rus' the relations between the Khazars and the Magyars became better than before 859 AD. In the next stage of the relations between them, the Magyars, who became an *état tampon* between the Rus' and the Khazars, became allies to the latter.

The new situation of the Magyars between the Rus' of Kiev and the Khazars, as an *état tampon*, was in the consideration of the Khaqān. Al-Gardizī confirms this assumption when he says that "the Magyars attacked the Slavs and the Rus', and brought the slaves from

---

[32] Ibn-Rosteh, *Al-A'lāk al-Nafīsah*, 140.

[33] *ADI*, I. 42. 20-23. Cf. G. Cedrenus, *Historiarum Compendium*, Vol. II, ed. I. Bekker, *CSHB* (Bonn 1838), 528; (henceforth *Cedrenus*) *Theophanes Continuatus*, ed. I. Bekker, *CSHB* (Bonn 1838) 122; (henceforth *Theophanes Cont.*)

[34] Macarteny, *Magyars*, 75; Shepard, *The Khazars*, 24.

[35] Zuckerman, *Les Hongrois*, 57.

[36] Macarteny, *Magyars*, 77; Zuckerman, *Les Hongrois*, 59.

[37] *Hudūd Al-'Ālam*, Eng. trans. V. Minorsky (Oxford 1937) 101. § 22.

[38] Ibn-Rosteh, *Al-A'lāk al-Nafīsah*, 142-143; Al-Gardizī, *Zayn al-Akhbār*, Arab. trans. A. S. Zydān (Cairo 1982) 472. (henceforth *Zayn al-Akhbār*)

allies, and from this year onwards the Magyar-Khazarian relations were strengthened, as recorded by Constantine VII . But what about the relations between them before 859 AD., peaceful or hostile?

C. Zuckerman in his interesting article[25] refers to the Russian envoys who had visited Constantinople during the reign of the Emperor Theophilus.[26] He assumes that these envoys visited Constantinople before 839 AD., may be in 835 AD., and stayed there for many years, where the emperor received them.[27] In 18th May 839 AD. the Frankish Emperor Louis the Pious received a Byzantine mission accompanied with the Russian envoys to help them to come back to their country. Because the route through which they came to Constantinople was threatened now with the barbarians.[28]

In the summer of 839 AD. the Byzantine Emperor Theophilus received the Khazarian envoys, who came to ask him to provide them with Byzantine engineers to construct the fortress of Sarkel on the Don. Theophilus answered their request and the Sarkel was built under the supervision of Petronas Kamaretus. The Khazars posted in this fortress a garrison of 300 men , who were relieved annually.[29]

Zuckerman examined these evidences and concluded that the barbarians who has threatened the Russian envoys were the Magyars, and supported his conclusion with the clash of the Byzantines ca. 836 AD. with the Hungarian troops in the north of the Danube. May be the Russian envoys knew of the troubles of the Pontic Steppes in that year and stayed at Constantinople for many years before their returning back to their country in 839 AD.[30] Ibn-Rosteh supports the conclusion of Zuckerman where he says: " In the past, the Khazars protected themselves by ditches against the Magyars and the other neighboring nations...".[31]

I think that Ibn-Rosteh means with "the other neighboring nations..." the Pechenegs, especially because he confirms that "the

[25] 'Les Hongrois au pays de Lebedia: Une nouvelle puissance aux confines de Byzance et de la Khazarie ca 836-889', in *Το Εμπολεμο Βυζαντιο 9ος-12ος αι.* (Athens 1997) 51-74. (henceforth *Les Hongrois*)

[26] *Annales de Saint-Bertin*, ed. F. Grat, J. Vieillard, S. Clémencet and L. Levillain (Paris 1964) 30-31.

[27] Zuckerman, *Les Hongrois*, 54-55.

[28] Zuckerman, *Les Hongrois*, 53.

[29] *DAI*, I. 42. 20-41.

[30] Zuckerman, *Les Hongrois*, 55-56.

[31] Ibn-Rosteh, *Al-A 'lāk al-Nafisah*, 143.

For example, when the Rus' itended to attack Abskoun, between 864-884 AD./250-271AH., in the Caucasus they asked the Khaqān of the Khazars to give them his permission to do it, because they had to pass through his lands.[19] When the Rus' attacked Abskoun for the second time in 910 AD. without his permission, and without passing across his lands, the Khaqān of Khazars attacked them while they were retreating before the Caucasian Moslems.[20] So, when the Rus' intended to attack the Moslems of Tabaristan, Jilan, Bakou and other Caucasian countries, for the third time in 912 AD., they sent to the Khaqān to give them his permission to pass through his lands for this purpose, and if they conquered the people of these countries they would give him the half of their booty.[21] During the time of the Khazarian Khaqān Aron (900-920 AD.) Byzantium pushed the king of Alans to attack Khazaria; but Aron allied himself with the Turkish Ouzes and defeated him.[22] It should be added that the Khazars collected the tribute from the Slavs of the Steppes.[23]

On the other hand, beside the Khazarian power, it should be remarked that the Rus' had taken Kiev from the Khazars by force in 859 AD. and shared them in the tribute of the Slavic and Finnish tribes in the Steppes. The Khazars collected it from Radimichians, Polyanians, Severians, and Vyatichians, while the Rus' collected it from Chuds, Slavs, Merians, Ves' and Krivichians.[24]

According to this information, it seems that Khazaria was a super power as compared to the other powers of the Steppes. But, since 859 AD. I think that the Khazars had to search for an ally to support their ability against the Rus'. They regarded the Magyars as

---

Hawqal, *Kitāb Sūrat al-Ard* (Leiden 1967) 15, 392-394; Ibn-Maskawaih, *Tajāroub al-Umam*, vol. 6 (Cairo 1915) 209; Al-Idrisī, *Kitāb Nuzhat al-Moshtāq fi Ikhtraq al-Afāq* (Cairo, without date) 835).

[19] Ibn Sfandiyar, *Tarikhe Tabaristan*, Eng. trans. E. G. Brown (London 1905) 198: W. Chadwick, *The Beginning of the Russian History* (Cambridge 1966) 60-61; Mohammed, *Russians*, 142.

[20] Mohammed, *Russians*, 143.

[21] See Al-Mas'udī, *Moroj al-Dhahab wa Ma'āden al-Djawhar*, vol. I (Cairo 1927) 114-116; Al-Hemiarī, *Al-Rawd al-Me'tar fi Khabar al-Aktār*, ed. I. 'Abbass (Beirut 1980) 340-341.

[22] Noonan, *Byzantium*, 115; V. Mošin, ' Les khazares et les byzantins', *B* 6(1931) 312; Mohammed, *Russians*, 196-197.

[23] *RPC*, 84; Franklin and Shepard, *Rus'*, 77; M. Whittow, *The Making of Orthodox Byzantium 600-1025* (London 1996) 223.

[24] *RPC*, 58-59, 61.

It is known that there were political, commercial and social relations between Khazaria and Byzantium since the era of the Byzantine emperor Heraclius. There were strong ties between the Khaqān of the Khazars and the imperial court of Byzantium. The Byzantine diplomacy from the 7th century onwards depended on the military Khazarian power to form the political map of the Steppes. This situation extended to the 10th century, when there were many new military powers in the Steppes such as Pechenegs and the Rus'. According to these considerations the scale of the political relations between Byzantium and Khazaria were reduced,[16] and the Byzantine court turned strongly its interests towards the new powers, especially to the Pechenegs and sometimes to the Rus' and Alans.[17] The Arab geographers and historians give a clear picture of Khazaria, especially on its political, economic and religious life. Here I'll not repeat their accounts on Khazaria, which had been studied by many scholars, but according to these accounts, it may be concluded that Khazaria was a super power on the banks of the Volga, or on the Byzantine-Steppe frontier, for many centuries. [18]

---

[16] In the reign of the Khazarian Khaqān Benjiamin (880-900) Byzantium allied with the Ouzes, Burtas, Black Bulgarians and the Pechenegs to attack Khazaria. The king of Alans supported the Khazars to get over this alliance. The Khazars and Alans defeated the alliance of Byzantium. (Noonan, *Byzantium*, 115; Mošin, *Khazars*, 321). The document of Cambridge refers also to anther Byzantine attempt to attack the Khazars by the Russians. The Byzantine Emperor Romanus Lecapenus persuaded the Russian prince *Helgou* to attack the Khazars during the time of Joseph (920-960). (Noonan, *Byzantium*, 115; Mošin, *Khazars*, 313-314) It may be added an important reason to the hostility between Byzantium and the Khazars in the tenth century, the religious policy of the Macedonian dynasty towards the Jews in the Byzantine Empire. (see: A. Sharf, *The Byzantine Jewry from Justinian to the Fourth Crusade* (London 1971) 99ff.; S. Runciman, *The Emperor Romanus Lecapenus and his Reign* (Cambridge 1963) 231ff.).

[17] For more details on Khazaria see D. M. Dunlope, *The History of the Jewish Khazars* (New York 1967), Arab. trans. S. Zakkar (Damascus 1990) 233-294; T. M. Mohammed, *The Russians and the International Community 945-1054 AD* (Cairo 2001) 183-215;(henceforth *Russians*) A. Koestler, *The Khazar Empire and its Heritage* (London 1976), Arab. trans. H. M. Saleh (Damascus 1978) 31-70.

[18] This power decreased when the Russian prince Sviatoslave launched an attack on Khazaria in 965 AD. and destroyed their capital Itel. (*The Russian Primary Chronicle*, Laurantian text, ed. and Eng. trans. S. H. Cross and O. P. Sherawitz-Wetzor (Cambridge, Mass. 1953) 84; (henceforth *RPC*) S. Franklin and J. Shepard, *The Emergence of the Rus' 750-1200* (London 1996) 143). (henceforth *Rus'*). The Arab geographers confirmed this event and added that Sviatoslave allied with the Ouzes and destroyed also Samander, the second city of the Khazars. (See: Ibn-

Constantine VII speaks of the geographical site of the Magyars and its development as follow: "The nation of the Turks had of old their dwelling next to Khazaria, πλησίον τῆς Χαζαρίας, in the place called Λεβεδία[9] after the name of their first βοέβοδος,[10] which Voivode was called by the personal name of Λεβεδία, but in virtue of his rank was entitled Voivode, as have been the rest after him".[11] In that time the Magyars were called Σάβαροι ᾽ασφαλοι[12] and Constantine VII didn't know the reason behind this name.[13]

Constantine VII provides us with some details on the site of Lebedia, whereas he says that "there is a river called Χιδμάς or Χιγγιλούς.[14] In this place they lived together with the Khazars for three years, and fought in alliance with them in their wars.[15] Then, a question will rise for us " when did the Magyars become allies of the Khazars and fight with them too?"

---

[9] Lebedia has been located on the Dnieper, between the Dnieper and Don, near the Don and Donets, and on the Banks of Meotis and Kuban. Most of the scholars incline to the view that Lebedia lay west of the Don. Cf. *DAI*, II. 147.

[10] The meaning of this Hungarian title is not clear and there is no Byzantine synonym to it. We know from Constantine VII that this is an official title for the prince of the Magyars. *DAI*, II. 147. Ibn-Rosteh in his book *Kitāb al-A'lāk al-Nafīsah,* ed. M. J. De Goeje, *BGA* (Brill 1892) 143 says that " the president of the Magyars is called Kandah (or Kendah), and this name is a symbol of their king. Because the name of the man who rules them is Djalah (or Djelah). All the Magyars are obeyed the orders of Djalah of launch the wars or stop it...etc". This quotation indicates there were two high positions among the Magyars, i.e. Kandah, the king, and Djalah, his first leader or prime minister. Probably Voivode was a Slavonic version to the Turkish title Kandah. I think that Constantine VII is unaware of the fact that there were two high positions among the Magyars, because he speaks of only one, who is called Voivode.

[11] *DAI*, I. 170.38.3-7.

[12] It is in all probability related to the name of the Savirs and means 'invisible Savartians'. Armenian and Arab sources mention a people called 'Sevordi' which in 8th century lived near the river Kour, on the northern border of Persarmenia; scholars believe this people to be identical with Constantine VII's Savartians. *DAI*, II. 147; Macartney, *Magyars,* 87-88.

[13] *DAI*, I. 170.38.9-10.

[14] *DAI*, I. 170.38.8-9. This river has been thought by the some scholars in the following rivers: Kodyma, Inchul or Inchulets, Orel, Molotchnaya, Donets and the Don. There is identification between this river and the συγγούλ. But the last is unknown. *DAI*, II. 147.38.

[15] *DAI*, I. 170.38.13-14.

others, which examined some aspects of the relations between Byzantium and its northern neighbors, such as Pechenegs, Khazars, Rus', Magyars...etc. There are also a couple of questions which will be aroused if we re-read chps. 38, 39 and 40 of *DAI*.[8]

DAI draws a good picture about the immigrations of the Magyars from the East of the Pontus to the West and shows their political and social developments during their journey from the East to the West. In this modest paper I'll try to re-read the account of *DAI* about the Magyars and I'll try to find answers to some problematic questions, such as: Why the Magyars had allied themselves with the Khazaras and what was the nature of this alliance? Why the Magyars did not fight with the Khazars against the Pechenegs? Were the Magyars, according to Constantine VII, under the Khazarian sovereignty? What was the nature of the Byzantine-Hungarian relations in the end of the ninth century?

As a prologue I present here the account of *DAI* about the early history of the Turkoi. We have two main chapters in *DAI* , i.e. chps. 38 and 40, beside many indications in chaps. 3,4,8,13,30,39 and 42 which reflect a complete view on the early Magyars.

---

eds., Gennadios, K70-letiiu Akademika G. G. Litavrina (collection of articles celebrating G. G. Litavrin's 70th birthday) (Moscow 1999) 264-283.

[5] Nonnan has a lot of valuable studies on the Khazars and the nations of the Volga. From these studies ' When Rus/ Rus' Merchants First Visit Khazaria and Baghdad?' *AEMA* VII (1987-1991) 214-219; idem, ' What does the Historical Numismatics Suggest about the History of Khazaria in the Ninth Century', *AEMA* III (1983) 265-281; idem, ' Russia, the Near East and the Steppe in the Early Medieval Period: An Examination of the Sasanian and Byzantine finds from the Kama-Urals', *AEMA* II (1982) 269-302; idem, ' Why the Viking First Came to Russia?' *JGO* 34 (1986) 321-348; idem, 'Byzantium and the Khazars: a Special Relationship?' in *Byzantine Diplomacy*, papers from the twenty-Four Spring Symposium of Byzantine Studies, Cambridge, March 1990, eds. J. Shepard and S. Franklin, Hampshire, 1992, 109-132.(henceforth *Byzantium*)

[6] Nikolov presented an interesting study on the missions of Constantine and Methodius in the Steppes, especially among the Magyars. See 'The Magyars Connection or Constantine and Methodius in the Steppes', *BMGS* 21 (1997) 79-92.

[7] O. Pritsak, ' The Pecengs a Case of Social and Economic Transformation', *AEMA* 1(1975) 211-235; O. Pritsak and N. Golb, *Khazarian Hebrew Documents of the Tenth Century* (Ithaca, London 1982).

[8] Constantine Porphrogenitus, *De Administrando Imperio*, ed. G. Moravcsik, Eng. trans. R. J. Jenkins (Budapest 1949); (henceforth *DAI*) Vol. II ed. by R. J. Jenkins and others (London 1962).(henceforth *DAI*, II)

The Turkish Settlement in Caucasus and Steppes Constantine VII's Evidence*

Tarek M. Mohammed
Ain Shams University. Egypt

Although there are many and valuable studies about the early history of the *Turkoi*, i.e. Magyars, such as the important study of C. Macarteny, *The Magyars in the Ninth* Century (Cambridge 1930);[1] G. Moravcsik, *Byzantium and the Magyars* (Amsterdam 1970), and others, the important and useful account of Constantine Porphyrogenitus about the history of the Magyars, it still needs more analysis. Macarteny presented a good presentation about the Magyars' account of *DAI*; but he was more concerned with discussion of the home-land of the Magyars, Lebedia and Atelkozou, and the different shapes of their name in the Byzantine sources. G. Vernadsky in 1939 presented an interesting study about Lebedia and its relation with southern Russia.[2]

These are some of the modern studies which speak of the Hungarian history in the Medieval times.[3] But, as I think, we can present a new reading of the account of Constantine VII about the early Magyars, if we depend on the recent, valuable and important studies of J. Shepard,[4] T. Noonan,[5] S. Nikolov,[6] O. Pritsak[7] and

---

* This paper was delivered at *The Second International Congress on the Black Sea Antiquities, Ankara, Turkey, 3-9 September 2001.* I'd like to thank my colleagues Dr. Peter Frankopan, Oxford University, for his useful remarks and for Prof. Eshak Ebeid, Ain Shams University, who revised the English version of this paper. My warmest thanks for Prof. J. Shepard, Cambridge University, who provided me with some articles and valuable remarks.

[1] Henceforth *Magyars.* G. Kristó presents a new study on the Magyars of the ninth century *Hungarian History in the Ninth Century, trans. G. Novak* (Szeged 1996).

[2] G. Vernadsky, 'Lebedia Studies on the Magyar Background of Kievan Russia', *B* XIV (1939) 179-203. (henceforth *Lebedia*)

[3] P. Stephenson presents an analysis to these studies. See 'review article: Early Medieval Hungary in English', *Early Medieval Europe* 10/1(2001) 95-112. (henceforth *Medieval Hungary*)

[4] J. Shepard presented some important studies on the relations between Byzantium and its northern neighbors, especially Rus' and Pechenegs. See, J Shepard, 'The Russian-Steppe frontier and the Black Sea Zone', The Twelfth Spring Symposium of Byzantine Studies: The Byzantine Black Sea, 18-20 March 1978, ed. A. Bryer, *Αρχ.Ποντ.* 35 (1978) 218-237; idem, 'The Khazars' Formal Adoption of Judaism and Byzantine's Northern Policy', *OSP* 31 (1998) 11-34; (henceforth *The Khazars*) idem, 'Constantine VII's Doctrine of "Containment" of the Rus', in *S Ivanov et al.,*



Fig. 14

Fig 13A





Fig.13B

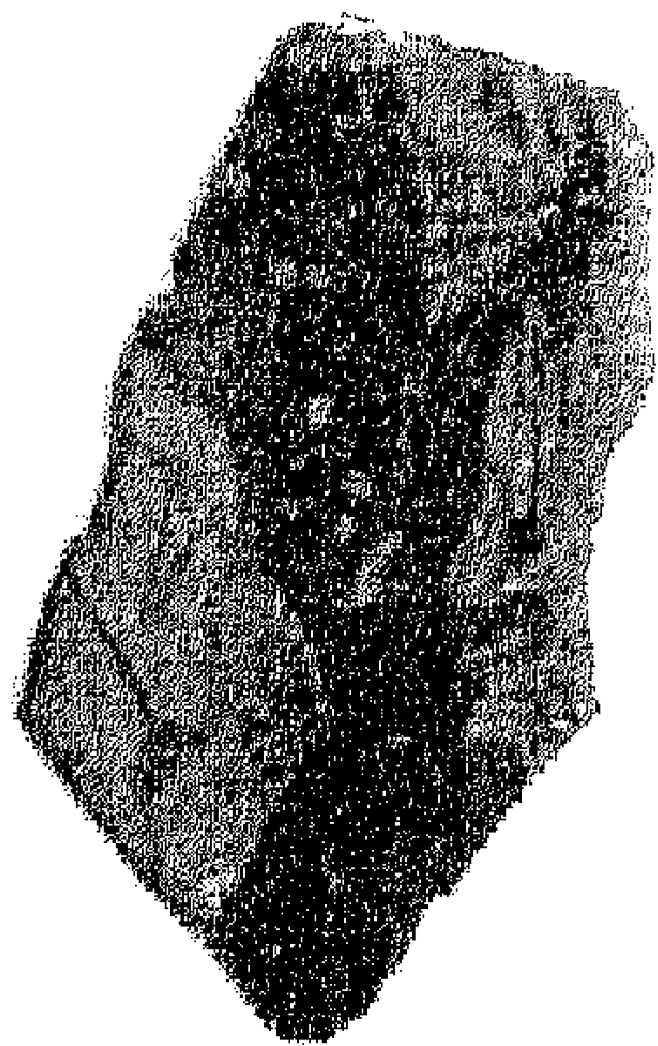


Fig. 11

Fig 12

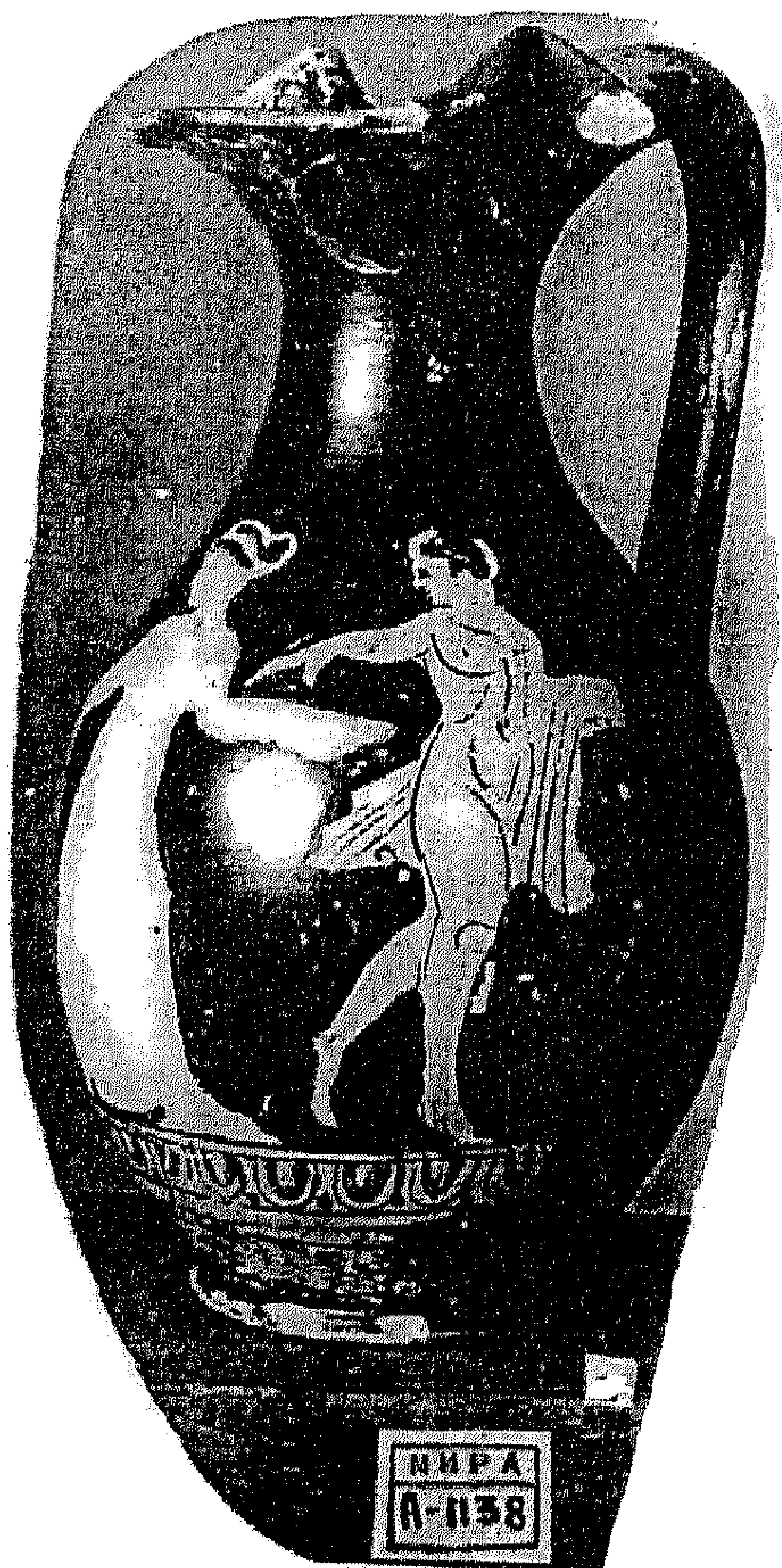




Fig.9



Fig.10



Fig. 8A

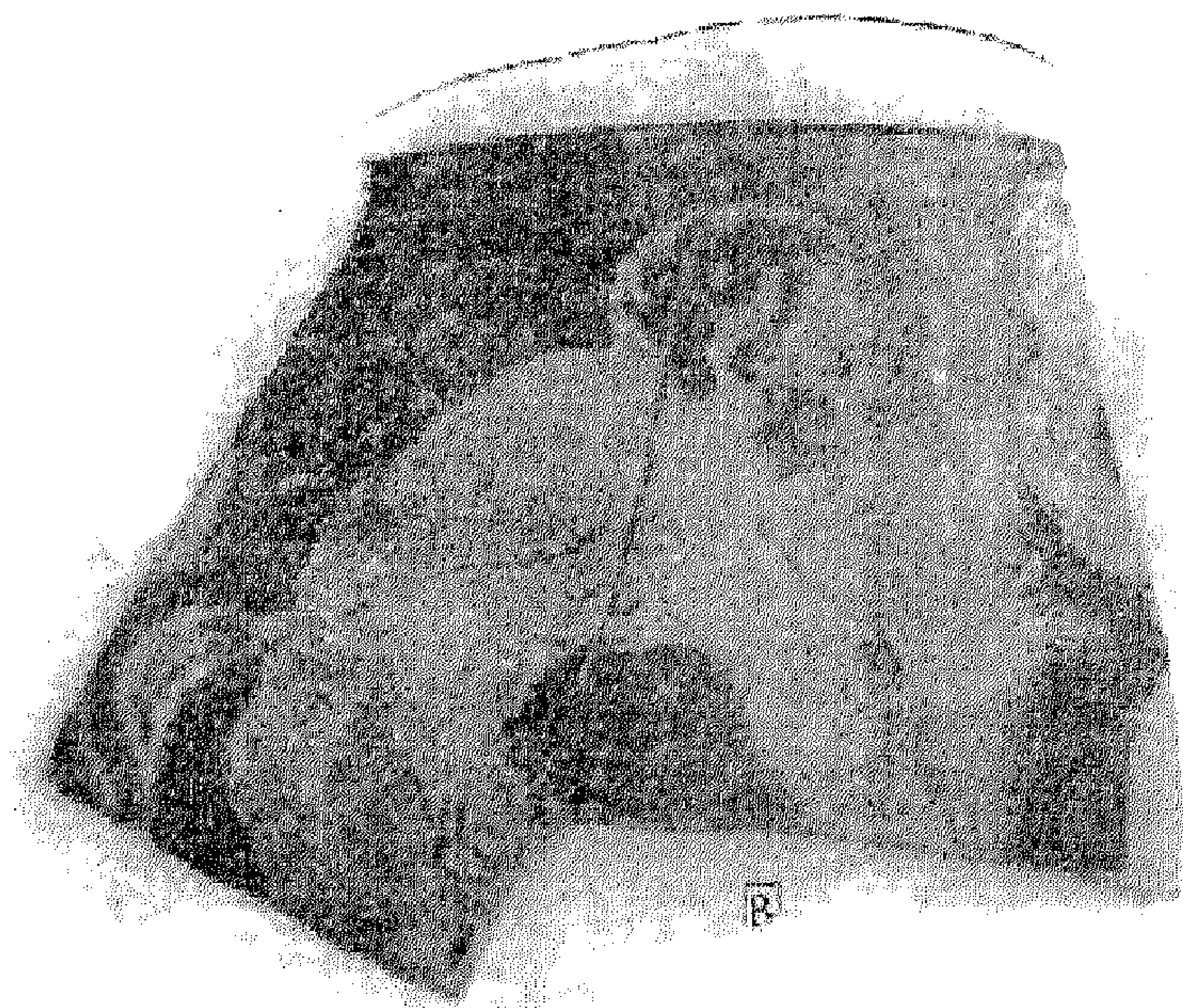


Fig. 8



Fig.7



Fig.6



Fig 5



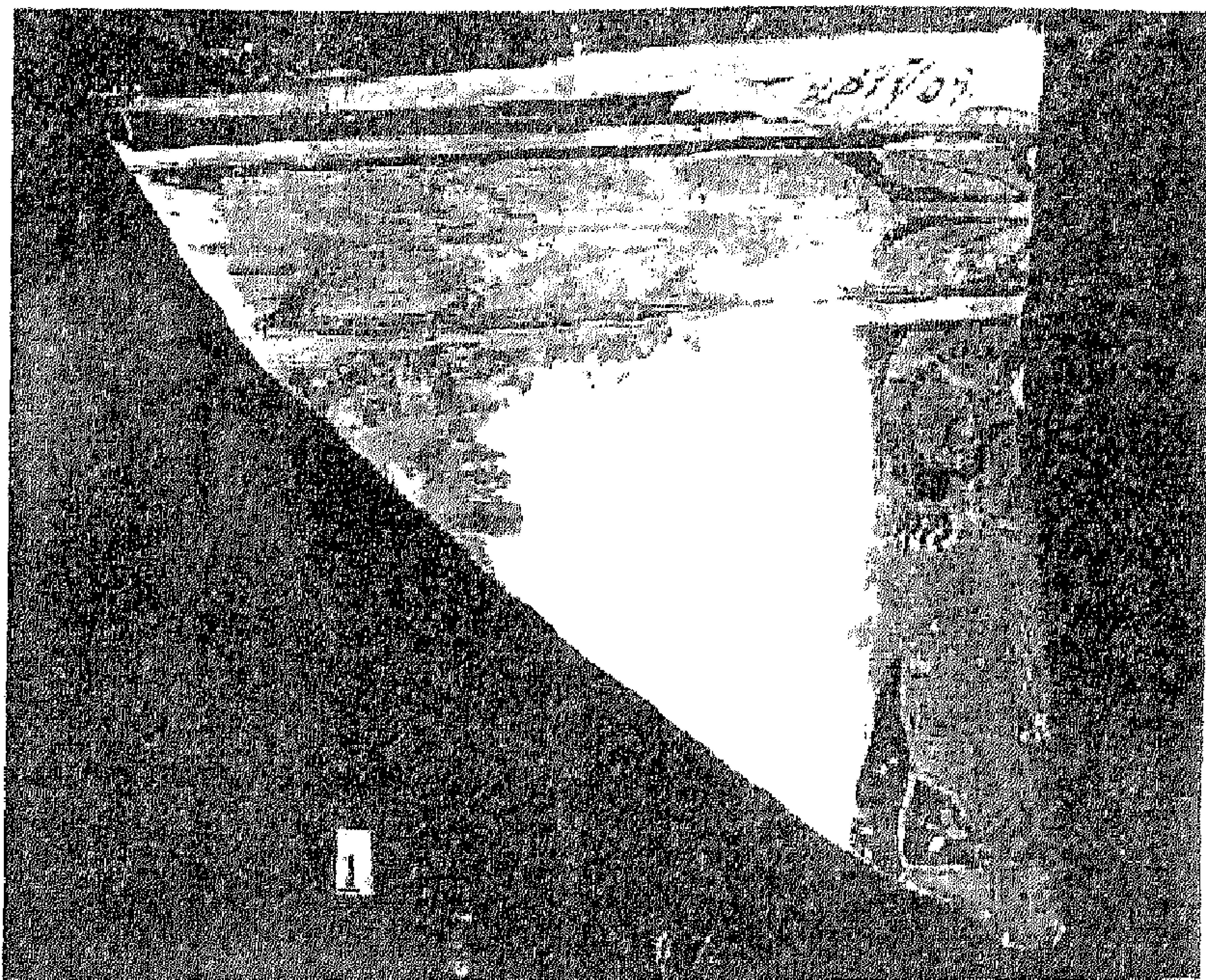
Fig 4B



Fig.4A



Fig. 3



Fig



Fig. 2

fig. 2. Krater from Kiev , founded by I. Funduklej near villages Pishchal'niki and Lazurtsi . This vessel is dated the late 5th century BC. J.Beazley attributed it as Kiev Painter's work - ARV^2 1346,3

fig. 3.*Pelike from Yalta Museum. A-498; 390 BC, Painter of the Lion Griffin, ARV^2 1473, UKV, 44,taf. 5,1. fig. 3.*

Fig.4a. Fragment of krater from the Taman museum (flutist-woman and commos).Inv.KM-6461, 360-350 BC, L.C. group , ARV^2 1456-1461

fig. 4b. *Fragment of krater from Feodosia Museum of Local Lore(woman with lotus and 2 men) inv. КП-31751, 360-350 BC, L.C. group, ARV^2 1456-1461*

fig. 5. *Pelike from Crimean Republican museum(Simferopol), inv. КП-1094, 360-340 BC, Black Thyrsos Painter, ARV^{2}1431-1434.*

fig. 6.Oinochoe from the Novorosijsk museum , without number,350-325. The Painter of the Ferrara Choes, ARV^2 1504

fig. 7. Pelike from Feodosiya museum, inv. A - 5971 КП-28750, 370-360 BC, Painter of krater from the Louvre. N 2776

fig. 8a. Pelike from Sochi ОФ-543. 360-340 BC. Black Thyrsos Painter, ARV^{2}1431-1434.

fig. 8b Fragment of cup from Feodosiya КП-45573 , 410-400 BC, analogy - №1494 AGORA XXX

fig.9.Fragment of krater from Kerch KMAK-10647 , 2nd quarter of 4th century BC

fig.10.Oinochoe from Kertch (inv.6547) 350-325. The Painter of the Ferrara Choes, ARV^2 1504

fig.11. Fragment of krater from Chersonesos(inv.31629

fig.12. Oinochoia from St-Perersburg (Museum of religion and Atheism) inv.1138, provenansed from Black Sea Area , 350-325. The Painter of the Ferrara Choes, ARV^2 1504

fig. 13a.Pelike from Feodosiya КП-1048 . Eros and woman . 320-310 BC. Near the Jalta Painter, ARV^2 1452

fig. 13b. Pelike from Yalta КП-723 Eros and 2 women. 320-310 BC, Jalta Painter, ARV^2 1452

fig. 14. *Pelike from Kerch KMAK-52 .320 BC. Group of London 245. ARV^2 1483*

Bibliography:

Bron Chr, "The Sword Dance for Artemis", *The J.Paul Getty Museum Journal*, V.24. pp.69-83. 1996.
Delavaud-Roux Marie-Helene, *Les danses pacifiques en Grece antique*, publications de l'université de Provence, 1994.
Delavaud-Roux Marie-Helene A.A., *Les danses Dionysiaque en Grece antique*, publications de l'université de Provence, 1995.
Funduklej I., *Obozrenije mogil,valov i gorodishch Kievskoj gubernii*,(Kiev 1848) 18,19,71, tab. XII
Matheson Susan B, *Polygnotos and Vase Painting in Classical Athens*, The University of Wisconsin Press, 1995.
Poursat J.K., "Les representation de danse armee dans la céramique attique", *Bulletin de correspondance hellenique*, V.92. 1968.
Vdovichenko I.I., 'Izobrazhenie voennykh zhenskikh tantsev na vazakh iz Severnogo Prichernomoria', *Zapiski istoriko-filologichnogo tovaristva Andria Biletskogo*, Kiev,1979
Zedgenidze A.A. , 'O vremeni osnovaniya Khersonesa Tavricheskogo', *KSIA*, 159 (1979) 28, fig. 2,3

List of abbreviations(cuttings):

Ath. Deipn. - Athenaios, Deipnosofistai. // K. Latte. De Saltationibus Graecorum capita quinque. Giessen, 1913.
Pol. On. Pollux Iulius. Onomastikon // K. Latte. De Saltationibus Graecorum capita quinque. Giessen, 1913.
AGORA XXX – The Athenian Agora. Results of Excavation conducted by The American School of Classical Studies At Athens. Volume XXX. Attic Red-Figured and White-Ground Pottery by Mary B.More.Princeton, New Jersey,1997
ARV^2 - J. Beazley, 1963. Attic Red Figure Vase-Paintings, 2nd edition, Oxford.

List of illustrations

fig.1.Krater, stored in the Chersonesus museum (Sevastopol, Ukraine). Inv.2877/09. Christie Painter's ,430 BC. analogy - Matheson ,1995, 127, Pl. 107-110

creatures - satyrs and maenads. The invitation to a dance is depicted on the pelike from Crimean Republican Museum satyr give tympanum to maenad (fig. 5). Maenads begin the dance, standing on both sides of Dionysos (oinochoe from the Novorosijsk Museum (fig. 6). Running maenads and satyrs are represented on the pelikai from Sochi ОФ-543 (fig.8a), from Feodosia A - 5971 (fig. 7), fragment of cup from Feodosia (fig. 8b) and fragment of krater from Kerch KMAK-10647 (fig. 9) oinochoiai from Kertch (inv.6547) (fig.10) and fragment of krater from Chersonesos(inv.31629)(fig.11).

The dance with a coverlet (himation) is one of the curious dances popular in the late 4th century BC. Menandros in the 'Diskol" had described the performance of this dance at a friendly carousal by two young maidservant . In the opinion of some researchers the dance is connected with a cult of fertility(Delavaud-Roux, 1994)This dances are represented on the pelikai 4th century BC from Feodosiya (fig. 13a), Yalta (fig. 13b), and Kerch inv. KMAK- 52 (fig. 14).
The moves of this dance included covering and recovering himation, turn , sliding.

We can see other pacific dance on the Oinochoia from St-Perersburg, provenansed from Black Sea Area Youth and girl dance it. Their moves are calm and slow. (fig.12).

The musical support of the dances were double flute aulos and tambourine.

So, the Greek cult dances preserved some relicts of the archaic cults, but it did not influence on their popularity. Moreover, the chorographical traditions preserved during existence of the Byzantine empire up to the modern time.

vases quite frequently. On the Pelike from Yalta two *arimasp*
perform ritual dance (may be *apokinos*) around the Griffin (fig 3)

Plato in the "Laws" ("*Nomoi*") marks out Bacchic dances in a separate category of dances (5, 8-9). He negatively perceives ecstatic motion, characteristic for them. But, he does not say that these dances are ugly (except of Kordax) . Bacchic dances showed the trance caused by a deity, instead of entertainment and consequently they were out of human comprehension and opinion. However, in his judgment, they contradicted to the ideal of *sofrosini* (σωφροσύνη) - prudence, moderation. On Plato's opinion they were divided into two varieties - mystical, caused by a trance (the dances of maenads) and dances of *commos*, which were performed by men. In a modern Greek folk choreography mystical dances were not saved (except of dances *anastenaries*- dancing on a fire-brand, which exist nowadays in Northern Greece). But many dances from the other category of Bacchic dances performed by drunk men are saved better.

In antiquity they also were very popular, to what the performance of "Bakchai" by Euripides testifies. In 630-530 BC the images of these dances for the first time occurs on the Corinthian vase. Then this theme is spread in Attic, Beotia and other parts of the Greek world. It is interlinked, apparently, with spreading of popularity of a Dionysos's cult. In 530-475 BC this theme becomes one of popular in the vase-painting , which one at this time passes to new red-figure techniques . In period 475 - 320 BC the new cults - Dionysos's - Zagrey , Isis, Kybele, Sabazios were grown. It was reflected in a plastics and choreography of the Bacchic dances (Marie-Helene Delavaud-Roux 1995. p.45) The movements become less active, softer, than in the earlier period, tearing animals to pieces disappear.

The images of Dyonisos, satyrs and maenads are very popular in the vase-painting of the 4th cent. BC. Ritual dances in honor of Dionisos started spontaneously and were improvised , using traditional moves - jump, turn , sliding or running. Dances, performed by drunk men during the holidays in honor of God or after symposiums, you can meet on the kraters dated back to the 5- 4th cent. BC. On the fragments of kraters, from the Taman museum and Feodosia Museum of Local Lore N 6966 (fig. 4, a,b), you can see the picture of komos Dances performed by professional girl-dancers during symposiums can be attributed to this category too. Second one – includes the ritual dances in which both men and women creating the image of mythological

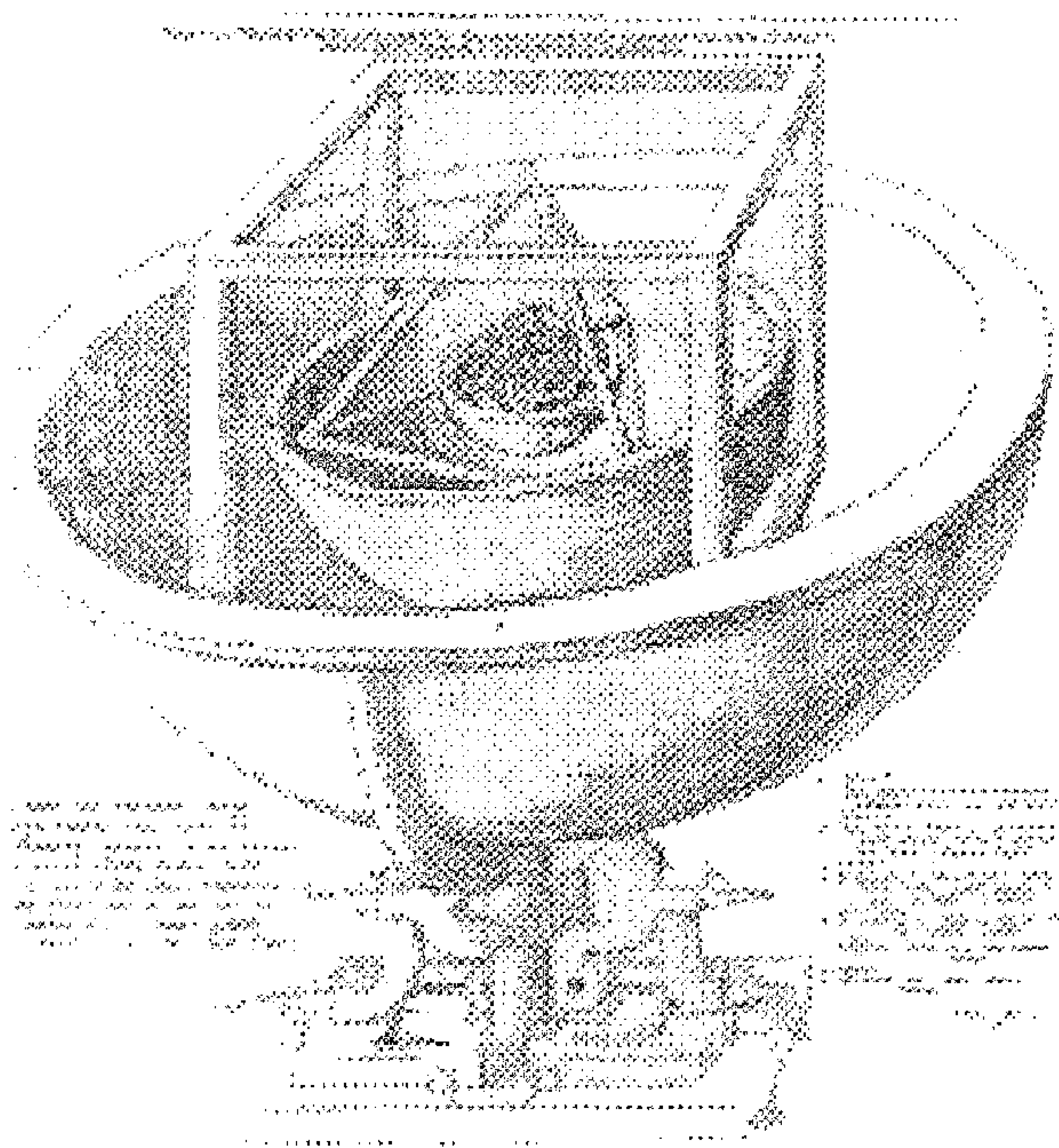
Images of the Dances on the 4^{th} Century Vases from the Black Sea Area

Vdovichenko Irina
Taurida National University
Ukraine

Ancient vase-painting gives us the richest iconographic material for learning of all sides of contemporary life. Attention of the researches attracts the images of different dances, which one from a deepest antiquity and before our time are the brightest expression of an emotional nature of the Greeks. The features of succession in a national choreography speak about the extraordinary stability of this component of culture and on the other side about saving of national character.

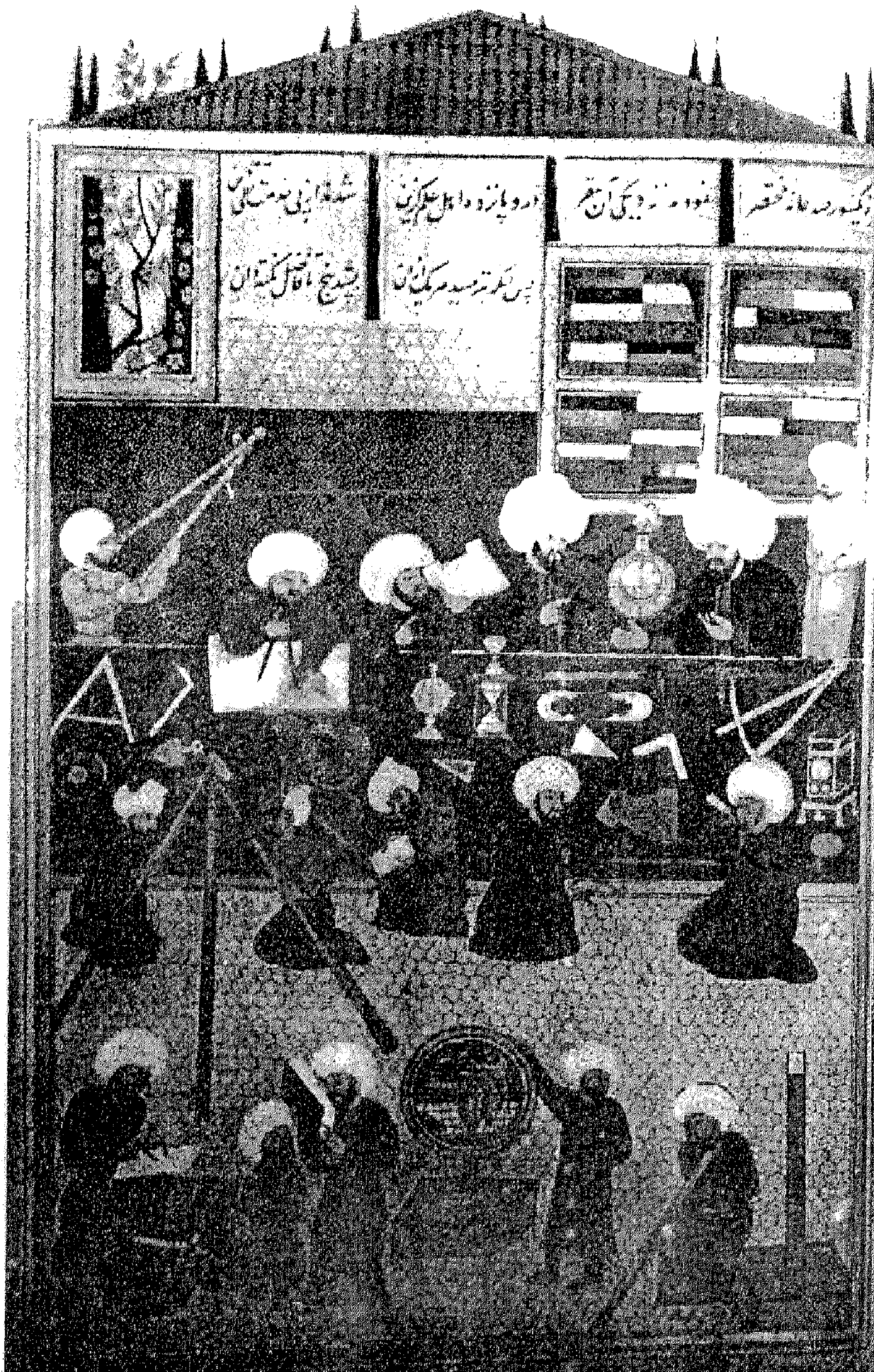
The Greek dances in antiquity were divided into military, *Bacchic* and pacific ones. We know some of these dances from the ancient literary sources. Athenaeus and Pollux, lexicographers from Alexandria (2^{nd} –3^{rd} century AD) give a quite complete list of the Greek military dances (Ath. Deipn.6.628s. - 31; Pol. On.4.95-104). The most popular dances were the *apokinos*, the *Pirrhic* and the Prylis (Bron, 1996. p.76) Many information have been saved in the sources about *Pirrhic*. It was performed usually under accompaniment of a flute. The dancers had to wear helmet, and to hold shield and spear in their hands. In Athens the dance was associated with Athena, on the other part of Attic territory *Pirrhic* was performed in the Artemis sanctuaries. Both girls and *ephebes* danced *Pirrhic* during an initiation ritual (the moment of transition from childhood to adulthood) (Bron, 1996, p. 63-83).We have many information about performing *Pirrhic* in the 4^{th} century BC, but this image is not popular in the vase-painting in this time . In the late 5^{th} century we know 2 vases with this subject from the Black Sea Area - fragment of krater, stored in the Chersonesus museum (Sevastopol, Ukraine) (fig.1.) (Zedgenidze, 1979 , 28, fig. 2,3;Vdovichenko, 1999,81-86) and the krater from Kiev typical barbarous warrior' s tomb near villages Pishchal'niki and Lazurtsi (fig. 2) (Funduklej, 1848 18,19,71, tab. XII).

The *apokinos* (other name was *maktrismos*), remains only a name for us , we know also, that this dance performed amazons. Prylis danced Curetes around the baby Zeus. Amazons and Curets performed it with shields and swords. The images of amazons and arimasps were very popular at that time, that's why their militant dances were pictured on the



Joh. Kepler, *Mysterium Cosmographicum* Tübingen, 1596. (p. 26 - 27)

Arabic Observatory



An early Arabic manuscript from 14th century which contains the principal work of Nasir ad-Din at-Tusı. "Tadhkıra fi ilm al-Haya" (Memoir on Astronomy).

from something not existing and nothing is destructed to something not existing. Atoms are infinite in size and multitude They move swirling everywhere and they generate everything: fire, water, air, earth, because they are systems of atoms [18] The atoms move in the void eternally. They are unbreakable, indivisible, unchangeable, unalterable in quality. The qualities are noticeable because of the combination of atoms.[19] The British chemist and physicist John **Dalton** converted the atomic philosophy of the Greeks into a scientific theory at the beginning of 19th century.

The earliest philosophers of Greece were theorists of the physical world. The Renaissance continued this breadth of conception characteristic of the Greeks. Galileo and Descartes were mathematicians, physicists, and philosophers at once; and physics retained the name of "natural philosophy" at least until the death of Sir Isaac Newton in 1727.[20]

The multifariousness of today's sciences obliges the scientists to follow very narrow specification. It is rare a philosopher or a historian or a philologist to be also a mathematician or a physicist or a chemist. This makes difficult the spherical view and understanding of the world.

History and Philosophy of science is inseparable part of both, classical studies and exact science. It provides indispensable links with Classical Philosophy, History and the evolution of the exact sciences.

In order to achieve global classical studies, their bounds have to be extended and the study of History and Philosophy of Science must be encouraged.

---

[18] Democritus Testimonia: Fragm. 1 DIOG. IX 34ff. [44]

[19] Democritus Testimonia: Fragm.49 GALEN. de elem. sec. Hipp.I 2 [I 417 K., 3, 20 Helmr.]

[20] Philosophy of nature Britannica CD. Version 97. Encyclopaedia Britannica, Inc., 1997

The scientists Nicolaus **Copernicus**, Johannes Kepler, and Galileo, following the Platonic ideas of the philosophical importance of mathematics and the Pythagorean attempt to discover the secrets of the heavens in terms of number and exact calculation[15], supported the idea of the heliocentric model -suggested by the Greek astronomer Aristarchus of Samos.

Sustained by a vision of mathematical harmonies in the skies, a vision he derived from the philosophy of Plato and the mathematics of the Pythagoreans, **Kepler** tried to relate planetary orbits with the five regular solids, or "Platonic bodies"· tetrahedron (formed by four equilateral triangles), cube, octahedron (formed by eight equilateral triangles), dodecahedron (12 pentagons), and icosahedron (20 equilateral triangles) in "Mysterium cosmographicum", published in 1596. Later, trying to determine the orbit of Mars -using the observation results of Tycho Brahe- Kepler discovered the three laws describing the motion of the planets, putting out of use the Ptolemaic system. Following the model established by Archimedes, Kepler, in his volumetric researches, investigated the properties of nearly 100 solids of revolution -made by rotating a two-dimensional surface on one of its axes- enormously extending the range of Archimedes' results.[16]

Galileo, following the Greek tradition of proofs, introduced the experiment to study the movement of bodies and used the telescope to affirm the Heliocentric system, supported by Copernicus.

In artem analyticem isagoge ("Introduction to the Analytic Arts"; 1591) **Viéte**, as part of his program of rediscovering the method of analysis used by the ancient Greek mathematicians, proposed new algebraic methods, but he saw this as an advancement over the ancient method, a view he arrived at by comparing the geometric analysis contained in Book VII of Pappus' Collection with the arithmetic analysis of Diophantus' Arithmetica.[17]

Leucippus of Miletus (5th century BC) is thought to have originated the atomic philosophy. **Democritus** of Abdera (460-370 BC) developed further this philosophy and named the building blocks of matter atomon, meaning "indivisible". According to Democritus nothing is coming into being

---

[15] Humanism: Britannica CD. Version 97. Encyclopaedia Britannica, Inc., 1997

[16] Johannes Kepler: Britannica CD. Version 97. Encyclopaedia Britannica, Inc., 1997

[17] Mathematics in the 17^{th} and 18^{th} centuries: The 17^{th} century: Analytic Geometry. Britannica CD. Version 97. Encyclopaedia Britannica, Inc., 1997

Nasir al-Din al-Tusi (born 1201) made the most significant development of Ptolemy's model of the planetary system up to the development of the heliocentric model in the time of Copernicus.[12]

Many of the ideas, which were previously thought to have been brilliant new conceptions due to European mathematicians of the 16th, 17th and 18th centuries are now known to have been developed by Arab mathematicians around four centuries earlier.

At the western part of Arabic Lands, in Cordoba, prince Abd al Rahman II created in 9th century a great library, where the translated works came directly from Baghdad. A school for Mathematics and Astronomy founded also there by Maslama. The numerous students of that school spread to the kingdoms of Sevilla, Granada, Zaragoza and Toledo. In the monastery of Ripoll, in the province of Gerona, many manuscripts from East and West - among them mathematical ones- were collected. In the 11th century a new phase of mathematics began with the translations from Arabic. In 1126 was founded in Toledo a school for translators, its aim had been the translation of the great Greek and Arabic works into Latin[13]. Along with philosophy, astronomy, astrology, and medicine, important mathematical achievements of the Greek, Indian, and Islamic civilizations became available in the West. Particularly important were Euclid's Elements, the works of Archimedes, and al-Khwarizmi's treatises on arithmetic and algebra. Western texts called algorismus (a Latin form of the name al-Khwarizmi), introduced the Hindu-Arabic numerals and applied them in calculations. Thus modern numerals first came into use in universities and then became common among merchants and other laymen.[14]

The spirit and the wisdom of Greeks met the restless minds of the Renaissance and fired the beginning of a new era in science. Every new idea and theory becomes subject of discussion and is exposed to a critique, which conduces to its improvement.

---

[12] O'Connor, J J and Robertson, E F: Arabic mathematics: forgotten brilliance http:// www-history.mcs.st-andrews.ac.uk

[13] Veguín Casas, María Victoria: Mathematicas y Camino de Santiago, pp.162-165. Ediciones del Orto, Madrid 1998

[14] The transmission of Greek and Arabic learning: Britannica CD. Version 97. Encyclopaedia Britannica, Inc., 1997

not done for its own sake, but was done as part of the current research effort.[10]

The Arabs appropriated not only the knowledge of Greeks, but also the Greek conception of the world and the Greek methodology of the science. As Lindberg says[11], the Islamic science was built on Greek foundations and was formed according to Greek architectural principles; the Muslims did not try to demolish the Greek structure, but they worked for its completion.

Al-Khwarizmi put the foundation of Arabic algebra; **Omar Al-Khayyam** (b.1048) made a complete classification of cubic equations, solving them by means of intersecting conic sections; **Sharaf Al-Din Al-Tusi** (b.1135) studied curves by means of equations and inaugurated the beginning of algebraic geometry.

Al-Karaji (b.953) made algebra free of geometrical operations substituting them by arithmetical ones; **Al-Samawal** (b.1130) following the same tradition declares that Algebra is concerned with operating on unknowns using all the arithmetical tools, in the same way as the arithmetician operates on the unknown.

Al-Biruni (b.973) held extensive studies on astronomy and geography, using the projection of a hemisphere onto the plane.

Thabit ibn Qurra (b.836), **Al-Baghdadi**, **Al- Haytham** worked on Number Theory.

Ibrahim ibn Sinan (born 908), who introduced a method of integration more general than that of Archimedes and **al-Quhi** (born 940) were leading figures in a revival and continuation of Greek higher geometry in the Arabic world.

Ibrahim ibn Sinan and his grandfather **Thabit ibn Qurra** both studied curves required in the construction of sundials.

---

[10] O'Connor, J J and Robertson, E F: Arabic mathematics: forgotten brilliance http:// www-history.mcs.st-andrews.ac.uk

[11] Lindberg, David: The beginnings of Western Science. The University of Chicago Press, Chicago, 1992

After the 3rd A.D. century the production of new ideas fell in decline. At that time commentaries and explanations of the great works of the past appeared. Possible reasons for this decline could be the discontinuance of the oral tradition and the new philosophical and religious movements.

In the Byzantine era few new ideas appeared; its most important contribution in the History of Science was the preservation of ancient scientific heritage mainly by monks, who copied, made anthologies and commented the work of ancient Greeks.

In the 7th century the Arabs, inspired by their new religion, burst out of the Arabian peninsula and laid the foundations of an Islamic empire. To the Arabs, ancient science was a precious treasure. Contact with Hindu mathematics and the requirements of astronomy, mainly for religious reasons, stimulated the study of numbers and of geometry.

The writings of the Greeks were, therefore, eagerly sought and translated, and thus much of the science of antiquity passed into the Islamic culture. Greek medicine, Greek astronomy and astrology, and Greek mathematics, together with the great philosophical works of Plato and, particularly, Aristotle, were assimilated in Islam by the end of the 9th century.[9]

This fruitful period begins under the **Caliph Harun al-Rashid**, the fifth Caliph of the Abbasid dynasty, whose reign began in 786. He encouraged scholarship and the first translations of Greek texts into Arabic, such as Euclid's *Elements* by al-Hajjaj, were made during al-Rashid's reign. The next Caliph, **al-Ma'mun** (813-833), encouraged learning even more strongly than his father al-Rashid, and he set up the House of Wisdom in Baghdad, which became the centre for both the work of translating and of research. Al-Kindi (born 801) and the three Banu Musa brothers worked there, as did the famous translator Hunayn ibn Ishaq.

The translations into Arabic at this time were made by scientists and mathematicians such as those named above, not by language experts ignorant of mathematics, and the need for the translations was stimulated by the most advanced research of the time. It is important to realize that translating was

[9] Science in Islam: Britannica CD. Version 97. Encyclopedia Britannica, Inc., 1997

existence cannot be proved), some of them **peculiar** to each science and some **common**. **definitions**, and **postulates** (propositions assumed and used without demonstration). He also stressed the dealing with abstract notions rather than figures: *"The geometer draws no conclusion from the existence of the particular line of which he speaks, but from what his diagrams represent"*[6]. In Alexandria of Egypt, the center of Hellenistic science, **Euclid** collected and systematized the accumulated knowledge of Greeks according to the Platonic and Aristotelian ideas. Characteristic example is his "Elements" that included the most important results obtained from the previous mathematicians. Hellenistic era brought sciences to an apogee:

The **Archimedean** method for the determination of areas and volumes related to the idea of integration developed between the 17^{th} and 19th centuries;

The profound work of **Appolonius** on conics gave the idea on which Viéte, Fermat, and Descartes built in 17^{th} century Analytic Geometry.

Hipparchus discovered the precession of equinoxes, which is caused by the cyclic precession of the Earth's axis of rotation.

Claudius Ptolemy applied the theory of epicycles to compile a systematic account of Greek astronomy. His theory generally fitted the data available to him with a good degree of accuracy, and his book, the Almagest molded astronomy for the next millennium and a half.[7]

Pappus had employed an analytic method for the discovery of theorems and the construction of problems; in analysis, by contrast to synthesis, one proceeds from what is sought until one arrives at something known.

Diophantus in his Arithmetica conceives the idea of the unknown quantity, uses abbreviations to express the powers of the unknown and the subtraction (λείψις).[8] These abbreviations are also used in the process of the working out of the equations. His method of solving equations was the start point not only for the Arabs, but also for Viéte and Descartes to formulate Algebra.

---

[6] Aristoteles: Analytica Posteriora i. Bekker 77a 1-3 (Thesaurus Linguae Graecae)

[7] Ancient Middle Eastern and Greek Astronomy: Britannica CD. Version 97. Encyclopaedia Britannica, Inc., 1997

[8] Diophantus of Alexandria: Arithmetica I, pp.1.1 - 12.21

Although Plato argued for the exclusive use of ruler and compass for the constructions in Geometry, Greeks trying to solve problems as the duplication of the cube, the trisection of an arbitrary angle and the quadrature of a circle and finding no solution in agreement with Plato's restrictions, they invented new methods as that of verging (νεῦσις) and new curves as the conic sections, the conchoidal lines, the quadratrix etc[2]. Only in 19th century it was proved, using higher algebra, that the above problems were impossible to be solved by the exclusive use of ruler and compass. Greek mathematicians manifested by their attitude the freedom of their thought; they had to reach their aim by any means and they did it through the flourishing of a diversity of methods.

In the Timaeus, **Plato** tried to build up a complete system of physics, partly employing Pythagorean ideas. The **Pythagoreans** (5th century BC) were responsible for one of the first Greek astronomical theories. Believing that the order of the cosmos is fundamentally mathematical, they held that it is possible to discover the harmonies of the universe by contemplating the regular motions of the heavens. They constructed a model of cosmos postulating a central fire, about which the fixed stars, the five planets, the Sun, the Moon, the Earth and the Anti-Earth (Αντίχθων) revolve[3]. Subsequent Greek astronomy derived its character from a comment ascribed to Plato, in the 4th century BC, who is reported to have instructed the astronomers to "save the phenomena" in terms of uniform circular motion.[4]

In his Physica and Mechanica **Aristotle** put the foundations of Physics; his theory held for almost two millennia, until Isaac Newton and Galileo refounded Physics on the base of experiment and mathematical expression of natural laws. Aristotle put also the logical base on which the Greek Mathematics was developed. In his Posterior Analytica[5] he clarified the importance of building the science on **first principles** (elements whose

---

[2] Tomas, Ivor: Greek Mathematical Works, in 2 vols, Chapter IX, Special Problems. Loeb Classical Library, London 1991 (first edition 1939).

[3] Alexander: In Aristotelis metaphysica commentaria p.37.18-39.3 (Thesaurus Linguae Graecae)

[4] Ancient Middle Eastern and Greek Astronomy: Britannica CD. Version 97. Encyclopaedia Britannica, Inc., 1997

[5] Aristoteles: Analytica Posteriora i. Bekker 76b 3-22 (Thesaurus Linguae Graecae)

The Philosophy of Greek Mathematics and its influence on the Development of Arabic Civilization and Renaissance*

Flora Vafea
M. Sc. Mathematics
Greece

Speaking about classical studies, we usually mean the study of ancient Greek and Latin literature, history and philosophy that has come to us through the magnificent works of distinguished ancient writers. But a characteristic feature of Greek Philosophy was the consideration of the world and the ideas as one entity that cannot be studied separately. Thus the Greeks developed Philosophy parallel to Mathematics, since the leading philosophers as Thales, Pythagoras, Plato, Aristotle were pioneers in the development of Mathematics and Physics, as a necessary mean for revealing the secrets of the Nature and the world around us.

These philosophers had traveled to Egypt and Babylon and were acquainted with the knowledge of the civilization thereof. They did not confine themselves to obtaining the results, but they searched for proofs and further development of the received ideas and knowledge. Greeks, spread from the Italian peninsula to Asia Minor, formulated mathematics as a theoretical discipline, built on abstract notions rather than sensible objects, using formal demonstrations to prove the truth of their theorems. As Plutarchus preserves in his Convivial Questions[1], *"Plato censured Eudoxus and Archytas and Menaechmus for endeavouring to solve the doubling of the cube by instruments and mechanical constructions, thus trying by irrational means to find two mean proportionals: for in this way what is good in geometry would be corrupted and destroyed, falling back again into sensible objects and not rising upwards and laying hold of immaterial and eternal images, among which God has his being and remains for ever God."*

* This paper was delivered at the conference of *The future of Classical Studies in Egypt*, Cairo 17-18th April 2002.

[1] Plutarchus: Quaestiones convivales. Stephanus p. 718 : E7-F4 (Thesaurus Linguae Graecae)

Nicolle, "Shipping in Islamic Art; Seventh through Sixteenth Century AD," *American Neptune* XLIX (1989) 168-197.

17- M. Rule & J. Monaghan, *A Gallo-Roman Trading Vessel from Guernsey: The Excavation and Recovery of a Third Century Shipwreck* (Guernsey 1993) 125-131.

18- Nicolle, "Shipping in Islamic Art..." *op. cit.*, 175-181.

19- V. Christides, "Naval Warfare in the Eastern Mediterranean (6th-14th centuries): An Arabic Translation of Leo VI's 'Naumachica'," *Graeco Arabica* III (1984) 140-141; V. Christides, "Milaha: in the pre-Islamic and Medieval Arab Worlds," in *Encyclopedia of Islam*, 2nd edit., vol. VIII (Leiden 1991) 44-45; V. Christides, "Navies: Islamic," in J. R. Strayer (edit.), *Dictionary of the Middle Ages*, vol. IX (New York 1992) 76; S. D. Goiten, "Glimpses from the Cairo Geniza on Naval Warfare in the Mediterranean and on the Mongol Invasion," in *Studi Orientalistici in Onore di Giorgio Levi della Vida* (Rome 1956) 395, 397 & note 1.

20- Al-Hassan, A.Y., & D. R. Hill, *Islamic Technology, an illustrated History* (Cambridge 1986) 3 1-34 & passim.

&passim, vol II,156, 170-171 & 180, vol. III, 93, 106-107, 111, 321, 336 & 342; D.C. Nicolle, "Moors against Majus: The Defence of Spain and Morocco against the Vikings 844-972 AD," *Osprey Military Journal* II/3 (2000) 23-32.

6- Dunlop, "The British Isles..." *op. cit.*, 15,18 & 2 3-24; Lévi-Provençal, *op. cit.*, vol. I, 354 & vol. III, 342.

7- Dunlop. "Al-Bahr al-Muhit..." *loc. cit.*; Dunlop, "The British Isles..." *op. cit.*, 15-18 & 22-24.

8- Lévi-Provençal, *op. cit.*, vol. III, 297-298; Dunlop, "The British Isles..." *op. cit.*, 17-18; Dunlop, "Al-Bahr al-Muhit..." *loc. cit.*

9- D.M. Dunlop, "Al-Djaza'ir al-Khalida," in *Encyclopedia of Islam*, 2nd edit., vol. II (Leiden 1965) 522.

10- H.T. Norris, *Saharan Myth and Saga* (Oxford 1972) 4-5.

11- J.L. Yarrison, *Force as an Instrument of Policy: European Military Incursions and Trade in the Maghrib, 1000-1355* (Ph D thesis, Princeton Univ. 1982) 118, 135 & 227-228.

12- E. Lucie-Smith, *Outcasts of the Sea: Pirates and Piracy* (London & New York 1978) 64-65.

13- J.D. Latham, "The Strategic Position and Defence of Ceuta in the Later Muslim Period," *Islamic Quarterly* XV (1971) 204.

14- B. Landström, *The Quest for India* (London 1964) 162 & 187; G. Ferrand, *Instructions Nautiques et Routiers Arabes et Portugais des 15e et 16e siècles*, 3 vols. (Paris 1921-1928) passim.

15- S.D. Goiten, A Mediterranean Society: The Jewish Communities of the Ara World as Portrayed in the Documents of the Cairo Geniza, vol. I, Economic Foundations (Berkeley 1967) 305-306; D.A. Agius, "Maqrizi's Evidence for the Gurab: The Galley of the Mamluks," in U. Vermeuben & J. M. F. Van Reeth (edits.), Law, Christianity and Modernism in Islamic *Society* (Leuven 1998) 195-196; D.A. Agius, "Historical-Linguistic Reliability of Muqaddasi's Information on Types of Ships," in D.A. Agius & I.R. Netton (edits.), *International Medieval Research. Across Mediterranean Frontiers: Trade, Politics and Religion, 650-1450: Selected Proceedings of the International Medieval Congress, University of Leeds, 10-13 July 1995, 8-11 July 1996* (Turnhout 1997) 303-329; J.H. Pryor, *Geography, technology and war: Studies in the maritime history of the Mediterranean 649-1571* (Cambridge 1988) 28 & 32.

16- V. Christides, "The Transmission of Chinese Maritime Technology to the Arabs: The Single Stern Rudder, Greek Fire, Animal Transport Ships" (pre-publication draft of article); D.C.

bacini, inserted as a form of architectural decoration into the structure of the Church. They were almost certainly made in the Balearic Islands of Spain which were then under Islamic rule and formed part of the flourishing Andalusian kingdom of Denia. The ships themselves are fully within a medieval Mediterranean tradition of lateen sailed "round ships" with high stern-castles, as illustrated in many sources from Iberia and Italy. However, these bowls are particularly important because of their date and provenance. They are considerably earlier than previously known pictures of three-masted ships and might support the idea that multi-masted vessels did not disappear from the early medieval Mediterranean following the collapse of the Roman Empire. Or perhaps they might at least have survived in those regions which became the western Islamic world. Current research into the history of Islamic technology is also strengthening the view that the Islamic world was, for many centuries, the major inovator in technological terms.[20] This may also have applied to ship design and methods of construction, in which case those specifically medieval features which distinguish the medieval Mediterranean "roundship" from its two-masted Roman predecessor the *corbita* may have been a shared Byzantine and Islamic development or indeed a largely Islamic one.

Footnotes

1- J.N. Hillgarth, *Visigothic Spain, Byzantium and the Irish* (London *1985)* passim.

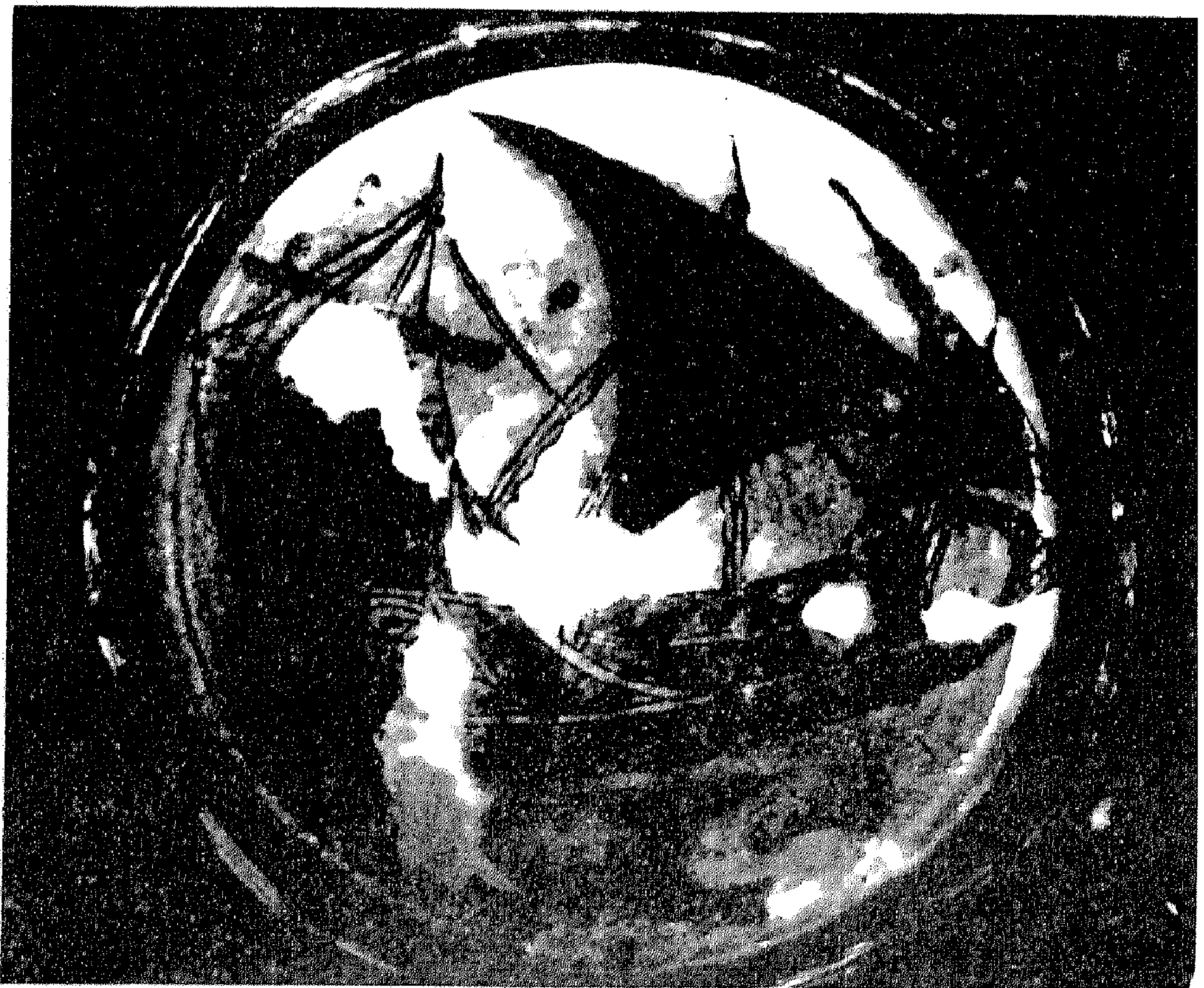
2- M. Lombard, *Les Mélaux dans l'ancient monde du V^e au XI^e siècle* (Paris 1974) Map A, & passim; J.W. Allan, *Persian Metal Technology 700- 1300 AD* (Oxford 1979) 2 7-28; Ibn Sa'id, cited in E, Ashtor, *Les métaux précieux et la balance des payements du proche-orient à la basse époque* (Paris 1971) 53-56.

3- D.M. Dunlop, "The British Isles according to Medieval Arabic Authors," *Islamic Quarterly* IV (1957) 11.

4- Dunlop, "The British Isles..." *op. cit.*, 12-14; D.M. Dunlop, "Al-Bahr al-Muhit," in *Encyclopedia of Islam*, 2nd edit., vol. I (Leiden 1960) 934.

5- Dunlop, "The British Isles..." *op. cit.*, 12, 15 & 19; Dunlop, "Al-Bahr al-Muhit," *loc. cit*; E. Lévi-Provençal, *Histoire de l'Espagne Musulmane* (Paris & Leiden 1950-1967) vol I, 218-225, 310-312

Andalusia and of the Islamic Middle East The ship on this piece is highly stylized but certain features can be identified The vessel has three masts, two of which carry lateen sails, plus what appears to be a bank of oars though these are not connected to a possible row of oar-ports Even the cross-hatched triangular projection on the right or presumed stern recalls features seen in earlier Middle Eastern Islamic representations of ships. Perhaps such forms of ceramic were traditional and they might have no connection with contemporary shipping. On the other hand Rabat is very close to S ala, the home-port of the famous "Sallee Rovers." These North African corsairs used three-masted *xebecs* and ranged across much of the north Atlantic during the 16th and 17th centuries



G The best preserved of two tin-glaze ceramic bowls from the church of S. Piero a Grado in Pisa. 11th century AD (Museo Nazionale di S Matteo. Pisa) The two bowls were used as

an ordinary early 13th century merchant ship. The exception lies at the ends of the keel where two apparent cutwaters are shown. These could be dismissed as artistic conventions were it not for the fact that exactly the same feature is found on a crude medieval drawing from the Egyptian Red Sea port of Qusayr (figure D). Perhaps it was a feature of Islamic ships operating in tidal seas such as the Atlantic and Indian Oceans which had to be beached rather than docked, as in the tideless Mediterranean.

D Part of a simple sketch or drawing on a fragment of paper found by archaeologists in the rubbish dumps of medieval Qusayr (Old Qusayr) on the Red Sea coast of Egypt, 13th-14th centuries AD (Museum of Islamic Art, inv. 1097, Cairo). It is impossible to state with certainty whether this little drawing from the early Mamluk period shows the prow or stern of the ship. The vessel was probably single-masted, perhaps with a yard-arm to hold a lateen sail, and it seems to have a substantial midships deckhouse which extends both ahead of and behind the mast. The stem or sternpost is essentially straight with a series of ropes or perhaps two steering oars extending from it. Most interesting, in the context of this study, is a small extension or cutwater at the end of the keel. Perhaps it was to protect the keel when beaching the ship.

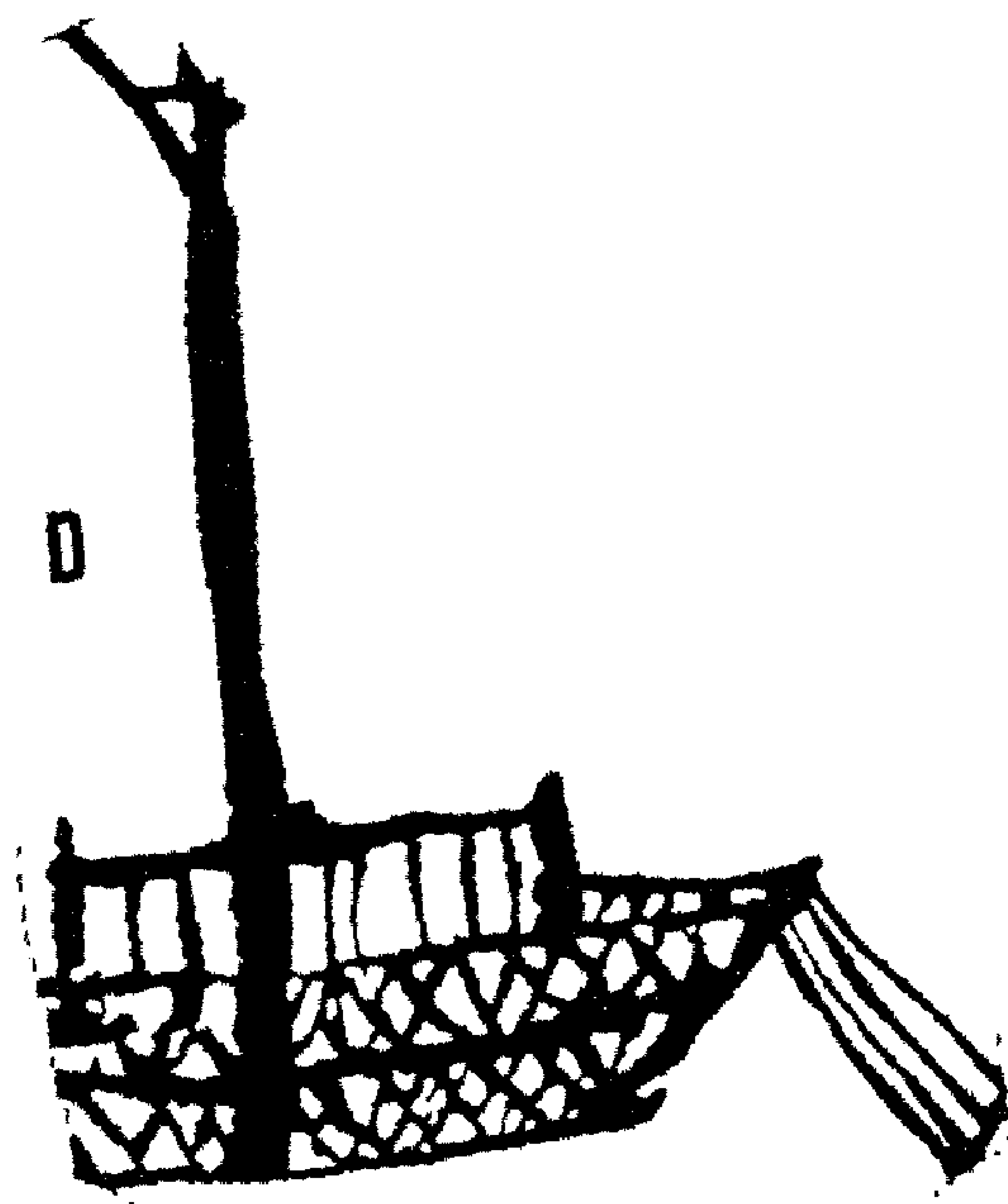
E This simple but better-known stratched graffito comes from Malaga on the southern coast of Spain and is generally thought to date from the 14th or 15th centuries (Museo Naval, Madrid). It illustrates a typical single-masted Mediterranean galley with a lateen sail, a raised boarding beak rather than a ram, probably a single bank of oars, slightly raised fore and aft castles, and steering oars rather than a hinged rudder. This latter feature would, in fact, point to a date earlier than the 14th century - perhaps considerably so. One may, however, assume that such galleys were responsible for maintaining Islamic communications between al-Andalus and Morocco.

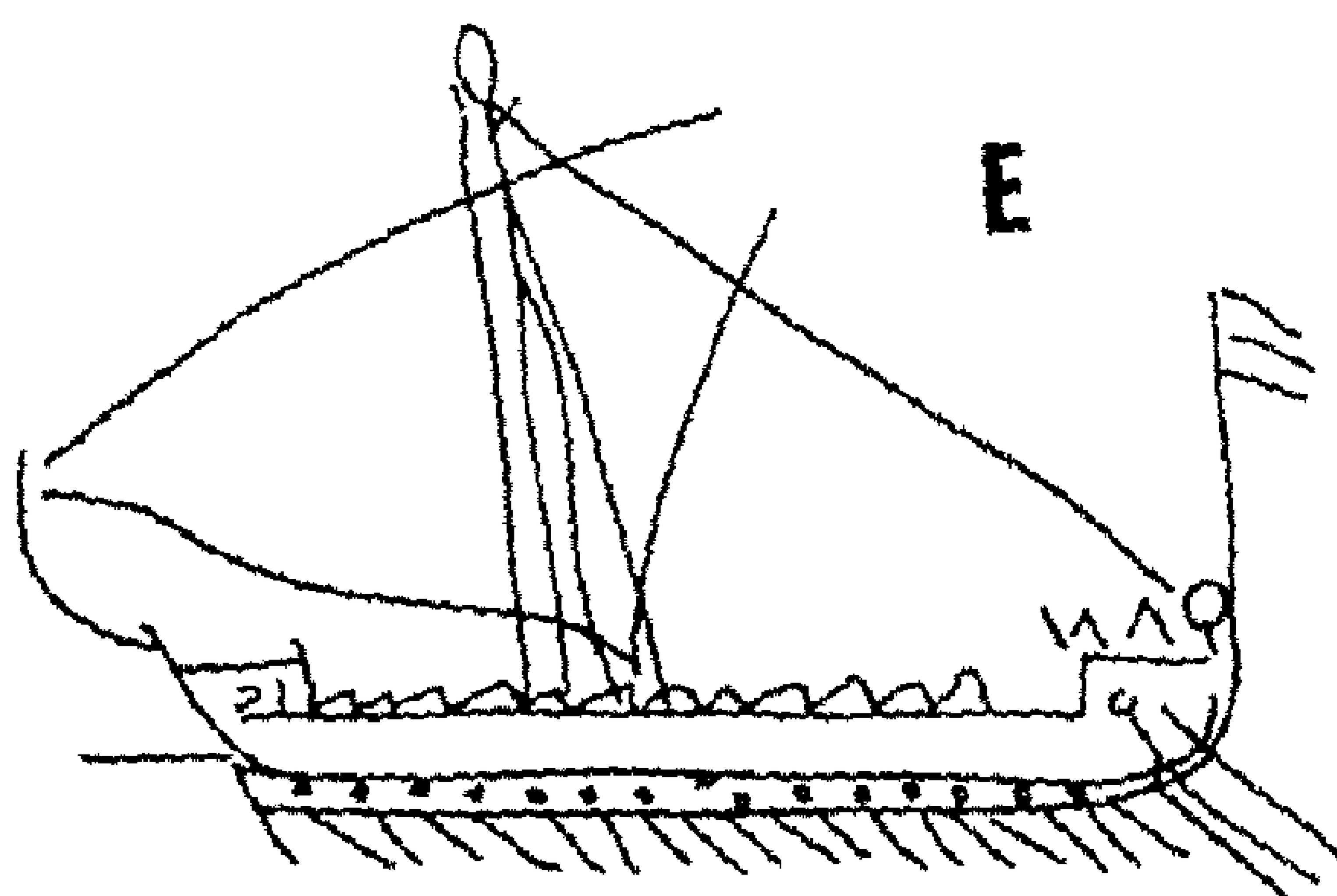
F Polychrome ceramic bowl from Rabat, 15th century AD (Archaeological Museum, Rabat). The ceramics of later medieval North Africa are crude in comparison to those of

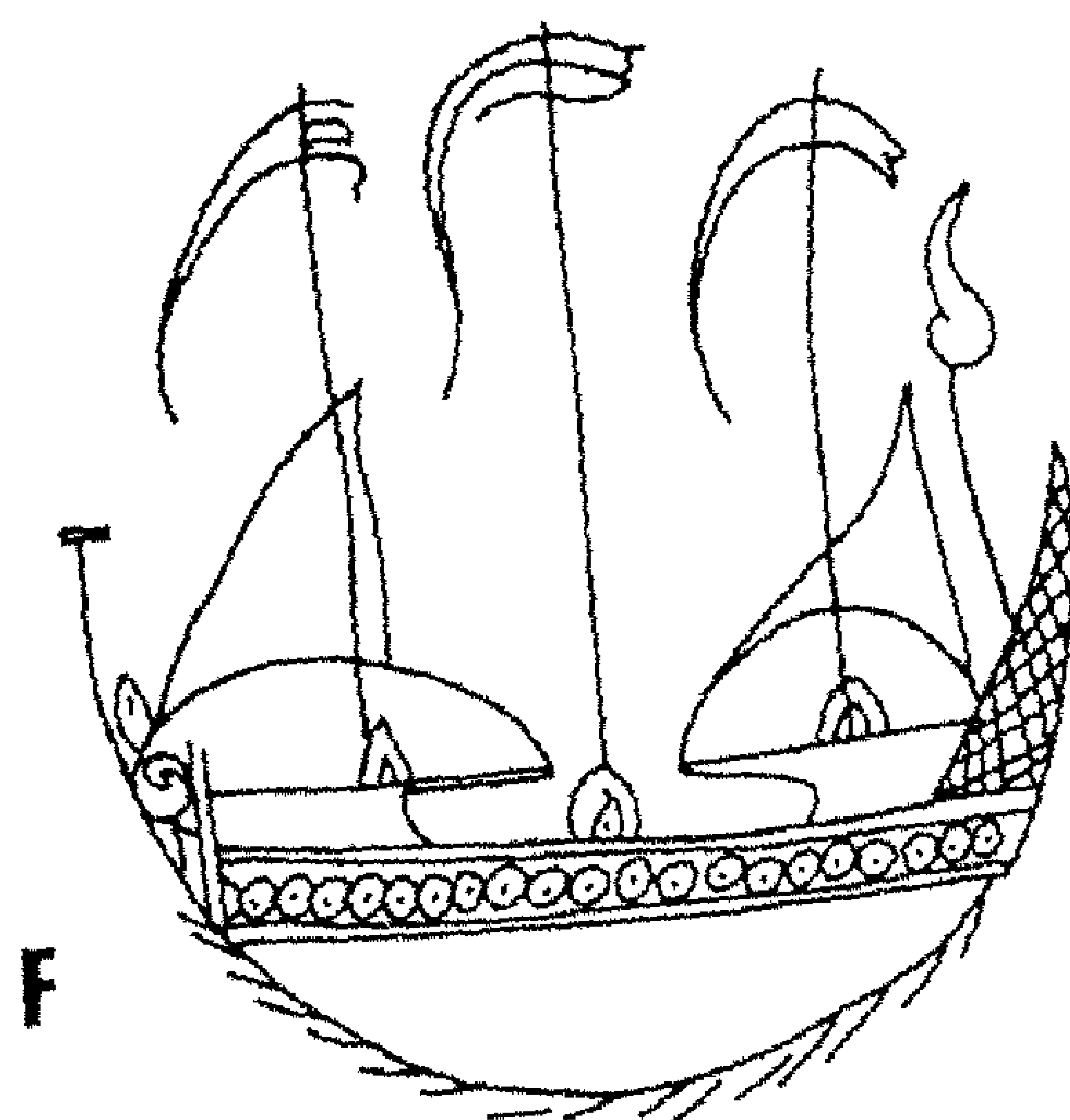
A Galley in an illustration of "The Second Trumpet,' *Beaus Commentaries on the Apoccalypse,* Iberia 922-952 AD (Pierpont Morgan Lib., Ms. 644, f. 137r, New York). Three points need to be noted in this tiny and highly stylized drawing from a 10th century Mozarab (Iberian Christian within the Andalusian Islamic cultural context) manuscript. These are the possible existance of a raised beak instead of a waterline ram, the straight stempost attached at an angle to the keel, and the curved stern which continues to form a high decorative poop. Similar hull forms may be shown in various other pictorial sources of Islamic origin.

B A petraglyph or rock-drawing of a sailing ship at Azru Aklan, near the western end of the Wadi Draa in southern Morocco not far from the Atlantic coast. Although it cannot be dated, the shape of the hull and the sail suggests that it was scratched on a rock in the medieval rather than ancient or early modern eras. The sail is basically triangular, the prow angled and near vertical, the stern apparently curved, while the vessel is controlled by a steering oar instead of a hinged rudder. The simple style of drawing also recalls other medieval Arab "sailor's drawings" from Egypt, the Middle East and East Africa.

C "Argo" in the *Suwar al-Kawaklb* (Book of Fixed Stars) by al-Sufi; copy made in Sabta (Ceuta), northern Morocco 1224 AD (Vatical Lib., Ms. Ross 1033, Rome). This manuscript contains a perhaps unique though obviously highly stylized illustration of a vessel of the type in which medieval Muslim sailors may have plied the western Atlantic. Its iconography is, of course, based on earlier Islamic "Books of Stars" from further east, yet this illustration of Argo also includes interesting features. Assuming that the sail is blowing forward as one would expect, the hull has the same curved stern but angled stempost as shown in the previous two illustrations. In addition there is an unusual deck-house in front of the mast if we have identified the prow and stern correctly, plus a lateen sail. The oars are a convention based upon the star-constellation of Argo and, with the exception of one almost unique feature, one might regard this as a stylized drawing of



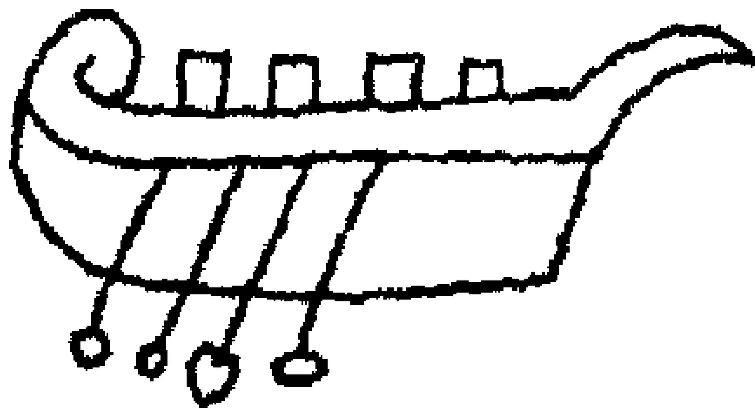




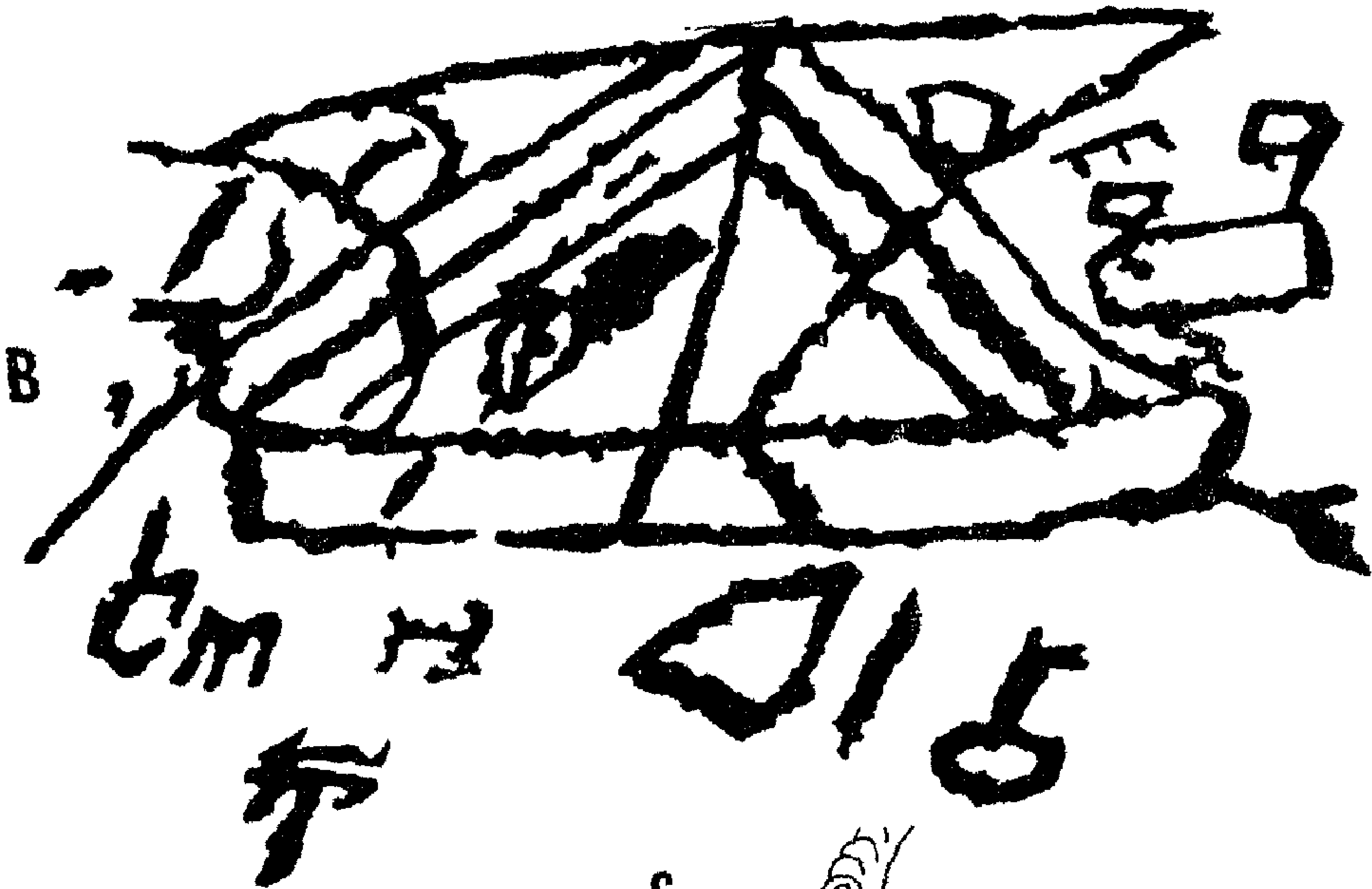
(8)

Captions

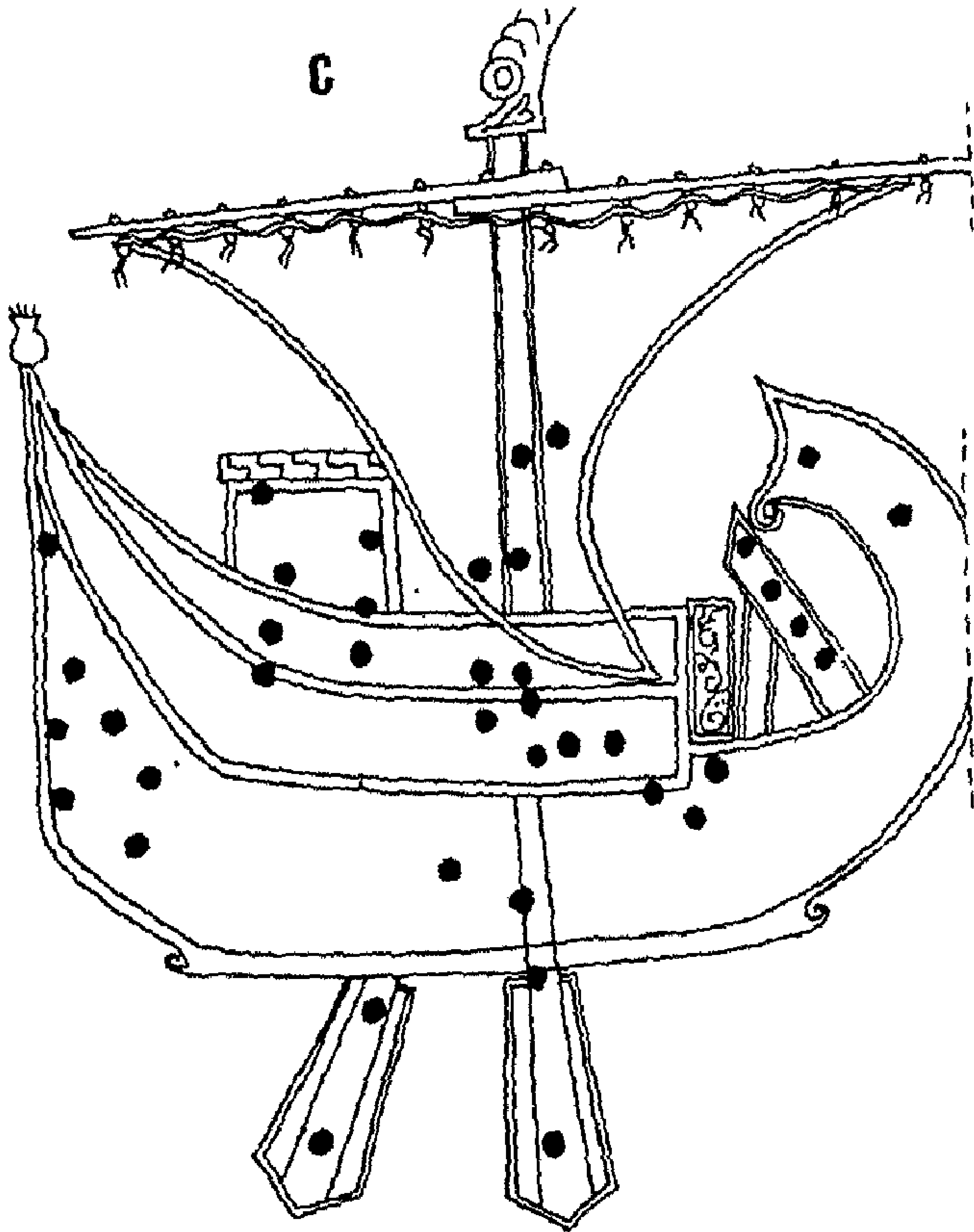
A



B



C



somewhat flimsey Mediterranean naval architecture brought north by the Romans. Potentially very interesting in the context of Iberian-Andalusian navigation in the medieval Atlantic are certain design features which the Guernsey wreck seems to have in common with the few existing pictorial representations of western Islamic "Atlantic" ships. The most obvious is an angled keel and stempost construction. This is in clear contrast with the rounded hull form of both Roman and medieval Mediterranean vessels. The second might be a sort of cutwater where the keel and stempost join, a feature also seen in the medieval Red Sea.'[8] It might also be worth noting that the written sources suggest, without specifically stating, that the Andalusian Atlantic squadron was able to defeat Viking raiders in the 10th century because they carried larger crews - perhaps because the *shini* Arab-Islamic galley was larger.[19] Perhaps they were also more strongly built.

Hulls with angled rather than rounded outlines returned to northern waters in the 13th and 14th centuries in the form of the famous *cog*, following the decline of the sleek but much smaller rounded hulls of Viking and post-Viking vessels, The reappearance of such angled hulls in the western Mediterranean during the 14th century is usually attributed to the influence of northern *cogs* arriving via the Straits of Gibraltar. Yet the possibility of such a hull-form having survived in the Islamic Maghrib and al-Andalus should not be entirely ignored. Unfortunately little research has yet been done on the ships used by Muslim Andalusian and Moroccan sailors in the Atlantic. This may prove to be a fruitfull field of study and is certainly worth consideration.

even commonplace. During the reign of the Marinid sultan Ya'qub al-Mansur (12 58-86 AD) an engineer from Seville (Ishbiliya), named Muhammad Ibn al-'Ali, established a *dar al-sina* or naval arsenal at Sala on the Atlantic coast of Morocco.[11] Many years later the so-called "Sallee Rovers" - meaning pirates from Sala in Morocco - who raided southern England in the 16th century AD[12] included amongst their crews men of Andalusian origin. The military capabilities of western Islamic fleets had clearly not disappeared with the collapse of the Umayyad Caliphate of Cordova, and in 1340 AD a Moroccan fleet had destroyed a Castilian-Spanish fleet near Algeciras.[13] This happened at a time when European observers regarded the Castilian fleet as the most powerful in Atlantic Europe.

The concept of a spherical world was widely accepted by educated people in the 13th century Islamic world and the Algarve region remained a centre of geographical science, including the manufacture of spherical celestial globes, even after it was conquered by the Portuguese in the 13th century. Here the idea that Africa could be circumnavigated and that inhabited "islands" existed far out into the Atlantic similarly survived. The role of this Algarve region during the first phase of Portuguese overseas exploration in the 15th century is well known.[14] What is less well known is the fact that the Algarve seems to have played a major role in the evolution of the Arab-Andalusian form of widely used Islamic trading vessels called a *qarib* and a *gurab*[15] into the famous *caravel*. The latter was, of course, used by Portuguese and Spanish explorers such as Vasco da Gama, Christopher Columbus and many others during the 15th and 16th centuries AD.

Given the speed with which new technology, including maritime technology, is known to have spread across the medieval Islamic world, it seems inconceivable that new naval ideas from the Indian Ocean should not have reached the Atlantic coast. The question of when knowledge of the hinged rudder, invented by the Chinese, reached the Islamic Middle East, and to what degree it may or may not have been adopted in the Arabian Gulf and Red Sea regions, has already been considered[16] but many other problems remain unsolved.

For example, the sophistication of a pre-existing Celtic naval tradition in the Atlantic is indicated by the remains of a substantial ship found off Guernsey in the Channel Islands.[17] The massive way in which this vessel was constructed was very different from the

outburst of naval aggression from those little-known northern parts of the world.[4]

The Viking threat soon became serious enough for an Umayyad naval squadron to be created specifically to patrol the Atlantić coast of al-Andalus. These .patrols remained in existance from the mid-9th to 10th centuries AD. The first Umayyad Andalusian naval bases had, of course, been on the Mediterreanean coast but in the mid-lOth century additional facilities, including shipbuilding arsenals, were constructed at Ageciras (al-Jazayr al-Khadra), Silves (Shilb) and Alcacer do Sol (Qasr Abi Danis) on the Atlantic coast. The resulting Atlantic fleets then proved themselves fully capable of defeating a major Viking raid in 966 AD and another in 971 AD.[5] These successes were followed by the Vizir al-Mansur's ambition combined operations assault upon the north-western Spanish city of Santiago in 997 AD.

One of the commanders of a naval patrol which fought Viking raiders in 8S9 AD was named Khashkhash Ibn Sa'id Ibn Aswad of Pechina (Bajjana). One of the so-called "Adventurers of Lisbon" was also named Khashkhash and he made several expedition far into the Atlantic before he disappeared along with his companions.[6] Their voyage north proved dangerous and won little reward. Nevertheless it probably reached Scandinavian settlements in Ireland where the "Adventurers" were said to have been told that exploration of the Atlantic had already been done by a previous generation, probably meaning by those Vikings who had reached Iceland and would soon sail to Greenland and even North America. The "Adventurers"' subsequent voyages headed southward and achieved greater reward in Bilād al-Sudam, beyond the Canary Islands. It is even possible that they reached as far as the Cape Verde Islands.[7]

The flourishing fishing fleets of Lisbon (al-Ushbuna) and what is now the Algarve (al-Gharb) in southern Portugal also ranged far into the Atlantic as well as venturing down the western coast of Africa in search of good fishing grounds.[8] Meanwhile the Atlantic coast of Morocco saw considerable economic expansion in the 12th century AD and the Muwahhid ruler 'Ali Ibn Yusuf even reportedly planned an abortive naval expedition to conquer the Canary Islands.[9] In the early 13th century AD a mariner named Ibn Fatima and his crew were wrecked off Ras Nu'adhibuin, much further south in what is now Mauretania.[10] When taken together, these reports give a distinct impression that such voyages were quite normal and perhaps

Medieval Islamic Navigation in the Atlantic

David Nicolle
Nottingham University, England.

Medieval Islamic navigation in the Atlantic Ocean extended over greater distances than is generally realized. Most was in a region bordered by the Iberian peninsula, the north-western coast of Africa, the Canaries Islands, the Azores and Madiera, some of these islands being well known while others were little more than sailors' legends. This region of the ocean has sometimes been so-called "Mediterranean Atlantic" as it was closely linked in technological, economic and historical terms with the Mediterranean side of the Straits of Gibraltar. Most voyages by Muslim sailors in this "Mediterranean Atlantic" were undertaken for commercial, diplomatic or military reasons though some were a result of that intellectual curiosity which characterized the golden age of medieval Islamic civilization.

Roman vessels plied the coastal waters from the Straits of Gibraltar and Iberian Peninsula to the Englash Channel and British Isles. After the collapse of the western half of the Roman Empire a maritime link appears to have survived between the Iberia pensinsula and the Celtic western fringes of Brittany, the British Isles and Ireland during the Visigothic period, before the Arab-Islamic conquest of al-Andalus but most particularly in the 7th century AD.' This may have survived into Arab-Islamic period since it is clear that Britain remained the main source of tin for al-Andalus well into the 9th century AD.[2] Furthermore it is worth noting that the famous terror stories about the Atlantic, or Sea of Darkness as it was widely known in the Islamic world, all seem to stem from the Middle East.[3] None seem to have originated amongst the Arabized people of Morocco or al-Andalus.

The most famous seafarers of the early medieval Atlantic were, of course, at first the Celtic Irish and after then the Scandinavian Vikings. However, in reality two peoples habitually sailed the eastern Atlantic during the early medieval centuries - the Vikings and the Muslim Andalusians. While the latter never ventured as far as the Scandinavians, they remained the Vikings' only real rivals. Furthermore it was Viking raids which prompted the Umayyad rulers of Cordoba (Qurtuba) to sent at least one official embassy to the far north, almost certainly to discover the source of this sudden

II. Non Arabic Part

A. The Articles

Contributors*

- 'Abdul – 'Aziz Ramadan, , Assistant Lecturer of Medieval History, Ain shams university, Egypt.
- Ahmed El-Mahmoudi, Prof.. of Islamic History, Mawlai Ismai'l university, Meknaas, Morocco.
- David Nicolle, Prof. of Islamic History, Nottingham university, England.
- Flora Vafea, The Greek School, Greece.
- Hanie' 'Abdel – Hadi, , Lecturer of Medieval History, Helwan Egypt.
- Ibrahim Al-Qadri, Prof. of Islamic History, Mawlai Ismai'l university, Meknaas, Morocco.
- Irina Vdovichenko, Associate Prof. of Byzantine Archeology, Taurida National University, Ukraine.
- Ishak Ebied, Prof. of Medieval History, Ain shams university, Egypt.
- Mahasen M. Al-Wakkad, Lecturer of Islamic History, Ain Shams University, Egypt.
- Mahmoud Ismail, Prof. of Islamic History, Ain shams university, Egypt.
- Mohammed Mo'ness 'Awad, Assistant Prof. of Islamic History, Ain shams university, Egypt.
- Mohammed Nasr, Assistant lecturer of Islamic History, Ain shams university, Egypt.
- Mohammed Tadghout, Prof. of Islamic History, Mawlai Ismai'l university , Meknaas university, Morocco.
- Naglaa M. Hamed, Lecturer of Education, Cairo university, Egypt.
- Nariman 'Abdel-Karim, Assistant Prof. of Islamic History, Al-Monefia university, Egypt.
- Ra'fat 'Abdul – Hamid, , Prof. of Medieval History, Ain shams university, Egypt.
- Tarek M. Mohammed, , Associate Prof. of Byzantine History, Ain shams university, Egypt.

These names are arranged alphabetically.

II – The non Arabic Part
A. Articles

B. Book Reviews

Contents
I. The Arabic Part
A. Articles

A. Book Reviews

Journal of Medieval and Islamic History

Issued by: Seminar of Medieval and Islamic History
Ain Shams University
Abbasiya, Cairo. Egypt. Postal code 11566

- An Annual Review Interested in Medieval History, specially Byzantine and Islamic History.

- We accept all the papers and book reviews in Arabic, English, French, Italian and German.
- Books for review should be sent in one copy only.
- Orders may be addressed directly to the board of the Seminar on the above-mentioned address.
- All papers should be written by the computer as follow: Text's size is 12,5 x 19,5 cm.
  Text's fonts are 12 New Times Roman and 13 Simplified Arabic for the Arabic papers.
  Footnote's font is 10; Main title's font is 12 Bold.
- Correspondences: Vice-Chairman: Dr. Tarek Mansour Mohammed, on the following address: Department of History, Faculty of Arts, Ain Shams University, Abbasiya, Cairo, Egypt. Postal code 11566. Fax. 00202 - 6851432. E. mail: amrtar_eg@yahoo.co.uk
- The board of the *JMIH* invites you to share with us in the third volume, which will be issued during the academic year 2002-2003.

Journal of Medieval and Islamic History

An Annual Review Interested in Medieval History, specially
Byzantine and Islamic History

(JMIH)

Volume II
2002

Issued by:
Seminar of Medieval and Islamic History
Ain Shams University

Special Issue in Honor of Prof. Raafat 'Abdul-Hamid

Publisher
Misr Al-Arabia
13A Islam Str., Hamamat Al-qoubba, Cairo

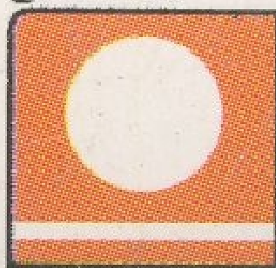
Journal of Medieval and Islamic History

(JMIH)

Volume 2 / 2002

An Annual Review of Medieval, Byzantine and Islamic Studies.

Issued by : Seminar of Medieval and Islamic History, Ain Shams University



حولية التاريخ الإسلامي والوسيط

المجلد الثالث
٢٠٠٣

دورية سنوية مُحكَّمة تعنى بالدراسات التاريخية الإسلامية والبيزنطية وأوربا العصر الوسيط

يصدرها سمنار التاريخ الإسلامي والوسيط - جامعة عين شمس



حولية التاريخ الإسلامى والوسيط

دورية سنوية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية الإسلامية والبيزنطية

المجلد الثالث

٢٠٠٣م

يصدرها

سمنار التاريخ الإسلامى والوسيط

جامعة عين شمس

عدد خاص يصدر على شرف أ.د. على الغمراوى

الناشر

مصر العربية للنشر والتوزيع

١٣ أ شارع إسلام–حمامات القبة–القاهرة

حولية التاريخ الإسلامى والوسيط

دورية علمية سنوية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية الإسلامية والبيزنطية

يصدرها

سمنار التاريخ الإسلامى والوسيط ، جامعة عين شمس

- ترسل المراسلات والطلبات باسم هيئة تحرير الحولية أو باسم د. طارق منصور وكذلك البحوث على العنوان التالى كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة ، مصر. ص.ب.١١٥٦٦ ، فاكس: (٢٠٢٠٠) ٦٨٥١٤٣٢ بريد اليكترونى tm_jmih@hotmail.com ، شريطة ألا تكون قد سبق نشرها فى مكان آخر من قبل، وأن تكون مكتوبة على الحاسب الآلى IBM ، Word 2000، حسب المواصفات التالية:

١- البحوث المكتوبة باللغة العربية:

العنوان الرئيسى فونت ١٤ أسود ، العنوان الفرعى فونت ١٣ أسود

الخط Simplified Arabic ، فونت ١٣

الهوامش فونت ١١

المسافة بين السطور مفرد للنص وكذلك للهوامش

مواصفات الصفحة ١٢,٥ X ١٩,٥ ؛ هامش علوى ٥,١، سفلى ٥,١، يسار ٤,٢، يمين ٤,٣ سم

٢- البحوث المكتوبة بلغة أجنبية:

العنوان الرئيسى فونت ١٣س أسود ، العنوان الفرعى فونت ١٢ أسود

الخط Times New Roman ، فونت ١٢

المسافة بين السطور متعدد single للنص ، exact للهوامش

مواصفات الصفحة ١٢,٥ X ١٩,٥ ؛ هامش علوى ٥,١، سفلى ٥,١، يسار ٤,٢، يمين ٤,٣ سم

- يرسل البحث من نسختين بالإضافة إلى القرص المرن الخاص به مقاس ٣,٥ .
- تقبل البحوث باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية.
- آخر موعد لتلقى البحوث شهر أكتوبر من كل عام .
- يكتب اسم الباحث ووظيفته أسفل العنوان الرئيسى للبحث مباشرة .

المحتويات

أولاً: القسم العربي

أ: الدراسات والبحوث

ب: عرض الكتب

ثانيا: القسم الأجنبي

ا: أولا البحوث والدراسات

B: Book Review

المشاركون في العدد*

ايرينا فدوفتشينكو	مدرس التاريخ والآثار البيزنطية– جامعة تاوريدا الوطنية – أوكرانيا.
بيتر فرانكوبان	مدرس التاريخ البيزنطى، جامعة اكسفورد، إنجلترا.
جوان مونفيرر سالا	أستاذ الدراسات السامية، جامعة قرطبة، أسبانيا.
حاتم الطحاوى	مدرس تاريخ العصور الوسطى، جامعة الزقازيق، مصر.
رأفت عبد الحميد	أستاذ تاريخ العصور الوسطي – جامعة عين شمس– مصر.
زينب عبد المجيد	مدرس تاريخ العصور الوسطي– جامعة الزقازيق – مصر.
طارق منصور	مدرس تاريخ العصور الوسطي– جامعة عين شمس– مصر.
عبد العزيز رمضان	مدرس مساعد تاريخ العصور الوسطي– جامعة عين شمس مصر.
ماريا فايوو	مدرس التاريخ البيزنطى، جامعة اكسفورد، إنجلترا.
محاسن الوقاد	مدرس التاريخ الإسلامي – جامعة عين شمس – مصر.
محمد مؤنس عوض	أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد – جامعة عين شمس– مصر.
وفاء عبد الله مزروع	مدرس تاريخ العصور الوسطى، المملكة العربية السعودية.

*هذه الأسماء مرتبة ترتيبا هجائيا.

تقديم

يسعد هيئة تحرير حولية التاريخ الإسلامي والوسيط أن تقدم للقارىء عامة والباحث بصـــفة خاصة العدد الثالث، الذى يحوى بين جنباته، وكعادة المجلة، مجموعة طيبة ومتميزة من الدراسات والبحوث المكتوبة باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية؛ وجميعها تتسم بالعمق والجدية والأصالة التاريخية.

وقــد رأت هيــئة الــتحرير أن تصدر العدد الثالث على شرف عالم جليل يشار إليه بالبنان، كواحد من أبرز مؤرخى مصر لتاريخ العصور الوسطى، وهو العالم الجليل المرحوم أ.د. علــى الغمــراوى، الذى تمر عشر سنوات على وفاة سيادته جسداً، بينما لا تزال روحه تــتعلق بهــا أفئدة كل من صافحه أو جالسه يوماً ما. وقد تفضل الدكتور محمد مؤنس بكتابة ورقة عن سيادته يحصى فيها أعماله وإسهاماته في شتى المجالات العلمية والأدبية.

أمـــا عن هذا العدد فنقدم فيه دراسة تتسم بالجدية والطرافة للمرحوم أ.د. رأفت عبد الحمــيد، عن " التاريخ بين الرواية الشفهية والوثيقة التاريخية"، وهى من البحوث التى ألقاها ســيادته ولم يسعفه الوقت لنشرها. وقد استطاع تلميذه الـــ د.طارق منصور، أن يحصل على نســخة مــن مخطوطة المقالة ليتضمنها هذا العدد، لتزيده ثراءً. وفى هذه المقالة يناقش أ.د. رأفــت عبد الحميد أهمية الوثيقة التاريخية والفارق بينها وبين الرواية الشفهية وأثر ذلك على التدوين التاريخى.

ويــأتى بعد ذلك بحث السيدة الدكتورة/ زينب عبد المجيد، عن جامعة أكسفورد في العصــور الوسطى"، وهو بحث يتسم بالعمق والجدية وحداثة الموضوع، وقد تمكنت سيادتها مــن تغطية تاريخ نشأة جامعة أكسفورد وتطورها التاريخى من شتى الجوانب، بحس تاريخى عال يحسب لها.

أما السيد/ عبد العزيز رمضان، فيقدم في ورقته الشيقة مدخلاً للباحثين في العصور الوســطى إلــى مواقــع الانترنت التى تعنى بالدراسات البيزنطية بصفة خاصة، ويعكس هذا عنوان ورقته "مدخل إلى مواقع الدراسات البيزنطية على الانترنت "، والتي يجمل فيها خبرته في هذا المجال حتى يهتدى بها الباحثين وكل من يسعى إلى السير في دروب بيزنطة.

وتــأتى دراســة الســيدة د/ محاســن محمد على الوقاد المطولة عن "الحجابة زمن ســلاطين المماليك" لتزيد من ثراء العدد. حيث حرصت هيئة التحرير على نشر هذه الدراسة في عدد واحد، بدلاً من اقتسامها على عددين، حتى تتم الفائدة للقارىء. والدراسة التى تقدمها سيادتها عن الحجابة زمن سلاطين المماليك، تمكنت فيها من الإلمام بشتى جوانب الموضوع، بالإضــافة إلى تحملها عبء إعداد عدد كبير من الإحصائيات والجداول التاريخية التى أثرت

الدراسة، وأضافت إليها الكثير. ومن ثم فهى دراسة تتشرف هيئة التحرير بتقديمها إلى القراء الأعزاء بكل فخر وتقدير.

وتأتي بعد ذلك ورقة الدكتور/ محمد مؤنس عوض، عن "أضواء على إشكالية دراسة تاريخ الحروب الصليبية في القرنين ١٢ – ١٣م" والتى يمكن القول أنها دراسة مميزة في حقل الصليبيات ومنهج الكتابة التاريخية فيها.

أما آخر البحوث العربية فهو بحث الدكتورة/ وفاء مزروع من المملكة العربية السعودية، وهو بعنوان "الفيكنج وإغارتهم على الإمبراطورية الكارولنجية"، وهو بحث طيب حاولت الباحثة فيه أن تقدم صورة تاريخية لغارات الفيكنج على مملكة الفرنجة في العصور الوسطى سواء في عهد شارلمان أو خلفاءه.

ونأتي إلى عروض الكتب العربية حيث يقدم الكتور/ حاتم الطحاوى عرضاً لكتاب المؤرخ الأمريكى جون اسبوزيتو عن "التهديد الإسلامى خرافة أم حقيقة؟".

ونأتي إلى قسم البحوث الأجنبية حيث شارك فيه عدد من الأساتذة من إنجلترا وأسبانيا ومصر وأوكرانيا، حيث يقوم الدكتور/ بيتر فرانكوبان وهو أستاذ للدراسات البيزنطية بجامعة أكسفورد، دراسة بعنوان " Some notes on Byzantine foreign policy in the 9^{th} – 11^{th} centuries: was there really such a thing as steppe diplomacy? " ليست ببعيدة عن الدبلوماسية البيزنطية في منطقة الأستبس.

أما أ.د. مونفيرر سالا، الأستاذ بقسم الدراسات السامية بجامعة قرطبة، فيقدم بحثاً بعنوان " From Greek into Arabic; some notes about translation and exegesis in a 13^{th} cent. Christian Arabic work " يقدم فيه دراسة مهمة مع تعليقات عن نص عربى من التراث المسيحى في العصور الوسطى.

ويأتي بحث الدكتور/ طارق منصور وهى بعنوان " Ibn Manglī between the Arab and Byzantine Worlds: New Evidences " ليقدم فيه دراسة مقارنة بين مؤلف مملوكى، ابن منجلى، وليو السادس الحكيم ليثبت فيها أن الأول نقل كثيراً من النصوص الواردة في تكتيكا ليو الحكيم إلى العربية، محاولاً الإجابة على عدد من الأسئلة المهمة في هذه الدراسة المقارنة؛ والتى كانت ورقة ألقاها في المؤتمر الدولى للدراسات اليونانية والشرقية، الذى عقد باليونان في عام ٢٠٠٠م.

أخيراً تقدم السيدة الدكتورة/ إيرينا فوفتشنكو، من جامعة تاوريدا بأوكرانيا بحثاً بعنوان " La musique dans la vie des barbares et des Grecs qui habitaient le littoral septentional de la mer noire

أمـــا عن عروض الكتب الأجنبية فتقدم الدكتورة/ ماريا فايوو، مدرسة التاريخ البيزنطي بجامعـــة أكســفورد، بإنجلــترا، عرضـــاً لكــتاب باليونانـــية عـــن الإســلام عــنوانه "

' Αναστασίου Γιαννουλάτου,' Αρχιεπισκόπου Τιράνων και ' πάσης' Αλβανίας,' Ισλάμ. Θρησκειολογική επισκόπησις, (Islam. A General Survey), 1st edition 1975, (Athens, 2001).

ولا يســع هيــئة تحرير الحولية في نهاية هذه الكلمة إلا أن تشكر الدكتور/ طارق منصــور، نائــب رئــيس تحريــر الحولية، على الجهد الكبير الذي قام به في متابعة أعمال "الســمنار" ودأبــه وصدق عمله وتفانيه في جمع هذه المادة العلمية التي ضمها هذا العدد من الحولــية، ومباشرة أمور الطباعة بدقة بالغة، فله من إدارة السمنار وهيئة تحرير الحولية كل الشكر والتقدير ودوام التوفيق.

وانـــه ممـــا يســعد أمانـــة السمنار وهيئة تحرير الحولية بالغ السعادة أن تتلقى كل الملاحظات والمقترحات التي تتناول الحولية بالنقد العلمي الهادف وصولاً بها إلى مكانة علمية مرموقة ترتجيها وإليها نسعى.

هيئة تحرير الحولية



الأستاذ الدكتور على محمد الغمراوى

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

١٩٢٦-١٩٩٣م

أولاً. القسم العربى

أ: البحوث والدراسات

من مؤرخي مصر الرواد لمرحلة العصور الوسطى
أ.د. على الغمراوى (١٩٢٦ - ١٩٩٣م)

د. محمد مؤنس عوض*

مصر

فى الصفحات التالية أتناول بالعرض سيرة حياة مؤرخنا الراحل أ.د. على الغمرواى؛ أستاذ العصور الوسطى بكلية الآداب – جامعة عين شمس سابقاً، كذلك أتعرض لمؤلفاته سواءً الكتب أو البحوث؛ لإلقاء الضوء على أثار ذلك المؤرخ البارز الذى رحل جسداً ولا تزال روحه العلمية متوهجة في عقول تلاميذه.

ولد أ.د. على محمد محمود الغمراوى فى ٢٦ يناير عام ١٩٢٦م بالمنيا بصعيد مصر وفيما بعد انتقلت عائلته إلى القاهرة، وتلقى تعليمه فى مدارس بنبا قادن الابتدائية ثم مدرسة الأمير فاروق الابتدائية، وكذلك مدرسة الأمير فاروق الثانوية، ثم التحق بجامعة القاهرة (التى كانت تعرف باسم جامعة فؤاد الأول) فى قسم الدراسات اليونانية واللاتينية، وحصل على درجة الليسانس من القسم المذكور عام ١٩٤٦م، ثم اتجه إلى دراسة القانون فالتحق بكلية الحقوق بالجامعة المذكورة في المدة من ١٩٤٦م إلى ١٩٥٠م، وعمل بالمحاماة على مدى ثلاث سنوات من ١٩٥٠ إلى ١٩٥٣م، وفى العام الأخير تم تعيينه معيداً في كلية الآداب – جامعة عين شمس بقسم الدراسات اليونانية واللاتينية. ومن بعد ذلك غادر أرض الكنانة في بعثة عام ١٩٥٤م خلال شهور الصيف للإطلاع على مكتبات باريس، ولندن، وذلك بتوجيه من أستاذه الراحل أ.د. سليم سالم أستاذ اللغة اللاتينية بكلية الآداب – جامعة عين شمس، وبعد أربعة أعوام أى فى عام ١٩٥٨م تم إيفاده إلى إيطاليا لدراسة المخطوطات اللاتينية فى مكتبات روما، وفلورنسا، وميلانو، وفينيسيا.

على أية حال، تكللت جهوده بالنجاح عندما حصل في العام المذكور وأعنى به عام ١٩٥٨م على درجة الماجستير فى مجال النقد اللاتينى من كلية الآداب – جامعة عين شمس وكان موضوع الرسالة هو: خطبة شيشيرون في الدفاع عن الممثل الكوميدى روسكيوس وعنوانها:

Cicero's Oration pro Q. Roscio Comoedo, Editing the text with commentary.

وقد قام بنشر النص والتعليق عليه. وهى لا تزال توجد فى مكتبة كلية الآداب – جامعة عين شمس، وكان الحدث المحورى فى حياة ذلك المدرس المساعد بالقسم المذكور حينذاك؛ إيفاده عام ١٩٥٩م فى إجازة دراسية من جانب جامعة عين شمس للدراسة فى ألمانيا الغربية (حينذاك) للحصول على الدكتوراه من جامعة ميونخ Münichen وقد أكد لى شخصياً، أنه على الرغم من حصوله على الماجستير من مصر إلا أنه أدرك بعد فترة وجيزة كأنه لا يعلم

* استاذ التاريخ الإسلامي المساعد - كلية الآداب - جامعة عين شمس.

شيئاً عن الدراسات اليونانية، واللاتينية بالمقارنة بعلم الباحثين الألمان المتخصصين في دراسة اللغة اللاتينية وخاصة فقة تلك اللغة philology.

ويلاحظ أنه خلال دراسته للدكتوراه، وفى عام ١٩٦٥م عمل باحثاً في مهمة علمية خاصة فى لجنة معجم تراث العصور الوسطى بأكاديمية العلوم البافارية فى ميونيخ من أجل إصلاح الأغلاط المطبعية فى مجموعة معالم ألمانيا التاريخية قبل إدراج مفرداتها فى المعجم، وهى مجموعة للمصادر اللاتينية لتاريخ أوربا فى العصور الوسطى.

وفى عام ١٩٦٧م حصل على الدكتوراة في الفلسفة من جامعة ميونيخ بعد حوالى ثمانى سنوات من البحث المضنى هناك. وكان تخصصه الرئيسى الدراسات الهندوجرمانية (الهند أوربية). أما التخصص الفرعى الأول دراسات العصور الوسطى (فى الغرب الأوربى). أما التخصص الفرعى الثانى الدراسات الحيثية.

ويلاحظ أن موضوع رسالته للدكتوراه التى تقدم بها لجامعة ميونيخ هو:

دراسات معجمية لأسماء النباتات اللاتينية عند ديسقوريدس وابوليوس المنحول، وهى باللغة الألمانية – وقد نشرت فى ميونيخ عام ١٩٦٧م، وعنوانها بالألمانية هو:

Lexikographische studien über die lateinischen pflanzennaen bei Dioskurides und pseudo – Apuleeius, Mϋnichen 1967.

ويلاحظ أنه لم يقم بترجمتها إلى اللغة العربية، وظلت حتى أخريات أيامه باللغة الألمانية، وأن سعى إلى الإفادة منها في مجال دراسة الطب في أوربا العصور الوسطى.

مهما يكن من أمر؛ عين مؤرخنا مدرساً فى قسم الدراسات اليونانية واللاتينية بكلية الآداب – جامعة عين شمس وذلك عام ١٩٦٧م، ثم نقل ليعمل مدرساً لتاريخ العصور الوسطى بقسم التاريخ بنفس الكلية على يدى أ.د. حسن حبشى، أ.د. عزت عبد الكريم، ثم أعير إلى جامعة الكويت خلال المرحلة الواقفة بين عامى ١٩٧١ ، ١٩٧٥، وخلال وجوده هناك تمت ترقيته أستاذاً مساعداً لتاريخ العصور الوسطى، وفى عام ١٩٧٨م رقى أستاذاً، وبعد ذلك بعامين ١٩٨٠م أعير للتدريس بكلية العلوم الاجتماعية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض بالمملكة العربية السعودية وأشرف على عدد من الباحثين السعوديين فى دراساتهم العليا، وقد تنقل بين ثلاثة مدن فى المملكة أولها أبها حيث عمل فى كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية ثم انتقل إلى الرياض، ومن بعدها عمل فى معهد الدعوة بالمدينة المنورة الذى كان يتبع الجامعة المذكورة التى ظل يعمل بها حتى عام ١٩٩٢م تقريباً وقد وافته المنية – رحمه الله تعالى – في يوم ٥ يوليه ١٩٩٣م.

أما مؤلفات الأستاذ الدكتور على الغمراوى فيمكن إجمالها على النحو التالى:

أولاً: الكتب:

- موضوعات فى الثقافة الأوربية فى العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٧٢م.

- ملحمة البطولة الجرمانية، ط. القاهرة ١٩٧٢م.
- مدخل إلى دراسة التاريخ الأوربى للوسيط، ط. القاهرة ١٩٧٥م.
- البحوث النقدية الحديثة فى تاريخ العصور الوسطى الجزء الأول، بحوث القرنين السادس عشر، والسابع عشر الميلاديين، ط. القاهرة ١٩٧٨م.
- الأصول المعجمية مع شواهد من كتاب الحشائش والسموم نقل اصطفان بن باسيل عن كتاب ديسقوريدس فى هيولى الطب De Materia Medica (دراسة فى المنهج التطبيقى لتاريخ الطب العربى).
- المجموعات الحديثة لمصادر تاريخ الغرب الأولى في العصور الوسطى وأطوار البحث التاريخى من القرن السادس عشر إلى القرن العشرين، ط. القاهرة ١٩٩٣م.

ثانياً: البحوث والمقالات:

- المصادر الهيجيوغرافية قبل النهضة الكارولنجية مجلة كلية الآداب والتربية جامعة الكويت العدد (٢)، عام ١٩٧٢م.
- "مبحث فى دراسة البطريسطيقا" المجلة التاريخية المصرية عدد عام ١٩٧٣م.
- "نظرات هستوغرافية فى التاريخ الأوربى في العصور الوسطى فيما قبل القرن العاشر الميلادى"، مجلة كلية الآداب والتربية جامعة الكويت، العددان (٣)، (٤)، عام ١٩٧٣م.
- "المؤلفات الدينية فى أدب الفقهاء اللاتين من القرن السادس الميلادى حتى القرن الثامن الميلادى" مجلة كلية الآداب – جامعة الكويت، العدد (٦)، عام ١٩٧٤م.
- "محاضرة الأستاذية" ألقاها بمناسبة حصوله على الأستاذية عام ١٩٧٨م، ونشرت مع محاضرات أخرى لأساتذة آخرين فى كتاب تذكارى من جانب جامعة عين شمس.
- "أهمية كتاب الحشائش عن الأطباء والعلماء اليونانيين والمسلمين المفردة عند ابن سينا وابن البيطار"، مجلة كلية العلوم الاجتماعية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد (٦) عام ١٩٨٢م.
- "تقرير ببليوغرافي عن بحوث فرنسا ونشراتها فى القرن الثامن عشر الميلادى الخاصة بالتاريخ الأوربى الوسيط" مجلة كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد السابع عام ١٩٨٣م.
- "معالم ألمانيا التاريخية Monumenta Germaniae Historia (مجموعة مصادر التاريخ والتراث الألمانى فى العصور الوسطى) مجلة كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السنة (١)، عام ١٩٨٦م.
- "أثر الثقافة الإسلامية في الفكر الأوربى". محاضرة فى كلية الشريعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بالرياض عام ١٤٠٣هـ.

- فهرسة دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الثانية نشر فى مجلة معهد الدعوة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالمدينة المنورة.

كتب وبحوث لم تنشر بعد:

- إنجيل برنابا وأناجيل الكنيسة (كتاب فى الرد على النصارى).
- تفسير كتاب ديسقوريدس لابن البيطار مخطوطة بكلية الحرم المكى الشريف، رقم ١٣٦ طب، نشر وتحقيق (من اقع الأصل اليونانى لكتاب ديسقوريدس فى هيولى الطب، المعروف بكتاب الحشائش).

ثالثاً: الترجمة:

- نورمان كانتور، التاريخ الوسيط، بالاشتراك مع أ.د. قاسم عبده قاسم، أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب – جامعة الزقازيق. وهو العمل الوحيد الذى ساهم فيه بأمر الترجمة.

تلك هى المؤلفات التى ألفها الراحل أ.د. على الغمراوى على مدى رحلته العلمية بين إنجلترا، وفرنسا، وإيطاليا، وألمانيا، والمملكة العربية السعودية، والكويت، ومصر، طالباً للعلم، وباحثاً، ومؤلفاً.

وواقع الأمر؛ أن الراحل الفاضل يوصف وبحق بأنه موسوعى الثقافة ومظهر ذلك إجادته للغات الآتية: العربية، والإنجليزية، والفرنسية، والإيطالية، والألمانية، واليونانية، واللاتينية، ثم الاطلاع على التراث الكلاسيكي اليونانى واللاتينى، بصورة جعلته يوصف بالوصف السالف الذكر.

ونظراً لدراساته الكلاسيكية؛ فقد تحمس تحمساً شديداً لذلك التراث، ولذلك نصح تلاميذه بدراسة اللغتين اليونانية واللاتينية، كمقدمة ومدخل إلى اللغات الأوربية الحديثة التى أتقنها بل أمتد به الأمر إلى تعلم اللغة السواحيلية التى قطع فيها هى الأخرى شوطاً.

وحيث أن تخصصه اللغوى في مجال فقة اللغة اللاتينية؛ فقد اتسم بالعمق، والبحث من أصول المفردات وكذلك الظواهر التاريخية، وهى سمة اتسم بها الراحل الفاضل ولاحظها كل من تعامل معه وناقشه في العديد من القضايا التاريخية وأحسب نفسى من هؤلاء على مدى أعوام طويلة منذ عام ١٩٧٨ إلى عام وفاته عام ١٩٩٣م.

ومن سمات فكر أ.د. على الغمراوى، ما يوصف "بالتشعيب" بمعنى أن يأتى إليه المرء كى يسأله عن موضوع يتصور أنه محدد أو صغير، ومع المناقشة يتم توسيع نطاق النقاش إلى زوايا أبعد وأعمق بصورة كانت تدعو المرء إلى الدهشة.

وكان المنطق دوماً وراء كل استنتاجاته، ونلاحظ دائماً أنه كان يعلى من شأن العقل بصورة كبيرة، كذلك لجأ إلى أسلوب الحوار، والنقاش مع تلاميذه فى مرحلة دبلوم الدراسات العليا للوصول ذاتياً إلى الأفكار التى أراد لنا التوصل إليها، ولذلك فالدارسة معه تحولت إلى

نوع ما من "المتعة العلمية"، وأتذكر كيف أنه طرح على طلابه عام ١٩٧٩م في مرحلة دبلوم الدراسات العليا فرع التاريخ الإسلامي والوسيط موضوع نظرية هنرى بيرين Henri Pirenne الــتى عرضها فى كتابه محمد وشارلمان Mohamed and Charlemagne والتى أظهر فيها أن المسلمين يتحملون مسئولية تحطيم الوحدة القديمة للبحر المتوسط. وطلب من تلاميذه البحث في مؤلفــات ذلك المؤرخ الاقتصادي البلجيكى ونقده، وبذلك قدم لنا فرصة ذهبية لتعلم أصول النقد الــتاريخى مع التحلى بروح الموضوعية الواجبة. وطلب من تلاميذه الاسترشاد بكتابه المدخل إلــى دراسة التاريخ الأوربى الوسيط، الذى صدر فى القاهرة عام ١٩٧٥م وهو أهم كتبه على الاطـــلاق، ومـــن خـــلال الدراسة معه أدركنا كيف أثرت دراسته للقانون على فكره، فقد كان منطقـــياً وقـــوى الحجـــة، ويتناول الفكرة التى يريد تفنيدها فيحللها ويفككها ويظهر ما فيها من القصور ولا يتركها إلا بعد أن يكون قد درسها بعمق بصورة كما – أسلفت – تدعو إلى الدهشة والتأمل.

وأود أن ألفــت نظـــر القـــارىء إلى أن الدراسة اللغوية والقانونية والتاريخية للراحل الفاضـــل جعلـــته بالفعل يملك العديد من الزوايا التى أثرت عقول تلاميذه من طلاب الدراسات العلــيا خاصـــة خلال دبلوم تاريخ العصور الوسطي واليوم أدرك جيداً كيف كانت محاضراته حيـــنذاك تجارب علمية في البنيونة أو التفكيكية قبل أن ندرسها نظرياً من خلال مؤلفات ميشيل فوكو.

من ناحية أخرى؛ تحمس الراحل الفاضل لدراسة الغرب الأوربى دراسة غربية تماماً بعـــيداً عـــن اتصـــاله بالشرق، وكثيراً ما ردد أن العلاقات مع الشرق تخرج عن نطاق تاريخ العصــــور الوسطى، غير أنه فيما بعد طور فكرته، وأشاد بتاريخ تلك المرحلة بل واشرف فى المملكة العربية السعودية على عدة رسائل في مجال تلك الظاهرة التاريخية الكبرى فى القرون الوســـطى. بل تناول المصادر الأوربية لتاريخ الحروب الصليبية فى كتابه البالغ القيمة المعنون بـــــ: المجموعات الحديثة لمصادر تاريخ الغرب الأوربى فى العصور الوسطى وأطوار البحث الـــتاريخى من القرن السادس عشر حتى القرن العشرين، ط. القاهرة ١٩٩٣م، وبعد تناوله فى هذا الشأن من أهم الدراسات البيبلوغرافية المصدرية بالعربية عن مرحلة الحروب الصليبية.

وإذا كـــان ابـــتعاث أ.د. علـــى الغمراوى إلى ألمانيا قد أدى إلى حصوله على درجة الدكـــتوراه فـــى فقـــه اللغة اللاتينية التى كان دائماً يفتخر بأنه العربى الوحيد الذي حصل على الدكـــتوراه مـــن هـــناك فى ذلك التخصص النادر؛ فإن سفره إلى هناك ترك أثراً لا يمحى فى شخصـــيته إذ أدرك المرء بعد التعامل معه لعدة أعوام أنه امتلك صفتين رئيسيتين أولهما الدقة الشـــديدة ثم الصرامة العلمية، وهو أمر أدركه طلاب الدراسات العليا خلال السنة التمهيدية عام ١٩٧٩ – ١٩٨٠م خاصة فى قاعة البحث فى العصور الوسطى وكذلك فى مادة اللغة اللاتينية،

ولم يكن يتسامح البتة فى أى خطأ علمي فى نطق كلمة من الكلمات، أوعنوان كتاب من الكتب بأى لغة أوربية.

ولقد ظلت اللغة الألمانية لديه اللغة المفضلة بعد العربية واللاتينية واليونانية، وحافظ بعد عودته من ألمانيا على درجة إتقانه لها، ولذلك، فعندما زار قسم التاريخ عام ١٩٨٠م وفد من جامعة هامبورج الألمانية، ألقى سيادته كلمة ترحيبية به لقيت استحساناً من أعضاء ذلك الوفد.

أما المملكة العربية السعودية؛ فكان لها تأثير كبير على أ.د. على الغمراوى خاصة خلال سنوات عمره الأخيرة، حيث تعمق لديه الشعور الدينى خاصة من خلال مجاورته للحبيب المصطفى محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، حيث عمل هناك فى معهد الدعوة التابع لجامعة الأمام محمد بن سعود الإسلامية، وهناك اهتم بقضايا الاستشراق، والمستشرقين، وموقفهم من الإسلام فى مختلف القضايا، كذلك اهتم بإنجازات الحضارة الإسلامية خاصة فى موضوعات الطب وتأثيره على أوربا العصور الوسطى، كذلك ألف واحداً من أهم مؤلفاته في مجال مقارنة الأديان وهو "إنجيل برنابا وأناجيل الكنيسة"، وقد طالعته مع أحد الورثة وللأسف الشديد لم يظهر للنور بعد!!!.

يضاف إلى ذلك؛ أنه فى تلك المرحلة أشرف أ.د. على الغمراوى على عدة رسائل عن الحروب الصليبية وبلاد الشام خلالها وظاهرة الجهاد الإسلامي أثناء تلك الأحداث العاصفة التي شهدتها تلك المنطقة، ولا ريب فى أن "المرحلة السعودية" أثرت فكر أستاذى بصورة كبيرة.

ومن زاوية أخرى؛ اهتم مؤرخنا الفاضل بالنباتات والأعشاب الطبية، وكتب الطب العربى فى هذا الشأن وما ساهم به المسلمون من ترجمة لمؤلفات يونانية تتعلق بالأعشاب خاصة كتاب ديسقوريدس عن الحشائش والذى أفاد منه كافة الأطباء المسلمين الكبار فى العصور الوسطى خاصة من خلال ترجمة أصطفان بن باسيل. وكثيراً ما أشار أ.د. على الغمراوى إلى الدقة الكبيرة التى اتسم بها المترجمون العرب مثل حنين بن إسحاق، وابنه اسحق، واصطفان بن باسيل وغيرهم في الترجمة من اليونانية إلى السريانية ومن الأخيرة إلى لغة الضاد، ويلاحظ أن اتجاهه نحو التراث الطب العربى توافر لديه أصلاً خلال دراساته فى ألمانيا.

على أية حال؛ بعد عودته إلى مصر حرص على إيجاد مجموعة من الباحثين تهتم بدراسة الطب العربى والترجمات العربية للمؤلفات الطبية اليونانية. ووجد باحثة مهتمة بذلك المجال فى صورة عليه حنفى (أ.د. عليه حنفى رئيس قسم الدراسات اليونانية واللاتينية بآداب عين شمس فيما بعد) فحصلت تحت أشرافه على درجة الماجستير فى الحقل العلمي المذكور.

وبصفة عامة؛ كان أ.د. على الغمراوى متشدداً في ضرورة معرفة الباحث المتصدي للكتابة التاريخية لعدد من اللغات الأوربية، ورأى أن من يعرف لغة واحدة كمن لديه نافذة واحدة فى بيته، وكلما عرفت لغات أكثر كلما زادت معارفك بالعالم المحيط بك قديماً وحديثاً، ودائماً أظهر سخطه من الباحث الذى يأتى إليه طالباً منه ترجمة أحد النصوص التاريخية بلغة أوربية إلى اللغة العربية. بل وجدته يرفض ذلك عدة مرات، حفاظاً على وقته، وإظهاراً لعدم تقديره لمن يطلب منه ذلك.

من زاوية أخرى؛ مازلت أتذكر لذلك العالم الفاضل مقولته لى بأنه من المستحيل التوصل إلى الحقيقة التاريخية التي لا يعرفها إلا الله تعالى وحده، وكافة جهود المؤرخين هى عبارة عن محاولات للاقتراب منها دون إمكانية معرفتها بصورة كاملة أو هى قريبة من الاكتمال، كذلك دائماً كان يردد أن أفضل مادة لكتابة التاريخ ما لم يكتب بقصد أن يكون تاريخاً بمعنى أن يكون هناك نص عبارة عن رسالة مرسلة من أحد الأشخاص إلى صديق من مدينة أخرى وتم اكتشاف هذه الرسالة فتكون بذلك مصدراً تاريخياً عظيم القيمة على اعتبار أنها بعيدة عن الرسمية أو تعمد كتاباتها لتكون مصدراً من مصادر الكتابة التاريخية.

زد على ذلك؛ أفدت من أ.د. على الغمراوى من خلال منهجه القائم على النقاش، والمحاور للتوصل إلى ما هو أقرب إلى الحقيقة التاريخية، وذلك من خلال جهد جماعى، وطول ممارسة، وعدم الكلل أو الملل من المناقشة. وحرصه الشديد على جذب تلاميذه إليه من خلال طرح عناصر جديدة فى المناقشة تجذبهم، وبانتهاء الجلسة معه، يدرك المرء أن شيئاً ما فى تفكيره تغير للأفضل، وبعد انتهاء العام المخصص للسنة التمهيدية للماجستير أدركت كيف أثر ذلك المؤرخ الكبير فى عقول تلاميذه وفى كاتب هذه السطور شخصياً.

من ناحية أخرى؛ أمتلك مؤرخنا صفة "الكارزما Charisma" الآثرة على نحو يصعب الفكاك من تأثيرها الكبير، وارتبط بتلاميذه وارتبطوا به وظل محافظاً عليهم من خلال صداقة قوية، لم تتغير يوماً أو تتبدل إلا إلى الأفضل.

وأود أن أوضح للقارئ، أن مؤرخنا يوصف بالفعل بأنه عشق تخصصه العلمى، ولذلك رفض أية مناصب إدارية فلم يتول رئاسة قسم أو منصب وكيل أو عميد كلية الآداب – جامعة عين شمس، وتعليل ذلك، اعتقاده الكامل بأن الباحث العاشق لعلمه؛ عليه التفرغ تماماً لواجبه العلمي، وأن يتعامل مع الورق والقلم تأليفاً أو ترجمة أو تحقيقاً وأن مثل تلك المناصب من شأنها إبعاده عن رسالته العلمية التى من أجلها خلقه الله تعالى، وذلك تصوره الشخصى بطبيعة الحال الذى التزم به طوال حياته ولم يناقض نفسه حيال ذلك البتة.

ولا أغفل؛ اتساع دائرة علاقاته الإنسانية مع الجميع فلم يكن يتعامل مع الآخرين من خلال كونه أستاذاً جامعياً بل مجرد إنسان يشارك الآخرين أفراحهم وأحزانهم، وهكذا ففى كل مكان عمل فيه ترك ذكرى طيبة حتى من الناس البسطاء الذين تعاملوا معه، وقد لاحظت ذلك

عندما عملت في مدينة أبها بجنوب غربى المملكة العربية السعودية فوجدت العديدين يذكرونه ذكراً جميلاً، وكذلك عندما سافر زملائى إلى المدينة المنورة لاحظوا نفس الملاحظة مما عكس تعلقه بالآخرين وتعلقهم به على المستوى الإنسانى وهو المستوى الباقى بعد رحيل الأشخاص

وأود تقديم مقتطفات من إسهامات مؤرخنا من أجل الاقتراب قدر المستطاع من أسلوبه فى الكتابة التاريخية، وقد ذكر فى كتابه ملحمة البطولة الجرمانية، "شغلت أوربا وعالم البحر المتوسط منذ القرن الخامس حتى مطلع القرن الثامن غزوات مغولية وجرمانية وإسلامية نجم عنها تغير في نظام الحكم والمجتمع، وكان للجرمان على خلاف المغول والمسلمين أكبر الشأن فى تقرير مصير القارة الأوربية، ولذلك آثار منشأهم حماسة كثير من المؤرخين وبخاصة فيألمانيا حيث ألهبت دراسة هجرات الشعوب Voelkerwanderungen شعور الألمان القومى، كما أصبحت نظم الجرمان السياسية والقانونية والاجتماعية كذلك موضع اهتمام الدارسين بسبب المؤثرات التى أحدثتها فى الحضارة الأوربية الوسيطة.

كان المعتقد فى الثلاثينات الأولى من القرن العشرين أن الحياة الجرمانية شابهت فى مختلف النواحى حياة العالم الرومانى وأن استمرار النظم الرومانية فى القرنين الخامس والسادس كان نتيجة لضآلة تأثير الغزوات الجرمانية على المجتمع الأوربى، وقد أيد وجهة النظر هذه العالم النمساوى الفونس دوبس Alphons Dapsch فى كتابه الأسس الاقتصادية والاجتماعية للحضارة الغربية، ووصل إلى التقارب في المستويات الثقافية والاقتصادية بين الرومان والشعوب الجرمانية، وكذلك مؤرخ الاقتصاد البلجيكى هنرى بيرين Henri Pirenne الذى أكد أن الغزوات الجرمانية لم تشكل في الحقيقة انهياراً جانحاً في التطور الاقتصادي والاجتماعى لأوربا، ومنذ الحرب العالمية الثانية وإلى حد كبير بفضل دراسات العلماء الفرنسيين ضعف تفسير دوبس وبيرين لحضارة الجرمان، ورأينا رجوعاً إلى وجهة النظر القديمة عن العواقب المشئومة للغزوات الجرمانية، فقدم سالان Salin دليلاً أثرياً معارضاً للفرضية التى ذهب إليها دوبس، كما ناقش كورسيل Courcelle فى كتابه "التاريخ الأدبى للغزوات الجرمانية" بطريقة حاول أن يجعلها مقنعة وجود الاهتمام بوجهات نظر المعاصرين الكئيبةعن دلالات الغزوات[1]".

ومن الجلى البين؛ من خلال السطور السابقة كيف أن أسلوبه في الكتابة التاريخية عبر عن منهجية تهتم بالأبعاد السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية دون إغفال التراث الشعبى وكل ذلك ضمن إطار من التحليل والبحث فى أصول حركات التاريخ فى أوربا العصور الوسطى.

---

[1] على الغمراوى، ملحمة البطولة الجرمانية، ط. القاهرة ١٩٧٢م، ص٣.

مهمـــا يكـــن مـــن أمـــر، ينبغى ألا نغفل – عند دراستنا لسيرة ذلك المؤرخ الرائد – الجوانب المأساوية التى واجهته فى حياته والتى انتهت بوفاته[٢].

تلـــك صفحات قليلة عن مؤرخ رائد من مؤرخى مصر لمرحلة العصور الوسطى فى صورة أ.د. على الغمراوى رحمه الله تعالى رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته.

[2] فـــى الأعـــوام الثلاثة الأخيرة من حياة مؤرخنا نكب بعدة نكبات متلاحقة؛ إذ توفيت ابنته الوحيدة "فادية"، ومن بعدهـــا بعـــام توفيت زوجته حزناً على رحيلها، ثم أصيب هو شخصياً بمرض السرطان، وكان منكباً على كتابة كـــتابه "المجموعـــات الحديثة لمصادر تاريخ الغرب الأوربى فى العصور الوسطى" على الحاسوب، وقد طالعت مخطوطـــة الكتاب مع سيادته قبل رحيله وقد أوصى بضرورة طباعته لما فيه فائدة كبيرة للباحثين وبالفعل تمت طباعته بعد وفاته ومن الانصاف القول بأن أ.د. فتحى أبو سيف قام بدور فعال في ظهور الكتاب للنور بالاشتراك مع إدارة كلية الآداب – جامعة عين شمس فى عهد عميدها أ.د. محمد حسن وهبه.

التاريخ

بين الرواية الشفهية والوثيقة التاريخية

د. رأفت عبد الحميد

مصــر

"قال الراوى... يا سادة يا كرام "

عبارة تبتدىء بها كل سيرة وصلت إلى أيدينا من السير الشعبية المعروفة، "سيرة عنترة بن شداد" و "سيرة الملك سيف بن ذى يزن ملك اليمن"، و "سيرة حمزة العرب الأمير حمزة البهلوان" ؛ و "السيرة الهلالية" أو قصة "الزير سالم أبو ليلى المهلهل" و "تغريبة بنى هلال" و "سيرة الأميرة ذات الهمة" و "سيرة الظاهر بيبرس" وغير ذلك، على حين تستفتح شهر زاد كل ليلة من لياليها عند حكيها لحكاية جديدة أو استمرارها في واحدة كانت قد بدأتها بالفعل من قبل، بقولها الشهير "بلغنى أيها الملك السعيد" وكلمة "بلغنى" هى شكل آخر من أشكال "قال الراوى" فالدلالة واحدة.

وقد ينص أحياناً في بداية السيرة على اسم واحد من هؤلاء الرواة، قد يكون أخرهم، وقد لا يأتى ذكر لأحد منهم على الإطلاق، ففى "سيرة الملك سيف ملك اليمن"، نجد مثالاً لذلك حين يقال: "قال الراوى أبو المعالى رواى سيرة أبى الأمصار وسائل النيل من أرض الحبشة إلى هذه الديار"،[1] مع العلم أن "أبا المعالى" لقب للراوى وليست اسما لعلم، بينما يأتى الاسم منسباً في سيرة "الظاهر بيبرس" عندما نصادف في أولها عبارة "قال الراوى وهو الدينارى رحمه الله تعالى"،[2] على حين تنفرد "سيرة الأميرة ذات الهمة" بإيراد أسماء عشرة من الرواة تقدمهم على هذا النحو: "..وإن من روى هذه السيرة العجيبة، وما فيها من الأحاديث المطرفة الغريبة، هو على بن موسى المقانبى، وابن بكر المازنى، وصالح الجعفرى، ويزيد بن عمار المزنى، وعبد الله بن وهب اليمانى، وعوف بن فهد الفرازى، وسعد بن مالك التميمى، وأحمد الشمشاطى، وصابر المرعشى، ونجد بن هشام العامرى، قالوا جميعاً والله أعلم...".[3]

وتفصح هذه السير، أو ان شئت الدقة فقل هذه الروايات الشفوية المتواترة في مجموعها، عن الهدف الأساسى من وضعها، وهى كلها تتفق عليه وإن اختلفت عباراتها، مثل "... وهذه قصة غريبة الوجود، والمستعان بالله تعالى الواحد المعبود، الذى جعل سير الأولين عبرة للقوم الآخرين، وأخبار الأمم الماضين (هكذا) اعتباراً للباقين".[4] أو "... أن سير الأولين

---

[1] سيرة فارسى اليمن الملك سيف بن ذى يزن، بيروت ١٩٨٥، جــ١، ص٣.

[2] سيرة الظاهر بيبرس، القاهرة ١٩٩٦، المجلد الأول، ص١١.

[3] سيرة الأميرة ذات الهمة وولدها عبد الوهاب، بيروت ١٩٨١، المجلد الأول ص٥.

[4] سيرة فارس اليمن الملك سيف بن ذى يون، بيروت ١٩٨٥، جــ١ ص٣.

صارت عبرة للآخرين لكى يرى الإنسان العبر التى حصلت لغيره فيعتبر، ويطالع حديث الأمم السابقة وما جرى لهم فينزجر (هكذا)، فسبحان من جعل حديث الأولين عبرة لقوم آخرين...".[٥] أو "... ان الله سبحانه وتعالى جعل سير الأولين عبرة للآخرين، وموعظة للجاهلين، وتنبيهاً للغافلين، يتعظم بها أصحاب العقول الكاملين".[٦]

ولا أظن أن هذا الهدف الذى تسعى إليه الرواية الشفهية التى تصبح بمقتضى التقادم موروثاً شعبياً، يبعد كثيراً عن الهدف الذى تضعه الدراسات التاريخية نصب أعينها، وإن اختلفت الفكر والمضامين والمصادر، ولننظر مثلاً إلى ذلك العمل التاريخى الرائع الذى وضعه المؤرخ الأشهر تقى الدين المقريزى تحت عنوان "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار"، وهى دراسة إطارها المحيط هو التاريخ، ولكنها في جوهرها تضم عدداً من ميادين الدراسات الإنسانية المختلفة، كالجغرافيا والاجتماع والاقتصاد والعمارة والفنون والآداب والتخطيط، أو بعبارة أخرى ننقلها عن أستاذنا محمد عبد الله عنان[٧] متمثلة في قوله: "... فهذا الأثر فوق كونه عرضا مستفيضاً لجغرافية مصر والقاهرة والنيل القديمة، وسيرها منذ الفتح الإسلامى، هو مجمع فريد من صور العمرانية والاجتماعية والفنية في العصور الوسطى، ومعرض بديع لتاريخ مصر الاجتماعى، وأحوال المجتمع المصرى، وظواهره النفسية والأخلاقية، وحياته العامة.. وهذا التراث العمرانى والفنى الخالد، تراث المدينة الإسلامية في مصر، يعرضه لنا المقريزى في صور قوية باهرة ممتعة، وهو يتتبع فيما يكتب شجون الحديث. فإذا ملك أو أمير كبير يقترن اسمه بذكر هذه الصروح والآثار الخالدة أو تلك، وإذا حادث أو واقعة أو نادرة ترتبط بسيرتها، فإنه يستقصى كل ما يتعلق به أو بها من الأخبار، فينتقل بقارئه من المسجد والقصر إلى الأمير، ومن الأمير إلى الحرب، ومن هذه إلى المآدب والرياض، وهو خلال ذلك كله يعنى بعرض صور هامة من تاريخ مصر السياسى والاجتماعى والاقتصادى والفكرى، ويقدم إلينا المجتمع القاهرى في أثوابه المختلفة ذاهية وقائمة، ويعنى بشرح النظم السياسية والادارية والاقتصادية التى توالت على مصر، ورسوم البلاط القاهرى في عصوره المختلفة، وأحوال الخلفاء والسلاطين في الحياة العامة والخاصة، ومواكبهم ومآدبهم وأخلاقهم وأطوارهم، وأحوال المنشآت العامة كالثكنات والسجون والمعاهد والمدارس والمساجد والزوايا والتكايا وغيرها، وحياة الشعب الخاصة، وعادات الأفراد وتقاليدهم وأحوالهم في المعاملات والملبس والمآكل والأفراح والأتراح والجد والهزل".

هذه المساحة المعرفية الواسعة المتعددة الجوانب، عنونها المقريزى بـ "المواعظ والاعتبار"، ومن ثم فليس هناك اختلاف في الهدف – كما أشرنا منذ قليل – بين الدراسات

---

[٥] ألف ليلة وليلة، بيروت بدون تاريخ، جـ١ ص٥.

[٦] سيرة الظاهر بيبرس، القاهرة ١٩٩٦، المجلد الأول ص١٠.

[٧] مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية، القاهرة ١٩٣١ذ، ص٥٠ – ٥١.

التاريخية الوثائقية والروايات الشفهية أو الموروث الشعبى، والمقريزى نفسه يعبر عن ذلك بقلمه الخاص حين يقول: "علم التاريخ من أجل العلوم قدراً، وأشرفها عند العقلاء مكانه وخطراً، لما يحويه من المواعظ، والإنذار بالرحيل إلى الآخرة عن هذا الدار، والاطلاع على مكارم الأخلاق ليقتدى بها، واستعلام مذام الفعال ليرغب عنها أولو النهى، لا جرم إن كانت الأنفس الفاضلة به رامقة، والهمم العالية إليه مائلة وله عاشقة".[8] وهذه العبارات التى أوردها المقريزى لا تبتعد كثيراً عما أورثه السير الشعبية التى تعد النموذج الحى المتجسد للرواية الشفهية، عن الهدف المبتغى من وراء سردها أو قصها على مسامع العامة.

غير أن هذا لا ينجو بنا بعيداً عن الجانب الوثائقى في الدراسات التاريخية، وهو عصبها، فكما أسلفنا من القول إن "الراوى" يبتدىء روايته بالقول عمن أخذ: "قال الراوى"، فإن المؤرخ يدعم دراسته وتاريخه بقوله "تحدثنا الوثيقة" أو "تخبرنا المصادر"، والباحث المدقق يفتتح مطالعته لأى كتاب في التاريخ، بالصفحات الأخيرة من الكتاب، بحثاً عن المصادر والوثائق التاريخية التى اعتمد عليها المؤلف في كتابه، وتحدد القيمة العلمية تبعاً لمدى اصالة تلك الوثائق والمصادر، ومن البديهى أن أى باحث أو مؤرخ لا يمكن مطلقاً أن يقف فوق جسر الصدق ما لم تكن الوثيقة مصدر بحثه وركيزة دراسته، شريطة أن تكون الوثيقة نفسها صادقة لم تمسسها يد التزييف، تلك قضية أخرى.

وقد وقف مؤرخنا الأشهر "ابن خلدون" على هذه الناحية وحدثنا عنها بكل الدقة عندما كتب في "مقدمته" يقول: "... والتاريخ في باطنه نظراً وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، وإن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأمم وجمعوها، وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها، وخلطها المتطفلون بدسائس في الباطل وهموا فيها وابتدعوها، وزخارف من الروايات المضعفة لفقرها ووضعوها."[9]

وابن خلدون هنا كما هو ظاهر في عبارته، يفصل بين المؤرخ بكل ما تعنيه الكلمة في منزلة القضاء.. وكاتب التاريخ المتطفل على كتابته بكل ما تفصله كلماته من بعد عن الانتقاء.

ولنكمل حديث ابن خلدون لنرى إلى حد بعيد البعد عن الوثيقة في الدراسة التاريخية ضرباً من العبث، والعبث نفسه في عدم تمحيص كل ما يكتب، والتغاضى عن الدقة في كل ما يقال ويدون، وتلك آفة نفر ليس بالقليل ممن يتصدون لكتابة التاريخ، ومن ثم فإنه يمكننا القول قياسا على شهادة العلامة ابن خلدون، "كثيرون يكتبون التاريخ، وقليل منهم المؤرخون"، فالمؤرخ بالدرجة الأول قاض وليس قاصاً ولا مجرد ناقل، يقول العلامة مكملاً حديثه الذى

---

[8] المقريزى، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، القاهرة بدون تاريخ، الجزء الأول ، ص٢.

[9] ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، المقدمة، بيروت بدون تاريخ، ص٤.

توقفنا عنده منذ قليل: "... واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها، وأدوها إلينا كما سمعوها، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها، ولا رفضوا نزهات الأحاديث ولا دفعوها، فالتحقيق قليل، وطرف التنقيح في الغالب كليل، والغلط والوهم نسيب للأخبار وخليل، والتقليد عريق في الآدميين وسليل، والتطفل على الفنون عريض طويل، ومرعى الجهل بين الأنام وخيم وبيل، والحق لا يقاوم سلطانه، والباطل يقذف بشهاب النظر شيطانه، والناقل إنما هو يملي وينقل، والبصيرة تنقد الصحيح إذا تمقل، والعلم يجلو لها صفحات القلوب ويصقل".[١٠]

واضح تماماً أن ابن خلدون يقف موقفاً جاداً من أولئك الذين يكتبون التاريخ بأيديهم ويقولون إنما قال بهذا الأسلاف، ونحن على آثارهم مقتدون، دون تمحيص وتدقيق، ومناقشة، وتحليل، ونقد بعد كل ذلك عميق وأصيل. هؤلاء النفر لا يعدون من المؤرخين وإن حسبوا أنفسهم كذلك وإن عدهم أناس هكذا.

والذي يلفت النظر ويدل على فراسة العرب وسبقهم في العديد من ميادين المعرفة الإنسانية، أن ابن خلدون فصل في صدر مقدمته بين الرواية والتاريخ، أو بتعبير أكثر دقة بين التاريخ المروى أو الرواية الشفهية والتاريخ الوثائقى، وميدان هذا وذاك، وما يحتاجه عامة الناس والجمهور، وما يسعى إليه خاصة الدارسين وأعيانهم، وهذا بيت القصيد في بحثنا هذا، يقول: "... فن التاريخ من الفنون التى تتداوله الأمم والأجيال، وتشد إليه الركائب والرحال، وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال، وتتساوى في فهمه العلماء والجهال، إذ هو في ظاهره لا يزيد عن أخبار الأيام والدول، والسوابق من القرون الأولى، تنمو فيه الأقوال، وتضرب فيه الأمثال، وتطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدى لنا شأن الخليقة كيف تقلب بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال، وفى باطنه ...".[١١]

وهذه العبارات الأخيرة تنصرف دون مناقشة إلى الرواية الشفهية أو التاريخ المروى، الذى تنمو فيه الأقوال "بزيادة الروايات جيلاً بعد جيل، يضيف إليها راو بعد راو، ومحدث بعد آخر، ويتفنن كل منهم في إضافة قصة على هامش الرواية، أو طرفة لطيفة، أو مثل جرت به الألسنة مع الزمان، ويضيف إليها من عندياته ما يشوق السامعين، وتلك براعة في فن الإلقاء، وهذا ما يشير إليه ابن خلدون بقوله "وتطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال"، حيث يتحلق الناس حول هذا الراوى أو ذاك في إصغاء عجيب.

وإذا كنا قد فصلنا بحزم بين من يكتبون التاريخ والمؤرخين، وأكدنا على أن المؤرخ هو الذى يضع الوثيقة نصب عينيه، مخضعاً إياها للتحليل والمناقشة والمقارنة والتمحيص

---

[١٠] ابن خلدون، المقدمة، ص٤.

[١١] المصدر نفسه، ص ٣- ٤.

والنقد، فإن هذا يدفعنا مباشرة إلى إثارة هذا السؤال الجوهرى.. أين موضع الرواية الشفهية من الكتابة التاريخية؟

لا يستطيع أحد أن ينكر أن التاريخ كان في أصل نشأته روايات شفهية جرت بها ألسنة الناس، أو تناقلها الرواة جيلاً بعد جيل، وتمثلت عند العرب في أشعارهم، حتى عد الشعر ديوان العرب، فسجلوا بالقريض أفراحهم وأتراحهم، ومجالس سمرهم، وحلهم وترحالهم، وأيامهم في الجاهلية والإسلام، وساعدت ملكة الحفظ لديهم في نقل هذا التاريخ والاحتفاظ به لفترة زمنية طويلة، والعرب هنا لم يبتعدوا عن الأصل التاريخى لكلمة Istoria اليونانية، والتى كان يقصد منها في بلد الإغريق قديماً البحث عن الأشياء الجديرة بالمعرفة، وهى معرفة البلاد والعادات والمؤسسات السياسية المعاصرة أو الماضية، ثم تطورت الكلمة لتضم إلى ذلك معرفة الأحداث التى رافقت نمو هذه الظواهر.[١٢]

ومن الأهمية بمكان أن نذكر أن هذه المفاهيم لم تكن واردة في أول الأمر، بالمعنى الذى نقصده، لدى هؤلاء الشعراء العرب الذين تركوا شعرهم ودونوا فيه تلك الأحداث التى عايشوها أو حدثوا عنها فيما بعد تمجيداً وافتخاراً، فأيام العرب، ترجع في أصلها إلى الأدب أكثر مما ترجع إلى التاريخ، فقد كانت تروى بالدرجة الأولى لإيناس السامعين ولإمتاعهم؛ حقا لقد كانت تحتوى على عناصر تاريخية من حيث أنها سجلت أحداث كبرى (كحرب البسوس، وداحس الغبراء، وغير ذلك)، ومن حيث أنها اعتبرت مثل تلك الأحداث متصلة بنواح معنوية معينة،[١٣] وقد لعبت فنون وأشكال هذه "الأيام" و"القصائد" التى خلدتها، دوراً هاماً في تشكيل علم التاريخ عند المسلمين.

فمن الأمور التى لا يتطرق إليها الشك أن التاريخ الإسلامى نشأ في أول أمره معتمداً اعتماداً كاملاً على الرواية الشفهية، حتى عرف المشتغلون به بادىء ذى بدء بالرواة أو الإخباريين، ولم يكن هناك آنذاك ما ينتقص من قدر هذه الرواية لأن ملكة الحفظ العربية كانت لها السيادة على الكتابة أو التدوين إبان العصور الجاهلية وصدر الإسلام، وإن نظرة سريعة إلى كتب السيرة النبوية والمغازى نجدها كلها تورد أخبارها بقول مؤلفها: حدثنا فلان عن فلان، وحول هذا يقول الأستاذ أحمد أمين[١٤] "... لو تتبعت في ابن جرير الطبرى سلسلة رواياته وجدت أن الرواة الثالثة أو الأربعة الذين يتصلون به وبحياته كانوا في العصر العباسى، وهؤلاء يروون عمن قبلهم ممن كانوا في عهد الأمويين أو الخلفاء الراشدين، نعنى بذلك أن الحوادث التى دونت كانت معروفة في العصر الذى يؤرخ له، وابن اسحق وأمثاله إنما دووا ما كان معروفاً وجمعوه".

---

[١٢] روزنتال (ف) ، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح أحمد العلى، بيروت ١٩٨٣ ص١٦.

[١٣] المرجع السابق، ص٣٢.

[١٤] فجر الإسلام، القاهرة ١٩٦١ ص١٥٦.

من هنا كان أول ما دون في التاريخ الإسلامى - بطبيعة الحال - يعتمد على الذاكرة الإنسانية، أو بتعبير آخر، الرواية الشفهية، ولعل من يقرأ ما دون من الذاكرة يتجلى له أن أغلب التاريخ العربى الإسلامى الأول مستمد من السمع والمشاهدة، ومن ثم جاء تدوين المؤرخين الأوائل لما استوعبته الذاكرة بالنقل من فلان عن فلان من الحفاظ الموثوق بهم، وهو ما عرف بـــ "الإسناد" بمعنى دفع الخبر إلى قائله، وهكذا كان الحفاظ هم الوسطاء بين الخبر والمؤرخ.[١٥]

وهذه السلسلة الطويلة من "العنعنة" التى نشهدها مثلاً عند ابن هشام في السيرة النبوية، والواقدى في المغازى، والطبرى في تاريخ الرسل والملوك، تؤكدا أمرين أساسيين على قدر كبير من الأهمية، أولهما: الدور الكبير الذى لعبته الرواية الشفهية في تدوين التاريخ الإسلامى خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة على الأقل، والثانى: دور الرواة أو الحفاظ على هذه الروايات ونقلها جيلاً بعد جيل، مع محاولة التيقن الكامل من عدم انقطاع ثبت السند أو العنعنة حتى لا تمسى الرواية ضعيفة الإسناد فلا يؤخذ بها.

لا غرو إذن أن ينشأ علم التاريخ عند المسلمين في أحضان علم الحديث، لأن هذه الطريقة عينها هى التى اتبعت في جمع الأحاديث النبوية، ولما كان تحرى الدقة والأمانة حتماً مقضياً عند جمع هذه الأحاديث، فقد انسحب ذلك بالتالى على الروايات الشفهية التى تتصل بحياة الرسول وصحبه مكونة سيرته ومغازيه صلى الله عليه وسلم، ولما كان المسلمون حريصين في الناحيتين على التزام جادة الصدق والضبط في جمع مادتى الحديث والسيرة، فقد أصبح منهاج "الجرح والتعديل" ميزان الحقيقة في كل من هذه وتلك، وابن خلدون يشير إلى مثل هذه الناحية ويؤكد على ضرورة "البحث والروية" والبعد عن "الغفلة وضعف النظر"[١٦] ويشاركه في هذا الرأى "السخاوى".[١٧]

وقد حرص كثير من الخلفاء المسلمين على أن يكون إلى جوارهم دوماً من "يقص " عليهم أو "يروى" لهم أخبار الأمم السالفة التى سبقت الدعوة الإسلامية، وشيئاً عن أحوال ملوكهم وسادتهم، حتى أن الخليفة الأموى معاوية بن أبى سفيان، كان كما يحدث عنه المسعودى "يستمر إلى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها، والعجم وملوكها، وسياستها لرعيتها، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة... ثم يدخل فينام ثلث الليل، ثم يقوم فيقعد فيحضر من يواصل له الروايات الخاصة بسير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد، فتمر بسمعة كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات".

---

[١٥] عبد المنعم ماجد، الحضارة الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٣ ص٢٠٣ - ٢٠٤.

[١٦] ابن خلدون، المقدمة، ص٣١.

[١٧] السخاوى، الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، تحقيق فرانز روزنثال، ترجمة/ صالح أحمد العلى، بيروت بدون تاريخ، ص ٩٢ - ٩٣.

والموروثات الشعبية تحمل رؤية الشعب لتاريخه وتفسيره لمسيرته الحضارية، كما تشى بكل ما كان يحركه من قيم أو مثل عليا والنظام الأخلاقى الذى حكم حركته في الزمان والمكان.

والموروثات الشعبية تتضمن الأسطورة، السيرة الشعبية، والحكايات والألغاز، والأمثال والأغانى والنكات، وغيرها مما يعبر به الناس عن أنفسهم بشكل تلقائى.

ولعل الفرق الجوهرى بين التسجيل الرسمى للتاريخ والتسجيل الشعبى هو أن الأول قصد به أن يكون تاريخاً، أى أنه مقصود أن يصل للأجيال التالية على النحو الذى تمت به كتابته، أما التسجيل الشعبى فهو تسجيل شفاهى تراثى تتناقله الأجيال وتزيد عليه، وتعدل في مضمونه بما يخدم أهداف الجماعة الإنسانية، دون أن يقصد به أن يكون تاريخاً يقرأه الناس في الأجيال التالية، ذلك أن الموروثات الشعبية تعبير تلقائى عن الناس في حياتهم اليومية، وعن رأيهم في أحداث تاريخهم ورؤيتهم له، وإذا كنا نستطيع من خلال المصادر التاريخية التقليدية، أن نستعيد صورة الحدث التاريخى من ذمة الماضى، فإن هذه الصورة تظل باهتة لا حياة فيها ما لم نفهم أهل العصر الذى ندرسه من خلال عاطفتهم ووجدانهم وقيمهم الأخلاقية، ومثلهم العليا التى حركتهم آنذاك، والموروثات الشعبية مصدر هام للمؤرخ الذى يدرس التاريخ الاجتماعى، أو النتاج الثقافى لأمة من الأمم.[١٨]

ولعل أروع تعبير يمكن أن يؤتى به الآن، هو ما جرى على لسان طجورج ماكولى تريفيليان" G.M.Trivilian عندما قال: "لا تتألف روح الشعر في تدوين التاريخ من خيال يطوف في الفضاء، ولكنها تتألف من خيال يقتفى أثر الحقيقة ويلتصق بها، وبالنظر على أن الحقيقة قد وقعت فعلاً فإنها تجمع حولها سر الحياة والموت والزمن الذى لا يسير غوره، فعلم المؤرخ وبحثه يجدان الحقيقة، وخياله وفنه يوضحان مدلولها.[١٩]

ويصل الائتلاف بين الرواية الشفهية والموروث الشعبى ذروته ويصبحان شيئاً واحداً في السير أو الملاحم التى أشرنا إليها في صدر بحثنا هذا، وهى خاصة بالتراث العربى، ويقابلها في أوروبا أيضاً الكثير مثلها ويسبقها بعضها أحياناً، فالموروث الشعبى يجد ضالته في شخصية محورية تاريخية حقيقية فعلاً، لعبت دوراً معيناً في مسيرة التاريخ الإنسانى، وتنسج حوله خيوط روايات تكون "ملحمة" شعبية، ولا يخفى على أحد أن المشاعر الشعبية تبحث عن شخصية البطل الذى ترتجيه في حاضرها ولا تجده ماثلاً بين ظهرانيها، فتستدعيه من ذاكرة التاريخ الرسمى، وتصنع منه البطل الذى تتطلع إليه ليخرج بها بقوته الخارقة وذكائه المتقد وحيله البارعة وشخصيته الجذابة، من هذا الواقع الذى تحياه، وتنتلطى به، إلى آفاق أخرى تؤملها أكثر إشراقاً وسعادة.

---

[١٨] قاسم عبده قاسم، بين التاريخ والفولكلور، القاهرة ١٩٩٣، ص١٦ – ١٧.

[١٩] إيمرى نف، المؤرخون وروح الشعر، ترجمة توفيق اسكندر، بيروت بدون تاريخ، ص٢.

وكان نظم الشعر كما يقول "جوردون شايلد" – من العوامل المساعدة في تذكر الأحداث حين كانت الكتابة غير مستعملة، وكان ذلك من الأسباب التى أدت إلى ظهور ملاحم البطولة والقصص الشعبية، ونمت تلك التقاليد الشعرية لازدياد تواتر الرواية المنقولة عنها، وكانت المبالغة مستحبة في الإشادة بالمفاخر والأمجاد لإثارة حواس المستمع وانتباهه، ومن الأمثلة الشائعة على ذلك ما جاء في التوارة مثل سفر القضاة مثلاً".[٢٠]

وأجدنى هنا ملزماً بأن القلم لـ "إيمرى نف Emery Neff."[٢١] ليلقى الضوء على ما قدمناه تواً فيقول: "إن الروايات المختلفة الكثيرة في نص الإلياذة والأوديسة التى جاءت في الشروح الهامشية القديمة، على مخطوط بالبندقية نشره العالم الفرنسى سنة ١٧٨٨، واقتباسات قدامى المؤلفين من شعر هوميروس ومنهم أفلاطون وأرسطو وفرجيل، وهى اقتباسات لم ترد في مخطوطاتنا، أقنعت "ولف" Wolf (الذى كتب تقديماً لدراسة أعمال هومـــيروس عام ١٧٩٥) بأن فن الكتابة لم يكن معروفاً عند الإغريق في عصر هوميروس، وأعتقد "ولف" أن هوميروس جمع معظم الملحمتين شفوياً معتمداً على القصص الأسطورى القومى، إلا أن المنشدين قد أضافوا إلى جمعه وغيروا فيه طيلة أربعة قرون تقريباً، ونقلوه بطريق الحفظ حتى دون كتابة في أثينا في منتصف القرن السادس قبل الميلاد، بل إن النص قد تناوله بعد ذلك النحويون والناشرون بالتعديل، وهذا يؤكد الحقيقة الذائعة لقائله بأن الشعب الإغريقى كان حقيقة لا مجازاً هو الشاعر العظيم هوميروس!! وقد أكد المؤرخون في جملتهم أن الملاحم الهومرية ألفت وانتقلت بطريق الرواية الشفوية، بل إن قوة الذاكرة الخارقة عند الشعوب الأمية الحديثة، أثبتت إمكان هذا النقل الشفوى واحتماله، حتى ليقال إن الشيوخ في جزر "هبريديس" يحفظون من الشعر الغالى ما يفوق الإلياذة طولاً، وبالرغم من أن العلماء قد عجزوا حتى الآن عن الاتفاق على ما إذا كان للقصائد الهومرية مؤلف واحد أو أكثر، فإنه أصبح من الواضح أن القصائد المنسوبة إلى هوميروس أشبه بالملاحم الشعبية إلى حد كبير منها بالإنشاء المقصود الذى يقوم به شاعر واحد، كما هو الشأن في "إينيادة" "فرجيليوس". وينقل "إيمرى نف" عن "نيبور" Neibuhr قوله: "من المشكلات التى قد تستعصى على الحل إنشاء ملحمة شعرية لا تعتمد على موضوع عاش قروناً في الأغانى والقصص الشعبية باعتباره ملكاً شائعاً للأمة".[٢٢]

ويأخذ "هرنشو"[٢٣] Hearnshaw مع بحثه الرائع ليؤكد لنا هذا المعنى بقوله: "إن التاريخ من حيث هو سجل العصور الغابرة وديوانها الحافظ لأخبارها، قديم قدم اهتداء

---

[٢٠] شايلد (ج)، التاريخ، ترجمة عدلى برسوم عبد الملك، القاهرة بدون تاريخ، ص٥٢ – ٥٣.

[٢١] المؤرخون وروح الشعر، ص١٢١ – ١٢٢.

[٢٢] إيمرى نف، المؤرخون وروح الشعر، ص١٢٢.

[٢٣] هرنشو (ف)، علم التاريخ، ترجمة عبد الحميد العبادى، القاهرة ١٩٤٤، ص١٥.

نحن هنا إذن أمام كم هائل من الروايات الشفهية تناقلها حفاظ العرب أمة بعد أمة، شعرا كان أو نثراً، وإن كان الشعر هو الغالب لسهولة حفظه، وقد وجد المؤرخون المسلمون الأوائل أمامهم كل هذه الروايات الشفهية فجمعوها، وزاد الأمر كثرة دخول الشعوب المختلفة ذات التاريخ في الإسلام مثل الفرس وجماعات من الروم والمصريين ونفر من بنى يهود، وهؤلاء جميعاً رووا تواريخهم، وحدثوا المسلمين بها وبتاريخ الأمم الأخرى، ويكفى نظرة واحدة إلى تاريخ الأمم والملوك للأمام الطبرى، وقد قدمته هنا بلفظ "الأمام" لأن الرجل كان مفسراً ومؤرخاً، وهذا ما أسلفنا عنه الحديث منذ قليل عند القول بأن المؤرخين المسلمين الأوائل كانوا رواة ومحدثين أو مفسرين، نقول إن نظرة واحدة إلى تاريخ الطبرى تكفى للوقوف على هذا الكم الهائل من الروايات الشفهية التى يوردها هؤلاء المؤرخون الأوائل بعد أن سمعوها وجمعوها، وهو حريص في الوقت ذاته على أن يرويها بسندها، فنراه يذكر مثلاً "... حدثنى ابن أبى سعيد عن عبد الله بن سلام أنه قال: "أو" أو "حدثنا شعيب عن سيف عن الربيع وأبى المجالد وأبى عثمان وأبى حارثة، قالوا:" وهكذا.

ورغم أن ابن خلدون يهاجم في مقدمته نفراً من المؤرخين الأوائل ويذكرهم بأسمائهم، لاعتمادهم على مجرد النقل لما سمعوا أو رأوا وتدوينهم لذلك دون تمحيص، إلا أن هذا لا يلغى مطلقاً الأهمية الكبيرة التى كانت عليها هذه الروايات الشفهية الذائعة والمنتشرة وفى الوقت نفسه المحفوظة شعرا بصفة خاصة أو نثراً، في كتابه التاريخ الإسلامى في أول الأمر. غير أن المسلمين لم يقفوا بتواريخهم عند هذه المرحلة، بل تجاوزوها بمراحل متعددة، ودخل التاريخ من بعد عندهم في مجال العلوم، بل اعتبروه – على حد قول السخاوى – من أحسن العلوم واشهدها، نذر السخاوى نفسه للدفاع عنه وذم من ذمه، وتبيان أهميته وأبعاده وأهدافه، في كتابه الذائع "الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ"، وافرد له بن خلدون الصفحات الطوال في مقدمته الرائعة.

وتشكل الرواية الشفهية الركيزة الأساسية في الموروث الشعبى الذى يحكى مسيرة الشعوب نفسها، وطموحاتها وآلامها، ونبض الحياة الاجتماعية بكل جوانبها، والحياة الاقتصادية من حيث ممارسة الناس لها وتعايشهم في كنفها، بعيداً عن سيرة الحاكم سلطانه، ومن هذا المنطلق يلتف الموروث الشعبى حول جوهره، ويشكل الاثنان معاً – كما حدث في كثير من الأزمان وعند كثير من الشعوب، الأسطورة وهى التى خرج من رحمها التاريخ منذ البداية. وفى العصور الوسطى بصفة خاصة في الشرق الاسلامى أو الغرب المسيحى على السواء، يجد المؤرخ نفسه مدفوعا إلى الاعتماد أحياناً على بعض هذه الروايات أو الموروث الشعبى أو الأسطورة، ليكمل بأى منها ما نقص في المصادر أو الوثيقة التاريخية. ومن ثم فليس غريباً القول إن الرواية الشفهية تعد ضرورة أحياناً لتفسير ما غمض أو صعب فهمه في بعض جوانب الوثيقة التاريخية.

الإنسان إلى صناعة الكتابة، بل لقد كان الناس قبل ذلك العهد البعيد يتذاكرون قصة الأزمنة القديمة، ويتناقلونها ابناً عن أب على شكل روايات شفوية، وكان الغرض الذى من أجله تنحدر تلك القصة من جيل إلى جيل رواية شفوية، هو من غير نفس الغرض الذى ندري من أجله اليوم التاريخ ونكتبه" وهذا ما أشرنا غليه من قبل في صدر هذا البحث.

وتتسم الروايات الشفهية التى تكون الموروث الشعبى بالتلقائية والبساطة من ناحية، كما أنها تدور حول أمور تتعلق بثقافة المجتمع وتقاليده وعاداته وأخلاقه من ناحية أخرى، ويتم ذلك كله بأسلوب مثقل بالخيال والرموز الشعبية التى تخدم الأغراض والغايات الاجتماعية الثقافية للمجتمع، والموروث الشعبى يحمل أفكاراً ثابتة حقاً تمثل المنحى الثقافى للجماعة.

جامعة أكسفورد فى العصور الوسطى

د. زينب عبد المجيد عبد القوى*

مـصـر

فوق المراعى المائية Water-meadows على ضفاف نهر التيمز Thames ونهر أيـزيس Isis عـند نقطـة الالتقاء بنهر شيرويل Cherwell تقع مدينة أكسفورد،[1] على بعد خمسـين ميلاً شمال غرب لندن بحذاء المنطقة العليا اليابسة لشبه جزيرة منخفضة بين مجرى نهـر شيرويل وأعلى التيمز من ناحية الشرق والغرب ، بينما من جهة الجنوب يؤدى انحدار إلى ممر من المراعى الرخوة التى تؤدى إلى جسر المدينة . وهى المنطقة التى يضيق عندها نهـر التـيمز قبل أن يتسع مجراه ويصبح عميقاً بعد اتصاله برافده شيرويل ، وهذه المنطقة كانـت فى الأصل عبارة عن مخاضة كان رعاه الثيران من الأنجلوسكسون الغربيين يعبرون الـنهر بقطعانهم عندها ، متجهين إلى الحقول الرخوة الواقعة على حافة المنحدر ، الذى يشكل لسـاناً أرضـياً بين نهر التيمز ورافده شيرويل . نشأت مدينة أكسفورد فوق هذا المكان التى يعـنى اسـمها "مخاضة الثيران" عند هذه النقطة التى تعتبر ملتقى ثلاثة طرق أحدها قادم من الشـمال ، والآخـر مـن الشرق ، والثالث من الغرب . وعلى الرغم من أن نهر التيمز كان الطـريق المائى الذى تتصل لندن من خلاله بقلب انجلترا ، فلم ينشأ على مجراه سوى مدينة أكسفورد.[٢]

وفى ضوء الغموض الذى يحيط بالتاريخ الباكر لنشأة مدينة أكسفورد التى لم يرد لها ذكـر فى المصادر التاريخية المعاصرة قبل عام ٩١٢م . حيث وردت أول إشارة بأنه فى هذا العـام قـام الملـك الأنجلوسكسونى إدوارد الكبير (٨٩٩-٩٢٤م) أثناء الصراع بين الممالك الانجلوسكسونية "بالاستيلاء على لندن وأكسفورد ، وجميع الأراضى التى أزعنت له بالطاعة

---

* مدرس تاريخ العصور الوسطى ، كلية الآداب ، جامعة الزقازيق.

[١] تظهر مدينة أكسفورد فى الوثائق الملكية والمصادر المعاصرة لتاريخ انجلترا فى العصور الوسطى باسم :
Oxoniensius, Oxoniensis, Oxoniam, Oxoniae, Oxineford; Oxeneforda,
ويدل أصل الاسم Oxen فى اللغة الانجليزية الحديثة على معنى الثيران ، وفى ضوء الطبيعة الجغرافية للمكان الذى شهد ميلاد المدينة فى الحقبة الانجلوسكسونية على أن هذا الاسم يعنى "مخاضة الثيران" انظر :
Historical letters of the Reign of Henry III, ed. by Shirley in (Rolles Series) London, 1866, Vol. II 1236-1273, pp. 251, 301; Roberti Grosseteste, Epistolae, ed. By Luard in (Rolles Series) London, 1861, p. 346; Stubbs, Select Charters and Other Illustrations of English : From the Earliest times to the Reign of Edward the First (Oxford, Ninth Edition, 1913) pp. 106, 199; The Chronicles of the Reigns of Edward I and Edward II, ed. By Stubbs in (Rolles Series) London, 1965, vol. I, pp. 35, 76, 332.

[٢] Mallet, History of the University of Oxford, London, 1968, vol. I, pp. 1, 2; Green, "Oxford in the Middle Ages", (ed.) in English Historians Selected Passages, Oxford, 1957, pp. 141-144; A Short History of the English People, London, 1960, Vol. I, p. 124;
ابراهيم الجزيرى ، مظاهر الحضارة فى انجلترا الانجلوسكسونية خلال عصر الملك ألفريد العظيم ٨٧١-٨٩٩م . رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة طنطا ، كلية الآداب ، قسم التاريخ ، عام ٢٠٠١ ، ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، حاشية رقم (٨٠) .

والولاء"[١] . وقبل ذلك التاريخ ووفقاً لتخمين المؤرخ باركر Parker كانت المدينة مجرد مكان حصين في قلعة هيل Castle Hill الأثر الوحيد الباقى من أكسفورد فى القرن العاشر[٢] .

وقلما نسمع عن أكسفورد حتى القرن الحادى عشر . بيد أنه بدءً من هذا القرن غدت المدينـة هـى المكـان المفضل لانعقاد مجلس الواتانجيموت Witenagemot ، أى مجلس الرجال الحكماء، أثناء حقبة الملكية الانجلوسكسونية (٤٥٠-١٠٦٦م) ، ومقراً لإقامة عدد من الملوك الانجلوسكسون مثل ايدموند الحديدى Edmund Ironside الذى لم يحكم سوى بضعة شـهور من عام ١٠١٦م ، وكانيوت Canute (١٠١٦-١٠٣٥م) . وهارولد عام ١٠٦٦م . وغـداة الغـزو الـنورمانى لانجلترا عام ١٠٦٦م . ومن منطلق رغبة وليم الفاتح فى إحكام قبضـته القويـة علـى انجلترا . قام بتعيين البارون النورمانى روبرت دى أولى Robert d'ailly رئيساً لشركة أكسفورد ، حيث قام بإنشاء القلعة الشهيرة للمدينة عام ١٠٧١م . والتى صممت للأغراض الحربية والكنسية على السواء . حيث قام هذا البارون مع بارون نورمانى آخـر يدعى روجرايفرى Roger d'Ivri ببناء كنيسة تعليمية Collegiate Church تكريساً للقديـس جورج داخل القلعة عام ١٠٧٤م . ولم يلبث ابن أخيه أن أسس ديراً مهيباً فى أوسنى Oseney بين جزر نهر التيمز عام ١١٢٩م.[٣]

فى ضوء ذلك نقول أن المدينة لم تحظ على المستوى الكنسى بأية هيبة تاريخية مثل كاتدرائيـتى كانـتربرى ويـورك . ولم ترق إلى المرتبة الأسقفية التى من الممكن أن تضفى علـيها هالـة من القداسة والشهرة . وليس بها كنيسة كاتدرائية أو ديراً لأحد كبار القديسين ، باسـتثناء ديـر راهبات القديسة فريدازوايد St. Frideswide الذى تم تأسيسه عام ٧٢١م.[٤] علاوة على عدد من الكنائس الأبروشية مثل كنيسة القديس مارتن التى تعد من أوائل الكنائس الأبروشـية فى أكسفورد ؛ وكنيستها بالطبع هى كنيسة المدينة، وكنيسة القديسة مالدريد St. Mildred الـتى أقيمـت تكريسـاً لقديسـة مـن مملكـة مرشـيا Mercia أثـناء الحقبة

---

١ Roger Wendover, Flores Historiarum, ed. H.G.Hewlett, in Rolles Series, London, 1886-89, vol. I, p. 237; Rashdall, The Universities of Europe in the Middle Ages, Oxford, 1936, Vol. III, pp. 6, 7.

٢ Rashdall, op. cit., p. 7.

٣ Lyte, A History of the University of Oxford: From the Earliest Times to the Year 1530, London, 1886, p. 3; Mallet, op. cit., p. 17; Rashdall, op. cit., p. 7.

٤ يذكـر المؤرخيـن رشدال وماليت اعتماد على حوليات دير القديسة فريدزوايد أسطورة فحواها أن فريدزوايد أبنة الملك ديدانيوس Didanus الذى حكم عام ٧٢٦م قد لاذت بالفرار من العاشق الذى طاردها ، يقال أنه ملك Leicesler الشرير ، حـتى حصن فى غابة بينسى Binsey . حيث سالت منها الدماء . واستجابة لصلواتها . تفجر ينبوع من الماء فى هذا المكان ، وأصيب هذا الملك الجائر بالعمى . لتشهد المعجزات على مكانتها السماوية ، وندماً على خطيئة تم تأسيس هذا الديـر فـوق هـذه البقعة . وللهدف من رواية هذه الأسطورة كما يذكر رشدال فى حديثه عن الوجود التاريخى لمدينة أكسفورد أن تأسيس هذا الدير يكون بمثابة إشارة باكرة بأن المدينة وجدت بعد ذلك ، انظر :
Rashdall , op.cit., Vol. III, p. 6; Mallet, op. cit., vol. I, p. 17.

الانجلوسكسونية، وكنيسة القديس بطرس فى الشرق ، وكنيسة القديسة مريم المجدلية خارج أسوار المدينة؛ ودير كنيسة القديس أوغسطين؛ وكنيسة القديس ميخائيل عند البوابة الشمالية للمدينة، ودير أبنجدون الذى امتدت ممتلكاته إلى هينكسى Hinksey ، ويتهام Wytham ، وغابة بيجلى Bagley[١] . وكان رئيس هذا الدير ، الذى يعتبر مؤسسة كبيرة وثرية ، يفرض علــى أصحاب القوارب فى أكسفورد ضريبة مرور تقدر بحوالى مائة من سمك الرنجة عن كل قارب يمر فى أيام الصوم الكبير[٢] .

علــى أية حال ، ففى داخل أروقة المدارس الملحقة بتلك المؤسسات الدينية يمكن أن نميز المراكز الأصلية للتعليم[٣] . ففى أيام القديس بندكت النورسى نفسه St. Benedict of Nursia (ت. سنة ٥٤٣م) صور العالم الأرستقراطى الرومانى كاسيودوروس Cassiodorus الأديرة باعتبارها أكثر الأماكن ملائمة للتعليم ، وأنها المراكز الأدبية فى المجتمع الجديد[٤] ، وقد تمكنت هذه المؤسسات من جذب العديد من الدارسين الفقراء من جميع أنحاء انجلترا ، إن المدارس القديمة ليس فى انجلترا فقط ، بل فى جميع أنحاء أوروبا كانت ملحقة بالأديرة أو الكاتدرائيات ، ونظراً لعدم وجود دليل مضاد فإن التناظر يرغمنا على حد تعبير المؤرخ الأنجليزى بودريك Brodrick على اعتبار الكنيسة الأم المرضعة للجامعة[٥] .

ففــى الوقت الذى قدر لجامعات شمال أوروبا أن تنمو فى صلب المدارس المرتبطة بالمؤسسات الدينية سواء أكانت كاتدرائية أو ديرية أو كنسية فى ضوء ما اصطلح على تسميته بالمدرسة العامة Studium Generale ، والتى تطورت فيما بعد إلى جامعة والتى تمثل المرحلة الأولى من تاريخ نشأة الجامعات[٦] . مع الأخذ فى الاعتبار أن لفظ أو مصطلح الجامعة أو الجماعة Universilas لم يستخدم فى هذه الفترة الباكرة على الاطلاق . وإنما التعبير الذى شاع استخدامه فى نهاية القرن الثانى عشر وبداية القرن الثالث عشر ، وعلى غرار نقابات التجار والصناع ومجالس المدن هو جماعة الدارسين Universitas

---

١ Mallet, op. cit., vol. I, p. 18, Lyte, p. 2.

٢ Mallet, op. cit., p. 17.

٣ Brodrick, A History of the University of Oxford, London, 1894, p. 2 ; Green, op. cit.,p.125.

٤ كانتور ، التاريخ الوسيط (ت. قاسم عبده قاسم ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الطبعة الخامسة ، ١٩٩٧ ، جـ١ ، ص ٢٢٣ .

٥ Brodrick, op. cit., p. 2; Rashdall, op. cit., p. 9.

٦ Mallet, op. cit., p. 3; Lyte, p. 4 ; Brodrick, op. cit, p. 2 ; Willson, A History of England (2nd. London, 1972) p. 121;
جوزيف نسيم يوسف ، نشأة الجامعات فى العصور الوسطى ، الاسكندرية ١٩٨٤ ، ص ١٢١ ، ١٢٣ ، ياسر عبد المعبود ، جامعة باريس ودورها فى النهضة الفكرية بأوروبا فى العصر الوسيط ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، قسم التاريخ ، ٢٠٠٣م ، ص ٢٧ .

Universitas Magistrorium et وجماعــــة الأســـاتذة والدارســـين ، Scholarium
Scholarium.[1]

وفـــى ضـــوء اســـتقراء الواقـــع التاريخى للحياة الأكاديمية فى القرنين الثانى عشر والثالـــث عشـــر والأصـــل التاريخى لكلمة جامعة ، التى كانت تستخدم آنذاك بمعنى الجماعة للدلالة على جماعة الدارسين سواء كانوا أساتذة أو طلاب؛ وليس بمعنى المكان الذى يقيم فيه هـــؤلاء أو حـــتى المـــدارس التى تجمعهم؛ أى ليس ثمة ضرورة أن تكون الجامعة مرتبطة بـــالمدارس . وفـــى هذا الصدد يذكر المؤرخ راشدال Rashdall أنه ليس من الضرورى فى الأســـاس الـــربط بين المؤسسة التى يشار إليها بكلمة الجماعة ، وتلك التى يشار إليها بمعنى المدرســـة العامـــة لأن جماعات الأساتذة والدارسين قد وجدت بالفعل قبل أن يخرج مصطلح المدرســـة العامـــة إلـــى حيز الاستخدام[2] . وتوجد بالفعل أمثلة قليلة تدل على وجود هذه مثل الجماعـــات أو الهيئات فى المدارس التى لم تصبح مدرسة عامة Studia generalia . وعلى أيـــة حـــال فقـــد كانـــت الجامعـــة فى الأساس عبارة عن نقابة تعليمية سواء من الأساتذة أو الدارســـين، ومـــثل هـــذه النقابات خرجت إلى حيز الوجود مثل النقابات الأخرى ، بدون أى تفويـــض واضح من الملك ، البابا ، الأمير ، أو رجل الدين . فقد جاء ظهورها عفوياً وتلقائياً مثل الموج الهادر الذى اكتسح مدن أوروبا فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر.[3]

وفـــى ضوء ذلك كان مصطلح الجامعة ينطبق بشكل خاص على جموع الأشخاص الذيـــن يـــرتادون مراكز الدراسة الكبرى، ويستخدم بالفعل كمرادف لكلمة مدرسة Studium للدلالة على المؤسسة نفسها.[4]

وبـــالفعل فـــإن كلمـــة جامعـــة فى الفكر الانجليزى فى العصور الوسطى تدل على مؤسســـة تعليمـــية بمعـــنى المدرسة العامة ، ليس للدلالة على المكان الذى تدرس فيه جميع المواد، ولكن المكان الذى يتلاقى فيه الدارسون من جميع الجهات . وهذا الاستخدام للفظ يبدو أنـــه انجليزى الأصل ، لأن جامعة أكسفورد قد ذكرت بالفعل بمعنى المدرسة أو المدارس فى كـــل المراســـيم الملكية التى صدرت فى أعوام ١٢٣٨ ، ١٢٤٠ ، ١٢٥٣م . بينما كان المقر الأكـــبر للتعليم على ضفاف نهر السين حتى عام ١٢٦٣م يسمى فى المصادر المعاصرة باسم جماعة الأساتذة والدارسين[5] .

---

1. Knowles, The Evolution of Medieval Thought, London, 1970, p. 153; Rashdall, op. cit., vol. I, pp. 5, 6; Lyte, op. cit., p. 4, Willson, op. cit., p. 121.
2. Lyte, op. cit., p. 5; Rashdall, op. cit., vol. I, pp. 5, 15.
3. Lyte, op. cit., p. I; Rashdall, op. cit., p. 15.
4. Lyte, op. cit., p. 4.
5. Lyte, op. cit., p. 4; Rashdall, op. cit., vol. I, p. 15.
سعيد عاشور ، أوروبا العصور الوسطى ، جـ٢ ، النظم والحضارة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٨م ، ص ١٧٥ .

وبالـــرغم من وجود شبه إجماع بين المؤرخين الإنجليز المحدثين على ارتباط أصل مـــدارس أكســـفورد بالكـــنائس الديرية ، فإن المؤرخ الإنجليزى رشدال Rashdall فى ثنايا حديثة عن الأصل التاريخى لجامعة أكسفورد يؤكد بأنه جاء متفرداً ، بمعنى أنها انفردت عن ســـائر جامعـــات شـــمال أوروبا بأنها لم ترتبط في تطورها بأية كنيسة كاتدرائية أو ديرية ، لاسيما وأن المدينة لم يوجد بها كنيسة كاتدرائية كما سبق الإشارة ، ولكن يمكن تبرير وجهة نظـــر هـــؤلاء المؤرخين الإنجليز من وجهة نظر المؤرخ رشدال بأن الأساتذة والدارسين فى مـــدارس أكسفورد كانوا تحت إشراف عضو ينتمى إلى المؤسسة الديرية ، على غرار أساتذة بـــاريس الذيـــن كـــانوا تحت سلطة ما اصطلح على تسميته باسم مستشار كاتدرائية نوتردام Chancellor of Notre Dame وأن المـــدارس الـــتى تأسســـت فـــى البداية قد وجدت فى المـــناطق المتاخمة لدير القديسة مارى ، وهى كنيسة أبروشية استخدمت بواسطة الجامعة من أجل اجتماعاتها، مما يعنى أن هذه المدارس لم توجد حتى فى المناطق المجاورة لدير القديسة فـــريدزوايد، والـــذى تأســـست المدينة فى ظله ، وبمجرد أن استكملت الجامعة تكوينها كان الأســـاتذة والطـــلاب تحت سلطة مستشار Cancellarius or Chancellor ، ينتخب رسمياً بواســـطة الأساتذة ، بيد أنه يستمد سلطته وصلاحيته من أسقف لنكولن Lincolniensis or Lincoln الذى تتبعه المدينة كنسياً.[1]

وفى ضوء الاستقراء التاريخى للتاريخ الباكر لجامعة أكسفورد فإن الباحث يتفق مع وجهـــة نظـــر المـــؤرخ رشدال ، وأؤكد على أن اصطلاح المدرسة العامة ليس المقصود به اعتبار أن جامعة أكسفورد كانت فى الأصل مدرسة ديرية ، ذلك أن المدارس الديرية الكثيرة فـــى أكســـفورد ، والتى سبق الإشارة إليها فى مقدمة هذه الدراسة ، شأن قريناتها فى شمال غرب أوروبا ، والتى اقتصرت الدراسة فيها على ما يسمى الفنون السبعة الحرة بمجموعتيها الثلاثـــية Trivium وتشـــمل الـــنحو والبلاغة والمنطق ، والرباعية Quadrivium وتشمل الحساب والهندسة والفلك والموسيقى . وكان التعليم داخل أروقة هذه المدارس الديرية منصباً على الإنجيل واللاهوت ، ولا يستهدف غرضاً إلا إعداد النشئ ليصبحوا من رجال الدين.[2]

وفى محاولة لفض الاشتباك بصدد اعتبار جامعة أكسفورد فى الأصل مدرسة ديرية، إنمـــا يـــنطوى من وجهة نظر الباحث فى ضوء هذه الدراسة على خطأ فادح ، لأن ارتباطها بالأديـــرة إنمـــا جـــاء من خلال أن الجامعة فى تاريخها الباكر لم يكن لها أبنية خاصة بها ، فاســـتخدمت فى إلقاء المحاضرات الغرف والقاعات الملحقة بالكنائس والأديرة ، والتى كانت خاضعة بدورها للإشراف الكنسى لأسقف لنكولن . ومن ثم فإن القول بأن جامعة أكسفورد قد

---

١ Rashdall, op. cit., vol. III, pp. 9-11.

٢ Mallet, op. cit., pp. 5-6.

جوزيف نسيم يوسف ، المرجع السابق ، ص ١٢٣ ، كانتور ، المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٣٨٧ .

خرجـت مــن عـباءة المدرسة العامة الملحقة بالأديرة أو الكنيسة ، ينبغى تفسيره وفهمه فى ضوء هذه الخلف.

ونتســاءل هنا لماذا اتخذت أكسفورد من بين جميع المدن والأماكن فى المملكة لتقام بها أول وأعرق جامعة قومية ؟

لا مــراء أن مـدارس أكســفورد الــباكرة ، والتى تتوارى خلف ضباب كثيف من الغمــوض ، إنمــا تديــن بشهرتها إلى الموقع الاستراتيجى للمدينة على ضفاف نهر التيمز ، وعلـــى الحدود بين مقاطعتى وسكس Wessex ومرشيا Mercia ، وبفضل هذا الموقع غدت أكسفورد ، أثناء فترة الصراع بين الممالك الانجلوسكسونية ، مدينة رئيسية يتبارى للاستيلاء علـيها ملــوك مقاطعــتى وسكس ومرشيا ، اللتين كانتا أكبر مقاطعات الشطر الجنوبى من المملكـــة، حيث النصف الأكثر أهمية وحضارة فى المملكة[1]؛ كما يمكن الوصول إليها بسهولة مــن لندن . وبالتالى يكون موقعها ملائماً كمدينة جنوبية للدارسين القادمين من أقصى الشمال والغــرب ، إن الأهمية الاستراتيجية الناتجة عن هذا الموقع هى التى أدت فى عهد وليم الفاتح إلـــى بــناء بــرج القلعة ، فى الغرب من المدينة ، والتى تعد واحدة من أفخم وأروع القلاع الانجلـيزية؛ عــلاوة على إقامة الأرل داخل قلعتها، والزيارات المتكررة للملوك الانجليز فى القرن الثانى عشر ، فقد قام هنرى الأول (١١٠٠-١١٣٥م) آخر ملوك الحقبة النورمانية ببناء قصــر بالقــرب مــن ضفة نهر التيمز عند بيمونت Beaumont ، الأمر الذى يعكس إيثار السلطة الملكية لهذه المدينة، التى تبوأت مكانتها كواحدة من المراكز الرئيسية للحياة السياسية فــى جــنوب انجلــترا، حيث أمست المكان الملائم لاجتماعات المجلس الكبير الذى اصطلح المؤرخــون علـــى تســميته بالبرلمان، وأيضاً المجامع الكنسية ، وإضافة لهذا الثقل السياسى للمديــنة ، فإن الزيادة المطردة فى الأهمية التجارية للمدينة ، وانفرادها بوجود تجمع لعدد من أكثر اليهود الانجليز ثراء فى قلب المدينة، مما يشير إلى ازدهار تجارتها[2] . وفى هذا الصدد كـــان بــرجوازية المدينة فخورين لتمتعهم بحرية مماثلة لتلك التى حظيت بها مدينة لندن[3] . وأخــيراً تعتــبر أكسفورد أفضل مدينة تعطى مثالاً للتغير الذى طرأ على أرضها على أيدى الــنورمان ، حيــث شهدت المدينة طفرة هائلة فى العمل الصناعى والتجارى ، وعالم المال والثروة .

---

١ Rashdall, op. cit., p. 7; Mallet, op. cit., p. 15; Green, op. cit., p. 124.

٢ Rashdall, op. cit., p. 8; Mallet, op. cit., p. 16; Green, op. cit., p. 124-125.

٣ يقصد بذلك العهد أو الامتياز الذى ظفرت به أكسفورد فى عهد الملك هنرى الثانى (١١٥٤-١١٨٩م) . والذى تضمن منح مواطنى أكسفورد حرية التجارة بجميع اعفاءتها والرسوم المألوفة على الحقول والغابات والمراعى والممتلكات الأخرى . واعفاءهم من المكوس الجمركية فى جميع أنحاء انجلترا ونورماندى ، فى البر والبحر ، وعدم مقاضاة أحد ممن يقاضيهم خارج مدينة أكسفورد ، لمزيد من التفاصيل عن هذا العهد انظر :
Charter of Henry II to Oxford A.D., 1155-1162, Stubbs (ed.) op. cit., pp. 198-199.

وفى ضوء هذه المقومات فإن العقل لا يقبل فكرة أن تقام أولى الجامعات الانجليزية وأكثرها أهمية فى أى مكان آخر غير مدينة أكسفورد التى يحق لها أن تشعر بالرضا والزهو لهـــذا المركز الأكاديمى الذى جاء مطابقاً وموقعها الملائم[١] ، الذى هيأ لها أن تكون واحدة من أكـــثر المـــدن ملائمـــة لإيواء وإطعام الآلاف من الغرباء واحتضان تلك الجموع الهائلة من الدارسين.[٢]

إن الجامعـــات الباكرة فى أوروبا لم تكن تنتمى إلى مؤسسين أشخاص ، ولا تواريخ مؤكدة لتأسيسها ، وحيث يقيم الأساتذة المشهورون يكون الارتحال إليهم من المناطق الموحشة والنائـــية وســـط المخاطـــر اليومـــية للحياة فى العصور الوسطى. وتهفوا إليهم عقول وأفئدة الدارسين الذين يرتادون أماكنهم بحماس هائل وأعداد كبيرة ، وبالتالى ظهور ما اصطلح على تسميته "المدرسة العامة" حيث يجتمع الدارسون من جميع الجهات.[٣]

ومـــن المؤكد وجود مدارس فى أكسفورد أثناء حكم الملك هنرى الأول ، إذ يستدل مـــن الرسائل الخمسة Epistolae لثيوبالدستامبس Theobaldus Stampensis[٤] ، وتحديداً رسالتيه الموجهتين إلى كل من فاريتوس Pharitus رئيس دير أبنجدون Habendonensis or Abinagdon فـــى انجلـــترا (١١٠١-١١١٧م)، وروسلليتوس Roscellinus أحد رجال الديـــن فى انجلترا، الذى اضطر للفرار منها تحت وطأة معارضة من رجال اللاهوت ، يذكر

---

١ Rashdall, op. cit., p. 9.

٢ Rashdall, op. cit., p. 8.

٣ Mallet, op. cit., p. 2.

٤ أولى هذه الرسائل المنسوبة إلى ثيوبالد كانت موجهة إلى أسقف لنكولن ، وتتضمن تفنيد لاهوتى لاذع لهؤلاء الذين يشكون فـــى الكتب المقدسة . والثانية إلى فاريتوس رئيس دير أبنجدون فى انجلترا بعنوان "الأطفال غير المعمدين لا يمكن أن يـــنالوا السعادة الأبدية" إذ يقول فيها "... الأطفال غير المعمدين هم بلا شك من الهالكين ، أما المعمدون فإذا انتقلوا على الفـــور ، فهم بالتأكيد من الخالصين . فإذا ما أراد أعداء الحقيقة أن ينبحوا ضد هذا الرأى الكاثوليكى ، فأنا على استعداد لانتقادهم كتابة وشفهياً كخطاة آثمين وكلاب لئيمة .." أما الرسالة الثالثة التى يذكر نفسه فيها كأستاذ فى جاين بفرنسا فقد كتـــبها إلى مرجريت ملكة اسكتلندا التى توفيت عام ١٠٩٣م . ممجداً فيها سخائها إذ يقول : ".. إذا ما بدوت مقصراً فى تسجيل مديحى لكى ، فلا ترجعين ذلك قط إلى جفائى وكسلى ، لأنه لو تحولت جميع أعضائى إلى ألسنة ، ما استطاعت إزاء كل ما لديك من أمور تستحق الإشادة أن توفيها حقها من المديح .." ويختتم رسالته بأن يكون له شرف الانضمام إلى كهنـــتها ، وأن يكـــون لها بمثابة ملاك المشورة لكى تتفقه الأمور القويمة" والرسالة الرابعة إلى صديقه فيليب Philipp معزياً إياه لما يلقاه من إهانات قائلاً : ".. قال أحد الحكماء أفضل أن يعتبرنى الناس لئيماً لذنب يسير أقترفه علناً ، على أن يعتبرونى باراً ، مع ذنب جسيم أقترفه أمام الله .." وفى هذه الرسالة يقدم نفسه باعتباره استاذ فى جاين . أما الرسالة الخامســـة والأخـــيرة عبارة عن تفنيد لادعاءات روسليوس ويلومه بشدة لقوله أن أبناء الكهنة الذين جاءوا نتيجة خطيئة الجســـد غـــير صـــالحين للكهنوت . إذ يقول فى رسالته : ".. إذا كنا مولودين من أب واحد ، ومن أحشاء كنيسة مقدسة واحدة" ، " لا مكان لكيل الاتهامات ، ولا داعى لتكبر هذا على ذاك .. إن الرب مخلصنا ، إنما تجسد فى صورة البشر وخدم الحر والعبد ، ليقدم المكافأة السماوية بتساوى المجد والكرامة لجميع الذين يؤمنون به .." ، لمزيد من التفاصيل انظر النص الكامل لهذه الرسائل الخمسة فى :

Theobaldus Stampensis, Epistolae, in Patrologia Latina, (ed.) Migne, Paris, 1854, Tome, CLXIII, pp. 759-770.

أنه كان استاذ فى أكسفورد "Magister Oxenefordiae"؛ فى حين يذكر نفسه فى رسالتين آخرتيـــن بأنه كان أستاذ فى جاين Gadumensis or Gaen[١] . ويستدل من مضمون رسائله بأنه رجل لاهوت شهير وليس راهباً ، وأنه فرنسى أو نورمانى ، وقام بالتدريس فى أكسفورد فى فترة ما قبل عام ١١١٧م ، تحت رعاية قساوسة دير القديسة فريدزاويد ، لعدد يتراوح بين ســتين أو مائة دارس تقريباً ، ويعتبر بالفعل أول الأساتذة الذين وردت أسمائهم فى السجلات الباكرة لمدارس أكسفورد.[٢]

ولـــم تلبث مدارس أكسفورد عام ١١٣٣م أن اجتذبت عالم لاهوت شهير من أساتذة بـــاريس يدعـــى روبـــرت بوللوس أو بوللين Robert Pullus or pullen ، حيث مكث فى أكسفورد زهاء خمس سنوات محاضراً فى الكتاب المقدس؛ وجلس جون السالزبورى John of Salisbury أمامه كدارس.[٣]

وبعـــد ســـنوات قلـــيلة مـــن رحيل روبرت بوللين ، جاء إلى انجلترا عالم القانون اللمـــباردى الشهير فاكاريوس Vacarius[٤] . ووفقاً لرواية كل من جيرفاس راهب كاتدرائية كانـــتر بـــرى Gervasii Cantuariensis ، وروبرت تورين Roberti de Torugnion ،

---

١ Loc. cit.

٢ Rashdall, op. cit., pp. 17, 18; Mallet, op. cit., pp. 20, 20

٣ كـــان روبـــرت بوللين انجليزياً من مقاطعة استر Exter ، من نتاج المدارس الفرنسية ، ومؤلف لكتاب "ثمانية كتب فى الأحكـــام Sententiorum Libre Octs . وعرض عليه هنرى بوكليرك Henry Beauclerc أحد رجال بلاط هنرى الـــثانى ، الـــذى كان تواقاً لخدمة هذا العالم المبجل ، وظيفة الأسقف ، بيد أنه "اكتفاء بالطعام والملبس" لم يبد قبولاً لأية وظـــيفة عليا أكثر من وظيفة رئيس شماسة روشيستر Rochester ، وبعد فترة من عودته إلى باريس توجه إلى روما ، حيث تم تعيينه عام ١١٥٤ مستشاراً للبلاط البابوى ، لمزيد من التفاصيل انظر :
Lyte, op. cit., p. 10; Bordrick, op. cit., p. 5; Mallet, op. cit., p. 21; Rashdall, op. cit., p. 18.

٤ ولد فاكاريوس الذى يعنى اسمه "راعى البقر" عام ١١١٥ أو ١١٢٠م ، فى اقليم لمبارديا . درس القانون فى مدرسة بافيا Pavea الـــتى تأسست لدراسة القانون عام ١١٢٠م . ومن المؤكد أنه جاء إلى انجلترا قبل عام ١١٤٩م ببضعة سنوات تلبـــية لرغـــبة ثـــيوبالد رئـــيس أساقفة كانتربرى ، لمساندته فى تسوية نزاعه مع هنرى بلوا Henry of Blois أسقف وينشيســـتر ، الـــذى كـــان يرغب فى استرداد وظيفة ممثل البابوية فى انجلترا ، بيد أن المؤرخ ليبرمان Liebrmann يدحض ما ذكره جيرفاس فى روايته بأن فاكاريوس جاء إلى انجلترا كمحامى للتقاضى والبت بين اثنين من رجال الكنيسة همـــا هنرى ورئيس الأساقفة حيث كان الاثنان من وجهة نظر ليبرمان بحاجة إلى سلاح القانون الكنسى فقط . الذى كان يـــدرس علـــى يد رجال الدين الانجلو نورمان قبل مجئ فاكاريوس بوقت طويل . وعاش فاكاريوس فترة من الوقت فى مدينة كانتربرى ، حيث المدارس مزدهرة ، وحيث اعتاد رجال القانون الإيطاليين أمثال فاكاريوس مساعدة الأساقفة فى مراســـلتهم للبلاط البابوى فى الدعاوى القانونية . وقد تملك الذعر الشديد الملك ستيفن الذى لم يستطع أن يتجاهل التقدم السريع فى مجال دراسة علم ينذر بتهديد الأسس الإقطاعية للملكية الانجلونورمانية ومن ثم يجب تفسير السياسة العدائية للملـــك ســـتيفن تجـــاه فاكاريوس فى ضوء الغريزة السياسية للملكية الانجليزية . وليس من منطلق الكراهية الشخصية لفاكاريوس ، لذا فقد طالبه الملك بالامتناع كلية عن إلقاء محاضراته ، كما صدر مرسوماً ملكياً يمنع الانجليز من امتلاك أية كتب عن القانون الأجنبى ، وتم إحراق عدد كبير من المخطوطات ، ولم تفلح هذه السياسة القمعية ورغم أنه لم يرتق أية وظيفة كنسية مهمة ، فقد حظى فى أخريات أيامه باحترام البابا ، ففى عام ١١٩٨ فوضه البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦م) للدعوة لحملة صليبية فى مقاطعة يورك بانجلترا ، لمزيد من للتفاصيل انظر :
Liebrmann, "Magister Vacarius" in E.H.R. April, 1896, pp. 305-314.

اللذين عاصرا حياة هذا العالم القادم من جامعة بولونيا بإيطاليا، فقد قام بالتدريس فى أكسفورد معلماً للقانون المدنى ، تحت رعاية ثيوبالد Theobald رئيس أساقفة كانتربرى عام ١١٤٩م، أثناء حكم الملك ستيفن (١١٣٥-١١٤٥م)[١] . ويعتبر بدون منازع أول معلم للقانون المدنى فى انجلترا . لذا ليس ثمة غرابة أن يرتاده أعداد كبيرة من الدارسين فى أكسفورد ، واستجابة للدارسين الفقراء قام بعمل ملخص دقيق فى تسعة كتب عرف باسم "كتاب الفقراء" Liber Pauperum، عبارة عن موجز لمجموعة القانون المدنى للإمبراطور جستنيان ، احتل مكانة بارزة فى المواد الدراسية وحظى بالشعبية بعد تصنيفه ضمن الكتب المدرسية فى أكسفورد فى نهاية القرن الثانى عشر.[٢]

ومن الجدير بالذكر أنه بدون تشجيع التاج والكنيسة على السواء ما كان من الممكن أن تحقق مدارس أكسفورد الشهرة التى حظيت بها قبل نهاية القرن الثانى عشر.[٣] لاسيما بعد أن شهدت أروقتها قيام واحد من أبرز العلماء البولونيين – فاكاريوس – بالتدريس منذ أربعينيات هذا القرن ، وأن كثيرين مما عملوا فى الجهاز الإدارى الملكى ، فى الشطر الأخير من عهد هنرى الأول تلقوا تعليمهم فى فرنسا وإيطاليا ، ويذكر فى هذا الصدد أن الملك هنرى الأول أجر لمدارس أكسفورد مزرعة المدينة مقابل إيجار سنوى قدره ثلاثة وستون جنيهاً ، وتتألق مدارس أكسفورد بعد إنشاء دير أوسنى Oseney عام ١١٢٩م ، وضم كنيسة القديس جورج التعليمية إلى داخل القلعة واستخدامها فى إيواء الدارسين الشبان ، مما ساهم فى زيادة عدد طلبة أكسفورد[٤] .

وفى عهد هنرى الثانى (١١٥٤-١١٨٩م) ووفقاً لما تذكر المصادر المعاصرة ، فقد بدا قصره وكأن هناك مدرسة كل يوم ، واقتداء بخطى أبيه جيوفرى بلانتجنت كونت انجو Anjou جمع حوله أبرز المؤرخين ودارسى القانون ورجال الكنيسة من أشهر الرجال المتعلمين فى عصره ، مثل جون السالزبورى ، وارتقاء أحد تلاميذ دير القديس البانس St. Albans نيقولاس برسكبير الكرسى الرسولى فى روما تحت اسم البابا أدريان الرابع

---

١ Gervasii Cantuariensis, Actus Pontificum, ed. By William Stubbs, in the Hist, Wrks of Gervase of Canterbury, vol. II (Rolles Series) 1965, pp. 384, 385; Chronica Roberti de Torigneio, ed. by Richard Howlett, in the Chronicles of the Reigns of Stephen, Henry II and Richard I, vol. IV (Rolles Series) London, 1964, pp. 158-159; Rashdall, op. cit., p. 19; Lyte, op. cit., p. 10; Mallet, op. cit., p. 21, Bordricke, op. cit., p. 4; Davis, England Under the Normans and Angevins, 1066-1270, London, 1930, pp. 191, 192; Green, op. cit., p. 124.

٢ Chronica Roberti de Torigneio, p. 159; Liebrmann, op. cit., p. 309; Davis, op. cit., p. 192, Rashdall, op. cit., p. 21; Lyte, op. cit., p. 10; Mallet, op. cit., p. 21.

٣ Bordrick, op. cit., p. 6.

٤ Loc. cit;

كانتور ، المرجع السابق ، ص ٤٣٨ .

Adrian IV (١١٥٤-١١٥٩م) . وكانـت تلـك هى المرة الوحيدة فى التاريخ التى أدار فيها الشئون البابوية رجلاً انجليزياً.[١]

وغدا مقر رئيس أساقفة كانتربرى بمثابة مركز أدبى وعلمى زائع الصيت ، استحق أن يُنعـت باسـم "معسـكر الرب وبوابة السماء". وأطلق على انجلترا فى عهد هنرى الثانى "فـردوس الدارسين" دليلاً وبرهاناً على وجود نشاط تعليمى حقيقى علاوة على ذلك فقد ساهم التواجد الدائم للملك فى أكسفورد فى زيادة أهمية المدينة.[٢]

وفـى هـذا التوهج العلمى وفى ثنايا النزاع بين هنرى الثانى وتوماس بيكيت رئيس أسـاقفة كاتدرائـية كانتربرى على مدى الفترة من ١١٦٤-١١٧٢ . والذى أضطر فى أثناءه رئـيس الأساقفة للإقامة فى أحد الأديرة التابعة لطائفة السيسترشيان فى بونتجنى Pontigny بفرنسـا . وأيضاً النزاع السياسى بين هنرى الثانى والملك الفرنسى لويس السابع . فإن تاريخ جامعـة أكسـفورد يجـب أن يؤرخ من عهد هنرى الثانى[٣] ، فمن بين سلسلة المراسيم التى أصدرها الملك الإنجليزى ضد توماس بيكيت وأتباعه ، المرسوم الذى تضمن فقرة تنص على "مـن الآن فصـاعداً لا يسمح لأى شخص بالعبور من انجلترا إلى القارة ، أو من القارة إلى انجلـترا ، بـدون إذن صريح من التاج ، ومن يخالف ذلك يقبض عليه ويسجن ، واستدعاء جمـيع رجال الدين الذين يمتلكون إيرادات فى انجلترا ، من خلال حكام المقاطعات ، للعودة فـى غضون ثلاثة أشهر ، إذا كانوا حريصين على أملاكهم وإيراداتهم ، وإذا لم يحضروا فى الوقـت المحـدد توضع أموالهم وممتلكاتهم فى قبضة الملك[٤] ، وقد أسفر ذلك عن عودة عدد كبـير مـن الأساتذة والدارسين معظمهم من رجال الدين إلى انجلترا إذعاناً للأمر الملكى عام ١١٦٧م، حيث أصبح من المتعذر على الدارسين الإنجليز الاستمرار فى دراستهم بفرنسا[٥] .

ويوجـد شـبه اجماع بين المؤرخين الانجليز المحدثين على أن تاريخ ميلاد جامعة أكسفورد باعتبارها "مدرسة عامة" يبدأ بهذه العودة الاضطرارية التى حدثت عام ١١٦٧ نتيجة للنزاع الكنسى والسياسى آنذاك . بيد أن الباحث يضيف إلى ذلك أن جامعة أكسفورد إنما تدين

---

١ Mallet, op. cit., p. 19;

كانتور ، المرجع السابق ، ص ٤٥٠ .

٢ Mallet, op. cit., p. 19.

٣ Rashdall, op. cit., p. 23; Mallet, op. cit., p. 22.

٤ من الجدير بالذكر أن الفقرة الخاصة بعودة الدارسين ورجال الدين من فرنسا ، عبارة عن دمج للبند الثانى والثامن من هذا المرسوم الملكى الذى يتضمن عشرة بنود . انظر النص اللاتينى لهذا المرسوم فى :
Willeimo Cantuariensi, Vita S. Thome, in, Materials for the History of Thomas Becket, vol. I, (ed.) Robertson, (Rolles Series), London, 1965, pp. 53-55;

ولمزيد من التفاصيل عن النزاع بين هنرى الثانى وتوماس بيكيت انظر :
Knowles, Thomas Becket, Stanford, 1970, pp. 1-183.

٥ Rashdall, op. cit., p. 24;

سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ١٨٤ .

بنشأتها بل ووجودها أيضاً إلى المدارس القديمة الملحقة بالأديرة أكثر من هذه الهجرة المفاجئة التى حدثت بعد مرسوم الملك هنرى الثانى مع الأخذ فى الاعتبار أن أصل جامعة أكسفورد كمدرسة عامة ملحقة بالأديرة لا يعنى أبداً كونها مدرسة ديرية كما سبق ذكره .

على أية حال ، فقد تطلع هؤلاء الأساتذة والدارسين العائدين للبحث عن مركز جديد للتعليم ، وتنظيم مقاعدهم فى مكان آخر ، ووجدوا فى أكسفورد المرفأ الملائم ، ومن ذلك الحين فصاعداً كثرت الأدلة والإشارات التاريخية بأن أكسفورد قد أصبحت بالفعل مكاناً للدراسة أى مدرسة عامة فى ضوء اصطلاح العصر ، تذخر بالأساتذة والدارسين والتخصصات من جميع الجهات ، وأحد مراكز التعليم الكبرى فى السنوات الأخيرة من حكم هنرى الثانى راعى الحركة الفكرية فى انجلترا آنذاك[١] .

إن أول إشارة عن مدارس أكسفورد بعد عام ١١٦٧ إنما وجدت فى ثنايا الوصف الشيق الذى تم سرده من قبل الرحالة والمؤرخ الويلزى جيرالد بارى Gerald de Barri ، الذى اشتهر بالاسم اللاتينى جيرالد كامبرنسيس Geraldus Cambrensis والذى يتحدث عن زيارته لأكسفورد عام ١١٨٦[٢] . عندما قرأ كتابه الرصين "طبوغرافية أيرلندا" أمام الأساتذة والدارسين المجتمعين فى أكسفورد على مدى ثلاثة أيام ، ووفقاً لراويته حيث يتحدث عن نفسه بضمير الغائب قائلاً : "عندما حان الوقت ، وتم انجاز العمل ، لم يرغب فى إخفاء علمه ومعرفته ، ويأبى أن يخفى شمعته تحت غطاء ، بل يود أن يضعها فى شمعدان ليشع ضوئها على الجميع ، لذا قرر قراءة كتابه علناً أمام جمع ضخم فى أكسفورد ، حيث يوجد بها أشهر رجال الاكليروس الإنجليز علماً ، وأمام هذا الحشد الكبير قسم عمله إلى ثلاثة أقسام ، كل قسم استغرق يوماً ، واستغرقت القراءة ثلاثة أيام متتالية ، ففى اليوم الأول استقبل فى مقر إقامته الطلبة الفقراء من المدينة؛ وفى اليوم الثانى جميع الأساتذة والبارزين من تلاميذهم فى التخصصات Faculties المختلفة؛ وفى اليوم الثالث باقى الدارسين ، بالإضافة إلى الكثير من

---

١ Mallet, op. cit., p. 23.

٢ ولد جيرالد فى ويلز عام ١١٤٧ ، ورحل إلى باريس للدراسة ، ثم أصبح محاضراً مشهوراً فى المجموعة الثلاثية Trivium من الفنون السبعة الحرة ، وفى ضوء روايته عن تميزه كما ذكر فى حوليته ، أنه عندما كان أساتذة الآداب يرغبون فى اختيار نموذج للدارسين الممتازين ، كان الاختيار يقع عليه . وعندما عاد إلى موطنه الأصلى انجلترا ، أرتقى منصب رئيس شماسة بريسون Brecon . بيد أنه لم يتمكن من ارتقاء منصب أسقف كنيسة القديس ديفيد ، ولم يترك مدارس باريس إلا بعد أن أتم دراسته فى القانون الكنسى واللاهوت ، وفى عام ١١٨٤م تم تعيينه واحداً من قساوسة الملك هنرى الثانى ، وبعدئذ أرسله الملك مرافقاً لابنه الأمير جون إلى ايرلندا ، وأسفرت هذه الرحلة عن كتابة أثنين من أهم أعماله هما وصف طبوغرافية ايرلندا ، والفتح الانجليزى لجزيرة ايرلندا . لمزيد من التفاصيل انظر :
Giraldus Cambrensis, Opera, (ed.) Brewer, vol. I, (Rolles Series) London, 1861, pp. 72-73; Rashdall, op. cit., p. 25; Lyte, op. cit., pp. 12, 13; Bordrick, op. cit., p. 6; Mallet, op. cit., p. 23.

الفرســان وســكان المديــنة . وكان هذا عملاً نفيساً ونبيلاً ، يحتاج إلى شعراء العالم القديم لتمجيده وتخليده ، حيث لم يحدث ذلك من قبل فى انجلترا"[1] .

لا مــراء أن هــذا الوصف إنما يزيح النقاب عن تأكيد راسخ لوجود مؤسسة علمية أكبر من مجرد مدرسة عادية سواء كانت كاتدرائية أو ديرية . وفى ثنايا هذا الوصف تتراءى أيضــاً الســمات المميزة للمؤسسة العلمية من خلال المدرسة العامة Studium generale . وهــو الاصــطلاح الذى أطلق فى العصور الوسطى وفى انجلترا تحديداً على ما نعرفه اليوم باسم الجامعة . والتى يتطلب قيامها اجتماع الأساتذة والدارسين فى العديد من التخصصات فى مكان ما . وهذا ينطبق على هؤلاء المستمعين لقراءة جيرالد[2] . علاوة على ذلك ووفقاً لراوية المؤرخ رشدال أنه من بين الأشخاص الذين تم شفائهم بزيارة ضريح القديس توماس بيكيت ، شــخص يدعــى روبــرت ، والذى تولى رئاسة دير القديسة فرايدزوايد فى أكسفــورد عام ١١٤١م. حيــث سمح له بمقعد للوعظ فى حضور الدارسين من مختلف أنحاء انجلترا . وكان أول من سمح له باستخدام مقعد عندما يقوم بالوعظ[3] .

وخــتاماً لهــذا الســيل المــتدفق من الأدلة التاريخية التى تعكس اجماع المؤرخين المحدثيــن بــأن البداية الحقيقية لظهور مؤسسة علمية فى أكسفورد ، إنما يرجع إلى الأحداث الــتى أســفرت عن الرحيل الجماعى للدارسين الإنجليز فى باريس بمقتضى المرسوم الملكى عــام ١١٦٨م، وبالــتالى الحرمان من حرية المرور إلى مركز كبير للتعليم الأوروبى . فمن الطبــيعى أن تــتذبذب أعداد الذاهبين إلى مدارس أكسفورد وتتأرجح مع كل تغيير يطرأ على العلاقــات السياسية بين فرنسا وانجلترا، لاسيما فى الفترة من ١١٧٥-١١٨٥م؛ حيث شهدت هــذه الفترة سلسلة متتالية من المنازعات بين المملكتين[4] . ولعل أبرز مثال على ذلك ما حدث للمــؤرخ والرحالة جيرالد ويلز ، الذى منع نتيجة لهذا النزاع من الذهاب إلى باريس لدراسة اللاهوت عام ١١٩٢م[5] .

---

١ Giraldus Cambrensis, op. cit., p. 73; Lyte, op. cit., pp. 13-14, B ordricke, op. cit., pp. 6,7; Mallet, op. cit., p. 24;

كان كتاب "طبوغرافية ايرلندا" بمثابة تجربة جديدة وفريدة ، بيد أنه لم يحظ بالقبول من جانب معاصريه ، من منطلق كيف يتســلى لرئــيس شماسة أن يبدد وقته فى تسجيل حياة الأيرلنديين المتصلبين فى الرأى ، ووصف المناظر الطبيعية وجمع التراث لبلد بربرى خام ، وأن ذلك مضيعة للوقت لا تليق برئيس الشماسة ، انظر : Lyte, op. cit., p. 13.

٢ Lyte, op. cit., p. 13.
Rashdall, op. cit., p. 25.

٣ Ibid, p. 28, Knowles, Thomas Becket, p. 23.

٤ Rashdall, op. cit., p. 30;

ولمزيد من التفاصيل عن النزاع والعلاقات السياسية بين انجلترا وفرنسا فى عهد هنرى الثانى انظر :

زينــب عــبد المجــيد ، الانجلــيز والحروب الصليبية فى الفترة من ١١٨٩-١٢٩١ ، عين للبحوث والدراسات الإنسانية والاجتماعية ، الطبعة الأولى ١٩٩٦ ، ص ٦٥ ، ٦٦ .

٥ Giraldus Cambrensis, op. cit., Tome, I, p. 93.

علـــى أية حال ، بدأت مدارس أكسفورد التى أصبحت تذخر بالتخصصات والأساتذة والدارسين من جميع الجهات تحظى باهتمام السلطة الملكية ، وفى العامين السابع والثامن من عهـــد الملك ريتشارد الأول (١١٨٩-١١٩٩م) تميط السجلات الملكية اللثام عن الأموال التى كانـــت تمـــنح لإعالـــة الدارسين فى مدارس أكسفورد من المنح والهبات الملكية . فقد منح ريتشـــارد الـــذى ولـــد فى قصر بيمونت Beaumont بأكسفورد مكافأة مالية أسبوعية تقدر بنصـــف مـــارك لدعـــم دارس فى أكسفورد من هنغاريا Hungary (المجر) يدعى نيقولاس Nicholas . وقد يبدو غريباً للوهلة الأولى أن أول دارس حفظت السجلات اسمه كان أجنبياً. بـــيد أنـــه يجب تفسير ذلك فى ضوء حقيقة أن جامعات العصور الوسطى بصفة عامة كانت تتسم بطابع عالمى وليس قومى[١] . ويشير المؤرخ ريتشارد ديفز Richard of Devizes فى حوليـــته عـــن الملـــك ريتشارد الأول لكثرة أعداد الدارسين فى أكسفورد ، وأن المدينة كانت تســـتطيع بالكـــاد إطعامهم[٢] . وفى عام ١١٩٧ استضاف سامسون Samson رئيس والقديس إيدمونـــد St. Edmund فى بيورى[٣]، عدداً كبيراً من أساتذة أكسفورد عند زيارتهم للمدينة . وفـــى هـــذا العـــام أيضاً قام توماس ماربرج Thomas de Morleberge رئيس دير إيفهام Evesham بتعلـــيم القـــانون الكنســـى والمدنـــى فـــى أكســـفورد[٤] . ويؤكـــد الكسندر نيكام Alexander Neckam الـــذى كتب عام ١٢٠٠م تقارب واتصال مدارس أكسفورد بكل من سالرنو Salerno وبولونيا بإيطاليا، ومونبلييه Montpellier وباريس، وأدرك نتيجة لذلك أن نبوءة مرلين Merlin "بازدهار الحكمة والمعرفة فى أكسفورد " قد تحققت الآن[٥] .

---

[١] يؤكـــد الطابع العالمى لجامعات العصور الوسطى المرسوم الهام الذى أصدره الإمبراطور الألمانى فريدريك بربروسا (١١٥٢-١١٩٠م) فى مجمع رونكاجليا Diet of Roncaglia عام ١١٥٨م . والذى نص صراحة على الإدارة الآمنة ، وحماية الدارسين الأجانب الذين ينتقلون أو يسافرون عبر أراضيه ، انظر :
Lyte, op. cit., p. 14; Mallet, op. cit., p. 14.

[٢] Richard of Devizes, De Rebus Gestis Richari Primi, in the Chronicles of Stephen, Henry II, and Richard I, vol., III, p. 437.

[٣] يعد دير القديس إيدموند واحداً من أعظم الأديرة فى انجلترا فى العصور الوسطى ، ويستدل من مقدمة الحولية الخاصة بهذا الدير ، والتى كتبت فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر . أن الملك كانيوت Canute (١٠١٣-١٠٣٦م) قام بتأسيسه تخلـــيداً لذكرى القديس إيدموند ملك شرق انجليا Anglia ، الذى قتل أثناء محاربة الدانيين فى العشرين من نوفمبر عام ٨٧٠م . انظر تفاصيل ذلك فى :
The Chronicle of Bury St. Edmunds, pp. 1212-1310, (ed.) by Antonia Granseden, London, 1964, p. XI; Rashdall, op. cit., p. 32.

[٤] Loc. Cit.

[٥] يحتل الكسندر نيكام مكانة بارزة فى التاريخ الفكرى لانجلترا فى نهاية القرن الثانى عشر ، وأمضى سنوات كثيرة مدرساً فـــى أكسفورد ، وقس فى دير جيرنسيستر Girencester . ووفقاً لما ورد فى حوليته فقد ولد فى نفس الليلة التى شهدت ميلاد ريتشارد الأول ملك انجلترا ، فى الثالث عشر من سبتمبر عام ١١٥٧م وأمضى فترة حداثته وتلقى تعليمه الباكر فى دير القديس الباانس St. Albans . وأمضى بعدئذ سنوات عديدة للدراسة فى باريس . وباعتباره من قساوسة دير القديس أغسطين فى جيرنسيستر فقد خدم كل من الملك والبابا ؛ ففى الثلاثين من أغسطس عام ١٢١٣ وأثناء وقوع المملكة تحت طائلة عقوبة اللعنة الكنسية ، أمره الملك جون (١١٩٩-١٢١٦م) بمرافقة جون هاستنجز John Hastings رئيس شرطة

لا مـــراء أن جامعة أكسفورد فى أقدم مراحلها تدين بالكثير لجامعة باريس ، التى لم تـــتخذ صـــفتها الرســـمية كجامعة إلا فى أوائل القرن الثالث عشر تحديداً عام ١٢٠٠م . ففى ضوء الروابط التى كانت تربط بين انجلترا وفرنسا من خلال الممتلكات الانجليزية فى فرنسا ممـــثلة فـــى دوقيات نورماندى ، بريتانى Brittany، أكوتين Aquitaine ، وكونتيات مين Maine ، أنجـــو Anjou ، لـــو مارش Le March وبواتو Poitou . وعلاوة على السيادة الفكرية لباريس فى أوروبا الغربية ، كان يتوجه إليها أكثر الشباب الإنجليز طموحاً فى القرن الثانى عشر مثل جون السالزبورى ، توماس بيكيت ، ستيفن لانجتون ، روبرت جروستيت ، روجـــر بـــيكون وغيرهم . وكان حتماً مقضياً أن يجلبوا معهم عند عودتهم إلى وطنهم أفكاراً مستمدة من تجربتهم فى باريس، والتى غدت نموذجاً للتنظيم الأكاديمى فى أكسفورد . لذا فمن الطبيعى أن تكون الكثير من النظم واللوائح الداخلية لجامعة أكسفورد مستقاه من ذلك المصدر . فعلـــى غرار نظام الأروقة الأربعة فى جامعة باريس فى ضوء تقسيم الطلبة إلى مجموعات أربعـــة تمـــثل الـــبلاد الـــتى ينتمون إليها، وهى رواق الفرنسيين ، رواق الشماليين ، رواق البيكارديـــن (الشمال والشمال الشرقى من فرنسا وهولندا) ورواق الإنجليز، تحول إلى رواق للدارســـين الألمـــان ، بعد انقطاع العلاقات السياسية والثقافية بين انجلترا وفرنسا غداة حرب المائة عام (١٣٣٧-١٤٥٣م)، قامت جامعة أو بمعنى أدق مدارس أكسفورد على أساس نظام الأروقـــة الأربعـــة . بـــيد أن هذا التقسيم جاء قصير الأجل وسرعان ما اقتصر التقسيم على أســـاس أبـــناء الشمال Northermeris الذى يضم الدارسين القادمين من اسكتلندا . أما أبناء الجنوب Southermers فهم الطلاب القادمون من ويلز وأيرلندا[1] .

كـــل رواق مـــن هـــؤلاء أى رواق أبناء الشمال ورواق أبناء الجنوب يقوم باختيار مراقب Proctor . بيد أن هذين المراقبين كان يتم اختيارهما من بين الأساتذة وتحديداً أساتذة الآداب ولـــيس الدارسين . وهؤلاء المراقبين ورد ذكرهم لأول مرة عام ١٢٤٨م عند مثولهم أمـــام الملـــك هـــنرى الثالث (١٢١٦-١٢٧١م) لتقديم شكاوى الجامعة ضد انتهاكات اليهود

نيلوورث Kenilworth للتحرى بصدد الحقوق الملكية فى دير نيلوورث . وفى نفس العام أى ١٢١٣م تولى رئاسة دير جبرنسيستر . وفى عام ١٢١٥م كان ضمن الحاشية الملكية التى تتأهب لحضور المجمع اللاتيرانى الرابع الذى دعى إليه البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦م) وعقد بمدينة روما عام ١٢١٥م . لمزيد من التفاصيل انظر الدراسة القيمة التى قام بها :

Russell, "Alexander Neckam in England", in E.H.R., vol. XLVIII,January, 1932, pp. 260-268; Rashdall, op. cit., p. 28.

[1] Lyte, op. cit., p. 15; Brodricke, op. cit., p. 7, 8; Mallet, op. cit., p. 40; Rashdall, op. cit., pp. 56, 57; Traill and Mann, Social England, Oxford, 1975, vol. I, pp. 613, 614; Willson, op. cit., p. 122.

نظـــير سعداوى ، تاريخ انجلترا وحضارتها فى العصور القديمة والوسطى ، دار النهضة العربية ١٩٦٨ ، ص ١١٧ . ولمزيد من التفاصيل عن الهيكل التنظيمى للدارسين فى جامعة باريس انظر ، ياسر عبد المعبود ، المرجع السابق ، ص ص ٥٤ – ٦٥ .

وسكان مدينة أكسفورد[1] . ويتضح أيضاً من بنود اتفاق السلام الذى أبرم عام ١٢٧٤م بعد اندلاع واحدة من منازعات الشغب بين الدارسين من أبناء الشمال والجنوب ، والذى نص على ضرورة دمج هؤلاء الدارسين فى جماعة واحدة ، والتصويت أيضاً باعتبارهم أبناء أمة واحدة . وبهذا يتلاشى مبكراً التصنيف العرقى الذى شهدته أولى الجامعات الإنجليزية ، رمزاً وتأكيداً لإتمام الوحدة القومية التى كانت انجلترا أسبق الممالك الأوروبية فى تحقيقها[2] .

وفى أواخر عام ١٢٠٨م شهدت مدينة أكسفورد حادثة كان لها أكبر الأثر على مسيرة تطور الجامعة ، ففى الوقت الذى كان فيه النزاع بين الملك جون (١١٩٩-١٢١٦م) والبابا أنوسنت الثالث قد بلغ أوج ذروته، قتلت امرأة شابة فى بيت عرف فيما بعد وتخليداً لهذه الحداثة باسم قاعة العذراء "Maiden Hall" على يد أحد الدارسين فى أكسفورد مما أسفر عن اندلاع ثورة من الغضب العارم من جانب سكان المدينة؛ حيث ألقى القبض على العديد من الدارسين . وعندما يأس السكان من العثور على الطالب القاتل ، قبضوا على

---

[1] جاء أول ظهور للمراقبين Proctors فى طيات أحداث الشغب الذى اندلع فى مدينة أكسفورد فى مايو عام ١٢٤٨م . حيث تعرض دارس اسكتلندى مرموق وحسن الخلق أثناء مروره بكنيسة القديس مارتن فى كارفاكس Carfax للهجوم من جانب أبناء المدينة ، وعند فراره إلى وسط المدينة فى الشارع الرئيسى إنهال عليه وابل من الحجارة وفضلات الذبائح من حوانيت الجزارين . ولم يلبث أن سقط صريعاً متأثراً بالجراح التى لحقت به نتيجة الضرب المتكرر من مطارديه . ونظراً لعدم اكتراث المسئولين بالمدينة بهذا الأمر ، توقف أساتذة الجامعة عن إلقاء المحاضرات ، وأقسموا على مغادرة جميع الدارسين لمدينة أكسفورد إذا لم يتم القصاص . وعدم دفن جثة الطالب لحين تلق ردوداً ملائمة ومرضية من الملك وأسقف لنكولن . ولم يتوان روبرت جروستيست Robert Grossetest أسقف لنكولن (١٢٣٥-١٢٥٣م) لحظة واحدة فى إعلان عقوبة الحرمان الكنسى عن القتلة ، والبحث عنهم بمساعدة أبناء المدينة . بيد أن أساتذة الجامعة لم يقتنعوا بإنهاء المسألة عند هذا الحد والإصرار على ضرورة الحصول على ضمان بعدم تكرار منازعات مماثلة . ومن ثم أرسلوا مراقبين ممثلين عنهم لعرض شكواهم أمام الملك فى وودستوك Woodstock . ولم يتردد الملك فى منح عهد يتضمن امتيازات للجامعة ، أمر فيه بضرورة أن يتم التحقيق فى أى أخطاء أو أضرار تقترف فى حق الدارسين فى أكسفورد ، بواسطة محلفين من أبناء المدينة ، وأشخاص محايدين من المناطق المجاورة . وفى حالة تعرض أى دارس للقتل أو الإصابة الخطيرة من جانب أبناء المدينة ، تفرض غرامة على كل السكان . وعقاب النواب المحليين بشكل منفصل إذا ثبت تقصيرهم فى أداء واجباتهم . وأمر بضرورة أن يقسم كل عمدة Mayer ونائب Bailiff فى أكسفورد عند تولى مهام مناصبهم على احترام حريات الجامعة وتقاليدها الراسخة ، وأن يدعى مستشار الجامعة دائماً لسماع أداء هذا القسم . وبهدف التغلب على أحد الأسباب الرئيسية للنزاع بين الجامعة والمدينة منع اليهود من تقاضى أكثر من ثلاثة وأربعين فى المائة كفائدة على القروض المقدمة للدارسين ، وأمر الملك أيضاً بضرورة الحضور الشخصى لكل من المستشار والمراقبين أو من خلال مندوبيهم عند توزيع الخبز والبيرة . ولمزيد من التفاصيل بهذا الشأن انظر :
Lyte, op. cit., pp. 43-44; Rashdall, op. cit., p. 57.

[2] شهدت الفترة من ١٢٧٦-١٢٨٤ تكريس الاهتمام الرئيسى للملك إدوارد الأول (١٢٧٢-١٣٠٧م) لإخضاع ويلز . ففى عام ١٢٨٤م أصدر قانوناً يقضى بضمها إلى التاج الانجليزى ، وتطبيق القوانين الانجليزية . وفى عام ١٣٠١ أضفى على أكبر أبنائه لقب أمير ويلز . وهو اللقب الذى لازم ولى العهد فى انجلترا حتى يومنا هذا . وجاءت جهوده فى هذا الصدد تتويجاً لجهود أسلافه الرامية لتوحيد الجزر البريطانية ويلز ، ايرلندا ، اسكتلندا فى مملكة واحدة ، لمزيد من التفاصيل انظر :
Chronicle of Reigns of Edward I and Edward II, vol. I (ed.) W. Stubbs in Rolles Series, London, 1881, p. 89; Rashddall, op. cit., p. 33-35.

زينب عبد المجيد ، المرجع السابق ، ص ٢٢٧ -٢٢٨ .

طالبيــن أبــرياء كانا يقيمان معه بدلاً منه، وتم ايداعهما السجن، وشنقهما بعد ذلك . ولم يكن مفاجأة من الملك الواقع تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسى والتهديد بالعزل من جانب البابا ، وفــى محاولــة لتهدئة غضب الجموع الثائرة أن يبدى موافقته على إعدام اثنين من الدارسين وحبس ثلاثة . ولم يتردد البابا فى وضع المدينة تحت طائلة عقوبة اللعنة وأعلن منع التدريس فــى أكســفورد . وأغلقت معظم مدارس أكسفورد[1] وعلى حد تعبير المؤرخ ماكسويل لوت Maxwell Lyte " بــدا لفــترة من الوقت كما لو أن التعليم الانجليزى سوف يضطر للرحيل عــن أكسفورد لمكان آخر أكثر هدوء"[2] . وبالفعل ذهب بعض الدارسين لمواصلة دراساتهم فــى بــاريس ، وتوجــه الــبعض الآخر إلى ريدنج Reading ، وميدستون Maidstone ، وكمبريدج Cambridge . بحيث لم يبق دارس واحد فى أكسفورد[3].

وفــى عام ١٢١٤م الذى شهد إذعان الملك جون للبابوية ، صدر أول مرسوم بابوى يتسم بكونه عهداً بالامتياز حق لجامعة أكسفورد أن تتباهى به ونص على :

".. تمــتع الدارســين فــى مــدارس أكسفورد لمدة عشر سنوات بالإعفاء التام من إيجــارات البــيوت التى يقيمون بها . وأن يقيم سكان المدينة مأدبة عشاء لمائة من الدارسين الفقــراء كل عام فى عيد القديس نيقولاس Nicholas راعى الدارسين وأن تدفع المدينة مبلغاً ســنوياً يقدر بحوالى اثنين وخمسين شلناً توزع على الدارسين الفقراء، وأن تدفع هذه الأموال إلــى رئيس دير أوزنى Oseney ، ورئيس دير القديسة فرايدزوايد، وأن يكون توزيعها من اختصــاص أســقف لنكولــن أو مستشاره . وأن يقسم سكان المدينة على تزويد الدارسين فى المستقبل بالمؤن بأسعار ملائمة . وفى حالة القبض على أى دارس فى المستقبل ينبغى تسليمه إلــى أسقف لنكولن ، أو إلى رئيس شماسة أكسفورد أو نائبه أو إلى المستشار المعين من قبل الأســقف للإشــراف على الدارسين ، أو لأى مندوب آخر معتمد من السلطة الأسقفية . وكل الأســاتذة الذين استمروا فى التدريس بعد انسحاب الطلاب بعد إحداث شغب ١٢٠٨م ، وفى تحد سافر للسلطة الكنسية والأكاديمية ، يمنعوا بمقتضى الأمر البابوى من التدريس لمدة ثلاث سنوات ، وحرية كل الأساتذة والدارسين فى العودة واستئناف محاضراتهم"[4] .

---

١ Lyte, op. cit., p. 17; Brodricke, op. cit., p. 9; Rashdall, op. cit., p. 33.

٢ Lyte, op. cit., p. 16.

٣ Brodricke, op. cit., p. 9, Lyte, op. cit., p. 18.

٤ فــى ثــنايا أحداث عام ١٢٠٨م شرعت السلطات الكنسية فى أكسفورد فى وضع المدينة تحت طائلة حرمان كنسى أكثر صرامة من ذلك الحرمان الذى فرضه البابا أنوسنت الثالث على المملكة ، مما أدى إلى معاناة سكان المدينة روحياً ومادياً . فقــد ترتب على رحيل الدارسين عن المدينة ، ترك البيوت والقاعات التى يقيمون بها بلا مستأجرين . وركود النشاط التجارى بالمدينة . واستمر هذا الحال لأكثر من أربع سنوات ، حتى مجئ المبعوث البابوى نيكولاس Nicholas أسقف تسكاليوم Tusculum إلى انجلترا عام ١٢١٣م . وتقدم سكان المدينة إليه بالتماس مناشدين إياه بالعفو والحماية والتعهد بالالــتزام بقــراره . وبناء على أمره وتكفيراً عن أحداث عام ١٢٠٨م ، على سكان المدينة المتهمين بالمشاركة فى هذه الأحداث الحضور حفاة الأقدام ، عراة الأجساد ، حاملين الأسواط فى أيديهم ، إلى مقابر الطلاب القتلى ، وإعادة دفنهم فى

وفي ضوء هذا المرسوم البابوي الذي جاء تأكيداً وتتويجاً لاعتراف البابوية بحقوق الدارسين في أكسفورد ، وتكفيراً عن الاعتداء الذي تعرض له الدارسون من قبل سكان المدينة عام ١٢٠٨م، يذكر المؤرخ الانجليزي ماليت Mallet أن كل الجامعات في العصور الوسطى كانت تبتهج بالحصول على الحماية البابوية ، ودعم حقوقها بالتأييد البابوي . ومن ثم وعلى غرار جامعة باريس التي تدين للبابوية بأول اعتراف بوجودها كمؤسسة علمية، تدين جامعة أكسفورد للبابوية بأول عهد امتياز ، وبداية هذه الحصانات القوية التي جعلت جماعة الأساتذة والدارسين هي الأسمى تقريباً داخل أسوار المدينة[1] .

وتتراءى أهمية المرسوم البابوي عام ١٢١٤م في أنه تضمن أول إشارة عن منصب المستشار Cancellarius or Chancellor، وأن تعيينه كان من اختصاص أسقف لنكولن . بيد أن مستشار الجامعة المشار إليه في المرسوم كان موجوداً بالفعل تحت اسم رئيس المدارس Magister Scholarum or Head of the Schools . ويرى المؤرخ الانجليزي رشدال أن هذا النائب المعين من قبل أسقف لنكولن إن لم يكن ينتخب بواسطة الأساتذة أنفسهم ، كان على الأقل يتم اختياره من بينهم . لذا فقد بدا مركز المستشار في أكسفورد من الناحية العملية مغايراً تماماً لمستشار جامعة باريس المقيم في كاتدرائية نوتردام . ونظراً لأن مدينة أكسفورد تبعد عن أسقفية لنكولن بمسافة تناهز مائة وعشرين ميلاً، فقد وجد أساقفة لنكولن من الملائم والضروري تعيين مستشار مستقل في أكسفورد للإشراف وحماية رجال الدين الدارسين بها . ونظراً لعدم وجود كنيسة كاتدرائية أو أسقفية في مدينة أكسفورد ، فإن الأسباب التي من الممكن أن تدفع المستشار للاصطدام مع الجامعة غير قائمة . وعلى النقيض من جامعة باريس لم يكن مستشار جامعة أكسفورد عضواً معادياً للجامعة ، وإنما يدين بوجوده للجامعة؛ لاسيما وأن أسقف لنكولن الذي يستمد منه سلطته وصلاحيته يقطن بعيداً متثقلاً بأعباء أسقفيته الكبيرة الممتدة جنوباً حتى نهر التيمز . ومن ثم لم يكترث كثيراً بتفاصيل الإدارة في مدارس أكسفورد . لتبدو مدارس أو جامعة أكسفورد من البداية أكثر استقلالاً ، وبمنأى عن قيود الجو الأسقفي الذي خيم بظلاله على جامعة باريس . وبالتالي ليس ثمة ضرورة لأن تلهث مدارس أكسفورد وراء استجداء التأييد البابوي للتحرر من نير السلطة الأسقفية، لينتقل مستشار جامعة أكسفورد تدريجياً إلى مركز مدير أو رئيس الجامعة، والحصول بالتالي على مركز في جماعة الأساتذة Universitas Magistorium .وهو المركز الذي ظل مستشار كاتدرائية نوتردام في باريس غيوراً دائماً للحرمان منه . وتظفر

مكان يتم اختياره بعناية . والتهديد بتجديد عقوبة الحرمان الكنسي بواسطة أسقف لنكولن في حالة التقصير عن تنفيذ ذلك . وفور الإذعان لذلك تم رفع عقوبة الحرمان الكنسي وعودة الدارسين واستئناف المحاضرات في أكسفورد ، انظر ذلك في:
Lyte, op. cit., pp. 18, 19; Mallet, op. cit., p. 28; Brodricke, op. cit., pp. 9, 10; Rashdall, op. cit., pp. 34-35.

Mallet, op. cit., p. 25.

الجامعة فى النهاية بالسلطات القضائية التى يتمتع بها المستشار والبت فى أى قضية يكون أحد الطلاب طرفاً فيها[١] .

علـــى أيـــة حال ، فإن مستشار الجامعة الذى تم الإشارة إليه لأول مرة فى المرسوم البابوى عـــام ١٢١٤م ، كان فى البداية يعين من قبل أسقف لنكولن الذى يستمد منه سلطته وصلاحيته بيد أنه من البداية كان يتم اختياره من بين الأساتذة باعتباره أستاذاً فى اللاهوت أو القـــانون الكنســـى . الأمـــر الـــذى جعل اعتماده على الأسقف – كما سنرى – يكاد يتضاءل ويتوارى والسلطات القضائية التى ظفر بها من الأسقف آلت إلى الجامعة[٢] .

ويذكر المؤرخ الانجليزى بودريك Brodrick أن الجدل لا يزال قائماً بصدد التاريخ الذى غدت فيه مدارس أكسفورد جامعة لها مستشار خاص بها بالمعنى القانونى ، رغم وجود خـــتم يـــرجع تاريخـــه إلـــى عـــام ١٢٠٠م ويحمـــل عـــبارة Sigillum Cancellariet Universitatis Oxoniensis . ولـــم يتقرر على وجه اليقين ما إذا كان المستشارون الأوائل قـــد اســـتمدوا ســـلطتهم أساساً من أسقف لنكولن باعتباره أسقف الأبروشيه، أو كانوا مديرين منتخبين Elective Rectors للمدارس يتم اقرار انتخابهم بواسطة أسقف لنكولن . بيد أنه من المؤكـــد أن الرئـــيس الفعلـــى للجامعـــة أصبح يسمى مستشاراً Cancellarius وليس رئيس المـــدارس[٣] . ويضـــيف إلى ذلك المؤرخ الانجليزى لوت Lyte بأنه حتى أوائل القرن الثالث عشـــر كان مستشارو المدارس فى أكسفورد يعملون ببساطة بصفتهم مندوبين عن الأسقف . ولكن خلفائهم – كما سنرى – بدأوا يذوبون تدريجياً فى الهيئة الأكاديمية وفى النهاية أصبحوا مستقلين تماماً عن السلطة الأسقفية[٤] .

وبـــدءً مـــن منتصف القرن الثالث عشر كان المستشار يعامل باعتباره ممثلاً مستقلاً للجامعـــة ، بينما لم يكن النائب الرسمى للأسقف فى الجامعة هو المستشار بل رئيس شمامسة أكســـفورد Archdeacon ، الـــذى يمـــثل أعلى سلطة كنسية مقيمة بالمدينة . وتبدأ القائمة الرســـمية للمستشـــارين فى أكسفورد فى عام ١٢٢٠ عندما يذكر أسماء ثلاثة أشخاص شغلوا ذلك المنصب . وبدءً من هذه الفترة يمكن أن نحدد تاريخ انتخاب المستشار . وفى عام ١٣٢٢ أصبح ارتقاء منصب المستشار يتم بالانتخاب من خلال اجتماع كنسى ، رغم أنه ظل خاضعاً لفترة طويلة لإقرار تعيينه من جانب الأسقف[٥] .

---

١ Ibid, p. 27; Lyte, op. cit., p. 19; Brodricke, op. cit., pp. 9, 11; Rashdall, op. cit., p. 52.

٢ Rashdall, op. cit., pp. 81, 82; Mallet, op. cit., p. 27.

٣ Brodrick, op. cit., pp. 11-12.

٤ Lyte, op. cit., p. 19.

٥ Brodrick, op. cit., p. 12.

وبـدءً من منتصف القرن الثالث عشر بدأت الجامعة فى تسجيل قوانينها . ولعل من أهـم القوانيـن فـى تلك الفترة رفض منح درجة اللاهوت لأى دارس إلا بعد الحصول على درجة الآداب أولاً[1] . ولهذا التشريع قصة!

فقـد قـدر للعقـد الثـانى من القرن الثالث عشر، وعلى حد تعبير المؤرخ ماليت Mallet ،أن يشـهد حدثـاً سـعيداً للروح والفكر فى أكسفورد . ففى العام الذى شهد اغتيال تومـاس بيكيت فى كاتدرائية كانتربرى عام ١١٧٠م ولد القديس دومنيك St. Dominic فى أسـبانيا . وبعـد ذلك بإحدى أو أثنى عشر عاماً ولد فى أسيس Assis بإيطاليا ورع آخر هو القديس فرانسيس St. Francis [2] .

وفى عام ١٢٢١م جاء إلى انجلترا مجموعة صغيرة من الرهبان الدومنيكان ، الذين اشـتهروا فـى انجلترا باسم الأخوة السود Black Friars . وبعد ذلك وفى عام ١٢٢٤ قدم الرهبان الفرنسيسكان الذين عرفوا باسم الأخوة الرماديين Grey Friars طبقاً لألوان مسوحهم الدينـية . وعلـى عكـس جماعات الرهبان الأقدم الذين يطيب لهم المقام فى المناطق النائية الهادئـة ، وبهدف الحصول على مريدين جدداً تجد الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان للإقامة فـى المدن المزدحمة ، لاسيما تلك التى بها جامعات . لذا ولوا وجوهم شطر أكسفورد . فقد رسـخ أقرانهم فى باريس أقدامهم فى ارتباط وثيق بالجامعة . ومن ثم كانوا تواقين للحصول على مكانة مماثلة فى المركز الرئيس للتعليم فى انجلترا . علاوة على الرغبة فى جذب المزيد لاعتـناق الديانـة المسيحية ، فقد كانت أكسفورد ملاذاً مفضلاً لليهود الذين سكنوا فى الجزء الجـنوبى مـن المدينـة بأعداد كبيرة . وكان الحى الواقع بين الشارع الرئيسى ودير القديسة فـريدزاويد معـروفاً بحـى اليهود . وقد حالف النجاح جهودهم طيلة الخمس وعشرون عاماً

---

[1] Rashdall, op. cit., p. 69.

[2] من الجدير بالذكر أنه حتى بداية القرن الثالث عشر كان الهدف الأساسى للنظام الديرى يتمثل فى ضمان الخلاص لأرواح الرهبان ، وبعد انطفاء جذوة الحماس للعمل التبشيرى فى قلوبهم كرسوا أنفسهم تماماً لقاعدة أنانية فى الحياة والعزلة عن العالم الخارجى فى أروقة أديرتهم الفسيحة . ولم يعتبروا أن من واجبهم القيام بالوعظ علناً ، وزيارة المرضى ، وسماع اعترافات التائبين ، ومن ثم كان أثرهم ضئيلاً نسبياً على الناس . ونتيجة لفشل النزعة التطهرية فى القرن الحادى عشر ، والانسحاب الديرى فى القرن الثانى عشر فى تحقيق أهدافها من عوامل وتشجيع نمط جديد من النظام الديرى جاء مزيجاً بين نقيضين من النظم الديرية . هذا الشكل الجديد المنظم من النسك أتاح لأتباعه حياة تقليدية تتسم بالزهو والفقر والطاعة ، كما أتاح لهم فى الوقت نفسه أن يعملوا ويساهموا بشكل شخصى ومباشر فى خدمة ورفاهية المجتمع . وكانت التجارب الـتى مر بها هذا النظام الديرى الجديد هى الخلفية التى برزت منها جماعة الأخوة الفرنسيسكان والدومنيكان فى القرن الثالـث عشر . وبهدف العمل على نشر الكاثوليكية باقتلاع جذور الهرطقات الدينية ، وبرعاية البابوية وخدمة أهدافها ، اتجـه الرهـبان من هاتين التنظيمين إلى هداية الناس بمخاطبة فكرهم وعقولهم ، وتكملة العمل المعتاد لقساوسة الكنائس الأبروشية . لمزيد من التفاصيل بصدد ذلك انظر : Mallet, op. cit., p. 54;
Lyte, op. cit., p. 23; Rashdall, op. cit., p. 66; Green, op. cit., pp. 139-140;
كانـتور ، المرجع السابق ، ص ٥١٨ ، موريس كين ، حضارة أوروبا العصور الوسطى ، ترجمة قاسم عبده قاسم ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٤ ، ص ١٦٢ .

الأولـى مـن إقامـتهم فى أكسفورد . وغدت لهذه الجماعات الدينية السيادة على حلبة الحياة الفكـرية فى القرن الثالث عشر ليس فقط فى انجلترا ولكن فى جميع أرجاء أوروبا، وصاروا رواد أجـراً فكـر فلسفى فى الكنيسة فى العصور الوسطى ويكفى الرهبان الفرنسيسكان فخراً أنهم قدموا آدم مارش وروجر بيكون فى عصر واحد[1] .

وفـى الوقـت الـذى بسـطت فيه مدارس أكسفورد راحتيها للأخوة الفرنسيسكان والدومنـيكان لـتعلو بهمـا لا عليهما، بارتقاء اثنين منهم لمنصب رئيس أساقفة كانتربرى[2]، علاوة على التأييد الملكى[3]، لم يلبث أن بات الصدام بينهم وبين الجامعة قاب قوسين، بعد فترة قصـيرة سـاد فيها التفاهم والانسجام بينهم وبين الجامعة، قام خلالها الفرنسيسكان بالاستعانة بأساتذة اللاهوت العلمانيين فى مدارس أكسفورد للتدريس فى مدارسهم الديرية . بيد أنه بهدف وضـع حـد لـتكاثر الأساتذة من الأخوة ، وضمان سيطرة الجامعة على الخريجين منهم من جهـة، وإصـرار الرهـبان الفرنسيسكان والدومنيكان من جانبهم على رفض الحصول على

---

[1] فـور اسـتقلال الأخـوة الدومنيكان فى قلب أكسفورد ارتبطوا مبكراً بالجامعة بتأسيس مدرسة للاهوت . وكذلك أقرانهم الفرنسيسكان ، والذين قدر عددهم لحظة وصولهم لانجلترا تسعة من الرهبان بزعامة اجنيليوس البيزى Agnellus of Pisa أربعة منهم من رجال الدين ، ثلاثة منهم انجليز الأصل ، فى حين كان الباقى علمانيين من الإيطاليين والفرنسيين . وسرعان مـا ذاع صيتهم ، وجذبوا لمدارسهم أعظم العلماء شهرة ، فهذا هو روبرت جروستيست (١١٧٥-١٢٥٣م) عالم اللاهوت البارز ، وأول محاضر فى مدارس الفرنسيسكان والراعى الحميم له فى انجلترا والذى نادى بأن سلطة الكتاب المقدس تسمو فوق البابا والمجامع الكنسية ونصوص الكنيسة ، وأول من أدرك ضرورة دراسة اللغتين اليونانية والعبرية . أيضاً آدم مارش Adam March الذى اعترف به واحداً من أبرز رجال الكنيسة فى منتصف القرن الثالث عشر . وأبدى تعاطفه مع قضية الأيـرل سيمون مونتفورى ، أثناء النزاع البارونى الشهير ، مخاطباً إياه بقوله "أن الرجل الحكيم أفضل من الرجل القوى ، وأن الذى يستطيع كبح جماح غضبه أفضل من الذى يعصف بالمدينة " . وأيضاً روجر بيكون Roger Bacon . أحد أساتذة أكسـفورد البارزين . وأول انجليزى ينخرط فى صفوف الدومنيكان . وكرس نفسه لدراسة الكيمياء والفيزياء والرياضيات والميتافيزيقا . وذهب إلى باريس محاضراً فى فلسفة أرسطو ، وغير هؤلاء الكثير . ولمزيد من التفاصيل انظر :
The Chronicles of the Reigns of Edward I and Edward II, vol. I, p. 87; Little, the Franciscan Scfool At Oxford in the Thirteenth Century, (ed.) in Archivum Franciscanum Historicum, XIX, October, 1926, pp. 803-804; Mallet, op. cit., pp. 57-63, Lyte, op. cit., pp. 24-25; Rashdall, op. cit., p. 68; Brodrick, op. cit., p. 51, Lunt, op. cit., pp. 182-183.

[2] هذيـن الراهبيـن مـن الفرنسيسكان والدومنيكان اللذان ارتقيا منصب رئيس أساقفة كانتربرى هما روبرت كيلاردباى Robert Kilwardy ، وينتمى لطائفة الدومنيكان ، وارتقى منصب رئيس الأساقفة عام ١٢٧٢ ، وذاع صيته فى النحو والمنطق واللاهوت . أما الآخر فهو باتهام Patcham من طائفة الفرنسيسكان ولعب دوراً بارزاً فى الشئون السياسية . وتعلم فى أكسفورد العلوم واللاهوت والشعر والرياضيات . وقام الأول بزيارة الجامعة عام ١٢٧٧ ، والثانى عام ١٢٨٤ . وأسفرت هاتين الزيارتين عن إدانة الأخطاء الناجمة عن تدريس فلسفة أرسطو . لمزيد من التفاصيل انظر :
Mallet, op. cit., p. 70.

[3] فـيما يـتعلق بالدعم الملكى لهؤلاء فى عام ١٢٦٤م منح الملك هنرى الثالث Friars Minors برجاً صغيراً على سور المدينة القريب من مقرهم . وفى عام ١٢٥٨م منحهم عشرة شجرات بلوط لبناء مقر لمدارسهم . وكان من عادة الملوك الإنجلـيز عند زيارتهم للمدينة منح مبالغ مالية لمؤسسات الأخوة الموجودة بها . وأصبحت هذه الأموال فى نهاية القرن الثالـث عشـر تحـدد بمعدل أربعة دينار لكل راهب من الأخوة . ويتوج وجودهم فى انجلترا بتأسيس مدرسة اللاهوت بمحاضر من الفرنسيسكان فى دير كاتدرائية كانتربرى عام ١٢٧٥م ، الأمر الذى أثار مخاوف الرهبان فى الكاتدرائية ، انظر تفاصيل ذلك فى :
Gervasii Cantuariensis, op. cit., vol. II, p. 285; Little, op. cit., p. 819.

درجـات علمية فى أى تخصص باستثناء اللاهوت والقانون الكنسى، حيث كان هدفهم يرمى إلـى إعـداد الـرجال المتمرسين للعمل الرعوى . لذا أمرهم أعظم أساتذتهم بدراسة الكتاب المقـدس ولـيس كـتاب الأحكام Sentences لبطرس اللمباردى وكانت تقاليدهم تمنعهم من الحصول على درجات علمية فى الآداب[1] .

وأصـرت الجامعـة علـى أن التقاليد تقضى بأن المرشح للحصول على درجة فى اللاهـوت يجـب أن يكون متخرجاً فى الآداب ، وأثيرت هذه المشكلة بالفعل عام ١٢٥٣م . عـندما تقـدم الراهـب الفرنسيسكانى زائع الصيت توماس من يورك Thomas of York بالـتماس مـؤداه الترخيص له بالتخرج فى اللاهوت بيد أنه لم يدرس فى الآداب . وسمح له بالترخـيص بالـتدريس ، والحصـول على درجته فى اللاهوت لخبرته وكفاءته ، مما يجعله مؤهلاً لأن يمنح استثناء Graces يتبوأ بمقتضاه درجة ممارس استثنائى Ordinary regent فـى الكتاب المقدس . وفى محاولة لرأب الصدع وحسم النزاع أصدرت الجامعة قانوناً ينص علـى عدم السماح لأى شخص فيما بعد بالحصول على درجة فى اللاهوت ما لم يكن دارساً لـلآداب أولاً وأن يلقى محاضرة فى كتاب الأحكام لبطرس اللمباردى ، والذى يتطلب تعليماً فلسفياً فى الميتافيزيقا والجدل ، قبل أن يسمح له بأن يحاضر فى الكتاب المقدس[2] .

ونسـتطيع أن نقـول فـى ضـوء هـذا النزاع الذى اندلع بين الجامعة والرهبان الفرنسيسـكان والدومنـيكان ، لاسـيما بعد أن تم تعيين محكمين Arlitrators من الطرفين للـتعامل مع المسألة برمتها ، التى عرضت أمام البابا كليمنت الخامس (١٣٠٥-١٣١٤م) عام ١٣١٣م، وإقـرار قـرار المحكميـن مـن جانب الملك إدوارد الثانى (١٣٠٧-١٣٢٧م) عام ١٣١٤م، بـأن الجامعة كسبت النقاط الرئيسية موضع الخلاف وتأييد قوانينها ودعم سلطتها . ومـن ناحية فقد قدمت تنازلاً يبدو باهتاً - من وجهة نظرى - للأخوة الرهبان مؤداه أن أى أسـتاذ يـرفض الاسـتثناء graces الذى يمنح الراهب الحق فى التخرج فى اللاهوت بدون الدراسـة فـى الآداب أولاً مطالـب بأن يبرهن للأساتذة الممارسين أو النظاميين Regent Masters بأن اعتراضه ليس قائماً على سوء نية أو قصد [3] . علاوة على قرار الجامعة بعدم تنفيذ القوانين إلا بناءً على تصويت أغلبية الأساتذة الممارسين فى التخصصات الثلاث الآداب

---

[1] Rashdall, op. cit., pp. 67-68; Mallet, op. cit., p. 72, Liule, op. cit., p. 823.

[2] من الجدير بالذكر أن الأخوة الدومنيكان والفرنسيسكان القائمين بتدريس اللاهوت فى مؤسساتهم التى خارج مدن الجامعة ، لـم يكـن الأمر يتطلب ترخيصاً من أى سلطة خارج مؤسستهم ، وذلك بمقتضى مرسوم البابا الكسندر الرابع (١٢٥٤-١٢٦١م) عـام ١٢٥٧م . والـبابا كليمنـت الرابع (١٢٦٥-١٢٦٨م) عام ١٢٦٥م . ولم يكن المحاضرين الفرنسيسكان خاضـعين بأيـة طريقة لمستشار الكنيسة الكاتدرائية فى الأسقفية التى يدرسون بها . بيد أنه فى أكسفورد لابد أن يحظى المحاضر من الأخوة الفرنسيسكان قبل الاعتراف به مدرساً بالموافقة من جانب كل من مؤسسته الدينية والجامعة . انظر :
Munimenta Academica, Rolls Series, ed. By Anstey, London, 1868, vol. I, p. 25, Little, op. cit., pp. 82, 822, Mallet, op. cit., p. 73, Lyte, op. cit., pp. 53, 54.

[3] Mallet, op. cit., pp. 74-75; Little, op. cit., p. 823, Rashdall, op. cit., p. 71.

والطـب والقانون بدلاً من اثنين؛ بالإضافة إلى الأساتذة غير الممارسين أو المتفرغين Non Regent Masters . ويضـيف المؤرخ رشدال بإيضاح أكثر أنه بناء على شكوى جماعات الرهبان المتسولين Mendicants Orders ، بأن القوانين كانت تصدر بدون اهتمام كاف من الأقسـام أو التخصصات Faculties الرئيسية الآداب ، اللاهوت ، القانون والطب . فقد تقرر بأنـه مـن الآن فصاعداً عدم إصدار أى قانون من قبل الجامعة إلا بناء على قرار الإجتماع العـام للأسـاتذة الممارسين General Congregation of Regent Masters ، وأن تسلم مسـودات القوانيـن المقترحة للأساتذة فى كل قسم قبيل التصويت فى الاجتماع بخمسة عشر يومـاً . وحظيت هذه القرارات بموافقة الرهبان الدومنيكان والفرنسيسكان ، والإذعان للجامعة بيد أن النزاع بين الطرفين لم يتوارى تماماً، وظل يطفوا على السطح من حين لآخر[1] .

وفـى سـياق هذا العرض لا يفوتنا الحديث عن أقوى التحديات التى طرحتها حركة التعليم الجديدة فى هذه الجامعات الناشئة . لقد صارت مؤلفات أرسطو بمتناول الغرب بفضل الترجمات التى أعدت فى الأندلس وصقلية والبروفانس . وحتى الربع الأخير من القرن الثانى عشـر كانت ترجمة هذه المؤلفات تتم نقلاً عن النصوص العربية ، وليس نقلاً عن النصوص اليونانية الأصلية[2] . وبحلول عام ١٢٠٠ بدأت ترجمة مؤلفات أرسطو عن اليونانية مباشرة . وكـان توماس الأكوينى Thomas Aquinas العالم الدومنيكانى أول فيلسوف مسيحى يمتلك

---

[1] لا مـراء أن النزاع بين الجامعة والرهبان الدومنيكان والفرنسيسكان يعكس فى جوهره العداء الشديد بينهم ورجال الدين العلمانييـن لا سيما وأن معظم أعضاء الجامعة فى أكسفورد مثل أقرانهم فى باريس كانوا من الكهنوت العلمانيين . ومن الجدير بالذكر أن نفقات الإجراءات القانونية للجامعة ضد الرهبان كانت تمول من خلال ضريبة على الأملاك الكنسية فى المملكـة . وبعد تسوية القضايا الأكاديمية بين الطرفين ، تحول النزاع بينهما إلى مشكلة السن التى تسمح بها التنظيمات الرهبانـية للانخراط فى سلك الرهبنة . وفى عام ١٣٥٨ أصدرت الجامعة قانون ضد ما أسمته خطف الأولاد الذين يقل عمـرهم عـن ثمانية عشر عاماً . للالتحاق بمؤسساتهم لتعليمهم التسول وتبديد الوقت ونص القانون صراحة بأن النبلاء والعوام يخشون إرسال أبناءهم إلى الجامعة ، مخافة اغوائهم من قبل الرهبان المتسولين بالانضمام إليهم قبل بلوغهم سن الرشـد . مما يؤدى إلى تعكير صفو السلام فى الجامعة وقلة عدد الدارسين فيها . وإذا حدث عكس ذلك فلن يسمح لأى خـريج من مدارس أديرة هؤلاء بإلقاء أو حضور محاضرات في أكسفورد خلال العام التالى للاختطاف من وجهة نظر الجامعـة . وهناك قوانين أخرى فى هذا الصدد . مما دفع البابا أوربان الخامس (١٣٦٢-١٣٧٠م) عام ١٣٥٦م للتدخل ضـد الجامعـة لصالح الرهبان وأمر رئيس أساقفة كانتربرى ، والأساقفة بالإصرار على قيام المستشار بإلغاء ما أسماه القوانين البغيضة . فى الوقت الذى ناشدت فيه الجامعة والمؤسسات الدينية الأربعة الدومنيكان الفرنسيسكان ، الأوغسطنيين ، والرهـبان البيض Carmelites . الملك والبرلمان للتدخل مما أسفر عن صدور مرسوم بموافقة البرلمان تم بمقتضاه تخفيف القيود على قبول الدارسين في تلك المؤسسات . مع حظر كل المراسيم البابوية ، أو استئناف الدعاوى التى يرفعها الرهبان على الجامعة فى بلاط روما ، وإعلان بطلانها ، واستمرت العداوة على حالها ، ولعل المصدر الأساسى لشعبية كالفن Wyclif كان يتمثل فى إنكاره الشديد للرهبان المتسولين . وكان انهيارهم من أهم نتائج الحركة التى تزعمها ، إلى جانب أسباب أخرى . لمزيد من التفاصيل بصدد تطور هذا النزاع انظر :
Brodrick, op. cit., p. 53; Rashdall, op. cit., pp. 74, 75; Green, op. cit., pp. 138-142, Mallet, op. cit., pp. 75-76.

[2] كانتور ، المرجع نفسه ، ص ٤٩٢ .

الـترجمة الجديــدة الكاملة فى منتصف القرن الثالث عشر . وكانت هذه الترجمة بالطبع أكثر دقة من الترجمة اللاتينية المنقولة عن اللغة العربية[1] .

ومن الجدير بالذكر أنه عندما بدأت شروح ابن رشد لفلسفة أرسطو تتوفر بين أيدى المفكريــن الغربييــن فــى النصف الثانى من القرن الثانى عشر، اكتشفوا أنهم ليسوا أول من تـناول مشكلة العلاقة بين العلم والدين، لأن بعضاً من أعظم العقول فى العالم الإسلامى مثل ابــن ســينا وابن رشد كانوا قد تناولوا بالفعل نتائج الفكر الأرسطى على عقائدهم الأصلية . وكــان على المفكرين المسيحيين فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر أن يختاروا بين رفض المذهــب أو الفكــر الأرسطى القائل بالفصل بين العلم والدين ، وبين محاولة إثبات الانسجام الـنهائى بينهما . ولم يتورع الفيلسوف العربى المسلم ابن رشد عن الفصل بين عالم العلم كما يمــثله أرســطو وعالم الدين كما يمثله القرآن . وواجه التناقض بين العلم والدين بالاعتراف الصــريح بوجــود "حقيقة مزدوجة" . فهناك حقيقة واحدة للعلم ، وحقيقة أخرى للدين، وليس بمقدور العقل البشرى أن يوفق بينهما[2] .

ولعل العمل العظيم الذى صاغه توماس الاكوينى باسم خلاصة اللاهوت Summa Theologiae ، والــذى حاول من خلاله إظهار التوافق أو المزج بين العلم والدين . وجعل الفكــر الأرســطى يتناغم مع حقائق الحياة المسيحية ، والبرهان على صحة العقيدة المسيحية بالفعل ، وأن الكشف عن الحقيقة يتدفق من خلال الكتاب المقدس والكنيسة ، بينما تنساب قوة العقــل عبر قنوات الفلسفة وفكر أرسطو . بيد أن كل من العقل والكشف عن الحقيقة يستمدان مصــدرهما مــن الـرب . وعلــى حد تعبير المؤرخ الانجليزى ماليت Mallet أن خلاصة اللاهوت هى فى الحقيقة خلاصة الفلسفة Summa Philosphiae[3].

---

[1] من الجدير بالذكر أن الكسندر هالس Alexander of Hales . والذى يعد من أوائل الأساتذة الفرنسيسكان العظام ، أول لاهوتى يبدى ترحيباً بالفلسفة الجديدة فى ثوبها العربى ، وكان انجليزياً لا يبارى فى بلاغته ، ومكث طويلاً فى مدارس باريس . ومن جهة أخرى فقد كان روبرت جروستيست أسقف لنكولن وعالم اللاهوت الشهير ، وآخرون للحصول على الـترجمات الجديـدة لمؤلفــات أرسطو . ولا مراء أن الغزو اللاتينى والاستيلاء على القسطنطينية عام ١٢٠٤م جعل المصادر اليونانية أكثر شيوعاً . وأمست الترجمات المستقلة للمترجمين العرب لمؤلفات أرسطو فى الميتافيزيقا والأخلاق والسياسة متداولة . ولمزيد من التفاصيل انظر :

Mallet, op. cit., p. 77;

كانتور ، المرجع السابق ، ص ٤٩٢- ٤٩٤ .

[2] نفس المؤلف ، نفس المرجع ، ص ٤٩٥- ٤٩٨ .

[3] Mallet, op. cit., p. 80.

كانتور ، المرجع نفسه ، ص ٦٢٩ .

وإلـــى توماس الاكوينى يرجع الفضل فى تغيير الآراء بصدد الخلافات القديمة حول مشـــكلة الكلــيات Universals أو الأفكار المجردة . فقد تمسك هذا الدومنيكانى العظيم بمبدأ الفردية القائم على أساس أن الفردية توجد فى الجوهر وليس الشكل[1] .

وعـــن صـــدى تأثـــير هـــذه الفلســـفة الأرسطية بهذه الشروح التى صاغها توماس الاكويـــنى، علـــى أروقة الدراسة فى مدارس أكسفورد ، وفى ضوء أن الأساتذة من الرهبان الدومنـــيكان ، كـــانوا يعـــتقدون منذ البداية أنه من الممكن التوفيق بين فلسفة أرسطو والفكر الكنسى الكاثوليكى. وكانوا بلا شك الأداة التى انتشرت بها فلسفة أرسطو على نطاق واسع فى انجلـــترا . وفـــى الوقت الذى أوصت فيه كلية الآداب فى باريس عام ١٢٥٤ بأن تصنف كل كـــتابات أرســـطو باعتـــبارها كتـــب مدرســـية Text Books ، وأن تكون فلسفته الطبيعية والميتافيزيقية هى "القاعدة الصائبة والمفيدة" ، نجد باتهام Patcham رئيس أساقفة كانتربرى، الـــذى ينتمي إلى الرهبان الفرنسيسكان ينكر صراحة ما أسماه البدع الدنيوية التى آتى بها هذا الدومنـــيكانى الكبـــير . أيضاً رئيس الأساقفة الذى جاء بعده ويدعى كيلوردباى Kilwardby بالـــرغم من انتماءه للرهبان الدومنيكان ، لم يتورع عن أن يدين صراحة هذه الآراء الفلسفية لـــتوماس أكويـــناس وفلسفة أرسطو برمتها أثناء زيارته لأكسفورد فى مارس عام ١٢٧٧م . ووافـــق الأســـاتذة فـــى أكسفورد على هذه الإدانة . بيد أن ذلك لم يمنع الدومنيكان والرهبان السيسترشـــيان والأوغسطينين الدارسين فى أكسفورد من تأييده وانتشار أفكاره . وتداول هذه الفلسفة التى سيطرت بالفعل على عقول الدارسين . ذلك أن الإغراء باكتشاف كنوز جديدة من العلـــم والمعـــرفة ، وســـحر وجاذبية هذه الفلسفة التى تحمل بصمة أكثر معلمى الماضى – أرسطو – تبجيلاً ومكانة برهن على أنه أقوى من أن يقاوم.[2]

---

[1] يذكر جون السالزبورى John of Salisbury الذى درس فى باريس بأن مدارس أكسفورد قبل تولى الملك هنرى الثانى الحكم مباشرة كانت مسرحاً لخلافات منطقية حول طبيعة الكليات . ويقصد بذلك هل المفاهيم العامة الكامنة فى أذهاننا مثل العدالـــة ، الحقيقة ، الجمال ، الكنيسة والدولة .. وغيرها لها وجود حقيقى خارج أذهاننا ؟ وهل المفاهيم الأكثر بساطة ، مـــثل شـــجرة ، حصان ، كرسى .. وغيرها لها وجود حقيقى خارج عقولنا أم مجرد تصورات عقلية خالصة . وانقسم العلمـــاء إلى قسمين القسم الأول الواقعيين أو المثاليين Realism من معتنقى فلسفة أفلاطون بأن الكليات هى أشياء لها وجودهـــا المســـتقل خارج نطاق العقل الإنسانى المفرد . والفريق الآخر عرف باسم الإسميين Nominalism بزعامة روســـيلين Rosselin أحـــد كبار الأساتذة البارزين فى المدارس الفرنسية وأعلن أن الكليات ليست أشياء ولكنها مجرد كلمات أو أسماء . لا تتمتع بأى وجود مستقل خارج نطاق العقل الإنسانى . حتى جاء أبيلارد وأظهر موقفاً معتدلاً بقوله أن الكليات ليست أشياء أو مصطلحات وإنما مفاهيم مفيدة ، ولكنها ليست حقيقية بالضرورة . ومن المؤكد أنه ألقى ظلالاً مـــن الشـــك حول حقيقة الدعم العقلى لتعاليم الدين من منطلق أن أفهم أولاً واقتنع ثانياً . ولمزيد من التفاصيل عن جون السالزبورى وتأثيره الفكرى انظر :

كانتور ، المرجع نفسه ، ص ص ٤٥٠ ، ٤٥٤ . وبصدد مشكلة الكليات انظر ص ٤٦٣ – ٤٦٦ ،

Brodrick, op. cit., p. 5, Mallet, op. cit., p. 80.

[2] Lyte, op. cit., p. 25, Mallet, op. cit., pp. 77, 81; Rashdall, op. cit., p. 122.

لا مـــراء أن جامعة أكسفورد قد شهدت انطلاقة قوية فى عهد الملك هنرى الثالث (١٢١٦-١٢٧١م) . ففى ضوء أحداث الشغب التى اندلعت بين الدارسين وسكان مدينة باريس عـــام ١٢٢٩م ، والـــتى أســـفرت عـــن تشتت جامعة باريس ، وفى الوقت الذى اقتضت فيه الالـــتزامات القومية للمملكة ضرورة التأكيد على هيبة الملك باستعادة وانتزاع بقايا الممتلكات الإنجلـــيزية فى فرنسا من الطبيعى أن يجد الملك فى ذلك الحدث فرصة سانحة لإذلال الملكية الفرنســـية ، ووفقاً لرواية المؤرخ ماكسويل لويت وجه خطاباً رسمياً إلى أساتذة وطلبة باريس مبدياً تعاطفه معهم فى محنتهم ، والوعد بحريات وامتيازات جمة فى حالة حضورهم للدراسة فى انجلترا . وبدت تلك دعوة جذابة لاسيما للدارسين الانجليز فى باريس وأسفرت بالفعل عن حضـــور لفيف من الأساتذة والدارسين إلى المدارس الشهيرة على الضفة الأخرى لنهر التيمز سواء فى أكسفورد أو كمبريدج.[1]

وكـــان للـــتدفق المفاجئ لهؤلاء الدارسين الأجانب أثر سيئ على النظام فى الجامعة الناشـــئة ، فقـــد تحدى بعض الطلبة المستشار والأساتذة علناً . وعبر أحد المؤرخين على تلك الفـــئة المشاغبة من الدارسين بقوله "أن هؤلاء كانوا يعيشون بلا نظام ، ولم يكن لهم معلم إلا مـــن يعلمهـــم كـــل صنوف الشر" ، مما اضطر الملك هنرى الثالث للتدخل بعد أن ساد عدم الاكتراث بالقانون فى أكسفورد . وفى عام ١٣٣١م أصدر عدة مراسيم تهدف إلى تقوية سلطة المستشار ، بمنحه حق سجن الطلبة المشاغبين فى قلعة أكسفورد ، وأن يكون اطلاق سراحهم حسب إرادته ، ومعاملتهم وفقاً للقانون الكنسى . وأمر حاكم المقاطعة بأن يعلن أن أى دارس لا يكون تحت إشراف أحد الأساتذة فى المدارس لا يمكن اعتباره دارساً . ومن ثم يتحتم على ما أسماهم الدارسين المزيفين Pseudo-clerks مغادرة المدينة فى غضون أسبوعين[2] .

وفـــى عام ١٢٣٨ وقع صدام بين الجامعة والمبعوث البابوى الكاردينال أوتو Otho المقيم فى دير أوزنى Oseney . ووفقاً لرواية المؤرخ متى الباريسى Matthew Paris ففى الثالـــث والعشـــرين مـــن أبريل من العام المذكور توجه فريق من الدارسين إلى الدير لتحية المبعوث البابوى ، بيد أنهم ردوا على أعقابهم بفظاظة من جانب الحارس Janitor . فى نفس الوقـــت ألقـــى رئـــيس طهاة المبعوث البابوى والذى كان شقيق المبعوث البابوى، إناءً مملوءً بالمـــاء الســـاخن فى وجه دارس أيرلندى فقير كان يستجدى الطعام على باب المطبخ . الأمر الـــذى أثـــار حنق الدارسين ، وقام أحد الدارسين من ويلز بتسديد قوس صوب رئيس الطهاة وأطلـــق عليه سهماً أرداه قتيلاً فى الحال . وحاول آخرون إشعال النار فى البوابات الضخمة الموصـــدة أمـــامهم ، واتهام المبعوث البابوى بكل ما تجود به مفرادتهم من شتائم قائلين "أين

---

[1] Matthew Paris's, English History from the Year 1235 to 1273, Trans from the Latin by Giles, London, 1852, vol. III, p. 149.

[2] Lyte, op. cit., p. 31.

ذلـك المرابى، ذلك المتاجر بالدين ، هذا المسرف المبدد للإيرادات ، المتعطش للمال ، الذى يخـدع الملـك ، الذى يثرى الأجانب من المال الذى ينهبه منا"[1] . مما دفع المبعوث البابوى للفـرار . وبإيعاذ من الملك تم إيداع عشرين أو ثلاثين من الدارسين بعضهم من أسر عريقة السـجن فى قلعة ولنجفورد Wallingfords . وبناء علي طلب المبعوث البابوى تم نقلهم فى عـربات مفـتوحة مـثل المجرميـن إلى قلعة لندن مكبلين بالقيود الحديدية . وأعلنت عقوبة الحـرمان الكنسـى علـى كـل المسئولين على أحداث الشغب ، ومنع المحاضرات وتوقفت الجامعة، ووضعت المدينة تحت طائلة عقوبة اللعنة الكنسية[2] . وأعلن المبعوث البابوى مهدداً أنـه لـن يعيد الجامعة إلى عطفه إلا إذا استجدى كل أعضاء الجامعة العفو منه علناً . وبناء على ذلك تجمعوا فى كاتدرائية القديس بولس St. Paul فى لندن ، وساروا بمصاحبة الأساقفة الذين ناصروا قضيتهم إلى حيث يقيم المبعوث البابوى فى مشهد درامى . وبعد خلع أرديتهم ، وعباءاتهم ، وأحذمتهم، وأحذيتهم رمزاً للندم ، قبل خضوعهم . وأصدر فى التاسع والعشرين مـن مايو ١٢٣٨م مرسوماً تم بمقتضاه رفع عقوبة اللعنة ، واستئناف المحاضرات ، والعفو الشـامل لجميع الدارسين . بيد أنه اشترط أن يدفع كل منهم مبلغاً من المال يعادل نفقة أسبوع لروح شقيقه.[3]

ويشهد عام ١٢٤٤ أول خطوة مهمة على طريق إعلاء سلطة وصلاحية المستشار ، ففى هذا العام اندلع حادث شغب مغايراً تماماً فى نوعه لأحداث الشغب التى كانت تموج دوماً بهـا مديـنة أكسفورد فى العصور الوسطى . فقد قام الدارسون بهدف الانتقام لبعض أعمال الابـتزاز مـن جانـب الـيهود بمهاجمة حى اليهود بالمدينة ، ونهبوا بيوت دائنيهم العامرة بالخـيرات ، وأسـفر ذلـك عن إيداع خمسة وأربعين من الدارسين السجن . وأصدر الملك مرسـوماً لصـالح الجامعة يقضى بحق المستشار فى الانفراد بحسم كل المنازعات التى تثار بصـدد إيجـارات البيوت التى يقيم بها الدارسين ، سعر الخيول ، المؤن ، الملابس ، وجميع العقود الخاصة بالمنقولات والتى يكون أحد الدارسين طرفاً فيها.[4]

---

١ Matthew Paris's, op. cit., vol. I, pp. 126, 127; The Chronicles of the Reigns of Edward I and Edward II, vol. I, p. 35, Mallet, op. cit., p. 36, Rashdall, op. cit., p. 88.

٢ Matthew Paris's, op. cit., vol. I, p. 128.

٣ أسـتطيع أن أقول أن هذه الأحداث التى جرت وقائعها بين الدارسين والمبعوث البابوى فى أكسفورد جاءت انعكاساً أيضاً لموجة عارمة من الأستياء عمت الأوساط السياسية والكنسية ضد الابتزازات المالية للبابوية ، والتى بلغت ذروتها فى عهد الملك هنرى الثالث . وكان المبعوث البابوى مدركاً لذلك ، الأمر الذى جعله من شقيقه رئيساً للطهاه له خوفاً من دس السم .. انظر :

Matthew Paris's, vol. I, p. 128, Mallet, op. cit., p. 36.

٤ Roberti Crosseteste . op.cit.,pp.lvii ,lviii ; The Chronicles of the Reigns of Edward I.and Edward II ,vol.I ,p.71 ; Lyte ,op.cit., p.42 ; Mallet , op.cit.,p.38 ; Rashdall , op.cit. , p.85.

واستحق هذا المرسوم الذى تم تأكيده وتجديده من جانب عدد كبير من الملوك الانجليز أن ينعت باسم العهد الأعظم أو ماجنا كارتا Magna Carta الجامعة . لأنه تضمن النواة الأولى لمعظم الامتيازات اللاحقة للجامعة . وأضفى على المستشار سلطة لا يستطيع أى مبعوث بابوى أو أسقف منحها أو إلغائها[1] .

وفى عام ١٢٤٥ وضع البابا أنوسنت الرابع (١٢٤٣-١٢٥٤م) الجامعة تحت حمايته الخاصة مؤكداً ضمان امتيازاتها المختلفة . وأصدر مرسوماً وعد فيه بعدم استدعاء الأساتذة والدارسين فى أكسفورد للمحاكمة خارج المدينة بواسطة الأسقفية المقدسة أو مبعوثيها بسبب أى اتفاقيات تبرم داخل المدينة[2] .

وتتأكد امتيازات الجامعة عام ١٢٥١ م نتيجة للنزاع بين الدارسين وأبناء المدينة ، الذى أسفر عن إيداع اثنين من الدارسين السجن ، وأغلقت المدارس مرة أخرى . لذا ناشدت الجامعة الملك هنرى الثالث الذى جاء إلى أكسفورد فى أوائل فبراير عام ١٢٥١م ، بأنه من الآن فصاعداً يجب نقل كل الدارسين المقبوض عليهم من قبل السلطة المدنية إلى الحبس تحت رعاية المستشار . وأبدى الملك وعداً بتسليم الدارسين الذين يتم القبض عليهم فى منازعات طفيفة إلى المستشار ، الذى يستطيع بصفته نائباً لأسقف لنكولن فى المدارس أن يفرض العقوبة ، ولكنه احتفظ للأسقف أو نائبه الذى تعينه خصيصاً لذلك ، بالسلطة الوحيدة على الدارسين المتهمين بجرائم خطيرة . بيد أن أعضاء الجامعة عبروا صراحة عن عدم رضاهم بهذه التسوية . وأبدى الملك من جانبه حزماً صارماً بهذا الصدد . وعندما تم إلقاء القبض على ثلاثة من الدارسين بعد ذلك بوقت قصير ، أمر الملك بضرورة تسليمهم للمستشار لكى تتم محاكمتهم طبقاً لتقاليد الجامعة إذا لم تكن الجروح قاتلة.[3]

وتتوالى امتيازات الجامعة فى القرن الثالث عشر ، فقد حظيت الجامعة بامتيازات أخرى عام ١٢٥٥م على حساب حريات المدينة . فقد أمر الملك بتعيين أربعة من حكماء المدينة ، وثمانية من أبناء المدينة لمساعدة حاكم المقاطعة والنواب فى مراعاة النظام . وأن يصبح كل مالك بيت مسئولاً عن أى شخص يقيم تحت سقف منزله أكثر من ثلاث ليال . وصدرت الأوامر لتجار الخمور ببيع النبيذ للدارسين وأبناء المدينة بنفس الأسعار . كما منع تجار التجزئة من اعتراض المؤن الواردة للأسواق أو شرائها بعد بيعها مرة أخرى قبل الساعة التاسعة صباحاً ، كما صدر مرسوماً يقضى بعدم صلاحية التحليل نصف السنوى للخبز والبيرة إلا إذا تم فى حضور مستشار الجامعة أو نائبه[4] . ونظراً لأن تعاطى الطلبة

---

١ Lyte, op. cit., p. 42.

٢ Munimenta Academica, (ed.) by Anstey, in (Rolls Series) London, 1868, pp. 26-28; Lyte, op. cit., p. 45.

٣ Brodrick, op. cit., p. 14; Lyte, op. cit., p. 45; Rashdall, op. cit., p. 85.

٤ Lyte, op. cit., p. 46.

للخمور يعتبر مصدراً دائماً للمتاعب ، وكان نصف أبناء أكسفورد يخمرون النبيذ ويبيعونه ، كما كان الشراب جزءاً من أى احتفال أكاديمى ، لذا كان من الطبيعى أن يكون المستشار ملزماً من التأكد بأن أصحاب الحانات فى أكسفورد يحافظون على جودة الخمور التى يبيعونها. بيد أن ذلك لم يمنعهم من صنع الخمور من مياه الجداول ، التى تصب فيها المجارى، وتصبح شوارع المدينة مسرحاً لشجار نتيجة لذلك . بيد أن أهم ما تضمنه عهد ١٢٥٥م أنه منح مستشار الجامعة حق استلام الدارسين المعتقلين فى سجن القلعة بسبب جرائم خطيرة ، وعقاب العلمانيين من سكان المدينة باعتقالهم إذا ألحقوا ضرراً بالدارسين حتى يتم تقديم التعويض الذى يراه الطرف المتضرر والمستشار والجامعة ملائماً[١] .

وفى عام ١٢٥٦م أقر الملك بضرورة أن يتم تقدير إيجار المنازل والغرف التى يسكنها الدارسون والمؤجرة من سكان المدينة ، بواسطة لجنة مشتركة من الدارسين وأبناء المدينة مرة كل خمس سنوات بدلاً من كل عشر سنوات[٢] .

لا مراء أن هذه الأحداث والتطورات إنما تؤكد أن جامعة أكسفورد التى حظيت بتأييد الملك ، والبابا وأسقف لنكولن على السواء ، غدت تحتل مكانة مرموقة فى عيون العالم فى منتصف القرن الثالث عشر ، والتى يتحدث عنها المؤرخ متى الباريسى باعتبارها المدرسة الثانية للكنيسة . ولتلك التسمية قصة .

فى عام ١٢٥٧ م أظهر هنرى ليكسنجتون Henry Lexington الذى خلف روبرت جروستيست فى منصب أسقف لنكولن ، ميولاً غير ودية تجاه الدارسين فى أكسفورد، وتوجه تسعة من معلمى الآداب لمقابلة الملك فى دير القديس البانز St. Albans لتقديم شكوى ضد ما اعتبروه اعتداء الأسقف على حريات الجامعة[٣] . وعقد المؤرخ متى الباريسى الذى كان آنذاك راهباً فى دير القديس البانز لقاء مع الملك ، وناصر قضيتهم بحماس وقال مخاطباً الملك : "سيدى ، باسم الاله اهتم بالكنيسة المتداعية بالفعل ، لأن جامعة باريس مدرسة كثيرين من الأساقفة أصابها صدع عظيم ، وإذا تعرضت جامعة أكسفورد وهى

---

[١] Lyte, op. cit., p. 46; Mallet, op. cit., p. 153.

[٢] Lyte, op. cit., p. 45.

[٣] كانت جامعة أكسفورد فى هذه المرحلة قد بدأت فى صياغة أعرافها غير المكتوبة إلى قوانين مكتوبة . وكان النزاع يدور حول هل يحق للجامعة إدارة أمورها بنفسها أم من خلال أسقف لنكولن ؟ ولأن الأساتذة كانوا يحاضرون بمقتضى الترخيص الذى يمنحه المستشار . فقد اعتبر الأسقف الجديد ذلك انتهاكاً لحقه الخاص ، مستنداً فى ذلك على أنه بناء على التماس سلفه روبرت جروستيست أعلن البابا أنوسنت الرابع مرسوماً يقضى بأن لا يسمح لأحد بالتدريس فى أى تخصص ما لم يخضع للاختبار والموافقة من جانب الأسقف أو نائبه . وهذا القرار يبرهن بوضوح على أن مستشار الجامعة ما زال يعتبر نائب للأسقفية . وبالرغم من أن المستشار يعتبر من الناحية النظرية نائباً للأسقف ، بيد أنه باعتباره أستاذاً فى اللاهوت والقانون الكنسى بالجامعة كان دوماً معبراً عن مصالح الجامعة . وسلطته تعلى فى المدى البعيد سلطة الجامعة . وبمرور الوقت فإن دمج السلطة الأكاديمية والكنسية ، المدنية والجنائية فى أيدى مستشار مدارس أكسفورد لم يحدث أن حصل عليها رئيس أى جامعة أخرى باستثناء جامعة كمبريدج . انظر ذلك فى :
Rashdall, op. cit., pp. 45, 116, 117; Lyte, op. cit., pp. 39, 40.

المدرســة الثانية للكنيسة ، وربما تكون أساس الكنيسة ذاته لنفس الصدع والاضطراب ، فإننا نخشى أن تنهار الكنيسة كلها".[1]

وبـناء علــى ذلـك صــدرت الأوامر للمبعوثين من مدارس أكسفورد بالمثول أمام المجلـس الكبـير للملك ، والذى اصطلح المؤرخون على تسميته بالبرلمان ، والذى كان على وشـك الانعقـاد فــى ويسمنيســتر . وربما كانت نقطة الخلاف الأساسية بين أسقف لنكولن والجامعة ، أن الأسقف من منطلق تأكيد سلطته على الجامعة حاول منع المستشار من فرض عقوبــة روحــية بدون الحصول على إذن خاص منه . بيد أنه تم إقرار سلطة المستشار عام ١٢٦٢م بحقــه بإصــدار عقوبة الحرمان الكنسى ضد نواب المدينة ، فى حالة تجاوز سلطته باحتجاز الدارسين المتهمين فى سجن المدينة.[2]

وبالرغم من مؤازرة التاج للجامعة لم تلبث أن تعارضت حقوق المستشار مع حقوق الــتاج حــول حسم القضايا التى تحدث بين اليهود والدارسين ، مع الأخذ فى الاعتبار أنه قبل إنشــاء صندوق دير القديسة فرايدزوايد بمقتضى مرسوم البابا عام ١٢١٤ – والمشار إليه آنفاً – وغــيره من الصناديق لتقديم القروض للدارسين الفقراء ، كان اليهود هم الفئة الوحيدة التى تقدم القروض فى مدينة أكسفورد وكانت لهم تعاملات ضخمة مع الدارسين خلال حكم هنرى الثالــث[3] . ولــم يكــن القانون الكنسى المناهض للربا ينطبق على أعضاء الطائفة اليهودية . وكانـــت القضايا التى تنشب بينهم وبين المسيحيين تحال إلى محكمة مختلطة[4] . ورغم تحديد سعر الفائدة من جانب الملك بمقدار بنسين عن كل جنيه فإن الخلافات الكثيرة كانت تطفو على السطح بين الدائنين اليهود والمدنيين المسيحيين ، واللجوء لمستشار الجامعة للبت فيها . وفى عام ١٢٦٠م أخذ رئيس شرطة قلعة أكسفورد على عاتقه إثارة موضوع سلطة المستشار على الــيهود ، مدعياً أنهم لا يشكلون جزء من المجتمع العادى للمدينة . وأحال الملك الأمر برمته إلــى لجــنة مــن المحلفين من سكان المدينة ، جاء قرارها رغم العداء بين المدينة والجامعة لصــالح سلطة المستشار بموافقة كاملة من الملك ، بحق المستشار إقرار السلام بين الطرفين

---

[1] يذكــر المــورخ ماثيو الباريسي فى ثنايا حديثه عن مكانة أكسفورد فى القرن الثالث عشر ، بأنه فى عام ١٢٥٢م عرض بونــيفاس رئيس أساقفة كانتر برى شكواه ضد أسقف وينشيستر أمام الجامعة "لكى يعلن ذلك الخطأ الذى ارتكبه الأسقف علــى حشــود الدارسين المجتمعين هناك للدراسة من أنحاء متفرقة من العالم . لكى تعرف الأمم البعيدة بذلك الخطأ من حكايات الدارسين . وحضر إليه جمع غفير من الدارسين ، قابلوه بالترحاب باعتباره رئيساً للأساقفة ، وقدموا له كميات كبيرة من اللحم والشراب لطعامه ، وعندما لاحظ رئيس الأساقفة وحاشيته كرم ضيافتهم ، وفخامة مظهرهم ، وولائهم ، وجاذبية شخصياتهم ، اضطروا للاعتراف بأن جامعة أكسفورد جديرة بأن تصنف باعتبارها منافساً لجامعة باريس" انظر:
Matthew Paris, Chronica Majora, ed. Lusrd, Rolls Series, London, 1884; vol. IV, pp. 265, 353; vol. V, p. 618; Lyte, op. cit., p. 58.

[2] Loc. cit.

[3] Loc. cit.

[4] Stubbs, The Constitutional History of England, Oxford, 1873, vol. II, p. 530.

وتطبيق العمل السريع على أى منهما[1] . ويبدو من وجهة نظر الباحث أن قرار أبناء المدينة بالثناء على المستشار إنما كان بدافع الرغبة من جانبهم فى إذلال اليهود ، لأنهم بقدر ما كانوا يكرهون الدارسين ، فإن كراهيتهم لليهود كانت أشد وأقوى .

وللوقوف على أسباب المنازعات التى كانت تندلع دوماً فى أكسفورد بين الجامعة وتحديداً الدارسين وسكان المدينة ، يجب أن يؤخذ فى الاعتبار أن الجامعة فى النصف الأول من القرن الثالث عشر وحتى القرن الخامس عشر لم يكن لها أبنية خاصة بها أو ممتلكات من أى نوع . فالمدارس التى كانت تلقى فيها المحاضرات والغرف التى يسكنها الطلبة كانت جميعها مستأجرة من سكان المدينة . وكان العمل الأكاديمى يتم فى الكنائس الأبروشية أو الديرية المستأجرة لهذا الغرض . وكان لفقر الجامعة فى هذه المرحلة ميزة تعويضية ، لأنه ترك للجامعة حرية الاستقرار فى المكان الذى تريده . وطالما أصبح العامل المادى عديم الجدوى ، حينئذ يكون باستطاعة الدارسين مغادرة أكسفورد وحينئذ ينطوى رحيلهم على خسارة مادية لسكان المدينة ويمثل فشلاً زريعاً لكل من الكنيسة والملكية . وإذا كان البابا جريجورى التاسع (١٢٢٧-١٢٤١م) تصريحاً رسمياً للأساتذة فى باريس بالتوقف عن إلقاء المحاضرات عندما تتعرض حريات الجامعة للخطر . ففى أكسفورد كان القلق العام فى المدارس يفهم على أنه يعنى أن الدارسين يمكن أن يتفرقوا إذا لم تلق شكواهم الاهتمام العاجل. ومن ثم فإن التهديد بمغادرة أكسفورد وإغلاق المدارس يصبح السلاح الذى يستطيعون إشهاره فى وجه سكان المدينة[2] ، لاسيما وأن أكسفورد على حد تعبير المؤرخ ماليت الوحيدة بين مدن انجلترا فى العصور الوسطى التى تضمنت مركزين يبدو وكأنهما يتمتعان بالحكم الذاتى Self-governing أى الجامعة والمدينة . وفى الوقت الذى كانت فيه نقابة التجار قادرة على حماية حريتها وإقرار حقوقها ضد الدارسين كانت الجامعة تحتاج دوماً إلى حماية التاج.[3]

وفى أثناء النزاع الشهير بين هنرى الثالث والبارونات الثائرين بزعامة الأيرل سيمون مونتفورت ، أبدت الجامعة تعاطفاً مع البارونات المعاديين للملك ، ولم تمانع فى منحهم قرضاً استهلك جزء كبيراً من النقود التى أوصى بها وليم درهام لمعلمى الآداب الفقراء. حينئذ أمر هنرى الثالث كل الدارسين مغادرة أكسفورد . وانضم عدد كبير منهم إلى البارونات . وغامر الملك باقتحام أكسفورد ، وأقسم تحت وطأة الغضب من الدمار الذى ألحقوه برجاله ، بأنه سوف يشنقهم جميعاً فور الاستيلاء على المدينة . بيد أن الملك لم ينفذ تهديده بناءً على استنكار أتباعه ، مخافة أن يؤدى ذلك إلى فقدان كل النبلاء والأتباع المؤيدين

---

١ Lyte, op. cit., pp. 58-59.
٢ Ibid; p. 41.
٣ Mallet, op. cit., pp. 39-40.

لـــه ، فمـــن لهـــم أبناء وأقارب بين الدارسين . وبعد شهر واحد من وقوع الملك وولى عهده الأمـــير إدوارد فـــى الأسر على يد الأول فى معركة لويس Lewes بمقاطعة سكس ، والتى أدت إلـــى قلب أوضاع الأطراف المتحاربة رأساً على عقب ، أصدر الأيرل المنتصر مراسيم باسم الملك يأمر بعودة الدارسين المشتتين إلى أكسفورد[1] .

ونســـتطيع تفســـير هذا الموقف العدائى للجامعة تجاه الملك رغم انحيازه لها وإعلاء شأنها فى عهده فى ضوء حقيقة أن الجامعة لم تكن بمنأى عن حالة الاستياء العام فى المملكة نتيجة تردى الأوضاع السياسية داخلياً وخارجياً فى عهد هنرى الثالث ، وربما إيمانهم بعدالة المطالـــب البارونـــية والتى قدمها الأيرل الثائر فى اجتماع المجلس الكبير الذى عقد فى مدينة أكسفورد عام ١٢٥٨ والتى عرفت فى التاريخ الانجليزى بشروط أكسفورد[2] .

علـــى أية حال ، فقد حظى النصف الثانى من القرن الثالث عشر بأهمية خاصة فى تـــاريخ تطور جامعة أكسفورد ، بظهور ما اصطلح على تسميته الكليات Colleges ، وهى مؤسســـات خيرية ذات هدف تعليمى لإعالة الدارسين الفقراء . وخلال فترة العصور الوسطى كانت الغالبية العظمى من الدارسين العلمانيين يقيمون إما فى غرف مستأجرة من أبناء المدينة أو فى قاعات Halls مع الأخذ فى الاعتبار أن منع الدارسين من الإقامة فى بيوت الأهالى لم يـــتم الغاءه إلا فى عهد الملك هنرى الخامس (١٤١٣-١٤٢٢م)[3] . ومن الجدير بالذكر أيضاً أن الـــدارس الثرى الذى ينتمى لأسرة عريقة يستطيع أن يأخذ مسكناً خاصاً به . فى حين أن الدارس الذى يعانى الفاقة يقيم فى حجرة منفردة مهملة أعلى البيت . ومن ثم نجد أن الدارسين الذيـــن يجدون مشقة فى دفع تكاليف المعيشة لا يرون ثمة مهانة فى قبول المساعدة من رجل ثـــرى ، حيـــث نجد الكثير من الدارسين يدينون بالفعل إلى كاهن أو أحد النبلاء بالتعليم الذى يهيـــئ لهم البداية الأولى للحياة . ولا مراء أن فكرة الكفالة على أساس دائم للإقامة فى بيوت بمـــا فـــيها الأكل والإقامة للدارسين الفقراء كانت بدون شك الدافع الرئيسى الذى أدى لظهور فكرة الكليات[4] .

وتـــبدأ الجـــذور التاريخية لنظام الكليات فى تاريخ أكسفورد الباكر بعدد من الملوك والنـــبلاء والأســـاقفة يدفعون نفقات تعليم الطلبة الفقراء الذين ولدوا فى ضياعهم الإقطاعية . وكان الأغنياء المتحمسين للتعليم يقررون إعالة عدد من الدارسين فى الجامعة ، وتوفير إقامة خاصـــة لهـــم ، ووضع القواعد لضبط سلوكهم ، فى عصر يعتبر التبرع أو الهبة Chantry بهـــدف إعالـــة دارس أو أكـــثر من الأعمال النبيلة وتعبيراً عن التقوى والورع فى العصور

---

[1] Lyte, op. cit., pp. 65-66; Mallet, op. cit., pp. 52-53.

[2] ولمزيد من التفاصيل عن النزاع بين هنرى الثالث والبارونات انظر :
زينب عبد المجيد ، المرجع السابق ، ص ١٨٨- ١٨٩ .

[3] Rashdall, op. cit., p. 175.

[4] Rashdall, op. cit., p. 175; Mallet, op. cit., p. 84.

الوسطى[1] . ولعل أصدق مثال على ذلك ما قام به أحد الأثرياء ويدعى الآن باسيت Alan Basset ، حيث أوصى بمبلغ مائتى مارك تؤخذ من ضيعته ، تدفع بمعدل ثمان ماركات سنوياً لاثنين من القساوسة الذين يتولون إقامة القداس يومياً لروحه وروح زوجته ، وأيضاً للدراسة فى مدارس أكسفورد أو أى مكان آخر . ويجب الاعتراف بفضل آلان باسيت باعتباره أول من أقدم على وقف بعض المال للإنفاق على دارس فى أكسفورد[2] .

وفى عام ١٢٤٩ م أوصى وليام درهام William of Durham أحد أساتذة باريس البارزين بمبلغ ثلاثمائة وعشرة مارك لجامعة أكسفورد ، بهدف إعالة عشرة أو أكثر من معلمى الآداب من أبناء كونتية درهام فى منازل يتم توفيرها فى أكسفورد من هذا المال . وقد وضعت الجامعة هذه الأموال فى خزينة عرفت باسم صندوق وليم وليام درهام . أنفقت بعضاً منه فى منح قروض بدون فائدة للدارسين . وفى أثناء النزاع البارونى الشهير فى عهد هنرى الثالث اقترض البارونات الذين جاءوا لحضور اجتماع عام ١٢٦٤م[3] ، مبالغ ضخمة من ذلك الصندوق ، وفى ضوء ذلك لا يمكن اعتبار وليم درهام مؤسس لأقدم كلية فى أكسفورد ، لأنه لم يهدف أن يكون المتلقين لصدقاته فى شكل جماعة منظمة تتمتع بحقوق عامة . مع الأخذ فى الاعتبار أن لفظ كلية Collegium هو المرادف اللاتينى للكلمة التى تستخدم الآن بمعنى هيئة أو مؤسسة Corporation . ومن ثم فإن ما قام به وليم درهام عبارة عن منحة مالية Exhibition-fund تدار بواسطة الجامعة[4] .

ومن الجدير بالذكر أنه بالإضافة للمال الذى أوصى به وليم درهام ، وأموال أخرى من متبرعين آخرين ، تم فى عام ١٢٨٠م إنشاء ما يعرف باسم كلية الجامعة University College والتى عرفت آنذاك باسم الدار الكبرى للجامعة "Gtreat University Hall" عبارة عن مجموعة صغيرة مكونة من أربعة من المعلمين غير القادرين على العيش بمستوى رفيع مع دارسين آخرين ، ويتم اختيارهم بواسطة المستشار ومعلمى اللاهوت . وكانوا جميعاً مطالبين بدراسة اللاهوت ، ولأن الجامعة لم تعتزم أن يشكل هؤلاء الدارسون مؤسسة مستقلة عن الجامعة ، فقد كان مسموحاً لهم فقط بقدر محدود فى إدارة شئونهم . ويعين الزميل الأكبر سناً The Senior Fellow رئيساً Head . وكانت السلطة الفعلية كلية فى يد المستشار والأساتذة الممارسين Regent Masters فى اللاهوت . وحصل الدارسون المقيمين بها على مخصص سنوى مقداره خمسين شلنا لكل منهم سنوياً . وصدرت القوانين المنظمة للمقيمين بها وفقاً لقواعد صارمة عام ١٢٩٢ م . بيد أن مصطلح كلية لم يخرج إلى حيز الوجود إلا

---

١ Rashdall, op. cit., p. 175.

٢ Mallet, op. cit., p. 84; Rashdall, op. cit., p. 175.

٣ Brodrick, op. cit., p. 17; Lyte, op. cit., pp. 10, 71, Mallet, op. cit., p. 84

٤ Munimenta Academica, pp. 780-783; Lyte, op. cit., p. 87.

عــام ١٢٨٠م ، لأن القوانيــن الــباكرة التى أعدت من خلال الجامعة لإنشاء هذه المؤسسة صدرت فى هذا العام[1] .

وفــى عــام ١٢٦٠م خصص جون باليول John Balliol الذى يعد واحداً من أكثر بارونــات الشمال قوة وثراء ، مبلغا من المال للإعالة الدائمة للدارسين الفقراء فى أكسفورد . وبعــد وفاتــه زادت زوجته الأميرة الاسكتلندية ديرفورجيلا Dervorguilla من قيمة المنح المالــية بمــا يكفــى لإعالة ستة عشر دارساً بمرتب سنوى يقدر بسبعة وعشرين ماركاً لكل دارس. بيد أن مؤسسة باليول خصصت لدارسى الآداب فقط ، الذين بعد حصولهم على درجة الماجســتير فــى الآداب M.A لا يســمح لهــم بالاستمرار وبالتالى ترك أماكنهم . وهؤلاء الدارسون تحت إشراف رئيس Principal كانوا يقومون بانتخابه.[2]

ونظراً لأن المؤسس الأصلى قد أغفل أن يضع كليته أى مؤسسته تحت رعاية زائر حيــث مــن المعتاد أن يكون أسقف لنكولن هو الزائر Visitor . كذا وبمقتضى قوانين عام ١٣٤٠م قسمت سلطة الزائر بين مستشار الجامعة وأسقف درهام واثنين من المدرسين . ولكن بمقتضــى قــانون تم إعداده تحت إشراف السلطة البابوية بواسطة سيمون سدبرى Simon Sudbury أســقف لندن عام ١٣٦٤م . جعل أسقف لندن زائر . ومن جهة أخرى فقد منحت القوانين البابوية الجديدة الكلية امتيازاً فريداً بعدئذ بحقها فى انتخاب زائرها.[3]

وفــى نفــس الوقــت أســس وولــتر مرتون Walter Merton أسقف روشيستر Rochester مؤسسة تعليمية أى كلية ، من خلال تخصيص ريع ضياعه الإقطاعية فى مالدن Malden لإعالــة أحــد عشر دارساً من الحاصلين على درجة الليسانس فى الآداب للحصول علــى درجة الماجستير ، بدخل سنوى يقدر بأربعين شلن لكل منهم . وانطلاقاً من تقديره التام للنهضــة الفكــرية فى عصره وعدم استعداده لرؤية سيطرة المؤسسات الدينية على مؤسسته حيث المبشرين المتحمسين لخدمة الهيمنة والسيادة البابوية ، أنشأ مؤسسته بهدف تعليم رجال

---

[1] فى ضوء قوانين عام ١٢٩٢م ، ونظراً لقلة عدد الدارسين بكلية أودار الجامعة ، تم اتخاذ إجراء يتم بمقتضاه قبول دارسين آخرين من ذوى الأخلاق الطيبة للإقامة والسكن ولكن على نفقتهم الخاصة وعرف هؤلاء باسم العامة Commoners . أى الدارســين غير الأعضاء الأساسيين فى المؤسسة . وتم إنشاء مكتبة واستعارة الكتب وفقاً لشروط صارمة . وكانت اللغة اللاتينية هى لغة الحديث اليومى والعيش كدارسين وفقاً لأسلوب القديسين . وعدم الشجار أو استخدام الألفاظ البذيئة . وفرض نظام تدريجى للعقاب بمعنى أن من يهين زميله سراً تفرض عليه غرامة شلن ، وإذا كانت الإهانة أمام الزملاء تكــون شــلنين . وإذا حدثت الإهانة فى الشارع أو الكنيسة أو فى مكان للترفيه تكون الغرامة ستة شلن وثمانية دينار . وبمقتضــى القوانيــن التكميلــية الصادرة عام ١٣١١م سمح للدارسين بملأ الأماكن الشاغرة فى مؤسستهم . وللزملاء Fellows أى المعلميــن الأربعة حق التصويت بصدد انتخاب الزملاء الآخرين فى المستقبل . بيد أن المستشار ومعلمى اللاهوت ومراقبى الجامعة لهم حق رفض الأشخاص المنتخبين . لمزيد من التفاصيل بصدد هذه القوانين انظر :
Munimenta Academica, vol. II, pp. 56-61; Lyte, op. cit., pp. 82-84; Brodricke, op. cit., p. 17; Mallet, op. cit., pp. 87-89.

[2] Rashdall, op. cit., p. 181; Brodrick, op. cit., p. 17; Lyte, op. cit., p. 71; Mallet, op. cit., pp. 97-98.

[3] Rashdall, op. cit., p. 182; Mallet, op. cit., pp. 102,104.

الديـن العلمانيين ، لإعداد مجموعة من الرجال القادرين على إسداء عمل جيد للكنيسة والدولة علـى السـواء . وتجسيداً لذلك أصدر تشريعاً يحث دارسيه جميعاً على دراسة الفنون الحرة والفلسفة قبل الإقدام على دراسة اللاهوت[١] .

ومـن الجديـر بالذكر أن الدارسين فيكلية مرتون كانوا خاضعين لإشراف مراقب Warden ، الـذى كان اختياره يقع على عاتق أقدم سبع دارسين ، ومن الممكن اختياره من بيـنهم إذا أرادوا ذلـك . بيد أنه كان يتم إبعاده حسب إرادة أسقف وينشيستر . ومن المقرر زيـادة عدد الدارسين تبعاً لزيادة الإيراد . وكانوا ملزمين باجتياز المقرر العادى فى الآداب ، والانـتقال بعده لدراسة اللاهوت . وللمراقب حق منح الترخيص لأربعة أو خمسة من الطلبة الممتازيـن من المقيمين بالمؤسسة لدراسة القانون الكنسى أو المدنى . ويبدو أن الطلبة الأكبر سـناً كانوا يعملون كمعلمين للأصغر سناً والذين كانوا تحت رعاية معلم النحو المقيم . وعند مخاطـبة بعضـهم بعضاً يستخدمون تعبير زميل Fellow . بيد أن هذه الكلمة لم تكن تعنى المعـنى الحـرفى الذى تدل عليه الآن . وإنما استخدمت بواسطة روبرت مرتون تعبيراً عن روح المسـاواة والصـداقة التى يجب أن تسود بين متلقى هباته . وكان انجاز العمل الإدارى مـنوطاً بعدد كبير من الدارسين المقيمين بالمؤسسة أمكن توظيفهم لإدارة شئون الكلية . يعمل ثلاثـة مـنهم أمناء للخزانة ، وخمسة آخرون لمراجعة الحسابات . والأكبر سناً فى كل قاعة dormitory يسمى عميد Dean . ويكون مسئولاً عن حسن سلوك وعمل الساكنين الآخرين. وفى عام ١٢٧٦م أصبح الزائر رئيس أساقفة كانتربرى[٢] .

وكـان يتم قبول الأولاد الفقراء من أقارب المؤسس بشرط ألا يزيد العدد على ثلاثة عشر ، وبرر مرتون الإحسان الذى أسبغه على أقاربه بأنهم كانوا سيحصلون على ممتلكاتهم بالقانون لأنه حرمهم من الميراث بمنح ممتلكاته لمؤسسة تعليمية[٣] .

ومن الجدير بالذكر أن الدارسين الأوائل فى كليات الجامعة ، بالبول ، ومرتون كانوا يعيشـون فـى غرف منعزلة وحجرات عارية مكشوفة مكونة من طوابق من الطين . وكانوا يعانون دائماً من البرد . وحتى عهد أسرة تيودور (١٤٨٥-١٦٣٥م) لم تكن الطوابق الخشبية والحوائـط المكسـوة بالخشب ، والأسقف المغطاة بالجص قد بدأت بعد . وحتى عهد الملكة اليزابيث الأولى لم تكن التدفئة أو مفروشات الأسرة وفيرة . وبدأ بعدئذ تشييد أعداد هائلة من المداخن. وأصبحت الوسائد والمخدات شائعة الاستعمال[٤] .

---

١ Lyte, op. cit., pp. 72, 73; Brodrick, pp. 17, 18; Mallet, op. cit., pp. 113-116.

٢ Lyte, op. cit., pp. 73-80; Brodrick, op. cit., pp. 18-20; Rashdall, op. cit., p. 196.

٣ Lyte, op. cit., p. 80.

٤ Mallet, op. cit., p. 87.

لا مـــراء أن تأسيس ما اصطلح المؤرخون القدامى والمحدثون على تسميته بالكليات فـــى ضوء هذه الكليات الثلاث الباكرة يمثل حدثاً مهماً فى التاريخ الأكاديمى لجامعة أكسفورد فى القرن الثالث عشر.[1]

وبانـــتهاء الحرب البارونية وتأسيس هذه الكليات الباكرة بدأت فترة جديدة فى تاريخ ازدهـــار الجامعة واحتلت أكسفورد مكانتها بجانب باريس بين أشهر مراكز التعليم في الغرب الأوروبـــى وأصبح رجال التعليم فى أكسفورد زعماء للفكر الأوروبى . ويذكر فى هذا الصدد أن دانتى Dante استمع إلى المحاضرات فى أكسفورد وتجول فى شوارعها[2] . وتتأكد مكانة أكســـفورد بحلـــول القرن الرابع عشر ، وتزداد توهجاً فى أعين أوروبا نتيجة لتدهور جامعة بـــاريس ، واحـــتجاج رجال التعليم فى أكسفورد بشدة على الاستبداد الروحى للبابوية ، التى أنحـــط شـــأنها وباتت أسيرة لنفوذ وتأثير الملكية الفرنسية فى أفينون Avignon زهاء ستين عاماً . وسرعان ما تبع عودة البابا إلى روما الانشقاق الكبير The great Schism (١٣٧٨-١٤١٧م) . وتناثر أشلاء الكرسى الرسولى بين عدد من البابوات فى روما ، أفنيون ، وبيزا فى آن واحد ، وفى الوقت الذى أجهدت فيه انجلترا طاقاتها فى حملات عسكرية مضنية ضد التاجيـــن الفرنسى والاسكتلندى . ورغم كل الأحداث السياسية التى مزقت القارة الأوروبية فى القـــرن الـــرابع عشر . فقد شهد هذا القرن ازدهارا كبيرا فى مجال الآداب والفنون والتعليم . ولم تكن جامعة أكسفورد بمنأى عن هذه الصحوة الفكرية ومواصلة مسيرة تطورها[3] .

---

[1] شـــهدت جامعـــة أكسفورد فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر مولد عدد كبير من الكليات مثل كلية اكستر Exter College عام ١٣١٤م ومؤسسها وولتر ستابلدون Walter Stapledon أسقف إكستر . وكلية أوريل Oriel عام ١٣٢٤ م . وكلـــية الملكـــة Queen College عام ١٣٤١م على يد روبرت أجلسفيلد Robert Egglesfied قس الملكة فيليبا Philippa زوجة الملك إدوارد الثالث (١٣٢٧-١٣٧٧م) . وكلية كانتربرى وأسسها سيمون سلاب Simon Islap رئيس أساقفة كانتربرى عام ١٣٦١م . والكلية الجديدة New College على يد وليام ويكهام William of Wykeham أسقف ونشيســتر عـــام ١٣٧٩م . والذى حصل على ترخيص من الملك ريتشارد الثانى (١٣٧٧-١٣٩٩م) بتأسيس كلية تتسع لســبعين دارســاً فى التخصصات المختلفة من الطلاب للفقراء والمعوقين ، الحاصلين على تعليم كاف فى النحو . وأن يكونوا دون العشرين من العمر . وأن يدرس عشرة منهم القانون المدنى ، وعشرة آخرون القانون الكنسى . أما الخمسون الـــباقون فقد تقرر أن يتجهوا لدراسة الفنون الحرة أو الفلسفة أو اللاهوت . وإذا كان وولتر مرتون هو المؤسس الحقيقة لـــنظام الكلـــيات الإنجليزية . يعتبر وليم ويكهام المؤسس الثانى . ثم تأسست كلية لنكولن عام ١٤٢٩م بواسطة ريتشارد فلـــمج كان أحد أتباع ويكلف Wyclifite ، للدفاع عن العقيدة الكاثوليكية ضد الهرطقة التى نجا من الوقوع فى براثنها على حد تعبيره . ووجدت كليات أخرى علاوة على عدد لا حصر له من الكليات الديرية . واعتقد أن الحديث تفصيلاً عن هذه الكليات أمر لا يتسع صفحات البحث للوفاء به ويحتاج إلى دراسة مستقلة . ولمزيد من التفاصيل انظر :
Brodrick, op. cit., pp. 31, 31; Rashdall, op. cit., pp. 185-222.

[2] Brodrick, op. cit., pp. 28-30; Lyte, op. cit., p. 138.

[3] Brodrick, op. cit., pp. 28-30; Lyte, op. cit., pp. 28-33.

ففى عام ١٣٢٢م طالبت الجامعة ليس فقط بحق انتخاب المستشار وإنما عزله أيضاً. ووافق أسقف لنكولن على التخلى عن حقه فى تعيين المستشار بدون تردد[1] . بيد أنه عندما تجدد النزاع ثانية عام ١٣٥٠م بين لنكولن، الذى أعاد مرة أخرى إثارة مسألة أحقيته فى تعيين المستشار ، لجأت الجامعة ، التى تحصنت بما تم الاتفاق عليه سابقاً، إلى رئيس الأساقفة ، الذى حث أسقفه على إقرار تعيين المستشار فى غضون ستة أيام فقط من انتخابه ، ليس ذلك فقط فقد بادر رئيس الأساقفة بإقرار تعيين المستشار دون مراعاة لأسقف لنكولن الذى أصر بدوره على أحقيته فى الانفراد بذلك وتأكيد مكانته الكنسية . وبث الأسقف الغاضب شكواه ضد رئيسه للبابا فى روما ، والذى انحاز بدوره للجامعة ، وبارك مسلك رئيس الأساقفة . وفى عام ١٣٦٧ ذهب البابا أربان الخامس (١٣٦٢-١٣٧٠م) إلى أبعد من ذلك بإلغاء إقرار التعيين كلية من جانب أسقف لنكولن ، وأن الانتخاب الشرعى للمستشار من خلال أساتذة الجامعة الممارسين Regent Masters يعد كافياً ، لتتحرر الجامعة نهائياً من ربقة السيطرة الأسقفية[2] . ولم يكن متوقعاً لرئيس شمامسة أكسفورد والذى يمثل أعلى سلطة كنسية مقيمة بالمدينة ، أن يكون أسعد حظاً من الأسقف فى الحد من تزايد سلطة المستشار ليحظى المستشار فى النهاية بصلاحية رئيس الشمامسة Archidiaconal على دارسيه .

---

[1] يرجع المؤرخين رشدال وماليت بداية النزاع بين أسقف لنكولن والجامعة إلى أيام الأسقف أوليفر ستون Oliver Sutton ، الذى أصبح منذ لحظة ارتقاءه المنصب الأسقفى متورطاً فى نزاع مع الجامعة . وفى مواجهة هذا الأسقف انعقد مجلس الجامعة Congregation عام ١٢٨٠م . وتم القسم على مراعاة الحقوق الأربعة التالية باعتبارها أساساً لسلطة وتقاليد الجامعة من البداية وهى ١- استدعاء الدارسين المتهمين فى قضايا مع أبناء المدينة أمام المستشار . ٢- إثبات صحة وصايا الدارسين أمر من اختصاص المستشار . ٣- حق الاستجواب والتحقيق فى القضايا المتعلقة بالجنوح الأخلاقى للدراسين والعقود التى يبرمها المعلمين من اختصاص الجامعة . ٤- عدم الالتماس من جانب المدرسين فى أى محكمة سوى محكمة المستشار . علاوة على ذلك أظهر المستشار والمراقبون إصراراً بأن سلطة الأسقف تنحصر فقط فى الاستئناف فى القضايا الأخلاقية التى باء اللجوء فيها للمستشار أو مجلس الجامعة بالفشل . وأصر الأسقف العنيد بدوره على ضرورة حضور المستشار شخصياً أمامه لإقرار أو اعتماد تعينه . واعترض على مطلب الجامعة بحق انتخاب مستشارها . مما أدى إلى نزاع حاد وتوقف فى المحاضرات فى أكسفورد . واضطر رئيس الجامعة – المستشار – لتحذيره بأن الجامعة لن ترضخ لهذا القيد غير المألوف" . وبناءً على تدخل الملك والبرلمان اضطر الأسقف للإذعان . بيد أنه فى أوائل القرن الرابع عشر احتج الأسقف الجديد Dalderly على ما أسماه مؤامرات الجامعة وتجاوزاتها . وأثار الصعوبات بصدد تعيين المستشار وذكر الأساتذة بأن عليهم ترشيح المستشار فقط ، وأن التعيين من سلطة الأسقف وحده ، وهدد بالحرمان الكنسى ضد كل من يصدر قوانين تلحق ضرراً بمركزه أو أسقفيته . بيد أن الجامعة لم تيأس حتى تجدد النزاع عام ١٣٢٢م . حيث وافق الأسقف كما أشرنا فى المتن على التخلى عن التعيين بدون تردد . بناءً على صيغة عرضية لكرامة الطرفين . وظلت مقبولة لمدة خمسين عاماً فقط . حيث تغاضى أسقف لنكولن عن الحضور الشخصى للمستشار ، وأنه قام بإقرار واعتماد تعيينه بدافع من كرمه فقط . لمزيد من التفاصيل انظر :
Mallet, op. cit., pp. 166, 167; Rashdall, op. cit., pp. 118-120.

[2] فى الوقت الذى استمرت فيه الصيغة التوفيقية التى أسفر عنها نزاع ١٣٢٢م بصدد إقرار تعيين المستشار – كما سبق ذكره – مقبولة لمدة خمسين عاماً من الطرفين . بيد أن هذه الفترة لم تمر دون نزاع من حين لآخر ففى عام ١٣٦٧م فوض الأسقف أقدم أساتذة اللاهوت Senior Professor لتوقيع عقوبة الحرمان الكنسى على هؤلاء الذين بالتآمر يطالبون بانتخاب المستشار انظر :
Munimenta Academica, pp. 168-172;
Mallet, op. cit., p. 167; Rashdall, op. cit., pp. 120-123, Brodrick, op. cit., p. 42.

ومـــن ناحية أخرى لم يتوان رئيس الأساقفة من البداية على التشجيع على استقلال الجامعة . وبالـــتالى لـــم يكن من السهل على الجامعة منازعة رئيس الأساقفة فى سلطته ، وآرائه بصدد العقيدة تحظى دوماً بالطاعة . وكانت زياراته الرسمية للجامعة باعتباره زائراً Visitor بمثابة أحـــداث أكاديمـــية هامة . بيد أنه فى نهاية القرن الرابع عشر أذعن رئيس الأساقفة كورتناى Courtenay لمرســوم البابا بونيفاس التاسع (١٣٨٩-١٤٠٤م) الذى أعفى بمقتضاه الجامعة مـــن ســـلطة رئـــيس الأساقفة والأساقفة جميعاً . ولكن خليفته أرندل Arundel حصل على مســاعدة الملـــك والبرلمان بتنحية هذا المرسوم جانباً ، وأقنع البابا جريجورى الثالث عشر (١٤٠٦-١٤١٥م) بإلغائه عام ١٤١١م.[١]

ونســتطيع أن نقول فى ضوء ما سبق أن التباين بين السلطة التى يمارسها مستشار مــدارس أكسفورد باعتباره نائباً لأسقف لنكولن ، والسلطة التى آلت إليه كرئيس لجماعة لها أساتذة سرعان ما تلاشت . ذلك أن اعتماده على الجامعة جعله من الناحية العملية مستقلاً أكثر فأكـــثر عن الأسقف الذى كان يستمد منه سلطته لاسيما وقد أثبت التاج دوماً أنه صديقاً حميماً للمستشار ، بل ساعده على توسيع نطاق حقوقه وحريته[٢] .

ومـــن الجديـــر بالذكر أن الأساتذة الممارسين الذين ينتخبون المستشار إنما يختارون عالمـــاً فـــى القانون الكنسى أو اللاهوت . ولهؤلاء الأساتذة ليس فقط حق الاختيار بل رفض المرشـــح لمنصـــب المستشار . وفى أثناء أجازته يعمل العضو، أى الأستاذ الأكبر سناً ، فى تخصص اللاهوت كنائب له . وفى حالة غياب المستشار عن أكسفورد من الممكن تعيين نائبه للقـــيام بمهامه ، بيد أن غيابه كان يمنع باستمرار بسبب الأضرار الكثيرة الناجمة عن ذلك لا ســـيما مـــن جانـــب أسقف لنكولن . لذا ووفقاً لما تمدنا به حولية معاصرة، قد يفقد المستشار منصـــبه إذا غـــاب عـــن أكسفورد شهراً[٣] . وإذا ثبت عجزه عن تحقيق العدالة يحق لمجلس الجامعـــة اســـتدعائه لـــتقويم أساليبه أو الرحيل . وبدءاً من عام ١٣٢٢ كان يتم انتخابه لمدة عاميـــن ، ومـــن الممكـــن إعادة انتخابه لفترة ثانية . ولم تصبح وظيفته دائمة إلا فى القرن الخامس عشر[٤] .

وعلـــى حد تعبير المؤرخ الانجليزى ماليت "بدا هذا المسئول المنتخب أى المستشار الـــذى يديـــن للأســـاتذة باستقلاله، وكأنه حاكماً حقيقياً أثناء فترة رئاسته للجامعة ، فقد كانت ســـلطاته واسعة وهيبته ليست موضوع شك ، مشاركاً فى حكم وإدارة المدينة ، فهو المسئول الوحيد عن توزيع الخبز ، النبيذ ، البيرة ، وفحص الموازين والمكاييل ، والتأكد من عدم بيع الطعام الفاسد ، وإدارة الشوارع ، وطرد كل الدارسين المثيرين للفوضى ومصادرة أسلحتهم .

---

١ Mallet, op. cit., pp. 167, 168.
٢ Mallet, op. cit., p. 169.
٣ Munimenta Academica, vol. II, p. 127; Mallet, op. cit., p. 170.
٤ Mallet, op. cit., p. 170.

وصــار لزاماً على التجار الالتزام بقوانينه ، ويسعى الحرفيون للحصول على موافقته لتنظيم نقاباتهم ، وخضوع المتسيبون ذكوراً وإناثاً لعقابه . وكان العمدة ونواب المدينة ملزمين بتقديم العــون له فــى القــبض علــى المخالفين . والتزام حاكم المقاطعة بإيداعهم السجن بناءً على طلــبه"[1]. وتــتوج سلطة المستشار بالعهد الذى منحه الملك ريتشارد الثانى (١٣٧٧-١٣٩٩م) يمــنع بمقتضاه الملك ونوابه من النظر فى قضايا من اختصاص محكمة المستشار. وفى عام ١٤٠٦ مــنح الملــك هنرى الرابع (١٣٩٩-١٤١٣م) الجامعة امتيازاً يعطى للمستشار تعيين مسئول جديد باسم Seneschalor Steward ، له حق محاكمة أعضاء الجامعة وأبناء المدينة مــن زوى الامتــيازات الخاصة ، والاتباع الذين لم يتمتعوا بحصانة الدارسين مثل الكتاب ، الحلاقيــن ، الطهــاه ، الغســالين ، والحمالين .. الخ فى الجرائم الجنائية المتهم فيها هؤلاء ، والحكــم وفقــاً للقــانون العلمــانى . وتــم إقرار هذا الامتياز الذى لا يضاهى ، علاوة على الصــلاحية القديمــة لمحكمــة المستشار بمقتضى قانون برلمانى خاص . وأصبح المستشار الرئــيس المعترف به للمجلس الكبير Magna Congregatio or great Congregation ، أى مجلس الجامعة[2] .

علاوة على المستشار وفى ضوء الحديث عن الهيكل التنظيمى لجامعة أكسفورد كان يوجــد أثنيــن مــن المراقبين المنتخبين Proctors بواسطة قسم الآداب Faculty of Arts أحدهمــا يمثل المعلمين من أبناء الشمال ، والآخر من المعلمين من أبناء الجنوب كما سبق أن ذكــرنا فى بداية هذه الدراسة . وكانا بمثابة الرسميين للجامعة ككل ، وأقدم مسئولين تنفيذيين فى الجامعة . ومن مهامهما مساعدة المستشار فى أداء وظيفته ، وتنفيذ القوانين ، والإشراف علــى الانتخابات ، وتنظيم العمل الأكاديمى ، والمشاركة فى احتفالات التخرج ، وإعداد قوائم بأســماء المخالفين ، والتأكد من تنفيذ العقوبات والغرامانات ، والإشراف على إنفاق وحسابات الجامعــة ، وتحصيل رسوم الدرجات العلمية . ويستطيعان إذا اتحدا استخدام الفيتو Veto أى الاعــتراض فــى مجال التشريع ، والدعوة إذا لزم الأمر لانعقاد مجلس الجامعة للتحقيق فى

---

[1] Ibid, pp. 170, 171; Brodrick, op. cit., p. 47.

[2] من الجدير بالذكر فى ضوء كثرة القضايا المعروضة للبت أمام المستشار لم يكن ثمة مراعاة تامة لتحقيق العدالة والنظام علــى وجه الدقة . وكان المتهمون فى الجرائم الكبرى يستفيدون من أخطائه . ونظراً لإصرار الأساتذة الممارسين على التقاضــى أمام المستشار أو من يفوضه بحيث أصبحت أعباء التقاضى تثقل كاهل المستشار أو نائبه . كان يتم الاستعانة بالدارسين الحاصلين على درجة البكالوريوس فى القانون الكنسى أو المدنى لمساعدة الدكاترة على اجتياز تلك المحاكمات. وكــان الاســتئناف يرفع للمستشار أولاً أو نائبه ثم إلى مجلس الأساتذة الممارسين وغير الممارسين . وكان حق الدفاع مكفولاً للدارسين . بيد أنهم كانوا على حذر من المحامين الذين يوكلونهم . لذا نص التشريع الجامعى على ضرورة البت سريعاً فى القضايا ، وكبح عدد المحامين الزائد عن الحد . لأنهم يشجعون على رفع القضايا بل وإخفاء الحقيقة من أجل الكسب المادى . لمزيد من التفاصيل انظر :

Munimentica Academica, pp. 231, 232; Mallet, op. cit., p. 174; Rashdall, op. cit., p. 103.

سلوك المستشار ، بل وإبعاده من منصبه أى أنها باعتبارهما ممثلين للأساتذة يمتلكان سلطة كبيرة فى عقاب والإطاحة برئيس الجامعة المبجل.[1]

وبعد المستشار والمراقبين يأتى ما اصطلح على تسميتهم Bedels أى المحضرين[2]. وعددهم ستة ، اثنان منهم ينتمون لقسم أو مدرسة اللاهوت ، واثنان عن مدرسة القانون ، واثنان عن مدرستى الطب والآداب . وهؤلاء بمثابة موظفين منتخبين من قبل الجامعة لتنفيذ أوامرها . ويظهرون فى كل الاحتفالات الرسمية بما فى ذلك الجنازات . والذهاب إلى المدارس لتسليم قرارات الجامعة ، وإحصاء الأصوات أثناء التصويت على القرارات فى مجلس الجامعة ، وتحصيل الغرامات واصطحاب المخالفين إلى السجن . وهؤلاء المحضرين تحدد أجورهم وفقاً للقانون . وثلاثة منهم من أصل عريق وأعلى مكانة من الثلاثة الآخرين ، لذا صار لزاماً عليهم إمداد زملائهم الأدنى بالطعام وعشرة شلنات سنوياً لشراء الأحذية . ونظراً لأهميتهم ليس غريباً أن تتدخل شخصيات مرموقة فى الترشيح لتلك الوظائف[3] .

وكانت إدارة الجامعة بأيدى الأساتذة سواء الأساتذة الممارسين The Masters Regents ، والأساتذة غير الممارسين أى المتفرغين Non Regents Masters أى الذين توقفوا عن التدريس . ولهؤلاء سلطة غير متاحة لأمثالهم فى أى مكان آخر عدا أكسفورد حيث يشاركون فى صياغة وإعداد القوانين ، وفى شئون الجامعة الهامة الأخرى . وكان مجلس قسم أو مدرسة الآداب يعرف أحياناً باسم The Black Congregation أى مجلس ذوى البزة السوداء ويقصد بذلك لون الرداء الأكاديمى . وتتم دعوته للانعقاد بواسطة المراقبين للاجتماع على حده فى كنيسة القديسة ملدريد St.Mildred . ومنذ البداية رسخ هذا المجلس حقه بأن يستشار أولاً ، بمعنى أن كل قانون مقترح إصداره ، وحتى المقترحات الخاصة بتغيير القوانين ومنح الاستثناءات Graces يجب أن تعرض أولاً أمام هذا المجلس قبل اعتمادها من الجامعة ، علاوة على حق هذا المجلس بالاجماع رفض صدور أى قانون غير مرغوب فيه ، وأن القانون الذى لا يوافقون عليه لا ينفذ ، واعتراف الأقسام الرئيسية الأخرى اللاهوت ، القانون ، الطب ، بحق هذا المجلس فى التشاور والمستقل وليس عرقلة صدور قانون آخر . ومن المشكوك فيه على الأقل فى الأيام الباكرة من تاريخ جامعة أكسفورد أن يحظى أى قانون تم رفضه من جانب المعلمين الممارسين فى الآداب فى هذا

---

[1] Mallet, op. cit., p. 175; Rashdall, op. cit., p. 53.

[2] نظراً لأن هذا البحث موجه إلى القارئ العربى وجدت من الأفضل استخدام تعبير المحضرين كما سبق واستخدمت مصطلح الأروقة بدلاً من تعبير الأمم Nations المذكور فى المراجع الغربية الحديثة . الباحثة .

[3] فى ١٥٠١م من عهد الملك هنرى السابع تيودور (١٤٨٥-١٥٠٩م) تسبب انتخاب أحد المحضرين Bedels فى أكسفورد فى حدوث انقسام حاد فى الدوائر الملكية . ففى حين أيد أمير ويلز وأسقف لنكولن أحد المرشحين ، كانت جدة الأمير الليدى مرجريت تفضل مرشحاً آخر ، والملك والملكة يشجعان مرشحاً ثالثاً . وفاز مرشح لليدى مرجريت . انظر تفاصيل ذلك فى :
Munimenta Academica, p. 321-333; Rashdall, op. cit., p. 126; Mallet, op. cit., p. 176.

المجلس بموافقة الجامعة . بيد أنه بمرور الوقت تلاشت سلطة هذا المجلس وتوقفت اجتماعاتهم المستقلة[1] .

علاوة على هذا المجلس يوجد مجلس الأساتذة الممارسين لكل الكليات The Congregation of Regent Masters ، ويعرف باسم المجلس المصغر Parva Congregatio or Lesser Congregation ؛ وفيه يتم تناول كل ما يتعلق بعمل الجامعة مثل التمويل ، والإدارة ، المحاضرات ، الدراسة ، الدرجات العلمية ، ويعقد فى جناح المرنمين بكنيسة القديسة مارى . يأتى بعد ذلك المجلس الكبير Magna Congregatio or Great Congregation الذى يضم الأساتذة الممارسين وغير الممارسين ، والذى يعتبر بمثابة البرلمان الحقيقى للجامعة . وعلى حد تعبير المؤرخ رشدال الهيئة العليا المهيمنة على الجامعة القادرة على سن قانون دائم.[2]

وعن كيفية العمل التشريعى فى الجامعة كان يتم صياغة القانون فى مجلس قسم الآداب أولاً . وفى البداية كان من الضرورى لإصدار أى قانون موافقة الأساتذة الممارسين وغير الممارسين فى الأقسام أو التخصصات Faculties الأربعة، الآداب ، اللاهوت ، القانون، الطب . بيد أنه فى القرن الرابع عشر أدخل مبدأ التصويت بالأغلبية ، وبعد ذلك غدا لكل كلية حق إصدار القوانين الخاصة بها . وإن كانت تفاصيل النظام والإدارة والتعليم بصفة عامة تتم من خلال المجلس الكبير أى مجلس الجامعة ، وتسرى على جميع الأقسام ، والتى لم يكن لها عمداء آنذاك.[3]

وفيما يتعلق بتفاصيل النظام التعليمى ، بداية لم يتضح لنا أن الطالب المستجد كان يخضع لأى امتحان للقبول[4] . ونظراً لعدم وجود نظام Matricula or Matriculation فى البداية ، أى الكشوف التى يدون فيها أسماء الدارسين المستجدين ، كان يطلب من كل طالب أن يسجل اسمه لدى أحد الأساتذة الممارسين ، واختيار الأستاذ الذى يجب أن يستمع إلى محاضراته ، والإصغاء لتحذير الطلبة القدامى بعدم التسرع فى اختياره ، ويعتبر ذلك أقدم

---

١ Rashdall, op. cit., p. 61; Brodrick, op. cit., p. 66; Mallet, op. cit., pp. 176, 178.
٢ Mallet, op. cit., p. 177; Rashdall, op. cit., p. 36.
٣ Rashdall, op. cit., p. 65; Mallet, op. cit., p. 179.
٤ Brodrick, op. cit., p. 21.

وأقـرب صـيغة بديلة لنظام القبول[1] . ومن جهة أخرى لم تكن سن طالب العصور الوسطى محددة ، فقد يكون فى أى سن ، وقد يكون غلاماً فى الثالثة عشرة من عمره.[2]

وكـان الأساتذة يجلسون على مقاعد مرتفعة قليلاً عن الدارسين الذين يجلسون على وسـائد من القش على الأرض ، "بهدف نزع كل مشاعر الخيلاء والغرور من نفوسهم" على حد تعبير المؤرخ ماليت . بيد أن ذلك من وجهة نظر الباحث يرجع إلى فقر موارد وإمكانيات الجامعـة فى البداية . وكانت الكتب موجودة فى شكل مخطوطات باهظة الثمن ، مكدسة فى حجـرات شديدة البرودة فى الأديرة . وكان التدريس يتم بطريقة شفوية Viva voce ، حيث المدرسـون يقرأون والطلبة يستمعون ، قد يفهمون أو لا يفهمون . لذا كانت الفرصة الوحيدة لاكتسـاب المعرفة تعتمد على قوة الذاكرة ، والتعلق بشفاه المدرس – على حد تعبير المؤرخ بودريـك Brodrick – الـذى يحاضـر لجمـوع متباينة من الدارسين من مختلف الأعمار والقـدرات . وكان التدريس باللغة اللاتينية ، التى يعد اتقانها أمراً ضرورياً ، باعتبارها اللغة المشتركة المتداولة بين المتعلمين آنذاك . ونستطيع التعرف على طريقة التدريس فى أكسفورد فـى القـرن الخامس عشر من قانون صدر عام ١٤٣١م ، يفرض على الأساتذة قراءة النص أولاً ، ثم شرحه بعدئذ ، ثم تناول الفقرات التى تحتاج إلى تعليق خاص ، بيد أن الخروج على الـنص كـان ممـنوعاً . وكان التحليل والتقسيم الفرعى للنصوص ، ومعرفة وجهات النظر المؤيـدة والمعارضة ، وطرح الاسئلة ، واقتراح الإجابات من الأساليب التى تروق للأساتذة والدارسين على السواء حتى أمست غريزة النقاش تسرى فى دمائهم[3] .

لامـراء أن التعلـيم الجـامعى فى أكسفورد في العصور الوسطى كان يتطلب وقتاً طويلاً وشاقاً للباحثين عن شرف نيل درجة علمية ، حيث يقضى الطالب فى تخصص الآداب أربـع سنوات فى سماع المحاضرات التى تبدأ عادة فى الساعة الثامنة صباحاً؛ العامين الأول والـثانى لدراسـة البلاغة والنحو والمنطق والفلسفة ويصبح بعدهما طالب الآداب سوفسطائياً عامـاً Sophista generalis ، والعامين الثالث والرابع فى دراسة المنطق ، وفلسفة الأخلاق لأرسـطو ، والهندسة ، علاوة على محاضرتين مسائيتين فى اللغة اليونانية[4] . وبانتهاء العام

---

[1] فـى البداية كان نظام Matricula أى الكشوف التى يدرج فيها أسماء الدارسين ، قاصراً على الجامعات التى قامت على أساس على رابطة الطلبة مثل بولونيا . بيد أن جامعة أكسفورد قامت على أساس رابطة الأساتذة . وعلى غرارها جامعة باريس كان للأساتذة قوائم أو كشوف خاصة بهم ، يتعرف من خلالها الطالب على الأساتذة ، وبالتالى اختيار الأستاذ الذى سوف يدرس على يديه . انظر تفاصيل ذلك فى :

Mallet, op. cit., p. 180.

[2] ول ديورانت ، قصة الحضارة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٥، جـ٦ ، ص ٤٩ .

[3] Mallet, op. cit., pp. 184; 186; Brodrick, op. cit., p. 22.

[4] للوقوف على التفاصيل الدقيقة بصدد المناهج الدراسية ومواعيد وأيام المحاضرات للدارسين فى الآداب انظر الدراسة القيمة الموجزة التى قام بها :

الـرابع يصـبح الطالـب مهيـئاً لاجتياز مناقشات فى النحو والمنطق مع أحد الاساتذة يسأل ويجيـب. وبنجاحه فى ذلك يكون مؤهلاً لمواجهة لجنة من أربعة أساتذة يتم اختيارهم سنوياً، لكـى يقـنعهم أنـه مـن كل الوجوه ، التعليم ، السلوك ، حتى الهيئة شخصاً ملائماً للتخرج Determination or Determination . ثـم يتوج ذلك باحتفال يضم الأصدقاء حيث تقدم الهدايـا النفيسة ، الأمر الذى يجعل من التخرج حدثاً لا ينسى فى حياة الطالب ، والذى ينتقل بذلـك إلى مصاف الخريجين ، وحصوله على درجة البكالوريوس فى الآداب Bachelor of Arts . وبـناء علـى تصـريح Licens من المستشار يبدأ فى إلقاء المحاضرات العارضة Cursory أى غـير الأساسية ، بجانب حضور المحاضرات لنفسه . وعند هذه الدرجة إن لم يكـن قـبلها كـان يتوقف الكثيرون من الدارسين فى أكسفورد[1] . وبعد ذلك كان يتعين على الطالـب أن يدرس ثلاث سنوات أخرى للحصول على درجة الماجستير، حيث كان يتلقى في العام الأول تكون المحاضرات صباحاً فى الميتافيزيقا والهندسة ، وفى المساء التاريخ واللغتين اليونانـية والعـبرية؛ والعامين الثانى والثالث فى دراسة الفلك والميتافيزيقا والفلسفة الطبيعية لأرسطو ، وأيضاً التاريخ واللغتين العبرية واليونانية، بهدف تمكين الخريج من دراسة الفنون الحرة السبعة بمجموعتيها الثلاثية والرباعية ، وتأهيله لتدريسها، علاوة على الفلسفة بفروعها الثلاثة واللغات والتاريخ[2] . وبعدئذ يصبح الطالب جاهزاً للاستقبال فى صحبة الأساتذة . وفى احتفال رصين يتم دعوة تسعة من الاساتذة الممارسين بالاضافة إلى أستاذه الذى يقوم بتقديمه، لكـى يـتحدثوا من واقع معرفتهم الشخصية عن أخلاقياته وانجازاته ، فى حين يؤكد خمسة

Holland, T. "The Ancient Organisation ofUniversity of Oxford" Macmillan's Magazine, vol. XXXVI, Cambridge, 1877, pp. 203-210; Mallet, op. cit., p. 186; Brodrick, op. cit., pp. 62, 63; Rashdall, op. cit., p. 143.

[1] Holland, op. cit., p. 207; Mallet, op. cit., p. 188.

[2] يذكـر المـؤرخ الانجلـيزى المعاصـر برودريـك Brodrick أن تاريخ إدخال منهج جامعى ، أو مجموعة من الكتب والموضـوعات – المقرر الدراسى – لكي يدرسها الطلبة للحصول على درجات فى التخصصات المختلفة ، يرجع إلى القوانين التى قدمها المبعوث البابوى للكاردينال روبرت دى كورسون Robert de Courcon لجامعة باريس ، فى بداية القرن الثالث عشر . بيد أن منهج جامعة أكسفورد كان يختلف قليلاً فى الفترة بين عصر رجال التعليم وعصر النهضة . وبمقتضى القانون الصادر عام ١٤٣١م كان المنهج الدراسى فى مدارس الآداب ، يتضمن علم النحو الذى احتل المرتبة الأولـى مـن خلال مؤلفات برسكيان Priscian ، ودوناتوس ، تدرس بهدف تلقين قواعد الإعراب أو علم العروض . وكانـت أشـعار فرجـيل Poetra Virgilii ، أوفيد Ovid ، ليفى Livy ، تاكيتوس Tacitus ، وغيرهم من الشعراء والمؤرخيـن الـرومان تدرس باعتبارها نماذج للأسلوب الأدبى . وكانت مصنفات The Categorise أرسطو وكتاب بورفـيرى Porphyry المعـروف باسـم Isagoge . وكتاب Topics لمؤلفه بؤثيوس هى الكتب الدراسية في مدارس المـنطق ، كما كانت كتابات شيشرون Gicero ، وكونتليان Quntilian فى البلاغة . علاوة على مؤلفات كاسيدورس Cassiodorius ، أورسـيوس Orosius ، ومارتـيانوس كابيلا Murtianus Capella ، وايسيدورسيفيل Isidore Seville ، عـلاوة على مؤلفات أرسطو فى الفلسفة بفروعها الثلاثة الأخلاق ، الطبيعة ، الميتافيزيقا والتى تندرج تحت اسـم Nichomochen Ethics . وقـد احتل المنطق قمة الدراسات باعتباره أداة للجدل والإقناع بعد تكملته بالبلاغة ، لمزيد من التفاصيل أنظر :

Brodrick, op. cit., pp. 64, 65; Holland, op. cit., p. 207; Lyte, op. cit., p. 9; Mallet, op. cit., p.188.

آخرون صدق ما قاله هؤلاء الأساتذة . وفى نهاية مراسم الاحتفال يتقدم أمام المستشار ويقسم أمامه راكعاً على ركبتيه باسم الثالوث المقدس . ويصبح عضواً فى جماعة الأساتذة ، ويتسلم رمزاً لذلك الكتاب ، القلنسوة ، الخاتم ، وقبله المباركة من أستاذه[1] .

وتجـــدر الإشارة لحقيقة هامة مؤداها انفراد جامعتى أكسفورد وكمبريدج من بين كل جامعات أوروبا بعدم وجود ثمة شئ يشبه الامتحان بالمعنى الحديث . وكان النجاح فى اجتياز المناقشات بمثابة اختبار للكفاءة والجدارة وأيضاً المرادف الحقيقة للامتحان . ومن حق الأستاذ الممتحـــن إيقاف الطالب فى حالة الخروج عن الموضوع ، والجنوح لموضوعات أخرى ، أو استخدام حجج غير مقنعة[2] .

ونتيجة لزيادة أعداد الخريجين الراغبين فى الإعفاء من التدريس[3] ، فقد نص القانون الصـــادر عـام ١٤٣١م بأن يقوم المراقبون فى نهاية كل فصل دراسى بحصر عدد الأساتذة الممارســين المستعدين للتدريس ، وتقسيمهم طبقاً للأقدمية إلى عشر مجموعات متساوية فى العـــدد قـــدر المستطاع ، على أن يقوم الأساتذة الأصغر سناً بتدريس علم النحو ، وتخصيص الموضـــوعات الرئيسية higest subjects للأساتذة القدامى، وعدم قيام أى شخص بتدريس أى كتب سوى تلك المنصوص عليها فى القانون، والتى سبق الإشارة إليها[4] .

علـــى أية حال فإن الطالب الذى اجتاز المقرر الدراسى فى الآداب ، وأصبح استاذاً ممارســاً يســتطيع الانـــتقال لدراســـة التخصصات الأرفع والأسمى مثل الطب ، والقانون ، واللاهـــوت، حيـــث مجـــالات الفكر الأرحب ، وهكذا أمست الدراسة فى الآداب أولاً أساساً للدراسة فى التخصصات الأخرى[5] .

وهـــناك فروع أخرى من العلوم تم تدريسها فى أكسفورد فى العصور الوسطى مثل الطب . بيد أن موقف الكنيسة والأفكار المرتبطة بالفلسفة التعليمية Scholasticism ، حالت دون تطـــور علـــم الطـــب فى الاتجاه الصحيح ، حيث المناقشات الشفهية أهم من الملاحظة والبحـــث ، والطبيـــب بدون تنجيم أى بدون علم الفلك مثل العين التى لا ترى . حتى روجر بـــيكون اعـــتقد أن أهـــم الأدوية المركبة جزئياً من اللؤلؤ والأحجار يجب أن تتعرض لتأثير

---

[1] Holland, op. cit., p. 208; Mallet, op. cit., p. 189.

[2] من الجدير بالذكر أن الطالب الذى لم يتقدم إلى مرحلة أبعد من درجة البكالوريوس كان يسمى السيد Dominus ، انظر حاشية رقم (٥) فى :

Mallet, op. cit., p. 188; Munimenta Academica, p. 246.

[3] تجدر الإشارة أن الأساتذة الممارسين كانوا ملزمين بالتدريس لمدة عامين بعد التخرج ، إلا إذا تم إعفائهم من هذا الالتزام ، وفـــى هذه الحالة ينظر إليهم باعتبارهم أساتذة غير ممارسين Non Regents Masters . بيد أنه يتم دعوتهم لحضور اجتماع مجلس الجامعة أى الاجتماع الكبير للمدارس انظر :

Brodrick, op. cit., p. 66.

[4] Ibid, pp. 65, 66.

[5] Holland, op. cit., p. 209, Mallet, op. cit., pp. 189, 190.

السنجوم لمدة ثمانية أيام . ومن جهة أخرى لم تقدر الجراحة حق قدرها، فقد نظر إليها أطباء بـاريس فـي القرن الرابع عشر ، ويرجح أطباء أكسفورد باعتبارها فناً يدوياً وصنيعاً . وفي الوقـت الـذى كان بوسع الجراحين في أكسفورد الحصول على ترخيص بمزاولة المهنة ، لم يكن باستطاعتهم الحصول حتى على أدنى درجة علمية . ولم يكن وضعهم فى أكسفورد يزيد عـن وضع بائعى العقاقير والعطارين الذين يبيعون الأعشاب فى الشارع الرئيسى بالمدينة . وكـان التشـريح مـا يزال في المهد مصدراً للخوف[١]، رغم أنه فى سالرنو عام ١٢٣٨ أمر الإمـبراطور الألمـانى فـريدريك الـثانى بتشـريح جثة كل خمس سنوات . وكان أبقراط Hippocrates مؤسـس الطـب وجاليـن Galen هما الأساس . وهناك ذكر لكتب اسحاق اليهودى ، ونيقولاس السالرنى[٢] .

وفـي الوقـت الذى كانت القاعدة المعتادة تقضى بالتخرج من الآداب أولاً . لم تكن درجـة الآداب للمشـتغلين بالطـب . ومن جهة أخرى فإن قضاء أربع سنوات من الدراسة للحصـول على درجة البكالوريوس فى الطب أمراً ضرورياً للموافقة على ممارسة الطب فى أكسـفورد . وبـناء علـى امتحان يعقد من خلال الأساتذة الممارسين وللحصول على درجة الدكـتوراه فـى الطـب بالنسبة لأساتذة الآداب ، كان الأمر يتطلب قضاء عامين آخرين من الدراسة فى الطب ، يرجح قضاءهما فى الممارسة العملية . ووفقاً لما ورد فى حولية أكاديمية معاصرة . فإن قضاء عامين فى الممارسة المهنية قبل الحصول على درجة دكتور فى الطب M.D أمـراً مؤكـداً بهـدف منح بعض الخبرة العملية للحصول على هذه الدرجة . وكانت الممارسـة فـى المستشـفى أمراً متاحاً بيد أنها ضئيلة . وربما كانت تبذل بعض المحاولات للتعامل مع المرض[٣] .

علـى أيـة حال ، لم تبدأ الدراسة الأكاديمية لعلم الطب إلا فى أوائل القرن السادس عشر بعد أن تلاشت سيطرة الكنيسة[٤] .

عـلاوة على ذلك فقد حظيت دراسة القانون الرومانى بشقيه المدنى والكنسى بأهمية كـبرى، وأمست مجموعة القوانين المدنية للإمبراطور جستنيان ، والديكرتيوم Decretum [١]

---

١ Mallet, op. cit., p. 190.

٢ كان لجوء أبقراط إلى التجربة بمثابة حجر الأساس للعلوم الطبية فى العصر الحديث . ثم جاء جالين بعده بحوالى ستمائة عـام ليلقى بظلاله على تاريخ الطب لمدة تزيد عن ألف عام . وقد حظيت آرائه بالقبول لدى معظم علماء اللاهوت فى العصور الوسطى سواء من اليهود أو المسيحيين أو المسلمين . وتضمنت مؤلفاته كل ما يرغب طلبة الطب معرفته علم النفس ، التشريح ، علم النبات . وكانت كتبه البالغ عددها اثنين وعشرين مجلداً فى نسخها اللاتينية ، العربية ، السريانية ، العـبرية تمـلأ المدارس فى كل مكان . وكانت الترجمات العربية هى الجسر الرئيسى لعبور الطب اليونانى إلى أوروبا الغربية . انظر :

Munimenta Academica, vol. II, pp. 406-409; Mallet, op. cit., pp. 191, 192; Rashdall, op. cit., p. 156.

٣ Munimenta Academica, vol. II, p. 406; Mallet, op. cit., p. 190.

٤ Mallet, op. cit., p. 194.

تـدرس فـي مدارس القانون فى أكسفورد[٢]، وبات القانون المدنى الدراسة المفضلة للدارسين الأكـثر طموحاً ، باعتباره الطريق المؤدى إلى الثروة والمجد . فقد كتب روجر بيكون أشهر أسـاتذة أكسفورد عام ١٢٧١م قائلاً : "إن رجال القانون يحصدون كل المكافآت والوظائف ، فـي حيـن لا يمتلك دارسى اللاهوت والفلسفة الأموال اللازمة للعيش ، أو اقتناء الكتب ، أو لإجـراء الـتجارب اللازمـة لكشف أسرار العلم . ولا يمتلك رجال القانون الكنسى الوسائل الضـرورية للعـيش والدراسـة إلا على أساس معرفتهم السابقة بالقانون المدنى لأن دارسى القـانون المدنـي يزدادوا ثراء ومجداً بالعمل لدى جميع الأساقفة والأمراء .. لذا فإن اشتهاء دراسة القانون المدنى كان يجذب غالبية الدارسين، وأن المحامى المدنى أكثر جدارة من رجل اللاهـوت بالثناء فى كنيسة الرب . حتى لو كان عليماً بالقانون المدنى فقط، وجاهلاً بالقانون الكنسى واللاهوت، وسرعان ما يتم اختياره للوظائف الكنسية المرموقة"[٣] .

يؤكـد المؤرخ الأمريكى المعاصر نورمان كانتور ما ذكره العالم الانجليزى روجر بـيكون[٤]، بأنـه كـان بمقـدور من يتخرج من إحدى جامعات العصور الوسطى بعد دراسة القـانون ، أن يدخـل فى خدمة أى حاكم علمانى ، وأن يواصل تدريبه بعد تخرجه فى مجال القانون الكنسى بحيث يعمل فى خدمة الكنيسة . فإذا ما اتبع المسار الأول كان من المحتمل أن يصير يوماً الوزير الأول لأحد الملوك الأقوياء المتصارعين مع البابوية، وإذا ما اتخذ السبيل الـثانى أى دراسـة القـانون الكنسى كان من الممكن أن يختتم حياته العملية بارتقاء العرش

---

[١] تعـرف هذه المجموعة باسم قوانين جراتيان Decrtum Gratiani ، وهى عبارة عن مجموعة من القرارات والمراسيم والأحكـام الـبابوية . صدرت حول مختلف أمور نظام القانون الكنسى . وكانت فى الأصل خطابات بابوية مرسلة إلى الأسـاقفة إجابة على أسئلة أو تقارير أو دعاوى . وقد جمعها المشرع والمبعوث البابوى جراتيان سنة ١١٤٠-١١٤١م تحـت عنوان "ترتيب القوانين الكنسية المتنافرة" Concordantia Discordautium Canonum . والمجموعة تحتوى على ما يقرب من أربعة آلاف إشارة إلى مصادر كنسية عديدة ، مثل الدساتير الرسولية ونصوص آباء الكنيسة ، والقوانين الصـادرة عـن المجامع الكنسية ، فضلاً عن المراسيم البابوية Decretals سواء كانت أصلية أم مزورة . وجميع هذه المصـادر الـتى تتناول النظام الكنسى رتبت على نسق علمى وفقاً للمنهج المدرسى . وسرعان ما اعتبرت بمثابة كتاب أساسى فى القانون الكنسى فى مدارس القانون فى بولونيا وباريس وأكسفورد . وصارت مرجعاً ثقة فى المحاكم فى جميع أنحاء أوروبا . وهى تشكل الجزء الأول من "مجموعة القوانين الكنسية" Corpus Juris Canonici ، انظر كانتور ، المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٤٣٥ ، حاشية رقم (١) .

[٢] Mallet, op. cit., p. 194.

[٣] Lyte, op. cit., p. 55.

[٤] مـا ذكره روجر بيكون بصدد إعلاء أهمية دراسة القانون المدنى إنما جاء صدى لاستياء البابا أنوسنت الرابع (١٢٤٣-١٢٥٤م) . الـذى بـذل قصارى جهده لقصر دراسة القانون المدنى على تخوم الامبراطورية الرومانية المقدسة فقط . وأصدر مرسوماً عام ١٢٥٤م يقضى بألا يتقدم أى أستاذ فى القانون ، أو محامى ليس ضليعاً فى الفنون الحرة لأى وظيفة أو منصب كنسى من أى نوع فى فرنسا ، انجلترا ، اسكتلندا ، ويلز ، أسبانيا ، أو المجر . واقترح على حكام تلك البلاد تحريم كل المحاضرات فى القانون الرومانى القديم تحريماً مطلقاً فى كل الأماكن التى لا تعترف فى محاكمها العادية بذلك القـانون . بيد أن تلك الإجراءات القمعية لم تستطع الصمود أمام إقبال الدارسين على الدراسة المكثفة للقانون المدنى . انظر تفاصيل ذلك فى :

Lyte, op. cit., pp. 55, 56.

الـــبابوى نفسه . وبحلول النصف الثانى من القرن الثانى عشر كانت البابوية تجند كل العاملين فى جهازها الإدارى تقريباً من خريجى مدارس القانون الأوروبية.[1]

وكانت درجة البكالوريوس فى القانون المدنى فى أكسفورد تتطلب أربع سنوات من الدراسة بالنسبة لأساتذة الآداب ، وست سنوات بالنسبة للآخرين؛ ودرجة الدكتوراه عامين أو ثلاثـــة مـــن المحاضـــرات والمناقشـــات . ولـــم تكن القواعد الخاصة بالحصول على درجة البكالوريوس فى القانون الكنسى تشترط الحصول على درجة علمية فى الآداب . ولكن قضاء خمس سنوات فى دراسة القانون المدنى ، ودراسة كتاب الديكرتيوم لجراتيان ، ومراسيم البابا جـــريجورى التاســـع (١٢٢٧-١٢٤١م) . وبالنسبة لدرجة الدكتوراه فى القانون الكنسى كان الأمـــر يتطلـــب قضـــاء عامين آخرين من الدراسة ، وعام آخر زيادة الذين لم يحصلوا على درجة فى القانون المدنى[2] .

أمـــا بالنسبة للاهوت العلم الأرفع مقاماً، لم تكن ستة عشرة أو تسعة عشر عاماً من الدراســـة بالشـــئ الكثـــير . وأساتذة الآداب الذين قضوا سبع سنوات فى الدراسة كان عليهم الدراســـة لمدة سبع سنوات أخرى للحصول على درجة البكالوريوس فى اللاهوت لكى يسمح لهـــم بإلقـــاء محاضـــرات عـــن كـــتاب الأحكام Sententiarum or Sentences لبطرس اللمـــباردى، الذى كان يحتل المرتبة الثانية بعد الإنجيل . ثم قضاء عامين آخرين من الدراسة للحصـــول على درجة الدكتوراه[3] . والدارسين الذين لم يكونوا من الخريجين فى الآداب كان علـــيهم قضـــاء عشـــر ســـنوات دراسة فى اللاهوت للحصول على درجة البكالوريوس فى اللاهـــوت، وثمان سنوات لدراسة الفنون الحرة أى قضاء ما يقرب من تسعة عشر عاماً على الأقل للحصول على درجة دكتوراه فى اللاهوت[4] .

وبالطبع فقد أمست تكاليف اجتياز هذا النظام الدراسى المسهب والمعقد ، والحصول على درجات علمية سواء فى الآداب ، الطب ، اللاهوت والقانون ، باهظة للغاية . وعلى حد تعبـــير المـــؤرخ ماليـــت "فإن الكثيرين من الرجال الذين ذهبوا إلى أكسفورد ، واحتشدوا فى كنائسها ، وغنوا فى حاناتها ، وتشاجروا فى دروبها ، وتناقشوا فى مدارسها، وجدوا المعايير الأكاديمية تفوق طاقتهم ، ولم يستطيعوا مواصلة التعليم باعتباره عبئاً على وقتهم ونقودهم"[5] .

---

[1] كانتور ، المرجع السابق ، ص ٤٣٣ .

[2] Munimenta Academica, vol. II, pp. 399, 400, Mallet, op. cit., pp. 194, 195;

ولمزيد من التفاصيل بصدد المنهج الدراسى فى القانون المدنى والكنسى انظر :

Rashdall, op. cit., pp. 156, 157.

[3] Munimenta Academica, vol. II, p. 389, Rashdall, op. cit., vol. II, pp. 158, 159; Mallet, op. cit., p. 195;

[4] Munimenta Academica, vol. II, pp. 389, 390.

[5] Mallet, op. cit., p. 201.

وكانــت الرســوم الخاصة بمنح الدرجات العلمية تتفاوت من تخصص لآخر ، ففى حين كانت الرسوم الخاصة بالآداب تقتصر على إقامة وليمة للأساتذة لمدة أسبوع، بينما كانت درجــة الــبكالوريوس فــى القرن الخامس عشر فى أى تخصص تمنح مقابل أربعة بنسات ، وبالنســبة للدرجــات الأعلــى كانــت الرسوم باهظة . لذا اتخذت بعض التدابير لتوفيق هذه التكاليف مع قدرة المرشحين لهذه الدرجات على الدفع . وكان الأستاذ الجديد فى الآداب يبتهج بالتخلص من عبء إطعام الأساتذة الممارسين مقابل ما يعادل عشرون جنيهاً . وكان مسموحاً للخريجين الأثرياء بدفع نفقات تخرج زملائهم الفقراء[١] .

وفيما يتعلق بمرتبات الأساتذة فى مدارس أكسفورد فقد اعتمدت أساساً على الرسوم الــتى تؤخــذ مــن الدارسين[٢] ، ووفقاً للنظام السائد – كما سبق الإشارة – بأن يقوم الطالب باختــيار الأستاذ الذى سيدرس على يديه ، ودفع رسوم للجامعة مقابل ذلك ، ونتيجة لذلك فإذا لــم يكن بوسع الأستاذ أن يجتذب الطلاب لمحاضراته لا يعود له شئ آخر يعول عليه ، ولابد لحــياته أن تنتهى بالفشل الذريع والفقر المدقع . ومن المحتمل أن هذه الرسوم لم تكن عالية، فقــد كــان الطالــب يدفع أثنى عشر بنساً فى العام أو ثلاثة بنسات فى الفصل الدراسى مقابل محاضرات المنطق . والحد الأدنى لرسوم المحاضرات فى الفيزياء ثمانية عشر بنساً . وتقدر رســوم الدراســة فــى النحو بثمانية بنسات فى الفصل الدراسى الواحد . وفى التخصصات الرئيســية عامــة مــثل الآداب ، الطب ، اللاهوت ، القانون، كانت الرسوم أعلى، ولم يكن مسموحاً للأساتذة بتخفيفها . وفى القرن الخامس عشر كانت الرسوم فى مدارس الآداب تجمع وتوزع بالتساوى على الأساتذة الممارسين، بيد أنها لم تكن كبيرة بالشكل الكافى.[٣]

وفى الجامعات ذات الأصل الكنسى ، وأحياناً الجامعات ذات الأصل العلمانى ، نجد كثــير مــن الأســاتذة يشــغلون وظائف كنسية ذات دخل ، وذلك بصفتهم رجال دين وليس باعتــبارهم أساتذة . ومن ثم جرت العادة فى القرن الثالث عشر على ألا يطلب الأساتذة الذين يتقاضون مرتبات من وظائفهم الكنسية رسوماً من الطلبة . بيد أن ذلك بالطبع لا يعنى مجانية التعليم للدارسين . وفى عام ١٣٢٢م واقتداء بما حدث فى باريس التمست جامعة أكسفورد من الــبابا جــون الثانى والعشرون (١٣١٦-١٣٣٤م) منح نفس الامتيازات التى أسبغتها البابوية على دكاترة الفلسفة واللاهوت فى باريس أى الإنعام عليهم بوظائف كنسية[٤] .

---

١ Ibid, p. 196.

٢ لمزيد من التفاصيل بصدد مرتبات الأساتذة ورسوم الدارسين فى جامعات العصور الوسطى انظر الدراسة القيمة التى قام بها :

Gaines Post, "Master's Salaries and Student-Fees inMediaeval Universities", Speculum, vol. 7, 1932, pp. 181-198.

٣ Mallet, op. cit., p. 199.

٤ حظى أساتذة اللاهوت فى مدارس باريس بأهمية خاصة ، ففى عام ١٣١٦ أمر البابا جون الثانى والعشرون أساقفة الكنيسة بــتزويد الأساتذة والدارسين للاهوت فى باريس بوظائف كنسية ذات دخل لمواجهة تدهور التعليم . وبدأت جامعة باريس

لامــراء أن الحاجــة إلــى توفير مرتبات كافية للأساتذة ، والنفقات الباهظة للتعليم الجــامعى مــن العوامل التى عرقلت التعليم فى مدارس أكسفورد منذ نشأتها . ومن ثم تأتى أهمية التبرعات والتى بدونها كان فشل التعليم الجامعى مؤكداً . وفى هذا الصدد يذكر المؤرخ الانجلــيزى المعاصــر آلان جوبان Alan Gobban "تدين جامعتى أكسفورد وكمبريدج فى العصــور الوســطى بدرجة كبيرة لسخاء العديد من المتبرعين من أصول اجتماعية متباينة ، الملــوك ، الملكــات ، رؤســاء الأســاقفة ، الأســاقفة ، رجــال الدين ، النبلاء ، التجار ، والــبرجوازية . وبدون الدور المحورى لهؤلاء المتبرعين ما استطاعت الجامعات الانجليزية فــى العصــور الوســطى أن تتخطى الوضع الذى كانت عليه فى أوائل القرن الثالث عشر ، محصــورة فــى إطار مجموعة من الأساتذة والدارسين يعيشون ، ويتعلمون ، ويدرسون فى أماكن مزدحمة وغير ملائمة تماماً".[1]

وبالرغم من المساهمة الفعالة التى أسدتها الملكية الانجليزية للمجتمع الأكاديمى بوجه عــام، فقــد تراءى التبرع الملكى فى صورة أقل من المتوقع منه ، فيما يتعلق بالدعم المادى للدارســين ، إن الدعــم الملكى للدارسين فى القرن الثالث عشر لاسيما فى عهد الملك هنرى الثالث ، إنما جاء انعكاساً لخدمة الأغراض السياسية للملكية الانجليزية ، ولم يخرج عن كونه آداة دبلوماســية لدعم إبرام سلسلة من التحالفات العسكرية مع البارونات الفرنسيين المجاورين لخصــمه اللــدود الملك الفرنسى بتقديم منح دراسية لأبنائهم وأقاربهم؛ وعلى سبيل المثال لا الحصــر فقد دعم تحالفه العسكرى مع كونت أفرجين Auvergne بتقديم منحة دراسية لشقيق الكونت ، والإنعام عليه بوظيفة كنسية بهدف توفير دخل ثابت أثناء الدراسة . أيضاً هناك منح نقدية قُدمت لعدد من الأقارب وأبناء العاملين فى الحاشية الملكية لهنرى الثالث وأشهر هؤلاء إيمــر لوزجــنان Aymer of Lusignan الأخ غــير الشقيق للملك هنرى الثالث، الذى جاء للدراســة فى مدارس أكسفورد عام ١٢٤٧م، حيث تم منحه مبلغ مائتى مارك نقداً وامتيازات أخرى[2] .

وكانــت المــبالغ المالية التى تمنح للدارسين باستثناء أقارب الملك المقربين تتراوح عادة بين خمس وعشر ليرات سنوياً . وكان الملك إدوارد الأول قد أرسل اثنين من النبلاء من جاسكونى للدراسة فى أكسفورد ، وخصص لهما خمسة وثلاثون ماركاً فى العام ، علاوة على

تحمل إلى بلاط روما قوائم باسماء المرشحين الذين يرجى من البابا الانعام بوظائف كنسية ذات دخل . انظر :
Gaines post, op. cit., p. 186.

1 Goblan, "English University Benefactors in the Middle Ages", History, July 2001, vol. 86, pp. 288, 289.

2 Lyte, op. cit., p. 14;
ولمزيد من التفاصيل عن الدعم الملكى للدارسين فى القرن الثالث عشر انظر الدراسة المهمة التى قام بها :
Pegues, "Royal Support of Students in the Thirteenth Century" Speculum, January, 1956, pp. 457-462; Lyte, op. cit., p. 42.

أثنى عشر جنيهاً لكل منهما . ونظراً لأن الملكية الانجليزية تمثل متبرع متقلب الأحوال نوعاً مـــا للجامعات الانجليزية، فقد وجدت الجامعة عوضاً عن ذلك فى تبرعات العائلات من أسر النبلاء . وتشير الاحصائيات على مدى الفترة من ١٣٠٧-١٤٨٥م وجود ما لا يقل عن ثمانية وثمانون فرداً من اثنين وأربعين من عائلات النبلاء كانوا يدرسون فى الجامعات الانجليزية ، أثنيـــن وستين منهم فى أكسفورد ، وتسعة عشرة فى كمبريدج ، مما أضفى على الجامعة بعداً سياسياً واجتماعياً، وتخفيف بعض الأعباء التى ينوء بها كاهل أقرانهم من الدارسين الفقراء[١].

ومن جهة أخرى تعكس تبرعات الأساقفة الإنجليز دورهم الحاسم فى تطور الجامعة أكـــثر مـــن أى فئة أخرى فى المجتمع الإنجليزى ، بتأسيس الكليات لإعالة الدارسين الفقراء وتقاضـــى مخصصـــات مالية ، كما سبق الإشارة[٢] . وفى عام ١٢٨٨م تكفل أسقف هيرفورد Herford بـــنفقات دراســـة شابين فى أكسفورد بلغت فى أسبوعين ما يقرب من أربعة عشر جنـــيهاً . بيد أن التبرع بتأسيس كليات لم يكن قاصراً على رجال الكنيسة فقط، فهناك سيدات مـــن طبقة النبلاء ممثلين فى أرملتين على درجة من الثراء هما اليزابيث بورج الأبنة لأيرل كلارى وحفيدة الملك إدوارد الأول ، وصديقتها الحميمة مارى كونتية بيمبروك Pembroke الحفيدة الكبرى للملك هنرى الثالث[٣] .

وتحتل خزائن أو صناديق القروض Loan Chest مكانة بارزة فى مجال التبرعات للجامعـــات الانجلـــيزية . فقـــد قامـــت فكرتها على أساس تقديم قروض بدون فائدة للأساتذة والدارسين على السواء مقابل إيداع رهن مثل مخطوط ، الكتاب المقدس ، رداء ، كوب ، أو صـــليب ، كضمان للنقود المقدمة إذا لم تسدد فى غضون إثنى عشر شهراً . ويتم بيع الرهن فـــى حالـــة الإخفاق فى السداد، والأموال الباقية من بيع الرهن تعاد للمقترض الذى لم يستطع الســـداد ، وفـــى حالـــة وفاته تمنح لعامة الناس لصالح روحه . وفى الأيام الأولى من إنشاء خزائـــن القروض كان حق الاقتراض قاصراً فقط على الدارسين الذين لا يزيد دخلهم السنوى علـــى ماركين اثنين . بيد أن معظم المتقدمين بعد ذلك كانوا من الدارسين الذين لا يملكون أى إيـــرادات . ويعتبر إنشاء هذه الصناديق علامة بارزة للحد من نشاط اليهود الذين قبل إبعادهم

---

١ Gobban, op. cit., pp. 295, 296; Mallet, op. cit., p. 141.

٢ لمزيد من التفاصيل بصدد الدخل الذى يتقاضاه الدارسون المقيمين بكليات أكسفورد انظر :
Munimenta Academica, vol. I, pp. 55, 556; 655; Gobban, op. cit., p. 296.

٣ يرجع أول ظهور لخزائن القروض فى عام ١٢٤٠م ، حين أمر روبرت جروستيت أسقف لنكولن بإيرادات جديدة للجامعة تقدر بمبلغ أثنان وخمسين شلن فى العام . وأن أى إضافات أخرى سوف تودع فى خزائن رئيس دير القديسة فرايدزوايد ، ووضع هذه الخزانة تحت رعاية رجل دين يعين بواسطة رئيس الدير وبموافقة المستشار ، وأثنان من الرجال الثقاة الذين تنتخـــبهم الجامعـــة . وحددت القروض بمبلغ مارك واحد ، وثلاثين شلن ، وأربع بنسات للأستاذ ، ثمانية شلنات لطالب البكالوريوس ، وخمس شلنات للسفسطائى أى الذى أمضى عامين فقط من الدراسة فى الآداب . ويعتبر تأسيسها ضرورة ملحة آنذاك انظر :
Munimenta, Academica, vol. II, pp. 8, 10; Mallet, op. cit., p. 34.

مــن انجلــترا عام ١٢٩٠م يتقاضون فوائد باهظة على القروض المقدمة للدارسين الإنجليز . وكان مؤسس خزائن القروض من جموع شتى ، أثنان كانا رؤساء أساقفة كانتربرى ، وخمسة أســاقفة ، وأثــنان مــن القساوســة فــى حين تضم قائمة المتبرعين بتأسيسها من المؤسسين العلمانيين إليانور القشتالية Eleanor of Castile زوجة الملك إدوارد الأول توماس بيفورت Thomas Beaufort دوق إكســتر Exeter ، إيــلا لونجسبى Ela Longespee كونتيسة ورســيك Warmick ، وهــنرى لاســى Henry of Lacy أيــرل لندن وغيرهم . بحيث استطاعت الجامعة فى غضون مائة عام من إنشاء أول صندوق لتقديم القروض عام ١٢٤٠م أن تتــباهى بالكثــير من الأموال التى تم وقفها للجامعة، والتى تقدم للمقترضين خدمة لا تقدر بثمن، واستحقت بالفعل أن تكون تخليداً لدافعيها[١] .

وهــناك تبرعات لدفع مرتبات للمحاضرين فى مدارس أكسفورد فى القرن الخامس عشــر ، مقدمة من أشقاء الملك هنرى الخامس (١٤١٣-١٤٢٢م) وهماجون دوق بيدفورد ، وهمفــرى دوق جوسيســت Humphrey of Clouceste . وقام همفرى عام ١٤٣٦م بدفع مرتــبات محاضــرين فى الفنون الحرة والفلسفة بفروعها الثلاثة . بيد أنه فشل فى استمرارية توفــير الدخــل المطلوب لهم، وتوقف التبرع بوفاة الدوق . وفى السنوات الأخيرة من القرن الخــامس عشــر قامــت الليدى مرجريت كونتيسة ريتشموند Richmond وأم الملك هنرى السابع بمنح وقف مالى لمنصب أستاذ فى اللاهوت . أيضاً قدم الملك هنرى السابع منح مالى لدفــع مرتــبات أســاتذة فى اللاهوت والقانون المدنى والطب واللغتين اليونانية والعبرية عام ١٥٤٢م[٢] .

واتخــذ التــبرع صــوراً أخرى مثل المساهمة فى تشييد أبنية للجامعة ، مثلما فعل تومــاس جوبهــام Thomas Gobham أســقف وركســتر Worcester بتمويل بناء دار اجــتماعات الجامعة فى أكسفورد، وفى عام ١٣٢٠ اعتزم وضع كتبه فى حجرة فوقها للعمل كمكتبة للجامعة[٣] .

وتحتل التبرعات مكان الصدارة فى تمويل بناء مدرسة اللاهوت فى أكسفورد ملحقاً بهــا مكتبة الدوق همفرى فوقها . واستغرق إتمام ذلك ما يقرب من خمس وستون عاماً حتى خرج إلى حيز الاستخدام عام ١٤٨٨م . ومن الجدير بالذكر أن أغلبية هؤلاء المتبرعين فعلوا ذلــك اســتجابة لالتماســات الجامعة طلباً للمال . وأخيراً جون راسل John Russell أسقف لنكولــن ، ومستشــار الجامعة والمحاضر السابق فى القانون الكنسى فى مدارس أكسفورد ،

---

١ Gobban, op. cit., p. 299; Mallet, op. cit., p. 34.

٢ Rashdall, op. cit., p. 163; Mallet, op. cit., p. 199; Gobban, op. cit., p. 303.

٣ Rashdall, op. cit., p. 164; Gobban, op. cit., p. 303.

يعتــبر واحــداً مــن العديد من الأساقفة الذين تبرعوا لإعادة بناء مدارس القانون الكنسى فى أكسفورد فى الفترة بين ١٤٨٢ و ١٤٩٠م.[١]

وهكــذا قدر للتبرعات أن تساهم بقسط كبير فى أن يكون للجامعة أبنيتها المستقلة . وبــدون تحفــظ نســتطيع فى ضوء ما سبق أن نؤرخ وجود مبانى مستقلة للجامعة بدءاً من منتصــف القــرن الخامس عشر بعد أن كان التدريس يتم قبل ذلك فى أروقة الغرف الملحقة بالكنائس والأديرة حيث كانت كنيسة القديسة مارى مركز حياة الجامعة .

وأخــيراً ، وختاماً لهذه الدراسة يتفق الباحث مع ما ذكره المؤرخون المحدثون بأنه بــدون تلــك التــبرعات مــن المنح الدائمة كان فشل التعليم الجامعى مؤكداً . بيد أن رسائل الدارســين فى مدارس أكسفورد إلى ذويهم كانت تئن دوماً بحاجتهم الماسة للمال، ناهيك عن الطــلاب الفقــراء الذين اضطروا للحصول على ترخيص من المستشار للإستجداء والتماس الصدقات التى لم تكن عيباً آنذاك.[٢]

---

١ Gobban, op. cit., p. 304.

٢ لمزيد من التفاصيل بصدد شكاوى الدارسين وحياتهم انظر :
Haskins, "The Life of Medieval Students as Illustrated by Their Letters" A.H.R., vol 3; January, 1898; pp. 203-229; Richardson, "Business Training in Medieval Oxford". A.H.R., vol. XLVI, January, 1941, pp. 259-270; Mallet; op. cit., p. 303;
هاسكنز ، نشأة الجامعات ، ترجمة : جوزيف نسيم يوسف ، ص ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ .

ثبت المصادر والمراجع

أولاً : المصادر الأجنبية :

- Annales Londonienses and Annales Paulini, The Chronicles of the Reigns of Edward I and Edward II, (ed.) William Stubbs, Rolles Series, London, 1965.
- Auctor Willeimo Cantuariensi, Vita S: Thomae, (ed.) Robertson, in Materials for the History of Thomas Becket, Vol. I, Rolles Series, London, 1965.
- Charter of Henry II to Oxford, A.D., 1155-1162, (ed.) W. Stubbs, Select Charters, Oxford, 1921.
- Chronica Roberti de Torigneio; (ed.) Richard Howlett, in the Chronicles of the Reigns of Stephen, Henry II and Richad I, Vol. IV, Rolles Series, London, 1964.
- The Chronicle of Bury St. Edmunds 1212-1301 (ed.) by Antonia Granseden, London, 1964.
- The Chronicle of Reigns of Edward I and Edward II, Vol. I (ed.) W. Stubbs, Rolles Series, London, 1881.
- Gervasii Cantuariensis Opera, Actus Pontificum (ed.) W. Stubbs, in the Historical Works of Gervase of Canterburi, Vol. II, Rolles Series, London, 1965.
- Giraldus Cambrensis, Opera, (ed.) Brewer, Vol. I, Rolles Series, London, 1861.
- Matthew Paris's, Chronica Majora, (ed.) Luard, Vol. IV., Rolles Series, London, 1884.
- Matthew Paris's, English History from the Year 1235 to 1273, Trans. From the Latin by Giles, Vol. III, London, 1852.
- Munimenta Academica; (ed.) Anstey, Vol. II, London, 1868.
- Richard of Devizes, De Rebus Gestis Richari Primi, in Chronicles of the Reigns of Stephen, Henry II and Richard I (ed.) R. Howlette, Vol. III, Rolles, Series, 1964.
- Roberti Grosseteste, Epistolae, (ed.) Luard, Rolles Series, London, 1861.
- Roger Wendover, Elores Historiarum, (ed.) H.G. Hewlett, 3 Vols., Rolles Series, London, 1886.
- Rolles Series, The Chronicles and Memorials of Grest Britain and Ireland during the Middle Ages, London, 1858.
- Royal and Other Historical Letters of the Reign of Henry III, (ed.) Shirly, Vol., I, 1216-1235, Rolles Series, 1862.
- Theobaldus Stampensis, Epistolae, *Patrologia Latina*, (ed.) Migne, Paris, 1854, CLX III, pp. 759-770.

ثانياً : المراجع الأجنبية :

- Brodrick, G.G., A History of the University of Oxford, London, 1984.
- Davis, H.W.G., England Under the Normans and Angevins 1066-1272, London, 1930.
- Gobban, A. B., "English University Benefactors in the Middle Ages", *History*, July, 2001, Vol. 86, pp. 287-312.
- Green, J.R., Ashort History of the English People, Vol. I., London, 1960.
- Green, J.R., "Oxford in the Middle Ages", English Historians Selected Passages, Oxford University Press, 1957, pp. 141-144.
- Hashins, G.H., "The Life of Medieval Students as Illustrated by Their Letters", *A.H.R.*, Vol. 3, January, 1989, pp. 203-229.
- Holland, T.E., "The Ancient Organisation of the University of Oxford"., *Macmllan's Magazine*, Vol. XXXVI, Cambridge, 1877, pp. 203-210.
- Knowles, D., The Evolution of Medieval Thought, London, 1970.
- Knowles, D., Thomas Becket, Stanford, 1970.
- Liebrmann, F., "Magister Vacarius", *E.H.R.*, April, 1896, pp. 305-314.
- Little, A.G., "The Franciscan School at Oxford in the Thirteenth Century", *Archivum Franciscanum Historicum*, Annus XIX, October, 1926, pp. 803-874.
- Lunt, W.E., A History of England, London, 1928.
- Lyte, H.G.M., A History of the University of Oxford: from the Earlest Times to the Year 1530, London, 1886.
- Mallet, G.E., A History of the University of Oxford, Vol. I The Mediaeval University and the Colleges Founded in the Middle Ages, London, 1968.
- Pegues, F., "Royal Support of Students in the Thirteenth Century", *Speculum*, January, 1956, pp. 454-462.
- Post, G., "Master's Salaries and Student-Fees in Mediaeval Universities", *Speculum*, Vol. 7, April, 1932, pp. 181-198.
- Rashdall, H., The Universites of Europe in the Middle Ages, Vol. III, Oxford, 1936.
- Richardson, H.G., "Business Training in Medieval Oxford", *A.H.R.*, Vol. XLVI, January, 1941, pp. 259-270.
- Russell, J.G., "Alexander Neckham in England"., *E.H.R.*, Vol. XLVIII, January, 1932, pp. 260-268.

- Stubbs, W., The Constitutional History of England, Vol. II, Oxford, 1873.
- Stubbs, W., Select Charters and Other Illustrations of English Constitutional History from the Earliest Times to the Reign of Edward the First, Oxford, 1921.
- Traill, H.D., Mann, J.S., Social England: from the Earliest Times to the Present Day, Vol. I, Oxford, 1965.
- Willson, D.H., A History of England, London, 1972.

ثالثاً : المراجع العربية والمعربة :

- ابراهيم الجزيرى ، مظاهر الحضارة في انجلترا الأنجلوسكسونية خلال عصر الملك الفريد العظيم ٨٧١-٨٩٩م . رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة طنطا ، كلية الآداب ، ٢٠٠١م .
- جوزيف نسيم يوسف ، نشأة الجامعات فى العصور الوسطى ، الاسكندرية ، ١٩٨٤م .
- ديورانت (ويل) قصة الحضارة ، جـ٦ من المجلد الرابع ، ترجمة محمد بدران ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٦٥م .
- زينب عبد المجيد عبد القوى ، الإنجليز والحروب الصليبية فى الفترة من ١١٨٩-١٢٩١م ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٦م .
- سعيد عبد الفتاح عاشور ، أوروبا العصور الوسطى ، جـ٢ ، النظم والحضارة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٨م .
- كانتور (نورمان . ف) التاريخ الوسيط ، جـ٢ ، ترجمة قاسم عبده قاسم ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الطبعة الخامسة ، القاهرة ٢٠٠٢م .
- موريس كين ، حضارة أوروبا فى العصور الوسطى ، ترجمة قاسم عبده قاسم ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٩٤ .
- نظير سعداوى ، تاريخ انجلترا وحضارتها فى العصور القديمة والوسطى ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٨م .
- ياسر عبد المعبود ، جامعة باريس ودورها فى النهضة الفكرية بأوروبا ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة عين شمس ، كلية الآداب ، ٢٠٠٣م .

مدخل إلى مواقع الدراسات البيزنطية على شبكة الإنترنت

عبد العزيز رمضان *

مصر

شهدت الدراسات البيزنطية طفرة ملحوظة خلال العقود الأخيرة من القرن العشرين ، ويرجع ذلك في المقام الأول إلى إقبال عدد كبير من الباحثين الأوربيين والأمريكيين وكذلك الروس على التخصص في هذا المجال ، واصبح كل يوم يمر بظهور بحث أو كتاب جديد ، وبصورة موازية حرص المتخصصون والمؤسسات والمراكز المتخصصة على مواكبة ثورة الاتصالات والمعلوماتية التي شهدها عالمنا المعاصر في الآونة الأخيرة ، وذلك من خلال الإفادة من شبكة الاتصالات العالمية Internet في نشر أحدث البحوث والمراجع ، واطلاع الباحثين في مختلف أنحاء العالم بأخر الإصدارات ، والإعلان عن المؤتمرات الدولية وأماكن انعقادها وموعدها والبحوث التي ستلقى من خلالها ، وكذلك أخر أخبار المراكز البحثية و المنح الدراسية و الاكتشافات الأثرية ، و أخبار المتخصصين أنفسهم .

وهذه الدراسة مجرد محاولة لإطلاع الباحثين المصريين والعرب على أهم المواقع المتخصصة في مجال الدراسات البيزنطية ، وما تحتويه من إصدارات وقوائم ببليوجرافية ومقالات بحثية وغيرها .

ويعتبر موقع مؤسسة Dumbarton Oaks والمسمى www.doaks.org بالولايات المتحدة الأمريكية من المواقع الهامة و الأكثر إفادة للمتخصصين ، إذ يقدم خدمات بحثية مجانية تتيح للباحث الاطلاع على أخر إصدارات المؤسسة و أسعارها و طريقة الحصول عليها ، وكذلك أخر المؤتمرات العلمية التي عقدت أو في طريقها إلي ذلك مستقبلا ، سواء في مؤسسة الدومبارتون ، أو في غيرها من الجامعات والمؤسسات والمراكز البحثية المتخصصة ، ومحاور هذه المؤتمرات وكيفية الاشتراك بها ، وفى حالة اكتمال البرنامج تقدم أسماء المشاركين فى المؤتمر و عناوين البحوث التي ستلقى به ؛ كذلك يقدم صورا إلكترونية مجانية لأهم منشورات المؤسسة من الدراسات والمصادر المترجمة وأعمال المؤتمرات العلمية التي تعقد فيها ، والتي لا يستطيع الباحث نسخها على جهاز الحاسب الآلي الخاص به إلا عن طريق برنامج Acrobat Reader (PDF) ، كما يقدم قوائم ببليوجرافية لموضوعات بعينها ، أو لرسائل الماجستير والدكتوراه التي نوقشت أو سجلت في الجامعات الأمريكية .

---

* مدرس م. تاريخ العصور الوسطى ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس.

أشكر صديقي الدكتور طارق منصور الذي اقترح على فكرة هذا البحث ، ولماها في ذهني بعد أن كانت جنينا يلح إلى الخروج للنور ، فله مني كل شكر وإعزاز وتقدير .

كذلــك يقــدم موقــع مركــز دراســات العصــور الوســطى بجامعــة فوردهــام Fordham University Center for Medieval Studies www.fordham.edu الــذي يشــرف عليه الباحث الكندي باول هالسال Paul Halsal ، وهــو باحــث له نشاط ببليوجرافي كبير ، خدمات مجانية للباحثين ، ولعل أهم ما يقدمه هذا الموقــع هــو كــتاب تاريخ العصور الوسطى المصدري Medieval Source Book الذي يعــرض نصــوص كثير من المصادر البيزنطية المترجمة إلي اللغة الإنجليزية ، سواء أكانت هــذه المصــادر كــتابات تاريخــية أو هجيوجرافــية أو كنسية ، كما يقدم هذا الموقع قوائم ببليوجرافية عن موضوعات معينة ٠

ومــن أهــم المواقع المتخصصة في الدراسات البيزنطية على شبكة الإنترنت، موقع جمعــية الارتقــاء الدراســات البيزنطــية Society for the Promotion of Byzantine Studies- www.byzantium.ac.ukSPBS بإنجلــترا ، والــذي يقــدم أخر أخبار النشاط البحثي الجاري والمستقبلي ، وتقارير عن مؤتمرات الجمعية التي عقدت أو ستعقد فيما بعــد ، وبــرامج هذه المؤتمرات والمشاركين بها ، و يقدم كذلك قائمة بما نشرته الجمعية من أعمــال هــذه المؤتمــرات أو التــي لا زالت تحت الطبع ، بالإضافة إلى قوائم مرتبة أبجديا لمنشورات أعضاء الجمعية من الكتب والمقالات في الدوريات المتخصصة ، سواء المنشورة حديثا أو التي لا تزال في إطار الإعداد أو حتى التي لا تزال مجرد فكرة لم توضع بعد موضع التنفــيذ ، كذلــك يقدم أرشيفا لمنشورات الأعضاء الكاملة يتم البحث فيه وفقا للترتيب الأبجدي لأســمائهم ، ويقدم تقارير عن الرحلات والدراسات الميدانية الحديثة والحالية التي تتم في أسيا الصــغرى والــيونان ، بالإضافة إلى أرشيفا يحتوى على ملخصات أبحاث الدراسات الميدانية الســابقة وما توصلت إليه من نتائج ، وفضلا عن ذلك يقدم مشاريع ترجمة المصادر والتأليف المشــترك ، كمــا يعلن هذا الموقع بصفة دورية عن المناهج الدراسية في الأقسام والمعاهد الجامعــية الإنجليزية المتخصصة في الدراسات البيزنطية ، سواء لطلاب مرحلة الليسانس أو مــرحلة الدراسات العليا ، وعن فرص المنح البحثية التي تتيحها الجمعية للباحثين والدارسين ، وأيضــا تلــك التــي تقدمها المراكز والمعاهد الجامعية الأخرى ، بالإضافة إلى قائمة بجميع المجموعــات والمصادر والدوريات والدراسات المتاحة في مكتبات لندن ، الأكاديمية منها أو التجارية ، وأخيرا يقدم قائمة بأهم المواقع المتخصصة المتصلة به ٠

القوائم البيليوجرافية Bibliography

تقدم المواقع المتخصصة في الدراسات البيزنطية خدمات ببليوجرافية قيمة للباحثين ، منها قوائم عن " الدراسات البيزنطية فى مدارس الدراسات العليا بشمال أمريكا تحت عنوان" Resources for Byzantine Studies in North American Graduate School الذي يوجد على موقع مؤسسة الدومبارتون ، ويقدم قائمة بأسماء الأقسام والمعاهد ومدارس الدراسات العليا المتخصصة في مجال الدراسات البيزنطية بأربعة وثلاثين جامعة ، ورؤساءها وأعضاء هيئة التدريس بها ، و المناهج الدراسية المقررة على الدارسين ، وعدد الدارسين الحاليين المسجلين في درجة الماجستير والدكتوراه ، وعدد الرسائل التي نوقشت خلال العشر سنوات الماضية.

كذلك يقدم موقع الدومبارتون خدمة البحث في فهارس مكتبتها ، عن طريق استخدام مفاتيح الدخول Key Wards إما باسم المؤلف أو عنوان الكتاب أو بالموضوع ، كما يقدم دليلا بكيفية استخدام المكتبة من قبل زائريها ، والوصول إلى المصادر والمجموعات الموجودة بالمكتبة .

ويقدم هذا الموقع أيضا الخدمات الشرائية للباحثين لأحدث المنشورات ، والخصومات التي يمكن الحصول عليها ، وذلك من خلال قائمتين تحمل إحداها عنوان Publications والأخرى New Titles ، و يتم تحديثهما بصفة دورية كلما صدرت دراسات أحدث .

ومن أهم القوائم المتاحة على هذا الموقع أيضا ، قائمة بعناوين رسائل الماجستير والدكتوراه التي سجلت أو نوقشت في الجامعات الأمريكية ، بالإضافة إلى أسم صاحب الرسالة والأستاذ المشرف ، و أسم الجامعة والقسم الذي سجلت أو نوقشت فيه ، وهذه القائمة تحمل عنوان Byzantine Dissertations in North America ، و تضم قسمين رئيسيين، الأول بعنوان رسائل تحت الإعداد Dissertations in Progress ، ويحتوى على ٥٩ رسالة مسجلة حاليا في التخصصات التالية :

الأدب والآثار Art and Archaeology ، و تاريخ الأدب والآثار Art History and Architecture ، والتاريخ History ، وتاريخ المسرح History of Theater ، وتاريخ العلم History of Science ، واللغة والأدب Language and Literature ، والديانة Religion ، واللاهوت Theology and Liturgy .

أما القسم الثاني فيحمل عنوان " رسائل نوقشت منذ عام ١٩٩٥م " Dissertations Completed Since 1995 ، ويضم عناوين ٥٤ رسالة نوقشت في نفس التخصصات السابقة بالإضافة إلى تخصصات أخرى هي : الكتابة التاريخية Historiography ، والموسيقى Music ، وجدير بالذكر أن أخر تحديث updated لهذه القائمة تم فى سبتمبر ٢٠٠١م .

وعلـــى موقـــع الدومـــبارتون أيضا توجد قائمة ببليوجرافية خاصة بالمرأة البيزنطية Bibliography on Women in Byzantium ، التـــي يقـــوم علـــى نشـــرها مديرة شعبة الدراسات البيزنطية بالمؤسسة ، أ.د. مارى أليس تالبوت Alice–Mary Talbot ، ويشارك فـــيها عـــدد كبـــير من المتخصصين ، وتعد هذه القائمة استكمالا لقوائم أخرى عن المرأة في العصـــر الرومانـــي المـــتأخر والبيزنطـــي الباكر ، وهى Bibliography on Women in Antiquity ، و Bibliography on Women in Late Antiquity ، و المنشـــورتان على موقع porterj@duke.usak.ca ، .

ومـــن قوائـــم الببليوجرافيا المتاحة على شبكة الإنترنت ، قائمة " المصادر البيزنطية المـــترجمة " Byzantine Sourses in Translation ، والتي يقدمها هالسال Halsal على موقـــع فوردهـــام www.fordham.edu ، وتتميز هذه القائمة بأنها تتيح للباحث عناوين المصـــادر البيزنطية المترجمة إلى اللغات الأوربية الحديثة ، كالإنجليزية والفرنسية والألمانية والروســـية والإيطالـــية وغـــيرها من اللغات ، وقد اتبع هالسال في عرض هذه القائمة أسلوبا مـــنظما يتـــيح للباحـــث الوصـــول مباشـــرة إلى ما يبتغيه ، حيث بدأها بمجموعات المصادر البيزنطـــية ســـواء بلغاتها الأصلية أو المترجمة ، وبعد ذلك الكتابات التاريخية والحوليات ، ثم الوثـــائق السياســـية ، والوثـــائق القانونية ، ثم المصادر التي وصفت مدينة القسطنطينية ، ثم وثـــائق تـــاريخ الكنيسة ، و أدب اللاهوت ، ثم الأدب البيزنطي ، و مجموعات الرسائل ، والكـــتابات الفلســـفية ، والكـــتابات العلمـــية ، ثم المصادر الأجنبية التي تحدثت عن التاريخ البيزنطـــي ، وبعـــد ذلك يقدم هالسال قائمة أخرى بعناوين أهم الدراسات الحديثة . وفيما يلي محاور القائمة كما توجد على شبكة الإنترنت :

A: Byzantine Source Collections

TABLE I Byzantine Source Collections - In Original Languages
TABLE II Byzantine Source Collections - In Translation

B: Byzantine Historiography

TABLE I Byzantine Historians
TABLE II Byzantine Chroniclers
TABLE III The Greek Tradition
TABLE IV The Latin Tradition

C: Byzantine Political Documents

TABLE I Byzantine Political Structures
TABLE II Fiscal Texts
TABLE III Byzantine Military Texts

D: Byzantine Legal Documents

TABLE I Byzantine Legal Texts - Collections and Codes
TABLE II Byzantine Legal Texts - Decrees, Edicts

E: Byzantium - Contemporary Descriptions

F: Byzantine Church History Documents

TABLE I Church Document Collections
TABLE II Church Councils
TABLE III Monastic Documents
TABLE III Church History Documents
TABLE IV Liturgical Documents
TABLE V Canon Law

G: Byzantine Theological Literature [post 500 CE]

TABLE I Where to Find Texts of 4th and 5th-century Christian Writers
TABLE II Discourses/Treatises
TABLE III Sermons and Homilies
TABLE IV Spirituality
TABLE IV Controversy with: Heretics; Latins; Jews; and Muslims

H: Byzantine Literature

TABLE I Poetry
TABLE II Other Fictional Literature
TABLE III Criticism and Belles Lettres
TABLE IV Selected Secondary Works

I: Byzantine Letter Collections

J: Byzantine Philosophy

K: Byzantine Science

L: Non-Greek Sources for Byzantine History

TABLE I Eastern Sources
[Arabic, Armenian, Coptic, Persian, Syriac,Turkish]
TABLE II Northern and Western Sources
[Latin, Russian, Slavonic, Western Vernaculars]
TABLE III Crusades

M: Modern Byzantine History Writing

TABLE I Byzantine History: Overviews
TABLE II Byzantine History: Specific Periods
-----Postscript: Byzantine Jewry
TABLE III Byzantine History: Military

وعلى موقع فوردهام أيضا توجد قائمة ببليوجرافية أعدها هالسال عن مجموعات الوثائق والمخطوطات البيزنطية ، وتحمل عنوان :
Byzantine Manuscript Indices : Bibliography

كما يوجد على نفس الموقع مقال لهالسال بعنوان " تقليد الكتابة التاريخية البيزنطية " The Byzantine Historiography Tradition ، ملحقا به قائمة بأسماء المصادر التاريخية والحوليات البيزنطية سواء المترجمة إلى اللغات الأوروبية الحديثة ، أو التي لا تزال بلغاتها الأصلية .

كما يقدم موقع جامعة نوتردام University of Notre Dame www.byzantine.nd.edu قائمة كبيرة تحتوى على عناوين جميع المجموعات والمخطوطات والمصادر والدراسات الموجودة بمكتبة معهد العصور الوسطى والدراسات البيزنطية بالجامعة Institute of Medieval and Byzantine Studies ، مع كود ورقم التصنيف و عدد النسخ ، وتحمل هذه القائمة عنوان Byzantine Studies at Notre Dame .

كذلك يوجد على موقع جامعة شمال فلوريدا University of North Florida www.unf.edu قائمة ببليوجرافية كبيرة عن القديس البيزنطي : The Byzantine Saint A Bibliography ، و يعرض فيها لعناوين سير القديسين والقديسات ، و أهم البحوث والدراسات التي تتناول هذا الموضوع . والمحاور الرئيسية لهذه القائمة كما توجد على شبكة الإنترنت كالتالي :

- What is a Saint?
    - Sainthood: General

- Hagiography: General
- Canonization: General
- Byzantine Sainthood: General
- Byzantine Hagiography
- Byzantine Sainthood: Saint-Making/Canonization
- Locating Information on Saints
- Internet Bibliographies

- Biography
- The Novel
- The Pagan Holy Man
- Martyrs: Pagan and Christian Sources
- The Life of Anthony
- Early Monasticism I: Egypt and Pachomius
- Early Monasticism II: Palestine
- Early Monasticism III: Syria
- The Christian Holy Man in Society: Ascetics
- The Christian Holy Man in Society II: Bishops
- Women Saints I: The Early Church
- Women Saints II: The Byzantine Period
- Thaumaturgy (Wonder-Working), Miracles and Healing
- From Hagiography to Legend
- The Metaphrastic Effort
- Middle Byzantine Sainthood
- Later Byzantine Sainthood
- Byzantine Monasticism and Sainthood
- Post-Byzantine Greek Saints
- The Theotokos
- Saints in Art
- Saints in Liturgy
- Slavic Saints
- Major Collections

كذلك يوجد على موقع الدومبارتون قائمة بأسماء القديسين والقديسات البيزنطيين ، وبيانات النصوص الأصلية لسيرهم ، وما ترجم منها إلى اللغات الأوربية الحديثة ، أو ما هو في إطار الترجمة حاليا in preperation ، و اسم من يعمل في هذه الترجمة ، وهذه القائمة من إعداد أ.د. أليس مارى تالبوت وتحمل عنوان :

Survey of Translations of Byzantine Saints' Lives

سير القديسين Hagiography

تزخـــر مواقع الدراسات البيزنطية على شبكة الإنترنت بالعديد من النصوص الكاملة لعـــدد مـــن ســـير القديسين والقديسات ، بالإضافة إلى مجموعة من الدراسات الخاصة بهذا المجال ، ولعل أشهر هذه الدراسات " قاعدة بيانات الكتابات الهجيوجرافية " Hagiography Database علـــى موقع الدومبارتون ، والتي تحتوى على نصوصا كاملة باللغة اليونانية لكافة سير القديسين والقديسات البيزنطية من القرن الثامن وحتى القرن العاشر ، بالإضافة إلى مقدمة هامة تحتوى على أسماء قديسين وقديسات هذه الفترة مرتبة ترتيبا أبجديا ، وبعض المعلومات الأساسية عن كل منهم ، وقد تم نشرها حديثا في إصدار يحمل عنوان

Dumbarton Oaks Hagiography Database of 8th –10th.Centuries

وعلـــى موقع الدومبارتون أيضا توجد نصوص كاملة لبعض السير المترجمة حديثا إلى اللغة الإنجليزية ، مثل سيرة القديسة ماريا \ مارينوس St. Maria\ Marinos (القرن الخـــامس) ، والقديســـة ماتـــرونا البرجية St. Matrona of Perge (القرن السادس) ، والقديسة ماريـــا المصـــرية St.Mary of Egypt (القـــرن الرابع والخامس) ، والقديسة ثيوكتيستى الليسبوسية St.Theoktiste of Lesbos (القرن التاسع) ، و القديسة اليزابيث St. Elisabeth of Wonderworker (القـــرن الخـــامس) ، والقديسة أثاناسيا الايجينية St.Athanasia of Aegina (القرن التاسع) ، والقديسة ثيودورا السالونيكية Theodora of Thessalonike (القـــرن العاشر) ، والقديسة ماريا الصغرى Mary the Younger (القرن التاسع والعاشر) ، والقديسة ثومايس الليسبوسية St. Thomais of Lesbos (القرن العاشر) ، والقديسة ثيودورا الأرتية St. Theodora of Arta (القرن الثالث عشر) وهذه الســـير تـــم نشـــرها ســـنة ١٩٩٦م فـــي كـــتاب واحـــد يحمل عنوان Holy Women of Byzantium : Ten Saints Lives in English Translation ، وقامت على نشره أ.د. تالـــبوت ضمن سلسلة Byzantine Saints Lives in Translation التي تصدرها مؤسسة الدومبارتون ، وعلى نفس الموقع يوجد النص الكامل لسيرة القديس لازاروس من جبل جاليزيون St. Lazaros of Mt. Galesion (القرن الحادي عشر) مترجمة إلي الإنجليزية ، والتـــي نشـــرت فـــي نفـــس السلســـلة تحت عنوان The Life of St. Lazaros of Mt. Galesion : An 11th .Century Pillar Saint ،

وعلـــى موقـــع فوردهام نشر هالسال النصوص الكاملة لعدد من السير سواء بلغتها الأصـــلية أو مـــترجمة إلى الإنجليزية ، وقد اعتمد فيها على السير المترجمة بالفعل من قبل آخريـــن ، ليقدم هذه الترجمات إلى أكبر قطاع ممكن من الباحثين ، خاصة و أن بعضها نشر في كتب نفذت طبعتها أو في رسائل علمية لم تنشر بعد ، ولذلك يشير في نهاية كل سيرة إلى بيانات الترجمة الأصلية لها ، وهى كالتالي :

Clarke , W.H., The Life of St. Macrina , London , 1916.

- سير القديسين دانييل الاستيليتى St. Daniel the Stylite (القرن الخامس) ، و ثيودور سسيكيون St. Theodore Sykeon (القــرن السابع) ، و يوحنا المعطاء St.John the Almsgiver (القرن السابع) ، المأخوذة من كتاب :

London , 1948. ‹Baynes , N., Three Byzantine Saints

- ســيرة القديســة ماترونا البرجية Matrona of Perge (القرن السادس) المأخوذة من رسالة دكتوراه للباحث الليبي خليفة بن ناصر

Khalifa Ben Naser ,Gender and Sanctity in Early Byzantine Monasticism , Arbor University Microfilms

- سيرة القديسة ايرينى الصغرى St. Irene the Younger (القرن التاسع) المأخوذة من كتاب :

Rosenqvist , J.O., The Life of St. Irene Abbess of Chrysobalanton , Uppsala ,1986.

- الخمســة فصــول الأولى من سيرة القديسة ماريا الصغرى St. Mary the Younger (القرن التاسع و العاشر) ترجمة هالسال .

- الــنص اليونانــي الأصلي لسيرة القديسة ثومايس الليسبوسية St. Thomais of Lesbos (القرن العاشر).

- سيرة القديس روميلوس St. Romylos (القرن الرابع عشر) والمأخوذة من المقال التالي

M.Bartusis ; Kh. Ben Naser ; A. Laiou , Days and Deeds of a Hesychast Saint: A Translation of the Greek Life of Saint Romylos Byzantine Studies/Etudes Byzantines, 9:1 (1982), 24-47

ومــن أهم مجموعات السير المنشورة على موقع فوردهام ، كتاب The Golden Legend or Lives of Saints ، والــذي يــتكون مــن سبع مجلدات تتناول سير القديسين والقديســات مــنذ ظهــور المسيحية إلى القرن الثالث عشر ، بالإضافة إلى جزء خاص ببدء الخليقة وقصص الأنبياء ، وقد قام على جمعه أسقف جنوه جاكوبوس دى فوراجينى Jacobus de Voragine سـنة ١٢٧٥م ، ونشــر لأول مرة سنة ١٤٧٠م ، وترجمه وليم كاكستون William Caxton إلــى الإنجلــيزية ونشــره سنة ١٤٨٣م ، وأعيد نشره مرارا حتى عام ١٩٣١م ، و أهمــية هــذا الكــتاب بالنسبة للباحثين في مجال الدراسات البيزنطية ، يكمن في عرضه لمجموعة من سير قديسى وقديسات بيزنطة و مصر والشام إبان فترة الحكم الروماني والبيزنطــي ، ومنهم على سبيل المثال القديسة ماريا المصرية Mary of Egypt ، والقديسة ثــيودورا السكندرية Theodora of Alexandria التي عاشت في عصر الإمبراطور زينون

Zeno ، و القديــس جورجونـــى Gorgone فـــي عصر الإمبراطور دقلديانوس ، والقديس البيزنطي يوحنا خريسوستوم John Chrysostom ، وغيرهم كثيرين ٠

كذلــك يقدم موقع معهد العصور الوسطى والدراسات البيزنطية بجامعة نوتردام عام ٢٠٠١م أول ترجمة إنجليزية لسيرة القديس جورج أماستريس The Life of St. George of Amastris (القــرن التاســع) ، و التـــي لــم تنشر بعد في آي إصدار ، وقد قام على ترجمــتها عـــدد من الباحثين المتخصصين بالمعهد ، وهم ديفيد جينكينز David Jenkins ، وســتيفانوس الكيســوبولوس Stephanos Alexopoulos و سارة ديفيد Sarah David ، ودارين هايتون Darin Hayton ، و أندريا ستيرك Andrea Sterk ، اعتمادا على النص اليوناني الأصلي الموجود على موقع الدومبارتون في Dumbarton Oaks Hagiography Database ٠

كذلــك هــناك دراسة قيمة للباحث توماس هيد Thomas Head ، عن تطور كتابة ســير القديســات فـــي العصـــور الوسطى ، وعنوانها " Women and Hagiography in Medieval Christianity " ، ويتــناول فــيها بعض سير القديسات البيزنطيات ، كما يلحق هذه الدراسة بقائمة ببليوجرافية تعرض لأهم الدراسات الحديثة التي تناولت هذا الموضوع ٠

المصادر التاريخية Historical Sources

تقــدم المواقع المتخصصة على شبكة الإنترنت النصوص الكاملة لعدد من المصادر التاريخية البيزنطية المترجمة إلى اللغة الإنجليزية ، وهى كالتالي :

- يوسيبيوس القيسارى ، سيرة الإمبراطور قسطنطين

Eusebius of Caesarea , The Life of the Blessed Emperor Constantine

---------------------- قصيدة مديح فى الإمبراطور قسطنطين

Eusebius of Caesarea , Orotion in Praise of the Emperor Constantine

والمأخوذتان من كتاب :

Nicene and Post-Nicene Fathers, 2nd Series, ed. P. Schaff and H. Wace, (Edinburgh: repr. Grand Rapids MI: Wm. B. Eerdmans, 1955) Vol. I .

- بروكوبيوس ، التاريخ السري

Procopius of Caesarea , The Secret History

والمأخوذ عن كتاب :

Procopius: Secret History, translated by Richard Atwater, (Chicago: P. Covici, 1927; New York: Covici Friede, 1927), reprinted, Ann Arbor, MI: University of Michigan Press, ١٩٦١.

- ليوتبراند الكريمونى ، تقرير سفارته إلى القسطنطينية ٩٦٣م
Liutprand of Cremona: Report of his Mission to Constantinople
والمأخوذ عن :
Ernest F. Henderson, , Select Historical Documents of the Middle Ages , (London: George Bell, 1910), pp. ٤٤٠-٤٧٧.

- مزمنة مؤرخ القرن الحادي عشر ميخائيل بسللوس
Michael Psellus: Chronographia
والمأخوذة عن :

Michael Psellus: Chronographia, trans E.R.A Sewter, (New Haven: Yale University Press, 1953)

وهـناك دراسـة متخصصـة عن بسللوس على موقع نوتردام تحمل عنوان " رؤى بسللوس الفلسـفية " The Philosophical Views of Michael Psellos ، تـرجمها ديفيد جينكينز David Jenkins إلى الإنجليزية عن الأصل الروسي للباحث فالدينبيرلج V.Valdenber

Философсќие Взгляды Михаила Лселла , Византийский Сóорник (1945)249-55.

- آنا كومنينا ، الألكسياد
Anna Komnena The Alexiad

والمأخوذ عن
Anna Comnena (Komnene). The Alexiad. Edited and translated by Elizabeth A. Dawes. London: Routledge, Kegan, Paul, ١٩٢٨.

- فلهاردوين ، الحملة الصليبية الرابعة وسقوط القسطنطينية
Geoffrey de Villehardouin , Memoirs or Chronicle of The Fourth Crusade and The Conquest of Constantinople.
والمـأخوذة عن ترجمة Frank T. Marzials والتي تحمل نفس العنوان ، والمنشورة بلندن ١٩٠٨م.

كذلك يقدم موقع فوردهام نصوصا مختارة من بعض المصادر التاريخية ، وهى كالتالي :

- نصـوص مـن حولية مؤرخ القرن الثالث عشر ثيودوروس سكوتاريوتيس Theodoros Skoutariotes ، التـي تحمل عنوان Synopsis Chronika ، وتتحدث عن أباطرة القرن

الحـادي عشر ابتداء بباسيل الثاني وحتى رومانوس السابع ديوجينيس ، وقد ترجمها نيكوس كونكونـاس Nikos Konkounas اعـتمادا علـى الـنص اليونانـي الأصـلي الوارد في Konstantine Sathas, Messaioniki Bibliothiki, vol. VI , pages ١٥٩-١٦٧.
هـذا بالإضـافة إلـى النصوص الخاصة بهؤلاء الأباطرة عند كل من ميخائيل بسللوس في مزمنـته ، وميخائـيل اطالـياتس فـي تاريخه ، مترجمة إلى الإنجليزية اعتمادا على ترجمة بسللوس السالفة الذكر ، وعلى النص الأصلي لاطالياتس

Attaliates, Historia , ed , E. Bekker, CSHB, (Boon, 1864)

كذلك يعرض لنا موقع فوردهام نصوصا كاملة أو مختارة من بعض المصادر العربية والروسية والأرمينية ، والمتعلقة بالتاريخ البيزنطي ، وهى كالتالي :-

بأوستوس بوزانداقى ، تاريخ الأرمن ، ترجمة روبرت بيدروسيان (القرن الخامس)

Pawstos Buzandaci , History of the Armenians (full text)-

غزار بأربيقى ، تاريخ الأرمن ، ترجمة روبرت بيدروسيان (القرن الخامس)

- Ghazar Parbeci , History of the Armenians (full text)

سيبوس ، التاريخ ، ترجمة روبرت بيدروسيان (القرن السابع)

Sebos , History (full text)

- يوحنا ماميكونيان ، ترجمة روبرت بيدروسيان ، تاريخ تارون (القرن العاشر)

John Mamikonean , History of Taron (full text)

- أريستاكيس اللستيفرتى ، ترجمة روبرت بيدروسيان ، التاريخ (القرن الحادي عشر)

Aristakes Lastivertci , History (full text)

- الحولية الجورجية ، ترجمة روبرت بيدروسيان (القرنين الثاني عشر والثالث عشر)

The Georgian Chronicle (full text)

- كيراكوس جاندزاكيتسى ، تاريخ الأرمن (القرن الثالث عشر)

- Kirakos Gandzaketsi , History of the Armenians (full text)

توفما ميتسوبيتسى ، تاريخ تيمورلنك و خلفائه

(Tovma Metsobetsi , History of Tamerlane and his Successors (full text
- نصــوص مخــتارة من حولية نوفجورود The Chronicle of Novgorod ، والحولية الروســية الأولــى Russian Primary Chronicle ، وجمــيعها خاصة بالعلاقات البيزنطية الروسية أو بالتاريخ الروسي المحلى ٠

- نصــوص مختارة من وصف بعض الرحالة والسفراء العرب للقسطنطينية ، كوصف سفارة عربــية مــن البلاط العباسي إلى الإمبراطور باسيل الأول فى نهاية القرن العاشر An Arab Ambassador in Constantinople ، ووصــف الــرحالة المسلم ابن بطوطة للقسطنطينية فــي منتصــف القرن الرابع عشر ، بالإضافة إلى وصف الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي لها النصف الثاني من القرن الثاني عشر ٠

المصادر العسكرية Military Sources

يقــدم لنا نوقع الدومبارتون مصدرا عسكريا هاما نشرته المؤسسة حديثا ، وهو " مالك الحزين البيزنطي : فن الحصار " ، ويضم مخطوطتين تم نسخهما في القرن العاشر الميلادي

Heron of Byzantium , Siegecraft , Two Tenth - Century Instructional Manuals

النصوص التشريعية Legal Texts

يقــدم موقــع فوردهــام عــددا كبــيرا من النصوص القانونية المختارة من تشريعات الإمبراطور ثيودوسيوس الأول Codex Theodosianus والإمبراطور جستنيان Institutes و Digest و Codex Justinianus و Novellae ، خاصــة بالأوضــاع القانونية لليهود والعبــيد والأطفال والزواج المختلط بين العبيد والأحرار ووضعية الأراضي الزراعية ، كذلك يقدم النص الكامل لقانون الفلاح والمنشور في :-

W. Ashburner, trans., "The Farmer's law", Journal of Hellenic Studies, 32 (1912), 87-95

موقع فوردهام نصوصا مقتبسة من تشريعات ليو الثالث المعروفة بالايكلوجا تخص كذلك يقدم الصــيغة المتفق عليها في كتابة عقود الزواج ،والجرائم الجنسية المقترفة من قبل أحد الزوجين أو الاغتصاب بالإكراه ، وهى مأخوذة من :-

Freshfield, E., trans., A Manual of Roman Law : The 'Ecloga" (Cambridge, 1926) pp. 72-74 ; 108-12.

Religious Sources المصادر الدينية

أولا : المواعظ والرسائل Letters and Homilies :-

يعرض موقع فوردهام عددا كبيرا من المواعظ الرسائل الدينية للقديس يوحنا الذهبي الفم John Chrysostom (القرنيين الرابع والخامس) ، ويوحنا الدمشقي John of Damascus ، ويوحنا موسخوس John Moschos ، ويوحنا كليماخوس John Klimakos ، وثيودور رئيس رهبان دير ستوديوس القسطنطيني Theodore of Studious (القرن التاسع).

ثانيا : لوائح تنظيم الأديرة البيزنطية Byzantine Monastic Foundation Documents

وهي مجموعة كاملة لكافة اللوائح والوثائق الخاصة بالأديرة البيزنطية الباقية من القرن السابع وحتى نهاية القرن الخامس عشر (٦١ وثيقة) ، وهو عمل قام على ترجمته من اليونانية القديمة والحديثة والفرنسية والألمانية والإيطالية والروسية فريق عمل يضم عددا كبيرا من المتخصصين في مجال الدراسات البيزنطية ، وقد نشرته مؤسسة الدومبارتون فيما يزيد عن ٢٤٠٠ صفحة تضمهم ثلاث مجلدات ، كما أتاحت نسخة منه على موقعها ليفيد منه أكبر عدد ممكن من الباحثين ، وبيان محتواها كالتالي :-

Introduction / 122k

Early Monastic Rules / 122k

Chapter One: Traditional Private Religious Foundations / 61k

Introduction

Seventh Century

1. Apa Abraham: Testament of Apa Abraham, Bishop of Hermonthis, for the Monastery of St. Phoibammon near Thebes, Egypt (trans. Leslie S. B. MacCoull) / 61k

Eighth Century

2. Pantelleria: Typikon of John for the Monastery of St. John the Forerunner on Pantelleria (trans. Gianfranco Fiaccadori) / 61k

Ninth Century

3. Theodore Studites: Testament of Theodore the Studite for the Monastery of St. John Stoudios in Constantinople (trans. Timothy Miller) / 92k

4. Stoudios: Rule of the Monastery of St. John Stoudios in Constantinople (trans. Timothy Miller) / 153k

Tenth Century

5. Euthymios: Testament of Euthymios for the Monasteries of Psamathia and Ta Agathou (trans. Patricia Karlin-Hayter) / 31k

6. Rila: Testament of John of Rila (trans. Ilija Iliev) / 61k

7. Latros: Testament of Paul the Younger for the Monastery of the Mother of God tou Stylou on Mount Latros (trans. Gianfranco Fiaccadori) / 61k

Eleventh Century

8. John Xenos: Testament of John Xenos for the Monastery of the Mother of God Antiphonetria of Myriokephala on Crete (trans. Gianfranco Fiaccadori) / 31k

9. Galesios: Testament of Lazarus of Mount Galesios (trans. Patricia Karlin-Hayter) / 92k

10. Eleousa: Rule of Manuel, Bishop of Stroumitza, for the Monastery of the Mother of God Eleousa (trans. Anastasius Bandy) / 122k

Chapter Two: Athonite Monasteries / 61k

Introduction

Tenth Century

11. Ath. Rule: Rule of Athanasios the Athonite for the Lavra Monastery (trans. George Dennis) / 153k

12. Tzimiskes: Typikon of Emperor John Tzimiskes (trans. George Dennis) / 92k

13. Ath. Typikon: Typikon of Athanasios the Athonite for the Lavra Monastery (trans. George Dennis) / 122k

14. Ath. Testament: Testament of Athanasios the Athonite for the Lavra Monastery (trans. George Dennis) / 61k

15. Constantine IX: Typikon of Emperor Constantine IX Monomachos (trans. Timothy Miller) / 61k

Chapter Three: The Protectorate / 92k

Introduction

Tenth Century

16. Mount Tmolos: Typikon of Nikephoros Erotikos for the Monastery of the Mother of God and the Old Age Home called Ta Derma on Mount Tmolos (trans. John Thomas) / 31k

17. Nikon Metanoeite: Testament of Nikon the Metanoeite for the Church and Monastery of the Savior, the Mother of God and St. Kyriake in Lakedaimon (trans. Anastasius Bandy) / 61k

Eleventh Century

18. Nea Gephyra: Testament of Nikodemos for the Monastery of Nea Gephyra near Lakedaimon (trans. Stephen Reinert) / 31k

19. Attaleiates: Rule of Michael Attaleiates for his Almshouse in Rhaidestos and for the Monastery of Christ Panoiktirmon in Constantinople (trans. Alice-Mary Talbot) / 214k

20. Black Mountain: Regulations of Nikon of the Black Mountain (trans. Robert Allison) / 214k

21. Roidion: Typikon of Nikon of the Black Mountain for the Monastery and Hospice of the Mother of God Tou Roidiou (trans. Robert Allison) / 92k

Chapter Four: Early Reform Monasteries of the Eleventh Century / 92k

Introduction

22. Evergetis: Typikon of Timothy for the Monastery of the Mother of God Evergetis (trans. Robert Jordan) / 244k

23. Pakourianos: Typikon of Gregory Pakourianos for the Monastery of the Mother of God Petritzonitissa in Backovo (trans. Robert Jordan) / 244k

24. Christodoulos: Rule, Testament and Codicil of Christodoulos for the Monastery of St. John the Theologian on Patmos (trans. Patricia Karlin-Hayter) / 183k

Chapter Five: Imperial and Royal Monasteries of the Twelfth Century / 61k

Introduction

25. Fragala: Testaments of Gregory for the Monastery of St. Philip of Fragala in Sicily (trans. Patricia Karlin-Hayter and Timothy Miller) / 92k

26. Luke of Messina: Typikon of Luke for the Monastery of Christ Savior (San Salvatore) in Messina (trans. Timothy Miller) / 61k

27. Kecharitomene: Typikon of Empress Irene Doukaina Komnene for the Convent of the Mother of God Kecharitomene in Constantinople (trans. Robert Jordan) / 305k

28. Pantokrator: Typikon of Emperor John II Komnenos for the Monastery of Christ Pantokrator at Constantinople (trans. Robert Jordan) / 244k

29. Kosmosoteira: Typikon of the Sebastokrator Isaac Komnenos for the Monastery of the Mother of God Kosmosoteira near Bera (trans. Nancy Patterson Sevcenko) / 336k

Chapter Six: Early Reform Monasteries of the Twelfth Century / 61k

Introduction

30. Phoberos: Rule of John for the Monastery of St. John the Forerunner of Phoberos (trans. Robert Jordan) / 336k

31. Areia: Memorandum and Typikon of Leo, Bishop of Nauplia, for the Monastery of the Mother of God in Areia (trans. Alice-Mary Talbot) / 92k

32. Mamas: Typikon of Athanasios Philanthropenos for the Monastery of St. Mamas in Constantinople (trans. Anastasius Bandy) / 275k

33. Heliou Bomon: Typikon of Nikephoros Mystikos for the Monastery of the Mother of God ton Heliou Bomon or Elegmon (trans. Anastasius Bandy) / 214k

Chapter Seven: Independent and Self-Governing Monasteries of the Thirteenth Century / 61k

Introduction

34. Machairas: Rule of Neilos, Bishop of Tamasia, for the Monastery of the Mother of God of Machairas in Cyprus (trans. Anastasius Bandy) / 275k

35. Skoteine: Testament of Maximos for the Monastery of the Mother of God at Skoteine near Philadelphia (trans. George Dennis) / 122k

36. Blemmydes: Typikon of Nikephoros Blemmydes for the Monastery of the Lord Christ-Who-Is at Ematha near Ephesos (trans. Joseph Munitiz) / 61k

37. Auxentios: Typikon of Michael VIII Palaiologos for the Monastery of the Archangel Michael on Mount Auxentios near Chalcedon (trans. George Dennis) / 122k

38. Kellibara I: Typikon of Michael VIII Palaiologos for the Monastery of St. Demetrios of the Palaiologoi-Kellibara in Constantinople (trans. George Dennis) / 92k

39. Lips: Typikon of Theodora Palaiologina for the Convent of Lips in Constantinople (trans. Alice-Mary Talbot) / 153k

40. Anargyroi: Typikon of Theodora Palaiologina for the Convent of Sts. Kosmas and Damian in Constantinople (trans. Alice-Mary Talbot) / 61k

Chapter Eight: Later Private Religious Foundations / 61k

Introduction

Twelfth Century

41. Docheiariou: Rule of Neophytos for the Monastery of St. Michael the Archangel of Docheiariou on Mount Athos (trans. Robert Allison) / 61k

42. Sabas: Founder's Typikon of the Sabas Monastery near Jerusalem (trans. Gianfranco Fiaccadori) / 61k

43. Kasoulon: Rule of Nicholas for the Monastery of St. Nicholas of Kasoulon near Otranto (trans. Timothy Miller) / 61k

44. Karyes: Typikon of Sabbas the Serbian for the Kellion of St. Sabbas at Karyes on Mount Athos (trans. George Dennis) / 61k

Thirteenth Century

45. Neophytos: Testamentary Rule of Neophytos for the Hermitage of the Holy Cross near Ktima in Cyprus (trans. Catia Galatariotou) / 153k

Fourteenth Century

46. Akropolites: Testament of Constantine Akropolites for the Monastery of the Resurrection (Anastasis) in Constantinople (trans. Alice-Mary Talbot) / 61k

47. Philanthropos: Typikon of Irene Choumnaina Palaiologina for the Convent of Christ Philanthropos in Constantinople (trans. Alice-Mary Talbot) / 61k

48. Prodromos: Testament of Neilos for the Monastery of St. John the Forerunner (Prodromos) on Mount Athos (trans. Stephen Reinert) / 31k

49. Geromeri: Testament of Neilos Erichiotes for the Monastery of the Mother of God Hodegetria in Geromeri (trans. George Dennis) / 61k

50. Gerasimos: Testament of Gerasimos for the Small Monastery of St. Euthymios in Jerusalem (trans. George Dennis) / 31k

51. Koutloumousi: Testaments of Chariton for the Monastery of Christ Savior of Koutloumousi on Mount Athos (trans. George Dennis) / 122k

52. Choumnos: Rule and Testament of Makarios Choumnos for the Nea Mone of the Mother of God in Thessalonike (trans. Alice-Mary Talbot) / 92k

53. Meteora: Canonical Rule of Athanasios the Meteorite for the Monastery of the Transfiguration (Metamorphosis) (trans. George Dennis) / 61k

Fifteenth Century

54. Neilos Damilas: Testament and Typikon of Neilos Damilas for the Convent of the Mother of God Pantanassa at Baionaia on Crete (trans. Alice-Mary Talbot) / 92k

Chapter Nine: Independent and Self-Governing Monasteries of the Fourteenth and Fifteenth Centuries / 61k

Introduction

Fourteenth Century

55. Athanasios I: Rule of Patriarch Athanasios I (trans. Timothy Miller) / 61k

أخـــيرا يقدم موقع الدومبارتون خدمة أخرى للباحثين في مجال الدراسات البيزنطية ، تتمـــثل فـــي إتاحته لنصوص كاملة لبعض الإصدارات الحديثة للمؤسسة ، بالإضافة إلى أعداد دوريـــة Dumbarton Oaks Papers بدايـــة من العدد رقم ٥٣ الصادر في عام ١٩٩٩م ، وفيما يلي قائمة بهذه الإصدارات المتاحة ومحتوياتها :-

- الـــتاريخ الاقتصادي لبيزنطة من القرن السابع إلى القرن الخامس عشر ، نشر أنجليكى لايو (ثلاث أجزاء)

The Economic History of Byzantium from the 7th Through the 15th Century

والبحوث المنشورة به هي :

Preface

Introduction

Angeliki E. Laiou | Writing the Economic History of Byzantium

Angeliki E. Laiou | Political History: An Outline

Part One: The Natural Environment, Resources, Communications, and Production Techniques

Bernard Geyer | Physical Factors in the Evolution of the Landscape and Land Use

Angeliki E. Laiou | The Human Resources

Anna Avramea | Land and Sea Communications, Fourth--Fifteenth Centuries

George Makris | Ships

Anthony Bryer | The Means of Agricultural Production: Muscle and Tools

Klaus-Peter Matschke | Mining

Maria K. Papathanassiou | Metallurgy and Metalworking Techniques

Jean-Pierre Sodini | Marble and Stoneworking in Byzantium, Seventh--Fifteenth Centuries

Anna Muthesius | Essential Processes, Looms, and Technical Aspects of the Production of Silk Textiles

Part Two: The Sixth Century, Background

Cécile Morrisson and Jean-Pierre Sodini | The Sixth-Century Economy

Case Study
James Russell | Anemourion

Part Three: Structures, Organization, and Development of Production

Agriculture
Jacques Lefort | The Rural Economy, Seventh--Twelfth Centuries

Angeliki E. Laiou | The Agrarian Economy, Thirteenth--Fifteenth Centuries

Pierre Toubert | Byzantium and the Mediterranean Agrarian Civilization

Volume 2

Urban Economy
Gilbert Dagron | The Urban Economy, Sevent--Twelfth Centuries

Klaus-Peter Matschke | The Late Byzantine Urban Economy, Thirteenth--Fifteenth Centuries

Charalambos Bouras | Aspects of the Byzantine City, Eighth--Fifteenth Centuries

Paul Magdalino | Medieval Constantinople: Built Environment and Urban Development

Charalambos Bouras | Master Craftsmen, Craftsmen, and Building Activities in Byzantium

Anthony Cutler | The Industries of Art

Nicolas Oikonomides | Writing Materials, Documents, and Books

Véronique François and Jean-Michel Spieser | Pottery and Glass in Byzantium

Christopher Entwistle | Byzantine Weights

Case Studies
Clive Foss and Jane Ayer Scott | Sardis

Klaus Rheidt | The Urban Economy of Pergamon

Aspasia Louvi-Kizi | Thebes

Maria Kazanaki-Lappa | Medieval Athens

G. D. R. Sanders | Corinth

Vasso Penna | Numismatic Circulation in Corinth from 976 to 1204

Anne Bortoli and Michel Kazanski | Kherson and Its Region

Ivan Jordanov | Preslav

Konstantin Dochev | Turnovo, Sixth--Fourteenth Centuries

Part Four: Exchange, Trade, and Markets

Angeliki E. Laiou | Economic and Non-Economic Exchange

Angeliki E. Laiou | Exchange and Trade, Seventh--Twelfth Centuries

Klaus-Peter Matschke | Commerce, Trade, Markets, and Money, Thirteenth--Fifteenth Centuries

John Day | The Levant Trade in the Middle Ages

Cécile Morrisson and Jean-Claude Cheynet | Prices and Wages in the Byzantine World

Special Topics
Haris Kalligas | Monemvasia, Seventh--Fifteenth Centuries

Part Five: Economic Institutions and the State

Cécile Morrisson | Byzantine Money: Its Production and Circulation

John Day | A Note on Monetary Mechanisms, East and West

Nicolas Oikonomides | The Role of the Byzantine State in the Economy

Legal Aspects of the Economy
Eleutheria Papagianni | Legal Institutions and Practice in Matters of Ecclesiastical Property

Eleutheria Papagianni | Protimesis (Preemption) in Byzantium

Eleutheria Papagianni | Byzantine Legislation on Economic Activity Relative to Social Class

Demetrios Gofas | The Byzantine Law of Interest

Olga Maridaki-Karatza | Legal Aspects of the Financing of Trade

Part Six: General Traits of the Byzantine Economy

Angeliki E. Laiou | Economic Thought and Ideology

Angeliki E. Laiou | The Byzantine Economy: An Overview

List of Abbreviations

- العملات البيزنطية ، تأليف فيليب جريرسون

Ph. Grierson , Byzantine Coinage

-السحر البيزنطي ، نشر هنرى ماجيورى

Byzantine Magic , ed. H. Maguire

ومحتواه كالتالي:

Henry Maguire, Introduction

Matthew W. Dickie, The Fathers of the Church and the Evil Eye
James Russell, The Archaeological Context of Magic in the Early Byzantine Period
Henry Maguire, Magic and the Christian Image
Alexander Kazhdan, Holy and Unholy Miracle Workers
John Duffy, Reactions of Two Byzantine Intellectuals to the Theory and Practice of Magic: Michael Psellos and Michael Italikos
Marie Theres Fögen, Balsamon on Magic: From Roman Secular Law to Byzantine Canon Law
Richard P. H. Greenfield, A Contribution to the Study of Palaeologan Magic
Robert Mathiesen, Magic in Slavia Orthodoxa: The Written Tradition
Abbreviations and Index

- الحدائق البيزنطية

Byzantine Garden Culture

ومحتواه كالتالي :

The Study of Byzantine Gardens:Some Questions and Observations from a Garden Historian
Joachim Wolschke-Bulmahn

The Scholarship of Byzantine Gardens
Antony Littlewood

Paradise Withdrawn
Henry Maguire

Byzantine Monastic Horticulture:The Textual Evidence
Alice-Mary Talbot

Wild Animals in the Byzantine Park
Nancy P.Sevcenko

Byzantine Gardens and Horticulture in the Late Byzantine Period,1204 1453: The Secular Sources
Costas N.Constantinides

Theodore Hyrtakenos ' Description of the Garden of St.Anna and the Ekphrasis of Gardens
Mary-Lyon Dolezal and Maria Mavroudi

Kepopoiïa: Garden Making and Garden Culture in the Geoponika
Robert Rodgers

Herbs of the Field and Herbs of the Garden in Byzantine Medicinal Pharmacy
John Scarborough

The Vienna Dioskorides and Anicia Juliana
Leslie Brubaker

Possible Future Directions
Antony Littlewood

Bibliography

General Index

Index of Greek Words

-الحروب الصليبية من وجهتي نظر بيزنطة والعالم الإسلامي ، نشر انجليكي لايو

ومحتواه كالتالي :-

I Introduction

Giles Constable
The Historiography of the Crusades

II Crusades and Holy War

Roy Parviz Mottahedeh and Ridwan al-Sayyid
The Idea of the Jihad in Islam before the Crusades

George T.Dennis
Defenders of the Christian People:Holy War in Byzantium

III Approaches and Attitudes

M.C.Lyons

The Land of War:Europe in the Arab Hero Cycles

Nadia Maria El-Cheikh
Byzantium through the Islamic Prism from the Twelfth to the Thirteenth Century

Robert W.Thomson
The Crusaders through Armenian Eyes

Alexander Kazhdan Ý
Latins and Franks in Byzantium:Perception and Reality from the Eleventh to the Twelfth Century

Elizabeth Jeffreys and Michael Jeffreys
The "Wild Beast from the West ":Immediate Literary Reactions in Byzantium to the Second Crusade

Tia M.Kolbaba
Byzantine Perceptions of Latin Religious "Errors ":Themes and Changes from 850 to 1350

IV The Crusades and the Economy of the Eastern Mediterranean

Olivia Remie Constable
Funduq,Fondaco,and Khan in the Wake of Christian Commerce and Crusade

Angeliki E.Laiou,with an Appendix by Cécile Morrisson
Byzantine Trade with Christians and Muslims and the Crusades

David Jacoby
Changing Economic Patterns in Latin Romania:The Impact of the West

V Art and Architecture

Oleg Grabar
The Crusades and the Development of Islamic Art

Charalambos Bouras
The Impact of Frankish Architecture on Thirteenth-Century Byzantine Architecture

Sharon E.J.Gerstel

الحجابة زمن سلاطين المماليك

٦٤٨ – ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ – ١٥١٧م*

د. محاسن الوقاد*

مصر

عرف عصر سلاطين المماليك ٦٤٨ – ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ – ١٥١٧م، عديداً من الوظائف العسكرية والديوانية والدينية، ومن بين هذه الوظائف، كانت وظيفة الحجابة التى وضعها القلقشندى فى المرتبة الثامنة بين الوظائف العسكرية، التى تحتل مكانة رفيعة في المجتمع المملوكى، والتى رغم أهميتها في ذلك العصر فأنها لم تحظ باهتمام الباحثين. ويلاحظ أن أغلب الدراسات التى تناولت العصر المملوكى بالبحث والدراسة، لم تتعرض للإدارة السلطانية إلا بشكل مقتضب؛ أما عن موضوع الحجابة إبان ذلك العصر، فلم تحظ حتى الآن باهتمام الباحثين، ولذلك أخذت على عاتقى القيام بعمل دراسة تتناول الحجابة زمن سلاطين المماليك، مالها وما عليها فى المجتمع المملوكى.

بادىء ذى بدء ينبغى علينا تعريف الحجابة لغة واصطلاحاً، ثم بيان دراسة جذورها التاريخية حتى عصر سلاطين المماليك.

الحجاب فى اللغة الستر، وهو من ألقاب النساء، وكان يوصف بالمناعة فيقال "الحجاب المنيع" وقد ورد فى نص للمقريزى قوله "السِتر الرفيع"؛ فقيل "الستر الرفيع والحجاب المنيع الملكة الرحيمة، عصمة الدنيا والدين".[1]

وحَجَب بينهما – حجباً حالَ و _ الشيء: ستره و – فلانا: منعه من الدخول أو الميراث، احتجب: استتر (استحجبه) ولاه الحجابة، والحاجبُ: البواب (ج) حجبة، وحُجَّاب، وحرفة الحاجب (الحَجْبُ): المنع و – (شرعاً): منع الشخص من الميراث كله أو بعضه لوجود شخص آخر.[2]

---

* أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى أستاذى ا.د. احمد عبد الرازق على ما أعطاني من وقته لمناقشة كثير من النقاط حول هذا البحث، كما أتقدم إلى ا.د. قاسم عبده قاسم بالشكر والتقدير على كرم سيادته وما قدمه لى من ملاحظ وتعليقات مهمة أفادت البحث.

* مدرس التاريخ الإسلامي بكلية الآداب، جامعة عين شمس.

1 المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، نشرة محمد مصطفى زيادة، جـ١ ق٢، القاهرة ١٩٣٦م، ص٣٦٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة ١٩٨٢م، جـ١ ق٢، ص٢٨٦، حيث يشيران إلى أن الملكة شجر الدر كانت تطلق عليها هذه الألقاب في دعاء الخطبة أثناء فترة سلطنتها.

2 الفيروز ابادى، القاموس المحيط، القاهرة ١٩٧٧م، جـ١ ص١٨١؛ مجمع اللغة العربية، المعجم الوجيز، ط١ ١٩٨٠م، ص١٣٥؛ حسن الباشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، القاهرة ١٩٥٧م، ص٢٥١.

والحاجب اسم فاعل من الحجب وهو المانع من الدخول، وهو في أصله اسم وظيفة تطلق على من يقف بين الإمام يبلغه أخبار الرعية ويأخذ لهم الأذن منه[3]، وقيل للستر حجاب لأنه يمنع المشاهدة وقيل للبواب حاجب لأنه يمنع من الدخول، وجمع الحاجب حجاب.[4]

أما في القرآن الكريم فللفظ معنى "الستر" فقد جاء في سورة الأحزاب "وإذَا سَأَلْتموهُنَّ متاعاً فسألُوهُنَّ من وراء حِجابٌ[5]، وسيفصل في الآخرة حجاب بين أصحاب الجنة وأصحاب النار "وبينهما حجابٌ"[6] والظاهر أن اللفظ في هذا المقام مرادف للأعراف ولذلك فسر من قديم بأنه "سور" إشارة لما ورد في سورة الحديد[7] وجاء في سورة فصلت[8] أن الكافرين قالوا للنبى "ومن بيننا وبَينَكَ حِجابٌ" وجاء في سورة الشورى[9] "وما كَانَ لَبشَرٍ أن يُكَلِّمهُ اللهُ إلاَّ وحياً أو مِن وراء حَجابٍ" كما كان الحال مع موسى.[10]

والحجابة موضوعها أن صاحبها كانت مهمته أن يفصل بين الأمراء والجند أحياناً برأيه هو فقط، وأحياناً بعد مراجعة السلطان أو النائب إن كان، وصار له أتباع من الحجاب قد يزيدون عن عشرة؛ وكانت مهمتهم جميعاً لا تتعدى المحاكمات والخدمة؛ وقد كان أعلاهم الحاجب الثانى الذى كان يسمى حاجب الميسرة، وكان المصرف في الحكم في القاهرة، ويليه حاجب ثالث وهكذا.[11]

ويعتبر الحاجب أحد أفراد الحاشية التى تحيط بالقضاة[12]، وكانت مهمتهم الأساسية حراسة باب القاضى[13]، وطلب الإذن لذوى الحاجات[14]، وتنظيم المجلس، ومنع الناس من

---

3 حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص٢٥١.

4 الفيومى، كتاب المصباح المنير، القاهرة ١٩٢٦م، ص١٦٦ - ١٦٧.

5 سورة الأحزاب الآية ٥٣.

6 سورة الأعراف الآية ٤٦.

7 الطبرى، التفسير، طبع بالمطبعة الميمنية بمصر، بدون تاريخ، جـ٢٧، ص١٦.

8 سورة فصلت الآية ٥.

9 سورة الشورى الآية ٥١.

10 الطبرى، التفسير، جـ٢٥، ص٢٥؛ دائرة المعارف الإسلامية، م٧، القاهرة ١٩٣٣م، ص٣١٠ - ٣١١.

11 القلقشندى، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، جـ٤، ص١٩، جـ٥، ص٤٤٩؛ ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر، ط١، ١٩٠٦م، ص٢٤٧؛ المقريزى، السلوك، جـ١ ق٣، ص٨٠٧ هامش ٣؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، الظاهر بيبرس، أعلام العرب عدد ١٤، القاهرة ١٩٦٣م، على إبراهيم حسن، الجيش والبحرية في عصر المماليك، القاهرة، بدون تاريخ ص٥.

12 ابن حجر، رفع الأصر عن قضاة مصر، ص١٣٧؛ جمال جرجس يوسف،القضاء في العصر المملوكى مع تحقيق مخطوطة نزهة النظار في قضاة الأمصار، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة عين شمس، كلية الآداب، ١٩٧٢م، ص ١٠١ - ٢٠١.

13 حسن إبراهيم، دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفى عصر الناصر محمد بوجه خاص، القاهرة ١٩٤٤م، ص٣٥٦.

14 السبكى، معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد على النجار، أبو زيد شلبى، ط١، القاهرة ١٩٤٨م، ص٦٠ - ٦١؛ انظر ايضا عبد الخالق حسين محمد، النظم القضائية في عصر سلاطين المماليك، رسالة دكتوراة غير منشورة جامعة القاهرة، كلية دار العلوم ١٩٨١، ص ٢٥٢.

المزاحمة، أو إساءة الأدب، ولو أدى إلى استعمال السوط لتأديب المخالفين للنظم؛ وكان بعض القضـــاة يبالغ في تحجبه وعدم الظهور للناس والاكتفاء بحكم نوابه، وكانت الأمانة أهم صفاته حتى لا يجد الخصوم سبيلاً على التأثير فيه عن طريق الرشوة.[15]

أمـــا فيما يتعلق بالحجابة في صدر الإسلام، فقد عرفت وظيفة الحجابة في مكة قبل الإســـلام، وكانت تعنى حراسة الكعبة وحفظ مفتاحها، ثم عرفت في الإسلام بدلالة جديدة، إذ أصـــبح الحاجب يطلق على من يقوم بين الوالى وبين الناس ويطلب لهم الإذن لمقابلته وينظم عملية الاتصال به.[16] وعلى الرغم من أن الخلفاء الراشدين لم يمنعوا أحداً من الدخول عليهم، إلا أن كـــل خلـــيفة مـــنهم أتخذ حاجباً طوال مدة خلافته، فيذكر المؤرخون أنه كان لأبى بكر حاجب يسمى "شديداً" وحاجب لعمر بن الخطاب اسمه "يرفأ"، وحاجب لعثمان بن عفان "مولاه" "حمران"، ولعلى بن أبى طالب حاجب يسمى "قنبر" وهكذا في كل خليفة.[17]

وتجدر الإشارة على أن وظيفة الحجابة بلغت شأنا كبيرا بعد محاولة الخوارج اغتيال كـــل مـــن الإمـــام علـــى بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان، لاسيما أن الرعية قد أخذوا يـــتزاحمون علـــى بـــاب الخليفة لأسباب شتى مما أضطر خلفاء بنى أمية وولاتهم إلى اتخاذ الحُجّـــاب.[18] وقد اسمّرت الحجابة في الدولة العباسية، بل وازدادت أهميتها وسلطتها تدريجياً، فقويـــت بذلك شوكة الحجاب فصاروا يمنعون الناس عن مقابلة الخليفة إلا فى الأمور المهمة، إذ صـــار بين الناس والخليفة داران: دار الخاصة ودار العامة يقابل كل فئة في مكانة على ما يـــراه الحاجـــب، ثم تطور الأمر فصار الحجاب يحجرون على الخليفة نفسه ويمنعون البطانة وسائر الأولياء من مقابلته بحجة المبالغة في الاحترام.[19]

---

15 عرنوس، تاريخ القضاء في الإسلام، ص١٢٨.

16 ابـــن خلدون، المقدمة، ط٥ بيروت ١٩٨٤م، ص٢٢٤؛ القلقشندى، ضوء الصبح، ص٣٤١؛ حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى، القاهرة، ١٩٩٦م، جـــ١، ص٣٦٠ - ٣٦١.

17 القلقشـــندى، صـــبح الأعشى، جـــ٥، ص٤٤٩؛ حسن إبراهيم حسن، على إبراهيم حسن، النظم الإسلامية، ط١ القاهرة ١٩٣٩م، ١٨٦.

18 القلقشـــندى، صبح الأعشى، جـــ٣، ص٢٧٧؛ ابن خلدون، المقدمة، ص٢٩١؛ على إبراهيم، تاريخ المماليك، ص١٩١؛ النظم الإسلامية، ص١٨٦.

19 القلقشندى، صبح الأعشى، جـــ٣، ص٢٧٧؛ ابن خلدون، المقدمة، ص٢٩١؛ حسن إبراهيم، النظم الإسلامية، ص١٨٧؛ جـــرجى زيـــدان، تاريخ التمدن الاسلامى، طبعة دار الهلال، القاهرة ١٩٨٦م، جـــ١، ص٢٥٩، وقد كان للواثق أبو جعفر هارون حاجبه ابتاح، وللمعتز حاجبه سماء، وللمهدى حاجبه ياك باك وللمعتضد حاجبه صالح الأمين وللمكتفى حاجبه خفيف السمرقندى، كما كان للمقتدر حاجب يدعى سوسنا وللقاهر حاجباً يدعى على، وللراضى حاجب يدعى محمد بن ياقوت وكذلك للمستكفى والمطيع وهكذا، انظر ابن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة، ١٩٥٣م، ص٣٤٦، ٣٤٩، ٣٥٢، ٣٥٣.

وقد عرفت الحجابة في مصر الإسلامية على عهد الدولة الطولونية، وأطلق على من يتولاها اسم "حاجب الباب"[20]، وفى زمن الدولة الفاطمية كان متوليها يطلق عليه فى ذلك الحين اسم "صاحب الباب"[21]، ثم عرفت من بعدهم في عهد الدولة الأيوبية وأطلق على صاحبها اسم حاجب أمير المؤمنين،[22] وقد عرفها الأيوبيون عن طريق دولة الأتابكية والدولة النورية.[23]

وفى عصر المماليك عظمت الحجابة حتى أصبحت تضاهى وظيفة نيابة السلطنة في الأهمية والمرتبة، ولعل هذا ما دفع القلقشندى ليضعها في المرتبة الثامنة بين الوظائف العسكرية التى يشغلها الأمراء، حيث قسم هذه الوظائف إلى خمس وعشرين وظيفة وهى على التوالى: النيابة،[24] الأتابكية،[25] رأس نوبة،[26] أمير مجلس،[27] أمير سلاح،[28] أمير آخور،[29] الدوادارية،[30] الحجوبية، أمير جاندار،[31] الأستادارية.[32]

---

20 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق١، ص١٦٦. Zaky- Mohamed Hassan, *Les Tulunides*, Paris, 1933, pp. 193-194.

21 ابن الصيرفى، قانون ديون الرسائل، ط١، القاهرة ١٩٠٥م، ص١٦٦؛ *The Encyclopedia of Islam*, Leiden 1986, vol 3, p.47.

22 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق١، ص٣١٤.

23 القلقشندى، ضوء الصبح، ص٢٤٧؛ *The Encyclopedia of Islam*, vol. 3, p.47.

24 يسمى صاحب هذه الوظيفة نائب السلطنة، والنائب الكافل، وكافل الممالك الإسلامية وهو يحكم في كل ما يحكم فيه السلطان ويعلم فى التقاليد والتواقيع والمناشير وغير ذلك مما يعلم عليه السلطان، وهناك نواب أقل درجة أشبه بالحكام المحليين، لا يختص الواحد منهم إلا بما يتعلق بحدود نيابته، القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص١٦، سعيد عاشور، العصر المماليكى في مصر والشام، القاهرة ط٢ ١٩٧٦م، ص٤٨٣؛ انظر ايضاً ليلى عبد الجواد، نائب السلطنة في القاهرة عصر دولة المماليك البحرية، مجلة المؤرخ المصرى، القاهرة العدد ١ يناير ١٩٨٨م، كلية الآداب جامعة القاهرة، ص١٥٩ - ٢١٩؛ محمد عبد الغنى الأشقر، نائب السلطنة المملوكية في مصر ٦٤٨ - ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ - ١٥١٧م، سلسلة تاريخ المصريين العدد ١٥٨، القاهرة ١٩٩٩م.

25 أتابك لفظ تركى، معناه مربى الملك وكان آل سلجوق إذا امتاز أحد ولاتهم وأرادوا تشريفه اضفوا عليه هذا اللقب أمعاناً فى تكريمه، وقد استطاع بعض أولئك الأتابكية تأسيس بيوت حاكمة صغيرة عندما ضعفت دولة السلاجقة وعرفت هذه الدويلات الصغيرة باسم الأتابكيات، النويرى، نهاية الأرب في فنون الأدب، القاهرة ١٩٨٥م، جـ٢٧، ص١١؛ محمد الأشقر، نائب السطنة، ص٥٤ هامش ٢٠؛ قتيبة الشهابى، معجم أرباب السلطان في الدولة الإسلامية من العصر الرشيدى حتى بدايات القرن العشرين، دمشق، ١٩٩٥م، ص١٥- ١٦.

26 رأس نوبة وظيفة يقوم أصحابها بالحكم على المماليك السلطانية والأخذ على أيديهم، وقد جرت العادة أن يكونوا أربعة أمراء، واحد منهم مقدم ألف وثلاثة طبلخاناة. القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص١٨؛ سعيد عاشور، العصر المماليكى، ص٤٤٠.

27 يتولى صاحب هذه الوظيفة أمر مجلس السلطان أو الأمير، كما كان يتحدث على الأطباء والكحالين ومن شاكلهم القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص١٨، جـ٥، ص٤٥٥؛ حسن الباشا، الفنون الاسلامية، جـ١، ص٢٥٩ وما بعدها؛ سعيد عاشور العصر المماليكى، ص٤١٥.

28 أمير سلاح هو المختص بحمل السلاح للسلطان في المجامع الجامعة والمتحدث في السلاح خانة السلطانية وما يستعمل بها، وما يقدم إليها، ويطلق منها، وقد صنفه القلقشندى في المرتبة الخامسة بين كبرى الوظائف التى يشغلها عسكريون بالقصر السلطانى، ثم علت مرتبته فصار يلى أتابك العساكر مباشرة كما يفهم من ابن شاهين الظاهرى، حسن الباشا، الفنون الاسلامية، جـ١، ص٢٢٤ وما بعدها، أحمد عبد الرازق، الرنوك الإسلامية، القاهرة ٢٠٠١م، ص٣٩.

وحتى لا يحدث ما خشيه المانعون لاتخاذ "الحجاب"، خوفا من رشوتهم أو تمييزهم بين الناس، اشترط فيمن يشغل هذه الوظيفة صفات من أهمها وأبرزها: العدالة، والعفة والأمانة. بالإضافة إلى حسن المنظر، وسلامة المخبر، ومعرفته بمقادير الناس، وبعده عن الهوى والمعصية، واعتدال أخلاقه بين الشراسة واللين.

كما كان يوصى القضاة في سجلات تعيينهم أن يكون الحاجب: "تقي الجيب، مأمون المشهد والغيب، مستشعر التقوى، في السر والنجوى، سالكاً للطريقة المثلى، غير متجهم للناس... فلينتخبه من بين أصحابه، وممن يرتضيه من أمثاله وأضرابه".

ويبدو أن عدم الاذن لبعض الشخصيات في الدخول على القاضى كان يؤلمها فقد ذكر القاضى "سراج الدين يونس الأرمنتى قاضى قائلاً: جئت إلى قاضى القضاة تقى الدين بن دقيق العيد المتوفى سنة ٧٠٢، واردت الدخول فمنعنى الحاجب، وجاء الجلال العسلوجى فأدخله وغيره، فتألمت وأخذت ورقة وكتبت فيها:

"قل للتقى الذى رعيته *** راضون عن علمه وعن عمله"

"انظر إلى بابك... *** يلوح من خلله"

"باطنه رحمة وظاهره *** يأتى إليك من قبله"

ثم دخلت وجعلت الورقة في الدواة، وظننت أنه ما رأنى وقمت، فقال: اجلس، ما في هذه الورقة؟ فقلت: يقرؤها سيدنا، فقال: أقرأها أنت، فكررت عليه وهو يرد على، فقرأتها فقال: ما حملك على هذا؟ فحكيت له، فقال: هل وقف عليها أحد؟ فقلت: لا فقال: قطعها. [٣٣]

ويستشف من المصادر المملوكية المعاصرة أن عدد شاغلى هذه الوظيفة من الحجاب كان في تزايد مستمر طوال العصر المملوكى؛ ويشير المقريزى في عام ٧٨٣هـ/١٣٨١م

---

29 أمير آخور، وظيفة يقوم صاحبها بالأشراف على أسطبل السلطان أو الأمير ورعاية ما فيها من خيل وبغال وجمال، وكانت مهمته خطيرة في السلم والحرب فقد كان عليه أن يكون متأهباً دائماً لسفر السلطان أو إنتقاله في ليل أو نهار، وأن يعد موكب السلطان حسب ما جرت به العادة. انظر سعيد عاشور، العصر المماليكى، ص٤١٤؛ أحمد عبد الرازق، الرنوك الاسلامية، ص٤٠؛ حسن الباشا، الفنون الاسلامية، ص١٧٤ وما بعدها.

30 الدوادار أى ممسك الدواة والوظيفة اسمها الدوادارية وصاحبها يحمل دواة السلطان أو الأمير ويقوم بإبلاغ الرسائل عنه وتقديم القصص والشكاوى إليه، سعيد عاشور، العصر المماليكى، ص٤٣٨.

31 الجاندار الأمير الذى كان يستأذن السلطان في دخول الأمراء للخدمة السلطانية ويدخل أمامهم إلى الديوان، كما كان يشترك مع الدوادار في تقديم البريد. لمزيد من التفاصيل انظر حسن الباشا، الفنون الاسلامية، جـ١، ص١٩٥ وما بعدها؛ سعيد عاشور، العصر المماليكى، ص٤٢٦؛ أحمد عبد الرازق، الرنوك الاسلامية ص٤١.

32 الاستادار، وظيفة من وظائف أرباب السيوف يتولى صاحبها شئون بيوت السلطان كلها من المطابخ والشراب خاناه والحاشية والغلمان، وهو الذى كان يمشى بطلب السلطان في الأسفار وله مطلق التصرف في استدعاء ما يحتاجه كل من في بيت السلطان من النفقات والكساوى وما يجرى مجرى ذلك من المماليك وغيرهم. القلقشندى، صبح الأعشى جـ٤، ص٢٠، جـ٥ ص٤٥٧؛ حسن الباشا، الفنون الاسلامية، جـ١، ص٣٩ وما بعدها؛ أحمد عبد الرازق، الرنوك الإسلامية، ص٤١.

33 عبد الخالق حسين، النظم القضائية في عصر سلاطين المماليك، ص ٢٥٢-٢٥٣.

بأنه "كان العادة أولاً أن يوجد حاجب واحد، ثم أستقر حاجب الحجاب وحاجب ثان ثم زيد في الأيام الإشرافية حاجب ثالث."[٣٤]

وبعـد أقـل من عام يعود المقريزى فيذكرنا في حوادث عام ٧٨٤هـ/١٣٨٢م أنه "خلـع على الأمير منكلى الطرخانى مزيد حاجباً رابعاً وخلع على الأمير جلبان العلائى فكان حاجب خامس، ولم يعهد قبل ذلك خمسة حجاب في الدولة التركية"[٣٥] فعد ذلك من النوادر كما يذكر ابن أياس".[٣٦]

وإذا كـان المقريزى يبدى دهشته على تلك الزيادة فإن ابن تغرى بردى يعلق على ذلك بقوله "وعد ذلك من الاشياء التى استحدثها الملك الظاهر برقوق".[٣٧]

وفـى عـام ٧٩٣هـ/١٣٩٠م خلع السلطان برقوق على الأمير قطلوبغا الصفوى واستقر حاجب الحجاب، وخلع على الأمير بتخاص واستقر حاجب ميسرة، وعلى الأمير قديد واستقر حاجباً ثالثاً وعلى باشاه واستقر حاجباً رابعاً.[٣٨]

وفـى عام ٧٩٦هـ/١٣٩٣م قدم البريد يحمل أخباراً بتعيين سيدى أبو بكر بن سنقر الجمالى حاجباً ثالثاً، وفى العام التالى ٧٩٧هـ/١٣٩٤م أنعم على الأمير فارس بن قطلق خجا بإمرة مائة وتقدمة ألف وخلع عليه واستقر حاجب الحجاب عوضاً عن الأمير بتخاص المستقر في نيابة الكرك.[٣٩]

وبعـد ثمانـية أعـوام ، وفى عام ٨٠٢هـ/١٣٩٩م، يحدثنا الصيرفى أنه: "في يوم الـثلاثاء سابع عشرة خلع على الأمير منكلى بغا الدوادار فاستقر حاجبا... فصارت الحجاب سبعة في الديار المصرية".[٤٠]

وفـى الـيوم الـتالى مباشرة أى في يوم ثمان عشر من ربيع الأخر عام ٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م يشـير المقريـزى بقوله "خلع السلطان الناصر فرج على أحد الأمراء فاستقر حاجباً ثامناً"، ولم يعهد بمصر مثل ذلك فيما سلف".[٤١]

---

34 المقريزى، السلوك، جـ٣، ق٢، ص٤٤١.

35 المقريـزى، السلوك، جـ٣ ق٢، ص٤٤٢، ٤٨٠؛ الصيرفى، نزهة النفوس، جـ١، ص٥١؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص٢٢٨.

36 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٣٢٣ – ٣٢٤.

37 ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص٢٢٨.

38 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ١، ص٣٢٥.

39 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ١، ص٤٠٠، ٤١٧.

40 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص٤١ – ٤٢.

41 المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٣، ص٩٩٦؛ الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص٤٢؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٦٢، ص١٩٧.

ويــبدو أن عــدد الحجــاب قد ظل على هذا المنوال في التزايد المطرد على أن بلغ عددهــم في أواخر عصر المماليك الجراكسة إلى ما يقرب من عشرين حاجبا، كانوا جميعهم من غير الأمراء.[٤٢]

ويعلــق ابــن تغرى بردى على ذلك بقوله:"والسُكات أجملُ فإن تلك الحجاب الثمانية كــان فــيهم ثلاثة أمراء ألوف وثلاثة طبلخاناه، وأما يومنا هذا ففيه بمصر أزيد من عشرين حاجــبا، ما فيهم أمير خمسة بل الجميع أجناد، وفيهم من جنديته غير كاملة، والحاجب الثانى أمير عشرة فسبحان الحكيم الستار".[٤٣]

ومما يلفت النظر أن هذه الزيادة في عدد حجاب مصر المملوكية قد بدأت في أواخر القــرن الثامــن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى، ثم أخذت صورة سريعة ومطردة، فلم يمض ســوى اقل من عشرين عاماً فقط إلا وكان عدد الحجاب قد وصل إلى ثمانية حجاب وهو أمر أدهــش بعض المعاصرين لهذه الأحداث فنجد المقريزى، إضافة إلى ابن تغرى بردى، يعبر عن دهشته بقوله "وهذا بخلاف العادة".[٤٤]

ولعلنا إذا دققنا النظر فى الأمر وبحثنا عن السبب الخفى الذى ساعد على هذا التزايد المطــرد فــى عدد الحجاب لما اندهشنا مثلهما، ذلك لأنه إذا كان القلقشندى قد وضع وظيفة الحجابــة في المرتبة الثامنة بين الوظائف العسكرية، إلا أن مجرى الأحداث يشير إلى أن هذه الوظــيفة قــد تعاظمــت أهميتها بدرجة كبيرة عقب إلغاء السلطان الناصر محمد بن قلاوون وظيفة نائب السلطنة عام ٧٢٧هــ/١٣٢٦م.

وتؤيــد الأحــداث هذا الرأى، فيحدثنا ابن تغرى بردى بقوله "وأما الحجوبية فوظيفة جلــيلة في الدولة التركية وليست هى الوظيفة التى يليها حجبة الخلفاء، فأولئك كانوا يحجبون الــناس عن الدخول على الخليفة، وليس من شأنهم الحكم بين الناس والأمر والنهى، وهو مما جــدده السلطان الظاهر بيبرس، لكنها عظمت في دولة الملك الناصر محمد بن قلاوون حتى عدلت النيابة.[٤٥]

ولــم يقتصر الأمر على مجرد أن الحجابة قد عدلت وظيفة نيابة السلطنة، بل وصل إلــى درجــة أن حلت محلها في المرتبة والأهمية، بحيث انتقلت إلى من يشغلها اختصاصات نائــب الســلطنة،[٤٦] ولعله في حديث ابن تغرى بردى عن أُلماس حاجب الحجاب ما يؤيد ما

42 ابن شاهين، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، باريس ١٨٩٤، ص٣٨؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جــ١٢، ص١٩٧؛ عــبد المــنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر دراسة شاملة لنظم البلاط ورسومه، القاهرة ١٩٨٢م، ص٤٥ – ٤٦.

43 ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جــ١٢، ص١٩٧.

44 المقريزى، السلوك، جــ١ ق٣، ص٣٠١؛ ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة، جــ١٢، ص١٩٧ وما بعدها.

45 ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جــ٨، ص٨٥؛ محمد الأشقر، نائب السلطنة، ص٢٥١.

46 القلقشندى، ضوء الصبح، ص٣١٤.

يذهب إليه الباحث؛ إذ يخبرنا في عام ٧٣٣هـ/١٣٣٢م بأن ألماس هذا "قد ولى الحجوبية وليس بالديار المصرية نائب سلطنة فعظم أمر ألماس في الحجوبيه، فصار هو فى محل النيابة... ويركبون الأمراء وينزلون فى خدمته ويجلس فى باب القلعة فى منزلة النائب، والحجاب والأمراء وقوف بين يديه".[٤٧]

ومما يؤيد وجهة نظر الباحث هى أن الزيادة السريعة في عدد الحجاب بمصر في هذه المدة اليسيرة قد ارتبطت بصورة أو بأخرى بإلغاء السلطان الناصر محمد لوظيفة نائب السلطنة مما ترتب عليه تعاظم أهمية الحجابة، يضاف إلى ذلك أن الفترة الفاصلة بين كليهما لا تتعدى فترة النصف قرن إلا قليلاً.

وقد برز في عهد سلطنة الناصر محمد الثالثة طائفة من الحجاب المميزين، فكثيراً ما كان السلطان يوليهم هذه الوظيفة مادامو حائزين لرضاه، فإذا غضب عليهم عزلهم واستبدل بهم غيرهم أو أمر بالقبض عليهم. ونتبين ذلك من كثرة عدد الحجاب الذين تولوا هذا المنصب في تلك الفترة من عام ٧٠٩ – ٧٤٠هـ/١٣٠٩ – ١٣٣٩م إذا بلغ عددهم أربعة عشر حاجبا على ما رواه صاحب "تاريخ سلاطين المماليك" وهم سنقر الكمالى، بكتمر الحسامى، لاجين العمرى، الطنبغا محمد بن الوزيرى، طينال بيبرس، ألماس الجاشنكير، قطلوبغا المعزى، أمير مسعود بن الخطير، جاريك قفجق، أيدغدى الخوارزمى، أقول، محمود ابن خطير، برسبغا.[٤٨]

ومما تجدر الإشارة إليه أن تزايد عدد الحجاب في العصر المملوكى لم يقتصر على الديار المصرية فحسب بل، وصلت هذه الزيادة على سائر نيابات وأقاليم الدولة، فيذكر القلقشندى "أنه وجد في نيابة دمشق على عهد المنصور قلاوون ثلاثة حجاب، وربما كانوا أربعة ثم تزايدوا في أيام الظاهر برقوق واصبحوا خمسة أو ستة، بينما وصلوا في نيابة حلب إلى أربعة حجاب، أما في طرابلس فكان عددهم ثلاثة، وبالنسبة لحماة فوصل عددهم إلى أثنين".[٤٩]

ويلاحظ أن نسبة تزايد عدد الحجاب في نيابات السلطنة المملوكية لا يمكن مقارنتها بمصر، وذلك يرجع إلى بعض الاعتبارات الخاصة بوضعية مصر على اعتبارها حاضرة الحكم المملوكى، فقد وجد بها نظام إدارى معقد ومتسع، فضلاً عن الأهمية الكبرى التى تمتعت بها مصر بالنسبة لسلاطين المماليك.

ونتيجة لتزايد عدد الحجاب في مصر المملوكية كان لابد وأن يقابله من ناحية أخرى تزايد مستويات ومراتب الوظيفة، فقد أصبحنا نسمع عن الحجوبية الأولى أو الكبرى وحاجب

---

47 ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٩، ص١٠٧ – ١٠٨.

48 زيترشتين، تاريخ سلاطين المماليك، ص١٤٧ – ١٤٨؛ على إبراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك، ص١٩٢.

49 القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص١٨٦.

الحجـــاب، الـــذى يعتبر منصبه من أهم مناصب السلطنة عدا نائب السلطنة، وكان يعبر عن حاجـب الحجـــاب في ديوان الإنشاء بأمير، أما عن التسمية ذاتها فترجع إلى أنه كان لحاجب الحجـــاب أعوانـــه يساعدونه في أداء عمله، إذ كان يتبعه عدد من الحجاب فيأتى بعده مباشرة نائبه وكان كلاهما أمير مائة مقدم ألف.[٥٠]

وتـــأتى بعـــد ذلـــك الحجوبية الثانية أو الصغرى أو حاجب الميسرة وهو أحد أتباع حاجب الحجاب وكان يتصرف بالحكم في القاهرة،[٥١] ثم يأتى بعده حاجب ثالث ورابع وخامس وهكـــذا إلـــى ما يزيد عن عشرة برسم المحاكمات والخدمة؛[٥٢] وقد بلغ عددهم أواخر عصر سلاطين المماليك عشرين حاجبا كان جميعهم من غير الأمراء[٥٣] كما ذكرنا انفاً.

وقـــد ترتـــب على تعدد مراتب ومستويات وظيفة الحجابة في العصر المملوكى، أن تفاوتـــت الشـــروط الـــتى يجـــب توافرها في شاغلى هذه الوظيفة من مرتبة لأخرى، فيشير القلقشـــندى إلى أن الذى جرت به العادة خمسة حجاب أثنان من مقدمى الألوف أولهما حاجب الحجـــاب ونائـــبه[٥٤] ويضع ابن شاهين حاجب الحجاب في المرتبة السابعة بين الأمراء أرباب الســـيوف الـــتى تقضى وظائفهم أن يكونوا من جملة أمراء الطبلخاناه، ويضع الحاجب الثالث وســـبعة حجـــاب بين الأمراء العشرينات والعشروات.[55] أى أنه كلما تناقصت درجة ومرتبة الوظيفة كلما تناقصت أمرة شاغلها.

ومـــن الجدير بالذكر أن وجود الحجاب في عصر دولة سلاطين المماليك لم يقتصر علـــى القاهـــرة حاضـــرة الدولـــة فحســـب، بـــل وجد الحجاب في سائر أقاليم الدولة، فوجد بالإســـكندرية حاجب كان يسمى رسميا "الحاجب بثغر الإسكندرية المحروسة" وكان يكتب إليه عـــن الأبـــواب السلطانية،[٥٦] وكان إما برتبة طبلخاناه أو أمير عشرة، وفى الحالة الأولى كان يكاتـــب "بالمجلس السامى" وفى الحالة الثانية "بمجلس الأمير"، وكان يوجد على جانبه حاجب برتبة جندى.[٥٧]

---

50 القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص١٩؛ ضوء الصبح، ٢٤٥، ٢٤٩.

51 حسن الباشا، الفنون والوظائف، جـ١، ص٣٨٨.

52 Van Berchem, M., *Materiaux pour un corpus inscriptorum, arabicarum, Egypte*, I, Le Caire 1894-1903 p. 567.

53 ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص١١٥.

54 القلقشندى، صبح الأعشى،جـ٤، ص١٩؛ ضوء الصبح، ص٢٤٧.

55 ابـــن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص١١٤ – ١١٥؛ العمرى، التعريف بالمصطلح الشريف، ط بيروت ١٩٨٨م، ص ١٠٣ – ١٠٤.

56 القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٧، ص١٥٦؛ ضوء الصبح، ص٢٧٤.

57 القلقشندى، ضوء الصبح، ص٢٧٤.

أمـــا عن نيابة الوجه القبلي والبحرى فلم تكن على قاعدة النيابات الأخرى من حيث ترتيب الحجاب أو ركوب المواكب.[٥٨]

وقـــد عرفت وظيفة الحاجب في النيابات خارج الديار المصرية، بمراتبها المختلفة، ففـــي دمشق كان حاجب الحجاب عادة برتبة أمير مائة مقدم ألف، أما الحاجبان الثاني والثالث فكـــان كلاهما برتبة أمير طبلخاناه أو أمير عشرة وفي بعض الأحيان كان يعين بدمشق أربعة حجـــاب أحدهـــم الحجـــاب برتـــبة أمير مائة مقدم ألف، أما الثلاثة الباقون فكان منهم أمراء طبلخاناه أو طبلخانات وعشرون وعشرة وغير ذلك.[٥٩]

وكـــان ترتيـــبهم في المواكب أن يكون حاجب الحجاب والذى يليه في الرتبة ميمنة والـــثاني ميسرة؛ وهكذا كان الحال في حلب على ما يبدو؛ أما في غزة فكان حاجب الحجاب برتـــبة أمـــير طـــبلخاناه، ومن دونه أمير عشرة، ووجد في طرابلس أيضاً حجاب من أرباب الســـيوف وكـــان بها ثلاثة حجاب أكبرهم أمير طبلخاناه وهو صاحب الحجاب، أما الآخران فكـــان كلاهمـــا أمير عشرة، كما كان حاجب الحجاب في نيابة حماة أمير طبلخاناه، بينما كان الثاني أمير عشرة[٦٠] ويبدو، طبقاً للمصادر المملوكية، أن وظيفة الحجابة قد ظهرت في عصر الدولـــة المملوكية في عام ٦٤٨هـــ/١٢٥٠م؛ والدليل على ذلك عندما ركب الملكان الأشرف والمعـــز بالصـــناجق السلطانية[٦١] وشقا القاهرة والمعز يحجب الأشرف، والأمراء تتناوب في حمل الغاشية[٦٢] واحدا بعد واحد، والمقصود هنا أن المعز أيبك كان يؤدى وظيفة الحاجب في ذلك الموكب، أى أنه كان راكباً أمامه بعصا في يده.[٦٣]

وإن كـــان ابـــن إياس قد ذكر في حوادث عام ٦٩٤هـــ/ ١٢٩٤م بقوله "لما تسلطن كتـــبغا أخلـــع على الأمير بهادر، وجعله حاجب الحجاب، وهو أول من أحدث هذه الوظيفة، وجعلهـــا وظـــيفة كبـــيرة، ولـــم يكن قبل ذلك شيء يقال له حاجب الحجاب فعظم أمرها من يومئذ.[٦٤]

---

58 القلقشندى، ضوء الصبح، ص٢٦٦.

59 القلقشندى، صبح الأعشى، جـــ٤، ص١٨٦، ضوء الصبح، ص٣٢٩ - ٣٣٠.

60 القلقشـــندى، صـــبح الأعشى، جـــ٨، ص٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٦، ٢٢٧؛ حسن الباشا، الفنون والوظائف، جـــ١، ص٣٨٩، ٣٩٣.

61 الصناجق السلطانية، من شعار السلطنة، وهى عبارة عن رايات صفر صغار، المقريزى، السلوك، جـــ١ ق٢، ص٤٤٣، هـــ١.

62 من شعار السلطنة، وهى غاشية سرج من أديم محزوز بالذهب، يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب، تحمل بين يديه (أى السلطان) عند الركوب في المواكب الحفلة، كالميادين والأعياد ونحوها. المقريزى، السلوك، جـــ١ ق٢، ص٤٤٣ هـــ١.

63 القلقشندى، صبح الأعشى، جـــ٥، ص٤٥١؛ المقريزى، السلوك، جـــ١ ق٢، ص٣٧٠.

64 ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ١ ق١، ص٣٨٧.

رسوم الحجابة ونظمها:

جرت العادة عند تعيين أحد الحجاب بالقاهرة فإنه يكتب له تقليد بذلك حسب تقاليد ذلك العصر، والدليل على ذلك أن مراسيم السلاطين كانت توجه فى بعض الأحيان إلى النواب والحجاب، كما يتضح من وثيقة باسم السلطان الغورى بتاريخ سنة ٩١١هـ/ ١٥٠٥م جاء فيها "مرسوم شريف إلى كل واقف عليه وناظر إليه من الجنابات العالية والمجالس السامية النواب والحجاب... ضاعف الله تعالى نعمة الجنابات العالية وأعز المجالس السامية"[٦٥] وكان إذا عين أمير المائة نائباً كتب له عن السلطان مرسوماً فى قطع النصف بالمجلس العالى، ويفتتح بالحمد لله، في حين كان مرسوم الطبلخاناه يكتب فى قطع النصف بالمجلس السامى بالياء، ومرسوم أمير العشرة فى قطع الثلث.[٦٦]

وتجدر الإشارة إلى ترتيب موكب الحاجب مع نائب السطنة، فقد كان الحجاب يسيرون وراء نائب السلطنة في يومى الاثنين والخميس، ويمر النائب راكباً حتى يأتى إلى مقعد مرتفع عن الأرض به دكة صغيرة مصنوعة من الخشب، فيترجل على جانب المقعد ويجلس على تلك الدكة، ويجلس حاجب الحجاب على مصطبة لطيفة معدة لجلوسه، فيجلس على يسار النائب قاضى القضاة الشافعى ثم الحنفى ثم المالكى والحنبلى ثم قاضى العسكر الشافعى يليه الحنبلى، ومفتى دار العدل الشافعى ثم الحنفى ثم الوزير صفا مستقيماً، ويجلس كاتب السر أمام النائب على مقربه منه وعن يمينه ناظر الجيش ثم كتاب الدست على ترتيب منازلهم في مقابلة الصف الذى فيه قضاة القضاة ومن معهم، ويجلس باقى الموقعين بين الصفين مقابل صاحب الحجاب حتى يصلوهما فيصيرون كالحلقة المستديرة، ويقف الحجاب الصغار أسفل حاجب الحجاب، وترفع القصص،[٦٧] فيأخذها الحجاب الصغار ويناولونها لحاجب الحجاب، الذى يناولها بدوره لكاتب السر فيقرؤها عليه، ثم ينفض المجلس ويمد السماط فيأكلون وينصرفون.[٦٨]

الألقاب والخلع والزى:

أمدتنا المصادر التاريخية بالعديد من الألقاب الخاصة بالحجاب فى العصر المملوكى، وفيما يلى عرض لهذه الألقاب كما وردت في المصادر المملوكية المعاصرة.

كانت ألقاب أمراء المئين التى تدخل فيها فئة الحجاب يخاطبون بأجل الألقاب، ونظراً إلى انقسام أمراء المئين إلى طبقات فيما بينهم فإن ألقابهم كانت تتفاوت أيضاً تبعاً لذلك. وقد ذكر ابن فضل الله العمرى أن ألقاب أمراء المئين بالأبواب السلطانية كانت الجناب

---

65 حسن الباشا، الألقاب، ص٣٨٩.

66 حسن الباشا، الألقاب، ص٢٥٧.

67 القصص جمع قصة وهى الطلب أو الالتماس. انظر على إبراهيم، تاريخ المماليك، ص٢٤٤.

68 القلقشندى، ضوء الصبح، ص٣٢٤ – ٣٣٠.

الكريم ثم الجناب العالى ثم المجلس العالى، وبدمشق الجناب العالى ثم المجلس العالى، وبحلب المجلس العالى ثم المجلس السامى بالياء، وبطرابلس السامى بالياء.[69]

كما نعت الحاجب بأوصاف مختلفة فظهر مثلاً حاجب أجل، وحاجب أعظم، وحاجب بـــزركَ، وحاجب أعلى، وحاجب كبير، وحاجب الحجاب، وأمير حاجب، وحاجب ثان وثالث ورابـــع، وحاجب ميمنة، وحاجب ميسرة، وحاجب خاص،[70] وحاجب دار،[71] وكان يعين بعد لفظـــة الحاجب اسم الإقليم الذى يعمل به مثل الحاجب بثغر الإسكندرية المحروسة، والحاجب بحمـــاة المحروسة، وحاجب الشام، وحاجب المملكة الحلبية، وحاجب النوبة. كما كان يضاف إلـــى لفظة الحاجب اسم الوظيفة أو الديوان الذى يعمل به كأن يقال حاجب القاضى، وحاجب الديوان.[72]

والحاجب الثانى هو نائب حاجب الحجاب في عصر سلاطين المماليك، وكان يسمى أيضاً الميمنة.[73]

أمـــا حاجـــب الحجاب فهى مشتقة من وظيفة الحاجب وهى تعنى من غير شك كبير الحجاب ورئيسهم، وقد ظهرت لأول مرة في عام ٣٢٩هـــ/ ٩٤٠م حين خلع الخليفة العباسى المتقى على بدر الخرشنى وقلده الحجابة وجعله حاجب حجاب.[74]

ويـــبدو أنـــه منذ القرن ٦هـــ/ ١٢م كان حاجب الحجاب يسمى أحياناً بأمير حاجب وبأمير حاجب الحجاب مما يشير إلى سعة نفوذه وازدياد سلطانه.[75]

واســـتعمل حاجب الحجاب في عصر المماليك بدلالة كبير الحجاب سواء في الديار المصـــرية أو في النيابات الشامية مثل دمشق وحلب، ولو أن التعريف الرسمى لهذه الوظيفة كـــان "أمـــير حاجـــب"، كما كان يطلق عليه أيضاً اسم أمير حاجب الحجاب وكان يشغل هذه الوظيفة أمير برتبة أمير مائة مقدم ألف.[76]

أما عن الحاجب الكبير، فقد وردت صيغة الحجوبية الكبرى، في كتابات على الآثار العربـــية ترجع إلى أواخر عصر المماليك منها كتابة أثرية بمرسوم من حوالى سنة ٨٧٢هـــ/ ١٤٦٧م بالمدرسة الشمسية بطرابلس باسم السلطان الأشرف أبى النصر قايتباى أشير فيه إلى

---

69 ابن فضل الله العمرى، التعريف بالمصطلح، ص٧٣ – ٧٤؛ حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص٢٥٨.

70 انظر مثلاً الراوندى، راحة الصدور، ص٤٦٢، ٥٠٥؛ حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص٤٠٣.

71 انظـــر البيهقى (أبو الفضل)، تاريخ البيهقى، ترجمة إلى العربية يحيى الخشاب وصادق نشأت، القاهرة، ١٩٥٦م، ص ١٥٥

72 حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، جـــ١ ص٤٠٢ – ٤٠٣.

73 حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص٤٠٣.

74 ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـــ٣، ص٢٧٢؛ حسن الباشا، الألقاب الاسلامية، ص٤٠٥.

75 حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص٤٠٦.

76 الباشا، الألقاب الإسلامية، ص٤٠٧.

إبطـــال "معلـــوم الحجوبـــية الكبرى" بطرابلس وقدره ١٣ درهماً على النحيرة، ومرسوم أخر بـــتاريخ الثانى من المحرم سنة ٩٠٨هـــ/٨ يوليو ١٥٠٢م بجامع طرابلس باسم حاكم طرابلس جـــاء فيه "برسم الدخان وما يستأديه من يكون متكلماً فى ديوان الحجوبية الكبرى واستادارية الديـــوان الشـــريف..." ويتضح من الكتابة الأولى أنه كان يأخذ بطرابلس ضريبة على الذبائح تذهـــب إلـــى الحاجب الكبير أشير إليها بمعلوم الحجوبية الكبرى، وقد أبطلها السلطان قايتباى بهـــذا المرســـوم؛ أمـــا الكتابة الأثرية الثانية فتذكر ديوان الحجوبية الكبرى والمشرف عليه، وتشـــير أيضـــاً إلـــى أن المشـــرف على هذا الديوان كان يفرض له ضريبة على الدخان أى الصناعات التى تسبب دخاناً.[٧٧]

كـــان الحاجـــب لا يمارس مهام منصبه قبل أن يخلع عليه السلطان خلعة التشريف وحسبنا دليلاً على ذلك ما جاء في المصادر من أن السلطان الظاهر بيبرس خلع على الملوك والأمـــراء والـــبحرية والحجاب وأرباب العمائم والوزراء والقضاة وحضروا بالخلع وذلك في عام ٦٦٢هـــ/ ١٢٦٣م.[٧٨]

وفـــى عـــام ٦٧٢هـــ/١٢٧٣م أطلق السلطان من التشاريف ما عم به سائر من في خدمـــته مـــن ملك وأمير ووزير ومقدمى الحلقة ومقدمى المماليك والبيوت السلطانية، وجميع الكتاب والقضاة، وسائر أرباب الوظائف.[٧٩]

وفى عام ٦٨٧هـــ/١٢٨٨م فوض السلطان ولاية العهد لابنه الملك الأشرف صلاح الدين خليل، فركب بشعار السلطنة[٨٠] من قلعة الجبل إلى باب النصر وعبر القاهرة وخرج من باب زويلة إلى القلعة وسائر الأمراء وغيرهم في خدمته، وخلع على سائر أهل الدولة.[٨١]

وتخـــبرنا المصادر المملوكية أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون أنعم على الأمير ســـيف الديـــن ألُماس أمير حاجب بأُطلس كامل وعلى كل من الأمير سيف الدين أقول وبدر الدين مسعود بن خطير بخلعة طرد كامل وذلك في عام ٧٣١هـــ/ ١٣٣٠م.[٨٢]

---

77 Van Berchem, *Materiaux pour un corpus*, v. 25, pp. 59,73,74.

78 المقريزى، السلوك، جـــ١ ق٢، ص٥١٩.

79 المقريزى، السلوك، جـــ١ ق٢، ص٦١٢.

80 المقصـــود بشـــعار السلطة أنواع الملابس والأدوات والترتيبات التى كان السلطان يظهر بها في المواكب الحفلة، مثل موكب السلطنة وموكب الركوب لكسر الخليج عند وفاء النيل وموكب صلاة العيدين ونحوها. المقريزى، السلوك، جـــ١ ق٢، ص٤٤٣ هامش ١.

81 القلقشـــندى، صـــبح الأعشى، جـــ٤، ص٥٢، ٥٤، جـــ١١، ص٤٢٦؛ السخاوى، التبر المسبوك، ص٢٠٨؛ المقريزى، الســـلوك، جـــ١ ق٢، ص٥٧٠؛ ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص١٠٨ – ١٠٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ٤، ص ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٧٢؛ ماجد، نظم سلاطين المماليك، جـــ٢، ص٦٥.

82 المقريزى، السلوك، جـــ١ ق٣، ص٧٤٥.

ونقـرأ فـي المصادر المملوكية أيضاً في أحداث عام ٨٠٢هـ/١٣٩٩م أن السلطان الناصـر فرج خلع على الأمير مبارك شاه الحاجب بنيابة الوجه القبلي ورسم له أن يحكم من جزيرة القط إلى أسوان ويولى من يختار ويعزل من الولاة من يختار.[٨٣]

ويشير ابن إياس في أحداث عام ٨٠٤هـ/١٤٠١م "خلع السلطان على الأمير نوروز وركـبا فرسا خاصاً بسرج وكنفوش ذهب وطلع الأمير جكم وهو خائف، ولم يطلع قنباى ولا قـرقماش، وجهـز إلـيهما خلعتان على أن يكون قنباى نائباً بحماة، وقرقماش حاجباً بدمشق، ونزل جكم بغير خلعة".[٨٤]

وفـي عـام ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م خلع السلطان برقوق على الأمير ألطنبغا العثمانى حاجب الحجاب بدمشق، فلبس التشريف وباشر العمل من الغد.[٨٥]

ويخـبرنا ابن إياس أيضاً في أحداث عام ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨ بأن السلطان جقمق خلع على الأمير يشبك المشد حاجب الحجاب، وقد حضر التجريدة وهو مريض ثم عوفى.[٨٦]

ويشـير السخاوى في حوادث عام ٨٥٠هـ/ ١٤٠٢م بأنه خلع السلطان جقمق على جانبك اليشبكى بكامليه بسمور طوش عند استقراره حاجبا وشاد دواوين بالإضافة إلى ولايته، وقـيد له فـرس بسرج ذهب وكنبوش زركش،[٨٧] ولعله من الصعوبة بمكان، بل من المتعذر تمامـاً تحديد الأجزاء التى كانت تتألف منها الخلعة، فهذه الكلمة لا تعنى بالضرورة الملابس فقط ولكنها تعنى أشياء أخرى، قد تكون فرسا كامل القماش، وإن كان أميزها الملابس،[٨٨] التى تـتألف مـن فوقـانى من الأطلس الاحمر[٨٩] الرومى من آسيا الصغرى وتحته أطلس أصفر رومي وعلى الفوقانى طراز زركش ذهب وتحته سنجاب[٩٠] وله سجف من ظاهره مع الغشاء

---

83 المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٣، ص١٠٠٣..

84 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٦٥١.

85 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧٤٧، العينى، السيف المهد، ص٢٤٧.

86 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص١٩٦.

87 السخاوى، التبر المسبوك في ذيل السلوك، المطبعة الأميرية ١٨٩٦م، ص١٤٧ – ١٤٨.

88 القلقشـندى، صـبح الأعشـى، جـ٤، ص٥٢ – ٥٤، جـ١١، ص٤٢٦، المقريزى، السلوك، جـ١، ق٢، ص٥٧٠؛ زيترشتين، تاريخ سلاطين المماليك، ص٩٧، ١٦٣، ٢١١؛ النويرى، حوادث ٧١١هـ؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٧٢؛ مـاجد، نظـم دولة المماليك، جـ٢، ص٦٥؛ ماير (ل.م)، الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتى، مراجعة عبد الرحمن فهمى، القاهرة ١٩٧٢م، ص١٠٣.

89 يقال حرير أطلس، بعنى حريرية، خيوط ستان اى حرير ناعم جداً، عن هذه الكلمة انظر Dozy, *Supplément aux dictionnaires arabes*, I, Leiden,1881 ,p. 281.

90 السـنجاب، حيوان أكبر من الفأر وشعره في غاية النعومة يتخذ من جلده الفراء يلبسه المتنعمون وهو شديد الحيل، إذا أبصـر الاشعة صعد الشجرة العالية وفيها يأوى ومنها يأكل ويوجد كثير في بلاد الصقالبة والترك وهو سريع الحركة عن الإنسـان، وأحسن جلوده الأزرق الأملس. الدميرى، حياة الحيوان الكبرى، ط٢، ١٣١٣هـ/١٨٩٥؛ ومن ذيله فروة نفيسة كانـت تسـتعمل لتزين الملابس كالقماقم، المقريزى، السلوك، جـ٢ ق١، ص٩٨؛ Dozy, *Supplement*, I, p.634؛ ماير، الملابس المملوكية، ١٠٥.

قـندس،[91] وكلوته زركش بذهب وكلاليب ذهب وشاش لانس[92] رفيع موصول به، في طرفيه حرير أبيض مرقوم بألقاب السلطان، مع نقوش باهرة من الحرير الملون، مع منطقة ذهب، ثم تخـتلف أحـوال المـنطقة بحسـب مقاديرهم، فأعلاها ما عمل بين عمدها[93] بواكير وسطا ومرصعة بالبلخش والزمرد واللؤلؤ، ثم ما كان ببيكارية[94] واحدة من غير ترصيع.[95]

ودون هـذه الرتبة في الخلع كمخا عليه نقش من لون آخر غير لونه، وقد يكون من نـوع لونـه تفاوت بينهما، وتحت سنجاب بقندس إلا أن الحياصة والشاش لا يكونان بطراف رقم، بل تكون مجوخة بأخضر وأصفر مذهب والحياصة لا تكون ببيكارية.[96]

بالإضـافة إلى ذلك كان أمراء المئين (الحجاب) يمنحون تشاريف أخرى في أوقات خاصة تكون عبارة عن أقبية من الحرير والكنجي أو نحوه.[97]

وكان من عادة السلطان أن يعد لكل عيد خلعة على أنها لمبلوسه من نسبة خلع أكابر المئين، ولكنه لم يلبسها، وإنما كان يختص بها بعض أمراء المئين يخلعها عليه.[98]

أمـا عن الإنعامات التى كان يمنحها السلطان، فقد كانت تتفاوت بحسب مزية المنعم عليه عند السلطان وقربه منه.[99]

وكـان لخاصـة أمراء المئين، ومنهم الحجاب بطبيعة الحال، أنواع من الإنعامات: كالعقـارات الضـخمة الـتى ربمـا أنفق على بعضها فوق مائة ألف دينار وكساوى القماش المنوع، وكان السلطان إذا خرج إلى الصيد أنعم على أكابر أمراء المئين سنا وقدرا كل واحد

---

91 القـندس، وقـندز، نـوع مـن الجـرو الأوربـي يسـتخدم جلده، انظر ماير، الملابس المملوكية، ص٤٧، هامش ٤؛ Dozy, *Supplement*, p. 410

92 عن هذه الكلمة انظر Dozy, *Supplement*, p. 551.

93 أسماء دروع، ربما قد تكون مبطنة، عن هذه الكلمة انظر Dozy, *Supplement*, p.542.

94 ببيكارية، جمعها بواكير وهى قطع معدنية هندسية مرصعة بالزمرد واللؤلؤ، انظر Dozy, *Supplement*, p.136.

95 القلقشـندى، صـبح الأعشـى جـ٤، ص٥٢ – ٥٣؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٧٧ – ٢٧٨؛ ماير، الملابس المملوكية، ص١٠٥؛ ودون هذه الرتبة في الخلع نوع يسمي طردوحش يعمل بدار الطراز بالإسكندرية والقاهرة ودمشق وهو مجـوخ جاخـات مزين بأشرطة مكتوبة بالقاب السلطان، يفصل بين هذه الجاخات نقوش، وطراز من القصب، وعليه فرو سنجاب وقندس، وتحت القباء الطرد وحش قباء من المفرج الإسكندرانى الطرح، وكلوته زركش بكلاليب وشاش، وحياصة ذهـب، فتارة تكون ببيكارية، وتارة لا يكون بها بيكارية، انظر المقريزى، السلوك، جـ١ ق٣، ص٧٨٨، هامش٢، ماير، الملابس المملوكية، ص١٠٦.

96 ماير، الملابس المملوكية، ص ١٠٦ – ١٠٧.

97 القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص٥٢ – ٥٣.

98 العمـرى، مسالك الأبصار، جـ١، ص٥٥، حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، جـ١ ص٢٥٥؛ وكان السلطان يخلع على أكابـر الأمراء في الميادين خلعة من المفرج المذهب، كما كان أمراء المئين ينالهم حظ كبير من الكسوة، فكان السلطان إذا ركب للعب الكرة بالميدان فرق حوائص من ذهب على بعض أمراء المئين، وكان يفرق في كل موكب ميدان على أميرين، بالـنوبة، حتى يأتى على آخرهم في ثلاث سنين أو أربع بحسب ما تقع نوبته في ذلك، القلقشندى، ضوء الصبح، ص٢٦١؛ حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص٢٥٥، القلقشندى، ضوء الصبح، ص٢٦٢، حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص٢٥٩.

99 القلقشندى، ضوء الصبح، ص٢٦٢، حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص٢٥٦.

ســنهم بألف مثقال من الذهب، هذا وقد كان أمراء المئين يحظون بأكثر إنعامات السلطان من الخــيول، ذلــك أنه قد جرت عادة السلطان أن ينعم على أمرائه بالخيول مرتين كل سنة، أما المرة الأولى فعند خروجه إلى مرابط خيوله على القرط في أواخر ربيعها حين كان ينعم على الأخصاء من أمرائه بما يختاره من الخيول على قدر مراتبهم، وكان خيول أمراء المئين منهم مســرجة ملجمة كنابيش من زركش، وأما المرة الثانية فكانت عند لعب الكرة بالميدان الكبير، وكانــت خــيول أمراء المئين في هذه المناسبة مثلها مثل خيول الطبلخانات – مسرجة ملجمة بفضــة يسيرة بلا كنابيش، وكانت لخاصة المقربين من أمراء المئين والطبلخانات زيادات في ذلك بحيث كان يصل بعضهم على مائة فرس في كل سنة.[١٠٠]

وكــان أمــراء المئيــن يحظون بأقرب الأماكن إلى السلطان عند جلوسه في بعض المناسبات مثل جلوسه على السماط بالأيوان الكبير.[١٠١]

أما بالنسبة لمن يعين حديثاً في منصب من المناصب وكان يحصل أحياناً على خلعة تســمى "خلعــة الاستقرار"[١٠٢] وإذا امتدت خدمة أحد الموظفين الرسمية أو ثبت في وظيفة ثم حامــت حوــله بعض الشكوك، ثم أريد استمراره مع ذلك في العمل فكان يحصل أحياناً على خلعــة تســمى "خلعة الاستمرار"[١٠٣] وعند وصول موظف كبير من أحد الأقاليم وجب تهنئته بســلامة الوصول بأن يخلع عليه "خلعة القدوم"[١٠٤] وعند استئذانه في الرحيل عن السلطان قبل ســفره وجب منحه "خلعة السفر"[١٠٥] وإذا استقبل السلطان أميرا في مجلسه بعد تغيبه لمرضه، كــان يمــنح ثوب التشريف يطلق عليه "خلعة العافية"[١٠٦] للدلالة على شفاء الأمير وفى حالة الصــفح عن أمير معزول وجب أن يمنح "خلعة الرضاء"[١٠٧] أو "خلعة الرضا"،[١٠٨] وكانت هذه الخلعــة تمــنح أحياناً دون أن يشغل صاحبها آية وظيفة.[١٠٩] وحتى الإقالة كانت تعتبر فرصة لتقديم خلعة يطلق عليها "خلعة العزل".[١١٠]

---

100 القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص٥٤؛ ضوء الصبح، ص٢٦١؛ حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص٢٥٦.

101 القلقشندى، ضوء الصبح، ص٢٦٢؛ حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص٢٥٧.

102 السخاوى، التبر المسبوك، ص٣٨٤.

103 السخاوى، التبر المسبوك، ص٢١٥، ٣٨٩.

104 السخاوى، التبر المسبوك، ص٩٦.

105 زيترشين، تاريخ المماليك، صفحة ٩٨؛ المقريزى، السلوك، جـ٤ ق٢، ص٨٦٥؛ماير، الملابس المملوكية، ص١٠٩.

106 ماير، الملابس المملوكية، ص١١٠.

107 السخاوى، التبر المسبوك، ص٤٥؛ ماير، الملابس المملوكية، ص١١٠.

108 السخاوى، التبر المسبوك، ص٣٧؛ ماير، الملابس المملوكية، ص١١٠.

109 الســخاوى، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ١٢ جزء، القاهرة ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م، جـ٧، ص١٩٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢ ص١٦٢؛ ماير، الملابس المملوكية، ص١١٠.

110 ماير، الملابس المملوكية، ص١١٠.

وكـــان رفض خلعة التشريف يعتبر إساءة خطيرة، إذ كان ذلك يعنى إعلان العصيان أو على الأقل المجاهرة بالعداء وعلى العكس من ذلك كان قبول خلعة التشريف علامة للتعبير عن الخضوع والولاء للسلطان.[111]

وكانــت ثــياب التشــريف تصــنع أصلاً في المصانع السلطانية، ولكن في العصر الجركســى كانــت تصنع خاصة وتباع في سوق الشرابشيين[112] في القاهرة، وبمضى الوقت حــرم بيعها في السوق الحرة، ووضعت تحت رقابة "ناظر الخاص"[113] واصبح لا يمكن لأى شخص ابتياعها عدا السلطان نفسه، الذى كان يمكنه شراء تلك الثياب من السوق رأسا.[114]

وأخــيراً نستشــف من المصادر أن المناطق أى الأحزمة كان ضمن خلع التشريف، حيــث كـــان السلطان هو صاحب الحق الوحيد في منح المناطق إلى الأمراء كجزء من خلع التشريف.[115]

أمـــا عــن أزياء الحجاب فلم تمدنا المصادر المعاصرة بمعلومات مباشرة عن زى الحجاب ولكن يمكن للباحث أن يستشف بصورة غير مباشرة عن هذه المصادر ما كان يرتديه الحجـــاب، حيــث كان الحجاب من أمراء المئين ومقدمى الألوف والطبلخاناة، ولذلك فإن ما تحدثــت عــنه المصادر المملوكية المعاصرة بشأن ملابس هؤلاء يمكن تطبيقها بالقياس على الحجاب.

أمدتــنا المصادر التاريخية بوصف تفصيلى لزى أمراء المئين،[116] الذى كان يختار مــنهم الحجـــاب، وكان هذا الذى يتميز بالأناقة الباهرة حتى قال المقريزى عنهم "أنهم تأنقوا وتفاخـــروا فيه".[117] فكانوا يلبسون فوق ثيابهم ثوبين متميزين: القباء[118] "الفوقانى" أقصر من

---

111 ماير، الملابس المملوكية، ص١١٠ – ١١١.

112 الشرابشــيين، لفظ فارسى من كلمة شربوش ومعناه غطاء للرأس وهى معربة عامية بمعنى طربوش، محمد التونجى، المعجم الذهبى، بيروت، ١٩٦٩، ص٣٤١؛ والشرابشيين مفردها شربوش وهو شيء يشبه التاج كأنه شكل مثلث يجعل على الــرأس بغــير عمامـــة، المقريزى، الخطط ، جــ٣، ص١٦٠، وفى دوزى قلنسوة يرتديها الأمراء بغير عمامة، وقد بطل اســتخدامها في الدولة الجراكسية، انظر محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية في مصر المملوكية، سلسلة تاريخ المصريين رقم ١٥٢، القاهرة ١٩٩٩م، ص٩٧. وايضاً Dozy, *Dictionnaire*, pp. 220 223

113 ناظر وجمعه نظار، وهم كبار الموظفين ورؤساء الدواوين الذين شاركوا الوزير في تصريف أعماله، وناظر الخاص ينظر في خاص أموال السلطان.انظر سعيد عاشور، العصر المماليكى في مصر والشام، ط٢ ١٩٧٦م ص٤٨٠.

114 المقريزى، الخطط، جــ٢ ص٩٩؛ ماير، الملابس المملوكية، ص١١٣.

115 القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤ ص٤؛ المقريزى، السلوك، جــ١ ق٢، ص٧٤٥.

116 القلقشــندى، صبح الأعشى، جــ٤، ص٥٢؛ المقريزى، الخطط، جــ٣ ص٣٦٩؛ السيوطى، حسن المحاضرة، جــ٢، ص١٤؛ ماجد نظم المماليك، جــ٢، ص٥٢.

117 المقريزى، إغاثة الأمة بكشف الغمة، نشره محمد مصطفى زيادة، جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٤٠م، ص٦٩.

118 القباء جمع أقبية، ثوب يلبس فوق الثياب سمى بذلك لإجتماع أطارفه. انظر العمرى، مسالك الأبصار، ص٣٤؛ ماير، الملابس المملوكية، ص٤٠؛ Dozy, *Supplément* , I, p. 352.

"التحتاني" ويكون طوله وأكمامه أقصر بلا تفاوت كبير عرف فيما بعد بالسلارى،[119] نسبة إلى الأمير سلار نائب السلطنة، الذى أوجده، وكان قبل ذلك عبارة عن بغلطاق[120] يزدان باللؤلؤ والجواهر، والقباء التحتانى من قماش أملس أطلس ايضاً، لونه اصفر، محلى بشعر سنجاب ومبطن داخله وأطراد بسجف[121] بفرو قندس.

وفى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م شرع الأمراء في ارتداء "أقبية قصيرة الأكمام" فوق القباء، ولكن أكمامها أكثر اتساعاً من أكمام القباء التحتانى الضيقة.[122]

ويخبرنا العينى في أحداث عام ٦٩٣هـ/١٢٩٣م أن الحاجب جمال الدين الموصلى حين مات كانت عليه أقبية أطلس وكلوتات زركش.[123]

ومن المحتمل أن يكون هذا القباء كان مطابقاً تماماً للقباء السلارى الذى أدخله الأمير سلار[124] نائب سلطنة الناصر محمد بن قلاوون لأن القباء "السلارى" أو السلارية كان يطابق معطفا عرف من قبل "بالبغلطاق"، هذا وقد ورد وصف الأردية الفوقانية ذات الأكمام الضيقة وانه كان يلبس تحت البغلطاق الفرجية وكان من المألوف وقبل أيام سلار توزيع الأردية "البغلطاق" كمنح وهدايا،[125] ثم اصبح من المألوف عمل "السلارى" من ألوان مختلفة ومن خامات متنوعة، مثل القطن البعلبكى، من فراء السنجاب الرمادى، ومن الأطلس ذى الخيوط المعدنية، وكان يحلى أحياناً بزخارف فخمة وأحياناً آخر تنثر عليه اللآلىء والأحجار الكريمة،[126] وكانت التخفيفة مع السلارى يعتبران من الأزياء المملوكية الصميمة، أما في

---

119 وصف القباء السلارى بأنه قصير الطول والكم، المقريزى، الخطط، جـ٣، ص١٦٠ وايضاً Dozy, *Supplément*, I, p. 678.

120 بغلطاق، جمعها بغالطيق أو بغالطق وهي لفظة فارسية تعنى قباء له كم قصير من قماش بعلبك. العمرى، مسالك الأبصار، ص٣٤؛ ماير، الملابس المملوكية، ص٤٤، هامش ٥.

121 انظر Dozy, *Supplément*, I, p.43.

122 القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص٤٠؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٠٧.

123 العينى، عقد الجمان، في تاريخ أهل الزمان، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٩٠، جـ٣، ص٢٢٥.

124 المقريزى، السلوك، جـ٢ ق١، ص٩٧؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢، ص١٧٩ - ١٨٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص١٥٥؛ محمد عبد العزيز مرزوق، الناصر محمد بن قلاوون، القاهرة ١٩٦٠م، ص٣٨؛ محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، جـ١، ص١٢٨.

125 القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص٤٠، المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢١٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ص ١٥٥؛ ماير، الملابس المملوكية، ص٤٤؛ Dozy,R., *Noms des vêtements chez les Arabes*, Amsterdam, 1845, pp. 81- 82, 84; Quatremére,M., *Histoire des sultans mamlouks, de l'Égypt*, Paris, 1845, pp. 70-71.

126 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص٣٥١؛ ماجد، نظم المماليك، جـ٢، ص٧٥.

عصـــر المماليك الجراكسة، فقد شاعت الملوطة وهى عبارة عن عباءة عارية، كانت خاصة بأمراء المئين وكان يلبس فوقانى غير مزرور له ياقة معها "تخفيفة صغيرة".[127]

وفـــى فصـــل الشـــتاء وبخاصـــة في الأيام الممطرة، كان الأمراء يرتدون عباءات مصـــنوعة من خامة خشنة لها وبر يطلق عليه اسم "جوقة" ولكن في ايام المماليك الجراكسة تغيرت الأمور تغيراً عظيماً واصبح يرتديها عامة الناس.[128]

وفـــى الشـــتاء أيضاً كانت تصنع الملابس من الصوف الملون أو من الحرير غالى الثمـــن، وكانت تبطن بالفراء، وجرت العادة أن يستعمل الأمراء فراء السمور[129] والوشق[130] والقماقم[131] والفنك أى السنار والسنجاب والرمادى والقندس.[132]

وفـــى فصل الصيف كانت جميع الملابس "الفوقانية" بيضاء وتصنع من قماش رخو يطلق عليه اسم "نصافى" أو ما يماثله من أقمشة أخرى.[133]

أمـــا مناطق الأمراء أى أحزمتهم التى عرفت أيضاً باسم الحياصة[134] فكانت تصنع من معدن ثمين أفخمها ما كان من الفضة المطلية بالذهب وصنعت أحياناً من الذهب الخالص

---

127 مـــن المعـــروف أن الملوطة صارت أيضاً رداء لغير العسكريين، ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ٣، ص٣٠٥، ٣٠٧، ٣٥١؛ ماير، الملابس المملوكية، ص٤٥.

128 المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٩٨.

129 الســـمور، بفـــتح السين والميم المشّددة المضمومة وهو حيوان برى يشبه السنور وزعم بعض الناس أنه النمس، وهو حـــيوان جـــرىء ليس في الحيوانات أجرأ منه على الإنسان، لا يؤخذ إلا بالحيل ولحمه حار والترك يأكلونه وجلده لا يدبغ كسائر الجلود. الدميرى، حياة الحيوان، ص٢٨؛ ويتخذ منه نفيس الفراء التى يلبسها الملوك وأكابر الأعيان لحسنها ودفائها، ولحســـنه مـــا كان منه شديد النعومة مائلاً إلى السواد. القلقشندى، صبح الأعشى، جـــ٢، ص٤٩؛ محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية، ص١٠١ هامش ١١٤ .

130 الوشق، نوع من فراء الذئاب. الدميرى، حياة الحيوان، جـــ٢، ص٣٢٤.محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية، ص١٠١.

131 القماقم، حيوان يشبه السنجاب إلا أنه أبرد منه مزاجاً وأرطب ولهذا هو أبيض ويشبه جلده جلد الفنك وهو أعز قيمة من الســـنجاب، تؤخـــذ منه الفراء التى تستعمل في الزينة عند الأغنياء كسلاطين المماليك وأمرائهم وأشباههم من الأثرياء في القاهـــرة في العصور الوسطى. الدميرى، حياة الحيوان، جـــ٢، ص١٩٧؛ المقريزى، السلوك، جـــ٢ ق١، ص٩٨؛ محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية، ص١٠١.

132 القلقشندى، صبح الأعشى، جـــ٤، ص٤٠؛ المقريزى، الخطط، جـــ٢، ص٢١٧، السخاوى، التبر المسبوك، ص٣٤٦.

133 القلقشندى، صبح الأعشى، جـــ٤، ص٤٠؛ ابن إياس بدائع الزهور، جـــ٤، ص٢٥٩، ٢٦٢.

134 المقريزى، الخطط، جـــ٢، ص٩٩؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـــ٤، ص٤٠؛ والحياصة، المنطقة بكسر الميم. وهى ما يشد في الوسط وهى من الآلات القديمة فقد روى أن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه كان له منطقة، ولم يستخدم الحياصة الملوك، وإنما يلبسها الملك للأمراء عند إلباسهم الخلع والتشاريف وتختلف بحسب درجة الأمير، فمنها ما يكون من ذهب مرصع بالفصوص ومنها ما ليس كذلك. القلقشندى، صبح الأعشى، جـــ٢ ص١٣٤؛ وكان السلطان إذا ركب للعـــب الكـــرة وزع حوائص من ذهب على بعض الأمراء، القلقشندى، صبح الأعشى، جـــ٤، ص٥٥؛ والحياصة سير في الحزام، والحياصة سير طويل يُشد به حزام الدابة، ابن منظور، لسان العرب، جـــ٧، ص٢٨٥؛ والحوائص مفردها حياصة ويقصد بها الحزام الذى يوضع حول الوسط ويكون مرصعاً بالأحجار الكريمة انظر Dozy, *Dictionnaire*,pp.145-146-147 أيضاً العمرى، مسالك الأبصار، ص٣٥ هامش١؛ ماجد، نظم المماليك، جـــ٢، ص٣٤، ماير، الملابس المملوكية، ص ٤٧ هامش ٤ وكان لها سوق اسمه الحوائصيين وهى المناطق، انظر الخطط جـــ٣، ص١٦٦.

المرصـــع[135] بحجـــر اليشم وكان من المألوف أن ترصع بالأحجار الكريمة،[136] ومن ثم كان للمناطق أو الحوائص قيمة عظيمة الشأن.[137]

ففـــي عـــام ٧٢٠هــــ/ ١٣٢٠م ارتدى الأمير ألُماس الحاجب أطلساً كاملاً بكلوته زركش وحياصة ذهب بمناسبة نزوله مع نائب السلطنة بمصر الأمير سيف الدين أرغون.[138]

وفـــي عام ٧٣٢هــ/ ١٣٣١م أرتدى الأمير سيف الدين ألُماس الحاجب أطلس تمام بحياصة مجوهرة بمناسبة زواج ابن السلطان الناصر محمد.[139]

وجـــرت العادة أن يشد السيف على القباء من الجانب الأيسر، أما الصولق[140] والكذلـــك،[141] فكان يشدان إلى الجانب الأيمن، ويفهم من المصادر المملوكية أن الصولق الذى كان يرتديه الأمراء، كان مصنوعا من الجلد البلغارى الأسود، وكان أحياناً كبير الحجم بقدر يتسع لأكثر من نصف ويبة من الغلال ومفروز فيه منديل طوله ثلاثة أذرع.[142]

أما فيما يتعلق بأغطية الرأس فنلاحظ أن الشربوش كانت له المكانة الأولى، إذ يعتبر بصـــفة خاصـــة الطابع المميز لطبقة الأمير، وقد وصف المقريزى الشربوش بأنه "مثل شيء يشبه التاج" ويبدو كما لو كان مثلث الشكل يوضع على الرأس بغير عمامة (أى لا يلف حوله مـــنديل) وتشـــير المصـــادر التاريخية إلى أن لبس الشربوش قد وجد في عصر الأيوبين أو الممالـــيك البحرية، على حين يؤكد المقريزى أن لبس الشربوش قد أبطل في عصر المماليك الجراكسة.[143]

135 القلقشندى، صبح الأعشى، جــ٤، ص٤٠؛ ماجد، نظم المماليك، جــ٢، ص٧٦.

136 القلقشندى، صبح الأعشى، جــ٤، ص٤٠؛ المقريزى، السلوك، جــ١ ق٣، ص٧٢٦.

137 المقريزى، الخطط، جــ٢، ص٩٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جــ١، ص١٧٣؛ وفي خلال عصر المماليك البحرية، أى في أيام المنصور قلاوون كان الأمراء يرتدون حوائص تساوى الواحد منها ٣٠٠ دينار، ويعتبر السلطان الناصر محمد بن قـــلاوون أول مـــن أدخل الحوائص الذهبية من أجل الأمراء. وظل استخدام المناطق شائعا في عصر خلفائه وأيام السلطان الناصر فرج، كما كان بعضها يرصع بالأحجار الكريمة، ويبدو أن الحوائص كانت أكثر قطع الملابس رواجا، وكان الأمراء يحرصـــون علـــى ارتـــداء الحوائص المرصعة بالأحجار الكريمة. القلقشندى، صبح الأعشى، جــ٤، ص٤٠؛ المقريزى، الخطط، جــ٢، ص٩٩، ص١٧٧، ٢١٦.

138 ابن إيبك، كنز الدرر، جــ٩، ص٢٩٨.

139 ابن إيبك، كنز الدرر، جــ٩، ص٣٦٠.

140 الصـــولق، حقيبة من الجلد، مفرد صوالق – ربما لوضع المال وغيره. العمرى، مسالك الأبصار، ص٣٥ هامش ٢؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جــ٤ ص٤٤؛ ماير، الملابس المملوكية، ص٤٠ هامش ٤؛ Dozy, *Supplément*, I, p.848

141 الكذلك، خنجر، القلقشندى، صبح الأعشى، جــ٤، ص٤٤؛ Dozy, *Supplément* ,II, p.463.

142 القلقشندى، صبح الأعشى، جــ٤، ص٤٠؛ المقريزى، الخطط، جــ٢، ص٩٨.

143 المقريزى، الخطط، جــ٢، ص٩٩؛ السلوك، جــ١ ق٢، ص٤٩٣؛ هامش ١ ص٢٥١ هامش ١، ص٥٠١.

وإلى جانب الشربوش كانت هناك الكلوتة وهى أخف من الشربوش العادى ولكنها لا تقل عنه مكانة من الناحية الرسمية[144] وأضحت الكلوتة رمزا لأمراء المئين، وكان السلطان يرتدى كلوته صفراء وهى خاصة أيضا بالأمراء وباقى العسكريين، يحيط بحافتها شريط وبند يطلق عليه اسم "تضريب" وأبازيم تطلق عليها اسم كلاليب وتلبس دون عمامة.[145]

وفى عصر المماليك البحرية كانت الكلوتة صغيرة الحجم، وتصنع عادة من الصوف الملطى يحيط بحافتها شريط عريض، وظلت لفترة قصيرة يلف حولها منديل صغير.[146] وواصل السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، ما قام به أبوه من إصلاح فى الزى فغير لباس الرأس الذى كان يصنع أحياناً من خامة صوفية خشنة وأصدر أمره إلى أمرائه بالظهور بين مماليكهم بالكلوتة المطرزة زركش أو حسب ما أورده القلقشندى، بكلوتة حمراء والعمائم من فوقها.[147]

وقد وجد نوع آخر من لباس الرأس وهو "الطاقية" وجمعها "طواقى" وكانت تشبه "الكوفية" التى كان يلبسها أصلا الصبيان والبنات ثم لبسها الرجال والنساء. وفى عهد سلاطين المماليك الجراكسة لبسها الأمراء من جميع الطبقات وكانت تصنع عادة من ألوان مختلفة، وكان ارتفاعها يبلغ سدس ذراع تقريباً، وقمتها مدورة ومسطحة، وفى عصر السلطان فرج بن برقوق عرف نوع من الطواقى التى أطلقت عليها المصادر التاريخية اسم الطواقى الجراكسة، وحدث تغير بسيط في الجزء العلوى فيها فصنع غالباً على هيئة قبة صغيرة، كثر فيها الحشو بمادة الورق وزينت بفراء القندس بعرض ثمن ذراع تقريباً.[148]

أما عن لباس القدم فقد اشتمل غالباً على حذاء برقبة طويلة يطلق عليه اسم "خف"،[149] وكان المألوف صنع خف الشتاء من جلد أصفر اللون يطلق عليه اسم "أديم"[150]

---

144 العمرى، مسالك الأبصار، ص٣٤ هامش ٦، والكلوتة جمعها كلوتات، وهى غطاء للرأس يلبس وحده أو بعمامة؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص٣٩؛ السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص١١٠، ١١١؛ والكلوتة كلمة فارسية انظر Dozy, *Supplément* , II, p.484 ويقال أيضاً الكلاوت مفردها كولاه أو كلاه أو كلا انظر زيترشتين، تاريخ المماليك، ص٢١١؛ المقريزى، السلوك، جـ١ ق٢، ص٤٩٣، جـ٢ ق١، ص٨٠ هامش ١؛ ماير، الملابس المملوكية، ص

145 القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص٦، ص٣٩؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٩٨، ٢١٧.

146 القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص٦؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢١٧.

147 القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص٤٠؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٩٨-٩٩.

148 المقريزى، الخطط، جـ٢، ص١٠٤.

149 حذاء برقبة طويلة، العمرى، مسالك الأبصار، ص٣٤، هامش ٨؛ ماير، الملابس المملوكية، ص٦٣ هامش ٥.

150 أدَمَ أدما أصلح وألفَ والصانعُ الجلد، أصلحه بنزع الزائد من أدمته الأديم: الجلد وأديمُ كل شيء: ظاهر إبراهيم أنيس، المعجم الوسيط، طبعة ١٩٧٢م، جـ١ ص١٠؛ محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية، ص ١١٤.

مستورد من الطائف، أو من جلد أسود مستورد من بلغاريا؛ وكانت الأخفاف ذات الرقاب تلبس أيضاً في فصل الصيف، وكانت تزود أحياناً بأربطة؛ وكان يرتبط بالخف مهاميز[125] مكفتة بالفضة أو الذهب، إلا أن هذا كان سارياً فقط في عصر المماليك البحرية، أما فى أواخر عصر المماليك الجراكسة فقد غدا من المستحيل التمادى في مثل هذا البذخ[126] وكان من المعتاد ارتداء حذاء فوق الخف يطلق عليه اسم "سقمان".[127]

إقطاعات ورواتب الحجاب:

أنتقل النظام الإقطاعي كاملاً عن السلاجقة إلى الدولة الأتابكية، فالدولة الأيوبية ثم إلى دولة المماليك، وهى الدولة الإقطاعية الكبرى؛ ويعتبر عصر سلاطين المماليك العصر الذى اكتملت فيه النظم الإقطاعية آنذاك، فقد نشأ المماليك في ظل هذا النظام زمن الأيوبيين وأقاموا دولتهم الكبرى على أنقاض سادتهم من الأيوبيين، واعتبرت الأرض ملكاً للسلطان وجنوده، وكانت القاعدة العامة في التوزيع الإقطاعى، وحدة القيراط إذا كان خراج مصر يقسم إلى أربعة وعشرين قيراط يوزع أجزاؤها على القرى توزيعا متناسبا مع طاقتها، وفى عصر المماليك، اختص السلطان بأربعة قراريط "للكلف والرواتب وغيرها" على حين أن عشرة قراريط للأمراء والاطلاقات أى المنح والزيادات، أما العشر الباقية فهى للتوزيع بين الأجناد.[128]

وكان الإقطاع بالنسبة للحجاب، دليلاً واضحاً على قدر منازلهم وقوة نفوذهم، وقد كانت الإقطاعات بلادلوأراضى يستغلها مقطعها ويتصرف فيها كيفما يشاء. على أن الإقطاعات لم تقتصر على مختلف أنواع الأراضى بل تعدتها إلى جميع موارد الدولة، من خراج الأراضى، والجزية وزكاة المواشى والمعادن والعشر وغير ذلك من المكوس على اختلاف أصنافها، وربما كان فيها نقد يتناوله من جهاتها ويختلف باختلاف حال أربابها، ويفهم من المصادر التاريخية أن السلطان أحياناً كان ينعم بإقطاع الحاجب على حاجب آخر ويسمى هذا إقطاع النقل، ومن ذلك ما حدث في عام ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م عند قدوم الأمير تنكز نائب الشام إلى القاهرة ومعه بعض مماليكه والأمير بدر الدين بن مسعود الخطير أحد حجاب

125 المهاميز مفردها مهماز، والمهماز آلة من حديد تكون في رجل الفارس فوق كعبه وفوق الخف، ومؤخرة اصبع محدب الرأس إذا أصاب جانب الفرس تحركت واسرعت في المشى، وهي من الذهب أو الفضة وأحياناً حديد مطلى بالذهب أو الفضة. القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٢، ص١٣٦؛ العمرى، مسالك الأبصار، ص٣٤ هامش٧؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٩٧-٩٨، ٢١٧؛ ماير، الملابس المملوكية، ص٦٤، هاشم١؛ ماجد، نظم المماليك، جـ٢، ص٩٨، محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية، ص ٩٧.

126 القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص٤١؛ ماجد، نظم المماليك، جـ٢، ص٩٨.

127 المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٩٨؛ عن هذه الكلمة انظر، Dozy, Supplément, I, p.73.

128 إبراهيم طرخان، النظم الاقطاعية، ص٢٣،٣٠، ٦٣-٦٤.

دمشـــق، فشكا منه وسأل أن يكون حاجبا صغيراً رفيقاً للأمير ألماس الحاجب وأنعم بإقطاعه على أخيه شرف الدين محمود بن الخطير.[١٢٩]

وكثـــيراً ما كان يأخذ الحاجب موجود بعض الأمراء ومن ذلك ما حدث عام ٧٧٨ هـــ/ ١٣٧٦م فقــد أخلع على الأمير سودون الشيخوني واستقر حاجب الحجاب، وأنعم عليه بجمـــيع موجـــود الأمـــير مبارك شاه، وفى عام ٧٨٤هــ/١٣٨٢م أخلع على الأمير سودون الشيخوني للمرة الثانية وقرر حاجب حجاب، وأنعم عليه بإقطاع الأمير تغرى برمش.[١٣٠]

وفـــى عـــام ٨٠٧هــ/١٤٠٤م قبض على الأمير جركسي الحاجب، وانعم بموجوده علـــى الأمير قرا يوسف، وفى نفس العام تنكر جكم على الأمير تنكربغا حاجب طرابلس وأخذ موجـــوده ثم قتل.[١٣١] وهذا يدل على أن الحجاب نالوا الإقطاعات مثلهم في ذلك مثل موظفى دولة المماليك.

وجـــرت العـــادة أن يقوم السلطان بتوزيع براءات الإقطاع، سواء أكانت أمثلة[١٣٢] أم مناشـــير،[١٣٣] إنمـــا الغالب توزيع الأمثلة وهى أولى وثائق الإقطاع، وربما كان ذلك لسهولة تغـــيير ما يحتمل حدوثه من تغير في الإقطاع، إذا شكا المقطع أو تظلم أو بدا لولى الأمر بما يستدعى ذلك، وربما اقتصر السلطان على توزيع مثالات الأمراء المقدمين، والعادة أن توزع بـــراءات الإقطـــاع على أيدى النواب أو ينتدبهم السلطان لهذا الأمر، وسواء أكان التوزيع في مصـــر أم خارجها فإنه يتم في موكب حافل، ففى مصر يعقد هذا الحفل بالقلعة، ويعرف بيوم العرض، أو مجلس العرض.[١٣٤]

وفـــى خـــتام الحديث عن إقطاع الحجاب لا يفوتنا أن نتحدث عن الراتب الذى كان يتمـــتع بـــه الحاجب، وقد عرض بعض المؤرخين المحدثين للدخل الذى تمتع به المملوك منذ شرائه وحتى ارتقائه المناصب العليا بالدولة، وترقيته إلى الرتب العليا بالدولة "أعنى الحجابة" وما في مستواها نقلاً عن القلقشندى والمقريزى، فمثلاً كان مرتب كل منهم كما يلى:

	الحد الأدنى	الحد الأقصى	
مقدم الحلقة	٢٥٠	١,٥٠٠	دينار

[129] المقريزى، السلوك، جـ٢ ق١، ص٢٨١.

[130] ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص١٩٠، ٣٠٢.

[131] ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧١٢.

[132] الأمثلة، انظر القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٦٣، ص٦٥، ٩٦، ١٩١.

[133] منشور وجمعه مناشير، وهى في الأصل كل ما يصدر عن السلطان من مكاتبات لا تحتاج إلى ختم كالمكاتبات الخاصة بالولاية ومنح الإقطاعات انظر القلقشندى، صبح الأعشى، جـ١٣، ص١٥٨؛ سعيد عاشور، العصر المماليكى ص٤٧٧.

[134] المقريـــزى، الســـلوك، جـ١ ق٣، ص٨٤٤، ٨٤٦؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٨، ص٩٣ - ٩٥، جـ١٠ هامش ٤؛ على إبراهيم حسن، الجيش والبحرية في عصر المماليك، القاهرة، بدون تاريخ، ص٣٦.

أمير عشرة (الحاجب الثالث وسبعة حجاب)	٧,٠٠٠	٩,٠٠٠	دينار
أمير أربعين طبلخاناة (الحاجب الثانى)	٢٣,٠٠٠	٣٠,٠٠٠	دينار
أمير مائة مقدم ألف (حاجب الحجاب)	٨٠,٠٠٠	٢٠٠,٠٠٠	دينار

كل هذا بخلاف ما كان مقرراً لكل منهم من اللحم والتوابل والعليق والزيت والكسوة والشمع لكل منهم على قدر منازلهم.[١٣٥]

أما عن النفقة التى كان يقوم بمنحها السلطان للحجاب عند السفر، فتشير المصادر المملوكية المعاصرة في حوادث عام ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م أن السلطان منح الحاجب أيدكار مبلغ ألف وأربعمائة دينار ذهب وستين ألف درهم فضة.[١٣٦]

وفيما يتعلق بالنفقة التى أرسلها السلطان للأمراء في عام ٨٩٣هـ/١٣٩٠م فقد وصفها ابن إياس بقوله "بعث السلطان نفقات الأمراء المقدمين والعشرات فبلغت النفقة على الأمراء خاصة دون الجند مائة ألف دينار وثلاثة آلاف دينار، وكان الأمراء المعينون للتجريدة أحد عشر أميرا مقدم ألف ومنهم تانى بك الجمالى حاجب الحجاب، ثم نفق على الجند فأعطى لكل مملوك مائة دينار وجامكية أربعة شهور ثمانية آلاف درهم وثمن جمل سبعة أشرفية، فكانت جملة النفقة على الأمراء والجند نحوا من ألف ألف دينار حتى عُد ذلك من النوادر، ولم يُسمع بمثل ذلك فيما تقدم من الدول الماضية أن أحداً من السلاطين فعل مثل

135 القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص٥٠؛ المقريزى، الخطط، جـ٢ ص٣٥٠ – ٣٥١؛ على إبراهيم دراسات في تاريخ المماليك، ص٣٤٦؛ محمود نديم، أحمد فهمى، الفن الحربى للجيش المصرى في العصر المملوكى البحرى، القاهرة، كلية الآداب ١٩٧٣م، ص٤٠؛ جمال جرجس، القضاء، ص١٤٥؛ Ayalon, D., *Studies on the Structure of Mamluks* Army, XVI, I, pp. 37-38, 257-296.

136 ابن الصيرفى، نزهة النفوس، جـ١، ص١٨٧؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص٢٥٩.

ذلــك، فكانت نفقة الأتابكى أزبك وحده ثلاثين ألف دينار، وكانت عادة نفقة الأتابكية إلى دولة الظاهر برقوق عشرة آلاف دينار ولم يسمع بأوسع من هذه النفقة قط، فكان كما يقال:

تهب الألوف ولا تهاب ألوفها . . هان العدوّ لديك والدينار[137]

وفيما يتعلق بالنفقة التى منحها السلطان للحجاب عند خروجهم للتجريدات العسكرية، فيــبدو أنها قد تقلصت عما مضى، فنقرأ في المصادر في حوادث عام ٩٢٢هــ/ ١٥١٦م ما نصه "أرسل السلطان نفقة الأمراء المقدمين، فأرسل إلى الأمير أنصباى حاجب الحجاب أربعة آلاف ديــنار" ويتعجــب ابن إياس من ذلك بقوله:"وأين هذه النفقة من النفقة التى كان يرسلها الأشرف قايتباى للأمراء المقدمين عند خروجهم على تجاريد ابن عثمان، فكان يرسل للأتابكى أزبك عشرين ألف دينار وأمير مجلس مثل ذلك وبقية الأمراء أرباب الوظائف لكل واحد منهم خمســة عشــر ألف دينار وبقية الأمراء المقدمين لكل واحد منهم عشرة آلاف دينار حتى عُد ذلــك مـــن النوادر الغريبة ولم يفعل الأشرف قايتباى ذلك إلا في آخر تجاريد ابن عثمان عام ٨٩٥هــ/ ١٤٨٩م فبلغت نفقة الأمراء قاطبة دون الجند مائة ألف دينار وكسور.[138]

وأحياناً كان السلطان يفرق على الأمراء التقادم الآتى من مشايخ العربان مثلما حدث فــي عام ٩١٨هــ/ ١٥١٢م فقد فرق السلطان الغورى على الأمراء التقادم التى حصل عليها، فــأعطى الأتابكى سودون العجمى ثلاثمائة دينار وفرسين وخمسين رأس غنم وخمس بقرات، وأعطـــى الأمـــير أركماس أمير مجلس مائتى دينار وفرس وأربعين رأس غنم وأربع بقرات، وأعطـــى الأمير أنصباى حاجب الحجاب مثل ذلك، ثم خلع على الأمراء المقدمين من أرباب الوظائف كاملة مخملة أحمر بسمور، وألبس بقية الأمراء المقدمين كوامل صوف بسمور قبل صعوده إلى القلعة.[139]

وقــد يبدو لنا من خلال هذا العرض أن الدخل الذى كان يدره الحجاب في حد ذاته دخـــلاً جيداً، ومع ذلك فقد كان نهمهم وطمعهم في المزيد من العائد المادى من أبرز الدوافع التى دفعتهم إلى ظلم الرعية وإلى المزيد من الرشوة.

ويخبرنا المقريزى في خططه بقوله: "وصار الحاجب اليوم اسماً لجماعة من الأمراء ينتصـــبون للحكم بين الناس لا لغرض إلا لتضمين أبوابهم بمال مقرر كل يوم على رأس نوبة النقباء، وفيهم غير واحد ليس لهم آمرة الإقطاع وإنما يرتزقون من مظالم العباد".[140]

ويوضـــح لنا أيضاً فى كتابه السلوك الأساليب التى اتبعها الحجاب فى ابتزاز أموال العامـــة بقوله: "وأما الحجاب فإنهم وأعوانهم قد انتصبوا لأخذ الأموال بغير حق من كل شاك

137 ابن إياس، بدائع الزهور، جــ٣، ص٢٥١ – ٢٥٢.

138 ابن إياس، بدائع الزهور، جــ٥، ص٣، ٢٩.

139 ابن إياس، بدائع الزهور، جــ٤، ص٢٩٤.

140 المقريزى، الخطط، جــ٣ طبعة بولاق، ص٦٠.

إلـــيهم ومشكو عليه من أحد من الحجاب إلا وفي بابه رجل يقال له رأس نوبة، يضمن له في كـــل يـــوم قدراً معلوماً من المال يقوم له به ومن هذا المال المضمون يقيم أوده، فيسقط رأس نوبـــة على النقباء الذين تحت يده ما ضمنه للحاجب وما لابد له من صرفه على عياله ومؤن فرســـه وأجـــرة سائسها، وما أعتاده الحجاب من المحرمات التى لا يتركونها ما وجدوا إليها ســـبيلاً، ومـــا يرصـــده ويدخره عنده عدة له في وقت مكروه ينزل به في عزله أو مصادرة الحاجب له أو غير ذلك من العوارض، فيتناول من كل واحد من النقباء شيئاً مقرراً عليه عند مضـــيه فـــي طلـــب غريم يقال له الإطلاق، فإذا حضر الغريم فتح عليه رأس نوبة أبوابا من أنواع مكرهم الذى تفقهوا فيه، فيحتاج إلى بذل المال له ولدوادار الحاجب وللحاجب بحسب ما يقتضيه رأيهم، فربما بلغ الغرم في الشكوى الآلاف من الدراهم، فأنهم يسلسلون قضايا ظلمهم حـــتى يستمر المشكو في الترسيم الأيام والأشهر وجميع ما يتحصل للحجاب من هذه الوجوه فإنهم يصرفونه فيما لا تجيزه أمة من الأمم من أنواع قبائح المحرمات ولا يكلفون حمل شيء منه إلى السلطان".[١٤١]

ونلاحـــظ أن الـــنص الـــذى ذكره المقريزى لا يحتاج إلى آية إضافة أو تعليق فمن الواضح أن المشكو البائس المغلوب على أمره عليه أن يدفع للنقيب الذى يحضره لرأس النوبة ولـــدوا دار الحاجـــب وللحاجب نفسه، أى أن هذا الجيش الجرار من الأعوان يعيش على ظلم من يوقعه حظه وبؤس قدره بين أيديهم من عامة الشعب المطحون.[١٤٢]

وقـــد كانت هذه التكاليف ترهق عامة الشعب، ونظراً للشكاوى الكثيرة المتلاحقة فإن المراســـيم والأوامـــر كانـــت تصـــدر بهدف الحد من استبداد الحجاب بعامة الشعب، فيحدثنا المقريـــزى بقو له "نـــودى فـــي الناس من قطع طيبغا الحاجب خبزه وقت العصر فليحضر ويأخذه".[١٤٣]

أمـــا ابن حجر العسقلانى فيخبرنا أنه في عام ٨٨٣هـــ/ ١٤٧٨م بأنه "أمر السلطان القضاة والحجاب وغيرهم أن لا يحبسوا أحدا على دين واستمر ذلك على شوال منها".[١٤٤]

أمـــا ابـــن إياس فيذكر في حوادث عام ٨٩١هـــ/ ١٤٨٦م "رسم السلطان على لسان القاضـــى كاتب السر ابن مزهر بأن يجمع رؤس النوب والنقباء الذين بأبواب الأحكام، ويكتب علـــيهم قسائم بأنهم لا يأخذون من الأخصام إذا طلبوا من أبوابهم أكثر من نصفين فضة لكل نقيب حسبما رسم السلطان بذلك، فجمعهم وكتب عليهم قسائم بذلك، فأقام هذا الأمر مدة يسيرة

---

141 المقريزى، السلوك، جـــ٤ ق١، ص٣٩٠، ٣٩٢.

142 اســـماعيل عبد المنعم قاسم، الأمراض الاجتماعية بين الطبقة الارستقراطية المملوكية في مصر زمن سلاطين المماليك البحرية، رسالة ماجستير- جامعة عين شمس، كلية الآداب ١٩٨٨غير منشورة، ص٢٠٩.

143 المقريزى، السلوك، جـــ٣ ق١، ص١٣٩.

144 ابن حجر، أبناء الغمر، جـــ٣، ص٤٣٩.

ثم عادوا لما كانوا عليه".[145] وقيل: لا شيء أضيع للملكة وأهلك للرعية من شدة الحجاب، وإذا سهل الحجاب أحجمت الرعية عن الظلم، وإذا عظم الحجاب هجمت على الظلم. ومن محاسن النظم في ذم الاحتجاب قول بعضهم:

سأهجركم حتى يلين حجابكم . . على أنه لابدّ سوف يلين

خذوا حذركم من صفوة الدهر إنها . . وإن لم تكن خانت فسوف تخون

وقال آخر:

أمرت بالتسهيل في الإذن لي . . ولم ير الحاجب أن يأذنا

فلن تراني بعدها عائدا . . ولن تراه بعدها مستأذنا[146]

ولعل هذه الصورة التى أوضح الباحث معالمها تبين مدى التدهور الذى آلت إليه وظيفة الحجابة زمن سلاطين المماليك، بعد أن أقبل الحجاب وأعوانهم على أخذ الرشوة وأكل أموال الناس بالباطل واستغلالهم أبشع إستغلال ومدى ما عاناه الشعب من جراء حكم الحجاب.

اختصاصات الحجاب

أولا : الحجاب والقضاء :

اتسعت سلطة الحجاب في العصر المملوكى وأزداد نطاقها، ويبدو أن اتساع سلطة الحجاب زمن سلاطين المماليك كانت وراء هذه المبالغ الضخمة التى كانت تبذل بغير حساب على هذه الوظيفة، فقد حدثتنا المصادر المعاصرة بأن عمل الحجاب في هذه الفترة لم يقتصر على استئذان السلطان للمقابلة بل شمل إدخال الناس على السلطان وهو جالس في قصره بالقلعة، ولم تقتصر مهمته على ذلك فحسب، بل شملت مهام أخرى كثيرة، فقد كانت حاجب الحجاب بمثابة قاض كبير له أعمال، وكان عمله في بادىء أمره الفصل في الخصومات المدينة وفى جميع ضروب النزاع الذى يقع بين الجنود والمماليك والأمراء إما بنفسه أو بعد استشارة السلطان أو النائب، فينصف ضعيفهم من قويهم، والحكم بين الأمراء في المسائل الديوانية وأمور الإقطاعات، وإليه تقديم ما يرد وما يعرض على السلطان، وعرض الجند وما ناسب ذلك، وكان الحاجب يقف أحياناً بين يدى السلطان في المواكب ليبلغه رغبات رعيته ومطالبهم، كما كان يركب أمامه وهو يعمل عصا في يده وينظر في المظالم، إلا أنه يمكن القول بأن نفوذ الحاجب حتى الآن لم تتعد نطاق القضاء الحربى، إذ أن حاجب الحجاب كان بمثابة رئيس للمحكمة الإدارية في الجيش، وكان السلطان يستشيره في الحالات الخطيرة

---

[145] ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص٢٢٨.

[146] الأبشيهى، المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق مفيد محمد قميحة، بيروت ١٩٨٣، جـ١ ص٢٠٩ – ٢١٠.

الشـــأن، وقـــد يعقـــد مجلسه بحضور الأمراء وكاتب الجيش وناظر الجيش ويكون نظره في مخاصمات المماليك ومشاكلهم التى بينهم وبين الديوان.[١٤٧]

وكـــان مـــن ضـــمن اختصاصات الحاجب أحياناً الحكم بين الأجناد والكتاب وأعيان التجار.[١٤٨]

أما فيما يتعلق بالقضاء المدنى أو الشرعى فنقرأ في المصادر المملوكية بأنه لم يكن للحاجـــب حـــق النظر في الأمور الشرعية كالفصل في الخصومات التى تقع بين الزوجين أو الحكم في قضايا الديوان، حيث كان ذلك من أدق اختصاصات قضاة الشرع.[١٤٩]

ومن الجدير بالذكر أن أحكام الحجاب لم تكن مقتبسة من أحكام الدين الإسلامى، بل كان يمزج فيها بين رأيه الشخصى وبين بعض القوانين السابقة المرعية عند أمم غير إسلامية مثل التتار القدامى.[١٥٠]

ويشـــير المقريـــزى إلـــى أن الحاجب كان يحكم بين المغول الذين استوطنوا مصر حسب قوانين الياسة أو اليسق[١٥١] فيذكر بقوله: "كانت أحكام الحجاب أولاً يقال لها حكم الياسة وهى لفظة شيطانية لا يعرف أكثر أهل زماننا اليوم أصلها ويتساهلون في التلفظ بها ويقولون في هذا الأمر مما لا يمشى في الأحكام الشرعية وإنما هو من حكم الياسة".[١٥٢]

---

147 المقريـــزى، الخطـــط، جـــ٣، ص٣٧٩؛ أحمد عبد الرازق، البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك دراسة عن الرشوة القاهرة ١٩٧٩م، ص٥٦.

148 المقريزى، السلوك، جـــ٣ ق١، ص٣٣٠؛ أحمد عبد الرازق، شرطة القاهرة زمن سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٨٢م، ص٢٨-٢٩.

149 المقريزى، الخطط، جـــ٣، ص٦٠.

150 محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٤٧م، جـــ١، ص٥٤.

151 ويروى المقريزى عن الياسة أن جنكيز خان القائم بدولة التتر في الشرق قد قرر قواعد وعقوبات أثبتها في كتاب أسماه (ياســـة) ونقشه في صفائح من الفولاذ وجعله شريعة لقومه فالتزموه بعده، وكان جنكيز خان لا يتدين بشىء من أديان أهل الأرض فصارت الياسة حكما يتباقى في أعقابه، وجملة ما شرعه جنكيز خان أنه من زنى قتل ولم يفرق بين المحصن وغير المحصن، ومن لاط قتل ومن بال في الماء أو على الرماد قتل، ومن تعمد الكذب أو السحر أو تجسس على أحد أو دخل بين أثنين يتخاصمان فأعان أحدهما على الآخر قتل، ومن وجد عبدا هاربا أو أسيرا قد هرب ولم يرده على ما كان في يده قتل، ومـــن أطعم أسير قوم أو كساه بغير إذنهم قتل، وإن الحيوان تكتف قوائمه ويشق بطنه ويمرس قلبه إلى أن يموت ثم يؤكل لحمه، وإن من ذبح حيوان كذبيحة المسلمين ذبح إلى غير ذلك من الأحكام". Irwin-Robert, *The Middle East in the Middle Ages the Early Mamluk Sultans 1250-1382*, London, 1986, pp. 52-53.
Poliak. A. N, *Feudalism in Egypt, Syria, Palestine, and Lebanon*, 1250-1900, London, 1939, pp. 14-15.

152 المقريزى، الخطط، جـــ٣، ص٦٣ وعن الياسة انظر Ayalon, D, "The Great Yâssa of Chiṅgiz Khân", SI, XXXVI, 1972. Hassanein Rabie, *The Financial System of Egypt A.H.564-741/A.D.1169-1941* London, 1972, p.61.

وقـد حرف أهل مصر كلمة ياسة إلى سياسة ثم أدخلوا عليها الألف واللام فصارت (السياسة) وأصبح يقصد بها كل الأحكام التى لا تدخل في نطاق الشرع.

أمـا عـن السبب الذى من أجله عهد للحجاب أن يحكموا بأحكام الياسة بين المغول الذيـن استوطنوا مصر، هو أنه بعد واقعة عين جالوت الشهيرة وهزيمة التتار أسر منهم خلقاً كثـيراً صاروا بمصر والشام، ثم كثر الوافدون منهم في أيام السلطان الظاهر بيبرس وملأوا مصـر والشـام، وخطب للملك يوشى بن جنكيز خان على منابر مصر فغصت أرض مصر والشـام بطوائف المغول وانتشرت عاداتهم وطرائقهم بها، ويشير المقريزى عن ملوك مصر وأمـرائها وعساكرها في دولة المماليك ما نصه:" قد ملئت قلوبهم رعباً من جنكيز خان وبنيه وامتزج بدمهم ولحمهم مهابتهم وتعظيمهم، وكانوا إنما دبوا بدار الإسلام ولقنوا القرآن فجمعوا بيـن الحـق والباطل وضموا الجيد إلى الردىء" ولعل المقريزى قد أراد بذلك أن يمهد لبداية العمـل بأحكـام الياسة في مصر فنجده يعود ويخبرنا بأنهم "أى ملوك مصر فوضوا لقاضى القضـاة كـل مـا يتعلق بالأمور الدينية من الصلاة والصوم والزكاة والحج. وناطوا به أمر الأوقـاف والايـتام وجعلوا إليه النظر في القضايا الشرعية كتداعى الزوجين وأرباب الديون ونحـو ذلـك واحتاجوا في ذلك لأنفسهم إلى الرجوع لعادة جنكيز خان والاقتداء بحكم الياسة ولذلك نصبوا الحاجب ليقضى بينهم فيما اختلفوا من عوايديهم والأخذ على يد قويهم وإنصاف الضعيف منهم على مقتضى ما في الياسة".[153]

وكما أشار الباحث من قبل أن وظيفة الحجابة قد تعاظمت عقب إلغاء الناصر محمد بـن قلاوون وظيفة نائب السلطنة عام ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م، وتؤيد الأحداث هذا الرأى، ويمكن تصـور فداحة ذلك الحدث من سلطات الحاجب واختصاصاته التى زادت بصورة لم تعهد من قـبل، فأصـبح مجلـس نظره ينظر في كل جليل وحقير، بل أصبح يغير على أعمال القضاة العاديـة، وأتـيح له أن يـتدخل في أدق اختصاصات القاضى وينظر في خصومات المدنيين فضـلاً عـن خصومات المماليك، التى كانت من اختصاصاته، وبذلك بدأ نفوذ الحاجب يمتد تدريجـياً مـن القضـاء الحـربى إلى القضاء المدنى، وأصبح يتدخل في أدق الاختصاصات القضـائية ويذكـر بعض المؤرخين أن ابتداء حكم الحجاب بين الناس بمصـر كان في عام ٧٤٦هـ/ ١٣٤٥م أثناء سلطنة الكامل شعبان حين عين الأمير سيف الدين بيغرا أمير حاجب

---

[153] المقريزى، الخطط، جـ٣، ص٦٣.

Poliak, *Feudalism in Egypt*, pp. 14-15.

كبـير يحكـم بين الناس.[154] كما كان نائب السلطنة يحكم، فكان يجلس بين يديه موقعان من موقعي السلطان لمكاتبة الولاة بالأعمال ونحوهم، ثم عين السلطان الأمير رسلان بصل حاجبا ثالـثاً مـع بيغرا يحكم بالقاهرة، ولم تكن العادة قد جرت من قبل أن يحكم الحجاب بين الناس غـير أمـير حاجب كبيراً أو حاجب الحجاب، ولم تلبث أن انكمشت سلطة الحاجب إلى العادة القديمة في سلطنة المظفر حاجي بن الناصر حسين استقر سيف الدين أرقطاى نائب السلطنة، ولكـن حيـن تولـى الأمـير سيف الدين جرجى الحجابة في سلطنة الملك الصالح صالح بن قلاوون رسم له أن يتحدث في أرباب الديوان ويفصلهم عن عزمائهم بأحكام السياسية،[155] ولم تكـن عـادة الحجـاب فيما تقدم أن يحكموا في الأمور الشرعية، وكان سبب ذلك تظلم تجار العجـم للسلطان الصالح صالح الدين بن الناصر محمد بن قلاوون في عام ٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م مـنُ تلاعـب التجار بالقاهرة بالأحكام الشرعية، مما أدى إلى عدم دفع أثمان بضائعهم بحجة الإعسار والإفلاس، فأمر السلطان الأمير جرجى أمير حاجب بإرغام التجار على تسديد أثمان البضـائع الـتى اشـتروها مـن تجار العجم دون الالتجاء إلى القضاء الشرعي، ومنع قضاة الشريعة من الفصل في أمر التجار والمدنيين، ومنذ ذلك الوقت تمكن الحجاب من التحكم على الناس بما شاءوا.[156]

ومـنذ هـذه اللحظة حدث تطور خطير في النظام القضائى في مصر زمن سلاطين المماليك، واصبح الحاجب يحكم في الأمور الشرعية التى كانت من شأن القضاة فيما مضى، أى أن الأمـراء المماليك أربـاب السيوف تدخلوا في القضايا والأحكام الشرعية التى كانت مقصـورة علـى القضاة، وبدأت مرحلة جديدة من مراحل القضاء بإضافة عنصر جديد على

[154] المعروف نقلاً عن المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢١٩، أن وظيفة الحجوبية الكبرى - حاجب الحجاب - اقتصرت فيما سلف من تاريخ الدولة المملوكية على " النظر في مخاصمات الأجناد واختلافهم في أمور الاقطاعات، ونحو ذلك غير أنه لم يكـن عجبـا أن تؤدى أحوال ذلك العصر إلى امتداد هذه الوظيفة أو غيرها من الوظائف إلى غير ما اختصت به، لأسباب تنافسـية شخصية مثلما حدث حين عين السلطان شعبان صديقه الأمير بيغرا حاجباً كبيراً، وجعل له الحكم بين الناس، كما جعل له سلطة مكاتبة الولاة في مختلف الأعمال والأقاليم، وهذا فيما يبدو فضلاً عن قديم اختصاص الحجوبية الكبرى، حتى صـارت هـذه الوظيفة تلى نيابة السلطنة. انظر أيضاً السلوك، جـ٢ ق٣ ص٦٨٤ هامش ٤ *The Encyclopaedia of Islam*, vol, 3 p.4.

[155] المقصود بأحكام السياسية هنا السلطة القضائية الممنوحة في دولة سلاطين المماليك لمتولى الحجوبية الكبرى والحجاب عامـة للحكم في قضايا المماليك والأمراء، حسب قانون مستقل عن حدود الشريعة الإسلامية، وأصل هذا النوع من القضاء المملوكى هو الشريعة المغولية - أى الياسة التى ترجع إلى ايام جنكيز خان كما ذكرنا سابقاً المقريزى، السلوك، جـ٢ ق٣ هـامش١؛ الخطط، جـ٢، ص٢١٩؛ Poliak, *Feudalism in Egypt, Syria, Palestine*, and Lebanon, 1250-1900, London, 1939, pp.14-15; *The Encyclopaedia of Islam*, vol. 3, p.48.

[156] المقريـزى، الخطط، جـ٢، ص٢١٩-٢٢٠؛ السلوك، جـ٢ ق٣، ص٨٦٣-٨٦٤؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٠، ص١٢٢؛ حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص٢٠٧-٢٠٨.

أربـــاب الشـــرع وهـــو طائفة الحجاب التى أخذت تتدخل في الأحكام الشرعية وتزاحم قضاة الشرع فيها.

تلك هى الطفرة التى حدثت في حياة الحجاب، والنكسة التى حدثت في حياة القضاة، وقـــد شكل هذا الحدث ظاهرة خلال دولة المماليك وما أوجدته من صراعات وحزازات فيما بين القضاء والأمراء.[157]

والجديـــر بالملاحظة هو أن القضاء لم يكن يطلق عليه شرعياً إلا نادراً لأنه لم يكن فـــي البلاد قضاء غير شرعى، فلم تكن هناك حاجة إلى تمييزه، غير أن القضاة كان يقال لهم أحياناً قضاة شرع، لما لكلمة شرعى في بعض المواقف والأحيان من تأثير ومعنى خاص.[158]

وإذا كـــان الأمـــر قد بدأ بالسماح للحجاب بالفصل في اختصاصات القضاة، فقد زاد الأمـــر بزيادة عدد الحجاب وما يعنيه ذلك من زيادة التدخل، فيشير المقريزى في حوادث عام ٧٧٩هـــ/ ١٣٧٧م خلع على الأمير سودون الشيخوني والأمير بلوط الصرغتمشي واستقرا حاجبين كباراً يحكمان بين الناس.[159] وفى نفس العام خلع السلطان المنصور على بن الأشرف شـــعبان على الأمير خليل بن عرام واستقر حاجب الحجاب، وعلى الأمير جمال الدين عبد الله بن بكتمر واستقر حاجباً ثانياً.[160]

ونقرأ في كتاب السلوك أيضاً في حوادث عام ٧٨٤هـــ/ ١٣٨٢م ما يلى: "وخلع على الأمـــير مـــنكلى الطـــرخانى فزيد حاجب رابع وخلع على الأمير جلبان العلائى فكان حاجباً خامساً، ولم يعهد قبل ذلك خمسة حجاب في الدولة التركية"،[161] بل إن ابن قاضى شهبة يشير أن عدد الحجاب قد وصل إلى ثمانية.[162]

وإذا كـــان الحجـــاب قـــد تصدوا للفصل في قضايا الديوان وهذا من صميم الأعمال الشرعية، فإن المقريزى يروى لنا لوناً جديداً من التدخل أيضاً في أخص الأمور الشرعية ألا وهو الفصل في قضايا الزندقة والكفر والإلحاد، فقد اتهم شخص بأمور توجب الكفر، وهذا من صـــميم اختصـــاص قضاة الشرع، وهكذا، فيجد الباحث أن الحجاب قد استحوذوا على الفصل فـــى القضـــايا الدينـــية الشـــرعية بفروعها المختلفة، فإذا كانوا قد اختصوا بالنظر في قضايا الديوان، وذلك فى عام ٧٥٣هـــ/ ١٣٥٢م، فإنهم فى عام ٧٩١هـــ/ ١٣٨٨م نظروا فى قضايا الإلحاد والزندقة.[163]

---

157 جمال جرجس، القضاء في العصر المملوكى، ص١٤٦.

158 محمود رزق، عصر سلاطين المماليك، جـــ١، ص٥٣.

159 المقريزى، السلوك، جـــ٣ ق١، ص٣٠٤.

160 ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ١ ق٢، ص٢٠٥.

161 المقريزى، السلوك، جـــ٣ ق٢، ص٤٨٠.

162 ابن قاضى شهبة، الإعلام بتاريخ أهل الإسلام، ص١٥٩.

163 المقريزى، السلوك، جـــ٣ ق٢، ص٦٣٦-٦٣٧.

وفـــى نفس العام أى ٧٩١هـــ/ ١٣٨٨م ذكر المقريزى أن "الأمير الكبير حكم بحقن دم رجل وإطلاقه فأفرج عنه ولم يعهد قط أن أحداً من أمراء الترك ولا ملوكهم حكم فى شيء مـــن الأمور التى من عادة القضاة الحكم فيها".[164] والمقريزى هنا لا يخفى دهشته وعجبه من هذا الحدث.

ويجول بخلد الباحث سؤال: هل كان تدخل الحجاب في الفصل في القضايا الشرعية عمــلاً اقتضـــته المصلحة العامة؟ للإجابة عن هذا التساؤل يجب دراسة سيرة الحجاب ومدى اســتغلالهم لمــثل هذه الامتيازات القضائية، والدور الذى أسهموا فيه بالنسبة للقضاء، وكذلك أعمالهم وتصرفاتهم وعلاقاتهم بالقضاة.

ويخـــبرنا المقريزى بالحالة قبل أن ينظر الحجاب في الأحكام الشرعية، والحالة بعد ذلـــك ومـــدى استغلالهم للنفوذ القضائى الذى تيسر لهم بمقتضى هذه الامتيازات، فيقول " هذا وستر الحياة يومئذ مسدول وظل العدل صاف وجناب الشريعة محترم وناموس الحشمة مهاب فلا يكاد أحد يزيغ عن الحق ولا يخرج عن قضية الحياء إن لم يكن له وازع من دين كان له نـــاه مـــن عقـــل ثم تقلص ظل العدل وسفرت أوجه الفجور وكشر الجور أنيابه وقلت المبالاة وذهـــب الحـــياء والحشمة من الناس، حتى فعل من شاء ما شاء وتعنتت منذ عهد المحن التى كانـــت في عام ٨٠٦هـــ/ ١٤٠٣م الحجاب وهتكوا الحرمة وتحكموا بالجور تحكماً خفى معه نور الهدى وتسلطوا على الناس مقتا من الله لأهل مصر وعقوبة لهم بما كسبت أيديهم ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون".[165]

ولعل أول بادرة تطالعنا بها كتب التاريخ المملوكى المعاصرة تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن الحجاب قاموا بدور الوسيط الذى يقرب وجهات النظر فيما بين السلاطين والطالبين للرشـــا بـــل وقـــد مـــارس الحجاب أنفسهم أخذ أموال الناس بغير حق وأصبح نظرهم مجالاً للرشـــوة، فتســـلطوا على المتقاضين،[166] حتى أصبحت وظيفة الحجابة تعرف برذالة الحاجب وسفالته، وتظاهره من المنكر بما لم يكن يعهد مثله.[167]

والملاحـــظ دائماً أن تزايد سلطة الحجاب كانت تتناسب عكسياً واحترامهم ومهابتهم للقضـــاء، فـــيذكر المقريـــزى مـــا نصه: "ولقد عهدنا دائماً أن الواحد من الكتاب أو الضمان ونحوهـــم يفرّ من باب الحاجب ويصير إلى باب أحد القضاة ويستجير بحكم الشرع فلا يطمع أحـــد بعـــد ذلـــك فى أخذه من باب القاضى، وكان فيهم من يقيم الأشهر والأعوام فى ترسيم القاضـــى حمايـــة له من أيدى الحجاب، ثم تغير ما هنالك وصار الحاجب اليوم يحكم فى كل

---

164 المقريزى، السلوك، جـــ٣ ق٢، ص٦٣٧.

165 المقريزى، الخطط، جـــ٢، ص٢٢١.

166 إسماعيل عبد المنعم، الأمراض الاجتماعية بين الطبقة الأرستقراطية ص٢٠٩.

167 المقريزى، الخطط، جـــ٢، ص٢٢٠.

جليل وحقير من الناس سواء كان الحكم شرعياً أو سياسياً، وإن تعرض قاض من قضاة الشرع لأخذ غريم من باب الحاجب لم يمكن من ذلك، ونقيب الحاجب اليوم مع رذالة الحاجب وسفالته وتظاهره من المنكر بما لم يمكن يعهد مثله، فإنه يأخذ الغريم من باب القاضي ويتحكم فيه من الضرب وأخذ المال بما يختار فلا ينكر ذلك أحد البته".[168]

وقد أراد المقريزي بهذا النص أن يسوق لنا مثالاً بالغ الأهمية لما كانت عليه مكانة الحجاب في عصره، ومكانة القضاة طوال العصور، وما أصبحت عليه في عهده، فهو يحكى لنا عن مظاهر الاحترام والتبجيل التي حظى بها القضاة والقضاء، وليس أدل على ذلك من أن من خاف على نفسه من ظلم أو قهر أو جور ولجأ إلى منزل أحد القضاة أمن على نفسه وروحه لأنه يصبح في حماية الشرع.

ومثلما أخذ الحجاب حق الفصل في القضايا الشرعية، وتسلطوا على المتقاضين، فإن الأمر انعكس كذلك بالنسبة لمكانة القضاة واحترامهم، فقد ضاعت هذه المكانة، واختفى ذلك الاحترام، واخذ الحجاب يطاردون المستجيرين، بل وذهبوا يعتدون على منازل القضاة، واستشرى خطرهم على أبعد من ذلك فكانوا يعزلونهم.

وقد سجل لنا المقريزي في عام ٧٨١هـ/ ١٣٧٩ أى بعد ثلاثين عاما من بداية السماح للحجاب بالفصل بين أصحاب الدعاوى الشرعية واقعة تدعم بالتأكيد ما يرمى إليه الباحث فيذكر ما نصه: وأما السكندرى فإن رجلا احتمى به خوفا من بطش الأمير مأمور الحاجب، كما جرت العادة بأن من خاف جور من يعتدى عليه يركن إلى قاض من القضاة، فيصير في حماة الشرع النبوى ما أقام، ولا يجسر أحد على أخذه من ذلك القاضي، احتراماً له وتعظيماً لحرمة الدين، فشكى الأمير مأمور ذلك إلى الأمير الكبير برقوق، فرسم بعزله وطلب الرجل المحتمى بالقاضي، وضربه ضرباً مبرحاً بالمقارع، هو وولده، وشهرهما بالقاهرة، ونودى عليها: هذا جزاء من يتجاهى على الحاجب. فكان هذا أيضاً من الحوادث التي لم تعهد، واتضع بها جانب القضاة، وانبسطت أيدى الحجاب في الأحكام بما تهوى أنفسهم وزين لهم شيطانهم بغير علم ولا دين يردعهم.[169]

وأحياناً كانت سلطة القضاة تسير مع سلطة الحجاب جانباً إلى جانب، فيشير الصيرفي في حوادث عام ٧٩٣هـ/ ١٣٩٠م ما نصه: "اجتمع قضاة القضاة وحاجب الحجاب بالمدرسة الصالحية بين القصرين وأحضروا الأمير الطنبغا دوادار جنتمر وقد اجتمع من الخلق عدد كبير وأدعى عليه قاضي القضاة المالكي ما يوجب إراقة دمه فضربت عنقه".[170]

---

168 المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢١٩ – ٢٢٠.

169 المقريزى، السلوك، جـ٣ ق١، ص٣٦٠-٣٦١؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٢٤٥.

170 ابن الصيرفى، نزهة النفوس، جـ١، ص٣٢٩.

لـم يكن تسلط الحجاب ونفوذهم القضائي بخافيا عن القضاة، ولم يخف كبار القضاة التصـــريح بانـــتقاد تصـــرفات الحجـــاب؛ وقـــد كانت المشكلة الحقيقية فيما بينهم هى تقسيم الاختصاصات، وعادة كان يلجأ المتخاصم إلى القاضى رمز القوة والنفوذ فلمن تكون الغلبة؟!.
لعل في رواية ابن حجر العسقلانى الإجابة الشافية لهذه التساؤلات، إذ يخبرنا في حوادث عام ٨٢٣هـــ/ ١٤٢٠م أن "القاضى الحنفى لجأ إليه أحد الأشخاص يشكو له غريمه ولجأ خصمه إلـــى الحاجـــب الكبير، فلما أرسل القاضى الحنفى إلى الحاجب الكبير يطلب من عنده غريمه، فضرب الحاجب الرسول".[١٧١]

وفـــى الحقيقة إن السماح للحجاب بالحكم في الأمور الشرعية وتمسكهم بهذا الحق لم يكن راجعاً على تضلعهم الدينى أو لتدينهم أو لنصرة الحق إذ أن مؤرخى تلك الحقبة يؤكدون ذلـــك فيشير المقريزى بقوله: "أنهم يحكمون بغير علم ولا دين"[١٧٢] والكارثة الكبرى أنهم كانوا يحكمـــون إسمياً وفقاً للمذاهب الأربعة وهم أبعد الناس عن الفقة وأجهلهم بالدين ولعل خير ما يدلـــل على قصورهم الفقهى وجهلهم المطبق بالشريعة الإسلامية، ما رواه ابن حجر في عام ٨٣٦هـــ/ ١٤٣٢م فقـــد اتهم أحد الفقهاء وسيق إلى المحاكمة أمام الأمير قرقماش الشعبانى الحاجـــب وعـــرف بالموضـــوع أحـــد أصدقاء الفقيه، فذهب إلى الأمير الذى بادره بقوله ما حاجـــتك؟ قـــال: هذا الفقيه الواقف تحت مقعدك ادفعه من غريمه إلى قاضى من قضاة الشرع فقال: أو لست أنا احكم بالشرع؟ فقال لا! لأنك لا تعرفه فأستعظم ذلك القول فقال له: "شخص وجب عليه قطع يده اليمنى فلما أريد قطعها أخرج يسراه من كمه الأيمن فقطعت، فما حكم الله فـــي ذلـــك؛ أيسقط قطع يمناه أم لا؟ وماذا يجب في قطع يسراه؛ فبهت قليلاً قرقماش قليلاً ثم قال: خذ صاحبك وأمضى" فقال سلام عليك، وأخذ صاحبه ومضى".[١٧٣]

ورغم قصور بعض الحجاب الفقهى، وجهلهم بالعلوم الشرعية، إلا أنهم لم يتراجعوا أو يتورعوا فى الحكم فيها.

وممـــا يـــدل على تدخل الحجاب في اختصاصات القضاة بصورة سافرة والحكم في بعـــض القضـــايا المـــتعلقة بزنا الرجل بالمرأة ما يرويه ابن إياس في حوادث عام ٩١٩هـــ/ ١٥١٣م أن شخصـــاً من نواب الحنفية يدعى غرس الدين خليل كانت له زوجة حسناء فاجها شـــخص من نواب الشافعية يدعى نور الدين على المشالى، وأثناء صعود الرجل للمرأة شاهده شـــميس ابن أخت القاضي نور الدين الدمياطى وكان يهوى هذه المرأة وهى تتمنع عليه، مما أدى بـــه إلـــى أن توجه إلى الإمام الليث واعلم خليل زوج المرأة، فقبض عليها هى والرجل، وذهـــب إلـــى دار حاجـــب الحجاب ومثلوا بين يديه، فأمر الحاجب بضرب الرجل والمرأة،

---

171 ابن حجر، إنباء الغمر بأنباء العمر، تحقيق حسن حبشى، القاهرة ١٩٩٤م، جـــ٣، ص٢١٩.
172 المقريزى، الخطط، جـــ٢، ص ٢١٩ وما بعدها.
173 ابن حجر، إنباء الغمر، جـــ٣، ص٥٠٢؛ جمال جرجس، القضاء، ص١٥٨ – ١٥٩.

واشـــهرهما في القاهرة، وكان يوماً مهولاً؛ ثم رجعوا إلى بيت الحاجب فقرر على المرأة مائة دينار لحاجب الحجاب، ولما علم السلطان الغورى بحكاية المرأة أرسل لمثول القضاة الأربعة بين يديه ووبخهم بالكلام بقوله: "والله افتخرتم يا قضاة الشرع نُوابكم شئ يشرب الخمر وشئ يـــزنى وشـــئ يبيع الأوقاف، وفى ذلك تسميعة لقاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة" ثم طلب المحضر الذى كتبه القاضى شمس الدين برجمها فوافق السلطان، وأسفرت القضية على شـــنق الـــرجل والمـــرأة.[١٧٤] ولعل ذلك يؤدى بنا إلى التساؤل التالى ما هى الدوافع الحقيقية الكامـــنة وراء تشـــبث الحجـــاب بالســـلطات القضائية المخولة إليهم رغم جهلهم التام بالعلوم القضائية والشرعية؟ ولعل تفسير ذلك هون طمع الحجاب في الحصول على الأموال وأرزاق العباد والسيطرة على ثروات مصر وخيراتها.

الحُجاب والمراسم السلطانية:

لـــم تقتصـــر ســـلطات واختصاصات الحجاب على الشئون القضائية فحسب، سواء أكانـــت تدخـــل فى نطاق القضاء العسكرى أو نطاق القضاء المدنى أو الشرعى، بل تطرقت اختصاصـــاته إلى مجالات أبعد من ذلك بكثير، مثل استقبال السفراء والوفود الرسمية القادمة إلى مصر من النيابات والممالك الخارجية. وقد وصف لنا القلقشندى وصفاً شاملاً عن طريقة استقبال السفراء الذين يفدون إلى مصر في مهمات رسمية من قبل الملوك وعن كيفية إنزالهم فـــي دار الضـــيافة ومقامهم فيها، وكيف كانوا يمثلون بين يدى السلطان لعرض ما معهم من الكتـــب علـــيه بقوله: "ولقد جرت العادة أنه إذا وصل رسول من ملك من الملوك إلى أطراف مملكـــته، كاتب نائب تلك الجهة السلطان وعرفه بوفوده واستأذنه فى حضور الأشخاص إليه، فتـــبرز المراسيم السلطانية بحضوره، فإذا وقع الشعور بحضوره، فإن كان المرسل ذا مكانة عظيمة من الملوك خرج بعض أكابر الأمراء كالنائب وحاجب الحجاب ونحوهما للقائه وأنزل بقصور السلطان".[١٧٥]

وقـــد كان الحجاب أنفسهم بمثابة رسل وسفراء من قبل السلطان إلى الملوك والحكام فـــي الممالك الخارجية فيشير المقريزى في عام ٦٣٣هـــ/ ١٢٣٥م بقوله "سافر الأمير ناصر الجزرى الحاجب إلى اليمن من جهة عيذاب في الرسالة عن السلطان" ويحدثنا كذلك في نفس العام عن "توجه شجاع الدين بن الداية الحاجب إلى الملك بركة رسولاً".[١٧٦]

وأحياناً كان الحاجب يكلف بأن يتم ذلك في سرية تامة فيحدثنا المقريزى أنه في عام ٦٨١هـــــ/ ١٢٨٢م "رسم السلطان لحاجبين باستقبال رسل الملك أحمد أغا سلطان بن هولاكو

---

[174] ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ٤، ص٢٣٠ وما بعدها.

[175] القلقشندى، صبح الأعشى، جـــ٣، ص٥٨ – ٥٩؛ على إبراهيم حسن تاريخ المماليك، ص٢٠٩؛ *The Encyclopedia of Islam*, p.48.

[176] المقريزى، السلوك، جـــ١ ق٢، ص٥٣٨؛ على إبراهيم، تاريخ المماليك ص٢٠٦.

وأمـــرهما بـــأن يبالغا في الاحتراز على الرسل وإخفائهم عن كل أحد، فاحترز عليهم حتى لم يشاهدهم أحد وسارا بهم في الليل حتى قدموا قلعة الجبل".[١٧٧]

وتطالعــنا أغلــب الكــتابات المملوكية المعاصرة بالعديد من المواقف التى قام فيها حاجــب الحجاب باستقبال أهم السفراء الوافدين إلى مصر فيشير الصيرفى في عام ٧٩٦هـــ/ ١٣٩٣ بأنه "ركب السلطان للقاء غياث الدين أحمد بن أويس، فوصل إلى مطعم الطيور فجلس فيه حتى دنا ابن أويس، فلما رأى السلطان ترك عن جواده ومشى خطوات عديدة، فمشى إليه الأمــير بــتخاص حاجب الحجاب ومن حضر مع السلطان من الأمراء، وسلموا عليه وصار الأمير بتخاص يعلمه باسم كل أمير ووظيفته ومنزلته وهم يقبلون يده".[١٧٨]

ويشير ابن إياس في حوادث ٧٩٩هــ/ ١٣٩٦م بأنه "قدمت رسل ابن عثمان، متملك الــروم إلــى ســاحل بولاق، فخرج إليهم الحاجب بالخيول السلطانية حتى ركبوها على حين أنزلوا بدار أعدت لهم".[١٧٩]

وأحــياناً كان الحجاب يسافرون مع الرسل كما حدث في عام ٨٠٦هــ/ ١٤٠٣م فقد خلع على رسل تمرلنك وعين للسفر معهم منكلى بغا أحد الحجاب.[١٨٠]

ولعلــه مــن الواضــح تماماً أن الأمر يشبه إلى حد كبير طريقة استقبال السفارات والوفــود الرسمية، وان الحاجب كان بمثابة مندوبٍ عن السلطان لاستقبال الشخصيات المهمة التى تفد على مصر آنذاك.

بالإضــافة إلـــى اختصاصات الحجاب السابقة كان من مهام الحجاب أيضاً الخروج لاستقبال زوجات السلاطين، ومن ذلك ما يرويه المقريزى في أحداث عام ٧٢٠هــ/ ١٣٢٠م حيــن خــرج الأمير أقبغا عبد الواحد وبعض الحجاب لاستقبال الخاتون دلنبية زوجة السلطان الناصــر محمد بن قلاوون، فركبت الخاتون في الحراقة[١٨١] السلطانية الكبرى وركبت حاشيتها فــي الحــراريق الأخــرى واستقر ركابها عند ساحل مصر حيث حملت إلى القلعة في عجلة موشاة بالذهب والطنافس.[١٨٢]

إلــى جانــب هذه الاختصاصات كانت توجد بعض الأعمال والأشغال الثانوية التى يتولى الحاجب القيام بها إلى أجل مسمى فتطالعنا أغلب الكتابات المملوكية المعاصرة بأنه كان

---

177 المقريزى، السلوك، جـــ١ ق٣، ص٧٠٧.

178 الصيرفى، نزهة النفوس، جـــ١، ص٣٧٥.

179 ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ١ ق٢، ص٤٨٨.

180 ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ١ ق٢، ص٦٨٦.

181 حراقة وجمعها حراريق: نوع من السفن الحربية استخدمت لحمل الأسلحة النار (كالنار الأعريقية)، وكان بها مرام تلقى مـــنها النيران على العدو. واستخدم نوع منها في النيل أثناء الاستعراضات التى تقام في الحفلات العامة مثل الاحتفال بكسر الخليج، سعيد عاشور، العصر المماليكى، ص٤٣٠؛ Quatremére, *Histoire des sultans mamlouks*, p.143.

182 المقريزى، السلوك، جـــ٢ ق١، ص٢٠٤ – ٢٠٥.

يخـــتار الحاجب في كثير من الأوقات من قبل السلطان وينتدب لنيابة الغيبة في القاهرة، وذلك حيـــنما يكـــون السلطان مضطراً إلى مغادرة الديار المصرية، لأى سبب كان، وغالباً ما كان ينتاب في حكم القاهرة وينزل في بيت منجك اليوسفى،[١٨٣] بل وقد رسم لأحد الحجاب أن يقيم بداره في باب السلسلة أثناء نيابته للغيبة.[١٨٤]

وفـــى عام ٧٩٣هــ/ ١٣٩٠م جاءت الأخبار بأن منطاش تزايد أمره فخرج السلطان بـــرقوق للقائـــه وترك بالقاهرة بعض الأمراء مثل قطلوبغا الصفوى حاجب الحجاب، والأمير بتخاص السودونى ومن الحجاب والأمراء العشراوات عشرين أميرا.[١٨٥]

ونقرأ في المصادر المعاصرة ايضاً أنه في عام ٨٠٢هــ/ ١٣٩٩م استناب السلطان بالديـــار المصـــرية الأمـــير بيـــبرس ابن عمته وبعض الأمراء المقدمين منهم الأمير أقباى الطـــرنطاى حاجـــب الحجاب الذى نزل في بيت منجك اليوسفى، كما ترك الأمير مبارك شاه الظاهرى الحاجب وكاشف الجيزة.[١٨٦]

وفـــى عـــام ٨٠٤هــ/ ١٤٠١م خرجت العساكر المصرية إلى عرب تروجة وترك الســـلطان فـــرج بـــن بـــرقوق بالقاهرة أميرين أحدهما بيبرس أتابك العساكر والأخر بشباى الحاجب الثانى وبعض الأمراء الصغار.[١٨٧]

ويشير ابن إياس في أحداث عام ٨٤٨هــ/ ١٤٤٤م أن القاهرة تعرضت لفتنة كبرى ارتجـــت لها الأرض وذلك عندما جاء رسول من عند شاه رخ بن تمرلنك ومع هدايا للسلطان احتوت على كسوة للكعبة فأمر السلطان بإخفائها عن الأمراء وأرباب الدولة، فتسامع الأمراء بذلـــك، وتحركـــت طائفة من المماليك الجلبان ونهبوا الدار التى نزل بها الرسول هم والعوام، فلمـــا بلـــغ الســـلطان ذلك، رسم لحاجب الحجاب والوالى أن يدركوا رد النهب، وقام حاجب الحجاب بالقبض على جماعة من المماليك والعوام وهدأت الفتنة.[١٨٨]

وفـــى أثناء سفر السلطان فرج ترك بالقاهرة نائب الغيبة الأمير أرغون أمير آخور في باب السلسلة وفى القاهرة الأمير إينال الصصلانى الحاجب الثانى.[١٨٩]

---

183 الصيرفى، نزهة النفوس، جــ٢، ص٤٨، ٣٤٠.
184 ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جــ٩، ص١٠٢.
185 ابن إياس، بدائع الزهور، جــ١ ق٢، ص٤٤٦.
186 الصيرفى، نزهة النفوس، جــ٢، ص٤٨.
187 الصيرفى، نزهة النفوس، جــ٢، ص١٤٥.
188 ابن إياس، بدائع الزهور، جــ٢، ص٢٤٤-٢٤٥.
189 الصيرفى، نزهة النفوس، جــ٢، ص٢٦٤.

وقـد امـتدت أعمال الحجاب أيضاً إلى الخروج لاستقبال النواب ومن ذلك ما حدث عـام ٧٩٣هـ/ ١٣٩٠م فقد وصل الأمير كمشبغا الحموى نائب حلب فرسم السلطان برقوق للأمير سودون النائب والحجاب وأعيان السلطنة بالخروج لاستقباله.[189]

ومـن مهام الحجاب أيضاً القيام بخدمة القضاة ففى عام ٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م خلع على الشـيخ الأمام الفقية جمال الدين يوسف بن القاضى شرف الدين الملطى واستقر قاضى القضاة الحنفـية ونـزل في خدمته كاتب السر بدر السراتى والأمير فارس حاجب الحجاب، والأمير تمربغا المنجكى حاجب ميسرة وغيرهم من الأكابر والأعيان.[190]

بالإضـافة إلـى اختصاصات الحجاب السابقة كان من مهام الحجاب أيضاً الخروج وراء المحمـل، ففـى عام ٨١٠هـ/ ١٤٠٧م عُين كزل العجمى الحاجب بإمارة الحاج وجبى من الحاج مالاً كثيراً.[191]

وفـى عـام ٨٣٦هـ/ ١٤٣٢م أدير المحمل ولم يكن له بهجة بسبب انشغال الناس بسـفر السلطان الأشرف برسباى، وقد أمر السلطان جماعة من الأمراء بالخروج وراءه منهم الأمير قرقماش الشعبانى حاجب الحجاب.[192]

وفـى عـام ٨٦٢هـ/ ١٤٥٧م خرج المحمل من القاهرة وكان أمير ركب المحمل برسباى البجاسى حاجب الحجاب.[193]

ويشـير ابـن إيـاس أيضاً في أحداث عام ٨٩٥هـ/ ١٤٨٩م إلى تعيين إينال الفقية الحاجـب الـثانى بالركب الأول للمحمل[194] ونقرأ في المصادر المملوكية المعاصرة أيضاً في حـوادث عام ٩١٩هـ/ ١٥١٣م أن السلطان الغورى عين الأمير طومان باى حاجب ثان فى آمرة الحاج بالركب الأول وكان من أمراء الطبلخاناة.[195]

ويفهـم مـن الصيرفى أن اختصاصات الحجاب امتدت إلى الصعود إلى القلعة مع جهـاز أبناء الأمراء، ومن ذلك ما حدث عام ٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م فقد صعد جهاز الست فاطمة بنـت الأمـير منجك إلى القلعة، وكان أمام الجهاز الأمير إيدكار ماشى الحاجب، واعتبر ذلك من الأيام المشهودة.[196]

---

189 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ١، ص٣٢٢.

190 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ١، ص٤٦١.

191 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧٧٩.

192 ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٣، ص٤٩١؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص١٤٥.

193 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٣٤٩.

194 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص٢٧٠.

195 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص٣٠٩، ٣٦٠.

196 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ١، ص٩٤.

بالإضافة إلى اختصاصات الحجاب السابقة كان من عادة الحجاب المشى وراء زوجات السلاطين والأمراء أثناء صعودهن ونزولهن من القلعة، ففى عام ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م صعدت خوند الخاصكية زوجة العادل طومان باى في محفة زركش وكان أمامها الرؤس والنوب والحجاب والخاصكية، وهم بالشاس والقماش بالإضافة إلى الوالى ونقيب الجيوش.[197]

مهام الحجاب العسكرية:

وقد امتدت أعمال الحجاب أيضاً إلى القيام بأعمال التعبئة العسكرية حيث كانوا يحثون الناس على الجهاد في سبيل الله، ومن ذلك ما يرويه ابن إياس في أحداث في عام ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م حيث ركب شيخ الإسلام وقضاة القضاة، والأمير أقباى حاجب الحجاب، والأمير مبارك شاه الحاجب ونودى بالقاهرة "بالجهاد في سبيل الله، لعدوكم الأكبر تمرلنك فإنه أخذ البلاد ووصل إلى حلب، وقتل الأطفال على صدور الأمهات، وأسر العباد، وأخرب الدور والمساجد والجوامع وجعلها إسطبلات للدواب وهو قاصدكم يخرب بلادكم، ويقتل رجالكم وأطفالكم، ويسبى حريمكم..".[198]

وأحياناً كان الحاجب يستناب لشغل إحدى الوظائف العسكرية كوضع مؤقت إلى أن يتم شغل هذه الوظيفة، فيحدثنا ابن تغرى بردى في حوادث عام ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م بأنه طلب الأمير قبلاى الحاجب ورسم له بالتوجه لحفظ الكرك إلى أن يتم تعين نائب جديد.[199]

وقد امتدت أعمال الحجاب أيضاً إلى الخروج على رأس التجريدات الحربية، فنقرأ في المصادر المعاصرة أنه في عام ٧١٤هـ/ ١٣١٤م خرج العسكر من القاهرة ومعهم ركن الدين بيبرس الحاجب ووصلوا إلى دمشق وأقاموا بها حتى نهاية العام.[200]

وفى عام ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م أرسل السلطان الناصر محمد بن قلاوون تجريدة إلى اليمن مع الأميرين ركن الدين بيبرس الحاجب وطينال الحاجب.[201]

ونقرأ في المصادر المعاصرة أيضاً عن تجريدة أخرى عام ٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م حيث عين الأتابك[202] برقوق تجريدة عظيمة للخروج إلى العربان وكان من بين أفرادها الأمير مأمور القلمطاوى حاجب الحجاب.[203]

---

197 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص٤٧٢.

198 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٦٠١.

199 ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١٠، ص٩٣.

200 المقريزى، السلوك، جـ١ ق٢، ص١٣٩.

201 ابن إيبك، كنز الدرر، جـ٩، ص٣١٨.

202 أتابك أى مقدم العسكر والقائد العام للجيش المملوكى، القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤ ص١٨؛ سعيد عاشور، العصر المماليكى، ص٤٠٩.

203 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٢٦٦ – ٢٦٧.

وتشـــير المصـــادر أيضـــاً إلى تجريدة في عام ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م متجهة إلى حلب بصحبة الأمراء المقدمين وأيدكار العمرى حاجب الحجاب.[٢٠٤]

وتخـــبرنا المصـــادر أيضاً عن تجريدة تمت في عام ٨٠١هـ/ ١٣٩٨م، حيث رسم السـلطان بـرقوق بتجهيز ستة من الأمراء المقدمين وعدد من أمراء الطبلخانات والعشرات. وكان تمربغا المنجكي أمير حاجب من بين الأمراء المقدمين، ورسم لكل واحد من الطبلخانات بعشرة آلاف درهم، ولكل من العشرات بخمسة آلاف درهم فشرعوا في التجهيز للسفر.[٢٠٥]

وهـناك تجـريدة خرجت في عام ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م حيث برز المرسوم السلطانى للأمير أسنبغا الحاجب بالقاهرة بالتوجه إلى الشام وحلب لمحاربة تيمورلنك.[٢٠٦]

وفى عام ٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م تم تعيين جريدة لمحاربة الفرنج، وكان من بين أفرادها جماعـة من الأمراء المقدمين وأمراء الطبلخاناة[٢٠٧] والمماليك السلطانية وآقباى حاجب حجاب القاهرة ويشباى الحاجب واتجهوا جميعاً إلى دمياط والإسكندرية.[٢٠٨]

وتشـير المصادر المملوكية إلى تجريدة خرجت إلى الرّها في عام ٨٣٤هـ/ ١٤٣٠ م، وقد اشترك فيها الأمير قرقماش الشعبانى حاجب الحجاب.[٢٠٩]

أمـا تجـريدة عـام ٨٤١هـ/ ١٤٣٧م فقد خرجت إلى حلب، وعين فيها ثمانية من الأمراء المقدمين وكان يشبك المشد الشعبانى حاجب الحجاب من ضمن أفرادها.[٢١٠]

وفى عام ٨٥٦هـ/ ١٤٥٢م خرجت تجريدة إلى البحيرة وكان باشى العسكر خشقدم حاجب الحجاب على رأسها.[٢١١]

وتجـريدة عـام ٨٦٧هـ/ ١٤٦٢م المتجه إلى قبرص، وكان باشى العسكر الأمير بردبك البجمقدار حاجب الحجاب.[٢١٢]

وبالنسـبة لتجريدة عام ٨٦٨هـ/ ١٤٦٣م المتجهة إلى البحيرة عين السلطان الظاهر خشقدم عليها الأمير أزبك من ططخ حاجب الحجاب وعدداً من الأمراء المماليك السلطانية.[٢١٣]

---

204 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٣٩٤.

205 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥١٩.

206 ابن الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص٧٣.

207 الطبلخاناة، لفظة فارسية بمعنى بيت الطبل الذى يشتمل على الطبول والأبواق وتوابعها من الآلآت. أحمد عبد الرازق، الرنوك الإسلامية، ص٤٣.

208 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص١٦٨؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٦٧٢ – ٦٧٣.

209 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص١٣٦.

210 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص١٨٠.

211 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٢٩٥.

212 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٤٠٣.

213 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٤١٨.

ونقـرأ أيضـا فـي أحداث عام ٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م أن السلطان الظاهر خشقدم أمر بخـروج تجـريدة إلـى شاه سوار بن دلغادر وكان على رأسها حاجب الحجاب الأمير تمر وبعض أمراء الطبلخاناة والعشرات.[214]

ويفهـم كذلك من مؤرخى العصر المملوكى أنه في عام ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م خرجت تجـريدة أخرى على حماة لتأديب سيف أمير آل فضل لأنه قتل آزدمر نائب حلب، وكان على رأسها برسباى قرا حاجب الحجاب وعدد من الأمراء.[215]

وهـناك التجريدة المتجهة إلى حلب بسبب على دولات ابن دلغادر وعين فيها ططر حاجب الحجاب عام ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م.[216]

ونتـيجة لاضـطراب الأمور في بلاد الشام وتدهورها أمر السلطان الغورى بتعيين تجريدة لتهدئة الأمور هناك، وصحب هذه التجريدة قيت الرجبى حاجب الحجاب.[217]

مهام الحجاب المدنية:

تطالعـنا أغلب الكتابات المملوكية المعاصرة بما لا يدع مجالاً للشك في أن الحاجب قد اتسعت مجالات اختصاصاته فنجده يشرف في كثير من الأحيان على شئون الرى وإصلاح الجـور وشق الترع وحفر القنوات، فيذكر ابن إياس في حوادث ٧٢٤هـ/ ١٣٢٣م بأنه "أبتدأ الأمـير بكتمر حاجب الحجاب بحفر بركته المعروفة ببركة الرطلى، وأجرى عليها الماء من الخليج الناصرى وعمل لها جسراً بينها وبين الخليج".[218]

ويحدثـنا ابن أياس أيضاً في حوادث عام ٨٠١هـ/ ١٣٩٨م بقوله: "أوفى النيل ستة عشـر ذراعـاً، فـنزل الأمـير فـارس حاجب الحجاب، وخلق المقياس، وفتح الخليج على العادة".[219]

وتشـير المصـادر المعاصرة أيضاً في أحداث عام ٨١٩هـ/ ١٤١٦م، توقف النيل عـن الزيادة فرسم السلطان لحاجب الحجاب بالتوجه إلى الروضة وحرق الخيام وتشتت الناس لكثرة ما يحدث هناك من المفاسد.[220]

وفى عام ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م أوفى النيل فتوجه بعض الحجاب وكسروا السد.[221]

---

[214] ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص٧، ٢٩.
[215] ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص١٦٥.
[216] ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص٢٠٢.
[217] ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص٣٨١، ٤١٤.
[218] ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق١، ص٤٥٥ - ٤٥٦.
[219] ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥٤٦.
[220] ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٢٧.
[221] ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٦٩.

ويحدثنـــنا الصـــيرفى أيضاً في حوادث عام ٨٣٤هـــ/ ١٤٣٠م بأنه "كان وفاء النيل ســت عشـــر ذراعـــاً، فرسم السلطان للأمير قرقماش حاجب الحجاب بتخليق المقياس وفتح الخليج."[٢٢٢]

ويشـــير المقريـــزى أيضاً في حوادث ٨٤٢هـــ/ ١٤٣٨م كان وفاء النيل ست عشر ذراعاً وفتح الخليج على العادة، وقد نزل الأمير أسنبغا الطيارى الحاجب إلى هذه الخليج.[٢٢٣]

وفـــى عـــام ٨٤٨هـــ/ ١٤٤٤م كان وفاء النيل وفيه يقول ابن إياس "وقد أوفى وزاد عـــن الوفاء عشرين أصبعاً، حتى نودى عليه ثانى يوم كسره بتكملة السبعة عشر ذراعاً، فعد ذلـــك مـــن الـــنوادر؛ وتوجه إليه حاجب الحجاب لفتح السد".[٢٢٤] وتمدنا المصادر المعاصرة بالمعلومات عن اشتراك الحجاب في مباشرة أعمال حفر الترع والقنوات، ففى عام ٩١٧هـــ/ ١٥١١م أمر السلطان الغورى بحفر الخليج ورسم للأمير أنصباى حاجب الحجاب بالتوجه إلى قـــناطر الإوز ومباشـــرة أعمال الحفر بنفسه، وهناك أقيمت الخيام وبعد انتهاء عمليات الحفر احتفل بهذا الحدث.[٢٢٥]

كما كانت هناك بعض الواجبات والأعمال الاستثنائية التى تتطلب من الحاجب القيام بهـــا تـــبعاً لخطورة هذه الأعمال، ومن بين هذه الأعمال ما يرويه الصيرفى في حوادث عام ٧٨٥هـــــ/ ١٣٨٣م من قيام إيدكار الحاجب بالتحقيق في إحدى قضايا المشاجرات التى حدثت بيـــن جماعة من النصارى وبعض المسلمين فيذكر ما نصه "أن جماعة من مبيض النصارى عملـــوا عرســـاً واجتمع عندهم فيه عدد كبير من الملاهى وأمثالهم، فصعد المؤذن ليسبح الله تعـــالى ويوحـــده علـــى العـــادة في جوف الليل، فلما سمعوه أولئك النصارى بادروا إلى سبه وإهانـــته وأنزلوه من المنارة بعد ضرب مبرح .. فبلغ هذا الأمر الفادح خطيب الناحية فوثب عليهم ليخلصه منهم فأوجعوه ضرباً وسبا وأرادوا قتله وقتل من معه وقد أمر السلطان الظاهر بـــرقوق ورسم للأمير إيدكار الحاجب أن يتوجه بالكشف عن هذه القضية، فتوجه إليها وكتب محضـــر بقـــبح أفعـــالهم وحملهـــم معـــه إلى السلطان فرسم للقاضى المالكى أن يحكم فيهم فسجنهم".[٢٢٦]

ومـــن بيـــن مهام الحاجب أيضاً ما يرويه ابن الصيرفى في حوادث عام ٧٩٨هـــ/ ١٣٩٥م عـــندما جلـــس السلطان الظاهر برقوق لتوزيع الصدقة على الفقراء فاجتمع عنده من

---

222 الصيرفى، نزهة النفوس، جـــ١، ص٢٢٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ٢، ص١٣٩.

223 المقريزى، السلوك، جـــ٤ ق٣، ص١٠٧٨؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ٣، ص١٩٥، ص١٣٩.

224 ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ٢، ص٢٤٢.

225 ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ٤، ص٢٢٨.

226 الصيرفى، نزهة النفوس، جـــ١، ص٦٧؛ ابن حجر، إنباء الغمر، جـــ١، ص٢٧٣ - ٢٧٤.

الخلائــق مــا لا يحصى عددهم، حتى أنه من شدة الزحام مات منهم بباب الإسطبل ٤٧ نفساً تولى غسلهم وتكفينهم وتجهيزهم الأمير فارس حاجب الحجاب.[٢٢٧]

وفــي عــام ٨١٨هــــ/ ١٤١٥م وقع غلاء عظيم بمصر وقل الخبز من الأسواق، وصـــار الناس يتزاحمون على الأفران والطواحين، ونهبت الناس الأفران وشون القمح، فرسم السـلطان أن يكون على كل فرن جماعة من المماليك السلطانية، وكان حاجب الحجاب جالساً على الفرن الواقع في منطقة التبانة ومعه عدة مماليك يدفعون الناس عن الزحام والنهب.[٢٢٨]

وأحــياناً كــان الحاجب يكلف من قبيل السلطان بمهمة المهاجمة على أوكار الفساد والفحشــاء وتتبع أماكن الفساد، فتشير المصادر أنه في عام ٧٨٧هــ/ ١٣٨٥م خرج الحجاب في يوم النوروز إلى أماكن النزهة والمتفرجات وقام بالقبض على العوام وضربوهم بالمقارع وقطعوا أيدى منهم، والبعض الآخر شنق، فأنكف الناس عما كانوا يفعلونه في ذلك اليوم.[٢٢٩]

وتشير البعض المصادر أنه في عام ٨٣٢هــ/ ١٣٢٨م "تتبع الأمير قرقماش حاجب الحجــاب مواضع الفساد فأراق الخمور، وحرق الحشيشة المغيبة للعقل، وهجم على مواضع الفحشاء، ومنع الاجتماع فيها."[٢٣٠]

وفــي عــام ٩١٠هــــ/ ١٥٠٤م أمر السلطان حاجب الحجاب ووالى القاهرة بتتبع مواضـــع الفســاد وكــبس بــيوت النصارى وكسر ما عندهم من جرار الخمر وحرق أماكن الحشيشة.[٢٣١]

وفــي عــام ٩١٧هــــ/ ١٥١١م أمر السلطان الغورى حاجب الحجاب والوالى بأن يــتوجها ويكبسا على المتفرجين في الروضة، فذهب أنسباى حاجب الحجاب مع والى القاهرة ونادوا بالأمان وأن أحداً لا يتجاهر بالمعاصي.[٢٣٢]

بالإضافة إلى اختصاصات الحاجب السابقة، كان الحاجب يكلف أحياناً بالقضاء على الفتــن والثورات وبالضرب على أيدى الجناة والمجرمين بل نجده أحياناً يشارك في معاقبتهم جمــيعاً، ففــي إحــدى الثورات التى قام بها العربان ببلاد الصعيد رسم للأمير فارس حاجب الحجــاب ومعــه عدد من المماليك السلطانية للكبس عليهم، واستطاع في أقل من ستة أيام أن يسيطر على الثورة ورجع بصحبته خمسمائة رجل قبض عليهم.[٢٣٣]

---

227 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ١، ص٤٢٥.

228 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص٣٥٦-٣٥٧؛ ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٣، ص٦٩ - ٧٠.

229 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٣٦٥.

230 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص١٢٢.

231 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص٤٤.

232 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص٢٣١.

233 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ١، ص٤٠٠.

وتذكــر المصـــادر المعاصـــرة في أحداث عام ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م أن العامة الزعر والـستركمان نهبوا الكثير من أهل القاهرة فتصدى لهم منكلى الحاجب وسيدى أبو بكر الحاجب ونادوا "أن من تعرض لكم من الزعر والتركمان فاقتلوه".[٢٣٤]

وفـــى عـــام ٨٧٥هــــ/ ١٤٧٠م عين السلطان الأشرف قايتباى الأمير تمر حاجب الحجـاب، والأمـــير قانصـــوه الخسيف الإينالى بأن يخرجا إلى الشرقية بسبب فساد العربان، ورسم لهما السلطان بأن من وجده من بنى سعد وبنى وائل يقبضوا عليه .[٢٣٥]

وقد امتدت أعمال الحجاب أيضاً إلى المساهمة في إخماد الحرائق التى تعرضت لها البلاد، ففي عام ٧٧٩هـ/ ١٤٧٤م وفى عهد السلطان المنصور على بن الأشرف شعبان وقع حريق بظاهر باب زويلة عند دار التفاح[٢٣٦] فاحترقت هذه الدار والربع،[٢٣٧] ولولا سور المدينة لاحـترق نصـفها، وعندما تزايد أمر النار نزل الأمراء بمماليكهم لإطفاء النار ومعهم الأمير تغـرى برمش حاجب الحجاب ووصلوا إلى مكان الحريق، وهناك نزلوا عن خيولهم وصاروا يهجمون على السقائين في بيوتهم حتى يأتوا بماء القرب واستمرت النيران مشتعلة لمدة ثلاثة أيام حتى تم إخمادها.[٢٣٨]

وفـــى عـــام ٧٨٨هــــ/ ١٣٨٦م وقـــع حريق في بركة الرطلى بالقرب من قنطرة الحاجـــب فاحترقـــت عدة بيوت وتوجه حاجب الحجاب والوالى مع عدد من المماليك وقاموا بإطفاء الحريق.[٢٣٩]

ســـاهم الحجاب أيضاً في حفظ الأمن داخل البلاد وضبط أمور السلطنة أثناء غياب الســلطان، ففـــى عام ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م عين السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن عمر بن قلاوون جماعة من الحجاب لحفظ القاهرة وحاراتها وخططها.[٢٤٠]

---

[234] الصيرفي، نزهة النفوس، جـ١، ص٢١٦.

[235] ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص٦٠.

[236] كانـت دار التفاح فندقاً تجاه باب زويلة، يرد إليه الفواكة على اختلاف أصنافها، مما ينبت في بساتين ضواحى القاهرة، وكـــان بدمشق أيضاً دار مشابهة لها، أسمها دار البطيخ والفاكهة، المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٥٣؛ السلوك، جـ١ ق١، ص١٨٤ هامش ٣؛ محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية، ص١٠٤، هامش١٤٠، حياة الحجى، أحوال العامة في حكم المماليك، دراسة في الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ط١، الكويت ١٩٨٤م. ص٨٨.

[237] الرباع جمع ربع وهو مجموعة من المساكن المؤجرة للغير تجمع حول صحن، ويكون له في الغالب مدخل واحد وسلم واحـد، ويصل ارتفاع الربع إلى اربعة أو خمسة طوابق، ويتم الوصول إلى المساكن عن طريق طرقة تدور حول الصحن، وتوجـد مجموعـة من الجوانب بالجهة المطلة على الشارع من الطابق الأرضى، والربع مخصص لسكن الطبقات الشعبية بأجور شهرية زهيدة. ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٠، ص٣٠٣ هامش٣؛ المقريزى، الخطط، جـ٣، ص٣٨٣؛ حسين مصطفى رمضان، طوائف الحرفيين ودورهم الاقتصادي والاجتماعي، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة القاهرة، كلية الآثار، ١٩٨٧م، ص٢٠٣؛ سعيد عاشور، العصر المماليكى، ص٤١٨.

[238] ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٢٢١.

[239] ابـن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٣٦٩.انظر. Meinecke, M., *Die mamlukische Architektur in Ägypten und Syrien, 648-11250 Bis 923/1517*, 1992, p.466.

وتذكـــر المصـــادر أيضاً أن الحجاب تتبعوا النساء لمنعهن من الخـــروج، ففى عام ٨٤١هـــ/ ١٤٣٧م تـــزايد الوباء بمصر واجتمع السلطان الأشرف برسباى والقضاة الأربعة ومشـــايخ العلم، وشكا السلطان من تزايد الطاعون بالقاهرة فقالوا له: "إنما يظهر الطاعون في قوم إذ فشا فيهم الزنا وأن النساء قد تزايد خروجهن في الطرقات، وهن متبرجات ليلاً ونهاراً فـــي الأســـواق" فأشار بعض العلماء بمنع النساء من الخروج، إلا في الحمام فقط، ونادى في مصـــر والقاهـــرة بمنع النساء من الخروج فتتبع الوالى والحجاب النساء في الطرقات لمنعهن من الخروج.[٢٤١]

بقـــى أن نشـــير فـــي الـــنهاية بأنه إلى جانب هذه المهام كان للحاجب بعض المهام الأخرى المتمثلة في تطبيق الشريعة الإسلامية وأقامة منار الشرع، ففى عام ٩١٠هـــ/١٥٠٤م رسم السلطان الغورى لحاجب الحجاب ووالى القاهرة بكبس بيوت النصارى وكسر ما عندهم مـــن جـــرار الخمر، وتتبع أهل الفساد بالإضافة إلى حرق أماكن الحشيش والبوزة، كما سبق وأشرنا.[٢٤٢]

وكـــان مـــن مهـــام الحجاب أيضاً القضاء على الفتن التى يقوم بها بعض العامة في مصـــر ففـــى عـــام ٧٧٠هـــ/ ١٣٦٨م اجتمعت طائفة من الزعر بأرض اللوق[٢٤٣] وصاروا يشـــالقون الـــناس بالحجارة، فقتل منهم جماعة، وتزايد الأمر، فسمع الوالى وحاجب الحجاب الأمـــير علاء الدين بن كلفت والأمير أقبغا اليوسفى حاجب الحجاب، فركبوا جميعاً وتوجهوا على أرض اللوق وقبضوا على المشالقين وضربوا بالمقارع.[٢٤٤]

مكانة الحجاب في المجتمع المملوكي:

يتضـــح من خلال العرض السابق مدى ما وصلت إليه الحجابة في العصر المملوكى مـــن أهمية، بل أن الأمر وصل إلى أبعد من ذلك بكثير، فقد أصبحت للحجاب مكانة اجتماعية

---

240 ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ١ ق٢، ص١٧١.

241 ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ٢، ص١٨٢.

242 ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ٤، ص٧٦.

243 لاق الشيء يلوقه لوقا، ولوقه لينة وهذه الأرض لما انحسر عنها ماء النيل كانت أرضا لينه وإلى الآن في أرض مصر إذا ما نزل عليها ماء النيل لا تحتاج إلى الحرث للينها بل تلاق لوقا المقريزى، الخطط، جـــ٣، ص١٨٩ – ص١٩٠، وقد ظهـــرت أرض اللوق في عهد الدولة الفاطمية والأيوبية كطرح بحر ثم أضيفت إليها طروحات أخرى في أوائل عهد دولة المماليك البحرية، وقد بدأت عمارة اللوق منذ عهد الخديوى إسماعيل وأكتظت بالمبانى والعمائر حتى صارت كلها مشغولة بالدور والقصور، سعاد ماهر، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، القاهرة، ١٩٨٣، جـــ٥، ص٩٤؛ وقال عنها القلقشندى، "سكنها رعاع الناس وأوباشهم". القلقشندى، صبح الأعشى، جـــ٣، ص٣٥٨.

244 ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ١ ق٢، ص٨٨.

وسياسية عظيمة في المجتمع المملوكي، والدليل على ذلك أن حاجب الحجاب قرقماس قد تزوج من ابنة السلطان الناصر فرج بن السلطان الظاهر برقوق.[٢٤٥]

ويشير ابن إياس في أحداث عام ٩١٦هـ/ ١٥١٠م إلى زواج الأمير أنصباى حاجب الحجاب من ابنة الأشرف قانصوه خمسمائة، والتى كانت لها زفة يقصر دونها الوصف كان من بين الحضور الأتابكى قرقماس والأمراء المقدمين وقد ارتدوا الشاش والقماش وبأيديهم الشموع الموقدة وشقوا من الصليبية بهذا الموكب الحافل حتى دخلوا إلى قاعة الفرح ببيت يشبك الدوادار.[٢٤٦]

ومما يدل على مكانة الحجاب الاجتماعية في العصر المملوكي، أن السلطان عام ٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م نزل من القلعة متجهاً إلى دار تمر حاجب الحجاب من أجل زيارته في مرضه ثم عاد إلى القلعة.[٢٤٧]

ويتساءل الباحث هل وقع الحجاب تحت طائلة القانون رغم المكانة العالية التى وصلوا إليها ؟ للإجابة عن هذا التساؤل ينبغى أن نتعرض إلى ما أطلق عليه في مصطلح العصر المملوكى اسم المصادرات ونتعرف من خلالها هل طبقت على الحجاب أم لا؟[٢٤٨]

والمصادرة هي عقوبة مقررة واجبة النفاذ هدفها المال سواء كان بالضمان أو المطالبة أو بالاستيلاء عليه بالقوة لصالح الدولة دون أن يكون للشخص المعاقب حق الاعتراض، وهذا ما حدا ببعض الباحثين إلى القول بأن المصادرة عمل تعسفي مجاف للعدالة ودليل على فساد الإدارة، وفى عصر المماليك رادف لفظة المصادرة أربعة ألفاظ أخرى هى الغرامة، والحوطة، والعقوبة، والجناية، فالألفاظ مختلفة والمعنى واحد.[٢٤٩]

نقرأ في المصادر المملوكية عن مصادرة الحاج بهادر الحاجب الذى صادره شاد الدواوين في عهد السلطان لاجين في عام ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م،[٢٥٠] أما عن سبب المصادرة فكان بذنب أستاذه قراسنقر وظلمه.[٢٥١]

وبكتمر الحسامى الحاجب الذى صادره السلطان الناصر محمد بن قلاوون في عام ٧١٠هـ/ ١٣١٠م،[٢٥٢] بسبب اتهامه بتدبير محاولة لقتل السلطان، وقد بلغت قيمة المصادرة

---

245 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٣، ص١٢٦.

246 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص١٩٦.

247 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص٨٣، جـ٤، ص١٩٦.

248 انظر ثبت مصادرات الحجاب رقم ٥-٦ الوارد في ختام البحث.

249 البيومى إسماعيل الشربينى، مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية عصر سلاطين المماليك، سلسلة تاريخ المصريين العدد ١١٠، ١٩٩٧م، ص٢٣؛ انظر ايضاً حياة ناصر الحجر، السلطة والمجتمع في سلطنة المماليك ص٥٢ وما بعدها.

250 الكتبى، عيون التواريخ، ص٨٦؛ العينى، عقد، الجمان، جـ٣، ص٣٦٣-٣٦٤.

251 البيومى إسماعيل، مصادرة الأملاك، ص٢٠٣.

252 ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٩، ص٢٨، ٤١.

مائــة ألف دينار، وجمال الدين بكتمر الحاجب الذى صادره أيضا السلطان الناصر محمد بن قــلاوون فـــي عـــام ٧١٥هــ/ ١٣١٥م[٢٥٣] وكانت سبب المصادرة تآمره على قتل السلطان ووصل مبلغ المصادرة إلى مائة ألف دينار وانتهى به المطاف إلى السجن.[٢٥٤]

ونقرأ أيضاً عن سيف الدين أُلماس الحاجب الكبير الذى قام بمصادرته شاد الدواوين وشــاهد الخــزانة، حيث تمت مصادرته في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون في عام ٧٣٣هــ/ ١٣٣٢م، وكان سبب المصادرة تآمره على قتل السلطان إلى جانب ثروته المشبوهة وحجه بدون إذن السلطان حيث أُلزم بحمل ٢,٣٩٠,٠٠٠ درهم نقرة،[٢٥٥] وانتهى به الأمر إلى القتل خنقاً.[٢٥٦]

وتشــير المصـــادر أيضاً إلى على بن مقلد حاجب العرب بدمشق الذى قبض عليه وصــودر في عام ٧٣٣هــ/ ١٣٣٢م في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون وكان منفذ المصـــادرة هـــو ناظـــر الخاص، أما عن سبب المصادرة فكان تأديبه، وقد تعرض للضرب والتعذيب حتى قتل.[٢٥٧]

ونستشـــف مـــن المصادر أيضاً عن مصادرة بكتمر الحسامى الحاجب الذى تعرض للمصـــادرة فـــي عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٣٥هــ/ ١٣٣٤م وكان سبب مصادرته عزل جد أولاده نائب الكرك، أما عن مبلغ المصادرة فكان أشياء نقدية وعينيه.[٢٥٨]

كمـــا يتحدث المؤرخون عن محمد بن بكتمر الحاجب الذى صودر في عهد السلطان المظفـــر حاجى بن الناصر محمد بن بن قلاوون في عام ٧٤٨هــ/ ١٣٤٧م بسبب تآمره على قـــتل السلطان بسبب لهوه، وكان مبلغ المصادرة تمثل في مصادرة بيته وماله وخيله، ووصل به المطاف إلى السجن، وقد نفذ المصادرة شاد الدواوين وأمير سلاح.[٢٥٩]

---

253 المقريزى، السلوك، جــ٢ ق١، ص١٤٤.

254 البيومى إسماعيل، مصادرة الأملاك، ص٢٠٨.

255 الدراهم وجد منها أربعة أنواع، أجودها وأعلاها قيمة ما عرف باسم النقرة ويتكون من فضة ولحاس ووزنه ١٦ قيراطاً أى ينقص عن المثقال. وقدر كل سبعة مثاقيل بعشرة دراهم وزنا وقيمة هذا الدرهم ٢٤ فلساً، وتطبع بدور الضرب بالسكة الســلطانية، ويكون فيها دراهم صحاح وقراضيات مكسرة، وقدر وزن الدرهم النقرة بست عشرة حبة خروب، فتكون معاً خروبتيـــن ثـــم درهـــم، والخروبة ثلاث حبات من حب البر المعتدل، إبراهيم على طرخان، النظم الاقطاعية في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٦٨م، ص٥٢٤.

256 المقريـــزى، الســـلوك، جــــ٢ ق٢، ص٣٦٣، ٣٧٥؛ ابـــن إيبك، كنز الدرر، جـــ٩، ص٣٧٣، حياة الحجى، السلطة والمجتمع في سلطنة المماليك، ص٤٠.

257 الصفدى، أعيان العصر، ص٣٦، ٤٥، أبو الفداء، المختصرفى أخبار البشر، طبعة لبنان ١٩٦٨م، ص١٠٩.

258 ابـــن كثـــير، الـــبداية والنهاية، تحقيق محمد عبد العزيز النجار، القاهرة ١٩٩٢م، جـــ٧، ص١٧٤؛ ابن الوردى تتمة المختصر في أخبار البشر، القاهرة ١٨٦٨م، جـــ٢، ص٣٠٨.

259 المقريزى، السلوك، جـــ٢ ق٣، ص٧٣٠؛ البيومى إسماعيل، مصادرة الأملاك، ص٢٢٠.

ويخـبرنا المقريـزى عن مصادرة علاء الدين على بن كلفت الحاجب الذى صادره السلطان الأشرف شعبان بن حسين عام ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م بسبب تبعيته لألجاى ومن عصبته حيث وصل به الأمر إلى السجن.[٢٦٠]

وتـتحدث المصـادر عن سلطان شاه بن قراجا حاجب ثان الذى تعرض للمصادرة علـى يد السلطان الأشرف شعبان بن حسين في عام ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م نتيجة لتبعيته لألجاى أيضاً.[٢٦١]

ومـن الحجـاب الذين تعرضوا للمصادرة والنفى ورجعوا مرة ثانية إلى مناصبهم، نذكـر عبد الله بن بكتمر الحاجب الذى تمت مصادرته في عهد السلطان المنصور شعبان في عام ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م بسبب خلاف بينه وبين أحد رجال الدولة، ووصل مبلغ المصادرة إلى ١٠,٠٠٠ دينار، وانتهى به الحال إلى النفي، ثم رجع مرة ثانية.[٢٦٢]

ونقـرأ فـي المصـادر أيضـاً عن محمد بن بكتمر الحاجب الذى صودر في عهد السـلطان الظاهـر بـرقوق عام ٧٩٤هـ/ ١٣٩١م حيث الزم بحمل ٢٠٠٠,٠٠٠ درهم إلى الخزانة الشريفة.[٢٦٣]

ويذكر المؤرخ السخاوى أيضاً أن عبد الرازق بن أبى الفرج الحاجب والوزير الذى تعـرض للمصـادرة في عهد السلطان الناصر فرج بن برقوق عام ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م، وقد صـودر على يد هذا السلطان، وعن أسباب مصادرته، فقد جمع نفقة للجند بدون إذن السلطان ممـا ترتب عليه عزله، وقد وصل مبلغ المصادرة إلى ١٠٠,٠٠٠ دينار وانتهى به الحال إلى الإفراج عنه.[٢٦٤]

نقرأ أيضاً في المصادر المملوكية عن مصادرة الأمير تنكزبغا حاجب طرابلس الذى تمـت مصادرته على يد نائب طرابلس في عهد السلطان الناصر فرج عام ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م وقد قتل في النهاية.[٢٦٥]

---

260 المقريزى، السلوك، جـ٣ ق١، ص٢١٥ - ٢١٦؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص٦٠، ٦٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص١٢٢، ١٢٠.

261 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص١٢٠.

262 المقريزى، السلوك، جـ٣ ق١، ص٣٤١؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٢٣٣، البيومى إسماعيل، مصادرة الأملاك، ص٢٢٠ وما بعدها.

263 المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٢، ص٧٦٥.

264 المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٢، ص١٠٦٤؛ بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٦٢٩؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٤، ص ١٩١؛ البيومى إسماعيل، مصادرة الأملاك، ص٢٣٩.

265 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧١٤.

أمـا كزل العجمى حاجب الحجاب وأمير الحاج الذى صادره السلطان الناصر فرج بن برقوق في عام ٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م بسبب سوء سيرته مع الحجاج وأخذ الأموال منهم، فقد انتهى به المطاف إلى الهرب وبلغت قيمة مصادرته حوالى ٢٠٠,٠٠٠ درهم.[٢٦٦]

وتخـبرنا المصادر المملوكية أيضاً عن آقبغا شيطان الذى كان يشغل كل من الولاية والحجوبية والحسبة في آن واحد، ثم قبض عليه في عام ٨٢١هـ/ ١٤١٨م في عهد السلطان المؤيد شيخ المحمودى، وكان منفذ المصادرة الإستادار فخر الدين "وجعل في باشة حديد وأخذ جميع موجوده.[٢٦٧]

كمـا يـتحدث المؤرخـون عن الزينى فرج الحاجب الذى تمت مصادرته في عهد السـلطان قنصـوه الغورى في عام ٩١٢هـ/ ١٥٠٦م على يد المحتسب بسبب امتناعه عن حراسـة بعـض الجسـور، وقد بلغت مصادرته ٥,٠٠٠ دينار وانتهى به الحال إلى الإفراج عنه.[٢٦٨]

هكـذا واصـلت الدولـة المملوكية مصادراتها للحجاب حيث سجلت كتابات بعض المؤرخين المعاصرين ما يقرب من خمس عشرة حالة مصادرة.

بقـى أن يجيـب الباحث على استفسار حول معاملة الدولة للحجاب المحكوم عليهم بالسـجن؟ للإجابـة عن هذا التساؤل تشير المصادر إلى حوادث عام ٧١٥هـ/ ١٣١٥م فقد قبض على جمال الدين بكتمر الحسامى الحاجب بتهمة التآمر على السلطان وصودر وأخذ منه مائة ألف دينار وسجن، وفى عام ٨١٦هـ/ ١٤١٣م أفرج عن الأمير بكتمر وخلع عليه بنيابة صـفد، وأنعـم علـيه بمائتى ألف درهم، وقد تمت معاملته أثناء اعتقاله معاملة تنطوى على التسـامح والكـرم والعطـف، وعبارة المقريزى خير دليل على ذلك إذ يقول: "ولم يفقد غير ركوب الخيل، بل أن السلطان أرسل له في السجن بجارية حملت منه وولدت ولداً".[٢٦٩]

وفـى عـام ٨١٢هـ/ ١٤٠٩م تم القبض على الأمير كزل الحاجب واعتقل بسجن الإسكندرية وتمت معاملته بصورة حسنة.[٢٧٠]

وتشـير المصـادر أيضـاً إلـى المؤيد شيخ الذى قام بالقبض على ثلاثة من أمراء الألوف أحدهم حاجب الحجاب قجق، واعـتقلوا جميعاً بسجن الإسكنـدرية عام ٨١٧هـ/

---

[266] المقريزى، السلوك، جـ٤، ق١، ص٣٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧٦٠.

[267] المقريزى، السلوك، جـ٤ ق١، ص٤٤١؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٤، ص٦٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٣٧؛ محاسـن الوقاد، الألقاب والكنى الشعبية الساخرة في عصر سلاطين المماليك ٦٤٨ – ٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م، حولية التاريخ الإسلامي والوسيط، جـ٢، القاهرة، ٢٠٠٢، ص١٢٧.

[268] ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص٣٨.

[269] المقريزى، السلوك، جـ٢ ق١، ص١٤٤، ١٦٢ – ١٦٣.

[270] الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص٢٥٧.

١٤١٤م.[٢٧١]

وقد تعرض بعض الحجاب إلى الضرب من قبيل بعض الأمراء، ففى عام ٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م اجتمع المماليك وتوجهوا خلف الأمير يشبك بن أزدمر، ووصلوا إلى خانقاه سرياقوس وضربوا الحاجب محمد بن جلبان الصغير، مما أدى إلى وقوع فتنة بسبب هذا العمل.[٢٧٢]

الحجاب والشعارات المميزة (الرنوك):

بعد أن تحدثنا عن الوظائف التى كان يقوم بها الحاجب إبان العصر المملوكى، يتبادر إلى الذهن تساؤل هل كان للحاجب رنك[٢٧٣] يدل على وظيفته؟ وهل كان رنك الحجاب ثابت الشكل أم اختلف من حاجب لآخر ومن درجة لأخرى داخل وظيفة الحجابة نفسها؟

درج السلاطين والأمراء المماليك بل وموظفو الإدارة السلطانية على اتخاذ شعارات لهم، وهى المعروفة باسم الرنوك؛ وقد اختلفت من شخص لآخر حسب مقامه ووظيفته.. ونظراً لأن الحاجب كان من موظفى الإدارة السلطانية فقد اتخذ له رنكاً مميزاً، فقد كان رنك الحجاب عبارة عن البغل، وهو يمثل عادة سائراً من اليمن في اتجاه اليسار أو العكس حاملاً فوق ظهره ما يشبه خرجاً للبريد على هيئة قبة يعلوها هلال،[٢٧٤] ولذا حاول البعض أن يربط بينه وبين رنك الشطب أو البريدى، واعتقدوا أنه يرمز إلى شعار البريدى أيضاً الذى لم يرق له استخدام رنك غفل من الشارات والرموز، فاتخذ من هذا الرسم شعاراً له،[٢٧٥] استناداً إلى أن لفظة بريد، الفارسية الأصل كانت تعنى مقصوص الذنب، لأنه كان من عادة الفرس أنهم إذا أقاموا بغلاً في البريد قصوا ذنبه ليكون ذلك علامة على أنه صار من بغال البريد.[٢٧٦]

---

271 الصيرفى، نزهة النفوس جـ٢، ص٣٤٣؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزهرة، جـ١٤، ص٢٣؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ١٠، ص١١٣٩.

272 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص٢١٢.

273 جرت العادة عند تأمير المملوك أن يعطى رنكاً أو شعارا يشير إلى وظيفته، والرنك جمعه رنوك وهى كلمة فارسية بكاف معقودة كالجيم المصرية تنطق رنج بمعنى لون. المقريزى، السلوك، جـ١ ق٣، ص٦٧٢؛ على إبراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية، ص١٩٦؛ حسن الباشا، الفنون الإسلامية، جـ١، ص١٧٠؛ أحمد عبد الرازق، الرنوك الإسلامية، القاهرة ٢٠٠١م، ص٤٨؛ الرنوك على عصر سلاطين المماليك، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الحادى والعشرون ١٩٧٤م، ص٦٧؛ وقد استخدم في مصطلح المؤرخين بمعنى الشارة أو الشعار الشخصى الذى يتخذه الأمير لنفسه عند تأمير السلطان له، علامة علي وظيفة الإمارة التى يعين عليها، فيكون رنك الدوادار الدواة والمقلمة، ورنك الأمير آخور نعلة الفرس ورنك السلاح دار القوس وهكذا. المقريزى، السلوك، جـ١ ق٣، ص٦٧٢؛ انظر أيضاً محمد مصطفى، الرنوك في عصر المماليك، مجلة الرسالة، العدد ٤٠٠ مارس ١٩٤١م، ٢٦٨ وما بعدها L.A. Mayer, *Saracenic Heraldry*, Oxford, 1933, pp. 1-7.

274 Mayer, *Saracenic Heraldry*, p.8, PL.2.

275 أحمد عبد الرازق، الرنوك على عصر سلاطين المماليك، ص٧٨؛ الرنوك الإسلامية، ص١١٢؛ سند أحمد سند، البريد في عصر دولة سلاطين المماليك البحرية، رسالة ماجستير، كلية الآداب – جامعة عين شمس، القاهرة، ٢٠٠٠، ص١٢٥.

276 القلقشندى، صبح الأعشى، جـ١٤، ص٣٦٧؛ حسن الباشا، الفنون والوظائف، جـ١، ص٢٩٨؛ أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٩٥م، ص٨٧؛ الرنوك الإسلامية، ص١١٢.

بيد أن محاولة لحصر التحف والآثار المملوكية التى ظهر عليها هذا الرمز مصحوباً ببعض الأسماء والوظائف تكشف لنا عن وجود هذا الشعار على مشكاة من الزجاج المموه بالمينا ترجع إلى عام ٧٢٩هـ/ ١٣٢٩م عليها كتابة أثرية نصها "مما عمل برسم تربة الأمير المرحوم علاء الدين على ولد المقّر المرحوم السيفى بكتمر الحاجب تغمده الله برحمته"،[٢٧٧] ومن الملاحظ أن هذه الكتابة مصحوبة برنك على هيئة حصان له سرج فخم.[٢٧٨]

ويظهر هذا الرنك أيضاً منقوشاً على بوابة خان العسل بحلب، الذى أمر بتشيده موسى الناصر حاجب المملكة الحلبية، وفرغ منه في شهر جمادى الآخر عام ٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م،[٢٧٩] مما يدفع إلى الاعتقاد بأن هذا الشعار كان رمزاً للحاجب.[٢٨٠]

وتوجد أيضاً مجموعة من الرنوك تشير إلى بعض الوظائف مصحوبة بأسماء ووظائف حجاب لا علاقة لها بالرنك المصاحب لها، فهناك كتابة أثرية على مشكاة ترجع إلى ما بعد عام ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م باسم الأمير الكبير يلبغا الناصرى الأشرف أمير حاجب بالأبواب الشريفة،[٢٨١] والكتابة مصحوبة برنك السيف،[٢٨٢] شعار السلحدار.[٢٨٣]

ولدينا أيضاً كتابة أثرية على إناء من نحاس أحمر في مجموعة مدام ماسبيرو M^me Maspero[٢٨٤] في باريس تعود إلى سنة ٨٧٢هـ/ ١٤٦٨م باسم المقر الأشرف العالى المولوى الأمير الكبيرى تمر أمير حاجب الحجاب بالقاهرة، والكتابة مصحوبة برنك يتألف من ثلاثة مناطق:في العليا بقجة وهى تركز إلى شعار الجمدار، وفى الوسطى سيف أحدب يتقاطع معه كأس شعار الساقى، وفى الثالثة كأس.[٢٨٥]

وهناك كتابة أخرى مصحوبة برنك يتألف من ثلاثه مناطق في العليا بقجة، وفى الوسطى كأس بها داوة شعار الدوادار بين فرعى سروال، وفى السفلى كأس على إناء نحاس

---

277 Wiet, G., *Catalogue général du Musée Arabe du Caire, Lampes et bouteilles en verre émailé,* Le Caire, 1982, p.128; Mayer, *Saracenic Heraldry*, p.260; Et. Combe, J. Sauvaget et G. Wiet (eds.), *Répertoire chronologique d' épigraphie arabe*, Le Caire, 1944, tome 13, p. 253.

278 انظر شكل ١ بنهاية البحث Mayer, *Saracenic Heraldry*, p.260.

279 Mayer, *Saracenic Heraldry*, pp. 168-169; Et. Combe, J. Sauvaget et G. Wiet, *Répertoire chromologique d' épigrahie*, tome 15. p.236; Ernst Herzfeled, *Matériaux pour un corpus inscriptorum arabicarum Deuxième partie, Syrie du nord*, tome 1-Vol 1 (texte), Le Caire, 1955, pp.346-347, fig 106.
Sauvaget, J., *Caravansérails syriens du moyen âge, II. Caravansérails Mamelouks*, Ars Islamica, 1940, p. 6.

280 أحمد عبد الرازق، الرنوك الإسلامية، ص١١٣.

281 حسن الباشا، الفنون والوظائف، ص٢٠٩؛ Wiet, *Catalogue général du Musée Arabe*, p.174; Lane-Poole, *Art of the Saracens in Egypt*, Librairie Byblos Arts et Métiers, 1886, p.218.

282 حسن الباشا، الفنون والوظائف، ص٢٠٩؛ Mayer, *Saracenic Heraldry*, p. 248 انظر شكل ٢ الوارد بالبحث.

283 أحمد عبد الرازق، الرنوك الإسلامية، ص١٠٠.

284 حسن الباشا، الفنون والوظائف، ص٢٠٩.

285 انظر شكل ٣ الوارد بالبحث Mayer, *Saracenic Heraldry*, p.231, PL.23.

يــرجع إلى ما بين سنتى ٨٩٤هـ/٩٠٣هـ/ ١٤٨٩ - ١٤٩٧م برسم المقر الأشرفى السيفى قانصوه الغورى أمير حاجب بحلب المحروسة.[٣٤٠]

أخــيراً هناك كتابة أثرية من طرابلس مصحوبة برنك على هيئة سيف مورووب على درع مقسمة ثلاثة أقسام[٣٤١] بوقفية على واجهة مسجد السقراوية بتاريخ عام ٧٦٠هـ/١٣٥٩م باسـم سـيف الديـن آقطـرق الحاجب الذى جعل النظر فيها "إلى من كان أمير حاجب كبير بطرابلس".[٣٤٢]

ويمكـن تفسـير هذا الأمر بأن صاحب الرنك المذكور، شغل في وقت من الأوقات الوظـيفة التى يشير إليها ذلك الشعار، ثم انتقل فيما بعد إلى الوظيفة المصاحبة لهذا الرنك أو علـى الـتحفة المشار إليها، أو الكتابة الأثرية، وفاته أن يسجل الرمز الدال على هذه الوظيفة الجديدة، فقد جرت العادة كما سبق وأن ذكرنا أنه إذا منح أحد الأمراء رنكاً معيناً ظل محتفظاً بـه طوال حياته،[٣٤٣] بل قد يضيف إليه رنك الوظيفة الآخرى التى يتقلدها أو ينتقل إليها مثل حالة الأمير قايتباى الجركسي.[٣٤٤]

تدهور وظيفة الحجابة:

مـن الوظـائف الـتى ساعدت الرشوة على تدهورها وظيفة الحجابة التى وضعها القلقشـندى في المرتبة الثامنة بين الوظائف العسكرية وكان صاحبها يعرف بحاجب الحجاب ويعاونـه فـي العـادة عدد آخر من صغار الحجاب وصل عددهم في أواخر عصر المماليك الجراكسـة إلـى ما يقرب من عشرين حاجباً كان جميعهم من غير الأمراء الذين نجحوا في الوصول إلى مناصبهم بالبذل والبرطلة.[٣٤٥]

---

340 Mayer, *Saracenic Heraldry*, pp.178-179. PL.28, LXVIII; Artin, Y., *Contribution à l'étude du Balson en Orient*, London, 1902, Pl. 88: idem, "Trois différént armories de Kaït Bay", *Bulletin de l'instutute égyptien*, 9(1888), fig. 2; Leaf, W., Devolpments in the System of Armorial Insignia during the Ayyūbid and Mamluk Periods", *Palestine Exploration Quarterly*, January-June, 1983, Fig. 23. انظر شكل ٤ الوارد بالبحث. هناك نقش ينسب إلى قنصوه الغورى يؤكد عمله حاجباً للحجاب في حلب المحروسة نشـره هرزفـيلد فـي مجموعـة النقوش العربية، ورد فيه وبُسملة... لما كان بتاريخ شهر رمضان من سنة ست وتسعين وثمانمائـة بـرز المرسـوم الكـريم العـالى السيفى قانصوه الغورى حاجب الحجاب بالمملكة الحلبية المحروسة... انظر Herzfeld, *Matériaux*, p.392.

341 حسن الباشا، الفنون والوظائف، ص٢١٠.

342 Wiet, *Répertoire chronologique d'Épigraphie arabe*, tome 15, pp. 215-216; Mayer, *Saracenic Heraldry*, p. 71; Van Berchem, *Matériaux pour un corpus inscriptonum arabicarum*, pp.109-110, fig. 10.

343 أحمد عبد الرازق، الرنوك الإسلامية، ص٩٠،٩٣؛ Mayer, *Saracenic Heraldry*, p.7

344 السخاوى، التبر المسبوك، ص١٢٢، ٢٥٦؛ أحمد عبد الرازق، الرنوك الإسلامية، ص٩٥؛ Wiet, *Lampes*, p.99.

345 أحمـد عـبد الـرازق، البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٧٩م، ص٣٢ - ٣٣؛ حياة الحجى، السلطة والمجـتمع في سطنة المماليك، فترة حكم سلاطين المماليك البحرية من سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م إلى سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م، الكويت، ١٩٩٧م، ص٦٥ وما بعدها.

وقـد عـرف المقريـزى مصطلح البراطيل بقوله: "وهي التى تؤخذ من ولاة البلاد ومحتسبها وقضاتها وعمالها، فأول من عمل ذلك بمصر الصالح بن رزيك في ولاة النواحي، ثـم أفحـش فـيه الظاهـر برقوق "أى أن هذه الظاهرة برزت في مصر منذ القرن السادس الهجـرى/ الـثانى عشـر الميلادى، ولكننا لم نسمع في بدايتها أنها قد أضرت أو أثرت على مجـريات الأمـور العامة بالدولة ولكن الخطير في الأمر أن الظاهر برقوق هو الذى تمادى وأفحش في هذا النظام في عصره وتفاقم في عهد من بعده من السلاطين حتى أن هذه الظاهرة صـارت القاعدة المقررة وذلك يتضح من أقوال المؤرخين المعاصرين وكان لها أسوأ الآثار كما سنعرض.[٣٤٦]

هـناك العديد من الأسباب والظروف التى ساعدت على تدهور وظيفة الحجابة زمن سلاطين المماليك تمثلت في تدخل الحجاب في غير اختصاصاتهم وتعديتهم وتدخلهم في أعمال القضاة، بالإضافة إلى شراهتهم في جمع الأموال بأى صورة من الصور. ويفهم من المصادر المعاصـرة أن الأمر قد تفاقم زمن السلطان المؤيد شيخ، الذى اعتلى كرسى السلطنة في عام ٨١٠هـ/١٤١٢م والدليل على ذلك ما سجله المقريزى في أحداث عام ٨٢٠هـ/ ١٤١٧م من أنـواع الظلـم الـتى عمت أرجاء البلاد وشملت جميع الحكام ما بين محتسب ووال وحجاب وقضـاة، ونائـب غيـبة واستادار. حقيقة أن هذا المؤرخ قد نجح في إعطاء الباحث صورة واضحة لما كان عليه المجتمع زمن المؤيد شيخ، إلا أنه لم يخرج من التعميم إلى التخصيص، وإنمـا ركز كلامه عن أنواع الظلم الذى عانى منها المجتمع في هذه الفترة ومن بينها الرشوة التى صارت على زمن هذا السلطان مورداً رسمياً من موارد الدولة المالية.[٣٤٧]

وقـد صـور لـنا المقريزى حال الحجاب على عصره ومدى التدهور الذى أصاب وظيفة الحجابة فقال: "وأما الحجاب فإنهم وأعوانهم قد انتصبوا لأخذ الأموال بغير حق من كل شـاك إلـيهم، ومشكو عليه، فما من أحد من الحجاب إلا وفى بابه رجل يقال له رأس نوبة، يضمن له في كل يوم قدراً معلوماً من المال، يقوم له به، ومن هذا المال المضمون يقيم أوده، فيسـقط رأس نوبة على النقباء الذين تحت يده ما ضمنه للحاجب، ومالا بد له من صرفه على عـياله، ومؤونه فرسه، وأجرة سايسها، وما اعتاده من المحرمات التى لا يتركونها ما وجدوا إليها سبيلاً، وما يرصده ويدخره عنده عدة له في وقت مكروه ينزل به من عزله، أو مصادرة الحاجب له، أو غير ذلك من العوارض فيتناول من كل واحد من النقباء شيئاً مقرراً عليه عند مضـيه فـي طلب غريم، يقال له الإطلاق. فإذا حضر الغريم فتح عليه رأس نوبة أبواباً من أنواع مكرهم الذى تفقهوا فيه، فيحتاج إلى بذل المال له، ولدوادار الحاجب، وللحاجب، بحسب مـا يقتضـيه رأيهم. فربما بلغ الغرم في الشكوى الآلاف من الدراهم، فإنهم يسلسلون قضايا

---

346 المقريزى، الخطط، جـ٢، ص١١٠؛ جمال جرجس، القضاء في العصر المملوكى، ص١٦٤.

347 أحمد عبد الرازق، البذل والبرطلة، ص٣٢ وما بعدها.

ظلمهـــم حتى يستمر المشكو في الترسيم الأيام والأشهر. وجميع ما يتحصل للحجاب من هذه الوجـــوه فـــإنهم يصرفونه فيما لا تجيزه أمة من الأمم من أنواع قبائح المحرمات، ولا يكلفون حمل شيء منه إلى السلطان.[٣٤٨]

ولا يحـــتاج هذا النص إلى تعليق أو إضافة فمن الواضح أن المشكو البائس عليه أن يدفـــع للنقيـــب الذى يحضره لرأس النوبة والدوادار الحاجب وللحاجب أى أن هذا الجيش من الأعـــوان يعـــيش علـــى ظلم من يوقعه سوء حظه وبؤس قدره بين أيديهم من عامة الشعب المغلـــوب علي أمره. وقد ساق الباحث هذا النص كاملاً لأنه دليل على أن نظام بيع الوظائف كان من العوامل التى أدت إلى خراب مصر زمن سلاطين المماليك.

أسهمت الرشوة في تدهور هذه الوظيفة بعد أن أصبحت من السمات المميزة لعصر ســـلاطين الممالـــيك، وبعد أن أصبحت الطريق الوحيد إلى الوظائف المهمة في الدولة، وكان ذلـــك بطبيـــعة الحـــال على حساب الجدارة والكفاءة اللتين أصبحتا لا وجود لهما أمام طوفان الأمـــوال المبذولة، مما أفضى إلى خراب الدولة خاصة بعد أن أصبحت الرشوة هى الطريق إلى مجال الوظائف العسكرية التى كانت بمثابة العمود الفقرى لدولة سلاطين المماليك.[٣٤٩]

ويـــبدو أن الأهمية الزائدة للوظيفة واتساع نطاق اختصاص الحجاب زمن سلاطين المماليك كانت وراء هذه المبالغ الضخمة التى كانت تبذل بغير حساب على هذه الوظيفة، فقد كانـــت وظـــيفة الحجابـــة من بين أهم الوظائف التى تولى بالرشوة ويسعى في ذلك راغبوها فتولاه بعض الحجاب من غير الأمراء بالبذل فكان أن تدهورت تلك الوظيفة كغيرها.[٣٥٠]

وقـــد كتـــب المقريـــزى معلقاً على نظام بيع الوظائف بقوله: "أن الولايات كلها من القضاء والحسبة وولاية الحرب في الأعمال والكشف، وسائر الوظايف، لا سبيل أن ينالها أحد إلا بمـــال، يقوم به أو يلتزم بأدائه، ويكتب به خطة، فتطاول كل نذل رذل وسفلة إلى ما سنح بخاطره من الأعمال الجليلة والرتب العلية، فدهى الناس من ذلك بداهية دهياء، أوجبت خراب مصر والشام، كما ستراه فيما يمر بك على طول السنيين في أوقاته".[٣٥١]

أمـــا تعلـــيق الصـــرفى علـــى نظـــام بـــيع الوظائف فيذكر بقوله: "هذا الأمر من المنكرات".[٣٥٢]

[348] المقريزى، السلوك، جـ٤ ق١، ص٣٩٠ – ٣٩١.
[349] أحمد عبد الرازق، البذل والبرطلة، ص٤٣.
[350] إسماعيل عبد المنعم، الأمراض الاجتماعية، ص٢٠٩.
[351] المقريزى، السلوك، جـ٣ ق١، ص٣٢٤.
[352] الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٣، ص١٦٧.

أمـــا ابـــن إيـــاس فقد شارك أيضاً في السخط علي نظام بيع الوظائف بقوله: "وهذه الأمـــوال العظـــيمة الـــتى سعى بها هؤلاء ما يستخلصونها إلا من أضلاع المسلمين والأمر لله".[353]

وتـــتحدث المصـــادر عـــن الأشخاص الذين نجحوا في الوصول إلى وظيفة الحجابة بالـــبذل والـــبرطلة ومن هؤلاء الطنبغا مملوك طراباى الذى استقر في حجوبية غزة في عام ٨٥١هـــ/١٤٤٧م،[354] وعبد العزيز بن محمد الصغير الذى صار في عام ٨٥٣هـــ/١٤٥٠م مـــن جملة الحجاب بالقاهرة بعد أن قدم للسلطان جقمق عدة خيول،[355] ويشير النوروزى الذى عمـــل بكل من حجوبية طرابلس ودمشق بالبذل لعدم تأهله،[356] ومن بين الذين تولوا حجوبية هـــذه النيابة أيضاً تشير المصادر إلى يشبك داودار قالى باى البهلوان الذى استقر فيها بالبذل فـــي عام ٨٥٩هـــ/١٤٥٥م لكونه من الأوباش ولم تسبق له رئاسة،[357] وإلى شاذبك الصارمى الذى صار حاجباً للحجاب بها بالبذل.[358]

كمـــا تحـــدث الســـخاوى عن قاسم بن جمعة الشباسى الذى بذل مالا لتولى حجوبية الحجاب بحلب في عام ٨٥٣هـــ/١٤٥٠م.[359]

ويضيف ابن تغرى بردى إليهم العلائي الأزبكى المتكلم في عد الغنم بالبلاد الشامية الـــذى بذل خمسة وأربعين ألف دينار لتكون معه مضافة لعد الأغنام، بيد أن الشهابى أحمد بن قليـــب حاجب طرابلس لم يكن يقبل مثل هذا التعدى الصارخ علي وظيفة فتسارع بعرض بذل قـــدرة خمســـون ألف دينار على الوظيفتين نكاية للأزبكى، الذي يبدو أنه قبل التحدى فوقعت الـــزيادة بيـــنهما حتى وصل المبلغ المعروض على السلطان الظاهر خشقدم ستة وسبعين ألف ديـــنار، وفى هذا يقول ابن تغرى بردى: "وهذا شيء لم نسمع مثله في سالف الأعصار، وما يكـــون شـــأن هاتيـــن الوظيفتين حتى تصلا إلى هذا الحد" وحسماً للموقف اقترح الشهابى بن العيـــنى على السلطان أن يظل كل منهما على وظيفته في مقابل سبعين ألف دينار ثلاثين على الأزبكى، والباقى على ابن قليب."[360]

---

[353] ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ٥، ص٢٧.

[354] السخاوى، التبر المسبوك، ص١٧٤ – ١٧٥؛ أحمد عبد الرازق، البذل والبرطلة، ص٥٥.

[355] السخاوى، التبر المسبوك، ص١٧٤؛ أحمد عبد الرازق، البذل والبرطلة، ص٥٥.

[356] السخاوى، الضوء اللامع، جـــ١٠، ص٢٨٠.

[357] ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـــ١٦، ص٩٢؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـــ١٠، ص٢٨٠؛ رقم ١١٠٠؛ أحمد عبد الرازق، البذل والبرطلة، ص٥٥.

[358] السخاوى، الضوء اللامع، جـــ٣، ص٢٩٠ رقم ١١٠٣.

[359] السخاوى، التبر المسبوك، ص٢٧٠.

[360] ابن تغرى بردى، منتخبات من حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، ص٥٢٨؛ أحمد عبد الرازق، البذل والبرطلة، ص٥٦.

ولم يقتصر أمر البذل على تولى وظيفة الحجاب فقط بل عداه إلى الانتقال منها كذلك فقــد روى ابــن تغرى بردى أن الأمير خير بك النوروزى حاجب صفد استقر في عام ٨٥٢ هــــ/ ١٤٤٨م فــي نـيابة غــزة عوضا عن طوغان العثمانى وذلك بمال كبير بذل في ذلك لوضاعته في الدولة.[٣٦١]

وقــد بــات واضحاً أن البذل والبرطلة قد أفضيا في النهاية إلى توصل أوباش الناس إلــى الرتــب العلــيا في الدولة كما أفضيا كذلك إلى انصرافهم عن مباشرة مهامهم ووظائفهم وأعبائهم إلى جمع المال من كل صوب وحدب إما لتعويض ما سبق أن بذلوه للحكام على هذه الوظــائف، وإما لجمع أكبر قدر ممكن،[٣٦٢] بعد أن أيقنوا أن فترة ولايتهم لن تطول إلا بتجديد البذل والبرطلة.[٣٦٣]

والــتاريخ المملوكــى ملــىء بالكثير من هذه المهازل، فيشير ابن تغرى بردى في حــوادث عــام ٧٤٣هــــ/ ١٣٤٢م أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون قد قبض على أحد مماليكه ويدعى ركن الدين بيبرس والذى كان قد ولاه الحجوبية، ثم جرده إلى اليمن فلما بلغها أخذ براطيل من صاحبها وتراخى في أمر السلطان.[٣٦٤]

وقد ترتب على البذل أيضاً أن قصر متوسط مدة الوظيفة وبالتالى كثرة عدد متوليها من الحجاب في فترة ما.. فنتبين من أغلب مصادر التاريخ المملوكى أن متوسط مدة الوظيفة قــد تــراوح بين العام والعامين وإن لم يمنع ذلك أن يتولاها الحاجب خمسة أعوام متتالية.[٣٦٥] الأمــر الذى أدى إلى تزايد عدد الحجاب في عهد السلطان الواحد كلما تزايدت أهمية الوظيفة وتــزايد مقــدار البذل فيها ويتضح ذلك للباحث من عدد الحجاب الذين تولوا هذا المنصب في عهــد الســلطان الناصــر محمد بن قلاوون إذ بلغ عدد من تولاها في تلك الفترة أى من عام ٧٠٩ – ٧٤٠هــــ/ ١٣٠٩ – ١٣٣٩م أربعة عشر حاجبا هم سنقر الكمالى، بكتمر الحسامى، لاجيــن العمــرى، الطنبغا محمد بن الوزيرى، طينال بيبرس أمير أخور، الماس الجاشنكير، قطلوبغا المعزى، أمير مسعود بن الخطير، جاريك قفجق ايدغدى الخوارزمى أقول، محمد بن خطــير برسبغا، ويبدو أن كثيراً ما كان السلطان يولى الحجاب هذه الوظيفة مادامُوا حائزين علــى رضــاه، فإذا غضب عليهم عزلهم واستبدل بهم غيرهم أو أمر بالقبض عليهم، فيشير الصيرفى في حوادث عام ٨١٦هــ/ ١٤١٣م "خلع على الأمير إينال الصصلائى خلعة الرضا

---

361 ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جــ١٥، ص٣٨٧؛ أحمد عبد الرازق، البذل والبرطلة، ص٣٥.

362 ابن حجر، الدرر الكامنة، جــ١، ص٤٣٠ – ٤٣١.

363 ابــن حجر أنباء الغمر، جــ٣، ص٤٧٦؛ المقريزى، السلوك، جـــ٤ ق٣، ص٨٧٠ – ٨٧١؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جــ١٤، ص٣٦٠ – ٣٦١؛ الصيرفى، نزهة النفوس، جــ٣، ص٢٣٧ – ٢٣٨؛ أحمد عبد الرازق، البذل والبرطلة، ص١٣٨.

364 النجوم الزاهرة، جــ١٠، ص١٠٠.

365 الصيرفى، نزهة النفوس، جــ٢، ص٥٦.

لما كثر فيه من القيل والقال".[366] هذا في حالة الرضا من السلطان، أما حالة غضبه عليهم فإن الأمر ينتهى بعزلهم أو القبض عليهم وسجنهم أو قتلهم.

وقد تعددت أسباب غضب السلطان على الحجاب وكذلك تعددت أسباب عزلهم، فيحدثنا الصيرفي في حوادث عام ٨٣١هـ/ ١٤٢٧م بأنه خلع على الأمير بردبك الاسماعيلى واستقر حاجبا ثانيا بالديار المصرية عوضا عن الأمير إياس الجلالى بحكم عزله وكان السبب في ذلك أن إياس الجلالى لا يخلو شهر من الشهور ولا جمعة من الجمع إلا ويشكو للسلطان من ضعف حاله وعجز إقطاعه وكثرة مصروفه، فوقع أنه يوما من الأيام فعل عادته وأمعن في الكلام فغضب السلطان عليه ورسم أن يحبس في بيته وأخرج عن إمرته وعزله عن الحجابة.[367]

أما المؤرخ السخاوى فيشير في حوادث عام ٨٥٣هـ/ ١٤٤٩م بأنه تم عزل علان المؤيدى من حجوبية الحجاب لشكوى نائبها منه، ولكنه استمر في وظيفة بسفارة كاتب السر،[368] حيث عرف السلطان أن سبب التنافر بينه وبين النائب قيام الحجاب بإزالة المنكرات من حلب وأمره بالمعروف فيها، ثم لم يلبث أن قدم كل منهما إلى أستاذه محجته فآل السلطان إلى النائب وعزل الآخر ورسم له بالتوجه إلى طرابلس بطالا،[369] وقرر عوضه في الحجوبية قاسم بن جمعة الشباسى بمال بذله.[370]

وقد ترتب على البذل والبرطلة كذلك ظاهرة جديدة هى الجمع بين عدة وظائف في آن واحد إلى جانب وظيفة الحجوبية، مما أفضى ليس فقط إلى فساد هذه الوظائف وتدهورها، بل إلى تدهور الجهاز الإدارى برمته بعد أن سرى الفساد في جميع أركان الدولة.[371]

وتطالعنا أغلب الكتابات المملوكية بما لا يذع مجالاً للشك بأنه في كثير من المجالات كان الحاجب يجمع بين أكثر من وظيفة إلى جانب الحجابة، فيروى ابن إيبك في أحداث عام ٧١٠ هـ/ ١٣١٠م أن الأمير سيف الدين بكتمر الحاجب تولى الوزارة بمصر إلى جانب الحجابة عوضاً عن الوزير فخر الدين،[372] وفى عام ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م تولى الأمير سيف

---

366 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص٢٣٠.

367 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٣، ص١٣٠.

368 كاتب السر، ناظر ديوان الانشا وهو المسئول عن قراءات الكتب للسلطان والرد على الرسائل وقراءة القصص بدار العدل. البيومى إسماعيل، النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك، سلسلة تاريخ المصريين رقم ١١٨، القاهرة، ١٩٩٨م، ص٤٠٢.

369 البطالون من الأجناد والأمراء هم العاطلون من أعمال الدولة ووظائفها وإقطاعاتها، نتيجة غضب السلطان أو كبر السن، أو إضطرارا إلى الأعتكاف والاختفاء، أو لمجرد حب الانزواء والابتعاد، المقريزى، السلوك، جـ١ ق١، ص٧٣.

370 السخاوى، التبر المسبوك، ص٢٧٠.

371 أحمد عبد الرازق، البذل والبرطلة، ص١٣٨.

372 ابن إيبك، كنز الدرر، جـ٩، ص٢٠٨.

الدين طينال الحاجب نيابة طرابلس عوضا عن شهاب الدين قرطاى الحاجب ثم انتقل منها إلى نيابة غزة وذلك في عام ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م.[٣٧٣]

ويذكر ابن إياس في حوادث عام ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م أنه خلع على بكتمر العلمى حاجب الإسكندرية وقرر تعيينه في نقابة الجيش.[٣٧٤]

وفى عام ٧٨١هـ/ ١٣٧٩م خلع على الأمير مامور القلمطاوى واستقر في نظر خانكاه سرياقوس إلى جانب حاجب الحجاب.[٣٧٥]

ويخبرنا ابن إياس أيضا أن خليل بن عرام جمع بين أكثر من وظيفة منها حجوبية الحجاب والوزارة والأستادرية، ونيابة الإسكندرية وغير ذلك من الوظائف وذلك في عام ٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م.[٣٧٦]

وقد جمع علاء الدين الطبلاوى بين عدة وظائف منها ولاية الشرطة والحجابة واستادار خاص الخاص وناظر الكسوة والكعبة ومحتسب القاهرة وولايتها ودار الضرب والمتجر، وقد شق القاهرة في احتفال كبير في عام ٧٩٨هـ/ ١٣٩٥م.[٣٧٧]

ويشير الصيرفى في حوادث عام ٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م بأنه خلع على الأمير فارس حاجب الحجاب واستقر ناظرا للشيخونية والصرغتمشية.[٣٧٨]

وفى عام ٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م خلع على الأمير مبارك شاه الحاجب بنيابة الوجه القبلى.[٣٧٩] وفى نفس العام أيضا خلع على الأمير شهاب الدين الحلبى واستقر في ولاية القاهرة على عادته عوضا عن شهاب الدين أحمد وأضيف إليه ولاية مصر والحجوبية الصغرى.[٣٨٠]

وفى حوادث عام ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م خلع على بهاء الدين رسلان نقيب الجيوش واستقر حاجبا مضافا لما بيده من نقابة الجيش.[٣٨١] وفى نفس العام خلع على الأمير تغرى بردى متولى القاهرة واستقر حاجبا صغيرا مضافا لما بيديه من الولاية.[٣٨٢]

---

373 ابن إيبك، كنز الدرر، جـ٩، ص٣٧٢.

374 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق١، ص١٣٢.

375 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق١، ص٢٥١.

376 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٢٧٥.

377 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص٦٦، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٤٧٣.

378 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ١، ص٤٢٩.

379 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥٧٢.

380 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص٤٧.

381 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص١١٨.

382 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص٣٣٨.

وقـد جمـع الأمير ناصر الدين محمد بن كلفت التركمانى بين الحجوبية وولاية القاهرة عام ٨٠٤هـ/ ١٤٠١م.[٣٨٣]

وفـى عام ٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م جمع مبارك شاه بين الحجابة والوزارة،[٣٨٤] وفى عام ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م أضيف إلى ناصر الدين محمد شد الدواوين.[٣٨٥]

وأثـناء عـام ٨١١هـ/ ١٤٠٨م جمع الأمير أرسطاى بين عدة وظائف نذكر منها رأس نوبة كبيرة ثم تولى الحجابة الكبرى في القاهرة بالإضافة إلى نيابة الإسكندرية.[٣٨٦]

وخلـع علـى الأمير منكلى بغا العجمى في عام ٨١٦هـ/ ١٤١٣م واستقر في حسبة القاهرة مضافا إليه الحجوبية الصغرى أيضا.[٣٨٧]

ومـازال الباحـث يتتبع الوظائف الأخرى التى خلعت على الحجاب إلى جانب وظائفهم، ففى عـام ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م خلـع على الأمير التاج استادار الصحبة الشريفة واستقر في ولاية القاهرة إلى جانب الحجوبية.[٣٨٨]

وفى نفس العام جمع الأمير طرباى حاجب الحجاب بين أكثر من وظيفة إلى جانب الحجوبية، فقد تولى ناظر جامع عمرو بن العاص والجامع الأزهر ومدرسة الأمير الجاى.[٣٨٩]

ويشير ابن إياس في حوادث عام ٨٢٨هـ/ ١٤٢٤م إلى على ناصرى محمد بن العطار الذى جمع بين عدة وظائف منها نيابة الإسكندرية وحجوبية حماة ونظر القدس والخليل.[٣٩٠]

بل أن الصيرفي يندهش عندما يحدثنا في عام ٨٣٧هـ/ ١٤٣٣م بأنه رسم باستقرار خليل بن شاهين الشيخى ناظر الإسكندرية وحاجبها في نيابة الثغر مضافا لما بيده من الحجوبية، فيعبر عـن دهشته هذه بقوله: "فياليت شعرى إذا كان النائب هو الحاجب فماذا يصنع؟ فإن الحاجب معد للوقوف بين يدى النائب وهو أمر لم يعهد من قبل".[٣٩١]

---

383 المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٣، ص١٠٨٨؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٦٥٧؛ الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص١٤٦.

384 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص١٦٦.

385 المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٣، ص١١١٣؛ ومشد الدواوين، موظف مالى له سلطة المراقبة والإشراف والتفتيش وغالباً يلجأ إلى الشدة في عمله، البيومى إسماعيل، النظم المالية في مصر، ص٤٠٥.

386 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص٢٥٠.

387 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص٣٦٥.

388 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص٤٨٧.

389 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص٤٩٨.

390 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص١٠١.

391 الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص٢٨٨.

والواقـــع أن حالـــة الـــبذل من قبل خليل بن شاهين الظاهرى تعتبر أصدق دليل على تدهور وظـــيفة الحجابة، فقد أرسل خليل بن شاهين ثلاثة آلاف دينار، ووعد بمثلها، الأمر الذى أثار دهشة كتاب هذا العصر، لأنه لم يحدث من قبل أن يكون النائب حاجبا، ويعبر المقريزى عن ذلـــك بقولـــه: "ولـــم ندرك مثل ذلك" لاسيما وأن مهمة الحاجب هى الوقوف بين يدى النائب والتصرف بأمره ولكن "هى الأيام كلها قد صرن عجائب حتى ليس فيها عجايب".[٣٩٢]

ويشـــير السخاوى إلى جانبك اليشبكى الذى جمع بين ولاية القاهرة والحجوبية ثم أضيفت إليه الحســـبة في عام ٨٥٤هـــ/ ١٤٥٠م.[٣٩٣] وتمر بن محمود شاه الظاهرى الذى جمع بين ولاية القاهرة وحجوبية الحجاب.[٣٩٤]

ويذكـــر ابـــن إيـــاس فـــي أحداث عام ٩٠٤هــ/ ١٤٩٨م أن الأمير يلباى جمع بين حجوبية طـــرابلس والنيابة[٣٩٥] وفى عام ٩٢٢هــــ ١٥١٦م يشير ابن إياس بقوله: "أخلع السلطان على الأمـــير طقطـــباى حاجـــب الحجـــاب وجعله متحدثاً في كشوفية البحيرية عوضا عن يوسف البدرى، مضافاً لما بيده من الحجوبية الكبرى".[٣٩٦]

وفى كثير من الأحيان كان الحاجب ينتقل إلى نيابة السلطنة، ففى عام ٧٧٥هــ/ ١٣٧٣م خلع السلطان الأشرف شعبان بن حسين على الأمير أقتمر عبد الغنى الحنبلى حاجب الحجاب ونقل من وظيفة الحجوبية إلى نيابة السلطنة بمصر.[٣٩٧]

هكذا، يتبين لنا مدى التدهور الذى آلت إليه هذه الوظيفة زمن سلاطين المماليك الجراكسة بعد أن أقبل الحجاب وأعوانهم على أخذ الرشوة وأكل أموال الناس بالباطل.

والآن قـــبل الحديث عن الأعمال أو الآثار الفنية الباقية للحجاب، فإن ثمة ملاحظات علـــى الباحث أن يقف عندها استنادا إلى الرسومات البيانية التالية والجداول الخاصة بالحجاب على طول العصر المملوكى الواردة في نهاية البحث.

---

392 المقريزى، السلوك، جـــ٤، ق٢، ص٩١٧؛ أحمد عبد الرازق، البذل والبرطلة، ص٤٥.

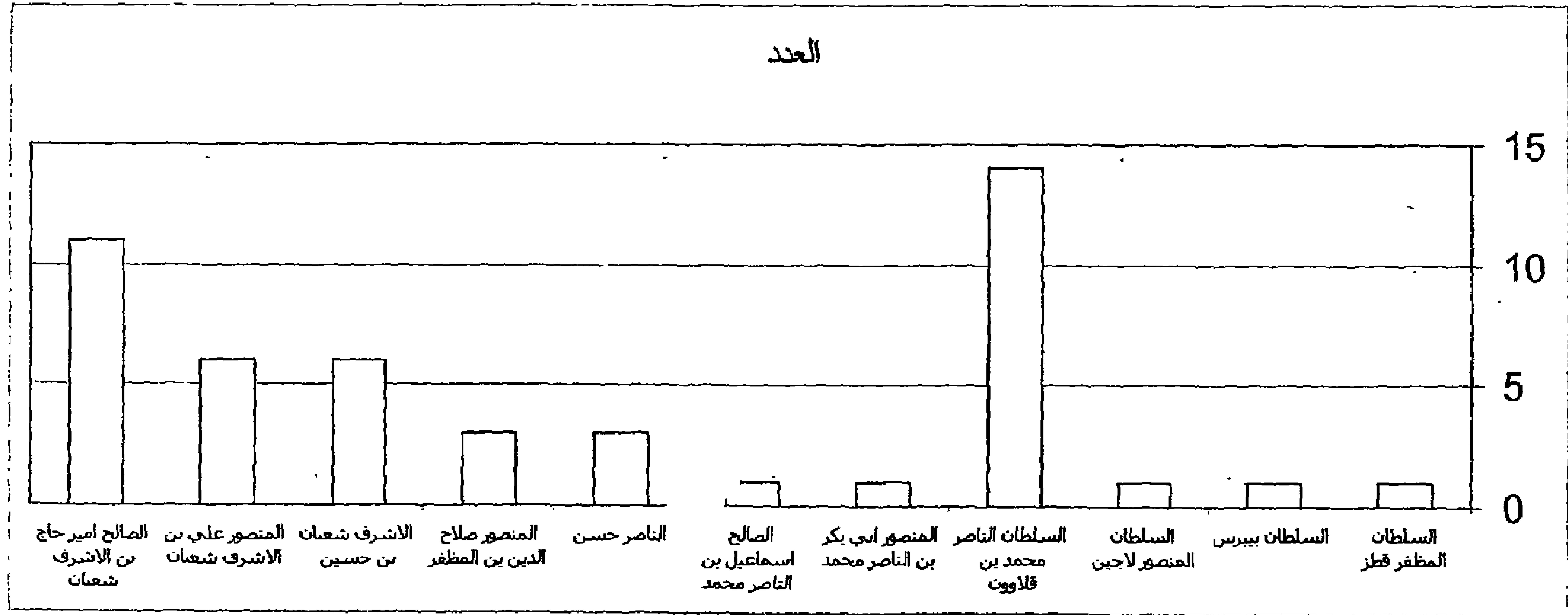
393 السخاوى، الضوء اللامع، جـــ٣، ص٦١ – ٦٢؛ التبر المسبوك، ص٢٦٢.

394 ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ٣، ص١٠٧.

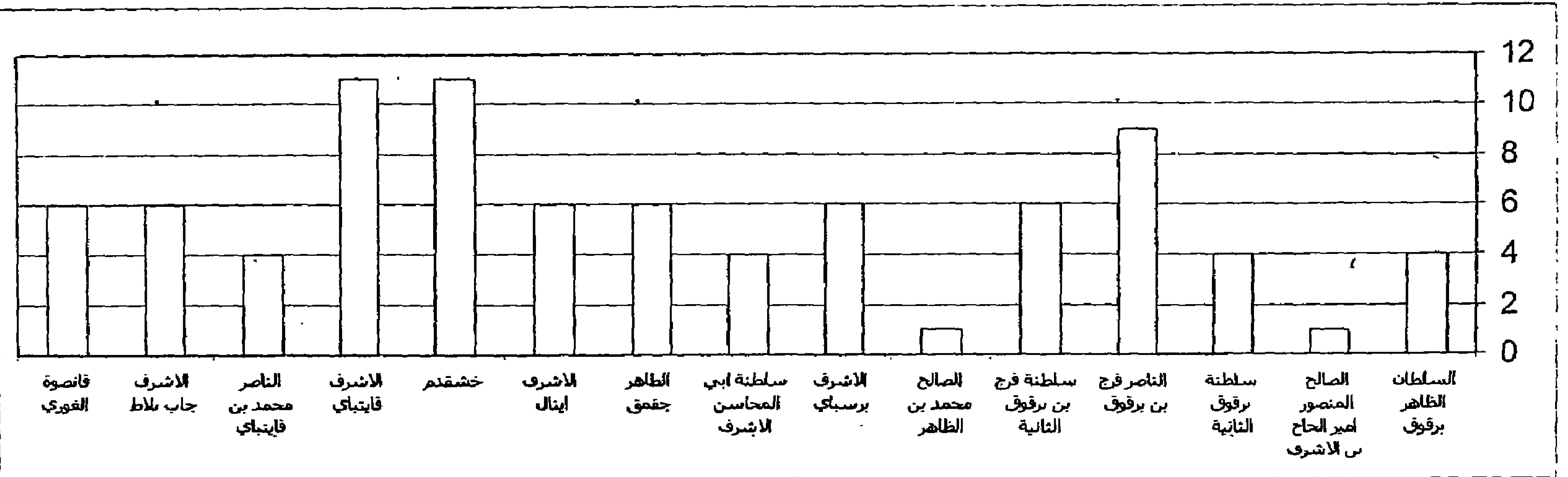
395 ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ٣، ص٤٢٣.

396 ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ٥، ١١٦.

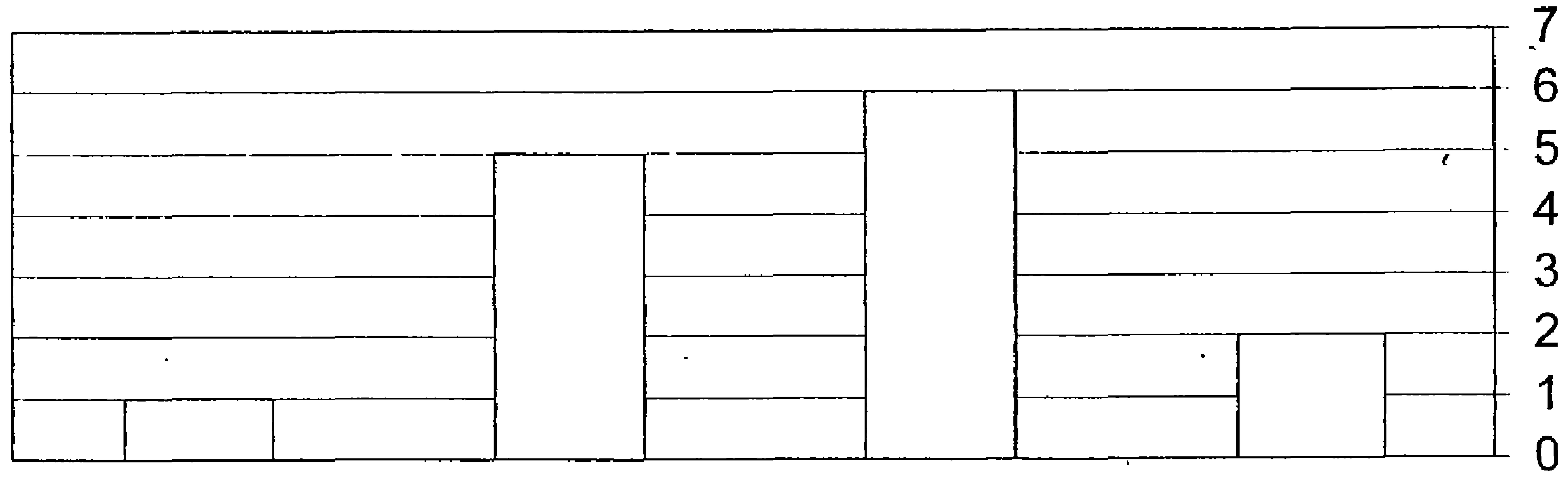
397 ابن إياس، بدائع الزهور، جـــ١ ق٢، ص١٢٣.



شكل (١) التوزيع العددي لحاجب الحجاب بدولة المماليك البحرية

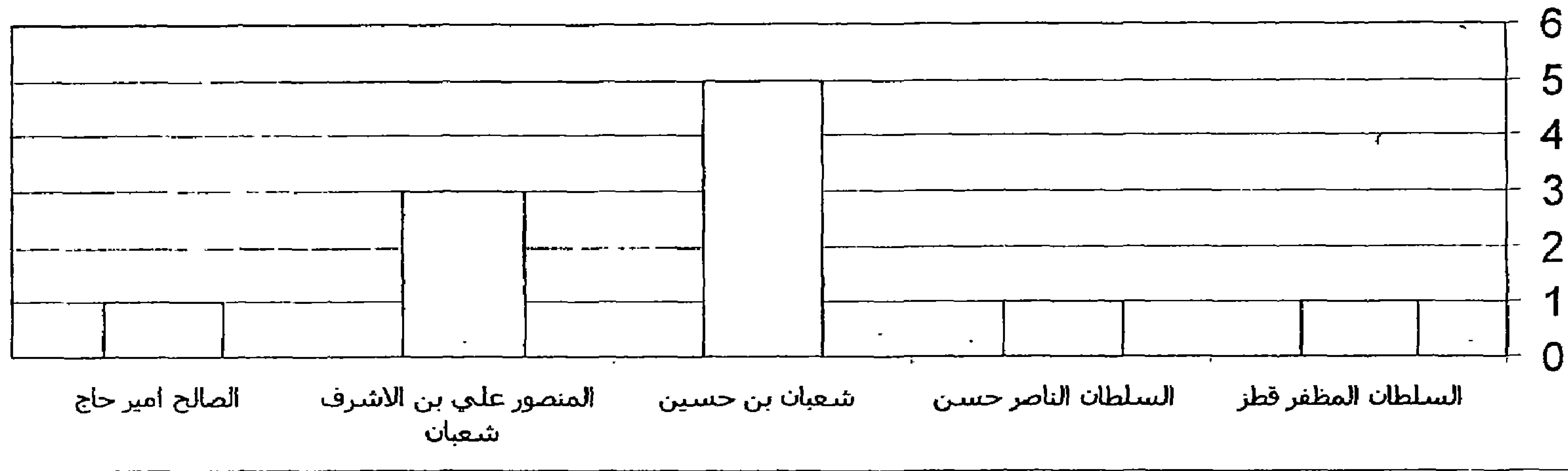


شكل (٢) التوزيع العددي لحاجب الحجاب بدولة المماليك الجراكسة

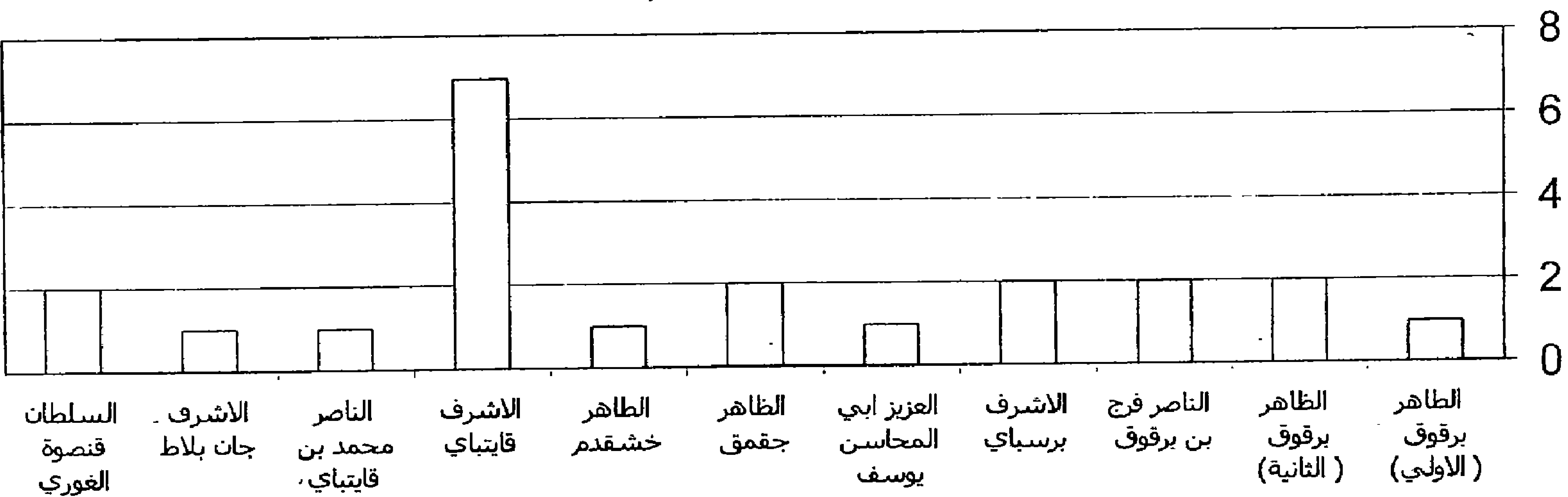


شكل (٣) التوزيع العددي لوظيفة الحاجب بدولة المماليك البحرية

شكل (٤) التوزيع العددي للحاجب بدولة المماليك الجراكسة



شكل (٥) التوزيع العددي لحاجب ميمنة في دولة المماليك البحرية



شكل (٦) التوزيع العددي لحاجب ميمنة في دولة المماليك الجراكسة

يمكــن القول بأن عصر سلاطين المماليك قد شهد تعيين العديد من الحجاب بمصر مــا بين حاجب حجاب (أمير حاجب أو حاجب كبير)، وحاجب، وحاجب ثان (حاجب ميمنة)، وحاجب ميسرة، وحاجب ثالث، وحاجب رابع، وحاجب خامس، وحاجب صغير.

ويستشــف من الجداول البيانية السابقة والجداول الواردة في ختام البحث، أن بعض الحجــاب شــغلوا هذه الوظيفة عدة سنين مثل أقباى بن عبد الله الطرنطاوى في ثبت حاجب الحجــاب، والــبعض الآخر استقر في الوظيفة لمدة عام واحد ثم ترك المنصب بسبب ولايته لنــيابة الشام، ثم عاد للمرة الثانية في منصب الحجوبية مثل أقتمر عبد الغنى التركى في ثبت حاجب الحجاب.

وقد شغل بعض الحجاب المنصب لمدة ثلاث سنوات مثل أيدكار بن عبد الله العمرى في ثبت حاجب الحجاب. أما إينال بن عبد الله الأزعرى في ثبت حاجب الحجاب وطوغان بن عبد الله السيفى في ثبت حاجب الحجاب قد شغل المنصب لمدة ست سنوات، وبيبرس العلائى حاجب الحجاب دمشق فقد تولى الوظيفة من عام ٧٠٤هــ/ ١٣٠٤م ومات في عام ٧١٢هــ/ ١٣١٢م أى أنه ظل في منصب الحجوبية لمدة تسع سنوات.

وبالنســبة لــتغرى بردى البكلمشى المعروف بالمؤذى في ثبت حاجب الحجاب، فقد شغل الوظيفة لمدة أربع سنوات مثل جانبك القرمانى الذى شغلها أيضاً أربع سنوات، والبعض الآخر شغلها لمدة خمس سنوات مثل سودون القاضى الظاهرى في ثبت حاجب الحجاب.

وهــناك مــن اســتقر فــي هذه الوظيفة لمدة سنتين مثل سودون قراسقل وطوغان العثمانى في ثبت حاجب الحجاب.

وتكشــف الجداول والإحصائيات عن أشخاص شغلوا الوظيفة أكثر من عشر سنوات مثل طيطق الأحمدى الحاجب الثانى بمصر.

وهناك من تولى هذه الوظيفة أكثر من مرة مثل أقتمر عبد الغنى التركى وطرنطاوى البشــمقدار الناصرى حاجب الحجاب ويكشف الثبت أيضاً ان جميع من تولى وظيفة الحجابة في العصر المملوكى كان من طبقة المماليك وليس من عامة الشعب.

ويفهم كذلك من دراسة تراجم هؤلاء الحجاب أن هذه الوظيفة كانت دائماً ذات بريق أخــاذ يســيل لعاب الطامعين، والدليل على ذلك كثرة حالات البذل والبرطلة والمبالغ الكبيرة التى بذلت على هذه الوظيفة زمن سلاطين المماليك.

وينــبغى الإشــارة إلــى أن بعض هؤلاء الحجاب قد استطاع أن يجمع بين الحجابة ووظــائف آخرى كنيابة السلطنة، مثل سودون بن عبد الله الفخرى الشيخونى في ثبت حاجب الحجــاب، وجانبك الحاجب ، وسودون بن عبد الله المظفرى حاجب حلب ونائبها ومنكلى بغا بــن عــبد الله الصلاحى محتسب القاهرة وأحد الحجاب وعلى بن عبد الله الأمير علاء الدين الطــبلاوى والــى القاهــرة، ونقيب الجيش، وأمير حاجب وتغرى بردى البكلمشى المعروف

بالمؤذى حاجب الحجاب الذى تولى وظيفة الدويدارية الكبرى وأقتمر عبد الغنى التركى نائب الشـــام وحاجب الحجاب وخليل بن عرام نائب الإسكندرية وحاجب الحجاب، وعلى بن قشتمر التركى نائب الإسكندرية وحاجب ثانى ومبارك شاه الظاهرى الذى شغل منصب الحجوبية إلى جانـــب نـــيابة الإسكندرية والوزارة والاستادارية والتاج الوالى الذى اجتمعت له عدة وظائف مثل ولاية القاهرة والحجوبية وشد الدواوين، والمهندارية.

بقيـــت ملاحظـــة أخـــيرة هـــي أنه من بين هؤلاء الحجاب من لم نعثر على تاريخ استقرارهم في المنصب، و لم نعثر أيضاً على تاريخ وفاتهم، و تعرضوا للمصادرة والقتل بل وهلك بعضهم تحت العقوبة.

وتعكـــس الرســـومات البيانية السابقة أن أقل عدد للحجاب زمن السلاطين المماليك الـــبحرية كـــان في عهد السلاطين قطز وبيبرس والمنصور لاجين، حيث تذكر لنا المصادر حاجـــبا لكل منهم. أما أكبر عدد للحجاب فقد وصل ١٤ حاجبا في عهد السلطان الناصر محمد بـــن قلاوون، على اثر إلغائه وظيفة نائب السلطنة وانتشار البذل والبرطلة من أجل الحصول علـــى الوظـــائف العالـــية، يلـــيه ١١ حاجباً في عهد السلطان الصالح أمير حاج بن الأشرف شعبان.

أمـــا فـــي عهـــد سلاطين المماليك الجراكسة فقد بلغ عدد الحجاب أوجه في عهدى الســـلاطين خشقدم والأشرف قايتباى، حيث بلغوا ١١ حاجبا لكل منهما، ولعل السبب الرئيسى فـــي هذه الزيادة هو ما كانوا يبذله الأمراء من رشاوى وهدايا من اجل الحصول على منصب الحجابـــة؛ كمـــا كان للرضى السلطانى عن بعض الأمراء دوره في توليهم الحجابة. ويليهما السلطان الناصر برقوق الذى بلغ عدد الحجاب في عهده ٩ حجاب.

الحياة الثقافية والأعمال الفنية للحجاب

دور الحجاب في الحياة الثقافية:

والآن إذا ما أردنا التحدث عن دور الحجاب في الحياة الثقافية في المجتمع المملوكى لا نجـــد فـــي بطون المصادر التاريخية المملوكية التى أرخت لتلك الفترة إشارات تفيد وجود إنجـــازات علمية أو أدبية للحجاب، إلا إشارة بسيطة عابرة أوردها ابن إياس تتعلق بالحاجب خلـــيل بن عرام فيذكر "كان خليل بن عرام فكه المحاضرة وله مشاركة في العلم، وكان فطنا ذكـــياً، وله نوادر وحكايات يذاكر بها، وكان ألف تاريخاً مفيداً في وقائع الأحوال، والتوفيات وغير ذلك، وفيه يقول الشهاب أحمد بن العطار:

أيا ابن عرام قد سُمرتَ مشهرا *** وصار ذلك مكتوبا ومحسوبا

مازلت تجهد في التاريخ تكتبه *** حتى رأيناك في التاريخ مكتوباً[398]

وقـد أسهم بعض الحجاب أيضاً في الحياة الفنية زمن سلاطين المماليك، يشهد بذلك بعـض الـتحف التى صنعت برسمهم، ووصلنا بعض منها تمثلت في المصنوعات الزجاجية الأمر الذى يبين مدى الثراء الذى عاشه هؤلاء الحجاب زمن المماليك.

التحف الزجاجية:

ازدهـرت صـناعة الـزجاج بعامة في عصر المماليك، وساعد على ذلك ما ورثه صـناع الزجاج في ذلك العصر من تقاليد صناعية راسخة ترجع إلى آلاف السنين، ثم أخذت تتقدم فيها على مر السنين.

ولقـد تفـوق صـناع الزجاج في عصر المماليك في صناعة الزجاج المموه بالمينا والذهب الذى لاقى إقبالاً شديداً في شتى أنحاء العالم،[399] ومن هذه التحف التي تخص الحجاب المشكاوات.[400]

ولديـنا مشـكاة باسـم الأمير أُلماس على رقبتها ثلاثة رنوك بها شارة هذا الأمير، وعليها كتابة نصها "مما عمل برسم الجامع المعمور يذكر الله تعالى وقف المقر العالى السيفى ألمـاس أمـير حاجـب الملكى الناصرى والمعروف أن الجامع المذكور بنى عام ٧٣٠هـ/ ١٣٣٠م. وعلـى قـاعدة هذه المشكاة توقيع الصانع في كتابة تقرأ "عمل العبد الفقير على بن

398 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٢٧٥ – ٢٧٦.

399 حسن الباشا، موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، م٢، ط١، القاهرة، ١٩٩٩م. ص٢٥٧.

400 أطلق علماء الآثار والفنون الإسلامية كلمة مشكاة على الإناء الزجاجي الذى كان يوضع فيه المصباح، وكان مـن فوائـده حفـظ نار المصباح من هبات الهواء وتحويلها إلى ضوء ينتشر. حسن الباشا، الآثار الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٦؛ ص٢٧٠؛ موسوعة العمارة، ص٢٥٦؛ ولقد وردت كلمة مشكاة في سورة النور الآية (٣٥).الله نُـورُ السَمَوَتِ والأرض مثلُ نُوره كمشكوة فيّها مصبَاحُ المصبَاحُ في زُجاجةٍ الزجاجةُ كأنهاَ كَوكبٌ دُرىٌ...". والمشـكاة فـي اللغة هى كل كوة غير نافذة وربما قصد بها في القرآن الكريم موضع الفتيلة أو الزجاجة التى يستصبح فيها تشبيها لها بالمشكاة أو ربما قصد بها الحديدة التى يعلق عليها القنديل انظر، حسن الباشا، موسوعة العمارة والآثار، ص٢٥٦. أحمد عبد الرازق، الفنون الإسلامية في العصرين ص٢٦٧. أما المشكاة نفسها فكانت تعلـق فـي داخل المساجد وغيرها بسلاسل من الفضة أو النحاس الأصفر تشبك بالمقابض التى تلف حول بدن المشكاة، وكانت السلاسل تجمع أحياناً عند كرة مستديرة أو بيضية تتصل بها سلسلة تنزل من السقف انظر، دليل متحف الفن الإسلامى، دار الآثار العربية سابقاً، القاهرة، ١٩٥٢م، ص١٣٥؛ حسن الباشا، موسوعة الآثار، ص ٢٥٦. وتشبه المشكاة في شكلها العام إناء الزهور، فهى ذات بدن منتفخ ينساب إلى أسفل، وينتهى بقاعدة، ولها رقـبة علـى هيـئة قمع متسع وألوانها بين الأحمر والأخضر والأبيض والوردى، انظر، حسن الباشا، الآثار الإسلامية، ص٢٧٠ – ٢٧١؛ موسوعة العمارة والآثار، ص٢٥٦.

محمــد أمكــى غفــر الله"؛[401] هكذا، يشير النص التاريخي الوارد على بدن هذه المشكاة إلى وظيفة أمير حاجب، والتى كان يتوليها ألماس عام ١٣٣٠م.

وتمــثل الكــتابة على المشكاوات الخاصة بالحجاب أهمية قصوى بالنسبة للدراسات الاجتماعية والتاريخية والأثرية والتى يطلق عليها الكتابات التذكارية، إذ إنها تتضمن في كثير مــن الأحــيان اســم من صنعت برسمه المشكاة مصحوباً بألقابه الفخرية والوظائفية وبعض الأدعــية المناسبة له، خاصة إذا كان من بين السلاطين أو كبار الأمراء، بالإضافة على اسم المكــان الذة صنعت برسمه المشكاة لتوضع فيه مثل "برسم الجامع المعمور" الذى ورد على مشكاة ألماس الحاجب من سنة ٧٣٠هـ/١٣٣٠م. المحفوظة بمتحف الفن الإسلامى، وقد يرد علــى المشــكاة أيضــاً اســم الصانع الذى قام بصنعها مثل "عمل العبد الفقير على بن محمد أمكــى.... أو الــرمكى، نســبة إلــى مدينة رمكة ببلاد الشام الذى نجده مدوناً على المشكاة السابقة.[402]

التحف المعدنية:

يعتــبر العصــر المملوكى بمثابة العصر الذهبى للصناعات المعدنية، إذ وصلت فيه منــتجاتها إلــى قمــة نضجها الصناعى الفنى، وقد ساعد على ذلك إقبال السلاطين والأمراء المماليــك على أقتناء التحف المعدنية، مما كان له أكبر الأثر في كثرة المنتجات المعدنية التى اتســمت بدقــة صــنعها وغنى زخارفها بالكثير من العناصر النباتية والهندسية بالإضافة إلى رســوم الكائنات الحية الآدمية والحيوانية ورسوم الطير المحلق بجناحيه في الهواء مما أضفى على الزخارف حياة وحركة نلمسها في معظم ما وصلنا من تحف معدنية من هذا العصر، ولا ننســى الكتابة العربية التى نقشت بالخطين الكوفى والنسخ أو بخط الثلث الذى اشتق من الخط الأخير.[403]

---

[401] دليل متحف الفن الإسلامى، ص١٣٥ – ١٣٦؛ محمد مصطفى، متحف الفن الإسلامى، ط١، القاهرة ١٩٥٤م، ص٩٤ – ٩٥؛ Lamm, C. J., *Mittelaterliche Gläser und steinscnittarbeiten aus dem Nahen Osten*, Berlin, 1930, pp. 437-438; Wiet, Lampes, p.123 No 3154.
Max Herz, B., *Catalogue raisouné des monuments exposes dans le musée national de l'art arabe*, Le Caire, 1906, pp. 314-316 no 4; Gayet, AL, *L'art arabe*, Paris, 1893, p. 241; Lane Poole, *Art of the Saracens in Egypt*, pp. 210, 219; Hiba Alī Yūsuf, *Le clairage á l'époque Mamlūke en Egypte*, Paris, 2001, p .PL. XLII; Gayet. AL., L'art arabe, p. 247; Max Herz, Catalogue,pp. 314-316.

[402] أحمد عبد الرازق، الفنون الإسلامية في العصريين الأيوبى والمملوكى، ص٢٦٨.
Herz, *Le museé national de l'art arabe*, pp. 314-316; Lamm, C. J., *Mittelalterliche Gläser und steinsch nitt arbeiten aus dem Nahem Osten, Berlin*, 1930 , p. 488.
Lamm, *Mittelalterliche Gläser*, pp. 437-438.

[403] محمد الأشقر، نائب السلطنة المملوكية، ص٢٧٤.

وقـد وصلنا العديد من التحف المعدنية التى نجد من بينها تحفا صنعت برسم بعض الحجـاب.[404] ومن التحف التى صنعت برسم بعض الحجاب نذكر سلطانية من النحاس مطلية بالقصـدير، تحمـل رنك باسم تمر أمير حاجب الحجاب المتوفى عام ٨٨٠هـ/١٤٧٥م، "مما عمل برسم المقرّ الأشرف العالى المولوى الأميرى الكبيرى تمر أمير حاجب الحجاب بالقاهرة المحروسة عز أنصاره".[405]

وهـناك طـبق مـن النحاس المطلى بالقصدير، وآخر من البرونز ظهر عليه رنك الحاجب أزبك من ططخ المتوفى عام ٩٠٤هـ/١٤٩٩م :مما عمل برسم الجناب الكريم العالى المولـوى الأمـيرى الكبيرى المخدومى السيفى نوروز أمير دوادار المقر السيفى أزبك أتابك العساكر المنصورى".[406]

المنشآت المعمارية للحجاب

لـم يسـهم الحجـاب بنصيب وافر في حركة الإنشاء والتعمير التى شهدها عصر سـلاطين المماليك، وسوف تحاول الباحثة ذكر بعض الأعمال المعمارية التى تركها الحجاب سـواء كانت عمائر دينية مثل المساجد الجامعة والمدارس، أو عمائر مدنية كالدور والقناطر والرحاب.

أولاً:العمائر الدينية "الجوامع":

١- جامع ألُماس أثر رقم ١٣٠:[407]

يقع هذا الجامع عند تقاطع أول الحلمية بشارع القلعة (محمد على) بناه الأمير سيف الديـن ألُماس حاجب الحجاب، واتم عمارته في عام ٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م[408] وبهذا الجامع رخام كثير نقله من بلاد الشام.[409]

---

404 Esin-Atil, *Art of the Arab World*, Washington D.C., 1975, p. 92; Art of the Mamluks, p.197.

405 Mayer, *Saracenic Heraldry*, p.231 pl. LXVIII.

406 Wiet,G., *Catalogue General du musee arabe du Caire objets en cuivre*, Le Caire, 1932, Mayer, *Saracenic Heraldry*, pp. 244-245.

407 فهرس الآثار المصرية – بمدينة القاهرة، مصلحة المساحة ١٩٥١م ص٢.

Lane-Poole, *Art of the Saracens*, pp.210-211; Herz Max, *Catalogue raisouné*, pp.316-317; Lamm-Johan, *Mittelterlich Glgser*, pp. 437-438; Mayer, Saracenic Heraldy, pp. 241-242;
Ét. Combe, J. Sauvaget et G. Wiet, *Répertoire chronologique d'épigraphie arabe*, p.262; Wiet, *Lampes*, p.123.

408 الأمير سيف الدين آلماس الحاجب هو أحد مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون، رقاه إلى أن صار من أكبر الأمراء، وعظمت منزله آلماس، عندما خرج الأمير أرغون إلى نيابة حلب، وبقى منصب النيابة شاغراً، وصار ألماس في منزلة النيابة إلا أنه لم يسم بالنائب. المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٣٠٧؛ سعاد ماهر، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، القاهرة ١٩٧٩م، جـ٣، ص١٧٤ – ١٧٥؛ Mayer, *Saracenic Heraldey*, p.241; Ét. Combe, J. Sauvaget et G. Wiet, *Répertoire chronologique d'épigraphie*

٢- جامع أسنبغا أثر رقم ١٨٥:
بدأ الأمير أسنبغا في بناء هذا الجامع عام ٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م ومات قبل إتمامه.[٤١٠]

ثانياً: المدارس:

انتشر زمن سلاطين المماليك الاهتمام بتشيد المدارس التى تثير الإعجاب بسبب ضخامتها وزخرفتها التى بنيت بفن معمارى رفيع[٤١١] ولم يكن للحجاب نصيب وافر في بناء هذه المدارس.

١- المدرسة السبوبكرية (مدرسة الأمير أسنبغا): أنشأ هذه المدرسة الأمير سيف الدين اسنبغا بن بكتمر الأبوبكرى.[٤١٢] ويحدثنا المقريزى عن مدرسة أسنبغا فيقول "تقع هذه المدرسة بجوار درب العباسى قريباً من حارة الوزيرية بالقاهرة، بناها الأمير سيف الدين أسنبغا ووقفها على الفقهاء الحنفية، وبنى جوارها حوض ماء للسبيل وسقاية ومكتبا للأيتام وذلك في عام ٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م، وبنى قبالتها جامعا فمات قبل إتمامه.[٤١٣]

٢- مدرسة خليل بن عرام: أنشأ حاجب الحجاب خليل بن عرام مدرسة عند قنطرة أمير حسين بن جندر المطلة على الخليج الحاكمى من حكر النوبى خارج القاهرة، مات ودفن بها.[٤١٤]

ārabe, p.260 No 5579; Wiet, *Lampes*, p.123; Lamm, *Mittelalterliche Gläser*, p.488.
ألماس بضم الألف وسكون اللام وفتح الميم معناه باللغة التركية "خالد".أحمد فكرى، تاريخ المساجد الأثرية بالقاهرة، ط١ بيروت ١٩٩٣م، جـ١، ص١٣٦.

409 المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٣٠٧؛ سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ٣، ص١٧٤؛ فهرس الآثار الإسلامية، ص٢. وعن الوصف المعمارى لجامع ألماس الحاجب انظر سعاد ماهر مساجد مصر، جـ٣، ص١٧٦.

410 فهرس الآثار الإسلامية، ص٢.

411 جاستون فيت، القاهرة مدينة الفن والتجارة، ترجمة مصطفى العبادى، بيروت ١٩٦٦م، ص١٦٦؛ محمد الأشقر، نائب السلطنة المملوكية، ص٣٠٠.

412 جلب إلى مصر في عهد السلطان المنصور قلاوون وتربى في طباق القلعة، وقد ظهرت مواهبه وهو في سن مبكرة مما جعل السلطان يقربه منه ويضمه إلى بلاطه، تدرج في الوظائف العسكرية حتى وصل إلى نيابة الإسكندرية ثم نيابة حلب، وكانت أسعد أيام أسنبغا في عهد السلطان الأشرف ابو المعالى زين الدين شعبان بن حسين. المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٣٩٠ - ٣٩١؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص٣١٧؛ سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ٤، ص٢٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص١٤٢، ١٦٢.

413 المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٣٩٠-٣٩١؛ وعن الوصف المعمارى للمدرسة انظر سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ٤، ص٢٧ وما بعدها.

414 ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٢٧٥.

ثالثاً: العمائر المدنية:

١- دار الحاجب:

أنشـــأها الأمـــير ســـيف الدين بكتمر الحاجب، تقع هذه الدار فيما بين الخرنقش[415] وحـــارة بـــرجوان، ولمـــا عمر الأمير بكتمر هذه الدار جعل بها اصطبلاً، وقام بتركيب باب بخوخـــة ممـــا يلي حارة برجوان، واشترط عليه الناس أن لا يمنع المارة من العبور في هذا المكـــان، فوفى بما اشترط، واصبح الناس يمرون من هذا الطريق في وسط الاصطبل سالكين من حارة برجوان إلى الخرنقش، وكان يقال لها خوخة الحاجب.[416]

٢- دار بيبرس الحاجب:[417]

تقـــع هـــذه الـــدار بخـــط حارة العدوية[418] بالقاهرة داخل باب الزهومة،[419] وكانت مشهورة به.

٣- دار الحاجب:

تقـــع خـــارج باب النصر تجاه مصلى الأموات، أنشأها الأمير سيف الدين كهرداش المنصـــوري أحد المماليك الزراقين، وهو الذى قام بفتح جزيرة أرواد، وتولى عمارة ومأذنة المدرســـة المنصورية عندما تهدمت في الزلزلة، توفى عام ٧١٤هـــ/ ١٣١٤م، فاشترى هذه الدار الأمير سيف الدين بكتمر الحاجب ولم تزل بها ذريته.[420]

٤- دار أُلْماس:

---

415 حى الحرنفش كان ميداناً للخلفاء الفاطميين، وكان لهم سرداب تحت الأرض مدخله من باب القصر يمرون فـــيه إلـــى الميدان المذكور راكبين، ثم جعل مصرفا للماء لما بنيت المدرسة الصالحية، ولما تولى المعز أيبك الـــتركماني الســـلطنة بـــنوا به أصطبلات. وكلمة الخرنقش تعنى ما يتحجر مما يوقد به في مياه الحمامات من القمامـــات والمخلفات وغيرها، ويمكن تحديده الآن بحى الجمالية. القلقشندى، صبح الأعشى، جـــ٣، ص٣٥٢؛ ابـــن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـــ٤، ص٤٧ هامش٥؛ سعاد ماهر، مساجد مصر، جـــ٥، ص٢٠؛ على مبارك، الخطط التوفيقية، جـــ٢، ص١٢؛ محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية، ص٩٥ هامش ٦٧.

416 المقريزى، الخطط، جـــ٢، ص٥٤.

417 بيـــبرس بـــن عبد الله المنصورى الحاجب، من مماليك الملك المنصور قلاوون، وترقى إلى أن صار أمير أخوراً، واستمر إلى أن عزله الملك الناصر محمد عند حضوره من الكرك بالأمير أيدغمش وولاه الحجوبية. ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـــ٣، ص٤٧٤ ترجمة ٧٢٠.

418 انظر المقريزى، الخطط، جـــ٢، ص١٦.

419 عـــرف بهـــذا الاســـم (أى باب الزفر) لأنه لا يدخل اللحم وغيره إلا منه فأختص بذلك، وحل مكان باب الـــزهومة المدرســـة الصـــالحية أى مدرســـة السلطان الصالح نجم الدين أيوب آخر سلاطين الدولة الأيوبية، المقريزى، الخطط، جـــ٢، ص٣٧٤؛ محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية، ص٤٢ هامش ٣٢.

420 المقريزى، الخطط، جـــ٢، ص٥٥.

تقـــع هذه الدار بخط حوض ابن هنس فيما بينه وبين حدرة البقر بجوار جامع أُلْماس أنشـــأها الأمـــير أُلْماس الحاجب واعتنى برخامها عناية كبيرة وجلبه البلاد، فلما قتل في عام ٧٣٤هـــ/ ١٣٣٣م أمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون بقلع ما في الدار من الرخام، ونقل إلى القلعة، وهذه الدار باقية إلى وقت وفاة المقريزى عام ٨٤٥هـــ/ ١٤م.[٤٢١]

٥- دار طينال:[٤٢٢]

تقـــع هـــذه الـــدار بخط الخراطين في داخل الدرب الذى كان يعرف بخربة صلاح، وكـــان موضعها وما حولها في الدولة الفاطمية مارستانا، أنشأ هذه الدار الأمير طينال، وهذه الدار تشتمل على قائمتين متجاورتين وتعتبر من الدور الجليلة، ولطينال أيضاً قيسارية بسويقة أمير الجيوش.[٤٢٣]

رابعاً: الرحاب:

ومن أعمال بعض الحجاب المعمارية نشير أيضاً إلى رحبة بيبرس الحاجب، ويجب أن نـــنوه أن الـــرحاب كانت تقام أمام دور الأمراء لاستقبال القادمين أو كاستراحات للمارين عبر الطريق إلا أنها قد اندرست.[٤٢٤]

رحبة بيبرس الحاجب:

أنشـــأها الأمير بيبرس بن عبد الله المنصورى الحاجب بخط حارة العدوية عند باب ســـر الصناعة، عرفت بالأمير بيبرس الحاجب لأن داره كانت بها، وبهذه الرحبة الآن (زمن المقريـــزى) فـــندق الأمير الطواشى زمام الدور السلطانية زين الدين مقبل، ولذلك يعرف هذا الخط بفندق الزمام.[٤٢٥]

خامساً: قنطرة الحاجب:[٤٢٦]

أنشـــأها الأمـــير ســـيف الدين بكتمر الحاجب في عام ٧٢٦هـــ/ ١٣م، ولما عمرت القـــنطرة، اتصـــلت العمائـــر فيما بينها وبين كوم الريش، وعمر قبالتها ربع،[٤٢٧] عرف بربع الزينى، وكان على ظهر القنطرة صفان من الحوانيت عليها سقيفة تقى حر الشمس وغيره.[٤٢٨]

---

421 المقريزى، الخطط، جـــ٢، ص٦٤.

422 الأمـــير طينال أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون اقامه ساقيا ثم حاجباً صغيراً ثم جعله أمير مائة مقدم ألف، فباشر ذلك مدة ثم أخرجه لنيابة طرابلس، ثم صفد، وتوفى في عام ٧٤٣هـــ/ ١٣٤٢م، وكان تترى الجنس قصير إلى الغاية مليح الوجه، مشكورا في أحكامه محبا لجمع المال، المقريزى، الخطط، جـــ٢، ص٧٦؛ Van Berchem, *Matériaux* , pp. 89-90.

423 المقريزى، الخطط، جـــ٢، ص٧٤؛ سعاد ماهر، مساجد مصر، ص١٧٥.

424 المقريزى، الخطط، جـــ٢، ص٧٦.

425 المقريزى، الخطط، جـــ٢، ص٤٩، محمد الأشقر، نائب السلطنة، ص٣٢٧.

426 ابـــن إيـــاس، بدائـــع الـــزهور، جــــ١ ق١، ص٤٥٩. Michael Meinecke, *Die mamlukische Architektur in Ägypten und Syrien (648/1250 Bis 923/1517)* teil II, Glückstadt, 199, p.466, no 78.

الخاتمة

وفي الختام تكشف لنا الدراسة عن مدى أهمية الدور الذى لعبه الحاجب في العصر المملوكى والذى برز بصورة كبيرة في عصر دولة المماليك الجراكسة.

ونتـيجة لتزايد عدد الحجاب في مصر عصر سلاطين المماليك كان لابد وأن يقابله تزايد مستويات ومراتب الوظيفة فأصبحنا نسمع عن الحجوبية الأولى أو حاجب الحجاب.

ويبدو أن الأهمية الزائدة للوظيفة واتساع نطاق اختصاصات الحجاب زمن المماليك كانت وراء المبالغ الضخمة التى كانت تبذل بغير حساب لأجل هذه الوظيفة.

وقـد ارتبطت الزيادة السريعة في عدد الحجاب بمصر بإلغاء السلطان الناصر محمد لوظيفة نائب السلطنة مما ترتب عليه تعاظم أهمية الحجابة.

ويلاحـظ أن تزايد عدد الحجاب لم يقتصر على الديار المصرية فحسب بل وصلت هذه الزيادة إلى سائر نيابات وأقاليم الدولة المملوكية.

وقـد تزايد عدد الحجاب في عهد السلطان الواحد كلما تزايد مقدار البذل فيها خاصة فـترة السلطان الناصر محمد بن قلاوون، فقد وصل عدد الحجاب في عام ٧٠٩هـ/٧٤٠هـ إلى أربعة عشرة حاجباً.

وقـد ترتـب على ظاهرة البذل والبرطلة على وظيفة الحجاب أن قصر متوسط مدة الوظيفة وبالتالى كثرة عدد متوليها من الحجاب في فترة ما.

لقـد عادلت الحجابة وظيفة نيابة السلطنة بل وصل الأمر إلى درجة أن حلت محلها في المرتبة والأهمية بحيث انتقلت إلى من يشغلها اختصاصات نائب السلطنة.

يضاف إلى ذلك شراهة الحجاب في جمع الأموال بأى صورة من الصور، وقد تفاقم الحال زمن المؤيد شيخ الذى اعتلى كرسى السلطنة عام ٨١٠هـ/١٤١٢م.

كذلك ترتب على البذل أيضاً ظاهرة جديدة هى الجمع بين عدة وظائف في آن واحد، وأيضـاً الاستنابة فيها، بل وأحياناً إلى التنازل عنها نظير مبلغ من المال مما أفضى ليس فقط إلـى فساد هذه الوظائف وتدهورها، بل إلى تدهور النظام المملوكى كله، بعد أن سرى الفساد فـي جمـيع أركان الدولة، حتى سقطت في النهاية فريسة، سهلة أمام الغزو العثمانى في عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م.

---

[427] الربع جمع رباع وهو مجموعة من المساكن المؤجرة للغير تجمع حول صحن ويكون له في الغالب مدخل واحد وسلم واحد، ويصل ارتفاع الربع إلى أربعة أو خمسة طوابق، ويتم الوصول إلى المساكن عن طريق طرقة تـدور حول الصحن، وتوجد مجموعة من الحوانيت بالجهة المطلة على الشارع من الطابق الأرضى، والربع مخصـص لسـكن الطبقات الشعبية بأجور شهرية زهيدة. ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٠ ص٣٠٣ هـامش٣؛ حسـين مصطفى، طوائف الحرفيين، ص٢٠٣؛ سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص٤١٨؛ محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية، ص٤٤، هامش ٤٦.

[428] ابن إيبك، كنز الدرر، جـ٩، ص٣٢٠.

الجداول والأشكال

١- ثبت بحجاب الدولة المملوكية الأولى*

٦٤٨ - ٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م

أولاً: حاجب الحجاب:

الاسم	تاريخ تولية	تاريخ عزله	تاريخ وفاة	المصادر
أيـاجى بن عبد الله الحاجب أحد أمـراء السلطان المنصـور قـلاوون، ولى الحجوبية بمصر	٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م	؟	٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م	شافع بن على، الفضل المـأثور من سيرة السـلطان الملـك المنصور، تحقيق عمر عـبد السلام، بيروت، ١٩٩٨م، ص٤٥، ٥١؛ العيـنى، عقد الجمان، جـ١، ص٤٠ - ٤١؛ المقريـزى، السلوك، جـ١ ق٢، ص٤٣٨؛ ابـن تغـرى بردى، المنهل الصافى، جـ٣، ص١١٩، ترجمة رقم ٥٦٥؛ الدليل الشافى، جـ١، ص١٥٨ رقم ٥٦٤؛ بيـبرس المنصـورى، الـتحفة المملوكـية، ص١٠٠؛ ابـن إيـاس، بدائـع الـزهور، جـ١ ق١، ص٣١٠؛ جـ٤، ص ٦٧.
سـنقر الرومى حاجب الحجاب	٦٦٠هـ/ ١٢٦١م	؟	؟	ابـن إيـاس، بدائـع الـزهور، جـ١ ق١، ص٣١٧.

* هذا الثبت مؤرخ بسنة الاستقرار - الوفاة كلما أمكن.

قطلوبك بن عبد الله المنصوري حاجب الحجاب بمصر	٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م	؟	٧١٦هـ/ ١٣١٦م	ابن تغري بردي، الدليل الشافي، جـ٢، ص٥٤٧، رقم ١٨٧٧؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٣، ص ٣٣٧؛ رقم ٣٢٦٤ وفيه "سجن بالكرك إلى أن قتل في سنة ٧١٦ هـ"؛ ابن إيبك، كنز الدرر، جـ٩، ص١٣.
بيبرس العلائي حاجب حجاب دمشق	٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م	؟	٧١٢هـ/ ١٣١٢م	ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢، ص٤٢ ، رقم ١٣٧٩.
ألماس بن عبد الله الناصري حاجب الحجاب	٢١ رجب عام ٧١٧هـ/ ١٣١٧م	عزل وقبض عليه يوم الأربعاء ٢٠ من ذي الحجة عام ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م	صفر ٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م	زيترشتين، تاريخ سلاطين المماليك، ليدن، ١٩١٩م، ص ١٤٧؛ بيبرس المنصوري، التحفة المملوكية، ص٢٤٠؛ الصفدي،الوافي، جـ٩ ، ص٣٧٠ رقم ٤٢٩٦ ؛ أعيان العصر، جـ١ ، ص٦١٥ رقم ٣٣٤، ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ١، ص ٤٣٨ رقم ١٠٦٣؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ٣، ص ٨٩ رقم ٥٤٩؛ الدليل الشافي، جـ١، ص ١٥٤، رقم ٥٤٨؛ ابن إيبك، كنز الدرر، ٣٤٤، ٢٩٢، ٢٩٨،

				حياة ناصر الحجى، السلطة والمجتمع في سلطنة المماليك فترة حكم سلاطين المماليك البحرية من سنة ٦٦١ هـ/١٢٦٢م إلى سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م، الكويت ١٩٩٧م، ص ٤٠.
محمد بن الوزير حاجب حجاب دمشق	جمادى الأولى عام ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م	؟	؟	زيترشتين، تاريخ سلاطين المماليك، ص ١٤٧.
قطلوبغا المغربى	٢٤ من جمادى الآخر عام ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م، مدة أقامته في الحجابة شهرين ونصف	؟	؟	زيترشتين، تاريخ سلاطين المماليك، ص ١٤٧.
علم الدين أسحق حاجب حجاب حلب	٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م	؟	؟	الصفدى، أعيان العصر، جـ١، ص ٤٨٨ رقم ٢٤٧.
طرنطاى الناصرى حاجب حجاب دمشق	تولى الحجابة للمرة الثانية في شعبان عام ٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م .	٧٣٢هـ/ ١٣٣١م	٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م	الصفدى، أعيان العصر، جـ٢، ص ٥٧٩-٥٨٠؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ١، ص٣١٨، رقم ٢٠١٠.
بدر الدين مسعود بن الخطير حاجب الحجاب	٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م .	؟	؟	زيترشتين، تاريخ سلاطين المماليك، ص ١٤٧؛ ابن إيبك، كنز الدرر، جـ٩، ص ٣٤٤، ٣٧٤.

أيدغدى الخوارزمي أقول حاجب حجاب دمشق	٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م	؟	؟	زيترشتين، تاريخ سلاطين المماليك، ص ١٤٧.
جاريك قفجق سيف الدين	٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م	؟	؟	زيترشتين، تاريخ سلاطين المماليك، ص ١٤٧؛ الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، ص٤١٧؛ ابن إيبك، كنز الدرر، جـ٩، ص ٣٧٤.
محمود بن خطير	٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م	؟	؟	زيترشتين، تاريخ سلاطين المماليك، ص ١٤٧.
برسبغا الحاجب	٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م	؟	؟	ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢ ص ٤٧٤؛ زيترشتين، تاريخ سلاطين المماليك، ص١٤٨؛ الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، ص٩٤، حياة ناصر الحجي، أنماط من الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في سلطنة المماليك في القرنين الثامن والتاسع الهجريين الرابع والخامس عشر الميلاديين، الكويت، ١٩٩٥م، ص١٨١؛ Hayat Nasser AL-Hajji, The internal affairs in

				Egypt During the third Reign of Sultan AL-Nāsir Muhammad B.Qālawūn, 709-741/1309-1341, Third Edition, Kuwait, 2000, pp. 88, 125-126.
بشتاك الناصرى حاجب الحجاب	؟	قبض عليه عام ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م	؟	ابن إياس، بدائع الزهور جـ١ ق١، ص٤٧٦، ٤٨٩.
سيف الدين الحسنى حاجب الحجاب	٧٥١هـ/ ١٣٥٠م	؟	؟	الصفدى، أعيان العصر، جـ٢، ص ١٠٥، رقم ٥١٤؛ الوافى بالوفيات، جـ١٠، ص٤٨٧؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ١، ص٥١٧.
أقتمر بن عبد الله المعروف بعبد الغنى التركى حاجب حجاب القاهرة	؟	٧٥٨هـ/ ١٣٥٦م بسبب ولايته نيابة الشام	٧٨١هـ/ ١٣٨١م	ابن حجر، إنباء الغمر، جـ١، ص٢٤٣ رقم ١٢؛ الدرر الكامنة، جـ١، ص٤٢٠ رقم ١٠٠٨؛ ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٢، ص ٤٩٣، رقم ٤٩٨؛ الدليل الشافى، جـ١، ص١٤١، رقم ٤٩٧؛ النجوم الزاهرة،جـ١١، ص٢١٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق١، ٢، ٥٧٢، ٣٠، ٧١، ٢٨٩، ٣٠٠؛ محمد أحمد دهمان،

				ولاة دمشق في عهد المماليك، ط٢، ١٩٨٤ م ص٢٣٠.
الجاى اليوسفى حاجب الحجاب	٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م	٧٢٣هـ/ ١٣٦١م	٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق١، ص١٧، ٥٨١؛ جـ١ ق٢، ص١١٩.
أسنبغا بن بكتمر الأمير سيف الدين الأبو بكرى حاجب حجاب مصر	٧٦٣هـ/ ١٣٦١م	؟	٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م	المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٣٩٠؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ١، ص١١١، ترجمة ٩٧٩؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٩ ص ١٤٠؛ المنهل الصافى، جـ٢، ص٤٣٦ ترجمة ٤٦١؛ الدليل الشافي، جـ١، ص ١٣٢ رقم ٤٦٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق١، ص٥٨٨.
طغاى تمر النظامى حاجب الحجاب	٧٦٣هـ/ ١٣٦١م	٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق١، ص٥٨٧؛ جـ١ ق٢، ص٧٥.
طيبغا العلاى علاء الدين حاجب الحجاب	٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م استقر للمرة الثانية ربيع الأول ٧٦٨ هـ/١٣٦٦م	٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥، ٤٣، ٥٣.
أرغون شاه الأشرفى	٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢،

اليوسفى حاجب الحجاب				ص٥٨.
قشتمر المنصورى حاجب الحجاب	٧٦٨هـ/ ١٣٦٦	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥٣.
أقبغا اليوسفى حاجب الحجاب	٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٨٨ – ٨٩.
قطلوبغا المنصورى حاجب الحجاب بالقاهرة	٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م	؟	٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م	ابن حجر، إنباء الغمر، جـ١، ص١٤٤، رقم ١٥٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص١٥٦، ١٩٨.
أقتمر عبد الغنى الحنبلى حاجب الحجاب	٧٧٨هـ/ ١٣٧٦	؟	٧٨٣هـ/ ١٣٨١م	ابن طولون، إعلام الورى بمن ولى نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، القاهرة، ١٩٧٢م، ص ٢٩، رقم ٣٤؛ ابن العماد، شذرات الذهب، جـ٦، ص٢٦١؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥٩٢، ٢٨٩، ٣٠٠.
طيدمر البالسى حاجب الحجاب	٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م	؟	٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧٦، ١٩٢، ١٩٧.
بلوط الصرغتمشى حاجب الحجاب	٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م	نفي عام ٧٨٧ هـ/١٣٨٥م	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص ٢٠٠، ٣٥٨.
تغرى برمش حاجب الحجاب	٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م استقر للمرة	٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص ٢١٤،٢٣١،٢٩٠.

	الثانية ٧٨٣ هـ/١٣٨١م			
طشتمر بن عبد الله الشعبانى حاجب الحجاب	٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م	؟	٧٨٣هـ/ ١٣٨١م	ابن حجر، إنباء الغمر، جـ١، ص٢٤٦ رقم ٢٣.
مأمور بن عبد الله القلمطاوى حاجب الحجاب بمصر	٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م	نفى ٧٨٣هـ/ ١٣٨١م	٧٩٢هـ/ ١٣٨٩م	ابن صصرى، الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية، تحقيق وليم م، كاليفورنيا، ١٩٦٣، ص٦٧؛ ابن حجر، إنباء الغمر، جـ١، ص١٩٣؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٢، ص ١٢٢؛ الدليل الشافى، جـ٢، ص٥٧٠ رقم ١٩٥٨؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٢٣١، ص ٢٩٠، ٤٤٠.
قطلوبغا بن عبد الله الكوكاى نسبة إلى معتقه الأمير كوكاى، حاجب الحجاب القاهرة،	٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م	٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م	٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م	المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٢، ص٥١١؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص٢٩٨؛ الدليل الشافى، جـ٢، ص ٥٤٦ رقم ١٨٧٤؛ الصيرفى، نزهة النفوس، جـ١، ص٩ رقم ١٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٢٦٤.
أيـــاس	٧٨٣هـ/	؟	٧٨٤هـ/	ابن حجر، إنباء الغمر،

الصرغتمشى حاجب الحجاب	١٣٨١م		١٣٨٢م	جـ١، ص٢٦٥، رقم٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٢٨٧.
سودون بن عبد الله الفخرى الشيخونى نائب السلطنة وحاجب الحجاب	٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م	؟	٧٩٨هـ/ ١٣٩٥م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٢، ص١٥١؛ ابن حجر، إنباء الغمر، جـ١، ص٢٣٤، ٢٥٤؛ الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص٣٥، ٥٠٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢و ص١٩٠، ٢٠٠، ٣٠٢، ٤٨٢.
طرنطاوى السيفى الكاملى حاجب حجاب دمشق	٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٣٠٨.

ثانياً: الحاجب:

اسم الحاجب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
سيف الدين قطلوبك الحاجب	٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م	؟	؟	بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص٣١٢؛ الصفدى، أعيان العصر، جـ٤، ص١٢٢؛ ابن حجر، ذيل الدرر الكامنة، ص٤٩٢.
كرت أو كرد الحاجب	٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م	؟	٦٩٩هـ/١٢٩٩م	بيبرس، الدوادار، زبدة الفكرة، ص٣١٠؛ ابن حجر، ذيل الدرر

				الكامنة، ص٣٦٤.
بكتمر بن عبد الله الحاجب الأمير سيف الدين	٧١١هـ/ ١٣١١م	؟	٧٣٨هـ/١٣٣٧م	ابن حبيب تذكرة النبية في أيام المنصور وبنيه، تحقيق محمد محمد أمين، مراجعة سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ١٩٨٢م، جـ٢، ص ١٨٣؛ الصفدى، الوافى بالوفيات، جـ١٠، ص ١٩٠ – ١٩٢، رقم ٤٦٧٦؛ أعيان العصر، جـ١، ص٧٠٣ رقم ١٤٠٥؛ المقريزى، السلوك، جـ٢ ق٢، ص٣١٤؛ ابن إيبك، كنز الدرر، جـ٩، ص ٢٦٤، ص٣٢٠؛ بيبرس المنصورى، التحفة الملوكية، ص ٢٢٧؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢، ص١٧ رقم ١٣٠٦؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٩، ص٢٧٧؛ المنهل الصافى، جـ٣، ص ٣٨٦، رقم ٦٧٧؛ الدليل الشافى، جـ١، ص١٩٤ رقم ٦٧٦؛ ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٤، ص ١٤٥؛ محمود رزق

				سليم، عصر سلاطين المماليك، جـ١، ص ٣١٩.
بكتمر الحسامى حاجب دمشق	٧١١هـ/ ١٣١١م	٧١٥هـ/ ١٣١٥م	٧٢٤هـ/١٣٢٣م	ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢، ص٢١ رقم ١٣٠٩؛ زيترشتين، تاريخ سلاطين المماليك، ص ١٤٧؛ العينى، عقد الجمان، جـ٤، ص ٣٥٨.
علاء الدين ألطنبغا الحاجب الناصرى	٧١٣هـ/ ١٣١٣م	؟	٧٤٢هـ/١٣٤١م	الصفدى، الوافى بالوفيات، جـ٩، ص ٣٦١؛ أعيان العصر، جـ١، ص٦٠٠، رقم ٣٢٧؛ ابن إيبك، كنز الدرر، جـ٩، ص ٢٦٤؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ١، ص٤٠٨؛ ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٣، ص ٥٣، رقم ٥٣٤؛ الدليل الشافى، جـ١، ص ١٥٠؛ النجوم الزاهرة،جـ١٠، ص ٤٧٣ الشجاعى، تاريخ الملك الناصر، ص ٢٢٢؛ ابن طولون، إعلام الورى، ص١٦ رقم ١٦؛ محمد أحمد دهمان، ولاة دمشق، ص١٨٠ وما بعدها.

طينال الأشرفى الحاجب	٧١٥هـ/ ١٣١٥م	؟	٧٤٣هـ/١٣٤٢م	زيترشتين، تاريخ سلاطين المماليك، ص ١٤٧؛ الشجاعى، تاريخ الملك الناصر، ص١٩٤، ٢٥٠؛ ابن ايبك، كنز الدرر،جـ٩، ص٢٨٧؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢، ص٣٣٤، رقم ٢٠٦٦. Van Berchem, Matériaux pour un corpus, pp. 89-90.
بيبرس بن عبد الله المنصورى الحاجب	٧١٥هـ/ ١٣١٥م	؟	٧٤٣هـ/١٣٤٢م	زيترشتين، تاريخ سلاطين المماليك، ص ١٤٧؛ الصفدى، الوافى بالوفيات، جـ١٠، ص ٣٥١، رقم ٤٨٤٥؛ أعيان العصر، جـ٢، ص٧٨ رقم ٤٩٦؛ ابن إيبك، كنز الدرر، جـ ٩، ص٢٨٧، ٣٩٧؛ المقريزى، السلوك، جـ٢ ق٣، ص٦٣٧؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢ ص٤١ رقم ١٣٧٧.
شهاب الدين قرطاوى حاجب دمشق	٧١٥هـ/ ١٣١٥م	؟	٧٤٣هـ/١٣٤٢م	ابن إيبك، كنز الدرر، جـ٩، ص٢٢١، ٢٩٧، ٣٧٨.
أرغون التاجى حاجب طرابلس	٧٦٥هـ/ ١٣٦٣م	؟	٧٦٥هـ/٧٦٦م/ ١٣٦٣-١٣٦٤م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص١١، ١٥.
قمارى الحموى	٧٦٥هـ/	؟	٧٦٦هـ/١٣٦٤م	ابن إياس، بدائع

الحاجب	١٣٦٣م			الـزهور، جـ١ ق٢، ص١١، ١٧.
أرسلان السيفى حاجـــب الإسكندرية	٧٦٧هـ/ ١٣٦٥	؟	؟	ابـن إيـاس، بدائـع الـزهور، جـ١ ق٢، ص٣٤.
علـى بن محمد ابن كلفت علاء الديـن أحـد الحجاب	٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م	؟	٧٨٠هـ/١٣٧٨م	ابـن إيـاس، بدائـع الـزهور، جـ١ ق٢، ص٨٨، ٢٣٩.
نصرات حاجب الإسكندرية	٧٧١هـ/ ١٣٦٩م	؟	؟	ابـن إيـاس، بدائـع الـزهور، جـ١ ق٢، ص٩٥، ٩٧.
يَلـو حاجـب دمشق	٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م	؟	٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م	ابـن إيـاس، بدائـع الـزهور، جـ١ ق٢، ص٣٠٨، ٣٣١.

ثالثاً: الحاجب الثانى:

اسم الحاجب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
بكجـرى سيف الديـن الحاجب الثانى	٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م	؟	؟	ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٤٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق١، ص٣١٠.
طيطق الأحمدى الحاجـب الثانى بمصر	٧٥٢هـ/ ١٣٥١م	٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م	٧٦٣هـ/١٣٦١م	ابـن حجـر، الـدرر الكامـنة، جـ٢، ص ٣٢١، رقم ٢٠٢٢.
ضروط الحاجب الثانى	٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م	؟	؟	ابـن إيـاس، بدائـع الـزهور، جـ١ ق٢، ص٥٣.
قطلوبغـــا المنصـــورى الحاجب الثانى	٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م.	؟	؟	ابـن إيـاس، بدائـع الـزهور، جـ١ ق٢، ص٧٦.

ملكتمر من بركة الحاجب الثانى	٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص١٠١.
يلبغا الناصرى الحاجب الثانى	٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م	؟	٨١٧هـ/١٤١٤م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص ١٣٢، ١٧٣،جـ٢ ،ص١٥،ص٣٥٢.
طيدمر البالسى الحاجب الثنى	٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م	؟	٧٧٨هـ/١٣٧٦م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧٦، ١٩٢، ١٩٧.
جمال الدين عبد الله بن بكتمر	٧٧٩هـ/ ١٤٧٤م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٢٠٥.
على بن قشتمر التركى الحاجب الثانى	٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م	؟	٧٨٣هـ/١٣٨١م	ابن حجر، إنباء الغمر، جـ١، ص٢٤٨ رقم ٣٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٢١٤.
أيدكار العمرى الحاجب الثانى	٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م	؟	٧٩٤هـ/١٣٩١م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٣٠٢.

رابعاً: حاجب ميسرة:

اسم الحاجب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
يلبغا الناصرى حاجب ميسرة	٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م	؟	٨١٧هـ/١٤١٤م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص١٠٣، جـ٢، ص ١٥.

خامساً: حاجب ثالث:

اسم الحاجب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
جمال الدين عبد الله بن بكتمر حاجب ثالث	٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٢٧٢.

سادساً: حاجب رابع:

اسم الحاجب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
إياس الصرغتمشى	٧٨٣هـ/ ١٣٨١م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٢٨٧.
منكلى بُغا الطرخانى حاجب رابع	٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٣٢٣.

سابعاً: حاجب خامس:

اسم الحاجب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
جلبان العلاى حاجب خامس	٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٣٢٣.

ثامناً:حاجب الصغير:

اسم الحاجب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
طنبغا المجدى الحاجب الصغير	٧٤١هـ/ ١٣٤٠م	؟	؟	الشجاعى، تاريخ الملك الناصر، ص٩٤.
قرمش بن أقطوان	٧٤١هـ/ ١٣٤٠م	؟	؟	الشجاعى، تاريخ الملك الناصر، ص٩٤ حياة

				ناصر الحجى، دراسات في تاريخ سلطنة المماليك في مصر والشام، ط١، الكويت ١٩٨٦م، ص ٢٥١-٢٥٢.
طشتمر بن عبد الله الشعبانى الحاجب الصغير بدمشق	٧٦٧هـ/ ١٣٦٥	؟	٧٨٣هـ/١٣٨١م	ابن حجر، إنباء الغمر، جـ١، ص٢٤٦، رقم ٢٣.
تمراز الطازى	٧٧٣هـ/ ١٣٧١م	؟	؟ .	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص١٠٥.

٢- ثبت بحجاب الدولة المملوكية الثانية

٧٨٤هـ-٩٢٣هـ/١٣٨٢م-١٥١٧م

اسم حاجب الحجاب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
أيدكار بن عبد الله العمرى حاجب ميسرة، ثم حاجب الحجاب زمن السلطان برقوق	٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م	؟	٧٩٤هـ/١٣٩١م	المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٢، ص٧٦٥؛ ابن حجر، إنباء الغمر، جـ١، ص٢٥٤، ٣٥٤، ٣٤٣؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٢، ص ٤٣٧؛ المنهل الصافى، جـ٣، ص١٥٧ – ١٥٨؛ الدليل الشافى، جـ١، ص١٦٦ رقم ٥٩٣؛ الصيرفى؛ نزهة النفوس، جـ١، ص ٣٤٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٣٠٢، ٣٤٦، ٣٨٩، ٤٥١.
طرنطاى سيف الدين حاجب حجاب دمشق	٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م	؟	٧٩٢هـ/١٣٨٩م	ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢، ص ٣١٨ – ٣١٩، رقم ٢٠١٢؛ ابن طولون، إعلام الورى، ص٣١، رقم ٤٢؛ محمد دهمان، ولاة دمشق، ص٢٥٠.

أقبغا الماردينى حاجب الحجاب	٧٩١هـ/ ١٣٨٨م	٧٩١هـ/ ١٣٨٨م	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٣٩٩، ٤٠٤.
تمرباى بن عبد الحسنى، الامير سيف الدين حاجب الحجاب زمن السلطان الصالح	٧٩١هـ/ ١٣٨٨م	؟	٧٩٢هـ/١٣٩٠م	المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٢، ص٧٢٩؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص٣٧٢؛ المنهل الصافى، جـ٤، ص٩ رقم ٧٧٩؛ الدليل الشافى، جـ١ ص ٢٢٢، رقم ٧٧٧؛ الصيرفى، نزهة النفوس، جـ١، ص ٣١٩، رقم ١٣٦؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٤٠٦.
بتخاص السودونى سيف الدين حاجب الحجاب	٧٩٢هـ/ ١٣٨٩م	؟	٨١٣هـ/١٤١٠م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٤٣٥، ٨٠٣.
قطلوبغا الصفوى حاجب الحجاب	٧٩٣هـ/ ١٣٩٠م	؟	؟	ابن حجر، إنباء الغمر، جـ١، ص ٤١٦.
فارس بن عبد الله القلطلقجاوى الظاهرى حاجب الحجاب بمصر زمن السلطان برقوق	٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م	؟	٨٠٢هـ/١٣٩٩م	ابن تغرى بردى، الدليل الشافى، جـ٢، ص٥١٩، رقم ١٧٩١؛ السخاوى، الضوء اللامع جـ٦، ص١٦٤ رقم ٥٧٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١

				ق١، ص٤٩٣، ٥٨٣.
بيقجاه طيفور الشرفى حاجب حجاب دمشق	٨٠١هـ/ ١٣٩٨م	؟	٨٠٢هـ/١٣٩٩م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥٢١، ٥٨٢.
اقباى بن عبد الله من حسين شاه الطرنطاى المعروف بالحاجب، استمر في هذا المنصب عدة سنوات	٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م	؟	٨١٢هـ/١٤٠٩م	ابن حجر، ذيل الدرر الكامنة، تحقيق عدنان درويش، القاهرة ١٩٩٢م، ص٢٠٦ رقم ٣٤٥؛ ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٢، ص ٤٦٥-٤٦٦؛ الدليل الشافي، جـ١، ص ١٣٦ رقم ٤٧٧؛ النجوم الزاهرة،جـ١٣ ص١٧٦؛ الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص٢٦٥ رقم ٤٧٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧٠٢؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٢، ص٣١٣، رقم ٩٩٣؛ محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى، القاهرة، ١٩٤٧م، جـ١، ص ٢٤٥.
باشباى من باكى حاجب حجاب دمشق	٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م	؟	٨١١هـ١٤٠٨م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥٨١، ٦٢٥، ٦٩٤ ، ٧٩٢.

سودون الحاجب الصغير ثم حاجب حجاب غزة	٨٠٢هـ ١٣٩٩م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥٧١.
دقماق المحمدى أمير حاجب	٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥٧٣.
على بن عبد الله ابن محمد علاء الدين الطبلاوى*	؟	؟	٨٠٢هـ/١٤٠٠م	المقريزى، السلوك، جـ٣، ص٧١٧، ٧٤٤، ٨١٨، ٨٢٧؛ ابن حجر، أنباء الغمر، جـ١، ص٥١١؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٢، ص ٢٦؛ الدليل الشافى، جـ١، ص٤٥٩ رقم ١٥٩٣؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٥، ص٢٥٢ رقم ٨٤٦؛ الصيرفى، نزهة النفوس، جـ١، ص ٣٠٦، ٣٣٠، جـ٢، ص٦٦؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ٩، ص٢٤٩، ٢٥٢ – ٢٥٤، ٤٠٠؛ أحمد عبد الرازق، شرطة القاهرة، ص٨٤.
مراد حاجب حجاب طرابلس	٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢،

* الطبلاوى نسبة إلى طبلة – قرية بالمنوفية بالوجه البحرى.
ابن تغرى بردى، الدليل الشافى، جـ١، ص٤٥٩.

				ص٦٧٦.
سودون الظريف الشمسى حاجب الحجاب	٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م	٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٦٣٣، ٧٤٨.
أسن بيه – أيضا أسن باى التركمانى حاجب حجاب دمشق	٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧١٣.
ارسطاى من خجا على حاجب الحجاب	٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧٣٠، ٧٣٢، ٧٣٦
ألطنبغا ططق المعروف بالعثمانى حاجب حجاب دمشق	٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م	؟	٨٢١هـ/١٤١٨م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٢٥١، ٥٢٨، جـ٢ ، ص٤١.
فارس التنمى حاجب حجاب دمشق	٨١٠هـ/ ١٤٠٧م	؟	٨١٠هـ/١٤٠٧م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧٨١، ٧٨٥.
كزل بن عبد الله العجمى، حاجب الحجاب زمن الناصر فرج	٨١٠هـ/ ١٤٠٧م	؟	٨٤٥هـ/١٤٤١م	ابن حجر، إنباء الغمر، ص٤٣٢؛ ابن تغرى بردى، الدليل الشافى، جـ٢، ص٥٥٧ رقم ١٩٠٩؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٦، ص٢٢٨ رقم ٧٧٩، وفيه مات في ربيع الأول عام ٨٤٩هـ/ ١٤٤٥م، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧٨٥.
شيخ الطنبغا القرمشى حاجب	٨١١هـ/ ١٤٠٨م	؟	؟	ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٢، ص٤٠٣.

حجاب دمشق				
إينال بن عبد الله الصصلائى حاجب حجاب بمصر	٨١٥هـ/ ١٤١٢م	؟	٨١٨هـ/١٤١٥م	المقريزى، السلوك، جـ٤ ق١، ص٣٢٨؛ ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٣، ص٧٧؛ العينى، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودى" تحقيق فهيم محمد شلتوت مراجعة محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٦٧م، ص ٣٠٣؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٤، ص ١٣٦؛ المنهل الصافى، جـ٣، ص١٩٤ – ١٩٥ رقم ٦١٦؛ الدليل الشافى، جـ١ ص ١٧٢ رقم ٦١٥؛ الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢ ص ٣٥٥؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٢، ص٣٢٧ رقم ١٠٧٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٨٢٦، جـ٢، ص ٢٣.
قجق حاجب الحجاب بالقاهرة	٨١٦هـ/ ١٤١٣م	٨١٧هـ/ ١٤١٤م	؟	العينى، السيف المهند، ص٣١٨، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٨.

سودون بن عبد الله القاضي الظاهري حاجب الحجاب	٨١٧ - ٨١٨ هـ/١٤١٤-١٤١٥م	؟	٨٢٢هـ/١٤١٩م	ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٣، ص٧٤، ٢٠٦ ،رقم٤٧؛العيني، السيف المهند، ص٣٣٤؛ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٤، ص ١٥٨؛ المنهل الصافي، جـ٦، ص١٤٩ - ١٥٠، رقم ١١٤٢؛ الدليل الشافي، جـ١، ص٣٣١، رقم ١١٣٩؛ الصيرفي، نزهة النفوس، جـ١ ص ٤٦١، رقم ٥٩١؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٣، ص ٢٨٤ رقم ١٠٧٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص١٦،ص٥٠.
سودون قراسقل ابن عبد الله الظاهري حاجب الحجاب المعروف بسودون قراسقل يعني لحيته سوداء	٨١٨هـ/ ١٤١٥م،ثم تولى حجوبية طرابلس في عام ٨٢٠هـ/ ١٤١٧م	؟	٨٢٠هـ/١٤١٨م	العيني، السيف المهند، ص٣٣٤، ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ٦، ص ١٥٩-١٦٠؛ الدليل الشافي، جـ١، ص ٣٣٢-٣٣٣ رقم ١١٤٣؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٣ ص٢٨٣ رقم ١٠٧٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٢٢، ٣٢.

الطنبغا بن عبد الله المرقبى حاجب الحجاب	٨٢٠هـ/ ١٤١٧م	؟	٨٤٤هـ/١٤٤٠م	المقريزى، السلوك، جـ٤ ق٣، ص١٢٣٣ ؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ١، ص ٤٣٨ رقم ١٠٥٩؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٥، ص ٤٨٤؛ الدليل الشافى، جـ١ ص١٥٢-١٥٣ رقم ٥٤٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢ ص٣٣، ص٢٢٦؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٢، ص ٣١٩ رقم ١٠٢٦.
إينال بن عبد الله الأزعرى الشيخى	٨٢٤هـ/ ١٤٢١م	٨٢٤هـ/ ١٤٢١م	٨٣٠هـ/١٤٢٦م	المقريزى، السلوك، جـ٤ ق٢، ص٣١٧؛ ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٣، ص٢٣٨؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٤، ص ٢٩، ١٩٥؛ المنهل الصافى، جـ٣ ص ٢٠٣؛ الدليل الشافى، جـ١ ص١٧٤ رقم ٦١٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٦٤، ٦٩.
طراباى حاجب الحجاب	٨٢٤هـ/ ١٤٢١م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٧٢.

جقمق العلاى حاجب الحجاب	٨٢٥هـ/ ١٤٢١م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٧٧.
أزبك الأشقر الرمضانى حاجب حجاب مصر	٨٢٦هـ/ ١٤٢٢م	؟	٨٣٣هـ/١٤٢٩م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٨٦، ١٢٧.
جرباش قاشق الكريمى حاجب الحجاب	٨٢٨هـ/ ١٤٢٤م	؟	٨٦١هـ/١٤٥٦م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ١٠٠، ص٣٣٧.
قرقماش الشعبانى حاجب الحجاب	٨٢٩هـ/ ١٤٢٥م	؟	٨٤٢هـ/١٤٣٨م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ١١٠، ص٢٠٦.
طوغان بن عبد الله السيفى تغرى بردى حاجب حجاب حلب	٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م	٨٣٦هـ/ ١٤٣٢م	٨٤٠هـ/١٤٣٦م	ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٧، ص٢٤ رقم ١٢٨٤؛ الدليل الشافى، جـ١ ص٢٧٣ رقم ١٢٨١؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٤ ص١٢، رقم ٤٤.
كمشبغا بن عبد الله الظاهرى المعروف بكشبغا حجى، أمير حاجب	؟	؟	٨٣٠هـ/١٤٢٦م	ابن تغرى بردى، الدليل الشافى، جـ٤، ص٥٦١، رقم ١٩٢٤؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٦ ص٢٣٠ ، رقم ٧٩٢.

يشبك الشعبانى حاجب الحجاب	٨٣٧هـ/ ١٤٣٣م	؟	٨٤٩هـ/١٤٤٥م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ١٥٤.
تنبك بن عبد الله من برد بك الظاهرى حاجب الحجاب في عهد الظاهر جقمق	٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م	؟	٨٦٣هـ/١٤٦٠م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ ١٦، ص١٩٥؛ المنهل الصافى، جـ٤، ص ٢٤ رقم ٧٥٩؛ الدليل الشافى، جـ١ ص ٢١٥ رقم ٧٥٧؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣ ص٤٢ رقم ١٧٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٢١٢، ٢٢٧.
تغرى بردى بن عبد الله البكلمشى المعروف بالمؤذى حاجب الحجاب بمصر	٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م	؟	٨٤٦هـ/١٤٤٢م	ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٤، ص٩٥؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٥، ص ٤٩٦؛ المنهل الصافى، جـ٤، ص٥٤ وما بعدها رقم ٧٦٥؛ الدليل الشافى، جـ٤ ص٢١٧ رقم ٧٦٣؛ السخاوى، التبر المسبوك، ص٤٤؛ الضوء اللامع، جـ٣، ص٢٧، رقم ١٣٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٢٣٥.

تغرى بردى المؤيدى حاجب الحجاب	٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الوهور، جـ٢، ص ٢٠٠.
سودون بن عبد الله الأبوبكرى المؤيدى حاجب حجاب طرابلس	٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م	؟	٨٦٥هـ/١٤٦٠م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ ١٦، ص٣١٣؛ المنهل الصافى، جـ٦، ص ١٧٣ – ١٧٤؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص ٢٧٦ رقم ١٠٥٠.
سودون بن عبد الله السنوروزى حاجب حجاب دمشق	٨٤٣هـ/ ١٤٣٩م	؟	٨٤٧هـ/١٤٤٣م	ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٦، ص١٧٢ – ١٧٣؛ الدليل الشافى، جـ١، ص٣٣٥ رقم ١١٥٢؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص ٢٨٧ رقم ١٠٨٩.
خشقدم بن عبد الله الناصرى حاجب الحجاب بمصر	٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م	؟	٨٧٢هـ/١٤٦٧م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ ١٦، ص٣٧٨-٣٦١؛ المنهل الصافى، جـ٥، ص٢١٠ – ٢١١ رقم ٩٨٥؛ الدليل الشافى، جـ١، ص٢٨٦ رقم ٩٨٢؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص١٧٥ رقم ٦٨١؛ ابن العماد، شذرات الذهب، جـ٧، ص ٣١٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص

				٢٧٨، جـ٤، ص٨.
كرتباى من مصطفى المعروف بالأحمر حاجب حجاب طرابلس	٨٥٦هـ/ ١٤٥٢م	؟	٩٠٤هـ/١٤٩٨م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٢٨٣، ص٤٠٧.
مغلباى البجاسى حاجب حجاب طرابلس	٨٥٦هـ/ ١٤٥٢م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٢٩٨.
طوغان بن عبد الله العثمانى حاجب حجاب حلب	٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م	٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م	٨٥٢هـ/١٤٤٨م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ ١٥، ص٥٣٢؛ المنهل الصافى، جـ٧، ص ٢٣ رقم ١٢٨٣؛ الدليل الشافى، جـ١ ص ٣٧٣ رقم ١٢٨٠؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٤، ص١٣ رقم ٤٥.
جانبك بن عبد الله القرمانى الظاهرى حاجب حجاب مصر	٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م	؟	٨٦١هـ/١٤٥٦م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ ١٦، ص١٨٨؛ المنهل الصافى، جـ٤ ص ٢٣٧ رقم ٨٢٣؛ الدليل الشافى، جـ١ ص ٢٣٨ رقم ٨٢١؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣ ص٥٩ رقم ٣٧؛ ابن إياس،

				بدائع الزهور، جـ٢، ص٣٤١.
برسباى بن عبد الله البجاسى حاجب الحجاب	٨٦١هـ/ ١٤٥٦م	؟	٨٧١هـ/١٤٦٦م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ ١٦، ص٣٥٢؛ المنهل الصافى، جـ٣، ص ٢٧٩ وما بعدها؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص٧ رقم ٣٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٣٤٢ – ٤٤٣؛ ابن طولون، إعلام الورى، ص٦٢ رقم ٧٤.
أحمد بن القليب شهاب الدين حاجب حجاب طرابلس	٨٦٤هـ/ ١٤٥٩م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٣٥٩.
سودون قراقاش المؤيدى حاجب حجاب مصر	٨٦٤هـ/ ١٤٥٩م	؟	٨٦٥هـ/١٤٦٠م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٣٥٨.
بيبرس الأشرفى سيف الدين حاجب الحجاب	٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م	؟	٨٧٣هـ/١٤٦٨م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٣٦٤؛ جـ٣، ص٣١؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص٢١ رقم ١٠٣.

يشبك البجاسى الأشرفى حاجب حجاب حلب	٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م	؟	٨٩٠هـ/١٤٨٥م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٣٨١.

يلباى الأينالى المؤيدى حاجب الحجاب	٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٣٨١.
برد بك الجمالى ويعرف ببرد بك الفارسى الظاهرى الأقرع حاجب الحجاب	٨٦٦هـ/ ١٤٦١م	؟	٨٧٥هـ/١٤٧٠م	ابن طولون، أعلام الورى، ص٦٢ رقم ٧٥؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص٤٦؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٣٨٩، جـ٣، ص٥١.
تغرى بردى من يونس حاجب حجاب حلب	٨٦٦هـ/ ١٤٦١م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٣٩٤.
جانى بك الناصرى حاجب الحجاب بدمشق	٨٦٦هـ/ ١٤٦١م	؟	٨٦٩هـ/١٤٦٤م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٣٩٠، ٤٢٨.
أبو بكر باكير ابن صالح الكردى حاجب حجاب حلب	٨٦٨هـ/ ١٤٦٣م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٤١٣.
أزبك من ططخ الأشرفى حاجب الحجاب	٨٦٨هـ/ ١٤٦٣م	؟	٩٠٤هـ/١٤٩٨م	ابن طولون، أعلام الورى، ص٦٤ رقم ٧٦؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٢، ص ٢٧٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٤١٧.

جانى بك قلقسيز الأشرفى حاجب الحجاب	٨٦٩هـ/ ١٤٦٤م	٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م	٨٨٣هـ/١٤٧٨م	ابن طولون، اعلام الورى، ص٦٧ – ٦٨، رقم ٤٧٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٤٢٩، ٤٧٤.
شرا مرد المؤيدى حاجب حجاب دمشق	٨٦٩هـ/ ١٤٦٤م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٤٢٥.
على بن الأزبكى حاجب حجاب طرابلس	٨٧١هـ/ ١٤٦٦م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٤٤٩.
برد بك المحمدى ويعرف بهجين	٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م	؟	٨٨٢هـ/١٤٧٧م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٤٦٢، جـ٣، ص١٢٤؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص٧ رقم٣٠.
تمر الوالى	٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٤٧٠.
تمر من محمود شاه الظاهرى حاجب الحجاب	٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م	؟	٨٨٠هـ/١٤٧٥م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٤٧٠،جـ٣، ص١٠٧.
محمد بن مبارك شاه التركمانى الحلبى ناصر الدين حاجب حجاب دمشق	٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م	؟	٨٧٩هـ/١٤٧٤م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٤٠، ص١٠٧.
مغلباى سُرق الأشرفى حاجب حجاب حلب	٨٧٩هـ/ ١٤٧٤م	؟	؟	ابن طولون، اعلام الورى، ص١٣٤ – ١٣٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ١٠٣.

دولات باى النجمى الأشرفى حاجب حجاب دمشق	٨٧٩هـ/ ١٤٧٤م	؟	٨٨٢هـ/١٤٧٧م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ١٠٣، ١٢٧.
أزدمر الإبراهيمى الطويل حاجب الحجاب	٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م	٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م	٨٨٥هـ/١٤٨٠م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٣٠٦، ٤٠٩.
يشبك العلاى حاجب حجاب دمشق	٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م	؟	٨٩٠هـ/١٤٨٥م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ١١٢.
برسباى قرا المحمدى حاجب الحجاب	٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م	٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م	٨٩٤هـ/١٤٨٨م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ١٥٨، ٢٦٥.
تغرى بردى ططر الشمسى حاجب الحجاب	٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م	؟	٨٩٣هـ/١٤٨٧م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ١٩١، ٢٥٤.
سيباى حاجب حجاب دمشق	٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ١٩١.
تانى بك الجمالى حاجب الحجاب	٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م	؟	٩٠٨هـ/١٥٠٢م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٢٤٩،٤٦٥،جـ٤،ص ٤٨.
قانصوه الغورى حاجب حجاب حلب	٨٩٤هـ/ ١٤٨٨م	؟	٩٢٢هـ/١٥١٦م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٢٨٤، جـ٤، ص٤٢ عبد العظيم حامد خطاب، قانصوه الغورى ونهاية الدولة المملوكية في مصر والشام، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية

				الآداب، جامعة عين شمس ١٩٧٣م، ص ٤٧. Mayer, Saracenic Heraldry, A Survey, Oxford 1933. p.179; Van Berchem, Materioux pour un corpus, pp.392-393.
اينال الخسيف حاجب حجاب دمشق	٩٠١هـ/ ١٤٩٥م	٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م	٩٠٢هـ/١٤٩٦م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٣٤٢.
جانم المعروف بالمصبغة حاجب حجاب مصر	٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م	٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م	٩١١هـ/١٥٠٥م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٣٥٩؛جـ٤،ص٩١.
قيت الأشرفى، حاجب الحجاب	٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م أعيد للمرة الثانية ٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٣٧٧، ٤٤٠.
قانصوه من كسباى بن سلطان جركسى المعروف بابن اللوقا حاجب حجاب دمشق	٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٣٩٨؛ جـ٥، ص٧١.
يلسباى المؤيدى حاجب حجاب طرابلس	٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م	؟	٩١٣هـ/ ١٥٠٧م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٤٢٣.
أنردمر من على باى الأشرفى حاجب الحجاب	٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م	؟	٩١٤هـ/١٥٠٨م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ١٢، ١١٩.

أصطمر من ولي الدين حاجب الحجاب	٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م	؟	٩١٤هـ/١٥٠٨م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٤٥٣،جـ٤،ص١٤٥.
بردبك المحمدى الأينالى حاجب الحجاب	٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٤٥٤.
تمرار جوشن حاجب حجاب دمشق	٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م	؟	٩١٠هـ/١٥٠٤م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٤٦٩،جـ٤،ص٦٧.
تمر من جانم الظاهرى حاجب حجاب حلب	٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٤٧١.
جان بردى الغزالى حاجب حجاب حلب	٩٠٧هـ/ ١٥٠١م	؟	٩٢٧هـ/١٥٢٠م	ابن طولون، اعلام الورى، ص١٩٦؛ ابن إياس، بدائعالزهور، جـ٤، ص٢٣، جـ٥، ص٣٨٢.
خايربك من ملباى أخو قانصوه البرجى	٩٠٧هـ/ ١٥٠١م	٩١٠هـ/ ١٥٠٤م	٩٢٨هـ/١٥٢١م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ١٨،جـ٥،ص٤٨١ – ٤٨٢.
أنصباى من مصطفى حاجب الحجاب	٩١٠هـ/ ١٥٠٤م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ٦٧.
يخشباى حاجب حجاب دمشق	٩١٧هـ/ ١٥١١م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ٢٥٠.
طراباى من يشبك من حيدر حاجب حجاب دمشق	٩٢١هـ/ ١٥١٦م	؟	٩٢٢هـ/١٥١٦م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ٤٦٣، جـ٥،ص٧١.
طقطباى حاجب الحجاب	٩٢٢هـ/ ١٥١٦م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٥، ص

				١١٦، محمود رزق، عصر سلاطين المماليك، جـ١، ص ٣٢٣.

ثانياً: الحاجب:

اسم الحاجب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
أركماس السيفى حاجب طرابلس	٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٣٥١.
اسند مر السيفى حاجب طرابلس	٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٣٩١.
على بن الطبلاوى، علاء الدين الحاجب	٧٩٧هـ/ ١٣٩٤م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٤٧٣.
تمربغا المنجكى الحاجب	٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥١٣، ٥٣٩.
سمز المحمدى الحاجب	٨٠١هـ/ ١٣٩٨م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥٤٣.
قرابغا الأسنبغاوى	٨٠١هـ/ ١٣٩٨م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق١، ص٥٤٣.
مقبل الرومى السيفى العمرى الحاجب	٨٠١هـ/ ١٣٩٨م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥٤٣.
سودون المأمورى الحاجب	٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م	٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥٦٤.

شهاب الدين أحمد بن الزين والى القاهرة وحاجبها	٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م	؟	٨٠٥هـ/١٤٠٢م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥٧١.
عمر بن الطحان ركن الدين أو بهاء الدين حاجب غزة	٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥٧١.
تغرى برمش الحاجب	٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥٩٤.
عبد الرازق بن دلغادر الحاجب	٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م	؟	٨٠٨هـ/١٤٠٥م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٦٢٩.
أبو يزيد الحاجب	٨٠٤هـ/ ١٤٠١م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٦٣٩.
قرقماش الرماح الأينالى حاجب دمشق	٨٠٤هـ/ ١٤٠١م	؟	٨٠٥هـ/١٤٠٢م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٦٥١، ٦٧٦.
محمد بن علاء الدين بن كلفت التركمانى ناصر الدين الحاجب	٨٠٤هـ/ ١٤٠١م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٦٥٧.
بهاء الدين أرسلان الحاجب	٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٦٦٩.
أزدمر حاجب حلب	٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧٠٦.
محمد بن شهرى، ناصر الدين حاجب	٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م	؟	٨١٠هـ/١٤٠٧م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧٠٣، ٧٧٧.

حلب				
جانبك الحاجب ونائب الإسكندرية	٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م	؟	؟	ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٣، ص٥٣٩.
برد بك العجمى حاجب حلب	٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٢٠٧.
يشبك طاز حاجب طرابلس	٨٥٦هـ/ ١٤٥٢م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٢٩٨.
عبد العزيز بن محمد الصغير الحاجب	٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٣٣٥.
يلباى المؤيدى حاجب دمشق	٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م	؟	٨٩٦هـ/١٤٩٠م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٢١٥، ٢٨٤.
قانصوه من بيبردى الغورى الأشرفى، الحاجب بحلب	٨٩١هـ/ ١٤٨٨م	؟	٩٢٢هـ/١٥١٦م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٢٦٤، جـ٥،ص٧٠،٤٧ Mayer, Saracenic Heraldry, p.179.
باكير بن صالح الكردى حاجب حلب	٨٩٤هـ/ ١٤٨٨م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٢٦٤.
يونس الأشرفى حاجب دمشق	٨٩٤هـ/ ١٤٨٨م	؟	٩٠٠هـ/١٤٩٤م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٢٦٤، ٣٠٦.
قانى بك حاجب دمشق	٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٣٠٦.
صالح الكردى حاجب حلب	٩٠١هـ/ ١٤٩٥م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٣١٦.

فرج بن بُرْد بك زين الدين الحاجب	٩١٢هـ/ ١٥٠٦م	؟	٩١٩هـ/١٥١٣م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ٩٨، ٣٥٤.
برد بك الحاجب	٩١٩هـ/ ١٥١٣م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ٣٥٤.

ثالثاً: الحاجب الثانى:

اسم الحاجب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
قطلوبغا السيفى تمرباى الحاجب الثانى	٧٩١هـ/ ١٣٨٨م	؟	٧٩٢هـ/١٣٨٩م	ابن لياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٤٢٢، ٤٢٦.
تمربغا المنجكى	٨٠١هـ/ ١٣٩٨م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص ٥١٣،٥٣٩.
يعقوب شاه الكمشبغاوى شرف الدين الحاجب الثانى	٨٠١هـ/ ١٣٩٨م	٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص ٥٤٣،٥٧٩.
باشباى من باكى الحاجب الثانى	٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م	؟	٨١١هـ/١٤٠٨م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص ٥٨١،٦٢٥، ص ٦٥٥، ٧٩٢.
مبارك شاه الحاجب الثانى	٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص ٥٩٤.
جانبك بن عبد الله الثور الحاجب الثانى	٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م	؟	٨٤١هـ/١٤٣٨م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ ١٥، ص٢١٣؛ المنهل الصافى، جـ٤ ص ٢٣٠ رقم ٨٢٠؛ الدليل الشافى، جـ٥ ص

				٢٣٧ رقم ٨١٨؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص٥٦ رقم ٢٢١.
أسنبغا الطيارى الحاجب الثانى	٨٤١هـ/ ١٤٣٧م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ١٨٤.
يلبغا السبهاى الحاجب الثانى	٨٤٢هـ/ ١٣٤١م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٢٠٤.
سمام الحسنى الحاجب الثانى	٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٣١١.
نوكار من بابا الناصرى الحاجب الثانى	٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م	؟	٨٦١هـ/١٤٥٦م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٣١١.
جكم المحمدى الخشقدمى	٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م	٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م	٨٧٣هـ/١٤٦٨م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٤٧٠.
قانى باى آص الشاقى الطويل	٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م	؟	٨٨٠هـ/١٤٧٥م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٣١، ١٠٧.
أزبك فستق الظاهرى حاجب ثانى	٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ١٠٩.
سيباى الظاهرى الحاجب الثانى	٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ١٠٨.
قنبك جُشحة العلاى الرماح الحاجب الثانى	٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م	؟	٨٨٩هـ/١٤٨٤م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣ ق٢، ص ١١٤، ٢٠٦.
تانى بك الأينالى	٨٨٦هـ/ ١٤٨١م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص

				.١٨٠
أيسنال الفقيه الحسنى الظاهرى	٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م	؟	٩٠٣هـ/١٤٩٧م	ابن طولون، اعلام الورى، ص٧٨ وما بعدها رقم ٨٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣،ص٢٤٩، ٣٨٨.
برسباى الصغير	٨٩٩هـ/ ١٤٩٣م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٣٠٠.
ماماى جوشن المحمدى	٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٣٨٨.
أسنباى الأصم	٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٤٦٦.
على الجركسى الحاجب الثانى	٩١٨هـ/ ١٥١٢م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ٢٨٥، ٣١٠.
مصرباى الأقرع	٩٢٢هـ/ ١٥١٦م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٥، ص ١١٠.

رابعاً: حاجب ميسرة:

اسم الحاجب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
أيدكار بن عبد الله العمرى حاجب ميسرة	٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م	؟	٧٩٤هـ/١٣٩١م	المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٢، ص٧٦٥؛ ابن حجر، إنباء الغمر جـ١، ص٢٥٤، ٣٥٤ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ ١٢، ص٣٧؛ المنهل الصافى، جـ٣، ص

				١٥٧ – ١٥٨؛ الدليل الشافي، جـ٢، ص ١٦٦ رقم ٥٩٣؛ الصيرفي، نزهة النفوس، جـ١، ص ٣٤٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٣٠٢، ٣٤٦، ٣٨٩، ٤٥١.
دقماق المحمدى سيف الدين حاجب ميسرة	٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م	؟	٨٠٨هـ/١٤٠٥م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥٦٤، ٧٤٤.

خامساً: الحاجب الثالث:

اسم الحاجب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
مبارك شاه الحاجب الثالث يقول ابن إياس "استقر حاجباً ثالثاً، بتقدمة ألف، ولم يقع ذلك فما تقدم"	٨٢٠هـ/ ١٣٩٩م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥٦٦.

سادساً: الحاجب الصغير:

اسم الحاجب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
سودون الحاجب الصغير	٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥٧١.

٣- ثبت بحجاب الدولة المملوكية الأولى

حسب سنة الوفاة فقط

أولاً: حاجب الحجاب:

اسم حاجب الحجاب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
أياز بن عبد الله النجمي، الأمير فخر الدين المعروف بالمقرى حاجب الحجاب في دولة الظاهر بيبرس	؟	؟	٦٨٧هـ/١٢٨٨م؛ وفى المنهل الصافى في عام ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م	الصفدى، الوافى بالوفيات، جـ٩، ص ٤٥٨ رقم ٤٤١٣؛ أعيان العصر، جـ١، ص٦٣٨-٦٣٩ رقم ٣٤٨؛ العينى، عقد الجمان حوادث عام ٧٥٠هـ/١٣٤٩م؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ١، ص٤٤٨؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٠، ص ٢٤٥؛ المنهل الصافى، جـ٣، ص١٩٩-١٢٠ رقم ٥٦٦؛ الدليل الشافى، جـ١، ص ١٥٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ١٤، ص٢٣١؛ ابن شداد، تاريخ الملك الناصر، ص٣٤، ٢٤٣
أقوش حاجب الحجاب	؟	؟	٧٠١هـ/١٣٠١م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق١، ص٤١٤.
شمس الدين خضر الناصرى	؟	؟	٧٠٧هـ/١٣٠٨م	ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٤٣.

جمال الدين بن الإمام حاجب الحجاب	؟	؟	٧١٠هـ/١٣١١م	ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٤٣.
قطلوبك بن قراسنقر حاجب حجاب دمشق	؟	؟	٧٢٩هـ/١٣٢٨م	ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٣، ص ٣٣٨-٣٣٩ رقم ٣٢٦٥.
سيف الدين أقول المحمدى حاجب حجاب دمشق	؟	؟	٧٣٨هـ/١٣٣٧م	الصفدى، الوافى بالوفيات، جـ١٦، ص ٤٦٤ رقم ٥٠٥؛ نكت الهيمان في نكت العميان، القاهرة ١٩١١م، ص١٧٥؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢، ص ٣٢٥ رقم ٢٠٣٧؛ ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٦ ص ٤١٩ رقم ١٢٦٠؛ الدليل الشافى، ص ٣٦٦ رقم ١٢٥٦.
مغلطاى بن عبد الله المرتينى حاجب الحجاب	؟	؟	٧٤٩هـ/١٣٤٨م	ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٥ ص ١٢٥ رقم ٤٨٣٠؛ ابن تغرى بردى، الدليل الشافى، جـ٢، ص ٧٣٨ رقم ٢٥٢٠.
قبلاى بن عبد الله سيف الدين الناصرى	؟	؟	٧٥٠هـ/١٣٤٩م	المقريزى، السلوك، جـ٣ ق١، ص٢٥؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٣، ص ٣٢٨ رقم ٣٢٣٧ وفيه "مات في سنة ٧٥٦

				هـ"؛ ابن تغرى بردي، الدليل الشافى، جـ٢ ص٥٣٣ رقم ١٨٢٨.
المهمندار سيف الدين حاجب حجاب دمشق	؟	؟	٧٦٣هـ/١٣٦١م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق١، ص٥٨٦.
جركتمر الماردانى حاجب الحجاب زمن السلطان الناصر حسن	؟	؟	٧٦٩هـ/١٣٦٧م	ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢، ص٧١ رقم ١٤٤٨؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧٩.
أسندمر حرفوش العلاى الحاجب	؟	؟	٧٧٢هـ/١٣٧٠م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص١٩.
يلبغا بن عبد الله الناصرى حاجب الحجاب زمن الأشرف شعبان ابن حسين	؟	؟	٧٧٦هـ/١٣٧٤م	المقريزى، السلوك، جـ٣ ق١، ص٢٤٨؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص١٣٤؛ الدليل الشافى، جـ٢ ص ٧٩٤ رقم ٢٦٧٥.
يعقوب شاه حاجب الحجاب	؟	؟	٧٧٩هـ/١٣٧٧م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥٣، ٣٣١١٩٩.
موسى بن الأركشى الأمير سيف الدين حاجب حجاب القاهرة	؟	؟	٧٨٠هـ/١٣٧٨م	المقريزى، السلوك، جـ٣ ق١، ص٣٥١، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص١٩٤؛ الدليل الشافى، جـ٢، ص ٧٤٨ رقم ٢٥٥٣.
جوبان الجركسى	؟	؟	٧٨٢هـ/١٣٨٠م	ابن حجر، إنباء الغمر،

حاجب حجاب حلب				جـ١، ص٢٢٢، رقم٩ .
طشتمر القاسمى حاجب الحجاب	؟	؟	٧٨٣هـ/١٣٨١م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٢٩١.

ثانياً: الحاجب:

اسم حاجب الحجاب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
بيليك بن عبد الله المحسنى الصالحى الحاجب المعروف بأبى شامة، زمن السلطان المنصور قلاوون .	؟	؟	٦٩٥هـ/١٢٩٥م	الصفدى، الوافى بالوفيات، جـ١٠، ص ٣٦٨ رقم ٤٨٦٤؛ ابن الفرات، تاريخ الفرات، جـ٨، ص٢١٦، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٨، ص ٤٧٩؛ المنهل الصافى، جـ٣، ص٥١١ رقم ٧٤٧؛ الدليل الشافى، جـ١، ص٢١١ رقم ٧٤٥.
جمال الدين اقوش الكرجى الموصلى الحاجب	؟	؟	٦٩٩هـ/١٢٩٩م	بيبرس المنصورى، التحفة المملوكية، ص ١٣٨، ١٥٧؛ زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق زبيدة محمد عطا، القاهرة، بدون تاريخ، ص٣١٧؛ الصفدى، أعيان العصر، جـ١، ص ٥٦٠- ٥٦١؛ الوافى بالوفيات، جـ٤، ص

				١١١٣؛ ذكر العيني أن: جمال الدين أقوش مات في عام ٦٩٣هـ؛ ابن حجر، نيل الدرر الكامنة، ٤٥٢؛ ابن العماد، شذرات الذهب، جـ٥، ص٤٤٦.
أيبك الأشكرى عز الدين الحاجب بدمشق	؟	؟	٧١٤هـ/١٣١٤م	الصفدى، أعيان العصر، جـ١، ص ٦٤٥ رقم ٣٤٥؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ١، ص٤٢١.
كتبغا بن عبد الله حاجب دمشق زمن الأمير تنكز الناصرى	؟	؟	٧٢١هـ/١٣٢١م	المقريزى، السلوك، جـ٢ ق١، ص٢٣٤؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٣، ص ٣٥٠ رقم ٣٣٠٢؛ ابن تغرى بردى، الدليل الشافى، جـ٢، ص ٥٥٤، رقم ١٨٩٨.
أوران سيف الدين الحاجب بدمشق	؟	؟	٧٢٣هـ/١٣٢٣م	الصفدى، أعيان العصر، جـ١، ص ٦٣٦ رقم ٣٤٤؛ الوافى بالوفيات، جـ٩، ص٤٤١ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ١، ص٤١٩؛ ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٣، ص ١١٤.
برسبغا بن عبد الله الحاجب الناصرى زمن	؟	؟	٧٤٢هـ/١٣٤٢م	الصفدى، أعيان العصر، جـ٢، ص ١٣٠؛ الوافى

السلطان الناصر محمد				بالوفيات، جـ١٠، ص ١١٤، المقريزى، السلوك، جـ٢ ق٣، ص٦٠٥؛ ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٣، ص ٢٨٢، رقم ٦٥٥؛ الدليل الشافى، جـ١، ص١٨٧ رقم ٦٥٤.
بيبرس بن عبد الله السلارى حاجب صفد	؟	؟	٧٤٣هـ/١٣٤٢م	الصفدى، الوافى بالوفيات، جـ١٠، ص ٣٥٢ رقم ٤٨٤٧؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢، ص٤٢ رقم ١٣٧٨؛ ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٣، ص ٤٧٨ رقم ٧٢٣؛ الدليل الشافى، جـ٤، ص ٢٠٥ رقم ٧٢١.
جقطاى الحاجب بدمشق	؟	؟	٧٤٣هـ/١٣٤٢م	ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢، ص٧٤ ، رقم ٤٥٥.
قطلوتمر الخليلى حاجب دمشق	؟	؟	٧٤٦هـ/١٣٤٥م	ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٣، ص ٣٣٩، رقم ٣٢٦٧.
أَلْلَمس بن عبد الله الناصرى الحاجب ثم حاجب حجاب	؟	؟	٧٤٦هـ/١٣٤٥/	الصفدى، أعيان العصر، جـ١، ص ٦١٥ رقم ٣٣٣؛ الوافى بالوفيات، جت٩ ، ص٣٧٠، رقم ٤٢٩٥؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ١،

				ص٤٣٨، رقم ١٠٦٢؛ ابن تغرى بردى، الدليل الشافى، جـ١، ص ١٥٣رقم ٥٤٥؛ المنهل الصافى، جـ٣، ص٨٤، سرجع ذ. هبه.
شرف الدين الحاجب بحلب	؟	؟	٧٥٦هـ/١٣٥٥م	الصفدى، أعيان العصر، جـ٥، رقم ١٩٠٥، ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٤، ص٣٨٤.
جمال الدين عبد الله الدمرتاش الحاجب بدمشق	؟	؟	٧٦٢هـ/١٣٦٠م	الصفدى، أعيان العصر، جـ٣، ص٨ رقم ٩١٤؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢، ص٣١١.
باكيش اليلبغاوى الحاجب	؟	؟	٧٦٩هـ/١٣٩٩م	ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢، ص٤.
سلطان شاه بن قرا الحاجب	؟	؟	٧٧٦هـ/١٣٧٤م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص١٥٠.
قبلاى سيف الدين الناصرى الحاجب	؟	؟	٧٥٦هـ/١٣٥٥م	المقريزى، السلوك، جـ٣ ق١، ص٢٥؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٣ ص ٢٤٣ رقم ٦١٧؛ الشجاعى، تاريخ الملك الناصر، ص١٩١، وما بعدها.
على بن طغريل الأمير علاء الدين حاجب	؟	؟	٧٤٩هـ/١٣٤٨م	ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٣، ص ١٢٧، رقم ٢٧٥٨؛

دمشق				ابن تغرى بردى، الدليل الشافى، جـ١، ص٤٥٧ رقم ١٥٨٧.
علاء الدين أقطون الكمالى حاجب صفد	؟	؟	٧٣٤هـ/١٣٣٤م	الصفدى، أعيان العصر، جـ١، ص ٥٥٧، رقم ٣٠١، الوافى بالوفيات، جـ٩، ص٣٢؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ١، ص٣٩٥؛ ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٢، ص ٥٠٥ رقم ٥٠٧.
طيفور بن عبد الله الظاهرى حاجب حجاب دمشق زمن السلطان الظاهر برقوق	؟	؟	٨٠٢هـ/١٣٩٩م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٣، ص١٥ – ١٦؛ المنهل الصافى، جـ٧، ص٤٠ وما بعدها رقم ١٢٩٤؛ الدليل الشافى، جـ١ ص٣٧٦ رقم ١٢٩١؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٤، ص١٤ رقم ٥٦؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥٦١.
يلبغا بن عبد الله السودونى حاجب الحجاب	؟	؟	٨٠٥هـ/١٤٠٢م	المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٣، ص١١٠٩ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ ١٣ ص٣١؛ الدليل الشافى، جـ٢، ص ٧٩٤ رقم ٢٦٧٦؛ السخاوى، الضوء

				اللامع، جـ١٠، ص ٢٩٠ رقم ١١٣٥.
جقمق بن عبد الله الصفوى حاجب حجاب حلب زمن السلطان الظاهر برقوق	؟	؟	٨٠٨هـ/١٤٠٥م	ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٢، ص٣٣٤؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٣، ص ١٥٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥١٩، ٥٧٧، ٦٦١، ٦٦٣؛ المنهل الصافى، جـ٤، ص ٢٧٤ رقم ٨٤٨؛ الدليل الشافى، جـ١، ص ٢٤٥ رقم ٨٤٦؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص٧٠ رقم ٢٨٦.
مبارك شاه بن عبد الله الظاهرى حاجب الحجاب	؟	؟	٨١٦هـ/١٤١٣م	ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٢، ص٥١٦؛ ابن تغرى بردى، الدليل الشافى، جـ٢، ص ٥٧١ رقم ١٩٦٢؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٦، ص ٢٣٧ رقم ٨٢٢.
جرباش بن عبد الله الظاهرى المعروف بكباشة*	؟	؟	٨١٨هـ/١٤١٥م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٤، ص١٣٦؛ المنهل الصافى، جـ٤، ص ٢٥٤ – ٢٥٥ رقم

* كباشة اسم فروة من جلود الأغنام معروفة، كان يلبسها جرباش هذا لما كان صغيراً عند لعبه بالرمح من تحت ثيابه لتحمل عنه الضرب فسمي بها. ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٤، ص٢٥٥.

				٨٣٥؛ الدليل الشافى، جـ٤، ص٢٤٢ رقم ٨٨٣.
الناصرى محمد ابن العطار حاجب حجاب حماة	؟	؟	٨٢٨هـ/١٤٢٤م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ١٠١.
إياس الظاهرى حاجب الحجاب	؟	؟	٨٣١هـ/١٤٢٧م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ١١٩.
جانبك بن عبد الله الحمزاوى حاجب الحجاب	؟	؟	٨٣٦هـ/١٤٣٣م	ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٣، ص٥٠٥ رقم ٨ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة،جـ١٥ ، ص١٨٠؛ المنهل الصافى، جـ٤، ص ٢٢٢ رقم ٨١٨؛ الدليل الشافى، جـ١، ص ٢٣٦ رقم ٨١٦؛ الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٣، ص ٢٦٩ رقم ٧٢٧؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣ ص٥٦ رقم ٧٢٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص١٥٠.
تاج بن سيفا بن عبد الله الشويكى* المعروف بالتاج	؟	؟	٨٣٩هـ/١٤٣٥م	المقريزى، السلوك، جـ٤، ص٢٣٧، ٢٥٥ ، ٢٧٢، ٢٩٠، ٢١١، ٣٣١، ٣٣٨، ٩٨٣-

* نسبة إلى الشويكة مكان بظاهر دمشق. ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٤، ص٢٦، رقم ٨.

الوالــى حاجب الحجاب				٩٨٤؛ ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٤، ص٢٦ رقم ٤٨؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٣، ص ٢٠٢؛ جـ١٥، ص ١٩٨ - ١٩٩؛ المنهل الصافى، جـ٤، ص٥، رقم ٧٥٢؛ الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢، ص٣١٥، ٣٤٤، ٣٥٦ ، ٣٥٩؛ جـ٣، ص ٣٥٧ - ٣٥٨؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص٢٤ - ٢٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٦٥؛ Ahmad, Abd ar-Raziq, La hisba et le muhtasib en Egypt, pp. 163-266, no. 114-116.
شاهين بن عبد الله الزرد كاش حاجب حجاب دمشق	؟	؟	٨٤٠هـ/١٤٣٦م	ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٦، ص٢١٢-٢١٣ رقم ١١٨٠؛ الدليل الشافى، جـ١، ص٣٤٢ رقم ١١٧٧؛ الضوء اللامع، جـ٣ ص٢٩٥ رقم ١١٣٠.
سودون بن عبد الله الظاهرى المعروف بسودون	؟	؟	٨٤٣هـ/١٤٤٠م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٥، ص٤٧٨-٤٧٩؛ المنهل الصافى، جـ٦،

المغربى* حاجب حجاب زمن الأشرف برسباى				ص١٧٩ وما بعدها رقم ١١٦٢؛ الدليل الشافى، ص٣٣٧ رقم ١١٥٩؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص٢٨٣ رقم ١٠٧٤.
قانى باى بن عبد الله الجكمى المعروف قانى باى طاز حاجب الحجاب بحلب	؟	؟	٨٥٠هـ/١٤٤٦م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ ١٥، ص٥١١؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٢٥٣؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٦، ص ١٩٥ رقم ٦٥٨.
برسباى بن عبد الله الحمزاوى حاجب حجاب دمشق زمن السلطان الأشرف برسباى	؟	؟	٨٥١هـ/١٤٤٧م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ ١٥، ص٥٢٢؛ المنهل الصافى، جـ٣، ص ٢٢٧، رقم ٦٥٢؛ الدليل الشافى، جـ١ ص١٨٦ رقم ٦٥١؛ السخاوى، التبر المسبوك، ص١٩١؛ الضوء اللامع، جـ٣، ص٧ رقم ٣٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢،ص٢٥١، ٢٥٩.
يشبك بن عبد الله النوروزى	؟	؟	٨٥٤هـ/١٤٥٠م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة،جـ١٦

* يقول عنه ابن تغرى بردى: "كان تصوره غير صحيح، فهمه غير مستقيم، قل أن يجلس بمكان ولا يبحث فيه مع أحد، وكان عنده تشوق وظن بنفسه ولهذا المقتضى سُمى المغربى. ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٦، ص١٨٠.

حاجب حجاب طرابلس ثم دمشق				ء ص١٩٩؛ الدليل الشافى، جـ٢، ص ٧٨٨، رقم ٢٦٠٦؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ١٠، ص ٢٨٠ رقم ١١٠٠ وفيه "مات في المحرم عام ٨٦٣هـ".
جانبك اليشبكى الجكمى	؟	؟	٨٥٧هـ/١٤٥٣م	السخاوى، التبر المسبوك، ص٢٦٢؛ جـ٤، ص٦١-٦٢ رقم ٢٤٩.
سودون بن عبد الله المؤيدى حاجب الحجاب زمن السلطان المؤيدى شيخ	؟	؟	٨٦٤هـ/١٤٥٩م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٦، ص٣١٠؛ الدليل الشافى، جـ١، ص ٣٣٦، رقم ١١٥٦؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص ٢٧٦ رقم ١٠٥٢.
علان حلق بن عبد الله حاجب حجاب حلب	؟	٨٥٣هـ/ ١٤٤٩م	٨٦٤هـ/١٤٥٩م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٦، ص١٣٥، الدليل الشافى، جـ١، ص ٤٤٤ رقم ١٥٣٦؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٥ ص١٥٠ رقم ٥٢٢ وفيه "توفى سنة ٨٩٤هـ وهو خطأ لأن الطاعون الذى توفى فيه كان في سنة ٨٦٤هـ وقد عظم بالشام وغزة، السخاوى

				التبر المسبوك، ص ٤٧٠.
قراجا الظاهرى حاجب حجاب مصر	؟	؟	٨٧٢هـ/١٤٨١م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٤٦٠.
فرج بن أغلبك حاجب حجاب حلب	؟	؟	٨٨٥هـ/١٤٨٠م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ١٧٧.
بلاط اليشبكى حاجب حجاب دمشق	؟	؟	٨٧٨هـ/١٤٧٣م	ابن طولون، إعلام الورى، ص٨١ رقم ٨٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٤٢٥-٤٢٦؛ جـ٣، ص٩٢.
طقتمر بن عبد الله الكلتاى حاجب حجاب طرابلس ثم حلب	؟	؟	٨٨٧هـ/١٣٨٥م	ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢ ص ٣٢٥ رقم ٢٠٣٩؛ ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٦ ص ٤١٩ رقم ١٢٦٠؛ الدليل الشافى، جـ١، ص٣٦٦ رقم ١٢٥٧.
عبد الله بن بكتمر الحاجب	؟	؟	٧٨٦هـ/١٣٨٤م	المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٢، ص٥٢٦ ؛ابن قاضى شهبه تاريخ ابن قاض شهبة تحقيق عدنان درويش، دمشق ١٩٧٧م، جـ٣ ص١٤٤- ١٤٥؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص ٣٠١؛ المنهل الصافى، جـ٧، ص٨٢ – ٨٣

				رقم ١٣٢١؛ الدليل الشافى، جـ١، ص ٣٨٤ رقم ١٣١٨؛ الصيرفى، نزهة النفوس، جـ١، ص ١١١ رقم ٣٣.
تانى بك قرا الأينالى	؟	؟	٩٠٥هـ/١٤٩٩م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٢٢٠، ٤٣٠.

ثانياً: الحاجب:

اسم حاجب الحجاب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
أيـاس الصرغتمشى فخر الدين الحاجب	؟	؟	٧٨٥هـ/١٣٨٣م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٣٢٦.
جلبان الحاجب سيف الدين	؟	؟	٧٩٠هـ/١٣٨٨م	ابن حجر، إنباء الغمر، جـ١، ص٢٩٤ رقم ١٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق١، ص٣٨٢؛ ذكر ابن إياس أنه توفى عام ٧٨٨هـ/.
أيبك عز الدين الزويزانى الحاجب	؟	؟	٧٩٩هـ/١٤٩٦م	الصفدى، أعيان العصر، ص٦٤٥ رقم ٣٥٥.
محمد بن عبد الله بن بكتمر ناصر الدين بن جمال الدين الحاجب	؟	؟	٨٠٢هـ/١٣٩٩م	ابن حجر، ذيل الدرر الكامنة، ص٩٣ رقم ٨١، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٣، ص١٨؛ الدليل الشافى، جـ٢، ص

				٦٤٣ رقم ٢٢١٢؛ الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٢ ص٦٧ رقم ٣٢٨.
باشاه الحاجب بمصر	؟	؟	٨٠٢هـ/١٣٩٩م	السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص٢.
نوروز بن عبد الله الخضرى حاجب حلب	؟	؟	٨٠٢هـ/١٣٩٩م	ابن تغرى بردى، الدليل الشافى، جـ٢، ص٧٦٢ رقم ٢٥٩٥؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ١٠، ص ٢٥٠ رقم ٨٧٢.
بيقجا طيفور حاجب دمشق	؟	؟	٨٠٢هـم١٣٩٩م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥٨٢.
تغرى برمش الحاجب	؟	؟	٨٠٣هـ/١٤٠٠م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥٩٤.
ينتمر بن عبد الله المحمدى الحاجب زمن السلطان الظاهر برقوق	؟	؟	٨٠٢هـ/١٣٩٩م	المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٣، ص١٠٢٥ ؛ ابن تغرى بردى، الدليل الشافى، جـ٢، ص٧٩٦ رقم ٢٦٨١؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ١٠، ص ٢٩١، رقم ١١٤١.
بيدمر بن عبد الله الظاهرى الحاجب زمن السلطان برقوق	؟	؟	٨٠٢هـ/١٣٩٩م	ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٣، ص٤٩٩، رقم ٧٣٩؛ الدليل الشافى، جـ١ ص٢٠٩ رقم ٧٣٧؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص٢٢

				رقم ١٠٧.
ترمش حاجب طرابلس	؟	؟	٨٠٢هـ/١٣٩٩م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ٥٥٦.
تنكز بغا الحطى حاجب طرابلس	؟	؟	٨٠٧هـ/١٤٠٤م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧٠٥.
آق سنقر بن عبد الله الأشرفى شمس الدين الحاجب زمن السلطان الأشرف برسباى	؟	؟	٨٣٠هـ/١٤٢٧م	السخاوى، الضوء اللامع، جـ٢، ص ٣١٨، رقم ١٠٢١.
تمراز بن عبد الظاهر، سيف الدين الحاجب المعروف بتمراز الأعور، شغل منصب الحاجب في زمن المؤيد شيخ، وفترة أخرى زمن الأشرف برسباى	؟	؟	٨٣٠هـ/١٤٢٧م	المقريزى، السلوك، جـ٤ ق١، ص١٠٥، ١٨٩؛ ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٤، ص ١٤٦ – ١٤٧ رقم ٧٩٠؛ الدليل الشافى، جـ١، ص٢٢٥ رقم ٧٨٨.
جلبان بن عبد الله العمرى الحاجب بالقاهرة ثم غزة	؟	؟	٨٣٠هـ/١٤٢٦م	ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٥، ص٧ رقم ٨٥٤؛ الدليل الشافى، جـ١ ص٢٤٨ رقم ٨٥؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص٧٧ رقم ٣٠٠.
أبو يزيد بن عبد	؟	؟	٨٤٠هـ/١٤٣٦م	ابن تغرى بردى،

الله الظاهـــرى الحاجب بمصر زمن برسباى				الدليل الشافى، جـ٢، ص٨٣٦، رقم ٢٨١٦؛ السـخاوى، الضـوء اللامـع، جـ١١، ص ١٥٠ رقم ٤٩١.
الزينى قاسم بن تمرباى الحاجب	؟	؟	٨٧١هـ/١٤٦٦م	ابـن إيـاس، بدائـع الـزهور، جـ٢، ص ٤٤١.
العلاى على بن الفيسـى حاجب مصر	؟	؟	٨٧٤هـ/١٤٦٩م	ابـن إيـاس، بدائـع الـزهور، جـ٣، ص ٣٧.
جانـبك الأبيض الحاجب	؟	؟	٨٧٧هـ/١٤٧٢م	ابـن إيـاس، بدائـع الـزهور، جـ٣، ص ٧٩.
أبو بكر بن سنقر الجمـالى سيف الدين الحاجب	؟	؟	٨٨٣هـ/١٤٣٤م	ابن حجر، ذيل الدرر الكامنة، ص٩٩، رقم ١٠٢؛ السـخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص٢٧٣.
أبو بكر جركسى الحاجب بمصر	؟	؟	٨٨٦هـ/١٤٨١م	ابـن إيـاس، بدائـع الـزهور، جـ٣، ص ١٧٨.
تمربغا الحاجب	؟	؟	٧٨٨هـ/١٣٨٦م	ابـن إيـاس، بدائـع الـزهور، جـ١ ق٢، ص٢٤٩، ٣٦٨.
تمر بن عبد الله الشـهاب سيف الدين الحاجب	؟	؟	٧٩٨هـ/١٣٩٦م	ابـن حجـر، الـدرر الكامنة، جـ٢، ص٥٣ . رقـم ١٤١٨، إنباء الغمـر، جـ١، ص ٥١٦ رقـم ١٤؛ ابـن تغـرى بردى، المنهل الصـافى، جـ١ ص ٢٢٤ رقـم ٧٨٤؛

				الصيرفي، نزهة النفوس، جـ١، ص ٤٣٤ رقم ٢٤٦.
سودون بن عبد الله المظفري حاجب حلب زمن السلطان الظاهر برقوق	؟	؟	٧٩١هـ/١٣٨٩م	المقريزي، السلوك، جـ٣ ق٣، ص٦٨٦؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ٨، ص ١٧٥؛ ابن حجر، إنباء الغمر، جـ١، ص ٣٨٥ رقم ١٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص ٣٨٥؛ المنهل الصافي، جـ٥، ص١٠٢ رقم ١١٢٧؛ الدليل الشافي، جـ١، ص٣٢٨ رقم ١١٢٤؛ الصيرفي، نزهة النفوس، جـ١، ص٢٧٧ رقم ١١٦.
مغلباي دجاج حاجب دمشق	؟	٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م	٩١٥هـ/١٥٠٩م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٤٧١، جـ٤،ص١٥٥.
برد بك تفاح حاجب دمشق	؟	؟	٩١٩هـ/١٥١٣م	ابن طولون، اعلام الورى، ص١٤٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص٤٧١، جـ٤، ص٣٣٨.
منكلي بغا بن عبد الله الصلاحي، محتسب القاهرة وحاجبها	؟	؟	٨٣٦هـ/١٤٣٢م	المقريزي، السلوك، جـ٤ ق١، ٢، ص ٢٦٩، ٢٩٠، ٣٦٣، ٨٩٩، ٩٠٠؛ ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٣ ص١١، ص٣٩،

				١٣٨، ٥٠٩؛ ابن تغرى بردى، الدليل الشافى، جـ٢، ص ٧٤٥ رقم ٢٠٤٥؛ الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٣، ص ٢٦٧ رقم ٧٢٣؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ١٠، ص ١٧٣ رقم ٧٣١؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٦٨٦؛ Ahmed Abd ar-Raziq, La hisba et le muhtasib en Egypte, p.162 no.113 .
خشكلدى الحاجب المعروف بنصف وجه	؟	؟	٩١٢هـ/١٥٠٦م	ابن إياس، بدائع الزهور، حـ٤، ص ١٠٧.

ثالثاً: الحاجب الثانى:

اسم حاجب الحجاب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
أبو بكر سنقر زين الدين وقيل سيف الدين الحاجب الثانى زمن الظاهر برقوق	؟	؟	٨٠٣هـ/١٤٠٠م	المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٣، ص١٠٧١؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٣، ص٢٢؛ الدليل الشافى، جـ٢، ص ٨١٦، رقم ٢٧٤٦؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ١١، ص

				٣٦ رقم ٩٣.
إياس بن عبد الله الجلالى الحاجب الثانى	؟	؟	٨٣٠هـ/١٤٢٦م	ابن تغرى بردى، الدليل الشافى، جـ١، ص١٦٠، رقم ٥٦٩؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٢، ص ٣٢٤، رقم ١٠٥٧.
جانى بك البواب الحاجب الثانى	؟	؟	٨٤١هـ/١٤٣٧م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ١٨٤.
بتخاص العثمانى الحاجب الثانى في عهد السلطان خشقدم	؟	؟	٨٧٤هـ/١٤٦٩م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٣٨، ٣٩؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص٢، رقم٥.
سودون بن عبد الله السودونى الحاجب الثانى	؟	؟	٨٥٤هـ/١٤٥٠م	ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ ١٥، ص٥٥١؛ المنهل الصافى، جـ٦، ص ١٧٨ - ١٧٩ رقم ١١٦١؛ الدليل الشافى، جـ١، ص٣٣٧ رقم ١١٥٨؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٣، ص٢٧٩ رقم ١٠٦٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٣٥٦.
سنقر الحاجب الثانى بدمشق	؟	؟	٨٤٨هـ/١٤٤٤م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٢٤٥.
قُنقِ العزى الحاجب الثانى	؟	؟	٧٦٩هـ/١٣٦٧م	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢،

				ص٨٠.
قـــانى بـــك الأزدمــــــرى الحاجب الثانى	؟	؟	٨٧٩هـ/١٤٧٤م	ابـــن إيـــاس، بدائـــع الـــزهور، جـــ٣، ص ١٠٢.
محمــد بــن تنم عــبد الـــرازق الحاجب الثاني	؟	؟	٨٧٣هـ/١٤٦٨م	ابـــن إيـــاس، بدائـــع الـــزهور، جـــ٣، ص ٣٥.

رابعاً: الحاجب الصغير:

اسم حاجب الحجاب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
بيد مر الحاجب الصغير بمصر	؟	؟	؟	الســـخاوى، الضـــوء اللامع،جـ٣، ص٢٢.

٤-ثبت بحجاب الدولة المملوكية الأولى

بدون تاريخ الاستقرار أو العزل أو الوفاة*

أولاً: حاجب الحجاب:

اسم حاجب الحجاب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
أسنبغا العلاى حاجب الحجاب	؟	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٩٥.
بدر الدين بكتوت الشمسى حاجب الحجاب	؟	؟	؟	ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٤٣.
بيبرس أباجى الحلبى، ركن الدين حاجب الحجاب	؟	؟	؟	ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٤٣.
جركسى السودونى حاجب حجاب طرابلس ثم دمشق	؟	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٦٧٦.
خليل بن عرام الأسكندرانى صلاح الدين حاجب الحجاب، عاصر المنصور علي بن الأشرف شعبان عام ٧٨٢ هـ/١٣٨٠م	؟	؟	؟	ابن حجر، إنباء الغمر، جـ١، ص٢٢٣ - ٢٢٤ رقم ١٢.

* لم تمدنا المصادر بهذه التواريخ مما يتعذر معه نسب هذه الأسماء إلى عصر سلطان مملوكى بعينه.

سودون صوفى حاجب الحجاب	؟	؟	؟	ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٣، ص٩٣.
شمس الدين سنقرجا الكنجى حاجب الحجاب	؟	؟	؟	ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٤٣.
قطلوتمر حاجب الحجاب	؟	؟	؟	الصفدى، أعيان العصر، جـ٤، ص ١٢٧ رقم ١٣٨٢؛ الوافى بالوفيات، جـ ٢٤، ص٢٦١؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٣، ص٢٥٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٤، ص٢١٣.
لاجين العمرى حاجب الحجاب	؟	٧٢٢هـ/ ١٣٢٢م	؟	الصفدى، أعيان العصر، جـ٢، ص ١٠٨٧؛ زيتر شتين، تاريخ سلاطين المماليك، ص١٤٧.
قطلبك بن الجاشنكير حاجب الحجاب	؟	؟	؟	ابن إيبك، كنز الدرر، جـ٩، ص٢١٦.
يشبك السودونى حاجب الحجاب	؟	؟	؟	ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٤، ص١٤، ص ١٣٤.

ثانياً: الحاجب:

اسم حاجب الحجاب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
ألجبغا الحاجب	؟	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور،جـ١ق٢، ص ٥٤٩، ٥٦٢، ٦٧٠.

أسندمر الناصرى حاجب	؟	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧٣٢.
بدر الدين الوزيرى الحاجب	؟	؟	؟	ابن إيبك، كنز الدرر، جـ٩، ص٢١١.
بكتمر الحاجب	؟	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق١، ص٤٥٦، ٤٥٩.
بكتمر العلمى حاجب الإسكندرية	؟	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص١٣٢.
تكلباى حاجب دمشق	؟	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٥١.
جلبان	؟	؟	؟	المقريزى، السلوك، جـ٢ ق٢، ص٥٥٦؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص٣٨٠؛ المنهل الصافى، جـ٥، ص٦، رقم ٨٥٣؛ الدليل الشافى، جـ١، ص ٢٤٨ رقم ٨٥٢؛ الصيرفى، نزهة النفوس، جـ١، ص ١٤٧.
جركسى الحاجب	؟	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧١٢ – ٧١٣.
خشقدم الأرديغاوى حاجب طرابلس	؟	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٣٥٩.

سنقر الكمالى الأمير عز الدين الحاجب، زمن السلطان الناصر محمد	؟	٧١٢هـ/ ١٣١٢م	؟	الصفدى، أعيان العصر، جـ٢، ص ٤٨٤، ٧٥٤؛ ابن إيبك، كنز الدرر، جـ ٩، ص١١٨، ١٩٥؛ العينى، عقد الجمان، جـ٤، ص٢٣٣، ٢٥٨ ، ٣٢٣؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢، ص٢٧٣ رقم ١٩٠٣؛ زيتر شتين، تاريخ سلاطين المماليك، ص ١٤٧ – ١٤٨؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٨، ص ١٦٧.
سلامش حاجب غزة	؟	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧٢٢.
سودون باشاه الحاجب	؟	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥١٦.
شاهين بن عبد الله الأيدكارى حاجب حلب في أوائل دولة المؤيد شيخ	؟	؟	؟	ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، ص ٢١١ – ٢١٢، رقم ١١٧٩؛ الدليل الشافى، جـ١، ص٣٤١ – ٣٤٢ رقم ١١٧٦.
الصارم الجرمكى الحاجب	؟	؟	؟	بيبرس المنصورى، التحفة المملوكية، ص ١٩٨.
طيدمر الاسمعيلى	؟	؟	؟	ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٢، ص

الحاجب				٣٣٤ رقم ٢٠٦٥.
قجق الحاجب	؟	؟	؟	ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٣، ص١٢.
قراتنبك الحاجب	؟	؟	؟	ابن حجر، نيل الدرر الكامنة، ص٢١٦ رقم ٣٧٢؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٦، ص٢١٤.
محمد بن بكتمر الحاجب	؟	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق١، ص٤٣٥.
محمد بن جلبان العلاى	؟	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٦٧٢، ٧٣٢.
مظفر الحاجب	؟	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق١، ص٢١٠.
مُعَيقل الحاجب	؟	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٣٤.
موسى الهذبانى شرف الدين حاجب دمشق	؟	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧٠٣.
سيف الدين بهادر الحاج	؟	؟	؟	العينى، عقد الجمان، جـ٣، ص٣٤٥.

ثالثاً: الحاجب الثانى:

اسم حاجب الحجاب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
تانى بك الألياسى الحاجب الثانى	؟	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٢٤٩.

قانصوه من نفيس الحاجب الثاني بحلب	؟	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ٤٨٣.
يعقوب شاه الحاجب الثانى	؟	؟	؟	ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٥٣، ١٣١.

رابعاً: حاجب ميسرة:

اسم حاجب الحجاب	تاريخ تولية الحجابة	تاريخ العزل	تاريخ الوفاة	المصادر
تمر بغا ميسرة	؟	؟	؟	ابن حجر، إنباء الغمر، جـ١، ص٥٢٨.

٥- ثبت بمصادرات الحجاب

أولاً في العصر المملوكى الأول

اسم الحاجب	اسم السلطان	القائم بالمصادرة	حجم المصادرة	العام	المصادر
الحاج بهادر الحاجب	السلطان لاجين	شاد الدواوين	أمواله	٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م	العينى، عقد الجمان، جـ٣، ص٣٦٣-٣٦٤.
بكتمر الحسامى الحاجب	السلطان الناصر محمد ابن قلاوون	السلطان الناصر	١٠٠,٠٠٠ دينار	٧١٠هـ/ ١٣١٠م	ابن تغرى بردى، جـ٩، ص٤١.
جمال الدين بكتمر الحاجب	السلطان الناصر محمد	؟	١٠٠,٠٠٠ دينار	٧١٥هـ/ ١٣١٥م	ابن كثير، البداية جـ١٤، ص٧٣؛ المقريزى، السلوك، جـ٢ ق ١ ص١٤٤.
سيف الدين الماس الحاجب	السلطان الناصر محمد	شاد الدواوين وشاهد الخزانة	٢,٣٩٠,٠٠٠ درهم نقرة	٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م	المقريزى، السلوك، جـ٢، ق ٢، ص٣٦٠، ابن تغرى بردى، جـ٩، ص٣٠٢، ابن إيبك، كنز الدرر، جـ٩، ص٣٧٣ حياة الحجى، السلطة والمجتمع في سلطنة المماليك، ص٤٠.
على بن مقلد الحاجب	السلطان الناصر محمد	؟	مال	٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م	الصفدى، أعيان العصر، جـ٣،

					ص٣٦، ٤٥.
بكتمر الحسامى الحاجب	السلطان الناصر محمد	؟	اشياء نقدية وعينية	٧٣٥هـ/ ١٣٣٤م	ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٧، ص١٧٤؛ ابن الوردى، تقسمة المختصر، جـ٢، ص٣٠٨.
محمد بن بكتمر الحاجب	المظفر حاجى بن محمد	شاد الدواوين وأمير سلاح	أمواله ومنزله وخيوله	٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م	المقريزى،السلوك، جـ٢ ق٣ ص ٧٣٠، ابن تغرى بردى، جـ١٠، ص١٦٠.
علاء الدين على بن كلفت الحاجب	السلطان الأشرف شعبان بن حسين	السلطان	أمواله	٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م	المقريزى، السلوك، جـ٣ ق ١، ص٢١٥، ٢١٦؛ ابن تغرى بردى، جـ١١، ص٦٠ – ٦٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق ٢، ص١٢٠ – ١٢١.
سلطان شاه بن قراجا الحاجب الثانى	السلطان الأشرف شعبان بن حسين	السلطان	أمواله	٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م	المقريزى، السلوك، جـ٣ ق ٢، ص١٠٠؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص٦٠ – ٦٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور،

حاجب طرابلس	ابن برقوق			١٤٠٤م	بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧١٣ – ٧١٤.
كزل العجمى الحاجب	الناصر فرج ابن برقوق	السلطان	٢٠٠,٠٠٠ درهم	٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م	المقريزى، السلوك جـ٤، ق١، ص٤٣٠؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٣، ص٤٥٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص٧٦٠.
آقبغا شيطان والى القاهرة ومحتسبها وحاجبها	المؤيد شيخ المحمودى	الاستادار فخر الدين	أموال	٨٢١هـ/ ١٤١٨م	المقريزى، السلوك، جـ٤ ق١، ص٤٤١؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٤، ص٦٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٣٧

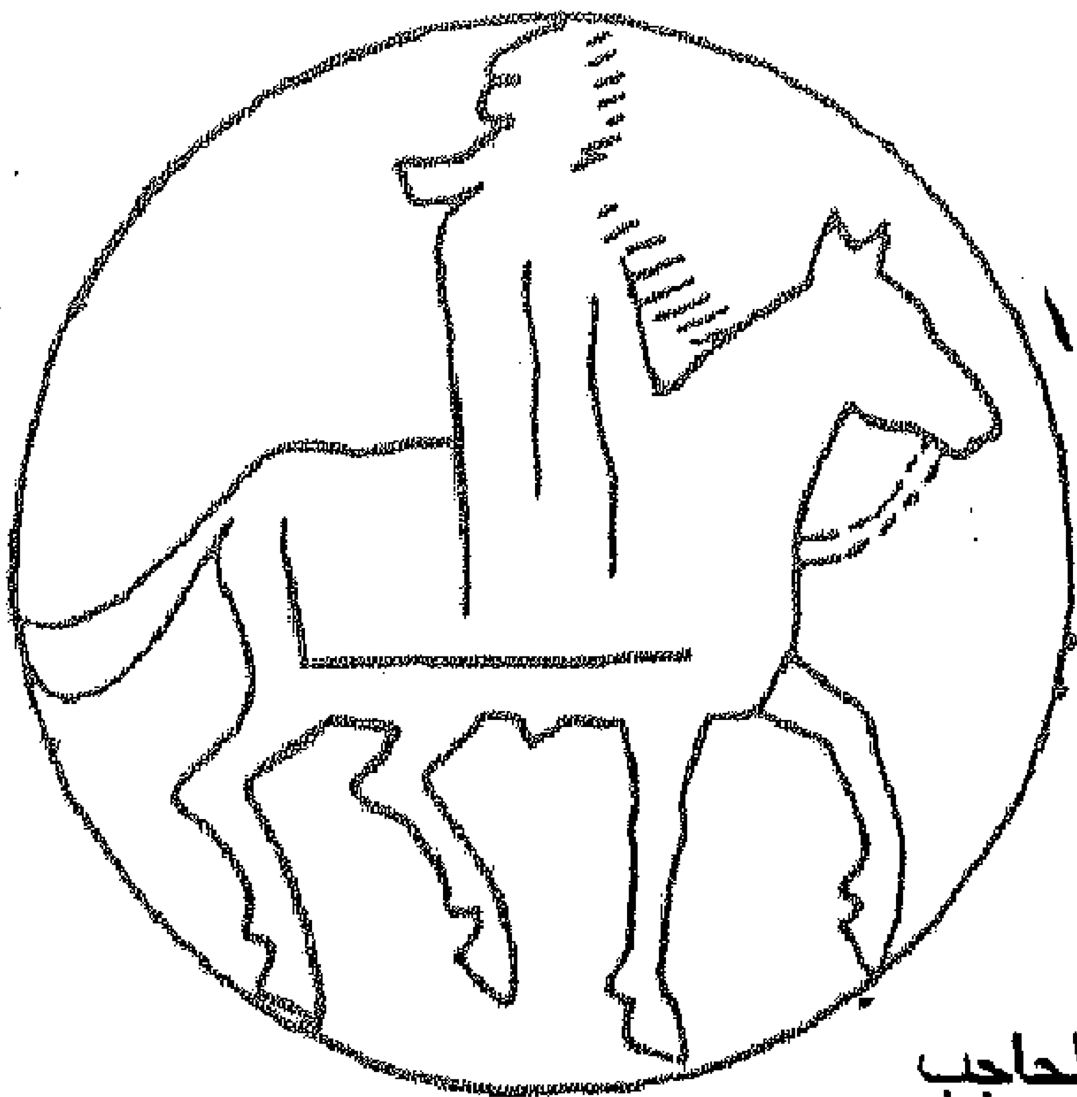
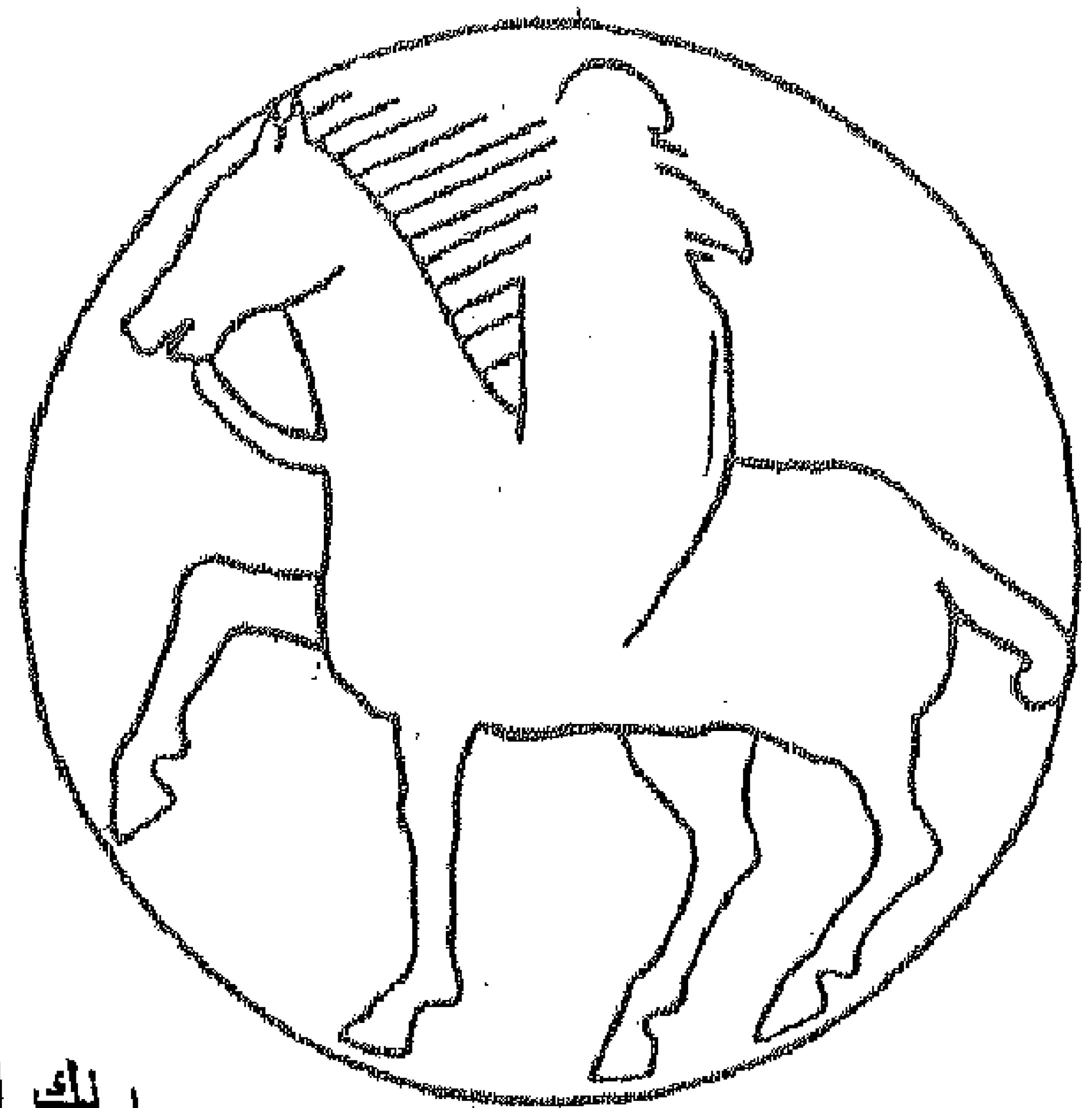
					جـ١ ق٢، ص ١٢٠ – ١٢٢.
عبد الله بن بكتمر الحاجب	المنصور على بن شعبان	؟	١٠,٠٠٠ دينار	٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م	المقريزى، السلوك، جـ٣ ق ١، ص٣٤١؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق ٢، ص٢٣٣.

٦- ثبت بمصادرات الحجاب
ثانياً في العصر المملوكى الثانى

اسم الحاجب	اسم السلطان	القائم بالمصادرة	حجم المصادرة	العام	المصادر
محمد بن بكتمر الحاجب	الظاهر برقوق	؟	٢٠٠,٠٠٠ درهم	٧٩٤هـ/ ١٣٩١م	المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٢، ص٧٦٥ .
عبد الرازق ابن أبى الفرج الحاجب	السلطان الناصر فرج ابن برقوق	السلطان	١٠٠,٠٠٠ دينار	٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م	المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٢، ص ١٠٦٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور،جـ١ ق٢، ص٦٢٩ ؛ السخاوى، الضوء اللامع، جـ٤، ص١٩١.
تنكز بغا	الناصر فرج	نائب طرابلس	أمواله	٨٠٧هـ/	ابن إياس،

الأشكال

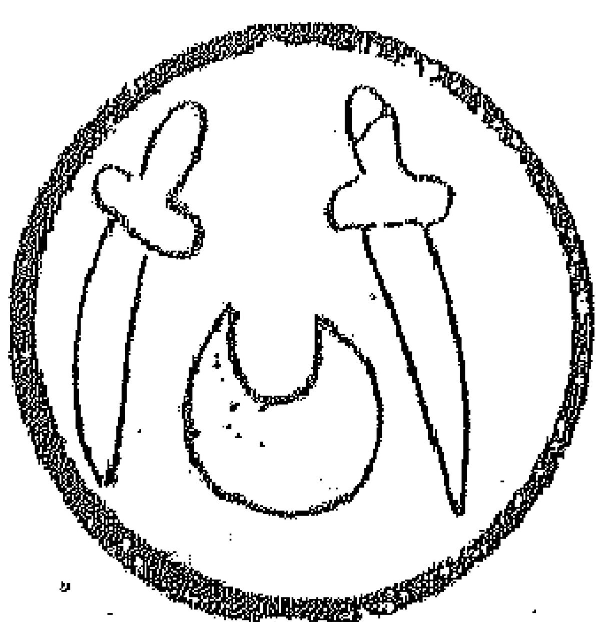
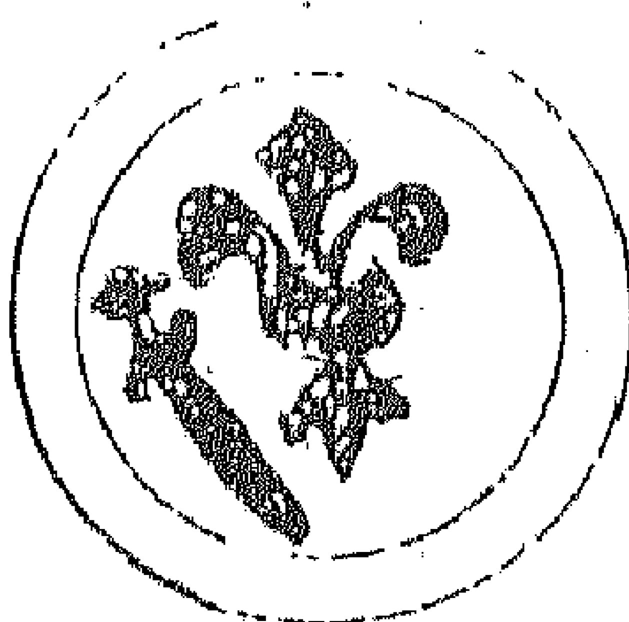
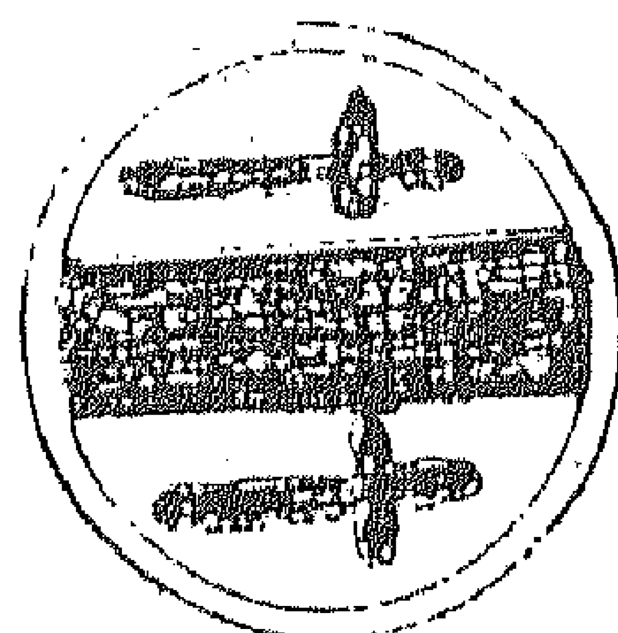
شكل رقم ١

رنك الحصان شعار الحاجب

نقلا عن Ernst Herzfeld, Materiaux, p. 346

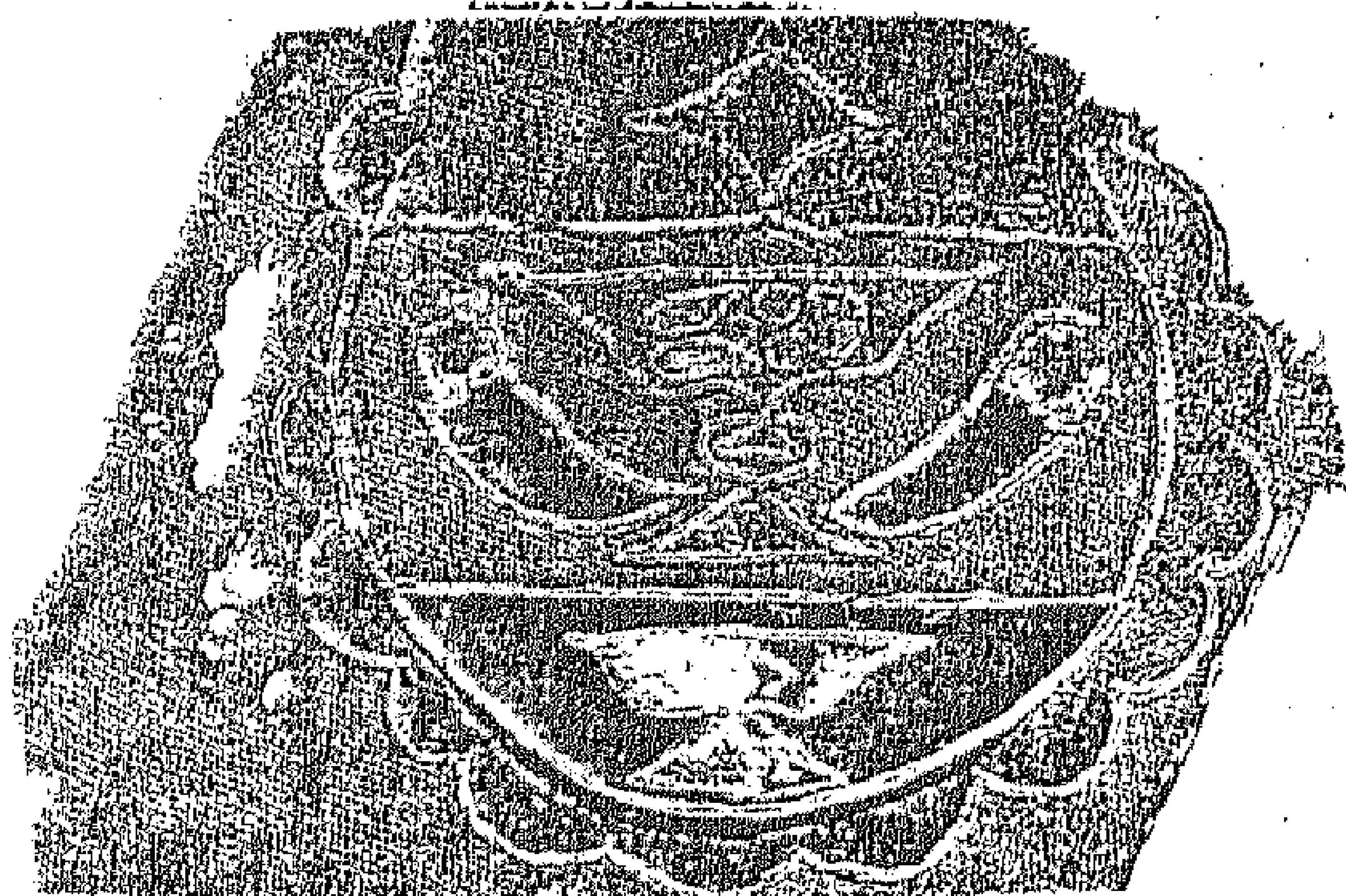
شكل رقم ٢

نماذج من رنوك السيف

نقلا عن احمد عبد الرازق، الرنوك، ص ١٠١.

شكل رقم ٤



رنك الحاجب قانصوه الغورى

نقلا عن Esin Atil, Art of the Mamluks, p. 241.

شكل رقم ٣



رنك البقجة المقطوعة بالسيف

نقلا عن Mayer, Saracenic Heraldy, Pl. Lxviii

شكل رقم ٥



مشكاة الأمير ألماس الحاجب

نقلا عن .Wiet, Lampes, catalogue général, Fig. 3154

ثبت المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية المخطوطة:

- الخـــالدى (بهاء الدين محمد بن لطف ت ٩٣٧هـــ/١٥٣٠م)، المقصد الرفيع المنشأ الهادى إلى صناعة الانشا، مخطوط مصور بجامعة، القاهرة، تحت رقم ٢٤٠٤٥.

ثانياً: المصادر العربية المطبوعة:

- ابـــن إياس (محمد بن أحمد بن إياس المصرى)، بدائع الزهور في وقائع الدهور المعروف بتاريخ مصر، طبعة محمد مصطفى، ١٩٨٢ – ١٩٨٤.
- فهارس بدائع الزهور تحقيق محمد مصطفى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٨٤م.
- ابـــن إيـــبك الدوادار أبو بكر عبد الله بن أيبك ت ٧٦٤هـــ/١٣٦٢م، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر (وهو الجزء التاسع من كنز الدرر وجامع الغرر) تحقيق هانس روبرت رويمر، القاهرة، ١٩٦٠م.
- ابـــن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت ٨٧٤هـــ/١٤٦٩م)، منتخبات من حـــوادث الدهـــور فـــي مـــدى الأيـــام والشهور، ٤ أجزاء نشره وليم بوبر، كاليفورنيا، ١٩٣٠م.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة دار الكتب المصرية حتى جـــــ١٢، جـــــ١٣ تحقيق محمد فهيم شلتوت، جــ١٤ تحقيق جمال محمد محـــرز، فهـــم شـــلتوت القاهرة ١٩٧١م، جــ١٥ تحقيق إبراهيم طرخان ١٩٧١م، جـــ١٦ تحقيق جمال الشيال، فهيم شلتوت، القاهرة، ١٩٧٢م
- المـــنهل الصـــافى والمستوفى بعد الوافى، تحقيق محمد محمد أمين، ونبيل عبد العزيز، القاهرة، ١٩٨٥ – ١٩٩٤.
- الدليل الشافى على المنهل الصافى، تحقيق محمد شلتوت، القاهرة ١٩٧٩م.
- ابـــن حبيـــب (الحسن بن عمر بن الحسن بن حبيب ت ٧٧٩هـــ/١٣٧٧م)، تذكرة النبيه في أيـــام المنصور وبنيه جــ١، جـــ٢، جـــ٣، تحقيق محمد محمد أمين، مراجعة سـعيد عـبد الفتاح عاشور، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦م، ١٩٨٢، ١٩٨٦م.

- ابـن حجـر (الحـافظ بن حجر العسقلاني ت ٨٠٢هـ/١٤٤٨م)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، أجزاء، نشره محمد سيد جاد الحق، ط٢، القاهرة ١٩٦٦م.

-أنباء الغمر بأنباء العُمر، الأجزاء من ١ – ٣ تحقيق حسن حبشى، القاهرة، ١٩٦٩ – ١٩٧٢م.

-رفـع الإصـر عن قضاة مصر، تحقيق حامد عبد المجيد، محمد أبو سنة، جزءان، القاهرة ١٩٥٧م.

-ذيل الدرر الكامنة، تحقيق عدنان درويش، القاهرة، ١٩٩٢م.

- ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، المقدمة ط٥، بيروت، ١٩٨٤م.

- ابـن شـاكر الكتبيى (محمد بن شاكر أحمد الكتيبى ت ٧١٤هـ/١٣١٤م)، فوات الوفيات، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٥١م.

-عيون التواريخ، تحقيق حسام الدين القدسى، القاهرة ١٩٨٠م.

- ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، باريس، ١٨٩١.

- ابن شداد ، تاريخ الملك الظاهر، تحقيق أحمد حطيط، فيسبان ١٩٨٣م.

- ابـن الصيرفى (علىّ بن داود إبراهيم المعروف بالخطيب الجوهرى، ت ٩٠٠هـ/١٤٩٥ م)نـزهة الـنفوس والأبـدان فـي تواريخ الزمان الأجزاء من ١-٣ تحقيق حسن حبشى، دار الكتب المصرية، ١٩٧٠ – ١٩٧١ – ١٩٧٣م.

-إنباء الهصر بأنباء العصر، تحقيق حسن حبشى، القاهرة، ١٩٧٠م.

- ابن صصرى، الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية، تحقيق وليم بريز، كاليفورنيا ١٩٦٣م.

- ابن طولون (شمس الدين محمد بن على بن طولون الدمشقى ت ٩٥٣هـ/١٥٤٦م)، اعلام الـورى بمـن ولى نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى أو تاريخ الشام من قـيام دولـة المماليك في مصر إلى صدر العهد العثمانى، تحقيق عبد العظيم حامد، القاهرة، ١٩٧٣م.

ابـن عبد ربه، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلس)، العقد الفريد تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة ١٩٥٣م.

- ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحى بن أحمد ت ١٠٨٩ – ١٦٧٩م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٨ أجزاء، القاهرة، ١٩٦٦م.

- ابـن الفـرات (ناصـر الديـن محمد بن عبد الرحيم ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م)، تاريخ الدول والملوك، جـ٧، ٩ اربع مجلدات، نشرة قسطنطين رزيق ونجلاء عز الدين، بيروت، ١٩٣٩م.
- ابـن قـاض شهبة (أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر ت ٨٥١هـ/١٤٤٧م)، تاريخ ابن قاض شهبة م١ جـ٣ تحقيق عدنان درويش، دمشق ١٩٧٧.
- ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، البداية والنهاية، تحقيق محمد عبد العزيز النجار، القاهرة، ١٩٩٢م.
- ابـن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري ت ٧١١هـ/١٣١١م)، لسان العرب طبعة، بولاق، ١٣٠١هـ، وطبعة بيروت، ١٩٢٦.
- أبـو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م)، المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية بدون تاريخ.
- ابـن الـوردي (زين الدين عمر ت ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م)، تتمة المختصر في أخبار البشر، القاهرة، ١٨٦٨م.
- الأبشـيهي (شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح ت ٨٥٠هـ/١٤٤٦م)، المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق مفيد محمد قميحة لبنان ١٩٨٣م.
- البيهقي، تاريخ البيهقي، ترجمة إلى العربية يحيى الخشاب وصادق نشأت، القاهرة، ١٩٥٦ م.
- بيـبرس المنصـوري (ابن عبد الله الدواداري ت ٧٢٥هـ/١٣٢٤م)، التحفة المملوكية في الدولة التركية، نشره عبد الحميد صالح، بيروت، ١٩٨٧.
-زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق زبيدة محمد عطا، القاهرة، د.ت.
- الدمـيري (كمـال الديـن محمد بن عيسى الدميري ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، حياة الحيوان الكبرى، ط٢، ١٣١٣هـ/١٨٩٥م.
- الـراوندي محمـد بـن علـي بن سليمان؟، راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السـلجوقية نقلـه إلـى العربـية إبراهيم الشواربي، عبد النعيم حسنين، فؤاد الصياد، القاهرة، ١٩٦٠م.
- زيترشتين ، تاريخ سلاطين المماليك، نشرة Zettersteen K.V ، ليدن، ١٩١٩م.
- السبكي (تاج الدين عبد الوهاب ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م)، معيد النجم ومبيد النقم، تحقيق محمد علي النجار، أبو زيد شلبي ط١، القاهرة، ١٩٤٨م.

- السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م)، التبر المسبوك في ذيل السلوك، طبعة بولاق، ١٨٩٦.
-الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ١٢ جزء في ١٢ مجلد، القاهرة،١٣٥٣هـ
- السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ط١، بيروت ١٩٩٧م.
- شافع (شافع بن على الكاتب العسقلاني المصرى ٦٤٩ - ٧٣٠هـ)، كتاب الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، بيروت، ١٩٩٨م.
- الشجاعي، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده، تحقيق بربارة شيفر، فسبادن، ١٩٧٨م.
- الصفدى (صلاح الدين خليل ابن إيبك ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م)، الوافى بالوفيات، فيسبادن، ١٩٧٠م.
  - أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق على أبو زيد، نبيل أبو عمشة، بيروت ١٩٩٧م.
  - الفهارس العامة،أعداد قسم الدراسات والبحوث،دار الفكر،دمشق، ١٩٩٨م.
  - نكت الهيمان في نكت العميان، القاهرة، ١٩٩١م.
- الصيرفى (أبى القاسم على بن منجب بن سليمان)، قانون ديوان الرسائل ط(١)، القاهرة ١٩٠٥م.
- الطبرى (أبو جعفر بن جرير ت ٣١٠هـ/٩٢٢م)، تفسير الطبرى، جامع البيان عن تأويل القرآن، طبع بالمطبعة الميمنية بمصر، بدون تاريخ ، طبع بالمطبعة الميمنية بمصر، بدون تاريخ.
- العمرى (شهاب الدين بن فضل الله العمرى ت ٧٤٩هـ/١٣٤٩م)، التعريف بالمصطلح الشريف، بيروت، ١٩٨٨م.
  - مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق أيمن فؤاد سيد، القاهرة، ١٩٨٥م.
- العينى (بدر الدين محمود العينى ٨٥٥هـ/١٤٥١م)، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد "شيخ المحمودي" تحقيق فهيم شلتوت، مراجعة محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٦٧م.

- عقد الجُمان في تاريخ أهل الزمان، الحوادث من ٦٤٨ إلى ٦٦٤هـ تحقيق محمد محمد أمين، هيئة الكتاب ١٩٨٧م، حوادث ٦٨٩ – ٦٩٨هـ تحقيق محمد محمد أمين ١٩٨٩م، الحوادث من ٨١٥هـ إلى ٨٢٤هـ/ تحقيق عبد الرازق طنطاوى، ط١، ١٩٨٥م.
- الفيروز آبادى، القاموس المحيط، القاهرة، ١٩٧٧م.
- الفيومى (أحمد بن محمد بن على المقرى) ت ٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م ، كتاب المصبح المنير، ط٦، القاهرة ١٩٢٦م.
- القرآن الكريم.
- القطب اليونينى (قطب الدين أبو الفتح بن محمد أحمد بن قطب الدين اليونينى الحنبلى ت ٧٢٦هـ/١٣٢٥م)، ذيل مرآة الزمان م١ ط١، الهند، ١٩٥٤م.
- القلقشندى ،شهاب الدين أحمد بن على القلقشندى ت سنة ٨٢١هـ/ ١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ٤ أجزاء، طبعة دار الكتب ابتداء من عام ١٩١٣
- ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر، تصحيح محمود سلامة، ط١، القاهرة، ١٩٠٦م.
- المقريزى (تقى الدين أحمد بن على المقريزى ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، لبنان، ١٩٥٩م.
- السلوك لمعرفة دول الملوك نشره محمد مصطفى، جـ١ جـ٢ في ستة أقسام ونشره سعيد عاشور، جـ٣ جـ٤ في ستة أقسام أخرى عن دار الكتب المصرية سنة ١٩٧٠م، ١٩٧٢م، ١٩٧٣م.
- إغاثة الأمة بكشف الغمة، نشره محمد مصطفى زيادة وجمال الشيال، القاهرة، ١٩٤٠م.
- النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، جـ٣ تحقيق محمد عبد الهادى شعيرة، محمد مصطفى زيادة القاهرة ١٩٩٠م، جـ٣١ تحقيق الباز العرينى، القاهرة ١٩٩٢م.

ثالثاً: المراجع العربية:

- إبراهيم أنيس، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة ١٩٧٢م.
- إبراهيم طرخان ، مصر في دولة المماليك الجراكسة، القاهرة، ١٩٦٠م.
- النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى،القاهرة ١٩٦٨م.

- أحمد عبد الرازق أحمد، الرنوك على عصر سلاطين المماليك، المجلة التاريخية، المصرية، م٢١، ١٩٧٤م.
- البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك، القاهرة، ١٩٧٩م.
- شرطة القاهرة زمن سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٨٢م.
- الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٩٠م.
- الرنوك الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠١م.
- الفنون الإسلامية في العصرين الأيوبي والمملوكي، القاهرة، ٢٠٠٣م.
- أحمد فكرى، تاريخ المساجد الأثرية بالقاهرة، ط١، بيروت، ١٩٩٣م.
- إسماعيل عبد المنعم، الأمراض الاجتماعية بين الطبقة الأرستقراطية المملوكية في مصر زمن المماليك البحرية، ٦٤٨ - ٧٨٤هـ/١٢٥٠ - ١٥١٧م رسالة ماجستير، غير منشورة جامعة عين شمس كلية الآداب ١٩٨٨م.
- البيومى إسماعيل الشربينى، مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية عصر سلاطين المماليك، سلسلة تاريخ المصريين العدد ١١٠، ١٩٩٧م.
- النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك، سلسلة تاريخ المصريين رقم ١١٨ القاهرة، ١٩٩٨م.
- جمال جرجس يوسف ، القضاء في العصر المملوكي مع تحقيق مخطوطة نزهة النظار في قضاة الأمصار، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة عين شمس، كلية الآداب، ١٩٧٢م.
- جرجى زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، مراجعة حسين مؤنس، القاهرة ١٩٦٨م.
- حسن إبراهيم حسن ، النظم الإسلامية ط١، القاهرة، ١٩٣٩م.
- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، القاهرة، ١٩٦٦م.
- حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، القاهرة، ١٩٦٥م.
- الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، القاهرة ١٩٨٩م.
- موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، م٢، ط١، القاهرة، ١٩٩٩م.
- حسين مصطفى رمضان ، طوائف الحرفيين ودورهم الاقتصادي والاجتماعي، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة القاهرة، كلية الآثار، ١٩٨٧م.
- حياة ناصر الحجى ، أحوال العامة في حكم المماليك دراسة في الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ط١، الكويت ١٩٨٤م.

- دراسات في تاريخ سلطنة المماليك في مصر والشام، ط١، الكويت، ١٩٨٦م.
- أنماط من الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في سلطنة المماليك فى القرنيين الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، الكويت، ١٩٩٥م.
- السلطة والمجتمع في سلطنة المماليك فترة حكم سلاطين المماليك البحرية، من سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م إلى سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢، الكويت، ١٩٩٧م.
- دليل متحف الفن الإسلامي، دار الآثار العربية سابقاً، القاهرة، ١٩٥٢م.
- زكى محمد حسن، فنون الإسلام، القاهرة ١٩٤٠م.
- سعاد ماهر، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، القاهرة، ١٩٨٣م.
- سعيد عبد الفتاح عاشور ، مصر في عصر دولة المماليك البحرية، القاهرة ١٩٥٩م.
- الظاهر بيبرس، أعلام العرب العدد ١٤، القاهرة ١٩٦٣م.
- المجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك، القاهرة، ١٩٦٥م.
- العصر المماليكى في مصر والشام، القاهرة، ١٩٦٥م.
- سند أحمد سند، البريد في عصر دولة سلاطين المماليك البحرية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة ٢٠٠٠.
- علي إبراهيم حسن ، دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفى عصر الناصر محمد بوجه خاص، القاهرة، ١٩٤٤م.
- الجيش والبحرية في عصر سلاطين المماليك القاهرة، بدون تاريخ.
- عبد الخالق حسين محمد ، النظم القضائية في عصر سلاطين المماليك، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة القاهرة كلية دار العلوم ١٩٨١م.
- عبد العظم حامد خطاب ، قانصوه الغورى ونهاية الدولة المملوكية في مصر والشام، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٧٣م.
- عبد المنعم ماجد ، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، دراسة شاملة لنظم البلاط ورسومه، القاهرة، ١٩٨٢م.
- فهرس الآثار الإسلامية بمدينة القاهرة، مصلحة المساحة ١٩٥١م.
- قتيبة الشهابى ، معجم أرباب السلطان في الدول الإسلامية من العصر الراشدى حتى بدايات القرن العشرين، دمشق ١٩٩٥م.

- ليلى عبد الجواد ، نائب السلطنة في القاهرة في عصر دولة المماليك البحرية، مجلة المؤرخ المصرى، القاهرة، العدد١، يناير ١٩٨٨م.
- مايسة محمود محمد داود ، المشكاوات الزجاجية في العصر المملوكى رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة، كلية الآثار، القاهرة، ١٩٧١م.
- ماير (ل.م)، الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتى، مراجعة عبد الرحمن فهمي، القاهرة ١٩٧٢م.
- محاسن محمد على حسين الوقاد، الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية (٦٤٨ – ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ – ١٥١٧م) سلسلة تاريخ المصريين العدد ١٥٢، القاهرة، ١٩٩٩م.
  - الألقاب والكنى الشعبية الساخرة عصر سلاطين المماليك ٦٤٨ – ٩٢٣ – ١٢٥٠ – ١٥١٧م، حولية التاريخ الإسلامى والوسيط جامعة عين شمس، م٢، ٢٠٠٢م.
- مجمع اللغة العربية، المعجم الوجيز ط١، ١٩٨٠م.
- محمد أحمد دهمان ، ولاة دمشق في عهد المماليك، ط٢، دمشق، ١٩٨١م.
- محمد التونجى ، المعجم الذهبى، بيروت، ١٩٦٩م.
- محمد عبد العزيز مرزوق ، الناصر محمد بن قلاوون، القاهرة، ١٩٦٠م.
- محمد عبد الغنى الأشقر، نائب السلطنة المملوكية في مصر، ٦٤٨ – ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ – ١٥١٧م، سلسلة تاريخ المصريين، العدد ١٥٨، القاهرة، ١٩٩٩م.
- محمد مصطفى ، متحف الفن الإسلامى، ط١، القاهرة، ١٩٥٤م.
  - الرنوك في عصر المماليك، مجلة الرسالة، العدد ٤٠٠ مارس ١٩٤١م.
- محمود رزق سليم ، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى، القاهرة، ١٩٤٧م.
- محمود نديم ، الجيش في عصر سلاطين المماليك، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة، كلية الآداب، ١٩٧٣م.
  - الفن الحربى للجيش المصرى في العصر المملوكى البحرى، القاهرة، ١٩٨٢م.

رابعا المراجع الأجنبية:

- Abd ar-Rãziq, A., "La hisba et le muhtasib en Egypt au temps des Mamluks", *Annales Islamologiques*, XIII, Le Caire, 1977, pp.115 – 178.

- Abd ar-Rāziq, A., "Les muhtasibs de Fastat au temps des Mamluks, "*Annales Islamologiques*, le Caire, 1978, pp. 127 – 146.
- Artin, Y, "Toris différentes armoiries de kait Bey", BIE, 2e série, no9, 1888, le caire, 1889.
- Artin, Y, Contribution à l'étude de blazon en Orient, London, 1902.
- Ayalon, D., "The Great Yâssa of Chingiz Khân," SI, XXXVI, 1972.
- Ayalon, D., "Studies in the Structure of Mamluk Army", BSOAS, 1954.
- Dozy, R, Dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les Arabes, Amsterdan,1845.
- Dozy, R, Supplément aux dictionnaires arabes, I – II, Leiden, 1881.
- The Encyclopaedia of Islam, art HADJIB, vol III, Leiden, 1986, pp.45-47.
- Ernst. Herzfeld, Matériaux pour un corpus inscriptionum arabicarum. deuxiéme partie : syrie du nord inscriptions et monuments d'Alep. tome 1 – vol – 1 (texte), le Caire, 1955.
- Esin Atil, Art of the Arab World, Washington, 1975.
- Esin Atil , Renaissance of Islamic Art of the Mamluks, Washington, D.C.,1981.
- Ēt Combe, J. Sauvaget et G. Wiet (eds), Répertoire chronologique d'épigraphie arabe, le Caire, tome 13, 1944, tome 15, 1956.
- Gayet, AL., L'art arabe, Paris, 1893.
- Hassanein Rabie, The Financial System of Egypt A. H. 564 – 741/A.D.1169 – 1941, London, 1972.
- Hayat Nasser AL – Hajji, The internal affairs in Egypt During The Third Reign of sultan AL – Nāsir Muhammad B.Qàlawūn, 709 – 741/1309 – 1341, Third Edition, Kuwait, 2000.
- Hiba 'Ali Yūsuf, L'eclairage à l'époque Mamlùke en Egypt, Paris, 2001.
- Lamm, C. J., Mittelaterliche Gläser und Steinschnittarbeiten aus dem Nahen osten, Band / text, Berlin, 1930.
- Lane – Poole, The Art of the Saracens in Egypt, Librairie byblos Arts et Métiers Beirut, 1886.
- Northrup, L., From Slave to Sultan the Career of AL – Mansùr Qālawùn and the Consolidation of Mamluk Rule in Egypt and Syria (678 – 689 A.H./1279 – 1290 A.D.) Germany 1998.

- Mayer, L. A., Saracenic Heraldry, A Survey, Oxford, 1933.
- Max. Herz, B., Catalogue Raisouné des monuments exposés dans le musée national de l'art arabe, Le Caire, 1906.
- Meinecke, M., Die mamlukische Architektur in Ägypten und syrien, 648 /1250 Bis 923 / 1517, Glückstadt, 1992.
- Quatremére. M., Histoire des sultans mamlouks de l'Egypte, Paris, 1844 – 1845.
- Poliak, A. N., Feudalism in Egypt, Syria, Palestine, and the Lebanon, 1250 – 1900, London, 1939.
- Irwin, R., The Middle East in the Middle ages the Early Mamluk sultanate 1250 – 1382. London, 1986.
- Sauvaget, J, Caravanseŕails syriens du moyen âge, II.Caravausérails Mamelouks, Ars Islamica.
- Schmoranz. G., Old Oriental Gilt and Enameled Glass. Vessels Extant in public Museums and private collections Reproduced in their original coloring, London, 1899.
- Van Berchem, M., Matériaux pour un corpus inscriptonum arabicarum deuxiéme partie, Syrie du nord in Scriptionset monuments.
- Wiet, G., Catalogue général du musée arabe du Caire lampes et bouteilles en verre émaillé, Le Caire, 1982.
- Wiet, G., Catalogue Général du musée arabe du Caire objets en cuivre, Le Caire, 1932.
- William Leaf, Developments in the System of Armorial Insignia during the Ayyūbid and Mamluk Periods, London, 1983.
- Zaky M. Hassan, Les Tulunides, Paris, 1933.

أضواء على إشكالية دراسة تاريخ الحروب الصليبية في القرنين ١٢-١٣م/ ٦ - ٧هـ

د. محمد مؤنس عوض*

مصــر

إن البحث في إشكالية عصر تاريخي ما؛ من شأنها تعميق دراسة ذلك العصر، ومن المقرر أنه لا يوجد عصر ما من عصور التاريخ دون أن توجد في ثناياه إشكاليته الخاصة به النابعة من ظروفه ذاتها، وأود التقرير بأن عصر الحروب الصليبية التي شنها الغرب الكاثوليكي على مسلمي بلاد الشام وأعالي العراق ومصر وشمالي أفريقيا على مدى القرنين المذكورين، يوصف وبحق بأنه عصر معقد في تركيبته السياسية، والاقتصادية، والدينية، والعرقية إلى آخر تلك المفردات بحيث يمكن القول أنه العصر "الأنموذج" في إشكاليات الكتابة التاريخية؛ فقد شهد الصدام العنيف – على كافة الأصعدة والمستويات – بين حضارة الغرب الأوربي وحضارة الشرق الإسلامي، وتعددت الشعوب، والأقوام، والأعراق التي دخلت في آتون ذلك الصراع، وبالفعل كان صراعاً عالمياً في تلك المرحلة من مراحل القرون الوسطى، وطوال تلك القرون لم يحدث أن شهد العالم صداماً عنيفاً بمثل تلك الصورة ودفع مئات الآلاف حياتهم دفاعاً عن معتقداتهم سواء كانوا على صواب أم على باطل، كذلك تصارعت المثل والمبادىء السامية مع الدوافع المادية الدنيوية، وبمرور الأعوام والعقود سقطت أقنعة الرهبان وتم إدراك أن المصالح الاقتصادية كان لها القدح المعلى في العديد من المواقف الحاسمة من تاريخ ذلك الصراع.

زد على ذلك؛ أن رقعة الصراع جغرفياً اتسعت بصورة غير مسبوقة ومن الممكن وصفه في بعض مراحله بأنه صراع بحر متوسطي بين غربي ذلك البحر وشرقه، واستهدف فيما استهدف لتينة الشرق وتنصيره وسلب ونهب ثرواته بالصورة التي جعلت المؤرخ البارز يوشع براور يصفه بأنه حركة الاستعمار – أي الاستخراب – الأوربي في العصور الوسطى وفيما بعد خرج المشروع الصليبي عن نطاق البحر المذكور ليشمل مناطق في داخل القارة الأوربية ذاتها ومنها ما كان يطل على بحر البلطيق.

ومن السمات البارزة لذلك العصر الذي عرف بعصر الحروب الصليبية، أن مسمياته تناقضت مع واقعة بصورة حادة؛ فالبابوية التي عُدت مؤسسة دينية صرفة، لعبت الأدوار السياسية الكاملة، ومارست العمل في دهاليزها وتجردت من المبادىء أحياناً من أجل تحقيق أهدافها بميكيافيلية نادرة، على نحو يثبت أن المشروع الصليبي ذاته يعد – وبحق–

* أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد بكلية الآداب– جامعة عين شمس.

لعـــبة سياســـية كـــبرى هندست لها البابوية، ووضعتها موضع التنفيذ، حتى صارت جزءاً لا يتجزأ من التاريخ الأوربى الوسيط، وعلاقاته بالشرق.

تلـــك مقدمـــة موجزة، من أجل تهيئة القارىء للموضوع الأساسى الخاص بإشكالية دراســـة تـــاريخ الحـــروب الصليبية، وفى واقع الأمر أن هناك جملة زوايا يمكن إجمالها فى الآتى:

أولاً: الرؤية الرسمية للمصادر التاريخية المعاصرة:

فمـــن المعـــروف؛ أن المؤرخيـــن الذيـــن عاصروا أحداث تلك الحروب سواءً من المســـلمين أو الصليبيين أو البيزنطيين كتبوا كتاباتهم التاريخية وهم فى كنف السلطة السياسية القائمة، فالكتابة التاريخية التى وصلت إلينا من ذلك العصر توصف بالفعل أنها تابعة للسلطة، وأمتزجـــت فيها الدعائية جنباً إلى جنب مع الحقائق التاريخية، وبالتالى فإننا نملك بالفعل مادة تاريخـــية مهمة عن الحروب الصليبية، ولكن من وجهة النظر الرسمية. وواقع الأمر؛ أن تلك المشـــكلة لا ترتبط بذلك العصر فقط بل بعصور تاريخية متعددة قديماً ووسيطاً – بصفة عامة – وبدرجـــة أقل حديثاً، وهى تحمل فى طياتها جوانب إيجابية وسلبية معاً؛ فالمؤرخ الذى أفاد مـــن الوثـــائق الرســـمية، وعاصر القادة الذين صنعوا الأحداث له أهمية كبرى لأنه بدونه ما وصـــلت إليـــنا تلك المادة التاريخية المصدرية. بيد أن هناك جوانب سلبية أخرى، إذ أن ذلك المـــؤرخ اتجه أحياناً إلى الدعاية السياسية لأرباب السلطة من الملوك والأباطرة، والسلاطين، والأمراء. ومن الصعب فى ذك العصر الفصل بين "الدعاية السياسية"، و"الكتابة التاريخية" إذ أن هناك مؤلفات متعددة وصلت إلينا احتوت الزاويتين بجلاء لا ينكر.

وخـــير مثال دال على "الدعائية" فى ذلك العصر ما ألفه المؤرخ العراقى البارز ابن الأثير[1] الذى ألفه كتابه "الباهر" وخصصه لتناول دولة أتابكة الموصل الزنكيين، وفيه يتأكد لنا أن ارتـــباطه بـــتلك الأسرة؛ جعله بوقاً دعائياً لها، وذلك على الرغم من إدراكنا للدور البارز الـــذى لعبته الموصل، وتلك الأسرة فى جهاد الصليبيين، وتوجيه ضربة قاضية لأولى إمارات الصـــليبيين فـــي المنطقة ونعنى بها الرها Edessa عام ١١٤٤م بالإضافة إلى إسهامات نور الديـــن محمود ودوره فى ضم دمشق عام ١١٥٤م، وإسقاط الدولة الفاطمية فى عام ١١٧١م/ ٥٦٧هـــ.

ولا نغفـــل زاوية محورية هنا، تتمثل فى أن المعاصرة حجاب، فالمؤرخ المعاصر، علـــى الرغم من علو شأنه كما أسلفت، عندما اقترب من القادة البارزين الكبار خاصة أولئك

---

[1] أود أن ألفـــت نظـــر الباحثين إلى أن الباحثة العراقية ميسون عبايجى تقوم بإعداد أطروحة علمية عن ابن الأثير مؤرخاً للحروب الصليبية، وذلك من جانب مركز دراسات الموصل التابع لجامعة الموصل بالعراق الشقيق تحت إشراف أ.د. جزيل عبد الجبار الجومرد.

الذين كانت لهم شخصية مؤثرة فى الآخرين وتوصف بالفعل بأنها "كارزمية"[2] انبهر بهم، ولم يرَ فيهم إلا ما أحب هو نفسه أن يراه، وتلك زاوية لا علاج لها؛ لأن المؤرخ المتأخر نقل عن المعاصر، وأفادت الرؤية جيلاً بعد آخر حتى وصلت إلى المؤرخ المحدث على طبيعتها تلك.

وأصـــدق دلـــيل علـــى ذلك؛ أن مؤرخ الصليبيين البارز وأعنى به وليم الصورى[3] Wiliam of Tyre فى كتابه عن تاريخ الأعمال التى جرت فيما وراء البحر A history of the deeds done beyond the sea، وجه نقده لسياسات الصليبيين فيما قبل الملك عمورى الأول (١١٦٣- ١١٧٤م)، أمـــا فى عهد الملك المذكور فقد اتسمت كتاباته بالوقوع في نطاق "الكاريـــزما" أو المحبوبية أو التأثيرية التى كانت لذلك الملك الصليبى البارز، ولا ريب فى أن إعجـــاب وليم الصورى بالملك عمورى ساعد على توجيه منظوره التاريخى خاصة من خلال إعجابه بحملاته العسكرية التى استهدفت الجار الفاطمى الذى كان يعانى من الانهيار الداخلى، واعتبر رجل المنطقة المريض في القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى.

ومـــن ناحـــية آخرى؛ نلاحظ أنه كنتيجة للجانب الرسمى فى الكتابة التاريخية صار لديـــنا تـــاريخ للحكام ولا نملك تاريخاً للشعوب فالمؤرخون الذين انتموا إلى شرائح اجتماعية عالـــية المستوى منهم من نظر إلى العامة نظرة احتقار ودونية بصورة انعكست على كتاباته ذاتها، وهكذا؛ تتأكد لنا المقولة التى تذهب إلى أن "التاريخ تصنعه الشعوب وينسبه المؤرخون إلـــى الحكـــام"، وذلك على الرغم من أن تلك الشعوب أفرزت قادتها وحكامها، كما أنها دفعت الثمـــن غالياً فى مواجهة ما حل بها من عدوان سافر من جانب قوى استعمارية أجنبية طامعة فى خيراتها، واصدق مثال دال على ذلك الشعوب الإسلامية ذاتها، التى لا نملك – فى الغالب الأعـــم – تاريخاً فى ذلك العصر بل نملك تاريخاً لحكامها أنفسهم، ولاريب فى أن المؤرخين الرســـميين يـــتحملون جانـــباً بـــارزاً مـــن تلك المسئولية، ونخلص من كل ذلك إلى أن حجم "الرسمية" يطغى بجلاء على "الشعبية" فى تاريخ تلك المرحلة من مراحل الصراع بين الشرق والغـــرب فى القرون الوسطى، وقد يرد البعض بأن الف ليلة وليلة بها بعض من أصداء تلك الحـــروب، غير أن ذلك محدود لا يتفق كماً وكيفاً مع تلك الأحداث الصاخبة التى أكتويت بها

---

[2] عن تلك الزاوية أنظر ما ورد بشأنها في كتابي: الحروب الصليبية من قضايا السياسية والمياه والحياه والعقيدة ط. القاهرة ٢٠٠١م.

[3] عن وليم الصورى انظر:

Krey, "William of Tyre the making ofAn Historian in the middle Ages", Speculum, vol. Xvi, 1941, pp. 149-166.

Davis, "William of Tyre", in Relations between East and West in the Middle Ages, ed. Derck, Edinburgh 1971, pp. 64 – 75.

Vissey, "William of Tyre and the art of Historiography", M.S., vol. XXXV, 1973, pp. 433-455.

Crawford, "William of Tyre and the Maronites", Speculum, vol. XXX, 1955, pp. 222-228.

Edbury and Rowe, "William of Tyre and the patriarchal election of 1180", E.H.R., vol. XCLL, 1979, pp. 1-25.

شـــعوب المنطقة. ونفس الأمر ينطبق على شعوب الغرب الأوربى ذاتها فتغيب الدور الشعبى قضية شرقية وغربية على حد سواء ولم تكن زاوية شرقية فقط.

مـــع ملاحظـــة وجود استثناء فى صورة ما يعرف بالساجا Saga وهى عبارة عن الملاحـــم النـــثرية النرويجـــية وهى خاصة بتاريخ النرويج فى أقصى شمال غربى أوربا وقد ارتبطت ببطولة قادة النرويج فى العصور الوسطى، ومن أمثلتها تلك الخاصة بالملك سيجورد Sigurd الذى قام بحملة صليبية إلى بلاد الشام خلال المرحلة من ١١٠٧- ١١١٠م/ ٥٠١ – ٥٠٤هـ[4].

ومع ذلك، فإن الساجا تعد مصدراً تاريخياً خاصاً بتلك الدولة ولا تتعداها إلى مناطق أخـــرى، أمـــا بالنســـبة للـــدول الأخرى خاصة انجلترا وفرنسا وألمانيا فهى تعانى فى عصر الصليبيات من نفس تلك المشكلة.

ثانياً: اتجاهات المؤرخين المذهبية وأثرها على الكتابة التاريخية:

مـــن الملاحـــظ؛ أن المـــيول الذهبية لمؤرخى تلك الأحداث أثرت تأثيراً بارزاً على كـــتاباتهم التاريخـــية، وفـــى هـــذا المجال؛ نلاحظ بجلاء أننا لا نملك تصوراً تاريخياً للدولة الفاطمية من زاوية شيعية صرفة بل من خلال وجهة النظر السنية المعادية لمؤرخين ارتبطوا بالعصرين الأيوبى والمملوكى، ونفس الأمر يمكن أن يقال بالنسبة للفرق والقوى الدينية التى وجدت فى بلاد الشام فى ذلك العصر سواءً بالنسبة للدروز أو الإسماعيلية النزارية[5]، لقد كان عداء المؤرخين السنيين لتلك القوى شديداً ووصفوهم بالتالى بأوصاف بالغة السوء، وضاعت عن عمد أو من خلال أحداث الصراع الحربى بين المسلمين والصليبيين آية كتابات تعبر عن وجهـــة نظـــرهم إلا مـــا ندر فى صورة شذرات هنا وهناك. وأورد التقرير؛ أن تلك الآراء أوردهـــا على الرغم من الدور السيئ الذى قامت به عناصر الإسماعيلية النزارية فى اغتيال قادة الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين حينذاك مثل شرف مودود وغيره من كبار القادة.

وعلـــى الـــرغم من أن لدينا قدراً من المصادر الشيعية فى صورة المؤرخ الشيعى الحلـــبى ابـــن أبى طىء[6] الذى وصلت إلينا بعض النقول من مؤلفاته فى صورة ما أورده أبو

---

[4] عن الساجا انظر:

The Oxford reference dictionary, London 1962, p.726, Wright, the Geographical lore in the time of the Crusades, New york 1965, p.346, the Oxford English dictionary, vol. Lx, Oxford 1973, p.82, Dictionary of the Middle Ages, Newyork 1989, p.616.

وانظـــر هذه الدراسة: محمد مؤنس عوض، "الحملة الصليبية النرويجية الملك سيجورد ودوره في دعم الحركة الصليبية (١١٠٧ – ١١١٠م/ ٥٠١ – ٥٠٤هـ)"، ضمن كتاب الحروب الصليبية دراسات تاريخية ونقدية، ط. عمان ١٩٩٩م، ص٧ – ص٦٠.

[5] عن ذلك انظر:محمد مؤنس عوض، التنظيمات الدينية الإسلامية المسيحية في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب – جامعة عين شمس.م ١٩٨١م، ص١٩٧ – ٣٤٣.

[6] تقـــوم الباحـــثة شـــيرين شلبى عشماوى المدرسة المساعدة بكلية البنات – جامعة عين شمس بإعداد أطروحة علمية عن المؤرخ ابن أبى طىء بأشراف المؤرخة الرائدة أ.د. سيدة إسماعيل كاشف.

شـــامة المقدسى (ت١٢٦٧م/ ١٢٦٧م) وابن الفرات (ت ١٤٠٥م/ ١٤٠٥م)، إلا أن هذا القدر محدود.

وعلـــى الجانب الآخر؛ لدينا رؤية البابوية واضحة، بينما لا نملك رؤية الوالدنسيين والكتاريـيـــن الذين عارضوا المؤسسة الدينية الأوربية في ذلك العصر؛ على نحو يثبت لنا أن القضـــية لم تكن مقتصرة على الشرق فقط، بل أن الغرب كان له أيضاً نصيبه فى تلك الزاوية تماماً مثل مشكلة الطابع الرسمى الذى تناولتها من قبل.

ولا ريـــب فى أن الميول المذهبية لمؤرخى ذلك العصر، كان لها دورها البارز فى كـــتاباتهم التاريخـــية، ومن اليسير اكتشاف المعتقد الدينى والمذهبى لمؤرخ ذلك العصر دون كبـــير عـــناء من خلال تصفح ما كتب من خلال تعاظم الظاهرة الدينية حينذاك. الأمر الذى يجعـــل المـــؤرخ المحدث يبذل جهداً جهيداً من أجل البحث عن "المسكوت عنه" فى المصادر التاريخية هنا وهناك لعله يجد ضالته التى يتعطش لها.

ثالثاً: التفسير النفسى لتاريخ الحروب الصليبية:

مـــن الأمـــور المقررة، أن التفسير النفسى قد نجح نجاحاً كبيراً فى مجالات الإبداع الأدبـــى، ودراســـات الـــنقد الأدبـــى، غير أنه فى مجال الكتابات التاريخية اعتاد المؤرخون الاعـــتماد على تفسير الأحداث السياسية من خلال الدوافع الاقتصادية، والدينية، والاجتماعية، ومـــع ذلـــك؛ فإن التفسير النفسى لأحداث التاريخ – خاصة خلال مراحل الصدام الحضارى وانـــدلاع الحـــروب الكبرى بين قوى شديدة التباين في نمط الحياة ذاتها، وكذلك في المصالح .... الـــخ – أمـــر حيوى للغاية، وبالتالى فإن تاريخ الحروب الصليبية يصعب فهمه فهماً حقيقـــياً – وفق تصورى الشخصي – دون إدراك الدوافع النفسية التى حركت الأفراد القياديين وكذلك جموع الحشود البشرية ذاتها.

وهـــناك فـــى هذا المجال العديد من المصطلحات التى تفيدنا مثل الكارزمية – وقد أشـــرت إليها من قبل – ثم سيكولوجية الحشود، والسادية، والفوبيا... إلى آخر تلك المدلولات النفســـية ذات الأهمـــية الكبـــيرة فـــى أحـــداث ذلك العصر، ومما يذكر هنا؛ أن المؤرخين المعاصـــرين اعتادوا تناول أبناء عصرهم على أنهم أسوياء من زاوية الصحة النفسية، بل أن المؤرخين المحدثين تعاملوا معهم بذات التصور، وهو أمر يمثل مشكلة حقيقية، فالمنطق يدعو إلـــى تصـــور أن هناك أشخاصاً أسوياء وآخرين لم يكونوا كذلك، لقد كانت هناك شخصيات حركـــتها عقد نفسية مثلما يحدث فى كل عصر تاريخى آخر، ودون إدراكها يصعب أن نضع أيديـــنا علـــى مفاتيح تلك المرحلة الثرية من مراحل الصراع بين الشرق والغرب فى القرون الوسطى.

وأود أن أقدم هنا أمثلة على المستوى الفردى، والجماعى، لتوضيح ذلك الأمر؛ فعلى المســـتوى الفـــردى؛ نجـــد ان الفارس الفرنسى رينودى شاتيون أوارناط الذى مكث فى أسر

المســلمين قرابة عقد ونصف من الأعوام، عندما خرج من سجنه، حركته - على الأرجح - رغبة عارمة فـى الثأر من المسلمين، لقد كانت تلك الرغبة المتأججة فى صدره أكبر من قدرتـه علـى كـتمانها، وجـاء وصـول ذلك الرجل إلى صدارة الصفوف الأولى فى قيادة الصليبيين كان بمثابة إعلان حرب حقيقية على المسلمين، وهكذا، كان إرناط عاملاً رئيسياً في حـدوث الصـدام الحربى الكبير في معركة حطين في ٤ يوليو ١١٨٧م الذى أدى إلى انهيار مملكـة بيـت المقدس الصليبية بعد أن عمرت قرابة تسعة عقود من عمر الزمان ١٠٩٩ - ١١٨٧م مع عدم إغفال تأثير الظروف التاريخية الأخرى ذاتها حينذاك بطبيعة الحال.

والمثال الآخر؛ يمكن إدراكه في المؤرخ البارز وليم الصورى، لقد تحرق شوقاً من أجـل الوصول إلى منصب بطريرك بيت المقدس، غير أنه لم يصل إلى ذلك المنصب الرفيع ووجد من هم أقل كفاءة منه يصلون إليه، بل ومنهم من كانت تشوب سمعته الشخصية شوائب أخلاقـية يـندى لها الجبين - مثل البطريرك هرقل - ومن المفترض أن تلك الزاوية شكلت "عقـدة نفسـية" حقيقية لذلك المؤرخ الفذ، وأن إحساسه بذلك الواقع الشخصى المتردى، وعدم تحقيقه لطموحاته ملكت عليه فؤاده، جعله ينتقل من "الخاص" إلى "العام" فرصد الزوايا السلبية فـى تـاريخ الصـليبيين المعاصرين له، ولذلك تحدث عن من يقوم بإنقاذ مملكة بيت المقدس الصـليبية، بل توقع انهيارها من قبل حدوث ذلك على اثر حطين، وفى تقديرى، أن أزمة ذلك المـؤرخ النفسـية الشخصية الخاصة - على الأرجح-، جعلته يدرك ما لم يدركه أقرانه من المؤرخيـن من عوامل الانهيار الداخلى للمملكة المذكورة بالإضافة إلى روحه النقدية ورؤيته العقلانية لوقائع التاريخ ذاتها.

وهكذا؛ فإن التفسير النفسى لتاريخ تلك المرحلة يقدم لنا اقتراباً مهماً لزوايا متعددة قد لا تفصـح عنها المصادر التاريخية بصورة مباشرة بل علينا البحث فيما بين السطور لإدراك الأزمـات النفسـية وأبعادهـا وآثارهـا فى سلوك الأفراد القياديين سواء على مستوى الفعل السياسى أو الكتابة التاريخية ذاتها.

وعلـى الصـعيد الجماعى؛ نجد أن الغزاة الصليبيين عندما قدموا إلى المنطقة قاموا بعدد من المذابح ضد اليهود كما فى حوض الراين بألمانيا عام ١٠٩٦م وكذلك ضد المسلمين بلغـت ذروتهـا فى ١٥ يوليو ١٠٩٩م فى صورة مذبحة بيت المقدس الشهيرة التى يقال أن عشـرات الآلاف مـن المسـلمين راحوا ضحيتها، وعند بحث دوافع الصليبيين لارتكاب تلك المذابـح، لابـد مـن الاعتراف بأن البحث فى نفسيتهم وسيكولوجية الحشود يمكن أن تفيدنا، فهـناك الرغـبة فـى الثأر، ثم هناك التلذذ بتعذيب الآخرين أو ما عرف بالسادية Sadism، حقـيقة أن المصـادر التاريخـية المعاصرة لا تحدثنا مباشرة عن تلك الزوايا النفسية غير أن علينـا تحليل ما ورد فيها من معلومات من أجل التوصل إلى ماهية الحالة النفسية والمزاجية العامـة التى حركت الصليبيين لاتخاذ موقف جمعى عدوانى تجاه المسلمين بمثل تلك الصورة

البشعة، وذلك دون إغفال الدوافع المحركة الآخرى، كالتعصب الدينى الشديد على سبيل المثال.

وقد يتساءل القارىء، وما وجه الأشكالية هنا؟ والإجابة عن هذا التساؤل تتمثل فى المؤرخين عموماً لا يفضلون ذلك الاتجاه، ولم يصل التفسير النفسى للتاريخ إلى المستوى اللائق به من الاعتراف الأكاديمى على الرغم من أهميته الكبيرة، لقد قطع التفسير النفسى شوطاً كبيراً فى مجال النقد الأدبى – كما أسلفت الذكر – ؛ غير أنه لم يزل يحبو في مجال تفسير أحداث التاريخ ضمن سياقها الحقيقى الذى وقعت فيه.

رابعاً: تغييب دور المرأة في عصر الحروب الصليبية:

من الملاحظ أن عصر الحروب الصليبية سواء في الغرب الأوربى أو فى بلاد الشام شهد ظاهرة "تعاظم تاريخ الرجل" على حساب دور المرأة، لقد أبرز المؤرخ الرجل دور الرجال عموماً فى صنع الأحداث، وندرت الإشارات المصدرية الخاصة بالمرأة بصفة عامة، ولا نملك تعليلاً لذلك سوى الطابع المحافظ للقرون الوسطى عموماً فى الشرق والغرب، وذلك على الرغم من أهمية الدور الكبير الذى لعبته المرأة فى ذلك العصر كأم، وزوجة، وابنة، وأخت، غير أن المصادر التاريخية تتجاهل ذلك – إلا فى القليل النادر – لتظهر دور الرجل المحارب والسياسى، دون الحديث عن الخلفيات الحياتية التى كان عليها، ويمكن القول – دونما مبالغة – أن عصر الحروب الصليبية شهد دوراً بارزاً للمرأة – على نحو مفترض – لم يكن ليقل عن الرجل، غير أن الأخير كان الخصم وكان الحكم في نفس الحين، فعمل عادة على عدم إبراز دور المرأة، على نحو قدم معه صورة العصر منقوصة على نحو مؤكد.

وقد يرد البعض أن هناك أعلاماً من النساء الصليبيات والمسلمات مثل المملكة الصليبية ميلزندا أم الملك الصليبى بلدوين الثالث، واليانور زوجة الملك لويس السابع ملك فرنسا، كذلك لا نغفل دور ضيفة خاتون، وست الشام وشجر الدر وغيرهن من النساء المعاصرات. غير أن هذه أعداد قليلة من النساء البارزات على مستوى القمة، أما القاعدة الشعبية العامة، فالمرأة فيها لا ذكر لها في المصادر التاريخية بصورة متوازنة مع ما ورد بشأن الرجل.

إن ذلك الوضع الذى يمثل وبحق "مشكلة" في معالجة المصادر التاريخية لما اعتدنا تسميته فى عصرنا الحالى بأنها "نصف المجتمع" انتقل إلى المعالجات الحديثة. فمازال الباحثون يتجهون إلى "الرجل" كفاعل تاريخى دون التعرض إلا نادراً للمرأة،على نحو دعم "التاريخ الذكورى" لتلك الحقبة وبالتالى يمكن القول أن المرأة فى عصر الحروب الصليبية ظلمت عدة مرات، فقد ظلمت عندما غدر بها المشروع الصليبى تحت أوهام صنعتها البابوية من أجل الذهاب إلى الشرق حيث الأنهار التى تفيض لبناً وعسلاً وسارت بجوار الرجل إلى هناك، غير أن الأيام أثبتت أن الثمن الفادح دفعته المرأة حيث كانت الأرملة، والثكلى من

جراء الصراع مع المسلمين فى الشرق، وظلمت عندما تجاهلها المؤرخون المعاصرون بالصورة التى شهدت عليها كتاباتهم نفسها، وظلمت من المؤرخين المحدثين – وهم فى ذلك في وضع اضطرارى – عندما ساروا فى نفس مسيرة المؤرخين المعاصرين الذين تعرضوا لذلك العصر بالكتابة التاريخية وكان لهم موقفهم حيال المرأة.

وقد يرد البعض على تلك العبارات السابقة بأن الأمر فيه جانب من الافتعال، وأن طابع تلك المشكلة موجود في الكتابة التاريخية عموماً قديماً، ووسيطاً، وحديثاً. والرد على ذلك أننا ينبغى أن ندرك حجم المشكلة فى واقعها الصحيح، واستمرارها لا يعطيها حق الوجود دون التعرض لأبعادها بالدراسة. وبالفعل يمكن وصف المرأة في عصر الحروب الصليبية بأنها كانت الجندى المجهول وراء تاريخ الرجل خاصة المرأة المسلمة التى وقفت تدعم الجبهة الداخلية في مواجهة الغزو الصليبى الاستنباطى للمنطقة.

خامساً: الريف والمدينة والعلاقة الجدلية بينهما وأثرها على الكتابة التاريخية:

واقع الأمر؛ أن بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، على الرغم من اتساع مساحة الريف فيها على المستوى الجغرافى ومحدودية المدن فيها، إلا أن الريف كان حظه من الكتابة التاريخية الإسلامية والصليبية محدوداً بصورة تسترعى الانتباه، على نحو يكشف عن التناقض بين "المساحة الجغرافية"، و"مساحة الإشارات المصدرية التاريخية"، وعلى حين تناثرت الإشارات الخاصة بالمدن مثل دمشق، حلب، بيت المقدس، عكا، إنطاكية، طرابلس، حمص، حماه، بيروت إلى غير ذلك من المدن الشامية سواء العواصم السياسية أو الموانىء التجارية أو المدن ذات الطبيعة المقدسة نظراً لطابع الحج بها كما الحال فى بيت المقدس، على الرغم من ذلك كله؛ إلا أن الريف تعرض لتهميش المصادر بصورة واضحة، وصار لدينا تاريخ للمدن أكثر من كونه تاريخاً للريف ويمثل ذلك تناقضاً واضحاً في ذلك العصر والكتابة التاريخية بشأنه.

لقد استأثرت مدن الشام الكبرى خاصة دمشق، وبيت المقدس بجانب كبير من اهتمام المؤرخين فألفت الكتب المتخصصة في فضائلها، وحتى فى خططها، ودروبها، ومسالكها، وأسواقها وقياسرها على نحو يجعل المؤرخ يملك مادة مصدرية ثرية معاصرة عن تلك المدن بينما يجد الصمت يلف القطاع الريفى حينذاك – إلا القليل النادر – أرضاً وبشراً، وتعرض الأخيرون – وأعنى بهم عناصر الفلاحين – إلى التهميش بحكم الانتماء الطبقى للمؤرخين، وبحكم استئثار أهل المدن باهتمام الكتابة التاريخية حينذاك.

ولا نغفل أن الريف الشامى – خاصة فى مناطق الحدود بين أملاك المسلمين والصليبيين – نكب من جراء الصدام الحربى بين الطرفين، ودفع الريف الشامى المسلم ثمناً باهظاً في العديد من الأحيان من جراء سياسات التخريب، والسلب، والنهب التى اتبعها الغزاة

مــن أجـل تدمير موارد المسلمين الاقتصادية وكذلك إجبار الفلاحين على ترك أراضيهم إلى مناطق أكثر أمناً ليسهل على الصليبيين الاستيلاء عليها من بعد ذلك.

وحقيقة الأمر؛ أننا نجد إشارات متناثرة عن الريف خاصة لدى الجغرافيين والرحالة المسلمين – على سبيل المثال. مثلما لدى الإدريسى (ت ق ١٢م) فى كتابه نزهة المشتاق في اخـتراق الآفاق، وابن جبير (ت حوالى ١٢١٦م)[٧] فى رحلته الشهيرة، وذات الأمر يمكن أن يقال عن بعض الإشارات عن عدد من المستعمرات التى شيدها الصليبيون في الضفة الغربية لـنهر الأردن كما فى حالة البيرة (ماجنا ماهومريا) Magna Mahumeria والقبيبة، وكفر مـالك حيث نجد عنها تلك الإشارات فى عدد من المصادر التاريخية الصليبية المعاصرة ومن أمثلتها مؤلفات الرحالة الأوربيين وكذلك وثائق كنيسة الضريح المقدس[٨] إلا أن تلك الإشارات لا تـتفق البـتة مع ما لذلك القطاع من أهمية كبرى بحكم كونه المخزون البشرى والانتاجى الذى شكل الجبهة الداخلية لكلٍ من طرفى الصراع.

سادساً: الموضوعية فى الكتابة التاريخية عن عصر الصليبيات:

يعـد عصـر الصليبيات وبحق – عصراً معقداً في التفاعل معه على صعيد الكتابة التاريخـية ومـدى ما بها من موضوعية واجبة، فى ظل العداء السياسى، والدينى، ونفى كل طـرف للآخـر، كذلـك أدت السياسات التى اتبعها الصليبيون والمذابح التى ارتكبوها بحق المسـلمين خـلال المرحلة من ١٠٩٨ إلى ١١١١م إلى تكون ميراث للكراهية صنعته أساساً روح التعصـب الصـليبى ضد كل ما هو غير مسيحى، وانعكست روح العداء بين الطرفين علـى كـتابات مؤرخى ذلك العصر، وعبروا عن ذلك فى التراث التاريخى الذى وصل إلينا، والآن؛ وبعـد مرور تسعة قرون من اندلاع آتون الحروب الصليبية، هل نجد موضوعية فى كـتابات كل طرف عن الآخر؟، واقع الأمر؛ أن شرط الموضوعية كانت تنتابه فى العديد من الأحيان عوامل تخرجه عن مساره الطبيعي مثل العداء السافر بين الجانبين، وميراث الكراهية المتنقل من جيل لآخر، وباستثناء حالات من الأحكام الموضوعية، كما نجد فى كتاب الاعتبار لأسـامة بن منقذ من حيث إيراد المزايا ومظاهر النقص لدى الطرف المعادى، وامتداح وليم

---

[7] عن ذلك انظر:

الإدريسـى، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق دبلافيلا وآخرين، ط. نابولى ١٩٧٠ – ١٩٧٧م، ص٥٦٣ ابن جبير الـرحلة، ط. بيروت ب.ت، ص٢٧٥، محمد مؤنس عوض، الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية ط. القاهرة ١٩٩٥م، ص٣٣،ص٣٠٣.

[8] عن مستعمرة البيرة الصليبية انظر:

Pringle, "Magna Mahumeria (al – Bira) the Archaeology of a new town in palestine", in Crusade and settlement, ed. by peter W.Edbury, Cardiff 1985, pp. 148 – 168, Abel, :Les deux Mahumeria El Bira, Elqoubeibeh" R.B., T.XXXV, 1926, pp. 272 – 283.

محمـد مؤنس عوض، "أضواء على مستعمرة البيرة الصليبية Magna Mahumeria (١١١٥ – ١١٨٧م/ ٥٠٩ – ٥٨٣ هـ) مجلة بحوث الشرق الأوسط، العدد (١٠)، مارس ٢٠٠٢م، ص٧ – ٨٥.

الصـــوري لنور الدين محمود على سبيل المثال؛ نجد أن العداء الشديد حكم مواقف المؤرخين فـــي ذلــك العصر، ودونما شيفونية خرقاء؛ نجد أن المصادر الصليبية حملت عداءً دفنياً ضد الإســـلام وأهلـــه، ولم تتوافر لدى أوربا النظرة الموضوعية لذلك الدين وأهله إلا لدى قطاع محـــدود مـــن الباحثين المحدثين، أما تراث العصور الوسطى فهو تراث قائم على نفى الآخر وعـــدم الاعـــتراف بـــه. ممـــا يجعل من كتابات مؤرخي تلك العصور بصفة عامة، وعصر الحـــروب الصـــليبية بصـــفة خاصـــة، نوعاً من الذاتية الصرفة – فى العديد من الأحيان – وبصورة تكشف لنا عن مأزق الكتابة الموضوعية وحتى على مستوى الكتابة الحديثة عن ذلك الصـــدام بين الشرق والغرب حينذاك، نجد انعكاسات الماضي حاضرة الآن، ولا نغفل زاوية مهمة، وهى أن من الصعب بل والمستحيل أحياناً أن نطلب من أهل البلاد الأصليين أن يكونوا موضـــوعيين في تناول تاريخ الغزاة الذين هاجموا بلادهم، واصطبغ تاريخهم بروح التعصب ونهبوا موارد المنطقة نهباً منظماً.

نحن بالفعل أمام مشكلة المشاكل، كيف نسعى للكتابة بموضوعية عن نهب المنطقة؟ وفـــي تقديري أن من الموضوعية إبراز كيف تم سلب ونهب المنطقة العربية عندما قدم إليها الغرب الأوربي تحت قناع الدين كي يقوموا بالسطو عليها.

سابعاً: المركزية الأوربية وأثرها على الكتابة التاريخية الحديثة عن عصر الحروب الصليبية:

من المعروف؛ أن تاريخ الحروب الصليبية من خلال المعالجة الحديثة بدأ في الغرب الأوربـــي فـــي أخـــريات القرن التاسع عشر الميلادى، وتطور على أشكال متعددة مثل نشر المصـــادر التاريخية وكذلك التأليف في العديد من موضوعات تاريخ تلك الحروب، وصارت لديـــنا أعمـــال عدة مدارس مثل المدرسة الفرنسية، والإنجليزية، والألمانية، ثم امتد الأمر إلى وجـــود مدرســـة أمريكـــية لها إسهامها فى ذلك المجال، وصار لدينا بالتالى آلاف الدراسات التاريخـــية فـــي صـــورة كتـــب، أو مقـــالات بعدة لغات أوربية مثل الإنجليزية، والفرنسية، والألمانـــية، والإيطالـــية، والأسبانية، والبرتغالية، بل والسويدية، والدنماركية ... الخ، ويكفى للتدلـــيل علـــى حجـــم التأليف فى مجال تاريخ الحروب الصليبية فى الغرب الأوربى واتساع نطاقـــه؛ أن المؤرخ الألمانى البارز هانز ماير Hans Mayer قد ألف كتاباً بالألمانية عنوانه: Bibliographie Zur Geschichte der kreuzzuge, Hannover 1965. أى بيلبوغرافـــيا علـــى تاريخ الحروب الصليبية، ط. هانوفر ١٩٦٥م، وفى هذا الكتاب يحدد لنا المؤلـــف عدد (٥٣٣٣) دراسة عن الحروب الصليبية حتى العام المذكور، ويلاحظ أن الخمس وثلاثيـــن عاماً التالية شهدت إنفجاراً معرفياً فياضاً من المؤلفات الحديثة فى المجال المذكور، وكذلك في وسائل الاتصال لاسيما شبكة الأنترنت ويمكن متابعة جزء مهم منها فى القسم الذى خصصـــه ذلـــك المؤلف فى الجزء الأخير من موسوعة سيتون عن تاريخ الحروب الصليبية Setton, Ahistory of the Crusades, vol. Vi, Wisconson 1989. أمـــا العـــالم

العـــربى؛ فقـــد عرف التاريخ الحديث للحروب الصليبية بعد الحرب العالمية الثانية عندما عاد بعض المؤرخين المصريين الرواد من بعثات من إنجلترا وفرنسا ليقودوا باحثين شبان آخرين فـــي المجـــال المذكور، ونذكر فى هذا المجال جهد الرائد البارز الراحل أ.د. محمد مصطفى زيـــادة الـــذى أشـــرف بدوره على أستاذين رائدين كبيرين هما أ.د. حسن حبشي، أ.د. سعيد عاشـــور؛ وهمـــا مـــن كبار مؤرخي العالم العربي في مجال الصليبيات، ولا نغفل أن العالم الـــراحل أ. عزيز سوريال عطيه، أشرف على العالم الراحل أ. جوزيف نسيم يوسف[٩]، ويعد من أهم من ألف، واشرف على العديد من الطلاب فى جامعة الإسكندرية، ولتتواصل المسيرة من بعد ذلك على أيدى مؤرخين آخرين في مصر وشقيقاتها العربيات وبصفة عامة؛ فإن عهد التألـــيف فـــي الصـــليبيات فـــي العـــالم العربى حديث إذا ما قورن بالعالم الغربى الأوربى، والأمـــريكى، وتعـــانى دراسة الصليبيات في العالم العربى من التناثر وغياب مراكز الأبحاث ويلاحـــظ هـــنا؛ أنـــنا كباحثيـــن عرب نعتمد فى مجال الصليبيات نعتمد على جهد الأوربيين والأمريكييـــن التألـــيفى، وهم ينطلقون من منطلقات دينية وسياسية تختلف تمام الاختلاف مع نظائـــرها لـــدى المؤرخين العرب والمسلمين عموماً. ومن هنا جاءت خطورة الاعتماد على كـــتابات المؤرخين الغربيين دون ملاحظة ما تنطوى عليه من أهداف، ومآرب، ولا نغفل أن القضـــية ترتـــبط ارتـــباطاً وثـــيقاً بحركة الاستشراق، ونظرة الغرب للشرق مع ملاحظة أن الارتـــباط بيـــنهما مـــن خلال ندية حقيقية أمر غير وارد، ونظرة المؤرخين الغربيين لتاريخ عالمـــنا العربى في العديد من مراحله نظرة تنطلق من منطلقات شيفونية، والقليل الذى يتعامل مـــع قضـــاياه بنوع من التوازن والاعتدال، ولاريب فى أن الأمر مرتبط بمراحل طويلة من العـــداء بيـــن الشرق والغرب، كان الشرق خلالها مستهدفاً، وكان الغرب فيها يقود مشروعاً للتوسع والهيمنة خدمة لمصالحة ومطامعه العليا.

ويكفـــى للتدلـــيل علـــى آثـــار المركـــزية الأوربية ما يمكن وصفه. ويحق "بأزمة المصـــطلح"؛ فالملاحظ أن عصر الصدام بين الغرب والشرق – بحكم أن الغرب هو الذى بدأ الصدام أصلاً مع الشرق – احتوى على العديد من المصطلحات صنعتها تلك المركزية، ومن أمثلتها مصطلح "الحروب الصليبية"، وهو مصطلح خاطىء وشائع للأسف الشديد على الرغم مـــن أنه لا ينطبق على الواقع في شيء وبالتالى فهو مضلل أكثر من كونه معبر عن الحقيقة، ثم مصطلح الشرق الأدنى والشرق الأوسط وهى نتاج حركة الاستعمار الأوربى الحديث التى صـــنفت الشـــرق إلـــى أدنـــى وأوسط وأقصى من خلال المركزية المشار إليها، كذلك نذكر

---

[٩] عن الاطروحات العلمية التى أشرف عليها الراحل أ.د. جوزيف نسيم يوسف انظر: دليل الرسائل الأكاديمية (دكتوراه – ماجستير – دبلوم) التى أجيزت بكلية الآداب – جامعة الإسكندرية من ١٩٤٢ – ١٩٩٨م، ط. الإسكندرية ١٩٩٩م، ص١٦٨ – ١٧٨.

مصطلح ريكونكويستا Reconquesta أو حرب الاسترداد الإسبانية، من وجهة نظر أسبانيا بالطبع والذى يستعمله البعض من الباحثين العرب دون إدراك لخطورته.

وواقع الأمر؛ إن من المهم العمل على دراسة مثل تلك المصطلحات وخطورتها على الكتابة التاريخية فى منطقتنا العربية لأنها نتاج مؤرخى وسياسيى الغرب خدمة لأهدافهم ونستعملها على الرغم من التباين الشديد في رؤيتنا لتاريخنا ورؤيتهم هم، وبالتالى فالمشكلة الحقيقية ليست مشكلة مصطلح بل التعبير عن إطار فكرى نظرى أكبر وأشمل لتجنب أن يصبح مستهلكين لكتابات الغرب التاريخية.

وفى تصورى أنه لا سبيل للفكاك من المركزية الأوربية إلا من خلال خلق مركزية عربية إسلامية تهدف لإبراز الهوية الدينية، والشخصية القومية، لا أن نكون تابعين للغرب على حساب تلك الهوية خاصة فى الأونة الأخيرة التى ظهرت فيها ادعاءات العولمة، والفرنكفونية، وكلها تعنى إذابة الهوية الدينية واللغوية، لمصلحة قوى أوربية وأمريكية تهدف إلى السيادة العالية بكل الصور والمستويات الثقافية – وهى أخطرها – والاقتصادية، والسياسية.

ومنطقى أن ذلك يتحقق من خلال إقامة مراكز البحوث المتخصصة[10]، التى تتابع ما يصدر فى الغرب الأوربى والأمريكى، وتتناوله بالبحث والدراسة والنقد، ثم إصدار المؤلفات الببليوغرافية العربية[11] من أجل رصد ما يصدر لا أن يكون العرب بمثابة جزر متناثرة كل يعمل دون أن يعرف ما يؤلفه غيره من الباحثين فى المجال المذكور.

وأود أن ألفت نظر القارىء إلى أن المؤرخين الإسرائيليين[12] لهم دور بارز فى مجال تاريخ الحروب الصليبية حالياً، وعلينا أن يكون لنا دورنا ونرد على ما فى مؤلفاتهم من

---

[10] سبقت لى المطالبة بمثل تلك المراكز المتخصصة عن ذلك انظر: محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية دراسات تاريخية ونقدية ص١١٢. وتمت الاستجابة بالفعل من جانب القائمين على مؤتمر بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية الذى عقد في جامعة اليرموك وصدر عنه هذا الكتاب القيم: مجموعة من الباحثين، بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجى ٤٩ – ٦٩٠هـ، جامعة اليرموك ٢٠٠٠م، ص١٧ (حيث وردت الاشارة إلى مثل تلك المراكز المتخصصة ضمن توصيات المؤتمر).

[11] عن جهود المؤرخين العرب في مجال الحروب الصليبية انظر: قسطنطين زريق، ما ساهم بالمؤرخون العرب في المائة السنة الأخيرة في دراسة التاريخ العربى عن فترة الحروب الصليبية.مجلة الأبحاث – الجامعة الأمريكية بروت، السنة (١١٢، جـ(٢٢ يونيو ١٩٥٩، محمد مؤنس عوض، فصول ببليوغرافية في تاريخ الحروب الصليبية.ط. القاهرة ١٩٩٦م، ص ١٧٧ – ٢٥٤.

[12] عن اسهاماتهم انظر:

يوشع براور، عالم الصليبيين. ت. قاسم وخليفة، ط. القاهرة ١٩٨١م. الاستيطان الصليبي في فلسطين مملكة بيت المقدس الصليبية، ت. عبد الحافظ عبد الخالق البنا، ط. القاهرة ٢٠٠١م، محمد مؤنس عوض، فصول ببليوغرافية ص٢٠٧ – ٢٩٤ حيث تم تخصيص فصل مستقل للتعريف بأهم المؤرخين الإسرائيليين وإسهاماتهم في المجال المذكور.

إدعاء بشأن حقوق يهودية فى أرض فلسطين أو المبالغة فى حجم الدور اليهودى خلال أحداث الصراع بين الشرق والغرب فى القرنين ١٢، ١٣م.

مجمـــل القول؛ أننا نواجه تحديات خطيرة وعلينا أن نتنبه إلى أهمية دراسة التاريخ عمومـــاً، وتاريخ صراعنا مع الغرب، خلال القرون الوسطى من أجل المحافظة على هويتنا فلاريـــب أن دراسة مرحلة الحروب الصليبية من شأنها تعميق الهوية، والاستفادة من تجاربنا فـــى الاصـــطدام مـــع الغـــرب، وعدم الوقوع فى أسره، والانبهار به، لأن تلك هي بضاعته وسيطاً، وها هى الآن بضاعته حديثاً، ولا يفهم من تلك العبارات آية خصومات معه فالتاريخ حـــوار الحضارات، غير أن الحوار المطلوب قائم على الندية والاعتراف بالآخر لا إلغائه أو الـــتعامل معـــه بدونـــية، لأن أمـــة العرب لها الفضل الحضارى على أوربا ذاتها فى القرون الوســـطى، وعلينا الخروج من مأزق التفاخر بالماضى لنصنع ذاتنا الحالية بثقة بالنفس وإنهاء وهـــم التفوق الغربى الذى صنعها المستعمر فى نفوسنا كى نظل نعمل في فلكه ولا نتمكن من الخـــروج من أسره وبالتالى نتجاوز مرحلة :التاريخ العبء: إلى مرحلة أخرى مغايرة وأعنى بها مرحلة :التاريخ الحافز" وهو أمر أساسى لأية نهضة مستقبلية مرتقبة.

ذلـــك عـــرض لملامح إشكالية دراسة تاريخ الحروب الصليبية فى بلاد الشام خلال القرنين ١٢، ١٣م.

الفيكنج واغاراتهم على الإمبراطورية الكارولنجية

د. وفاء عبد الله مزروع
المملكة العربية السعودية

مقدمة:

يعتبر الفيكنج من العناصر الشمالية التى سكنت شبه جزيرة سكنديناوة وشبه جزيرة الدانمـــارك والـــتى اتخـــذت إغارتها على أوربا شكلاً كاسحاً في القرن التاسع الميلادى، ولقد انقسموا إلى ثلاثة أقسام رئيسية الدانمركيين والنرويجيين والسويديين، واتخذت إغاراتهم على أوربـــا شكلاً بحرياً كاسحاً أقرب إلى القرصنة منه إلى الزحف البرى التى اتصفت به هجمات بقـــية الشعوب الجرمانية، وقد ركزوا اهتمامهم على الإمبراطورية الكارولنجية وإنجلترا. ولقد أدت إغاراتهم على الإمبراطورية إلى زعزعة أركانها وتقويض عاصمتها.

وتتـــناول هذه الدراسة هذا العنصر الجرمانى بالبحث والتفصيل، فبدأت بتمهيد عنهم ثـــم إغـــاراتهم علـــى الإمبراطورية الكارولنجية، ثم تأسيس نورمانديا وانتهت بما تميزت به حضارتهم.

هذا وأسأل الله التوفيق والسداد.

تمهيد:

يعتبر الفيكنج Vikings أو الشماليون Northmen هم مجموعة الشعوب التى سكنت شبه جزيرة سكنديناوة Scandinavia وشبه جزيرة الدانمرك وحوض البحر البلطى من السويديين Swedens والنرويجيين Norwegans والدانيين Danes، ويرجع أصلهم للعنصر الجرمانى أو التيونى الذى سكن تلك المناطق منذ أوائل القرن التاسع الميلادى.[1]

ولقد أدت عزلتهم من موطنهم إلى تباين كبير بينهم وبين العناصر الجرمانية التى غزت أوربا، ذلك أن الفيكنج ظلوا برابرة مخلصين على أوضاعهم البدائية فيما يختص بنظم الحكم والبناء الاجتماعى والديانة. وأدت عزلتهم وتطرف موضعهم الجغرافى إلى عدم احتكاكهم بسكان الإمبراطورية الرومانية أو التأثر بهم حتى كان القرن التاسع عندما بدأت إغارتهم علىى العالم الأوروبى الجنوبى[2] حيث بدأت أعدادهم في هذه المناطق تزايداً كبيراً واضطرتهم الحاجة الماسة إلى البحث عن مناطق جديدة وإلى الإغارة على الممالك المتناحرة، ودفعت طبيعة بلادهم الجبلية ذات الغابات والأحراش والمستنقعات إلى أن دفعت بهم إلى ركوب البحر، فبرعوا في أمور الملاحة وصيد الأسماك ووجهوا نشاطهم إلى أعمال القرصنة التى كانت تستلزم بناء السفن التى تفوقوا بها، وتميزوا ببناء سفن صغيرة مكشوفة اتصفت بالطول وقلة العرض، وأن نهايتها مدببة، ودعمت كل من حافتيها بصف من الدروع، وتسير بالمجداف أو الشراع، وجابوا بها شواطىء أوربا من البحر البلطى إلى البحر المتوسط وأصبحوا من أعظم الشعوب البحرية بل وسادة للبحار.[3]

أما عن كتابتهم فقد عرفت تلك الشعوب الكتابة بالأبجدية الرونية، التى كانت تضم ستة عشر رمزاً، وكانت أحجار الشواهد مغطاة بنقوش كتابة رونية؛ أما الحضارة المادية فقد عرفت بشكل واضح في عصر الفيكنج وتأثرت بقوة بتيارات خارجية، وكانت متميزة بالبذخ والبحث عن الأثر الفنى، والأمثلة على ذلك كثيرة؛ وكان أثاث الزعماء وعرباتهم وأسرتهم الخشبية منقوشة بواسطة الحفر، وأسلحتهم أقل زينة؛ وكانت التروس ومقابض السيوف وبلطات الأسلحة مزدانة بخيوط نحاسية، ولقد اهتموا بصناعة الحلى، واستفادوا من الذهب، إلا أنهم استعاضوا عنه بالفضة التى صنعوا منها حلياً وأدوات، وعنوا في تزينهم بأسلوب الزخارف الحيوانية المعروفة منذ عدة عصور.

---

1 Haskins, Ch. H., The Northmen in the European History, New York, 1959, pp. 30-31.

2 Cantor, N., Medieval History, New York, 1967, p.121.

3 Stephenson,C., Mediaeval History, New York, 1943, p.201.

أمـــا نشاطهم الاقتصادي فلقد كان متنوعاً ومتعدداً نذكر منه الصيد وتربية الحيوانات وزراعـــة الحـــبوب كالقمح والشعير، وكان الشعب يعيش مجتمعاً من قرى، ويسكن المزارع المـــنعزلة تحت رحمة الظروف الجغرافية وقسوة الطبيعة، ويبنى منازله من الخشب، ويشيد المعسكرات التي يحميها بمتاريس مستديرة بالحجر والتراب، وكانت الأسوار تحيط بكل ذلك.

أمـــا الملاحـــة والتجارة فكانتا تؤلفان معاً في القرن التاسع الميلادى نشاطا اقتصادياً وسياســـياً مهماً عند شعوب الفيكنج فكان الملاحون يركبون كما ذكرنا سفناً وضيعة متطاولة ذات جؤجـــؤ مزيـــن برأس غول تسير بالشراع والتجديف وبجوانبها محمية بالتراس مستديرة مـــن الخشب وكانت تتميز بالسرعة وتغطيه مساحات كبيرة من البحر. ونتيجة لذلك استطاع الفيكنج في أواخر القرن الثامن وبداية التاسع أن يغزوا مناطق كثيرة.[4]

وإذ كـــنا قـــد قســـمنا الفيكنج إلى نرويجيين وسويديين ودانيين فلا يعنى ذلك وجود فـــوارق بيـــنهم[5] وإنما يقصد به الإشارة إلى جماعات الفيكنج التى سكنت الأجزاء الغربية أو الشـــرقية من سكنديناوة أو شبه جزيرة الدانمرك، وهنا ينبغى أن نلاحظ أثر التوجه الجغرافى فـــي توزيع غزوات الفيكنج، فالسويديون الذين يواجهون شرق أوربا عبروا البلطيق ووصلوا إلى شرق أوروبا والبحر الأسود، أما النرويجيون فقد اتجهوا غرباً فوصلوا إنجلترا أو إيرلندا والجـــزر الغربية فضلاً عن الجزر الشمالية في المحيط الأطلسى، في حين اتجه الدانيون نحو الجـــنوب والغـــرب فهـــددوا شواطىء الإمبراطورية الكارولنجية في ألمانيا وفرنسا وإنجلترا وإيرلـــندا والجـــزر الغربية، ويهمنا هنا المجموعة الأخيرة (الدانيون) الذين اتحدوا في مملكة واحـــدة فـــي أواخر القرن الثامن الميلادى وتكونت بلادهم من ثلاثة أقسام رئيسية وهى شبه جزيـــرة جوتلانـــد Gutalnd إلـــى الأيدر، وثانيهما جزر زيلاند Zealand وثالثهما سكانيا Scania مـــع هـــالاند Halland وبلكنج Bicking[6] ولقد أضاف الفيكنج إلى اسمهم مصدراً جديـــداً للرعـــب فكـــان خـــروجهم يعتبر حدثاً تنتشر عنه الشائعات إلى الآفاق البعيدة، وكان خـــروجهم عـــن طـــريق الـــبحر لا يسبقه نذير، وإنما كانوا ينقضون فجأة، كما ينقض النسر فيقبضـــون على فريستهم ثم يعودون بها أدراجهم، ولقد أصبح الغموض يكتنفهم مضاعفاً كما كان الرعب الذى ينشرونه مضاعفاً أيضاً.

---

[4] محمد الحويرى، للمباردون في التاريخ والحضارة، القاهرة، ١٩٨٦، ص١٧٩.

[5] Haskins, op. cit., pp. 30-31.

[6] عاشور؛ أوروبا العصور الوسطى، جـ١، القاهرة، ١٩٨٦، ص٢٢١. Stephnson, op. cit., p 200

ولقـــد إنطلقـــت من بحر البلطيق وبحر الشمال قوارب قادرة على شق عباب البحر، كمـــا خرج منها جيل من رجال البحر أقوى على ركوب المخاطر، فقد كان مقدراً لهذا الجنس أن يكـــون جنســـاً بحرياً رغماً عنه، ذلك أن العجز الذى ينجم عن الزراعة في أرض يعوضه حصاد البحر، وقد أكتسب أهل الشمال قوتهم بوصفهم صيادى سمك في البحار وكانوا يصلون تتـــبعهم لجمـــوع السمك إلى ما وراء الفيودرات ذات المياه الهادئة، فاعتادوا على مغالبة مد الـــبحر والتيارات البحرية الجارفة والعواصف في بحر الشمال، وحتى أنهارهم كانت تياراتها شـــديدة الســـرعة مليئة بالشلالات الخطرة، ونظراً لأنهم طبعوا على أمثال هذه المخاطر منذ نشأتهم فقد أخذوا يدرجون حتى اصطنعوا لأنفسهم نوعاً خاصاً من السفن وطريقة من طرائق الملاحـــة وجابوا بهذه السفن شواطىء أوروبا من البحر البلطى حتى البحر المتوسط بل قاموا برحلات بعيدة في المحيط الأطلسى.[٧]

وقـــد تمـــيزت إغارات الفيكنج في دورها الأول الذى شمل معظم النصف الأول من القرن التاسع، بأنها كانت إغارات تهدف إلى السلب والنهب والقرصنة وتتم في فصل الصيف وتنـــتهى بالعودة بالمنهوبات قبل حلول فصل الشتاء كما كانت تضم جماعات أو فرق صغيرة تعمل لحساب أحد الأمراء.[٨]

أمـــا فـــي النصف الثانى من القرن التاسع فقد تطورت إلى حركة توسعية استيطانية كانـــت تتم بجماعات كبيرة أو جيوش لحساب إمبراطورية الأمراء حيث كان الفيكنج يحملون معهم نساءهم وأطفالهم يبتغون الإستقرار في البلاد التى يغزونها أو بقرب مصاب أنهارها أو فـــي الجـــزر القريبة من شواطىء تلك البلاد،[٩] وكانوا يتبعونه أسلوباً واحداً تقريباً في جميع الـــبلاد الـــتى هاجموهـــا مـــثل فرنسا وانجلترا وإيرلندا، فكانوا يصعدون بأسطولهم في أحد الشـــرايين النهرية الكبيرة مثل السين واللوار والتايمز ويرسون بسفنهم في مكان منيع يتحسن أن يكـــون جزيـــرة، ثم يضربون معسكراً ويحصنونه وبعد ذلك يخطفون كل ما يجدونه من خـــيول ودواب في الإغارة على الأقاليم وأعمال السلب والنهب فيه، ولم تكن المعركة متكافئة بيـــنهم خصوصـــاً وهـــم يمتازون بخفة الحركة والتكتل وكفاية السلاح وبين قوات أهل البلاد الأصليين المجندين بالتعبئة العامة ولو كانوا أكثر عدداً لأن معظمهم من الفلاحين والمزارعين

---

[7] جون هامرتن، تاريخ العالم، م١، ص٥٨٥

Stephnson, op. cit, p. 201.

[8] Schjoth, I., Great Days of the North men, B, H, VII, pp. 35-39.

[9] محمد محمد مرسى الشيخ، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، الإسكندرية، ١٩٩٤، ص٢٩٩.

Haskins, op. cit., p.33.

غـــير المســلحين تسليحاً كافياً،[10] وقد كانت إغاراتهم تنتهى في أغلب الأحيان إلى الاستقرار الدائــم فقد استعمروا إيرلندا لفترة تحدد منتصف القرن التاسع وبقوا لأول مرة في شيبى عند مصـــب نهر التايمز في إنجلترا بعد إنتهاء فصل الشتاء ولم يعد ثمة من يجرؤ على مدافعتهم، كما لم يعد ثمة ما يفعله الناس إلى أن يضيفوا في صلاتهم (اللهم آمنا من ضب رجال الشمال) كما يذكر المؤرخ هاسكنز[11].

وفـــى ذلـــك الوقت تقريباً بدأوا في الاستقرار في غرب فرنسا بعد أن ظلوا يغيرون لفـــترة طويلة على المنطقة الواقعة بين نهر الراين واللوار، ويتميز آخر أدوار الغزو الشمالى بمقاومة أهل البلاد لهم ونجاحهم في طردهم ويبدو أن قسوتهم والمذابح الرهيبة التى أحدثوها، فضلاً عن إعتداءاتهم على الكنائس والأديرة واستباحتها ونهب ثرواتها قد أوجد شعوراً ضدهم فنجحوا منذ أواخر القرن التاسع في وضع حد لجانب كبير من عيشه.[12]

إغارات الفيكنج على الامبراطورية الكارولنجية:

تعتبر إغارات الفيكنج (الدانيين) من أهم الإغارات التى قاموا بها ضد الإمبراطورية الكارولنجـــية، لقد كانوا أحد الأسباب الرئيسية التى زعزعت هذه الامبراطورية وأسهمت في تداعـــيها، وبالرغم من قلة الأعداد التى غزت فرنسا من الدانيين إلا أنهم كانوا مصدر رعب وفوضـــى أينما حلوا، ولم يتمكن شارلمان وهو في أوج قوته أن يقضى عليهم، وخصوصاً أن توســـعه شمالاً أدى إلى إيجاد حدود مشتركة بينه وبينهم، ولم تلبث العلاقات أن ساءت حينما دخـــل بعـــض السكســـون الهاربين من شارلمان تحت حماية الدانيين، هذا في الوقت الذى لم تـــنقطع إغـــارات الدانييـــن على شواطىء الامبراطورية الغربية، ولقد أفزعت شارلمان تلك الإغـــارات فأعد أسطولاً قوياً في موانىء نستريا لحماية شواطىء امبراطوريته من هجماتهم ومع ذلك فقد استمر جودفرد Godfred،[13] زعيم الدانيين يسبب متاعب خطيرة لشارلمان في

---

[10] سي. و. بريفت، مغامرات النورمنديين، القاهرة، د.ت، ص٦٨٥.

[11] Haskins, op. cit, p.33.

[12] Oman, Ch., The Dark Ages 476-918, London, 1962, p.408; Cam. Med His., Vol. 3, p.315.

[13] يعتـــبر جود فريد ملك الدانيين في أوائل القرن ٩م، وتولى بعده هارولد Harold الذى دخل في صراع مع أبناء الملك المقـــتول، وفى ظل هذا الانقسام دخلت بعثة تبشيرية مسيحية فمهدت لانتشار المسيحية انتشاراً محدوداً ولم يلبث أبناء جود فريد أن ثاروا على الملك الجديد هارولد فهرب إلى ألمانيا واعتنق المسيحية في سنة ٨٢٦م ليحظى بمساعدة عاهل الفرنجة لويـــس التقى الذى سانده في استعادة عرشه مرة أخرى، غير أن هارولد لم يحفظ لعاهل الفرنجة معروفه فانتهز وفاة لويس الـــتقى سنة ٨٤٠م والصراع الذى اندلع بين أبنائه وأغار على بلاد الفرنجة، ووصلت أساطيله إلى جنوب أسبانيا. ولم يلبث هـــارولد أن أُقصـــى عن عرشه إذ ثار عليه زعيم آخر من أقاربه ويسمى (هاريك) واستطاع هذا الأخير أن يعتلى عرش

جـنوب البحر البلطى وشواطىء فريزيا حتى حاول مفاوضتهم والاتفاق معهم فيما بين سنتى ٨٠٤ – ٨٠٩م لدفـع خطـرهم وشرهم،[١٤] وجاء في إحدى الروايات المعاصرة أن شارلمان رأى بنفسه إحدى إغارات الدانيين على سواحل دولته وأنه أسف لذلك كثيراً والتفت إلى أتباعه قـائلاً لقد تأثرت لذلك كثيراً، وإننى لأشعر بالحزن والأسف عندما أنظر إلى الأمام وارى كم من الضرر سيلحقه أولئك.[١٥]

ويتضـح مـن المدونـات التاريخـية أن جودفرد أخذ زمام المبادرة بالهجوم على شواطىء مملكة شارلمان، إلاّ أن بمصرعه سنة ٨١٠م زال خطر الفيكنج عن الفرنجة، لاسيما بعد أن عقد خليفته هيمنج، وهو ابن أخته، معاهدة سلام مع شارلمان.[١٦]

ثـم حدث في عهد لويس التقى خليفة شارلمان أن استغل فرصة الخلافات والحروب الداخلـية الـتى قامت حول تقسيم الإمبراطورية وأنزلوا قوات ضخمة على شواطىء فريزيا Fresia سـنة ٨٣٥م ونصبوا مدينة أوترخن ودورشتد Dur sted أكبر موانىء الإقليم وفى العـام الـتالي أغار الدانيون على فلاندرز وأحرقوا مدينة أنتورب Antwerp ثم عادوا سنة ٨٣٧م إلـى مهاجمة والشرين Walcheren عند مصب نهر الراين حتى وصلوا إلى نموجن Nimaegen ولكـنهم لم يلبثوا أن لاذوا بالفرار عندما وصل لويس التقى على رأس جيوشه، ولكن لويس حرص على مهادنتهم ومنحهم المنطقة المحيطة بدورشتد سنة ٨٣٩م للإقامة فيها ولمحاولة توطينهم واستقرارهم وكف عدوانهم ولكن كل هذا لم يؤد إلا إلى زيادة أطماعهم في أراضى الامبراطورية.[١٧]

وبعد وفاة لويس التقى وإبان الصراع الذى اندلع بين أبنائه حول تقسيم أملاكه خرج أول أسطول للدانيين في نهر السين سنة ٨٤١م واستولوا على روان، ثم تقدموا في نهر اللوار ودمـروا مديـنة نانت Nantes سنة ٨٤٢م وقضوا فصل الشتاء في نستريا في جزرية قرب مصب اللوار Loere.

الدانيين سنة ٨٤٤م. انظر، Schjom, Hans, Denmark and its Sister States: Great Days of the North men, in the Book of History of Nations from the Earliest Times to the Present, vol. VII., p.3557.

14 يطلق اينهارد على هذه الشعوب أيضاً اسم الدانمراكيين. انظر، اينهارد، سيرة شارلمان، ترجمة/ عادل زيتون، دمشق، ١٩٨٩، ص٩٤ – ٩٥. Davis, K., Charlemagne, London, 1929, pp. 296.

15 Op. cit p.416.

16 قـتل جـود فـريد بيد أحد حراسه، وبذلك انتهت حياته والحرب التي كان قد بدأها مع الفرنجة. انظر، اينهارد، سيرة شارلمان، ص٩٥.

17 عاشور، أوروبا، جـ١، ص٢٢٣.

فـي غرار مدينة Noirmountierى أثناء قيام لويس التقى بعقد أتفاقية فردون سنة ٨٤٣م على تقسيم الامبراطورية تقسيماً يرضيهم جميعاً.[١٨]

وفـى نانت قام الدانيون بقتل البطريق أمام كنيسته، وفى غضون عامين نهبوا مدينة هامـبورج Hambaurg وانسـابوا سنة ٨٤٥م بأسطول كبير على نهر السين ودمروا مدينة باريس Paris وبعد ذلك بعامين استولوا على مدينة بوردو Bordeaux أهم مدن الجنوب في فرنسا بعد أن دمروها وظلوا يحتلونها عدة سنين.[١٩]

وهكـذا فتحت لهم أنهار فرنسا الغربية السين واللوار والجارون الطريق إلى جوف الامـبراطورية فأوصـلهم نهر الراين إلى كولون والسوم إلى أميان وأوصلهم نهر السين إلى بـاريس وروان، ونهـر اللـوار إلـى نورو أورليان، كما سلكوا أيضاً أنهار الألب والويزر Weser والمـيز Meuse والشـلد Scheldit والجارون ووصلوا إلى جنوب أسبانيا أى ألى الوادى الكبير.[٢٠]

ولـم تلبـث أن إزدادت إغارات الدانيين عقب تقسيم الامبراطورية الكارولنجية سنة ٨٤٣م حـتى أصبح خطرهم بمثابة الشغل الشاغل للإخوة الثلاثة لويس ولثر وشارل، وهكذا تقلصت الممالك الفرنجية الثلاثة نظراً لخصوماتهم، وإن كانت مملكة شارل الأصلع في أقصى الغـرب هى التى أصبها كثيراً من الضرر بسبب طول سواحلها من جهة وكثرة أنهارها من جهـة أخرى فضلاً عن انشغال ملكها في نزاعات داخلية، ولهذا قام شارل الأصلع بأكثر من محاولـة لأبعـادهم عـن مملكته ثم قام بعقد صلح معهم، مرة بدفع جزية ومرة أخرى دون جدوى.[٢١]

أما مملكة لوثر وهى المملكة الوسطى فقد كان حظها هى الأخرى سيئاً لأن الدانيين دأبـوا علـى الإغارة على سواحل فريزيا كل عام تقريباً حيث اتخذوا منها قواعد دائمة نفذوا مـنها إلى أعماق المملكة وهددوا المدن الكبرى بما فيها العاصمة ذاتها آخن Aachen واكس لاشـابل فـي الوقـت الذى لم تجد فيه محاولات لوثر لوقف تقدمهم بمنحهم جزيرة والشرين Walcheren قرب مصب نهر الراين لضمان سكوتهم ومسالمتهم وصرفهم عن مملكته.[٢٢]

---

18 Oman, op. cit., p.409; Orton, Outlines of Medieval History, Cambridge, 1929, pp. 149-150.

19 Oman, op. cit. 409; Orton, op. cit, pp. 149-150.

20 أ. ماك كالوم اسكوت، الفيكنج ورحلاتهم البحرية، القاهرة، ص١٣٥. Haskins, op. cit., p.33; Keen, op. cit, p. 25.

21 Cantor, op. cit., p.237.

22 Haskins, op. cit., p.33.

وإذا كانــت مملكـــة لويـــس الجـــرمانى أحسن الممالك حظاً فإن السبب يرجع إلى السكســـون الذيـــن كـــانوا عقبة كؤود أمام تقدم الدانيين بالإضافة إلى وعورة الطريق وعدم صلاحية الكثير منه لضربات المهاجمين وبالرغم من ذلك لم تسلم مملكته من التدمير والنهب والخـــراب،[٢٣] فقد شهدت بلاده حرق مدينة هامبورج، كما أوغلوا في نهر الراين سنة ٨٥١م كما قاموا بنهب جزء كبير من سكسونيا.[٢٤]

أما عن مملكة شارل الأصلع فلم تلبث أن ساعد النزاع القائم بين بيبين حاكم أكيتانيا (جـــنوب فرنسا) وعمه شارل على ازدياد نفوذ الدانيين في حوض الجارون حتى وصلوا إلى مدينة تولوز Toulouse، وفى ذلك الوقت كان الدانيون قد عادوا إلى تهديد حوض السين من جديـــد فأغـــاروا على مدينة روان للمرة الثانية سنة ٨٤٥م حتى وصلوا في وجهتهم فتحصنوا فـــي مرتفعات مونتمارتر Montemarter، وفى بعض الأديرة وترك شارل الأصلع باريس لـــيدخلها الدانـــيون وينهبوها. ولقد أدى إستيلاؤهم على تلك المدن إلى غناهم وكثرة أموالهم ورغبتهم في مواصلة نشاطهم وغزوهم حتى أصبحت مملكة شارل الأصلع على درجة كبيرة مـــن الخـــراب والدمار وعندما تجددت هجماتهم على حوض السين ٨٥٢م قرر لوثر أن يأتى علـــى رأس جـــنده لمســـاعدة أخيه شارل الأصلع، ولكن شارل كان قد عقد صلحاً مع زعيم الدانيين ومنحه مالاً وسمح له بالاستقرار في منطقة قرب مصب نهر اللوار، فآثر لوثر العودة إلى بلاده.[٢٥]

ولم تلبث أن تجددت الاشتباكات بين لويس الألمانى وأخيه شارل الأصلع سنة ٨٥٤م ممـــا أتـــاح الفرصـــة للدانيين التوغل في مملكة شارل وأطراف مدينتى نانت Nantes وتور Tour ونهـــبوا المـــناطق المحيطة ولم تتصدى لهم سوى مدينة أورليان Orleans سنة ٨٥٤ م.[٢٦]

وبلـــغ مـــن سوء أحوال الملوك وضعفهم عن التصدى للدانيين أنهم لجئوا إلى شراء مسالمتهم بالمال وذلك حينما عقد شارل الأصلع سنة ٨٦٠م معاهدة مع رولاند Rolland أحد زعمائهم تعهد فيها بدفع مبلغ كبير من المال ليقوم الدانيون بإخلاء نستريا من الغزاة.

23 Oman, op. cit., p. 419.

24 عاشور، أوروبا، جـــ١، ص٢٢٤.

25 عاشور، أوروبا، جـــ١، ص٢٣٥.

26 Oman, op. cit., p.422.

ولقـد زاد خطـر الغـزاة بالنسبة للإمبراطورية الكارولنجية في النصف الثامن من القـرن التاسـع ولاسـيما بعـد وفاة أبناء لويس التقى الثلاثة وبلغ من استهانة الغزاة بقوى الكارولنجيين أنهـم عبروا فيما بين سنتى ٨٥٩ – ٨٦٢م مضيق جبل طارق وأغاروا على سـواحل أفريقيا،[27] كما اندفعوا إلى البحر المتوسط شمالاً حتى جزائر البليار، وجزائر البليار Baleric Islands ثم سواحل فرنسا الجنوبية في مرسيليا Marseille فبعدها اندفعوا في نهر الـرون شـمالاً حتى فالنس Valence، بينما قامت جماعة منهم بنهب المدينة الإيطالية لونا Lona معتقدين أنها مدينة روما.[28]

وزيـادة علـى سوء الأوضاع قام ملك البيت الكارولنجي لكى يحصل على الأموال الـتي تعهـد بدفعهـا للدانيـين بفرض ضريبة ثقيلة على رعاياه يعف منها الكنائس والأديرة والنبلاء والتجار بل حتى فقراء الفلاحين وجاءت هذه الضريبة لتضيف جملاً ثقيلاً إلى أثقالهم في الوقت الذى عجزوا في الدفاع عن شعوبهم وأثقلوا كاهلهم.[29]

والواقـع أن الفـترة الواقعـة بين سنتى ٨٥٥ – ٨٨٧م تعتبر من أسوأ الفترات في تـاريخ ملوك الدولة الكارولنجية فبعد وفاة لوثر ملك لوثرنجيا سنة ٨٥٥م كانت نذيراً لحرب جديدة بين أبنائه وإخوته حول اقتسام مملكته، وفى هذه الظروف زاد خطر الغزاة بل ازدادوا عـنفاً مما أدى إلى قيام شارل الأصلع باتخاذ أساليب دفاعية لمجابهة الدانيين والتى تمثلت في معاهدة بيسترس Pistres سنة ٨٦٤م لكى يعدل نظام دفاعه فقام بالاعتماد على جيوش خفيفة سهلة الحركة بدلاً من الخيالة الثقيلة من جهة وعمل جسور وعقبات في مجارى الأنهار لتعوق تقدمهم.[30]

وفـى الفـترة ما بين سنتى ٨٧٩ – ٨٨٧م اشتدت وطأة الدانيين على الإمبراطورية الكارولنجـية فبعد وفاة لويس الألمانى في سنة ٨٧٦م ثم شارل الأصلع سنة ٨٧٧م زاد انقسام الإمـبراطورية بـل وضعفها وعجزها عن التصدى للغزاة فاجتاحوا أودية نهر الشلد والسوم، كما اجتاحوا فريزيا وفلاندرز وكل المنطقة الواقعة بين الراين واللوار، ولم تؤد هزيمتهم على يـد ملـك فرنسا لويس الثالث سنة ٨٨١م في موقعة ستسوكورت Saucourt إلى تراجعهم، رغم أنه ذبح منهم ثمانية آلاف وطردهم خارج مملكته، ولكن هذا النصر لم يكن كافياً للقضاء

27 Thompson, J. W., The Middle Ages, vol. I., London, 1931, p. 313.

28 هارمتن، الفيكنج ورحلاتهم البحرية، ص٥٩٥.

29 Thompson, op. cit., Vol. I., p. 313.

30 عاشور، أوروبا، ص٢٢٧.

علـى خطـرهم فقـد اضطر شارل السمين ملك ألمانيا في محاولة لصرفهم عن مملكته إلى مصـالحة زعـيمهم المسى جود فريد فعقد معه معاهدة السلو Elsloo التى وافق فيها شارل علـى مـنح الدانيين مبلغاً ضخماً من العملة الفضية بالإضافة على إقليم فريزيا ليكون دوقية لجود فريد، ولم يكتف بذلك بل زوجه من إبنته، وفى مقابل ذلك ينسحب جود فريد من مملكة شارل السمين، ويتعهد باعتناق المسيحية وبأن يظل تابعاً للملك شارل.[٣١]

ولقد استشرى الغزاة بالرغم من كل هذه الامتيازات ولم يتركوا مدينة إلا وهاجموها حـتى الكنائس والأديرة ودور العبادة لم تسلم من عبثهم وبطشهم، في الوقت الذى استطاعت فـيه بعض المدن أن تقاوم بأسوارها المحصنة وقلاعها الشامخة، فإن دور العبادة المسيحية لم يكـن لهـا من حماية سوى قدسيتها وحرمتها في نفوس الناس، فتعرضت على أيديهم للسلب والنهـب والتدمـير، وكان الرهبان ورجال الدين يقضون نحبهم في أديرتهم، ونادراً ما كانوا يتمكـنون مـن النجاة بأنفسهم[٣٢]. ولقد ضاعت واندثرت كثير من المعالم والمبانى خلال تلك الغـزوات البربرية، ونادراً ما بقيت كنيسة أو معلماً دينياً لتلك الفترة، ونظراً لأن دور العبادة مـن كنائس وأديرة كانت في ذلك الوقت مراكز رئيسية للتعليم والثقافة في كل غرب أوروبا فقـد كـان فقدهـا وتدمـيرها بتلك الطريقة الوحشية فقداً لكثير من معالم الحضارة والمدنية والتقدم.[٣٣]

وبعد مغادرة الفيكنج ألمانيا وفقاً لمعاهدة السلوا اتجهوا صوب نتريا وهو أمر لم يهتم بـه شـارل السـمين، لذلك كان سنة ٨٨٢ – ٨٨٣م شتاء قاسياً مروعاً للجهات الشمالية من فرنسـا إذ اجتاحـت المنطقة من ريمس حتى أعيان جموع ضخمة من الغزاة وهنا لم يحاول كارلومان أن يكون له أى دور إيجابى في التصدى والوقوف في وجههم وإنما فضل أن يقتفى سياسة شارل السمين السلبية فدفع لهم مبالغ طائلة من المال لكى يتركوا بلاده وينقلوا نشاطهم إلـى أوستراسيا وإنجلترا وإيرلندا[٣٤]. وبهذا أتيحت لشارل السمين فرصة توحيد معظم أجزاء الإمبراطورية الكارولنجية كما كانت أيام شارلمان بعد موت كارلومان ملك فرنسا، ولكنه كان

---

31 Oman, op. cit., pp. 438; Cam. Med. His., sb, Vol. III., p.322.

32 محمد محمد مرسى الشيخ، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص٣١٣؛ ديفز، شارلمان، ترجمة السيد الباز العرينى، القاهرة، ١٩٥٩، ص٢٨٧-٢٧٩.

33 Cam. Med. His., Vol. III., p.323.

34 عاشور، أوروبا، جـ١، ص٢٢٧ – ٢٢٨.

وحـــيداً هـــزيلاً اتسم بضعف السلطة المركزية وتحلل الرعايا من آخر الروابط التى تربطهم بالمملكة الكارولنجية.

وهكذا أثبتت مجريات الأمور فيما بعد أن الاتفاقات التى عقدها الملوك مع الدانيين لا قـــيمة لهـــا ولا أهمية، إذ ما لبث أن عاد الغزاة إلى تهديد ألمانيا وفرنسا، واشتدت إغاراتهم بصـــفة خاصة في السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع فدمروا فلاندرز، وتعرض وادى الجارون الجنوبى الغربى من فرنسا لغارات أخرى خطيرة واستولى الغزاة على بوردو مرتين ونهبوا إيبريا، كما إغاروا على بعض الموانى المسيحية والإسلامية في الأندلس،[٣٥] كما هددوا الأجزاء الغربية من حوض البحر المتوسط، وتسللوا إلى بعض المدن في وادى الرون ونهبت كل من نيم Nimes وأفينون[٣٦] Avignon.

وفـــى أواخر سنة ٨٨٥م قام الغزاة بأكبر هجوم لهم فقد خرج أربعون ألف منهم في سبعمائة سفينة متجهين إلى باريس وتولى عدد كبير من زعمائهم ولقد أستطاعت مدينة باريس الصمود والوقوف في وجههم ومقاومة الحصار والهجوم عليهم بفضل ما اتسم به كونت أودو حاكمهـــا، وأدى ذلك إلى رفع مكانة باريس ورفع قدر حكامها حتى أصبحت باريس منذ ذلك الوقـــت مركَز الثقل فى فرنسا وتنافس عاصمة الكارولنجيين، بل سيختار ملوك فرنسا من بين حكامها فيما بعد.[٣٧]

ووصل الوضع بالامبراطور شارل السمين سنة ٨٨٦م أن يتعهد للدانيين بدفع مبالغ ضخمة من المال نظير خروجهم من باريس والسماح لهم بالإقامة في برجنديا وبناء على هذا الموقف السلبى من الامبراطور عزل شارل السمين، وتم اختيار أودو حاكم باريس ليكون ملكاً علـــى فرنسا سنة ٨٨٨م، واستطاع أودو الانتصار على الغزاة ولكنهم لم يتركوه إذ عادوا بعد قليل لمهاجمة باريس مرة أخرى وكان الهجوم الرابع لها على الرغم من أن المدينة استطاعت التصـــدى له إلا أن أودو تـــراجع بعد ذلك وعمد إلى شراء مسالمتهم بالمال فوافقوا وانسحبوا إلى بريتانى، ولكنهم ما لبثوا أن عادوا مرة أخرى وهددوا أواسط فرنسا ولكن أودو هذه المرة عـــزم على أن يتصدى لهم فاستطاع أن ينزل بهم هزيمة ساحقة عند مونتبيه Montpensier

---

[35] ابـــن عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـــ٢، تحقيق كولان وليفى بروفنسال، باريس، ١٩٤٨، ص ٢٥٥.

[36] Thompson, op. cit., Vol. I, p. 316.

[37] Oman, op. cit., pp. 444.

وأن يأسر زعيمهم ثم يأمر بإعدامه سنة ٨٩٢م وينكل بهم ويأمر بقتل أعداد هائلة منهم[٣٨] ولكن برغم هذه الانتصارات لم يستطيعوا القضاء عليهم وظلوا من القوة بحيث تمكنوا من تهديد أجزاء كثيرة من فرنسا وحوض نهر السين.

ولقد هيأت الظروف في فرنسا جواً مناسباً للغزاة لاستئناف غاراتهم وخصوصاً بعد أن نشب صراع عنيف بين أودو ملك فرنسا وبين شارل البسيط وريث البيت الكارولنجى الذى استدعاه نبلاء فرنسا من منفاه في انجلترا ليسترجع ملكه، ويقصى أودو، الذين نظروا إليه إلى أنه واحد منهم وليس من أبناء الأسرة المالكة، بالإضافة إلى ذلك أنه لم يستطع إقصاء الغزاة عن مملكته لذلك أرادو الوقوف في وجهه لأنهم هم الذين اختاروه فبإمكانهم إقصاؤه وعودة الملك شارل البسيط لاستئناف حكمه[٣٩]. وفى تلك الفترة بدأت فترة من الحروب الأهلية استمرت ست سنوات بين أودو الحاكم القديم وشارل البسيط الملك الجديد ولم تنته تلك المنازعات إلا بوفاة أودو سنة ٨٩٨م فاستعاد شارل البسيط حكمه على الجزء الغربى من المملكة الفرنجية واستمر في حكمه حتى سنة ٩٢٩م.[٤٠]

ولقد أظهر شارل البسيط رغم صغر سنه قدرة كبيرة على محاربة الدانيين ولم تكن إغارتهم قد انقطعت بل على العكس انتهزوا فرصة الحروب وتوتر العلاقات بين شارل وأودو وعادوا إلى نستريا لينهبوها، ولكن الأهالى أظهروا الكثير من البطولات في مقاومتهم والتصدى لهم، بل واصرت المدن والأديرة والكنائس على التحصين وإغلاق الأبوبا دونهم، ولكنهم استمروا في الحوض الأدنى لنهر السين وبرز منهم زعيم قوى يدعى روللو Rollo اتخذ من مدينة روان قرب مصب نهر السين مركزاً للإغارة منه على المناطق الغربية بين نهر إيت وحدود بريتانى، كما أخذ روللو يهاجم مدينة بابو وما حولها.[٤١]

تأسيس نورمانديا:

أدى لقاء شارل البسيط وروللو إلى عقد اتفاقية سانت كلير Siant Clear سنة ٩١١ م حيث عقدت اتفاقية مهمة بين الطرفين سلم بمقتضاها الدانيون الإقليم الساحلى الممتد بين

---

[38] عاشور، أوروبا، جـ١، ص٢١٧.

[39] بوفاة لوثر سنة ٨٥٥م قسمت مملكته إلى ثلاثة أقسام صغيرة بين أبنائه، ثم كثرت الحروب بينهم وقضت عليهم بحيث لم يبق منهم من الأبناء الشرعيين سوى شارل البسيط من فرنسا وشارل السمين من ألمانيا.

[40] Cam. Med. His., Vol. III, p.34.

[41] Oman, op. cit., pp. 498-499.
Thompson, op. cit., Vol. I, p.318; Keen, op. cit., p.25.

السوم حتى بريتا أو في ما عرف باسم أرض النورثمن[42](أرض الشماليين) Northmen ولم تكن هي نورثمانديا التى عرفت بعد ذلك بحدودها المعروفة، وإنما كانت تمثل المنطقة الواقعة على جانبى نهر السين أو ما عرف باسم نورمانديا، إذ أن النورمان لم يملكوا وسط نورمانديا إلا سنة ٩٢٤م، والواقع أن شارل البسيط قد قبل التنازل عن الإقليم مقابل اعتراف روللو بالتبعية له وتعهده باعتناق الديانة المسيحية، والتعهد بالدفاع عن فرنسا ضد الجماعات الشمالية الأخرى، ويبدو أن شارل كان يهدف من وراء هذه المنحة اتقاء شر الدانيين من جهة والاستفادة من دوق نورمانديا القوى في معاداة كونت باريس من جهة أخرى، فضلاً عن قطع اتصال باريس بالبحر من جهة ثالثة حسماً لأى غزو تقوم به، وما لبث الفيكنج الذين كانوا قد انتشروا في أنحاء فرنسا أن هرعوا إلى نورمانديا للانضواء تحت راية روللو وفى ظله لتبدأ صفحة جديدة في تاريخ هذا الإقليم.

وقد أثبتت الحوادث نجاح هذه التجربة التى أجراها شارل البسيط إذا عزمت معظم الجماعات المتناثرة هنا وهناك من الفيكنج ليعيشوا تحت حكم روللو من الولاية الجديدة وبذلك يكون شارل البسيط قد ضحى بجزء من بلاده لينقذ الجزء الأخر أو لينقذ بقية البلاد.

والواقع أن اتفاقية سانت كلير لم تكن أكثر من اعتراف بالأمر الواقع لأن هذه المنطقة صار معظمها بأيدى الفيكنج فعلاً وبحكم هذه الاتفاقية أصبحوا يحكمون نورمانديا حكماً مستقلاً معترفاً به من الملكية الفرنسية مع إقرارهم بتبعية اسمية لملك فرنسا.

ويبدو أن كلاً من شارل البسيط وروللو سعياً إلى إبرام هذه المعاهدة طلباً للراحة بعد فترة طويلة من القتال والغارات النورمانية والتصدى الفرنسى لها وذهاب الاستقرار وضياع الأمن، حتى لتذهب الروايات إلى أن خسارة الرومان في آخر معركة قبل هذه الاتفاقية بلغت سبعة آلاف رجل، ولاشك أنها على الجانب الفرنسى لا تقل عن ذلك إن لم تزد على حين توصل كبار زعماء النورمان إلى أن الحصول على إقليم غنى يعد أمراً مجزياً وثمناً مناسباً ويبدو أن الإقليم المعروف امتد حول نهر السين واعتبر من أغنى وأخصب الأقاليم الفرنسية.

وإذا كانت معاهدة سانت كلير قد أثارت إستياء في كثير من الأوساط الفرنسية وأستهجن المؤرخون سياسة شارل البسيط واتهموه بالجبن والاستسلام للنورمان والتفريط في أغنى أقاليم فرنسا وأخصبها ومنحه "لقرصان حقير" على حد قولهم فإنه سرعان ما تغيرت هذه الانطباعات وجرى اعتبار هذه المعاهدة عملا أملاه العقل وسداد الرأى وحسن التصرف

---

42 Cantor, N., Medieval History, New York, 1964, p. 254.

لأنهـا وضعت حداً للإغارات النورمانية وأعادت السلام إلى ربوع البلاد والهدوء إلى منطقة السـين وأمـدت فرنسـا بدماء جديدة، ولاسيما وأن رولو تنصر وجرى تعميده وفقاً للكنيسة الكاثوليكـية وتسـمى بروبـرت Robert وقرر توبته وهدايته بالمنح السخية من الأراضى للكنائس والأديرة في وطنه الجديد.

ولقـد زاد مـن أهمـية دوق نورمانديا أعتناقه المسيحية وتبعه معظم رجاله الذين أصـبحوا مسـيحيين، ولكن الشيء الذى يسترعى الانتباه أنهم أظهروا وازعاً دينياً عميقاً بعد ذلك حيث جعلوا من أنفسهم حماة للمسيحية واهتموا ببناء الكنائس وشغفوا ببناء المدن وتشجيع العمران وأظهروا حماسة بالغة في استصلاح الأراضى وزراعتها.

ولقـد تمـيز هؤلاء بمرونة في أعتناق وتقبل الحضارة والعادات والأوضاع الجديدة علـيهم ولـم يكد يمر قرن من الزمان على عزوهم لنورمنديا حتى تأقلم النورمان واصبحوا فرنسـيين في لغتهم ونظمهم وثقافتهم وإن ظلوا محتفظين بكثير من مظاهر الحيوية والحماسة والعنف التى اتصف بها أسلافهم الأوائل.

وفـى الواقع إن رولو زعيم النورمان يعد فعلاً إقطاعياً للملك الفرنسى وحمل لقب دوق، بـيد أنه يتصرف بطريقة مستقلة، وظل يواصل توسيع رقعة دوقيته الأصلية فلقد كان حجـم الاسـتيطان الأسـكندنافى صـغيراً ولكن سرعان ما اختلط رجال الشمال مع السكان الأصـليين واتخذوا الفرنسية لغة لهم، ولكن كل ذلك لم يغير أسلوبهم في الحياة بسرعة وظلوا علـى مـدى سـبعين عاماً كانت نورمانديا ميداناً للحروب الداخلية والصراعات الدموية بين السـادة الإقطاعيـين الـنورمان، كما أن سلطة الدوقيات الأوائل كانت تقوم على أساس من قدراتهم كمحاربين، كما أن تاريخ نورمانديا قبل سنة ٩٨٠م لا يحمل أى شيء يمكن أن يكون تمهيداً للتطور الذى شهدته نورمانديا في الفترة اللاحقة.

ولكـنهم لـم يلبثوا أن برهنوا على أنهم الأجناس الأوروبية على الإطلاق إذ أضافوا إلى ما اتصفت به أصولهم الشمالية من صفات الشهامة والرجولة والقوة جميع ما اكتسبوه هم وأبناؤهم من الشعوب اللاتينية وثقافتها التى اختلطت بحياتهم الجديدة.

هكـذا اسـتبدلوا بالوثنية دين المسيح، وباللغة الدانية لغة الفرنسيين واستعاضوا من ذكـرياتهم الشمالية الصافية تقاليد اللاتين واسسها الواضحة، وشغفوا ببناء الكنائس والأديرة، بعدمـا كـانوا ناهبين لها، واهتموا بإصلاح الأراضى وحرصوا على تشجيع العمران وإنشاء المـدن والأخـذ بنظم السكان الذين ينزلون بينهم، فلم تمض مائة عام على تملكهم لنورمانديا

حتى غدوا حماة أقوياء للمسيحية واستطاعوا أن يبثوا في البلاد التى امتلكوها فيما بعد حضارة ومدنية لها في غرب أوروبا لما اتسمت به من التسامح والروعة وامتزاج العناصر بها.

الخاتمة:

وفــي خــتام هــذه الدراســة عن الفيكنج نشير إلى أهم النتائج التي انتهى إليها الباحث:

١- تكاثر السكان بالنسبة للأراضى أدى إلى البحث عن موارد اقتصادية جديدة أدت على خروجهم من موطنهم الأصلى.

٢- تشــكل جماعات قوية أدت إلى دفع المتعلقين بحرياتهم إلى البحث عن أراضى غنية.

٣- حب المغامرة والاستكشاف أدى إلى خروجهم وقيامهم بأعمال السلب والنهب.

٤- أدت شــجاعتهم وقدرتهــم وتفوقهم في البحار إلى السطو على معظم الأراضى الغنية في أسبانيا وفرنسا.

٥- إحــتكاك النورمان بالعالم الروماني واكتشاف مواطن قوته وغناه وثرواته أدى إلى تكرار طمع هؤلاء وزيادة شرهم.

٦- المقاومــة الضــعيفة الــتى أبداها الحكام الكارولنجيين أدت إلى زيادة أطماعهم واندفاعهم واستلابهم لكل تلك الثروات.

٧- مــنح شــارل البســيط لزعيم النورمان رولو تلك الأراضى أدت إلى تنظيمهم وانشغالهم وتطلعهم إلى حكومة مستقلة منفردة كانت في صالح جميع الأطراف.

ثبت المصادر والمراجع:

أولا المراجع والمصادر الأجنبية:

- Cmbridge Medieval History., (Cambridge, 1924).
- Cantor, N., Medieval History, (New York, 1967).

كانتور، نورمان، التاريخ الوسيط قصة حضارة: بداية ونهاية، ترجمة/ قاسم عبده قاسم، القاهرة، ١٩٨١، جزءان.

- Davis, H., Charlemagne, (London, 1929).
- Dozy, R., Recherches sur l'historie et literature de l'Espagne pendants le moyen âge, (Leiden, 1860).

- Haskins, Ch. H., The Normans in European History, (New York, 1959).
- Hoyr and Chodorow, Europe in the Middle Ages, (U.S.A., 1967).
- Schjom, Hans, Denmark and its Sister States: Great Days of the North men, in the Book of History of the Nations from the Earliest Times to the Present., Vols. V.,VII.
- Schjoth, I., Great Days of the North men. B. H. VI. 1.
- Oman, Ch., The Dark Ages, 476 – 918, (London, 1964).
- Orton, Outlines of Medieval History, (Cambridge, 1929).
- Stephenson, C., Medieval History, (New York, 1943).
- Thompson, J. W., The Middle Ages, V. I, (London, 1931).

ثانيا المصادر والمراجع العربية والمعربة:

- ابـن عـذارى، البـيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ٥، تحقيق كولان وليفى بروفنسال، باريس، ١٩٤٨م.
- اينهارد، سيرة شارلمان، ترجمة/ عادل زيتون، دمشق، ١٩٨٩.
- سعيد عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ط ١٠، القاهرة، ١٩٨٦م.
- سى. و. بريفت، مغامرات النورمنديين، الفصل المائة من كتاب تاريخ العالم لجون هامرتن، القاهرة، د.ت.
- السيد الباز العرينى، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، بيروت، ١٩٨٦م.
- ماك كالوم سكوت، الفيكنج ورحلاتهم البحرية، الفصل السادس والتسعون من كتاب تاريخ العالم لجون أ. هامرتن، القاهرة، المجلد الرابع، ط٢
- محمد الحويرى، اللومبارديون في التاريخ والحضارة، القاهرة، ١٩٨٦.
- محمد محمد مرسى الشيخ، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، الإسكندرية، ١٩٩٤م.
- نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ط١، دمشق، ١٩٧١م.
- هـ. ديفز، شارلمان، ترجمة السيد الباز العرينى، القاهرة ١٩٥٩م.

ب-عرض الكتب

جون ل. اسبوزيتو، التهديد الإسلامي، خرافة أم حقيقة؟ ترجمة د. قاسم عبده قاسم، الطبعة الأولى، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠١م، ٤٢١ص.

عرض د. حاتم الطحاوى

مصـر

يكتسي هذا الكتاب أهمية بالغة، فالمؤلف هو أحد أهم الأكاديميين المتخصصين في دراسة "الحالة الإسلامية" في الغرب، ويبدو تميزه الواضح لكونه "مغرداً خارج السرب"، ويبدو صوته بعيداً عن أصوات الجوقة الغربية الزاعقة، التى أراحت نفسها، واحتلت بالصيحة القائلة "المسلمون قادمون ! المسلمون قادمون!".

بذل اسبوزيتو جهداً واضحاً في هذا الكتاب، وفي تحليل الخطاب الصادر عن جميع الحركات الإسلامية الفاعلة، وعبر المحيطين الزمنى والجغرافى للمسلمين، لكى يضع إصبعه في النهاية على "النقطة المظلمة" "الزاوية العتماء" في الذهنية الغربية، والتى ترفض أن تضع فارقاً بين كافة الحركات الإسلامية الحديثة، وتفضل أن تضعها جميعاً في سلة واحدة، لكى تصنع لنفسها عدواً جديداً بديلاً عن الاتحاد السوفيتى والشيوعية، ولكى تساهم من جهة آخرى في تكريس ودعم الأنظمة الإسلامية، غير الديمقراطية، تحت دعاوى الخوف من "الأصولية الإسلامية" و"الإرهاب".

ويتعامل المؤلف مع الظاهرة الإسلامية بوعى بالغ ويتمنى على المحللين وعلى دوائر صنع القرار في الغرب أن يتعاملوا معها على نفس الدرجة من الوعى، من أجل استشراف مستقبل أفضل للعلاقة بين الغرب والإسلام، ولهذا فهو يطالب بضرورة التمييز بين التحدى الدينى والأيديولوجى من ناحية والتهديد السياسى المباشر من ناحية أخرى وحتى لا ينطوى التعامل مع الإسلام على مغالطة كبرى فيجب معرفة الفارق الحقيقى بين وحدة الإسلام وتجلياته الإيجابية المتعددة في العصر الحديث. ويبنى رد الفعل للأقلية المحبطة، وبنظرة ثاقبة، لحظ المؤلف الثنائية المجتمعية بالعالم الإسلامى، ما بين نخبة علمانية، ومجتمع مسلم ينزع لحركات التجديد الإسلامى، ويأخذ على الغرب نظرته الإرتيابية نحو تلك الحركات ونعتها بمعادة الغرب، ويرجع جذور تلك الحركات إلى الفشل الذى أصاب المجتمعات العربية الناهضة بعد هزيمة ١٩٦٧م والتى كانت أنظمتها تهدف إلى محاكاة النموذج الأوروبى.

قدم المؤلف سياحة فكرية منذ الإسلام المبكر الذى اعتبره جامعاً للأفكار السابقة لليهودية والمسيحية، ونجح في صياغة نوع جديد من الرؤية الدينية المحكمة، الأمر الذى تسبب في إيجاد تحدى للغرب والمسيحية على المستوى اللاهوتى والثقافى، مما أدى في النهاية إلى نشوب صراعات فكرية، تحولت إلى مواجهات ميدانية على الأرض عبر حركة

الفتوح الإسلامية. والحركة الصليبية في القرن الثاني عشر والثالث عشر للميلاد. ثم نجح المسلمون العثمانيون في اجتياح القسطنطينية عاصمة الأرثوذكسية الأوربية منتصف القرن الخامس عشر ونشر الإسلام في البلقان وتهديد باقى دول أوربا.

ويرى أن ذلك كله قد أوجد قطيعة بين الغرب والإسلام وساهم في وجود صورة مشوشة وشائنة عن الإسلام والمسلمين كما ساهمت حركة الإصلاح الدينى في الغرب الحديث في ترسيخ فكرة الإسلام الشرير واستمرت هواجس الغرب نحو الإسلام باعتباره تهديداً، كاد أن يجتاح أوروبا – الغرب في معركة بواتييه (بلاط الشهداء) ٧٣٢م. ثم عند بوابات فيينا ١٦٨٣م، ولولا الهزيمة التى حاقت بالمسلمين في المواجهتين لكانت اللغة العربية هى لغة الدراسة في جامعة أكسفورد، ويعود المؤلف إلى العصر الحديث حيث مرت العلاقات بين الإسلام والغرب في القرن العشرين عبر محورين أساسين: حركة الاستعمار الأوربى، حركات التحرير الوطنى، حيث كرس المستعمرون الأوربيون نظرتهم للإسلام بوصفه ديناً طيبياً، دون أن ينظروا إليه بوصفه نظاماً سياسياً متكاملاً، وكان ذلك من أجل تكريس نظرتهم نحو تحديث المجتمعات الإسلامية، وتشجيع حملات التبشير، بوصف المسيحية هى الديانة الأقرب إلى التقدم والنجاح، وإن الإسلام هو العكس.

وهكذا فإن المؤلف يدعو إلى عدم التسرع بإلقاء الأحكام النهائية على الإسلام، وربطه بالحركات الراديكالية فقط، والارتياح بوصفه بـ "إمبراطورية الشر" كما يطالب بأن تكون الاستجابات لما يحدث على نحو عقلانى واع بدلاً من الافتراضات المسبقة.

وفى محاولة من اسبوزيتو للحديث عن المسكوت عنه في الغرب فإنه يطالب العقلية الغربية أن تنظر إلى ما يعتمل في العقلية الإسلامية من هواجس وتوجسات إزاء الغرب ويغذى ذلك تراث طويل من العنف وسلب إرادة الشعوب عبر محطات مثل الحروب الصليبية والاستعمار الغربى الحديث فضلاً عن الاستغلال الاقتصادي والغزو الثقافى.

ويأخذ المؤلف على الذهنية الغربية ميلها للحكم على مواقف المسلمين بشكل مبتسر ومتعسف وإلى دمج أعمال الأقلية النارقة مع الأكثرية المتوازنة، وغض النظر عن التجاوزات المتماثلة التى ترتكب باسم ديانات أخرى غير الإسلام، وأيديولوجيات تصف نفسها بالحرية والديمقراطية.

يؤكد المؤلف على أن العديد من الحكومات الإسلامية قد أدركت ميل الغرب إلى رؤية الإسلام باعتباره خطراً فاستغلت عنف الجماعات الإسلامية الراديكالية، بعد أن ساوت – عن عمد – بينهما وبين الجماعات الإسلامية المعتدلة كى تستطيع أن تسيطر على كافة الحركات الإسلامية وقمعها، وبدأت وسائل الإعلام في تلك الدول في تضخيم المخاوف من راديكالية متحجرة في الداخل، سوف تتعامل مع الغرب بعدوانية وظلامية شديدة، وهو ما أدى إلى تبرير حبس المسلمين المعتدلين.

وتتــبلور الفكرة الأساسية في الكتاب، لتصل، في الفصل الأخير إلى رفض المؤلف للاطــروحات المــنادية بصــدام الحضارات، وينتقد الكتاب المفكرين الغربيين المنادين بتلك الفكــرة، أمــثال برنارد لويس، الذى كان أسبق من طرح هنتنجتون لفكرته، ويصف المؤلف معلومــات لويس بالسطحية، وأنه لم يميز بين الجماعات الإسلامية المختلفة، وكذلك بالنقص المذهــل في المعلومات التى يقدمها، من أجل الوصول في النهاية إلى نتيجة شائهة هى حتمية حدوث الصدام الحضارى بين "الكتلة الإسلامية" والغرب.

كذلــك ينــتقد المؤلــف أطــروحة هنتنجتون التى تضع الإسلام إلى جانب الديانات الوضــعية الأخــرى – في مواجهة الحضارة الغربية، ويؤكد أن التناول الالتقائى الذى ينهجه الغربــيون للنشاط الإسلامى، يستبعد الأسباب التى أرتكز عليها المسلمون في رفضهم للغرب، وأن هــؤلاء المحلليــن لا يجهــدون أنفســهم أبــداً في البحث عن الجذور التى تحدد مواقف الإسلاميين، بدلاً من استبعادها ببساطة، واعتبارها نتيجة للصدام بين الحضارات.

ويهاجم المؤلف المحللين الغربيين الذين يربطون جميع الحركات الإسلامية في العالم الإســلامى فــي خــيط واحد، ويعتبرون أن ما يحدث في فلسطين – كشمير – أذربيجان – وكوســوفو – ولبنان هى انتفاضة إسلامية عالمية، ويرى أن اقتناع الغربيين بهذا، يؤدى بهم في النهاية إلى تخيل وحدة إسلامية غير واقعية، لأن كل منطقة وجماعة لها أسبابها الخاصة، فما يحدث من انتفاضة في فلسطين لا علاقة له بما يحدث في كشمير وكوسوفو وأذربيجان.

ويتهم اسبوزيتو المحللين الغربيين بالازدواجية عندما يرحبون برغبات شعوب شرق أوروبا نحو التحرر والاستقلال في الوقت الذى يرفضون فيه مطالب الحركات الإسلامية، ولا يــتوقف عند ذلك فقط، بل يحاول أن يحلل أسباب هذه الافتراضات الخاطئة ويرجعها إلى عدة عوامــل أهمهــا أن معظــم أولئك المحللين جاءوا نتيجة انحيازات علمانية فضلاً عن فهمهم البســيط والضحل للإسلام، وكذا ندرة الباحثين في الدراسات الإسلامية، واضطرارهم للتعامل مــع الماضى الإسلامى، ومحدودية إمكانياتهم من حيث فهم الإسلام الصحيح، واللغة العربية، والاتصال الحقيقى مع الناشطين الإسلاميين، والحركات الإسلامية.

والنتــيجة الــتى يخلــص إليها المؤلف هى أنه يجب على الغربيين أن يدركون أن الإســلام يتمــيز بحيوية فائقة ودائمة، وأنه لا يجب اختزال كافة الحركات الإسلامية في كفة واحــدة، ولا يمكن أن تقوم صيغة استراتيجية أو وصفة سحرية "معلبة" بالتعامل مع الظاهرة الإسلامية ككل، بل يجب التحفظ ومعرفة الحد الفاصل بين الحركات الإسلامية ذات المشروع الفكرى والتجديدى، وبعض العناصر والجماعات الراديكالية التى تبنت العنف نتيجة للعديد من الأسباب الداخلية وكذلك الأسباب الخارجية التى كان الغرب هو المسئول الأول عنها بشكل أو بأخر.

يتـبقى أن الـترجمة الدقيقة والفائقة لأفكار المؤلف، قد توقفت أمام رؤيته لإسرائيل ودورهـا، فقـد أخذت عليه – بحق– محاولة إيجاد مشابهة تعسفية بين مناضلين حقيقيين مثل نيلسـون مانديلا وياسر عرفات، وإرهابيين على شاكلة مناحم بيجن واسحق شامير وعصابة شـتيرن، غير أن هذه "الزلة" للمؤلف لا تنفى عنه معرفته ودرايته الفائقة بتضاريس الحركات الإسـلامية الحديـثة، وكذلك نزعته الموضوعية في التعامل مع الظاهرة الإسلامية، بل ربما يمكـن القـول – مـع بعـض التحفظ – أن المؤلف يفهم طبيعة جميع الحركات الإسلامية، وأفكارهـا، ربما أفضل من بعض الحكومات المسلمة، التى لم تفهم ذلك، أو التى أغفلت فهم ذلك – عن عمد – حتى تستطيع تطبيق سياساتها، وتحقيق أهدافها ومصالحها.

حـدث هـذا فـي الوقـت الذى عزت فيه الحركات الإسلامية الأحيانية (المهدية – السنوسـية – الوهابـية وفـى البنغال والهند وإندونيسيا) تخلف مجتمعاتها إلى البعد عن القيم النبـيلة للإسـلام، وجهود المستعمرين في تسريب أفكار غريبة لا تصب في مجرى المجتمع المسـلم ورأت ضرورة العودة إلى الإسلام الصحيح، وهكذا انبثقت التصورات الإسلامية عن الغـرب المسـيحى عـبر سياسـات الاستعمار الذى هدد باقتلاع الهوية الإسلامية للشعوب المستعمرة.

ويرصـد المؤلـف أن الاستجابة الإسلامية لتحدى الاستعمار الغربى قد عبرت عن نفسها عبر عدة إفرازات تراوحت ما بين الرفض والانسحاب أو الأخذ بالعلمانية والتغريب أو إيجـاد نـوع من الحداثة الإسلامية وتمثلت النتيجة النهائية لعمليات التحديث التى جرت بعد نجاح الحركات الوطنية ضد الاستعمار في ظهور نخب جديدة في المجتمع المسلم. حيث أفرز التعايش بين المدارس الدينية التقليدية رؤيتين متوازيتين للعالم اعتمدتها أقلية نخبوية، علمانية، وأغلبـية محافظة ذات توجه إسلامي، وسعى معظم الحكم في المجتمعات الإسلامية إلى إيجاد موائمـة بيـن التراث الإسلامى والعلائق الثقافية الخاصة بالاستعمار الغربى، حيث تم فرض التحديث من أعلى بواسطة الحكومات والنخب المرتبطة بالغرب.

وقلـيلون هم الذين تساءلوا عن الحكمة المقبولة بأن التحديث يعنى التغريب والعلمنة المطردة للمجتمع، وبرزت إلى السطح حداثة إسلامية ترمى إلى سد الفجوة ما بين المصلحين العلمانييـن، والتراثييـن الإسـلاميين كالأفغانى، محمد عبده، أحمد خان، محمد إقبال، ويؤكد المؤلـف دائماً على الفهم الملتبس للإسلام في أذهان الغربيين، وتعمدهم استخدام مصطلحات "كالأصـولية" ذات المـزاعم المسـتمدة من البروتستانتية الأمريكية، وبالتالى وصم الإسلام بالإرهـاب، ركـزت آلات الإعلام الغربية على صورة المسلم الأصولى، الأرهابى المعادى لمصـالح الغـرب و ديانـته غـير أنه يلحظ – في لفته بارعة – أن أنظمة الحكم في الدول المسـلمة، تلقفـت أيضاً هذا المصطلح، من أجل توظيفه لخدمة أغراضها، ووصم خصومها الداخليين بصفات سوداوية شريرة وذلك لكسب الصراع الداخلى في المجتمعات الإسلامية.

ولـم تـتوقف تلـك الأنظمة المسلمة عند ذلك فقط بل نجحت في استغلال الواجهة الإسلامية التى صبغت بها، سياستها من أجل سحب البساط من تحت أقدام الحركات الإسلامية الإحيائية منها وذات الاتجاه الثورى، مثلما حدث في ليبيا والسودان ومصر.

ويرسل المؤلف بصره أيضاً نحو كتلة ثالثة بالمجتمعات الإسلامية، أدركت منذ وقت بعـيد أن تطبـيق الحكومات للشعارات الإسلامية ما هو إلا وسيلة للسيطرة السياسية والقبض بـزمام الأمـور أكثر من كونها دعوة حقيقة للإلهام والتجديد، وبدأ أفراد تلك الكتلة – التى لم يحدد المؤلف ثقلها – في المجتمعات الإسلامية يتساءلون هل ستصبح الدولة الإسلامية الجديدة أكـثر فعالية من النظم العلمانية في قضايا المشاركة السياسية والديمقراطية وحقوق الإنسان، فضـلاً عن الأصالة الثقافية، وهل ينحصر الاختيار فقط فيما بين "حكم الفرد العلمانى أم حكم الفرد الإسلامى؟!".

وانـتقل بعد ذلك إلى استعراض التنظيمات الإسلامية الموجودة على الساحة، وعلى الـرغم مـن اتسـاع المشهد الفسيفسائى للجماعات الإسلامية عبر جغرافية العالمين العربى والإسـلامى، فـإن المؤلف استطاع الإمساك بتلابيبه، كما أستطاع استعراض كافة جماعاته المعـتدلة منها والثورية في مصر ولبنان والجزائر وإيران وتركيا وموقف تلك الجماعات من الغرب، وكذا موقفها من حل المعضلة الإسلامية الداخلية في بلادها وموقفها من العلمانية ومن مسـتقبل المجتمعات التى تقوم بالتعبير عنها، وعلى الرغم من تورط العديد من الغربيين من مسؤولين رسميين ومفكرين ومحللين، في التحذير من خطورة الإسلام فإن اسبوزينو يرى أن الغـرب أمامـه طريقيـن لفهم ما يجرى في العالم الإسلامى ومن ثم الاستجابة الإيجابية له، طـريق سـهل وآخر صعب، الطريق الأول الأكثر يسراً وسهولة الذى تسكله الذهنية الغربية حـتى الآن، هو أن يتم النظر للإسلام وحركات الإحياء الإسلامية بوصفها تهديداً عالمياً وأن يصـبح الإسـلام عـدواً تاريخياً للغرب المسيحى، وهو ما يؤدى في النهاية إلى تأييد النظم العلمانـية الموجـودة فـي الدول الإسلامية بأى ثمن، وأن يغض الغرب المسيحى النظر عن قمعها لشعوبها (المسلمة)، بدلاً من المخاطرة بوجود حكومات إسلامية في الحكم.

أمـا الطـريق الأكثر صعوبة الذى ينادى به المؤلف وربما تقوم فكرة الكتاب عليه، فهـو ضـرورة الـتحرك نحـو اكتشاف مدى الضرر الذى تسببه الأنماط السهلة والإجابات الجاهـزة التى أفرزتها وسائل الأعلام الأمريكية والغربية، وتعميق فهم العقل الغربى، فينادى بضـرورة الـتمهل فـي تـناول الظاهـرة الإسلامية وتجلياتها، الفصل بين الإسلام المثالى والحـركات الراديكالـية، ويذكر الغربيين أنه على الرغم من كفاءة أجهزة المخابرات الغربية ودوائر صنع القرار فإن الجميع لم يكونوا ليستطيعوا التنبؤ بالانهيار السريع للاتحاد السوفيتى، وأن الإجماع على فكرة معينة، لا يعنى بالضرورة صوابها.

second world war until today, seen, for example, in the political freedom of Muslim peoples from the colonial domination of western powers, emphasis on national identity, Pan-Islamic ideal, and increase of missionary zeal. in today's world the adaptability of Islam raises many questions, such as the direction of Islamic reform and revival, the relationship between tradition and modernization, or the role of the religious leaders (*'ulamâ)* for the future of Islam. Islam, as a world religion, with a global following of 1.4 billion adherents should be of interest to all those concerned with 'foreign' religions. As Yannoulatos stresses, the understanding of the world in which we live, requires a knowledge of Islam as a prerequisite for an appreciation of our theologically and historically interconnected Judaeo-Christian-Islamic heritage.

Yannoulatos' book succeeds in enabling the readers to understand and appreciate what Muslims believe and practice. His work written in a concise, lively and accessible manner gives the reader an informative view of the fundamental role Islam plays in Muslim life. As its centre is Allah, God, its monotheism dominates Islamic practice; spreading God's will is an individual and Community obligation. The author describes the origin of the religion, its formation, sources of influence, theological development, foundations of its faith, cult life, and the significance of law imposed by the *Sharī'a,* a religion that impregnates peoples historical conscience and determines their future. Though this work is a reprint of the *1975* edition, and therefore does not contain updated references and bibliography, nevertheless it remains an important contribution to our knowledge about basic aspects of the religion of Islam. Yannoulatos uses extensive footnotes in the form of references and scientific support to the arguments developed in the text, gives the etymological meaning of Arabic terms when necessary, brings to our attention problems related to the source material for certain aspects of the Islamic history, and sheds light on contradictory issues by expressing his own interpretation. Yannoulatos' book is a comprehensive study of Islam and its dynamic throughout the ages.

the polemic it faced by the Byzantines, and the penetration of Greek thought during the 'Abbâsid period.

In chapter 3, he explains that the Muslim faith and practice are expressed in a variety of beliefs and rituals. He describes the five duties of the Muslims, *shahâda* (confession of faith), *ṣalât* (prayer), *zakât*(legal alms), *ṣawm*(fasting), *ḥajj*(pilgrimage), and puts emphasis on the rituals and procedures used during each practice. He also refers to other festivals and celebrations in Muslim religious life stressing that they aim at bringing unity to the Muslims exercising influence on them so as to submit to God's will. In chapter 4, he discusses main moral principles focusing on family institutions, the position of women, the theory of *jihâd* etc., and points out the values of compassion, humanity, modesty, justice, among others, emphasized by the Qur'ân and the *hadīth*. Further, he explains the significance of law (called *Shari'a*) in Islam, which defines the behaviour of men in their personal and social life. It drives from the teachings of Qur'ân, *sunna*, consensus of learned opinion (*ijma'*), and reasoning by analogy (*qyias)*.

In part three, chapter 1, Yannoulatos draws a historical map of the main events that marked the Arabic history, and maintains that Islam passed though many stages in its development: classical period (rise of the Arabs from the 7th to 13th c.), medieval period (rise of the Mongols and Turks in the mid 13th c. to 18th c3, period of decline (end 18th c. to the beginning of 20th c.), and a new rise (after the Second World War). He also refers to the development of Islam as a world civilization, and its contribution to the history of philosophy, art, architecture, astronomy, theology, medicine, mathematics and the sciences. He examines the religious divisions in Islam, and describes the sects of Khawârij, Mu'tazila, Murji'a, Aḥmadîya. In chapter 2, he focuses on the Sunnites and Shiites, their branches, sources of influence, beliefs and differences. In chapter 3, he provides a historical summary of the development of the branch of Islamic mysticism called 'Sufism' and his representatives.

In chapter 4, Yannoulatos describes the characteristics of contemporary Islam. He examines the internal tendencies in Islam, such as the liberal modernization movement (Sayyid Aḥmad Khân, 1817—1898), reawakening of 'Islamic Orthodoxy' aimed at the 'restoration' of Islam (focuses on the 'fundamentalist' movements of Wahhâbî in Saudi Arabia, Mahdî in the Sudan, Sanûsî in Libya), radical reform (Turkish interpretation of Islam), and legislative adjustments. He stresses that the Muslim world witnessed a gradual increase of political power after the

calendar.

In chapter 3, Yannoulatos focuses on the Qur'ân, the main source of Muslim religious life, and the foundation of Islamic belief and practice. He describes its character, division (114 *suras)* dating (compilation finished in 645), stresses chronological problems related to its form, and looks at interpretative attempts. He compares the Qur'ân with the person of Christ in Christian theology as evereternal Word of God'. The Qur'ân contains the revelations received by the Prophet in Mecca and Medina, and is a treatise of prayers, summary of sacred history and basis of morality and law in Islam, and as such the first written monument of Arabic language. The Qur'ân is the main visible sign of God's presence among people in a religion that has no priests, mysteries and icons as in the Christian Church. In chapter 4, the author discusses the nature and form of the *ḥadīth* (the tradition of the acts and sayings of the Prophet), and drawing on examples, he describes its use as a source for giving solutions to problems in the Muslim Community. He argues that the Qur'ân is understood under the light of the *ḥadīth* and provides information about the *isnâds*(chains of authority) stressing the issue of the reliability of the historicity of names, accuracy, and the relationship between the participants of *isnâds.* He also lists the *ḥadīth* in categories; and describes collections of them which influenced the development of the Islamic law.

In the second part, Yannoulatos examines the Islamic creed and ethos in four chapters. In chapter 1, he gives the basic theological lines of the Qur'ân. He stresses the 'foundations of faith' i.e. its monotheism, belief in angels, prophets, the books of prophets, resurrection of the dead, last judgment, predestination of man, and draws a schematic parallelism with Christian symbols of faith. He points that the differences between Muslim and Christian teachings are the rejection of the divinity of Jesus, negation of the term 'father' attached to God, which is related to the idea of being the son of God and the teaching of Holy Trinity, negation of the crucification, and resurrection of Christ. Some of the similarities are the special place Virgin Mary *(Maryam* has in the Qur'ân and is, in fact the only woman mentioned by name, the respect towards the person of Jesus and his work, and the Holy Spirit. In chapter 2, the author summarises the historical background of the rise of theology *(kalâm 'speech')* and philosophy in Islam (3rd c. A.H.). He argues that the main reasons for the rise of *kalâm* were the theological and political differences of various groups in the Muslim Community, the need for spiritual defense against

'Αναστασίου Γιαννουλάτου,' Αρχιεπισκόπου Τιράνων και 'πάσης Αλβανίας,' Ισλάμ. Θρησκειολογική επισκόπησις, (Islam. A General Survey), 1st edition 1975, (Athens, 2001). 339 pages..by Maria Vaiou

The lack of studies on Islam by Greek scholars makes Yannoulatos' book an interesting one. Yannoulatos examines the role of religion in Islam in three parts. He starts his introduction with the meaning of the term Islam,[1] and stresses the importance of knowing about it. He examines the nature and phases of the knowledge and investigation of Islam by non-Muslims, and looks at the existing literature on Islam. He begins the first part examining the roots of Islam in four chapters. In chapter 1, he describes the background of the development of Islam, the pre-Islamic Arabic religion —its polytheistic structure, the *Allâh* monotheistic concept, cult aspects, morals — and the Christian and Jewish influences in the form of religious streams which were incorporated in Islam.

In chapter 2, Yannoulatos describes the emergence of Islam, focusing on the early years of the Prophet (570—622 A.D.). He continues with the historiographical problems related to the study of the early Islam, the Life of the Prophet, and the Qur'ân. Yannoulatos points out that the Prophet's migration *(Hijra)* to Medina in 622 A.D. was the turning point for the formation of the religion of Islam. The Prophet Muhammad called people to the one true God returning to the faith of Abraham *(millat Ibrahim)* and did not bring a message from a new God. In this way, though he put aside the names of Jesus and Moses invoked by the two other Abrahamic religions Judaism and Christianity, he provided a point of common approval and unquestionable authority. In addition he put the basis of the Muslim Community bonded by a common religious faith, and drew attention to traditional Arabic principles to which he gave new theological interpretation. This is reflected in the direction *(qibla)* for prayer to Mecca instead of Jerusalem. A series of rules followed which cemented the national Arabic character of the religious movement of Muhammad. The importance of the Prophet's migration is reflected in its adoption as the beginning of the Islamic

[1] By the term Islam, Yannoulatos means the religious experience defined as 'submission to God' or 'acceptance of God's guidance'.

B. Book Reviews



Fig. 10



Fig. 11



Fig. 12



Fig. 13



Fig. 7



Fig. 8



Fig. 9



Fig. 3

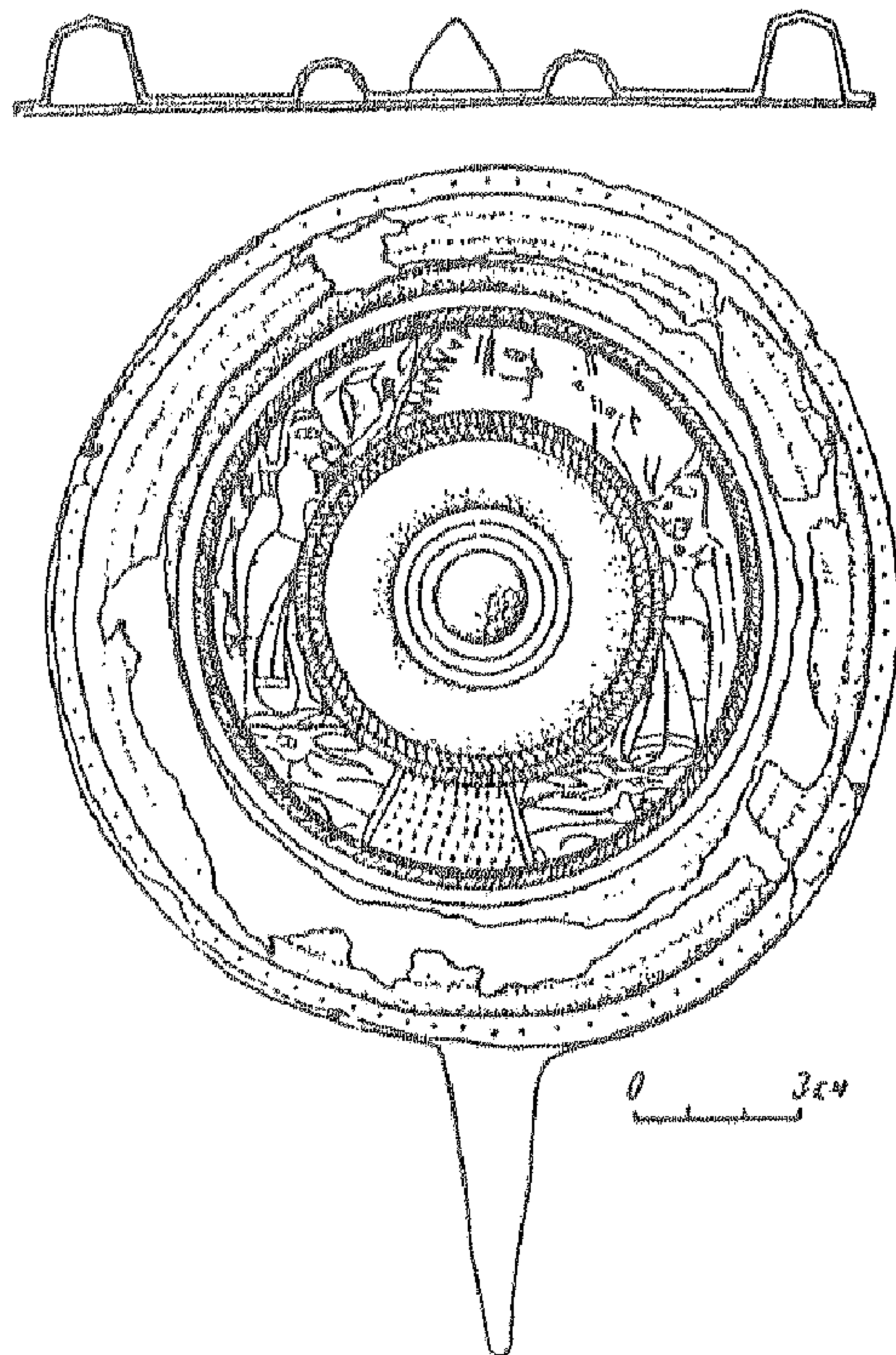
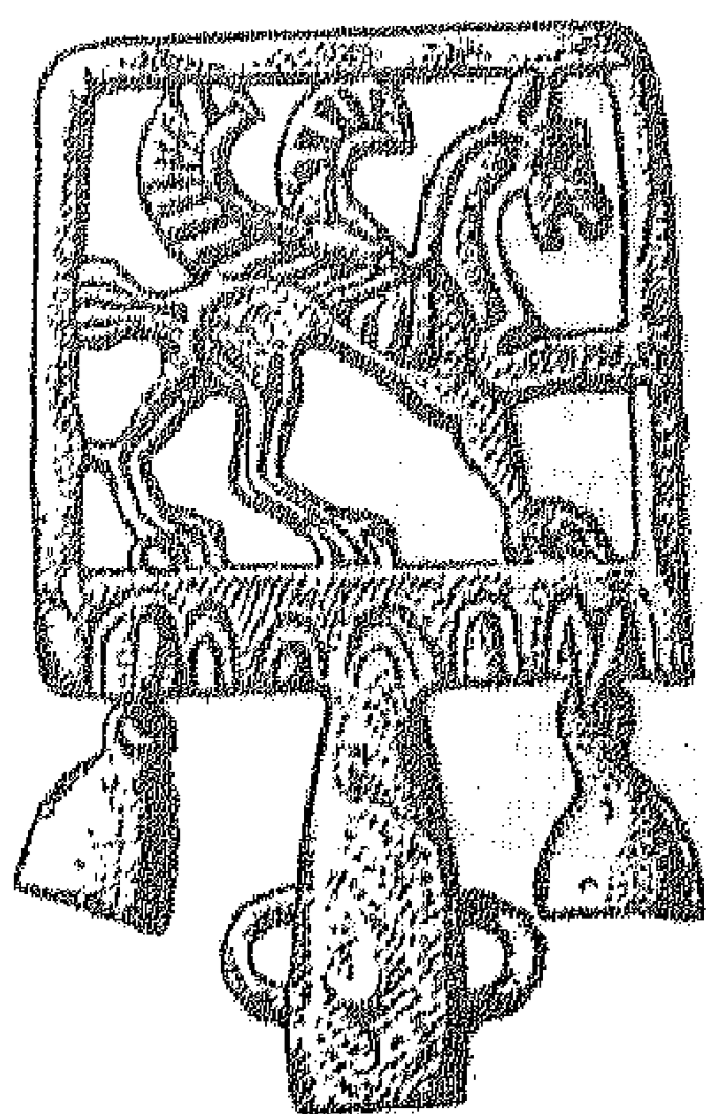


Fig. 4



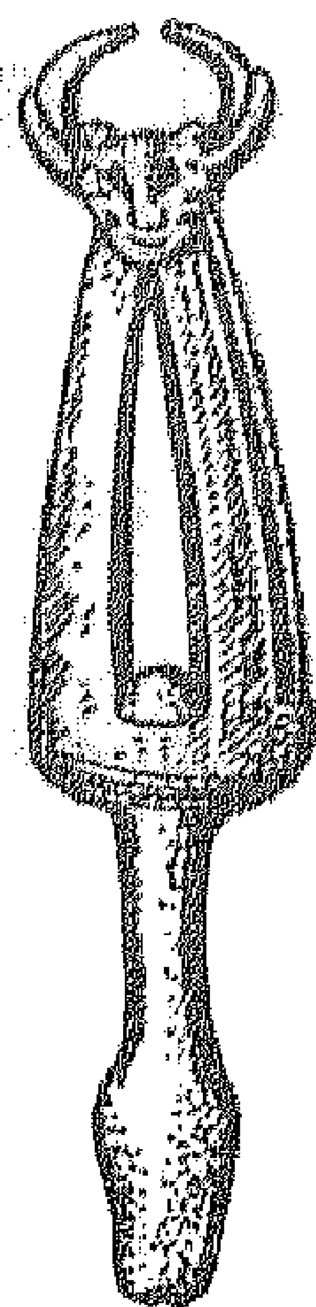


Fig. 5



Fig. 6

Figures

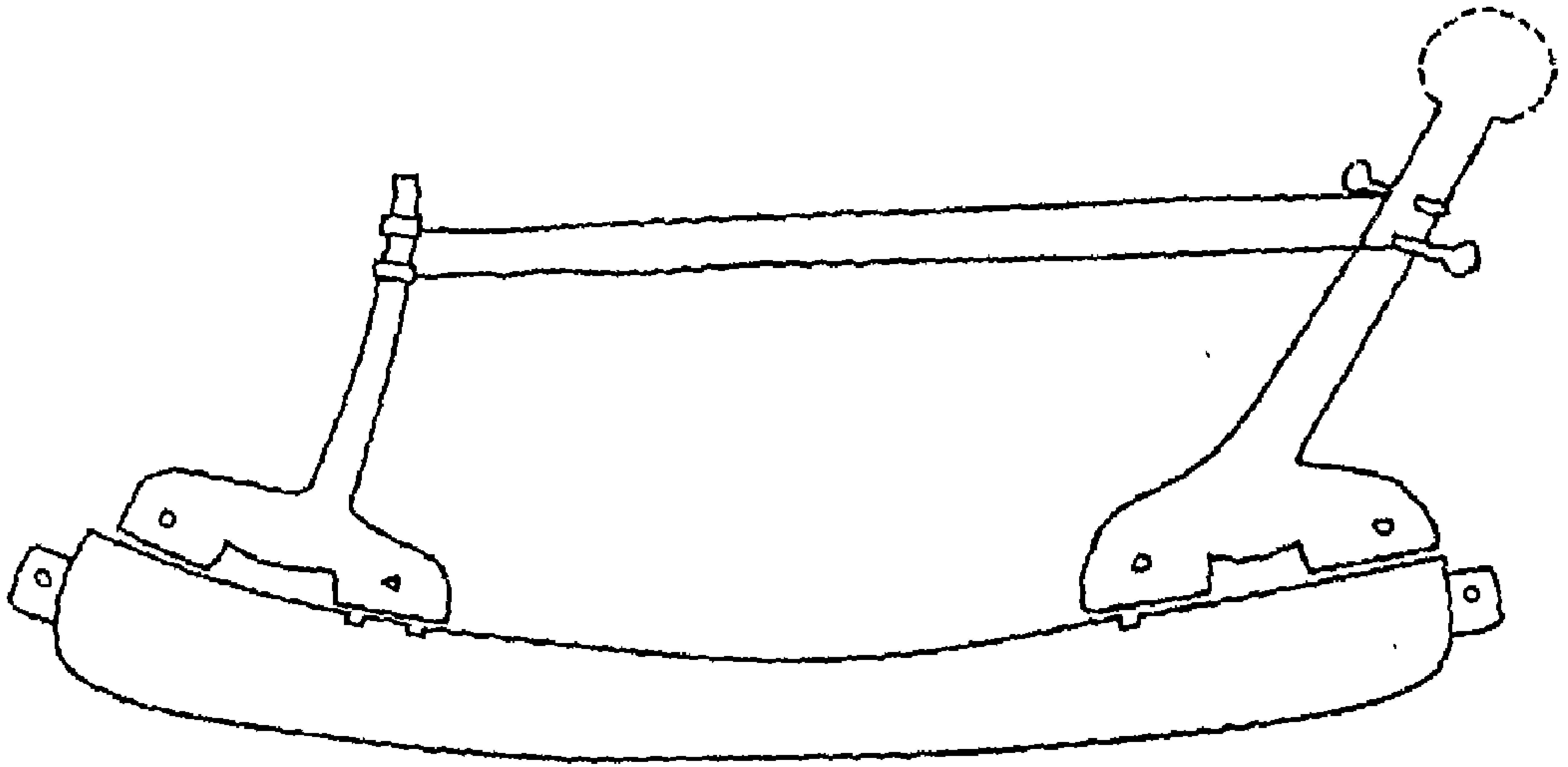


Fig.1



Fig. 2

27.D.Paquette, L' instrument de Musique dans la cèramique de la Grèce Antique. Etudes d'Organologie (Paris 1984)25-26
28.D.Paquette, L' instrument de Musique dans la cèramique de la Grèce Antique. Etudes d'Organologie (Paris 1984)74 -75

4.E.E.Fialko, 'Iskusstvo narodov Skifii' Velikaia Skifiia(Kiev-Zaporozhie 2002)127-139
5.V.N.Basilov,'Skifskaia arfa' Sovetskaia etnografiia 4(1991)140-154
6. T.M. Kuznetsova, 'Vostochniie muzikalnije zerkala' Peterburgskii arkheologicheskii vestnik 7(St Peterburg 2000) 82-87

7.V.V.Latishev, Izvestiia drevnikh pisatelei o Skifii I Kavkaze (St Peterburg 1992-1993) 147
8. S.I.Rudenko, Kultura naseleniia Tsentralnogo Altaia v skifskoie vremia(Moscow-Leningrad 1960)62-63
9.K.F.Smirnov, Sarmati na Ileke (Moscow 1975)142-143
10.V.N.Basilov,'Skifskaia arfa' Sovetskaia etnografiia 4(1991)140-154
11.S.S.Bessonova,D.S.Raevski, 'Zolota plastinka iz Sakhnivki' Arkheologiia 21 (Kiev 1977)30-50
12.V.N.Basilov,'Skifskaia arfa' Sovetskaia etnografiia 4(1991) 150-152
13.T.N.Visotskaia, Neapol – stolitsa gosudarstva pozdnikh skifov (Kiev 1979)183
14. T.M. Kuznetsova, 'Vostochniie muzikalnije zerkala' Peterburgskii arkheologicheskii vestnik 7(St Peterburg 2000) 82-87

15.K.F.Smirnov, Sarmati na Ileke (Moscow 1975)142-143
16.A.I.Meliukova, Krasnokutskii kurgan (Moscow 1981)50-53, fig.14
17.E.V.Chernenko, S.S.Bessonova, Yu.V. Boltrik, S.P.Polin, S.A.Skorii, Bokii N.M., Grebennikov Yu.S., Skifskie pogrebalnie pamiatniki stepei Severnogo Prichernomoria(Kiev 1986)221,264
18.L.K. Galanina, Skifskiie drevnosti Podneprovia .Ermitazhnaia kollektsiia N.E.Brandenburga. SAI.D1-33 (Moscow 1977) 41-42, Pl.21.
19.E.V.Chernenko, S.S.Bessonova, Yu.V. Boltrik, S.P.Polin, S.A.Skorii, Bokii N.M., Grebennikov Yu.S., Skifskie pogrebalnie pamiatniki stepei Severnogo Prichernomoria(Kiev 1986)216.217,222,238.270,279
20.V.Tatarkevich, Antichnaia estetika (Moscow 1977)17
21.E.I.Solomonik, Noviie epigraficheskiie pakiatniki Khersonesa. Lapidarniie nadpisi(Kiev 1973) 99,103
22.E.B.Petrova, Antichnaia Feodosiia (Simferopol 2000)156
23.Kobilina, M.M. 'Teatr, aktery, musikalniie instrumenti', Antichniie gosudarstva Severnogo Prichernomoria (Moscow:Nauka1983)219
24.V.Tatarkevich, Antichnaia estetika (Moscow 1977) 19
25. S.Gazarian, V mire muzikalnikh instrumentov (Moscow 1989) 49
26.Kobilina, M.M. 'Teatr, aktery, musikalniie instrumenti', Antichniie gosudarstva Severnogo Prichernomoria (Moscow:Nauka1983) pl.CXIX,8

Figures:

Fig. 1. Instrument à archet du type du violon trouvé dans le deuxième kourgane « Pazyrykski » à Altaï (V s. av. J.-C.)

Fig.2 : Un Scythe jouant de l'instrument à cordes du type de la cithare - image sur la planchette d'or d'une coiffure trouvée dans le kourgane "Sakhnovski" (IV s. av. J.-C.). Kiev. Musée des objets précieux historiques.

Fig. 3 :Un homme jouant de la lyre. Caveau №9 (II-III ss.) de la nécropole de Néapolis de Scythie – capitale des Scythes tardifs.

Fig. 4 :Une glace-crécelle musicale trouvée dans le sépulcre sarmate « Metchetsaïski »(kourgane8,enterrement5).D'après K.F. Smirnov

Fig.5 : Les bouts des bâtons rituels scytes:

a) kourgane « Alexandropolski »

b) kourgane « Starchaïa moguila»

Fig. 6 : Aulos-alto. Fragment du cratère du musée de Khérsonèse (№ KP – 2877/08)

Fig. 7 : Aulos-baryton. Cratère avec l'image d'une scène théâtrale. Musée historique de Kiev.

Fig.8 : Aulos-soprano. Péliké du musée de Yalta, KP – 502. Ici il y a encore une image qui représente une lyre à 5 cordes à l'intérieur.

Fig.9 : Lyre sur une pyxis de musée de Yalta (KP – 496).

Fig. 10: Image d'un tympanon sur une péliké du musée républicain de Crimée (KP – 1094).

Fig.11. Salpinx..Coupe,FR, Vatican n°498,ARV[2]

Fig. 12: Harpe ou trigonon sur la statuette de terre cuite de Panticapée.

Fig. 13: Syrinx sur une terre cuite de Panticapée.

Notes

1.M. Maas, Stringed instruments of ancient Greece (Bethany Connecticut : Brevis Press 1989)

2.D.Paquette, L' instrument de Musique dans la céramique de la Grèce Antique. Etudes d'Organologie(Paris, 1984)

3.Kobilina, M.M. 'Teatr, aktery, musikalniie instrumenti', Antichniie gosudarstva Severnogo Prichernomoria (Moscow:Nauka1983)219,Pl. CXIX

pendues . La musique accompagnait les rites, on jouait de l'instrument à cordes, et , probablement , une sacrificatrice qui donnait le rythme à l'aide d'une glace musicale ou d'une crecelle.Le départ d'une armée était accompagné de divers bruits musicaux. Les pommes des cannes qui ornaient les bâtons de rite, faisaient de bruit. Un aristocrate scythe au cheval représentait un phénomène non seulement majestueux et redoutable , mais aussi et musical grace aux sonnettes et les autres pendentifs sur le harnachement. Les flèches des Scythes sifflaient au vol. La musique accompagnait et les festins, et la vie quobidienne, et la loisir.

Pour faire notre notion de la culture musicale des peuples indigènes plus détaille, il faut réunir toutes sortes des sourses – et les renseignements des auteurs antiques, et les trouvailles archéologiques - les débris des instruments de musique et les images des scènes avec les instruments de musique sur les vases, sur les terres cuites, sur les monuments trouvés dans cette région .

La création d'un tel corps – notre tache immédiate. Nous espérons que notre travail soit utile aux critiques d'art, aux musicologues et au milieu large des amateurs de l'Antiquité .

• communication aimable de V. Ougentsev

voisine de celle de notre violon alto et sonnait dans un registre médium aigu. La trompette est normalement faite en bronze, mais il existait aussi des trompettes de fer. La salpinx parait avoir été relativement légère car l'instrumentiste la tient d'une seule main. Au ses faibles possibilités musicals et le caractère perçant de sa sonorité, la trompette est essentielement un instrument d'alerte ou de signalisation. Dans la vie militaire, elle donne le signal de l'attaque ou de la retraite. Au théâtre, elle sert à obtenir le silence. Sur les vases ,elle aparait entre les mains des Amazones ou de Niké. Un épisode très interessant de l'histoire de Théodosie antique est lié avec cet instrument. Le général Tinnikh à l'aide de la salpinx a liberé cette ville du siège[Poliaen. Strategemata.V, 23].

L'instrument de signaux plus primitif était fait de coquille du mollusque de mer – un tel exemplaire est trouveé pendant les fouilles à Kalos- Limène (colonie de Khérsonèse de Tauride à la Crimée de sud-ouest) ** .

L'instrument était trouvé dans les couches de la destruction liées avec la dernier siège de la ville par les Scythes, entouré des artéfacts temoignant que c'était un outillage d'un navire de guerre tiré sur la côte. Nous pouvons voir une image d'une harpe ou d'un trigonon sur les statuettes de terre cuite de Panticapée(d.12). Une syrinx - l'instrument préféré de Pan - est représenté sur les terres cuites de Panticapée(id.13).

Donc les sourses antiques , les trouivailles archéologiques et les images sur les vases prouvent que les habitants des villes antiques du littoral septemtrional de la Mer Noire utilisaient à la vie quotidienne, à l'activité professiolelle, pendant les rites réligieux utilisaient les instruments à cordes. On connait la lyre,la cithare,la harpe ou le triginon. Parmi les instruments à vent on connait la flûte,la syrinx et la trompette-salpinx. L'instrument à percusson le plus répandu est tympanon.

Sans aucun doute qu'ils etaient faits dans les atelier d'artisan au littoral septembrional de la Mer Noire , et leurs sons réjouaient l'oreille des melomanes de cette régione dont il y avait beaucoup(selon les auteurs antiques).

Les Scythes et les Sarmates préféraient les instruments à cordes faits des matériaux de fortune de bois, de peau, des tendons des animaux. Les orecelles des hochets étaient importés et fabriqués à la region. Les ornements, les vêtements feminins de fête abondaient en pendeloques faisant du bruit aui pouvaient accompagner à une danse. Le harnochement produisait aussi des sons melodieux grâce aux sonnettes

Les cordes etaient en nombre variable – de 5 à 9. Au bas de la carapace il y avait des trous pour les cordes qui se roulaient sur la traverse. Une lyre à 5 cordes est représentée sur une péliké du musée de Yalta № 502 (fig. 8). Sur ce dessin elle est représentée de l'intérieur, sur une pyxis de même musée №496 (fig. 9) – de l'extérieur de l'instrument . Eros qui tient la lyre à la main gauche sur ce dessin, tend le plectre à la main droite à une femme. Eros, dieu de l'amour, est souvent représenté avec une lyre à la main quand il observait les préparatifs de noces(comme sur cette pyxis). Mais le dessin sur la péliké représente Eros avec une lyre et une des Muses.

La cithare, instrument d'Apollon et des virtuoses de concours, le plus perfectionné et sans doute le plus complet de la Grèce classique. La résonance considerable due à une caisse de grande dimension , à la forte tension des cordes, peut-être à des lames vibrantes, favorisait son emploi « public ». La tessiture devait se situer au niveau du violoncelle actuell, ce qui lui confère un ambitus de baryton, favorable à l'accompanement des vois virilis. La lyre et la cithare étaient tres populaires chez les habitants du littoral septentrional de la Mer Noire(fig. 10) . Nous en avons un témoignage concluant de Poliaenus(II s.). Il reconte d'une action de reconnaissance de Philippe de Macédoine Memnon qui recourait à l'aide du citharède Aristonic à une reconnaissance. Ce fragment atteste un grand intérèt des habitants des villes de Bosphore à une célébrité de passage, leur amour de la musique (Poliaen. Strategemata. V, 44). .

Un des instruments à percussion les plus répandus que nous pouvons voir sur les vases des musées de Crimée est le tympanon. Il est constitué d'une peau tendue sur un cercle de bois dont le diamètre peut être varié de 30 cm – à 80-90 cm. On peut le voir sur les plusieurs images sur les vases (fig.10) – parfois il a la taille d'un bouclier et il couvre tout le haut du corps humain, parfois il a la taile d'une petite assiette. Le tympanon est utilisé essentiellement pendant les danses et cérémonies orgiastiques, les rites de Dionysos. On venait avec lui aux tombeaux des parents et on chantait à mi-voix. Il accompagnait les mystères, on voit souvent les figures des mystos aux bondeaux avec les tympanons à la main.

Les Grecs ont connu la trompette – salpinx sous la forme la plus simple : tube droit terminé d'un côté par un pavillon, de l'autre - par une embouchure(fig.11). La salpinx pouvait mesurer de 60 cm à 120 cm, elle n'avait jamais de perforations[28] . La salpinx possédait un pavillon de forme variée :en boule, en bulbe, en cône . La salpinx avait une tessiture

les vases des VI^e et V^e siècles, les tuyaux apparaisent en teinte claire. Il est logique de penser que le bois, facile à travailler, propre à fournir une bonne réponse acoustique, était couramment utilisé. Le roseau, le sureau, le lotus, le buis étaient les essences d'arbres dont les facteurs d'instruments se servaient pour tourner les tubes, avec une préférence probable pour le buis. Le cerisier, prunier et l'erable ont aussi de bonnes qualités pour la perce des tubes. Le métal ou l'ivoire plus coûteux, l'os plus difficile à façonner, ont sans doute été des matériqux plus rarement utilisés (un fragment d'un aulos d'ivoire est fouillé à Panticapée)[26].

La taille des tuyaux varie d'un vase à l'autre. Ces différences attestent l'existence d'une véritable famille d'aulos, répondant aux cinq tessiture de la voix humaine . En calculant les dimension approximatives des instruments d'après la taille des personnages sur les vases , on peut établir la classification[27] suivante :

a)soprano(de 20 à 30 cm)
b)alto(de 40 à 50 cm)
c)ténor (de 50 à 80)
в)baryton (de 80 à 1 m)
c) basse (1 m et plus)

Selon les trouvailles archéologiques , la taille moyenne se situe autour de 40 cm, sur les vases nous voyons plus souvent l'alto, le ténor et la baryton (fragment d'un cratère du musée de Khérsonèse № 2877/09)(fig. 6), un cratère du musée historique de Kiev avec l'image d'une scène théâtrale(fig. 7), une péliké du musée de Jalta(№ 502)(fig. 8). Sur de nombreux vases, les tuyaux sont dessinés égaux : ainsi l'aulète pouvait, de les doits posés à plat, boucher en même hauteur, sur les deux tubes placés en parallèle. A ce cas on faisait l'effet de la stéréophonie. Si on bouchait les trous situés à l'hauteur différent, on produisait l'intervalle. Nous ne voyons presque pas des aulos à tubes inégaux sur les vases – par exemple un basse –baryton, ets.

L'instrument à cordes le plus courant était la lyre. A la différence de la cithare lourde, dont il fallait tenir verticalement et celui qui joue de la cithare devait être débout, la lyre plus légère permettait à la pencher pendant le jeu , danser avec elle sans arrêter à jouer la mélodie. On tirait le son à l'aide d'un plectre – une lame forte de fer ou d'os. Dans la plupart des cas, la main droite tient le plectre, les doigts de la main gauche bloquaient certains cordes pour émettre des sons différents. Primordialement, c'était la carapace d'écaille qui servait du résonateur. Elle était couverte de cuir. Les bras(à l'origine cornes de bovidés ou d'ovides) et la traverse tenaient et tendaient les cordes.

masques comiques et tragiques de terre cuite, dont la plupart est faite dans cette région . Sauf les représentation, aux théâtres y avaient lieu les concours de musique et littéraires, par excellence, à l'époque hellénistique. A Khérsonèse s'est conservée l'inscription du catalogue des concours de musique. Les maîtru existaient aussi – les musiciens professionnels[21]. Le musicien et poète de Bosphore Isill(à la première moitié du III s. av. J.-C.) participait aux concours de musique à Dêlphes[22]. A Mirmécée on a trouvé une épitaphe du flûtiste Pasaphilicatos (IV s. av.J.-C)[23]. Au cours du fouilles on a trouvé beaucoup d'artéfacts qui prouvent une large diffusion de différents instruments de musique dans la vie quotidienne des habitants – on a fouillé les fragments de la flûte, de la ryre, les terres cuites avec les images de la syrinx, de l'harpe, de la cithare, du tympanon . La plus grande partie de l'information nous donnent les images sur les vases couverts de peinture fouillé dans les cité du littoral septentrionales de la Mer Noire. Elles nous représentent les goût d'art de la population indigène. L'abondance des images des scénes avec des musicien étonne – ce sont des danses avec accompagnement musical, des scènes de théâtre, des festins, des loisirs. Un tel choix des sujets de la peinture s'avère par des documents antiques sur l'amour des Grecs à la musique, au chant et aux danses.

Les instruments de musique des Grecs étaient simples, leur son n'était pas fort, ils ne permettaient pas de montrer la maestria, on les utilisait pour accompagner au chant et à la danse. On connait les instruments à cordes suivants : la lyre, la cithare, la harpe ; les instruments à vent : la flûte, la syrinx, la salpinx , le kéras ; on utilisait les instruments à percussion (le tympanon, les crotales) pendant la danse pour donner le rythme. D'ordinaire le rythme predominait sur la mélodie dans la musique grecque. Dionysos de Halicarnasse ecrivait que les mélodies charmaient l'oreille et le rythme l'excitait[24].

L'instrument à vent le plus courant est l'aulos-chalumeau hellénique nous rencontrons le plus souvent sur nos vases. L'aulos simple est coustitué par un tube de perce cylindrique ou conique, muni d'un embout où se fixe l'anche et de deux ou trois éléments mobiles en forme d'olive[25]. Un pavillon le complète parfois. L'instrument le plus curant est l'aulos double(diaulos), composé d'un double chalumeau dont les tuyaux, distincts et complémentaires, sont sonnés simultanément, les anches enfoncées complètement dans la bouche, et chaque main agissant sur l'un d'eux. C'est par les mouvements des tubes dans l'espace qu'on obtenait les ressources sonores que procure notre système de clefs. Sur

« Pazyrykski » et dans le 5 ème kourgane « Rogozinski », et 1 - à l'Oural, dans le 8ème kourgane « Metchetsaïski »(fig.4)[14]. Une telle glace représentait un disque rond composé de deux moitiés liées avec une queue. Une moitié était absolument lisse et servait de glase, une autre moitié avait une convexité et elle était remplie de petites goutes d'étain qui rendaient de beaux sons mélodiques à l'ébranlement. Ces glaces sont trouvées dans les sépulcres des femmes. Les femmes enterrée étaient danseuses et musiciennes. Ce fait est prouvé par ce que une enterrée dans ce 8ème kourgane « Méchétsaïski » avait aussi un instrument du type de la dombra[15]. Il faut noter la popularité des crécelles, des hochets, des clochettes qui rendaient un bruit rythmique musicale. Les Scythes aimaient faire une promenade « avec une clochette », aux decorations de fête des chevaux scythes on trouve des parures du cou avec des clochettes de cuivre et des pendeloques [16]. On trouve des clochettes et dans les sepulcres[17]. Ce sont des apotropées qui chassaient des esprits malins. Sur les bouts des bâtons rituels suspendait aussi des clochettes, en dedans on mettait une bille de fer(fig. 5)[18]. On peut supposer l'existence des crécelles fabriquées de l'astragals, des vertébres des animaux – on les trouve à l'abondance aux cités et dans les tombeaux des Scythes[19].

La musique jouait un grand rôle dans la vie des Grecs anciens ils pensaient que la musique, la poésie et la danse exprimaient les sentiments de l'homme à l'aide des sons, des gestes et des mots. Elles serraient à adoucir et à calmer les sentiments, à purifier le coeur (catharsys). La musique s'est separée de celte chorée(cette triade)- selon T.Zelinski – et s'est appropriée sa fonction dominante de l'art expressif – servir à exprimer les sentiments[20]. Avec cela, elle conservait la liason avec la culte et la réligion: on chantait le péan à l'honneur d'Apollon, le dithyrambe – à l'honneur de Dionysos, les prosodies – pendant les processions. La musique était une partie des mystères, on l'estimait comme le don des Dieux , on l'attribuait des caractéristiques particulières, une force magique, lui était naturel de charmer, d'enlever la latitude de l'homme et des animaux. Les sectes orphiques pensaient que la musique pouvait libérer l'esprit du corps pour un certain temps.

La culture musicale des villes-colonies grecques du littoral septentrional de la Mer Noire était très élevée. A Khérsonèse, on a fouillé le théâtre antique unique sur le littoral Nord-Pontique(mais les sources anoncent qu'il y avait encore des théâtres dans les autres villes de cette région).Aux théâtres on mettait en scéne des tragédies et des comédies ce que attestent les inscriptions et les images des acteurs et les

trouvailles archéologoques permettent de voir ce problème autrement. Les Scythes avaient ses propres instruments à cordes primitifs dejà à l'époque archaïque et à l'époque classique. Le plus ancien date VI s. av. J.-C.

Il est trouvé à l'Oural, dans un sépulcre du deuxième kourgane « Bachadarski » . C'est « une harpe scythe » - un instrument à cordes pincées, sa caisse était faite d'une morceau de bois , la membrane de cuir était collée au bois. Le support des cordes était mis à un trou special sur la caisse[8]. Dans le sépulcre de femme riche du 8ème kourgane « Metchetsaïski »[9] on a trouvé l'instrument du type de la dombra. Dans le deuxième kourgane «Pazyrykski»[10] à Altaï , daté V s. av. J.-C. on a trouvé encore un instrument à cordes dont la réconstruction proposée à B. N. Basilov permet de voir le plus ancien instrument à archet du type du violin (fig.1). Son corps était fait d'un morceau de bois – il représente un billot vide rétreci au milieu , elle se fermait par une mémbrane fixée par des clous, au milieu était une table d'harmonie - une petite planchette à un dessin ciselé . Les deux cordes étaient fixées sur le support des cordes et sur un manche. A l'aide de l'archet on tirait des sons. Cet instrument appartenait à un homme et le jeu avait une signification rituele. Un scythe jouant de l'instrument du type de la cithare(fig.2) est représenté sur une planchette d'or d'une coiffure du kourgane «Sakhnovski » (IV s. av. J.-C.). Les savants soulignent d'habitude le caractére rituel de cette scène[11]. Ce qu'il y a de particulier c'est que l'action de culte est accompagnée du jeu de l'instrument de musique. Probablement, la femme tient à la main une glace-crécelle musicale qui donne le rythme à l'oeuvre interprétée. Principalement, c'étaient les Scythes – homme qui jouaient des instruments à cordes. Ainsi, "l'arrière violon" du deuxieme kourgane « Pazyrykski » mentioné si-dessus est trouvé dans le sépulcre d'homme. « La harpe » mentionée si-dessus est trouvée dans le sépulcre de couple de l'homme(du roi) et de la femme(de la concubine) . Selon V. N. Basilov, cette coutume de l'appel au dieu à l'aide du jeu de l'instrument à cordes était le privilège du roi-sacrificateur et cette tradition est conservée jusqu'à present dans cette région chez les Kazakhs ce n'étaient que les chamans qui jouaient d'un instrument de musique pareil – « kobyz »[12]. Plus tard, les Scythes utilisaient la lyre grecque pour ce but . Dans le crypte des Scythes № 9(II-III ss.) de la nécropole de Neapolis de Scythie – capitale des Scythes, est représenté un homme jouant d'une lyre(fig.3)[13]. Dans les tombeaux scythes et sarmates on a trouvé des glaces-crécelles musicales, 2 - à Altaï dans le 2 ème kourgane

Les écrivains grecs notent, à l'unanimité, l'indifférence des Scythes à la musique, leur goût peu développé . Hérodote qui a donné la description en détail de la vie quotidienne des Scythes, notait qui'ils évitaient des emprunts des coutumes étrangères. A titre d'exemple, il raconte l'histoire de la mort du sage scythe réputé Anacharsys (Herodt, IV, 76-80).

Une telle négation du culte des dieux étrangers et l'attitude négative envers les instruments de musique grecs était assez ferme chez les Scythes . Domitius Callictratus , au I siècle av. J.-C. revient à l'image du sage scythe – il met dans sa bouche une malédiction à la flûte (Domit. Callicr.Epist., 6).

Plutarque (v.50 - v.125) dans ses « Oeuvres morales » cite des sentances des rois et des générals, et y compris, du roi scythe Atéi qui a dit qu'il préfèrait l'hennissement du cheval au jeu du flûtiste Isméni (Plutarch. Moralia, At).

L'auter des scholies de « L'Analytique tardive » d'Aristote[7] mentionne de nouveau le sage scythe Anacharsys qui expliquait l'absence des flûtistes chez les Scytes par l'absence de la vigne et de l'ivrognerie (probablement, les Scythes comme et les Grecs, pensaient que le jeu de la flûte était lié étroitement avec la consommation du vin pendant les festins - symposiums collectifs et d'autres rites grecs liés avec Dionysos).

Il en résulte que les Scythes n'avaient pas absolument de musique, de chant , de jeu des instruments de musique. Est-ce possible ? Plutarque dans les «Vies parallèles », à la biographie de Démétrios I[er] Poliorcète mentionne d'une coutume scythe étrange de pincer les cordes des ares pendant les festins (Plutarch. Vitae, XIX). La corde d'arc tendue donne le son vibrant agréable - c'est un prototype de tous les instruments à cordes. Quant an chant, nous n'avons qu'une mention chez Aristote. Dans ses « Problèmes » en s'efforçant de trouver l'origine du mot grec « νόμοι » il mentionne une coutume d'une des tribus scythes de chanter les textes des lois (Aristot. XIX, 28).

Julius Polydeucus, grammairien et sophiste du II s. écrit qu'un instrument de musique à 5 cordes était inventé par les Scythes. Il était lié par 2 courrois de cuir d'oeuvre , en qualité de plectre on utilisait les sabots de chèvre. Il disait encore que les Scythes utilisaient les os des milans et des aigles en qualité des flûtes (Ὀνομαστικόν,IV. 60,76).

L'analyse des sources antiques nous persuade que selon les Grecs, l'art de musique était dévelopé faiblement chez les Scythes et des autres barbares du littoral septentrional de la Mer Noire. Mais les

La musique dans la vie des barbares et des Grecs qui habitaient le littoral septentional de la Mer Noire

I. Vdovichenko,
N. Khlebko, Ukraine

La culture musicale des Grecs et les barbares qui habitaient le littoral septentrional de la Mer Noire dans l'antiquité est encore peu étudiée. De plusieurs recherches archéologiques ont donné beaucoup de trouvailles, mais elles n'étaient pas interprétées comme il fallait. Notre travail vise à reconstituer quelques traits de la culture musicale des habitants de cette région, en nous appuyant sur les auteurs antiques et sur les trouvailles archéologiques. Nos tâches concrètes ont abouti à révéler les traits caractéristiques et les particularités de la culture musicale des Hellènes - d'un côté, et des barbares (des Scythes et des Sarmates) d'un autre coté, et à déterminer les instruments de musique des habitants de cette partie de l'oecumène antique dans la vie quotidienne, dans les rites des religions, au théâtre.

Les recherches assez circonstanciées consacrées à la culture musicale de l'Antiquité, aux instruments antiques de musique sont faites par les savants américains et français. Marta Maas dans son oeuvre "Stringed Instruments of Ancient Greece"[1] a examiné l'origine des instruments à cordes, la technologie de leur fabrication, les mythes et les cultes dont ces instruments sont liés de l'avis des anciens. Daniel Paquette[2] caractérise un autre aspect – l'utilisqtion des instruments de musique dans des différents domains de la vie de la société antique. Sûrement, c'est le matériel dont l'auteur travaille – les vases couverts de peintures représent les images des plusieurs scénes avec des instruments de musique.

A regret, il n'existe pas de recherches détaillés au sujet de la culture musicale des colonies grecques du littoral septentional de la Mer Noire . On peut trouver des renseignements laconiques dans un petit chapitre consacré à la culture des villes antiques dans l'édition en peusieurs volumes « L'archêologie de l'URSS de la haute antiquité au Moyen Age »[3]. E.E. Fialko a recueilli de certains renseignements sur la culture musicale des Scythes dans la partie «L'Art des peuples de Scythie la Grande »[4]. V. M. Basilov[5] et T. M. Kouznetsova[6] examinaient aussi les instruments de musique des Scythes .

II- The lost works

- *Al-Risāla Al-Murḍiyya fī Ṣinā'at Al-Djundiyya.*[110]
- *Fann al-Ḥarb.*[111]
- *Rīsālat al-Taḥqīq fī Ṣūr'at al-Tafwiq.*[112]
- *Aqqṣā al-Amad fī al-Rad 'Ala Monker Ser al-'Adad.*[113]
- *Kitāb al-Kashf wal-Baiyān.*[114]
- *'Eqd al-Slūk Fīmā Yalzam Djalīs al-Mlūk.*[115]
- *Al-Ta'ābī al-Qamariyya.*[116]
- *Al-Dorru al-Thamīn fī Aḥwāl al-Motaqadmīn.*[117]

---

[110] *Al-Adilla,* p. 103; *Uns al-Malā,* pp.15-16.
[111] Maher, S., *Al-Baḥriya fī Miṣr al-Islāmiya,* Cairo, 1967, p. 7. (in Arabic)
[112] *Al-Tadbīrāt,* p. 56.
[113] *Al-Adilla,* p. 105; *Uns al-Malā,* p.15.
[114] *Al-Adilla,* pp. 104, 222; *Uns al-Malā,* p.16.
[115] *Al-Tadbīrāt,* p. 10; *Uns al-Malā,* p.16; *Al-Adilla,* p. 103.
[116] The editor of *Al-Adilla,* p. 104, mentions only this work.
[117] The editor of *Al-Adilla,* p. 105, mentions only this work.

2. One is preserved in the Library of al-Solimaniyya, '*Khizānet Hagia Sophia*' at Istanbul no. 2839, which is written in the author's hand.

- *Kitāb Uns al-Malā bi-Waḥsh al-Falā.*[104] There are two copies only of this work as follows:

1. One is preserved in the Egyptian National Library no. 12 *Ṣena'a 'Arabī.*
2. One is preserved in the *bibliothéque nationale* of Paris no. 2832.[105]

- *Kitāb al-Ḥiyal fī al-Ḥurūb wa Fatḥ al-Mudun wa Ḥifz al-Durūb*[106] [Book of Deceits of Wars and Conquest of Towns and Defense of Passes]. There are many copies of this MS. as follows:

1. Two copies in the Library of al-Solimaniyya, '*Khizānet Hagia Sophia*' at Istanbul no. 2875 and 3187.[107]
2. One is preserved in the Library of al-Solimaniyya, '*Khizānet Ass'ad Efendī*' at Istanbul no.1884.
3. One is preserved in the Library of the Museum of '*Top Kapu Serai*' at Istanbul no. 3469/7418A.[108]
4. One is preserved in the Library of the University of Leiden no. OR. NR. 499.
5. One is preserved in '*al-Khizāna al-'Amma*' at Rabat, Morocco, collection of al-Gallawy no. 43G.
6. One in '*al-Khizāna al-Malakiyyā*' at Rabat, no. 2850.

- *Al-Manhal al-'Adhb l-Wurūd Ahl al-Ḥarb*[109]. There is only one copy of this work in the Library of al-Solimaniya, '*Khizānet Hagia Sophia*' at Istanbul no. 2839.

١٠٤ Ed. by M. E. Ṣalḥiya, infra. note no.5.

١٠٥ Ed. and French trans. by Florian Pharaon, Paris, 1880.

١٠٦ Ed. by N. M. 'Abdel-'Āzīz, Cairo, 2000.

107 M. Khaṭāb mentions that their numbers are 3086 and 3087. Cf. *Al-Adilla*, p. 102.

108 There is a photocopy of this one in the Institute of Arabic Manuscripts at Cairo no. 19 *Frusiyya.*

١٠٩ This work is mentioned in *Al-Adilla*, pp. 199, 214; *Al-Tadbīrāt*, p. 22.

3. Two are in the Egyptian National Library nos. 25749, 27997.[101]

- *Al-Tadbīrāt al-Sulṭāniyya fī Siyāsat al-Ṣinā'a al-Ḥarbiyya* [Sultans' arrangements in the policy of war's construction]. There are many copies of this work as follows:[102]

1. One is preserved in the Egyptian National Library no. 1147B.
2. One is preserved in the Egyptian Military Museum no. 379.
3. One is preserved in the Library of '*al-Baladiyya*' at Alexandria no. 76.
4. One is preserved in the British Museum Library no. P. 6019-Or.3734.
5. One is preserved in the Oriental Institute at Leningrad no. 213.
6. One is preserved in the Library of the University of Leningrad no. 762.
7. One is preserved in the Library of the Institute of Asian & African Peoples at Petersburg no. 726C.
8. One is preserved in the Library of al-Solimaniyya, '*Khizānet Hagia Sophia*' at Istanbul no. 2856.
9. One is preserved in the National Library of Tunisia no. 3254.

- *Al-Adilla al-Rasmiyya fī al-Ta'ābī al-Ḥarbiyya.*[103] [The Official Evidences in the Arrangements of the Soldiers]. There are two copies of this work as follows:

1. One is preserved in the Library of al-Solimaniyya, '*Khizānet Hagia Sophia*' at Istanbul no. 2875. A photocopy in the Institute of Arabic Manuscripts at Cairo no. 1 *Frūsiyya*, of this copy.

---

[100] 'Abdel-Dā'im, the editor of this work, says that this is the only copy of this MS. from which there are many photocopies. *Al-Aḥkām*, p. 15. In fact, there are four different copies of it in the Egyptian National Library itself. Its microfilm's number in the library is 57.

[101] There is no microfilm to these copies. So, it is not easy to deal with it.

[102] A photocopy of the copy of British Museum no. P. 6019-Or.3734 is preserved in the Central Library of Cairo University no. 26337. Another photocopy of the copy of the Egyptian National Library no. 1147B is preserved in the Library of the Scientific Council of Iraq no. 646. This copy has been published by S. M. al-Gamīlī in *Al-Mawrid Magazine* of Iraq, vol. 12, 4(1983), pp. 319-378.

[103] Ed. by M. S. Khaṭāb, infra. note no. 6.

Leo's work. Then, these *al-Rūm* Mamluks told Ibn Manglī with the importance of the military treatise of Leo the Wise and translated it or some selected chapters directly into Arabic. Thus, Ibn Manglī became able to read it well by their assistance and concept its military importance.[98] I think that the last assumption is acceptable, because *al-Rūm* Mamluks were known well the Byzantine military treatise of the beginning of the 10th century, the *Tactica,* more than the other races of the Mamluks.

Appendix
A list of Ibn Manglī's works

There are many works of Ibn Manglī from which we have some treatises but the other are lost. This list contains two categories, the first shows the remaining works but the other shows the lost works.

I- The remaining works

- *Al-Aḥkām al-Mulūkiyya wal-ḍawābeṭ al-Nāmūsiyya fī fann al-Qitāl fī al-Baḥr* [99] [The Royal Orders and Divine arrangements in the art of naval warfare]. There are many copies of this work as follow:

1. One is preserved in the Egyptian National Library no.14790 '*Fenōn Ḥarbiyya'*.
2. One is preserved in the Egyptian National Library no. 23 '*Frūsiyya / al-Khizāna al-Taimoriyya'*.[100]

[98]Dr. I. Pahlitzsch provided me also with another hypothesis that the most probable way for Ibn Manglī to learn Greek was from the Melkites in Egypt. There has been Greek clerics (the patriarch, bishops and priests) and monks in Egypt. I couldn't accept his opinion because of the Mamluks were a separated order in the Egyptian society. They had keep their independent character and didn't mix with any race of the Egyptians. At the same time they didn't allow to the Egyptians to serve in the Mamluk army as soldiers. Cf. Sa'ied 'Ashor, *The Mamluk Era in Egypt and Syria,* Cairo, 1965, p. 310 (in Arabic); Ibrahiēm Sa'ied, *The Army in the time of Mamluk Sultans*, p. 17. On the other hand, the Melkites were a closed minority and Muhammad Ibn Manglī, as a Moslem, had has no necessity to contact with them to study the Greek.

[11]Ed. by M. 'Abdel-Dā'im, infra note no. 7. There are two photocopies of the copy of the Egyptian National Library no.23 *Frūsiyya / Taimour* are preserved in the Library of the Faculty of Arts, University of Alexandria and in the Library of the Egyptian Military Museum.

Manglī was the first writer who has used Byzantine, military texts translated into Arabic. Moreover, it should be remembered that Ibn Manglī was fond of collecting the books in any language, either in Arabic, Persian, Greek, or Indian.[92]

Lastly, he says also that in the *Tactica* of Leo the wise there are wonderful laws to know how to fight the Moslems, and he will explain this book afterwards. These words refer clearly to the chapter eighteen, which was interested in the neighbors of Byzantium, especially the Arabs.[93] Leo when he wrote this chapter about the foreign nations, he had the Arabs in his mind and the way they could be confronted. He says explicitly that he gave all these details about war tactics because of the Moslems.[94] This matter is confirmed by Ibn Manglī himself, when he says that Leo the Wise had written his *Tactica* to inform his soldiers how to fight the Moslems.[95]

Any way, may be Ibn Manglī had a complete copy or an epitome of the *Tactica*[96] in Greek and he has read it in its original language not in Arabic, either by him self or by the assistance of someone.

So, the questionable point is: Did Ibn Manglī know the Ancient Greek? Or who did help him to read it? We have no evidences to answer on these questions, but I assume that he learned the Greek from the Mamluks who came from *Bilād al-Rūm*,[97] i.e. Byzantium, especially who were under his commandment and well known his fondness of collecting the books in any language, either in Arabic, Persian, Greek, or Indian. Probably, they gave him a copy of

---

[92]Ibn Manglī, *Al-Tadbīrāt*, p. 18.

[93]Leo VI, *Tactica*, Cols. 946-988.

[94]Kolias, *The Taktika*, p. 130.

[95]Ibn Manklī, *Al-Aḥkām*, p. 20.

[96]It should be noted that there is an epitome to the *Tactica* of Leo the Wise, which is called *L' extrait tactique tiré de Léon le sage*, ed. et trad. par A. Dain, Paris, 1942.

[97] Al-Maqrīzī mentions that the Mamluks were brought from *Bilād Uzbic, Bilād Tūrīz, Bilād al-Rūm* and Baghdad. Some Mamluk Sultans such as al-Malik al-Nāṣir Muḥammad Ibn Qalāwūn, paid much money to the slaves' merchants to bring Mamluks from these countries. See Maqrīzī, *Al-kiṭaṭ*, II, p. 214. Cf also Ibrahiēm Sa'iēd, *The Army in the time of Mamluk Sultans*, p. 62. Maqrīzī adds that there was a market in Cairo called *Souk al-Suofiēn* in which the merchants sold their Mamluks of *al-Turk* and *al-Rūm*. See Maqrīzī, *Al-kiṭaṭ*, I, p. 374.

on board.[84] In the Greek text of Leo the Wise it is stated first that a hand-picked force of fighting men must be embarked and then that the admiral's ship must be bigger and faster. [85]

Ibn Manglī explained also the meaning of the name of Leo the Wise, which is a name to the lion in Greek.[86] In another place he refered to a sort of the Byzantine ships which was called *Dromon.*[87] He called this ship in Arabic pronunciation *Adromons*[88] or *Adromon.*[89] He stated that is a Greek word and means *al-Mashaya*, i.e. the voyager, which was the suitable ship for the fleet's admiral.[90]

Besides the textual indications and evidences, which show that Ibn Manglī has read the *Tactica* of Leo the wise; he said that he would explain this book to the soldiers afterwards.[91] So, it is probable that the copy of the *Tactica,* which was used by Ibn Manglī, was not in Arabic, and may be in Greek. Then, he would explain it for his soldiers. I think that if the *Tactica* was translated into Arabic, it must have been famous in the Moslem world at that time or at least during the hard struggle between Moslems and Byzantines, i.e. the Ummayad and 'Abbasid periods. On the other hand, this is the first time in which the *Tactica* was mentioned in the Arabic writings. Any way, Ibn

---

[84]Ibn -Mankali, *Al-Aḥkām*, p. 122.

[85]*Naumachica*, p. 27; Christides, *Ibn al-Manqlī and Leo VI*, p. 85.

[86]Ibn Manglī, *Al-Tadbīrāt*, p. 15.

[87]For this kind of ships see, Al-Nakhīlī, D., *Al-Sufun al-Islāmiyya 'alā Ḥurūf al-Mo'djam*, Alexandria, 1974, pp. 46-48. (in Arabic)

[88]Ibn Manklī, *Al-Aḥkām*, p. 20.

[89]Ibn Manklī, *Al-Aḥkām*, p. 122. Ibn Manglī uses the term *adromon* in its arabized form for the average "ship in line". He didn't identify it with the Moslem type of ships known as *shalandī* or *shinī*. Ahrweiler points out that in the 9th and 10th centuries there was no deference between the warships called "δρόμων" and "χελάνδιον", and that these terms were indiscriminately used in Byzantine texts. Ahrweiler, H., *Byzance et la mer*, Paris, 1966, p. 415; Christides, *Naval warfare*, p. 140. Christides believes that the Arabic terms *shalandī* or *shinī* were likewise synonyms in Arabic texts by the 10th century and roughly corresponded to the regular type of the Byzantine *Dromon*. When the Arabic sources refer to average Byzantine warfare, they usually call them *shalandī* or *shinī*. See, Christides, *Naval warfare*, pp. 140-141.

[90]Ibn Manklī, *Al-Aḥkām*, p. 20.

[91]Ibn Manglī, *Al-Tadbīrāt*, p. 37.

the following nations the Franks, Byzantines, Turks, Arabs and Kurds.[75]

The *Tactica*, in chapter fourteen,[76] and *al-Adilla*, in chapter sixteen,[77]speak of the ambushes and their importance before and during the battle. The *Tactica* also, in chapter fifteen,[78] and *al-Adilla*, in chapter nineteen,[79] speak of the siege of fortresses. Finally, there is a closed common tie between the *Tactica* and *al-Adilla* in the naval warfare. Leo the Wise called his chapter Περὶ ναυμαχίας,[80]i.e. on the naval warfare, but Ibn Manglī called his chapter *Nukat fī Qitāl al-Baḥr*,[81] i.e. subjects on the naval warfare.

According to this comparison between the contents of Leo's *Tactica* and the contents of Ibn Manglī's *al-Adilla* it is clear that the latter was influenced by Leo the wise. This may aid us to confirm that Ibn Manglī has read the *Tactica* carefully, either in Greek or in Arabic.[82]

There are some indications in the works of Ibn Manglī, which aid us to declare that he had somewhat knowledge of the Ancient Greek, and he has read the *Tactica* in Greek not in Arabic, either by him self or by the assistance of someone.

Ibn Manglī always uses Greek terms in his writings, for instance he states that the tubes of the Greek fire, *al-anabīb*, which were situated in the front and the back of the ships, were called in Greek σίφων, in Arabic pronunciation *Sifoniya.*[83]

In another case the Arabic translation found in Ibn Manglī states that the warship must be bigger and faster and then adds that the admiral must be in a warship which has an elite squad of fighting men

---

[75]Pp. 189-195.
[76]Cols. 863-870.
[77]Pp. 199-200.
[78]Cols. 886-907.
[79]Pp. 216-234.
[80]Col. 989-1013. see also, *Naumachica*, pp. 19-33.
[81]Pp. 241-256.
[82]We have not a complete and modern translation to the *Tactica* up to now, which is full of difficult, military terms.
[83]Ibn Manklī , *Al-Aḥkām*, p. 124; *Al-Adilla*, pp. 241-242.

somewhat knowledge of the ancient Greek. But this conclusion needs to be substantiated evidences.

It will be obvious that there was a pure Byzantine influence on the method of Ibn Manglī in his writing of *al-Adilla*, if we compare between the contents of *al-Adilla* and those of the *Tactica*.

Leo VI begins his *Tactica* with a general introduction to show his aim from the writing that book,[62] and so Ibn Manglī does in *al-Adilla*.[63] Chapters two of the *Tactica*[64] and *al-Adilla*[65] speak of the Leader's advantages and qualities. Chapter three of the *Tactica* speaks of the military advice,[66] which corresponds, to chapter five in *al-Adilla*.[67] Chapters five and six of the *Tactica* speak of the arms and military equipment,[68] and the same subject is found in chapter eight of *al-Adilla*.[69] Chapter eight of the *Tactica* speaks of military punishments[70] and so chapter four of *al-Adilla*.[71] In some chapters of the *Tactica* Leo the Wise speaks separately of the military arrangements of the troops,[72] but Ibn Manglī speaks continuously of this subject in many chapters.[73]

In chapter eighteen of the *Tactica*, Leo the Wise presents a general view on the art of war of Byzantium's neighbors such as Turks, Bulgars, Scythians and Arabs.[74] On the other hand, Ibn Manglī followed the same method of Leo the Wise when he speaks in the twelfth chapter of *al-Adilla* on the same subject, whereas he mentions

---

[62]Leo VI, *Tactica*, Cols. 671-679.
[63]Ibn Manglī, *Al-Adilla*, pp. 139-146.
[64]Cols. 682-694.
[65]Pp. 149-150.
[66]Cols. 693-698.
[67]Pp. 155-157.
[68]Cols. 718-734.
[69]Pp. 171-175.
[70]Cols. 763-767.
[71]Pp. 153-154.
[72]Cols.755-761; 807-842; 982-986.
[73]Pp. 176-188; 196-198; 202-203.
[74]Cols. 946-988.

من المقاديف والحبال والقلوع والغرى والصوارى، وفاضل من العود المنجور والمشاق والزيت السائل والـــــــــيابس...".

Translation: " You must have the type of ship known as *adromonos*, *dromonos* in Greek.... In every ship you should have whatever is necessary for it and even double the number of articles needed, such as oars [and/or steering oars], ropes, coils, sails, rods [supporting the sail], masts.[And let them have] some extra curved wood, and also oakum, dry and liquid tar..."[57]

There are the same words in the *Tactica* of Leo the wise:[58]

"Κατασκευασθῆναι δὲ καὶ δρόμωνας καταρκοῦτας πρὸς ναυμαχίαν...' Εχέτωσαν δὲ καὶ πάντα πρὸς ἐξαρτισμὸν δρόμωνος ἀπαραλειπτὰ καὶ διπλᾶ, οἷον αὐχένας, κώπας, σκαρμούς, σχοινία, κάρυα, καὶ τὰ ἄρμενα δὲ αὐτῶν καὶ κεφαλάρια καὶ κατάρτια καὶ ὁπόσα ἄλλη ἡ ἄλλη ἡ ναυτικὴ τέχνη πρὸς χρείαν ἀπαιτεῖ.' Εχέτω δὲ καὶ ἐκ περισσοῦ ξύλα τινὰ ἐγκοίλια καὶ σανίδας καὶ στυππία καὶ πίσσαν καὶ ὑγρόπισσον..."

Translation: " You must construct *dromons* suitable for sea-battle... They [the ships] should have whatever is necessary to probably equip a *dromon*, without any shortages and even with double the number of what is needed, as for example: steering oars, oars, toggles, ropes, coils, their sails, architraves, masts, and whatever else naval craft requires. And let them also have extra round wood planks, and oakum ant tar and liquid tar..."[59]

There are also many indications to the *Tactica* of Leo the Wise in the Ibn Manglī's works *Al-Aḥkām*[60] and *Al-Adilla.* V. Christides studied some of the passages of Leo the Wise's Tactica, which are interested in the naval warfare and used by Ibn Manglī in his works.[61]

If we examine the above-mentioned passages that Ibn Manglī used the *Tactica*, we may conclude of course that he fully understood its passages and the military technical terms, and may be he had a

[57]Christides, *Naval warfare*, p. 140.

[58]*Naumachica*, ed. A. Dain, Paris, 1943, p. 19 § 3, p.20 § 5.

[59]Christides, *Naval warfare*, p. 140.

[60]Pp., 3, 20-22, 122-125.

[61]Cf. Christides, *Ibn al-Manqlī and Leo VI*, pp. 85-96; idem, *Naval warfare*, pp. 137-148.

used an important passage, which is similar to the other of Ibn Manglī completely, whereas he said:[52] " Τακτική ἐστιν ἐπιστήμη πολεμικῶν κινήσεων."

Translation: "Warfare is the science of battles' movement." Ibn Manglī says also:[53]

" تحرك المقاتلة علي قسمين، قسم يتعلق بكيفية القتال على الخيل وقسم يتعلق بكيفية القتال على الأقدام "

Translation: "Soldiers' march is on two divisions, one fights on horse and other fights on foot...". The same words are mentioned in the *Tactica* as follow:[54]

"Τοῦ δὲ μαχίμου μέρους, ἤγουν πολεμικοῦ στρατοῦ, τὸ μέν ἐστι πεζικὸν τὸ δὲ καβαλλαρικόν. Καὶ τὸ μὲν ἰδίως πεζικὸν τὸ ἐπὶ γῆς ἱστάμενον, τὸ δὲ καβαλλαρικὸν τὸ ἐπὶ τῶν ἵππων ὀχούμενον. "

Translation: " The fighters are divided into footmen and horsemen. The footmen who remain on land, the horsemen who mount the horses."

Frankly, Ibn Manglī mentioned that Leo the Wise said: [55]

"وأما ما يكون عليه المقاتلة وقت الحرب فيكونون أربعة مقاتل جميعاً، أو ستة عشر. والستة عشر في العـــدد هو زوج الزوج. قال ذلك لاوون الملك اليوناني في كتابه الذي سماه مراتب الحروب، وهو كتاب جيد ينبغي للجند أن يطالعوه، فإن فيه قانون غريب في ترتيب القتال."

Translation: " During the war, the arrangement of the soldiers is four by four or sixteenth. In numbers, the sixteenth is double of doublet In his book, which is called *marātib al-Ḥurūb* (τακτικὰ πολεμίων = *Tactica*), Leo, the Greek king, said those words. It is a good book, it should be read by the soldiers, in which there is a strange law in war arrangement."

Ibn Manglī in *al-Aḥkām* says:[56] " ينبغى أن يكون صفة مراكبك التى تسمى ادرومنس ، ادرومنس باليونانية ،... ويكون فى كل مركب من العدد التى يحتاج إليها عدد مضاعفة

[52]*Tactica*, Col. 680.
[53]*Al-Tadbīrāt*, p. 37.
[54]*Tactica*, Col. 680.
[55]Ibn Manglī, *Al-Tadbīrāt*, p. 15.
[56] Ibn Manklī, *Al-Aḥkām*, pp. 20-21.

الــذى سماه مراتب الحروب رأيتــ[ــه] كتاباً نفيساً صالح مطالعته للجند، ولمن يبتغي الجهاد في مرضـــاة الله تعالى ؛ وفيه ضوابط عجيبة تختص بقتال المسلمين. وقصدُ الداعي أن يشرحه إن شاء الله تعالى، هذا إن بقي من العمر بقية".

Translation: " When I read the book of the Greek Leo, which he called *marātib al-Ḥurūb* (τακτικὰ πολεμίων = *Tactica*) and I think that is a useful book to the soldiers and to those who want to fight for God's satisfaction. There are wonderful laws to know how to fight Moslems.[49] God willing, Ibn Manglī will explain this book afterwards..."

Thus, he confirmed that he has read the *Tactica* of Leo the Wise. But he didn't mention that if he has read it in Greek or in Arabic? And if he had a copy in Greek did he read it by himself or by the assistance of someone?

The textual evidences:

According to Leo the Wise Ibn Manglī mentions that :[50]

"صناعة الحرب هي المعرفة بكيفية تحرك المحاربة ، ويتهيأ لها... ولنرجع إلى شرح كلام لاون الملك في قوله صناعة الحرب هي المعرفة بكيفية تحرك المقاتلة... ".

Translation: " Warfare is to know how to move the fighters, and to be ready for it...we will return to explain the king Leo's words who says warfare is to know how to move the fighters... ".

This meaning is found in the *Tactica* of Leo the Wise who says: " Ὥσπερ γὰρ οὐκ ἔστιν ὁλκάδι πελάγη διαπορυμεύεσθαι κυπερνητικῆς ἐπιστήμης χωρὶς, οὕτως οὐδὲ πολεμίους κ-αταγωνίζεσθαι τάξεως καὶ στρατηγίας ἐκτὸς..."[51]

Translation: " As we couldn't navigate a ship without leadership's science, we couldn't also begin the wars and end it without knowledge of strategy and leadership's sciences..." Leo also

---

[48]Ibn Manglī, *Al-Tadbīrāt*, p. 37.

[49]T. Kolias believes that the Tactica of Leo the Wise was actually written as a war treaty almost exclusively against the Arabs (Moslems). Kolias, T., "The Taktika of Leo the Wise and the Arabs", *Graeco-Arabica*, 3(1984), p. 130.

[50]Ibn Manglī, *Al-Tadbīrāt*, pp. 37,40.

[51]Leo VI, *Tactica*, ed. J. P. Migne, *PG*, tome 107 (Turnholti, 1978), Col. 677.

the books in any language, either in Arabic, Persian, Greek or Indian". He added that "it is the best friend for man".[43]

Thus, Ibn Manglī depended on a lot of countless Arabic writings, some of which reached us, but the other is lost. We can trace these writings but it may be difficult to study it, passage by passage in the works of Ibn Manglī. As a historian he says frankly that this or that author says... in another place he says that his father says... and sometimes he speaks depending on his own experience, i.e. he was honest in his writings.

Now, according to this concluded biography of Ibn Manglī it is obviously that he was born, educated and lived as a one of *awlād an-nās*.[44] So, because of the similarity of his life with the other of *awlād an-nās* we can declare that he was born in Egypt from a Mamluk (Turkish) father and was surnamed Muhammad, as a Moslem name.

Ibn Manglī and Leo the Wise

Ibn Manglī in three of his works, *al-Aḥkām* , *al-Tadbīrāt* and *al-Adilla*, has quoted some passages from the *Tactica* of the Byzantine emperor Leo the Wise, which is written in Greek. So, the questionable point is: Did Ibn Manglī know Greek? Or did he have a simplified Arabic version of the *Tactica*?

Ibn Manglī in his work *al-Aḥkām*[45] uses the Arabic word "*waqaftu*", which Christides is thinking that it actually means to pay special attention, to devote particularly to something.[46] In Arabic Lexica the Arabic verb "*waqafa*" means, "the human has read..." or "saw..." [47] In other place Ibn Manglī says:[48] " لـما طالعت كتاب لاون اليونان

[43]Ibn Manglī, *Al-Tadbīrāt*, p.18.

[44] *Awlād an-nās* means the sons of the Mamluk Sultans and the Mamluks' sons who were born in Egypt not had been bought by the money like their fathers. Some times the historians called them Egyptians. For more details see Ibn Taghrī Bardī, *Al-Njūm al-Zāhira fī Mlūk Miṣr wal-Qāhira*, Vol. 10, Cairo, N.D., pp. 309-310. Cf Ibrahiēm Hassan Sa'iēd, *The Army in the time of Mamluk Sultans*, Unpublished MA. thesis, Cairo University, 1975, pp. 105-109.(in Arabic)

[45]p.3; Christides, *Ibn al-Manqlī and Leo VI*, p. 84. 'Abdel-Dā'im has mistaken when he read this word as "*waqa'tu*" (actually meaning that he found that book).

[46]Christides, *Ibn al-Manqlī and Leo VI*, p. 84.

[47]*Al-Mu'djam al-Wadjīz*, Cairo, 1990, pp. 678-679.

Translation: "The science of letters' secret is one of Sulṭan's arrangements, which was used by the ancient kings and never announced it even to their close friends. This science is one of the secrets, which has to be hidden. In war time, the Sulṭan advances, God give him the victory, and after he says 'In the name of Allah', draws by his lance these letters: ا ب ج د . هـ و ز . ح ط ى . ك ل م ن. س ع ف ص ق ر . ت ث خ ذ . ض ظ غ..."

Probably, he has took this science from the works of *al-Shayikh* abūl-'Abbās al-Būnī, who was mentioned many times in Ibn Manglī's works.[36] Al-Būnī had many books in the science of letters' secrets and its properties. He was a Moroccan scholar, who lived and died at Cairo in 622 AH. / 1225 AD.[37] Thus, if we assumed that he was studied in one of Cairo's schools, then he had to use its libraries beside the other public libraries of Mamluk Cairo. From these libraries he used many of the Arabic sources such as the important book of al-Māwardī's *al-Aḥkām al-Sulṭāniyya,* which he has used many times in his writings.[38] He also used the *Tactica* of the Byzantine emperor Leo the Wise, from which he has quoted many passages[39] and was effectual on his method in the writing of *Al-Adilla.*[40] He has benefited also from Aristotle, who is mentioned many times.[41]This assumption will explain the wide knowledge of Ibn Manglī of many sciences.

These libraries may be stimulated Ibn Manglī's love of knowledge and urged him to collect the books and to have a private library. This fact is shown in the words of Ibn Manglī in his work *Al-Tadbīrāt al-Sulṭāniyya.*[42]He addressed his soldiers what about the importance of the books in the following words "you have to purchase

[36]Ibn Manglī, *Al-Tadbīrāt,* p.8; *Al-Adilla,* pp. 92, 202.
[37]Ibn Manklī , *Al-Adilla,* pp. 92.
[38]Ibn Manglī, *Al-Tadbīrāt,* p.48; *Al-Adilla,* p. 169.
[39]Ibn Manklī , *Al-Aḥkām,* p.3; *Al-Tadbīrāt,* p.37. V. Christides and N. Serikoff studied some of these passages.
[40]Ibn Manklī , *Al-Aḥkām,* p.3-4, 20, 122-124; *Al-Tadbīrāt,* pp. 15,37.Cf. Christides, *Ibn al-Manqlī and Leo VI,* pp. 85-96.
[41]Ibn Manglī, *Al-Tadbīrāt,* pp. 15-16.
[42]pp. 18-19.

Ḥakīm, al-Wāsīl...,".[28] Ibn Manglī often refers in some of his works to *Madhab al-Imām abū-Ḥanīfa al-Nu'mān* and to *Madhab al-Imām Mālik.*[29] So, I believe that he had to study in on of the Mamluk schools, in which there were the four doctrines of Islam, and he has chosen either *Madhab al-Imām abū-Ḥanīfa al-Nu'mān* or *Madhab al-Imām Mālik.*

Moreover, Ibn Manglī refers frankly to his teacher, who was 96 years old.[30] He never mentions his teacher's name but we can say that he was his military trainer,[31] who educated him the art of Mamluk war. He says about him: " I have seen the teacher (*al-Ustādh*), may God be pleased him, has took a belt to carry the sword...I have never seen any one of the soldiers or people more interested in the construction of the soldiery than him. He had 96 years and killed great numbers of Tartars in every battle, a company of the Franks and mountain's rebels. He fought all the battles of al-Malik al-Ẓāhir and the other kings. He died at the time of al-Malik al-Nāṣir Muḥammad Ibn Qalāwūn," [32] 684-741 AH. /1285-1341 AD. Ibn Manglī was sad very much for the death of his teacher.[33]

Ibn Manglī was fond of the science of letters and numbers[34] on which he described the arrangement of the armies. For instance, he says:[35] " من التدبيرات السلطانية علم سر الحروف فإن علم ذلك من جملة مهمات التدبيرات السلطانية. فمن ذلك مما جربه الملوك قديماً وكانوا يضنون به على خواصهم. وهو من الأسرار التي يتعين كتمها. إذا كان وقت الحرب فليتقدم السلطان نصره الله ويخط برمحه بعد التسمية هذه الحروف ا ب ج د . هـ و ز. ح ط ى. ك ل م ن. س ع ف ص. ق ر. ت ث خ ذ. ض ظ غ...الخ " .

[28]Ibn Manglī, *Al-Tadbīrāt*, p. 25. Cf. pp. 24, 37. (الشيخ الفاضل الحكيم الواصل...)
[29]Ibn Manklī, *Al-Adilla*, pp. 168-169, 170.
[30]Ibn Manglī, *Al-Tadbīrāt*, p. 26; *Al-Adilla*, p. 251.
[31]M. Khaṭāb believes that his name is *Ḥassan al-Rammaḥ*, who was famous at that time and had many of military treatises. See, *Al-Adilla*, p. 251, n. 105.
[32]Ibn Manklī, *Al-Adilla*, pp. 251-253.
[33]Ibn Manklī, *Al-Adilla*, p.253.
[34]Ibn Manklī, *Al-Adilla*, p.92; Ibn Manglī, *Al-Tadbīrāt*, pp. 3-5.
[35]Ibn Manglī, *Al-Tadbīrāt*, pp. 3-4.

to *al-Madhāhib al-Arba'a*, i.e. the four Islamic juristic schools.[21] So, the internal courtyard of the school was divided into four parts, one for every doctrine's teaching. The school had *Khazā'in al-Kutub*, the libraries, which had a librarian to organize and repair its books. There were many teachers, demonstrators and students in every school.[22]

In these schools the students studied the Qur'ān, with its seven readings, *al-Ḥadīth*, *al-Tafsīr*, the Arab poetry, literature and the other intellectual sciences.[23] It might be noted that these are most of the sciences on which Ibn Manglī depended, in his writings. It is probable that the majority of the students couldn't obtain these sciences outside the school or at least without study in *al-Kuttāb*.[24]

Ibn Manglī also in his writings has mentioned this term "*al-'Ulama'*...",[25] i.e. the scholars, and of course he wants to refer to the teachers, who educated him. His description of some of these scholars shows that he has known their scientific dignity, the value of their writings and probably he has known some of them personally. For instance, he refers to 'Abd al-Mon'im al-Djiliānī, one of his authorities, saying: "*Al-Imām, al-Ḥabr, al- 'Allāma*...,"[26] to Ibn 'Abd al-Salām, another authority, saying: " *al-Shayikh, al-Imām, al-Ḥabr, al-'Allāma, Shayikh Mashāyikh al-Islām*...,"[27] and to Muḥammad Ibn Zakarīyā, one of his other sources, saying: " *al-Shayikh, al-Fāḍil, al-*

---

[21]These four doctrines are the doctrine of *al-Imām abū-Ḥanīfa al-Nu'mān*, of *al-Imām al-Shāfi'ī*, of *al-Imām Mālik*, and of *al-Imām Aḥmad Ibn -Ḥanbal*, which are for *al-Sunna*. See, Mez, A., *Die Renaissance des Islam*, Arab trans. M. A. Abū-Raidah, Cairo, 1995, pp. 293-296.

[22]'Abd al-Rāziq, A., *The Islamic Civilization in the Middle Ages: the Intellectual Sciences*, vol. II, Cairo, 1997, pp. 37-38.(in Arabic)

[23]See 'Abd al-Rāziq, *The Islamic Civilization*, II, pp. 38-39. For the Mamluk schools in Egypt, see Ibn Shāhīn al-Ẓāhirī, *Kitāb Ẓubdat Kashf al-Mamalīk wa Baiyān al-Ṭuruq wal-Masālik*, ed. P. Ravaisse, Paris, 1894. Reprinted in Cairo, 1988, pp. 30-32.

[24]*Al-Kuttāb* was a general place in which the boys and girls had took their primary education, especially the holy Qur'ān and other religious subjects. It was distributed in all the Islamic countries either in the East or the West. See, 'Abd al-Rāziq, *The Islamic Civilization*, II, pp. 21-25.

[25]Ibn Mankali, *Al-Adilla*, p. 204.

[26]Ibn Manglī, *Al-Tadbīrāt*, p. 21. (الإمام الحبر العلامة...)

[27]Ibn Manglī, *Al-Tadbīrāt*, p. 22. (الشيخ الإمام الحبر العلامة شيخ مشايخ الإسلام...)

just says that his father had fought in *Bilād Uzbik.*[16] We couldn't declare now that if Ibn Manglī was born in Egypt from a Turkish father and then he was surnamed Muḥammad or he had been brought to Egypt as a Mamluk.[17]

Now let us discuss the following question, which is dealing with his education: From where did Ibn Manglī take his sources and information? I think that we must try to trace his sources.

Unfortunately, neither Ṣalḥiya, who simply reports that Ibn Manglī was well educated, nor Serikoff tried to find a background about the life of Ibn Manglī and his education. They also didn't any effort to explain the actual sources of Ibn Manglī's numerous passages on geography and history. As far as we know that he was being thoroughly acquainted with the Qur'ān, the relevant religious literature and Arabic poetry, Ibn Manglī had a vast knowledge in other fields as well. For instance, there are detailed references in his works about North Africa and Cyprus. He must have been acquainted with the work of Ibn Ḥawqal, al-Maqqdisī, and other Arab geographers who are mentioned explicitly.[18]

Although there is no clear information on the life of Ibn Manglī, before he has undertaken his rank *Naqīb al-Djaish* in the Mamluk army at Alexandria, or his education, we can draw a somewhat view of it through some of his works.

It seems that he has taken his primary education in Egypt, as we will try to conclude. Muḥammad Ibn Manglī in his works has depended on the religious sciences such as the Qur'ān, *al-Ḥadīth*, *al-Tafsīr*, the Arab poetry, literature, military manuals, oral or written accounts, science of letters and numbers, his own military experience or of his father and etc...[19] Then, where did Ibn Manglī obtain or learn these sciences?

To answer on this question we have to know the status of the Mamluk education in Egypt at that time. Mamluks were interested especially in the construction of *al-Madāris*, the schools, which were countless as Ibn Baṭṭūṭa said.[20] Most of these schools were dedicated

---

[16]Ibn Manklī, *Al-Adilla*, p. 205.
[17]Ibn Manklī, *Al-Aḥkām*, p. 3.
[18]Ibn Manklī, *Al-Aḥkām*, p.122; Christides, *Ibn al-Manqlī and Leo VI*, p. 84.
[19]Ibn Manklī, *Al-Adilla*, p. 90.
[20]Ibn Baṭṭūṭa, *Riḥlat Ibn Baṭṭūṭa*, Paris, 1969, p. 70.

Serikoff also called him Ibn Mankalī.[9] Finally, Viré and Zoppoth called him Ibn Manglī.[10] The copier or the writer of Ibn Manglī's *Al-Tadbīrāt al-Sulṭāniyya fī Siyāsat al-Ṣinā'a al-Ḥarbiyya* has written two forms of this name, Muḥammad Ibn Manglī (محمد بن منجلى)[11] and Muḥammad Ibn Manklī al-Dā'ī(محمد بن منكلى الداعى).[12] So, Serikoff, Viré and Zoppoth used the two forms of the name without modification. In fact, the last two forms of the name are one. In the first form the copier or the writer has written the name as the Mamluks or the Egyptians pronounced it at that time; but in the second form he has written the name as in Turkish form. So, he put clearly three points under the Arabic letter ڮ = k to show the Turkish form of the name and in this case the Turkish letter ک will be pronounced in Turkish ج = g, in Mamluk Cairo, such as گ in the Persian.[13] On the other hand, we have not forgotten that the father of Ibn Manglī, as Ṣalhiya said, was born in *Bilād al-Turk*,[14] i.e. *Bilād Uzbik*.[15] According to the Turkish name Ibn Manglī, 'Abdel-Da'im, the editor of *al-Aḥkām*, believes that Muḥammad Ibn Manglī was a descendant of a Turkish origin and his father was a soldier in *Bilād Uzbik*, whereas Ibn Manglī

---

[9]Serikoff, N., "Leo VI Arabus? A Fragment of Arabic Translation from the "Tactica" by Leo VI the Wise (886-912) in the Mamluk Military Manual of Ibn Mankalī (d.1382), *Macedonian Studies*, 9 (1992), 57-61.

[10]Viré, N., "Ibn Manglī", *EI*^{2}, Suppl., 392; Zoppoth, G., "Muhammad Ibn Mängli, Ein ägyptischer Offizier und Schriftsteller des 14.Jhs.", *WZKM*, 3(1957), pp.288-299.

[11]Ibn Manglī, *Al-Tadbīrāt*, p.7.

[12]Ibn Manglī, *Al-Tadbīrāt*, p.10.

[13]Thanks for Prof. M. A. Harīdī, Prof. of Turkish, who explained to me the deference between the two forms of the name.

[14]Ibn Manklī, *Uns al-Malā*, p.8.

[15]*Bilād Uzbik* means the lands, which were situated on the north of Pontos and Caspian seas and the Volga. The king of *Bilād Uzbik*, Muhammed Uzbik, has died in 741 AH./1340 AD. 'Abdel-Dā'im, *Al-Aḥkām*, p.3, n.5. It is probable that *Bilād Uzbik* was *Bilād al-Kipchāk*, the main lands of the Turks and the Mamluks of that time. See Ahmed 'Abd al-Rāziq, *The Egyptian Army in the Mamluk Era*, Cairo, N.D., p. 13.(in Arabic) It is now the Republic of Uzbikstan. Khaṭāb, *Al-Adilla*, p. 205, n. 18.

Sulṭan al-Ashraf Sha'bān 764-778 AH. / 1362-1376 AD. He had also a wide knowledge in many aspects such as chivalry (*al-Furūsiyya*), hunting and literature.

First, we have several pronunciations of the name of our author, Ibn Manglī. So, what is the correct pronunciation of this name? Secondly, unfortunately, the editors of some of his works never presented a good view on his education. Then, from where did Ibn Manglī take his information? Thirdly, Ibn Manglī says that he depended on the *Tactica* of the Byzantine emperor Leo the Wise, which is written in Greek. So, the questionable point did Ibn Manglī know the Ancient Greek? Or did he use an simplified Arabic copy of the *Tactica*? These are the main questions of my modest paper.

V. Christides has called this author Ibn al-Manqalī or Ibn al-Manglī[4] and declares that there are many variations which appear in the translation of this name such as Munkalī, Menkelī, Mangalī. He supposed also that the name Mankālī or Manqālī or Mangālī originated from Möngli.[5] Most of the Arab historians called him Ibn Manklī such as M. Salḥiya,[6] M. S. Khaṭāb[7] and A. 'Abdel-Dā'im.[8]

Naumachica", *Graeco-Arabica*, 3(1984), p. 139. For *Niqābat al-Djaish*, al-Maqrīzī says, " This rank was one of the great ranks in the Turkish State. Its owner is one of the inferior chamberlains. He adorns the soldiers in their festivals and the magistrates walk with him. When Sultan or one of his deputies or the chief of the chamberlains ask a prince or a soldier he will be their messenger and he has to bring him. If some one of them will be appointed as a prince or a soldier, *Naqīb al-Djaish* was "appointed on him". In the Sultan's festivals he was the leader of the Sultan's bodyguards in his travel or walking. Today, this rank is declined and its owner became one of *al-Noqaba'* who frighten the people and take their money by force..." see, *Al-Mawā'iẓ wal-I'tibār fī Dhikr al-Khiṭaṭ wal-Athār*, Cairo, N.D., vol. II, p. 223.

[4]Christides, V., "Ibn al-Manqlī (Manglī) and Leo VI: New Evidence on Arabo-Byzantine Ship Construction and Naval Warfare", *ΣΤΕΦΑΝΟΣ*, *BSL*, 56(1995), p. 83.

[5]Christides, *Ibn al-Manqlī and Leo VI*, p.83, n.5.

[6]Ibn Manklī, *Kitāb Uns al-Malā bi-Waḥsh al-Falā*, ed. M. Ṣalḥiya, Amman, 1993.

[7]Ibn Manklī , *Al-Adilla al-Rasmiyya fī al-Ta'ābī al-Ḥarbiyya*, ed. M. S. Khaṭāb Baghdad, 1988.

[8]Ibn Manklī, *Al-Aḥkām al-Mulūkiyya wal-ḍawābeṭ al-Nāmūsiyya fī fann al-Qitāl fī al-Baḥr*, ed. A. 'Abdel-Dā'im, Unpublished doctoral dissertation, Cairo University Liberary, R. N°.1332.

Ibn Manglī between the Arab and Byzantine Worlds: New Evidences#

Ṭarek M. Moḥammad
'Ain Shams University-Egypt

Muḥammad Ibn Manglī[1] is one of the important writers in the late Mamluk period, who has written about the art of war in the Eastern Mediterranean. He has many historical works, nearly fourteen works, from which there is an important and valuable treatise, *al-Aḥkām al-Mulūkiyya wal-ḍawābeṭ al-Nāmūsiyya fī fann al-Qitāl fī al-Baḥr* [The Royal Orders and Divine arrangements in the Art of Naval warfare].[2]

We can say that this is the sole and complete work, which speaks on the art of naval warfare in the Middle Ages, especially in the Eastern Mediterranean. On the European side, especially in Byzantium, we have some chapters speak of the naval warfare in different works, such as the chapter of *"Peri Naumachia"* in the *Tactica* of the Byzantine emperor Leo the Wise (886-912 A.D.). However, there is not a complete Byzantine work such as Ibn Manglī's *al-Aḥkām al-Mulūkiyya.*

Ibn Manglī has had a good military experience, which was shown in his historical works. He was an officer in the Mamluk army at Alexandria, *Naqīb al-Djaish,*[3] during the reign of the Mamluk

---

#This piece was delivered at *The Ninth International Conference on the Greek, Oriental and African studies,* which was held in Greece, Chios-Oinousses, 5th – 9th July 2000. I'd like to thank warmly Prof. V. Christides for his kind invitation and Dr. M. Zemouli for providing me with many valuable remarks. My warm thanks also Dr. J. Pahlitzsch, Free University of Berlin, for his useful remarks and comments. I am indebted to Prof. E. 'Ebied who reviewed the English version of this article. I'd like also to thank Prof. M. Ḥegāzī and Dr. Y. Lev for their valuable remarks.

[1]There are no clear indications to the life of Ibn Manglī to say that what is the correct date of his birth or death.

[2]I'll reedit this treatise in collaboration with Prof. V. Christides, with an English translation and commentary.

[3]Ibn Manglī, *Al-Tadbīrāt al-Sulṭāniyya fī Siyāsat al-Ṣinā'a al-Ḥarbiyya,* MS. British Museum P. 6019-Or. 3734, p. 8; Christides, V., "Naval warfare in the Eastern Mediterranean (6th – 14th centuries). An Arabic Translation of Leo's VI

إلى قوات المناقضة المتعالية على معرفة الله تعالى × فصنّ ويقصف الربّ أرز لبنان × ويدق ذلك كالعجل اللبنانيّ شرح يشير بلبنان إلى أورشلام وبالعجل إلى الوحيش [34] فصنّ والحبيب كابن ذات القرن ×الواحدة شرح الحبيب هو المؤمن والمؤمن لا ينقهر × وقولــه كابن ذات القرن الواحد أي أنّه يؤمن بإلاه واحد فصنّ صوت الربّ يقطع لهيب النار × شرح جماعة الرسل قبلوا نعمة الروح القدس في صوره ناريّة × فصنّ صـوت الـربّ بالقفر شرح يشير بالقفر إلى الأمم الخالية من الإيمان بالله تعالى × شــرح ويرجف الربّ بدية قادس × شرح معنى يرجف أي يظهر وتفسير قادس أي قدسه × فصنّ صوت الربّ يكمل أيائل شرح يشير بالأيائل إلى الرسل × فصنّ يكشف الغابــات شرح يشير بالغابات إلى هياكل الأصنام التي لا ثمر لها البتّة × فصنّ وفي هيكله الكلّ يقول تمجيدا والربّ في الغمر يسكن شرح أي أنّ الله أزال الكفر بالطوفان فــصنّ ويجلــس الربّ ملكا إلى الأبد × والربّ يؤيّد شعبه بالقوّة والرب يبارك على شعبه بالسلم .

[34] MS reads الخزيب, which is a bad reading; I suppose that the good reading is which I am giving in the above edited text; cf. J. P. Monferrer-Sala, "Algunas precisiones en torno a la supuesta 'primera fuente' de la acepciñ *ḥarīD* = rinoceronte (unicornio)", *Qurṭuba*, 4 (1999), p. 208.

receives the grace of the Holy Spirit he appearance of fire]. The voice of the Lord in the desert [commentary: 'In the desert' refers to the laymen who are full of faith in Holy God]. The Lord shakes the desert of Cadesh [commentary: the sense of 'shape' is 'shows' and the explanation of Cadesh is 'his holiness']. The voice of the Lord makes the deer perfect [commentary: 'the deer' refers to the Apostles] and fades the forests [commentary: with the 'forests', he refers to the temple of the idols that bear no fruits]. In his temple, everybody praises him. The Lord dwells over the waters [commentary: it means that God caused the impious to perish in the Deluge, the Lord sits as a King forever. The Lord will make his people strong, and the Lord will bless his people with peace.

4.2. Edition of the Psalm 28 (fol. 41r-42v)

المزمور الثامن العشرون لداوود وهو أربعة وعشرين حرفا × على خروج القبّة يريد به اليوم الثامن من عيد المظال × قرّبوا للربّ يا أبناء الله × [33]شرح أبناء الربّ هم الرسل × فصّ قدّموا للربّ أبناء الكباش شرح أبناء الكباش هم المؤمنين من الأمم التي هي كالبهائم فصّ قرّبوا للربّ المجد والكرامة شرح الفاعل الخير المستقيم الاعتقاد في الثالوث القدّوس هو الذي يُقرّب الله تعالى تمجيدا × والذي يقرّب كرامة هو الذي يرحم الضعيف ويعطيه بلا حزن ولا مشقّة بل كأنّه يُقرض الله سبحانه × فصّ قرّبوا للربّ تمجيدا لاسمه شرح يشير إلى صوت الأب عند اعتماد الابن الأذليّ في الأردنّ فصّ إلاه المجد ارعد شرح إنّما قال ارعد لأجل أنّ هذا الصوت انبثّ في العالم بتوسط الإنجيل × فصّ والربّ على كثرة المياه × صوت الربّ بقوّة × شرح يشير بقوله صوت الربّ بقوّة إلى نعمة الروح المالئة للرسل قوّة × فصّ وصوت الربّ يعظّمه الربّ البهاء × صوت الربّ يحطم شجر الأرز × شرح يشير بالأرز

[33] Margin: أبناء الربّ

4. Apendixes

4.1. Translation

Translation of Psalm 28 of David, in 24 stichos. At the exit of the Temple on the day 8th day of the huts, 1Give to God, oh sons of God! [commentary: 'the sons of God' are the Apostles]. Give to God, sons of the Lamb [commentary: 'the sons of the Lamb' are the lay believers, who are like the beasts]. Give to God the glory and the honour [commentary: who acts in righteousness the dogma of the Holy Trinity he glorifies Holy God, and who honours is he who has pity on the weak and does not suffer from sadness and compassion, but rather he acts as praising God]. 2Give God the glory of his name, worship God in the dwelling of his holiness! 3The voice of the Lord over the waters [commentary: it refers to the voice of the Father in the baptism of his eternal Son in river Jordan], the God of the glory thunders [commentary: he said 'thunders' because that voice spreads through the whole world with the Gospel. The Lord is over the many waters. The voice of the Lord with strength [commentary: the expression 'the voice of the Lord with strength' refers to the grace of the Holy Spirit fills the Apostles with strength], the voice of the Lord in his highest majesty. The voice of the Lord destroys the cedars [commentary: 'the cedars' refer to the opposite forces that rise against the knowledge of the Holy God. The Lord breaks Lebanon cedars, making them quake like a Lebanon bullock [commentary: with 'Lebanon' he refers to Jerusalem and with 'bullock' to a young bull]. To the beloved like the rhinoceros' cub [commentary: 'the beloved' is the believer, since the believer does not yield. The expression 'like the rhinoceros' cub' is referred to he who believes in One God]. The voice of God cuts the fire flame [commentary: the assembly of apostles

We must bear in mind that the translations were done by bilingual persons, which was a direct influence on the characteristics of the resulting translation, with all the subsequent problems of lexical loans of semantic and syntactic contaminations, and no less importantly, the linguistic transpositions and cultural leaps in the void.

It seems obvious then that the study of certain "techniques" of translation as used in the various texts haded down to us, we can assess –taking into account the concurrent self-imposing limits– the work done by a translator, while evaluating the methodology employed in the process. It could also be of use for assessing the translating accuracy or inadequacy achieved by the translator and the state of the language that he makes avail of so as to translate the source text.

The exegetic task carried out by 'Abd Allāh b. al-Faḍl, as we can see in the sample we edit below, is of great merit. There the resource to analogy is helpful to present christological and moralizing dogmas of the orthodox church in its Melkite variant, and at the same time he imitates the analogical tradition of the patristic commentaries which he uses as a sort of *catenae*.

We attempt to give testimony of the value and relevance of this version with the edition of a brief instance, as a kind of sample, of Psalm 28 following the version of the LXX (29 of the Masoteric Hebrew text and of the *Vulgate*) together with its commentary[32].

The complete heading that introduces the Psalm stands out, where there appears the disposition of the phrases in 24 stychos (*arba'a wa-'ishrīn ḥarf*[an]) and the psalmody of the same in his exact place within the cycle of Jews holy days (*'alā ḫurūj al-qubba yurīdu bi-hi l-yawm al-thāmin min 'Īd al-Maẓāl*) at the end of the 'Festivity of Huts' (™xod…ou skhnhj).

[32] On this issue M. Harl, "Y-a-t-il une influence du 'grec biblique' sur la langue spirituelle des chrétiens?. Exemples tirés du Psaume 118 et de ses commentateurs d'Origène à Théodoret", in *La Bible et les Pères. Colloque de Strasbourg 1969*, Paris, 1971, pp. 243-262. Cf. the sample which has been studied by J.P. Monferrer-Sala, "Traducción y exégesis de un texto melquita árabe surpalestinense: Jn 6,1-15 en el *Codex Arabicus Sinaiticus 72* (año 284 H./ 897 JC.)", in V. López Folgado (ed.), *Sensus de sensu. Estudio filológicos de traducción*, Córdoba, 2002, pp. 153-173.

this Sinaitic manuscript should help also to promote the study of Biblical exegesis generated and developed among the Christian Arabs, a topic not approached yet in the wide panorama of studies in Arabic literature created by the Christians.

At a paleographic level, the copy in question has been done using paper as the material and it belongs to the 13th century, consisting of 257 sheets of size 168x130 ms[30]. The sheet 1r-v is written in Syriac (scrip sert) and the case fluctuates between 11 and 13 lines. The graph type used is evolved oriental nasḫī (with a lowering link slant tendency), that reflects the calligraphic characteristics frequent in Christian Arabic handwriters where the interferences of "Middle Arabic" creep into it in a tendency towards classicism pursued by the translator.

3. Some notes on translation and exegesis from Psalm 28

Any approach to the study of old versions of the Bible demands our attention on the fact that we are before materials of translation, which encourages a special view in the study procedures[31] . This is so because when these translations were done no theoretical epistemology that would serve as conceptual support of the translational practice. Except for sporadic cases the translators had not lexicons or grammars at their disposal, so they had to lean on their sole linguistic knowledge, which they acquired with their experience in the languages in question.

To this we may add that the source language represented a state of language and a register that as a rule dated back to several centuries. This entailed, of course, a series of thorny problems that the translator had to sort out, although the end product was not always the best to be expected, and this conditioned it for the future generations. To the various dilemmas of philological nature posed for translators other can be added that stem from the exegesis conducted by some circles of doctrine.

---

[30] *Vid.* A. S. Atiya, *The Arabic Manuscripts of Mount Sinai*, p. 4 (number 65) and M. Kamil, *Catalogue of all Manuscripts in the Monastery of St Catharine on Mount Sinai*, p. 12 (number 50).

[31] Relevant considerations on translation in antiquity can be found in S.P. Brock, "Aspects of translation technique in antiquity" in S. P. Brock, *Syriac on late Antiquity*, London, 1984, III, pp. 69-87.

commentary, the achievement of his early activities[22] , that made a great impression in the Syriac literature[23]), and has an enormous importance for being widely used in the Melkite Gospel and Epistle Books[24].

Moreover, it was important for the recurrent revisions that were to be still done among the various Melkite communities spread out through the Middle East up to the 18th century (1735), like that by 'Abd Allāh Ẕāahir in Dayr al-Shuwayr[25], as well as for the great number of manuscripts available of this version[26] and no less for the profit the Orthodox, the Catholics and the Protestants alike have taken out of it[27].

In the editions referred to by Graf and Nasrallah (none of them done with critical views), the Sinaitic copy was not used, so it would be convenient to offer (in collation with the rest of the copies) an edition of this version[28], as it is one of the three oldest, just after the British Library copy, dated in 1239[29]. The edition of

---

Biblique, XXXVII (1928), pp. 340-366 and L. Van Rompay, *Théodore de Mopsueste. Fragments syriaques du Commentaire des Psaumes (Psaume 118 et Psaumes 138-148)*. 2 vol., Leuven, 1982.

[22] *Vid.* R.P. Voste, "La chronologie de l'activité littéraire de Theodore de Mompsueste", *Revue Biblique*, XXXIV (1925), pp. 58 and 60.

[23] Vid. A. Baumstark, *Die christlichen Literaturen des Orients*. 2 vols., Leipzig, 1911, I, p. 67

[24] *Vid.* G. Graf, *Geschichte der christlichen arabischen Literatur*, I, pp. 187-190. A good synthesis of the liturgy as used by the melkite Patriachat of Jerusalem, both from Antiochia and the Sinai since mid 10th cent until 14th century, is the one proposed by Msgr. J. Nasrallah, «La liturgie des Patriarchats melchites de 969 à 1300», *Oriens Christianus*, 71 (1987), pp. 156-181. For the Byzantine rite in Arab, *vid. Kitāb al-alāt li-sti'māl al-mu'minīn zuwī l-taqs al-bizantī.* Ed. by Msgr. N. Edelbi, al-Dhawq (Lebanon): Dayr al-Malak Mikhail, 1962.

[25] *Vid.* G. Graf, *Geschichte der christliche arabischen Literatur*, I, p. 116 and J. Nasrallah, *Histoire du Mouvement littéraire dans l'eglise melquite*, III/I, pp. 217-218

[26] *Vid.* G. Graf, *Geschichte der christliche arabischen Literatur*, I, p. 118-120

[27] *Vid.* G. Graf, *Geschichte der christliche arabischen Literatur*, I, pp. 117-118 and J. Nasrallah, *Histoire du Mouvement littéraire dans l'eglise melquite*, III/I, pp. 217-218.

[28] This is a task we plan to undertake in the near future

[29] *Vid.* G. Graf, *Geschichte der christliche arabischen Literatur*, I, p. 118. On the manuscripts of the translation of Psalms by 'Abd Allāh b. al-Faḍl, *vid.* G. Graf, *Geschichte der christlichen arabischen Literatur*, I, pp. 116-119

But of all his prolific work his translation-commentary of the Book of Psalms, done from an original Greek (*al-nusḫa l-yūnāniyya allatī staḫrajnā min-hā hadhihi l-tafāsīr*), was one of the works with the most important liturgical purpose done by the author. As it is explicit in the introduction, the author himself assesses his work as an exegetical work (the copy *Vaticano Arabo 145* and that from Leipzig central Library, *ar. 297*, are annotations to the book of the Psalms[19]) with the plural *tafasir*, commentaries. With this term he identifies both tasks, that of the translation and that of commentary, done eventually from several Greek texts that 'Abd Allāh b. al-Faḍl identifies in detail with the Greek revisions of the Jews Theodosius, Aquila and Simmacus (the three preserved partially thanks to Origen's *Hexaplas*)[20], Theodoretus and other famous Saint Fathers. From them he translates all the glosses, correcting even the text where the Antiochian thinks advisable, as he states: *Thāwudhūtiyūs wa-Akīlās wa-Simmāḫus wa-Thawudhūrītus wa-gayri-him min al-Abā' al-ajillā'l-Qiddīsīn qad tarjmnā min-hā mā htamalat-hu ḥawāshī hadhihi l-nusḫa* [...] (fol. 3r).

'Abd Allāh b. al-Faḍl did his Arabic version from the text of the LXX, that was the only review used in the Melquite church, and was prefaced by an introduction to the Psalms and an interlineal commentary. Such commentary work is inserted, in turn, within a long interpretive tradition of the Book of Psalms in Christian Orient (where, among other, the great Theodorus of Mompsuestia[21] was outstanding (died in 428) with an early

[19] *Vid.* G. Graf, *Geschichte der christliche arabischen Literatur*, I, p. 59

[20] Cf. D. Barthelemy, *Les Devanciers d'Aquila*, Leiden, 1963 and J.R. Busto Saiz, *La traduccion de Simaco en el libro de los Salmos*, Madrid, 1985, pp. 293-310. About the *Hexapla, vid.* for example: H. J. Venetz, *Die Qinta des Psalteriums. Ein Beitrag zur Septuaginta- und* Hexaplaforschung, Hildesheim, 1974; A. Schenker, *Hexaplarische Psalmenbruchstücke. Die hexaplarischen Psalmenfragmente der Handschriften Vaticanus graecus 752 und Canonicianus graecus 62*, Freiburg-G. ttingen, 1975, and A. Schenker, *Psalmen in der Hexapla. Erste kritische und vollständige Ausgabe der hexaplarischen Fragmente auf dem Rande der Handschrift Ottobonianus graecus 398 zu den Ps 24-32*, Città del Vaticano, 1982. Cf. also C. E. Cox, "The translations of Aquila, Symmachus and Theodotion in the margins of Armenian manuscripts", in C. Burchard (ed.), *Armenia and the Bible*, Atlanta, 1993, pp. 35-45.

[21] Vid. R. Devreesse, "Le commentaire de Theodore de Mompsueste", *Revue*

In effect, the settlement carried out by the Arabic Islamic troops along the 7th century made Arabic a new *lingua franca*[15] that soon became a oral and written means of communication of the human groups that inhabited the occupied territories and in especial, those of the Melkite communities. Among the latter, the Scripture work done was especially fertile in the monasteries, as for example in the Mār Sābā, Mār Ḫaritōn and Mār Kātirīna. This encouraged the Christian writers to gradually substitute the respective languages for Arabic[16].

In this line and with a view to remedy the faithfuls's lack of knowledge of the Greek language[17], the intense pastoral work developed by 'Abd Allāh b. al-Faḍl with them, in order to provide them with the necessary procedures to take part in the liturgical rites, was helpful to do Arabic versions of those books that were frequent in liturgy: Gospel books, Epistles and Psalter.

Nonetheless, those versions were not only translations of the original Greek text into Arabic but also added further commentaries as used in the homilies[18]. Among other exegetic purposes, 'Abd Allāh b. al-Faḍll had the intention by means of those commentaries that the faithful got in contact with the Fathers of the Church. He insisted especially on the moral content of St. John Chrisostom through the heritage of Capadocians.

---

[15] Vid. J. Blau's article for this concept, "A Melkite Arabic *lingua franca* from the second half of the first Millenium", *Bulletin of School of Oriental and African Studies*, LVII (1994), pp. 14-16. For the "Middle Arabic" as used in the works by the christians, vid. J. Blau, *A Grammar of Christian Arabic. Based mainly on South-Palestinian texts from the first millenium.* 3 vols., Louvain, 1966-67.

[16] *Vid.* the studies done by S.H. Griffith on the fist samples of "christian Arabic" in Arabic, like "The Gospel in Arabic: an enquiry into its appearance in the fisrt Abbasid century", *Oriens Christianus*, 69 (1985), pp. 131-132 and S.H. Griffith, "The monks of Palestine and the growth of Christian literature in arabic", *Muslim World*, LXXVIII (1988), pp. 1-28; also J. Nasrallah, "Duex versions melquites partielles de la Bible du IXe et du Xe siecles", in *Oriens Christianus*, 64 (1980), pp. 203-210

[17] For the various languages used in the different areas of Christian population, *vid.* J. Nasrallah, "La liturgie des Patriarcats melquites de 969 a 1300", *Oriens Christianus*, 71 (1987), pp. 163-165

[18] Vid. L. Greenspoon, "Theodotion's Version", *The Anchor Bible Dictionary*, 6 (1992), p. 447-448

commentary to the 151 psalms[10] and is the work of the deacon (shammās) 'Abd Allāh b. al-Faḍl al-Anṭākī.

The varied talents of the Melkite Antiochian 'Abd Allāh b. al-Faḍl[11] are well known, a famous translator and encyclopaedist of reputed rigour who was honoured with the name of *shayḫ* and the *laqab* of Abū l-Fatḥ. Born in Antiochia[12] into a well known family at the beginning of the 11th century, he died at the end of that century, having achieved the grade of deacon, as the name *shammās* he bore seems to indicate, as the name of bishop (*muṭrān*) he was given in some writings seems to be due to an ancestor, most probably his grand-father.

Among Antiochian 'Abd Allāh b. al-Faḍl's wide work on Scriptures, he allegedly wrote the translation of St. Basilius's *Hexameron*. He is a central piece to the updating of Antiochian Patriachate in the context of the cultural upsurge undergone by Christendom with Arabic[13] as the new official language; he also seems to have written a *Bahjat al-mu'min*, a *Sharḥ al-amāna l-mustaqīma*, a *Kitāb al-manfa'a*, and also some himnographies of liturgical books and a series of 87 homilies taken from the St. John Chrisostoms's works (*Fam al-Dhahab*), and besides some commentaries to various biblical books: to Genesis (*Tafsīr al-Takwīn* / *Tafsīr al-sifr al-awwal mina l-Tawrāy al-musammā Sifr al-Ḫalīqa* o *Tafsīr sittat ayyām al-Ḫalīqa*) to St. Matthews's Gospel (*Tafsīr Bishārat Injīl Mattā l-Rasūl*), to St. John's Gospel (*Tafsīr Injīl Yuḥannā l-Bashīr*) or the commentary of St. John Chrisostomos on the "Epistle of the Hebrews" (*Sharḥ Risālat al-Qiddīs Bawlus ilā l-'Ibrāniyyīn*) among many other[14].

---

[10] In fact, the "suplementary" psalm presented by the LXX, but absent from the Hebew text and the Latin *Vulgata*

[11] About this author and his extensive work, vid. G. Graf, *Geschichte der christlichen arabishen Literatur II*, pp. 52-54

[12] About Antiochia, vid. D.S. Wallace-Hadrill, *Christian Antioch: A Study of early christian Thought in the East*, Cambridge 1982.

[13] Vid. in this connexion, the work by D. Gutas, *Greek Thought, Arabic Culture. The Graeco-Arabic Translation Movement in Bagdad and Early 'Abbasid Society' (2nd-4th-8th-10th- centuries)*, London-New York, 1998

[14] Vid. the work by J. Nasrallah, *Histoire du movement littéraire dans l'eglise melchite du Ve au XXe siècle*. Contribution a l'etude de la litterature arabe chretienne, Louvain-Paris, 1983, III/I, pp. 191-229

but the need is felt to put forward a series of basic and overall conclusions through a concrete example, the analysis of Psalm 28 (after the order offered by those in LXX). This contribution, besides, attempts to be an integral part of a more ambitious and necessary endevour in order to step forward in the biblical texts in Arabic: more specifically, the critical edition of a complete Arabic biblical text, making use of all possible manuscripts available. In this way, we can have at hand a critical text useful for working with greater scientific rigour.

At the same time we will contribute to the study of the general biblical text, providing variants and textual traditions that are likely to be unknown, if not lost, and casting a new light in the field of the Arabic versions of the Biblical text, still scarce and badly known[9].

2. The translation-commentary of the Psalms into Arabic by 'Abd Allāh b. al-Faḍl

Among the great number of Arab manuscripts that are kept in the Monastery of Mār Kātirīna, in Mount Sinai, there is an Arabic version of the Book of Psalms that also contains a

1876; also *Psalterium, Hebraeum,Graecum, arabicum & Chaldaeum, cum tribus latinos interpretationibus & glosis,* Genua: Petrus Paulus Porrus, in aedibus Nicalai Justiniani, 1516, about the same, vid J. P. Monferrer Sala, "Dos impresos italianos del s. XVI de la BPC. *Una aeditio princeps* bilingue arabe-latina de los Evangelios y un *octaplum* del Salterio", *Alfinge,* 13 (2001), pp. 83-96.

[9] *Vid.* For instance, M. Schreiner, «Beiträge zur Geschichte der Bibel in der arabischen Literatur», in: G. A. Kohut (ed.), *Semitic Studies in Memory of Rev. Dr. Alexander Kohut*, Berlin, 1897, pp. 495-513; P. Kahle, *Die arabischen Bibelübersetzungen*, Leipzig, 1904; M. L. Margolis, *The Story of Bible Translations*, Jerusalem, 1970 (=Philadelfia, 1917), pp. 48, 53-55, 63; B. J. Roberts, *The Old Testament Text and Versions. The Hebrew Text in Transmission and The History of the Ancient Versions,* Cardiff, 1951, pp. 266-269; P. Kahle, *The Cairo Geniza*, Oxford, 1959², espec. Pp. 191-304; S. Khalil, «Old Testament, Arabic versions of», in: A. Suryal Atiya (ed.), *Coptic Encyclopedia*, VI, pp. 1827-1836; B. M. Metzger, *The Early Versions of the New Testament. Their Origin, Transmission and Limitations*, Oxford, 1977, pp. 257-268. *Vid.* also J. Assfalg, «Bibelübersetzungen», en: R. H. Beautier-R. Auty (Eds.), *Lexikon des Mittelalters,* Munich-Zurich, 1983, II, col. 95.

The only relevant overall work we can consult is the great work by Graf[4] and still this is being updated under the supervision of Samir Khalil[5], as there are some lacunae, and lack of information about the manuscripts, the error in the identification, classification and analysis of many samples, this said with no disregard for the great achievements of the work[6].

It seems obvious that there is still a hard and lengthy work ahead, that the materials and places to go into are manifold, and the nature of documents is varied. In addition, the recuperation of the material already edited or presented as pre-edited state, no matter how valuable it is, must be collected, analysed and taken some profit out of it, if the chance is offered.

In this line, and according with the above mentioned, we attempt in this paper to announce an important unpublished manuscript: it is the Arabic version of the book of "Book of Psalms" translated from an Antiochean Greek 'Abd Allāh b. al-Faḍl (11th cent)[7]. Such manuscript has especial relevance because of the important exegetic material it contains and transmits. This MS, still unpublished, prove outstandingly relevant, especially because we do not have a critical edition of the Book of Psalms.

This work is not just the base for a future edition of this manuscript which contains the translation of the Book of Psalms[8],

---

[4] G. Graf, *Geschichte der christlichen arabischen Literatur.* 5 vols., Modena, 1996 (=Ciudad del Vaticano, 1944-47).

[5] Vid. S. Khalil, "La tradition arabe chrétienne. État de la question, problèmes et besoins", in Samir Khalil (ed.), *Actes du Premier Congrès International d'Études Arabes Chrétiens (Goslar, septembre 1980)*, Rome, 1982, pp. 19-120.

[6] The internal document we are working with, together with the classification of the material of the first two volumes for the experts has been done by Samir Khalil Samir, "Vers une «Encyclopédie de la littérature arabe des chrétiens»", Samir Khalil Samir (ed.), *Actes du 5e Congrès International d'Études Arabes Chrétiennes (Lund, août 1996)*, in *Parole de l'Orient*, 24 (1999), pp. 45-59. Cf. J. P. Monferrer-Sala, "Sobre literatura Arabe cristiana y propuesta de trabajo", *'Ilu*, 4 (1999), pp. 136-137.

[7] Cf. J.P. Monferrer-Sala, "En torno a dos manuscritos bíblicos árabes ineditos", *Philologia Hispalensis* [= C.Mª Thomas & P. Cano (eds.), *Homenaje a la Profesora Eugenia Gálvez Vázquez*], XIV/2 (2000), pp. 334-338.

[8] *Vid.* for instance, among the published material: *Liber Psalterium Davidis Regis et prophetae. Ex arabico idiomate in latinum translatus,* Roma: Typographia Sauariana, 1614 and P. de Lagarde, *Psalterium job Proverbia arabice*, Gottingen,

From Greek into Arabic: some notes about translation and exegesis in a 13th cent. Christian Arabic work

Juan Pedro MONFERRER SALA
University of Córdoba ,Spain

1. Introduction

Much has been debated, among others by Samir Khalil, concerning the need for cataloguing and giving an account for the collection of Christian Arabic manuscripts in the different Libraries[1], alongside with the urgency in publishing such material.

Added to the scarcity of inventaries of this specifically Christian collection (one rare exception, still incomplete, being that of the Monastery of St. Catherine, in Mount Sinai[2]) and the lack of scientific rigor of many of the existing catalogues from the 19th century and even the 20th century, the scornful treatment of Christian works, remarkable cases excepted, is to be emphasized in the two well-known important repertoires[3].

---

[1] A list of existing catalogues can be seen in A.J.W. Huisman, *Les manuscrits arabes dans le monde. Une bibliographie de catalogues*, Leiden, 1967.

[2] The best updated catalogues in this *laura* are those of Aziz Suryal Atiya, *The Arabic Manuscripts of Mount Sinai*, Baltimore, 1955 y Kamil Murad, *Catalogue of all Manuscripts in the Monastery of St Catharine on Mount Sinai*, Wiesbaden, 1970. See also the unpublished manuscripts catalogued by I. E. Mēimarēs, *Katalogos tōn neōn arabikōn kheirographōn tēs hieras monēs Hagias Aikaterinēs tou Orous Sina*, Athens, 1985. A concordance of the Sinaitic and Cirenaic manuscript is found in Samir Khalil, *Tables de concordance des manuscrits arabes-chrétiens du Caire et du Sinaï*, El Cairo, 1986. For the Syriac collection of this monastery we can consult the classical *Studia Sinaitica No. I: Catalogue of the Syriac MSS in the Convent of S. Catharine on Mount Sinai*. Compiled by Agnes Smith Lewis, Londres, 1894; *Anecdota Oxoniensia: Biblical and Patristic Relics of the Palestinian Literature from MSS in de Bodleian Library and in the Library of Saint Catherine on Mount Sinai*. Edited by G. H. Gwilliam, F. Crawford Burkitt, and John F. Stenning, Oxford, 1896. The illuminated manuscripts have been analysed by K. Weitzmann, *Illustrated manuscripts at St. Catherine's monastery on Mount Sinai*, Collegeville, Minnessota, 1973.

[3] C. Brockelmann, *Geschichte der arabischen Litteratur*. 2 vol., Leiden, 1943 and 1949; *GAL. Supplementbände*. 3 vol., Leiden, 1933, 1938 and 1942; F. Sezgin, *Geschichte des arabischen Schifttums*. 10 vol., Leiden, 1967-, in due curse of edition.

That is not to say that Byzantium was not interested in the Black Sea and in the peoples inhabiting this region, or that they were not careful to monitor the changes that went on there. Indeed, in so far as one can talk about key themes in the foreign policy of the Byzantine Empire in this period, it is clear that the thrust was very explicitly and consistently geared at containing the Bulgaria of Symeon and of managing and controlling the emergence of Rus'. It is no coincidence, however, and certainly worth stressing, that both of these were dealt with and handled without Pecheneg help or assistance, and rather in spite of the nomads, rather than because of them.

However, my purpose here has been simply to flag up the dangers of reading too much into a text drawn from a wide range of disparate sources, with varying motivations and which ask more questions than it solves. Instead, the intention has been to offer a counter-argument to the long accepted hypothesis, essentially lifted *verbatim* from the *De Administrando Imperio*, that Byzantium sought and was able to maintain a favourable balance of power above the Black Sea in the 9^{th} and 10^{th} Centuries by a sustained policy of divide and rule, or by basing a strategy on an unreliable, though truly terrifying, nomadic tribe.

Kiev after a long journey, carrying many possessions with him, vulnerable at the rapids : in short, too good an opportunity to miss.

Here then it is worth looking to the 11th Century for some instructive insights into steppe diplomacy, and which reveals why such policies (as far as they existed at all) were so problematic and illusory. Faced with increasing threat of the Pechenegs in the Balkans and even as far as the environs of the capital in the 1080s, the Emperor Alexios I Komnenos finally went for an all-out battle with the nomads in 1091 by a hill named Lebounion in southern Thrace, calling in support from as far away as Rome and Flanders. He also appears to have sought an alliance with the Cumans (or Qipchaqs), another nomadic tribe from the steppe region. In the best case scenario, the Cumans proved to be utterly unreliable, only appearing at the very last moment to take on the Pechenegs. Even then, as one source makes clear, the Emperor had to exercise extreme caution when dealing with them in the aftermath of victory.[28] At worst, though, alliance with the Cumans proved of marginal long-term value, as they simply replaced the Pechenegs as the thorn in the Byzantine side : whereas it had been the Pechenegs who repeatedly invaded the Balkans in the 1080s, thirty years later it was the Cumans who were causing the problems.[29]

Unreliability of course was the key, and this really drives any serious hypothesis as to whether the Byzantines were truly prepared to rest their strategy on getting the Pechenegs to do their dirty work for them. And even here it is the *De Administrando* itself that poses the question : as we learn from the text, on at least one occasion, one of the tribes on the steppe had simply refused to do what it was asked by the Byzantines.[30] In other words, Byzantium's neighbours in the Black Sea region, like those elsewhere, could not be relied on when needed.

Perhaps then the first twelve chapters of the text do tell us more about Byzantium and about how the Byzantines saw themselves in the middle of the 10th Century, at a time of political and geographic expansion, a time of economic upswing, and at a time where they saw themselves as masters of their own destiny.

---

[28] P. Diaconu, *Les Pétchénègues au Bas-Danube* (Bucharest, 1970), 25-32; Anna Komnene, *Alexiade*, ed. B. Leib, 3 vols. (Paris, 1937-45), Bk VIII, ch. iv-vi, vol. 2, 136-46.
[29] P. Diaconu, *Les Coumans au Bas-Danube aux XIe et XIIe siècles*, (Bucharest, 1978), 37-42.
[30] *DAI*, ch. viii, 56.

they went through with their part of the deal ? Suspicions here point instead to a hypothesis that not only was the concept of steppe diplomacy as laid out in the *De Administrando* one of wishful (or fanciful) thinking, but so too was the list of goods that were 'paid' to the nomads : might not even this be a *topos,* designed to show off the simplicity of the Pechenegs against the sophistication of 10th Century Byzantium ? It is hard to see how this was not the case, in fact, given Constantine VII's early protestations about the greed of Byzantium's neighbours – for if this amounted to little more than a few pieces of fabric then it is hard to see why or how the Emperor could really complain.[24]

Certainly, a policy that might conceivably be referred to as steppe diplomacy, but which in fact amounts to little more than standard frontier policy, did exist – as is clear from the case of Byzantium's ill-fated attempt to ally with and use the Magyars against Symeon and Bulgaria at the end of the 9th Century (where significantly it was a Bulgar alliance with the Pechenegs that proved decisive).[25] However, apart from this (often quoted) instance, we are hard pushed to find other occasions where Pechenegs (or others) were successfully activated against each other or against Byzantium's enemies.

In 941, of course, when Igor of Kiev managed to attack Constantinople itself, the Pechenegs and the Pecheneg deterrence are conspicuous by their absence at precisely a time when we would have expected them to have been in evidence.[26] Other cases where Pecheneg involvement, or even non-involvement, are few and far between. And even when we can see the nomads at work with the murder of Sviatoslav of Kiev at the start of the 970s, one wonders just how much this had to do with Byzantium. For while Sviatoslav's murder suited Byzantium, we are surely not to believe that his assassination did not also benefit the Pechenegs as well.[27] And indeed, there is perhaps an even more basic way to see the murder here, not as part of some Byzantine or Pecheneg master plan, rather as a case of a wealthy man of status, well-known to the nomads, tired and defeated, returning to

---

[24] *DAI*, Prooimion, 44.

[25] Whittow, *Orthodox Byzantium*, 287.

[26] See Shepard and Franklin, *Emergence*, 114-6.

[27] *Russian Primary Chronicle*, Eng. tr. S. Cross and O. Sherbowitz-Wetzor (Cambridge, Mass., 1953), 90.

prevention of attacks on Byzantium and Constantinople by the Rus', Bulgars and Magyars.

Moreover, the temptation to see the Pechenegs as a valve that could be used against these other peoples and turned on and off at will must surely be resisted in the strongest terms as being too simplistic by half. For taken as a whole, the first chapters of the *De Administrando* suggest not only that the Pechenegs were the rock and basis of Byzantine policy in this region; they were also the rock and basis of the policy of all those in this region, to the extent that the Rus' were not only reliant on their neighbours for cattle, sheep and horses, but were unable to leave their homes unless they entertained good relations with the Pechenegs.[22] In this way, it is not so much a question of Byzantium controlling the steppe with a considered and careful policy of steppe diplomacy or of a strategy of divide and rule, rather a recognition of that the Pechenegs exercised *de facto* control of the area to the north of the Black Sea from the Danube to the Dniepr and beyond.

This in itself should make us wonder how real and effective any Byzantine steppe policy may have been – or even if there was really one at all. For the impression of a Byzantium pulling strings rather precludes both what the text tells us about Pecheneg ascendancy on the steppe, and also about their own motivations and interests in dominating their neighbours. So, for example, chapter nine at first glance provides a template for how to attack the Rus' and keep them in check by activating trusty imperial allies as required by Constantinople. But surely here it is important to question whether the petty goods mentioned by the text ("purple cloth, ribbons, woven cloth, gold brocade, pepper, scarlet (also Parthian) leather, and other commodities which they might require") would really have bought large-scale Pecheneg support.[23]

Certainly, given the very nature of tribal structure in general, and particularly that along the lines set out in chapter thirty seven of the text, it is worth asking whether buying off was actually a realistic and even a feasible thing to do : it is hard to believe that all tribal leaders would have been paid on each occasion, simply for logistic reasons. And even if they had, is it truly reasonable to think that they would always and invariably have followed instructions, in short that

[22] *DAI*, ch. ii, 50.
[23] *DAI*, ch. vi, 52.

many of the chapters here are very short; and there is the nagging suspicion that what we are being told is rather simplistic and pat.

Indeed, the question that arises here is whether this part of the text perhaps tells us more about Byzantium and the Byzantines, and about the way that they saw themselves, than it does about Byzantine relations with the Pechenegs, or about steppe diplomacy as a whole. Are these chapters not more interesting as a primer for us to understand the Byzantine view of the self – able to choose who to ally with; able to have a role in, and influence, long-distance politics; able to manipulate and control a region far from Constantinople and on the periphery (if not beyond) of the Empire ?

And the fact that we already have one eyebrow raised makes it easier to assess what Constantine VII tells us in this section at least of the *De Administrando* dispassionately. Already suspicious about the very concept of steppe diplomacy, close examination of the text reveal further places where what we are told jars. For example, at the outset, the author explicitly states that he will explain how to deal with the Empire's neighbours by force of arms and making war ("*polemeisasthai*").[18] However, nothing could be further from what he in fact advocates in the opening twelve chapters, where he instead (repeatedly) advises the use of anything but force – in the form of diplomatic missions, gifts, words and friendships.[19]

To this may be added the insistence articulated in the Prooimion that all non-Byzantines have ravenous appetites and insatiable tempers, and that they constantly demand gifts.[20] Yet instead of explaining how to counter such demands, the advice set out in these chapters is rather different, and appears to turn on the principle of meeting demand and satisfying greedy appetites, advising payment, or rather presentation, of gifts that were proportionate to a people ("*ethnos*") as important as the Pechenegs.[21]

And a further point that might be worth making here is to ask just how ambitious the Byzantine programme was on the steppe and what its real target was, for, reading between the lines here suggests that the primary thrust of imperial policy was that employment of and payments to the Pechenegs were really directed at and motivated by

[18] *DAI*, Prooimion, 44.
[19] E.g. *DAI*, ch. i, 48; ch. iv, 50; ch. v, 52; ch. vi, 52; ch. vii, 54
[20] *DAI*, Prooimion, 44.
[21] *DAI*, ch. i, 48.

Emperor of the Romans to be minded to keep the peace with the nation of the Pechenegs." And in order to ensure that this would be the case, the Emperor was encouraged to conclude conventions with the Pechenegs on a regular basis ("*sunthekas*"); to make friendships ("*spondas*") with them; to send them an envoy every year, presumably to ensure continued support; and to give them gifts regularly – although is not entirely clear what these would have been.[14]

The following chapters go on to explain why it was that the Pechenegs were so dominant and why it was that Byzantium would do well to keep them happy. As the text tells us, all the nomads' neighbours, including the Rus', the Bulgars and the Magyars, had learnt from painful experience that it was not a good idea to be on the receiving end of Pecheneg aggression.[15] It is worth noting that it is unlikely that the stress on Pecheneg aggression is an authorial creation, designed to play up the qualities of a key Byzantine ally. Certainly, there do appear to be fundamental differences in the way that the Pechenegs were reacting to the world around them – in particular retaining a fully nomadic lifestyle rather than becoming increasingly sedentary (unlike the Magyars at the start of the 10th Century, for example), and also resisting, or at least displaying no discernable interest in, Christianity, unlike so many of their neighbours. Moreover, the fact that other sources talk of the exceptional cruelty and barbarity of these nomads provides at least some confirmation of the fact that the Pechenegs really do appear to have been more dangerous than those around them.[16]

Nonetheless, the *De Administrando*'s insistence on Pecheneg dominance of the steppe and on the need for the Byzantines to treat them as the Empire's primary allies in the region – and as the basis for military and diplomatic policy above the Black Sea – is not without its problems. In the first place, the language used in these chapters is very simple; there are no details of any note in this part of the text, with the obvious exception of chapter nine which provides a very lengthy account indeed about the route taken by the Rus' on their way to the Black Sea, highlighting precisely where ambushes could be laid;[17]

[14] *DAI*, ch. i, 48.
[15] *DAI*, chs. ii-v, 48-52.
[16] J. Shepard, 'The Russian steppe frontier', *Arkheion Pontou* 35 (1979), 218-37; S. Franklin and J. Shepard, *The Emergence of Rus'* (London, 1996), 176-9.
[17] *DAI*, ch. ix, 56-62.

the Emperor), and how all could be dealt with.[11] It is perhaps not surprising, given the language used at the start of the text – coupled with the ostensibly comprehensive survey of all of Byzantium's neighbours – that many scholars have seen the text as a blueprint for imperial foreign policy.[12] Some have even gone further, arguing that the *De Administrando* was a highly sensitive top-secret document that would have been enormously detrimental if it fell into non-Byzantine hands, – without considering whether in fact people like the Pechenegs could read Greek or whether the nomads could even read at all.[13]

Certainly, the first section of the text – the first twelve chapters – which are concerned with the area to the north of Constantinople and specifically to the north of the Black Sea are not hard to understand : the clear and explicit intention is for the author to explain how (and why) the Byzantines should control the steppe zone and how it should use the peoples populating it to its own advantage.

These chapters leave little doubt that the overriding concern, and indeed the basis, for Byzantine (foreign) policy in this region was the Pechenegs themselves. It was with the help of these nomads that the Empire would be able to maintain a balance of power that it was happy with and that would be favourable in the long run. Although the author does not explain why he was (and that Byzantium should be) interested in this region in the first place, it does not take much for us to read between the lines and realise that the focus on the Pechenegs had come about as a response to three specific phenomena not just on the steppes themselves but in neighbouring areas.

First, of course, the reliance on the Pechenegs was at least partly prompted by the shifting power on the steppes in the mid and late 9th Centuries, away from the Khazars and the Magyars and very much in favour of the Pechenegs, who proved themselves the dominant force in the reign of Constantine's father, Leo VI. In addition to the collapse of Khazar power were two further potential and indeed very real threats to Byzantium proper – which came in the form of the Bulgars and the Rus'. The logic here, therefore, is that there is more to the *De Administrando*'s focus on the Pechenegs and on the author's strenuous advice that "it is always greatly to the advantage of the

[11] *DAI*, Prooimion, 44ff.

[12] E.g. J. Bury, 'The treatise De administrando imperio', *Byzantinische Zeitschrift* 15, 517-77; Stephenson, *Frontier*, 25ff.

[13] Jenkins, *De Administrando*, 13.

like steppe diplomacy, where we are essentially reliant on this single source.

The concept and principles of steppe diplomacy as set out clearly in the first twelve chapters of the *De Administrando* – namely the manipulation of a balance of power favourable to Byzantine interests, the playing off of one against another, based on a simple policy of divide and rule – certainly strike a chord with the modern historian, and particularly with the Byzantinist familiar with the image of Byzantium as consistently projected and re-enforced from within as innately and inherently superior, able through power of reason and sheer intelligence to out-manoeuvre its enemies and rivals.[9]

The impression this had on others was not always favourable to say the least, with the fact that we can detect this in the first place going some way to confirming the view of Byzantium's self-promotion at the expense of others. It is striking, for example, that so many of the historians of the Crusades – at least those of the first four Crusades (1096-1204) – have similar reactions to Byzantium in general and to individual Emperors in particular. The various and many accounts share a common literary characterisation – which of course serves to echo contemporary political responses – of Byzantium as duplicitous and untrustworthy, always on the lookout to play off one against another, whether Crusader against Crusader, or Muslim against Crusader. And in this respect, it is important to note that it was not only outsiders who were aware of this and, for that matter, critical of it : John the Oxite, Patriarch of Antioch at the end of the 11th Century, was explicit in his attack on Constantine X Doukas, where the Emperor's readiness to setting Byzantium's neighbours against each other was roundly condemned for being not only immoral but fundamentally un-Christian.[10]

The impression of Byzantium's readiness and indeed keenness to base foreign policy on this basis is firmly enforced by the *De Administrando*, which presents itself as a utililtarian primer for Constantine's son, Romanos II. According to the Prooimion (or Preface) therefore, the purpose of the text was "in the first instance to set out what each nation (*ethnos*) has power to benefit the Romans," going on to explain how some could harm the Empire (and therefore

---

[9] *DAI*, chs. i-xiii, 48-76.

[10] P. Gautier, 'Diatribes de Jean l'Oxite contre Alexis Ier Comnène', *Revue des Etudes Byzantines* 28 (1970), 41.

from the town of Kherson in the Crimea.[4] Nonetheless, the *De Administrando* allows a clear view into a sustained Byzantine interest in the steppe to the north of the Black Sea.

In chapter 37, for example, we learn about the circumstances and (by inference) the date of a large-scale movement of Pecheneg tribesmen from an original location somewhere between the rivers Atil and Geich westwards to the Dniepr;[5] we learn about Pecheneg tribal structure and about the manner in which the Pechenegs divided territory between constituent members of the tribe.[6] We learn the names given to these territories by the Pechenegs themselves, and we also have recorded the names of several Pecheneg leaders at the time of composition of this section of the text.[7] And we learn that one element of the Pechenegs had been incorporated within the Uzes' tribal structure at some point earlier in the 9th Century and that this element had retained a distinct ethnic, as well as visual, identity in spite of this.[8]

Of course, what this chapter does not tell us is why such information was recorded in the first place. Moreover, it prompts further important questions which are no easier to answer – such as why such records were kept in Byzantium; what else was kept; how long records were kept for; how often they were updated; and where they were kept and who by – presumably Constantinople and perhaps by the logothete of the drome – though here again, the very disparate character of the information contained within the text hardly points towards a comprehensive, uniform library.

In this respect then, the primary conclusion to reach, and the obvious starting point for any survey of the *De Administrando Imperio* is to treat the text with caution, and to use it judiciously. The temptation with this source is to see it as a Holy Grail for Byzantine attitudes to its neighbours in a period where precious little is known about this topic generally, and particularly for a more specific subject

---

[4] R. Jenkins and F. Dvornik, *De Administrando Imperio – Commentary* (London, 1962); J. Howard-Johnston, 'Re-examination of the evidence of the arrival of Rus', in eds. M. Kazanski, A. Nercessian, C. Zuckerman, *Les centres proto-urbains russes entre Scandinavie, Byzance et Orient* (Paris, 2000).
[5] *DAI*, ch. xxxvii, 166. Also see M. Whittow, *The making of Orthodox Byzantium 600-1025* (London, 1996), 230-33.
[6] *DAI*, ch. xxxvii, 166-70.
[7] *DAI*, ch.xxxvii, 166.
[8] *DAI*, ch. xxxvii, 169.

some significance that, with the notable exception of Bryennios, none of those writing narrative accounts at this time appear to have had any substantial and substantive experience of affairs outside the city walls.

In this context, therefore, it should be stressed that it is not only Byzantium's relations with its neighbours that so often draws a blank in such sources. There is also precious little, if anything at all, about the Byzantine interior – about Thessaloniki, for example, or about the other major towns of the Empire. Indeed, analysis of Byzantine activity – and even issues so basic as simply assessing and establishing an imperial presence – in areas such as the north-western Balkans and by the Danube have to be pieced together from numismatic and sigillographic sources (with the resultant gaps and problems that these can pose) in the absence of comment in the narrative histories.[2]

However, information gathering clearly was happening in the Black Sea region in the 9th and 10th Centuries, and this goes some way to allowing us to understand that we should be careful not simply to rely too heavily on what the principal historians for this period tell us. Nowhere is such information gathering clearer than in a text that has come to be known as the *De Administrando Imperio,* a source compiled during the reign of Constantine VII Porphyrogenitos, ostensibly by the Emperor himself, setting out a raft of information about Byzantium's neighbours, taking in the peoples to the north of Constantinople, the Arabs (*Sarakenoi*), as well as looking at Spain, Italy, the Adriatic and the Caucasus.[3] The text is not without its problems, and it poses many questions – not least that of the date of composition or compilation – and also those that stem from an analysis that reveals that the text is made up of a very wide range of sources, such as drawing on at least one Magyar source, on a re-touched account about the Croats and Serbs that is contemporary not with Constantine VII in the mid-10th Century, but with the Emperor Heraklios at the start of the 7th, and on a chronicle otherwise unknown

---

2 P. Stephenson, *Byzantium's Balkan Frontier* (Cambridge, 2000); P. Doimi de Frankopan, 'The numismatic evidence for the Danube region 971-1092', *BMGS* vol. 21 (1997), 30-9; id., 'The workings of the Byzantine provincial administration in the 10th-12th Centuries : the example of Preslav', *Byz.* 71 (2001), 73-97.

3 Constantine VII, *De Administrando Imperio*, ed. G. Moravcsik and R. Jenkins (Washington, D.C, 1967).

Some notes on Byzantine foreign policy in the 9th-11th Centuries : was there really such a thing as steppe diplomacy ?

Peter Frankopan
Oxford University, England

In many respects, there are contrasting and competing views at play when we look at Byzantium's relations with its neighbours – whether in the Black Sea region or elsewhere for that matter. On the one hand, it is possible to compile a picture of Byzantine interest in its neighbours, of the Byzantines gathering information about those on its periphery, of a sensitivity and alertness to shifts in power beyond the Empire's frontiers, and of a state able and actively seeking to respond to such changes as necessary.

This contrasts sharply with the other – and in many ways the more dominant – picture which can be drawn from the historiography of the middle Byzantine period, with its relentless accent on *Romanitas* and on the superiority of Byzantium and its culture over those around it – to the point, indeed, where chroniclers fail even to record very substantial changes to the Empire's frontiers. So, for example, while we are certainly not lacking source material for third quarter of the 11th Century – with narrative accounts of Michael Psellos, Michael Attaleiates, John Skylitzes, Nikephoros Bryennios covering this period in considerable detail – it is striking to note that none of these historians discusses the growth of Norman power in southern Italy or the consequent collapse of Byzantine authority there; indeed, only one of these authors even mentions the fall of Bari in 1071 which brought to an end centuries of Byzantine power in Italy.[1]

Of course, the two competing views need not considered as being contradictory, and one could certainly make the case that the lack of interest shown by Byzantine historians to their neighbours – whether Norman, Turk, Russian or Turk – says a good deal more about who was writing in Byzantium in the 10th and 11th Centuries that it necessarily does about anything else. And one might well add here, while the fact that the historians of this period (and to the list we should add the Logothete, George the Monk and the continuator of Theophanes) were essentially based in Constantinople cannot alone explain the disinterest in the Empire's neighbours, then it is surely of

[1] George Kedrenos, *Compendium Historiarum*, ed. I. Bekker (Bonn, 1838), 720-4.

A. Papers

Contributors*

- 'Abdul – 'Aziz Ramadan, , Assistant Lecturer of Medieval History, Ain shams university, Egypt.
- Frankopan, P., Lecturer of Byzantine History, Oxford University, England.
- Hatem El-Tahawy, Lecturer of Medieval History, Zagazig university, Egypt.
- Mahasen M. Al-Wakkad, Lecturer of Islamic History, Ain Shams University, Egypt.
- Mohammed Mo'ness 'Awad, Assistant Prof. of Islamic History, Ain shams university, Egypt.
- Monferrer Sala, J. P., Professor of Semitics Studies, Cordoba University, Spain.
- Ra'fat 'Abdul – Hamid, , Prof. of Medieval History, Ain shams university, Egypt.
- Tarek M. Mohammed, , Associate Prof. of Byzantine History, Ain shams university, Egypt.
- Vaiou, M., Lecturer of Byzantine History, Oxford University, England.
- Vdovichenko, I., Associate Prof. of Byzantine Archeology, Taurida National University, Ukraine.
- Wafa' Abdullah Mazrou', Lecturer of Medieval History, Saudi Arabia Kingdom.
- Zeinab 'Abdel – Magid, , Lecturer of Medieval History, Zagazig university, Egypt.

---

* These names are arranged alphabetically.

Contents

I. The Arabic Part

A. Articles

B: Book Reviews

II. Non Arabic Part

A: Papers

B: Book Reviews

Journal of Medieval and Islamic History

Issued by: Seminar of Medieval and Islamic History
Ain Shams University
Abbasiya, Cairo, Egypt. Postal code 11566

- An Annual Review Interested in Medieval History, specially Byzantine and Islamic History.

- We accept all the papers and book reviews in Arabic, English, French, Italian and German.
- Books for review should be sent in one copy only.
- Orders may be addressed directly to the board of the Seminar on the above-mentioned address.
- All papers should be written by the computer as follow: Text's size is 12,5 x 19,5 cm.
  Text's fonts are 12 New Times Roman and 13 Simplified Arabic for the Arabic papers.
  Footnote's font is 10; Main title's font is 12 Bold.
- Correspondences: Vice-Chairman: Dr. Tarek Mansour Muhammad, on the following address: Department of History, Faculty of Arts, Ain Shams University, Abbasiya, Cairo, Egypt. Postal code 11566. Fax. 00202 - 6851432. E. mail: amrtar_eg@yahoo.co.uk or tm_jmih@hotmail.com
- The board of the *JMIH* invites you to share with us in the fourth volume, which will be issued during the academic year 2004.

Journal of Medieval and Islamic History

An Annual Review Interested in Byzantine, Medieval and Islamic History

(JMIH)

Volume III
2003

Issued by:
Seminar of Medieval and Islamic History
Ain Shams University

Special Issue in Honor of Prof. Ali El-Ghamarawi

Journal of Medieval and Islamic History

(JMIH)

Volume 3 / 2003

An Annual Review of Medieval, Byzantine and Islamic Studies.

Issued by : Seminar of Medieval and Islamic History, Ain Shams University



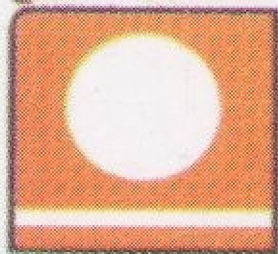
حولية

التاريخ الإسلامي والوسيط

المجلد الخامس
٢٠٠٦ - ٢٠٠٧

دورية سنوية مُحكَّمة تعنى بالدراسات التاريخية الإسلامية والبيزنطية وأوربا العصر الوسيط

يصدرها سمنار التاريخ الإسلامي والوسيط - جامعة عين شمس



حولية التاريخ الإسلامي والوسيط

دورية سنوية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية الإسلامية والبيزنطية

المجلد الخامس

٢٠٠٦-٢٠٠٧م

يصدرها

سمنار التاريخ الإسلامي والوسيط

جامعة عين شمس

عدد خاص يصدر على شرف ا.د. أحمد رمضان أحمد
بمناسبة بلوغه الخامسة والستين

الناشر
مصر العربية للنشر والتوزيع
١٣ أ ش إسلام-حمامات القبة-القاهرة

حولية التاريخ الإسلامي والوسيط

دورية علمية سنوية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية الإسلامية والبيزنطية

يصدرها

سمنار التاريخ الإسلامي والوسيط، جامعة عين شمس

- ترسل المراسلات والطلبات باسم هيئة تحرير الحولية أو باسم د. طارق منصور وكذلك البحوث على العنوان التالي كليـــة الآداب، جامعـــة عـــين شـــمس، القـــاهرة ، مـــصر. ص.ب.١١٥٦٦ ، فــــــاكس: ٢٠٢-٦٨٥١٤٣٢-٠٠٢٠٢ بريــــــــد اليكترونـــــــي tm_jmih@hotmail.com

، شريطة ألا تكون قد سبق نشرها في مكان آخر مـــن قبـــل، وأن تكون مكتوبة على الحاسب الآلـــي IBM ، Windows XP،Word XP or 2003 حسب المواصفات التالية:

١- البحوث المكتوبة باللغة العربية:

العنوان الرئيسي فونت ١٤ أسود ، العنوان الفرعي فونت ١٣ أسود.

الخط Simplified Arabic ، فونت ١٢.

الهوامش سفلية، فونت ١٠، ترقيم متتالين من قائمة إدراج.

المسافة بين السطور مفرد للنص وكذلك للهوامش.

مواصفات النص ١٢,٥ X ٢٠,٥سم، بدون الترقيم.

٢- البحوث المكتوبة بلغة أجنبية:

العنوان الرئيسي فونت ١٢ أسود ، العنوان الفرعي فونت ١٢ أسود.

الخط BodoniMT ، فونت ١٢.

المسافة بين السطور single للنص ، exact للهوامش.

مواصفات النص 20.5 X 12.5 سم بدون الترقيم.

- يرسل البحث من نسختين بالإضافة إلى القرص المرن مقاس٣,٥ أو على CD.
- تقبل البحوث باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية.
- آخر موعد لتلقي البحوث شهر يونيو من كل عام.
- يكتب اسم الباحث ووظيفته أسفل العنوان الرئيسي للبحث مباشرة.

شروط النشر:

١. تُقبل البحوث باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية.

٢. يقدم الباحث نسختين مطبوعتين من بحثه بالإضافة إلى نسخة على الــ CD .

٣. ينبغي ألا يكون البحث المقدم للنشر قد سبق نشره في دورية من الدوريات المعتمدة.

٤. يرفق الباحث مع بحثه ملخصاً باللغة العربية وآخر باللغة الإنجليزية.

٥. ينبغي ألا يكون البحث المقدم للنشر جزءً من رسالتي الماجستير أو الدكتوراه الخاصة بمؤلف البحث.

٦. أن يتسم العمل المقدم بالأصالة والجدية، وأن يكون موثقاً توثيقاً علمياً، معتمداً على المصادر الأصلية والمراجع المعتمدة.

٧. تحكيم البحوث يكون سرياً، ويقوم به اثنان من المحكمين بمعرفة المجلة.

٨. يخطر الباحث بنتيجة التحكيم سواءً بالرفض أو القبول. ويمكن للباحث معرفة أسباب عدم النشر دون الإشارة إلى هوية أو أسماء المحكمين.

٩. لا يحق للباحث إعادة نشر بحثه أو دراسته المنشورة بالمجلة بعد في أي مكان آخر إلا بعد مرور ثلاث سنوات، وبعد حصوله على إذن خطي من إدارة المجلة؛ وإلا سوف يحرم من النشر بالمجلة لمدة خمس سنوات تالية.

١٠.يزود الباحث بخمس مستلات من بحثه وعدد من المجلة.

المحتويات

أولاً: القسم العربي

أ: البحوث والدراسات

ب: عروض الكتب العربية

ثانيـــا: القســـم الأجنبـــي

أولا: البحوث والدراسات

ثانيا: عروض الكتب الأجنبية

تهنئة

يسعد هيئة تحرير حولية التاريخ الإسلامي والوسيط أن تتقدم بالتهنئة الحارة إلى عدد من الزملاء، سواء من أعضاء السمنار أو رواده، وذلك بمناسبة ترقياتهم خلال عامي ٢٠٠٦-٢٠٠٧م، متمنين لهم دوام التوفيق والسداد، وهم:

- **د. هانيء عبد الهادي البشير**، أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد، كلية الآداب، جامعة حلوان.
- **د. الأمين أبو سعده**، أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد، كلية الآداب، جامعة طنطا.
- **د. محمد عثمان عبد الجليل**، أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد، كلية الآداب، جامعة جنوب الوادي.
- **ا. محمد زايد**، مدرس تاريخ العصور الوسطى المساعد، كلية الآداب، جامعة الفيوم.

شكر وتقدير*

تتقدم هيئة تحرير حولية التاريخ الإسلامي والوسيط بخالص الشكر والتقدير إلـــى الأساتذة الأجلاء الذين تكرموا بتحكيم البحوث الواردة في هذا العـــدد، متمنـــين لهـــم دوام التوفيق، وهم:

أ.د. اسحق تاوضروس عبيد	أستاذ تاريخ العصور الوســطى، كليــة الآداب، جامعة عين شمس
أ.د. زبيــدة محمد عطـــا	أستاذ تاريخ العصور الوســطى-كليــة الآداب-جامعة حلوان.
ا.د. عبد الرحمن سالم	أستاذ التاريخ الإسلامي-كلية دار العلوم-جامعــة القاهرة.
أ.د. فايز نجيب اسكندر	أستاذ تاريخ العصور الوســطى-كليــة الآداب-جامعة بنها.
أ.د. فتحي أبو سيف	أستاذ التاريخ الإسلامي-كلية الآداب-جامعة عين شمس.
أ.د. ليلى عبد الجواد إسماعيل	أستاذ تاريخ العصور الوســطى، كليــة الآداب، جامعة القاهرة.
أ.د. محمــود إسماعيـــل	أستاذ التاريخ الإسلامي-كلية الآداب-جامعة عين شمس.

*هذه الأسماء مرتبة ترتيبا هجائياً.

المشاركون في العدد*

ا. سامر قنديل	معيد تاريخ العصور الوسطى، كلية الآداب، جامعة عين شمس.
د. سيف شاهين المريخي	مدرس التاريخ الإسلامي كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة قطر، دولة قطر.
د. طارق منصور	أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد، كلية الآداب، جامعة عين شمس، مصر.
د. عبد العزيز رمضان	مدرس تاريخ العصور الوسطى، كلية الآداب، جامعة عين شمس، مصر.
د. عطا محمد رية	مدرس التاريخ الإسلامي، كلية التربية الأدبية للبنات، جامعة الطائف، المملكة العربية السعودية.
د. فايز نجيب اسكندر	أستاذ تاريخ العصور الوسطى، كلية الآداب، جامعة بنها، مصر.
د. ماريا فايوو	مدرس التاريخ البيزنطي بجامعة سابانكي، استانبول، تركيا.
د. محاسن محمد الوقاد	أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد، كلية الآداب، جامعة عين شمس، مصر.
ا. محمد زايد	مدرس تاريخ العصور الوسطى المساعد، كلية الآداب، جامعة الفيوم، مصر.
د. وديع فتحي عبد الله	أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد، كلية الآداب، جامعة بنها، مصر.
د. ياسر أحمد نور	مدرس التاريخ الإسلامي، كلية التربية، جامعة المنصورة، مصر.

*هذه الأسماء مرتبة ترتيبا هجائياً، وكذلك البحوث.



الأستاذ الدكتور أحمد رمضان أحمد

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية

(١٩٤١-   )

تقديم

يسعد هيئة تحرير حولية التاريخ الإسلامي والوسيط أن تقدم للقارئ عامة والباحث خاصة العدد الرابع، الذي يحوى بين جنباته، وكعادة المجلة، مجموعة طيبة ومتميزة من الدراسات والبحوث المكتوبة باللغات العربية والإنجليزية؛ وجميعها تتسم بالعمق والجدية والأصالة التاريخية.

وقد رأت هيئة التحرير أن تصدر العدد الخامس على شرف عالم جليل يشار إليه بالبنان، كواحد من أبرز مؤرخي مصر في التاريخ والحضارة الإسلامية، وهو المؤرخ الجليل أ.د. أحمد رمضان أحمد، أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بكلية الآداب، جامعة عين شمس. وقد أعد د. طارق منصور بالاشتراك مع د. محاسن الوقاد كلمة نيابة عن هيئة تحرير الحولية بهذه المناسبة عنوانها: "ا.د. أحمد رمضان أحمد، عَلَمٌ من أعلام التاريخ الإسلامي". وقد كان من المفترض أن نحتفل بسيادته عند بلوغه سن الستين، بعد رحلة عطاء طويلة مثمرة، لا زالت متصلة؛ غير أن صدور العدد الثاني والثالث من الدورية كان واجبا علينا إصدارهما على شرف اثنين من علمائنا الأجلاء رحمهما الله، هما أ.د. رأفت عبد الحميد، و أ.د. علي الغمراوي، والعدد الرابع بمناسبة بلوغ أ.د. محمود إسماعيل سن الخامسة والستين، وهاهو العدد الخامس يصدر على شرف أ.د. أحمد رمضان، بمناسبة بلوغ سيادته الخامسة والستين.

أما عن هذا المجلد فيحوي عددين في مجلد واحد، عن عامي ٢٠٠٦، ٢٠٠٧؛ وفيه نقدم بحثا يتسم بالجدية والعمق للدكتور سعيد المريخي، "تجارة الكتب عند العرب المسلمين في القرنين الثالث والرابع الهجريين/التاسع والعاشر الميلاديين،" وهي دراسة عميقة عن الوراقة والوراقين في العالم الإسلامي خلال الفترة المشار إليها؛ وهي دراسة أصيلة يعتمد فيها على المصادر الأصلية والمراجع الجادة.

وتأتي دراسة الدكتور عبد العزيز رمضان، "البيزنطيون بين علاج الأطباء ومعجزات القديسين: دراسة في ضوء هجيوجرافيا العصر البيزنطي الباكر،" لتقدم إلى القارئ العربي صفحات جديدة من الطب الشعبي ومعتقدات البيزنطيين الباطلة في قدرة القديسين على استشفائهم من الأمراض والأسقام، وهي دراسة جادة تستحق القراءة.

أما بحث الدكتور عطا رية، "الأحباش في مصر المملوكية،" فيتناول فيه تاريخ وجود هذه الطبقة في المجتمع المصري في عصر السلاطين المماليك، وأوضاعهم

الاقتصادية والاجتماعية والدينية، وهو بحث قيم، نجح المؤلف في إلقاء الضوء على هذه الفئة من المجتمع المصري.

ويأتي بحث الأستاذ الدكتور فايز نجيب اسكندر. "الشمال الإفريقي في عهد الوندال في مصنف المؤرخ المعاصر فيكتور فيتنسيس،" وهو بحث أصيل اعتمد فيه سيادته على المصادر الأصلية غير المتوافرة في المكتبات العربية، مما أهله لإلقاء أضواء جديدة على مجتمع الوندال في الشمال الإفريقي الاقتصادية والاجتماعية والدينية.

أما بحث الدكتورة محاسن الوقاد، وعنوانه "مراسم البلاطين الفاطمي والبيزنطي، دراسة مقارنة" فهو موضوع شائك استطاعت أن تسير في دروبه بسلام وأمان، حيث أخرجته إلى النور بصور طيبة يحسب إليها إنجازه، بعدما تكبدت الكثير من العناء في سبيل انجازه.

ويأتي بحث الدكتور وديع فتحي عبد الله، "جوزيف جنسيوس مؤرخ لحكم الإمبراطور ميخائيل الثاني العموري ٨٢٠-٨٢٩م"، ليشكل مسك ختام البحوث العربية، حيث يتناول فيه المؤلف رؤية المؤرخ البيزنطي جنسيوس لحكم الإمبراطور ميخائيل العموري بصورة تفصيلية، اعتمد فيها على عدد كبير من المصادر الأصلية والمراجع القيمة.

وأخيراً يأتي بحث الدكتور ياسر أحمد نور، "ورقة بن نوفل بين النصرانية والمسيحية،" ليناقش فيه حقيقة ورقة بن نوفل في ضوء المصادر الإسلامية، والحكم عليه إذا ما كان يمكن اعتباره مسلما أو مؤمنا بمحمد أم مسيحيا، وما مذهبه المسيحي الذي آمن به. وهو بحث طيب اعتمد فيه على المصادر والمراجع الأصيلة.

أما عن البحوث الأجنبية، فعندنا بحث باللغة الإنجليزية للدكتور طارق منصور، بعنوان " Is the Poetry of the Time of Saladin a Reliable Source of his Deeds?"، وفيه يتناول الباحث أعمال أبرز الشعراء التي كتبوها عن صلاح الدين الأيوبي، طوال حياته، وهل نجحوا في تقديم الحقيقة التاريخية أم أنها لم تتعد كونها دعاية إعلامية فقط. وقد اعتمد في دراسته على عدد من الشعراء منهم المعروف للدارسين ومنهم غير المعروف. وهي دراسة جادة ومهمة اعتمدت على عدد كبير من المصادر التاريخية العربية والأجنبية الأصيلة.

ونأتي إلى عروض الكتب العربية حيث يقدم السيد/ سامر قنديل عرضا لكتاب ديمتري غوتاس، الفكر اليوناني والثقافة العربية -حركة الترجمة اليونانية العربية في بغداد

والمجتمع العباسي المبكر، ترجمة وتقديم. نقولا زياده، مركز دراسات الوحدة العربيـة، الطبعـة الأولى، بيروت، ٢٠٠٣. ٣٦٤ص. كما يقدم السيد/ محمد زايد عبد الله عرضا لرسالة الماجستير الخاصة به، وهي عن العلاقات البيزنطية الألمانية ٩٦٢-١٠٥٩م. وتقدم الدكتورة ماريا فـايوو عرضا لكتاب لبرنارد لويس باللغة الانجليزيـة بعنـوان، B. Lewis, *A Middle East Mosaic. Fragments of Life, Letters and History* (New York 2001).

ولا يسع هيئة تحرير الحولية في نهاية هذه الكلمة إلا أن تشكر الـدكتور طـارق منصور، نائب رئيس تحرير الحولية، على دأبه وصدق عمله وتفانيه في جمع هذه المـادة العلمية التي ضمها هذا العدد من الحولية، ومباشرة أمور الطباعة بدقة بالغة، فله مـن إدارة السمنار وهيئة تحرير الحولية كل الشكر والتقدير ودوام التوفيق. وكذلك لا يفوتها أن تتقـدم بخالص الشكر للدكتور عبد العزيز رمضان على الجهد الكبير الذي قام به في متابعة أعمال "السمنار" وتفانيه في جمع مادة العدد العلمية أيضا.

وإنه مما يسعد أمانة السمنار وهيئة تحرير الحولية ببالغ السـعادة أن تتلقـي كـل الملاحظات والمقترحات التي تتناول الحولية بالنقد العلمي الهادف وصولاً بها إلـي مكانـة علمية مرموقة ترتجيها وإليها نسعى.

هيئة تحرير الحولية

أ.د. أحمد رمضان أحمد

علم من أعلام التاريخ الإسلامي

د. طارق منصور و د. محاسن الوقاد

ولد الأستاذ الدكتور أحمد رمضان أحمد في القاهرة بتاريخ ١٩٤١/٨/١٩. وبعد أن أنهى دراسته الأساسية ، حصل على درجة الليسانس في الآداب دور مايو لسنة ١٩٧٠ من كلية الآداب-جامعة القاهرة، ثم حصل على درجة الماجستير في الآداب من قسم التاريخ بتقدير ممتاز من كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٧٤/٥/٢٩، ثم على درجة الدكتوراه في الآداب من قسم التاريخ بتقدير مرتبة الشرف الاولى من كلية الآداب جامعة القاهرة في ١٩٧٦/١٠/٢.

أما عن حياته الوظيفية فقد عمل مدرساً بكلية الآثار جامعة القاهرة في الفترة من ١٩٧٦/١١/٢٤ وحتى ١٩٧٧/٨/٧؛ ثم عين في وظيفة مدرس تاريخ إسلامي بقسم التاريخ من ١٩٧٧/٥/٣٠ ، ثم عين بقسم التاريخ أستاذاً مساعداً بكلية الآداب جامعة عين شمس من ١٩٨٢/٤/٢٩. ثم أصبح أستاذاً للتاريخ الإسلامي بقسم التاريخ كلية الآداب جامعة عين شمس من ١٩٨٧/٧/٢٧ وحتى تاريخه.

وقد شارك ا. د. أحمد رمضان في عدد من المؤتمرات العلمية المحلية والإقليمية والدولية، هذا بالإضافة إلى عضويته في عدد من المؤسسات والجمعيات العلمية في مصر والوطن العربي. وللأستاذ الدكتور احمد رمضان مجموعة كبيرة من الدراسات والبحوث والمؤلفات التاريخية نذكر منها ما يلي:

- **أبحاث ألقيت في مؤتمرات علمية ونشرت في مجلات علمية:**

١. مصر وأسطورة البحر الأحمر ألقى في المؤتمر العالمي للبحر الأحمر الذي انعقد بجامعة عين شمس في ١٩٧٩/٣/١٥م.

٢. المسجد الأموى بدمشق بين الحقيقة والأسطورة كما جاء فى تاريخ دمشق لابن عساكر ألقى فى المؤتمر العالمى المنعقد بدمشق للاحتفال بذكرى مؤرخ دمشق الكبير ابن عساكر ١٩٨٠ وقد نشر البحث فى العدد الرابع للسنة الخامسة فى رجب (١٤٠٠هـ -يونيه ١٩٨٠ م) من مجلة الدارة التي تصدرها المملكة العربية السعودية.

٣. النقود والسكة فى بلاد الشام فى العصرين الايوبى والمملوكي نشر بمجلة كلية الآثار جامعة القاهرة العدد الثانى ١٩٧٧

٤. العمائر الدينية ببلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية نشر ضمن الكتاب الذهبي لكلية الآثار جامعة القاهرة ١٩٧٨.

٥. الكهف والرقيم فى التاريخ والآثار نشر بمجلة الدارة فى العدد الثاني للسنة الرابعة (١٣٩٨ هـ _ ١٩٧٨ م)

٦. الصوة وصنعة الأميال نشر بالمجلة العلمية التي تصدر بالمملكة العربية السعودية العدد السابع للسنة الثالثة.

٧. بيت المقدس والخليل نشر ضمن أبحاث مركز دراسات الشرق الأوسط.

٨. حول وسائل الصراع المسلح الإسلامي الصليبي فى العصور الوسطى بمجلة المستقبل العربي العدد مائة واثنان أغسطس ١٩٨٧

٩. المدارس والمذهب الشافعي مجلة كلية الآثار العدد رقم ١٩٨٨.

١٠. حول المقاومة الشعبية الإسلامية ضد الصليبيين زمن صلاح الدين الأيوبي بحث تحت النشر

o الكتـــــــب:

١. حضارة الدولة العربية نشر الجهاز المركزي للكتب الجامعية ١٩٧٨.

٢. حضارة الدولة العباسية نشر الجهاز المركزي للكتب الجامعية ١٩٧٨.
٣. نشر وتحقيق مخطوطة "إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى" تأليف أبو عبدا لله محمد شهاب الدين المتهاجى شمس الدين السيوطي وقد خرجت فى جزئين نشر الهيئة العامة للكتاب.
٤. كتاب "الخلافة فى الحضارة الإسلامية" نشر دار البيان العربي جدة المملكة العربية السعودية.
٥. كتاب "الرحالة والراحلة المسلمون" نشر دار البيان العربي جدة المملكة العربية السعودية.
٦. تطور علم التاريخ الاسلامى حتى نهاية العصور الوسطى نشر الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٩.
٧. تاريخ فن القتال البحرى فى البحر المتوسط فى العصر الوسيط نشر وزارة الثقافة هيئة الآثار.
٨. نشر وتحقيق " الايجازات والتوقيعات المخطوطة فى العلوم النقلية والعقلية من القرن ٤ هـ/ ١٠م إلى ١٠هـ/ ١٦ م نشر وزارة الثقافة هيئة الآثار.
٩. تحقيق المخطوطة المعروفة بعهد الخليفة الحاكم بأمر الله نشر وزارة الثقافة هيئة الآثار.
١٠. نشر وتحقيق الوثيقة رقم ٢٦٥٥ المحفوظة بالمتحف القبطي بالقاهرة نشر وزارة الثقافة هيئة الآثار.

وبعد ...كانت هذه رحلة قصيرة بين مؤلفات عالم جليل عرف بين أقرانه بغزارة العلم وسمو الخلق والالتزام الشديد والدقة المتناهية... ولا نملك إلا الدعاء له بالصحة والعافية ودوام العطاء.

أولا: القسم العربي

أ. البحوث والدراسات

تجارة الكتب عند العرب المسلمين
في القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين

د. سيف شاهين خلف المريخي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة قطر، دولة قطر

ملخص الدراسة:

تتناول هذه الدراسة تجارة الكتب عند العرب المسلمين في القرنين الثالث والرابع الهجريين/التاسع والعاشر الميلاديين، وتبحث في تطور اهتمام العرب المسلمين بالكتب والورق وعنايتهم بهما، وتسلط الضوء على أهم مراكز وأسواق الكتب في الدولة العربية الإسلامية. كما تتعرض الدراسة لطرق ووسائل تسويق الكتب وتتحدث عن أشهر تجار الكتب وتتطرق إلى أسعار الكتب في ذلك العصر. وقد أسفرت الدراسة عن عدة نتائج عرضها الباحث في نهاية الدراسة.

هدف الدراسة:

أن الهدف الرئيسي من هذه الدراسة هو التعرف على تجارة الكتب وتُجارها ومراكزها ووسائل انتقال الكتب وتوضيح الدور الذي أسهمت به هذه التجارة خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين/التاسع والعاشر الميلاديين في العناية بالتراث العربي الإسلامي وحفظه ونشره وتسهيل وقوف العلماء والأدباء عليه في جميع أرجاء الدولة العربية الإسلامية من تخوم الصين شرقا وحتى بلاد الأندلس غربا.

أهمية الدراسة:

تبرز أهمية هذه الدراسة من جوانب متعددة منها:

١- أنها تحاول الكشف عن دور الكتاب كسلعة تجارية رئيسية في تحقيق التقارب الفكري ودعم الروابط الثقافية بين الشعوب المسلمة.

٢- وهي تظهر كذلك أبعاد التطور الاقتصادي في الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي وأثره على تطور الحياة العلمية والثقافية والاجتماعية في المجتمع الإسلامي.

٣- وهي تكشف أيضا عن الدور الذي أسهت به تجارة الكتب في تطوير النشاط الاقتصادي في الدولة العربية الإسلامية.

وقد سعى الباحث في تناوله لهذه الدراسة إلى تتبع وتقصي تفاصيل تطور تجارة الكتب في العصر العباسي حسب مراكز الإنتاج ووسائل التسويق والأسعار وغيرها من

الأنشطة التجارية المختلفة من مصادرها الأولية والربط بين ظواهرها وتحليل العوامل المؤثرة فيها وتفسيرها وإيضاح تأثيرها في المجتمع ثم استخراج النتائج منها.

وتغطي الدراسة العصر العباسي وبالتحديد المرحلة الزمنية الممتدة من أوائل القرن الثالث الهجري الموافق للتاسع الميلادي وحتى أواخر القرن الرابع الهجري الموافق للعاشر الميلادي وتشمل رقعة جغرافية واسعة من حدود الدولة العربية الإسلامية التي كانت تمتد من تخوم الصين شرقا إلى الأندلس غربا.

تمهيد:

إن من أبرز سمات التقدم العلمي للعرب المسلمين في العصر العباسي اهتمام الخلفاء والأمراء والوزراء بالكتب وولعهم بجمعها وحفظها، فكانوا يرسلون الرسل في طلبها إلى أنحاء مختلفة من العالم. ولقد أسهم هذا الاهتمام في ازدهار حركة التأليف والنشر وتأسيس العديد من المكتبات العامة والخاصة في أنحاء مختلفة من العالم الإسلامي، كما أسهم كذلك في نشر الثقافة والعلوم، وتشجيع الناس على اقتناء الكتب، والاستفادة منها في الأخذ بأسباب العلم والمعرفة. ولقد أصبحت بغداد في العصر العباسي من أهم المراكز لنسخ الكتب وتجليدها وبيعها. وكانت أسواقها تحتوي على العديد من الحوانيت المخصصة لبيع الكتب. كما حظيت تجارة الكتب باهتمام العديد من طبقات المجتمع وفي مقدمتهم العلماء والأدباء والأطباء والفلاسفة وأنصرف الكثير منهم إلى امتهانها رغبة في الاستفادة من مضمونها والتكسب منها.

العناية بالكتب في العصر الأموي:

يعود تاريخ تأسيس المكتبات والاهتمام بترجمة تراث الأمم السابقة إلى عصر الدولة الأموية. وتذكر المصادر التاريخية أن الخليفة معاوية (٤١-٦٠هـ/٦٦١-٦٧٩م) أول خليفة أموي ينشئ خزانة كتب تحتوي على مصنفات في العلوم المختلفة. والغالب أنها كانت متخصصة في الحكم والأمثال وسير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد. وكانت تسمى بيت الحكمة. وقد خصص لها أناس يعملون فيها ويشرفون على تنظيمها. ويصف المسعودي طاقم المكتبة فيقول: غلمان مرتبون، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها[1]. أما طريقة تزويد المكتبة بالمصنفات فتتم أما بتكليف من الخليفة حيث يطلب الخليفة معاوية من أحد الأدباء أو العلماء التأليف في موضوع معين كما هو الحال عندما أستدعى الخليفة معاوية عبيد بن شرية الجرهمي من اليمن وأمره بوضع كتاب الملوك وأخبار الماضين[2] أو عن طريق الإهداء فقد

---

1 مروج الذهب، ج٣، ص ٣١.

2 ابن النديم، الفهرست، ص ١٨٠.

ذكر ابن الزبير أن ملك الصين أهدى معاوية كتابا من أسرار علومهم فيقال أنه صار بعد ذلك إلى خالد بن يزيد بن معاوية. وكان يعمل منه الأعمال العظيمة من الصنعة (الكيمياء) وغيرها[٣]. وممن أشتهر من أصحاب التصانيف من الإخباريين والنسابين أيام الخليفة معاوية صحار العبدي. كان صحار عثمانيا من عبد القيس وله كتاب أسماه الأمثال[٤]. كما لا يفوتنا هنا أن نشير إلى الكتاب الذي ألفه زياد بن أبيه في المثالب وهو أول كتاب في المثالب. والدافع إلى تأليفه هذا الكتاب كما يقول ابن النديم " أنه لما طعن عليه وعلى نسبه عمل ذلك ودفعه إلى ولده وقال: استظهروا به على العرب فأنهم يكفون عنكم"[٥]. وتحدث الشهرزوري عن الكتب التي عملها الفيلسوف والطبيبُ يحيى النحوي الاسكندراني لكل من الخليفة عثمان (٢٤-٣٥هـ/٦٤٤-٦٥٥م) والخليفة معاوية. من بينها كتاب نقض به مذاهب أرسطو وكتاب آخر رد فيه على أبرقلس. ولقد وصل إليه من الخلفاء مقابل تصنيفه هذه الكتب بضعة عشر ألف دينار[٦]. كما عرف عن الخليفة يزيد بن معاوية (٦٠-٦٤هـ/٦٧٩-٦٨٣م) ولعه بأيام العرب وأحاديثها. ومن أهم سُماره عُلاقة بن كرشم الكلابي صاحب كتاب الأمثال [٧]. وأغلب الظن أن عُلاقة صنف هذا الكتاب بأمر من الخليفة يزيد.

هذه بعضا من نماذج الكتب التي كانت تحتوي عليها خزانة الكتب في عصر الخليفتين معاوية وابنه يزيد. ولقد انتقلت هذه الخزانة إلى خالد بن يزيد بن معاوية (ت. ٨٥هـ/٧٠٤م) الذي اشتهر بحبه وولعه بالكتب وجمعها. وكان خالد عالما بصناعة الطب وصناعة الكيمياء وعلم النجوم وله عدة رسائل وأشعار نقلت عنه أو نسبت إليه في هذه المجالات ذكرها ابن النديم [٨].

ولقد استمرت خزانة الكتب الأموية في التوسع والتطور نتيجة لاهتمام الخلفاء الذين جاؤوا بعد معاوية بتزويدها بكتب الحديث الشريف والشعر والتاريخ والكيمياء والفلك والطب. ففي خلافة مروان بن الحكم (٦٤-٦٥هـ/٦٨٣-٦٨٤م) أُضيف إلى مجموعات الخزانة كتاب

---

3 الذخائر والتحف، ص ١٠.

4 ابن النديم، الفهرست، ص ١٨٠.

٥ ابن النديم، الفهرست، ص ١٧٩.

٦ انظر نزهة الأرواح، ج٢، ص ٢٠.

7 ابن النديم، الفهرست، ص ١٨٠.

8 كان خالد بن يزيد بن معاوية يسمى حكيم ال مروان، وكان فاضلاً في نفسه وله همة ومحبة للعلوم. ابن النديم، الفهرست، ص ٥٠٣، ٦٨٠.

أهرن القس[9] في الطب وهو كناش (مجموع) فاضل من أفضل الكنانيش القديمة ترجمه إلى العربية الطبيب السرياني ما سرجويه (١٠). وفي خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٤م) أصبح لخزانة الكتب خازن يتولى الإشراف عليها. كما خصص لها ناسخ حسن الخط يقوم بنسخ الكتب(١١). ولما تولى عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ/٧١٧-٧١٩م) الخلافة وجد في خزانة الكتب كتاب أهرن القس في الطب. وكان يريد أن يستفيد منه جميع الناس. فأمر بإخراجه ووضعه في مُصلاه فاستخار الله في إخراجه للمسلمين للانتفاع به، فلما أتم له في ذلك أربعين صباحا أخرجه إلى الناس وبثه في أيديهم (١٢). واستدعى الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥/٧٢٣-٧٤٢) من الكوفة حماد الراوية [13]الذي جمع السبع الطوال ودفع له خمسمائة دينار وجاريتين وعشرة من الخدم مع كل واحد منهم بدرة، كل ذلك مقابل أن يخبره باسم الشاعر صاحب البيت التالي:

ودَعَوْا بالصَّبُوحِ يَوْماً فجاءَتْ قَيْنَةٌ فِي يَمينِها إبريقُ (١٤)

ولما انتقلت الخلافة من الأمويين إلى العباسيين انتقلت خزانة الكتب إلى الخلفاء العباسيين الذين اهتموا بها وأضافوا إليها المزيد من الكتب حتى أصبحت النواة الأولى لدار

---

[9] أهرن القس: من أهل الاسكندرية وهو من مشاهير الاطباء السريان وله كناش في الطب يتألف من ثلاثين مقاله نقله إلى العربية في عصر الدولة الأموية الطبيب ماسرجويه واضاف إليه مقالتين. للمزيد انظر ابن النديم، الفهرست، ص ٥٩١؛ القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٨٠؛ ابن جلجل، طبقات الأطباء، ص ٦١-٦٢.

[10] ماسرجويه: طبيب سرياني يهودي المذهب عاش زمن الدولة الأموية وقام بترجمة كتاب أهرن القس في الطب. له مصنفات منها: كتاب قوى الاطعمة ومنافعها ومضارها وكتاب قوى العقاقير ومنافعها ومضارها. للمزيد انظر، صاعد، طبقات الأمم، ص ١١٠؛ القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٣٢٤-٣٢٥.

[11] العش، دور الكتب، ص ٤٩-٥٠.

[12] ابن جلجل، طبقات الأطباء، ص ٦١.

[13] هو أبو القاسم حماد بن سابور بن المبارك بن عبيد، كان راوية للاخبار والاشعار والانساب في أيام الوليد بن عبد الملك وعاش إلى سنة ١٥٦هـ/٧٧٢م. للمزيد انظر ابن النديم، الفهرست، ص ١٨٢-١٨٣؛ الأنباري، نزهة الألباء، ص ٣٥-٣٩.

[14] الأنباري، نزهة الألباء، ص ٣٧، والبيت للشاعر عدي بن زيد.

الحكمة التي تأسست في عصر الرشيد[١٥] (١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٩م) ووصلت إلى أوج ازدهارها في عصر المأمون[١٦] (١٩٨-٢١٨هـ/٨١٣-٨٣٢م).

صناعة الورق وأثرها في ازدهار تجارة الكتب:

أما الورق فكان العرب المسلمين يستوردونه من الصين وسمرقند. وقد بدأ استخدامه منذ عهد الدولة الأموية(١٧). وكان الإقبال عليه يتزايد مع ظهور حركة التأليف والنشر في العالم الإسلامي في العصر الأموي، لكن ثمنه وصعوبة الحصول عليه كانا يشكلان عائقا كبيرا أمام انتشاره واستخدامه. ولما انتعشت حركة الترجمة في عصر الخليفة العباسي هارون الرشيد قام العرب المسلمين بإدخال صناعة الورق إلى بغداد. ويعود الفضل في إدخال صناعة الورق إلى العالم الإسلامي إلى الوزير الفضل بن يحيى البرمكي. وتذكر المصادر الإسلامية أنه في سنة ٩٤هـ/٧١٢م فتح العرب المسلمون سمرقند وفي سنة ١٣٣هـ/٧٥٠م قام سكانها من الترك والصينيون بثورة ضد الحكم الإسلامي فأخمد المسلمين الثورة وأسروا أعددا كبيرة من الأسرى من جملتهم عددا من الصينيين الذين كانوا يعرفون طريقة صناعة الورق فنقلوهم إلى بغداد حيث اشتراهم الفضل بن يحيى وأنشأ لهم معملا لصناعة الورق واستخدمهم فيه(١٨). ومنذ ذلك الوقت انتشر وشاع بين الناس استخدام الورق وأصبح متوفرا ورخيصا حتى أن الخليفة هارون الرشيد أمر بأن لا يستخدم في الكتابة إلا

---

[15] أهتم الخليفة هارون الرشيد بالكتب وكان يرسل إلى الأمصار في طلبها وقد جلب معه عند عودته من إحدى الحملات على بلاد الروم مجموعة من كتب اليونان في الطب ووضعها في خزانة خاصة وعين عليها خازنا وامينا ومترجمين يقومون بترجمتها إلى العربية. انظر القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٣٨٠.

[16] يذكر ابن النديم أن من أهم الاسباب التي شجعت المأمون على نقل تراث اليونان حلما رآه في منامه كأن رجلاً ابيض اللون مشرباً حمرة، واسع الجبهة، مقرون الحاجب أحلج الرأس، أشهل العينين، حسن الشمائل، جالس على سريره. قال المأمون: وكأني بين يديه قد ملئت منه هيبة فقلت: من أنت، قال: أنا أرسطاليس. فسررت به وقلت: أيها الحكيم أسالك، قال: سل. قلت: ما الحس، قال: ما حسن في العقل. قلت: ثم ماذا. قال: ما حسن في الشرع. قلت: ثم ماذا. قال: ما حسن عند الجمهور. قلت: ثم ماذا. قال: ثم لا ثم. وفي رواية أخرى قلت: زدني. قال: من نصحك في الذهب، فليكن عندك كالذهب. وعليك بالتوحيد. فكان هذا المنام من أوكد الأسباب في اخراج الكتب. الفهرست، ص ٥٠٤؛ وانظر القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٢٩.

[17] ابن النديم، الفهرست، ص ٤٨.

[18] البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤-٥-٤١٤؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مج١، ص٤٥٢؛ الكروي وشرف الدين، المرجع في الحضارة العربية الإسلامية، ص ١٧٩-١٨٣.

الورق ويستغنى عن غيره من الرق. واللخاف وعسب النخل والبردي التي يسهل تزويرها بخلاف الورق فأنه متى مُحي منه فسد، وأن كشط ظهر كَشْطُه[١٩].

ولقد تعلم العرب المسلمين صناعة الورق ومارسوها في بغداد وأسهموا في تطوير صناعتها ونقلوها إلى أنحاء مختلفة من العالم الإسلامي. وأصبحت للورق متاجر خاصة يباع فيها وأطلق على من يتعاطى صناعة الورق أو نسخ وتجليد الكتب أو الاتجار بها اسم الورّاق[٢٠]. وقد عرف بهذه النسبة العديد من العلماء والأدباء الذين كان لهم قصب السبق في ممارسة هذه المهنة وخدمة العلماء وطلاب العلم منهم على سبيل المثال: أبو عبد الله أصبغ بن يزيد الورّاق الجهني الواسطي و أبو حفص عمر بن جعفر بن أبي السّري الورّاق البصري الحافظ ومحمود بن الحسن الورّاق الشاعر[٢١] وعبد الله بن أبي سعيد أبو محمد الورّاق وجعفر بن أحمد بن معبد الورّاق[٢٢]. وحارث الورّاق[٢٣] وأبو إسحاق إبراهيم بن صالح الورّاق [٢٤] وغيرهم.

وفي ضوء ما تقدم يمكن القول أن من أهم العوامل التي أسهمت في تنشيط تجارة الكتب وازدهارها عند العرب المسلمين في القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين

١- تأسيس المكتبات وتشجيع الإنتاج العلمي العربي الإسلامي والاهتمام بترجمة تراث الأمم السابقة في الطب والعلوم والفلسفة.
٢- شيوع استخدام الورق وإزهار مهنة الوراقة في العالم الإسلامي

---

[19] القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص ٤٨٦.

[20] جاء في لسان العرب أن: الورَقُ: أُدم رقاقٌ، واحدتها ورَقة، ومنها ورَقُ المصحف، وورَقُ المصحف وأوْراقُه: صحفه، الواحد كالواحدة، وهو منه. والورّاقُ: معروف، وحرفته الوِراقةُ. ورجل ورّاق: هو الذي يُوَرِق ويكتب. للمزيد انظر ابن منظور (مادة ورق)؛ وانظر أيضا ابن النديم، الفهرست، ص ٤٨.

[21] الجزري، اللباب، ج٣، ٣٥٧-٣٥٨.

[22] ابن الجوزي، المنتظم، ج٥، ص ٩٣ وانظر ايضا ص ١٤٦.

[23] ابن النديم، الفهرست، ص ٣٦٣.

[24] ياقوت، معجم الأدباء، ج٢، ص ٦٥٨.

أسواق الورق والكتب في العالم الإسلامي:

بغداد:

نعد بغداد من أهم أسواق الكتب في العالم الإسلامي في العصر العباسي. ولقد كانت بغداد في العصر العباسي حاضرة الخلافة وأهم المراكز التجارية في الدولة العباسية. وقد اشتهرت المدينة بالعلم والثقافة. وكان العلماء والأدباء وطلاب العلم يقصدونها من كل حدب وصوب للالتقاء بعلمائها وملازمتهم والأخذ منهم والاستفادة من براعتهم وقدراتهم في تحصيل العلم والعناية به ونشره. وقد بلغ عدد حوانيت والوراقين وأصحاب الكتب في منطقة واحدة في بغداد أكثر من مائة حانوت (٢٥). وتقع هذه الحوانيت بالجانب الغربي من المدينة بالقرب من قصر وضّاح صاحب خزانة السلاح عند الخليفة أبي جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/٧٥٣-٧٧٥م). وبالإضافة إلى هذه الحوانيت انتشرت في بغداد حوانيت أخرى لنسخ وبيع الكتب في مناطق متفرقة من المدينة منها على سبيل المثال طاق الزبل حيث يوجد حانوت الوراق سندي بن على الذي وضع كتاب الأغاني الكبير المنسوب لإسحاق بن إبراهيم الموصلي.[٢٦] وكذلك طاق الحراني بالكرخ التي بيعت فيها سنة ٢٧٤هـ/٨٨٧م كتب جعفر بن أحمد المروزي التي جلبت من الأهواز بعد وفاته (٢٧). كما وردت الإشارة إلى سوق الورّاقين الذي يقع في الجانب الشرقي من مدينة بغداد (٢٨).

البصرة:

ومن المدن التي ازدهرت فيها الحياة العلمية وانتشرت فيها أسواق الكتب مدينة البصرة. فقد عاش في البصرة ونبغ فيها عددا من العلماء والفقهاء والأدباء الذين امتهنوا الوراقة وبيع الكتب والاتجار بها من أشهرهم علي بن المغيرة الأثرم أبو الحسن(٢٩). كما عرفت البصرة بخزائن الكتب منها على سبيل المثال خزانة الوقف وخزانة دار الكتب التي أنشأهما أبو علي بن سوار الكاتب من رجال الأمير عضد الدولة وخزانة كتب الوزير بن شاه مردان(٣٠). وكانت هذه الخزائن تحتوي على الكثير من نفائس الكتب في شتى العلوم. ومن

---

[25] اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ١٧.

[26] للمزيد انظر ابن النديم، الفهرست، ص ٢٧٢.

[27] ابن النديم، الفهرس، ص ٢٨٦؛ ياقوت، معجم الأدباء، ج٢، ص ٧٧٧.

[28] ابن النديم، الفهرست، ص ٢٧٨؛ ياقوت، معجم الأدباء، ج١، ص ٢٨٣.

[29] ياقوت، معجم الأدباء، ج٥، ص ١٩٧٠.

[30] عواد، خزائن الكتب القديمة في العراق، ص ١٣٧-١٣٨؛ وانظر أيضا العش، دور الكتب العربية، ص ١٧٢. وللمزيد عن المكتبات في العراق في عهد الدولة البويهية انظر؛

أشهر الكتب التي بيعت في أسواق البصرة كتاب العين للخليل بن أحمد. وفي ذلك يقول ابن النديم نقلاً عن أبو بكر بن دريد: وقع في البصرة كتاب العين سنة ثمان وأربعين ومائتين، قدم به وراق من خراسان، وكان في ثمانية وأربعين جزءاً. وكنا نسمع بهذا الكتاب أنه بخراسان في خزائن الطاهرية حتى قدم به هذا الوراق. وكان الخلفاء الأمويون في الأندلس يبعثون وكلاء متخصصين إلى أسواق الكتب في بغداد والبصرة لشراء واستنساخ كل جليل ونفيس من مصنفات أهل المشرق(٣١).

خراسان وبلاد ما وراء النهر:

وفي خراسان وبلاد ما وراء النهر ازدهرت أسواق الكتب في مدن بخارى وسمرقند ونيسابور. ويعد سوق الكتب في بخارى أكبر هذه الأسواق وأكثرها شهرة. ومن هذا السوق اشترى ابن سينا كتاب " ما بعد الطبيعة " للفارابي (٣٢). وتشتهر سمرقند بإنتاج الكاغد الجيد (٣٣)، الذي كان يصدَّر إلى العراق ومصر وغيرها من بلدان العالم الإسلامي(٣٤). وكان سوق الكتب في سمرقند يحظى بإقبال كبير من لدن العلماء وأهل الكتب وتجارها ويذكر ياقوت أن نسخاً من ديوان الشاعر عطاء بن يعقوب باللغة العربية واللغة الفارسية تباع في أسواق خراسان بأوفر الأثمان(٣٥). كما بيعت في نيسابور نسخة من كتاب الصحاح للجوهري وحملت إلى جرجان(٣٦). وحملت تصانيف أبن الحسن الطبيب البغدادي إلى خراسان، حملها عبد الوهاب النيسابوري تلميذه (٣٧). ومن الأمور التي أسهمت في رواج تجارة الكتب في أسواق بخارى وسمرقند ونيسابور كثرة المدارس ومجالس العلم التي كانت تعقد في المساجد والمنازل والتي كان يقصدها الناس من أنحاء مختلفة من خراسان وبلاد ما وراء النهر الأمر الذي استوجب توفير الكتب والعمل على نسخها وبيعها.

Kabir , Libraries and Academies during the Buwayhid Period, *Islamic Culture*, vol. 33/1(January,1959).

31 المقري، نفح الطيب، ج١، ص ٣٧٠؛ احمد بدر، الحياة الفكرية في الأندلس، مجلة دراسات تاريخية، العددان التاسع عشر والعشرون، نيسان- تموز ١٩٨٥، ص ١١١.

32 القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٤١٥-٤١٦؛ البيهقي، تاريخ حكماء الإسلام، ص ٥٥ ؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الابصار، ج٩، ص ٥٩.

33 ابن الفقيه، كتاب البلدان، ص ٥١٢.

34 ياقوت، معجم الأدباء، ج٢، ص ٧٨٧؛ القزويني، آثار البلاد واخبار العباد، ص ٥٣٦.

35 ياقوت، معجم الأدباء، ج٤، ص ١٦٢٣.

36 ياقوت، معجم الأدباء، ج٢، ص ٦٦٠.

37 البيهقي، تاريخ حكماء الإسلام، ١٤٦.

مصر:

وكانت الفسطاط من المدن العظيمة بمصر والمشهورة بكثرة أسواقها. وكانت مصر تنتج ورق البردي[٣٨] الذي كان يطلق عليها أسم القراطيس[٣٩] وتصدرها إلى أماكن مختلفة من العالم منذ العصور القديمة. وكان البردي في العصر العباسي يلقى إقبالاً كبيرا من الخلفاء والعلماء والأدباء. وتذكر المصادر أن الخليفة العباسي المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ/٨٣٣-٨٤٢م) جلب من مصر أثناء بناء سامراء سنة ٢٢١هـ/٨٣٦م عددا من صناع القراطيس(٤٠). وأمرهم بصناعتها فلم يخرج منها إلا الخشن الرديء الذي لا يصلح للكتابة عليه(٤١). ولقد استمر استخدام ورق البردي في بغداد حتى بعد ظهور الورق الصيني وانتشاره في بغداد في عصر الخليفة الرشيد ثم شيوعه بعد ذلك في العالم الإسلامي. وكانت القراطيس المصرية هي البديل المناسب عندما ينقص ويقل المدد من الورق الصيني والسمرقندي في بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية. وكانت سوق الكتب في الفسطاط من أهم المراكز الثقافية والحضارية في مصر في العصر العباسي. حيث كانت تحفل بالعديد من الأنشطة العلمية والأدبية مثل المناظرات والمناقشات والمساجلات الشعرية والمجالس العلمية وغيرها من الأنشطة الثقافية. وينقل أبو سديرة من مخطوط عن ابن زولاق ازدهار نسخ المصنفات في العلوم المختلفة وبيعها في سوق الوراقين في الفسطاط (٤٢). كما ازدهر بيع الكتب في القاهرة ولاسيما زمن الطولونيين والأخشيديين وكانت هذه السوق مركزا للمناقشات والمناظرات العلمية (٤٣). وكانت تقع في اتجاه الجانب الشرقي من جامع عمرو بن العاص في أول زقاق القناديل بجوار دار عمرو(٤٤). وبالإضافة إلى أسواق الكتب في الفسطاط والقاهرة انتشرت وازدهرت أسواق الكتب في الإسكندرية ودمياط وتنيس. وكانت كتب العالم

---

[38] البردي: هو الخوص، ويعرفه أهل مصر بالفافير، وهو نبات ينبت في الماء. له خوص كخوص النخل، وله ساق طويلة خضراء إلى البياض، عليها مقلة كبيرة، يتخذ منه كاغد ابيض بمصر، ويقال له القراطيس. للمزيد انظر ابن رسول، المعتمد في الأدوية، ص ٢٠.

[39] جاء في اللسان أن القرطاس: معروف يُتّخذ من بردي يكون بمصر. انظر ابن منظور، مادة (قرطاس).

[40] اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٣٤.

[41] ابن الفقيه، كتاب البلدان، ص ٥١٤.

[42] أبو سديرة، الحرف والصناعات في مصر الإسلامية، ص ٨٤.

[43] حمادة، المكتبات في الإسلام، ص ٨٠.

[44] المقريزي، الخطط المقريزية، ج٢، ٣٦٦-٣٦٧.

اللغوي علي بن الحسن الهنائي تباع في أسواق مصر وكان الإقبال عليها كبير.[٤٥] ويعد ناصر بن أبي الحسن المعروف بابن صورة من أشهر سماسرة الكتب في مصر. كما اشتهر بجمع الكتب من أهل مصر القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني وقد بلغ عدد الكتب في مكتبته نحو ١٢٠ ألف كتاب من ضمنها وربما أجلها مصحف عثمان بن عفان[٤٦].

بلاد الشام:

وفي بلاد الشام ازدهرت أسواق الورق والوراقين في دمشق وطرابلس[٤٧]وحماه وحلب ومنبج وطبرية وغيرها من المدن[٤٨]. وكان الورق الشامي يفوق في الشهرة والإتقان الورق المصري[٤٩]. وعن طريق أهل الشام وصل الورق إلى الأندلس وصقلية[٥٠]. ومعروف أنه حيثما ازدهرت صناعة وإنتاج الورق تنشأ وتزدهر محلات الكتب وتجليدها والعناية بها وبيعها. ومما يدل على ثراء وازدهار أسواق الكتب في بلاد الشام عدد المكتبات وخزائن الكتب الملحقة بالجوامع والمدارس ودور الحديث والبيمارستانات (المشافي) بدمشق وحلب[٥١]. وغيرها من المدن الشامية والتي كان جل الكتب الموجودة فيها أوقاف قام أصحابها بتصنيف بعضها وشراء وجمع البعض الأخر من الأسواق المحلية. وكان ممن أشتهر من أهل الشام من العلماء بولع اقتناء الكتب محمد بن عبد الرحمن بن مسعود البنجديهي النحوي. يقول عنه ياقوت الحموي: "حصل كتباً لم تحصل لغيره ووقفها بخانقاه السميساطي"[٥٢]. واشتهر أيضاً المحدث الصوفي علي بن مسعود بن نفيس بن عبد الله الموصلي الذي عني بالحديث وكان

---

45 ابن النديم، الفهرست، ص ١٦٥؛ ياقوت، معجم الأدباء، ج٤، ص ١٦٧٣.

46 المقريزي، الخطط المقريزية، ج٢، ص ٣٦٦-٣٦٧.

47 ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٣.

48 المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٤-١٥٥ ؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص ٤٧٨.

49 القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص ٤٨٧ ؛ زيات، الوراقة وصناعة الكتابة، ص٩٢؛ كرد علي، خطط الشام، ج٤، ص٢٢٢.

50 كرد علي، خطط الشام، ج٢، ص ٢٢٣.

51 للمزيد عن خزائن الكتب في العراق ومصر وبلاد الشام أنظر العش، دور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط، ص ١٩١-٢٩٤.

52 معجم الأدباء، ج٦، ص ٢٥٤٩-٢٥٥٠.

يجوع ويشتري الكتب ويتعفف بكسرة [٥٣]. ومن أشهر التصانيف التي عرضت للبيع في سوق الكتب في دمشق نسخة من ديوان ابن هاني الأندلسي[٥٤].

القيروان:

وكانت القيروان من أشهر المدن الأفريقية في العصر العباسي، وكان العلماء يطلقون عليها أسم دار العلم[٥٥] بالمغرب. وكان يخرج إليها العديد من العلماء من المشرق ومن الأندلس طلباً للعلم والالتقاء بأكابر العلماء من أهل القيروان من أمثال سهم بن إبراهيم الورّاق، والحسن بن محمد التميمي القاضي التاهرتي، والحسن بن رشيق القيرواني وسماعهم والأخذ منهم. ولقد أشار صاحب كتاب " رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية " إلى انتشار حوانيت بيع الكتب في القيروان وكان يجلس فيها العلماء يناقشون فيها المسائل الدينية ويتبادلون فيها الآراء العلمية [٥٦].

فاس:

وتعد مدينة فاس من أهم المراكز الحضارية في المغرب الأقصى وكان لها شأن كبير في النشاط التجاري بين مدن المغرب الأقصى وبين الأندلس من جهة وغانا في غرب أفريقية والمشرق الإسلامي من جهة أخرى. وتعرف مدينة فاس بإنتاج نوع من الورق يسمى الورق المغربي وهو يأتي في الجودة دون الورق الشامي والمصري[٥٧]. كما ازدهرت في المدينة حرفة الوراقين وكان لهم سوق خاص تباع فيه الكتب المحلية والكتب القادمة من الأندلس ومن المشرق الإسلامي. ولقد أشار الجزنائي إلى أبواب جامع القرويين بفاس وذكر باب الكتبيين[٥٨]. الذي تنتشر حوله حوانيت بيع الكتب في المدينة. وقد بلغ عدد محلات بيع الكتب في مدينة فاس نحو ثلاثين دكاناً [٥٩].

بلاد الأندلس:

ومن أسواق الكتب التي حظيت بشهرة كبيرة وكان لها دور بارز في ازدهار تجارة الكتب في العالم الإسلامي في القرنين الثالث والرابع الهجريين/التاسع والعاشر الميلاديين

---

[53] الحنبلي، شذرات الذهب، ج٦، ص ١٠.

[54] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٥، ص٤٤٦.

[55] المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ٤٤١.

[56] المالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، ج٢، ص ٤٦٧.

[57] زيات، الوراقة وصناعة الكتابة، ص ٩٩-١٠١.

[58] زهرة الاس في بناء مدينة فاس، ص ١١٣.

[59] الوزان الفاسي، وصف أفريقيا، ج١، ص ٢٣٣.

أسواق الكتب في الأندلس. لقد حبى الله الأندلس برجال شغفتهم القراءة واستهواهم الولع باقتناء الكتب والبحث عنها والسعي للحصول عليها وحفظها فأسسوا مكتبات كبيرة خاصة وعامة زودوها بنفائس المصنفات من المشرق والمغرب وكانوا يبذلون في سبيل الوصول إليها وشرائها أغلى الأثمان. ومن أشهر هؤلاء الرجال الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر[٦٠] (٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م) والخليفة الحكم الثاني المستنصر بالله [٦١] (٣٥٠-٣٦٦هـ/٩٦١-٩٧٧م) والأمير المظفر بن الأفطس (ت. ٤٦٠هـ/١٠٦٧م) صاحب بطليوس[٦٢]، والقاضي أبو المطّرف [٦٣] (ت.٤٠٢ هـ/١٠١١م). ومن الأمور التي أسهمت في رواج تجارة الكتب في الأندلس ازدهار صناعة الورق في مدينة شاطبة [٦٤]. وقد امتدح المقدسي براعة أهل الأندلس في صناعة الورق وقال: أهل الأندلس أحذق الناس في الوراقة [٦٥]. وتعد أسواق الكتب في مدينة قرطبة، أشهر أسواق تجارة الكتب في الأندلس. ويذكر المقري أن كتب العلماء بعد موتهم كانت تجلب من مختلف مدن الأندلس إلى قرطبة وتباع في

---

[60] يعد الخليفة عبد الرحمن الناصر من أشهر الأمراء الأمويين الذين اهتموا بجمع الكتب وشغفوا بها وبعثوا إلى الامصار في طلبها. وفي عصره قدم إلى الاندلس أبو علي القالي سنة ٣٣٠هـ/٩٤١م وجلب معه كتاب الأمالي. وفي عصره دخلت الكتب الطبية من المشرق، وجميع العلوم. للمزيد انظر الحميدي، جذوة المقتبس، ص ١٥٥ ؛ ياقوت، معجم الأدباء، ج٢، ص ٧٣١؛ ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، ص ٩٨.

[61] كان الخليفة الحكم الثاني المستنصر بالله من أصحاب الهمم العالية في جمع الكتب. يقول ابن الأبار: كان عادلاً مشغوفاً بالعلوم، حريصاً على دواوينها، يبعث فيها إلى الاقطار والبلدان، ويبذل في أعلاقها ودفاترها أنفس الأثمان. ونفق ذلك لديه، فحملت من كل جهة إليه... " الحلة السيراء، ج١، ص ٢٠٠؛ المقري، نفح الطيب، ج١، ص ٣٦٩؛ انظر كذلك،
Wasserstein , *The Library of Al-Hakam II* , pp.99-105.

[62] اشتهر المظفر بن الافطس صاحب بطليوس بحبه لأهل العلم وكان جماعة للكتب، ذا خزانة عظيمة. ابن الأبار، تكملة الصلة، ج١، ص ٣٩٣.

[63] عرف القاضي أبو المطرف بمشاركته في سائر العلوم، وتقدمه في معرفة الآثار والسير والأخبار،... وقد جمع من الكتب في أنواع العلم مالم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس... ابن بشكوال، الصلة، ج١، ص ٢٩٨.

[64] ياقوت، معجم البلدان، ج٣، ص ٣٠٩؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ج٢، ص ٥٥٦؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٣٣٧.

[65] المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٩٧.

أسواقها [66]. كما ازدهرت كذلك تجارة الكتب في مدينة أشبيلية وكان بها سوق خاص يطلق عليه اسم سوق الورّاقين ويحتوي على العديد من الحوانيت والسماسرة المتخصصين في شراء الكتب وبيعها وكان هذا السوق ملتقى للعلماء والأدباء [67].

طريقة تسويق الكتب وانتقالها وتداولها:

كان نقل الكتب من مكان إلى آخر وعرضها للبيع وتسويقها يتم بوسائل وأساليب متعددة يأتي في مقدمتها نشاط صاحب المصنف نفسه في البحث عن السوق المناسب لبضاعته وعرض الكتاب في البلدان والمدن التي تزدهر فيها الحضارة والفكر ويهتم أهلها بالعلم وبجمع الكتب وتأسيس المكتبات. ويذكر ياقوت أن العالم علي بن محمد بن يوسف بن خروف الأندلسي حمل كتابه شرح سيبويه إلى المغرب فاشتراه صاحب المغرب الأمير الناصر من بني عبد المؤمن بألف دينار وقيل أربعة آلاف درهم[68].

ومن وسائل تسويق الكتب استخدام المصنفين للوسطاء من أصحاب المراكز والنفوذ لعرض مؤلفاتهم على الأمراء والخلفاء كما هو الحال عندما عرض الوزير القاسم بن عبيد الله كتاب " تفسير جامع النطق " الذي صنفه أبو إسحاق الزجاج على الخليفة المعتضد(٢٧٩-٢٨٩هـ/٨٤٢-٩٠٢م) فاستحسنه الخليفة وأمر لمصنفه بثلاثمائة دينار [69]. وكان يحيى بن عدي المنطقي المشهور يرتزق بنسخ تفسير الطبري وغيره من المصنفات الجليلة. ينسخها بخط واضح جميل ويحمل النسخ إلى ملوك الأطراف [70] يعرضها للبيع ويجنى منها الأرباح الكثيرة.

ومن أساليبهم في نقل الكتب وتسويقها أن يحمل العلماء معهم في رحلاتهم العلمية المصنفات القيمة والمشهورة لمن سبقهم من زملائهم العلماء وعرضها للنسخ والبيع في مراكز وأسواق الكتب في بلدان المغرب والأندلس كالقيروان وفاس وقرطبة وإشبيلية وكذلك في مراكز وأسواق الكتب في أقطار المشرق الإسلامي مثل بغداد والبصرة ودمشق وغيرها. فقد حمل الأديب أبو الحسن الفالي نسخة من كتاب الجمهرة لابن دريد إلى تبريز وكان قد اشتراها في بغداد من القاضي أبي بكر ابن بُديّل[71]. ونقل أحد العلماء نسخة من كتاب المختصر

---

66 المقري، نفح الطيب، ج١، ص ١٥٤ وانظر أيضا ج٢، ص ٩.

67 ابن الأبار، تكملة الصلة، ج٢، ٦٤٣؛ ريبيرا، التربية الإسلامية في الأندلس، ص ٢١٩.

68 للمزيد انظر ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ١٩٧٠.

69 ابن النديم، الفهرست، ص ١٢٣.

70 القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٣٦١.

71 ياقوت، معجم الأدباء، ج٤، ص ١٦٤٧.

الأصغر لابن سينا من جرجان إلى شيراز [٧٢]. ووقعت نسخة من كتاب منطق النجاة لابن سينا بشيراز وأرسلت إلى جرجان. واشترى تاجر نسخة من كتاب الإنصاف لابن سينا من مدينة أصفهان وحملها إلى مدينة مرو [٧٣]. ويذكر صاعد بن أحمد الأندلسي أن أبو الحكم عمر الكرماني (ت.٤٥٨هـ/١٠٦٥م) من أهل قرطبة أول من أدخل رسائل إخوان الصفا إلى الأندلس[٧٤] كما رجع سلمة بن سعيد الأنصاري (ت. ٤٠٦هـ/١٠١٥م) إلى الأندلس بعدد كبير من الكتب وكانت في كل فن من العلم اجتهد في جمعها من مصر وبلدان المشرق وانفق في ذلك مالاً كثيراً[٧٥].

ومن جهة أخرى لعب الخلفاء والأمراء دورا كبيرا في تنشيط عملية تداول الكتب ونشرها ونقلها من مكان إلى آخر. فقد كان للعديد منهم مكتبات خاصة ولديهم وكلاء متخصصون يرسلونهم إلى حواضر العالم الإسلامي لشراء نفائس الكتب ونوادر المخطوطات ويدفعون من أجل الحصول عليها أغلى الأثمان[٧٦]. والمثل المشهور على ذلك في بغداد هو الخليفة المأمون [٧٧] وفي قرطبة الخليفة الحكم بن عبد الرحمن المستنصر بالله (ت. ٣٦٦هـ/٩٧٦م).

ومن أبرز طرائق انتقال الكتب من مكان إلى آخر انتقالها بواسطة الوراقين وتجار الكتب. فقد سبقت الإشارة عند الحديث عن سوق البصرة إلى أن كتاب العين للخليل بن أحمد قدم به وراق من خراسان. ونقل الخصيب بن أسلم أبو محمد الباهلي صاحب الأصمعي من البصرة إلى أصفهان مصنفات الأصمعي وكان يريد التكسب منها [٧٨].

نستنتج مما تقدم أن ازدهار التأليف ولاسيما في العلوم الشرعية والعلوم الأدبية والإنسانية والعلوم العقلية والتجريبية مثل الشعر والأدب واللغة والتاريخ والحديث والتفسير والفقه وعلم الكلام والطب والفلك والفلسفة إضافة إلى ازدهار الرحلة في طلب العلم وتحصيله

---

72 القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٤٢٤.

73 الشهرزوري، نزهة الأرواح، ج٢، ص ١٠٦-١٠٧.

74 صاعد، طبقات الأمم، ٩٢.

75 ابن بشكوال، الصلة، ج١، ص ٢٢٠.

76 ابن الأبار، الحلة السيراء، ج١، ص ٢٠٠؛ المقري، نفح الطيب، ج١، ص ٣٧٠؛
Wasserstein , *The Library of Al-Hakam II* , pp.99-105.

77 القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٢٨-٢٩؛ الجميلي، حركة الترجمة في المشرق، ص ١٣٤-١٣٥.

78 ياقوت، معجم الأدباء، ج١، ص ٢٢٨.

وكذلك لقاء العلماء وأهل المعرفة وجلب مصنفاتهم ونسخها ونشرها كان لهما أبلغ الأثـــر فـــي تطور تجارة الكتب وزيادة الطلب عليها وتوسيع دائرة انتشارها.

تجار الكتب:

اشتهرت أسماء العديد من العلماء الذين أمتهنوا تجارة الكتــب ومارســوها للتكــسب والعيش. ومن أشهر وأقدم من مارس تجارة الكتب في العراق في العصر العباسي أبناء المنجم. ويعرفون أيضا ببني موسى وهم ثلاثة أخوة، محمد، وأحمد، والحسن تعلموا في بيت الحكمــة في عهد الخليفة المأمون وتفوقوا في علوم الحيل والهندسة والفلــك. وكــانوا يــأتون بالكتــب اليونانية والسريانية من بلاد الروم ويبذلون في سبيل الحصول عليها الأموال الطائلــة. وكــان يعمل لديهم عدد كبير من الوراقين والنقلة المترجمين من العلماء من أمثال حنين بــن إســحاق وحُبيش بن الحسن وثابت بن قرة وكانوا يدفعون للعاملين معهم لقاء ذلك أجــورا عاليــة بلــغ مجموعها نحو خمسمائة دينار في الشهر [٧٩].

ويعد أبــو الفــرج محمد بن إسحاق المعــروف بابن أبي يعقــوب الــوراق النــديم البغــدادي (ت. ٣٨٠هــ/٩٩٠م) أشهر من مارس تجارة الكتب [٨٠]. وكان قــد ورث هــذه المهنة عن أبيه. وكان له حانوت في ســوق الــوراقيــن في بغداد.ولقد اســـتفاد ابن النــديم من خبرته في ممارسة هذه المهنة التي أتاحت له الإطلاع على عدد كبير من الكتب واستثمرها في تصنيف كتــابه المشهور " الفهرست " الذي عرض فيه التراث الفكري الإسلامي وجمــع أسماء الكتب التي صنفت منذ بداية التأليف وحتى نهاية القرن الرابع الهجري [٨١]. كما أتاحت له خبرته كوراق تحديد القيمة الفكرية والمادية للعديد من المصنفات التي ذكرها.

وممن اشــتهر بتصنيف الكتب والاتجار بها أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر المشهور بابن طيفور (ت.٢٨٠هــ/٨٩٣م). ذكره ياقوت وقال عنه: أحد البلغاء والشعراء الرواة، مــن أهل الفهم والمذكورين بالعــلم [٨٢]. وقد بلغ عدد مصنفاته نحو خمسين كتابا في صنوف الأدب والشعر واللغة والتاريخ وغيرها. وكان ابن طيفور يملك حانوتا في سوق الوراقين في الجانب الشرقي.

ومن تجار الكتب حارث الوراق. واسمه أبو القاسم الحارث بن علي وهو مــن أهــل خرسان أنتقل إلى الأهواز ثم إلى العراق وأسس له فيها محلاً لبيع الكتب بمنطقة بقصر وضاح

---

[79] القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٣٠-٣١.

[80] سزكين، تاريخ التراث العربي، مج١، ج٢، ص ٢٩٣.

[81] ابن النديم، الفهرست، ص ١٠-١٢.

[82] ياقوت، معجم الأدباء، ج١، ص ٢٨٢.

من الجانب الغربي من بغداد. وكان حارث الوراق من أرباب المعتزلة، ومن رؤساء أهل المناظرات فيها، وله مصنفات كثيرة جيدة أورد صاحب الفهرست تسعةً منها (٨٣).

ومنهم أيضا عَلاّن الوراق الشعوبي. أصله من فارس وكان عالما بالأنساب والمثالب ويعمل في بيت الحكمة الذي أسسه الرشيد وازدهر في عصر المأمون. ولعلان مجموعة من المصنفات أشهرها كتاب " الميدان في المثالب " رتبه على شاكلة كتاب الأنساب لأبن الكلبي وذكر فيه جميع مثالب العرب ابتداءً من بني هاشم وانتهاءً بقبائل اليمن. وكان علان يملك دكانا في سوق الوراقين في بغداد ينسخ فيه الكتب ويبيعها وكان يعمل لديه وراقون ونساخ منهم الفيرزان(٨٤). ولقد توفي علان الوراق في أوائل القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي.

واشتهر من تجار الكتب كذلك خيران الوراق الذي عرف بخبرته في تسعير الكتب. ذكره ياقوت في المعجم في ترجمة أبي العباس ثعلب الذي ترك كتبا جليلة. فأراد القاسم بن عبيد الله شرائها فأشار عليه الزجاج إحضار خيران الوراق لتسعيرها. فأحضروا خيران الوراق فقوّم ما كان يساوي عشرة دنانير: ثلاثة، فبلغت أقل من ثلاثمائة دينار، فأخذها القاسم(٨٥).

واشتهر أيضا الأديب الشاعر سعد بن علي بن القاسم أبو المعالي الأنصاري. كان سعد بن علي من أهل الحظيرة(٨٦) قدم إلى بغداد واستوطنها وأمتهن بيع الكتب. يؤكد ياقوت ذلك في ترجمته لسعد ويذكر أنه كان وراقا ودلالا في الكتب والدفاتر سافر إلى بلاد الشام وعاد منها إلى بغداد. توفي سعد بن علي سنة ٥٨٦هـ/١١٧٢م (٨٧).

وممن امتهن الوراقة وتكسب منها الحسن بن شهاب بن الحسن أبو علي العكبري. ولد الحسن في عكبراء(٨٨) سنة ٣٣٥هـ/٩٤٦م. وكان فقيها أديبا وشاعرا. وقد بلغ رأس ماله من الوراقة خمسةً وعشرين ألف درهم جمعها من نسخ كتب الشعر والأدب وبيعها. وقد أكد الحسن أبو عليٍ العكبري ذلك وقال: كسبت في الوراقة خمسةً وعشرين ألف درهم راضية، (أي بالتوافق والرضاء بالبيع) وكنت اشتري كاغدا بخمسة دراهم فأكتب فيه

---

83 ابن النديم، الفهرست، ص ٣٦٣.

84 ياقوت، معجم الأدباء، ج٤، ص ١٦٣١؛ ابن النديم، الفهرست، ص ٢٠٩.

85 ياقوت، معجم الأدباء، ج٢، ص ٥٤٦.

86 الحَضيرية: محلة بشرقي بغداد للمزيد انظر ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص ٢٧٣.

87 معجم الأدباء، ج٣، ص ١٣٤٩-١٣٥٢.

88 عكبراء: اسم بليدة من نواحي دُجيل بينها وبين بغداد عشرة فراسخ للمزيد انظر ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص ١٤٢.

ديوان المتنبي في ثلاث ليال، وأبيعه بمائتي درهم، وأقله بمائة وخمسين درهما، وكذلك كتب الأدب المطلوبة[٨٩].

ومن مصر اشتهر أبو الفتوح ناصر بن أبي الحسن علي بن خلف الأنصاري المعروف بابن صورة. كان له حانوت في دهليز داره يبيع فيه الكتب. وكان حانوته يستقطب أعيان البلاد من العلماء والأدباء يجتمعون عنده أيام الأحد والأربعاء من كل أسبوع يتخيرون مما لديه من كتب. وكان إلى جانب ذلك يعمل دلالا للكتب يقوم بتسعيرها ويسافر من أجل ذلك إلى أنحاء مختلفة من مصر. فقد ذكر ابن خلكان أنه لما مات العالم السلفي سار ابن صورة إلى الإسكندرية لبيع كتبه[٩٠].

ومن تجار الكتب في الأندلس اشتهر هشام بن عمر بن محمد بن أصبغ الأموي. كان نبيلاً ومن أهل الخير والثروة. ولقد رحل هشام إلى المشرق حاجاً وجلب معه من هناك كتبا كثيرة.وقد أشار صاحب " كتاب الصلة " إلى ذلك وذكر أن هشام: قد جلب عند عودته من رحلته من المشرق كتباً كثيرة حساناً[٩١].

ومن تجار الكتب في الأندلس عرف محمد بن سليمان بن سيذراى الكلابي الوراق. ولد في مدينة قلعة أيوب[٩٢]وتعلم فيها وكان من رواة الحديث ثم انتقل من قلعة أيوب إلى بلنسية. وكان يحترف مهنة الوراقة ويبيع الكتب في دكان له في مدينة بلنسية. وقد ورث محمد بن سليمان هذه المهنة من والده والذي كان أيضاً وراقاً. توفي محمد سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م[٩٣].

وممن اتخذ الوراقة للتكسب والعيش يحيى بن محمد أبو محمد الأرزني.عاش في بغداد ومات فيها سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م. وكان إماما في العربية واشتهر بحسن الخط وسرعة الكتابة. كان يخرج في كل يوم وقت العصر إلى سوق الكتب ببغداد فلا يقوم من مجلسه حتى يكتب كتاب " الفصيح " لثعلب ويبيعه بنصف دينار ينفقها كلها على قوت يومه من لحم ونبيذ وفاكهة [٩٤].

---

89 الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج٧، ص ٣٢٩-٣٣٠؛ ياقوت، معجم الأدباء، ج٢، ص ٨٦٦.

90 وفيات الأعيان، ج١، ص ١.٩٧.

91 ابن بشكوال، ج٢، ص ٦١٤.

92 قلعة أيوب: بالأندلس بقرب مدينة سالم، وهي مدينة رائعة البقعة حصينة شديدة المنعة كثيرة الأشجار والثمار، كثيرة الخصب رخيصة الأسعار، وبها يصنع الغضار المذهب ويتجهز به إلى كل الجهات. الحميري، الروض المعطار، ص ٤٦٩.

93 ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ج٢، ص٤٨١.

94 الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج ١٤، ص ١٢٣٩؛ ياقوت، معجم الأدباء، ج٦، ص ٢٨٣٠.

وممن اشتهر وذاع صيته في هذا النشاط التجاري الأديب أبو عبد الله ياقوت ابن عبد الله الحموي. ولد ياقوت في بلاد الروم سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م وأسر من بلاده وهو صغير واشتراه في بغداد تاجر اسمه عسكر ابن أبي نصر إبراهيم الحموي ألحقه بالكتّاب ليعاونه في تدبير أمور تجارته. ولقد عمل ياقوت مع مولاه بالتجارة فترة من الزمن. وقد عرف عن ياقوت همته العالية في تحصيل العلوم. ولما مات مولاه اشتغل ياقوت في أول الأمر بالنسخ بالأجرة حتى استفاد منها في تحصيل المعرفة والإلمام والإطلاع على مصنفات الأدباء والعلماء. ثم غادر بعد ذلك بغداد مرتحلا فسافر إلى دمشق وزار حلب والموصل وأربيل ومنها خرج إلى خرسان. وكان ياقوت الحموي مولعا بالكتب ساعيا للحصول عليها. وكانت تجارة الكتب هي المهنة التي كان يتكسب منها رزقه وقوت يومه خلال رحلاته هذه [٩٥].

ولقد أشار ياقوت في كتابه معجم الأدباء إلى ذلك، فقد ذكر في ترجمة قابوس الديلمي من أنه توجه إلى الشام وفي صحبته كتب من كتب العلم يتجر بها، وكان في جملتها " كتاب صور الأقاليم " للبلخي – نسخة رائقة مليحة الخط والتصوير اشتراها منه الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين[٩٦]. كما وردت الإشارة أيضا إلى أنه باع في مصر مجموعة من الكتب أشتراها منه الأمير عضد الدين أبو الفوارس مرهف بن أسامة [٩٧].

أسعار الكتب:

اختلفت أسعار الكتب في القرنين الثالث والرابع الهجريين/التاسع والعاشر الميلاديين باختلاف الكتاب وشهرة المؤلف ومستواه العلمي. فقد دفع الخليفة الأموي الأندلسي الحكم الثاني المستنصر ألف دينار من الذهب مقابل الحصول على كتاب الأغاني لأبو فرج الإصبهاني[٩٨] قبل أن يخرجه إلى العراق. وأهدى أبو الفرج نسخة من كتابه الأغاني إلى سيف الدولة ابن حمدان (٣٣٣-٣٥٦هـ/٩٤٤-٩٦٧م) فأعطاه ألف دينار[٩٩]. ويذكر ياقوت أن أبا تغلب ابن ناصر الدولة اشترى كتاب الأغاني بعشرة آلاف درهم. ولما تصفحه وقرأ ما فيه قال: " لقد ظُلِم وَرّاقهُ المسكين، وأنه ليساوي عندي عشرة آلاف دينار، ولو فقد لما قدرت عليه الملوك إلا بالرغائب، وأمر أن تكتب له نسخة أخرى ويخلد عليها اسمه." [١٠٠]. وبيعت في بغداد كتبا

---

95 ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج٦، ص ١٢٧-١٣٩.

96 ج٥، ص ٢١٨٤.

97 ياقوت، معجم الأدباء، ج٢، ص ٥٩٣.

98 ابن الأبار، الحلة السيراء، ج١، ص ٢٠١-٢٠٢؛ المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ٦٢.

99 ياقوت، معجم الأدباء، ج٤، ص ١٧٠٨.

100 معجم الأدباء، ج٤، ص ١٧١٩.

لمحمد بن عمر الواقدي بألفي دينار [١٠١].وأهدى الجاحظ كتاب الحيوان إلى الوزير محمد بن عبد الملك الزيات فأعطاه خمسة آلاف دينار، وأهدى كتاب البيان والتبيين إلى ابن أبي داود فأعطاه خمسة آلاف، وأهدى كتاب الزرع والنخل إلى إبراهيم بن العباس الصولي فأعطاه خمسة آلاف. يقول الجاحظ " فانصرفت إلى البصرة ومعي ضيعة لا تحتاج إلى تجديد وتسميد"[١٠٢].وبلغ مجموع سعر كتب قاضي قرطبة المشهور أبو المطرف بن فطيس أربعين ألف دينار وكانت تعرض في المسجد واستغرق بيعها عاما كامل [١٠٣]. وعمل الطبيب جبريل بن عبد الله بن بختشوع كناشاً صغيراً لابن عباد فأعطاه ألف دينار.[١٠٤] ونظم أبان بن عبد الحميد بن لاحق كتاب كليلة ودمنه شعراً، وأهداه إلى جعفر البرمكي فوهب له مئة ألف درهم[١٠٥].

ومن العوامل الهامة التي كانت تتحكم في أثمان الكتب نوع الخط وجودته وما إذا كان الكتاب بخط المؤلف أم أنه نسخ من قبل شخص آخر. ومعلوم أن النسخة التي يكتبها المؤلف بخط يده تكون أدق واضبط وأثمن من النسخة المنقولة بأيدي النساخين التي غالبا ما يقع فيها التحريف والتصحيف. وكانت مسودة كتاب الأغاني بخط المؤلف قد بيعت في سوق الوراقين بنحو أربعة آلاف درهم [١٠٦]. ووصل ثمن كتاب الصحاح بخط مؤلفه الجوهري مائة دينار نيسابورية [١٠٧]. وبلغ ثمن النسخة المنقولة بخط الناسخ من ديوان المتنبي ما بين مائتين ومائة وخمسين درهما[١٠٨]. وانفق يعقوب بن شيبه على تبيض مسنده عشرة آلاف دينار، وكان في منزله أربعون لحافا أعدها لمن كان عنده من الوراقين لتبيض المسند ونقله[١٠٩]. وكان الوزير ابن الزيات (ت. ٢٣٥هـ/ ٨٤٩م) يختار لمكتبته أجود الناساخين

---

101 ابن النديم، الفهرست، ص ١٩٤.

102 ياقوت، معجم الأدباء، ج٥، ص ٢١١٧-٢١١٨؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج٧، ص ٤٦٥.

103 ابن بشكوال، كتاب الصلة، ج١، ص ٢٩٩.

104 ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج٩، ص ٢٦٨.

105 الجهشياري، كتاب الوزراء والكتاب، ص ٢١١؛ وعند ابن الأبار أن يحيى اعطى أبان عشرة آلاف دينار وأعطاه الفضل خمسة آلاف دينار انظر إعتاب الكتاب، ص ٨٢.

106 ياقوت، معجم الأدباء، ج٤، ص ١٧١٩.

107 ياقوت، ج٢، ص ٦٦٠.

108 ياقوت، معجم الأدباء، ج٢، ص ٨٦٦.

109 ابن الجوزي، المنتظم، ج٥، ص ٤٣؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج١٤، ص ٢٨١.

والمترجمين ويدفع لهم بسخاء. فقد ذكر ابن أبي أصيبعة أن الوزير كان ينفق عليهم ما يقارب من ألفي دينار في الشهر.(١١٠)

وكانت المصنفات النادرة والمجلدة والمزخرفة والمحلاّة بالذهب والفضة متوفرة وتباع بأثمانها مرتفعة جدا وكان لا يشتريها إلا من شغف من الملوك والأمراء والوزراء والتجار بالكتب وولع بجمعها. منها على سبيل المثال مصحف عثمان بن عفان مكتوب بالخط الكوفي اشتراه القاضي الفاضل بنيف وثلاثين دينار (١١١). كما سبقت الإشارة النسخة الرائقة المليحة الخط والتصوير من كتاب "صور الأقاليم للبلخي" التي كان يمتلكها ياقوت واشتراها منه في حلب الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين(١١٢). وفسر الزجاجي جداول كتاب جامع النطق لأبن أبي عباد وكتبها بخط الترمذي الصغير وجلدها وحملها إلى الخليفة المعتضد (٢٧٩-٢٨٩هـ/٨٩٢-٩٠١م) فأستحسنها وأمر له بثلاثمائة دينار (١١٣). وكان ابن الحسن بن الهيثم أبو علي ينسخ في مصر كل سنة ثلاثة كتب هي أقليدس والمتوسطات والمجسطي ويبيعها بمائة وخمسين دينارا يجعلها مؤنته لسنته. واستمر على ذلك حتى توفي في القاهرة في حدود سنة ٤٣٠هـ/١٠٣٨م(١١٤).

كما أن للمكان دورا كبيرا في ارتفاع أثمان الكتب وزيادة الإقبال عليها. فالمدن الكبيرة مثل بغداد والبصرة والفسطاط والقيروان وقرطبة تستقطب تجار الكتب أكثر من غيرها من المدن الصغيرة وذلك لكثرة المكتبات العامة والخاصة بها وولع أصحابها بالكتب والرغبة في الحصول على كل نادر وفريد. ولهذا السبب كان الوراقون ينقلون الكتب المشهورة إلى المدن الكبيرة ويبيعونها بأسعار مرتفعة. ومن الأمثلة على ذلك كتاب العين للخليل بن أحمد الذي قدم به وراق من خراسان وباعه في سوق الوراقين في البصرة بخمسين دينارا(١١٥). وكذلك اشترى القاضي أبي بكر ابن بُدَيْل التبريزي من أبو الحسن الفالي نسخة من كتاب الجمهرة لابن دريد وحملها إلى تبريز(١١٦)ونسخت منها نسخ أخرى. وحُمل كتاب حلية

---

110 عيون الأنباء، ص ٢٨٤.

111 المقريزي، الخطط المقريزية، ج٢، ص ٣٦٦.

112 معجم الأدباء، ج٥، ص ٢١٨٤.

113 ابن النديم، الفهرست، ص ١٢٣؛ ياقوت، معجم الأدباء، ج١، ص ٦٣.

114 القفطي، تأريخ الحكماء، ص ١٦٧؛ ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، ص ٥٥١.

115 ابن النديم، الفهرست، ص ٩١.

116 ياقوت، معجم الأدباء، ج٤، ص ١٦٤٧.

الأولياء للصوفي العالم احمد بن عبد الله المهراني الاصبهاني من صفهان إلى نيسابور فاشتروه بأربعمائة دينار.[117]

ومن الأمور التي أسهمت في خلق فرص لتجار الكتب لشراء النادر والنفيس من المصنفات المشهورة وفاة أحد هواة جمع الكتب من العلماء والأدباء من أصحاب المكتبات الخاصة ممن ليس له ذرية أو له ذرية لا يعرفون قيمة ما لديهم من كتب فيعرضون هذه الكتب رغبة في التخلص منها للبيع في مزادات. فقد خَلَّفَ أبو العباس ثعلب الشيباني كتبا جليلة عرضت للبيع في مزاد وبيعت بأقل من ثلاثمائة دينار [118]. واشترى الجاحظ كتاب سيبويه من ميراث الفراء وأهداه إلى محمد بن عبد الملك الزيات[119]. وعرضت كتب الأديب والكاتب الأندلسي محمد بن يحيى الغافقي المعروف بابن الموصل للبيع في مزاد لبيع الكتب في مدينة قرطبة فاستقطبت عدداً كبيراً من هواة جمع الكتب ومن تجارها وبولغ في أثمانها. يؤكد ابن الأبار ذلك فيقول: " وأغلي فيها حتى لقومت الورقة في بعضها بربع مثقال. " [120]. ويذكر ياقوت أن الكتب كانت تباع في حلقات. واشترى منها العالم النحوي عبد الله بن السيد البطليوسي كتباً بمائتي دينار[121].

ومما يدخل في هذا السياق الإشارة إلى كتب وآلات النجوم والهندسة وكثرة الطلب عليها وارتفاع أثمانها منها على سبيل المثال كرة مصنوعة من الفضة تزن ثلاثة آلاف درهم عملها أبي الحسين الصوفي للملك عضد الدولة وكانت موجودة سنة ٤٣٥هـ/١٠٤٣م في خزانة الكتب في القاهرة وبلغ ثمنها ثلاثة آلاف دينار[122].

كما لا يفوتنا هنا أن نشير إلى أن السلطات في الدولة العباسية والدول الإسلامية اهتمت اهتماما كبيرا بمراقبة تجارة الكتب والإشراف على حوانيت ودهاليز الوراقين وتجار الكتب لاسيما وأن الأنفاق بسخاء على الكتب كانت عادة جبل عليها العرب المسلمون لأنها كانت في اعتقادهم دليل على شرف النفس وعلى سلامتها[123]. ولقد أوكلت مهمة الأشراف

---

117 ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج٥، ص ٣١١.

118 ياقوت، معجم الأدباء، ج٢، ص ٥٤٦.

119 ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج ٧، ١٠٦.

120 التكملة لكتاب الصلة، ج١، ص ٣٨٧.

121 معجم الأدباء، ج٤، ص ١٥٢٨.

122 القفطي، تأريخ الحكماء، ص ٤٤٠.

123 الجاحظ، رسالة في مدح الكتب والحث على جمعها، مجلة المجمع العلمي العراقي، مجلد ٨، ١٩٦١، ص ٣٤١.

على حوانيت الكتب وعلى تجارها إلى المحتسب للتدخل المباشر وفرض العقوبات في حالة حدوث تدليس أو غش أو عند الخروج عن القواعد المتبعة في السوق. فقد ورد عند ابن بسام في باب الحسبة على الوراقين أنه ينبغي أن يمنع المتطفلين على المهنة ولا يسامحوا بذلك، وأن يسترزقوا الله من وجوه غير هذه الوجوه؛ لأنه كذب، ومحال، وحرام [١٢٤]. كما حذر ابن عبدون من شراء الكتب من اليهود والنصارى فقال: " يجب أن لا يباع من اليهود، ولا من النصارى، كتابُ عِلْمٍ، إلا ما كان من شريعتهم ؛ فأنهم يترجمون كتب العلوم، وينسبونها إلى أهلهم وأساقفتهم، وهي من تواليف المسلمين " [١٢٥].

وبعد، فلعل من نافلة القول الإشارة إلى ما كان يقدمه السلف الصالح من إرشادات وتوجيهات تعين الوراقين وتجار الكتب على الكسب الطيب الحلال وتفيدهم في تصحيح السلوك المنحرف في الكتابة وتطوير الأداء المهني في التجارة. فقد جاء في كتاب " دليل التجار إلى أخلاق الأخيار " قال عبد الوهاب الورّاق: قال لي أحمد بن حنبل: ما صنعتك ؟ قلت: الوراقة، أي: نسخ الكتب. قال كَسب طيّب، ولو كنت صانعاً بيدي لصنعت صنعتك. ثم قال لي: لا تكتب إلا مواسطة (أي في وسط الورق)، واستبقِ الحواشي وظهور الأجزاء.[١٢٦]

[124] نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص ٤٤٨.

[125] رسالة ابن عبدون في القضاء والحسبة، ٥٧.

[126] النبهاني، ص ٨٧.

الخاتمة ونتائج الدراسة:

أسفرت الدراسة نتائج نجملها فيما يلي:

١- من النتائج الهامة التي قدمتها هذه الدراسة التأكيد على أن الاهتمام بالكتب ونسخها والإنفاق عليها عادة قديمة عند العرب المسلمين مارسها الخلفاء منذ عهد الدولة الأموية ووصلت إلى ذروة ازدهارها في عصر الدولة العباسية وخاصة في القرنين الثالث والرابع الهجريين/التاسع والعاشر الميلاديين.

٢- أسهمت صناعة الورق في تنشيط عملية الإنتاج الثقافي والفكري كما أسهمت الأسواق العامرة بحوانيت الورّاقين والنساخين في الرواج التجاري لهذا الإنتاج وزيادته وتنوعه.

٣- يظهر واضحاً جلياً انتشار الثقافة والعلوم في هذه الفترة عند العرب المسلمين وكان الإقبال شديداً على التعلم والاستفادة من العلوم العربية ومن التراث العلمي العالمي في ذلك العصر عند كل من الإغريق والسريان والفرس والهنود ونقله ونسخه وعرضه للتداول.

٤- أظهرت الدراسة أن تجارة الكتب كانت تجارة مربحة وقد كانت من المهن الرفيعة التي مارسها العديد من العلماء والأدباء ورجال الفكر وكانت تحتل مكانة بارزة في المجتمع وتدر دخلاً مجزياً.

٥- بينت الدراسة أن أسعار غالبية الكتب التي ورد ذكرها في هذه الدراسة كانت مرتفعة ولم تكن في متناول الجميع وكان لا يستطيع شراءها إلا الميسورين والمترفين من الناس.

٦- أوضحت الدراسة أن تجارة الكتب أسهمت إسهاما كبيرا في حفظ التراث وساعدت على انتشار العلوم والثقافة العربية الإسلامية وتعميمها وتسهيل انتقالها من مكان إلى آخر في كل أرجاء الدولة الإسلامية.

٧- أوضحت الدراسة كذلك أن حوانيت الكتب ودكاكينها وأسواقها أسهمت بدور كبير في إثراء الحركة العلمية وخلق جو علمي نشط فهي لم تكن فقط أماكن لنسخ الكتب وعرضها وبيعها بل كانت مراكزا ثقافية تعرض فيها الآراء والأفكار وتدور فيها المساجلات والمناقشات الفكرية والأدبية والدينية.

٨- ومن نتائج هذه الدراسة ملاحظة أنه بالرغم من ارتفاع أسعار الكتب وزيادة الإقبال عليها فأن غالبية التجار في هذه المهنة هم من العلماء والأدباء وأنها تكاد تخلو من وجود تجار دخلاء ممن ليس لهم معرفة جيدة بالعلوم وقيمتها الفكرية.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

ابن الأبار: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (ت. ٦٥٨/١٢٦٠)

١- **إعتاب الكتاب**، تحقيق: صالح الأشقر، (مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٦١).

٢- **التكملة لكتاب الصلة**، جزءآن، تحقيق: السيد عزت العطار الحسيني، (مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٥٦).

٣- **الحلة السيراء**، جزءآن، تحقيق: حسين مؤنس، (الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣).

ابن أبي أصيبعة: موفق الدين أبو العباس أجمد بن القاسم بن خليفة (٦٦٨/١٢٦٩)، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، تحقيق: نزار رضا، (دار مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ).

ابن بسام المحتسب: (عاش في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي)، **نهاية الرتبة في طلب الحسبة**، (دار الحداثة، بيروت، ١٩٩٠).

ابن بشكوال: أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت. ٥٨٧/١١٩١)، **الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم**، تصحيح ونشر، عزت العطار الحسيني، جزءآن، (مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٥٥).

ابن جلجل: أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي (ألفه سنة ٣٧٧/٩٨٧)، **طبقات الأطباء والحكماء**، تحقيق: فؤاد سيد، (مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥).

ابن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت. ٥٩٧/١٢٠٠)، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج٥، (مطبعة دار المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، ١٩٣٨).

ابن حجر: شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد الشهير بابن حجر العسقلاني (ت. ٨٥٢/١٤٤٩)، **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، ٦ أجزاء، (دار المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، ١٩٧٦).

ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون (ت. ٨٠٨/١٤٠٦)، **تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ٧ مجلدات، (دار الكتب العلمية،بيروت، ١٩٩٢).

ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن أبي بكر (ت. ١٢٨٢/٦٨١)، **وفيات الأعيان**، تحقيق: إحسان عباس، ٨ أجزاء، (دار صادر، بيروت، بدون تاريخ).

ابن رسول: الملك المظفر يوسف بن عمر بن علي بن رسول الغساني (ت. ١٢٩٤/٦٩٤)، **المعتمد في الأدوية المفردة**، تصحيح وفهرسة: مصطفى السقا، (دار القلم، بيروت، ١٩٥١).

ابن الزبير: القاضي الرشيد بن الزبير (القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي) **كتاب الذخائر والتحف**، تحقيق: محمد حميد الله، (الكويت، ١٩٨٤).

ابن عبدون: محمد بن أحمد، **رسالة ابن عبدون في القضاء والحسبة**، نشرها: ليفي بروفنسال (المعهد العلمي الفرنسي،القاهرة، ١٩٥٥).

ابن فضل الله العمري: شهاب الدين أبي العباس أحمد بن يحيى (ت.١٣٤٩/٧٤٩)، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق: محمد عبد الرحمن خريسات وعصام مصطفى عقلة ويوسف احمد بني ياسين، الأجزاء ٥ و ٧ و ٩، (مركز زايد للتراث، العين، ٢٠٠١).

ابن الفقيه: أبو عبد الله أحمد بن محمد الهمداني (ت. ٩٠٢/٢٩٠)، **كتاب البلدان**، تحقيق: يوسف الهادي، (عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٦).

ابن منظور: محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل جمال الدين (ت. ١٣١١/٧١١)، **لسان العرب المحيط**، أعاد بناءه على الحرف الأول من الكلمة: يوسف خياط،٧ مجلدات (دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨).

ابن النديم: محمد بن إسحاق (ت. ٩٩٥/٣٨٥) **الفهرست**، تحقيق: ناهد عباس عثمان، (دار قطري بن الفجاءة، الدوحة، ١٩٨٥).

الإدريسي: أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله (ت. ١١٦٤/٥٦٠)، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مجلدان، (مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، بدون تاريخ).

الأنباري: أبي البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد (ت. ١١٨١/٥٧٧)، **نزهة الألباء في طبقات الأدباء**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٦٧).

البلاذري: أبو الحسن احمد بن يحيى بن جابر (ت. ٨٩٢/٢٧٩)، **فتوح البلدان**، (دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٨).

البيهقي: ظهير الدين أبو الحسن علي بن زيد (١١٦٩/٥٦٥)، **تاريخ حكماء الإسلام**، تحقيق: محمد كرد علي، (مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٩٨٨).

الجاحظ: عمرو بن بحر (ت. ٢٥٥/٨٦٨)، **رسالة في مدح الكتب والحث على جمعها**، تحقيق: إبراهيم السامرائي، مجلة المجمع العلمي العراقي، مجلد ٨، ١٩٦١.

الجزري: عز الدين ابن الأثير الجزري، (ت. ٥٦٢/١١٦٦)، **اللباب في تهذيب الأنساب**، ٣ أجزاء (دار صادر، بيروت، ١٩٨٠).

الجزنائي: الإمام الجزنائي (ت. أواخر القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي)، **زهرة الآس في بناء مدينة فاس**، تحقيق: مديحه الشرقاوي، (مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ٢٠٠١).

الجهشياري: أبو عبد الله محمد بن عبدوس (ت. ٣٣١/٩٤٢) **كتاب الوزراء والكتاب**، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، (الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤).

الحنبلي: أبي الفلاح عبد الحي ابن العماد (ت.١٠٨٩/١٦٧٨)، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، ٨ أجزاء، (دار الآفاق الجديدة، بيروت. دون تاريخ).

الحميدي: أبو عبد الله بن محمد بن فتوح بن عبد الله (ت. ٤٨٨/١٠٩٥) **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس وأسماء ورواة الحديث، وأهل الفقه، والأدب، وذي النباهة والشعر**، تحقيق: محمد بن تاوت الطنجي، (مكتبة الخانجي، القاهرة، بدون تاريخ).

الحميري: محمد بن عبد المنعم (ت. ٩٢٠/١٥١٦)، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة الثانية، (مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤).

الخطيب البغدادي: أبي بكر أحمد بن علي (ت. ٤٦٣/١٠٧٠)، **تاريخ بغداد أو مدينة السلام**، ١٨ جزءاً، (دار الكتاب العربي، بيروت، دون تاريخ).

صاعد بن أحمد: أبو القاسم صاعد الأندلسي (ت. ٤٦٣/١٠٧٠)، **طبقات الأمم**، تحقيق: حسين مؤنس (دار المعارف، مصر، ١٩٩٣).

الشهرزوري: شمس الدين محمد بن محمود (ت. ٦٨٧/١٢٨٨)، **نزهة الأرواح وروضة الأفراح في تاريخ الحكماء والفلاسفة**، جزءان، تحقيق: خورشيد أحمد، (دائرة المعارف العثمانية، حيدر اباد الدكن، ١٩٧٦).

القزويني: زكريا بن محمد بن محمود (ت. ٦٨٢/١٢٨٣)، **آثار البلاد وأخبار العباد**، (دار صادر، بيروت، بدون تاريخ).

القفطي: الوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن القاضي الأشرف يوسف القفطي (ت. ٦٤٦/١٢٤٨)، **تأريخ الحكماء**، نشره: Julius Lippert (ليزبيج، ١٩٠٣).

القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي (ت. ١٤١٨/٨٢١)، **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، ١٤ جزءاً،(المؤسسة المصرية العامة للتأليف، مصر، بدون تاريخ).

المالكي: عبد الله بن محمد بن عبد الله (ت. بعد ١٠٦١/٤٥٣)، **رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية**، تحقيق: بشير البكوش، (دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨١).

المراكشي: عبد الواحد (ت. ١٢٩٤/٦٤٧) **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق: محمد سعيد العريان، (مصر، ١٩٦٣).

المقدسي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد المعروف بالبشاري (ت.. ٩٩٠/٣٨٠)، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، تحقيق: محمد مخزوم، (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٧).

المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت. ٩٥٧/٣٤٦)، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ٤ أجزاء في مجلدان، (دار الأندلس، بيروت، ١٩٦٥).

المقري: شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت. ١٦٣١/١٠٤١)، **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب**، شرحه وضبطه: مريم قاسم الطويل ويوسف علي الطويل، (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥).

المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي (ت. ١٤٤١/٨٤٥)، **كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية**، جزءان، (دار صادر، بيروت، دون تاريخ).

ناصر خسرو: أبي معين الدين ناصر خسرو القبادياني المروزي (١٠٨٨/٥٤٨)، **سفر نامه رحلة ناصر** خسرو القبادياني، ترجمة وتحقيق: احمد خالد البدلي، (جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٨٣).

الوزان الفاسي: الحسن بن محمد المعروف بليون الإفريقي (ت. حوالي ١٥٥٠/٩٥٧)، **وصف إفريقيا**، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، (دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣).

ياقوت الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله (ت. ١٢٢٨/٦٢٦)،

١- **معجم الأدباء**، ٧ أجزاء، تحقيق: إحسان عباس، (دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣).

٢- **معجم البلدان**، ٥ أجزاء، (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٩).

اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت. ٨٩٧/٢٨٤)، **كتاب البلدان**، (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٨).

المراجع العربية:

أبو سديرة، السيد طه السيد، **الحرف والصناعات في مصر الإسلامية منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي**، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩١).

بدر، أحمد، **الحياة الفكرية في الأندلس**، مجلة دراسات تاريخية، العددان التاسع عشر والعشرون، نيسان – تموز ١٩٨٥، جامعة دمشق، سوريه.

جرنفيل وفريمان، **التقويمان الهجري والميلادي**، ترجمة: حسام محي الدين الألوسي، (وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٦).

الجميلي، رشيد حميد، **حركة الترجمة والنقل في المشرق الإسلامي في القرنين الثالث والرابع للهجرة**، (الكتاب والتوزيع، ليبيا، ١٩٨٢).

حمادة، محمد ماهر، **المكتبات في الإسلام نشأتها وتطورها ومصائرها**، (مؤسسة الرسالة، بيروت،١٩٨٦).

ريبيرا، خوليان، **التربية الإسلامية في الأندلس**، ترجمة: الطاهر أحمد مكي، (دار المعارف، مصر، ١٩٨١).

زيات، حبيب، **الوراقة وصناعة الكتابة ومعجم السفن**، (دار الحمراء للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٢).

سزكين، فؤاد، **تاريخ التراث الإسلامي**، ترجمة: محمود فهمي، المجلد الأول، الجزء الثاني، التدوين التاريخي، (جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ١٩٨٣).

العش، يوسف، **دور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط**، ترجمة: نزار أباظة ومحمد صباغ، (دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩١).

عواد، كوركيس، **خزائن الكتب القديمة في العراق**، (دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨٦).

كرد علي: محمد، **خطط الشام**، ٦ أجزاء، (مكتبة النوري، دمشق ١٩٨٣).

الكروي وشرف الدين: إبراهيم سلمان وعبد التواب شرف الدين، **المرجع في الحضارة العربية الإسلامية**، (منشورات ذات السلاسل، الكويت، ١٩٨٤).

النبهاني، يوسف بن إسماعيل، **دليل التجار إلى أخلاق الأخيار**، (الجفان والجابي للطباعة والنشر، قبرص، ١٩٨٧).

المراجع الأجنبية:

Kabir , M., Libraries and Academies during the Buwayhid Period , *Islamic Culture* , 33/1(January, 1959). pp.177-182.

Wasserstein , The Library of Al-Hakam II Al-Mustansir and the Culture of Islamic Spain, *Manuscripts of the Middle East* 5(1990-1) , pp.99-105.

البيزنطيون بين علاج الأطباء و معجزات القديسين
دراسة في ضوء هجيوجرافيا العصر البيزنطي الباكر

د. عبد العزيز رمضان*
كلية الآداب، جامعة عين شمس، مصر

تعد كتابات سير القديسين Hagiography أحد أهم المصادر غير التقليدية لتاريخ الإمبراطورية البيزنطية، إذ أنها نوع من القصص الديني الشعبي كتبه رهبان ورجال دين بيزنطيون، بعضهم معلوم وآخرون مجهولون، يسردون فيه ويخلدون من خلاله سير القديسين البيزنطيين ومعجزاتهم كما سمعوها وتناقلتها الألسن جيلا بعد جيل، أو ربما كما تخيلوها هم أنفسهم، ومن ثم تكمن قيمته في أنه أشبه بأدب السير الشعبية الذى، وإن امتلأ بالمعجزات والخوارق، يقدم عبر صفحاته مادة وفيرة وفريدة من نوعها عن الحياة اليومية للمجتمع البيزنطى، والأهم أنه يعكس ثقافة هذا المجتمع، والأفكار والآراء والاتجاهات التقليدية الشعبية السائدة فيه.[1]

---

* يتقدم الباحث بخالص الشكر والتقدير إلى العالمين الجليلين ا.د. زبيدة عطا، ا.د. قاسم عبده قاسم على تفضلهما بقراءة هذا البحث، رغم ضيق وقتهما، وتنقيحه وتزويدي بملاحظتهما السديدة التي أفدت منها.

(١) جذب الأدب الهجيوجرافي البيزنطي اهتمام عدد كبير من الباحثين المحدثين، فوضعوا دراسات عن هذا النوع من الأدب وأشكاله وعناصره وأنماطه التقليدية، ومن بين هذه الدراسات ما عنى بطرح إشكاليات البحث فيه وكيفية استخدامه وتوظيفه في خدمة دراسة التاريخ البيزنطي بمجالاته السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية، ومنها دراسة إيفيلينى باتلاجين Evelyne Patlagean التي تناولت إشكاليات توظيف الهجيوجرافيا في خدمة التاريخ الاجتماعى، واستعرضت فيها مناهج دراسة الهجيوجرافيا في الغرب الأوروبى، بداية من المنهج اليقينى المرتبط برجال وآباء الكنيسة، إلى المنهج العقلانى الذي يتخذ موقفا سلبيا ورافضا، وتقترح هذه الدراسة أطرا ومناهج نظرية لدراسة الهجيوجرافيا والاستفادة منها في التاريخ الاجتماعى البيزنطي، لعل أهمها –من وجهة نظر الكاتبة– ما عبرت عنه بقولها :"على المؤرخ عند البدء في بحثه واستقصائه أن يتبنى موقفا ناقدا من الهجيوجرافيا، ومن هذا المنظور عليه اتباع منهج تحليلى تركيبى، بدلا من اتباعه المنهج اليقيني المعتاد الذي أثبت فشلا ونقصانا"، وخلصت إلى بيان أهمية الأدب الهجيوجرافي بقولها :"إن أهمية الهجيوجرافيا لا تكمن في كونها "أدبا شعبيا popular literature" فقط، بل أيضا لأنها كتبت ووجهت للمجتمع بأكمله"، و"أن أية محاولة للبحث في المستويات الدنيا للحياة الاجتماعية البيزنطية، خاصة خلال العصر الباكر، لابد وأن تصطدم بإغراءات الأدب الهجيوجرافي، فهو وفير وغزير، ويكون مواتيا وبليغاً وقتما تكون أرشيفات الوثائق غير متواجدة عمليا، أوعندما تكون المصادر الأخرى صامتة أو مقتضبة".

وفي مطلع القرن العشرين، وضع هيبوليتوس ديليهـاى Hippolytos Delehaye دراسة هامة عن الكتابات الهجيوجرافية [٢]، استعرض فيها طبيعة هـذه الكتابـات وأصـولها ومناهجها والعناصر التقليدية المتضمنة فيها والإتجاهات النمطية لكتابها، ووضع تصنيفا لفئات القديسين البيزنطيين، وكان أول فئتين فيه: (١) القديسون المشتغلون بـالعلاج علـى وجـه

Patlagean , E.,"A Byzance : Ancienne hagiographie et histoire sociale" , *Annales* 23 (*1968*) , pp. *106-126* , repr. Idem , "Ancient Byzantine Hagiography and Social History" , trans. J. Hodgkin , *Saints and their Cults : Studies in Religious Sociology , Folklore and History* , ed. S. Wilson ,Cambridge : Cambridge University Press , 1985 , pp. 101-121.

ومن أهم هذه الدراسات أيضا دراسة هالكين Halkin التي أظهرت عمليا إمكانية الإستفادة من الهجيوجرافيا في دراسة بعض الأحداث التاريخية وتحديد وقت وقوعها، وخلص فيها إلى القول: "ممـا لايقبـل الـشك أو الجدل أن الهجيوجرافيا البيزنطية تكشف، في المقام الأول، عن العقلية الدينية للبيزنطيين، كما أنهـا تحتـوى على كم ثمين من المعلومات عن تاريخ الحياة اليومية في بيزنطة وأقـاليم الإمبراطوريـة، وعـن تـاريخ المؤسسات، وتاريخ الطب، وتاريخ الفن، باختصار عن التاريخ عامة، وعن العلوم المساعدة له".

Halkin , F., 'L' hagiographie Byzantine au service de l' histoire" , *Proceedings of the XIIIth International Congress of Byzantine Studies* , London :Oxford University Press , 1967 , pp. 345-354.

أنظر الترجمة الإنجليزية لهذا البحث :

Halkin , F., "Byzantine Hagiography in the Service of History" , trans. D. Jenkins ,www.byzantine.nd.edu/Halkin.html

ومن الدراسات التي وظفت الشاهد الهجيوجرافي للعصر البيزنطي الباكر عمليا في دراسة جوانب معينة :

Magoulias , H.J., "The Lives of Byzantine Saints as Sources of Data for the History of Magic in the Sixth and Seventh Centuries A.D., Sorcery, Relics and Icons", *Byzantion* 37(1967), pp.228-69 ; Idem ,"The Lives of Saints as Sources of Data for the History of Byzantine Medicine in the Sixth and Seventh Centuries" , *Byzantinische Zeitschrift* (1969) , pp.127-150 ; Idem , " The Lives of Byzantine Saints as Sources for Byzantine Agrarian Life in the Six and Seventh Centuries" *Greek Orthodox Theological Review* 35/1(1990), pp.59-70 ; Kazhdan , A., "Byzantine Hagiography and Sex in the Sixth to Twelfth Centuries" , *Dumbarton Oaks Papers* 44(1990) , pp.131-44 ; Kazhdan , A., & Maguire , H., "Byzantine Hagiographical Texts as Sources on Art" , *Dumbarton Oaks Papers* 45(1991), pp.1-22.

وأنظر القائمة البيبلوجرافية المستفيضة "Byzantine Saint : A Bibliography" التي أعدها بول هالسال Paul Halsall على موقع جامعة شمال فلوريدا : www.unf.edu . وعن سير ومعجـزات القديـسين البيزنطيين المنشورة على شبكة الإنترنت، أنظر : عبد العزيز رمضان، "مـدخل إلـى مواقـع الدراسـات البيزنطية على شبكة الإنترنت"، حولية التاريخ الإسلامي والوسيط، المجلد الثالث، ٢٠٠٣م، ص٧٥-١٠٣.

(٢) Delehaye , H., *The Legends of the Saints: An Introduction to Hagiography*, trans. V.M. Crawford, University of Notre Dame Press, 1961.

أنظر النص الكامل لهذا الكتاب على موقع جامعة فوردهام :

http://www.fordham.edu/halsall/basis/delehaye-legends.html

القصر، (٢) القديسون متعددو البراعات، وهو تصنيف يوضح إلى أى مـدى كـان العـلاج المقدس يمثل دورا ووظيفة أساسية للقديس البيزنطي [٣]، فإذا كانت كافة معجزات قديسى الفئة الأولى، أو على أقل تقدير الغالبية العظمى منها، مرتبطة بمهمة العلاج المقدس، فإن المطالع لسير قديسى الفئة الثانية المتعددى البراعات، سيجد كذلك أن جانبا كبيرا من معجزاتهم إرتبط بذات النوع من العلاج، فعلى سبيل المثال كانت نحو ٤٠% من معجـزات القديسـة ثـيكلا St. Thecla علاجية[٤]، وحتى في الفئات الأخرى نجد أن مهمة العلاج لم تغب تماما عـن معجزات قديسها، فنحو ثلث معجـزات القـديس المحـارب ديمتريـوس الـسالونيكى St. Demetrius of Thessalonike كانت علاجية.[٥]

---

(٣) كذلك وضع بيتر براون، في دراسته المتخصصة عن وظائف القـديس فـي القـرنين الرابـع والخـامس الميلاديين، العلاج المقدس على رأس هذه الوظائف، تلاها طرد الأرواح الشريرة، وحماية المدن ومواطنيهـا من الأعداء، ثم النصح والإرشاد الديني، وأخيرا الوساطة والفصل في المنازعات.

Brown , P., "The Rise and Function of the Holy Man in Late Antiquity" , *Journal of Roman Studies* 61(1971) , pp.80-101, repr. Idem , *Society and the Holy in Late Antiquity* , Berkeley & Los Angelos , 1982 , pp.103-152.

(٤) *Collections greques de miracles : sainte Thècla , Saints Côme et Damien , saints Cyr et Jean (extraits) , saint Georges* , trad. A.J. Festugière , Paris , 1971 , no.I.

من الملاحظ أن هذه الترجمة لم تتبع نظام أرقام الصفحات، بل استخدمت الأرقـام اللاتينيـة لتمييـز كـل مجموعة معجزات عن الأخرى، واستخدمت في كل مجموعة أرقام المعجزات.

Davis , S.J., *The Cult of Saint Thecla : A Tradition of Women s Piety in Late Antiquity* , Oxford , 2001 , pp.42-3 ,73-80 , 179-180 ; Seiber , J., *The Urban Saint in Early Byzantine Social History*, BAR Supplementary Series 37 , Oxford , 1977 , p. 82.

ولدت ثيكلا بمدينة قونية Iconium بآسيا الصغرى في القرن الأول الـميلادي، ورافقـت القـديس بـولس وتتلمذت على يديه، وكانت أول من لقى الشهادة في المسيحية من الإناث، لذا كرمت ونالت عبادتهـا شـهرة واسعة في أرجاء عالم البحر المتوسط في الفترة ما بين القرنين الرابع والسادس الميلاديـين، خاصـة بـين النساء، لكونها رمزا للعذرية والطهارة . وكاتب المعجزات هو باسيل السلوقى Basil of Seleucia، أسقف سلوقية خلال الفترة (٤٤٨–٤٦٨م)، ومعظم المعجزات التي رواها ترجع إلى الفترة التي عاشها، وإن كانت السيرة ذاتها وبعض معجزاتها، مستمدة من "أعمال القديس بولس الرسول Acta Pauli"، التي كتبـت فـي أواخر القرن الثانى الميلادي. Davis , *Cult of St. Thecla* , v-vi , 4-8.

(٥) *PL.* 129 , cols 715-26.

وفقا لكاتب هذه السيرة، وهو أسقف عاش في النصف الأول من القرن السابع الميلادي يدعى يوحنـا John، ولد القديس ديميتريوس في النصف الأول من القرن الثالث الميلادي، واستشهد في اضـطهاد الإمبراطـور دقلديانوس للمسيحيين، فكرم وعد حاميا لسالونيك، وتتضمن معجزاته الدفاع عنها مرارا ضد السلاف، الذين أطلق عليهم كاتب السيرة مسمى "برابرة"، وقد ترجمت سيرته من اليونانية إلى اللاتينية على يد أناستاسيوس Anastasius Bibliothecarius، أمين مكتبتى البابـا هادريـان الثـانى (٨٦٧–٨٧٢م) والبابـا يوحنـا

وتهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على الأسباب التي جعلت البيزنطيين يرون في العلاج المقدس وظيفة أساسية للقديس البيزنطي، وطبيعة العلاقة التي نشأت بين هؤلاء القديسين ومحترفي مهنة الطب في بيزنطة، وكيف صورها كتاب الأدب الهجيوجرافي أنفسهم، وإلى أى مدى وجدت هذه الوظيفة صدىً لدى البيزنطيين على اختلاف فئاتهم وطبقاتهم، ثم مدى تأثير ذلك كله سلبا أو إيجابا على مكانة الطب التقليدي ووضع محترفيه داخل المجتمع البيزنطي.

وعند محاولة البحث عن أسباب اقتران وظيفة العلاج المقدس بالقديس البيزنطي، نجدها مرتبطة في المقام الأول بطبيعة ثقافة المجتمع البيزنطي والعناصر المؤثرة فيها، وأعنى هنا التراث اليونانى القديم والمسيحية بوصفهما أهم العناصر المكونة لهذه الثقافة، خاصة وأن كلا منهما أسهم بدرجة كبيرة في نشأة وتطور مفهوم القداسة وعبادة القديسين في الفكر الدينى الشعبى في بيزنطة. فالمعروف أن الكنيسة في الفترة الباكرة من تاريخها لم تنبذ التراث والفكر اليونانى القديم بصورة مطلقة، بل اختلطت بهما وأخذت منهما ما يكفل لها النجاح في مهمتها التبشيرية بين مجتمعات ورثت هذا التراث والفكر وتأصلت فيها جذورهما، وهو الأمر الذي درسه الباحث اليونانى ديميتريوس قونسطنطيلوس Demetrios Constantelos من زاوية تأثير العبادات اليونانية القديمة في المجتمع البيزنطي، ووصل من خلالها إلى نتيجة مؤداها: "إن الكنيسة، خلال مجهودها لنشر الإيمان المسيحى، لم تنغلق تماما بعامة الناس داخل المفاهيم والمصطلحات الجديدة، ولم ترفض بصورة مطلقة كل ما اشتق من الرموز والمشاعر الدينية الوثنية".[٦]

وفيما يتعلق بتأثير التراث اليونانى على نشأة عبادة القديسين في بيزنطة، فقد عبر عنه أحد مؤرخى الكنيسة في القرن الخامس الميلادي وهو ثيودوريتوس القيروصى[٧]،

الثامن ٨٧٢-٨٨٢م)، والذي أهدى هذه الترجمة للملك الفرنجى شارل الأصلع (٨٢٣-٨٧٨م) في عام ٨٧٦م. عن القديس ديمتريوس وعبادته، أنظر:

Woods , D., " Thessalonica s Patron : Saint Demetrius or Emeterius ?" , *Harvard Theological Review* 93(2000) , pp.221-34 ; Walter , Ch., *The Warrior Saints in Byzantine Art an Tradition* , Aldershot, 2003 , pp 67-93.

(٦) Constantelos , D.J. , "Byzantine Religiosity and Ancient Greek Religiosity", *The Past in Medieval and Modern Greek Culture* , ed. S. Vryonis (= *Byzantina Kai Metabyzantina* 1) , Malibu , 1978 , pp.135-151 , esp. 142.

(٧) كان من رجال اللاهوت في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي، عين أسقفا لـ "قيروص" القريبة من مسقط رأسه بأنطاكية، وقد أمن بناسوتية المسيح واتبع نسطوريوس، مما أدى لنفيه إلى روما عام ٤٤٩م، ومات بها عام ٤٥٨م مخلفا خمسة وثلاثين مؤلفا، معظمها يتعلق بقضايا لاهوتية وعقائدية، وأشهر أعماله

Throdoretos of Cyrus، عندما ألمح إلى أن الكنيسة إذا كانت قد تبنت بعـض مظـاهر العبادات الإغريقية، فذلك لتلبى بعض الاحتياجات النفسية لرعاياها. وتحـدث ثيودوريتـوس بوجه خاص عن تقليد القديسين والشهداء الذي يشبه التكريم الذي قدم للأبطال وأنصاف الآلهة الإغريق، وفي هجومه على الوثنيين كتب : "إن الآخرين قـد يـسخرون مـن الممارسـات المسيحية المبجلة للشهداء والقديسين، لكن على الإغريق أن يكونوا آخر من يسخر، لأن لديهم أيضا عبادة أبطـالهم وأنـصاف آلهـتهم"[8]، أمثـال هـرقليس Herakles [9] وأسـكليبيوس Asklepios [10]و ماخون Machaon [11]وغيرهم" [12]، ورغم أن ثيودريتوس هنا أراد الدفاع

"التاريخ الكنسى" الذي يقع في خمسة كتب، ويغطى الفترة من ٣٢٥م حتى ٤٢٨م. دونالـد نيكـول، معجـم التراجم البيزنطية، ترجمة وتعليق حسن حبشى، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص٢٢٠-٢٢.

(٨) شكلت عبادة الأبطال وأنصاف الآلهة جانبا مهما في معتقدات الإغريق الدينية الشعبية، وتدور هذه العبـادة حول بشر تم تقديسهم بعد وفاتهم، ونسجت حول قبورهم وأماكن دفنهم الكثير مـن المعجـزات والأعمـال الخارقة، وأعتقد الإغريق أنهم يحيون في قبورهم حياة ملكية رغدة، يمارسون فيها نفس الأعمال والوظـائف التي كانوا يشغلونها في حياتهم الدنيا، وكانت قبورهم بمثابة المركز الذي تـدور حولـه مظـاهر وطقـوس العبادة، سواء ضمت هذه القبور أجسادهم أو أجزاء منها، حيث اعتقد الإغريق أن أرواحهم تهيم حول هـذه القبور لتساعد مريديها وتحميهم وتدرء عنهم الشرور. لمزيد من التفاصيل عن عبادة الأبطال وأنصاف الآلهة الإغريق، أنظر: Guthrie , W.K.C., *The Greeks and their Gods*, London, 1950 , pp.231-5.

(٩) وفق معتقدات الإغريق، كان هرقليس إبنا لكبير الأرباب زيـوس Zeus مـن زوجتـه البـشرية ألكمينـا Alkmena، وبالتالى عد نصف إله، بحكم كونه بشريا من ناحية أمه وإلها من ناحية أبيه، ونـسجت حولـه العديد من الأساطير التي تروى تحمله للآلام والمعاناة والأعمال الشاقة عندما كان بشرا علـى الأرض، ثـم انتقاله بعد ذلك إلى جبل أوليمبوس وزواجه من هيبى Hebe ابنة زيوس وهيرا، وعندئذ اختلـف الإغريـق حول كونه بطلا ونصف إله أم إلها خالصا كآلهة جبل أوليمبوس، فقدموا له طقوس عبادتين وفقا للطبيعتـين المختلف عليهما. Guthrie , *Greeks and their Gods*, pp. 235-41.

(١٠) وفق معتقدات الإغريق، كان أسكليبيوس إبنا للإله أبوللو من كورونيس Koronis البشرية، التـي قتلهـا أبوللو نتيجة زواجها من بشرى آخر، لكنه أنقذ طفله الذي كان داخل أحشائها، وعهد بتربيته إلى القنطوروس خيرون Chiron (كائن خرافي نصفه فرس والنصف الآخر بشرى)، فلقنه الأخير صناعة الطب والجراحة، وبلغت قدراته الخارقة في هذه المهنة القدرة على إحياء الموتى، الأمر الذي أثار غضب زيوس فقتلـه بـأن سلط عليه البرق. وقد لاقت عبادته رواجا كبيرا في كافة أنحاء بلاد الإغريـق، وتركـزت حـول وظيفتـه الأساسية "العلاج المقدس"، حقيقة أن عبادات بعض الآلهة كأبوللو والأبطال الآخرين كهرقليس ارتبطت فـي جانب منها بمسألة العلاج المقدس، لكن ظلت لعبادة أسكليبيوس وقدراته العلاجية الصدارة في هذا المضمار، إلى حد أن نقابات الأطباء في بلاد الإغريق كانت تتلقب بـ "الأسكليبيديين Asklepiades".
Guthrie , *Greeks and their Gods*, pp.242-6 ; Cotter , W., *Miracles in Greco-Roman Antiquity : A sourcebook for the Study of New Testament Miracle Stories* , London , 1999 , pp.15-16.

عن الكنيسة في مواجهة هجوم الوثنيين، إلا أنه لم يستطع إنكار تأثر عبادة القديسين بعبادة الأبطال وأنصاف الآلهة الإغريقية، ولعله في تضمينه لأسكليبيوس، إله الطب عند الإغريق، عند مقارنته - أو ربما مقاربته - بين أنصاف الآلهة الإغريق والقديسين [١٣]، يوحي بأن وظيفة العلاج المقدس التي ارتبطت بالقديس البيزنطي مستوحاة، أو على الأقل تأثرت، بذات الوظيفة عند أسكليبيوس اليوناني، وهو الأمر الذي ذهب كاتب سيرة القديسين يوحنا St. John وكيروس St. Cyrus إلى حد بعيد في تأكيده، عندما أطلق مسمى أسكليبيداروم

---

(١١) وفق معتقدات الإغريق، كان ماخون وشقيقه بوداليريوس Podaleirios أبناءً لهرقليس، ورثا عن أبيهما صناعة الطب، وعملا كطبيبين في الجيش الإغريقي. Guthrie , *Greeks and their Gods* , p.242.

(١٢) Adnès , A., & Canivet , P., "Guérisons miraculeuses et exorcismes dans *l' Histoire Philothée* de Théodoret de Cyr" , *Revue de L' Histoire des Religions* 171(1967), pp.53-82 &pp.149-79 ; esp.pp.172-4.

وقد علق مارتن نيلسون، أحد المتخصصين في الديانة اليونانية القديمة، على أثر عبادة الأبطال وأنصاف الآلهة الإغريقية في نشأة وتطور عبادة القديسين، بقوله : "لقد استمرت عبادة الأبطال في ثياب مسيحية، وظلت على قيد الحياة بذات الصيغ، ولم يكن ثمة اختلاف باستثناء أن الشهداء والقديسين كانوا تاليين على الأبطال".

Nilsson , M.P., *Greek Folk Religion* , Gloucester , Mass. , 1971 , pp. 21 ,115.

كذلك ذهب دان دريجفيرز إلى وجود تأثيرات هلينستية وشرقية، سورية ومصرية، في نشأة وتطور القداسة البيزنطية. أنظر:

Drijvers , H.J.W., "Hellenistic and Oriental Origins" , *The Byzantine Saint* , ed. S. Hackel , Birmingham , 1981 , pp.25-33.

(١٣) كذلك من المثير للإنتباه، أن الأبطال وأنصاف الآلهة الثلاثة، الذين ذكرهم ثيودريتوس، ارتبطوا بصورة كلية أو جزئية بالعلاج المقدس، فأسكليبيوس هو إله الطب عند الإغريق، وابنه ماخون كان أيضا طبيبا، كما نسبت لعبادة هرقليس حالات من العلاج المقدس، وعلى ذلك فإن مقاربة ثيودريتوس تظهر تأثيرا إغريقيا واضحا، كما تؤكد على أهمية العلاج المقدس كوظيفة اجتماعية أساسية للقديسين البيزنطيين. أنظر الشذرات المجمعة من المصادر اليونانية والرومانية عن معجزات أسكليبيوس وهرقليس العلاجية :

Cotter , *Miracles,* pp.12-30.

ومن المثير للإنتباه أيضا، أن أشهر القديسين البيزنطيين المشتغلين بمهمة العلاج المقدس على وجه القصر، والذين أرتبطت أضرحتهم كلية بهذه المهمة، كالقديسين كوزماس St. Cosmas ودامیان St. Damian وكيروس St. Cyrus، كانوا قبل استشهادهم ورفعهم إلى مرتبة القداسة أطباء، درسوا الطب في مدرسته الشهيرة بالإسكندرية، ومارسوا حرفته أثناء حياتهم، وحتى القديس أرتيميوس St. Artemios الذي لم يكن كذلك، كان لابد من ربطه بالطب بأى شكل، ولذلك لم يكن غريبا أن قصة استشهاده على يد الإمبراطور جوليان عام ٣٦٢م تضمنت رفضه أمرا إمبراطوريا بتقديم القرابين لزيوس وأبوللو وأسكليبيوس، ويبدو أن تضمين أبوللو وأسكليبيوس هنا كان متعمدا، لتبرير تحول أرتيميوس إلى قديس معالج بعد الموت، والأهم أنه تضمين يعكس تأثيرا إغريقيا واضحا. أنظر : حاشية ١٧، ١٨، ٢٣.

Asclepcdarum على ضريح القديسين، واستخدم مرارا مسمى "الطبيب نصف الإله" دون أن يعتبر ذلك مصطلحا مخالفا للمسيحية[١٤].

وواقع الأمر، أن دراسة مظاهر وممارسات العلاج المقدس في عبادة القديسين البيزنطيين، كما عكسها كتاب هجيوجرافيا العصر البيزنطي الباكر، تظهر تأثرا واضحا بالتراث الدينى اليونانى القديم، خاصة عبادة أسكليبيوس. ولعل أحد أهم هذه المظاهر يتمثل في استمرار فكرة مراكز العلاج المقدس المرتبطة بشخصيات مقدسة[١٥]، فأضرحة القديسين البيزنطيين، خاصة المشتغلين منهم بالعلاج المقدس، ظلت تمثل امتدادا لتلك المراكز، يحج إليها البيزنطيون، فرادى وجماعات، إلتماسا للشفاء [١٦]، ومن أشهر هذه المراكز : ضريح

(١٤) Festugière, *saints Cyr et Jean*, mir.15,17,30 ; Seiber, *Urban Saint*, p.89.

من الملاحظ أيضا، أن مسمى "الاسكليبيديين Asklepiades"، الذي كان يطلق على نقابات الأطباء في بلاد الإغريق، ظل يستخدم خلال العصر البيزنطي الباكر للإشارة إلى الأطباء، فقد استخدمه إفاجريوس في القرن السادس، عند إشارته إلى موت شخص يدعى جريجورى كان مريضا بالنقرس لأنه " تناول دواءً مركبا مما يسمى Hermodactylus، كان قد زوده به أحد الأطباء Asclepiades ".

Evagrius Scholasticus, *The Ecclesiastical History*, trans. M.& M. Whitby, Liverpool, 2000, p.316.

وفي هذا السياق يذكر نوتون، دون أن يشير إلى مصدره، أن أخر طبيب زعم بأنه تابع للاسكليبيديين Asclepiades. عاش حوالى سنة ٣٥٠م، وآيا كانت مصداقية هذه الإشارة إلا أن استخدام إفاجريوس، والبطريرك صفرونيوس، كاتب معجزات القديسين كيروس ويوحنا في القرن السابع، لهذا المسمى يشير إلى استمرار استخدامه خلال العصر البيزنطي الباكر.

Nutton, V., “From Galen to Alexander : Aspects of Medicine and Medical Practice in Late Antiquity”, *Dumbarton Oaks Papers* 38(1984), pp.1-14, esp.p.4.

(١٥) انتشرت مراكز العلاج المقدس في بلاد الإغريق، وكان المركز الرئيسى معبد أسكليبيوس في إبيداوروس Epidauros، كما وجدت له مراكز أخرى في روما Rome وأثينا Athens وكورنثة Corinth وبرجامة Pergamon وأزمير Smyrna وكوس Kos. أنظر: Guthrie, *Greeks and their Gods*,246-53.

ويعلق نوتون على تأثر المسيحية بفكرة مراكز العلاج المقدس الإغريقية بقوله : "إن المسيحية لم تستعر من عبادة الشفاء الوثنية وظيفتها كمصدر للعلاج الطبى فقط، بل استعارت أيضا لغتها وتخيلاتها بل وحتى مراكزها"، وأشار إلى أن أكثر مراكز عبادة أسكليبيوس وهرقليس شهرة، في إبيداوروس وروما وبرجامة، تحولت بعد الاعتراف بالمسيحية إلى كنائس ومراكز للعلاج المقدس في صيغته المسيحية الجديدة .

Nutton, *Galen to Alexander*, p. 7.

(١٦) عن الحج البيزنطي إلى أضرحة القديسين التماسا للشفاء المقدس، أنظر:

Vikan, G., *Byzantine Pilgrimage Art*, Washington, D.C., 1982, pp. 4-5, 30-4 ; Maraval, P., "The Earliest Phase of Christian Pilgrimage in the Near East(before 7th Century)", *Dumbarton Oaks Papers* 56(2002), pp.63-74.

وعن هذا الحج منذ القرن الثامن الميلادي وحتى عصر أسرة باليولوجوس، أنظر:

القديسين كوزماس St. Cosmas ودامیان St. Damian بالقسطنطينية[١٧]، وضريح القديس أرتيميوس St. Artemios بكنيسة القديس يوحنا برودروموس St. John Prodromos بالقسطنطينية[١٨]، وضريح القديس ديمتريوس بسالونيك[١٩]، وضريح القديس يوحنا St. John

---

Talbot , A.M., 'Pilgrimage to Healing Shrines : The Evidence of Miracle Accounts" , *Dumbarton Oaks Papers* 56(2002) , pp.153-72.

وعنه في العصر المتأخر، أنظر:

Talbot , A.M., "Healing Shrines in Late Byzantine Constantinople" , The *"Constantinople and its Legacy"* Lecture Series. Toronto , 2000 , pp.1-24. (repr.: Idem , *Women and Religious Life in Byzantium* , Aldershot , 2001 , no. XIV).

(١٧) عرف ضريح القديسين كوزماس ودامیان باسم Kosmidion، ويقع داخل الكنيسة التي بنيت وكرست لهما في ضاحية أيوب Eyup (نسبة إلى أبى أيوب الأنصارى) خارج أسوار القسطنطينية خلال عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى، ويبدو أن الكنيسة والضريح لم يظلا على حالتيهما، حيث يشير بروكوبيوس إلى أن مجهودات الإمبراطور جستنيان (٥٢٧–٥٦٥م) الإنشائية تضمنت إعادة بناء الكنيسة وتوسيعها وإضافة ملحقات جديدة بها، وتشير الحولية الفصحية إلى أن الكنيسة تعرضت للحرق عام ٦٢٣م أثناء هجوم الآفار على القسطنطينية، ولم يتم إعادة بنائهما إلا في أوائل القرن الثامن الميلادي. وقد نسبت إلى هذا الضريح الكثير من المعجزات الشفائية عبر تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ولذلك شهد إقبالا كبيرا من المرضى الراغبين في تلقى العلاج المقدس، وظل الضريح حتى الفتح العثمانى عام ١٤٥٣م، حيث حول موضعه إلى مسجد حمل اسم أبى أيوب الأنصارى.

Procopius , *The Buildings* , trans. H.B.Dewing & G.Downey , Loeb Classical Library 343 , Cambridge Mass. & London , 1971 , p.63 ; *Chronicon Paschale* 284-628A.D , trans. M.&M. Whitby , Liverpool , 1989 , p.180 ; Talbot , A-M., "Kosmas and Damian Monastery" , *The Oxford Dictionary of Byzantium* , II , Oxford , 1991 , p.1151 ; Ozaslan , N., "From the Shrine of Cosmidion to the Shrine of Eyup Ensari" , *Greek , Roman and Byzantine Studies* 40 (1999) , pp. 379-99.

ووفقا لكاتب المعجزات المجهول، عاش القديسان الشقيقان كوزماس ودامیان في منتصف القرن الثالث الميلادي، وتعلما الطب في مدرسته بالإسكندرية ومارساه، ويشير كاتب المعجزات إلى أنهما كانا لا يتقاضان أجرا عن علاج المرضى رغبة منهما في تكريس حرفتهما لنشر المسيحية، ولذلك لقيا الشهادة معا على يد والى مصر عقب صدور قرار الإمبراطور دقلديانوس باضطهاد المسيحيين، ونقلت رفاتهما من الإسكندرية إلى القسطنطينية في عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى . أنظر: المخطوط الأصلى لسير القديسين الشهداء قزمان ودامیان، مكتبة المحبة، القاهرة، ٢٠٠٠م ؛ السنكسار القبطى، جزءان، جـ٢(٢٢ بؤونة)، مكتبة المحبة، القاهرة، ١٩٧٢م ؛ إيفانز أولبرى، قديسو مصر حسب التقويم القبطى، ترجمة وتعليق ميخائيل مكسى إسكندر، مكتبة المحبة، القاهرة، ٢٠٠٠م، ١١٨–١١٩. ومن الملاحظ أن هناك روايتين لسيرة القديسين، إحداهما ضمنت في السنكسار القبطى، والأخرى كتبت باليونانية بواسطة كاتب مجهول، وقد اعتمد الباحث على الروايتين. وعن الحج إلى ضريح القديسين كوزماس ودامیان في العصر المتأخر، أنظر:

Talbot , *Healing Shrines* , pp.7-9.

(١٨) كان أرتيميوس دوقا doux (قائدا للحامية الرومانية) بمصر، وقد تردد ذكره في المصادر التاريخية بدءً من عام ٣٥٠م، وفي عام ٣٥٦م كلفه الإمبراطور قسطنطيوس بإحضار رفات الرسل تيموثى Timothy

بإفسوس [٢٠]، وضريح القديسة ثـيكلا St. Thecla بـسلوقية Seleucia [٢١]، وضريح القديس مينا St. Menas بالإسكندرية [٢٢]، وضريح القديسين يوحنـا St. John و كيروس St. Cyrus بالإسكندرية [٢٣].

واندروس Andrew ولوقا Luke إلى القسطنطينية، وفي عام ٣٦٠م عين دوقا لمصر. ويشير مؤرخ القرن الرابع أميانوس ماركيللينوس إلى أنه أعدم في إنطاكية عام ٣٦٢م على يد الإمبراطور جوليان بعد أن ساق إليه السكندريون اتهامات ضد أرتيميوس، ورغم أن هذه الاتهامات غامضة، إلا أنها تشير إلى أنه مات شهيدا. وهناك روايات تشير إلى أن جوليان أعدمه لتعمده تدمير العديد من التماثيل الوثنية داخل فناء معبد سرابيس، ولأنه رفض أمرا إمبراطوريا بتقديم الأضحيات والقرابين لزيوس وأبوللو وأسكليبيوس. وقد نقلت رفاته من إنطاكية إلى القسطنطينية في بداية القرن السادس الميلادي، ووضعت في ضريح داخل كنيسة القديس يوحنا برودروموس الواقعة في حي أوكسيا Oxeia بالقسطنطينية.

Ammianus Marcellinus ,*The Later Roman Empire (A.D.354-378)* , trans. W. Hamilton , Penguin Books , London , 1986 , pp.246; *Chronicon Paschale* , p.39 : Nesbitt , J.W. , "Introduction" , *The Miracles of St. Artemios : A Collection of Miracle Stories by an Anonymous Author of Seventh-Century Byzantium* , trans. V.S. Crisafulli , Leiden – New York – Köln , 1997 , pp.1-27 , esp.1-5 ; Kazhdan , A., & Ševčenko , N.P.,"Artemios", *The Oxford Dictionary of Byzantium* , I , , Oxford , 1991 , pp.194-5 ; Mango , C., "On the History of the Templon and the Martyrion of St. Artemios at Constantinople". *Zograf* 10(1979) , pp.1-13. (repr. : Idem , *Studies on Constantinople* , Aldershot , 1993 , no.XV).

ورغم أن كاتب المعجزات مجهول، إلا أنه قدم فيها إشارات تدل على أنـه عـاش خـلال القـرن الـسابع الميلادي، ففي إحدى المعجزات (رقم ٣٢) تحدث عن علاج مريض عند ضريح القديس خلال عهد موريس (٥٨٢-٦٠٢م)، وأرخ عددا من المعجزات الأخرى (أرقام ١٧، ١٨، ٢١، ٣٤) بعهد هرقل (٦١٠-٦٤١م)، وفي معجزة أخيرة (رقم ٢٣) أشار إلى علاج قس في العام الخامس عشر من عهد قنسطانز الثـاني (٦٤١-٦٦٨م)، أي عام ٦٥٦م تحديدا. Nesbitt , *Introduction* , pp. 6-7.

(١٩) تشير المصادر إلى أن ليونتيوس Leontios والى سالونيك إبان عهد الإمبراطور ثيودوسـيوس الثـاني، عثر على رفات القديس بسالونيك، فشيد له كنيسة ضمت ضريحه الشهير حوالى عام ٤١٢-٤١٣م، وظلـت تمثل أحد مراكز الحج الهامة عبر فترات التاريخ البيزنطي اللاحقة . لمزيد من التفاصيل، أنظر:

Gregory , T.E., "Demetrios , Church of Saint" , *The Oxford Dictionary of Byzantium* , I , Oxford , 1991 , pp.604-5 ; Kazhdan , A., & Ševčenko , N.P., "Demetrios of Thessalonike" , *The Oxford Dictionary of Byzantium* , Oxford , I , 1991 , pp.605-6.

وعن الحج إلى ضريح القديس ديميتريوس، أنظر:

Bakirtzis , C., "Pilgrimage to Thessalonike: the Tomb of St. Demetrios" , *Dumbarton Oaks Papers* 56(2002) , pp.175-92.

(٢٠) كان يوحنا الإفسوسى رجل دين ومؤرخا سوريا شهيرا، ولد قرب آمد Amida في مطلع القرن السادس الميلادي (حوالى عام ٥٠٧م)، وتوفي في خلقدونية أواخر ذات القرن (حوالى ٥٨٦-٥٨٨م)، عين أسقفا للمونوفيزيين بالقسطنطينية خلال عصر جستنيان، وفي عام ٥٤٢م أرسله جستنيان على رأس بعثة تبشيرية لنشر المسيحية بين الوثنيين واليهود في أسيا الصغرى وحقق في هذه المهمة نجاحا منقطع النظير، ولذلك

استدعاه جستنيان للقيام بالتبشير بين الوثنيين في العاصمة الإمبراطورية عام ٥٤٦م، وسرعان ما ذاعت شهرته كمناهض للوثنية في أوساط المونوفيزيين، فرسمه البطريرك يعقوب البرادعى أسقفا لإفسوس ورئيسا لأساقفة آسيا الصغرى عام ٥٥٨م، ونظرا لمعرفته الوثيقة بأحوال المونوفيزيين بالقسطنطينية، فقد صار الرئيس الأعلى للقائلين بالطبيعة الواحدة والمتصرف في شئونهم وممتلكاتهم في القسطنطينية بعد وفاة ثيودوسيوس بطريرك الإسكندرية في عام ٥٦٦م، غير أن حاله تبدل بوفاة الإمبراطور جستنيان، حيث تعرض للسجن والنفي على يدى الإمبراطورين جستين الثانى وتيبريوس لرفضه مذهب الطبيعتين، حتى توفي وهو في سجنه بخلقدونية، ونظرا لجهوده في نشر المسيحية ومحاربة الوثنية وتشييد العديد من الكنائس والأديرة، بالإضافة إلى تحمسه للمذهب المونوفيزى، رفعه أتباعه إلى مرتبة القداسة، وكرسوا له كنيسة وضريحا ضمت رفاته في مدينة إفسوس. لمزيد من التفاصيل، أنظر: يوحنا الأسيوى، تاريخ الكنيسة، ترجمة صلاح عبد العزيز محجوب، القاهرة، ٢٠٠٠م، ١٩-٢٤.

Griffith ,S.H., "John of Ephesus" , *The Oxford Dictionary of Byzantium* , II , Oxford , 1991 , p.1064.

وعن الحج إلى ضريحه بإفسوس، أنظر:

Foss , C., "Pilgrimage in Medieval Asia Minor", *Dumbarton Oaks Papers* 56(2002) , pp.129-151.

(٢١) سلوقية حاليا هى المدينة التركية Silifke، تقع بالقرب من الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى، على بعد ١٠٠كم جنوب شرق قونية Iconium، و٥٠كم جنوب غرب طرسوس Tarsus، وقد أقيم ضريح القديسة ثيكلا فوق تل جنوب المدينة في القرن الرابع الميلادي، وشهد رحلات حج نشطة للعلاج المقدس وفدت من كافة أنحاء عالم البحر المتوسط خلال الفترة الواقعة ما بين القرنين الرابع والسادس الميلادي. كذلك لاقت عبادة ثيكلا رواجا في مصر إبان ذات الفترة، خاصة في مدينة الإسكندرية، التي قرن مواطنوها عبادتها بعبادة القديس مينا، فأقيم لها بأبو مينا ضريحا ضم أيقونات لها، وكانت العبادتان معا مصدرا لجذب الحجاج من شتى أنحاء عالم البحر المتوسط. لمزيد من التفاصيل عن الحج للعلاج المقدس عند ضريح القديسة ثيكلا بآسيا الصغرى وأيقوناتها في ضريحها بمصر. أنظر:

Davis , *Cult of St. Thecla* , pp.27 , 64-73 , 113-148.

وعن القديسة ثيكلا، أنظر حاشية (٤).

(٢٢) ولد القديس مينا (المعروف بأسم مار مينا ذو العجائب) عام ٢٥٨م في مدينة نقيوس (منوف حاليا) من أسرة مسيحية، انقطع للعبادة في صحراء ليبيا، واستشهد أثناء اضطهاد دقلديانوس للمسيحيين، ونقل جثمانه مع فرقة رومانية قادمة من ليبيا إلى مكان يقع غرب بحيرة مريوط Mareotis، وهو المكان الذي عرف باسمه فيما بعد Aba Mina (المعروف حاليا بأبى مينا)، وفي أوائل القرن الخامس أمر الإمبراطوران أركاديوس وهونوريوس ببناء كنيسة بالمنطقة، شيد بداخلها ضريحا للقديس ضم رفاته. وظلت منطقة أبو مينا مزارا روحيا هاما حتى القرن السابع الميلادي، خاصة بعد أن شاعت معجزات الضريح العلاجية، غير أن المنطقة تعرضت للتدمير نتيجة غارات البدو في أعقاب الفتح الإسلامي. وفي عام ١٩٠٧م كشفت بعثة ألمانية عن بقايا الضريح والكنيسة القديمة، ثم شيد البابا كيرلس السادس عام ١٩٥٩م ديرا بالمنطقة كرسه للقديس مينا (معروف حاليا بدير مار مينا)، وهو دير عامر بالرهبان حتى الآن. لمزيد من التفاصيل، أنظر:

كذلك ؛ كان من بين هذه المظاهر استمرار طقس "حضانة المعبـد" incubation، الذي اتخذ شكل الظاهرة في ممارسات العلاج المقدس في الديانة اليونانية القديمة، وتمثل هذا الطقس في لجوء المرضى إلى مجاورة المعبد، خاصة معبد أسكليبيوس، لاعتقادهم في إمكانية تلقى العلاج المقدس من خلال تجلى الإله لهم في رؤى منامية [٢٤]، فكثيرا ما نطالع في فكر كُتاب هجيوجرافيا العصر البيزنطي الباكر تأثرا واضحا بهذا الطقس، منها على سبيل المثال ما يرويه كاتب سيرة القديس ديمتريوس السالونيكي عن شفاء أحد أعضاء مجلس السناتو من مرض ميئوس منه، بعد أن ظهر له القديس في منامه وطلب منه أن يأمر خدامه بحمله من القسطنطينية إلى ضريحه بسالونيك، وعنده استغرق المريض في نوم طويل تخللته

السنكسار القبطى، جـ١(١٥ هاتور)، ص١٣٧ ؛ أوليرى، قديسو مصر، ص٣٠٢-٣٠٤ ؛ بول شينو دورليان، القديسون المصريون، ترجمة ميخائيل مكسى إسكندر، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٤٠٣-٤١٠.

Davis , *Cult of St. Thecla* , pp. 114-17.

وأنظر الوصف الأثرى للضريح ومركز الحج بأكمله:

Grossmann , P., *Abu Mina: A Guide to the Ancient Pilgrimage Center* , Cairo , 1986.

(٢٣) ولد القديس كيروس (المعروف بأسم أباكير) في الاسكندرية، تعلم بمدرسة الطب فيها، وتخرج منها طبيبا، ثم لجأ إلى الصحراء هربا من مطاردة والى مصر في عهد دقلديانوس، وحقق من خلال رهبانيته شهرة بلغت سوريا وفلسطين، فجاءه صديقه ورفيق عمره الأبدى القديس يوحنا، الذي ولد في الرها، وعمل ضابطا بالجيش الرومانى، ثم رحل إلى الصحراء رغبة في الانخراط في حياة الرهبنة، إلا أن السلطات الرومانية تمكنت من القبض عليهما وقطعت رأسهما، ودفنا سرا في كنيسة مارمرقص بالإسكندرية، ثم تم نقلهما في القرن الرابع إلى كنيسة أبى قير، وشهد ضريحهما حركة حج نشطة للعلاج المقدس، خاصة بعد أن نسبت إليه الكثير من المعجزات الشفائية، وبعد الفتح العربى نقلت رفاتهما إلى روما، وقد سميت المنطقة التي وجد فيها ضريح القديسين بـ "أباكيروس Abacyrus" ومنها اشتق اسمها الحالى "أبو قير" . لمزيد من التفاصيل، أنظر : السنكسار القبطى (١٤ بؤونة)، ج٢، ص٢٤٧ ؛ أوليرى، قديسو مصر، ص١٢٦-١٢٧ ؛ دورليان، القديسون المصريون، ٧١-٧٤.

Montserrat , D., "Pilgrimage to the Shrine of SS Cyrus and John at Menouthis in Late Antiquity" , *Pilgrimage and Holy Space in Lat Antique Egypt* , ed. D. Frankfurter , Leiden , 1998 , pp.257-79.

ومن الملاحظ أن هناك روايتين لسيرة القديسين، إحداهما ضمنت في سنكسار الكنيسة المصرية، والأخرى كتبها صفرونيوس بطريرك بيت المقدس الذي عاش في النصف الأول من القرن السابع (٦٣٣/٦٣٤-٦٣٨م)، وقد اعتمد الباحث على الروايتين.

(٢٤) عن طقس حضانة المعبد في عبادة أسكليبيوس، أنظر: فايز يوسف محمد، "حضانة المعبد في معابد بلاد الإغريق ومصر"، مجلة مركز الدراسات البردية والنقوش بجامعة عين شمس، العدد التاسع، ١٩٩٣، ص١٢٧-١٣٩.

رؤية للقديس [٢٥]، كما تضمنت معجزات القديسين يوحنا وكيروس قصة علاج قس بكنيسة الاسكندرية، أصيبت عيناه بمياة زرقاء، من خلال رؤياه للقديسين عند ضريحهما [٢٦]، وفي معجزات القديس أرتيميوس، كان طقس "حضانة المعبد" هو الطريق الرئيسى لتلقى العلاج المقدس، إذ كان على المريض النوم عند ضريحه في كنيسة القديس يوحنا برودروموس، أملا في زيارة منامية من القديس يشفي من خلالها. ويشير كاتب المعجزات إلى أن بعض المرضى تلقوا العلاج بعد وقت قصير نسبيا، عادة في ذات ليلة حضور المريض أو الليلة التالية لها، وقد تطول فترة الحضانة لأيام [٢٧]، أو قد تمتد لشهور أو سنين[٢٨]. وربما بلغ تأثر كاتب المعجزات بطقس "حضانة المعبد" الإغريقى إلى حد إشراكه القديس يوحنا برودروموس St. John Prodromos والقديسة فبرونيا St. Febronia كمساعدين لأرتيميوس في علاج مرضاه [٢٩]، محاكيا بذلك المعتقدات اليونانية القديمة التي جعلت من بنات أسكليبيوس الثلاث، ياسو Iaso وهيجيا Hygieia وباناكيا Panacea، مساعدات له في مهمة العلاج المقدس [٣٠].

---

(٢٥) *PL*, 129, cols. 717-18.

(٢٦) دورليان، القديسون المصريون، ص٧٣.

(٢٧) *The Miracles of St. Artemios : A Collection of Miracle Stories by an Anonymous Author of Seventh-Century Byzantium*, trans. V.S. Crisafulli, Leiden – New York – Köln, 1997, mir. 3, pp. 81-3. (hereafter : Crisafulli, *St. Artemios*)

في المعجزة رقم (٣) ظل مريض من أماستريس Amastris ثلاثة أيام في الكنيسة حتى زاره القديس وعالجه من حبة بوعاء الخصيتين scrotal boil بعد دهنها بمرهم أطلق عليه الـ *kêrôtê*.

(٢٨) Crisafulli, *St. Artemios*, mir. 35, pp.185-9.

في المعجزة رقم (٣٥) أمضى تاجر من خيوس يدعى يوبوروس Euporos ثلاثة أشهر، ورجل من رودس يدعى جورجيوس سنتين في انتظار رؤية القديس. ويشير قونسطنطيلوس إلى أن طقس "حضانة المعبد" يمارس على نطاق واسع حتى الآن في المناطق التي تعيش بها الديانة البيزنطية في اليونان والبلقان وروسيا وغيرها. Constantelos, *Byzantine Religiosity*, p.143.

(٢٩) Crisafulli, *St. Artemios*, mir. 38.

يشير كاتب المعجزات الى أن القديس أرتيميوس اعتمد في حالتين على مساعدة القديسة فبرونيا وحدها، الأولى عندما ظهر في رؤيا لأم وابنتها المريضة بالفتاق، وأرشدهما إلى الذهاب لضريح فبرونيا القابع يمين مذبح نفس الكنيسة، كنيسة يوحنا برودروموس، فظهرت القديسة للفتاة في رؤيا وعالجتها، وفي الحالة الثانية أرسل أرتيميوس فبرونيا لعلاج امرأة من خلال رؤيا. وقد علق كاتب المعجزات على السبب الذي دفع أرتيميوس إلى اللجوء لمساعدة فبرونيا بقوله :" من الملاحظ أن الشهيدة فبرونيا كانت مساعدة للقديس في هذه الرؤيا، ربما بسبب شعور الحياء الذي ينتاب المريضات الإناث"، و"لأن هناك أوقات كان شهيد المسيح يعتمد على القديسة فيبرونيا لمساعدته في صنع المعجزات عندما تكون الحالات نسوية".

(٣٠) Ibid, mir. 24, 45.

وإذا كانت مهمة الاستشفاء المرتبطة بالقديس البيزنطي قد تأثرت في بعض مظاهرها بأحد أهم مكونات الثقافة الشعبية البيزنطية، وهو التراث اليوناني القديم، فلا شك في أنها ارتبطت بشكل أوثق بأهم مكونات هذه الثقافة على الإطلاق، ممثلا في الديانة المسيحية. والمطالع لهجيوجرافيا العصر البيزنطي الباكر يمكنه القول بأن المسيحية كان لها الدور الأساسي والفاعل في صياغة مفاهيم ومضامين هذه الوظيفة، فالقديس عند ممارسته للعلاج المقدس كان في المقام الأول يقوم بدور الوسيط بين المسيح وأتباعه من المرضى. والباحث في أنماط معجزات القديسين البيزنطيين عامة، والشفائية خاصة، يجد تشابها أو ربما تماثلا مع معجزات المسيح الواردة في العهد الجديد، وهي في معظمها معجزات شفائية [٣١]، ويأتي

ويبدو أن الكاتب يعبر هنا عن مفهوم مجتمع بيزنطة الذكوري المتحفظ تجاه مسألة اختلاط الذكر بالأنثى، وهو المفهوم الذي حصر المرأة داخل أدوار مجتمعية معينة، فهي إما أم داخل إطار الأسرة أو راهبة في الدير، وحتى إذا دعت الضرورة لخروجها إلى العمل فليقتصر ذلك على الأعمال ذات الطبيعة النسوية كالخاطبات والقابلات والمربيات والممرضات في عنابر النساء بالمستشفيات . لمزيد من التفاصيل أنظر : عبد العزيز رمضان، المرأة والمجتمع في الإمبراطورية البيزنطية، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص ٧٩-٨١، ١٢٨-١٢٩.

(٣٠) فايز يوسف محمد، حضانة المعبد، ص ١٣٠.

(٣١) ورد في العهد الجديد أن المسيح تنقل في منطقة الجليل " يشفي كل مرض وعلة في الشعب، فذاع صيته في سورية كلها؛ فحمل إليه الناس مرضاهم المعانين من الأمراض والأوجاع على اختلافها، والمسكونين بالشياطين، والمصروعين، والمشلولين، فشفاهم جميعا" (متى، ٤ :٢٣-٢٥)، وفي الجليل أيضا "توافدت إليه جموع كثيرة ومعهم عرج ومشلولون وعمى وخرس وغيرهم كثيرون، وطرحوهم عند قدميه فشفاهم، فدهشت الجموع إذ رأوا الخرس ينطقون، والمشلولين أصحاء، والعرج يمشون، والعمى يبصرون" (متى ١٥ :٢٩-٣١)، وفي أرض جنيسارت "عرفه الناس، فطافوا في أنحاء تلك البلاد المجاورة، وأخذوا يحملون من كانوا مرضى على فرش إلى كل مكان يسمعون انه فيه، وأينما دخل، إلى القرى أو المدن أو المزارع، وضعوا المرضى في الساحات العامة متوسلين إليه أن يلمسوا ولو طرف ردائه، فكان كل من يلمسه يشفي" (مرقص ٦ :٥٣-٥٦)، وعن شفائه للبرص (متى ٨ /١-٤ ؛ مرقص ١ / ٤٠-٤٥ ؛ لوقا ٥ /١٢-١٦، ١٧ /١١-١٩). وشفائه للشلل (متى ٨ /٥- ١٣؛ ٩ /١-٨ ؛ مرقص ٢ /-١٢، ٣ /١-٥ ؛ لوقا ٥ /١٧-٢٦، ٦ /٦-١١ ؛ يوحنا ٥ :١-١٦). وشفائه من تملك الأرواح والشياطين (متى ٨ /٢٨-٣٤، ١٧ :١٤-١٨؛ مرقص ١ /٢١-٢٨، ١ /٣٢-٣٤، ٥ /١-٢٠، ٩ / ١٤-٢٧ ؛ لوقا ٤ /٣١-٣٧، ٨ /٢٦-٣٩، ٩ /٣٧-٤٣، ١٣ /١٠-١٧). وشفائه لنزيف الدم (متى ٩ /٢٠-٢٦ ؛ مرقص ٥ /٢٥-٤٣، ٨ / ٤٣-٤٨). وشفائه للعمى (متى ٩ /٢٧-٣١، ٢٠ /٢٩-٣٤ ؛ مرقص ٨ /٢٢-٢٦، ١٠ /٤٦-٥٢ ؛ يوحنا ٩ /١-٤١). وشفائه للخرس والصمم (متى ٩ / ٣٢-٣٤ ؛ مرقص ٧ /٣١-٣٧). وشفائه للحمى (مرقص ١ /٢٩-٣١؛ لوقا ٤ /٣٨-٣٩ ؛ يوحنا ٤ /٤٦-٥٣). وشفائه لمرض الاستسقاء (لوقا ١٤ /١-٦).

هذا التشابه كنتيجة طبيعية لكون العهد الجديد اعتبر رسل المسيح وقديسيه بمثابة مفوضين من قبله ووسطاء له في الإتيان بالمعجزات[٣٢]، فقد ورد في الإنجيل كما دونه متى أن المسيح "دعا إليه تلاميذه الإثنى عشر، وأعطاهم سلطانا على الأرواح النجسة ليطردوها ويشفوا كل مرض وعلة". [٣٣] وفي رسالة بولس الأولى إلى مؤمني كورنثوس راح يوضح إمكانية انتقال قدرات المسيح الإعجازية، أو ما أطلق عليها "المواهب الروحية"، إلى من اصطفاهم، فيهب لمن يشاء منهم كلام الحكمة، وأخر كلام المعرفة، وأخر موهبة شفاء الأمراض، وأخر عمل المعجزات ... [٣٤]، ثم راح بولس يرتب مكانة هؤلاء في كنيسة الله بقوله : "قد رتب الله في الكنيسة أشخاصا مخصوصين : أولا الرسل، ثانيا الأنبياء، ثالثا المعلمين، وبعد ذلك أصحاب المواهب المعجزية أو مواهب الشفاء أوإعانة الآخرين أو تدبير الشئون أو التكلم باللغات المختلفة" [٣٥].

ووفقا لهذه النصوص الإنجيلية تشكل مفهوم البيزنطيين عن معجزات القديسين عامة، والعلاجية منها بصفة خاصة، بوصفها موهبة ربانية خاصة يقوم القديس من خلالها بدور الوسيط بين المسيح وبينهم، وهو الأمر الذي عكسه كتاب هجيوجرافيا العصر الباكر بوضوح، فقد راح كاتب معجزات القديس أرتيميوس يتساءل: "من ذا الذي لا يؤمن بقوى المسيح، الذي من خلاله امتلك القديس قدرته؟ لأننا حديثا سمعنا أن هذا الشهيد العظيم كان يحمل مرتبة الدوق doux، ولم يكن طبيبا أو ابنا لطبيب، بل ربما إذا رأى مبضع الطبيب ذات مرة، لأرتعد كشخص يلفظ أنفاسه الأخيرة، لكنه هجر الثروة وروابط القرابة الزائلة، ووهب حياته للمسيح، فتلقى منه هبة الشفاء، وبدلا من أن يظل دوقا لمنطقة من العالم المأهول، غدا شافيا ومعالجا للعالم، وما لم يتأت له وهو في سجن الجسد، ناله بعد أن غادره" [٣٦]. وهو مفهوم عبر عنه أيضا كاتب سيرة القديس ثيودور السيكيونى St. Theodore of

---

(٣٢) ورد في أعمال الرسل أنه جرت على أيديهم "معجزات وعجائب كثيرة بين الشعب ....، وكان الناس يحملون المرضى على فرشهم وأسرتهم إلى الشوارع، لعل ظل بطرس عند مروره يقع على أحد منهم فينال الشفاء، بل كانت الجموع من المدن والقرى المجاورة يأتون إلى أورشليم حاملين المرضى والمعذبين بالأرواح النجسة، فكانوا جميعا يبرأون" (أعمال الرسل ٥ /١٢-١٦) .

(٣٣) متى ١٠ / ١.

(٣٤) الرسالة الأولى إلى مؤمني كورنثوس ١٢ /٤-١١.

(٣٥) الرسالة الأولى إلى مؤمني كورنثوس ١٢/٢٨.

(٣٦) Crisafulli , *St. Artemios* , mir. 24 , pp.143-4.

(٣٧) The Life of St. Theodore of Sykeon , in: *Three Byzantine Saints : Contemporary Biographies of St. Daniel the Stylite , St. Theodore of Sykeon and St. John the*

Sykeon، مستشهدا بما ورد في إنجيل متى، بقوله : "إن الرب الرحيم الذي دعا إليه تلاميذه الإثنى عشر، وأعطاهم سلطانا على الأرواح النجسة ليطردوها ويشفوا كل مـرض وعلـة، أعطاه -يقصد القديس- السلطة على طرد الأرواح الشريرة من البشر وعلاج المرضى" [٣٧].

ووفقا لاختلاف مهمة القديس الذي يهتم بعلاج السبب الروحي للمرض، عن مهمـة الأطباء التي تعنى في المقام الأول بمسببات طبيعية ومناهج علمية في التشخيص والعـلاج، صيغ موقف فئة من كتاب هجيوجرافيا العصر الباكر من الأطباء والطب التقليدي [٣٨]، أو ربما إذا جاز التعبير "الطب العلمي" لأبقراط Hippocrates وجالينوس Galen بوصـفه الطـب الممارس من قبل محترفيه في بيزنطة العصر الباكر، فالمطالع لكتابات تلـك الفئـة يلاحـظ هجوما عنيفا على مهنة الطب ومحترفيها. وإذا كان الاشتقاق المباشر من الطرق والمنـاهج الاسكليبينية قد اعترف به، بصورة ضمنية على الأقل، ففي المقابل شجبت واستنكرت بعنـف أية استعارة من طب ابقراط وجالينوس، ومن ناحية أخرى حرص كتاب هذه الفئة إلى عقـد مقارنات بين مهمة العلاج المقدس والطب التقليدي، أو بالأحرى بـين القـديس والطبيـب، استهدفت إظهار مهارة الأول وإخفاق الأخير.

Almsgiver , trans. E. Dawes , introductions & Notes by N.H. Baynes , London, 1948, ch.17.

Ibid , ch.146. كذلك وصف كاتب السيرة القديس ثيودور بأنه "تلميذ المسيح، الطبيب الحقيقي" .

وهذا الكتاب نشره بول هالسال بالكامل، مسجلا أرقام الفصول وليس الصفحات، ضمن Medieval Sourcebook على موقع : www.fordham.edu. وأنظر الترجمة الفرنسية للسيرة:

Vie de Théodore de Sykeôn , trad. A.Festugière , Bruxelles , 1970 , ch.17, p.18 ; ch.146 , pp. 119-120.

(٣٨) تضم هذه الفئة عددا من كتاب سير ومعجزات قديسى العصر البيزنطي الباكر المتخصصين في العلاج المقدس، يأتي في مقدمتهم الكاتب المجهول لمعجزات القديسين كوزماس وداميان الذي عاش في النصف الأول من القرن السادس الميلادي، والبطريرك صفرونيوس كاتب معجزات القديسين كيروس ويوحنا في النصف الأول من القرن السابع، والكاتب المجهول لمعجزات القديس أرتيميوس في النصف الثانى من القرن السابع. ومن الجدير بالملاحظة أن الغالبية العظمى من معجزات أولئك القديسين انحصرت في مهمة العلاج المقدس، وأن ثلاثة منهم، وهم القديسين كوزماس وداميان وكيروس، كانوا أطباءً، درسوا الطب في مدرسة الإسكندرية ومارسوه أثناء حياتهم. ومن الملاحظ أيضا أن كتاب هذه المعجزات عاشوا وكتبوا خلال القرنين السادس والسابع الميلادي، مما قد يفسر بأن مواقف هذه الفئة كانت وليدة ظروف واتجاهات خاصة بهذين القرنين، إلا أن هناك كتاب سير ومعجزات من القرن الخامس عبروا عن ذات المواقف، وإن كان بصورة أقل حدة وأكثر إقتضابا، ككاتبى معجزات القديستين ماترونا البرجية وإليزابيث. ومن هنا كان اتجاه الباحث إلى دراسة هذه المواقف عبر فترة العصر البيزنطي الباكر، مع الوضع في الإعتبار أن الثلاث معجزات الأولى تمثل المصدر الأساسي لأراء هذه الفئة.

ولا شك في أن موقف أولئك الكتاب من الطب التقليدي يعكس النفور والتناقض بين منهجي العقلانية واللاعقلانية، وهو في نفس الوقت دعاية ربما قصد منها التأكيد على تفوق مناهج العلاج المقدس في مواجهة تلك الخاصة بالطب التقليدي، وهو الأمر الذي عبر عنه بوضوح بطريرك بيت المقدس صفرونيوس في النصف الأول من القرن السابع، عندما راح يروى قصة جيزيوس Gesios الذي كان "سوفسطائيا حكيما، ليس في تدريس الخطابة، ولكن كممارس سابق لمهنة الطب ومعلم شهير لمناهجها وطرقها لطلابه"[٣٩]، ولأنه كان وثنيا اضطر إلى اعتناق المسيحية قسرا بعد صدور مرسوم إمبراطورى يأمر بالتعميد الإجبارى للوثنيين، لم يدع فرصة إلا وسخر من المسيحيين لـ "عبادتهم المضحكة والسخيفة للمسيح"، وراح يسخر من القديسين المعالجين يوحنا وكيروس زاعما بأن علاجهما لا يتم بصورة إعجازية أو بقوى خارقة للطبيعة، بل هو نتاج لعلاجات ووصفات طبية ضمنها أبقراط وجالينوس في كتاباتهم، وسرعان ما أصيب جيزيوس بآلام في كتفيه ورقبته أعجزته عن الحركة، وبعد أن يأس من الشفاء باستخدام تقنيات مهنة الطب التي كان هو نفسه أستاذا فيها، لجأ إلى كنيسة القديسين يوحنا وكيروس، وراح يصلي ويتضرع لهما أملا في أن يمنحاه العلاج من سقمه.

ومن الملاحظ هنا ؛ أن البطريرك صفرونيوس، كأحد كتاب الفئة المعادية للطب التقليدي، قرن بصورة ضمنية بين الوثنية والطب التقليدي من ناحية[٤٠]، والمسيحية والطب

---

(٣٩) Festugière , *saints Cyr et Jean* , mir. 30.

أشارت بعض مصادر العصر البيزنطي الباكر إلى شخصية جيزيوس، أستاذ الطب في مدرسته بالإسكندرية إبان القرن الخامس الميلادي، فكتب عنه أينياس الغزاوى Aeneas of Gaza أن " فصاحته البلاغية وقدرته البيانية أزالت كل صعوبات شروح الطب المعقدة"، وكتب عنه بروكوبيوس الغزاوىProcopius of Gaza أن " تشخيصه كان كالضوء الساطع لابد وأن يؤدى إلى شفاء مؤكد"، كما أشار إليه البطريرك فوشيوس في مكتبته وذكر أنه كان مسيحيا في الظاهر، لكنه ظل وثنيا بعاطفته، وظهر ذلك في مساندته للفيلسوف الوثنى هيرايسكوس Heraiscus عندما حاول الدفاع عن تمثال إيمحوتب من إعتداء المسيحيين. Nutton, *Galen* (*to Alexander*, p. 6.) . أما أينياس الغزاوى فكان مدرسا للخطابة في الإسكندرية خلال النصف الثانى من القرن الخامس الميلادي، درس الأفلاطونية المحدثة على يد هيروكليس Hierokles، ثم ارتحل إلى القسطنطينية وقضى بها فترة عاد بعدها إلى الإسكندرية، ووضع عدة مؤلفات أشهرها على الإطلاق مؤلفه المعروف بـ Theophrastus، وهو عبارة عن مناظرة دافع فيها الفيلسوف الأرسطى ثيوفراستوس عن أرائه بشأن خلود الروح.

Baldwin, B., 'Aineias of Gaza" , *The Oxford Dictionary of Byzantium* , I ,Oxford , 1991 , p. 41.

(٤٠) يبدو أن ربط البطريرك صوفرونيوس بين وثنية جيزيوس والطب التقليدي جاء انعكاسا لاعتقاد عام ساد بيزنطة في العصر الباكر بأن مهنة الطب كانت معقلا للوثنية والهرطقة، وكان لهذا الاعتقاد ما يبرره على

الصعيد الواقعي، فكما أشارت آنا موفات في دراستها عن "مدرسي العلوم في العصر البيزنطي الباكر"، أن أكثر أطباء القرنين الرابع والخامس الميلاديين ظلوا على الوثنية، أمثال أوريباسيوس Oribasius وأجابيوس السكندري Agapius of Alexandria وأسكليبيودوتوس الأفروديسياسي Asclepiodotus of Aphrodisias و يعقوب القيليقي الملقب بالبارد Jacobus Psychrestus وأبيه. وفي هذا الصدد يرى بارى بلدوين أن موقف كتاب الهجيوجرافيا المعادى لم يكن موجها ضد الطب التقليدي والأطباء بقدر كونه موجها ضد اقترانهم بالوثنية.

A. Moffatt , "Science Teachers in Early Byzantine Empire Some Statistics" , *Byzantinoslavica* 24(1973) , 15-18; Baldwin , B., "Beyond the House Call : Doctors in Early Byzantine History and Politics" , *Dumbarton Oaks Papers* 38(1984) , pp.15-19 ; Nutton , *Galen to Alexander,* p. 6.

وفي هذا السياق يروى سوزومين، مؤرخ الكنيسة في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي، قصة بروبيانوس Probianus أحد أطباء القصر في عهد قسطنطين، تتشابه إلى حد كبير مع قصة جيزيوس، حيث كان وثنيا مشككا في القوى المقدسة على العلاج، ثم أصيب بمرض خطير في قدميه عجز الطب التقليدي عن التعاطى معه، فلجأ إلى كنيسة القديس ميخائيل، وهناك شفي عن طريق رؤيا منامية، فاعتنق المسيحية وصار شديد الإيمان بقدرة العلاج المقدس.

Sozomen , *The Ecclesiastical History of Sozomen : Comprising a History of the Church from A.D.323 to A.D.425* , trans. Ch.D.Hartranft , Edinburgh , n.d. ,book.ii , ch.iii.

وقد اعتمد الباحث على النص الكامل لهذا المصدر المنشور على موقع :

http://www.vitaphone.org/history/sozomen.html

كذلك؛ هناك رواية ليوحنا الأفسوسى هاجم فيها جماعة وثنية من النحويين والمحامين والأطباء تعرضت للاضطهاد على يد جوستنيان.

John of Ephesus , *Ecclesiastical History* , *Revue de l'Orient Chrétien* , 2(1897) , pp. 481 f.

ويجد الباحث صعوبة فى مدى صحة أو إمكانية ربط رواية يوحنا الأفسوسى برواية أخرى مشابهة لبروكوبيوس، ففي معرض نقده لسياسة جوستنيان، أشار إلى أنه جعل الأطباء ومعلمى أبناء النبلاء يفتقرون حتى للضروريات الأساسية في الحياة، وذلك لأنه انتزع منهم كلية الحصص المجانية من المؤن والأرزاق التي داوم أباطرة سابقون على صرفها لأفراد هاتين المهنتين، ويعلق على ذلك بقوله "ومنذ ذلك الحين لم يعد الأطباء والمعلمون يساوون شيئا". ومن الملاحظ هنا أن بروكوبيوس لم يذكر شيئا بخصوص ارتباط هذا الأمر بوثنية المعلمين والأطباء، وإنما جاء نقده في سياق حديثه عن كيفية نجاح جوستنيان في تدمير كل أصحاب المقامات الرفيعة والوظائف العليا في بيزنطة والمدن الأخرى، والأهم أنه بدأ حديثه عن هذه الطبقة بالمحامين ثم الأطباء فالمعلمين

Procopius , *The Anecdota or Secret History* , trans. H.B.Dewing , Loeb Classical Library , Cambridge Mass. & London ,1993 , p. 303.

بروكوبيوس، التاريخ السرى، ترجمة على زيتون، دمشق، ٢٠٠٣م، ص١٦٨-١٦٩. وعن اقتران بعض أطباء القرن الرابع بهرطقات وثنية، أنظر: Nutton , *Galen to Alexander,*pp. 6-7.

المقدس من ناحية أخرى، أو بمعنى أخر أراد القول بأن جيزيوس لم ينكر قدرة العلاج الإعجازية للقديسين إلا لكونه وثنيا، وأراد في الوقت نفسه أن يبلغ رسالة من خلال ذلك إلى قراءه بأنه على المسيحي الحقيقي أن يؤمن بهذه القدرة وإلا تعرض للعقاب الإلهي، ومرض جيزيوس هنا لم يكن إلا نوع من هذا العقاب، أراد صفرونيوس من خلاله نفي تأثر وظيفة العلاج المقدس للقديسين يوحنا وكيروس بأى من معطيات الطب التقليدي، والتأكيد على أن علاج القديسين هو نوع آخر مختلف يرتبط بقدرات اعجازية وقوى خارقة للطبيعة. ومن هنا جاء اتجاه جيزيوس "بعد أن يأس من الشفاء بتقنيات مهنة الطب التي كان هو نفسه أستاذا فيها"، إلى هجر الطب التقليدي الذي أثبت فشلا في علاج مرضه، واللجوء إلى العلاج المقدس الذي رفضه منذ البداية، ربما بوصفه الأن الملاذ الأخير. وبطبيعة الحال كان صفرونيوس حريصا، أو بالأحرى متعمدا، في سرده لبقية أحداث القصة إسباغ مزيد من السخرية والاستهزاء بجيزيوس كنوع من التشفي والعقاب، أو ربما لجعله مثل وعبرة لمن قد تسول له نفسه بإنكار القدرة الشفائية للقديسين[٤١]، وكان أكثر حرصا على أن يختتم قصته بتوبيخ، صبغته نبرة سخرية واضحة، من القديسين لجيزيوس، بعد أن طوقا عنقه بشفائه من المرض، سائلين إياه : "أخبرنا أين ضمن أبقراط دواءً لمرضك؟! وأين وصف جالينوس علاجا بشأنه؟!"[٤٢].

وربما كان اقتران مهنة الطب بوجه عام بالوثنية، أحد الأسباب التي دفعت هذه الفئة من كتاب هجيوجرافيا العصر الباكر إلى اتخاذ موقف عدائي من الطب والأطباء، أو ربما مثل أحد الأسلحة التي استخدموها في دعايتهم ضد الطب التقليدي، خاصة وأن تضميناته توحى بأن الصراع بين القديسين والأطباء، أو العلاج المقدس والطب التقليدي، هو في الأساس صراع بين المسيحية والوثنية، بين الروح والمادة .

Baldwin , *Doctors* , p.17.

(٤١) في بقية أحداث القصة، عندما يلجأ جيزيوس إلى كنيسة القديسين يوحنا وكيروس، ممارسا لطقس "حضانة المعبد"، يزوره القديسان في المنام ويصفان له علاجا به الكثير من السخرية والاستهزاء بشخص جيزيوس، فيقولان له :" لقد ادعيت الحكمة وأثبت بدلا منها حماقة، فلتحضر سرج حمار وترتديه فوق كتفيك، وعند منتصف النهار سر حول الكنيسة صائحا (أنا أحمق غبى)، عندئذ سترد إليك عافيتك في الحال"، واعتقد جيزيوس أن الأمر مجرد تخيل فلم يعر له اهتماما، ولذلك ظهر القديسان له ثانية في منامه، ليضيفا أمرا جديدا إلى السابق بأن يرتدى إلى جانب سرج الحمار حزاما عريضا حول رقبته، ولم يهتم جيزيوس، فظهر له القديسان في منامه للمرة الثالثة، وأمراه بأن يضيف لما سبق لجام حصان على فمه، وأن يجره أحد عبيده حول الكنيسة وهو يصيح بعبارة (أنا أحمق غبى)، وفي هذه المرة خشى جيزيوس من عدم الإذعان، فنفذ الأمر وشفي.

(٤٢) Festugière , *saints Cyr et Jean* ,mir.30.

والصيغة الأخيرة التي تشير إلى عجز الطب التقليدي في مواجهة العلاج المقدس، كررها صفرونيوس بعبارة أشد قسوة أوردها على لسان إلياس Elias الذي تلقى علاجا مقدسا من مرض الجذام، فراح يلعن ويسب الأطباء الذين فشلوا في علاجه قائلا :" إن أبقراط وجالينوس إخوة لقطاء كذابون، مع أولئك الذين يتباهون بكلامهم"[٤٣]. وعلى ذات النسق سار كاتب معجزات القديس أرتيميوس في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي، عندما تعمد أن يختتم رواياته عن معجزات القديس العلاجية بذات العبارات الهجومية ضد الأطباء، ففي إحدى المعجزات راح يتسأل : "من ذا الذي لا يؤمن بقوى المسيح، الذي من خلاله امتلك القديس قدرته ؟"، وأعقب تساؤله بمقارنة بين القديس أرتيميوس الذي لم يكن طبيبا أو ابن طبيب، بل لربما ارتعد إذا رأى مشرط الطبيب، لكنه مع ذلك تلقى هبة الشفاء من المسيح، فغدا شافيا ومعالجا للعالم، وبين محترفي الطب التقليدي الذين تساءل عنهم قائلا :" أين شهرة أبقراط وجالينوس الذائعة وأدعياء العلاج الآخرين الذين لا يحصى عددهم؟ أولئك الذين لا يزالون يتبعون أساليبهم العقيمة"[٤٤]. وفي معجزة تالية راح يعقد ذات المقارنة بقوله :"هذه الأشياء حققها أرتيميوس الطبيب المقدس، فماذا فعلت أنت أيها الجراح المتبجح؟ إنك لا زلت تستخدم ما استخدمه أدعياء العلاج القدماء، إن عقدك أبطل ومشرطك أتلفه الصدأ، إن مراهمك وأدويتك وأدواتك الجراحية عديمة الجدوى."[٤٥]

هكذا ؛ اتجه عدد من كتاب الهجيوجرافيا الباكرين إلى عقد مقارنة بين الطب المقدس ونظيره التقليدي، أرادوا من خلالها إبراز تفوق الأول وعجز الأخير، وهى بلا شك مقارنة أرادوا من خلالها الدعاية والترويج للقديسين المعالجين بوصفهم الأطباء الحقيقيين في مواجهة من أطلقوا عليهم "أدعياء العلاج"، وداخل هذه المقارنة عكسوا صورة سلبية لمحترفي مهنة الطب التقليدي، واقترحوا ما يمكن أن يطلق عليه عقابا لابد وأن يلحق بأولئك الذين يجدون في الطب التقليدي بديلا عن الطب المقدس، عقاب لا يقتصر على تفاقم المرض وتدهور حالة المريض فقط، بل يستتبع أيضا خسارة مالية تتمثل في إنفاق المريض كل ما يملك نظير العلاج على أيدى الأطباء دون أن يتحقق في المقابل تحسنا لحالته، ولذلك حرص هؤلاء الكتاب على أن يضمنوا داخل الصورة السلبية التي أرادوا عكسها عن الأطباء تهمتين محددتين، الأولى هى فشلهم الدائم وعجز مناهجهم وطرقهم العلاجية، والثانية إلصاق صفات الطمع والجشع والابتزاز المالى بهم.

---

(٤٣) Festugière , *saints Cyr et Jean* , mir.13.

(٤٤) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.24 , pp. 143-144.

(٤٥) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.25 , pp. 145-147.

وتبرز هذه الصورة السلبية عن الأطباء بوضوح في معجزات القديس أرتيميوس، إلى حد يستحق التوقف عنده قليلا لمناقشة وتحليل رؤية كاتبها، فهو يوحى لقارئه بأنه لم يكن يهدف من تدوينه للمعجزات تمجيد قديسها وقدراته الإعجازية على العلاج، بقدر رغبته في التأكيد على فشل الأطباء وقصور مناهجهم وأساليبهم، من خلال تقديمه أمثلة تطبيقية على ذلك. ويبدو أن حرصه على أن تنال رواياته تصديقا وتأثيرا لدى أفراد المجتمع، جعله يتميز عن أكثر كتاب هجيوجرافيا العصر الباكر في تضمينه أغلب رواياته معلومات وافية عن هوية المرضى، كالأسم والسن والوظيفة والموطن الأصلى ومحل الإقامة الحالى[٤٦]، وأغلب هؤلاء المرضى ترددوا قبل اللجوء إلى ضريح القديس على أطباء كثيرين دون أن يشفوا أو يتحقق لحالاتهم المرضية أدنى تحسن [٤٧]، ومن بينهم الكارتولاريوس جورج[٤٨] الذي عانى من مرض مؤلم بسبب قرح ظهرت على عضوه الذكرى، ورغم تردده على العديد من الأطباء إلا أن حالته زادت سوءً، فكلما بدوا في طريقهم إلى الشفاء تزايد عدد القرح، ولذلك قرر بعض الأطباء إجراء جراحة له، وهنا كان الكاتب حريصا على إظهار قصورهم وارتباكهم بقولهم: "إذا استأصلنا القرح بالمشرط، سيتقاطر الدم في موضع الجرح وستنتج قرح أخرى، وحتى إذا عملنا على إزالتها دون جراحة فستعود إلى الظهور ثانية، وهكذا سيظل المريض يعانى من قرحه لا محالة". وعندما ظهر لجورج عجز أطبائه طردهم واتجه إلى ضريح القديس، فظهر له في المنام وسأله :"ما الأمر"، فأجابه جورج :"مريض عجز الأطباء عن علاجه"، وعندئذ كشف القديس عن موضع المرض قائلا :"إنها سبع قرح، ما هذا بالمرض الجدير بأن يحتار الأطباء حوله"[٤٩].

وإذا كان كاتب المعجزات قد أراد إظهار عجز الأطباء، فإن حديثه لم يخل من نبرة سخرية وتهكم، ومبالغة في وصف قصور حرفتهم في مواجهة قدرة ارتيميوس الإعجازية، خاصة عندما ذكر على لسان القديس قوله :"ما هذا بالمرض الجدير بأن يحتار الأطباء حوله". وفي حالات تالية اتجه الكاتب إلى إبراز هذا القصور الطبى من خلال تدخل ارتيميوس ذاته

---

(٤٦) Nesbitt , *Introduction* , pp.19-21.

(٤٧) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.3 , pp. 81-83 ; mir. 4 , pp. 83-4 ; mir.20 , pp. 123-5 ; mir.21 , pp.125-130 ; mir.22 , pp.131-7 ; mir.23. , pp.137-141.

(٤٨) الكارتولاريوس *chartoularios* : موظف يشرف على حفظ الأرشيفات وتوثيق الوثائق الرسمية المتعلقة بالخزانة الإمبراطورية، لمزيد من التفاصيل، أنظر:

Kazhdan , A., "Chartoularios" , *The Oxford Dictionary of Byzantium* , I ,Oxford , 1991, p.416.

(٤٩) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.20 , pp. 123-125.

كمرشد للأطباء نحو العلاج الصحيح، أو لإصلاح أخطاء طبية قد تودي بحياة المريض، منها حالة رجل مسن مصاب بالفتاق أمضى عشرة أشهر في المستشفى تلقى خلالها "أفضل ما لدى الأطباء من قدرة على العلاج"، لكن حالته لم تتحسن بل ازداد المرض سوءً، فلجأ إلى كبير الأطباء، الذي أجابه : " إنها الشيخوخة، ستظل بمرضك حتى الوفاة، فلا علاج له، وكل ما نستطيعه هو أن نخفف الألم"، وعندما يأس الرجل من قصور الطب عن علاج مرضه راح يتضرع للقديس أرتيميوس بأن ينعم عليه بإحدى معجزاته العلاجية، فظهر القديس لأحد الأطباء المساعدين بالمشفي في منامه وأخبره بما ينبغي عليه عمله "طبيا"، فاستيقظ وأجرى جراحة للمريض وفقا لتوجيهات القديس. وهنا حرص الكاتب على إظهار ذات نبرة السخرية والتهكم، والمبالغة في وصف قصور حرفة الطب في مواجهة قدرة ارتيميوس الإعجازية، عندما يستطرد بقوله:"وعندما كشف كبير الأطباء عن خصيتي المريض ووجده قد شفي تماما، أصابه الذهول، وقال لمساعده : أخي صدقني أنا طبيب منذ ثلاث وثلاثين سنة ولم أصادف ما أرى الأن، فرد عليه الطبيب المساعد قائلا : أنا أيضا طبيب منذ ثماني وعشرين سنة ولم أشهد مثل هذا" [٥٠].

وهذا التدخل المقدس لإرشاد الأطباء إلى العلاج الصحيح نصادفه أيضا في معجزات القديسين كوزماس وداميان، إذ يروى كاتبها قصة مريضة بورم الثدى لجأت إلى ضريح القديسين بعد أن فشل الأطباء وأدويتهم في علاجها، فظهر القديسان لأحد هؤلاء الأطباء في منامه، وأرشداه إلى شق موضع المرض ودهنه بنوع معين - لم يحدده الكاتب- من المراهم[٥١]، وعلى الفور استيقظ الطبيب وأسرع إلى كنيسة القديسين لإجراء الجراحة للمرأة

---

(٥٠) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.22, pp.131-7.

الفتاق Hernia : اصابة تنتج عن خروج الأمعاء من موضعها واختراقها لجدار البطن الداخلى، وينقسم إلى نوعين وفقا لموضع حدوث الاختراق، الأول هو فتاق الثغرة (السرة) hernia hiatus، والفتاق الإربى inguinal hernia . وقد سمى الأخير بذلك نسبة الى مسمى الجزء السفلى من التجويف البطنى قرب ثنية الفخذ والمعروف بـ "الفتحة الإربية". والفتاق بوجه عام يتعرض له أصحاب المهن الذين يحماون على ظهورهم احمالا ثقيلة أو يشتغلون بأيديهم أشغالا عنيفة قد تؤدى إلى ضغط الأمعاء على جدار البطن، وقد يصيب الإناث أثناء الولادة، أوالأطفال منذ الولادة . ويمكن علاج الأطفال منه إذا لم يتجاوزوا العاشرة عن طريق حزام طبى خاص، وباستثناء ذلك يصبح التدخل الجراحى أمرا ضروريا. لمزيد من التفاصيل، أنظر : الموسوعة الطبية الميسرة على موقع http://www.wataan.com/tib/index.php?badre=4/12

(٥١) ربما يقصد الكاتب نوع من المراهم شاع استخدامه بين المرضى اللاجئين إلى أضرحة القديسين، وكان يتم توزيعه على المرضى عند أضرحة القديسين بالكنائس في وقت معين، ربما عقب صلوات مساء السبت من كل أسبوع، أنظر حاشية ٥٤.

وفقا لإرشادهما، لكنه عندما بلغ الكنيسة دهش لأنه – وفقا لرواية الكاتب– وجد الجراحة قد أجريت بالفعل، وبذات الطريقة التي وصفها القديسان له، وهنا يستطرد الكاتب بقوله :"وهكذا تعلم الطبيب منهما استخدام الدواء الخاص الذي وصفاه"[٥٢].

وإذا كان كُتاب الهجيوجرافيا المعادين للطب التقليدي قد عمدوا إلى الترويج لفشل الأطباء وقصور حرفتهم، فإنهم من ناحية أخرى سعوا إلى كسب مزيد من التأثير بتركيزهم على اختلاف طرق القديسين العلاجية وفعاليتها في مواجهة قصور الطب التقليدي، وعكسوا من خلال ذلك إنطباعا يوحى بأن البيزنطيين خشوا من اللجوء إلى الأطباء، خاصة الجراحين منهم، حتى لا يخضعوا لعمليات جراحية مؤلمة غالبا ما تكون فاشلة ونتيجتها الحتمية هى وفاة المريض، وربما أراد كتاب الهجيوجرافيا غرس هذا الخوف في نفوس أفراد المجتمع واستخدامه سلاحا أساسيا وفعالا في دعايتهم للعلاج المقدس ضد الطب التقليدي. والمطالع لهجيوجرافيا العصر البيزنطي الباكر يلاحظ حرص كتابها على إبراز المقارنة بين خطورة العمليات الجراحية التي يجريها الأطباء لمرضاهم، وبساطة ويسر، والأهم أمان البدائل المتاحة في علاج القديسين، فيروى كاتب معجزات القديسين كوزماس وداميان قصة مريض ظل يعانى من خراج بمفصل الركبة طوال خمسين عاما، أجريت له خلالها عمليات جراحية عديدة، لكنها لم تؤد سوى إلى تزايد حالته سوءً ومواصلة الخراج تضخمه. وهنا كان الكاتب حريصا على إظهار مدى اليأس الذي أصاب المريض ومقاومته العنيفة لإجراء أية جراحة أخرى له بلغت حد اضطرار من ظنهم جراحين إلى تقييده، ثم يواصل سرده لكيفية سهولة شفاء الرجل على يد القديسين باستخدام نوع من المراهم يتألف من الزيت والشمع، مختتما قصته بقوله : "هكذا شفي الرجل بالمرهم الشمعى بعد سنوات طويلة من المعاناة "[٥٣].

(٥٢) Festugière , *Saints Côme et Damien* ,mir.28.

(٥٣) في أحداث هذه القصة، بعد أن يأس المريض من العمليات الجراحية العديدة والفاشلة، ظهر له القديسان في رؤيا منامية وحملاه إلى مستشفى الكنيسة، الموجودة في مبنى ملحق بها، ووضعاه على سرير قرب باب مخزن الأدوية، وشرعا في الإعداد لعملية جراحية، وهنا ظن المريض أنهما طبيبان عاديان سيجريان له جراحة، فهب في ثورة غاضبة معلنا أنه لم يعد بحاجة إلى الجراحة وأنه لم يأت إلا للقديسين، ولأن كوزماس كان على وشك البدء في الجراحة، وداميان يجد صعوبة في السيطرة على الرجل، فقد اضطرا إلى تقييد قدميه، وشقا الجرح وشرعا في تنظيفه، ثم لفاه بضمادات سميكة، وقد دهش المريض لعدم استخدامهما أى مراهم، ولأنه أجرى عمليات جراحية قبلا فقد احتج قائلا :" لقد أجريتما جراحة لى ولم تستخدما ضمادات كتانية مقطلة، رغم أن هذا ما يوصى به العلم، وما تعلمته من مرضى والعمليات المتكررة التي أجريت لى"، فأجابه القديسان :"أتقصد أن تعلمنا كيف نعالجك؟"، وبعد أيام قليلة زاره القديسان وعالجاه

كذلك جسد كاتب معجزات ارتيميوس نفس الاتجاه عند تناوله لحالة امرأة مـصابة بالفناق، بقوله: "أين شهرة أبقراط وجالينوس الذائعة، وأدعياء العلاج الآخرين الذين لا يحصى عددهم؟ أولئك الذين لا زالوا يتبعون أساليبهم العقيمة، ففي هذا النوع من الفتاق الأنثوى يلجأ الأطباء إلى شق الجلد المترهل، لكن أرتيميوس لم يتبع أيا من هذه الممارسات ..، بل عالج هذه المشكلة الطبية باستخدام المرهم الشمعى..". وهنا يستطرد الكاتب بقوله :"ولهـذا يلجـأ الناس للقديسين والقديسات"[٥٤]، وهو استطراد له دلالته، إذ ربما يقدم من خلاله رؤية عدد من

باستخدام ضمادة جديدة مقطلة بنوع من المراهم الشمعية، كان يوزع على المصلين في كنيسة القديسين، وعندئذ شعر المريض بألم نتيجة تجمع كل ملوثات وإفرازات الجسم الضارة وخروجها من الجرح .

Festugière , *Saints Côme et Damien* ,mir.30, pp.171-2.

(٥٤) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.24 , pp.141-5.

من الملاحظ أن المعجزات الشفائية لقديسى العصر البيزنطي الباكر تشير إلى استخدام نوع من المراهم الشمعية للعلاج، أطلقت عليه اسم *kêrôtê*، وفي هذه الحالة علق الكاتب على هذا المرهم بقوله : "عالج هذه المشكلة الطبية باستخدام المرهم الشمعى *kêrôtê* المعد لعلاج مثل هذه الحالات بواسطة أولئك المتمرسين في عمليات الفتاق"، ولعله يقصد هنا القديسين أرتيميوس ويوحنا وفبرونيا. وفي معجزة أخرى يحدثنا الكاتب عن رجل من أماستاريس يقطن بالقسطنطينية، ظل ينتظر رؤيا اعجازية للقديس لمدة ثلاثة أيام، راح يتوسل خلالها لقساوسة الكنيسة أن يعطوه هذا المرهم الشمعى . Crisafulli , *St. Artemios* , mir.3 , pp.81-3.

ويبدو أن هذا المرهم كان يوزع عند أضرحة الشفاء داخل الكنائس في وقت محدد، حيث تشير إحدى معجزات القديس أرتيميوس إلى شخص يدعى ثيودور أرسل ابنه المريض بالفتاق مع صديق له يدعى ثيوجنيوس إلى كنيسة القديس يوحنا برودروموس حيث ضريح القديس أرتيميوس، وكان ثيوجنيوس يعانى هو الآخر من مرض بصدره، ويخبرنا كاتب المعجزات أنه :"في يوم السبت، عشية يوم المسيح، وقت صلوات المساء، غط ثيوجنيوس في نوم عميق، فظهر له القديس أرتيميوس وقال له : إنهض وخذ بعض من المرهم الشمعى وادهن صدرك به، وتناول بعضه كطعام، وادهن خصيتي الطفل، وعلى الفور استيقظ ثيوجنيوس وهو يقول :" لقد أيقظتنى كلمات القديس، وكانت تلك بالفعل ساعة إتمام صلوات منتصف الليل وموعد توزيع المرهم الشمعى المقدس". Crisafulli , *St. Artemios* , mir.33 , pp.175-7.

وذات المعلومة يقدمها كاتب معجزات القديسين كوزماس وداميان، عندما يشير إلى أنه كان من المعتاد، عند ضريح القديسين في كنيستهما بالقسطنطينية، توزيع هذا النوع من المرهم الشمعى (الـ kêrôtê)، على المصلين والمرضى عند الساعة السادسة من صلوات مساء السبت، وأنه عند الساعة التاسعة من الصلوات ظهر القديسان لمريض خراج مفصل الركبة وعالجاه بضمادة ممزوجة بالـ kêrôtê دهنا بها موضع المرض. Festugière , *Saints Côme et Damien* ,mir.30.

وعلى ذلك يمكن القول بأن المرضى اللاجئين إلى أضرحة القديسين ربما هدفوا من ممارسة طقس "حضانة المعبد"، ليس فقط الأمل في حدوث رؤيا منامية للقديس يعالجون فيها بصورة إعجازية، بل أيضا الحصول على هذا النوع من المراهم الشمعية، الذي ربما اعتقدوا في قدرته الإعجازية على شفاء الامراض دون الحاجة إلى العمليات الجراحية المؤلمة والشديدة الخطورة. وليس من المعروف من أى المواد كان يعد هذا

كتاب الهجيوجرافيا لأحد أهم الأسباب التي قد تدفع المرضى إلى تفضيل علاج القديسين على نظيره الطبي.

ونستطيع أن نلاحظ بسهولة ووضوح الصورة التي حرصت هذه الفئة من الكتاب على رسمها لتصوير مدى المعاناة والآلام التي يعاني منها المرضى ممن قادهم سوء حظهم إلى الخضوع لعمليات جراحية، دائما ما تكون فاشلة، فكاتب معجزات القديس أرتيميوس يروي قصة ستيفن الشماس بكنيسة آيا صوفيا، الذي أصيب بالفتاق الإربي، ويصف على لسانه قصة معاناته مع المرض والأطباء الجراحين بقوله : "جربت علاجات كثيرة من الأعشاب والمراهم دون جدوى، فنصحني والداي بأن أعرض نفسي على جراحي مستشفى سامسون Samson ...وبعد أن خضعت لعلاج بالكي لثلاثة أيام، أجريت لي عملية جراحية في اليوم الرابع، إنها لمعاناة قاسية عانيتها وأنا مستلقي على سرير الجراحة، سأغفل الحديث عن تلك الأمور المرعبة التي مرت بي، لقد فقدت بالفعل كل أمل في الحياة على أيدي هؤلاء الأطباء، وفقدوا هم أنفسهم الأمل في بقائي على قيد الحياة، ولكن الله استجاب لدموع والداي وأعاد لي الحياة، والتئم الجرح وبدى الأمر طبيعيا، وظننت أني شفيت، لكن بعد برهة قصيرة من الوقت ساءت حالتي وعادت إلى صورتها الأولى، وعندئذ قررت الذهاب إلى القديس الذي سمعت عن معجزاته الكثير، وأخذت بعضا من زيت قنديله وسكبته على خصيتي، وفعلت ذلك مرارا حتى شفيت"، وكان ختام القصة الطبيعي من وجهة نظر الكاتب أن يصور المريض في حالة شديدة من الندم ودموعه تنهمر وهو يواجه ضريح القديس قائلا : "أيها القديس أرتيميوس، باسم الرب الذي منحني نعمة الشفاء، لن يلمسني أي طبيب على وجه الأرض مرة أخرى"[٥٥].

وإذا كان ستيفن الشماس قد ارتكب من وجهة نظر كاتب المعجزات خطيئة بلجوئه إلى الأطباء والجراحة، استحق التكفير عنها بتعرضه لنوع من العقاب القاسي تجسد في المعاناة والألم الذي تعرض لهما على أيدي هؤلاء الأطباء، فإنه في معجزات أخرى قدم حالات لمرضى دفعهم الخوف من الجراحة إلى رفضها منذ البداية، مفضلين اللجوء إلى

المرهم، وإن كان فيستوجيير يعتقد بأنه خليط من الشمع والماء، بينما يرى نيسبيت أنه ربما كان يعد من زيت يستخرج من قنديل القديس أو الشموع المشتعلة عند ضريح القديس.

Festugière , *Saints Côme et Damien* ,m.30 , n.5 ; Nesbitt , *Introduction* ,pp.22-3.

وعن حالات أخرى لمرضى انتظروا الحصول على هذا المرهم الشمعي، أو استخدموه كعلاج لأمراضهم، انظر:

Crisafulli , *St. Artemios* , mir.13 , p.101 ; mir.15 , pp.103-7 ; mir.24 , pp.141-145.

(٥٥) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.21 , pp.125-30.

ضريح القديس أرتيميوس، منهم جورج صانع البراميل الذي عانى من آلام حادة بسبب إصابته بالفتاق، وعندما نصحه بعض الأصدقاء باللجوء إلى الجراحة، هب فيهم صائحا: "ويلكم، أتدفعون بى نحو الموت، ألا تعلمون أن كثيرين لقوا هذا المصير عندما سلموا أنفسهم للجراحين"[٥٦]. ومنهم أيضا مريض أخر بالفتاق يدعى جورج، ظل يبكى لفترة طويلة أمام ضريح القديس أملا في رؤيا منامية، فنصحه البعض باللجوء إلى أحد الأطباء الجراحين، فارتاع للفكرة ورد عليهم قائلا: "ألا تدرون سوء قدر الكثيرين ممن عهدوا بأنفسهم إلى الجراحة، ألا تدرون أن الموت كان مصيرهم المحتوم، سأعهد بنفسى إلى الرب وشهيده وليفعلا بى ما يترأى لهما". وفي بقية أحداث هذه القصة عمد الكاتب إلى استخدام صورة كاركاتيرية تعكس ذات روح السخرية والتهكم التي صبغت اسلوبه ورؤيته للطب التقليدي والأطباء، ذلك عندما صور الجراح في هيئة جزار يجري عملية جراحية باستخدام أدوات الجزارة، وعندما أختتم قصته بالقول :"هذه الأشياء حققها أرتيميوس الطبيب المقدس، ماذا فعلت أنت أيها الجراح المتبجح؟ إنك لا زلت تستخدم ما استخدمه أدعياء العلاج القدماء، إن عقدك أبطل ومشرطك أتلفه الصدأ، إن مراهمك وأدويتك وأدواتك الجراحية عديمة الجدوى"[٥٧].

ومن الملاحظ هنا ؛ أن كاتب معجزات القديس أرتيميوس عند مقارنته بغيره من كتاب الفئة المعادية للطب التقليدي، كان أشد عنفا وحدة، وبالطبع سخرية، في هجومه الذي استهدف به الأطباء عامة والجراحين منهم بصفة خاصة، ولا يعنى هذا أن كتابات الآخرين خلت تماما من الإشارات إلى فشل الجراحين والآلام التي تصاحب عملياتهم الجراحية. ففي معجزات القديسين كوزماس وداميان عبر كاتبها عن ذات الإتجاه في مجموعة من قصص المرضى الذين لجئوا إلى ضريح القديسين، لكنه ربما كان حريصا على أن يكون هجومه مستترا يفهمه القراء ضمنا من سياق الأحداث، دون اللجوء إلى العبارات الهجومية الصريحة والمصبوغة بنبرة الكراهية والعداء والسخرية الواضحة التي استخدمها كاتب معجزات القديس

---

(٥٦) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.44 , pp.219-23.

(٥٧) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.25 , pp.145-7.

في بقية أحداث القصة يزور القديس أرتيميوس المريض جورج في رؤيا منامية متخفيا في هيئة جزار، يحمل أدوات الجزارة ووعاء مملوء بالماء، وشق خصيتيه وغسلهما بالماء، وهنا صاح فيه جورج قائلا : "أنظر ماذا فعلت بى أيها الجراح الجزار، لقد رفضت أن أسلم نفسى لك، فأخرجت ما بداخلى، وقضيت على حياتى، من الذي أرسلك لتقتلنى؟"، واستيقظ الرجل مرتاعا وهو يبحث عن أدوات الجزارة، وسرعان ما أدرك أنه شفي برؤيا إعجازية .

أرتيميوس، ففي إحدى هذه القصص راح يروى معاناة مريضة بورم الثدى وفشل الأطباء وأدويتهم في علاجه، وعندما نصحها الأطباء بأن تخضع لجراحة، رفضت "خوفا من أن يكون موتها محصلة طبيعية للجراحة"، وأجابتهم بقولها :"من الأفضل لى اللجوء إلى قديسي المسيح، كوزماس وداميان"[٥٨]. وفي قصة أخرى راح يروي ألم أم تحجر لبن الرضاعة في ثدييها، ومنعها حياؤها من أن تعرض نفسها على الأطباء لعدة أيام، ولكن مع تزايد الألم وانتفاخ الثدى، اضطرت إلى اللجوء إليهم، فنصحوها بالخضوع لجراحة، وهنا أصابها هلع شديد ولجأت إلى ضريح القديسين كوزماس وداميان، فظهر القديسان في رؤيا منامية لزوجها متخفيين في هيئة طبيبين، وأبلغاه أنهما سيجريان جراحة لزوجته في هذا اليوم، ففزع الرجل وراح يتوسل لهما بقوله: أرجوكما لا تفعلا ذلك بها، إننى لم أرسلها إلى القديسين إلا لأقيها مشرط الجراحة، فهى لن تقوى على خوض تلك المعاناة التي تعرفونها جيدا[٥٩].

وإذا كان فشل الأطباء وقصور حرفتهم هو العنصر الرئيسى الذي حرص بعض كتاب الهجيوجرافيا على تضمينه داخل صورتهم السلبية عن الطب التقليدي، فقد عمدوا أيضا-كما أشير سابقا- إلى إلصاق صفات الطمع وابتزاز المرضى بالأطباء، كنوع آخر من العقاب الذي لابد -من وجهة نظرهم- وأن يلحق بأولئك الذين يفضلونهم على اللجوء إلى القديسين، وفي هذا الصدد غالبا ما ربط هؤلاء الكتاب بين فشل الأطباء وقصور حرفتهم وإنفاق المريض لكل أو معظم ما يملك نظير هذا الفشل، وهو ربط يبدو متعمدا لم يقصد به الفقراء والمعدمين فحسب، بل أيضا الأثرياء وأفراد الطبقة الأرستقراطية، أو لعله رسالة

(٥٨) Festugière , *Saints Côme et Damien* ,mir.28.

(٥٩) Festugière , *Saints Côme et Damien* ,mir.29.

من الملاحظ كذلك أن كاتب معجزات القديسين كوزماس وداميان عبر ضمنا في قصص أخرى عن مفهوم الخطيئة التي يقترفها المرضى بلجوئهم إلى الأطباء والجراحة كبديل عن ضريح القديسين، وتكفيرهم عنها بالتعرض لنوع من العقاب القاسى تمثل في ألم ومعاناة العمليات الجراحية، كقصة مريض مسن بالاستسقاء أمضى عدة أيام عند ضريح القديسين أملا في رؤيا اعجازية دون جدوى، وعندما يأس راح يهذى بكلمات مسيئة لهما، فظهرا له يحملان مشرطا وأجريا له جراحة سببت له ألما شديدا، وعندما ندم الرجل على إساءته لهما، عالجاه باستخدام المرهم الشمعى. Festugière , *Saints Côme et Damien* ,mir.1.

وفي قصة أخرى، أمضى مريض بخراج معوى بعض الوقت في كنيسة القديسين إنتظارا لرؤيا إعجازية، وعندما نفذ صبره استدعى أطبائه الخصوصيين، وتم إجراء جراحة له داخل الكنيسة، لكنهم فشلوا في إزالة الخراج، بل على العكس ظهر العديد منه حول الأول، وعندما ندم الرجل منحه القديسان رؤيا إعجازية شفي خلالها. Festugière , *Saints Côme et Damien* ,mir.5.

تحذيرية وجهها كتاب الهجيوجرافيا لكل فئات المجتمع البيزنطي بعدم اللجوء إلى الطب التقليدي لأنه فاشل ومؤلم ومبدد للأموال، سواء للفقراء أو للأثرياء.

وقد عبر كاتب سيرة القديسة ماترونا البيرْجيّة St. Matrona of Perge أواخر القرن الخامس الميلادي عن هذه الرسالة في حوار دار بين سيدتين أرستقراطيتين، أنطيوخيانى Antiochiane وصديقتها يوفيميا Euphemia، حينما راحت الأولى تشكو من اشتداد المرض عليها وعجز الأطباء عن علاجها، وأنها رغم إنفاقها أموالاً طائلة عليهم إلا أنهم لم يتمكنوا من تخفيف آلامها، بل "أسهموا من خلال انعدام كفاءتهم في زيادة مرضها سوء". وهنا أراد الكاتب إطلاق رسالته التحذيرية من خلال عبارة أوردها على لسان يوفيميا، جاء فيها :"سيدتى النبيلة، لم أنفقتِ كل هذا المال على الأطباء الذين لا يهتمون إلا بحصده دون أن يدروا شيئا عن كيفية مساعدة مرضاهم ؟، عليك بدلا من اللجوء إليهم، الاقتراب من الرب الكريم، الطبيب الذي لا يأخذ أجرا "[٦٠]. ودلالة هذه الرسالة لا تكمن فقط في أن كاتبها عبر من خلالها عن الاتجاه المعادى للطب التقليدي، بقدر ما تكمن في كونه ضمنها داخل المعجزة الشفائية الوحيدة التي نسبها إلى القديسة.

وفي ذات القرن ضمن كاتب سيرة القديسة اليزابيث St. Elisabeth نفس الاتهام للأطباء في واحدة من ثلاث معجزات شفائية نسبها للقديسة، روى فيها قصة فتاة تنتمى إلى عائلة "نبيلة وثرية" وتعانى من نزيف بعد انتهاء فترة الحيض، كان أباها قد "أنفق الجانب الأكبر من ثروته على الأطباء دون أن يفيد ذلك ابنته، لأن مرضها كان يفوق قدرات حرفتهم، وعندما يأس من شفائها على أيدى الأطباء لجأ بها إلى القديسة"[٦١].

وإذا كان هؤلاء الكتاب قد سعوا من خلال هذه الرسالة التحذيرية إلى إحداث تأثير ما على الطبقة الثرية من المجتمع، فلا شك في أنهم توقعوا لها تأثيرا أقوى وأعمق بين أوساط الطبقة الفقيرة والمعدمة، ولذلك سعوا إلى إبراز المقارنة بين جشع وابتزاز الأطباء الخاليين من أية رحمة أو ضمير، والقديسين المعالجين الذين دوما ما لقبوهم بـ

---

(٦٠) Life of St. Matrona of Perge , trans. J.Featherstone & C.Mango , *Holy Women of Byzantium : Ten Saints lives in English Translation* , ed. A-M. Talbot , Washington, D.C., 1996 , pp.13-69, esp.49.

حدد كاتب السيرة هوية أنطيوخيانى ويوفيميا، فالأولى كانت زوجة والى القسطنطينية البطريق سفوراكيوس Sphorakios (٤٧٤-٤٩١م)، والثانية هى إبنة الإمبراطور مارقيان Marcian وزوجة أنثيموس Anthimus أوغسطس الغرب خلال الفترة (٤٦٧-٤٧٢م). أنظر: Ibid , p.49, n.87 , 89.

(٦١) Life of St. Elisabeth the Wonderworker , trans. V.Karras , *Holy Women of Byzantium : Ten Saints lives in English Translation* , ed. A-M. Talbot , Washington, D.C., 1996 , pp.117-136 , esp.p.134.

"Anargyroi" " لأنهم يقدمون علاجهم الإعجازى مجانا [٦٢]. ففي معجزات القديسين يوحنا وكيروس يصور كاتبها حالة مريض كفيف راح يشكو بؤس حاله عند ضريح القديسين بقوله: "كنت فقيرا، لكنني الأن صرت أشد فقرا، فكل ما كنت أمتلكه قبل سقمى أنفقته على الأطباء"[٦٣]. وفي معجزات القديس أرتيميوس كان الأطباء يعملون بالدرجة الأولى من أجل الربح، وراح كاتبها يصور جشعهم في قصة الأم صوفيا التي انفطر قلبها على ابنها ذو التاسعة من عمره والمصاب بالفتاق، وعندما استدعت أحد أطباء القسطنطينية سألها :"كم ستدفعين لقاء علاج ابنك؟"، فأجابته: "إننى فقيرة، ولكنى سأدفع لك كل ما أملك"، فطلب منها

---

(٦٢) *Anargyroi* : لقب أطلق على القديسين المعالجين، ويعنى "الذين لا يدفع لهم فضة"، أى غير المرتزقة.
Festugière , *Saints Côme et Damien* ,prol.

ترى إفيلينى باتلاجين أن القديسين رغم عدم تلقيهم أجر مادى نظير علاج مرضاهم، إلا أنهم بوجه عام تلقوا مقابلا من نوع أخر، سواء أكان هذا المقابل هو الولاء لعبادتهم أو دعم النشاط الخيرى أو القيام بأعمال وخدمات لصالح ضريح أو كنيسة القديس

.Patlagean , E., *Pauvrete economique et pauverte social a Byzance , 4e-7e* siecles , Paris , 1977 , p.352 .

وفي معجزات القديس أرتيميوس، نذرت سيدة فقيرة نفسها للخدمة بكنيسة القديس يوحنا برودروموس في صلوات العشاء وعشية عيد الكنيسة لقاء علاج إبنها، كذلك نجد حالات لمرضى قضوا فترة وجودهم عند ضريح القديس في القيام بأعمال خدمية للكنيسة، فصانع السفن ثيوتيكنوس Theoteknos قام خلال إقامته بالكنيسة بعدد من أعمال النجارة، منها إصلاح درابزين ضريح القديس، وألكسندر ذو التاسعة من عمره ساعد في تعليق وتزيين القناديل وتوزيع الماء في مناسبة احتفال الكنيسة بعيد القديس ارتيميوس، هذا فضلا عن توقع ممارسة المرضى للطقوس والصلوات الدينية داخل الكنيسة .

Crisafulli , *St. Artemios* ,mir.27 , pp.153-5 ; mir.36, pp.189-193.

كذلك كان متوقعا من المريض أن يعد قنديلا يضاء بالزيت والخمر كنذر للقديس، فكاتب معجزات القديس أرتيميوس يذكر قصة رجل إفريقى "أبحر من إفريقيا قاصدا المدينة المقدسة، تاركا ورائه إبنه المريض، وببلوغه كنيسة القديس يوحنا، أعد باسم ابنه قنديلا من الزيت والخمر وفقا للعرف السائد"، وقد ترك الإفريقى القنديل مشتعلا طوال فترة إقامته بالكنيسة، وعند رحيله وضع مخلفات القنديل في قنينة زجاجية وحملها معه ليدهن بها أجزاء ابنه المريضة. وهذا النذر تناولته بقية المعجزات كأمر مألوف، حيث أشارت إحداها إلى أن "الذي على مرضى الفتاق عمله أن يعدوا قنديلا"، وفي معجزة ثالثة أشار الكاتب إلى أنه قرب الضريح "قنديل القديس" وأن المرضى يشربون منه، وفي معجزات أخرى نصح المرضى بدهان زيت هذه القناديل على الأجزاء المريضة.

Crisafulli , *St. Artemios* , mir.4 , pp.83-5 ; mir.23 , pp.137-141 ; mir.15 , pp.103-7 ; mir. 19 , pp.121-3 , mir.37 , 193-7.

ويبدو أن هذا الزيت إلى جانب المرهم الشمعى (الـ kêrôtê)، مثلا علاجا استخدمه المرضى اللاجئون إلى أضرحة الشفاء . أنظر حاشية (٥٤).

(٦٣) Festugière , *saints Cyr et Jean* ,mir.46.

إثنتا عشرة نوميزما، ولأنها لم تستطع دفع هذا الأجر الباهظ فقد اضطرت إلى صرف الطبيب، واستدعت آخرا فطلب منها ثمان نوميزمات، وهذه المرة أقسمت صوفيا وهي تتضرع للطبيب أنها لا تملك قطعة نقد واحدة، ذهبية أو فضية، لتعطيها له، فتركها الطبيب وانصرف دون أن يرق قلبه لتوسلاتها[٦٤].

ومن الملاحظ ؛ أن الأجر الذي حدده كاتب معجزات القديس أرتيميوس في قصة صوفيا قد يكون مبالغا فيه، خاصة وأنه كان مدفوعا برغبة جامحة في إظهار جشع لا حدود له للأطباء، ورغم صعوبة تحديد الأجور الحقيقية التي تقاضاها الأطباء من المرضى، خاصة وأنها علاقة تبدو شخصية فردية بين الطبيب والمريض، تفتقد إلى شاهد وثائقي أو مصدري موثوق به، إلا أنه يمكننا على الأقل تخيل ضخامة هذا الرقم بتقدير القيمة الشرائية للنوميزما خلال العصر الباكر، ففي عهد جستنيان كان متوسط تكلفة إطعام الرجل العامل سنويا حوالى خمس نوميزمات، وفي بداية القرن السابع كان أجر خادم بأحد الحمامات العامة يقدر بنحو ثلاث نوميزمات سنويا [٦٥]. كما يمكن تخيل حدود هذه المبالغة في ضوء بعض أرقام الأجور التي أشارت إليها مصادر العصر البيزنطي الباكر غير الهجيوجرافية، فمتوسط أجور الأطباء العاملين في القصور الامبراطورية والمستشفيات الحكومية خلال القرن السادس الميلادي كان يقدر بحوالى خمسين نوميزما سنويا [٦٦]. وكاتب معجزات أرتيميوس نفسه كان

(٦٤) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.36, pp. 189-193.

في بقية أحداث القصة ينصح بعض الأصدقاء صوفيا بأن تأخذ إبنها إلى كنيسة القديس يوحنا برودروموس بحى أوكسيا حيث ضريح القديس أرتيميوس، وهناك يظهر لها القديس في رؤيا منامية ويسألها :"طلب الأطباء إثنتا عشرة نوميزمات وثمانى نوميزمات لعلاج إبنك، كم ستدفعين لى إذن لأشفيه؟!"، فأجابته : "لدى بعض الأشياء الصغيرة زهيدة القيمة، سأبيعها وأمنحك ثمنها، فقط إشفي صغيرى ووحيدى، فأنا أرملة ولن أرزق بغيره"، فقال لها القديس :"لا أريد شيئا باستثناء ترددك على صلوات العشاء التي تقام هنا"، فوعدته صوفيا بأنها لن تتغيب عن الصلوات طالما حيت، وعندئذ لمس القديس موضع المرض قائلا :"إن المسيح، أبو اليتامى وحامى الأرامل، يشفيك، خذى ابنك فقد أعطى لك".

(٦٥) Jones , A.H.M., *The Later Roman Empire (284-602)* , Oxford, 1964, vol. I , 447-8.

(٦٦) وفقا لمدونة جستنيان Codex Iustinianus تقاضى الأطباء خمسين نوميزما سنويا، بينما تقاضى الأساتذة والمدرسون سبعين، وتقاضى المحامون ما بين خمسين واثنتين وسبعين. ويبدو أن ممارسة مهنة الطب على المستوى غير الرسمى كان يدر على الأطباء دخلا إضافيا من خلال الأجور التي يتقاضوها من المرضى، وعلى ذلك تراوح الدخل السنوى لإثنين من كبار أطباء ولاية افريقيا في القرن السادس بين سبعين وتسع وتسعين نوميزما، ولا شك في أن هذا الدخل يزداد في العاصمة الإمبراطورية، أنظر،
Nutton , *Gallen to Alexander* , p. 11.

وعن قيمة النوميزما المرتفعة إبان القرنين الخامس والسادس الميلاديين، أنظر:

أقل مبالغة في تحديده لأجر طبيب في حالة أخرى لقس مريض حمله أصدقائه إلـــى طبيـــب فارسي يقطن بالقسطنطينية، حيث حدده بأقل من نوميزمـــا واحـــدة : "ســـميزيس *semissis* وتريميسّيس *tremissis* وأربع قيراطيا *keratia*"[٦٧]. وفـــي معجـــزات القديـــسين كيـــروس ويوحنا، كانت المبالغة أقل عندما حدد كاتبها أجر طبيب فشل في علاج مريض بالكلى بثلاث نوميزمات[٦٨].

ورغم ما يبدو من مبالغة واضحة في الاتهامات التي ضمنها هؤلاء الكتاب داخـــل الصورة التي أرادوا عكسها عن الطب التقليدي ومحترفيه في بيزنطة إبان العصر الباكر، إلا أننا نجد صدى لها في بعض مصادر ذلك العصر التاريخية، فأميانوس مـــاركيللينوس رغـــم إقراره بحاجة المجتمع البيزنطي الدائمة لحرفة الطب، إلا أنه وصفها بأنها "لم تكن رخيـــصة أو مقتصدة"[٦٩]، كما راح سوزومين Sozomen مؤرخ الكنيسة في النصف الأول من القـــرن

Grierson , Ph., "The Tablettes Albertini and the Value of the Solidus in the Fifth and Sixth CenturiesA.D.", *Journal of Roman Studies* 49/1-2(1959), pp.73-80.

(٦٧) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.23, pp.137-141.

النوميزما nomisma أو الصولدى solidus هى عملة ذهبية بيزنطية، تعادل ١/٧٢ من الجنيه الذهب، وتساوى ٢ سيميزيس semissis، أو ٣ تريميسّيس tremissis، أو ١٢ ميلياريزيا miliaresia، أو ٢٤ قيراطيا keratia .

Grierson , Ph., *Byzantine Coinage* , Washington D.C., 1999 , pp.57, 59 , 60.

(٦٨) Festugière , *saints Cyr et Jean* ,mir.40.

من الملاحظ أنه رغم المبالغة الواضحة في تقدير أجور الأطباء، إلا أن ذلك لا يعنى أن أجور الأطباء لم تكن تفوق قدرات المرضى، خاصة من الطبقات الفقيرة والمعدمة، وربما كان ارتفاع أجورهم أحد الأسباب التي دفعت هؤلاء المرضى إلى تفضيل العلاج المقدس المجانى على العلاج الطبى، أنظر حاشية (١٥٩)، (١٦٠). ومن ناحية أخرى، ربما يمكن القول بأن ارتفاع أجر الأطباء فى الحالات السابقة قد يرجع إلى خطورة طبيعة المرض وارتفاع تكلفة علاجه، وأنه لم يكن بالضرورة الأجر الاعتيادي للأطباء، لاسيما وأن الذين يذهبون إلى القديسين هم الذين فقدوا الأمل في العلاج على أيدى الأطباء.

في بقية أحداث القصة، يلجأ المريض بعد فشل الأطباء إلى ضريح القديسين كيروس ويوحنا بكنيستهما، فيظهرا له في رؤية منامية ويوبخاه لأنه لم يثق منذ البداية في قدرتهما العلاجية، ويأمراه بأن يهب لخزانة الكنيسة ثلاث نوميزمات لقاء علاجه، وهذا المثل يعد من الأمثلة النادرة التي يطلب فيها القديسين الـــ anargyroi أجرا نظير علاج مريض. وفي سيرة القديسين كوزماس وداميان المضمنة في السنكسار القبطى اشارة عن تلقى داميان ثلاث بيضات من امرأة نظير علاجها، الأمر الذي دفع كوزماس إلى مقاطعته، فظهر له المسيح وأمره بألا يغضب من أخيه لأنه لم يأخذ أجرا إلا بعد أن اقسمت عليه المرأة باسم المسيح، فخاف من اليمين وأخذهم، وعلى ذلك مضى كوزماس إلى أخيه واتفقا على أن يعالجوا كل من يأتى إليهما دون أجر، سواء أكان فقيرا أم ثريا. المخطوط الأصلى لسير قزمان ودامیان، ص١١-١٥.

(٦٩) Ammianus Marcellinus , *Later Roman Empire* , p. 253.

الخامس يمتدح الطبيب جيرونتيوس Gerontius لـــ " كرمه ونشاطه فـــي توظيــف حرفتــه لصالح الفقراء والأثرياء على السواء، عكس كثيرين من أقرانه"[٧٠]. وفـــي القـــرن الـــسادس وصف زكريا الميتيليني Zachariah of Mitylene أحد أطباء عصر جـــستنيان، يـــدعى سرجيوس Sergius، بأنه "كان فاسقا وولعا بالنساء، جشعا ونهما وعاشقا للمـــال"[٧١]، كـــذلك هناك إشارات عديدة في مصادر العصر التاريخية تلمح إلى فشل الأطباء وقصور حرفتهم في مواجهة قوى القديسين العلاجية[٧٢]. وفيما يتعلق بقسوة وألم العمليات الجراحية يتحدث يوحنـــا الأفسوسى عن مرض الإمبراطور جستين الثانى الذي "تزايد عليه ألم انحسار البـــول، وراح يتلوى من الحصوات التي سدت مثانته، فجاء الأطباء لاســـتخراجها، وطلبـــوا منـــه، وفقـــا لطريقتهم الجبانة المعتادة، أن يناولهم المشرط بيديه، فقال لهم: لا تخشوا شيئا، لن يلحق بكـــم أذى إن مت"[٧٣]، وقد اعتمد بعض الباحثين على هذه الرواية للقول بأن ســـمعة الأطبـــاء قـــد تأثرت إلى الحد الذي جعلهم قلقين بشأن مصيرهم إذا ما أخفقت عملياتهم الجراحية[٧٤].

---

(٧٠) Sozomen , *Ecclesiastical History* , book.viii , ch.vi.

(٧١) Zachariah of Mitylene , *The Syriac Chronicle* , trans. F.J. Hamilton & E.W. Brooks , London , 1899 , pp.226-27.

ولد زكريا الميتيلينى في غزة أواخر القرن الخامس، درس القانون في الاسكندرية وبيروت في عهد زينون، ثم ارتحل إلى القسطنطينية وعمل بها محاميا، وكتب بها مؤلفه التاريخى خلال الفترة (٤٩١–٥١٨م)، والذي يغطى تاريخ الكنيسة خلال الفترة (٤٥٠–٤٩١م)، ويبدو أنه اتبع المذهب الخلقدونى، ولذلك عين أسقفا لميتيلينى، وتوفي بعد عام ٥٣٦م . Ibid , p. 3.

(٧٢) أنظر حاشية (٨٠)، (٨١)، (٨٢)، (٨٣).

(٧٣) John of Ephesus , *The Third Part of the Ecclesiastical History of John of Ephesus* , trans. R. P. Smith , Oxford , 1860 , Liber iii , p.177.

الجدير بالذكر أن ترجمة هذه الرواية كما جاءت في الترجمة العربية للنص السريانى، وردت كالتالى: "كان يتعذب من الألم الشديد ومن الحصوات التي تسبب له ألما شديدا في أمعائه، وبينما كان على هذا الحال من العذاب، جاء الأطباء ليختنتونه وهم خائفون كعادة الأطباء، فطلبوا منه أن يعطيهم السكين، أما هو فقد استحلفهم ألا تأخذهم به شفقة لكى يموت، قائلا لهم: لا تخشوا شيئا فليس عليكم مسئولية إن مت". يوحنا الأسيوى، تاريخ الكنيسة، ترجمة صلاح عبد العزيز محجوب، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص٣٦. وقد اعتمد ماجولياس (Magoulias, *Byzantine Medicine* , p. 138.) على هذه الرواية في إصدار حكم عام بأنه "كان من المعتاد في حالة الجراحة لشخص الإمبراطور أن يحصل الأطباء على المشرط من يديه شخصيا قبل شروعهم في اجرائها، وهو ما يمكن اعتباره ضمانا لعدم تحملهم المسئولية وبالتالى العقاب إذا ما فشلت الجراحة". ولا يدرى الباحث مدى مصداقية هذا الحكم، خاصة وأنها –على حد علمه– الرواية الوحيدة التي صادفها في المصادر البيزنطية.

(٧٤) Haldon , *Supplementary Essay* , p. 44 ; Magoulias , *Byzantine Medicine* , p. 138.

ولاشك في أن ترديد بعض المصادر التاريخية لذات الاتهامات التي وجهتها فئة من كتاب الهجيوجرافيا للأطباء، أمر يثير التساؤل ويدفع إلى البحث في مدى تأثير الدعاية الهجيوجرافية المعادية للطب التقليدي بما تضمنت من اتهامات ورسائل تحذيرية على طوائف وفئات المجتمع البيزنطي، ومدى مصداقية هذه الصورة مع الواقع الحياتى لممارسات الطب بشقيه التقليدي والمقدس، وأثر ذلك كله على وضع مهنة الطب ومكانة محترفيها في بيزنطة العصر الباكر. وهى قضايا، مع صعوبة البحث فيها وتقديم تحليلات قاطعة بشأنها، يمكن تلمس بعض جوانبها في ضوء بعض الإشارات المتناثرة داخل المصادر التاريخية المعاصرة، وهنا أيضا يمكن تقديم قراءة أخرى لمصادرالبحث الرئيسية ممثلة في الكتابات الهجيوجرافية ذاتها.

وبداية ؛ ينبغى التأكيد على أن الدين والمعتقدات الدينية الشعبية كانا يمثلان ركنا أساسيا في حياة المجتمع البيزنطي اليومية، ولم يقتصر ذلك على الطبقة الفقيرة الأمية بحكم منطقية كونها أكثر الطبقات تأثرا بهذه المعتقدات، بل تجاوز هذا التأثير حدود العلم والثقافة والنبالة ليشمل الطبقتين الوسطى والأرستقراطية وكثيرين من متعلميها ومثقفيها، ويستطيع المطالع لمصادر العصر التاريخية أن يلاحظ هذا التأثير بسهولة، فمؤرخ القرن الرابع أميانوس ماركيللينوس يظهر قبولا شعبيا متزايدا للتمائم والرقية والتعاويذ السحرية بين كافة طبقات المجتمع[٧٥]، وفي القرن السادس الميلادي كان بروكوبيوس Procopius يعتقد في السحر والأرواح الشريرة وقدرتهما على ايذاء البشر[٧٦]، كما أبدى كل من ثيوفلاكت سيموقاطا Theophylact Simocatta[٧٧] وكاتب الحولية الفصحية المجهول[٧٨] إيمانا بالغا بمعجزات

---

(٧٥) Ammianus Marcellinus , *Later Roman Empire* , pp. 96-7 , 359 , 316 , 354.

(٧٦) لمزيد من التفاصيل عن تأثر بروكوبيوس بهذه المعتقدات، أنظر :

Procopius , *Secret History* , pp. 149-55, 223-7 , 263 ; Cameron , A., *Procopius and the Sixth Century* , London & New York , 1996 , pp. 88-91.

بروكوبيوس، التاريخ السرى، ص١٠٥-١٠٧، ١٣٨-١٣٩، ١٥٢.

(٧٧) ولد ثيوفلاكت سيموقاطا حوالى عام ٥٨٠م، درس الخطابة والفلسفة في الإسكندرية، ثم واصل تعليمه بدراسة القانون في القسطنطينية، ووضع عدة كتابات في علم الطبيعة والدين. وقد أبدى في مؤلفه التاريخى إيمانا كبيرا بمعجزات القديسين، فأشار إلى أن حرق الأفار لضريح ورفات القديس ألكسندر عام ٥٨٨م قرب Drizipera جلب عليهم الطاعون وتسبب في إصابة سبعة من أبناء الخان بحمى أدت إلى موتهم جميعا في يوم واحد .

Theophylact Simocatta , *The History of Theophylact Simocatta* , trans. M.& M. Whitby , Oxford , 1986 , pp.199-200.

القديسين وراحا يربطان بينها وبين تفسيرهما لبعض الأحداث التاريخية، أما إيفاجريوس Evagrius فقد ذهب لأبعد من ذلك عندما راح يحاكى كتاب الهجيوجرافيا بتضمينه سير بعض القديسين داخل رواياته التاريخية[٧٩].

وفيما يتعلق بموضوع البحث ؛ تضمنت المصادر التاريخية إشارات عن مكانة العلاج المقدس في الفكر الشعبى البيزنطي، فقد كتب سوزومين عن كنيسة القديس ميخائيل St. Michael التي شيدها قسطنطين في ضاحية Sosthenium بالقسطنطينية، وكيف توافد عليها المرضى من كل صوب وحدب لتلقى العلاج المقدس، منهم مريض ثرى لجأ إلى الأطباء، بيد أن أدويتهم لم تفلح في علاجه بل زادت حالته سوءً، وعندما وجد المريض نفسه قد أصبح نصف ميت، وأن "مهارة الأطباء باتت عاجزة"، أمر خدمه بحمله إلى كنيسة القديس ميخائيل، ورقد بها حتى "تجلت له قوة مقدسة ليلا وشفي"[٨٠]. وفي هذا الصدد تبرز أهمية

كما تحدث عن معجزات القديسة يوفيميا وضريحها بكنيستها في خلقدونية، وأن الإمبراطور موريس استخف بهذه المعجزات وأرجعها إلى براعة خداع البشر، لكنه رأى بعينيه معجزة تدفق الدماء من ضريحها، فبكى قائلا :"لقد تجلت معجزات الرب في قديسيه" . Ibid , pp.233-234.

واقترح هنرى جريجوار أن ثيوفلاكت بوضعه هذه المعجزات مباشرة، وبصورة تبدو مقحمة على سياق الأحداث، قبل حديثه عن مقتل موريس بعد ثمان سنوات من هذه الحادثة المؤرخة بعام ٥٩٣م، يقدم تفسيرا إلهيا لمقتله، أنظر،

Grégoire , "Sainte Euphémie et l'empereur Maurice" , *Le Muséon* 59 (1946) , pp. 295-302.

(٧٨) كتبت الحولية الفصحية في أوائل القرن السابع الميلادي، وقد أبدى كاتبها إيمانا كبيرا بالرؤى والأحلام ومعجزات العذراء والمسيح والقديسين، أنظر:

Chronicon Paschale , pp.9 , 26-8 , 31 , 37 , 39 , 41-2 , 102-3 , 165 , 169 , 174 , 180 , 183-4 , 186 , 188.

ويشير كاتبها إلى انتقام العذراء من الآفار لحرقهم كنيستى القديسين كوزماس وداميان والقديس نيقولاس عام ٦٢٣م. Ibid , p.180.

(٧٩) ولد إيفاجريوس حوالى عام ٥٣٥م بسوريا، درس النحو والأدب والخطابة في أنطاكية خلال الفترة (٥٤٠-٥٥٠م)، ثم ارتحل إلى القسطنطينية لدراسة القانون حتى صار مدرسا للقانون، وعاد إلى أنطاكية ليعمل مستشارا قانونيا لبطريرك كنيستها جريجورى (٥٧٠-٥٩٢م).

Evagrius , *Ecclesiastical History* , pp.xiv-xiii.

وقد ضمن إيفاجريوس مؤلفه سيرا مختصرة ومعجزات للقديسين سيميون الأكبر Symeon the Elder وزوسيماس Zosimas ورفيقه يوحنا الغزاوى John the Ghozibite، وبارسانوفيوس Barsanuphius.

Ibid , pp.34-8 ; 205-7 ; 206-207 ; 273, 241.

(٨٠) Sozomen , *Ecclesiastical History* , book.ii , ch.iii.

مؤلف بروكوبيوس عن المنشآت The Buildings، الذي ربما يقدم صورة واقعية عن مدى تغلغل الإعتقاد في قدرات القديسين العلاجية في فكر المجتمع البيزنطي، وهى صورة تتشابه في كثير من جوانبها مع الفكر الهجيوجرافي بوجه عام، ففي معرض حديثه عن مجهـودات جستنيان لإعادة بناء عدد من أضرحة القديسين، أشار إلى أن جستنيان أصيب بمرض خطير، حتى بدى وكأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة، فزاره القديسان كوزماس وداميان فـي حلـم وأنقـذاه بصورة لا يدركها عقل البشر، ولذلك أعاد بناء كنيستيهما وتوسيعها وإنارتها وأضاف إليهـا الكثير من الملحقات التي لم تكن بها قبلا، وهنا يستطرد بروكوبيوس بقوله : "ولذلك عنـدما يجد الناس أنفسهم يهاجمون بأمراض تفوق قدرة الأطباء، وبعد يأسهم من أية مساعدة بشرية، يلجئون إلى الأمل الوحيد الباقى لهم، فيركبون القوارب ويسرعون إلى الكنيسة، وعند اقترابهم يرون الضريح وكأنه على الأكروبوليس"[٨١]. وفي إشارة تالية يتحدث بروكوبيوس عن معاناة جستنيان بمرض منعه من النوم وسبب له ألما شديدا، وعندما وضح له أن مرضـه خـارج نطاق مساعدة الأطباء، "هجر مهارة البشر" وعهد بنفسه إلى رفات الأربعين قـديس راجيـا الشفاء من خلال الإيمان بهم، وعندما وضع القساوسة المذخر علـى ركبتيـه زال المـرض و"طرد بواسطة أجساد الرجال التي كرست في خدمة الرب". وهنـا يـستطرد بروكوبيـوس روايته بقوله :"ولم يسمح الرب بأن يكون شفاؤه المقدس محل شك، بل أظهر إشارة عظيمـة لما حدث، ففجأة انساب الزيت من الرفات المقدسة لتغمر قدمى الإمبراطور وعباءته، ولـذلك حفظت هذه العباءة في القصر، كتخليد لذكرى هذه الحادثة، ولعلاج أولئك الذين قـد يعـانون مستقبلا من أمراض ميئوس من شفائها"[٨٢].

ولد سوزمين على مقربة من غزة بفلسطين وعاش في النصف الأول من القرن الخامس، حوالى ٤٠٠م – ٤٥٠م، ارتحل إلى القسطنطينية ودرس القانون ثم احترف المحاماة. وقد اشتهر بمؤلفه عن تاريخ الكنيسة الذي أهداه إلى الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى، أنظر: دونالد نيكول، معجم التراجم، ص٢٤١-٢٤٢.

(٨١) Procopius , *Buildings* , p.63.

(٨٢) Procopius , *Buildings* , pp.67-69.

ذكر بروكوبيوس هذه القصة في سياق حديثه عن العثور على رفات الأربعين قديس الذين خدموا قديما في الجيش الرومانى بمدينة ميليتينى Melitene في أرمينيا. ومن الملاحظ هنا أنه أرجع سبب مرض جستنيان إلى سلوكه الشخصى بقوله :" وكان هو نفسه مسئولا عن مرضه، لأنه مارس رجيما قاسيا أثناء أيام الصوم قبل عيد الفصح، رجيم لا يناسب إمبراطور مهموم بشئون دولته، لقد ظل يومين كاملين دون طعام، وخلالهما كان يستيقظ مبكرا ويظل منهمكا في إدارة أمور الدولة حتى وقت متأخر من الليل، ورغم أنه يأوى إلى فراشه متأخرا، إلا أنه سرعان ما يستيقظ كما لو كان لا يستطيع تحمل فراشه".

ومن الملاحظ ؛ أن بروكوبيوس، وهو أحد متعلمى بيزنطة في القرن السادس، عبر في هذه الروايات عن اعتقاده في القدرات الإعجازية للقديسين، خاصة في مجال العلاج المقدس، وحاكى كتاب الهجيوجرافيا في وصف إعجازية هذا العلاج، ولعل استخدامه لما يشبه طقس "حضانة المعبد" في زيارة القديسين كوزماس وداميان المنامية لجستنيان، واستخدامه لمفهوم وساطة القديسين والرفات والزيت المقدس، كلها أمور تعكس ممارسات وطقوس المجتمع البيزنطي اليومية فيما يتعلق بزيارة أضرحة القديسين لأغراض العلاج المقدس، كما تعكس تأثيرا هجيوجرافيا وضح ضمنا في إشارات بروكوبيوس إلى نجاح القديسين في علاج أمراض فشل الطب التقليدي في التعامل معها، ومع ذلك قد يكون من الصعب، أو ربما من الخطأ، القول بأن بروكوبيوس تبنى موقف كتاب الهجيوجرافيا المعادى للطب والأطباء.

ولم يكن بروكوبيوس الوحيد من بين متعلمى عصره الذين عبروا بوضوح عن اعتقادهم في القدرات العلاجية للقديسين، فايفاجريوس أيضا تحدث في تاريخه الكنسى عن وجود العديد من أضرحة القديسين الشهيرة في القسطنطينية، التي جذبت الناس من شتى الأنحاء، كما تحدث عن القديس سيميون العمودي St. Symeon the Stylites الذي أمضى ٦٨ عاما على عمود فوق جبل يعالج المرضى من كافة العلل والأمراض، وربما قصد التلميح ضمنا إلى فشل علاج الأطباء، عندما تحدث عن موت مريض بالنقرس لأنه "تناول دواء مركبا مما يسمى *hermodactylus*، قدمه له أحد الأطباء *Asclepiades*" [٨٣].

وإشارات بروكوبيوس عن علاج جستنيان من خلال الطب المقدس ليست الوحيدة من نوعها، بل لدينا أمثلة أخرى في الكتابات الهجيوجرافية عن لجوء أباطرة وأفراد من الأسرة الإمبراطورية للعلاج على أيدى القديسين، حيث يروى كاتب سيرة القديس ثيودور السيكيونى قصة علاج الإمبراطور فوقاس من النقرس على يدى القديس عن طريق صلوات تلاها عليه، كما يروى قصة أخرى عن إصابة أحد أبناء الإمبراطور موريس بمرض عضال حيث "ظهرت قرح كثيرة في جسده، ورغم أن الأطباء جربوا أدوية كثيرة، إلا أن أدويتهم لم تجد نفعا مع الطفل، فأرسل موريس للقديس يستدعيه للحضور في قصر هيريا، فصلى القديس على الطفل وبارك بعض الماء وغسل به جسده، وبذلك شفي من مرضه".

Dawes , *St. Theodore of Sykeon* , chs. 97 , 133 ; Festugière , *Théodore de Sykeôn* , ch.97, pp.81-2 ; ch.133, pp.109-10 .

(٨٣) Evagrius , *Ecclesiastical History,* pp. 233-5 ; 315 ; 316.

من الملاحظ أن هناك عددا من أضرحة الشفاء ورد ذكرها بين ثنايا المصادر، دون أن يحظى قديسوها بكتاب كرسوا لهم مؤلفات تتضمن سيرهم ومعجزاتهم، فبالإضافة إلى ضرائح العلاج المقدس الشهيرة للقديسين كوزماس وداميان، وأرتيميوس، يحدثنا كاتب معجزات القديس أرتيميوس عن ضرائح أخرى جذبت المرضى بشتى أنواع الأمراض، الروحية والجسدية، فيشير إلى كون كنيسة القديس بانتيليمون St.

وإذا كانت المصادر التاريخية قد عكست جانبا من المعتقدات الدينية الشعبية فيما يتعلق بالعلاج المقدس، فإن أحد أهم المصادر الطبية للعصر البيزنطي الباكر قد شخص مدى عمق وتغلغل هذه المعتقدات في العقلية الشعبية البيزنطية بصورة مثيرة للإنتباه، وهو المؤلف الطبى الذي وضعه ألكسندر التراليسى Alexander of Tralles [٨٤]، أحد أشهر أطباء عصر جستنيان، ككتيب إرشادى للأطباء، وضمنه خلاصة تجربته وخبرته كطبيب، وفيه أعلن تأييده لاستخدام التعاويذ والرقية والأحجبة والعلاجات الشعبية، ورغم أنه لم يقدم مبررا مباشرا لموقفه، إلا أنه كان حريصا على التوصية بقصر استخدام مثل هذه الوسائل على الحالات الميئوس من علاجها، وحينما يفشل المنهج العلمي في التعامل معها، وفي مواضع تالية راح يدافع عن استخدامها في ظروف أخرى، خاصة إذا ما بدت الأسلوب الوحيد لملائمة حاجات ورغبات مرضاه. ونستطيع لمس جوهر تفكيره من فقرة وردت في نهاية توصيته عن مرض القولون : "أعرف أن أي شخص يستخدم الأساليب المذكورة توا لن يحتاج إلى مساعدة أخرى من الخارج، ومع ذلك، لأن كثيرا من المرضى، خاصة الأثرياء، يرفضون تناول الدواء ومعالجة أمعائهم بالسوائل، فإنهم يضطروننا إلى علاج الألم بالتعاويذ السحرية، وذلك هو سبب اعتقادي بأنه أمر جدير بالاهتمام الحديث عن هذه العلاجات، سواء تلك التي خبرتها بالتجربة والخبرة، أو تلك التي ثبتت فعاليتها على يد أصدقاء وزملاء موثوق فيهم"[٨٥].

Panteleemon ملجأ شعبيا لأولئك الذين تملكتهم الأرواح الشريرة، بينما كنائس أخرى، مثل كنيسة العذراء Theotokos جذبت الذين يعانون من مختلف الأمراض الجسدية .

Crisafulli , *St. Artemios* , mir.18 , pp.115-21; mir.12 , pp. 99-101.

(٨٤) ولد ألكسندر التراليسى في تراليس Tralles عام ٥٢٥م في إحدى عائلات آسيا الصغرى البارزة، وتوفي بروما عام ٦٠٥م، ووفقا لأجاثياس كان الكسندر أحد خمسة أشقاء بارزين لطبيب يدعى ستيفن، أكثرهم شهرة هو أنثيميوس Anthemios المهندس المعمارى الشهير الذي شيد كنيسة آيا صوفيا .

Agathias , *The Histories* , trans. J.D.Frendo , New York, 1975, p.141; Scarborough, J., "Alexander of Tralles", *The Oxford Dictionary of Byzantium*, I , Oxford, 1991, p. 58.

(٨٥) Duffy , J., "Byzantine Medicine in the Sixth and Seventh Centuries: Aspects of Teaching and Practice", *Dumbarton Oaks Papers* 38(1984), pp.21-27 , esp. 26.

وقد علق دوفي على رأى ألكسندر التراليسى بقوله :"حتى بدون اقتراح ما قد يقصده ألكسندر من تأثير للعامل النفسي في مقاربته، فإن صدقه وصراحته ربما تستحقان الإعجاب، إذ كان لديه من الشجاعة ليربط بين المريض ومثل هذه الممارسات في ظل مخاطرة تعرضه للسخرية أو فقدان احترام المثقفين . هذا بالإضافة إلى أن الباحث في حقائق الحياة البيزنطية في القرن السادس لديه من الأسباب ما يجعله مدانا له، لأنه كشف الكثير عن مكانة السحر و المعتقدات الخرافية عند جانب من المجتمع البيزنطي بصورة لم نكن نتوقعها". وفي هذا السياق يقدم لنا مؤرخ القرن الرابع أميانوس ماركيللينوس معلومة هامة عن مكانة السحر

ورغم أن ألكسندر الترالييسى لم يشر إلى العلاج المقدس كأحد أنواع الطب البديل التي أيد استخدامها، إلا أن موقفه هذا ذو دلالة بالغة على مدى عمق وتغلغل البدائل الطبية الشعبية، بما فيها العلاج المقدس، في الفكر المجتمعى البيزنطي، والأكثر دلالة أنه إذا كان المنطق أكثر ميلا لربط مثل هذه الظواهر بالطبقات الدنيا، لعوامل الفقر والأمية، فإن ألكسندر هنا يحذرنا من الاستخفاف بدور المعتقدات الشعبية بين أفراد الطبقة العليا، التي ينتمي إليها ألكسندر ومرضاه، وهو الأمر الذي قد يضفي بدوره مزيدا من المصداقية والتناغم مع ما ذكر قبلا عن موقف أكثر أفراد هذه الطبقة من الطب المقدس[٨٦].

في الممارسات الطبية وقتذاك، إذ يشير إلى الطبيب مارسيللوس Marcellus، المعاصر للإمبراطور قسطنطيوس، والذي استخدم " تعويذة الساحرات القدامى للتخليص من الألم، وهى الممارسة التي يسمح بها حتى من قبل الطب ذاته" . Ammianus Marcellinus , *Later Roman Empire* , pp.96-7.

(٨٦) عكست الكتابات الهجيوجرافية إقبالا من شتى فئات المجتمع البيزنطي على أضرحة الشفاء، وبنظرة متفحصة لبعض هذه الكتابات نلاحظ أن الطبقة الأرستقراطية سجلت نسبة معقولة مقارنة بالطبقات الأخرى المترددة على هذه الأضرحة، وهنا تأتى الأهمية الكبيرة لمعجزات القديس أرتيميوس، خاصة أن كاتبها كان حريصا على تسجيل معلومات وافية عن هوية المرضى بعكس الغالبية العظمى من كتاب الهجيوجرافيا، وعلى ذلك نجد من بين زبائن القديس أرتيميوس : السناتور والقاضى البطريق سرجيوس Sergius the Patrikios ؛ وستيفن الشماس شاعر حزب الزرق، وجورجيوس مالك سفينة ؛ وبعض من موظفي الادارة كالخارتولاريوس جورجيوس ؛ وتجار وحرفيين مثل: أكاكيوس صائغ الفضة، يوبوروس التاجر، وجورجيوس صانع البراميل، إزيدور الملاح، وميناس العامل في شحن السفن، ونارسيس الخادم، وسيرجيوس حارس مخزن قمح، وثيوتيكنوس صانع السفن، وزونتوس دابغ الجلود، وممثل وصانع سهام ومشرفة على أحد الحمامات العامة ؛ وعدد من رجال الدين: كبطرس السينكيللوس، وأندروس الشماس وستيفن الشماس، وبعض صغار القساوسة . أنظر القائمة التي وضعها نيسبيس عن زبائن القديس أرتيميوس: Nesbitt , *Introduction* , pp. 19-21 ; Kazhdan , A. P. & Sherry , L. F., "Anonymous Miracles of St. Artemios" , *ΑΕΤΟΣ : Studies in Honour of Cyril Mango* , ed. I. Ševčenko & I. Hutter , Stuttgart & Leipzig , 1998 , pp. 200-209, esp. pp. 200-1.

وفي سيرة القديس ثيودور السيكيونى، كان معظم مرضاه من الطبقة الأرستقراطية، حيث يذكر كاتبها أن القديس إلى جانب علاجه لأحد أبناء الإمبراطور موريس من قرح كثيرة ظهرت في جسده، وعلاجه للإمبراطور فوقاس من النقرس، عالج أفراد من الطبقة الأرستقراطية والسناتورية، كسيدات ينتمين لهذه الطبقة، منهن زوجة البطريق دومنيتزيولوس Domnitziolus، وأحد قادة الحرس الإمبراطورى، وأحد أفراد السكرتارية الإمبراطورية يدعى فوقاس ؛ هذا إلى جانب علاجه لمرضى ينتمون إلى الفئات والطبقات الأخرى : بحاران، وابن تاجر، ومصارع، وحارس بوابة دير القديس، وخادمتان لإحدى العائلات الأرستقراطية.

Dawes , *St. Theodore of Sykeon* , chs. 84-92 , 97, 110 , 121 , 123 , 133 , 140 ; Festugière , *Théodore de Sykeôn* chs. 84-92, pp. 73-79 ; ch. 97, pp. 81-2 ; ch. 110 ,

وفي هذا السياق ؛ يبدو أن ألكسندر التراليسى لم يكن الطبيب الوحيد الذي أدرك مكانة الطب البديل في المعتقدات الشعبية البيزنطية [٨٧]، إذ تقدم الكتابات الهجيوجرافية حالات أخرى لأطباء نصحوا مرضاهم باللجوء إلى أضرحة القديسين، فكاتب معجزات القديسين كوزماس وداميان يروى قصة طبيب دفعه احترامه للقديسين إلى رفضه مواصلة علاج مصاب بكسر في إحدى قدميه [٨٨]، وطبيب آخر نصح مريضا يعانى من خراج بأسنانه بتجربة العلاج المقدس [٨٩]، وفي حالة ثالثة نصح طبيب مريضا باللجوء إلى القديسين كوزماس وداميان مبررا ذلك بأن المرض "يكمن في الروح أكثر من البدن" [٩٠]. والأكثر من ذلك طور كتاب الهجيوجرافيا موقف الأطباء من العلاج المقدس من مجرد نوع من الإدراك والتفهم لحاجات مرضاهم، إلى اعتقاد الأطباء أنفسهم في قدرات هذا العلاج على التعامل مع الأمراض التي تعجز حرفتهم عن التعاطى معها، ولنتذكر هنا قصة البطريرك صفرونيوس عن الطبيب جيزيوس [٩١]، ولنقرأ أيضا قصة كاتب معجزات القديس أرتيميوس عن أنثيموس Anthimos، أحد كبار أطباء القسطنطينية، الذي لجأ إلى ضريح القديس ليعالج ابنه المصاب بالفتاق الإربى [٩٢].

ومع ذلك ؛ قد يكون من الخطأ إصدار حكم مطلق بأن المجتمع البيزنطي بأكمله قد اعتقد في القدرات العلاجية للقديسين، فلكل قاعدة استثناء، وإذا كان كثيرون من مثقفي العصر قد تأثروا بالمعتقدات الشعبية، كالسحر والعرافة والنبوة والرؤى والقدرات الإعجازية للقديسين، كما أظهرت كتابات أميانوس ماركيللينوس وبروكوبيوس وإيفاجريوس وثيوفلاكت سيموقاطا، فلا يعنى هذا أنه لم يوجد بين فئة المثقفين والمتعلمين من رفض وعارض، أو على الأقل اتخذ موقفا متحفظا تجاه كثير من هذه المعتقدات، مثل ميناندر الذي لا نلمح في

---

pp. 90-1 ; ch.121 , pp. 101-2 ; ch. 123 , p. 103 ; ch. 133, pp.109-10 ; ch. 140 , pp. 114-15.

(٨٧) في القرن الخامس اتهم رجل دين يدعى صفرونيوس بالسحر والتنجيم، والأهم أنه اتهم بإفساد طبيب يدعى بطرس بعد أن قرأ كتاباته عن التنجيم . Nutton , *Gallen to Alexander* , p. 8.

(٨٨) Festugière , *Saints Côme et Damien* ,mir.27.

(٨٩) Festugière , *Saints Côme et Damien* ,mir.32.

(٩٠) Festugière , *Saints Côme et Damien ,mir.21.*

(٩١) أنظر حاشية (٣٩) ؛ وراجع كذلك رواية سوزومين عن الطبيب بروبيانوس Probianus حاشية (٤٠).

(٩٢) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.1 , pp.79.

ومن الملاحظ أن كاتب السيرة لم يشر إلى أن مرض ابن أنثيموس كان ميئوسا من شفائه، أو أنه حاول قبل اللجوء إلى ضريح القديس تجربة العلاج الطبي.

مؤلفه التاريخى أية إشارة من قريب أو بعيد عن تأثره بها [٩٣]، وفي هذا السياق ربما يمكن اعتبار أجاثياس Agathias أحد الممثلين البارزين لفئة المثقفين الرافضين لهذه المعتقدات، خاصة وأنه وجه في مؤلفه التاريخى انتقادا حادا لواقع المعتقدات الشعبية في قسطنطينية القرن السادس[٩٤].

وعلى ذات النسق ؛ من الطبيعى أن يكون بين أفراد المجتمع من رفض وعارض، أو على الأقل اتخذ موقفا سلبيا تجاه الاعتقاد في العلاج المقدس، لسبب قد يبدو بسيطا، وهو أنه لو كان كل البيزنطيون قد أمنوا بالقدرات الإعجازية للقديسين، لما كانت هناك حاجة أو ضرورة لأن يشن عدد من كتاب الهجيوجرافيا هجومهم العنيف على الطب التقليدي ومحترفيه، بل ربما كان هذا الهجوم في حد ذاته هجوما دفاعيا، أو ربما وقائيا، يشير إلى وجود فئة من المجتمع عارضت الاعتقاد في هذه القدرات. وهو الأمر الذي عبر عنه بوضوح أندروس الكريتى Andros of Crete، كاتب معجزات القديس ثيرابون St. Therapon في بداية القرن الثامن الميلادي، عندما شن هجوما عنيفا على أولئك الذين يرفضون الاعتراف بفعالية معجزات القديسين، ووصفهم بالملعونين والوثنيين، وراح يؤكد على أن هناك علاقة

---

(٩٣) Menander , *The History of Menander the Guardsman* , trans. R. C. Blockley , Liverpool , 1985.

(٩٤) يستطيع المطالع لمؤلف أجاثياس التاريخى أن يستشف موقفه بوضوح من خلال تعليقه على حال المعتقدات الشعبية بقوله :" أصبحت القصص الخرافية والتنبوءات الإعجازية بأن نهاية العالم باتت وشيكة منتشرة ومتداولة بين الناس، وراح الدجالون والمشعوذون يطوفون الشوارع ويتنبئون بما يخطر على بالهم مشيعون مناخ من الفزع الشديد بين الغالبية العظمى من الناس. والأكثر شوما تكهنات أولئك الذين ادعوا أنهم ملهمون بنوبة من النبؤة وبقوى خارقة للطبيعة، زاعمين أنهم يطلعون على المستقبل من خلال قرنائهم من الأرواح. والأكثر سوءً أن كثيرين من شعب القسطنطينية راحوا يتأملون حركات وأشكال الأجرام والنجوم ويلجئون إلى المنجمين ليحسبوا لهم كم تبقى من الزمن على نهاية العالم. في الواقع كان المجتمع يسمو بمثل هذه النوعية من الأشخاص، خاصة وقت المحن والأزمات، رغم أنها تستحق المقاضاة بتهمة الإفساد والفسوق".

Agathias , *Histories* , p. 140 ; Cameron , A., *Agathias* , Oxford , 1970 , p. 91.

ولد أجاثياس في أسرة ثرية حوالى عام ٥٣٢م، درس الفلسفة والخطابة في الإسكندرية، وعاد إلى القسطنطينية عام ٥٥١م لمواصلة تعليمه بدراسة القانون، وسرعان ما أصبح أحد أبرز محامى القسطنطينية في وقته، لمزيد من التفاصيل عن حياة أجاثياس وثقافته، أنظر

Agathias , *The Histories* , pp.viii-xi , 3-8 ; Cameron , *Agathias* , pp. 1-11.

وثيقة بين مرض الجسد ومرض الروح، وأن الأول هو نتيجة حتمية للثانى، وظلت كل تفسيراته لأمراض الجسد والروح تدور حول محور العقاب الإلهى[٩٥].

ورغم أن كتاب الهجيوجرافيا أرادوا من خلال صورتهم المقارنة بين العلاج المقدس ونظيره التقليدي، إظهار تأييد شعبى جارف لقدرات القديسين الإعجازية في مجال العلاج، إلا أنه داخل هذه الصورة يستطيع المدقق فيها أن يلمح إشارات، صريحة أو ضمنية، إلى وجود فئة من المجتمع اشتبهت في قدرة القديسين الاعجازية على العلاج وظلت تؤمن بقدرة وكفاءة الطب التقليدي، فكاتب معجزات القديس أرتيميوس أشار إلى مصاب بالفتاق شكك في قدرات القديس على علاج مرضه[٩٦]، كما أشار مرارا إلى أولئك الذين كانوا ينصحون المرضى بالذهاب إلى المستشفيات والاستعانة بالأطباء والجراحين[٩٧]، ووصفهم بـــ "ذلك الصنف من الناس الذين لا يهتمون إلا بشئون العقل"[٩٨]، والأكثر دلالة أن نصيحة هؤلاء للمرضى باللجوء إلى الطب التقليدي كانت تأتى في أغلب الأحيان بعد لجوء الآخرين بالفعل إلى ضريح القديس، أى أثناء وجودهم بكنيسة القديس يوحنا برودروموس[٩٩]، ومع أن كاتب المعجزات يقرن ذلك بتأخر عملية العلاج المقدس[١٠٠]، إلا أن نصيحة من هذا النوع عند ضريح القديس وداخل الكنيسة قد توحى ضمنا بأن رأى الفئة المعارض للاعتقاد في علاج القديسين قد بلغ مناطق نفوذ هذا العلاج، وهو ما يمكن تفسيره أيضا بوجود نوع من الدعاية المضادة لتلك الخاصة بفئة المؤيدين للعلاج المقدس، خاصة كتاب الهجيوجرافيا.

---

(٩٥) Haldon, J., "Supplementary Essay, The Miracles of St. Artemios and Contemporary Attitudes : Context and Significance" , *The Miracles of St. Artemios : A Collection of Miracle Stories by an Anonymous Author of Seventh-Century Byzantium* , trans. V.S. Crisafulli, Leiden – New York – Köln , 1997, pp. 34-73 , esp. p. 49.

(٩٦) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.15 , pp. 103-7.

(٩٧) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.3 , pp.81-3.

(٩٨) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.25 , pp.145-7.

(٩٩) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.3 , pp.81-3 ; mir.25 , pp.145-7.

(١٠٠) في هذا السياق، ألمح كاتب معجزات القديسين كوزماس وداميان ضمنا إلى أن تأخر العلاج المقدس أثناء تواجد المرضى عند ضريح القديسين كان يثير لديهم الشكوك في قدرة القديسين العلاجية، وفي هذه الحالة كان الملاذ التقليدي للمرضى هو الطب التقليدي، كقصة مريض مسن بالاستسقاء أمضى عدة أيام عند ضريح القديسين أملا في رؤيا اعجازية دون جدوى، وعندما يأس راح يهذى بكلمات مسيئة لهما.

Festugière , *Saints Côme et Damien* ,mir.1.

وفي قصة أخرى، أمضى مريض بخراج معوى بعض الوقت في كنيسة القديسين إنتظارا لرؤيا إعجازية، وعندما نفذ صبره استدعى أطبائه الخصوصيين، وتم إجراء جراحة له داخل الكنيسة .

Festugière , *Saints Côme et Damien* ,mir.5.

ومن ناحية أخرى ؛ إذا كانت الغالبية التي اعتقدت في القدرة العلاجية للقديسين قد ضمت كثيرين من أفراد الطبقة المثقفة، بما فيهم بعض من الأطباء أنفسهم، كما عكست المصادر التاريخية والهجيوجرافية للعصر الباكر، فقد كان من المتوقع أن يشكل أفراد من هذه الطبقة، خاصة الأطباء، أكثرية الفئة المعارضة، فإلى جانب قصة البطريرك صفرونيوس عن الطبيب جيزيوس الذي وجه سخرية لاذعة تجاه الإعتقاد في العلاج المقدس[١٠١]، يروى كاتب معجزات القديسين كوزماس وداميان قصة أخرى عن أطباء سخروا من مريضة بورم الثدى عندما رفضت الجراحة وفضلت اللجوء إلى ضريح القديسين، بقولهم: "إذهبى وستعودين ثانية، لكن بعد أن يزداد مرضك سوءً"[١٠٢].

ومن المثير للدهشة ؛ أنه إذا كان طبيعى أن يوجد بين الأطباء من عارض العلاج المقدس، فقد عكست لنا الكتابات الهجيوجرافية المعادية للطب التقليدي ومحترفيه، ربما بصروة غير مقصودة، وجود طائفة من رجال الدين ممن شكوا في قدرات القديسين العلاجية وظلوا يثقون في قدرات الطب التقليدي وكفاءة محترفيه، فكاتب معجزات القديس أرتيميوس، رغم أنه كان أكثر كتاب سير القديسين قسوة في هجومه على الطب والأطباء، إلا أنه لم يستطع أن ينكر، أو ربما يخفي، تشكك بطرس السينكيللوس بكنيسة العذراء بالقسطنطينية في قدرة القديس على العلاج[١٠٣]، واستعانة بعض رجال الدين الآخرين بالأطباء قبل لجوئهم إلى ضريح القديس بعد أن يثبت لهم فشل الأولين، كقصة ستيفن شماس كنيسة آيا صوفيا الذي استجاب لنصيحة والديه باللجوء إلى جراحى مستشفى سامسون بالقسطنطينية والخضوع لجراحة للعلاج من الفتاق الإربى[١٠٤]، وقصة أحد رجال الدين البارزين في السلك البطريركى الذي اصطحب مريضا بالاستسقاء إلى مستشفى خريستودوتيس Christodotes بالقسطنطينية وأوصى كبار الأطباء ومعاونيهم برعايته[١٠٥]. بل والأكثر دلالة أن كاتب المعجزات يروى لنا قصة رجل دين بكنيسة القديس يوحنا برودروموس، أصيب بالفتاق الإربى، وبدلا من أن يلجأ إلى القديس استعان بالأطباء، رغم أن الأول هو الأكثر قربا، والأهم من ذلك الأكثر مصداقية وثقة في أعين رجل دين بنفس الكنيسة التي يقبع فيها ضريح القديس أرتيميوس، ومن المفترض أنه يرى يوميا حالات كثيرة لمرضى يعالجون على يدى القديس، خاصة وأنه

---

(١٠١) أنظر حاشية (٣٩)، (٤٠).

(١٠٢) Festugière , *Saints Côme et Damien* ,mir.28.

(١٠٣) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.37 , pp.193-7.

(١٠٤) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.21 , pp.125-7.

(١٠٥) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.22 , pp.131-7.

تخصص، من بين مختلف أنواع الأمراض، في علاج هذا المرض على وجه الخصوص[١٠٦]. وفي معجزات القديسين كيروس ويوحنا، يروى كاتبها قصة مصاب بروح شريرة جرح حنجرته بسكين في كنيسة القديسين، فهرع رجال الدين وخدام الكنيسة على الفور إلى القرى المجاورة للبحث عن طبيب ليخيط الجرح [١٠٧]. وفي معجزات القديسين كوزماس وداميان أرسل دير أحد رهبانه ليعالج من مرضه "وفقا لحرفة أبقراط وجالينوس"[١٠٨].

ومن الملاحظ ؛ أن كتاب سير القديسين قدموا الحالات السابقة في سياق حملتهم الدعائية للتأكيد على المقارنة بين فعالية العلاج المقدس في مواجهة فشل وقصور الطب التقليدي، فجميع رجال الدين الذين استعانوا بالأطباء، كنظرائهم من العلمانيين، لجئوا إلى العلاج المقدس بعد أن ثبت لهم عجز وقصور الطب التقليدي، ورغم أن هذه المقارنة ربما كانت هدفهم الحقيقى، إلا أنهم قدموا من خلالها تضمينا مهما، وهو أنه كان من العادى والمألوف بالنسبة للمرضى، حتى لرجال الدين منهم، الاستعانة بالأطباء قبل اللجوء إلى القديسين، وفي ضوء ذلك يمكن تفسير موقف كتاب الهجيوجرافيا العدائى ورسائلهم التحذيرية ضد الطب ومحترفيه. ورغم أن كتاب الهجيوجرافيا حاولوا تفسير هذا التصرف من قبل رجال الدين في ضوء تملك الأرواح الشريرة أو السقطات الايمانية التي تستحق العقاب والتكفير، إما بتجربة الألم والمعاناة على أيدى الأطباء والجراحين، أو بعقاب على أيدى القديسين أنفسهم[١٠٩]، إلا أن مضامينه ذات أهمية بالغة لفهم الدوافع التي جعلت كتاب

---

(١٠٦) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.23 , pp.137-41.

(١٠٧) Festugière , *saints Cyr et Jean* ,mir.67.

(١٠٨) Festugière , *Saints Côme et Damien* ,mir.48.

(١٠٩) ففي حالة ستيفن الشماس تعرض لألم ومعاناة شديدة على أيدى الجراحين دون أن تتحسن حالته، وعندما لجأ إلى القديس أرتيميوس وشفي، راح يبكى أمام ضريحه قائلا :" أيها القديس، باسم الرب الذي منحنى نعمة الشفاء لن يلمسنى طبيب على وجه الأرض مرة ثانية" . وفي حالة رجل الدين بكنيسة يوحنا برودروموس، فسر كاتب المعجزات عدم لجوئه منذ البداية إلى ضريح القديس أرتيميوس بأن :"روحا شريرة أصابته في ذاكرته فلم يتذكر شيئا عن القديس ارتيميوس القابع في ضريحه بذات الكنيسة، أو عن أولئك الذين عانوا من نفس المرض وشفوا عند ضريحه، فعهد بنفسه إلى الأطباء، ورغم أنه جرب الكثير من العلاجات إلا أن مرضه ازداد سوءً"، وبالإضافة إلى ذلك تعرض لعقاب مادى تمثل في إنفاقه مال على الأطباء دون نفع، وذكر عن لسانه وهو يخاطب الطبيب "لن أدعك تعالجنى بعد اليوم، لقد أعطيتك سميزيس *semissis* وتريميسيس *tremissis* وأربع قيراطيا *keratia*، ولم أنتفع منك بأى وجه، بل على العكس لأنك فشلت مع مرضى مرارا، مرّت علىّ أيام سيئة وزاد مرضى سوءً، فلتغادر منزلى الآن" . وفي معجزات القديسين كيروس ويوحنا تعرض الأيكونوموس (المدير المالى) خريستودوروس Christodoros الذي أحضر الطبيب إلى الكنيسة للعقاب على أيدى القديسين نفسهما، حيث راحا يجلدانه بالسياط ويعنفانه.

الهجيوجرافيا يتخذون موقفهم العدائى من الطب والأطباء، وهى الدوافع التـي عبـر عنهـا صراحة كاتب معجزات القديس أرتيميوس في حوار راح فيه القديس أرتيميوس يوبخ رجـل الدين في كنيسة القديس يوحنا برودروموس على لجوئه إلى الأطباء، سائلا إياه :"لماذا يذهب الرجل المريض إلى الطبيب بدلا من أن يأتى إليَّ ؟" [١١٠]، وعبر عنها أيضا كاتب معجـزات القديسين كيروس ويوحنا عندما صورهما يحملان السياط لجلد رجل الـدين الـذي أحـضر الطبيب إلى كنيستهما، وهما يعنفانه بقولهما : "ألا تعرف أن كنيستنا قد غدت مستشفى للعالم؟ ألا تعرف أن المسيح قد اختارنا طبيبين للمؤمنين، كيف جرؤت على أن تحضر طبيبـا إلـى كنيستنا؟" [١١١]

هكذا ؛ يمكن القول بأن كتاب سير القديسين وجهوا حملتهم الدعائيـة ضـد الطـب التقليدي ومحترفيه، لكسب، أو ربما أيضا الحفاظ، على التأييد الشعبى لوظيفة العلاج المقدس عند القديسين البيزنطيين، ويبدو أنهم لم يستهدفوا فقط الغالبية العظمى التي اعتقدت بالفعل في قدرات هذه الوظيفة الاعجازية، بل ربما تضمن برنامجهم هدف استقطاب فئة من المجتمـع تأثرت بدعاية أخرى مضادة رفضت الإعتراف بفعالية هذه الوظيفة كبديل للطـب التقليـدي، ومن هنا كان هجومهم العنيف الذي حملت صيغه مضامين بالغة الدلالة، ربما كـشف عـن بعضها في الصفحات السابقة. ويبدو أن هذا الهدف دفعهم أيضا، رغـم معارضـتهم للطـب التقليدي وهجومهم الشديد عليه، إلى محاولة مخاطبة الفئة المتأثرة بالآراء المعارضة، بتقـديم القديس البيزنطي، ليس فقط في صورة المعالج الروحى، بل أيضا في صورة الطبيب، وهـو الأمر الذي يظهر واضحا في العبارة التي ذكرها كاتب معجزات القديسين كيـروس ويوحنـا على لسانيهما : " ألا تعرف أن كنيستنا قد غدت مستشفى للعالم؟ ألا تعرف أن المـسيح قـد اختارنا طبيبين للمؤمنين؟". وربما مما له دلالة أن القديسين كوزمـاس ودامیـان وكيـروس كانوا في حياتهم أطباء، تخرجوا من مدرسة الطب بالإسكندرية، ومارسـوا مهنـة الطـب التقليدية. [١١٢]

Crisafulli , *St. Artemios* , mir.21 , pp.125-7 , mir.23 , pp.137-41 ; Festugière , *saints Cyr et Jean* ,mir.67.

(١١٠) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.23 , pp.137-41

(١١١) Festugière , *saints Cyr et Jean* ,mir.67.

(١١٢) اشتهرت مدينة الإسكندرية بممارسة الطب منذ عصر البطالمة، وعبر هذه القرون الطويلة حظيت مدرستها الطبية بشهرة واسعة وإقبال متزايد من الطلاب الراغبين في دراسة الطب من كافة أرجاء عالم البحر المتوسط، وكانت بالنسبة للبيزنطيين تضارع مدرسة القسطنطينية لدراسة القانون، فكتب عنها مؤرخ

وفي المقابل ، يبدو أن كاتب معجزات القديس أرتيميوس قد وجد صعوبة ما في التوفيق بين حقيقة أن قديسه لم يكن طبيبا في حياته عكس أكثر القديسين المعالجين، وبين مهمته في التأثير على المجتمع واستقطاب الفئة المعارضة، وفي ضوء ذلك يمكننا تفسير موقفه شديد التطرف في الهجوم على الطب التقليدي ومحترفيه، كما يمكننا تفسير أسباب حرصه الواضح على استخدام مفهوم الوساطة كسلاح أساسي في هذا الهجوم، وهو الأمر الذي كشف عنه بقوله :" لم يكن أرتيميوس طبيبا أو ابن طبيب، بل لربما ارتعد إذا رأى مشرط الطبيب، لكنه مع ذلك تلقى هبة الشفاء من المسيح، فغدا شافيا ومعالجا للعالم"[١١٣]، كما كشف عنه بوضوح في تعليقه على إحدى الحالات التي أظهرت عجز الأطباء وتفوق القديس بقوله : "إن تلك محصلة خطة مقدسة لإثبات أن الأطباء عديمي القدرة، ولإثارة الإعجاب والذهول تجاه مقدرة القديس"[١١٤]، وفي ضوء ذلك أيضا يمكننا تفسير حرص الكاتب على تصوير قديسه في هيئة الطبيب المتخصص في علاج الأمراض العضوية، خاصة الأمراض التناسلية والفتاق والفتاق الإربى، وهى أمراض عضوية بحتة. والمثير للإنتباه هنا أنه رغم تركه مسببات المرض في الغالب دون تفسير أو مناقشة، إلا أنه في الحالات القليلة التي أشار إلى المسببات، نادرا ما أرجعها إلى الأرواح الشريرة [١١٥]، بل أرجع معظمها إلى التدخل

القرن الرابع أميانوس ماركيللينوس : "كان قول الطبيب أنه تلقى تعليمه في الإسكندرية بمثابة تزكية كافية ومقنعة بمهارته ".
Ammianus Marcellinus , *Later Roman Empire* , p.253.

وعن مدرسة الإسكندرية الطبية في العصر البيزنطي الباكر، أنظر:
Duffy, *Byzantine Medicine*, pp. 21-24.

(١١٣) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.24 , pp.141-5.

ذات الصيغة تكررت في معجزات أخرى، ففي اختتامه لإحدى هذه المعجزات ذكر عن لسان شخص يدعى Theognios قوله :"نحن نبتهل إلى المسيح الذي منح القديس واختصه بموهبة الشفاء الربانية".
Crisafulli, *St. Artemios* , mir.33 , pp.175-7.

(١١٤) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.20 , pp.123-5.

يرى جون هالدون أن كاتب المعجزات كان لابد وأن يقدم قديسه كوسيط، وأن العلاج يتم بواسطة المسيح وليس بواسطة القديس، حتى لا توجه الاتهامات بالوثنية والهرطقة ضد مؤيديه ومريديه إذا ما أدعوا بأنه يعمل من خلال قوته الخاصة وليس من خلال قوة المسيح، ومع تسليم الباحث بوجاهة هذا الرأى، وأنه ربما يشكل جانبا أساسيا في تفسير أهداف الكاتب، إلا أن هدف الكاتب الرئيسى كما يبدو ليس فقط درء آية شبهة للوثنية والهرطقة، بل هو في المقام الأول تحقيق نوع من التأثير على فئات المجتمع المختلفة، خاصة تلك الفئة المعارضة لقدرات القديس الإعجازية .
Haldon , *Supplementary Essay* , p. 48.

(١١٥) فائية، أرجع الكاتب في معجزتين فقط سبب المرض إلى الأرواح الشريرة، أنظر:
Crisafulli , *St. Artemios,* mir.6 , pp.87-91 ; mir.10 , pp. 95-7.

الإلهي سواء للعقاب أو لاختبار الإيمان [116]، وقدم أحيانا أسبابا فسيولوجية كحالة الشاب الذي أصيب بالفتاق نتيجة محاولته رفع وزن ثقيل [117]. ونجده من ناحية أخرى رغم موقفه المعادي من الأطباء، يقدم القديس أرتيميوس في صورة الطبيب الخبير بشئون ومناهج حرفة الطب التقليدية، ووصفه وهو يعالج المرضى بقوله : "إعتاد القديس أن يعمل كما لو كان طبيبا كبيرا مسئولا عن مستشفى، يقترب منه المرء لتلقى العلاج، بينما يظل أخرون منتظرين العلاج"[118]، وأظهره في هيئة أحد كبار الأطباء الذي يقدم النصائح والإرشادات "الطبية" للأطباء [119]، والأكثر دلالة أنه جعل هيئة الطبيب هي المفضلة لدى القديس عند ظهوره متخفيا لمرضاه[120]، وهو الأمر الذي يدعو إلى التساؤل : إذا كان كاتب معجزات القديس أرتيميوس قد تبنى موقفا معاديا من الأطباء، بلغ حد السخرية والتهكم والمبالغة في وصف فشلهم وقصور حرفتهم بهدف إظهار تفوق وإعجازية قدرات القديس العلاجية، فما الذي دعاه إلى تشبيه القديس بهم ؟ ألا يبدو ذلك تناقضا في مواقفه؟

وفي هذا السياق ؛ يمكن القول بأنه إذا كان كتاب معجزات القديسين كوزماس ودامیان ویوحنا وكيروس وأرتيميوس قد مثلوا الاتجاه المعادى، أو المتطرف إذا جاز التعبير، من الأطباء والطب التقليدي، إلا أنه قد يكون من الخطأ إصدار حكم مطلق بأن كافة رجال الدين، بما فيهم كتاب الهجيوجرافيا، قد تبنوا ذات الاتجاه، فهنا أيضا يمكن تكرار القول بأن لكل قاعدة استثناء، وربما كان موقف الفئة المعادية للطب التقليدي هو الاستثناء، وكما رأينا في كتابات هذه الفئة ذاتها تضمينات بأنه كان من العادى بالنسبة لرجال الدين اللجوء إلى الأطباء قبل اللجوء إلى أضرحة القديسين، نصادف في كتابات أخرى ما يمكن أن يطلق عليه

---

(١١٦) أرجع الكاتب سبب المرض إلى العقاب الإلهي في ست معجزات فقط، سواء أكان هذا العقاب بسبب آثام وخطايا المريض، أو بسبب التهكم والسخرية، أو حتى لمجرد عدم رسوخ الإيمان المطلق بقوى القديس الإعجازية على الشفاء، أنظر:
Crisafulli , *St. Artemios,* mir.5, pp.85-7 ; mir.7 , pp.91-3 ; mir.8 , p.93 ; mir.15 , pp.103-7 ; mir.17 , pp.109-115 ; mir.35 , pp.185-9.

(١١٧) Crisafulli , *St. Artemios,* mir.6 , pp.87-9.

(١١٨) Crisafulli , *St. Artemios*, mir.6, pp.87-9.

(١١٩) Crisafulli , *St. Artemios*, mir.22 , pp.131-7.

(١٢٠) ظهر القديس ارتيميوس متخفيا لمرضاه في منامهم في ١٩ معجزة، مرتين في هيئة أحد نبلاء القصر الإمبراطورى، وكموظف إدارى، وجزار، وقبطان سفينة، وعضو مجلس السناتو، وأشخاص عاديين، وتخفي في هيئة الطبيب في ٩ معجزات، أنظر
Crisafulli , *St. Artemios* , pp.xiii-xv ; mir.1 , p. 79 ; mir.2 , pp.79-81 ; mir.6 , pp.87-9 ; mir.22 , pp.131-7 ; mir.23, pp.137-141 ; mir.39, pp.201-5 ; mir.40, pp.205-11 ; mir.42 , pp.217-19 ; mir.44, pp.219-23.

الموقف الديني المعتدل، الذي رغم دعايته للعلاج المقدس وحرصه على إظهار إعجازه وقوته في مواجهة الطب التقليدي، إلا أنه لم يهاجمه بعنف وقسوة الفريق المعادي، فالقديس الراهب ديادوخوس الفوتيكى St. Diadochus of Photike، في مؤلفه "عن المعرفة الروحية On Spiritual Knowledge" حوالى عام ٤٨٠م، أوضح وجهة نظر متوازنة حيال الأمر بقوله: "ليس هناك حائل يمنع المسيحى من اللجوء إلى الطبيب عند مرضه، ولكن في ذات الوقت لا ينبغى أن يوضع الأمل في الشفاء على الأطباء بل على المسيح المخلص الحقيقى"[١٢١]. وفي القرن السابع عبر كاتب سيرة القديس ثيودور السيكيونى عن أكثر مواقف كتاب الهجيوجرافيا اعتدالا عندما صور العلاقة بين القديس والأطباء في شكل يختلف تماما عن معاصره كاتب معجزات القديس أرتيميوس، فيقول : "كان القديس يرسل الماء والزيت المبارك منه إلى المرضى الراقدين في منازلهم، ويشفي من خلال صلواته الجرحى أو المصابين بأى مرض، لكن إذا استدعت حالة المريض علاجا طبيا أو جراحة أو أدوية أو الذهاب إلى الينابيع الحارة، كان يصف أفضل طرق العلاج لكل حالة، وحتى في الأمور العلمية الفنية كان قد أصبح طبيبا خبيرا ومحترفا، وربما يزكى أحد الجراحين لإجراء الجراحة، ودائما ما يشير على المرضى بأى الأطباء يجب عليهم اللجوء إليه، وفي حالات أخرى يقنع أولئك الراغبين في إجراء عملية جراحية أو العلاجات الطبية الأخرى ويفضلونها على الذهاب إلى الينابيع الحارة، ويسمى لهم تلك الينابيع، أو يمنع أولئك الراغبين في الذهاب إلى الينابيع، وينصحهم بدلا من ذلك بتناول الأدوية تحت إشراف طبيب يسميه"[١٢٢]. ورغم أن الكاتب عبر هنا عن المفهوم الدينى السائد في المجتمع بتفوق قدرة القديسين العلاجية على الأطباء، كما جسد النمط الهجيوجرافي في تقديمه للقديس في صورة الخبير والمحترف فى شئون الطب التقليدي،

---

(١٢١) Nutton , *Galen to Alexander* , p.5.

(١٢٢) Dawes , *St. Theodore of Sykeon* , chs.145-6 ; Festugière , *Théodore de Sykeôn* ,chs.145-6 , pp.118-119.

وفي ذات السياق ؛ يقدم إفاجريوس حالة مماثلة تجسد التعاون بين رجال الدين والأطباء، أو إذا شئنا الدقة بين العلاج المقدس ونظيره التقليدي، حيث يشير إلى الراهب زوسيماس Zosimas الذي أرسل أحد أقرانه لمداواة امرأة فرغت إحدى عينيها بمكوك الغزل، غير أنه فشل، فأرسل زوسيماس "أحد مساعديه من الأطباء" لعلاجها.
Evagrius , *Ecclesiastical History* , p.206.

والأهم في صورة الوصي والمرشد للأطباء[١٢٣]، إلا أنه قدم موقفا أكثر اعتدالا من الطب التقليدي، وصور العلاقة بين القديس والأطباء في إطار من الحميمية والتعاون.

وعلى ذلك ؛ يمكن القول بأن موقف كتاب الهجيوجرافيا المعادى للأطباء والطب التقليدي كان موقفا خاصا بهم، ولا يعبر بالضرورة عن اتجاه عام أو رسمي من جانب الكنيسة البيزنطية ورجالها، ولعل خير دليل على ذلك أن الأبواب كانت مفتوحة أمام الأطباء لشغل وظائف كنسية، فسوزومين يشير إلى مارتيريوس القيليقي Martyrius of Cilicia، الطبيب الخاص لنيكتاريوس Nectarius بطريرك القسطنطينية (٣٨١-٣٩٧م)، والذي رفض عرضه بأن يكون شماسا في البطريركية [١٢٤]، كما يحدثنا عن جيرونتيوس Gerontius الذي كان "طبيبا ماهرا للغاية "، لدرجة جعلت البطريرك نسطوريوس (٤٢٨-٤٣١م) ينصبه أسقفا على نيقوميديا[١٢٥]، كذلك يحدثنا زكريا الميتيليني عن سرجيوس Sergius، طبيب عصر جستنيان، الذي عمل مبعوثا خاصا لإفرايم Ephraim بطريرك أنطاكية، وحمل رسائله إلى كنيستى روما والقسطنطينية [١٢٦]، وكاتب معجزات القديس أرتيميوس، رغم موقفه المتطرف من الأطباء، أشار إلى أحد رجال الدين البارزين في البطريركية كان يعمل في مستشفى خريستودوتيس Christodotes [١٢٧]، ولعل في تكريس كتاب سير القديسين المعاديين للطب التقليدي مؤلفات خاصة تخلد معجزات القديسين كوزماس وداميان وكيروس، الذين كانوا أطباء أثناء حياتهم، دليلا آخر على أن الكنيسة البيزنطية لم تسمح فقط للأطباء بشغل وظائف دينية، بل فتحت أيضا أمامهم الطريق لبلوغ مرتبة القداسة ذاتها.

وإذا كانت الروايات المصدرية السابقة تقدم صورة إيجابية لموقف الكنيسة الرسمي من الطب التقليدي والأطباء، وتعكس في الوقت نفسه وضعا مميزا للأطباء في المجتمع الديني، فإن المصادر التاريخية تقدم لنا صورة ووضعا مماثلين فيما يتعلق بالمكانة التي تبوأها الأطباء داخل المجتمع العلماني، والإمكانيات التي أتيحت لهم في البلاط الإمبراطوري

---

(١٢٣) عبر الكاتب عن رؤيته الخاصة بتفوق قدرة القديس الشفائية في قوله : "كان أفضل الأطباء، تلميذا للمسيح الطبيب الحقيقي، من لا يلتزم بوصفته يصبح مرضه ميئوسا من شفائه، إلا إذا عاد ولجأ الى وصفة القديس بالذهاب إلى الينابيع التي يسميها، أو الطبيب الذي يختاره" .

Dawes , *St. Theodore of Sykeon* , ch.146 ; Festugière , *Théodore de Sykeôn* ,ch.146 , p.120.

(١٢٤) Sozomen , *Ecclesiastical History* , book vii , ch.x.

(١٢٥) Sozomen , *Ecclesiastical History* , book viii , ch.vi.

(١٢٦) Zachariah of Mitylene , *Chronicle* , pp.226-7.

(١٢٧) Crisafulli , *St. Artemios*, mir.22 , p.131.

والوظائف المدنية العليا، ففي القرن الرابع يحـدثنا يونـابيوس الساردييسى Eunapius of Sardis عن أوريباسيوس البرجامي Oribasius of Pergamum، الذي كان "أهـم رفقـاء الإمبراطور جوليان، وأكثر ممارسي الطب شهرة وبراعة"، وصور مدى علاقتـه الحميمـة بجوليان إلى درجة أنه صار قرينا له لم يفارقه سواء وهو قيصر لغالة أو إمبراطـور علـى عرش القسطنطينية، وأن نفوذه وتأثيره على جوليان تعدى النصح والإرشاد إلى حـد كونـه، على حد تعبير يونابيوس نفسه، جعل من جوليان "إمبراطورا" [١٢٨]، كذلك تتحـدث الحوليـة الفصحية عن يعقوب القيليقى Jacobus the Cilician، كبير أطباء القسطنطينية في عهد ليو الأول (٤٥٧-٤٧٤م)، والذي تمتع بنفوذ سياسي كبير لدى الإمبراطور والسناتو، وكان "مقربا ومحبوبا من ليو، كما أحبه كل السناتو والمدينة، لأنه كان فيلسوفا وطبيبا ممتازا" [١٢٩]، ويشير زكريا الميتيلينى إلى ثيوكتيستوس Theoctistus، الطبيب السكندرى الخـاص للإمبراطـور باسيليسكوس Basiliscus (٤٧٥-٤٧٦م)، والذي عينه رئيسا لموظفي القصر الإمبراطوري [١٣٠]، ويشير ميناندر إلى الطبيب ثيودوروس Theodorus "طبيب جستين الخاص، والمقرب منه" [١٣١]، وتشير الحولية الفصحية إلى الطبيب توماس Thomas "سكرتير جـستنيان الأول وطبيبه الخاص، والمحبوب منه بصورة خاصة" [١٣٢].

ويبدو أن نفوذ الأطباء في الحياة السياسية البيزنطية خلال العصر الباكر لم ينحصر في القصر الإمبراطورى فقط، بل تجاوز نطاقه إلى العلاقات الدبلوماسية الخارجيـة، حيـث تحدثنا المصادر عن اعتماد أباطرة القرن السادس على عدد من الأطباء الذين نـالوا شـهرة

---

(١٢٨) Eunapius , in : *The Fragmentary Classicising Historians of the Later Roman Empire : Eunapius , Olympiodorus , Priscus and Malchus* , trans. R.C. Blockley , Liverpool , 1983 , pp.6-127, esp. pp.21 , 33 , 43.

كان يونابيوس الساردیسى كاتبا ومؤرخا وثنيا، ولد عام ٣٤٥م وتوفي بعد عام ٤١٤م، درس الفلسفة والطب في أثينا والإسكندرية، وصار صديقا للطبيب الشهير أوريباستوس، ولم يتبق من مؤلفه التاريخى سوى شذرات تغطي الفترة (٢٧٠-٤١٤م)، لمزيد من التفاصيل أنظر:

Baldwin , B., "Eunapios of Sardis' , *The Oxford Dictionary of Byzantium* , II , Oxford , 1991 , pp.745-6.

تناول بارى بلدوين في دراستين متخصصتين سيرة أوريباستوس، أنظر:

Baldwin , B., "The Career of Oribasius" , *Acta Classica* 18(1975) , pp.85-97 ; Idem , *Doctors* , pp.17-18.

(١٢٩) *Chronicon Paschale* , p.88.

(١٣٠) Zachariah of Mitylene , *Chronicle* , p.104.

(١٣١) Menander , *History* , p.133.

(١٣٢) *Chronicon Paschale* , p.122.

ومكانة في هذا المجال، لعل أشهرهم طبيب القصر زكريا Zachariah الذي تردد إسمه كثيرا في المصادر التاريخية كسفير ودبلوماسي بيزنطي إلى بلاط الفرس،حيث أرسلته الإمبراطورة صوفيا Sophia مبعوثا شخصيا من لدنها إلى كسرى Chosroes، تطلب الصلح وتذكره بأنه عندما كان مريضا "لم تزوده بعناية طبية فائقة فقط، بل أرسلت إليه أفضل أطباء بيزنطة"[١٣٣]، وعندما وافق الملك الفارسي على عقد الصلح، أرسلت صوفيا طبيبها برسالة خطتها بنفسها، وعقد زكريا بتفويض منها صلحا لمدة عام (٥٧٤-٥٧٥م) لقاء دفع مبلغ ٤٥٠٠٠ نوميزما[١٣٤]، وأرسلته في سفارة ثالثة لعقد صلح مدته ثلاث سنوات عام ٥٧٦م[١٣٥]. وفي عهد تيبريوس (٥٧٨-٥٨٢م) كان الطبيب زكريا سفيرا مألوفا في المفاوضات البيزنطية الفارسية، حيث شارك في عدد كبير من السفارات إلى الحد الذي جعل ميناندر يصفه بـ "الذي دوما ما يعين في مثل هذه المهمة"[١٣٦]، وأنه "أثبت ولاء ومهارة عبر سفارات عديدة خلال هذه الحرب"[١٣٧]. وفي عهد جستنيان استخدم الأطباء كسلاح دبلوماسي فاعل في العلاقات البيزنطية الفارسية، حيث أرسل الطبيب تريبونوس Tribunus مرتين لعلاج كسرى، وفي المرة الثانية قضى عاما كاملا (عام ٥٤٥م) في البلاط الفارسي، ونجح في استغلال نفوذه في إطلاق سراح عدد كبير من الأسرى البيزنطيين عند عودته[١٣٨]، كما يشير

---

(١٣٣) Evagrius , *Ecclesiastical History* , p.271.

(١٣٤) Menander , *History* , p.159.

(١٣٥) يوحنا الأسيوى، تاريخ الكنيسة، ص١٠٢. Evagrius , *Ecclesiastical History* , p.271 , n.48.

(١٣٦) Menander , *History* , p.229.

(١٣٧) سجل ميناندر مشاركة زكريا في خمس سفارات إلى الفرس خلال عهد تيبريوس، وأنه بسبب ولائه ومهارته خلال هذه السفارات أنعم عليه تيبريوس بمنزلة Ex-prefect، بينما أشار يوحنا الافسوسى إلى مشاركته في مفاوضات سلام دون أن يحدد عدد السفارات. يوحنا الأسيوى، تاريخ الكنيسة، ص ١٠٢، ١١٥. Menander , *History* , pp.159-160 , 181 , 197 , 205 , 229.

(١٣٨) وصف بروكوبيوس الطبيب تريبونوس بأنه "كان رجلا ذو علم عظيم، لا يرقى أحد إلى مهارته في الطب"، ويروى كيف أن الملك الفارسى اعتاد أن يجمع حوله الأطباء من شتى الأنحاء، إلا أن تريبونوس وحده استطاع علاجه من مرض خطير، فمنحه هدايا كثيرة وثمينة عاد بها إلى الأراضى البيزنطية، وعندما أرسل الإمبراطور جستنيان سفارة لعقد صلح مع الملك الفارسى عام ٥٤٤م، اشترط الأخير إرسال الطبيب تريبونوس لقضاء عام في صحبته، ذلك لأن "الملك الفارسى كان يحبه ويفتقده كثيرا"، وبعد انقضاء العام سأله الملك الفارسى عن أمنية يحققها له، فطلب منه أن يطلق سراح عدد من الأسرى البيزنطيين، ولبى خسرو طلبه بأن أطلق سراح ثلاثة الآف أسير بيزنطى، كما أطلق سراح عددا من الأسرى البارزين ممن طلبهم الطبيب بالاسم .
Prccopius , *History of the Wars* , trans. H.B.Dewing , Loeb Classical Library , Cambridge Mass. & London , 1992 , I , p.517 ; V , pp.145-6.

زكريا الميتيليني إلى الطبيب البيزنطي يوسف Joseph، كاثوليكوس مسيحي فارس، والذي "كان موثوقا به ومقربا من خسرو، لأنه طبيب، وكان يجلس بجواره في المقعد الأول". ويبدو أن هناك أطباء بيزنطيين آخرين تمتعوا بنفوذ كبير لدى الملك الفارسي، منهم الطبيب الأسير تريبونيان Tribonian، حيث استطاعوا من خلال هذا النفوذ تحسين أوضاع الأسرى البيزنطيين في فارس، حيث يشير ميناندر إلى أن كسرى "أقام بناء على مشورة الأطباء المسيحيين المقربين منه مستشفى لم يقم مثلها من قبل، وأرسل إليها مائة بغل وخمسين ناقة محملين بالبضائع من المخازن الملكية، وزودها بإثني عشر طبيبا، وبكل ما تحتاجه من تجهيزات"[١٣٩].

وإذا كان الأطباء قد حظوا بمكانة متميزة في الكنيسة والقصر الإمبراطوري، فلا شك في أنهم حققوا ذلك من خلال عملهم الأصلي كممارسين للطب التقليدي وكأطباء خاصين بالأباطرة والبطاركة، وفي هذا الصدد تبرز إشكالية أن هؤلاء بحكم وجودهم في القصر والكنيسة شكلوا فئة كبار الأطباء "الأرخياتروى *archiatroi*"، وأن وجودهم بالقرب من مراكز السياسة وصناعة القرار جعلهم أكثر ظهورا في المصادر التاريخية عن غيرهم ممن شكلوا الغالبية من ممارسي الطب الذين احتكوا بصورة مباشرة بطوائف وفئات المجتمع المختلفة، وبالتالي قد يصبح من الصعب تكوين صورة مماثلة عن مكانة الطب والأطباء بين عامة المجتمع، لكنها على آية حال ليست مهمة مستحيلة، فرغم أن الإشارات المصدرية في هذا الشأن قليلة ولا يمكن مقارنتها بطبيعة الحال بتلك الخاصة بأطباء القصر والكنيسة، إلا أنها لم تختلف عنها في دلالتها ومضمونها، فإلى جانب إشارة الحولية الفصحية عن يعقوب القيليقي، كبير أطباء القسطنطينية، الذي أحبته "كل المدينة، لأنه كان فيلسوفا وطبيبا ممتازا"[١٤٠]، يقدم لنا سوزومين صورة، قد تبدو استثنائية، لمدى المكانة التي استطاع طبيب

كذلك ؛ يشير بروكوبيوس إلى ستيفانوس Stephanus "الطبيب الذي حقق شهرة ومعرفة كبيرتين بين علماء عصره"، والذي شارك في سفارة أخرى إلى الملك الفارسي عام ٥٤٤م.

Procopius , *Wars* , I , pp.497-8.

(١٣٩) Zachariah of Mitylene , *Chronicle* , pp.331-2.

ومن الجدير بالذكر، أنه إذا كان الأطباء قد لعبوا دورا ايجابيا في العلاقات الدبلوماسية الخارجية للإمبراطورية البيزنطية، خاصة مع الفرس، فإن بعضهم اتهم بالخيانة والتآمر مع أعداء الإمبراطورية، حيث يشير مالخوس الفيلادلفي Malchos of Philaelphia إلى اعتقال الطبيب أنثيموس ماركيللينوس Anthimus Marcellinus ونفيه مع آخرين بتهمة الخيانة العظمى لإرسالهم خطابات إلى الملك القوطي ثيودريك، بعضها ممهورا بتوقيعات كبار الموظفين، لدعمه في صراعه مع الإمبراطور زينون، وجعله "يعتقد بأن لديه مؤيدين كافيين داخل المدينة".

تحقيقها بين عامة المجتمع، عندما يشير إلى جيرونتيوس الذي كان "طبيبا ماهرا للغاية، حصيفا وبليغ اللسان، ويعرف كيف يكسب الأصدقاء"، ويحكي قصته منذ أن جاء من ميلان إلى القسطنطينية بعد اتهامه بالهرطقة من قبل أسقفها أمبروز، وكيف استطاع خلال فترة قصيرة أن يحظى بصداقة وتقدير أكثر رجال القصر نفوذا، وأن ينال تقديرا بالغا من البطريرك نسطوريوس الذي عينه أسقفا على نيقوميديا. وعندما علم أمبروز بذلك أرسل إلى نسطوريوس يطلب منه عزله، وهنا يستطرد سوزومين بقوله : "ورغم أن نسطوريوس لبى الطلب، إلا أنه لم يستطع وضعه في إطار التنفيذ بسبب معارضة شعب نيقوميديا الذي ثار دفاعا عن جيرونتيوس، لكرمه ونشاطه في توظيف حرفته لصالح الفقراء والأثرياء على السواء، وراحوا يجولون شوارع نيقوميديا والقسطنطينية وكأن زلزال أو طاعون أو عقاب إلهي آخر قد حدث" [١٤١]. كذلك يشير أجاثياس إلى الطبيبين الشقيقين ديوسقوروس Dioscorus والكسندر التراليسى، الذين أثبتا مهارة فائقة في حرفة الطب، وفي حين قضى الأول حياته في تراليس وحقق مكانة ونجاحا بارزين في ممارسته للطب بين مواطني المدينة، أقام الثانى في روما وشغل بها وظيفة عليا[١٤٢].

ولا شك في أن هذه الإشارات، رغم قلة ورودها في المصادر التاريخية، تدل على أن الأطباء حظوا بمكانة متميزة بين مختلف فئات وطبقات المجتمع البيزنطي، وأن ممارستهم للطب ونجاحهم فيها كانت سببا أساسيا في تحقيقهم لهذه المكانة. ويبدو أن كتاب سير القديسين المعاديين، رغم حرصهم على إلصاق صفات الفشل والجشع بالأطباء، إلا أن أحدهم وأكثرهم عداء لهم، وهو كاتب معجزات القديس أرتيميوس، لم يستطع إنكار ذلك، عندما أشار دون قصد إلى طبيب فارسي المولد "مشهود له من قبل الجميع بالكفاءة والقدرة على علاج كافة

Malchus , in : *The Fragmentary Classicising Historians of the Later Roman Empire : Eunapius , Olympiodorus , Priscus and Malchus* , trans. R.C. Blockley , Liverpool , 1983 , pp.402-55 , esp. p.423.

كان مالخوس خطيبا وفيلسوفا شهيرا في القسطنطينية أواخر القرن الخامس وبداية القرن السادس الميلاديين، وضع مؤلفا تاريخيا أطلق عليه *Byzzntiaka*، لم يتبق منه إلا شذرات تغطى عصرى ليو الأول وزينون، لمزيد من التفاصيل، أنظر:-

Baldwin , B., "Malchus of Philadelphia" , *Dumbarton Oaks Papers* 31(1977), pp.89-107.

(١٤٠) أنظر حاشية (١٢٩).

(١٤١) Sozomen , *Ecclesiastical History* , book viii , ch.vi.

(١٤٢) Agathias , *Histories* , p.141

الأمراض"[١٤٣]. وأخيرا ربما يجدر تسجيل ملاحظة بروكوبيوس عن وضع الأطباء ومكـانتهم في المجتمع البيزنطي، ففي سياق نقده اللاذع لسياسة جستنيان في مؤلفه "التـاريخ الـسري"، يشير إلى تدميره كل أصحاب المقامات الرفيعة والوظائف العليا في بيزنطة والمدن الأخرى، والأهم أنه بدأ حديثه عن هؤلاء بالمحامين ثم الأطباء فالمعلمين[١٤٤].

ولاشك في أن مكانة أصحاب أى مهنة داخل المجتمع تتوقف على أهمية هذه المهنة ومدى نجاحها في خدمة هذا المجتمع، وفي هذا السياق تقدم لنا المصادر الطبية صورة إيجابية لمهنة متقدمة وفاعلة في التعامل مع الاحتياجات المجتمعية، وبالإضافة إلى أن مجال اهتمـام البحث لا يتضمن مناقشة الطب البيزنطي بفروعه ومناهجه ومؤلفاتـه، فـإن العديـد مـن الدراسات التي وضعها باحثون أطباء متخصصون في تاريخ الطب البيزنطي عن المؤلفـات الطبية في العصر البيزنطي الباكر[١٤٥]، كفت الباحث مشقة وصعوبة البحث في قضايا طبيـة

---

(١٤٣) Crisafulli , *St. Artemios*, mir.23 , p.139.

(١٤٤) بروكوبيوس، التاريخ السرى، ص١٦٨. Procopius , *Secret History* , p.303.

(١٤٥) من هذه الدراسات على سبيل المثال لا الحصر، دراسة نوتون عن الممارسات الطبية في العصر البيزنطي الباكر، والذي عرض فيها للكتابات الطبية التي وضعها أطباء العصر، ووصل إلى نتيجة مؤداها: "ربما كانت مؤلفات الأطباء أوريباسيوس البرجامى Oribasius of Pergamum وألكسندر التراليسى Alexander of Tralles و بولس الايجينى Paul of Aegina، موسوعات أو ملخصات لأعمال جالينوس في القرن الثانى الميلادي، إلا أنهم بأى حال لم يكونوا ناسخين سذج، أو جامعين دون وعى، فقد اختاروا ما دونوه، ودائما ما أضافوا إليه مادة جديدة وقارونها مع الماضى، ... إن مطالعتى لأوريباسيوس ملأتنى إعجابا بمعرفته التامة بجالينوس، وبقدرته على التلخيص مع الحفاظ على الأصل قدر الإمكان، والأهم قدرته في عصر يغلب عليه الطابع الخطابى والإنشائى على أن يعبر عن الأساسيات بوضوح".(Nutton , *Galen to Alexander* , pp.2-3.). ومن هذه الدراسات أيضا، دراسة عن "الجراحة التقويمية و التعويضية للوجه في بيزنطة إبان القرن الرابع الميلادي"، ناقشت إسهام أوريباسيوس في هذا المجال بالقول :" كان أوريباسيوس طبيبا بيزنطيا شهيرا عاش في القرن الرابع، إسهامه الكبير لتاريخ الطب هو مختاراته من الاعمال الطبية الهامة لعصره، والمعنونة بـــSynagogue Medicae ، وهى موسوعة طبية شاملة لعصره ضمت أكثر من سبعين جزء، ورغم أن جانبا هاما منها فقد، إلا أن ما تبقى منها يقدم لنا معلومات ثرية عن الطب البيزنطي. ويعد الفصلين الخامس والعشرين والسادس والعشرين من الكتاب الثانى والأربعين ذو أهمية خاصة للجراحة التقويمية والتعويضية (فرع من الجراحة يعنى بتقويم أو ترقيع أعضاء الجسم المشوهة أو بالتعويض عن أجزائه المفقودة)، لأنهما يعنيان بتقويم عيوب وتشوهات الوجه عن طريق عمليات جراحية في الحاجبين والجبهة والوجنتين والأنف والأذن باستخدام أنسجة من الجسم، وقد أصبح واضحا من هذه النصوص أن الجراحين البيزنطيين تمتعوا بقدر كبير من المعرفة والخبرة في إجراء العديد من الجراحات التقويمية والتعويضية للوجه، وهى المعرفة التي انتقلت إلى العرب، ثم إلى الغرب الأوروبى في القرن الخامس عشر، وأصبحت جزءً من مؤسسة الجراحة التقويمية والتعويضية الحديثة".

وعلمية معقدة، وأظهرت في الوقت ذاته طبا متقدما وفاعلا بمقاييس ذلك العصر [١٤٦]. وفـــي

Lascaratos , J., & Cohen , M., & Voros , D., "Plastic Surgery of the Face in Byzantium in the Fourth Century" , *American Society of Plastic Surgeons* 106/2(August 2000) p.517 , http://www.medscape.com/medline/abstract/9734459?Src=emed_ckb_ref_0 ; Santoni-Rugui, P., & Mazzola, R. , "Plastic surgery of the face in the fourth century (Letter)" , *Plastic Reconstrution Surgery* 104(1999), p. 883

كذلك، كتب دوفي عن طبيب القرن السادس ألكسندر التراليسي : "إنه مرشد جيد لوقائع الحياة اليومية للممارسات الطبية البيزنطية في القرن السادس، فقد كتب في أواخر حياته كتابا يدويا من النوع التقليدي لاستخدام الأطباء، يتناول الجسم من الرأس إلى أصابع القدمين، أو بالتعبير الباثولوجى (المرضى) من الصلع إلى النقرس، وهو مؤلف يستحق الاهتمام، ولا يدع مجالا للشك في معرفة هذا الرجل المستقاة من المصادر الأولية، ومع ذلك كانت القاعدة الأساسية لعمله هى الخبرة والتجربة، ... لقد كان أبقراط وجالينوس هما معلماه الرئيسيان من بين الأطباء القدماء، ومع ذلك لم يكن في وصفه للعلاج تابعا أعما لهما، بل كان يعى أين يرسم خطا بين احترامه لهؤلاء وبين تأكيد استقلاليته، حتى وإن كانت هذه الاستقلالية تعنى اختلافه مع جالينوس، فقد اختار الحقيقة قبل النص، والعامل الحاسم دوما هو التجربة، ويتضح جوهر تفكيره في قوله : إن لم تكن العلاجات فعالة، فلا أهمية لما قاله القدماء عنها"

Duffy , *Byzantine Medicine*, p.25 ; Scarborough , *Alexander of Tralles* , p.58.

كذلك، وضع الباحث التركى جورونلوجلو دراسة عن بولس الإيجينى ودوره في الجراحة التقويمية والتعويضية في القرن السابع، جاء فيها :"إن بولس الإيجينى (٦٢٥-٦٩٠م)، الذي ولد في جزيرة إيجينا ومارس الطب في الإسكندرية، يعد أخر نخبة كتاب الطب في العصر البيزنطي، وضع موسوعة طبية في سبعة كتب، خصص كتابه السادس للحديث عن الجراحة، وأظهر فيه أنه لم يكن مجرد جامع أو ناسخ بل جراحا ماهرا وذو كفاءة، فبالإضافة إلى أهميته في التطور العام للجراحة، قدم إسهامات قيمة في تاريخ الجراحة التقويمية و التعويضية، بل ربما يعد أحد أصول هذا النوع من الجراحة كما هو معروف اليوم، فقد وصف جراحات عديدة ومتنوعة من علاج كسور الأنف والفك إلى جراحات العقد والفقرات، ولذلك أصبح أستاذا للجراحة أثر في أجيال متتالية من الجراحين عبر العصور اللاحقة، وظل المصدر الوحيد للعديد من المؤلفات العربية عن الجراحة، وعبر مؤلفه إلى الطب الاسلامى والأوروبى لينقل المعرفة والخبرة الجراحية، بما في ذلك إجراءات جراحات تقويمية وتعويضية عديدة ."

Gurunluoglu , R. , "Paulus Aegineta , A Seventh Century Encyclopedist and Surgeon : His Role in the History of Plastic Surgery" , *Plastic and Reconstructive Surgery* 108/7(December 2001), pp.7072-9 ; Adams, F. *The Seven Books of Paulus Aegineta. Translated from the Greek. With a Commentary Embracing a Complete View of the Knowledge Possessed by the Greeks, Romans, and Arabians on All Subjects Connected with Medicine and Surgery*, Vol. 1–3. London, 1844–184.

(١٤٦) ولمزيد من التفاصيل عن حال الطب البيزنطي وفروعه وعلاجاته ومناهجه، أنظر:

Scarborough , J., "Medicine" , *The Oxford Dictionary of Byzantium* , II , Oxford , 1991 , pp.1327-8 ; Temkin , O., "Byzantine Medicine : Tradition and Empiricism" , *Dumbarton Oaks Papers* 16(1962) , pp.95-115 ; Garrison, F. H. , " The Byzantine period" , in : *An Introduction to the History of Medicine with Medical Chronology*, 2nd Ed. Philadelphia: Saunders, 1917 , pp. 104–109 ; Leonardo, R. A., "Byzantine surgery" , in : *History of Surgery* , New York: Froben Press, 1943 , pp. 69-79 ;

هذا السياق تظهر أهمية إشارات الكتابات الهجيوجرافية ذاتها عن المؤسسات الطبية البيزنطية، حيث تقدم لنا دلالتين هامتين، تتمثل الأولى في وجود مستشفيات وهيئات طبية منظمة وفاعلة تختلف تماما عن الصورة السلبية التي عكستها الدعاية الهجيوجرافية المعادية للطب والأطباء، وتتمثل الثانية في مشاركة الكنيسة والقديسين أنفسهم في بناء ودعم مثل هذه المستشفيات، الأمر الذي يؤكد موقف الكنيسة الرسمي الإيجابي تجاه الطب والأطباء، وأن موقف كتاب الهاجيوجرافا المعادي ليس إلا موقفا استثنائيا يعبر عن وجهة نظر فئة قائمة بذاتها لا تشمل كافة رجال الدين أو كل كتاب الهجيوجرافيا .

ومما له دلالة ؛ أن كتاب الفئة المعادية أشاروا إلى وجود مستشفيات كنسية ملحقة بالكنائس المكرسة للقديسين المعالجين، فكاتب معجزات القديسين كوزماس وداميان يشير إلى قيامهما بعلاج مريض كان يرقد على سرير يقع بالقرب من حجرة مخزن الأدوية بالمستشفى الملحقة بكنيسة القديسين [١٤٧]. وفي النصف الأول من القرن السابع يحدثنا كاتب سيرة القديس يوحنا المعطاء St. John the Almsgiver عن قيامه بتشييد سبع مستشفيات ولادة بالإسكندرية، تضم الواحدة منها أربعين سريرا [١٤٨]. وفي معجزات القديس أرتيميوس يستطيع المرء أن يجد، بين النقد اللاذع والهجوم العنيف الذي شنه كاتبها على الطب والأطباء، معلومات قيمة عن المؤسسات الطبية وتنظيمها في مدينة القسطنطينية، كما هو الحال في قصة ستيفن شماس كنيسة آيا صوفيا، المصاب بالفتاق الإربى، والذي لجأ إلى المستشفى الملحقة بدير القديس سامسون St. Samson، ورقد في غرفة بجوار مدخل حجرة أطباء وجراحى العيون Ophthalmologists، وتلقى علاجا موضعيا بالكي استمر ثلاثة أيام،

Kislinger E. , "Gynecology in Everyday Life in Byzantium" , *Proceedings of the First International Byzantine Symposium. The everyday life in Byzantium* , Athens: National Foundation for Scientific Research, 1989. p. 135–52 ; Daras , M.D., & Eftychiadis , A.C., "Epilepsy in the Byzantine Empire" , *American Academy of Neurology* 52/6-supplement 2 (12 April 1999) , pp.A72-A73 ; Lascaratos , J., & Lazaris , D., & Kreatsas , G., "A Tragic Case of Complicated Labour in Early Byzantium(404 A.)" , *European Journal of Obstetrics& Gynecology and Reproductive Biology* , 105/1 (10 October 2002), pp.80-3.

(١٤٧) Festugière , *Saints Côme et Damien* ,mir.30.

وفي هذا السياق، يرى ماجولياس أن الكنائس التي ضمت أضرحة القديسين المعالجين كانت في حد ذاتها مستشفيات، يلجأ إليها المرضى ويرقدون على أسرة بداخلها إنتظارا لزيارة إعجازية للقديسين، أملا في تلقى العلاج والشفاء من علاتهم . Magoulias , *Byzantine Medicine* , p.136.

(١٤٨) The Life of St. John the Almsgiver , in: *Three Byzantine Saints : Contemporary Biographies of St. Daniel the Stylite , St. Theodore of Sykeon and St. John the Almsgiver* , trans. E. Dawes , introductions & Notes by N.H. Baynes , London , 1948 , ch. 7.

وأجريت له الجراحة في اليوم الرابع [١٤٩]. وفي معجزة أخرى يشير الكاتب إلى مريض بالاستسقاء اصطحبه رجل بارز في السلك البطريركى كان يعمل في مستشفى خريستودوتيس Christodotes الملاصقة لكنيسة القديسة أناستاسيا St. Anastasia، ووضعه بسرير بها بعد أن عهد برعايته إلى كبار الأطباء *archiatroi* المناوبين خلال ذلك الشهر ومعاونيهم، وبعد أن أمضى المريض عشرة أشهر، تلقى خلالها أفضل ما لدى الأطباء من قدرة على العلاج، دون أن تحقق حالته أى تحسن، راح يتضرع إلى القديس أرتيميوس بأن ينعم عليه بإحدى معجزاته العلاجية، فزاره القديس عشية عيد ميلاد المسيح في منامه وأخبره بأنه سيشفي، ولأن يوم الأحد أجازة الأطباء، ولأنه أيضا صادف يوم عيد الميلاد، لم يأت أى منهم إلى المستشفى بعد الظهيرة، فظهر القديس لأحد الأطباء وأمره بالعودة إلى المستشفى، وعلى ذلك تم علاج المريض بواسطة الطبيب وبتوجيه من القديس[١٥٠]. وهذه المعجزة، برغم هدفها الواضح في إظهار قدرات القديس أرتيميوس العلاجية، تقدم لنا نموذجا لمستشفى منظمة تضم طاقما من الأطباء والممرضين، ويتناوب فيها كبار الأطباء (الأرخياتروى) بصفة شهرية، وفي أيام الآحاد والأعياد لا يقومون بمناوبتهم المعتادة بعد الظهيرة[١٥١].

وإذا كانت الكنيسة والمؤسسة الدينية قد تعهدت المؤسسات الطبية بالرعاية، فقد شاركها القصر الإمبراطورى في هذا الصدد، وكما لاحظ ماجولياس "في الإمبراطورية البيزنطية كانت المستشفيات تبنى وتدعم من الكنيسة والإمبراطور"[١٥٢]، وكانت الغاية التي أفصحت عنها المصادر هى رعاية المرضى الفقراء غير القادرين على تحمل نفقات العلاج

---

(١٤٩) Crisafulli , *St. Artemios*, mir.21 , pp.125-7.

(١٥٠) Crisafulli , *St. Artemios*, mir.22 , pp.131-137.

الاستقساء : حالة مرضية تنتج عن التراكم غير الطبيعى للسائل المائى فى أنسجة الجسم أو فى أحد تجاويفه مما يؤدى إلى حدوث أورام وتضخم فى أنسجة الجسم، ويحدث عادة أثر جلطة دموية ينتج عنها انسداد موضعى فى الأوعية الدموية، أو بسبب فشل الكلى أو الكبد، أو بسبب نقص الفيتامينات والبروتينات فى الجسم، أو بسبب إصابة الجسم بأورام خبيثة . وهو من الأمراض العسيرة الشفاء. لمزيد من التفاصيل، أنظر : الموسوعة الطبية الميسرة، http://www.wataan.com/tib/index.php?badre=4/12

(١٥١) يرى ماجولياس، أن هذه المعجزة تقدم صورة جيدة عن مستشفيات وأطباء القسطنطينية في منتصف القرن السابع، كما يرى أبرهامز أن الأرخياتروى كانوا ينتمون إلى هيئة الأطباء الإمبراطورية، وبالتالى هم أكثر أفراد المهنة تميزا، وأنه إذا كانت مناوبتهم الشهرية في مستشفى خريستودوتيس نموذجا لبقية مؤسسات القسطنطينية الطبية، فإن ذلك يوحى بأن هيئة أطباء مستشفيات العاصمة كانت كبيرة ومنظمة جيدا.
Magoulias , *Byzantine Medicine* , *p.136* ; *Abrahamse* , *D.Z.F.*, *Hagiographic Sources for Byzantine Cities 500-900 A.D.* , Ph.D. dissertation , University of Michigan , 1967 , University Microfilms. Inc., Ann Arbor , Michigan , pp.247-8.

(١٥٢) Magoulias , *Byzantine Medicine* , p.135.

وأجور الأطباء، فيحدثنا بروكوبيوس عن مستشفى سامسون التي شيدها القديس سامسون بديره بين كنيستى القديسة ايرينى وآيا صوفيا، والتي "كرست للمرضى المعدمين الذين يعانون من الأمراض الخطيرة، وأولئك الذين يعانون من نقص في المال والصحة"، وأن الإمبراطور جستنيان أعاد بنائها بعد تعرضها للتدمير وقت الثورة الشعبية، وجعلها "فخمة في البناء وجمال التكوين، وأكثر سعة في عدد حجراتها، وكرس لها دخلا سنويا بهدف الإنفاق على المرضى"[١٥٣].

ورغم أن المصادر لا تقدم لنا صورة دقيقة عن مدى قدرة استيعاب المستشفيات الكنسية والحكومية للمرضى غير القادرين على تحمل نفقات العلاج وأجور الأطباء، ولا تقدم في الوقت ذاته صورة واضحة عن حجم المؤسسة الصحية في الإمبراطورية ولأعداد هؤلاء الفقراء والمعدمين، إلا أن الشواهد، رغم قلتها، توحى بأن الطاقة الاستيعابية لتلك المؤسسة لم تستطع مواكبة الأعداد المتزايدة من المرضى الفقراء والمعدمين، خاصة إذا وضع في الإعتبار أن العصر البيزنطي الباكر شهد العديد من الكوارث الطبيعية، كالزلازل والطواعين والأوبئة والمجاعات، كما شهد أيضا العديد من الثورات الداخلية والحروب الخارجية، ولا شك في أن هذه الكوارث والحروب أسهمت في تزايد نسبة الفقر والمرض، وشكلت ضغطا شديدا على المؤسسة الصحية البيزنطية، ولعل في إشارات المصادر إلى مشاركة القادرين من المجتمع في دعم الفقراء والمرضى، خاصة في مثل هذه الظروف الطارئة، شاهدا على قصور المؤسسة الصحية البيزنطية وعجزها عن مواجهتها وحدها.

ففي سيرة القديس يوحنا المعطاء كان السبب الذي دفعه إلى بناء سبع مستشفيات للولادة، أنه "أثناء المجاعة التي حلت بالمدينة، تركت النساء أسرتهن وهن يعانين من الهزال والضعف بعد ألم ومخاض الولادة بحثا عن الصدقات التي قد تسد جوعهن"، ولذلك خصص القديس لكل أم منهن سبعة أيام من الراحة والرعاية، وثلث نوميزما (تريميسِّيس *tremissis*) تحصل عليها قبل مغادرة المستشفى"[١٥٤]. وعندما هرب آلاف اللاجئين من سوريا إلى الإسكندرية في أعقاب الغزو الفارسي، فتح القديس يوحنا كافة النزل والمستشفيات الملحقة

---

(١٥٣) Procopius , *Buildings* , p.37.

يشير بروكوبيوس أيضا إلى تشييد مشفيين آخرين في مبنيين house of Isidorus و house of Arcadius قبالة مستشفى سامسون، وتشييد مستشفيات أخرى في أنحاء متفرقة من الإمبراطورية، منها واحدة بجناحين منفصلين للنساء والرجال في انطاكية، وواحدة في بيت المقدس .Ibid , pp.37 , 173 , 34

(١٥٤) Dawes , *St. John the Almsgiver* , ch.7.

بالكنيسة للمرضى والجرحى، ووفر لهم الأسرة والعلاج دون مقابل[١٥٥]. كذلك يشير يوحنا الإفسوسى في سيرة القديسة يوفيميا St. Euphemia إلى أنه في شوارع آمد Amida يستطيع المرء أن يشاهد المشلولين والأكفاء والمسنين بدون رعاية، وأن القديسة يوفيميا حملت على عاتقها رعاية أولئك البؤساء، فـ"أخذت بعضهم إلى بيتها، وحملت آخرين إلى مديري المستشفيات، ودفعت نفقات علاجهم، وعلى نفقتها تم قبولهم ورعايتهم"[١٥٦]. كما كتب أجاثياس عن كارثتي الزلزال والطاعون اللذين ضربا القسطنطينية في عهد جستنيان، وتحدث عن أعداد غفيرة من القتلى والجرحى والمرضى والمشردين إفترشت الأرض وملأت شوارع القسطنطينية، وكيف أن أثرياء المجتمع جالوا الشوارع لتقديم المساعدات، وجلبوا الهبات إلى الكنائس التي امتلأت هى أيضا عن أخرها بأولئك البؤساء[١٥٧]. وتحدث بروكوبيوس أيضا عن الكوارث التي لحقت بولايات ومدن الإمبراطورية من فيضانات وزلازل وطواعين، وكيف أنها دمرت مدنا بأكملها وأبادت سكانها، ووصف وباء الطاعون بأنه "سبب الموت لنصف الأحياء"، وأن "الموت كان يجرى في كل مكان"[١٥٨].

وعلى ذلك ؛ ربما يمكن القول بأن قصور المؤسسة الصحية البيزنطية عن استيعاب أعداد المرضى المتزايدة، خاصة خلال فترات الكوارث والأزمات، ربما أدى إلى اكتظاظ المستشفيات بالمرضى، وربما أدى بالتالي إلى تزايد أجور الأطباء [١٥٩]، وجعل من أضرحة

---

(١٥٥) A Supplement to the Life of St. John the Almsgiver written by Leontius Bishop of Neapolis in the Island of Cyprus , in : *Three Byzantine Saints : Contemporary Biographies of St. Daniel the Stylite , St. Theodore of Sykeon and St. John the Almsgiver* , trans. E. Dawes , introductions & Notes by N.H. Baynes , London , 1948 , ch. 7.

(١٥٦) John of Ephesus , Lives of Sts. Mary and Euphemia , in : *Holy Women of the Syrian Orient* , trans. S.P.Brock & S.A.Harvey , Berkeley-Los Angeles- London , 1987 , pp. 122-133 , esp. p. 127.

(١٥٧) Agathias , *Histories* , pp. 140 , 145.

(١٥٨) بروكوبيوس، التاريخ السرى، ص١٣٨-١٣٩. Procopius , *Secret History* , pp. 225-6.

(١٥٩) رغم احتمالية تزايد أجور الأطباء في العصر البيزنطي الباكر نتيجة قصور المؤسسة الصحية البيزنطية عن استيعاب الأعداد المتزايدة من المرضى الفقراء والمعدمين، إلا أنه في هذه الحالة ربما لا يمكن مقارنة هذا التزايد مع الأجور الخيالية، والمبالغ فيها بشكل كبير، الواردة في الكتابات الهجيوجرافية، والتي أشير إليها قبلا، أنظر حاشية (٦٨). وفي هذا الصدد، تقدم لنا المصادر التاريخية إشارات عن مشاركة عدد من الأطباء في النشاط الخيرى، بتكريس حرفتهم للتخفيف من الآم المرضى الفقراء والمعدمين، فيعقوب القيليقى طالب الأثرياء بمساعدة الفقراء، وعالج الفقراء دون أجر معتمدا على الراتب السنوى الذي يتقاضاه بوصفه طبيب إمبراطورى، وتشير الحولية الفصحية إلى أنه كان يعالج مرضاه بالماء البارد لتخفيف توترهم وقلقهم بشأن المال، ولذلك لقب بالبارد Psychrestus، وحظى بمحبة الامبراطور والسناتو والشعب، وكرم بنحت

القديسين والعلاج المقدس ملاذا ملائما للمرضى من الفقراء والمعدمين[160]، خاصة إذا وضعنا في الإعتبار العقلية الشعبية البيزنطية التي دوما ما ربطت أية كارثة طبيعية بفكرة العقاب الإلهي وضرورة التكفير عن الخطايا والآثام، وهي العقلية التي أبرزها أجاثياس عندما انتقد حالة الهوس الديني التي أصابت مجتمع القسطنطينية عقب زلزال عام ٥٥٧م[161]، فضلا عن كون العلاج المقدس، كما وضح عبر الدراسة، قد شكل جانبا جوهريا وأساسيا في الفكر الدينى الشعبى البيزنطي.

ومن ناحية أخرى ؛ ربما يمكن القول بأن طبيعة خطورة بعض الأمراض التى عانى منها المرضى البيزنطيون، وارتفاع تكلفة علاجها، خاصة تلك التى تستدعى تدخلا جراحيا، كالفتاق وأمراض الكلى والاستقساء والأورام وغيرها مما ذكر عبر صفحات البحث، أدت من ناحية إلى ارتفاع أجور الأطباء المتصدين لعلاج مثل هذه الأمراض -وإن لم يكن هذا الارتفاع قد بلغ بالضرورة حد الأرقام المبالغ فيها من قبل كتاب سير القديسين المعادين للطب

تماثيل له وضعت بأثينا والقسطنطينية. كذلك نصح ألكسندر التراليسى الأطباء بالترفق بالمرضى الفقراء، وعاب على أطباء عصره مغالاتهم في أثمان العقاقير المركبة، ناصحا بتجنبها قدر الإمكان، خاصة المؤلمة والقاسية منها أو تلك التي ثبت خطورة أعراضها الجانبية، وراح يذكرهم بأن ليس ضروريا أن يكون الدواء معقدا أو مرتفع الثمن حتى يكون فعالا. ومع أن هذه الإشارات تخالف دعاية كتاب الهجيوجرافيا المعادين للطب والأطباء، وتؤكد وجود أطباء خيرين لم يتسموا بالجشع أو ابتزاز المرضى، إلا أنها تحمل دلالات ضمنية على إرتفاع تكلفة اللجوء إلى الأطباء والتدواى بأدويتهم .

Chronicon Paschale , p. 88 ; Nutton , *Galen to Alexander* , p. 4 ; Duffy , *Byzantine Medicine* , p. 25.

وقد اعتمد نوتون على حالتي الطبيبين يعقوب القيليقى وألكسندر التراليسى، وحالات أخرى لأطباء نقشت على شواهد قبورهم مسمى "رجال الروح"، للقول بأن أولئك الأطباء كانوا يعبرون عن إيمانهم المسيحى أكثر من تعبيرهم عن تعليمهم الطبى، وأن الإيمان لعب دورا محوريا في صياغة أفكارهم، ورغم اتفاق الباحث مع هذا الرأى، خاصة وأن أولئك الأطباء أفراد من المجتمع، تأثروا بالمناخ الدينى الذي ساد مظاهر الحياة البيزنطية إبان العصر الباكر، إلا أنه أيضا يمكن القول بأنهم حاولوا من خلال ذلك درء الاتهامات الموجهة إلى الطب والأطباء، وتحسين صورتيهما في مواجهة الدعاية المعادية لهما.أنظر

Nutton , *Galen to Alexander*, p. 4.

(١٦٠) من الملاحظ أنه إذا كان هذا التفسير يصلح بالنسبة للطبقة الفقيرة والمعدمة، إلا أنه بطبيعة الحال لا ينطبق على الطبقة الثرية القادرة على تحمل ارتفاع أجور الأطباء، وانه إذا كان هناك اختلاف بين قدرة الطبقتين على استخدام الأطباء بسبب ارتفاع أجورهم وعجز الفقراء عن دفعها، إلا أن مجانية العلاج المقدس جعلته علاجا متاحا ومتوفرا، وبالطبع مرغوبا فيه، لكل فئات المجتمع البيزنطي، فقرائه وأثريائه.

(١٦١) Agathias , *Histories* , pp.137-141.

وأنظر حاشية (٩٤).

التقليدى، أو أنه شمل جميع الأطباء وكافة أنواع الأمراض -، وأدت من ناحية أخرى إلى طول فترة العلاج وارتفاع نفقاته، الأمر الذى ربما أظهر الطب التقليدى بمظهر العاجز عن التعاطى مع مثل هذه الأمراض المستعصية، ولعل ذلك كله شكل سببا إضافيا لتفضيل العلاج المقدس، وقدم المبررات والحجج القوية التى اعتمد عليها كتاب السير فى حملتهم الدعائية ضد الأطباء وحرفتهم التقليدية، ولعل هذا فى حد ذاته يقدم تفسيرا للعوامل التى دفعت المواطن البيزنطى البسيط إلى اللجوء لمعجزات القديسين بعد تجريبه علاج الأطباء أولا، وهى عوامل ترتكز فى المقام الأول على جوانب دينية وتراثية وثقافية وعرفية ونفسية شكلت طبيعة الشخصية البيزنطية ورؤيتها للطب بأنواعه التقليدية والفلكلورية والمقدسة، وهى الطبيعة التى ربما وضعها عدد من الأطباء فى اعتباراتهم العلاجدية عندما نصحوا مرضاهم باللجوء إلى العلاجات الفلكلورية بعد فشل الطب التقليدى فى مداواتهم.

وأخيرا ؛ يمكن القول بأن المجتمع البيزنطى، شأنه فى ذلك شأن المجتمعات الأخرى، ضم خليطا من الرؤى والمعتقدات التى قد تبدو متباينة، وأحيانا كثيرة متناقضة، نبع من تنوع واختلاف العوامل الأساسية المؤثرة فى تكوين العقلية البيزنطية، وأعنى هنا بطبيعة الحال التراث الكلاسيكى والمسيحية، ولاشك فى أن هذا الخليط أنتج مواقفا متباينة شملت كافة طوائف وفئات هذا المجتمع، وعلى ذلك لم يكن أمرا مستغربا أن توجد بين الطبقات العليا والوسطى والدنيا، بشرائحها المختلفة من آباطرة ومثقفين وأطباء، وحتى رجال دين، مواقف متباينة حيال الاعتقاد فى معجزات القديسين الشفائية وقدرات الطب التقليدى، ولم يكن مستغربا أيضا أن يوجد المؤيدون والمعارضون بين أفراد الطبقة الواحدة أو الفئة الواحدة، وربما أتاح هذا التباين فى حد ذاته الاستمرارية والبقاء لمختلف الاتجاهات والمعتقدات، وجعل من الطبيعى أن يستمر الطب بأنواعه المختلفة يؤدى دوره بفاعلية فى المجتمع، وإن ظلت الغلبة فى هذا الميدان للعلاجات الفلكلورية ومعجزات القديسين، لعوامل قد تتعلق بالأمية والفقر، فضلا عن العوامل الدينية والعرفية والنفسية التى ذكرت قبلا.

قائمة المصادر والمراجع

أولا. المصادر والمراجع الأجنبية :

Abrahamse , D.Z.F., *Hagiographic Sources for Byzantine Cities 500-900 A.D.* , Ph.D. dissertation , University of Michigan , 1967 , University Microfilms. Inc., Ann Arbor , Michigan .

Adnès , A., & Canivet , P., "Guérisons miraculeuses et exorcismes dans *l' Histoire Philothée* de Théodoret de Cyr" , *Revue de L' Histoire des Religions* 171(1967), pp.53-82 &pp.149-79.

Agathias , *The Histories* , trans. J.D.Frendo , New York , 1975.

Ammianus Marcellinus ,*The Later Roman Empire (A.D.354-378)* , trans. W. Hamilton , Penguin Books , London , 1986.

St . Artemios , *The Miracles of St. Artemios : A Collection of Miracle Stories by an Anonymous Author of Seventh-Century Byzantium* , trans. V.S. Crisafulli , Leiden – New York – Köln , 1997.

Baldwin , B., "The Career of Oribasius" , *Acta Classica* 18(1975) , pp.85-97.

Baldwin , B., "Malchus of Philadelphia" , *Dumbarton Oaks Papers* 31(1977), pp.89-107.

Baldwin , B., "Beyond the House Call : Doctors in Early Byzantine History and Politics" , *Dumbarton Oaks Papers* 38(1984) , pp.15-19.

Baldwin , B., "Eunapios of Sardis' , *The Oxford Dictionary of Byzantium* , II , Oxford , 1991 , pp.745-6.

Baldwin ,B., 'Aineias of Gaza" , *The Oxford Dictionary of Byzantium* , I ,Oxford , 1991 , p.41.

Bakirtzis , C., "Pilgrimage to Thessalonike: the Tomb of St. Demetrios" , *Dumbarton Oaks Papers* 56(2002) , pp.175-92.

Brown , P., "The Rise and Function of the Holy Man in Late Antiquity" , *Journal of Roman Studies* 61(1971) , pp.80-101, repr. Idem , *Society and the Holy in Late Antiquity* , Berkeley & Los Angelos , 1982 , pp.103-152.

Cameron , A., *Agathias* , Oxford , 1970.

Cameron , A., *Procopius and the Sixth Century* , London & New York , 1996.

Chronicon Paschale 284-628A.D , trans. M.&M. Whitby , Liverpool , 1989.

Constantelos , D.J. , "Byzantine Religiosity and Ancient Greek Religiosity", *The Past in Medieval and Modern Greek Culture* , ed. S. Vryonis (= *Byzantina Kai Metabyzantina* 1) , Malibu , 1978 , pp.135-151.

Cotter , W., *Miracles in Greco-Roman Antiquity : A sourcebook for the Study of New Testament Miracle Stories* , London , 1999.
Daras , M.D., & Eftychiadis , A.C., "Epilepsy in the Byzantine Empire", *American Academy of Neurology* 52/6-supplement 2 (12 April 1999) , pp.A72-A73.
Davis , S.J., *The Cult of Saint Thecla : A Tradition of Women s Piety in Late Antiquity* , Oxford , 2001.
Delehaye , H., *The Legends of the Saints: An Introduction to Hagiography*, trans. V.M. Crawford, University of Notre Dame Press, 1961.
إعتمد الباحث على النص الكامل لهذا الكتاب المنشور على موقع جامعة فوردهام :
http://www.fordham.edu/halsall/basis/delehaye-legends.html
Drijvers , H.J.W., "Hellenistic and Oriental Origins" , *The Byzantine Saint* , ed. S. Hackel , Birmingham , 1981 , pp.25-33.
Duffy , J., "Byzantine Medicine in the Sixth and Seventh Centuries: Aspects of Teaching and Practice", *Dumbarton Oaks Papers* 38(1984), pp.21-27.
St. Elisabeth the Wonderworker , Life of St. Elisabeth the Wonderworker , trans. V.Karras , *Holy Women of Byzantium : Ten Saints lives in English Translation* , ed. A-M. Talbot , Washington, D.C., 1996 , pp.117-136.
Eunapius , in : *The Fragmentary Classicising Historians of the Later Roman Empire : Eunapius , Olympiodorus , Priscus and Malchus* , trans. R.C. Blockley , Liverpool , 1983 , pp.6-127.
Evagrius Scholasticus , *The Ecclesiastical History* , trans. M.& M. Whitby , Liverpool , 2000.
Festugière , A.J ., (trad.) , *Collections greques de miracles : sainte Thècla , Saints Côme et Damien , saints Cyr et Jean (extraits) , saint Georges* , Paris , 1971.
Foss , C., "Pilgrimage in Medieval Asia Minor", *Dumbarton Oaks Papers* 56(2002) , pp129-151.
Garrison, F. H. , " The Byzantine period" , in : *An Introduction to the History of Medicine with Medical Chronology*, 2nd Ed. Philadelphia: Saunders, 1917 , pp. 104–109.
Gregoire, H., "Sainte Euphémie et l'empereur Maurice" , *Le Muséon* 59 (1946) , pp. 295-302.
Gregory, T.E., "Demetrios , Church of Saint" , *The Oxford Dictionary of Byzantium* , I , Oxford , 1991 , pp.604-5.
Grierson, Ph., "The Tablettes Albertini and the Value of the Solidus in the Fifth and Sixth Centuries A.D.", *Journal of Roman Studies* 49/1-2(1959), pp.73-80.

Grierson , Ph., *Byzantine Coinage* , Washington D.C., 1999.
Griffith, S.H., "John of Ephesus" , *The Oxford Dictionary of Byzantium* , II . Oxford . 1991 , p.1064.
Grossmann, P., *Abu Mina: A Guide to the Ancient Pilgrimage Centre* , Cairo , 1986.
Gurunluoglu, R., "Paulus Aegineta, A Seventh Century Encyclopedist and Surgeon: His Role in the History of Plastic Surgery" , *Plastic and Reconstructive Surgery* 108/7(December 2001), pp.7072-9.
Guthrie, W.K.C., *The Greeks and their Gods* , London , 1950.
Halkin, F., 'L' hagiographie Byzantine au service de l' histoire" , *Proceedings of the XIIIth International Congress of Byzantine Studies* , London :Oxford University Press , 1967 , pp.345-354.

إعتمد الباحث على الترجمة الإنجليزية لهذا البحث :

Halkin, F., "Byzantine Hagiography in the Service of History" , trans. D. Jenkins . www.byzantine.nd.edu/Halkin.html
Haldon, J., "Supplementary Essay , The Miracles of St. Artemios and Contemporary Attitudes : Context and Significance" , *The Miracles of St. Artemios : A Collection of Miracle Stories by an Anonymous Author of Seventh-Century Byzantium* , trans. V.S. Crisafulli , Leiden – New York – Köln . 1997, pp34-73.
Halsall , P., "Byzantine Saint : A Bibliography" , www.unf.edu
St. John the Almisgiver , The Life of St. John the Almsgiver , in: *Three Byzantine Saints : Contemporary Biographies of St. Daniel the Stylite , St. Theodore of Sykeon and St. John the Almsgiver* , trans. E. Dawes , introductions & notes by N.H. Baynes , London , 1948.

إعتمد الباحث على النص الكامل لهذا المصدر المنشور على موقع : www.fordham.edu

John of Ephesus, *Ecclesiastical History* , *Revue de l' Orient Chretien* , 2(1897).
John of Ephesus, *The Third Part of the Ecclesiastical History of John of Ephesus* . trans.R.P.Smith , Oxford , 1860.
John of Ephesus , Lives of Sts. Mary and Euphemia , in : *Holy Women of the Syrian Orient* , trans. S.P.Brock & S.A.Harvey , Berkeley-Los Angeles- London , 1987 , pp.122-133.
Jones , A.H.M. , *The Later Roman Empire (284-602)* , vol.I , Oxford , 1964.
Kažhdan, A., "Byzantine Hagiography and Sex in the Sixth to Twelfth Centuries" , *Dumbarton Oaks Papers* 44(1990) , pp.131-44.
Kažhdan, A., "Chartoularios" , *The Oxford Dictionary of Byzantium* , I ,Oxford . 1991, p.416.
Kažhdan, A., & Maguire , H.,"Byzantine Hagiographical Texts as Sources on Art" , *Dumbarton Oaks Papers* 45(1991), pp.1-22.

Kažhdan, A., & Ševčenko , N.P.,"Artemios", *The Oxford Dictionary of Byzantium* , I , , Oxford , 1991 , pp.194-5.
Kažhdan, A., & Ševčenko , N.P., "Demetrios of Thessalonike" , *The Oxford Dictionary of Byzantium* , I , Oxford , 1991 , pp.605-6.
Kažhdan, A., & Sherry , L.F., "Anonymous Miracles of St. Artemios" , *ΑΕΤΟΣ : Studies in Honour of Cyril Mango* , ed. I.Ševčenko & I. Hutter , Stuttgart & Leipzig , 1998.
Kislinger E., "Gynecology in Everyday Life in Byzantium" , *Proceedings of the First International Byzantine Symposium. The everyday life in Byzantium* , Athens: National Foundation for Scientific Research, 1989. p. 135–52.
Lascaratos , J., & Cohen , M., & Voros , D., "Plastic Surgery of the Face in Byzantium in the Fourth Century" , *American Society of Plastic Surgeons* 106/2 (August 2000) p.517.
http://www.medscape.com/medline/abstract/9734459?Src=emed_ckb_ref_0
Lascaratos, J., & Lazaris , D., & Kreatsas , G., "A Tragic Case of Complicated Labour in Early Byzantium(404 A.D.)" , *European Journal of Obstetrics & Gynecology and Reproductive Biology* , 105/1 (10 October 2002), pp.80-3.
Leonardo, R. A., "Byzantine surgery" , in : *History of Surgery* , New York: Froben Press, 1943 , pp. 69-79.
Leontius of Neapolis, A Supplement to the Life of St. John the Almsgiver written by Leontius Bishop of Neapolis in the Island of Cyprus , in : *Three Byzantine Saints : Contemporary Biographies of St. Daniel the Stylite , St. Theodore of Sykeon and St. John the Almsgiver* , trans. E. Dawes , introductions & notes by N.H. Baynes , London , 1948.
إعتمد الباحث على النص الكامل لهذا المصدر المنشور على موقع : www.fordham.edu
Magoulias, H. J., "The Lives of Byzantine Saints as Sources of Data for the History of Magic in the Sixth and Seventh Centuries A.D., Sorcery , Relics and Icons", *Byzantion* 37(1967), pp.228-69.
Magoulias, H. J.,"The Lives of Saints as Sources of Data for the History of Byzantine Medicine in the Sixth and Seventh Centuries" , *Byzantinische Zeitschrift* (1969) , pp.127-150.
Magoulias, H. J.," The Lives of Byzantine Saints as Sources for Byzantine Agrarian Life in the Six and Seventh Centuries" *Greek Orthodox Theological Review* 35/1(1990), pp.59-70.
Malchus, in : *The Fragmentary Classicising Historians of the Later Roman Empire : Eunapius , Olympiodorus , Priscus and Malchus* , trans. R.C. Blockley , Liverpool , 1983 , pp.402-55.

Mango, C., "On the History of the Templon and the Martyrion of St. Artemios at Constantinople", *Zograf* 10(1979) , pp.1-13. (repr. : Idem , *Studies on Constantinople* , Aldershot , 1993 , no.XV).
Maraval, P., "The Earliest Phase of Christian Pilgrimage in the Near East(before 7th Century)" , *Dumbarton Oaks Papers* 56(2002) , pp.63-74
St. Matrona of Perge , Life of St. Matrona of Perge , trans. J.Featherstone & C.Mango , *Holy Women of Byzantium : Ten Saints lives in English Translation* , ed. A-M. Talbot , Washington, D.C., 1996 , pp.13-69.
Menander , *The History of Menander the Guardsman* , trans. R. C. Blockley , Liverpool , 1985.
Moffatt, A., "Science Teachers in Early Byzantine Empire : Some Statistics" , *Byzantino Slavica* 24(1973) , pp.15-18.
Montserrat , D., "Pilgrimage to the Shrine of Ss.Cyrus and John at Menouthis in Late Antiquity" , *Pilgrimage and Holy Space in Late Antique Egypt* , ed. D. Frankfurter , Leiden , 1998 , pp.257-79.
Nesbitt, J.W. , "Introduction" , *The Miracles of St. Artemios : A Collection of Miracle Stories by an Anonymous Author of Seventh-Century Byzantium* , trans. V.S. Crisafulli , Leiden – New York – Köln , 1997 , pp.1-27.
Nilsson, M.P., *Greek Folk Religion* , Gloucester , Mass. , 1971.
Nutton, V., "From Galen to Alexander : Aspects of Medicine and Medical Practice in Late Antiquity" , *Dumbarton Oaks Papers* 38(1984) , pp.1-14.
Ozaslan, N., "From the Shrine of Cosmidion to the Shrine of Eyup Ensari" , *Greek , Roman and Byzantine Studies* 40 (1999) , pp.379-99.
Patlagean , E., *Pauvrete economique et pauverte social a Byzance , 4e-7e* siecles , Paris , 1977.
Patlagean, E.,"A Byzance : Ancienne hagiographie et histoire sociale" , *Annales* 23 (1968) , pp.106-126 , repr. Idem , "Ancient Byzantine Hagiography and Social History" , trans. J. Hodgkin , *Saints and their Cults : Studies in Religious Sociology , Folklore and History* , ed. S. Wilson ,Cambridge : Cambridge University Press , 1985 , pp.101-121.
Procopius , *The Buildings* , trans. H.B.Dewing & G.Downey , Loeb Classical Library 343 , Cambridge Mass. & London , 1971.
Prccopius , *History of the Wars* , trans. H.B.Dewing , Loeb Classical Library , Cambridge Mass. & London , 1992.
Procopius , *The Anecdota or Secret History* , trans. H.B.Dewing , Loeb Classical Library , Cambridge Mass. & London ,1993.
Santoni-Rugui, P., & Mazzola, R. , "Plastic surgery of the face in the fourth century (Letter)" , *.Plastic Reconstrution Surgery* 104(1999), p.883.

Scarborough, J., "Medicine" , *The Oxford Dictionary of Byzantium* , II , Oxford , 1991 , pp.1327-8.
Scarborough, J., "Alexander of Tralles" , *The Oxford Dictionary of Byzantium* , I , Oxford , 1991 , p58.
Seiber, J., *The Urban Saint in Early Byzantine Social History,* BAR Supplementary Series 37 , Oxford , 1977.
Sozomen, *The Ecclesiastical History of Sozomen : Comprising a History of the Church from A.D.323 to A.D.425* , trans. Ch.D.Hartranft , Edinburgh , n.d.
إعتمد الباحث على النص الكامل لهذا المصدر المنشور على موقع :
http://www.vitaphone.org/history/sozomen.html
Talbot, A. M., 'Pilgrimage to Healing Shrines : The Evidence of Miracle Accounts" , *Dumbarton Oaks Papers* 56(2002) , pp.153-72.
Talbot, A. M., "Healing Shrines in Late Byzantine Constantinople" , The *"Constantinople and its Legacy"* Lecture Series. Toronto , 2000 , pp.1-24. (repr.: Idem , *Women and Religious Life in Byzantium* , Aldershot , 2001 , no. XIV).
Talbot, A. M., "Kosmas and Damian Monastery" , *The Oxford Dictionary of Byzantium* , II , Oxford , 1991 , p.1151.
Temkin , O., "Byzantine Medicine : Tradition and Empiricism" , *Dumbarton Oaks Papers* 16(1962) , pp.95-115.
St. Theodore of Sykeon , The Life of St. Theodore of Sykeon , in: *Three Byzantine Saints : Contemporary Biographies of St. Daniel the Stylite , St. Theodore of Sykeon and St. John the Almsgiver* , trans. E. Dawes , introductions & notes by N.H. Baynes , London , 1948.
إعتمد الباحث على النص الكامل لهذا المصدر المنشور على موقع : www.fordham.edu
كما اعتمد على الترجمة الفرنسية :
Vie de Théodore de Sykeôn , trad. A.Festugière , Bruxelles , 1970.
Theophylact Simocatta , *The History of Theophylact Simocatta* , trans. M.& M. Whitby , Oxford , 1986.
Vikan , G., *Byzantine Pilgrimage Art* , Washington , D.C., 1982.
Walter, Ch., *The Warrior Saints in Byzantine Art an Tradition* , Aldershot, 2003.
Woods, D., " Thessalonica s Patron : Saint Demetrius or Emeterius ?" , *Harvard Theological Review* 93(2000) , pp.221-34.
Zachariah of Mitylene , *The Syriac Chronicle* , trans. F.J. Hamilton & E.W. Brooks , London , 1899.

ثانيا . المصادر والمراجع العربية والمعربة :

- **الكتاب المقدس**
- **إيفانز أولبرى**، قديسو مصر حسب التقويم القبطى، ترجمة وتعليق ميخائيل مكسى إسكندر، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- **بروكوبيوس**، التاريخ السرى، ترجمة على زيتون، دمشق، ٢٠٠٣م.
- **بول شينو دورليان**، القديسون المصريون، ترجمة ميخائيل مكسى إسكندر، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- **دونالد نيكول**، معجم التراجم البيزنطية، ترجمة وتعليق حسن حبشى، القاهرة، ٢٠٠٣م.
- **السنكسار القبطى**، جزءان، مكتبة المحبة، القاهرة، ١٩٧٢م.
- **عبد العزيز رمضان**، "مدخل إلى مواقع الدراسات البيزنطية على شبكة الإنترنت"، حولية التاريخ الإسلامى والوسيط، المجلد الثالث، ٢٠٠٣م، ص٧٥-١٠٣.
- **عبد العزيز رمضان**، المرأة والمجتمع في الإمبراطورية البيزنطية، القاهرة، ٢٠٠٥م.
- **فايز يوسف محمد**، "حضانة المعبد في معابد بلاد الإغريق ومصر"، مجلة مركز الدراسات البردية والنقوش بجامعة عين شمس، العدد التاسع، ١٩٩٣.
- **قزمان ودامیان**، المخطوط الأصلى لسير القديسين الشهداء قزمان ودامیان، مكتبة المحبة، القاهرة، ٢٠٠٠م .
- **الموسوعة الطبية الميسرة**
http://www.wataan.com/tib/index.php?badre=4/12
- **يوحنا الأسيوى**، تاريخ الكنيسة، ترجمة صلاح عبد العزيز محجوب، القاهرة، ٢٠٠٠م.

الأحباش في مصر المملوكية

٦٤٨ـ٩١١هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م

د.عطا أبو ريه*

كلية التربية للبنات، جامعة الطائف،

المملكة العربية السعودية

ارتبطت مصر مع بلاد الحبشة ارتباطا جغرافيا ودينيا وتجاريا وسياسيا منذ القدم كما ربط بينهما النيل الذي ينبع أحد روافده من الحبشة ويخترق أرض مصر ويغذي أراضيها بطميه ويسقيها بمائه.وعلى الصعيد الديني ظلت كنيسة الحبشة تابعة لكنيسة مصر منذ انتشار المسيحية في كليهما وحتى بعد ظهور الإسلام؛ كان بطريرك الإسكندرية هو صاحب الحق في تعيين بطريرك الحبشة. وفي المجال التجاري ارتبطت مصر معها بريا وبحريا وبودلت البضائع بينهما، بيد أن الفارق في الثروة بينهما ضم إلى البضائع المصدرة إلى مصر العبيد والجواري، ناهيك عن أن النظم القبلية التي سادت الحبشة والمناطق المجاورة لها جعلت الإغارة وقطع الطريق وتحيف السابلة إحدى وسائل كسب العيش، وأمس ذلك مصدرا رسميا من مصادر العبيد والجواري الذي يتوارد على مصر من الحبشة. وعلى الصعيد السياسي فإبان العصر المملوكي قامت ممالك إسلامية في القرن الإفريقي متاخمة لبلاد الحبشة ناهيك عن الإمارات الإسلامية التي تأسست على هضبة الحبشة ذاتها وقد أسفر الخلاف العقائدي بين الحبشة وجيرانها عن نشوب حروب شبه متصلة بينهما خلد من استعارها تعصب الأسرة السليمانية في الحبشة لدينها وجعله غطاء شرعيا لإعطاء حروبها مع الممالك الإسلامية صفة المشروعية وتغلفها بالقداسة.

وأفضت الحروب هناك إلى أعداد من الأسرى رجالاً ونساءً؛ فزاد عدد الرقيق بنوعيه الوارد من الحبشة إلى مصر. وقد تنوع التأثير والتأثر في العلاقات المصرية الحبشية إذ أدت إغارة الأحباش على الممالك الإسلامية إلى غضب السلطنة المملوكية التي عبرت عن سخطها بالقبض على بطريرك الإسكندرية لحرمان الكنيسة الحبشية من بطريركها فترد الحبشة بتهديد منابع النيل شريان الحياة في مصر، وتصب كل هذه التأثيرات على تجارة الرقيق خاصة تتابع وصول الرقيق الأحباش إلى مصر، حيث بلغ قدرا أتاح له التأثير في مصر إبان العصر المملوكي. ظهر هذا التأثير جليا في المجالات الاقتصادية والناحية الإدارية وكذلك على الصعيد

* ألقي هذا البحث في ندوة "علاقات مصر بشرق إفريقيا عبر العصور التاريخية"، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، ١١-١٢/٥/٢٠٠٤م.

الثقافي. وحظيت العلاقات السياسية والتجارية والدينية بين مصر والحبشة بدراسات متعددة، أما دور الأحباش في مصر المملوكية فلم ينل نصيبا من الدراسة، ومن ثم كان هدف هذا البحث.

تعددت المجالات التي عمل فيها الأحباش في مصر إبان العصر المملوكي، وانصب جل عملهم في المجال الاقتصادي بخاصة، بيد أن أهم ميادين عملهم ، والتي تركزت فيها جهودهم هو العمل الإداري ولأنهم لم يكونوا قادة أو ترأسوا العمل الإداري فلم تحفل المصادر التاريخية كثيرا بذكرهم بصورة مباشرة ، ثم جاءت أخبارهم بشذرات متفرقات في هذه المصادر؛ أبانت عن الاختصاصات التي أوكلت لهم، والأعمال التي أسندت إليهم في المدن الكبرى. ولم تقتصر هذه الأعمال على مجالات بعينها ؛ وإنما أتسع مجالها وتفاوتت قيمتها الاجتماعية والاقتصادية في آن واحد ؛ إذ تراوحت بين أعمال كبرى وأخرى صغرى على الصعيدين ذاتهما. وقد تعددت طرق جلبهم إلى مصر وهى على النحو التالي،

طرق جلب الأحباش لمصر ودورهم الاقتصادي:

أعقب نزول المسلمين إلى جزيرة دهلك[1] والموانئ الشرقية للحبشة في القرن الأول الهجري السادس الميلادي ازدهار التجارة بين مصر وهذه المناطق، وبخاصة تجارة الرقيق حتى غدت مصدر دخل كبير للتجار الذين ولجوا هذا المجال خاصة عندما كثر الطلب على الرقيق الأحباش بسبب رغبة العرب المسلمين فيهم وتفضيلهم لهم فضلا عن مروءتهم،[2] ناهيك عما اشتهر به الأحباش من أمانة وإخلاص في العمل وذلك لأنه شاع حديث نُسب إلى النبي ﷺ " من أدخل بيته حبشيا أو حبشية أدخل الله بيته بركة ".[3]

ارتقت الأسرة السليمانية عام ٦٦٩هـ /١٢٧٠م عرش مملكة الحبشة والتي عرف عنها تعصبها ضد المخالفين لها في العقيدة أو المذهب، حتى دخلت حروب مع جيرانها المسلمين من عرب الطراز الإسلامي وجند الملك يكونوا أملاك (١٢٧٠-١٢٨٥م) كل ما لديه من قوة لمهاجمتهم[4] واتخذ يكونوا أملاك من الدين تكئة لشن الحروب وتجريد الجيوش. وهذه

---

[1] دهلك، جزيرة في بحر اليمن – البحر الأحمر – وهو مرسى بين بلاد اليمن وبلاد الحبشة وكانت منفي لمعترضي الحكم الأموي. انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز، ج٢، (بيروت، ١٩٩٠)، ص٥٦٠؛ تامرات، القرن الإفريقي السليمانيون المنتسبون إلى الملك سليمان الحكيم في أثوبيا، مقال ضمن تاريخ إفريقيا العام، مج٤، مطبوعات اليونسكو، ص ٤٢٨.

[2] السخاوي، الضوء اللامع، ج٣، (القاهرة، د.ت.)، ص ٢٣٠.

[3] الديلمي، الفردوس بمأثور الخطاب، بيروت دار الكتب العلمية ١٩٨٦ حديث رقم ٥٧٩٥.

[4] المقريزي، الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، مصر، ١٨٩٥، حـ٨. للمزيد عن هذه الحروب انظر ص٨- ٣٠؛ عبد المجيد عابدين، بين الحبشة والعرب، القاهرة، ص ١٧١ ؛ رجب محمد عبد الحليم،

الحروب أمدت أسواق النخاسة بما حازت من أسرى، فلم يخل عهد حاكم من حكام هذه الأسرة من الكثير من السبايا والأرقاء.[5]

لم يقتصر جلب الرقيق على الحروب، وإنما لعب قطاع الطرق واللصوص من الأحباش، الذين عرفوا باسم الشفتا دورا إضافيا في إمداد الأسواق بالرقيق ؛ فقد أغاروا على القرى واختطفوا الرجال والنساء والأطفال وأرسلوا بهم إلى أسواق الرقيق،[6] وتفاقم دور هؤلاء حين استعان بهم ملوك الحبشة في الإغارة على بلدان المسلمين وقطع طريق قوافلهم وسبي من تصل إليه أيديهم،[7] وزود أهالي الحبشة سوق الرقيق في مصر بما قاموا به في قراهم ؛ إذ يذكر الحميري أن بعض القرى الحبشية كان يقوم أهلها بسرقة أبناء بعضهم ويبيعونهم للتجار الذين يصلون إلى مصر.[8]

ولعبت الهدايا التي أرسلها ملوك الحبشة إلى ملوك مصر دورا آخر في زيادة عدد الأحباش في مصر إذ ضمنت هذه الهدايا العديد من الجواري والطواشية[9] ولا أدل على ذلك مما أرسله ملك الحبشة (ياجبيا صيون بن يكونوا أملاك (١٢٨٥-١٢٩٤م) إلى سلطان مصر المنصور قلاوون (٦٨٩ هـ /١٢٩٠م)[10] داود بن سيف أرعد (١٣٨٢ – ١٤١١م) إلى الظاهر برقوق عام (٧٨٨ هـ / ١٣٨٩م) من الذهب ... وعدة جواري حبش وطواشية حبش،[11] كما أرسل زرء يعقوب بن أندروس (١٤٣٤ – ١٤٦٨م) إلى الظاهر جقمق

العلاقات السياسية بين مسلمي الزيلع ونصارى الحبشة في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٨٥، ص ٢٦٣ ؛ بتشر، تاريخ الأمة القبطية، القاهرة، ١٩٠٧، جـ٤، ص ٢٨؛ جوزيف كي زيربو، تاريخ أفريقيا السوداء، ترجمة عقيل الشيخ، الدار الجماهيرية، ليبيا ،٢٠٠١، ص ٢٧٧.

Trminghom, J. S , *Islam in Ethiopia* , Oxford, 1952, p. 56.

[5] رجب محمد عبد الحليم، مرجع سابق، ص ٣٨.

[6] زاهر رياض، الشفتا في أتوبيا منذ العصور الوسطى، بحث بمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، مج ١٩، ج٢، ١٩٦١، ص ٢١٦.

[7] سعيد عبد الفتاح عاشور، بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة في العصور الوسطى، المجلة المصرية التاريخية، ح ١٤، القاهرة، ١٩٦٨ ،ص٢٨ ؛رجب محمد عبد الحليم، مرجع سابق، ص ٤٦ ؛ *Encyclopedia of Islam*, sv. adal.

[8] الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت سنة ١٩٨٥ ص ١٨٠.

[9] الطواشي :الجمع طواشيه ،وهم الخصيان الذين استخدموا في الطباق ،وفي الحريم الشلطاني .وكانت لهم حرمة وافرة وطلمة نافذة ،ويعد شيخهم من الأعيان .أنظر زين العابدين شمس الدين نجم،معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية ،القاهرة ص ٣٦٨.

[10] ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الزهور، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،١٩٨٢، جـ١، قسم ٢ ،ص ٣٧٩.

[11] ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل، القاهرة ،١٩٦١، ص

عام (٨٤٧ هـ / ١٤٤٤م) عدداً وصل إلى سبعين جارية.[١٢]

وقد فطن تجار النخاسة إلى الفائدة المرجوة من خصي بضاعتهم، لأن الخصيان يأتمنون على العمل في المنازل، علاوة عن متانة أجسامهم وقدرتهم على التحمل ولا يختار لخصي الغلمان إلاّ أصلبهم عوداً وأوسمهم خلقة، وقام بتلك المهمة جنس من أجناس الأحباش عرفوا بالخاسة وكانوا يقطنون شمال سحرته[١٣] بخصي من يقع في أيديهم،[١٤] وقام أهل مدينة وشله[١٥] الوثنية أيضاً بهذا العمل رغبة في رفع ثمن العبيد ولأنهم لم يكونوا على دراية عالية بما ينجم عن عملية الخصي من انسداد مجرى البول، فكانوا يبعثون بمن يخصونه إلى مدينة هدية[١٦] مرة ثانية لإزالة الصديد الذي أغلق مجرى البول وإتمام علاجهم حتى يبرءوا من علتهم.[١٧]

ويحمل العبيد بعد ذلك إلى الأسواق منها أسواق مصر سالكاً طريق البحر الأحمر صعوداً نحو الشمال إلى شندى[١٨] وسنار[١٩] ثم اختراق الطريق الصحراوي نحو الشمال إلى قوص

١٧٠؛ إبراهيم طرخان، الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة في العصور الوسطى، المجلة المصرية التاريخية، مج ٨، القاهرة ، ١٩٥٩،ص ٥٩.

12 السخاوي، التبر المسبوك في ذيل السلوك، مكتبة الكليات الأزهرية، د.ت، ص ٦٨ ؛ إبراهيم طرخان، مرجع سابق، ص ٦٣.

13 سحرته،إحدى المدن المسيحية بهضبة الحبشة.

14 ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٧٠، ص ٩٨.

15 وشله، إحدى المدن المسيحية بهضبة الحبشة.

16 هديه ،إحدى الممالك الإسلامية التي نشأت جنوب هضبة الحبشة ،وطول هذه المملكة ثمانية أيام وعرضها تسعة أيام ،ولم تستمر طويلا إذ قام ملك الحبشة بمهاجمتها عام ٧٢٨هـ/١٣٢٨م وحمل سلطانها أسير إلي عاصمة.أنظر فتحي غيث،الإسلام والحبشة عبر التاريخ ،مكتبة النهضة المصرية القاهرة صـ٨٧،رجب محمد عبد الحليم، الممالك الإسلامية جنوب الصحراء ،سفير للنشر القاهرة ص ٨٥.

17 القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة،ج٥ ،ص ٣٢٨، ويذكر د/ رجب محمد عبد الحليم، في كتاب العلاقات السياسية بين مسلمي الزيلع ونصارى الحبشة ،ص ٤٨، ودكتور عبد السلام الترمانيني، في كتاب الرق ،ص ٩٩ ،أن القائمين على عملية الخصي اليهود وبالبحث لم نجد أي دليل على ذلك لا في الكتابان ولا مصادرهما ولكن لا يستبعد هذا عن اليهود لنظرتهم إلى غير اليهود على أنهم من الأغيار وهم الأمم غير اليهودية دون سواها والأغيار درجات أدناها " الأغيار " أو عبدة الأوثان والأصنام وأعلاها الذي تركوا عبادة الأوثان أي المسيحيين والمسلمون انظر عبد الوهاب محمد المسيري، موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، القاهرة، ١٩٧٤، ص ٧٨ ، ولهذه النظرة لا يستبعد قيامهم بهذه المهمة خاصة وإن العبد المخصي غالي الثمن عن غير المخصي.

18 شندي ،تقع على بعد ١٠٤ ميل من الخرطوم ،وكانت مركز لمملكة الجعليين في عهد سلطنة سنار وشندي من أهم المراكز التجارية بالسودان ،أنظر نعوم شقير ،جغرافية وتاريخ السودان ،دار الثقافة لبنان ١٩٦٧،صـ١٠٦-١٠٧.

أو أسـنا حيـث تحملـه المراكـب النيليـة إلـى القـاهرة،[20] أو ينقـل الرقيـق بـراً إلـى زيلع،[21] وعدل[22] ويواصل رحلته البرية إلى مدينة عيذاب[23] ، ومنها يسوق التجار قطعان العبيد إلى أسواق قوص وأسيوط ثم القاهرة ، ويقسم الجلابة الرقيق إلى فئـات ثـلاث، الخماسـي " دون العاشرة أو الحادي عشر " والسداسي " فوق الحادية عشرة دون الرابعـة أو الخامـسة عـشر " والبالغ " من الخامسة عشر فصاعداً " وأغلى هؤلاء عندهم السداسي.[24]

ويحرص تجار العبيد على بضائعهم ليحققوا أكبر قدر من الربح فيعاملون رقيقهم معاملة حسنة خاصة في المأكل والمشرب فيطعمونهم الخبز المصنوع من دقيق الذرة ويـسقونهم مـن قرب الماء المحمولة على الإبل.[25] ويجمع الرقيق في القاهرة في مكان يعرف باسم الجلابة وهى وكالة ترد إليها القوافل لبيع العبيد و الطواشية بصفة خاصة ومنها يستطيع أهل مصر شراء مـا يشاءون وقد تعددت أسواق العبيد في أحياء القاهرة إذ وجد إحداها بالقرب من جـامع الـسلطان قايتباي،[26] كما وجدت أسواقاً أخرى للعبيد[27] ووجدت أخرى بالفسطاط وسميت بـدار البركـة أو بركة الرقيق،حيث كانت سوقاً يباع فيها هذا النوع من الرقيق،[28] ناهيك عن فنادق القاهرة حيـث

---

19 سنار ،تقع علي مرتفع من الأرض ،وتبعد عن الخرطوم بـ٢٠٧ميل ،وهي إحدى ممالك السودان الشرقي ،وتقـام بها عدة أسواق وتأتيها البضائع من بلاد الهند ،كما لها علاقات مع اليمن ،وأكبر سوق لها سوق الرقيـق الواقـع بالقرب من سراي الملك ،أنظر مكي شبيكه،السودان عبر القرون ،دار الثقافة لبنان صـ٧٦-٧٧، نعـوم شـقير ، مرجع سابق، ص ١١٣-١١٤.

20 بوركهارت، رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان، ترجمة فؤاد اندراوس، الجمعية المـصرية للدراسـات التاريخية، القاهرة، ص ٢٤٨- ٢٥٠؛ زاهر رياض ،الإسلام في أثوبيا، ص ١٨٢- ١٨٣ ؛ سعيد عبـد الفتـاح عاشور، أضواء جديدة، ص ٢١ـ ٢٢.

Trminghom , Op. cit., p. 57.

21 زيلع، قرية على ساحل البحر الأحمر من ناحية الحبش وأهلها مسلمون يكثرون الحج والتردد على سـاحل عـدن وزبيد، وهي محل خط إقلاع، ومنها يتوزع رقيق الحبشة على بلاد الإسلام الساحلية لذلك وجد بها سوق، انظـر ياقوت الحموي، مصدر سابق، ج٣، ص ١٦٤-١٦٥ ؛ ابن سعيد، مصدر سابق، ص ٩٩.

22 *Encyclopedia of Islam*, sv. adal.

23 عيذاب، بلدة على بحر القلزم هي مرسى المراكب التي تقدم من عدن إلى صعيد مصر، انظر يـاقوت الحمـوي، مصدر سابق، جـ٤، ص ١٧١ ؛ الحميري، مصدر سابق ، ص ٤٢٣-٤٢٤.

24 بوركارت، مرجع سابق، ص ٢٥٢.

25 نفس المرجع، ص ٢٤٧.

26 نعيم زكي، مرجع سابق، ص ٢٢٤.

27 ابن دقماق، الانتصـــار لواسطة عقد الأمصار، المكتب التجـــاري للطباعة والنشر، بيروت بدون تاريخ، ج٤، ص ٣٤؛ السخاوي الضوء اللامع. ج٢، ص ٥٧.

28 السيوطي، حُسن المحاضرة في تاريخ مصر القاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القـاهرة ١٩٩٨، ج١ ، ص ١١٤ ؛ محمد مختار، هداية المريد في شراء الجواري وتقليب العبيد، القـاهرة، ١٩٩٧،

وجدت فنادق خاصة بالطواشية[29] وفي الفسطاط كان فندق الحجر مخصصاً لبيع العبيد.[30]

أما أسعار العبيد فقد كانت تتفاوت من عبد إلى آخر،حيث كان من الطبيعي أن يزداد سعر العبد أو ينقص تبعاً لحالته الصحية أو عمره أو مصدر جلبه أو وسامته؛ فالعبد يصل سعره ما بين ١٥٠ و ٢٠٠ درهم وقد ينخفض إلى ١٠٠ درهم أحياناً، ويرتفع إذا حاز مؤهلات من قوة جسدية أو مهارة في عمل ما فيصل ثمنه إلى ٤٠٠ دينار، والشبان أكثر طلباً من الرجال والإقبال على الفتيان أكثر من النساء [31].

وقد أشرفت الدولة المملوكية على بيع العبيد في الأسواق من خلال المحتسب وأمنائه، إذ كان لهم دكه في سوق العبيد [32]، لمراقبة ما يتم من عمليات البيع والشراء؛ لأن الشرعي الإسلامي حرم الغش لذا كان على تاجر العبيد الالتزام بما اتفق عليه الفقهاء في مراعاة صالح العبيد [33]، فكان عليهم مراقبة النخاسين المحتالين خشية إبراز جمال بعض الجواري والعبيد المعروضة وإخفاء عيوبهم [34].ولم تكن غاية الدولة من وجود المحتسب وأعوانه في هذه الأسواق والوكالات والفنادق الحرص على عدم الغش فقط وإنما لضمان تحصيل الرسوم التي قررتها على كل عبد يتم بيعه بتلك الأسواق لصالح خزانة الدولة [35]، وراقب المحتسب أيضاً السماسرة حتى لا يبيعون عبداً أو جارية دون معرفة البائع الذي يثبت أسمه وصفته في دفتر خاص به خوفاً من أن يكون المبيع حراً أو مسروقاً ،[36] ومن أمثلة السماسرة علي بن محمد بن نجم الدين بن المغيث المصري الذي تكسب من سمسرة العبيد.[37]

ص ٨٦.

29 ابن حبيب، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق محمد محمد أمين، راجعه سعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦، ج١، ص ٣٠٢.

30 محمد مختار، مرجع سابق، ص ٢٢٤.

31 نعيم زكي، مرجع سابق، ص ٢٢٤.

32 ابن دقماق، مصدر سابق، ج٤، ص ٢٣ .

33 ابن الأخوة، معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق محمد محمود شعبان، صديق أحمد عيسى، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦ ، ص ٢٣٨.

34 وللمزيد عن إخفاء النخاسين والسماسرة لعيوب العبيد انظر الحسن بن عبدون البغدادي، رسالة جامعة لفنون نافعة في شري الرقيق وتقليب العبيد، تحقيق عبد السلام هارون، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ص ٣٧٩- ٣٨٤؛ ابن الأخوة، مصدر سابق، ص ٢٣٨؛ المالقي، أدب الحسبة، تحقيق حسن الزين، بيروت، ١٩٨٧، ص ٦٣-٧٢.

35 صبحي لبيب، الفندق ظاهرة سياسية اقتصادية قانونية، بحث ضمن ندوة مصر وعالم البحر المتوسط، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٦،ص ٢٨٩.

36 ابن الأخوة، مصدر سابق ص ٢٣٠.

37 السخاوي، الضوء اللامع، جـ٦، ص ١١.

استوطن العبيد الحبشي مصر وعمل بعضهم في مجال التجارة داخل أسواق مصر أو خارجها، وعمل بعضهم لصالحه بعد عتقه، وآخرون لصالح سادتهم، ومن هؤلاء مفتاح الحبشي مولى الموفق الأبي، الذي عمل بالتجارة في سوق أمير الجيوش[38] ؛ أما مبارك الحبشي عتيق الفاسي فعمل بالتجارة الخارجية، وقصد بلاد العجم لصالح سيده وأثرى من وراء هذا العمل ثراءً كبيراً. [39] وسافر آخرون بتجارتهم إلى الحجاز واستقروا بها مثل موفق الحبشي البرهانى الظهيري الذي مات بمكة عام (٨٩٢هـ/١٤٨٦م). [40] واشتغل الأحباش أيضاً في تجارة الكارم التي عمل فيها الكثير من التجار منهم أحمد بن محمد بن بركوت الحبشي التاجر الكرمي، [41] الذي انخرط مع تجار الكارم، حيث بلغ عددهم خمسة آلاف شخص تاجر معظمهم في سلع الهند والصين والحبشة [42]، حيث استوردوا منها الذهب والفضة والمر وسن الفيل، [43] عبر ميناء بربره التابع لملك الحبشة. [44] وتولى بعض الأحباش تحصيل المكوس ومن هؤلاء ريحان الحبشي الذي تولى إمارة المكس بجدة أثناء دولة السيد على بن عجلان الذي خضع لسلطة المماليك في مصر ، وجني من وراء عمله هذا أموالاً طائلة مكنته من شراء ممتلكات عدة، وبعدها ترك هذا العمل واستقر به المقام في مدينة زبيد باليمن إلى أن مات عام (٨١٦هـ/١٤١٣م).[45]

لم يكن العمل بالتجارة هو الميدان الاقتصادي الوحيد الذي طرقه الأحباش وإنما عملوا ببعض الحرف الأخرى مثل مفتاح الحبشي،السابق ذكره الذي استقر به المقام بسوق أمير الجيوش واتخذ به حانوتاً واحترف صناعة التجليد التي درت عليه دخلاً عاش منه [46] ؛ وريحان الحبشي التعكرى الذي اشتغل صائغاً بسوق الصاغة؛ وريحان الحبشي العطار الذي اتخذ لقبه من انتسابه إلى حرفة العطارة بعد أن اتخذ له حانوتاً بإحدى الأسواق وعمل بتجارة العطارة.[47]

ولم تكن حركة التجارة بين مصر المملوكية والحبشة دائمة الازدهار، تحمل العبيد

---

38 نفس المصدر، ج ١٠ ،ص ١٦٦.

39 نفس المصدر، ج ٦ ،ص ٢٣٨.

40 نفس المصدر، ج٦ ،ص ١٦٩.

41 ابن إياس، مصدر سابق، ج ٣ ،ص ١٢.

42 نعيم زكي، مرجع سابق ص ١٤٢.

43 المقريزي، الإلمام، ج٣ ،ص١٧،١٨؛ القلقشندي، مصدر سابق، ج ٥، ص ٣٠٤ ؛ زاهر رياض، الإسلام في أثوبيا، ص ١٩٢.

44 بربرة، مدينة تتبع بلاد الحبشة وتقع على ساحل اليمن، انظر ياقوت الحموي، مصدر سابق،ج١ ،ص ٣٦٩-٣٧٠؛ ابن سعيد، مصدر سابق، ص ٨٢؛ نعيم زكي، مرجع سابق، ص ١٤٢.

45 السخاوي، الضوء اللامع، ج٣، ص ٢٣٠.

46 نفس المصدر، ج١٠، ص ١٦٦.

47 نفس المصدر، ج٣، ص ٢٣٠ – ٢٣١.

والجواري إلى مصر بانتظام، وإنما تحكمت العلاقات السياسية في هذه التجارة سلباً وإيجاباً ؛ فإذا ما قام ملك الحبشة بالإغارة على الممالك الإسلامية المجاورة له [48] أو عمل على إعاقة وصول مياه النيل إلى مصر،[49] فإنه يثير بذلك حفيظة السلطان المملوكي الذي يرد على ذلك عادة باعتقال بطريرك الإسكندرية،[50] لمنعه من تنصيب بطريرك لكنيسة الحبشة.و حينذاك يمنع ملك الحبشة قوافل التجارة القادمة من مصر من دخول بلاده، والحصول على العبيد منها.وكان يخشى السلطان المملوكي كساد هذه التجارة، وما تدره على بلاده، فيطلق سراح البطريرك، ويسترضى ملك الحبشة حتى تستعيد حركة القوافل مسيرتها من جديد.[51] واستغل بعض الرهبان ذلك وقاموا بالعمل في التجارة خفية،إذ كان ذلك محرماً عليهم ،ومن هؤلاء الراهب بولص المعروف بالحبشي،مستغلاً بذلك وظيفته حتى لا يتعرض لبطش ملك الحبشة وأتباعه، وأثرى ثراءً كبيراً من هذه التجارة.[52]

وقد استغل التجار السفارات المتبادلة بين سلطان مصر وملك الحبشة وخرجوا معها بالقوافل لضمان الحماية وسلامة تجارتهم، ومن الذين أفادوا من ذلك يحي بن شاديك المعروف بقاصد الحبشة، [53] ويحي بن عجلان الأسيوطي الذي سافر الحبشة للاسترزاق، [54] والغالب على الظن خروج هؤلاء وأمثالهم مع قافلة مثقال الظاهري جقمق الحبشي الطواشي، مقدم المماليك، الذي أرسله السلطان الظاهر جقمق (٨٤٢ – ٨٥٧ هـ / ١٤٣٨ – ١٤٥٣ م) رسولاً إلى ملك الحبشة [55]، زرء يعقوب بن أندراوس (٨٣٨ – ٧٨٣ هـ / ١٤٣٤ – ١٤٦٨ م).

١ – دور الأحباش الإداري:

جلب المماليك عدداً كثيراً من العبيد الأحباش للعمل كخدم في القصر السلطاني أو الجيش ومن أجل إعدادهم لهذه المهمة، بذل المماليك عناية فائقة لتزويدهم بالمستوى الثقافي اللائق، مما

---

48 المقريزي، الإلمام، ص ١٧-١٨ ؛ ابن أياس، مصدر سابق، ج١، قسم ٢، ص ٣٨٩؛ بتلر، مرجع سابق، ج٣، ص ٢٥٤.

49 ابن أياس، مصدر سابق، ج١ قسم ١، ص ٢٠٤، ٢٢٣؛ ج٢ ص ٢٣٩؛ جوزيف كي زيربو، مرجع سابق، ص ٢٧٥.

50 السخاوي، التبر المسبوك، ص ٧٢؛ ابن إياس، مصدر سابق ج ٢، ص ٢٦٤.

51 سعيد عاشور، أضوء جديد، ص ٢٨؛ إبراهيم طرخان، الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة، ص ٥٦.

52 ابن تغرى بردى، الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق فهيم محمد شلتوت، مكة، ١٩٨٣، ج١، ص ٢٠٣.

53 السخاوي، الضوء اللامع، جـ١٠، ص ٢١٦ ؛ ابن إياس، مصدر سابق، جـ٣، ص ١٧٩.

54 السخاوي، الضوء اللامع، جـ١٠، ص ٢٣٥.

55 نفس المصدر، جـ٦، ص ٢٣٩.وللمزيد عن الرسل إلى للحبشة انظر ابن إياس، مصدر سابق،جـ١، قسم ٢، ص ٢٨٩- ٢٩٠.

مكنهم من تكوين طبقة إدارية تعمل في خدمة الدولة المملوكية ،وأطلق عليهم أسم الطواشية، وهم الخصيان الذين استخدموا في الطباق المملوكية، وعدوا شيخهم من أعيان الناس [٥٦]. وغنى عن القول أن مهام الطواشية تعددت إلى عدة مهام وسوف نتناولها بالتفصيل.

وهكذا، لم يقتصر الطواشية على مهمة واحدة، بل تنقلوا بين المهام التي أوكلت إليهم مثل عنبر الحبشي الطنبذى الطواشي الذي اشتراه التاجر نور الدين الطنبذى، بيد أنه ترك سيده للعمل في خدمة الأمراء حتى انتهى به المطاف إلى خدمة الظاهر جقمق (٨٤٢-٨٥٧ هـ / ١٤٣٨ – ١٤٥٣ م) ؛ وترقى في منصبه داخل القصر السلطاني حتى بلغ منصب مقدمي الطباق البرانية وبلغ الغاية حتى أصبح مقدم المماليك ،[٥٧] وهو لقب أطلق على من يتولى أمر الخدم الخصيان المعروفين بالطواشية الذين يعملون في خدمة السلطان مما أعطاه الحق في التحدث بشأنهم والتحكم فيهم وحضور تفرقة الجامكية،[٥٨]وهى الراتب المربوط للشهر أو أكثر.[٥٩] وبهذا حاز عنبر صفات من علو شأن منصبه في القصر السلطاني وقرباً من السلطان جقمق الذي اهتم بتثقيف عنبر الحبشي.[٦٠]

وبلغت ثقة السلطان الأشرف قايتباي (٨٧٢ – ٩٠١هـ / ١٤٦٨ – ١٤٩٦ م) في محسن النفحي، أو الفتوح الطواشي الحبشي، أن جعله خازناً، [٦١] أي مشرفاً على خزائن السلطان من نقد وأمتعة. [٦٢] ولم يكن ذلك نهاية ما بلغه طواشية الحبشة، وإنما بلغ بعضهم منزلة كبرى لدى سلاطين المماليك حتى منح بعضهم لقب أمير، مثل بدر أبو المحاسن الصوابى العادلي الحبشي، الذي نسب إلى سيده الصوابى العادلي، وبلغ بدر الدين منصب أمير مائة ثم مقدم ألف، وهو منصب يعد من أعلى مراتب الأمراء في عصر المماليك، واقتصر على أرباب السيوف الذين يكون في خدمة كل منهم مائة مملوك ويكون مقدماً على ألف جندي من أجناد الحلقة إبان

---

[56] سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة ،١٩٧٦، ص ٤٥٥؛ مصطفي عبد الكريم الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦ ،ص ٣٠٨.

[57] السخاوي، الضوء اللامع، ج٦ ، ص ١٤٨.

[58] المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفي زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٧٠، ج١، قسم ٣، ص ٧٨٠ ؛ القلقشندي، مصدر سابق، ج٥، ص ٤٥٦؛ ابن إياس، مصدر سابق، ج٤، ص ٢٩١.

[59] سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي، ص ٤٢٦.

[60] السخاوي، الضوء اللامع، ج٦، ص ١٤٨.

[61] نفس المصدر ،ج٦، ص ٢٤٠.

[62] سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي، ص ٤٣٢.

الحروب.[63] لذلك أشرف بدر الدين أبو المحاسن الحبشي على مائة مملوك خصيان خصصوا لخدمة السلطان وعرفوا بالطواشية، وأمس أميراً عليهم،[64] واستمر بدر الحبشي في منصبه هذا أكثر من أربعين عاماً.[65]

وشارك الأمراء بنصيب كبير في شراء العبيد الأحباش وعملوا على تربيتهم في قصورهم منذ طفولتهم وبذلوا الغاية لتزويدهم بمستوى ثقافي وأعطى بعض الأمراء أسمائهم لعبيدهم الأحباش في كثير من الأحيان، مثل جوهر القنقبائى[66] الطواشي الحبشي، الذي عمل في خدمة سيده حيناً من الدهر، واستمر في خدمته حتى انتقل إلى خدمة علم الدين بن الكويز. وقد أعجب الأمير بجوهر لحسن تربيته وحفظه القرآن وتدريسه وإنفاقه على حملة القرآن،[67] فكان جزائه من صنف عمله، إذ ذاعت شهرته حتى اختاره اللالا[68]،أحد طواشي الأشرف برسباي (٨٢٥ – ٨٤٢ هـ / ١٤٢٢ – ١٤٣٨ م)، [69] ليكون ضمن طواشي السلطان الأشرف.ووثق السلطان الأشرف في جوهر لما ظهر عليه من رجاحة العقل والسكون وحسن التدبير، فجعله على باب السلطنة،حيث أهتبل جوهر الفرصة، وجد في خدمته وتقرب للأشرف برسباي حتى ولاه الخازندارية [70] فبات من حقه الدخول على الحريم السلطاني، وأمس مسئولاً عما يرد إلى الخزينة

---

63 المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، حـ١، قسم ١، هامش ١.

64 محمد أحمد الدهان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر، بيروت ١٩٩٠، ص ٢٢، ١٤٢.

65 ابن تغري بردى، الدليل الشافي، حـ ١، ص ٨٣.

66 جوهر، القنقبائي،نسبة لقنقباي الجركسي الطواشي الحبشي الخازندار الزمام بالباب السلطاني ،وتنقلت به الأحوال إلي أن خدم عند العلم بن الكويز فسار عنده سيرة حسنة لأنه طان يحب اهل القرآن ،ولما مات أبن الكويز أنتقل جوهر بالأشراف بواسطة سمية جوهر ،فاستخدم في باب السلطان وقربه منه وانس به ثم استقربه المقام بالخازندارية وتقرب إليه الناس وصار يقضي حاجاتهم ،وأخذ يتقرب للسلطان بجمع أموال أكثرها لا يحل ، ولجوهر القنقبائي وآثر كثيرة مثل بناء مدرسة بجوار الحامع الأزهر ودار بدرب الأتراك ،توفي جوهر عام ٨٤٤هـ/١٤٤٠م.أنظر السخاوي ، الضؤ اللامع ،جـ٣، ص ٨٢-٨٣.

67 ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر في أنباء العمر، تحقيق حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٨، حـ٤، ص ١٦٨.

68 جوهر اللالا ،عتيق أحمد بن جلبان ،اتصل جوهر بخدمة الأشراف فتولي وظيفة زمام ،ولما تولي السلطان العزيز يوسف زاد من سلطات جوهر ولكن لم يدم حيث مرض بالقولونج وتوفي عام ٨٤٢هـ/١٤٣٨م.أنظر،المقريزي، الخطط جـ٢ ، ص ٢٤٤؛ السخاوي ، الضؤ اللامع جـ٣، ص ٨٤.

69 ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر في أنباء العمر ، حـ ٤، ص ١٢٢.

70 الخازندارية ،كلمة (خازن)عربية وكلمة (دار)فارسية بمعني ممسك ،خازن ،أمين الصندوق وأمين الخزانة وهو الذي يتولي أعمال السلطان أو غيرهما والقائم علي حفظ محتويات الخزينة،زين العابدين، مرجع سابق، صـ٢١٢،٢٢٠، ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر في أنباء العمر ، حـ ٤، ص ١٦٨.

وما يخرج منها من نقود فضلاً عن توزيع الصدقات على الفقراء والمساكين.[٧١] وقد ألقت المقادير بالفرصة إلى جوهر عندما مات الزمام خشقدم؛ فترك الخازندارية وحل محله في منصب الزمام ؛ فأصبح المتحدث الرسمي على باب ستارة السلطان [٧٢]، وبذلك عرف الناس جوهر القنقبائي وتقربوا إليه وتزاحموا على بابه لما عرف عنه السخاء وكثرة العطاء ، لاسيما مع أبناء جلدته [٧٣].

وقد لعبت الأزمات الاقتصادية التي تعرضت لها البلاد [٧٤]، أكبر الأثر في استعانة الأشرف برسباي بجوهر القنقبائي في تحصيل الأموال من عدة وجوه، وحرص جوهر على تبيان نفسه عفيفاً عما بأيدي التجار، وأنه لم يكن يعسف بهم لولا أنها أوامر السلطان الأشرف برسباي، وفي ذات الوقت لم يستجب إلى طلبهم ببيع بضائعهم ،وإنما منح هذا الحق للتجار الفرنج بعد أن أخذ إتاوة منهم نجم عن ذلك ركود سوق التجار المصريين والاستدانة [٧٥].

خلف السلطان جقمق (٨٤٢ – ٨٥٧ هـ / ١٤٣٨ – ١٤٥٣ م) سلفه الأشرف برسباي فتقلص دور جوهر حيناً، بيد أن وظيفته كزمام أي حفظ الحريم [٧٦]، أتاحت له الاتصال بزوجة السلطان جقمق التي أعادت له دوره وسمحت له بالقيام بأعماله السابقة فجمع بذلك بين الخازندارية والزمامية.[٧٧] واستغل جوهر منصبه وتحكم في بعض المناصب ومنحها لمن يدفع، فولى ولى الدين بن قاسم قضاء دمياط بعد أن دفع له المال الجزيل علاوة على قدر آخر من المال يدفعه بعد التولية، واستغل جوهر كونه خازنداراً ،[٧٨] واستأجر الأوقاف بأجر زهيد ثم أجرها للناس بأكثر مما استأجرها، وجاز لنفسه الفرق بين الأجرتين.[٧٩]

ولم يكتف جوهر بالتربح من الناس وإعطاء الوظائف لمن يبذل المال، وإنما تحكم في

---

[71] سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي، ص ٤٣٢ ؛ مصطفي عبد الكريم، المرجع السابق ، ص ١٥٦.

[72] القلقشندي، مصدر سابق، ج٥، ص ٤٥٩– ٤٦٠.

[73] ابن حجر، إنباء الغمر، ج ٤ ،ص ١٦٨.

[74] المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، تقديم سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٠ ص ٧٤، نعيم زكي، مرجع سابق، ص ٣٣٥.

[75] ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٤، ص ١٦٩.

[76] القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص ٤٥٩.

[77] ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج ٤، ص ١٦٩.

[78] المقريزي، السلوك، حـ١ قسم ٣، ص ٧٨٠ هامش ٣ ؛ ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج٤، ص ١٦٨؛ ابن إياس، مصدر سابق، حـ٣، ص ١٥٥، نحـ ٤، ص ٢٩١، مصطفي عبد الكريم، مرجع سابق، ص ١٥٦.

[79] ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، جـ٤، ص ١٦٩؛ محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، دار النهضة العربية، القاهرة؛ ١٩٨٠، ص ٣٥٦.

عزل وتعيين النواب بقرار من نفسه في سفور ودون مواربة، إذ وقع القرار باسم "الداعي جوهر الحنفي"، فأصبح بذلك يمثل دولة داخل الدولة، من خلال مراسيم التعيين أو كتب التوصية.واتسع نفوذ جوهر في تحصيل رسوم الإقطاعيات، فقام باستئجار القرى بثمن بخس، إذ أجرها بخمسين ديناراً في الوقت الذي كانت تغل قدر المائة أو أكثر، وفي ذات الوقت يدفع الإيجار بحساب الدينار إحدى عشرة وربع درهم وزناً، في حين أنه كان يساوى آنذاك أربعة عشر درهماً وربع درهم. احتكر جوهر أيضاً بيع العسل وفرضه على المشترين بثلاثين درهماً في الوقت الذي يساوى عشرين درهماً ونحوها، وخشي الناس مخالفته في شئ مما يرومه، لأن من يخالفه لا يأمن على نفسه وماله علاوة على أنه امتنع – في بعض الأحيان – من تسديد إيجار الأرض التي يستأجرها.[٨٠] لم يكن ذلك بغريب في ظل حكم سلاطين المماليك الذين انشغلوا بجمع المال لتعويض تكاليف الحملات العسكرية المتعددة، وفي عصر تميز بالخلل والانحطاط بسبب الخلل في النظام الإقطاعي.[٨١] وقد استمر هذا المملوك في أفعاله هذه حتى بلغ سن السبعين مخفياً هذه الأفعال وراء المواظبة على الصلاة والتلاوة وتقريب أهل القرآن والتصدق على فقهاء الحرمين.[٨٢]

ولم يكن جوهر وحده من بين الأحباش الذي بلغ هذا الشأن من المناصب وإنما تولى ياقوت الحبشي بن عبد الله الشيخي الطواشي الحبشي منصب مقدم المماليك،[٨٣] وتولى ذات المنصب ياقوت بن عبد الله الأرغونى شادي الطواشي الحبشي (ت ٨٣٣ هـ / ١٤٢٩م)،[٨٤] وكذلك كان مرجان العادلي مقدم المماليك حبشي الجنس وصاحب شدة وبأس وعسوفة زائدة حتى توفي عام (٨٦٥ هـ / ١٤٦٠م) ،[٨٥] وفي عام (٩٠٢ هـ / ١٤٩٦م) شغل منصب مقدم المماليك أيضاً مثقال الحبشي، ولكن نزل عليه غضب السلطان محمد بن قايتباي (٩٠١ – ٩٠٣ هـ / ١٤٩٦ – ١٤٩٨ م) فنفاه إلى بيت المقدس وما أن عاد من منفاه حتى وافته المنية سنة (٩٠٢ هـ / ١٤٩٦ م).[٨٦] وقد تولى منصب الزمامية والخازندارية الكبرى أيضاً جوهر

---

[80] حجر العسقلاني، إنباء الغمر، جـ٤، ص ١٦٩.

[81] نعيم زكي، المرجع السابق، ص ٣٣٤.

[82] ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، جـ٤، ص ١٦٩

[83] ابن تغري بردى، الدليل الشافي، ج٢، ص ٧٧٢ – ٧٧٣.

[84] نفس المصدر، جـ٢، ص ٧٧٣.

[85] ابن إياس، مصدر سابق، ج ٢، ص٣٧٢.

[86] ابن إياس، مصدر سابق، ج ٣، ص٣٦٠.

النوروزى الحبشي ،[٨٧] وكذلك مرجان التقوى الطواشي الحبشي ،[٨٨] وجوهر المعين الحبشي.[٨٩]

وحاق ببعض الأحباش الذين تولوا المناصب الإدارية بعض النوازل في نهاية عصر المماليك الجراكسة، خاصة أن تلك الفترة اتسمت بكثرة ثورات المماليك الجلبان حينما تأخرت رواتبهم، لما حل بمصر آنذاك من مجاعات وأزمات اقتصادية، دفعت السلاطين بفرض ضرائب جديدة مثل ضريبة نصفين من الدراهم على الغلة[٩٠]، إلى جانب مصادرة الأموال.[٩١]وطالت يد السلطان إلى أموال الأمراء حتى ذكر البعض أنه عندما كان ينفذ ما في بيت المال كان السلطان ينظر إلى ما في أيدي الجند والعمال وحلى النساء،[٩٢] وحلت النقمة على أموال محسن الخازن الحبشي الطواشي، [٩٣]متولي توزيع الصدقات على الفقراء والمستضعفين من خلال كيس مملوء بالنقود [٩٤] إذ أتهم بجمع ثروته مستغلاً منصبه، فاستصفي السلطان أمواله وخلعه من منصبه وأنزل عليه غضبه. وعانى محسن الخازن الحبشي الطواشي من الاضطهاد حتى تولى السلطان قانصوه الغوري فأعاده إلى منصبه سنة ٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م[٩٥]، بيد أنه لم يهنأ به طويلاً، إذ ما لبث الجند أن ثاروا لعدم سداد رواتبهم، مما اضطر السلطان إلى مصادرة أموال معظم موظفيه ومنهم محسن الخازن.[٩٦] والغالب على الظن أنه بلغت السلطان وشاية عن محسن الخازن لما حل به، فأنزل عليه حنقه سنة ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م ونفاه إلى ميناء سواكن.[٩٧]

وقد اشترى الأمير طرباى الأتابكى سرور الحبشي، وعمل على تعليمه كما أحسن تربيته

---

87 نفس المصدر، ج٣، ص ٢٥ ؛ الصيرفي، أنباء الهصر بأبناء العصر، تحقيق حسن حبشي، دار الفكر العربي ،القاهرة، ١٩٧٠، ص ٤٤.

88 ابن إياس، مصدر سابق، ج ٣، ص٢٦٧.

89 نفس المصدر، ج٣، ص٣٥٥.

90 نفس المصدر، ج٣، ص٣٣١ ؛ محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،القاهرة، ١٩٩٩، ص ١٢٧.

91 ابن إياس، مصدر سابق،ج٣، ص٤٠٨.

92 إبراهيم علي طرخان، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٣٥٩.

93 ابن إياس، المصدر السابق،ج ٣، ص٤٠٨.

94 القلقشندي، مصدر سابق، جـ٥، ص ٤٦٢- ٤٦٣؛ مصطفي عبد الكريم الخطيب، مرجع سابق، ص١٥٦.

95 ابن إياس، مصدر سابق،ج ٣، ص٤٤٣.

96 نفس المصدر، جـ٤، ص ١٦.

97 سواكن، مدينة عامرة على ساحل بحر القلزم - بلاد الحبشة - وفيها متاجر ويخرج منها رقيق الحبشة والبجاه واللؤلو الجيد وتسير منها السفن إلى اليمن وأهلها مسلمون انظر ياقوت الحموي، مصدر سابق، حـ٣، ص ٣٧٦ ؛ الحميري، مصدر سابق، ص ٣٣٢؛ ابن إياس، مصدر سابق، حـ ٤، ص٨٠.

وأعطاه اسمه ثم اعتقه ،فاتصل بخدمة السلطان الظاهر برقوق (٧٨٧ – ٨٠١ هـ / ١٣٨٢ – ١٣٩٩ م) وصار في منصب الجمدارية،[٩٨] حاز هذا الطواشي ثقة السلطان، فترك له استنجار بلاد الجيزية لصالح الدولة ؛ ولقربه من السلطان بحكم وظيفته ، أعتز بنفسه وتأنق في ملبسه ومركبه، ونسق بيته، وواظب على التوجه للجامع الأزهر لتأدية الصلاة.واختلف بعض المؤرخين حول أمانته، فمنهم من أتهمه بأنه أدين بمائة ألف دينار قرضاً، بيد أن ابن الصيرفي ناقش ذلك وخلص إلى أن هذه الأموال كانت ملكاً لأشخاص وثقوا في سرور الحبشي وائتمنوه على أموالهم لغرض ما،[٩٩] شاهداً بذلك على أمانة هذا الحبشي.

وهكذا توطدت العلاقة بين الطواشية الأحباش وبين الأمراء المماليك فأطلعوهم على أسرار حياتهم وسمحوا لهم بالإشراف على خزانة ملابس السلطان وإلباسه الثياب الخاصة بكل مناسبة ،[١٠٠] فكان منهم الطواشي المتوفى عام ٨٩٥ هـ / ١٤٨٩م ،[١٠١] سعيد الحبشي.[١٠٢]

وتولى الأحباش أيضاً منصب ساقي السلطان على الموائد والإشراف على السماط وتقطيع اللحم وسقى الشراب بعد رفع السماط ،[١٠٣] ومنهم مثقال السوداني الظاهري جقمق الحبشي الطواشي، الذي كان ذا ضخامة أعطته قدراً من الإجلال بين الأتراك والأمراء والخدام،[١٠٤] وترقى إلى منصب رأس نوبة السقاة، أي ضبط المماليك السلطانية والأخذ على أيديهم في حال مخالفتهم للقوانين والأوامر الصادرة لهم أثناء قيامهم بالخدمة ،[١٠٥] وحظي مثقال السوداني الحبشي بمرتبة عظيمة لدى السلطان جقمق، فسمح له باتخاذ دار بالقرب من الأزهر وزاد فيها وخالط الناس.[١٠٦]

---

98 ابن الصيرفي، مصدر سابق، ص ٨٥. الجمدارية، وصاحبها يعرف بالجمدار وهو الذي يقوم بإلباس السلطان انظر: القلقشندي، مصدر سابق، ج٥، ص ٤٥٩، سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي، ص ٤٢٧ ؛ مصطفى عبد الكريم الخطيب، مرجع سابق، ص ١٢٦.

99 ابن الصيرفي، مصدر سابق، ص ٨٥.

100 القلقشندي، مصدر سابق، ج٥، ص ٤٥٣ ؛ محمد أحمد الدهان، مرجع سابق، ص ٥٤ ؛ مصطفى عبد الكريم، مرجع سابق، ص ١٢٦.

101 السخاوي، الضوء اللامع، ج٣، ص ٢٢٤.

102 نفس المصدر، ج٣، ص ٢٥٧؛ ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج٢، ص ٥٢٨.

103 القلقشندي، مصدر سابق، ج٥، ص ٤٥٤.

104 السخاوي الضوء اللامع، ج٦، ص ٢٣٩.

105 القلقشندي، مصدر سابق، ج٤، ص ١٨؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي، ص ٤٤٠ ؛ مصطفى عبد الكريم، مرجع سابق، ص ٢٠٢.

106 السخاوي الضوء اللامع، ج٦، ص ٢٣٩.

وتولى الأحباش مناصب ذات حساسية في الدولة، منها منصب مهتار الطشتخاناه، وهذا المنصب الذي اختلف بعض المؤرخين حول المهام الموكلة إلى من تولاه، فذكر البعض أنه أطلق على كل كبير طائفة من غلمان البيوت، بينما ذكر فريق أنه اختص بأشربة السلطان والفراش،[١٠٧] واعتقد بعض آخر بأن صاحب هذا المنصب اختص بجباية الأموال من البغايا[١٠٨] بعد أن خصصت الدولة مستوفي لتحصيل الرسوم من كل ماخور.[١٠٩] واختارت الدولة بعض العبيد الطواشي وألزمتهم بمسؤولية تحصيل هذه الضريبة مثل مسعود الحبشي. ويبدو أنه اختص نفسه ببعض هذه الأموال حتى كثر ماله وخدمه لما حصل عليه من هذه الأموال.[١١٠] كما اختص بعض الأحباش متولي تنفيذ العقوبة على المذنبين، ومن هؤلاء بدر الحبشي، وعرفت هذه الوظيفة بلقب هجينا.[١١١]

الجواري الحبشيات:

تعارف الفقهاء على أن الجواري والإماء هن كل من أخذت أسيرة في الحروب لأن الشريعة الإسلامية حرمت قتل النساء والأطفال إذا كانوا من أهل الكتاب،[١١٢] كذلك كل امرأة نقلت قسراً من بلاد العدو شريطة أن تكون غير مسلمة[١١٣]، فالشريعة الإسلامية لا تجيز سبى المسلمات أو استرقاقهن، علاوة على كل من تلد أمة مملوكة من أب عبد أو غير مالك لها، مسلمة كانت أو غير مسلمة، وكذلك كل من تشترى من أسواق الرقيق[١١٤].وقد فطن فريق من التجار إلى ما تدره مثل هذه التجارة من أرباح فحضوا على خطف الصغار والكبار من بني الإنسان وباعوهم بيع السلع في الأسواق،[١١٥] ومع نزول البلاء، بتدني الظروف الاقتصادية التي ألمت ببلاد الحبشة مع الفقر وقسوة الضرائب، [١١٦]وجد البعض الخلاص في اختطاف أبناء جنسهم والإثراء من الاتجار

---

107 القلقشندي، مصدر سابق، ج٥، ص ٤٧٠؛ محمد أحمد دهمان، مرجع سابق، ص ١٤٦؛ مصطفي عبد الكريم الخطيب، مرجع سابق، ص ٤١١.

108 ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، سلسلة تراثنا، القاهرة، ١٩٦٠، ج٩، ص ٤٧.

109 صلاح الدين المنجد، الحياة الجنسية عند العرب، بيروت، ١٩٧٥، ص ٨٨.

110 السخاوي، الضوء اللامع، ج١٠، ص ١٥٨.

111 نفس المصدر، ج١٠، ص ١٦٦.

112 الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، شركة ومكتبة مصطفي البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٧٣، ص ١٢٦-١٢٨.

113 جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، دار الهلال القاهرة ١٩٢٧، ج٤، ص ٢١.

114 ابن سحنون، المدونة الكبرى، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٨ ،ج ٣، ص ١٤٠٧ – ١٤١٠.

115 محمد عبد الرازق، الناصر محمد بن قلاوون، الدار المصرية للتأليف والترجمة، سلسلة أعلام العرب القاهرة، ص ٦٨.

116 زاهر رياض، الإسلام في أتوبيا، ص ١٦١ – ١٦٤ ؛ رجب محمد عبد الحليم، مرجع سابق، ص ٩٨، ١٢٠.

فيهم. وعادة ما كانت تباع الجواري في أسواق خاصة عرفت بأسواق الرقيق السود في أسيوط والقاهرة – كما سبقت الإشارة – ولكن الجواري اللواتي اتصفن بصفات خاصة كن لا يبعن في هذه الأسواق علانية، لما في ذلك من إهانة لهن وتصغيراً لشأنهن، ومن ثم جرت العادة أن يتم البيع في منزل خاص على يد النخاس بعيداً عن هذه الأسواق.[١١٧]

واتصفت الجواري المجلوبات من كل بلد بصفات معينة، فمنهم من يستخدمن للرضاعة لكونهن أشد خلق الله وأجلدهن على الكد وفيهن حنان [١١٨] وهدوء النفس وسلاسة الانقياد والأمانة على النفوس، [١١٩] وتخصصت بعضهن في الغناء.[١٢٠] والغالب على الظن أن الجواري الحبشيات شكلن كثرة عددية في مجتمع القاهرة المملوكية وعلى الأخص في نهاية القرن الثامن الهجري[١٢١] فليس من المغالاة القول بأنه قلما وجدت داراً بالقاهرة إلا وبها بعض الجواري الحبشيات ،مثل منزل العماد يحي بن محمد بن فهد ،[١٢٢] وكذلك منزل النجم الأصفهاني حيث خدمت غزال الحبشية ،[١٢٣] ومنزل الناصر محمد بن الأشقر شيخ شيوخ خانقاة سريا قوس، والذي شابته سمرة اللون لولادته من أم كانت جارية حبشية،[١٢٤] و يؤكد هذه الكثرة وجود ضامن للعبيد الأحباش، اختص برد العبد أو الأمة إلى سيدها، إذا هربت تمرداً أو عناداً مقابل قدر من المال. ويبدو أن هذا الضامن لم يكتف بما يدره عليه هذا العمل، فعمل على تحريض الإماء على الهروب من سادتهم أو يتربص لهن في الطريق ؛ فإذا ما مضت إحداهن لقضاء حاجة لمولاها ، يأخذها عنوة

---

117 أحمد مختار العبادى، قيام دولة المماليك الأولى، الإسكندرية، ١٩٨٢، ص ١٩

118 المالقى، في أدب الحسبة، ص ٦٥.

119 ابن عبدون البغدادي، مصدر سابق، ص ٣٧٢، ٣٧٥.

120 علي السيد محمود، الجواري في مجتمع القاهرة المملوكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨.ص ١١.

121 لغياب الاستقرار السياسي على الحدود الشمالية لدولة المماليك في بلاد الشام لكثرة تحركات القبائل التركية كلف الميزانية المملوكية الكثير لحماية هذه الحدود، ولسيطرة العثمانيين على جنوب أوربا وضرب بيزنطة تحكما في طرق التجارة بين جنوب روسيا والبحر الأسود من ناحية وشرق البحر المتوسط من ناحية أخرى وقيامهم باضطهاد جنوه مما جعلها عاجزة عن تقديم العدد الكافي من الرقيق من منطقة البحر الأسود لسلاطين المماليك، ورغبة العثمانيين في الحصول على حاجتهم من العسكر الانكشارية لتقوية جيوشهم كل ذلك حرم على المماليك مصدر كبير لجلب العبيد والجواري فاتجهوا إلى الجنوب – الحبشة – انظر نعيم زكي، مرجع سابق، ص ٢٢٥، ٢٢٦ ؛ صبحي لبيب، سياسة مصر في عصري الأيوبيين والمماليك، المجلة التاريخية المصرية ،عدد٢٨-٢٩، القاهرة ،١٩٨١-١٩٨٢، ص ١١٧، ١٤٦؛ سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص ١٩٣.

122 السخاوي، الضوء اللامع، جـ٢، ص ٧١، ص ١٢٥

123 نفس المصدر، جـ١٢ ، ص ٨٥.

124 ابن إياس، مصدر سابق، جـ٥ ،ص ١٧٤.

ويحبسها عنده حتى يصالحه مولاها على مال يدفعه إليه.[١٢٥]

معلوم أن السوق نافقة لمن لديه المال كما ذكر ابن خلدون[١٢٦]وكبار رجال الدولة المملوكيـــة مـــن أمراء المماليك والفقهاء والتجار هم الملأ من أهل الدولة، ومن ثم تسابق عدد كبيـــر فـــي اقتنـــاء الجواري ومنهن الحبشيات، وحاز كل منهم من الجواري ما يتناسـب مـع مكانتــه الاجتماعيــة وثروته، [١٢٧] مثال السلطان الناصر محمد بن قلاوون (ت ٧٤١ هـ / ١٣٤١م)، حيث صل عدد جواريه إلى ألف ومائتي جارية [١٢٨] والسلطان الصالح صلاح الدين بن السلطان الناصـر بـن قلاوون الذي توفي عام ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م وله مائتا سرية ما بين بيض وحبش [١٢٩]، والسلطان الأشرف برسباي (٨١٤ هـ / ١٤١١م)الذي كان لديه أقل من مائتي جارية.[١٣٠]

عملت الجواري في بيوت سادتها واختلفت العلاقة بينهن وبين السادة، من الأمر والتنفيذ إلى الود والمحاباة، وهى على الصعيد النظري، كما حضت عليها الـشريعة الإسـلامية، تتـسم بالعطف والحنو لما جاء من الحديث الشريف عن على بن أبى طالب (رضى الله عنه) قال كـان أخر كلام رسول الله ﷺ " اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم " [١٣١] ويتغير وضع الجارية إذا ما اعتنقت الدين الإسلامي، وكثير ما تحولت الجاريات الحبشيات إلى الدين الإسلامي لما يجدونه من سماحة الإسلام وعدم تعصب المسلمين أو تقرباً من أسيادهن، فما أن حازت رضاه حتـى يعقـد عليهـا زواجاً شرعياً. وبموجبه تتحرر من الرق. هذا إلى جانب أن التحول للإسلام يعطى كـل منهمـا الحق في أن يرث الآخر لأن الاختلاف في الدين يحرمها من إرث بعضهما. ولم يكن اعتنـاقهن الدين الجديد يحتاج إلى إجراءات معقدة، وإنما يكفي أن تنطق الجارية بالشهادتين أمام أحد الشيوخ الذي ينص كتابة على ذلك، ليثبت إسلامها.[١٣٢] أما الجواري اللاتي يبقين فـي الـرق فيحـافظن ويحتفظن بعقيدتهن، فإن سادتهن يتساهلون معهن في إقامة شعائر دينهن ولا يكرههن على تغيير

---

[125] المقريزي، السلوك، جـ٢، قسم ٣، ص ٦٤٢ – ٦٥٦.

[126] مقدمه ابن خلدون، دار القلم، بيروت، ١٩٨٤، ص ٣٦٤.

[127] ابن الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، دار الكتب المصرية،القاهرة، ١٩٧٠، جـ١، ص ٧٧.

[128] المقريزى، السلوك، جـ٢، قسم ٢، ص ٥٣٩ ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، أضواء جديدة، ص ٣٧

[129] ابن إياس، مصدر سابق، جـ١، قسم ١، ص ٥٤٦.

[130] المقريزى، السلوك، جـ٤، قسم ٢، ص ١٠٤٣.

[131] أبى داوود، السنن، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٩٣٥،حديث رقم ٥١٥٦

[132] النويرى، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣، جـ٩، ص ١٤٥.

عقيدتهن، بل يسمحوا لهن بالقيام بالطقوس في المواسم والأعياد.[١٣٣] .

وعاشت الجواري الحبشيات وغيرها في قصور السلاطين ودور الأمراء وعلية القوم وغيرهم ممن مكنتهم ظروفهم الاقتصادية ومكانتهم الاجتماعية جزءاً أساسياً من الحريم وإنهن ضمن أفراد عائلة أسيادهن، يشاركهن في شتى المناسبات الخاصة بعائلة السيد من أفراح وأحزان، ويطبق عليهن العزلة كما تطبق على بقية النساء من الأميرات اللاتي في الحريم.[١٣٤] ويؤكد ذلك ما طالعتنا به بعض المصادر المعاصرة من أن أحد رجال الدولة تزوج من أمة أو جارية حبشية مثل عمر بن أمير المؤمنين المتوكل على الله عبد العزيز أخو أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب (ت٩١٣هـ/١٥٠٧م)، [١٣٥] وكذلك آسية بنت الملك الناصر فرج بن برقوق، فكانت ابنة لجارية حبشية أسمها ثريا. [١٣٦] وعلى صعيد علية القوم وغيرهم الذين امتلكوا جواري حبشيات وتزوجوا منهن، تذكر المصادر المعاصرة أن أبي القسم سلامة تزوج من جوهرة الحبشية ،[١٣٧] وجوهر الكمالي تزوج من جوهرة الصغرى الحبشية الكمالية ،[١٣٨] وألحقت به ونسبت إليه كما يسفر عن ذلك اسمها، وأحمد بن إبراهيم ابن محمد بن إبراهيم البسطيني الذي ولد عام ٨٨٢ هـ / ١٤٧٧م من أم حبشية، [١٣٩] وكذلك كوكب الحبشية مستولدة السيد بركات بن حسن بن عجلان وأم ولده أبى سعيد المتوفى ٨٩١ هـ / ١٤٨٦م،[١٤٠] وكذلك عبد العزيز بن الفخر أبى بكر بن على بن أبى البركات الذي ولد من أم حبشية تدعى غزال.[١٤١]

واقتنى الكثير من أفراد الطواشية أو الخصيّان الجواري ولأن كثيرا منهم من الأحباش اعتبروا الجواري جزءً أساسياً من أسرهم وكن موضع ثقة هؤلاء الأمراء ويعرفون من أسرارهم الكثير .ويؤكد ذلك ما يرويه ابن إياس عام ٧٨١ هـ / ١٣٧٩ م بقوله " قبض على مثقال الجمالي الطواشي الزمام وضرب ضرباً ... ووجدت له أوراق عند بعض جواريه " [١٤٢] وعملت بعض

---

133 ابن إياس، مصدر سابق، جـ٥، ص ٣٥٧، ٤٤٣.

134 سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٢، ص ١٣٥.

135 ابن إياس، مصدر سابق، جـ ٤، ص ١٢٨.

136 نفس المصدر، جـ٢، ص ٣٦٢، ٣٦٣.

137 السخاوي، الضوء اللامع، جـ١٢، ص ١٨.

138 نفسه.

139 نفسه.

140 السخاوي،الضوء اللامع، جـ١٢، ص ١٢٢.

141 نفس المصدر، جـ ٤، ص ٢١٧.

142 ابن إياس، مصدر سابق، قسم ١، جـ٢، ص ٢٤١.

الحبشيات دادة في قصور السلاطين لملاطفة أولاد السلطان وإدخال السرور عليهم بكثير من ضروب الألعاب المسلية مثل الدمى والعرائس.[١٤٣] ومن هؤلاء سر النديم،[١٤٤] ومعها عدة جواري لمساعدتها، التي كان لها دوراً بارزاً في إخفاء الملك العزيز يوسف بن برسباي في أواخر أيام دولته، عندما لاحقه عسكر السلطان جقمق.[١٤٥]

وحازت بعض الجواري اللاتي أجدن الغناء أو العزف إعجاب بعض السلاطين من الجواري المغاني فأقدموا على الزواج منهن بعد العتق ،ومثال ذلك أنفاق العوادة الجارية الحبشية حالكة السواد والتي بدأت حياتها جارية من جواري المغاني، إذ اشترتها ضامنة المغاني بالقاهرة من ضامنة المغاني بمدينة بلبيس بحوالي أربعمائة درهم، عندما رأت فيها استعداداً صوتياً يؤهلها للغناء، وعلمتها الضرب بالعود على يد الأساتذة عبده علي وعيد علي العجمي العواد، [١٤٦] فمهرت في العزف على العود، ناهيك عن كونها حسنة الصوت جيدة الغناء أحييت أنفاق ليلة طرب في بيت السلطان الناصر فاشتهرت، فشغف بها الصالح إسماعيل وهام بها حباً. والغالب على الظن أن جمال الخلقة والجسد لم يكونا وحدهما الحافز على ذلك العشق الذي حاق بأفراد هذه الأسرة وإنما غنائها وحلاوة صوتها وما اشتهرت به من جودة ضربها على العود،كل هذا كان السبب في تسابق ثلاثة أخوة من السلاطين على طلبها [١٤٧] فنالت حظوة الصالح إسماعيل فتزوج بها وولدت له ولداً فأختصها بنفيس الجواهر،[١٤٨] وبعد وفاة المالك الصالح (٧٤٣ – ٧٤٦ هـ / ١٣٤٢ – ١٣٤٥ م) باتت أنفاق عند أخيه المالك الكامل (٧٤٦ – ٧٤٧ هـ / ١٣٤٥ – ١٣٤٦ م) من أول ليلة لسلطنته لما كان في نفسه منها أيام أخيه[١٤٩]، وبعد مقتل الملك الكامل وتوليه

143 ابن الإخوة، مصدر سابق، ص٨٩ ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري، ص١٣٤.

144 ابن تغرى بردى، المنهل الصافي في المستوفي بعد الوافي، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦، جـ٤، ص٢٢٨ – ٢٩١، رغم سمار الدادة سر النديم إلا أنها على قدر من الجمال مما جعل الشاعر محمد بن حسن بن على النواجي ت ٨٥٩هـ / ١٤٥٥م يفتن بها فقال فيها شعراً،

أيا سر النديم ملكت رقى ... بحسن حال في الأحشا مقيم

وصنتك في الفؤاد ولا عجب ... فلست مضيعاً سر النديم

انظر السيوطي، أزهار العروش في أخبار الحبوش، تحقيق عبد الله محمد الغزالي، الكويت، ١٩٩٥، ص٧٣.

145 ابن تغرى بردى، المنهل الصافي، جـ٤، ص٢٩١.

146 المقريزي، السلوك، جـ٢، قسم ٣، ص ٧١٥ ؛ لطفي أحمد نصار، وسائل الترفيه في العصر المملوكي، سلسلة تاريخ المصريين، عدد ١٤١، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٤٤ – ٤٦.

147 محمد قنديل البقلي، الطرب في العصر المملوكي، القاهرة، ١٩٨٤، ص ٤٤ – ٤٦.

148 ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، حيدر أباد، الدكن، ١٣٩٥هـ، جـ١، ص ٨٣ ؛ لطفي أحمد نصار، مرجع سابق، ص١٢٣-١٥٢.

149 ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٠، ص ١٥٠.

أخيه المظفر حاجى سنة (٧٤٧ – ٧٤٨ هـ / ١٣٤٦ – ١٣٤٧ م) طلب أنفاق لنفسه فطلعت إلى القلعة بجواريها وتزوجها السلطان وفرش تحت أقدامها ستون شقة أطلس، ونشر عليها الذهب. ضربت أنفاق بعودها وغنت للسلطان الذي أنعم عليها بأربعة فصوص وست لؤلؤات ثمنها أربعة آلاف دينار،[١٥٠] كما أعطاها أضعاف ما كان يعطيها أخوه وهام بها.[١٥١]

لم يكن ذلك كل دور الأحباش في مصر، وإنما كان لهم دوراً في الحياة الثقافية أشارت إليه المصادر المعاصرة.

دور الأحباش في الحياة الثقافية:

لم يُحرم الإسلام العبودية بنص قاطع وإنما حض على تحريم العبيد حتى أنه جعل عتق الرقاب كفارة لكثير من الذنوب وحض أيضاً على حسن معاملتهم وإطعامهم مما يطعم سيدهم مع مضاعفة أجرهم عند الله، وتخفيض عقوبتهم في الحدود إلى النصف. فتحت سماحة الإسلام الباب على مصراعيه لإسهام العبيد في الحياة الثقافية وحاز بعضهم السبق في مختلف العلوم، وأهلت بعضهم ثقافته للعمل مؤدب لأطفال السلاطين والأمراء وعلية القوم من الأثرياء، وحقق بعض هؤلاء الطواشية ثروات لم يبخل بها على إثراء الحياة الثقافية، فأسس مدرسة، وأنفق على بناءها من أمواله الخاصة لتعليم الطلاب، ومنهم أيضاً من اشتغل بعلوم الدين وتعمق فيها حتى ساهم في التصوف الإسلامي.

حرص السلاطين والأمراء والأثرياء على تعليم أبنائهم وتلقينهم العلم مع الخلق فتريثوا في اختيار معلم أبناءهم، وحرصوا على أن يتحلى بجانب علمه بصفات خاصة أهمها الإخلاص في العمل والإخلاص له والتمتع بالخلق القويم، لأن مؤدب الأطفال لعب على أسس الخلق وكان يقوم بدور بارز في العناية بأخلاقهم وأدبهم علاوة على قيامه بتعليمهم،[١٥٢] ومن هؤلاء ياقوت الحبشي الكمالي بن البارزى[١٥٣] الذي يتضح من اسمه أن سيده أعطاه اسمه حباً فيه لإخلاصه، ثم أخذته سيدة بنت الجمالي وجعلته ناظرها الخاص، فقام ياقوت الحبشي بتربية سيما الجمالي الذي تولى ناظر الجيش.و نجم عن هذه التربية الناجحة أن أوكل لياقوت الحبشي بتربية أغلب أبناء مولاه، الذي كافئه بتأدية فريضة الحج. ولأن لكل ناجح وشاة ففشوا عليه ثقة مولاه السلطان

---

[150] نفس المصدر، جـ١٠، ص ١٥٣ – ١٥٤؛ المقريزى، السلوك، جـ٢، قسم ٢، ص٧٢١

[151] ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ١، ص ٨٤.

[152] خطاب عطية، التعليم في مصر في العصر الفاطمي الأول، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت، ص ٨٣.

[153] ياقوت الحبشي الكمالي بن البارزي ،اختص بخدمة مولاه وعندما توفي خدم ابنة سيده ببيت الجمالي ناظر الخاص فقام بتربية بنيها ،وحج ياقوت الحبشي وكان محبا للخير وله بر وفضل كثير ،توفي عام ٨٩٦هـ/١٤٩٠م،أنظر السخاوي ،الضوء اللامع جـ١٠ ،صـ٢١٤.

الأشرف قايتباي فأهانه بالضرب ،فاجتاز ياقوت الحبشي المحنة وعاد إلى مولاه الجمالي الذي زادت ثقته فيه واستمر فى خدمة عائلته وتربية أبناءه إلى أن توفي عام ٨٩٦ هـ / ١٤٩٠ م.[١٥٤]

ومنهم أيضاً مفلح الحبشي الذي عمل مؤدباً للأطفال، وزكاه لهذه المهنة كثرة تلاوته للقرآن [١٥٥] وإن كان مؤدب الأطفال يقوم بمهمته في بيوت السلاطين والأمراء والأثرياء فإن من بين الأحباش من شارك في الحياة العلمية من خلال كُتابهم الخاصة التي يحضر إليها الأطفال ليتعلموا القرآن ومن هؤلاء الشمس بن عبد الله الحبشي الذي قرأ القرآن عليه كثير من الطلاب مثل عبد الرحمن بن أبى بكر بن على الزين أبو الفرج.[١٥٦]

وقد وجد علماء أحباش اشتغلوا بالعلوم النقلية نظراً لكون هذه العلوم هي المحور الرئيسي الذي درت عليه حركة الدراسات العامة فسعى بعض الأحباش للاستزادة من هذه العلوم لكسب الدنيا، والتقرب إلى الله عملاً بالآية الكريمة التي تحض على طلب العلم وتعلمه للناس " وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون " [١٥٧] لذلك ظهر بعض الأحباش في هذه العلوم وعلى رأسهم مفتاح الحبشي، مولى الموفق الأبي الذي رباه سيده وعلمه الكتابة والقراءة.[١٥٨]

ويعد ريحان الحبشي نموذج مشرف للعبيد الأحباش ما قدمه من إسهامات في الحياة الثقافية إذ تعلم على يد سيده القاضي على بن أحمد النويرى المالكي، وسمع من الكمال بن حبيب بعضاً من مسند الطيالسى ومن أحمد بن سالم المؤذن قطعة من أول الموطأ ومن الجمالي الأميوطى قطعة من سيرة ابن سيد الناس. وعى ريحان ما تعلمه وتفقه حتى أمس من أعيان مذهب مالك وأخذ عنه فقهاء مثل التقى بن فهد وأولاده وعدوه ضمن معلميهم وذكروه في معجمهم. واستمر ريحان الحبشي في إثراء الحياة الثقافية إلى أن رحل للحج فمات بمكة عام ٨٤٧ هـ / ١٤٤٣ م.[١٥٩]

ومن فقهاء الأحباش الذين لعبوا دوراً كبيراً في الحياة الثقافية سعيد بن عبد الله الحبشي عتيق الطواشي بشير الجمدار ،الذي بدأ حياته العلمية بأن علمه سيده القرآن واعتنى بتربيته ورتبه في الوظائف. واستمر سعيد بعد سيده على الدرب، وتزيا بزى الفقهاء واشتهر بحبه للسنة

---

[154] السخاوى،نفس المصدر، ج٧، ص ٢١٤.

[155] نفس المصدر، جـ١٠، ص ١٦٦.

[156] نفس المصدر والصفحة.

[157] سورة التوبة، أية، ١٢٢.

[158] السخاوي، الضوء اللامع، ج١٠، ص ١٦٦.

[159] السخاوي، الضوء اللامع، ج١٠، ص ٢٣٠، ٢٣١.

النبوية، وحج سعيد بن عبد الله الحبشي ستين حجة وتوفي عام ٨١٥ هـ / ١٤١٥ م [١٦٠] كما وجد علماء أحباش وثق فيهم الطلاب وفرعوا عليهم مثل حسن الحبشي الذي تلي عليه كثير من العلوم ومنهم إبراهيم بن علي بن أحمد بن يزيد. [١٦١] وامتهن بعض الأحباش حرفاً شاركت في ازدهار الحياة الثقافية مثل مفتاح الحبشي الذي عاش على نسخ الكتب. تتلمذ في القراءة على يد أبي السعادات البقلي والطبناوي، كما أخذ عن السخاوي، وقد أثنوا على مفتاح الحبشي ولقبوه بصاحب العقل والحشمة. [١٦٢]

خضعت مكة والمدينة لنفوذ المماليك بوصفهم حماة الخليفة العباسي بمصر وحق للسلطان المملوكي إرسال من يتولى خدمة شؤون الحرمين الشريفين [١٦٣] فاختار السلاطين شيوخاً من الأحباش لتوليه شئون الحرم المكي والنبوي، مثل مثقال الحبشي الساقي الذي أرسل في ربيع الأول ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨ م ليتولى مشيخة الحرم النبوي الشريف، وقيل أن سبب اختيار مثقال لتوليه هذا المنصب التقرب إلى النبي ﷺ لعل مثقال يتوب عما يقوم به من أفعال الناس إلى جانب كثرة شربه. [١٦٤] ولم يقبل مثقال أول الأمر "وسعى في إبطاله " كما يذكر ابن الصيرفي، [١٦٥] ولكن مساعيه باءت بالفشل، إذ يؤكد ابن إياس على سفر مثقال إلى المدينة وتولى منصبه. ويبدو أن مثقال كان محبوباً من السلطان حتى يختاره لهذه المهمة أملاً في توبته ونجاته من العذاب. كما أنه كان محبوباً من الذين عايشوه وعاملوه من الناس ولا أدل على ذلك من قول الشاعر،

وأعجب له فرعاه الله من رجل ... فيه قناطير خير وهو مثقال [١٦٦]

ورغم أن ابن إياس يؤكد على أن مثقال تولى المشيخة فذلك بعيد الاحتمال ، لأن المشيخة أسمى منصب ديني في الحرم النبوي الشريف، وترجمة مثقال لا تدل على صلة له بالعلم

---

160 نفس المصدر، جـ٣، ص ٢٤٨ ؛ ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، جـ٢، ص ٥٢٨.

161 السخاوي، الضوء اللامع، ج١، ص ٨٠.

162 نفس المصدر، ج١٠، ص ١٦٦.

163 شؤون الحرمين :هي وظيفة إدارية مهمتها الإشراف علي ما يحدث داخل الحرم المكي والنبوي من بناء أو تعمير أو ترميم أو إصلاح بالإضافة إلي الإشراف علي أعمال جميع العاملين والموظفين بالمسجد الحرام .أنظر فاطمة محمد حسن المباركي ،الوظائف في الحرم المكي في العصر المملوكي ،رسالة ماجستير غير منشورة ،جامعة أم القرى ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥مصـ١١٣. محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ص ١٢٦ – ١٢٧ ؛ ريتشارد مورتيل، الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي، الرياض، ١٩٨٥، ص ١٠٦.

164 ابن إياس، مصدر سابق، جـ ٣، ص ٢٣.

165 أبناء الهصر، ص ٢٥، ٢٦.

166 ابن إياس، مصدر سابق، جـ ٣، ص ٢٣.

حتى يتولى المشيخة ناهيك أنه من العبيد الذين عملوا بالسقاية. ولعله تولى مشيخة الخدام كما ذكر ابن الصيرفي الذي نص على كونه تولى مثقال المشيخة،[167] يؤكد ذلك أن من تولى هذا المنصب كان من الخدام.[168]

وقد تولى على رئاسة مشيخة الحرم النبوي عدد من الأحباش بعد مثقال الحبشي، فقد تولى هذه الرئاسة سرور بن عبد الله الخادم الطواشي الحبشي الذي عرف عنه حسن الخلق والثقة، مما حدا بالسلطان الأشرف قايتباي أن يتركه في هذا المنصب طويلاً، وظل به حتى توفي ودفن بالحرم النبوي [169] فقام السلطان الأشرف قايتباي بتعيين مرجان التقوى الحبشي فى مشيخة الخدام بالمدينة المشرفة [170] وذلك لحرص سلاطين المماليك على عدم ترك الحرمين الشريفين دون مشرف من قبلهم، لأهمية هذه الأماكن المقدسة ومـا تضفيه على حكمهم من صفة المشروعية. جني بعض الأحباش الطواشية ثروات كبيرة من خدمة السلاطين والأمراء،ولم يبخل بعضهم بماله عن المشاركة في إثراء الحياة العلمية، فأنشئوا مدارس وأوقفوها على خدمة العلم مثل صفي الدين جوهر ابن عبد الله المنجكى الحبشي الذي تولى نيابة مقدم المماليك السلطانية في عهد الظاهر جقمق [171] وتكسب من منصبه مالاً كثيراً، إذ قام بتوزيع المرتبات على الجند وكسوتهم في عصر أتسم بالاضطراب،[172] ومما احتجز لنفسه من أموال قام ببناء مدرسة خاصة بسويقة منعم [173] الواقعة بعطفة جواهر المتفرعة من شارع الصليبية،[174] وأوقف عليها الأوقاف،[175] ودرست بها الفرائض [176]ولم يكتف بهذا القدر من المساهمة وإنما شيد مسجد ، أقيمت به صلاة الجمعة عام ٨٤٤هـ/١٤٤٠م.[177]

وكثر عدد الأحباش في مصر المملوكية،ومن ثم اختصوا أنفسهم بزاوية سميت زاوية الخدام خارج باب النصر بين باب الفتوح من الحسينية، وبين شقة الحسينية وهى الزاوية التي أمر

---

167 أبناء الهصر، ص ٢٥.

168 نفس المصدر، ص ٦٤.

169 بن الصيرفي، أبناء الهصر، ص ٦٤، ٨٥؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٣، ص ٢٤٦.

170 ابن إياس، مصدر سابق، جـ٣، ص ٣١.

171 ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، تحقيق فهيم محمد شلتوت، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٠،ج١، ص ١١٨.

172 القلقشندى، مصدر سابق، ج٥، ص ٤٥٦؛ مصطفى عبد الكريم الخطيب، مرجع سابق، ص ٤٠٤.

173 ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، ج١، ص ١١٨؛ النجوم الزاهرة، ج١٥، ص٥٢٤.

174 على مبارك، الخطط التوفيقية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ١٩٨٢، ج٢، ص ١١٥ — ١١٦.

175 ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص ٥٢٤.

176 على مبارك، مصدر سابق، ج٢، ص ١١٦.

177 ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص ٣٤٨ ؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ٣، ص ٢٤٦.

ببنائها وتحمل نفقتها بلال القراجي وأوقفها على الخدام الأحباش عام ٧٤٧ هـ / ١٣٤٦ م.[178]

الأحباش و الحياة الدينية:

اهتم المماليك بالتصوف والمتصوفة اهتماماً خاصاً وأرجع البعض هذا الاهتمام إلى ما تعرضت له مصر من اضطرابات بسبب الحروب الصليبية، وما نزل بها من بلاء وفوضى نتيجة الحروب التي اندلعت بين حكامها المماليك مع بعضهم البعض؛[179] إذ أدى ذلك إلى تطلع المصريين إلى ملاذ يدفنون فيه كربهم، باتخاذ لون من ألوان الحياة الروحية عسى أن تخفف عنهم المحن وتكشف البلاء، فاتجهوا إلى شيوخ الطرق الصوفية الذين كثرت أعدادهم وأصبح لكل شيخ طريقة وله مريدون، واختلفت شعائر الطرق الصوفية واعترفت الدولة المملوكية بنظم الطرق الصوفية وشجعت على الانخراط بها، وأحاطت شيوخها بالعناية.[180] وتجدر الإشارة إلى ما اعترى هذا اللون من ألوان الثقافة الإسلامية من تطور خلال هذه الفترة حيث تعود مفاهيمه إلى ما عرف بالتصوف السني بنوعيه (الفقهي والدراويشى) والتصوف الفلسفي [181].

انخرط بعض الأحباش الذين ولجوا هذا المجال السني بعد أن بات قطباً من أقطاب المتصوفة وهو القطب ياقوت الحبشي ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م خليفة أبى العباس المرسى في مشيخة الطريقة والذي أثر في الفقيه الشافعي شمس الدين بن اللبان. ضبطت على ابن اللبان كلمات عن طريق الاتحادية وألف كتاباً على لسان الصوفية وفيه إشارات أهل الوحدة وكان له شطحاته حين أعلن أن أحد دروسه بجامع عمرو بن العاص بالفسطاط " إن السجود للصنم غير محرم " وأن شيخه ياقوت الحبشي يفضل بعض الصحابة كاد ذلك يؤدى به إلى التعذيب لولا شفاعة بعض كبار موظفي الدولة ابن فضل الله كاتب السر ولكنه منع من إلقاء دروسه،[182] تلك هي مكانة ياقوت الحبشي عند بعض تلاميذه، أما مكانته عند شيخه أبى العباس المرسى فيذكر

---

[178] المقريزى، الخطط، ج٢، ص ٤٣٢.

[179] إبراهيم على طرخان، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، ص ٢٦٠، ٢٦١.

[180] محمد كامل حسين، بين التشيع وأدب الصوفية بمصر في عصر الأيوبيين والمماليك، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، عدد ٦ ديسمبر، القاهرة، ١٩٥٤، ص ٥٨، ٥٩.

[181] يقصد بالتصوف السني الذي تقيد أصحابه فيه بالكتاب والسنة وقد يجمع المتصوف من هذا النوع بين التصوف وإلمامه بالفقه فيسمى متصوفاً فقيهاً وقد يكتفي بتلقي خرقة التصوف وحظه من الأوراد والأذكار عن شيخه فيسمى درويشاً، انظر عبد اللطيف حمزة، الحركة الفكرية في مصر الأيوبي والمملوكي الأول، دار الفكر، القاهرة ١٩٤٧، ص ١٣٢، ١٣٣ ؛ توفيق الطويل، التصوف في مصر إبان العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٨م جـ١، ص ٤٧، ٤٨.

[182] المقريزى، السلوك، جـ٢، قسم ٢، ص ٤٠٨؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٣، ص ٤٢١، ٤٢١ ؛ ابن إياس، مصدر سابق، جـ١، قسم ١، ص ٤٦٢، جـ١، قسم ٢، ص ١٤؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٢، ص ٥٠.

الإمام الشعراني في طبقاته ما يبين بأن أبا العباس المرسى قام بعمل عصيدة احتفالاً بيوم مولد ياقوت الحبشي، وأطلق عليه اسم العرش ؛ لأن قلبه كان لم يزل تحت العرش وما في الأرض إلا جسده وقيل لأنه كان يسمع أذان حملة العرش وكان (رضي الله عنه) يشفع حتى في الحيوانات،[183] وليس بغريب أن يترك من له مكانة ياقوت الحبشي تلاميذاً مثل ولى الدين محمد بن أحمد بن إبراهيم الحلوى الديباجي.[184]

كما اشتهر بعض الأحباش مثل أبو بكر الزين ويعرف بالحبيشى، الذي كان من أصحاب البلالى والصوفي أبا بكر الحبيشى المجذوب (ت ٨٥٣ هـ / ١٤٤٩م)[185] ومفلح الحبشي الذي كان كثير التلاوة، واستقر به المقام في الزاوية الباسطية وتوفي عام ٨٤٤ هـ / ١٤٤٠ م،[186] ومقبل الحبشي أحمد صوفية زاوية سعيد السعداء استغل إقامته في هذه الزاوية وكتب كتاب القول بالبديع وغيره من كتب العلم .[187]

أما عن الأحباش المسيحية في مصر فمن المعروف أن الرهبنة الحبشية نشأت على أيدي الرهبان الأقباط حسب قوانين القديس أنطونيوس[188] القديس مقار[189] والقديس باخوم[190]،

---

[183] الشعرانى، الطبقات الكبرى، دار الفكر العربي، القاهرة، جـ٢، د.ت، ص ١٨- ١٩.

[184] ابن إياس، مصدر سابق، جـ١، قسم ٢، ص ١١٦.

[185] السخاوي، الضوء اللامع، جـ ١٢، ص ٩٩.

[186] نفس المصدر، ج٥، ص ١٦، ١٧ ؛ ج١٠، ص ١٦٦، ١٦٧.

[187] نفس المصدر، ج١٠، ص ١٦٨.

[188] القديس أنطونيوس ،ولد من أسرة غنية في صعيد مصر ،ولما توفي والده ترك ثروة ضخمة ولكنه وزعها وسكن الصحراء واستمر حوالي عشرون سنة لا يري وجه إنسان وهو في نسك وصوم ، ولما أشتهر أمرة اجتمع حوله كثيرون يطلبون منه أن يرشدهم إلي المعيشة المثلى . وقد تتلمذ علي يديه كثيرون منهم الأنبا مقاريوس مؤسس الرهبنة في وادي النطرون، وارتحل أنطونيوس إلي الإسكندرية ليحذر الناس من هرطقة أريوس عام ٣٥٦م .أنظر مجموعة مؤلفين ،تاريخ الحضارة المصرية العصر اليوناني والروماني والعصر الإسلامي ،القاهرة ص ٣٠٦- ٣٠٧.

[189] القديس مقار،ولد عام ٣٠٠م من أبوين مصريين في إحدى قري مديرية المنوفية وكان أبوه كاهنا ،وقد رسم مقار ،قسا ،وبعد وفاة والده وزع أمواله وذهب ألي وادي النطرون عام ٣٣٠م وزار الأنبا أنطونيوس وألبسه الزى الرهباني وزوده بنصائح ورجع إلي وادي النطرون وتفرغ للعبادة والتأمل وعاش لوحده حوالي ستين سنة في هذا الوادي إلي أن تجمع حوله الناس فبني لهم كنيستين ،وفي عام ٣٩٠م توفي .أنظر مجموعة مؤلفين ، مرجع سابق ص ٣٠٧.

[190] القديس باخوميوس ، ولد عام ٢٩٠م في إحدي قري صعيد مصر من أبوين وثنيين والتحق في شبابه بجيش الإمبراطور قسطنطين في حربه ضد مكسيميانوس ،وحدث أن عسكرت فرقته في ضواحي مدينة إسنا فخرج أهالي البلدة من المسيحيين يحملون إليهم الطعام والشراب فسأل باخوميوس عما حدا بهؤلاء الناس إلي إبداء هذا العطف فقيل له أنهم مسيحيون ينفذون تعاليم دينهم فقال في نفسه إن عدت سالما سأصير مسيحيا، ولما أنتصر قسطنطين

وازدهرت الأديرة الحبشية في القرنين السادس والسابع الميلاديين وأخذ الرهبان يتفرغون لدراسة أدب الرهبنة وتفهمه نتيجة ما ترجم من الكتب القبطية أو اليونانية الشائعة عند الرهبان الأقباط في مصر،[١٩١] ومن هنا بدأت رحلة الأحباش إلى مصر للاستفادة من فيضها الدافق عن طريق البحر والبر واستقر بعضهم في أديرة خاصة بهم والآخرين أقاموا مع إخوانهم الرهبان الأقباط بأديرتهم.

ولا جدال في تفوق مصر في مجالات العلم إبان تلك الفترة، حيث مدرسة الإسكندرية هذه كانت في العصر البيزنطي والذي انتهى في مصر بدخول العرب إليها ٦٤٠ــ٦٤١م. قصدها الرهبان الأحباش الذين تنقلوا بين أديرتها ينهلون منها، ومن ثم استقرت جماعات صغيرة من الرهبان الأحباش في بعض الأديرة المصرية لتأخذ من علومها اللاهوتية والروحية تلك التي كان نصيبهم منها في الحبشة متواضعاً ومن تلك الأديرة التي استقر فيها الرهبان الأحباش مع إخوانهم الرهبان المصريين، دير الأنبا شنودة في سوهاج، ودير الأنبا صموئيل بجبل القلمون في صحراء الفيوم، وبعض أديرة بحارة زويلة (في مكان مستقل عن أديرة الراهبات) وكذلك أديرة البحر الأحمر، وأديرة وادي النطرون ولا سيما دير القديس أنبا مقار[١٩٢] كما استقر رهبان أحباش في دير القديس أنطونيوس[١٩٣] ولم يقف الرهبان الأحباش عند حد مشاركة الرهبان المصريين في أديرتهم، وإنما اختصوا أنفسهم بأديرة كانت خاصة بهم وخاصة لهم، وأوردت المصادر الإسلامية والقبطية بعضاً منها

دير أبى يحنس القصير[١٩٤]: ويقع جنوب غربي دير أبى مقار وعلى بعد خمسة عشر كيلو متراً

وسرح الجيش عكف باخوميوس علي دراسة المسيحية وأعتنقها حتى صار أبا وأسس أديرة وأستخدم في تدبيره ما اعتاده من نظام عسكري وكثر عددالمنضمين إليه من يونان وروماان وأحباش وسريان حتى وصل عدد الرهبان تسعة ألاف .أنظر مجموعة مؤلفين ، مرجع سابق صــ٣٠٨-٣٠٩؛ ملوك ميخائيل، باخوميوس، رسالة مارمينا الرابعة، مطبوعات جمعية مارمينا العجائبى، القاهرة، ١٩٥٠، ص ٣٩ – ٤٨ ؛ رءوف حبيب، تاريخ الرهبنة الديرية في مصر وآثارها الإنسانية على العالم، مكتبة المحبة، القاهرة، ص١٥٦، تـامرات، مرجـع سـابق، ص ٤٤٠.

191 مراد كامل، الرهبنة في الحبشة، مقال ضمن رسالة مارمينا خاصة بالرهبنة القبطية، الإسكندرية ، ٢٠٠١، ص ٥٤.

192 الرهبنة الحبشية، إعداد راهب من دير البراموس، القاهرة ،١٩٩٩، ص ١٥٨.

193 زاهر رياض، الإسلام في أثوبيا، ص ١٣٥.

194 يذكر المقريزى أن هذا الدير خاص بأبى يخنس، انظر الخطط ص ٥٠٩، ويذكر في السنكسار أن اسم الدير يحنس وهذا هو الأرجح، انظر السنكسار الجامع لأخبار الأنبياء والرسل والشهداء والقديسين، مكتبة المحبة، القاهرة ،١٩٧٩، ج١، ص ٢٢٣.

تقريباً منه ويرجع تاريخ إنشاء هذا الدير إلى القرن الأول الميلادي،[١٩٥] وكان الأنبا دميان الخامس والثلاثون ٥٦٩ – ٦٠٥م من عدد بطاركة الإسكندرية، والأنبا خايل الثالث والخمسون ٨٤٩ – ٨٥١م من عدد رهبانه،[١٩٦] ذكر المقريزي هذا الدير وقال " وكان لهذا الدير حالات شهرية وبه طوائف من الرهبان ولم يبق به الآن ثلاثة رهبان،[١٩٧] مما يدل على اضمحلال أمره في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي ولقربه إلى دير الأنبا مقار زاره الأباء البطاركة وهم في طريقهم إلى دير الأنبا مقار لتكريس الميرون ،[١٩٨] وفي القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي كان جماعة من رهبان الحبش ... يسكنون فيه وبجواره، وكان جسد أبى يحنس القصير بكنيسة هذا الدير،[١٩٩]وقد بقى هذا الدير قائماً حتى أواخر القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي ثم خرب فنقل جسد القديس أبى يحنس إلى دير أبى مينا بمصر،[٢٠٠] وكان بجوار الدير عدة قلالى [٢٠١] سكنها رهبان أحباش من أشهرها قلاية بهوت.[٢٠٢]

دير أبى يخنس كاما (القس): فقد تأسس هذا الدير في القرن الثامن أو التاسع الميلاديين إذ لا يعرف في أى القرنين عاش أبو يخنس كاما، وبقى هذا الدير قائماً حتى النصف الثاني من القرن

---

[195] أبو المكارم، الكنائس والأديرة، إعداد الأنبا صموئيل، القاهرة، ٢٠٠٠، ج٤، ص ٣٩– ٩٨؛ السنكسار، مصدر سابق، ج١، ص ٢٢٣؛ منسى القمص، تاريخ الكنيسة القبطية، القاهرة ١٩٨٢، ص ٣٠٩.

[196] يعقوب مويزر، تاريخ مجيد أنطوى وأثار رهينة أنمحت، رسالة مارمينا الخاصة بالرهبنة، ص ١٤٠.

[197] أبو المكارم، مصدر سابق، ج٤، ص ٣٩ – ٩٨؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٥٠٨.

[198] عبد المسيح صليب المسعودي، تحفة السائلين في ذكر أديرة رهبان المصريين، القاهرة ١٩٣٢، ص ١٣٧. والميرون، هو زيت المسحة المقدس، ويروى في تاريخ الكنيسة القبطية أنه عقبّ قيامة السيد المسيح أخذ الرسل الحانوط والأطياب التي استعملت في دفنه وأضافوا إليها زيت الزيتون النقي واستعملوه لمسح المتعمدين، ولما نفذ ما بقى منه في عصر أثناسيوس الرسول في القرن الرابع اقترح على رؤساء الكنائس في العالم أن يجتمعوا ويجددوا كل ما يلزم باستعمال ما بقى كخميرة يضاف إليها زيت الزيتون وبعض الأطياب والعطور واستمر على هذه العادة إلى يومنا هذا. انظر رسالة مارمينا الرابعة مقال ابن كبر هاشم، ص ٢٧٢.

[199] المسعودي، تحفة السائلين، ص ١٣٧.

[200] السنكسار، مصدر سابق، ج١، ص ٨٧.

[201] القلاية، أشبة بحجرة صغيرة يعيش فيها الراهب طوال حياته والقلاية مستطلية الشكل مغطاة بأقبية نصف دائرية قليلة الارتفاع وبها فتحات صغيرة بمثابة نوافذ على شكل فتحات السهام والقلاية مزودة بالأثاث الضروري ومرتبة ملقاة على حصير فوقها غطاء، انظر لبيب حبشي، ذكى تاوضروس، في صحراء العرب والأديرة الشرقية، مكتبة مدبولي، القاهرة ،١٩٩٣، ص ٩٩–١٠٠؛ مصطفى عبد الله شيحة، دراسات في العمارة والفنون القبطية، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٧٢، ٢٥٦، وملابس الرهبان في القلاية عبارة عن قميص بدون أكمام وحفاة الأقدام، انظر حكيم أمين، دراسات في تاريخ الرهبنة والديرية المصرية، القاهرة، د.ت، ص ١٤٤.

[202] المسعودي، مرجع سابق، ص ١٣٧.

الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي،[٢٠٣] ثم اندثر بعد مدة قصيرة، وكان يقع بالقرب منه دير أبى يحنس القصير وكان يقع أيضاً إلى جواره دير مار إلياس أو دير الحبشة، ولما تهدم ديــر إليــاس انتقل إليه بعض الرهبان الأحباش والأرمن وسكنوا فيه ؛ وينم عن ذلك وصف عمــل الميــرون الذي قام به الأنبا غبريال الرابع وهو السادس والثمانون من عدد البطاركة الإسكندرية (١٣٧٠ – ١٣٧٨ م) في ٩ برمودة ١٠٩٠ س (١٣٧٤ م) في دير أبى مقار.[٢٠٤]

دير إلياس: سمى هذا الدير أيضاً دير الحبشة أو دير الحبش لان رهباناً أحباشاً ســكنوه وحــدهم. وكان هذا الدير بجوار دير أبى يحنس القصير ودير الأرمن، ويبدو أنه أسس في القرن الخــامس الهجري / الحادي عشر الميلادي وظل عامراً بالرهبان الأحباش لمدة تراوحت بين قرنين أو ثلاثة قرون،[٢٠٥] وذكره المقريزي في خططه فقال " وقدر خرب يحنس كما خرب ديــر إليــاس أكلــت الأرضية أخشابها فسقطا وصار الحبشة إلى دير سيده أبو يحنس القصير، والدير لا بقايا لــه فــي أواخر العصر المملوكى .[٢٠٦]

دير سيده بو يحنس: أقيم هذا الدير بجوار دير أبى يحنس القصير ودير إلياس وهو علــى اســم العذراء مريم وكان ديراً صغيراً مقارنة بالأديرة الأخرى فــي بريــة وادي هبيــب، وهــو وادي النطرون[٢٠٧] مثل دير أنبا بيشوى السريان ولم يعرف زمن تأسيسه أو متى نزل به الخراب وهجره رهبانه[٢٠٨] بيد أن رهباناً أحباشاً انتقلوا إليه في نهاية القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي أو في أوائل القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادى وكان هؤلاء الرهبان يسكنون قبل ذلــك في الدير الخاص بهم والمعروف بدير إلياس أو دير الحبشة، ويؤكد على ذلك المقريزي بقولــه " دير سيده بو يخنس القصير وهو دير لطيف بجوار دير بو يخنس القصير ".[٢٠٩]

كنيسة القديس تكلا هيما نوت الحبشي: أقيمت هذه الكنيسة فوق سطح كنيسة العذراء الأثريــة – بدير المحرق – وكان يصلى بها الرهبان الأثيوبيون متى أرادوا بلغتهم الأثيوبية ولــذلك ســميت بكنيسة الحبش أو الأحباش، وقد هدمت هذه الكنيسة عام ١٩٣٦م عندما خشى على كنيسة العذراء

---

[203] السنكسار، مصدر سابق، ج١، ص ٢٢٣؛ المسعودي، مرجع سابق، ص ١٣٧.

[204] المسعودي، مرجع سابق، ص ١٣٨.

[205] أبو المكارم، مصدر سابق، ج٤، ص ٣٩ ؛ المسعودي، مرجع سابق، ص ١٣٣؛ عمر طوسون، وادي النطرون، مكتبة مدبولى، القاهرة؛ ١٩٩٣، ص ٨٧ – ٩٠.

[206] الخطط، ج٢، ص ٥٠٩.

[207] المقريزي، الخطط، ج٢، ص ٥٠٨.

[208] نفس المصدر، ج٢، ص ٥٠٩؛ المسعودي، مرجع سابق، ص ١٣٧، ١٣٨؛ عمر طوسون، مرجع ســابق، ص ٩٠.

[209] المقريزي، الخطط، ج٢، ص ٥٠٩.

الأثرية أن تتأثر مبانيها لقدم عهدها بوجود كنيسة أخرى فوقها.[٢١٠]

ويرجع اهتمام الرهبان الأحباش بإقامة كنيسة بدير المحرق لارتباط الدير بالسيد المسيح وأمه مريم وكانت إقامتهم بهذا الدير تستغرق أطول فترة من رحلتهم بأرض مصر، واعتقد هؤلاء الرهبان الأحباش أن مغارة السيد المسيح وأمه مريم هي هيكل الدير ورأوا أن قدسية الدير هي نفس قدسية الأرض المقدسة (فلسطين) ومن ثم حرص القادمون منهم لزيارة الأرض المقدسة على المرور بدير المحرق لينالوا بركة الرب وبركة الكنيسة وبركة العذراء مريم وبركة جبل قسقام الذي يوازى جبل الزيتون، وعدوا زيارة الدير متممة لواجبات زيارة الأراضي المقدسة[٢١١] لذلك كان معظم المطارنة الذين يرسلون إلى كنيسة الحبشة يختارون من بين رهبان القبط بدير المحرق،[٢١٢] وتتضح قدسية هذا الدير بجلاء فيما فعلته الملكة منتواب، إمبراطورة أثيوبيا، أثناء زيارتها له، إذ حرصت على أن تأخذ أكياساً مملوءة من تراب الدير إلى إقليم غواندار بأثيوبيا، حيث مزجت هذا التراب بمواد البناء لإقامة كنيسة هناك سميت بكنيسة جبل قسقام، كما أمرت بصوم أربعين يوماً عرفت حتى يومنا هذا بصوم قسقام يبدأ من ٢٦ توت (٦ أو ٧ من أكتوبر) وينتهي بصباح اليوم السادس من هاتور (١٥ أو ١٦ نوفمبر) وهو عيد تدشين كنيسة العذراء الأثرية بدير المحرق.[٢١٣]

ومن الصعوبة على الباحث رصد حياة الرهبان الأحباش داخل الأديرة والكنائس منفصلة علن حياة الرهبان المصريين بسبب انعدام الوثائق والمصادر التي تعالج هذا الجانب، إلا من خلال التاريخ والوثائق القبطية مع إشارات متفرقة من خلال سيرة القديسين ومن ثم يمكن القول أن تاريخ الرهبنة الحبشية في مصر مصدرها تاريخ الرهبنة المصرية التي أسست الرهبنة الحبشية[٢١٤] فعاش الرهبان الأحباش حياتهم داخل الأديرة على النظام الباخومي.[٢١٥]

وجدير بالذكر أن الرهبان الأحباش كانوا يقيمون برحلات لزيارة الأماكن المقدسة بفلسطين عن طريق مصر ،حيث كانت تخرج القافلة بأعداد كبيرة يصل عددهم ثماني مائة

---

[210] الأنبا غرغريوس، الدير المحرق، تاريخه ووصفه وكل مشتملاته، ص ١٢٨؛ رءوف حبيب، تاريخ الرهبنة والديرية في مصر وآثارهما الإنسانية على العالم، مكتبة المحبة، القاهرة، ص١٥٦؛ القمص ميخائيل، تادرس السرياني، الأديرة المصرية العامرة، القاهرة ١٩٦٨، ص ٢٠٦.

[211] غرغريوس، دير المحرق، ص ١١٧، ٣٩٤، ٤٠١، ٤٩٥.

[212] نفس المرجع، ص ٣٩٧.

[213] غرغريوس، دير المحرق، ص ٣١٥.

[214] الرهبنة الحبشية، ص ٤٠.

[215] نفس المرجع، ص ٦١.

فرد[٢١٦] مرافقة لقافلة تجارية ليتمتعوا بحماية القافلة التي يصاحبها حراس كما يصطحب الراهب الحبشي كتبه الشخصية والملابس التي لا يمكن الاستغناء عنها وهي ثلاث قمصان وعمامة وطاقيتين وشالين،[٢١٧] والكهنة بمعاطف سوداء وعمائم بيضاء وأغلبهم ممسكاً بصليب خشبي أو فضي أو من حديد، كما كانوا يحملون البسيط من المتعلقات والماء وثلاثة مذابح مكسوة بقماش مطرز جميل لإقامة القداسات أثناء السفر الطويل.[٢١٨] وكانت القافلة تخرج من إقليم تيجرى عقب عيد الغطاس ١١ طوبة (١٩ يناير) وتحمل معها رسائل وهدايا ثمينة يبعث بها ملك الحبشة إلى كل من سلطان مصر،و بطريرك الإسكندرية، فتسير القافلة عبر سواكن إلى دير تدجران ومن هذا المكان تعرج القافلة غرباً لتعبر الصحراء حتى تصل إلى النيل[٢١٩] عند النوبة ،و تواصل القافلة سيرها عبر مجرى نهر النيل مروراً بدير المحرق بصفته عندهم أقدس المزارات في مصر.

وتنطلق القافلة بعد ذلك لزيارة دير القديس مار جرجس ببا[٢٢٠] قبل أن يعبروا على وادي عربة لزيارة دير مار أنطونيوس بالصحراء الشرقية، على مسيرة أربعة أيام على شاطئ النيل تجاه مدينة بني سويف الحالية،[٢٢١] ثم تواصل القافلة سيرها إلى القاهرة بمحاذاة منطقة الأهرامات من جهة اليمين مروراً بمنطقة حصن بابليون المتاخم للكنائس والآثار القبطية،[٢٢٢] حيث يقيم بعض الرهبان الأحباش بكنيسة مار جرجس،[٢٢٣] يزور رهبان القافلة عند وصولهم إلى مدينة الفسطاط بيعة قزمان ودميان ثم كنيسة بربره الأكثر شهرة في العصر المملوكي، وخارج مدينة الفسطاط يذهب الرهبان الأحباش لزيارة بئر مريم والشجرة المعجزة بالمطرية حيث استراحت تحتها

---

216 ابن طولون، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (تاريخ مصر والشام)، تحقيق محمد مصطفى، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٤، قسم ٢، ص ٥، وفي ابن إياس، مصدر سابق جـ ٥، ص ١١ عددهم نحو ستمائة إنسان.

217 الرهبنة الحبشية، ص ١٥٩.

218 نفس المرجع، ص ١٥٦- ١٥٧.

219 سعيد عبد الفتاح عاشور، أضواء جديدة، ص ٢١- ٢٢.

220 ببا، مدينة بمصر من جهة الصعيد على غربي النيل من كورة البهنسي، وقيل أن اسمها قبطي، انظر ياقوت الحموى، مصدر سابق، ج٨، ص ٣٣٣؛ ابن الجيعان، التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٧٤، ص ١٦٣؛ محمد رمزي، القاموس الجغرافي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣، ج٣، ص ١٣٧.

221 صموائيل تادروس، الأديرة المصرية العامرة، ص ١٣.

222 الرهبنة الحبشية، ص ١٥٥.

223 نفس المرجع ، ص ١٥٨.

العائلة المقدسة، ثم تعرج القافلة على القاهرة لمقابلة السلطان،[٢٢٤] فما أن تلتقى به حتى يقدموا له الخطاب والهدايا التي كانت مضرب المثل من الكثرة، ويستقبلهم السلطان جالساً ... ثم يأمر بإكرامهم وإنزالهم منزل الضيافة الذي يقع بجوار السرادق عند جسر الأسود مع مواصلة خدمتهم وحراستهم. وبعد ثلاثة أيام ترحل القافلة إلى القدس لزيارة كنيسة القيامة.[٢٢٥] ومع مندوب القافلة رسالة إلى القسيس الذي يعمل القربان فحواها " السلام عليكم يا رهبان الحبوش، الذين صبروا على العبادة والزهد إلى هذه الأيام وصبرتم على الحر والبرد وقد سيرت لكم ثوب أحمر ديباج ومائة شمعة [٢٢٦] وثيابي وهو زناري الذي تلبسه السلاطين حتى تلبسونه وقت القربان ما هو كل يوم إلا من يوم العيد إلى يوم العيد لا يلبسه إلا القسيس الذي يعمل القربان فعرفوني بوصله ".[٢٢٧] كان ملك الحبشة يطلب السلطان المنصور قلاوون وأتباعه على القدس التوسط لدى اللاتيني [٢٢٨] ليكفوا عن مضايقة الفرنجة بالشام للأحباش أثناء المرور إلى هيكلهم لكنيسة القيامة.[٢٢٩]

وكان بعض الرهبان الأحباش يرفضون العودة إلى ديارهم، ويحرصون على الإقامة في القدس، إذ أقام بعضهم في كنيسة القديس سبليكر منذ القرن الرابع عشر الميلادي ،كما استقروا تحت السلم المؤدى لمكان الصليب حيث يوجد هيكل القديسة مريم ،[٢٣٠] وفي القرن الخامس عشر

---

224 بن تغرى بردى، حوادث الدهور، ج١، ص ٣٤٦ ؛ السخاوي، التبر المسبوك، ص ٦٧ ؛ ابن إياس، مصدر السابق، ج٥، ص ١١- ١٢.

225 ابن تغرى بردى، حوادث الدهورجـ١ ص١١٨ ؛ابن طولون، مفاكهة الخلان، قسم ٢، ص٥ ؛ابن إياس، مصدر سابق، ج٢، ص ٣٧٩، ج٣، ص ١٧٩، ج٥، ص ١١، ١٢.

226 كان القبط الذين يصرفون الشمع والزيت للرهبان الأحباش لكونهم مقيمون معهم في الأديرة الخاصة بالقبط بالقدس ولكونهم خاضعين للكنيسة المرقصية، انظر دميترى رزق، قصة الأقباط في الأرض المقدسة، القاهرة، ص ١٧، ١١٨، ١١٩ ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، أضواء جديدة، ص ٣٧.

Budge, E.A.W. , *A history of Ethiopian Nubia and Abyssinia*, London, 1907 , pp. 286 - 287.

227 ابن عبد الظاهرة، تشريف الأيام، ص ١٧٣ ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، أضواء جديدة، ص٢٥ Ibid, p. 28.

228 كان اللاتين في ذلك الوقت (٦٨٩هـ / ١٢٩٠م) قد استعادوا نفوذهم بعد ما عقد السلطان المنصور قلاوون مع الفرنج في عكا هدنة مدتها سنتين و عشرة أشهر ويبدو أنهم كانوا يضايقون الأحباش عند دخول هيكلهم الكائن تحت المذبح المحتوى على عمود الجلد، انظر ديمترى رزق، مرجع سابق، ص ١١٩، هامش ٢٢.

229 ديمترى رزق، مرجع سابق، ص ١١٩ ؛ جوزيف كى زيربو، مرجع سابق، ص ٢٧٦.

230 تحتل القديسة مريم مكانة خاصة لدى الأحباش إذ يصورونها في كتاب كبرانجشت على أنها صورة لؤلؤة تنتقل من أجساد القديسين إلى الأبكار من أولادهم، فتخرج من شيث أبناء آدم إلى إبراهيم ومنه تنتقل إلى بكره إسماعيل ... ثم إلى سليمان ثم منليك بكره الطاهرة المقدس وشعبه الأطهار، انظر كبرانجشت (جلال الملوك) نصوص حبشية قديمة، ترجمة مجدي عبد الرازق سليمان مراجعة محمد خليفة حسن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٣، ص ٢١ ؛وعن القديسة مريم ومكانتها عند المسحيين أنظر،طارق منصور،مقطوف الفكر البيزنطي،ج١،الأدب،القاهرة،٢٠٠٢،ص٦٤،٦٥.

الميلادي احتلوا جزءً من كنيسة العذراء في بستان جثيماني وقبل عام ٨٦٩ هـ / ١٤٦٤ م واشتركوا في احتفالات الجمعة الكبيرة بمقاطع لحنية تتضمن توبيخ السيد المسيح لليهود حينما توج بإكليل الشوك، وقد صار هذا المكان ضمن الأماكن التي يشار على الحجاج الأحباش زيارتها كذلك يقال أن بعض الأحباش كانوا قائمين على مغارة النبي داود.[٢٣١]

وقد ترك هؤلاء الرهبان الأحباش تراثاً ثقافياً متأثراً بالثقافة القبطية فقاموا بترجمة عدداً كبيراً من الكتب الدينية اليونانية أو القبطية أو العربية إلى اللغة الجعزية حتى يتمكن أهل الحبشة ورجال الدين من الإلمام بها [٢٣٢]وشارك في هذه الترجمة رهباناً أحدهم يعرف القبطية والعربية والآخر من الأحباش يعرف العربية والجعزية، فكان الراهب المصري يقرأ النص القبطى وينقله شفاهه إلى الراهب الحبشي بالعربية الذي ينقله بدوره إلى اللغة الجعزية. [٢٣٣]وكان يحمل الحجاج الأحباش الكتب المترجمة إلى الحبشة علاوة على ما كان يحمله المطران المصري إلى الحبشة من كتب لمزيد من الثقافة أو لترجمتها إلى اللغة الجعزية مثلما فعل الأنبا سلامه [٢٣٤]وقد نشطت حركة الترجمة في عهد الإمبراطور رزء يعقوب (١٤٣١ – ١٤٦٨ م) وترجمت من العربية عجائب العذراء ثم عجائب العذراء ويسوع وفي عصر الملك لينا دنجل (١٥٠٦ – ١٥٥٤ م) نقل كتاب المكين جرجس بن العميد إلياس المعروف بابن العميد إلى الأثيوبية.[٢٣٥]

ولا أدل على هذا الجهد الذي قام به الرهبان الأحباش في مجال ترجمة الكتب اللاهوتية من اللغة القبطية والعربية إلى اللغة الحبشية من وجود تسع مخطوطات باللغة الحبشية في دير سانت كاترين.[٢٣٦]وقد ساعد الرهبان الأحباش على الترجمة إقامتهم في القلاية متفرغين للعبادة.[٢٣٧]ولا شك في أن ترجمة كتب اللاهوت إلى اللغة الحبشية ساهمت في ترسيخ المسيحية في بلادهم ومحاربة بقايا الديانة السبائية واليهودية.[٢٣٨]وقد أفضت زيادة الكتب المترجمة إلى قيام

---

[231] سعيد عبد الفتاح عاشور، أضواء، ص ٣٨ ؛ Trmingham, Op. cit., pp. 65-66.

[232] زاهر رياض، كنيسة الإسكندرية في إفريقيا، القاهرة ١٩٦٢، ص ١٠٠.

[233] نفس المرجع، ص ١٠٤، واللغة الجعزية هي لغة الكنيسة الحبشية ولم تعد لغة الناس لحلول اللغة الأمهرية مكانها منذ القرن الثالث عشر الميلادي، انظر جلال الملوك، نصوص حبشية قديمة، ص ١٤ Ibid., p. 73.

[234] زاهر رياض، مصر وإفريقيا، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٣، ص ٨٩، ٩٠ ؛ كنيسة الإسكندرية، ص ١٠٥.

[235] زاهر رياض، مصر وإفريقيا، ص ٩٠.

[236] صموئيل تادرس، الأديرة المصرية العامرة، ص ٢٥٤.

[237] غرغريوس، دير المحرق، ص ٣٢١.

[238] راشد البراوى، الحبشة بين الإقطاع والعصر الحديث، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦١، ص ١٤١ زاهر رياض، كنيسة الإسكندرية، ص ٨٦.

البابا يوساب بفتح مدرسة في البطريركية لتعليم الشبان قواعد الدين المسيحي، وإرسالهم ليبشروا بالدين المسيحي في مناطق إفريقيا الوسطى والغربية.[٢٣٩] ومن الواضح أن طلاب هذه المدرسة عبيد ويؤكد ذلك القول منسي القمص" هؤلاء أولاد نصارى أرسلوا إلى ممالكي النوبة والحبشة"[٢٤٠] ولمكانة القديس تكلا هيمانوت في مصر لكونه شفيع أثيوبيا العظيم لدى سلاطين مصر، ومؤسس الرهبنة الحبشة، قام الرهبان الأحباش برسم صورة له بدير مارمينا.[٢٤١]

وفي القرن الرابع عشر ترجم كتاب " المجموع الصفوى " الذي ألفه صفي الدين بن العسال المتولي منصب كاتب الأسرار المجمع المقدس وأحدث في جزئه الثاني عما يجب أن تقوم عليه العلاقات بين الأفراد المسيحيين في كل شئونهم الدينية، فأعجب به الرهبان الأحباش بمصر إعجاباً شديداً وحضهم إلى ترجمته، واتخذوه أساساً لحياتهم المدنية والدينة والناموس الذي يسيرون بمقتضاه في حياتهم العامة والخاصة بعد أن أطلقوا عليه اسم (فتح نجست).[٢٤٢]

239 منسى القمص، تاريخ الكنيسة القبطية، ص ٤٣٣.

240 نفس المرجع، ص ٤٣٣.

241 بتلر، الكنائس القبطية القديمة في مصر، ترجمة إبراهيم سلامة إبراهيم، مراجعة الأنبا غرغريوس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣، جـ ١، ص ٦١.

242 زاهر رياض، مصر وإفريقيا، ص ٩٠، ٩١، وبالبحث وجد أن فتح نجست هو كتاب كبرانجشت (جلال الملوك) من أهم مصادر التاريخ الحبشي، بل هو المصدر الأساسي الذي تمت من خلاله بلورة فلسفة التاريخ الحبشي، وتظهر أهمية كبرانجست على مستويين الأول المستوى التفسيرى لتاريخ الحبشة وهو المستوى الذي يعطى لهذا التاريخ إطاره ويضعه داخل نسق لاهوتي معين، أما المستوى الثاني فهو المستوى التاريخي حيث يؤرخ كبرانجشت لتاريخ الحبشة داخل إطار لاهوتي الذي تم وضعه ويبدأ هذا التاريخ ببداية الخليقة وينتهي بظهور المسيحية، والكتاب نقلاً مباشراً عن الأدب القبطي في مصر، وقد اختلفت الآراء في زمن تأليف الكتاب فيما بين القرنين السادس والثالث عشر الميلاديين، إلا أن معظمها يؤكد على أنه قد كتب في القرن الثالث عشر الميلادي من أجل تمجيد الأسرة المالكة المسماة بالأسرة السليمانية ،التي تبوأت عرش المملكة بأثوبيا في ذلك الوقت، انظر، كبرانجشت (جلال الملوك) ص ١١ – ١٨.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر:

١- القرآن الكريم.

٢- ابن إياس، محمد بن أحمد المصري (ت ٩٢٠هـ / ١٥١٤م).

- بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٢.

٣- ابن الأخوة، محمد بن محمد بن أحمد القرشي (ت ٧٢٩هـ/١٣٢٨م).

- معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق محمد محمود شعبان ، صديق أحمد عيسى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦.

٤- البغدادي، أبي الحسن المختار بن عبدون

- رسالة جامعة لفنون نافعة في شري الرقيق وتقليب العبيد، تحقيق عبد السلام هارون، نوادر المخطوطات القاهرة.

٥- ابن تغري بردى، جمال الدين يوسف (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م)

-الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق فهيم محمد شلتوت، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، الرياض ١٩٨٣.

-النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، سلسلة تراثنا، القاهرة ١٩٦٠.

-حوادث الدهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد فهيم شلتوت، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٩٩٠.

٦- ابن الجيعان، الإمام شرف الدين يحيى بن المقري (ت ٨٥٥هـ / ١٤٨٠م)

- التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية ، مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة ١٩٧٤.

٧- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن على (ت ٨٥٢هـ / ١٤٨٨م).

- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، حيدر أباد الدكن، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ١٣٩٥هـ.

٨- ابن حبيب، الحسن بن عمر (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م).

- تذكرة النبية في أيام المنصور وبنيه، تحقيق محمد محمد أمين، راجعه سعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٦.

٩- الحميري، محمد عبد المنعم (من أإناء القرن الثامن الهجرة / الرابع عشر الميلادي).

- الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٧٥.

١٠ - ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (٨٠٨هـ / ١٤٠٥م)

- المقدمة دار القلم بيروت، ١٩٨٤.

١١- أبي داوود، سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني (ت ٢٧٥هـ / ٨٨٨م).

- سنن أبي داوود، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة التجارية القاهرة ١٩٣٥.

١٢- ابن دقماق، إبراهيم بن محمد بن أيدم العلائي (ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٦م).

- الانتصار لواسطة عقد الأمصار، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت د.ت.

١٣-الديلمي، شيرويه بن شهر دار أبو شجاع.

- الفردوس بمأثور الخطاب، بيروت دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٦.

١٤ - السخاوي، شمس الدين محمد بن نعبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٧م)

- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الكتاب الإسلامي القاهرة د.ت.

- التبر المسبوك في الذيل على السلوك ، مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة ١٣١٥هـ

١٥- أبو سعيد، أبو الحسن على بن موسى (ت٦٨٥ هـ / ١٢٨٦م)

- كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٩٧٠.

١٦- ابن سحنون، ابن سعيد التنوخي (ت ٢٠٤هـ /٨١٩م)

- المدونة الكبرى، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٨.

١٧- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م)

- أزهار العروش في أخبار الحبوش، تحقيق عبد الله محمد عيسى، منشورات مركز المخطوطات، الكويت ،١٩٩٥.
- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار الفكر العربي، القاهرة ،١٩٩٨.
- رفع شأن الحبشان، تحقيق محمد عبد الوهاب فضل، القاهرة ١٩٩١.

١٨- السنكسار،

- الجامع لأخبار الأنبياء والرسل والشهداء والقديسين ، مكتبة المحبة القاهرة ١٩٧٩.

١٩- الشيرزي، عبد الرحمن بن نصر (ت ٥٨٩هـ / ١١٩٣م)

- نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العريني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٤٩.

٢٠- الشعراني، أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن علي الأنصاري الشافعي المصري (من أعيان القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي).

- الطبقات الكبرى، دار الفكر العربي، القاهرة د.ت.

٢١- ابن الصيرفي، علي بن داوود الجوهري (ت ٩٠٠هـ / ١٤٩٤ م)

- أنباء الهصر بأخبار العصر، تحقيق حسن حبشي، دار الفكر العربي القاهرة ١٩٧٠.
- نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي دار الكتب المصرية القاهرة، ١٩٧٠.

٢٢- ابن طولون، شمس الدين محمد (ت ٩٥٣هـ /١٥٤٦م)

- مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (مصر والشام) تحقيق محمد مصطفى، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٤.

٢٣- ابن عبد الظاهر، محي الدين (ت ٦٩٢هـ / ١٤١٨م)

- تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل

القاهرة ١٩٦١.

٢٤- علي مبارك،

- الخطط التوفيقية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٢.

٢٥- القلقشندي، أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م)

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، نشر الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٥، جـ٤ـ ٥.

٢٦- أبو المكارم، سعد الله بن جرجس بن مسعود (عاش في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي.

-الكنائس والأديرة، إعداد صموئيل، القاهرة ٢٠٠٠.

٢٧- المالقي، ابن عبد الله محمد بن أبي محمد السقطي (ت ١٠٩٦هـ /١٦٨٤م)

- أدب الحسبة، تحقيق حسين الزين، مؤسسة دار الفكر الحديث بيروت ١٩٨٧.

٢٨- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م)

- الأحكام السلطانية والولايات الإسلامية، شركة ومطبعة مصطفي البابي الحلبي وأولاده مصر ١٩٧٣.

٢٩- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م)

- الإفادة والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة د.ت.

- الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، القاهرة ١٨٩٥

- السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفي زيادة ، مطبعة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٧٠، واستكمله سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٧٣.

٣٠-مؤلف مجهول،

- كبرا نجشت (جلال الملوك) نصوص حبشية قديمة ترجمة مجدي عبد الرازق سليمان، مراجعة محمد خليفة حسن، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة

٢٠٠٣

٣١- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٢٢هـ/١٣٢٢م)

- نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٣.

٣٢- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله الرومي البغدادي (ت ٦٢٦هـ /١٢٢٨م)

- معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز، دار الكتب العلمية ببيروت ١٩٩٠.

ثانيا: المراجع العربية والمعربة:

١- إبراهيم طرخان،

- مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٦٠.

٢- أحمد مختار العبادي،

- قيام دولة المماليك الأولى، الإسكندرية ١٩٨٢.

٣- بتشـــر،

- تاريخ الأمة القبطية، القاهرة ١٩٠٧.

٤- بتلـــــر، ألفريد،

- الكنائس القبطية القديمة في مصر، ترجمة إبراهيم سـلامة، مراجعة الأنبا غرغريوس الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٣.

٥- بوركهارت،

- رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان، ترجمة فؤاد انـدراوس، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة د.ت.

٦- تامــرات،

- القرن الإفريقي السلمانيون المنتسبون إلى الملك سليمان الحكـيم في إثيوبيا ضمن تاريخ إفريقيا العام، منظمة اليونسكو.

٧-توفيق الطويل،

- التصوف في مصر إبان العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٨.

٨-جوزيف كي زيربو:

- تاريخ إفريقيا السوداء، ترجمة عقيل الشيخ حسين، الدار الجماهيرية، ليبيا ٢٠٠١.

٩- حكيم أمين،

- دراسات في الرهبانية والديرية المصرية القاهرة د.ت.

١٠- خطاب عطية،

- التعليم في مصر في العصر الفاطمي الأول، دار الفكر العربي القاهرة د.ت.

١١- ديمتري رزق،

- قصة الأقباط في الأرض المقدسة، القاهرة بدون تاريخ.

١٢-رجب محمدعبد الحليم،

-الإسلام جنوب الصحراء الأفريقية ،موسوعة سفير القاهرة .

١٣ - ريتشارد مورتيل،

- الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي، الرياض ١٩٨٥.

١٤- راشد البراوي،

- الحبشة بين الإقطاع والعصر الحديث ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٦١.

١٥- راهب من دير البراموس،

- الرهبنة الحبشية القاهرة ،١٩٩٩.

١٦- رجب محمد عبد الحليم،

- العلاقات السياسية بين مسلمي الزيلع ونصارى الحبشة في العصور

الوسطى، دار النهضة العربية القاهرة ١٩٨٥.

١٧- رءوف حبيب،

- تاريخ الرهبنة الديرية في مصر وآثارها الإنسانية على العالم مكتبة المحبة القاهرة د.ت.

١٨- زين العابدين شمس الدين نجم،

- معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية ،القاهرة .

١٩ - زاهر رياض،

- الإسلام في أتوبيا، دار المعرفة القاهرة ١٩٦٤.

- كنيسة الإسكندرية في إفريقيا، القاهرة ١٩٦٢.

- مصر وأفريقيا، القاهرة ١٩٦٣.

٢٠- سعيد عبد الفتاح عاشور،

- العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة العربية،القاهرة ،١٩٧٦.

- المجتمع المصري في العصر المملوكي، دار النهضة العربية، القاهرة ،١٩٦٢.

٢١- صبحي لبيب،

- الفندق ظاهرة سياسية اقتصادية قانونية، بحث ضمن ندوة مصر وعالم البحر المتوسط، دار الفكر للدراسات، القاهرة، ١٩٨٦.

٢٢- طارق منصور،

- قطوف الفكر البيزنطي - ج١ - الأدب، القاهرة،٢٠٠٢.

٢٣- عبد السلام الترمانيني،

- الرق، عالم المعرفة عدد ٢٣ الكويت، ١٩٧٩.

٢٤- عبد المجيد عابدين،

- بين الحبشة والعرب دار الفكر العربي القاهرة بدون تاريخ.

٢٥- عبد اللطيف حمزة،

- الحركة الفكرية في مصر الأيوبية المملوكية الأولى،

دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٤٧.

٢٦- عبد المسيح صليب المسعودي،

- تحفة السائلين في ذكر أديرة رهبان المصريين، القاهرة ١٩٣٢.

٢٧- على السيد محمود،

- الجواري في مجتمع القاهرة المملوكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٨.

٢٨- عمر طوسون،

- وادي النطرون، مكتبة مدبولي القاهرة ١٩٩٣.

٢٩- عبد الوهاب محمد المسيري،

- موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، مركز دراسات الأهرام القاهرة ١٩٧٤.

٣٠- الأنبا غرغريوس،

- دير المحرق تاريخه ووصفه وكل مشتملاته، القاهرة بدون تاريخ.

٣١- فاطمة محمد حسن المباركي ،

- الوظائف في الحرم المكي في العصر المملوكي ،رسالة ماجستير غير منشورة جامعة أم القري ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

٣٢- فتحي غيث ،

الإسلام والحبشة عبر التاريخ ،مكتبة النهضة المصرية القاهرة .

٣٣- لطفي أحمد مختار،

- وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك في مصر، سلسلة تاريخ المصريين،عدد ١٤١ الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٩.

٣٤- لبيب حبشي، زكي تادرس،

- في صحراء العرب والأديرة الشرقية، القاهرة ١٩٩٣.

٣٥- مجموعة مؤلفين،

- تاريخ الحضارة المصرية العصر اليوناني والروماني والعصر الإسلامي القاهرة.

٣٦- محمد أحمد دهمان،

- معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر سوريا بيروت ١٩٩٠.

٣٧- محمد محمد أمين،

- الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٨٠.

٣٨- محاسن الوقاد،

- الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية، المصرية العامة للكتاب سلسلة تاريخ المصريين، القاهرة، ١٩٩٩.

٣٩- محمد مختار،

- هداية المريد في شراء العبيد وتقليب العبيد ،القاهرة ١٩٧٧.

٤٠- محمد جمال الدين سرور،

- دولة بني قلاوون في مصر، دار الفكر العربي.

٤١- محمد رمزي،

- القاموس الجغرافي للبلاد المصرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٣.

٤٢- محمد عبد الرازق،

- الناصر محمد بن قلاوون ، الدار المصرية للتأليف والترجمة أعلام العرب، القاهرة بدون تاريخ.

٤٣- محمد قنديل البقلي،

- الطرب في العصر المملوكي، القاهرة ١٩٨٤.

٤٤- مصطفي عبد الكريم الخطيب،

- معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٦.

٤٥- مصطفي عبد الله شيحه،

- دراسات في العمارة والفنون القبطية، القاهرة ١٩٨٨.

٤٦- مكي شبيكه ،

- السودان عبر القرون ،دار الثقافة لبنان .

٤٧- ملوك ميخائيل،

- باخوميوس، رسالة مارمينا الرابعة، مطبوعات جمعة مارمينا العجائبي، القاهرة ١٩٥٠

٤٨- القمس ميخائيل تادرس السرياني،

- الأديرة المصرية العامرة، القاهرة ١٩٦٨.

٤٩- منسي القمص،

- تاريخ الكنيسة القبطية، القاهرة ١٩٨٢.

٥٠- نعوم شقير ،

- جغرافية وتاريخ السودان ، دار الثقافة لبنان ١٩٦٧.

٥١- نعيم زكي حسنين،

- طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣.

ثالثا ـ الدوريات:

١- إبراهيم طرخان،

- الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة في العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، م ٨ القاهرة ١٩٥٩.

٢- زاهر رياض،

- الشفتا في أتوبيا منذ العصور الوسطى، بحث في مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، م١٩ حـ٢، سنة ١٩٦١.

٣- سعيد عبد الفتاح عاشور،

- بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة في العصور الوسطى، المجلة المصرية التاريخية، حـ٤ القاهرة ١٩٤٨.

٤- صبحي لبيب،

- سياسة مصر التجارية في عصري الأيوبيين والمماليك، المجلة التاريخية المصرية، عدد ٢٨-٢٩ القاهرة ١٩٨١-١٩٠٢.

٥- محمد كامل حسين،

- بين التشييع وأدب الصوفية بمصر في عصر الأيوبيين والمماليك، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة عدد ٦ ديسمبر ١٩٥٤.

٦- مراد كامل، (دكتور)

- الرهبنة الحبشية، مقال ضمن رسالة مارمينا مطبوعات جمعية مارمينا العجايبي إسكندرية ٢٠٠١.

٧- موريس مكرم،

- ابن كبر، رسالة مارمينا الرابعة إسكندرية ١٩٥٠.

٨- يعقوب مويزر،

- تاريخ مجيدا أنطواي وآثار رهبنة انمحت، مقال ضمن رسالة مارمينا مطبوعات جمعية مارمينا العجايبي، الإسكندرية، ٢٠٠١.

رابعا ـ المراجع الأجنبية:

1- Budge, E.A.W., *A History of Ethiopian Nubia and Abyssinia*, London, 1907.

2- *Encyclopedia of Islam.*

3- Trminghom, J. S., *Islam in Esthiopia*, Oxford, 1952.

الشمال الإفريقي فى عهد الوندال*
فى مصنف المؤرخ المعاصر فيكتور فيتنسس
(٤٢٩ – ٤٨٤م)

أ.د. فايز نجيب إسكندر
كلية الآداب – جامعة بنها–مصر

ڤيكتور ڤيتنسس Victor Vitensis وأهمية مصدره:

ظلم الوندال[١] لأنهم لم ينجبوا مؤرخاً من بنى جنسهم كحال الكثير من العناصر الجرمانية الأخرى[٢] – يسطر أحداث تاريخهم دون التحامل عليهم كما فعل الأسقف ڤيكتور ڤيتنسس Victor Vitensis(دوفيتا DE VITA فى المراجع الأجنبية)، وبوسيديوس Possidius أسقف جالمة (قالمة Calama)، [٣] وفراندوس أسقف قرطاج Ferrandus de Carthage وبروكوبيوس Procopius (٥٠٠–٥٦٥م) المؤرخ البيزنطي الذي ولد فى مدينة قيسارية الفلسطينية، وكافة المصادر اللاتينية الأخرى التي أشارت إليهم من قريب أو بعيد. وكان نتيجة ذلك، عدم تمكن الباحثين من إنصافهم بعقد الدراسة المقارنة بين مصادر متنوعة وليس الاعتماد فقط على مصادر ذات وجهات نظر معادية ومضادة. وڤيكتور ڤيتنسس– أو دو فيتا– أسقف كاثوليكي يؤرخ للوندال

---

* تشرفت بالتدريس فى جامعتى باتنة وقسنطية من فبراير ١٩٨٣ حتى أغسطس ١٩٨٥. وهذا البحث هو الثمرة الثالثة من نتاج إعارتى. أما الثمرة الثانية المتصلة بهذا العنوان فكانت "الحياة الاقتصادية فى الشمال الإفريقي فى عهد الوندال – القاهرة ١٩٨٨م". فى حين أن بحثى الأول نشر فى "مجاة سيرتا" Cirta المجلة العلمية لجامعة قسنطينة بالجزائر، العدد الثامن ١٩٨٣م، وعنوانه "الفتوحات الإسلامية لأرمينية" دراسة تأريخية لحملة المسلمين الأولى ١٩هـ/ ٦٤٠م. واختصاراً لصفحات البحث، إكتفينا بذكر المصادر والمراجع كاملة في الحواشي حين ذكرها لأول مرة.

[1] أكد جوردانوس(ت٥٥٤م) Jordanes الذي كتب في منتصف القرن السادس الميلادى تاريخاً للقوط بعنوان De Rebus Getica de Origine Actibusque Getarum أن الوندال موطنهم الأصلى إسكندنافيا. أنظر: Jordanes, *De Rebus Getica dans M.G.H.a.a.*, V, 1, p. 60; xvII, 94-95, p. 82.

[2] من هؤلاء مؤرخ الفرنجة جريجوار دو تور(ت٥٩٢م) Gregoire de Tours (أنظر: Historia Francorum, ed. Krusch, dans *M.G.H.S.R.M.I*, Hanovre, 1885.) وبولس الشماس(ت٧٩٩م) Paul Diacre مؤرخ اللمبارديين (أنظر: *De Gestis Longobardicarum*, Dans Scriptores Rerum Longobardicarum M.G.H.I) وجوردانوس مؤرخ القوط سالف الذكر فى حاشية ١.

[3] لاحظت أثناء تدريسى فى جامعتى باتنة وقسنطينة، أن الجزائريين ينطقون اسم تلك الولاية "جالمة" بينما يكتبونها "قالمة" وتقع"قالمة" على حدود إفريقيا القنصلية ونوميديا. (أنظر: Schmidt, L., *Histore des Vandales*, Paris, 1953, p. 79) ومما يذكر أن بوسيديوس كان قد لجأ إلى هيبو Hippo أثناء حصارها، إلا أنه عاد ثانية إلى أسقفيته قالمة. أنظر: Prosper, *Chronica*, 1327, dans *M.G.H.a.a.*, IX, p. 475.

الأريوسيين[٤] الذين احتلوا وطنه، وأكرهوا بعض الكاثوليك على اعتناق المذهب الأريوسي، وفتكوا بالغالبية الساحقة منهم، فأذاقوهم كافة ألوان العذاب[٥]. ومن الطبيعي حين يؤرخ لجلاده سيتحامل عليه كثيراً، و سيتغاضى عن ذكر محاسنه. لذا، رغم كون فيكتور معاصراً للأحداث، ولا غنى عنه

---

[٤] إثر اعتراف الامبراطورقسطنطين الكبير سنة ٣١٣م بالمسيحية كإحدى ديانات الامبراطورية الرومانية، اندلعت نار الخلافات العقائدية بين المسيحيين أنفسهم، إذ أنكر أريوس Arius ألوهية المسيح. وكان مؤسس الهرطقة الأريوسية هذا قد عين سنة ٣١٨م على رأس كنيسة بوليكاليس، وهي كنيسة صغيرة في أحد أحياء الاسكندرية. فتقدم كثيرون بالشكوى إلى البابا الكسدروس، فأصدر حكما بتجريده من رتبته الكهنوتية والحرمان الكنسي لأتباعه. وبوفاة البابا الكسندروس في ابريل سنة ٣١٨ م، أجمع الأريوسيون على مقاومة خلفه البابا أثناسيوس(٣٢٨–٣٧٣م) الذي اشتهر بقوة الجدل وصدق العقيدة وشدة الخلاص. وفي غضون اندلاع النزاع بين أريوس وأثناسيوس، اتخذ قسطنطين قراراً بنفي أثناسيوس إلى تريف Tréve في جنوب بلاد الغال(فرنسا) بعد تصديقه على قرارات مجمع صور، فوصل إليها في الخامس من فبراير سنة ٣٣٥ م. بينما تقرر العفو عن أريوس والسماح له بالعودة إلى الاسكندرية، لكنه توفي سنة ٣٣٦م وكان قد تجاوز الثمانين من عمره. للتفاصيل أنظر: Boniface, F., *Histoire des Dogmes Chretiennes*, II, pp. 6-71; Hanark, A., *History of Dogma,* VI, pp. 15-50; *Précis de l' Histoire*, Paris, 1893, pp.176-154; Haag. M. E, *Histoire des Dogmes chrétiens*, Paris, pp. 148-152.
أنظر أيضا: رأفت عبد الحميد: الدولة والكنيسة – القاهرة ١٩٧٥ – جـ١، ص١٦٧–٢٠٦؛ عزيز سوريال عطية: تاريخ المسيحية الشرقية – ترجمة إسحق عبيد، القاهرة ٢٠٠٥ م ، ٥٥–٩٥؛ الترجمة الثانية لنفس المرجع أعدها ميخائيل مكس إسكندر، القاهرة ٢٠٠٥م، ص٣٣–٣٦؛ إسحق إبراهيم فارس؛ مدخل إلى العهد السيحى الأول– القاهرة ١٩٨٧م، ص١٤٨–١٥٣ والملاحظ أن الترجمة الأولى أدق وأفضل بكثير من الترجمة الثانية.

[٥] هناك عوامل عديدة ومتعددة سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية حثت جيزريك على احتلال الشمال الإفريقي منها: ما كانت تحظى به إفريقيا من ثراء، إذ انها كانت تزود روما بالقمح. فبالهجوم عليها، وضع الملك الوندالى في اعتباراته إيقاف تزويد وتموين عاصمة روما الأزلية وتهديد الامبراطورية الرومانية الغربية بالسقوط. وقد أكد ذلك الثراء المؤرخ الإفريقي المعاصر فيكتور فيتنسس حين قال "إن الوندال لحظة غزوهم لإفريقية، وجدوا أنها ولاية يسودها السلام والهدوء، وتنعم كل أراضيها " بثروات زراعية مزدهرة تبهج ناظريها " إذ جاء في مصدره "...Pacatam Quieam Que Provinciam, Speciosi Taem Totius Terrae Florentis Quaque Versum..." . انظر: *Vita*, Éd. Petschenig, p. 3; *Vita*, Éd. M.G.H.a.i., p. 1; *Vita*, éd.micgne, p. 132." كذلك وضع جيزريك في حساباته إمكانية تعرضها لهجمات شعوب جرمانية أخرى من حلفاء روما أمثال القوط الغربيين الذين سيأتون إليها من الشمال الإفريقي، فرغب في الانقضاض عليها قبلهم. كما أن كونت الشمال الإفريقي بونيفاس Boniface كان قد طلب نجدة جيزريك في مواجهة جيوش الامبراطورية الرومانية، خاصة وأنه بونيفاس كان قد سبق له أن عقد سيادته على قرطاج وهيبو. ولضمان الدعم الوندالى له في صراعه المرتقب تزوج من أريوسية تجرى في عروقها الدماء الملكية الوندالية. (للتفاصيل انظر:pp.68-76 ,*Schmidt*). ولا يفوتنا ذكر حب جيزريك لجمع الغنائم والثروات، وحبه للمغامرة والبحث عن غزوات جديدة. كما كان على علم بأحوال إفريقية السياسية حيث أن السيادة الرومانية آنذاك لم تكن إلا سيادة إسمية على بعض أقاليمها. إضافة إلى ما تقدم، كان جيزريك على علم بانتفاضات قبائل البربر Maures وضعف نظم الدفاع الرومانية. (للتفاصيل أنظر :(*Schmidt*, pp. 39-41) في حين يرى كاسيودور أن سبب انتقال الوندالى إلى الشمال الإفريقي يعود في الأساس إلى الضغط العسكرى الذي مارسه القوط الغربيون لطردهم من اسبانيا، إذ جاء مصدره: Gens Vandrloroum a Gothicis Exclusa Ad Africam Transit". أنظر: Cassiodore, *Chronique*, dans M.G.H.a.a, XI, p. 107.

على الإطلاق للباحث فى تاريخ الوندال حتى عهد هونوريك – أى حتى أواخر عام ٤٨٤م–، إلا أنه يجب التعامل مع مصنفه بحرص بالغ، لإنتقاء ما هو صحيح من أحداث، واستبعاد ما لا يتفق من العقل والمنطق.

والملاحظ أن مصنف المؤرخ فيكتور فيتنسس Victor Vitensis وعنوانه "تاريخ الاضطهادات التي تحققت بولاية إفريقيا فى عهد ملكى الوندال جيزريك[٦] وهو نوريك[٧]" Historia Persecutionis Africanae Provinciae Temporibus Geiscrici et Hunerici Rengum Vandalorum. لم يحظ بقدر كاف من الأهتمام الذي يستحقه، رغم أهميته البالغة، اذ مرّ عليه مؤرخو الأدب اللاتينى المسيحى مرور الكرام، متجاهلين عن طيب خاطر أن مادته التاريخيه تتسم بالوضوح والحيويه[٨]، أن أسلوبه– رغم ما به من أخطاء نحو وصرف[٩] – إنفعل بمجريات الأحداث الجارفة، فتأثر بها تأثراً بالغاً، مما مكّنه أن يرسم لنا لوحة دموية لمجريات أحداث شمال غرب إفريقيا، التي اتسمت آنذاك بالشراسة والدمار نتيجة ظهور الوندال على مسرح الأحداث التاريخية، واكتساحهم كل مظاهر العمران التي صادفتهم فأتوا عليها، فانسألت الدماء أنهاراً، وعم الخراب كل موضع حلوا به.

وترجع أهمية هذا المصدر التاريخى الهام إلى تغطيته أحداث الشمال الإفريقي طوال القرن الخامس الميلادى تقريباً. وهكذا تساوى فى أهميته مع جريجوار دو تور[١٠] Cregoire de Tours

---

6 يتكون اسم زعيم الوندال من مقطعين: الأول، "جيز" GEIS أى "رمح"؛ والثانى، "ريك" أى "ملك". أنظر: Halphen. *Les barbares*. Paris. 1926. p. 37.

7 Victoris episcope Vitensis, *Historia Persecutionis Africanae* (Vita سنشيرإليه فيما بعد بـ) *Provinciae Temporibus Geiserici et Hunerici Regnum Vandalorum*, dans M.G.H.a.a., III.1, éd. C. Halm, Berlin, 1879; éd. J.P.Migne, Patrologia Latinae, LVIII, Paris, 1862: éd. Michael Petschenig, C.S.E.L., VII, Bonn, 1881.

أى سيكون الأختصار على الوجه الآتى: *Vita*, M.G.H.; Éd. Petschenig, Éd. Migne. لكون أغلب المراجع الأوربية أوردته على شكل "Victor de Vita". وقد استعنا فى إعداد بحثنا هذا بثلاث طبعات لمصنف ڤيتا حرصاً منا على الاستفادة الكاملة بوجهات نظر الناشرين الثلاثة.

8 Monceaux, P.. *Histoire de la littérature latine chétienne*, Paris, 1924, p. 155.

9 De Labriolle, P., *Histoire de la Littérature latine chrétienne*, II, Par G. Bardy, Paris, 1947, pp. 691-692.

10 يعد جريجوار دو تور Grégoire de Tours (ت ٤٩٤م) المصدر الوحيد الذي تناول بدايات ظهور الفرنجة وسط بلاد الغال حين شاركوا جنباً إلى جنب كحلفاء للقائد الرومانى فلافيوس إتيوس Flavius Aétius فى حربه ضد أتيلا Attila زعيم قبائل الهون Huns، وما صاحب ذلك من استقرارهم وتثبيت نفوذهم فى بلاد الغال فى عهد أبناء كلوفيس (٤٨١–٥١١م).زودنا جريجوار بمادة تاريخية غزيرة عن تاريخ الفرنجة غطت القرنين الخامس والسادس الميلاديين، نستخلص منها معلومات قيمة عن أصول الفرنجة، وازدياد نفوذهم، واستقراهم فى بلاد الغال، وغزواتهم خلال القرن السادس الميلادى وفيما يتعلق بالفترة التي لم يعاصرها والمتعلقة بأحداث دارت فى بلاد الغال، فقد نقل جريجوار عن سلبسيوس ألكسندر Sulpicius Alexander بروفيتوروس فريجيريدوس Renatus Profuturus

صاحب أهم مصدر عن "تاريخ الفرنجه"[١١] Historia Francorum في القرن السادس الميلادى؛ وبركوبيوس[١٢] القيسارى Procope de Césarée الذي أرخ هو أيضاً فى نفس القرن عن الحروب الفارسية[١٣] Bellum Persicum، والحرب الوندالية[١٤] Bellum Vandalicum، والحرب القوطية[١٥] Bellum Gothicum.

على أية حال، "فتاريخ اضطهادت الوندال "لـفيكتور فيتنسس يعد من المصادر الأساسية التي لا غنى عنها لأى مؤرخ يتناول تاريخ الشمال الإفريقي خلال حكم كل من "جيزريك" (٤٢٩-٤٧٧م) Geiséric و "هونوريك"(٤٧٧-٤٨٤م) Huneric. إلا أنه يؤخذ عليه حقده البالغ، وعداءه الواضح للوندال؛ يتضح ذلك بجلاء فى مصنفه حين وصف سلالتهم بأنها "سلالة ثعابين[١٦] Serpentina

---

Frigeridus. هكذا زودنا جريجوار بمصدر بالغ الأهمية، كتبه مؤرخ نابه. تناول فيه أحداثاً جارفة وهامة، مما دفع المؤرخ أدريان دوفالوا Adrien De Valois إلى القول بأن هذا المصنف تناول "أعماق تاريخنا" *Fundus Historiae Nostrae*. أنظر: *Hadrien Valesius, Rerum Francirum* Libri 8, Paris, 1646 – 1628, Libri Octo. t.II. Prefectus p.4. أنظر أيضاً الدراسة التحليلية النقدية القيمة التي أعدها العالم الفرنسي جابريل مونو M.Gabriel Monod. *Etudes critiques sur les Sources de l'histoire Mérovingienne*. Paris, 1872, pp. 21 – 146.

11 Grégoire de Tours. *Historia Francorum*, Éd. Kreusch, dans M.G.H.S. R. M.. I Hanovre, 1885.

12 بروكوبيوس Procopius مؤرخ بيزنطى، ولد حوالى سنة ٥٠٠ فى قيسارية فى فلسطين. وكانت آنذاك أهم ولايات الامبرطورية البيزنطية فى الشرق. ويعد أهم مؤرخ لدارسى عهد جستنيان الأول (٥٢٥-٥٦٧م) (أنظر: Vasiliev, A.A., *Histoire de l'empire byzantin*, Paris, 1932, t.I, P.235) إذ زودنا فى كتاباته بلوحة ثرية جلية تكاد تكون كاملة عن عهده الملئ بالأحداث. فبعد أن درس بروكوبيوس القانون، أصبح مستشاراً وسكرتيراً للقائد البيزنطي الفذ بليزاريوس Bélisaire وشاركه فى حملاته ضد الوندال والقوط والفرس. كما أنه تميز كمؤرخ وكاتب. فكمؤرخ، تعد كتاباته بالغة الأهمية لكونه صديقاً حميماً لقائد عسكرى بيزنطى ساهم بحملاته على الوندال والقوط والفرس فى تسطير تاريخ الامبراطورية البيزنطية آنذاك. وقد استفاد بروكوبيوس من صداقته الحميمة تلك ، فى التفحص والاطلاع على كافة الوثائق الرسمية المحفوظة فى أرشيفات الامبراطورية البيزنطية؛ وزاد من أهمية كتاباته أنه شارك بشخصه فى الحملات العسكرية سالفة الذكر؛ كما جمع بعض المعلومات من أفواه المشاركين فى العمليات العسكرية. وفى سنة ٥٦٢م عين والياً على القسطنطينية. وقد قلد بروكوبيوس أسلوب كتابة كل من هيرودوت وثوكوديوس. وصنف تاريخ عهد جستنيان فى ثمانية كتب، يدخل فى عداد تاريخ عام لعصر جستنيان وشخصيات بلاطه والجزء الخاص بتاريخ الوندال – المذكور فى المتن– هو الذي يهم البحث. كما ألف كتباً أخرى. وتوفى حوالى سنة ٥٦٥م. للتفاصيل أنظر: Vasiliev, I, pp. 235-237; Ostrogorsky, G., *Histoire de l'etat byzantin*, Paris. 1977, p. 51; *History of the Byzantine State*, London, 1968, pp. 70-73 Bury, S.B., *History of the Later Roman Empire*, London, 1931, pp. 21- 24 Bouillet, p. 1549. وبروكوبيوس نسبة إلى "قيسارية" فلسطين، وليس "قيصرية" آسيا الصغرى كما هو وارد فى كافة المراجع العربية.

13 Procopius of Caesarea, *History of The Wars*, Book I, *The Persian War*, Éd.j. Haury, Leipzig, 1962.

14 Procopius, Book III, *The Vandalic War*, Éd.j. Haury, Leipzig,1964.

15 Procopius, Book II, *The Gothic War*, Éd. j. Haury, Leipzig, 1963.

16 *Vita*, Éd.Petschenig, p. 103; Éd. M.G.H., p. 56; Éd. Migne p. 255.

Proles؛ وأن إفريقيا تحولت فى عهدهم إلى "جحيم"(١٧) Inferendis وأورد أنهم "شـعب دمـوى وشرير"(١٨) Populus ILLe Crudelis Ac Saeuus، إذ كانوا "يحرقون ويقتلون بلا سـبب"(١٩) Incendio Atque Homicidiis Totum Exterminates؛ وإفراطاً منهم فى الوحشية، كـانوا يحرقون بتلذذ وطيب خاطر– الكنائس أكثر من المدن"(٢٠) UT Maioribus Incendiis Domus Orationis Magis Quam Urbes Cunctaque Oppida Concrearent كمـا أن الغـزاة "حرصوا على قطع أشجار الفاكهة المثمرة حتى يحرموا اللاجئين الأفارقة الذين نجحوا فى الفـرار إلى الجبال من التغذى عليها"(٢١) Post Eorum Transitum، ولم يتورعوا عن فتح أفواه ضحاياهم بأوتاد خشبية صغيرة لإكراههم على تجرع المياه المالحة والخل او ثفل الزيت(٢٢). ومـع ذلـك، لا يمكننا إهمال هذا المصدر، إذ بدونه لأصبح تاريخ شمال غرب إفريقيـا اواخـر القـرن الخـامس الميلادى بمثابة صفحات مفقودة. لكونه المصدر الوحيد الذي انفرد بتغطيـة أحـداث هـذة الحقبـة التاريخية الهامة – كما سبق القول– ومما زاد من قيمتة وأهميتة أن مؤلفه فيكتور فيتنسس كان شاهد عيان للأحداث التي يسردها، بل واهتم اهتماماً بالغاً بجمع المادة التاريخية التي لم يكن شاهد عيـان لها، فحرص على تحرى الدقة قدر استطاعتة قبل أن يسجلها فى مصنفه ولكونه كتب مـصنفه بعـد مضى ما يقرب من نصف قرن على انقضاء الأحداث؛ إتضح لنا بعد دراسة تحليلية نقدية مقارنة انة نقل البعض منها عن بوسيديوس Possi Dius أسقف جالمة (قالمة) الذي كتب مصنفه عـن "سـيرة القديس أوغسطين"(٢٣) Vita Augustini، فى العقد الثالث من القرن الخامس الميلادى، إذ شكل هذا المصدر الجزء الاكبر من المادة التاريخية التي لم يعاصرها والخاصة بـالغزو الونـدالي للـشمال الإفريقي. كذلك نقل أحداثاً أخرى– لم يعاصرهاهى أيضاً عن"عـصر البرابرة"(٢٤) De Tempore Barbarico".

---

17 *Vita*, Éd. Petschenig, III, 1, p. 72; Éd.M.G.H., p. 50; Éd. Migne p. 233.
18 *Vita*,I, 1, M.G.H., p.1; Éd. Migne p.181; Éd.Petschenig, p. 3.
19 *Vita*,I. 1. M.G.H., p.2; Éd. Petschenig, p.3. Éd. Migne p.182.
20 *Vita*,I. 1, M.G.H., p. 2; Éd. Petschenig, p. 4. ; Éd. Migne p. 183.
ومما يذكر أن القديس أوغسطين أورد أن رجال الإكليروس الأفارقة عانوا الأمرين من شتى ألوان العذاب الممـارس ضدهم من قبل الوندال، لكى يكرهوهم على الاعتراف بأماكن إخفاء مقتنيات كنائسهم الثمينة. أنظـر: St. Augustin, *Epist. CCXXVIII* 5, dans C.S.E.L., LVII, p. 487; Schaff, Ph., *Nicene and post-Nicene Fathers of the Christian Church*, Michigan, 1956, I, p. 578.
21 *Vita*, Éd. *M.G.H.*, p. 2; Éd. Petschenig, p. 4. ; Éd. Migne, p. 183
22 *Vita*, Éd. , *M.G.H.*, p. 3.
23 قـارن Possidius *De Calama, Vita Augustini*, dans Patrologiae Latinae, t. 32, Paris, 1877, XXVIII, pp. 57-59; Possidus de Calama, *Vita Augustini*, Wérskotten, London, 1919, XXVIII, pp. 110–116، مع: *Vita*, éd M.G.H., pp. 3-4.
24 قارن *De Tempore Barbarico*, éd. Morin, 1897 II, 6, pp. 204–205. مع *Vita*, Éd. M.G.H., III, I p. 3.

ولقد حاول ڤيكتور ما بوسعه أن يُسمِع الامبراطورية الرومانية الشرقية آنــذاك صـــوت الأفارقة، والأخطار المحدقة بربوع بلاده، حرصاً منه على تخليصها من الغزاة الوندال. ومما يذكر أن الدوافع القوية كانت محركاً أساسيا هى أيضا.

وعلى هذا، يعد هذا المصنف التاريخي بمثابة دفاع . فقد كُتِبَ للوصول إلـــى غايـــة مـــا؛ والدفاع عن قضية معينة. ونتج عن ذلك أن خلط ڤيكتور ڤيتنـــسس Victor Vitensis – أحيانـــا– الحقيقة بالخيال. إلا أن هذا لايقلل من أهمية مصدره، فهذه عادة مؤرخي عصره المبكـــر. ولكـــن ينبغي أن نضع فى الاعتبار أن ڤيكتور كتب تاريخ مملكة الوندال وهو فى قمـــة حقـــدة علـــى هـــذا المستعمر المتعطش لسفك الدماء؛ لذا لم يكن منصفاً فى تأريخه لعدوه، بل كان كالمقهور الذي يؤرخ لقاهره.

هذة لمحة سريعة عن مدى أهمية المصنف بالنسبة لتاريخ الشمال الإفريقي فى عهد الونـــدال وذلك فى أواخر القرن الخامس الميلادى. أما إذا انتقلنا إلى شخصية المـــؤرخ ڤيكتـــور ڤيتنـــسس ، فالملاحظ أنه لم يرد ذكر له فى أى مصدر معاصر له وحتى فى المصادر القريبة العهد بـــه. ومـــن المعتقد أنه لم يكن فى عداد المشهورين آنذاك. ومع ذلك، فقد أجمعت مخطوطات مصنفه على أنـــه كان أسقفا لمدينه ڤيتا Vita مسقط رأسه[٢٥]. والتي يعتقد أنها كانت تقع فى "بيزاســـين "Byzacéne – الواقعة جنوب تونس الحالية[٢٦] –، ومن المرجح أن تكون مدينة ڤيتا "Vita" هـــى "بنـــى دراج" Beni Derradj فى أيامنا هذه[٢٧].

ومن المؤكد أن "ڤيكتور ڤيتنسس" كان من بين المشاركين فى محاورات المجمع الـــديني فـــى العام الذي دعا إليه "هونوريك" بموجب مرسوم صادر فى ٢٠مايو سنة ٤٨٣م، وحُدِّد ميعاده فى أول فبراير سنة ٤٨٤م فى العاصمة قرطاج[٢٨]، حـــضره كـــل أســـاقفة إفريقيـــا[٢٩] مـــن الكاثوليـــك والأريوسيين؛ إذ أورد ما دار فيه من حوار ويؤكد ذلك قوله "أخبرونا" "Fecerimus"– و"أخطرونا" Dixerimus و"أعلمونا"[٣٠] Libellus Noster.

ومن الواضح أيضا أن ڤيكتورلم يشغل كرسى الأسقفية فى ڤيتا حين أقدم على كتابة تاريخـــه. نستخلص ذلك من خلال سرده أحداث اجتماع مؤتمر قرطاج Carthage الديني؛ فهو لا يتحدث على الاطلاق عن الأساقفة فى صيغة المتكلم الأول الجمع، بل فى صيغة المتكلم الثالث الجمع، إذ جاء فى

25 *Vita*. Éd., M.G.H., p.4; Éd. Petschenig, p.6 ; Éd. Migne, p. 185.

26 Bouillet, M. N., *Dictionaire universel d' histoire et de géographie*, Paris, 1871, p. 308.

27 Mesnage, J., *L' Afrique chrétienne*, Évêchés et Ruines, Antiques, Paris, 1912, p. 51.

28 *Vita*, II, Éd. , *M.G.H.*, p. 22; 40; 52-55; Mansi, t. 7, col. 1141.

29 يؤكـــد ذلـــك قولـــه "...Per Uniuersam Africam constituti" أنظـــر Vita, Éd., M.G.H., p.45; Éd.Petschenig, p.81.; Éd. Migne, p. 241.

والمقصود هنا كل البلدان الإفريقية الخاضعة للسيادة الوندالية

30 *Vita*, Éd., *M.G.H.*, p.40; Éd.Petschenig, p.72; Éd. Migne, pp. 233-234.

مـــصدره "أخطـــروا أســـقفيتنا"[٣١] Dixerunt Nostri Episcopi، و"أخطرونـــا" [٣٢] Nostri Dixerunt، و"كتبوا إلينا"[٣٣] Nostri Conscripserant. ويبدو أن الأمـــر يتعلـــق بالخطبـــاء العشرة المعينين من قبل الكاثوليك للتحدث باسمهم ونيابة عنهم[٣٤].

وبتفحص مصنف ڤيكتور، نلاحظ أنه نسخه فى قرطاج[٣٥]، إذ تواجد فى عاصمة الوندال فى الثامن عشر من يونيو سنة ٤٨٠م حين قرأ المستشار الملكي المكلف بالعلاقات بين الملك والكنيـــسة فى قرطاج "فيتارى"Vitarit" المرسوم الملكي الخاص بالتصريح بانتخاب أحدالأســـاقفة[٣٦]. كـــذلك كان ڤيكتور فى حضرة الأسقف أوجين[٣٧] Eugéne عندما أخبره أحد الأتقياء برؤية رآها ســـتتحقق بعد عامين، أى فى عام ٤٨٢م، مفادها أن الشمال الإفريقي سيشهد اضطهادات بالغـــة العنـــف[٣٨]. أضف إلى ما تقدم، فإن ڤيكتوركان لايزال فى قرطاج عندما تحركت قافلـــة المنفيـــين فـــى اتجـــاة الصحـــراء، يخيم عليها الألم والحزن، وتبعث على الشفقة [٣٩]. وقد صاحب المنفيـــين فـــى رحـــلة إبعادهم عن بلادهم، إلا أنه لم يُنفَ معهم[٤٠]. كما كان ڤيكتور فى حضرة الأسقف أوجين Eugéne فى قرطاج حين تسلم من الملك الوندالي هونوريك Huneric فى التاسع عشر من مايو ســـنة ٤٨٣م مرسومًا يدعوه لحضور المجمع الديني العام Colloque الذي حُددَ تاريخ انعقاده فـــى الأول مـــن

---

31 Vita. Éd., M.G.H., p.25; Éd.Petschenig, p.45; Éd. Migne, p. 218.

32 Vita. Éd., M.G.H., p.25; Éd.Petschenig, p.45; Éd. Migne, p. 218.

33 Vita. Éd., M.G.H., p.25; Éd.Petschenig, p.46; Éd. Migne, p. 219.

34 Vita. Éd. . M.G.H., p.25; Éd.Petschenig, p.45; Éd. Migne, p. 218.

35 إذ جاء فى مصدره "... مع أنه هنا فى قرطاج" Sicut Ibi Carthagine أنظـــر: ;Vita, Éd. . M.G.H., p. 3 Éd.Petschenig, p. 5.; Éd Migne, p.184. وفى مواضع أخرى ورد"... هناك فى قرطـــاج" Ibi Carthagint. أنظر: Vita, Éd. M.G.H. P.52; Éd.Petschenig, p. 96. ; Éd Migne, p. 151.

36 Vita. Éd. M.G.H., p.14; Mansi, 7, col. 1142.

37 إسم "أوجين" Eugéne إسم يونانى، ويعد من الأسماء النادرة للغاية– آنذاك – فى الشمال الإفريقي. وممـــا يـــذكر أن بعض الأساقفة الأفارقة كانوا ذات أصـول يونانية، منهم على سبيل المثال الأسقف ڤالريوس Valerius ســـلف القـــديس أوغسطين فى هيبـــو Hippo (أنظـــر: Possidius, *Vita Augustini*, Éd.H.T.Weiskotten, p. 48). ويبـــدو ان وقت تنصيبه أسقفاً على قرطاج، لم يكن من بين البارزين. ويكتفى ڤيكتور بوصفه بأنه "قديس ومحبوب من الله" Viro Santo Deoque Accepto. (أنظر: Vita, éd. M.H.,.14). وقد عين أسقفاً على قرطاج أواخر شهر يونيـــو ســـنة ٤٨١م. (أنظـــر: – Mansi. J.. *Sacrorum Conciliorum Nova et Amplissima Collectio*, VII, a. 451 .492, col, 1143.) وكان أول إسم ورد فى قائمة المنفيين (أنظر: *Mansi*, VII, col. 1156). وتوفى ســـنة ٥٠٥م فى أحد أديرة اللانجدوك Languedoc بعد أن عانى من اضطهاد فى عهدى هونوريك وترازاموند أنظر: Bouillet, M.N., *Dictionnaire Universel d' Histoire et de Géographie*, Paris, 1871, p. 632.

38 Vita, Éd. M.G.H., p.17. Ø ;Éd. Petschenig , pp. 30-31 Éd. Migne, p. 207.

39 Vita, Éd. M.G.H., p.19. Ø ;Éd. Petschenig , pp. 33-34 Éd. Migne, p. 203.

40 Vita, Éd. M.G.H., p.20; Éd.Petschenig, p.33. ; Éd. Migne, p. 209.

وقد تأكد لنا ذلك حين رجعنا إلى قائمة المنفيـــين المعنونـــة "Nomina Provinciae Proconsularis, vel qui In Exilium Missi Sunt". أنظر الاسماء فى: Mansi 7, cols. 1156 – 1164.

فبراير سنة ٤٨٤م[41]. وقد ظل ڤيكتور فى قرطاج عندما وصل الاضطهاد المذهبى أقصاه، حين رأى بأم عينيه عملية تعذيب كان ضحيتها طفل كاثوليكى يبلغ من العمر سبع سنوات، ينتمى إلى إحدى العائلات الشهيرة، علما بأنة لم يذكر اسمه[42]. والذي يبعث على الدهشة أيضا أن ڤيكتور كان على معرفة جيدة بمسيحيى قرطاج، وقد ذكرأن هونوريك Huneric كلف الجلادين بالبقاء على أبواب الكنائس الكاثوليكية، وأوصاهم بمنع دخول الوندال للصلاة فيها[43].

وهكذا، كل هذه الشواهد والدلائل تثبت أن ڤيكتور كان من رجال الدين فى قرطاج العاصمة حيث أقام فيها بصورة دائمة فى أعوام٤٨٠و٤٨١و٤٨٤م .أضف إلى ذلك استشهاده بنصوص من الكتاب المقدس أثناء سرده التاريخى.كان ذلك قبل ارتقائة مرتبة الأسقفية فى ڤيتا[44].

محاولة تحديد سنة ميلاده وسنة وفاته:

ولا نعلم على وجة اليقين تاريخ ميلاد ڤيكتور ڤيتنسس، ولكن بما أنه نقل السرد التاريخى الذي أورده بوسيديوس "أسقف جالمة" (ڤالمة) Possidius de Calama فى كتابة "حياة أوغسطين" Vita Augustini حين تعرض فى مصنفه لغزوالوندال للشمال الإفريقي الذي لم يعاصره -كما سبق القول- لذا يمكن القول إنه لم يكن قد ولد بعد آنذاك، أوأنه كان لايزال طفلاً صغيراً. وعلى هذا الأساس، لايمكننا القول إنه ولد بين عامى ٤٢٥و٤٣٠م. ومن ناحية أخرى، كان سن الانخراط فى السلك الكنسى آنذاك فى حدود العقد الثالث. من هذا المنطلق لا يمكننا القول إنه ولد بعد عام ٤٥٠م. أما فيما يتعلق بسنة وفاته، فلا يمكن افتراضها بدقة كحال سنة ميلاده.

سنة كتابته لمصنفه:

يبقى لنا تحديد سنة كتابته لمصنفه، إذ نلاحظ فى هذا الصدد أن ڤيكتور أخبرنا فى مستهله أنه يسرد الأحداث بعد مضي ستة عقود من وصول الوندال إلى الحدود الإفريقية. علما بأننا نستطيع تحديد عملية نزول الوندال على الشاطئ الإفريقي بسنة ٤٢٩م. وعلى هذا الاساس، يمكن القول إن مصنف "تاريخ الاضطهادات التي لحقت بولاية إفريقية فى عهد ملكى الوندال "جيزريك وهونوريك" كتبه ڤيكتور ڤيتنسس سنة٤٨٩م. هذا بينما يرى العالم الفرنسى "هـ.ف.جوتيية" E.F.Gauier فى كتاب "جنسريك ملك الوندال" Genseric roi des Vandales وأخذ عنه "فردينان لو" Ferdinand Lot فى كتابه "الغزوات الجرمانية" Les Invasions Germaniques أن ڤيكتور بدأ فى كتابة مصنفه حوالى عام ٤٨٦م[45].

---

41 Vita, Éd. M.G.H., p.22; Éd.Petschenig, pp.39 - 40; Éd. Migne, p. 213-214.
42 *Vita*. Éd. M.G.H., p.52; Éd.Petschenig, p. 97; Éd. Migne, p. 252.
41 *Vita*, Éd. M.G.H., p.15; Éd.Petschenig, p. 27; Éd. Migne, p. 204.
44 *Vita*, Éd. M.G.H., p.19; Éd.Petschenig, p. 34; Éd. Migne, pp. 209-210.
45 Gautier, E. F., *Gensric roi de Vandales*, Paris, 1935, p. 168; Lot, F., *Les invasions Germaniques*, Paris, 1945, p. 145.

تحليل المصنف:

وبتصفح مصنف فيكتور فيتنسس، نلاحظ أنة قسمه إلى ثلاثة فصول، الاول: يتناول الأحداث من عام ٤٢٩ حتى عام ٤٧٧م، و:الثاني: يسرد أحداث يانير ٤٧٧ حتى فبراير ٤٨٤م؛ أما الفصل الثالث فيبدأ من فبراير سنة ٤٨٤م وينتهى بديسمبر من نفس العام.

أحداث الفصل الأول:

هذا عن تقسيم المصدر إلى ثلاثة فصول. وإذا تفحصنا أحداث الفصل الاول، نلاحظ أن فيكتور خصصه بالكامل للحديث عن عهد جيزريك[٤٦] Geiseric بدءا من عام ٤٢٩م حتى وفاتة فى ٢٤ يناير سنة ٤٧٧م.

انتقال الوندال إلى الشمال الإفريقي :

استهل فيكتور روايته عن انتقال الوندال إلى الشمال الإفريقي بسرد موجز لرواية المؤرخ المعاصر بوسيديوس أسقف قالمة علماً بأننا لا نعرف الكثير عن أحوال الوندال فى الفترة الواقعة بين شهر مايو سنة ٤٢٩م حتى نهاية ربيع عام ٤٣٠م، وهى الفترة التي بدأ فيها الوندال حصار هيبو رجيوس Hippo Regius. فالمصادر التي أشارت إلى نجاح جيزريك فى الأنتقال بسهولة بحراً على رأس جيشه من اسبانيا إلى إفريقيا جنحت إلى الإيجاز الشديد[٤٧]. فقد اكتفى بوسيديوس

---

46 التزمنا – طبقا لما ورد فى فيكتور – بكتابة "جيزريك" Geisericus هكذا. (أنظر: Vita, Éd. Petschenig, p.3 sqq; Vita, Éd. Migne. p.181 sqq أنظر ايضاً: Procopius. *The Vandalic War*, p. 29 sqq) وورد فى المراجع الأجنبية تارة "جيزريك" Geiseric (أنظر: Pirenne. H., *Mahomet et Charlemagne*, Paris, 1970, p.12 sqq. Courtois, Ch., *Les Vandales et l' Afrique*, p. 157 sqq.) و"جنسريك" Genséric. أنظر: E.F. Gautier, *Genséric roi des Vandales*, Paris, 1935, p.7 sqq; Halhen, L., *Les Barbares*, Paris, 1936, p. 22 sqq. والملاحظ أنه فى ص ٢٢ أورد "جيزريك" Geiserich أو "جنسريك" Genséric بينما التزم بجنسريك فى الصفحات التالية لصفحة ٢٢. كذلك ورد على شكل "جنسريك" فى: Desanges. J., "Un Témoignage Peu connu de Procope sur la Numidje Vandale et Byzantine", *Byzantion*, 1963. XXXIII, p. 49 sqq; Doutreloux, *Histoire de saint Augustin*, Bruxelles. 1892, .II, p.270 sqq; Martroye, F., *L' Occident á L' epoque Byzantine*, Paris, 1904, p. 179 sqq; Schmidt, L., *Histore des Vandales*, Paris, 1953, p. x1 sqq; Le Clercq, H., *Dictionnaire d' Archéologie Chrétienne de Liturgie, Art justinien*, Paris, 1928, VIII, col. 553.

أما المراجع العربية فقد ورد على شكل "جنزريك" فى اسحق عبيد: الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية – القاهرة ١٩٧٢م – ص ١٢٩،١٤٠ وما بعدها؛ من آلاريك إلى جستنيان، القاهرة ١٩٧٧م، ص ١٣٨ وما بعدها؛ محمود سعيد عمران، مملكة الوندال فى الشمال الإفريقي، الإسكندرية ١٩٨٥، ص٥ وما بعدها؛ عبد الحفيظ محمد علي، قوة الوندال البحرية، القاهرة ١٩٨٧م، ص٤ وما بعدها؛ إبراهيم على طرخان، شمال أفريقية والوندال، ص١٠٦ ومابعدها.

47 عن أهم المصادر التي أشارت إلى أختيار الوندال مضيق جبل طارق أنظر:
Possidius, *Vita Augustini*, XXVII, Éd. H. T. Weiskotten. pp. 110 –112; Possidius, dans *Patrologiae Latinae*, XXXLL, Paris. 1877, pp.57 –59; Vita, *M.G.H*, III, I, pp. 3 – 4 (الملاحظ أن فيكتور دوفيتا نقل عن بوسيديوس Hydace. *Chronique*, dans *M.G.H.a.a.*, 1894, X1, p. 21; Prosper, S., (403 – 463) *Chronique*, dans *M.G.H.a.a.*, 1894, 1X, p.472; Isidore Hispalenis

أسقف قـالمة Possidius de Calama في "سيرة القديس أوغسطين" Vita Sancti Augustini بالقول:

"شاءت الإرادة الإلهية لجيوش عديدة من الوندال والآلان؛ وانخرط في صفوفهم أيضاً القوط وأشخاص ينتمون إلى كافة العناصر؛ كل هـؤلاء أبحـروا مـن اسبانيا، وانقضوا كالصاعقة على إفريقيا. وكان هؤلاء البرابرة مسلحين أحسن تسليح، ومتمرسين على فنون الحرب. فإذا بهم يعبرون موريتانيا، ومنها إنتقلوا إلى بقية أقاليمنا".(٤٨)

هذا عن رواية بوسيديوس؛ أما فيكتور فيتنسس، فقد نقل بإيجاز رواية بوسيديوس إذ اكتفـى بالقول إن جيزريك، على رأس، جيشه، إنتقل بسهوله بحراً من اسبانيا إلى إفريقيا.(٤٩)

في حين ذكر جريجوار دو تور Grégoire de Tours أن نقطة انطلاق الاسطول الواندالي كانت من الميناء الاسباني الصغير "يوليا ترادوكتا" Julia Traducta، الواقع في أقصى جنوب شبة الجزيرة الأيبيرية (٥٠)، والذي عرف فيها بعد بميناء "طريف"(٥١)Tarifa؛ إذ قـام جيزريـك بنقـل جيوشه إلى إفريقية وبصحبته شعبه من الوندال والآلان، وانضم إليه أيضاً بعض القـوط القـاطنين

Episcopi, *Historia Wandalorum*, dans *M.G.H.a.a.*, XI, Berlin, 1894, p. 472; Cassiodore, *Chronique*, dans *M.G.H.a.a.*, XI, p. 156; Chronica Gallica, *Chronica Minora*, dans *M.G.H.a.a.*, IX, p. 658.

48 إذ جاء فـي هـذا المـصدر: "... Divina Voluntate et Potestate Provenit, ... Immanium Hostium Vandalorum et Alanorum Commixtam Secum Habens Gothorum Gentem, Aliarumque Diversarum Personas, Ex Hispaniae Partibus Transmarinis, Navibus Africae influxisset Et Irruisset: Universaque per Loca Mauritaniarum etiam ad alias nostras Transiens Provinsias et Regiones,..." أنظر: Possidius, *Vita Augustini*, in *P.L.*, XXXII, Paris, 1877, pp. 57 – 58.

49 Vita,Éd. M.G.H., p. 1; Éd.Petschenig, p.3; Éd. Migne, p. 181.

50 *Grégoire de Tours*, dans *M.G.H.a.a.*, I, p. 61.

ومما يذكر أن المصادر لم تذكر مكان رسوهم حين أبحروا إلى الشمال الإفريقي.

51 "طريف" Tarifaأو "Julia Traducta" أو "جوزا" Joza أو "جزيرة الأندلس" (إذ جاء في :أخبـار مجموعـة"أن موسى بن نصير..." بعث رجلاً من مواليه يقال له "طريف" ... نزل بمراكبه جزيرة يقال لهـا "جزيـرة الأنـدلس"... ويقال لها أيضاً "جزيرة طريف" سميت به لنزوله بها" أنظر: مؤلف مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأنـدلس وذكـر أمرائها والحروب الواقعة بينهم – تحقيق محمد زينهم محمد عرب – القاهرة ١٩٩٤م– ص٥٢). وطريف ميناء إسباني يطل على جبل طارق على بعد ٦٥ كم جنوب شرق قادس Cadix وهي مدينة في أقـصى جنـوب القـارة الأوربيـة وبالتالي أقرب مدينة إلى الشمال الإفريقي. وقد سميت على إسم طارق بن زياد فـاتح الأنـدلس. أنظـر: Bouillet, *Dictionnaire d'Histoire et de Géographie*, p. 1840; E. Levi Provencal, *Art. Tarifa*, dans E.I., IV. p.699. Gautier, *Genséric*, p. 167.

وقد أخطأ كل من فيكتور دورفيتا وجوردانس حين حددا المسافة من ميناء طريف إلى شاطئ الشمال الإفريقي. فـالأول حددها بـ ٢٣ ميل أي. ١٨,٧٦كم (أنظر: Vita, M.G.H.,III, p. 2)؛ أمـا الثـاني، فقـد حـددها بـسبعة أميـال (أي ١٠,٣٦٠كم) وصحة ذلك ١٣كم أنظر: *Bouillet*, p. 1840

باسبانيا، وأقوام عديدة أسبانية أخرى وكانوا ما يقرب من ثمانين ألف نسمة، منهم خمسة عشر ألف جندى. كان ذلك فى مايو سنة ٤٢٩م[٥٢].

ويلات الغزو الوندالي للشمال الإفريقي:

يتضح مما تقدم أن رواية بوسيديوس أسقف جالمة[٥٣] والتي أوجزها ڤيكتور، تعد أكمل الروايات وإذا صدقنا ما ورد فى المصدرين، فإن الغزو والوندال لوطنهما صاحبته جرائم يندى لها الجبين فقد أورد ڤيكتور:

> "أن الوندال بسطوا سيادتهم على كل البلاد، ناهبين، مخربين، جارفين، ذابحين كل من يقابلهم؛ حتى أن أشجار الفاكهة لم تسلم من عبثهم، وحتى لا يتركوا خلفهم ذلك المورد الغذائى الضعيف للذين كانوا قد التجأوا إلى الكهوف والجبال وفى خنادق وأماكن أخرى بعيدة. وكان الوندال، بعد تخريبهم لمدينة ما، يعودون إليها ثانية ليبدأوا إتلافها من جديد. ولم يفلت من نهبهم أو سلبهم أى مكان. وانصب أذاهم على الكنائس والمدافن والأديرة على وجة الخصوص. فبيوت العبادة منيت بنصيب أكبر من ألسنة اللهب فاق نصيب المدن والكفور الحصينة. فإذا وجدوا أبواب هذة الكنائس مغلقة، تكاتف الجميع على كسرها بضربها بالفؤوس. كما استخدموا أبشع ألوان العذاب لإكراه أشهر الأساقفة الشهداء على تسليم ثرواتهم الخاصة والذهب والفضة المتواجدين فى كنائسهم؛

---

52 إختلفت المصادر فى تحديد تاريخ وصول الوندال إلى الشمال الإفريقي، إذ أُدْرِجَ تارة تحت أحداث سنة ٤٢٧م.(أنظر: Prosper, *M.G.H.*, 1X, p. 472; *Cassiodore*, X1, p. 156). وتارة ثانية تحت أحداث سنة ٤٢٨م (أنظر: *Chronicon Paschale*, dans *C.S.H.B.*, I, p. 581.) وتارة ثالثة تحت أحداث سنة ٤٢٩م. (أنظر: Hydace, *M.G.H.*, X1, p. 21) بل ويؤكد هيداس أن تاريخ وصول الوندال إلى الشمال الإفريقي كان فى شهر مايو سنة ٤٢٩م. والملاحظ أن ڤيكتور دوڤيتا لم يحدد ذلك بدقة واضحة، إذ أورد "فى العام الستين" Sexagensimus Annus دون تحديد فى العام الستين من ماذا؟ (أنظر: Vita, *M.G.H.*, t.III, p.2.). على أية حال، يعد ما أورده هيداس أدق هذه التواريخ. وقد أخذ به جوتيية(أنظر: Gautier, p. 168). وقد أشار هيداس إلى أن هذه الهجرة العسكرية كانت هجرة إستيطانية دائمة، إذ جاء فيه: "Cum Vandalis Omnibus Eorumque Familiis...Transit." (أنظر: Hydace, dans *M.G.H.a.a.*, X1, p. 21.) وحدد العالم الفرنسى كريستيان كورتوا جيش جيزريك ما بين عشرة إلى خمسة عشر ألف مقاتل.(أنظر: Courtois, C., *Les Vandales et l' Afrique*, Paris, 1955, p. 162.) هذا بينما ذكر جوتييه نقلاً عن لودويج شميت أن عدد الرجال من حملة السلاح لم يتعد ستة عشرة ألفا. أنظر: Gautier, *Genséric*, p. 138; Schmidt, L., *Histore des Vandales*, Paris, 1963, p. 57.

53 الجدير بالذكر أن بوسيديوس ترك أسقفتيه جالمة، ليقف بجوار سيده القديس وأغسطين أثناء محنة حصاره فى "هيبو" Hippo. (أنظر: Possidius, p. 114) هذا بينما يذكر "بروسبير" أنه طرد من أسقفيته سنة ٤٣٧م. أنظر: Prosper, *Chronique*, dans M.G.H.a.a., 1x, p. 475.

واستشهد عديد من رجال الاكليروس نتيجة العذاب الأليم الذي عانوا منه. وإذا كان بعض من التعساء قد ضعف أمام التعذيب، وأسرع بالتنازل عن كل ما يملك، كانوا يضاعفون من تعذيبه، معتقدين أنه لم يتنازل لهم عن كل شيئ، ولازال لديه الكثير؛ وكلما كانوا يستولون على الثروات، كلما اعتقدوا أن هناك الكثير لازال مخفيا. ولإجبار الناس على الاعتراف بأماكن ثرواتهم ،كانوا يفتحون فمهم بقوة مستخدمين فى ذلك أوتاد خشبية صغيرة، ثم يلقون بداخلها طين رائحته لا تطاق ولا تحتمل؛ أما البعض الأخر فقد كانوا يربطون جبهتهم وسيقانهم بعنف وقوة لدرجة أن الحبال كانت تتقطع؛ فى حين أكرهوا الغالبية العظمى على ابتلاع كميات هائلة من مياة البحر والخل والثمالة أى رواسب السوائل أو بعض المشروبات المشابهة حتى يتورم جسد هولأء التعساء .

ولم تتأثر قلوبهم البربرية المتحجرة لا بضعف الجنس ولا بشيخوخة المرء، ولا بشرف الأصل، ولا باحترام الملابس الكهنوتية. وليس باستطاعة أحد حصر أعداد الأساقفة و أشخاص المرتبة العالية الذين أجبروهم – كأنهم جمال أودواب– على حمل الأثقال الهائلة، ولم يكتفوا بذلك، بل كانوا يستعجلونهم فى السير، فكانوا يتساقطون ويموتون تحت أثقالهم. ولم يرحموا الشيوخ الطاعنين فى السن رغم ضعفهم البالغ. كما كانوا يقتلعون الاطفال من أذرع أمهاتهم، وببربرية ووحشية بالغة، يسحقونهم على الأرض. وكانوا يمسكون الأطفال من أرجلهم، ويشقون جسدهم نصفين.

ولم يكتفوا بإشعال النيران لتدمير بعض الآثار أو بعض الأبنية الهامة، بل كانوا ينزعون أسقفها الخشبية، ثم يدمرون حوائطها حتى تتساوى مع سطح الأرض؛ لدرجة أنه لم يبق أى مبنى من الأبنية الفخمة والتي كانت تزين المدن، إلا وتساوت كل هذة المبانى بمسطح الأرض بفعل الدمار. وأضحت الغالبية العظمى من المدن إما نادرة السكان، أو خاوية تماما لايسكنها أحد(٥٤)".

هكذا زودنا ڤيكتور ڤيتنسس بصورة مفصلة للجرائم البشعة التي ارتكبها الوندال بُعَيْدَ وصولهم إلى الشمال الإفريقي. ويتضح بجلاء المبالغة التي لايتقبلها العقل. وتقاربت روايته في أجزاء منها مع رواية المؤرخ المعاصر "بوسيديوس" الذي اعتاد ڤيكتور النقل عنه – إذ أورد كاتب "سيرة القديس أوغسطين:

54 Vita, Éd. , *M.G.H.*, III , pp..3-4; Éd.Petschenig, pp.3-5; Migne, pp. 181-183; St. Augstin, *Epistolae*, CCXXVIII, *C.S.E.L.*, LVII, pp. 484-486.

" ... فى كل مكان حل الوندال به، هجره سكانه هرباً من جرائمهم الدموية و أعمال القتل والسلب والنهب و التخريب. فجرائمهم غريبة ولايمكن حصرها. ولم يفلت من قبضتهم لا الشخص الطاعن فى السن ولا نوع الجنس إذا كان طفلا أو امرأة. ولم يسلم من حنقهم الأساقفة و رجال الاكليروس والكنائس والزينات و الأوانى المقدسة. أما أوغسطين، ذلك الرجل النقى حبيب الله، فقد شاهد بدايات ما الحقوه بالبلاد من خراب مفزع، وتنبأ بالاحداث التالية. وتأثر بهذة الأحداث أكثر من غيره، واضعاً فى اعتباره المخاطر التي ستطال وتلحق بسكان الشمال الإفريقي، إذ ليس من السهل عليهم الإفلات من الموت المحقق. فحسب قوله: لقد أصبحت الدموع بمثابة خبزه الذي يتغذى علية ليل نهار"

وهكذا أنهى القديس أوغسطين شيخوخته فى مرارة وحزن. ولا أحد يستطيع أن يدرك مدى تأثره بهذه الأحداث(٥٥).

أما النص الثالث الذي يصف أحوال الشمال الإفريقي آنذاك، فقد كان شديد الإيجاز، إذ كتب "كابريولوس" أسقف قرطاج Capreolus de Carthage تحت أحداث سنة ٤٣١م، أنه لا يستطيع استدعاء أساقفة إفريقيا لحضور مؤتمر دينى، لأن جموعاً غفيرة من الاعداء – أى الوندال– اجتاحوا البلاد:

" ... فقطعوا كل الطرق، وأقاموا المذابح للسكان، لاذوا بالفرار إلى موضع آخر. وفى كل مكان حلوا به، وعلى مدى البصر، لم يكن المرء يرى سوى الخراب الذي أتى على كل شيء والدمار والبؤس الذي عم ربوع البلاد(٥٦)".

وأخيرا هناك النص الرابع ورد فى رسالة تحت رقم ٢٢٨ بتاريخ ٤٢٩م، أرسلها القديس أوغسطين إلى أحد الأساقفة ويدعى" كودفلتديوس Quodvoultdeus" أسقف ثيابينا Thiabeena الواقعة بين هيبو Hippon (سوق أهراس حاليا). كان كودفلتديوس قد طلب النصيحة من أوغسطين فيما يجب عمله بصدد أحوال وأوضاع الأساقفة، فرد عليه قائلا:

" بعد أن أرسلت إليكم نسخة من الخطاب الذي كتبه إلىّ شقيقنا وزميلنا كودفلتديوس، أعتقد أننى تحررت من المسئولية التي تفرضونها علىّ، وعندما سألتمونى عن مسلككم الواجب اتباعه إزاء أخطار العصر الذي نعيشه الآن، قلت إنه ينبغي أن نترك الحرية للذين يبحثون عن أماكن أمينة بعيداً عن الأخطار، إذا تمكنوا من ذلك. أما نحن، فإخلاصاً لوظائفنا، وارتباطاً بالله ومحبته، لاينبغي أن نترك كنائسنا التي كلفنا بها ... وحسب ما ورد إلينا من

---

55 Possidius, *Vita Sancti Augustini*, *P.L.*, col. 58.
56 *Capreolus de Carthage*, Ep., II, dans *P.L.*, III, col. 845.

معلومات، قال أحد الأساقفة "إذا كان الله قد أمرنا أن نهرب من الاضطهادات بأن نلوذ بالفرار عندما نجنى ثمار الاستشهاد، فهل يوجد مبرر أقوى من هذا. فبالفرار نستطيع أن نتجنب موتاً لافائدة من حدوثه خاصة إذا كان البرابرة هم الذين يهددونا" وهذا منطقى ويحتذى بـه، ولكنـه لايتعلـق علـى الإطـلاق بالأشخاص الذين يؤدون وظائف متعلقة بالكنائس[٥٧]"

على أية حال، هذه النصوص المتفرقة والمختلفة توضح بجلاء الإرتباك والاضطراب الذي ساد قاطنى الشمال الإفريقي وعلى وجه الخصوص رجال الكنيسة الكاثوليكية وذلك عشية وصول الغزاة الوندال. ولكن-كما سبق القول- ينبغي أن نتعامل مع هذه النصوص بحرص بالغ وقراءة متأنية؛ إذ يجب أن نضع فى اعتبارنا العداء بين الكنائس الكاثوليكية والأريوسية من ناحية، وأعمال العنف التي ارتكبت أيضا عقب انتقام الدوناتيين وعصابات من القوم غير المنضبطين الذين لقبهم خصومهم بـ"الدواريين" Circoncellions بمعنى "المتسكعين حول المزارع " من السلطة الامبراطورية التي ساءت حالتها من ناحية أخرى. إضافة إلى ذلك، فإن الأثار لم تزودنا بدليل مادى ثابت يؤكد حريق إحدى المدن أو الأبنية نستطيع أن ننسبها بطريقة لاتدع مجالا للشك إلى الوندال. فلم يصلنا بصدد ذلك أى نقش على المقابر، ما عدا نقش "الطاوة" Altava الذي حفظ لنا ذكرى ضحايا لا حصر لهم نتيجة الغزو الوندالي[٥٨]. ومن بين كل هؤلاء الأساقفة الذين عوملوا بقسوة بالغة، لم يصل إلى معلوماتنا سوى شهيدين هما "بامبينيانوس دوفيتا " Pampinianus de Vita ومانسويتس دوروس Mansuetus d' urus الذي يقال إنهما أحرقا بشفرات الحديد المحمى[٥٩]. والملاحظ أن الكنيسة الكاثوليكية فى الشمال الإفريقي آنذاك، لم تقم بحصر شهدائها. والحدث الوحيد المؤكد هوهتك عرض الراهبات[٦٠].

انتصارات جيزريك المتلاحقة:

ومن المعتقد أن جيزريك نجح فى غزو الجزء الأكبر من نوميديا (الجزائر الحالية) Numidie، ثم اكتسح افريقية القنصلية[٦١] (تونس الحالية) Africa Proconsularis والتي بعد سقوطها – أطلق عليها اسم "زغوان" Zeugitame وكانت عاصمتها قرطاج Carthage.

---

57 *Nicene and Post-Nicene Fathers of Christian Church*, Éd. Philippe, Schaff, Michigan, 1956, Vol. I, p. 577.

58 St. Gsell, Histoire ancienne de l'Afrique du nord, Paris, 1929, V, pp. 114-116.

59 Vita, Éd. M.G.H., p.4; Éd. Petschenig, p. 6; Éd Migne, p. 185.

60 S. Léon, *Epist.*, 8,11, dans *P.L.* , LIV, col. 653.655.

61 بعد سقوط إفريقية القنصلية فى قبضة الوندال، أطلق عليها إسم "زغوان" Zeugitane ،إذ أورد فيكتور: "Zeugitanam Uel Proconsularem" (أنظر: *Vita, M.G.H*, p. 4) وكانت عاصمتها قرطاج أنظر: *Vita*, *M.G.H.*, p. 4; Petschnig, p. 7; Migne, p. 186.

وبعد ذلك انقض على بيزاسين[٦٢] (وهى مدينة سوسة الحالية) Byzacène. وبعد أن ألحق جيزريك الهزائم بالجيش الرومانى على حدود إفريقية القنصلية[٦٣] Africa Proconsularis، إنسحب قائد الجيش المهزوم إلى" هيبورجيوس Hippo Regius" (عنابة حاليا) الواقعة على بعد مائتى ميل تقريبا إلى الغرب من قرطاج، فبدأ الملك الوندالي بمحاصرتها[٦٤]وذلك في يونيو سنة ٤٣٠م. وفى الشهر الثالث من هذا الحصار، فى الثامن والعشرين من أغسطس سنة ٤٣٠م، توفى القديس أوغسطين وكان فى السادسة والسبعين من عمره، العام الأربعين من أسقفيته. وظلت المدينة الغاصة باللاجئين صامدة فى وجة الغزاة لمدة أربعة عشر شهراً، إلى أن اجتاحوها فى يوليو٤٣١م، فكان نصيبها النار والدمار[٦٥].

ويرى "هـ.ف.جوتييه" E.F.Gautier الذي أعد كتابا بعنوان "جنسريك ملك الوندال " Gnséric Roi Des Vandales وذلك أثناء قيامه بالتدريس فى جامعة الجزائر عقر دار الوندال، يرى أن من أهم نتائج طول أمد حصار هيبوجيوس Hippo Regius إنقاذ قرطاج Carthage من السقوط فى قبضة الغزاة، إذ حرصت الامبروطورية الرومانية آنذاك على تحصينها وتقويتها وتأمينها وإسناد عملية الدفاع عنها إلى مقاتلين يتسمون باليقظة، لكونها غنيمة جيزريك المرتقبة. فى حين أدرك الزعيم الوندالي -حرصاً على جيشة وأسطوله- التخلى عن مهاجمة مدينة وميناء قرطاج انتظاراً للظروف المواتية[٦٦].هذا وينفرد "بروكوبيوس Procopius – الذي كتب مصنفه بعد مضى قرن من الزمان – بالقول إن "جيزريك" خشى من وصول جيوش من روما والقسطنطينية لقتال الوندال، وبالتالى يفقد الغنائم الطائلة التي حصدها من المدن التي اجتاحها[٦٧]. ويعد هذا سبباً من الأسباب. إلا أن تفحص مجريات الأحداث يجعلنا نضع فى الحسبان أن معاناة الجيش الوندالي من

---

62 Vita, M.G.H., p. 4: Petschenig, p. 7; Migne, p. 186.
و"بيزاسين" عاصمتها أنذالك هدرامنتوم Hadramentum، وهي مدينة سوسة الحالية. وبيزاسين هى سهل تونس فى أيامنا هذه. أنظر: Gautier, *Genseric*, p. 217.

63 إنفرد بروكوبيوس – دون غيره من المصادر– بذكر هذه المعركة إلا أنه لم يحدد موقعها بدقة. أنظر: *Pocopius*, I, p. 32 .

64 للتفاصيل عن هذا الحصار، أنظر: *Vita*, *M.G.H.*, III, p. 4; *Procopius*, I, pp. 323-325; Prosper, IX, p.473. والجدير بالذكر أن حصار هيبو بدأ فى يونيو سنة ٤٣٠م، وأن القديس أغسطين توفى فى ٢٨ أوغسطس سنة ٤٣٠م وحسب قول كاتب سيرته، توفى فى الشهر الثالث من الحصار (*Prosper*, Ix, p. 473; Possidius, p. 114)و "هيبو رجيوس" Hippo Regius كانت أكبر مدن نوميديا (الجزائر حالياً)، وكانت مستعمرة بحرية غربى قرطاج وقد أطلق عليها رجيوس Regius، لأنها كانت مقاماً لملوك نوميديا. وشهدت وفاه القديس أوغسطين نور الكنيسة الكاثوليكية ودعامتها. أنظر: *Bouillet*, p. 876.

65 فى هذا المعنى أورد شاهد العيان بوسيديوس فى مصدره "سيرة القديس أوغسطين": "Ferme Quatuordecim Mensibus" أنظر: *Possidius*, p. 144

66 *Gautier*, p. 178.

67 Procopius, *B.V.*, I, 413, p. 37; Éd. J. Haury, I, p. 326.

طول أمد الحصار أمام هيبو رجيوس رغم عزلها بعد نجاح الغزاة فى فرض حصار بحرى عليها دام أربعة عشر شهراً، كان له عواقبه الوخيمة على معنويات زعيمهم جيزريك، وكان من الطبيعي أن ينقّض جيشه على المناطق المجاورة التي لحق بها التدمير على يد الغزاة، ولم تف تلك المناطق باحتياجاتهم المعيشية، فتعرضوا بالتالى للجوع والتعب والأمراض[٦٨]. كذلك كان على الزعيم الوندالي مواجهة أعداء الداخل. فلكونه ابن مخطية، أصرّ كبار قومه على التأكيد أن أبناء أخيه غير الشقيق جوندريك Gunderic هم أحق منه بعرش الوندال. فما كان منه أن قتلهم، وأغرق أمهم في نهر أمبساجا[٦٩] Ampsaga. وأعقب ذلك اندلاع العديد من المؤامرات الخطيرة، فأخذ يقتل كل من يشك فى ولائه له. كذلك كان عليه مواجهة ثوارت البربر والجرمان والكاثوليك والدوناتيين[٧٠]. كما وضع فى الاعتبار صعوبة الاستيلاء على سيرتا Cirta لكونها بمثابة قلعة داخلية حصينة لا ترام، جاثمة على شاطئ صخرى عمودى يصل ارتفاعه بين مائتين وثلاثمائه متر. وتتحكم سيرتا في مداخل السهول المنبسطة التي يقيم فيها الدوناتيون، وكذا تتحكم فى الجبال التي يقطنها البربر. لذا فلا يوجد من يناصر الوندال فى ذلك الموضع، وبالتالى تخلى جزريك عن مهاجمتها. إذ سيتطلب ذلك الكثير من التضحيات. وتدارك أنه إذا فكر فى محاصرتها، فسيمضى وقتاً طويلاً حتى يتمكن من إسقاطها[٧١].

من كل ما تقدم، رأى جيزريك بثاقب بصره وبصيرته، التخلى عن فنون الحرب، واستخدام فنون السلم، هادفاً من ذلك، تحقيق حلمه فى إقامة مملكة وندالية فى إفريقية من ناحية، وإخفاء أطماعه التوسعية على حساب الامبراطورية الرومانية بلبس ثوب الصديق الذي لا يُخشى بأسه من ناحية أخرى.

---

68 أورد المؤرخ المعاصر بوسيدس فى هذا المعنى: "Quam Urbem Ferme Quatuordecim Mensibus conclusione Obserunt" أنظر: Possidius, Migne, p. 59

69 *Vita*, II, 14, M.G.H, III, p. 16; *Petschenig*, p. 7; *Migne*, p. 186.

70 *Vita*, I, 30, M.G.H., pp. 8-10; *Migne*, pp. 187-190.

ولقد ظهرت الدوناتية فى شمال إفريقيا فى عهد الامبراطور الرومانى دقلديانوس(٢٨٤-٣٠٥م)، وتنسب إلى دوناتوس Donatus أسقف إحدى مدن نوميديا. والدوناتية ثورة اجتماعية ضد كبار رجال الاقطاع الرومان الأثرياء لإقامة العدل. وقد اعتنقها آنذاك فقراء الشمال الإفريقي الذين ارتكبوا جرائم السلب والنهب والقتل راح ضحيتها أثريا رجال الاقطاع الكاثوليك والاساقفة. (للتفاصيل أنظر: Gautier, *Genseric*, pp. 129-137; *Bouillet*, p.545)

وبتولى القديس أوغسطين عرش أسقفية هيبو سنة ٣٩٦م، حرص على إقناع الأساقفة الدوناتيين للعدول عن هرطقتهم، ولتنفيذ نظرياتهم، أصدر العديد من الرسائل و المواعظ والمقولات، ناصره فى موقفه هذا الاساقفة الكاثوليك، واستمرت محاولات تلك بين عامى (٤٠١ – ٤٠٣م). أنظر: Schaff, P., *Nicene and Post-Nicene Fathers of the Christian Church*, Michigan, 1956, I, pp. 90, 162; Hamman, A. G., *La vie quotidienne en Afrique du nord au temps de Saint Augustin*, Paris, 1979, pp. 200 – 203.

71 *Gautier*, p. 178 .

هكذا حوالى نهاية عام ٤٣١م، تمكن جيزريك من بسط سيادته على إفريقية ما عـدا سـيرتا وقرطاج[٧٢]. ومع ذلك، وهو أوج انتصاره، أبدى استعداده لإرسال إبنه هونوريك Huneric رهينة، إثباتاً لحسن نواياه، وتأكيداً للولاء للأمبراطورية الرومانية[٧٣]. إلا أنه فى الواقع كان غير صادق فى مسعاه للصلح، بل كان فى أمس الحاجة إلى راحة جيشه بعد العناء الـذي لاقـاه مـن طـول أمـد الحصار، إضافة إلى مواجهة مشاكله الداخلية السالف ذكرها.

وبالفعل، أرسل الامبراطـور فالنتنيـان الثالـث (٤٢٥ – ٤٥٥م) Valentinian ووالدتـه بلاسـيديا Placidia إبنـة الامبراطـور هونوريـوس Honorius سـفيراً مـن قبلهمـا يـدعى تريجتيوس Trigetius، وأنتهى الأمر بعقد هدنة مع جيزريك فى هيبو رجيوس فى ١١ فبراير سنة ٤٣٥م، حددت مؤقتاً العلاقة بين الامبراطورية الرومانية وجيزريك ملك الوندال الطموح[٧٤]، ونـتج عن ذلك أن أصبحت هيبو رجيوس – منذ عام ٤٣٦م عاصمة لمملكة الوندال[٧٥].

ويؤخذ على فيكتور فيتنسس عدم الإشارة إلى تلك الهدنة، لكونه ينقل أحداث الفترة المبكـرة من تاريخ الوندال عن بوسيديوس Possidus أسقف جالمة Galama وغيره من المصادر المفقودة التي لم يذكرها؛ هذا بينما وردت فى معظم المصادر اللاتينية الأخرى[٧٦]. أما بروكوبيوس، فقد خلط بين هدنة سنة ٤٣٥م ومعاهدة سنة ٤٤٢م[٧٧].

على أية حال، بمقتضى هدنة ١١ فبراير سنة ٤٣٥م، أصـبح الونـدال معاهـدين وحلفـاء للإمبراطورية الرومانية مقابل أداء جزية سنوية خفيفة، مع السماح لهم بالاستيطان فـى مقاطعـات موريتانيا الثلاث، وقسم من نوميديا بما فيها جالمة باستثناء قرطاج. وبالفعل– وكما سبق أن وعـد–

---

[72] تحدث بوسيديوس – شاهد العيان عن بداية حصار هيبو Hippo وذلك فى يونيو ٤٣٠م – قائلاً "إن الكنائس الإفريقيـة دمرت بالكامل، ولم يبق صامدا إلا ثلاث: كنيسة قرطاج، وكنيسة هيبو، وكنيسة سيرتا Cirta (قسنطينة حالياً). فتلـك الكنائس افلتت بفضل العناية الالهية الخاصة التي حمتها من الدمار. أما المدن، فقد صمدت فى وجه الغزاة بفـضل الله أيـضاً وشـجاعة سـكانها فـى الاسـتماتة فـى الـدفاع عنهـا وسـط الـدمار والخـراب" للتفاصـيل أنظـر: *Possidius*, pp. 112–118.

[73] Schmidt, L., *Histoire des Vandales*, Trad. H. E. del Medico, Paris 1953, pp. 82 - 83; *Gautier*, 1953, p. 178.

[74] أشار إلى ذلك أحـد مـصادر القـرن الـسادس المـيلادى أنظـر: *Laterculus Regnum Wandalorum et Alanorum*, 2, dans M.G.H.a.a; XIII, p. 458. إذا جاء فى هـذا المـصدر: "Geisericus Tribus Annis Hippone Regio Exemptis Carthaginen Occupat.."

[75] *Laterculus Regnum Wandalorum et Alanorum*, 2, dans *M.G.H.a.a*, XIII, p. 458: *Epitome Carthaginiensis*, dans *M.G.H a.a.*, Ix, p. 497. وقد تطابقت الرواية فى المـصدرين، إذ أورد المـصدر الثاني: "... Geisericus Tribus Annis Hippone Regio Exemptis Carthaginen occupant ..."

[76] أنظر على سبيل المثال المصدرين السابقين وكـذلك: Prosper, pp. 474 - 479; Cassiodore, *Chron.* 1225, dans *M.G.H.a.a.*, xI, p. 156; Isidore, *Hist Wand.*, dans *M.G.H.a.a.*, XI, p. 297; *Paulus Diaconns*, p. 199.

[77] Procopius, *B V.*, I, 4, 13, p. 37; ed. J. HAury, I, p. 326 .

أرسل جيزريك ابنه هونوريكHuncric رهينة مقابل هذه الهدنه؛ لكنه سرعان ما عاد إلى والده بعد فترة وجيزة(٧٨)

جيزريك يوظف هدنة سنة ٤٣٥م لصالحه:

هكذا اعترفت هدنة سنة ٤٣٥م اعترافاً رسمياً بشرعية الوجود الوندالي على الأراضي الإفريقية. أما جيزريك، فقد وظف هذه الهدنة لصالحه، إذ اعتبرها مهلة تتيح له فرصة التخلص من أى هجوم مباغت تقوم به الامبراطورية الرومانية، فتضيع عليه فرصة توطيد أقدامه فى البلاد التي قام بغزوها. والأهم من ذلك، أنه حوّل مراكز الاستيطان التي سمحت له بها الامبراطورية إلى مراكز عسكرية ونقاط ارتكاز، للوثوب منها على البقية الباقية من أملاك الرومان في الشمال الإفريقي؛ كذلك انطلقت من سواحل تلك البلدان، السفن الوندالية، لتقوم بأعمال القرصنة في حوض البحر المتوسط، وتحتل فيما بعد جزره المتناثرة في ربوعه، إذ أورد بروسبير Prosper تحت أحداث سنة ٤٣٧م أن قراصنة البحر من البرابرة من معاهدى الامبراطورية قاموا بإغارتهم البحرية (٧٩).

وتحت أحداث سنة ٤٣٨م، يذكر أن تلك الاغارات طالت جزيرة صقلية التي لحق بها الدمار والخراب(٨٠)؛ إلا أن الوندال رحلوا عنها عندما وردت إلى مسامعهم أن الامبراطرية تعد حملة لمجابهتهم؛ وبالفعل ابحرت تلك الحملة إلى صقلية دون عائق يذكر.

على أية حال، إنتهت تلك الإغارات البحرية باستيلاء جيزريك على جزر سردينيا والبليار وكورسيكا والجزء الغربى من صقلية. علماً بأنه تأكد الاحتلال الوندالي لجزيرة صقلية سنة ٤٦٨م(٨١).

ومما يذكر أن طوال العقود الأربعة الأخيرة من حكم جيزريك(ت.٤٧٧م)، شهدت المدن المطلة على ساحل البحر المتوسط أعمال قرصنة، ذكر ذلك ڤيكتور وبروكوبيوس، إذ أوردا أن إيطاليا وصقلية ومالطة وسواحل اسبانيا المطلة على المحيط الأطلنطى وساحل إيلليريا وبلاد

---

78 Prosper, *Chron*, 1321, dans *M.G.H.a.a*, p. 474. وقد عبر بروسبير عن هذا الاستيطان الوندالى بقوله: "Data...ad Habitandum" وأنظر أيضاً: Isidore de Séville, *Hist. Vand.*, 74, dans *M.G.H.a.a*, p. 297. وكان هذا المصدر أكثر تحديداً إذ جاء في: "Partem Africa Quam... Possederant"

79 جاء في بروسبير: "Eodem Anno Piraticam Babari Foederatorum Desertores Exercuerunt" أنظر: Prosper, *Chron.* C.1330, p. 475.

80 في هذا الصدد أورد بروسبير: "Hoc Quoque Anno (438) "IiDem Piratae Multas Insulas, Sed Praecipue Siciliam Vastavere. أنظر: Prosper, *Chron.* C. 1332, pp. 475 – 476.

81 Courtois, *Les Vandales et l' Afrique*, p. 191 .

البلوبونيز وجزر بحر إيجة بل حتى الإسكندرية، كل هذه المواضع تعرضت لاجتياح وتدمير ونهب القراصنة الوندال(٨٢).

إستلاء جيزريك على قرطاج:

وتحقيقاً لأحلامه فى تكوين مملكة وندالية مترامية الأطراف، لم يركن جيزريك إلى السكينة وفق الهدنة سالفة الذكر، بل عقب إبرامها، عمل مابوسعه لتعزيز قواته العسكرية وتدعيم موقفه. ولمّا لم يبق له من مبرر للمهادنة، طوى الأحداث طيّاً، واستولى على قرطاج - عاصمة ولاية إفريقية وأكبر مدن غرب البحر المتوسط- دون مقاومة تذكر وذلك فى التاسع عشر من أكتوبر سنة ٤٣٩م(٨٣).

ويؤخذ على ڤيكتور ڤيتنسس أنه ذكر أحداث سقوط قرطاج فى أيدى الوندال بإختصار بالغ، ودون تحديد تاريخ ذلك الحدث الهام(٨٤). وقد اتخذها جيزريك عاصمة لمملكة الوندال فى الشمال الإفريقي بدلا من هيبو Hippo التي اتخذها عاصمة له بعد توقيع هدنة فبراير سنة ٤٣٥م(٨٥)، فغدت قرطاج "روما العالم الإفريقي"(٨٦). كما فقدت الامبراطورية البيزنطية أعظم قواعدها البحرية غرب البحر المتوسط لصالح الوندال، تلك القوة البحرية الفتية. وهكذا تحول البحر المتوسط من بحيرة بيزنطية إلى بحيرة وندالية.

---

82 *Vita*, Éd. Petschenig, pp. 22 – 23: Vita, Éd. Migne, p. 202; *Procopius*, p. 53. Cf. Pirenne, H., *Mahomet et Charlemagne*, Paris, 1970, p. 12.

83 أكد بروسبير Prosper أن قرطاج سقطت فى أيدى الوندال فى العام السابع عشر من قنصلية ثيودوسيوس الثانى Théodosius II، ويقابل ذلك سنة ٤٣٩م. ويؤكد من ناحية ثانية أن المدينة خضعت للرومان مدة ٥٨٥ سنة، وهو رقم دقيق وصحيح، إذ إن المدينة إستولى عليها الرومان سنة ١٤٦ ق.م. (أنظر Prosper,Chron., 1339, dans *M.G.H.a.a.*, IX, p. 477.) وقد اتفق هيداس Hydace مع بروسبير، إذ أورد أن المدينة سقطت فى العام الخامس عشر من حكم فلنتنيان الثالث (٤٢٥ – ٤٥٥م) Valentinien III علماً بأن العام الأول من حكم فالنتنيان الثالث كان سنة ٤٢٥م. (أنظر Hydace, *Chron*, 115, *M.G.H.a.a.*, X1, p.23.) وقد اتفقت غالبية المصادر على هذا التحديد التاريخى. أنظر: Marcellinus Comes, *Chron.*, a. 439, 3, dans M.G.H.a.a., X1, p. 80; Cassiodore, *Chron*, 1233, X1, p. 156.

والملاحظ أن الكونت مارسلينوس سجل تاريخ سقوط قرطاج فى ٢٣ أكتوبر والجدير بالتسجيل أن كل من ڤيكتور وإيزيدور سجلا سقوط قرطاج دون تأريخ سنة وقوع الحدث. أنظر: *Victor de Vita*, I, 12, dans M.G.H.a.a., III, p. 4; éd. Petschenig, pp. 6 – 7; Éd. Migne, pp. 186; Isidore, *Hist. Vand.*, 75, dans M.G.H.a.a, X1, p. 297.

84 *Vita*, M.G.H., p. 4; Éd. Petschenig, pp. 6 – 7; Éd. Migne, p. 186.

85 *Larerculus Regum Wandalorum et Alanorum*, M.G.H.a.a., XIII, p. 458.

86 Deanesly, M. A., *A History of Early, Mediaeval Europe*, London, 1956, p. 76; Hodgkin, T., *Italy and her Invaders*, London, 1886 – 1899, 8 Vols, II, pp. 250 – 251.

أنظر أيضاً: إدوراد جيبون: اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها - ترجمة لويس إسكندر - القاهرة ١٩٦٩، جـ ٢، ص ٢٦٣.

نتائج الاحتلال الوندالي لقرطاج:

ومما لا شك فيه، فإن جيزريك جعل من احتلاله لقرطاج نقطة انطلاق لعهد جديد، فقد أراد الملك الوندالي تأصيل القطيعة مع الامبراطورية الرومانية، وذلك بتأكيد استقلاله التام عنها، وإعلان نفسه ملكاً على إفريقية وقرطاج، وأكد ذلك باعتبار يوم ١٩ أكتوبر سنة ٤٣٩م أول يوم من سني حكمه. وبدأ منذئذ السنة الأولى من التأريخ الوندالي. علماً بأنه لم يلجأ إلى ذلك أى ملك جرماني من قبل. إضافة إلى ما تقدم، فقد اعتبر الزعيم الوندالي التاريخ سالف الذكر أول أيام حربه الضارية ضد الامبراطورية الرومانية، خاصة بعد أن ظفر بأحسن ميناء في غربى البحر المتوسط، فقرطاج تعد أعظم قاعدة بحرية للامبرطورية الرومانية عند نقطة التقاء القسمين الغربى والشرقى من البحر المتوسط، كما استحوذ على القمح الذي كان يصدر من قبل إلى روما، فهددها هكذا بالمجاعة[٨٧].

أحوال قرطاج وسكانها بُعَيْدَ الغزو الوندالي:

ولم يسلم سكان قرطاج من أذاه، فقد عانوا الأمرين من اضطهاده، واستخدام العنف لإكراه السكان على تسليم ما يكتنزون من ذهب وفضة وجواهر، وعاقب بالقتل وشتى الوان التعذيب، كل من امتنع عن ذلك، أو أخفى شيئاً ثميناً. ولم يفلت من اضطهاده وعنفه النبلاء وأعضاء مجلس السناتو[٨٨].

أما رجال الإكليروس الكاثوليك، فقد عانوا الأمرين على يديه، وكان ڤيكتور ڤيتنسس خير من زودنا بأحوالهم. فبعد غزوه لقرطاج سنة ٤٣٩م، منع الكاثوليك من ممارسة شعائرهم الدينية بعد أن قام جيشه بنهب الكنائس، وتجريدها من نفائسها، وأدوات طقوسها الدينية الثمينة الذهبية منها والفضية. و لم تسلم آثار قرطاج و كاتدرائياتها من أعمال الهدم و التخريب و السرقات. كذلك ألقى جيزريك القبض على أسقفها كودفولتديوس Quodvultdeus و كبار رجال الإكليروس. فقد تركزت مواعظ الأسقف على التنديد ببطش الوندال، وتحذير رعيته من ضغوط الذئب جيزريك لإكراههم على اعتناق المذهب الأريوسى. لذا قام الزعيم الوندالي بتجريد رجال الدين الكاثوليك و أسقفهم من أموالهم، و لم يترك لهم أى مورد،

---

87 *Gautier*, p. 190.

88 *Vita*, M.G.H.a.a., III, p. 8; Éd. Petschenig, p. 10; Éd. Migne, p. 190.

وكان من بين أعضاء مجلس السناتو المنفيين جورديانوس Gordianus جد القديس فلجنس Fabius Claudius Fulgentii أسقف روسبينا Ruspina في إفريقيا الذي ولد سنة ٤٦٨م في لبتيس Leptis فى بيزاسين Byzacene وتوفى سنة ٥٣٣م. وقد نفى فلجنس أيضاً فى عهد الملك الوندالى ترازيموند Thrasimond. وقد حارب طول حياته الهرطقات الدينية المسيحية وعلى رأسها الأريوسية والنسطورية والبلاجية وأتباع يوطيخا ، ولقب بأوغسطين عصره، وقد أفرد العديد من المؤلفات.أنظر: *Vita Fulgentiis*, p. 37. CF. *Bouillet*, pp. 713 – 714.

و أمر بوضعهم جميعا على ظهر سفن حالتها سيئة للغاية حتى تغـرق بهـم، إلا أن العنايـة الإلهية – حسب قول الأسقف فيكتور– أوصلتهم سالمين إلى نابولى[٨٩] Naples.ويواصل فيكتـور سرده قائلا إنه بعد طرد أسقف قرطاج ورجال إكليروسه من الشمال الإفريقي، تم غلق كل الكنـائس الكاثوليكيه. أما الكاتدرائية الرئيسية، فقد سُلمتْ إلى الأريوسيين، وتم مصادرة البـاقى و الاسـتحواذ على ما بها من مقتنيات ثمينة، بل حتى الكنائس الكاثوليكية الصغيرة الموجودة فى نواحى المدينة لم تفلت من الغلق[٩٠]. ومن المعتقد آنذاك أن جيزريك فكر فى اقتلاع الكاثوليكية من ربوع مملكته لأنها ناصبته العداء، ولأن أتباعها كانوا عيوناً للرومان حسب اعتقاده.

موقف الامبراطورية البيزنطية من سقوط قرطاج:

ولقد سبب سقوط قرطاج انزعاجاً شديداً للامبراطورية الرومانيـة، خاصـة وأن جيزريـك أسرع بُعَيْدَ ذلك بإعداد إسطول كبير أبحر فى اتجاه شرق البحر المتوسط دون أن يخبر أحد بوجهته. وتمكن الوندال من الرسو فى صقلية دون مواجهة أية مقاومة. وكان مـن الطبيعـى أن تتعـرض الجزيرة – التي لم تجد من يحميها – لأعمال السلب والنهب والقتل والإحراق، كان ذلك فـى عـام ٤٤٠م. إلا أن الوندال عندما سمعوا بالاستعدادات التي أعدها الامبراطور ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨ – ٤٥٠م) Théodosius II، عادوا ثانية إلى الشمال الإفريقي[٩١].

وفى العام التالى – أى سنة ٤٤١م – عزم الامبراطور ثيودوسيوس الثانى علـى اسـتعادة قرطاج من الغزاة الوندال، فأنطلقت السفن فى طريقها لاستعادتها. إلا أنه فى غضون ذلك، تعرضت إلليريا Illyrie وتراقيا Thrace لإغارات الهون Huns بزعامة زعيمهم الـدموى أتـيلا Attila، فاضطر الامبراطور فى عجل إلى سحب أسطوله الضخم الذي كان قد سلحه أحسن تسليح لمواجهـة الهون الكاسحين للعالم آنذاك، مما جعله يبرم مع الوندال معاهدة سنة ٤٤٢م[٩٢].

---

89 *Vita*, M.G.H.a.a., III, p.3; éd. Petschenig, p. 8; Éd. Migne, p. 187; Vita Fulgentius, p.37.
أنظر أيضاً: إسحق عبيد، من آلارك إلى جستنيان: دراسة فى حوليات العصور المظلمة، القاهرة ١٩٧٧م، ص ٨٨.

90 *Vita*, M.G.H., p. 3; éd. Petschenig. p. 8; Éd. Migne, p. 187.

91 Prosper, *Chron*., 1344, dans M.G.H.a.a., IX, p. 476.
وقد أورد بروسبير أن الحملة البحرية على صقلية كانت بقيـادة كـل مـن أريوبنـدوسAriobindus و جرمـانوس Germanus وأزيلا Asila. بينماأضـاف المؤرخ البيزنطي ثيوفانوس كل من إنوبندوس Innobindus و أرنثيـوس Arinthius أنظر: Theophanes, *Chronographia*, a. 5941, Éd. C. de Boor, I, p.101; *The Chronicle of Theopnanes*, By Harry Turtledove, Pensylvania, 1982. لم يرد فيها ذكر لتلك الأحداث، لأن المتـرجم بدأ المصدر بسنة ٦٠٩٥ (أول سـبتمبر ٦٠٢ – ٣١ أغـسطس ٦٠٣م). لـذا لجأنـا إلـى: *The Chronicle of Theophanes Confessor, Byzantine And Near Eastern History Ad 284 – 813*, Tr. Cyril Manco and Roger Scott, Oxford. 1997; Isidore, M.G.H.a.a., XI p. 297 أنظـر أيـضاً:
Nicephore Calliste, XIV, 57, dans *P.G.*, CXIVI, Col. 1269 B.

92 Prosper, *Chron*, 1346, dans *M.G.H.a.a.*,t.IX, p. 479; Isidore, Hist. Wand., 76, dans *M.G.H.a.a.*, XI, p. 297; Marcellinus Comes, *Chron*., dans M.G.H.a.a., XI, p. 80.
وقد أدرج الكونت مرسللينوس الحملة البحرية الوندالية على صقلية تحت أحداث سنة ٤٤١م

معاهدة سنة ٤٤٢م:

على أية حال، خفت وطأة اضطهادات جيزريك بعد إبرامه معاهدة سنة٤٤٢م[٩٣]، إذ كانت لصالح الوندال، خلافاً لهدنة سنة ٤٣٥م. وقد انفرد ڤيكتور ڤيتنسس بذكر المناطق التي اصبحت خاضعة للسيادة الوندالية وهى بيزاسين[٩٤] Byzacene (السهل التونسى فى أيامنا هذه)، وزيوجتين[٩٥] (زغوان حالياً) Zeugitane بما فيها قرطاج ومزاته والمسماه فيما مضى إفريقية القنصلية وكانت عاصمتها قرطاج (وتقع شمال تونس حالياً)، كذا جزء من نوميديا (الجزائر) Numidie يشمل هيبو Hippo (عنابة حالياً). كذلك اقليم جيتوليا Gaetulia (والمقصود بها السهول العليا لجنوب نوميديا ومنطقة الشطوط الجزائرية التونسية)، وأباريتانا Abaritana (أى الأوراس). أى أخصب أراضي إفريقية البيزنطية وأكثرها ثراء وتشمل كل الجزء الشرقى. أما الامبراطورية الرومانية، فقد قَنِعَت بأشد الجهات فقراً واقلها استقراراً وهى: موريتانيا القيصرية M.Césarienne وموريتانيا السطيفية (سطيف) M.sitifienne وبقية نوميديا، وبلا شك الجزء الغربى مع سرتا (قسنطينة حالياً) Cirta وبلاد طرابلس. ولم يرد ذكر موريتانيا الطنجية التي كانت تابعة لاسبانيا فى نص المعاهد[٩٦].

هكذا أُكرِه الامبراطور فالنتيان الثالث (٤٢٥ – ٤٥٥م) Valentinian III – رغم أنفه وبسبب ضعفه فى مواجهة الوندال– على التنازل عن قرطاج، لكنه لم يفكر فى ضياعها إلى الأبد، فهذا معناه فقدان سيطرته على غربى البحر المتوسط. وتلك المسألة تعد مسألة حياة أو موت بالنسبة للأمبراطورية الغربية. فموضوع انسلاخها للأبد عن جسد الامبراطورية غير وارد على الإطلاق فى سياسته الخارجية، إذ عزم – فور تلك الصدمة القوية غير المتوقعة– على إعادة بناء جيشه ومؤسساته، واستعادة أراضي الامبراطورية المغتصبة من بين أنياب الغزاة الوندال.

نتائج معاهدة سنة ٤٤٢م:

ولقد صادر جيزريك أخصب الأراضي التي يملكها النبلاء الأفارقة وأثرياء رجال الدين الكاثوليك، واحتفظ لنفسه ولولديه هونوريك وجنزونى Genzoni ببيزاسين وأباريتانا Abaritana

---

93 Theophanes, Éd. De Boor, I, p. 101; *The Chronicle of Theophanes Confessor*, p. 159.

94 "بيزاسين" Byzacene عاصمتها هدرومنتوم Hadramentum وهى مدينة سوسة الحالية. وبيزاسين هى سهل تونس فى أيامنا هذه أنظر: *Gautier*, p. 217.

95 بعد سقوط إفريقية القنصلية فى قبضة الوندال أطلق عليها اسم زيوجتين (زغوان حالياً)، إذ أورد ڤيكتور دوفيتا ."...Zaugitanam Uel Proconsularem.." أنظر: *Vita*, 13, dans M.G.H.a.a, III, p. 4 Éd. Petschenig, p. 7; Éd. Migne, p. 186. وكانت عاصمتها قرطاج ، إذ جاء فى المصدر السابق: "Zeugi,.Quae Procunsularis Antea Vocabatur Carthago" وأفريقية القنصلية Africa Procosularis هى تونس الحالية.

96 *Vita*, I, 13, dans M.G.H.a.a., III, p. 4; Ed. Petschenig, p.7; Éd. Migne, p. 186; Polemius Silvius, *Laterculus*, 3, dans M.G.H.a.a., IX, p. 538.

وجيتوليا Gaetulia وجزء من نوميديا؛ أى على وجه التقريب أرضى كل الولايتين الكبيرتين أى نوميديا وبيزاسين، إضافة إلى جزء من زيوجتين (زعوان) Zeugitane التي كانت تسمى فيما مضى إفريقية القنصلية "Zeugiquae Proconsularis Antea Vocabatur Carthao" الواقعة فى وسطها، وكانت أصغر الولايات ولكنها أغناها. كما قام بمصادرة أملاك عامة الأفارقة الرومان خاصة الأراضي الخصبة، ووزعها على المقاتلين الوندال كإقطاعات وراثية مقابل أداء الخدمة العسكرية فى صفوف الجيش الوندالي، على أن تعفى هذه الأراضي من كافة الضرائب. وعرفت تلك الأراضي "بالحصص الوندالية" Sortes Vandalorum. أما نوعية الأراضي الأولى التي استحوذ عليها جيزريك وولديه والتي تعد أخصب الأراضي واكثرها إنتاجاً فقد تكوّن منها حسب قول فيكتور "أملاك سيدنا جيزريك" Dominicus Noster Gaisericus.

وهكذا، حظيت معاهدة ٤٤٢م بقبول تام من قبل الوندال، لأنها جعلتهم يسيطرون على مناطق غنية وهامة وبالغة الحيوية. ويؤكد ما ذهبنا إليه قول فيكتور إن جيزريك بسط سيادته على الساحل الإفريقي بأكمله[٩٧]، إذ أورد: "Totius Africa Ambitum Obtinuit"؛ هذا بينما يرى بروسبير Prosper ومصدران آخران نقلا عنه، أن الشمال الإفريقي تم اقتسامه بين جيزريك وفالنتيان الثالث[٩٨]. وبذلك أصبحت الغالبية العظمى من مساحة إفريقية البيزنطية تحت سيادة الملك الوندالي حسب ما أوردته المصادر اللاتينية [٩٩]. وهكذا ولدت مملكة الوندال عشية إبرام معاهدة سنة ٤٤٢م، تلك المعاهدة التي منحتها شهادة ميلاد من وجهة نظر الوندال على وجه الخصوص، بعد أن سقط الجزء الاكبر من الشمال الإفريقي فى قبضتهم.

عقب هدنة ٤٤٢م، تحدث فيكتور فيتنسس عن تسامح شهدة الكاثوليك آنذاك. حتى أنه فى ٢٥ أكتوبر سنة ٤٥٤م عُيِنَ ديوجراتياس Déogratias أسقفاً جديداً فى قرطاج [١٠٠]، وعاصر الأسقف

---

97 *Vita*, I, 13, dans M.G.H.a.a., III, p. 4; Éd Petchenig, p.7; Ed, Migne, p. 186 .

98 جاء فى بروسبير: "Cum Gisirico ab Augusto Valentiniano Pax Confirmata et Certis Spatiis Africa inter utrumque Diuisa Est" Prosper, Chron., 1347, dans M.G.H.a.a., 1X, p. 479: أنظر: Cassiodore, *Chronique*, 1240, Id., X1, p. 156; *Merobaudes*, II, 25, X1V, p. 12.

99 أكد ذلك ما أوردته الحولية الغالية ، إذ جاء فيها: "Carthago A Vandalis Capta Cum Omno Simul Africa" . أنظر: (*Chron. Gall.*.a. Cccclii, 129, dans M.G.H.a.a., t. 1x, p.660). وقد نقل عنها كل من هيداس والكونت مرسللينوس، إذ أورد هيداس: "Omnem Africam Inuadit"(أنظر: Hydace, *Chron.*,115, (Id., X1, p.23). أما مرسللينوس فقد جاء فى مصدره: "Africae Ciuitates Cartaginem Metropolim... occupauit". Marcellinus Comes, *Chron.*, a. 439, 3; Id., X1, p. 80.

100 *Vita*, I, 24, M.G.H.a.a., III, p.7; ed Petschenig, p.11; Ed Migne, p. 191.
والجدير بالذكر أن كرسى أسقفية قرطاج كان شاغراً منذ عام ٤٣٩م وحين رسم ديوجراتياس Deogratias أسقفا على قراطاج فى أكتوبر سنة ٤٥٤م تم ذلك فى كنسية القديس فوستوس Saint-Faustus إذ جاء فى هذا الصدد: "Carthagine Ordinatur Episcopus Diogratias in Basilica Fausti" أنظر: Continuatio Codicis

الجديد تمكن جيزيريك من اجتياح روما، ذلك الحدث الهام الذي أشار إليه ڤيكتور[١٠١] إشارة عابرة لا تتناسب على الاطلاق مع ضخامتة[١٠٢]، بينما ضخم من مجهودات أسقفها وتضحياته من أجل تخفيف آلام الأسرى من مدنيين وأرباب حرف وأصحاب كفاءات نادرة. وشاءت تعاستهم أن قام الوندال والبربر باقتسامهم كعبيد فيما بينهم. وتم عزل النساء عن أزواجهن، والأبناء عن الوالدين ولم يتردد ديوجراتياس على الاطلاق عن بيع الأوانى الذهبية والفضية التي بكنيسته لتخصيص المبالغ المتحصلة من أجل إطلاق سراح الأسرى، وليعيد اللحمة إلى الأسر المتفسخة. وبما أن أعداد الأسرى كان كبيراً حتى صعب إيجاد مأوى لهم، أسرع الأسقف ديوجراتياس بإيوائهم فى كنيستين كبيرتين رئيسيتين فى قرطاج، ووزع عليهم الأغذية لإطعامهم، كما أهتم برعاية المرضى منهم. كذلك حظيوا برعايته طوال الليل، شفقة بهم، وتخفيفاً لآلامهم ويواصل ڤيكتور سرده قائلاً: إنه كان يقوم بزيارة الملاجئ التي افتتحت بعنايته ورعايته، وكان يتوقف أمام كل سرير، ليستفسر عن حالة كل ضيف من ضيوفه، دون أن يعبأ بالتعب الذي يلحق به لكبر سنه. ونتيجة أعماله الطيبة تلك،

Reichenauiensis, *Ad Prosp.*, 25 dans M.G.H.a.a., 1X, p. 490.
وعن حنيسة القديس فوستوس أنظر *Vita.* . Éd. Migne, pp. 191–192 n. B

101 Vita. I. 24, M.G.H., p. 7; Éd. Petschenig, p. 11; Éd. Migne, p. 191 .

102 بمقتل فالنتنيان الثالث فى ١٦ مارس سنة ٤٥٥م، استنجدت أرملته أيودكسيا Eudoxia سراً بملك الوندال جيزريك طالبة منه القدوم إلى إيطاليا وغزو روما، بعد أن فقدت كل أمل فى مساعدة القسم الشرقى من الامبرطورية الرومانية؛ هذا بينما كان الزعيم الوندالى يتحرق شوقاً لاجتياحها تحقيقاً لأحلامه التي طالما سعى إليها. وبالفعل، تقدم جيزريك على رأس قواته تساعدها قوات من البربر إلى أن وصل إليها فى الثانى من يونيو سنة ٤٥٥. فما كان من البابا ليون الأول Léon I أن خرج على رأس وفد من رجال الدين الكاثوليك لإنتظار ملك الوندال على باب المدينة "التي حلت عليها لعنة الله" (أنظر: Hodgkin, *Italy and her Invaders*, II, p. 255). تماما كما فعل من قبل مع الهون. وأخبر البابا زعيم الوندال أن المدينة ستستسلم دون مقاومة، وتوسل إليه أن يحقن دماء سكانها، وألا يحرقها. وبعد هذه المقابلة، دخل جيزريك روما ممتطياً صهوة جواده، وتعرضت روما لمدة خمسة عشر يوماً لأعمال السلب والنهب و التخريب. وأوردت الحوالية الغالية أن الزعيم الوندالى التزم" بعدم إزهاق الأرواح ، ولم يقدم على إحراق روما" (جاء فى هذا الصدد: "Sine Fero et Igne Roma Proedata Est". (أنظر: *Chron. Gall. A DXI*, 623, dans M.G.H.a.a., X1, p. 663.) وعند انسحاب الوندال من روما، إقتادوا الأسرى بالآلاف، وكان من بينهم أرملة الامبراطور وابنتها، وزوج الابنة الكبرى أيودكسيا بإبنه هونوريك. أما الأم والأبنة الثانية، فأسكنهما فى القصر الملكي بقرطاج وعاملهما بالحسنى. عن تفاصيل الغزو الوندالى لروما أنظر: Victor de Tunnuna, *Chron.* a. 455, dans M.G.H.a.a., X1, p. 183–186; Consularia Italica, *Add. ad Prosp. Haun. 4*, dans M.G.H.a.a., 1X, p. 304; Jean d' Antioche, dans *Fragmenta Historicom Graecorum*, Éd. C. Muller, 1V, pp. 615 – 616; Prosper, *Chron.*, 1375, p. 484; *Chron. Gall.a. DX1*, 623, dans, M.G.H.a.a., 1X, p. 663; Hydace, *Chron.* 162, id; X1, pp. 27 – 28; Paul Diacre, *Hist. Rom.*, X1V, 16, Id., II, p. 206; Isidore, *Hist. Wand.*, 77; Id., p. 298; *Jordanes*, dans M.G.H.a.a., t. V, p. 118; Theophanes, *Chron.*, a. 5947; éd. C. de Boor, I, p. 109; *The Chronicle of Theophanes Confessor*, p.167; Georges Cedrenus, *Hist. Comp.*,dans *C.S.H.B.*, I, p. 606. Cf. Souttar, R., *A History of Mediaeval Peoples*, p. 338; Lot, F., *Les Invasions Germaniques*, p. 115; *Deanesly*, p. 77; *Gautier*, pp. 232 – 238; *Schmidt*, pp. 97 – 105.

حظى بحقد الأريوسيين الذين حاولوا قتله أكثر من مرة، وكثيراً مانصبوا له الكمائن إلا أن الله أنقذه من براثنهم وبكاه الأسرى الرومان حين توفى، وشعروا أنهم عادوا ثانية لينالوا العذاب على أيدى البرابرة الوندال[١٠٣].

وبوفاته سنة ٤٥٧م، بعد أن شغل كرسى أسقفية قرطاج لمدة ثلاث سنوات، أصبح كرسى الأسقفية شاغراً –حسب قول ڤيكتور– ربع قرن من الزمان، فلم يقم جيزريك بتعيين خلف لديوجراتياس، بل أغلقها هى أيضاً بعد بضعة أعوام، وقام بنفى رجال أكليروسها من الكاثوليك[١٠٤].

علاقة جيزوريك بأدوراكر:

هذا وقد أورد "ڤيكتور ڤيتنسس أنة فى سنة٤٧٦ م، أبرم جيزريك إتفاقية مع" أدواكر odoacre"الذي استولى أنذاك على إيطاليا ، ووضع نهاية للامبراطورية الرومانية فى الغرب[١٠٥]. ويذكر ڤيكتور أنه بموجب تلك الاتفاقية تنازل جيزريك عن الجزء الأكبرمن صقلية" لأدواكر" واحتفظ لنفسه بالجزء الاستراتيجى الهام من الجزيرة، وهى المنطقة الأكثر قربا من ليبيا ، وذلك مقابل أن يدفع لزعيم الوندال جزية سنوية[١٠٦]. والملاحظ أن ڤيكتور انزلق إلى خطأ. فأدواكر خَلَع أخر أباطرة الغرب ليس قبل ٢٤ أغسطس سنة ٤٧٦م، ولابعد وفاة جيزريك أى فى٢٤ يناير٤٧٧م. وأن الوندال قاموا باحتلال صقلية بعد سنة ٤٦٨م، وأن اتفاقية سنة٤٧٤م أضفت الشرعية لسيادتهم عليها. إذن ليس من السهل عليهم التنازل عنها بسهولة، بل يبدو أن الزعيم الوندالي جيزريك أراد أن يجنب ورثتة مشكلة التنازع مع الزعيم الجديد فى ايطاليا و الذي يسميه ڤيكتور عن طريق الخطأ ملك ايطاليا Rex Italiae ،بل ربما رغب أن يُظهَرأدواكر فى صورة تابع له، حين قرر أن يدفع له زعيم الهيرول جزية سنوية.

اتفاقية سنة ٤٧٤ م بين جيزريك وزينون:

وأدركت الامبراطورية الرومانية الشرقية أنذاك عجزها عن مواجهة الوندال ، لذا رأى الامبراطور زينون(٤٧٤–٤٩١م) Zénon الذي تولى العرش فى ٩ فبراير سنة ٤٧٤م ضرورة التفاوض معهم. ويبدو أنه منذ أوائل عهده، أوفد إلى قرطاج البطريق Patrice سفيروس Severus، وكلفه –حسب قول ڤيكتور– بالتفاوض مع جيزريك[١٠٧]. وانتهى الأمر بإبرام إتفاقية سلام دائمة عام

---

103 *Vita.*, I, 25, M.G.H, p. 7; Éd. Petschenig, p. 12; Éd. Migne, 191.

104 *Vita.*, I, 51, M.G.H, p.13; Éd. Petschenig, p. 22; Éd. Migne, 202.

105 سقطت الامبراطورية الرمانية الغربية فى ٤ سبتمبر سنة ٤٧٦ م. أنظر: *Gautier*, p. 115; *Gourtois*, p. 192, N. 5.

106 *Vita*, M.G .H, p. 4; éd. Petchenig, p. 7; éd . Migne, p. 186.

إذ جاء فى ڤيكتور: "…. Aliquam Sibi reservantibus Partem"

107 *Vita*, *M.G.H.a.a.*, p.13; *Petchenig*, p. 22; éd. Migne, p. 202; *Malchos*, dans F.H.G., Müller, IV, pp. 114-115, 120 -121; Paul Diacre, *Hist. Rom.*, XV. 7, dans *M.G.H.a.a.*, II, p. 216.

٤٧٤م حُددتْ فيها العلاقات بين مملكة الوندال والامبراطورية الرومانية الشرقية. وينفـرد ڤيكتـور بذكر شرط واحد من شروط تلك الاتفاقية يقضى بإعادة فتح كنائس قرطاج، والسماح بعودة رجـال الاكليروس المنفيين إليها[١٠٨]. أما بروكوبيوس فيذكر من بين الشروط أن يتعهد الطرفان بالكف عن القيام بأية أعمال هجومية حفاظا على السلام بينهما[١٠٩]. ومما لا شك فيه أن الملك الوندالي سيمتنع عن القيام بأعمال السلب والنهب للمقاطعات الشرقية، بينما لا ينطبق هذا الشرط على القسم الغربـي من الامبراطورية. وبهذا اعترفت الامبراطورية البيزنطية. بموجب اتفاقية سنة ٤٧٤م بمولد مملكـة وندالية تضم إفريقية الرومانية بأكملها، وجزر البليار، وجزر بتيوسس (وهى مجموعة جـزر تقـع غرب جزر البليار)[١١٠] Pityuses وجزيرة كورسيكا، وجزيرة سردينيا، وجزيرة صقلية التي تنازل عن جزء منها – فيما بعد– لأدواكر بموجب اتفاقية سنة ٤٧٦ م مقابل تعهد أدواكر بأن يدفع لـزعيم الوندال جيزريك جزية سنوية كما سبق القول.

هذا عن أهم محتويات الفصل الأول من مصنف "تاريخ الاضطهادات التـي لحقـت بولايـة إفريقية" وقد غطى عهد جيزريك؛ أما الفصل الثانى والثالث فقد خصصا لعهـد هونوريـك؛ ويعـد المصدر الوحيد الذي عاصره وأفاض فى سرد أحداث عصره ويتناول الفترة من وفاة جيزريك فـى ٢٤ يناير سنة ٤٧٧م وينتهى فى فبراير سنة ٤٨٤م.

أحوال الكاثوليك فى بداية عهد هونوريك:

فى مستهل الفصل الثانى يذكر ڤيكتور أنه فى أوائل عهد هونوريك نعم الكاثوليك بالتـسامح المذهبى الذي تحقق بفضل تدخل الامبراطور البيزنطي زينون Zenon حين أبرم اتفاق سنة ٤٨٤م مع مؤسس المملكة الوندالية جيزريك، وأخذ بها هونوريك إذ سمح للكاثوليك بعقد الاجتماعات العامة التي كانت محظورة عليهم فى عهد والده جيزريك. وفى نفس الوقت، قام بمطاردة معتنقى البدعـة المانوية[١١١] Manichaism، فقام بإحراق العديد منهم، ونفى أعداداً أكبر فيما وراء البحار.

بفضل تملقة الامبراطور رينون، رقى سفيروس لمرتبة بطريق، و"بطريق" Patrice من ألقاب الشرف الرفيعة. لم يكن لحامله وظيفة معينة، أنعم به أباطرة بيزنطة على زعماء البرابرة مثل أدواكر وثيودوريك. وفى القرن الخامس حـاول ثيودوسيوس الثاني وزينون قصراً استخدام هذا اللقب، لكن جستنيان(٥٢٧– ٥٦٥م) أرجعه إلى سابق عهده انظر: فايز نحيب اسكندر، أسرة برينيوس ودورها فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية، الاسكندرية، ١٩٨٧م، ص٣، حاشية ١.

108 *Vita*, *M.G.H.a.a.*, p. 13; éd. Petchenig, p. 22; éd. Migne, p. 202.

109 Procope, *B.V*, I, 9, 23, éd. J. Haurny, I, p. 355; Procopius of Caesarea, *History of the Wars*, Book III, *The Vandalic war*, p. 71.

110 تشمل جزر بتيوسس Pityuses مجموعة جزر جنوب غرب جزر البليار، أهمها جزيرة "إيفيسا" Ivica وجزيـرة "فرمنتيرا" وقد اشتق إسم الجزر من كلمة "صنوبر": Pitys اليونانية، لكون الجزر مغطاه بأشـجار الـصنوبر. أنظـر: *Bouillet*, p. 1501.

111 ظهرت "المانوية" Manichaism فى بلاد المشرق، فشكلت خطراً على المسيحية، وتنسب إلى "مـانى" مؤسـسها الذي درس فى بابل الزرادشتية والمسيحية والغنوسية. قسم "مانى" العالم إلى مملكتين متنافسيين: مملكة النور ومملكـة الظلام وقال إن الأرض تتبع مملكة الظلمة وان الشيطان هو الذي خلق الإنسان، ولكن ملائكة إله النور اسـتطاعت أن

لقد فرح الكاثوليك لما لحق بأتباع مانى Mani من اضطهاد بالغ على يد الملك الوندالي الجديد، على اعتبار أن المانويين أخطر أعدائهم فقد جامل هونوريك الكاثوليك الخاضعين للسيادة الوندالية حتى يحظى بمجاملة مماثلة للأريوسيين المقيمين فى أراضي الامبراطورية الرومانية الشرقية، فيرضى عنهم الامبراطور البيزنطي. وأعتقد بالفعل أنه حقق هدفه[١١٢].

وحدث بعد مضى ثلاثة أعوام من اعتلائه عرش الوندال – أى فى عام ٤٨١م– أن استقبل هونوريك وفداً من قبل الامبراطور زينون وزوجة شقيقه بلاسيديا Placidia أرملة أوليبريوس Olbyrius يرأسه الكسندر Alexandre يطلب منه السماح بانتخاب أسقف لقرطاج التي لم تنعم بذلك منذ ما يناهز الربع قرن. فما كان من هونوريك أن أصدر أوامره بذلك، بل وكلف الكسندر بالذهاب إلى الكنيسة الكاثوليكية فى قرطاج لتنظيم عملية اختيار أسقف فى حضرته، يرى فيه الكاثوليك الجدارة والاستحقاق لشغل تلك الوظيفة الدينية الهامة. كما أوفد مع مبعوث الامبراطور البيزنطي مستشاره الخاص ڤيتارى Vitarit حاملاً معه مرسوما ملكيا قرأه على العامة، تضمن منح الحرية الكاملة للكاثوليك فى اختيار أسقفهم وفق رغبتهم؛ إلا أنه فى مقابل ذلك، إشترط أن تمنح القسطنطينية للأساقفة الأريوسيين المقيمين فيها وفى مقاطعات الامبراطورية الرومانية الشرقية، الحرية الكاملة فى ممارسة شعائرهم الدينية فى كنائسهم، وأن يبشروا بالمذهب الأريوسى باللغة التي يرتضونها. ونص المرسوم الملكي الذي أصدره الملك الوندالي هونوريك على أنه فى حالة عدم تطبيق الامبراطورية الرومانية الشرقية هذا الشرط، سيقوم بنفى أسقف قرطاج المنتخب حديثاً ورجال إكليروسه، وكذا جميع الأساقفة المتواجدين فى المقاطعات الإفريقية الخاضعة للوندال، وسيتم إبعاد كل هؤلاء إلى المناطق التي لازالت تحت سيادة البربر[١١٣].

اضطهاد هونوريك للكاثوليك وأسبابه:

ويذكر ڤيكتور أن هذا المرسوم قرأ فى جميع الكنائس وبحضور الكاثوليك وذلك فى ١٨ يونيو سنة ٤٨١م. ويواصل سرده قائلاً: "بدأنا فى التذمر قائلين بصوت خافت إنهم يتذرعون بالحجج لكى

تدخل إلى البشرية بعض عناصر النور هى: العقل والذكاء والتفكير. وأورد الشهر ستانى فى مصدره:"الملل والنحل" أن مانى كان يقول بنبوة عيسى بن مريم ولايقول بنبوة موسى، وزعم أن العالم مصنوع من النور والظلمة –كما سبق القول– وأنهما أزليان ولم يزالا قويين حساسين، داركين، سميعين، بصيرين. وفرض "مانى" على أتباعه العشر فى الأموال كلها، والصلوات الأربع فى اليوم والليلة، والدعاء إلى الحق، والابتعاد عن الكذب والقتل والسرقة والزنا والبخل والسحر وعبادة الأوثان. للتفاصيل أنظر: الشهرستانى: الملل والنحل، نشر فتح الله بدران ، جـ ١، ص ٢٢٤– ٢٣٨.
أنظر أيضاً: يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الأوروبية فى العصر الوسيط، ص ٢٥٨–٢٦٠.

112 *Vita*, Éd. Migne, p. 202; Éd. Petschenig, p. 24; M.G.H., p. 13.

113 *Vita*, Éd. Migne, pp. 202 – 203; Éd. Petschenig, p. 25; M.G.H., p. 13.

يضطهدوننا وتوجهنا بذلك إلى مستشار الملك الوندالي [أى ڤيتارى] الذي لم يعر رأينا اهتماماً"[114] وانتهى الأمر بتعيين "أوچين" Eugene أسقفاً، وهو رجل يتسم بالتقوى البالغة والاحترام والتبجيل والقداسة والخلق الحميد حتى خارج حدود إفريقيا. وكانت صفاته الحميدة تلك مثار حقد وغيرة وحسد الأساقفة الأريوسيين،وعلى وجه الخصوص "سيريلا"[115] Cyrilla. وأخيراً، نجح الأريوسيون فى حث الملك على إصدار أوامره بمنع اتفاق الأسقف الكاثوليكي عرش أسقفيته. وأعقب ذلك، منع دخول الكنائس على الرجال والنساء وهم فى لباسهم البربرى وكان هذا يعنى حرمان جموع غفيرة من الكاثوليك الذين لهم علاقة بالأسرة الملكية ويرتدون الملابس الوندالية من ممارسة شعائرهم الدينية. وكان رد أوچين على ذلك، أن بيت الله مفتوح للجميع، ولا يستطيع أحد حرمان شخص من دخوله[116].

ونتيجة هذا الرد من قِبَل أسقف قرطاج[117]، قرر الملك الوندالي هونوريك فى الحال إستخدام أبشع ألوان التعذيب؛ فأقام الجلادين عند مداخل الكنائس، وكلفهم بمجرد رؤية رجال أو نساء بملابس وندالية، أن يمسكوا بهؤلاء التعساء، وذلك بإلقاء آلة على رأسهم تشتبك بشعرهم، ثم يشدونها بعنف فتقتلع فروة رأسهم. ونتج عن تلك الوحشية أن فقد العديد بصره؛ أما البعض الآخر، فقد مات ألماً بسبب تلك المعاملة اللاإنسانية. وكذلك كانوا يسحلون النساء فى الميادين العامة بعد سلخ فروة رؤوسهن وبصحبتهن مناد عام حتى يرتدع الجميع. ورغم تلك الشراسة والوحشية، لم يتخل أحد عن المذهب الكاثوليكي وينتقل إلى الأريوسى حسب قول ڤيكتور الذي يتسم بالمبالغة الواضحة.

وأرجع ڤيكتور سبب بداية هذا الأضطهاد إلى غيرة الأساقفة الأريوسيين وشراسة ملكهم هونوريك[118]. إلا أن ذلك غير مقنع، فإذا كان الملك الوندالي قد حُرِضَّ على اضطهاد الكاثوليك، لما سمح لهم على الاطلاق بممارسة شعائرهم الدينية لكن مما لا شك فيه، فإن الكاثوليك بمجرد أن منحوا تلك الحرية، نشطوا فى التبشير بمذهبهم، وبالتالى ربما انتشرت الكاثوليكية فى صفوف الوندال، فدب الخوف فى قلوب الأريوسيين.

---

114 *Vita*. Éd. Migne, p. 203; Éd. Petschenig, p. 26; M.G.H., pp. 14–15.
والجدير بالتسجيل أن المرسوم سالف الذكر كان غير كامل وغير مؤرخ ومع ذلك، فقد نص على انتخاب أسقف كاثوليكى فى قرطاج، كما حدد شروط ذلك. أنظر: *Passio*, II, 2, p. 59.

115 ولد "سيريلا" Cyrilla فى "كويكل Cuicul فى نوميديا. ومن المؤكد أن إسمه ليس من الأسماء الجرمانية، لكنه مأخوذ من الأسم اليونانى "كيريلس" Kyrillos و القطبى "كرلس" أنظر: Schmidt, *Histoire des Vandales*, p. 126, n. 1.

116 *Vita*, Éd. Migne, pp.203 – 204; Éd. Petschenig, pp. 26 – 27; M.G.H., pp. 14 – 15.

117 عن أسقف قرطاج أوچين أورد ڤيكتور أنه "رجل قديس محبوب ومقبول من الله" إذ جاء فى مصدره "Uiro sancto deoque accepto" أنظر: *Vita*, Éd. Migne, p. 203; Éd. Petschenig, p. 26; M.G.H., p. 14
والملاحظة أن نسخة مينى بدلاً من Uiro أوردت Viro.

118 Vita, Éd. Migne, p. 204; Éd. Petschenig, p. 27; M.G.H., p. 15.

على أية حال، فإن السبب الأساسى لتلك الاضطهادات التي جددت فى عهد هونوريك يرجع إلى عدم تنفيذ الاسبراطور البيزنطي لمطلب الملك الوندالي والقاضى بالتسامح مع الأريوسيين القاطنين فى ربوع الامبراطورية البيزنطية؛ وبالتالى تخلص هونوريك من الكاثوليك المحيطين به لشكه فى إخلاصهم. كذلك منعهم من شغل الوظائف العامة، أو وظائف فى البلاط الوندالي، إذ أصبح ذلك قاصراً على الأريوسيين ونتج عن ذلك أن تخلى عددكبير من الكاثوليك وبشجاعة عن وظائفهم، بدلاً من التخلى عن مذهبهم واعتناق المذهب الأريوسى.

وهكذا عانى القساوسة والشعب الكاثوليكي فى الشمال الإفريقي من الاضطهاد في كافة ربوع المملكة الوندالية. أما هونوريك، فقد أبدى ظاهريا بأنه لا يضطهد غير المذنبين. وفى هذا الخصوص، لم تفلت الراهبات الكاثوليك من التعذيب، إذ لفق لهن تهم إقامة علاقات آثمة مع القساوسة والأساقفة، فتحملن كافة ألوان العذاب والآلام والشراسة التي لا سبب لها(١١٩).

كذلك أورد ڤيكتور أن هونوريك ألقى القبض على أربعة آلاف وتسعمائة وستة وسبعين من الأساقفة والقساوسة والشماسة ورجال إكليروس كاثوليك آخرين، وقام بدفن الجميع فى الصحراء. ولم يرحم من تلك العقوبة فاقدى البصر، أو من يعانى من آلام مبرحة، أو الطاعن فى السن(١٢٠). وكان فى عداد هؤلاء الأسقف فيلكس Félix أسقف أببيرAbbir الذي كان فى تلك الأسقفية منذ أربعة وأربعين عاماً، وكان مصاباً بالشلل، ولم يشعر بما يدور حوله، إضافة إلى كونه أبكماً. ولقد أدرك رفاقه أنه من المستحيل نقل هذا الطاعن فى السن على ظهر دابة، لذا توسلوا إلى الملك – بواسطة محيطيه– أن يبقى فى قرطاج لاقتراب أجله. فما كان منه أن رد غاضباً بالقول: "إذا لم يستطع إمتطاء حصان، فعليكم ربطه بحبال لتجره ثيران جامحة، وتصل به إلى منفاه". وبالفعل، كان مصيره أن قيد ليمتطي حصاناً يجره طوال الطريق وكأنه قطعة خشبية(١٢١).

نفى الكاثوليك إلى الصحراء:

وهكذا، تجمع كل القساوسة ورجال الاكليروس من مدن سيكا Sicca ولارا Lara حيث كان على البربر اصطحابهم واقتيادهم إلى الصحراء. وأوفد الملك الوندالي إثنين من الكونتات للقاء البربر وحثهم على تنفيذ أوامره والرضوخ لمطلبه. ويذكر ڤيكتور أن بعض الأمهات قمن بإعادة تعميد أطفالهن وفق المذهب الأريوسى، بينما البعض الأخر سُرِرْنَ برؤية استشهادهم.

---

119 Vita, Éd. Migne, pp. 208 - 209; Éd. Petschenig, pp. 32 – 33; M.G.H., pp. 19 – 20.

120 Vita, Éd. Migne, p. 209; Éd. Petschenig, p. 33; M.G.H., p. 19.

وقد أكد ذلك ڤيكتور دونونونا ، إلا أنه قال إن العدد قارب على الأربعة آلاف. أنظر: Victor de Tunnuna, Chronique, a. 479, I. dans M.G.H., a.a., XI, p. 189. وقد أورد ڤيكتور دورتونونا أيضاً أن هونوريك كان أكثر دموية من والده جيزريك نظر: *Victor de Tunnua*, p. 187.

121 *Vita*, Éd. Migne, p. 209; Éd. Petschenig, pp. 33 - 34; M.G.H., p. 19 .

وتم حرمان هؤلاء المنفيين من أية زيارة، وعوقب حراسهم بأشرس العقوبات حال ضبط واختراق المنع. ويذكر ڤيكتور أن هؤلاء الكاثوليك تكدسوا كالجراد فوق بعضهم البعض، وأمضوا أيامهم وسط أطلال القاذورات العفنة التي لا يحتملها بشر[122]. ويؤخذ على ڤيكتور ڤيتنسس جنوحه إلى المبالغة والخيال حتى يضخم أعمال الوندال الوحشية، فهو يبالغ في وصف المآسي التي لاقاها المضطهدون من الكاثوليك، ويحاول أن يحجم أكثر من اللازم المهام الضخمة التي تحملها رجال الإكليروس آنذاك، بلا كلل ولا ملل، وبطاقة وحيوية تبعث على الإعجاب، حتى وهم في السجون. فهم لا يخشون ازدياد وسائل التعذيب التي سيلاقونها. كما حاول إظهار دورهم وأثرهم على الشعب الكاثوليكي ليتمسك بمذهبه في مواجهة إكراهه بكافة السبل والوسائل على اعتناق المذهب الأريوسي مذهب الغزاة. وأورد أن عملية النفي سالفة الذكر تمت يوم أحد، إذ ألبسهم الوندال الملابس المتسخة؛ ومع ذلك، كان المنفيون يتلون التراتيل الدينية رغم تهديدات البربر لهم.

ڤيكتور بصحبة المنفيين الكاثوليك:

وصاحب ڤيكتور جموع المنفيين رحلتهم الشاقة والمضنية إلى منفاهم. ويؤكد صحبته لهم بقوله: "لم نتمكن من إحصاء كل الذين لاقوا حتفهم نتيجة مشقة الطريق، لكثرة أعدادهم".

كما عانى الضعفاء وطاعنى السن من شراسة البربر الذين كانوا يكرهونهم على الجرى برميهم بالحجارة، ونغزهم بأطراف رماحهم. كذلك صدرت أوامر إلى البربر بتقييد المتقاعسين من أرجلهم وجرهم كالحيوانات الميتة، فأتت أحجار الطريق على جسدهم، ومزقت ملابسهم فلقوا حتفهم. ولم يصل إلى المنفى في الصحراء إلا الأصحاء؛ فتغذوا كالدواب في أرض عامرة بكم هائل من العقارب والزواحف السامة. ويواصل ڤيكتور حديثه قائلاً: "إن هذه الزواحف السامة تبث سمومها حتى ولو كانت بعيدة عن ضحيتها. ولا يشفى أحد على الإطلاق حين يمسه عقرب إلا أنه بفضل الله، لم يدن أحد من هذا العذاب الأليم"[123].

محاولات إكراه الكاثوليك على اعتناق الأريوسية:

ويذكر ڤيكتور أن هونوريك بالغ في معاملته الشرسة للكاثوليك لإكراههم على اعتناق الأريوسية، إذا أرسل إلى الأسقف أوجين Eugene مرسوماً ليقرأه على عامة الشعب الكاثوليكي في حضرة رجينوس Réginus مبعوث الامبراطور البيزنطي زينون Zénon . وتزامن ذلك مع إرسال مرسوم ملكي مطابق وصل إلى كافة ربوع المملكة الوندالية جاء فيه:

> "من هونوريك ملك الوندال والآلان إلى كل الأساقفة الكاثوليك. نعلم أنه في مواضع عدة، حُرِمَ على قساوستكم إقامة الاجتماعات في البلاد الوندالية للحيلولة دون جذب وإلحاق الاضطراب بإيمان المسيحيين. ولوحظ رغم ذلك

122 *Vita*, Éd. Migne, pp. 209 - 210; Éd.Petschenig, pp. 34 – 35; M.G.H; pp. 19 - 21.

123 *Vita*, Éd. Migne, pp. 211 - 212; Éd. Éd. Petschenig, pp. 37 – 38; M.G.H., pp. 21-22 .

إقدام الكثير من قساوستكم على إقامة القداديس مدعين ممارسة شعائر العقيدة المسيحية الحقة. وبما إننا لا نريد على الإطلاق إثارة الصدام فى الأراضي التي أسندت إلينا من قبَل الله، لذا ندعو أساقفتنا المبجلين للحضور جميعاً إلى قرطاج فى غرة شهر فبراير القادم، ليتناقشوا بلاخوف مع أساقفتنا، وليثبتوا- إستناداً إلى الكتاب المقدس- دفاعهم عن المذهب الكاثوليكي، حتى نتيقن إذا كنتم تمارسون العقيدة الحقة. ولقد أرسلنا هذا المرسوم فى اليوم الثالث عشر من شهر يونيو، العام السابع من حكم هونوريك"[١٢٤](أى ٢٠ مايو ٤٨٣م).

لقد قُرِأ نص المرسوم بحضور مبعوث زينون. ويرى ڤيكتور أنه كان من السهل التنبؤ بنتائج الجدل بين أتباع المذهبين الكاثوليكي والأريوسى، إذ سيتم إدانة المذهب الكاثوليكي واعتباره هرطقة دينية، وذلة من الذلات؛ وأن هذا المذهب لا يقبله الملك الوندالي، ولايرضى عنه على الإطلاق. وكان من الطبيعى أن يعترض رجال الإكليروس الكاثوليك. فأسقف قرطاج أوچين وجه التماساً إلى هونوريك، عارض فيه إدانة الكاثوليكية رغم كونها منتشرة ليس فقط فى الشمال الإفريقي، ولكن أيضاً فى العالم أجمع.

على أية حال، وفقاً لليوم المحدد فى المرسوم الملكي، أى فى الأول من فبراير سنة ٤٨٤م، تواجد فى العاصمة الوندالية قرطاج أربعمائة وستة وستون أسقفاً كاثوليكيا حسب قول ڤيكتور الذي ذكر أيضاً أن قرطاج إستقبلت عديداً من أساقفة جزر البحر المتوسط[١٢٥]. ومن المعتقد أن ڤيكتور بالغ كثيراً فى ذكر عدد الحضور، كما بالغ من قبل فى ذكر الآلام التي عانى منها المنفيون ورجال إكليروسهم. ففى واقع الأمر، كان فى إفريقية أربعمائة وسبعون أسقفية، وأربعمائة وستة من الأساقفة حين عقد لقاء مع الدوناتيين[١٢٦].

ويؤكد ڤيكتور أنه لم يسمح للكاثوليك باستعراض مذهبهم وإثبات صحته، إذ تم الاكتفاء بتكليف عشرة منهم بالرد نيابة عن الجميع على أسئلة منافسيهم من الأريوسيين. وعند التقاء الجميع فى الموعد المحدد من قبل الوندال، إعتلى سيريلا Cyrilla رئيس الأريوسيين عرشاً مرتفعاً والتف حواله أتباعه، بينما لزم الكاثوليك الوقوف. حينئذ إعترض الأساقفة العشرة المكلفين بالحديث نيابة عن زملائهم الكاثوليك على هذا المسلك الشائن والمتغطرس، فدار خلاف ضارٍ ونقاش حامٍ بين رجال الدين من كلا الطرفين[١٢٧].

---

124 *Vita*, Éd. Migne, p. 213; Éd. Petschenig, p. 39; M.G.H., pp. 22 – 23.

125 *Vita*, Éd. Migne, p. 217; Petschenig, p. 44; M.G.H., pp. 40 – 41.

126 Victor de Tunnuna, *Chronique*, p. 189.

127 للتفاصيل أنظر : *Vita*, Éd. Migne, pp. 218 - 220; Éd. Petschenig, pp. 44 – 46; M.G.H; pp. 24 – 26.

مرسوم هونوريك ضد الكاثوليكية:

وبهذا ينهى فيكتور الفصل الثانى من مصدره، ليبدأ الفصل الثالث بالحديث عن دفـاع قُـدم للملك الوندالي يؤكد صحة المذهب الكاثوليكي، قدمه إليه الأساقفة. فما كان من هونوريك أن أصـدر مرسوماً ضد الكاثوليك بعنوان "من هونوريك، ملك الوندال والآلان، إلى كـل الـشعوب الخاضـعة لسطانه"، جاء فيه:

"إن الملك الوندالي يطبق عدالة السماء التي تكافئ وتعاقب المرء وفق أفعالـه. لذا، قرر قمع المعترضين الذين اعتقدوا أن بإمكانهم عدم تنفيذ أوامـر الآبـاء، ضاربين عرض الحائط بتعليماتنا. وقد أمهلناهم تسعة أشهر، ثم أعطيناهم مهلة ثابية لعدة أيام حتى يعودوا إلى صوابهم. وقام أساقفتنا من الأريوسيين المبجلين بدعوتهم لإثبات صحة مـذهبهم، إلا أنهـم رفـضوا مناقـشتهم والإذعـان لهم،وأثاروا الشعب على العصيانْ والتمرد. وفى اليوم الثانى من الاجتماع، بثوا الفوضى حتى يحولوا دون مناقشتهم.

ونتيجة اعتراضاتهم، قررنا بقاء كنائسهم مغلقة، لأنهـم عزفـوا عـن المناقشة. لذا ينبغي أن يطبق عليهم – إحقاقاً للعدل– القوانين التي تمادوا فـى اختراقها فى فترات زمنية متباعدة. وبموجب تلك القوانين حُرِّم عليهم ممارسة شعائرهم الدينية وإقامة الاجتماعات، وتشييد الكنائس فى المـدن والـضواحى الصغيرة، ومصادرة كنائسهم. كما حُرِّم عليهم أيضاً الاجتماع فى أى مكـان، ويتم طردهم من المدن وكل ضواحيها. ويمنعون أيضاً مـن تعميـد النـاس، وتنصيب [رشم فى المسيحية] الأساقفة والقساوسة ورجال الاكليروس عامـة. وسيعاقب من يخالف ذلك بدفع غرامة مقدراها عشرة جنيهات مـن الـذهب. كذلك غير مسموح للمدنيين أن يتبرعوا بالأوقاف والهبات للكنائس الكاثوليكية. وأخيراً، فإن معتنقى المذهب الكاثوليكي محرومون من الميراث".

هكذا، أكال هونوريك عقوبات لا حصر لها لمعتنقى الكاثوليكية هادفاً من ذلك إقتلاعها مـن الشمال الإفريقي، والإبقاء على مذهبه المفضل الأريوسية. ولم يفته إصدار عقوبات علـى الحكـام المدنيين للمقاطعات الذين يهملون فى تنفيذ أوامره، إذ أورد أنه سيطبق عليهم نفس العقوبات المطبقة على الكاثوليك.كذلك أقر هذا المرسوم أن القساوسة الأريوسيين هم أصحاب المذهب الحق وخدام الله الحقيقيين؛ وعليه تؤول ملكية كافة الكنائس الكاثولوكيـة المقامـة فـى ربـوع امبرطوريتـه إلـى

الأريوسيين. وأرخ ڤيكتور هذا المرسوم المنسوخ فى قرطاج فى الرابع والعشرين من فبراير سنة ٤٨٤م[١٢٨].

ولم ينتظر هونوريك إنقضاء المهلة المحددة لتنفيذ عقوباته وتهديداته، بل بمجرد التوقيع على المرسوم سالف الذكر، أصدر أوامره-حسب قول ڤيكتور-بتجريد كل الأساقفة الكاثوليك المجتمعين فى قرطاج من متعلقاتهم وطردهم من المدينة. كما قام بمصادرة كنائسهم ومساكنهم وأملاكهم؛ ولم يبق لهم شيئاً، لا خادم ولا حيوان ولا ملابس. وحرم على الجميع أن يقدموا لهم نجدة أو مأوى. أما الذين- بدافع الشفقة- حاولوا إيوائهم، فقد أقدم على إحراقهم وهم فى منازلهم، وتم اصطحابهم بالإكراه خوفاً من فرارهم. وحدث أن خرج هونوريك من قرطاج متوجهاً إلى حمامات السباحة، فأسرع جميع الأساقفة للقائه، ليستفسروا منه عن أسباب تلك الاضطهادات التي لا حصر لها. فنظر إليهم بازدراء دون أن يصغى لشكواهم، بل أطلق خيوله لتعقبهم، فقتل البعض تحت أقدامهم خاصة الطاعنين فى السن والمرضى.

ويواصل الأسقف ڤيكتور ذكر معاناة الكاثوليك من كافة ألوان ووسائل الاضطهاد[١٢٩]. ومن الطبيعى أن يبالغ فى سرده لكونه كاثوليكى يؤرخ لأعدائه الأريوسيين -كما سبق القول- لذا ينبغي قبول رواياته بتحفظ بالغ، إذ يؤرخ لجلاديه. ومع ذلك، فإن اضطهادات هونوريك للكاثوليك فاقت اضطهادات والده وسلفه جيزريك. شهد بذلك المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس(٥٠٠-٥٦٢م) Procopius فى مصدره المعنون "الحروب الوندالية"[١٣٠] Bellum Vandalicum.

أهداف هونوريك من اضطهاد الكاثوليك:

لقد كان هدف هونوريك من اضطهاداته المفزعة سالفة الذكر، إكراه الكاثوليك على اعتناق الأريوسية، حتى يعم مملكة الوندال مذهب واحد يساعد بالتالى على مزج الغزاة بسكان الشمال الإفريقي الأصليين، فتنعدم الفرقة وينصهر سكان الشمال الإفريقي جميعهم فى بوتقة واحدة. أما الامبراطور البيزنطي زينون Zénon، فقد عاود بذل ما بوسعه لإيقاف تلك التجاوزات، فأرسل إلى العاصمة قرطاج مبعوثاً يدعى" أورانيوس" Uranius، كلفه بمهمة الدفاع عن الكاثوليك وكنائسهم. وحتى يثبت هونوريك أنه لا يخشى أحداً، أقام أشهر جلاديه دموية وشراسة فى الميادين والشوارع التي سيجتازها المبعوث الإمبراطوري وهو فى طريق ذهابه وإيابه إلى مقر الملك الوندالي[١٣١].

---

128 للتفاصيل أنظر: - *Vita*, Éd. Migne, pp. 235 - 238; Éd.Petschenig, pp. 72 – 77; M.G.H; pp. 40 – 42.

129 للتفاصيل أنظر: - *Vita*. Éd. Migne, pp. 239 - 240; Éd. Petschenig, pp. 78 - 81; M.G.H., pp. 43 – 45.

130 Procopius, *Bellum Vandalicum*, Ed.J. Haury, I, p. 346. Cf. Procopius, *History of The Wars*: Book III, *The Vandalic War*, pp. 73 – 75.
والملاحظ أنه خصص صفحة واحدة فقط عن عهد هونوريك.

131 *Vita*, Éd. Migne, p. 246; Éd. Petschenig, p. 88; M.G.H., p. 49.

ومن المؤكد أن القصد من ذلك، إظهار الانتقام من الكاثوليك، لكون الامبراطور البيزنطي لم ينعم على معتنقى الأريوسية فى الامبراطورية البيزنطية بحرية ممارسة شعائرهم الدينية كما هو متفق عليه.

مما تقدم، يمكن القول إن زينون كان من بين أهم أسباب اضطهاد هونوريك للكاثوليك، بعد أن شهدوا فترة من السماحة أوائل عهده؛ لكنها لم تستمر طويلاً.

مجاعة صيف ٤٨٤م خففت موجة الاضطهادات:

على أية حال، لم تخف الاضطهادات المفزعة التي عانى منها الكاثوليك[١٣٢] إلابعد إنتشار جفاف ضاراستمر طوال فصل الصيف سنة ٤٨٤م، هدد إفريقيا بكاملها، وأحدث مجاعة شرسة إستمرت حتى اقتراب فصل الشتاء. وكانت رواية ڤيكتور أوفى الروايات إذ أورد أن المطر انقطع تماما، فتحولت الأرض الخضراء إلى أرض صحراوية صفراء. وأصبحت أشجار الكروم يابسة فى نفس موضعها؛ أما أشجار الزيتون، فقد تحمصت بفعل الحرارة الشديدة. ومياه الجداول والينا بيع نضبت، ونفقت جموع غفيرة من الحيوانات، والرياح شديدة الحرارة أحرقت كل ما صادفها. وتفشى الطاعون الذي أتى على ضحايا لاحصرلهم[١٣٣].

وفاة هونوريك:

وفى نهاية نفس العام – أى عام ٤٨٤م[١٣٤]– فى الثانى والعشرين من ديسمبر توفى هونوريك. ويؤكد ڤيكتور أنه توفي بالطاعون، ذاكراً أن وفاتة كانت جديرة بأعماله، وأنه حين دفن، لم يبق إلا قطع من جسده التي أتت عليها الديدان[١٣٥]؛ هذا بينما ذكر(٥٣٩ – ٥٩٣م) "جريجوار دو

---

132 بسبب معاناه الكاثوليك من اضطهاد هونوريك، قالوا إنه كان شرساً دمويا كهيرودوس وجالريوس أنظر: Courtois, *Les Vandales et l' Afrique*, p. 263.

133 *Vita*, Éd. Migne, p. 253 - 255; Éd. Petschenig, pp. 99 - 102; M.G.H., pp. 54 - 55.

134 توفى هونوريك فى شهر ديسمبر سنة ٤٨٤م"a 484 Mensi Decembri" دون تحديد يوم الوفاه. أنظر: *Vitam*. Éd. Migne. p. 285; Éd. Petschenig. p. 107; M.G.H; p. 59 هذا بينما أورد بروكوبيوس أن هونوريك توفى بعد أن استمر على عرش مملكة الوندال لمدة ثمانية أعوام أنظر: Procopius, *Bellum Vandalicum*, p. 346; *The Vandalic War*, p. 75. أما ڤيكتور دوتونونا فقد أورد أنه توفى بعد خروج أمعاؤه من جسده، فتشابهت وفاته بوفاة أريوس Arius الذي كان يناصر مذهبه، وذلك بعد أن حكم مملكة الوندال سبعة أعوم وخمسة أشهر.أى أنه توفى فى ٢٢ ديسمبر سنة ٤٨٤م. أنظر: Victor de Tunnua, *Chronique*, p. 190. وقد أخذ بهذا الرأى – الذي يعد صحيحاً – شارل كورتوا أنظر: Courtois, *Les Vandales et l' Afrique*, pp. 242, 259. فى حين يري شمدت أنه توفى فى ٢٣ ديسمبر ٤٨٤م أنظر: Schmidt, L., *Histoire des Vandales*, Paris, p. 133. بينما يرى ف. مرتروى أن هونوريك ربما توفى فى ١١ديسمبر سنة ٤٨٤م بعد أن حكم سبعة أعوام وعشرة أشهر تقريباً أنظر Martroye, F., *L' Occident à l' époque byzantine*, Paris, 1904, p. 209.

135 *Vitam*, Éd. Migne, p. 258 -259; Éd. Petschenig, p. 107; M.G.H., p. 59.

"غريغوار دي تور" Grégoire de Tours في مصدره "تاريخ الفرنجة" "Historia Francorum" أن الشيطان إقتلعه من الأرض، وأنه توفي بعد أن قضم ومزق نفسه"[136].

الخاتمة:

ختام القول، إذا كانت سمعة الوندال سيئة إزاء كاثوليكيي الشمال الإفريقي في ظل سيادتهم عليه، فيجب أن نضع في الاعتبار أن تاريخهم -كما سبق أن أوضحنا- لم نعرفه إلا عن طريق ضحاياهم من رجال الكنيسة الكاثوليكية- من أمثال الأسقف المؤرخ فيكتور فيتنسس وبوسيديوس أسقف جالمة و فراندوس أسقف قرطاج- الذين ذاقوا الأمرين على أيديهم، وبالتالى لا ننتظر منهم الانصاف، بل التشهير والمبالغة. ومن المؤسف حقاً أن التاريخ الوندالي لم يكتبه مؤرخ من بني جنسهم حتى نتمكن من عقد دراسة تحليلة نقدية مقارنة لوجهتي النظر، تساعد على استجلاء الحقائق، وإعطاء كل ذي حق حقه.

لذلك، لا يمكننا القول بأن الوندال يتسمون بميول هدامة للحضارة، إذا اتضح من البحث أنهم حافظوا – إلى حد ما- على الحضارة الرومانية، بل أخذوا بالتقاليد والعادات والحياة الرومانية. وبعد استقرارهم في الشمال الإفريقي، إنغمسوا في حياة الترف والبذخ، بل وعملوا على تمازج و صهر العناصر الوندالية والآلانية والرومانية الكاثوليكية والبربرية. علما بأنهم لم يبالغوا في ممارسة سياستهم الوحشية ضد الوطنيين الأفارقة. والجدير بالتسجيل – إستنادا إلى ألواح البرتيني Tablettes Albertini– أنهم لم يصادروا أراضي الفلاحين الذين كانوا مصدر الحياة الاقتصادية آنذاك، وإنما انتزعوا أراضي كبار رجال الاقطاع من الرومان المستغلين، لذلك تحامل عليهم كل أعدائهم – سواء رجال الدين الكاثوليك أو كبار الاقطاعيين- واتهموهم بالقسوة والوحشية وسفك دماء الأبرياء. ومع ذلك، ينبغي أن نسجل دور الوندال الحضاري في الشمال الإفريقي رغم أنه لا يرقى إلى الدور الحضاري للرومان.

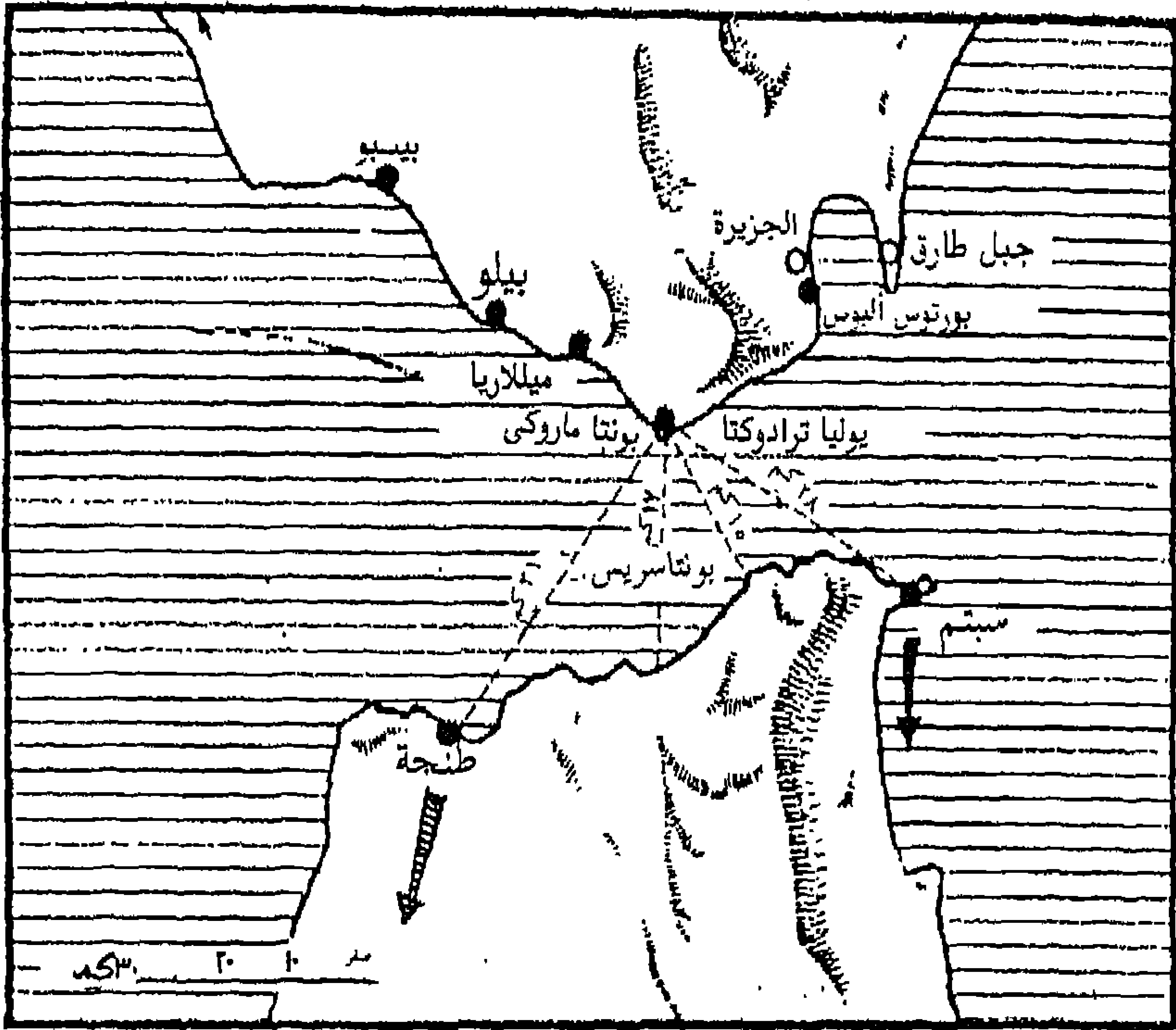
---

[136] Gregorii Taronensis, *Historia Fracorum*, Lib. II, Cap. III, Éd. Arndt, M.G.H., p. 66.

الخرائط

خريطة رقم ١

مضيق جبل طارق



..... ◄ خط السير البرى

——— ◄ خط السير البحرى

خريطة رقم ٢

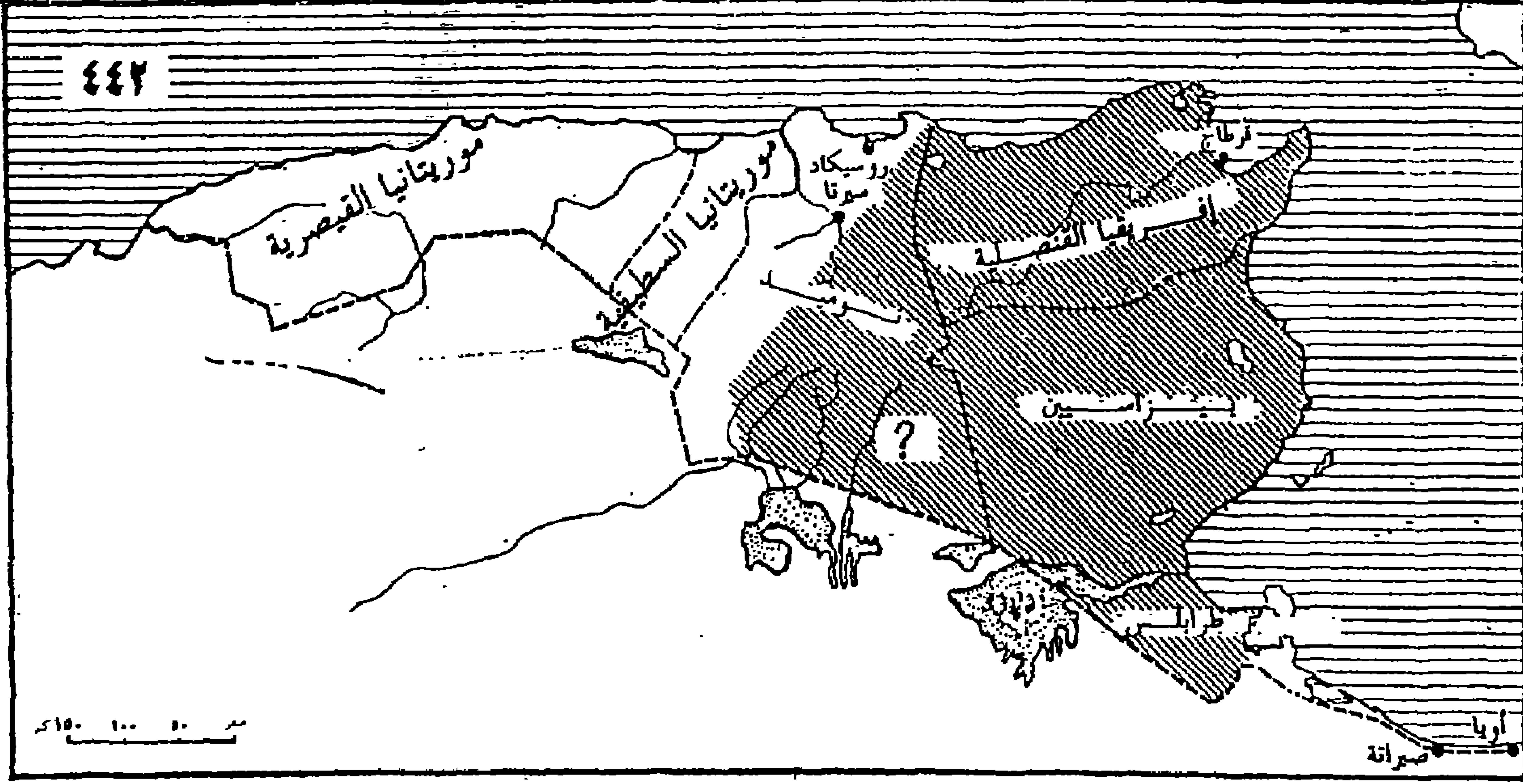
خط سير الوندال في إفريقيا

خريطة رقم ٣

حدود مملكة الوندال طبقاً لصلح ١١ فبراير ٤٣٥م

خريطة رقم ٤

حدود مملكة الوندال طبقاً لمعاهدة ٤٤٢م



مراسم البلاطين الفاطمى والبيزنطي

دراســـة مقارنـــة

د. محاسن محمد الوقاد

كلية الآداب، جامعة عين شمس، مصر

يتناول هذا البحث دراسة نظم ومراسم البلاطين البيزنطي والفاطمى في محاولـــة لعقـــد دراسة مقارنة بينهما وتوضيح أوجه التشابه والاختلاف. ولا شك أن عقد دراسة مقارنة بين النظم الحضارية واستخلاص التأثير والتأثر يعد أحد الميادين المهمة في الدراسات التاريخية، التي تقدم للقارىء صورة عن حياة ملوك ذلك الزمان.

وبخصوص الدراسات السابقة بشأن هذا الموضوع، فكان أول من اهتم بدراسة رســـوم الفاطميين في مصر المستشرق الروسى إنسترانتزف Inastrantsev إذ أعد بحثاً بعنوان "الخروج الاحتفالى للخلفاء الفاطميين"[١]. ويعد أول عمل علمى بحق تناول عـــدداً مـــن مظـــاهر تنظـــيم الاحتفالات الفاطمية. وقد نبّه إنسترانزف في هذه الدراسة إلى أهمية مقارنة الاحتفالات الفاطميـــة بالاحتفالات البيزنطية وطرح فكرة وجود تأثير ممكن لبيزنطة عليها[٢].

ولم تقم أية دراسة جادة لنظم الفاطميين ورسومهم في مصر منذ هذا التـــاريخ إلـــى أن كتب الدكتور عطية مصطفي مشرفة رسالته "نظم الحكم بمصر في عصر الفـــاطميين"[٣] تنـــاول فيها نظام الخلافة ونظام الوزارة والقضاء والدعوة والحسبة كما كانت تجرى في الدولة الفاطمية. وفي عام ١٩٥١ عقد المستشرق والعالم الفرنسى "ماريوس كانار" Marius Canard مقارنة بين مراسم البلاط الفاطمى ومراسم البلاط البيزنطي[٤]، اعتماداً على المقريزى والقلقـــشندى وكتـــاب

---

(1) بالروسية الذي صدر في سان بطرسبرج عام ١٩٠٥م.

(2) ابن الطوير، نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، أعاد بناءه وحققه وقدم له أيمن فؤاد سيد، انظر ص ٣١ (التمهيـــد) ؛ انظر أيضاً:

Canard, M., 'Le cérémonial fatimite et le cérémonial byzantin' , *Byzantion* 20 (1950), p. 357, n.2.

(3) طبعة القاهرة ١٩٤٧م.

(4) *Le cérémonial fatimide,* pp. 355-420.

"المراسم البيزنطية" لقسطنطين بورفيرجنيتوس[١]، وهى دراسة عميقة ومركزة ؛ ثم أعقبها في سنة ١٩٥٢م بدراسة عن "ركوب أول العام عند الفاطميين" كما وصفه ابن الطوير وابن المأمون اعتماداً على نصوص المقريزى والقلقشندى وأبى المحاسن ودراسة إنسترانتزف السابق الإشارة إليها. وفي العام نفسه أتم المرحوم ا.د. عبد المنعم ماجد رسالته "نظم الفاطميين ورسومهم في مصر" التى تقدم بها إلى جامعة السوربون، ثم نشرها بالعربية في جزأين صدرا في القاهرة سنة ١٩٥٣ و ١٩٥٥. وفي سنة ١٩٨٤م، تقدمت الدكتورة باولا ساندرز Paula A. Sanders برسالة إلى جامعة برنستون بالولايات المتحدة الامريكية عن "رسوم الدولة الفاطمية في مصر"[٢]. وهى الدراسة الوحيدة التى اعتمدت على نصوص المسبحى وابن المأمون وابن الطوير، وتتبعت أوليات هذه الاحتفالات وتطورها، ولكنها لم تعقد مقارنة بين رسوم البلاطين، بل لم تشر إلى ذلك لا من قريب ولا بعيد.

وقد أهملت الدراسات السابقة بعض المصادر الإسلامية التى لا غنى للباحث عن الرجوع إليها. باستثناء دراسة باولا ساندرز التى اعتمدت على مصادر من الدرجة الأولى للعصر الفاطمي، واقتصرت على دكر رسوم الدولة الفاطمية.

وعلى الجانب الآخر؛ جذبت مراسم البلاط البيزنطى اهتمام عدد ليس قليل من الباحثين المحدثين، فوضعت العديد من الدراسات التى تناولت مختلف جوانب هذه المراسم، منها على سبيل المثال: دراسة فيكان Vikan عن هدايا البلاط البيزنطى [٣]، ودراسة مكورميك McCormic عن المراسم الإمبراطورية [٤]، ودراسات كاميرون Cameron وموفات Moffat عن مراسم البلاط فى ضوء كتاب المراسم لقسطنطين السابع [٤]، ودراسة تينفيلد Tinnefeld عن

(1) Constantin VII Porphyrogénète. *Le Livre des Cérémonies*, 1-2 texte établi et traduit Par Albert Vogt, Paris, 1935.

(2) Paula, S., *The Court Cérémonial of the Fatimid Caliphate in Egypt*. Princeton University, Ph.D. 1984.

(3) Vikan , G., *Gifts from the Byzantine Court* , Washington , 1980.

(4) McCormick , M., 'Analyzing Imperial Ceremonies' , *Jahrbuch der Österreichischen Byzantinistik* 35(1985),pp.1-20.

(5) Cameron , A., 'The Construction of Court Ritual : The Byzantine Book of Ceremonies', D. Cannadine & S. Price(eds.) , *Rituals of Royalty: Power and Ceremonial in Traditional Societies* , Cambridge , 1987, pp.106-136 ; Moffat , A., 'The Master of Ceremonies Bottom Drawer : The Unfinished State of the De Ceremonies of Constantine Porphyrogennetos' *ByzantinoSlavica* 57/2(1996).

"مراسم استقبال السفراء الأجانب فى بلاط بيزنطة وخلفياتهـا الـسياسية" [1]، ودراسـة كاريـيـه Carrier عن المراسم البيزنطية كما عكستها المصـادر اللاتينية عصر الحروب الصليبية[2].

ومن هنا تأتى أهمية هذه الدراسة التى تستهدف عمل مقارنة تاريخية-حضارية بين نظم البلاطين الفاطمى والبيزنطي، ومدى التأثير والتأثر المتبادل بينهما على وجه الخصوص، لإظهار مدى ازدهار الحـضارة الفاطمية آنذاك عن مثيلتها البيزنطية. ولا شك أن كتابة تـاريخ صـحيح للدولة الفاطمية ونظمها ورسومها في مصر لا يمكن أن يتم في غياب مصادر العصر الفاطمى[3].

لقد حدث تطور في القاهرة الفاطمية، وكذلك في القصور التى شيدوها، بل فـي حيـاة البلاط ومراسمه فنشأت مؤسسات البلاط الكثيرة، وبالتالى صاحب ذلك مراسم فخمة ودقيقة لا نجد مثيلاً لها في ذلك العصر إلا في الإمبراطورية البيزنطية[4]. وليس من المـستبعد، علـى حـد قـول ماريوس كانار،[5] أن الفاطميين أعجبوا بالأحاديث الخاصة التى بلغـتهم عـن مراسـم الـبلاط البيزنطي من السفراء والتجار وعلى هذا أرادوا محاكاتها أو تقليد بعض ملامحها حتـى يـصل الخليفة الفاطمى إلى عظمة وجلال الإمبراطور البيزنطي.

---

(١) Tinnefeld . F.. 'Ceremonies for Foreign Ambassadors at the Court of Byzantium and their Political Background' . *Byzantinische Forschungen* 19(1993).pp.193-214.

(٢) Carrier , M.. *L' image du Grec selon les chroniques des Croisades : preceptions et reactions face au cérémonial byzantin 1096 a 1204* , Université de Sherbrooke , 2000.

وعلى مستوى مكتبة الدراسات البيزنطية العربية، ثمة بعض الدراسات التى تطرقت إلى دراسة جوانب من مراسم البلاط البيزنطى، منها : دراسة المرحوم أ.د. رأفت عبد الحميد "قواعد الدبلوماسية البيزنطية"، والتى تناولت جانبا من مراسم استقبال السفراء الأجانب كأحد الأدوات الأساسية فى الدبلوماسية البيزنطية . رأفت عبد الحميد، بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة، القاهرة، ١٩٩٧، ص١٠٣-١٤١. كذلك هناك دراسة للباحث يوسف سمير كامل بسخرون تناولت مراسم البلاط البيزنطى كما عكستها المصادر اللاتينية فى القرن الثانى عشر الميلادى، وتحمل عنوان "مدينة القسطنطينية ومراسمها فى الكتابات اللاتينية فى القرن الثانى عشر الميلادى"، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية البنات، جامعة عين شمس، ٢٠٠٧م.

(٣) لمزيد من التفاصيل انظر: أيمن فؤاد سيد، دراسة نقدية لمصادر تاريخ الفاطميين في مـصر، دراسـات عربيـة وإسلامية مهداة إلى أديب العربية الكبير أبى فهر محمود محمد شاكر بمناسبة بلوغه السبعين، القـاهرة ١٩٨٢م، ١٢٩-١٧٩.

(٤) Canard, *le cérémonial fatimite*, p. 355.

(٥) Canard, *le cérémonial fatimite*, p. 356.

وقد عرفت مصر قبل مجئ الفاطميين عظمة بلاط الطولـونيين والأخـشيديين؛ إلا أن أمراء هاتين الدولتين كانوا يدينون بالولاء لخلفاء العباسيين، لذا كان بلاط كل منهما علـى نـسق البلاط في بغداد وسامراء في العراق. ولكن الفاطميين – كخلفاء منافسين للعباسـيين – منحـوا بلاطهم في القاهرة الترف البالغ الذى يليق بخلافتهم الواسعة، التى امتدت حتى لامست العـراق، وطبعوه أيضاً بطابعهم المذهبى الخاص ؛ بحيث أن مصر لم تعرف منذ عهد الفراعنة والبطالمة بلاطاً يتميز بجدته وبذخه كالبلاط الفاطمى[١].

أما فيما يتعلق بالمراسم الفاطمية والتى شهدت عصر تألقها وازدهارهـا فـي القـرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى، فمن الطبيعى – ككل الحـضارات – أن يكـون لهـا جذورها وأصولها التى تعود إلى عصر سابق على هذا[٢].

أما عن المقارنة بين مراسم البلاطين الفاطمى والبيزنطي فنتناولها على النحو التالي :

القصـــر:

اختط القائد جوهر الصقلبى في ليلة وصوله مدينة القاهرة – رابعة مدن مصر الإسلامية – التى قرر تأسيسها لتكون مدينة ملكية حصينة للخليفة وأتباعه ؛ كما اختط القـصر الفـاطمى، الذى أعده ليستقبل فيه مولاه المعز لدين الله، وأطلق عليه القصر الشرقى الكبير، لوقوعـه فـي الجهة الشرقية من القاهرة، وعرف أيضاً بالقصر المعزى، لأن الخليفة المعز هو الذى أمر ببنائه عند فتح مصر[٣]. وبنى جوهر سوراً خارجياً من اللبن على هيئة مربع، طول كـل ضـلع مـن أضلاعه حوالى ألف ومائتى متر [٤]، وقد ضم هذا السور جميع المنشآت الداخلية بالقاهرة، فبدت

---

(1) ماجد، نظم الفاطميين ورسومهم، ص ٩. ولا شك في أن هذه مبالغة غير مقبولة، لأن بلاط الفراعنة فاق الخيال.

(2) Canard, *le cérémonial fatimite*, p. 356.

(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان ؛ بولاق ١٢٩٩هـ، جـ١، ١٦٨ ؛ جـ٢، ص ٥-٧ ؛ ابن دقماق، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، القاهرة ١٩٨٣م، ص ٣٦ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٦١ وما بعدها ؛ ناصـر خـسرو، سفرنامه، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٩٣م، ص ١٠٤ ؛ المقريزى، اتعـاظ الحنفـا، جـ١، ص ١١١ ؛ مسودة كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، تحقيق أيمن فؤاد سيد، لنـدن ١٩٩٥م، ص ٤٩، ٥٠، ٦٨. أنظر أيضاً:

Sanders , *Court Ceremonial* , pp. 61-62

(4) ابن دقماق، الانتصار، ص ٣٦ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٧٧ ؛ ابن اياس، بدائع الزهـور فـي وقـائع الدهور، طبعة بولاق، جـ١، ص ٤٥.

المدينة كأنها حصن عظيم يدور حوله سور سميك بحيث يستطيع أن يمر فوقه فارسان جنباً إلى جنب[1]. وقد اختلف المؤرخون في الغرض الذى أقيم من أجله، فمن قائل أن جوهراً "قصد باختطاط القاهرة[2] - حيث هي اليوم - أن تصير حصناً فيما بين القرامطة وبين مدينة مصر ليقاتلهم من دونها، فأدار السور اللبن على مناخه الذى نزل فيه بعساكره، وأنشأ داخل السور جامعاً وقصراً، واعتبرها معقلاً يتحصن به، وتنزله عساكره، واحتفر الخندق من الجهة الشمالية ليمنع اقتحام عساكر القرامطة إلى القاهرة وما وراءها من المدينة"[3]. على حين رأي البعض الأخر في هذا السور هدفاً أرستقراطياً يختلف عن هدف التحصين كما يفهم من عبارة المؤرخ ابن دقماق (ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٧م) حين يقول إن جوهراً "بنى لسيده القاهرة والقصور، ليكون هو وأصحابه وأحفاده بمعزل عن العامة"[4].

وعلى هذا فمن المرجح أن يكون جوهر قد قصد الغرضين معاً، بمعنى أنه استطاع أن يحصن المدينة تحصيناً كافياً، وأن يعوق في الوقت نفسه عامة الشعب في كل من الفسطاط والعسكر والقطائع من الوصول إلى القاهرة، فقد كان محظوراً على اي فرد اجتياز أسوار القاهرة إلا إذا كان من جند الحامية الفاطمية، أو من كبار موظفي الدولة ؛ كما كان الدخول إليها وفق تصريح خاص[5]، عن طريق الأبواب الثمانية التى فتحها جوهر في السور : وهى اثنان في السور الشمالى هما باب الفتوح وباب النصر، وفي الجنوب باب زويلة وإلى الغرب منه باباً آخر أسماه باب الفرج، أما في الضلع الشرقى للسور فهما باب البرقية ويعرف أيضاً بباب التوفيق، أما الباب الثانى في هذا الضلع فهو باب القراطين[6]، الذى عرف فيما بعد بالباب المحروق[7].

---

(1) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٧٧.

(2) انظر الملحق رقم (١).

(3) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٦١.

(4) ابن دقماق، الانتصار، ص ٣٦، أنظر ايضاً:
Sanders, *Court Ceremonial* , pp. 62-63.

(5) عبد الرحمن فهمى، أسوار القاهرة وأبوابها من جوهر القائد إلى الناصر صلاح الدين، مجلة المجلة، العدد (٥١) ١٩٦٦م، ص ٤٦٩.

(6) نسبة إلى باعة القرط، حيث كان يوجد سوق للغنم أمامه، أنظر القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٣٥٣.

(7) عرف بهذا الإسم نتيجة لما فعله سبعمائة مملوك كانوا قد هربوا من القاهرة عندما علموا بمقتل الأمير أقطاي في عام ٦٥٢هـ/١٢٥٤م، حيث تركوا منازلهم في أثناء الليل، وتقدموا نحو هذا الباب فوجدوه مغلقاً كما جرت العادة بذلك، فأوقدوا النار في الباب حتى سقط من الحريق وخرجوا منه. ومنذ ذلك الوقت عرف هذا الباب

وفي الضلع الغربي كان هناك بابان كذلك، أولهما باب القنطرة الذى بناه جوهر بعد سنتين من بناء السور نفسه، وأقام أمامه قنطرة فوق الخليج ليمشي عليها إلى المقسى ليدافع عن القاهرة ضد القرامطة. أما الباب الثاني فهو باب سعادة تيمناً باسم سعادة بن حيان غلام المعز، الذى يقال إنه دخل بجيشه مدينة القاهرة من هذا الباب في رجب عام ٣٦٠هـ / مايو ٩٧١م[١].

وفي قلب هذه المدينة نمت أول بذور العمارة الفاطمية، حيث وضع جوهر أساس السور المحيط بالقاهرة، والقصر الكبير الذى أعده لنزول الخليفة المعز لدين الله. وقد تلاشى هذا القصر عقب سقوط الدولة الفاطمية، ولم يبق لنا منه سوى الوصف الذى جاء في بعض المصادر التاريخية. ويفهم منه أنه كان يشتمل على تسعة أبواب[٢]. ويشغل مساحة تقرب من سبعين فداناً[٣]، ويتألف من خطط وأحياء تخترقها الطرقات والمسالك التى تفضى إلى أجزائه المختلفة فوق الأرض، أو في داخل السراديب المارة تحت الأرض. وكانت تضيئه الرحبات الكبيرة غير المسقوفة، أو الأفنية الداخلية الصغيرة. وقد ذكرت المصادر التاريخية أن بعض السراديب كان مظلماً تماماً، ويؤكد ما ذهب إليه الوصف الفريد الذى وصل إلينا عن هذا القصر أثناء حملة شيركوه الثانية على مصر[٤]، فقد أقسم عمورى الأول لوزينان (١١٦٢ – ١١٧٤م) Amaury I Lusignan، بألا ينسحب من مصر إلا إذا ألحق الهزيمة الساحقة بجيش شيركوه أو نجح في طرده منها. وبالتالي يصبح الصليبيون حماة مصر والخلافة الفاطمية، وقد طلب عمورى أن يرسل وفداً من رجاله لمقابلة الخليفة الفاطمي العاضد (٥٥٥ – ٥٦٧هـ / ١١٦٠ – ١١٧١م) للتصديق على ذلك، وأجيب إلى طلبه، وأنفذ الملك عمورى ملك بيت المقدس الصليبي إلى

بالباب المحروق. أنظر المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٨٣ ؛ السلوك، جـ١ ق٢، ص ٣٨٩ – ٣٩١. أنظر أيضاً:

Sanders, *Court Ceremonial* , pp. 62-72.

(1) ابن عبد الظاهر، الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، تحقيق أيمن فؤاد، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٦م، ص ١٦، ١٩. المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٨٣.

(2) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٣٢ ؛ ابن دقماق، الانتصار، ص ٣٧.

(3) أحمد عبد الرازق، تاريخ مصر وآثارها الإسلامية منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي، القاهرة ١٩٩٣م، ص ٢١٧.

(4) فايز نجيب اسكندر، الصليبيون والفاطميون والزنكيون في معركة البابين ١٨ مارس سنة ١١٦٧م / ٢٥ جمادى الأولى سنة ٥٦٢هـ، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية : مجلة علمية تعنى بالآداب والعلوم والدراسات الإنسانية، جامعة المنيا، العدد الثامن والأربعون، ٢٠٠٣م، ص ٧٩ وما بعدها.

القاهرة رسولين كلفا بالحصول من الخليفة الفاطمى على تحالف قوامه أن يدفع الخليفة للصليبيين مائتى ألف دينار معجلة، ومثلها مؤجلة نظير دفاعهم عن مصر وصد الأعداء عنهـا، وانسحب الرسولان وقد اشتد تأثرهما بما زخرت به الخلافة الفاطمية من مظاهر الثروة والترف[١].

والجدير بالتسجيل أن المبعوثين الصليبيين وصفا ما رأياه لوليم الصورى مؤرخ مملكة بيت المقدس الصليبية فرواه في مصدره التاريخي[٢] على صورة يخيل لقارئها أنه يتحدث عن قصور ألف ليلة وليلة[٣]، إذ جاء في هذا المصدر الصليبى الوحيد الذى انفرد بذكر تفاصيل حملة شيركوه الثانية على مصر وصفاً تفصيليا لما حدث من إجراءات تصديق الخليفة الفاطمى على هذا الاتفاق، وشرح أنه استمد وصف القصر الفاطمي، وهيئة الخليفة، وثروته، وأبهة ملكه وعظمته من روايات الذين تسنى لهم مقابلة الخليفة. وبالتالى زودنا بوصف أبهاء القصر والحرس، والنافورات، والحدائق التى قامت بها حظائر الحيوانات والطيور الضارية، ووصف القاعات وما ازدانت به من الستائر المصنوعة من الحرير الموشاة بالذهب، والمرصعة بالجواهر، وفي ذلك يقول : "وسار سفيرا الفرنج يقودهما الوزير شاور بنفسه إلى قصر له رونق وبهجة عظيمان، وفيه زخارف أنيقة نضيرة... ووجدا في هذا القصر حراساً عديدين، وسار الحراس في طليعة الموكب، وسيوفهم مسلولة، وقادوا الفرنجيين في دهاليز طويلة ضيقة، وأقبية حالكة الظلمة، لا يستطيع إنسان أن يتبين فيها شيئاً ولما خرجا إلى النور اعترضتهما أبواب كثيرة متعاقبة، كان يسهر على كل منها عدد من الحراس المسلحين ثم وصل الموكب إلى فناء مكشوف،

---

(1) Willermus. Achiepiscopus Tyrensis, *Historia Remum in Partibus Transmarinis Gestarum* , in: Recueil des Historiens des Croisades. Historiens Occident aux, Paris, 1844. Tome I, pp. 910-911; William of Tyre. *A History of the Deed done beyond the Sea* , trans. E.A. Babcock & A.C. Kery, New York 1943, t. II, pp. 319-320.

أنظر أيضاً: رينيه جروسيه René Grousset في موسوعته المكونة من ثلاثة أجزاء وعنوانها "تاريخ الحروب الصليبية ومملكة الفرنجة في أورشليم (بيت المقدس)":

Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jérusalem, Paris, 1935, Tome. II, pp. 482 – 486;

كذلك أورد جوستاف شلمبرجيه Gustave Schlumberger في كتابه المعنون "حملات الملك عمورى الأول ملك مملكة بيت المقدس على مصر في القرن الثانى عشر الميلادى" أن مبعوثى الملك الفرنجى انبهروا انبهاراً شديداً حين زاروا قصر الخليفة الفاطمي، ومع ذلك لم ينتابهم الخوف على الإطلاق: إذ أورد:

Campagnes du Roi Amaury I de Jerusalem en Egypte au XIIE Siécle, Paris, 1906, p. 118.

(2) Willermus. A Achiepiscopus Tyrensis , *Historia rerum* , tome, I, pp. 909-913

(3) Grousset, *Histoire des Croisades*, p. 482.

تحيط به أروقة ذات عمد، وأرضية مرصوفة بأنواع من الرخام متعددة الألوان، وفيها تذهيب خارق للعادة بنضارته وبهائه، كما كانت ألواح السقف تزينها الزخارف الذهبية الجميلة... وكان في وسط الفناء نافورة يجرى الماء الصافي منها في أنابيب من الذهب والفضة إلى أحواض وقنوات مرصوفة بالرخام... وتبدو في هذا المكان كل مظاهر الأبهة الملوكية التى أبدعتها يد الصانع الماهر مما يشير إلى روعة الصنعة. هذا إلى أنها بلغت حداً من الإبداع تجعل العين لا تستطيع إلا أن تحملق في دهشة من روعة هذا الجمال النادر الذى لا يكل المرء من التطلع إليه، فهناك برك من الرخام للسمك ملاي بالماء الصافي. وكانت ترفرف في الفناء أنواع متعددة من الطيور الجميلة، ولم يكن أحد يرى هذه الطيور دون أن تصبيه الحيرة والدهشة إعجاباً بها، وكان طعام كل منها يختلف عن طعام الآخر حسب أنواعها، إذ لكل نوع منها طعامه الخاص به... ومن هذا الفناء سار الموكب إلى أفنية عديدة أشد جمالاً وإبداعاً، ثم إلى بستان لطيف رأوا فيه أنواعاً غريبة من الحيوانات ذات الأربع، إذ كانت أشبه بما يراه النائم في حلمه، ولكنها مخلوقات موجودة في الواقع في بلاد الشرق ولكن لم ير الغرب مثيلا لها أو يسمع عنها إلا نادرا[١]. وبعد أن عبروا أبواباً عديدة أخرى وساروا في تعاريج كثيرة، وصلوا إلى القصر الكبير حيث يقطن الخليفة. وقد فاق هذا القصر كل ما رأوه قبل ذلك. وكان أفنيته تفيض بالمحاربين المسلمين، متقلدين أسلحتهم، وعليهم الزرد والدروع، تلمع بالذهب والفضة، ثم أدخل المبعوثون في قاعة واسعة، تقسمها ستارة كبيرة من خيوط الذهب والحرير المتعددة الألوان، وعليها رسوم الحيوان والطير وبعض المناظر الأدمية، وكانت تلمع بما عليها من الياقوت والزمرد والأحجار الكريمة، والخليفة جالس على عرش من الذهب المرصع بالجواهر والأحجار الثمينة"[٢] وحوله طائفة من مستشاريه وعبيده وبعد انصراف المبعوثين أرسل الخليفة إليهما الهدايا والتحف تعبيراً عن سخائه الملوكى، فترك هذا انطباعاً جيداً لديهما أثناء وبعد رحلة العودة[٣].

---

[1] وليم الصورى، الحروب الصليبية، ترجمة وتعليق حسن حبشى، سلسلة تاريخ المصريين العدد (٧٧)، القاهرة، ١٩٩٥م، جـ٤، ص ٤٦ وما بعدها. أنظر أيضاً: زكى محمد حسن، كنوز الفاطميين، القاهرة ١٩٣٧م، ص ٧٤ وما بعدها.

[2] زكى حسن، كنوز الفاطميين، ص ٧٤ وما بعدها. وكذلك:

Lane-poole, S., *A History of Egypt in the Middle Ages*, London, 1936, pp. 180-181.

[3] وليم الصورى، الحروب الصليبية، ص ٥٠ ؛ أنظر أيضاً:

Willermus, Achiepiscopus Tyrensis, *Historia rerum* . p. 973; William of Tyre,*Deeds*, p. 320.

وكذلك أيضاً

Grousset, *Histoire des Croisades*, p. 913

وكان بالقاهرة عدا هذا القصر قصر أخر إلى الغرب منه، عرف بالقصر الغربى، شيده الخليفة العزيز بالله، ووصفه المسبحى بأنه "لم يبق مثله في شرق ولا في غرب"[1] وكان له أيضاً عدة أبواب أهمها باب الساباط، وباب التبانين، وباب الزمرد، وكان يتصل بالقصر الكبير الشرقى بواسطة سرداب تحت الأرض كان ينزل منه الخليفة ممتطياً ظهر بغلته تحيط به فتيات القصر[2]. وكان أمام القصر الكبير الشرقى، وفيما بينه وبين القصر الغربى ميدان فسيح، كانت تقام فيه حفلات عرض الجيش، حيث يقف فيه عشرة آلاف بين فارس وراجل، واشتهر فيما بعد باسم بين القصرين؛ كما كان هناك ميدان أخر بجوار القصر الغربى يجاور البستان الكافورى المطل على الخليج[3].

وفيما يتعلق بقاعات القصر، فقد استمدت المنشآت الملكية الفاطمية – مثلها مثل الدور التى كشفت في الفسطاط – طرازها من طراز سامراء اي سر من راي في البناء الذى أدخل على فن العمارة الإسلامية ذلك الأسلوب الذى ينسب المؤرخ والجغرافي المسعودى، أحداثه إلى الخليفة المتوكل العباسى (٢٣٢ – ٢٤٧هـ)، فقد ذكر أنه "أحدث في أيامه بناء لم يكن الناس يعرفونه وهو المعروف "بالحيرى والكمين والأروقة" وقد أخذه عن ملوك الحيرة من النعمانية من بنى نصر، فكان الرواق فيه مجلس الملك وهو "الصدر"، و"الكمان" ميمنة وميسرة، ويكون في البيتن اللذين هما الكمان من يقرب إليه من خواصه، وفي اليمين منهما خزانة الكسوة وفي الشمال ما احتيج إليه من الشراب ؛ والرواق قد عم فضاؤه الصدر، والكمين والأبواب الثلاثة على

Schlumberger, *Campagnes* . p. 125.

[1] المسبحى، أخبار مصر في سنتين (٤١٤-٤١٥هـ) تحقيق وليم ج. ميلورد، القاهرة ١٩٨٠م، ص ٤٩؛ الجزء الأربعون من أخبار مصر، تحقيق أيمن فؤاد سيد، تيارى بيانكى، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة، ١٩٧٧م، ص ٧٠ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٥٧-٤٥٨ ؛ مسودة كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ص ٦٤.

[2] المسبحى، الجزء الأربعون من أخبار مصر، ص ٧٠ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٥٧ – ٤٥٨.

[3] المقريزى، الخطط، جـ١، ٣٦٢-٣٦٣ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٢٩-١٩٥٦م، جـ٤، ص ٣٤-٣٦. أنظر أيضاً:

Sanders, *Court Ceremonial* , p. 62.

الرواق ؛ فسمي هذا البنيان إلى هذا الوقت بالحيرى والكمين إضافة إلى الحيرة، واتبع الناس المتوكل في ذلك اقتداء بفعله واشتهر إلى هذه الغاية[١].

وربما كان الباب الذهبي للقصر الفاطمي يذكرنا بالبوابة الذهبية لمدينة القسطنطينية[٢]، ويمكن هنا عقد مقارنة بين القاعة الذهبية بـ Chrysotriclinos التى كانت تستخدم أيضاً للمآدب الكبرى، مثل المأدبة الكبرى التى كانت تقام في عيد القيامة، كذلك كانت تجرى فيه المقابلات التى لها صبغة رسمية.

وفي قاعة الذهب كان يوجد العرش "سرير الملك"، وهو عبارة عن تخت مرتفع يشغل عرض القاعة، وكان الأمويون أول من جلس من الخلفاء على سرير الملك في الإسلام[٣]. وهذا التخت مغطى بالذهب من جهاته الثلاث[٤]، ومغشى بنسيج ثمين له لمعان كأشعة الشمس، عليه صور الصيد من فرسان وخيل وكتابات جميلة وغير ذلك من الزخارف. وكان الفاطميون – مثل العباسيين – يهيئون على سرير الملك هذا "مرتبة فخمة"[٥]، توضع في المكان المعين لجلوس الخليفة ؛ كما كانوا يقلدون رسوم الفرس في أن يجلس الخليفة خلف ستر لحجبه عن أعين الناس، فيعلقون على "باب المجلس" أمام السرير "ستراً"[٦]، صنع من خيوط الذهب والحرير المختلف

---

(1) المسعودى، مروج الذهب ومعادن الجوهر، بيروت ١٩٧٩م، ص ٥-٦ ؛ ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٨٩ – ٩٠.

(2) Canard, *le cérémonial fatimite*, pp. 359-360.

وقد أسس الإمبراطور قسطنطين العظيم (٣٠٦-٣٣٧م) هذه المدينة عام ٣٢٤م واستمر البناء ست سنوات كاملة، واحتفل بتدشينها عام ٣٣٠م. وقد اختار لها قسطنطين موقعاً جغرافياً متميزاً بالحصانة الطبيعية، حيث كان عبارة عن تل تحيط به المياه من ثلاث جهات صوب بحر مرمرة، وكانت تقع عليه قديماً قرية بيزنطة التي بنيت على أيدى الدوريين. لمزيد من التفاصيل عن تأسيس المدينة انظر ستيفن رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة، ١٩٩٦م، ص٣ وما بعدها ؛ السيد الباز العريني، الدولة البيزنطية، القاهرة ١٩٦٠م، ص ٢٦-٢٨ ؛ وسام عبد العزيز فرج، دراسات في تاريخ وحضارة الدولة البيزنطية، الإسكندرية، ١٩٨٥م، جـ١، ص ١٣-١٥.

(3) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، بيروت، ١٩٨٤م، ص ٢٦٠ ؛ أنظر أيضاً أشرف أنس، الدساتير، ص ٤٤٤.

(4) ناصر خسرو، سفر نامه، ص ١٥٧ ؛

Sanders, *Court Ceremonial*, p. 128.

(5) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٨٦ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٩٩ ؛ أنظر أيضاً: ماجد، نظم الفاطميين، جـ٢، ص ١١٣.

(6) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٨٦ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٩٩.

الألوان، وحلى بالجواهر النفيسة(١)، وكان يقف عن يمين الستر ويساره موظفان كبيران(٢) لرفعه وإرخائه في مناسبات الجلوس. ويتفق ذلك مع "سرير الملك" الخاص بالإمبراطور البيزنطي(٣).

أما جزء القاعة حيث كان ينصب العرش، فقد كانت منفصلة بواسطة باب عليه ستارة، لا ترفع إلا عند ما يكون الخليفة جالساً على العرش(٤)، وفي هذا "الإيوان الكبير"(٥) كان يوجد به أيضاً عرش. ومن خلال وصفه هذا يجعلنا نعتقد أن هناك تشابهاً مع العرش الخاص بالإمبراطور البيزنطي(٦). فقد كان يقام هنا بناء صغير يسمى "السهدلا"(٧) ويشير ابن الطوير إليه بقوله "وينزل الخليفة في "السهدلا" بدهليز باب الملك الذى فيه الشباك " والسّدلا الفاطمية بناء مغلق من ثلاثة جوانب ومفتوح من الجانب الرابع حيث كان يوجد "الشُباك"، وحدد موضعها على وجه التقريب في وسط القصر بين باب العيد وباب البحر(٨).

أما "الشباك" فأشبه بمقصورة عليها من ظاهرها ستر يرفعه اثنان من الأستاذين المحنكين – زمام القصر وصاحب بيت المال – متى حضر الوزير وجلس على الكرسى الكبير الحديد الموجود تحت الشباك ؛ وفور رفعها يُرى الخليفة جالساً في المرتبة الهائلة به(٩).

---

(1) ابن الفراء، كتاب الرسل والملوك، تحقيق المنجد، القاهرة ١٩٤٧م، ص ١٢٨. أنظر أيضاً: ماجد، نظم الفاطميين، جـ٢، ص ١١٣.

(2) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٨٦ ؛ القلقشندى، جـ٣، ص ٤٩٩ ؛ ناصر خسرو، سفر نامه، ص ١٥٧.

(3) Canard, *le cérémonial fatimite*, p. 360.

(4) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٨٦، ٣٨٨.

(5) الإيوان لغة هو البيت المؤزج، اي المرتفع البناء غير المسدود الوجه. اي أنه قاعة مسقوفة بقبوة، مفتوح مقدمها على بهو بعقد مقوس نصف دائرى، أو مدبب أو منفوخ أو منبعج مغلق مؤخرها بجدار. أنظر ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٩٩.

(6) Canard, *le cérémonial fatimite*, p. 360.

(7) و "السهدلى" أو "السدلى" أو "السدلا" لفظ فارسي معرب. وذكر ابن منظور أن "السدلى على فُعْلى معرب وأصله بالفارسية سهدله. ابن الطوير نزهة المقلتين، ص ٩٧.

(8) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٩٧ ؛ ابن المأمون، نصوص من أخبار مصر، ص ٨٢.

(9) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٩٧، ١٥٤ ؛ وتواجد الشباك في نفس هذه الفترة يذكرنا بأحداث عام ٤٤٨هـ/١٠٥٦م، فقد خرج على الخليفة العباسي أحد قواده وهو أبو الحارث البساسيرى، وانضم للخليفة المستنصر الذي أمده بالسلاح والأموال، فتقدم في عام ٤٥٠هـ/١٠٥٨م ودخل بغداد ففر منها الخليفة القائم بأمر الله العباسي، وأرسل البساسيرى البردة والقضيب والمنبر والشباك، وخطب للخليفة المستنصر بالله الفاطمى على منابر بغداد نحو أربعين أسبوعاً، كما حذت مدن العراق الأخرى حذو بغداد، فخطب للمستنصر في هذا العام

وفيما يتعلق "بالإيوان الكبير"، فقد بناه الخليفة العزيز بالله في عـام ٣٦٩هـ / ٩٧٩م بالقصر الكبير الشرقى[١]، وكان يتوصل إليه من باب العيد[٢] وكذلك من دهليز بـاب الـديلم[٣]. وكان به الشباك الذى يجلس فيه الخليفة ويتكئ عليه وقت قراءة السجلات بـالإيوان[٤] وبهـذا الإيوان كان جلوس الخلفاء الجلوس العام بمجلس الملك قبل انتقال الجلوس نهائياً إلى قاعة الذهب في يومى الإثنين والخميس زمن الخليفة الآمر[٥]. وكان للإيوان صحن يجتمع به النـاس لتقـرأ عليهم فيه السجلات الصادرة عن الخليفة[٦] ؛ كما كان يمد فيه سماط رمضان والعيدين، ويعمل به الاجتماع والخطبة يوم عيد الغدير[٧].

على منابر البصرة وواسط وأعمالهما. لمزيد من التفاصيل انظر، المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٥٦ ؛ ابـن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٥، ص٦ ؛ حسن إبراهيم، الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص، القاهرة ١٩٣٢م، ص ٢٣٢ ؛عبد المنعم ماجد، ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها فـي مصر، التاريخ السياسى، الاسكندرية ١٩٦٨م، ص ١٧٩.

(1) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٨٨ ؛ مسودة كتاب المواعظ، ص ٦٩.

(2) أحد أبواب القصر الكبير كان يفتح في واجهته الشرقية في مواجهة السور الجنوبى لدار الوزارة الكبرى. ولم يكن يؤدى إلى قاعة أو قصر صغير مثل بابى البحر والذهب، وإنما كان يقود من خلال الدهاليز الطوال إلـى الفنـاء الداخلى للقصر الذي كان يتم فيه عرض الخيل وإلى الإيوان الكبير وأطلق عليه باب العيد لأن الخليفة كـان يستخدمه في الذهاب لصلاة العيدين. انظر ابن المأمون، أخبار، ص ١٦، ٢٠، ٢٤ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٤٥ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٤، ص ٣٥، أنظر أيضاً:

Fu'ad Sayyid, A., *La Capitale de l'Egypte à l'époque Fatimide al-Qâhira et al-fustât*, pp. 301-306.

(3) هو الباب الجنوبى الشرقى للقصر الكبير يفتح في واجهته الجنوبية ويدل موضعه اليوم بـاب المشهد الحسينى المعروف بالباب الأخضر. وكان يفضى إلى قبة الديلم التي دفن بها رأس الحسين وصـارت تعـرف بالمشهد الحسينى. المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٢٧، أنظر أيضاً:

Fu'ad Sayyid, *La Capitale de l'Egypte*, pp. 316 – 322.

(4) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٣٤، ٩٨.

(5) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٩٩، ٢٠٥.

(6) المسبحى، الجزء الأربعون من أخبار مصر، ص ٤، ٢٤.

(7) ابن المأمون، نصوص من أخبار مصر، ص ٢٤ ؛ ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٩٩ ؛ المقريـزى، الخطـط، جـ١، ص ٣٨٨. أول ما احتفل الشيعة بعيد الغدير في العراق سنة ٣٥٢ في أيام معز الدولة بن بويه، وأول مـا عمل بمصر في سنة ٣٦٢، المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٨٩، أنظر أيضاً: ص ٧٢ هـامش (٣) مـن هـذا البحث.

على أية حال، أحضر هذا الشباك من بغداد إلى القاهرة وزين قاعة لمقر إقامة الـوزير الفاطمي. ويتشابه ذلك بالعرش الذى علق على شكل قبة، والموجود في اجتماع المجامع الدينيـة في الإمبراطورية البيزنطية ؛ فهذا العرش كان يدعمه أربعة أعمدة تتسدل مـن بينهـا الـستائر، وكانت تُشد الستائر عندما يريد الإمبراطور الظهور أمام العامة(١).

وقد زودنا الرحالة ناصر خسرو بوصف العرش الفاطمى في عهـد المستنـصر بـالله (٤٢٧ - ٤٨٧هـ / ١٠٣٦ - ١٣٩٤م) فقال : "حين دخلت من باب السراي رأيـت عمـارات وإيوانات، وكان هناك إثنا عشر جناحاً، أبنيتها مربعة، وكلها متصلة بعضها ببعض. وكلما دخلت جناحاً منها وجدته أحسن من سابقه، ومساحة كل واحد منها مائة ذراع. عدا واحداً منهـا كانـت مساحته ستين ذراعاً في ستين، كان بهذا الأخير تخت - اي عشر - يشغل عرضه بتمامة وعلوه أربعة أذرع، وهو مغطى بالذهب من جهاته الثلاث، وعليه صور المصطاد والميدان وغيرهمـا، كما أن عليه كتابة جميلة. وكل ما في هذا الحرم من الفرش والطـرح مـن الـديباج الرومـى والبقلمون(٢) نسجت على قدر كل موضع تشغله. وحول التخت درابزين مـن الـذهب المـشبك، وصفه يفوق الخيال والواقع، ووجد خلف العرش، بجانب الحائط درجات من الفضة. وبلغ هـذا التخت من العظمة درجة كبيرة. والدرابزين المعرش يبدو أنه الشباك. ونسجل هنا أيضاً تـشابهاً مع البلاط البيزنطي فيما يتعلق بـ "عرش الإمبراطور"، فقبة العرش بنسيجها الحريرى المطـرز والمقصب بخيوط ذهبية مأخوذة أصلاً من بغداد، مما يؤكد رجوع أصولها إلى أصول شـرقية. كما أن المظلة أو الخيمة التى في قاعة الذهب كانت على وجه الخصوص ثمينة(٣). أما الخيمـة التى صنعت بأمرمن الوزير اليازورى (في أوائل النصف الأول من القرن الخامس الهجـرى / الحادى عشر الميلادى) فكانت مطرزة ومقصبة بخيوط ذهبيـة، ممـا يؤكـد التـأثير الـشرقى الإسلامى، وقد بلغ وزنها ثلاثين ألف مثقال، ومزينة بـألف وخمسمائة وستين قطعة من الأحجار الكريمة الثمينة من كافة الأنواع(٤).

---

(1) Canard, *le cérémonial fatimite*, pp. 361-362.

وعن المجامع الكنسية المسكونية، انظر ليلى عبد الجواد، القسطنطينية في ضوء كتابـات الجغـرافيين والرحالـة المسلمين، مجلة المؤرخ المصرى، العدد يناير ١٩٨٩، ص ١٨٣، ١٩١.

(2) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ١٢٣.

(3) Canard, *le cérémonial fatimite*, p. 363.

(4) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٨٥ ؛ وقد أطلق المقريزى على الخيمة كلمة الستر.

وبعد أن رأينا الحياة الملكية في القصر الفاطمي على الباحث أن ينظر بالمثل لما كان يجري في البلاط البيزنطي حتى يتبين لنا أوجه الشبه والخلاف بينهما. فالقصر البيزنطي[1]، قد اتخذه الإمبراطور سكناً ومركزاً للحكم، وبه أيضاً حاشيته، فمن داخل جدرانه وجنباته تدار دفة شئون الإمبراطورية بأكملها. وكان القصر يشغل رقعة واسعة من الأرض على ضفاف بحر مرمرة، ويقع بين ميدان السباق وكنيسة آيا صوفيا[2]. وكان يشغل الركن الجنوبى الشرقى من المدينة، وكانت مبانيه تمتد ما يدانى الميل طولا. وقد حدد هارون بن يحيى موقع القصر ومساحته فذكر : "على قصر الملك سور واحد[3] يحيط بجميع القصر، ودورانه فرسخ، أحد جنباته مما يلى المغرب متصل بالبحر وله ثلاثة أبواب من حديد"[4]. بالإضافة إلى انفراد هارون بن يحيى دون غيره بتقديم تفاصيل شيقة عن القصر الإمبراطورى[5]. وقد تحدث أيضاً عن أخرى[6].

---

(1) انظر الملحق رقم (٣) خريطة بمعالم القسطنطينية زمن الحملة الصليبية الرابعة. وصورة توضح جزءاً من قصر بوكليون الإمبراطورى والصورة الأخرى جزءاً من القصر الإمبراطورى بالقسطنطينية.

(2) عن كنيسة آيا صوفيا انظر ص ٥٧ هامش (٢) من هذا البحث، وانظر أيضاً شكل ٤.

(3) المسعودى، التنبيه والأشراف، بيروت ١٩٩٣م، ص ١٣٨ ؛ ابن رسته، كتاب الأعلاق النفيسة، المجلد السابع، ليدن ١٨٩١م، ص ١١٩-١٢٠ ؛ ابن خرداذبه، المسالك والممالك، مكتبة الثقافة الدينية، ص ١٠٠ وما بعدها. أنظر أيضاً: ليلى عبد الجواد، القسطنطينية، ص ١١٥.

(4) ليلى عبد الجواد، القسطنطينية، ص ١١٥-١١٦.

(5) كان قصر البلاشيون الواقع جنوب القسطنطينية هو القصر الرئيسى للامبراطور، وكان يحوى عدة كنائس خاصة به، وبه دهليز يربط بينه وبين الهيبودروم. انظر: نجلاء مصطفي عبد الله شيحه: القسطنطينية في القرن العاشر الميلادي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٩٩م، ص ١٩٦-٢٠٠. , وقد تحدث البعض عن قصر البلاشيون، بقوله أنه على الرغم من أن أساساته تمتد على أراضى منخفضة، إلا أنه يكتسب سمواً من خلال عمارته الممتازة وبهائه، وبسبب ما يقع حوله من ثلاثة جوانب فإنه يبعث في سكانه البهجة الشديدة بوقوعه على البحر والحقول والمدينة. وما يقع خارجه جماله فائق، أما ما يقع داخله فيفوق جماله الوصف. فهو مزين في كافة أرجائه بالذهب بشكل متقن وتشكيلة عظيمة من الألوان، وأرضية مصنوعة من الرخام، وهذا القصر هو المبنى الوحيد الذي كان يعلو فوق الأسوار. طارق منصور، القسطنطينية في الكتابات الصليبية ١٠٩٦-١٢٠٤م، المؤرخ المصرى، العدد التاسع والعشرون يناير ٢٠٠٦م، ص ٢٦٧. ولمزيد من التفاصيل انظر :

Odo of Deuil, *De Profectione Ludovici VII in Orientem*, ed. & trans. V.G. Berry, New York, 1948 ; Ebersolt, J., *Le grand palais de Constantinople et le livre des ceremonies*, Paris, 1910.

(6) روبرت كلارى، فتح القسطنطينية، ص ١٣٠ ؛ طارق منصور، القسطنطينية في الكتابات الصليبية، ص ٢٧٦. ولمزيد من التفاصيل عن الهيبودروم أنظر ايضاً:

و يشير البعض إلى أنه كان هناك دهليز طويل يربط بين الهيبودروم وبين القصر الإمبراطورى، ويقع أمام باب الهيبودروم، يسير فيه الإمبراطور البيزنطي وحاشيته من القصر إلى المقصورة الملكية التى تطل على مضمار الخيل. وكانت مساحة هذا الدهليز تبلغ مائة خطوة في عرض خمسين خطوة، وعلى الجانبين من الدهليز أسرة موضوعة عليها فرش من ديباج ومضربات ووسائد، وعليها قوم من السودان متنصرة، بأيديهم أترسة ملبسة ذهباً، ورماح عليها ذهب. وأما باب المنكناة، فتدخل إلى دهليز طوله مقدار مائتى خطوة في عرض خمسين خطوة مفروش بالرخام وأسرة موضوعة على جانبى الدهليز عليها قوم خزر في أيديهم القسى.

وجدير بالذكر أنه كان في هذا الدهليز أربعة حبوس: حبس منها للمسلمين، وحبس لأهل طرسوس[1]، وحبس للعامة، وحبس لصاحب الشرطة. وفي الدهليز أسرة يمنة ويسرة عليها فرش متخذة، وعليها قوم أتراك بأيديهم القسى والأترسة، فتمضى في الدهليز حتى تنتهى إلى فضاء مقدار ثلاثمائة خطوة، ثم تنتهى إلى الستر المعلق على الباب الذى يفضى إلى الدار[٢].

وقد تحدث الإدريسى عن اتساع هذا القصر إذ أورد : "وبها (أي القسطنطينية) القصر الشائع ذكره شماخة بناء واتساع قطر وحسن ترتيب"[٣].

واحتوى القصر الإمبراطورى من الداخل على بيت مال الإمبراطور، ومجلس طعامه، وبهو المآدب الرسمية، وقاعات الاجتماعات، وصالات لاستقبال السفراء. فيذكر ابن رستة وعلى اليمين من داخل الدار بيت مال الملك... وعلى شمال الداخل مجلس طوله مائتى خطوة في عرض خمسين خطوة، وفي المجلس مائدة من خلنج[٤] ومائدة من عاج، وفي صدر المجلس مائدة من ذهب يجلس عليها الملك[٥].

Guilland, R., *Études de topographie de Constantinople Byzantine*, Berlin, 1969, p. 396 ff.; Janin, R., *Constantinople Byzantine*, Paris, 1950. pp. 177-191.

(2) طارق منصور، هارون بن يحيى، ص ٤٨.

(3) الأدريسى: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، روما ١٩٧٧م، ص ٨٠١-٨٠٢. أنظر أيضاً: ليلى عبد الجواد: القسطنطينية، ص ١١٥.

(4) "خلنج" شجر فارسى معرب تتخذ من خشبه الأوانى، وقيل هو كل جفنة وصحفة وآنية صنعت من خشب ذى طرائق. ليلى عبد الجواد، القسطنطينية، ص ١١٦.

(5) ليلى عبد الجواد، القسطنطينية، ص ١١٦ - ١١٧.

وقد تحدث وليم الصورى أيضاً عن القصر الإمبراطورى الذى كان يقع علـى شـاطئ البحر مواجهاً الشرق، وكان له رصيف عجيب من الرخام الرائع يصله بالبحر. وكانت السلالم المؤدية إلى الماء وتماثيل الأسود والأعمدة منحوتة كلها من الرخام، وتضفي على القصر روعة ملكية، وهذا المدخل كان مخصصاً للامبراطور فقط، عندما يريد الصعود إلى القسم العلوى مـن القصر. وفي الطابق الثانى من القصر الإمبراطورى كانت توجد عدة حجرات وأجنحة، منها مـا هو مخصص للاجتماعات الإمبراطورية، وكانت تسدل ستائر غاية في الفخامة والدقـة وروعـة النقوش والزخارف لحجبهما عن الواقفين بالخارج. وفي قاعة الاجتماعات هذه كان الإمبراطـور يجلس على عرشه الذهبى الفخم مرتدياً ملابسه الإمبراطورية ؛ كما كانت بعض هـذه الأجنحـة مخصصة لإقامة الملوك الوافدين على الإمبراطور[1].

كما أشار إلى الذخائر المقدسة بالقصر، والتى كانت محفوظة به منذ زمـن بعيـد فـي غرف خاصة، أمثال ذخائر القديسين، آثار السيد المسيح، كالصليب والمسامير والحربة، والإسفنجة، وقصبة الغاب، والتاج الشوكى، والثوب الكتانى، والخفين ؛ وكـذلك آثـار الأبـاطرة الأوائـل أمثـال الإمبراطور قسطنطين وثيودوسيوس وجستنيان، المحفوظة في الخزائن بغرف القـصر الإمبراطـورى المقدسة[2].

وقد أبرز روبرت كلارى جمال القسطنطينية الخلاب وثراءها الفاحش لقرائه؛ فيقول عن القصر الكبير أو قصر بوكُليون Boukoleon[3] "أنه كان قصراً غنياً جداً"، ثم يبدأ في وصـف القصر على النحو التالى : "كان في هذا القصر الذى احتله الماركيز خمـسمائة قاعـة متـصلة

---

[1] وليم الصورى، الحروب الصليبية، جـ٤، ص ١٤١، ١٤٢، انظر أيضاً:

William of Tyre, *Deeds*, pp. 379 – 380.

كذلك طارق منصور، القسطنطينية في الكتابات الصليبية، ص ٢٧١.

[2] وليم الصورى، الحروب الصليبية، جـ٤، ص ١٤٣، انظر أيضاً: طارق منصور، القسطنطينية فـي الكتابـات الصليبية، ص ٢٧٢ – ٢٧٣؛ وكذلك:

William of Tyre, *Deeds*, pp. II, 381.

[3] سمى هذا القصر الإمبراطورى باسم قصر بوكليون نسبة إلى مرفأ القصر المسمى بذلك الاسم حيث نصب تمثـال ضخم لثور يقاتل أسداً. وهذا القصر عبارة عن مجموعة من المبانى المتجاورة شيدت بأيدى أباطرة مختلفين. وقد ظل هو القصر الإمبراطورى الذي تدار دفة الحكم منه. ربما حتى عصر آل كومنينوس، الذين فضلوا الإقامة في قصر البلاشيرنBlacherne. لمزيد من التفاصيل أنظر: رنسمان، الحـضارة البيزنطيـة، ص ٢٢٦ – ٢٢٧ ؛ طارق منصور، القسطنطينية في الكتابات الصليبية، ص ٣٠٩ ؛ وكذلك

Janin , *Constantinople* , pp. 120-121; Guilland , *topographie de Constantinople* , p. 249.

بعضها ببعض، ومبنية جميعها بالفسيفساء المذهبة، وفيه ثلاثون كنيسة ما بين صغيرة وكبيرة، تعرف إحداها بالكلسية المقدسة، وكانت غنية جداً ورائعة.." [1].

ولم يفت روبرت كلارى[2] أيضاً التحدث عن قصر البلاشيرن، الذى كان يضم بين جوانبه عشرين كنيسة، وما لا يقل عن مائتين أو ثلاثمائة قاعة، متصلة ببعضها البعض، ومصنوعة كلها من الفسيفساء المذهبة. وقد بلغ هذا القصر من الفخامة والروعة حداً يعجز كل فرد عن وصفه أو أن يروى عن ثرائه وفخامته. وكان هذا القصر يحوى ثروات باهظة منها تيجان الأباطرة البيزنطيين السابقين، وحلى ذهبية ثمينة، وأقمشة حريرية غالية، وأثواب الإمبراطورية الغالية والأحجار الكريمة النفيسة، وأقر روبرت كلارى بأنه لا يستطيع أحد أن يقدر كميات الذهب والفضة الضخمة التى كانت بتلك القصور الإمبراطورية.

وكانت الحياة اليومية داخل القصر الإمبراطورى تبدأ في السابعة صباحاً في كل يوم، حيث يقوم كبير الحجاب وبصحبته ضباط الحرس بفتح باب المدخل الرئيسى للقصر. ثم يبارح الإمبراطور حجرته الخاصة يحيط به خدمه ويتجه نحو الكنيسة الملحقة بالقصر الإمبراطورى، والخاص به ليتلو فيها صلواته. والتى كانت تسمى "كنيسة الملك"[3] و "هى كنيسة لها عشرة أبواب، أربعة منها ذهب، وستة فضة. وبهذه الكنيسة مقصورة للإمبراطور يؤدى فيها صلاته ؛ وهى كما وصفه ابن رسته "موضع أربعة أذرع في أربعة أذرع، مرصع ذلك الموضع بالدر والياقوت، وكذلك مسنده الذى يستند إليه مرصع بالدر والياقوت، وعلى باب المذبح أربعة أعمدة من رخام منقورة من قطعة واحدة. وطول المذبح الذى يصلى عليه القس ستة أشبار في عرض ستة أشبار، وهو قطعة خشب عود قمارى مرصع بالدر والياقوت يقف عليه قس

---

(1) روبرت كلارى، فتح القسطنطينية على أيدى الصليبيين، ترجمة حسن حبشى، القاهرة ١٩٦٤م، ص ١٢٤. أنظر أيضا: طارق منصور، القسطنطينية في الكتابات الصليبية، ٢٧٥.

(2) روبرت كلارى، فتح القسطنطينية، ١٢٦. أنظر أيضا: طارق منصور، القسطنطينية في الكتابات الصليبية، ص ٢٧٦.

(3) يشير الجغرافيون المسلمون المعاصرون لهارون بن يحيى إلى عدد من الكنائس الأخرى ككنيسة آيا صوفيا، وكنيسة الرسل المقدسين، وغيرهما من الكنائس والأديرة الموجودة بالقسطنطينية. انظر: ليلى عبد الجواد، القسطنطينية، ص ١٨٤-١٩٠. وللتفاصيل أنظر:
Parker, J., "A Twelfth Century Description of St. Sophia", *Dumbarton Oaks Papers* 14 (1960), pp. 233-245.

الملك. وسائر سقوف الكنيسة كلها آزاج معمولة من الذهب والفضة، ولهذه الكنيسة أربعة صحون[1].

وبعد أن ينتهي الإمبراطور من أداء صلوات الصباح في كنيسته، يستوى على عرشه استعداداً لاستقبال أشراف بلاده وكبار موظفيه وغيرهم ممن يريدون المثول بين يديه ؛ كذلك يقومَ الإمبراطور باستقبال السفراء. وكانت هناك مراسم خاصة لدخول القصر والمثول بحضرة الإمبراطور يأتي على رأسها :

وعند الدخول على الإمبراطور البيزنطي كان يتحتم أن يأخذ الزائر إذنا بذلك. فيذكر ابن بطوطة : "أنه لما وصلنا الباب الأول من أبواب مقر الملك، وجدنا مائة رجل معهم قائد لهم وهؤلاء حرس الباب على ما يبدو فمنعونا من الدخول وقالوا : لا يدخلون إلا بأذن. فأقمنا بالباب إلى أن أمر بدخولنا"[2].

وبعد الحصول على الإذن، يأتي التفتيش؛ إذ كان لابد من تفتيش كل من يدخل إلى القصر للتأكد من أنه لا يحمل معه سلاحاً، وذلك حرصاً على سلامة الإمبراطور. ويذكر ابن بطوطه في هذا الصدد: ".... ودخلنا إلى القصر، فجزنا أربعة أبواب... فلما وصلنا إلى الباب الخامس.... أتى أربعة من الفتيان الروميين ففتشوني لئلا يكون معي سكين". وكانت هذه عادة البيزنطيين، اي لابد من تفتيش كل من يدخل على الإمبراطور من خاص أو عام، غريب أو من أهل البلد[3].

وبعد التفتيش يأتي المرور بين صفوف الحرس، إذ يفتح الباب للشخص فيحيط به أربعة من الرجال، يمسك إثنان بكمه، واثنان من ورائه، ثم يدخلوا به مشواراً كبيراً حيطانه مغطاه بالفسيفساء والناس واقفون يميناً ويساراً سكوتاً لا يتكلم أحد منهم. وفي وسط المشوار ثلاثة رجال

---

[1] ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ص ١٢١. أنظر أيضاً: نجلاء مصطفي، مدينة القسطنطينية، ص ١٩٩ ؛ طارق منصور، هارون بن يحيى، ص ٤٩ – ٥٠.

[2] ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص ٢٣٢. أنظر أيضاً: ليلى عبد الجواد، القسطنطينية، ص ١١٦-١١٧. وكذلك مقابلة مهبوث عموري الأول للخليفة الفاطمي العاضد، ص ١٠ وما بعدها.

[3] ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص ٢٣٢ – ٢٣٣. أنظر أيضاً: ليلى عبد الجواد، القسطنطينية، ص ١١٧.

وقوف يتسلمون الشخص من أولئك الأربعة، ويمسكون بثياب الشخص كما فعل الآخرون، ثم يتقدمون به نحو الإمبراطور"(١).

وقبل أن يصل الشخص إلى عرش الإمبراطور ويسمح له بالجلوس في حضرته كان لابد من إثارته وإبهاره، فيذكر عمارة بن حمزة، أحد سفراء الخلفاء العباسيين إلى القسطنطينية في القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى، أنه وجد في طريقه إلى الإمبراطور "أسدين على جانبى الطريق، وطريقي عليها لا أجد من ذلك بدا... فحملت نفسى، فلما صرت بينهما سكنا فجزت،... وإذا سيفان يختلفان على طريقي... لو مرت بينهما ذبابة لقطعها... فاستخرت الله ومضيت فلما صرت بينهما سكنا". وكان الأسدان والسيفان حيلة يحتال بهما الروم لمن يرد عليهم من الرسل لتروعهم فإذا اقترب منها الرجل سكنت(٢).

ثم يصل الشخص بعد ذلك إلى بهو الإمبراطور، الذى يعد من أهم وحدات هذا القصر من حيث اتساعه وارتفاع جدرانه، وقد بهر هذا البهو الفسيح عمارة بن حمزة، وقت مقابلته للإمبراطور فيذكر : "وهو بهو فسيح أكاد لا أبصره (الإمبراطور) لبعد مسافة البصر بينى وبينه، فمشيت حتى انتهيت إلى قدر ثلثه فغشيتنى سحابة حمراء لم أبصر شيئاً فجلست مكانى... ثم تجلت عنى، فقمت فمشيت، فلما بلغت نحو الثلثين غشيتنى سحابة خضراء، فغشى بصرى منها فجلست حتى تجلت ثم قمت فمشيت، فانتهيت إلى الملك"(٣).

وكانت هذه الأضواء تنبعث في حقيقة الأمر من قطعة ياقوت أحمر وأخرى من زمرد أخضر توجد في ثنى فراش الإمبراطور ليبهر بها أبصار رسل الملوك والداخلين إلى حضرته(٤).

وما أن يصل المرء إلى الإمبراطور حتى يجده جالسا على سريره – كحال الخليفة الفاطمى – وعن يمينه ستة رجال وعن يساره أربعة وكلهم بالسلاح(٥). وهكذا كان على الشخص

---

(1) الهمذانى، مختصرة كتاب البلدان، ليدن ١٣٠٢هـ، ص ١٣٧. أنظر أيضاً: ليلى عبد الجواد، القسطنطينية، ص ١١٨.

(2) الهمذانى، مختصر كتاب البلدان، ص١٣٨ ؛ أنظر أيضاً: ليلى عبد الجواد، القسطنطينية، ص ١١٨.

(3) ابن فقيه، كتاب البلدان، ص١٣٧– ١٣٨. أنظر أيضا : ليلى عبد الجواد، القسطنطينية، ص ١١٨ ؛ نجلاء مصطفى، مدينة القسطنطينية، ص ٢٠٠.

(4) ابن فقيه، كتاب البلدان، ص١٣٨. أنظر أيضا:ليلى عبد الجواد، القسطنطينية، ص ١١٨ – ١١٩.

(5) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص ٢٣٣. لدينا وصف لترتيب الأفراد حول العرش الإمبراطورى التي من المحتمل أنها بدأت منذ عهد قسطنطين السابع، وكان الطواشى الـ Spathariai يقف في شبه دائرة مباشرة خلف

أن يمر في متاهة من الدهاليز والغرف الغنية بالفسيفساء والأردية الذهبية، بين صفوف حرس القصر، يحف به النبلاء والقادة حتى يصل إلى عرش الإمبراطور(١).

وقد ضم قصر الإمبراطور وحدات كثيرة فخمة شملت قاعات ضخمة، وغرف فسيحة، وأجنحة للرجال والنساء، وخزائن وثكنات للجند، وغير ذلك من الملحقات، التى ظل الاعتناء بها مستمراً خلال القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى. إضافة إلى مقصورة ضخمة، يتمكن منها الإمبراطور مشاهدة كل ما يجرى في الهيبودروم من مسابقات وعروض بحيث كان هذا القصر مدينة متكاملة تضم خمسة عشر مبنى. ويأتى في مقدمة أبنية هذا القصر الملكى المخصص لإقامة الإمبراطور والإمبراطورة المعروف باسم شالكيه النوميرا "Le chalce Noumera". وتحيط بوحدات هذا القصر جدران مرتفعة تضم حجرات الإمبراطور والإمبراطورة، وحجرات لحاشيتهما من الخصيان(٢) والعاملين من رجال ونساء في خدمة القصر الإمبراطورى(٣). ويغطى

العرش الإمبراطورى بينما الملتحون (ذوو اللحى) يقفون مباشرة خلف العرش والطواشى الـ Spathariai يرتبط مباشرة بالـ Cubiculum والـ Koubikoularioi يقفون إلى يمين وشمال العرش. أنظر:

Ringrose, K. M., *The Perfect Servant: Eunuchs and The Social Construction of Gender in Byzantium*, London, 2003 , p. 171.

(1) ليلى عبد الجواد، القسطنطينية، ص ١١٩ ؛ رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ص ٢٢٧-٢٢٨.

(2) كان عدد الخصيان في الإمبراطورية البيزنطية كبير، وقد عبر قسطنطين السابع عن ذلك بقوله: "كان يعج بهم القصر الكبير، مثلما تعج الحظيرة أو الأسطبل بالذباب في فصل الصيف، وقد سعى الأباطرة البيزنطيون دائماً إلى اقتنائهم بكثرة وكانوا يعتبرون من الهدايا الثمينة. انظر:

Guilland, R., "les Eunuques dans l'Empire Byzantin Etude de titulature et de prosopographie Byzantines" , *Revue des Etudes Byzantines* t (1943), p. 97;

وقد سيطر الطواشية "الخصيان" خلال القرن التاسع الميلادى على معظم الوظائف في البلاط الإمبراطورى، ولعبوا دوراً كبيراً في الحياة السياسية والاجتماعية، وظهر دورهم في التنظيم والإشراف على القصر الإمبراطورى، ولا يمكن أن نتحدث عن الإمبراطور والقصر دون الإشارة إلى هؤلاء الطواشية.

Ringrose , *Perfect Servant*, pp. 163-166.

(3) يبدو أن الخصيان كانوا مكلفين بخدمات خاصة داخلية في البلاط البيزنطي منها خدمة المائدة، وخدمة غرفة الإمبراطور، والملابس. أنظر:

Guilland , *les Eunuques* , p. 97;

ويطلق على هذا الطواشى *Protovestiarios* وهو المسئول عن غرفة ملابس الإمبراطور والتي تشمل ملابس الإمبراطور الخاص بالجلوس على المائدة والقناديل والجوارب والأحذية والسيوف وملابس الخدم والعقاقير وكمية كبيرة من الفضة ويشرف الـ *Protovestiarios* على ملابس الإمبراطور، ويحمل أيقونات المسيح المقدسة في الاحتفالات الدينية، ويعطى الإشارة بحضور الإمبراطور في الاحتفالات، ويعطى الإشارة أيضاً بافتتاح الستارة التي

هذا المبنى قبة كبيرة مرتفعة على أربعة أعمدة ضخمة، بينما تغطى قباب صغيرة بقية الوحدات الأخرى(١). وفي قصر القسطنطينية الكبير كان الإمبراطور فقط يمكن أن يدخل ممتطياً صهوة جواده إلى بوابة شالكيه "Chalké" بينما كان الآخرون يترجلون(٢) كذلك كان حال قصر الخليفة الفاطمى، فركوب الخيول كان قاصراً على الخليفة الفاطمى فقط(٣). أما بقية الشخصيات فكانوا ينزلون ويترجلون وهم على الأبواب الخارجية(٤).

ولم يكن الخليفة الفاطمى يتنقل على ظهور الخيل ويتجول كما كان الحال بالنسبة للإمبراطور البيزنطي ؛ فقد كان الخليفة يمتطى صهوة جواده في داخل القصر في حالة الخروج الرسمى، وكان ذلك بالقرب من الباب الخارجى(٥).

إذن يفهم أنه كان من المراسم ألا يركب أحد في القصر غير الخليفة(٦)، وأنه كان للوزير استثناء من هذه القاعدة بسبب مكانته، فبينما كان الأمراء يترجلون إذا وصلوا إلى باب القصر، كان له وحده حق الركوب حتى يصل إلى أول باب من الأروقة الطويلة "الدهاليز

تحجب الإمبراطور عن الناس، ويتسلم رداء الإمبراطور الذي سيرتديه، وهو الشخص الوحيد المسموح له بلمس الملابس الإمبراطورية بدون استئذان وعلامته (شعاره) الرسمى عصا ذهبية. لمزيد من التفاصيل أنظر:

Ringrose , *Perfect Servant*, p. 169.

(1) نجلاء مصطفي، مدينة القسطنطينية، ص ١٩٨.

(2) Canard, *le cérémonial fatimite*, p. 363.

بوابة شالكيه Chalke تمثل جزءا من المدخل الرئيسى المؤدى إلى قصر القسطنطينية الكبير، وقد سميت كذلك بسبب قمتها وبابيها البرونزية .

Mango,C., 'Chalke' , *The Oxford Dictionary of Byzantium* , I, pp.405-6.

صور فيلهاردوان حظر امتطاء الجياد لغير الإمبراطور فيما بعد مدخل القصر فى حديثه عن سفارة ضمت ثلاثة من الأمراء الصليبيين لمقابلة الإمبراطور ألكسيوس الرابع، حيث امتطوا جيادهم، فلما بلغوا بوابة مدخل القصر ترجلوا وعبروها إلى داخل القصر. فيلهاردوان، فتح القسطنطينية، ترجمة حسن حبشى،جدة،١٩٨٢م، ص١١٥.

(3) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٥٤.

(4) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٨٧-٤٤٧. أنظر أيضاً:

Canard, *le cérémonial fatimite*, p. 363.

(5) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٥٤-١٥٥. أنظر أيضاً:

Canard, *le cérémonial fatimite*, pp. 363-364.

(6) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٨٧.

الطوال"[1]، فيقف عند رواق يعرف : "بدهليز العمود"، ومله يمشي ومعه حاشيته إلى مكانه المعروف" بمقطع الوزارة"[2] بقاعة الذهب[3].

وإذا انتقلنا بالحديث عن العمل في البلاط الفاطمي، فالملاحظ أنه كان موزعاً بين عدد من الأماكن تعرف "بالخزائن". وقد وصف المقريزى هذه الخزائن بقوله : "إنها قاعات كبيرة، توجد بداخل القصر الكبير أو بخارجه وتستخدم إما في خزن البضائع، أو في وضع الأشياء[4]. ومن هذه الخزائن : خزانة الكتب[5]، خزانة الكسوات[6]، خزانة الشراب[7]، خزانة السروج[8]، خزانة الفرش والأمتعة[9]، خزانة السلاح[10]، خزانة التجمل[11]، خزانة الخيام[1]، خزائن الجوهر والطيب والطرائف[2].

---

(1) :دهاليز الطوال: هي دون شك ما أسماه وليم أسقف صور، "دهاليز طويلة وضيقة مقببه حالكة الظلام، لا يستطيع الإنسان أن يتبين فيها شيئاً". ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٩٣، ١٥٤ ؛ ابن المأمون، نصوص من أخبار مصر، ص ٥٨ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٤٦.

(2) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٦٨، ١٦١، ١٦٢.

(3) المسبحي، الجزء الأربعون من أخبار مصر، ص ٢٨؛ ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ص ١٨٢، ٢٠٥ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٨٦ . أنظر أيضا: ماجد، نظم الفاطميين، ص ١١٤.

(4) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٠٧ – ٤٠٩ ؛ انظر أيضاً: ماجد، رسوم الفاطميين، ص ١٢-١٣.

(5) عن خزانة الكتب انظر: المسبحي، نصوص ضائعة، ص ١٧ ؛ الرشيد بن الزبير، الذخائر والتحف، ص ٢٦٢ ؛ أبو شامة، الروضتين، جـ١، ص ٥٠٧-٥٠٨ ؛ ابن واصل، مفرج الكروب، جـ١، ص ٢٠٣ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ١، ص ٤٦٧، جـ٣، ص ٤٧١، ٤٧٢، انظر أيضاً: زكى حسن، كنوز الفاطميين، ص ٢٧-٣٤.

(6) المقريزى، مسودة كتاب المواعظ والاعتبار، ص ١٥٤-١٥٥.

(7) ابن المأمون، نصوص من أخبار مصر، ص ٩٠ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٧٦ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٢٠ ؛ ناصر خسرو، سفرنامه، ص ١٢٣-١٢٤.

(8) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٣١-١٣٢ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣١٨ . أنظر أيضا: زكى حسن، كنوز الفاطميين، ص ٥٩.

(9) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٣٣ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤١٦-٤١٧ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٧٧، انظر أيضاً: زكى حسن، كنوز الفاطميين، ص ٥٢.

(10) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٣٤ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤١٧-٤١٨ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٧٧ ؛ المقريزى، مسودة كتاب المواعظ والاعتبار، ص ١٥٣ – ١٥٤.

(11) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٣٥.

ويبـــدو أن كثيراً من هذه المنشآت لها مثيلها في القصر الكبيــر فــي الإمبراطوريــة البيزنطية[3]. ورغم التنوع والتعقيد لهذه المؤسسات الداخلية في قصر الخلافة الفاطميــة، فإننــا يمكن مقارنتها بــ إيــديكون *Idikon*[4] الفــستياريون *Vestiarion*[5]، وكــذلك الأرمــامنتون *Armamenton*[6] وبعض المؤسسات الخدمية الأخرى في بلاط القسطنطينية ففــي كــل هــذه المؤسسات كان يعمل جمع غفير من الموظفين من الرجال والنساء والخــصيان يــشرف علــيهم المديريون ويراقبون من قبل المفتتشين[7]. وعلى هذا كان رئيس الخياطين في خزانــة الكــسوة يطلق عليه "المقصدار"، والذى كان تحت إمرته عدد من الخيــاطين التــابعين لــه والخاضــعين لمشيئته، هذا في خزانة الكسوة كما سبق وأن ذكرنا.

---

(1) المقريزى، الخطط، جــ١، ص ٤١٨-٤١٩ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جــ٣، ص ٤٧٥ ؛ انظر أيضاً: ماجــد، نظم الفاطميين، ص ٢٢.

(2) لمزيد من التفاصيل انظر ابن المأمون، نصوص من أخبار مصر، ص ٨٩-٩٠ ؛ المقريزى، الخطط، جــ١، ص ٤١٤-٤١٥.

(3) Canard, *le cérémonial fatimite*, p. 364.

(4) ايديكون عند لوى برييه Bréhier هى الثروة والكنوز التي يمتلكها الإمبراطور والتي تــرتبط بمنــصبه، وهــى تختلف تماماً عن النفقات الشهرية للإمبراطور. وكانت *IDIKON* تحوى أيــضاً الأشــياء الثمينــة، والعمــلات الذهبية، وكل المتطلبات الضرورية اللازمة للحملات العسكرية وتــدبير مــصاريفها. وكــان رئيــسها يــسمى *EIDIKOS* ويحتل المرتبة الثانية والخمسين في قائمة التشريفات البيزنطية، ويــصدر الإمبراطــور البيزنطــي مرسوماً بتعيينه. أنظر:

Bréhier, L., *Le monde Byzatin*, II, *Les institutions de L'Empire Byzantin*, Paris, 1949, p. 267.

وانظر أيضاً: Canard, *le cérémonial fatimite*, p. 365.

(5) الفستياريون كان القائم عليها مختص لملابس الإمبراطور البيزنطي، إذ أن الإمبراطور آنذاك كان لديــه عــدد لا يحصى من الملابس والحلل سواء هو أو كبار موظفيه. وكان المكلف بملابس الإمبراطور يحمل رتبــة قــومس ويسمى *Comes Sacrarum Largitionum*.

انظر: Bréhier, *le monde byantin*, p. 130.

(6) والجدير بالذكر أنه كان هناك شخص مكلف بحراسة الأسلحة في خزانة السلاح ويسمى هذا المكان *Armamenton*، أما الشخص المكلف بذلك فيسمى فستياريوم الخاص اي خاص بأسلحة الإمبراطور علماً بأن هناك أيضاً فستياريوم عام. وخزانة السلاح هنا تساوى خزانة السلاح عند الفاطميين.

Bréhier, *le monde byantin*, p. 148 ; Kazhdan, A., 'Armamenton', The *Oxford Dictionary of Byzantium* , I,pp.174-175.

(7) Canard, *le cérémonial fatimite*, p. 365.

وقد تطلب القيام بأعمال البلاط الفاطمى وجود عدد كبير من الأشخاص، فيقال إنه كان يوجد ثلاثون ألف شخص[1] يقومون بالأعمال المختلفة. ولا يعرف أحد عدد النساء والجوارى، إذ كان البلاط يعج بأصناف عديدة من الموظفين : موظفين خصوصيين يقومون بخدمة الخليفة ؛ وموظفين من أرباب السيوف والأقلام، وموظفين من أديان مختلفة، وموظفين من الجنسين، حيث كان عدد كبير من النساء في البلاط يعرفن "بالمستخدمات" وعبيد وخصيان من كل جنس ولون[٢].

ووجد في البلاط الفاطمى – كما في بلاط جميع دول العصور الوسطى – فرقة من العبيد البيض والسود على السواء، خصيان وغير خصيان، أغلبها من أصل أجنبى من "الصقالبة"[٣]، لها نفوذ كبير تحمل لقب "أستاذين"[٤].

هكذا كانت الخدمة في القصر الفاطمى، كالقصر الكبير في الإمبراطورية البيزنطية الذى يعتبر مركز الحكم والإدارة فقد تضمن موظفين من كل نوع[٥]. ويمكننا الترجيح بأن هناك تشابهاً بين نوعى الموظفين في البلاط البيزنطي. على أية حال، ففي الخدمات الخاصة للخليفة وجدنا – كما هو الحال في الإمبراطورية البيزنطية – عدداً كبيراً من الخصيان اي الطواشية. وكان هؤلاء الخصيان من أقرب الخدم لسيدهم، وبإمكانهم الوصول إلى أعلى المراتب والمناصب[٦].

---

(1) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٩٦-٤٩٧. أنظر أيضاً: ماجد، نظم الفاطميين، جـ٢، ص ١٠. وهو رقم مبالغ فيه.

(2) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤١١. أنظر أيضاً: ماجد، نظم الفاطميين، جـ٢، ص ١٠-١١.

(3) "الصقالبة" جنس من جنوب أوربا، يجلب منهم الخدام، سموا بهذا الاسم لأن معظمهم كان ينتسب إلى قبائل السلاف، وكانت تنطق في أسبانيا – موطنهم الأصلى – "سكلاف" فعربها العرب إلى "صقلبى" وأصبح اللفظ يدل على الرقيق الأبيض بصفة عامة. المسبحى، الجزء الأربعون من أخبار مصر، ص ٤١ ؛ انظر أيضاً: ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٤، ص ٨٧.

(4) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤١١. أنظر أيضا: ماجد، نظم الفاطميين، جـ٢، ص ١٠-١٢.

(5) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٠٥-١٠٦، ١٢٠-١٢٥ . أنظر أيضا:
Canard, *le cérémonial fatimite*, p. 365.

(6) Canard, *le cérémonial fatimite*, pp. 366-367.

هذا التعقيد في القيام بأعمال البلاط لم يُعرف في مصر من قبل، كما أنه لم يستن فجأة بمجئ الفاطميين، ولكنه جاء نتيجة لتطور بطئ خلال حكمهم في مصر ؛ وأصبح أساس تنظيم البلاط في عهد سلاطين المماليك(١).

ونظرا إلى أن القصرين الفاطمي والبيزنطي كانا يعجان بمئات من الموظفين، الذين كان معظمهم يشكل الجزء الرئيسي في أداء المراسم، فإنه بالإمكان عقد مقارنة بين أسماء وألقاب ووظائف هؤلاء في البلاط الفاطمى وبلاط الإمبراطور البيزنطي على السواء، من أجل توضيح أوجه الاختلاف والاتفاق (٢).

اما عن وظائف خواص الخليفة من الأستاذين، وهي عدة وظائف أيضاً وعلى ضربين : الضرب الأول : ما يختص بالأستاذين المحنكين ؛ وهي تسع وظائف أيضاً

الأولى "شد التاج"(٣) ويتولى صاحبها شد تاج الخليفة الذى يلبسه في المواكب العظيمة، وله ميزة على غيره بلمسه التاج الذى يعلو رأس الخليفة، وكان لشده عندهم ترتيب خاص لا يعرفه كل أحد، يأتى به في هيئة مستطيلة، ويكون شده بمنديل(٤) من لون لبس الخليفة، ويعبر عن هذه الشدة "بشدة الوقار"(٥) أو "العربية"(٦)، ثم يحضر إليه "اليتيمة"(٧)، وهي جوهرة عظيمة لا

---

(1) ماجد، نظم الفاطميين، جـ٢، ص ١٢.

(2) Canard, *le cérémonial fatimite*, p. 366.

(3) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٥٥-١٥٦ ؛ ابن المأمون، نصوص من أخبار مصر، ص ٤١ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٧٣.

Sanders, *Court Ceremonial* , p. 28.

المقريزى، مسودة كتاب المواعظ والاعتبار، ص ١٩٧.

(4) "المنديل" آلة قديمة للملوك، فقد حكى أنه كان للوزير الأفضل بن بدر الجمالى مائة بدلة معلقة على أوتاد من ذهب، على كل بدلة منها منديل من لونها. لمزيد من التفاصيل انظر ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٥٥.
Sanders, *Court Ceremonial* , p. 28.

(5) "شدة الوقار" هى التاج يركب به الخليفة في المواكب العظام، وكان لشده ترتيب خاص لا يعرفه كل أحد، يتولاه أحد الأستاذين المحنكين. ابن المأمون، نصوص من أخبار مصر، ص ٤١، ٧٥.

(6) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٧٣ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٨٤.
Sanders, *Court Ceremonial* , p. 28.

(7) ذكر صاحب "الذخائر والتحف" درة أخرى معروفة باليتيمة كانت عند مسلم بن عبد الله العراقى وباعها إلى الخليفة الرشيد العباسى بسبعين ألف دينار. انظر ابن الزبير، الذخائر والتحف، تحقيق محمد حميد الله الكويت ١٩٥٩م، ص ١٧٧ ؛ ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٥٦.

Sanders, *Court Ceremonial* , p. 28.

يعرف لها قيمة، فتنتظم هى وحواليها دونها من الجواهر[1]، وهى موضوعة في "الحـافر"، وهـو شكل الهلال من ياقوت أحمر ليس له مثال في الدنيا[2]، فينظم على خرقة حرير في أحسن وضع فيخيطها شاد التاج بخياطة خفية ممكنة فتكون بأعلا جبهة الخليفة. ويقال إن زنة الجوهرة سـبعة دراهم، وزنة الحافر أحد عشر مثقالاً وبدائرها قصب زمرد ذبابى له قدر عظيم[3].

الثانية : وظيفة صاحب المجلس"[4] وهو الذى يتولى الإشراف على نظام جلوس الخليفة الرسمى في القصر، ويخرج إلى الوزير والأمراء بعد جلوس الخليفة على سرير الملك يُعلمهـم بذلك وينعت "بأمين الملك"[5].

والثالثة : وظيفة "صاحب الرسالة"[6] وهو الذى يخرج برسالة الخليفـة إلـى الـوزير وغيره[7].

والرابعة : وظيفة "زمام القصور"[8] وهو بمثابة زمام الدور.

والخامسة : وظيفة "صاحب بيت المال"[9] وهو بمثابة الخازندار[10].

والسادسة : وظيفة "صاحب الدفتر"[11] المعروف بدفتر المجلس، وهو المتحـدث علـى الدواوين الجامعة لأمور الخلافة[12].

---

(1) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٦٨.

(2) انتقل "الفص الحافر"، وهو من ياقوت أحمر وزنه سبعة دراهم، إلى الخلفاء الفاطميين بمصر من بنى العباس. ابن الزبير، الذخائر والتحف، ص ١٩٣.

(3) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٥٦ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٦٨، ٤٦٩.

(4) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٨٤، ١٦٢، ٢٠٧.

(5) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٢٠٧ ؛ القلقشندى جـ٣، ص ٤٨٤-٤٨٥.

(6) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٢٠٦.

(7) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٨٤.

(8) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٨٦، ٤٠١ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٨٥.
Sanders, *Court Ceremonial* , p. 34.

(9) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٨٤، ١٥٤، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٨.
Sanders, *Court Ceremonial*, p. 34.

(10) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٥٤، ١٧٢.

(11) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٨٦ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٨٥.

(12) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٨٤، ٢١٠.

أما السابعة : فهى وظيفة "حامل الدواة" وهى دواة الخليفة، وصاحب هذه الوظيفة يحمل الدواة المذكورة قدامه على السرج، ويسير بها في المواكب(١).

والثامنة : وظيفة "زم الأقارب"(٢) وصاحبها يحكم على طائفة الأشراف الذين هم أقارب الخليفة وكلمته نافذة فيهم.

والتاسعة : "زم الرجال" وهو الذى يتولى أمر طعام الخليفة ويقابل ذلك عند المقريـزى وظيفة "صاحب المائدة"(٣).

وإذا انتقلنا إلى الصنف الثانى من أرباب الوظائف بحضرة الخليفة أرباب الأقلام، وهو على ثلاثة أنواع :

الأولى : أرباب الوظائف الدينية، والمشهور منهم ستة :

"قاضى القضاة" وهو عندهم من أجل أرباب الوظائف وأعلاهم شأناً وأرفعهم قدراً(٤).

"داعى الدعاة" يلى قاضى القضاة في الرتبة ويتزيا بزيه في اللباس وغيره(٥).

"المحتسب" وهو من وجوه العدول وأعيانهم(٦)، وقد كانت "وكالة بيت المال" لا تسند إلا لذوى الهيبة من شيوخ العدول(٧).

والنائب اي "صاحب الباب" ورتبته تلى رتبة الوزير. وكان له أن يرأس مجلس "النظـر في المظالم" ويقوم مقام الخليفة في استلام "قصص المتظلمين(٨).

و "القراء" الذين يقرأون بحضرة الخليفة في مجالسه وركوبه في المواكب وغير ذلك(١).

---

(1) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٦١، ١٦٤ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٤٩ ؛ القلقـشندى، جـــ٣، ص ٤٧٢.

(2) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٨٦ ؛ ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٣٤.

(3) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٣٤، ٨٥، ١٤٥ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٠٢.

(4) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٦٩، ١٠٧.

(5) لمزيد من التفاصيل انظر: ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٧٥ وما بعدها.

(6) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١١٥ وما بعدها.

(7) لمزيد من التفاصيل عن هذه الوظائف انظر: القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٨٦-٤٨٧. انظر أيضاً: ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٠٨.

(8) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٠٢ – ٤٠٣ . أنظر أيضا: ماجد، نظم الفاطميين، جـ٢، ص ٢٨.

أما النوع الثانى من أرباب الأقلام، فهم أصحاب الوظائف الديوانية[٢]. والهدف من ذكر وظائف البلاط الفاطمى بالتفصيل لكى نوضح أوجه التشابه والاختلاف بينها وبين وظائف البلاط البيزنطي.

على أية حال، فإن هؤلاء العاملين في البلاط الفاطمى، لهم ما يقابلهم أو يماثلهم تماماً في بلاط الإمبراطورية البيزنطية في القسطنطينية، وفي مختلف جهات الإمبراطورية البيزنطية فالوزير يقابله في البلاط البيزنطي اللغثيت[٣] *Logothetes* .

وفيما يتعلق بصاحب الباب، فهو حاجب على مستوى وقدر رفيع تحت أمرته حجاب، ويأتي في المرتبة الثانية بعد الوزير، اي أنه ثانى رتبة في الوزارة، فهو وزير صغير، ويقال لوزارته "الوزارة الصغرى". ومن وظائفه النظر في المظالم إذا لم يكن وزير صاحب سيف، فإن

---

[1] ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١١٩ وما بعدها.

[2] عن هذه الوظائف انظر ابن الطوير، نزهة، ص ٣٥.

[3] Canard, *Le Cérémonial Fatimite*, p. 370 والـ *Logothetes* تعنى المستشار و *Megas Logothetes* المستشار الأعظم. انظر رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ص ٤٠١ ؛ لغثيت الدروم *Logothete Tou Dromou* الذي تطور وارتقى، وهو لقب الموظف المسئول عن إدارة البريد الحكومى. وقد تولى صاحبه منذ القرن الثامن الميلادى معظم الاختصاصات المتعددة لرئيس دواوين الحكومة المركزية وخاصة ديوان العلاقات الخارجية والشئون الدبلوماسية المسئول عن مراسلات الدولة الخارجية ومراسم استقبال السفراء الأجانب، وكان لغثيت الدروم قبل ارتقائه مرؤوساً لرئيس دواوين الحكومة وإذا كان لغثيت الدروم قد تمتع باختصاصات مركزية عديدة ونفوذ كبير في العصر البيزنطي الأوسط، فإنه سرعان ما فقد اختصاصاته وأصبح منذ نهاية القرن الحادى عشر الميلادى مجرد لقب شرفي بلا مضمون. وفي نفس الوقت ارتفع شأن لقب *Logothetes ton Sekreton* وهو لقب جديد استحدثه الإمبراطور ألكسيوس الأول كومنينوس Alexius I (١٠٨١ –١١١٨م) لمنصب رفيع الشأن تولى صاحبه لفترة زمنية معينة صلاحية الإشراف على الحكومة المركزية والتنسيق بين إداراتها المختلفة ومراقبة أدائها. ومنذ نهاية القرن الثانى عشر الميلادى أصبح لقب هذا المنصب المهم هو اللغثيت العظيم *Megas Logothetes* . انظر وسام عبد العزيز فرج: بيزنطة قراءة في التاريخ السياسى والإدارى، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م، ص ٤٤ – ٤٥.

Kazhdan , A., 'Logothetes' , *The Oxford Dictionary of Byzantium* , II , p.1247 ; Guilland , R., 'Les Logothètes', *Revue des études byzantines* 29(1971) , pp.5-10 ; Miller , D.A., 'The Logothete of the Drome in the Middle Byzantine Period : The Corps of Interpreters', *Byzantinische Zeitschrift* 36(1966), pp.449-58; Bury , J.B., *The Imperial Administrative System in the 9th Century*, London, 1911,pp.90-93.

كان فهو الذى يجلس للمظالم بنفسه. وصاحب من جملة من يقف في خدمته[1]، ويقـــوم بإدخـــال وتقديم أصحاب الرتبة العالية للمثول أمام الخليفة في اليومين المخصصين لذلك من كل أســـبوع، ويرتبهم على مقاديرهم وذلك قبل رفع الستار. كذلك يقوم بإدخال السفراء والمبعـــوثين[٢]. كمـــا أشرنا سابقاً في رواية وليم الصورى. ويمكن مقارنتـــه ببريبوزيتـــوس الجنـــاح الإمبراطـــورى Praepositos Sacri Cubiculi[٣] في البلاط البيزنطي. إلا أن هذا الشخص لابد أن يكون من بين الطواشية، وكذلك يمكن مقارنته برئيس المراســـم Magisteros tes Cérémonies الـــذى كان من بين وظائفه هو أيضاً، مهمة ترتيب كبار موظفي الإمبراطورية وإدخالهم للإمبراطور كل حسب مقامه. كذلك كان حالهم مع الموظفين كل حسب درجته. وكان يقوم بإدخال السفراء لكـــن في ظروف مغايرة إلى حد ما. ففي بلاط القاهرة لا يوجد عملية الإدخال المتتابعة[٤].

---

[1] ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٢٢ ؛ ابن المأمون، نصوص من أخبار مصر، ص ٩٩ ؛ القلقـــشندى، صـــبح الأعشى، جـــ٣، ص ٤٨٣.

[2] المقريزى، الخطط، جـــ١، ص ٤٠٢-٤٠٣ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـــ٣، ص ٤٨٣.

[3] كانت هناك عدة وظائف رفيعة في القصر، ارتبط أصحابها بشخص الإمبراطور بحكم طبيعة عملهم مثل منـــصب *Praepositus Sacri Cubiculi*، ويعنى حرفيا "بريبوزيتوس الجناح الإمبراطورى الأكثر قداســـة"، أو كبيـــر الحجاب، والمعروف أن هذه الوظيفة لهذا اللقب ظهرت في عهد الإمبراطور قسطنطين الأول (٣٠٦ – ٣٣٧م)، ولكن اختصاصاتها كانت موجودة قبل عهد دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥م)، وكان يتولاها حاجب يحمل لقب كوبيكولو *Cubiculo*. وابتداء من عهد قسطنطين ارتفع شأن كبير الحجاب حتى أصبح من أرفع المناصب فـــي القـــصر رغم أن شاغله كان من الخصيان. وفي البداية كانت اختصاصات هذه الوظيفة إدارة أقـــسام الخدمـــة المختلفـــة والإشراف على العدد الكبير من الحجاب العاملين في القصر فضلا عن خدمة الإمبراطور شخصياً. لقـــد تمتـــع شاغل هذه الوظيفة بنفوذ كبير وصلاحيات واسعة ليس بسبب أهمية المسئوليات التي تولاها ولكن بسبب ملازمته للإمبراطور وتملقه ومداهنته ، وكان كبار موظفي الحكومة يخشونه لقربه من أذن الإمبراطور وتأثيره الشخصى عليه، وإن كانوا يكنون الكراهية له لأنه نافسهم وتدخل في شئونهم. وقد تحول هذا اللقب في أواخر القرن السابع الميلادى إلى مجرد لقب من الألقاب الشرفية. وفي نفس الوقت ارتفع شأن حاجب آخر كان مرؤوساً له ومسئولاً عن غرفة نوم الإمبراطور ويحمل لقب البراكويمومنوس *Parakoimomenos*، وانتقلـــت اختـــصاصات كبيـــر الحجاب إلى تابعه البراكويمومنوس الذي ازداد نفوذه بشكل واضح في العصر البيزنطي الأوسط، وفي العـــصر البيزنطي الأخير فقد هذا اللقب اختصاصاته ثم اختفى ضمن الألقاب الشرفية. وسام عبد العزيـــز، بيزنطـــة، ص ٤٢، ٤٧. Bury , *Administrative System* , pp.123-124.

[4] Canard, *Le cérémonial fatimite*, p. 371.

ومع ذلك فيوجد موظف آخر سنتحدث عنه فيما بعد كان يتحمل جزءاً من عمل البريبوزيتوس[١] *Prépositos* لرفع الستار، كان البريبوزيتوس رئيس القوبيقولايرات *Koubikoulares*[٢] اي رئيس الخصيان، خصيان حَجْرة الإمبراطور. ففي الاحتفالات الرسمية كان دوره قائماً على وجه الخصوص على نقل أوامر الإمبراطور البيزنطي إلى رؤساء المراسم. وكان هناك خصيان مهمتهم رفع الستار، وإدخال كبار الموظفين كل حسب رتبته ومقامه[٣].

---

(1) كان البريبوزيتوس رئيس طبقة الخدام الطواشية، ومن مهامه المسائل المالية والإدارية، وشعاره لوحة عاجية غير منقوشة يسلمها له الإمبراطور، وكان يعمل كعين وصوت للإمبراطور، لمزيد من التفاصيل انظر:
Ringrose , *Perfect Servant*,, p. 168.

(2) كانت ألقاب الطواشي تكتسب إما بجريان العادة، أو كمنحة إمبراطورية، وهذه الألقاب تنقل بسهولة من شخص إلى آخر بالوعد الإمبراطوري، وتنقسم الألقاب التي منحت للطواشي بالشعار إلى ثمانية. اللقب الأول هو "نيبزيستاريوس" *Nipsistarios* وشعاره عبارة عن كاميزيون *Kamision* من الكتان عليه بلايتون ملتصقة به واللقب الثاني هو "قوبيقولاريوس" *Koubikoularios* وشعاره زى الكاميزيون مزخرفة حول البلايتا والملابس المسماه باراجوديون معروفة لأننا نرتديها في حضور المعاونين البريبوزيتوس واللقب الثالث هو إسباثاروقوبيقولاريوس" *Spatharocubicularios* وشعاره سيف يسلمه الإمبراطور بيده بنفس الطريقة التي يسلمه بها للاسباثاريوس، واللقب الرابع هو لقب الأوستيار" d'Ostiaire وشعاره عصا ذهبية بمقبض مزين بالأحجار الكريمة يسلمها الإمبراطور بيده واللقب الخامس هو "البريمسيير" Primicier وشعاره ثوب أبيض بكتافات صغيرة ومزخرف بالذهب، يتم ارتداؤه باحتفال، واللقب السادس (لطواشيهم" البروتوسباثاريوس *Protospatharios*، وشعارهم قلادة من الذهب مرصعة بالأحجار الكريمة وباللآلئ يضعها الإمبراطور بيديه حول الرقبة ويغلقها (يقفلها)، يرتدون ثوباً أبيض مقصب بالذهب ومعطفاً أحمر بصديرية مقصب بالذهب، أما اللقب السابع فهو البريبوزيتوس *Prépositos* وشعاره ملابس بطريق بدون ملحقات ويسلمه الإمبراطور من خلال موكب في الكريزوتريكلينوس *Chrysotriklinos* واللقب الثامن والأخير لطواشيهم "بطارقة" Patrikes وشعارهم زيهم أوحُلتهم لا تختلف عن زى البروتوسباثايرات *Protospatharioi* أما فيما يتعلق بالألقاب التي منحت للطواشية بناء على وعد إمبراطورى فهى تسعة ألقاب رئيسية: الأول باراكويموميتوس الإمبراطور" *Parakoimoménos* والثانى "بروتوفيستاريوس الإمبراطور" *Protovestarios* والثالث "بريبوزيس (ياور) مائدة الإمبراطور Le prépose والرابع ياور مائدة الإمبراطورة والخامس حاجب القصر الكبير، والسادس دويتروس Le deutéros القصر الكبير والسابع بينسيرن الإمبراطور Le pincerne والثامن بينسيرن الإمبراطورة والتاسع بابياس الماجنورا Le papias de Magnaura والعاشر حاجب الدافنيه le papias de Daphné أنظر:
Guilland, *les Eunuques*, pp. 123-124, 126,128,130,134; Bury , *Administrative System* , pp.120ff.

(3) Canard, *le cérémonial fatimite*, p. 372.

وإذا انتقلنا إلى حاملى سيف الخليفة الفاطمى وحاملى رمحه وبقية أسلحته[١]، فيقابل هذه الوظائف في الإمبراطورية البيزنطية وظيفة الاسباثاريوس *Spatharios* الذى كان في موكب الإمبراطور يحمل الأسلحة التالية : الرمح والسيف والترس[٢].

وهناك أمير يقال له سنان الدولة الكركندى يقوم بتأمين القصر وحراسته، ومعه جنود سود عددهم خمسمائة راجل، وخمسمائة فارس[٣]، ويبيت خارج باب القصر في كل ليلة خمسون فارساً[٤]، عملهم الطواف حول أسوار القصر طوال الليل، فإذا أذن العشاء داخل قاعة الذهب وصلى الإمام بالمقيمين فيها من الاستاذين وغيرهم، وقف على باب القصر سنان الدولة[٥] ؛ فإذا علم بفراغ الصلاة، أمر بنفخ البوق ودق الطبول والصنوج بطريقة مستحسنة لمدة ساعة كاملة[٦]، ثم يخرج بعد ذلك أستاذ برسم هذه الخدمة ليحيه من قبل الخليفة فيقول : "أمير المؤمنين يرد على سنان الدولة السلام" فيغرز سنان الدولة حربة على الباب ثم يرفعها بيده، فإذا رفعها أغلق باب القصر، ودار حول القصر سبع دورات، فإذا انتهى ذلك جعل على الباب البوابين والفراشين، وينصرف المؤذنون إلى خزانتهم ثم ترمى السلسلة التى تقطع المرور بين القصرين الصغير والكبير، ولا يسمح لأحد بالمرور من ذلك المكان، ولا ترفع هذه السلسلة إلا عند الفجر على نغمة البوق ويعود الناس مرة ثانية للمرور من هذا المكان[٧].

---

(1) انظر ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٥٩.

(2) Canard, *le cérémonial fatimite*, pp. 368, n. 2, 372.

(3) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ١٠٤.

(4) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٢١٠ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٦٢.

(5) المقريزى، الخطط جـ١، ص ٤٦٢ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٥٢٢.

(6) ناصر خسرو، سفر نامه، ص ١٠٤.

(7) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٢١٠ - ٢١١ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٦٢ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٥٢٢-٥٢٣.

ويبدو أن هذا الموظف له نفس مهام الـ دورنجاريوس الفيجلا[١] Droungarios Tes Viglas إلا أن مهام الدرونجاريوس الوظيفية أقل بكثير، خاصة في بعض الميادين العسكرية منها والمدنية[٢].أما فيما يتعلق ببقية الوظائف في البلاط الفاطمى، فلا يوجد تشابه لها في بيزنطة التى لا تعرف على سبيل المثال "حاملى المظلة"[٣] ويمكننا تشبيه وظيفته "الأسفهسلار"[٤] بوظيفة دمستق الاسكولاي[٥] *Domestikos Ton Scholon* خاصة عندما أصبح دمستق الاسكولاى من القرن العاشر الميلادى قائداً عاماً[٦]. وكانت مهامه تشبه مهام الشرطة في الاحتفالات وبعض

---

(1) كان درونجاريوس الفيجلا قائداً لإحدى فرق الحرس الإمبراطورى، و المسماه "أرثيموس" Arithmos، وتضم ألف مقاتل ومكلفة بحراسة أسوار القصر الإمبراطورى من الخارج، وتمثلت مهمته الرئيسية فى حراسة الإمبراطور فى الحملات العسكرية وفى قصره، ولذلك كان درونجير الفيجلا شخصا ذو حظوة وثقة لدى الإمبراطور، وغالبا ما كان يتم اختياره من بين النبلاء وأفراد العائلات الأرستقراطية البارزة . وقد أطلقت المصادر الجغرافية العربية على الدرونجير اسم "طرنجار"، وهو قائد ألف عندهم أيضا.

انظر: Bréhier, *le monde byantin*, p. 232; Kazhdan , A., 'Droungarios Tes Viglas', *The Oxford Dictionary of Byzantium* , I, p.663.

طارق منصور، الجيش فى الإمبراطورية البيزنطية من بداية القرن السابع إلى نهاية القرن التاسع الميلادى، ماجستير غير منشورة، كلية الآداب ببنها، جامعة الزقازيق، ١٩٩٣م، ص١٧٦-١٧٧.

(2) Canard, *Le cérémonial fatimite*, p. 373.

(3) Canard, *Le cérémonial fatimite*, p. 373.

(4) صاحبها زمام كل زمام، وإليه أمر الأجناد والتحدث فيهم وفي خدمته وخدمة صاحب الباب تقف الحجاب على اختلاف طبقاتهم، انظر: ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٢٣، ١٥٧ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٧٩.

(5) كانت فرقة الاسكولاى واحدة من فرق الحراسة الإمبراطورية الرئيسية الأربع، والأعلى مقاما، ومن المحتمل الأقدم أيضا، وكانت هذه الفرقة خاضعة فى البداية لإمرة رئيس الديوان الذى كان يختار لنفسه دمستقا ويفوضه فى قيادة هذه الفرقة، ومع الغاء وظيفة رئيس الديوان صار دمستق الاسكولاى قائدا مطلقا لها منذ القرن التاسع الميلادى، وصار يحتل فى نهاية ذات القرن المرتبة الخامسة بين موظفى الدولة من حيث المكانة وعلو الشأن، وصار تعيينه يتم من قبل الأباطرة أنفسهم . لمزيد من التفاصيل أنظر :

Kazhdan , A., 'Domestikos Tòn Scholon', *The Oxford Dictionary of Byzantium* , I, pp.647-8 ; Bury , *Administrative System* , pp.49-57.

طارق منصور، الجيش، ص١٧٥-١٨٣ ؛ فايز نجيب اسكندر، البيزنطيون والأتراك السلاجقة في معركة ملاذكرد (١٠٧١م / ٤٦٣هـ) في مصنف نقفور برينيوس دراسة مقارنة للمصادر، الاسكندرية، ١٩٨٤م، ص ٨، ٢٨. انظر أيضاً: ابن حوقل، صورة الأرض، القاهرة، دار الكتاب الاسلامى د.ت، ص ١٧٨.

(6) Canard, *Le cérémonial fatimite*, p. 373.

المهام القضائية، ويؤكد ذلك قول القلقشندى. "وفي خدمته وخدمة صاحب الباب تقف الحجاب على اختلاف طبقاتهم"(١).

وجدير بالذكر أن وظائف "خواص الخليفة" كان يشغلها عادة الخصيان كما هو الحال في الإمبراطورية البيزنطية ؛ حيث نجد بعض التشابه والتماثل بين وظائف حاشية الخليفة اي خواصه من الأستاذين وهى عدة وظائف على قسمين :

الأول ما يختص بالأستاذين المحنكين، وهى "شد التاج"(٢). وقد سبق أن ذكرنا هذه الوظيفة ولابد أن يكون شاغلها من الخصيان "الطواشية" كما هو الحال في الإمبراطورية البيزنطية، فالموظف الذى يضع التاج على رأس الإمبراطور البيزنطي – كما أوضح كتاب المراسم *De Ceremonies* – كان من الخصيان، وبناء على ما تقدم كان يحرم على الرجل الملتحى رؤية رأس الإمبراطور البيزنطي عارية(٣)، وكان يقوم بهذه المهام في بيزنطة رئيس الخصيان ويطلق عليه بريبوزيتوس الجناح الإمبراطورى Praepositos Sacri Cubiculi (٤) هذا الخصى أحد أقرب المقربين إلى الإمبراطور البيزنطي، وكانت مهام وظيفته تتشابه مع وظيفة "شد التاج" عند الفاطميين، إلا أن الموظف المختص بوظيفة "شد التاج" كانت مهامه الوظيفية أقل من مهام البريبوزيتوس(٥) Prepositos.

أما "صاحب المجلس"(٦) الذى كان يطلق عليه أيضاً "صاحب السرير" ويسمى أيضاً "متولى الستر"(٧) وكانت له مهام وظيفية تذكرنا بمهام البريبوزيتوس Prepositos الوظيفية

---

(1) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٨٣ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٠٣.

(2) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٥٥ وما بعدها ؛ ابن المأمون، نصوص من أخبار مصر، ص ٢٠ ؛ ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص ٨٨ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٤٨ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ٤٨٤.

(3) Canard, *Le cérémonial fatimite*, p. 374.

(4) كان رئيس خصيان غرفة نوم الإمبراطور البيزنطي. وفي الاحتفالات الرسمية، كانت مهامه قاصرة – على وجه الخصوص – على نقل أوامر الإمبراطور إلى رؤساء مراسم البلاط البيزنطي. للتفاصيل انظر:
Bréher, *Le monde byantin* , pp. 68-69, 130, 132, 158, 187.

(5) Canard, *Le cérémonial fatimite*, p. 374.

(6) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٨٤، ١٦٢ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٨٦، ٤٠١ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٨٥.

(7) ابن المأمون، نصوص من أخبار مصر، ص ٥١، ٧٦.

وتقاربها ؛ وكان "صاحب المجلس" يتولى أمر المجلس الذى يجلس فيه الخليفة الجلوس العام في المواكب، ويخرج إلى الوزير والأمراء بعد جلوس الخليفة على سرير الملك يُعلمهم بذلك، وينعت "بأمين الملك"(١)، وكان يصدر أمره إلى اثنين من الخصيان (الطواشية) بإزاحة الستار الذى يحجب الخليفة عن الظهور(٢).

أما في الإمبراطورية البيزنطية، فكان البريبوزيتوس Prepositos، يقوم بمهام رفع الستار عن الإمبراطور البيزنطي، اي أنه كان يقوم بمهام هذين الخصيين(٣).

يأتي في المرتبة الثالثة في سلسلة وظائف خواص الخليفة من الأستاذين وظيفة "صاحب الرسالة"(٤) وهو الذى يخرج برسالة الخليفة إلى الوزير وغيره(٥)، ويبدو أنه كان تحت إمرته "نقباء الرسالة"(٦)، إذ يتضح ذلك من خلال مراسم الاحتفال بالمولد النبوى الشريف(٧). وكما سبق أن ذكرنا، كان "صاحب الرسالة" مكلفاً بحمل رسائل الخليفة إلى الوزير وخاصة في أيام الاستقبالات(٨).

على أية حال نستطيع أن نقارن وظيفة "صاحب الرسالة" بـ وظيفة البابياس(٩) Papias حاجب قصر الإمبراطور البيزنطي، إذ يأمره الإمبراطور البيزنطي باستدعاء اللغثيت

---

(1) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٢٠٧ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٨٥. أنظر أيضا: حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، القاهرة، ١٩٦٥م، جـ١، ص ٢٨٧.

(2) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٦٢ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٨٦ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٩٩.

(3) Canard, *Le cérémonial fatimite*, p. 375.

(4) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٥٣، ١٧٩، ٢٠٦، ٢١٠.

(5) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٣٨٥.

(6) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٢١٨، ٢٢٤.

(7) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٢١٧ ؛ ابن المأمون، نصوص من أخبار مصر، ص ٦٢ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٤٣ ؛ اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ١٠١.

(8) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٧٣، ١٧٩، ٢٠٦ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٨٦، ٤٤٧ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٨٥، ٤٩٩، ٥٠٤.

(9) بابياس Papias اي حارس باب القصر الإمبراطورى. ويرى البعض أن الكلمة مشتقة من كلمة "باب" العربية. إلا أن العالم الفرنسى ماريوس كانار الذي كان يدرس في جامعة الجزائر ويتقن العربية، فند القول فـ بابياس لا تتفق مع كلمة "بواب" وهو على حق في ذلك انظر:

Canard, *Le cérémonial fatimite*, p. 375, n. 3

Logothetes إلا أن مهام البابياس Papias "اي حاجب القصر" تتفق مع المهام الأخرى التي يقوم بها "صاحب الرسالة"[١].

أما "صاحب بيت المال" و "صاحب زمام القصور" فكانا يقومان برفع الستار عن الخليفة بعد أن يصدر إليهما الأمر بذلك "صاحب المجلس" و "صاحب بيت المال" الذى كان بمثابة خازندار في عصر سلاطين المماليك"[٢]. ويتضح ذلك من خلال الاحتفال بالمولد النبوى الشريف. فعندما كان يصل موكب القاضى أمام القصر، يخرج "صاحب بيت المال" حاملاً معه خزانة تحوى النقود المخصصة للتوزيع[٣].

ويبدو أن هذه تعد من مهامه الوظيفية الإضافية. وعلى هذا تتفق مع وظيفة الـ أرجير Argyre[٤] في الإمبراطورية البيزنطية اي "متولى الصدقات"[٥].

إلا أنه يلاحظ أن مهام توزيع النقود التى كان يقوم بها صاحب بيت المال، كان يقوم به أيضاً "متولى خزانة الانفاق" ؛ فقد أشار إليه المقريزى بقوله : "إنه في عيد الفطر إذ كان يحمل كيس نقود مملوء بالدنانير، مخصصة للذين يأتون طلباً للحسنة والمال"[٦]. كذلك كان لصاحب بيت المال سلطات ومهام أخرى فى شهر رمضان المبارك، وخلال أيام الجمع الثلاثة، كان مكلفاً بوضع الأسمطة والستائر في محراب مسجد الخليفة الفاطمى[٧] ؛ كذلك كان الحال في المصلى في الهواء الطلق عقب عيد الفطر المبارك وعيد الأضحى المبارك[٨].

---

(1) Canard, *Le cérémonial fatimite*, p. 375.

(2) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٨٤، ١٥٤، ١٧٢ ؛ ابن المأمون، نصوص من أخبار مصر، ص ٦٢، ٩٣ ؛ القلقشندى، جـ٣، ص ٤٨٥.

(3) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٢٠٩، ٢١٧ ؛
Sanders, *Court Ceremnial*, pp. 37-38.

(4) كان الأرجير Argyre مكلفاً بتوزيع الصدقات على الفقراء. أنظر:
Canard, *Le cérémonial fatimite*, p. 375.

(5) Canard, *Le cérémonial fatimite*, p. 375.

(6) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٥٤ ؛
Sanders, *Court Ceremonial*, pp. 121 – 122.

(7) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٢١١ وما بعدها ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٥١٠، ٥١٢ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٥٣.

(8) ابن المأمون، نصوص من أخبار مصر، ص ٨٤ ؛ المسبحى، الجزء الأربعون من أخبار مصر، ص ٦٥، ٨٧ ؛ ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص ١٥٩، ١٦٢.

وفي هذه المناسبة كان "صاحب بيت المال" من بين الذين يتشرفون بالوقوف على إحدى درج المحراب حيث يخطب الخليفة[1].

وإذا انتقلنا إلى وظيفة "زمام القصور" أو "زمام القصر" فقد كانت وظيفته بمثابة "زمام الدور" اي المشرف على الحريم أو مراقب الحريم[2].

ويندرج في وظائف خواص الخليفة من الأستاذين أيضاً وظيفة "حامل الدواة" وهى دواة الخليفة. وصاحب هذه الوظيفة يحمل الدواة قدامه على السرج ويسير بها في المواكب – كما سبق أن ذكرنا – و "صاحب المجلس" يضع "حامل الدواة" أمام الخليفة قبل رفع الستار[3].

وعلى هذا يمكننا مقارنة حامل الدواة بوظيفة الكانكليوس Kanikleios[4] في الإمبراطورية البيزنطية، وهو أحد السكرتارية الخاصة بالإمبراطور، و كانت وظيفته أن يقدم إليه الدواة التى كان في حاجة إليها للتوقيع على المراسم والمواثيق، كان ذلك في العصر البيزنطي المبكر، إلا أنه تحول فيما بعد إلى حارس للأختام وشهادات التعيين المسماه "خاريتا"[5] Chartia التى كان يأخذها منه الإمبراطور البيزنطي ليعيدها ثانية إلى بروموس Promus اي الشخص المرقى[6].

وفيما يتعلق بوظيفة "صاحب المائدة" لدى الفاطميين[7] فلها ما يقابلها في الإمبراطورية البيزنطية، إذ يقابلها وظيفة "دمستق مائدة الإمبراطور"[8] Domestique de la table.

وهناك وظائف لا يوجد ما يماثلها في الإمبراطورية البيزنطية، فمن بين أرباب الوظائف بحضرة الخليفة أرباب الأقلام[1] و "المحتسب"[2]، الذى يده مطلقة في الأمر بالمعروف والنهى

---

(1) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٨٤، ١٥٤، ١٧٣ ؛ ابن المأمون، نصوص من أخبار مصر، ص ٧١.

(2) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٦٨، ٧٠، ٨٤، ص ١٥٤ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٨٥.

(3) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٦١، ١٦٤ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٨٥ وما بعدها.

(4) Canard, *Le cérémonial fatimite*, p. 376; Kazhdan,A.,'Kanikleios', *The Oxford Dictionary of Byzantium*, II, p.1101.

(5) Canard, *Le cérémonial fatimite*, p. 376.

(6) Canard, *Le cérémonial fatimite*, p. 376.

(7) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٨٥، ١٤٥، ١٧٠.

(8) Canard, *Le cérémonial fatimite*, p. 377.

وعن "رئيس مائدة الإمبراطور" انظر: Bréhier, *Le monde byantin*, p. 131.

عن المنكر، وبالتالى فتلك الوظيفة تتعلق بمعتنقى الإسلام، لذا لا نجد ما يشابهها في الإمبراطورية البيزنطية التى تدين بالمسيحية على المذهب الملكانى. ويذكر القلقشندى بقوله : "ورأيت في بعض سجلاتهم إضافة الحسبة بمصر والقاهرة إلى صاحب الشرطة أحياناً"(٣).

والجدير بالملاحظة هنا أن العديد من اختصاصاته تتفق مع اختصاصات الايبارخس(٤). يضاف إلى ذلك أن "قراء"(٥) القرآن الكريم، لهم دور هام في المراسم والاحتفالات تماماً كما هو الحال في بيزنطة، إذ يقابل هؤلاء البساليا(٦) Psallai(٧).

الخليفة الفاطمى والإمبراطور البيزنطي:

تقترب مكانة أو مركز الخليفة الفاطمى من الإمبراطور البيزنطي أكثر من اقترابها من الخليفة العباسى، اي أن التشابه أكثر بين وضعية الخليفة الفاطمى والإمبراطور البيزنطي. فالخليفة العباسى هو خليفة الرسول (ﷺ) والخلفاء الراشدين، وقد تأثر خليفة بغداد تأثراً واضحاً بالمؤثرات الفارسية(٨)، أما الخليفة الفاطمى، فهو على النقيض من ذلك، فهو قائم على الإمامة(٩) التى وهبها الله عز وجل إلى سلالة الرسول (ﷺ) وكانت تولية "على بن أبى طالب" من الأمور التى يستند إليها الشيعة وعلى الأخص الفاطميون، في تمسكهم بحقهم في الإمامة. فأصبحت

---

(1) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١١٥، ١١٧ ؛ انظر أيضاً: القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٨٦ وما بعدها.

(2) لمزيد من التفاصيل انظر القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٨٧.

(3) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٨٧، ٤٨٨.

(4) Canard, Le Ceremonial Fatimite, p. 377. ومما يذكر أن Eparque اي الوالى كان من أهم شخصيات الإمبراطورية البيزنطية مكانه. انظر:

Brehier, *Le monde byantin*, p. 126.

(5) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٨٤، ١١٩، ١٥٤، ١٥٥، ١٧٣، ١٩١.

(6) كانت مهمة هؤلاء قراءة الإنجيل أثناء إقامة القداس، أنظر:

Bréhier, *Le monde byantin*, p. 307.

(7) Canard, *le cérémonial fatimite*, p. 377.

(8) Canard, *Le cérémonial fatimite*, p. 378.

(9) الإمامة هى أصل جميع نظم الحكم في الدولة الفاطمية، وكلمة "إمامة" التي كان يستعملها الشيعة بعامة والفاطميون بخاصة لها مدلول كلمة "خلافة" التي كان يستعملها – غالباً – الأمويون والعباسيون. لمزيد من التفاصيل عن نظام الإمامة انظر: ابن خلدون، المقدمة، ص ١٩٠ ؛ الماوردى، الاحكام السلطانية والولايات الدينية، ط أولى، القاهرة ١٩٦٠م، ص ٥ وما بعدها. أنظر أيضا: ماجد، نظم الفاطميين، جـ١، ص ٥٦.

بالنسبة لهم جزءاً لا يتجزأ من العقيدة الفاطمية الأساسية، فيقولون : "لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علي ولي الله"(١). ويعلق الشيعة أهمية كبرى على ظروف هذه التولية، فقد وجد محمد (ﷺ) وعليّ، في منتصف الطريق ما بين مكة والمدينة بالقرب من مكان يُعرف باسم "غدير خم" ؛ وهنا أوصى الرسول (ﷺ) إلى عليّ بالإمامة من بعده، وعلى ذلك تكون الإمامة الفاطمية هي وارثة وصاية علي(٢) وسيستمرون في ممارسة ذلك حتى يوم القيامة فالفكر مختلف كثيراً بين العباسيين والفاطميين، ففلسفة المذهب الشيعي الاسماعيلي مؤداها أن الإمام هو "العقل الفاعل"، يتضح ذلك عند تمحيص أقوال الشاعر الرسمي للخليفة الفاطمي "المعز" ابن "هانى" فالإيمان بالله ورسوله غير كاملة دون الإيمان بالإمام، فبدون الإيمان بالإمام (ربما الإمام المنتظر) والدين والعقيدة الإسلامية تكون غير كاملة وغير صحيحة(٣).

نستخلص من ذلك أن نظام الوراثة عند الشيعة الإسماعيلية يقضي أنه تكون الإمامة في نسل علي بن أبي طالب دون غيرهم، وأن تنتقل دائماً من الأب، لأنهم كانوا يعتقدون أن للإمامة صفات وعلوماً خاصة تنتقل بالوراثة كما تنتقل الصفات الخلقية تماماً، اي يجب أن تكون في الأعقاب من أبناء الحسين، ولا تنتقل من أخ إلى أخيه بعد أن انتقلت من الحسن إلى الحسين. والشرط الوحيد اللازم توافره في شخص الإمام هو "الوصية" اي "النص" عليه من الإمام السابق(٤).

وفي ظل هذه الشروط أن الإمام لا ينتخب بل معين من قبل سلفه. ونعلم أن الإمبراطورية البيزنطية تأثرت بهذا الفكر أيضاً، فالإمبراطور تم تعظيمه حتى درجة العبادة كما حدث في عهد دقلديانوس (٢٨٤ – ٣٠٥م). ولكن بعد اعتراف قسطنطين الكبير (٣٠٦ – ٣٣٧م) بالمسيحية سنة ٣١٣م أصبح الإمبراطور هو الرجل الذى اختارته المشيئة الإلهية ليحكم بإرادة

---

(1) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٠٥، انظر أيضاً: ماجد، رسوم الفاطميين، ص ٥١-٥٢

(2) لمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع انظر البغدادى، الفرق بين الفرق، القاهرة. د.ت. وكذلك ماجد، نظم الفاطميين، ص ٥٢ وما بعدها.

(3) الماوردى، الأحكام السلطانية، ص٨ ؛ ماجد، نظم الفاطميين، ص٥٣ ؛ ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٩٤م، ٧٤ وما بعدها ؛ جمال الشيال، مصر في العصر الفاطمي، ص ٢٤٢.

(4) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٣٦ – ٣٧، المقريزى،الخطط، جـ١، ص ٤٠٥. أنظر أيضا: جمال الشيال، مصر في العصر الفاطمي، ص ٤٤٣ ؛ ماجد، نظم الفاطميين، ٥٤–٥٥ ؛ ظهور الخلافة الفاطمية، ص ٧٥ ؛ أحمد عبد الرازق، تاريخ وآثار مصر الإسلامية، دار الفكر العربى، ١٩٩٣، ١٦٩ وما بعدها.

الرب. وبهذا التصور أصبح الإمبراطور فوق سائر البشر، فهو مصدر السلطة التشريعية وعلى رأس السلطة التنفيذية والدينية أيضاً، إذ يقوم بتعيين بطريرك القسطنطينية. وكان جميع موظفي الحكومة والقصر في خدمته وولاؤهم له وحده، فهو الذى يعينهم في مناصبهم، ويستمدون منه سلطاتهم ونفوذهم كما يتحملون أمامه مسئولية أدائهم لواجباتهم[1]. فالإمبراطور مختار من الله، وعليه نستنتج مما تقدم أن شخص الإمبراطور وسلطته، وشخص الخليفة الفاطمى أشخاص غير عاديين وأن احترامهما يفوق احترام اي بشر عادى، نستخلص ذلك عند التحية.

فالتحية المستخدمة في كافة بلاطات الشرق والتى انتقلت مراسمها مبكراً إلى الإمبراطورية البيزنطية[2]، كانت قائمة على السجود أمام الإمبراطور البيزنطي، وكان حالها كذلك في البلاط الفاطمى[3]. فالوزير بعد دخوله على الخليفة يقبل يديه ورجليه ويتأخر مقدار ثلاثة أذرع وهو قائم مقدار ساعة زمنية، وكانت الصيغة المستخدمة "هى تقبيل الأرض بين يديه"[4]. وهناك السجود من على بعد، بمجرد لمح الخليفة، ويواصلون ذلك حتى الوصول إلى أقدام الخليفة، وذلك عندما كان ينبغى الاقتراب منه، فيذكر المقريزى في خططه "لا يكون سلام قريب منه وخليل غير الوزير إلا بتقبيل الأرض من بعيد من غير دنو ثم بين يديه من مقدمى خزائنه من يحمل سيفه ورمحه المرصعين بأفخر ما يكون.." [5].

ويمكن مقارنة ذلك بمراسم استقبال الإمبراطور البيزنطى للسفراء، إذ يصف وليم الصورى مراسم استقبال مانويل الأول كومنينوس لعمورى الأول ملك مملكة بيت المقدس (١١٦٢-١١٧٣م/٥٥٨-٥٦٩هـ)، عام ١١٧١م/٥٦٧هـ، فيذكر أن عمورى بمجرد اقترابه من

---

(1) وسام عبد العزيز، بيزنطة، ص ٣٨.

(2) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٨٦، ٤٣١ ؛ Canard, *Le Cérémonial Fatimite*, p. 379.

(3) ناصر خسرو، سفر نامه، ص ١٤١. وخير مثال على طقس السجود أمام الإمبراطور البيزنطى ما ذكره وليم الصورى عند حديثه عن استقبال الإمبراطور مانويل كومنينوس (١١٤٣-١١٨٠م/٥٣٨-٥٧٦هـ) لأمير أنطاكية رينالد أوف شاتيلون Reginald of Chatillon (١١٥٣-١١٦٠م/٥٤٧-٥٥٥هـ)، فى عام ١١٥٩م/٥٥٤هـ، حيث يذكر أن رينالد ظهر أمام الإمبراطور فى حالة مرزية وألقى بنفسه على الأرض تحت قدمى الإمبراطور، واستمر فى السجود حتى أذن له الإمبراطور بالنهوض" . وليم الصورى، الحروب الصليبية، جـ٣، ص٤٢٨-٤٣١.

(4) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٥٥، ٢٠٨ ؛ ابن المأمون، نصوص من أخبار مصر، ص ٧٥، ٨٧.

(5) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٢٠٨ ؛ ابن المأمون، نصوص من أخبار مصر، ص ٧٥، ٨٧ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٧٣.

حجرة العرش وجد الستائر الفخمة مسدولة لتخفي الإمبراطور عن حاشيته ومرافقيه، وأنه أعطى كرسى للجلوس عليه، لكنه كان منخفضا عن كرسى العرش الإمبراطورى، وفسر ذلك بأنه كان من عادة المراسم البيزنطية أن يجلس الإمبراطور فى مستوى أعلى من أولئك الذين فى معيته أو مجلسه (١)، كذلك هناك رواية لمؤرخ عصر مانويل الأول كومنينوس، حنا كيناموس، عن استقبال مانويل الأول للملك الفرنسى لويس السابع أثناء مروره بالقسطنطينية فى الحملة الصليبية الثانية، عندما أشار إلى جلوس لويس على كرسى بسيط، بينما جلس مانويل على كرسى العرش الأكثر فخامة وعظمة(٢).

ويمشى الخليفة على بسط حرير فرشت له بين صفين من كبار الموظفين، وكل الصفين يتناهى في مواصلة تقبيل إلى الأرض، حتى يصل إلى مجلس خلافته ويصعد على الكرسى المغشى بالديباج المنصوب برسم ركوبه(٣).

وبخلاف السجود، هناك وسائل أخرى للاحترام والتبجيل، وهى في نفس الوقت من النعم البالغة التى يمنحها الخليفة ويهبها منها : تقبيل أقدامه ويديه وركاب فرسه(٤) ؛ وفيها يذكر المقريزى في خططه : "واستدعى الوزير فواصل تقبيل الأرض إلى أن قبل ركابه وشرفه بتقبيل يده بحكم خلوها من قضيب الملك". وتقبيل كمه – اي كم ملابسه – وعتبة قاعة الاجتماعات(٥). وأحياناً يسجد الساجد أمام الخليفة، ثم ينسحب إلى الخلف راجعاً ووجهه أمام الخليفة وليس ظهره(٦).

ومع ذلك فهناك حالات لا يقبل فيها الساجد الأرض تقبيلاً تاماً. ففي عشية الاحتفال برأس السنة الهجرية، عندما يجلس الخليفة في "الشباك" لاستعراض الخيول، عند إزاحة الستار،

---

(١) وليم الصورى، الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٣٨-١٤٦.

(٢) Kinnamos , J., *Deeds of John and Manuel I Comnenus* , trans. Ch.Brand , New York , 1976 , p.64.

(٣) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٢٠٧، ٢٠٨ ؛ ابن المأمون، نصوص من أخبار مصر، ٧٤، ٧٥ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٧٣-٤٧٤.

(٤) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٢٠٩ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٤٨-٤٧٣ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٥٠٠، ٥٠٥، ٥١٠، ٥١٣.

(٥) المقريزى، الخطط جـ١، ص ٣٨٦، ٤٣٥ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٥٠٠.

(٦) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٨١ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ٥١٠، ٥١٤.

كان الوزير يجلس أسفل "الشباك"، حينئذ كان ينهض ويحيى الخليفة بأن يلمس الأرض ثلاث مرات بيده(١). وفي أيام الاستقبالات العامة، يقوم كبير القضاة بتحية الخليفة، حيث يكون أول الأشخاص الذى تم إدخاله من قبل "صاحب الباب". وطبقاً لآداب مخصوصة – اي بروتوكولات خاصة – ويقال إن من هذه الآداب أن القاضي يرفع يده اليمنى وطرف السبابة نحو السماء قائلاً: "السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته"(٢).

وكما سبق أن أوضحنا إذا انتظم ذلك النظام، واستقر بهم المقام، فأول ماثل للخدمة بالسلام "قاضي القضاة" والشهود المعروفون بالاستخدام، فيجيز "صاحب الباب" القاضي دون من معه، فيسلم متأدباً، ويقف قريباً. ومعنى الأدب في السلام – كما ذكرنا من قبل – أنه يرفع يده اليمنى، ويشير بالمسبحة ويقولُ بصوت مسموع : "السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته"، فيتخصص بهذا الكلام دون غيره من أهل السلام. وينفرج الموكب للوزير فيتحرك مسرعاً ليصير أمام الخليفة ليدخل بين يديه فيمر بالخليفة فيَسكع سَكْعَة ظاهرة(٣)، فيشير الخليفة للسلام عليه إشارة خفيفة، وهذا أعظم مكرمة تصدر عن الخليفة، ولا تكون إلا للوزير صاحب السيف، ويسبقه إلى دخول الباب بالقصر راكباً على عادته إلى موضعه، والأمراء أمامه مشاة إلى الموضع الذى ركب منه بدهليز العمود، فيترجل هناك ويقف هو والأمراء لانتظار الخليفة. فإذا وصل الخليفة إلى باب القصر ودخله وترجّل الوزير ودخل قبله الأستاذون المحنكون فيحدقون به والوزير أمام وجه دابته من مكان ترجله إلى الكرسى الذى ركب منه فينزل عليه ويدخل إلى مكانه بعد خدمة المذكورين له. كان ذلك عقب عودته من احتفالات رأس السنة الهجرية اي ركوب أول العام(٤)، أو حين دخوله خيمته عقب احتفالات فتح الخليج(٥). والجدير بالمقارنة هنا

---

(1) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٥٤.

(2) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٢٠٧ ؛ ابن المأمون، نصوص من أخبار مصر، ص ٧٤-٧٥.

(3) سكع، لا يدرى أين يتوجه من الأرض أو تحير، ورجل سكع اي متحير. ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٦٦، ص ١٨١.

(4) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٦٦-١٦٧.

Sanders, *Court Ceremonial*, 146.

(5) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٩٥ ؛ ابن المأمون، نصوص من أخبار مصر، ص ٧٤، ٩١.

أن أباطرة الإمبراطورية البيزنطية استخدموا لمقتنياتهم لفظة التبجيل "ساكير" Sacer[(١)]. وتعني "المقدسة"[(٢)].

وكان سيف الخليفة موضع تكريم خاص، فالذى كان يحمله في المواكب والاحتفالات الرسمية، كان ينبغى عليه حين يتسلمه أن "يرخى ذؤابته فلا تزال مرخاه ما دام حاملاً لـه"[(٣)]. كذلك كان الوزير أو موظف آخر يستحوذ على وثيقة أتت إليه من الخليفة خاصة بمقامات كبار رجال الدولة حين يتشرفون بصعود المنبر الشريف وذلك يوم عيد الفطر المبارك كل حسب مرتبته[(٤)]. وعندما كان رئيس ديوان الطراز يترأس عملية لف قطع الأقمشة والحلل والمظلات[(٥)] المخصصة للخليفة في دمياط وتنيس وغيرهما من أماكن صنع ما تقدم، كان والى المنطقة يحضر هذه العملية وهو واقف على قدميه احتراماً لهذه الأشياء ذاتها، اي احتراماً لمقتنيات الخليفة[(٦)]. وعندما يركب فرس الخليفة، كان ينبغى عليه أن يجعل هناك فاصلاً بين جسده وسرج الخليفة[(٧)] ؛ ففي هذا يذكر المقريزى "يركبها الرائض بحائل بينه و بين السرج". وكان الخليفة يسلم على القاضى، إذ يسير موكب الخليفة على ترتيب دقيق منظم حسب درجة كل شخص وذلك في ركوب أول العام سائراً في الطريق الذى ذهب فيها للتخليق حتى يأتى الجامع الطولونى، ويكون قاضى القضاة وأعيان الشهود جلوساً ببابه من هذه الجهة، فيقف لهم الخليفة وقفة لطيفة، ويسلم على القاضى، فيقدم القاضى ويقبل رجله التى من جانبه، ويأتى الشهود أمام وجه فرس الخليفة، ويقفون بمقدار أربعة أذرع عن الخليفة فيسلم عليهم، ثم يركبون ويسير الموكب حتى يأتى ساحل الخليج، فيسير حتى يقارب الخليفة الخيمة[(٨)]. وعادة كان الخليفة يرد على تحية الوزير ببساطة. إما بتحريك كمه أو بعلامة بسيطة[(٩)]. كذلك عقب احتفالات المولد النبوى الشريف أو ليالى

(1) Canard, *le cérémonial fatimite*, p. 385.

(2) Chatelain, E., *Lexique Latin-Français*, S.D., p. 385.

(3) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٤٩، ٤٧٣، القلقشندى صبح الأعشى، جـ٣، ص ٥٠٥.

(4) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٧٦ وما بعدها ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٤٤.

(5) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٠١ ؛

(6) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٧٠.

(7) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٤٤.

(8) المقريزى، الخطط جـ١، ص ٤٧٧-٤٧٨ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٥١٩.

(9) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٥٤، ٤٧٤.

الوقود[١]، كان الموكب يخرج بقيادة كبير القضاة ومن معه، ثم يترجلون على القرب من "المنظرة" ويجتمعون تحتها وهم متشوقون لانتظار ظهور الخليفة، فيفتح إحدى طاقات "المنظرة" فيظهر منها وجهه، ثم يخرج إحدى الاستاذين المحنكين يده ويشير بكمه بأن الخليفة يرد عليكم السلام، ويقرأ القراء ويخطب الخطباء كما تقدم في "ليالي الوقود"، فإذا انتهت خطابة الخطباء، أخرج الأستاذ يده مشيراً برد السلام – كما تقدم – ثم تغلق الطاقتان وينصرف الناس إلى بيوتهم ؛ وكذلك شأنهم في مولد "على بن أبى طالب كرم الله وجهه"[٢].

واحترام الخليفة عادة يتطلب التزام الصمت التام والهدوء، فعندما يظهر بكل شاراته – يكون ذلك في ظل صمت تام – يخرج من القصر، ويمتطى صهوة جواده[٣]. ولم تحدث إلا مرة واحدة أن امتطى جواده وانطلقت أصوات الأبواق التى تصاحبه آداب مقرئى القرآن يرتلون القرآن الكريم[٤]. فكل هذه المراسم تهدف إلى إبراز جلالة الخليفة.

وهناك شكل آخر من التكريم يؤدى للخليفة ألا وهو التبخير. ففي ركوبه في المواكب العظام، وهى ستة مواكب[٥]. كان ثلاثة من حاملى المباخر يقفون على يمين الخليفة، وثلاثة على يساره ومعهم مباخر من الفضة، يرتدون جميعهم حزام في الوسط – اي يتوسطهم حزام – وفحم في أكمامهم لكى ينشطوا عملية التبخير اي يضعون من حين لآخر البخور والفحم والوقود. بينما كان أحد كبار موظفي الخزانة العامة يقف بينهم حاملاً صندوق يحوى البخور الذى يضعه بنفسه في المباخر[٦]. كذلك كانوا يبخرون المكان الذى كان يقف فيه الخليفة على محراب المسجد أيام جمع رمضان أو الخطبة في الهواء الطلق – اي في الخلاء – وذلك في عيد الفطر المبارك[٧].

---

(1) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٢٠٢، ٢٠٣، ٢١٧ ؛ ابن المأمون نصوص من أخبار مصر، ص ٦٢، ٩٣.

(2) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٢١٧ ؛ ابن المأمون، نصوص من أخبار مصر، ص ٦٢، ٩٣ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٣٣، ٤٦٧ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٥٠١، ٥٠٣.

(3) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٧٣.

(4) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٤٩، ٤٥٣.

(5) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٤٧.

(6) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٢١.

(7) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ١٧٢ ؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٨١ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٥٠٩.

مما تقدم ذكره هناك تشابه كبير مع ما يحدث في البلاط البيزنطي. فالتحية كانت على شكل سجود وانبطاح، فهذا معروف جيداً إذ نجد ذلك في كل المراسم والاحتفالات الرسمية، وكانت تتم أحياناً على ثلاث أو أربع مراحل، ونعلم جيداً أيضاً اختلاف الأحوال، إذ كان كبار الموظفين وكبار المسئولين والأساقفة يقومون بتقبيل الأيدى والأرجل أو ركب الإمبراطور[١]. كذلك نجد في بيزنطة أيضاً أن كبار الموظفين كانوا ينسحبون إلى الخلف بوجوههم وليس بظهورهم، وذلك بعد تقبيل أرجل وركب الإمبراطور[٢]. وكما هو حال الخليفة الفاطمى، كان الإمبراطور البيزنطي عندما يحيى، لا يحيى بعلامة من رأسه[٣].

ومن الملاحظ أن التحية التى كان يقوم بها الخصى – اي الطواشى – عن طريق كمه نيابة عن الخليفة ليس لها مثيلها الدقيق المطابق في بيزنطة ؛ لكن مما لاشك فيه يبدو أن البريبوزيتوس في بيزنطة كان ينقل أمر الإمبراطور بعلامة من يده المغطاة بالخلاميد Chlamyde[٤]، وأن رئيس المراسم كان يغطى يديه لكى يتوجه إلى الإمبراطور، وذلك عند نزول الإمبراطور البيزنطي درج السلم. لا شك أن هذا مظهر من مظاهر الاحترام والتبجيل لشخص الإمبراطور المقدس، والذى كان ينبغى عدم الاقتراب منه واليدين عاريتين وغير طاهرتين[٥].

وعلى هذا يمكننا أن نقارن حركة الخليفة حين يقوم بالتحية بكمه، بتحية الإمبراطور البيزنطي حين يبارك الشعب البيزنطي بذيل ملابسه، بينما رئيس المراسم يقوم بالانحناء له[٦].

أما بصدد التزام الصمت والسكون في حضرة الإمبراطور البيزنطي، فكانت له طقوسه الخاصة والأكثر تعقيداً عن ما وجد في بلاط الخلافة الفاطمية، حيث نجد فيها شخصاً ما مسئولاً عن الحفاظ على الصمت والسكون.

---

(1) Canard, *Le Cérémonial Fatimite*, p. 385.

(2) Canard, *Le Cérémonial Fatimite*, p. 385 – 386.

(3) Cananrd, *Le Cérémonial Fatimite*; p. 385.

(4) Henry, M., *Byzantine Court Culture from 829 to 1204*, Harvard University press, 1997 p. 42. والـ Chlamyde نوع من الدثار اي غطاء من القماش، انظر: Canard, *Le Cérémonial Fatimite*, p. 385.

(5) Cananrd, *Le Cérémonial Fatimite* p. 385.

(6) Canard, *Le cérémonial fatimite*, p. 386.

وفيما يتعلق بالاستخدام الشرفي لتبخير الإمبراطور البيزنطي، فقد كان متبعاً في بيزنطة في مناسبات عديدة منها : عندما يأخذ الإمبراطور مكانه على العرش في حجرة الخريسوتريكلينوس Chrysotriclinos[١] في الاحتفال باختيار البطريق[٢] الذى يتم تعيينه وسط مظاهر احتفالية دقيقة، لا تختلف عن تعيين الوزير، وكانت تنتهى هذه الاحتفالات بتسليم المرشح لرتبة البطريق الوشاح. وكان الإمبراطور البيزنطي محاطاً بكل ضباط الغرفة (غرفة البلاط الإمبراطورى) وكان يبخر ثلاث مرات بواسطة المانصوراتور[٣] Mensurator أو بابياس Papias القصر العظيم أو القصر الكبير، كذلك كان الحال عشية ترقية نواب القناصل Proconsuls. كان الإمبراطور يتم تبخيره من قبل البطريرك في البئر المقدس Puits Sacre لكنيسة القديسة صوفياوذلك عند قدومه إلى الكنيسة[٤] في أسبوع الآلام – اي في أسبوع عيد

---

(1) انظر: Guilland, *Les eunuques* , p. 126.

Chrysotriclinos خريسوتريكلينوس هى قاعة قصر الإمبراطور، وكان المسئول عنها يسمى Préposé Chrysotriclinium أي البريبوزيتوس المكلف بقاعة الإمبراطور. في أول الأمر، كانت وظيفته ذات مكانة هامة. إلا أنه في القرن العاشر الميلادى، تحولت وظيفته إلى وظيفة تشريفية. أنظر:

Bréhier, *Institution,* p. 134.

(2) فايز نجيب اسكندر، الفتوحات الإسلامية لأرمينية (١١-٤٠هـ / ٦٣٢-٦٦١م)، الاسكندرية ١٩٨٣م، ص ٣٩، وانظر أيضا:

Bréhier, *Le monde byantin* ,pp. 102-103; Bury, *Administrative System* ,pp. 20-36.

(3) المانصوراتور Mensurator هو الشخص المكلف بفتح أبواب القصر الكبرى لضمان أمن وأمان الإمبراطور البيزنطي أنظر: Bréhier, *Le monde byantin,* p. 355.

(4) ورثت هذه الكنيسة اسمها من كنيستين سبقاها إلى الوجود في نفس الموقع بنفس الاسم (صوفيا المقدسة) تهدمت أولاها واحترقت ثانيتهما في عام ٥٣٢ خلال ثورة الشعب المسماه "نيقا" أى النصر. وكان هذا الحريق هو السبب المباشر لاضطلاع جوشنيان بإنشاء الكنيسة الحالية الذي استغرق خمسة أعوام وعشر شهور افتتحت بعدها في احتفال مهيب، وقام بتصميمها وبتنفيذها المهندسان أنثميوس من ترال وإيزودوروس من ملطية إلى أن تحولت إلى مسجد بعد الفتح العثمانى وغدت أهم مساجد استنبول. لمزيد من التفاصيل انظر، ثروت عكاشة، الفن البيزنطي، موسوعة تاريخ الفن، العين تسمع والأذن ترى، ط١، القاهرة ١٩٩٣م، ص ١١١ وما بعدها. تحدث روبرت كلارى عن كاتدرائية آيا صوفيا، بقوله: "سانت صوفيا يقصد بها في اليونانية الثالوث المقدس". روبرت كلارى، فتح القسطنطينية، ص ١٢٧. وهنا يخطئ روبرت كلارى في هذا التفسير لأن الاسم يتكون من كلمتين يونانيتين الأولى هجيا وينطقها البعض آيا إنما تعنى المقدسة في حالة وقوعها صفة، "والقديسة" في حالة وقوعها اسماً، أما صوفيا فتعنى الحكمة، ومن ثم فتعرف الكنيسة باسم كنيسة الحكمة المقدسة، ويطلق عليها البعض مجازاً اسم كنيسة [redacted] منصور، القسطنطينية في الكتابات الصليبية، ص ٢٨٠.

الفصح اي عيد القيامة المجيد[1] – فقد احتلت الأعياد الدينية المكانة الأولى في نفوس كل فئـات الشعب البيزنطي، وكانت كنيسة آيا صوفيا المركز الرئيسى الذى يعج بكـل المظـاهر الدينيـة الرسمية في الأعياد لسكان القسطنطينية، بل وفي مناسبات الاحتفالات المدنية الأخرى[2].

ولاحتفال عيد القيامة[3] أهمية كبيرة بين سائر الاحتفالات الدينية في القسطنطينية شـأنه شأن الاحتفال بعيد الميلاد المجيد. ذلك أن يوم هذا العيد من المناسبات التى يحرص فيهـا علـى إتمام حفلات الزواج[4] بعد انقطاع في الفترة السابقة للعيد الكبير بسبب الصيام.

وكان من أبرز مظاهر الاحتفال بهذا العيد، ظهور الإمبراطور بين حرسه، وهو علـى جواده في موكب ضخم يشق طريقه إلى الكنيسة العظمى. ويبدو أن الإمبراطور نقفـور فوقـاس Nicephore Phocas (٩٦٣ – ٩٦٩م / ٣٥٢ – ٣٥٩هـ) كان يحرص في هذا العيـد علـى تدشين بعض الكنائس الجديدة التى تقع خارج أسوار العاصمة بعد خروجه مباشرة من كنيسة آيـا صوفيا. وقد تصادف وجود ليو الشماس [5] Leo the Deacon الذى شده هذا المنظـر فكتـب يقول : "لقد كنت أنظر بنفسى وأنا أسجل في كتابى الآن وكنت عندئذ فتى صغيراً، وقد شـاهدت بعينى موكب الإمبراطور نقفور فوقاس، يوم عيد القيامة، وهو على صهوة جواده يتقـدم عبـر المدينة وقد تملكنى خوف شديد ورحت أتعجب من هذا الرجل، وكانت السكينة تعلو وجهه، وهـو

---

(1) Canard, *Le cérémonial fatimite*, p. 386.

(2) نجلاء مصطفى، مدينة القسطنطينية، ص ٩٨.

(3) يمثل هذا العيد ذكرى اليوم الذي خرج فيه المسيح من القبر، وكان يلى هذا العيد بثمانية وثلاثين يوماً عيد يعـرف باسم عيد السلاق، وهو اليوم الذي صعد فيه المسيح إلى السماء. انظر المقريزى، الخطـط، جـ٢، ص ٥١ . أنظر أيضا :؛ نجلاء مصطفي، مدينة القسطنطينية، ص ١٠١.

(4) نجلاء شيحة، مدينة القسطنطينية، ص ١٠٢.

(5) هو "ليو الشماس" Leo The Deacon الذي اشتهر في أخريات القرن العاشر الميلادى، ولد حوالى سـنة ٩٥٠م في كالوى Kaloi، وعندما أصبح شماسا انضم إلى رجال القصر الدينيين يوم اعتلـى باسـيل الثـانى (٩٧٦-١٠٢٥م) العرش وامتدحه بقصيدة عصماء، كما رافقه في حملته البلغارية التي قام بها سنة ٩٨٦م. ولعل أعظـم ما اشتهر به هو تاريخه الكبير المتعلق بالفترة من ٥٩ إلى ٩٧٦م ويقع في عشرة أجزاء، ويمتاز بلغته اليونانيـة الراقية، وكان شاهد عيان لمعظم الأحداث التي ذكرها، كما أن رواياته تفصل كثيراً من جوانب حياة سلفي باسيل الثانى، نقفور الثانى فوقاس (٩٦٣-٩٦٩م) وما كان بينهما وبين العرب من حروب ومعارك في كريـت وآسـيا الصغرى، وكذلك حروب باسيل الثانى ضد البلغار والروس. انظر: دونالد نيكول معجـم التـراجم البيزنطيـة، ترجمة حسن حبشى، القاهرة ٢٠٠٣م، ص ٢٥٨-٢٥٩.

يتقدم في موكبه إلى بيجاي[1] Pegai خارج الأسوار حيث بنيت هناك كنيسة رائعة الجمال لمريم العذراء"[2].

أما عن وصف موكب الإمبراطور البيزنطي عندما كان يخرج إلى كنيسة آيا صوفيا، الواقعة في قلب العاصمة، فكان "... يأمر بأن يفرش له طريقه من باب القصر إلى الكنيسة التى للعامة في وسط المدينة حصر ويطرح فوقها رياحين وخضرة ويزين الحائط يمنة ويسرة من ممره بالديباج، ثم يخرج بين يديه عشرة آلاف شيخ عليهم ديباج أحمر مسبلة شعورهم إلى أكتافهم، ليس عليهم برانس، ثم يجئ خلفهم عشرة آلاف شاب عليهم ديباج أبيض مشاة كلهم، ثم يجئ عشرة آلاف غلام عليهم ديباج أخضر، ثم يجئ بعدهم خمسة آلاف خصى أواسط، عليهم ملحم خراسانى أبيض بأيديهم صلبان ذهب، ثم يجئ بعدهم عشرة آلاف غلام أتراك وخزر عليهم صدر مسيرة، بأيديهم رماح وأترسة ملبسة كلها ذهباً، ثم يجئ مائة بطريق من الكبار عليهم ثياب الديباج الملون، بأيديهم مجامر من ذهب ويبخرون بالعود القمارى[3].

وهكذا استقبلت جموع الشعب الإمبراطور نقفور فوقاس عند البوابة الذهبية حاملين آنذاك الشموع والمباخر. وفي يوم الاحتفال بعيد صعود المسيح إلى السموات - كما يعتقد المسيحيون - كان الإمبراطور يتوجه من الباب الذهبى إلى باب المنبع[4] Porte de la Source حيث يستقبله دمستق النوميرا[5] Domestikos Ton Noumeron الذى يحمل الثيمياتوس[1]

---

(1) ضاحية تقع على الشاطئ الجنوبى لبحر مرمرة، وقد استولى عليها الصليبيون فيما بعد سنة ١٢٠٤م أثناء الغزو الصليبى للقسطنطينية. للتفاصيل انظر:
Kazhdan, A.P., *The Oxford Dictionary of Byzantium*, Oxford, 1991, Vol. III, p.1615.

(2) نجلاء شيحة، مدينة القسطنطينية، ص ١٠٢.

(3) لمزيد من التفاصيل انظر: ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ص ١٣٣ وما بعدها، انظر أيضاً: طارق منصور، هارون بن يحيى، ص ٥٠.

(4) Canard, *Le Cérémonial Fatimite*, pp. 386-387.

(5) النوميرا فرقة عسكرية تكونت من المشاة، وكانت من الفرق القائمة بالعاصمة باستمرار، وقد استمدت اسمها من المكان الذى تعسكر به على يمين مدخل القسر الكبير (شالكيه)، وكان يقودها فى بداية الأمر قومس، ومع منتصف القرن التاسع أصبح قائدها دومستقا، وصارت لهذه الوظيفة أهمية بالغة خاصة وأن صاحبها اضطلع بحراسة القصر الكبير والدفاع عنه، كما أدار سجن النوميرا واضطلع ببعض مهام الشرطة. طارق منصور، الجيش، ص٣٠٨-٣١٢
Brehier, *Le monde byantin*, p. 113; Kazhdan , A., 'Domestikos Ton Noumeron' , *The Oxford Dictionary of Byzantium* , I, p.647 ; Bury , *Administrative System* , pp.65-66.

Thymiatos(الشمعة) وتجدر الإشارة إلى استخدام المسلمين العطور في المساجد، فيقال إن الرسول (ﷺ) كان يأمر بإطلاق البخور في المسجد، وأن عمر بن الخطاب حذا حذوه في ذلك وتبعهما معاوية، وأن المعتصم أراد أن يدفن بالشموع والبخور كالنصارى، وأن الفاطميين كانوا يطلقون في المساجد كميات وافرة من البخور، ولكن هذه الحالات ليست لها كبير علاقة بالطقوس الدينية وإنما ترجع إلى ما عرف عن الرسول (ﷺ) والعرب من حب الطيب والبخور. وكانت المباخر تصنع على شكل طيور، وقد ذاع استخدام المباخر في البلاد الإسلامية، ولكن المسلمين لم يتخذوها لاي طقس من طقوس العبادة، بينما تجدها أداة لازمة في جل طقوس العبادة والزواج والدفن في الكنيسة المسيحية منذ عهد بعيد إلى يومنا هذا[٢].

شارات السيادة

كانت الشارات الإمبراطورية في مراسم الإمبراطورية البيزنطية حسب ترتيب أهميتها بالنسبة للثياب هى :

الأحذية "كامباجيا Campagia" والـ "لورس Lôros" وهو "إيشارب" مطرز بالذهب ومزين بأحجار كريمة ثمينة والـ "ثوراكيون"[٣] Thorakion وهو شعار الشرف المطرز بالذهب الذى يحمله الإمبراطور مع الإيشارب. ثم يأتى بعد ذلك "التاج" بمختلف أشكاله. وكان الإمبراطور يحمل أيضاً في يده صليب من الذهب، وهذا الصليب كان قد حل محل الصولجان. ثم كانت الـ "أكاكيا Akakia" وكانت عبارة عن كيس من الحرير مملوء بالتراب وله قيمة رمزية ليس إلا[٤]. وهناك أدوات أخرى ضمن شعارات وشارات السيادة، كانت تحمل أمام أو خلف الإمبراطور البيزنطي سواء في احتفالات الانتصارات أو في الاحتفالات الدينية منها الرمح والترس الذى يحملهما الاسباثيرات[٥] Spatharioi في الإمبراطورية[٦].

---

(1) Canard, *Le Cérémonial Fatimite*, p. 387.

(2) زكى حسن، كنوز الفاطميين، ص ٢٣٨ – ٢٣٩ .

(3) انظر أيضاً: Canard, *Le cérémonial fatimite*, p. 387.
Henry, *Byzantine Court Culture*, pp. 44-45.

(4) Canard, *Le cérémonial fatimite*, p. 387.

(5) كان عادة يحمل السيف، وتطورت وظيفته فيما بعد، للتفاصيل انظر:
Brehier, *Le monde byantin*, pp. 118 , 133.

(6) Canard, *Le cérémonial fatimite*, p. 387.

وهناك أيضاً الأعلام والشارات المختلفة، وكان بعضه مطرز وعليه صور مختلفة ؛ على سبيل المثال صور الانتصار أو صور الإمبراطور وهو يمتطى صهوة جواده أو صور بعض القديسين العسكريين اي القديسين الذين استشهدوا في المعارك الحربية، أو صور التنين، بالإضافة إلى وجود شارات أخرى مثل الصليب الكبير أو عصا سيدنا موسى(١).

وإذا عقدنا مقارنة بين شارات الإمبراطور البيزنطي مع شارات الخليفة الفاطمى سيتضح لنا بعض الاتفاق ؛ ولكن سيظهر لنا أيضاً اختلاف عميق بين الدولتين. وطبقاً لفصل خصصه القلقشندى عن ذكر شارات الفاطميين(٢) ذكر أنها : التاج، وقضيب الملك والسيف الخاص والدواة والرمح والدرقة والحافر والمظلة والأعلام المختلفة والمذبتان والسلاح والنقارات والخيام والفساطيط كل هذا أورده القلقشندى تحت عنوان "في الآلات الملوكية المختصة بالمواكب العظام"(٣).

وكانت هذه الشارات تستخدم في المراسم الرسمية اي الاحتفالات الرسمية، أو تحمل في المواكب أو كحال الخيام كانت تحمل في الموضع المقام فيه المراسم والاحتفالات : على سبيل المثال في عيد فتح الخليج(٤). وذكر القلقشندى "التاج" وهو عبارة عن عمامة "منديل"(٥) إسلامية، وكان ينعت عندهم بالتاج الشريف، ويعرف "بشدة الوقار". وهو تاج يركب به الخليفة في المواكب العظام، مرصع بجوهرة عظيمة تعرف باليتيمة (كان الإمبراطور البيزنطي لديه نفس تلك الجوهرة) زنتها سبعة دراهم، وحولها جواهر أخرى دونها. وكان الخليفة الفاطمى يلبس هذا التاج في المواكب العظام مكان العمامة، وكانت المراسم إذا لبس الخليفة هذا التاج شمل الناس السكون التام ولا يسمح لأحد أن يقربه غير الوزير، وذلك بتقبيل الأرض من غير دنو(٦).

---

(1) Canard, *Le cérémonial fatimite*, p. 388.

(2) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٧٢.

(3) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٧٢ ؛ ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٢ .
Sanders, *Court Ceremonial* , pp. 28-151.

(4) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٩٥، ٢٠٣ .

(5) فقد حكى أنه كان للوزير الأفضل بن بدر الجمالى مائة بدلة معلقة على أوتاد من ذهب، على كل بدلة منها منديل من لونها، ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٥٥ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٤٩، ٤٧٣ .

(6) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٥٦ ؛ ابن المأمون نصوص من أخبار مصر، ٤١، ٧٥ ؛ المسبحى، أخبار مصر، ١٤٧ ؛ ناصر خسرو، سفر نامه، ص ٩٦ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٧٣ ؛ انظر أيضاً:
Canard, *Le cérémonial fatimite*, pp. 390-392.

فالتاج الفاطمى كان يشبه نوعاً من قلنسوة الملك عند الفرس الساسان، اي أن التاج الفاطمى كان أكثر تشابهاً بتاج حكام الفرس الساسان هكذا أشار إلى التاج الفارسى قدامى العرب[١]، ولم يختلف عن التاج العباسى الذى تأثر هو بدوره بالساسان إلا في طريقة لف العمامة، وكان هذا التاج مزيناً بزينات مختلفة من الأحجار الكريمة فيه لؤلؤة ضخمة تسمى "اليتيمة" اي التى لا مثيل لها.

أما عن "قضيب الملك" فكان عبارة عن عود طول شبر ونصف، ملبس بالذهب المرصع بالدر والجوهر، فإنه يمسكه الخليفة بيده في المواكب العظام[٢].

كذلك "السيف الخاص" يقال إنه كان من صاعقة وقعت وحصل الظفر بها فعمل منها هذا السيف، وحليته من ذهب مرصعة بالجواهر، وهو في "خريطة" غلاف مخطط بخيوط بالذهب بحيث لا يظهر إلا رأسه، وكان له أمير عظيم القدر يحمله عند ركوب الخليفة في المواكب، فإذا تسلمه أرخيت ذؤابة عمامته للتوقير، وتظل مرخاة ما دام حاملاً له[٣].

و "الدواة" وهى من الذهب وحليتها مصنوعة من المرجان على صلابته ومناعته، وتلف في منديل شرب أبيض، ويحملها شخص من الأستاذين في الموكب أمام الخليفة، وهى دواة ثمينة تعتبر أعجوبة من أعاجيب الزمن. وهى من الذهب وحليتها مرجان وملفوفة في منديل مذهب[٤].

و "الرمح" وهو غاية الجمال يحميه غلاف منظوم باللؤلؤ، وله سنان مختصر بحلية الذهب، وله أمير مختص بحمله[٥].

كذلك "الدرقة"[١] وهى كبيرة مزينة بحلية كوابيج[٢] من ذهب، يقولون إنها درقة حمزة عم الرسول (ص) وعليها غشاء من حرير ؛ ويحملها في الموكب أمير من أكابر الأمراء له

---

(1) ابن هشام، سيرة ابن هشام، ص ٤٢ .

(2) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٦٢، ٢٠٦ – ٢٠٧ ؛ المقريزى، الخطط، جـ٣، ص ٤٧٢، القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٧٢ .

(3) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٥٩، المقريزى، الخطط، جـ١، ٤٤٨ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٧٢ ؛ زكى حسن، كنوز الفاطميين، ص ٥٤ .

(4) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٧٥، ٨٠، ٨٧، ١٦١، ١٦٢ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٧٣ .

(5) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٥٩ ؛ ابن المأمون، أخبار مصر، ص ٥٣ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٤٨ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٧٣ .

عندهم جلالة[3] و "الحافر" وهى قطعة ياقوت أحمر في شكل الهلال زنتها أحد عشر مثقالاً، ليس لها نظير في الدنيا، تخاط خياطة حسنة على خرقة من حرير، وبدائرها قضب زمرد عظيم الشأن، تجعل في وجه فرس الخليفة عند ركوبه في المواكب[4].

و "المظلة" وتحمل على رأس الخليفة عند ركوبه في المواكب وهى ذات شكل جميل، عبارة عن قبة على هيئة خيمة على رأس عمود مرصعة بالأحجار الثمينة ولها عندهم مكانة جليلة لعلوها رأس الخليفة، ويحملها شخص من أكابر الأمراء، وكان لونها مثل الثياب التى يرتديها الخليفة. وهى من شارات الخلافة المهمة، التى قد يكون استعمالها مأخوذاً عن الساسانية أو العباسيين[5].

"الأعلام" وأعلاها اللواءان المعروفان "بلواءي الحمد" وهما رمحان طويلان ملبسان بأنابيب من ذهب إلى حد أسنتهما، وبأعلاهما رايتان من الحرير الأبيض المرقوم بالذهب، ملفوفتان على جسم الرمحين غير منشورتين، يخرجان لخروج المظلة إلى أميرين من حاشية الخليفة معدين لحملهما[6]، دونهما رمحان برؤوسهما أهلة من ذهب، في كل واحد منهما سبع من ديباج أحمر وأصفر، يحملهما فارسان من صبيان الخاص[7] وراءهما رايات ملونة من الحرير

---

(1) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٤٩ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٤٨ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٧٣ .

(2) الكوابج، بمعنى سره اي أن في وسطها حلية أو زخرفة محدبة أو مقعرة . ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٤٨، ١٥٩ ؛ ابن المأمون، نصوص من أخبار مصر، ص ٥٣ .

(3) عن الدرقة انظر المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٤٨ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٧٣ ؛ ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٤٩، ١٥٢، ١٥٩، ١٦٥.

(4) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٥٦ .

(5) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٥٧ ؛ المسبحى، أخبار مصر، ص ٦٢، ٦٤، ٦٦، ٨٠ . وأنظر أيضا: Sanders, *Court Ceremonial* , p. 29.

(6) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٥٨ .

(7) "صبيان الخاص" هم "أولاد الأجناد والأمراء وعبيد الدولة" . كان إذا مات الرجل منهم وله أولاد حملوا إلى حضرة الخلافة ويودعوا في أماكن مخصوصة، ويؤخذ في تعليمهم الفروسية ويقال لهم "صبيان الخاص" . ابن الطوير، نزهة المقلتين ؛ ص ١٥٨ ؛ ابن ميسر، أخبار مصر، ص ١٤٣ ؛ المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ١٩٩ .

كتب عليها "نصر من الله وفتح قريب"[١] وعددها إحدى وعشرون راية، يحملهما واحد وعشرون فارساً من صبيان الخليفة، وحاملها يركب بغلة[٢].

"المذبتان" وهما مذبتان عظيمتان كالنخلتين ملويتان محمولتان بواسطة صقلبيان عند رأس فرس الخليفة في الموكب، وقد كان اتخاذ المذبة معروفاً قبل الفاطميين[٣]، ولكن هؤلاء أول من اتخذوها في مصر، لتكون ضمن آلات الخلافة في الموكب.

"السلاح"[٤] كان الموكب وسيلة لإظهار قوة الدولة، ولذا كان يحصل الاهتمام بإخراج السلاح العديد، لطوائف العسكر التى تشترك في الموكب، فكان يخرج من خزائن الأسلحة ما يحمله صبيان الركاب حول الخليفة من السلاح وهو : الصماصم[٥] وهى مصقولة ومذهبة، وثلاثمائة درقة يحمل ذلك في الموكب ثلاثمائة من عبيد السودان يقال لهم "أرباب السلاح الصغير"[٦]، وستون رمحاً يحملها قوم يقال لهم "السريرية"، ومائة سيف بيد مائة رجل، وعشرة سيوف في خرائط ديباج أحمر وأصفر بشراريب يقال لهم "سيوف الدم"[٧] تكون في أعقاب الموكب برسم ضرب الأعناق إذا أراد الخليفة قتل أحد، وذلك كله خارج عما يخرج من خزانة التجمل برسم الوزير وأكابر الأمراء وأرباب التجمل برسم الوزير وأكابر الأمراء وأرباب الرتب وأزمة العساكر لتجملهم في الموكب[٨].

يمكننا أيضاً أن نستخلص بعض نقاط ومواضع المقارنة فيما يتعلق بالأسلحة؛ فقد اقتصرت على علامات ورموز السيادة في الإمبراطورية البيزنطية مثل الرمح والترس، بينما عند الفاطميين كانت هذه الشارات أكثر تنوعاً وعدداً منها [٩]، وكان يحمل هذه الأسلحة "الصبيان"

---

(1) القرآن الكريم : صورة الصف، الآية ١٣.

(2) المقريزى، الخطط جـ١، ص ٤٤٨ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٧٣-٤٧٤ .

(3) عن السلاح انظر ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٣٣ وما بعدها .

(4) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٤٩ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٧٤. أنظر أيضا : ماجد، نظم الفاطميين، جـ٢، ص ٧٤ .

(5) الصماصم يعنى سيفا مستقيما بالمقابلة بالسيف المحدب انظر ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٤٨ .

(6) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٤٦ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٧٤ .

(7) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٦٥ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٥٠ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٧٤ .

(8) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٦٥ وما بعدها .

(9) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٧٤، ٥٠٧ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ص ٤٤٦-٤٤٧ .

وكانوا من العبيد السود، وكانت هذه الأسلحة تزين بتغليفها بـــالطراز والمزينـــة بالــشراريب[١]، وعلى هذا كانت ثمينة القيمة وفاخرة وليست أسلحة حقيقية.

"النقارات"[٢] كانت تحدث أصواتا هائلة في الموكب، وهي تحمل على عشرين بغــلا[٣]، على كل بغل ثلاث منها، تسير في الموكب إثنتين إثنتين[٤].

"الخيام والفساطيط : كانت تقام يوم فتح الخليج، وكان أعظمها الخاص بالخليفــة، مثــل الخيمة المشهورة "بالقاتول"، والتي سميت بذلك لأن فراشاً سقط من أعلاها فمات، وهي واســعة تشبه القصر المستدير، وتزيد مساحتها على فدانين في التدوير[٥]. لا شك أن شارات الملك سابقة الذكر تدل على عظمة البلاط الفاطمي وقوة الدولة الفاطمية وعظيم شأنها.

وإذا عقدنا مقارنة بين شارات الملك في الدولة الفاطمية والدولة البيزنطية فنلاحظ الآتي:

فيما يتعلق "بالتاج" الفاطمي والذي يمكن مقارنته بالتاج البيزنطي وإثبات وجود تــشابه بينهما، فالتاج الفاطمي لم يكن تاجاً بمعنى الكلمة كما سبق أن ذكرنا كانت ملابس الخليفة تختلف باختلاف المناسبة التي يرتديها فيها، فقد كان كل موكب يتطلب من الخليفة ثياباً جديدة من أفخــر وأنفس ملابسه[٦]، وفي بعض المواكب كان الخليفة يغير هذه الثياب أكثر من مرة، فكان الخليفــة في ركوبه لصلاتي عيد الفطر والأضحى، يلبس ثياباً خاصة بالصلاة، وأخرى للوليمة "الــسماط" التي تعقب الصلاة، كما أنه في يوم فتح الخليج يلبس ثياباً في الذهاب وأخرى في الإياب[٧].

---

(1) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٣٣ وما بعدها ؛ المقريزي، الخطط، جـــ١، ص ٤٤٦ ؛ القلقــشندي، صــبح الأعشى، جــ٣، ص ٥٠٧ .

(2) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٥١، ١٩٥ ؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جــ٣، ص ٤٧٥ .

(3) المقريزي، الخطط، جــ١، ص ٤٤٧ .

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، جــ٣، ص ٤٧٥-٤٧٦ .

(5) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٩٦ ؛ ابن المأمون، نصوص من أخبار مصر، ص ٥٥، ١٠٢ ؛ ابــن ميــسر، المنتقى من أخبار مصر، ص ٨٥-٨٦ ؛ المقريزي، الخطط، جــ١، ص ٤١٩-٤٢٠، ٤٧٠ ؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جــ٢، ص ١٣٨، جــ٣، ص ٤٧١؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، جــ٢، ص ٢٨٧، جــ٣، ص ٧٢، ٧٣ .

(6) المقريزي، الخطط، جــ١، ص ٣٨٨، ٤١٠ .

(7) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ١٤٧، ١٧٦، ١٨٢، ١٩٥ ؛ المقريزي، الخطط، جــ١، ص ٤٧٢ ؛ القلقشندي، صــبح الأعشى، جــ٣، ص ٥٢١ . أنظر أيضا: ماجد، نظم الفاطميين، جــ٢، ص ٥١ .

وقد زودنا المقريزى بتفاصيل خاصة بلباس الخليفة وقت المراسم والاحتفالات يمكن تحديد زيه على النحو التالى :-

"العمامة" وكانت تتكون من ثلاث قطع شاشية طميم[١] ومنديل بعمود مذهب[٢] و "بطانة للمنديل"[٣] وكانت عمامة الخليفة غالية الثمن ويروى ناصر خسرو أن أحد صناع تنيس قد صنع عمامة للخليفة المستنصر بلغت قيمتها أربعة آلاف دينار غير ما تحويه من الجواهر"[٤].

وقد أطلق على عمامة الخليفة "منديل الجوهر"[٥] لكثرة ما تحويه من الجواهر الثمينة، كما كانت تسمى "شدة الوقار" أو "التاج الشريف"[٦]. وكان الخليفة يرتدى هذه العمامة في المواكب العظام ويقوم بشدها وإعدادها موظف كبير من خواص الخليفة من "الأستاذين المحنكين" قد تمرس على هذا العمل، فكان يرصع العمامة. وكان الخليفة يضع على رأسه أحياناً الكلوتة[٧] المرصعة بالجواهر التى كان تلبس بمفردها أو مع العمامة، وتقدر قيمتها بمائة وثلاثين ألف دينار[٨].

أما بالنسبة لزينة التاج – كما سبق أن أشرنا – فكان مزيناً بزينات مختلفة من الأحجار الكريمة فيه لؤلؤة ضخمة تسمى "يتيمه" اي التى لا مثيل لها، وكانت محاطة بجواهر أخرى أصغر، توضع في الحافر، وكان هذا الحافر على شكل حدوة الفرس، لذا أطلق عليه كلمة حافر،

---

(1) "الشاشية" ما يلبس على الرأس من قماش الشاش، وتوضع قبل لف العمامة وقد تلبس على الرأس بدون عمامة، أو ما يدور حول العمامة والطميم من نسيج سميك انظر: ماجد، نظم الفاطميين، جـ٢، ص ٥٢ ؛
Dozy, *Supplément aux Dictionnaires arabes*, I-II, Paris, 1927, p. 240.

(2) المقصود بالمنديل هنا قماش التي تلف حول الرأس، والعمود الذهب آلة توضع عليها العمامة بعد ربطها كعلامة بعد تعميم المنديل .

(3) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤١٠ .

(4) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٣٨ .

(5) أبو صالح الأرمنى، تاريخ أبى صالح المعروف بكتاب كنائس وأديرة مصر، طبعة اكسفورد، ١٨٩٥م، ص ٣٢ .

(6) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٦٨ .

(7) كلوتة وجمعها كلوتات، غطاء للرأس، طاقية صغيرة تلبس وحدها أو بعمامة، انظر ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٧، ص ٣٣٠ ؛ سعيد عاشور، العصر المماليكى، ص ٤٦٦ ؛
Dozy, *Supplément aux dictionnaires*, I, p. 589; II, p. 49I; *Dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les arabes*, Amesterdam, pp 184. 387-388.

(8) ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ٨٤

وكان محاطاً بقضبان الزمرد، أما طرفه فكان مثبتاً على قطعة من الحرير محاكة خفيفاً لكنها مثبتة بقوة على العمامة[١].

وعن "الحافر" أشار القلقشندى أنه عبارة عن قطعة ياقوت حمراء على شكل هلال، زنتها أحد عشر مثقالا، ليس لها نظير في الدنيا، تخاط خياطة حسنة على خرقة من الحرير، وبدائرها قضيب زمرد، تكون في وجه فرس الخليفة عند ركوبه في الموكب[٢].

وعلى هذا يمكننا مقارنة هذا "الحافر" مع هلال الزينة الذى كان على شكل نصف دائرة والذى كنا نراه في التيجان البيزنطية. كذلك يمكننا أيضاً تشبيه التاج الفاطمى بـ الطوفا Toufa البيزنطية[٣].

على أية حال، كان التاج الفاطمى قطعة اللباس الوحيدة التى هى جزء من شارات السيادة التى أشار إليها القلقشندى في الاحتفالات. ومما لا شك فيه أنه يوجد وجه للمقارنات بين لباس المراسم الرسمية في الإمبراطورية البيزنطية أم لباس المراسم فى البلاط الفاطمى، سواء فيما يتعلق بلباس الإمبراطور البيزنطي والخليفة الفاطمى أو لباس كبار رجال الدولة وكبار موظفيها، علماً بأننا يجب أن نضع في اعتبارنا الاختلاف القائم بين اللباس الشرقى والغربى.

الاحتفالات

كان من أهم ما يميز البلاط الفاطمى حفلاته البازخة، بحيث جعل لها مؤرخو مصر الإسلامية مكاناً بارزاً بين النظم الفاطمية الأخرى ؛ فكانت هذه الحفلات تتألف من "رسوم" تتبع بدقة في الأعياد الرسمية التى يشترك فيها الخليفة وخاصته، ورجال الدولة، في أيام مشهودة أثناء العام[٤]. ومن الواضح أن مثل هذه الحفلات والمراسم كانت معروفة في الإمبراطورية البيزنطية

---

(1) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٥٥ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٤٨، ٤٧٣ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٧٣، ٥٠٥ .

(2) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٥٦ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٧٣ .

(3) Canard, *Le cérémonial fatimite*, p. 392.

(4) ماجد، نظم الفاطميين، ص ٣٩ . انظر أيضاً: عبد المنعم سلطان، المجتمع المصرى في العصر الفاطمى، دراسة تاريخية وثائقية، دار المعارف، ١٩٨٥م .

فكتاب المراسم والاحتفالات لقسطنطين السابع بورفيروجنتيوس، سجل للحفلات البيزنطية الدينية، فحفلات البلاط الفاطمي ورسومه كانت اقتباسا من حضارات ليست فقط معاصرة، وإنما أيضاً قديمة ترجع إلى أقدم العصور، فقد كان الفاطميون يحتفلون بأعياد مصرية خالصة، مأخوذة من التقاليد المصرية القديمة في موسم فيضان النيل(١).

لقد تمتعت الدولة الفاطمية بثراء عريض لم تعرفه الدول الاسلامية المعاصرة لها، انعكس هذا الثراء إلى بذخ وإسراف في مظاهر احتفالها بالأعياد والمواسم التى أبدعوا في تنظيمها وأنفقوا عليها دون حساب، حتى يخيل لمن يقرأ تفاصيل الاحتفال بالأعياد والمواسم والمناسبات المختلفة في ذلك العصر، أن أيام الدولة كانت كلها أعياداً وأعراساً(٢)، فلم يترك الفاطميون مناسبة دينية أو مذهبية خاصة أو عامة إلا وأطلقوا فيها العنان لبذخهم وتأنقهم معتمدين على ثراء دولتهم، وكأنهم أرادوا أن يظهروا لأعدائهم مدى ما هم عليه من ثراء وقوة فلا تحدثهم أنفسهم بالتجرؤ عليهم ؛ أو كأنهم أرادوا أن يلهوا رعيهم من أهل السنة عن أمور السياسة وما يقال من الطعن في نسبهم وأحقيتهم في الخلافة، فأكثروا من الاحتفالات التى كانت تنثر فيها الأموال على العامة، وتقام فيها الموائد الضخمة، والمواكب المهيبة التى تجذب إليها الأنظار والقلوب(٣).

وقد تعددت الأعياد أبان العصر الفاطمى، وانقسمت إلى أعياد عامة يشترك فيها الخليفة، وأرباب الدولة ورجال الجيش، وتشتمل على ركوب الخليفة في المواكب الرسمية، وجلوسه في القصر للاستقبال في مناسبات معينة، وكان يتبع فيها رسوم دقيقة، وهناك أعياد خاصة ذات صبغة مذهبية أو أعياد قبطية شعبية، يشارك فيها الخليفة وبلاطه بحسب رسوم معروفة، ويبتهج بها الشعب(٤).

---

(1) ماجد، نظم الفاطميين، جـ٢، ص ٤٢ .

(2) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٩٥، ٤٩٦ . أنظر أيضا: ماجد، نظم الفاطميين، جـ٢، ص ٣٩، ٤٤ ؛ عبد المنعم سلطان، المجتمع المصرى في العصر الفاطمى، ص ١٢٥ .

(3) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٨٤ وما بعدها . أنظر أيضا : عبد المنعم سلطان، المجتمع المصرى في العصر الفاطمى، ص ١٢٥ .

(4) ماجد، نظم الفاطميين، جـ٢، ص ٤٤ – ٤٥ .

وتتمثل الأعياد العامة في ركوب الخليفة[1] وهى ستة ركوبات، ركـــوب أول العـــام[2]، وركوب أول شهر رمضان[3]، وركوب أيام الجمع الثلاث[4] من شهر رمضان، وركوب صــــلاة عيدى الفطر والأضحى[5]، وركوب تخليق المقياس[6] ثم ركوب فتح الخليج[7]. وهنـــاك مواكــب مختصرة وهى أقل درجة من المواكب العظام سواء في تكوين الموكب، أو في بذخ الملابس، أو في الآلات الملوكية[8].

وهناك ما أطلق عليه أيضاً جلوس الخليفة الفاطمى، ففيها يجلــس الخليفــة للاســتقبال الرسمى، ولا يخرج في موكب، وهو سبعة جلوسات كبرى، كلها مطبوعة بالبذخ والأبهة وهى :

- الجلوس الأسبوعى[9].
- جلوس عرض الخيل[10].
- جلوس ليالى الوقود[11].

---

(1) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٤٥ – ٤٩٠ .

(2) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٤٧ وما بعدها، ابن المأمون، نصوص من أخبار مصر، ٥٨-٥٩ ؛ المقريــزى اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٢٥ .

(3) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٧١ ؛ ابن المأمون، نصوص من أخبار مـصر، ص ٥٤، ٨١ ؛ المـسبحى، الجزء الأربعون من أخبار مصر، ص ٦١ .

(4) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٧٢ ؛ المسبحى، الجزء الأربعون من أخبــار مــصر، ٦٢ ؛ ابــن المــأمون، نصوص من أخبار مصر، ص ٥٤، ٨١ .

(5) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٧٦، ١٨٢ وما بعدها ؛ ابن ميسر، المختصر من أخبــار مــصر، ص ١٥٩-١٦٠ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٥١ ؛ اتعاظ الحنفا، جـ١، ص ١٣٧-١٣٨ ؛ ابن المأمون، نــصوص من أخبار مصر، ٨٤ – ٨٥ .

(6) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٨٩ ؛ المسبحى، الجزء الأربعون من أخبار مصر، ٣٧ وما بعدها .

(7) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٩٥ وما بعدها ؛ المسبحى، الجزء الأربعون من أخبار مصر، ص ١٠-١١

(8) ماجد، نظم الفاطميين، جـ٢، ص ١١٠ .

(9) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٨٦ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٩٩ .

(10) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٥٣، ١٥٥ ؛ المقريزى، الخطــط، جـــ١، ص ٤٤٧ ؛ القلقــشندى، صــبح الأعشى، جـ٣، ص ٥٠٥ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٢، ص ٤٥٦-٤٥٧ .

(11) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٢٢٠، ٢٢٢ ؛ المقريزى، الخطــط، جـــ١، ص ٤٦٦ ؛ القلقــشندى، صــبح الأعشى، جـ٣، ص ٥٠١ .

- جلوس مولد النبى[١].
- جلوس موالد الأجداد ومولد الخليفة الحاضر[٢].
- الجلوس لرسل الملوك[٣].
- الجلوس للمظالم[٤].

والجدير بالملاحظة أن المواكب التى أشرنا إليها آنفاً باختصار، لا يمكن مقارنتها مقارنة دقيقة، مع دخول أباطرة بيزنطة ظافرين بعد انتصارهم في المعارك الحربيـــة، تلـــك المراســـم الخاصة التى ورثها البيزنطيون عن الرومان. كذلك لا يمكننا مقارنتها مـــع المواكـــب ومراســـم الإمبراطورية الأخرى والتى كانت تصبغ بصبغة دينية، فقد كان جزء هام من المواكب يتم داخل القصر ذاته، وكان خيل الإمبراطور لا يشكل العنصر الأكثر أهمية، علماً بأن مواكب الفـــاطميين – عدا موكب التبرك بغدير خم[٥] – كل هذه المواكب كان لها طابع الخـــروج خـــارج القـــصر وخارج العاصمة، ويشارك فيها خيول الخليفة وعرض عسكرى.

ومن ناحية أخرى فإن موكب خيول الإمبراطور لم يكن له أبداً طابعاً عسكرياً خـــلاف الحال لدى الخليفة الفاطمى،ورغم هذا الاختلاف فهناك بعض التشابه في بعض المواكب بين خيـــل كل من الإمبراطور البيزنطي والخليفة الفاطمى[٦].

وفيما يتعلق بتنظيم موكب الإمبراطور البيزنطي عقب عودته من الاحتفال بيوم اثنـــين عيد القيامة المجيد الذى له أهمية كبيرة بين سائر الاحتفالات الدينية في القسطنطينية، شأنه شـــأن

---

(1) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٢١٧ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٣٣ ؛ القلقشندى، صـــبح الأعـــشى، جـ٣، ص ٥٠٢ .

(2) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٢١٧ ؛ ابن المأمون، نصوص من أخبار مصر، ص ٦٢ .

(3) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٠٣ ؛ المنجد، كتاب رسل الملوك، ص ١٢٧-١٢٩ .

(4) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٠٢، ٤٠٥، ٤٠٦ .

(5) "خُم" موضع بين مكة والمدينة، به غدير وحوله شجر كثير، كان الرسول (ص) عند عودته من مكة بعـــد حجـــة الوداع في اليوم الثامن عشر من شهر ذى الحجة سنة ١٠هـ قد نزل بهذا الغدير وآخى بينه وبين على بن أبـــى طالب رضى الله عنه . انظر: ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٨٦ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـــ١٣، ص ٢٤١ .

(6) Canard, *Le cérémonial fatimite*, pp. 404-405.

الاحتفال بعيد الميلاد. ذلك أن يوم هذا العيد من المناسبات التى يحرص فيها على إتمام حفلات الزواج(١) كما سبق أن ذكرنا.

ففي صدارة موكب الإمبراطور البيزنطي – اي في رأس الموكب – توجد مجموعة من راكبي الخيل تضم حرس غرفة الإمبراطور والماجسترات(٢) Magistroi. وكان رجال السنلتو يمتطون خيولاً ذات زرد مزركشة وعلى جناح البطارقة كان الاسباثاروكانديدات. والأرجح هم جماعة من كبار الموظفين يمتطون الخيول حاملين القلادة، وبصحبتهم الاسباثيرات Spathaires وكان هؤلاء الاسباثيرات مسلحين بسيوفهم وتروسهم والدستراليا Distralia – أي بلطهم – أما الاسباثاروقبقلار Spatharo-Cubiculaire فقد كانوا يمتطون صهوة جيادهم بالقرب من حراس غرفة الإمبراطور على الجانبين ثم يأتى بعد ذلك مجموعة من الموظفين الملكيين الذين يقومون بالخدمات الشخصية للامبراطور على الأقدام منهم الكانديدات Candidates اي الحرس الذين يرتدون الملابس البيضاء، ومراسلى البريد، والاستراتورات(٣) Stratores اي حاملو السلاح، وحرس الاسكلارية Skoularioi (٤).

---

(1) نجلاء مصطفى، مدينة القسطنطينية، ص ١٠٢ .

(2) "الماجستروس" من الألقاب الرفيعة فى الإمبراطورية البيزنطية، ظهر فى القرن التاسع ن وقد تلقب به عدد من ذوى المنزلة العليا فى القصر بلغ عددهم بداية القرن العاشر اثنى عشر، أحدهم حمل لقب الماجستر الأول *Protomagistros*، وبلغ عددهم وقت سفرة ليوتبراند الكريمونى أربعة وعشرين، غير أن اللقب بدأ يفقد أهميته بمرور الوقت حتى أختفى على الأرجح فى منتصف القرن الثانى عشر.

Kazhdan , A., 'Magistros' , *The Oxford Dictionary of Byzantium* , II, p.1267; Bury , *Administrative System* , pp.29-33.

(3) Canard, *le cérémonial fatimite*, p. 405.

الاستراتورات تعنى حاملى السلاح وأيضا ساسة الخيل، وربما يكون المعنى الأول هو الأكثر ملائمة، خاصة وأن الشق الأول من الكلمة ذو مدلول عسكرى، كما أنهم كانوا ضمن مرافقوا الإمبراطور (حاشيته)، وربما كانوا يمشون فى موكبه، بالاضافة إلى اضطلاعهم بمهام تتعلق بالجياد القائمة فى مرابط الجياد. طارق منصور، الجيش، ص١٦.

(4) Canard, *Le cérémonial fatimite*, p. 505; Brehier, *le monde byantin*, p. 132

واحدة من فرق الحراسة الإمبراطورية والأعلى مقاما، وكان أفرادها فى أول الأمر مكلفين بالحراسة والمراقبة ليلا ونهارا فى القصر الكبير، حيث خصصت لهم قاعة تريكلينوس الأسكولات La Triclinos des Scholes التى تقع بعد ممر مدخل شالكيه، ومن هذه القاعة اشتقت الفرقة اسمها. طارق منصور، الجيش، ٢٧٥-٢٧٧.

وكان الإمبراطور يمتطى صهوة جواده ويحيط به حاملو السلاح من المشاة (اي وهم مترجلون) يحيط به البروتوستراتور Protostrator وقومس الإسطبل Comes Ton Stablon [(١)]، وفي الأمام كان يسير رئيس المراسم والـ السيلانتيرات Silentiaires[(٢)] وهم الأشخاص المكلفون بالحفاظ على التزام الصمت في المواكب ربما، ثم يأتى البروتسباثيرات Protospatharioi من الخصيان يمتطون جياد ذات زرد مزركشة وكان يتبعهم لغثيت دروم Logothetes Tou Dromou[(٣)] ثم يأتى بعد ذلك البروتوسباثيرات الذين ليسوا من الخصيان يمتطون هم أيضاً جياد مزركشة، وبعدهم أيضاً القوبيقولارات Koubikoulares يمتطون الجياد أيضاً وخلفهم درونجاريوس فرقة الفيجلا Droungarios Tes Viglas والمنجلابيتس Manglabites [(٤)] وبقية الخدم الخاص بخدمة الإمبراطور، وأخيراً يأتى توبوتيرتس Topoteretes التاجماتا الإمبراطورية (فرق الحراسة الإمبراطورية الأربع)، والكونتات وكذلك على مسافة ما لحماية مؤخرة الموكب. ثم يأتى في ذيل الموكب تماماً توبوتيرتس الاريثموس Topoteretes Tou Arthimou وكان مكلفاً بمنع حشود الناس من الاختلاط ودخول

---

(1) Canard, *Le cérémonial fatimite*, p. 405.

البروتوستراتور : سائس خيول الإمبراطور الشخصية فى القصر، ويعتبره البعض الرئيس الأكبر لمرابط الخيل الإمبراطورية، وقد ظهرت وظيفته فى منتصف القرن الثامن مع اختصاصات معينة بالإسطبلات الإمبراطورية وأخرى خاصة بالمراسم، وكانت مهمته الأساسية أن يعين الإمبراطور على إمتطاء صهوة جواده، ويقوم بمهمة سادة الخيل مع قومس الإسطبل. طارق منصور، الجيش، ص١٦٦-١٦٧.

Bréhier, *Le monde byantin*, pp. 132, 145; Bury , *Administrative System* , pp.117-118.

أما قومس الإسطبل فيدير مرابط الخيل فى القسطنطينية، وكانت اختصاصاته واسعة، خاصة فى أوقات القتال، حيث كان لزاما عليه أن يمد الجيش بالشعير والدواب . طارق منصور، الجيش، ص١٦٩-١٧١.

Bury , *Administrative System* , pp.113-114.

(2) للتفاصيل عنه أنظر: Bréhier, *Le monde byantin*, p. 132.

(3) كان صديقاً حميماً للامبراطور البيزنطي، وأقرب المقربين إليه، ولا يبتعد عنه على الإطلاق . للتفاصيل، أنظر: Bréhier, *Le monde byantin*, pp. 120, 133, 151.

(4) أفراد طاقم حراسة الإمبراطور المصاحبين له، يتقدمونه فى المراسم والمواكب، ويقومون على تنظيم وتفريق الحشود المتزاحمة أثناء موكب الإمبراطور البيزنطي، وكانوا مسلحين بالسيوف، وبحكم مصاحبتهم الدائمة للإمبراطور فقد كانوا من أكثر المقربين له، وكان قائدهم يلقب بـ Protomanglabitai. انظر:

Bréhier, *Le monde byantin*, p. 134; Kazhdan , A., 'Manglabites', *The Oxford Dictionary of Byzantium* , II,p.1284.

الموكب[1]، وكان فرس الإمبراطور مغطى بسرج ذهبى مرصعة باللؤلؤ والأحجار الكريمة. كذلك كانت سيقان الفرس وأقدامه مزينة بشرائط من الحرير.

وفي وصف آخر لموكب الإمبراطور ألا وهو الموكب المتوجه إلى كنيسة القديسين الرسل Saints-Apôtres نلاحظ بعض الاختلاف الطفيف ؛ فالأباطرة يسبقهم البريبوزيتس Preposites وكل القائمين على خدمة غرفة الإمبراطور، الجميع يمتطى جواده ؛ كذلك كان يأتى أيضاً أمام الإمبراطور كل المنجلابيتس Manglabites وكل الرجال المختصين بخدمة الإمبراطور شخصياً ؛ أما الماجستروسات ونواب القنصل والبطارقة والضباط الأقل مرتبة، والدنجير المكلف بالحراسة الليلية ودنجير الأسطول، فقد كانوا يتبعون الإمبراطور خلف أسلحة العرض الإمبراطورى، اي بمعنى أدق خلف الاسباثيرات Spatharioi المكلفين بحمل هذه الأسلحة وأحياناً يفضل الإمبراطور ركوب البحر في الدرمونة Dromon[2] الإمبراطورية بدلاً من اتخاذ الطريق البرى وذلك لحضور حفل دينى، وكان الإمبراطور يبحر مع القائمين على خدمته الشخصية وهم:

اللغثيت Logothetes، ودرونجاريوس الفيجلا Droungarios Tes Viglas، ورئيس فرقة الهيتارية Hetaireiarches [3]، وبعض الموظفين الآخرين وبقية الموكب، البريبوزيتس

---

(1) Canard, *Le cérémonial fatimite*, p. 404.

التوبوتريتس : ويحمل أيضا لقب اسباثاروكانديدات، وهو بمثابة نائب دومستق التاجماتا الإمبراطورية (فرق الحرس الإمبراطورى الأربع)، وكان يتولى قيادة وحدات التاجما المرابطة فى الأقاليم، وكن نصف التاجمايخضع لأوامره، بينما يخضع النصف الآخر للكارتولاريوس . طارق منصور، الجيش،ص ٢٨٤، ٣٠٠. أما فرقة الأرثيموس فهى إحدى فرق التاجماتا الإمبراطورية، وتعرف أيضا بأسم أكثر شيوعا وهو الفيجلا، وكانت مكلفة بتأمين الإمبراطور وحماية القصر من الخارج، وعمل دوريات ليلية حول القصر، وفى حالة خروج الإمبراطور فى حملة عسكرية كان على درونجاريوس الفرقة وجنوده مصاحبته وملازمته أينما ذهب، وكان الدرونجاريوس مسئولا عن حراسة المعسكر وخيمة الإمبراطور، بالإضافة إلى قيامه بنقل أوامر الإمبراطور إلى القادة. طارق منصور، الجيش، ص٢٩٥-٢٩٨.

(2) للإبحار لمسافات طويلة، شيد الإمبراطور البيزنطي ليون السادس (٢٧٣-٣٠٠هـ / ٨٨٦ - ٩١٢م) سفنا واسعة كبيرة تسمى Dromon، حتى يتمكن من اصطحاب عدد كبير من كبار المسؤلين وسميت بدرمون الإمبراطور . انظر: Brehier, *le monde Byzatin*, p. 411.

(3) للتفاصيل أنظر: Bréhier, *le monde Byzatin*, pp. 411-412, 418, 422.

Preposites والماجسترات Magistroi والقوبيقولارات Koubikoulares، وأيضاً أعضاء مجلس السناتو وغيرهم. كان كل هؤلاء - اي القائمين على خدمة الإمبراطور ينتظرونه في المكان الذى سيبحر منه حتى يستكمل سيره الاحتفالى(١).

ويمكننا هنا عقد بعض المقارنات والتقارب بين كل من الموكب البيزنطي والمواكب الفاطمية. فالمواكب البيزنطية كانت موضع ترتيبات سواء في الليل أو في النهار ذاته، وتذكرنا بما هو معمول به في البلاط الفاطمى بالقاهرة، فملابس الاستعراض والتاج الإمبراطورى وأسلحة الأباطرة وعصا سيدنا موسى عليه السلام، كانت معدة ومجهزة منذ الصباح الباكر للعيد المختص به ؛ أما الملابس، فقد كانت تتنوع في النوع واللون حسب الظروف ؛ فبينما كانت حلل الأبهة والاستعراض غالباً لونها أرجوانى ومطرزة بالذهب، كانت هذه الحلل بيضاء في عيد القيامة المجيد، وفي أسبوع الآلام(٢).

ولقد رأينا تنوعات متشابهة ومتماثلة عند الفاطميين ؛ فكما كان الخليفة الفاطمى يغير لباسه في بعض الأحوال على سبيل المثال عند عودته من الموكب، كان الإمبراطور البيزنطي يغير لباسه خلال الاحتفالات كذلك كانت زينات الشوارع عشية المواكب موضع العناية البالغة. فكوالى القاهرة كان الايبارخيس مكلفاً بتنظيف ضواحى القصر الإمبراطورى الذى سينطلق منه الحكام، وكذلك الميادين المؤدية إليها، وكان يقوم بنشر نشارة الخشب، ويعمل على عرض الأقمشة المتنوعة، ويضع الزهور على الطريق الذى سيعبره حفل عيد القيامة المجيد أو أعياد النصر. ويبدو أنه لم يكن يوجد في الاحتفالات الإمبراطورية جياد تجر بالأيدى، عدا تلك التى

الهيتارية Hetaireia : فرقة حرس شخصى للإمبراطور تضطلع بحماية شخصه، وقد انقسمت إلى ثلاث أو أربع وحدات، وتألفت من المرتزقة الأجانب، خاصة من الخزر والماجيار وربما الروس وأتراك وسط آسيا، وقد حمل قائد هذه الفرقة مسمى Hetaireiarches، ومع نهاية القرن الحادى عشر تغير تكوين هذه الفرقة بحيث غدت تضم شباب من النبلاء البيزنطيين ودمجت وحداتها.

Kazhdan , A., 'Hetaireia', *The Oxford Dictionary of Byzantium* , II,p925.

(1) Canard, *le cérémonial fatimite*, pp. 405-406.

(2) Canard, *le cérémonial fatimite*, p 406.

سيعود عليها الإمبراطور، اي سيستخدمها في طريق عودته، عندما تكون هذه العودة عن طريق الخيل، وهذا ما أشار إليه ابن رسته في وصفه للموكب الإمبراطورى[١].

والجدير بالملاحظة أن جواد الإمبراطور البيزنطي كان أبيض اللون، ومما لا شك فيه أنه كان تذكارا للنصر الرومانى القديم. وهناك أيضاً مركبة بدولابين تجرها أربعة جياد كان القادة الرومان المنتصرون يعودون بها[٢].

أما في بلاط الخلافة الفاطمية بالقاهرة، فلم يرد ذكر أن جواد الخليفة كان أبيض اللون، لكن يمكننا افتراض ذلك، لأن اللون الأبيض كان شعار الفاطميين[٣] ؛ أضف إلى ذلك أن المصادر العربية لم تذكر اي إشارة عن وجود جواد بلون أسود[٤].

أما فيما يتعلق بسير الموكب الإمبراطورى، فنجد اختلافاً قليلاً في تفاصيلها عن سير موكب الخليفة الفاطمى، فلا يوجد في البلاط الفاطمى ما يقابل أو يساوى وظيفة رئيس الاحتفالات أو المراسم والذى كان يصاحبه رجال يعملون على حفظ الصمت في الاحتفالات "السيلانتيرات" Silentiaires وكان هؤلاء أمام الإمبراطور البيزنطي. أما قادة "صبيان الركاب" فلهم مثيل في البلاط الإمبراطورى، إذ يقابلهم البروتوستراتور Protostrator وقومس الاسطبلات. وفيما يتعلق بالمراوح والمظلة وحاملى السيوف، فلا تعرفها بيزنطة. أما شرطة الموكب، فلم تكن على نفس النظام المعمول به في البلاط الفاطمى، فالمجموعات أو الكتائب الثلاث المكلفة بشرطة الموكب تمركزت في ذيل الموكب اي في مؤخرته، وليس على طول الموكب. والأمر هنا يتعلق بالإيبارخ Eparch الذى كان يسبق أحيانا الموكب لكى يحول دون ارتكاب اي خطر متوقع أو مرتقب[٥].

---

(1) ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ص ١٣٣-١٣٤ ؛
Canard, *le cérémonial fatimite*, p. 407.

(2) Canard, *le cérémonial fatimite*, pp. 407-408.

(3) عبد المنعم ماجد، الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه، القاهرة، ١٩٥٩م، ص ٤١ .

(4) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٤٥ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٧٨ .

(5) Canard, *Le cérémonial fatimite*, p. 407.

وقد تواجد خلف الخليفة "صبيان الركاب" والوزير مع حراسه، ويتشابه ذلك في الإمبراطورية البيزنطية مع البروتوسباثيرات Protospathaires واللغثيت[1].

كذلك يمكننا أن نلاحظ أحياناً بعض أوجه التشابه الأخرى. فالاحتفالات في بلاط الخليفة الفاطمى كما في البلاط البيزنطي يعقبها توزيع الصدقات والمنح اي الأعطية والهبات[٢]. ويعقبها أحياناً المأدب والولائم عند الفاطميين[٣] كما هو الحال عند البيزنطيين[٤]. ولقد وصف كل من المقريزى والقلقشندى تفاصيل هذه المأدب والولائم في أعياد الفطر المبارك وعيد الأضحى "النحر" وعيد فتح الخليج وغيرها من الأعياد وصفاً تفصيلياً ودقيقاً[٥].

وتضارع هذه الولائم مع الولائم العامة في بيزنطة في عيد القيامة المجيد وعيد الميلاد المجيد. كذلك كانت الدرمونة الإمبراطورية تشابه "عشارى"[٦] الخليفة الفاطمى لا تستقبل على متنها إلا الحاشية الخاصة بكل من الإمبراطور البيزنطي والخليفة الفاطمى[٧].

الاستقبالات والمراسم:

---

(1) Canard, *Le cérémonial fatimite*, p. 408.

(2) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٦٧-١٦٨ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٤٦، ٤٥٤ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٤٩-٥٠٥ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٤، ص ٧٩ وما بعدها .

(3) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٢١١-٢١٢ ؛ ابن المأمون، نصوص من أخبار مصر، ص ٨٤ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٥٢ .

(4) Canard, *Le cérémonial fatimite*, p. 408.

(5) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ١٧٦-١٧٧، ١٨٢ ؛ ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ١٥٩-١٦٠ ؛ المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ١، ص ١٣٧-١٣٨ .

(6) "عشارى" جمع عشاريات . نوع من السفن كان يستعمل في البحر المتوسط وفي البحر الأحمر والنيل، ويبدو أن المستخدم منه في البحر نوع من القوارب الصغار التي تلتحم بالمراكب الكبيرة وذلك لنقل المسافرين فيها إلى الساحل . والنوع المستخدم في العصر الفاطمى كان خاصاً باستخدام الخلفاء وخاصة عند الاحتفال بوفاء النيل وكسر الخليج . كما أن العشاريات كانت تستخدم مع المراكب الحربية حيث أرسلت في عام ٤١٥هـ لحفظ الحصون الشامية . ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٢٠١ ؛ المسبحى، المنتقى من أخبار مصر، ص ١١، ٢٣، ٤٣ . أنظر أيضا: درويش النخيلى، السفن الإسلامية، ص ٩٥، ١٠١ .

(7) Canard, *Le cérémonial fatimite*, p. 408.

كانت الاستقبالات المنتظمة أو التى تفوق العادة تتم في بيزنطة كما في القاهرة وفقاً لمراسم غاية في الدقة ؛ فقد كان في القاهرة الفاطمية استقبالات تتم مرتين في الأسبوع بقاعة الاستقبالات المسماه "قاعة المجالس" وتسمى "قصر الذهب" أحد قاعات القصر الذى هو قصر المعز[١]. وتتشابه في نقاط عديدة في الاستقبال اليومى في الخريسوتريكلينوس [٢] ففي جلوس الخليفة الفاطمى في المجلس العام أيام المواكب، كان ذلك أول الأمر يتم في الإيوان الكبير[٣] الذى كان بالقصر على سرير الملك الذى كان بصدره إلى آخر أيام المستعلى (٤٨٧هـ/١٠٩٤م)، فلما ولى ابنه الآمر (٤٩٥هـ/١١٠١م) الخلافة بعده، قام بنقل الجلوس من الإيوان الكبير إلى القاعة المعروفة باسم "قاعة الذهب" بالقصر أيضا، وصار يجلس من مجالسها في سرير الملك به، وجعل الإيوان الكبير خزانة للسلاح، ولم يتعرض لإزالة سرير الملك منه حتى مجئ الدولة الأيوبية وهو باق. وكان جلوس الخليفة في هذه الحالة لا يتعدى يومى الإثنين والخميس، وليس ذلك على الدوام بل على التقرير بحسب ما يقتضيه الحال[٤]، فإذا أراد الجلوس فإن كان في الشتاء علق المجلس الذى يجلس فيه بستور الديباج، وفرش البسط الحرير ؛ وإن كان في الصيف، علق بالستور الدبيقية ما بين طبرى وطبرستانى مذهب وهيئة المرتبة المعدة لجلوسه على سرير الملك بصدر المجلس، وغشى السرير بالقرقوبى[٥]، ثم يستدعى الوزير من داره بصاحب الرسالة على حصان رهوان في أسرع حركة على خلاف الحركة المعتادة، فيركب الوزير في هيئة وجماعة بين يديه الأمراء، فإذا وصل إلى باب القصر ترجل الأمراء وهو راكب إلى أول باب من الدهاليز الطوال عند دهليز يعرف بدهليز العمود[٦]، ويمشى بين يديه أكابر الأمراء من مقطع الوزارة بقاعة

---

(1) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٢٠٧ .

(2) اي قاعة قصر الإمبراطور البيزنطي . انظر: Canard, *Le cérémonial fatimite*, p. 409.

(3) المسبحى، الجزء الأربعون من أخبار مصر، ص ٢٤ .

(4) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٢٠٥ – ٢٠٦ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٨٥ ؛ ابن المأمون، نصوص من أخبار مصر، ص ٣٥ .

(5) القرقوبى، نسيج ينسب إلى مدينة قرقوب بالقرب من تستر في خوزستان كانت من أكبر مراكز النسيج في العصر الإسلامى، ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٥٠ .

(6) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٦١، ٢٠٦ .

الذهب، فإذا تهيأ جلوس الخليفة، استدعى الوزير من مقطع الوزارة[1] إلى باب المجلس الذى فيه الخليفة وهو مغلق وعلى باب ستر معلق، فيقف زمام القصر عن يمين باب المجلس وزمام بيت المال على يساره والوزير واقف على باب المجلس وحواليه الأمراء المطوقون[2] وغيرهم وفي خلالهم قراء الحضرة[3]، فيشير صاحب المجلس إلى الأستاذين فيرفع كل منهم جانب الستر فيظهر الخليفة المذكور، ويستفتح القراء بالقرآن الكريم، ويدخل الوزير المجلس، ويسلم بعد دخوله، ثم يقبل يدى الخليفة ورجليه، ويتأخر مقدار ثلاثة أذرع ويقف ساعة زمانية، ثم يخرج له مخدة عن الجانب الأيمن من الخليفة، تشريفاً ويؤمر بالجلوس عليها ويقف الأمراء في أماكنهم المقررة لهم، فصاحب الباب وأسفهسلار العساكر[4] من جانبى الباب يميناً ويساراً ويليهم من خارجه ملاصقاً للعتبة زمام الآمرية والحافظية، وباقى الأمراء على مرتبهم إلى آخر الرواق وهو إفريز عال عن أرض القاعة، ثم أرباب القصب والعماريات[5] يمنة ويسرة كذلك، ثم الأعيان من الأجناد المترشحين للتقدمة، ويقف مستنداً للصدر الذى يقابل باب المجلس نواب الباب والحجاب[6]، فإذا انتظم الأمر على ذلك فأول ماثل للخدمة بالسلام قاضى القضاة والشهود المعروفون بالاستخدام، فيجيز صاحب الباب القاضى دون من معه، فيسلم على الخليفة بأدب الخلافة، بأن يرفع يده اليمنى ويشير بالمسبحة قائلاً بصوت مسموع : "السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته" فيختص بهذا الكلام دون غيره من أهل السلام، ثم يسلم بالأشراف الأقارب

---

(1) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٢٠٨ .

(2) "الأمراء المطوقون" . في زمن الخلفاء الفاطميين كان الأمراء على ثلاثة مراتب: المطوقون وأرباب القضب وأدوان الأمراء، أعلاهم المطوقون وعرفوا بذلك لأنه يخلع عليهم بأطواق الذهب في أعناقهم . ابن المأمون، نصوص من أخبار مصر، ص ٢٥ .

(3) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١١٩ .

(4) قال ابن الطوير: "وصاحبها زمام كل زمام، وإليه أمر الأجناد والتحدث فيهم، وفي خدمته وفي خدمة الباب تقف الحجاب على اختلاف طبقاته"م . ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٢٣ .

(5) انظر: ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٢٥، ١٨٧، ١٦٣، ٢٠٨ ؛ ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص ٩٠ ؛ والعمارية جمع عماريات . الهودج يجلس فيه، ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٤٩ ؛ ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٩٤، ٩٦ .

(6) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٢٠٧-٢٠٨ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٩٥؛ Canard, *Le cérémonial fatimite*, p. 409.

زمامهم وهو من الأستاذين المحنكين، وبالأشراف الطالبين نقيبهم، فتمضى عليهم ساعتان زمنيتان أو ثلاث، ثم يسلم عليه من خلع عليه بقوص أو الشرقية أو الغربية أو الاسكندرية، ويشرفون بتقبيل العتبة، وإذا دعت حاجة الوزير إلى مخاطبة الخليفة في أمر، قام من مكانه وقرب منه منحنياً على سيفه، ويخاطبه مرة أو مرتين أو ثلاثاً، ثم يأمر الحاضرين بالانصراف فينصرفون، حتى يكون آخر من يخرج الوزير بعد تقبيل يد الخليفة ورجله، فإذا خرج إلى الدهليز الذى ترجل فيه، ركب منه إلى داره، وفي خدمته من حضر إلى القصر، ويدخل الخليفة إلى سكنه ومعه خواص الأستاذين، ثم يغلق باب المجلس ويرخى الستر إلى أن يحتاج إلى حضور موكب آخر فيكون الأمر كذلك[١].

وكان نفس الاحتفال، أو ما يشابهه يتم عندما كان الخليفة يجلس في الشباك لعرض دوابه الخاص[٢] وذلك قبل ركوبه أول العام[٣] أو في عيد الفطر، ففي ركوبه أول العام، كان الخليفة يجلس على مرتبة عظيمة. أما الوزير فيقف ويسلم ويخدم بيده إلى الأرض ثلاث مرات، ثم يؤمر بالجلوس على كرسيه فيجلس، ويستفتح القراء بقراءة آيات لائقة بذلك المكان مقدار نصف ساعة، ثم يسلم الأمراء، ويسرع في عرض الخيل والبغال الخاص المقدم ذكرها واحدة واحدة إلى آخرها، فإذا اكتمل عرضها، قرأ القراء ما يناسب ختم ذلك المجلس، ثم يقوم الوزير ويدخل على الخليفة ويقبل يديه ورجليه، ثم ينصرف عنه، فيركب من مكان نزوله، ويخرج الأمراء معه إلى الخارج، فيمضون معه إلى داره ركباناً ومشاة على حسب مراتبهم[٤]. أما في الحالة الثانية، اي في موكب عيد الفطر المبارك فالملاحظ أن المقريزى انفرد بالإشارة نقلاً عن ابن المأمون، أن في هذا الموكب يحضر إضافة إلى الأمراء السفراء والرسل[٥].

---

(1) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٢٠٨-٢٠٩ ؛ ابن المأمون، نصوص من أخبار مصر، ص ١٥ ؛ ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص ٨٨، ٩١، المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٨٦ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٩٩-٥٠٠ .

(2) لا شك أن "عرض الخيل" كان يتم في فناء داخلى للقصر الشرقى الكبير بالقرب من "دهليز باب الملك" حيث كانت توجد "السهدلا" و "الشباك"، يتوصل إليه من باب العيد، ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٥٤ .

(3) ابن المأمون، نصوص من أخبار مصر، ص ٩٧ .

(4) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٤٧-١٤٨ .

(5) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٤٧، ٤٥٢ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٥٠٤-٥٠٥ .

على أية حال ففي الموكبين لم يشر إلى صاحب المجالس، فالأمر لا يتعلق به فالاحتفال لا يتم في قاعة الذهب[١]. والملاحظ أن الطريقة التي يستدعى بها الوزير والتي يستقبل به تجعلنا نقارن بين ذلك وبين البروتوكول المعمول به عند مجئ اللغثيت Logothete عشية الاستقبال اليومي للخريسوتريكلينوس Chrysotriclinos ورفع الستار الإمبراطوري[٢].

يمكن كذلك رفع الستار في البلاط الفاطمي، فالإمبراطور البيزنطي بمجرد استقراره وتربعه على عرش الإمبراطورية، يقوم باستدعاء اللوجوثيت بواسطة البابياسPapias، فيأتي اللغثيت مسرعاً إلى اللوزياكوم Lausiacum[٣]، حيث تقام المنجلابيتس Manglabites، ويصدر أوامره إلى الأدمسيوناليس Admissionalis بالذهاب لإحضار اللوجوثيت إلى مستشارية البلاط الإمبراطوري، ويسمى اسيكريتيا Ascecreteia فيذهب الأدمسيوناليس إليها، ثم يعود ثانية إلى اللوزياكوم Lausiacum مسبوقاً باللوجوثيت اي بصحبته، ثم يتولى البابياس أمر اللوجوثيت ويدخله في خريسوتريكلينوس Chrysotriclinos وبمجرد دخوله، يقوم اللوجوثيت بالانبطاح – اي السجود – داخل الستار، بعد ذلك يتقدم نحو الإمبراطور البيزنطي[٤].

وبالنسبة لاحتفال رفع الستار، فيتم بالطريقة التالية : فعلى سبيل المثال عشية إعداد الاحتفال في الكنيسة الكبرى Grande Église[٥]، في التركلينوس Triclinos ذات التسعة عشر سريراً، فالإمبراطور بمجرد تربعه وجلوسه على عرش الإمبراطورية يدخل ويسجد أمامه كل من الركتير Recteur والبريبوزيتس Preposites والقوبيقلارات Koubikoulares [٦] وبإشارة من

---

(١) ابن المامون، نصوص من أخبار مصر ص ٨٤ .

(2) Canard, *le cérémonial fatimite*, p. 410.

(3) كلف أراخنة اللوزياكوم Archontes de Lausiacum وحدهم بتسلم هدايا الإمبراطور بمناسبة الاحتفال بعيد تتويجه . وكان الرواق الذي كان على الموكب اجتيازه للوصول إلى قاعة القصر الإمبراطوري به مقاعد مخصصة لكبار رجال الإمبراطورية البيزنطية، كل له المكان المخصص له وفق مرتبته . انظر:
Bréhier, *le monde byantin*, pp. 134-135.

(4) Canard, *le cérémonial fatimite*, p. 411.

(5) كلمة فرنسية اي الكنيسة الكبرى اي كنيسة آيا صوفيا .

(6) الكوبيكولير مستشار مكلف بمائدة طعام الإمبراطور ومكان إقامته العائلية انظر:
Bréhier, *le monde byantin*, 57.

الإمبراطور، يعطى البريبوزيت إشارة من ملابسه إلى الأستيار[١] Ostiaire بصلوجانه الذهبى الذى يخرج ليعطى كتباً من الجانب الأيمن قطبان الملوك Catepano des Basilikoi[٢] مع الدمستق Domestikos وضباط الخريسوتريكلينوس ورئيس الاحتفالات والمراسم، والسيلانتيرات Silentiares اي المحافظين على صمت الاحتفال والأدمسيوناليس، وكان الاستيار يأتى إلى داخل الستار أما البريبوزيت، بإشارة جديدة من الإمبراطور، كان يعطى أمراً إلى الأستيار بإشارة من ملابسه، بعد هذا الأمر كان الأستيار يسجد أمام الإمبراطور، ثم يلمس بيده من الخلف الستار الذى كان هو أيضاً يتم رفعه من قبل السيلانتيرات، وذلك لكى يسمحوا بدخول المجموعة الأولى من كبار الموظفين. وكان هؤلاء يسجدون للامبراطور ثم يعودون ثانية إلى أماكنهم. بعد ذلك يتم وضع العرش الإمبراطورى في مكان آخر، في رواق على شكل حرف (تى) T، وسط التريكلينوس Triclinos ؛ وتعاد نفس مراسم رفع الستار وذلك لإدخال مجموعة أخرى من الموظفين. وعلى هذا، فالاحتفال والمراسم هنا أكثر تعقيداً من البلاط الفاطمى، ولا يوجد شئ من التشابه في عملية إدخال كبار الموظفين في مجموعات متتالية عند الفاطميين، فهذا النظام انفرد به البلاط البيزنطي[٣].

والملاحظ أن هناك تشابهاً ملحوظاً بين المراسم الفاطمية والمراسم البيزنطية بصدد استقبال السفراء والأجانب. فعشية الاستقبال في تريكلينوس قصر ماجناورا Magnaura لأرخون الطارون[٤] Taron، فمجرد إدخال كبار الموظفين، أشار البريبوزيت إلى الاستيار ذات الصولجان الذهبى الذى قام بدوره بإدخال الماجستروس وأرخون الطارون فيقدم هذا الأخير،

---

(1) "الأستيار" لقب من ألقاب الطواشى وشعاره عصا ذهبية بمقبض مزين بالأحجار الكريمة يسلمها الإمبراطور عنه انظر: Guilland, *les eunuques*, p. 126.

(2) كاتيبانو البازيليكوس Catepano des Basilikoi هم رجال الباسليوس Basileus اي الإمبراطور البيزنطي، كان لهم طابعاً عسكرياً، وقد انقسموا إلى خمس فرق . انظر:
Bréhier, *le monde byantin*, p. 132.

(3) Canard, *le cérémonial fatimite*, p. 411.

(4) "الأرخون" هو حاكم المقاطعة له سلطة قضائية مطلقة في مقاطعته إذا كان أرخوناً سناتوريا . وأرخون الطارون، أي حاكم اقليم الطارون بنواحي أرمينية. انظر:
Bréhier, *le monde byantin*, p. 228.

وكان قطبان الملوك بذراعه من جانب، ولغثيت الدروم من الجانب الآخر، فانبطح أرضاً تحت أقدام الإمبراطور، ثم اصطحب بواسطة مصاحبيه اي مرافقيه ليكون على مسافة قريبة من العرش الإمبراطورى. بعد ذلك يسأله اللوجوثيت أسئلته التقليدية، ثم يقوم الأرخون بتقديم هداياه، بعد ذلك يسجد ثانية للامبراطور ويخرج(١).

ومع ذلك نرى أحد السفراء يدخل في نفس المكان وبنفس المراسم، لكنه كان يمسك به قطبان الملوك أو قومس الاسطبل Comes Ton Stablon أو البرتوستراتور Protostrator مسبوقاً باللغثيت وبصحبته مترجم. أما السفراء المسلمون، فيتم إدخالهم بنفس الطريقة بواسطة قطبان الملوك أو قومس الاسطبل(٢).

أما عند الفاطميين، فذلك بصفة عامة يقوم به نائب صاحب الباب، فشغله الشاغل العناية بالسفراء منذ قدومهم وطوال فترة إقامتهم، فعليه تقع مسئولية السهر على توفير كل احتياجاتهم، بل أبعد من ذلك عليه مراقبة خطاهم اي التجسس على تصرفاتهم وأعمالهم حفاظاً على أمن الخلافة، كذلك كان يقوم بتوصيل رسائلهم ويقدمهم إلى الوزير وإلى الخليفة، وعند إدخال السفير كان صاحب الباب يمسكه من يده اليمنى والنائب يمسكه من يده اليسرى(٣).

وكان على النائب ألا يقبل الهدايا من السفراء إلا إذا حصل على إذن بذلك. وفي نص أورده المقريزى ذكر عكس ما تقدم، فقد أورد أن الوزير قام بإدخال السفير، وأن الوزير كان على اليسار منه وصاحب الباب على يمينه(٤).

وعلى هذا نستخلص أن طريقة إدخال السفراء ترجع أصولها إلى أصول شرقية، هذا احتمال وارد. أضف إلى ذلك أن الطريقة المتبعة كانت واحدة في كل البلاطين الفاطمى والبيزنطي.

---

(1) Canard, *le cérémonial fatimite,* p. 412.

(2) Canard, *le cérémonial fatimite,* pp. 412 – 413.

(3) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١١٧-١١٨ ؛ المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٣٤٢ ؛ الخطط، جـ١، ص ٤٦١ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٨٨ – ٤٨٩ .

(4) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٠٣ .

كذلك يلاحظ أنه لا يوجد في البلاط الفاطمى حفلات تقليد وترقية وتنصيب على مرتبة كبيرة من الدقة والتفاصيل في المراسم كما هو موجود في البلاط البيزنطي، إذ نجد وصفاً مطولاً لذلك في الجزء الثانى من الكتاب الأول في كتاب المراسم والاحتفالات فعملية التنصيب أو التولية كان يصاحبها دائماً كما هو الحال في الإمبراطورية البيزنطية تسليم الشارات والخلع، ففي عام ٥١٥٨هـ / ١١٢١م خلع على القائد بن فاتك البطائحى المنعوت "بالمأمون" وزير الخليفة الآمر بأحكام الله (٤٩٥هـ/١١٠١م) تلقى أولاً الشارات، ثم طوق ذهب وسيف ذهب، وأمر الخليفة الأستاذين المحنكين بالخروج بين يديه، وبعد مضى ثلاثة أيام تأمر بإحضار السجل، فقبله وسلمه لزمام القصر[١]، وأمر الخليفة الوزير المأمون بالجلوس عن يمينه وقرئ السجل على باب المجلس، وقدمت الدواة للمأمون فعلم في مجلس وتقدمت الأمراء والأجناد، فقبلوا الأرض وشكروا على هذا الإحسان، وأمر الخليفة بإحضار الخلع لحاجب الحجاب وباقى الأمراء هذا عن تنصيب الوزراء في البلاط الفاطمى[٢].

أما عن التنصيب في الإمبراطورية البيزنطية، فالإمبراطور يلقى خطبة موجزه، أما الخليفة الفاطمى فلا يلقى خطبة في مثل هذه الاحتفالات، ولكن التوصيات التى يسد بها الإمبراطور البيزنطي في مناسبة كهذه، يبدو أنها تحوى نفس المضمون الوارد في شهادة التقليد (التنصيب) عند الفاطميين. وقراءة التقليد السابق ذكره بصوت عال يكاد يشبه هذه الخطبة الموجزة[٣].

كذلك يمكن القول إن هناك بعض المقارنات الأخرى، فيمكن عقد مقارنة بين البلاطين فالابتهاجات الشعبية التى تصاحب ركوب الخليفة لفتح الخليج، ألا وهو مشهد المهرجين

---

(1) "زمام القصر" هو المشرف على القصر، وأحد الأستاذين المحنكين . القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٨١ . أنظر أيضا: حسن الباشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، ص ٣١٢ ؛ الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، جـ٢، ص ٥٦٨ وما بعدها .

(2) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٠ ؛ ابن المأمون، نصوص من أخبار مصر، ص ٢٠-٢١ ؛ ابن ميسر المنتقى من أخبار مصر، ص ٨٠ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٤٠-٤٤١ .

(3) Canard, *le cérémonial fatimite*, p. 413.

والبهلوانية أمام الجامع الطولونى[1]. يمكننا مقارنة ذلك بما يحدث في عيد جلى العنب في القسطنطينية[2] كان هذا الاحتفال يأخذ مظاهر رسمية وشعبية. فقد كان الإمبراطور يحرص على حضور الاحتفال بهذه المناسبة في صحبة بطريرك القسطنطينية، حيث كان يجرى الاحتفال في أرض منبسطة في منطقة هيريا Hieria بضواحى العاصمة. وكان ينصب في وسط هذه المنطقة عرش خاص للامبراطور في المروج الخضراء أمام الكروم، وكان يحضر الاحتفال بطبيعة الحال كبار رجال الدولة يتقدمهم الوزراء والبطارقة وأعضاء مجلس السناتو[3].

ويرتدى الإمبراطور في هذه المناسبة زياً خاصاً يتكون من قولوبيون Colobion[4] والوشاح Sagion[5] الموشى بالذهب. ويرتدى البطريرك حُلة القداس وثوب بلا كُمين. وعندما يدخل الجميع إلى عرشة الكروم، التى وضع أمامها منصة من الرخام عليها بعض عناقيد العنب في سلال خاصة. ثم يبدأ البطريرك في إقامة قداس خاص. وبعد أن ينتهى من أدائه، يأخذ عنقوداً صغيراً من العنب، ويقدمه للامبراطور، الذى يقدم له في الوقت نفسه عنقوداً مماثلاً، كما يقدم الإمبراطور كذلك للبطارقة وأعضاء مجلس السناتو ورئيس الاحتفال، عناقيد العنب تحية منه لهم، وسط نغمات الموسيقى التى ينشد عليها المنشدون. وخلال ذلك يتم توزيع العناقيد على ممثلى حزبى الخضر والزرق[6]، ويتبع ذلك منحهم – كل على حدة – هبة مالية قدرها ست

---

(1) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٩٥ وما بعدها ؛ المقريزى، جـ١، ص ٤٧٧ .

(2) Canard, *le cérémonial fatimite*, p. 413.

(3) نجلاء شيحة، مدينة القسطنطينية، ص ١٠٨ .

(4) Canard, *le cérémonial fatimite*, pp. 413-414.

(5) انظر: Henry, *Byzantine Court Culture*, p. 45.

(6) يعتبر الملعب بهجة الشعب في القسطنطينية، وبدونه تصبح الحياة جافة لا غناء فيها . وفي الملعب كانت تقام مباريات في سباق العربات . وكان اللاعبون ينقسمون إلى حزبين، حزب اللون الأزرق وحزب اللون الأخضر . لمزيد من التفاصيل انظر : ابراهيم العدوى، الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٧٩ ؛ ثروت عكاشة، الفن البيزنطي، ص ٣٢-٣٣ .

نوميزمات(١)، يهتف بعدها الحزبان. وأخيراً يصعد كبار رجال الدولة مع البطريرك إلى قصر هييريا الواقع في ضواحى العاصمة البيزنطية، لتناول العشاء الفاخر في صحبة الإمبراطور(٢).

وفي مقابل ذلك هناك أعياد خاصة أوجدتها بواعث مذهبية، أو تقاليد قبطية، فكانت الدولة الفاطمية تحتفل بها برسوم معروفة، نعرف أن الفاطميين أسسوا في مصر دولة مذهبية، تختلف في مذهبها الشيعى عن مذهب الشعب المصرى السنى، لذلك كان من الطبيعى أن يعمل الفاطميون على الإبقاء على ذكريات مذهبهم الشيعى، منذ ظهوره وصراعه، إلى أن أصبح دولة كبرى، ولما كانوا يعرفون أن الشعب المصرى السنى لديه إحساس طبيعي بالعداوة ضد مذهب غير مذهبه، فإنهم – تحاشياً لإغضابه – كانوا يحتفلون بهذه الذكريات في أوساطهم الخاصة، بين أشياعهم وموظفيهم، الذين كانوا بالضرورة من أنصار مذهب الدولة، وقد وجد بعض الخلفاء الغلاة، الذين لم يترددوا في جعل هذه الأعياد الخاصة أعياداً مشروعة عامة(٣).

---

(1) النوميزما أو الصولدى Solidus هى العملة البيزنطية الذهبية في العصر الباكر وحتى القرن الثامن، كانت الوحدة الذهبية للعملة البيزنطية Nomisma = ٢ Semissis ذهبية، و = ٣ tremissis ذهبية، كما كان لها وحدات فضية فتساوى = ٢٤ Keratia أو ١٢ miliaresion

انظر: Hendy, M., "Byzantium, 1081-1221: An Economic Reappraisal",*Transactions of the Royal Historical Society*, Ser. 5, 20 (London, 1970) 31-52, esp. 42-43.

وفي عهد الكسيوس كومنينوس (١٠٨١-١١١٨م)، أصدر عام ١٠٩٢م عملة جديدة ذهبية حلت محل النوميزما في المعاملات المالية، وهى الهيبربيرون ويعنى الاسم حرفيا "المطهر بالنار" ويزن ٤,٥٥ جراماً من الذهب .

Lopez, R. "The Dollar of Middle Ages", *Journal of Economic History* 11 (1951). P. 212.

وتعتبر النوميزما بمثابة التطور الأول للصوليدى Solidus الذي تم ضربه في عهد الإمبراطور قسطنطين الأول (٣٠٦-٣٣٧) وكان يزن ٤,٥٥جم من الذهب، ويساوى ٠,٧٢ من الرطل من الذهب . انظر أيضاً:

Whitting, *Byzantine Coins*, New york, 1973, p. 294; Lopez, *The Dollar*, p. 209.

وقد قام النظام النقدى الذي وضعه قسطنطين وخلفاؤه على النوميسما . وقد كتب كوزماس أنديكوبليوستس Cosmas Indicopleustes – ملاحح الأقاليم الهندية – في القرن السادس الميلادى يقول: "تقوم التجارة عند الشعوب كافة باستعمال النوميسما حتى نراها مستخدمة من أدنى الأرض إلى أقصاها" انظر:

Cosmas Indicopleustes, Topographie Chretienne, *Patrologiae Graecae*,LXXXVIII, p. 148.

(2) نجلاء شيحة، مدينة القسطنطينية، ص ١٠٩ .

(3) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٩٩ . أنظر أيضا: ماجد، نظم الفاطميين، جـ٢، ص ١٢٥-١٢٦ .

ومن هذه الأعياد ذكرى مقتل الحسين بن علي بكربلاء في العاشر من المحرم عام ٦١هـ/٦٨٠م ويطلق عليه بسبب ذلك "عاشوراء"[1] ففي ذلك اليوم تقيم الدولة احتفالاً بسيطاً يتناسب مع هذه الذكرى الحزينة، وتغلق الدكاكين وتعطل الأسواق[2].

يتشابه ذلك مع "خميس العهد" في الإمبراطورية البيزنطية، إذ إن الإمبراطور – علامة على حزنه – لم يكن يرتدى ملابس الاحتفالات والمواكب الرسمية، بل كان يرتدى الأكسيما Atlaxima اي ملابس العروض مثل عروض الخيل، ومما لا شك فيه أن الصدفة وحدها هى التى جعلت بعض الاحتفالات تتطابق مواعيدها وتواريخها في كل من البلاط البيزنطي والفاطمى، إذ يلتقى البلاطان في العشرين من يوليو، فبيزنطة تحتفل آنذاك بعيد القديس اليـاس Saint-Elie و ذلك في العشرين من شهر يوليو [3].

كذلك تلتقى في نفس هذا اليوم الاحتفال بإطلاق سراح ليو السادس[4] على يد والده، أما في القاهرة الفاطمية، فقد كانوا يحتفلون في ١٦ من شهر محرم بإطلاق سراح الخليفة الحافظ عـام ٥٢٦هـ/١١٣١م، الذى حجزه وزيره لمدة عامين[5].

وكان حال البلاط الفاطمى كحال البلاط البيزنطي، فذلك الحدث كان يتم الاحتفاء به في داخل القصر، دون احتفالات خارجية[6]. إلا أن هناك احتفالات تذكارية كانت تتم في البلاطين يمكن التقريب بينها. مثل ذكرى مولد الخليفة الحاكم. كذلك كان الحال في البلاط البيزنطي، إذ كانوا يحتفلون بعيد ميلاد الإمبراطور الحاكم[7].

---

[1] انظر ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٢٢٣ - ٢٢٤ ؛ ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص ١٦٤ ؛ ابن المأمون، نصوص من أخبار مصر، ص ١٥، ٥٩ ؛ المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٩٧ ؛ الخطط، جـ١، ص ٤٣١ .

[2] ماجد، نظم الفاطميين، جـ٢، ص ١٢٨-١٢٩ .

[3] Canard, *le cérémonial fatimite*, p. 414.

[4] Canard, *le cérémonial fatimite*, pp. 414-415.

[5] ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص ١١٣ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٣١ .

[6] المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٨٩-٣٩٠ ؛ Canard, *le cérémonial fatimite*, p.414

[7] المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٣٢ ؛ Canard, *le cérémonial fatimite*, p. 414

ويمكن مقارنة مقرئ القرآن الكريم الذين لهم مكانتهم في كل مواكب الخليفة الفاطمى[١] يمكن مقارنتهم بالكورال الدينى في بلاط الإمبراطور، ويسمون "بسالاي" Psallai[٢]. ولا شك أن كلا منهما كان له مذاقه الفنى لاختيار الترتيلة الدينية أو النص القرآنى الذى يتلائم مع كل مناسبة[٣].

وكان الخليفة الفاطمى يلقى خطبة في عيد الفطر وعيد النحر، وكذلك في أيام الجمع الثلاث من شهر رمضان[٤]. فمراعاة لكل نسبة مع الفارق، فالإمبراطور البيزنطي كان زعيماً دنيوياً وهيروس Hiéreus اي زعيماً دينياً ؛ كما كان الخليفة الفاطمى زعيماً روحياً ودنيوياً في آن واحد. ويمكننا مقارنة ذلك من خلال العظة الأخلاقية التى كان يلقيها الإمبراطور البيزنطي في الأسبوع الأول من الصيام في التريكلينوس الكبير Triclinos لقصر ماجناورا Magnaura[٥].

وفي هذه الأحوال، كان الإمبراطور البيزنطي في الأسبوع الأول من الصيام – قبل عيد القيامة – يلقى عظة أخلاقية على الحضور يقف على درج العرش على اليمين واليسار، من الدرج الأول إلى الدرج الأخير الاسيكريتيس Asecretis والنوتاريوي Notarioi ؛ وكان على هؤلاء أن يتلقوا كتابة أقوال الإمبراطور البيزنطي، وكان اللوجوثيت يقف على الدرج الأول على اليمين في اتجاه الشرق، وكذلك الاسكرتييس الأول البروتونوتاريوس Protonotaire. وكان الإمبراطور يخرج من مكان مغلق بدرابزين ويطلق عليه درابزين الدولة Cancel، ثم يأخذ مكانه في الدرج الأول، وبعد التهليل والهتاف، ينتظر حتى يعم الصمت ؛ بعد ذلك، يتحدث الإمبراطور كذلك كان حال الخليفة الفاطمي، فبعد أن يعتلى المنبر، يقف عدد من الشخصيات على درجات المنبر، اي يأخذون مكانهم على الدرج، وكان الوزير والقاضى هما الأكثر قرباً من

---

(1) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١١٩–١٢٠ ؛ ابن المأمون، نصوص من أخبار مصر، ص ٥٩ .

(2) Canard, *le cérémonial fatimite*, p. 414.

(3) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٥٢ ؛ Canard, *le cérémonial fatimite*, p. 414.

(4) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٧٢–١٧٦، ١٨٢ .

(5) انظر صفحة ٨٢ – ٨٣ من هذا البحث .

الخليفة، وعندما يكون الجميع في مكانه وينتشر الصمت بين الجميع، يبـدأ الخليفـة فـي إلقـاء خطبته[١].

ويبدو أن خطبة الخليفة يعدها دائماً الدواوين المختصة بذلك. فقد أورد القلقشندى ذلك[٢] وكذلك الوضع بالنسبة لبقية خطب الخليفة. أخيراً نلاحظ أيضاً أنه في القاهرة كما في بيزنطـة، اعتاد إشراك الضيوف والسفراء في الحفلات والمواكب الكبرى حتى تبهرهم وإعطـائهم فكـرة كاملة عن مدى قوة ونفوذ وثراء كل من الإمبراطورية البيزنطية والخلافة الفاطمية.

---

(1) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٥٤-٤٥٥ ؛ القلقشندى صبح الأعشى، جـ٣، ص ٥١٣؛
Canard, *le cérémonial fatimite*, p. 415.

(2) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٥١١ .

الخاتمة:

كشفت لنا دراسة المؤثرات الحضارية بين البلاطين البيزنطي والفاطمى عن بعض الاختلافات في الاحتفالات التى أشار إليها المقريزى، فهذه الاختلافات ترجع إلىكون بعض المراسم تعود إلى عصور قديمة أو إلى عصر الخليفة الآمر بأحكام الله (٤٩٥هـ/١١٠١م) والمثال على ذلك وصف ابن المأمون[1]، أو إلى فترة متأخرة مثل وصف ابن الطوير[2].

وأثبتت هذه الدراسة أيضاً عن بعض الاستمرارية في مختلف هذه المراسم، اي أن التغيرات لم تكن سريعة بل بطيئة كحال النظم الحضارية، وأكدت هذه الدراسة أيضاً أن أوجه التشابه تكون أحياناً قوية، فنجد تشابهاً كبيراً بين نظم القصر وأبهة البلاط وشارات الحكم والمواكب والاستقبالات والأعياد المختلفة، وطقوس تبجيل واحترام الخليفة أو الإمبراطور، إذ إن الرسوم البيزنطية في القرنين الثالث والرابع الهجريين / التاسع والعاشر الميلاديين ليست إلا استمراراً لحالة سابقة دامت دون تغيير يُذكر حتى عصر الحروب الصليبية [3]. كما أن الرسوم الفاطمية التى بلغت أوج ازدهارها في القرن السادس الهجرى الثانى عشر الميلادى وجدت بالفعل منذ بداية الخلافة الفاطمية بشكل أبسط مما أصبحت عليه في نهاية الدولة. مع ملاحظة أنه يوجد اختلاف طفيف في كل منهما، فمواكب الاحتفالات التى لها في بيزنطة طابع كهنوتى دينى ومدنى أكثر تمييزاً، نجد في القاهرة الفاطمية المواكب لها طابع عسكرى يظهر فيه للخيول دور أكثر عمقاً ؛ وفي نفس الوقت كانت لهذه المواكب بصمات شرقية لا جدال فيهما منهما : المظلة، والمراوح، مقعد لامتطاء الجواد.

وبينت الدراسة من جهة أخرى أن الخلافة الفاطمية والإمبراطورية البيزنطية كانا يهدفان إلى استعراض قوة كل منهما، ومدى فخامتهما وثرائهما لاتباعهما وللأجانب حتى يشهدوا ذلك. لكن يبدو أحياناً أن الهدف من نظم هذه المواكب هو إظهار ديناميكية الدولة الحسنة التنظيم، فقد حرص على ذلك كل من البيزنطيين والفاطميين.

---

(1) ابن المأمون، نصوص من أخبار مصر، ص ٥٨، ٥٩، ٦٧، ٦٨، ٨٤، ٨٧ .

(2) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٤٧ وما بعدها .

(3) Canard, *le cérémonial fatimite*, p. 356.

وأكدت هذه الدراسة من جهة أخرى أن احتفال عودة يوم الاثنين من عيد القيامة المجيد في بيزنطة كان يحتفي به أكثر من ذلك المحتفي به في القاهرة بمناسبة أول العام الهجرى[1].

وخلصت هذه الدراسة أيضاً إلى أن الاحتفالات الشعبية المصرية مثل ركـوب تخليـق المقياس[2]، وركوب فتح الخليج[3]، اضطر الفاطميون للاحتفال بهما لأسباب سياسية واقتصادية.

وكشفت هذه الدراسة أيضاً على أن فكرة تنظيم أمور الدولة والمراسم المعقدة التى يشهد عليها المؤرخون العرب، يبدو أن كل هذا نبت في الشمال الإفريقي، وتطور ليصل إلى ما وصل إليه في مصر ؛ ولدينا دليل على ذلك، ففي الشمال الإفريقى على عهد الخليفة المعـز لـدين الله الفاطمى (٣٤١هـ/٩٥٢م) تواجد عناصر المواكب والاحتفالات[4]. وتطـورت مثـل المواكـب والمظلة أما بعد أن تمكن الفاطميون من توسيع رقعة دولتهم وفتحوا أراضى أكثر تحـضراً مـن بلاد البربر، وهى بلاد اعتادت على الرفاهية والفخامة، لذا لم يكن أمام الفاطميين اي عائق أمـام النهوض بمراسم واحتفالات ومواكب دولتهم. ولذا وجـد تـشابه ملحـوظ مـع الإمبراطوريـة البيزنطية، بحيث نلمس التنافس القائم في هذا الصدد بـين الخلافـة الفاطميـة والإمبراطوريـة البيزنطية جارتها.

كذلك ألقت هذه الدراسة الضوء على التقليد الذى وجد لبيزنطة ومراسمها، اي ما نقلتـه بيزنطة عن الفاطميين في نظم الاحتفال والمراسم والمواكب. فنلاحظ أن المراسـم والاحتفـالات البيزنطية كانت خليطاً من عناصر رومانية وأخرى شرقية، ويجب أن ننسب هذا الدور الهام الذى

---

(1) كان الفاطميون أول من احتفل برأس السنة الهجرية في مصر . انظر محاسن الوقاد، احتفال الفـاطميين بـرأس السنة الهجرية، تحت الطبع .

(2) ابن المأمون، نصوص من أخبار مصر، ص ٧٥ ؛ ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٨٩ ؛ المقريزى، الخطـط، جـ١، ص ٤٧٦ – ٤٧٧ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، ص ٥١٦ – ٥١٨ ؛ ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٥٤ ؛ ؛ لمقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٠٦ . أنظر أيضا: ماجد، نظم الفاطميين، جـ٢، ص ١٠٥ .

(3) ابن المأمون، نصوص من أخبار مصر، ص ٧٤، ٩١ ؛ ابن الطوير، نزهة المقلتـين، ص ١٩٥ ؛ المقريـزى، الخطط، جـ١، ص ٤٧٣-٤٧٤ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٥١٨ ؛ ابن تغـرى بـردى، النجـوم الزاهرة، جـ٢، ص ٤٨١ .

(4) Canard, *le cérémonial fatimite*, p. 417.

قام به أناس أتوا من أقاليم مختلفة للامبراطورية، على سبيل المثال عمال فاطميين ذوى أصول أوربية مثل القائد جوهر الصقلبى، الذى قام ببناء مدينة القاهرة والقصر الشرقى، فالهدايا التى قدمها جوهر إلى المعز عند وصوله إلى مصر، يتضح منها ذوقه الرفيع وبذخه[1].

وألقت الدراسة الضوء أيضاً على أن جيش جوهر وجد به كتيبة من الروم اي من البيزنطيين ؛ أضف إلى ذلك أن المؤسسات البيزنطية ونظم البلاط في القصر الإمبراطورى البيزنطي في القسطنطينية كانت معروفة في القاهرة الفاطمية عن طريق العلاقات السياسية والسفارات المتبادلة. وعلى هذا انتهزت الخلافة الفاطمية الشابة الفرصة لتقليد الإمبراطورية البيزنطية بل إلى منافستها في هذا الصدد.

وأثبتت هذه الدراسة أن الفاطميين – منافسى العباسيين – قلدوا ونموا وتأثروا وتفوقوا على تقاليد الاحتفالات العباسية المستحدثة من تقاليد الاحتفالات الساسانية. ولا يستبعد كذلك أن الفاطميين قد أرادوا محاكاة العديد من الاحتفالات البيزنطية لمنافسة أبهة وعظمة بلاط الإمبراطور البيزنطي.

أما الاحتفالات الوطنية فلا شك أن لها أصلاً محلياً بسبب خصوصيات هذه الاحتفالات. لقد أراد الفاطميون التفوق على منافسيهم العباسيين. فالمواكب ذات الطابع الدينى، خاصة موكب – عيد الفطر وعيد النحر – كان معمول بهما في سامرا في بغداد مع حشد قوات حربية هائلة في هذين الموكبين.

كذلك كان كل الخلفاء، سواء الأمويين أو العباسيين حتى عهد الخليفة الراضى (٣٢٢هـ / ٩٣٤م)، كل هؤلاء الخلفاء كانوا يتوجهون إلى المسجد يوم الجمعة لحضور الصلاة وإلقاء الخطبة، وكان يصاحبهم في هذه المناسبة حرسهم.

وتواجد في بغداد أيضاً بعض الاحتفالات والمواكب غير الدينية، يقوم بها الخليفة أو وريثه الشرعى أو حتى الوزير عندما يتم تقليده الوزارة[1].

---

(1) Lev,Y, 'The Fatimids and Byzantium, 10th-12th Centuries', *GrA* 6(1995), pp. 198-199.

وأبرزت هذه الدراسة أن "التاج" كان موجوداً في بلاط الخلافة العباسية في بغـداد، ولا يعرف الإسلام التاج الملكى ولا التتويج كما نفهمه رمزاً لسلطان الملك، فإذا ذكرت التيجان فإنما يقصد بها تيجان الملوك النصارى وغيرهم - ويلوح أنه لم يصبح لأمير المسلمين تـاج إلا فـي الوقت الذى ورد فيه ذكر "تاج الخليفة"، ولم يظهر هذا التاج الذى هو من آلات الموكب إلا فـي عهد العباسيين، ويظهر أن هؤلاء قد أخذوا بالتقاليد الفارسية في هذا الشأن ليتميزوا عن الخلفـاء الراشدين وخلفاء بنى أمية. كذلك وجدت المظلة وهى الشمسة أو الشمسية عند العباسيين، وكانت تحمل على رأس الخليفة في المواكب ويختص بحملها أحد المقربين، واتخاذها كان من القمـاش الفاخر وتزين بالجواهر والشرائط الملونة والمذهبة[٢].

ومن المحتمل أن هناك مؤثرات إيرانية تركية تأثر بها البلاط الفاطمى في القاهرة على الأتراك الفارين من بغداد مع أفتكين أو البتكين أو هفتكين[٣] في نهاية القرن الرابـع الهجـرى / العاشر الميلادى. ومواطنيهم ومناصريهم الذين تم إدخالهم في الجيش الفاطمى بانتظام منذ ذلـك الحين من قبل الفاطميين. ومنذ ذلك الحين ظهر في الأفق الإكثار مـن الأتـراك فـي الجـيش الفاطمى.

وبينت الدراسة من جهة أخرى أن الفاطميين تأثروا بالعباسيين في كثير مـن عناصـر الاحتفالات مثل الزى أو اللباس الرسمى الذى كان من قواعد الرسوم في البلاط العباسى، بل إن الزى من أهم القواعد الأساسية التى تقوم عليها رسوم البلاط، وأحـد المعـالم البـارزة لأعيـاد وحفلات دار الخلافة العباسية، ومظهر من مظاهر الأبهة والجلال خصوصاً في المواكب الخليفية وحفلات الاستقبال الرسمى والأعلام التى اتخذها العباسيون شـعاراً لـدولتهم، ولتمييـزهم فـي

---

(1) عمر محمد سعيد موعد، نظم بلاط العباسيين ورسومه في بغداد (١٣٢هـ - ٦٥٦هـ / ٧٥٠م - ١٢٥٨م) رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة عين شمس كلية الآداب، ١٩٨٠م، ص ٢١٥ وما بعدها .

(2) عمر محمد سعيد، نظم بلاط العباسيين، ص ١٦٦ ؛

Canard, *le cérémonial fatimite*, p. 419.

(3) ابن ايبك، الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية، من كتاب كنز الدرر وجامع الغرر، وهو الجـزء السـادس، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة، ١٩٦١م، ص ١٦٧ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٤، ص ١٠٨ . أنظر أيضا: ماجد، ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر، القاهرة ١٩٩٤م، ص ١١٩ .

المواكب والحروب، وكانت راياتهم تعرف بالمسودة، والطبول للضرب بها في المواكب والأعياد والمناسبات المختلفة وأوقات الصلوات والأبواق وهى آلات من النحاس ينفخ فيها علـــى أبـــواب الخلفاء في المناسبات الخاصة، عند الركوب أو الحرب أو نحو ذلك واتخذها العباســيون تقليـــداً للفرس فصارت من علامات الأبهة والملك[1]. والشارات التى هى من قواعد الرسوم في الـــبلاط العباسى ويقصد بها شارات الخلافة التى يلبسها أو يحملها الخلفـــاء، فـــي الأعيـــاد والمناســـبات المختلفة توكيداً على شرعية خلافتهم ورئاستهم في قيادة الدولة والأمة[2].

---

[1]عمر محمد سعيد، نظم بلاط العباسيين، ص ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٨ .

[2]عمر محمد سعيد موعد، نظم بلاط العباسيين، ص ١٥٨ ؛

Canard, *le cérémonial fatimite*, p. 419.

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر

أ: المصادر العربية والمعربة

- **الادريسى (محمد بن محمد بن عبد الله الشريف ت ٥٦٠هـ / ١١٦٥م)**
نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، بيروت ١٩٨٩م.

- **ابن أبى الفضائل (مفضل ابن أبى الفضائل ت ٧٦٠هـ / ١٣٥٨م)** تاريخ سلاطين المماليك أو النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، نشره وترجمه للفرنسية وعلق عليه هـ. بلوشيه
E. Blochet, *Patrologia Orientalis*, XII, XIV, XXII, Paris, 1919.

- **ابن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس المصرى ت.٩٣٦هـ/١٥٢٣م)** بدائع الزهور في وقائع الدهور المعروف بتاريخ مصر. ط بولاق ١٣١١هـ.

- **ابن أيبك الدوادارى (أبو بكر عبد الله بن أيبك ٧٦٤هـ/١٣٦٢م)** الدولة الفاطمية، من كتاب كنز الدرر وجامع الغرر وهو الجزء السادس، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٩٦١م.

- **ابن بطوطة (عبد الله بن محمد بن ابراهيم ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)** رحلة ابن بطوطة المعروفة بـ (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت ١٩٦٠).

- **ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م)** النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة دار الكتب المصرية حتى جـ١٢، القاهرة ١٩٥٠م.

- **ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن حوقل النصيبى توفى أواخر القرن ٤هـ/١٠م)** صورة الأرض، دار الكتاب، القاهرة، د.ت.

- **ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ت حوالى عام ٣٠٠هـ/٩١٢م)** المسالك والممالك، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة د.ت.

- **ابن خلدون (عبد الرحمن بن عمر ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)** مقدمة ابن خلدون، بيروت ١٩٨٤م.

- **ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين بن محمد ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م)** وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، نشر محيى الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٤٨م.

- ابن دقماق (صارم الدين ابراهيم بن محمد بن أيدمر ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م) الانتصار لواسطة عقد الأمصار، القاهرة ١٩٨٣.

- ابن رسته (أبو على أحمد بن عمر ت٣٣٧هـ/٩٤٨م)الأعلاق النفيسة، م ٧، ليدن ١٨٩١م.

- ابن عبد الظاهر (محيى الدين بن عبد الظاهر ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م)الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٩٧٦م.

-الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، تحقيق أيمن فؤاد، الطبعة الأولـى، بيروت - لبنان ١٩٩٦م.

- ابن الطوير (أبو محمد المرتضى عبد السلام بن الحسن القيسرانى ٥٢٤-٦١٧هـ/١١٣٠-١٢٢٠م) نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، أعاد بناءه وحققه وقدم له أيمن فؤاد سيد، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٩٢م.

- ابن ظافر (جمال الدين أبو الحسن على بن أبى منصور ظافر الأزدى ت ٦١٢هـ/١٢١٥م) " أخبار الدول المنقطعة "، دراسة تحليلية للقسم الخاص بالفاطميين مع مقدمة وتعقيب أندريه فريه، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٧٢م.

- ابن الفراء (أبى على الحسين بن محمد) رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٩٤٧م.

- ابن فقيه الهمذانى مختصر كتاب البلدان، ليدن ١٣٠٢هـ.

- ابن المأمون (الأمير جمال الدين أبو على موسى بن المأمون البطائحى ت ٥٨٨هـ/١١٩٢م) "نصوص من أخبار مصر" حققها وكتب مقدمتها وحواشيها ووضع فهارسها أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة، ١٩٨٣م.

- ابن ميسر (محمد بن على بن يوسف ت ٦٧٧هـ/١٢٧٨م) المنتقى من أخبار مصر، تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٨٧م.

- ابن هشام سيرة ابن هشام، القاهرة، د.ت.

- ابن واصل (القاضى جمال الدين الحموى ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧م) مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب، جـ١ تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٣م.

- أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل ت ٦٦٥هـ/١٢٦٨م) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، مطبعة النيل القاهرة ١٢٨٧ – ١٢٨٨م.

- أبو صالح الأرمنى (أبو المكارم سعد الله بن جرجس عاش في القرن ٦هـ/١٢م) "تاريخ الكنائس والأديرة"، طبعة لندن ١٨٩٥م.

- البغدادى (عبد القاهر بن طاهر بن محمد ت ٤٢٩هـ/١٠٣٧م) الفرق بين الفرق، مكتبة صبيح، د.ت

- الرشيد بن الزبير (رشيد الدين أبو الحسين أحمد بن على بن إبراهيم بن الزبير ت ٥٦٢هـ / ١١٦٦م) "الذخائر والتحف" تحقيق محمد حميد الله، الكويت – سلسلة التراث العربى ١٩٥٩م.

- القلقشندى (أحمد بن على بن أحمد ٨٢١هـ/١٤١٨م) "صبح الأعشى في صناعة الإنشا"، ١-١٤، القاهرة – دار الكتب المصرية ١٩١٢-١٩٣٨م.

- الماوردى الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ط أولى، القاهرة ١٩٦٠م.

- المسبحى (عز الملك محمد بن عبيد الله ت ٤٢٠هـ/١٠٢٩م) "أخبار مصر" الجزء الأربعون (القسم التاريخى) حققه أيمن فؤاد سيد وتيارى بيانكى، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٧٨م.

- المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين ت ٣٤٦هـ/٩٥٦م) مروج الذهب ومعادن الجوهر، طبعة بيروت ١٩٧٩م.

-التنبيه والأشراف، بيروت ١٩٩٣م.

- المقريزى (تقى الدين أحمد بن على المقريزى ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م) الخطط المقريزية المعروفة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ١-٢، بولاق ١٢٧٠هـ وطبعة لبنان.

- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ١-٣، الأول بتحقيق جمال الدين الشيال والثانى والثالث بتحقيق محمد حلمى محمد أحمد، القاهرة – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٦٧ – ١٩٧٣.

- السلوك لمعرفة دول الملوك، من ١-٢ نشرهما محمد مصطفي زيادة، في ستة أقسام، جـ٣، جـ٤ نشرهما سعيد عاشور في ستة أقسام آخرها عن دار الكتب المصرية ١٩٧٠، ١٩٧٢، ١٩٧٣م.

- مسودة كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، تحقيق أيمن فؤاد سيد، لندن ١٩٩٥م.

ناصر خسرو (قام برحلته بين سنتى ٤٣٧-٤٤٤هـ/١٠٤٥-١٠٥٢م) "سفرنامه"، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٩٣م.

ثانياً : المراجع

أ. المراجع العربية والمعربة:

- إبراهيم أحمد العدوى، الإمبراطورية البيزنطية، القاهرة. د.ت.
- أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، دار الفكر العربى، الطبعة الرابعة، ٢٠٠١م.

-تاريخ وآثار مصر الإسلامية منذ الفتح العربى حتى نهاية العصر الفاطمى، دار الفكر العربى ١٩٩٣م.

- أشرف محمد أنس مرسى، كتب الدساتير في عصر المماليك ٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م) مع تحقيق ودراسة مخطوط الخالدى "المقصد الرفيع المنشا الهادى لديوان الإنشا"، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة المنصورة، كلية الآداب، ٢٠٠٣م.
- أيمن فؤاد سيد، دراسة نقدية لمصادر تاريخ الفاطميين في مصر"، دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى أديب العربية الكبير أبى فهر محمود محمد شاكر بمناسبة بلوغه السبعين، القاهرة ١٩٨٢م.
- ثروت عكاشة، الفن البيزنطي، موسوعة تاريخ الفن، العين تسمع والأذن ترى، ط أولى، القاهرة ١٩٩٣م.
- جمال الدين الشيال، مصر في العصر الفاطمى، القاهرة. د.ت.

- حسن إبراهيم حسن، الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص، القاهرة ١٩٣٢م.
- حسن الباشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، القاهرة ١٩٥٧م.
- الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، ٣ أجزاء، القاهرة ١٩٦٥-١٩٦٦م.
- درويش النخيلى، السفن الإسلامية على حروف المعجم، الاسكندرية ١٩٧٤م.
- دونالد نيكول، معجم التراجم البيزنطية، ترجمة حسن حبشى، القاهرة ٢٠٠٣م.
- زكى محمد حسن، كنوز الفاطميين، القاهرة، ١٩٣٧م.
- ستيفن رنسميان، الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز جاويد، القاهرة ١٩٩٦م.
- سعيد عبد الفتاح عاشور وعبد الرحمن الرافعى، مصر في العصور الوسطى من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى، القاهرة ١٩٩٢م.
- السيد الباز العرينى، الدولة البيزنطية، القاهرة ١٩٦٠م.
- طارق منصور، القسطنطينية في الكتابات الصليبية ١٠٩٦-١٢٠٤م دراسة تحليلية للرؤى الصليبية لمدينة قسطنطين، مجلة المؤرخ المصرى، دراسات وبحوث في التاريخ والحضارة، العدد التاسع والعشرون يناير ٢٠٠٦م.
- هارون بن يحيى (٣٠٠هـ / ٩١٢م) مصدر من مصادر التاريخ البيزنطي، حولية كلية التربية للبنات بالطائف، العدد السادس لعام ١٤٢٥ - ١٤٢٦هـ.
- الجيش في الامبراطورية البيزنطية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بنها، ١٩٩٣.
- عبد المنعم ماجد، نظم الفاطميين ورسومهم في مصر، القاهرة ١٩٨٥م.
- تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، الانجلو، الطبعة الخامسة ١٩٨٦م.
- ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٩٤م.

- عبد الرحمن فهمي، أسوار القاهرة وأبوابها من جوهر القائد إلى الناصر صلاح الدين، مجلة المجلة، العدد ٥١، ١٩٦١م.
- عبد المنعم سلطان، المجتمع المصرى في العصر الفاطمى، دراسة تاريخية وثائقية، القاهرة ١٩٨٥م.
- علية عبد السميع الجنزورى : الثغور البرية الإسلامية على حدود الدولة البيزنطية في العصور الوسطى، سلسلة تاريخ المصريين، العدد ٢١٤، ٢٠٠٣م.
- عمر محمد سعيد موعد : نظم بلاط العباسيين ورسومه في بغداد (١٣٢-٦٥٦هـ / ٧٥٠ – ١٢٥٨م) رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب جامعة عين شمس، ١٩٨٠م.
- فايز نجيب اسكندر : الفتوحات الإسلامية لأرمينية (١١ – ٤٠هـ/٦٣٢-٦٦١م) الاسكندرية الجزء الأول، ١٩٨٣م.
- البيزنطيون والأتراك السلاجقة في معركة ملاذكرد (١٠٧١م / ٤٦٣هـ) في مصنف نقفور برينيوس دراسة مقارنة للمصادر، الاسكندرية، ١٩٨٤م.
- الصليبيون والفاطميون والزنكيون في معركة البابين (١٨ مارس سنة ١١٦٧م/٢٥ جمادى الأولى سنة ٥٦٢هـ) مجلة الآداب والعلوم الإنسانية مجلة علمية تعنى بالأداب والعلوم والدراسات الإنسانية، العدد الثامن والأربعون، القاهرة، ابريل ٢٠٠٣م.
- ليلى عبد الجواد: الدولة البيزنطية في عصر الإمبراطور هرقل وعلاقتها بالمسلمين، القاهرة ١٩٨٥م. القسطنطينيه فى ضوء كتابات
- محاسن محمد الوقاد: احتفال الفاطميين برأس السنة الهجرية تحت الطبع.
- نجلاء مصطفي عبد الله شيحه : القسطنطينية في القرن العاشر الميلادى، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٩٩م.
- وسام عبد العزيز فرج :دراسات في تاريخ وحضارة الدولة البيزنطية، الاسكندرية، ١٩٨٥م.
- بيزنطة قراءة في التاريخ السياسى والإدارى، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م.
- وليم الصورى : الحروب الصليبية، ترجمة حسن حبشى، سلسلة تاريخ المصريين العدد ٧٧، القاهرة ١٩٩٥م.

ب. المراجع الأجنبية :

- Bréhier, L., *Le monde Byzatin*, t. II, Les institutions de L'Empire Byzantin, Paris, 1949.
- Bury, *The Imperial Administrative System* , London, 1911.
- Canard, M., 'Le Cérémonial Fatimite et Le Cérémonial Byzantin', *Byzantion* (1950).
- Chatelain, E., *Lexique Latin Français*, S.D, P. 385.
- Constantin VII Porphyrogénéte, *Le Livre des Cérémonie*, 1-2 texte établi et traduid par Albert vogt, Paris, 1935.
- Cosmas. *Indicopleustés, Topographie Chrétienne*, in Patrologiae Graecae, t. LXXX VIII.
- Dozy, R., *Supplément aux Dictionnaires arabes*, 1-11, Paris 1927.
- Ebersolt, J., *Le grand palais de Constantinople et le lirre des Cérémonies*, Paris, 1910.
- Grousset, R., *Histoire des Croisades, et du Royame Franc de Jérusalem*, Paris, 1935.
- Guilland. R, *Etudes de topographie de Constantinople byzantine*, Berlin, 1969.
- Guilland,R., Les Eunuques dans I'Empire Byzantin Etude de titulature et de Prosopographie byzantines. Etudes Byzantines Tome 1, 1943.
- Gustave Schlumberger, *Campagnes du roi Anaury, ler de jerusalem en Egypte au x1 1e siecle*, Paris, 1906.
- Hendy, M., 'Byzantion, 1081-1204: An Economic Reappraisal', *Transactions of the Royal Historical society*, ser, 5, 2. London, 1970.
- Henry, M., *Byzantine Court Culture from 899 to 1204*, Harvard university press, 1997.
- Janin. R, *Constantinople Byzantine*, Paris, 1950.
- Kazhdan, A.P., *The Oxford Dictionary of Byzantiun*, Oxford 1991.

- Lane-poole, S., *A History of Egypt in the Middle Ages*, London, 1936.
- Lev. Y, 'The Fatimids and Byzantium 10th-12th Centuries', *GrA* 6 (1995).
- Lopez, R., "The Dollar of Middle Ages" . *Journal of Economic History* II (1951).
- Parker, J., "A Twelfth Century Description of St. Sofhia", *Dumbarton Oaks Papers* 14(1960), pp. 233-245.
- Paula, S., *The Court Ceremonial of The Fatimid Caliphate in Egypt*, Ph.D. Dissertation present to the university of princeton, 1984.
- Odo of Deeuil, *De profectione Ludovici VII in Orientem*, ed.& trans. V.G. Berry, New York, 1948.
- Ringrose,K.M., *The perfect servant : Eunuchs and Social Construction of Gender in Byzantium*, London, 2003.
- Vogt, A., "L'hippodrome de Constantinople" , *Byzantion* 10 (1935) 477 – 488.
- Whitting, *Byzantine Coins*, New York, 1973.
- William of Tyre, *A History of the Deeds done beyond the Sea*, trans, and annotated by E.A. Babcock and A.C. Kery, New york, 1943.
- Willermus. A chiepiscopus tyrensis, *Histroia Remum in Partibus Transmarinis Gestarum* , *Recucueil des Historiens des Croisades*, Historien Occidentaux, Paris, 1844.

جوزيف جنسيوس مؤرخ لحكم
الإمبراطور ميخائيل الثاني العموري (٨٢٠ - ٨٢٩م)

(دراسة في التحليل التاريخى)

د. وديع فتحي عبد الله

كلية الآداب، جامعة بنها، مصر

محتويات البحث

ب – الحصار الثاني للقسطنطينية.

ج– تدخل مورتاجون ورفع الحصار.

٥ – فرار توماس ونهاية ثورته :

أ – محاصرة توماس في أركاديوبوليس والقبض عليه وإعدامه.

ب – نهاية الثورة.

ثالثا: محاولات استرداد كريت :

١ – استيلاء المسلمين على كريت.

٢ – حملة كراتيروس.

٣ – حملة أوريفاس.

- **مواضع الاتفاق والاختلاف بين رواية جنسيوس وروايات المصادر الأخرى:**

١ – مواضع الاتفاق.

٢ – مواضع الاختلاف.

- **التحليل التاريخى لرواية جنسيوس :**

١ – التناول الديني.

٢ – الخرافة.

أ – الظواهر الكونية.

ب – النبوءات.

٣ – الشخصيات الرئيسية :

أ – ميخائيل الثاني.

ب – توماس السلافي.

رابعاً : **تقييم منهج جنسيوس في التأريخ لميخائيل الثاني.**

- **خاتمة .**

مقدمة

هذه دراسة جديدة لنص قديم. أما النص، فهو كتاب التاريخ الذي وضعه المؤرخ البيزنطي جوزيف جنسيوس في القرن العاشر الميلادي بتكليف من الإمبراطور قسطنطين السابع بورفيروجينيتوس Constantine VII Porphyrogenitus (٩١٣ - ٩٥٩ م). وهو نص يستمد قيمته من كونه أول مصنف في تاريخ الدولة البيزنطية وضع بعد توقف في مسيرة الكتابة التاريخية البيزنطية لأكثر من مائة عام. فهو يؤرخ لفترة لم يطرقها المؤرخون إلا بعد انتهائها بأكثر من قرن من الزمان. وأما الدراسة، فجديدة بحكم موضوعها من جانب، وأسلوب تناول موضوع البحث من جانب آخر. فموضوع الدراسة، بقدر ما تبين للباحث من خلال استعراض ما كتب عن هذا المؤرخ وعن كتابه، هو موضوع جديد لم يتطرق إليه الباحثون في مجال الدراسات البيزنطية إلا قليلاً. ولعل بعض السبب في ذلك يرجع إلى ندرة المعلومات المتعلقة بالمؤرخ نفسه، وبالظروف التي ألف فيها كتابه، والأسباب التي دعت الإمبراطور قسطنطين السابع إلى تكليف مؤرخ آخر بالمهمة ذاتها هو المؤرخ المجهول صـــاحب صلة ثيوفانTheophanes Continuatus، حيث توقف جنسيوس في كتابـــه عند عـــام ٨٨٦ م، أي عند نهاية عهد الإمبراطـــور باسيل الأول المقدوني Basil I (٨٦٧ – ٨٨٦ م)، بينما واصل صاحب التكملة التأريخ حتى عام ٩١٦ م، أي أثناء فترة وصاية الإمبراطورة زوي Zoe (٩١٣ – ٩١٩ م) على قسطنطين السابع.

وقد حاول الباحث أن يجمع بين دفتي هذا البحث المعلومات المتاحة عن هذا المصنف، مع ترتيبها منهجيا على نحو يسهم في التعريف بصاحب هذا الكتاب، ومؤلفه، ومنهجه في الكتابة التاريخية. ونظرا للطول النسبي للفترة التي يغطيها هذا المصنف، والتي تمتد لأكثر من خمسين عاماً تعاقب خلالها على عرش الإمبراطورية البيزنطية خلال هذه الفترة خمسة أباطرة، فقد رأى الباحث أن يكون التركيز في هذه الدراسة على عصر واحد فقط من هؤلاء الأباطرة، هو عصر الإمبراطور ميخائيل الثاني العموري، ليس باعتبار هذا العصر نموذجا للكتابة التاريخية عند جنسيوس، بل لانفراد هذا الجزء من أجزاء الكتاب دونا عن باقي الأجزاء بواحدة من أهم متطلبات البحث التاريخي، وهي اتصال الرواية التاريخية وتتابع أحداثها وفقا للتسلسل الزمني لوقوعها.

ومن أهم الدراسات التي تناولت كتاب جنسيوس مقالتا ف. باريشتش.Barišić, F " جنسيوس وصاحب صلة ثيوفان " [1] و " مصادر جنسيوس وصاحب صلة ثيوفان لتاريخ حكم ميخائيل الثاني (٨٢٠ – ٨٢٩) " [2] . وقد قارن باريشتش في المقالة الأولى بين مصنف جنسيوس وصلة ثيوفان من جوانب مختلفة كتاريخ التأليف، وأسلوب العرض، وحيادهما في عرض الروايات المتعددة للواقعة الواحدة وترك الحرية للقارئ ليقرر بنفسه أي الروايات هي الأقرب إلى الصحة. ثم عاد باريشتش في مقالته الثانية إلى المقارنة بين الكاتبين مع التركيز هذه المرة على المصادر، والإشارة في مستهل الدراسة إلى خلو الفترة الممتدة بين سنتي ٨١٣ و٨٨٦ من مؤرخ أو كاتب حوليات يمكن الوثوق به. ومرة أخرى يتهم باريشتش الكاتبين بجمع الوقائع من أعمال كتاب مختلفين وإيرادها كما هي دون تمييز.

ومن الدراسات الأخرى التي عرضت للموضوع من خلال تناولها لموضوعات أخرى دراسة هيرش الذي حاول إثبات تاريخ كل من المصنفين (كتاب الملوك، وتكملة ثيوفان) وهي باللغة الألمانية [3]. ودراسة هنرى جريجوار " مانويل وثيوفوب " [4] الذي بذل جهودا كبيرة لإعادة ترتيب معلومات جنسيوس وصلة ثيوفان. وهناك أيضا دراسة بول لاميريل عن توماس السلافي[5] التي أفرد فيها صفحات للحديث عن ثورة توماس مع إيراد روايتي جنسيوس المختلفتين لنشأة توماس دون أن يهتم بترجيح أى منهما على ما بينهما من تناقض [6]. وفضلاً عن ذلك ترد إشارات متفرقة عن كتاب الملوك في أعمال أخرى. [7]

ومما لا شك فيه أن هذه الدراسات قد أضافت معلومات طيبة عن أحداث هذه الفترة، وقد استفاد الباحث منها فعلاً. ومن هذا المنطلق، فقد اختار الباحث منهجا آخر

---

١ - Barišić, F., "Génésios et le Continuateur de Théophane," *B.*, XXVIII (1958), p 120.

٢ - Barišić, F., "Les sources de Génésios et du Contiuateur de Theophane pour l'histoire du règne de Michel II (820-829)," *B.*, XXXI (1961).

٣ - F. Hirsch, *Byzantinische Studien*, Leipzig, 1876.

٤ - Grégoire, H., "Manuel et Theophobe," *B.*, IX (1934), p. 204.

٥ - Lemerle, Paule, "Thomas le Slave, essais sur le monde byzantin," *Variorum*, 1980.

٦ - Lemerle, *Essays*, pp. 267-268.

٧ - Krumbacher, K., *Geschichte der Byzantinischen Literatur*, Second Edition 2 vols, Munich 1897; Bury, J. B. , *A History of the Eastern Roman Empire from the Fall of Irene to the Accession of Basil II, 802-867*, London, 1912 ; Jenkins, R., "The Classical Background of the Scriptores Post Theophanem," *DOP*, 8 (1954); Brubaker, L. and Haldon, J., *Byzantium in the Iconoclast Era (ca 680-850). The Sources, An Annotated Survey)*, (Aldershot, 2003); Ostrogorsky, G., *History of the Byzantine State*, Eng. Trans., J. Hussey , (Oxford, 1968); Treadgold, W., *The Byzantine Revival, 780-842* (Stanford CA 1988); Toynbee, A., *Constantine Porphyrogenitus and his World* , (London, 1973).

لتناول الموضوع، فجعل الهدف من هذا البحث تقييم رواية جنسيوس لفترة حكم الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثاني (٨٢٠ – ٨٢٩م) وذلك من خلال الدراسة النقدية التحليلية لخصائص الكتابة التاريخية لهذا المؤرخ مقارنة بروايات أهم المصادر البيزنطية التي أرخت لهذا الإمبراطور. كما يطمح الباحث من خلال هذا البحث إلى إلقاء الضوء على عصر ميخائيل الثاني باعتباره من أشد العصور البيزنطية إظلاما وافتقارا إلى الكتابة التاريخية الموضوعية التي تهدف إلى استجلاء الحقيقة التاريخية، وتنقيتها مما يمكن أن يكون قد علق بها من أوهام مردها كثرة القصص التي تحفل بها المصادر التي أرخت لهذه الفترة، التي تقوم على التفسير الغيبى للوقائع التاريخية المؤكدة اعتماداً على تفسير الظواهر الطبيعية، أو نبوءات العرافين أو الرؤى التي تعرض للإنسان في نومه. كما أن هذه المصادر لا تخلو من التحيز الديني الواضح ضد هذا الإمبراطور والدعاية السياسية المنتقدة لحكمه، وان كان هذا قد جاء متأخرا أى بعد موت ميخائيل الثاني واختفائه من على مسرح الأحداث.

ويرجع اختيار الباحث للكتاب الثاني من هذه الكتب الأربعة – وهو الكتاب الخاص بعهد ميخائيل الثاني مؤسس الأسرة العمورية – إلى أسباب عدة. فهذا الجزء من مصنف جنسيوس يتميز عن باقى أجزاء الكتاب بالتسلسل الزمنى للأحداث، وبأنه يشكل رواية متصلة ومرتبة زمنياً، وبعدم وجود وقائع متعارضة باستثناء الروايتين المختلفتين اللتين أوردهما جنسيوس عن حياة توماس السلافي قبل الثورة التي قادها ضد الإمبراطور ميخائيل الثاني، وهو اختلاف يرده جنسيوس بأنه نقل الروايتين عن مصدرين مختلفين(٨). وعلى الرغم من اعتماد جنسيوس الكبير في تحريره لهذا الكتاب، وبخاصة في تأريخه لحكم ميخائيل الثاني، على مصادر متنوعة، على النحو الذي سيعرض له الباحث(٩)، فإن هذا لا يقلل من قيمة رواية جنسيوس لعهد ميخائيل الثاني كمصدر يعتد به للتأريخ لهذا الإمبراطور، خاصة إذا ما قورنت هذه الرواية – شكلاً ومضموناً – بروايته لفترات حكم الأباطرة الآخرين. ففي رواية جنسيوس عن ليو الخامس وعن ثيوفيل ترد المعلومات المتصلة ببعض الوقائع مبعثرة وعشوائية فيرجع الكتاب إلى نفس الموضوع في مناسبات

---

٨ - Genesius, Josephus, *[Reges] Iosephi Genesii regum libri quattur* / rec; A. Lesmueller-Werner et H. Thurn. Berolini, Novi Eboracbi [Berlin, New York]: de Gruyter, 1978. (*Corpus fontium historiae Byzantinae*; Vol. 14 : Ser.Berolinensis), p. 32. cf. also Barišić, F., *Génésios et le Cont.*, p.125, n. 5; P., Lemerle, *Essais*, pp. 267-268.

٩ - Barišić, F., *Les Sources*, p. 261.

متعددة. كما تفتقر المعلومات في هذه الرواية إلى الترتيب من ناحية الموضوع ومن ناحية التسلسل الزمني للأحداث.

وأما أسلوب التناول، فقد رأى الباحث أن تقتضي أن يبدأ البحث بمحاولة للتعريف بالكتاب ومؤلفه في حدود المادة العلمية المتاحة، وتحديد الفترة الزمنية التي يشملها هذا البحث، مع بيان أسباب اختيار هذه الفترة، ويلي ذلك رصد لأهم المصادر التي تناولت الفترة موضوع البحث، لبيان أهميتها النسبية ومدى اقترابها زمنيا من هذه الفترة. ثم يعرض الباحث بعد ذلك لرواية جنسيوس لعهد ميخائيل الثاني العموري (٨٢٠- ٨٢٩ م)، والتي تشغل الجزء الثاني، أو الكتاب الثاني، من مصنف جنسيوس، وذلك من خلال ثلاثة محاور زمنية رئيسية تدور حولها أهم الوقائع التاريخية التي أرخ لها هذا المؤرخ هي تولى ميخائيل الثاني الحكم بعد اغتيال ليو الخامس الأرميني (٨١٣ - ٨٢٠ م) ؛ ثورة توماس السلافي والظروف المحيطة بها، محاولات ميخائيل الثاني استرداد جزيرة كريت التي كان المسلمون قد استولوا عليها أثناء انشغاله بقمع ثورة توماس السلافي. ويتضمن هذا العرض أيضا مقارنة رواية جنسيوس لهذه الوقائع برواية المصادر الرئيسية الأخرى لنفس الوقائع.

ثم تبدأ الدراسة المقارنة بعد ذلك ببيان للوقائع التي اتفقت فيها رواية جنسيوس مع روايات المصادر الأخرى، والوقائع التي اختلفت حولها هذه الروايات عن روايته، على نفس المحاور الزمنية المشار إليها، ويلي ذلك تحليل لأهم ملامح الرواية التاريخية عند جنسيوس كما تظهر في روايته لحكم ميخائيل الثاني وهي الموقف من العقيدة المسيحية، والإيمان بالخرافة، ورسم الشخصيات الرئيسية التي أثرت في مجرى الأحداث، وهي هنا شخصية ميخائيل الثاني، وشخصية توماس السلافي.

وينتهي هذا العرض النقدى التحليلى لرواية جنسيوس عن حكم ميخائيل الثاني العموري، بتقييم للمنهج الذي استخدمه جنسيوس في التأريخ لحكم هذا الإمبراطور يتضح منه أن أهم خصائص هذا المنهج هي اتصال الرواية التاريخية للأحداث، خلافا لما يظهر في أجزاء الكتاب الثلاثة الأخرى، والإيجاز الشديد، الذي يخل بالرواية التاريخية في بعض المواضع، والتزام الحياد تجاه الروايات المتناقضة وترك الحكم على صحتها للقارئ، والأمانة في نقل الرواية عن مصدرها. وبالطبع، فإن الجزء موضوع الدراسة من مصنف جنسيوس هذا لا يخلو من مثالب، لعل أهمها إغفاله لبعض الوقائع المهمة التي أوردتها المصادر الأخرى، وتوقفه فجأة عن إكمال روايته لأحداث الفترة موضوع البحث، بينما

استأنفت المصادر الأخرى روايتها لتشمل ما كان من وقوع صقلية في يد المسلمين في عصر ذلك الإمبراطور.

كتاب الملوك : المؤرخ، والكتاب، والمصادر

جوزيف جنسيوس :

عاش جوزيف جنسيوس Josephus Genesius في أواسط القرن العاشر الميلادي، ووضع كتابا في التاريخ إبان حكم الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع بورفيروجينيتوس (٩١٣ - ٩٥٩ م) Constantine VII Porphyrogenitus (١٠) . وكان نسبه موضع خلاف بين المؤرخين. فذهب هيرش F. Hirsch إلى أنه كان ابنا لقسطنطين الأرميني Constantine the Armenian، الذي كان بدوره من أقارب باسيل الأول (٨٦٧ - ٨٨٦ م) Basil I (١١)، بينما عارضه دو بور De Boor، مستندا إلى أن تاريخ تأليف كتاب جنسيوس لا يمكن أن يقع قبل سنة ٩٤٥م، واستنتج من ذلك أن جنسيوس يمكن أن يكون حفيداً لقسطنطين الأرميني وليس ابنا له. (١٢)

ومع اختلاف المؤرخين حول هذه المسألة، فإنه لا يكاد يعرف أى شئ عن تفاصيل حياة هذا المؤرخ سوى أنه قد ألف تاريخه بين سنتى ٩٤٤ و٩٥٩ م بناء على تكليف من الإمبراطور قسطنطين السابع. فقد أوضح هيرش أن كتاب جنسيوس قد كتب أثناء حكم الإمبراطور قسطنطين السابع (٩٤٥ - ٩٥٩ م) (١٣)، بينما حدد بيورى Bury الفترة التي كتب فيها الكتاب بأنها تقع بين سنتي ٩٤٥ و ٩٤٨م (١٤) . وبشكل عام فإن أحدا لا يعرف على وجه الدقة تاريخ تأليف هذا المصنف (١٥) ونعرف من جنسيوس نفسه أنه قد شرع في كتابة هذا المؤلف حتى يرضى فضوله الشخصي، ولفائدة الأجيال القادمة من بعده. كما صرح جنسيوس مرتين بعد ذلك، في الموضع نفسه، بأنه قد نشر هذا الكتاب بناء على أمر من قسطنطين بورفيروجينيتوس، حيث أهدى جنسيوس كتابه لهذا الإمبراطور(١٦).

---

١٠ - وديع فتحى عبد الله، العلاقات بين الدولة البيزنطية والخلافة العباسية في عهد الإمبراطور ثيوفيلوس (٨٢٩ - ٨٤٢ م / ٢١٤ - ٢٢٨ هـ)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، يناير ١٩٨٢ م، ص ٢٧.

١١ - F. Hirsch, *Byzantinische*, pp. 177-181.

١٢ - *Genesius regum* , p. x.

١٣ - Hirsch, *Byzantinische*, pp. 177-181.

١٤ - Bury, *E. R. E.*, pp.460-461

١٥ - Lemerle, *Essais*, p. 264.

١٦ - Barišić, F., *Génésios et le Cont*, p. 120.

ولكن هذا التكريم من جانب الإمبراطور لجنسيوس، والمتمثل في تكليفه إياه بوضع هذا المصنف، سرعان ما يصطدم بعدم رضى قسطنطين عن الكتاب وتكليفه لشخص أخر مجهول الهوية بوضع مؤلف آخر اشتهر بين المصادر البيزنطية باسم المكمل لتاريخ ثيوفانيس أو صاحب صلة ثيوفان Theophacnes Continuatus [(١٧)] .

والواقع أن تكليف قسطنطين السابع بورفيروجينيتوس لجنسيوس بتأليف كتاب في التاريخ البيزنطي ثم انصرافه عنه وتكليف شخص آخر بنفس المهمة يثيران تساؤلات حول الأسباب التي دعت قسطنطين إلى ذلك. وبداية، فقد كان جوزيف جنسيوس واحداً من رجال الأدب والعلم الذين تجمعوا حول قسطنطين السابع[(١٨)] . ومن هنا، فإن وجود جنسيوس في البلاط الإمبراطوري بحكم مركز اجتماعي مرموق أو قرابة ربطته بباسيل الأول المقدوني، جد قسطنطين السابع، يجعل تكليف قسطنطين له بمهمة علمية أمراً طبيعياً أتاح لجنسيوس أيضا الاطلاع على ما تحتويه مكتبة القصر من وثائق ومؤلفات. وقد يكون ذلك من الأسباب غير المباشرة التي جعلت قسطنطين يفكر في تكليف جنسيوس بتأليف كتابه. أما السبب المباشر، فربما كان يتمثل – في رأى الباحث – في إدراك قسطنطين السابع لخلو الفترة الواقعة بين سنتى ٨١٣ و٨٨٦ م، وهي فترة حاسمة في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، من مؤرخ أو كاتب حوليات يمكن الركون إليه. ويستند الباحث في ذلك إلى ما ذهب إليه ف. باريشتش من أن أول مصنف تاريخى لعصر الأسرة العمورية لم يكتب إلا بعد حوالي مائة عام من انتهاء ذلك العصر، وهو المصنف الذي وضعه جنسيوس بتكليف من الإمبراطور قسطنطين السابع [(١٩)] . وثمة سبب آخر يمكن استنتاجه من إشارة المؤرخ الإنجليزى أرنولد توينبى Arnold Toynbee في كتابه عن قسطنطين بورفيروجينيتوس إلى شكوى هذا الإمبراطور من كثرة أعباء منصبه الإمبراطوري التي كانت تحول بينه وبين تحقيق رغبته في كتابة تاريخ العصر البيزنطي كله، بما في ذلك أعمال الأباطرة ومرؤوسيهم المدنيين والعسكريين، وكذلك ما صرح به في الفصل الأول من كتابه عن جده

١٧- Theophanes Continuatus, *Historia*, *P. G. M.*, Tome CIX, Paris, 1863, Cols. 1-517. ولا يستبعد الباحث أن يكون الإمبراطور قد تعمد بقاء اسم مؤلف " صلة ثيوفان " مجهولاً تجنباً للحرج تجاه جنسيوس. وربما يكون المؤلف صاحب الصلة قد تعمد بنفسه أن يخفي اسمه لنفس السبب. وهو ما يؤكد مكانة جنسيوس لديهما.

١٨- Vasiliev, A. A., *History of the Byzantine Empire 324-1453*, Volume 1, The University of Wisconsin Press, 1952, p. 363.

١٩- Barišić, F., *Les Sources*, p.257.

الإمبراطور باسيل الأول من أن هذا العمل يتطلب الكثير من الوقت والجهود المستمرة ومكتبة من الطراز الأول وتفرغاً من الواجبات العامة [٢٠]. ولكل هذه الأسباب، يكتسب كتاب جنسيوس أهمية خاصة ويستحق معالجة نقدية جديدة تكشف عن بعض الجوانب التي لم تتطرق إليها الدراسات السابقة، خاصة وأن محاولة جنسيوس الإبحار في ظلمات التاريخ المجهول ما لبثت أن اصطدمت بعدم الرضى من جانب الشخص الذي أطلق هذه المحاولة وهو قسطنطين نفسه، أو على الأقل بتكليفه لشخص آخر بالمهمة نفسها هو المؤرخ المجهول صاحب صلة ثيوفان الذي لا نعلم عنه شيئا.

الواقع أنه إذا كان هناك سبب أو سببان لإقناع قسطنطين بتكليف جنسيوس بهذه المهمة، فقد تعددت الأسباب التي يمكن أن يعزى إليها عزوف قسطنطين عن استمرار جنسيوس في مهمته. وللأسف الشديد، فان هذه الأسباب لا تتجاوز مرحلة الاحتمال ولا تتعدى كونها استنتاجات لا تستند إلى نصوص صريحة أو وقائع ثابتة تاريخيا. وقد يكون أهم هذه الأسباب أن أسلوب جنسيوس جاء مصقولاً رناناً مترفعاً، يفتقر إلى الوضوح في بعض الأحيان. فقد اهتم جنسيوس، شأنه شأن الكتاب الكلاسيكيين النموذجيين ببعض الأساسيات مثل الاستعانة باقتباسات المصادر الكلاسيكية وبمشاهد من الأساطير والتاريخ، وبالأسلوب الأثينى الذي هو العمود الفقرى للتراث الكلاسيكي. كما كانت وجهة نظر أصحاب هذه المدرسة أن جميع الزلات إلى اللغة الدارجة أو الشعبية تفسد الطابع الكلاسيكى للعمل الأدبي[٢١] بينما كان قسطنطين يرغب، فيما يبدو، في وضع كتاب يكون موجهاً للجمهور العريض. وكان هذا الأمر إحدى السمات التاريخية التي حرص عليها قسطنطين السابع. ويتضح ذلك من النصيحة التي أسداها لابنه في بداية رسالته في كتاب الإدارة الإمبراطورية : " إننى لم أحاول أن أستعرض الكتابة الجميلة أو الأسلوب الرنان المتميز بالمنطق والرقى ... بل حاولت أن أعلمك اللغة الشائعة والدارجة ... " [٢٢] .

---

٢٠ - Toynbee, Arnold, *Constantine Porphyrogenitus and His World*, London, Oxford University Press, 1973, p. 6.

٢١ - Hunger Herbert, The Classical Tradition in Byzantine Literature: The Importance of Rhetoric, *Centre for Byzantine Studies*, Birmingham, 1981, p. 43.

٢٢ - Ernest Barker, *Social and Political Thought in Byzantium*, Oxford, 1952, p. 4.

حرص جنسيوس على تجنب استخدام التعبيرات الحديثة. وينطبق هذا على أسماء الشعوب والأشخاص والأماكن والمصطلحات الإدارية والعسكرية، وكذلك الكلمات المستعارة من اللاتينية أو الإيطالية أو السلافية أو التركية أو العربية وغيرها. انظر: Hunger, Herbert, *The Classica* , p. 46.

وربما لم يرض قسطنطين أيضاً عن حجم المؤلف (خاصة إذا ما قورن بعمل صاحب الصلة المجهول الذي كلفه قسطنطين بنفس المهمة)، أما السبب الرئيسي الذي يمكن فعلا أن يكون الدافع وراء عدم رضى قسطنطين عن إنجاز جنسيوس فهو الطريقة التي قدم بها جنسيوس الأباطرة الذين حكموا قبل تولى الأسرة المقدونية مقاليد الحكم. فقد أعرب جنسيوس عن تقديره لليو الخامس كرجل دولة . ورغم أن جنسيوس بذل الكثير من المديح والإطراء لباسيل الأول، فان أمانته والتزامه بأسلوبه جعلاه يذكر بعض الأفعال التي لا تعد في صالح هذا الإمبراطور، ومن هنا جاء نبذ قسطنطين للكتاب[٢٣] . ولكن بقى الكتاب، وبقيت قيمته كأول محاولة للكتابة التاريخية بعد انقطاع دام لأكثر من مائة وثلاثين عاما كما سبق القول.

كتاب الملوك :

وضع جنسيوس كتاب الملوك باللغة اليونانية، ولم يحفظ لنا الاسم الأصلى للكتاب، غير أن استخدام عبارة βασιλειων β أى " الملك الثاني" في مستهل الجزء الثاني من الكتاب يحمل على الاعتقاد بأن اسم الكتاب كان βασιλειαι، أي " الملوك " [٢٤]، وترجم باللاتينية إلى Regum libri quattuor أو " كتاب حكم الملوك الأربعة " وقد نشره لاخمان Lachmann في المجموعة التاريخية البيزنطية في بون سنة ١٨٢٨م [٢٥] .

وظهرت طبعة حديثة للكتاب في برلين سنة ١٩٧٣ عن دار نشر دو جرويتر وشركاه de Gruyter & Co. وهي مدونة باللغة اليونانية، مع مقدمة للناشر باللغة الألمانية للتعريف بالمؤرخ والكتاب، أعيد طبعها سنة ١٩٧٨[٢٦] ثم ظهرت طبعة حديثة للكتاب في فيينا سنه ١٩٨٩ مترجما إلى الألمانية [٢٧]، حيث قامت بترجمته والتقديم له والتعليق عليه آنى ليسموليه فيرنر Anni Lesmüller-Werner. وقد اعتمد الباحث في إعداد هذا البحث على الأصل اليوناني الوارد في طبعة برلين سنة ١٩٧٨، مع الاستئناس بتعليقات الناشر باللغة الألمانية.

٢٣- Barišić, F., *Génésios et le Cont*, p.121.

٢٤- Barišić, F., *Génésios et le Cont.*, p.132, n. 3.

٢٥- *Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae*, Bonne, 1828, p. 11.

٢٦ – انظر ما سبق، ص ٥ – هـ ٨ .

٢٧ – *Byzanz Am Vorabend Neuer Grösse Uberwindung des Bilderstreites und der Innenpolitischen Schwäche (819-868): Die Vier Bücher der Kaisergechichte des Joseph Genesios*; Übersetzt, eingeleitet und erklärt von Annie Lesmüller-Werner, (Vienna: Fassbaender, 1989), *Byzantinische Geschichtsschreiber*, Band XVIII.

ويتألف هذا المصنف من أربعة كتب طبقا لما جاء في الاسم اللاتينى للكتاب Regum libri quattuor تغطي عصور خمسة من الأباطرة البيزنطيين. فيتناول الكتاب الأول عصر الإمبراطور ليو الخامس الأرميني Leo V the Armenian (٨١٣ – ٨٢٠م)(٢٨)، ويتناول الكتاب الثاني عصر ميخائيل الثاني العموري Michael II (٨٢٠-٨٢٩ م)، ويخصص الكتاب الثالث لحكم ثيوفيل Theophilus إبن ميخائيل الثاني (٨٢٩-٨٤٢م)، وأخيرا يتحدث في الكتاب الرابع عن عصر كل من الإمبراطور ميخائيل الثالثMichael III (٨٤٣- ٨٦٧م) والإمبراطور باسيل الأول المقدوني Basil I (٨٦٧-٨٨٦م) (٢٩) .

مصادر جنسيوس :

بإستثناء ما ذكره جنسيوس صراحة في مقدمة كتابه من أنه أسس كتابه على الوثائق المكتوبة وعلى الأقوال الشفوية المتناقلة، وأنه ألفه بكثير من الجهد والمشقة (٣٠)، فإن النصوص المدونة التي رجع إليها لتأليف كتابه كانت موضوع دراسة لعدد كبير من العلماء الذين لم تتفق آراؤهم على حلول نهائية لهذه المسألة، ولم يزد ما طرحوه من آراء على كونه مجرد احتمالات واستنتاجات خلصوا إليها من خلال استقرائهم لنصوص المؤرخين السابقين على جنسيوس والتي يمكن أن تندرج – كلها أو بعضها – تحت عنوان " الوثائق المكتوبة " التي أشار إليها جنسيوس نفسه. وقد جمع الناشر الألمانى للطبعة الحديثة من الكتاب التي ظهرت في سنة ١٩٧٨، هذه الآراء في المقدمة التي وضعها للتعريف بالكتاب ومؤلفه وجاء فيها أن باريشتش يرى أن مصادر جنسيوس في تأريخه لعصر ميخائيل الثاني هي كتاب سرجيوس المعترف Sergios Confessor (٣١)، وحياة

---

٢٨ – ويرد في هذا الكتاب، في مواضع متفرقة، ذكر ميخائيل العموري قبل أن يصبح إمبراطورا.
Genesius, *regum*, pp. 4 – 10.

٢٩ – وهو ما حدا ببعض الباحثين إلى الاعتقاد خطا أن مصنف جنسيوس يتألف من خمسة كتب.

٣٠ - Moravesik, G., *Byzantionturcica*, Berlin, 1958, vol I, pp. 175-176; Krumbacher K., *Geschichte*, pp. 129-131; Hirsch, *Byzantinische*, p. 117, p. 124; Barišić, F., *Génésios et le Cont.*, p. 134.

٣١ - Sergius, Cp. Patr., *Responsio Canonica* (Leunchavius, *P. G. M.*, Tome 119, Paris 1864-1881. cf. also Grégoire, H., "Etudes sur le IX siécle," *B* 8(1933), pp. 550-515; Haldon, *Byzantium*, p. 226.

ويؤكد باريشتش أن هناك تشابها بين وصف جنسيوس لعصر ميخائيل الثاني ووصف سرجيوس المعترف للعصر نفسه. ودلل على هذا التشابه بإيراد فقرة كاملة من مجموعة فوتيوس المعروفة باسم (المكتبة) يتضح-

البطريرك نقفور Vita des Patriarchen Nikephoros لإجناتيوس الشماس Ignatius Diaconus [٣٢]، وحياة البطريرك اجناتيوس Vita des Patriarchen Ignatios لنيكيتاس البفلاجونى Niketas Paphlagon [٣٣] بالإضافـة إلى وثيقة كتبها الإمبراطـور (قسطنطين السابع) نفسه عن توماس السلافي. أما هيرش Hirsch [٣٤]، فقد أثبت أن جنسيوس قد استخدم كتاب جورج موناخوس Georgius Monachus كمصدر بالإضافة إلى أعمال اجناتيوس الشماس ونيكيتاس البفلاجونى التي أشار إليها باريشتش[٣٥]. وذهب هنرى جريجوار Grégoire, H إلى أن جنسيوس استخدم سيرة مفقودة لحياة مانويل Vita Manuels كمصدر للتأريخ لميخائيل الثالث. وتمثل إسهام كازدان Każdan [٣٦] في تحديد مصادر جنسيوس في افتراضه أن مصدره في الكتاب الرابع هو تاريخ الاستراتيلاتيس أندريا Andrea، وهو رواية جيدة عن سقوط عمورية [٣٧]. وأخيرا فقد اهتمت كارلين هايتر Karlin-Hayter [٣٨] بصفة خاصة بعهد ميخائيل الثالث وعززت أبحاثها الدقيقة النتائج التي توصل إليها جريجوار وكازدان بشأن اعتماد جنسيوس وصاحب الصلة على مصدر مشترك في وصفهما لهذا العهد [٣٩] . وبالإضافة إلى ذلك فقد ذكرت كارلين هايتر أن من بين المصادر التي استعان بها جنسيوس في وضع مؤلفه حياة ثيوكيتستوس Vita des Theoktistos، وحياة قسطنطين الأرميني Vita des Konstantins des

---

منها أن سرجيوس يعرض للأحداث بتسلسلها التاريخى حتى العام الثامن من حكم ميخائيل الثاني مثلما أوردها جنسيوس. انظر:

Photius (Patr), *Bibliotheca*, *P. G. M.*, Tome 103, Paris 1900 ,col. 164 ; cf. also: Barišić, *Les Sources*, p. 260.

٣٢ – أورد إجناتيوس مجموعة قصائد تهاجم توماس، وقد عرفت باسم (مآخذ توماس) وقد تأثر جنسيوس بها حتى أنه استخدم نفس الاصطلاح. انظر:

Ignatius Diaconus, *Vita Nicephori Patr*, *P. G. M.*, Tome 117, Paris, 1861-1897, cols. 1163-1178, Tome 100, Paris, 1860, cols. 76-77

وللمزيد من التفاصيل عن إجناتيوس الشماس انظر: Haldon, *Byzantium*, pp. 276-278.

٣٣ - Nicetas David Paphlago, *Vita S Ignatii Patr*, *P. G. M.*, Tome 105, Paris, 1862, col. 489, (cols. 487-574). cf. also Haldon, *The Sources*, p. 214.

٣٤ - Hirsch, *Byzantinischen*, pp. 171-172.

٣٥ - Hirsch, *Byzantinischen*, p. 172; Barišić, *Génésios et le Cont.*, p. 131.

٣٦ - Kazdan, A.P., *Deux chroniques byz. du X siécle.*, Moscou, 1950, p. 100, p. 228.

٣٧ - Grégoire, H., "La vie de saint Blaise d'Amorium dans," *BZ*, V(1930), pp. 391-414; Vasiliev, A. A., *Byzance et les Arabes*, Tome II, (La Dynastie Macédonienne) 867-959, Bruxelles, 1968, p. 84, p. 101-102.

٣٨ - Karlin Hayter, Vita Euthymii, dans, " *BZ*, XXV(1955), pp. 34-70.

٣٩ - Grégoire, H., "Inscription," *B.*, 5(1929-1930), pp. 235-246.

Armeniers، وحياة بتروناس Vita des Petronas، وحياة بارداسVita des Bardas، وحياة الإمبراطورة ثيودورا Vita der Kaiserin Theodora [٤٠].

والخلاصة أن جنسيوس استخدم عددا من المصادر المكتوبة، وهو أمر يستدل عليه باريشتش بدليل ثابت وقرائن مستنتجة. أما الدليل الثابت فهو ما صرح به في مقدمة كتابه كما سبق القول. وأما القرائن التي يمكن استنتاجها فتتمثل أولا في وجوده في البلاط الإمبراطوري، الأمر الذي يتيح له فرصة الاطلاع على ما في القصر من وثائق وكتب، كما تتمثل في التشابه الذي لاحظه بعض العلماء الذين سبقت الإشارة إليهم بين أجزاء من كتابه وأعمال مؤلفين آخرين. كما ترد في مقالة أخرى لباريشتش إشارة واضحة إلى التسلسل الزمني للأحداث في وصف جنسيوس لعصر ميخائيل الثاني، خلافا لما فعل في بقية أجزاء كتابه من إيراده لكمية معلومات متشابكة بلا أى ترتيب موضوعى أو تسلسل زمني[٤١] .

المصادر البيزنطية التي أرخت لميخائيل الثاني:

كانت أهم المصادر البيزنطية التي أرخت لعصر ميخائيل الثاني – بحسب قربها الزمنى من فترة حكمه – هي :

- جورج هامارتولوس Georgius Hamartolus [٤٢] الذي وضع حوالى سنة ٨٥٠ م، أى في منتصف القرن التاسع، مؤلفه الذي عرض فيه تاريخ العالم منذ آدم حتى سنة ٨٤٢ م . فهو بهذا أقرب المصادر عهدا بحكم ميخائيل الثاني الذي توفي في ٨٢٩ م .
- جوزيف جنسيوس Josephus Genesius [٤٣] الذي عاش في منتصف القرن العاشر وكلفه الإمبراطور قسطنطين السابع (٩١٣ – ٩٥٩ م) بوضع تكملة لكتاب ثيوفانيس، وهي التكملة التي ربما وضعت سنة ٩٤٥م أو بعدها. وأخرج جنسيوس هذه التكملة تحت اسم " حكم الملوك " وتناول فيها الفترة من ٨١٣ حتى ٨٨٦ م. وبهذا يكون هذا المؤلف قد كتب بعد مائة وخمس عشرة سنة تقريبا من وفاة ميخائيل الثاني.

٤٠- Genesius, *regum*, pp. XIII-XIV. cf. also Delehaye, H.,"La vie de sainte Théotiste," *B.*, I(1924), pp. 192-194.

٤١- Barišić, F., *Génésios et le Cont*, p. 125.

٤٢- Hamartolus, Georgius Monachus, *Chronicon*, *P.G.M.*, Tome CX, Paris, 1863, Col. 41-1286.

٤٣- انظر ما سبق، هـــ ٨ .

- صاحب صلة ثيوفان Theophanes Continuatus [٤٤] والذي لم يعرف اسمه حتى اليوم، وهو مصدر آخر من عهد قسطنطين السابع ربما فاقت شهرته شهرة كتاب جنسيوس ويذهب ف. باريشتش إلى أن قسطنطين السابع قد كلفه بوضع كتاب في التاريخ لعدم رضائه عن المؤلف الذي وضعه جنسيوس. وذكر بيوری أن الكتب الثلاثة الأولى من صاحب صلة ثيوفان قد كتبت ما بين عامی ٩٤٩ و٩٥٠م [٤٥]، أی بعد وفاة ميخائيل الثاني بنحو مائة وعشرين سنة تقريباً.
- حنا سكيليتزيس Ioannes Skylitzes [٤٦] وعاش بين القرنين الحادی عشر والثاني عشر الميلاديين، ووضع مؤلفه " موجز التاريخ " في عهد ألكسيس كومنين (١٠٨١ – ١١١٨م)، وتناول فيه الفترة من ٨١١ إلى ١٠٥٧م. وإذا افترضنا أن سكيليتزيس قد شرع في وضع مؤلفه فور تولی ألكسيس كومنين الحكم، فإن معنى ذلك انه بدأ في تحريره بعد وفاة ميخائيل الثاني بأكثر من مائتين وخمسين عاما.
- جورج كيدرينوس Georgius Cedrenus [٤٧] الذي عاش في منتصف القرن الحادی عشر ووضع كتابا عن تاريخ العالم منذ بدء الخليقة حتى سنة ١٠٥٩م. وقد ألف هذا الكتاب في سنة ١١٠٠م، أی بعد أكثر من مائتين وسبعين سنة من وفاة ميخائيل الثاني.
- حنا زوناراس Ioannes Zonaras [٤٨] الذي توفي في ١١٣٠م، ووضع تاريخا للعالم من بدء الخلق حتى سنة ١١١٨م. ويمكن أن نستنتج من تاريخ وفاته أنه ألف كتابه بعد أكثر من ثلاثمائة سنة من وفاة ميخائيل الثاني.

وبالإضافة إلى هذه المصادر التي تناولت عصر ميخائيل الثاني بشيء من التفصيل، فإن هناك عددا من المصادر الأخرى التي تناولت هذا العصر باختصار واضح ومن هذه المصادر:

---

٤٤ – انظر ما سبق، ص ١٠، هـ ١٧.

٤٥ - Hirsch, *Byzantinische*, p. 122; Bury, *E. R. E.*, pp. 460-461; Barišić, F., *Génésios et le Cont.*, p.119..

٤٦ - Scylitzes Ioannes, *Synopsis Historiaroum*, new edition, I. Thurn, Berlin, 1973.

٤٧ - Cedrenus, Georgius, *Historiarum Compendium*, *P.G.M.*, Tome CXXI-CXXII, Paris, 1864 et 1894, Cols. 23-1166, Cols. 9-368.

٤٨ - *Zonaras Ioannes Annalium*, *P.G.M.*, Tome CXXXIV-CXXXV, Paris, 1864.

- ليو جراماتيكوس Leo Grammaticus [٤٩] الذي عاش في القرن العاشر الميلادي، ووضع كتابا بعنوان Chronographia أى الحولية، ورغم دقة معلومات هذا المؤرخ، فإن كتابه يتسم بالإيجاز الشديد.
- سيمون ماجستر Symeon Magister [٥٠] مؤلف التاريخChronicle وتمتد الفترة التي تناولها هذا المؤرخ من حيث توقف ثيوفان، أى من عـــام ٨١٣ م حتى عام ٩٤٤م.
- قسطنطين ماناسيس Constantine Manasses [٥١]، ووضع التاريخ المختصر Breviarum Historiae Metricum، في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي على شكل أشعار سياسية ويغطى الفترة حتى اعتلاء ألكسيس كومنين Alexius Comnenus العرش في عام ١٠٨١م.
- افرايموس موناخوس Ephraemus Monachus [٥٢] الذي ألف حولية تحمل اسمه تتضمن تاريخ الأباطرة من عهد يوليوس قيصر Julius Caesar حتى دخول ميخائيل الثامن باليولوجوس (١٢٦١ – ١٢٨ م) Michael VIII Palaeologus القسطنطينية في ١٢٦١ م .

ومن خلال تتبع هذه المصادر يتبين أن اقرب المصادر إلى زمن ميخائيل الثاني هو جورج هامارتولوس الذي كتب بعد حوالى ثلاثين سنة من وفاة ميخائيل الثاني، بينما تراوحت المدة الزمنية الفاصلة بين وفاته والمصادر الأخرى التي أرخت له بين مائة وخمس عشرة سنة وثلاثمائة سنة، الأمر الذي يؤكد أن رواية كل هذه المصادر، ربما باستثناء هامارتولوس، لأحداث عصر ميخائيل الثاني لم تكن رواية شهود عيان، بل رواية تناقلها المؤرخون جيلا بعد جيل. وليس من رأى كمن سمع. وتلك نتيجة ينبغى أن توضع في الحسبان في أى دراسة نقدية تحليلية للمؤلفات التاريخية التي تناولت عصر الإمبراطور ميخائيل الثاني أو أى عصر آخر.

---

٤٩ - Leo Grammaticus, *Chronographia* (813-849), *P.G.M.*, Tome CVIII, Paris, 1863, Cols. 1037-1164.

٥٠ - Symeon Magister (Logothete), *Chronographia*, *P. G. M.*, Tome CIX, Paris, 1863, Cols. 663-822.

٥١ - Constantine Manasses, *Compendium Chronicum*, *P. G. M.*, Tome CXXVII, Paris, 1863, Cols. 215 – 472 .

٥٢ - Ephraemius Monachus, *Chronicle*, ed. Bekker, I. , *C. S. H. B.*, Bonn, 1834.

دراسة مقارنة لرواية جنسيوس عن حكم ميخائيل الثاني العموري في ضوء روايات المصادر الأخرى

أولاً : تولي ميخائيل الثاني العموري الحكم :

رغم أن جنسيوس يخصص الكتاب الثاني من مصنفه للتأريخ لعصر ميخائيل الثاني بصفته إمبراطورا للإمبراطورية البيزنطية في الفترة من عام ٨٢٠ م إلى عام ٨٢٩ م، فإنه يخصص جانبا كبيرا من الكتاب الأول والذي يؤرخ فيه لعصر ليو الخامس الأرميني للحديث عن ميخائيل وعلاقته بليو، وملابسات اغتيال ليو والمناداة بميخائيل إمبراطورا. والواقع أن جنسيوس قد خصص نحو ثلث الكتاب الأول للحديث عن ميخائيل وملابسات اتهامه بسب الإمبراطور في مجالسه الخاصة ومحاكمته والحكم عليه بالإعدام وما ترتب على ذلك من تآمر واغتيال ليو[٥٣] على النحو الذي سنفصله فيما يلي. وبالإضافة إلى ذلك، فقد تعددت الإشارات في الكتاب الأول إلى تطور العلاقات بين ميخائيل العموري وليو الأرميني بدءا من تآمرهما على ميخائيل رانجابى أثناء قتاله للبلغار والمناداة بليو إمبراطوراً، وانتهاء باغتيال ليو بتحريض من ميخائيل العموري والمناداة بهذا الأخير إمبراطوراً [٥٤] .

ففي الفقرة الثانية من الكتاب الأول، يذكر جنسيوس أن ميخائيل أقسم لليو أنه سيقتله إذا لم يوافق على المناداة به (أى بليو) إمبراطورا، وذلك أثناء المعركة مع البلغار[٥٥] . وفي الفقرة الرابعة، ترد قصة خلع ليو لرداء أرجوانى كان يرتديه، لرغبته في أداء صلاة معينة، وإعطائه هذا الرداء لميخائيل، واعتبار ذلك علامة على أن ميخائيل سيخلف ليو على العرش[٥٦]. وفي الفقرة السادسة، ترد القصة الكاملة لنبوءة عراف فيلوميليون Philomilion [٥٧]. وفي الفقرة الثامنة، يحكى جنسيوس ما كان من انقلاب

---

٥٣ - يتكون الكتاب الأول من كتاب الملوك المخصص لوصف حكم ليو الخامس الأرميني من أربع وعشرين فقرة خصص منها جنسيوس خمس فقرات للحديث عن محاكمة ميخائيل واغتيال ليو هي الفقرات ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١ . انظر : Genesius, *regum*, pp. 15-20.

٥٤ - Genesius, *regum*, pp. 4-10.

٥٥ - Genesius, *regum*, pp. 4-10.

٥٦ - Genesius, *regum*, pp. 5-6.

٥٧ - كان بردانوس توركوس الذي قام بثورة على الإمبراطور نقفور الأول Nicephorus I (٨٠٣ - ٨١١ م) في سنة ٨٠٣ قد اصطحب معه أتباعه الثلاثة، ميخائيل العموري، وليو الأرميني، وتوماس لاستطلاع رأي هذا العراف وسؤاله عما إذا كان سيوفق في ثورته. وأجاب العراف قائلا أن اثنين من =

ليو وميخائيل على باردانيس أثناء ثورته على نقفور الأول، وانضمامهما إلى هذا الأخير[٥٨]. وفي الفقرة الحادية عشرة، حديث عن تكريم ليو لتوماس وميخائيل، رفيقيه السابقين، بتعيين توماس طورمارخا *tourmarch* [٥٩] لقوات المعاهدين [٦٠] *Foederati*، ومنح ميخائيل لقب بطريق Patrikios [٦١].

وقد يوحى ذلك بأن هناك تداخلاً بين عصري ليو الخامس وميخائيل الثاني، وإخلالا بالمنهج الذي التزم به جنسيوس في تخصيص كتاب من الكتب الأربعة التي يتألف منها مصنفه لكل من الأباطرة الخمسة الذين أرخ لهم، خاصة وأن هذا التداخل بين العصور لا يظهر في الكتب الثلاثة الأخرى. ولكن الحقيقة غير ذلك. فقد التزم جنسيوس بمنهجه التاريخى – أو بالخطة التاريخية التي وضعها لكتابه – حيث بدأ الكتاب الثاني المخصص لميخائيل الثاني بذكر المناداة به إمبراطورا واختتمه بذكر موته متأثرا بمرض في الكلي. فما بين الحدثين هو فعلاً عصر أو فترة حكم ميخائيل الثاني.

غير أن التناول الموضوعى لفترة حكم هذا الإمبراطور يقتضى تتبع العلاقات بين الرجال الثلاثة ليو الأرميني، وميخائيل العموري، وتوماس السلافي، الذين جمعتهم التبعية لباردانيس في مقتبل حياتهم وفرقتهم المصالح الشخصية بعد ذلك. وبلغ من تشابك هذه

الثلاثة سيصبحان من الأباطرة، أما الثالث فسوف يقتل قبل أن يحقق هدفه. انظر: Genesius, *regum*, p. 23; cf. also Vasiliev, *Byzance et les Arabes*, p. 27.

٥٨ - Genesius, *regum*, pp. 9-10.

٥٩ – الطورمارخ turmarch هو آمر الكتيبة turma. وفي نظام الثيمات أو ألوية الثغور البيزنطي كان كل ثيم ينقسم إلى إمارتين أو ثلاث إمارات يطلق على كل منها طورمارخية turmarchies تحتلها كتيبة وتكون تحت قيادة الطورمارخ. انظر: ستيفن رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، – مشروع الألف كتاب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦١، ص ١٦٣ – ١٦٤ . انظر أيضاً : *The Oxford Dictionary of Byzantium*, Oxford University Press, 1991, 3 volumes, vol. 3, p. 2100 .

٦٠– كانت قوات المعاهدين foederati في الأصل فرسانا من البرابرة استدعاهم الإمبراطور ثيودوسيوس الأول Theodosios I (٣٧٩ – ٣٩٥ م) عندما كان يعيد بناء الجيش الإمبراطوري وأطلق عليهم هذا الاسم، من الكلمة اللاتينية foedus أي معاهدة. وهي فرق من البرابرة أو قبائل بأجمعها كانت تنضوي في الحرب مع الجيش البيزنطي تحت إمرة قاداتهم. وفي القرن الثامن الميلادي دخلت هذه القوات مع غيرها من قوات المرتزقة في تشكيل الحرس الإمبراطوري. انظر: رانسيمان، الحضارة البيزنطية، ص ١٦٠ –١٦٢ .

٦١ - Genesius , *regum*, p. 16-20.

والبطريق لقب رفيع استحدثه قسطنطين الأول (ت ٣٣٧ م) كلقب فخرى دون أي مهام إدارية. وفي الفترة من القرن الثامن إلى العاشر الميلاديين كان هذا اللقب يمنح لأهم الحكام والقادة العسكريين. انظر: *The Oxford Dictionary*, vol. 3, p. 1600 ويذكر أن ميخائيل منح أيضا لقب اكسكيوبيتيس.

المصالح وتداخلها أن ألقت بظلالها الكثيفة على أي محاولة للتأريخ للإمبراطورية البيزنطية في مطلع القرن التاسع الميلادي، حيث امتدت هذه العلاقات التي كانت تلتقي حينا وتتفرق حينا آخر من حكم نقفور الأول (٨٠٢ - ٨١١ م) إلى موت ميخائيل الثاني (٨١٣ - ٨٢٠ م) الذي كان آخر من مات من الثلاثة [٦٢] .

وفيما يتعلق بهذا البحث، فإن تقييم رواية جنسيوس لفترة حكم ميخائيل الثاني لا يمكن أن يكتمل بغير الرجوع إلى تطور العلاقات بين ميخائيل ورفيقيه المذكورين والتي ترجع إلى ما قبل تولى ليو الخامس لمقاليد الحكم. وإذا كان جنسيوس لم يؤرخ رسميا لأي عصر سابق على عصر ليو الخامس فإن تأريخه لعصر هذا الإمبراطور قد تضمن تلميحات مفيدة إلى وقائع جرت في عصر كل من نقفور الأول وميخائيل رانجابى كان لها تأثيرها المباشر في تطور العلاقات بين ليو وميخائيل وتوماس، كثورة باردانيس في عصر نقفور والإطاحة بميخائيل رانجابي[٦٣].

وتبدأ رواية جنسيوس عن ظروف اغتيال ليو في الفقرات الأخيرة من الكتاب الأول. فيذكر أن ميخائيل كان يشغل منصب قائد الفرقة الرئيسية من فرسان الحرس الإمبراطوري حيث كان ليو قد منحه لقب بطريق وإكسكيوبيتيس[٦٤]. واتهم بسب الإمبراطور وحوكم لهذا السبب فصدر الحكم بإعدامه حرقا في الحمام الإمبراطوري. ولكن الإمبراطورة ثيودوسيا Theodosia تدخلت لدى الإمبراطور لمنع تنفيذ الحكم فاستجاب لرجائها ولكنه أبقى ميخائيل في السجن. وأثناء الليل قام الإمبراطور سراً بزيارة السجن ورأى ميخائيل نائماً في سرير مرتفع في جلال وهدوء بينما نام الحارس على الأرض. وأثار هذا المنظر حفيظة ليو، فانطلق وهو يلعن ميخائيل والحارس معا. ولكن خادماً كان مختبئا تحت السرير تعرف على الإمبراطور من حذائه الأرجواني، فحكى لسيده ميخائيل ولحارس السجن كل ما رآه. وهنا قرر ميخائيل الاتصال بأعوانه ووضع لذلك خطة. فأبلغ الإمبراطور أنه يريد أن يعترف بخطاياه لكاهن فسمح له بمقابلة ثيوكتيستوس Theoktistos فهدده ميخائيل بأنه سوف يبلغ الإمبراطور عن شركائه في المؤامرة إذا لم يعملوا على خلاصه[٦٥].

٦٢- Genesius, *regum*, pp. 16-20.
٦٣- Genesius, *regum*, pp. 4 – 10.
٦٤- Genesius, *regum*, p. 9.
٦٥- Genesius, *regum*, pp. 15 – 18.

وفي يوم عيد الميلاد، اختلط المتآمرون بالمرتلين أثناء الصلاة. وعند إشارة معينة، هجموا على الإمبراطور بخناجرهم ومزقوه إربا ثم قطعوا رأسه. وجرجروا جثته وألقوا بها في البالوعات حيث بقيت لفترة. ونودى بميخائيل إمبراطورا. ووضعت جثة ليو في زورق وحمل أيضا زوجته وأولاده الأربعة إلى جزيرة بروتى Prote [٦٦] حيث تم اخصاؤهم ومات ثيودوسيوس Theodosios (أحد أبناء ليو) من جراء هذه العملية[٦٧].

هذا ما أورده جنسيوس عن اغتيال ليو الخامس الأرميني ونفي أبنائه وإخصائهم. ورغم أن هذه الأحداث تمثل النهاية الفعلية لفترة حكم ليو الخامس، فإن جنسيوس لا يختتم بها الكتاب الأول من مؤلفه، بل يخصص ثلاث فقرات متتالية ألا وهي (٢٢، ٢٣، ٢٤) بعد ذلك للحديث عن ليو واعتناقه للأفكار المهرطقة، وبنائه لمدن جديدة في الإمبراطورية، وعن نسبه البربري الأشوري – الأرميني لينهي بذلك كتابه الأول عن عصر ليو الخامس[٦٨].

ويستهل جنسيوس الكتاب الثاني بذكر جلوس ميخائيل على العرش والأغلال لا تزال في قدميه. ويحدد تاريخ هذا الحدث بسنة ٨٢٠ م [٦٩]. ويذكر أن كل الحاضرين تقدموا إليه ونادوا به إمبراطورا وسجدوا له. ويعود جنسيوس إلى الحديث عن وجود الأغلال في قدمي ميخائيل ويذكر أن حنا إكسابوليوس Ioannes Exaboulioi, Logothetes tou dromu، لوغوثيت الدروم [٧٠]، كشف عن أن مفاتيح الأغلال كانت في قميص ليو، الذي أصبح جثة الآن، فتم إحضارها وتحرير ميخائيل من قيوده [٧١].

---

٦٦ – هي أكبر جزيرة في جزر الأمراء Princes' Islands في بحر مرمرة. انظر :
The Oxford Dictionary, vol 3, p. 1720.
راجع أيضاً: محمود سعيد عمران، إدارة الإمبراطورية البيزنطية للإمبراطور قسطنطين السابع بورفيروجنيتوس، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠، ص ١٥، وعن مكان هذه الجزيرة انظر الخريطة رقم 1 من هذا البحث.

٦٧ - Genesius, *regum*, pp. 15-20.

٦٨ - Genesius, *regum*, pp. 20-21.

٦٩ - Genesius, *regum*, p. 22.

٧٠ – موظف كبير مسئول عن البريد والنقل ظهر في الإمبراطورية البيزنطية منذ القرن الثامن الميلادي، وكانت مهام وظيفته تشمل الإشراف على المراسم، وحماية الإمبراطور، وجمع المعلومات السياسية، والإشراف العام على الشئون الدبلوماسية. انظر :
The Oxford Dictionary of Byzantium, vol 2, p. 1247-1248; D. A. Miller, "The Logothete of the Drome in the Middle Byzantine Period ," *B.*, XXXVI (1966/7), 438-470.

٧١- Genesius, *regum*, p. 22.

يصف جنسيوس بعد ذلك دخول ميخائيل الكنيسة الكبرى (آيا صوفيا) Hagia Sophia لتكريسه إمبراطورا دون خوف أو خجل من الله. ويختتم الفقرة بالإشارة إلى إيمان ميخائيل بنبوءة نطق بها عراف من الأثينجانوى Athinganoi [٧٢] كان قد تنبأ بتمرد توماس وبأشياء أخرى تحققت. ويحكى جنسيوس هنا تفاصيل نبوءة لهذا العراف تتعلق بارتقاء ميخائيل وشخص آخر عرش الإمبراطورية. ويفهم من السياق أن هذه النبوءة قيلت أمام باردانيس توركوس الذي كان قائدا لثيمات الشرق فقرر على الفور تزويجهما لابنتيه، وأقام مأدبة كبيرة حرص فيها على إجلاس الفتاتين مع الرجلين وعرض على الرجلين الزواج منهما. ورغم دهشة الرجلين من هذا العرض (لكونهما من أصل متواضع)، إلا أنهما وافقا في النهاية [٧٣].

تلك إذن قصة الحدث الأول في فترة حكم ميخائيل الثاني كما أوردها جنسيوس، ونعنى به اغتيال ليو وتولى ميخائيل مقاليد الحكم. وقبل التعليق عليها وعلى معالجة جنسيوس لها، يتعين مقارنة هذه الرواية برواية المصادر الأخرى التي أرخت للفترة ذاتها.

وبداية، فإن هذه المصادر تتفق جميعها على الأسلوب الذي تم به انتقال السلطة من ليو الخامس الأرميني إلى ميخائيل الثاني العموري، وهو التآمر والاغتيال [٧٤]. ولكنها تختلف في مدى معاصرتها للحدث، وطريقة عرضها له من حيث الإيجاز أو الإسهاب، والموقف الشخصى للمؤرخ من الحدث وأبطاله، والمصادر التي استمد منها المؤرخ معلوماته. وهي كلها أمور تحدد الأهمية التاريخية للمصدر وتؤثر في تقييمه. ونعرض فيما

---

٧٢ – تعني كلمة Αθιγγανου في اللغة اليونانية " الذين لا يسمحون لأحد بلمسهم " على سبيل التطهر، ويقترح الباحث اسما لهم هو " المتطهرون ". وهم طائفة من المهرطقين المتهودين عاشت في فريجيا Phrygia وليكاونيا Likaonia ورد ذكرها لأول مرة في تاريخ ثيوفانيس المعترف Theophanes the Confessor, الذي قال أن نقفور الأول (٨٠٢ – ٨١١ م) دعاهم في سنة ٨١٠ م لتقديم ثور كقربان لقمع ثورة باردانيس. وذكر صاحب صلة ثيوفان أنهم كانوا من السبتيين وأنهم كانوا يتلقون العماد ويتبعون شريعة موسى ولكنهم لا يختتنون. وكان كل واحد من الاثينجانوي يخضع للسيطرة الروحية والمادية لأحد اليهود. *The Oxford Dictionary*, vol. 1, p. 223 .

٧٣ - Genesius, *regum*, p. 23.

٧٤ - Theophanes Continuatus, *Historia*, Cols.52-52; Zonaras, *Annalium*, Cols. 334-335; Hamartolus, *Chronicon*, Col. 995; Skylitzes, *Constantinopole*, pp. 22-23; Leo Grammaticus, *Chronographia*, Cols. 210-211; Ephraemius Monachus, *Chronicle*, Col. 96; Constantine Manasses, *Compendium*, Col. 201.

يلي لرواية اغتيال ليو وتولي ميخائيل الحكم كما وردت في المصادر الأخرى التي أرخت لعصر ميخائيل.

وفيما يتعلق بمدى معاصرة المصادر لواقعة الاغتيال، فقد سبقت الإشارة إلى ذلك، عند الحديث عن المصادر التي أرخت لعصر ميخائيل الثاني[٧٥]. ويفهم من روايات المصادر أن ميخائيل كان يشغل منصباً رفيعاً قبل إقدامه على التآمر لاغتيال ليو. ولكن المصادر لا تتفق على مسمى هذا المنصب. فهو عند هامارتولوس قائد للحرس Cohors[٧٦]، وعند صاحب الصلة رئيس للمعاهدين[٧٧]، وعند ليو جراماتيكوس رئيس حرس القصر[٧٨]، بينما اكتفي سكيليتزيس بالقول أنه كان يرتقى إلى الدرجات الأعلى[٧٩]، وزوناراس بالقول بأنه وصل إلى حظ عظيم[٨٠].

وفيما يتعلق بأسباب محاكمة ميخائيل، وهي المحاكمة التي ترتب عليها تنفيذ مؤامرة اغتيال ليو. فقد وصف هامارتولوس ميخائيل في هذا الموقف بأنه وقع ضحية لوشاية وصلت إلى الإمبراطور بأنه كان يتآمر ضده[٨١]، ولم يبتعد صاحب الصلة عن ذلك كثيرا حيث وصف إبلاغ اكسابوليوس لليو بما كان ميخائيل يقول عنه بأنه " فعل شرير"[٨٢]. وبينما ذهب ماناسيس إلى أن ليو كان يخشى من استيلاء ميخائيل على السلطة فأمر باقتياده في الأغلال وألقى به في السجن[٨٣]، ذكر ليو جراماتيكوس صراحة أن ميخائيل كان يشغل وظيفة رئيس الحرس في القصر وأنه كان يعد العدة ويتآمر ضد الإمبراطور، وعندما علم الإمبراطور بذلك قبض عليه وألقى به مقيد القدمين في السجن[٨٤].

أما سكيليتزيس فقد أفاض في وصف سلوك ميخائيل وعدم قدرته على التحكم في لسانه، وتفوهه بألفاظ لا تليق في حق الإمبراطور. ولكن وصول هذه الألفاظ إلى مسامع

---

٧٥ – انظر ما سبق، ص ٢٨٨ وما بعدها.

٧٦ - Hamartolus, *Chronicon*. Col. 995.

٧٧ - Theophanes Continuatus. *Historia*, Col. 48.

٧٨ - Leo Grammaticus, *Chronographia*, Col. 210.

٧٩ - Skylitzes, *Constantinople*, p. 20

ويعلق ناشر الطبعة الفرنسية، التي اعتمد عليها الباحث، في حاشية في هذا الموضع بأن ميخائيل كان في ذلك الوقت قد أصبح بطريقا ودومستيق للإكسكيوبيتيس.

٨٠ - Zonaras, *Annalium*, Col. 1376.

٨١ - Hamartolus, *Chronicon*, Col. 995.

٨٢ - Theophanes Continuatus, *Historia*, Col. 48.

٨٣ - Constantine Manasses, *Compendium*, Col. 200.

٨٤ - Leo Grammaticus, *Chronographia*, Col. 210.

الإمبراطور لا يتخذ شكل الوشاية المجردة، كما هو الحال عند هامارتولوس وصاحب الصلة، التي تدفع الإمبراطور فوراً إلى محاكمته، بل إن الإمبراطور عندما يعلم بما يقول ميخائيل عنه يحاول أولاً إثناءه عن سلوكه الطائش ومخططاته الشريرة لأنه كان يعرف أنه عبد لداء فظيع هو الإسراف في الكلام. ولكن بعد أن استنفد الإمبراطور كل وسائل النصح والتهديد، ووجد أن ميخائيل كان ينكر ما صدر منه، فإنه أرسل الجواسيس يراقبونه ويستمعون إلى ما يقول. وضبطه هؤلاء عدة مرات متلبساً بالتجاوز في كلامه وقد فقد صوابه بفعل الخمر، وأبلغ الجواسيس الإمبراطور بذلك وأكد هذه المعلومات هكسابوليوس Hexaboulios، وهو رجل حكيم من المقربين إلى الإمبراطور. وكان هكسابوليوس هذا قد حاول كثيرا منع ميخائيل من إلقاء نفسه في التهلكة، وعندما لم يتمكن من حمله على الاستماع إليه كشف كل شئ للإمبراطور. ويستفاد من ذلك أن الإمبراطور علم بمسلك ميخائيل من ثلاثة مصادر، لم يذكر سكيليتزيس أولها مكتفيا بقوله: " عندما علم الإمبراطور بذلك "، وكان المصدر الثاني لمعلومات الإمبراطور هو جواسيسه الذين أرسلهم لمراقبة ميخائيل في مجالسه، وكان المصدر الثالث هو هكسابوليوس. ويذكر المعلق على الطبعة الفرنسية من كتاب سكيليتزيس التي اعتمد عليها الباحث في هذه الدراسة أن هكسابوليوس هو نفسه حنا اكسابوليوس الذي كان ليو الخامس قد رقاه إلى رتبة بطريق ولوغوثيت الدروم، وهو ما يفسر مسئوليته عن مراقبة سلوك ميخائيل، لأن صاحب هذه الوظيفة كان يدير إدارات المعلومات[٨٥]. أما زوناراس، فلا نجد عنده في هذا الصدد إلا جملة واحدة يقول فيها : "... وقد حمل (ميخائيل) إلى الإمبراطور كما لو كان قد أعد له كمين ليعمل على هلاكه" [٨٦]. ولا تختلف المصادر في وصف تفاصيل المحاكمة أو الحكم الذي صدر بإعدام ميخائيل. وتتفق رواية المصادر أيضا حول تدخل الإمبراطورة تيودوسيا ومنعها للإمبراطور من تنفيذ الحكم[٨٧]. أما الزيارة الليلية التي قام بها ليو لسجن ميخائيل فقد أوردها صاحب الصلة وسكيليتزيس وزوناراس [٨٨].

وفيما ذكر صاحب الصلة وسكيليتزيس قصة اتصال ميخائيل بأعوانه عن طريق التظاهر برغبته في الاعتراف [٨٩]، أورد هامارتولوس وزوناراس قصة

٨٥- Skylitzes, *Constantinople*, p. 20.

٨٦- Zonaras, *Annalium*, Col. 1376.

٨٧- Theophanes Continuatus, *Historia*, Cols. 48-49; Hamartolus, *Chronicon*, Col. 995; Zonaras, *Annalium*, Cols. 1376-1377; Skylitzes, *Constantinople*, pp. 20-21.

٨٨- Theophanes Continuatus, *Historia*, Cols. 52; Skylitzes, *Constantinople*, p. 22; Zonaras, *Annalium*, Cols. 1377-1380.

٨٩- Theophanes Continuatus, *Historia*, Cols. 52; Skylitzes, *Constantinople*, p. 22.

الاتصـــال(٩٠) دون إشارة إلى هذه الرغبة أو إلى ثيوكيتيستوس الذي جئ به إلى ميخائيل ليعترف له، بينما انفرد زوناراس بالقول بأن ميخائيل كتب خطاباً إلى رفاقه يهددهم بأنه سيبلغ الإمبراطور عنهم(٩١). فلا يذكر هذا الخطاب في أى من المصادر الأخرى.

وتتفق المصادر كلها على تفاصيل الاغتيال. ويلاحظ الإيجاز الشديد في الرواية لدى هامارتولوس، والإسهاب النسبى لدى سكيليتزيس كما اتفقت المصادر بعد ذلك فيما حدث بعد الاغتيال من المناداة بميخائيل والأغلال في قدميه وإلقاء جثة ليو في الملعب ودخول ميخائيل الكنيسة للتكريس ووضع جثة ليو مع أسرته على زورق وإرسالهم إلى جزيرة بروتى وإخصاء أبنائه وموت أحدهم (ثيودوسيوس) بسبب هذه العملية (٩٢).

ثانياً : ثورة توماس :

يشغل الحديث عن ثورة توماس حيزاً كبيراً من الكتاب الثاني في مصنف جنسيوس(٩٣). حيث يورد وقائع هذه الثورة بالتفصيل من بداياتها الأولى وأسبابها المحتملة حتى انتهائها بالقبض على توماس وإعدامه. كما حظيت هذه الثورة بنفس القدر من الاهتمام من جانب المصادر الأخرى المعاصرة لها أو التي أرخت لها على مدى فترة امتدت لقرابة ثلاثمائة سنة من وقوعها (٩٤).

ونظرا للطول النسبى للفترة التي استغرقها قمع هذه الثورة، وكثرة وقائعها، فقد رأى الباحث تقسيم هذه الوقائع إلى موضوعات فرعية للبحث والتحليل يتم من خلالها استعراض الموضوع كما أورده جوزيف جنسيوس، باعتبار مصنف هذا المؤرخ موضوع البحث، ثم متابعة رواية نفس الموضوع في أهم مصادر الفترة، ومقارنة الروايتين.

---

٩٠ - Hamartolus, *Chronicon*, Col. 995; Zonaras, *Analium*, Col. 1380.

٩١ - Zonaras, *Annalium*, Col. 334.

٩٢ - Theophanes Continuatus, *Historia*, Cols. 52-54; Hamartolus, *Chronicon*, Col. 995; Zonaras, *Annalium*, Cols.334-336; Skylitzes, *Constantinople*, pp. 23, 25-26.

٩٣ - الفقرات من الثانية إلى التاسعة، انظر : Genesius, *regum*, pp. 23 – 32.

٩٤ - Theophanes Continuatus, *Historia*, Cols. 63 -86 ; Zonaras, *Annalium*, Cols. 339 - 347; Cedrenus, *Compendium*, Cols. 958-974; Skylitzes, *Constantinople*, pp. 29-40; Leo Grammaticus, *Chronographia*, Cols. 211-212. cf. also Bury, *E. R. E.*, pp. 462-464.

١ - نشأة توماس السلافي :

ذهب جنسيوس في مستهل حديثه عن ثورة توماس، في الكتاب الثاني من مصنفه، قبل أن يورد وقائع هذه الثورة، إلى أنه ربما كان سكيثيا σκυθιζων [٩٥] عريق النسب، أى أنه كان سلافي الأصل[٩٦]، غير أنه كان قد ذكر في معرض حديثه عن ثورة بارداس، في الكتاب الأول المخصص لعهد ليو الخامس الأرميني، أنه كان ارمينى الأصل εξ Αρμενιων وأن موطنه كان على بحيرة جازورا [٩٧]. ولكن المصادر البيزنطية الأخرى اختلفت حول هذه المسألة، فذهب هامارتولوس إلى أن توماس ولد في مكان مجهول [٩٨]، ولم يبتعد زوناراس عن ذلك كثيرا، فذكر أن توماس كان من أصل أجنبى مجهول وأنه خضع للرق وبيع كعبد [٩٩]، على حين أورد كل من صاحب صلة ثيوفان[١٠٠]، وسكيليتزيس[١٠١]، وكيدرينوس[١٠٢] روايتين مختلفتين لنشأته. فذكر صاحب الصلة في روايته الأولى أن توماس كان من السلافيين وفي الرواية الثانية أنه كان من أسرة باردانيوس، ويتفق كل من سكيليتزيس وكيدرينوس في روايتهما من أن توماس كان من أصل مغمور بربرى، أو في أنه كان من أفراد أسرة باردانيس.

---

٩٥ - السكيثيون Scythians جماعات قبلية رحل من مناطق الاستبس الأوروبية الآسيوية. وقد طردهم السرماتيون Sarmatians من موطنهم شمال البحر الأسود. واحتفظوا لفترة من الوقت بدبروجا Dobrudja حيث كان الاسم الرسمي لهذه المقاطعة البيزنطية سكيثيا الصغرى Scythia Minor، والجزء الداخلي من القرم. غير أن السكيثيين تبعثروا بين السكان المحليين فيما بعد . Oxford Dictionary, Vol. 3, p.1857

٩٦ – وبالإضافة إلى كونه أعجمياً، فإنه من خلال كونه من السكيثيين، وبالتحديد من السلاف، فقد أعتبر صقلبيا. انظر :

Genesius, *regum*, p.23. cf. also Vasiliev, *Byzance et les Arabes*, Tome I, Bruxelles, 1935, pp. 25-27.

٩٧ – Genesius, *regum*, p. 7 وتقع جازوروس (جازورا أيضا عند فازيليف) على نهر إيرس، في إقليم بنطس، أو في جنوب شرق أماسيا وغربي كومانا في منطقة ثيم الأرميناق. ويلاحظ الباحث أن جنسيوس سيتعامل مع توماس في الكتاب الثاني على أنه صقلبي وليس أرمينياً، مما يعني أنه، رغم كونه صاحب الرأيين، قد استبعد رأيه الذي أورده في الكتاب الأول بأنه كان أرمينيا. وربما كان في ذلك ترجيح غير معلن للرأى الثاني مع ترك الحرية للقارئ للاختيار بين الرأيين. انظر:

Bury, "*The Identity of Thomas the Slavonian*," *BZ*, 1 (1892), pp. 55-60.

وانظر أيضا الخريطة رقم ٢ في هذا البحث.

٩٨ - Hamartolus, *Chronicon*, Col. 1002.

٩٩ - Zonaras, *Annalium*, Col. 341.

١٠٠ - Theophanes Continuatus, *Historia*, Cols. 63, 66.

١٠١ - Skylitzes, *Constantinople*, pp. 29, 30.

١٠٢ - Cederenus, *Compendium*, Col. 959.

وفيما عدا هذا الخلاف حول نشأة توماس تتفق روايات جميع المصادر المذكورة هنا على نشأته في أسرة فقيرة، ونزوحه إلى القسطنطينية طلباً للرزق والتحاقه بخدمة باردانيس ثم تلويثه لشرف سيده وفراره إلى بلاد الشام εις Συριαν(عند العباسيين) حيث اعتنق ديانة الإسلام وأنكر عقيدته المسيحية، وبعد أن عاش مع هؤلاء الناس خمسة وعشرين عاماً أحاط نفسه بقدسية زائفة وادعى أنه قسطنطين Constantin ابن ليو الرابع Leo IV (٧٧٥ – ٧٨٠ م) وزوجته إيرين Irene [١٠٣].

٢– أسباب الثورة والتجهيز لها :

في حديث جنسيوس عن بدايات الثورة، يذكر أنها قد بدأت حين علم توماس بتولى ميخائيل الحكم فجمع حشداً هائلاً من البشر. ويرجع جنسيوس السبب في قيام توماس بثورته إلى أن ميخائيل وتوماس لم يكونا على وفاق منذ البداية نظرا للفروق الفردية الواضحة بينهما. فشعر توماس باستياء من تولى ميخائيل الحكم رغم وضاعة أصله ونشأته بين الأثينجانوى، وكذلك بسبب تعثر لسانه، ولأنه أيضا لم يكن شجاعاً بالقدر الكافي، بينما كان توماس يملأ قلوب الجميع بسبب خلقه الشجاع، كما كان اجتماعيا ولبقا وذا جوهر طيب ولا يقل عن ليو في هذه الصفات الحسنة، ولذا فإن الأمر لا يخلو من وجود فروق بين الشخصيتين ساهمت في إذكاء روح العداوة التي كانت أحد أسباب الثورة [١٠٤] .

وعلى حين يعزو زوناراس قيام توماس بهذه الثورة إلى رغبته في الثأر للقائد "الكريم إليه" ليو الخامس[١٠٥]، يتفق صاحب الصلة[١٠٦]، وسكيليتزيس[١٠٧]، وكيدرينوس[١٠٨] على إيراد روايتين كأسباب أو مقدمات لهذه الثورة هما :

أ – فرار توماس إلى المسلمين بعد اتهامه بخيانة سيده باردانيس مع زوجته، وإقامته عند العباسيين لفترة طويلة بلغت خمسا وعشرين سنة، وإثارته لهم ضد البيزنطيين الذين كانوا قد فرضوا إتاوات على المسلمين فأمده العباسيون بالمال والقوات. وقد استغل العباسيون هذه الفرصة ليستخدموا توماس كوسيلة لإثارة المشاكل في صفوف الدولة

---

١٠٣ – Hamartolus, *Chronicon*, Col. 1002; Theophanes Continuatus, *Historia*, Cols. 63 , 66; Cedrenus, *Compendium*, Col. 959; Skylitzes, *Constantinople*, p. 29.

١٠٤ – وإذا كان جنسيوس يرى أن توماس كان عجوزاً وقت اندلاع الثورة، فمن المؤكد أن خبرة السنين قد أكسبته حضوراً لدى مؤيديه. انظر:
Gnesius, *regum*, p.23. cf. also Vasiliev, *Byzance et les Arabes*, p. 29 .

١٠٥ - Zonaras, *Annalium*, Col. 340.

١٠٦ - Theophanes Continuatus, *Historia*, Cols. 63 , 66.

١٠٧ - Skylitzes, *Constantinople*, pp. 29-30.

١٠٨ - Cedrenus, *Compendium*, Col. 959.

البيزنطية، خاصة وأن توماس كان يطمع في العرش البيزنطي. وكان ذروة هذا التعاون بين توماس والعباسيين في عملية التتويج التي سيوضحها الباحث لاحقاً (١٠٩).

ب - رغبته في الانتقام لصديقه ليو الخامس الذي اغتاله شركاء ميخائيل الثاني بوحشية في الكنيسة. وتتضمن هذه الرواية إشارات إلى خلاف كان قد نشب بين توماس وميخائيل في شبابهما، وكذلك إلى خوف توماس من تحقق نبوءة راهب فيلوميليون(١١٠). أى أن جنسيوس يحدد موعد الثورة بالوقت الذي علم فيه توماس أن ميخائيل قتل الإمبراطور ليو الأرميني وارتقى العرش. ومن ثم فالأرجح أن يوافق انطلاق شرارة الثورة بداية تولى ميخائيل الثاني العموري الحكم. ويميل الباحث إلى الأخذ بالرواية التي تقول أن توماس اتخذ من مقتل ليو الأرميني مبررا لثورته.

أ- تدبير المال اللازم للثورة :

يصف جنسيوس الطريقة التي دبر بها توماس المال اللازم لثورته فيقول أنه أرسل خطابات إلى جباة الضرائب يطالبهم بالضرائب المعتادة ثم قام بتوزيع هذه الضرائب على الجيش المحارب (١١١). وتتفق جميع المصادر(١١٢) على أن توماس حصل على المال اللازم لثورته من الضرائب التي كانت تجبى في المناطق الشرقية.

ب- تجهيز القوات :

يتحدث جنسيوس بعد ذلك عن تجهيز توماس لقوة عسكرية قوية لمحاربة ميخائيل. فيذكر أن أحداً لم يتخلف من سكان الشرق والغرب سواء من المهاجرين أو السكان الأصليين وكذلك من مناطق الحدود المجاورة أو من صفوف العبيد. ولم يكن هناك شخص من كل الشعوب لم يرغب في الانضمام إليه (١١٣). فتبعه البعض براً وتبعه البعض بحراً

١٠٩- Genesius, *regum*, p. 23, cf. also: Bury, *E. R. E.*, p. 84.

١١٠- Genesius, *regum*, p. 23, cf. also: Vasiliev, *Byzance et les Arabes*, p. 27 .

١١١- Genesius, *regum*, p. 23.

١١٢- Cedrenus, *Compendium*, Col. 962; Theophanes Continuatus, *Historia*, Col. 67; Skylitzes, *Constantinople*, p. 31; Zonaras, *Annalium*, Col. 43.

١١٣- ولعله من المناسب هنا أن يذكر الباحث أن توماس قد استخدم كافة الوسائل لاجتذاب مؤيديه ومناصريه من كل مكان. ومن المؤكد أنه من بين هذه الوسائل تأييده لعبادة الصور التي كان يؤيدها شريحة كبيرة من سكان هذه المناطق حتى أن ثيودور الإستوديني يذكر أن توماس جعل من نفسه نصيراً للصور ونصيراً لمعتنقي هذا المذهب. بل أنه يذكر أن توماس كان يسجد لها. انظر:
Theodori Studitae, P. G. M., Tome 99 , pp. 317-320, cf. also Vasiliev, *Byzance et les Arabes*, p. 34.

وكأنه احشويرش جديد νεω Ξαπξη [١١٤] وانضمت إليه الثيمات كافة فيما عدا ثيم الارميناق Armeniakon [١١٥] وكان قائده أولبيانوس Olbianos الذي أقنع شعبه بالحكمة والطاعة، وثيم الاوبسيقيون Opsikion [١١٦] وكان قائده كاتاكيلاس Katakylas الذي ظل على وفائه للإمبراطور لكونه على صلة قرابة بالإمبراطور[١١٧] . أما أسطول الثيمات البيزنطية فقد انضم أيضا إلى توماس. وهكذا استولى توماس على الأسطول البيزنطي كله باستثناء الجزء المسمى بالأسطول الإمبراطوري. وأمر ببناء سفن كثيرة ملأها بالقمح والخيول والعتاد الحربي، وأمر بأن تنتظر هذه السفن في لسبوس Lesbos[١١٨] فتعاظمت قوة توماس العسكرية التي كان يراها ضرورية لتحقيق أهدافه والوصول إلى القسطنطينية. ومما هو جدير بالذكر أنه لم يبق على ولائه للإمبراطور ميخائيل الثاني من البحرية البيزنطية سوى الأسطول الإمبراطوري[١١٩].

١١٤- الإشارة هنا إلى أحشويرش الأول (إكسركسيس الأول)، ملك فارس (٤٨٦ - ٤٦٥ ق. م.) الذي غزا بلاد اليونان عام ٤٨٠ ق. م. بأعداد ضخمة جداً. انظر: قاموس المورد لمنير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٤، ص ٩٠ من معجم الأعلام الملحق بالقاموس.

١١٥- هو من أوائل ثيمات آسيا الصغري وكان يضم أناطوليا (الأناضول) الشرقية من قبادوقيا حتي البحر الأسود والفرات. وفي القرن التاسع كان استراتيجوس ثيم الأرميناق قائداً لتسعة آلاف رجل. عن هذا الثيم انظر: طارق منصور، الجيش في الإمبراطورية البيزنطية من بداية القرن السابع إلى نهاية القرن التاسع الميلادي ، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بنها، ١٩٩٣م، ص ٢٣١ - ٢٣٥، وأيضا :
The Oxford Dictionary, Vol. 1, p. 166.
وانظر أيضاً الخريطة رقم ٢ من هذا البحث.

١١٦- واحد من الثيمات الأربعة الأصلية في آسيا الصغري في القرن السابع. وكان مقر قيادته في أنكيرا Ankyra. وكان قائده يتولي قيادة كل قوات آسيا الصغري الشمالية من الدردنيل إلي الهاليس. وقد لعب دوراً كبيراً في التاريخ من القرن السابع إلي القرن التاسع وساند ميخائيل الثاني في مواجهة توماس السلافي في سنة ٨٢١م. *The Oxford Dictionary*, Vol. 3, p. 1528-1529 .

١١٧- Genesius, *regum*, p. 23.

١١٨- انظر: Genesius, *regum*, p. 23, 26، وكانت لسبوس جزيرة في شمال شرق بحر إيجة، وكانت أهم مدنها ميتيليني Mytilene أو Mitylene وهو اسم يستخدم للإشارة إلى الجزيرة كلها The Oxford Dictionary, vol. 2, p. 1219 . وعن موقع هذه الجزيرة انظر الخريطة رقم ٢ من هذا البحث.

١١٩- Bréhier, Louis, "La marine de Byzance du VIII au XI siècles," *B.*, XIX (1949), pp. 4-5

ويفصل جنسيوس بعد ذلك القول في وصف القوات التي تكون منها جيش توماس(١٢٠) فيذكر من الأجناس التي تبعت توماس في ثورته العرب والهنود والمصريين، والسريان (١٢١)، والميديين(١٢٢)، والأباظ (١٢٣)، والزيخيين (١٢٤)، والأيبيريين(١٢٥)، والكابيريين (١٢٦)، والسلاف (١٢٧)،

١٢٠- حرص جنسيوس على تجنب استخدام التعبيرات الحديثة، ويندرج هذا على أسماء الشعوب، والأشخاص، والأماكن، والمصطلحات الإدارية والعسكرية. وكذلك الكلمات المستعارة من اللاتينية أو السلافية والعربية. انظر: Herbert Hunger, *The Classical*, p. 43.

١٢١- السريان هم سكان إقليم سوريا Syria وكانت تقع في الجزء الشرقي من الإمبراطورية البيزنطية وكان يحدها غرباً البحر المتوسط وتحدها من الشمال والشرق جبال طوروس، ونهر الفرات، والمناطق الصحراوية، ومن الجنوب أعالي نهر العاصي. انظر: *The Oxford Dictionary*, Vol. 3, pp. 1997-1998.

١٢٢- أستقر الميديون في المنطقة الواقعة شمال غرب إيران الحالية في مطلع القرن الأول قبل الميلاد وأطلقوا على هذه المنطقة أسم ميديا. وأستولى قورش الفارسي عليها وأخضعها للإمبراطورية الفارسية حتى استولى عليها الإسكندر الأكبر في ٣٣٠ ق. م.، انظر: هنري عبودي، معجم الحضارات السامية، طرابلس. لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٩١، ص ٧٦٠. ونظراً لتعدد أسماء الشعوب التي أقامت في هذه المنطقة، فقد أطلق الكتاب والشعراء أسماء هذه الشعوب على أي شعب يسكن المنطقة دون تمييز، وذهب البعض إلى أن الميديين هم أسلاف الفرس والبارثيين. انظر، *Jacobi Pontani, Praefatio*, in Theophylactae Simocattae, ed. Bekker, *C.S.H.B.*, Bonn, 1834, pp. xiii-xv.

١٢٣- الأباظ هم الأبخاز، أو سكان أبخازيا Abchasia وهي الجزء الشمالي من كولخيس Colchis القديمة علي الشاطئ الشرقي للبحر الأسود. وقد أصبحت في القرن الرابع الميلادي جزءا من مملكة لازيكا Lazika انظر: فازيليف، العرب والروم، ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة، دار الفكر العربي، د. ت.، ص ٣٦، هـ ٢، وانظر أيضاً: *The Oxford Dictionary*, Vol. 1, p. 3.

١٢٤ - هم سكان زيخيا Zichia وتقع علي الساحل الشرقي للبحر الأسود، انظر : *The Oxford Dictionary*, Vol. 3, p. 2226.

١٢٥ - أستخدم لفظ أيبيريا Iberia في اللغة اليونانية بمعان مختلفة وذكر قسطنطين السابع بورفيروجنيتوس Constantine VII Porphyrogenitus)، *De Administrando Imperio*, English translation by R. Jenkins, Washington, 1967, p. 23) أنه قد يشير إلي أسبانيا أو جورجيا في القوقاز. وتطابق أيبيريا الجورجية كارتيلي، أي الجزء الشرقي من مملكة جورجيا في العصر الوسيط، وينبغي التفرقة بينها وبين ثيم أيبيريا الذي كان يشمل جزءا من أرمينيا لكنه لا يشمل كارتيلي. واستخدم لفظ الأيبيريين Iberian للإشارة إلي الأرمينيين الذين ينتسبون إلي الكنيسة الخلقيدونية وليس الكنيسة الجورجية المونوفيزيتية. *The Oxford Dictionary*, Vol. 2, p. 971.

١٢٦ - هم السابيريون Sabiri من الهون الذين يرد ذكرهم في المصادر اليونانية باعتبارهم سكان إقليم نهر بواس القوقازي في القرنين الخامس والسادس الميلاديين. فازيليف، العرب والروم، ص ٣٦، حاشية ٢، وانظر أيضاً : *The Oxford Dictionary*, Vol. 3, p.1824.

١٢٧ - ربما لم يظهر اسم السلاف Slavs في المصادر اليونانية واللاتينية بهذا الشكل Sklavenoi، أو Sthlabenoi قبل منتصف القرن السادس الميلادي وقد أخفقت كل المحاولات التي بذلت للبحث في الماضي لإيجاد رابطة مباشرة بين السلاف وبين الجماعات العرقية السابقة عليهم كالسكيثيين.

والهـــــــون (١٢٨)، والقـــــــــوط (١٢٩)، والونــــــدال (١٣٠)، وأعـداداً مــــــن أتبـــــاع مــــاني (١٣١)، واللــــــــــــلاظ (١٣٢)، والألان (١٣٣)،

The Oxford Dictionary, Vol. 3, p. 1916.

١٢٨- الهون Huns شعب آسيوي (ربما كان تركيا) يظهر في المصادر البيزنطية بدءا من أميانوس مارسيلينوس Ammianus Marcellinus ومن المتفق عليه بشكل عام أن الهون هم الهيزيونجنو Hesiungnu في المصادر الصينية، ويتصلون بالإيفثالايت Ephthalite في آسيا الوسطي وحوالي سنة ٣٧٥ عبر الهون الدانوب وهزموا الألان وطردوا القوط من الاستبس شمال البحر الأسود، وبعد سنة ٤٥٠ انتقلوا غرباً إلي غالة.انظر : *The Oxford Dictionary*, Vol. 2, p. 957.

١٢٩ – القوط Goths شعب جرماني هاجر من إقليم الفستولا Vistula إلي أويوم Oium بين الدنيستر Dniester والدون Don. ومن ٢٣٨م فصاعدا اجتاح القوط مقاطعات الدانوب واليونان وآسيا الصغري. وقد انقسموا في وقت لاحق إلي قوط شرقيين وقوط غربيين ولعبوا دوراً مزدوجاً تجاه الإمبراطورية البيزنطية في عصرها المتأخر تراوح بين السلب والنهب والتحالف. وفي القرنين الثامن والتاسع الميلاديين كانت منطقة القوط اليونانية Gothograikia توجد في شمال غرب آسيا الصغري. *The Oxford Dictionary*, Vol. 2, p. 862، انظر أيضاً : محمد محمد مرسي الشيخ، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، الإسكندرية، ١٩٩٨، مطبعة الجمهورية، ص ٨٧ – ٩٥.

١٣٠ – الوندال Vandals شعب جرماني ظهر لأول مرة في سنة ٤٠٦ م عندما عبروا نهر الراين مع الألان Alans والسويفي Suevi واجتاحوا غالة لمدة ثلاث سنوات. ووصلوا إلي أسبانيا في ٤٠٩ م.
وانظر Bury, *E.R.E.*, p. 89; *The Oxford Dictionary*, Vol. 3, P. 2151 أيضاً : محمد الشيخ، أوروبا العصور الوسطى، ص١٢١ – ١٤٠.

١٣١ – أتباع ماني Manichaeans هم أتباع قائد ديني فارسي يدعي ماني Mani . وكانوا يؤمنون بمجموعة من المعتقدات أنتشرت في الإمبراطورية البيزنطية والشرق الأدني ووصلت إلي الصين. انظر :
The Oxford Dictionary, Vol. 2, p. 1285-1286.

١٣٢- اللاظ Laz هم سكان لازيكا Lazika وكانت في الأصل في الجنوب الغربي في كولخيس Colchis القديمة علي امتداد الشاطئ الشرقي للبحر الأسود وتشمل مصب نهر فاسيس Phasis . وفي القرن الرابع مد اللاظ نفوذهم شمالا إلي أبخازيا وسوانيا Suania لتكوين مملكة عاصمتها أركايوبوليس Archaiopolis التي كانت تتحكم في بعض مضايق القوقاز. وفي أوائل القرن الثامن استولي المسلمون علي أركايوبوليس ودخل اللاظ في الإسلام.انظر : *The Oxford Dictionary*, Vol. 2, p. 1199.

١٣٣ – عرف الألان Alans عرف في الغرب منذ القرن الأول الميلادي ولم يعتبرهم أميانوس مارسيلينوس Ammianus Marcellinus مجموعة عرقية. بل جماعة من المحاربين المحترفين (الفرسان) لا يخلو منها مكان. وشارك بعضهم في أعمال القوط والهون والفندال واستقروا في شمال أفريقيا، وإيطاليا، وغالة- وأصبح البعض الأخر من القوات المتحالفة Foederati وتفرق المصادر المتأخرة بين جماعتين، ألان الجبال، وألان السهول (الاستبس) وعاشت الجماعة الأولي في شمال القوقاز ، وكانت الجماعتان من رعايا دولة

والخـــالديين[١٣٤]، والأرمـــن[١٣٥] وآخرين من كل الشعوب [١٣٦] .

ولا تختلف المصادر الأخرى في أن توماس جمع قوات ضخمة وأن جميع المقاطعات انضمت إليه ما عدا ثيمي الأرمينياق والأوبسيقيون[١٣٧]. كما تشير المصادر أيضا إلي وجود المسلمين في صفوف جيش توماس بعد تحالفهم معه، وتطلق عليهم اسم الهاجريين (أى أبناء هاجر) Agarenes وتقصد بهم العرب [١٣٨] .

وعلى حين يذكر هامارتولوس أن توماس جمع جيشا مخلطا ذليلا وجر معه حشدا كبيرا جمعه من مختلف الأجناس كما لو كان وحشا مخيفا متعدد الأشكال متعدد

الخزر أو الدولة البيزنطية. وقد أرسل البطريرك نيقولاس الأول مستيكوس Nicholas I Mystikos عدة بعثات كنسية إلي الألان وبين سنتي ٩١٤ و٩١٦ م كان لبيتر كبير أساقفة ألانيا نشاط ملحوظ.

The Oxford Dictionary, Vol. 1, p. 51.

١٣٤ – الخالديون Chaldians سكان ثيم في شمال شرق آسيا الصغرى. وحوالي سنة ٨٠٠ م، يرد ذكره كواحد من تورمات Tourma ثيم الأرمينياق ثم أصبح دوكاتوس Dukatus مستقلا في ٨٢٤ م ، وثيما في ٨٤٠ م . انظر : *The Oxford Dictionary*, Vol. 1, p. 404.

١٣٥ – الأرمينيون Armenians كان الأرمينيون يشكلون أقلية مهمة ومؤثرة في الإمبراطورية البيزنطية. وقد استقروا قبل الفتح العربي في المقاطعات الشرقية للإمبراطورية (أرمينيا الأولي- الرابعة) وكانت تربطهم علاقات اقتصادية وثقافية قوية بالمنطقة السورية الفلسطينية. انظر :

The Oxford Dictionary, Vol. 1, p. 181.

١٣٦ – Genesius, *regum*, p.24. ويرى ليميرل أن الكثيرين حاولوا بلا جدوى تحديد جنسيات هذه الشعوب، وان هذه القائمة الطويلة التي أوردها جنسيوس تنطوي على مفارقات زمنية (أى أن بعض الشعوب التي ذكرها لم يكن لها وجود عندما قام توماس بثورته) ويوافقه في هذا الرأي فازيليف، يقول أن هذا التعداد المسرف يحمل روح القصص والملاحم، وأن مرجعه قد يكون شعرا سياسيا روجته الحكومة. انظر: P. Lemerle, p.265, n. 36وراجع أيضاً : فازيليف، العرب والروم، ص ٣٦، هـــ ٢. وعن هذه العناصر انظر: Hirsch, *Byzantinische*, p. 131; Bury, *E. R. E.*, p. 89; Vasiliev, *Byzance et les Arabes*, p. 31، وللمزيد من التفاصيل عن هذه الشعوب انظر أيضاً: *The Oxford Dictionary*, vol.1, pp. 51, 181, 404; vol. 2, pp. 957, 971, 1119, 1258-1286; vol. 3, pp. 1824, 1916, 2151.

١٣٧ – ويرى الباحث أن فشل توماس في ضم هذين الثيمين فرض عليه الانتقال إلى البر الأوروبي ليحكم سيطرته على ثيم الأوبسيقيون وترك لابنه بالتبني (قسطنطين) مهمة التقدم من الجنوب في اتجاه القسطنطينية، ليحكم الاثنان حصارهما للعاصمة، كما سيشير الباحث لاحقاً . انظر:

Theophanes Continuatus, *Historia*, Col. 67; Cedrenus, *Compendium*, Col. 962; Zonaras, *Annalium*, Col. 341; Skylitzes, *Constantinople*, p.31.

١٣٨ - Theophanes Continuatus, *Historia*, Col. 69,70.

الروس[١٣٩]، اكتفي زوناراس بالقول أنه بعد أن توج أمبراطورا تقدم بجيش كبير لم يحتو فقط على الهاجريين بل أيضا على أعداد أخرى من الشعوب [١٤٠]. ويتفق صاحب الصلة، وسكيليتزيس، وكيدرينوس على أن جيش توماس كان يضم، إلى جانب القوات التي أمده بها المسلمون، قوات من الهنود والمصريين، والفرس، والأشوريين، والزيخيين، والإيبريين، والكابيريين، والخالديين، والأرمن. ويضيف صاحب الصلة إلى هؤلاء المانيين أو أتباع ماني[١٤١].

جـ- تسليح جيش توماس:

ينفرد جنسيوس بذكر تسليح جيش توماس بشئ من التفصيل فيذكر أنه كان معه فرسان مسلحون تسليحا جيدا ومشاة من الرماة بالأحجار وأن الرماة بالمقلاع كانوا لا حصر لهم، وأنه دعم قوة الدفع بعدد كبير من آلات الحصار[١٤٢]. بينما يشير صاحب الصلة بشكل غير مباشر إلى نوع التسليح عندما يذكر أنه أخذ يدك المدينة (القسطنطينية) مستخدما المجانيق والقذائف (ربما النار الإغريقية) [١٤٣]، كذلك فعل كيدرينوس حين أشار إلى استخدام الحبال والمجانيق[١٤٤].

٣- وقائع الثورة وتطور العمليات الحربية :

أ- بداية الثورة :

طبقا لرواية جنسيوس، فقد حدث في حكم ليو الخامس الأرميني أن هاجم قسطنطين Constantine ابن توماس بالتبنى الأراضى البيزنطية بجنود أمده بها المسلمون. ولكن ليو لم يعر الأمر اهتماماً كبيراً، وأرسل لملاقاتهم عددا قليلا من الرجال. وهزم جيش الإمبراطور واضطر إلى الهرب، وتقدم توماس بلا أدنى خوف عبر الشرق كله وأخضع كل الأقاليم بالقوة [١٤٥]. وترد القصة نفسها عند صاحب الصلة [١٤٦]، وسكيليتزيس الذي

١٣٩- Hamartolus, *Chronicon*, Col. 1002.

١٤٠- Zonaras, *Annalium*, Col. 341.

١٤١- Theophanes Continuatus, *Historia*, Col. 70; Skylitzes, *Constantinople*, p. 31; Cedrenus, *Compendium*, Col. 962.

ولا شك أن انضمام هذه العناصر كان يأتي تباعاً، مدفوعين بأسباب مختلفة، وقد وجدوا في هذه الثورة وسيلة لتحقيق أهدافهم .

١٤٢- Genesius, *regum*, p. 24.

١٤٣- Theophanes Continuatus, *Historia*, Col. 71.

١٤٤- Cedrenus, *Compendium*, Col. 966.

١٤٥- Genesius, *regum*, p. 26.

١٤٦- Theophanes Continuatus, *Historia*, Col. 66.

يضيف أن توماس أرسل قسطنطين هذا لسلب ونهب الأراضى البيزنطية بينما توجه هو إلى قطاع آخر ودك ودمر كل ما صادفه في طريقه(١٤٧) .

ب- موقف الخلافة العباسية من الثورة :

كان انشغال توماس في إخضاع كل المقاطعات الشرقية سببا كافيا لكى يقوم المسلمون ببعض العمليات الحربية في الأراضى البيزنطية. ويصف جنسيوس موقف المسلمين، أى الخلافة العباسية، فيذكر أنهم انتهزوا فرصة الثورة فقاموا بتهديد الحدود البيزنطية والهجوم على كل الجزر والأراضى وهنا كان على توماس أن يرد عليهم مراعاة لمشاعر رجاله حتى لا يتهم بأنه تسبب بثورته في هجوم المسلمين على الأراضى البيزنطية. فحاربهم، ولكنه رأى في النهاية أن يدعوهم إلى السلام والتحالف معه ودعم حركته لإسقاط الإمبراطور. فعقد معهم معاهدة سلام، وأعلن توماس نفسه قائدا لهم وقام أيوب IωB بطريرك أنطاكية بتتويجه إمبراطوراً بأمر من الخليفة العباسي. وبذلك ضم توماس إلى قواته جندا من المسلمين(١٤٨) .

ويتفق كيدرينوس وصلة ثيوفان مع جنسيوس في تحرك توماس بقوات ضخمة لمحاربة ميخائيل وفي تحالفه مع المسلمين(١٤٩)، ويضيف سكيليتزيس أن هذه القوات بدأت تحركها من ثيم الأناضول(١٥٠) .

٤- هجوم توماس على القسطنطينية ونتائج ذلك :

كانت الخطوة التالية لتوماس، بعد تجميع كل هذه القوات، هي نزوله في منطقة تراقيا Thrace (١٥١) ومحاولة احتلال كيزيكوس Kyzikos (١٥٢) بالقوة. ولكن ميخائيل

١٤٧- Skylitzes, *Constantinople*, p. 30.

١٤٨- Genesius, *regum*, p. 24. cf also: Vasiliev, *Byzance et les Arabes*, p. 32

أيوب هو بطريرك أنطاكية (٨١٣ – ٨٤٤ م) . وكان الخليفة العباسي المأمون قد أمره بتتويج توماس إمبراطوراً مما أغضب الكنيسة . للمزيد انظر: أسد رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، ج ٢، بيروت، ١٤٥٣ م، ص ٧٣ – ٧٥.

١٤٩- Cedrenus, Compendium, Col. 961; Theophanes Continuatus, *Historia*, Col. 70.

١٥٠- Skylitzes, *Constantinople*, p. 30.

١٥١- كانت تراقيا في أواخر العصر القديم تشكل إقليما تحده جبال البلقان والبحر الأسود، وبحر مرمرة ، ونهر نستور. وفي القرن التاسع كانت تراقيا في قوائم الثيمات (بين بفلاجونيا ومقدونيا). انظر :
Oxford Dictionary, Vol. 3, p. 2079-2080.

وانظر أيضاً الخريطة رقم ٢ من البحث.

١٥٢ – مدينة تقع علي الساحل الجنوبي لبحر مرمرة علي رأس الطرق المؤدية إلي آسيا الصغري.

خرج لمهاجمته من جهة بينما شن ثيوفيلوس ابن ميخائيل هجوماً مضاداً عليه من جهة أخرى. فوجد توماس نفسه في مأزق وشن هجوما بالأسطول ولكن صادفه سوء الحظ مرة أخرى فدمرت النار الإغريقية كل سفنه. وكان كالينيكوس المصري Καλλινικος τις των εχ Αιγυπτου (١٥٣) هو الشخص الوحيد الذي لديه علم بهذه النار، وعرض على الإمبراطور صراحة أن يبحر معه لمحاربة توماس. وقد استطاع كالينيكوس هذا إنتاج خليط من النيران ووضعه تحت إمرة قادة السفن(١٥٤). وقد انفرد جنسيوس برواية قصة هذا الهجوم الفاشل، وكذلك بالإشارة إلى النار الإغريقية. وتراجع توماس بعد ذلك إلى المنطقة الواقعة بين سستوس Sestos وأبيدوس Abydos (١٥٥)حيث استولى عليها. وهناك ترك ابنه بالتبني المسمى قسطنطين Constantine لإنجاز المهام التي لم ينجزها هو. واستشار قسطنطين العرافين والكهنة فنصحوه بالتريث وحددوا له يوم عيد لهم يسير فيه إلى الإمبراطورية مكللاً بالجلال والمجد. وفي اليوم المحدد سار لملاقاة

The Oxford Dictionary, Vol. 2, p. 1164 .

وانظر أيضا الخريطة رقم ١ في نهاية البحث.

١٥٣ – النار الإغريقية، أو النار السائلة، هي من اختراع مهاجر بيزنطي يدعى كالينيكوس كان يعيش في هليوبوليس الشام (بعلبك) في منتصف القرن السابع الميلادي حيث اخترع النار الإغريقية، وأهدى اختراعه إلى الإمبراطور قسطنطين الرابع (٦٦٨ – ٦٨٥ م). وبفضل هذا الاختراع تمكن البيزنطيون من إحراق السفن الإسلامية عام ٦٧٣ م. وكان البيزنطيون يقذفون النار الإغريقية بعد وضعها في اسطوانات نحاسية توضع في مقدمة السفن أو في أوان فخارية يتم قذفها على سفن الأعداء، وتؤدي مهمتها وتظل مشتعلة وهي على سطح البحر. ثم اختفي سر هذا الاختراع لفترة حتى نجح رجل يطلق عليه جنسيوس " كالينيكوس المصري " في إنتاج هذا السلاح مرة أخرى وعرض على ميخائيل الثاني أن يخرج معه لقتال توماس. ويؤيد الباحث ما ذهب إليه جنسيوس من أن كالينيكوس هذا كان مصريا، ويرى أن نجاحه في إعادة استخدام هذه النار هو الذي جعل جنسيوس يطلق عليه اسم صاحب الإختراع الأصلي تكريما للإثنين المخترع الأصلي للنار والمنفذ الثاني للاختراع والذي كان يحمل اسما آخر بكل تأكيد انظر:

Theophanes, *Chronographia*, ed. C. de Boor, 2 vols., (Lipig, 1883-1885), Vol. I, p. 354.

وانظر أيضاً: فايز نجيب إسكندر، المسلمون والصليبيون في النصف الأول من القرن السابع الهجرى / النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي، الإسكندرية، ١٩٩٩، ص ١٦١-١٦٤.

١٥٤ - Genesius, *regum*, p. 24.

١٥٥- كانت أبيدوس مدينة في هيليسبونت Hellespont بالقرب من ساناكالي Sanakkale الحالية. وكانت تمثل مع هييرون Hieron محطتين في الجمارك تحصل فيهما الضرائب علي السفن المتجهة إلى القسطنطينية والخارجة منها. وكانت أبيدوس قاعدة بحرية إستراتيجية تتبع ثيم بحر إيجة.

The Oxford Dictionary, Vol. I, pp. 8-9.

جيش أولبيانوس غير أنه اضطر إلى الفرار، ثم وقع في الأسر وأمسك به أولبيانوس وقطع رأسه وأرسل بها إلى الإمبراطور ميخائيل فأرسلها هذا بدوره إلى أبيه المزعوم ولكن ذلك لم يثبط من همة توماس(١٥٦). وذكر ذلك عند صاحب الصلة (١٥٧)، وكيدرينوس(١٥٨)، وسكيليتزيس(١٥٩).

أ- الحصار الأول للقسطنطينية :

انتقل توماس من قرية تسمى هوركوسيون Horkosion (١٦٠) إلى تراقيا وهناك حظى بتأييد أهلها. وعندما بلغ الإمبراطور نبأ احتلال الثائر لخليج أبيدوس Abydos بسفنه، جهز جيشاً متواضعاً وسار به لملاقاته، وطلب المدد والتحالف من كل مدن تراقيا. غير أن طلبه أهمل، في حين سار إليه توماس بجيش جرار(١٦١) . وسرعان ما تقهقر الإمبراطور متراجعاً إلى المدينة وأخذ يجمع قوات برية وسفناً كثيرة من المناطق الشرقية. وأرسل الإمبراطور النار الحربية إلى السفن ومد السلاسل الحديدية من قمة المدينة إلى القلعة حتى لا يهاجم أسطول العدو المدينة المسماة كيراس Keras أي القرن(١٦٢). وهنا رأى توماس أن يبدأ حصاره البحرى للعاصمة، فاستدعى جريجوريوس Gregorios (١٦٣).

---

١٥٦ - كان قسطنطين هذا يتحرق شوقا إلى لحظة دخوله العاصمة، فلجأ إلى العرافين الذين بشروه ليس فقط باقتراب هذه اللحظة وإنما أيضاً بموعدها ، ولكن كان في ذلك نهايته. انظر:
Genesius, *regum*, pp. 26-27.

وعن موقع هذه المنطقة انظر الخريطة رقم ٢.

١٥٧- Theophanes Continuatus, *Historia*, Col. 70.

١٥٨- Cedrenus, *Compendium*, Col. 963.

١٥٩- Skylitzes, *Constantinople*, p. 33.

١٦٠- هي قرية صغيرة تقع بين باريون Bariun ولاميساكوس Lamisacus وتطل على الركن الجنوبي الغربي لبحر مرمرة. انظر Bury, *The Identity*, p. 91، وانظر أيضا الخريطة رقم ١ من هذا البحث.

١٦١- إذا كان جنسيوس قد ذكر أن توماس قد جمع جيشاً جراراً (لا حصر له) على حد قوله إلا أنه ينبغي القول بأن هذا الوصف اللفظي لحجم الجيش كان في مرحلة معينة وهي عندما كان موجودا في خليج أبيدوس. انظر: Genesius, *regum*, p. 25، بينما نجده بعد ذلك يذكر أن الجيش قد بلغ حجمه ثمانين ألف رجل ولكن هذا الرقم كان في مرحلة أخرى وهي عندما بلغ توماس القسطنطينية بعد ذلك كما ستوضحه الأحداث التالية. ولذلك يجب الحذر بين الحالتين حتى لا يتهم جنسيوس بالتناقض في هذه الأرقام. انظر:
Genesius, *regum*, pp. 26-27.

١٦٢ - انظر خريطة القسطنطينية في نهاية البحث.

١٦٣ - وكان قائداً للجند ثم نفاه الإمبراطور ميخائيل إلى سكيروس. انظر:
Theophanes Coninuatus, *Historia*, col. 71.

وعن موقع مدينة كيراس انظر خريطة القسطنطينية في نهاية هذا البحث.

وعينه قائداً لفرقة من عشرة آلاف رجل، وأرسله لشن هجوم على المدينة الإمبراطورية، بينما وجه أسطولاً بحريا إليها في نفس الوقت. ووصل الاثنان إلى القسطنطينية في نفس الوقت. والتقت القوات البرية والبحرية قرب مصب نهر باربيس Barbyses(١٦٤). ولم تحل السلاسل الحديدية دون وصول سفن العدو. ولم يمر وقت طويل حتى وصل إلى المدينة ثمانون ألف رجل(١٦٥). وترد القصة نفسها عند صاحب الصلة (١٦٦)، وكيدرينوس(١٦٧)، وسكيليتزيس(١٦٨).

كان توماس قد تبنى ابنا آخر هو أناستاسيوس الثالث Anastasios III بعد مقتل ابنه الأول بالتبنى وكان راهبا سكيرا قبيح الوجه(١٦٩) . فصحب توماس ابنه هذا، وتقدما مع الجيش كله حتى اقتربا من المدينة، ولكن رد فعل أهل المدينة جاء مخيباً لآمال توماس الذي كان يظن أن المدينة ستفتح له أبوابها فوراً، فإذا بالأهالى يطاردونه بالسباب والإهانات. فنصب خيامه عند معبد الأنارجيروى Anargyroi (١٧٠)، وأخضع كل من كانوا يسكنون مضيق تراقيا. ثم إنه بدأ هجومه على المدينة في ديسمبر ٨٢١ م فأمطرها بوابل من السهام وأحجار المجانيق وكان يأمل أن تسقط المدينة في قبضته من ناحية بلاخرناى Blachernai (١٧١)، ورد الإمبراطور ميخائيل على ذلك بأن صعد إلى قمة كنيسة ثيوتوكوس وأطلق صيحة الحرب، وأمر ابنه ثيوفيلوس أن يحمل الصليب الخشبى الناصر

---

١٦٤ - يصب نهر باربيس مع نهر صغير آخر هو الكيدارس في الشمال الغربي من القرن الذهبي عند مكان هو اليوم كورنيش مشهور يسميه الأوربيون " مياه أوروبا الحلوة ". حيث تجمعت جميع قوات توماس. انظر: Genesius, *regum*, pp. 26-27, Bury, *E. R. E.*, p. 93 .

وانظر أيضاً خريطة القسطنطينية في نهاية هذا البحث.

١٦٥ - Genesius, *regum*, pp. 26-27.

١٦٦ - Theophanes Continuatus, *Historia*, Col. 70-71.

١٦٧ - Cedrenus, *Compendium*, Col. 963.

١٦٨ - Skylitzes, *Constabtinople*, p. 33-34.

١٦٩ - Genesius, *regum*, pp. 27.

١٧٠ - تعني كلمة αναργυροι اليونانية " بدون مال " وهي صفة كانت تطلق على القديسيين الذين كانوا يعالجون الناس دون أن يأخذوا أجرا علي ذلك. واستخدمت هذه الكلمة للإشارة إلي القديس الذي يمارس هذا النوع من العلاج أو إلي قبره. *The Oxford Dictionary*, Vol. 1, p. 85.

ومن الواضح أن توماس قد نصب خيامه عند دير أو معبد اشتهر بهذا النوع من العلاج ، انظر: فازيليف ، العرب والروم، ص ٤٢ ، حاشية ١.

١٧١ - Genesius, *regum*, pp. 27-28 يشير اسم بلاخرناي إلي منطقة توجد بها عين ماء في الركن الشمالي الغربي من القسطنطينية. *The Oxford Dictionary*, Vol. 1, p. 293.

وانظر أيضاً خريطة القسطنطينية في نهاية هذا البحث.

والرداء الشريف للعذراء مريم ويتضرع عند سور بيزنطة مع مجموعة من رجال الدين المقدسين ومواطنين آخرين بطلب العون من الله. كان توماس، يستخدم في هجومه كل فنون الحرب والنزال. أما رجال الإمبراطور، فقد اخذوا يستخدمون المجانيق ووسائل الدفاع حتى استطاعوا إجبار العدو على التراجع (١٧٢). ووردت القصة بنفس التفاصيل عند صاحب الصلة (١٧٣)، كيدرينوس (١٧٤)، وسكيليتزيس(١٧٥). وهنا لجأ أسطول توماس إلى استخدام قذائف النفط الملتهبة في الهجوم على المدينة، وأمطرها بالسهام، غير أن ريحا معاكسة هبت وردت القذائف إلى الخلف، فقد كان ذلك في وقت الشتاء، وبالتحديد في ديسمبر ٨٢١م(١٧٦). ويزيد صاحب الصلة وكيدرينوس على ذلك أن الرياح أطاحت بأسطول توماس وبعثرت سفنه(١٧٧).

ب- الحصار الثاني للقسطنطينية :

مع مقدم ربيع ٨٢٢ م، هاجم توماس المدينة براً وبحراً عند كيراس باستخدام مجانيق مربعة الشكل لدك الأسوار(١٧٨). وصعد الإمبراطور إلى أعلى سور وحاول استمالة أعدائه ووعدهم بالعفو عنهم إذا توقفوا عن أفعالهم، ولكن دون جدوى(١٧٩). وترد نفس القصة عند صاحب الصلة الذي يمدنا بتفاصيل أكثر فيذكر أن تراقيا اكثر برودة من باقي الولايات، وأن توماس فكر في إعادة القوات إلى مواقعها الشتوية، ويردد كيدرينوس نفس القصة كاملة (١٨٠)، مما يعنى أن كليهما قد أخذ هذه الرواية عن جنسيوس .

وهنا جهز الإمبراطور جيشاً صغيراً خرج به فجأة من المدينة واندفع نحو المهاجمين فانزل بهم هزيمة نكراء. وفي البحر تم ربط السفن إلى البر وهُوجم من بالسفن

١٧٢- Genesius, *regum*, pp. 27-28 ويلاحظ الباحث أن جنسيوس أورد هذه المعلومات مصحوبة بتفاصيل يفهم منها اهتمام ميخائيل بالجانب الديني ومباركة المقدسات المسيحية مثل استخدام ابنه للصليب الخشبي وللرداء الشريف لمريم العذراء.

١٧٣- Theophanes Coninuatus, *Historia*, Col. 71-74.

١٧٤- Cedrenus, *Compendium*, Col. 963-966.

١٧٥- Skylitzes, *Constantinople*, pp. 34-35.

١٧٦- Genesius, *regum*, p. 28.

١٧٧- Theophanes Coninuatus, *Historia*, Col. 74; Cedrenus, *Compendium*, Col. 966.

١٧٨- Genesius, *regum*, p. 28.

١٧٩- Genesius, *regum*, p. 28.

١٨٠- Theophanes Continuatus, *Historia*, Col. 75 ، Cedrenus, *Compendium*, Col. 966. ومرة أخرى يلاحظ الباحث تطابق هذه الرواية مع ما أورده جنسيوس. انظر الهامش السابق.

فاضطروا إلى النزول منها، ولم يستطيعوا المقاومة وتحول كثير منهم إلى صفوف ميخائيل(١٨١). وروى صاحب الصلة وكيدرينوس نفس القصة (١٨٢).

وكان ممن انضموا إلى الإمبراطور القائد جريجوريوس – قائد العشرة آلاف سالف الذكر – فقد اصطحب معه جزءاً من الجيش وانتهز فرصة حلول الظلام وسار إلى تراقيا وأصبح في مؤخرة توماس. غير أن قائد الثورة أدرك ذلك على الفور، فانطلق مع قوة من جنده حيث قبض على جريجوريوس وقتله (١٨٣). ومع اتفاق المصادر الأخرى على واقعة تخلي جريجوريوس عن توماس وانضمامه إلى الإمبراطور ومطاردة توماس له وقتله إياه، فقد كانت هذه المصادر أكثر تفصيلا من جنسيوس. فصاحب الصلة يذكر أن جريجوريوس عندما رأى تحول بعض القوات البرية والبحرية إلى صف الإمبراطور، وأدرك أن توماس بدأ يفقد تفوقه انسحب مع جزء من الجيش لكي يهاجم توماس من الخلف وأرسل إلى الإمبراطور يطلب الصفح له ولزوجته وأبنائه لأن ميخائيل كان قد ألقى بهم في السجن عندما علم أن جريجوريوس انضم إلى توماس. ولكن الإمبراطور لم يعلم بذلك. وخرج توماس إلى جريجوريوس ودارت بينهما معركة وقبض عليه وقتله(١٨٤). ولا تختلف رواية كيدرينوس عن ذلك إلا في قوله أن جريجوريوس هو ابن ليو(١٨٥)، بينما يذكر سكيليتزيس أن جريجوريوس هو ابن أخ الإمبراطور(١٨٦) .

وعاود توماس بعد ذلك حصاره للمدينة، وتتفق المصادر هنا مع جنسيوس على أن توماس أرسل خطابات إلى كل مكان يدعى فيها كذبا أنه أحرز انتصارات في البر والبحر(١٨٧). وطلب توماس أن تجهز السفن الرابضة في اليونان والجزر الأخرى لتشارك في المعركة ضد الإمبراطور. فشحنت السفن بالقمح والمحاربين ووصلت إلى شاطئ بيريديس Byrides (١٨٨) ولم تكن أقل عدداً من سابقتها، وكان عددها حوالي ثلاثمائة

---

١٨١ - Genesius, *regum*, pp. 28-29.
١٨٢ - Theophanes Continuatus, *Historia*, Col. 75; Cedrenus, *Compendium*, Col. 966.
١٨٣ - Genesius, *regum*, p. 29.
١٨٤ - Theophanes Continuatus, *Historia*, , Col. 75-78.
١٨٥ - Cedrenus, *Compendium*, Col. 966.
١٨٦ - Skylitzes, *Constantinople*, p. 36.
١٨٧ - Genesius, *regum*, p.29; Theophanes Continuatus, *Historia*, Col. 78; Cedrenus, *Compendium*, Col. 966; Skylitzes, *Constantinople*, p.36.
١٨٨ - ذهب فازيليف إلى أن بيريديس هذه، أو بوريدون، هي ميناء هبدومون وهو ميناء كان يقع شرقي القصر الإمبراطوري، Vasiliev, *Byzance et les Arabes*, p. 40; Bury, *E. R. E.*, p. 98
وانظر خريطة القسطنطينية في نهاية البحث.

وخمسين سفينة. وكان هذا العدد مجهزاً للهجوم على جنوب وشمال المدينة. ولكن الإمبراطور كان قد سبق وأرسل سفنه من الأسطول الإمبراطوري المزودة بالنار الإغريقية فهاجمت سفن توماس ودمرت بعضها وأغرقت بعضاً وأسرت الكثير منها برجالها حيث اقتيدوا إلى الإمبراطور. وتنتهي هنا رواية جنسيوس عن هذه المواجهة البحرية بين توماس والإمبراطور(١٨٩)، على حين يواصل صاحب الصلة، وكيدرينوس، وسكيليتزيس رواية هذه الحلقة من الصراع بين توماس والإمبراطور بالحديث عن الاشتباكات البرية التي دارت بينهما والتي كان النصر فيها سجالا فلم تنته نهاية حاسمة (١٩٠)، وهو ما لم يذكره جنسيوس. ويرى الباحث أن تفسير ذلك أن ظروفا عديدة سبقت الإشارة إليها قد سمحت للمؤرخ المجهول صاحب صلة ثيوفان بالوصول إلى أصول ومصادر لم يصل إليها جنسيوس.

جـ- تدخل مورتاجون Mortagon ورفع الحصار عن القسطنطينية :

وعندما سمع مورتاجون حاكم " خان " البلغار بتلك الأحداث (١٩١)، أرسل وفداً إلى الإمبراطور يعرض عليه التحالف معه في هذه الحرب، بموجب المعاهدة المبرمة في عهد ليو لمدة ثلاثين عاماً، ولم يكن قد مضى على إبرامها عشر سنوات. غير أن الإمبراطور أعاد الرسل إلى موطنهم دون أن يلبى رغبتهم(١٩٢) . ولكن البلغار لم يبالوا بما قال الإمبراطور وأعدوا جيشاً كبيرا ساروا به إلى توماس، وأقاموا معسكراً عند موقع يسمى كيدوكتوس Keduktos (١٩٣). وأيقن توماس أنه لم يتبق له شئ من الأسطول تماماً، ووجد

١٨٩- ويرى الباحث أن هذه الهزيمة قد ساهمت على حد كبير في تحديد نتيجة ثورة توماس والفشل الذي آلت إليه. انظر : Genesius, *regum*, p. 29.

١٩٠ - Theophanes Continuatus, *Historia*, Col. 78; Cedrenus, *Compendium*, Col. 966 kylitzes, *Constantinople*, p.36.

والاتفاق هنا يعني أن هذه المصادر قد اعتمدت على مصدر واحد.

١٩١ - Genesius, *regum*, p. 29, Theophanes Continuatus, *Historia*, Col. 78; cf. also Vasiliev, *Byzance et les Arabes*, p. 41.

١٩٢ - Genesius, *regum*, p. 29; Theophanes Continuatus, *Historia*, Col. 79.

ويسجل فازيلييف رأيه في رفض المساندة التي عرضت على الإمبراطور البيزنطي، ويعزها إلى أنه كان من العار أن يوافق الإمبراطور البيزنطي ميخائيل العموري على نجدة تأتيه من (أعجمي) وأن يكون تدخل هذا الأخير سببا في نصر الإمبراطورية. انظر:

Vasiliev, *Byzance et les Arabes*, pp. 41-42, Hirsch, *Byzantinische*, p. 134.

١٩٣- يكتب باللاتينية كيدوكتوس Keduktos ، وهو سهل يقع بين هرقلية Herakleia وسيلمبريا Selymbria وهو اختصار من أكوادوكت Aquaedukt أي قناة مائية باللاتينية، وهو اسم لمكان اشتق من اسم قناة مائية بنيت في بيزنطة. انظر:

Vasiliev, *Byzance et les Arabes*, p. 42; Bury, *E. R. E.*, p. 101.

ألا سبيل للدخول في صدام كبير مع الإمبراطور، فترك حصار المدينة ووصل إلى المكان المحدد حيث دارت معركة حامية مع البلغار في الربع الأخير من عام ٨٢٢ م، وسقط كثير من رجاله قتلى، أما الباقون الذين لاذوا بالفرار فقد تشتت شملهم وعاد البلغار بكثير من الغنائم. ولا تختلف رواية جنسيوس لهذه الأحداث عن رواية المصادر الأخرى[١٩٤]. ويود الباحث هنا أن يلفت النظر إلى أن جنسيوس يرجع مشاركة البلغار في هذه الحرب إلى المعاهدة المبرمة بينهم وبين البيزنطيين، على حين يرجعها صاحب الصلة إلى رغبة البلغار في القيام بأعمال السلب والنهب. والباحث يرجح رأى جنسيوس لأن هذه المساندة تأتى في توقيت سريان المعاهدة. كما أن تدخل البلغار كان على مستوى حاكمهم، فالأمر إذن يتجاوز حدود السلب والنهب ، وربما كانت رغبة صاحب الصلة في أن يحط من قدر البلغار كعناصر بربرية هي التي جعلته يصورهم على هذا النحو وبأنهم قراصنة لا يهمهم سوى السلب والنهب .

٥- فرار توماس ونهاية ثورته:

جمع توماس من تفرق من رجاله وقادهم إلى موقع يسمى دياباسيس Diabasis[١٩٥]، وذلك لوفرة مراعى الجياد في هذه المنطقة وإمكانية الحصول على المؤن، وأخذ يشن الغارات على القرى المجاورة لتدميرها، أما الأسطول الذي تركه توماس خلفه (لمحاصرة المدينة) فقد استسلم بكامله للإمبراطور لدى علمه بالهزيمة التي لحقت بتوماس[١٩٦] . وعندما علم الإمبراطور بما فعل توماس أعد جيشاً متواضعاً وسيره إلى الموقع المذكور لقتال الطاغية. وتظاهر توماس بالفرار لتشتيت جيش الإمبراطور ولكن مسعاه خاب ولم يستطع تفريق صفوف جيش الإمبراطور، كما أنه لم يتمكن من صد هجوم هذا الجيش عليه فسارع بالفرار حتى وصل إلى أركاديوبوليس Arkadiupolis[١٩٧] مع

-١٩٤ Genesius, *regum*, p. 29; Theophanes Continuatus, *Historia*, Cols. 78-79; *Compendium*, Col. 970; Skylitzes, *Constantinople*, pp.36-37.

١٩٥- وهذا الموقع عبارة عن سهل يقع بالقرب من العاصمة القسطنطينية من ناحية الغرب. انظر: Genesius, *regum*, p. 30, Theophanes Continuatus, *Historia*, Col. 80. cf. also Vasiliev, *Byzance et les Arabes*, p. 43.

وانظر أيضاً خريطة القسطنطينية في هذا البحث .

-١٩٦ Genesius, *regum*, pp.29-30; Theophanes Continuatus, *Historia*, Col. 79; Cedrenus, *Compendium*, Col. 970; Skylitzes, *Constantinople*, p.37.

١٩٧- Genesius, *regum*, p. 30 وأركاديوبوليس اسم لمدينتين في آسيا الصغري وتراقيا. وتقع أركاديوبوليس أسيا الصغري في أيونيا، أما أركاديوبوليس تراقيا وهي المقصودة هنا فهي مكان بورجاس في الجزء الأوروبي من تركيا ، وتقع علي الطريق من أدريانوبل (أدرنة) إلي القسطنطينية.

بعض رجاله(١٩٨). وتتفق رواية المصادر الأخرى عن هذه الأحداث مع رواية جنسيوس، ولكنها تختلف عنها فيما يتعلق باسم المدينة التي لجأ إليها توماس. فهي عند صاحب الصلة وكيدرينوس وسكيليتزيس: أدريانوبوليس (أدرنة) Adrianopolis (١٩٩). والأرجح أن فرار توماس كان إلى أركاديوبوليس أولا كما يذكر جنسيوس، ثم تحرك بعد ذلك إلى أدريانوبل وهو المكان الذي سجلته المصادر الأخرى. فالخلاف كان سببه أن جنسيوس قد حدد أن النقطة الأولى التي فر إليها توماس هي أركاديوبوليس، بينما حدد صاحب الصلة أدريانوبوليس وهي النقطة الأشهر والأكبر التي تجمعت فيها قوات توماس. ثم أخذت المصادر الأخرى هذه الرواية عن صاحب الصلة. ومن ثم فإنه لا يمكن اعتبار ذلك خلافا بين المصدرين بقدر ما هو استكمال للرواية من جانب جنسيوس.

أ- محاصرة توماس في أركاديوبوليس والقبض عليه وإعدامه :

وعقب ذلك حاصر الإمبراطور أركاديوبوليس أو أدريانوبوليس التي لجأ إليها توماس بأن أحاطها بسور قوى(٢٠٠) أما صاحب الصلة فلم يذكر طبيعة الحصار واكتفي بالقول: " أن الإمبراطور قرر أن يحاصر توماس" (٢٠١)، على حين ذكر كيدرينوس انه : " أقام سوراً وخندقاً " (٢٠٢)، ووصف سكيليتزيس الحصار بأنه حصار منظم (أو حصار وفقا لقواعد الحصار المعروفة siege en regle مضيفا أن الإمبراطور أحاط المدينة بخندق وسياج (٢٠٣). وامتنع الإمبراطور عن ضرب المدينة بالمجانيق حرصا منه على ألا يقتل أحداً من الأخوة في العقيدة بالسيف، وحتى لا يظهر للسكيث أن مدن بيزنطة يمكن أن تسقط

The Oxford Dictionary, Vol. 1, p. 173. cf. also Genesius, *regum*, p. 30; Vasiliev, *Byzance et les Arabes*, pp. 44; Bury, *E. R. E.*, p. 103

وانظر أيضاً الخريطة رقم ١ في نهاية البحث.

١٩٨- Genesius, *regum*, p. 30.

١٩٩ – مدينة في تراقيا على نهر هيبروس الأوسط. وكانت تقع علي الطريق العسكري الرئيسي بلغراد – صوفيا – القسطنطينية وكانت معقلاً قوياً يحمي القسطنطينية من الغزوات القادمة من الشمال.

The Oxford Dictionary, Vol. 1, p. 23

وعن هذه الأحداث انظر أيضاً :

Theophanes Continuatus, *Historia*, Cols. 79-80; Cedrenus, *Compendium*, Col. 970; Skylitzes, *Constantinople*, p.38

وعن موقع أدرنة انظر الخريطة رقم ١ في نهاية البحث.

٢٠٠- Genesius, *regum*, p. 30.

٢٠١- Theophanes Continuatus, *Historia*, Col. 82.

٢٠٢- Cedrenus, *Compendium*, Col. 9.

٢٠٣- Skylitzes, *Constantinople*, p.38.

وتحتل باستخدام المجانيق[٢٠٤] . وتتفق المصادر الأخرى مع جنسيوس في امتناع ميخائيل عن ضرب المدينة بالمجانيق ولكنها ترجع ذلك إلى عدم امتلاكه آلات الحصار، ورغبته في تجنب زيادة خسائر الحرب الأهلية من جهة وحرصه على عدم وصول المعلومات الخاصة باستخدام آلات الحصار إلى السكيثيين الذين كانوا يقيمون في المناطق المجاورة [٢٠٥]، من جهة أخرى. ومع اشتداد وطأة الحصار والمجاعة على الطاغية، بدأ توماس يشعر بحاجته إلى ضرورات الحياة وراح يلقي كل ما هو مسن وغير مفيد من الكائنات خارج المدينة، وأخذ يحض الناس بعد ذلك على أكل جثث الجياد التي هلكت بسبب الجوع، بعد دهنها بزيت معطر، ثم أخذ يحرضهم على أكل الجلود. وبعد ذلك خرج البعض من البوابات، وألقى آخرون أنفسهم من الأسوار وهم معلقون بالحبال، وألقى آخرون بأنفسهم إلى الأرض فتحطمت عظامهم وهم يطلبون الأمان من الإمبراطور. إلا أنهم بعد أن حصلوا على الأمان بادروا بالانضمام إلى اناستاسيوس ابن الطاغية الزائف الذي كان آنذاك يحتل مدينة بيزا[٢٠٦]، وكان يخطط من هناك لشن هجوم على الإمبراطور يهيئ به الفرصة لفرار الطاغية. وتحدث الإمبراطور إلى أهل مدينة دياباسيس ووعدهم بالعفو وأقسم لهم على ذلك فالقوا القبض على توماس وسلموه للإمبراطور فضربه بقدمه في عنقه وأمر بقطع يديه وقدميه وتعليقه على خازوق[٢٠٧]. وعندما كان توماس يهلك ويتألم من العذاب صرخ قائلاً: " الرحمة بي أيها الإمبراطور الحقيقي". فسأله الإمبراطور عما إذا كان له أعوان مجهولون فقال أن هناك كثيرا من أصدقاء الإمبراطور زيفاً وبهتاناً لكن رجلا يدعى حنا إكسابوليوس وهو من النبلاء، منع الطاغية من الكلام مؤكداً للإمبراطور أنه لا ينبغى له أن يثق في قول أعدائه عن أصدقائه. وكانت نهاية توماس في منتصف شهر أكتوبرعام ٨٢٣ م، بعد صراع طويل استمر ثلاث سنوات. وإذا كان جنسيوس هو الذي حدد دون غيره تاريخ مقتل توماس وطريقة قتله، فإن روايته تتفق في كثير من الأمور الخاصة بنهاية توماس مع روايات المصادر الأخرى[٢٠٨].

٢٠٤- Genesius, *regum*, p. 31.

٢٠٥- Theophanes Continuatus, *Historia*, Col. 82; Cedrenus, *Compendium*, Col. 971; Skylitzes, *Constantinople*, p. 38.

٢٠٦ - Genesius, *regum*, p. 31 - 32 بيزي Bizye وهي فيزا الحديثة Vize وكانت مدينة في تراقيا شمال شرق أركاديوبوليس : *The Oxford Dictionary*, Vol. 1, p. 292 . وانظر أيضاً: فازيليف ص ٤٨-٤٩، وعن موقع بيزي انظر الخريطة رقم ١ في نهاية البحث.

٢٠٧- Genesius, *regum*, p. 33. cf. also Vasiliev, *Byzance et les Arabes*, pp. 45-46.

٢٠٨- Genesius, *regum*, p.31; Theophanes Continuatus, *Historia*, Cols. 82-83 ; Cedrenus, *Compendium*, Col. 971; Skylitzes, *Constantinople*, pp.38-39.

ب- نهاية الثورة :

وعندما سمع أهالى بيزا بما حدث لتوماس بادروا بالقبض على أناستاسيوس وتسليمه للإمبراطور الذي قضى بنفس العقوبة التي حاقت بأبيه الزائف فقطعت يداه وقدماه وأعدم على الخازوق (٢٠٩). وبقيت مدينتا بانيون Panion (٢١٠) وهرقلية Heraklcia(٢١١) على ولائهما لتوماس، ورفض أهالى مدينة بانيون التسليم مقابل عهد أمان من الإمبراطور ولكن سرعان ما أصاب المدينة زلزال هدم أسوارها فاستسلمت. ويلاحظ أن كيدرينوس يطلق على هذه المدينة اسم باريوم Parium وليس بانيون Panion كما جاء عند جنسيوس وفي المصادر الأخرى(٢١٢). أما هرقلية فقد استسلمت بعد هجوم بحرى قام به الأسطول الإمبراطوري (٢١٣). وسيطر ميخائيل تماما على تراقيا، وعاد إلى العاصمة بأسراه وأمر بأن تشد أيدى أتباع توماس وراء ظهورهم، وأن يطاف بهم أمام الناس في الملعب، ثم نفي بعضهم في الحال واحتفل بنصره على هذا النحو (٢١٤).

---

٢٠٩ - Genesius, *regum*, p.31; Theophanes Continuatus, *Historia*, Col. 83 ; Cedrenus, *Compendium*, Cols. 971-974; Skylitzes, *Constantinople*, p. 39.

٢١٠ - Genesius, *regum*, p. 31 أما عن مدينة بانيون Panion أو بانيدون Panidon فهي مدينة يرجع تاريخها إلي العصر القديم المتأخر وتقع علي الشاطئ الشمالي لبحر مرمرة بالقرب من رايدستوس.
The Oxford Dictionary, Vol. 3, p. 1573.
وانظر أيضا الخريطة رقم ١ في نهاية البحث.

٢١١ - Genesius, *regum*, p. 31 أما عن مدينة هرقلية (هرقْلة في المصادر الإسلامية) فإنه توجد ثلاث مدن في التاريخ البيزنطي تحمل هذا الاسم ، واحدة في تراقيا وتقع علي الشاطئ الشمالي لبحر مرمرة ، انظر الخريطة رقم ١، وواحدة في قبادوقيا وهي مِن ثيم الأناطوليك عند الحافة الجنوبية لهضبة الأناضول ، وواحدة في بونتيك وهي ميناء ممتاز علي ساحل البحر الأسود في الأناضول. أما هرقلية التي ظلت علي ولائها لتوماس فهي بلا شك هرقلية التراقية وكان يطلق علها في العصر القديم بيرينثوس Perinthos وهي إريغلي الحديثة Eregli. وغير ديوكليتيان اسمها إلي هرقلية لأنه كان يسمى هرقل Herkulius في المكاتبات الرسمية.انظر:
Oxford Dictionary, Vol. 2, p. 915.

٢١٢ - Genesius, *regum*, p. 31; Theophanes Continuatus, *Historia*, Col. 86 ; Cedrenus, *Compendium*, Col. 90; Skylitzes, *Constantinople*, p. 39.

٢١٣ - Genesius, *regium*, p. 31; Theophanes Continuatus, *Historia*, Col. 86; Cedrenus, *Compendium*, Col. 90; Skylitzes, *Constantinople*, p. 39.

٢١٤ - Genesius, *regum*, pp. 31-32; Theophanes Continuatus, *Historia*, Col. 86; Cedrenus, *Compendium*, Col. 90; Skylitzes, *Constantinople*, p.39.

ثالثاً : محاولات استرداد كريت:

١- استيلاء المسلمين على كريت:

تمثل محاولات الإمبراطور ميخائيل الثاني المتكررة لاسترداد كريت من المسلمين الحدث الثالث في الترتيب الزمنى للأحداث الثلاثة المهمة التي اهتم جنسيوس كما اهتمت المصادر البيزنطية الأخرى بالتأريخ لها في عصر هذا الإمبراطور.

ويبدأ جنسيوس روايته لأحداث الاستيلاء على كريت في ختام روايته لثورة توماس(٢١٥) حيث يذكر أنه في الوقت الذي قامت فيه ثورة توماس خرب المسلمون بعض المناطق البيزنطية باستخدام عشر سفن أصبحت بعد ذلك عشرين سفينة. ويبرر جنسيوس هذا التصرف من جانب المسلمين بأن بلادهم لم تكن خصبة فطلبوا من قائدهم أبى حفص أن يذهبوا إلى منطقة بها أراض زراعية جيدة، فأعد أبو حفص أسطولاً جيد التسليح سيطر به على كريت وأخضعها وحصل منها على غنائم كثيرة وعاد إلى بلاده. وفي العام التالى عاد أبو حفص مع أربعين سفينة إلى كريت ورست السفن عند خاراكس Charax. وبينما كان رجاله يقومون بالسلب والنهب أحرق أبو حفص كل السفن. وعندما أعرب الرجال عن غضبهم لذلك، اخبرهم أن هذه البلاد يتوفرُ بها العسل واللبن، وعندما قالوا أن لهم زوجات وأبناء في وطنيم رد بأن بإمكانهم الزواج من الأسرى. فاقتنعوا وحفروا خندقاً حول المكان الذي كانوا فيه أحاطوه بسياج وأطلق على هذا المكان اسم خانداكس أى الخندق Chandax(٢١٦). ولكن راهبا كان يعيش في الجزيرة أرشدهم إلى مكان أخر يصلح لإقامة مدينتهم ومنها راحوا يهاجمون مدن كريت الأخرى حتى أخضعوا تسعا وعشرين مدينة(٢١٧). ولا تختلف رواية المصادر الأخرى عن هذه الرواية في أى من تفاصيلها(٢١٨). ويحكى جنسيوس بعد ذلك عن استشهاد كيريلوس Kyrillos أسقف مدينة جورتاين Gortyne بشكل يجعل الباحث يؤكد على اهتمامه بالمقدسات الدينية اكثر من غيره، وإن لم

٢١٥- Genesius, *regum*, p. 32. cf. also: Vasiliev, p. 54.

٢١٦- خانداكس Chandax اسم هذه المدينة مشتق من الكلمة العربية "الخندق" وتحول هذا الاسم إلي كانديكا Candica ثم إلي كانديا Candia وهو الاسم الذي أصبح يطلق علي جزيرة كريت كلها. وهي الأن هيراقليون Herakleion ، وتقع علي ساحل كريت الأوسط الشمالي.

The Oxford Dictionary, Vol. 1, p. 409. See also, Vasiliev, *Byzance et les Arabes*, p. 56. cf. also Brooks, "The Arab Occupation of Crete," *E. H. R.* 28(1913), pp. 431-433.

٢١٧- Genesius, *regum*, pp.32-33.

٢١٨- Theophanes Continuatus, *Historia*, Cols. 87-90 ; Cedrenus, *Compendium*, Cols. 91-93 ; Skylitzes, *Constantinople*, pp.40-41.

يصل في تشدده إلى المؤرخين الآخرين لهذه الفترة كصاحب صلة ثيوفان مثلا. كما يذكر قصة تقول بأن دم هذا الشهيد لم يجف وأن المؤمنين كانوا يحجون إلى المكان ويأخذون دمه بقطعة من الإسفنج ويتخذون منه دهاناً مقدساً لم يطرأ عليه أى تغير. ويشير جنسيوس أيضاً إلى مقبرة تخلد ذكرى سبعة من الشهداء الذين قتلوا في سبيل عقيدتهم(٢١٩). وترد نفس القصة عند صاحب الصلة، ولكنه يذكر أن مقابر الشهداء كانت عشرا وليست سبعا كما ذكر جنسيوس(٢٢٠)، ويكتفي سكيليتزيس بالقول أن كيريلوس أسقف جورتاين (٢٢١) قد لبس تاج الشهادة لرفضه الكفر بالمسيح (٢٢٢).

٢- حملة كراتيروس Krateros:

يشير جنسيوس بعد ذلك إلى عدم اهتمام ميخائيل الثاني في البداية بغزو المسلمين لكريت ثم إرساله كراتيروس Krateros لتدمير قوة المسلمين. وهزم كراتيروس المسلمين ولكن رجاله راحوا في نوم عميق أثناء الليل فجاء الأعداء وأجهزوا عليهم، وهرب كراتيروس لكن قائد المسلمين أرسل سفينتين خلفه وقبض عليه عند قلعة خوس Kos وصلب هناك. ومنذ ذلك الوقت أصبحت جزيرة كريت تحت سيطرة المسلمين وأصبحوا يهاجمون الأراضى البيزنطية منها (٢٢٣). ولا تختلف رواية هذه الأحداث في المصادر الأخرى(٢٢٤).

٢١٩- Genesius, regum, pp.33-34 وهنا تجدر الإشارة إلى أن مصدر جنسيوس لهذه الرواية يرجع إما إلى تراث شفوي، وإما إلى الكتاب الذي كتبه سرجيوس المعترف، انظر:

Hirsch, *Byzantinische*, p. 136; Brooks, *The Arabs*, pp. 55-56, p. 441.

٢٢٠- Genesius, *regum*, pp. 33-34; Theophanes Continuatus, *Historia*, Col. 91.

٢٢١- جورتاين Gortyna (وتكتب أيضا Gortys) عاصمة كريت ، في أواخر العصر القديم تقع في جنوب الجزيرة ، وقد ظلت عاصمة للجزيرة حتى الفتح العربي للجزيرة وبناء مدينة خانداكس Chandax حوالي ٨٢٤- ٨٢٧ م *The Oxford Dictionary*, Vol. 2, p. 860.

٢٢٢- Skylitzes, *Constantinople*, p.42.

٢٢٣- Genesius, *regum*, p.34.

وعن موقع خوس (كوس) انظر الخريطة رقم ١.

٢٢٤- Theophanes Continuatus, *Historia*, Col. 94 ; Cedrenus, *Compendium*, Cols. 95-97; Skylitzes, *Constantinople*, pp.43-44. cf. also Vasiliev, *Byzance et Les Arabes*, p. 60.

٣- حملة أوريفاس Ooryphas :

ويشير جنسيوس بعد ذلك بإيجاز إلى الحملة التي أرسلها الإمبراطور تحت قيادة أوريفاس Ooryphas الذي ترأس قوة عسكرية اشتملت على فيالق بحرية. ويذكر أن الإمبراطور قد منح كل جندى من جنود البر ٤٠ قطعة ذهبية وأنهم استطاعوا بعد حصولهم على هذه المبالغ تحرير كثير من الجزر(٢٢٥). وترد الرواية على نفس الوتيرة عند صاحب الصلة، وكيدرينوس (بإيجاز أشد)، وسكيليتزيس(٢٢٦).

وتتوقف عند هذا الحد رواية جنسيوس لأحداث استيلاء المسلمين على كريت ومحاولات ميخائيل الثاني استردادها. وتختلف رواية جنسيوس لوقائع استيلاء المسلمين على كريت ومحاولات ميخائيل الثاني استردادها عن رواية المصادر الأخرى في إغفال جنسيوس أمر الحملة الأولى التي أرسلها الإمبراطور ميخائيل لاسترداد كريت بقيادة فوتيوس Photios، وطلب هذا الأخير المدد من الإمبراطور الذي أرسل داميانوس Damianos لدعمه، ثم هزيمة هذه الحملة على يد المسلمين ومقتل داميانوس(٢٢٧).

مواضع الاتفاق والاختلاف بين رواية جنسيوس وروايات المصادر الأخرى :

ومجمل القول أن رواية جنسيوس للأحداث قد اتفقت مع رواية المصادر الأخرى أو بعضها فيما يتعلق بمعظم وقائع الفترة موضوع الدراسة ، ولكنها اختلفت عنها في بعض هذه الوقائع، حيث انفرد جنسيوس برواية وقائع لم ترد في المصادر الأخرى، وأغفل أحداثا أخرى مهمة أوردتها هذه المصادر.

أ- مواضع الاتفاق :

اتفقت رواية جنسيوس مع رواية المصادر الأخرى في القول بأن ميخائيل كان يشغل منصبا رفيعا في الإمبراطورية قبل إقدامه على التآمر لاغتيال ليو، وأنه اتهم بسب الإمبراطور وحوكم أمام محكمة قضت بإعدامه حرقا، ولكن تدخل الإمبراطورة حال دون تنفيذ الحكم(٢٢٨) .

٢٢٥- Genesius, *regum*, p. 35; cf. also: Brooks, *Crete*. P.437.

٢٢٦- Theophanes Continutus, *Historia*, Col. 95; Cedrenus, *Compendium*, Col. 97; Skylitzes, *Constantinople*, p. 44, cf. also: Vasiliev, *Byzance et Les Arabes*, p.61.

٢٢٧- Theophanes Continuatus, *Historia*, Col. 90 ; Cedrenus, *Compendium*, Col. 97 ; Skylitzes, *Constantinople*, p. 42.

٢٢٨- Theophanes Continuatus, *Historia*, Cols. 48-49; Genesius, *regum*, pp. 15-16, Hamartolus, *Chronicon*, Col. 995; Zonaras, *Annalium*, Cols. 1376-1377 ،Skylitzes, *Constantinople*, pp. 20-21.

كما اتفقت الروايتان حول ما حدث ليلة اغتيال ليو من زيارته لميخائيل في سجنه سرا أثناء الليل وتعرف الحارس عليه واتصال ميخائيل بشركائه وحثهم على تنفيذ مؤامرتهم، ثم تربص المتآمرين لليو في الكنيسة ليلة عيد الميلاد واغتيالهم له[٢٢٩]. وتتفق الروايتان أخيرا فيما يتعلق بالمناداة بميخائيل إمبراطورا والقيود لم تزل في قدميه، ووضع جثة ليو وزوجته وأولاده في زورق وإرسالهم إلى جزيرة بروتى حيث أخصى الأولاد ومات أحدهم بسبب ذلك [٢٣٠].

وفيما يتعلق بثورة توماس فقد اتفقت رواية جنسيوس مع رواية المصادر الأخرى حول نشأة توماس في أسرة فقيرة، ونزوحه إلى القسطنطينية طلباً للرزق والتحاقه بخدمة أحد أعضاء مجلس الشيوخ (السناتو) ثم تلويثه لشرف سيده وفراره إلى سوريا (عند المسلمين) حيث اعتنق ديانة المسلمين وأنكر عقيدته المسيحية، وبعد أن عاش مع هؤلاء الناس خمسة وعشرين عاماً أحاط نفسه بقدسية زائفة وادعى أنه قسطنطين ابن ليو الرابع وإيرين [٢٣١] .

ثم اتفقت الروايتان حول معظم وقائع ثورة هذا الرجل بدءا من إرجاعها إلى رغبته في الانتقام لمقتل صديقه ليو[٢٣٢]، وانتهاء بمحاصرته في أركاديوبوليس وتسليم الأهالى إياه للإمبراطور الذي وضع قدمه على عنق الثائر المهزوم وأمر بقطع يديه ورجليه وإعدامه على الخازوق[٢٣٣] .

وما بين بداية الثورة ونهايتها لا تكاد الروايتان تختلفان في أى من تفاصيلها فيجد القارئ نفس القصة فيما يتعلق بانضواء المقاطعات الشرقية تحت لـــواء توماس وتعدد مصـــادر قواته من المقاطعـــات البيزنطية الشرقية، وجند المسلمين، وأجناس كثيرة

٢٢٩- Theophanes Continuatus, *Historia*, Cols. 52-53, Gensius, regum, pp. 16-18; Hamartolus, *Chronicon*, Col. 995; Zonaras, *Annalium*, Cols. 334-335 ؛Skylitzes, *Constantinople*, pp.22-23.

٢٣٠- Theophanes Continuatus, *Historia*, Cols. 52-53, Gensius, *regum*, pp. 16-18; Hamartolus, *Chronicon*, Col. 995; Zonaras, *Annalium*,Cols. 334-335 ؛Skylitzes, *Constantinople*, pp.22-23.

٢٣١- Genesius, regum, pp.7,23 ; Hamartolus, *Chronicon*, Col. 1002; Zonaras, *Annalium*, Col. 341; Theophanes Continuatus, *Historia*, , Cols. 63 , 66; Skylitzes, *Constantinople*, pp.29,30; Cedrenus, *Compendium*, Col.959.

٢٣٢- Gnesius, *regum*, p.23; Zonaras, *Annalium*, Col. 340 ; Theophanes Continuatus, *Historia*, Cols. 63 , 66 ; Skylitzes, *Constantinople*, pp. 29-30; Cedrenus, *Compendium*, Col. 959.

٢٣٣- Gensius, *regum*, p.30, 31; Theophanes Continuatus, *Historia*, Cols. 82،83 ؛ Cedrenus, *Compendium*, Cols 971-974; Skylitzes, *Constantinople*, pp.38-39.

أخرى[٢٣٤]، وتحالف توماس مع المسلمين وتتويجه إمبراطـورا على يد بطـريرك أنطاكية [٢٣٥]، ومحاصرته للقسطنطينية واستعانته بجريجوريوس القائد السابق للإمبراطـور [٢٣٦]، وتراجعه عن مهاجمة المدينة بسبب العواصف الشديدة وتخلي الكثيرين عنه ومن بينهم جريجوريوس الذي أراد الانضمام للإمبراطور فتعقبه توماس وقتله[٢٣٧].

واتفقت الروايتان مرة أخرى على ادعاء توماس كذبا أنه انتصر، وأنه طلب سفنا من اليونان حيث جاءته ثلاثمائة وخمسون سفينة دمرت سفن الإمبراطور بعضها وأسرت بعضا [٢٣٨] ؛ وما كان من تدخل مورتاجون خان البلغار ضد توماس رغم اعتراض ميخائيل وانتصار مورتاجون على توماس[٢٣٩] ؛ وفرارتوماس إلى دايباسيس ؛ وخروج ميخائيل لمهاجمته ثم محاصرته إياه في أركاديوبوليس ولجوء ابنه المتبنى أناستاسيوس إلى بيزا [٢٤٠].

وأخيرا ترد عند جنسيوس وفي المصادر الأخرى قصة نهاية الثورة بتسليم الأهالي توماس للإمبراطور، ثم تسليم أهالي بيزا أناستاسيوس للإمبراطور وإعدامه بنفس الطريقة التي أعدم بها توماس، واستيلاء ميخائيل على آخر جيوب الثورة في بانيون وهرقلة [٢٤١].

وفيما يتعلق برواية جنسيوس لمحاولات استرداد كريت من المسلمين، اتفقت رواية جنسيوس مع رواية المصادر الأخرى حول أسباب استيلاء المسلمين على كريت والتي تتمثل في انشغال ميخائيل بقمع ثورة توماس، ورغبة المسلمين في الذهاب على أرض زراعية خصبة. كما اتفقت الروايتان على هجوم أبي حفص على كريت واستيلائه

٢٣٤ - Cedrenus, *Compendium*, Col. 962; Theophanes Continuatus, *Historia*, Col.67; Skylitzes, *Constantinople*, p. 31; Zonaras, *Annalium*, Col. 43.
٢٣٥ - Cedrenus, *Compendium*, Col 961; Theophanes Continuatus, *Historia*, Col. 70; Skylitzes, *Constantinople*, p. 30.
٢٣٦ - Theophanes Continuatus, *Historia*, Cols. 70-71; Cedrenus, *Compendium*, Col. 963; Skylitzes, *Constantinople*, pp. 33-34; Genesius, *regum*, pp. 27-28.
٢٣٧ - Genesius, *regum*, p. 28; Theophanes Continuatus, *Historia*, Col. 74; Cedrenus, *Compendium*, Col. 966.
٢٣٨ - Genesius, *regum*, p.29; Theophanes Continuatus, *Historia*, Col. 78; Cedrenus, *Compendium*, Col. 966; Skylitzes, *Constantinople*, p.36.
٢٣٩ - Genesius, *regum*, p.29; Theophanes Continuatus, *Historia*, Cols. 78-79; Cedrenus, *Compemdium*, Col. 970; Skylitzes, *Constantinople*, pp.36-37.
٢٤٠ - Genesius, *regum*, pp. 29-30; Theophanes Continuatus, *Historia*, Cols. 79 -80; Cedrenus, *Compendium*, Col. 970; Skylitzes, *Constantinople*, pp.37-38.
٢٤١ - Genesius, *regum*, p. 31-32; Theophanes Continuatus, *Historia*, Cols. 83, 86 ; Cedrenus, *Compendium*, Col. 971-974, 90; Skylitzes, *Constantinople*, p.39.

على غنائم، ثم عودته بأربعين سفينة وسيطرته على الجزيرة وإحراقه للسفن حتى يستقر بها المسلمون. كما ترد في الروايتين نفس التفاصيل المتعلقة باستقرار المسلمين في مكان دلهم عليه راهب وانطلاقهم من هذا المكان لمهاجمة المدن الأخرى واستيلائهم على تسع وعشرين مدينة (٢٤٢)، وكذلك قصة استشهاد كيريلوس لتمسكه بعقيدته وحج المسيحيين إلى موطنه التماسا لدمه الذي لم يجف. وتصف الروايتان موقف ميخائيل اللامبالي تجاه استيلاء المسلمين على الجزيرة في بداية الأمر، ثم إرساله كراتيروس على رأس حملة لاستعادة الجزيرة وإخفاق الحملة رغم انتصارها في البداية، وصلب كراتيروس(٢٤٣)؛ ثم حملة أوريفاس ونجاحها في تحرير كثير من الجزر(٢٤٤) .

ب- مواضع الاختلاف :

أما الوقائع التي اختلفت فيها رواية جنسيوس عن روايات المصادر فتتمثل في الاختلاف على مسمى المنصب الذي كان يشغله ميخائيل الثاني قبل اغتيال ليو الخامس. فهو عند جنسيوس يحمل لقب " كونت بالبلاط " و " بطريق " Komes Kortes, Patrikios (٢٤٥)، أما عند هامارتولوس، فهو " قائد للحرس " Cohorts (٢٤٦)، على حين يعطيه صاحب صلة ثيوفان لقب رئيس الحلفاء أو القوات المتحالفة (٢٤٧). ولا يرد ذكر لمسمى وظيفة ميخائيل في أعمال سكيليتزيس، وزوناراس، اللذين يكتفيان بالقول انه قد ارتقى إلى درجات عليا (٢٤٨) أو انه وصل إلى حظ عظيم(٢٤٩) . وإذا كانت الروايات قد اتفقت هنا على عظم مكانة ميخائيل، واختلفت على مسمى وظيفته، فإن الباحث يميل إلى الأخذ برأي هامارتولوس القائل بأنه كان قائدا للحرس. إذ أن هذا المؤرخ كان أقرب زمنيا إلى هذه الأحداث من غيره. كما أن هذه الوظيفة كانت أقرب من غيرها لما كان يجرى في القصر الإمبراطوري.

---

٢٤٢ - Genesius, *regum*, pp.32-33; Theophanes Continuatus, Hiistoria, Cols. 87-90 ; Cedrenus, *Compendium*, Cols. 91-93 ; Skylitzes, *Constantinople*, pp.40-41.

٢٤٣ - Genesius, *regum*, pp. 33-34; Theophanes Continuatus, *Historia*, Col. 91, 94; Cedrenus, *Compendium*, Cols. 95-97; Skylitzes, *Constantinople*, pp.42-44.

٢٤٤ - Genesius, *regum*, p.35; Theophanes Continuatus, *Historia*, Col.90, 95; Cedrenus, *Compendium*, Col. 97; Skylitzes, *Constantinople*, pp. 42, 44.

٢٤٥ - Genesius, *regum*, p.8.

٢٤٦ - Hamartolus, *Chronicon*, Col. 995.

٢٤٧ - Theophanes Continuatus, *Historia*, , Col. 48.

٢٤٨ - Skylitzes, *Constantinople*, p. 20.

٢٤٩ - Zonaras, *Annalium*, Col. 1376.

على حين يذكر جنسيوس أن ميخائيل قد حوكم لأنه كان يسب الإمبراطور، يصور هامارتولوس الأمر على أن ميخائيل وقع ضحية وشاية بأنه كان يتآمر على الإمبراطور[٢٥٠]، ويصف صاحب الصلة الإبلاغ عن ميخائيل بأنه " فعل شرير" [٢٥١] فيعطى هذان المؤرخان الأخيران القارئ إحساسا بالتعاطف مع ميخائيل وبأن ليو كان رجلا شريرا، خلافا للانطباع الذي يخرج به قارئ مؤلف سكيليتزيس الذي يسهب في وصف تطور الأمور من وصول قصة السباب إلى الإمبراطور إلى محاولات هكسابوليوس ثم الإمبراطور إثناء ميخائيل عن المضي في غيه دون جدوى حتى لم يجد الإمبراطور أمامه إلا أن يحاكم ميخائيل على فعلته. فلا تخلو رواية سكيليتزيس هذه من جوانب إيجابية في شخصية ليو[٢٥٢]. فمن الواضح إذن أن هناك وشاية عن ميخائيل وصلت إلى الإمبراطور ليو الخامس الأرميني فجعلته يضعه تحت المراقبة إلى أن توالت الأحداث على هذا النحو .

وتختلف رواية جنسيوس لواقعة تحرير ميخائيل من القيود بعد أن جلس على العرش عن رواية كل من صاحب صلة ثيوفان، وزوناراس، وسكيليتزيس. فعلى حين ذهب جنسيوس إلى أن حنا اكسابوليوس قد أعلن أن مفاتيح القيود كانت في قميص ليو القتيل، وأن القيود تم فتحها بهذه المفاتيح، روى المؤرخون الثلاثة الآخرون القصة على نحو مختلف واستخدموا كلمة " فتم تحطيم القيود "، وزاد سكيليتزيس على ذلك : " بضربات من المطرقة " [٢٥٣]. ويرجح الباحث أن يكون فتح القيود قد تم باستخدام المفاتيح.

وتختلف رواية جنسيوس عن رواية المصادر الأخرى فيما يتعلق بالأصول العرقية لتوماس في أنه ذكر في أحد المواضع أن توماس كان من بلاد السكيثيين، أي أنه كان من الجنس السلافي[٢٥٤]، ثم عاد في موضع آخر ليقول أنه كان أرمينيا ولد عند بحيرة جازورا [٢٥٥]. وقد أوضح الباحث ملابسات هذه الرواية في موضعها من سياق الأحداث. أما المصادر الأخرى فتراوحت روايتها بين القول بأنه كان سلافيا أو انه كان من أصل مجهول أو بربري [٢٥٦].

٢٥٠- Hamartolus, *Chronicon*, Col. 995.

٢٥١- Theophanes Continuatus, *Historia*, Col. 48.

٢٥٢- Skylitzes, *Constantinople*, p. 20.

٢٥٣- Theophanes Continuatus, *Historia*, Col. 56; Zonaras, *Annalium*, Col. 335; Skylitzes, *Constantinople*, p. 25.

٢٥٤- Genesius, *regum*, p.23.

٢٥٥ – انظر ما سبق ص٢٩٦ . Genesius, *regum*, p. 7.

٢٥٦- Hamartolus, *Chronicon*, Col. 1002 ،Zonaras, *Annalium*, Col. 341; Theophanes Continuatus, *Historia*, Cols. 63,66; Skylitzes, *Constantinople*, pp. 29-30; Cedrenus, *Compendium*, Col. 959.

وعند رواية أسباب الثورة، ذكر جنسيوس أن توماس قام بالثورة عندما علم بتولي ميخائيل الحكم، ولأنهما (توماس وميخائيل) لم يكونا على وفاق منذ البداية، ولشعور توماس بالاستياء من تولي ميخائيل الحكم رغم وضاعة أصله[٢٥٧]. وفي مقابل هذه الأسباب تجتمع كلمة المصادر الأخرى على أن توماس إنما قام بثورته انتقاما لمقتل صديقه ليو[٢٥٨]. وكان الباحث قد أشار إلى أن الفروق بين شخصية توماس وشخصية ميخائيل كانت من الأسباب التي أدت إلى إذكاء نار العداوة بينهما.

وتختلف رواية جنسيوس عن رواية المصادر الأخرى فيما يتعلق بأجناس القوات التي جمعها توماس في جيشه. فعلى حين يورد جنسيوس أسماء أكثر من ثمانية عشر شعبا مختلفا شاركت في تشكيل هذا الجيش[٢٥٩]، لا يزيد هذا العدد في المصادر الأخرى عن عشرة أجناس[٢٦٠]. والواقع أن قائمة القوات التي كان يتكون منها جيش توماس كما أوردها جنسيوس كانت موضع خلاف بين العلماء. فعلى حين ذهب بيوري إلى أن معظم هذه الفئات – كالفندال مثلا – لم يكن لهم وجود في القرن التاسع [٢٦١]، وهو رأى أخذ به فازيليف [٢٦٢]، ذهب أ. كونك إلى أن هذه القائمة صحيحة وحاول تعريف الشعوب المذكورة [٢٦٣]. والباحث إذا كان يؤيد رأى فازيليف بأن هذا التعداد المسرف يحمل روح القصص والملاحم، فإنه يشير أيضا إلى أن بعض هذه العناصر التي شاركت في ثورة توماس قد فقدت اسمها التاريخي أو انتهي دورها في التاريخ، ولكنها بقيت في مواطنها وذابت مع تغيرات الزمن مثلما هو الحال مع الوندال [٢٦٤].

وتختلف رواية جنسيوس لأحداث الثورة عن رواية المصادر الأخرى في بعض التفاصيل وأهمها:

وانظر أيضا ما سبق ص ٢٩٦.

٢٥٧ - Genesius, *regum*, p. 23.

٢٥٨ - Zonaras, *Annalium*, Col. 340; Theophanes Continuatus, *Historia*, Cols 63,66: Skylitzes, *Constantinople*, pp. 29-30; Cedrenus, *Compendium*, Col. 959.

٢٥٩ - Genesius, *regum*, p. 24.

٢٦٠ - Theophanes Continuatus, *Historia*, Col. 70; Cedrenus, *Compendium*, Col. 962.

٢٦١ - Bury, *E. R. E.*, p. 89, n. 2.

٢٦٢ – فازيليف، العرب والروم، ص ٣٦، هـ ٢.

٢٦٣ – فازيليف، العرب والروم، ص٣٦، هـ ٢.

٢٦٤ – عن الشعوب التي تنتمي إليها هذه القوات المتعددة الجنسيات انظر:
The Oxford Dictionary of Byzantium.

- اسم بطريرك أنطاكية الذي قام بتتويج توماس. فهو أيوب عند جنسيوس (وكيدرينوس، وزوناراس، وسكيليتزيس) ولكنه يعقوب عند صاحب الصلة وقد أوضح الباحث رأيه في هذا الأمر بالتفصيل في موضعه من البحث .(٢٦٥)
- سكوت المصادر الأخرى عن أول هجوم شنه توماس على القسطنطينية وهزيمته حيث هاجمه ميخائيل من جانب وابنه ثيوفيل من جانب آخر، ثم دمرت سفنه بالنار الإغريقية (حيث تراجع توماس وأقام معسكره بين سستوس وأبيدوس) .(٢٦٦)
- قصة اختراع النار الإغريقية التي ينسبها جنسيوس إلى المصري كالينيكوس وقد علق الباحث على هذه المسألة في موضعها .(٢٦٧)
- توقف جنسيوس في روايته عند تدمير حراقات الإمبراطور لثلاثمائة وخمسين سفينة جاءت إلى توماس من اليونان، واستمرار المصادر الأخرى في وصف الاشتباكات البرية التي كان النصر فيها سجالا. وقد بين الباحث رأيه في هذا الشأن.
- اسم المدينة التي لجأ إليها توماس بعد هزيمته أمام ميخائيل والتي حوصر فيها توماس، فهي عند جنسيوس " أركاديوبوليس " ؛ بينما هي عند صاحب الصلة، وكيدرينوس، وسكيليتزيس " أدريانوبوليس " . وقد أوضح الباحث رأيه في المسألة في سياق البحث.

ويتمثل الاختلاف بين رواية جنسيوس لمحاولات ميخائيل الثاني استرداد كريت من المسلمين وروايات المصادر الأخرى في إغفال جنسيوس قصة الحملة الأولى التي أرسلها ميخائيل لاسترداد كريت والتي جعل على رأسها فوتيوس ثم أرسل إليه داميانوس لمساعدته، وإخفاق هذه الحملة ومقتل داميانوس، وهي القصة التي أوردتها المصادر الأخرى. ولعل جنسيوس هنا أيضا لم يطلع على مصادر هذه الرواية كما توافرت للمصادر الأخرى . كما تختلف رواية جنسيوس عن روايات المصادر الأخرى في تفصيل صغير يتعلق بعدد الشهداء المسيحيين الذين استشهدوا في سبيل عقيدتهم بعد فتح المسلمين للجزيرة. فيذكر جنسيوس أن عدد هؤلاء كان سبعة بينما ذكر صاحب الصلة أنهم عشرة، ولا تشير المصادر الأخرى إلى عددهم.

---

٢٦٥ - Genesius, *regum*, p. 24; Cedrenus, *Compendium*, Col. 962; Zonaras, *Annalium*, Col. 340; Skylitzes, *Constantinople*, p. 32; Theophanes Continuatus, *Historia*, Col. 67.
٢٦٦ - Genesius, *regum*, p. 26.
٢٦٧ - Genesius, *regum*, p.24.

التحليل التاريخي لرواية جنسيوس :

أولا: التناول الديني :

خلافا لصاحب صلة ثيوفان، وكيدرينوس، وسكليتزيس، الذين أسهبوا في وصف نشأة ميخائيل الثاني في مدينة عمورية Amorion، وهي من أكبر مدن فريجيا Phrygia، بين اليهود والأثينجانوي، وتأثره بهرطقاتهم، وتربيته على يد معلم يهودي أفسد عقيدته المسيحية [٢٦٨]، لا يشير جنسيوس إلى هذه النشأة من قريب أو بعيد. وخلافا لإسهاب هذه المصادر ذاتها في وصف تنكيل ميخائيل بالمسيحيين، خاصة عباد الأيقونات منهم[٢٦٩]، يكتفي جنسيوس بالإشارة إلى هذا التنكيل في عجالة في الفقرة الرابعة عشرة (قبل الأخيرة) من الكتاب الثاني المخصص لعصر ميخائيل، ليختتم بعدها هذا الجزء من الكتاب في ثلاثة أسطر عن موته بمرض في الكلية[٢٧٠]. وإذا كان ذلك يدل على شئ، فإنما يدل على عدم اهتمام جنسيوس بتتبع السياسة الدينية لهذا الإمبراطور، إما لان هذا الإمبراطور لم يكن يعبأ بأمور العقيدة فعلا، أو لان المؤرخ نفسه (جنسيوس) لم يكن متشددا في عقيدته تشدد صاحب الصلة مثلاً [٢٧١]، وبالتالي فانه لم يحرص كثيرا على إظهار هذا الجانب من جوانب شخصية ميخائيل.

ومع ذلك، فان المتتبع لسلوك ميخائيل كما يصوره جنسيوس في مواضع متفرقة من كتابه (الكتاب الثاني) يستطيع أن يكون فكرة عامة عن موقف ميخائيل من العقيدة المسيحية. وبشكل عام، فإن السياسة الرسمية التي أعلنها ميخائيل فور توليه الحكم تجاه العقيدة لا تبعد كثيرا عن سلوكه الشخصي كما تبدى في مناسبات عديدة.

وباستثناء ما ذكره جنسيوس من رفض ميخائيل المساعدة التي عرضها عليه مورتاجون البلغارى لرغبته في عدم سفك دماء المسيحيين بسبب محاربة المتمردين[٢٧٢]، وهو سلوك قد يحسب، في رأى الباحث، لصالح ميخائيل كإمبراطور حريص على مصالح رعاياه المسيحيين؛ وباستثناء ما فعل ميخائيل أيضا عندما أمر ابنه ثيوفيلوس – أثناء

---

٢٦٨ -؛ Theophanes Continuatus, *Historia*, Col. 56 ; Cedrenus, *Compendium*, Col. 954 ; Skylitzes, *Constantinople*, p.26.

وعن موقع مدينة عمورية، ومنطقة فريجيا انظر الخريطة رقم 2 .

٢٦٩ - Theophanes Continuatus, Col. 62 ; Cedrenus,, *Compendium*, Col. 958 ; Skylitzes, *Constantinople*, p.28.

٢٧٠ - Genesius, *regum*, p. 35.

٢٧١ - Genesius, *regum*, pp. 35-36; Theophanes Continuatus, *Historia*, Cols. 62-65; cf. also: Barišić, F., *Génésios et le Cont.*, p.131.

٢٧٢ - Genesius, *regum*, p. 29.

حصار توماس للقسطنطينية - أن يحمل خشبة الصليب وأن يرتدى ثياب النصر في دايبارای ویتضرع عند سور بيزنطة مع مجموعة من رجال الدين المقدسين ومواطنين آخرين بطلب العون من الله [٢٧٣]، وهو سلوك يرى الباحث أنه سلوك مفتعل لا يعبر عن حقيقة مشاعر ميخائيل الدينية، فقد تراوحت مواقفه السياسية وسلوكه الشخصى بين الحياد بين الفرق المتصارعة واللامبالاة التي تصل إلى حد الاجتراء على المقدسات والعداء والاضطهاد لرجال الدين الذين يخالفونه في الرأى .

أما حياد ميخائيل بين الفرق المتصارعة حول أمور العقيدة، فقد ظهر جليا في موقفه المعلن من مسألة الأيقونات : " فليفعل كل واحد ما يبدو له طيباً " [٢٧٤]، وفي مقابل هذا الإيجاز الشديد في الرواية عند جنسيوس، يفصل كل من صاحب الصلة، وكيدرينوس، وسكيليتزيس القول في وصف ملابسات هذا الإعلان الذي جاء ردا على خطاب البطريرك نقفور Nikephorus, Patriarch of Constantinople الذي حثه فيه على إعادة عبادة الأيقونات المقدسة واسترجاع التقوى[٢٧٥].

وأما لامبالاة ميخائيل بأمور العقيدة فقد ظهرت جلية منذ اللحظة الأولى للمناداة به إمبراطورا. فما كاد ميخائيل يجلس على العرش ويتحرر من أغلاله، حتى دخل كنيسة أيا صوفيا ليظفر بالتكريس الإلهي، ودون خوف أو خجل من الله لأنه كان يؤمن إيمانا راسخا بنبوءة عراف الأثينجانوى الذي قال أنه سيجلس على العرش[٢٧٦]. ولا تخلو رواية صاحب الصلة وسكيليتزيس من تعليقات شديدة الانتقاد لمسلك ميخائيل هذا ووصفه بأنه عدو للمسيحيين[٢٧٧].

أما عداؤه السافر لرجال الدين، فقد أشار إليه جنسيوس في عجالة كما سبق القول حيث اكتفي بالقول بأنه تزوج يوفروزاين Euphrosyne بنت قسطنطين السادس رغم أنها كانت راهبة، وحبس ميثوديوس Methosdius في السجن في جزيرة القديس أندريا، وأمر ثيوفيل ابنه بجلد يوثيميوس Euthymios أسقف ساردیس Sardeis بذيل الثور حتى

٢٧٣- Vasiliev, *Byzance et les Arabes*, p. 38.

٢٧٤- Genesius, *regum*, p. 35.

٢٧٥- Theophanes Continuatus, *Historia*, Col. 62 ; Cedrenus, *Compendium*, Cols. 955-958 ; Skylitzes, *Constantinople*, p.28.

٢٧٦- Genesius, *regum*, p. 22.

٢٧٧- Theophanes Continuatus, *Historia*, Col. 56 ; Skylitzes, *Constantinople*, pp. 25-26.

الموت[٢٧٨]، وكانت المصادر الأخرى أكثر تفصيلا في وصف تنكيل ميخائيل برجال الدين وموالاته لليهود [٢٧٩].

ثانياً : الخرافة :

في القرن التاسع، كان الشخص البيزنطي يترجم الكثير من أفكاره إلى أساطير ويرجع كل مظاهر الحياة الدنيوية التافهة إلى تدخل الرب أو الشيطان، أو أعمال السحر، أو تحقق نبوءة سابقة [٢٨٠]. وفيما يتعلق بالفترة موضوع الدراسة في هذا البحث، وهي فترة حكم ميخائيل الثاني، فإن الباحث يلاحظ اعتناء جنسيوس بذكر الخرافات التي كانت تشغل أذهان البيزنطيين في الفترة التي أرخ لها بشكل عام وفي عهدى ليو الخامس وميخائيل الثاني بوجه خاص وربطه بين النبوءات والأحلام والظواهر الكونية وبين الوقائع التاريخية الثابتة وتصرفات الأشخاص تحت تأثير الإيمان الجازم بهذه الخرافات. فرغم جفاف أسلوب جنسيوس بشكل عام، فإنه يزين صفحاته بأقوال هوميروس وبمعلومات عن أصول الألفاظ والكلمات، وباستطرادات عن الأساطير الإغريقية [٢٨١] وقد أشار جنسيوس في تأريخه لعصر ميخائيل الثاني إلى نوعين من هذه الخرافات هما تفسير الظواهر الكونية باعتبارها علامات تتنبأ بوقوع أحداث معينة في حياة البشر، ونبوءات العرافين.

أ- الظواهر الكونية :

فمن الظواهر الكونية التي أوردها جنسيوس في الكتاب الثاني من مؤلفه ظهور نجم لامع في السماء اتخذ شكل قمر مزدوج تتوحد أشعته ثم تنفصل في مسارات مختلفة ويخرج من هذا الشكل رجل بلا رأس ويفسر جنسيوس هذه الظاهرة الطبيعية، التي تبدو أنها تشير ببساطة إلى ظهور أحد المذنبات في السماء، بأنها علامة تشير إلى حدث سيقع في المستقبل وهو انشقاق توماس على الإمبراطور ثم مقتله (فهو الرجل الذي خرج على أصله ثم فقد رأسه)[٢٨٢]. ويرى الباحث أن هذه القصة إنما تشير إلى إيمان جنسيوس بدلالة الظواهر الكونية على وقوع أحداث مستقبلية، وهو إيمان شارك فيه جنسيوس أبناء عصره.

٢٧٨- Genesius, *regum*, p. 35.

٢٧٩- Theophanes Continuatus, *Historia*, Cols. 62-63 ; Cedrenus, *Compendium*, Col. 958 ; Skylitzes, *Constantinople*, pp.28-29.

٢٨٠- Barišić, F., *Génésios et le Cont*, .p.128.

٢٨١- Hirsch, *Byzantinische*, p.122.

وللمزيد انظر: Grégoire, *Manuel* , pp. 515-550.

Grégoire, *Manuel* , pp. 515-550.

٢٨٢- Genesius, *regum*, pp. 16-17.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن مصدر جنسيوس في هذه الرواية هو جورج موناخوس هامارتولوس

ب- النبوءات:

أما نبوءات العرافين، فقد تعددت في رواية جنسيوس، مما يؤكد عنايته الكبيرة بها وبدلالاتها. وأول هذه النبوءات التي تطالعنا في الكتاب الثاني من حكم الملوك هي نبوءة عراف الأثينجانوى للاستراتيجوس باردانيس توركوس عندما لاحظ هذا العراف لعثمة ميخائيل - الذي كان في خدمة باردانيس - بان ميخائيل وشخصا آخر سيعتليان العرش، فقرر باردانيس أن يزوج ميخائيل وصاحبه بابنتيه وأعد مأدبة كبيرة ودعا بناته للجلوس معهما وعرض عليهما أمر هذا الزواج [٢٨٣]. وكما يقول جنسيوس، فإن ميخائيل وصاحبه اندهشا لهذا التشريف غير المتوقع لكنهما وافقا على هذا الزواج [٢٨٤] ومرة أخرى نرى هنا تأثير الإيمان بالخرافة (وتظهر هنا في شكل نبوءة عراف) في تحديد مصائر البشر في بيزنطة في القرن التاسع[٢٨٥] .

والنبوءة الثانية هي نبوءة راهب فيلوميليون الذي تنبأ لباردانيس وليو وميخائيل وتوماس عند زيارتهم له بنبوءة كان لها أبلغ الأثر في سير الأحداث بعد ذلك. ومما يزيد من أهميتها أنها تحققت تاريخيا بكل تفاصيلها فقد تنبأ هذا العراف بأن باردانيس سيفقد بصره وثروته، وهو ما حدث فعلا بعد القضاء على ثورة باردانيس ضد الإمبراطور نقفور الأول إذ أنه جرد من ثروته ثم نفي وتم سمل عينيه في المنفي[٢٨٦]. أما ليو وميخائيل، فقد تنبأ لهما هذا العراف بأنهما سيصبحان إمبراطورين، وبأن ميخائيل سيقتل ليو، كما تنبأ بأن توماس سينادى به إمبراطوراً ولكن ميخائيل سيقتله[٢٨٧]. وأياً كان رأى العلم في التنبؤ بالمستقبل فإن الوقائع التي تنبأت بها هذه النبوءات قد حدثت بحذافيرها في الواقع التاريخي الثابت والمدون.

---

٢٨٣ - Hamartolus, *Chronicon*, Cols. 1001-1020. Genesius, *regum*, p. 23.

٢٨٤ - تزوج ميخائيل ثيكلا Thekla إبنة باردانيس
Skylitzes, *Constantinople*, p. 27, n. 12.

٢٨٥ - للمزيد انظر: Hirsch, *Byzantinische*, pp. 124-126.

٢٨٦ - Hirsch, *Byzantinische*, pp. 124-126. Genesius, *regum*, pp. 6-7.

٢٨٧- كانت نبوءة راهب فيلوميليون موضع تشكيك من قبل بعض المؤرخين، وعلى رأسهم بيوري الذي رأى أن هذه النبوءة إنما وقعت بعد وقوع الأحداث التي تنبأت بها، فهي على حد تعبيره post eventum، وأيده في ذلك بيتر خارانيس أيضا. انظر: Bury, *The Identity*, pp. 55-60; Charanis, P., "The Monk as an Element of Byzantine Society," *D.O.P.*, 25(1971), pp. 63-73.

أما النبوءة الثالثة، فلم تتحقق وكانت وبالا على الشخص الذي سعى إليها، وهو قسطنطين الإبن الذي تبناه توماس وأرسله لمحاربة أولبيانوس قائد الإمبراطور ميخائيل. إذ أن توماس كان قد أرسل قسطنطين لمهاجمة موقع ظل على ولائه للإمبراطور. وتنبأ أحد رفاق قسطنطين في السكر بيوم يتمكن فيه قسطنطين من دخول العاصمة في مجد كبير. ولكن هذه النبوءة خابت وهزم قسطنطين وقطع أولبيانوس – قائد ميخائيل – رأسه وأرسلها إلى الإمبراطور الذي أرسلها بدوره إلى أبيه توماس(٢٨٨) .

وخلافاً للنبوءات الشفهية الثلاث السابقة، كانت هناك نبوءة مسجلة في كتاب الكهانة (وهو كتاب كان في المكتبة الإمبراطورية يحتوى على نبوءات وأسماء من سيتولون الحكم بأشكالهم وألوانهم ووصفهم الدقيق) . وقد ورد ذكر هذه النبوءة عند كل من جنسيوس، وصاحب الصلة، وسكيليتزيس(٢٨٩).

ويظهر في هذا الكتاب شكل أسد متوحش قد رسم عليه حرف X وخلفه رجل يقفز عليه ويطيح برأس الأسد. وفسر رجل كان يشغل منصب القسطور Quaestor(٢٩٠) في ذلك الوقت هذه النبوءة بأن واحداً من الأباطرة يسمى ليو (وتعنى في اليونانية : الأسد) سوف يذبح في يوم عيد قيامة المسيح(٢٩١). وجاء في وصف جنسيوس (الكتاب الأول – حكم ليو) لهذه النبوءة أنه بين حرفي (X) و (Φ) يخترق السيف حلق أسد برى. وكان حرف (X) طبقا لتفسير النبوءة هو الحرف الأول من كلمة Χριστου أى المسيح أو عيد ميلاد المسيح، ويقع في السابع من يناير عند المسيحيين الشرقيين (الأرثوذوكس)، بينما كان حرف (Φ) هو الحرف الأول من كلمة Φωτών أى العماد أو عيد الغطاس الذي يقع في السادس من يناير. فكان معنى هذه النبوءة أن إمبراطورا يدعى ليون سيقتل بين العيدين أي بين السادس والسابع من يناير أو في ليلة عيد ميلاد السيد المسيح عليه السلام. وهذه النبوءة المسجلة بالرسم في كتاب الكهانة بالمكتبة الإمبراطورية، تتعلق بمقتل ليو على يد

٢٨٨- Genesius, *regum*, pp. 26-27; Theophanes Continuatus, *Historia*, Col. 70; Cedrenus, Compendium, Col. 963; Skylitzes, *Constantinople*, p. 33.

٢٨٩- Genesius, *regum*, pp. 16-17; Theophanes Continuatus, *Historia*, , Col. 49; Skylitzes, *Constantinople*, p. 21.

٢٩٠- كان القسطور موظفا يشغل رتبة عالية في الإمبراطورية البيزنطية المتأخرة . وكان مسئولاً عن وضع قوانين الإمبراطورية كما كان معنياً بالالتماسات التي تقدم للإمبراطور. وفي القرنين الثامن والتاسع الميلاديين تراجعت أهميته مع إسناد بعض مهامه للوجوثيت الدروم. انظر:
Oxford Dictionary, Vol. 3, pp. 1765-1766.

٢٩١- Theophanes Continuatus, *Historia*, Col. 49.

ميخائيل[٢٩٢] وهي النبوءة التي كانت تسبب إزعاجاً لليو، لكنه رغم ذلك أبقى على حياة ميخائيل استجابة لرجاء زوجته مع تحذيره لها من مغبة ذلك. واللافت للنظر أن نبوءة الكتاب قد تحققت تاريخياً كما تحققت نبوءة عراف فيلوميلون ونبوءة عراف الأثينجانوي.

ثالثاً: الشخصيات الرئيسية :

أ- ميخائيل الثاني :

يختتم جنسيوس روايته لحكم ميخائيل الثاني بالإشارة إلى أنه لم يكن مثقفاً، وأنه اتبع سياسة مزدوجة في العقيدة وأنه تزوج من الراهبة يوفروزين، ابنة قسطنطين السادس، وأنه سجن ميتوديوس في جزيرة القديس أندريا. ويذكر أخيراً أنه مات بعد حكم استمر ٨ سنوات و ٩ أشهر، وكان موته بسبب مرض في الكلية [٢٩٣].

وباستثناء وصف جنسيوس لموقف ميخائيل من العقيدة والمقدسات الدينية ورجال الدين، والذي سبقت الإشارة إليه، فقد جاءت الصورة الشخصية التي رسمها جنسيوس لميخائيل باهتة لا تكاد توضح الهوية الحقيقية لهذا الإمبراطور أو لموقف المؤرخ منه أو رأيه الشخصي فيه، على العكس من موقف العداء الواضح والصريح الذي يحسه القارئ لأعمال المؤرخين الآخرين كصاحب صلة ثيوفان، وكيدرينوس وسكيليتزيس. فالكلمات المتناثرة في ثنايا كتاب جنسيوس في وصفه لميخائيل لا تتجاوز أنه " دخل الكنيسة (بعد اغتيال ليو) دون أن يحمر وجهه خجلا أو يشعر بالخوف من الله " [٢٩٤]؛ " كان يؤمن بنبوءة عراف الأثينجانوي" [٢٩٥] ؛ " كان فقيراً جداً ومن أسرة وضيعة " [٢٩٦] ؛ " كان مكروها من جيش ثيم الأناضول "، رغم أنه كان يشغل منصبا كبيرا كقائد لفرقة مهمة من الحرس[٢٩٧]. وكان السبب في هذه الكراهية مولده في المدينة التي كان يوجد كثير من الأثينجانوى، وبسبب تلعثمه في الكلام، ولأنه لم يكن شجاعاً " [٢٩٨]. وقد " أظهر منذ بداية حكمه أنه غير مثقف " [٢٩٩]. فنحن أمام شخص من أسرة وضيعة فقيرة ينتمي إلى مدينة

٢٩٢- Genesius, *regum*, pp. 16-17.

٢٩٣- Genesius, *regum*, p.35.

٢٩٤- Genesius, *regum*, p.22.

٢٩٥- Genesius, *regum*, p.22.

٢٩٦- Genesius, *regum*, p.23.

٢٩٧- انظر ما سبق، ص ١٧.

٢٩٨- Genesius, *regum*, p.23.

٢٩٩- Genesius, *regum*, p.35.

تسكنها فئات من الناس يحتقرها البيزنطيون، ويعانى من عيب خلقي هو التلعثم في الكلام، ويشغل منصبا كبيرا في الدولة.

وهو إلى جانب ذلك يؤمن بالنبوءات ولا يظهر تقديرا كبيرا للدين ورموزه. ولكن المحير في الأمر أن شخصا بهذه الأوصاف استطاع أن يجمع من الأنصار من يغتالون الإمبراطور الشرعي في الكنيسة ويخرجونه من السجن وينادون به إمبراطورا والأغلال في قدميه!! ولا يمكن القول أن هذه الصورة التي رسمها جنسيوس لميخائيل يمكن أن تكون صورة طيبة لإمبراطور أو يمكن أن تعد مقدمة منطقية لتولى ميخائيل الحكم. فهي بشكل عام صورة سيئة للإمبراطور بكل المقاييس العرقية، والاجتماعية، والدينية، والأخلاقية.

ب- توماس السلافي:

وعلى العكس من صورة ميخائيل التي جاءت سيئة على طول الخط، جاءت صورة الثائر توماس كما صورها جنسيوس حافلة بالتناقضات. ففي الفقرة الثانية من الكتاب، يصف جنسيوس توماس بأنه ملأ قلوب الجميع بسبب شجاعته، وأنه كان اجتماعيا لبقا، ذا جوهر طيب ونسب عريق (من السكيثيين، أي سلافي)، ويذكر أنه كان طاعنا في السن به عرج في إحدى ساقيه. وفي معرض المقارنة، فإن هذه الصفات جاءت على النقيض من الصفات التي وصف بها جنسيوس ميخائيل الذي كان مكروها من الجيش كله، كما جاءت لتؤكد أن توماس لم يكن يقل عن ليو في الصفات الحسنة [٣٠٠]. وهكذا يخرج القارئ من هذه السطور القليلة التي خصصها جنسيوس لوصف توماس بأن ليو كان شخصا طيبا، مثل توماس، أما ميخائيل فهو الشرير المكروه في هذه القصة. ولكن هذه الصفات الطيبة التي ينسبها جنسيوس إلى توماس سرعان ما تصطدم بصفات مناقضة تماما في الفقرة الرابعة من الكتاب حيث يوصف بأنه " الداعي إلى الفتنة، الذي ينتمي إلى وطن حقير وسلالة وضيعة حقيرة "، وأنه جاء إلى القسطنطينية سعيا وراء الرزق ودخل في خدمة أحد السادة وهو باردانيس، ثم اتهم بالخيانة الزوجية حيث خان سيده ففر هاربا إلى بلاد الشام وتنكر لعقيدته المسيحية وعاش عند المسلمين خمسة وعشرين عاما مدعيا كذبا أنه قسطنطين ابن ليو الرابع وإيرين[٣٠١].

ولا تتوقف التناقضات في هذه الصورة التي رسمها جنسيوس لتوماس عند حد الصفات الشخصية، بين كونه "عريق النسب" أو " من سلالة وضيعة حقيرة "، أو بين كونه

٣٠٠- Genesius, *regum*, p. 23; cf. also Vasiliev, *Byzance et Les Arabes*, p. 29.

٣٠١- Genesius, *regum*, p. 25; cf. also Vasiliev, *Byzance et Les Arabes*, p. 28.

" ذا جوهر طيب " أو " اتهم بالخيانة الزوجية "، بل إن التناقضات في هذه الصورة تمثل ملمحا من أهم ملامح الكتابة التاريخية عند جنسيوس، على الأقل فيما يتعلق بوصفه لشخصية توماس. ففي الكتاب الأول الذي خصصه جنسيوس لليو الخامس يخبرنا أن توماس كان أرمينيا ولد عند بحيرة جازوروس[٣٠٢]، بينما يعود في الكتاب الثاني ليذكر أنه كان "سكيذيا عريق النسب"، ولكنه يصرح بأنه يميل إلى الأخذ بالرواية الثانية أى أن توماس كان سلافي الأصل. وقد لقيت الرواية الخاصة بالأصل العرقى لتوماس عناية كبيرة من المؤرخين الحديثين الذين اجتمع رأيهم في النهاية على أن توماس كان سلافي الأصل.

ومن التناقضات المهمة الأخرى المتعلقة بتوماس والتي يحفل بها الكتاب الثاني من مصنف جنسيوس الروايتان المتعلقتان بفراره إلى سوريا بعد خيانته لباردانيس، دون أن يحدد تاريخ لذلك، وبقائه على ولائه لباردانيس في ثورته على نقفور الأول في سنة ٨٠٣ عندما تخلى ليو وميخائيل عنه. فهل خدع توماس باردانيس أم بقى وفيا له؟ لقد شغل هذا التناقض المؤرخين الحديثين وكان موضوع خلاف كبير بينهم في الآراء وصل إلى حد القول بأن توماس لم يدخل في خدمة باردانيس أصلا. وبالتالى لم يخنه، استنادا إلى أن جنسيوس هو المؤرخ الوحيد الذي ذكر، أو أقحم، على حد تعبير بيوري [٣٠٣]، اسم باردانيس باعتباره البطريق الذي دخل توماس في خدمته وخانه وفر منه [٣٠٤]. كما ذهب بيورى أيضا إلى أن توماس فر إلى المسلمين في عهد إيرين حوالى سنة ٧٨١ وظل هاربا طوال عهد ايرين، ثم عاد في عهد نقفور واشترك في ثورة باردانيس في ٨٠٣ أى أنه أقام عند العرب ثلاثا وعشرين سنة، وفر مرة أخرى بعد الثورة. ويرفض فازيليف هذا الرأي لعدم استناده إلى نص[٣٠٥]. وأيا كان الأمر فإن هذا التناقض في الرواية ليس بمستغرب من جنسيوس بل هو أحد خصائص أسلوبه في الكتابة التاريخية، إذ يقدم أكثر من رواية للحدث الواحد ويترك للقارئ الحكم النهائي.

رابعاً: تقييم منهج جنسيوس في التأريخ لميخائيل الثاني :

من خلال القراءة المتأنية للكتاب الثاني من مصنف جنسيوس، يمكن التعرف على منهجه في التأريخ لميخائيل الثاني. وأهم ملامح هذا المنهج – في تصور الباحث – هي:

---

٣٠٢ - Genesius, *regum*, p. 7; cf. also Vasiliev, *Byzance et Les Arabes*, p. 26.
٣٠٣ - Bury, *The Identity*, pp. 55-60.
٣٠٤ - Genesius, *regum*, p. 25.
٣٠٥ - وللمزيد من التفاصيل حول هذه المسألة انظر :
Vasiliev, *Byzance et Les Arabes*, p. 27; Bury, *E. R. E.*, p. 56.

اتصال الرواية التاريخية :

يستحق اتصال الرواية التاريخية في هذا الجزء من كتاب جنسيوس وتتابع أحداثها وفقا للتسلسل الزمنى عناية خاصة، وذلك في ضوء ما لوحظ من عدم التزام جنسيوس بتسلسل الوقائع زمنيا في أجزاء الكتاب الثلاثة الأخرى. صحيح أن جنسيوس نفسه قد وصف كتابه بأنه كتاب في التاريخ την εξ ιστοριας βιβλον [٣٠٦] ولم يصفه بأنه عرض للأحداث وفق تسلسلها الزمنى أو χρονογραφια، وهو اسم كتاب ثيوفانيس الذي كان من المفترض أن كتاب جنسيوس سيكون مكملا له، وصحيح أيضا أن هذا الجزء من الكتاب لم يخل من الاستطرادات التي تكاد في بعض المواضع تفقد القاريء الإحساس بتسلسل الأحداث زمنيا كخروجه عن قصة الهجوم الأول لتوماس على القسطنطينية ليحكى قصة ضياع سر النار الحربية ثم اكتشافه من جديد، وظهور مذنب في زمن ليو اعتبر علامة على انشقاق توماس، والقضاء على الثورة بعد ثلاث سنوات على يد قادة شجعان من أمثال أولبيانوس وكريستوفوروس، والإشارة إلى أن شرارة الثورة اندلعت من عهد ليو الخامس [٣٠٧]. غير أن ذلك لا يشكل انتهاكا خطيرا لتتابع أحداث عصر ميخائيل الثاني على النحو الذي أوردها به جنسيوس. ويزداد هذا الشعور لدى القارئ إذا قارن بين ترتيب الوقائع في هذا الجزء من الكتاب وإيراد الكثير من الوقائع المبعثرة العشوائية والمعلومات المتشابكة دون أى ترتيب موضوعى في روايته عن عصر ليو الخامس أو ثيوفيل مثلا [٣٠٨].

الإيجاز الشديد :

وهو هنا إيجاز يكاد يخل بالرواية التاريخية في بعض المواضع من الكتاب، وهو ما يظهر بوضوح في الفقرة الرابعة عشرة من الكتاب الثاني، والتي يصف فيها في سطور قليلة موقف ميخائيل من عبادة الأيقونات، وزواجه من الراهبة يوفروزين، وحبسه لميتوديوس في جزيرة القديس أندريا، وأمره لابنه ثيوفيل بجلد يوثيميوس أسقف سارديس حتى الموت [٣٠٩]. كما جاء وصفه لحملة أوريفاس الناجحة لاسترداد كريت من المسلمين

٣٠٦- Genesius, *regum*, p. 3; cf. also Barišić, F., *Génésios et le Cont*, p. 132, n. 3.

٣٠٧- Genesius, *regum*, pp. 24-25.

٣٠٨- Barišić, F., Génésios et le *Cont.*, p.125.

٣٠٩- Genesius, *regum*, p. 35.
وعن موقع جزيرة أندريا انظر الخريطة رقم ٢ .

موجزا إلى درجة الإخلال بالحقيقة التاريخية ولا تتناسب مع ضخامة هذا العمل وأهميته للإمبراطورية (٣١٠).

التزام الحياد :

التزم جنسيوس الحياد إزاء الأشخاص الذين أرخ لهم، فيكاد الكتاب يخلو من مدح أو قدح في هذا الشخص أو ذاك. ولا يجد القارئ فيه مثلا عبارات تنم عن كراهيته لواحد من الأباطرة بسبب موقفه من عبادة الأيقونات، وهو الأسلوب الشائع في كتابات مؤرخي الكنيسة من الرهبان من أمثال كيدرينوس أو صاحب صلة ثيوفان. بل إن هذا الحياد يصل إلى إيراد الروايات المتناقضة عن الشخص الواحد وترك الحرية للقاريء ليقرر بنفسه أي الروايات هي الرواية الصحيحة كقوله عن توماس في أحد المواضع إنه "عريق النسب"(٣١١)، وفي موضع آخر إنه "من سلالة وضيعة حقيرة" (٣١٢)، فهو حياد مبالغ فيه يكاد يستوى وطمس الحقيقة التاريخية بالمرة.

الأمانة في نقل الرواية :

كان جنسيوس أمينا في إيراد الرواية كما أوردتها المصادر التي نقل عنها، ويستدل على ذلك من إيراده للروايات المتناقضة عن الحدث الواحد، كنشأة توماس، وأسباب ثورته، والقول بأنه بدأ ثورته في زمن ليو الخامس(٣١٣)، ثم القول في موضع آخر بأنه قام بالثورة عندما علم باغتيال ليو(٣١٤). كما يمكن القول أن أمانته في النقل عن مصادره كانت من الأسباب التي دعت قسطنطين بورفيروجينيتوس إلى إسناد مهمة تأليف الكتاب إلى شخص آخر، هو المؤرخ المجهول صاحب صلة ثيوفان. فيذهب باريشتش إلى أن السبب الرئيسي لعدم رضى الإمبراطور عن الطريقة التي قدم بها جنسيوس الأباطرة الذين حكموا قبل الأسرة المقدونية. فلم يكتب جنسيوس كثيرا من عبارات المديح لليو الخامس، وعلى الرغم من المديح الذي بذله للإمبراطور باسيل الأول (٣١٥)، إلا أنه ذكر بعض الأفعال التي لا تعد في صالح هذا الإمبراطور(٣١٦).

٣١٠ - Genesius, *regum*, p. 35.
٣١١ - Genesius, *regum*, p. 23.
٣١٢ - Genesius, *regum*, p. 25.
٣١٣ - Genesius, *regum*, p. 26.
٣١٤ - Genesius, *regum*, p. 26.
٣١٥ - Hirsch, *Byzantinische.*, pp. 165-166; Jorga, "Medaillons d' histoire Litteraire. Byzantine," *B.*, II (1925), pp. 261-263.
Barišić, F., *Génésios et le Cont*, .p.121.

ومع ذلك، فإنه يؤخذ على جنسيوس بعض المثالب التي لم يخل منها الكتاب الثاني، أي فترة حكم ميخائيل الثاني، ومن أهم هذه المثالب :

- إغفال بعض الوقائع التاريخية المهمة التي أثبتتها المصادر الأخرى للفترة التي أرخ لها كعدم الإشارة إلى أول حملة أرسلها ميخائيل لاسترداد كريت والتي جعل على رأسها فوتيوس ثم إرسال داميانوس لمساعدته، وإخفاق هذه الحملة ومقتل داميانوس.
- التوقف في التأريخ لحكم ميخائيل عند حملة أوريفاس لاسترداد كريت [٣١٧]، وسكوته التام عن أحداث صقلية وانشقاق حاكمها يوفيميوس Euphemios ولجوئه إلى مسلمي أفريقيا ومساعدتهم في الاستيلاء على صقلية ثم مقتله واستقرار المسلمين في صقلية وكالابريا ومناطق بيزنطية أخرى حتى عصر باسيل. ولا يوجد سبب مؤكد لتوقف جنسيوس في روايته عند حملة أوريفاس التي أوردها بإيجاز مخل كما سبق القول، إلا أن يكون قد تأكد من عدم رضا قسطنطين بورفيروجينيتوس عن عمله وأنه بدأ يفكر في إسناد هذه المهمة للمؤرخ المجهول لصاحب تكملة ثيوفان.

Genesius, *regum*, p. 35.

خاتمة:

يمثل هذا البحث مدخلا جديدا لدراسة مؤلف المؤرخ البيزنطي جوزيف جنسيوس الذي أطلق عليه المؤرخون اسم " كتاب الملوك " أو " حكم الملوك الأربعة ". وفي ظل ندرة المعلومات التاريخية عن جوزيف جنسيوس الإنسان والمؤرخ، والقصور الشديد في الكتابات التاريخية التي تناولت القرن التاسع الميلادي بشكل عام وعصر الإمبراطور ميخائيل الثاني العموري بصفة خاصة، والطول النسبي للفترة الزمنية الفاصلة بين عصر هذا الإمبراطور والعصور التي عاش فيها المؤرخون البيزنطيون الذين أرخوا لهذا العصر، يكتسب هذا البحث أهمية خاصة.

وعلى الرغم من القيمة العلمية الكبيرة لبعض ما كتب عن جنسيوس وكتابه من دراسات في العصر الحديث، فإن هذه الدراسات جاءت عامة شديدة العمومية، تناولت في معظمها المصادر التي اعتمد عليها جنسيوس في إعداد كتابه والتعليق على أسلوبه ككاتب ومؤرخ. ومن هنا، فإن هذا البحث يجيء كأول محاولة تتناول بالنقد والتحليل، وبتفصيل كبير خصائص كتاب واحد من الكتب الأربعة التي يتألف منها هذا العمل، هو الكتاب الثاني الذي يتضمن وصفا لحكم الإمبراطور ميخائيل الثاني، مع مقارنة رواية جنسيوس بروايات المصادر الأخرى التي تناولت عصر هذا الإمبراطور، وهو منهج لم يستعمل حتى الآن - بقدر ما تبين للباحث من خلال اطلاعه على الدراسات الحديثة التي تناولت الموضوع - لتقييم أعمال المؤرخين. ولعل هذه الدراسة تكون حافزا إلى إجراء المزيد من الدراسات التخصصية لطريقة جوزيف جنسيوس في التأريخ للأباطرة الخمسة الذين أرخ لهم في أجزاء كتابه الأربعة، كل على حده .

وللأسف، فإن هذا البحث صادف نفس المشكلة التي واجهت أصحاب الدراسات السابقة التي تناولت مسألة مصادر جنسيوس. فلم تحسم هذه المسألة حتى الآن نظرا إلى عدم إشارة جنسيوس إلى أى من مصادره تحديداً، الأمر الذي ترك الباب مفتوحا أمام اجتهادات الدارسين والباحثين في هذه المسألة والتي لم تتعد مرحلة الاستدلال بالقرائن والاعتماد على أوجه الشبه بين كتب جنسيوس والمصادر التاريخية الأخرى التي تناولت الفترة موضوع البحث.

جملة القول، واستنادا إلى هذه الدراسة التحليلية النقدية لهذا النص، يخلص الباحث إلى عدد من النتائج كان من أهمها حسم خلاف المؤرخين حول بعض القضايا مثل نسب المؤرخ جوزيف جنسيوس. وتاريخ تأليف مؤلفه، وتحديد الملابسات التي أدت إلى خروج

هذا المؤلف إلى النور. ولعل عرض هذه القضايا على النحو الذي تناوله البحث يلقى الضوء على جوانب شخصية الإمبراطور قسطنطين السابع الثقافية، وتأثير هذه الشخصية على الحركة الثقافية في بيزنطة بشكل عام وعلى الكتابة التاريخية في بيزنطة بشكل خاص.

وقد أوضح الباحث أن أهم ما يميز الكتاب الثاني من مصنف جنسيوس، والذي خصصه للحديث عن حكم ميخائيل الثاني العموري، عن أجزاء الكتاب الثلاثة الأخرى التسلسل الزمنى للأحداث، واتصال الرواية وترتيبها زمنيا، وعدم وجود وقائع متعارضة باستثناء الروايتين المختلفتين اللتين أوردهما جنسيوس عن حياة توماس السلافي قبل الثورة التي قادها ضد الإمبراطور ميخائيل الثاني، وهو اختلاف يبرره جنسيوس بأنه نقل الروايتين عن مصدرين مختلفين. ورغم أن جنسيوس يخصص الكتاب الثاني من مصنفه للتأريخ لعصر ميخائيل الثاني بصفته إمبراطورا للإمبراطورية البيزنطية في الفترة من عام ٨٢٠ م إلى عام ٨٢٩ م، فإنه يخصص جانباً كبيراً من الكتاب الأول والذي يؤرخ فيه لعصر ليو الخامس الأرميني للحديث عن ميخائيل وعلاقته بليو، وملابسات اغتيال ليو والمناداة بميخائيل إمبراطوراً . وقد يوحى ذلك بأن هناك تداخلاً بين عصرى ليو الخامس وميخائيل الثاني، وإخلالاً بالمنهج الذي التزم به جنسيوس في تخصيص كتاب من الكتب الأربعة التي يتألف منها مصنفه لكل من الأباطرة الخمسة الذين أرخ لهم، ولكن الحقيقة غير ذلك. فقد التزم جنسيوس بمنهجه التاريخي، حيث بدأ الكتاب الثاني المخصص لميخائيل الثاني بذكر المناداة به إمبراطورا واختتمه بذكر موته متأثرا بمرض في الكلي. فما بين الحدثين هو فعلاً عصر أو فترة حكم ميخائيل الثاني.

كما حدد البحث المصادر المتنوعة التي اعتمد عليها جنسيوس سواء كانت الوثائق المكتوبة أو الأقوال الشفوية. ودور هذه المصادر في آراء الكتابة التاريخية في مصنف هذا المصدر الذي يتصدى له البحث.

وإذا كانت هذه المصادر قد اتفقت جميعها على الأسلوب الذي تم به انتقال السلطة من ليو الخامس الأرميني إلى ميخائيل الثاني العموري، وهو التآمر والاغتيال، فإنها تختلف في مدى معاصرتها للحدث، وطريقة عرضها له من حيث الإيجاز أو الإسهاب، والموقف الشخصي للمؤرخ من الحدث وأبطاله، والمصادر التي استمد منها المؤرخ معلوماته. وهي كلها أمور تحدد الأهمية التاريخية للمصدر وتؤثر في تقييمه.

كما خرجت الدراسة النقدية التي قارنت رواية جنسيوس بروايات المصادر الأخرى بنتيجة وهي أن هناك روايات تم متفق عليها وروايات أخرى كان الخلاف عليها

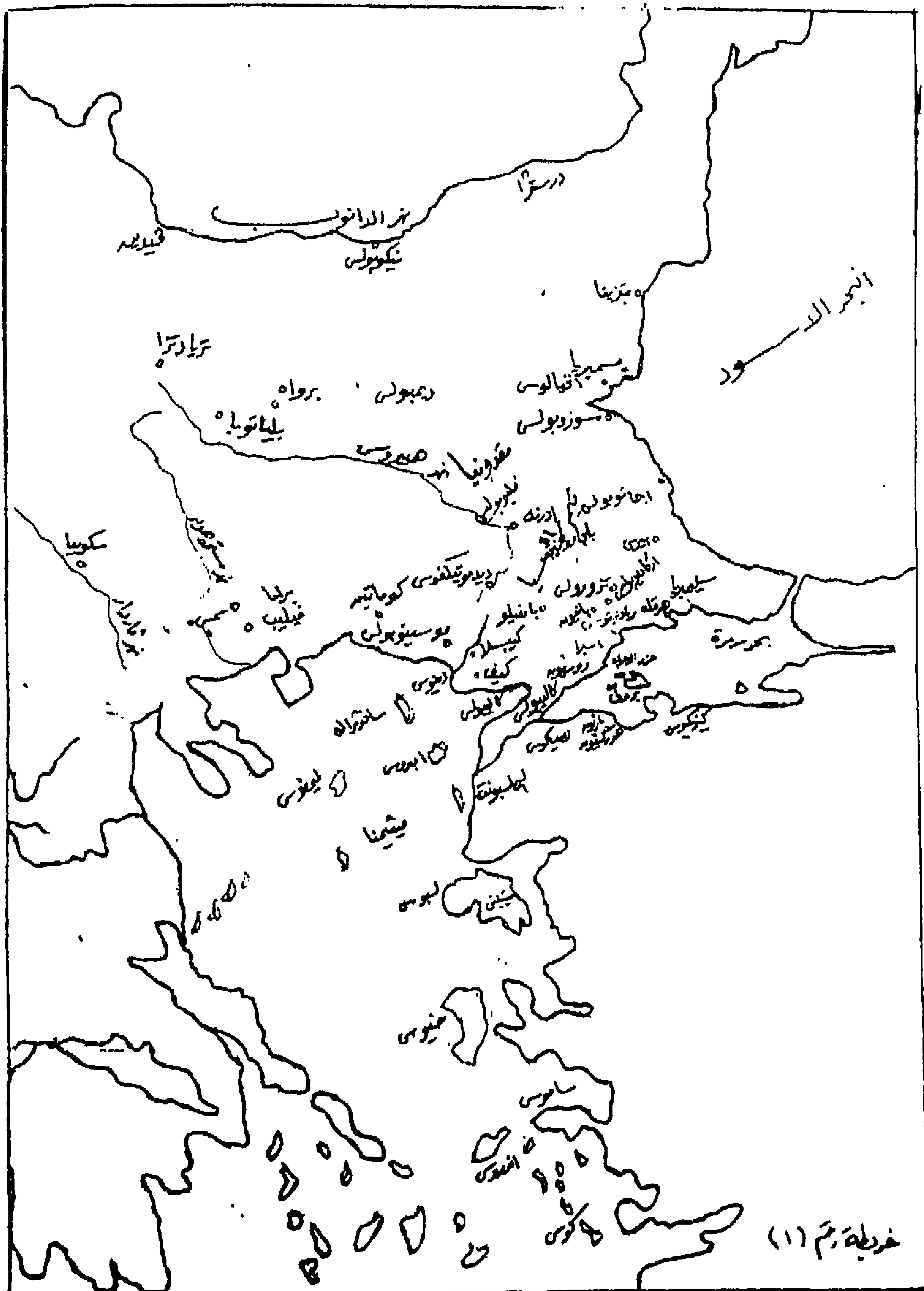
واضحاً. وقد أوضح البحث جوانب الاتفاق والاختلاف أثناء عرض هذه الدراسة النقدية التحليلية المقارنة.

ويمثل التناول الديني عند جنسيوس في سرده لأحداث عصر ميخائيل الثاني البعد الغائب في الرواية. فالرؤية الدينية لشخصية ميخائيل أو توماس أو المؤرخ نفسه لم تكن بالوضوح الذي نجده عند معظم من أرخوا لعصر هذا الإمبراطور. وربما كان في ذلك دلالة على عدم اهتمام جنسيوس بتتبع السياسة الدينية لهذا الإمبراطور، إما لان هذا الإمبراطور لم يكن يعبأ بأمور العقيدة، أو لأن المؤرخ لم يكن متشددا في عقيدته، وبالتالي فانه لم يحرص كثيرا على إظهار هذا الجانب من جوانب شخصية ميخائيل.

وكان للخرافة نصيب وافر في كتاب جنسيوس الذي عنى بإيراد الخرافات التي كانت تشغل أذهان البيزنطيين في الفترة التي أرخ لها بشكل عام وفي عهدى ليو الخامس وميخائيل الثاني بوجه خاص . فقد ربط جنسيوس بين النبوءات والأحلام والظواهر الكونية من ناحية، والوقائع التاريخية الثابتة وتصرفات الأشخاص تحت تأثير الإيمان الجازم بهذه الخرافات من ناحية أخرى. وهو في ذلك كله إنما يعكس الروح السائدة في المجتمع البيزنطي في القرن التاسع عندما كان الإيمان بالخرافة والأسطورة يشكل جزءا مهما من نسيج المجتمع البيزنطي. وقد أشار جنسيوس في تأريخه لعصر ميخائيل الثاني إلى نوعين من هذه الخرافات هما تفسير الظواهر الكونية باعتبارها علامات تتنبأ بوقوع أحداث معينة في حياة البشر، ونبوءات العرافين. وقد عرض البحث لأمثلة من هذه الظواهر والنبوءات.

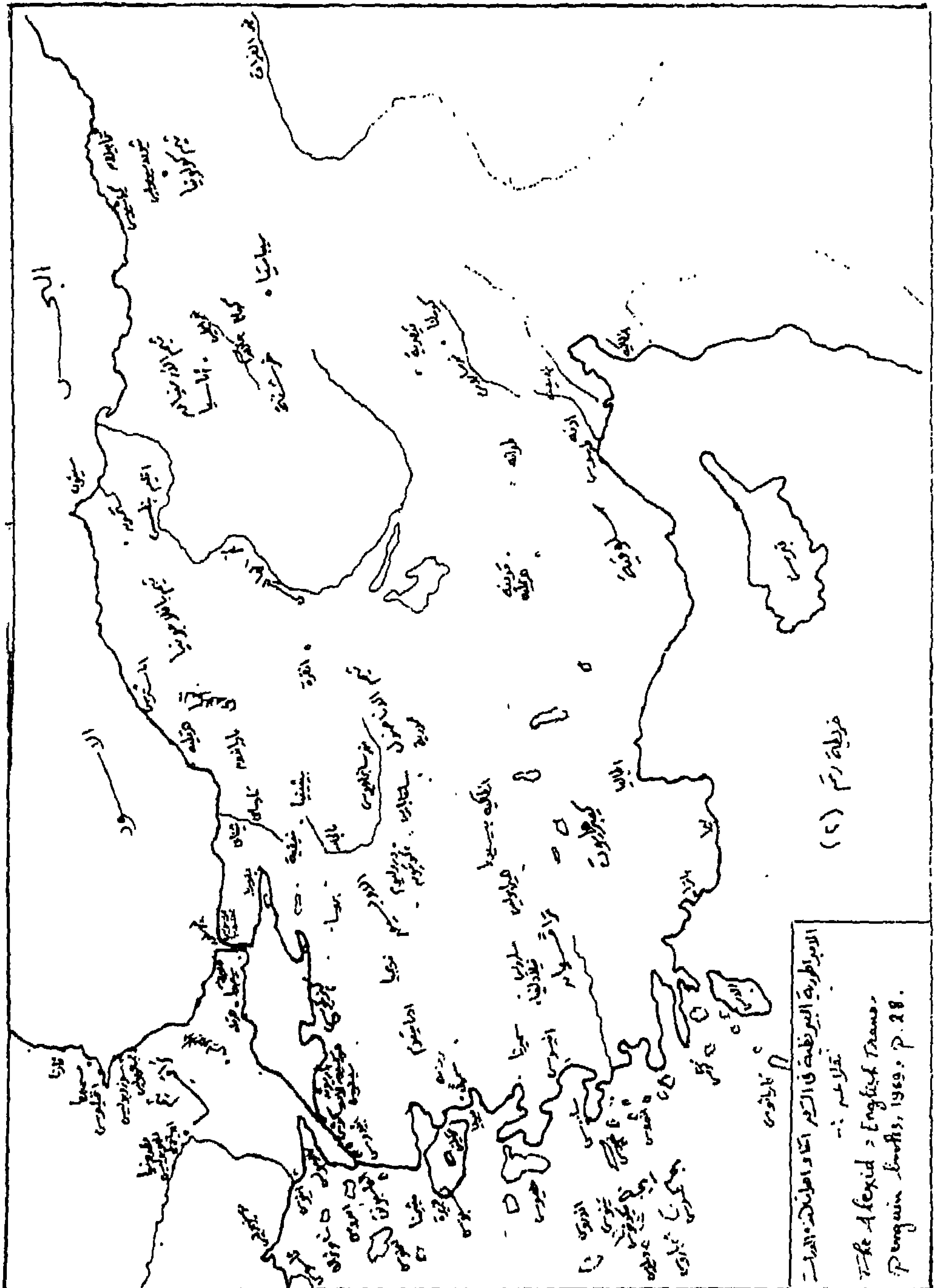
والخلاصة أنه كان من أهم خصائص منهج جنسيوس في التأريخ لميخائيل الثاني اتصال الرواية التاريخية، والإيجاز الشديد، التزام الحياد إزاء الأشخاص الذين أرخ لهم، والأمانة في نقل الرواية . إلا أنه مما يؤخذ على جنسيوس عدم تسميته لأى من مصادره والاكتفاء بالقول أنه أسس كتابه على الوثائق المكتوبة والأقوال الشفوية المتناقلة، وإغفاله بعض الوقائع التاريخية المهمة التي أثبتتها المصادر الأخرى، كحملة فوتيوس لاسترداد كريت من المسلمين وإخفاقها، والتوقف في التأريخ لحكم ميخائيل عند حملة أوريفاس لاسترداد هذه الجزيرة، وسكوت جنسيوس التام عن أحداث صقلية وسقوطها في يد مسلمى أفريقيا رغم أهمية هذه الأحداث في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية في القرن التاسع. إلا أنه لا يمكن لباحث التاريخ البيزنطي عامة، وتاريخ الأسرة المقدونية بصفة خاصة، أن يهمل هذا المصدر الذي يمثل ركناً أساسياً في مكتبة التاريخ البيزنطي وعلامة بارزة من علامات الكتابة التاريخية البيزنطية في العصر البيزنطي الأوسط .

خريطة رقم ١
الجزء الغربي من الإمبراطورية البيزنطية



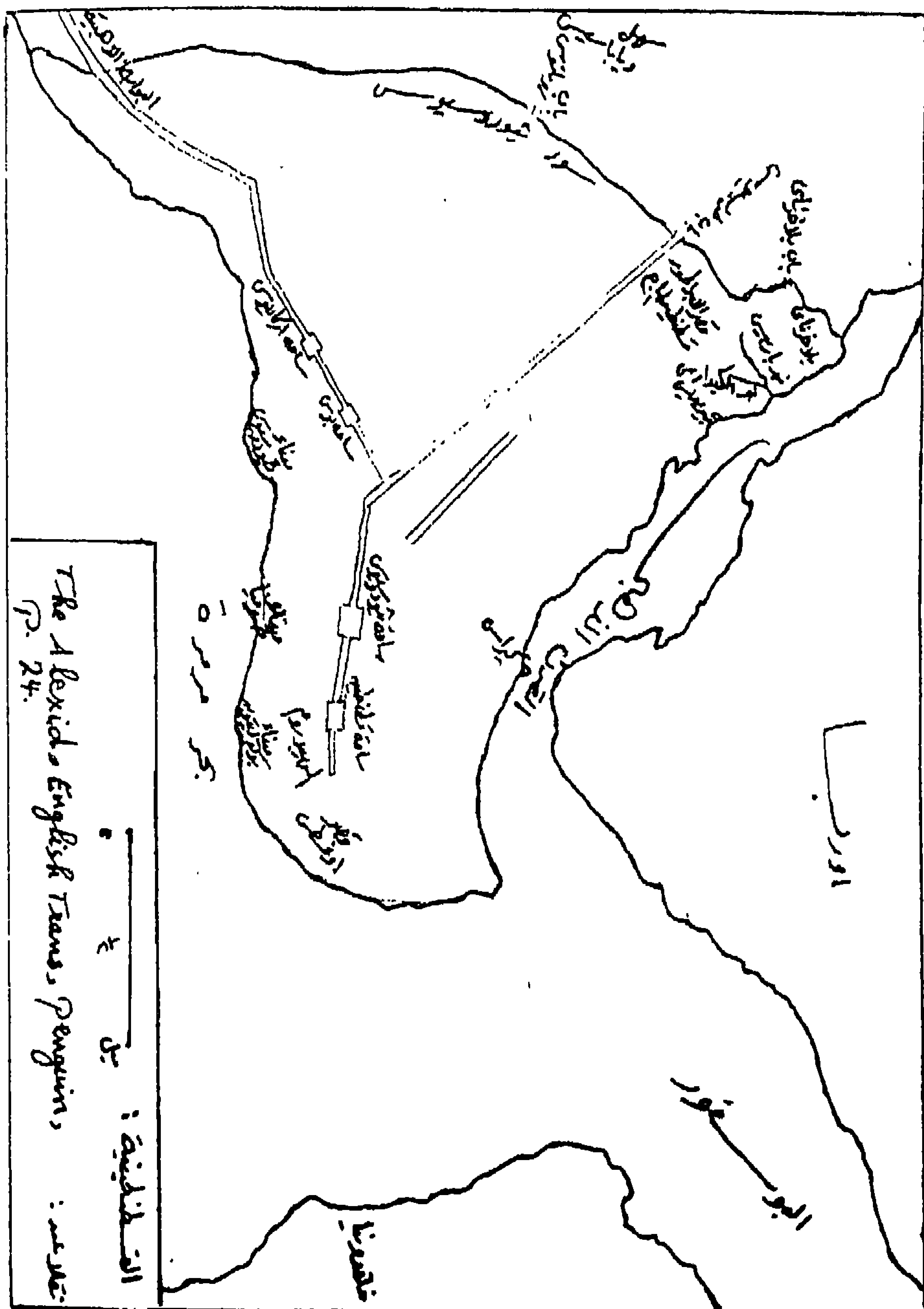
خريطة رقم ٢

الجزء الشرقي من الإمبراطورية البيزنطية



خريطة رقم ٣

مدينة القسطنطينية



قائمة المصادر والمراجع ومختصراتها

أولاً : المصادر الأجنبية :

- **Anne Comnen, The Alexiad**, English translation, penguin Books. 1969. p. 28.
- **Cedrenus, Compendium**: Cedrenus, Georgius, Historiarum Compendium, P.G.M., Tome CXXI- CXXII, Paris, 1864 et 1894. Cols. 23-1166, Cols. 9-368.
- **Constantine VII, De Adm**: Constantine VII Porphyrogenitus, De Administrando Imperio, English translation by R. Jenkins. Washington, 1967.
- **Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, Bonne, 1828.**
- **Ephraemius Monachus, Chronicle**: Ephraemius, Chronicle, ed. Bekker, I., *C. S. H. B.*, Bonn, 1834.
- **Genesius, regum**: Genesius, Josephus, [Reges] Iosephi Genesii regum libri quattuor / rec. A Lesmueller-Werner et H. Thurn. Berolini, Novi Eborachi [Berlin, New York]: de Gruyter, 1978
- **Hamartolus, Chronicon**: Monachus, Georgius Hamartolus. Chronicon, P.G.M., Tome CX, Paris, 1863, Col. 41-1286.
- **Ignatius Nicephori Diaconus**: Ignatius Diaconus,Vita Nicephori Patr., P.G.M., Tome 117, Paris 1861, cols. 1163 – 1174.
- **Leo Grammaticus, Chronographia**: Leo Grammaticus. Chronographia (813-849), P.G.M., Tome CVIII, Paris, 1863, Cols. 1037-1164.
- **Manasses, Compendium**: Manasses, Constantine, Compendium Chronicum, P. G. M. , Tome CXXVII, Paris, 1863, Cols. 215-472
- **Nicetae Paphlagonis, ignatii** : Nicetae Paphlagonis, Vita ignatii Patr., P.G.M., 105, Paris 1862, cols, 487-574.
- **Photius, Bibliotheca** : Photius, Patr, Bibliotheca , P. G. M., Tome 103, Paris, 1900, cols. 1-280, Tome 104, cols 355 - 1524
- **Pontani, Praefatio** : Jacobi Pontani, Praefatio, in Theophylactae Simocattae, ed. Bekker, *C.S.H.B.*, Bonn, 1834
- **Scylitzes, Historiaroum**: Scylitzes, Ioannes, Synopsis Historiaroum, new edition, I. Thurn, Berlin, 1973
- **Sergius, Responsio** : Sergius, Patr, Responsio Canonica, (Leunchavius), P. G. M. Tome 119, Paris, 1864 – 1881, Cols 741 – 744.
- **Skylitzes, Constantinople**: Skylitzes, Jean, Empereurs de Constantinople, Texte traduit par Bernard Flusin et annoté par Jean-Claude Cheynet, Editions P. Lethielleux, Paris, 2003

- **Symeon, Chronographia**: Symeon Magister, (Logothete), Chronographia, P. G. M., Tome CIX, Paris, 1863, Cols. 663-822
- **Theodori Studitae, Vita**: Theodori Studitae, Vita, P. G. M., Tome 99, Paris 1860 – 1903, Cols 9 - 1824
- **Theophanes Continuatus, Historia**: Theophanes Continuatus, Historia, P. G. M. ,Tome CIX, Paris, 1863, Cols. 1-517.
- **Zonaras, Annalium**: Zonaras, Ioannes Annalium, P.G.M., Tome CXXXIV-CXXXV, Paris, 1864.

ثانياً : المراجع الأجنبية :

- **Barišić, Génésios et le Cont** :Barišić, F., "Génésios et le continuateur de Théophane," *B*, Tome XXVIII (1958) pp. 117 – 133.
- **Barišić, Les Sources**: Barišić, F., "Les sources de Génésios et du Contiuateur de Theophane pour l'histoire du règne de Michel II (820-829),"dans *B*, Tome XXXI (1961) pp. 257 – 271.
- **Barker, Social**: Barker, Ernest, Social and Political Thought in Byzantium, Oxford, 1952
- **Brehier, La Marine** : Bréhier, Louis, "La Marine de Byzance du VIII au XI Siecles," dans *B*, Tome XIX (1949), pp. 1-16.
- **Brooks, The Arab** : Brooks, "The Arab Occupation of Crete," in *E.H.R.*, vol 28, 1913
- **Brubaker and Haldon, Byzantium** :Brubaker, L. and Haldon, J., Byzantium in the Iconoclast Era (ca 680-850): The Sources, An Annotated Survey (Aldershot 2003)
- **Bury, J. B., The Identity** : Bury, J. B., "The Identity of Thomas the Slavonian," in *BZ* , 1 (1892).
- **Bury, J. B., The Imperial** : Bury, J. B., The Imperial Administrative System in the Ninth Century, with a revised text of the Kletorologion of Philotheos, London, 1911
- **Bury, J. B., E. R. E.** : Bury, J. B., A History of the Eastern Roman Empire from the Fall of Irene to the Accession of Basil II, 802-867 A. D., London, 1912
- **B** : Byzantion
- **BZ:** Byzantinische *Zeitschrift*
- **Charanis, P., The Monk** : Charanis, P., "The Monk as an Element of Byzantine Society," in *D. O. P.*, 25(1971).
- **Delehaye, H., La Vie** : Delehaye, H., "La vie du sainte Theotiste," dans *B*, tome I (1924).
- **E. H. R.** : English Historical Review

- **Grégoire, H., Inscription** : Grégoire, H., "Inscription Historian Byzantium," dans *B.*, vol V, 1929-1930, pp. 235 - 246
- **Grégoire, H., La Vie** : Grégoire, H. "La vie du saint Blaised'Amorium," dans *B.*, V(1930), pp. 391 - 414
- **Grégoire, H., Etudes** : Grégoire, H., "Études sur le IX siécle," dans *B.*, tome VIII (1933).
- **Grégoire, H., Manuel**: Grégoire, H., "Manuel et Theophobe," dans *B.*, Tome IX (1934), pp. 183 - 204
- **Haldon, Byzantium**: Haldon, John, Byzantium in the Iconoclastic Era (ca 68 – 850): The Sources, Birmingham, 2001
- **Hayter, Karlin, Vita**: Hayter, Karlin, "Vita Euthymii," dans *BZ*. XXV (1955).
- **Hirsch, F. Byzantinische**: Hirsch, F. Byzantinische Studien, Leipzig. 1876
- **Hunger, The Classical Trad** : Hunger, Herbert, The Classical Tradition in Byzantine Literature: The Importance of Rhetoric, Centre for Byzantine Studies, Birmingham, 1981
- **Jenkins, The Classical Background** : Jenkins, R., "The Classical Background of the Scriptores Post Theophanem,"in *DOP*, 8 (1954);
- **Jorga, Medaillons**: Jorga, Medaillons, "D'hist. Litt. Byzantine," dans *B.*, tome II (1925).
- **Kazdan, Deux Chroniques**: Každan, A. P., Deux Chroniques Byz. Du Xe Siecle, Moscou, 1950
- **Krumbacher, K., Geschichte**: Krumbacher, K., Geschichte der byzantinischen litteratur, 2, Aufgabe Munchen, 1897
- **Lemerle, Essais** : Lemerle, Paul, Essais sur le monde byzantin, "La revote de Thomas le Slave" Variorum, 1980
- **Miller, D. A., The Logothete**: Miller, D. A., "The Logothete of the Drome in the Middle Byzantine Period," dans *B.*, tome XXXVI (1966/7)
- **Moravesik, Byzantionturcica**: Moravesik, Byzantionturcica, I, Berlin, 1958, 2 vols
- **Ostrogorsky, G., History**: Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State, Eng. Trans., J. Hussey (Oxford, 1968)
- **P. G. M.** : Patrologia Graeca ed. Migne
- **Pontani, Praefatio** : Jacobi Pontani, Praefatio, in Theophylactae Simocattae, ed. Bekker, *C.S.H.B.*, Bonn, 1834
- **Toynbee, Constantine Porph**: Toynbee, A., Constantine Porphyrogenitus and his World (London, 1973)

- **Treadgold, Byz Rev** : Treadgold, W., The Byzantine Revival, 780-842 (Stanford CA 1988)
- **Vasiliev, History** : Vasiliev, A. A., History of the Byzantine Empire 324-1453, 2 volumes, Volume 1, The University of Wisconsin Press, 1952
- **Vasiliev, Byzance et les Arabes** : Vasiliev, A. A., Byzance et les Arabs, la dynastie d'Amorium, 820-867, ed. francaise par Henry Grégoire, Bruxelles, 1935
- **Vasiliev, A. A., Byzance Macodonienne** : Vasiliev, A. A., Byzance et les Arabs, la dynastie Macodonienne, 867-959, .ed francaise par M. Canar, Bruxelles, 1968
- **The Oxford Dictionary : The Oxford Dictionary of Byzantium, Oxford University Press, 1991, 3 volumes**

ثالثاً : المراجع العربية والمعربة :

- **أسد رستم، كنيسة** : أسد رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، ج ٢، بيروت، ١٤٥٣ م .
- **طارق منصور، الجيش** : طارق منصور، الجيش في الإمبراطورية البيزنطية من بداية القرن السابع إلى نهاية القرن التاسع الميلادي ، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بنها، ١٩٩٣ م .
- **رانسيمان، الحضارة البيزنطية** : ستيفن رانسيمان، الحضـــارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مشروع الألف كتاب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦١.
- **فايز نجيب، المسلمون والصليبيون** : فايز نجيب اسكندر، المسلمون والصليبيون في النصف الأول من القرن السابع الهجرى / النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي، الإسكندرية، ١٩٩٩ م.
- **محمد الشيخ، أوروبا العصور الوسطى** : محمد محمد مرسى الشيخ، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، الإسكندرية، ١٩٩٨، مطبعة الجمهورية.
- **هنرى عبودى، معجم الحضارات**: هنرى عبودى، معجم الحضارات السامية، طرابلس، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٩١ .
- **وديع فتحى، العلاقات : وديع فتحى عبد الله، العلاقات بين الدولة البيزنطية والخلافة العباسية في عهد الإمبراطور ثيوفيلوس (٨٢٩ - ٨٤٢ م / ٢١٤ - ٢٢٨ هـــ)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، يناير ١٩٨٢ م.**

- وسام فرج، دراسات: وسام عبد العزيز فرج، دراسات في التاريخ الاجتماعى والاقتصادى في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٥ .
- فازيليف، العــرب والروم: فازيليف، العرب والـــروم، ترجمة الدكتـــور محمد عبد الهادى شعيرة، مراجعة فؤاد حسنين على، دار الفكر العربى، بدون تاريخ .

ورقة بن نوفل بين النصرانية والإسلام

د. ياسر أحمد نــور

كلية التربية، جامعة المنصورة، مصر

تعاظم الجدل في الآونة الأخيرة بشأن شخصية ورقة بن نوفل، حتى غلب عليه طابع الخطاب السجالي فحاد به عن الموضوعيه . وتمحور هذا الجدل حول قضية صلة ورقة بالرسول ﷺ، حيث ادعت آراء بتواجد علاقة دينية معرفية جمعت بينهما، لعب فيها ورقة دور الأستاذ ومثّل فيها النبي محمد ﷺ دور التلميذ الذي تلقى عن أستاذه أصول عقيدة الإسلام وشريعته. وآراء أخرى نفت هذه العلاقة كلية وعدتها افتراءات لا أصل لها.

ونظرا لخطورة وأهمية ما يثار حول ورقة من قضايا ، كان لابد من دراسة تطمح في بيان الأبعاد الحقيقية لهذه الشخصية وإزالة ما يتعلق بها من شبهات. وقبل ولوج هذا الموضوع بدا من المستحسن تقرير ثلاث حقائق هامة خلصنا إليها بعد فحص المادة التاريخية المجموعة من بطون المظان والمصادر وهي:

أولا : استئثار المصادر العربية الإسلامية دون المصادر المسيحية بالمادة التاريخية المتعلقة بهذه الشخصية، فالأخيرة لا ذكرَ فيها مطلقا لورقة بن نوفل ، بدليل أن الدارسين المسيحيين – فضلا عن المستشرقين – الذين تعرضوا لهذه الشخصية ، كان مرجعيتهم في دراستها المصادر العربية الإسلامية وليست المسيحية[1] .

---

[1] يرى أبو موسى الحريري – ويوافقه عزت أندراوس – أن تاريخ القس ورقة بن نوفل وفرع عبد العزى أهمله أصحاب السير المحمدية ، ولا بد أن هذا الإهمال مقصود وذلك بسبب اعتناقهم النصرانية.. والحقيقة أن القول بأن ثمة مؤامرة نسج خيوطها المؤرخون المسلمون وكتّاب سيرة الرسول ﷺ بقصد التعتيم على شخصية ورقة وفرع عائلة عبد العزى لاعتناقهم النصرانية، ادعاء لا دليل عليه، وإذا كان مناط الاستدلال على ذلك قلة المادة التاريخية، فللمؤرخين المسلمين عذرهم في هذا الأمر وذلك للفاصل الزمني الكبير بينهم وبين هذه الحقبة، وهذا الإشكال لم يكن خاصا فقط بتاريخ ورقة وعائلته، بل سرى على تاريخ النبي ﷺ نفسه في هذه الفترة، حيث ما زلنا نجهل الكثير عن حياة الرسول قبل البعثة كطريقة تنشئته وفترة شبابه وحياته الخاصة مع السيدة خديجة (رضي الله عنها) وأبنائه ...الخ ، ويمكننا الوقوف على ذلك إذا ما قارنا حجم المادة التاريخية المتعلقة بحياة الرسول ﷺ في كتب السيرة قبل البعثة بما كتب عنها بعد البعثة إذ سيلحظ أن حياته بعد البعثة استحوذت على جل اهتمام المادة التاريخية على الرغم من أن ثلثي عمره قضاه قبل بعثته ، فهل يعد ذلك مؤامرة حاكها المؤرخون المسلمون ضد تاريخ النبي ﷺ ؟، والجدير بالذكر أن هذه الحقيقة وعاها وأقر بها غير واحد من

ثانيا : الندرة الشديدة للمادة المصدرية المتعلقة بحياة ورقة قبيل الإسلام ، الأمر الذي جعل منه شخصية ملغزة مبهمة الملامح في العديد من الجوانب .

ثالثا : تمحور جُل الروايات الخاصة بورقة بن نوفل حول موضوعين رئيسين: الأول، علاقة ورقة بالنصرانية؛ والثاني يتصل بعلاقته بالرسول ﷺ إبان إرهاصات نزول الوحي عليه بغار حراء .

وبناء على هذه المعطيات جاءت معالجة قضايا وإشكالات هذه الدراسة تحت عنوان " **ورقة بن نوفل بين النصرانية والإسلام** "

أولا: علاقة ورقة بن نوفل بالنصرانية

في هذا المقام سيُعنى ببيان الظروف والملابسات التي أفضت إلى اعتناق ورقة بن نوفل للنصرانية ، والتعرف عن ماهية المذهب الذي على أساسه جاء اعتناقه لها ، وكذا اللغة التي من خلالها اتصل ورقة بمعارف هذه الديانة ، هذا فضلا عن بيان حقيقة موقفه من التبشير بالنصرانية في مكة .

أما فيما يخص مسألة ملابسات اعتناق ورقة للنصرانية، فقد روى الطبراني[٢]عن سعيد بن زيد قال:" **خرج ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو يطلبان الدين حتى مرا بالشام فأما ورقة**

المستشرقين أبرزهم (ول ديورانت). أضف إلى ذلك أنه لم يثبت تاريخيا أن جميع فرع عبد العزى اعتنق النصرانية ، اللهم إلا ورقة بن نوفل الذي اعتنقها في ظروف وملابسات خاصة بيناها في المتن ، وكذا عثمان بن الحويرث كما ذكر ذلك اليعقوبي. ومن ناحية أخرى لماذا لا يلقي أندراوس باللائمة على المصادر المسيحية لإغفالها شخصية بهذا الثقل الديني في مكة مركز النصرانية في جزيرة العرب – حسب زعمه –، ألا يعد ذلك قصورا بل مؤامرة أكبر من مؤامرة المؤرخين المسلمين للتعتيم على تاريخ ورقة على افتراض أنها مؤامرة؟ انظر تاريخ اليعقوبي (بيروت: دار صادر ، د.ت.)، ج١، ص٢٥٧. أبو موسى الحريري : قس ونبي http://www.servant13.net/qis/warqa1.htm . عزت أندراوس: النصرانية في الجزيرة العربية http://www.coptichistory.org/new_page_341.htm . ول ديورانت : قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١)، ج١٣، ص ٢٢.

[2] أبو القاسم الطبراني: المعجم الكبير ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي (ط٢؛ الموصل : مكتبة العلوم والحكم ، ١٤٠٤– ١٩٨٣)، ج١، ص١٥. وقد ذكر محمد بن عبد الواحد المقدسي أن أبا داود الطيالسي روى هذه الرواية في مسنده بإسناد حسن. أنظر المقدسي : الأحاديث المختارة ، تحقيق عبد الملك الدويش (ط١؛ مكتبة المكرمة:

فتنصر، وأما زيد فقيل له: إن الذي تطلب أمامك، فانطلق حتى أتى الموصل فإذا هو براهب، فقال : من أين أقبل صاحب الرحلة؟ قال: من بيت إبراهيم. قال: ما تطلب؟ قال: الدين، فعرض عليه النصرانية فأبى أن يقبل..."

غير أن ابن إسحاق[٣]أورد في هذا الشأن تفاصيل هامة ، حيث ذكر أن قريشا اجتمعت " يوما في عيد لهم عند صنم من أصنامهم... فخلص منهم أربعة نفر نجيا ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض ، قالوا : أجل، وهم : ورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نفيل، فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله ما قومكم على شيء لقد أخطئوا دين أبيهم إبراهيم ، ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ، يا قوم التمسوا لأنفسكم دينا، فإنكم والله ما أنتم على شيء ، فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم . فأما ورقة بن نوفل فاستحكم في النصرانية ، واتبع الكتب من أهلها حتى علم علما من أهل الكتاب، وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة ، ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فلما قدمها تنصر وفارق الإسلام حتى هلك هناك نصرانيا ...وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم ، فتنصر وحسنت منزلته عنده . وأما زيد بن عمرو بن نفيل فتوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية ، وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان ، ونهى عن قتل الموءودة ، وقال : أعبد رب إبراهيم، وبادى قومه بعيب ما هم عليه ".

وفي ضوء قراءة النصين يتبين أن ورقة ورفاقه أدركوا حقيقة ما هم عليه من فساد الدين والمعتقد ، وأن ما مارسه أهل مكة من طقوس في العبادة تجافي الحنيفية التي جاء بها إبراهيم عليه السلام ، الأمر دفع بهم جميعا للبحث عن هذا الدين بعدما اندرست معالمه بفعل عمرو بن لحي[4] وبمن جاء بعده حتى انزوت بمرور الوقت عن حياة العرب .

مكتبة النهضة الحديثة، ١٤١٠)، ج٣، ص٣٠٩؛ أبو داود الطيالسي: المسند (بيروت: دار المعرفة، د.ت.)، ج١، ص٣٢.

[3] عبد الملك بن هشام: السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين (القاهرة : مطبعة مصطفى البابي الحلبي، د.ت.) ج١، ص ٢٢٢- ٢٢٣.

[4] أخبر النبي ﷺ أن عمرا هو أول من بدل دين إسماعيل. انظر: محمد بن إسماعيل البخاري : صحيح البخاري، تحقيق مصطفى ديب البغا (ط٣؛ بيروت: دار ابن كثير ، ١٤٠٧- ١٩٨٧)، ج١، ص١٤٠٦؛ محمد ابن عبد الله

وعلى هذا ساح ورقة بن نوفل ورفاقه في البلدان يلتمسون سبيلا يهتدون به إلي شريعة الحنيفية، ويبدو أن رحلة البحث كانت شاقة ومضنية بدليل أنها تجاوزت نطاق الجزيرة العربية إلى بلاد الشام والتي كانت نهاية المطاف حيث تحددت على إثرها مواقف الجميع . فأما ورقة فآل أمره إلى أن ارتضى النصرانية دينا ، ليس هذا فحسب بل تعمق في دراسة شريعتها ومعارفها حتى وصفه النص بكونه " استحكم في النصرانية ، واتبع الكتب من أهلها حتى علم علما من أهل الكتاب " .

وهنا ننفصل بورقة عن رفاقه لنتساءل بشأنه: لماذا فضّل ورقة النصرانية وارتضاها دينا من دون اليهودية[٥] على الرغم من اتصاله بها ؟ فقدر روى الطبري[٦] من طريق ابن إسحاق أن ورقة "...سمع من أهل التوراة...".

ويغلب على الظن أن السبب في ذلك يرجع إلى النزعة الشعوبية العنصرية التي أحاطت بالعقيدة اليهودية بفعل توجيه التوراة[٧]. حتى أن باحثا يهوديا أكد أنه محظور على اليهود نشر الديانة اليهودية بين غير اليهود[٨]. وأمر كهذا ربما مثّل عامل نفور لورقة فحال بينه وبين اعتناقه لها ، وعلى هذا كانت النصرانية بالنسبة له " أقرب من دين اليهود..." كما يقول ابن كثير[٩].

الحاكم : المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر (بيروت : دار الكتب العلمية، ١٤١١-١٩٩٠)، ج٤، ص٦٤٧؛ سيرة ابن هشام، ج١، ص٢٠٢.

٥ يزعم أندراوس : أن ورقة كان على دين موسى في مبدأ الأمر ، ثم صار على دين عيسى، وأحال هذه المعلومة إلى السيرة النبوية لابن هشام ، وبعد البحث عن النص في سيرة ابن هشام لم نجد له أثرا ، مما يعني أنها من اختلاق الكاتب. انظر: النصرانية .
http://www.coptichistory.org/new_page_341.htm

6 تاريخ الرسل والملوك، (ط١؛ بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٧)، ج١، ص ٥٣٣.

7 اعتبرت التوراة الشخصية اليهودية هي المصطفاة لدى الله حيث فضلها على العالمين ، فجاء فيها " وقد اختارك الرب لكي تكون له شعبا خالصا فوق جميع الشعوب التي على وجه الأرض " سفر التثنية / إصحاح ١٤.

8 إسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهودية في الجاهلية وصدر الإسلام (ط٢؛ القاهرة : لجنة التأليف والترجمة ، ١٩٢٧)، ص٧٢.

٩ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، (ط١؛ القاهرة: دار الريان للتراث، ١٤٠٨-١٩٨٨) ج١، ص٢٩.

ولعل مقتضى المقام يدعونا قبل الانتقال إلى نقطة أخرى أن نناقش ما رآه ا.د. حسين مؤنس(١٠)، حيث شكك في نصرانية ورقة مدعيا أن خديجة (رضى الله عنها) اتجهت إلى ورقة دون سواه لكونها تعرف أنه لم يكن يهوديا ولا نصرانيا . وقد تبنى هذا الرأي باحث آخر وكان مناط استدلاله أن ورقة لو كان نصرانيا لما بشّر النبي ﷺ بالرسالة ، لأن المعتقد في المسيحية يقوم على انتهاء دور النبوة في التاريخ الديني للبشرية بتجسد الله في ذات المسيح(١١) .

والحقيقة إن كلا الرأيين فيه نظر ، لكونهما يخالفا صراحة الحقيقة التاريخية التي تقرر بأن ورقة بن نوفل كان على النصرانية حين التقى به النبي ﷺ . أما الاستدلال بعقيدة التجسد للتشكيك في نصرانية ورقة ، فقد يكون قرينة مقبولة لو أن ورقة كان معتنقا للنصرانية على اعتقاد التثليث ، ولكن الدارسة ستثبت خلاف ذلك فيما يلي ، وعلى هذا فهو استدلال لا يصلح لإثبات هذا الزعم .

والآن ننتقل إلى القضية الثانية التي تتعلق بكيفية اتصال ورقة معرفيا بالنصرانية. فمما يبدو من النصوص أن اتصال ورقة بالنصرانية ومعارفها تسنى له من خلال لغة أخرى غير العربية(١٢) ، غير أن هذا الاستنتاج يحكم بأن تعلُّم ورقة بن نوفل لهذه اللغة أتى كمرحلة تالية بعد اتصاله بالرهبان ورجال الدين المسيحي ببلاد الشام ، حيث من المفترض أنه عن طريقهم اعتنق النصرانية ، ومن خلالهم أيضا تعلَّم هذه اللغة – غير العربية – التي سنحاول الكشف عن ماهيتها فيما يلي . ومن المرجح أن هذه اللغة هي التي دونت بها نسخة الإنجيل التي كانت بحوزته والتي كان يترجم منها بمكة إلى العربية سواء كتابة أو قراءة .

ولكن إذا ما أُعمل النظر في النصوص سيُلاحظ اضطرابها بشأن تحديد ماهية هذه اللغة، حيث جاءت غالب العبارات فيها على النحو التالي– أو ما شابه – " وكان يكتب الكتاب

10 دراسات في السيرة النبوية، (ط٢ ؛ القاهرة : الزهراء للإعلام العربي ، ١٩٨٥)، ص ١٠٥.

11 لخضر الشايب : نبوة محمد في الفكر الاستشراقي المعاصر، (ط١؛ الرياض : مكتبة العبيكان، ١٤٢٢، ٢٠٠٢) ص٤٤٧– ٤٤٨.

12 وأورد ابن إسحاق من رواية يونس بن بكير عنه : أن الإنجيل لم يكن المصدر الوحيد الذي درس من خلاله النصرانية ، بل اجتهد في جمع المصنفات المتعلقة بمعارف وآداب هذه الديانة وتعمق في دراستها، ولعل هذا ما يبدو من وصف نص ابن إسحاق " وحصل الكتب وعلم علما كثيرا ". الذهبي : سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، ومحمد نعيم العرقسوسي، (ط٩ ؛ بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤١٣)، ج١، ص١٢٧.

العربي، ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب "[١٣] ، " **وكان رجلا تنصر يقرأ الإنجيل بالعربية** "[١٤]. لكن رواية البخاري[١٥]جاءت بزيادة أخرى مغايرة حيث تشير إلى أن ورقة كان يترجم عن نسخة الإنجيل التي كانت بحوزته إلى العبرانية ، وفيها يقول " **وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب** ".

إذن هناك اتجاهان للنصوص في هذه المسألة، الأول : ذهب إلى أن ورقة كان يترجم من لغة غير عربية إلى العربية ، أما الاتجاه الثاني فيشير إلى أن ورقة كان يترجم من تلك اللغة غير العربية إلى العبرانية وليست العربية. وإذا ما سلمنا جدلا بصحة الاتجاهين فهذا يعني أن ورقة أجاد معرفة لغتين أجنبيتين بجانب العربية وهما: العبرانية ، ولغة أخرى مجهولة لم تكشف عنها النصوص وهي التي دُونت بها نسخة الإنجيل التي كانت بحوزته ، وهو أمر يصعب قبوله .

وعلى هذا فهناك اضطراب ظاهر في الروايات بشأن هذه المسألة. وقد فطن النووي[١٦] إلى هذا الاضطراب فقام بإجراء توفيقي للجمع بين كلا الاتجاهين فقال :" **وكلاهما صحيح ؛ وحاصلهما أنه تمكن من معرفة دين النصارى بحيث إنه صار يتصرف في الإنجيل، فيكتب أي موضع شاء منه بالعبرانية إن شاء وبالعربية إن شاء** " .

لكن هذا الإجراء التوفيقي الذي اضطلع به النووي لم يستوعب هذا الاضطراب الحاصل في الروايات ، بل لا يصمد أمام قرينة هامة ؛ وهي أن جميع هذه النصوص خرجت عن مصدر واحد وهو السيدة عائشة (رضي الله عنها) ، وذلك في مقام حديثها عن إرهاصات نزول الوحي على النبي ﷺ ، وعلى هذا فمن غير المنطقي ذكرها أن ورقة كتب عن الإنجيل بالعبرانية ، ثم تروي مرة أخرى أنه كتب عنه بالعربية . ولمَّا كانت السيدة عائشة (رضي الله

---

[13] صحيح البخاري، ج١ ، ص ٢١٨ ؛ مسلم بن حجاج القشيري : صحيح مسلم ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي (بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ب.ت) ج١ ، ص١٤١ .

[14] صحيح البخاري، ج٣، ص ١٢٤١؛ مسند أحمد، (القاهرة: مؤسسة قرطبة، د.ت)، ج٥ ، ص ٢٢٣ ؛ أحمد ابن الحسن البيهقي: السنن الكبرى، (مكة المكرمة: مكتبة دار الباز ، ١٤١٤/ ١٩٩٤)، ج٩ ، ص٥ .

[15] صحيح البخاري، ج١، ص٤.

[16] صحيح مسلم بشرح النووي، (ط ٢ بيروت: دار إحياء التراث العربي،١٣٩٢)، ج٢ ، ص٢٠٢.

عنها) لم تلق ورقة لكونها ولدت بعد المبعث بأربع سنوات أو خمس(١٧) ، أي بعد وفاته ، فهي إذن تتحدث عن فترة لم تدركها ، وربما اختلط الأمر عليها فنتج عن روايتها هذا الاضطراب(١٨) ، وإن كان المرجح أن يكون هذا الاختلاف بدر نتيجة تصحيف صدر عن أحد الرواة الذين نقلوا هذه الرواية عنها ، فأورد لفظ " **العبراني** " أو " **العبرانية** " مصحفا عن كلمة " **العربي** " أو " **العربية** ".

وبناء على ذلك يترجح الاتجاه الثاني للروايات والذي ذهب إلى أن ورقة كان ينقل من الإنجيل إلى العربية ، وذلك لجملة أسباب منها :

أولا : أن هذا الاتجاه هو الذي أقرته غالب الروايات التي عرضت لها المصادر .

ثانيا : إن قيام ورقة بالترجمة إلى العربية أمر له ما يبرره ، على اعتبار أن العربية – وليست العبرية – هي أصل لسانه وثقافته ، ومن ثم فعندما يترجم من الإنجيل إلى العربية طلبا للمعرفة فهو أمر يتماشى ومنطق العقل ، على عكس الترجمة إلى العبرية .

ثالثا : لم يكن هناك دافع يدعو ورقة لأن يضطلع بالترجمة من الإنجيل إلى العبرية، حيث لم يكن يتواجد بمكة جالية يهودية يمكن أن يهتم ورقة بالترجمة لها بالعبرية من الإنجيل الذي كان بحوزته. ناهيك عن أن النصوص لم تشر إلى أن ورقة بشر بالنصرانية في مكة، أو صدرت عنه محاولات في هذا الشأن(١٩)، وهو ما يعني أن علاقته بالنصرانية لم تتعد حدود نفسه ، وأن اطلاعه على معارفها كان لأجل التثقيف الذاتي ليس أكثر .

---

17 أحمد بن حجر العسقلاني : الإصابة في تمييز الصحابة، (ط ٤ بيروت: دار إحياء التراث العربي ، ١٣٢٨)، ج٤ ، ص ٣٥٩.

18 نستبعد صدور هذا الاختلاف عن السيدة عائشة(رضي الله عنها) لما هو مشهور عنها الاحتراز والتثبت في قبول رواية الحديث . ولمزيد من التفاصيل في هذا الشأن انظر بدر الدين الزركشي : الإصابة فيما استدركته السيدة عائشة (رضي الله عنها) على الصحابة ، تحقيق : سعيد الأفغاني، (ط٣ ؛ بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٤٠٠/١٩٨٠).

١٩ وهذا ينفي ما ذكره البعض من أن ورقة كان رئيسا لأسقفية مكة ، حيث لا يوجد نص تاريخي واحد أشار إلى تواجد أسقفية بمكة كان على رأسها ورقة ، أو أن ورقة بشر بالنصرانية في مكة ، ولو كان اضطلع بمحاولة لدعوة قريش لهذا المذهب في النصرانية لجوبه بحرب ضروس من قبل قريش ، بل سيلقى نفس المصير الذي لاقاه من قبله زيد بن عمرو بن نفيل . كما أن هذا الزعم يتهاوى أمام الدراسة المستفيضة التي أجراها هنري

إذن فصفوة القول فيما سبق أن النصوص التي ذهبت إلى أن ورقة كان يترجم كتابة وقراءة عن الإنجيل بالعربية هي الأرجح والأصح ، أما ما عداها من نصوص ففيها نظر كما نبين .

وتجدر الإشارة إلى أن ما سبق لا ينفي مطلقا معرفة ورقة بن نوفل للعبرية حيث إن ثمة شاهدين يرجحان معرفته بها ، الأول ما ورد في حديث عائشة (رضي الله عنها) السابق من حوار بين ورقة والنبي ﷺ حيث قال له عندما أخبره النبي ﷺ بما حدث في الغار :"**هذا الناموس الذي نزل على موسى يا ليتني فيها جذع** " ، والمتأمل في هذه العبارة سيلحظ أنها تشي بأطلاع ورقة على التوراة ، لأن اهتمام الأناجيل منصب بالدرجة الأولى على أحاديث ومواعظ السيد المسيح، ولا ذكر فيها لأحوال موسى عليه السلام وأخبار أنبياء بني إسرائيل حيث إن محلها العهد القديم (التوراة) كما هو معلوم .

أما الشاهد الثاني فأورده الطبري[٢٠] من طريق ابن إسحاق حيث قال: "**وكان ورقة قد تنصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل** " ، وهذه إشارة واضحة إلى أن ورقة كان على اتصال بالتوراة . وهو ما يرجح أنه كان على دراية بالعبرانية.

ولعل سائلا يتساءل عن سبب تعلم ورقة للعبرية على الرغم من كونه لم يعتنق اليهودية؟ ربما يرجع السبب في ذلك إلى أن ورقة في مرحلة بحثه عن الحنيفية – قبل أن يرتضي النصرانية دينا – اضطلع بمحاولات للتعرّف على اليهودية فتعلّم العبرية ليتسنى له البحث فيها .

يبقى في هذا الصدد تحديد نوعية اللغة التي كُتب بها إنجيل ورقة ، والتي أتقنها ليحصل له في النهاية ترجمتها إلى العربية قراءة وكتابة...في الواقع تجمع النصوص على أن الشام كانت الموطن الذي اعتنق فيه ورقة النصرانية واتصل من خلاله بمعارفها. والثابت تاريخيا أن السريانية المشتقة عن الآرامية كانت هي اللغة المنتشرة بين الشعب المسيحي في سوريا وبلاد

لامنس عن جذور المسيحية بمكة، حيث أثبت من خلالها أن جل من اعتنقها كانوا من الأجانب ما عدا حالات نادرة من أهل مكة. انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١، ص ١٢٦ ؛ عزت أندراوس : النصرانية . http://www.coptichistory.org/new_page_341.htm

H .Lammens *Étude sur régne du calife Omayade Moawia I^er^ . Mélanges de la faculté de Beyrouth*, pp. 1- 108.

[20] تاريخ الطبري، ج١ ، ص ٥٣٣.

ما بين النهرين وخاصة " الرها " التي اعتبرت مركزا لهذه اللغة وآدابها (٢١)، وعلى هذا يرجح أن السريانية كانت هي اللغة الأجنبية التي تعلمها وأتقنها ورقة ببلاد الشام، وبها تعمق في دراسة النصرانية، كما يرجح أيضا أن تكون السريانية هي اللغة التي دونت بها نسخة الإنجيل التي كانت بحوزته وترجم عنها إلى العربية وليست العبرية(٢٢).

ننتقل بعد ذلك إلى بيان قضية أخرى، وتتعلق بماهية العقيدة أو نوعية المذهب الذي من خلاله اعتنق ورقة بن نوفل النصرانية. فهل اعتنقها على اعتقاد التثليث ؟ أم على الاعتقاد القائل ببشرية المسيح ؟

في واقع الأمر يصعب التسليم بصحة فرضية أن اعتناق ورقة للنصرانية كان مؤسسا على اعتقاد التثليث، بل نطمئن إلى استبعاد هذه الفرضية بالكلية ، لأن ورقة كما تبين - في ضوء رواية ابن إسحاق والطيالسي- خرج من مكة وهو تسيطر عليه عقيدة الرفض المطلق لصور التعددية لذات الله ، بعدما لفظت فطرته مظاهر الشرك التي أحاطت بدين إبراهيم بجزيرة العرب، وكان هذا هو الدافع لخروجه باحثا في البلاد عن شريعة هذا الدين . إذن فمن المستبعد أن يتقبل النصرانية في صورتها القائمة على التثليث . ومما يؤكد ذلك أبيات الرثاء التي نعي فيها ورقة بن نوفل زيد بن عمرو بن نفيل لما وافته المنية ، فقال :

" رشدت وأنعمت ابن عمرو وإنما ... تجنبت تنورا من النار حاميا
بدينك ربا ليس رب كمثله ... وتركك أوثان الطواغي كما هيا
وإدراكك الدين الذي قد طلبته ... ولم تك عن توحيد ربك ساهيا
فأصبحت في دار كريم مقامها ... تعلل فيها بالكرامة لاهيا
تلاقي خليل الله فيها ولم تكن ... من الناس جبارا إلى النار هاويا
وقد تدرك الإنسان رحمة ربه ... ولو كان تحت الأرض سبعين واديا

---

[21] ديلاسي أوليري : علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب ، ترجمة وهيب كامل ، مراجعة زكي علي (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٢) ص١٠؛ جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (بغداد : منشورات الشريف الرضي ، د.ت) ج٦ ، ص٦٢٧.

[22] يذكر أوليري أن العبرية كان تواجدها محدودا ببلاد الشام في ذلك الحين إذا ما قورنت بالسريانية ، حيث كانت منتشرة على نطاق ضيق في بعض المدن الشاطئية ببلاد الشام ، وكانت أقرب إلى الفينيقية . انظر : علوم اليونان ، ص١٠.

أقـــول إذا صليت في كــل بيعة   تباركت قد أكثرت باسمك داعيا " (٢٣)

وورد في هذا الشأن أيضا عن جابر بن عبد الله أن بعض الصحابة قالوا :" **يا رســـول الله: أرأيت ورقة كان يستقبل القبلة ويقول: إلهي إله زيد، وديني دين زيد...**"(٢٤)

وقد يقول قائل إن هذه العبارات المفعمة بالتوحيد تدل على أن ورقة ربما غير موقفه من النصرانية فعاد حنيفيا كما بدأ . ويُرَد على ذلك بأن مقصود ورقة من هذا القول هو أن عقيدته في التوحيد كعقيدة زيد بن عمرو بن نفيل حيث نبذ كل صور الشرك والتعدد لذات الله، وهـــذا ليس معناه أنه ارتد عن النصرانية أو راجع موقفه منها ، بل ظل مقيما عليها بدليل قولــه: " **أقول إذا صليت في كل بيعة...**"

إذن فالشاهد مما سبق أن عقيدة ورقة في النصرانية لم تكن لتقر إلوهيـــة المـــسيح أو تقبلها على النحو الذي ذهبت إليه عقيدة الملكانيين أو اليعاقبة، وبهذا يـصدق حـــدس الحـــافظ العراقي في :"...**أنه لم يكن متمسكا بالمبدل من النصرانية ، بل الصحيح منهـــا الـــذي هـــو الحق...**"(٢٥)

وقد حاول البعض(٢٦) حسب هذه المعطيات أن ينسب عقيدة ورقة بن نوفل في المسيحية إلى المذهب الإبيوني، استنادا إلى أن الإبيونيين هم فئة من اليهود المتنصرين الذي لا يعترفون بإلهيته ولا ببنوته لله تعالى، بل يقولون بأنه رجل كسائر الرجال جاءه الوحي بعـــد معموديتـــه على يد يوحنا المعمدان. غير أن أحد الدارسين(٢٧) كفانا مؤنة البحث في هذه المـــسألة، حيـــث خلص إلى عدم توافر أي معلومات دقيقة عن هذه الطائفة، كما لا يُعرف أي شيء عن إنجيلها سوى مقاطع غاية في القصر نقلها بعض آباء الكنيسة المعادين لهم أصـلا. هذا فضلا عن عدم وجود دليل يشير إلى استمرار تواجدهم في بلاد الشام حتى زمن ورقة.

---

23 ابن هشام : السيرة، ج١ ، ص٢٣٢؛ الأصبهاني، دلائل النبوة، تحقيق: محمـــد الحـــداد (ط١؛ الريـــاض: دار طيبة ، ١٤٠٩) ج١ ، ص٨١.

24 الشيباني: الأحاد والمثاني، تحقيق: جاسم الجوابرة (ط١؛ الرياض : دار الرايـــة ، ١٤١١، ١٩٩١) ج١، ص ٤٢٧.

25 عبد الرؤف المناوي : فيض القدير، (ط١؛ مصر : المكتبة التجارية ، ب.ت) ج٦ ، ص ٤٠١.

26 أبو موسى الحريري: قس ونبي http://www.servant13.net/qis/warqa3.htm، عزت أندراوس: محمد والعقيدة الإبيونية http://www.coptichistory.org/new_page_347.htm

27 زياد منى : الإبيونيون وورقة بن نوفل، (بيروت : دار قدمس للتوزيع والنشر ، ٢٠٠١)

والتساؤل الذي يطرح نفسه الآن: على أي مذهب إذن جاء اعتناق ورقة للنصرانية؟

يرجح بعد البحث والاستقصاء أن ورقة بن نوفل اعتنق النصرانية على المذهب النسطوري. ولعله يحسن قبل بيان ذلك أن نعرّف في إيجاز بعقيدة هذا المذهب، ثم نقدم الأدلة والقرائن الدالة على اتصال ورقة به إبان رحلته إلى بلاد الشام.

من الثابت تاريخيا أن المذهب النسطوري بدأ في الظهور عندما تولي الراهب الأنطاكي نسطور بطريركية كنيسة القسطنطينية عام ٤٢٨ م ، وقد بدأت الإرهاصات الفكرية لهذا المذهب في الظهور عندما أنكر أخوه الراهب أنسطاس في إحدى عظاته أمام العامة إمكان إطلاق لقب والدة الإله (Theotokos) على العذراء مريم ، ذاهبا إلى أنها لم تكن سوى أمّ لعيسى الإنسان . وعندما رُفعت شكوى إلى نسطور ليستنكر هذا القول ، جاء موقفه مخيبا للآمال حيث انبرى مؤيدا ومنافحا عن مقولة أنسطاس[٢٨].

وقد أُثر عنه في هذا الشأن مجموعة مقولات أبرزها : أن مريم العذراء ولدت فقط الإنسان لأن المخلوق لا يلد الخالق ، ثم اتحد عيسى باللاهوت بعد ولادته وهو اتحاد مجازي منحه الله من خلاله المحبة ووهبه النعمة[٢٩]. ومن مقولاته أيضا في هذا الصدد :" **لن أدعو أبداً طفلاً عمره شهرين أو ثلاثة الله** "[٣٠]. وتتضح عقيدة نسطور في ذات المسيح في الرسالة الثانية التي أرسلها له الأب كيرلس لكي يثنيه عن معتقده فجاء فيها " **...إن كنت تعتقد أنه نبي كموسى ، فما قَدِر موسى ولا أحد من الأنبياء أن يحمل خطايا العالم** "[٣١]. أما ساويرس بن المقفع[٣٢] فأوضح عقيدة نسطور بشكل أكثر جلاء فقال :"**هذا نسطور قد شتت البيعة ...إذ قال**

---

28 أوليري : علوم اليونان ، ص ٦٩.

29 زكي شنودة : تاريخ الأقباط، (القاهرة : جمعية التوفيق القبطي، ١٩٦٢)، ج١ ، ص١٥٩. انظر محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية، (ط٣؛ القاهرة : دار الفكر العربي ، ذ.ت.)، ص ١٨٦- ١٨٨؛ أحمد شلبي: المسيحية (ط٣؛ القاهرة: مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٧) ص ١٦٠- ١٦١.

30 الأب جان كمبي: تاريخ الكنيسة ، ترجمة الأب أيوب زكي الفرنسسكاني وآخرون (بيروت : دار المشرق، د.ت) ج١ ص ١٢٧، الأنبا بيشوى: السجالات الكريستولوجية فى القرنين الرابع والخامس-www.metroplit-bishoy.org/files/Christology/ar.doc. وهذا المقولة نقلت عن كتاب " التاريخ الكنسي " للمؤرخ المسيحي سقراط والذي عاصر أحداث مجمع إفسوس .

31 ساويرس بن المقفع: تاريخ البطاركة ، تحقيق : الأنبا صموئيل (القاهرة : مطبعة النعام ، د.ت) ج١ ، ص ٦٠.

32 نفس المصدر، ج١، ص ٦١.

إن المسيح إنسان فقط ، وأنه نبي لا غير، وقد جاء إلى العالم أنبياء كثير ولـم يُعبـد أحـد منهم..."

وبلا شك أفضت هذه الآراء إلى احتدام الجدل والعداء بين نسطور ومخالفيه لاسـيما كيرلس بطريرك الإسكندرية الذي صعَّد المعارضة ضده، الأمر الذي أدى في النهاية إلى عقـد مجمع في إفسوس عام٤٣١ م، وصدر فيه قرار بطرد نسطور وحرمانه ، لكن الكثيـرين مـن السريان لم يقبلوا قرارات هذا المجمع وانفصلوا عن الكنيسة الأرثوذكسية وغـرف هـؤلاء المنشقون باسم " النساطرة "، وانبرت المدرسة المسيحية في " الـرها " مـركز السريانية إلى تعضيد ونصرة نسطور، وأضحت معقلا للمذهب النسطوري[٣٣]، بـل أهـم مركـز ثقـافي للنساطرة [٣٤]. وعلى هذا فالشام مثَّلت أحد أهم معاقل المذهب النسطوري ، ومنها انتقل هـذا المذهب إلى الكثير من البلدان لاسيما في المشرق[٣٥] . أما ما يرجح علاقة ورقة بـن نوفـل بالمذهب النسطوري فيتمثل في جملة شواهد :

أولا : أن بلاد الشام – معقل النسطورية – كانت الموطن الذي انتهت إليه رحلة ورقـة بن نوفل في البحث عن الحنيفية حتى استقر الحال به إلى اعتناق النصرانية ، كما جاء ذلك في رواية الطيالسي السابقة " **خرج ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو يطلبان الدين حتى مرا بالشام، فأما ورقة فتنصر..."**

ثانيا : استقرار عقيدة ورقة على التوحيد بعد اعتناقه للنصرانية[٣٦]، فالشام كما نوهنـا كانت هي الموطن الذي اعتنق به ورقة النصرانية ، ولمَّا كانت النسطورية ببلاد الـشام هـي المذهب الذي تبنى الاعتقاد ببشرية المسيح ونبذ ألوهيته، فمن المرجح أن يكون هذا المذهب هو الذي ارتضاه ورقة للإيمان بالنصرانية .

ثالثا : عامل اللغة ؛ ترجح من قبل أن اللغة السريانية كانت هي اللغة التي أتقنها وتعلمها ورقة ليتسنى له من خلالها الاتصال بالنصرانية ، هذا فضلا عن كونها اللغة التي دونت بهـا

---

33 أوليري : علوم اليونان، ص ٦٩-٧١.

٣٤ جواد علي : المفصل، ج٦ ، ص٦٢٧.

35 انتقل المذهب النسطوري من الرها إلى نصيبين وسلوقية ، ثم انتشر في العراق لاسيما عـرب الحيـرة ، ثـم تسرب إلى البحرين وعمان واليمامة. انظر كذلك جواد علي: المفصل، ج٦ ، ص٦٢٩.

٣٦ راجع تفصيل هذه المسألة ص ١١- ١٢.

أيضا نسخة الإنجيل التي كانت بحوزته[٣٧] ، ومعلوم أن السريان أصحاب هذه اللغة مثلوا قوام المذهب النسطوري في بلاد الشام قبل الإسلام .

إذن فالمستخلص من هذه القرائن أن ورقة بن نوفل اعتنق النصرانية على المذهب النسطوري المناهض لعقيدة التثليث وتأليه المسيح.

ثانيا : علاقة ورقة بن نوفل بالإسلام

نتحول بعد ذلك إلى القسم الثاني من الدراسة والذي يتمثل مطلبه في الكشف عن علاقة ورقة بن نوفل بالإسلام، وذلك من خلال معالجة ثلاث قضايا رئيسة:

الأولى : حقيقة علاقة ورقة بالنبي ﷺ قبل البعثة .

الثانية : تحديد التوقيت الزمني الذي توفي فيه ورقة بن نوفل .

الثالثة : التحقيق في مسألة إسلام ورقة وبيان أمر صحبته .

أما عن القضية الأولى والتي تبحث في علاقة ورقة بن نوفل بالنبي ﷺ قبل البعثة ، فتكمن أهميتها في كونها ستبين مدى مصداقية ما زعمه البعض من أن اتصال ورقة بالنبي ﷺ قد بدأ قبل بعثته لأجل إعداده بالمعارف المسيحية ليخلفه من بعده على أسقفية مكة[٣٨].

وواقع الأمر في هذا الشأن أنه لم يُعثر على نص واحد يثبت العلاقة بينهما على هذا النحو ، اللهم إلا إشارات في بعض النصوص ترشد إلى وجود مواقف طارئة جمعت بين ورقة والنبي ﷺ قبل البعثة.

أما عن الموقف الأول ، فرواه البلاذري [٣٩]من طريق أبي صالح أو عكرمة حيث روى " أن حليمة ظئر رسول الله ﷺ لما قدمت به من بلادها أضلته بأعلى مكة ، فوجده ورقة ابن نوفل ورجل آخر من قريش ، فأتيا عبد المطلب ، وقالا : هذا ابنك وجدناه متلددا بأعلى مكة .

---

[٣٧] راجع ذلك ص ٩ – ١٠.

[٣٨] أبو موسى الحريري: قس ونبي ttp://www.servant13.net/qis/warqa11.htm ، عزت أندراوس : النصرانية، http://www.coptichistory.org/new_page_341.htm

[٣٩] أحمد بن يحي البلاذري : أنساب الأشراف ، تحقيق : محمد حميد الله (ط٣ ؛ القاهرة : دار المعارف ، د.ت)، ص٩٥ . وقد أورد بن إسحاق الرواية دون إسناد ، واكتفى فقط بقوله " وزعم الناس فيما يتحدثون " . انظر سيرة ابن هشام، ج١ ، ص١٦٧.

فسألناه من هو؟ فقال : أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب فأتيناك به ، ولهذا نزل قول الله تبارك وتعالى (ووجدك ضالا فهدى). [٤٠]

بيد أن هذه الرواية لا تصلح لإثبات هذا اللقاء ، لكون مصدرها[٤١] هشام بن السائب الكلبي وهو متروك الحديث[٤٢]. كما أنها من وجه آخر مرسلة لكونها موقوفة على عكرمة أو أبي صالح فكلاهما لم يفصح عن المصدر الذي تلقيا عنه هذا الخبر. ناهيك عن أنه لم ينقل أحد من الثقات في كتب التفسير أن هذا الحادث كان من أسباب نزول قوله تعالى (ووجدك ضالا فهدى) .

أما الموقف الثاني الذي جمع بين ورقة والنبي ﷺ فيتمثل في حفل زواج النبي من السيدة خديجة (رضي الله عنها) ، حيث كان من ضمن ما أورده الحلبي[٤٣] أن ورقة بن نوفل خطب في الحضور بعد خطبة أبي طالب والتي أثنى فيها على النبي ﷺ وعمه ثم عقد القران . وقد عول بعض الدارسين[٤٤] على هذه الرواية في نسج أوهام وخيالات زعموا من خلالها أن ورقة عقد القران على الطريقة المسيحية باعتباره رئيسا لأسقفية مكة ، وليثبتوا كذلك من خلالها أن أهل مكة جميعا كانوا يدينون بالمسيحية .

إلا أنه تبين بعد فحص هذه الرواية أن صاحب السيرة الحلبية لم ينقلها بإسناد مقبول ، هذا فضلا عن كونها لم تثبت في مصدر معتبر. أضف إلى ذلك أننا لو تأملنا نص الرواية سنلحظ أن ثمة اختلاف في تحديد شخص الوليّ الذي عقد قران السيدة خديجة (رضي الله عنها)، فتارة تذكر أن والدها خويلد هو من اضطلع بذلك ، وتارة تحيل ذلك إلى عمها عمرو

---

40 الضحى / آية ٧

٤١ نقل البلاذري الرواية بإسناده الآتي : حدثني عباس بن هشام عن أبيه عن جده عن أبي صالح أو عكرمة . أنساب الأشراف ص٩٥

٤٢ هو هشام بن محمد بن السائب الكلبي ، قال عنه أحمد بن حنبل : ما ظننت أحدا يحدث عنه ، وقال الدارقطني وغيره : متروك الحديث، وقال ابن عساكر: رافضي. الذهبي : ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق علي محمد البجاوي (بيروت: دار المعرفة ، د.ت.) ج٤ ، ص٣٠٤- ٣٠٥ .

43 انظر علي بن برهان الدين الحلبي : السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون (بيروت : دار المعرفة ، ١٤٠٠) ج١ ، ص٢٢٧.

٤٤ انظر أبو موسى الحريري : قس ونبي http://www.servant13.net/qis/warqa8.htm أندراوس : النصرانية ، http://www.coptichistory.org/new_page_341.htm

بن أسد. بل نقل الحلبي[45] عن بعض أهل السير أن الأخير هو المجمع عليه في هذا الأمر وليس غيره بما فيهم ورقة.

أما عن الموقف الثالث ، فيتعلق بإرهاصات نزول الوحي على النبي ﷺ في مكة ، والواقع أن جميع الروايات في هذا الشأن خرجت عن مصدر واحد وهو السيدة عائشة (رضي الله عنها) ، أما عن مضمون الرواية فيُعتمد نص البخاري[46] والذي نقل فبه عن عائشة (رضي الله عنها) أن خديجة (رضي الله عنها) لمَّا قص عليها النبي ﷺ ما جرى له بالغار:"... انطلقت به حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى وهو ابن عم خديجة ، وكان امرأ تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العربي ، فيكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخا كبيرا قد عمي ، فقالت له خديجة : أي عم اسمع من ابن أخيك. قال ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزل على موسى يا ليتني فيها جذع ، يا ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ : مخرجي هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا ، ثم لم ينشب ورقة أن توفي ، وفتر الوحي " .

---

45 السيرة الحلبية، ج١ ، ص٢٢٤.

46 الجامع الصحيح، ج١، ص٤ ؛ ج٤ ،ص١٨٩٤؛ ج٦ ،ص٢٢٠ . انظر موضوع الرواية كذلك في صحيح مسلم ج١ ص ، البيهقي : السنن، ج٧ ، ص ٥١ ؛ ج٩ ، ص٥ ١٤١؛ صحيح ابن حبان ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط (ط٢ ؛ بيروت مؤسسة الرسالة ، ١٤١٤/ ١٩٩٣) ج١، ص ٢١٨؛ الحاكم : المستدرك، ج٢ ، ص٢٠٢؛ ابن هشام : السيرة، ج١، ص ٢٣٣٧- ٢٣٨ ؛ أبو بشر محمد بن أحمد الدولابي: الذرية الطاهرة، تحقيق: سعد المبارك حسن (ط١؛ الكويت : الدار السلفية ، ١٤٠٧) ج١ ، ص٣٤- ٣٥؛ أبو نعيم الأصبهاني: المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم ، تحقيق: محمد حسن الشافعي (ط١ ؛ بيروت ، دار الكتب العلمية، ١٩٩٦) ج١، ص٢٢٤؛ أبو عوانة : المسند ، تحقيق : أيمن عارف الدمشقي (ط١؛ بيروت : دار المعرفة ، ١٩٩٨) ج١، ص١٠٣؛ ج٢، ص ١١١؛ الهيثمي : مجمع الزوائد (القاهرة – بيروت ، دار الريان للتراث – دار الكتاب العربي، د.ت.) ج ٨، ص ٢٥٥؛ مصنف بن أبي شيبة ، تحقيق : كمال يوسف الحوت (ط١، الرياض، مكتبة الرشد، ١٤٠٩) ج٧، ص ٣٢٩؛ مسند أحمد، ج١، ص ٣١٢؛ ج٦، ص٢٢٣- ٢٣٢؛ إسحاق ابن راهويه : المسند، تحقيق: عبد الغفور البلوشي (ط١ ، المدينة المنورة ، مكتبة الإيمان ، ١٤١٢/ ١٩٩١) ج٢ ، ص٣١٦ ؛ الشيباني : الأحاد والمثاني، ج١، ص٤٢٨؛ ج٥ ، ص٣٨٦؛ المعجم الكبير للطبراني، ج٢٣، ص١٥. اللالكائي : اعتقاد أهل السنة ، تحقيق: أحمد سعد حمدان (الرياض : دار طيبة ، ١٤٠٢)، ج٤ ، ص ٧٥٧؛ ابن مندة : الإيمان، تحقيق: علي الفقيهي (ط٢؛ بيروت مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٦) ج٢ ص ٦٩٠، ٦٩٢، ٦٩٤ .

وواقع الأمر أن هذا النص يثير قضية جد هامة ، وهي قضية اقتباس النبي ﷺ من ورقة بن نوفل أصول وشريعة الإسلام . ولنعرض أولا لآراء بعض الدارسين في هذا الشأن ثم نتبعها بالمناقشة.

يقول (مونجمري وات)[47]:"... ومن الأسهل أن نفترض أن محمدا ﷺ كان على صلة متتابعة بورقة بن نوفل منذ فترة مبكرة سابقة على الوحي. والأفكار الإسلامية اللاحقة التي قد تكون اختلطت إلى حد كبير بأفكار ورقة ، كعلاقة الوحي الذي نزل على محمد ﷺ بالوحي الذي نزل على موسى وعيسى ". وثمة زعم آخر طرح القضية على أنها حقيقة مسلمة، فذهب إلى أن كلا من القس ممثلا في ورقة بن نوفل ، والنبي محمد ﷺ قد لعب دورا في صياغة هذا الدين (الإسلام) "...الأول أوحى وعلّم ودرّب وأرسى الدعائم . والثاني سمع وتعلم وشيد البنيان ، وفضل الأول على الثاني كفضل المربي على ربيبه . القس أستاذ علم فتى ذكي الفؤاد عرف اختياره ونجح ، والنبي تلميذ نجيب حفظ ما تعلم وأبدع . الأول نقل الكلمة الأعجمية إلى لسان عربي مبين ، والثاني بلغ كلمة الله العربية وتلاها على المؤمنين. كلاهما عمل لأجل الله ، ولأجل أن يكون للأميين رسول وكتاب . فكان للعرب إله يعبدون ورسول يتبعون وكتاب فيه يقرؤون "[48].

وقبل مناقشة هذه الآراء ينبغي الإشارة إلى أن السابقين من فقهاء الإسلام لم يجدوا حرجا في مناقشة مسألة إمكانية تعبد النبي ﷺ قبل البعثة بشرائع من سبقه من الأنبياء ، حيث أبدوا بشأنها آراء عديدة[49]، وإن استقر رأي الجمهور على أنه لا يجوز أن يجري على النبي

---

47 محمد في مكة، ترجمة، عبد الرحمن الشيخ (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٢)، ص١٢١.

48 أبو موسى الحريري، قس ونبي http://www.servant13.net/qis/index.htm

49 نقل ابن حجر أقوالهم في هذه المسألة الأصولية ، فذكر بعضهم انطلاقا من قوله تعالى : " أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده " فقيل أنه آدم وحكاه ابن برهان ، وقيل نوح وحكاه الأمدي ، وقيل إبراهيم وذهب إليه جماعة واستدلوا على ذلك بقوله تعالى (أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا) ، وقيل موسى ، وقيل عيسى ، وقيل كل شيء بلغه عن شرع نبي من الأنبياء وحجته (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده). غير أن ابن حجر رجح القول الثالث لما نقل عنه ﷺ ملازمته للحج والطواف ونحو ذلك مما بقي عندهم من شريعة إبراهيم . انظر : فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق: ابن باز (الرياض: مكتبة الرياض الحديثة ، ب.ت) ج٨ ص ٧١٧ انظر كذلك ص ٢٩٥.

ﷺ مثل هذا الأمر، وافترضوا لو أن أمرا كهذا قد حدث لكشف عن طريق النقل، حيث لم يثبت ذلك بنص صريح معتمد(٥٠) .

أما عن الزعم بكون النبي ﷺ استقى أصول الإسلام من مصادر نصرانية فلم يكن وليد وقتنا الحاضر ، حيث إنها مقولة قديمة قدم هذه الرسالة ، فقد اتهمت قريش النبي ﷺ بأنه تلقى دينه عن بعض النصارى الموجودين بمكة ، وقد أكد القرآن نفسه ذلك في مقام تفنيده لهذا الزعم ، فيقول تعالى : (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين)(٥١). وحديثا طالعنا من يجدد القول بهذا الزعم أو أقرب ، حيث يرى البعض من المستشرقين أن شرعة النبي ﷺ ، ليست إلا مزيجا منتخبا من أدبيات ومعارف دينية استقاها بمحض اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها(٥٢) ، ثم قام بتطويعها لتلبي حاجات شعبه(٥٣) .

غير أن الذي جاء به (مونجمري وات) وأبو موسى الحريري خلافا للسابقين في هذا الصدد ، أنهما لم يعيدا طرح نفس الاستدلال الذي بنى عليه أهل مكة فريتهم التي دحضها القرآن في الآية السابقة ، ولكنهما أعادا طرح ذات الفكرة من خلال دليل جديد وهو اللسان العربي ، فإذا كان القرآن قد رد فرية قريش بأن من جلس إليهم النبي ﷺ في مكة لم يكونوا من أصحاب اللسان العربي بل من أصحاب اللسان الأعجمي ، فإن هذا الاحتجاج لم يعد مقبولا في نفي تلقي الرسول ﷺ أصول دينه عن أهل الكتاب ، حيث إن المصدر الذي تلقى عنه هذه المرة - حسب زعمهما - عربي وليس أعجميا ، والمتجسد تحديدا في ورقة بن نوفل الذي " نقل

---

50 نفس المصدر ج٨ ص ٧١٧

51 النحل / آية ١٠٣

52 انظر جولد تسيهر : العقيدة والشريعة في الإسلام ، ترجمة: محمد يوسف وآخرين (ط٣؛ القاهرة : دار الكتب الحديثة ، د.ت)، ص١٢.

53 كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه فارس ومنير البعلبكي (ط٧؛ بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٧٧)، ص٦٨. هناك اتجاه آخر تبناه بلاشير حيث نزع فيه إلى القول بأن أصول الإسلام مستمدة من الأحناف الذين كانوا يقطنون مكة. ولكن من يتأمل أحوال الحنيفية بمكة وغيرها سيلحظ أن رؤيتهم كانت مضطربة وغير واضحة بشأن دين إبراهيم ، يؤكد ذلك دأبهم في الهجرة إلى البلدان بغرض التماس بعضا من شريعة هذا الدين الذي اندرست معالمه. R.Bachere, *Le probleme de Mahomot* (Paris, 1952), p. 36. ، راجع كذلك ص ٤- ٥.

كلمة الله الأعجمية إلى لسان عربي مبين "، ثم جاء دور تلميذه محمد ﷺ فـ" بلّغ كلمة الله العربية وتلاها على المؤمنين " .

إذن فلو سلمنا جدلا بصحة هذا الزعم ، فلم يعد من حائل يحول دون اتصال النبي محمد ﷺ بالمسيحية وشريعتها، إذ تهيأ له ﷺ هذا الأمر من خلال ورقة بن نوفل العربي وليس من قبل أصحاب اللسان الأعجمي .

والتساؤل المطروح الآن: ما مدى مصداقية هذا الزعم ؟

بعد استقصاء ما ورد في المظان والمصادر من مادة تاريخية تخص هذا الشأن ، لم يُعثر على إشارة واحدة تدل على أن ثمة اتصالا معرفيا من هذا النوع نشأ بين ورقة بن نوفل والنبي ﷺ قبل الإسلام ، ففي ضوء ما أتاحته هذه المصادر من نصوص يتسنى القول بأن ورقة لم يظهر بشكل جلي في حياة النبي ﷺ إلا مع بدايات نزول الوحي عليه حسبما بيَّنت رواية السيدة عائشة (رضي الله عنها) ، وعلى هذا فالقول بوجود علاقة روحية أو معرفية مثّل فيها ورقة دور الأستاذ والنبي ﷺ دور التلميذ ، لا يستند إلى أصل تاريخي صحيح أو حتى ضعيف ، فكما تبين من قبل لم يثبت أن ورقة قام بأي محاولات للتبشير بالنصرانية في مكة. وعلى افتراض وجود علاقة بينهما على هذه الكيفية، أفلا يكون منطقيا أن تتنبه قريش لهذه العلاقة، بل لا تتوانى في أن تجعل ورقة على رأس النصارى الذين اتُّهم بهم النبي ﷺ في كونه أخذ عنهم شريعة الإسلام حسب إشارة النص القرآني[٥٤]، حيث إن احتجاجهم بورقة سيكون أقوى من احتجاجهم بغيره من النصارى ذوي اللسان الأعجمي ، الأمر الذي يعني أن العلاقة بين ورقة والنبي ﷺ لم يكن لها وجود على هذه الكيفية المتخيلة ، ومن ثم فالزعم بوجودها لا يستند إلى برهان .

نتحول بعد ذلك إلى مناقشة القضية الثانية والمتعلقة بالتحديد التاريخي لوفاة ورقة بن نوفل ، وقد آثرنا مناقشتها قبل التعرض لقضية إسلامه وصحبته لاعتماد الثانية على نتائج

---

[54] ذكر القرطبي أسماء النصارى الذين كان يجلس إليهم النبيﷺ ليدعوهم للإسلام ، وادعت قريش بأن النبي ﷺ أخذ دينه عنهم ؛ فقيل أن اسمه يعيش عبد بني الحضرمي ، وقيل أبو ميسرة ، وقيل أوعابس غلام حويطب بن عبد العزى . ثم قال القرطبي :" والكل محتمل فإن النبي ربما جلس إليهم في روايات مختلفة ليعلمهم ما علمه الله". ويقول النحاس :" وهذه الأقوال ليست بمتناقضة ؛ لأنه يجوز أن يكونوا أومنوا إلى هؤلاء جميعا ، وزعموا أنهم يعلمّونه " . أنظر الجامع لأحكام القرآن (ط٢ ؛ دار الشعب ، ١٣٧٢)، ج١٠، ص١٧٧- ١٧٨.

الأولى. والحقيقة أن بعض المؤرخين خاضوا في هذه المسألة واختلفوا بشأنها ، وسبب الخلاف فيما يبدو ما وقع في السيرة النبوية لابن إسحاق(٥٥) عن عروة بن الزبير أن ورقة كان يمر ببلال والمشركون يعذبونه وهو يقول: أحد أحد فيقول : أحد والله يا بلال ، لئن قتلوك لاتخذت قبرك حنانا " .'

فقد انتقد ابن القيم هذه الرواية استنادا لقول عائشة (رضي الله عنها) في رواية البخاري " ثم لم ينشب ورقة أن توفي " أي توفي إبان فتور الوحي على النبي ﷺ ، كما استند كذلك إلى قول ورقة " **وإن أدركني يومك حيا لأنصرنك نصرا مؤزرا** " حيث رأى أنه لو كان حيا عند ابتداء الدعوة لكان أول من استجاب وقام بنصر النبي ﷺ كقيام عمر وحمزة(٥٦).

كما انتقد كذلك الذهبي(٥٧) رواية ابن إسحاق عن عروة وذكر أنها منكرة وعلق عليها بقوله :"...وهذا مرسل ، وورقة لو أدرك هذا لعُد من الصحابة ، وإنما مات الرجل في فترة الوحي بعد النبوة ، وقبل الرسالة كما في الصحيح..." وقال الذهبي(٥٨) في موضع آخر :" هذا ولم يعش ورقة إلى ذلك الوقت ". ويقول ابن كثير(٥٩) في هذه المسألة :" قلت: قد استشكل بعضهم هذا من جهة أن ورقة توفي بعد البعثة في فترة الوحي، وإسلام من أسلم إنما كان بعد نزول يا أيها المدثر، فكيف يمر ورقة ببلال وهو يعذب، وفيه نظر؟ "

غير أن ابن حجر(٦٠) لم يتماش مع هذا الاتجاه ، واختار اتجاها آخر عول فيه على التأويل والجمع بين رواية ابن إسحاق ورواية البخاري فذهب إلى أن "**ورقة إنما أراد بقوله: وإن أدركني يومك حيا أنصرنك اليوم الذي يخرجونك فيه، لأنه قال ذلك عنه عند قوله " أو مخرجي هم؟** " وتعذيب بلال كان بعد انتشار الدعوة، وبين ذلك وبين إخراج المسلمين من مكة إلى الحبشة ثم للمدينة مدة متطاولة " . وقد أكد هذا الرأي في (الإصابة) بقوله: " والجمع بين

---

55 سيرة ابن هشام، ج٢ ، ص١٥٩.

56 فتح الباري، ج٨ ، ص٧٢١ .

57 سير أعلام النبلاء، ج١، ص١٢٩.

58 نفس المصدر، ج١، ص٣٥٢.

59 البداية والنهاية، (بيروت مكتبة المعارف ، د.ت.)، ج٣، ص ٨٥.

60 الإصابة، ج٣، ص ٦٣٣- ٦٣٥ .

هذا – أي رواية ابن إسحاق – وبين حديث عائشة (رضي الله عنها) أن يحمل قولــه:" ولــم ينشب أن توفيْ ورقة قبل أن يشتهر الإسلام ويؤمر النبي ﷺ بالجهاد "(٦١) .

لكن ابن حجر(٦٢) يعود وينقل ما يفت في مصداقية هذا الجمع فيقول :" ولكن يعكر ذلك ما أخرجه محمد بن عائذ في المغازي من طريق عثمان بن عطاء الخرساني عن أبيــه عــن عكرمة عن ابن عباس في قصة ابتداء الوحي ، وفيها قصة خديجة (رضي الله عنها) مع ورقة بنحو حديث عائشة (رضي الله عنها) وفي آخرها " لئن كان هو ثم أظهر دعاءه وأنا حيّ لأبلين الله من نفسي في طاعة رسوله وحسن مؤازرته ، فمات ورقة على نصرانيته كذا قال ، لكــن عثمان ضعيف ". إذن فابن حجر عاد ليؤكد أن فكرة الجمع لم تحسم إثبات هذه المسألة بــشكل نهائي .

ولكن ما نطمئن إليه بشأن ما طرح من مقولات ، هو صحة الرأي الأول الــذي تبنــاه بعض المؤرخين ؛ وهو أن ورقة لم يكن حيا عند ابتداء الدعوة ، لأن رواية البخاري تنطــوي على عبارة حاسمة لهذا النزاع لصالح أصحاب هذا الرأي وهي " **ثم لم ينشب ورقة أن تــوفي وفتر الوحي**"، فالشاهد من هذه العبارة أن الفترة التي توفي فيها ورقة كانت متزامنة مع فتــور الوحي وليست بعد البعثة ، وهذا دليل أقوى من استدلال ابن حجر القائم على محاولة الجمــع والتوفيق بين رواية البخاري ورواية ابن إسحاق المرسلة من خلال عبارة ليست قاطعــة فــي الدلالة بل خاضعة للتأويل .

أضف إلى ذلك أن عملية الجمع التي أجراها ابن حجر مخالفة لما اشترطه هو نفــسه حال إجراء الجمع بين الروايات المتعارضة ، حيث اشترط لحصوله أن تتحقق المماثلــة فــي القوة بين الحديثين المتعارضين(٦٣) ، وهذا الشرط غير متوافر في الروايات المتعارضة بــشأن مسألة التحديد الزمني لوفاة ورقة ، لكون رواية البخاري متصلة وصحيحة سندا ومتنا ، ورواية ابن إسحاق مرسلة ومن ثم فالأخيرة ليست مماثلة للأولى في القوة بل أدنى منها .

يضاف إلى ذلك أيضا أنه وردت في بعض الروايات الصحيحة زيادة ذكرت أنه فــي فترة فتور الوحي ضاقت نفس النبي ﷺ حتى همّ أن يلقي بنفسه من فوق قمم الجبال لشدة وجده

---

[61] ابن حجر : الإصابة، ج٣، ص ٦٣٤.

[62] نفســه، ج٣ ، ص ٦٣٤.

[63] انظر ابن حجر : نزهة النظر، (مكة : المكتبة العلمية ، د.ت.)، ص ٣٧.

وحزنه[٦٤]، ولعل منطق الأحداث يقول : كان مفترضا والنبي ﷺ وهو على هذه الحال أن يلجأ مرة أخرى إلى ورقة الذي بشره بأمر النبوة ليفسر له علة هذا الفتور أو على الأقل يسرّى عنه ويهديء من روعه ، فهو الأقدر من غيره على أداء هذه المهمة ، غير أنه لا يوجد ذكر لورقة في نص صحيح بعد اللقاء الذي جمع بينه وبين خديجة (رضي الله عنها) والنبي ﷺ ، بل الثابت أنه فارق الحياة في هذه الفترة كما أشارت رواية عائشة في نص البخاري .

وإذا ما افتُرض جدلا أن ورقة ظل حيًا إلى أن شاهد تعذيب بلال - والذي حدد ابن الجوزي[٦٥] توقيت حدوثه في العام الرابع من النبوة - لما التبس أمر إسلامه على الصحابة ومنهم السيدة خديجة (رضي الله عنها) نفسها وهي من أكثر الناس معرفة بحاله ، فقد أخرج الترمذي[٦٦] من حديث أم المؤمنين خديجة (رضي الله عنها) قالت للنبي ﷺ لمَّا سُئل عن ورقة: " إن ورقة صدقك ، ولكنه مات قبل أن تظهر ، فقال رأيته في المنام وعليه ثياب بيض، ولو كان من أهل النار لكان لباسه غير ذلك " .

---

[64] صحيح البخاري، ج٦، ص٢٥٦١، صحيح ابن حبان، ج١ ، ص ٢١٨- ٢١٩ . وفي شأن هذه الجزئية من الرواية عول أكرم العمري على رأي ابن حجر في أنها من بلاغات الزهري غير الموصولة وعلى هذا ذهب إلى القول بضعف سندها . بل ذهب إلى تضعيف متنها استنادا لكونه يتعارض مع عصمة النبي ﷺ . والواقع أنه بالرغم من أن ابن حجر اعتمد هذا الرأي فإنه نقل رأيا آخر له وجاهته في هذه المسألة وهو رأي الكرماني، حيث ذهب إلى احتمال بلاغ الزهري على أن الرواية بلغته بالإسناد المذكور..عن عروة عن عائشة (رضي الله عنها) ، كما ذكر أن الرواية وردت عند ابن مردويه في التفسير مسقطة من قول الزهري " فيما بلغنا ". والظاهر أن البخاري جمع الإسنادين في مقام واحد ثم دمج متن كل منهما في سياق واحد ، فصار كله مدرجا على رواية الزهري عن عروة عن عائشة (رضي الله عنها) ، مما يعني أنه كان مطمئنا لصحة هذا المتن ، ولو كان الأمر خلاف ذلك لكان الأجدى به استبعاد هذه الزيادة عن السياق وجعلها في سياق منفصل . أما عن التذرع بتناقض مضمون هذه الزيادة مع ما كان عليه النبي ﷺ من عصمة ، فنقول فيه نظر ، لأن مفهوم العصمة لا يعني تنزيه الأنبياء عن الوقوع في الأخطاء بالكلية خاصة قبل بعثهم بالرسالات ، بل ربما يصيب النبي بعضها بعد بعثته ولكن الله لا يتركه مقيما على هذا الخطأ بل يرشده إلى الصواب وهنا تكمن العصمة، والأمثلة على ذلك عديدة وظاهرة في سيرة النبي ﷺ، بل إن ابن حجر وكذا الإسماعيلي قدما تأويلا جيدا بصدد ما ورد عن محاولة تهاوي الرسول ﷺ بنفسه من قمم الجبال لما فتر عنه الوحي، ولم يرفضا الرواية بالكلية بحجة تناقضها مع عصمة النبي ﷺ . انظر فتح الباري ج١٢ ص ٣٥٩- ٣٦١ ، أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، (ط٤، الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٦- ١٩٩٥)، ج١، ص١٢٦- ١٢٧.

[65] المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق : محمد ومصطفى عبد القادر عطا (ط١، بيروت دار الكتب العلمية، ١٤١٢- ١٩٩٢)، ج٢، ص ٣٧٢.

[66] راجع سنن الترمذي، تحقيق : أحمد شاكر وآخرون (بيروت: دار إحياء التراث العربي ، ب.ت)، ج٤، ص ٥٤٠.

إذن فخلاصة القول ، أن ورقة بن نوفل توفي إثر فترة فتور الوحي عن النبي ﷺ ، وليس بعد بعثته ﷺ كما ذهب البعض .

ننتقل بعد ذلك إلى المحور الثالث والمتعلق بقضية إسلام ورقه وحقيقة صحبته، وفي هذا الشأن يبرز خلاف بين المؤرخين ؛ فقد أنكر الذهبي(٦٧) صحبته استنادا إلى أنه مات " في فترة الوحي بعد النبوة وقبل الرسالة ". كما رفض ابن كثير(٦٨) إسلامه بحجة " أن ورقة توفي بعد البعثة في فترة الوحي ، وإسلام من أسلم إنما كان بعد نزول يا أيها المدثر ". بينما نقل ابن حجر(٦٩) عن محمد بن عائذ القرشي أن ورقة مات على نصرانيته .

وفي المقابل عده ابن قانع في عداد الصحابة(٧٠)، وكذا الطبري، والبغوي وغيرهم(٧١). وذكر ابن حجر(٧٢) أن مستندهم في ذلك ما ورد عن روح بن مسافر – أحد الضعفاء – عن الأعمش عن عبد الله بن عبد الله عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن ورقة بن نوفل قال : قلت : يا محمد كيف يأتيك الذي يأتيك . قال يأتيني من السماء جناحاه لؤلؤ وباطن قدميه أخضر، قال ابن عساكر : لم يسمع ابن عباس من ورقة ، ولا أعرف أحدا قال إنه أسلم . وهذا ظاهر في أنه أقر بنبوته ولكنه مات قبل أن يدعو رسول الله ﷺ الناس إلى الإسلام ، فيكون مثل بحيرا ، وفي إثبات الصحبة له نظر. ولكن ابن حجر حاول إثبات صحبته بتواجده بعد أن نهض الرسول ﷺ بالدعوة وتبليغ الرسالة ، وذلك استنادا إلى رواية ابن إسحاق المرسلة عن عروة بشأن شهوده لتعذيب بلال بمكة ، غير أن هذا الاستدلال نُوقش في مقام سابق وتبين ضعفه من وجوه عدة (٧٣) .

والواقع إذا ما فُحصت الآراء التي عارضت اعتماد ورقة في عداد الصحابة ، سيُلحظ أن وجه اعتراضها كان منطلقا من كون ورقة توفي قبل أن يُؤمر النبي ﷺ بتبليغ الرسالة وذلك

---

67 سير أعلام النبلاء، ج١ ، ص١٢٩.

68 انظر تفصيل رأي الذهبي وابن كثير، ص ١٧– ١٨.

69 انظر، ص ١٨.

70 انظر، معجم الصحابة ، تحقيق: صلاح سالم المصراتي (ط١ ؛ المدينة المنورة : مكتبة الغرباء الأثرية ، ١٤١٨)، ج٣، ص ١٨١.

71 الإصابة، ج٣ ، ص ٦٣٣.

72 نفس المصدر، ج٣، ٦٣٣– ٦٣٤.

73 انظر تفصيل هذه المسألة، ص ٢٦– ٣٠.

بنزول قوله تعالى (يا أيها المدثر، قم فأنذر)(٧٤)، ولهذا فإسلام الصحابة جاء بعد نزول هـذه الآية، وعلى هذا الأساس استبعدت هذه الآراء ورقة من طبقة الصحابة. ولهذا حاول ابن حجر أن يثبت وجود ورقة معاصرا لفترة تبليغ الرسالة ليجعله بذلك في عداد الـصحابة وليـصحح القول بأنه مات على الإسلام .

ولكن لو تأملنا هذه القرينة التي على أساسها استبعد بعض المؤرخين ورقة مـن عـداد الصحابة ، سنجدها ليست معيارا موضوعيا لإثبات أمر الصحبة من عدمه ، لأنه إذا ما جئنـا لتطبيق شرط ابن حجر نفسه في إثبات أمر الصحبة(٧٥)، سنجده محققا في ورقة لكونـه آمـن بنبوة النبي ﷺ ومات مؤمنا برسالته وإن لم يدركها زمانا . وليس أدل على إيمانه بالرسالة من رواية السيدة عائشة (رضي الله عنها) بشأن نزول الوحي ، والشاهد منها على ذلك قول السيدة خديجة(رضي الله عنها) :"... فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزل على موسى يا ليتني فيها جذع ، يا ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك ، فقال رسـول الله ﷺ : مخرجي هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا ..."

وإذا ما أعمل النظر في النص سيُلحظ أن إسلام ورقة كان قائما على الإيمـان بـأمر النبوة والرسالة معا ، ويدلل على ذلك استشهاده بنموذج موسى بن عمران عليه الـسلام فـي سياق الحوار لما بدا له من التقارب بين حال موسى عليه السلام وبين حال النبي محمد ﷺ في أمرين ، الأول : نزول الناموس أو الوحي على النبي ﷺ مثلما نزل من قبله على موسى وكـل أصحاب الرسالات. أما الأمر الثاني فمبني على الأول ؛ ويتمثل في تبعات النهـوض بتبليـغ الرسالة ، فإذا كان الناموس أمرا مشتركا بين موسى ومحمد عليهما السلام ، فحـال النبـي ﷺ سيكون إذن كحال موسى من حيث كونه نبيا مرسلا(٧٦) ، وعلى هذا فقياسا من ورقة بما جرى

---

74 المدثر / آيات ١- ٢.

75 يقول ابن حجر :" وأصح ما وقفت عليه من ذلك أن الصحابي من لقي النبي ﷺ مؤمنا به ومات على الإسلام، فيدخل فيمن لقيه من طالت مجالسته له أو قصرت ، ومن روى عنه أو لم يرو، ومن غزا معه أو لم يغز، ومـن رآه رؤية ولو لم يجالسه ، ومن لم يره لعرض كالعمى..." الإصابة، ج١، ص٢.

76 ثمة فارق جوهري بين النبوة والرسالة ، فالرسول في اللغة من بعث برسالة ، يقال أرسله بكذا إذا طلب إليـه تبليغه ، وفي لسان الشرع إنسان ذكر حر أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه ، أما من أوحي إليه ولم يؤمر بـالتبليغ فهو نبي وليس برسول . وعلى هذا فكل رسول نبي ، وليس كل نبي رسولا. انظر : محمد خليل هراس: شـرح

لموسى وبني إسرائيل في مصر من اضطهاد وشتات له ولقومه ، فقد جاءت نبوءته للنبـــي ﷺ بكونه سيلقى هو أتباعه نفس المصير من قومه بمكة ، ولهذا تمنى لو كان حيا لينصر النبي ﷺ في هذا اليوم، وهذا دليل صريح وظاهر على إيمانه برسالته وإن لم يشهد زمانها .

وقد يقول قائل لماذا ترك ورقة الاستشهاد بعيسي عليه السلام على اعتبار أنه جـــاء متأخرا عن موسى ، فضلا عن كونه مسيحيا ؟ ، يجيب ابن كثير[٧٧] عن ذلك بقولـــه :" ولـــم يذكر عيسى وإن كان متأخرا بعد موسى ، لأنه كانت شريعته متممة ومكملة لـشريعة موســـى عليهما السلام . ونسخت بعضها في الصحيح من قول العلماء كما قال تعالى : (ولأحـــل لكـــم بعض الذي حرم عليكم)".

إذن فحديث عائشة (رضي الله عنها) كما قال ابن مندة :" ظاهر في إســـلامه وإتباعـــه وتصديقه "[٧٨] . بل ذهب الحافظ العراقي إلى أنه " ينبغي أن يقال أن أول من آمن من الرجال ورقة ابن نوفل . لحديث الصحيحين في بدء الوحي "[٧٩] .

وثمة شواهد أخرى تدعم ما ذهبت إليه رواية عائشة (رضي الله عنها) من أن ورقـــة كان مؤمنا برسالة النبي ﷺ منها : ما رواه ابن سعد مرسلا من طريق عروة من أن ورقة قال لخديجة (رضي الله عنها) حين أخبرته بما جرى للنبي ﷺ في الغار :" إن يـــك صـــادقا فهـــذا ناموس مثل ناموس موسى فإن يبعث وأنا حي فسأعززه وأنصره وأومن به "[٨٠] . ومنها أيضا ما قاله ابن حجر[٨١] من أنه :" وقع في مرسل أبي ميسرة أن ورقة قال للنبي ﷺ : أبشر فأنـــا أشهد أنك الذي بشر به ابن مريم ، وأنك على مثل ناموس موسى ، وأنك نبي مرسل ، وأنـــك ستأمر بالجهاد ". أضف إلى ذلك ما ورد من أحاديث في فضائل ورقة وتبشير الرسول ﷺ لـــه بالجنة ؛ منها حديث عائشة (رضي الله عنها) أن النبي ﷺ قال : " لا تسبوا ورقة فإني رأيت له

العقيدة الوسطية لابن تيمية، مراجعة عبد الرازق عفيفي (ط٤؛ المدينة المنورة : مطبوعات الجامعة الإسلامية ، د.ت.) ص ٨- ٩، ١٧.

77 البداية والنهاية، ج٣، ص٨.

78 تهذيب الأسماء، ج٢، ص ٤٤١.

79 عبد الرحمن السيوطي: تدريب الراوي ، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف (الرياض: مكتبة الرياض الحديثة، د.ت.)، ج ٢، ص ٢٢٨.

80 محمد بن سعد: الطبقات الكبرى (بيروت: دار صادر، ب.ت) ج١ ص١٩٥.

81 فتح الباري، ج ٨، ص ٧٢٠.

جنة أو جنتين " رواه البزار متصلا ومسندا . وعنها أيضا أن خديجة (رضي الله عنها) عنها سألت النبي ﷺ عن ورقة فقال :" قد رأيته في المنام على ثياب بياض، فأحسب لو كان من أهل النار لم يكن عليه ثياب بياض "[٨٢] وعن أسماء بنت أبي بكر أن النبي ﷺ سئل عن ورقة ، فقال :" يبعث أمة وحده " [٨٣].

إذن يتسنى القول أن إيمان ورقة لم يقتصر على أمر النبوة ، بل تجاوز ذلك إلى الإيمان برسالته ، وإن لم يشهد هذا اليوم ، ومن ثم لقي ورقة النبي ﷺ مسلما ومات مؤمنا برسالته ، وعلى هذا فلا يصح رأي من ذهب إلى أن ورقة مات على نصرانيته ، ولا يستقيم قول من عارض عداده في الصحابة استنادا لكونه لم يشهد فترة تبليغ الرسالة .

وفي النهاية تسنى للدراسة أن تخرج بالنتائج الآتية :

أولا: الوقوف على الأبعاد الحقيقية للمادة المصدرية الخاصة بشخصية ورقة بن نوفل، حيث تتبين أنها تتسم بالندرة .

ثانيا : بيّنت الدراسة أن ورقة – بعد كفره بالوثنية – بدأ باحثا بين الأديان عن الحنيفية، ثم انتهى به الأمر إلى اعتناقه للنصرانية.

ثالثا : ترجح أن ورقة تعلّم السريانية ببلاد الشام ، ومن خلالها جاء تبحره في النصرانية وآدابها .

رابعا : ترجح أيضا من خلال القرائن أن ورقة اعتنق النصرانية على المذهب النسطوري، وليس على مذهب التثليث .

خامسا : رجحت الدراسة كذلك أن الإنجيل الذي كان بحوزة ورقة كان مكتوبا باللغة السريانية ، وأنه كان يترجم عنه إلى العربية وليست العبرية كما ورد في بعض الروايات .

سابعا : أوضحت الدراسة أن ورقة كان على دراية بالعبرية ، ومن خلالها تسنى له البحث في اليهودية وإن لم يعتنقها ديانة .

ثامنا : تم البرهان على أنه لم يكن هناك أية علاقة دينية بين ورقة والنبي ﷺ لعب فيها الأول دور الأستاذ ومثّل فيها الثاني دور التلميذ ، ومن ثم فما ادعاه بعض الدارسين من وجود

---

[82] مسند أحمد، ج٦، ص ٦٥.

[83] قال عنه الهيثمي : رجاله رجال الصحيح . انظر مجمع الزوائد، ج٩، ص ٤١٦؛ المعجم الكبير للطبراني ج٢٤، ص ٨٢.

هذه العلاقة وما استخلصوه من نتائج ذهبت إلى أن النبي ﷺ استقى أصول الإسلام من المسيحية هو ادعاء لا يستند إلى دليل .

تاسعا : برهنت الدراسة أيضا على أن وفاة ورقة وقعت إبان فتور الوحي عن النبي ﷺ، وأنه لم يشهد الفترة التي أمر فيها النبي ﷺ بتبليغ الدعوة حسبما زعمت بعض الآراء.

عاشرا : أثبتت الدراسة أن ورقة مات مؤمنا برسالة النبي ﷺ ، وأنه بحيثيات هذا الإيمان يندرج في طبقة الصحابة ، ومن ثم فهو بهذا الإيمان تابع للرسول ﷺ وليس العكس .

ثبت المصادر والمراجع

أولا المصادر العربية:

القرآن الكريم

كتاب العهد القديم

الأصبهاني (إسماعيل بن محمد بن الفضل)

دلائل النبوة ، تحقيق: محمد الحداد، ط١ (الرياض: دار طيبة ، ١٤٠٩) ج١، ص٨١.

البخاري (محمد بن إسماعيل البخاري)

صحيح البخاري ، تحقيق مصطفى ديب البغا، ط٣ (بيروت: دار ابن كثير ، ١٤٠٧/١٩٨٧)

البلاذري (أحمد بن يحي البلاذري)

أنساب الأشراف ، تحقيق : محمد حميد الله، ط٣ (القاهرة : دار المعارف ، د.ت)

البيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي)

السنن الكبرى (مكة المكرمة: مكتبة دار الباز، ١٤١٤/ ١٩٩٤)

الترمذي (محمد بن عيسى الترمذي)

سنن الترمذي ، تحقيق : أحمد شاكر وآخرون (. بيروت: دار إحياء التراث العربي ، ب.ت)

ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي)

المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق : محمد ومصطفى عبد القادر عطا، ط١ (بيروت دار الكتب العلمية ، ١٤١٢- ١٩٩٢)

الحاكم (أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم)

المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر (بيروت : دار الكتب العلمية، ١٤١١/ ١٩٩٠)

ابن حبان (أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد البستي)

صحيح ابن حبان ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط، ط٢ (بيروت مؤسسة الرسالة ، ١٤١٤/ ١٩٩٣)

ابن حجر (أحمد بن حجر العسقلاني)

-الإصابة في تمييز الصحابة (بيروت: دار إحياء التراث العربي ، ١٣٢٨)

-فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق: ابن باز (الرياض: مكتبة الرياض الحديثة ، د.ت)

-نزهة النظر شرح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر (مكة : المكتبة العلمية ، د.ت.)

الحلبي (علي بن برهان الدين الحلبي)

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون (بيروت : دار المعرفة ، ١٤٠٠)

ابن حنبل (أحمد بن حنبل الشيباني)

المسند (القاهرة: مؤسسة قرطبة، د.ت)

الدولابي (أبو بشر محمد بن أحمد الدولابي)

الذرية الطاهرة، تحقيق سعد المبارك حسن، ط١ (الكويت : الدار السلفية ، ١٤٠٧)

الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي)

-سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ، ومحمد نعيم العرقسوسي، ط٩ (بيروت : مؤسسة الرسالة، ١٤١٣)

-ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق على محمد البجاوي (بيروت: دار المعرفة ، د.ت)

ابن راهويه (إسحاق بن إبراهيم بن مخلد بن راهويه)

المسند ، تحقيق عبد الغفور البلوشي، ط١ (المدينة المنورة ، مكتبة الإيمان ، ١٤١٢/ ١٩٩١)

الزركشي (بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي)

الإصابة فيما استدركته السيدة عائشة (رضي الله عنها) على الصحابة ، تحقيق : سعيد الأفغاني، ط٣ (بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٤٠٠/١٩٨٠) .

ابن سعد (محمد بن سعد بن منيع الزهري)

الطبقات الكبرى (بيروت: دار صادر، د.ت.)

السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر)

تدريب الراوي ، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف (الرياض: مكتبة الرياض الحديثة ، د.ت)

الشيباني (أبو بكر أحمد بن عمرو الضحاك)

الآحاد والمثاني، تحقيق: جاسم الجوابرة، ط١ (الرياض : دار الراية ١٩٩١ - ١٤١١،)

ابن أبي شيبة (أبو بكر عبد الله بن محمد ابن أبي شيبة)

مصنف ابن أبي شيبة ، تحقيق : كمال يوسف الحوت، ط١ (الرياض: مكتبة الرشد ،١٤٠٩)

الطبراني (أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني)

المعجم الكبير ، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، ط٢ (الموصل : مكتبة العلوم والحكم ، ١٤٠٤/ ١٩٨٣)

الطبري (محمد بن جرير الطبري)

تاريخ الرسل والملوك، ط١ (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٧)

الطيالسي (أبو داود سليمان بن داود البصري الطيالسي)
المسند (بيروت: دار المعرفة، د.ت.)
أبو عوانة (يعقوب بن إسحاق الإسفراييني)
المسند، تحقيق: أيمن عارف الدمشقي، ط١ (بيروت : دار المعرفة ، ١٩٩٨)
ابن قانع (أبو الحسين عبد الباقي بن قانع)
معجم الصحابة ، تحقيق: صلاح سالم المصراتي، ط١ (ط١ ؛ المدينة المنورة : مكتبة الغرباء الأثرية، ١٤١٨)
القرطبي (محمد بن أبي بكر القرطبي)
الجامع لأحكام القرآن، ط٢ (دار الشعب ، ١٣٧٢)
ابن كثير (عماد الدين أبي الفدا إسماعيل بن عمر القرشي)
البداية والنهاية (بيروت مكتبة المعارف ، د.ت.)
تفسير القرآن العظيم، ط١ (القاهرة: دار الريان للتراث، ١٤٠٨/١٩٨٨)
اللألكائي (أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي)
اعتقاد أهل السنة ، تحقيق أحمد سعد حمدان (الرياض : دار طيبة ، ١٤٠٢)
مسلم (مسلم بن حجاج القشيري)
صحيح مسلم ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي (بيروت : دار إحياء التراث العربي ، د.ت.)
المقدسي (محمد بن عبد الواحد المقدسي)
الأحاديث المختارة ، تحقيق عبد الملك الدويش، ط١ (مكتبة المكرمة: مكتبة النهضة الحديثة، ١٤١٠)
ابن المقفع (ساويرس بن المقفع)
تاريخ البطاركة ، تحقيق : الأنبا صموئيل (القاهرة : مطبعة النعام ، د.ت.)
المناوي (عبد الرؤف المناوي)
فيض القدير، ط١ (مصر : المكتبة التجارية ، د.ت.) ج٦.
ابن مندة (محمد بن إسحاق بن يحيى)
الإيمان ، تحقيق: علي الفقيهي، ط٢ (بيروت مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٦)
أبو نعيم (أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني)
المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم ، تحقيق: محمد حسن الشافعي، ط١ (بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٦)
النووي (يحي بن شرف النووي)

صحيح مسلم بشرح النووي، ط٢ (بيروت: دار إحياء التراث العربي،١٣٩٢)

ابن هشام (عبد الملك بن هشام الحميري)

السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين (القاهرة : مطبعة مصطفى البابي الحلبي، د.ت.)

الهيثمي (على بن أبي بكر الهيثمي)

مجمع الزوائد (القاهرة – بيروت ، دار الريان للتراث – دار الكتاب العربي ، د.ت.)

اليعقوبي: (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر)

تاريخ اليعقوبي (بيروت : دار صادر ، د.ت.)

ثانيا: المراجع العربية والمعربة:

أحمد شلبي:

المسيحية، ط٣ (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٧)

إسرائيل ولفنسون:

تاريخ اليهودية في الجاهلية وصدر الإسلام، ط٢ (القاهرة : لجنة التأليف والترجمة ، ١٩٢٧)

أكرم ضياء العمري:

السيرة النبوية الصحيحة، ط١ (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٦/ ١٩٩٥)

الأنبا بيشوى:

السجالات الكريستولوجية فى القرنين الرابع والخامس
www.metroplit-bishoy.org/files/Christology/ar.doc

حسين مؤنس:

دراسات في السيرة النبوية، ط٢ (القاهرة : الزهراء للإعلام العربي ، ١٩٨٥)

الأب جان كمبي:

تاريخ الكنيسة ، ترجمة الأب أيوب زكي الفرنسسكاني وآخرين (بيروت : دار المشرق، د.ت)

دراسات في السيرة النبوية، ط٢ (القاهرة : الزهراء للإعلام العربي ، ١٩٨٥)

جواد علي:

المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (بغداد : منشورات الشريف الرضي ، د.ت)

جولد تسيهر :

العقيدة والشريعة في الإسلام ، ترجمة: محمد يوسف وآخرين، ط٣ (ط٣؛ القاهرة : دار الكتب الحديثة ، د.ت.)

ديلاسي أوليري :

علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب ، ترجمة وهيب كامل ، مراجعة زكي علي (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٢)

زكي شنودة :

تاريخ الأقباط (القاهرة : جمعية التوفيق القبطي، ١٩٦٢)

زياد منى :

الإبيونيون وورقة بن نوفل (بيروت : دار قدمس للتوزيع والنشر ، ٢٠٠١)

عزت أندراوس:

النصرانية في الجزيرة العربية

http://www.coptichistory.org/new_page_341.htm

محمد والعقيدة الإبيونية

http://www.coptichistory.org/new_page_347.htm

كارل بروكلمان :

تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكي. ط٧ (بيروت : دار العلم للملايين، ١٩٧٧)

لخضر الشايب :

نبوة محمد في الفكر الاستشراقي المعاصر، ط١ (الرياض : مكتبة العبيكان ، ١٤٢٢/ ٢٠٠٢)

أبو موسى الحريري :

قس ونبي

http://www.servant13.net/qis/warqa1.htm

محمد خليل هراس:

شرح العقيدة الوسطية لابن تيمية ، مراجعة عبد الرازق عفيفي، ط٤ (المدينة المنورة : مطبوعات الجامعة الإسلامية ، د.ت.)

محمد أبو زهرة :

محاضرات في النصرانية، ط٣ (القاهرة : دار الفكر العربي ، د.ت.)

مونجمري وات:

محمد في مكة، ترجمة : عبد الرحمن الشيخ (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٢)

ول ديورانت:

قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١)

ثالثا: المراجع الأجنبية:

H. Lammens *Étude sur règne du calife Omayade Moawia Ier*. *Mélanges de la faculté de Beyrouth.*
R. Bachere: *Le probleme de Mahomot* (Paris, 1952)

ب. عروض الكتب

ديمتري غوتاس، الفكر اليوناني والثقافة العربية -حركة الترجمة اليونانية العربية في بغداد والمجتمع العباسي المبكر، ترجمة وتقديم. نقولا زياده، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٣. ٣٦٤ص..................عرض سامر سيد قنديل

مؤلف هذا الكتاب هو ديمتري غوتاس الذي يعكس الكتاب أنه أمتلك القدرة على سبر أغوار حركة الترجمة العربيةــ اليونانية؛ وعلى إتقانه لعدد وافر من اللغات. هذا إلى جنب الإلمام بالأدبيات المتعلقة بموضوع بحثه، والأهم من ذلك الأدوات المنهجية التي عالج بها الإشكاليات التي واجهها.

أما عن الكتاب الذي نعرض له يقفز فيه المؤلف فوق القوالب الثابتة، ويعرض الكثير من البديهيات التاريخية التي ألفناها عن حركة الترجمة إلى العربية في العصر العباسي الأول إلى التحليل والنقد بل والهدم. فقد استخدم غوتاس مناهج متعددة من اجل إثبات وجهة نظره في دوافع حركة الترجمة وبواعثها، رابطا بينها وبين حركة المجتمع العباسي الاجتماعية والاقتصادية حتى خلص في النهاية إلى؛ أن هذه الحركة النشطة لم تكن بدافع سياسيا فقط، ولا بإرادة من الخليفة المأمون، الذي بدأت في عصره هذه الحركة تشهد انطلاقها؛ بل هي حركة أصعب من أن نعزوها إلى دافع واحد نظرا لتعقدها وتشابك خيوطها من حيث خلفياتها الأيديولوجية، وكذا من جهة تعدد الفئات التي دعمتها وأيدتها على مدى قرنين من الزمان.

قسم المؤلف دراسته إلى قسمين القسم الأول: يحتوي على أربعة فصول والقسم الثاني يحتوي على ثلاثة فصول ومقدمة وخاتمة. ففي المقدمة التي عنونها بـــ "حركة الترجمة اليونانية-العربية من حيث أنها ظاهرة اجتماعية وتاريخية"، يعرض فيها غوتاس إلي الأسباب التي دعته إلى إعادة النظر في الدراسات السابقة التي تناولت حركة الترجمة، ووضع يديه على نقاط الضعف فيها والتي تعطي المشروعية لبحثه، منطلقا من إيمان ثابت بأن هذه الحركة، التي تمثل إنجازا مذهلا، لا يمكن تفسيرها إلا على إنها ظاهرة اجتماعية امتدت على مدي ينوف عن القرنين، ولم تكن مشروعا خاصة بفئة معينة؛ بل ساندها خلال تلك الفترة نخبة المجتمع العباسي بكامله: الخلفاء والأمراء وموظفو الدولة والزعماء العسكريون والتجار والعلماء وأصحاب المصارف. هذا كله تم على أسس منهجية صارمة وضبط فيلولوجي دقيق. وعلى هذا الأساس يقرر غوتاس أن هذه الحركة انطلقت بسبب من حاجات في المجتمع العباسي الحديث على ما تنعكس في بنيته الإيديولوجية، ولا يمكننا الاستناد على النظريتين اللتين سادتا في تفسير نشأة حركة الترجمة، الأولى تدعي أن حركة الترجمة كانت نتيجة حماسة علمية لدى نفر من المسيحيين السريان الذين كانوا يجيدون اليونانية والعربية وقرروا أن يقوموا بترجمة كتب مختارة بدافع من العرب لتحسين المجتمع، أو لتعزيز موقع دينهم. أما النظرية الثانية: فتعزو حركة الترجمة إلى حكمة قلة من الحكام المتنورين وحرية تفكيرهم؛ تلك النظرية التي استخدمت لتفسير إيديولوجية نشأة النهضة الأوروبية أواخر العصور الوسطي.

في الفصل الأول الذي عنوانه " خلفية حركة الترجمة " عنى فيه المؤلف بإبراز الأهمية التاريخية والاقتصادية للفتوحات العربية، وما أفرزته من توحيد منطقة واسعة تمتد من أواسط آسيا إلى جبال البرانس، فيسرت التواصل والاتصال تجاريا وثقافيا "وبذلك مهدت للنباتات أن يتسع مداها وللأفكار أن يتحرر تنقلها"، هذا إلى جانب أن الازدهار الاقتصادي، الذي نتج عن هذه الفتوحات، أحدث وفره في رأس المال أمد حركة الترجمة بتمويل لا ينقطع ضخه، كما كان لحركة الفتوحات أهمية عملية في إدخال صناعة الورق إلى العالم الإسلامي الذي كان عاملا كبيرا في نشر المعرفة وتيسيرها. ولعل من ابرز نتائج الفتوحات – كما يرى غوتاس – أنها أزالت الحواجز ووحدت مناطق وشعوبا كانت قد وقعت تحت تأثير الهلينية لألف خلت من السنين منذ الإسكندر الأكبر، وأدت إلى عزل البيزنطيين سياسيا وجغرافيا، أي عزل المسيحيين الخلقيدونيين الناطقين باليونانية؛ هذا الأمر الذي كان له أهمية مزدوجة: أولا: لأن سياسات "الأرثوذكسية" القسطنطينية وممارساتها الإقصائية اللاهوتية كانت السبب في خلق الانشقاقات الكنسية التي أدت إلى شرذمة دينية للمسيحيين الناطقين بالسريانية، وكان للحكم الإسلامي الأثر الفعال في إزالة هذا المصدر للخلافات والتمزق الثقافي، ومن ثم توحيد الجميع بإمرة سيد محايد. والأهمية الثانية: هو أن عزل البيزنطيين أدى إلى حماية هذه الجماعات المسيحية من الانزلاق إلى العصور المظلمة والعداء لـــ "الهلينية" على نحو ما أصاب البيزنطيين في القرنين السابع والثامن الميلاديين. وفي هذا الفصل يناقش المؤلف أيضا؛ أن التوجه الثقافي للجماعات الناطقة باليونانية التي كانت تحيط بالأمويين هي المسيحية الأرثوذكسية اليونانية التي كانت القسطنطينية تحتضنها، والبيروقراطية البيزنطية الدمشقية لم يكن في وسعها إلا أن تحتذي النماذج الثقافية القائمة في القسطنطينية وتعكسها. وعند حلول القرن السابع الميلادي كانت هذه الثقافة البيزنطية قد أصبح موقفها من العلم اليوناني الوثني يمثل اللامبالاة الفاترة؛ إذ أنها خلفت ورائها دور المواجهة التي دمغت عصر آباء الكنيسة السابق، حيث كانت الهلينية العدو المهزوم الذي يجب أن ينظر إليه نظرة لامبالاة تتسم بالاحتقار. وفي هذا المناخ لم يتوقع أن تتم حركة ترجمة للكتب اليونانية العلمانية إلى العربية فلم يكن ينتظر من الأمويين أن يشجعوا مثل تلك الحركة؛ ولهذا فإن معظم الترجمات التي تمت في عصر الأمويين كانت في اغلبها تتعلق بمسائل إدارية وبيروقراطية وتجارية.

ويعرض المؤلف لعمليات الترجمة التي تمت في الفترة التي سبقت تولي العباسين مقاليد الحكم الإسلامي، والتي مهدت بدورها لحركة الترجمة العربية اليونانية؛ فقام السريان بعملية ترجمة من اليونانية إلى السريانية في القرن السادس الميلادي؛ خاصة أعمال سرجيوس الرشعيني (ت ٥٣٦م) الذي كان هو وبؤثيوس (ت٥٢٤ م) – في الغرب اللاتيني– ينويان القيام بمشروع ترجمة لكل أعمال أفلاطون وأرسطو؛ الأول إلى السريانية والثاني إلى اللاتينية مع تفسيرها، ولكن المشروعين لم يكتب لهما النجاح. في الوقت الذي كانت فيه الترجمات التي نقلت من اللغة السنسكرتية الهندية، وتمت عبر وساطة اللغة الفارسية (الفهلوية)، اغلبها في حقول الفلك والتنجيم والرياضيات والطب. ثم يأتي بعد ذلك دور الترجمات الفارسية التي كانت تعود بجذورها إلى

أيديولوجية زرواسترية ترى أن المعرفة جميعها تعود إلى الأفستا *Avesta*، كتاب الزرواسترية المقدس، والتي تقول الأسطورة الفارسية أن الإسكندر الأكبر كان قد أمر بترجمتها إلى اليونانية ثم قام بعد ذلك بحرق الأصول الفارسية لتلك الترجمات .

وفي الفصل الثاني يقدم لنا غوتاس عرضا سريعا للثورة العباسية والإيديولوجية السياسية التي قامت عليها الدولة. ويعود بنا إلى المؤسس الحقيقي للدولة العباسية أبو جعفر المنصور، الخليفة الذي أرسى دعائم الحكم العباسي بشقيه السياسي والثقافي؛ فقام برعاية حركة الترجمة مستندا إلى الإيديولوجية الساسانية، وقد لعب التنجيم دورا هاما فيها لأنه حقق وظيفتين حيويتين للعباسين الأولى: سياسية إذ أنها زودت سيادة الدولة العباسية على نحو ما رسخته النجوم، وبأمر من الله في النهاية، برسالة تتضمن إنذارا إلى جميع الخصوم المحتملين للحكم العباسي. والثانية: أيديولوجية إذ أنها أدخلت في روع القوم أن الدولة العباسية هي الوريث الشرعي الوحيد للإمبراطوريات القديمة في ارض الرافدين وإيران والساسانيين الأسلاف .

ومرة أخرى يلقى لنا غوتاس حجرا في الماء الراكد بشأن "بيت الحكمة" الذي أخضع المؤلف النصوص المصدرية الواردة بشأنه لتحليل عميق خلص منه؛ أن بيت الحكمة لا يعدو عن كونه مكتبة بلاط كانت إرثا ساسانيا ورثه العباسيون ومكانا مناسبا لحفظ الكتب النادرة، وإن كان قد أضيف إليه نشاطات متعلقة بالرياضيات والفلك في عصر المأمون، ولو كان قد ساهم بشيء في حركة الترجمة ففي الترجمة من الفارسية إلى العربية وليس من اليونانية؛ بيد أنه قد أتاح لحركة الترجمة بعامة الفرصة أن تكون مرغوب فيها ويسر لها أن تبلغ شأوها بنجاح. كذلك فقد استبعد غوتاس الآراء التي تقول بأنه كان أشبه بأكاديمية بحثية، أو ملتقى لاجتماع العلماء وإقامة المؤتمرات ؛ وان هذه الآراء قد أسقطت وضعا حاليا لم يكن في بيت الحكمة.

أما الفصل الثالث فيتطرق فيه المؤلف إلى عصر المهدي والبداية الحقيقة لحركة الترجمة، والتي تمت لتلبية احتياجات المجتمع العباسي الجديد، الذي ألقت به ثورته المناوئة للأمويين في أحضان خصوم خصومه من غير العرب الذين قامت على أكتافهم دولته. تلكم هم حلفاء الأمس الذين أصبحوا يمثلون تحديا أمام العنصر الإسلامي الذي رأى العباسيون إقامة دولتهم عليه، فكان على العباسيين أن يعملوا على أن يدخل الناس في دين اله أفواجا، كي يوطدوا مقولتهم، وهذه المحاولة من جانب العباسيين كان لها ما يربطها بحركة الترجمة في عصر المهدي الذي دخل في حوار ديني مع غير المسلمين استوجب معه أن يمتلك المحاور أسلحة المحاورة التي كانت بطبيعة الحال يونانية. وجاء ذلك متواكبا مع حركات "الردة والتزندق" التي ألقت بظلالها بشدة في هذا العصر، وحملت معها الأفكار المانوية وغيرها الموسومة بالصبغة الفارسية التي كانت تهدد كيان الدولة، ومن ثم أصبحت الحاجة ماسة إلى الأساس النظري في الجدل الذي يمكن المحاور من السير في سبيل المناظرات بقدمين ثابتتين لا تعرف الزلل؛ فكانت ترجمة "الجدل" لأرسطو (*Topics*) تلك الترجمة التي كانت بداية للمشروع برمته. ومن ناحية أخرى اقتضت الحاجة أيضا في خضم

الحوار المذهبي الداخلي مع بدايات ظهور علم الكلام، لاسيما أن المناقشات في هذا الإطار أخذت منحا كونيا، إلى ترجمة كتاب " الطبيعة " *Physics* لأرسطو.

أما عن الترجمة في عصر المأمون- وهو موضوع الفصل الرابع- فقد قدم لنا غوتاس رؤية أكثر جرأة وبعيدة كل البعد عن الإطار التقليدي الذي ألفناه ونجح في الربط بين السياسة الداخلية والخارجية للمأمون وحركة الترجمة؛ فعلى الجبهة الداخلية كان لزاما على المأمون - بعد حربه مع الأمين وقتله إياه- أن يسعى إلى إرساء دعائم المركزية العباسية في يده، فقد أخذ بالأيديولوجية الزرواسترية القائمة على مركزية الحكم واكتفى باستبدالها بالإسلام، وحاول أن يقيم أرستقراطية دينية لمجاراة الأرستقراطية السياسية الناشئة، مع اشتراط أن يكون لرأيه اليد العليا حتى في المسائل الدينية، على نحو ما جرى في منحة خلق القران، وقد أيدته حركة الترجمة في كلا الأمرين. وخارجيا: بإطلاق حرب شعواء على البيزنطيين على المستويين العسكري والدعائي. كان الغرض منها إظهار أن البيزنطيين، على الرغم من أنهم قد ورثوا حضارة اليونان، إلا أنهم لم يحافظوا عليها وأن على المسلمين أخذ مشعل الحضارة من اليونان لأنهم الأحق بها. وتظهر تلك الدعاية في أعمال الجاحظ؛ التي ميزت بين اليونانيين والبيزنطيين حتى يبدو في النهاية أن العقلاء هم المسلمون. وفى هذا المناخ المشجع بدأ العلماء والفلاسفة المسلمون خطاهم نحو اليونان وحكمتهم ليس هذا فقط ؛ بل نجد الكندي الفيلسوف العربي الذي حاول أن يقيم علاقة قرابة بين العرب واليونان باعتبار أن جد اليونانيين " يونان " هو أخو قحطان جد العرب.

ويخلص غوتاس من تحليله أن المأمون استبدل الأيديولوجية الزرواسترية الساسانية بالإسلام-العقلاني- المدعم بحكمة اليونانيين في مقابل المد الفارسي المتصاعد، وعلى ذلك يكون المأمون قد أفاد من حركة الترجمة بأن بني لنفسه أحقية في الحكم راسخة على أسس علمية لا يستطيع أن ينكرها أحد، ساعده في ذلك ثلة من العلماء الذين كان هذا التوجه على هوى منهم فأدركوا فائدته فدعموه بقوة وهيئوا البيئة المناسبة لهذا المشروع أن يكتمل.

وطبقا للتحليل السابق؛ فقد أخضع الباحث "حلم المأمون"- الذي رأى فيه أرسطو- للتحليل الدقيق وأظهر لنا أن هذا الحلم كان قد تمت ديباجته على يد الدوائر الألصق بالخليفة لتحيق أهداف المأمون التي تمكنه من القبض على مقاليد الأمور في الدولة، وتأسيس سلطته حتى في الأمور الشرعية والقبول بأولوية الرأي. ولقد لفقت الصيغة الأصلية للحلم لتبرير سياسة المأمون العقلانية والمؤيدة للمعتزلة، ومن ثم فإن الحلم الأرسطي من حيث وجوده لم يكن له علاقة بحركة الترجمة، فبدلا من أن الحلم باعثا لحركة الترجمة -على ما يرى ابن النديم أو مصدره يحي بن عدى وغيرهم من ساروا على دربهم؛ فإنه يشير على العكس من ذلك إلى الأثر الذي كانت حركة الترجمة، التي بدأت قبل عصر المأمون، قد تركته في البيئة المعرفية والثقافية التي أنتجتها. فالحلم هو النتيجة الاجتماعية لحركة الترجمة وليس مسببها.

وبعد أن طاف بنا المؤلف في أروقة ودهاليز بلاط الخلفاء العباسيين والأيديولوجية السياسية التي كانت تحكم فعلهم السياسي، والتي كانت توجهها ما تمليه عليهم التغيرات التي كان يمر بها

المجتمع العباسي آنذاك، يكون هذا ما أراد بحثه في القسم الأول من الكتاب حيث البواعث الحقيقة لحركة الترجمة. وفى القسم الثاني من الكتاب يتناول المؤلف عملية الترجمة ذاتها وتطوراتها الداخلية ورعاتها ودورها في ازدهار المجتمع الإسلامي، والعلاقة الجدلية بين التوجه الثقافي وحاجات المجتمع. ففي الفصل الخامس يتعرض غوتاس لموضوع " الترجمة في خدمة المعرفة التطبيقية والنظرية"؛ فيؤكد أن التوجهات الأيديولوجية والسياسية للعباسين في بداية حكمهم هي التي دعت إلى الحاجة إلى الترجمة في حقل التنجيم، فكانت ترجمة "الكتاب الأكبر" *Tetrabiblos* لبطليموس، وكتاب فاينومينا *Phaenomena* لأراتوس، وغيرها من المؤلفات التنجيمية التي ترجمت في تلك الفترة. وبالمثل كانت الحاجة إلى كتاب يعهد إليهم إدارة الدولة وما يتطلبه تكوين هذه الفئة من دراية بالعلوم الرياضية من حساب وهندسة وفلك، ومن ثم فلا عجب فقد استقطبت تلك العلوم النشاط المبكر في حركة الترجمة. أيضا كانت هناك حاجة إلى مشرعون في حقل الإرث، ومهندسون واقتصاديون لهم دراية بالمحاسبة ومسح الأرض والهندسة ومراقبة مواقيت العمل؛ كان لابد أيضا أن يمتلك أصحاب هذه الوظائف المعرفة الكاملة بالأعمال الرياضية والفلكية، فنجد أن كتاب "الأصول" لأقليدس قد ترجم ثلاث ترجمات أيام المنصور وهارون والمأمون على الترتيب. إلى جانب علم الجبر الذي تطور سريعا نتيجة لأهميته التطبيقية في مجالات الهندسة والري، وكوسيلة فعاله في حقل الإرث تساعد في حل كل التفاصيل المعقدة في هذا الفرع من العلوم الشرعية الذي كان في تطور دائم. وعلى هذا كانت الحاجة إلى تثقيف الكتاب، كانت منذ البداية الأولى، عاملا في التوسع التدريجي في حركة الترجمة. وفى مجال الكيمياء؛ كان لدى العباسيين أملا في تحويل المعادن إلى ذهب فكان الاهتمام بالترجمات في ذلك العلم.

ومن ناحية أخرى، كان هناك علماء على درجة كبيرة من العلم ضمتهم حدود الدولة الإسلامية؛ هؤلاء العلماء كانت لديهم الحماسة والدافعية العلمية نحو تطوير معارفهم، ساعدهم في ذلك دعم الدولة وتشجيع الخلفاء العباسيين لهم. ومن البديهي أن يعترض هؤلاء العلماء مشكلات علمية كان يتطلب حلها ترجمة المزيد من المؤلفات العلمية اليونانية في كل مجال على حده؛ أي أن الترجمة قد اكتسبت الدافعية الذاتية من النشاط العلمي الذي ساهمت هي في نشأته. ففي حقل الرياضيات نجد أن كتاب الحساب "أرثيماتيكا *Arithematica* لديوفنطس *Diophantus* قد ترجم بعد التطور الذي شهده علم الجبر على يد الخوارزمي. ومن زاوية أخرى؛ كان اهتمام الباحثين والحكام بترجمة كتب البصريات بسبب رغبتهم في استخدام المرايا الحارقة التي تقول الأسطورة بأن ارشيميدس كان قد أشعل النار في أسطول مارسلوس أثناء حصاره لسيراكوز، فكانت أن نبهت الرياضيين إلى إمكان القيام بذات العمل نفسه. أما في مجال الطب؛ فكان يتميز بوجود أسرات لها باع في هذا الفرع من العلوم الطبيعية كأسرة بنى بختيشوع؛ الذين عنوا بعملية التأليف الترجمة في هذا الحقل، وعهدوا لآخرين القيام بترجمات. ولا شك أنهم كانوا حريصين على المحافظة على تفوقهم العلمي الذي كان يكفل لهم مكانة اجتماعية مرموقة. وفي آخر المطاف تأتي الفلسفة التي لم تكن ذات طابع عملي مثل العلوم الأخرى، ولكنها حققت لنفسها شرعية وجودها وتطورها على يد

نفر من العلماء يأتي على رأسهم الكندي (ت حوالي ٢٥٧ هـ/ ٨٧٠ م) الذي عمل على أن يؤمن[١] الحصول على ترجمات للكتب الأساسية في الميتافيزيقا اليونانية، وفى مقدمتها كتاب الميتافيزيقا لأرسطو، ومختارات من بلوتينوس وبروكلس (*Plotinus/Proclus*) في مجموعتين عرفتا على التوالي باسم "علم الأشياء الإلهية" (*Theology of Aristotle*) و"الخير المحض" (*The Pure Good*).

وقد حظيت حركة الترجمة بقاعدة عريضة من التأييد في المجتمع العباسي؛ وكان أولئك الرعاة والداعمون فئات أربع: (١) الخلفاء العباسيون وأسرهم (٢) رجال البلاط (٣) موظفو الإدارة في الدولة والجيش (٤) الباحثون والعلماء. بالرغم من أن غوتاس كان قد عرض في القسم الأول من الكتاب لنقده لفكرة أن تكون حركة الترجمة قد تمت بإرادة من الخلفاء العباسيين كباعث وحيد؛ إلا انه لا ينكر دور الخلفاء العباسين المؤثر في دعم حركة الترجمة، مع الأخذ في الاعتبار دور الروايات المصدرية الدعائية لتعظيم دور بعض الخلفاء دون غيرهم، وبخاصة الخليفة المأمون الذي استمر بعده دعم خلفائه لحركة الترجمة، وإن كان هذا الدعم -لا بد وأنه- يتفق ايجابيا مع قوة ديوان الخليفة والسلطة الحقيقية التي كان يمارسها؛ تلك السلطة التي أصبحت ألعوبة في يد غير أيدي الخلفاء؛ فإنه على الرغم من انفصام عرى السلطة المركزية العباسية ومعها تقلص دور الخلفاء، فإن حركة الترجمة لم تنته مع بداية العصر العباسي الثاني؛ بل على العكس فقد بلغت الذروة في القرن العباسي الثاني بفضل الأعمال التي تمت على أيدي حنين بن اسحق و زملائه؛ بل لقد بلغت الحركة العلمية نضوجا ملحوظا في شتى المجالات تعدت به مرحلة الترجمة. وفى هذا المناخ العلمي الملائم ظلت رعاية الخلفاء وأسرهم لحركة الترجمة. ومما يذكر في هذا السياق أن؛ محظية المتوكل وأم أبنه، عهدت إلى حنين بن اسحق الكبير وضع كتاب المولودين لثمانية اشهر. وعلى جانب آخر كان رجال البلاط الذين كانوا يمثلون النخبة المتعلمة والندماء في البلاط العباسي؛ من أكثر الفئات التي شاركت في دعم ورعاية حركة الترجمة على اختلاف أصولهم ومواقعهم العلمية والاجتماعية. كذلك كان لرجال الدولة والحرب من الكتاب والوزراء وقادة الجيوش دور في رغاية حركة الترجمة ويذكر منهم: البرامكة والطاهريين، ونصارى العراق الذين اعتمد عليهم الخلفاء العباسيون في تولي المناصب الإدارية خلال القرن العباسي الثاني ومنهم أسرة وهب. هذا إلى جانب النصارى النساطرة ذوي الأصل الفارسي الذين تعربوا واعتنقوا الإسلام مثل بني الجراح، الذين علموا ككتاب في الدولة. كما كان العراق أيضا موطن الفيلسوف أبي بشر بن يونس مؤسس المدرسة الأرسطية في بغداد؛ كل هؤلاء شاركوا وساهموا في دعم ورعاية حركة الترجمة بشكل مباشر وغير مباشر.

والفئة الرابعة التي يناقش المؤلف دورها؛ هي طائفة الباحثين والعلماء، الذين كانوا أكثر الفئات الداعمة لحركة الترجمة إفادة من تأييد ودعم هذا المشروع. فنجد أن نخبة الأطباء النساطرة الذين قدموا من جنديسابور؛ وهم أسر بختيشوع وماسوي وتيفوري، قد تعهدوا بترجمة النصوص اليونانية الطبية وبخاصة أعمال جالينوس، وبالمثل لاقت العلوم الرياضية المترجمة اكبر تشجيع على يد أبناء الفلكي المشهور موسى بن شاكر. من هذا نستنتج أن الدعم لم يقتصر على مجموعات يمكن

تحديدها بوضوح؛ إن الداعمين جاءوا من جميع الفئات الإثنية والدينية: من ناطقين بالعربية والسريانية والفارسية ومن مسلمين ونصارى ووثنيين. ومن ثم فإنه يبدو على وجه الوضوح أن حركة الترجمة كانت نتاج جهد جماعي قامت به الأغلبية التي كانت بارزة اقتصاديا واجتماعيا _إن لم يكن المجتمع بكامله_ في بغداد خلال القرنين العباسيين الأولين. كل ذلك تم وتتطورت حركة الترجمة في تطور مواز مع الحركة العلمية التي احتضنتها، فأخذ كل طرف يساهم في تدعيم وتثبيت أقدام الطرف الأخر حتى أن أفادت حركة الترجمة نفسها من المناخ العلمي الحاضن لها؛ فقد تحسنت الترجمات مع الزمن بسبب من خبرة المترجمين وجودة معرفتهم باليونانية حتى أصبحوا على درجة كبيرة من الحرفية؛ بلغت معها تقنية الترجمة مستوى رفيعا من الدقة الفيلولوجية في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي. إن واحدا من الآراء التي ينقدها غوتاس هو؛ أن حركة الترجمة قد مرت بدورين رئيسيين: الأول "دور التلقي" مع بداية عصر المأمون والثاني هو "دور الإبداع" الذي تلاه؛ على أساس أن مركبات الترجمات وتعقيداتها تلغي حتى مجرد طرح السؤال على هذا النحو. وأن الدراسة المتعمقة لحركة الترجمة قد تعفي المرء من الانزلاق نحو التعميمات كتلك المتعلقة بالأصالة والإبداع في الفلسفة والعلم العربيين أو انعدامه عند العرب والساميين.

في فصل الدراسة الأخير يناقش غوتاس القضايا العامة التي أسس لها في دراسته حتى يستطيع أن يفصل في المسائل التي رآها هو خلافية، أو تلك التي لم يقبلها، بقدر مقبول من الدقة والموضوعية حتى يبتعد عن الأحكام السطحية والتعميمات. ويبدأ بأسباب توقف حركة الترجمة؛ ويعللها بأن الترجمات كانت قد أدت دورها في خلق المناخ العلمي المطلوب؛ وبعبارة أخرى فقد فقدت أهميتها الاجتماعية والعلمية؛ بحيث لم يكن هناك كتب يونانية علمانية صالحة لتقديمها بما يتلاءم مع اهتمامات ومطالب الرعاة والباحثين والعلماء على السواء. إن النصوص العلمية الأساسية، في أغلب الحقول، كانت قد ترجمت ودرست ووضعت لها الشروح، ولذا فإن كل فرع علمي كان قد تعدى مرحلة الترجمة وأصبحت الرغبة الملحة هي الحصول على مؤلفات عربية أصيلة لا ترجمات. ففي العصر البويهي بلغت حركة الترجمة النهاية لأن المشروع الفلسفي والعلمي الذي خلق الحاجة إليها كان قد استقل وأصبح له الشرعية في أن يكمل ما بدأه اليونان بل ويتعداه ويتفوق عليه، من وجهة نظر علمية؛ إذ أننا نجد صورة نقدية واضحة في المؤلفات العلمية العربية؛ ككتاب الرازي "الشكوك على جالينوس"، وكتاب بن الهيثم "الشكوك على بطليموس"، ويضاف إليهما كتاب بن سينا "الحكمة الشرقية" الذي كان يبين أوجة الخلاف بين بن سينا وأرسطو؛ أو ما يمكن تسميته "الشكوك على أرسطو".

بعد أن جاوب المؤلف عن السؤال المتعلق بنهاية حركة الترجمة، ينتقل بعد ذلك لمناقشة قضية أهم و اخطر، كانت حتى وقت قريب من المسلمات التاريخية، وحدث عليها شبه إجماع بين أوساط المتخصصين في الحضارة الإسلامية؛ وهي أسطورة المقاومة الإسلامية للعلوم اليونانية. قسم غوتاس رد الفعل لتدفق العلوم المترجمة إلى جهتين الأولى خارجية: جاءت من أتباع الأمويين، ويحلل هنا غوتاس رواية عبد الله بن أبي زيد القيرواني الفقيه المالكي ويوصفها بأنها رواية اعتذارية

للأسرة الأموية الفاشلة، ويعزو النبرة المعارضة للعلوم اليونانية فيها إلى ارتباطها بالعباسيين الذين يعتبروا، من وجهة نظر الأمويين، غير مؤهلين لتولى زعامة المجتمع الإسلامي ومن ثم فإن كل ما أتوا به لا يكون خيرا أبدا. ومن ناحية رد الفعل الداخلي: ينظر المؤلف نظرة فاحصة إلى تنوع المجتمع العباسي وتنازع أيديولوجيات فئاته وممارساتها، ويؤكد على أنها لا يمكن أن توصف بـــ "العقائدية" بالمعنى العام والشامل للكلمة، والقول بأن هذه "العقائدية" هي التي شنت الحرب على العلوم اليونانية. ويعود بنا إلى عصر المأمون، وهو العصر الذي بدأت تتشكل فيه التيارات الفكرية الرئيسية وبداية علم الكلام والمحنة التي كانت السبب في تكوين تيار فكري قاوم النظرة الدينية التي فرضها الاعتزال قي مسألة خلق القرآن، وجعلت من الإمام احمد بن حنبل شهيدا، الأمر الذي جعله المركز للمعارضين لتيار الاعتزال. على أن الاستقطاب الذي خلفته مسألة المحنة لم يكن يوما أصوليا من الأساس. وإذا كان قد حدث أن صدر مرسوم، كالذي صدر في أواخر حكم المعتمد، بعدم ممارسة التنجيم، أو تداول كتب الفلسفة والجدل؛ فان هذه الحادثة لا يمكن تحليلها إلا في إطار ظروفها التاريخية المرتبطة بها. كذلك كان رد الفعل المناهض لليونان في أحد صوره انتصارا للعنصر العربي الإسلامي، للتعظيم من شأن العرب في مقابل الحركة الشعوبية التي كانت قد وصلت إلى الذروة في هذا العصر.

بعد ذلك يناقش غوتاس الدراسة التي كانت أحد الأدبيات الثقة التي يعتمد عليها في دراسة المقاومة الإسلامية للعلم والعقلانية؛ وهي دراسة جولدتسيهر والتي نشرت بالألمانية لأول مرة عام ١٩١٦م، بعنوان "العقيدة الإسلامية القديمة في مقابل العلوم القديمة" وقد ترجمت إلى الإنجليزية عام ١٩٨١م، بعنوان أكثر إثارة وتضليلا "موقف العقيدة الإسلامية من العلوم القديمة" وقد وجه غوتاس نقدين إلى هذه المقالة الأول: يتعلق بتعيين العقائدية الإسلامية المقصودة في الدراسة وهويتها من حيث كونها "العقيدة القويمة القديمة *Old Islamic Orthodoxy*". والثاني: تحديدها بالقديمة؛ وهذا يجلعنا نسلم بوجود عقيدة جديدة لا تعارض العلوم القديمة. ويفسر غوتاس ذلك بانحياز جولدتسيهر السياسي، على اعتبار أن اغلب الذين قاوموا العلم العقلي كانوا من الحنابلة الذين يمثلهم ، عام ١٩١٦م، الوهابيون في الحجاز.

إن الملاحظة الجديرة بالتعيين التي ذكرها غوتاس تتعلق بالدراسة التاريخية المتأنية للعوامل الخارجية التي أفضت إلى ظهور التيار الأشعري على التيارات الأخرى؛ وهى الأخطار التي كان يتعرض لها العالم الإسلامي من المغول والصليبيين.

وفي خاتمة دراسته يؤكد غوتاس على الأتي: أولا؛ أن "الترجمة هي دوما نشاط ثقافي إبداعي فهو يتساوى مع وضع كتب أصيلة، فالقرار بترجمة شيء ما وتقرير الوقت الذي يترجم فيه وكيف يتم ذلك وتقبل الشيء المترجم؛ كل هذا تقره الثقافة المتلقية، ولذا فإن حركة الترجمة من اليونانية إلى العربية ترمز إلى لحظات إبداعية في الفكر العربي الإسلامي، كما ترمز ترجمة جلان *Galland* الفرنسية لألف ليلة وليلة، أو ترجمة فيتزجيرالد *Fitz Gerald* الإنجليزية لرباعيات عمر الخيام؛ إلى لحظات إبداعية في الأدبين الفرنسي والإنجليزي".

ثانيا: أنه لا مجال للقول بتفرد لثقافة ما أو لأمة بعينها في الإبداع العقلي والعلمي "فإن جميع الثقافات متشابكة الواحدة مع الأخرى، ولا وجود لثقافة متفردة ومصفاة. جميعها هجينية ومتباعدة الخواص إلى حد بعيد ومجزأة". وتلك المقولة استعارها غوتاس من ادوارد سعيد في بداية كتابه. ثالثا: أن قيام أبو جعفر المنصور بتأسيس بغداد في هذا المحيط الجديد لم يكن عبسا؛ بل بتخطيط يحقق للعباسيين مأربهم السياسية ويعطى لدولتهم البقاء والاستمرار؛ بعيدا عن النزاعات القبلية التي أغرق فيها الأمويين أنفسهم، إلى مجتمع جديد متنوع ومتمايز عقائديا وعرقيا وفكريا، ولكن العباسيين استفادوا من وجود هذه الأيديولوجيات المختلفة بحيث أصبحت الأسرة العباسية هي الفئة الوحيدة المسيطرة في بغداد. رابعا: أن رد الفعل لحركة الترجمة لم يكن مطلقا عقائديا بالمعنى الدقيق للكلمة؛ بل لكل حالة على حدي ما يفسرها على أسس أيديولوجية (سياسية واقتصادية واجتماعية). وأخيرا: فإن أهمية حركة الترجمة ـالتاريخيةـ تكمن في أنها؛ أوضحت، وللمرة الأولى في التاريخ، أن الفكر العلمي والفلسفي شأن عالمي لا يرتبط بلغة أو ثقافة خاصة. وأن لهذه الحركة دورها الأصيل في انبعاث حركة الإنسانية البيزنطية في القرن العاشر والنهضة الأوروبية في القرن الثاني عشر الميلادي.

محمد زايد عبد الله عيد، العلاقات البيزنطية' – الألمانية (٩٦٢- ١٠٥٩م)، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ٢٠٠٦م.....................عرض محمد زايد

لم يفطن البيزنطيون لأهمية الغرب اللاتيني منذ سقوط روما على يد أدواكر *Adoaker* عام ٤٧٦م إلا في عهد الإمبراطور جستنيان *Justinian* (٥٢٧- ٥٦٥م)، الذي حاول استعادة الشطر الغربي من الإمبراطورية الرومانية، ولكن سرعان ما زالت سيادة الشرق على الغرب بوفاته، ثم دخل البيزنطيون في صراع مع العرب خلال القرنين السابع والثامن الميلاديين، جعلهم يصرفون جل جهدهم نحو الشرق، ولم يفق البيزنطيون لما يجرى في الغرب إلا عندما قام البابا ليو الثالث *Leo III* (٧٩٥- ٨١٦م) بتتويج الملك الفرنجي شارلمان *Charlemagne* (٧٦٨- ٨١٤م) إمبراطوراً على الغرب في ليلة عيد الميلاد عام ٨٠٠م.

ومنذ تلك اللحظة نشب النزاع بين الإمبراطورية البيزنطية (الوريثة الشرعية لعرش قسطنطين الأول *Constantine I* (٣٠٦- ٣٣٧م) وفقاً لحق الوراثة)، وبين الإمبراطورية الرومانية الغربية (الوريثة الشرعية لعرش الرومان وفقاً لحق التتويج)، كما روج البيزنطيون لنظرية الإمبراطور الروماني الأوحد، والذي يتمثل في الإمبراطور البيزنطي، لأن أراضيه هي أراضى الرومان، ومن حقه أن يكون إمبراطوراً للرومان في كل أنحاء العالم المسيحي، باعتباره الوريث الشرعي للإمبراطورية الرومانية القديمة، التي نقل قسطنطين الأول عاصمتها إلى القسطنطينية بدلاً من روما، إلا أن تلك النظرية تحطمت مرة أخرى ، عندما اتجه أوتو الأول *Otto I* (٩٣٦- ٩٧٣م) ملك ألمانيا صوب روما، وتلقى التاج الإمبراطوري من البابا يوحنا الثاني عشر *John XII* (٩٥٥- ٩٦٤م) في الثاني من فبراير عام ٩٦٢م، ولم يكتف أوتو الأول بذلك، بل اتجه إلى جنوب إيطاليا لفرض سيطرته على الثيمات البيزنطية هناك، فنشب النزاع بين الجانبين البيزنطي والألماني منذ ذلك الحين، وحتى بداية النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي.

من هنا كان اتجاه الباحث إلى اختيار موضوع الدراسة: "العلاقات البيزنطية الألمانية ٩٦٢- ١٠٥٩م"، فالحدود الزمنية التي تشغلها تلك الفترة تقع بين حادثين هامين من الناحية التاريخية، الأول هو تتويج أوتو الأول إمبراطوراً على يد البابا يوحنا الثاني عشر في روما عام ٩٦٢م، وما ترتب عليه من صراع بين البيزنطيين والألمان في جنوب إيطاليا، أما الحادث الأخر وهو مرسوم ميلفي *Melfi* عام ١٠٥٩م، الذي أعلنه البابا نيقولا الثاني *Nicholas II* (١٠٥٨- ١٠٦١م)، حيث أعطى البابا الحق للنورمان في السيطرة على الأراضي البيزنطية في جنوب إيطاليا مقابل الدفاع عن البابوية ضد الأباطرة الألمان والنبلاء الرومان في روما.

والعلاقات البيزنطية – الألمانية خلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين علاقات متداخلة ومتشابكة، لم تتوقف عند حد المعارك الحربية في جنوب إيطاليا، وما نتج عنها من بعثات دبلوماسية بين الجانبين لتهدئة نار الحرب بينهما، ولكن أخذت مساراً آخر تمثل في إقامة علاقات ثقافية وفنية ودينية، وكذلك علاقات تجارية.

هذا وقد تم تقسيم البحث إلى أربعة فصول، تسبقهم دراسة لأهم مصادر البحث، ثم تمهيداً له، ويعقبهم الخاتمة والخرائط والملاحق وقائمة المصادر والمراجع، وقد جعلت الفصل التمهيدي وعنوانه: "**العلاقات البيزنطية – الألمانية قبل عام ٩٦٢م**" استعراضاً للعلاقات البيزنطية الألمانية خلال العقدين الخامس والسادس من القرن العاشر الميلادي من خلال السفارات بين الجانبين، وبزوغ الفكرة الإمبراطورية لدى الألمان، أما الفصل الأول وعنوانه: "**الأطماع الألمانية في إيطاليا ورد الفعل البيزنطي ٩٦٢- ٩٧٣م**"، فقد عرضنا فيه لتتويج أوتو الأول إمبراطوراً في روما في الثاني من فبراير عام ٩٦٢م من حيث الأسباب والنتائج، كما عرضنا لحملات أوتو الأول على جنوب إيطاليا منذ عام ٩٦٦م وحتى عام ٩٧٠م، بالإضافة إلى عرض السفارات الدبلوماسية بين الجانبين، وخاصة سفارة ليودبراند أسقف كريمونا إلى القسطنطينية عام ٩٦٨م، وزواج أوتو الثاني من الأميرة البيزنطية ثيوفانو.

أما الفصل الثاني وعنوانه: "**اضمحلال السلطتين البيزنطية والألمانية في إيطاليا ٩٨٠- ١٠١٤م**"، وعرضنا فيه لحملة أوتو الثاني على الثيمات البيزنطية في جنوب إيطاليا فيما بين ٩٨٠- ٩٨٢م، والتي أسفرت عن هزيمة الألمان على يد مسلمي صقلية في معركة ستيلو *Stilo* عام ٩٨٢م، كما عرضنا لمشروع أوتو الثالث في روما لإحياء الإمبراطورية الرومانية في الغرب؛ وما نتج عنه من الاضطرابات التي اجتاحت الممتلكات الألمانية وخاصة إيطاليا، كذلك تم عرض الثورات اللمباردية التي قامت في إيطاليا ضد كل من البيزنطيين والألمان.

أما الفصل الثالث وعنوانه: "**النورمان بين البيزنطيين والألمان في جنوب إيطاليا (١٠١٧- ١٠٥٩م)**" فيعرض لنا ظهور عنصر النورمان في الجنوب الإيطالى، وتحالفهم مع كل من البيزنطيين أو الألمان خلال الربع الأول من القرن الحادي عشر الميلادي، ثم عرضنا لتعاظم قوة النورمان وتحالف كل من البابوية والألمان والبيزنطيين ضدهم، وهزيمة هذا التحالف على يد النورمان في معركة كيفيتاتى عام ١٠٥٣م، وما نتج عن تلك الهزيمة من انفصام عرى التحالف بين الشرق والغرب، وكذلك الانشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية، مما أدى إلى اتخاذ البابوية حليفاً جديداً لها ضد الألمان والبيزنطيين تمثل في النورمان وذلك عام ١٠٥٩م.

يأتى الفصل الرابع وعنوانه: "**العلاقات الحضارية بين البيزنطيين والألمان**" ليستعرض لنا العلاقات التجارية بين الجانبين، وكذلك العلاقات الثقافية، وانتقال اللغة اليونانية وانتشارها في

ألمانيا، بالإضافة إلى انتقال أغراض الفن البيزنطي إلى ألمانيا، مثل الصور والعاجيات المنحوتة وقطع النسيج، واختتم الفصل بإشارة إلى صورة كل من الألمان والبيزنطيين في نظر الآخر.

وبعد استعراض العلاقات البيزنطية – الألمانية خلال الفترة (٩٦٢- ١٠٥٩م) أمكن الخروج بالعديد من الدلالات والنتائج الآتية:

أولاً: لم تكن سياسة أوتو الأول تجاه إيطاليا مجرد رغبة استعمارية، وإنما تحركاً احترازياً لمواجهة الخطر المتنامى لقوة النبلاء الإقطاعيين في ألمانيا، وهو الخطر الذي بدأ يلوح في الأفق بعد محاولة كل من ليودولف دوق سوابيا وهنرى دوق بافاريا السيطرة على المملكة اللمباردية شمال إيطاليا عام ٩٥٠م، مما يعنى إضعاف سلطان أوتو الأول في الجنوب الألماني والشمال الإيطالى، فاضطر إلى القيام بحملة على شمال إيطاليا خلال العام التالى لإعادة ترتيب الأوضاع هناك، والقضاء على ثورة النبلاء في الجنوب الألماني عام ٩٥٥، ورغبته في تحطيم سطوتهم من خلال الاستعانة برجال الدين الألمان، ولكنه ما فتئ أن اكتشف رغبة رجال الدين في الهيمنة على السلطة في ألمانيا، فما كان منه إلا أن تحالف مع البابوية ليكون له اليد الطولى في السيطرة على الكنائس الألمانية وأوقافها لتموين جيوشه.

ثانياً: لم يكن التتويج الإمبراطوري لأوتو الأول على يد البابا يوحنا الثاني عشر في روما عام ٩٦٢م إلا حلقة من حلقات السياسة الملكية في ألمانيا للسيطرة على الكنيسة الألمانية وإحكام القبضة على الأفصال العلمانيين، وإن كانت الدعوة قد جاءته من البابوية، إلا أنه لم يكن يفكر في بادئ الأمر في الصدام مع الإمبراطور البيزنطي سواء على اللقب الإمبراطوري أو على الأرض، ولكن الظروف هى التي دفعته إلى فعل ذلك، حيث كانت البابوية تضع الملوك الألمان بين السندان والمطرقة، فهي تغويهم من ناحية باللقب الإمبراطوري والسيادة على العالم المسيحي في غرب أوربا، ومن ناحية أخرى تطالبهم بالسيطرة على الأراضي والأوقاف الكنسية في الأراضي التابعة للسيادة البيزنطية جنوب إيطاليا، مما أوقع الألمان في مأزق مع الإمبراطورية البيزنطية.

ثالثاً: فرض التجديد الإمبراطوري في الغرب على الملوك الألمان سياسة التضحية بالدولة على سبيل إرضاء الكنيسة، وأجبرتهم في النهاية على ترك الميدان والانزواء إلى الظل، وسمحت للبابوية بالتدخل المباشر في الشئون الداخلية لألمانيا، كذلك أجبر اللقب الإمبراطوري الملوك الألمان على ترك قوة عسكرية ألمانية كبيرة في إيطاليا، مما ترك أثره البالغ على ألمانيا نفسها، فلقيت الجيوش الألمانية العديد من الهزائم على يد أعدائها،

إلى جانب نشوب الكثير من الثورات الداخلية من جانب النبلاء الإقطاعيين، مما أشاع الفوضى في كل الأرجاء الألمانية.

رابعاً: حاول الأباطرة الألمان التخفيف من حدة العداء مع الإمبراطورية البيزنطية، فقاموا بالتفاوض مع الجانب البيزنطي للحصول على الأميرات البيزنطيات وليدات الأرجوان، إلا أن تلك المحاولات كانت تقابل من الجانب البيزنطي بالرفض تارة، أو بالمماطلة تارة أخرى، أو بإرسال أميرة ليست وليدة الأرجوان مثلما حدث مع أوتو الثاني الذي تزوج من الأميرة البيزنطية ثيوفانو سليلة عائلتى سكليروس وفوقاس النبيلتين.

خامساً: كان ظهور عنصر جديد مثل النورمان الطموحين في إيطاليا له دور هام في إنهاء الصراع البيزنطي- الألماني على الأراضي الإيطالية خلال الربع الثالث من القرن الحادي عشر الميلادى، من خلال التهام ما تبقى من أملاك الإمبراطورية البيزنطية في جنوب إيطاليا، وتحطيم التحالف الألماني- البابوي، والتحالف مع البابوية التي رحبت بذلك حتى تتخذ موقفاً أكثر استقلالاً عن البيزنطيين والألمان.

سادساً: على الرغم من وصول العلاقات السياسية بين الجانبين البيزنطي والألماني إلى نفق مغلق، إلا أن العلاقات الحضارية بينهما لم تتوقف خلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، فانتقلت البضائع بين الجانبين عبر البر والبحر، كما انتقلت الأغراض الفنية البيزنطية إلى ألمانيا مع الرهبان البيزنطيين الهاربين من جنوب إيطاليا إلى غرب أوربا، بالإضافة إلى تأثر نظام العمارة الكنيسة الألمانية بالطراز البازيليكى ذي القبة الوسطى، فانتشر هذا الطراز في كل الأراضي الألمانية، وذلك نتيجة لانتقال الكثير من الصناع والفنانين البيزنطيين إلى ألمانيا، الذين نقلوا الكثير من أسرار الفن البيزنطي إليها خلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، ولكن لم يكن الفنان الألماني مقلداً للنموذج البيزنطي في كل الأحوال، بل ظهرت المسحة الكارولنجية الكلاسيكية في الفن الألماني، والتي تطورت خلال تلك الفترة ليظهر لنا أسلوباً جديداً في الفن الألماني تمثل في الأسلوب الأوتونى.

سابعاً: زاد الاهتمام باللغة اليونانية في ألمانيا منذ النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي، وذلك لانتقال ثيوفانو وحاشيتها إلى ألمانيا عام ٩٧٢م، كذلك لاهتمام العائلة الأوتونية بتعلم اللغة اليونانية، وجمع الكثير من المخطوطات اليونانية في شتى العلوم، وخاصة في المجال الديني، بالإضافة إلى الدور الهام للرهبان البيزنطيين الذين انتقلوا إلى ألمانيا حاملين معهم الكثير من الكتب الدينية بالخط اليوناني، كما حاول الكثير من رجال الدين الألمان تعلم اللغة اليونانية ومقارنتها باللغة اللاتينية مثل القس الألماني فوريوموند التجرنسي.

وقد اعتمد البحث على أربع مجموعات من المصادر التاريخية وهي: المصادر البيزنطية واللاتينية، ثم تأتي بعد ذلك بعض المصادر الإسكندنافية والعربية.

أما عن المصادر البيزنطية: كتاب والى المدينة *Eparchion Biblion*، وكتابات قسطنطين السابع بورفيروجنيتوس *Constantine VII Porphyrognetus* "عن الإدارة الإمبراطورية" *De Administrando Imperio*، وكتابه "عن المراسم البيزنطية" *De Cerimoniis Aulae Byzantinae* وكتابه "عن الثيمات" *De Thematibus*، وخطابات ليو السينكيلوس *Leo Syncellus*، وحولية يوحنا سكيليتزس *I. Scylitzes* "مجمل التواريخ" *Συνοπις ιστοριων* ، وكتاب المتمم لحولية ثيوفانيس *Theophanes Continuatus* ، وكتاب ليو الشماس *Leonis Diaconus*، وحولية ميخائيل بسللوس *Michael Psellus*، و"حولية كمبردج" *Chronique de Cambridge* ، وكتاب جورج الراهب *Georgius Monachus* عن "حياة الأباطرة المعاصرين" *Vitae Imperatorum Recentiorum* ، وكتاب ليو الشماس *Leonis Diaconus*.

المصادر اللاتينية: أعمال ليودبراند أسقف كريمونا *Liudprand of Cremona*، وكتابات فيدوكند *Widukind* راهب دير كورفي *Corvey* عن " أعمال الملوك السكسون" *Res Gestae Saxonicae* ، وخطابات جيربيرت الأوريلاكي *Gerbert of Aurillac*، وحولية ثيتمار أسقف مرسبرج *Thietmar of Merseburg*، وكتاب فيبو *Wipo* عن "أعمال كونراد الثاني" ،وكتاب أوتو أسقف فرايزنج *Otto of Freising* "المدينتان" *The Two Cities* ،و"مجموعة الوثائق الخاصة بالإمبراطور أوتو الأول" والمنشورة في مجموعة *PL*، الجزء ١٣٨، كذلك "مجموعة وثائق البابا ليو الثامن *Leo VIII* والمنشورة في المجموعة السابقة، الجزء ١٣٤، "وحوليات فلودوارد الريمزى" *Flodoard of Rehims* ، و "الحولية البندقية" *Chronicon Venetum* ليوحنا الشماس *Joannes Diaconus*، و "سيرة بورخارد أسقف فرمز" *Burchard of Worms*، و"حوليات كفيدلنبرج" *Quedlinburg Annales* و "حوليات هيلدسهايم" *Hildesheim Annales* ، و"حوليات فيزمبرج" *Weissemburg Annales*، و"حولية لامبرت" *Lamberti Annales* ، و"الحولية العالمية" *Chronicon Universale* لإيكهارد *Ekkehard* ، و "كتاب التاريخ" لردولف جلابر *R. Glaber* كذلك "حوليات بارونيوس" *Baronius*، و"وثائق هنرى الثاني الخاصة بتنظيم البلاط الملكي في بافيا" و المنشورة في مجموعة *MGHss* الجزء ٣٠، وأخيراً كتاب "تاريخ أسقفيات هامبورج وبريمن" لآدم أسقف بريمن *Adam of Bremen*.

وتأتى المجموعة الثالثة من المصادر، ألا وهى المصادر الإسكندنافية مثل ساغا هارولد هاردرادا *Saga of Harold Hardrade*.

ثانيا: القسم الأجنبي

أولا: البحوث والدراسات

II. The Arabic Part

Qurra;[9] a better knowledge of its doctrines is evident in Niketas Byzantios[10] (mid-ninth century) treatises, which were allegedly written for the emperor Michael III (842–67) as a response to the Abbasid caliph al-Mutawakil's (847–61) letters against the Christian doctrine of Trinity and showed the direct encounter between the Byzantines and the Muslims on the religious level.[11] Parallel with Byzantine anti-Islamic polemics, a deeper understanding and a mutual appreciation of one other was reached at the governmental level, as a result of the frequency of diplomatic exchanges between the Byzantines and the Arabs, and the development of a diplomatic protocol of methods and procedures e.g. the dispatching of envoys, their qualifications. the attendance of interviews. receptions, written communication, signing of treaties, exchange of gifts and handling of negotiations.

The book is an impressive compilation of writings on diverse themes which are permeated by the perceptions of the West of the Orient and of the Orient of the West and also of the people of the Orient of themselves. It is a useful introduction to individual themes and issues explored in some important writings. The selection of the anthology of texts is entertaining and instructive. Throughout the book Lewis aims to show aspects of communication and contact between peoples in the West and Europe.

It is a recommended book for specialists as they familiarise with texts and see a broader view of the respective subjects. An appendix at the end contains information on the main personalities mentioned in the book. However it would perhaps be useful for a historian if there were references to the works cited in addition to their authors, some background information of the given texts, and an explanation of the culture and interaction with its literature, and arts and music with their history, in order to appreciate it more.

---

[9]Khoury, *Les theologiens byzantins et l' Islam* , 83–105; Meyendorff, 'Byzantine views of Islam', 120–1.

[10]Khoury, ibid., 110–62; Meyendorff, ibid., 121–2, 127–8.

[11]On the Islamic-Christian dialogue and relative Greek texts on Islam in the period between the 8th to 16th centuries, see Khoury, ibid., 38–44.

others and whose reading will be of great interest to historians dealing with these periods of Ottoman diplomacy.[6] Reflections on modern diplomacy are particularly fascinating. The author draws on reports which express views of Middle Easterners of the West and *vice versa*: of Persian missions to England in the period between 1838–9, the British Council in Damascus of the Syrians and French in 1934, of the British views of the campaign of 1941 against Rashîd 'Alî in Baghdad, of American reports of Baghdad in 1944, and Henry Kissinger's impressions of President Nasser of Egypt and King Hussein of Jordan.

Texts should be interpreted as individual references in their contexts. The text cited by Lewis on the theme of prejudices by Constantine Porphyrogenitus should in no case represent Byzantine views of the Prophet Muhammad, but should be seen in its context. It is a piece of Byzantine polemical literature, a commonplace about the origins of Islam which considered it as a form of paganism, and shows the superficial character of the Byzantines' acquaintance with Islam. It refers to the invocation *Allahu akhbar* (God is greatest) and identifies the *Akhbar* (lit. greater/greatest) with Koubar and with Aphrodite: hence 'God and Aphrodite'.[7] The well-known Greek theologian of the eighth century, John of Damascus, refers to the *Koubar* as a pre-Islamic Meccan cult of Aphrodite named Χαβαρ by the Arabs, which survived in the form of veneration of the sacred stone, the Ka'ba.[8] In the second half of the eighth century, an active interest in Islam was expressed in the writings of the Arabic-speaking bishop Theodore Abû

---

[6] *EI*²,7, Na'îmâ', 917-8. For examples on the role of Ottoman ambassadors, see Virginia H. Aksan, *An Ottoman Statesman in War and Peace: Ahmed Resmi Efendi, 1700-1783* (New York 1995).

[7] C. Porphyrogenitus, *DAI*, 14/31-6; The association of God and Aphrodite dates back to Herodotus; see C. Porphyrogenitus, *DAI*, vol. II, Commentary (London 1962), 72; W. M. Watt, 'Belief in a "High God" in pre-Islamic Mecca', in *The Arabs and Arabia on the Eve of Islam*, ed. F. E. Peters (Aldershot 1999), 307–12.

[8] *PG*, 94 Cols.764 b, 769 b; John of Damascus discusses Islam in the last chapter of his treatise on heresies – it is heresy 100; see A. Th. Khoury, *Les theologiens byzantins et l'Islam* (Louvain-Paris 1969), 62–3, 47–82; J. Meyendorff, 'Byzantine views of Islam', *DOP* 18 (1964), 115–32 at 116–120. The Ka'ba was a centre of polytheism and idolatry in the centuries before the coming of Islam. Restored by Muhammad as the place of worship of the one God; see *EQ*, 3 'Ka'ba', pp. 75–80; U. Rubin, 'The Ka'ba: aspects of its ritual functions and position in pre-Islamic and early Islamic times', in *The Arabs and Arabia on the Eve of Islam*, 313-47.

and negotiation, Lewis draws on a number of sources mainly for the Ottoman period in the form of memoirs and travel accounts of foreign statesmen to Turkey such as Sir Paul Rycaut and A. Slade and the memoirs of Sir James Porter, British ambassador to Turkey in 1746 on audiences with Ottoman ambassadors and sultans, receptions of foreign ambassadors and on advice on negotiations with the Turks and interpreting of treaties.[3] The author uses archival evidence in the form of state papers and foreign office documents from the Public Record Office in London on the letter from an Ottoman Grand Vizier to Queen Elizabeth in 1583 and on the function of dragoman system in the Levant respectively.[4] All sources inform us about diplomatic practices and procedures in the Ottoman court and reflect on Western views of Ottoman practices and the Ottomans. The latter are not positive except perhaps for some praise on the Ottoman adherence on the protocol of negotiations being experts in the wording of political treaties. [5] Lewis also cites accounts of eighteenth century Ottoman historians such as Na'īma', and Vasif Efendi (latter half of the eighteenth century), on the appointment of Ottoman ambassadors to India in 1653 and Spain in 1787, which reflect on Ottoman views of the

---

correspondence, see M. Canard. 'Une lettre du Sultan Malik Nâşir Ḥasan à Jean VI Cantacuzène (750/1349)'. *AIEO* (1937), 27–52.

[3] See S. D. Anderson, *An English Consul in Turkey: Paul Rycaut at Smyrna*, 1667–78 (Oxford 1989); A. Çırakman. 'Sir Paul Rycaut and his influence on 18th century thought on the Turks', in *Historical Image of the Turk in Europe: 15th Century to the Present Political and Civilisational Aspects*, ed. M. Soykut (Instanbul 2003), 227ff; Sir A. Slade, *Records of travels in Turkey, Greece and of a cruise in the Black Sea, with the Capitan pasha, in the years 1829, 1830, and 1831* (London 1832); for memoirs and biographies of Ottoman statesmen and members of the sultanate as sources for diplomacy, see *Ottoman Diplomacy: Conventional or Unconventional?*, ed. A. Nuri Yurdusev (New York 2004), 179, n. 49; on travelogues as sources for the study of Ottoman diplomacy, see ibid., 180–1. Travel accounts of European diplomats in the sixteenth and eighteenth centuries discussed elsewhere should also be taken into account for a better understanding of the expressed themes and attitudes; see Suraiya Faroqhi, *Approaching Ottoman History. An Introduction to the Sources* (Cambridge 1999), 112–4; for biographies and memoirs of foreign ambassadors and statesmen as sources for diplomacy, see *Ottoman Diplomacy*, 179, n. 50.

[4] For a summary of primary sources on Ottoman diplomacy, see *Ottoman Diplomacy: Conventional or Unconventional?*, 167–193; on archival sources on diplomacy outside Turkey, see ibid., 181. see also G. R. Berridge, 'Dragomans and Oriental Secretaries in the British Embassy in Istanbul', ibid., 151–66, who discusses attempts to anglicise the dragomanat of the British Embassy in Istanbul in the early 19th century.

[5] See *Historical Image of the Turk in Europe*, 21–36.

B. Lewis, *A Middle East Mosaic. Fragments of Life, Letters and History* (New York 2001) ....by Maria Vaiou, Istanbul, Turkey.

This book consists of thirteen parts made up of excerpts from a wide range of Middle Eastern writings arranged by themes. The selection of themes reflects personal choice and includes various sources on prejudices and stereotypes of Westerners about the Middle East and *vice versa*, loan words of Middle Eastern origin; aspects of public and private life such as travellers, diplomats, women, government, war, commerce, arts and science, food and drink, wisdom and prophecy. All sources are drawn on the period between the advent of Islam and the coming of modernity.

Each part is preceded by a brief introduction. The sections are particularly interesting for the bulk of information they display on particular themes and for making useful texts which can be taken as references for potential research on relevant subjects accessible in English. The reader familiarises himself with existing readings on certain areas and can draw his own conclusions on issues of continuity and change in certain practices.

On the theme of diplomats, Lewis provides extracts on the function and role of diplomat, sheds light on diplomatic practices in different periods, and reflects on Western views of Middle Easterners. For the period of early Islam, Lewis gives a selection of rules on the conduct of ambassadors drawing on the ninth-century Arab manual of statecraft of Pseudo-Jâḥiẓ's (probably al-Taghlabî/ Tha'labî, d. 250/864) *Kitâb al-Tâj*, and the eleventh century 'mirror for princes' of Niẓâm al-Mulk (d. 485/1092).[1] On the protocol of writing letters to foreign rulers, such as to the Byzantine emperor, he draws on al-Qalqashandî's (d. 821/1418) *Ṣubḥ al-a'sha*, a fifteenth-century manual on the formal composition of documents.[2] On the themes of reception

[1] Ch. Pellat, *Le Livre de la couronne*, tr. *Kitâb al-Tâj*, (Paris 1954), 141–2; *The Siyar al-Mulûk or Siyasat-nama of Niẓâm al-Mulk*, tr. H. Darke, *The Book of Government or Rules for Kings* (London 1960), 94–6, 98.

[2] Al-Qalqashandī, *Ṣubḥ al-a'sha*, VIII (Cairo 1334/1910), 42–4; on the formula for the title of the Byzantine emperor, which is corroborated by Greek translations of letters for the 14th century, al-Qalqashandî draws on al-'Umarî's (d. 750/1349) *al-Ta'rîf bil-muṣtalaḥ al-sharîf*, a work which contained the formulas of official letters of the Mamlūk chancery in Cairo; the same formula was used later by Nâẓir al-Jaysh (d. 786/1384) in his *Kitâb tathqîf al-Ta'rîf bil-muṣtalaḥ al-sharîf*; see al-Qalqashandî, *Ṣubḥ al-a'sha*, vol. 8, 45–6; for examples of Mamlûk-Byzantine

Book Review

after his triumph over the Crusaders at Ḥiṭṭîn and his conquest of Jerusalem.

It is obvious that, far from the historical events in their poems, most of the poets praised Saladin so much and gave him the characteristics of a mythical hero, even Fityân al-Shaghûrî regarded him as "the owner of hitherto unwritten epics",[158] and he regarded him, rather hyperbolically, as the destroyer of Chosroes, the Persian king, and Caesar of *al-Rûm*, the Byzantine Emperor. But, he regarded the armies of the Byzantine Emperor Heraclius (r. 610-641 A.D.) and Alexander the Great (r. 356-323 B.C.) as nothing compared to Saladin's army.[159]

The abundant praise of Saladin by various contemporary poets is proportionate to the disappointment felt by Muslims after the first Crusade and their subsequent failures to restore their lands from the Crusaders for about ninety years. Thus, when Saladin restored most of the Muslim lands, save a few Crusader cities in Syria, the Muslims were naturally jubilant. In addition, Saladin's conquests and achievements were swift and successive. So, most of the contemporary poets of Saladin praised him so much and gave him all the ideal characteristics, which we have been unable to account for completely in their poetry, i.e. they were propagandists. Although their motives to praise Saladin were various, they played an important role to make Saladin's reputation in the Islamic world in the time of the Crusades by their poems and the tune of their poetry was zealous to mobilize the Muslims and their leaders against the Crusaders. And the deeds of Saladin later became a parable among the Muslim people, probably up to now. So, Sharaf ed-Dîn al-Ḥillî (d. 627 A.H./1229 A.D.)[160] spoke to al-Ẓâher Ghâzî, the son of Saladin, reminding him of the triumphs and achievements of his father.[161]

According to these conclusions, the poetry of the time of Saladin presented nothing new about the deeds of Saladin. It repeated briefly the events, which were recorded in the historical sources. However, it showed that most of the poets of his time were propagandists and played a vital role in the making of Saladin's reputation in the Islamic world. It also showed the psychological status of the Muslims before and after Ḥiṭṭin.

---

[158]Fityân al-Shaghûrî, *The poem of tubna al-mamâlik*, line 9.

[159]Fityân al-Shaghûrî, *The poem of tubna al-mamâlik*, lines 13-14.

[160]Sharaf ed-Dîn al-Ḥillî is Abû al-Wafâ' Râjeh bin Abî al-Qâsim. He was born in 572 A.H./1176 A.H. in al-Ḥilla of Iraq and died in 627A.H./1229 A.H. He was a poet of the tribe of Banî Asad. He moved from al-Ḥilla to Baghdad under the caliphate of Abû al-'Abbâs Aḥmed al-Mustaḍi'. But he did not stay there for long and went to Syria and Egypt. He has a poetry collection which shows that he was a *Shî'î*. See Ibn Khallikân, *Wafiyyât al-A'yân*, 4:7, and 10.

[161]Sharaf ed-Dîn al-Ḥillî, "*The poem of areḥ al-maṭiyya men al-wajîf*," in *Poetry Collection of Sharaf ed-Dîn al-Ḥillî*, ed. by Cultural Foundation of UAE, in *The Poetic Encyclopedia* (Abû Dhabi, 2003), lines 15-18; idem, *The poem of enna nufûsan balaghat*, lines 38-32; idem, *The poem of qaḍat laka al-bîyḍu wa-l-qanâ*, lines 25-28.

no chance to stay there for a long time to establish a Crusader community such as that of Antioch, Edessa, Tripoli, or Jerusalem.

Ibn 'Anîn refers also to the conquests of Saladin of some Syrian cities and says that the dust of the attack of Saladin on Caesarea hid the sun.[152] This remark means that the troops of Saladin were too many.

The questionable point here is why ibn 'Anîn praised Saladin although he was a satirist? Ibn 'Anîn was one of the professional poets of the time of the Crusades. He had a great knowledge of poetry, Arabic, and culture. During the time of Nûr ed-Dîn Maḥmûd, when he was sixteen years old, he wrote poetry. After the death of Nûr ed-Dîn Maḥmûd Damascus was captured by Saladin. Then ibn 'Anîn showed his political trends against Saladin and his ministers. He satirized them many times in his poems. One day he satirized Saladin "Our Sultan is hobbled, his writer is bleary and his minister is back-hunched".[153]

سلطاننا أعرج، وكاتبه ذو عمش والوزير منحدبُ

Ibn 'Anîn also satirized one of Saladin's men, Ass'ad ibn Elyâs al-Tabîb.[154]So, Saladin ordered ibn 'Anîn to leave Damascus. He left it and moved from country to other, such as Iraq, Mesopotamia, Khwrasan, Khwarizm, India and others.[155] After his dispersion in many countries he decided to contact the Ayyubid dynasty. But, while he couldn't go to Egypt because Saladin did not forgive him, he went to the brother of Saladin, who was the governor of Yemen. He praised him in many poems.[156] It is probable that he praised Saladin too during his stay in Yemen to gain his cordiality and his forgiveness. I think that Saladin did not forgive ibn 'Anîn because he did not return to Damascus during his life. He returned to Damascus only after the death of Saladin, when he took permission from al-Malik al-'Âdil to enter it.[157]

Conclusion:

Thus, the contemporary Muslim poets who composed poetry about Saladin referred to all the stages of his life, beginning with the time of leadership under Asad ed-Dîn Shirkuh, the minister under the Fatimid Caliphate, and Sultanate of Egypt and Syria. The range of the praise in their poems was varied from one stage to another. It reached the top

---

[152]Ibn 'Anîn, *Yâ dahru wayḥak,* lines 30-32.
[153]Sallâm, *The Literature,* p. 341.
[154]Ibn Taghrî Bardî, *Al-Nujûm al-Zâhira,* 6:113.
[155]Badawî, *The Literate Life,* pp. 222, and 225-226.
[156]Badawî, *The Literate Life,* p. 227.
[157]See Badawî, *The Literate Life,* pp. 228-230.

would have been destroyed, neglected and replaced in Egypt had it not been for him. And the Franks controlled Egypt and their people left the chamber of the mosque of 'Amr ibn al-'Âṣ a temple.[149]

30 لولاك لانفصمت عرى الإسلامِ فـــي مصر وأخمِل ذِكـــرهُ وتَبَـــدّلا

31 وتحكمت فيها الفرنـــج وغـــــادَرَت أعلاجها محراب عمرو هيكلاً

Translation: If it were not for you, the bonds of Islam would have been broken and Islam would have been neglected and replaced in Egypt;
The Franks would have been its absolute rulers; the priests would have turned the Mosque of 'Amr into a temple.

Ibn 'Anîn refers not only to the combined attack of the Crusaders and the Byzantine fleet on Damietta 1169 A.D./ 565 A.H. but also to important information that the Franks transformed many of its mosques into churches. But he says that Saladin saved them from the Frankish plan of destruction which would have reduced these mosques to shambles.[150]

27 وبثغرِ دِمياط فَكم مــــن بيعــــــةٍ عُبِدَ الصليبُ بها وكانت مسجدا

28 أنقذتها من خُطةِ الخَســفِ الّتــــي كانت أحلّتها الحضيضَ الأوهدا

Translation: In the port of Damietta, how often the cross was worshipped in a church that was once a mosque,
Until you restored it to what it was and uplifted it from its erstwhile degradation.

The latter information of ibn 'Anîn shows the continuity of the hostile policy of the Crusaders towards the conquered Muslims' lands, which began with the first Crusade. It is known that they changed many mosques to churches after their entry to the holy lands[151] and after seventy-two years of the first Crusade they maintained this policy and changed many mosques of Damietta to churches. Probably this policy forced the Crusaders to do it in Damietta or they wanted to intrigue against the Muslims, especially when we know that the Crusader-Byzantine expedition against Damietta lasted a short time and they had

[149]Ibn 'Anîn, "*The poem of ja'ala al-'itâb ilâ al-ṣudûd*," in *Poetry Collection of ibn 'Anîn*, ed. by Cultural Foundation of UAE, in *The Poetic Encyclopedia* (Abû Dhabi, 2003), lines 30-31.

[150]Ibn 'Anîn, *The poem of yâ dahru wayḥak*, lines 27-29.

[151]The historians of the time of Saladin declare that the Crusaders removed the Islamic sights from Jerusalem and changed it to Christian places. They changed al-Aqṣâ mosque and *Qubbat al-Ṣakhrah* into temples. So, when Saladin entered to Jerusalem he restored these places as Islamic places. See note 95.

جَنى أهلِ تلكَ القلعـــةِ الشَّــرَّ إذ رأَوْا   هواديها كالباسقات من النَّخــلِ 46

غدا بَعلُها الإبرنس يلعنُ عُرســــــــه   بها وهي لا تنفكُّ من لعنةِ البَعلِ 47

وقد رجمتها المنجنيقاتُ إذ رَمَــــــت   لشيخٍ لعينٍ كـافرٍ جاهـلٍ رَذلِ 49

Translation: The inhabitants of that castle reaped evil when they saw its front walls high like palm-trees.

Its master, the prince, took to cursing his relation with it, and continued to do so.

The catapults strafed it as they would pelt an old, accursed, ignorant, and evil disbeliever.

In 579 A.H./1183 A.D. Saladin and his brother al-'Âdil attacked al-Kerak with many soldiers and besieged it with catapults for several weeks. The besiegers struck the wall of the fortress with stones and succeeded in destroying a part of it. But they failed to enter the fortress because of the deep and wide ditch which was like a wide valley. Although they tried to cross it they failed. Then, the month of fasting of the Muslims, i.e. *Ramadan*, was about to come. So, Saladin left al-Kerak and went to Damascus with his army.[145] Although ibn Rashîq al-Qayrawânî refers to the conquest of Jerusalem,[146] he determines the day of Saladin's entry to it as Friday (line 65).

Finally ibn 'Anîn (d. 632 A.H./1234 A.D.)[147] was interested in showing Saladin as a protector of Islam and its lands, especially Egypt, Mecca and al-Medina. He refers indirectly to the attempt of the Franks to attack Mecca and al-Medina.[148]He declares that the bonds of Islam

---

worked in *Diwân al-Djaîsh* under al-Malik al-Kâmil in 606 A.H./1210 A.D. he has many books and a poetry collection. See, Badawî, *The Literate Life*, pp. 196-203.

[144]Ibn Rashîq al-Qayrawânî, "*The poem of waṣaftoka wallaḥî yu'âned* ," in *Poetry Collection of ibn Rashîq al-Qayrawânî*, ed. by Cultural Foundation of UAE, in *The Poetic Encyclopedia* (Abû Dhabi, 2003), lines 46-51.

[145]Al-Iṣfahânî, *Al-Barq al-Shâmî*, 5:152-153, and 162; Ibn Taghrî Bardî, *Al-Nujûm al-Zâhira*, 6:29.

[146]Al-Qayrawânî, *Waṣftuka wallaḥî yu'ânid*, lines 56-66.

[147] Ibn 'Anîn is Muḥammad bin Naṣr Allâh bin Makârim al-Dimashqî al-Ansârî al-Kûfî. He was born in Damascus in 549 A.H./1154 A.D. and died there in 632 A.H./1234 A.D. He was a satirist even Saladin was satirized by him. After the death of Saladin he returned to Damascus and he praised al Malik al 'Âdel. He was a minister to al-Malik al-Mu'aẓẓam and al-Malik al-Nâṣir in Damascus. See Ibn Khallikân, *Wafiyyât al-A'yân*, 5:14-19. Compare Sallâm, *The Literature*, pp. 340-349; Badawî, *The Literate Life*, pp. 222-237.

[148]Ibn 'Anîn, "*The poem of yâ dahru wayḥak*," in *Poetry Collection of ibn 'Anîn*, ed. by Cultural Foundation of UAE, in *The Poetic Encyclopedia* (Abû Dhabi, 2003), lines 23-26.

The motives of al-Jilyânî to praise Saladin in his poetry are not clear in the sources. But ibn abî Uṣaybi'ah mentions that Saladin respected him so much and gave him so many benefactions.[136] This short information answers why al-Jilyânî praised Saladin in his poetry and showed that the relations between them were so strong that he wrote a poetry collection, which is called "*al-Mobashirât wa-l-Quddsiyyât*, to describe the battles of Saladin against the Crusaders and to praise him. He also wrote another book about him too.[137]Thus, the strong relations between Saladin and al-Jilyânî led the latter to praise Saladin in his poetry.

The poet ibn al-Sa'âtî (d. 604 A.H./1207 A.D.)[138]who contacted the Ayyubid statesmen, such as Saladin, al-'Âdil and others, praised the courage, noble-mindedness, and the morals of Saladin. He wrote many poems about the conquest of Tiberias[139]and the conquest of Jerusalem by Saladin.[140]He also referred to the third crusade of Richard the Lion Heart.[141]It is remarkable that most of the poems of ibn al-Sa'âtî which he wrote about Saladin were panegyric. The motives of ibn al-Sa'âtî to do it are unclear. But, according to his biography it is probable that he found that Egypt was the country where he liked to stay. So, when he was thirty years old he left Damascus and went to Egypt. His praising poetry of Egypt and its cities reflected this hypothesis. In this case it will be acceptable to find someone like ibn al-Sa'âtî who praises Saladin, Sultan of Egypt. He stayed in Egypt until his death.[142]

Ibn Rashîq al-Qayrawânî (d. 608 A.H./1211 A.D.)[143] recorded in his poetry the attack of Saladin on al-Kerak where he says:[144]

---

[136]Ibn abî Uṣaybi'ah, '*Uwn al-Annbâ'*, p. 630.

[137]Ibn abî Uṣaybi'ah, '*Uwn al-Annbâ'*, p. 635.

[138]Ibn al-Sa'atî is Abû al-Ḥasan Alî bin Rustum . He was born in Damascus in 553 A.H./1158 A.D. and died in Egypt in 604 A.H./1207 A.D. He had some of poetry collections. See Al-Dhahabî, *Shadharât al-Dhahab fi Akhbâr man Dhahab*, 4 vols. (Beirut, n.d.), 3:13-14; Kilânî, *The Crusades*, p. 304.

[139]Abû Shâma, *Kitâb al-Rawḍatyn*, 3:305-307; Ibn Taghrî Bardî, *Al-Nujûm al-Zâhira*, 6:34. See also Kilânî, *The Crusades*, pp. 305-306.

[140]Abû Shâma, *Kitâb al-Rawḍatyn*, 3:373-374. See also Kilânî, *The Crusades*, pp. 306-307; Badawî, *The Literate Life*, pp. 192-195.

[141]Badawî, *The Literate Life*, p. 195.

[142]Badawî, *The Literate Life*, p. 189.

[143] Ibn Rashîq al-Qayrawânî is Hebat Allâh bin Dja'far al-Qâdî al-Sa'îd ibn Sanâ' al-Mulk. He was born in Egypt in 550 A.H./ 1155 A.D. and died there also in 608 A.H./ 1212 A.D. He was a poet of the Egyptian nobles. He worked in *Diwân al-Inshâ'* and

Al-Jilyânî also indicates the battle of Hiṭṭîn and likens the selling of the many captives of the Franks in the markets to the collections of birds in strings without feathers.[132] The poets of the time of Saladin mentioned many times that the Crusader captives were so many.

Al-Jilyânî refers to the conquest of Jerusalem by Saladin[133] and regards the fighting of Saladin against the Franks as an epic (line 8). His poems about Saladin's re-conquest of Jerusalem are called "*al-Quddsiyyât.*"[134]

Besides this historical-poetic evidence of al-Jilyânî, he presents unique information about the third Crusade.[135] Some of his verses about Saladin show that the Franks were outraged because of the defeat of the Crusaders at Hiṭṭîn and the fall of Jerusalem by Saladin. So, they mobilized the European kings to participate in a new expedition against Saladin (line 4). Al-Jilyânî says that the Franks of Europe objected to abandoning Jerusalem (line 5); that many kings sailed to save the holy sepulcher from the Muslims (line 6); that they mobilized their people to go with them and prepared much money for the planned expedition (line 8):

4 هاجَ الفرنجُ وقَد خـاروا لفَتكَتـهِ   فاستنفروا كُلَّ مرهوبٍ تُغَلغِلُه
5 لمَّا سبى القُدسُ قالوا كيفَ نَترُكُها   وَالربُّ في حَفرةَ منها تُمَثِّلُهُ
6 فَكَم مَليكٍ لَهُم شَقَّ البحـارَ سَـرىَ   لِيَنصرُوا القَبرَ والأقدارُ تَخذلُـهُ
8 اِستَصرَخوا الأهلَ وَالعَدوى تُمَزِّقُهُم   وَاستكثَروا المالَ وَالهيجا تُنَفِّلُهُ

Translation: When the Franks became weak, they were excited and they mobilized every strong [king].

For the capture of Jerusalem, they said how to leave it and the Lord is buried there.

How many kings of them navigated at night to save the sepulcher, and the fate abandoned them.

They stimulated {appealed to} their people, while the infection rend them, and collected the money which the war increased.

---

[132]Al-Jilyânî, *Taṣârēf dahrin,* line 15.

[133]Al-Jilyânî , *The poem of Allâh Akbar,* lines 1-8. See also Kilânî, *The Crusades,* pp. 213-214.

[134]Kilânî, *The Crusades,* p. 213.

[135]Al-Jilyânî, *The poem of yâ munqidh al-Quds,* lines 4-12. See also Ḥammza, *The Literature,* p. 145; Kilânî, *The Crusades,* pp. 213-214.

officials.[122]He was the personal secretary of Saladin since 1175.[123]So, he accompanied Saladin almost without intermission from the summer of that year until his death.[124]Besides these facts al-Iṣfahânî dealt with Nûr ed-Dîn Maḥmûd before Saladin and had a good experience and he knew how to deal with the high leaders and statesmen.[125]Thus, al-Iṣfahânî showed a deep admiration for Saladin[126]both in his chronicles and in his poetry, especially that his access to Saladin gave him personal prestige and opportunities for enrichment.[127]

'Abdul Mon'im al-Jilyânî (d. 602 A.H./1205 A.D.)[128]also persuaded Saladin to attack the Franks and to free Jerusalem and says to him, "if you didn't fight them, who would do it and destroy them?"[129]

'Abdul Mon'im al-Jilyânî shows the wonder of the Crusaders in the battle of Hiṭṭîn about the strength of Saladin.[130]

.كِنَّ بأسَ صَلاحِ الديــــنِ أذهلَهُــم بوقعَةِ التلِ واستشراءِ سَورَتــهِ 13

Translation: But the might and fury of Saladin left them stunned in the battle of al-Tall.

It is probable that the words of al-Jilyânî didn't state the fact, because the Crusaders met Saladin several times before and the strength of Saladin was clear to them. It is probable that it was Saladin's military plan not only his strength that surprised them.[131]

---

[122]Holt, "Saladin and his Admirers," p. 236.

[123]Gibb, "The Arabic Sources," p. 59.

[124]Gibb, "The Arabic Sources," p. 60.

[125]For the relation between al-Iṣfahânî and Nûr ed-Dîn Maḥmûd see Richards, "'Imâd al-Dîn al-Iṣfahânî," pp. 135-140; Lev, *Saladin in Egypt*, pp. 27-28.

[126]Gibb, "The Life of Saladin," p. 3.

[127]Richards, "'Imâd al-Dîn al-Iṣfahânî," p. 138.

[128]'Abdul Mon'em al-Jilyânî is 'Abdul Mon'im bin 'Omar bin 'Abdullah al-Jilyânî al-Andalusî. He was born in 531 A.H/1136 A.D. in Jilyanah, a village in Granada, and died in 602 A.H./1205 A.D. in Damascus. He worked as a physician there. Saladin respected him so much. So, al-Jilyânî praised him in many poems, especially the poem of *Rawḍat al-Ma'âthir wa-l-Mafâkhir*, which was composed in 568 A.H. He has ten poetry collections and much prose. See Al-Dhahabî, *Siyar A'lâm al-Nubalâ'*, 21:476-477; Ibn abî Uṣaybi'ah, *'Uwn al-Annbâ' fî Ṭabaqât al-Aṭtibâ'*, ed. Nizâr Redâ (Beirut, n.d.), pp. 630-635.

[129]'Abdul Mon'em al-Jilyânî, "*The poem of fayâ malikan,*" in *Poetry Collection of 'Abdul Mon'im al-Jilyânî* , ed. by Cultural Foundation of UAE, in *The Poetic Encyclopedia* (Abû Dhabi, 2003), lines 4-9.

[130]Al-Jilyânî , *The poem of fayâ malikan*, line 13; Abû Shâma, *Kitâb al-Rawḍatyn*, 3:365.

[131]About the battle of Ḥiṭṭîn in the poetry of al-Jilyânî see Al-Jilyânî, *The poem of taṣârîf dahrîn*, lines 1-24; idem, *The poem of fî bâṭin al-ghaiyb*, lines 2-12.

also al-Kerak, al-Shobak (*Krak de Montreal*) and Shaqif Arnun.[115]The Arab poets omitted the failure of Saladin to capture Tyre and the naval defeat of the Egyptian fleet before its coast by the Crusade fleet at 1187 A.D., which seized five Egyptian ships and the Crusaders captured the grand master and the head of the Muslim navy.[116]Ibn al-Athîr estimates the total number of the Egyptian ships at ten *Shawânî*,[117]which came from Acre to support Saladin in his besiege of Tyre.[118] The omission of this event leads us to the fact that the poets showed only the victories of Saladin and praised only his great achievements, omitting his defeats such as the defeat of al-Ramlah in 1177 A.D./ 573 A.H. by the Crusaders under the leadership of Renauld de Châtillon, or unsuccessful endeavors such as the besiege of Tyre. Although the details of the defeat of al-Ramlah is obvious in the historical chronicles,[119]al-Iṣfahânî composed a poem for al-Malik al-Mudhaffar Ṭaqiyy ed-Dîn of Ḥamâh,[120] who came with his soldiers to support Saladin, and attacked the Crusaders and killed many of them.[121]This means that those poets were interested in the victories only or they were interested in the issues which elevate the rank of the Muslims and increase their enthusiasm against their enemies.

As for the motives of al-Iṣfahânî to praise Saladin we have to keep in mind that he belonged to the inner circle of Saladin's court

[115]See Al-Iṣfahânî, *Al-Fatḥ al-Qussî*, pp. 85-100, 117-148, and 154-160, and 193; Ibn al-Athîr, *Al-Kâmil fi al-Târikh*, 10:161-162, 166-177, and 180-181; Ibn Taghrî Bardî, *Al-Nujûm al-Zâhira*, 6:38 ff.

[116]Ibn Taghrî Bardî, *Al-Nujûm al-Zâhira*, 6:38.

[117]*Shanya* was called Shînî, Shînîyah and Shûnah. The plural is Shawânî. It was a big Galley. This term, *Shânyah*, was the origin of many other ships such as *al Ghurâb*, *al-Tarîdah*, *al-Harrâqah*, and others. This galley was used in the Mediterranean and the Nile as well. (See, Darwîsh al-Nikhîlî, *Al-Sufun al-Islâmiya 'alâ Ḥurûf al-Mu'jam* (Alexandria, 1979), pp. 83-85.) Ibn Mamâtî, *Qawanîn al-Dawâwîn*, ed. Azîz S. 'Atya (Cairo, 1991), pp. 339-334, mentions that this ship had 100-140 oars and was full of the fighters, sailors and oars men. It was also full of foods, cistern of water, arms, and *al-Naft*. (Badr ed-Dîn al-'Aynî, *'Iqdu al-Jumân fi Tarîkh Ahl al-Zamân*, ed. Muhammad M. Amîn, 8 vols. (Cairo, n.d.), 4:186-187.

[118]Ibn al-Athîr, *Al-Kâmil fi al-Târikh*, 10:159-160 and Al-Iṣfahânî, *Al-Fatḥ al-Qussî*, pp. 89-90, mention the reason of the fall of these five Egyptian ships in the hands of the Crusaders. They say that their soldiers and sailors were sleeping when the Crusaders attacked them.

[119]Al-Iṣfahânî, *Al-Barq al-Shâmî*, 3:31-41; Abû Shâma, *Kitâb al-Rawḍatayn* , 2:462-466.

[120]As for this poem see Al-Iṣfahânî, *Al-Barq al-Shâmî*, 3:46-50.

[121]Al-Iṣfahânî, *Al-Barq al-Shâmî*, 3:38 ff.

from the war's land.[112] This serious event in the history of relations between the Muslims and Crusaders caused a hard shock in Europe; on the other hand it brought delight and pleasure to Muslims and restored their military confidence after the loss of Jerusalem in 1097 A.D. So, it is no wonder to see the contemporary poets of Saladin praising him so much in their poems. Of course, one of them will be his faithful secretary al-Iṣfahânî, who addresses Saladin: "No one deserves Jerusalem except you, because you are the only one who conquered Jerusalem (line 657) and you purified it from their abomination with their blood (line 659). You discarded the garment of disbelief from its holy land and clothed it with belief again. The judgments of Islam returned to the house of Allah when you left neither patriarch nor bishop (line 661). Rejoice, it is known far and wide that the *adhân* of Jerusalem has cancelled all bell-ringing."[113] (line 662).

The conquest of Jerusalem by Saladin made the poets, such as al-Iṣfahânî, ask him strongly to re-conquer Tyre, Tripoli, and Antioch and to drive the Crusaders out of all the Syrian coast.[114]

مـــن بعد فتحك بيت القدس ليس ســـوى　　صور فإن فتحت فاقصد طرابلسا

أثرْ على يوم انطرســـوس ذا لجـــــب　　وأبعث إلى ليل أنطاكـــية العـــسسا

وأخـلِ ساحـــل هـــذا الشـــام أجمعـــه　　من العداة ومـــن فـــي دينه وكـــسا

Translation: After reconquering Jerusalem, there remains Tyre, and when that is reconquered, then march onto Tripoli.
Marshal to Antaradus an ear-deafening legion, and into the night of Antioch send your spies.
And clear the entire coast of Syria of all enemies and people of questionable faith.

So, Saladin began to raid the possessions of Tripoli and Antioch. By the end of 1188 A.D./584 A.H. Saladin captured the cities and castles of Tripoli and Antioch, such as the castle of Hunin, Safad, fortress of Beavoir, Banyas, Gibellum, Laodicea (today is Lattakia), and the fortresses of Saone, Cursat, Baghras and Darbsak. Later, he captured

---

[112]About the fall of Jerusalem by Saladin see Abû Shâma, *Kitâb al-Rawḍatyn*, 3:333-358; Ibn Taghrî Bardî, *Al-Nujûm al-Zâhira*, 6:35-37; Ibn al-Athîr, *Al-Kâmil fi al-Târîkh*, 10:154-185.

[113]Al-Iṣfahânî, *Kataba al-'adharu*, lines 657-662. See also another poem in, Abû Shâma, *Kitâb al-Rawdatyn*, 3:364; idem, *Al-Fatḥ al-Qussî*, pp. 66-82.

[114]Abû Shâma, *Kitâb al-Rawḍatyn*, 3:364.

These verses reflect the hope of the Muslims to re-conquer Jerusalem and Tyre, which is shown in their historical writings too. Abû Shâma repeats the same idea and declares that Saladin conquered all the coastal cities except Jerusalem and Tyre.[107] Al-Iṣfahânî also asks Saladin to march towards Tripoli, Neapolis,[108]and Antioch.[109] In another poem he urges Saladin to cross the Euphrates river to free Edessa from its Crusader captivity and to free Ḥarran too.[110]

42 فاعبُر إلى القومِ الفراتَ ليشربوا الـ ـموتَ الأجاجَ فقد طَما طفّاحُهْ

43 لتَفُكَّ مـن أيديهـمُ رَهْـنَ الرُّهـا عجلاً ويدركَ ليلَها إصباحُـهْ

44 وابغوا لحرانَ الخـلاصَ فكـم بهـا حرّانُ قلبِ نحوكـم مُلتاحـهُ

Translation: Cross the Euphrates to the enemies to give them a salty taste of overflowing death

And wrest Edessa from their hands and give her light after the long dark night.

Seek salvation for Ḥarran wherein many a burning heart pines for your help.

It seems that al-Iṣfahânî was so full of hope that he asked Saladin to march towards Mesopotamia and Khorasân, and capture them with the Turks and Persians. He also asked Saladin to march towards Georgia after the Franks to fight the Georgians.[111]

674 وإنَّ بلادَ الشـرقِ مظلمـةٌ فَخـُذْ خراسانَ والنهرينِ والتُركَ الفُرْسا

675 وبعد الفرنجِ الكُرْكَ فاقصد بلادهُم بعزمكَ وأملأ من دمائهمُ الرَّمْسا

Translation: The countries of the Orient are dark, so capture Khurasân, Mesopotamia, the Turks and Persians.

After the Franks, march towards the country of the Georgians by your intention, and fill the grave with their blood.

The latter verses probably reflect the Muslims' desire to re-conquer the lost lands and they hoped that Saladin will be the awaited champion who will restore and unite the Islamic World from Persia to Andalusia.

On the 2nd of October 1187 A.D./ 27th of Rajab 583 A.H. Saladin entered Jerusalem after his victory over the Crusaders, who withdrew

---

[107]Abû Shâma, *Kitâb al-Rawḍatyn,* 3:328.

[108]Al-Iṣfahânî, *Bushrâ al-mamâlik,* line 8.

[109]Abû Shâma, *Kitâb al-Rawḍatyn,* 3:363-364.

[110]Al-Iṣfahânî, *The poem of yawmun aḥabba,* lines 42-44. See also Ḥammza, *The Literature,* p. 115.

[111]Al-Iṣfahânî, *Kataba al-'adharu,* lines 674-675.

the conquest of Acre was badly needed to drive the Crusaders completely out of the coastal cities of Syria (line 666).

666 وعكا وما عكا فقد كان فتحُها   لإجلائهم عن مُدنِ ساحلهم كلِّسا
667 وصيدا وبيروتٌ وتبنينُ كلُّها   بسيفكَ ألقى أنفهُ الرَّغمَ والتعَسا
668 ويافا وأرسوفٌ وتُبنَى وغـزةٌ   تَخِذتَ بين الطُّلى والظُّبى عُرسا
669 وفي عسقلانَ الكفرُ ذلَّ بملككمْ   فمنظرهُ بلْ أمرُهُ اربدَّ وارجسا

Translation: And Acre, how about Acre! Its conquest made them leave all their coastal cities,

And in Sidon, Beirut, and Tibnîn you defeated the enemy by your sword and made them miserable and humble,

And Jaffa, Arsûf, Tubnâ and Gaza your sword's blade cut their necks,

And in Ascalon the disbelief became humble by your monarchy, its shape became black and dirty.

After Saladin's re-conquest of the Syrian cities and castles al-Iṣfahânî asks Saladin to re-conquer Tyre and destroy the remaining Crusaders completely.[105] Ibn al-Athîr[106] states that at this time most of the Franks went to Tyre to prepare themselves against Saladin's armies. Al-Iṣfahânî warns Saladin that there was a league of the Crusaders in Tyre watching his military activities. He also urges Saladin to push these Crusaders to fight (lines 670, 672). But he refers to unique information about the collapse of the Crusaders' economy after Ḥiṭṭîn, when he says that the value of the Crusader coinage *dinar* decreased and became like a *fils* in value (line 672).

670 وصارَ بصورٍ عصبةٌ يرقبونكمْ   فلا تُبطئوا عنها وحَسُّوهمُ حَسّا
672 ودمرْ على الباقينَ واجتثَّ أصلَهُمْ   فإنكَ قد صيَّرتَ دينارهم فَلْسا

Translation: There is a league in Tyre watching you, so don't be delayed to it and kill them fully,

And destroy the remained and remove their origin; you made their dinar a *fils*.

[104]Al-Iṣfahânî, *The poem of bushrá al-mamâlik*, line 1. As for these events see Al-Iṣfahânî, *Al-Fatḥ al-Qussí*, pp. 53-66. Al-Iṣfahânî mentioned these conquests in another poem too. See Ḥammza, *The Literature*, p.116.

[105]Al-Iṣfahânî, *Kataba al-'adharu*, lines 670, and 672.

[106]*Al-Kâmil fí al-Târíkh*, 10:148, and 152-153; Abû Shâma, *Kitâb al-Rawḍatyn*, 3:327.

no captives and the countless Crusader captives at Hiṭṭîn gave the impression that none of their men was killed.[96]

The period, which followed the victory of Hiṭṭîn in Arabic poetry, could be called 'the time of stimulation or the time of mobilization in the Muslim thought'. It is notable that in the poetry of that time the poets urged Saladin to invade the Syrian cities and restore them from the hands of the Crusaders.[97] For instance, al-Iṣfahânî asked Saladin in his poems to re-conquer Jerusalem.[98] He says: "Do not neglect holiest Jerusalem and resolve to re-conquer it as soon as possible."[99]

In another place he repeats the same wish when he says: "You conquered Egypt and I hope you will re-conquer Jerusalem just as easily."[100]He informs Saladin that the difficult issues will be easy by Allah, should he ask him, and describes the conquest of Jerusalem as the "the great conquest" which quenches their thirst.[101]

نهوضاً إلى القدسِ يشفي الغليـــــلَ　　　بفتح الفتوحِ ومــاذا عســـيرُ 314

سلِ الله تسهيلَ صعب الخطـــوب　　　فهو على كل شــيءٍ قديــــرُ 315

Translation: Up to Jerusalem! Only that would quench our thirst for the Great Conquest beside which all else is easy.

Ask Allah to make easy the toughest of hardships, for He is indeed omnipotent.

Al-Iṣfahânî traces the conquests of Saladin in Syria after the battle of Hiṭṭîn and gives in his poems an account of the Syrian cities and castles, which were conquered by Saladin and his brother al 'Âdîl.[102] He begins with Tberias, Acre, Sidon, Beirut, Tibnîn, Jaffa, Arsûf, Gaza, Ascalon,[103] and the castle of Manbij (Hierapolis).[104]He showed also that

---

[96]Ibn al-Athîr, *Al-Kâmil fi al-Târikh*, 10:148.

[97] Muḥammad S. Kilânî, *The Crusades and its Influence on the Arabic Literature in Egypt and Syria* (Cairo, 1949), pp. 234-235. (in Arabic) (henceforth Kilânî, *The Crusades*)

[98]See, *Bi-mulke Miṣr*, lines 23-25; *The poem of 'afâ Allâh 'ankum*, lines 24-25.

[99]Al-Iṣfahânî, *Abû Yûsuf al-iḥsân*, lines 18-19.

ولا تهملــوا البيتَ المقــدسَ واعزمـــــوا　　　علــى فتحــه غازينَ وافترعــوا البكـرا 19

[100]Al-Iṣfahânî, '*Bi-ljide adrakta,*' line 6.

فتحتَ مصـــرَ وأرجـــو أن تصـــير بهـــا　　　مُيَسَّــراً فتحَ بــيت القــدس عــن كَـثَبِ 6

[101]Al-Iṣfahânî, *Kataba al-'adharu*, lines 314-315. See also Ḥammza, *The Literature*, p. 112.

[102]As for the historical accounts see Abû Shâma, *Kitâb al-Rawḍatyn*, 3:318-320; Ibn al-Athîr, *Al-Kâmil fi al-Târikh*, 10:144 ff.; Ibn Taghrî Bardî, *Al-Nujûm al-Zâhira*, 6:35.

[103]Al-Iṣfahânî, *Kataba al-'adharu*, lines 665-669; idem, *The poem of hum al-mulûk*, line 3.

فلله ما اهدى فتكت به   واطهر سيفاً معدماً رجسَةُ النجْسا 694

نسفت به راسَ البرنسِ بضربةٍ   فاشبة راسَهُ العهْنَ والبُرْسا 695

بعثتَ إمامَ أمةِ النار نحوّها   فزارَ إمام أرناطها ذلكَ الحبسا 697

Translation: The head of the prince became dry, when the sword cut it and the blood flowed.

Because of his deeds and his treachery the sword drank his blood.

His death was a gift from Allah, and this sword ended his evil.

By a strike, you destroyed the head of the prince, and his head became like the flying cotton and wool.

You sent the *imâm* of the hell-bound nation to it until Ernât came to rest in that jail.

When al-Işfahânî speaks of the Crusader captives of Hiţţîn,[93] he says that they were so countless that the countries of God were full of them. The Muslims bought these captives at a cheap price, i.e. with the fighting, and they presented them in the markets of slaves. He says because the Crusader captives were so many in the markets there was no one who would like to buy them.[94]

سَبايا بـلاد اللهِ مملوءةٌ بها   وقد شُرِيَتْ بَخْساً وقد عُرِضتْ نَخْسا 690

يُطافُ بها الأسواق لا راغبٌ لها   لكثرتها كم كثرةٍ تُوجِب الوُكْسا 691

Translation: The Lord's lands are full of countless captives--cheaply purchased, sold as slaves.

They were too many no wonder they were shunned by buyers in over-flooded markets.

The accurate details of these verses of al-Işfahânî mean that he accompanied Saladin at the war. On the other hand, they agree with the account of Abu Shâma about the captives of Hiţţîn, where he says that the Frankish captives of Hiţţîn were countless. One day someone bought a Frankish man and his wife and three sons and two daughters for eighty *dinars*. The Crusader captives were so many so that one day a poor Muslim soldier sold a Frankish captive for a pair of sandals.[95] The so many Crusader men killed at Hiţţîn gave the impression that there were

---

[93]About them see Pernoud, *The Crusades*, p. 168.

[94]Al-Işfahânî, *Kataba al-'adharu*, lines 689-691. See also Abû Shâma, *Kitâb al-Rawdatyn*, 3:284, and 303.

[95]Abû Shâma, *Kitâb al-Rawdatyn*, 3:299.

The sources reflect the hatred of the Muslims to Renauld de Châtillon not only because he was a Crusader, but also because he raided the holy lands of Mecca and Medina in 1182 A.D./578 A.H. after his capture of the ports of Ailah and 'Aydhâb on the Red Sea.[88] Saladin in the next year 1183 A.D./579 A.H. besieged the fortress of al-Kerak, but he failed to capture it. Later in 1186 A.D./ 582 A.H. Renauld de Châtillon attacked a large caravan, that was going from Cairo to Damascus, in which Saladin's sister was travelling, violating the truce between Saladin and the kingdom of Jerusalem.[89] King Guy of Lusignan chastised Renauld in an attempt to appease Saladin, but Renauld replied that he was lord of his own lands and that he had made no peace with Saladin. Saladin swore that Renauld would be executed if he was ever taken prisoner.[90] Abû Shâma[91] adds another reason of Saladin's vow to kill Renauld. He claims that Renauld insulted the Prophet Muḥammad when he said to Saladin's legates: "Say to your Muḥammad to save you."

Al-Iṣfahânî in his long poem of *kataba al-'adharu 'ala al-khudûd*,[92] states these events, especially the issue of the execution of Renauld de Châtillon, prince of al-Kerak, and how Saladin's sword cut his head (lines 692,695,697). He also refers to Renauld de Châtillon's treachery to Saladin as the reason for his death (line 693). He addresses Saladin: "You sent the *imâm* of the hell-bound nation to it until Ernât came to rest in that jail" (line 697).

692 شكا يبساً رأسُ البرنسِ الذي به تــندى حُسام حاسمٌ ذلك اليُـــبسا

693 حســا دَمهُ ماضي الغِرار لقدرِه ومـــا كان لولا غدرهُ دَمهُ يُحسَـــىَ

---

[88]See Al-Iṣfahânî, *Al-Barq al-Shâmî*, 3:84; 4:70-75; Abû Shâma, *Kitâb al-Rawḍatayn*, 3:134-141.

[89]Gibb, "The Rise of Saladin," p. 585; Baldwin, "The Decline and Fall of Jerusalem," p. 606; Nicolle, *Hattin 1187*, p. 56.

[90]Abû Shâma, *Kitâb al-Rawḍatyn*, 3:274, 288. Ibn Taghrî Bardî, *Al-Nujûm al-Zâhira*, 6:34, says that Saladin asked Renauld to accept Islam, but the latter refused. Then he executed him by himself. But al-Iṣfahânî, *Al-Fatḥ al-Qussî*, pp. 50-51, says that Saladin blamed him for his bad behaviors and treachery with him, and refused to drink the water without his permission. Then, he killed him and ordered his soldiers to cut his head and drag his body outside his tent. See also Nicolle, *Hattin 1187*, pp. 77-78; Karen Armstrong, *Holy War: the Crusades and their Impact on Today's World* (New York, 1988), pp. 253-254.

[91]*Kitâb al-Rawḍatyn*, 3:296; Ibn Taghrî Bardî, *Al-Nujûm al-Zâhira*, 6:33.

[92]Lines 692-699; Abû Shâma, *Kitâb al-Rawḍatyn*, 3:303. See also Al-Jilyânî, *Taṣârîf dahrin*, lines 12-19; idem, *Fî bâṭin al-ghaiyb*, line 12; Al-Iṣfahânî, *The poem of 'uqidat be-naṣrika*, lines 10-11.

The tune of motivation in these verses is mentioned before al-Işfahânî by al-Qâḍî al-Fâḍil (d. 596 A.H./1199 A.D.)[83] when he speaks of Saladin, in a metaphoric style, "You had no Noah's ark to board, though the armies were like his floods, when the trumpet for the re-conquest of Syria was sounded."[84]

Al-Işfahânî, who refers to the battle of Hiṭṭîn, says that Saladin disgraced the Crusader kings and wiped out their disbelieving hordes.[85]

حطمْتَ على حِطين قدرَ ملوكهـمْ   ولم تُبقِ من أجناسِ كفرهمُ جِنسا 678

Translation: At Hiṭṭîn you trampled on the honor of their kings, and wiped out their infidel races to the last man.

It is known that at Hiṭṭîn Saladin captured Guy of Lusignan, the Crusader king of Jerusalem, Renauld de Châtillon, the prince of al-Kerak, the grand master of the Templars, some Hospitallers, and others.[86]D. Nicolle adds that the captive Hospitallers were given the choice of converting to Islam or execution. Two hundred and thirty of them were slaughtered and a few converted to Islam.[87]

---

[83]Al-Qâḍî al-Fâḍil is Abû 'Alî 'Abdul Rahîm Ibn al-Qâdî al-Ashraf Bahâ' ed-Dîn bin Aḥmad Allakhmî, who was surnamed Mujîr ed-Dîn al-Qâḍî al-Fâḍil. He was born at 'Ascalon in 529 A.H./ 1135 A.D. and passed away in Egypt in 596 A.H./1200 A.D. He was the minister of Saladin and was distinguished and expert at *Diwân al-Inshâ'*. Some says that If we collect the drafts of his messages and his comments they will be at least one hundred volumes. He was very intelligent, clever, and nice too in his writings and poetry. (Ibn Khallikân, *Wafiyyât al-A'yân*, 3:158-159.) After the death of Saladin al Qâḍî al-Fâḍil remained in his high position and dignity, during the time of Sultan al-'Azîz, son of Saladin and al-Malik al-Mansûr, his grandson. He was still so until the arriving of al-Malik al-'Âdil to Egypt and his conquest it, where he passed away. See Ibn Khallikân, *Wafiyyât al-A'yân*, 3:162; Al-Dhahabî, *Siyâr A'lâm al-Nubalâ'*, ed. Shu'ayb al-Aranâ'ōt and Muḥammad al-'Irqesûsî, 23 vols. (Beirut, 1413 A.H.), 21:343-344. M. A. 'Attallah, *The Letters of al-Qâḍî al-Fâḍil* (Tanta, 2000), pp. 2-15. (in Arabic)

[84] سفينة نوح ما رَكِبتَ وعَسكَرٌ   كطوفانه والشامُ بِالفتحِ قَد نُودي

Al-Qâḍî al-Fâḍil, "*The poem of jihâduk ḥuk Allah,*" in *Poetry Collection of al-Qâḍî al-Fâḍel,* ed. by Cultural Foundation of UAE, in *The Poetic Encyclopedia* (Abû Dhabi, 2003), line 2.

[85]Al-Işfahânî, *Kataba al-'adharu*, line 678; Abû Shâma, *Kitâb al-Rawḍatyn*, 3:302; Ibn Taghrî Bardî, *Al-Nujûm al-Zâhira*, 6:34.

[86]Ibn al-Athîr, *Al-Kâmil fi al-Târikh*, 10:148; Ibn Taghrî Bardî, *Al-Nujûm al-Zâhira*, 6:32-33. See also Nicolle, *Hattin 1187*, pp. 77-78. Abû Shâma, *Kitâb al-Rawḍatyn*, 3:284, and 288, gives more details about the Crusader captives of Hiṭṭîn:

"فتم أسر الملك وإبرنس الكرك وأخي الملك جفري وأوك صاحب جبيل وهنفري بن هنفري وابن صاحب إسكندرونة وصاحب مرقية وأسر من نجا من القتل من الداوية ومقدمها ومن الإسبتارية ومعظمها من البارونية"

[87]Nicolle, *Hattin 1187*, pp. 78-79.

With his justice and righteousness she was raised, with generosity and fairness she was girdled.
He defended her against the desecration of the treacherous and purified her from the filth of her enemies.
Indeed, Egypt under the rule of her [new] Joseph is a paradise to be coveted.

The writing style of al-Iṣfahânî in his historical books is very literary and full of zeugmas and other rhetorical devices. We can say that it is not only a versified prose, but also pure historical accounts. Thus, we can imagine how his poetry will be.

Anyway, there is a kind of literary hyperbole in his above-mentioned verses but they refer to some historical facts. For example Saladin cancelled all the taxes in Egypt in 566 A.H./1170 A.D., destroyed the prison of *al-Ma'ûnah*, built a school to teach al-Shâfi'î doctrine, and another for al-Mâlikî doctrine.[80] Finally, al-Iṣfahânî congratulates Egypt on her new monarch Saladin, and regards this event had as a divine dispensation:[81]

هنيئاً لمصرِ حَوز يوسف ملكــهــا   بأمر من الرحمنِ قد كان موقوتا 1

Translation: Blessed be Egypt to be under Yûsuf whose rule there was a timely decree from the Merciful.

After the fall of the Fatimid Caliphate in Egypt at the hands of Saladin, the people looked forward to the next step, that is, liberation of Syrian and Palestinian lands from the Crusaders. This is obvious in the poetry of that time, where al-Iṣfahânî[82] urges Saladin to attack the Franks. He told him that "this is the time of invading them" and destroying their hordes. He asked him to purify Jerusalem from the filth of the Franks and to attack the enemy (lines 23-24).

أغزُ الفرنجَ فهــذا وقــتُ غزوِهــمُ   وأحطمْ جموعهمُ بالذابلِ والحطِمِ 23

وطهر القدسَ من رِجْسِ الفرنجِ وثبْ   على البغاثِ وثوبَ الأجدلِ القَطِمِ 24

Translation: Attack the Franks, this is the time, and smash their hordes with sword and fire.
Purify Jerusalem from the filth of the Franks and swoop down on those worthless birds like a brave eagle.

---

[80] Al-Maqrîzî, *Et'âz al-Ḥonafâ*, 3:319.
[81] Al-Iṣfahânî, *Hanî'an li-Miṣra*, line 1.
[82] *Bi-mulke Miṣr*, lines 23-25.

16 وأصبحت بك مصر بعد خيفتها   للأمن والعز والإقبـــال كالحـــــرمِ
17 والسنةُ اتسقت والبدعةُ انمحقتْ   وعاودت دولةُ الإحسانِ والكـــــرمِ

Translation: God helped her extinguish the ravishing flames the evil Shâwar set in the lands of Islam,
And thus the once-terrified Egypt became a sanctuary of security, glory, and prosperity,
And thus the Sunnah was re-established, the heresy (i.e. al-Shî'ah) smashed, the state of benevolence and generosity returned.

There are even some fine verses by al-Iṣfahânî in which he identifies Saladin with the Sun of the day, which comes after the full moon. He says, in a metaphoric style, that when Egypt yearned for the time of Joseph, i.e. the Prophet Joseph, Allah sent her Joseph, i.e. Saladin, and his time.[78]

10 وقام صلاحُ الدينِ بالمـــلك كافـــلاً   وكيف ترى شمسَ الضُحى تخلفُ البدرا
11 ولما صَبَت مصرٌ إلى عصرِ يوسف   أعـــادَ إليـــها اللهُ يوســـفَ والعصـــرا

Translation: Saladin rose to his responsibilities as an able king just as the forenoon sun rises to eclipse the moon.
When Egypt longed for the time of Joseph, God resent her both Joseph and his time.

Al-Iṣfahânî refers to the conditions of Egypt under Saladin. He says that the latter ruled Egypt well, decreased taxes, and administered justice all over Egypt. He states that Saladin overcame his enemies and Egypt under his rule was a wondrous Paradise.[79]

17 المـــلك الناصـــر الذي أبـــــداً   بعزِ سلطانهِ يُشـــرفـــــــها
18 قـــامَ بأحوالهـــا يُدبـــرهـــــــــا   حسناً وأثقالهـــا يُخففُـــــــها
19 بعـــدلهِ والصـــلاحِ يعمـــــــرُها   وبالنَّدى والجميل يكنفُــــــها
20 مـــن دنس الغادرين يَرْحَضُـــــها   ومن خباثِ العدا يُنظفُــــــها
21 وإن مصـــراً بملـــكِ يوسفـــــــــها   جنةُ خُلْدٍ يـــروقُ زُخرفُــــــها

Translation: The Victorious King, whose rule will forever be an honour to Egypt,
Took it upon himself to set aright her conditions and lighten her burdens.

78 Al-Iṣfahânî, *Abû Yûsuf al-iḥsân*, lines 10-11.

79 Al-Iṣfahânî, *Yaruqanî fî al-maha*, lines 17-21. He repeats the same meaning in another poem, *Yâ Yûsuf al-ḥusne*, lines 4-5.

In another poem, al-Iṣfahânî repeats his impressions about the fall of the Fatimid Caliphate in Egypt, which reflect his satisfaction. In this poem he says:[73]

1 بالمستضيء أبي مُحمدِ الحَسَــنْ   رجَعَت أمور المسلمين إلى السُنَنْ

2 في أرضِ مصرَ دعا له خطباؤها   وأتتْ لتخطبَ بكرَ خطبتهِ عــدنْ

Translation: By al-Mustaḍî' Abî Muḥammad al-Ḥassan the conditions of the Muslims returned right.

The orators, in the land of Egypt, prayed for him and 'Adan came to make the speech for him.

According to the sources, Saladin in 566 A.H./1170 A.D. arrested the Egyptian princes of the Fatimid Caliph. When the latter asked Saladin why he killed them Saladin told the Caliph that they were disobedient men and that he had to kill them to save the Caliph. He also captured the palaces of Cairo and put them under the charge of his eunuch Bahâ' ed-Dîn Qarâqûsh. In the same year Saladin changed the Fatimid symbol and removed the name of the Fatimid Caliph from the sermons of Friday prayer.[74]

The *imâms* of Egyptian mosques were afraid to return to the speech for the 'Abbasid Caliph at one time. So, Saladin brought someone who was called al-Yas' ibn 'îsa al-Andalusî, and ordered him to pray for the 'Abbasid Caliph.[75]Al-Maqrîzî states that in 567 A.H./ 1171 A.H. the *imâm* of the main mosque of Cairo, the mosque of 'Amr ibn al-'Âṣ, was ordered by Najm ed-Dîn Ayyub to pray for the "Abbasid Caliph. However, he neither prayed for the 'Abbasid Caliph nor for the Fatimid Caliph, but prayed for Saladin and *al-A'imma al-Mahdîen.* Then, he was ordered again to mention the name and the titles of the 'Abbasid Caliph in the next Friday prayer. Thus, the prayer for the Fatimid Caliph in the mosques of Egypt was stopped.[76]Al-Iṣfahânî[77] likens Egypt after its liberation from the harm of Shâwar by Saladin to *al-Haram*, i.e. the Makkan sanctuary, in its security and coming of people to it. And *al-Sunnah* was re-established and the heresy smashed, i.e. *al-Shî'ah.* Egypt became again the state of benevolence and generosity. (lines 16-17)

15 أعانها اللهُ في إطفاءِ جمرِ أذيً   من شر شاور في الإسلام مضطرمِ

[73]Al-Iṣfahânî, *The poem of bi-l-Mostaḍî' abî Muḥammad*, lines 1-2.
[74]Al-Maqrîzî, *Et'âz al-Ḥonafâ*, 3:321-322.
[75]Al-Maqrîzî, *Et'âz al-Ḥonafâ*, 3:322-323.
[76]Al-Maqrîzî, *Et'âz al-Ḥonafâ*, 3:325. See also, Lev, *Saladin in Egypt*, pp. 124-132.
[77]'*The poem of bi-mulke Miṣr*,' lines 15-22. (henceforth Al-Iṣfahânî, *Bi-mulke Miṣr*)

by the historians.[69] William of Tyre recorded the details of the Byzantine fleet of this naval expedition on Egypt.[70]

As for the fall of the Fatimid Caliphate in Egypt 'Imâd ed-Dîn al-Iṣfahânî gives some details and praises this event. According to his poems, it is obvious that he praises Saladin and is proud of him, for his restoration of the 'Abbasid Caliphate's sovereignty in Egypt. He is pleased for the return of *al-Sunnah* doctrine instead of *al-Shî'ah* doctrine in Egypt. The *imâms* of the mosques of Egypt returned to the speech for the 'Abbasid Caliph, whom 'Imâd ed-Dîn al-Iṣfahânî regards a successor of the Prophet Muḥammad (al-Mustafâ in the poem).[71](ll.353-355) He says that the pulpits of the mosques were proud of the speech for al-Hashimî, i.e. the 'Abbasid Caliph in Egypt, and the false *imâm* of Cairo, i.e. the Fatimid Caliph, was relegated to utter negligence. (lines 360, 375)

353 قــد استولى عـــلى مصـــــر بفتــح يوســف العــصــــرِ
354 وأحـــيا سنـــةَ الإحســـــا ن في البدوِ وفي الحضــــرِ
355 قد خطبنا للمستضـــيء بمصـــرَ نائبِ المصطفى إمامِ العصرِ
360 وتباهت منابرُ الديـنِ بالخطــــــ ــبة للهاشمي بأرضِ مصــرِ
375 والذي يدعي الإمامـــةَ بالقـــــا هرةِ انحط في حضيضِ القهرِ

Translation: A modern-day Joseph has rightfully taken possession of Egypt,[72]
Where he revived the tradition of benevolence in city and desert alike.
In our sermons we so hailed al-Mustaḍî' as a successor of the Prophet and the Imam of our times,
That the Hashemite scion was exalted on every pulpit in every Egyptian mosque,
While the false imam of Cairo was relegated to utter negligence.

---

[69]See William of Tyre, *A History of Deeds Done Beyond the Sea*, trans. E. A. Babcock and A. C. Krey, II (New York, 1943), pp. 361-370. Compare also Ibn Shaddâd, *Al-Nawâder al-Sultâniya*, pp. 41-43; Ibn al-Athîr, *Al-Kâmil fi al-Târikh*, 10:22; Abû Shâma, *Kitâb al-Rawḍatyn*, 1:420; Abû al-Mahâsen ibn Taghrî Bardî, *Al-Nujûm al-Zâhira fi Mulûk Miṣr wa-l-Qâhira*, 16 vols. (Cairo, n.d.), 6:15 ff. (henceforth Ibn Taghrî Bardî, *Al-Nujûm al-Zâhira*).

[70] *William of Tyre*, II, p. 361.

[71]Al-Iṣfahânî, *Kataba al-'adharu*, lines 352-355, 360-361, and 375.

[72] Here the poet compares between Saladin (also known as Yûsuf = Joseph) and the Biblical Joseph who has formerly ruled over Egypt.

Al-Işfahânî gives more details in his poetry about the struggle of Saladin against the Crusaders, when he was a military leader with Shirkuh in Egypt, more than the other poets.[66] Although he mentions historical facts in his verses, he uses some rhetorical devices such as allusion to the superiority of Saladin over the Crusaders. He addresses Saladin: "The Frankish horde transgressed, but your valor quenched the thirst of your Indian sabers." He likens the bodies of the Crusader victims to the trees which were cultivated in the land of Egypt by Saladin and their heads to its fruits (lines 75-76). Again he uses hyperbole to allude to the great multitudes of the Crusader victims, when he says that "Of their blood in Upper Egypt you made a stream that flowed from their valley to the Nile" (line 78). He likens the blood of the Crusaders on the land of the battle to the sea, and their much blood to the rains.(line 77)

لقد بغتْ فئةُ الإفرنـــجِ فانتصفـــــتْ   منها بإقدامكَ الهنـــديةُ البـــترُ   75
غرستَ في أرضِ مصرِ من جسومهمُ   أشجارَ خط لها من هامهم ثمرُ   76
وسال بحرُ نجيـــعٍ في مقـــامِ وغـــى   به الحديدُ غمامٌ والـــدمُ المطرُ   77
أنهرتَ منهم دماءً بالصعـــيدِ جـــرى   منها إلى النيلِ في واديهمُ نهرُ   78

Translation: The Frankish horde transgressed, but your valor quenched the thirst of your Indian sabers;
You sowed the land of Egypt with their bodies that produced heads for fruit.
A red sea flowed in the battlefield where clouds were of iron and the rain of blood;
Of their blood in Upper Egypt you made a stream that flowed from their valley to the Nile.

Al-Işfahânî refers to the combined attack of the Crusaders and the Byzantine fleet on Damietta 1169 A.D./ 565 A.H. where the Crusaders failed to achieve any success.[67] In another poem he attributes the failure of the Crusaders in this expedition to Saladin who got over them and had "broken their crosses" as he said.[68] The combined attack of the Crusaders and the Byzantine fleet on Damietta 1169 A.D./ 565 A.H. is confirmed

[66] Al-Işfahânî, *Kataba al-'adharu*, lines 75-78.
[67] Al-Işfahânî, *The poem of yâ Yûsuf al-ḥusne*, line 3.
[68] Al-Işfahânî, *The poem of yaruqanî fî al-maha*, lines 38-42. (henceforth Al-Işfahânî, *Yaruqanî fî al-maha*)

expected that an old man like ibn Munqidh, who transferred between Nûr ed-Dîn Maḥmûd in Syria and the Fatimids in Egypt, praises Saladin. Finally, according to the military poetry of Usâma ibn Munqidh during the time of the Crusades it seems that he complied the events and the battles between the Muslims and the Crusaders through his poetry. He tried also to urge the Muslims and their leaders, such as Nûr ed-Dîn Maḥmûd, Ṭalâi' ibn Ruzâyk and Saladin, to go forward and to fight the Crusaders, and restore their lands from their hands. Especially he participated in the battles between the Muslims under the commandment of Nûr ed-Dîn Mahmûd and Ṭalâi' ibn Ruzâyk, and the Crusaders.[59]Maybe the love of Usâma ibn Munqidh and his admiration of the Muslims' leaders of that time stimulated him to praise them. So, he praised also many Muslim leaders and statesmen in Egypt and Syria not only Saladin.[60]

Anyway, Usâma ibn Munqidh did not satirize Saladin in his poems but he praised him greatly and left many poems to prove that he was one of the Muslim poets who played an important role in the mobilization of the Muslim mind against the Crusaders.

The greatest composer of many poems about Saladin is al-Iṣfahânî (d. 597 A.H./1200 A.D.). He describes the conflict between Shâwar and Ḍirghâm in Fatimid Egypt.[61] He refers to the communications between Shâwar and the Crusaders.[62] He directed one of his poems to Asad ed-Dîn Shirkuh and saw that he saved the people from the worst of Shâwar.[63] But, he likens the killing of Shâwar by Saladin[64] to the killing of Goliath by David.[65]

وما كان فيها قتـــل يوســـف شـــاوراً يماثـــلُ إلا قتـــل داود جالوتـــا 2

Translation: The killing of Shawir by Yûsuf has no match save that of Goliath by David.

[59]Al-Harfî, *The poetry of al-Jihâd*, pp. 232-234.

[60]Al-Harfî, *The poetry of al-Jihâd*, p. 247.

[61]Al-Iṣfahânî, "*The poem of abâ Yûsuf al iḥsân,*" in *Poetry Collection of 'Imâd ed-Dîn al-Iṣfahânî*, ed. by Cultural Foundation of UAE, in *The Poetic Encyclopedia* (Abû Dhabi, 2003), line 15. (henceforth Al-Iṣfahânî, *Abâ Yûsuf al-iḥsân*)

[62]Al-Iṣfahânî, *The poem of kataba al-'adharu*, line 84.

[63]Al-Iṣfahânî, *The poem of bi-l-jide adrakta ma adrakta*, line 15. (henceforth Al-Iṣfahânî, *Bi-l-jide adrakta*)

[64]For the killing of Shâwar see Lev, *Saladin in Egypt*, pp. 46-49.

[65]Al-Iṣfahânî, *The poem of hanî'an li-Miṣra*, line 2. (henceforth Al-Iṣfahânî, *Hanî'an li-Miṣra*)

With sea knights mounted on striped white horses that flew on
the water like birds without forelegs.

He refers here to the naval activity of Saladin against the Crusaders. Usâma ibn Munqidh says, "Death led the ships of the Franks to Saladin's soldiers, so that the blood of the Franks flowed on the sea and their heads were also cut on the land. None of the Frankish escapees could be hidden in any place of the land. There was no swimmer who could be alive on the water of the sea". He tells us that Saladin returned from that naval war with the captives and the ships of the Franks (lines 19-22).[54] Usâma ibn Munqidh in his previous verses of his poetry collection gives some important historical details, especially the naval wars of Saladin against the Crusaders of the coastal cities of Syria. It is obvious that after Saladin's victory in Hiṭṭîn he directed his armies against the Crusaders in the Syrian cities and castles from 1187 A.D. to 1190 A.D.[55]

Anyway, Usâma ibn Munqidh states that Saladin fought the enemy, probably the Crusaders, "not for money, in which he was uninterested, and his armies didn't care about booties".[56]

Now what are the motives of Usâma ibn Munqidh to praise Saladin greatly? When Saladin was one of the members of the court of Nûr ed-Dîn Maḥmûd Usâma was close to him. Saladin was an admirer of the poetry collection of Usâma and he was a reader of his poetry collection too.[57] When Saladin arrived in Damascus he invited Usâma ibn Munqidh, when he was 80 years old and over, to come to him and granted him a house. The relation between them became stronger.[58] On the other hand, in 1188 A.D. when Usâma ibn Munqidh died, he was about ninety years old and Saladin was a young man, a brilliant leader and Sultan of Egypt. According to this biographical background, it is

---

[54] Ibn Munqidh, *Edhâ ḍaqa bi-l-khoṭâ*, lines 19-22.

يسوقُ أساطيل الفرنجِ إليهمُ   حمامٌ وطيرٌ للفرنج أشائمُ 19
دماؤهُم في البحرِ حُمرٌ سوائحٌ   وهامُهمُ في البر سُحمٌ جواثمٌ 20
فلم يَخفَ في فجٍ من الأرضِ هاربٌ   ولم ينجُ في لُجٍ من الماءِ عائمُ 21
وعاد الأسارى مُرتَفين وسُفنُهم   تُقادُ كما قاد المهاري الخَزائمُ 22

[55] 'Ashûr, *The Ayyubids and Mamluks*, pp. 68-71.

[56] Ibn Munqidh, *Edhâ ḍaqa bi-l-khoṭâ*, line 2.

تنزهت عن أموالِ من أنتَ قاتلٌ   فقد جُهلت بينَ الجيوشِ المغانِمُ 2

[57] Sallâm, *The Literature*, p. 174.

[58] Ibn Khallikân, *Wafiyyât al-A'yân*, 1:195-196. See also Sallâm, *The Literature*, p. 174.

speech to the Sultan himself. It is known that Saladin had the official title *al-malik al-nâṣir*.[49]

He repeats this meaning in another poem where he addresses Saladin saying: you entered the enemy's land and destroyed many of their countless braves. He also says that they didn't see before any one of the kings conquer the Franks in their own lands, and asks him to march onto Syria, where the pious angles will meet and support him there.[50]

وجِستَ ارضَ العدى وأفنيتَ من أبطالهم ما يجاوز العَدَدا
وما رأينا غزا الفرنج من الملوكِ في عقرِ دَارِهم أحَــــدا
فسرْ إلى الشام فالملائكة الأبرار يلقــاك جَمْعُــهم مَــدَدا

Translation: You landed among the enemies and annihilated countless braves among them.
No king before you ever dared to invade the Franks in their own lands.
So, lead the march to Syria, and the good angels will meet you and give you support.

Thus, the poetry of that time played an important role in the events between the Muslims and the Crusaders and reflected the Muslims' ideology towards them.[51] After the victory of Hiṭṭîn Usâma ibn Munqidh records the events between Saladin and the Crusaders and "his getting rid of their injuries and darkness", and showed that Saladin moved from his fighting them on land into the sea by his navies.[52] He likens his navies to the numerous waves of the sea (line 15). He also likens the naval knights of Saladin on their horses to the birds which are flying on water without forelegs.[53] (line 16)

غزوتهم في البحر حتى كأنمــا الــ ــأساطيل فيه موجه المتلاطــم
بفرسان بحر فــوق دُهــمٍ كأنـــها على الماءِ طيرٌ ما لهنَّ قوادــمُ

Translation: You attacked them at sea so that fleets looked as if they were tumultuous sea waves

[49]Gibb, "The Rise of Saladin," p. 546.

[50]Abû Shâma, *Kitâb al-Rawḍatyn,* 2:344. See also Ḥammza, *The Literature*, p. 111.

[51]Sallâm, *The Literature*, p. 263.

[52]The contemporary historians point out Saladin's care of the navy before Ḥiṭṭîn, when they give the details of the events of the naval war between Renauld de Châtillon, i.e. Ernât, the governor of the fortress of al-Kerak, and Saladin's navy in the Red Sea. See, Al-Iṣfahânî, *Al-Barq al-Shâmî*, 3:84; 5:70-75; Abû Shâma, *Kitâb al-Rawḍatayn*, 3:134-141.

[53]Ibn Munqidh, *Edhâ ḍaqa bi-l-khoṭâ*, lines 14-16.

killed in the battle. And he asks him to remain as a shelter for Muslims and a death to the Franks for generations to come.[45]

7 وحميتَ البلادَ بالسـيفِ فاستصـــــــ ـــعب منهـا سهـل وعزَّ ذليلُ
8 وقسمتَ الفرنجَ بالغـزو شطريـــــــ ـــن فهـذا عـانٍ وهـذا قتيلُ
13 فابق للمسلمينَ كهفـــاً وللإفـــــــ ـــرنج حتفاً ما أعقب الجيلَ جيلُ

Translation: You protected the land with your sword, strengthened its weakness, and gave dignity to the humble.
Your invasion left the Franks into two divisions: in pain or dead!
May you stay a shelter to Muslims and a death-giver to the Franks for generations to come.

In another long poem Usâma ibn Munqidh returns to the battle of Hiṭṭîn,[46] when he says that although the Crusaders had numerous soldiers, Saladin conquered their lands and destroyed them by killing and captivity (line12). Usâma ibn Munqidh showed that the Crusaders who were still alive either surrendered their arms or asked him for peace. (line 13)

12 غزوتهمُ في أرضِهم وبلادهــــمْ وجحفلُهمُ في أرضـهـا مُتزاحِـمُ
13 فأفنيتَهم قتلاً وأسراً بأسرِهــــم فَنَاجِيُّهمُ مُستَسلِـمٌ أو مُسَـالـمُ

Translation: You invaded them in their own land, while their armies were numerous.
Yet you annihilated them through death or captivity so that whoever survived either surrendered or sought peace.

M. al-Harfî[47] mentioned that this poem was written by ibn Munqidh to Ṭalâi' ibn Ruzâyk. But I think, according to the military activity of Saladin against the Crusaders, that this poem was written to Saladin not to Ṭalâi' ibn Ruzâyk. On the other side, the poet in another verse mentions[48] "O king" (*yâ malikan*) which means that he directed his

---

[45]Ibn Munqidh, "*The poem of fi'ati altâji*," in *Poetry Collection of Usâma al-Shîrâdhî*, ed. by Cultural Foundation of UAE, in *The Poetic Encyclopedia* (Abû Dhabi, 2003), lines 7-8, and 13.

[46]Ibn Munqidh, "*The poem of edhâ ḍaqa bi-l-khoṭâ mo'tarak al-waghâ*," in *Poetry Collection of Usâma al-Shîrâdhî*, ed. by Cultural Foundation of UAE, in *The Poetic Encyclopedia* (Abû Dhabi, 2003), lines 12-13. (henceforth Ibn Munqidh, *Edhâ ḍaqa bi-l-khoṭâ*)

[47]*The Poetry of al-Jihâd*, pp. 254-255.

[48]Ibn Munqidh, "*Edhâ ḍaqa bi-l-khoṭâ*," line 51.

that the poet here turns to a polemic issue, when he mentioned that Saladin insulted Christianity, which he regarded disbelief and the cross too. Of course, the poet uses this polemic tune to make Saladin a protector of Islam and a destroyer of the other religions. This kind of the polemic issues was usual in the writings of the Middle Ages, whether in the Islamic side or in the Christian side. For instance, when Charlamgne entered Saragossa, according to *la chanson de Roland,* he destroyed the mosques of the Muslims and the Jewish temples too.[41] The Muslim queen Bramimond abandoned Islam, was baptized in the Frankish capital, and adopted a Christian name, Juliana.[42] On the other side, we can see in the Arabic epics the image of the Christian who abandoned his Christianity and converted to Islam for specific purposes and the Arabs' invasions of the Byzantine lands.[43]

أحييتها مثل ما أحييتَ مصرَ فقد   أعدتَ من عدلها ما كان قد ذهَبا

هذا الذي نصرَ الإسلامَ فاتضحت   سبيله وأهانَ الكفرَ والصلـــبا

Translation: You revived her as you did Egypt, and restored justice to her.

This is what gave victory to Islam, illuminated its path, and humbled disbelief and cross-worshippers.

He refers also to Saladin's conquest of Ḥimṣ which took place in December 1174 A.D./570 A.H. and says that "every strong man of Ḥimṣ came to Saladin".[44]

رأتْ منك حمصُ لهـــا كافيـــاً   فوافاك منها القوي العســـيرُ   287

Translation: Emesa saw you as a capable defender, and so thronged to you her mighty strong men.

Usâma ibn Munqidh refers also to the defeat of the Crusaders by Saladin at Ḥiṭṭîn when he says that Saladin protected the homelands by the sword and divided the Franks, by the invasion, into two divisions: the fighters who suffered from their pains, and the fighters who were

---

[41] *The Song of Roland*, Eng. trans. Dorothy L. Sayers (Penguin books 1970), pp.190-191.

[42] *The Song of Roland*, pp. 202-203.

[43] There are many examples in the Arabic epic of Al-Amîrah dhât al-Himmah.

[44] Al-Iṣfahânî, "*The poem of kataba al-'adharu 'ala al-khudûd*," in *Poetry Collection of Al-Iṣfahânî*, ed. by Cultural Foundation of UAE, in *The Poetic Encyclopedia* (Abû Dhabi, 2003), line 287. (henceforth Al-Iṣfahânî, *Kataba al 'adharu*)

Saladin stopped the tyrant of the Franks, i.e. Amalric I, who wished to conquer Egypt. He mocks Amalric's hope and says that it was a dream.[37]

وردَّ طاغيةَ الإفرنج يحسبُ ما   رجاهُ من ملك مصر كانَ في الحلم

Translation: He forced the Tyrant of the Franks on his heels, making his hopes of conquering Egypt an idle dream.

He also praises Saladin, when the latter became the Sultan of Egypt, and asks him to free his cousin from the captivity of the Franks and their injustice.[38] It means that Usâma composed this poem before the victory of Saladin over the Crusaders at Ḥiṭṭîn in 1187 A.D., and probably it was an invitation to Saladin to fight them.

هذا ابن عمــك في أسرِ الفــرنج لــه   حول تجرم في الأغلال والظلمِ

Translation: There is your cousin fettered for a year, a captive of the Franks, laboring in a dark jail.

It is obvious that after the establishment of the Ayyubid state in Egypt Saladin directed his efforts to unite the princes of Syria after the death of Nûr ed-Dîn Maḥmûd. So, he left Egypt in November 1174 A.D./570 A.H. and went to Syria. Saladin arrived in Damascus at the same time, whereas ibn al-Moqaddim opened its gates before him and gave him the city.[39] Usâma ibn Munqidh immortalized this occasion in his poetry. He says that Saladin revived Damascus such as Egypt and restored lost justice to it. He states Saladin made Islam victorious and insulted the disbelief and the cross, i.e. the Crusaders.[40]It is remarkable

---

Damascus. For some reasons he transferred to the fortress of Kaifa until Saladin's coming to Syria and taking of Damascus. He died in that city about 584 A.H./1188 A.D., i.e. after the battle of Hiṭṭîn. He has many literary and historical works, such as the book of *al-I'tibâr*, *Akhbâr al-Nisâ'*, *al-Qilâ' wa-l-Ḥuṣûn*, and a poetry collection in two parts, and others. See, Ibn Khallikân, *Wafiyyât al-A'yân*, 1:195-196. See also, 'Abdul-Raḥman A. Badawî, *The Literate Life in the time of the Crusades in Egypt and Syria* (Cairo, 1954), pp. 171-188. (in Arabic) (henceforth Badawî, *The Literate Life*); Muhammad 'Alî al-Harfî, *The Poetry of al-Jihâd of the Crusades in Syria* (Al-Iḥsâ', 1979), pp. 231-255. (in Arabic) (henceforth Al-Harfî, *The Poetry of al-Jihâd*)

[37]Abû Shâma, *Kitâb al-Rawḍatayn*, 2:54. This meaning is repeated in another poem of another poet, whereas he says that Saladin changed the life of Amalric from the sweet life to the opposite by the fighting. The same poet asks Saladin also to drive Amalric out of Syria and to arrest Shâwar and kill him. See Abû Shâma, *Kitâb al-Rawḍatyn*, 2:55.

[38]Usâma ibn Munqidh, "*The poem of yâ Nâṣir ed-Dîn*," in *Poetry Collection of Usâma al-Shîrâdhî*, ed. by Cultural Foundation of UAE, in *The Poetic Encyclopedia* (Abû Dhabi, 2003), lines 1-13.

[39]Sa'îd A. 'Ashûr, *The Ayyubids and Mamluks in Egypt and Syria* (Cairo, n.d.), pp. 39-40. (in Arabic)

[40]Abû Shâma, *Kitâb al-Rawḍatayn*, 2:345.

Translation: In the battlefield of Baisân you gave them the cup of death to drink from, and left their numerous hordes to be nursed by death.

It is known that in 579 A.H./1183 A.D. Saladin invaded Amida, Til Khâlid, Aintâb, Aleppo, and the castle of Ḥârim. After these conquests Saladin went to Damascus and stayed there for some time and accompanied his soldiers to attack the Crusaders in the Palestinian lands.[33] So, he crossed the Jordan River on 8th of Jumâda al-Thânî 579 A.H./27th of Sept. 1183 A.D. and entered a place called Cursat. On 9th of Jumâda al-Thânî 579 A.H./28th of Sept. 1183 A.D. He invaded Baisân where he found that its people had left the city and left there a lot of weavings, wheat, and other things. The soldiers of Saladin plundered Baisân and set it on fire. Then they met Frankish soldiers under the leadership of the son of Humphrey, where Saladin's soldiers attacked them and killed many of them and captured one hundred of them.[34]

Ibn al-Dahhân in the following poem[35]refers to the battle of Hiṭṭîn and says that the Franks were subdued to Saladin because of the hard struggle of the Muslim soldiers. After their defeat in Hiṭṭîn, they asked Saladin to make peace not out of their own free accord but because of the pressure of the arms or fear of the lances. (L.8)

وَما خَضَعَ الفرنجُ لَدَيـكَ حـتـى   رأوا ما لا يطاقُ من الكِفـاحِ 7
وَما سألـوكَ عقـد الصُلـح وداً   ولَكِن تحتَ غاباتِ الرمـاحِ 8

Translation: The Franks did not submit to you till they have seen your unbearable fight.

Nor did they ask for peace for the love of peace, but out of fear of your lances.

Usâma ibn Munqidh (d. 584 A.H./1188 A.D.)[36] refers in a poem to the struggle of Saladin against the Crusaders in Egypt. He says that

---

[33]Ibn al-Athîr, *Al-Kâmil fi al-Târikh*, 10:119-124.

[34]For more details see Al-Iṣfahânî, *Al-Barq al-Shâmî*, 5:147-151; Abû Shâma, *Kitâb al-Rawḍatayn*, 3:184-186; Ibn al-Athîr, *Al-Kâmil fi al-Târikh*, 10:124. See also Baldwin, "The Decline and Fall of Jerusalem," p. 599.

[35]See "*The poem of qâranta shajâ'atan wa-tuqan*," in *Poetry Collection of ibn al-Dahhân*, ed. by Cultural Foundation of UAE, in *The Poetic Encyclopedia* (Abû Dhabi, 2003), lines 7-16.

[36]Usâma ibn Munqidh al-Shayzarî is Abû al-Muẓaffar Usâma bin Morshid bin 'Alî bin Maqlad bin Munqidh al-Shayzarî who was surnamed Mu'ayyid al-Dawlah Majd ed-Dîn. He belonged to the tribe of Banî Munqidh, the masters of the castle of Shayzâr in Syria, and was one of their scholars and courageous men. He stayed in Damascus and went to Egypt, and stayed there until the days of Ṭalâi' ibn Ruzâyk, where he returned again to

ومن عَجَبِ الأيامِ أنكَ ذو غنـــىً   بمصرَ وأني في دِمَشقَ فقــيرُ   4

Translation: It is an irony of fate indeed that in Egypt you are a man of riches while in Damascus I am in rags.

As for this issue al-Maqrîzî declares that when the Fatimid Caliph died Saladin entered his palace and took over all the treasures of it, such as many arms and their equipment, clothes, rare things, jewels, such as necklaces of emerald, corundum and pearls, about 1.600.000 rare books, and other things.[30]

Ibn al-Dahhân (d. 581 A.H./1185 A.D.)[31] wrote some poems about Saladin. It is useful to know the background of the relation between this poet and Saladin to see the influence of this relation on his poetry about Saladin. He met Saladin when the latter came to Ḥimṣ and encamped with his army outside it since 'Imâd ed-Dîn al-Iṣfahânî introduced him to Saladin and told him that 'this is the poet who praised Ṭalâi' ibn Ruzâyk'. Then, Saladin ordered to give him some money, so that he doesn't say that "we left him". Then, ibn al-Dahhân praised Saladin in a poem, which was called *al-Qaṣîyda al-'Ayniyya*.

In one of his poems on Saladin[32] he refers to Saladin's invasion of Baisân on 9th of Jumâda al-Thânî 579 A.H./28th of Sept. 1183 A.D. and the defeat of the Franks there. The poet in the following verse uses the Arabic verb (*shariba, yashrab*), which means to drink, to refer to the continuity of the death for the Crusaders during Saladin's invasion of Baisân.

وفي يومِ بيســانٍ سَقيتَـهمُ الـرَّدى   وغادَرتَ أخلافَ المَنيــةِ حُفَّــلا   37

---

[30] Taqî ed-Dîn al-Maqrîzî, *Et'âz al-Ḥonafâ bi-Akhbâr al-A'imma al-Fâtmîen al-Kholafâ'*, ed. Muhammad H. M. Aḥmad, 3 vols. (Cairo, 1996), 3:330-331. (henceforth al Maqrîzî, *Et'âz al-Ḥonafâ*)

[31] Ibn al-Dahhân is Abû al-Faraj 'Abdullâh bin Ass'ad bin 'Alî al-Moṣulî, who was surnamed ibn al-Dahhân and al-Ḥimṣî too. He was born at al-Moṣul in 521 A.H./1127 A.D. and passed away in Ḥimṣ in 581 A.H./1185 A.D. He was a Shâfi'î jurisprudent and poet. When his life became difficult there he went to Ṭalâi' ibn Ruzâyk, the Fatimid minister of Egypt, and praised him in a poem, which was called *al-Qaṣîyda al-Kâfiya*. He returned to Ḥimṣ and lived there and worked in teaching. He has a small and good poetry collection. See Ibn Khallikân, *Wafiyyât al-A'yân*, 3:57-60.

[32] Ibn al-Dahhân, "*The poem of aba jaladun an aḥmela*," in *Poetry Collection of ibn al-Dahhân*, ed. by Cultural Foundation of UAE, in *The Poetic Encyclopedia* (Abû Dhabi, 2003), lines 37-40. Cf. also the poem of Abû al-Ḥasan al-Sâ'âtî in: Abû Shâma, *Kitâb al-Rawḍatyn*, 3:306.

'Arqala al-Kalbî says generally that the heroes of the Franks fell in captivity or were killed by Saladin.[23]He also refers to the conquest of Jerusalem by Saladin and says that the news spread in the world.[24]

In another poem[25]'Arqala al-Kalbî asks Saladin to send him the sum of 1000 *dinars* which he promised and tells him that he is afraid if he goes to him in Egypt he will be captured by the Franks. In this case, Paradise, i.e. Egypt, will not benefit him if he fell in the Hell, i.e. the hands of the Crusaders.

أخشى مِنَ الأسرِ إن حاولتُ أرضِكمُ وما تقي جنةُ الفردوسِ بالنارِ 2

Translation: I fear captivity if I were to journey to your land, yet the road to Paradise cannot be through Hell.

So, what is the story of the 1000 *dinars*, which was mentioned, in the last verse? Saladin promised 'Arqala to give him 1000 *dinars* if he became a Sultan of Egypt. After Saladin established the Ayyubid dynasty in Egypt and became a Sultan 'Arqala wrote a poem and sent it to Saladin in Egypt reminding him of his promise. So, Saladin sent to him 2000 *dinars*. But 'Arqala died suddenly before enjoying this money.[26]

'Arqala also praised Saladin in one of his poems in which he thanked God for the victories of Saladin who destroyed the cross and the infidelity.[27]The friendly relation between Saladin and 'Arqala was the motive of 'Arqala to praise the first, besides his wish to obtain the money from Saladin. Al-Ṣafadî says that 'Arqala received at first 20 *dinars* from Saladin.[28]These accounts, whether true or not, confirm the monetary motive of 'Arqala and explains why he praised Saladin. This issue is confirmed too by 'Arqala himself when he said to Saladin that he became rich in Egypt, while he was poor in Damascus:[29]

---

[23]Al-Kalbî, "*The poem of wafat rasâ 'l hadha al-Fatḥ*," in *Poetry Collection of 'Arqala al-Kalbî*, ed. by Cultural Foundation of UAE, in *The Poetic Encyclopedia* (Abû Dhabi, 2003), lines 9-10.

[24]Al-Kalbî, *Wâfat rasâ 'il hadha al-Fatḥ*, line 1 ff.

[25]'Arqala al-Kalbî, *The poem of taḍâ 'afa ḍa'fi*, line 2.

[26]Al-Ṣafadî, *Al-Wâfi bi-l-Wafayât*, eds. Aḥmad al-Aranâ'ôt and Turkî Muṣṭafa, 29 vols. (Beirut, 2000); 11:281; Al-Kutubî, *Fawât al-Wafayât*, eds. Alî M. You'wad Allah and Âdel A. 'Abdul-Mawjûd, 2 vols. (Beirut, 2000), 1:305.

[27]Sallâm, *The Literature*, p. 336. He says:

الحمد لله السميع المجيب قد هلك الشرك وضل الصليب

يا ساكني أكنافَ مصر أنا أبو نواس والصلاحُ الخصيب

[28]Al-Ṣafadî, *Al-Wâfi bi-l-Wafayât*, 11:283.

[29]Al-Kalbî, *Ilyka Ṣalâḥ ed-Dîn*, line 4.

After Saladin became the Sultan of Egypt, ʻArqala al-Kalbî praises him in many places of his poems.[22] He says that Saladin, as a king, the pulpits of the mosques were dignified with his name, whose virtues were well-nigh over the stars. It is known that the name of the Sultan was mentioned on the pulpits of the mosques as a symbol of his rule. The Sultanate of Saladin in Egypt arose after the fall of the Fatimid caliphate by Saladin and after the defeat of Amalric by Saladin and his uncle's army. So, ʻArqala attributed the victories of Saladin and his uncle Shirkûh over Amalric in Egypt to Saladin only and regarded these victories high virtues. Then, he likens him to the Sun, which spreads its rays from the high spheres. (lines 13-14)

He refers also to his victories over his enemies, probably the Crusaders, when he says that when Saladin distributed his banners in the battlefield the enemy's army was defeated (line 15). He uses here the Arabic verb (*inṭawâ*), from the verb (*ṭawâ, yaṭwî*), which means to fold, to refer to the quick defeat of the army of the enemy. He questions who he fought the Frankish faith (i.e. Christianity) except Saladin. He adds that when he met them his horses were like torrential rains (line 16). In the second part of this verse, he likened the numerous horsemen of Saladin to the torrential rains, which overrun every thing during its march.

مَلكٌ تشَرفتِ المنابـرُ باسمِـهِ   وعلَـت مناقبُهُ فُويقَ الفَـرقدِ 13
وعـلى الأسـرَةِ وَجهُـهُ   شمسٌ تَجلت من بُروجِ الأسعدِ 14
ما نُشرتَ راياتُهُ يـومَ الوغـى   إلا انطَوى جَيشُ العدُوِ المعتدِ 15
من قاتلَ الإفرنجَ ديناً غيـرهٌ   والخيلُ مثلُ السيلِ عندَ المشهدِ 16

Translation: He was a king whose name dignified pulpits and whose virtues were well-nigh over the stars.
His visage radiated on homesteads like a sun shining from the highest sphere.
No sooner were his banners unfurled than those of his enemies were folded in defeat.
Who but he stemmed the tide of the Frankish faith? Which battle but his had horses as numerous as the torrential rains?

[22] Al-Kalbî, "*The poem of ʻarrij ʻalâ Najd*," in ***Poetry Collection of ʻArqala al-Kalbî***, ed. by Cultural Foundation of UAE, in *The Poetic Encyclopedia* (Abû Dhabi, 2003), lines 13-16.

them only during the events of the conflict between Shâwar and Ḍirghâm in Fatimid Egypt.

وهيهاتَ والإفرنجُ بيني وبينكُم   سياجُ قتيلٍ دونَهُ وأسيرُ 3

Translation: Alas! There stands between me and you a Frankish siege
that holds [to anyone approaching it] either death or capture.

As for Saladin as a founder of the Ayyubid state in Egypt and Syria, some poets showed their admiration of Saladin as a general of Nûr ed-Dîn Maḥmûd. These poets hoped that Saladin would drive the Crusaders out of Syria by himself. 'Arqala al-Kalbî in the following verses[21] describes Saladin as a courageous military leader not a Sultan, when he says that Saladin desires only to reach to the heights, i.e. the Sultanate, not to others. He says that he was a courageous leader such as the lion not cowardly as the fox.(lines 13 - 14). This contrast between the lion and the fox in this verse represents one of the strong points in the poem. In this way, the poet described the Crusaders as a fox, i.e. cowards, and Saladin as a lion, i.e. brave and strong people. He refers to the readiness and courage of Saladin's soldiers whose lances will be lodged in the chests of every footman and horseman of the Crusaders if the cross was raised.(line 16) The poet in the last line described the military status of the soldiers of Saladin, i.e. they were ready to attack the Crusaders at any time.

غَدا في المعالي راغِباً غيرَ زَاهِدِ   وفيما سِواها زاهِداً غيرَ راغِبِ 13
يظُنُّ صَلاحُ الدينِ فُرسانَ جِلَّقٍ   كفُرسانِهِ ما الأسدُ مِثلُ الثعالِبِ 14
غَداً تَطلُعُ الشامُ الفِرنجَ بفَيلَقٍ   مُعَوَّدَةٌ أبطالُهُ للمَصَائِبِ 15
رجالٌ إذا قامَ الصليبُ تصلَّبَتِ   رِماحُهُمْ في كُلِّ مَاشٍ وراكِبِ 16

Translation: Towards heights of glory did he set his heart; from everything else he set it away.

Saladin thinks the knights of Damascus are like his own; far be it they are as unlike as lions and foxes.

Tomorrow, Syria will send forth to the Franks a legion, whose heroes are toughened by calamities,

A legion who, upon the sight of the cross, lodge their lances solidly in the chests of every footman and horseman.

---

[21] "*The poem of Taḍâ'afa ḍa'fi*," in *Poetry Collection of 'Arqala al-Kalbî*, ed. by Cultural Foundation of UAE, in *The Poetic Encyclopedia* (Abû Dhabi, 2003), lines 13-16. (henceforth Al-Kalbî, *Taḍâ'af ḍa'fî*)

sources, whether Greek, Latin, Syriac or Arabic.[17] They paid a little attention to the poetic sources which reflect clearly that most of the poets of the time of Saladin also played a vital role, besides the deeds of Saladin himself, in the construction of his reputation. These poets wrote several hundreds of poems in the praise of the achievements of Saladin and of course they omitted his defeats. Some of them were propagandists and the others were truthful poets.

This article aims to show how the poets[18] of the time of Saladin dealt with his deeds, i. e. whether the poetry of the time of Saladin is a reliable source of his deeds or not. This study will show that most of the poets of the time of Saladin had various aims from composing their poetry on Saladin. On the other hand, they presented some historical events and omitted others.

To answer the topic of this article it will be useful to deal with the poets of the time of Saladin chronologically, one by one, according to their death years and try to explain their motives of the praise or satire.

The first one of the poets of the time of Saladin is 'Arqala al-Kalbî[19] (d. 567 A.H./1171 A.D.) who refers to the existence of the Franks in Palestine as *état tambon* or a 'wall' between Egypt and Syria,[20] because Saladin at that time was interested in the establishment of his new state in Egypt. And as for his struggle with the Crusaders he fought

---

[16]Ibn abî Tayyi' wrote a chronicle about the early life of Saladin. But it is lost except some quotations which are distributed in the Arabic sources. See Gibb, *The Life of Saladin*, pp. 1-2.

[17]For the writings of the other historians of the life of Saladin see: Hamilton Gibb, "Arabic Sources for the Life of Saladin," *Speculum* 25 (1950), 58-72; L. Richter-Bernburg, "Observations on 'Imad al-Din's al-Fatḥ al-Qussi fî al-Fatḥ al-Qudsi", *Studia Arabica and Islamica*, Festschrift for Ihsân 'Abbas, ed. W. al-Qadî (Beirut, 1981), pp. 373-379; Richards, "'Imâd al-Dîn al-Iṣfahânî," pp. 133-146; Lev, *Saladin in Egypt*, pp. 14-45.

[18]We will use only the poems of the famous poets of Saladin, not all the poets who have many hundreds poems about his feats. For the other poets of Saladin see Ahmad Ḥammza, *The Literature of the Crusader Wars* (Cairo, 1948), pp. 111-147. (in Arabic) (henceforth Ḥammza, *The Literature*)

[19]'Arqala al-Kalbî is Abû al-Nadâ Ḥassân bin Numayr al-Kalbî. He was born in 486 A.H./1093 A.D. and died in 567 A.H./1171 A.D. He was an inhabitant of Damascus and connected with Saladin. See Muhammad Zaghlûl Sallâm, *The Literature in the Time of Saladin* (Cairo, 1959), pp. 333-340. (in Arabic) (henceforth Sallâm, *The Literature*)

[20]'Arqala al-Kalbî, "*The poem of ilyka Ṣalâḥ ed-Dîn*," in *Poetry Collection of 'Arqala al-Kalbî*, ed. by Cultural Foundation of UAE, in *The Poetic Encyclopedia* (Abû Dhabi, 2003), line 3.(henceforth 'Arqala al-Kalbî, *Ilyka Ṣalâḥ ed-Dîn*)

Is the Poetry of the Time of Saladin a Reliable Source of his Deeds?

Țârek M. Muḥammad (Cairo)*

Saladin's (1137-1193 A.D./531-588 A.H.) conquest of Jerusalem, which came in the heels of his sweeping victory over the Crusaders in 1187 A.D. earned him a respectable reputation not only in the East but in the West as well. Fifty-six years ago H. Gibb said about Saladin: "the life and achievements of Saladin constitute one of the great moments in the history of the crusades. In literature he appears most frequently as a conquering hero, who fought his enemies victoriously and in the end beat them to standstill. But closer examination of his actual life reveals him not only as a conqueror, but as a man who struggled with enemies of his own side who finally joined him and fought along with him under his sole command."[1] But, recently, D. Nicolle had a mixed view point when he says: "Saladin has traditionally been seen in Europe as a paragon of virtue and a hero. Recently, however, a critical view has portrayed him as an ambitious, ruthless and devious politician, and less brilliant as a commander than once thought. As usual the truth probably lies between these extremes, though all agree that Saladin was the greatest man in the history of the twelfth century Middle East".[2] So, his career became an important subject to both history and literature.

Although the details of the life of Saladin are now obvious to the historians through the valuable studies of H. Gibb,[3] M. C. Lyons and D. E. Jackson,[4] the recent study of Y. Lev,[5] and others,[6] there are hardly

---

* I'd like to thank Prof. Qâsim A. Qâsim and Prof. Paul E. Szarmach for their useful remarks. Thanks also to my friends Prof. Aḥmad El-Khatîb and Prof. Musa al-Ḥalool for their valuable assistances.

[1] Hamilton Gibb, *The Life of Saladin: from the Works of 'Imâd ad-Dîn and Bahâ' ad-Dîn* (Oxford, 1973), p. 1.

[2] David Nicolle, *Hattin 1187 Saladin's Greatest Victory* (London, 2005), p. 14.

[3] See also Hamilton Gibb, "The Rise of Saladin," in A *History of the Crusades*, ed. K. Setton, I (Philadelphia, 1958), pp. 563-589.

[4] Malcolm C. Lyons and D. E. Jackson, *Saladin: The Politics of the Holy War* (Cambridge, Eng., 1997).

[5] Y. Lev, *Saladin in Egypt* (Brill, 1999).

[6] For the other studies see: W. Stevenson, *The Crusaders in the East* (Cambridge, Eng., 1907), pp. 204-288; Steven Runciman, *A History of the Crusades*, II (Cambridge, Eng., 1954), pp. 383-473; M. W. Baldwin, "The Decline and Fall of Jerusalem, 1174-1189," in A *History of the Crusades*, ed. Kenneth Setton, I (Philadelphia, 1958), pp. 590-621; C. M. Brand, "The Byzantines and Saladin, 1185-1192," *Speculum* 37 (1962), 167-181; Régine Pernoud, *The Crusades*, trans. E. McLeod (London, 1962), pp. 146-199;

I. The non Arabic Part

Contents

A- The Arabic Studies

I. The Studies

Contributors

'Abdul Azīz Ramaḍān	Assistant Prof. of Medieval History, Faculty of Arts, Ain Shams University, Egypt.
'Ata 'Alî Rayyah	Assistant Prof. of Islamic History, Faculty of Education for Girls, Al-Taif University, Saudi Arabia.
Fâyz Najiub Iskandar	Prof. of Medieval History, Faculty of Arts, Benha University, Egypt.
Mahâsen Muhammad al-Waqqâd	Associate Prof. of Islamic History, Faculty of Arts, Ain Shams University, Egypt.
Maria Vaiou	Ass. Prof. of Byzantine History, Oxford University, Gt. Britain.
Muhammad Zâyd	Assistant Lecturer of Medieval History, Faculty of Education, al-Fayum University, Egypt.
Saif Shahîn al-Marrîkhî	Assistant Prof. of Islamic History, Faculty of Arts and Humanities, Qatar University, Qatar.
Sâmer Qandîl	Administrator of Medieval History, Faculty of Arts, 'Ain Shams University, Egypt.
Ṭāreḳ M. Muḥammad	Associate Prof. of Medieval History, Faculty of Arts, 'Ain Shams University, Egypt
Wadî' Fathy 'Abdullah	Associate Prof. of Medieval History, Faculty of Arts, Benha University, Egypt.
Yâser Ahmad Nour	Assistant Prof. of Islamic History, Faculty of Education, Mansurah University, Egypt.

Journal of Medieval and Islamic History

An annual international journal interested in Byzantine, Medieval and Islamic History

Issued by: Seminar of Byzantine, Medieval and Islamic History
'Ain Shams University

- We accept all the papers and book reviews in Arabic, English, French.
- Books for review should be sent in one copy only.
- Orders may be addressed directly to the board of the Seminar on the above-mentioned address or via e.mail.
- All papers should be written by the computer as follow: Text's size is 12,5 x 20,5 cm.
- Text's fonts are 12 /Bedoni MT/ and 13 /Simplified Arabic/ for the Arabic papers.
- Footnote's font is 10; Main title's font is 12 Bold.
- **Correspondences**: Vice-Chairman: Dr. Tārek M. Muḥammad, on the following address: Department of History, Faculty of Arts, 'Ain Shams University, 'Abbasiya, Cairo, Egypt. Postal code 11566. Fax. 00202 - 6851432. E. mail: tm_jmih@hotmail.com
- The board of the *JMIH* invites you to share with us in the sixth volume, which will be issued during the academic year 2007-2008.

Journal of Medieval and Islamic History

An Annual Review Interested in Byzantine, Medieval and Islamic History

(JMIH)

Volume V

2006-2007

Issued by

Seminar of Medieval and Islamic History

'Ain Shams University

Special Issue in Honor of Prof. Aḥmad Ramaḍān Aḥmad